الجمهورية العربية السورية
رئاسة الجمهورية
هيئة الموسوعة العربية

علي مولا

الموسوعة العربية

المجلد الأول

الموسوعة العربية

المجلّد الأوّل

آ ـ الآريون

الموسوعة العربية

الجمهورية العربية السورية
رئاسة الجمهورية
هيئة الموسوعة العربية

الموسوعة العربية

المجلّد الأوّل

أ ـ الآريون

الأقسام العلمية

دمشق - الروضة - شارع قاسم أمين رقم ٣٩ - ص.ب ٧٢٩٦
هاتف ٣٣١٥٢٠٥و٣٣١٥٢٠٤ فاكس ٣٣١٥٢٠٧

الإدارة العامة

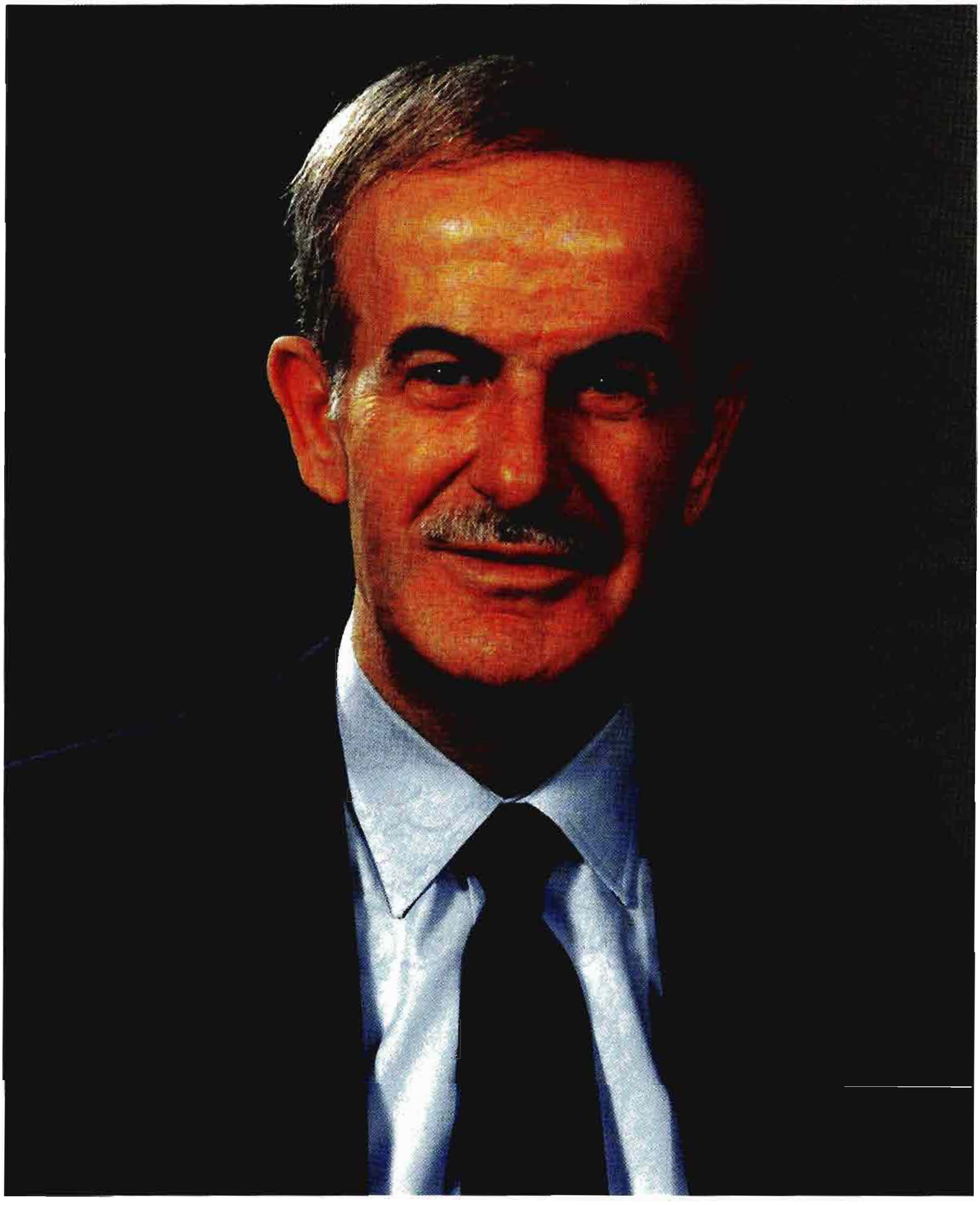
دمشق - مزة - فيلات غربية - شارع الغزاوي - ص . ب ٩٢٦٨
هاتف ٦١٣٠٥٨٢و ٦١٣٠١٩٨ فاكس ٦١٣٠٥٨٣

البريد الإلكتروني

ARAB - ENCY @ SYRIATEL.NET

الطبعة الأولى

١٩٩٨



الرئيس حافظ الأسد

رئيس الجمهوريّة العربيّة السوريّة

الإهداء

إلى السيد الرئيس المفدى

حافظ الأسد

أنتم ضمير هذه الأمة النقي، ومعيار وعيها ومواقفها المشرفة، أنتم معقد آمالها، وأنصع صفحة في تاريخها الحديث. ومثلما يعتز هذا الوطن العربي الكبير بما وهبتموه من عمركم المنذور له، ومن عطائكم الخالد فيه، ومن شجاعتكم التي رفعت رؤوس مواطنيه، كذلك نعتز نحن في هيئة الموسوعة العربية بأن نقدم إليكم ثمرة من ثمار غرسكم العلمي، نمت وأينعت في ظل رعايتكم الكريمة وتوجيهكم الحكيم، وبفضل قراركم القادر بحق على مواصلة صنع التاريخ والحضارة.

هيئة الموسوعة العربية

تقديم

كانت فكرة إصدار موسوعة عربية شاملة حلماً أو طموحاً يبدو عزيز المنال، ومشروعاً يتطلع كل مثقف عربي بشغف إلى تحقيقه.

وقد تبنت الجمهورية السورية فكرة هذا المشروع سنة ١٩٥٢، واقترحت إدراجه في جدول أعمال مؤتمر وزراء المعارف العرب الذي عقد في جامعة الدول العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٣ . وفي هذا المؤتمر اتُخذ قرار بتوصية الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية بمتابعةالمشروع وتكليف لجنة من كبار المفكرين إنجاز «دائرة معارف عربية عامة».

وبقيت هذه التوصية مدار بحث ومداولة في الاجتماعات المتتالية للإدارة الثقافية، ثم للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من غير أن يأخذ المشروع طريقه العملي إلى التنفيذ، مع إجماع الأوساط العلمية العربية على أهميته. وأمام بطء الجهات المسؤولة في التحضير للعمل، ومع الإحساس بالحاجة الماسة إلى موسوعة عربية تكون مرجعاً في ميدان العلم والمعرفة، اتخذت القيادة السياسية في سورية قراراً بإحداث «هيئة الموسوعة العربية» وذلك بتوجيه كريم من السيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية الذي تفضل فاصدر مرسوماً جمهورياً بإحداثها.

ويعرف القارئ الكريم أن الإقدام على مثل هذا الإنجاز العلمي الضخم يتطلب جهوداً ضافية، ويحتاج إلى فريق عمل كبير متنوع الخبرة والاختصاص، وفقاً لسعة آفاق العمل وتشعب متطلباته وأدواته العلمية والإدارية والتقنية، ولكن هذا الاستشراف لجسامة التجربة المحفوفة بالصعوبات لم يحل دون المضي في معالجة الصعوبات وتذليل المعضلات التي واجهتنا، واضعين في الحسبان مجمل الاحتمالات المتوقعة في تجربة جديدة من هذا القبيل.

ولقد كان في صدارة اهتمامنا التركيز على تخير محتوى الموسوعة وتحقيق القدر المقبول من المساواة بين فروع المعرفة وشعابها فيه، فاستأنسنا لإنفاذ ذلك بالموسوعات العالمية، واصطفينا منها مانحن في حاجة إلى معرفته من الحضارة الإنسانية، فحررناه بأقلام عربية، ولم نلجأ إلى الترجمة إلا عند الضرورة.

وراعينا أن نوفر للقارئ مادة علمية كافية من تراثنا العربي بإيلائنا الحضارة العربية حقها من العناية والاهتمام، بالقدر الذي رأيناه ضرورياً لإطلاع الأجيال العربية على ماقدمه علماؤنا للبشرية من إنجاز علمي يُبْسَط بين أيديهم ليكون حافزاً لهم على التحصيل العلمي، والمشاركة الفاعلة في متابعة رسالة أمتهم وإسهامها في صنع الحضارة البشرية، مع الحرص على الدقة العلمية، وعلى التمسك بروح العلم والإنصاف والأمانة الوثائقية، وعلى تقديم الموضوعات بمنهجية تراعي التباين المعرفي بين الناشئة والمثقفين ثقافة لايطغى عليها التخصص الصرف.

وبعد، فإذا كان لي شرف تقديم هذه الموسوعة العربية فإن الفضل الكبير يبقى لمن سبق، لأولئك الذين كانت العربية هاجساً حياً في نفوسهم، ولأولئك الذين تضافرت جهودهم الخيرة على وضع الخطط واللبنات الأولى في بنيان هذا الصرح العلمي، وأخص بالذكر منهم المرحوم الأستاذ ساطع الحصري الذي كان له فضل السبق في الدعوة إلى إحداث مؤسسة موسوعية عربية منذ مطلع الخمسينات من القرن العشرين، والأستاذ الدكتور شاكر الفحام رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق والمدير العام السابق لهيئة الموسوعة العربية الذي يسعدني أن أوجه إليه تحية إكبار وعرفان، وأن أنوه بما بذله من جهد وصبر ومتابعة حتى أخذ عملنا هذا طريقه اللاحب القويم. كما يسعدني أن أوجه الشكر إلى السيد العماد أول مصطفى طلاس الذي كان له يد بيضاء في رعاية مشروع الموسوعة في خطوات تنفيذه الأولى. وأشكر الشكر الجميل زملائي العاملين العلميين والباحثين الذين حرروا الموضوعات والإداريين في الهيئة على مابذلوه من جهد طيب ومخلص للوصول بهذه الموسوعة إلى مكانها اللائق من المكتبة العربية.

والله ولي الحمد والتوفيق

الدكتور مسعود بوبو

إلى القارئ الكريم

١ ـ نص المرسوم التشريعي ذو الرقم (٣) الصادر بتاريخ ٥/١/١٩٨١ عن السيد رئيس الجمهورية العربية السورية على إحداث هيئة الموسوعة العربية، وجاء في المادة (١) منه: «تحدث في الجمهورية العربية السورية هيئة عامة ذات طابع علمي تسمى« هيئة الموسوعة العربية» تتمتع بالشخصية الاعتبارية والاستقلال المالي والإداري، وترتبط برئاسة الجمهورية». وحُدد الهدف من إحداثها في المادة (٥) من القرار الجمهوري ذي الرقم (١٤) الصادر بتاريخ ٢٤/٩/١٩٨٤ والمتضمن النّظام الداخلي لهيئة الموسوعة على النحو التالي: «تهدف الموسوعة إلى توفير مرجع علمي عربي، يتناول جميع جوانب المعرفة، ويتصف بالدقة العلمية والشمول، ويُبرز النزعةالتحررية والخطوات التقدمية التي حققها الإنسان بنضاله الطويل على مرّ العصور، ويحل الحضارة العربية ومنجزاتها محلها الصحيح في مسيرة الحضارة العالمية، ويقدم إلى القارئ العربي المعارف الإنسانية، ويعرّفه بقضايا العصر ومشكلاته، ويوثق صلته بتراثه وماضيه، ويلبي حاجات علمية وثقافية وتقنية للمجتمع العربي، ولاسيما الجيل العربي المقبل على المعرفة، المَعْني بالدراسات الجامعية».

وماحُدد في هذه المادة جاء تلبية لاحتياجات علمية أملاها التطور الحضاري الذي ينبغي أن تكون الموسوعة مَعْلماً من معالمه. فالموسوعة منارة علمية، وسبيل إلى استكمال المجتمع ثقافته وإطلاعه على علوم الأمم الأخرى، وإيصال معارفه إليها لرصد التجربة العلمية الإنسانية واستيعاب معطياتها، وهي مصدر غني بالمفهومات والمصطلحات في مختلف حقول المعرفة القديمة والحديثة، ودليل على النضج الفكري في الأمة أو تعبير عنه.

والموسوعة بمحتواها شبيهة بمصفاة تلتقي فيها الموضوعات المعرفية فتُنتخَل وتنّقى، وتقدّم للقارئ مخلّصة من الشوائب معززة بالوثائق والمصادر والمراجع التي تضعها في السبل القويمة المفضية إلى جوهر الحقائق العلمية.

والموسوعة العربية هذه تحاول حض طلبة العلم في الجامعات وخارجها على المزيد من التحصيل والاستقصاء المعرفي والمحاكمة العقلية، وترمي إلى سد فراغ أغفلت الموسوعات العالمية فيه مكانة الحضارة العربية، أو لم تفها حقها حين لم تبرز إسهامها في الحضارة الإنسانية كما يقتضي الإنصاف وتستدعي حقائق البحث والتأريخ. وإذا كانت هيئة الموسوعة العربية قد وضعت في الحسبان أن تعير الجانب المحلي (سورية وبلاد الشام) فضل اهتمام، فإنها لم توفر جهداً في إبراز أي معلم مهم في أي قطر من أقطار الوطن العربي، بل تحاول رصد كل ماهو جدير بالبحث والتتبع والتعريف لتقييد ما له من أصالة وعراقة: علمياً وتاريخياً واجتماعياً وفنياً بالقدر الذي يبدي وجه الحقيقة الخالصة، من غير تزيّد أو تعصب، ومن غير تحيز أو إغفال أو مواربة، كي يبدو العرب والعروبة وحدة متكاملة في معايير العلم وا لعقل؛ فالعروبة في نظر هيئة الموسوعة وحدة شعور وانتماء ومصير، وأمل مستقبلي، وبهذا التصور تسعى الموسوعة إلى تقديمها للقارئ جاهدةً في رسم ملامحها ومقوماتها الأصيلة. كما تولي الحضارة الإسلامية وإنجازاتها العظيمة ماتستحقه من عناية واهتمام.

وعلى هدي هذه المنهجية كان المنطلق إلى العمل بتأليف الهيكل العام لهيئة الموسوعة كما ورد في نظامها الداخلي، وتنفيذاً لما جاء في المرسوم التشريعي القاضي بإحداثها، فجُعل ملاكها العلمي في ثمانية أقسام هي: قسم الحضارة العربية، قسم الآداب واللغات الأجنبية، قسم العلوم الإنسانية، قسم العلوم البحتة، قسم العلوم التطبيقية،قسم العلوم الطبية، قسم العلوم القانونية والاقتصادية، قسم التربية والفنون. ويضم كل قسم عدداً من الشعب المتخصصة والفروع. وتتعاون هذه الأقسام بروح المشاورة العلمية وتبادل الآراء، وخاصة في الموضوعات المشتركة المتداخلة لتصل إلى مايلقى القبول والموافقة من الجميع. وبدأ العمل بإعداد نواة مكتبة متخصصة بالقدر المتاح لتكون معواناً على البحث العلمي،ومرجعاً يستمر رفده وإغناؤه ليظل الرصيد العلمي للعاملين العلميين في هيئة الموسوعة وللباحثين والمستشارين والخبراء فيها، كما سعت الموسوعة إلى تهيئة الوسائل والأدوات المطلوب توافرها في إنجاح العمل، كتوفير الأجهزة العلمية الحديثة وإقامة شبكة حواسيب تعتمد أحدث البرامج، وتدريب العاملين في الهيئة على استخدامها، وإحداث مكتب فني يشرف على إخراج الموسوعة وطبعها إلى غير ذلك مما تتطلبه البداية من إجراءات وإعداد وزمن لاستكمال مقومات العمل الفعلي، واكتساب الخبرة الضرورية.

ولايخفى على القارئ الخبير مايمكن أن يرافق إصدار الموسوعة من مشكلات وصعوبات إجرائية وفنية وتقنية، ومن عسر في التوفيق بين الآراء والأهواء لتفاوت الباحثين والقراء في التحصيل والمدارس والانتماء... وقديماً قالت العرب «رضا الناس غاية لاتدرك».

٢ ـ تم تصور العمل في الموسوعة العربية ووضع خطته بعد مراجعة لأشهر الموسوعات العالمية، ولما أنجز عربياً في هذا الميدان. وعقد العزم على إنجاز موسوعة عربية علمية تكون مرجعاً نأمل أن يضاف إلى الموسوعات الأخرى، وأن يغني عنها في حالات، وأن يستدرك، في حالات أخرى، ماوقعت فيه من نقص أو خلل في هذا الجانب من البحث العلمي أو ذاك.

وقد نظرت هيئة الموسوعة باهتمام مدروس إلى الموضوعات التي تعد مهمة في رصد المسيرة الماضية والحالية للحضارة العربية والعالمية، والتي يهتم بها الباحثون والطلبة والمعنيون بالثقافة، ولم تسع إلى متابعة أبحاث ميدانية وتجريبية، أو دراسات تؤيّد فرضيات أو نظريات جديدة لم تنضج أو تستو محل قبول وإجماع، وإنما عنيت بما هو واقع وثابت ومؤيد بالحقائق الخالصة.

قامت الهيئة بإعداد المساق العام كاملاً مرتباً على حروف الهجاء، وجعلته موضع دراسة مستفيضة تحقيقاً لأهداف الموسوعة. وكان التصور الأولي لهذا المساق حصيلة لما اقترحته الأقسام من المداخل (رؤوس الموضوعات) التي نوقشت وتم إقرار ماأقر منها في مجلس إدارة هيئة الموسوعة، وقد بلغ عدد المداخل في المساق نحو عشرين ألف مدخل. وخلص هذا التصور إلى أن يكون حجم الموسوعة في حدود ٣٠ مجلداً، وأن يكون المجلد الواحد في حدود ٨٠٠ صفحة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هيئة الموسوعة العربية قد أخذت في نهجها العام بمبدإ الاعتدال في اختيار موضوعات المساق ومعالجتها، فاتسعت في تحرير المادة العلمية أحياناً موافقة في ذلك ماجرت عليه معظم الموسوعات المعروفة، من غير إطالة تلحقها بالموسوعات المتخصصة التي تعتمد على الاستقصاء والتفصيل، ومن غير إيجاز يساويها بالمعاجم الموسوعية أو المعاجم العامة التي درجت على التحديد والاختصار، أو على الإكثار الذي يعتمد منهج الإحصاء فيستوفي حصر الأصول والدلالات اللغوية كلها، فثمة فروق لاتخفى على القارئ الكريم بين الموسوعة العامة والموسوعات أو الموسوعة المتخصصة والمعجم الموسوعي والمعجم المتخصص ومعجم المفردات.

وفي الوقت نفسه راعت هيئة الموسوعة في اختيار المسميات والمصطلحات والمداخل ما له قيمة علمية أو منزلة اجتماعية أو أثر تاريخي أو أدبي أو فني.. واكتفت من الأعلام الأحياء برؤساء الدول.

وقد يلحظ القارئ أحياناً تزيّداً في إيراد بعض أسماء الأعلام الأجنبية، وما ذاك إلا حرصاً على توفير مرجع باللغة العربية لهذه الأعلام، أما أسماء الأعلام العربية فمراجعها أكثر من أن تحصى، كمعجم الأدباء لياقوت الحموي، والوافي بالوفيات للصفدي، والأعلام للزركلي وغيرها.

واعتمدت الهيئة تكليف نخبة من الباحثين والمتخصصين كتابة الموضوعات وفقاً لتوصيفات تحددها الأقسام في كتب تكليف موجهة إلى الباحثين، وكوّنت الهيئة جهاز تحرير ولجنة قراءة لمراجعة مايعتمد من البحوث في الأقسام مراجعة أخيرة للانتقال بها إلى مرحلة التنضيد فالإخراج فالطبع. وللهيئة قرار اعتماد البحوث أو رفضها أو تعديلها.

وحرصت هيئة الموسوعة العربية ماأمكنها الحرص على أن تكتب أبحاثها بلغة سهلة التعبير، قريبة المتناول، سليمة الأداء، مع التزام دقة المعلومات وتوثيقها،وعناية بالربط بين المفهومات المتخيرة تفادياً للتكرار، وتنسيق بين العلوم تعزيزاً لذلك، وتجنباً للنقص. وراعت الموسوعة في أبحاث الدول أن تورد بالترتيب الجانب الجغرافي والتاريخي والمظاهر الحضارية كالأدب والفن، كما أولت اهتمامها مسألة الإشارة إلى الموضوعات الفرعية التي لها صلة بالمداخل، أو تعد متممة لها، وأحالت القارئ على المسميات أو المصطلحات التي ارتضتها حين رأت اختلافاً في التسمية أو تعدداً في المصطلح أو تفاوتاً في شيوعهما، آملة من ذلك كله أن تكون مصدراً كافياً للمادة العلمية التي نتطلع إلى توفيرها.

وارتأت الهيئة تكليف باحثين عرب، في المرتبة الأولى، كتابة بحوث الموسوعة، فلم تستعن بالأقلام الأجنبية إلا فيما ندر، وكان إيكال كتابة أكثر البحوث الأولى إلى العرب السوريين لسهولة الاتصال بهم والاطلاع على وجهات نظرهم ومناقشتهم قبل التوسع في العمل، ثم كانت الخطوة التالية جمع المعلومات عن الباحثين العرب من خارج سورية ومعرفة اختصاصاتهم ومدى استعدادهم للكتابة في الموسوعة.

وتم الاتفاق على تذييل البحوث بأسماء كاتبيها، ماعدا تلك التي أعدها جهاز التحرير في هيئة الموسوعة العربية وذيلت بالحرفين ج.ت، وإذا كتب البحث أكثر من باحث أُشير إلى ذلك. ولمزيد من الإيضاح أضيف إلى الموضوعات كل ماهو ضروري من الأشكال والصور والخرائط والجداول والبيانات، ملونة وغير ملونة، حتى تتوافر وسائل الفهم عن طريقي الرؤية والعقل مجتمعين.

وبعد فإننا لنرجو القارئ الكريم أن يحكّم حسّه النقدي في كل مايقرأ، وأن يتأمل طبيعة المادة الموسوعية ونهجنا في تقديمها، وأن يبني حكمه على هذا التصور ليكون حكماً منصفاً، إذ قلما تكون هناك معرفة شاملة لايعتورها نقص ما. وإن الوصول إلى الموسوعة التي تضم المعرفة الشاملة الكاملة صعب التحقيق إن لم يكن مستحيلاً، مع أننا نطمح بحق إلى ذلك. وهذا العمل، مع ماينطوي عليه من جهد، ليس أكثر من خطوة على الطريق، قد تكون متعثرة، لكننا نسعى بكل مانملك من طاقة وإخلاص لتكون الخطوات الأخرى أفضل مساراً، وأكثر تفاؤلاً وحرصاً على صقل تجربتنا وإنجاحها.

المديـر العـام: الأسـتاذ الدكتور مسـعود بوبو

المدير العام السابق: الأسـتاذ الدكتور شـاكر الفحام

رؤساء الأقسام العلمية

قسم الحضارة العربية

أ.د. إحسان النص

أ.د. مازن المبارك (سابقاً)

أ.د. ليلى الصباغ (سابقاً)

قسم العلوم الإنسانية

أ.د. عادل عبد السلام

أ.د. محمد بديع الكسم (سابقاً)

قسم العلوم التطبيقية

أ.د. عبد الحليم سويدان

قسم العلوم القانونية والاقتصادية

أ.د. محمد عزيز شكري

أ.د.فؤاد ديب (سابقاً)

أ.د.عصام بشور (سابقاً)

قسم الآداب واللغات الأجنبية

أ.د. نجيب الشهابي

أ.د. حنان المالكي (سابقاً)

أ.د. محمد سليم مُنلا (سابقاً)

أ.د. فؤاد شعبان (سابقاً)

قسم العلوم البحتة

أ.د. أنور الخطيب

أ.د. طاهر تربه دار (سابقاً)

أ.د. صلاح الأحمد (سابقاً)

قسم العلوم الطبية

أ.د. عدنان تكريتي

قسم التربية والفنون

أ.د. فخر الدين القلا

أ.نعيم الرفاعي (سابقاً)

إدارة الوثائق والاتصالات العلمية

ع.محمد وليد الجلاد

العاملون في التحرير والتدقيق

د. فياض سكيكر - ناهدة تقي الدين - غسان منيف عيسى - منى الحسن - نهلة الحمصي - مرح خياط - جاد الكريم الجباعي - خالد عبد الرحيم - الوليد طالب - نايف شقير - محمد زهير حميدان - إحسان خلوصي - يوسف الأمير علي - موفق الخراط - هيام شيا - لميس خباز - مها المبارك - نازك تنبكجي.

العاملون في إدارة الوثائق والمكتبة

ريمة الزين - هند أشرف علي - رهف بكداش - ثناء اليافي - إيمان الجلاد - لينة حمدان - سوسن أبو عابد دانة العرقسوسي - مسرة الفهد - نبال زيتونة - ندى حوراني - رانية الخطيب - أحمد المحمد - أماني دنان - لينة الجزائري - اعتدال شما - سناء العقاد - بحرية علي - إنعام بكور - واثق الشحف - فاطمة مياس النابلسي - ندى الشرع - حنان كمال الدين.

المكتب الفني

أُبَي الحاطوم - نضال رشيد - م. بسام حميدة - م. حسام رمضان - رجاء الزحيلي - بيسان عبد الله - هيا السليم - رنا قصاب.

الحاسوب والتقنيات

م. سندس الحلبي - م. يارا سليمان - م. معتز الحلبي - بتول الجابي - رنا بوز الجدي - رزان جانو - رندة الحلواني - معالي الفيل - ميادة بشير - أحمد الحسين.

الجهاز الإداري

عبد المجيد النص (سابقاً) - هدى حدة - محمد سعيد حسن - وفاء جبري - محمد هدى الشاش - عبير الخوام - غياث اسكندراني - نازك نعمة - هدى عيسى - مها فاعور - فاطمة صالح - ريم الحيدر - عفاف تمروق.

الجهاز المالي

غسان صندوق - محمد الأيوبي - سامر شمسين - ليلى الكردي - رندة اسكندراني - علاء علي - غفران ملاك - لؤي حسن.

العاملون العلميون في هيئة الموسوعة العربية

أ.د.إبراهيم حقي	العلوم الطبية	أستاذ سابق في قسم التوليد وأمراض النساء - كلية الطب - جامعة دمشق
أ.د.إحسان النص	الحضارة العربية	أستاذ سابق في قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق - عضو مجمع اللغة العربية بدمشق
أ.د.أحمد الأزرق	العلوم التطبيقية	أستاذ سابق في قسم الهندسة الإلكترونية - كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية جامعة دمشق (ت ١٩٩٦)
د.أحمد برقاوي	العلوم الإنسانية	أستاذ مساعد في قسم الفلسفة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق
أ.د.إلياس حداد	العلوم القانونية والاقتصادية	أستاذ في قسم القانون التجاري - كلية الحقوق - جامعة دمشق
أ.إلياس زيات	التربية والفنون	أستاذ في قسم التصوير - كلية الفنون الجميلة - جامعة دمشق
أ.د.أمينة بيطار	الحضارة العربية	أستاذة في قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق
أ.أنطون مقدسي	العلوم الإنسانية	وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق
أ.د.أنور الخطيب	العلوم البحتة	أستاذ في قسم علم النبات - كلية العلوم - جامعة دمشق
د.بكري علاء الدين	العلوم الإنسانية	أستاذ مساعد في قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق
أ.د.حسن حلمي خاروف	العلوم البحتة	أستاذ في قسم علم الحيوان - كلية العلوم - جامعة دمشق
أ. حسني الحريري	التربية والفنون	مفتش سابق في التعليم الموسيقي في وزارة التربية - دمشق
أ.د.حنان المالكي	الآداب واللغات الأجنبية	أستاذة في قسم اللغة الفرنسية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعةدمشق
أ.د.راتب محملجي	العلوم البحتة	أستاذ سابق في قسم الكيمياء التحليلية والغذائية - كلية الصيدلة - جامعة دمشق
د. ريمة الحكيم	الآداب واللغات الأجنبية	مدرسة في قسم اللغة الإنكليزية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق
أ.د.زهير البابا	الحضارة العربية	أستاذ سابق في قسم العقاقير - كلية الصيدلة - جامعة دمشق - عضو مجمع اللغة العربية بدمشق
أ.سعدي أبو جيب	الحضارة العربية	قاضي الشرع الأول في دمشق (سابقاً) - محام
د. سلطان محيسن	العلوم الإنسانية	أستاذ مساعد في قسم الآثار - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق
أ.د. شاكر الفحام	المدير العام السابق	رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق - أستاذ سابق في قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق
أ.د.صلاح الأحمد	العلوم البحتة	أستاذ سابق في قسم الرياضيات - كلية العلوم - جامعة دمشق (ت ١٩٩٨)
أ.د.صلاح يحياوي	العلوم البحتة	أستاذ سابق في قسم الكيمياء - كلية العلوم - جامعة دمشق
أ.د.طاهر تربه دار	العلوم البحتة	أستاذ سابق في قسم الفيزياء - كلية العلوم - جامعة دمشق
أ.د.عادل عبد السلام	العلوم الإنسانية	أستاذ في قسم الجغرافية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق
أ.د.عبد الحليم سويدان	العلوم التطبيقية	أستاذ سابق في قسم علم الحيوان - كلية العلوم - جامعة دمشق - عضو مجمع اللغة العربية بدمشق
أ.د.عبد النبي اصطيف	الآداب واللغات الأجنبية	أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق
أ.د.عدنان تكريتي	العلوم الطبية	أستاذ سابق في قسم الجرثوميات والطفيليات - كلية الطب - جامعة دمشق
أ.د.عصام بشور	العلوم القانونية والاقتصادية	أستاذ سابق في قسم القانون العام - كلية الحقوق - جامعة دمشق (ت ١٩٩٠)
د.علي وطفة	التربية والفنون	أستاذ مساعد في قسم أصول التربية - كلية التربية - جامعة دمشق
د.عمار صندوق	الآداب واللغات الأجنبية	مدرس في قسم اللغة الإنكليزية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق

أ.د.فؤاد ديب	العلوم القانونية والاقتصادية	أستاذ في قسم القانون الدولي ـ كلية الحقوق ـ جامعة دمشق
أ.د.فؤاد شعبان	الآداب واللغات الأجنبية	أستاذ سابق في قسم اللغةالإنكليزية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعةدمشق
أ.د.فخر الدين القلا	التربية والفنون	أستاذ في قسم المناهج وأصول التدريس ـ كلية التربية ـ جامعة دمشق
أ.د.فوزي عوض	العلوم البحتة	أستاذ في قسم الفيزياء ـ كلية العلوم ـ جامعة دمشق
د.فيصل العباس	العلوم التطبيقية	أستاذ مساعد في قسم الهندسة الإلكترونية ـ كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية ـ جامعة دمشق
أ.د.كمال غالي	العلوم القانونية والاقتصادية	أستاذ سابق في قسم القانون العام ـ كلية الحقوق ـ جامعة دمشق
أ.د.ليلى الصباغ	الحضارة العربية	أستاذة سابقة في قسم التاريخ ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
أ.د. ماجد محمد شدود	العلوم القانونية والاقتصادية	عميد المعهد العالي للعلوم السياسية ـ وزارة التعليم العالي ـ دمشق
أ.د.مازن المبارك	الحضارة العربية	أستاذ سابق في قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
أ.د. محمد بديع الكسم	العلوم الإنسانية	أستاذ سابق في قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق ـ عضو مجمع اللغة العربية بدمشق
أ.د.محمد حرب فرزات	العلوم الإنسانية	أستاذ في قسم التاريخ ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
أ.د. محمد الزحيلي	العلوم القانونية والاقتصادية	أستاذ في قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه ـ كلية الشريعة ـ جامعة دمشق
أ.د. محمد الزين	العلوم الإنسانية	أستاذ في قسم التاريخ ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
أ.د. محمد سليم منلا	الآداب واللغات	أستاذ في قسم اللغة الإنكليزية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعةدمشق
د. محمد الشربجي	العلوم القانونية والاقتصادية	مدرس في قسم علوم القرآن والسنة ـ كلية الشريعة ـ جامعة دمشق
أ.د.محمد عزيز شكري	العلوم القانونية والاقتصادية	أستاذ في قسم القانون الدولي ـ كلية الحقوق ـ جامعة دمشق
د.محمد فائد حاج حسن	العلوم الإنسانية	أستاذ مساعد في قسم الجغرافية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعةدمشق
أ. محمد مروان عرفات	التربية والفنون	مدير معهد التربية الرياضية للبنين ـ وزارة التربية ـ دمشق
أ. محمد وفاريشي	العلوم القانونية والاقتصادية	محاضر في كلية الشريعة ـ جامعة دمشق ـ محام
ع.محمد وليد الجلاد	العلوم التطبيقية	عميد ركن متقاعد في القوات المسلحة
أ.محمود حماد	التربية والفنون	أستاذ سابق في قسم الفنون ـ كلية الفنون الجميلة ـ جامعة دمشق(ت١٩٨٨)
أ.د. مسعود بوبو	المدير العام	أستاذ في قسم اللغة العربية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق ـ عضو مجمع اللغة العربية بدمشق
أ.د.مطانيوس حبيب	العلوم القانونية والاقتصادية	أستاذ في قسم الاقتصاد والتخطيط ـ كلية الاقتصاد ـ جامعة دمشق
د. مطانيوس ميخائيل	قسم التربية والفنون	أستاذ مساعد في قسم الصحة النفسية والتربية التجريبية ـ كلية التربية ـ جامعة دمشق
أ.د.مفيد العابد	العلوم الإنسانية	أستاذ في قسم التاريخ ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
أ.د.مقداد مهنا	العلوم التطبيقية	أستاذ في قسم هندسة الطاقة الكهربائية ـ كلية الهندسة الميكانيكية والكهربائية ـ جامعة دمشق
أ.د.موفق دعبول	العلوم البحتة	أستاذ في قسم الرياضيات ـ كلية العلوم ـ جامعة دمشق
د. ناظم عيسى	العلوم الإنسانية	أستاذ مساعد في قسم الجغرافية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
د.نجدة خماش	الحضارة العربية	أستاذة مساعدة في قسم التاريخ ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
أ.د. نجيب الشهابي	الآداب واللغات الأجنبية	أستاذ في قسم اللغة الإنكليزية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
أ.نعيم الرفاعي	التربية والفنون	أستاذ سابق في قسم الصحة النفسية والتربية التجريبية ـ كلية التربية ـ جامعة دمشق
د. هالة دلباني	الآداب واللغات الأجنبية	مدرسة في قسم اللغة الإنكليزية ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة دمشق
أ.د.هشام قطنا	العلوم التطبيقية	أستاذ في قسم البساتين ـ كلية الزراعة ـ جامعة دمشق
أ.د.هيام بيرقدار	العلوم البحتة	أستاذة في قسم الكيمياء ـ كلية العلوم ـ جامعة دمشق

المداخل والمصطلحات والرموز

المداخل:

يقصد بالمداخل أو رؤوس الموضوعات العنوانات الرئيسية التي يضمها مساق الموسوعة، ويتم اختيار هذه المداخل في الأقسام الثمانية، كل على حدة، وترتب منسوقة على حروف الهجاء، وبعد الموافقة النهائية عليها وإقرارها في مجلس الإدارة يعاد ترتيبها مجتمعة وفق المنهج نفسه، وتبدأ إجراءات تكليف الباحثين كتابتها. وتقدير قيمة المداخل وحجم البحوث عامة، وفي العلوم الإنسانية خاصةً، غالباً مايكون موضع اجتهاد يتفاوت فيه ذلك التقدير من باحث إلى آخر، لذا فإن هيئة الموسوعة لم تعتمد معايير صارمة تلتزمها في اختيار المداخل، بل كان ذلك الاختيار وليد المناقشة وتداول الآراء والاستئناس بمضامين الموسوعات العالمية والمعجمات وكتب التراث العربي، وصولاً إلى مايلقى الارتياح والقبول عند غالبية العاملين العلميين في الموسوعة، ويخدم أهدافها.

وللبحث عن المدخل أو المادة العلمية يؤخذ بالنظام «الكلمي» لا «الحرفي»، أي يلتمس المسمى بلفظه وصيغته كاملاً لامجرداً من الزوائد ولايعاد إلى جذره اللغوي على غرار المعاجم العربية التقليدية، فموضوع «اتحاد الكتاب العرب» مثلاً يبحث عنه في «اتحاد» لا في «وحد». وللبحث عن المداخل المركبة أو المضافة يحال القارئ على التسمية الأصلية، مثل «الأدب العربي الحديث» يبحث عنه في «الأدب العربي». ولكن البحث عن «أدب» دولة من الدول يكون تحت اسم تلك الدولة.

تكتب المداخل معرّفة إلا في الحالات التي تقتضي العدول عن ذلك، كأن يكون الاسم اسم جنس، ولا يعتد بأداة التعريف «ال» في ترتيب المداخل، كما لا يعتد بكلمات «أب» و«أم» و«ابن» و«بنت» وأمثالها في هذا الترتيب إلا ماكان من أصل الاسم مثل «أبو ظبي» و«أم كلثوم». ويُعدّ الحرف المشدد وكذلك المد حرفاً واحداً في الترتيب الهجائي، وتُعدّ الهمزة والمدّة في أول الكلام ألفاً.

ولكتابة أسماء الأعلام ومايماثلها من أسماء الدول والمدن وغيرها في المداخل وضمن النصوص رأت هيئة الموسوعة أن تأخذ بالقواعد الآتية:

- تدرج أسماء الأعلام مشكولة في الموسوعة، عند احتمال اللبس في قراءتها، سواء أكانت مدخلاً أم وردت في سياق البحث، وتضبط أسماء الأعلام الأجنبية بالشكل الذي يلائم نطقها في لغتها، ويراعى اختصار الحروف الصوتية ماأمكن ذلك. ويوضع ماأشكل منها بين علامتي تنصيص « ».

وتكتب أسماء الأعلام الأجنبية كما هي شائعة باللغة العربية، أما غير الشائع منها، فيكتب بحروف عربية توافق منطوقه في لغته الأصلية، ويقرن في كلتا الحالتين بمقابله الأجنبي.

- تكتب الأسماء العربية القديمة بحسب شهرتها مع إحالة الأسماء الأخرى عليها، مثل: أحمد بن الحسين ◄ المتنبي، عمرو بن بحر ◄ الجاحظ، وتردُّ الأسماء العربية المحرفة في اللغات الأجنبية إلى أصلها العربي. وإذا اشتهر الاسم المحرف فإنه يحال على الاسم الصحيح، وكذلك الأمر في المصطلحات التي اشتهرت معرّبة مثال الانفلونزا ◄ النزلة الوافدة.

- يعامل ماكان مشهوراً من أسماء الأعلام العرب المحدثين معاملة القدماء فيكتب الاسم الذي اشتهر به ذلك العلم، مثل «الأخطل الصغير»، «بدوي الجبل»، «الشاعر القروي» ويحال عليه الاسم الحقيقي.

- أما أسماء الأعلام العرب المحدثين فتكتب - إن كانت مداخل - بتقديم النسبة ووضع الاسم الأول بعدها بين هلالين، مثل: حسين (طه -)، الشابي (أبو القاسم -)، الشهابي (مصطفى -).

- تدرج أسماء الأعلام الأجنبية بحسب اسم الأسرة (النسبة) ويوضع الاسم الأول بين هلالين مثل هوغو (فكتور -)، ويهمل لقب النبالة في الترتيب الهجائي، إلا إذا كان من أصل الاسم، ويلجأ إلى الإحالة عند الضرورة القصوى. وفي أسماء الأعلام التي تتصدرها إضافة، كما في الفرنسية des و du و de اختيرت كلمة «دي» غالباً مقابل كل منها.

- يدرج الاسم المشهور للدولة أو المدينة في المدخل، ويذكر الاسم الرسمي للدولة في مطلع البحث مثل الأردن - المملكة الأردنية الهاشمية، مصر - جمهورية مصر العربية. ويؤخذ بالتسمية الرسمية المعتمدة في هيئة الأمم المتحدة. كما يدرج الاسم الآخر إحالة على الأول إذا اقتضى الأمر ذلك، إضافة إلى إدراجه في متن البحث مثل: المجر ◄ هنغارية، إكس لاشابيل ◄ آخن.

فإذا كان للاسم لفظان جعل أكثرهما شيوعاً مدخلاً مثل بولندة وبولونية، وأرسطو وأرسطوطاليس.

- تعدّل كتابة أسماء الدول والمدن والبلدان المنتهية بحرف ألف بالعربية لتكون بالتاء المربوطة، مثل: سورية، النمسة، ويستثنى من ذلك بعض الأسماء المشهورة التي تكتب كما وردت في كتب التراث مثل: آسيا، أو التي قد يحدث لبس فيها مثل كَندا وكِنْدة.

- يراعى في كتابة الأحرف التي ليس لهامقابل في اللغة العربية الوجه التالي غالباً: V=ف، P=ب، G=غ، Q=ق.

- عند اشتهار أكثر من علم باسم واحد يتم ترتيب أسمائهم في الموسوعة وفق التسلسل الزمني لتواريخ وفياتهم من القديم إلى الحديث، مثل:

عباس (شاه -) (١٥٧٢-١٦٥٩م)

عباس (شاه -) (١٦٣٣-١٦٦٧م)

عباس حلمي (١٨١٣-١٨٥٤م)

عباس حلمي (١٨٧٤-١٩٤٤م)

وإذا اشترك في التسمية والنطق اسم مكان واسم شخص فالأسبقية لأسماء المواقع الطبيعية لأنها الأقدم والأثبت (جبل، نهر، بحيرة) ثم تليها أسماء الدول فالولايات فالمحافظات فالمدن، بحسب الأهمية مثل: الجزائر (الدولة) ثم الجزائر (المدينة).

- يذكر التاريخ الهجري في الأبحاث التي لها صلة بالتراث العربي والإسلامي، ويوضع بعده التاريخ الميلادي ويفصل بينهما إشارة / .

- إذا تضمن البحث استشهاداً متعلقاً بفكرة محددة من مرجع ما فينقل النص بحروفه وتحصر العبارات المقتبسة بين علامتي التنصيص « »، وكذلك توضع أسماء الكتب وعنوانات المؤلفات والروايات والقطع الموسيقية وماشابهها بين علامتي التنصيص.

وقد ذيلت البحوث بأهم الموضوعات التي لها صلة بها وأفردت لها بحوث في الموسوعة، وكذلك أثبت في نهايتها بعض المراجع التي يستطيع القارئ الرجوع إليها ليستزيد منها، وروعي في ذلك توثيق المراجع بالترتيب التالي: اسم المؤلف - اسم المرجع - دار النشر - مكان النشر - عام النشر، واقتصر في اختيار المراجع غالباً على ماهو منشور باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية، وإذا كان المرجع مترجماً إلى العربية فيذكر اسم المؤلف واسم المترجم، وإذا كان محققاً يذكر اسم المؤلف والمحقق.

المصطلحات:

غالباً ماكان المصطلح الحديث في اللغة العربية وعند الباحثين العرب موضع نقد أو تعديل أو محل جدل وإشكال، لهذا فقد حرصت هيئة الموسوعة على تقديم المصطلح للقارئ بالقدر الممكن والمرضي من المنهجية العلمية: تنسيقاً وتعريفاً ودقةً، فالتزمت المصطلح الواحد للمدلول الواحد في العلم الواحد، ليكون جديراً بالاستقلال مبرءاً من العيوب ما أمكن ذلك، وفي حال تعدد المصطلحات العربية في مقابل المصطلح الأجنبي (لمدلول واحد) اتّفق على اعتماد واحد منها، وقد يذكر مصطلح آخر عند الضرورة، زيادة في الإيضاح وتفادياً للالتباس والاستقلال بمصطلحات محلية خاصة.

وقد أخذت هيئة الموسوعة العربية بالمصطلحات الأكثر شيوعاً في المؤسسات العلمية الموثوقة في الوطن العربي، وبما كان منها موضع قبول وترجيح عند معظم الأقطار العربية أو الباحثين العرب أو في المعاجم المتخصصة. والتزمت، قدر الإمكان، المصطلحات التي أقرتها المجامع العلمية اللغوية العربية والمصطلحات المستعملة في الجامعات السورية، إضافة إلى المعجمات الموثوقة كالمعجم الطبي الموحد ومعجم الألفاظ الزراعية والموسوعة في علوم الطبيعة ومعجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية وغيرها.

ويشار إلى أن الموسوعة اعتمدت مبدأ كتابة المقابل الأجنبي للمصطلحات غير الشائعة عند ورودها في النص أول مرة، وقد روعي كذلك ضبط المصطلحات والكلمات التي في لفظها كلفة أو إشكال أو التي تحتمل قراءتين أو معنيين مختلفين عند كتابتها.

وقد التزمت لغة أجنبية واحدة في البحث الواحد، وتوخينا من كتابة المقابل الأجنبي للمصطلحات مزيداً من الدقة والتحوط، ذلك أن بعض المصطلحات لم يترجم إلى العربية، وإنما شاع معرباً بشيء من التغيير أو الإبدال أو الزيادة أو الحذف في الأصوات أو الاختزال، أو بقي على نطقه في لغته نحو: برجوازية bourgeoisie، واستراتيجية strategy وامبراطورية empire وفولكلور folklor وبروليتارية proletariat وابستيمولوجية epistemology وأتمتة automatisation وإيدز AIDS.

وسيلحق بالموسوعة مجلد خاص بالمصطلحات المستعملة في بحوث الموسوعة مرتباً على حروف الهجاء بالعربية والإنكليزية والفرنسية، يرجع إليه القارئ للتحقق من صحة المصطلح، ويبحث عنه بتسميته العربية بالنظام «الكلمي» لا الحرفي.

الرموز والمختصرات:

المشهور أن استخدام الرموز والمختصرات عملية اختصار يلجأ إليها للاستعاضة عن كلمات أو عبارات أو قوانين او أسماء دول ومنظمات وغيرها، ففي عصر السرعة والحواسيب والمعلوماتية وقانون توفير الجهد، يبدو هذا المسلك منطقياً مقبولاً، ومن هذا المنطلق اعتمدنا في الموسوعة طائفة كبيرة من الرموز والمختصرات العلمية، العربية والأجنبية في العلوم البحتة والتطبيقية والطبية والعلوم الإنسانية وغيرها، وتوخينا استعمال الرموز العالمية وواحدات الوزن والقياس والكيل النظامية، وهذه الرموز والمختصرات في غالبيتها مألوفة مستخدمة عند الباحثين والمتخصصين، ومع ذلك فقد مهدنا لها بمجموعة من الأفكار والمفاتيح، ثم أوردناها مدرجة وفق منهجية راعينا فيها الترتيب الهجائي للرموز والمختصرات مع إيراد رموز العلوم ذات الصلة بين هلالين.

وعلى هذه الصورة التي نأمل أن تكون موفقة مرضية نضع قائمة الرموز والمختصرات التي يطالعها القارئ الكريم بعد هذه المقدمة.

الرموز والمختصرات المستعملة في الموسوعة العربية

الرمز	المرمز
Π	Π= ١٤ر٣
« »	النصوص المنقولة حرفياً وأسماء الكتب والأعلام والكلمات الدخيلة وغير الفصيحة
( )	جملة تفسيرية وسنو الولادة والوفاة والحكم
٪	نسبة مئوية
٪.	بالألف
°...	درجة حرارة مئوية
[ر]	راجع
﴿ ﴾	آية قرآنية
أ	أمبير
أ	أنغستروم = ١ر٠ملي ميكرون
با	باسكال
ت	تاريخ الوفاة
ت	تواتر
تا	تيار
تجب	جيب التمام
تح	تحقيق
تر	ترجمة
تس	تسلا (وحدة قياس الدفق المغنطيسي)
تظل	ظل التمام
تع	تسارع
ث	ثقالة (الجاذبية الأرضية)
ثا	ثانية (قياس الزمن)
ج	جول
جب	جيب
ح	حجم
ح	عدد حقيقي
خ	مخطوط
ع	ارتفاع
ع	عدد
ع	عرض
ع	عمود
عز	عزم
عه	استطاعة
غ	غرام
ف	فهرنهايت
ف	فولط
فا	فاراد

الرمز	المرمز
د	درجة الحرارة
د	درجة الحرارة المطلقة
د	دسي = $١٠^{-١}$
د	دقيقة
دا	ديكا = ١٠
داغ	ديكا غرام
دال	ديكا لتر
دام	ديكا متر
دغ	دسي غرام
دل	دسي لتر
ر، نق	نصف القطر
راد	راديان
ز	زمن
س	سلسيوس
س	سنة
س	سنتي = $١٠^{-٢}$
س	مسافة
سا	ساعة
سر	سرعة
سغ	سنتيغرام
سل	سنتيلتر
سم	سنتيمتر
ش	شدة التيار
ص	صفحة
ص	عدد صحيح
ط	طول
ط	مطبوع، طبعة سنة
ظل	ظل الزاوية
لم	لومن (واحدة ضوء)
م	متر
م	محيط
م	مساحة
م	مقاومة
م	ميكرومتر
م	ميلادي
م	ملي
م/د	مضاد للدبابات
م/ط	مضاد للطائرات

الـرمز	المـرمز	الـرمز	المـرمز
ق	قرن = ١٠٠سنة	مر	مرجع
ق	قطر الدائرة	مغ	مليغرام
ق	قوة	مل	مليلتر
ق.م	قبل الميلاد	م	مليمتر
ق.هـ	قبل الهجرة	ن	نيوتن
قتا	قاطع التمام	نان	نانومتر
قم	قوة محركة كهربائية	هـ	هجري
ك	كتلة	هـ	هنري
ك	كلفن	هـ	هيكتا = $١٠^{٢}$
ك	كيلو = $١٠^{٣}$	هار	هيكتار = ١٠٠٠٠$م^{٢}$
ک	حريرة	هز	هرتز
ک	كولون	هغ	هيكتوغرام
كغ	كيلوغرام	هم	هيكتومتر
كم	كيلومتر	و	وزن
كن	كنتال	و	ويبر
ل	لتر	وط	واط
لغ	لوغاريتم	ي	يوم = ٢٤ساعة

رموز مضاعفات واحدات القياس والوزن وأجزائها في المنظومة العالمية SI

المضاعفات والأجزاء	المقطع الأولـي		الرمز
$١٠^{١٢}$	tera	تيرا	T
$١٠^{٩}$	giga	غيغا	G
$١٠^{٦}$	mega	ميغا	M
$١٠^{٣}$	kilo	كيلو	k
$١٠^{٢}$	hecta	هكتا	h
١٠	decka	ديكا	da
$١٠^{-١}$	deei	دسي	d
$١٠^{-٢}$	centi	سنتي	c
$١٠^{-٣}$	milli	ملي	m
$١٠^{-٦}$	micro	ميكرو	u
$١٠^{-٩}$	nano	نانو	n
$١٠^{-١٢}$	pico	بيكو	p
$١٠^{-١٥}$	femto	فيمتو	f
$١٠^{-١٨}$	atto	أتو	a

واحدات القياس الأساسية في المنظومة العالمية

واحدة القياس	الاسم	الرمز
الطول	متر	م
الكتلة (الوزن)	كيلوغرام	كغ
الزمن	ثانية	ثا
التيار الكهربائي	أمبير	أ
الحرارة	كلفن	ك
شدة الضوء	الكانديلا	ش
الزاوية المستوية	الراديان	راد
كمية المادة	المول	مول

واحدات القياس و الوزن

الأطوال

في المنظومة العالمية

أنغستروم = $١٠^{-١٠}$ متر
١ نانو متر = ١٠ أنغستروم
١ ميكرو متر = ١٠٠٠ نانومتر
١ مليمتر = ١٠٠٠ ميكرومتر = $١٠^{-٣}$ متر
١ سنتيمتر = ١٠ مليمتر = $١٠^{-٢}$ متر
١ ديسيمتر = ١٠ سنتيمتر = $١٠^{-١}$ متر
١ متر = ١٠٠٠ مليمتر
١ متر = ١٠٠ سنتيمتر
١ متر = ١٠ ديسيمتر
١ ديكامتر = ١٠ متر
١ هكتومتر = ١٠ ديكامتر = ١٠٠ متر
١ كيلومتر = ١٠ هكتومتر = ١٠٠٠ متر
١ ميغامتر = ١٠٠٠ كيلومتر

الواحدات الإنكليزية

١ بوصة = ٢٥,٤ مليمتر
١ قدم = ١٢ بوصة (إنش) = ٣٠٤٨ مليمتر
١ يرد = ٣ قدم = ٩١٤٤ مليمتر
١ قصبة = ٥,٥ يرد = ٥,٠٢٩٢ متر
١ سلسلة = ٤ قصبة = ٢٠,١١٦٨ متر
١ فرلنغ = ١٠ سلسلة = ٢٠١,١٦٨ متر
١ ميل = ٨ فرلنغ = ١٦٠٩,٣ متر
١ ميل = ١٧٦٠ يرد = ١٦٠٩ متر

واحدات المساحة

في المنظومة العالمية

١ سنتيمتر مربع = ١٠٠ مليمتر مربع
١ ديسيمتر مربع = ١٠٠ سنتيمتر مربع
١ متر مربع = ١٠٠ ديسيمتر مربع
١ آر = ١٠٠ متر مربع
١ هكتار = ١٠٠ آر
١ كيلو متر مربع = ١٠٠ هكتار

الواحدات الإنكليزية

١ قدم مربعة = ١٤٤ بوصة مربعة
١ يرد مربع = ٩ قدم مربعة
١ قصبة مربعة = ٣٠,٢٥ يرد مربع
١ رود = ٤٠ قصبة مربعة
١ أكر = ٤ رود
١أكر = ٤٨٤٠ يرد مربع
١ ميل مربع = ٦٤٠ أكر

واحدات الوزن (الكتلة)

في المنظومة العالمية

١ غرام	= ١٠٠٠ مليغرام
١ ديكاغرام	= ١٠ غرام
١ هكتوغرام	= ١٠ ديكاغرام
١ كيلوغرام	= ١٠ هكتوغرام
١ طن	= ١٠٠٠ كيلوغرام

الواحدات الإنكليزية

١ أونصة	= ٤٣٧,٥ قمحة (حبة)
١ أونصة	= ١٦ درهم
١ رطل	= ١٦ أونصة
١ حجر (ستون)	= ١٤ باوند (رطل)
١ ربع (كوارتر)	= ٨٢ رطل
١ هندرويت	= ٤ ربع
١ طن	= ٢٠ هندرويت

واحدات الحجم

في المنظومة العالمية

١ سنتيمتر مكعب	= ١٠٠٠ مليمتر مكعب
١ ديسيمتر مكعب	= ١٠٠٠ سنتيمتر مكعب
١ متر مكعب	= ١٠٠٠ ديسيمتر مكعب
١ ديكامتر مكعب	= ١٠٠٠ متر مكعب

الواحدات الإنكليزية

١ قدم مكعبة	= ١٧٢٨ بوصة مكعبة
١ يرد مكعب	= ٢٧ قدم مكعبة
١ برميل للجامدات	= ٥,٨ قدم مكعبة

واحدات السعة

في المنظومة العالمية

١ سنتيلتر	= ١٠ مليلتر
١ ديسيلتر	= ١٠ سنتيلتر
١ لتر	= ١٠ ديسيلتر
١ لتر	= ١ ديسيمتر مكعب
١ ديكالتر	= ١٠ لتر
١ هكتولتر	= ١٠ ديكالتر
١ كيلولتر	= ١٠ هكتولتر
١ متر مكعب	= ١٠ كيلولتر

الواحدات الإنكليزية

١ أونصة مائعات	= ٨ درهم مائعات
١ جيل	= ٥ أونصة مائعات
١ باينت	= ٤ جيل
١ كوارت	= ٢ باينت
١ غالون	= ٤ كوارت
١ بيك	= ٢ غالون
١ بوشل	= ٤ بيك
١ ربع (كوارتر)	= ٨ بوشل
١ برسيل	= ٣٦ غالون

واحدات الملاحة

الأطوال البحرية

١ قامة = ٦ قدم = ١,٨٢٨٨ متر

١ طول كبل = ١٠٠ قامة = ١٨٢,٨٨ متر

١ ميل بحري = ٦٠٨٠ قدم = ١٨٥٢ متر

سرعة الإبحار

١ عقدة = ١ ميل بحري / ساعة = ٢٢ قدم / ثا

الشحن البحري

١ طن مسجل = ١٠٠ قدم مكعبة

واحدات القياس و الوزن الشرعية

واحدات الطول الشرعية

الشعرة = ٠٫٥٣٤ مم

الشعيرة أو القمحة = ٦ شعرات = ٣٫٢ مم

الإصبع = ٦ قمحات = ١٩٫٢٥ مم

القبضة = ٤ أصابع = ٧٫٧ سم

الشبر = ٣ قبضات = ٢٣٫١ سم

الذراع = ٢٤ إصبع = ٤٦٫٢ سم

القصبة = ٦ أذرع = ٣٫٨٤ م

الميل الشرعي = ٣٥٠٠ ذراع شرعي = ١٦٨٠ م

الميل الهاشمي = ٤٠٠٠ ذراع = ١٨٤٨ م

الميل الجغرافي = ٧٤٢٠٫٤٤ م

الفرسخ = ٣ ميل = ٥٥٤٤ م

مسافة القصر = ١٦ فرسخ = ٤٨ ميل هاشمي = ٨٨٫٧٠٤ كم

واحدات المساحة الشرعية

الذراع المربعة = ٥٧٦ إصبع مربعة = ٠٫٢ م^2

القصبة المربعة = ٤٨٫٥ ذراع مربع = ٢٣٫٧٥ م^2

واحدات الوزن و الكيل الشرعية

الحبة أو القمحة = ٠٫٠٦٢ غرام

القيراط = ٠٫١٨٧٥ غرام

الدرهم = ٣٫١٧١ غرام

المثقال = ٤٫٥٣ غرام

الأوقية = ٢٨٫٣٢ غرام

الرطل = ٤٠٨ غرام = ١٢٠ أوقية

الصاع = ٥ ١/٣ رطل = ٢١٧٥ غرام = ٢٫٧٥ لتر

المُد = ١/٤ صاع = ٥٤٣٫٤ غرام = ٠٫٦٨٨ لتر

النصاب الشرعي من النقد الفضة = ٥ أواق = ٥٩٥ غرام

واحدات مختلفة للقياس والوزن

واحدات وزن المعادن الثمينة

٢٤ قيراط = يعني معدناً نقياً

١ قيراط متري = ٢٠٠ مليغرام

١ أونصةترويسية = ٤٨٠ حبة

واحدات المقاييس و الأوزان الصيدلانية و المنزلية

حبة = ٠٫٠٠٠١٧ ليبرة = ٠٫٠٦٤٨ غرام

قطرة = ٠٫٠٠٢ أونصة = ٠٫٠٦٤٧ سم^3

درهم = ٣٫٦٩٧ سم^3

ملعقة شاي = ٠٫١٦٧ أونصة = ٤٫٧٣٥ غرام

ملعقة طعام = ٠٫٥ أونصة = ١٤٫١٧٥ غرام

فنجـــــان = ٢٢٦٫٨ غرام

واحدات قياس متفرقة

الأوقية الشامية = ٢٠٠ غرام

الآقة = ١٫٢٨ كغ = ١٫٢٨ لتر

الرطل الشامي = ٢٥٠٠ غرام

القنطار الشامي = ١٠٠ رطل = ٢٥٠ كغ

القصبة المربعة = ٢٣٫٠٠ متر مربع

الفدان المصري = ٣٣٣٫٣ قصبة = ٤٢٠٠ م^2

الـــــــدونم = ٤٠ قصبة = ١٠٠٠ م^2

اللـــــــيبرة = رطل إنكليزي = ٤٥٣٫٥٩ غرام

واحدات قياس الضغط الجوي

١ ميليبار = ١٠٠٠ دين / سم^2 = ٠٫٠٠١ بار

١ بـــــار = ١٠٠٠مليبار = ٧٥٠ مم ضغط جوي

واحدات قياس الزوايا

٦٠ ثانية = ١ دقيقة

٦٠ دقيقة = ١ درجة

الميليم = ١/٦٤٠٠ من محيط الدائرة

٩٠ درجة = ربع دائرة

٣٦٠ درجة = دائرة كاملة

الراديان = ٥٧٫٢٩ درجة

جدول التحويل

الأطوال

١ بوصة (إنش) = ٢٫٥٤٠ سنتيمتر

١ قدم = ٠٫٣٠٤٨ متر

١ يرد = ٠٫٩١٤٤ متر

١ ميل = ١٦٠٩٫٣ متر

١ متر = ٣٫٢٨٠٨ قدم

١ متر = ١٫٠٩٣٦ يرد

١ كيلومتر = ٠٫٦٢١٤ ميل

الأوزان

١ قمحة (حبة) = ٠٫٠٦٤٨ غرام

١ أونصة = ٢٨٫٣٥ غرام

١ رطل = ٤٥٣٫٥٩ غرام = ٠٫٤٥٣٥٩ كيلوغرام

١ طن = ١٠٠٠ كيلوغرام

١ غرام = ١٥٫٤٣ قمحة (حبة) = ٠٫٠٣٥٢٧٤ أونصة

١ غرام = ٠٫٠٠٢٢٠٤٦ رطل

١ كيلوغرام = ٢٫٢٤٦ رطل = ٠٫٠٠٠٩٨٤٢ طن طويل

١ طن متري = ٠٫٩٨٤٢ طن طويل = ١٫١٠٢ طن قصير

١ طن قصير = ٠٫٨٩٣ طن طويل

١ طن طويل = ١٫١٢٠ طن قصير

١ طن قصير = ٠٫٩٠٧ طن متري

١ طن طويل = ١٫٠١٦٠ طن متري

المساحة

١ بوصة مربعة = ٦٫٤٥١٦ سنتيمتر مربع

١ قدم مربعة = ٠٫٠٩٢٩ متر مربع

١ يرد مربع = ٠٫٨٣٦١ متر مربع

١ ميل مربع = ٢٫٥٩ كيلومتر مربع

١ آكر = ٠٫٤٠٤٧ هكتار

١ سنتيمتر مربع = ٠٫١٥٥ بوصة (إنش) مربعة

١ متر مربع = ١٠٫٧٦ قدم مربعة = ١٫١٩٦ يرد مربع

١ كيلومتر مربع = ٠٫٣٨٦١ ميل مربع

١ هكتار = ٢٫٤٧١ آكر

الحجم

١ بوصة مكعبة = ١٦٫٣٩ سنتيمتر مكعب

١ قدم مكعبة = ٠٫٠٢٨٣٢ متر مكعب

١ يرد مكعب = ٠٫٧٦٤٦ متر مكعب

١ بوصة مكعبة = ٠٫٠١٦٣٩ لتر

١ غالون = ٤٫٥٤٦٠ لتر

١ بوشل = ٣٦٣٠٠ سنتيمتر مكعب

١ سنتيمتر مكعب = ٠٫٠٦١٠٢ بوصة مكعبة

١ متر مكعب = ٣٥٫٣١ قدم مكعبة = ١٫٣٠٨ يرد مكعب

١ لتر = ٦١٫٠٢٤ بوصة مكعبة = ٠٫٢١٩٩٧ غالون

مقاييس الورق و الكتب

مقاييس الورق الإنكليزية

طرْس كبير Large post	= ٤١٩٫١ X ٥٣٣٫٤ م
طرْس منصّف Demy	= ٤٤٤٫٥ X ٥٧١٫٥ م
طرْس وسط Medium	= ٤٥٧٫٢ X ٥٨٤٫٢ م
طِرْس ملكي Royal	= ٥٠٨ X ٦٣٥ م
تاج مزدوج Double Crown	= ٥٠٨ X ٧٦٢ م

مقاييس الكتب

قطع المربع	= ٢٤٦ X ١٨٩م
قطع الثمن	= ١٨٦ X ١٢٣م
قطع الربع المنصف	= ٢٧٦ X ٢١٩م
قطع الثمن النصف	= ٢١٦ X ١٣٨م
قطع الربع الملكي	= ٣١٢ X ٢٣٧م
قطع الثمن الملكي	= ٢٣٤ X ١٥٦م
قطع آ٤	= ٢٩٧ X ٢١٠م
قطع آ٥	= ٢١٠ X ١٤٨م

مقاييس الورق المترية (آ) = A

آ٠ = ٨٤١ X ١١٨٩م	A0
آ١ = ٥٩٤ X ٨٤١م	A1
آ٢ = ٤٢٠ X ٥٩٤م	A2
آ٣ = ٢٩٧ X ٤٢٠م	A3
آ٤ = ٢١٠ X ٢٩٧م	A4
آ٥ = ١٤٨ X ٢١٠م	A5
آ٦ = ١٠٥ X ١٤٨م	A6
آ٧ = ٧٤ X ١٠٥م	A7
س٣ = ٣٢٤ X ٤٥٨م	C3
ب٤ = ٢٥٠ X ٣٥٣م	B4
س٤ = ٢٢٩ X ٣٢٤م	C4
ب٥ = ١٧٦ X ٢٥٠م	B5
س٥ = ١٦٢ X ٢٢٩م	C5
ب٦/س٤ = ١٢٥ X ٣٢٤م	B6/C4
ب٦ = ١٢٥ X ١٧٦م	B6
س٦ = ١١٤ X ١٦٢م	C6
دل = ١١٠ X ٢٢٥م	DL



■ أ (الألف)

الألف «ا» صورة لحرفين: الألف الساكنة التي هي مدّة «ا» والألف المتحركة وهي الهمزة «أ». ورُمز للهمزة برأس العين «ء»، فجعلوه فوق الألف المتحركة. وأما الألف المدّة فلا تكون إلا ساكنة؛ ولذلك دعمت باللام قبلها متحركة ليمكن الابتداء بها، وموضعها في حروف المعجم بين الواو والياء: «و، لا، ي».

فالألف هي صورة الهمزة مع التحقيق، وتكتب الهمزة واواً وياء على مذهب التخفيف، مثل سَئِم ولَؤُم، فهذه ثلاثة أحوال للهمزة باعتبار الرسم: أن ترسم ألفاً أو واواً أو ياء، والحال الرابعة أن ترسم بصورتها المصطلح عليها «ء» مفردة، مثل الدفء والجزء. ولرسم الهمزة في أحوالها الأربعة قواعد مبسوطة في مظانّها.

والهمزة المخففة هي التي تسمى همزة بينَ بينَ أي بين الهمزة والحرف الذي منه حركتها. فالمفتوحة بين الهمزة والألف، والمكسورة بين الهمزة والياء، والمضمومة بين الهمزة والواو، نحو سأل وسَئِم ولَؤُم. والهمزة المخفّفة بزنة المحققة إلا أنها ليس لها تمكّن المحققة، ولا تقع المخففة أولاً أبداً لقربها بالضعف من الساكن.

وللعرب في الهمزة الساكنة مذاهب: التحقيق، والتخفيف، والتحويل أو البدل. فالتحقيق نحو قَرأت، والتخفيف في نحو قَرات، والتحويل يكون بتحويلها ياء أو واواً نحو قَرَيْت ورَفَوْت الثوب.

والهمزة حرف حَلْقي مجهور جَرْسي مهتوف شديد منفتح مُسْتَفِل (أو منخفض) من الحروف المُصْمَتة، وتدخل في حروف العلة لأنها يعتريها التغيير.

وهي أول حروف المعجم في الترتيب الهجائي الألفبائي والأبجدي وفي ترتيب الحروف على مخارجها؛ على خلاف بين بعضهم في موضعها في هذا الترتيب. وقيمتها العددية واحد في حساب الجُمَّل.

والهمزة قسمان: همزة القطع وهمزة الوصل.

أما همزة القطع فتقع في الكلام على ثلاثة أضرب: أصل وبدل وزائدة.

فإن كانت أصلاً وقعت في الكلمة فاء او عيناً أو لاماً، نحو أنف وفأس ونبأ، ويسميها بعضهم ألف السِّنْخ والفاً أصلية. وليس في الكلام كلمة فاؤها وعينها همزتان ولا فاؤها ولامهاأيضاً همزتان إلا كلمات معدودة، منها آءة وأجأ والاءة وأشاءة.

وإن كانت بدلاً فقد أبدلت من الألف والواو والياء، وأبدلت من الهاء أيضاً. فأبدلت من الألف إذا وقعت بعد ألف زائدة نحو رسائل، ومن ألف التأنيث المقصورة في نحو حمراء وأصدقاء، وأبدلت في بعض اللغات من الألف في نحو الخاتم والعالم في الخأتم والعألم، ومن الألف التي وقع بعدها ساكن مدغم في مثله نحو شأبّة ودأبّة وإبياضّ في شابّة ودابّة وابياضّ، ومن الالف في نحو حُبلأ ويضربُهأ في الوقف على حبلى ويضربها.

وأبدلت من الواو إذا وقعت بعد الف زائدة نحو عجائز، وإذا كانت عيناً في اسم الفاعل الذي أعلّ فعله نحو قائم، وإذا كانت لاماً متطرفة بعد ألف زائدة نحو كساء وعلاء. وأبدلت من الواو المضمومة ضماً لازماً في أول الكلمة ووسطها نحو أجوه أُقّتت أثؤُب في وجوه ووقّتت وأثوُب، وهو بدل جائز غير لازم. وأبدلت في بعض اللغات من المفتوحة في نحو أناة وأحَد في وَناة ووَحَد، ومن المكسورة في نحو إسادة وإشاح في وسادة ووشاح.

وأبدلت من الياء إذا وقعت بعد ألف زائدة نحو كتائب، وإذا كانت عيناً في اسم الفاعل الذي أعلّ فعله نحو بائع، وإذا كانت لاماً متطرفة بعد الف زائدة نحو قضاء وسقاء. وأبدلت في بعض اللغات في ضربت أدَيْه أي يديه، وفي أسنانه ألَلٌ أي يلل، وأبدلت منها في الرِّئْبال أي الريبال.

وأبدلت من الهاء في «ماء» وأصله مَوَه بدليل جمعه على أمْواه.

وأما الزائدة فتزاد أولاً في بنات الثلاثة من الأسماء والأفعال نحو أكرمَ، أحمر، إقبال. فإن كانت أولاً ومعها أربعة أحرف أصول فهي أصل نحو إبراهيم، إصطبل. وقد زيدت أولاً في المضارع المسند إلى المتكلم نحو «أضربُ» وهي همزة المتكلم.

وتكون زائدة في «أفْعَل» الدال على التفضيل أو اللون أو العيب نحو أعْلَم منه، وأحمر، وأعمى؛ وفي الفعل الثلاثي لعدة معان أشهرها: التعدية نحو أذهبتُه، والتعريض نحو أبَعْتُ الثوب: عرضته للبيع، والصيرورة صاحبَ شيء نحو أثمر البستان: صار ذا ثمر، والمصادفة والوجود على صفة نحو أبخلته: وجدته بخيلاً، والسلب أو الإزالة نحو أشكيته: أزلت شكواه، والدخول في زمان الشيء أو مكانه نحو أصبح: دخل في الصباح، وأشأم: دخل في الشأم، والحينونة نحو أحصد الزرع: حان أن يحصد.

وزيدت الهمزة وسطاً وآخراً في أحرف محفوظة نحو شَمْأل وشَأمل وقُدائم وجُرائض والنِّئْدلان وضَهْياء.

وجاء حذف الهمزة في مواضع منها أرَيْتَ أي أرأيت ووَيْلُمّه أي ويل لأمه، وجايجي أي جاء يجيء.

وتكون حرفاً من حروف المعاني؛ وتأتي على وجهين: الأول أن تكون حرفاً لنداء القريب نحو أزيدُ أقبلْ. والثاني أن تكون للاستفهام وتدخل على الأسماء والأفعال لطلب التصديق نحو أزيد قائم؟ أجاء زيد؟ أولطلب التصور نحو أزيد عندك أم عمرو؟ أجاء زيد أم عمرو؟ وتدخل على الإثبات وعلى النفي نحو أجاء زيد؟ ألم يأت زيد.

وهي أصل أدوات الاستفهام، ولأصالتها استأثرت بأمور منها تمام التصدير، فتقدّم على الواو والفاء وثمّ العاطفات نحو قوله تعالى: ﴿أوَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ (الأعراف ١٨٥). ﴿أفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ (يوسف ١٠٩)، ولا تذكر بعد «أم» التي للإضراب، فيقال: أقام زيد أم قعد؟ ولا يقال: أم أقعد. ومنها جواز حذفها إذا فهم المعنى ودلت عليه قرينة الكلام نحو: زيد قام أم عمرو؟ ذو الشيب يلعب؟

وتخرج الهمزة عن الاستفهام الحقيقي فَتَردُ لثمانية معان، على الاختلاف بينهم في عدّتها وتسميتها:

أولها: التسوية، وهي الهمزة الداخلة على جملة يصح حلول المصدر محلّها، نحو قوله تعالى: ﴿سواءٌ عليهم أأنذرْتَهُم أم لم تُنْذِرْهُم﴾ (البقرة ٦) وما أبالي أقمتَ أم قعدتَ.

وثانيها: الإنكار الإبطالي، وتقتضي أن ما بعدها غير واقع وأن مُدَّعيه كاذب، نحو قوله تعالى: ﴿ألَيْسَ اللهُ بكافٍ عَبْدَهُ﴾ (الزمر ٣٦).

وثالثها: الإنكار التوبيخي، وتقتضي أن ما بعدها واقع وأن فاعله مَلُوم، نحو قوله تعالى: ﴿أتَأتون الذُّكْران﴾ (الشعراء١٦٥).

ورابعها: التقرير، وهو توقيف المخاطب على ما يعلم ثبوته أو نفيه، نحو قوله تعالى: ﴿أأنْتَ فعلتَ هذا﴾ (الانبياء٦٢).

وخامسها: التهكّم، نحو قوله تعالى:

﴿ أصَلاَتُكَ تَأمُرُكَ أنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آبَاؤُنا ﴾ (هود ٨٧).

وسادسها: الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿ أأسْلَمْتُم ﴾ (آل عمران ٢٠).

وسابعها: التعجب، نحو قوله تعالى: ﴿ ألَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ (الفرقان ٤٥).

وثامنها: الاستبطاء، نحو قوله تعالى: ﴿ ألَمْ يَأنِ للَذين آمَنُوا ﴾ (الحديد ١٦).

وأما همزة الوصل فلا تكون إلا زائدة. وزيدت توصّلاً للنطق بالساكن بعدها لما لم يمكن الابتداء به وتسقط في الدَّرْج. وموضع زيادتها الفعل، وزيدت في اسماء معلومة وحرف واحد.

فأما الفعل فزيدت في الفعل الماضي الخماسي والسداسي نحو اقتدر، انطلق، استخرج. وزيدت في الأمر من كل فعل انفتح فيه حرف المضارعة وسكن ما بعده نحو اضربْ اقتلْ انطلقْ استخرجْ.

واما زيادتها في الأسماء فعلى ضربين: أسماء هي مصادر، وأسماء غير مصادر. فاما المصادر فهي مصادر الأفعال الخماسية والسداسية، نحو اقتدار اشتغال انطلاق. وأما الاسماء التي زيدت فيها وليست مصادر فهي: ابن، ابنة، امرؤ، امرأة، اثنان، اثنتان، اسم، است، اينُم، ايمُن.

وأما الحرف الذي زيدت فيه همزة الوصل فهو لام التعريف في نحو الغلام.

وهي مكسورة في الاسماء والأفعال، إلا أنهم ضمّوها في الأفعال التي يكون ثالثها مضموماً ضماً لازماً نحو أُخْرُج، أُكْتُب. وهي مفتوحة مع لام التعريف «الْـ» ومع «أيمن» من الاسماء. ويوضع فوق الألف صاد «صـ» من لفظ صلة الوصل دلالة عليها.

أما الألف الساكنة فهي حرف مدّ من الحروف الهوائية الجُوف الخفية، ومن حروف العلة، ومن الحروف الزوائد. وهي بعد الهمزة في ترتيب الحروف على مخارجها عند من يجعل الهمزة أول حروف الحلق، وهي الحرف الثامن والعشرون بعد الواو وقبل الياء في الترتيب الهجائي الألفبائي «و، لا، ي».

ولا تكون هذه الألف اصلاً في الأسماء المتمكنة والأفعال، إنما تكون بدلاً أو زائدة، نحو باب، دعا، قاتلَ. وتكون أصلاً في حروف المعاني نحو ما، لا، يا، هيا، إلا، حتى، كلا، وفي الأسماء المبنية الموغلة في شبه الحرف نحو أنّى، متى، إذا، إيّا.

ولا تزاد أولاً لأنها ساكنة أبداً، وتزاد ثانية في الأسماء والأفعال: نحو قائل، ضاربٌ، وثالثةً نحو كتاب، تقاتل، ورابعةً نحو حبلى، قرطاس، زلزال، وخامسةً نحو اجتماع، ارْعَوَى، وسادسة نحو كُمَّثرى، قَبَعْثرى، اسْرَنْدَى، وتزاد سابعة في الأسماء وحدها نحو أُرْبُعاوى.

وأبدلت من الواو والياء أصليتين نحو قال، باع، أو منقلبتين نحو اعطى، ملهى، أو زائدتين نحو سَلْقَاه. وذلك متى تحركتا وانفتح ما قبلهما. وأبدلت في الوقف من نون التنوين في الاسم نحو رأيت زيدا، ومن نون التوكيد الخفيفة المفتوح ما قبلها، نحو اضربا أي اضربَنْ، ومن نون «إذن» نحو أزورك إذا.

ولها ألقاب، منها:

- الألف الفارقة (أو الفاصلة أو ألف التفريق) تزاد بعد واو الجماعة في الأفعال نحو كتبوا، لم يدرسوا، وبعد نون النسوة في الفعل المؤكد نحو لتكتبنانّ، اكتبنانّ.

- ألف المتكلم (أو ألف النفس أو ألف العبارة) وهي همزة المتكلم التي تكون في أول الفعل المضارع المسند إلى المتكلم، نحو أستغفر.

- ألف العِوَض، وهي المبدلة من تنوين المنصوبِ في الوقف نحو رأيت زيدا.

- ألف الإطلاق (أو الصلة أو الوصل أو الخروج والترنّم) تكون في آخر القوافي المفتوحة الروي، نحو قول الأعشى:

نبيٌّ يَرَى ما لا تَرَوْنَ وذِكْرُه
لَعَمْرِيَ غارَ في البلادِ وأنْجَدا

وتسمى في القرآن الكريم ألف الفاصلة، كقوله تعالى: ﴿ وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونا ﴾ (الأحزاب ١٠).

- ألف التكسير (أو الجمع) نحو مساجد، جبال، أحمال، مصابيح.

- ألف الندبة نحو وازيداه.

- ألف التثنية، وتكون في الأفعال نحو قاما، يجلسان (وتسمى في الفعل ألف الضمير أيضاً)، وفي الاسماء نحو رجلان.

- ألف بيان الحركة في «أنا» تلفظ في الوقف، ولا تلفظ في الدَّرْج.

- ألف التأنيث المقصورة في الأسماء، نحو حبلى، ليلى.

- ألف التأنيث الممدودة في الأسماء، وهي الألف التي تلحق الاسم بعد ألف زائدة وتبدل همزة، نحو سوداء، صحراء.

- الألف المحوّلة، وهي كل ألف اصلها الواو أو الياء المتحركتان، نحو قال، باع، قضى.

- ألف الإشباع (أو المد) نحو ألف منتزاح (منتزح)، ينباع (ينبع). وتسمى الألف المجهولة، وألف الإقحام.

- ألف الإلحاق كألف أرطى (ملحق بجعفر)، مِعْزى (ملحق بدرهم).

- ألف التذكّر كالتي في قولهم في الوقف عند التذكر «قالا» أي قال زيد، فجعلوا الاستطالة بالألف دليلاً على أن الكلام ناقص.

- ألف التعايي كالتي في قول القائل حين يرتج عليه: إن عُمَرًا.

- ألف النون الخفيفة التي تبدل منها في الوقف، نحو لندرسا (لندرسَنْ).

- ألف الإمالة، هي التي بين الألف والياء في نحو عالم وخاتم.

- ألف التفخيم، هي التي بين الألف والواو في نحو سَلام، قُامَ.

اما الف التفضيل والنداء والقطع والوصل والتعريف فقد ذكرت في الحديث عن الهمزة، وتسميتها همزة أولى لأن الالف لا تكون أولاً البتة.

محمد الدالي

مراجع للاستزادة.

- ابن الجزري، التمهيد في علم التجويد، تحقيق غانم قدوري حمد (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦).
- ابن جني، عقود الهمز، تحقيق الدكتور مازن المبارك (دار الفكر، دمشق ١٩٨٨)
- المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد الخراط (مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٥).
- المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة (المكتبة العربية، حلب ١٩٧٣).
- ابن هشام، مغني اللبيب، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ومراجعة الاستاذ سعيد الافغاني طه (دار الفكر، بيروت ١٩٧٩).

■ إبّ

مدينة في اليمن، تقع على ارتفاع ٢٠٥٠م عن سطح البحر في الطريق الذي يصل عدن[ر] وصنعاء[ر]. وتبعد عن صنعاء العاصمة نحو ١٨٠ كم جنوباً وعن تعز[ر] نحو ٦٥ كم. وهي من أجمل مدن اليمن طبيعة، وألطفها هواء، وأكثرها خصباً.

كانت في القديم تتبع مخلاف جعفر (والمخلاف في اليمن يعني الكورة) وقد أنشأ فيه جعفر بن إبراهيم المناخي إمارة ذات صول وطول. ومخلاف جعفر جزء مما كان يسمى قبل الإسلام: الكلاع، وقد صعد من بني ذي الكلاع إلى سدة العرش الحميري ملوك كبار منهم ذو الكلاع الأكبر يزيد بن النعمان الحميري، وذو الكلاع الأصغر سميفع الذي أسلم في حياة النبي ﷺ وهاجر إلى بلاد الشام فكانت له زعامة اليمنيين فيها.

كانت إبّ مركز قضاء يضم ثلاث نواح أيام الحكم العثماني، تقدر مساحته بنحو ٤٠٠٠ كم٢، وظلت قضاء حتى نهاية عهد الإمام يحيى حميد الدين عام ١٩٤٨م، ثم أصبحت في عهد ابنه أحمد مركز لواء (محافظة) يحكمها نائب للإمام وعدت بعدئذ عاصمة لواء من أهم ألوية اليمن.

كان من المقرر أن تكون مدينة إبّ محطة على الخط الحديدي الذي يصل بين الحديدة[ر]



منظر عام لمدينة إب

وتعز بحسب مشروع بعثة بنيتون A. Beneyton عام ١٩١١م غير أن المشروع لم ينفذ.

وإبّ اليوم عاصمة محافظة تحمل اسمها. وتزود المدينة بالمياه بقنوات ترد إليها من الجبال المجاورة التي ترتفع إلى ٣٢٠٠م. وأطلق عليها اسم «اللواء الأخضر» لغناها الرراعي وجمال طبيعتها وخصب أراضيها، وتزرع فيها البقول وأنواع الفاكهة والبن والقات وشجرة النيلة والورس. ويتبع أسلوب المدرجات في الزراعة على السفوح الجبلية.

لمدينة إبّ وظيفة تجارية واقتصادية لأنها سوق المنطقة الجنوبية من اليمن، ووظيفة إدارية لأنها مركز محافظة.

وتشتهر إب بآثارها الإسلامية، ويقوم فيها (٦٠) مسجداً، أهمها جامع السيدة أروى والمسجد العمري المنسوب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وفيها ملعب أولمبي حديث مجهز بالمرافق الرياضية المختلفة.

تسارع تطور مدينة إبّ حين قامت ثورة ١٩٦٢م حتى عدت واحدة من كبريات المدن اليمنية. وبلغ عدد سكانها نحو ٣٥,٠٠٠ نسمة (عام ١٩٨٥م).

ح.ت

الموضوعات ذات الصلة:

- اليمن

■ الإباحة

الإباحة في اللغة رفع الحظر عن الشيء وإطلاقه وهو المعنى الذي يتصل بالمصطلح الشرعي العام للكلمة، وتأتي الإباحة أيضاً بمعنى الإظهار فيقال: أباح سره أي أظهره، والإباحة في الاصطلاح عند الأصوليين هي الحكم الشرعي الذي يفيد تخيير المكلف التام بين الأخذ بالشيء وتركه. ويتفق الفقهاء مع الأصوليين في أصل المعنى، وقد يختلفون في الألفاظ والتعابير كقول الفقهاء: الإباحة أن يجير الشارع للمكلّف فعل الشيء أو تركه بلا استحقاق ثواب أو عقاب. غير أن الخلاف ينبثق بين الاصطلاحين عند تتبع الفروع الفقهية المنبثقة عن حكم الإباحة. فالأصوليون لم يهتموا بما وراء المعنى الكلي للكلمة، إذ كان بحثهم متعلقاً بالإباحة من حيث هي حكم شرعي معين، ومن حيث الحاكم الذي قضى بذلك وهو الله عز وجل. أما الفقهاء فقد كان مجال بحثهم تطبيق حكم الإباحة على الوقائع والجزئيات المتنوعة واستظهار الأحكام والآثار الناجمة عن وصف الإباحة فيها. والفرق بين «الإباحة» و«الإيجاب الاختياري» واضح. فإن الإيجاب الاختياري هو تعلق الأمر الإلهي بواحد من شيئين أو عدة أشياء فلا ينفك الطلب عن واحد منها، أما الإباحة فتخييرٌ مطلقٌ لا يصحبه طلب شيء.

الإباحة والمباح

إن الإباحة تعبير عن الحكم الذي يتضمنه خطاب الله تعالى للعباد، وهو التخيير التام بين الفعل والترك، فهو إذن حكم شرعي، أما المباح فهو الشيء الذي تعلّق به هذا الحكم كاليقظة والرقاد والطعام وسائر الأفعال التي خيّر الله الناس بشأنها فعلاً أو تركاً.

صيغ الإباحة

إن الصيغ التي يفهم منها حكم الإباحة كثيرة ومتنوعة. فمنها التعبير بنفي الحَرَج أو الجناح أو الإثم أو المؤاخذة. ومنها نفي التحريم أو الإثم عن الشيء المباح. ومنها الأمر بالشيء بعد النهي عنه. على أن الإباحة قد تفهم بدلائل أخرى من وراء الصيغ والألفاظ، وهي في جملتها لا تعدو واحداً من أدلّة ثلاثة: أفعال الرسول ﷺ أو تقريراته أو كل ما سكتت عنه النصوص الشرعية فلم تعطه حكماً تكليفياً معيناً، وهو ما يدخل في الإباحة الأصلية اعتماداً على القاعدة الأصولية: «الأصل في الأشياء الإباحة» المستندة إلى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي

خَلَقَ لَكُمْ ما في الأَرْضِ جَميعاً ﴾ (البقرة ٢٩) . هذا وإنما تفهم الإباحة من الدلائل اللفظية وغيرها بشرط أساسي لابد منه وهو عدم وجود دليل خارجي يصرف دلالة الإباحة إلى غيرها من ندب أو كراهة أو وجوب أو تحريم.

أحكام الإباحة

تختلف أحكام الإباحة، بحسب اختلاف المصدر الذي صدرت عنه . والإباحة، وإن كانت في أصلها حكماً شرعياً متعلقاً بأفعال المكلفين، والحاكم هو الله وحده - كما يقول الأصوليون - إلا أنها قد تصدر عن الناس بعضهم تجاه بعض، وذلك يوجب حكم أساسي صادر عن الله عز وجل.

وعلى هذا، فالإباحة تنقسم - من حيث منشأ الإذن فيها - إلى قسمين : إباحة منشؤها الشارع مباشرة، وذلك عن طريق النصوص أو استنباطات المجتهدين، وإباحة منشؤها الناس، وذلك من خلال تعاملهم بعضهم مع بعض.

فأما القسم الأول : فإما أن تكون الإباحة فيه متعلقة بالأفعال، أو بالأشياء . فما كان منها متعلقاً بالأفعال، كالحركة والسكون واليقظة والنوم والأخذ والإعطاء، فإنما له حكم واحد، هو عدم استحقاق الفاعل لأي ثواب أو عقاب على كل من الفعل أو الترك . وما كان منها متعلقاً بالأشياء، كالماء والكلأ والأماكن والطرقات ونحوها، فالإباحة تنقسم فيها إلى إباحة استهلاك وإباحة استعمال . وذلك بحسب طبيعة الشيء الذي تعلقت به الإباحة وبحسب صلاحه لأحدهما.

فما كانت الإباحة فيه إذناً بالاستهلاك انحصر وجه الاستفادة الأساسية منه في الاستهلاك، كصيد البر والبحر، وكالماء والكلأ والملح، وكإحياء الموات[ر]، مع ملاحظة بعض الفرق بين هذا الأخير والأمثلة التي قبله.

وحكم الإباحة في هذه الأشياء وأمثالها، جواز استعمالها على وجه الاستملاك والاستهلاك. أمّا ما كانت الإباحة فيه إذناً بالاستعمال وحده، فهو كل ما كان الوجه الأساسي في الاستفادة منه يتمثل في الاستعمال على الوجه الذي أُعدَّ له : كالشوارع والمساجد والمرافق العامة، والحدائق وما قد يكون فيها من لعب الأطفال.

وحكم الإباحة في هذا النوع، هو ثبوت حق الاستعمال له من دون أي تصرف بأعيانها لا على وجه الاستملاك ولا على أي وجه آخر . .

وأما القسم الثاني : وهو الإباحة السارية بين الناس بعضهم مع بعض، فلها صورتان أيضاً :

أولاهما، أن تتعلق الإباحة بأموال خاصة يبيحها مالكها لعامة الناس أو فئة خاصة منهم، كإباحة الرجل طعاماً للضيفان وما قد ينثر بين الناس من الأموال والحلوى في الأفراح والأعراس .

الثانية، أن تتعلق الإباحة بمنافع الأموال لا بأعيانها، أو بحقوق معنوية يأذن مالكها في الاستفادة منها، كأن يأذن إنسان لآخر بأن يركب سيارته أو يبيت في منزله أو يتنزه في حديقته . وسيّان أن يكون المبيح لذلك مالكاً لأعيان هذه الممتلكات أو مالكاً لمنافعها فقط، كأن يكون مستأجراً لها.

وحكم الإباحة في هذا القسم الثاني يتلخص في أن الصورة الأولى منه - وهي ما تعلقت الإباحة فيها بالأعيان ذاتها - يترتب على الإباحة فيها جواز استهلاك تلك الأموال للمباح له، من دون أن يتملكها تملكاً تاماً فيتمكن من التصرف بها على الوجه الذي يريد . فالضيف الذي أباح له صاحب الطعام تناوله لا يملك ذلك الطعام، ومن ثم فلا يحق له أن يتصرف فيه ببيع أو صدقة أو نحو ذلك . وإنما يتصرف فيه بحدود ما أذن له فيه، وهو الأكل . والزوجة التي ينفق عليها زوجها يوماً فيوماً على وجه التمكين والإباحة، إنما تملك استهلاك ما أنفقه عليها على الوجه الذي تم لها الإذن فيه، ولذا فإن هذه النفقة تسقط بفوات مدتها، ولا تصير ديناً في ذمة الزوج لها . إلا إن أعطاها النفقة على وجه التمليك وذلك كأن يفرضها القاضي عليه بعد خصومة بشأنها، فإنها تتملكها بالقبض وتتصرف بها عندئذٍ كما تشاء، ولا تسقط بمضي الزمن . وهذا هو رأي جمهور الفقهاء.

الفرق بين الإباحة والتمليك

لعل الفرق بين الإباحة والتمليك يصبح واضحاً من خلال الأحكام المتنوعة التي تنبثق عن الإباحة.

فالتمليك يسوّغ حق التصرف بالعين وبالمنافع تصرفاً تاماً لا يضيّق منه إلا فقد الأهلية عند المتملك أو نقصانها.

أما الإباحة، فإن كانت من الشارع، وكانت متعلقة بأعيان لا تتم الاستفادة منها إلا باستهلاكها، فهي مصدر من مصادر التمليك ومن ثم تترتب عليها سائر حقوق الملكية وامتيازاتها . وأما إن كانت متعلقة بأعيان تنحصر الاستفادة منها بالاستعمال فقط، كالطرقات والمساجد والمرافق العامة، فإباحتها لا تسوّغ أكثر من استعمالها فيما قد اعدت من أجله.

وأما الإباحة السارية بين الناس، بعضهم مع بعض، فهي لا تفيد إلا الإذن بالانتفاع، في كل ما تعلقت الإباحة بمنفعته لا بعينه . وهي تفيد حق الاستهلاك على ذمة المبيح وضمانه في كل ما تعلقت الإباحة بعينه . فهي على كلا الحالين لا تفيد تمليكاً، ومن ثم فلا يترتب عليها حق التصرفات والامتيازات التي يتمتع بها المالك.

الفرق بين الإباحة والرخصة

يرى الشاطبي وفريق من العلماء أن الرخصة سبب من أسباب الإباحة، ذلك لأن الترخيص من الشارع إباحة طارئة لشيء كان من مقتضى القواعد أن لا يكون مباحاً . أو هي حالة طارئة تمنع الإثم مع بقاء الفعل حراماً، توسعةً وتسهيلاً للناس، كرخصة أكل الميتة للمضطر . أما الإباحة فقد تكون على وجه الرخصة، وقد تكون حكماً ثابتاً من الأصل، كأصل إباحة الطيبات. وعلى هذا فالرخصة أخص من الإباحة، إذ هي نوع منها.

غير أن كثيراً من علماء الأصول يقسمون الرخصة إلى مباحة كعقود السلم والإجارة، ومندوبة كقصر الصلاة للمسافر، وواجبة كأكل المضطر المشرف على الهلاك الميتة . وعلى هذا فبين الرخصة والإباحة عموم وخصوص وجهي.

محمد سعيد رمضان البوطي

الموضوعات ذات الصلة :

التحريم - الشريعة الإسلامية - الكراهة - الندب - الوجوب .

الإبادة الجماعية

يقصد بالإبادة الجماعية génocide قتل عرق بشري، بيد ان هذا التعبير غير دقيق، إذ لا عروق صافية في الأرض. ولم يحدث أن قضي على عرق ما قضاءً تاماً. والأفضل أن يقال: إن الإبادة الجماعية، هي قتل جماعة ما، لها بعض الخصائص المميزة؛ كاللون أو شكل الرأس، أو الانتساب إلى دين ما، أو مذهبٍ معين، أو إلى شعب ما، أو مدينة ما، أو الأخذ بفكرة سياسية ما، أو بإنكار العقيدة السائدة في المجتمع. وهذا النوع من الإبادة قديم قدم التاريخ، ولو اختلفت تقنياته باختلاف تطور المجتمع.

فعلى سبيل المثال قتل تيمورلنك عام ٧٨٩ هـ/١٣٨٧م سبعين ألفاً من سكان أصفهان، وصنع من رؤوسهم أبراجاً. وفي عام ٧٩٥ هـ/ ١٣٩٣م استولى على الرها وتكريت، وأقام في كل منهما هرماً من الرؤوس. وفي عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م استولى على دهلي وقتل ثمانين ألفاً من أهلها. وفي عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م باغت بغداد، وقتل ما بين خمسة وعشرين ألفاً، وأربعين ألفاً من سكانها.

أما في العصور الحديثة، فقد قام نابليون بقتل ما بين ألفين وثلاثة آلاف من أسراه العرب، عندما أخفق أمام الجزار في عكا عام ١٧٩٩م، وقتل الصهاينة السكان العرب في قرى عديدة من فلسطين، من بينها دير ياسين، وقبية، وكفر قاسم. وقتل الفرنسيون آلاف الجزائريين، وقتل الأمريكيون عدداً كبيراً من سكان مدينتي هيروشيما وناغازاكي، بإلقاء قنبلة ذرية على كل منهما في آب ١٩٤٥م (ثمانين ألفاً في الأولى، وأربعين ألفاً في الثانية، عدا من أصيب منهم بالإشعاعات وهم كثر).

ومن الخطأ قصر الإبادة الجماعية على المذابح المنظورة، ذلك أن من المذابح ما هو غير منظور، كملايين الأطفال الآسيويين والإفريقيين الذين يموتون من الجوع، في الحين الذي تستطيع فيه الدول المتقدمة مساعدتهم على البقاء.

التفسير النفسي والاجتماعي للإبادة الجماعية

تقع الإبادة أكثر ما تقع في أثناء الحروب، وفي أغلب الأحيان يكون المسؤولون عنها من كبار القادة العسكريين والسياسيين، فكأن حالة الحرب تقلب سُلم القيم، وتجعل الحرام حلالاً. وهذا أمر يدخل في مفهوم الحرب منذ أقدم العصور.

وقد تقع الإبادة أيضاً في أثناء الأزمات الاقتصادية. ذلك أن هذه الأزمات تورّث عداء الأكثرية الفقيرة للأقلية الغنية، وعندما تكون هذه الأقلية من دين آخر، أو مذهب آخر، أو من شعب آخر، فإن ذلك يُسَهِّل العدوان الذي يؤدي إلى الإبادة الجماعية.

وكثيراً ما تقع الإبادة في أثناء تخبط الدول في أزمات سياسية، خارجية أو داخلية. وعندئذ قد يكون التحريض على العدوان بمنزلة إلهاء للناس عن الضيق الذي يشعرون به، ويلاحظ أن الفرنسيين الذين غُلبوا في الحرب العالمية الثانية، وجدوا متنفساً لهم، في قتل عدد كبير من الجزائريين في قسنطينة، على الرغم من مشاركة الجزائريين للفرنسيين في مختلف المعارك التي خاضتها فرنسة في أثناء الحرب. وكان ماركس قد أشار إلى أن العامل الذي يُذله رب العمل، ينتقم لنفسه، بإذلال امرأته وأولاده.

وتحدث الإبادة الجماعية كذلك عندما يكون الحكم استبدادياً. وإذا كانت فئات من الشعوب قد تعرضت في مراحل التاريخ لإبادات جماعية، فإن ما حدث لها من مذابح قد كان على كل حال، في البلاد ذات الحكم الاستبدادي، أكثر بكثير مما كان في البلاد ذات الحكم الديمقراطي أو القريبة منه.

وبطبيعة الحال، فإن في كل شعب أفكاراً مسبقة خاصة تجاه الشعوب الأخرى، وكذلك تجاه الأقليات العرقية أو الدينية التي تعيش في كنفه. فإذا كانت عواطفه سلبية تجاه بعض هذه الأقليات فإن عدوانه، عندما يوجد ما يدعو إلى العدوان، سيتجه بالضرورة إلى الأقلية المثقلة لديه بكراهيته وبغضائه.

القانون الدولي والإبادة الجماعية

بقي قانون الغاب مسيطراً، منذ وجدت الخليقة، بين شعوب الأرض، وإلى حد أقل بكثير، بين الأفراد المنتسبين إلى شعب واحد. ومع تنامي الأخلاق، وظهور الأديان السماوية، والارتقاء إلى مستويات ثقافية وعقلية أكبر فأكبر، أخذ قانون الغاب ينحسر شيئاً فشيئاً عن العلاقات الإنسانية داخل المجتمع الواحد خاصة، وإلى حد ما، بين المجتمعات، وأصبحت الحروب تخضع، هي أيضاً، لقواعد دولية، تلطف بعض الشيء من مآسيها. ولكن الإبادة الجماعية ظلت عملاً طبيعياً في نظر المتحاربين ومقبولاً أخلاقياً، في أثناء الحرب.

ولم يوضع أي نظام لضبط هذه الإبادة وتحريمها إلا غداة الحرب العالمية الثانية. ففي ٨ آب ١٩٤٥ اتفقت الدول المنتصرة على إنشاء محكمة نورمبرغ لمعاقبة القادة النازيين على جرائم من ثلاثة أنواع: جرائم على السلم، وجرائم الحرب، وجرائم على الإنسانية، كما لو أن تلك الدول ليست مثقلة تاريخياً، بمثل هذه الجرائم.

وبطبيعة الحال، فقد تولى هذه المحكمة قضاة منحازون سلفاً للمنتصرين، وأعدم الكثيرون ممن عدوا مسؤولين عن هذه الجرائم. وظل الهاربون منهم يلاحقون باستمرار، ويحرمون من التمتع بحماية الدول التي يلتجئون إليها، ومن الإفادة من حق التقادم الذي لم تذكره الاتفاقية التي نصت على منع جرائم الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها والتي أقرتها الهيئة العامة للأمم المتحدة في جلستها المنعقدة بتاريخ ٩/١٢/١٩٤٨، والتي أصبحت نافذة بتاريخ ١٢/١/١٩٥١. وقد استنتجت محكمة العدل الدولية، في رأيها الاستشاري المؤرخ في ٢٨ أيار ١٩٥١ حول التحفظات على اتفاقية ١٩٤٨، أن المبادئ التي هي في أساس الاتفاقية ملزمة لجميع الدول.

وفي ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٦٨ تبنت الهيئة العامة للأمم المتحدة اتفاقية «عدم تقادم جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية» التي أصبحت نافذة بتاريخ ١١/ ١١/١٩٧٠ وقد نصت المادة الأولى منها على عدم قابلية «التقادم» في هذه الجرائم. ومن ضمنها الإبادة الجماعية.

وقد طرحت اتفاقية ١٩٤٨ على التصويت في هيئة الأمم المتحدة في ١/١/١٩٧٠ فلم توافق عليها إلا ٧٤ دولة من أصل ١٤٠ دولة وكيان دولي ولم يكن بين الدول الموافقة لا الولايات المتحدة ولا المملكة المتحدة ولا الصين الشعبية على وزنها الكبير في الحياة الدولية.

ويعد إعلان حقوق الإنسان في ١٠/١٢/ ١٩٤٨ دعماً للتشريع المتعلق بالإبادة الجماعية، لكن هذا الإعلان قلما يطبق في غير الأمم المتقدمة التي اتفقت على صياغته.

وهكذا فإنه على الرغم مما بذل من جهود لحمل الأمم المتحدة على قبول الاتفاقية المتعلقة بالإبادة الجماعية، وعلى الرغم من إسقاط حق التقادم عن المتهمين بها، وتجويز تسليمهم

لطالبيهم في المؤسسات القضائية، فإنه لم يوجد حتى االيوم أي تشريع دولي لإقامة محكمة جنائية دولية [ر] لهذه الجريمة، كما لايوجد لها محاكم وطنية، ومازال الاعتراف بحق المخالفة في الرأي، في القضايا السياسية بعيداً عن دول العالم الثالث، وبالتالي فإنه كثيراً ما تقع إبادات جماعية للمعارضين، في هذه الدول، ويظل الخوف من وقوعها قائماً.

حافظ الجمالي

الموضوعات ذات الصلة.

الاتفاقية الدولية - الإجرام الدولي - المحكمة الجنائية الدولية - محكمة نورمبرغ - المنظمات الدولية - المحكمة الجنائية الدولية

■ ابن الأبّار
(٥٩٥-٦٥٨هـ / ١١٩٩-١٢٦٠م)

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القُضاعي ويعرف بابن الأبار، مؤرخ من قبيلة قضاعة التي استوطنت أُنْدة في ضواحي بلنسية.

تلقى العلم في بلنسية على أبي عبد الله ابن نوح، وأبي جعفر الحصّار، وابن واجب، وأبي الحسن بن خيْرة، وأبي سليمان بن حوْط، وغيرهم.. واتصل بأبي الربيع بن سالم أكبر محدّث في عصره، ولزمه قرابة عشرين عاماً، وهو الذي علّم ابن الأبّار صناعة الكتابة وحبب إليه إتمام كتاب الصلة لابن بشكُوال.

جمع ابن الأبّار ثقافة عصره ولمّا يبلغ الثلاثين، واتخذه أمير بلنسية محمد بن أبي حفص كاتباً له، ثم أصبح كاتباً لابنه أبي زيد من بعده، ولما تغلب زيّان بن مردنيش على بلنسية اتخذ ابن الأبّار كاتباً له سنة ٦٢٦هـ، ولمّا حاصر ملك أراغون (دون خايم) مدينة بلنسية في رمضان ٦٣٥هـ/١٢٣٨م استغاث صاحبها زيّان بن مردنيش بسلطان الدولة الحفصية أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصي، وأرسل ابن الأبّار مع وفد حملوا إليه البيعة وطلبوا منه المساعدة، وأنشد ابن الأبّار أمام السلطان الحفصي قصيدته السينية التي مطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله، أندلسا
إنّ السبيل إلى منجاتها درسا

فكان لها أثرها في إرساله الأسطول ليساعد مسلمي بلنسية، ولكنه لم يستطع إنقاذ المدينة المحاصرة التي اضطرت إلى التسليم، وحينئذٍ غادر ابن الأبّار بلنسية مع جميع أفراد أسرته، وتوجه إلى تونس سنة ٦٣٦هـ حيث لقي عند السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى المجد والثروة والنجاح، وأسندت إليه الكتابة في ديوان السلطان وكلّف وضع العلامة السلطانية في أعلى الرسائل والمنشورات الصادرة عن القصر. وما لبث السلطان أن أصغى إلى أقوال الوشاة والحاسدين وطلب من ابن الأبّار أن يقتصر على إنشاء الرسائل وأن يدع مكان العلامة للحطّاط الحديد، ولكن ابن الأبّار لم يطع ما أمر به، فعوتب في ذلك وروجع، وغضب السلطان عليه فصرفه عن العمل، وحاول ابن الأبّار أن يتلافى خطأه فألف كتاب «إعتاب الكتّاب» وأهداه إلى السلطان واتصل بنجله وولي عهده أبي يحيى زكريا الذي تشفع له عند أبيه فرضي السلطان عنه وغفر زلّته، وقد توفي ولي العهد زكريا قبل وفاة أبيه بسنة وصار الأمر بعده إلى أخيه أبي عبد الله محمد الذي لقّب بالمستنصر، فأبعد هذا ابن الأبّار إلى بجاية سنة ٦٥٥هـ، ثم رضي عنه وأعاده إلى خدمته واستمع لنصحه، ولكن ابن الأبّار ما لبث أن أغضب المستنصر وحاشيته بسلوكه، فقد كان يزري به في مجالسه، وعُزيت إليه أبيات في هجائه، فأمر به فقتل، ثم أحرق جثمانه ومصنفاته وأشعاره وإجازاته العلمية في محرقة واحدة.

عرف ابن الأبّار بالطموح والفخر والاعتداد بالنفس والأنفة وسرعة الغضب، وكان حادّ اللسان تصدر عنه الإساءة ولا يشعر بها. وقد لقبه خصومه بالفأر لأسباب مجهولة.

لم يتبق من كتب ابن الأبّار الخمسة والأربعين إلا ستة كتب، تنحصر في ثلاثة فنون: الحديث والأدب والتاريخ، وهي: «التكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال» وهو كتاب في تراجم علماء الأندلس وأعيانها وشعرائها، و«المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي» وفيه ترجمة لطائفة من الأئمة والعلماء الأندلسيين من تلامذة الصدفي ومعاصريه (والصدفي محدّث وفقيه من سرقسطة) و«الحلّة السِّيراء» في تاريخ المغرب وتراجم رجاله، يتحدث فيه عن مشاهير الأعلام في السياسة والحرب من رجال الأندلس وبلاد المغرب من المئة الأولى إلى المئة الرابعة، و«تحفة القادم» وهو في تراجم الشعراء الأندلسيين وقد وصل إلينا مختصر له، و«درر السِّمط في خبر السِّبط» وهو كتاب في أخبار الحسين بن علي، ويدلُ على شدة تعلق ابن الأبّار بآل البيت، و«إعتاب الكتّاب» وفيه يضرب للسلطان الحفصي أبي زكريا الأمثال عن حلم الملوك وعفوهم عن أخطاء كتابهم، وفي الكتاب تراجم مقتضبة لهؤلاء الكتّاب وأخطائهم وعفو رؤسائهم عنهم، وإقالة العثرة هي مدار البحث في تأليف الكتاب الذي ضمّ خمساً وسبعين ترجمة، وللكتاب قيمة أدبية وتاريخية إضافة إلى قيمته الإنسانية التي تحثّ على الصبر والعفو.

نال ابن الأبّار حظه في القديم لدى المؤرخين والعلماء الذين ترجموا له، كالغبريني والمقّري وابن العماد وابن خلدون وغيرهم، كماأنه لقي عناية من المستشرقين والكتّاب فاقت عناية الأقدمين، وقد كشف المحدثون في دراساتهم عن أعمال ابن الأبّار وخصائصه وميزاته.

وله شعر رقيق، يقوم على تزيين الأسلوب والإكثار من المحسنات البديعية.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

أراغون - الحفصيون.

مراجع للاستزادة:

- المقري أبو عبد الله، نفح الطيب (دار صادر، بيروت ١٩٦٨).
- الغبريني أبو العباس، عنوان الدراية (دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٩).
- الزركشي محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس ١٢٨٩ هـ)

■ الإباضية

هي أكثر فرق الشُّراة (الخوارج) اعتدالاً وأقربها إلى السنة وأطولها بقاء، ولا يزال أتباع هذه الفرقة يعيشون إلى يومنا هذا في عُمان وفي جبل نفُوسة وجزيرة جربة بتونس، وفي ورقلة ومزاب من بلاد الجزائر وفي زنجبار.

تنسب هذه الفرقة إلى عبد الله بن إباض التميمي [ر]، وقد نشأت في أعقاب الخلاف الذي نشب بين الخوارج بعد مفارقتهم عبد الله ابن الزُبير. وكان جلّ الخوارج قبل ذلك على مذهب أبي بلال مرداس بن أُدية [ر] الذي عرف بالاعتدال في آرائه، فلّما نحا نافع بن الأزرق نحواً متطرفاً في معتقداته وخالف المبادئ التي نادى بها أبو بلال افترقت كلمتهم وانقسموا إلى فرق متعددة منها: النجدات، والإباضية، والصُّفْرية، والبيهسية، والأزارقة.

وقد ظهر من الإباضية علماء بارزون كان لهم يد في بلورة مذهبهم ومنهم جابر بن زيد الذي صحب ابن عبّاس وكان من علماء البصرة المشهورين، وقد قال فيه الشمّاخي مؤرخ الإباضية: «إنه أصل المذهب وأُسُّه الذي قامت عليه آطامُه»، ونفاه الحجّاج من البصرة في من نفاهم من الإباضية.

وقد خالف عبد الله بن إباض الأزارقة في عدم تكفيره القعَد من الخوارج وإنكاره الاستعراض (قتل من يعرض لهم) وفي أمور أخرى، في حين جنح الأزارقة إلى الخروج وقاتلوا الزبيريين ثم الأمويين حتى أبيدوا جميعاً عام ٧٧ هـ.

بقي عبد الله مع جماعته في البصرة، واعتاض عن الخروج والثورة التنظيم السري لأتباعه، فجعل القيادة بين الجماعة من الشيوخ يدعوهم الشمّاخي «جماعة المسلمين». وعُدّ عبد الله بن إباض وفق ما يرد في المصادر الإباضية إمام أهل التحقيق وإمام المسلمين أو إمام القوم، لكن حالة الكتمان التي عاشها الإباضيون في البصرة بعد سنة ٦٥هـ تجعل الباحث يستبعد وجود إمامة بالمعنى السياسي للكلمة، ولعل من أهداف عبد الله بن إباض، عندما اتخذ القعود مبدأً، محاولة الوصول إلى تفاهم مع الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦هـ/ ٦٨٥-٧٠٥م) ويحتفظ كتاب سير الشيوخ الإباضيين برسالتين موجهتين من عبد الله بن إباض إلى عبد الملك بن مروان. إحداهما رد على رسالة جاءَته من الخليفة ضمَّنه نصحاً للخليفة، ودحضاً للمزاعم المعادية للخوارج الإباضية.

وحينما توفي عبد الله بن إباض، تابع خليفته جابر بن زيد الأزدي العماني سياسته تجاه الأمويين، ونظراً لصلة جابر الوثيقة بعبد الله بن عباس ونقله الحديث عنه فقد كان موضع إكبار المسلمين وإجلالهم كما كان من بين تلامذة جابر بن زيد عدد من المحدثين السنة، ويعده ياقوت الحموي أحد أئمة السنة، وقد ناظر جابر الخوارج المتطرفين وأعطى المذهب الإباضي سماته الواضحة النهائية، ولذلك تعده المصادر الإباضية عمدة المذهب.

نجح جابر بن زيد في السنوات الأولى من إمامته في أن يقيم صلات طيبة مع والي العراق، الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٥-٩٥هـ/ ٦٩٥-٧١٤م) وحدث ذلك كما يبدو في الوقت الذي كان فيه الحجاج يحارب الأزارقة والصُّفْريَّة، فلما عزل الحجاجُ يزيد بن المهلب عن خراسان سنة ٨٦ هـ وسجنه، ساءت علاقات الإباضيين بالحجاج، لسببين فقد كان المهالبة على صلات جيدة مع الإباضيين حتى إن جملةً من نساء الأسرة المهلبية أصبحن خارجيات، منهن عاتكة أخت يزيد بن المهلب التي كانت من أشد الناس حماسة للإباضية، أما السبب الثاني فهو ازدياد تطرف إباضية البصرة لسيطرة العناصر التي تؤمن بالخروج وترفض أن تكون من القَعَد، وكان على رأسهم بسطام بن عمر بن المُسيَّب الضَبّي المعروف بَمصْقَلة، وكان صُفْريّاً من أتباع شبيب ثم اعتنق مذهب الإباضية، ويبدو أن المتعصبين من الإباضية، اشتركوا في ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث (٨١-٨٣هـ/ ٧٠١-٧٠٣م) فقد كان في جيش ابن الأشعث فرقة يتزعمها بسطام بن مَصْقَلة بن هبيرة الشيباني الذي قتل في المعركة، وكان من نتيجة ذلك أن قلب لهم الحجاج ظهر المجن، فأضحوا بين منفيّ إلى عُمان ومسجون في العراق، وكان بين الذين سجنوا أحد أشهر تلامذة جابر، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي أطلق سراحه يزيد بن المهلب عندما أصبح والياً على العراق في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ).

قُدِّر لأبي عبيدة أن يشهد تقارباً وثيقاً مع الأمويين ثم انفصالاً عنهم، ففي أول الأمر سعى المهالبة إلى التقريب بين الطرفين، وزاد التقارب في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) الذي استقبل سفارة من إمامهم، إلا أن الوضع انقلب إثر وفاة عمر بن عبد العزيز وتولي يزيد ابن عبد الملك الذي كان عدواً للمهالبة حماة الإباضية. ولا شك في أنه حدث في هذه المدة، تغير في موقف الإباضيين الذين أصبحوا راغبين في الخروج والتخلي عن القعود، مما اضطر أبا عبيدة إلى تغيير موقفه خشية حدوث انشقاق في صفوف إباضية البصرة ولكنه نهج نهجاً يختلف عن نهج زعماء الخوارج السابقين، فقد قرر البقاء في البصرة والاستفادة من جماعته الكثيرة العدد والوفيرة الغنى لتمويل دعوة سرية للإباضية تنتشر في العالم الإسلامي كله وتنظم الأتباع، وتقوم بثورات لتنشئ إمامة إباضية على أنقاض الخلافة الأموية، وأنشأ أبو عبيدة للوصول إلى هذا الهدف إدارة مركزية للإشراف على الدعوة وحركتها، تقلَّد فيها كل ما له علاقة بالمذهب والدعوة إليه، وتقلَّد حاجب الطائي وهو شيخ إباضي آخر، شؤون الحرب والمال المجموع في بيت مال خاص، كانت وارداته كبيرة، على ما يبدو، إذ يذكر الشمّاخي أن تاجراً واحداً تبرع بمبلغ عشرة آلاف درهم، وأسس أبو عبيدة في البصرة مركزاً للتعليم، كان يفد إليه الطلاب من كل أنحاء البلاد الإسلامية، فإذا ما تفقهوا في مذهبهم وتم تدريبهم على الدعوة عمد إلى إرسال كل مجموعة إلى بلد، وكان يطلق عليهم «حملة العلم» أو «نقلة العلم». وفي كل مجموعة إمام وقاض، وعليها أن تقوم بنشر المذهب، فإذا ما كسبوا عدداً كافياً من الأتباع أمكنهم الظهور. وقد أرسل أبو عبيدة حملة العلم هؤلاء إلى المغرب واليمن وحضرموت وعُمان.

وعلى الرغم من هذا التوسع الإباضي، بقي إباضية البصرة يعيشون حالة ستر وكتمان حتى بعد وصول العباسيين إلى الحكم وتغلغلهم فيهم وضمّهم عمةَ المهدي وزوجها إلى صفوفهم وعطف المنصور عليهم، وبدأ الضعف يدب في مركز الحركة الإباضية في البصرة خاصة إثر وفاة أبي عبيدة وحاجب الطائي في خلافة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٥م) وهجرة الربيع ابن حبيب الزعيم الروحي لإباضية البصرة مع عدد من الشيوخ الآخرين إلى عُمان بعد وفاة أبي عبيدة وإثر حركة النكّار وانشقاقهم عن الدولة الرستمية.

الإباضية في الجزيرة العربية

حضرموت واليمن: إن أُصول الإباضية في

حضرموت واليمن غامضة ويمكن أن تقرن بنشاط زعيمها عبد الله بن إباض الذي توفي وفقا لرواية ابن حوقل في المُذَيْخرة جنوب غربي اليمن.

بلغت الحركة الإباضية أوجها في نهاية الخلافة الأموية حينما حدثت ثورة إباضية تزعمها قاضي حضرموت عبد الله بن يحيى الكندي المعروف بطالب الحق الذي كان على اتفاق مع أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة. وقد بدأت الثورة في نهاية سنة ١٢٧هـ أو أوائل سنة ١٢٨ هـ. وأرسل أبو عبيدة مجموعة من كبار الإباضيين في البصرة لمساعدته في تنظيم إمامة إباضية حضرموت، كان من بينهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي، وبلج بن عُقبة الأزدي، وعند وصولهم إلى حضرموت انتخبوا عبد الله ابن يحيى إماماً، فظهرت هناك أول إمامة إباضية واستولى الثائرون على عاصمة حضرموت ثم على صنعاء عاصمة اليمن، ثم أرسل عبد الله ابن يحيى أبا حمزة المختار مع ما يقرب من ألف مقاتل إلى الحجاز فاستولى على مكة والمدينة. وبعد استيلاء الإباضيين على الحجاز أصبحوا مصدر تهديد للخلافة الأموية في الشام، لذلك أرسل الخليفة مروان بن محمد (١٢٧-١٣٢هـ/ ٧٤٤-٧٥٠م) جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل بقيادة عبد الملك بن عطية السعدي الذي استرد مكة والمدينة وقُتل أبو حمزة في موقعة قديد (قرب مكة)، كما قتل فيما بعد عبد الله بن يحيى طالب الحق في المعركة التي جرت بالقرب من جُرَش والتي انتهت بهزيمة كاملة للإباضيين.

وبعد موت طالب الحق انتقلت الإمامة إلى عبد الله بن سعيد الحضرمي، وكانت دُوان عاصمة لهم وفق رواية الهمداني، وكانت إمامة الإباضيين لا تزال قائمة في القرن الخامس الهجري، وآخر ذكر للإباضيين في حضرموت في النصف الثاني من القرن الخامس.

أما الإباضيون في اليمن فلا نكاد نسمع عنهم شيئاً إثر هزيمة طالب الحق ومقتله، ولكن الإدريسي يشير إلى وجود جماعات إباضية في مناطق مختلفة من اليمن في القرن السادس، ويبدو أن سكان مهْرة كانوا يعتنقون المذهب الإباضي ويدفعون العشر لإمام عُمان في بدايات القرن الثالث الهجري.

عُمان: من المناطق التي نشط فيها الخوارج الإباضية، منطقة عُمان التي كانت في الأصل تحت سيطرة النجدات أصحاب نجدة بن عامر منذ ٧٣هـ. ولكن المذهب الإباضي لم يلبث أن انتشر فيها واعتنق خوارج عُمان مبادئ الإباضية في نهاية القرن الأول، بفضل جهود جابر بن زيد وغيره من فقهاء البصرة الإباضيين الذين نفاهم الحجاج بن يوسف الثقفي، كما كان لحَملة العلم الذين أرسلهم أبو عبيدة أكبر الأثر في نشر مبادئ الإباضية هناك، وكان من نتيجة انتشار هذا المذهب أن اندلعت ثورة إباضية في عُمان (١٣٢هـ/ ٧٥٠م) كان على رأسها الجُلُندَى بن مسعود، ولكن الجُلُنْدَى لم يلبث أن قتل في المعارك التي دارت رحاها بين القائد العباسي خازم بن خزيمة والإباضيين، فضعف أمرهم إثر الهزيمة ولكنهم عادوا للظهور ثانية في النصف الثاني من القرن الثاني نتيجة لإرسال فئة جديدة من حملة العلم، وكان مركز هذا النشاط الجديد مدينة نزوة، حيث أعلنت الإمامة وانتخب محمد بن عفان إماماً وهو المعروف باسم محمد بن عبد الله بن عفان أو محمد بن أبي عفان، وأصله من قبيلة الأزد من بني محمد.

استمرت هذه الإمامة الإباضية في عُمان حتى القرن الرابع الهجري. وعندما ارتبط الجزء الأكبر من ساحل إفريقية الشرقي بعُمان، انتشرت الإباضية انتشاراً كبيراً في شرقي إفريقية، ويعيش معظم الإباضية في شرقي إفريقية في الوقت الحاضر في زنجبار.

الإباضية في المغرب

أول من نشر المذهب الإباضي في المغرب، سلامة بن سعيد (أو سلامة بن سعد) الذي ظهر في القيروان في بدايات القرن الثاني للهجرة مع الداعية عكرمة مولى ابن عباس، ويبدو أن دعوته لاقت نجاحاً كبيراً، لأننا نجد في طرابلس بعد عشرين سنة من ظهوره، فئة كبيرة من الإباضية يتزعمها عبد الله بن مسعود التجيبي الذي استمد قوته من قبيلة هوارة القاطنة في طرابلس والمنطقة الواقعة إلى الشرق منها، ثم انضوت تحت لواء الدعوة قبيلة زناتة القاطنة غربي طرابلس، وقبيلة نَفُوسة التي كانت تقطن الجبل الذي يحمل اسمها، وفي ١٣٢هـ استولى إسماعيل بن زياد النفوسي، إمام الدفاع، على قابس، ولكنه قتل بعد مدة وجيزة بالقرب من قابس في أثناء مواجهته عبد الرحمن بن حبيب والي القيروان.

ضعفت الدولة الإباضية في طرابلس بعد مقتل إسماعيل بن زياد ولكن المذهب بقي منتشراً، وتكون منهم جماعة من «نَقَلة العلم» ذهبت إلى البصرة وحملته، ومن بينهم عاصم السدراتي الذي يعد من قادة الإباضيين في المغرب، وإسماعيل بن دَرّار الغدامسي، وأبو الخطاب عبد العلاء بن السمح المعافري، وعبد الرحمن بن رستم.

وقد تلقى هؤلاء تعليماتهم من أبي عبيدة لتنظيم إمامة في طرابلس يكون فيها أبو الخطاب إماماً في المستقبل، واجتمع مجمع منهم على مقربة من طرابلس عام ١٤٠هـ ونادوا بأبي الخطاب إماماً وسيطرت إمامتهم على كل ليبية الحالية، ثم احتلوا القيروان (١٤١هـ/ ٧٥٨م). وقد انهارت هذه الإمامة الإباضية الثانية بعد أربع سنوات من قيامها على يد حاكم مصر العباسي محمد بن الأشعث الذي اشتبك في معركة مع أبي الخطاب شرقي طرابلس. وقُتل أبو الخطاب وآلاف من أتباعه، وتراجع الإباضيون إثر هذه الهزيمة إلى المناطق الداخلية من طرابلس أو المغرب الأوسط، واستطاع إثر ذلك عبد الرحمن بن رستم، حاكم القيروان الإباضي السابق، وأحد حملة العلم أن يلجأ إلى بلاد الجريد ومنها إلى تاهرت حيث أسس سنة ١٦٠ هـ الدولة الرستمية[ر].

وبعد قضاء الفاطميين على الدولة الرستمية عام ٢٩٦هـ ظهرت في أنحاء متعددة من المغرب تنظيمات سياسية إباضية مستقلة أو تكاد عن الفاطميين وعن الأسرالسنية في بلاد المغرب. وبدأ تراجع الإباضية من القرن الرابع الهجري وزاد في تراجعها دخول عرب بني هلال المغرب. وقد ظهر هذا التراجع بوضوح في القرن السادس الهجري إذ انحصر وجودهم في مناطق معينة لا تزال مراكز لهم حتى اليوم كمنطقة مزاب (الجزائر)، وجزيرة جربة (تونس)، وجبل نفوسة (ليبية). ولايزال الإباضيون في هذه المناطق منقسمين إلى فئتين هما الوهبيون والنُكّار، ذلك أنه عندما تولى عبد الوهاب الحكم بعد وفاة أبيه عبد الرحمن بن رستم (١٦٨هـ/ ٧٨٤م) اتجهت الدولة الرستمية نحو الحكم الوراثي على الرغم من بقاء الصفة الانتخابية شكلاً ممثلة بمجلس شورى من سبعة أعضاء، وأدى ذلك إلى انفصال جماعة رفضت بيعة الإمام الجديد، فدعوا بالنُكّار، ولم يقتصر

الأمر على انشقاق مذهبي فحسب، بل تعداه إلى صدام عسكري، فقد خرج النكار من تاهرت إلى الجبال المجاورة. وحاولوا اغتيال الإمام عبد الوهاب فقاتلهم وقتل زعيمهم.

مبادئ الإباضية

يتفق الإباضيون مع غيرهم من الخوارج في تصورهم الخلافة والإيمان، فهم يرون أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حرٍ من المسلمين، وإذا تم اختيار الخليفة، فلا يصح أن يتخلى أو يُحكَّم، وعليه أن يخضع خضوعاً تاماً لما أمر الله وإلا وجب عزله. أما ما يتصل بالإيمان، فهم يرون أن العمل بأوامر الدين من صلاة وصوم وصدق وعدل جزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد وحده. وإذا كان جمهور الإباضية يقول: إن تأدية جميع ما فرض الله سبحانه على خلقه إيمان، فإنهم يرون أن كل كبيرة كفر نعمة لا كفر شرك.

ويرون أن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين، حلال مناكحتهم وموارثتهم، وحلال غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب، حرام ما وراء ذلك، وحرام قتلهم وسبيهم في السر إلا من دعا إلى الشرك في دار التقية ودان به ورأوا أن الدار، أي دار مخالفيهم، دار توحيد إلا عسكر السلطان فإنه دار كفر عندهم، وحرّموا الاستعراض إذا خرجوا، كما حرّموا دماء مخالفيهم حتى يدعوهم إلى دينهم، ولهم فقه يقوم على الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس. وهم يحتجون بخبر الآحاد وبالحديث المرسل.

وقد نبغ من الإباضيين فقهاء ومتكلمون نشطوا للدفاع عن عقيدتهم، وبسط مذاهبهم، والردّ على خصومهم. وقد ذكر ابن النديم صاحب الفهرست طائفة من أكابر مؤلفيهم، وسرد جملة من كتبهم ومصنفاتهم.

ومن أشهر مؤلفات المتأخرين في الفقه الإباضي كتاب «النيل وشفاء العليل».

نجدة خماش

الموضوعات ذات الصلة:

الأزارقة - الرستميون - الشراة (الخوارج) - الصفرية - عبد الله بن إباض - نافع بن الأزرق - النجدية

مراجع للاستزادة:

- الباروني أبو الربيع سليمان بن الشيخ عبد الله النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية.
- الفرد بل، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ترجمة عبد الرحمن بدوي.

■ أباظة (عزيز -)
(١٣١٦ - ١٣٩٣هـ/١٨٩٨ - ١٩٧٣م)

عزيز بن محمد بن عثمان أباظة، شاعر وأديب، من أسرة مصرية وجيهة أخرجت عدداً من رجال السياسة والقلم في تاريخ مصر الحديث.

ولد في منطقة الشرقية، ودرس القانون وتخرج في كلية الحقوق بالقاهرة سنة ١٩٢٣ وعمل في المحاماة ثم التحق بالحكومة وشغل عدة مناصب فيها، فعمل مدّعياً عاماً فقاضياً ثم أصبح واحداً من أعضاء مجلس النواب عام ١٩٢٩. وعاد بعد ذلك ليتولى مناصب إدارية فكان في سنة ١٩٤١ حاكماً عسكرياً لمنطقة القناة وفي سنة ١٩٤٧ مديراً لأسيوط، ثم عينَ عضواً بمجلس الشيوخ.

اختير عضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٥٩ ثم بالمجمع العلمي العراقي.

أثّر فيه موت زوجه وهي في ريّق صباها، فكان إذا أبهظه الألم رثاها بقصائد شعرية، يبثّ فيها حزنه وألمه، وكان شعره ينطق بوفائه لزوجه ويصوّر عمق إحساسه بفقدها ويتم أولادهما بعدها.. وقد جمع قصائده في ديوانه «أنّات حائرة» الذي قدّم له طه حسين.

غير أن عزيز أباظة ما لبث أن اتجه إلى المسرح الشعري مترسّماً خطا شوقي في المسرحية الشعرية، وقد استمد مثله معظم مسرحياته من التاريخ العربي الإسلامي. ويبدو تأثره بشوقي خاصة، في مسرحية «قيس ولبنى» فهي تشبه «مجنون ليلى» فكرة وموضوعاً، ومع أنه حاول أن يجعلها قريبة من واقع الحياة ويرضي في ختامها عواطف الجماهير فيرجع لبنى إلى حبيبها قيس، فإنه ابتعد عن روح البيئة التي جرت فيها حوادث المسرحيّة.

وقد اتكأ على الأسطورة أحياناً أكثر من اتكائه على التاريخ كما فعل في مسرحية «العباسة أخت الرشيد». وتدور أحداث مسرحية «قافلة النور» حول انتشار الدعوة الإسلامية بين أهل الحيرة. أما زمانها فهو السنة السابقة للهجرة. والمسرحية الوحيدة التي استمدها من غير التاريخ العربي الإسلامي هي مسرحية «قيصر» التي سبق أن استمد أكثر من شاعر غربي مسرحية من موضوعها.

وقد قام عزيز أباظة بتجربة شعرية في ميدان المسرحية، وذلك بإنشاء مسرحية اجتماعية شعراً في «أوراق الخريف».

حاول عزيز أباظة أن يتجنب ما وقع فيه شوقي من صعوبات في مسرحياته فاحتك برجال المسرح، وعرف أصول المسرح وقواعده. ومع ذلك بقي، كمعظم الأدباء العرب الذين أسهموا في كتابة المسرحية الشعرية، يتبع في



كتابته اللغة الأدبية الغنائية التي استمدها من ذاكرته الواعية للتراث العربي القديم مما بعد به عن روح العصر، وأبعد لغته عن طبيعة الحوار المسرحي وما يقتضي النص من تطور الشخصيات والحبكة المسرحية.

ترك عزيز أباظة آثاراً أدبية شعرية، منها: «ديوان» و«أنّات حائرة» ومسرحيات هي «قيس ولبنى» و«العباسة» و«غروب الأندلس» و«عبد الرحمن الناصر» و«شجرة الدرّ» و«أوراق الخريف» و«قافلة النور» و«قيصر»، أما آخر كتبه فكان «من إشراقات السيرة النبوية». وقد رأى محمد مندور في ديوان «أنات حائرة» حدثاً فريداً في تاريخ الشعر العربي، لأن الشعر العربي لم يألف الحديث عن الزوجة.

اتسم أسلوبه بالجزالة والقوة والفخامة، سواء في ديوانيه الشعريين أم في مسرحياته.

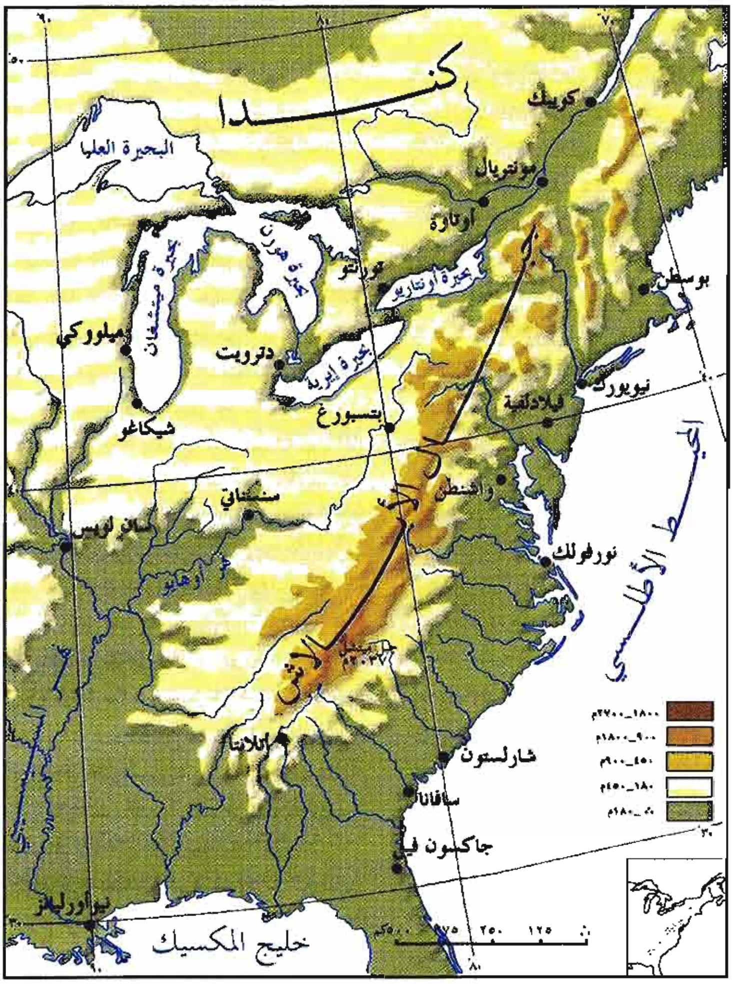
ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

شوقي (أحمد -) - المسرحية الشعرية

مراجع للاستزادة:

- محمد مندور، محاضرات في الشعر المصري بعد شوقي (القاهرة ١٩٥٨)



■ الأبالاش (جبال -)

الأبالاش Appalachian Mountians سلسلة جبال في شرقي أمريكة الشمالية تمتد على موازاة شواطئ المحيط الأطلسي وتؤلف حاجزاً طبيعياً بين الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية والسهول الواسعة في داخلها. طولها نحو ١٩٠٠كم من شبه جزيرة غاسبه Gaspé في مقاطعة كيبك الكندية ممتدة شرقي الولايات المتحدة نحو الجنوب الغربي حتى وسط ألابامة وتتصل من جهة الشرق بمنطقة البيد مونت الحضيضية.

وعلى الرغم من تعقيد جيولوجية السلسلة فإنها تؤلف وحدة ظاهرة بانتمائها إلى حركة التوائية قديمة تعود صخورها إلى ما قبل الكمبري، وتحتوي على صخور بلورية وترسبات تعود إلى الحقب الأول.

وتقسم السلسلة إلى قسمين:

- **الأبالاش الشمالية**: تبدأ من شرقي وادي كُنِّكتكت Connecticut والجبال البيض من نيوهامشير، وتخضع في مَسَاشوستس وكنكتكت للحت النهري والجليدي، فتبدو نجداً مرتفعاً، وتعد نيوهامشير مركز السلسلة في هذا القسم، وأعلى قممها جبل واشنطن الذي يصل ارتفاعه إلى ١٩٢٠م وثمة جبال أخرى تصل قممها إلى ارتفاع ١٥٢٠م مثل: جبال آدمز وجيفرسون ومادسون ومونرو. وتعرف السلسلة في هذا القسم باسم فيرمونت Vermont (الجبال الخضراء) ويراوح ارتفاعها العام بين ١٠٧٠ و١١٦٠م وهي مناظرة لسلسلة الجبال الزرقاء في الجنوب.

- **الأبالاش الجنوبية**: ويضم هذا القسم سلسلة الجبال الزرقاء التي تبدأ من ساحل المحيط الأطلسي وتمتد باتجاه الجنوب الغربي للولايات المتحدة الأمريكية من جنوب بنسلفانية إلى شمال جيورجية ويدخل معظمها في الجزء الغربي من نورث كارولينة، تتصف بحوافها المرتفعة التي تفصل الأودية ولا سيما في الجزء الجنوبي منها وقد أثرت عوامل الحت والتعرية في مرتفعاتها تأثيراً واضحاً وأعلى قممها جبل متشل Mitchell Mount الذي يصل ارتفاعه إلى ٢٠٣٨م وهي أعلى قمة في شرقي الولايات المتحدة الأمريكية.

يختلف مناخ القسم الشمالي من السلسلة عن قسمها الجنوبي للامتداد الكبير على خطوط العرض الذي يبلغ عشر درجات وكذلك تباين الارتفاعات. ويتصف القسم الشمالي بالمناخ القاري الرطب علماً أن ارتفاع هذا القسم الممتد من ماريلاند إلى بنسلفانية ووسط ولاية نيويورك لا يعطيها صفة المناخ الجبلي بل يميزها من السهول الساحلية، ويقدر متوسط الأمطار السنوي بـ ١٠٠٠ - ١٢٥٠ مم ومتوسط تساقط الثلوج ١٣٥٠ مم. أما القسم الجنوبي فشتاؤه بارد وصيفه دافئ، وتسقط الثلوج والأمطار في الجزء الغربي منه وتحيط به شبكة مائية من الينابيع والأنهار والشلالات، وهذا ما ساعد في نمو أشجار الصنوبر والشربين وأنواع شجرية أخرى ذات أخشاب صلبة تؤلف المادة الخام لصناعة الورق والأثاث وركائز السكك الحديدية. وفي هذه الجبال مناجم غنية بالفحم الحجري (الانتراسيت) الذي ينقل إلى أسواق الساحل الشرقي بين بوسطن وواشنطن.

وفي إقليم الأبالاش صناعات منوعة أهمها صناعة البلاستيك والمنسوجات في فرجينية وصناعة الحديد والصلب في ألابامة وصناعة الزجاج المنتشرة في معظم الإقليم بالإضافة إلى صناعات محلية كثيرة.

ويعد إقليم الأبالاش فقيراً من الناحية الزراعية لأن سطحه مضرس، تسود فيه المراعي وزراعة الأشجار والمحصولات السنوية، وتلائم المناخ والتربة نمو المراعي ولا سيما في القسم الشمالي، وتزرع بعض الخضر والذرة في الأجزاء الشرقية منها.

وللأبالاش إرث من الجمال الطبيعي، وثقافة إقليمية متميزة لكنها لم تسلم من مشكلات النمو الحضاري المعاصر والتلوث وتخريب البيئة.

ج.ت

■ الإبالة والمبيلات

الإبالة أو إدرار البول diuresis هي طرح الكلية البول أو هي حجم البول الذي يطرحه الإنسان في ٢٤ ساعة، ويراوح هذا الحجم بين ١٠٠٠و١٥٠٠ مللتر. كذلك يستعمل هذا المصطلح أحياناً للدلالة على طرح البول لمواد معينة كالإبالة الصودية مثلاً.

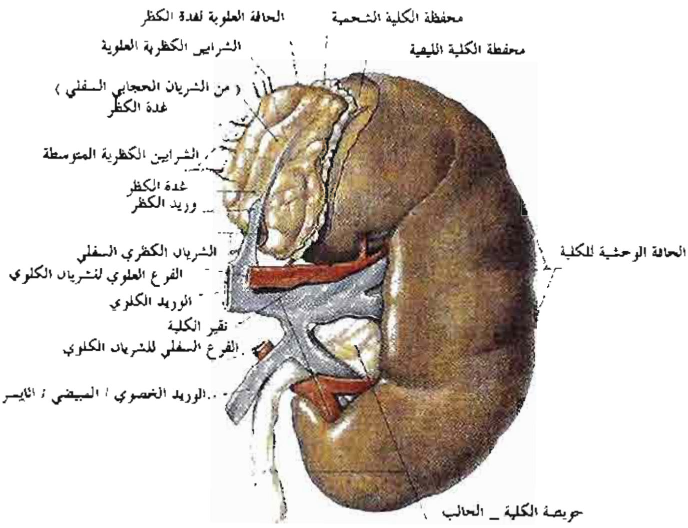
أما المبيلات أو مدرات البول diuretics فهي المواد الدوائية التي تزيد من إفراز الكليتين للماء والشوارد ولا سيما شاردة الصوديوم.

ولمعرفة آلية الإبالة وفعل المبيلات لابد بادئ بدء من إلقاء نظرة تشريحية وفيزيولوجية تتصل بالكليتين اللتين يتكون فيهما البول وتؤثر فيهما المبيلات.

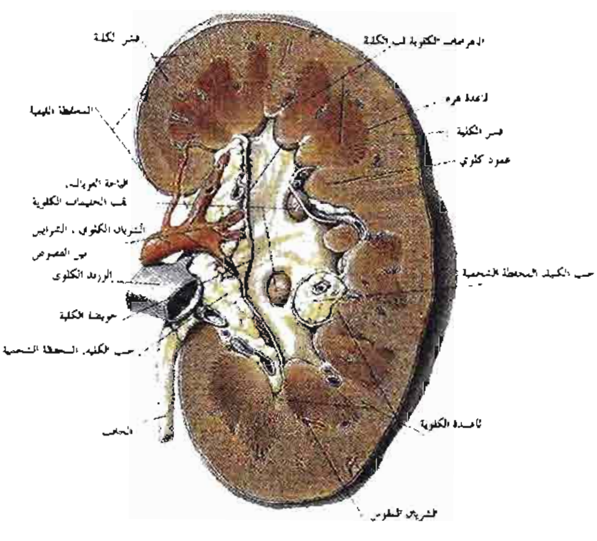
الإبالة

وزن الكلية في الإنسان ١٥٠غ، وطولها ١٢ إلى ١٤ سم، وعرضها ٧سم، أما سماكة قشرتها فسنتمتر واحد فقط.

تتألف الكلية من ٨ إلى ١٠ أهرامات، وتتركب من مليون إلى مليون ومئتي ألف نفرون، والنفرون هو وحدة التصفية الأساسية.



(الشكل ـ ١) منظر أمامي للكلية اليسرى عند بالغ. فتحت الحويضة الكلوية جزئياً



(الشكل ـ٢) مقطع جبهي ناصف للكلية اليسرى عند بالغ. فتحت الحويضة الكلوية جزئياً

يبلغ وزن الكليتين معاً ٣٠٠غ وهو يشكل نحو ٠,٥٪ من وزن الجسم، وتتلقيان ٢٠٪ من الصبيب الدموي القلبي، الأمر الذي يوضح لنا عظم الدوران الكلوي (الشكلان ١، ٢).

يتألف النفرون من قسمين أساسين هما:

الكبة الكلوية: وتتألف من فروع الشريان الوارد الذي يأتي للكبة بالدم، ويتفرع داخل الكبة إلى عدد من الفروع التي تبلغ ١٠ إلى ١٢ فرعاً، وتنتهي جميعها بالشريان الصادر.

الأنبوب الكلوي: يتألف من الأنبوب الداني، فعروة هنلة Henle's loop بفرعيها الهابط والصاعد، فالأنبوب القاصي، وأخيراً الأنبوب الجامع. ولكل جزء من الأنبوب الكلوي صفاته ووظائفه الخاصة (الشكل٣).

تُعد الكلية الجهاز الاساسي المنظم للماء والشوارد في داخل الجسم، كما تقوم بطرح نواتج الاستقلاب العام. ومن وظائفها المهمة كذلك إفراز العديد من الهرمونات المسؤولة عن وظائف عديدة في الجسم، كما أن الكليــة نفسها هدف لعمل العديد من الهرمونات الخارجية.

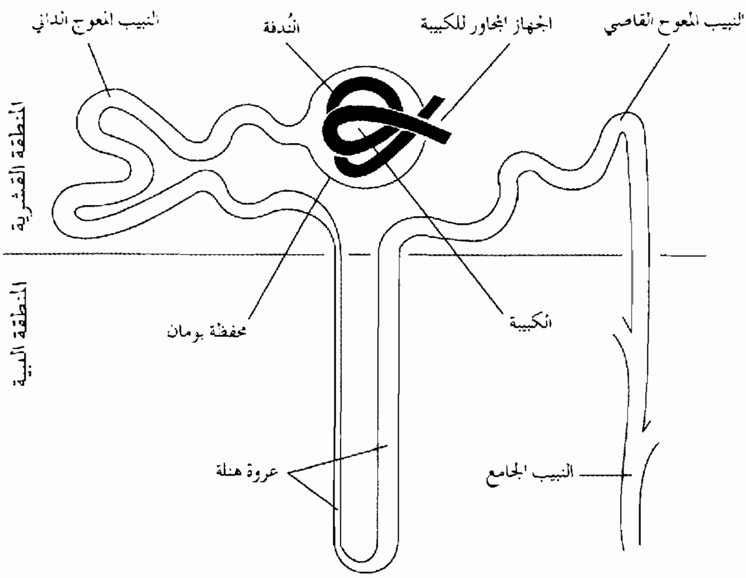
تكون البول الأولي والنهائي:

ـ **الرشح الكُبِّي**: يتكون البول الاولي من الرشح الكبي، داخل فروع الشريان الوارد. ولكي ترشح مادة ما من الاوعية الكبية، يجب أن تجتاز ثلاثة حواجز هي: الهيولى (السيتوبلازم) الخيطية للخلايا البطانية (الاندوتليالية) التي تبطن فرع الشريان الوارد، والغشاء القاعدي الذي يحيط بهذه الفروع بوجه متماسك، وأخيراً الغشاء الذي يصل بين الاستطالات القدمية للخلايا البشروية، تلك الخلايا التي ترتكز خارج الأوعية الشعرية الكبية، وترسل استطالات قدمية الشكل ترتكز على الغشاء القاعدي (الشكل ٤).

يمتلك الغشاءان الأخيران شحنة كهربائية سلبية تمنع نفوذ البروتينات ذات الشحنة الكهربائية السلبية، كما تحول دون رشحها. وللوزن الجزيئي للمواد الراشحة شأن كبير في قابلية نفوذها. يعَدُّ الضغط الشرياني الناتج عن عمل القلب القوة الدافعة لرشح المواد داخل الغشاء القاعدي، ويعاكسه في ذلك ضغط البروتينات الغرواني colloidal، والضغط ضمن محفظة بومان التي تحيط بالكبة الكلوية بكاملها، وذلك وفق القاعدة التالية:

قوة الرشح الكبي = الضغط الشرياني - (ضغط البروتينات السلبي + الضغط ضمن محفظة بومان).

وقد قدرت قوة الرشح الكبي عند الإنسان بنحو ١٠ إلى ١٥ ملم زئبق. يرشح يومياً عبر الكبب الكلوية ١٨٠ لتراً أي ما يعادل ١٢٠ مل في الدقيقة الواحدة، وهي تمثل البول الأولي، الذي يشبه تركيبه تركيب المصورة (البلازما) ولكنه لا يحوي مواد بروتينية ذات وزن جزيئي مرتفع. يعاد امتصاص معظم البول الأولي الراشح بفضل عمل الأنابيب الكلوية أما كمية البول النهائية التي تطرح فعلاً فلا تجاوز اللتر أو اللتر والنصف يومياً.



(الشكل ـ٣) الأنبوب الكلوي

عودة الامتصاص والإفراز في الأنابيب الكلوية : يعود القسم الأكبر من البول الأولي الراشح فيُمتص من الأنبوب الداني، الذي لخلاياه حافة فرجونية الشكل تزيد من سطوح التماس. ويكون الامتصاص فاعلاً أو منفعلاً.

يتطلب الامتصاص الفاعل طاقةً واستهلاك الأكسجين، أما الامتصاص المنفعل فلا يحتاج إلى ذلك عادة. وعلى سبيل المثال يكون امتصاص الصوديوم فاعلاً بمحاذاة الأنبوب الداني في حين يكون امتصاص الكلور والماء منفعلاً، الأمر الذي يحافظ على السكونية الكهربائية والضغط الحلولي معاً. وبالمقابل فإن امتصاص الكلور في عروة هنلة الصاعدة فاعل في حين يكون امتصاص الصوديوم منفعلاً.

تقوم الأنابيب الكلوية أيضاً بإفراز مواد عديدة، وما البول النهائي إلا حصيلة ما تم امتصاصه وإفرازه من المواد والذوائب. ولابد من القول: إن هناك توازناً بين الكبب الكلوية والأنابيب الدانية، يطلق عليه التوازن الكبي الأنبوبي، مهمته المحافظة على الوسط الداخلي بدقة. فإذا زاد الراشح من الصوديوم، بسبب زيادة الوارد منه عن طريق الفم مثلاً، قلّل الأنبوب الداني من عودة امتصاص هذه المادة، والعكس صحيح أيضاً.

تشرف على هذا التوازن عدة هرمونات داخل الكلية، لا يزال بعضها مجهولاً. ومن المواد المهمة التي يعاد امتصاصها في العضوية مايلي:

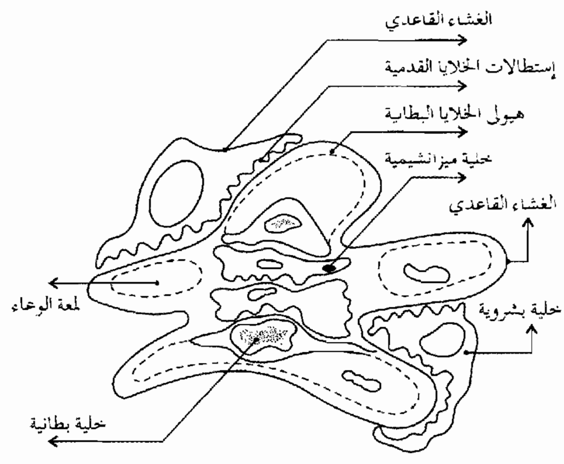
ـ **عودة امتصاص الماء**: إن كمية الماء الراشح في مدة ٢٤ ساعة ١٨٠ لتراً. ويعاد امتصاص ٧٠ إلى ٨٠٪ منها بمحاذاة الأنبوب الداني، وامتصاص الباقي بمحاذاة الشعبة النازلة لعروة هنلة والأنبوب القاصي والقسم الأول من الأنبوب الجامع، ويكون الامتصاص هنا تحت سيطرة الهرمون المضاد للإدرار المفرز من النخامى pituitary.

ـ **عودة امتصاص الصوديوم**: يمتص ٧٠٪ من الصوديوم الراشح من الكبب بمحاذاة الأنبوب القاصي على نحو فاعل ويمتص ٢٠٪ منه في الجزء الصاعد لعروة هنلة على نحو منفعل، كما يمتص ٩,٥٪ بمحاذاة الأنبوب القاصي على نحو فاعل، تحت تأثير هرمون الألدوسترون، ولا يطرح عملياً إلا ٠,٥٪ من الصوديوم الراشح.

ـ **عودة امتصاص البوتاسيوم**: يعاد امتصاص ٩٨٪ من البوتاسيوم الراشح من الكبب عبر الأنابيب، وينتج البوتاسيوم المطروح في البول من الإفراز الأنبوبي لهذه الشاردة ولا سيما الأنبوب القاصي بتأثير الألدوسترون الذي يعيد امتصاص الصوديوم ويفرز بدلاً عنه البوتاسيوم وشاردة الهدروجين.

المبيلات

الصفات الدوائية للمبيلات: أطلق اسم المبيلات أو المدرات على هذه المجموعة من الأدوية خطأً، وكان من المفضل علمياً أن تسمى طارحات الملح أو الصوديوم، لأنها حين تطرح الصوديوم يتبعه الماء محافظاً بذلك على الحلولية



الشكل(٤) الرشح الكبي

المصورية (البلازمية) والبولية ضمن الأرقام السوية .

لجميع المبيلات قدرة على منع امتصاص الصوديوم في أجزاء مختلفة من الأنبوب الكلوي، الذي يعد مسؤولاً عن عودة امتصاص ٩٩,٥٪ من كمية الصوديوم الراشحة والآتية من الكبب .

تقسم المبيلات أنواعاً عديدة، بعضها قل استعماله أو بطل، وبعضها الآخر لايزال يستعمل بكثرة في مجالات عديدة من الطب الباطني، بعد أن أدخلت على تركيبه تعديلات كيمياوية علاجية جعلته ذا قيمة علاجية كبيرة .

وفيما يلي أهم هذه المبيلات :

المدرات الزئبقية : ساد استعمالها مدة طويلة من الزمن، وكانت تستعمل بكثرة في الماضي، ولكن أهمل استعمالها في الوقت الحاضر لسببين : الأول لأنه يجب إعطاؤها زرقاً، مما يزعج المريض الذي يتناول المبيلات يومياً . والثاني لأن لها تأثيراً ساماً في الكليتين .

مثبطات خميرة الانهدراز كاربونيك : تعمل هذه المدرات في مستوى الأنبوب الداني، فتمنع أو تقلل عودة امتصاص الصوديوم وذلك بتثبيطها تكوين جذر البيكربونات داخل الخلية الأنبوبية، وداخل لمعة الأنبوب الكلوي على السواء، مما يعيق عودة امتصاص الصوديوم ونفوذه إلى داخل الخلية الكلوية (الشكل ٥) .

تستعمل هذه المركبات في حالتين أساسيتين : الزَرَق العيني أي ارتفاع التوتر داخل العين والقصور التنفسي مع قلب رئوي، إذ يؤدي إعطاؤها إلى حماض استقلابي ينبه المركز التنفسي الموجود في البصلة السيسائية مما يحسن وظيفة التنفس . وتجدر الإشارة إلى أن استعمال جميع المدرات يسبب درجة من القُلاء الاستقلابي metabolic alkalosis عدا هذه المجموعة من المبيلات، التي تمثلها مركبات الاسيتوزولاميد .

المدرات الحلولية : تستعمل هذه المبيلات في المشافي في حالات سريرية اعتيادية وإسعافية خاصة . وهي تتركب من مواد خاصة ترشح من الكبب الكلوي، ولكن لا يعاد امتصاصها من الأنابيب، ولما كانت لها قدرة حلولية كبيرة، فإنها تحبس معها كمية من الماء الراشح ضمن لمعة الأنابيب،

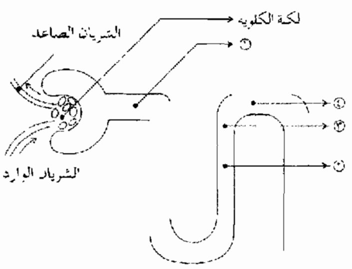
كما أنها تعيق عودة امتصاص الصوديوم بتأثيرها في الممال الحلولي بين لمعة الأنبوب والخلية الأنبوبية . ومن أهم هذه المواد : المانيتول، والسوربيتول، ومركبات البولة .

المحمضات : هي مركبات كلور الأمونيوم، وقد أهمل استعمالها حالياً لأن تأثيرها المدر خفيف، ولأن لها تأثيرات جانبية عديدة سيئة .

المبيلات الكزانتية : وهي تزيد من الصبيب الدموي الكلوي، والرشح الكبي، وبالتالي تزيد من طرح الصوديوم، وقد أهمل استعمالها مبيلات في الوقت الحاضر، وبقي استطبابها الأساسي الآفات التنفسية الحادة والمزمنة، لأن لها تأثيراً منبهاً لمركز التنفس في البصلة السيسائية، كما أن لها تأثيراً منبهاً موسعاً للأوعية والقصبات . ومن أهم مركباتها : الأمينوفللين والايتافللين .

المبيلات التيازيدية : تُعَدُّ هذه المركبات من أهم المبيلات وأكثرها استعمالاً حتى وقتنا الحاضر . وآلية عملها ماتزال غير واضحة تماماً، ولكن من المرجح أنها تمنع عودة امتصاص الصوديوم في الجزء القشري الخاص من الأنبوب الكلوي (الشكل ٦) .

وبذلك فإن المبيلات التيازيدية بمنعها امتصاص الصوديوم في هذا الجزء من الأنبوب تزيد من كمية الماء الحر المطروحة مع البول، وفي الوقت نفسه فإن كمية الصوديوم المطروحة حين



① - الأنبوب الداني : منطقة عمل المدرات الحلولية
② - عروة هنلة الصاعدة : منطقة عمل مدرات العروة
③ - منطقة عمل التيازيدات.
④ - الأنبوب القاصي : منطقة عمل المدرات الحابسة للبوتاسيوم.

الشكل (٦)

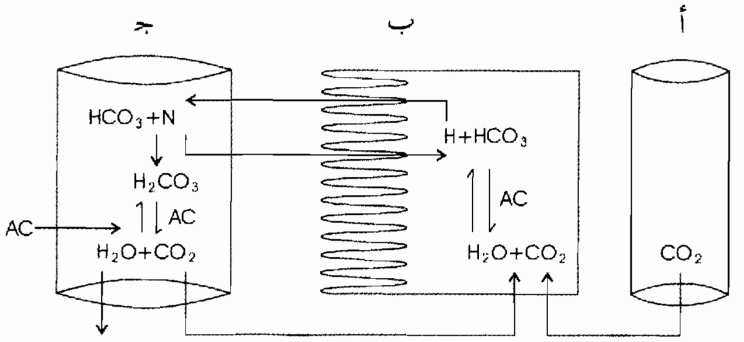
تصل قرب الأنبوب القاصي تسهل طرح الهدروجين والبوتاسيوم وتبادلهما بتأثير هرمون الألدوسترون .

تتمتع المبيلات التيازيدية بتأثير لطيف ومديد قد يستمر ٢٤-٢٨ ساعة .

تفقد المبيلات التيازيدية تأثيرها الدوائي في المصابين بالقصور الكلوي المتقدم . وإن زيادة جرعة هذه المبيلات لا يزيد تأثيرها الدوائي . ومن أهم مركبات هذه المجموعة الكلورتيازيد وهدروكلور تيازيد وبولي تيازيد .

مدرات العروة : أهم أصنافها الفلوريسمايد وحمض الايتاكرينيك . وينحصر مكان عملها على طول الشعبة الصاعدة لعروة هنلة ومن هنا جاء اسمها، فهي تمنع عودة امتصاص الصوديوم في هذا الجزء من الأنبوب، وتزيد بذلك من طرح الصوديوم وبالتالي طرح الماء مع البول، كما أنها تسهل التبادل الشاردي بين الصوديوم من جهة والبوتاسيوم والهدروجين من جهة أخرى .

إذا أعطيت هذه المركبات بجرعات كبيرة



أ) الوعاء الشعري حول الأنبوب
ب) خلية أنبوبية
جـ) لمعة الأنبوب الكلوي

(الشكل - ٥) مخطط عملية التثبيط داخل الأنبوب الكلوي

فبإمكانها إنقاص عودة امتصاص الصوديوم من الأنبوب الداني، مما يؤدي إلى إدرار بولي شديد قد يصل إلى ٥ ـ ١٠ ليترات / ٢٤ ساعة، مع طرح كميات كبيرة من الصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم.

تمتاز هذه المبيلات بسرعة تأثيرها بعكس التيازيدات، إذ يبدأ عملها في مدة ٥ ـ ٢٠ دقيقة وفق طريقة الإعطاء، ولكن هذا التأثير لا يدوم طويلاً، إذ تنطرح بسرعة لذا فإن تأثيرها الدوائي لا يدوم أكثر من ٤ ـ ٦ ساعات. وهي على نقيض المبيلات التيازيدية أيضاً، فإن زيادة الجرعة منها تؤدي إلى زيادة التأثير الدوائي، كما أنها تحتفظ بتأثيرها حتى في حالات القصور الكلوي المزمن المتقدم، ولكن يجب زيادة الجرعة، ولابد من الإشارة إلى أن الجرعات الكبيرة جداً تعرض لإصابة سمعية دهليزية.

المبيلات الحابسة للبوتاسيوم: تعمل هذه المبيلات في مستوى الأنبوب القاصي وتمثلها ثلاثة مركبات مختلفة هي: السبيرونولاكتون الذي يعاكس الألدوسترون، ومركبات الأميلوريد ameloride ، ومركبات التريامترين triamtrene.

ومع أن هذه المركبات الثلاثة لها آليات مختلفة فإنها جميعها تستطيع تثبيط عودة امتصاص الصوديوم من الأنبوب القاصي، كما أنها تمنع التبادل بين الصوديوم من جهة والهدروجين والبوتاسيوم من جهة أخرى، ولذلك فهي قد تعرّض المريض لارتفاع البوتاسيوم وللحماض الاستقلابي إذا أسيء استعمالها. إذا أعطيت مركبات السبيرونولاكتون وريدياً كان تأثيرها سريعاً، أما إذا أعطيت عن طريق الفم فيتطلب بدء التأثير مدة ٢٤ إلى ٤٨ ساعة، وإن فعلها الطارح للملح يبقى مدة ٤٨ ساعة إلى ٧٢ حتى بعد إيقاف تناولها.

لا توصف هذه المركبات وحدها في أغلب الأحيان بل تعطى عادة مع المبيلات التيازيدية أو مبيلات العروة، فالأولى حابسة للبوتاسيوم والهدروجين، والثانية طارحة لهما، وبمشاركتهما يمكن الحصول على تأثير مدر أقوى، والاحتفاظ بسلامة الوسط الداخلي وعدم ظهور اضطراب شاردي كبير في المرض.

الموضوعات ذات الصلة:

الألدوسترون ـ الكلية (أمراض ـ) ـ الكلية (تشريح وفيزيولوجية ـ).

استطبابات المعالجة بالمبيلات: تستعمل المبيلات لمعالجة آفات متنوعة أهمها:

الوذمات وحالات احتباس الصوديوم: وتعد أهم استطباب لاستعمالها. تنتج الوذمات من أسباب متعددة منها:

قصورات القلب: ويفضل فيها الابتعاد عن المبيلات القوية وإعطاء المبيلات التيازيدية اللطيفة، مُشركة مع مركبات السبيرونولاكتون التي تعاكس هرمون الألدوسترون، إذ إن هذا الأخير يفرزه هؤلاء المرضى بكميات كبيرة. كما أن المدرات القوية كمدرات العروة تسبب نقص حجم الدم وتعرض المريض إلى مضاعفات.

وذمة الرئة الحادة أو قصور القلب الحاد: يلجأ هنا إلى المدرات القوية كمبيلات العروة زرقاً في الوريد، لأن تأثيرها يبدأ بسرعة، فتحسن حالة المريض في وقت قصير. تعطى المبيلات هنا مع العلاجات الأخرى.

تشمع الكبد: ولا سيما حين يرافقه حَبَن (احتباس السوائل في البطن ووذمات شديدة ascites) ويرافق التشمع نقص بوتاسيوم الدم وزيادة الألدوسترون الكبيرة التي تعود إلى سببين فرط الإفراز، ونقص التقويض الكبدي. لذا من المفضل هنا استعمال مركبات السبيرونولاكتون التي يمكن إعطاؤها مع مدرات قوية أخرى إذا لزم الأمر.

المتلازمة الكلائية (نفْروز): يرافقها في العادة فرط إفراز الألدوسترون مع نقص في الحلولية المصورية (البلازمية). وأفضل المبيلات استعمالاً هنا هي مركبات الألدوسترون وحدها أو مشركة مع غيرها من المبيلات التيازيدية أو مبيلات العروة.

ارتفاع الضغط الشرياني: يسبب استعمال المبيلات المديد نقصاً طفيفاً ومديداً في حجم الدم، مما يؤدي إلى هبوط الضغط الشرياني، ويفضل عادة معايرة الصوديوم والبوتاسيوم في الدم والبول قبل بدء المعالجة. ففي حالات نقص بوتاسيوم الدم وزيادة الألدوسترون تعطى مركبات السبيرونولاكتون. أما في حالات ارتفاع الضغط الشرياني البدئي أو الأساسي فمن الأصلح الحصول على توازن سلبي بالملح بالاعتماد على المبيلات التيازيدية وحدها أو مشركة مع المبيلات الحابسة للبوتاسيوم.

البيلة التفهة: تستعمل فيها المبيلات التيازيدية مديدة التأثير مشركة مع المبيلات الحابسة للبوتاسيوم. وآلية تأثيرها لا تزال مجهولة، ويعتقد أن هذه المركبات تنقص الحلولية المصورية (البلازمية) فتخفف حسّ العطش، كما أنها تؤدي إلى نقص مديد في حجم الدم، مما يحرض زيادة عودة امتصاص الصوديوم في الأنبوب الداني وآلية التوازن الكبي الأنبوبي.

القصور الكلوي: تبلغ تصفية الكرياتنين عند الرجل الطبيعي ١٠٠ـ١٤٠ مل/د وعند المرأة ٨٥ إلى ١١٥ مل/د، وحين تهبط التصفية إلى ما دون الـ ٣٠ مل/د فإن المبيلات التيازيدية تفقد تأثيرها العلاجي، كما تصبح المبيلات الحابسة للبوتاسيوم مضاد استطباب وتبقى مبيلات العروة محتفظة بتأثيرها الدوائي.

ويجب عدم اللجوء إلى المبيلات في مرضى القصور الكلوي المزمن إلا إذا رافق هذا القصور وذمة رئة أو قصور قلب أو وذمات أو ارتفاع الضغط الشرياني.

استطبابات أخرى: هناك إصابات أخرى تعطى فيها المبيلات في حالات خاصة كالانسمام الحملي الذي تعطى فيه إذا تصاحب مع وذمات شديدة أو ترافق مع ضغط شرياني شديد الارتفاع. ومنها حالات فرط كلس الدم الحاد، والإصابة بالحصيات الكلوية الكلسية الناجمة عن فرط كلس البول من منشأ أنبوبي كلوي، ومنها الانسمام ببعض المواد الدوائية كالديجتال والبربتورات والاسبرين وغيرها ومنها أيضاً الوذمات الدماغية واستسقاءات الدماغ.

التأثيرات الجانبية: تسبب المبيلات أحياناً بعض التأثيرات الجانبية منها: اضطراب الماء والشوارد، كنقص حجم الدم الحاد أو المزمن، ونقص الصوديوم المزمن مع زيادة حجم الدم، والقُلاء الاستقلابي، ونقص بوتاسيوم الدم أو فرطه. ومنها أيضاً ظهور اضطرابات استقلابية تتجلى بنقص تحمل السكر أو بظهور اضطراب في الدسم. كما قد تكون هذه المبيلات سبباً في حدوث التهاب الكلية الخلالي، وزيادة التأثير السمي لبعض الأدوية. كما أن لأنواعٍ منها تأثيرات سمعية وغدية وتحسسية أحياناً.

عدنان صباغ

مراجع للاستزادة:

- BRENNER & RECTOR, The Kidney Sunders (Philadelphia 1986).

■ أبان اللاحِقي
(٠٠٠ - ٢٠٠ هـ/ ٠٠٠ - ٨١٦ م)

أبان بن عبد الحميد بن لاحق مولى بني رقاش، شاعر مكثر نسب إلى جدّه لاحق، انتقل من البصرة إلى بغداد، واتّصل بالبرامكة، فأكثر من مدحهم، وخُصَّ بالفضل بن يحيى.

اتصل عن طريق البرامكة بالرشيد ومدحه، وأشاد بالعباسيين ودافع عن حقهم بالخلافة، وقد رضي الرشيد عن الشاعر، وأجزل له الصلات.

ناط به يحيى البرمكي مهمة تقويم قصائد المديح التي كان الشعراء يتقربون بها إلى البرامكة، ونقدها، وتقدير المكافأة التي يستحقونها. فكان ذلك سبب تواصل الهجاء ما بين اللاحقي وغيره من الشعراء الذين كانوا يتهمونه بالمانوية والزندقة، ووقع أشد الهجاء بينه وبين أبي نواس لأنه لم يعطه ما يرضيه، ولأنه أشار عليه بعدم نظم كتاب كليلة ودمنة شعراً، وكان خالد بن برمك اختاره لنظمه، ثم قام أبان بنظمه.

نقل طائفة من الكتب الفارسية إلى العربية شعراً، إلى جانب كتب ثقافية أخرى، وقدمها إلى البرامكة.

كان اللاحقي من الأوائل الذين خاضوا فن الشعر التعليمي في العصر العباسي وعملوا على إشاعته، حتى يسهل على الدارسين حفظ الكتب، وقد نظم في التاريخ والفقه والقصص. أما في التاريخ فنظم سيرتي أردشير وأنوشروان، وكتاب مَزْدك، وأما في الفقه فنظم في الأحكام المتعلقة ببابي الصوم والزكاة، وأما في القصة فنظم كتاب كليلة ودمنة في أربعة عشر ألف بيت، وأول الكتاب:

هذا كتابُ أدب ومحنة

وهو الذي يُدعى كليلة دمنة

وكتاب السندباد، وله قصيدة في نظام الكون عنوانها «ذات الحُلل».

وقد عُني في شعره التعليمي بالنظم على النمط المزدوج، واصطفى له لغة جزلة متينة أعجبت معاصريه ومن تلاهم، كابن المعتز الذي وصف اللاحقي بأنه شاعر مطبوع على الشعر مقتدر عليه، لم يقدر أحد من الناس أن يعلق عليه بخطأ في نقله، ولا أن يقول: ترك من لفظ الكتاب أو معناه. أمّا في غير ذلك، فقد كان بارعاً في المدح والهجاء، محسناً للرثاء، اتّسمت قصائده بالطول.

ومن المرجح أنه بقي مشغولاً بعد البرامكة بشعره التعليمي فلم يؤثر له شعر في مديح الخلفاء أو القواد أو الوزراء الذين جاؤوا بعدهم. وقد ترك قصيدة مؤثرة في رثاء البرامكة.

تأثر ابنه حمدان بشعر أبيه التعليمي فنظم مزدوجة وصف فيها الحب وأهله وطبيعته وصوره، كذلك اشتهر كثير من أفراد أسرته بقرض الشعر.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الأدب العربي في العصر العباسي - أبو نواس - البرامكة.

مراجع للاستزادة:

- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني ج٢٣: ١٥٥-١٦٧ (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر)
- ابن المعتز، طبقات الشعراء (دار المعارف بمصر ١٩٥٦).
- طه حسين، حديث الأربعاء، ج ٢: ٥٣٣-٥٤٥ (دار الكتاب اللبناني).

■ أبان بن عثمان
(٠٠٠ - ١٠٥ هـ / ٠٠٠ - ٧٢٣م)

أبان ابن الخليفة الراشدي عُثْمان بن عَفّان. أموي قرشي، وأمه أم عَمْرو بنت جُنْدُب بن عمرو الدَّوسيَّة، كان من أبرز فقهاء المدينة المنورة، شهد معركة الجمل مع عائشة سنة ٣٦ هـ/٦٥٦م، وولاه عبد الملك بن مروان المدينة المنورة سنة ٧٥هـ/٦٩٥م بعد أن نقل الحجاج بن يوسف عنها إلى العراق. فظل عليها سبع سنوات ثم عزله سنة ٨٢ هـ، ولم يكن ذا مقدرة إدارية. وفي أثناء ولايته خرج عبد الرحمن بن الأشعث في العراق على عبد الملك، فلم يعين الخليفة أميراً للحج عام ٨٠هـ/ ٧٠٠ م فلما قدم أبان مكة تنازع مع واليها الحارث بن خالد المخزومي على إمارة الحج فمال الناس إلى أبان، فحج بهم.

ولم يكن لأبان خطر سياسي وإنما اشتهر برواية الحديث، وكان من الرواة الثقات، روى عن أبيه وغيره، وهو أول من دوّن ما سمع من أخبار السيرة النبوية والمغازي ودفعها إلى سليمان بن عبد الملك في حجه سنة ٨٢هـ فأتلفها سليمان.

وفي أواخر حياته أصيب بالفالج والصمم، فكان يؤتى به إلى المسجد محمولاً في محفة.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت، دار صادر)
- الذهبي، سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١م).
- الذهبي، العبر في خبر من غبر (الكويت ١٩٦٠).

■ الابتكار

الابتكار innovation في مجال الاقتصاد عملية مبدعة تؤدي إلى إيجاد فكرة جديدة لا مثيل لها ووضعها موضع التطبيق، وعلى هذا فالابتكار يعني استخدام فكرة جديدة أو أسلوب جديد، أو استحداث نظرية أو اختراع أو طريقة جديدة في إنتاج سلعة معينة.

ويحدث الابتكار عندما يحاول الفرد البحث والإجابة عن الكثير من التساؤلات التي تخرج عن المألوف أو التي لم يتم بحثها من قبل، مما ينتج منه نوع من المحاكاة والتفكير متميز عن التفكير والمحاكاة التقليديين.

وتتعدد أوجه الابتكار وتختلف أشكاله وهو يتضمن عادة أحد الأمور التالية:

- ابتكار منتجات أو مواد جديدة وتصريفها في الأسواق بعد أن تتم حمايتها بالعلامات المميزة وبراءات الاختراع أو بمنح الامتيازات. وتظهر هذه الابتكارات نتيجة الاستجابة لتغيرات طبيعة الطلب ونوعيته في الأسواق

وليس لكميته. كما تؤدي المنافسة إلى ابتكار مواد ومنتجات جديدة.

- ابتكار التقنيات التي تساعد على تطوير الأجهزة والآلات والأدوات وما يرافقها من ابتكار في طرائق النقل والتوزيع والتجميع والتصنيع المؤدية إلى زيادة الإنتاجية.

- الابتكار التنظيمي وهو القدرة على إعادة الهياكل التنظيمية والإدارية والإجرائية والعمل بها بحيث تستطيع هذه الهياكل الاستجابة لتغيرات البيئة المحيطة ولاسيما الابتكارات التقنية منها.

- ابتكار في الأداء والسلوك الإداري كما في ابتكار تقنيات إدارية جديدة وطرائق تدريب حديثة، وابتكار الحلول الفريدة لبعض المشكلات الإنسانية والمادية التي تعاني منها المؤسسة وتطبيق هذه الحلول.

المؤسسة والابتكار

يتم في الغالب تنظيم المؤسسة التي تتبنى الابتكار وتدعمه وفق هيكل يساعد على تشجيع الإبداع وتطبيقه، ولا سيما ما يتعلق بالاستجابة لأحوال البيئة وتغيرات السوق ونوع الطلب فيه. كما أن الهيكل التنظيمي لهذه المؤسسة يتجدد ويتعدل باستمرار كلما تطلبت تغيرات البيئة والتقنية الاستجابة لهذه التغيرات والتكيف معها، فيتم إعادة التنظيم والتدريب وإدخال التقنيات الإدارية كلما اقتضى مناخ الابتكار ذلك. وغالباً ماتحدث هذه المؤسسات في بيئتها التنظيمية وحدات خاصة تتولى مهمة البحث والابتكار والتطوير والتطبيق كما هو واضح في الشكل التالي:

ولما كانت المؤسسات هي المسؤولة عن إدارة النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الكثير من دول العالم ومن ضمنها الوطن العربي، فقد تكون هذه المؤسسات إبداعية الأساليب والإجراءات والأنظمة وأنماط السلوك، أو تكون تقليدية الوظائف والبيئة التنظيمية والإدارية والمناهج الفكرية والسلوكية، فتقف أمام جميع محاولات الابتكار والتجديد وتخشى عدم القدرة على التكيف والتلاؤم مع التغير.

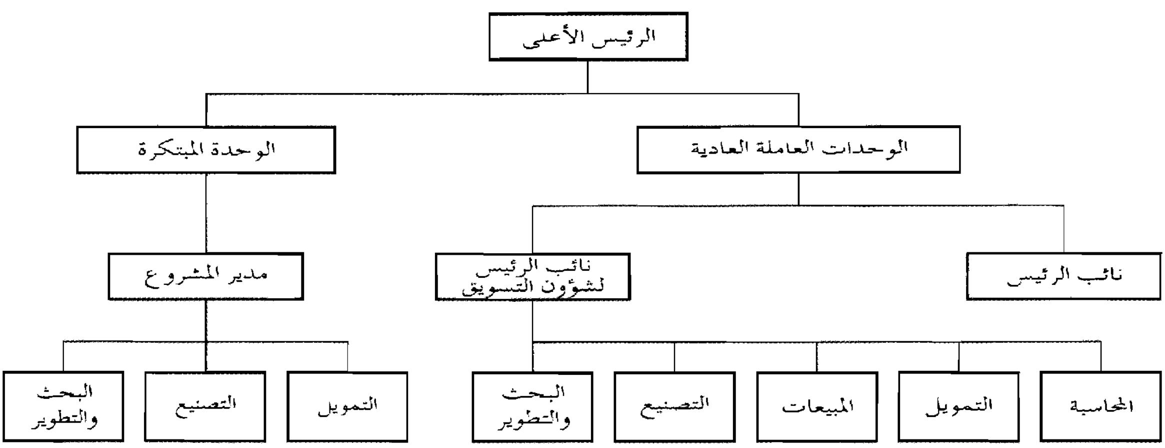
بيئة الابتكار

تشمل بيئة الابتكار البيئة التنظيمية للمؤسسة (البيئة الداخلية) والبيئة الثقافية والبيئة السياسية والبيئة الاجتماعية والاقتصادية.

إن البيئة التنظيمية التي تحتضن الابتكار وتهيئ له الشروط المناسبة تتمتع في الغالب ببعض الخصائص التي تشجع الإبداع وتعززه مثل تبني قيم ومبادئ تنظيمية تنمي السلوك الابتكاري وتغذيه، وتشجع على قبول التغيير بدلاً من مقاومته، وعلى تجريب الأفكار الجديدة وإتاحة الفرصة أمامها، وتبدي الرغبة في توفير إمكانات نجاحها، وتحمل نتائج إخفاقها. وتميل هذه البيئة نحو اللامركزية وتتجنب الأسلوب الفردي في الإدارة فتنمي أسلوب المشاركة في الآراء ومناقشتها، وتضع أهدافاً محددة ومتنوعة وتدعم وسائل تحقيقها باستخدام مهارات في الاتصال ونقل المعلومات، وقنوات اتصال مفتوحة على البيئة الداخلية والخارجية تتلقى عن طريقها ردود الفعل والاقتراحات والأفكار وتقويمها بحسب موضوعيتها (التغذية العكسية). وبالتالي تزيد هذه البيئة ثقة الأفراد بأنفسهم وتنمي عندهم القدرة على التساؤل وتقبل الانتقادات مما يشجع على التخيل والإبداع من أجل العطاء والبناء. إن بيئة كهذه تتميز في الغالب بالتفوق والقدرة على تحدي المشاكل والعقبات وتخفيف درجة حدتها. أما البيئة غير المبتكرة المقاومة للتغيير ولقبول التحديات فهي التي تتبنى قيماً تنظيمية تقتل المناخ الإبداعي وتهدم جميع الآراء والأفكار والاقتراحات وترفض النقد ولا تقبل التغيير واغتنام الفرص للنمو والتطور، وتقبع في بيئات تقليدية تكون فيها الإدارة متسلطة وأدوار الأفراد مرسومة ومحددة مما يؤدي إلى انخفاض الروح المعنوية وانعدام الثقة بالنفس.

أما البيئة الثقافية فيكون لها الأثر الأكبر في حفز الأفراد ودفعهم نحو الابتكار والإبداع سواء عن طريق وسائل التعليم والتربية ومؤسسات البحوث والثقافة والبرامج المدروسة المخصصة للكشف عن المواهب الفردية والجماعية وتعزيزها، أو عن طريق وسائل الإعلام على اختلاف هيئاتها وأجهزتها لدعم التوجيه والتوعية والتأكيد على الحوافز الخلاقة.

وتضمن البيئة السياسية المستقرة والدعم الذي تقدمه لنشاط الابتكار تشجيع هذه الطاقات على مستوى الأفراد والمنظمات وجعله أحد الأهداف المطلوبة في خطط التنمية وذلك بإنشاء مؤسسات البحث والدراسة والتطوير وتزويدها بالاحتياجات المادية والبشرية والحوافز المادية والمعنوية الضرورية وفق الإمكانات المتاحة. كما أن توافر العوامل الموضوعية التي تضمن حرية الكلمة والتعبير تساعد على تفجير الطاقات والمواهب لدى الأفراد. فالقدرة



على الابتكار تخبو في أوضاع تتسم بالتسلط والاستبداد وقهر النفوس.

وكذلك فإن البيئة الاجتماعية والاقتصادية، يجب أن تهيئ الشروط المناسبة لتربية الفرد وتنشئته نشأة واعية وتنمية إمكاناته وقدراته الذاتية وتشجيع المواهب ورعايتها، وتكفل له الدخل الملائم والحياة السهلة التي تخفف من مشاكله وهمومه اليومية والوقت الذي قد يهدره لتوفير متطلبات العيش الضرورية، فالفرد الذي يتحمل المعاناة اليومية ويعيش في أوضاع مادية غير مريحة لا يمكن أن يكون فرداً خلاقاً مبتكراً حتى لو توافرت لديه الموهبة والإمكانات، لأن عدم الراحة النفسية والمادية كفيل بأن يقتل كل رغبة لدى هذا الفرد في الإبداع والعطاء. كذلك فإن المجتمع الذي يحترم العالم والمبدع والمفكر ويقدر جهوده ويكافئه عليها يخطو خطوة إيجابية نحو بناء تقدم البلاد العلمي والحضاري ويمنع هجرة القدرات والكفايات البشرية إلى حيث تجد الاحترام والتقدير.

تمويل الابتكار

تستوجب بيئة الابتكار الإيجابية في أي مؤسسة حكومية كانت أو خاصة إنفاق الأموال الكثيرة في دعم الابتكار وتقديم مستلزماته المادية والبشرية، وذلك بتوفير تكاليف إقامة المنشآت والأجهزة والمعدات ودفع الأجور ونشر نتائج الابتكارات الجديدة وتسويقها على نطاق تجاري.

ويتطلب توفير هذه الأموال إيجاد نوع من الالتزام من جانب الدولة بتبني عملية الابتكار ودعمها وتشجيعها مادياً، لاسيما حين تكون الدولة مسؤولة عن إدارة النشاطات الاقتصادية في المجتمع إضافة إلى التزاماتها الأخرى. وهذه الحقيقة يجب أن يدركها صانعو القرارات في تلك الدول فلا يبخلوا في تخصيص الأموال اللازمة للإنفاق على البحث والابتكار، ولا يستعجلوا نتائجه، ولا يتراجعوا عن دعمه بعد مدة قصيرة من الزمن.

وللمؤسسات الاقتصادية الخاصة في المجتمعات الرأسمالية دور أساسي في دعم البحث والابتكار والتطوير لإدراكها أهميته وحيويته في تلك المجتمعات، حيث تتحكم في آلية العمل بيئة اقتصادية سريعة التغير والتجدد تتعرض للمنافسة والمزاحمة الشديدة والصراع من أجل البقاء، فتشجع نشاط البحث والابتكار وتنفق عليه بسخاء. أما في الدول العربية فإن تمويل البحث والابتكار من جانب المؤسسات الخاصة لا يزال محدوداً وضعيفاً، ويعود هذا لأسباب متعددة قد يمثل أحدها رغبة هذه المؤسسات في تحقيق الكسب السريع في زمن قصير.

ويضمن التعاون العربي تمويل بعض البحوث والابتكارات حول موضوعات تعبر عن هموم مشتركة، وترمي هذه البحوث إلى النهوض بواقع الوطن العربي في المجال الزراعي والصناعي والتجاري وغيرها، ومن مظاهر ذلك إقامة المنظمات العربية للبحوث. ويستعان في بعض الحالات بمصادر التمويل الأجنبي لدعم نشاطات البحوث التي تتصل مضموناً وتطبيقاً باهتمامات مجتمعنا وهمومه ومشاكله.

الجانب الاجتماعي في الابتكار

يجب أن يتمتع الفرد المبتكر أو الجماعة المبتكرة ببعض الخصائص الشخصية كالثقة بالنفس وروح التعاون والفضول والرغبة في البحث والطموح وبُعد النظر والرغبة في التجديد وتحسين الوضع الراهن والحرص على التفوق والقدرة على التحمل والمثابرة، يضاف إلى ذلك التمتع بمستوى عال من الذكاء والمعرفة العلمية في مجال اختصاصه. وقد دلت بعض الدراسات على أن المبتكرين هم على الغالب أشخاص أذكياء لكنهم ليسوا عباقرة بالضرورة، وأنهم أفراد مثقفون لكنهم قد لا يحملون شهادات عالية، يدفعهم في عملهم حماسهم ورغبتهم في العمل ومثابرتهم عليه، والحافز الذاتي إلى تحقيق الأفضل.

وتؤثر البيئة التي ينمو فيها الفرد في صقل تلك الخصائص والمواهب وتوجيهها على نحو إيجابي. وللأسرة دور مهم في تكوين شخصية المبتكر وتطويرها فتغرس فيه الثقة بالنفس والطموح والنزوع إلى الإبداع، وتنمي لديه الموهبة والقدرات الابتكارية وتشجعه على إبداء الرأي بحرية والدفاع عنه.

مشكلات الابتكار في العالم الثالث

إن ما توفره دول العالم الثالث من إمكانات مادية وبشرية لدعم نشاط البحث والابتكار محدود جداً ولا يمكن موازنته بما عليه الحال في الدول المتقدمة، وليس أدل على ذلك من النتائج التي يتم تحقيقها في دول العالم الثالث والتي يتمثل بعضها في قلة براءات الاختراع والامتيازات الممنوحة وفي تخلف طرائق العمل وأساليبه. ولعل من أهم أسباب هذا التقصير افتقار مناهج التعليم وأساليب التربية في دول العالم الثالث إلى القدرة على تنمية روح التنافس بين الأفراد، وتنمية الخبرات والطاقات الإبداعية عندهم، وحضن مواهبهم ورعايتها والحفز على العمل الجماعي. كما أن برامج التدريب التي تتبناها مؤسسات هذه الدول تكاد تكون معدومة أو لا تتناسب مع متطلبات التطور التقني السريع وما يتطلبه هذا التطور من عناصر الابتكار والإبداع، ثم إن حماس المتدربين في هذه البرامج قليل في الأغلب لأنهم لا يلمسون نتائجها المادية والمعنوية في وقت قصير وبالوجه المناسب كالمكافأة والترقي في العمل وغيرهما. كذلك فإن عدم توافر الأموال الكافية للبحوث وندرة الأجهزة والأدوات التقنية والمختبرات والمراجع اللازمة تعوق فرص الابتكار وتحرم الفرد الراغب في البحث في العالم الثالث من الاطلاع على آخر تطورات العلم والتقنية في داخل البلاد وخارجها وإن لهجرة الكفايات البشرية واليد العاملة التقنية أثرها البالغ في حرمان البلاد من خدمات أصحاب تلك الكفايات وابتكاراتهم، ولا سيما أن هذه الكفايات تلقى التشجيع المادي والمعنوي في الخارج، وتتوافر لها فيه البيئة المناسبة لتطوير معارفها وتحقيق طموحاتها العلمية. ويضاف إلى هذه الأسباب جميعاً ظاهرة تكاد تكون عامة في دول العالم الثالث وهي وضع الكفايات في غير محلها واختيار المسؤولين في المؤسسات من غير ذوي الخبرة والاختصاص، اعتماداً على ولائهم وانتمائهم، مما يؤثر في طبيعة العمل الذي يؤدونه، ويحول دون إيجاد البيئة التنظيمية الملائمة للبحث والابتكار، كذلك فإن الصفة الاحتكارية الغالبة على مؤسسات الدولة، وضعف تجاوب هذه المؤسسات مع التغيرات التقنية السريعة التي يشهدها العالم، والبطء في تعديل القوانين والتشريعات المتعلقة بالإنتاج والبحث والتطوير بما يتناسب والتغيرات الحادثة، كل ذلك يؤدي بالمؤسسات الإنتاجية إلى الجمود ويمنعها من مسايرة الركب الحضاري والإفادة من قدرات العاملين فيها على الابتكار.

نادیا أيوب

الموضوعات ذات الصلة:

ـ الإدارة العامة ـ الاقتصاد (علم ـ) ـ التسويق ـ التصنيع ـ المحاسبة.

■ الأبجدية

ربما كانت الأبجدية alphabet أعظم إنجاز حضاري عرفته البشرية في تاريخها القديم على صعيد الكتابة. ويُمثِّل هذا الإنجاز الحلقة الأخيرة لسلسلة من محاولات الكتابة التي بدأت بالتصويرية، أي برسم رموز ماديّة مرئيّة تمثل المسمّيات أو الأحداث والتصوّرات، على ما انتهى إليه الباحثون في آثار بلاد الرافدين ومصر. تلَت ذلك مرحلة الكتابة المقطعية التي تقوم فيها علامات بأعيانها مقام مقاطع، أو تُقْصَر قيَمُها برموزها الصوتية على الحرف الأول acrophony، وكان هذا النظام معقداً غامضاً، بيد أنه كان تمهيداً لنشأة الأبجدية.

ومن الحقائق المتَّفق عليها بين الباحثين من اللغويين أن مهد الأبجدية هو المنطقة السوريّة الفلسطينية التي كانت التوراة تسميّها: أرض كنعان. وقد شاعت تسمية «كنعاني» بين الباحثين مدلولاً على مجمل العناصر اللغوية التي لا تنتمي إلى الآرامية في هذه المنطقة.

وبعض الباحثين المحدثين يَرْتَئي التسمية الفينيقية بديلاً من الكنعانيّة، ذلك أنّ الليديين والإيونيين يزعمون أنّ الحروف فينيقية نسبة إلى مخترعها فوانكس Phoinix ابن أجينور.

وليس عزْوُ اختراع الأبجدّية إلى الكنعانيين أو الفينيقيين موضع إجماع، إذ يرى بعض الباحثين - كشامبليون مثلاً - أن هذه الأبجدية قد اشتُقَّت من الكتابة المصريّة الهيراطيقية، اعتماداً على ما لاحظه من وجود علامات لها قيمة هجائية في الكتابة المصرية عندما عكف على تحليل الرموز الكتابية لحجر رشيد. ويرى بعض الباحثين السريان أنّ أصل هذه الأبجدية من اختراع الآراميين، وهو رأي غير دقيق لأنّ الكنعانيين أقدم وجوداً من الآراميين في هذه المنطقة من الساحل السوري الفلسطيني المسمّاة «فينيقية» أو أرض كنعان، و«أقدم الوثائق الأبجدية التي كُشفت في فينيقية هي وثائق أغاريت المسماريّة الطابع». وثمّة رأي يذهب إلى أنّ الإيجيين في جزيرة كريت هم الذين اخترعوا الأبجدية، ثم أخذها الفينيقيون عنهم، ورأي يعزو نشأتها إلى السبئيين في اليمن. أما الرأي المرجح السائد في أوساط علماء اللغة المحدثين فهو أنّ اختراع الأبجدية إنجاز فينيقي كنعاني تمّ بين القرنين السابع عشر والخامس عشر قبل الميلاد.

وعدد حروف هذه الأبجدّية اثنان وعشرون حرفاً هي: (أُولْف، بتْ، كُومْلْ، دُولْذْ، هيْ، واو، زاي، حيْث، طيْث، يُوْذ، كُوف، لُومْذ، ميم، نون، سمْكَث، عيْ، فيْ، صُودي، قُوف، ريْش، شين، تاو).

ورُكّب من هذه الحروف كلمات استغرقتها كلُّها هي: (أبجد، هوَّز، حطِّي، كَلَمُنْ، سعفص، قرشت). ويختلف مستخدموها من أغاريتيين وآراميين وسُرْيان وعرب وعبريين في نطقها بعض الاختلاف، كما يختلفون في رسم أشكالها، مّما جعل لها خطوطاً أو أقلاماً مختلفة بمرور الزمن، وبتوزّع مستخدميها في الأرض.

وقد أخذ اليونانيّون الأبجدية الكنعانية الفينيقيّة أساساً لحروفهم مع بعض التعديلات التي تتّفق وعاداتهم الصوتية، وعكسوا أسلوب الكتابة لتكون من اليسار إلى اليمين. وثمّة تشابه لا يخفى في صور الحروف بين الأبجديتين اليونانية والفينيقية، وتقارب في النطق الصوتي للحروف، ففي اليونانية: (ألْفا، بيتّا، غاما، ذيلتا، عوضاً من: أُلَفْ، بتْ، كُومَل، دَوُلَذ ...)، وفيها تتوالى حروف (كَلَمُنْ) كما هي في الفينيقية، وما أُطلق عليه «حروف إضافيّة» في اليونانية زيد بعد حرف «التاء» آخر حروف «قرشت». ومن المتّفق عليه أنّ الأبجدية اليونانية قد أصبحت في وقت لاحق أساساً أو مصدراً للكتابة اللاتينية التي اعتمدتها اللغات الأوربية، ولأن الحروف الهجائية لهذه اللغات تبتدئ بحرفين قريبي الشبه في لفظهما بالحرفين (أولف، بت) فقد أسماهما أصحاب هذه اللغات: (ألفابت alphabet)، ومن الأدلة على اقتباس اليونانيين الأبجديّة الفينيقيّة أيضاً اتّخاذهم الحروف الهجائية علامة للأعداد، فالحروف الهجائية للأبجدية الفينيقية يقابلها في حساب الجُمَّل أعداد هي وفق تسلسل الحروف الأبجدية من ١ - ٤٠٠، وعلى النحو التالي:

ا = ١، ب = ٢، ج = ٣، د = ٤، هـ = ٥، و = ٦، ز = ٧، ح = ٨، ط = ٩، ي = ١٠، ك = ٢٠، ل = ٣٠، م = ٤٠، ن = ٥٠، س = ٦٠، ع = ٧٠، ف = ٨٠، ص = ٩٠، ق = ١٠٠، ر = ٢٠٠، ش = ٣٠٠، ت = ٤٠٠، وعلى هذه الصورة ذاتها اقتبسها اليونانيّون واعتمدوها.

وأخذ العبريّون هذه الأبجدية أيضاً فيما بعد، كما أخذها العرب عن الآراميين ومن جاء بعدهم من السُّريان والنَّبط، وزادوا عليها حروف: (الثاء والخاء والذال والضاد والظاء والغين) المعجمات، وسمّوها الروادف. وهكذا أضاف العرب إلى مصطلح الأبجدية الفينيقيّة القديمة كلمتي (ثخذ، ضظغ) اللتين رُكّبتا من الحروف الروادف. وقد اختلف الترتيب الأبجدي للحروف بين المشرق والمغرب عند العرب، فعلى حين كان عند المشارقة كما ذكرنا، كان عند المغاربة بزيادة حروف: (الثاء والخاء والذال والظاء والغين **والضاد**) التي تجمعها كلمتا «ثخذ، ظغض»، ومع الحروف الأبجديّة أخذ العرب ما يقابلها من الأعداد في حساب الجُمَّل بحيث روعي في تسلسل توالي الحروف إضافة مئة زيادة على كل حرف، فكان مقابل الحروف الروادف تباعاً:

ث = ٥٠٠، خ = ٦٠٠، ذ = ٧٠٠، ض = ٨٠٠، ظ = ٩٠٠، غ = ١٠٠٠ ومعظم المصادر العربية تنصّ على أن العرب أخذوا الخط عن أهل الأنبار قائسين هجاء العربية على هجاء السريانية. وأن من صنع ذلك نَفَرٌ من طيّء وهم مرامر بن مرّة، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة (ووردت هذه الأسماء مُصحَّفة برسوم أخرى أحياناً).

وقيل: وضع الخطّ قوم من طَسْم، أو من العرب العاربة وهم: (أبجد، وهوّز، وحطّي، وكلمن، وسَعْفص، وقرشت ..)، ورُسمت هذه الأسماء أحياناً: (أبو جاد - أبجاد، هواز - هاوز، حاطي، كلمون - كلمان، صعفص، صاع فص، قريسات - قرست).

وهذا الخط أو الترتيب لحروف الكتابة هو الذي أُطلق عليه اسم الأبجدية، أما الألفابت، فهي التسمية الأوربيّة الحديثة للأبجدية نسبةً إلى منشئها اليوناني Alpha-Betta. ويطلق بعضهم على الحروف العربية بترتيبها المعروف (ا ب ت ث ج .... إلخ) الحروف الألفبائية وتلك تسمية متأثرة بالمصطلح الأوربي، أما التسمية المشهورة عند العرب فهي حروف الهجاء [ر] والتهجي، أو حروف المعجم.

مسعود بوبو

الموضوعات ذات الصلة:

- حروف الهجاء - الخط.

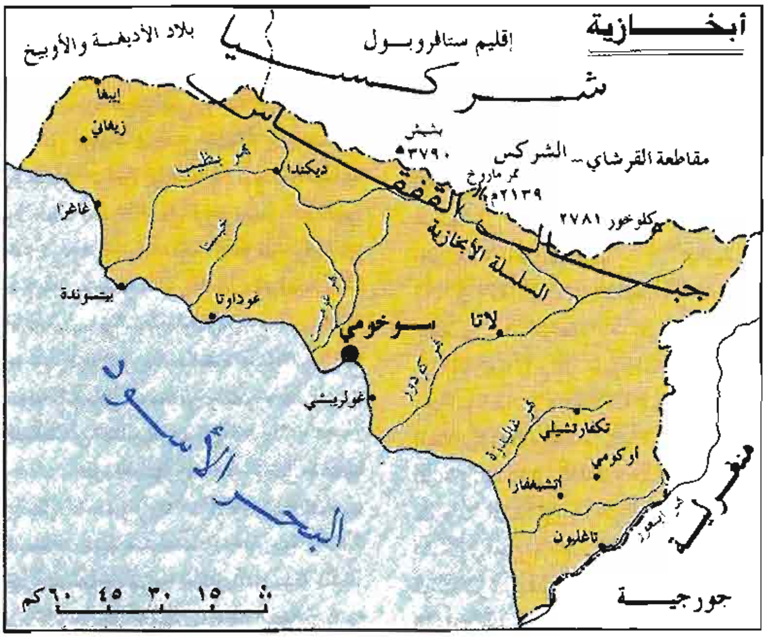
مراجع للاستزادة:

- سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر (دار الرقي، بيروت ١٩٨٦).
- حسن ظاظا، الساميّون ولغاتهم (دار المعارف، مصر ١٩٧١).

■ الأبخاز

الأبخاز Abkhaz قوم من سكان القفقاس الغربي وفرع من المجموعة الشركسية المكونة من الأديغة والأبخاز والأُوبيخ المعدودين من أقدم أقوام القفقاس الأصليين من السلالة الإيبرية - القفقاسية التي تضم الشركس[ر] والكُرْج. ويدعو الأبخاز أنفسهم أَبْسْوَا Aps-waa، وكان المسعودي أول من ميز الأبخاز من غيرهم، كالكرج الذين حكمتهم سلالة أبخازية، على أنهم «أمة تلي بلاد اللان يقال لها الأبخاز منقادة إلى دين النصرانية».

نقع مواطن الأبخاز على الساحل الشرقي الأوسط للبحر الأسود بين نهري بْطَب وإينغور من جهة والبحر وجبال القفقاس[ر] من جهة أخرى. وتحيط بها من الشمال والشمال الشرقي مواطن الأوبيخ والأديغة، ومن الجنوب والشرق مواطن المِنْغرليين والكرج والسْفان. وهي بلاد جبلية - تلّية ترقى قممها إلى أعلى من ٤٠٠٠م (قمة دومباي - اولغن ٤٠٤٦م) مع شريط سهلي ساحلي ضيق متقطع، وتكثر فيها الأنهار وتغطي مرتفعاتها الغابات (٥٠٪) وباقي أرضها البساتين والمزارع. أما مناخها فمعتدل فوق مداري بحري يجعلها من أنشط منتجعات سواحل البحر الأسود وأجملها.



يتميز الأبخاز من فروع الشركس الأخرى بموقعهم الجغرافي المتطرف المجاور للكرج، ويحجبهم عن بقية أقوام الشركس تلك النهاية الشمالية الغربية القائمة لجبال القفقاس، مما أدى إلى اختلاف لغتهم عن الشركسية الأم. مع أن اللغة الأبخازية هي فرع من المجموعة اللغوية المعروفة باللغة الأديغية - الأبخازية، وتشترك فروعها الثلاثة (الأديغية والأبخازية والأوبيخية) بنحو ٢٢٠٠ كلمة أساسية. وفيما عدا ذلك فإن المجتمع الأبخازي لا يختلف عن بقية الشركس فالعادات والتقاليد والفنون والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وغيرها واحدة عند الأبخاز والأديغة والأوبيخ.

ويتفرع الأبخاز إلى أكثر من عشر قبائل تضم نحو خمس وعشرين فرقة أو بطناً، أشهرها قبيلة الأبازة (الأباظة) التي يتكلم أبناؤها لهجة أبخازية إلى جانب اللغة الأديغية التي تبناها الأبازة منذ القرن الخامس عشر عندما اجتازوا جبال القفقاس ليعيشوا مع قبائل الأديغة في الشمال. ويفسر هذا الواقع ترادف تسميتي الأبخاز والأبازة وعدم تمييزهم من الأديغة وبقية الشركس في البلدان العربية والإسلامية التي استوطنوها بعد أن احتلت روسية أراضيهم وهجّرتهم منها. وهناك عدد من المفكرين والفنانين والعسكريين وغيرهم من الأباظة المعروفين في كل من تركية ومصر وسورية.

عاش الأبخاز بلا حدود تفصلهم عن جيرانهم، وتاريخهم هو تاريخ الشركس خاصة وأقوام القفقاس الغربي والشمالي عامة. لكن علاقاتهم مع أقوام ما وراء القفقاس (الجنوبي) كانت أوثق من علاقات الشركس مع تلك الأقوام ومنهم الكرج، وبالتالي تأثر تاريخ الأبخاز بهذا الوضع المتميز.

يرجع استيطان أبخازية إلى العصر الحجري القديم، وإلى عهد حضارة الكوبان (نسبة إلى نهر الكوبان المعروف بنهر بْشيز) البرونزية التي شملت جميع أنحاء القفقاس الغربي والأوسط، وكذلك في زمن حضارة الكولخيد التي عاصرت حضارة الكوبان وقامت جنوبها. ولقد جاء اليونان على ذكرهم في الألف الأول قبل الميلاد ضمن قائمة القبائل الشركسية القديمة وتفرعاتها، حيث أقام اليونان مراكز تجارية لهم على سواحل شركسية و من ضمنها أبخازية وقرب عاصمتها الحالية صوخوم (صوخومي). كذلك وصلها الرومان وكان لهم حصن في موقع بيتْسُونْدَه أحد موانيء أبخازية، أقامت فيه حامية عسكرية سنة ١٦٥ للميلاد، وقد جعلوا من المنطقة منفى للمبعدين. ومع أن الأبخاز كانوا يتبعون مملكة جورجية الغربية (لازيكة) اسمياً، فقد ظلوا مستقلين طوال القرنين الثالث والرابع. وأعقب ذلك احتلال بيزنطة بلادهم عام ٦٢٤م. وكانت النصرانية قد انتشرت بينهم مع وصول المؤثرات البيزنطية في القرنين السادس والسابع. وبعد مدة قصيرة (٧٠٥ - ٧١١م) من النفوذ الفارسي وصل العرب المسلمون إلى ما وراء القفقاس، وامتد تأثيرهم إلى أبخازية منذ ٧٣٧م. لكن حاكمها ليون الثاني حافظ على استقلاله وتمكن من بسط نفوذ الأبخاز على غربي جورجية وجوارها بين عامي ٧٨٦ - ٩٨٥م.

ثم سيطر الجورجيون (الكرج) بعدها على أبخازية إلى أن استقلت عنهم عام ١٢٣٩م، وفي هذه الحقبة أخذ نشاط التجار الجنويين يتسع على سواحل شركسية وأبخازية حتى القرن الخامس عشر حين بدأ وصول التأثير العثماني وانتشار الإسلام بين الأبخاز. وقد بقي نفوذ العثمانيين في بلاد الشركس جلياً حتى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وعندما حاول حاكم أبخازية قلش بك شيرفاشيدزه التخلص من النفوذ العثماني بالاتصال بالروس وطلب مساعدتهم سنة ١٨٠٨م اشترطوا إلحاق بلاده بروسية، لكنه دفع حياته ثمناً لهذا الاتفاق، إذ قتله الأبخاز وأدى ذلك إلى دخول القوات

الروسية أبخازية واحتلالها عام ١٨١٠م وغدت أبخازية جزءاً من أراضي روسية ومستعمراتها، فاضطر نحو ٤٠٪ من الأبخاز إلى مغادرة مواطنهم واللجوء إلى بلدان السلطنة العثمانية ولا سيما بعد أن احتل الروس عموم القفقاس عام ١٨٦٤ . ويقدر عدد الأبخاز الموجودين في تركية اليوم بنحو ٣٧,٠٠٠ نسمة وهناك بضعة آلاف منهم في سورية والأردن .

ومع قيام الثورة البلشفية اتحد الأبخاز مع أقوام القفقاس الشمالي وألفوا «جمهورية القفقاس الشمالي» في ١١ أيار ١٩١٨ . وعاشت هذه الجمهورية حتى قضى عليها الجيش الأحمر (١٩٢١) . ومن ثم أقامت السلطات الشيوعية جمهورية جورجية الاتحادية التي ضمت جمهورية أبخازية المستقلة ذاتياً .

كان للأبخاز جمهورية ذات استقلال ذاتي تتبع جمهورية جورجية الاتحادية في الاتحاد السوفييتي السابق . مساحتها ٨٧٠٠ كم٢، وسكانها من الأبخاز نحو ٩٥,٠٠٠ نسمة أي مايعادل سدس السكان وأغلبهم من الكرج (٢٣٥٠٠٠ نسمة) والروس (٨٥٠٠٠ نسمة) والأرمن (٨٠٠٠٠ نسمة) . كان الأبخاز يؤلفون العنصر الغالب فيها حتى عام ١٩٣١، سنة تحولها إلى جمهورية مستقلة ذاتياً تابعة لجورجية، وهناك نحو ٣٠,٠٠٠ أبخازي (أبازي) يعيشون بين الأديغة في القفقاس الشمالي . وقد أثر هذا الأمر على الوضع الحالي في أبخازية إذ راح الجورجيون المتطرفون إلى إلغاء الحكم الذاتي لأبخازية عام ١٩٩٠، إثر المظاهرات والاصطدامات التي طالب فيها الأبخاز بالاستقلال التام عام ١٩٨٩ وسقط فيها عدد من القتلى والجرحى واستمر الصراع الأبخازي الجورجي حتى تمكن الأبخاز بمساعدة قوات شركسية وروسية غير نظامية من دحر القوات الجورجية وتحرير أبخازية، بعد حرب دامت حتى نهاية شهر أيلول من عام ١٩٩٣ .

يعتمد اقتصاد أبخازية على الزراعة وتربية الحيوانات، وتشتهر بزراعة التبغ والشاي والحمضيات والكرمة وأنواع أخرى من الأشجار المثمرة والخضر والحبوب . وتنشط فيها تربية الحيوانات والدواجن وصيد السمك في البحر الأسود . وترتكز صناعاتها على المواد الأولية الزراعية والثروات المحلية، كصناعة التبغ وتعليب الفواكة والأسماك وتصنيع الشاي والألبان والجلود والأخشاب . وفي أبخازية مكامن للزئبق والبيريت، وتولد من مياه أنهارها الطاقة الكهربائية (المحطة الكهرمائية على نهر غوميست) . وتعد الصناعة السياحية مصدراً مهماً للدخل، كما تسهم المصحات والمنتجعات الجبلية والبحرية في نمو البلاد اقتصادياً ورفد اقتصاد جمهورية جورجية التي كانت تسيطر على معظم المنشآت في أبخازية، وأهمها في مدن صوخوم وغاغرا وغوداوتا وغيرها . ومن مدنها الأخرى مدينة اوتشامتشيرا وتكفارتشيلي .

عادل عبد السلام

الموضوعات ذات الصلة :

أديغي - حورجية .

مراجع للاستزادة :

G. A. DZIDZARIA. Mohajirstvoi Prolemi istorii Abkhazii xix stoletia (Sukhumi, 1975).
بالروسية : هجرة الأبخاز ومشاكلهم التاريخية في القرن التاسع عشر .

AYTEK NAMITOK, Origine des Circassiens; Premiére Partie (Paris, 1939).

■ الإبداع

تذكر في تحديد الإبداع، أو الإبداعية creativity لدى الإنسان تعريفات متعددة في الدراسات النفسية والنقطة المشتركة بين هذه التعريفات الإشارة إلى «خاصة الإبداع» أو «القدرة على الإبداع»، وإلى وجودها لدى الأشخاص المبدعين بوجه خاص . وتكون هذه القدرة من مستويات متعددة، وتبدو في أشكال من السلوك المبدع، وفي مقدمة ما يشمله هذا السلوك : التأليف والتخطيط والاستنباط والاختراع .

فإذا وضع الإبداع موضع التحليل من حيث ما يشمله من نشاط مبدع أمكن القول إنه القدرة على حسن تفهم علاقات قديمة في خبرة الشخص، وتصور أو استنباط علاقات جديدة، والانتهاء من الاختيار والتمييز بين الإمكانات المتعددة إلى حلول مبتكرة وذات معنى لمسألة أو موضوع . ويحتمل في هذا الموضوع أن يكون فكرياً أو أن يكون متصلاً مباشرة بما هو مادي . من هذه الزاوية تبدو هذه القدرة في نوع من الانفكاك في منظومات فكرية سابقة أخذت صيغة معينة والسعي وراء أفكار جديدة تنتهي إلى منظومة جديدة تنطوي على الأصالة وتوصف بالإبداع أو الابتكار .

الاهتمام بالإبداع

إن المبرزين في مختلف ميادين الأعمال كانوا دوماً موضع تقدير الناس واهتمامهم . إلا أن دراسات غولتون Galton في إنكلترة عام ١٨٦٩ كانت في مقدمة ما لفت أنظار العلماء إلى العباقرة والبحث في مكونات عبقريتهم . لم يحاول غولتون جدياً فهم العمليات العقلية الموجودة في إبداع العباقرة لأفكارهم الجديدة، بل اتجه بدراساته نحو محدِّدات الإبداع الوراثية . ولقد اهتم - أكثر ما اهتم - بدراسة الأُسر التي أنتجت العباقرة وبصلات القربى فيها . ثم أصبحت دراساته من «كلاسيكيات» علم الوراثة وإن لم يتوصل إلى تعيين ماهية الإبداع وكيفية توارثه .

على أن دراسات علم النفس للذكاء والمتفوقين فيه [ر . الذكاء وقياسه]، والموهوبين منهم بوجه خاص، واستعمال طرائق علمية مبتكرة في ذلك، مثل التحليل العاملي، هي التي يسّرت لعلماء النفس في النصف الثاني من القرن العشرين فهم الإبداع وتحديد عوامله وروزه والاهتمام بالكشف عنه وتربيته .

ومن الممكن القول إن النصف الأول من القرن العشرين يتصف باهتمام خاص يتجه نحو الذكاء وروزه، وفهم طبيعته، وظهور روائز الذكاء الأولى وتطورها وانتشارها، في حين أن النصف الثاني منه يتصف بالاهتمام المتجه نحو الإبداع وروزه والمبدعين وتربيتهم بغية الوصول إلى مزيد من إنماء إبداعهم والإفادة من مواهبهم .

ويعدّ عام ١٩٥٠ نقطة تحول في دراسة الإبداع وفهمه. والعوامل في ذلك كثيرة بينها آثار الحرب ودراسات الذكاء.

فقد استدعت الحرب العالمية الثانية بذل جهود عظيمة للاختراع والتجديد والابتكار في مختلف ميادين الحياة، ولا سيما ما اتصل منها بأدوات الحرب والقتال. وكان بين ما وقع في ذروة المخترعات القنبلة الذرية وما إليها من أسلحة الدمار الهائلة. وبعد انتهاء الحرب وحلول السلام بدأ عصر الفضاء، وذلك حين أطلق الروس قمرهم الصناعي الأول «سبوتنك»، ثم تصاعد السباق بين الدولتين العظميين، ولحقت بهما دول أخرى، وظهرت الصواريخ وأشكال الحاسوب وتقنياته، وبرز تطور كبير وسريع في كل هذه المجالات. وكان مما لحق بذلك كله ازدياد الطلب على المبدعين والمخترعين والكاشفين، كما ازداد الإلحاح على علماء النفس والتربية للكشف عن المبدعين ومميزاتهم، ودراسة الإبداع وعوامله وتربيته، وتهيئة المبدعين للإفادة منهم في مختلف ميادين العلم والعمل وتقنياته.

ومن جهة أخرى قدمت دراسات تيرمان Terman ومعاونيه عن العلاقة بين الذكاء والإبداع قاعدة غنية للتوسع في الاهتمام بالإبداع والمبدعين. ففي عام ١٩٢٠ بدأ تيرمان ومعاونوه دراسة طويلة الأمد لفريق من الأطفال في كاليفورنية بالولايات المتحدة الأمريكية يقدر عددهم بربع مليون طفل كان بين نتائجها استخراج من يزيد حاصل ذكائهم على ١٤٠، وهو حاصل ذكاء لا يشاهد لدى أكثر من ١٪ تقريباً من الأطفال. وقد كشف هؤلاء الباحثون أن ألفاً وخمسمئة طفل، من أصل ربع مليون طفل، كانوا موضوع الدراسة، بلغ متوسط حاصل ذكائهم مئة وخمسين، وكان بينهم ثمانون بلغ حاصل ذكائهم مئةوسبعين أوأكثر. ولقد تابع الباحثون دراسة هؤلاء الأذكياء مدة تزيد على ربع قرن، وقدمت هذه الدراسات خدمات كبيرة في فهم معنى الإبداع والموهبة والعبقرية والعوامل التي ترتبط بذلك والإنجازات التي تظهر مع الإبداع.

طبيعة الإبداع

يقدّر العلماء أن نسبة المبدعين المرموقين بين الناس، منذ فجر التاريخ، لا تتجاوز اثنين في المليون. وقد تساءل الناس دوماً عن سبب ندرة المبدعين وعن العلاقة بين العبقرية والتربية. ومن هنا كانت المشكلة الحاضرة مع الإبداع مشكلة ذات وجهين، أولهما كشف المقدرات الإبداعية الواعدة عند الأطفال والشباب، وثانيهما كيفية تنمية شخصياتهم المبدعة.

وبدهي أنه لا فائدة من محاولة الإجابة عن هذين السؤالين ما لم تعرف ماهية الإبداع وتُحدّد عوامله وما لم يتم التوصل إلى طرائق للكشف عنه لدى الأحداث والشباب والعمل على تنمية شخصياتهم المبدعة.

إن ثمة قناعة عامة عند علماء النفس المتخصصين بدراسة الإبداع تذهب إلى أن جميع الأفراد يملكون، إلى درجة ما، كل القدرات، ولا يُستثنى من ذلك إلا الحالات المرضية. ولذلك فإننا نستطيع أن نتوقع وجود الأعمال الإبداعية عند جميع الأفراد بقطع النظر عن مقدارها وقوتها وتكرارها. بيد أن العلماء مجمعون على توقع الأعمال المبدعة من الأعظم ذكاء أكثر ممن هم أقل ذكاء. ويستدرك علماء النفس فيقولون: ليس كل متفوق في الذكاء عبقرياً وإن كان العكس صحيحاً. ومعلوم أن روائز الذكاء العادية لا تروز الإبداع بقدر ما تروز وظائف عقلية تتأثر كثيراً بالإنجاز المدرسي والمعلومات.

لقد لجأ غيلفورد Guilford إلى التحليل العاملي لتبيُّن القدرات العقلية، ورسم لذلك مكعباً مشهوراً يعرف باسم «مكعب غيلفورد» أظهر فيه وجود مئة وعشرين قدرة أو عاملاً للنفس البشرية. ووضع عدداً من الفرضيات عن طبيعة التفكير الإبداعي. وكان في ذهنه، حين وضع هذه الفرضيات، نماذج من المبدعين من مثل العالم والفنان والمخترع، وكان يعتقد أن ثمة فروقاً بين أنواع الإبداع وفي ميادينه المختلفة، وذلك مع اعتقاده، بوجود عوامل مشتركة بين المبدعين وأنماط قدراتهم. ويرى غيلفورد أن القدرات الأولية التي يمكن أن تسهم في الجهود الإبداعية لمختلف المبدعين هي من مكونات المحاكمة، ولكنه يخص بالذكر منها الإحساس بالمشكلات والطلاقة والمرونة والتجديد والتوسيع والقدرة التركيبية والقدرة التحليلية وإعادة التنظيم والتقعيد والتقويم. بيد أن تورانس Torrance وكاتينا Khatena وغيلفورد، وهم القادة في روْز قدرات التفكير المبدع، يولون الأهمية لقدراتٍ أربع هي: الطلاقة والمرونة والأصالة والتوسيع أو التفصيل.

الطلاقة Fluency : هي القدرة على إنتاج الكثير من الأفكار فيما يخص مهمة ما. ومعنى هذا أن الشخص القادر على إنتاج عدد كبير من الأفكار في وحدة زمنية معينة فإنه - إذا تساوت الشروط الأخرى - يكون صاحب حظ أكبر في إبداع أفكار ذات معنى. ويوجه غيلفورد ومعاونوه اهتماماً شديداً ودقيقاً للعوامل المكونة للطلاقة. وقد وجدوا أن لها في فئة الاختبارات الذهنية (أو الكلامية) وحدها ثلاثة عوامل مميّزة هي: الطلاقة الفكرية والطلاقة الترابطية والطلاقة التعبيرية.

المرونة Flexibility : هي القدرة على إنتاج الأفكار التي تُظهر تحرّك الإنسان من مستوى تفكير إلى آخر أو تظهر نقلاته التفكيرية في حال مهمة معينة. أما الأفكار التي تكرر الأعمال ذاتها فإنها لا تُظهر مثل هذه النقلات التفكيرية. وعلى هذا فإن مرونة الفرد ذاته أو سهولة تغييره لتهيئه النفسي، عامل مهم من عوامل الإبداع.

والإنسان الذي يقف عند فكرة، أو يتصلب بشأن طريقة من الطرائق، هو أقل قدرة على الإبداع من إنسان مرن التفكير قادر على التغيير حين يكون ذلك لازماً. ويميز غيلفورد بين أنواع المرونة مثل: المرونة العفوية والمرونة التكيفية وسواهما.

التفصيل أو التوسيع Elaboration :

هو القدرة على إضافة التفاصيل إلى فكرة أساسية ثم إنتاجها. وهكذا ففي واحد من الاختبارات يُعطى الممتَحَن مخططاً بسيطاً لموضوع ما ويطالَب بتوسيعه ورسم خطوات تؤدي إلى جعله عملياً، وبطبيعة الحال فإن الدرجة التي يحصل عليها تتناسب مع مقدار التفصيلات التي يعطيها.

الأصالة Originality : هي القدرة على إنتاج أفكار غير عادية ولا يستطيع إنتاجها الكثير من الناس وذلك بوصفها أفكاراً بعيدة عن المألوف وذكية.

ويميز علماء النفس المتخصصون في دراسة الإبداع بين نوعين من التفكير هما التفكير المطابق convergent thinking والتفكير المجانف divergent thinking ويرون أن بعض الناس يتصفون بتفكيرهم المجانف وهم المبدعون حقاً. إنهم لا يقبلون المألوف بل يخرجون عليه طلقين

مرنين متوسعين أصيلين. على أن كل نوع من نوعي التفكير هذين ألزم لبعض الناس من النوع الآخر. وقد أضاف تورانس ومعاونوه فيما بعد قدرات جديدة مثل القدرة على التجديد والقدرة على التحليل والتركيب والقدرة على الإغلاق closure أي القدرة على تأجيل إكمال مهمة ما إلى وقت يسمح بإنتاج الأفكار الأصيلة.

نموّ الإبداع

يرى تورانس أن بعض الأطفال يبدون، منذ الولادة، أكثر إبداعاً من بعضهم الآخر. إنهم يبدون فعّالين نشيطين ويظهرون كأنهم يلاحظون كل شيء ويستجيبون لكل صوت أو رائحة أو صورة. إنهم يتعلمون بسرعة كيف ينقلون حاجاتهم وطلباتهم إلى من حولهم وكيف يفسرون سلوك هؤلاء الذين يحيطون بهم. إنهم يتفحصون كل شيء ويحشرون أنوفهم في كل شيء، وحينئذ يقال عنهم إنهم فضوليّون.

ومن الغريب أن هذه الفروق الفردية في الإبداع التي تبدو ظاهرة منذ الولادة تضعف أو تزول بتأثير الطريقة التي يلجأ إليها الأهل في مواجهتهم لهذه القدرة الإبداعية وهذا الفضول. وبطبيعة الحال فإن الأمر لا يقتصر على الأهل بل يتعداهم إلى كل من يحيط بالطفل وله دور في حياته وخاصة المدرسة. ولما كانت فاعلية الأطفال الصغار أو نشاطهم أمراً يزعج الراشدين ويتعبهم، فإنهم لا يشجعون دائماً مثل هذه الفاعليات أو النشاطات. وليس من المبالغة أن يقال إن الطفل النشيط الطُّلَعَة يعاقب على سلوكه هذا أكثر من الطفل الطيّع.

وثمة أمر آخر اهتم به العلماء المتخصصون بدراسة الإبداع وهو علاقة الإبداع بالعمر، والسؤال عما إذا كانت هناك مرحلة من العمر يكون فيها الطفل المبدع أكثر إبداعاً منه في المراحل الأخرى أم أن الإبداع يتزايد مع التقدم في العمر؟ وهل يتم نمو الطفل الإبداعي في مراحل مختلفة أم هو مستمر ؟!

إن للعالمين غوان Goan وتورانس فكرتين متمايزتين في هذا الصدد. يميل غوان إلى النظر في الإبداع والنمو الإبداعي بوصفهما على صلة بمراحل محددة من عمر الإنسان، أما تورانس فيميل إلى أن النمو الإبداعي عملية مستمرة تتبدى مع التقدم في العمر.

ويرى غوان أنه إذا كان من الممكن النظر إلى النمو الإبداعي على أنه مشابه لأي نمو آخر، أي أنه مستمر وينمو مع نموّ الطفل، فإن هذه النظرة ليست دقيقة ولا صحيحة، وذلك لأن النمو، في رأيه، يحدث على مراحل تشبه المراحل التي قال بها فرويد Freud وإريكسون Erickson وبياجيه Piaget عن النمو العقلي والنفسي عامة.

ويحدد غوان هذه المراحل بما يلي:

- مرحلة الكمون latency period وهي تشمل المراحل (١-٤-٧) وفيها يتعرف الطفل الأشياء من حوله.
- مرحلة الهوّية identity period وهي تشمل المراحل (٢-٥-٨) وفيها يقوم الطفل والحَدَث والراشد بالتساؤل عن هوّيته.
- مرحلة الإبداع creativity period وهي تشمل المراحل (٣-٦-٩). وفي المرحلة (٣) ينمو الإبداع وفي المرحلة (٦) يتزايد إبداع المراهقين.

ويرى غوان أن الحب أساسي للإبداع. فإذا أراد أحد أن يكون مبدعاً فإن عليه أن يُغني حياته بمزيد من الحب.

تلك هي أهم أفكار غوان عن مراحل النمو. أما تورانس فيقول إنه ومعاونيه وجدوا أن عدم الاستمرار هو ما يميز قدرات التفكير الإبداعي. ولقد وجدوا أن ثمة أطواراً واضحة من التدني في قدرات التفكير الإبداعي تحدث عند الأطفال ولا سيما في الأعمار ٣-٩-١٣-١٧ وأن أسوأها يحدث في التاسعة من العمر، ذلك العمر الذي تحدث فيه أسوأ اضطرابات الشخصية ومشكلات السلوك ومصاعب التعلم.

ويوافق كاتينا على ذلك لكونه قد شارك في دراسات تورانس وكان واحداً من معاونيه. وأياً ما كان الأمر، فإن من المهم أن يلاحظ لدى كل من غوان وتورانس أن السّن قبل المدرسية الممتدة من الرابعة إلى السادسة سن إبداعية، وأنه حين يدخل الطفل المدرسة الابتدائية لا يُتاح للإبداع إلا النموّ القليل. لذلك فإن من واجب الأهلين والمتعلمين مساعدة الطفل على أن يكون مبدعاً في المرحلة الثالثة (٤-٦ سنوات) وفي المرحلة الرابعة (٩-١٠ سنوات).

ومن الواجب أن يذكر هنا، أن الانتقال من مرحلة تعليمية إلى مرحلة أخرى، أو من مدرسة إلى أخرى، أمر يسبب حدوث الشدّات والقلق وأن من واجب الأهل والمعلمين أن يساعدوا الطفل على حسن التكيف مع محيطه الجديد مما يتيح له الإبقاء على شعلة إبداعه لاهبةً.

الإبداع والذكاء والموهبة والعبقرية

الذكاء شرط لازم للإبداع ولكنه غير كاف. وقد ثبت للعلماء أن العلاقة بين القدرات الإبداعية الكامنة والإنتاج الإبداعي، من جهة، وحاصل الذكاء، من جهة أخرى، منخفضة القيمة وذلك حين يكون الأمر مختصاً بفئات من الناس يكون حاصل ذكائهم مرتفعاً. أما في النسب المتدنية من حاصل الذكاء فإن ثمة علاقة واضحة بين حاصل الذكاء والقدرات الإبداعية. فإذا أخذت حاصلات الذكاء من أدناها إلى أعلاها، أو قل مثلاً من ٦٥ إلى ١٥٠، فإنه يلاحظ اختلاف وتنوع. ومعنى ذلك أنه حين يكون حاصل الذكاء عالياً فإن القدرات الإبداعية تراوح بين الانخفاض والعلو. وهكذا فإن حاصل الذكاء - فيما يبدو - يضع حداً أعلى للقدرات الإبداعية الكامنة. ومعنى هذا أن في كل مجتمع عدداً كبيراً ممن يملكون قدرات إبداعية، ولكنهم يقصرون عن تحقيقها ووضعها موضع الاستخدام والإفادة، وأن هناك عدداً قليلاً جداً ممن يتجاوزون قدراتهم الإبداعية في إنجازاتهم.

وأياً ما كان الأمر، فإن علماء النفس اليوم يرون أن الإنسان قد يكون موهوباً بأشكال متعددة، كما يرون أن المرتفع الذكاء يمتلك، إلى جانب قدرات التعامل مع المعلومات، قدرة تعاملية أخرى هي المحاكمة التي تقود إلى عدة حلول ممكنة لمشكلة ما: وهي قدرة «التفكير المجانف» التي يمكن القول إنها القدرة على التفكير المبدع.

وهنا يطرح السؤال: هل يكون الشخص ذاته مبدعاً، وبدرجة متساوية في مجالات العلوم والفنون وغيرها؟ ويجيب غيلفورد عن هذا السؤال بقوله: «استناداً إلى نتائجنا التحليلية نستطيع القول إن هذا الأمر ممكن الوقوع ولكننا نادراً ما نتوقع أن يكون الشخص عينه قادراً على الإبداع وبصورة متساوية في العلوم والفنون والرياضيات والإدارة والتأليف الموسيقي. إن الأفراد المبدعين بدرجة عالية في كثير من هذه الميادين المختلفة قد تكون لهم صفات ممتازة مشتركة فيما بينهم، ولكن الدراسات النفسية تدل كذلك على أن بينهم فروقاً واضحة».

وأما ما يتصل بالعباقرة والموهوبين فيمكن

القول إن واحداً من الأخطاء الكبيرة التي وقع فيها بعض علماء النفس في تاريخ رَوْز الذكاء كان إطلاقهم كلمة «عبقري» على الشخص الذي يبدو حاصل ذكائه عالياً جداً (أو فوق ١٤٠) وكان هذا الخطأ سبباً في كثير من الاضطراب، لأنه عنى أن كل فرد عنده مثل حاصل الذكاء المرتفع هذا من الأطفال واليافعين سيصبح عبقرياً. وقد خابت آمال الأهل وآمال العبقري الموعود. ولذلك فإن من الأنسب علمياً أن يُسمى أمثال هؤلاء بالموهوبين، ونسبتهم لا تزيد على ١٪ من مجموع السكان، والاحتفاظ بكلمة عبقري لأولئك الذين يتصفون بالذكاء المبدع من بين هؤلاء الموهوبين. إن صفة الموهوب تعني قدرة عقلية عالية جداً، في حين تعني صفة العبقري إنجازاً إبداعياً وأصيلاً تماماً. ولا يتسع المجال هنا للتحدث عن التكوين النفسي لكل من الموهوب والعبقري مما يستطيع القارئ أن يرجع فيه إلى المراجع المختصة. ولكن يفضل تأكيد خطأ النظرية التي تقرّب بين العبقرية والجنون لأن الغالبية الساحقة من العباقرة أشخاص أسوياء تماماً.

روز الإبداع

صمّم كل من غيلفورد وتورانس اختبارات لروز الإبداع عند الأطفال. لقد وضع غيلفورد اختبارات سمّاها «اختبارات الإبداع عند الأطفال» Creativity Tests for Children عام ١٩٧١، كما وضع تورانس اختبارات سمّاها «التفكير إبداعياً بالكلمات» Thinking Creatively with Words، و«التفكير إبداعياً بالصور» Thinking Creatively with Pictures عام ١٩٧٤، و«التفكير إبداعياً بالأصوات والكلمات» Thinking Creatively with Sounds and Words وذلك بالاشتراك مع كاتينا عام ١٩٧٣.

أما اختبارات غيلفورد التي وضعها بمساعدة بعض العاملين معه. والتي تقوم على أساس من فكرته عن القدرة الإنتاجية المجانفة، فقد وضعت بصورة أساسية لتلامذة الصفوف الرابع والخامس والسادس مع قوله إنها ممكنة الاستعمال في حال الأطفال الأكبر سناً. وحتى حال الراشدين. وعدّد القدرات المجانفة المقيسة وهي عشر من أربع وعشرين. أما في الاختبارات المعدّة للراشدين فإن القياسات تشمل ثماني عشرة من أربع وعشرين قدرة.

وتتألف اختبارات غيلفورد للإبداع من المهام التالية: أسماء الحكايات، وماذا تفعل بها، والمعاني المتشابهة، وكتابة الجمل، وأنواع الناس، وافعل منه شيئاً ما، والجماعات المختلفة، وعمل الأشياء، والحروف المخبوءة، وإضافة التزيينات. والمهام الخمس الأولى ذهنية (أو كلامية)، أما الخمس الأخرى فإجرائية (أو غير كلامية).

أما اختبارات تورانس عن التفكير المبدع فتعمل على قياس القدرات التفكيرية الأربع التي سبق ذكرها وهي: الطلاقة والمرونة والأصالة والتوسيع أو التفصيل. وتتكون الاختبارات من صيغ بديلة من اختبارين سماهما «التفكير إبداعياً بالكلمات» و«التفكير إبداعياً بالصور». وتستعمل من سن ما قبل المدرسة الابتدائية حتى سن الرشد، ويمكن تطبيق الاختبارات بصورة إفرادية أو جماعية.

وتشمل الاختبارات الذهنية (أو الكلامية) الاختبارات التالية: اسأل واحزر، تحسين الإنتاج، الاستعمالات المألوفة، الأسئلة غير العادية، افترض. أما الاختبارات الإجرائية فتشمل الاختبارات: بناء الصور، الوحدة غير الكاملة، الوجوه المكرورة.

والجو الذي تجري فيه الاختبارات يجب أن يشبه جو اللعب والتفكير وحل المشكلات، فلا يشعر الشخص الذي يُختبر بالرهبة بل بالتشجيع على الاستمتاع بالفاعليات التي يقوم بها، ويكون الجو مريحاً ومثيراً في الوقت ذاته.

ولما كانت عملية التحمية warm-up ضرورية من أجل السلوك الإبداعي فإن تصميم كتيب الاختبار وغلافه يجب أن يكون مساعداً على ذلك بما يثيره من فضول الممتحن وخياله. ويرى تورانس أن هذا الأمر مهم وأساسي في عملية الاختبار.

أما مقياس «التفكير إبداعياً بالأصوات والكلمات» ففيه اختباران للأصالة الكلامية هما: الكلمات والصور. وقد وضع تورانس الأول مع كننغتون Cunnington وشاركهما كاتينا في الثاني. وفي حين أن اختبار «الأصوات والصور» يعطي الأصوات، فإن اختبار «الكلمات والصور» يعطي الكلمات البدائية بوصفها مثيرات للشخص الذي يُراز إبداعه. وكل من المقياسين يتطلب الاستدعاء الحر من أجل إعطاء صورة كلامية أصيلة لها علامات عن الأصالة. والمقياسان يتطلبان الخيال المبدع من أجل مجانفة الأمور الواضحة المألوفة والابتعاد عنها وذلك استجابة للأصوات والكلمات البدائية ومن أجل إعطاء صورة كلامية أصيلة.

بعض مشكلات الأطفال الموهوبين

دلت دراسات تيرمان Terman عام ١٩٥٩ ودراسات أودن Oden عام ١٩٦٨ وكوكس Cox عام ١٩٦٩ على أن الأطفال المتفوقين الذين درسوهم كبروا وأصبحوا راشدين متفوقين، وقد حافظوا على قدراتهم العقلية المتفوقة، وكانت نسبة الوفيات المبكرة بينهم أقل منها عند متوسط السكان، كما كانت صحتهم الجسمية والنفسية ممتازة بجودتها. وكانت نسبة الإجرام عندهم في أدنى الحدود كما كانت إنجازاتهم التربوية والمهنية عالية جداً، وكانوا فعالين في خدمة مجتمعهم، كما كانت آراؤهم السياسية والاجتماعية معتدلة، وقد شعر ثلثاهم بأنهم حققوا ما كانوا يصبون إليه. ويشير كوكس إلى أن المتفوقين لا يتصفون في طفولتهم بالذكاء العالي فحسب بل إنهم يتصفون كذلك بالاهتمامات المتعددة والمتحمسة، وبالفعالية وقوة الإرادة، وجودة الطبع، وحسن الأخلاق، مما ينبئ بإنجازات مستقبلية متميزة.

ولكن علماء النفس المشتغلين بالإبداع ينبهون إلى المشكلات التي يعانيها الأطفال الموهوبون في أثناء نموهم وتقدمهم في العمر. إن الطفل حين يواجه المشكلات فإن السبب قد يعود إلى كونه موهوباً. والكثير من المشكلات التي تبدو عند أمثال هؤلاء الأطفال تنجم عن الصراع بينهم وبين من حولهم من أهل ومعلمين وأصحاب نفوذ.

إن الطفل الموهوب كثيراً ما يكون تحت تأثير قواه الداخلية الناجمة عن قدراته الإبداعية التي تدفعه إلى القيام بأعمال يعجز عن التحكم فيها. إنها قد تدفعه إلى أن يكون استقلالياً، متحرراً ومجانفاً للأعراف والتقاليد في علاقاته مع الآخرين الذين يريدون منه أن يقوم بأعماله وفقاً لما تعارفوا عليه. وهذه الحال كثيراً ما تقود إلى صراعات ومجابهات تتطلب من الطفل أن يتكيف تكيفاً جديداً قد يستطيعه وقد يعجز عنه. وهكذا فإما أن يتعلم مواجهة الضغوط المتزايدة، وإما أن يكبت حاجاته الإبداعية. فإذا استطاع معالجة هذه المصاعب ومواجهتها انتهى به الأمر إلى سلوك إبداعي وصحة نفسية طيبة. أما إذا عجز عن ذلك وكبت قدراته الإبداعية

فإنه قد يواجه مشكلات نفسية يحتمل أن تكون خطيرة. وكثيرا ما قيل إن الإنسان المبدع إنسان لا يضايقه التعقيد أو عدم التوازن أو الغموض أوعدم التكامل، وهو يتعامل بـ «اللامعقول» ويعامل ذاته وسواه وفق هذا «اللامعقول»، لأنه يجد فيه ينبوع تفكيره الأصيل المبتكر. ثم إنه يرفض ادعاء المجتمع أن على كل إنسان أن يكيف نفسه وفق معايير معينة محددة لكل زمان ومكان، ويؤكد أن الثورة ورفض الانصياع لقيود المجتمع والإصرار على تحقيق الذات والاستمتاع بالفردية كثيراً ما تكون علامات تدل على طبع صحيح سليم. وهو أخلاقي عادة بالمعنى البسيط للكلمة.

ولعل أكثر مصاعب الطفل الموهوب شيوعاً شعوره بالعزلة عن مجتمعه، والغربة عن أقرانه وأهله ومعلميه، وذلك بسبب من إصراره على المجانفة والتحرر من الاتباع في تفكيره وعمله مما يخلق له ضغوطاً وتوترات بينه وبين الآخرين الذين يريدون إرجاعه إلى صراطهم «المستقيم».

شواهد من مجالات الإبداع

يتصور عامة الناس أن العبقري إنسان مهزوز وأنه مغفل في كل شيء ماعدا اختصاصه الضيق، وأنه يخالف قواعد الذوق العام، وأن من الصعب معايشته. ولكن هذه الصفات - لحسن الحظ - لا تنطبق على الواقع إطلاقاً.

إن العباقرة - سواء أكانوا فنانين أم كتّاباً أم علماء - يصعب فهمهم في كثير من الأحيان، وهذا أمر صحيح. ولكن معايشتهم ليست أصعب من معايشة سواهم من معظم الناس. وليس معنى هذا عدم وجود عباقرة ذوي مشكلات، فبعضهم كذلك. إن فناناً مثل فان غوغ Van Gogh [ر] الهولندي انتهت حياته بالجنون ثم الانتحار، وكذلك فإن الكاتب الأمريكي إدغار آلان بو E.Alan Poe [ر] كان مدمناً الخمر، كما كان الروائي الروسي دوستويفسكي Dostoyevsky [ر] مقامراً مدمناً، وكان إبسن Epsen [ر] كاتب القصة النروجي طاغية في أسرته، كما كان مختالاً فخوراً حتى إنه كان يلصق بقبعته مرآة يستطيع أن ينظر فيها إلى نفسه إذا ما جلس في متنزه. وفي مقابل هؤلاء، فقد كان سلوك عشرات العباقرة من أمثال أرسطو [ر] وكوبرنيك [ر] ودانتي [ر] وابن سينا [ر] طبيعياً سوياً. إن باستور Pasteur [ر] العالم الفرنسي كان يعيش عيشة بسيطة جداً، أما داروين Darwin[ر] فقد وصفه أحد أولاده بأنه بشوش ومحب، وكذلك أينشتاين Einstein[ر] كان لطيفاً وعطوفاً ومحبوباً من كل الناس. لهذا فالقول الصحيح هو أنه ليس من الضروري أبداً أن يكون العبقري مجنوناً أو غريب الطباع أو شاذاً، حتى وإن كان بين العباقرة من دلل سلوكه على قدر ما من الشذوذ.

تربية الإبداع

الحاجة إلى تربية الإبداع: تتعرض التربية الحاضرة إلى كثير من النقد، وتردّ بأشكال من الدفاع. والواقع أن التحدّي الذي تواجهه التربية في أواخر القرن العشرين لا يكفي، في التغلب عليه، النقد والدفاع الشائعان لأن هذا التحدي يتجاوز كل حدود التوقع.

إن هذا العصر لم تعد تناسبه الأفكار القديمة. والحق أنه لا يُعرف إطلاقاً ما سوف يكون عليه الإنسان والعالم بعد نحو خمسين سنة من الزمن. فالتطور سريع جداً، وكبير لدرجة مذهلة، ولذلك كان لابد، لإيجاد المبدعين الذين عليهم أن يضطلعوا بأعباء العالم المقبل، من تغيير جذري للتربية في أهدافها ومناهجها وطرائقها ووسائلها، تغيير يصنع ذوي الفكر الخلاق والعزم والخيال والمثابرة.

إن أول تغيير ينتظر أن يحدث يجب أن يتناول الأهداف التربوية، أو الهدف الأساسي من التربية. إن هدف التربية كان حتى وقت قريب تعلم الحقائق والمعارف التي توصل إليها العلم. والواقع أن هذا الهدف، وما يستتبعه من مناهج وطرائق ووسائل، بات قديماً. إن هدف التربية في عصر الفضاء وعصر الحاسوب يجب أن يكون التفكير، التفكير بكل معانيه: التفكير الناقد، والتفكير البنّاء، والتفكير الحر، والتفكير المنطقي، والتفكير التحليلي، والتفكير التركيبي. وهذا الهدف «التفكيري» يغير المناهج والطرائق والوسائل والبرامج والعلاقات وكل شيء آخر في البيت والمدرسة والمجتمع.

ولقد سبقت الإشارة إلى نوعي التفكير: التفكير المجانف والتفكير المطابق. والتفكير المجانف هو لبّ الإبداع وجوهره. ولذلك فإن تشجيع التفكير المجانف وتعهده بالرعاية والتوجيه هو الطريق إلى تفتيح العملية الإبداعية وازدهارها.

إن المدارس والبيوت تشجع التفكير المطابق وتكاد تقتل التفكير المجانف. فالطفل الذي يحفظ ما في الكتاب ويقول ما يقوله المعلم طالب «ذكي» ممتاز يستحق النجاح وينال الدرجات العالية. أما الطالب الذي يخرج على المألوف، ويناقش المعلم، وينقد الكتاب، فكثيراً ما يقال عنه إنه طالب مشاغب يجب إسكاته وتأديبه، لكن هذا الطالب المخالف، الناقد، السؤول، المستفسر، المناقش، هو في الأغلب الطالب المبدع. وفي اليد أن يُسمح له بالانطلاق والإبداع أو أن يكبت وتقتل مواهبه.

وإذا كان لابد من تغيير هدف التربية فلا بد من أن تُغير طرائقها ومناهجها وأساليبها، وأساليب تقويم الطلاب خاصة. ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى البحث التربوي ودراسة الإبداع بغية فهمه وتنميته ووضع المناهج اللازمة لهذه التنمية. لقد دلت الدراسات الإبداعية الجادة على أن القدرات الإبداعية لدى تلامذة رياض الأطفال أكثر بكثير مما كان يعتقد، وأن هذه القدرات متوافرة عند تلامذة المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية. ولذلك فإن تعهد هذه القدرات في جميع مستويات التعليم واجب مقدس من واجبات السلطات التربوية.

والقدرات الإبداعية - كما دلّت على ذلك الدراسات العلمية - تنمو بسرعة منذ الدخول إلى رياض الأطفال حتى الصف الثالث الابتدائي. وفي الصف الرابع يحصل هبوط ملحوظ ثم يحدث كسب في الصفين الخامس والسادس وهبوط جديد في الصف السابع، ثم يحدث كسب في الصفوف الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر. إن عمليات التفكير، عمليات آلية وسريعة وعفوية إذا لم تواجه إعاقة خارجية. والمزعج أن علاقات الراشدين بالأطفال، والأحوال في البيت والمدرسة، تتدخل في هذه العملية التفكيرية الطبيعية.

والسؤال المهم هنا هو: كيف يتحاشى الأهلون والمعلمون إيقاف تيار الإبداع عند الأطفال؟ إن الجواب يكمن في العلاقة بين المربي والطفل التي يجب أن تكون علاقة إبداعية. إنها ليست علاقة الفعل بردّ الفعل، ولكنها علاقة تجريبية اختبارية مشتركة. وهذا الواقع يتطلب أن يكون المربي - والداً أو معلماً - ذا نفس محبة للتفكير، مستعدة للمغامرة،

متمتعة بقدر كاف من الخيال، تسمح بالسؤال والمناقشة والنقد والخروج على المألوف، مما يشجع الأطفال على التفكير الأصيل والتخيل المبدع. وبالتالي على الإبداع والابتكار.

تربية الإبداع في البيت : يختلف الأطفال الموهوبون عن سواهم اختلافاً قد يؤدي إلى سوء فهمهم وارتكاب الأخطاء الجسيمة بحقهم، ولذلك كان من الأهمية بمكان أن يُنظر بتمعن في نفسية الطفل الموهوب المبدع، وأن يتم استكناه خفاياها وتعرفها. ووالدا الطفل الموهوب هما أولاً الشخصان المهمان في حياة هذا الطفل، وهما بالتالي أول من يجب أن يساعده على إظهار مواهبه الكامنة والتعبير عنها. ولذلك كان مهماً جداً أن يكون للأبوين القدرة الكاملة والمعرفة المتبصرة والطرائق الصحيحة لإعانة الولد على إظهار مواهبه والتعبير عنها وصقلها ووضعها في خدمة المجتمع. إن من واجب الوالدين إظهار المحبة للطفل وتفهمه وإشعاره بأهميته وإعطاء معنى لحياته وتقدير مواهبه تقديراً يكفي لدفعه إلى الدأب والمثابرة في إنتاج ماهو مبتكر.

إن الطفل المبدع طفل يبدو لامعاً وفقاً لروائز الذكاء التقليدية، ولكن هذه الروائز قد تشير أحياناً إلى أنه استثنائي، لكن روائز الذكاء لا تسمح للأطفال الموهوبين بإظهار مواهبهم الخاصة. إن الأطفال الموهوبين المبدعين لا يختلفون عن الأطفال ذوي حاصل الذكاء المرتفع إلا بأنهم يستعملون استراتيجيات تفكيرية مبدعة ويلجؤون إلى خيالهم أكثر من سواهم في تعاملهم مع البيئة المحيطة بهم. ويلاحظ العلماء اليوم أن على المشتغلين بكشف المبدعين أن يستعملوا مركباً يضم عدداً من روائز الذكاء والإبداع. ويوجد اليوم عدد كبير من المقاييس لهذا الغرض. بيد أن الملاحظة كانت وما زالت الطريقة المثلى في الكشف عن الموهوبين المبدعين ولا سيما حين يكون الحديث عن الطفل في البيت، وهذه الملاحظة يجب أن تكون دقيقة ومنهجية.

اقترح أكثر من باحث بعض الطرائق العملية التي يمكن أن يلجأ إليها الوالدان والتي تعين على الكشف عن الطفل المبدع بينها أن يكون الوالدان منتبهين إلى فاعليات الطفل ومقدرين نوعية هذه الفاعليات، وما إذا كانت من طبيعة إنتاجية، وإذا كان الطفل يستذكر النواحي الجمالية من أعماله التي يقوم بها، ومدى حبه للفاعليات العقلية وتفضيله حلّ المشكلات على الحفظ عن ظهر قلب. إن مدى تصور الطفل للمشكلة واستراتيجيته في مواجهة مشكلة تتطلب الحل يدلان على تمتعه بالقدرات الإبداعية العالية أو عدم تمتعه بها. إن على الوالدين أن يلاحظا طفلهما فيما يخص الأمور التي تقع ضمن واحدة أو أكثر من الزمر الست التالية:

(١) ـ إذا كان الطفل حساساً بمحيطه فإن الوالدين سيجدانه يربط أفكاره بما تمكن رؤيته أو لمسه أو سمعه ويظهر اهتماماً بالوجوه الجمالية لما خبره ومواضع النكتة فيها، إضافة إلى إحساسه بالعلاقات ذات المعنى.

(٢) ـ وإذا كان لدى الطفل روح المبادرة فقد يجده الوالدان قائداً أو زعيماً في التمثيل أو الموسيقى أو غيرهما، مجدِّداً ومغيِّراً في الإدارة والتنظيم.

(٣) ـ وإذا كان ذا شخصية قوية فإنه سيبدي الثقة بالذات والقدرة على التقويم واستسهال أداء الأعمال، والرغبة في المخاطرة، والتوق إلى التفوق،و القدرة على التنظيم.

(٤) ـ وإذا كان الطفل يتمتع بالعقلانية فإنه سيظهر فضولاً عقلياً وسروراً بالتصدي للمهمات الصعبة، وخيالاً خصباً، وتفضيلاً للمغامرة، وحباً لإعادة بناء الأشياء والأفكار، وكرهاً للقيام بالأعمال وفق رتابة محددة.

(٥) ـ وإذا أظهر الطفل ملامح فردية فإن مما يلاحظ لديه أنه يفضل العمل منفرداً على العمل مع الجماعة، وقد تلاحظ فيه بعض الأطوار الغريبة والميل إلى نقد الآخرين، كذلك الميل إلى العمل مدداً طويلة من دون كلل أو ملل.

(٦) ـ وإذا كان لديه الروح الفنية فإنه سيبدو ميالاً إلى الإنتاج ولا سيما الصور والرسوم والنماذج وكتابة الشعر والقصص والروايات وغير ذلك.

إن ملاحظة هذه الصفات تعطي الوالدين إشارات إلى أن طفلهما مبدع، وإلى نوع الإبداع الذي سينجح فيه. وحينئذ سيجدانه بحاجة إلى مزيد من العناية، وتعهد مواهبه، وإتاحة الفرص له في البيت والمدرسة والنوادي والمنظمات وسواها. ثم إن من المناسب أن يكافأ على إبداعاته ويُشجع بالقول والفعل.

إن معرفة الوالدين طفلهما ومواهبه ستساعدهما بالتأكيد على تقرير ما يجب فعله من أجله. وليس من الصعب تقديم المساعدة التي قد توثق الصلة بين الوالدين وأولادهما.

لقد أنشأ سدني بارنس Sydney Parnes ورشة للعمل الإبداعي ألح فيها على الصفات التي يجب تشجيعها عند الطفل في لعبه وأعماله ومحادثاته مع الأهل والرفاق، وهذه الصفات هي الطلاقة (قابلية إنتاج أفكار متعددة) والمرونة (قابلية إنتاج أفكار متعددة تظهر التنقل في التفكير) والأصالة (القدرة على إنتاج أفكار غير عادية ولا مبتذلة) والتوسيع أو التفصيل (القدرة على إضافة تفاصيل جديدة إلى الفكرة الأساسية) والحساسية (القدرة على الوعي الشديد للمضاعفات الممكنة).

وثمة محاولة أخرى لدى تورانس في كتابه عن الإبداع وفيها يفصّل ما يستطيع الوالدان فعله لمساعدة الطفل. إنه يذكر ثماني طرائق يستطيع الآباء باتباعها إعانة أولادهم. هذه الطرائق هي تشجيع روح الريادة والبحث، وتشجيع التجريب، وتشجيع الخيال، وقياس المواهب الإبداعية، وإعداد الطفل لتقبّل الخبرات الجديدة، وتحويل قدرات الطفل التخريبية إلى سلوك بنائي، والتشديد على أهمية النموّ وعدم اللجوء إلى العقاب، واستعمال طرائق إبداعية لحل صراعات الطفل، وتمكين الطفل من إسهاماته، والتعاون مع المدرسة في هذه المجالات.

أما كاتينا فقد أكد في دراساته التجريبية التي أجراها في الأعوام ١٩٧١-١٩٧٣ الجدوى العظيمة التي تنشأ عن طريق مساعدة الأطفال على التفكير بطرائق إبداعية باستعمال استراتيجيات تفكيرية إبداعية والابتعاد عن الطرائق المألوفة واللجوء إلى طرائق غير عادية في التفكير، وكذلك بإعادة تحليل الأفكار وتركيبها من جديد، وإعادة تنظيم الأفكار ومزجها مزجاً جديداً، والجمع بين كليات جمعاً جديداً، وغير ذلك من طرائق برهنت على جدواها في استثارة الأفكار المبدعة.

تربية الإبداع في المدرسة: إن الكثيرين من الآباء والمعلمين يضيقون ذرعاً بأبنائهم أو تلامذتهم إذا أظهروا ميولاً للتعلم والتفكير بطريقة إبداعية فعلية. إن واحداً من أسباب هذا الضيق هو الخوف من أن يحسب الناس أن أولئك الأولاد مختلفون عن غيرهم أو أنهم ملحاحون أو أنهم شاذون. والصحيح أن الطفل المبدع طفل

سوي أصلاً ومن اللازم رعايته لإنماء قدرته على الإبداع، وأن في هذه الرعاية ما يدعم عدداً من جوانب حياته وإنتاجه في مقدمتها ما يلي:

إن الوالدين والمعلمين يرغبون في أن يتمتع أطفالهم بالصحة النفسية الكاملة ولكنهم قد يجهلون أن مثل هذا التمتع رهن بأن يسمح لهم بالتعبير عن أفكارهم وميولهم ورغباتهم وأن تُشجع تساؤلاتهم وفضولهم، وإلا فإنهم سيصابون بالإحباط.

يريد الأهل والمعلمون أن يكون الطلاب عاملين جديين وأن ينمّوا قدراتهم العقلية، ولكن كل البحوث التربوية الحديثة تؤكد أن هذا الأمر لا يتم حين يكون التعليم قائماً على السلطة. ولكي يتعلم الطفل إبداعياً وينمي قدراته عليه أن يسأل وأن يبحث ويجرّب. ويجب أن يُوضح للوالدين والمعلمين أن مجرد حصول الطفل على علامات عالية في الامتحانات، أو حتى على حاصل ذكاء عال، لا يدل على أنه يتعلم التعلم الصحيح أو يتقن عملية التفكير الإبداعي.

ويريد الأهل من أبنائهم أن يتعلموا في المدرسة، ولكن يجب أن يعرف الأهل والمعلمون أن التعلم عن طريق التفكير الإبداعي يتطلب جهداً ووقتاً وتصميماً أكثر مما يتطلبه التعلم بالسلطة، وأن هذا التعلم الأخير هو الأضعف.

كذلك يرغب الأباء والأمهات في أن ينجح أبناؤهم في مهنهم ولكنهم ينسون أن الإبداع في أي مهنة من نصيب المفكر الواعي المجرب الدؤوب. وأن الكشوف العلمية، والاختراعات العملية، والتقدم التكنولوجي، والتميز في الآداب والفنون، إنما هي حكر على المبدعين الذين يتقنون التفكير الإبداعي.

إن الأب والأم، كليهما، يريدان أن يتميز أولادهما اجتماعياً ولكن مثل هذا التميز الاجتماعي يتوقف على الذكاء والإبداع والتخيل المبدع ومواجهة المشكلات وحلها حلاً إبداعياً.

وإن التعلم والتفكير المبدعين ينطلقان من تحسس المشكلات والمصاعب، ورؤية الخطأ والمخاطر، ثم التخمين وصوغ الفرضيات، ثم التجريب والتقليب والاختبار، وأخيراً صوغ المبادئ العامة والقوانين والنظريات.

ولذلك كله يجب أن يتاح للأطفال الوقت اللازم للتفكير، وأن يعطوا حق المخالفة، وأن تُنمى فيهم روح التساؤل والمناقشة، وأن تُربىّ فيهم القدرة على مواجهة المشكلات والتصدي لها والعمل على تذليلها.

بيد أن الكثير من الضغوط البيتية والمدرسية والاجتماعية تتدخل في كبت العملية الإبداعية. إننا جميعاً نتشدد في أهمية أن يكون الطفل مطابقاً لآرائنا وسلوكنا ومفاهيمنا وقيمنا. وإن مجمل حضارتنا يقف من التعلم هذا الموقف الخاطىء ويضغط البيت والمدرسة والمجتمع من أجل عدم المخالفة، من أجل المطابقة وعدم الشذوذ، وهذا ما يقف حجر عثرة في وجه الإبداع والتفكير المبدع. إن من واجب البيت والمدرسة والمجتمع مكافأة التفكير المبدع.

وقد أورد تورانس في التعبير عن مثل هذه المكافأة، ست نقاط، هي ما يلي:

- عامل الأسئلة غير العادية باحترام.
- عامل الأفكار غير العادية باحترام.
- أظهر للأطفال أن لأفكارهم قيمة.
- هيىء فرصاً للتفكير الذاتي عند الأطفال واعترف بأهميته.
- هيىء فرص تدريب وتعلم خالية من التقويم بالدرجات.
- لتكن المهام التي يقوم بها الطفل من النوع الذي يطالبه باستخدام خياله في تطبيق الحقائق، ولا تشجعه على «الحفظ» من دون فهم وتطبيق.

فاخر عاقل

الموضوعات ذات الصلة:

الإبداع الفني - التربية - التربية الخاصة - الذكاء - الشخصية - طرائق التعليم.

مراجع للاستزادة:

- JOE KHATENA, The Creatively Gifted Child, (Vantage Press, New York, 1978).
- J.KHATENA and E.P.TORRANCE, Thinking Creatively with Sounds and Words, (Lexington, Mass. Personnel Press, 1973).
- E. P. TORRANCE, Creativity(San Rafael,California 1969).

■ الإبداع الفني

الإبداع الفني Création Artisitque موضوع مازال يشغل الفلاسفة والمفكرين منذ أفلاطون حتى العصر الحالي، وقد تحدث عنه فنانون وشعراء عاشوا تجربة الإبداع وقدّموا إنتاجاً رائعاً. وتميل معظم النظريات إلى أن الإبداع الفني ضرب من الإلهام، وأن الفنّان كائن غير عادي حبته الطبيعة موهبة خاصة. وقد دخل في روع كثير من الفنانين والمفكرين أن كل ما في الإبداع سرّ وسحر وإعجاز. وكان مثل هذا الظن بين العوامل التي دعت العرب، في القديم، إلى القول إن لكل شاعر شيطاناً يلهمه ما ينطق به من الشعر. وكان الكثير من الفنانين في عصر النهضة وما قبله يرون أن أعمالهم تتحقق بوحي إلهي.

يذكر زكريا إبراهيم في كتابه «مشكلة الفن» أن غوته Goethe يذهب إلى أن كل أثر ينتجه فنّ رفيع، وكل نظرة نقاذة، وكل فكرة خصبة تنطوي على جدة وثراء، لابد من أن تفلت من كل سيطرة بشرية، وأن تعلو على شتى القوى الأرضية، وأن كل إنسان مبدع أسير لشيطان يتملكه.

والإبداع في الفن يقابل المقدرة على إيجاد معنى جديد أو حلول جديدة لموضوع ما، أو إيجاد شكل فنيّ مبتكر، أو إنه، كما يذكر شتولْنتْز Stolnitz معالجة بارعة لوسيط من أجل تحقيق هدف ما. والفنّان المبدع يتمتع بتكوين نفسي متفرّد وقدرات تخيلية وانفعالية خاصة تكسبه سمة الإبداع الفني التي تميزه من الصانع العادي. وكثيراً ما تسمّى هذه السمة «موهبة»، وهي على درجات ويسمي بعضهم الدرجة العالية منها باسم «العبقرية».

يذهب كروتشه Croce إلى أن الفن حَدْس أو هو معرفة حَدْسية، وهو حَدْس فني أو حَدْس شاعري جمالي تكون المكانة الأولى فيه للمخيلة في حين تكون المكانة الأولى للعقل ومحاكماته في المعرفة المنطقية. ومن خصائص الحدس الفني أنه مقترن بالتعبير سواء بالكلمات أم بالأنغام أم بالألوان. فالكلمة وسيلة الشاعر، والنغم وسيلة الموسيقي، واللون والأشكال وسيلة المصور. ويذكر كروتشه كذلك أنه لا يمكن تصور حدس من دون تعبير، وأننا لا نعرف إلا أشكال الحدس التي تمثّلت في التعبير: فالفكر

لا يكون فكراً إلا إذا اكتسى بالكلمات، والتخيل الموسيقي لا يكون إلا إذا تجلّى بالأنغام. ولا يعني ذلك أن الكلمات يجب أن تلفظ بالضرورة بصوت مرتفع، وأن الموسيقى يجب أن تعزف، وأن الصورة يجب أن تثبت على اللوحة. وعلى هذا فإن كروتشه يعتقد أن الحدس والتعبير أمران متلازمان في داخل الفنان في عملية الإبداع حتى قبل تجسيدهما في وسط مسموع أو مرئي أو مقروء، وأن من البساطة بمكان تصديق أولئك المصورين أو الموسيقيين أو الشعراء الذين يدّعون بأن رؤوسهم مليئة بالإبداعات الفنية ولكنهم لا يتمكنون من ترجمتها في قوالب تدركها حواسنا، لقصور في التقنيات التي يمكن أن تستوعب أفكارهم، مع أن تلك التقنيات ذاتها استوعبت إبداعات هوميروس Homer وفيدياس Pheidias.

ولعل من المفيد والأساس، في فهم ظاهرة الإبداع، العودة إلى ما يقوله الفنانون أنفسهم عن عملية الإبداع الفني بما لهم من خبرة مباشرة. إنهم يتحدثون مراراً وتكراراً عما يمكن تسميته «لا إرادية» الإبداع، أو «خروج المرء عن نفسه». إنهم يشعرون بأنهم لا يتحكمون في نموّ العقل أو صوغه عن وعي في القالب الذي يريدون، بل يشعرون بأنهم مدفوعون بقوى ليس في مقدورهم التحكم بها: فالقدرة الخلاقة لا تخضع لإرادة الفنّان. بل تسيطر على إرادته. ويذكر شتولْنتز أن نيتشه Nietzsche يعبر عن ذلك بقوله عن الفنان إنه تجسيد لقوى عليا وناطق باسمها ووسيط لها، إنه يسمع ولا يبحث عن المصدر، ويأخذ ولا يسأل من الذي يُعطي، والفكرة تومض لديه كالبرق وكأنها شيء لا مفرّ منه.

فهل يعني الشرح السابق للإبداع الفني أن الفكرة الإبداعية تنبثق كاملة في ذهن الفنان أو مخيلته ولا يكون أمامه سوى تجسيدها بالألوان أو الأصوات أو الكلمات؟ في الإجابة عن هذا السؤال وجهات نظر عدة.

يقول بيكاسو Picasso [ر] إن من أغرب الأمور أن نلاحظ أن الصورة لا تتغير تغيراً أساسياً، وأن التصور الأول يبقى على حاله تقريباً إلا أننا نلاحظ أن هذا المعنى الذي يبدو في كلام بيكاسو لا يبرز التهيئة الطويلة الزمن التي مرّ بها هو، والدراسات الكثيرة التي قام بها، والتعديلات المتعاقبة التي أجراها من أجل إنجاز لوحته الكبرى «غويرنيكا» Guernica. والأمر ذاته يلاحظ في أعمال واحد من أعلام عصر النهضة الإيطالية هو رافايلّو Raffaello [ر] الذي كان ينفذ لوحاته الجدارية الرائعة في غرف الفاتيكان بسرعة مذهلة بعد أن يكون قد هيّأ لها دراسات متعددة بدقة وتأمل عميقين. وهناك مثل آخر يتعلق بالمقطوعات التي ألّفها شوبان Chopin [ر] للبيانو والتي تُعطي إحساساً واهماً بالتلقائية التامة والإبداع المنطلق بيسر.

غير أن جورج صاند G.Sand [ر] تخبرنا كيف كان شوبان يحبس نفسه في غرفته أياماً كاملة وهو يبكي ويمشي ويكسر أقلامه ويعيد سطراً في المدوَّنة الموسيقية ويكرره مئات المرّات. إلا أن جورج صاند ذاتها تروي في مناسبة ثانية، أن الإبداع عند شوبان كان تلقائياً وسحرياً، وأنه كان يجده من دون أن يلتمسه، بل من دون أن يتوقعه، وكأنما هو معجزة كانت تتحقق كاملة وفجأة.

هناك من الباحثين من يعتقد أن الإبداع الفنيّ ينشأ لدى أشخاص لهم تكوين فزيولوجي معيّن، أو أنهم مصابون بأمراض عقلية أو غيرها. ويحاول هؤلاء الباحثون البرهان على أن العبقرية مرتبطة بحالات خاصة، ويأتون بأمثلة عن فنانين وأدباء مشهورين كانوا مصابين بعاهات مختلفة مثل بتهوفن Beethoven [ر] وفان غوغ Van Gogh [ر] ودُسْتويفسْكي Dostoyevsky [ر]. إلا أن كثيرين غيرهم من العباقرة تمتعوا بصحة جسدية وعقلية ممتازة الأمر الذي يعارض التعميم الأول ويلغيه.

ثم إن هناك من يربط بين العبقرية والانفعالية لدى الفنان. ولكن من اللازم اتخاذ موقف الحذر من هذه الفكرة لأن صفة الانفعالية ربما كانت صحيحة لدى الفنانين الإبداعيين الذين أبدعوا فناً يغلب عليه الطابع الانفعالي. ولكن ذلك لا يمكن أن يكون قاعدة في فنّ يسوده التنظيم العقلاني والتحكم الشديد بالانفعالات كما يرى في الفنون الاتباعية وفنون النقش والزخرفة العربية التي تعتمد أسساً هندسية وعقلانية في غالب الأحيان.

ولكن، كيف تتم العملية الإبداعية؟ يذهب كروتشه إلى أن الفن، كما سلف، حدس مقترن بالتعبير. فحدس الموسيقي نموذج من الأصوات المتناغمة، وحدس المثّال صورة من الكتل والحجوم المتناسقة. وهذا الحدس ينشأ في داخل الفنان قبل أن يجسّده في صيغته الملموسة.

ويستشهد كروتشه بقول ميكيلانجلو Michelangelo [ر] «إن المرء لا يرسم بيده بل بفكره»، ثم يقول عن نفسه: «أنا لا أنحت تمثال الملاك، فهو موجود ضمن الكتلة، أما ما أقوم به فهو إزالة طبقات الرخام من حوله». وهذا القول يذكِّر بكلمة ليوناردو دافنشي Lenardo Davinci [ر] «التصوير موضوع فكري». والشواهد عديدة على أن عملية الإبداع تتم، في كثير من الأحيان، في ذهن الفنان بوضوح يقلّ أو يكثر. وفي جملة ما قاله موتسارت Mozart [ر] عن نفسه إنه يؤلف سمفونيته قبل أن يدوّنها.

يُستخلص من نظرية كروتشه أن العملية الإبداعية تتم وتكتمل في مخيلة الفنان ولا يبقى أمامه سوى نقلها وتثبيتها في الوسيط المادي. ويرى غيره من المفكرين والفنانين أنه لابدّ للفنان من أن يجسد حدسه التخيلي فيزيائياً، ولا يمكن لعملية الإبداع أن تكتمل إلا بعد تعامل فعلي مع الوسيط. لذلك تظل رؤية الفنان ناقصة إلى أن تتجسد في ذلك الوسيط بعد أن تمرّ في التقنيات الفنية فتنمو وتتطور وتأخذ شكلها الفني الثابت. وفي قول لشتولْنتز عن الهدف الذي يسعى إليه الفنّان أنه كثيراً ما يكون غامضاً في البدء، وأن شكل العمل الفني وطابعه التعبيري وتفاصيله الخاصة لا تتضح إلا بعملية الإبداع، وأن الفنان كثيراً ما يجرب حلولاً متباينة ثم يرفضها قبل أن يبدأ هدفه باتخاذ صورة محددة في ذهنه، وأن من الممكن أن نقول عن الفنان إنه لا يعرف هدفه المعرفة الواضحة إلا بعد أن ينتهي ويضع أدواته جانباً. ويذكر ما يشبه قول تشارلي تشابلن Charlie Chaplin [ر]: «قبل أن أعرف إلى أين أنا ذاهب، ينبغي أن أصل إلى هناك».

وهكذا يتضح ما للوسيط المادي من شأن بارز في عملية الإبداع، وأنه هو الذي يوحي للفنان بأفكار لم تتهيأ في ذهنه مسبقاً. إن الأصوات والألوان غنية بأسباب التداعي والتعبير التي يستطيع الفنان استغلالها. ثم إن الألفاظ تتداعى مع القوافي وتوحي بأفكار جديدة. وفي جملة ما يذكر عن ماتيس Matisse [ر] قوله: عندما أضع لوناً أحمر على اللوحة البيضاء، فإنه يستدعي بالضرورة لوناً معيناً إلى جانبه.

وهناك عوامل عدة لها أثر بارز في الإبداع، وقلّ أن تكون وليدة المصادفة أو ابنة اللحظة. ولابدّ من التسليم بأن لدى الفنان برنامجاً معيناً على الغالب يريد تحقيقه في عالم يسمح للتجربة بأن تنقحه وتعدل فيه عن طريق خبرات مختزنة وعن طريق الاطلاع على المنجزات الفنية الأخرى. إن لكل عمل فنّي ماضياً ومستقبلاً، ولابد له من أن يخضع لطائفة من المؤثرات قد لا يشعر الفنان بها. ولكن الأثر الفني يتمتع حتماً بشيء يميّزه من غيره مثل إضافة عناصر إلى أسلوب سابق، أو حذف عناصر من تكوين سابق، أو القيام بمعالجة مباينة لمفاهيم قديمة، أو تبنيّ طرائق مستوحاة من أعماق التاريخ، أو غير ذلك مما يصعب حصره.

وتنبثق هذه المؤثرات من البيئة الجغرافية والبيئة الثقافية بالمعنى الواسع للمصطلح. وكل من البيئتين تمدّ الفنان بالزخم والخبرة لتنمية إمكاناته. ويصطبغ العمل الإبداعي، في مناخ ما، بمعناه الجديد نتيجة تفاعله، سلباً أو إيجاباً، مع التراث والخبرات المتعاقبة. ولو افترضنا أن أبا نواس ولد في إيرلندة مثلاً، فالاحتمال الغالب أنه لم يكن ليطلع علينا ببيته الشهير:

قل لمن يبكي على رسم درس
واقفاً ما ضرّ لو كان جلس

ولو أن محمود الواسطي [ر] الذي عاش في بغداد في القرن الثالث عشر نشأ في جزيرة مدغشقر مثلاً لكان الاحتمال الأكبر أن يأتي إنتاجه مختلفاً كل الاختلاف عن الروائع التي صورها لمقامات الحريري، وربما وظّف عبقريته حينئذ في صنع أقنعة للاحتفالات والسحر.

فإذا جمعنا بين القول إن الفنان كائن غير عادي والقول بالآثار العميقة للبيئة في تكوينه، انتهينا إلى أن الظاهرة الإبداعية أقرب إلى الحوار والتفاعل بين الأوضاع الثقافية الاجتماعية السائدة في المجتمع والتكوين النفسي للفرد المبدع، وأن الفن مجرد تعبير عن التكوين الشخصي، وليس مجرد التعبير عن القيم والمثل الاجتماعية، بل هو نتيجة تبادل التأثير والتفاعل بين الجهتين.

على أن من اللازم القول إن موهبة الإبداع لدى الفنان تمرّ، كما يمرّ الإنسان في حياته، بمرحلة مبكرة فيها الكثير من التعثر في أغلب الحالات، تنمو على مراحل حتى تصل إلى ذروة النضج. وقد يتبين في لوحات رامبراندت Rembrandt [ر] الكثيرة التي صور فيها ملامحه الشخصية منذ شبابه وحتى شيخوخته أنه إلى جانب اختلاف ملامح الفنان على مر السنين، هناك تطور ونضج في الأداء والتعبير. وإن المقارنة بين الصورتين الأولى التي تعود إلى مطلع شبابه عام ١٦٢٩، والثانية التي تمثله في شيخوخته عام ١٦٥٨ تظهر ذلك العمق الذي بلغ في اللوحة الأخيرة روعة نادرة المثال في تاريخ الإبداع الفني.

ومهما تعددت النظريات واختلفت الآراء في شأن الإبداع الفني، فإن من الحق القول: إن الإبداع يتجلى في تلك الروائع التي خلفها الفنانون والأدباء، والتي أغنت التراث الإنساني الموصوف بالجمال، ووسعت رؤيتنا للكون وكشفت عن الكثير من أسرار الإبداع فيه.

محمود حماد

الموضوعات ذات الصلة:

الإبداع - الأثر الفني - الأدب - الفن - الموسيقى.

مراجع للاستزادة:

- حسن احمد عيسى، الإبداع في الفن والعلم (عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨).
- جيروم شتولنتز، النقد الفني، ترجمة فؤاد زكريا (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨١)

■ الإبداعية

يرى بعض النقاد العرب أنه يحسن أن نترجم لفظ romanesque في الفرنسية و romantic في الإنكليزية و romantisch في الألمانية، بكلمة الإبداعي، نسبة إلى الإبداع، في حين أن مدلول هذا اللفظ لا يفضي في هذه اللغات إلى معنى الإبداع وحده. بيد أنه من المناسب أن نتكئ على مصطلح «الإبداعية» romantisme لشيوعه وألفة الأقلام له، علماً بأن البعض يؤثرون مصطلح الابتداعية على الإبداعية.

الإبداعية في الأدب

إن مصطلح romantisme مشتق، في الأساس من لفظ roman وكان تعبير romanesque يعني قديماً ما يُروى من قصص، باللغة المحكية الشعبية، المواكبة للغة اللاتينية، لغة الصفوة النبيلة العلمية، ثم ضاقت رقعة دلالته وأضحت مقصورة، منذ القرن الرابع عشر، على سير البطولة المروية شعراً ثم نثراً، غير أنه ظل مجهولاً غائباً عن المعاجم الأوربية كلها ولئن عرضت الأكاديمية الفرنسية له عام ١٧٩٨، فقد اجتزأت بإيراده من دون أن تجلوه على نحو دقيق، ثم ظفر بمزيد من الدلالة الموضحة حين أورد الناقد الألماني فريدريك فون شليغل Frederic Von Schlegel مصطلح «الإبداعي» romantisch أي منهج يرفض الاتباعية ويناقضها، ويتراءى تياراً جديداً يستمد قوته من القومية. ومن هنا يمكن تفسير الدور المهم الذي نهضت به الإبداعية في ألمانية، ولدى أي بلد يتشوف إلى الوحدة - ولا سيما في إيطالية - إذ كان تعبير romanticismo يعني صفة الشعب الطامح إلى الوحدة والتحرر من النير النمسوي، ومن تعبير «الإبداعي» romanesque تحدر مصطلح «الإبداعية» romantisme على النحو الذي يرد فيما بعد.

أما تعريف «الإبداعية» فيبدو صعباً، ملتوياً، عصيّاً على التحديد. فقد جاءت الإبداعية خصماً مخالفاً للاتباعية، كما لو أنها فوضى تواجه نظاماً واضحاً محدداً، ويرى دي بوا De Bois أن مصطلح الإبداعية، هو تعبير يلهج به الناس من دون أن يتاح لشخصين تكوين فكرة واحدة عنه. «إننا نشعر بالإبداعية - كما يؤكد سباستيان مرسييه Sebastien Mercier ولكن ليس في ميسورنا تحديدها وتعريفها على نحو واضح، فلا يمكن إذن أن تحبس في قفص أي تعريف».

وقد رأى الناقد الفرنسي غايتان بيكون Gaëtan Picon أن من الممكن تعريف الإبداعية وتحديدها بسماتها وملامحها الأكثر تناقضاً فيما بينها إذ من الميسور أن تحدد الإبداعية برمزها الميتافيزيقي كما تحدد بعفويتها الخالية من أي فكرة مبطنة وبهيمنة «الأنا» Le moi، كما بذوبان هذه الأنا ضمن سمو ديني أو اجتماعي، بذاتها النفسانية الصافية كما بمذاقها للشيء الصلب المتماسك وبحميميتها كما ببرقشتها الباهرة، وبمعاصرتها كما بانكفائها إلى الماضي، وبجرّها الإنسان إلى أرض دنياه كما بحرصها على انسلاخ روحه عن أرضه. ويلخص بيكون ذلك كله بقوله: «إن الإبداعية هي المجلى الفني للأديب الذي يستشعر، فجأة أنه يحيا متعجلاً نافد الصبر

ملتزماً العيش في عالم يدمر كل هيمنة تقليدية، حافزاً إياه على أن يعمل من دونها»، ومن قبل رأى فكتور هوغو Victor Hugo [ر]: «أن الإبداعية هي أشبه ببستان من الشعر، من دون أية فاكهة محرمة، لأنها الفن الذي يسمح بكل شيء».

نشأة الإبداعية

يمكن القول إن الحركة الإبداعية قد انطلقت أول ما انطلقت مع استدارة القرن التاسع عشر في ألمانية وإنكلترة قبل أن تنطلق في فرنسة وإيطالية حيث تأخرت إلى العقدين الثاني والثالث منه. ويعود الفضل في نشأتها إلى رواد مهدوا لها من مثل كنت، وغوته، وشيلر، وإلى دعاة مفوهين من أمثال الأخوين شليغل، ونوفاليس، وشلايرماخر الذين أصبحت ألمانية بفضلهم مركزاً لإشعاع الفكر الأدبي بعد أن كانت مجرد متلق سلبي في عهد الاتباعية الجديدة [ر]. وربما كانت إنكلترة أول متلق لهذا الإشعاع الألماني الذي تلقفه كل من وردزورث Wordsworth وكولريدج Coleridge الذي أغناها بقراءة معمقة للتراث الأفلاطوني وما لبث هذا المد أن وصل فرنسة التي ظلت الاتباعية مهيمنة فيها أكثر من قرنين، مما جعل تفجر الإبداعية فيها مقروناً بالتوهج والعنف، وقد ساعد على تفجيرها، مدُّ الثورة الفرنسية ثم انسياح الملحمة البونابرتية التي طبعت أوربة بميسمها في مدى عشرين عاماً، وعلى الرغم من شعور الكراهية لعهد الإرهاب الذي خيم على الثورة بظله البغيض، فإن مبادئها ظلت ترفد الخيال وتمده بدمها الحار المتدفق في شرايين الأدب، محدثة صدعاً عميقاً في كيان الاتباعية، حتى لقد قال لودفيغ فيته Ludovic Vitet: إن الذوق الأدبي في فرنسة ينتظر أيضاً يومه الرابع عشر من تموز. بيد أنه لابد من التنويه بأن إرهاصات ممهدة للإبداعية سبقت ظهورها حركةً ذات منهج واضح، وتجلت هذه الإرهاصات في مؤلفات تهيمن بين سطورها روح الإبداعية وبعض ملامحها المتميزة، ولعل أهم هذه المؤلفات ما كان أزجاه جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau في روايته «هيلويز الجديدة» La nouvelle Heloise و«الاعترافات» Les confessions، وقد بسط فيهما الموضوعات الرئيسة التي تزهو بها الإبداعية، في تصويره لبدوات العاطفة ومفاتن الطبيعة، وما أزجاه برناردان دي سان بيير Bernardin de St Pierre [ر]، في روايته «بول وفيرجيني» Paul et Virginie التي جلا فيها تيمة theme الاغترابية exotisme وأخيراً ما كان قد بسطه شاتوبريان Chateaubriand في كتابه «عبقرية المسيحية» Génie du Christianisme من تيمات روحية وعاطفية تسخو بها الإبداعية.

ويمكن أن يعد ديوان «تأملات شعرية» Méditations poétiques للامرتين Lamartine منبلجاً لفجر الإبداعية الفرنسية. وقد ساوق انطلاقها آنذاك، دعوة مُلِّحة إلى الاطلاع على الآثار الأدبية الرفيعة في أوربة ـ ولا سيما في إنكلترة وألمانية اللتين تقدمتا فرنسة في تبني الإبداعية وقدمتا من الآثار الملهمة الشعرية والنثرية ما رفد الإبداعية الفرنسية بزاد شهي ومنهل عذب، متحت منه وتأثرت به لتتضوأ نجومها المتلامحة في سماء الأدب بألق جديد. وكالجداول التي تتجمع لتؤلف نهراً لجياً، فقد ائتلفت حركة مطردة متنامية، داعية إلى الإبداعية، غير أن هذه الحركة انبثقت، في البدء، مشتتة مكونة جزراً مترامية في منفسحها، تباعد السياسة والأهواء ما بين أتباعها، فكان بعضهم يجتمع حول صحيفة «الكونسرفاتور الأدبي» وبعضهم الآخر يضمه صالون «إتيين دي لو كلوز» Etienne de Lecluze وانقسم مريدوها إلى فئتين تنطق بلسان الأولى صحيفة «ربة الشعر الفرنسية» La Muse Française ذات الاتجاه المعتدل، وتنطق بلسان الثانية صحيفة «الكوكب» Globe ذات الاتجاه التحرري، وبدا فكتور هوغو، كأنه الرئيس الموجه للإبداعية، وإذ إنها ترتكز على المسرح بصورة خاصة، فقد ألفى الإبداعيون أنه من الأجدى لهم أن يفوِّقوا سهام نقدهم إلى معقل الاتباعية التقليدية: المسرح. وكذلك ترادفت مقالات وبيانات شتى وقعها هوغو ودي شامب وسانت بوف، جلوا فيها منطلقات الإبداعية وأسسها، مركزين اهتمامهم على المسرح، ومع ذلك فلم يكن في جعبة الإبداعيين أثر مسرحي، يمكن أن يضاهي بنضجه وكماله مسرحية «السيد» Le Cid لكورنـي Corneille [ر] حتى وافى تاريخ ٢٥ شباط ١٨٣٠، وفيه تصدى هوغو بمسرحيته «هرناني» Hernani لقلعة الاتباعية وقواعدها المعروفة في المسرح، ولا سيما لقاعدة الوحدات الثلاث، وقد وسم تصديه العنيف بمعركة هرناني الناشبة ما بين مرحب منافح عنها، ومهاجم منتقد لها، وقد استلهم هوغو موضوعها الشائق من تاريخ إسبانية، واتسق له أن يستشرف بها ذروة الإبداع والروعة، بما يترقرق فيها من غنائية وماء وطلاوة. وهكذا أضحى عام ١٨٣٠ منعطفاً مهماً ضمن أبرز اتجاهات الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر وقمة باذخة تماثل ـ على حد قول لامرتين ـ قمة جبل شامخ بين منحدرين.

وفيما عدا مسرحية هرناني الناجحة، فإن إسهام الإبداعيين، في ميدان المسرح جاء متخلفاً قاصراً عن مطاولة ما أنتجه رواد المسرح الاتباعي الأوائل حتى لقد بدت مسرحية «بورغراف» Burgraves لهوغو باهتة، حائلة اللون، إن وضعت في قَرَنٍ واحد مع هرناني، بيد أن الرواية الإبداعية، أتمت ما قصر عنه المسرح الإبداعي، فقد ترادفت، في القرن التاسع عشر، روايات شتى، تفوق بجودتها الآثار المسرحية الإبداعية، حتى لقد دعي هذا القرن بقرن الرواية، وتأتّى لها أن تغري كثيراً من الشعراء والمسرحيين النابهين ليردوا منهلها ـ كلامرتين وهوغو ـ وحسب المرء أن يشير إلى رواية «البؤساء» Les misérables لهوغو، وحسبها أن تغري الناقد سانت بوف، بأن يدلي أيضاً بدلوه ويغترف بروايته «الشهوة» Volupté من خضم الرواية الزاخر. هكذا انفسحت طريق الإبداعية الفرنسية رحبة لاحبة أمام ستاندال Stendhal وفكتور هوغو ولامرتين وألفريد دي موسيه Alfred de Musset وألفرد دي فيني Alfred de Vigny وجورج صاند George Sand وسانت بوف وغيرهم، يسهم كل منهم في المجال المؤهل له، في ميادين الشعر والمسرح والرواية والنقد.

وتتصف الإبداعية في بقية البلدان الأوربية، ولا سيما في ألمانية وإنكلترة، بأنها لم تلق عنتاً يماثل ما لقيته الإبداعية في فرنسة، ولم تتسم بمثل حدتها، إذ لم يتسق لها، فيما هي تناجز الاتباعية، أن تظفر بمعركة كمعركة هرناني وما أثارته من رهج وجلبة، وقد برزت ملامحها العامة، في هذين البلدين، قبل أن تؤتي الإبداعية الفرنسية أكلها وثمارها، ففي ألمانية، هيمن طيفا غوته وشيلر، في البدء، ثم أتى هولدرلين Holderlin [ر] ونوفاليس Novalis [ر] وهاينة Heine [ر] ليغنوا الإبداعية الألمانية

ويهبوا لها آفاقاً من غوارب الخيال المجنح، وفيضاً من العاطفة المتدفقة. أما في إنكلترة فقد طغى طيف شكسبير، بمسرحه الخصب المتنوع، المترع بنزوات الأهواء ولهب العواطف، ثم اشرأب من بين أعلام الإبداعية الإنكليزية، وردزورث وكولريدج وكيتس Keats، لتنسم العاطفة المرهفة في أشعارهم، وشق والترسكوت Walter Scott طريق الرواية التاريخية النابضة بالصور المعبرة الحية، وترادفت روايات الشقيقات شارلوت وإميلي وآن برونتي Charlotte, Emily and Anne Brontë شوامخ بين آثار الرواية الإنكليزية الإبداعية بما يترقرق فيها من حساسية وعاطفة.

ولقد كان ثمة فوارق مميزة تتصف بها مظاهر الإبداعية الأوربية، إذ كان ما يفرق ما بين الإبداعيين أكثر مما يجمع ما بينهم، فقد اتصفت علاقات بعضهم ببعض، بطابع الخصومة، ولا سيما في إنكلترة، لهذا بدت الإبداعية الأوربية في مجملها ممثلة بموقفها السلبي الرافض، أكثر مما هي ممثلة بخصائصها الإيجابية، ومع ذلك فقد كان ثمة روابط وموضوعات مشتركة، تأتلف متناغمة، في مثاقفة متبادلة، فارضة نفسها على الأذواق أمداً طويلاً، لتجعل من آثار بعض النابهين من أدباء الإبداعية، مهوى نظر كل من ينشد المتعة الأدبية الخالصة في كل عصر.

منطلقات الإبداعية وملامحها العامة

الحساسية الجديدة واكتشاف الذات: كتب الناقد سينانكور Senancour عام ١٨٠٤ «إن الأديب الإبداعي قمين، وحده، بأن ينفض الحساسية الجديدة في الأدب» معبراً بهذه الكلمة عما يمكن أن تفصح عنه طبيعة الإبداعية ومنطلقاتها وتوقها إلى إعطاء الخيال حقه من السمو، قبل أن تضحي مدرسة جمالية في الأدب. ذلك لأن الإبداعية تستمد قوتها وتسترفد إمكاناتها غير المحدودة من اكتشافها لمفهوم الذات النفسانية subjectivité ويفسر هذا التصعيد للذات، في التجربة الإبداعية، ازدهار أدب السيرة الذاتية (أدب المذكرات واليوميات والاعترافات، والرسائل الحميمية الزاخرة بالمشاعر) ويمكن أن يفسر بروز هذه الأنا الذاتية بالأوضاع التي جعلت من مرحلة ما بعد الثورة مرحلة أزمات وجدانية، حملت معها حساسيات مستجدة وتغيرات عميقة في علاقات الناس جميعاً. هكذا تمتاز إذن الحساسية العاطفية بأهميتها، ضمن السيكولوجية الإبداعية، فالحب، مثلاً، ليس عملية عقلية منطقية، ولا نزوة شهوانية عارضة، بل هو إلهام رباني مقدس ـ كما كان يحلو لموسيه أن يردد ـ أخذاً بمدرسة الإبداعيين الألمان، الذين يرون أن الحب هو دين السعادة الأرضية، وعلى الرغم من أن الحب يجتلب بذور الألم الذي يبتلى به العشاق المعاميد، فإن لأحزان الحب ومواجده جانبها الإيجابي المؤثر، الفاعل. هكذا وجد موسيه وأضرابه من الشعراء الإبداعيين، أن الألم العظيم يخلق الرجل العظيم، فنضح بدموعه السخينة الرطيبة شعره الشجي.

المرأة والطبيعة، مجلى للإبداعية: لا ريب أن المرأة هي مصدرٌ رئيسٌ أساسيٌّ، لإلهام الشاعر، تثير فيه أعمق ما يمور في جوانحه من مشاعر، بيد أن السعادة التي ترفض المرأةُ أن تهبها له، أحياناً تحملُه على أن ينشدها في الطبيعة نفسها، ولربما بدت المرأة والطبيعة متماثلتين، في إثارة مواجع الحزن والأسى لديه على نحو ما عبر عنه جيداً هوغو في قصيدته «حزن أولامبيو» Tristesse d'Olympio التي يفصح فيها البطل عن خيبته المريرة من المرأة والطبيعة معاً، فلا عجب إذن أن تخلق الإبداعية نموذجاً جديداً للبطل، مخالفاً لنموذج البطل في الاتباعية، إذ يتراءى في الإبداعية فيما هو يجتر آلامه، منفرداً وحيداً، كما يتراءى وجوده سلسلةً من التمرد والنضال، لأن نهاية هذا الوجود واشيةٌ بالإخفاق، الذي تفرضه لعنة قاسية شرسة، وتظل الطبيعة بعد هذا كله، الملاذ الأخير الذي يفزع إليه الشاعر الحزين، ويجد فيه سلواناً عما ألفاه في الحياة من إحباط، وما لقيه من المرأة من صد وهجران، ها هي ذي الطبيعة إذن تناديه وتخلص له، على النحو الذي عبر عنه لامرتين بقوله: «هاهي ذي الطبيعة ماثلة أمامك، إنها تحبك وتدعوك»، وحين تأخذ الأرض زخرفها مُمْرِعة زاهيةً، فإنها تعلّم الشاعر أيضاً وتلهمه: «إن نبضة واحدة من غابةٍ ربعية ـ كما يقول وردزورث ـ كفيلة بأن تعلمنا عن الإنسان، وعن الخير والشر، أضعاف ما يعلمنا إياه الحكماء كافة».

نشدان الاغتراب: إن في ميسور المرء أن يتساءل عما إذا كان النموذج الصادق الأمثل للبطل الإبداعي هو الأديب نفسه، عاكساً طيفه المهوم في صقال مرآة كلماته، إنه طيف الصدى أو المجوسي الذي يمثل في بعض قصائد هوغو، أو طيف رسول الآلهة الذي وصفه هولدرلين، إنه الطيف المزود برسالة سلمية إنسانية اجتماعية، والداعي إلى نشدان آفاق موحية خلابة، هذا هو ما يمكن أن يدعى بنشدان الاغتراب في المكان والزمان والحنين إليهما، فاغتراب المكان يتجلى في وصف الأراضي البكْر القصية (أمريكة أو الشرق البعيد)، أما اغتراب الزمان فيتجلى في الانكفاء، إلى آداب القرون الوسطى خاصة، ينسرح إليها الخيال، ويستمد من أحداثها وأساطيرها صوره وتهاويله الآسرة الساحرة. وكان من الطبيعي أن يرفض الإبداعيون، فيما هم يفزعون إلى هذا المنهل الزاخر من الإلهام، جميعَ الأطُر الجامدة الاتباعية، المنافية لروح العصر، ساخرين من الأسلوب المصقول المستحصد، والقوالب الجاهزة المعدّة، والكلمات والألفاظ المتأنّقة الجوفاء، مؤثرين على ذلك كلّه أسلوباً طيّعاً سهلاً، يترقرق عذوبةً وسلاسةً وتعابيرَ شعبيةً تعانق نبضات القلب.

أزمة الإبداعية ومصيرها

إن الاتجاه الملتزم، في الحركة الإبداعية برسالتها المجدّدة الهادفة ـ ولا سيما حين تتّسم بنزعة قومية أو وطنية ـ لم يلبث أن شاعتْ فيه عواملُ الخلاف والفُرقة، كما أن الجمهور التوّاق إلى آفاق مستحدثة طريفة ضاق ذرعاً بالعاطفة ونزواتها وأهوائها، وملَّ أساليب الإبداعية المسهبة التي بدت له كأنها تلغو بثرثرةٍ عميقةٍ، هكذا نهض تيوفيل غوتييه Théophile Gautier وأتباعه داعين إلى حركةٍ مستحدثةٍ في الأدب، دعيت بالبرناسية le Parnasse [ر]، متخذين شعارَ «الفن من أجل الفن» شعاراً لهم، ناعين على الإبداعية عاطفتها المتقلبة وآهاتها الحسيرةَ، ودموعها السخيّة، واهتماماتها السياسية والاجتماعية المتبدِّلة وأساليبَها الشعبية الركيكة في التعبير، وضاقوا ذرعاً بنواحها الرتيب، وبرموا بموضوعاتها المتماثلة، على نحو ما عبَّر عنه الناقد الإبداعي سانت بوف نفسه، بقوله: «لقد انتهت الحركة الإبداعية، وينبغي البحث عن أفقٍ آخر، فإن الجمهور لا يستيقظ إلا على كل ما هو مفاجِئٌ مستحدث». هكذا انقلب تيوفيل غوتييه، الذي تزعّم نفسه المعركة دفاعاً عن مسرحية

هرناني، على الإبداعية، ناشداً في الحركة البرناسية، أفقاً واعداً موحياً.

بيد أن ذلك كله لم يفضِ إلى هزيمة الإبداعية وانحسارها تماماً، فقد خلّفت الإبداعية بصماتها على الأدب كلِّه، وتحدّرت حساسيتها المتوفِّزة، وعاطفتُها المُتَّقدة، إلى حركات وليدة جديدة، لم تستطع أن تستغني عن لَهَب العاطفة ودفء القلب ووساوس الوجدان. يقول الشاعر الألماني آيخندورف Eichendorf: «إن الإبداعية هي أبعد من أن تكون حدثاً أدبياً، بسيطاً فحسب، إن هدفها لينحو إلى مدى أرحب، هو إنجازُ خلقٍ جديد للوجود كله، كما كان يدعو إلى ذلك نوفاليس». وانفطر نهرُ الإبداعية اللُّجيُّ العارمُ إلى جداول شتَّى، لنجدَ الحركة السريالية نفسها تحذو حذو الإبداعية في إيثارها بدوات العاطفة ونزواتها وعالمَ الأحلام ورؤاه على العقل ومنطقه الجاف البارد. ونجد قوافلَ من الكتاب المبدعين، تنحو نظراتهم إلى الإبداعية، تأخذ عنها وتتأثر بها، مثل أونوريه دي بلزاك Honoré de Balzac الذي استجلى في رواياته كلها ملامحَ المجتمع الفرنسي بكل ما يحفل به من طبائع وأهواء ومباذلَ، وانساق أسلوبه المميّـز في سياق الإبداعية والواقعية réalisme والطبيعية naturalisme معاً، كما نجد كاتباً معاصراً جان جيونو Jean Giono يجلو بأسلوبه العفوي المتدفق كلَّ ما يزخر به الريف الفرنسي من زخرفٍ وجمالٍ، لينحو في مؤلفاته الأخيرة، إلى ستاندال ويأخذ بمدرجته في موضوعاته وأسلوبه، ونلفي كاتباً معاصراً آخر هو فرانسوا مورياك François Mauriac يغمس قلمه في مداد العاطفة والأهواء الجامحة التي كان يسعى الإبداعيون الأوائل جاهدين لاستجلائها.

يقول ميشيل بوتور Michel Butor أحد كتاب الرواية الجديدة nouveau roman في فرنسة: «لقد بدأت الحركة الإبداعية في نهاية القرن الثامن عشر، وما زالت تنمو مطَّردةً من دون انقطاع حتى الآن». ويؤكد ذلك غايتان بيكون بقوله: «على الرغم من جميع ردود الفعل المضادة للإبداعية التي اتسمت بها المرحلة التي أعقبتها فإنه يمكن القول إن الأدب المعاصر ينبثق من الإبداعية، فمنها وحدها انبجست الحرية نفسها التي أنكرتها ورفضتها».

بديع حقي

الإبداعية في الفنون التشكيلية والعمارة

لما كانت الحركة الاتباعية تقيِّد الحرية الفردية في العمل الفني وأثر الخيال الشخصي، فقد اتجه الفنان الإبداعي، رداً على تلك الحركة، إلى التعبير عن ذاته ومشاعره الخاصة وعالمه الباطن. وقد ظهرت هذه النزعة في أقوال الإبداعيين، كما برزت في أعمالهم. فالفن عند دولاكروا E.Delacroix [ر] «نشوة منظمة»، والتصوير عند كونستبل J.Constable [ر] «مرادف للشعور». أما المصور الألماني فريدريخ C.D.Friedrich (١٧٧٤-١٨٤٠)، فيذكر «أن على الفنان ألا يصور ما يراه خارجه فحسب، وإنما ما يراه من داخله أيضاً، فإذا لم ير شيئاً من داخله، فالأجدر به أن يكف عن تصوير ما يراه خارجه، وإلا كانت لوحاته أشبه بتلك الستائر التي لا يتوقع أن يرى خلفها إلا أجسام المرضى أو جثث الموتى».

والعناصر التي غذّت الخيال الإبداعي تشكلت جميعها تقريباً منذ القرن السابع عشر. ففي الفنون التشكيلية من تصوير ونحت تهافتت الاتباعية وأصبحت المناهل الإغريقية اللاتينية مملّـة، فالتجأ الفنان إلى المناخ الأنكلوسكسوني والجرماني المشبع بالتهاويل. وكان غويا Goya [ر] أول من فتح الطريق إلى الخيال الخرافي الواسع في نهاية القرن الثامن عشر.

وقد تأثر ظهور الإبداعية بعناصر القلق والدمار والحروب التي رافقت الثورة الفرنسية وحروب نابليون، وتأثر كذلك بمظاهر الفردية التي رافقت البرجوازية الاجتماعية. واقترنت الإبداعية، في تمردها على عقلانية عصر «التنوير» enlightenment بالحنين إلى روحانية العصور الوسطى وفروسيتها. وساد نوع من الإحياء لفن العمارة القوطية سواء في إنكلترة أو ألمانية أو فرنسة. وكان لشاتوبريان وهوغو في فرنسة، وسْكوت W. Scott وشكسبير واللورد بايرون في إنكلترة، وغوته في ألمانية، دور مهم في هذا الالتفات إلى القرون الوسطى التي وجد الإبداعيون في فروسيتها و«نورانية» مشاعرها وقوداً للخيال والعاطفة أوفر حرارة وحيوية من «نور» العقل الذي هام به فلاسفة القرن الثامن عشر. واقترنت الحركة الإبداعية أيضاً بالتطلع إلى الشرق الغريب الغامض المبطَّن بالأسرار. فكان الحلم بالشرق من أبرز مميزات الأدباء والفنانين الإبداعيين وقد قام بعضهم بزيارة المغرب العربي وبلاد تركية وسورية ومصر، وكان دولاكروا أكثر من ثبت دعائم الاستشراق الفني في أوربة. ففي لوحته «نساء جزائريات» معالم إبداعية جديدة تتحكم في العمل الفني، إذ تتكشف في هذه اللوحة رغبة الفنان في الاستشراق وفي ارتياد معالم الشرق للكشف عن عادات خاصة كانت تشغل أذهان الأوربيين. وكان دولاكروا قد اطلع على العادات العربية الإسلامية في أثناء زيارته للمغرب العربي.

ومما لا شك فيه أن دولاكروا وأنغر Ingres [ر] قد بالغا في تصوير الحياة الداخلية في قصور المغرب، وتجاوزا الواقع، لكنهما كانا يسيران مع تخيلاتهما التي تفاعلت مع القصص المغالى فيها والمستمدة من أساطير ألف ليلة وليلة.

الإبداعية في التصوير: تقوم الإبداعية في التصوير على غلبة الخيال على الواقع، والاعتماد على العاطفة الشخصية، والبحث عن الغموض والوساوس والتأمل المجنّح والاغترابية exotism للوصول إلى عالم جديد غريب بتقاليده ومظاهر الحياة فيه. وتميل الإبداعية إلى الابتعاد عن الموضوعات التقليدية، وتهتم باللون اهتماماً خاصاً كما تهتم بالواقع، وإن كان هذا الواقع قبيحاً، وبإثارة العواطف القومية والوطنية، وبالمبالغة في تصوير المشاهد الدرامية. وقد أخذ الخيال في الإبداعية مكانه في ابتكار الأشكال الجديدة الغريبة. ومما لا شك فيه أن الفكر الجديد أسهم إلى حد كبير في إطلاق حرية الفنان والأديب في اختيار طريق خاص للمعرفة والحس، إذ عُدّت الحساسية وسيلة الفنان لمعرفة العالم معرفة فردية خاصة.

وكان لهذا الاندفاع نحو العالم الفردي الخاص أكبر الأثر في تغلب الذات على الموضوع، وهو أول الطريق إلى الإبداعية من حيث هي فن حديث. وفي هذا المجال يقول دولاكروا: «إنه لمن الضروري أن يجد الفنان لنفسه طريقة خاصة ينظر بها إلى الأشياء، فروح الفنان كالبرونز الذي يعطي جرسه عند كل صدمة، وقد تكون الروح في تأمل الطبيعة أو في قراءة شاعر، ولقد استوحيت الكثير من قراءتي لغوته وشيلر Schiller وبايرون وشكسبير، ولم تكن الطبيعة نموذجاً بل هي إثارة».

وهكذا ابتعدت الإبداعية عن الالتصاق

بحقيقة الواقع، وسعت وراء عوامل بعيدة عن البيئة التقليدية؛ فنفذت إلى ما وراء أسرار الشرق وسلطت أضواءها على ظلام القرون الوسطى؛ وراح الفنان يبحث عن السراب ليجعل منه حقيقة.

ففي فرنسة تجلت الإبداعية في أعمال أوجين دولاكروا الذي تزعم الحركة الإبداعية بلا منازع زهاء أربعين عاماً، فقد امتزجت الإبداعية لديه بثقافة تقليدية عميقة، وتأثر بمؤلفات غوته وشكسبير وسكوت. فقد كان يتمتع بعاطفة جياشة وجموح وعنفوان محمومين وخيال خصب، كما كان من ناحية أخرى، صاحب ذهن صاف وحكمة ونظام واتزان. ويمكن أن يعدّ فنّه امتداداً لعصر الباروك ولا سيما لفن ميكيلانجلو Michelangelo [ر] وتينتورتو Tintoretto [ر] وروبنس Rubens [ر]، وكان دولاكروا في رسومه بالقلم أو الألوان المائية يطلق العنان لنشوته ودفق عاطفته. وكان خياله أميل إلى عالم الكوارث والفواجع وعالم المعارك والمذابح والحرائق والسماوات المنقضّة، لذلك حفلت لوحاته بصور الجرحى والجثث التي يخيم عليها شؤم الأقدار، والأجسام الملتوية، والخيول الجامحة، والوحوش التي أريقت دماؤها، والأمهات الولهى، والأطفال الذين تدوسهم سنابك الخيل. وفي تعبيره عن الحركة الدرامية جعل لغة الألوان تؤدي دوراً أساسياً، فهي مادة هذه الحركة وقوامها وليس مجرد صبغة إضافية لكسوة الأحسام. وقد استفاد دولاكروا في هذا الصدد من أسلوب كونستبل، فاستخدم الألوان استخداماً يقوم على الفصل بين درجاتها للحفاظ على حيويتها. فهو كما يقول بودلير: يؤلف بينها كما يصوغ الموسيقي أصوات السلم الموسيقي السبعة، فيستخرج منها مختلف الألحان. ومن أشهر أعمال دولاكروا «الحرية قائدة للشعب» (١٨٣١) و«مذبحة سيو» Le massacre de scio (١٨٢٣) و«موت ساردانابال» la mort de sardanapale (١٨٢٨). وجاء تيودور جيريكو T.Gérieault [ر] ليدعم بأعماله أسس الإبداعية، واعتمد في فنه على المبالغة في التعبير عن الحوادث مما دفعه إلى الإكثار من تصوير جثث الموتى والمجانين. واستطاع هذا الفنان أن يجمع في فنه تأثيرات متضاربة: فقد تأثر بميكيلانجلو وغرو Gros وروبنس وكارافاجو Caravaggio وكونستبل ومورلاند Morland. ومن أهم لوحات جيريكو «طواف المدوز» (قنديل البحر) Le radeau de la medose (١٨١٧)، وهذه اللوحة التي تنف عند حيوان بحري هلامي يضيئ في الليل تتجاوز أوضاع الحادثة المرسومة وملابساتها، وتكتسب قيمتها من كونها رمزاً للحالة الإنسانية بكل ما فيها من ألم وصراع بين اليأس والأمل. كذلك قدمت الإبداعية في فرنسة أعمالاً رائعة في مجال آخر هو «المناظر الطبيعية»، ولكنها تخلت هنا عن المكانة الأولى لألمانية وإنكلترة في هذا المجال إذ كان المنهج الأكاديمي أقل تصلباً ومتانة.

واهتم الفنانون الإبداعيون في ألمانية بالمناظر الطبيعية، وعبّروا بوساطتها عن مشاعرهم ورؤاهم ذات الطابع الخيالي الميتافيزيقي أو السريالي. وتبدو مثل هذه المشاعر في أعمال



جوزيف تورنر ـ مشهد قصر وندسور من نهر التيمز نحو سنة ١٨٠٥ ـ مجموعة بتوورث في سسكس

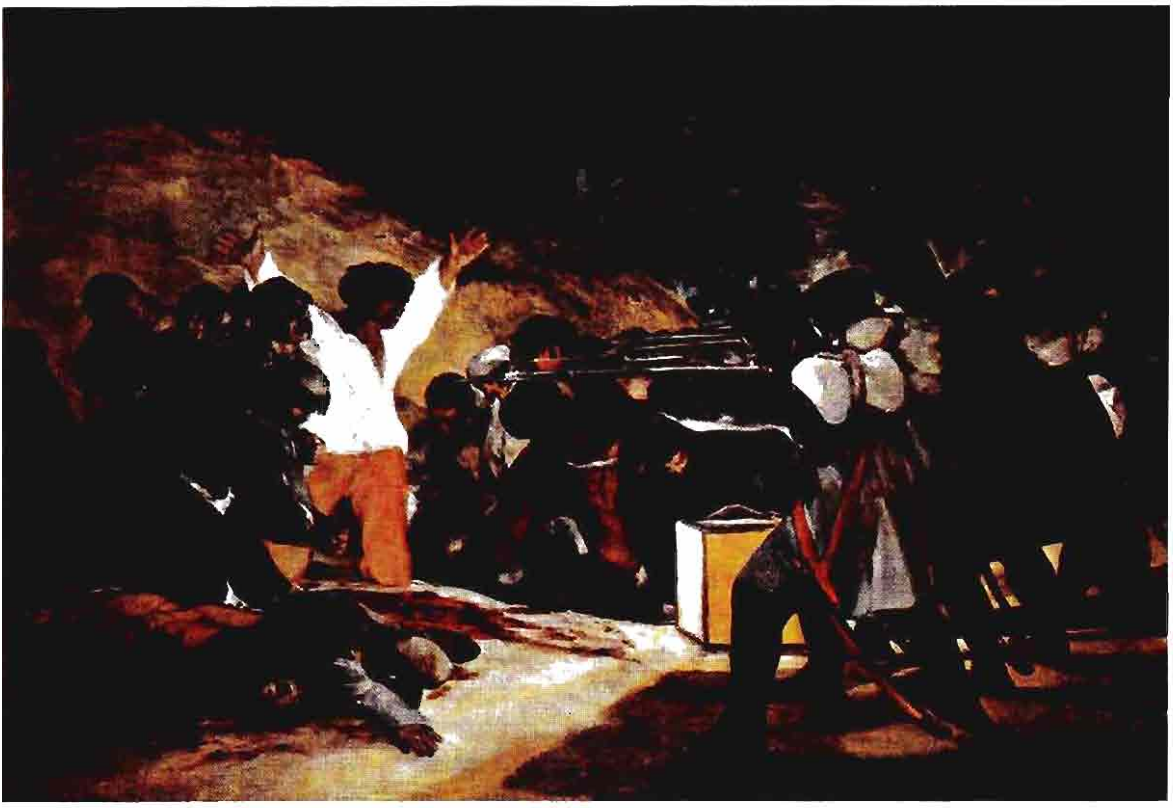
فيليب أوتو رونغه Ph.O.Runge (١٧٧٧ - ١٨١٠) ، وكسبار دافيد فريدريخ، وهذا الأخير قدم للإبداعية شكلاً تصويرياً فريداً مستقلاً عن التقاليد المتبعة في رسم المناظر. وترتبط أعماله بمشاهد الطبيعة، ووقع الأضواء والألوان الباهرة، وبزوغ القمر وغروب الشمس وامتداد البحر، والجبال المكسوة بالثلج ،وغيرها من المشاهد الطبيعية التي تفرض نفسها بتأثيرها التعبيري النفساني ورمزيتها التصويرية وتعبر عن علاقة « الأنا » بالطبيعة.

وفي إنكلترة تجلت الإبداعية بمظاهر جديدة وبأشكال مختلفة لفتت انتباه الوسط الفني الأوربي. ويعدّ كونستبل وجوزيف تورنر J.Turner (١٧٧٥ - ١٨٥١) من أبرز الفنانين الإبداعيين الإنكليز. فقد ارتبط عمل كونستبل ارتباطاً مباشراً بالطبيعة وانتقل بألوانه وأدواته إلى الطبيعة العراء ليصورها إذ عشق سماءها وأضواءها ورياحها وأمطارها في واقعها الحي النابض بادق معالمها. وقد هوجمت أعماله في فرنسة من الاتباعيين الذين لم يجدوا فيها سوى



أوجين دولاكروا - نساء جزائريات في دارهن - ١٨٣٤ - متحف اللوفر في باريس .

تصوير لمشاهد ريفية تافهة. ومن أشهر أعماله : « حطام السفينة » (١٨٠٥) . أما تورنر فيعد من أبرز ممثلي الرؤية الداخلية. وبفضل أعماله ذات الطابع الشاعري، وألوانه الشفافة، والحركة المنبعثة فيها من الخمود، استطاع أن يحدث انقلاباً في التصوير مهّد للتحولات الفنية التي



فرانشيسكو غويا _ الإعدام في ٣ أيار _ ١٨٠٨ _ متحف البرادو في مدريد


فرانسوا رود - نحت بارز على قوس النصر - ساحة النجمة - باريس (١٨٣٢ - ١٨٣٥)

شهدها القرن التاسع عشر بعد ذلك. وقد حافظ الفنانون الإبداعيون الإنكليز في تصويرهم الطبيعة على ملامحها الخارجية وأبقوا على ميزاتها الأساسية وعلى صفائها، مستخدمين الألوان المائية التي جعلوا منها فناً رفيعاً. لكن تورنر الذي ترك مجموعة كبيرة من الأعمال المائية الرائعة استطاع أن ينقل شفافية الألوان المائية إلى اللوحات الزيتية حيث تغيب الجزئيات ويتحول المشهد إلى كتلة لونية تبهر الناظر بأضوائها.

وأما في إسبانية فقد تمثلت الإبداعية بأسلوب مختلف جداً بشخصية فرنثيسكو غويا، تلك الشخصية الفريدة ذات المخيلة الغريبة القادرة على تمثيل بشاعة الحرب ومآسيها وما يرافقها من آلام وشقاء. ولعله الفنان الأول الذي أدخل عنصر «البشاعة والتشويه» إلى الفن محاولاً تمثيل الخصائص المميزة: لا الجمال في مفهومه التقليدي. لذلك لم يتناول غويا، في أعماله الفنية، الطبيعة كما رآها الفنانون الإنكليز والألمان، وإنما تناول الإنسان في أسلوب أقرب إلى التعبيرية. وقد اتبع تقنية جديدة تقوم على الضربات اللونية السريعة العفوية وتضاد الظل والنور. ومن أشهر لوحات غويا: «الإعدام في الثالث من أيار» (١٨٠٨)، ومجموعته الرائعة «كوارث الحرب» (١٨١٠-١٨١٤).

الإبداعية في النحت: بعثت الإبداعية الحياة والحرارة حتى في التماثيل إذ بدا النحت أكثر تقبلاً للمبالغة في هذا الاتجاه في الحركة والإيقاع والتعبير. وقد تميز النحت الإبداعي بانتقائه موضوعات مستعارة من الأدب مثل تمثال «رولان الغاضب» للنحات يوهان دو سنيور Du Seigneur وهو أول نموذج نحتي إبداعي عرض في فرنسة عام ١٨٣١. ولكن، منذ عام ١٨٣٥ أصبح أرغست بريو A. Préault (١٨٠٩-١٨٧٩) زعيم النحت الإبداعي بأسلوبه المفعم بالعاطفة والعنف. وبعدُ فرانسوا رود F.Rude (١٧٨٤-١٨٥٥) من أشهر ممثلي النحت الإبداعي، ولوحته «سفر المتطوعين» التي عرفت فيما بعد باسم المارسييز La Marseillaise (١٨٣٢-١٨٣٥) هي لوحة من النحت البارز على قوس النصر في باريس وأنجزت بناءً على طلب الملك لويس فيليب. ومن أشهر أعمال رود: «عطارد» و«جان دارك» و«نابليون». ومن النحاتين الإبداعيين كذلك أنطون باري A.L.Barye (١٧٩٦-١٨٧٥) وهو تلميذ النحات بوسيو Bosio (١٧٦٨-١٨٤٥) وغرو Gros (١٧٧١-١٨٣٥). على أن أغوست رودان A.Rodin (١٨٤٠-١٩١٧) ما يزال يعد نموذجاً للنحت الإبداعي على الرغم من آفاقه الواسعة وتنوع أعماله. ومن أشهر أعماله «باب الجحيم» و«المفكر» و«القبلة» وتمثال «عصر البرونز» الذي أنجز عام ١٨٧٦ وأحدث ضجة كبيرة في حينه. وتعد مجموعة تماثيل «برجوازيّو كاليه» (١٨٨٩-متحف رودان) من روائعه الخالدة. وقد حرر رودان النحت من القواعد الأكاديمية والاتباعية مستمداً من النحت القوطي ونحت ميكيلانجلو وفيدياس أسلوباً يمتاز بالحركة الدرامية المعبّرة، وقد تأثر به كثير من النحاتين.

الإبداعية في العمارة: تأثر المهندسون المعماريون بالاتجاه الإبداعي السائد، وتمثل ذلك في نقدهم لزينة العمارات القوطية وفي إعجابهم بهيكلها. وكان ذلك إشارة للثورة على أسلوب اليونان والرومان التقليدي. كذلك أعجب المعماريون الإبداعيون بأبنية العصور الوسطى، ولا سيما في إنكلترة، حيث قام جيمس ويات James Wyatt (١٧٤٦-١٨١٣)، الذي يعد متحرراً نوعاً ما، ببناء قصور ومنازل فيها لمحات إبداعية منذ نهاية القرن الثامن عشر. ومن أشهر أعماله «كنيسة فونتيل» Fonthill. ومن تلاميذه أوغست بوغن A.Bugin الذي أسهم في إعادة بناء قصر ويستمنستر في عام ١٨٣٤ وأشرف بوغن كذلك، بالاشتراك مع شارل بيّري .Ch

Barry ، على بناء البرلمان في لندن منذ عام ١٨٤٠ . أما في فرنسة فقد كان لإنشاء كل من متحف الأبنية الفرنسية، ومصلحة الأبنية التاريخية، والجمعية الفرنسية للآثار، وكذلك لدراسات المؤرخين الكبار، الأثر في جلب انتباه المعماريين الإبداعيين إلى الفن القوطي . كما أتاحت أعمال لاسوس Lassus (١٨٠٧-١٨٥٧)، وفيوليه لودوك Viollet Le Duc (١٨١٤-١٨٧٩) تعرّف هذا الأسلوب. وهكذا بنى غو Gau (١٧٩٠-١٨٥٠) في عام ١٨٤٥ كنيسة القديسة كلوتيلد، وتكاثرت على واجهات المنازل الزخارف القوطية المتكررة من أوراق منقوّشة، وزهور منحوتة، ووجوه مقطبة وعقود متقاطعة.

أما في ألمانية فقد تأثر المعماريون الإبداعيون بالطراز الباڤاري والهانوڤري (نسبة إلى مدينة هانوڤر)، وطبعت الانتقائية الكثير من النحاتين والمعماريين بطابعها، ولم يعد العصر الوسيط العهد الوحيد الذي يثير فضولهم. ومهدت الإبداعية لظهور الفن الحديث.

وفي البلاد العربية نحا عدد غير قليل من الفنانين العرب نحو الإبداعية. وسيوفر الحديث عن الفنون، لدى البحث الخاص بكل دولة عربية، الفرصة لبيان مظاهر الحركة الإبداعية وغيرها في البلاد العربية.

وسام نويلاتي

الإبداعية في الموسيقى

كان الكتاب والمفكرون الألمان أول من أطلق مصطلح الإبداعية في نهاية القرن الثامن عشر على الإبداع الموسيقي المتميز فقد أعطى جان بول ريختر J.P.Richter (١٧٦٣-١٨٢٥)، وفريدريك شْ ليغل Fr. Schlegel (١٧٧٢-١٨٢٩) أهمية كبيرة للموسيقى في تحديد مفهوم الفن الإبداعي. فهي، أي الموسيقى، تعبر عن النبضات المباشرة للحياة الإنسانية الداخلية المشحونة بصراعات متنوعة وعنيفة أحياناً ناجمة عن المشاعر الذاتية. وأعرب لودڤيغ تيك L.Tieck (١٧٧٣-١٨٥٣) في أعمال له مختلفة مثل «آلام وبهجات موسيقية» عن وحدة الفنون، غير أن الموسيقى وحدها، كما يراها، هي التعبير الأسمى للروحانيات الإنسانية. وقد تأثر بهذه الأفكار كبار موسيقيي القرن التاسع عشر بدءاً من شومان Schumann حتى ماهلر Mahler (أحد أعلام «ما بعد الإبداعية» postromanticism). وقد أكد مفكرون آخرون أن على الفن أن يحطم الحقيقة، وأن الفنون التشخيصية figurative arts والأدب والشعر تتجه نحو سمو الحقيقة والواقع، إلا أن وسائلها محدودة. وكان جدل عنيف بين الاتباعية والإبداعية يتمثل في تناقض غوته وشيلر Goethe-Schiller الذي أذكاه الأخوان شليغل. وكان غوته يتطلع إلى استخلاص حل لهذا التضاد بين الاتباعية والإبداعية في تمازج بينهما، وكان ينظر إلى موسيقى بتهوڤن Beethoven بقلق واضطراب. وقد قال مرة باقتضاب: الاتباعية هي العافية، والإبداعية هي المرض.

وبظهور الإبداعية بدأ عصر جديد في تاريخ الفكر الإنساني برزت آثاره في الفن والأدب والفلسفة والسياسة. ولم يكن في وسع أي شعب في أوربة تجاهل هذا الحدث الجليل أو تجنبه. وكان أن بدأت الإبداعية بالشعر فالتصوير فالموسيقى التي عُدت من أقوى التعابير الفنية.

ويرى الكاتب والناقد الموسيقي ألفْرد أينشتاين A.Enstein (١٨٨٠-١٩٥٢) أن في الموسيقى الإبداعية نقائض كثيرة وكبيرة منها: عدم اعتراف بعض الإبداعيين، مثل برليوز Berlioz، بالسالفين عدا اثنين منهم هما: غلوك Gluck وبتهوڤن، ويرى كذلك أن استعراض البراعة الفنية في الأداء virtuosity يدل على أن هذه البراعة تتطلب اتصالاً جماهيرياً واسعاً في حين تنزع الإبداعية إلى الانطوائية الذاتية. ولقد اتصف ڤاغنر Wagner بفرديته وتركزه حول ذاته، وحرص ڤيردي Verdi على أن تكون جذور فنه نابعة من وطنه. ومع ذلك، فقد تألق الاثنان وبلغا قمة الإبداع في عالم الأوبرا. وكان مندلسون Mendelssohn رائداً في الوضوح والتناسق، يبغض الخلل الذي يعتري الانسجام harmony، والانحراف عن القواعد بلا ضرورة، فكان إبداعياً في منحى اتباعي، في حين كان برليوز يمقت اتباع القواعد الصارمة المقيّدة. ومن أهم النقائض أيضاً في نظر أينشتاين، ولع الإبداعيين كافة بالقدم والعصور القصيّة، في حين جاءت الإبداعية ثورة على القديم، ولا سيما سالفتها الاتباعية، وإلحاحاً على الشعور والانفعالات الإنسانية والقومية.

في الفكر الموسيقي الإبداعي الألماني عنصران مهمان هما: الأدبي - الموسيقي، والجمالي - الفلسفي. ويمثل هوفمان E.T.Hoffmann (١٧٧٦-١٨٢٢) العنصر الأول وهو يُعد الناقد والملهم الأول في الإبداعية الموسيقية. في حين تعود أولى البصمات إلى شوبارت Ch.F.D.Schubart (١٧٣٩-١٧٩١) في كتاباته حول العنصر الجمالي الفلسفي التي نشرت عام ١٨٠٦ بعد وفاته. وهوفمان، وهو الشاعر والكاتب والمصور والمؤلف الموسيقي وقائد الأوركسترا، الذي أبدع «أقاصيص هوفمان» الشهيرة كان ينشر نقده الأدبي بالاسم المستعار «Kapellmeister Kreisler» وقد ألهمت أقاصيص هوفمان هذه أوفنباخ J.Offenbach في مؤلفته التي تحمل كذلك اسم «أقاصيص هوفمان». وكان هوفمان مصدر وحي لشومان في مؤلفته الموسيقية «Kreisleriana»، وكان يصف بتهوڤن بأنه ثوري لاذع ومتقلب في تعامله مع العالم الخارجي، ومغلق في دخيلته. ثم وصفه أيضاً بأنه «أب للإبداعية» وأشرك معه موتسارت Mozart بهذا اللقب وذلك بسبب أعمال موتسارت في القسم الأخير من عمله وفيها السمفونيات الأربع الأخيرة والفانتازيات، وقداس الموتى Requiem. وكان هوفمان يحاول أيضاً إيجاد الأسس الأولية للإبداعية في أعمال كل من هايدن Haydn وغلوك، وباخ J.S.Bach، وبصورة أقل عند هندل Händel الذي يعد «النموذج الباروكي baroque style» الحقيقي. وفي الواقع، فإن المشكلة عند هوفمان لم تكن في تعريف «الأسلوب الإبداعي» لدى تعريفه الأسلوب الباروكي أو الروكوكي Rococò، وإنما في التنقيب، في اللغة الموسيقية السابقة عند السلف، عن تلك السمات «التعبيرية» المميزة التي تعود إلى المضمون في العمل الموسيقي وليس إلى الصيغة أو الشكل form. ويرى الإبداعيون مثل هوفمان وزملائه أن الموسيقى هي لغة الطبيعة الأصيلة : فقد ولدت من الصوت الصادر عن الطبيعة الذي أعطى العالم معالم الحياة. وهذا المفهوم أساس في مذهب الإبداعية وساد كل القرن التاسع عشر حتى عتبة القرن العشرين. ويجعل هوفمان أيضاً السيادة المطلقة للموسيقى الآلية المتحررة من التلاحم الهجين مع الكلمة. ويؤكد أن هذه الموسيقى هي السرمدية في موضوعها وهي الأكثر إبداعية من سائر الفنون. وقد تأثر شومان بهذه الآراء وظهر ذلك في كتاباته النقدية والموسيقية، فكان من الأوائل الذين كشفوا عبقرية كل من شوبان

Chopin، ومندلسون، وليستLiszt، وبرليوز، وبرامز Brahms الشاب وقتئذ، وكان يعني أن هؤلاء هم الذين ستلمع أسماؤهم في الإبداعية الموسيقية الأوربية. وكان شومان قد أسس عام ١٨٣٤ أول مجلة موسيقية هي Neue Zeitschrift für Musik وتبحث في الإبداعية الموسيقية باتجاه مبرمج، وكان يحرر فيها بأسماء مستعارة مختلفة، استخدم بعضها في مؤلفاته لآلة البيانو. ويُعد شومان علماً في تاريخ الإبداعية الموسيقية، وممثلاً لـ«ألمانية الفتية» Junges Deutschland مثلما عُد برليوز ممثل «فرنسة الشابة» الذي حملت سمفونيته «الخيالية» fantastique (عام ١٨٣٠) برنامجاً أدبياً ـ موسيقياً متماثلاً مع أفكار هوفمان وشومان وغيرهما. ويصف هيغل G.F.Hegel (١٧٧٠ـ ١٨٣١) الموسيقى في كتاباته «دروس في الجماليات» قائلاً: «إن العمارة فن رمزي لأن مظهرها الخارجي لا ينسحب على ما في داخلها. ومع أن الموسيقى والتصوير والشعر هي فنون إبداعية، وأنها تصور المشاعر الروحية الإنسانية، فإن الموسيقى وحدها هي التي يمكنها التعبير عن السريرة الداخلية الخالصة التي تعطي نفسها منها وإليها. وهي لا تبدو ملموسة للعيان كالنحت والتصوير لأنها ترفض ذلك، فهي تتحرك في ذاتيتها سواء من الناحية الداخلية أو الخارجية». وقد نتجت من هذا التعريف الهيغلي توابع كثيرة للحركة الإبداعية مثل «الانطباعية» impressionism، و«الاتباعية الجديدة» neoclassicism.

أثرت الثورة الفرنسية في تاريخ الحضارة الأوربية وفي الصلة بين الفرد والمجتمع وتحرر الشخصية الإنسانية وسعيها إلى الحرية الكاملة. كانت موسيقى المنفعة أو المناسبات هي السائدة قبل الثورة، إذ كانت تؤلَّف بناء على طلب خاص أو من أجل مناسبة خاصة. ومع أن باخ، مثلاً، كان من أعظم الموسيقيين المبدعين في الحقبة الاتباعية، إلا أنه لم يكن أكثرهم استقلالاً أو تحرراً. ولا تعد مؤلفاته أعمالاً فنية حرة، فقد كتب معظمها لتلبية غرض ما. ومع أن مؤلفاته لآلة الكلاڤسان clavecin [ر. البيانو] مثل «الكلاڤير المعدّل» the well- tempered clavier أو «ابتكارات» inventions كانت أعمالاً فنية حرة إلى حد ما، إلا أنها تختلف كلياً عن المعنى المقصود الذي ألّف فيه شوپان قطعه الموسيقية للبيانو مثل «الاستهلال» prelude. كان باخ يعد مؤلفاته تلك قطعاً موسيقية ترمي إلى غاية تعليمية أو ترفيهية، إذ كان يمارس التأليف لعصره ومن أجل النبلاء وجماعات المصلين وكان يتقاضى أجراً مقابل ذلك. ويوصف أغلب موسيقيي القرن الثامن عشر بهذه الظاهرة، مثل هايدن وموتسارت، وقد شذّ بتهوڤن عنها، فبدلاً من أن يضع نفسه في خدمة الأرستقراطيين، جعل الأرستقراطية في خدمته. وبذلك كان أول من ابتدع مبدأ «الفن للفن»، إذ لم تكن مؤلفاته في «السوناتا» مثلاً أو لآلات منفردة قطعاً ترفيهية، بل كانت أمثلة فنية خالصة.

كانت أعماله قدوة في الحركة الإبداعية التي غزت أوربة في القرن التاسع عشر.

وللحركة الإبداعية في الفنون، ولا سيما الموسيقية منها، صفات خاصة. فقد ظهر فيها معنى جديد للطبيعة ومشاهدها وبدا ذلك واضحاً في التصوير والموسيقى. فالفنان الإبداعي لا يُعنى بالتفاصيل الجزئية الموجودة في المشاهد الطبيعية كالصورة الضوئية (الفوتوغرافية) بل ما يعنيه هو إبراز عالمه العاطفي عن طريق رؤيته لتلك المشاهد. ويمكن تعرف ذلك بالعودة إلى أوراتوريو oratorio «الخلْق» أو «الفصول» لهايدن، وأوبرا «القنّاص» Der Freischütz لڤيبر Weber. ففي عمليْ هايدن تُسمع أصوات الحيوانات من صياح الديكة إلى زئير الأسود، وتفهم إيحاءات الشروق والغروب والأمطار والعواصف، بينما تبدو القدرة العالية لدى ڤيبر على التعبير عن روح الطبيعة وإظهار أجواء الغابات المظلمة في صور صوتية ويكون هذا الإبداع دليل عبقرية خاصة وإنجازاً استقى منه معظم الإبداعيين.

والصفة الثانية التي ظهرت في الإبداعية الموسيقية، نتيجة المحاولات الشخصية، هي الحريةُ في استخدام «التنافرات الصوتية» dissonances في الانسجام التي أدّت إلى «التلوينية» chromatism الڤاغنرية التي مهدت، بدورها، السبيل إلى «اللامقامية» atonality في القرن العشرين. وهكذا أصبح القلق والاضطراب الانسجامي يستقران في الأعماق النفسية مقابل الراحة والهدوء النغميين اللذين ارتكزت عليهما الاتباعية. وغدت التنافرات لغة متفقاً عليها في عالم الأصوات، وكذلك في الألوان للتعبير عن الأحداث الذاتية لـ«الأنا» عند الناس.

ثم إن الإبداعيين اكتشفوا في عالم السمفونية وموسيقى الآلات أشياء مخالفة لرؤى القرن السالف لهم، وتعد هذه صفة ثالثة للإبداعية في الموسيقى. كانت السوناتا أو السمفونية، بحسب التقليد الاتباعي، تبدأ بعرض اللحن الأساسي مباشرة. أما الإبداعيون، فيفضلون تقديمه بعد تمهيد، ليساعد المستمع على ولوج عالم الخيال. وكان مندلسون منفّذاً لمخطط بتهوڤن في السمفونية، فهو يمثل اتجاهاً إبداعياً ـ اتباعياً، بعكس شوبرت Schubert الذي كان اتباعياً ـ إبداعياً. أما شومان فقد فاقت سمفونياته أعمال مندلسون في هذا المضمار حيوية ونضارة، كما ازدادت ابتعاداً عن الأنماط التقليدية.

وتختلف مظاهر الإبداعية عند برليوز عنها عند شومان أو مندلسون في النظرة إلى مادة العمل الفني، مع أنه كان من المعجبين ببتهوڤن مثلهما. فسمفونيته «الخيالية» هي أكثر مؤلفاته حيوية وإثارة لأنها تنزع إلى تصوير موسيقي أودع فيه حبه وهواه لمحبوبته. وما يمتاز به برليوز، ممثلاً للحركة الإبداعية الفرنسية، هو جرأته في ترك المستمع مشدوهاً تحت تأثير التنافر الانسجامي في موسيقاه. أما ليست، مبدع «القصيد السمفوني» symphonic poem [ر. الصيغ الموسيقية]، فإن موسيقاه الآلية وثيقة الصلة بالأدب إذ إنها ثمرة ثقافته الأدبية الواسعة. وكان برامز متمسكاً بقوميته، شديد الحرص على اتباع أصول الموسيقى الألمانية كما وضعها أسلافه باخ وبتهوڤن وشوبرت.

أما الصفة الرابعة فتتمثل بتطور الآلات الموسيقية المختلفة على نحو ملحوظ في العصر الإبداعي، فقد أصبح البيانو الآلة الموسيقية المفضلة لدى الموسيقيين من حيث التعبير عن الأحاسيس والمشاعر الشخصية الدفينة، وتألقت مكانته وعظم انبهار الجماهير به. ولم يفت انتباه أي مؤلف موسيقي إبداعي أن يكتب قطعاً موسيقية خاصة بهذه الآلة، سواء كانت بصورة منفردة solo أم مرافقة بمصاحبة بضعة آلات أخرى أم مع الأوركسترا الكاملة. وكان شوبان قمة في إيداع البيانو أشجانه ومشاعره الذاتية الحساسة. واستحوذت آلة الكمان أيضاً على اهتمام الموسيقيين، ولا غرو في ذلك إذ إنها عماد

الأوركسترا السمفونية. وقد أدت العوامل السابقة إلى العناية بالبراعة والإبداع في الأداء الفني المنفرد solist، وازداد التنافس حدة بين التعبير الشخصي والتألق الاستعراضي. فظهر عازفون مهرة مبدعون في العزف على البيانو مثل شوبان وليست، وفي العزف على الكمان مثل باغانيني Paganini وذلك إضافة إلى كونهم مؤلفين موسيقيين.

وكان الاعتناء بالألوان القومية من أبرز صفات الإبداعية. ففي بداية القرن الثامن عشر، لم تعترف أوربة إلا بقوميتين موسيقيتين هما: الإيطالية والفرنسية. وفي منتصف القرن، تغيرت الحال وظهرت قومية موسيقية ثالثة هي الألمانية، وذلك بفضل أعمال كبار الموسيقيين الذين عاشوا في ڤيينة وبرلين والمدن الألمانية الأخرى الكبيرة. فكان هايدن أول من وضع أسس الموسيقى الألمانية لما لرباعياته quatuors وسمفونياته من أهمية بالغة نالت شهرة في جميع أنحاء أوربة. ثم كان موتسارت فبتهوڤن، وأصبح الثلاثة يمثلون الموسيقى الألمانية في كل مكان. ومع أن الموسيقى الإيطالية، ولا سيما الغنائية والأوبرالية منها، كانت في القرنين السابع عشر والثامن عشر بمنزلة موسيقى عالمية، فإنه لم يكن في أوربة أي تعصب قومي ضدها. وقد انتشرت الأغنية الشعبية كذلك وأصبحت ذات أهمية كبيرة في موسيقى الإبداعيين مثل ڤيبر ومندلسون وشومان وبرامز، كما اعتمد شوپان الطابع القومي البولوني في ألحانه، مع أنه عاش زهاء عقدين من الزمان في باريس، ولم تتأثر موسيقاه بالطابع الفرنسي الذي كان عالمياً آنذاك. وفي بداية العصر الإبداعي، استأثرت ألمانية بالزعامة الموسيقية الآلية في أوربة. وعندما اتخذت كل دولة أوربية كياناً مستقلاً لها، ظهرت سمات قومية موسيقية خاصة في كل منها. وكانت إنكلترة آخر من اندفع متأثراً بالقومية الموسيقية. أما أمريكة، فلم يكن لديها أية موسيقى قومية أصيلة.

وقد بلغ فن الغناء في الحركة الإبداعية المثل الأعلى في وحدة التكامل بين النص والموسيقى على الرغم من اختلاف آراء بعض الكتّاب والمفكرين. وكان شوبرت أول الأعلام في عالم أغنية الليد lied [ر. الأغنية]. وكانت الأوبرا الألمانية قد خطت أولى خطواتها مع موتسارت وبتهوڤن ثم مع هوفمان، ولكنها ترسخت مع ڤيبر في أوبراه «القنّاص» (عام ١٨٢١) التي عُدّت الأوبرا الأولى في الحركة الإبداعية الألمانية.

وابتدعت الأوبرا الإبداعية ما يسمى بالمشاهد الموسيقية الدرامية، فنقلت مهمة التعبير إلى الأوركسترا وازدادت أهمية الجانب السمفوني وتقلص دور الغناء فيها. ويبدو ذلك واضحاً في أعمال ڤاغنر الدرامية الموسيقية. إلا أن الأوبرا الإيطالية تشبثت بضرورة هيمنة الجانب الغنائي فيها ولو أنها مزجت في كثير من الأحيان بين المصاحبة السمفونية والخطوط الغنائية كما في بعض أعمال ڤيردي الأخيرة.

وعلى أية حال، فقد أثرت الإبداعية في نظرة الموسيقيين إلى الأوبرا، وغدا لها مؤلفون مختصون، الأمر الذي لم يكن قائماً في العصر الاتباعي، إذ كان من المفترض أن يكون نتاج المؤلف الموسيقي آنذاك متنوعاً من موسيقى آلية وأوبرالية ودينية وغيرها. ومع الإبداعية بدا أن الاختصاص الموسيقي في التأليف للصيغ والأشكال الموسيقية أصبح مألوفاً وإن تطرق إلى صيغ أخرى مختلفة. فكان تشايكوفسكي Tchaikowsky مبدعاً في الباليه ballet، ولم يغامر ڤاغنر وڤيردي في عالم السمفونية والكونشرتو concerto، ووقف شوبان نفسه للبيانو، ولم يخاطر برامز بالغوص في عالم الأوبرا.

وكانت الأوبريت operette [ر. الأوبرا] من نتاج الحركة الإبداعية أيضاً. وقد اتصفت بالخفة والمرح والسخرية من المجتمع التقليدي. وأصبح أوفنباخ Offenbach خير مبدع في هذا النوع الفني الذي أراد الحفاظ فيه على الأساليب الفرنسية القديمة الطروب.

حسني الحريري

الموضوعات ذات الصلة:

الاتباعية - الانطباعية - الباروك

مراجع للاستزادة:

حسام الخطيب، الأدب الأوربي وتطوره ونشأة مذاهبه (مكتبة اطلس، دمشق ١٩٧٢).

- أحمد الزيات، في أصول الأدب (لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٥).

- P.MARTINO, Littérature Française, 2éme tome (Librairie Larousse, Paris 1955).

■ الإبدال اللغوي

الإبدال لغة: رفع الشيء ووضع غيره في مكانه. والإبدال اللغوي أو الاشتقاق الكبير (ويسمّى أيضاً: البدل والمبدل منه، والقلب والمقلوب، والمحوّل، والمضارعة، والتعاقب، والنظائر) هو ظاهرة لغوية صوتية دلالية تعني إقامة حرف مكان حرف مع الإبقاءعلى سائر حروف الكلمة، وبذلك قد تشترك الكلمتان بحرفين أو أكثر، ويبدل حرف منهما بحرف آخر يتقاربان مخرجاً أو في المخرج والصفة معاً نحو «قضب وقضم، وقطع وقطم» فقد اشترك الزوج الأول بحرفين منهما القاف والضاد، واختلف بالباء والميم، أحدهما مبدل من الآخر، وكلاهما من مخرج واحد، أي هما حرفان شفهيان. وأما الزوج الثاني فقد اشتركت لفظتاه أو صورتاه بحرفين منهما القاف والطاء، واختلف بالعين والميم، غير أن العين حلقية، والميم شفهية.

ولا يُقيّد الإبدال بالحرف الثالث من الأصل الثلاثي، أي بلام الفعل، وإنما قد يطرأ الإبدال على الحرف الأول وهو فاء الفعل نحو: خبن وعبن، أو على الثاني وهو عين الفعل نحو: رسم ورشم، وقد تكون اللفظتان رباعيتين كتوْلَج ودوْلج (كناس الظبي)، والبدل في الحرف الأول منهما، وقد تكونان خماسيتين والبدل في الحرف الثاني كجرسام وجلسام (السمّ، وتسمية العامة: البِرْسام)، أو سداسيتين نحو: اعرنْكس الليل واعلنكس إذا أظلم.

وأما الإبدال في النحو و الصرف فيُصنّف في إطار القلب النحوي الذي جعلوه شاملاً لإعلال ونقل الحركات والافتعال. قال أبو البقاء الكفوي في «الكليّات»: «والإبدال يكون من حرف العلة وغيرها، والقلب لا يكون إلاّ من حرف العلة». ويرى النحاة أن هذا الإبدال قد يقع في كل حروف الإبدال وإن قصره بعضهم على تسعة أحرف في الاطراد، أو جعلوه في اثني عشر حرفاً، أو أربعة عشر، أو اثنين وعشرين حرفاً. ومن المرجح أن أول من سمّى هذه الظاهرة اللغوية «إبدالاً» عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت٢١٦هـ)، وعرض لها الزجاجي (ت٣٣٧هـ) فقال «يقال لهذه الحروف (يعني الكلمات): الإبدال والمعاقبة والنظائر،منها مايجوز بعضه مكان حرف واثنين وثلاثة، وليس كل الحروف كذلك».

وذلك يعني أن أكثر مايجيء التعاقب بين حرفين كالضاد والطاء في قضم وقطم، أو بين ثلاثة أحرف كمدّ ومتّ ومطّ، ولا يجيء الإبدال في الحرف الواحد إلا في إبدال تخفيف الهمزة نحو: سأل وسال فإن الهمزة والألف كالحرف الواحد. وقد يجري الإبدال في حرفين من البدلين نحو: سحق وسهك فإن الحاء بدل من الهاء وهما أختان في المخرج، والقاف بدل الكاف وهما أختان، وهو من مسوّغات الإبدال. وقد يجري بين حروف ثلاثة في الكلمة الواحدة نحو: درأ وطلع، فإن الدال والطاء متعاقبتان لأنهما نطعيتان، والراء واللام ذَلْقيتان وأختان، والهمزة والعين أختان حلقيتان، ومن علماء اللغة من يقول بهذا الإبدال الثنائي والثلاثي. ولعل أول من عرض للإبدال الثلاثي أبو الفتح بن جني (ت٣٩٢هـ) وسمّاه الاشتقاق الأكبر وعرّفه بقوله: «وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تجتمع التراكيب الستة ومايتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدّ بلطف الصنعة والتأويل إليه».

ويبدو أن هذا النوع من الإبدال القائم على التقاليب قد ابتعد عمّا عالجه اللغويون قبل ابن جني واختلفت أمثلته وفلسفته فاتجه نحو الدلالة مبتعداً عن الصوتية التي كانت منطلق السابقين إلى التصنيف في الإبدال، ومع ذلك فقد صنف ابن جني كتاباً سماه «تعاقب العربية» ويُفهم مما جاء في مقدمته أنه كان الأقرب إلى إبدال سابقيه، إذ يقول: «اعلم أن كلّ واحد من ضربي التعاقب، وهما البدل والعوَض، قد يقع في الاستعمال موقع صاحبه وربما امتاز أحدهما دون رسيله، إلا أن البدل أعم استعمالاً». وما هذا التوزع بين الإبدال والتقاليب الذي يبدو عليه بعض القلق عنده إلا نتيجة لعدم استقرار المصطلح عند جمهور اللغويين.

ويشار هنا إلى أن ابن جني قد عقد في كتابه «الخصائص» باباً للإبدال هو «باب في الحرفين المتقاربين، يستعمل أحدهما مكان الآخر» فهو يميل في هذا إلى جعل الإبدال في الحروف المتقاربة صفة ومخرجاً، وإن كان كثير من علماء اللغة لا يشترطون هذا التقارب، بل لقد جمع بعضهم كل ماتقارب لفظاً وخطاً ومبنى وسلكه في إطار الإبدال.

ومن الجدير بالذكر هنا أن اللغويين اختلفوا حول جريان الإبدال على ألسنة العرب عفواً أو تعمُّداً، فرأى بعضهم أنه لم يجر على ألسنة العرب عفواً، وإنما كان بقصد تنويع معاني الكلمة الواحدة، ومن هنا حسب أصحاب المعاجم أن الإبدال في النظائر بنطقين متساويين هو من سنن العرب في كلامها، في حين ذهب أبو الطيب اللغوي (ت٣٥١هـ) إلى أنه «ليس المراد بالإبدال أن تتعمد العرب تعويض حرف من حرف، وإنما هي لغات مختلفة لمعان متفقة، واستُدلّ على ذلك بأن قبيلة واحدة لاتتكلم بكلمة طوراً مهموزة وطوراً غير مهموزة، ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى، إنما يقول هذا وذاك آخرون».

وثمة شواهد شبيهة بالإبدال ليست منه في شيء أيضاً، إنما هي وليدة أمراض النطق والكلام كاللثغة والغمغمة والحُبْسة والتأتأة والفأفأة، أو وليدة التصحيف الناجم عن سوء السمع أو عن إغفال الإعجام.

أما أشهر من عرض لهذه الظاهرة بالبحث أو بالتصنيف فالأصمعي ويعقوب بن السكيت (ت٢٤٤هـ) والزجاجي وكتابه «الإبدال والمعاقبه والنظائر» وأبو الطيب اللغوي وكتابه «الإبدال»، وقد حقق هذين الكتابين الأخيرين عز الدين التنوخي ونشرهما المجمع العلمي العربي بدمشق. وكتاب «الإبدال» لأبي الطيب من أوعب ماأُلِّف في هذا الباب وأغزرها مادة تم حشدها وتقييدها وفق منهج حسن التبويب والتنظيم، مرتب على تسلسل حروف الهجاء.

وأشهر من صنف في هذه الظاهرة من المحدثين أحمد فارس الشدياق، وكتابه: «سر الليال في القلب والإبدال»، وربحي كمال، وكتابه: «الإبدال في ضوء اللغات السامية».

مسعود بوبو

الموضوعات ذات الصلة:

التنوخي (عزالدين -) - الزجاجي (عبد الرحمن بن إسحق -) - ابن السكيت - أبو الطيب اللغوي.

راجع للاستزادة:

- أبو الطيب اللغوي الحلبي، الإبدال، تحقيق عز الدين التنوخي. ط. (مجمع دمشق ١٩٦٠).
- عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي، الإبدال والمعاقبة والنظائر، تح، عز الدين التنوخي (مجمع دمشق، ١٩٦٢).
- يعقوب بن السكيت، الإبدال، تحقيق، حسين محمد شرف (القاهرة ١٩٧٨).

■ الآبرات

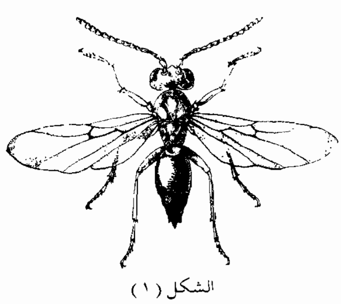
الآبرات Cynipidae حشرات صغيرة تتطفل على النبات حصراً، وتنتمي إلى رتبة غشائيات الأجنحة [ر] Hymenoptera، ورُتَيْبَة ذات الخصر Apoerita، وفصيلة عليا هي الآبرانيات Cynipoideae.

صفاتها الخارجية

الحشرة الكاملة image: لا يتجاوز طول الحشرة الكاملة في أغلب الأنواع ٥ مم، جسمها منضغط جانبياً، ويبدو للوهلة الأولى مؤلفاً من جزء واحد، إلا أنه إذا دقق النظر في المنطقة الواصلة بين حلقات الصدر والبطن يتبين وجود حلقة مُتَخصِّرة وصغيرة تتصل بحلقة ثانية كبيرة ممتدة تكاد تحجب الحلقات الخمس المتبقية من الحشرة. وللأنثى آلة لسع (إبرة) مندغمة داخل الجسم وتبرز عند تحضير المكان المناسب للبيوض الصغيرة (الشكل ١)، ولأن منها ما يسبب أبر الأزهار في بعض النبات جاءت تسميتها الآبرات.

اليرقة larva: وهي صغيرة دودية عديمة الأرجل، يصل طولها إلى ٦مم، لونها أبيض عاجي. أجزاء فمها مُخْتَزَلة، ولها مضخة عضلية قوية تبتلع السوائل المحيطة بها ضمن العفصة gall النباتية المتكونة بفعل مفرزات غددها اللعابية المتضخمة. وتستطيع اليرقة البقاء خارج العفصة مدة طويلة قد تصل إلى سنتين، كما أن بعض اليرقات يحرك كتلة العفصة إذا انفصلت عن النبات ويقذفها نحو الأعلى.

الخادرة pupa: وهي صغيرة من النوع الحر exarate (اللواحق غير ملتصقة بالجسم) قد يصل طولها إلى ٥ مم.



الشكل (١)
المغراسة الشاحجة آبرة السنديان

حياتها

تمتاز هذه الحشرات من غيرها من رتبة غشائيات الأجنحة ذات الخصر بأنها آكلة للنبات phytophagous . وتعيش أطوارها المختلفة، عدا الحشرة الكاملة، ضمن النسج النباتية للعائل، وتتمم دورة حياتها فتعطي حشرات كاملة متباينة الأشكال، وذلك بحسب نوع النبات العائل، والجزء منه (ورقة أو برعم أو غصن أو جذر)، وبحسب طريقة التكاثر (جنسي أو لا جنسي). وتضع الأنثى بيوضها على جزء محدد من النبات العائل بآلة اللسع، فتدفع آلتها بضربات متتابعة حتى تصل إلى النسيج المطلوب، ثم تضع بيوضها مجتمعة أو فرادى بحسب الأنواع.

وقد يختلف شكل الحشرات الناتجة من العفصات، حتى أن العلماء صنّفوها في أسماء علمية مختلفة بسبب تكوينها عفصات مختلفة الشكل وفي أجزاء نباتية متباينة التركيب (الشكل - ٢).

ويفرز أفرادها روائح تميز كل نوع منها. فالمغْراسَة (البَيْريزة) الطَرَفية Biorhyga terminalis تطلق رائحة تشبه رائحة البق مع رائحة الليمون، أما آبرة الصباغ Cynips tinctoria فتعطي رائحة السكر المحروق.

وتتغذى يرقاتها بضخٍّ نواتج انحلال الخلايا المغذية بوساطة بلعومها العضلي. وهي لا تعطي أي فضلات في أثناء حياتها اليرقية بل تجمعها في القناة الهضمية الوسطى وتلقي بها دفعة واحدة قبل التَخَدُّر (التحول إلى خادرة).

تكاثرها ودورة حياتها

يتصف التزواج بين أفراد هذه الفصيلة بطرافته. فذكر الآبرة الفطرية Cynips pezowachoides مثلاً يضرب أنثاه عدة مرات بقرني استشعاره الخيطيين حتى تهدأ، ثم يمتطي ظهرها ويحتضن حلقات صدرها بأرجله الطويلة ثم يسافدها، وتدوم هذه العملية عدة دقائق. وتتضمن دورة الحياة أربعة أطوار هي البيضة، ثم اليرقة، ثم الخادرة ثم الحشرة الكاملة. وتكون المراحل الثلاث الأولى ضمن العفصة النباتية، ثم تخرج الحشرة الكاملة بثقْبِ مَمَرٍّ مناسب لها نحو الخارج حيث تُعيد دورة الحياة.

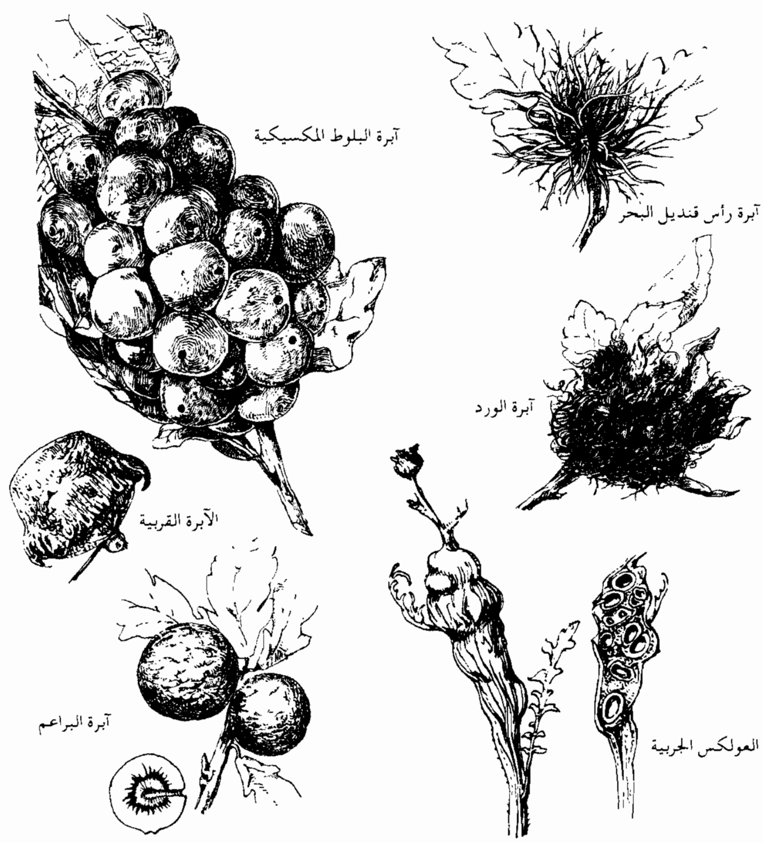
ويُمَيَّزُ هذه الفصيلة بحسب دورة حياتها مجموعتان:

١- آبرات ذات دورة حياة عادية (جنسية)، تتكاثر بتسافد الذكور والإناث وإعطاء بيوض ملقحة دوماً. وهي تضم حشرات تتطفل على نباتات غير البلوط والدلب.

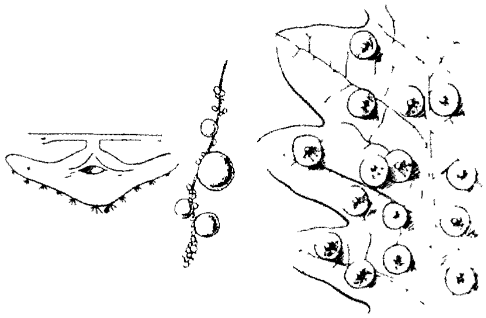
٢-آبرات متناوبة الأجيال يتناوب فيها جيل جنسي التكاثر مع جيل بكري التكاثر. وينتج عن كل مجموعة من أفراد الجيلين عفصات مختلفة الشكل. وهناك حالتان جديرتان بالاهتمام:

أ- آبرات يتكاثر فيها الجيلان على النبات نفسه وعلى أجزاء مختلفة منه، مثل جنس المغْراسَة حيث يعيش الجيل المؤلف من إناث فحسب (أفراد لا متزاوجة agamouse) على جذور البلوط، وتسبب عفصات قاسية فلينية في فصل الشتاء. وهي تستطيع وضع بيوضها في درجة حرارة أدنى من الصفر. وتخرج هذه الإناث من العفصات وتصعد ساق الشجرة، وتضع بيوضها على الأغصان مسببة عفصات خاصة بها. ويخرج من هذه العفصات أفراد مجنحة تتكاثر جنسياً ، وهكذا دواليك (الشكل -٣).

وهناك مثال مشابه هو طُرَّةُ الأوراق العُدَيْسية Neuroterus lenticularis ، (آبرة الأوراق)، إذ تظهر في أيلول وتشرين الأول عفصات صغيرة عديسية الشكل على السطح السفلي لأوراق البلوط وفي شباط يخرج من هذه العفصات أفراد « لا متزاوجة » تضع بيوضها ضمن الأفرع الغضة. وتخرج من هذه البيوض يرقات تُكَوِّن عفصات كروية صغيرة. وفي شهر حزيران يخرج من هذه العفصات الكروية ذكور وإناث تتسافد. وتضع الإناث بيوضها على الوجه السفلي للأوراق الغضة ليتكوّن حول يرقاتها عفصات عديسية الشكل، وهكذا دواليك (الشكل - ٤).



(الشكل - ٢) أشكال مختلفة لعفصات تسببها آبرات



(الشكل -٤) عفصات طرف الأوراق العدسية
١ - على الوجه السفلي للورقة
٢ - مقطع عفصة عديسية
٣ - عفصات كروية على فرع حديد



(الشكل -٣) عفصات المعراسة
١ - عفصات الجذور
٢ - عفصات الأفرع
٣ - مقطع عفصة
٤ - أنثى معراسة عبر مجنحة

ب - آبرات تتمم دورة حياتها على نباتين مختلفين مثل آبرة الكلس Cynips Calcis، إذ يتمم الجيل اللاامتزاوج تطوره على نبات البلوط من نوع البلوط الزبدي Quercus pedunculata ويكون عفصات بشكل القمع الملتوي. أما الجيل الجنسي فيعطي -على الأزهار المذكرة لنوع البلوط الأشعر Q.cerris- عفصات تشبه الجرار

تأثيرها في النباتات

تسبب إفرازاتُ بيوض الحشرات ويرقاتها تكوُّن كتلة منتفخة العفصة التي تنتُجُ من تهيَج أنسجة النبات العائل. يلي ذلك تميُّز هذه النسج إلى أنسجة متخصصة مختلفة التركيب. ويرجع هذا التحول في شكل أنسجة النبات العائل وترتيبها إلى إفرازاتٍ يطلقها جنين البيضة من خلال القشرة الرقيقة. ويساعد هذا التنبيه وما يليه من إفرازات يرقيه على تضخيم النسيج النباتي وإعطاء العفصة الشكل المميّز للنوع، ولذلك يكون تصنيف الحشرة الآبرة المسببة للعفصة أسهل بالاعتماد على شكل العفصة.

وتجدر الإشارة إلى أن العفصات لا تسبب أضراراً للنبات أبداً، بدليل استمراره في نموه الطبيعي على الرغم من إصابة أجزاء كثيرة منه بنسبة قد تصل إلى ٨٠٪. ويغلب الماء على تركيب العفصات، كما تحتوي على حمض الدّبغ (التانيك) tanic acid وحمض العفص (الغاليك) gallic acid ، وأكثر العفصات غنىً بهذه المواد عفصات آبرة الصباغ التي تحتوي على ٦٥٪ من وزنها الجاف من مادة التانات tannat . وثمة سكريات تتزايد في نهاية الربيع حتى منتصف الشتاء وذلك على حساب حمض الدبغ. وتزيد نسبة الماء كثيراً في نسيج العفصة عما هي عليه في نسيج النبات العائل وكذلك يلاحظ ازدياد مماثل في نسبة البوتاسيوم.

وتستعمل العفصات في المناطق غير الصناعية مصدراً للصبغات السوداء وفي صناعة الحبر (بنقعها، بعد كسرها، في محلول سلّفات الحديد) ولدباغة الجلود، كما تستعمل في عيادات العلاج الطبيعي وصناعة المبيدات الحشرية.

محمد عادل الفتيّح

الموضوعات ذات الصلة :

التكاثر البكري - العفصة - غشائيات الأجنحة.

مراجع للاستزادة:

- P.P. GRASSE, Traité de Zoologie (Tom X. Hymenopteress. Masson et Cie 1962).

■ إبراهيم (حافظ -)
(١٨٧١-١٩٣٢م)

محمد حافظ بن إبراهيم فهمي شاعر مصري، ولد في ديروط إحدى بلدات الصعيد في أسرة متوسطة الحال، وكان أبوه مهندساً، اختار لسكناه سفينة « ذهبية » ترسو على شاطئ النيل أمام بلدة ديروط، أقام فيها مع زوجته التركية التي أنجبت الشاعر الكبير حافظ ابراهيم.

توفي والده وهو في الرابعة من عمره، فانتقلت به والدته إلى القاهرة حيث كفله خاله، وهناك التحق ببعض المدارس ولكنه لم يبد تفوقاً، ثم انتقل مع خاله إلى طنطا، وهناك ساءت العلاقة بينهما، فقد بدا على حافظ تعلق بالأدب والشعر، في حين كان خاله يريد له سبيلاً آخر، فهجر بيت خاله وعمل في مكاتب بعض المحامين، وسرعان ما سئم هذه المهنة وفي سنة ١٨٨٨م التحق بالمدرسة الحربية، وتخرّج سنة ١٨٩١م، فعين ملازماً في وزارة الحربية، ثم نقل إلى دائرة الشرطة في وزارة الداخلية. وفي سنة ١٨٩٦ أرسل إلى السودان في عداد الحملة المصرية الإنكليزية التي كانت بقيادة اللورد كتشنر، ولمّا نشبت ثورة ١٨٩٩ في السودان اتهمّ بالاشتراك فيها مع عدد من الضباط وحوكم وأحيل على الاستيداع، وفي سنة ١٩٠٣ طلب إحالته على المعاش فأجيب إلى طلبه، ولم يبق له عمل يرتزق منه، وقد امتدت مرحلة البطالة من سنة ١٩٠٠ إلى ١٩١١ .

وكانت تلك الحقبة أشدّ مراحل حياته بؤساً وأشقاها. وكانت في الوقت ذاته أخصب المراحل في نتاجه الأدبي وأجداها. وكان وهو في السودان قد راسل الشيخ محمد عبده شعراً ونثراً، فلمّا عاد إلى القاهرة واعتزل العمل الحكومي التحق بدروس الشيخ ومجالسه، واتصل عن طريقه برجال مصر البارزين أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وقاسم أمين ومحمود سامي البارودي وتوفيق البكري والمنفلوطي والمويلحي، وكان هؤلاء يمثلون نخبة رجال مصر في الوطنية والاجتماع والإصلاح الخلقي والعلمي، وهي الفئة التي وضعت أسس نهضة مصر الحديثة. وكان اختلاطه بهذه الجماعة سبباً في تفتح عينيه على



فاجعته في نفسه، وفي الشعب المصري كله، وهو ابن الشعب الذي عرف الآلام نتيجة الضيق واليتم والحرمان، فالتأم في نفسه شقاؤه بشقاء أمته، بعد أن رأى فقر شعبه وبؤسه، فانطلق ينظم من الشعر ما يفرّج عنه وراح يدعو الشعب للنهوض ويشحذ منه العزائم ليعيد إلى البلاد مجدها، وكان يشعر بمحنة أمته بالإنكليز وما ينزلونه بالشعب من ضروب العسف والظلم والتنكيل، وما يستنزفونه من خيرات البلاد وينهبونه من أرزاقها، فيحاول أن يفتح العيون على سوء حال وطنه وأمته، وقد صادفت قصائده هوى في نفوس تلك النخبة التي

حملت لواء الإصلاح.

وفي هذا الوقت ذاع صيت حافظ في المحافل والأندية الأدبية، وتناولت الصحف قصائده، ومع ذلك ظل في شعره دائم الشكوى من بؤسه وسوء حالته.

وفي سنة ١٩١١ عينه وزير المعارف رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية، فابتدأت مرحلة جديدة في حياته، توارت فيها الخيبة والحرمان وحلّ محلهما الاطمئنان، وقد منح رتبة «البكويّة» من الدرجة الثانية و«نيشان النيل» من الدرجة الرابعة، ونعم في منصبه هذا بسعة العيش وحسن التقدير، ولكن سعة العيش تركت أثراً سلبياً في شاعريته وفنّه وإنتاجه، فقد نضبت قريحته أو كادت..

وفي سنة ١٩٣٢ أحيل على المعاش، وكان رئيس الوزراء في مصر آنذاك إسماعيل صدقي الذي نكّل بالزعماء الأحرار، فعادت لحافظ ثورته التي كانت تضطرم في نفسه في عنفوان شبابه فأخذ يهزأ بالإنكليز وجيوشهم ويتحداهم، ولكن القدر لم يمهله حتى يكمل رسالته إذ مات في السنة ذاتها.

لم يتلق حافظ إبراهيم في المدارس شيئاً قيّماً من الثقافة، ولكنه كان يقرأ من الكتب ما يوافق هواه ويلائم مزاجه، ويتمثل ما يقرأ، فقرأ دواوين فحول الشعراء وحفظ كثيراً من الأشعار، وكانت تسعفه في ذلك حافظة عجيبة، تأثر بالمعري من القدماء وبالبارودي من المحدثين، أما المدرسة الفكرية التي عملت على تطور شخصيته ودفعته إلى طريق الإصلاح الاجتماعي والسياسي فهي مدرسة رجال الفكر الذين التقاهم في مجلس محمد عبده والأشخاص الذين كان يختلط بهم في المقاهي بباب الخلق والسيدة زينب وحي الأزهر وأكثرهم من الشعراء والأدباء، ولكن هذه الثقافة لم تكن عميقة أو منهجية، غير أنه كان يسحر المجالس بحديثه وما يرويه من شعر وما يورده من نوادر وطرف وأقاصيص، وكان فكهاً ميالاً إلى الدعابة، يلقيها بخفة روح، وذلك على نقيض ما يرى في شعره من ميل إلى التشاؤم واليأس.

وكان من طبعه الوفاء لأصدقائه، يتقبل منهم نقدهم قصائده، فيقرؤها عليهم قبل نشرها ليعرف صداها في نفوسهم ويقوّم اعوجاجها إن وجد، ولكنه كان مهملاً، فلم يعن بجمع آثاره في حياته، بل كان يبقيها على أوراق غير مبالٍ بها، ولمّا عزم على إصدار ديوانه اضطرّ إلى جمع الكثير من قصائده من الصحف وأفواه الأصدقاء، وظل كثير من شعره مفقوداً.

عرف حافظ بالمروءة والأريحية، وكان على بؤسه وضيق حاله متلافاً للمال، لا يبخل بقليله ولا يردّ سائلاً، ولم يكن يضنّ على نفسه بما يمتعها من مباهج الحياة، فينفق إنفاق المترفين. وكانت صراحته الشديدة من أسباب إخفاقه في حياته الرسمية.

لحافظ إبراهيم ديوان معروف أكثره في المدائح والتهاني والمراثي، غير أن أجمل أشعاره كانت في الاجتماع والسياسة. بلغت المدائح والتهاني في ديوان حافظ زهاء الربع، وكان يقول المديح أحياناً في أناس لا يستحقونه، وقد بقي يهنئ ويمدح حتى أيام جدبه الشعري. ولكنه كان يتلطف في قوله ويبدي براعة في معالجة هذا الغرض، فكانت أماديحه على الرغم مما فيها من مبالغات زاخرة بالحكم والمعاني التي تعم الناس ولا تخصّ الممدوح فقط، وتدعو إلى العمل النافع، ويبدو ذلك في مدحه لشوقي حين يقول:

وخذ بزمام القوم وانزعْ بأهله
إلى المجد والعلياء أكرم مَنزع

وقد أخذ عليه رثاؤه للملكة فيكتوريا ومديحه للملك إدوارد سنة ١٩٠٢، ولكن كثيراً من ناقديه يعزون ذلك إلى خوفه من الإنكليز في تلك الحقبة، فهو يداورهم ويجاملهم، حتى إذا أجيب إلى طلبه وأحيل على المعاش، أصبح خالصاً لشعبه.

أما مراثي حافظ فهي أغزر أبواب ديوانه، وهو في ذلك يقول:

إذ تصفحت ديواني لتقرأه
وجدت شعر المراثي نصف ديواني

وكان يصوّر في رثائه عاطفته الشخصية بأسلوب المتفجع، وكان يلوّن رثاءه بألوان الشخصيات المختلفة التي يرثيها، ففي رثائه لأصدقائه تبرز روح الوفاء كما يبرز التفجع والأسى، أما رثاؤه للزعماء فكان ملحمة وطنية يتمثل فيها الوطن مفجوعاً بأعزّ الناس إليه. ومن خير مراثيه قصيدته في رثاء الإمام محمد عبده ومطلعها:

سلام على الإسلام بعد محمدٍ
سلامٌ على أيامه النضرات

على الدين والدنيا، على العلم والحجى
على البرّ والتقوى على الحسنات

ولحافظ قصائد يرثي فيها الإنسانية في نكبتها ويشعر بالفجائع أنى كان موقعها، ويبدو ذلك في رثائه لمدينة مسينة التي أصابها الزلزال فأغرقها.

ويبدو حافظ في كل ما نظم من رثاء عميق الإحساس صادق المشاعر مما يجعل قارئه يعيش في موكب من عواطف الشاعر، مما حدا بشوقي إلى أن يقول في رثائه حافظاً:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي
يا منصف الموتى من الأحياء

أما شعره الاجتماعي والسياسي والوطني فقد هزّ به القلوب، فلقّب بشاعر الشعب وشاعر النيل. وكان من دعاة الإصلاح الاجتماعي، يحث الأغنياء على رعاية الفقراء، وهو يشفق على اليتيم والمحروم فيدعو إلى إزاحة البؤس عمن ضاقت بهم سبل العيش ولقهم الشقاء والحرمان، وهو في الوقت نفسه يتألم من عسف الإنكليز وظلمهم، وتراه يتحدث إلى الشعب بشعر قوي الأثر في نفوس قارئيه وسامعيه نحو قوله:

أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا
ونحن نمشي على أرضٍ من الذهب

والقوم في مصر كالإسفنج قد ظفرت
بالماء لم يتركوا ضرعاً لمحتلب

وهو في شعره السياسي يدعو الشعب إلى النهوض من الغفلة والتسلح بالخلق القويم والعلم - وكان في نظرته الاجتماعية الإصلاحية يلحّ على تحصين المال بالعلم النافع.

أما موقفه من المرأة فكان وسطاً يدعو فيه إلى الاعتدال وحسن المعاملة، فيقول:

فتوسّطوا في الحالتين وأنصفوا
فالشرّ في التقييد والإطلاق

ومن أبرز الأحداث التي هزته حادثة «دنشواي» التي علّق فيها الإنكليز المشانق لإرهاب الشعب، ولكنه ينهج في قصيدته عنها أسلوب التهكم والسخرية، كما هي حاله في أكثر قصائده السياسية، ويبدو فيها كأنه يداري المحتلّ وإن كان في حقيقته يداوره ويفضح أساليب عسفه، وكأنه كان يحتاط لنفسه من سجنه، وهو القائل:

إذا نطقت فقاع السجن متكأ
وإن سكتُّ فإن النفس لم تطب

ولذلك نراه يصرخ متألماً عندما صدر قانون

المطبوعات في مصر في عهد بطرس غالي، وفيه قضاء مبرم على الحريات:

إن البليّة أن تباعَ وتشترى
مصرٌ، وما فيها، وألاّ تنطق

وهو في ندائه لشباب مصر يتقلب بين دعوتهم إلى الثورة حيناً وإلى المداورة والمحاورة حيناً آخر، وأخذ الحقوق عن طريق الحيلة والدهاء.

ومن أجمل قصائده الاجتماعية القومية تلك التي يدافع فيها عن اللغة العربية دفاع المحبّ للغته المؤمن بعزتها ويتصدى لمن يعتقد أنها لغة ميتة. وفي قصيدته العمرية التي يصف فيها عمر بن الخطاب الذي عدل فأمن، دعوة مبطنة إلى القائمين على الحكم أن يعدلوا وذلك إضافة إلى ما فيها من الاعتزاز بالعروبة وتاريخها.

ولكنه، على حبه مصر ومجدها، غلب عليه الخوف عندما أصبح موظفاً فكتم مشاعره إلا قليلاً، كأنما أقام على نفسه رقيباً، فلم ينظم أشعاراً وطنية حذر ذوي البأس وأصحاب السلطان، ولكنه عندما قامت ثورة ١٩١٩ وخرجت مظاهرات النسوة وتصدّى لها الإنكليز، ثارت وطنيته ثانية فنظم قصيدته الساخرة:

خرج الغواني يحتججن
ورحت أرقب جمعهنّه

وقد ألهبت القصيدة الحماسة في صدور الشباب.

لم يحظ حافظ بخيال محلّق في عالم التصوير وابتكار المعاني ولهذا مال إلى بساطة التعبير، واعتمد في معانيه على الحياة أكثر مما اعتمد على التعمق في الدراسة، ومع ذلك فقد ساعده ما حفظ من تراث العرب على تلوين المعاني القديمة بلون حديث، وتتجلى في شعره قوة العاطفة وإرهاف الحسّ اللذان عوضاه عن سعة الخيال، أما أسلوبه فقد كان واضحاً كما بدت الموسيقى الشعرية جليّة في ألفاظه وتراكيبه.

ولحافظ إبراهيم ديوان شعر جمعه في حياته ولكنه لم يدرج فيه قصائده جميعها. وقد جمع أصدقاؤه في دمشق ومصر القصائد التي خلا منها الديوان ونشروها، ثم أشرف أحمد أمين على تلك القصائد فنسّقها وضبطها وأخرجها ديواناً كاملاً لحافظ ابراهيم في جزأين.

ولحافظ أيضاً نثر أدبي قليل لا يصل إلى مستوى شعره، ومن آثاره النثرية «ليالي سطيح» وهو مقالات نقدية وخواطر في الأدب والسياسة والمجتمع، وقد ترجم رواية فيكتور هوغو المشهورة «البؤساء» ولكنه لم يتقيد كثيراً بالنص الأصلي.

ج.ت

مواضيع ذات الصلة:

شوقي (أحمد ـ) ـ محمد عبده.

مراجع للاستزادة:

ـ محمد كرد علي، المعاصرون (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠).
ـ عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي (القاهرة ١٩٣٧).
ـ عبد اللطيف شرارة، حافظ ابراهيم (القاهرة).

■ إبراهيم بن أحمد

(١٠٢٤-١٠٥٨هـ/١٦١٥-١٦٤٨م)

السلطان العثماني الثامن عشر (١٠٤٩-١٠٥٨هـ/١٦٤٠-١٦٤٨م)، وهو الابن الأصغر للسلطان أحمد الأول [ر] وأخو السلطان مراد الرابع (حكم ١٠٣٢-١٠٤٩هـ/١٦٢٣-١٦٤٠م) ولد في ١٢ شوال/٤ تشرين الثاني، وعاش مختبئاً خشية قتله، كما قتل عدد من إخوته، إذ بقي الذكر الوحيد المرشح للحكم. فكان لذلك أثر بارز في تكون شخصيته وأزماته النفسية فيما بعد. وعندما توفي أخوه مراد الرابع خلفه في السلطنة في ١٦ شوال ١٠٤٩هـ/٩ شباط ١٦٤٠م، وذلك بمساعي الصدر الأعظم قره مصطفى باشا.

وكان للصدر الأعظم قره مصطفى باشا أثر بارز في إدارة الدولة في السنوات الأربع الأولى من حكم السلطان إبراهيم الذي عرف عنه ضعفه، فأقام علاقات سلمية مع فارس، وعقد اتفاقية سلام مع النمسة (١٠٥١هـ/١٦٤٢م)، وجدد الهدنة مع بولندة، واستعاد «آزوف» من القوزاق بمساعدة تتر القرم (١٦٤٢م) واهتم كذلك بتنظيم مالية السلطنة، فاصلح النقد



(السكة)، وخفف النفقات، وجهد في جمع الضرائب، وأجرى مسحاً جديداً للأراضي عُرف «بالتحرير» وقضى على ثورة والي حلب نصوح باشازاده حسين باشا الذي ثار عام ١٠٥٣هـ/١٦٤٣م وقد أثارت أعمال هذا الصدر الأعظم ضغينة منافسيه وحسدهم، وعلى رأسهم والدة السلطان إبراهيم، ومصطفى سليمان زاده، ويوسف الركَبدار، وتمكن جنجي خوجه (صاحب الجن)، بمساعدة آخرين، من الكيد لقره مصطفى باشا إلى أن تمّ إعدامه (١٠٥٣هـ/١٦٤٤م)؛ وأصبح مصطفى سليمان زاده صدراً أعظم، وجنجي خوجه قاضي عسكر الأناضول، ويوسف الركبدار أمير البحر (قبطان باشا).

اتخذ جنجي خوجه من استيلاء القراصنة المالطيين على سفينة تنقل حجاجاً إلى مصر، وكان فيها رئيس الحريم في القصر (الكزلار آغا) حجة لمهاجمة جزيرة كريت التي كانت خاضعة للبندقية، وكان ذلك سبباً لحرب ضروس نشبت مع البندقية واستمرت أربعة وعشرين عاماً.

فاحتل يوسف قبطان باشا خانية في ١٩ آب ١٦٤٥، واحتل في العام التالي مدينة «رتيمو Rethymo»، فأثار ذلك حسد الصدر الأعظم، مع أن العاصمة كاندية امتنعت عليه. وقد أدت الدسائس بين الاثنين إلى خلع الصدر الأعظم (١٠٥٥هـ/١٦٤٥م)، وإعدام يوسف قبطان باشا في العام نفسه.

كانت أجواء الخوف المحيطة بالسلطان إبراهيم سبباً في إصابته بصداع شديد وآلام مبرحة في جسده، فوجهه مَن حوله من الأقرباء وأفراد الحاشية ولا سيما أمه إلى الغرق في الملذات، مما

أدى بعد حين إلى تعاظم نفوذ الجواري والحريم وسيطرتهم على شؤون البلاط.

وأدى بذخ السلطان إبراهيم وحياته الماجنة وفرضه الضرائب للإنفاق على ذلك إلى ثورات في الولايات، كما حدث في سيواس مثلاً، وامتدت الثورة إلى اصطنبول احتجاجاً على هدر الأموال. فثار الانكشارية على السلطان ودعم ثورتهم شيخ الإسلام، وأدى ذلك إلى قتل الصدر الأعظم أحمد باشا، ثم قتل السلطان نفسه في ٢٨ رجب/ ١٨ آب. وخلفه في السلطنة ابنه محمد الرابع (حكم ١٠٥٨-١٠٩٩هـ).

عبد الكريم رافق

مراجع للاستزادة:

- S.SHAW, History of Ottoman Empire and Modern Turkey Vol- I, PP. 200-203.

■ إبراهيم بن أدهم
(٠٠٠-١٦١هـ/ ٠٠٠-٧٧٨م)

إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر التميمي (ويقال العجلي) البلخي أبو إسحاق. من كبار الزهاد والمتصوفين من كورة بلخ، حج أبوه مع زوجه وهي حبلى فولدت إبراهيم في مكة، فكانت تطوف به على الحلق في المسجد وتدعو لابنها أن يجعله الله صالحاً.

كان أبوه أدهم من أثرياء خراسان فعاش إبراهيم حياة دعة وترف وكان يحب الصيد. وورد في أخباره أنه سمع في إحدى رحلاته للصيد هاتفاً يقول له: ليس لهذا خلقت ولا بهذا أمرت. وتكرر له ذلك فاعتقد أنه إنذار من رب العالمين، فألقى بثيابه إلى أحد الرعاة، وأخذ منه كساءه وسار إلى العراق ومنها إلى الشام وبدأت في حياته صفحة العبادة والزهد والتصوف، وكان يبحث عن الحلال عملاً وطعاماً، ويعد هذا الأمر جوهر العبادة.

ذهب إبراهيم إلى مكة وصحب سفيان الثوري [ر] والفُضَيْل بن عياض [ر] وعاد إلى الشام ينتقل بين مناطق الثغور مجاهداً وبعض المناطق الأخرى عاملاً لا يأكل إلا من أجر عمله، فكان يعمل في الحصاد، وطحن الحبوب، وحراسة البساتين، وكان سخياً كريماً لا يحتفظ بشيء من أجره بل ينفقه على أصحابه وذوي الحاجة مكتفياً بأبسط طعام وغالباً ما يكون الخبز والماء. كان كثير التفكر والصمت، بعيداً عن حب الدنيا، وما فيها من شهرة وجاه ومال، حريصاً على الجهاد في سبيل الله لا يفتر عنه. وكان على زهده وتصوفه يدعو إلى العمل والجد فيه وإتقانه، ليكون كسباً حلالاً. ولذلك أعرض عن ثروة أبيه الواسعة، وعما كان يصيبه من غنائم الحرب وآثر العيش من كسب يده.

ولإبراهيم بن أدهم رأي في محاربة الغلاء وارتفاع الأسعار فقد ذكروا له أن اللحم غلا ثمنه. فقال: أرخصوه. أي لا تشتروه فترخص أسعاره.

كان إبراهيم شديد الحنين إلى وطنه. فمن أقواله لأصحابه: عالجت العبادة فما وجدت شيئاً أشد عليّ من نزاع النفس إلى الوطن. كما روي عنه قوله: «ماقاسيت، فيما تركت، شيئاً أشد علي من مفارقة الأوطان».

توفي إبراهيم بن أدهم وهو مرابط مجاهد في إحدى جزر البحر المتوسط، ولما شعر بدنو أجله قال لأصحابه: أوتروا لي قوسي. فأوتروه. فقبض على القوس ومات وهو قابض عليها يريد الرمي بها، وقيل إنه مات في حملة بحرية على البيزنطيين، ودفن في مدينة جبلة على الساحل السوري، وأصبح قبره مزاراً، وجاء في معجم البلدان أنه مات بحصن سوقين ببلاد الروم.

ولاتساع شهرة هذا الزاهد المتصوف في أنحاء العالم الإسلامي نجد أخباراً لسيرته وقصصاً حول هذه الشخصية وبخاصة في الهند والملايو وإندونيسية وغيرها.

وفي المكتبة الظاهرية في دمشق مخطوطة لقصة عامية بعنوان «سيرة السلطان إبراهيم بن أدهم».

هاني المبارك

الموضوعات ذات الصلة:

التصوف.

مراجع للاستزادة:

- الأصفهاني، حلية الأولياء (المكتبة السلفية ط١).
- الكتبي، فوات الوفيات (بيروت، دار صادر).

■ إبراهيم بن الأغلب
(١٤٠-١٩٦هـ/ ٧٥٧-٨١٢م)

إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي، مؤسس الإمارة الأغلبية التابعة للخلافة العباسية في ولاية إفريقية (تونس).

تنتمي أسرته إلى قبيلة تميم التي نزلت في خراسان منذ الفتح. وكان والده الأغلب بن سالم من البارزين بين رجال الدعوة العباسية في مدينة مرو الرُّوذ إلى جانب أبي مسلم الخراساني، ثم أصبح من أعوان أبي جعفر المنصور الذين أجهزوا على أبي مسلم، فجعله المنصور أحد القواد في حملة محمد بن الأشعث التي وجهها إلى إفريقية سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م على أن يكون خلفاً لابن الأشعث إذا ما حدث له أمر. وبعد نجاح الحملة في مهمتها عيّن قائدُها الأغلب بن سالم، حاكماً لطُبْنة كبرى مدن الزاب (منطقة الأوراس جنوب قسنطينة). وفي سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م أجبر الجند ابن الأشعث على الخروج من القيروان، فعيّن الخليفة المنصور الأغلب مكانه، لصدّ هجمات الخوارج وقمع اضطرابات الجند في تونس، ولقي الأغلب حتفه تحت أسوار القيروان سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م عندما كان يصد هجوماً لجند تونس يقوده الحسن بن حرب الكندي.

كان إبراهيم بن الأغلب آنذاك في العاشرة من عمره. ويبدو أن أسرته كانت قد انتقلت إلى مصر، إذ يرد ذكره بين الدارسين في حلقة الليث بن سعد (ت ١٧٥هـ/ ٧٩١م). ولما شب إبراهيم انخرط في صفوف جند مصر وأضحى من وجوههم، ولم يلبث أن اشترك مع اثني عشر رجلاً منهم في هجوم على بيت مال مصر

وأخذوا منه مقدار حقهم فيه. ثم غادرها إبراهيم إلى إفريقية في ولاية الفضل بن روح المهلبي (١٧٧-١٧٨هـ/ ٧٩٢-٧٩٣م) وبسبب العداوة القديمة بين أسرته وأسرة المهلبي نزل إبراهيم في الزاب، حيث كانت ذكرى والده لا تزال حيّة. وسمت مكانته بين جندها حتى أضحى كأنه الحاكم الفعلي لها. وعندما تغيرت الأمور في القيروان بحلول هرثمة بن أعين محل الفضل (١٧٩هـ/ ٧٩٥م)، لاطف إبراهيم هرثمة بالهدايا، وكتب إليه يعلمه أنه فعل ما فعل لحاجة لا لمعصية أو نبذ طاعة، فولاه هرثمة ناحيته. وجاءته الفرصة المواتية لحكم إفريقية كلها عندما ثار بتونس تمام بن تميم التميمي على واليها بعد هرثمة محمد بن مقاتل بن حكيم العكي، وانتزع منه العاصمة القيروان في رمضان ١٨٣هـ/ تشرين الأول ٧٩٩م فسار إبراهيم بن الأغلب من الزاب قاصداً القيروان، وأخرج الثائر منها، وأعاد واليها العكّي. وعندما أعاد الثائر الكرة بجموعه التي حشدها في تونس وهاجم القيروان، تصدى له إبراهيم بن الأغلب على مقدمة جيش العكّي وهزمه، ثم لاحقه إلى معقله تونس حيث استسلم له على الأمان في أوائل المحرم سنة ١٨٤هـ / شباط ٨٠٠م. وكتب يحيى بن زياد صاحب البريد إلى الخليفة الرشيد بما فعله إبراهيم فعينه أميراً على إفريقية بمشورة هرثمة بن أعين، لكفايته وإخلاصه في الطاعة وقبول الناس له، وتم له ذلك في جمادى الثانية ١٨٤هـ/ تموز ٨٠٠م.

اعتمد إبراهيم لتوطيد حكمه واستقراره قاعدة التدرج في الأعمال التي تحقق الهدف، فكان أول ما فعله التخلص من القادة الذين أنفوا من الخضوع له، كالعكي وثلاثة من وجوه الجند، فنقلهم إلى حاضرة الخلافة حيث أودعوا السجن، وأعد العدّة بالطريقة نفسها لمجابهة القوى الأخرى، ولا سيما قوة البلديين من مشارقة ومغاربة، وقوة الجند القادمين مع القادة والولاة لإخماد الثورات الخارجية، فبادر إلى تأليف جيش من العبيد، وراح يشتريهم جماعة بعد أخرى متعللاً بتوفير الوسائل لخدمته، واستكثر منهم حتى وصل عددهم لديه، بحسب قول البلاذري، إلى رقم مبالغ فيه على الأرجح وهو خمسة آلاف عبد. وفي عام ١٨٥هـ/ ٨٠١م بنى ابن الأغلب قاعدة له ولعبيده على ثلاثة أميال جنوبي القيروان وبنى فيها مسجداً وقصراً وانتقل إليها في السر ليلاً مع أهله وعبيده والموثوقين من جنده وأقطع أتباعه أرباضها، فغدت مدينة ملكية دعاها العباسية، وعُرفت كذلك بالقصر الأبيض أو القصر القديم. وربما دعيت بهذا الاسم بعد أن بنى أحد خلفاء ابن الأغلب مدينة الرقادة.

وفي غمرة انشغال إبراهيم بعمله هذا واجه ثورة البلديين (١٨٦هـ/ ٨٠٢م) التي اجتمع فيها العرب والبربر بقيادة خُرَيْش بن عبد الرحمن الكندي (في رواية ابن الأبار) أو حمديس (في رواية ابن الأثير والنويري)، وقد خلع أتباعها السواد تعبيراً عن رفض طاعة بني العباس.

وعدّ إبراهيم بن الأغلب هذه الثورة أخطر ثورة في إفريقية، فلم يكفّ يده عن أصحابها إلا بعد أن أبادهم، وربما بالغت الرواية في عددهم عندما وصلت به إلى عشرة آلاف رجل.

ولم يكد إبراهيم يستقر في قاعدته الجديدة حتى ثار عليه في القيروان أعوانه السابقون وجندهم من خراسان والشام، وعلى رأسهم عمران بن مجالد وصاحب شرطته عامر بن المعمّر، فبسطوا سلطانهم على القيروان، وسعوا إلى استمالة الفقهاء إلى صفوفهم، ولكن كبير هؤلاء أسد بن الفرات رفض ذلك، واستمرت حرب المتمردين مع إبراهيم بن الأغلب نحو سنة كانت الغارات متبادلة فيها بين القيروان والقصر القديم، إلى أن تمكن إبراهيم من استمالة الجند إليه بالمال الذي أمدّه به الخليفة الرشيد، فاضطر الثوار إلى الانسحاب إلى الزاب ودخل ابن الأغلب القيروان وخلع أبوابها وثلَم أسوارها كي لا تصلح بؤرة مقاومة منيعة.

وشملت خدمات إبراهيم بن الأغلب للدولة العباسية المغرب الأقصى كذلك حيث قامت دولة الأدارسة[ر]. ففي سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م سعى إبراهيم إلى اغتيال المولى راشد المدبر لشؤون تلك الدولة منذ نشأتها، وظل يكيد لإدريس الثاني محاولاً استمالة البهلول بن عبد الواحد المدغري من كبار زعماء البربر وكسبه إلى جانب الدعوة للعباسيين، إلا أنه خضع في أواخر أيامه لمشورة أتباعه بالكف عن إدريس الثاني، بعد أن توطدت إمارته ونال من الخليفة كل ما كان يريده. وراح يعمل على أن يكون الحكم في أولاده من بعده وقد هيأهم لذلك، وضمن لهم الاستقرار في ذلك البلد المضطرب ووفر على الخلافة أموالاً طائلة كانت ترسل إليها معونة من مصر. وكانت وفاته في حاضرة إمارته وخلفه في الإمارة ابنه أبو العباس عبد الله.

أحمد بدر

الموضوعات ذات الصلة:

الأدارسة - الأغالبة - تونس - القيروان - هارون الرشيد

مراجع للاستزادة:

- ابن الأبار، الحلّة السيراء، تحقيق حسين مؤنس (القاهرة ١٩٦٣).
- الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي (تونس ١٩٦٧).
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج١، تحقيق ج.س. كولان وإ.ليفي بروفنسال (بيروت).

■ إبراهيم باشا

(١٢٠٤-١٢٦٤هـ / ١٧٨٩-١٨٤٨م)

أكبر أبناء محمد علي باشا [ر] كان قائداً عظيماً ووالياً على مصر، ولد نحو عام ١٧٨٩م في قوَلة وهي ثغر صغير على حدود مقدونية وتراقية وكان أثره مهماً في تاريخ مصر في عهد أبيه، فقد كان يلقّب بيد محمد علي الحربية لما كان لأعماله الحربية من أثر في نجاح سياسة والده.

لما توطد مركز محمد علي في مصر أرسل في طلب ولديه إبراهيم وطوسون من موطنهما سنة ١٨٠٥م واستدعى فيما بعد زوجته وأولاده الصغار، وهم إسماعيل وشقيقتاه سنة ١٨٠٩. لم يكن إبراهيم قد أتمّ السابعة عشرة من عمره حينما عينه والده على قلعة القاهرة، ثم أرسله سنة ١٨٠٦ رهينة لقاء الخراج الذي وعد الدولة العلية به وتوكيداً لإخلاصه، فردَّه الباب العالي بعد سنة نظير خدمات أبيه وإعراباً عن نجاح محمد علي في هزيمة حملة الجنرال فريزر الإنكليزية على مصر عام ١٨٠٧.

تعلّم إبراهيم في مصر، وعاش في وسط عربي بحت، وقرأ تاريخ العرب وثقافتهم، مع ما تلقنه من مبادىء العلوم والفنون، وخالط الرجال في مجالسهم وعاش صريحاً جاداً مترفعاً عن الدنايا محباً للنظام.

وكان إبراهيم ذا هيبة ويقظة دائمة، حاد المزاج، سريع الغضب، يضرب لجنوده المثل بنفسه في البسالة وخوض الغمرات وكان يتكلم اللغات التركية والعربية والفارسية.

وفي عام ١٨١٦ أرسله أبوه إلى الجزيرة العربية، ولما يتجاوز السادسة والعشرين من عمره، بغية الوصول إلى نتيجة حاسمة في الحرب مع الوهابيين، بزعامة الأمير عبدالله بن سعود بن عبد العزيز بن محمد، التي كان يخوضها أخوه طوسون من ١٨١١ ـ ١٨١٣ م امتثالاً لأوامر السلطان العثماني محمود الثاني [ر].

اتخذ إبراهيم من «الحناكية» مركزاً يوجه منه هجومه على الوهابيين، واعتمد إبراهيم في سياسته هناك على ولاء القبائل التي سيجتاز بلادها إلى نجد، لتأمين طريق الحملة، فأحسن معاملتها، ومنع جيشه أن يأخذ شيئاً من دون دفع ثمنه، فخضعت له القبائل إلا أقلّها.

حاصر إبراهيم باشا الرسّ جنوبي القصيم واستولى عليها ثم زحف إلى عنيزة فاستسلمت واقتحم بريدة عنوة، ثمّ حاصر الدّرعية في ٦ نيسان سنة ١٨١٨، واستمر حصارها خمسة أشهر وبضعة أيام، وفي ١٩ أيلول ١٨١٨ استسلم عبد الله بن سعود، فأرسله مع أفراد أسرته إلى مصر وانتهت الحرب.

عمل إبراهيم على كسب ود القبائل التي حاربته، فأعلن الأمان وأغدق المال على من انضم إليه، ورد النخيل الذي كان قد صادره إلى أصحابه، وكان لحسن لقائه وسعة صدره وكرمه أثر إيجابي بالغ.

وعني بتحصين المواقع الحربية المهمة في البلاد ووضع في الوقت نفسه أساس الإصلاح الزراعي، فأمر بحفر الآبار، وعني بتنظيم التموين في مكة والمدينة، وحرص على توفير الأمن على طريق الحج، وعلى توزيع مرتبات من الغلال على فقراء الحرمين والمجاورين، ونال في أثناء ذلك لقب الباشوية من السلطان العثماني.

عاد إبراهيم مظفراً إلى القاهرة في كانون الأول سنة ١٨١٩، وبعد ذلك بقليل ولاه السلطان على جُدة. وفي غضون ذلك ناط محمد علي بابنه الثالث إسماعيل فتح بلاد السودان للكشف عن مناطق الذهب المعروفة، وجلب الجنود لتأليف جيشه الجديد منهم.

واضطر إلى إرسال ابنه إبراهيم إلى السودان بإمدادات عسكرية لدعم أخيه، ولكنه سرعان ما عاد إلى القاهرة لمرض أصابه في أوائل عام ١٨٢٢م حيث اشترك في تدريب الجيش الجديد الذي تألف من المصريين العرب، ووكل أمره إلى الكولونيل سيف Séve (سليمان باشا الفرنساوي) الذي ساعد إبراهيم في حروبه اللاحقة في اليونان والشام.

وفي أوائل عام ١٨٢٤ كُلِّف إبراهيم باشا القضاء على الثورة في اليونان، فانطلق على رأس جيش قوي مدرب يحمله أسطول مؤلف من ٥١ سفينة حربية و١٤٦ ناقلة جند بحرية، ونزل في شبه جزيرة المورة، فاستولى على نافارين ودخل تريبولتزا Tripolitsa، وفي أيلول ١٨٢٥ تمكن من إخضاع المورة بأكملها والتفت إلى معاونة العثمانيين في حصار ميسولونجي Missolonghi فسقطت في نيسان ١٨٢٦، وبذلك فُتح الطريق إلى أثينة التي سقطت في تموز من العام نفسه، وتدخلت الدول الأوربية الثلاث إنكلترة وفرنسة وروسية وعقدت معاهدة لندن (تموز ١٨٢٧) وفرضت الهدنة وأصبحت أساطيل الحلفاء خارج مياه خليج نافارين التي كان يرابط فيها الأسطولان المصري والعثماني.

وانتهز أمير البحر الإنكليزي كودرنغتون Codrington فرصة غياب إبراهيم باشا فدخلت سفنه مع السفن الفرنسية والروسية مياه نافارين، وكان بمقدور أمير البحر المصري أن يحول دون دخولها باستخدام مدفعية أسطوله المسيطرة على مدخل الخليج والبطاريات المنصوبة على البرّ، ولكنه تمسك بالهدنة المتفق عليها، وأصرّ مع زميله أمير البحر العثماني على أن لا يكون العدوان من جانبهما، ونشبت معركة نافارين (٢٠ تشرين الأول ١٨٢٧) التي دامت أربع ساعات، ودمَّرت أساطيل الحلفاء المتفوّقة الجزء الأكبر من الأسطولين المصري والعثماني، وقررت الدول المتحالفة الثلاث في تموز ١٨٢٨م إبعاد إبراهيم عن المورة، وتكليف فرنسة إجراء الاتصالات لتنفيذ القرار، ووصل إبراهيم الإسكندرية في تشرين الأول ١٨٢٨ مع ٢٤ ألف جندي حملتهم ٢٦ سفينة حربية و٢١ ناقلة هي كل



ما بقي من أسطوله بعد نافارين.

ولما كان محمد علي يدرك أهمية بلاد الشام الاستراتيجية والاقتصادية فقد حاول عبثاً إقناع السلطان بتقليده حكمها، ولقد طلب فعلاً من السلطان، أيام الحرب السعودية، أن يعهد إليه بولاية الشام متذرعاً في ذلك بحاجته إلى المدد منها للمعاونة في القتال. لكن الحرب السعودية وفتح السودان صرفاه مؤقتاً عمّا يريد، حتى تجدد عزمه على المطالبة بولاية الشام بعد الحرب اليونانية، ولما أخفقت مساعي محمد علي في إقناع السلطان بتقليده حكم سورية، تذرع بمعاقبة والي عكا، عبد الله باشا الجزّار لامتناعه عن وفاء دين سابق مترتب عليه لمصر، وعرقلة وصول أخشاب الشام إلى مصر، وحماية المصريين الفارّين من الجندية، فندب ولده إبراهيم باشا لقيادة الحملة الموجهة إلى بلاد الشام في ٢٩ تشرين الأول ١٨٣١، وقدِّرت قوتها بحدود ٣٠ ألف مقاتل مع عمارة حربية تقارب ٣٥ سفينة حربية وسفن إمداد، وتحرَّكت القوّات البرية باتجاه سيناء فبلغت العريش واحتلت خان يونس ثم غزَّة ويافا (٨ تشرين الثاني ١٨٣١) وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٨٣١م ضرب الحصار على عكا بعد وصول العمارة الحربية المصرية.

انقضت ثلاثة أشهر من غير أن ينال من المدينة منالاً، ولكن إبراهيم استغلَّ هذه المدة والحصار قائم في احتلال المواقع المهمة في ولاية صيداء (وقاعدتها يومذاك عكا) وما حولها، فاحتلت قوة من جنوده صور وصيداء وبيروت وطرابلس، واحتلت قوة أخرى القدس، وداخل القلق السلطنة من أعمال محمد علي، فحشدت جيشاً من عشرين ألفاً بقيادة عثمان باشا، وانتصر إبراهيم باشا على الجيش العثماني

في معركة الزرّاعة بين حمص وبعلبك في ١٤ نيسان ١٨٣٢ م ثم عاد ليشدد الحصار على عكا، فسقطت في يده في أواخر أيار ودخل دمشق في ١٦ حزيران وجعلها مقرّ حكومة أبيه في الشام، ثم انتصر ثانية عند حمص على طلائع الجيش العثماني، ودخل حمص وحماة، وزحف على المواقع العثمانية في مضيق بيلان حيث تحصّن حسين باشا قائد الجيش العثماني، وهناك وقعت المعركة الحاسمة بين إبراهيم باشا وحسين باشا (٣٠ تموز ١٨٣٢ م) وانتهت بهزيمة منكرة للجيش العثماني وقائده حسين باشا الذي هرب على إثرها، ومضى إبراهيم في الزحف فاحتلَّ الإسكندرونة وباياس وسُلِّمت له أنطاكية واللاذقية، ولم يلبث أن احتلَّ أضنة وأورفة وعينتاب ومرعش وقيصرية، وانتصر في قونية على الجيش العثماني وأسر قائده الصدر الأعظم رشيد باشا، وغدا الطريق إلى العاصمة اصطنبول مفتوحاً أمام قوّات محمد علي بفضل تفوق الجيش المصري ومستواه العسكري الممتاز، وبفضل مواهب إبراهيم باشا القيادية، ولما وصل إبراهيم كوتاهية في أيار ١٨٣٣ تلقى أمراً من أبيه بالتوقف، لتهديد الدول الأوربية بالتدخل.

عُقدت معاهدة كوتاهية بين الباب العالي ومحمد علي، نال فيها الأخير حكم بلاد الشام وأضنة، ومنح إبراهيم لقب محصل أضنة، وبذلك دخلت الشام في حكم الدولة المصرية، وصار إبراهيم باشا حاكماً عاماً للبلاد السورية معيناً من قبل والده، إضافة إلى تجديد ولايته على جدة من قبل السلطان.

انصرف إبراهيم باشا إلى تنظيم البلاد ساعياً إلى تجديد أحوالها وتحديثها في جميع المجالات الإدارية والاقتصادية والمالية وقامت سياسته على مبدإ المساواة في الدين والمساواة أمام القانون كما حاول أن يدير بلاد الشام على أنها قطر واحد يسكنه شعب واحد، فاصطدم بالفروق والخلافات القائمة بين الطوائف، وتفاقم الخطب حين عمدت بريطانية وروسية والدولة العثمانية إلى تغذية القلق والاستياء بالدس وتحريض الناس للثورة على إبراهيم باشا. وخاصةً بعد توقيع معاهدة «هنكار أسكله سي» الدفاعية بين الدولة العثمانية وروسية (تموز ١٨٣٣) لوقف الزحف المصري، وكان من نتيجة ذلك حدوث الفتن والثورات على حكم إبراهيم باشا في بلاد الشام ولاسيما في لبنان، ومن أسباب موقف بلاد الشام هذا من إبراهيم باشا - إضافة إلى التدخل الأجنبي - ما قام به من احتكار تجارة الحرير وأخذ ضريبة الرؤوس (الفردة) من الرجال كافة على اختلاف مذاهبهم، وكانت ضريبة الرؤوس سابقاً لا تؤخذ إلا من أهل الذمة واضطر إبراهيم باشا إلى قمع هذه الحركات بشدة ومصادرة السلاح من الأهالي في جميع أنحاء البلاد، وقد صُوِّر جمع السلاح مقدمة لتجريدهم من القوة أو لتجنيدهم وانتقاص حقوقهم، وتأكد للدولة العثمانية أنَّ اضطراب الأحوال ضايق حكومة إبراهيم باشا وأرهق قواها، فحشد السلطان محمود قواته من جديد واستأنف الحرب على إبراهيم باشا لاسترداد بلاد الشام بتحريض من بريطانية، ووقعت معركة فاصلة عند نُزيب نصيبين الواقعة قرب عينتاب، (وليست نصيبين الحالية تجاه القامشلي) في حزيران ١٨٣٩ م حقق فيها إبراهيم باشا نصراً مبيناً على الجيش العثماني الذي كان يقوده حافظ باشا، وانحاز فوزي باشا قائد الأسطول إلى محمد علي، ولكن الموقف تبدّل بسبب تدخل الدول الأوربية بريطانية وروسية وبروسية والنمسة التي عقدت فيما بينها معاهدة لندن (تموز ١٨٤٠م) وقضت بإجبار محمد علي على سحب قواته من بلاد الشام حتى عكا. والاكتفاء بولاية مصر وراثية له ولأولاده من بعده، ولما كان محمد علي يطمع في مساعدة فرنسة له، فقد رفض الانصياع للمعاهدة، لكن فرنسة خذلته، وحاصرت أساطيل الحلفاء شواطىء الشام ومصر، ووجد إبراهيم باشا نفسه في موقف حرج بين جيوش الحلفاء التي نزلت البر وأهالي لبنان الذين أُثيروا عليه، واستسلم الأمير بشير الشهابي [ر] حليف محمد علي للحلفاء في صيدا التي استولى عليها أمير البحر الانكليزي نابيير Napier كما استولى على بيروت وعكا وصيداء ويافا فاضطر محمد علي، في مفاوضاته مع نابيير، إلى قبول التخلي عن بلاد الشام في تشرين الثاني ١٨٤٠م وغادر إبراهيم باشا دمشق مع جيوشه في ٢٩ كانون الأول ١٨٤٠م مرتداً إلى مصر عن طريق غزة وبعث شطراً منها عن طريق العقبة.

انصرف إبراهيم بجهوده في السنوات التالية إلى شؤون مصر الإدارية، وكان قد لمس أهمية الزراعة في حياة مصر منذ أن كان دفترداراً (أي مفتشاً) عاماً للحسابات سنة ١٨٠٧، ثم حاكماً على الصعيد سنة ١٨٠٩ حيث طرد فلول المماليك وأخضع البدو وأعاد الأمن والنظام إلى البلاد، وأسهم في تطبيق سياسة أبيه الاقتصادية الرامية إلى زيادة الموارد المالية لمصر وتنفيذ إصلاحاته وتقوية نفوذه، كما أدخل إلى مصر بعض الزراعات النافعة التي رأى أنه يمكن نجاحها في مصر من فاكهة وخضار وأشجار ونبات للزينة، وعمل على إكثار شجر الزيتون والتوت، وزراعة قصب السكر، وعني بتطوير الثروة الحيوانية، وأنشأ صحيفة أسبوعية تشتمل على أخبار الزراعة والتجارة، وفي مطلع عام ١٨٤٧ تألف المجلس الخصوصي برئاسته للنظر في شؤون الحكومة الكبرى، وسنّ اللوائح والقوانين وإصدار التعليمات لجميع مصالح الحكومة، وفي نيسان ١٨٤٨ أصبح إبراهيم باشا الحاكم الفعلي للبلاد. لأن والده اعتل اعتلالاً شديداً لا برء منه، ولم يعد قادراً على الاضطلاع بأعباء الحكم. وفي أيلول ١٨٤٨م منح السلطان العثماني إبراهيم ولاية مصر رسمياً. لكنه لم يُكمل العام في منصبه، وتوفي قبل والده في ١٠ تشرين الثاني ١٨٤٨ عن ستين عاماً، وترك من الأولاد بعد وفاته، أحمد، وإسماعيل (خديوي مصر فيما بعد) ومصطفى.

كان إبراهيم باشا عربي اللغة والعاطفة، وإن لم يكن عربي المولد، وكان ينوّه بفضل العرب على المدنية والتاريخ. يقول معاصره البارون دوبوا لوكومت De Bois Le Comte إنه كان يجاهر بإحياء القومية العربية ويعد نفسه عربياً، وسُئل كيف يطعن في الأتراك وهو منهم فأجاب: «أنا لست تركياً فإني جئت إلى مصر صبياً، ومن ذلك الحين مصّرتني شمسها وغيّرت من دمي وجعلته دماً عربياً». وكتب إلى أبيه في أثناء حصار عكا حين بلغه أن السلطان حشد الجيوش لدفع الجيش المصري عن أسوارها «ومهما بحثوا فلا يمكنهم أن يعثروا على مثل جنود العرب الذين أقودهم أنا».

أحمد طربين

إبراهيم الخليل

نبي الله وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء، شخصية عظمية في التراث الإنساني والديانات السماوية.

لا تتوافر مصادر مباشرة عن أخبار إبراهيم الخليل وسيرته ونبوته أو رسالته سوى ما جاء في الكتب المقدسة السماوية (التوراة والإنجيل والقرآن) وهي المراجع الأساسية التي يمكن الرجوع إليها في هذا الموضوع. وتتفق على نبوة إبراهيم عليه السلام كل عقائد المؤمنين الموحدين من مسلمين ومسيحيين ويهود. وفي الكتب المقدسة بعض أخبار أبي الأنبياء وملامح شخصيته ومكانته ودعوته إلى الإيمان بالله ووحدانيته.

وقد نسبت إلى اسم إبراهيم أخبار كثيرة عن مآثر وبطولات ومعتقدات عاشتها شعوب الشرق القديمة. وكان إبراهيم يدعى في الأكدية ثم في الآرامية والكنعانية العبرية «أبرام» ومعناه «الأب يرحم» أو «الأب يحب»، وجاء ذكره في التوراة باسم «أبراهام» أي «أبو جمهور عظيم من الأمم»، وإليه ينُسب العرب من زوجته هاجر المصرية وابنها إسماعيل، كما ينُسب إليه بنو إسرائيل من زوجه سارة وابنه إسحق. وقد أثارت شخصية إبراهيم تساؤلات كثيرة لدى الباحثين وعلماء الدين لعدم توافر الروابط بين أصله الذي يرجع إلى بلاد الرافدين والمناطق التي وجد فيها في أزمنة متباعدة في حران وسورية وفلسطين ومصر والحجاز. وحاول كثير من الباحثين التحقق من أخبار إبراهيم الخليل في ضوء ما أسفرت عنه التنقيبات الأثرية في مواقع مهمة من الشرق العربي القديم، مثل أور وأغاريت وماري، ولكن هذه الدراسات لم تتوصل إلا إلى صور مقاربة للظروف التاريخية التي يحتمل أن يكون خليل الرحمن قد عاشها في زمن ما في مطلع الألف الثاني أو القرن التاسع عشر ق.م، وفي أمكنة متعددة إلى أن استقر به المقام في مدينة حبرون الكنعانية في فلسطين، ثم نسبت هذه المدينة إليه فسميت «مدينة الخليل»، ومع ذلك لم يتم التوصل إلى نص واحد أو أثر تاريخي مباشر يتعلق به أو بسيرته أو بالأسماء التي يرد ذكرها في الروايات التي تتحدث عن سيرته، وتبقى محاولات وضع الحوادث المتصلة بمآثر إبراهيم الخليل في إطار تاريخي محدد زمنياً قابلة للجدل. ويمكن تأريخ عصر إبراهيم وعصر أبنائه وأحفاده ما بين القرنين ١٩و١٥ ق.م، وينص العهد القديم على أن اسم أبيه «تارح» وأنه من عشيرة آرامية كانت تسكن «أور» من أرض الكلدان ثم انتقلت إلى حران في الجزيرة الشامية العليا. حيث ولد إبراهيم. وجاء في القرآن أن اسم أبيه «آزر» وربما كان ذلك لقبه أو اسمه الثاني كما هي الحال في يعقوب الذي يسميه اليهود إسرائيل.

إبرهيم الخليل عند العرب وفي الإسلام

يصف القرآن الكريم إبراهيم الخليل صدّيقاً نبياً وداعياً إلى الإيمان بالله الواحد المنزه عن التجسيم وإلى نبذ الأصنام، وهو أسبق الأنبياء إلى الإسلام، وقد التمس معرفة الإله الخالق طويلاً من مظاهر الكون إلى أن أيقن أن الله موجود وأنه خالق تلك المظاهر، فاصطفاه الله نبياً ورسولاً، فراح يدعو قومه إلى عبادة «رب السموات والأرض الذي فطرهن»، ولاقى في سبيل دعوته هذه عنتاً وعذاباً، وسعى قومه، وفيهم أبوه، إلى إحراقه جزاء له على تنكره لآلهتهم ولكن الله نجاه، وأمره بالتوجه إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، ثم بشره على الكبر بذرية صالحة ورزقه بغلام حليم هو ابنه اسماعيل، ثم بشره بإسحق من زوجته سارة، وإلى ابنه إسماعيل ينتسب العرب المستعربة أو العدنانية، ومنها قريش صفوة بني عدنان، وبنو هاشم صفوة قريش.

انتشرت دعوة إبراهيم الخليل في جزيرة العرب بعد أن قدم مكة مع زوجه هاجر وابنه اسماعيل، فأقام في أم القرى قواعد البيت العتيق ورسم أسس الدين الحنيف الذي توارثه العرب من بعده. وكانت قريش قد استأثرت قبل الإسلام بالوظائف الدينية الكبرى في مكة المكرمة وبسدانة الكعبة وسقاية الحجيج. وغدت مكة مركز الثقل الديني ومجمع المواسم الدينية لأكثر القبائل العربية، واختلطت موروثات الحنيفية من ملة إبراهيم برواسب وثنية مختلفة، ولما غلب الشرك على الإيمان بوحدانية الله ظهر الإسلام وتنزلت آيات القرآن الكريم على النبي العربي محمد بن عبد الله ﷺ. فكانت رسالته متممة لرسالة خليل الرحمن ومؤيدة لها.

ورد ذكر إبراهيم الخليل في خمس وعشرين سورة في القرآن الكريم، وأفردت له المصادر العربية والإسلامية مكانة مميزة وفي مقدمتها الحديث الشريف وكتب التفسير التي استعانت بالتراث الشعبي المتناقل والكتب المقدسة الأخرى لتوضيح بعض غوامض سيرته وشخصيته. كذلك جعل القرآن الكريم لإسماعيل بن إبرهيم مكانة تفوق ما للآخرين من بنيه وذريته في حين قللت أخبار العهد القديم من شأنه وشأن والدته. وتؤكد المصادر الإسلامية والعربية أن إسماعيل هو الذبيح الذي هم إبراهيم بالتضحية به حين أوحي إليه بالمنام، ولكن الله تعالى افتداه بذبح عظيم.

وفي خبر طويل عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أن إبراهيم صحب امرأته هاجر وابنهما إسماعيل وهو رضيع إلى واد قفر عند دوحة مرتفعة كالرابية، وليس بمكة يومئذ ساكن، وليس فيها زرع ولا ضرع، ثم انصرف عنهما بعد أن دعا الله: ﴿فاجْعَلْ أفئدةً من النَّاس تَهْوي إليهمْ وارْزقهُمْ من الثَّمرات﴾ (إبراهيم ٣٧). وراحت أم إسماعيل تسعى بين الصفا والمروة تبحث عن الماء لتروي ظمأ ابنها وهي تدعو، فاستجابت السماء لدعائها وتفجر الماء عند قدمي الغلام فكانت عين زمزم، وجاء قوم من جرهم (من العرب العاربة) فآووهما، وشب إسماعيل بينهم وتكلم بلغتهم وأصهر إليهم فصار أصل العرب المستعربة، وظل إبراهيم يتردد إلى بيت ابنه إسماعيل وقد ماتت هاجر، واختار في إحدى المرات نشزاً مرتفعاً من الأرض فبنى فوقه بيتاً لله ورفع قواعده بمساعدة ابنه اسماعيل وهما يدعوان: ﴿ربَّنا تقبَّلْ منّا أنك أنتَ السَّميعُ العليمُ﴾ (البقرة ١٢٧) وتقبل الله دعاءهما فجعل البيت مثابة للناس وأمناً لهم، وجعل مقام إبراهيم مصلى، وعهد إليه وإلى ابنه: ﴿أنْ طهِّرا بيتي للطَّائفيَن والعاكفينَ والركّعِ السّجود﴾ (البقرة ١٢٥) ورسمت بذلك أولى مناسك الحج وشعائره. وفي دعاء إبراهيم وهو يبني البيت قوله: ﴿ربنَّا واجعَلْنا مُسلمَيْن لكَ ومنْ ذرِّيتنا أُمةً مسلمةً لك وأَرنا مَناسكَنا وتُبْ علَيْنا إنَّك أنتَ التَّوابُ الرحيمُ، ربَّنا وابعَثْ فيهمْ رسولاً منهمْ يتْلُو عليهمْ آياتكَ ويعلِّمهُم الكتابَ والحكمةَ ويزكِّيهمْ إنَكَ أنت العزيزُ الحكيمُ﴾ (البقرة ١٢٨-١٢٩)، وغدا البيت الحرام محور الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية في بلاد العرب، وتؤكد هذه الحقيقة الآيتان الكريمتان: ﴿إنَّ أوَّل بيتٍ وُضعَ للنَّاسِ للَّذي ببَكَّةَ مباركاً وهدىً للعالمين فيه آياتٌ بيِّناتٌ، مقامُ إبراهيم ومنْ دخلَهُ كانَ آمناً، ولله على الناسِ حِجُّ البيت من استطاع

إليـه سَبـيـلاً، ومَـنْ كَـفـر فَإنّ اللـهَ غنـيٌّ عـن العـالـمينَ﴾ (آل عـمـران ٩٦ ـ ٩٧). وأدعيـة الصلاة والحج طافحة بذكر إبراهيم وآل إبراهيم، ومن شعائر الحج محاكاة رمزية لما قامت به هاجر أم اسماعيل في سعيها بين الصفا والمروة، وفي التضحية بالهدي بعد عرفة تجديد لذكرى ذبيحة إبراهيم وفداء ابنه اسماعيل. وقد جعل القرآن الكريم رسالة إبراهيم عليه السلام من صلب الإسلام، ونفى عنه انتسابه الى غير ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا كانَ إبْراهيمُ يهُودياً ولا نصْرانياً ولكنْ كانَ حَنيفاً مُسلماً ومَا كانَ من المشْركين. إنَّ أوْلىَ النَّاسِ بإبراهيم للّذين اتَّبعوهُ وهذا النبيُّ والذين آمنُوا واللهُ وليُّ المؤمنينَ﴾ (آل عمران ٦٨) فالإسلام الذي يعني التوحيد، ودعا إليه خليل الرحمن، أسبق من اليهودية والمسيحية بقرون أما الإسلام الذي أُوحي به إلى محمد بن عبد الله ﷺ فيطرح نفسه على أنه دين إبراهيم ومتمم له، ومصدق لما جاء به الرسل من بعد إبراهيم، وآخر الرسالات السماوية إلى بني البشر.

سيرة إبراهيم في أسفار التوراة

سجلت أسفار العهد القديم كثيراً من موروث الشرق القديم عن النبوة والأنبياء. وترد سيرة إبراهيم عليه السلام مفصلة تفصيلاً مستفيضاً في سفر التكوين (الإصحاحات ١١ـ٢٤) فهو إبراهيم بن تارح ولد ونشأ في حران، وكانت مركزاً لعبادة النجوم والأصنام، وتلقى فيها أمراً إلهياً بالانتقال مع أهله إلى أرض كنعان (فلسطين)، ثم توجه منها إلى مصر في نفر قليل من أهله ومعه زوجه سارة، وفي مصر صار قومه أمة كبيرة، وتعرض فيها إلى محن قاسية ثم طابت الأمور له فغادرها معززاً مكرماً من فرعونها. وتختلط قصة خروج إبراهيم من مصر هنا بقصة خروج قوم آخرين وصفوا بأنهم من ذريته، وأنهم لاقوا شدة في خروجهم إلا أن الله نجاهم حتى دخلوا أرض كنعان من جديد، وكانت بلاداً عامرة فوهبها الله لهم. وهذه الرواية ليست خبراً تاريخياً، ولم يثبت أصل لها في أي مصدر تاريخي أو أثري، ولكنها تتحدث عما يعتقده اليهود عن أصل بني إسرائيل وعن صلتهم بإبراهيم، وقد صيغت في القرن السابع ق.م لتسويغ تاريخ الإسرائيليين الذين تدل كتبهم على أنهم فرع متأخر من نسل إبراهيم، وتسند هذه الرواية الى إبراهيم دوراً أساسياً في البحث عن مكان يستقر القوم فيه وأنه اختار «ممرأ» قرب حبرون بعد طول تجوال، وهناك تلقى وعداً من الرب بإعطائه الأرض له ولنسله من بعده، ولم يكن له حينئذ من الولد إلا ابنه البكر إسماعيل من امرأته الثانية هاجر المصرية، وتتحدث الرواية عن حمل سارة بإسحق ابنها وهي في سن التسعين وكانت من قبل عاقراً وكان عمر إبراهيم مئة سنة وعمر إسماعيل ثلاث عشرة سنة. وينظر التوراتيون إلى نسل إبراهيم من «هاجر»، وهم العرب، نظرتهم إلى أبناء الجارية، لأن «هاجر كانت جارية لسارة» وهي التي قدمتها إلى زوجها لتلد له ولداً، وعلى هذا النحو يكون أولادها أولاداً لسيدتها ولو اعترف الأب بوليده البكر إسماعيل. وهذا عرف مشابه لما جاء به تشريع حمورابي، إلا أن التشريع البابلي ينص على إشراك جميع الأولاد بالإرث ويمنح البكر منهم امتياز البكورة، في حين اهتم المصدر التوراتي كثيراً بتسويغ وضع إسحق في قضية الإرث في هذه الراوية، وفيها تصريح بما كان يعتمل في نفس سارة من غيرة وبغض حتى إنها أكرهت زوجها على طرد إسماعيل وأمه لإبعادهما عن الإرث، وتجدر الإشارة هنا إلى أن تشريع حمورابي البابلي والتشريع الحوري ـ الميتاني وكانا من التشريعات السائدة في زمن صوغ الرواية، يحرمان طرد الجارية التي منحت بعلها ولداً.

وفي قصة أخرى من سفر التكوين أيضاً (الإصحاح ١٤) أن إبراهيم سارع إلى نجدة ابن أخيه لوط الذي احتشدت لحربه أربعة جيوش يقودها أربعة ملوك، ولم تعثر البحوث التي جرت حول تاريخ فلسطين على أي شاهد أثري أو تاريخي يمكن أن يساعد في معرفة هوية هؤلاء الملوك. وتعزو القصص التوراتية، التي تغلب عليها السمة الملحمية الأدبية، إلى إبراهيم توسطه عند الرب لانقاذ لوط وأهله من كارثة طبيعية هي، على الأرجح، زلزال مدمر ضرب المنطقة الواقعة جنوب البحر الميت، وتدل الظواهر الطبيعية والجغرافية على حدوث ثورات عنيفة للطبيعة عند موقع جبل «سدوم» فيه مسلات ملحية ضخمة غريبة الأشكال. ويبدو أن اسم إبراهيم أقحم هنا في الروايات الشفهية التي تناقلتها أجيال ما بعد الكارثة، وهي تتحدث عن عقاب إلهي ضرب الظالمين من أهل سدوم وفيهم امرأة لوط.

وفي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين رواية مستفيضة عن المحنة الكبرى التي امتحن الله بها إيمان إبراهيم إذ أمره بذبح ولده، وقد صدع إبراهيم للأمر من دون تردد وهمّ بذبح ابنه ـ والذبيح هنا هو إسحق، إلا أن العناية الإلهية افتدته بكبش ذي قرون، وتعكس هذه القصة تقاليد محلية سادت بلاد كنعان إلى وقت متأخر من القرن الثاني قبل الميلاد.

ومن قصص إبراهيم الأخرى في العهد القديم شراؤه مغارة «المكفيلة» والحقل المحيط بها عند حبرون من عفرون بن صوحر الحثي ليدفن زوجه سارة فيها وقد أدى ثمنها بحسب ما جرى عليه العرب آنئذ في العقود الحثية والحورية. وقد اختار إبراهيم هذه المغارة مدفناً له ولأسرته في أرض كنعان، ودفن فيها بعد أن عاش عمراً مديداً (١٧٥سنة) كما دفن فيها إسحق وزوجه رفقة ويعقوب وزوجته ليئة، وبقيت للمكان قداسته وصار محجاً للناس قروناً قبل أن تقام هنالك منشآت دينية في عصور متعاقبة يمكن تبين آثارها، ومنها ما يعود إلى أيام هيرودس الأدومي (ق١م) وإلى أيام بيزنطة، وإلى أيام العرب المسلمين، وكلها شاهد على وحدة الاعتقاد بين أمم أجمعت على الانتماء إلى إبراهيم الخليل والإيمان برسالته.

أما من وجهة البحث التاريخي فإن أخبار إبراهيم في العهد القديم وضعت لتكون مسوغاً لتاريخ لاحق بعد أن أقام بنو إسرائيل مملكة لهم في بعض أنحاء فلسطين، ولتحدد علاقاتهم مع سكان البلاد الأصليين الذين خالطوهم من كنعانيين وأدوميين وآراميين وفلسطينيين ولتكون حجة لهم في مطالبتهم بالأرض، وهي سرد من جانب واحد لمرحلة غيبها التاريخ وتختلف عن روايات الأطراف الأخرى التي عاصرت الأحداث وورد ذكرها في السياق، وفي هذه الرواية ثغرات كبيرة لا تتفق مع حقائق التاريخ وما توصل إليه الباحثون من دراسة تراث حضارات الشرق القديم. وقد ربطت هذه الرواية وروايات أخرى بما جاءت به الديانة الموسوية اليهودية التي تبدأ بموسى عليه السلام لغايات تقصّدها كتّاب التوراة، وهي تدعو إلى الإيمان بالله الواحد الذي صار اسمه «يَهوَهْ» بعد أن

كان اسمه مغفلاً في سيرة إبراهيم، ويرى «أندريه كاكو» أن الشعائر الدينية اليهودية اقتبست عن الشعائر السابقة لها في فلسطين في مرحلة من مراحل التاريخ القديم وتطورت عنها ثم أحدثت تغييراً في هويتها، فتحولت الأماكن المقدسة القديمة إلى أماكن مقدسة يهودية كما حدث في شكيم وبيت إيل وحبرون وغيرها.

إبراهيم الخليل في التراث المسيحي

تعد الديانة المسيحية إبراهيم الخليل مثلا أعلى للإيمان والأب الروحي للمؤمنين جميعاً، فهو صاحب مواعيد البركة والخلاص لهم ولسائر الأمم. وفي التعاليم المسيحية تثبيت للسمة الإنسانية في الرسالة الإبراهيمية، وهي عنصر مشترك بين المؤمنين لأن الإيمان بالله يوحد الناس الذين يعتقدون بالله جميعاً، وهي تأكيد لانتماء الناس جميعاً إلى إبراهيم في مفهوم روحاني كما جاء في قول بولس الرسول للرومانيين: «إن إبراهيم أب لنا جميعاً، والله جعله أباً لأمم كثيرة». والمسيحية إذ تضع الوعد الإلهي الذي قطعه الله لإبراهيم في إطار ينفي التمايز بين الناس، فإنها ترد بذلك على مقولة المتهودين الذين يحصرون البرّ بمن يتبع شريعة موسى. وهذا ما يفهم من قول السيد المسيح مخاطباً اليهود: «ولو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون عمل إبراهيم». وقد ورد ذكر إبراهيم في أكثر من موضع في العهد الجديد، وفيه تأكيد أن البر عند إبراهيم مرتبط بالإيمان والخضوع الشخصي التام لله العلي مهما كان جنس المؤمن، فكل مؤمن هو من ذرية إبراهيم، وإن المتمثلين إيمان إبراهيم هم ورثة الوعود التي قطعت له، ومنزلة إبراهيم لا تضاهيها منزلة.

وقد تركت رسالة إبراهيم عليه السلام في الفكر المسيحي وفي الفن أثرا عميقاً، فاستوحيت من سيرته وإيمانه وما روي عنه أمور كثيرة، فقد جعله الفيلسوف كيركغارد الرمز الإنساني للخوف من الله، وصوره رامبرانت وهو يهم بالتضحية بولده، في لحظة من لحظات الإيمان المطلق، في واحدة من أشهر لوحاته. واختاره كثير من المصورين والنحاتين والموسيقيين والأدباء موضوعاً لإبداعهم الفني تصويراً ونحتاً على أبواب الكنائس وجدرانها وفي الأيقونات، وفي مؤلفاتهم الموسيقية وأناشيدهم الدينية ومسرحياتهم، ويطيب لكثير من المسيحيين المؤمنين أن يروا في صورة ذبيح إبراهيم رمزاً لتضحية المسيح على الصليب.

محمد حرب فرزات

إبراهيم بن سنان الحراني
(٢٩٦-٣٣٥هـ/٩٠٨-٩٤٦م)

أبو إسحاق، رياضي وفلكي، وهو حفيد ثابت بن قُرَّة الحرّاني، المتوفى عام ٢٨٨هـ. اعتنق أبوه سنان الإسلام وتوفي عام ٣٣١ هـ.

ولد أبو إسحاق في بغداد، وعاش فيها كأفراد أسرته أديباً مطّلعاً على علوم الفلسفة والطب، متقدماً في الهندسة والفلك والطبيعيات. وكان حسن الكتابة وافر الذكاء، بارعاً في علوم الضوء، حتى قال ابن الهيثم [ر]: «ولي كتاب في آلة الظل اختصرته ولخصته من كتاب إبراهيم بن سنان في ذلك».

كان أبو إسحاق يكثر من الشواهد اللغوية والأدبية في بحوثه العلمية وفي كتبه المختلفة. وكثيراً ما كان ينتقد من سبقه ولا سيما أرسطو. ويدعم أحكامه بالتجارب العلمية، وقد يلجأ إلى الجدل الكلامي.

وضع إبراهيم بن سنان كتباً ومقالات كثيرة، ضمنها ما توصل إليه في بحوثه ودراساته المختلفة، فوضع في الهندسة ثلاث عشرة مقالة، منها إحدى عشرة مقالة في الدوائر المتماسة، بيّن فيها أوجه تماس الدوائر والخطوط. كما وضع مقالة فيها إحدى وأربعون مسألة هندسية من صعاب المسائل في الدوائر والخطوط والمثلثات. كذلك ألّف مقالة ذكر فيها طرائق استخراج المسائل الهندسية بالتركيب والتحليل خاصة، وسائر الأعمال الواقعة في المسائل الهندسية وما يعرض للمهندسين من خطأ في طريقة التحليل المختصرة.

واهتم أبو إسحاق كثيراً بالقطوع المخروطية الثلاثة ورسمها، فوضع مقالة بيّن فيها طريقة إيجاد نقط كثيرة لا حصر لها على أي قطع من قطوع المخروط.

ألف أبو إسحاق في الفلك كتابا مهماً في حركات الشمس، وكان يرى أن حركة الشمس هي أهم الحركات السماوية الظاهرة، ولا سبيل إلى ضبط حركات القمر وسائر الأجرام السماوية إلا بعد معرفة حركة الشمس، ويتعرّض في كتابه لانكسار الضوء في الهواء بكلام بلغ الغاية من الأهمية، فهو يقول:

«إن الهواء مشفّ (شفاف)، فالضياء فيه غير مُدرك. والاستنارة حالة تلحق الجسم العديم الشفاف عند استقبال (الجسم) النيّر مع توسّط مشفّ فيما بينهما. والاستقبال في الحقيقة يوجب الاستقامة في المسافة، لهذا يُرى شعاع النيرين والكواكب والنّيرات مستقيم الامتداد. غير أن الشعاع من الشمس أو من البصر إذا نفذ في الأجسام المختلفة الإشفاف (أي التي تختلف في الصفاء، في الدقة والغلظ، كالهواء والماء) فإنه يتعرّج، أي يخرج من استقامته، وذلك الانعراج أو التعرج يسمى انعطافاً (انكساراً)، أما إذا اصطدم الشعاع بسطح مستو غير مشفّ فإنه يتعرج بالانعكاس، كارتداده عن سطح الماء، وسطوح المرايا المختلفة السطوح (حتى يدرك الناظر المقصود بالنظر على خلاف هيئته)، ويحصل منه أعاجيب في مناظر الهواء ويخرج معه الآلات المحرقة».

ومن مؤلفاته المطبوعة: رسالة في الاسطرلاب ومقالة في رسم القطوع الثلاثة وكتاب في مساحة قطوع المخروط والقطع المكافىء (ترجم ونشر في زيوريخ عام ١٩١٨).

أما آثاره المخطوطة فكثيرة، منها في علم النجوم: كتاب آلات الإظلال، وقد كتبه في مطلع شبابه، ثم صححه وأكمله فيما بعد، وكتاب أغراض كتاب المجسطي، وكتاب فيما كان بطلميوس القلوذي استعمله على سبيل التساهل في استخراج اختلافات زحل والمريخ والمشتري، وبيّن فيه إبراهيم إمكانية الاستغناء

عن التساهل الذي لجأ إليه القلودي، ورسالة في وصف المعاني المستحرجة في الهندسة وعلم النجوم، وكتاب في حركات الشمس وله في علم الهندسة كتاب في الدوائر المتماسة، ومقالة في طريق التحليل والتركيب في المسائل الهندسية.

زهير الكتبي

الموضوعات ذات الصلة :

الفلك (علم-)

مراجع للاستزادة :

- ابن النديم، الفهرست، الفن الثاني من المقالة السابعة.
- القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء (مصر، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م).
- عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب (بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م).

■ إبراهيم بن علي الأَحْدب
(١٢٤٢-١٣٠٨هـ/ ١٨٢٦-١٨٩١م)

عالم لغوي وأديب صحافي من رواد النهضة العربية. ولد في طرابلس الشام، وتلقى علومه في مدارسها، ودرس على الشيخ عبد الغني الرافعي، وأحاط بعلوم الشريعة واللغة، يعينه على ذلك ذاكرة قوية، وبديهة حاضرة، ولسان طيعٌ، وقدرة على ارتجال الشعر.

زار الآستانة ومكث فيها أربع سنوات والتقى بمثقفيها وجمعياتها فوجد كل إكرام، ولا سيما من السلطان عبد الحميد الذي خصه إبراهيم ببعض قصائده. عاد إلى لبنان، فاتخذه سعيد حنبلاط مستشاراً له في الأمور الشرعية، وعهد إليه في تدريس أولاده. وفي أثناء إقامته في المختارة تزوج فتاة من أسرة الخطيب ورزق منها خمسة أبناء. ثم انتقل إبراهيم إلى بيروت وعمل في المحكمة الشرعية وارتقى حتى أصبح رئيس كتابها وتولى تحرير صحيفة «ثمرات الفنون» واستمر في عمله ما يزيد على ثلاثين سنة.

وفي سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م زار إبراهيم مصر واتصل بعلمائها وأدبائها وتوثقت معرفته بالشيخ عبد الهادي الأبياري [ر] وأنتجت صلتهما صفحات من الإخوانيات جمعت في كتاب «الوسائل الأدبية في الرسائل الأحدبية». وكانت مجالس الشيخ إبراهيم ندوات يتلاقى فيها الأدباء من الكتاب والشعراء.

كان إبراهيم عزير الإنتاج إذ ترك ما يناهز خمسة وعشرين مؤلَّفاً وعشرين رواية استقاها من تاريخ الأدب العربي من بينها «جميل بثينة»، و«كُثيِّر عزة»، أو من التاريخ العام مثل «مزْد ك» و«الاسكندر المقدوني» وقد مثلت هذه الرواية في دمشق أمام واليها راشد باشا. وله كذلك ثلاثة دواوين شعرية يقدر ما نظمه فيها بثمانين ألف بيت، من بينها ديوان «النفح المسكي في الشعر البيروتي» ومما كتب «ذيل ثمرات الأوراق» لابن حجّة الحموي (طبع على هامش المستطرف)، و«كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان»، و«كشف الأرب عن سر الأدب» (وهو شعر) و«فرائد اللآل في مجمع الأمثال» نظم فيه الأمثال التي جمعها الميداني في نحو ستة آلاف بيت، وعني ولداه بطبعه و«فرائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق» جارى فيه الزمخْشريّ في كتابه «أطواق الذهب».

سار إبراهيم الأحدب في أدبه على نهج القدماء، فهو في الشعر من المحافظين، وأكثر قصائده في المديح. أما في النثر فقد درج على كتابة الافتتاحيات والمقالات التي يتناول فيها القضايا الخلقية والدينية، وكان يبدؤها بعنوان ثابت (يا فتّاح) وكان يرى في الصحافة وسيلة لنشر أفكاره. وأما في رواياته فقد كان أقرب إلى التحديد، وكان بعضها مدرسياً تعليمياً، وبعضها الآخر مقتبساً عن الفرنسية التي كانت تترجم له ثم يصوغها بأسلوبه.

كما ترسّم خُطا بديع الزمان الهمداني والحريري فكتب مقامات أثبت فيها مقدرته اللغوية وحفظه أشعار العرب وخطبهم وأمثالهم. وقد بلغت ثمانياً وثمانين مقامة منها المقامة الدمشقية ومقامة العزلة، وليس في مقاماته حبكة، وقد يكرر الحادث الواحد فيها، وفي معظمها حديث عن المرأة وشؤونها.

لم يكن للأحدب مشاركة في أحداث عصره السياسية، فقد كان هدفه الأول خدمة اللغة والأدب، واستمر على ذلك حتى وفاته.

ج.ت

مراجع للاستزادة :

- فيليب دي طرّازي، تاريخ الصحافة العربية (بيروت، المطبعة الأدبية ١٩١٣).
- عبد الرزاق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦١).

■ إبراهيم بن غانم
(ق ٧ هـ / ق ١٣م)

مهندس عربي، عاش في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد. ذكره محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»، في معرض كلامه عن المدرسة الظاهرية الجوانية. وبعد أن فصّل القول في المدرسة ذكر أنه كتب على واجهة بنائها جريدة وقفها بحروف غليظة. ونقش اسم مهندسها في الزاوية الشمالية من المدخل وما زال النقش قائماً على النحو الآتي (عمل إبراهيم بن غانم المهندس).

ومن انجازات إبراهيم عمله في قصر الأبلق وبناء ضريح السلطان بيبرس، المشيّد عام ٦٧٠هـ /١٢٧٧م. وقد تكلم ابن شداد عن قصر الأبلق الذي أشرف المهندس إبراهيم بن غانم على بنائه وترميمه، فقال: إن الملك الظاهر دخل دمشق بعساكره المنصورة على التتار، يوم الخميس، السابع من محرم عام ٦٧٦هـ، ونزل بالجيوش «القصر المعروف» بالأبلق، بجوار الميدان الأخضر. وسمي بالأبلق لأن جدرانه بنيت من حجر أسود جلب من حوران، وحجر أصفر جلب من حلب. وظل هذا القصر قائماً حتى هدمه تيمورلنك عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠١م. وكان الملك الظاهر قد أوصى أن يدفن على الطريق السابلة قريباً من داريا. إلا أن ولده الملك السعيد، بركة خان، رأى أن يدفنه داخل سور المدينة، فابتاع دار الشريف أحمد بن الحسين العقيقي، الواقعة قبالة المدرسة العادلية، التي كانت قصراً للأيوبيين، وأمر المهندس إبراهيم

ابن غانم أن يبني مدرسة للشافعية وأخرى للحنفية، ودار حديث ومسجداً ليدفن فيه والده. فهدم القسم الجنوبي من دار بني العقيقي، وأقام مكانه قبة المسجد. وفي آخر جمادى الآخرة من عام ٦٧٦هـ نقلت رفات الملك الظاهر من قلعة دمشق ودفنت تحت القبة. وبعد ذلك بعشر سنوات دفن إلى جانبه ابنه الملك السعيد.

عني المهندس إبراهيم بن غانم ببناء قبة المدفن، واستعان بالعمال الذين قاموا بتزيين الجامع الأموي وترميمه، فطلوا جدران المدفن الداخلية برسوم من أحجار الفسيفساء، كما زينوا أطراف المحراب والنوافذ بقطع من الرخام الملون، وأحاطوا النوافذ بإطار من الأحجار الصفراء المنقوشة برسوم هندسية، رقيقة ومتقنة.

إن تحويل قصر العقيقي إلى مدرسة ومسجد كان من شأنه تغيير صورة البناء الأصلي، إذ ارتفع حوله جداران من الحجر المنحوت، أحدهما فيه الباب الرئيسي المقابل للمدرسة العادلية، وعلى يمينه نافذتان على الطريق، والآخر جنوبي، يطل على الطريق المؤدية إلى قبر صلاح الدين الأيوبي.

أما الحمام الموجود إلى يسار المدرسة الظاهرية والإيوان الشمالي الموجود داخلها فهما البقية الباقية من دار العقيقي. لقد استوفى المهندس إبراهيم بن غانم تقاليد الفن الأيوبي، التي كانت ماثلة في بناء المدرسة العادلية، ولعله أراد أن يجعل هذين البناءين المتقابلين منسجمين فألف منهما وحدة عمرانية رائعة.

محمد زهير الباما

مراجع للاستزادة:

- محمد كرد علي، خطط الشام (بيروت، ١٩٦٩).
- أسماء الحمصي، المدرسة الظاهرية (مطبعة الترقي ١٩٦٧).

■ إبراهيم بن حبيب الفزاري
(٠٠٠ - ١٨٠ هـ/ ٠٠٠ - ٧٩٦م)

أبو اسحاق، فلكي ومنجم عربي، من نسل سمرة بن جندب. خدم الخليفة المنصور (١٣٦-١٥٨هـ). ترك آثاراً مهمة، ففي سنة ١٥٤هـ جاء إلى بغداد وفد هندي ومعه كتاب في الفلك، أصبحت له شهرة كبيرة فيما بعد، وهو كتاب «السند هند الكبير». وضع هذا الكتاب فلكي ورياضي هندي يدعى «براهما غوبتا» للملك «فياكهرمكة» سنة ٦ أو ٧ للهجرة. فأمر المنصور إبراهيم الفزاري أن يتولى ترجمة الكتاب، وأن يستخرج منه كتاباً تستعين به العرب في حساب حركات الكواكب وما يتعلق بها. وقد أنجز الفزاري ما كلّف به مستعيناً بعلماء عصره ومترجميه. كما عمل زيجاً اشتهر بين علماء العرب. واستمر العمل به إلى أيام المأمون (١٩٨-٢١٨هـ). لم يكن الفزاري ناقلاً لزيجه فحسب، بل كان مؤلفاً أيضاً، إذ حوّل الزيج من سني الهند النجمية إلى سني العرب القمرية. وشاركه في أعماله العلمية عالم آخر، من أفاضل المنجمين وله عناية بذلك الكتاب الهندي. وهو يعقوب بن طارق. ويقول البيروني (ت ٤٤٠هـ) عند ذكر أدوار السنين: «وهي زيج الفزاري ويعقوب بن طارق تلك الأدوار مستفادة عن الرجل الهندي الذي كان في جملة وفد السند على المنصور سنة ١٥٤هـ».

ويعزى للفزاري أنه هو الذي حدد الوقت المناسب للبدء في بناء مدينة بغداد. كما تجمع المصادر على أنه أول من عمل إسطرلاباً [ر] في الإسلام، وأول من ألف فيه كتاباً سمّاه «العمل بالإسطرلاب المسطح». كما ألّف رسالة سمّاها «العمل بالإسطرلابات ذات الحلق»، وصنع إسطرلاباً منه. ويقصد بالاسطرلاب ذي الحلق أن فيه خمس دوائر من النحاس هي: دائرة نصف النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل، وكذلك الدائرة الشمسية التي يعرف بها سمت الكواكب.

وللفزاري كتب أخرى أهمها: كتاب «القصيدة في علم النجوم» وكتاب «المقياس للزوال».

كما شارك الفزاري في نقل كتاب المجسطي إلى العربية وشرحه.

زهير الكتبي

الموضوعات ذات الصلة:

الإسطرلاب

مراجع للاستزادة:

- كارل نلينو، علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (رومة ١٩١١).

■ إبراهيم بن المهدي
(١٦٢- ٢٢٤هـ/ ٧٧٩- ٨٣٩م)

أبو إسحق إبراهيم بن الخليفة العباسي المهدي، وأخو هارون الرشيد ينتهي نسبه إلى العباس بن عبد المطلب الهاشمي، وأمه جارية سوداء ديلمية اسمها شكْلة، فكان أسود عظيم الجثة، يسمى «التنين» ويقال له ابن شكلة.

ولد في بغداد ونشأ فيها، ولأه الرشيد إمرة دمشق ثم عزله عنها بعد سنتين، ثم أعاده إليها وأقام فيها أربع سنين. استطاع إبراهيم بن المهدي في أول حكمه في دمشق أن يحقق العدل بين الفئات المتصارعة فيها من قيسيين ويمانيين، وكان قادراً على اتباع سياسة يُرضي بها الطرفين إذ عاملهم معاملة واحدة من دون أي تحيز، كما عمل على استتباب الأمن فيها. بيد أن هذه السياسة لم تكن متبعة في جميع الأحوال، إذ سرعان ما نفر الناس منه بدمشق بعد أن قرب إليه أحد اليمانيين، واتبع سياسة العنف والإرهاب، فتداعوا إلى العصبية ونشبت الحرب ورجعوا إلى ما كانوا عليه من القتل والنهب.

بايعه أهل بغداد بالخلافة بعد مقتل الأمين سنة ٢٠٢ هـ/٨١٨م وذلك لنقاء المأمون في مرو واختياره علي الرضا بن موسى الكاظم ولياً لعهده ولأمره جنده بخلع السواد ولبس الخضرة. وقد أثار هذا التصرف غضب بني العباس في بغداد فخلعوا طاعة المأمون وبايعوا عمه إبراهيم ابن المهدي ولقبوه «المبارك».

لم يستقر الأمر لإبراهيم طويلاً لانتشار التمرد وسط جيشه، وانهزام قائديه سعيد بن

ساجور، وعيسى بن محمد بالقرب من واسط في ٢٦ رجب عام ٢٠٢هـ/٨١٨م، أمام جيش المأمون بقيادة الحسن بن سهل. وبعد هذه الهزيمة انضم عيسى بن محمد إلى المأمون علناً، في حين والاه بقية القواد سراً. ومع مسيرة المأمون إلى بغداد، ووفاة علي الرضا في أثنائها، وتخلي أهل بغداد عن إبراهيم بن المهدي، آلت الحال إلى اختفاء إبراهيم في آخر سنة ٢٠٣هـ/٨١٩م. وظل مختبئاً عدة سنوات إلى أن ظفر به المأمون وسجنه ستة أشهر ثم عفا عنه.

وهكذا كانت مدة حكمه في بغداد نحو سنتين ٢٠٢-٢٠٤هـ. ولم يعده المؤرخون من الخلفاء وكانت وفاته في سامراء في ٧ رمضان، وصلى عليه ابن أخيه المعتصم.

لم يكن لإبراهيم مواهب الحاكم، وقد صرف جلّ اهتمامه إلى الموسيقى والغناء والعزف على الطنبور وقول الشعر. وقد أخذ بعض غنائه عن أخته عُلَيَّة، وقيل: «ما اجتمع في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عُلَيَّة»، فقد كان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاع وأطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتاً. وكان مع علمه وطبعه ومعرفته يقصِّر عن الغناء القديم. ويحققه على قدر ما يصلح له ويفي بأدائه، فإذا عيب ذلك عليه قال «أنا ملك وابن ملك وإنما أغني على ما أشتهي وكما ألتذ» فكان أول من أفسد الغناء القديم.

وكان يقول «لولا أني أرفع نفسي عن هذه الصناعة لأظهرت فيها ما يعلم الناس معه أنهم لم يروا قبلي مثلي».

ومن فنون شعره الغزل والنسيب والمديح والهجاء، وله رثاء وخمريات وشيء من النثر في رسائل إخوانية.

وبقي من سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م- حتى وفاته، مغنياً في كنف المأمون، وكان يؤدي عند الاقتضاء دور المادح الرسمي في قصر الخليفة.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الأمين - المأمون - هارون الرشيد

مراجع للاستزادة:

- الصولي، أشعار أولاد الخلفاء، الطبعة الثانية (بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).
- الاصفهاني، الأغاني، ج١٠، الطبعة الثانية (بيروت، دار الكتب العلمية).

■ الإبراهيمي (محمد البشير-)
(١٣٠٦-١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩-١٩٦٥م)

علم من أعلام النهضة العربية الإسلامية في الجزائر، وثاني اثنين فيها بعد الإمام عبد الحميد بن باديس [ر]، والمنظّر لهذه النهضة ولسانها وقلمها وواضع أسسها الفكرية.

ولد محمد البشير الإبراهيمي بمواطن قبيلة «أولاد إبراهيم» غرب مدينة قسنطينة بالجزائر، ونشأ في بيت علم ودين، فحفظ القرآن الكريم ودرس علوم العربية وحفظ الكثير من التراث الشعري والنثري، وقد تصدى للتدريس بعد وفاة عمه وأستاذه ولّما يتجاوز الرابعة عشرة من عمره.

وفي سنة ١٩١٢ قام البشير الإبراهيمي برحلته الأولى إلى المشرق العربي بعد أن كان قد سبقه والده إلى الحجاز هرباً من ظلم المستعمر الفرنسي، فزار القاهرة والحجاز ودمشق والتقى العلماء فيها وزعماء النهضة الفكرية والأدبية، ومن هؤلاء مشايخ الأزهر: البشري وبخيت والدجوي، والشاعران شوقي وحافظ.

التقى الإبراهيمي في الحجاز الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الطيب العقبي سنة ١٩١٣، فكانوا يلتقون للبحث في شوون الجزائر وسبل النهوض بها. وفي سنة ١٩١٧ قامت السلطات العثمانية بترحيل أسرة الإبراهيمي فيمن رحّلت آنذاك من المدينة إلى دمشق بعد استفحال الثورة العربية بقيادة الشريف حسين. وقد باشر الإبراهيمي في دمشق الوعظ والإرشاد في الجامع الأموي، ودرّس الآداب العربية بالمدرسة السلطانية (مكتب عنبر)، الثانوية الوحيدة آنذاك، مع الشيخ عبد القادر المبارك [ر]، وفي دمشق توثقت الصداقة بين الإبراهيمي، والشيخ بهجة البيطار[ر]، وفيها التقى الشيخ محمد رشيد رضا[ر].

عاد الإبراهيمي إلى الجزائر في مستهل سنة ١٩٢٠، وكان قد رجع إليها كذلك ابن باديس والعقبي. وانصرف الإبراهيمي إلى التعليم في إحدى المدارس الحرة في مدينة «اصطيف» وعقد الندوات العلمية، ولم ينقطع عن الاتصال بابن باديس. وفي سنة ١٩٢٤ وضع القانون الأساسي لإنشاء جمعية «الإخاء العلمي». وفي سنة ١٩٣١ عقد المؤتمر التأسيسي «لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين» التي جعلت العروبة والإسلام مبدأ لها ونادت: «الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا»، وكانت هذه الصيحة وتلك الصحوة رداً تاريخياً على الاحتفال المئوي باحتلال فرنسة للجزائر. ويرى الإبراهيمي هذه المرحلة مناط فخره وتاج أعماله العلمية والاجتماعية والأفق المشرق في حياته. وتقاسم أقطاب الحركة الإصلاحية المهمات في المقاطعات الثلاث للقطر الجزائري: عبد الحميد بن باديس في قسنطينة العاصمة العلمية للشرق الجزائري والطيب العقبي في العاصمة (الجزائر) ومحمد البشير الإبراهيمي في تلمسان العاصمة العلمية القديمة في الغرب الجزائري.

كانت السنوات التالية لتأسيس «جمعية العلماء» مرحلة المواجهة الحاسمة مع المستعمر، والتصدي للانحراف الديني بالاتجاه نحو المدرسة العلمية الحديثة والتربية الإسلامية الصحيحة. وقد تعاطف الشعب مع تأسيس المدارس الحرة لمواجهة المدرسة الفرنسية، وبناء المساجد الجامعة في وجه الزوايا الطرقية التي هادنت المستعمر. وازدهرت في هذه المرحلة صحافة جمعية العلماء (مجلة الشهاب وجريدة البصائر)، وكان للإبراهيمي في كل هذه المجالات، إلى جانب زملائه من رجال الجمعية، اليد الطولى والخطوة الرائدة والكلمة المسموعة والفكرة المستشرفة، يؤرخ للحياة العلمية في الجزائر وللحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي، ويحرر التقرير الأدبي لجمعية العلماء في مؤتمراتها الدورية، إلى جانب الرسالة التعليمية التي لم ينقطع عنها في مدرسة «دار الحديث» بتلمسان.

كان المستعمر يتعقّب الإبراهيمي ويتحيّن الفرص لإسكاته، وقد أصدر حكماً بإبعاد الإبراهيمي في ١٠ آذار ١٩٤٠ إلى قرية «أفلو» في الصحراء الوهرانية، وبعد أسبوع من استقراره في منفاه توفي ابن باديس وانتخب الإبراهيمي رئيساً لجمعية العلماء. وقد ظل في منفاه ثلاث سنوات وأطلق سراحه في أوائل سنة ١٩٤٣، فعاد إلى تلمسان ثم انتقل إلى العاصمة الجزائر سنة ١٩٤٣، وكانت هذه المرحلة مرحلة التهيئة والتعبئة الروحية والمعنوية لقيام الثورة الجزائرية

على أسس من مقومات الشخصية الجزائرية العربية المسلمة، كما كانت هذه المرحلة أغنى مراحل حياة الإبراهيمي إبداعاً وتأليفاً، فقد كانت مقالاته الافتتاحية في «جريدة البصائر» الأسبوعية نسجاً فريداً في النبض العربي الإسلامي، ونموذجاً رائداً من حيث المضمون الوطني المستوعب لقضايا العرب في المغرب العربي ومشرقه.

سيق الإبراهيمي إلى السجن مع ألوف من الجزائريين المناضلين إثر حوادث ٨ أيار (مايو) ١٩٤٥ في الجزائر، ولم يطلق سراحه إلا في شهر آذار ١٩٤٦م. وفي سنة ١٩٤٨ خطت جمعية العلماء خطوة رائدة في مجال التربية والتعليم بافتتاح «معهد عبد الحميد بن باديس» للتعليم الثانوي في قسنطينة، وكان الطلاب قبل ذلك يوفدون إلى «الزيتونة» بتونس و«القرويين» بفاس، وكانت أولى البعثات العلمية الجزائرية إلى الجامعات في المشرق العربي من خريجي معهد ابن باديس.

وفي سنة ١٩٥٢ غادر الإبراهيمي الجزائر في رحلة إلى المشرق العربي والعالم الإسلامي، ولم يعد إلى الجزائر إلا بعد الاستقلال سنة ١٩٦٢،

وكانت دوافع هذه الرحلة: دراسة أحوال المسلمين في مواطنهم، والاتصال المباشر بعلماء الدين، ودراسة أحوال الحكومات الإسلامية ودراسة نفسية شباب الأمم الإسلامية المتباعدة الديار، وتعريف المشرق العربي بالمغرب العربي. وكانت سمعة الرجل قد سبقته، فكان، حيثما حلّ مثار الإعجاب والاعتزاز ومحل الترحيب والإكرام، ونزل ضيفاً على جامعة الدول العربية بالقاهرة، والتقى الملوك والرؤساء العرب في العواصم التي زارها، وزار باكستان وأقام فيها شهوراً، وكان الإبراهيمي في رحلته لسان حال الجزائر. ثم استقر بالقاهرة مشرفاً على مكتب «جمعية العلماء» ساهراً على البعثات العلمية الجزائرية إلى عواصم العالم العربي، وكان منزله بمصر الجديدة ملتقى العلماء والأدباء وقبلة طلبة العلم وأبناء الثورة الجزائرية وقادتها. وفي عام ١٩٦١ صدر قرار رئيس الجمهورية العربية المتحدة بعضوية الإبراهيمي في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، واستقبله المجمع عام ١٩٦٢م.

عاد الإبراهيمي إلى الجزائر غداة انتصار الثورة الجزائرية وإعلان الاستقلال، وألقى خطبة أول جمعة تقام في جامع «كتشاوة» في العاصمة، وكانت الجيوش الفرنسية قد داهمت هذا الجامع إبّان احتلالها الجزائر وهو غاص بالمصلين يوم الجمعة، فاحتلته وحوّلته إلى كاتدرائية.

لازم الإبراهيمي بيته تحيط به الوفود غادية رائحة، يؤرقه - إلى جانب السنّ والمرض - ما دبّ من خلاف بين قادة الثورة، وقد خطّ بيده في ١٦ نيسان ١٩٦٤ نداءً ناشد فيه القادة رأب الصدع وإصلاح ذات البين. توفي في الجزائر ودفن في مقبرة «سيدي أمحمد» في جنازة مشهودة.

ترك الإبراهيمي خمسة عشر مؤلفاً في اللغة والأدب والدين عدّدها في كلمته في حفل استقباله عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولكن أكثرها فُقد، وقد جمع ممّا تبقى من آثاره أربعة مجلدات صدرت بين أعوام (١٩٧٨-١٩٨٥) وكان الجزء الثاني منها كتاب «عيون البصائر» الذي سبق أن اختار الإبراهيمي مقالاته من جريدة «البصائر» وصدر عام ١٩٦٣.

اتصف الشيخ الإبراهيمي بنفس طويل في الكتابة وقلم مسترسل في معالجة القضايا المصيرية للجزائر والعرب والمسلمين، وكانت له في الاستعمار وألاعيبه ومكائده نظرة لا تخطئ وحكم صادق أكّدته الأيام، وكان يسلسل بعض المقالات في القضية الواحدة إلى عشرين حلقة أو تزيد، فتؤلف هذه المقالات كتاباً مستقلاً بذاته. ولو نشرت آثار الإبراهيمي على هذا النحو لأربت على ثلاثين كتاباً.

صالح الخرفي

الموضوعات ذات الصلة:

الجزائر - عبد الحميد بن باديس

مراجع للاستزادة:

- محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي: نضاله وأدبه (دمشق، دار الفكر ١٩٨٨)
- محمد الطاهر فضلاء، الإمام الرائد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (مطبعة البعث بقسطينة، الطبعة الأولى ١٩٦٧)
- محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديباً (رسالة ماجستير في جامعة بغداد ١٩٨٣).
- صالح الخرفي، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، ط٢ (الجزائر ١٩٨٤).

■ أبركرومبي (لاسيلس -)
(١٨٨١-١٩٣٨)

لاسيلس أبركرومبي Lascelles Abercrombie شاعر غنائي ومسرحي وناقد أدبي إنكليزي بارز في مطلع هذا القرن. ولد في أشتن على نهر مرزي Ashton upon Mersey ودرس في كلية مولفرن Malvern College في مقاطعة ووستر وبعدها في كلية اوينز Owens College في ما نشستر قبل أن يمضي للعمل في الصحافة وكتابة الشعر في مدينة ليفربول على الساحل الغربي لإنكلترة. عمل مدرساً للشعر في جامعة ليفربول (١٩١٩-١٩٢٢) ثم أستاذاً للأدب الإنكليزي في جامعة ليدز (١٩٢٢-١٩٢٩) ثمّ أستاذاً للإنكليزية وآدابها في جامعة لندن (١٩٢٩-١٩٣٥)، وللأدب الإنكليزي في جامعة أكسفورد (١٩٣٥-١٩٣٨) قبل أن توافيه منيته في لندن.

كان أبركرومبي على ارتباط وثيق بالشعراء الجورجيين وأسهم في سلسلة الشعر الجورجي Georgian Poetry التي نشرت بمبادرة من روبرت بروك Rupert Brooke، وجون درينكووتر John Drinkwater، وهارولد مونرو Harold Monro، وويلفريد ويلسون غيبسون Wielfried Gibson، وأرونديل ديل ريه Arundel del Ré، وإدوارد مارش Edward March، فقد ظهر منها خمسة مجلدات بين عامي ١٩١٢و١٩٢٢ وكان لها دور مهم في تقديم رؤية وأسلوب جديدين في شعر تلك الحقبة.

تضم مجموعاته الشعرية «فواصل وقصائد» «Interludes and Poems» (١٩٠٨)، و«ماري والعليق» «Mary and the Bramble» (١٩١٠)، و«دبوراه» «Deborah» (١٩١٢) وهي قصيدة درامية، و«شعارات الحب» «Emblems of Love» (١٩١٢)، وغيرها، وقد تميزت جميعها بقوة غنائية واضحة، وحب للجمال الطبيعي، ومسحة صوفية لفتت الأنظار إليه، ومما يجدر ذكره أنها قد ظهرت مجموعة في عام ١٩٣٠ ضمن سلسلة «شعراء أكسفورد» Oxford Poets.

سعى أبركرومبي من خلال مسرحياته الشعرية إلى إحياء هذا النوع من الفن في الأدب

الإنكليزي، وظهر له عدد منها في مجلة « نيونمبرز » New Numbers (الأعداد الجديدة)، كان من أبرزها « مزاد سانت توماس » The Sale of St. Thomas التي نشرت في عام ١٩٣٠، والتي تعد بحق من أنضج شعره المسرحي.

أما مقدرته النقدية فقد تبدّت من خلال عدد من الدراسات النقدية ومن بينها « توماس هاردي: دراسة نقدية » Thomas Hardy: A Critical Study (١٩١٢)، و« الملحمة » The Epic (١٩١٤)، و« مقالة نحو نظرية للفن » An Essay Towards a Theory of Art (١٩٢٢)، و« الشعر: موسيقاه ومعناه » Poetry: Its Music and Meaning (١٩٣٢)، و« مبادئ النقد الأدبي » Principles of Literary Criticism » (١٩٣٢) الذي ترجمه إلى العربية محمد عوض محمد عام (١٩٤٤)، ونشره في القاهرة تحت عنوان « قواعد النقد الأدبي »، والذي كان مقروءاً على نحو واسع من القراء العرب في تلك الأيام، وكان له تأثيره المهم في عدد من النقاد الجامعيين خاصة.

عبد النبي اصطيف

مراجع للاستزادة:

- E. LEQOUIS & LOUIS CAZAMIAN, A History of English literature, Revised Edition (Dent, London 1967)
- GEORGE SAMPSON, The Concise Cambridge History of English Literature, Third Edition (Cambridge University Press, Cambridge 1988).

■ أبرهة الأشرم

(٠٠٠ - نحو ٥٧١م)

قائد من الحبش، جاء إلى اليمن في الحملة التي أرسلها ملك الحبشة النجاشي أصحمة، بقيادة أرياط، لغزو اليمن والانتقام لمقتل النصارى في حادثة الأخدود على يد الملك ذي نواس، فصارت اليمن تابعة للحبشة، وتولى أرياط الحكم فيها في ظل ملكها الحميري السميفع.

تختلف الروايات في حقيقة العلاقة بين أرياط وأبرهة، فتجعل بعضها أرياط رئيساً على أبرهة وأخرى تجعله نداً له في قيادة جيش الحبشة.

ثم نازع أبرهة أرياط في أمر الحبشة باليمن، وجرت بينهما مبارزة شرم فيها أرياط عين أبرهة وأنفه، فلقب لذلك بالأشرم، أما أرياط فقتله غلام لأبرهة.

ويقال إن السميفع لم يكن على شيء من الحزم فتألب عليه الجند عام ٥٣١م واتفقوا على تمليك أبرهة الذي استقل باليمن وتلقّب بألقاب الملوك وامتنع عن إرسال الجزية للنجاشي.

وحاول النجاشي أن يستعيد سيطرته على اليمن فأرسل تجريدتين لتأديب أبرهة أخفقتا.

وتجمع الروايات على أن النجاشي حلف ألا يدع أبرهة إلا أن يطأ بلاده ويجز ناصيته ويهرق دمه، فكتب إليه أبرهة كتاباً فيه تودد واعتذار أرضى النجاشي فثبته على عمله بأرض اليمن، فأصبح أبرهة في حكم الملك المستقلّ وإن اعترف اسمياً بسلطة النجاشي وأدى إليه الجزية، مما جعل الأحوال تستقر بينهما.

قامت في اليمن عدة ثورات على أبرهة في زمن حكمه الذي امتدّ نحو أربعين عاماً استطاع أن يخمدها جميعاً، وعقد معاهدات مع بعض أقيال سبأ، وتوافدت إليه الوفود من الحبشة وفارس وبيزنطة ومن غسان الشام مما يدلّ على المكانة والقوة التي وصل إليها.

عني أبرهة بالعمران، فأعاد ترميم سدّ مأرب الذي كان قد تصدع، ويدل على ذلك رقيم وجد عند السد (يتألف من ١٣٦ سطراً ونحو ٤٧٠ كلمة) نقشت عليه كتابة تفسر كثيراً من الأحداث في حكم أبرهة.

وتمكن أبرهة من إعادة نشر النصرانية في اليمن، وبنى عدة كنائس منها « القَلَّيْس » بصنعاء، كانت من عجائب البناء في عظمتها وضخامتها وتزويقها، أراد بها أن تكون كعبة العرب بدلاً من « البيت » وتحويل أنظار القبائل العربية إلى صنعاء وربط اليمن بالشام، ولما أخفق في تحويل العرب إلى حج « القلَّيس » جهّز حملة لهدم الكعبة وسار في مقدمتها، ولكنه أخفق في دخول مكة وتحقيق هدفه.

تركت حملة الفيل أثراً كبيراً في أحياء العرب حتى غدت مبدأ التقويم عندهم، كما رفعت من شأن الكعبة وعززت مكانة قريش. وقد ورد ذكر حملة أبرهة في القرآن الكريم في سورة الفيل وورد اسم أبرهة في كتب التاريخ وفي الشعر الجاهلي، وضرب به المثل في القوة والصيت والسلطان، وكني بأبي يكسوم.

وتذكر الأخبار أن الذي دلّ أبرهة على الطريق إلى مكة كان اسمه أبارغال من ثقيف، وأنه مات في الطريق فرجمت العرب قبره.

خلف أبرهة على ملك اليمن ابنه يكسوم، وكان ظالماً، فلما مات ملكها أخوه مسروق وكان أشد ظلماً من أخيه، وفي أيامه دخل الفرس اليمن وانتهى حكم الحبشة.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- الطبري، تاريخ الأمم والملوك (دار القلم - بيروت)
- ابن الأثير، الكامل (دار الكتاب العربي - بيروت)
- ابن هشام، السيرة النبوية (دار الجيل - بيروت ١٩٧٥)

■ الإبستيمولوجية

الإبستيمولوجيه epistemology مصطلح ذو أصل إغريقي مؤلف من كلمتين: epistemo وتعني المعرفة وlogos وتعني علم. ويعني المصطلح حرفياً علم المعرفة أو علم العلم.

وكان أول من وضع هذا المصطلح الفيلسوف الاسكتلندي جيمس فريدريك فيرييه (١٨٠٨-١٨٦٤) حين ألف كتابه مبادئ الميتافيزيقا. إذ قسم الفلسفة فيه إلى قسمين: أنطولوجية [ر] وإبستيمولوجية.

أما المعنى المعاصر لمصطلح إبستيمولوجية ـ في الفلسفة العربية والفرنسية فهو : الدراسة النقدية للمعرفة العلمية.

ومع أن مفهوم « العلم » حاضر في تاريخ الفلسفة، ولاسيما عند أفلاطون وأرسطو وديكارت ولوك وليبنز [ر] فإن الإبستيمولوجية بوصفها مبحثاً مستقلاً موضوعه المعرفة العلمية، لم تنشأ إلا في مطلع القرن العشرين حين اتجهت إلى تحديد الأسس التي يرتكز عليها العلم، والخطوات التي يتألف منها، وإلى نقد العلوم والعودة إلى مبادئها العميقة. وذلك بتأثير التقدم السريع للعلم، والاتجاه نحو التخصص المتزايد، وما ولده ذلك من تغيّر في بنية منظومة العلوم، ومن صعوبات وإشكالات ذات طبيعة نظرية.

والإبستيمولوجية بوصفها الدراسة النقدية للعلم تختلف عن نظرية المعرفة [ر].

ففي حين تتناول نظرية المعرفة théorie de la connaissance عملية تكون المعرفة الإنسانية من حيث طبيعتها وقيمتها وحدودها وعلاقتها بالواقع، وتبرز ـ بنتيجة هذا التناول ـ اتجاهات اختبارية وعقلانية ومادية ومثالية، فإن موضوع الإبستيمولوجية ينحصر في دراسة المعرفة العلمية فقط.

وإذا كانت الإجابات التي تقدمها نظرية المعرفة « إطلاقية » وعامة وشاملة، فإن الإبستيمولوجية تدرس المعرفة العلمية في وضع محدد تاريخياً، من دون أن تنزع نحو إجابات مطلقة.

بل ترى الإبستيمولوجية في التعميمات الفلسفية لنظرية المعرفة عائقاً أمام تطور المعرفة العلمية. ذلك أن التصورات الزائفة عن المعرفة تؤثر سلبياً في مجال المعرفة العلمية، وخاصة حين تضع حدوداً للعلم.

فالإبستيمولوجية ليست استمراراً لنظرية المعرفة في الفلسفة بل هي تغير كيفي في النظر إلى علاقة الفلسفة بالعلم، وتجاوز للتناقض بين نظرية المعرفة والعلم.

وليس هذا فحسب، بل إن الإبستيمولوجية أتت على ماكان يعرف بفلسفة العلم philosophy of science، التي تولدت من علاقة الفلسفة بالعلم وتناولت جملة موضوعات أهمها علاقة العلم بالمجتمع وتأثيره في تكوّن النظرة الفلسفية إلى الطبيعة والكون.

أما من حيث الاختلاف بين الإبستيمولوجية ومنطق العلم [ر] logic of science، فإن منطق العلم أقرب المباحث إلى الإبستيمولوجية. ذلك لأنه يحلل لغة العلم تحليلاً منطقياً. ويبحث في مناهج الكشف العلمي ومنطقه، لكن أنصاره يقطعون كل صلة بينه وبين الفلسفة.

وإذا كانت الإبستيمولوجية مبحثاً موضوعه المعرفة العلمية، وهدفه التحليل النقدي لها، فما هي مشكلات العلم التي تتطلب تدخلاً إبستيمولوجياً؟

تعد مشكلة المسار الذي تسلكه المعرفة العلمية واحدة من أهم مشكلات الإبستيمولوجية.

ولقد انقسم الإبستيمولوجيون ـ في النظر إلى هذه المشكلة ـ إلى فريقين: فريق نظر إلى مسار العلم على أنه سيرورة متصلة مستمرة لاانقطاع فيها ولا انفصال.

وفريق آخر رأى أن مسار العلم مسار انقطاع واضطرابات وأزمات وثورات.

ويعد أميل مايرسون Emil Meyerson وليون برنشفيك Léon Brunschvicg أهم دعاة الاتجاه الذي يقول بالاستمرارية. والمعرفة العلمية ـ من وجهة نظر هذا الاتجاه ـ استمرار وتطور للمعرفة العادية. كما أن كل معرفة علمية جديدة هي استمرار للمعرفة العلمية السابقة فتاريخ العلم سلسلة يتولد بعضها من بعض. وما التغير الذي يحدث في العلم إلا تغير تدريجي. ويدللون على صحة رأيهم بالتطور التدريجي للمنهج العلمي وطريقة انتشاره.

فالمنهج العلمي الاستقرائي الحديث تمتد جذوره في الماضي، وقد تمّ انتشاره واستيعابه شيئاً فشيئاً عن طريق علماء متخصصين في العلوم الطبيعية ولاسيما في علم الفيزياء.

أما من حيث لغة العلم، فيرى أنصار الاستمرارية أنّها استمرار للغة العامة، مع تميز لغة العلم من هذه الأخيرة بطابعها الرمزي.

أما الاتجاه الثاني الذي يقول باللااستمرارية وأهم ممثليه غاستون باشلار [ر] وتوماس كوهن Th.Cohn ولوي ألتوسير Louis Althusser وميشيل فوكو Foucault فإنه ينطلق ـ على العكس من الاتجاه السابق ـ من أن تاريخ العلم تاريخ قطْع بين المعارف العلمية البالية والمعارف الباقية.

والذي يفصل بين هذين النمطين من المعرفة العلمية هو مفهوم القطيعة الإبستيمولوجية.

ليست المعرفة العلمية امتداداً للمعرفة العامية، بل هي انتقال من التجربة إلى « العقلنة » rationalization ومن الملاحظة المضطربة إلى المعرفة الموضوعية.

ولو صح أن المعرفة العلمية هي استمرار للمعرفة العامية لصح أن يكون اختراع المصباح الكهربائي استمراراً للمصباح العادي.

لكن الأمر ليس على هذا النحو. فاختراع المصباح الكهربائي ثمرة معرفة علمية بالعلاقات بين الظواهر، ودراسة وصلت مرحلة التعبير عن هذه العلاقات بصيغ رياضية.

كما أن المنهج العلمي ذاته لايقوم على الاستمرارية. فكتاب ديكارت [ر] « مقال في المنهج » لاينطوي اليوم على أي فائدة تذكر في البحث العلمي، كما أن منهج بيكون [ر] الاستقرائي لم يعد صالحاً في تحصيل المعرفة العلمية.

ولغة العلم ـ هي الأخرى ـ تختلف اختلافاً كلياً عن اللغة العادية. فاللغة التي تستخدمها الفيزياء ذات دلالة مختلفة عن اللغة العادية. حتى لو استعارت الفيزياء لغتها من هذه الأخيرة فلكلمة ذرّة في الفيزياء معنى مختلف عن كلمة ذرّة في اللغة العادية.

ولغة العلم ومناهجه معياران أساسيان في حدوث القطيعة الإبستيمولوجية.

فلغة العلم لغة متجددة دائماً والعلم صوغ مستمر للمفاهيم والمصطلحات، إلى حد تغدو معه لغة العلم الجديدة مختلفة عن لغة العلم القديمة.

فلغة المنطق الرمزية عند رَسلْ مختلفة كلياً عن لغة منطق أرسطو، لأن لغة المنطق الرمزية لاتحتمل أكثر من معنى واحد.

وقد توصل مؤسسو علم الفيزياء الحديث إلى أن المنهج الاستقرائي [ر] أصبح عاجزاً عن قراءة كتاب الطبيعة. ولهذا عولوا على المنهج الاستنباطي الرياضي [ر]. ولقد توصل نيوتن إلى نظريته في الميكانيك وقانون الجاذبية عن طريق المنهج الاستنباطي وليس عن طريق الاستقراء.

وإلى جانب مسألة تاريخ العلم تبحث الإبستيمولوجية في مسألة تصنيف العلوم. وهي مسألة عالجتها الفلسفة من قبل. غير أن الإبستيمولوجية رفضت التصنيف السكوني للعلوم الذي يقوم على أساس تصنيف الملكات

الذي يعود إلى أرسطو. إذ صنّفت العلوم وفقاً للملكات على النحو الآتي :

١- ملكة العقل : وتشمل الرياضيات والفيزياء والفلسفة.

٢- ملكة الذاكرة : وتشمل التاريخ والتاريخ الطبيعي.

٣ - ملكة الخيال : وتشمل الشعر.

كما تجاوزت الإبستيمولوجية تصنيف العلوم على أساس الانتقال من أكثر العلوم عمومية وبساطة إلى أكثرها خصوصية وتعقيداً، وهو تصنيف يعود إلى أوغست كونت [ر].

ومع ذلك يتفق الإبستيمولوجيون على تصنيف موحد للعلوم فهناك التصنيف الجدلي للعلوم الذي قدمه الإبستيمولوجي السوفييتي ب. كيدروف الذي يرى أن العلوم ثلاثة أنواع : العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والعلوم الفلسفية مقتفيا في ذلك أثر أنغلز [ر].

ولكنه رأى أن هناك علوما متوسطة بين العلوم السابقة. فالعلوم التطبيقية : كالزراعة والطب، تقع بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية. والرياضيات تقع بين العلوم الطبيعية والعلوم الفلسفية. ويرتبط علم النفس بجميع العلوم الأخرى إذ يرتبط بالعلوم الطبيعية من طريق نظرية النشاط العصبي ويرتبط بالعلوم الاجتماعية عن طريق علم اللغة ويرتبط بالعلوم الفلسفية عن طريق المنطق ونظرية المعرفة. أما الفلسفة فإنها تنفذ إلى جميع العلوم لأنها تمدها بالمنهج العام.

أما جان بياجيه [ر] فيقسم العلوم إلى مجموعات أربع : العلوم المنطقية الرياضية والعلوم الفيزيائية والعلوم البيولوجية والعلوم النفسية - الاجتماعية ومنها الألسنية وعلم الاقتصاد. وبين هذه العلوم علاقة متبادلة.

ويقترح فوكو تصنيفا آخر للعلوم مؤسساً على مجال المعرفة العام ذي الأبعاد الثلاثة :

البعد الأول : هو العلوم الرياضية والفيزيائية، وهي العلوم التي يقوم نظامها على تسلسل استنباطي للحقائق البدهية أو التي يتم التدليل عليها بالبرهان.

والبعد الثاني : هو علوم الحياة والاقتصاد واللغة. وهي علوم تدرس ظواهر مستقلة لكنها ترتبط بروابط كلية. ومايربط بين البعد الأول والثاني هو استخدام الرياضيات.

البعد الثالث : الفلسفة، يرتبط هذا البعد بالبعد الثاني بتشابه الموضوعات. «الحياة والإنسان والرموز» كما يرتبط بالبعد الأول بإضفاء صفة الصورية على الفكر.

أما العلوم الإنسانية فلامكان لها في تصنيف كهذا وهذا لايعني أنه لاوجود لها، بل هي موجودة على تخوم العلوم السابقة. فعلم النفس يعتمد على النموذج البيولوجي. ذلك لأنه يدرس كل ماهو امتداد للوظائف البيولوجية. ومايؤدي إلى قيام تمثل لدى الإنسان.

ويعتمد علم الاجتماع على علم الاقتصاد. لأن موضوعه الإنسان الذي ينتج ويستهلك ويقيم علاقات مع المجتمع الذي يعيش فيه.

وعلم الآداب والأساطير يجد نموذجه في علم اللغة. ومهما يكن من اختلاف في تصنيف العلوم، فإن هذا التصنيف يهدف إلى تحديد العلاقة المتبادلة بين العلوم، من حيث موضوعاتها ومناهجها. وتحديد أوجه التشابه والاختلاف بين أشكال المعرفة العلمية ومن الصعب تقديم تصنيف تام للعلوم ذلك لأن هناك علوما جديدة دائماً وانقساماً مستمراً للعلوم القديمة. واكتشافاً لترابطات تنشئ علوماً متوسطة كالكيمياء الحيوية والفيزياء الحيوية والكيمياء الجيولوجية وغيرها.

وإذا كانت مشكلتا سيرورة العلم وتصنيفه تنتميان إلى تاريخية العلم فإن بنية المعرفة العلمية تطرح - إبستيمولوجياً - مسألة إنتاجها والعلاقة التي تقوم بين الذات والموضوع وبين العقل العالم ومعطيات الواقع، ليصار إلى تحديد دقيق للواقعة العلمية.

فالعلاقة التي تقوم بين الذات والموضوع في المعرفة العلمية علاقة مركبة، فلاوجود لواقعة علمية تسند إلى معطيات مباشرة فقط من دون مبادئ عقلية، كما أنه لاوجود لمبادئ عقلية من دون معطيات مباشرة.

ولما كان العلم يهدف إلى تحقيق المعرفة النظرية، فالمعرفة النظرية هي ثمرة العلاقة المركبة بين العقل والطبيعة. وإذا كانت العلاقة بين الذات والموضوع قد فهمت في المراحل المبكرة من تطور العلم على أنها حوار بين الذات، والموضوع المناقض لها، فإن العلم المعاصر قد دلل على تعقيد هذه العلاقة، فالحوار بين الذات والموضوع يجري اليوم بين عقل مسلح بكل المعرفة السابقة والموضوع الذي ركبه نشاط العالم العقلي.

ففي الفيزياء والكيمياء المعاصرتين لم تعد ظواهر العالم الخارجي - بوصفها معطيات مباشرة - هي موضوع المعرفة العلمية. بل تلك الموضوعات المعقدة التي نشأت بفعل تركيب دقيق وعميق من قبل العالم المسلح بتقنية عالية، من دون أن تفقد هذه الموضوعات واقعيتها.

وقد أصبحت التجربة العلمية، في ضوء ماتقدم صورة للنشاط الاختباري والمنطقي للذات. ولم يعد موضوعها صورة طبق الأصل عن الواقع الموضوعي. إنها ثمرة شروط هي ثمرة تدخل العالم، وإن تدخل الذات - العالمة قد طرح مسألة الدور الفاعل للذات في المعرفة العلمية . فالعلم - أساساً - يقوم بوصف علاقات بين متغيرات. والنظريات العلمية لاتنطوي إلا على عدد محدود من المتغيرات، على النقيض من الواقع الذي يحتوي على عدد كبير منها. فالظاهرة يمكن أن تتأثر بعوامل لا حصر لها. ويقتضي وصف الظاهرة - علمياً - إزاحة جملة من الصفات السطحية غير المهمة. ووضع فرضيات علمية عما هو أساسي وغير أساسي.

ونتيجة لذلك لم تعد الواقعة العلمية مجرد ظاهرة خاصة، بل هي ثمرة تدخل نشط وفعّال لذات تتصف بالقدرة على التخيّل.

فكل كشف أو توسع في المعرفة العلمية يبدأ، بوصفه تصوراً خيالياً قَبْلياً لما يمكن أن تكون عليه الحقيقة العلمية. ولايمكن فهم عمل الخيال إلا من حيث هو إعمال العقل أو استخدام الحواس.

غير أن العالم لايستطيع أن يحوّل حدسه أو خياله إلى إبداع علمي من دون المثابرة العلمية، فيوحد، على نحو أصيل، الحدس والاختبار والموضوعية وسعة الأفق.

إن الإبستيمولوجية لاتكتفي بتحديد الشروط العلمية لإنتاج المعرفة العلمية. وإنما تسعى - أيضاً - لبحث شروط المعرفة العلمية الاجتماعية. وآلية ذلك أن الاستقلال النسبي للمعرفة العلمية لايفصلها إطلاقاً عن شروط تكونها التاريخية - الاجتماعية. وهذا مايجعل من مبحث علم اجتماع المعرفة جزءاً لايتجزأ من البحث الإبستيمولوجي.

فلقد رأى جورج غورفيتش - مثلاً - أن الداروينية تتبنى في علم الحياة مبدأ التنافس في الحياة الرأسمالية.

كما أن الأبحاث العلمية - لاسيما في العلوم

الدقيقة - تكون في ترابط مع الأيديولوجية وذلك بما تحتاج إليه تلك الأبحاث من مختبرات وأجهزة بحث واختبارات واسعة النطاق، ومؤسسات خاضعة على نحو ما لأهداف قومية.

ويظل الحكم بوجود اختلاف بين العلم والأيديولوجية صحيحاً، فأحكام العلم أحكام حول حقائق قابلة للإثبات أو الدحض، وذات طابع موضوعي، تحظى بالقبول من العلماء، أما أحكام الأيديولوجية فهي أحكام قيمية، تتعلق بما يجب أن يكون، مع اعتمادها في كثير من الأحيان على حقائق علمية.

لكن المشكلة التي تطرحها الإبستيمولوجية هي التالية: هل تمثل الأيديولوجية عقبة أمام تطور المعرفة العلمية أم هي حافز من حوافز تطورها؟

إن العلم ممتزج بالممارسة الأيديولوجية وذلك حين يستعير القول الأيديولوجي ضماناته من النظريات العلمية. أو حين يتكون العلم في حقل الممارسة الأيديولوجية.

وقد لاحظ كانغلم Canguilhem، عندما تساءل عن انبعاث المذهب الحيوي vitalism في البيولوجية، أن تصور عودة المذهب الحيوي المتكررة الهجومية والدفاعية، بوصفها مرتبطة بأزمة ثقة المجتمع البرجوازي بنجوع مؤسساته الرأسمالية، ليس تصوراً عديم الجدوى ولا خطأً محضاً. وربما كان انبعاث المذهب الحيوي تعبيراً عن حذر الحياة الدائم تجاه مكننتها.

وهذا يعني أن الأيديولوجية تقوم بتوجيه النظر العلمي في اتجاه ما، فتتحول إلى محرض لحركة العلم.

وليس هذا فحسب. فإن الأيديولوجية قد تقوم بدورالكابح لتطور بعض العلوم. إذا ماناقضت نتائج هذه العلوم الترسيمات الأيديولوجية المغلقة. فتأخر علم البيولوجية في الاتحاد السوفييتي سابقاً لم يكن إلا ثمرة التعارض بين القول الأيديولوجي بدور الحياة الاجتماعية والقول العلمي بدور الوراثة.

ويبقى السؤال مطروحاً: هل يفقد العلم موضوعيته مادام متسماً بسمة أيديولوجية، ومادامت الأيديولوجية عامل إفساد للموضوعية؟

أن يجد العلم بدايته في وسط أوسع، أي في سياق اجتماعي وأيديولوجي، ووجود علوم سابقة عليه، فذلك لايحكم على شيء من حقيقته أو بطلانه حكماً مسبقاً. كما أن استناد العلم إلى إيحاءات أيديولوجية توجه مساره لايقود إلى عدم الثقة بحقيقته.

وهذا يعني أنه يجب التفريق بين شروط نشوء العلم وتطوره، ومشكلة الحقيقة في العلوم.

إن المسائل التي ذكرت. والتي تعالجها الإبستيمولوجية، تجعل القول صحيحاً بأن هناك إبستيمولوجية عامة. موضوعها العلم من دون تمييز العلوم الطبيعية من العلوم الإنسانية.

واستناداً إلى ذلك، فإن الإبستيمولوجية مع كونها مبحثاً حاز على استقلاله النسبي في السنوات الأخيرة، تظل مبحثاً فلسفياً. خاصة لأنها تسعى إلى صوغ نظرية عامة في المعرفة العلمية. ولاأدل على ذلك من محاولة جان بياجيه إشادة نظرية في التكوين النفسي للعلم.

ومما يؤكد انتماء الإبستيمولوجية إلى الفلسفة، تحولها إلى علم معياري ،وهي تعالج مسائل العلم. لأن السؤال الأساسي الذي يكون خلف معالجاتها هو: ماذا يجب أن يكون عليه العلم؟

غير أن الإبستيمولوجية العامة لاتنفي وجود مشكلات إبستيمولوجية لزمرة من العلوم أو لعلم جزئي . ومن ثم فإن هناك إبستيمولوجية خاصة وإبستيمولوجية جزئية، إلى جانب الإبستيمولوجية العامة.

فإبستيمولوجية العلوم الطبيعية، تتساءل: ماطبيعة القانون في هذه العلوم؟ مادور مقولات الحتمية والمصادفة والاحتمال والغائية؟

كما أن هناك مشكلات خاصة بالعلوم الإنسانية: كالموضوعية والفهم والتفسير والجانب الأيديولوجي لأحكامها. والعلاقة بين المنطقي والتاريخي في المعرفة الإنسانية، وإمكانية قيام نظرية اجتماعية، وهل هناك ملامح قانونية عامة في السيرورة الاجتماعية أم أن الواقعة الاجتماعية واقعة فذة؟

إن هذه المشكلات وغيرها هي موضع الإبستيمولوجية الخاصة بالعلوم الإنسانية.

لكن العلوم الجزئية تواجه هي الأخرى مشكلات خاصة بها، بسبب استقلالها النسبي.

فإبستيمولوجية العلوم الحيوية تطرح جملة مسائل إبستيمولوجية من قبيل: هل هناك غائية في التطور الحي؟ وماالعلاقة بين مفهوم الطفرة والتطور التدريجي في العالم الحي؟ وماالدور الذي يقوم به، منهجياً، مفهوم البيئة في تفسير الظواهر الحية.

وهناك مشكلات إبستيمولوجية خاصة بعلم التاريخ [ر]: كتحديد معنى الواقعة التاريخية الموضوعية في علم التاريخ، وهل التاريخ قابل للتفسير أو للفهم. هل هناك حتمية تاريخية؟

ولاشك في أن الإبستيمولوجية العامة، وهي تسعى إلى صوغ نظرية عامة في المعرفة العلمية، تستفيد من الإبستيمولوجية الخاصة والإبستيمولوجية الجزئية. والعكس صحيح أيضاً. انطلاقاً من واقعة انفصال العلوم وتكاملها في الوقت نفسه.

لكن السؤال الذي يطرحه العقل الناقد هو: إذا كانت الإبستيمولوجية علماً للعلم ذاته ألا تحتاج الإبستيمولوجية نفسها إلى إبستيمولوجية تكشف عن مشكلاتها وعن الصعوبات التي تصادفها؟

والحق أن الإبستيمولوجيين أنفسهم يمارسون هذا الدور حين يختلفون في تناول المشكلات العلمية ويقدمون إجابات متعددة. ومتناقضة أحياناً منتقدين بعضهم بعضاً.

وقد برز مثل هذا الاختلاف في مسائل تاريخ العلم وتصنيف العلوم.

ومن ثم يصح القول: إن الشروط الداخلية والخارجية التي يخضع لها العلم هي ذاتها التي تخضع لها الإبستيمولوجية. كذلك فإن نزوعها العلمي لن ينجيها من طابعها الأيديولوجي.

أحمد برقاوي

- الموضوعات ذات الصلة:

الاستنتاج - الاستقراء - باشلار - الرياضيات - العقل - العلم - كَنْت - المقولة.

■ أُبسالا

أُبسالا Uppsala رابع أكبر مدينة في السويد. تحظى هذه المدينة، لأسباب تاريخيه وثقافية وجغرافية واقتصادية بأهمية خاصة لدى سكان البلاد قلما تحظى بها أية مدينة أخرى حتى العاصمة نفسها.

تقع مدينة أبسالا على نهر فيريس Fyris وتبعد ٨ كم إلى الشمال عن بحيرة «مالارن» Malaren ونحو ٦٤كم إلى الشمال الغربي عن العاصمة في وسط إقليم السهل الساحلي الأوسط الذي يعدُّ القلب من الدولة لأنه يطل على خليج «بوتنية» Bothnia شمالاً وبحر البلطيق جنوباً ويشغل مساحة ٦٩٨٩كم٢، وتُعد أبسالا العاصمة الإدارية لهذا الإقليم وهي عقدة مواصلات مهمة تربط جنوبي البلاد بشماليها. يبلغ عدد سكانها ١٧٨٠٠٠ نسمة (١٩٩٣). وتعدُّ بلدة «أُسترارُوز» التي نقل إليها مركز الأساقفة عام ١٢٧٣ أساس أبسالا الحديثة، أما أبسالا القديمة فتقع إلى الشمال من المدينة الحالية على بُعد ٤ كم وقد كانت عاصمة المملكة السويدية في العصور القديمة، ومركزاً أسقفياً منذ عام ١١٦٤م. فيها كاتدرائية من الطراز القوطي (١٤٣٥) تضم بين جدرانها ضريح كل من «غوستافوس الأول» و«كارل لينايوس» و«إمانويل سويدنبرغ».

تعدُّ أبسالا العاصمة الروحية والثقافية للسويد ففيها العديد من الكنائس وكاتدرائية رئيس الأساقفة في السويد، وعلى الرغم من انتقال مركز العاصمة إلى مدينة استوكهولم فإن مراسيم تتويج الملك تجري في هذه المدينة حتى اليوم. وفيها جامعة حكومية تأسست عام ١٤٧٧م وهي أقدم جامعة وطنية، بناؤها من طراز عصر النهضة وتحيط بها حديقة نباتات وبالقرب منها مركز فلكي شهير. ومنذ عام ١٥٩٥م عُدت هذه الجامعة أماً للجامعات الأوروبية لاحتوائها على كليات للفنون والموسيقا والقانون والتربية والطب والعلوم الطبيعية. وفي عام ١٦٢٠م أُنشئت فيها مكتبة ضخمة تحوي أكثر من مليون مجلد في مختلف العلوم إضافة إلى المخطوطات القيمة التي تعود إلى القرن الرابع.

وعلى الرغم من وجودها في سهل زراعي، فهي مركز صناعي للكثير من الصناعات، منها صناعة الأدوية، والصناعات الغذائية، والجلدية، والنسيجية، وصناعة الآلات الموسيقية، وصناعة الدراجات إضافة إلى بعض الصناعات الثقيلة منها صناعة المركبات وقاطرات السكك الحديدية، كما تشتهر بصناعة القوالب المعدنية.

محمد صافيتا

الموضوعات ذات الصلة:

السويد.

■ إبسن (هنريك -) (١٨٢٨-١٩٠٦)

هنريك إبسن Henrik Ibsen كاتب مسرحي نروجي مشهور، ولد لأبوين ميسورين في «سْكين» Skien، وهي مدينة صغيرة تقع في الجنوب الشرقي من النروج. كان والده يعمل في التجارة إلا أنه أصيب بالإفلاس عام ١٨٣٤ مما اضطر الأسرة إلى مغادرة سكنها الارستقراطي الفخم، واضطر هنريك الطفل فيما بعد إلى ترك المدرسة والعمل مساعداً لصيدلي في مدينة «غرِمْشتد» Grimstad ولما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره. وعندما بلغ الثامنة عشرة أصبح أباً، وفي الثانية والعشرين نشر مسرحيته الأولى «كتيلينا» Catilina عام ١٨٥٠، توجه بعدها بأسابيع إلى مدينة «كرستيانيا» Cristiania (أوسلو اليوم) ليتقدم إلى امتحانات القبول في جامعتها، ولكنه لم يكمل دراسته وانشغل بقضايا الأدب والمسرح. ومع هذا فقد منحته جامعة «أبسالا» Uppsala شهادة الدكتوراة الفخرية عام ١٨٧٧.

اتصف إبسن منذ طفولته وشبابه بإحساس مرهف وعقل متمرد وولوع بالأدب، فجرب الكتابة في أجناس أدبية متنوعة كالرواية والمسرحية والشعر، مقلداً كتّاباً أساليبهم الأدبية مختلفة. ولم يكن شأنه فيما قلد شأن التابع،



فمعالم شخصيته واضحة فيما كتب وموقفه من محيطه هو موقف الناقد. وقد غذّت الثورات التي عمت أوربة عام ١٨٤٨ اتجاهه نحو التحرر الفكري. ويتضح ذلك في مسرحيته «كتيلينا» أول أعماله الأدبية التي تناولت نضال الثائر الذي يُهزم لأنه يفتقر إلى الثقة بنفسه فيخون بذلك شخصيته الحقيقية. وتُظهر بنية مسرحية «كتيلينا» تأثر إبسن بالمسرحي الفرنسي «سكريب» Scribe رائد المسرحية الجيدة الحبك، كما تعكس مادة المسرحية تأثر إبسن بالكاتب الألماني «شيلر» Schiller [ر]. وقد آثر إبسن في هذه الحقبة من حياته أن ينشر أعماله الأدبية من دون ذكر اسمه، وهذا ما فعله عام ١٨٥٠ عندما نشر مسرحية كتيلينا غفلاً من اسم مؤلفها. ولم تحقق المسرحية أي نجاح، كما أن مساهمته المغفلة الاسم في عام ١٨٥١ في صحيفة أسبوعية معارضة لاقت المصير نفسه. لذلك سعد لدعوة تلقاها بأن يعمل مساعداً لمدير المسرح النروجي الجديد الذي كان قد أسس في «بيرغن» Bergen عام ١٨٥٠ بهدف تحرير المسرح النروجي من التقاليد المسرحية الدانمركية. وقد أمضى إبسن في عمله هذا ست سنوات (١٨٥١-١٨٥٧)، واستدعي بعد ذلك لإدارة المسرح النروجي في كرستيانيا والإخراج له؛ وظل يعمل فيه مدة خمسة أعوام حتى أغلق المسرح عام ١٨٦٢ لإفلاسه. مكّنه عمله هذا من تعرف جميع نواحي المسرح والإلمام بتقنياته.

وفي هذه المرحلة كتب إبسن عدداً من المسرحيات التي نشرها باسمه الصريح هذه المرة. وتتصف هذه المسرحيات بأنها تماشي رغبات العصر من إحياء للتقاليد القومية النروجية مما جعل إبسن يشعر بالتعاسة لما أسماه «عمل الخادم» وهو أمر سرعان ما ثار عليه. وهذه المسرحيات هي «عربة المحارب» Warrior's Barrow (١٨٥٠) و«نورما» Norma (١٨٥١) و«أمسية القديس يوحنا» St. John's Eve (١٨٥٣) وليدي إنغر Lady Inger (١٨٥٥)

و«عيد في سولهوغ» Feast at Solhaug (١٨٥٦) و«أولاف ليليكرانز» Olaf Liljekrans (١٨٥٧) و«الڤايكنغ في هيلغلاند» Vikings in Helgeland (١٨٥٨). وفي عام ١٨٦٢ أخرج له مسرح أوسلو أولى مسرحياته الحديثة التي نشرت بعنوان «ملهاة الحب» Love's Comedy وفيها ينتقد تقاليد الخطوبة والزواج المعاصرة ويشهّر بالمجتمع البرجوازي. وفي عام ١٨٦٣ اختار إبسن موضوعاً تاريخياً داعياً أمته لعمل قومي حق في مسرحية أطلق عليها اسم «الأدعياء» The Pretenders، إلا أن شعوره بأنه عاجز عن الكتابة بحرية تامة في بلده دفعه في عام ١٨٦٣ للحصول على «زمالة ترحال». وفي عام ١٨٦٤ غادر النروج إلى رومة. وبعد عامين كرمته السلطات النروجية إثر كتابته مسرحية «براند» Brand عام ١٨٦٦ فمنحته راتباً سنوياً حرره إلى حد كبير من القلق المادي.

ظل إبسن في منفاه الاختياري حتى عام ١٨٩١ وقام في هذه المدة بزيارتين قصيرتين للنروج (في عامي ١٨٧٤ و١٨٨٥). ولم تستطع البلدان التي عاش فيها ـ ولاسيما إيطالية وألمانية ـ أن تغير شيئاً من شخصيته وأهدافه وانتمائه إلى وطنه النروج. وظل حراً طليقاً بعيداً عن التأثيرات والضغوط التي قد تقيد حركته الفكرية.

وقد اتصفت المسرحيات التي أرسلها إلى وطنه بالقوة والحماسة والنقد العنيف بقصد الارتقاء بأمته إلى مصاف الصدق والحرية الأخلاقية. وقد تفرغ إبسن للكتابة المسرحية بإلحاح يحدوه إيمان مطلق بأن هذا الشكل الأدبي هو طريقه الوحيد للإفصاح عما يجيش في نفسه.

وفي عام ١٨٦٦ ظهرت مسرحيته الشعرية الرمزية «براند» فكانت كالبركان في دعوتها الأخلاقية للإخلاص للرسالة السماوية وحركت العالم الاسكندناڤي بأجمعه، وجعلت من إبسن داعية أخلاقياً لهذا العالم، فنال بذلك تكريم بلاده. شأنه في ذلك شأن صديقه ومواطنه الكاتب النروجي «بيورنسون» Bjornson [ر]. تتحدث المسرحية عن المواقف المثالية المتزمتة لأحد رعاة الكنيسة تجاه الله والناس، وهي تعرض بقوة عدداً من الموضوعات تتكرر باستمرار في مسرحياته اللاحقة، ومن بينها موضوع الرجل المثالي الذي يهب نفسه لهدف نبيل، ولا يهادن فيه ولا يحيد عنه، فتكون بذلك نهايته المأساوية، وهي النهاية التي يصل إليها المبشر «براند» الذي يخسر أسرته وينفّر رعايا كنيسته. ومسرحية «براند» هي من مسرحيات إبسن التي ما زالت تعرض إلى اليوم. وعيبها الرئيسي افتقارها إلى روح الدعابة وإلى التناسق.

نشر إبسن في عام ١٨٦٧ مسرحية «بيرغنت» Peer Gynt. وتعد هذه المسرحية الشعرية نظيراً لمسرحية «براند» في موضوعها وشخصية بطلها وجوّها ورمزيتها. فهي شطط وهجاء خياليان لخيانة النفس والأخلاق، على أن إبسن حاول فيها استدراك عيوب سابقتها فبسّط أحداثها المتناسقة وأشاع فيها روح الدعابة فجاءت المسرحية أكثر مرحاً وخفة من مسرحية «براند» إلا أن بطلها «بيرغنت» ظل يفتقر إلى الإرادة والتصميم وقوة الشخصية، يعب كؤوس حياته حتى الثمالة بما فيها من خير وشر، ويجمع بين دفء الإنسانية واللامبالاة والقسوة، وتضفي خواطر الطفولة والفولكلور الاسكندناڤي على المسرحية خلفية زاهية الألوان. وقد أصبحت «بيرغنت» للاسكندنافيين بما فيها من أخيلة وشعر وعمق في التفكير صنواً لـ«فاوست» Faust لدى الألمان، و«دون كيشوت» Don Quixote لدى الإسبان، فهي تجسيد لحياتهم وشخصيتهم وسعي نحو تحقيق ذاتهم. ويبدو أن إبسن قد أراد لشخصية «بيرغنت» أن تكون نموذجاً للإنسان النروجي بما فيه من مناقب ومثالب، ولذا كان استقبال النروجيين لها مزيجاً من الغضب والحماس. وكان رد فعل إبسن على هذا الموقف أن نشر مسرحيته الناقدة «عصبة الشباب» The League of Youth عام ١٨٦٩ قدم فيها جانباً آخر من شخصية بيرغنت في مجال السياسة، إذ جمع في شخصه خصائص عدد من السياسيين النروجيين.

وفي عام ١٨٧١ نشر إبسن مختارات شعرية أسماها «قصائد» Digte. وتلت ذلك مسرحية تاريخية ضخمة في جزأين أسماهما «الامبراطور والجليلي» Emperor and Galilean (١٨٦٩-١٨٧٣). وفي هذه المسرحية حاول إبسن أن يوضح أفكاره عن المستقبل بأسلوب جدلي (Dialectic) متنبئاً بنوع من الوحدة بين الوثنية والمسيحية. وفي عام ١٨٧٧ بدأ إبسن نشر سلسلة جديدة من المسرحيات الاجتماعية سرعان ما جلبت له شهرته العالمية. وهذه المسرحيات هي استمرار لما بدأه «بيورنسون» في عام ١٨٧٥، ولكن بطاقة درامية أقوى وبثبات على الهدف منقطع النظير. وتتابعت المسرحيات الواحدة تلو الأخرى مهاجمة التقاليد الأخلاقية للمجتمع الحديث.

تألفت المجموعة الأولى من أربع مسرحيات هي «دعائم المجتمع» Pillars of the Society (١٨٧٥-١٨٧٧)، و«بيت الدمية» A Doll's House (١٨٧٨-١٨٧٩) و«أشباح» Ghosts (١٨٨١)، و«عدو الشعب» An Enemy of the People (١٨٨٢). وفي هذه المسرحيات يجمع إبسن بين البنية المسرحية المتينة ـ وهو فن تعلمه من «سكريب» ـ والجرأة في اختيار الموضوع. وفي المسرحية الأولى «دعائم المجتمع» يزيح إبسن الستار عن نفاق قادة المجتمع ليكشف فسادهم، ويبين أنهم على استعداد لخيانة أنفسهم وأحبائهم من أجل الثروة والنفوذ الاجتماعي، يتوصل في النهاية إلى أن الدعائم الحقيقية للمجتمع ليست أولئك القادة البارزين الذين يرون أنفسهم دائما على حق، بل هي الحرية والصدق. ويمكن القول إن هذه المسرحية قد حددت مواضيع العديد من مسرحيات إبسن اللاحقة: فهو يعود المرة تلو الأخرى إلى فكرة فساد المجتمع وإلى أنه يعيش على مجموعة من الأكاذيب المتوارثة، ويُسْكت كلّ ما من شأنه أن يكشف زيفها؛ فهو مجتمع خالٍ من المبادىء ولا همّ له سوى الحفاظ على المظاهر. وموضوع «بيت الدمية» هو الصدق والزيف في الزواج. وقد أثارت هذه المسرحية، التي تؤكد فيها امرأة استقلالها بتركها زوجها، جدلاً جعل إبسن يشعر بضرورة إيجاد نهاية بديلة لها. أما مسرحية «أشباح» فتناقش النتائج المأساوية لزواج أملته التقاليد الاجتماعية لا الحب، وتتخذ من موضوع الأمراض التناسلية التي تنتقل بالوراثة صورة للفساد في الحياة العائلية. فالزوجة تصرُّ خطأً ـ لأسباب اجتماعية ـ على البقاء في بيت الزوجية مما يؤدي إلى النهاية المأساوية التي تصل إليها الأسرة. ولقد أثارت هذه المسرحية ضجة كبرى في النروج ونقداً وجهه المحافظون والأحرار إلى إبسن لتناوله على المسرح مثل هذا الموضوع، مما دعا إبسن إلى كتابة مسرحية «عدو الشعب» التي يهاجم فيها النفاق والفساد وتسلط «الأكثرية» التي لا تفكر ولا تريد أن تنصت إلى الحقيقة لتعارضها ومصالحها. وهذه المسرحيات

الأربع تجسد غاية ما توصل إليه إبسن في نهجه الواقعي ويتصف أبطالها جميعاً بصراع داخلي تبدو آثاره في أعمالهم وتصرفاتهم وقد مثلت هذه المسرحيات مترجمة إلى الكثير من لغات العالم، وأثارت نقاشاً حاداً لاستجابة ضمائر الأفراد لها. وهي أيضاً دراسات نفسية عميقة تسبر أغوار النفس الإنسانية وأسرارها. وقد دعا إبسن إلى الصدق مع النفس، واتجهت مسرحياته باطراد نحو الرمزية والمعالجة النفسية، وأصبحت النفس الإنسانية عنده بؤرة الصراع، وهذا ما يلاحظ في مسرحية «البطة البرية» The Wild Duck (١٨٨٤)، وهي تعالج موضوع الأثر المأساوي الناجم عن إماطة اللثام عن السعادة الوهمية التي تعيشها أسرة ساذجة، ومسرحيتي «روزمرشولم» Rosmersholm (١٨٨٦) و«هدّا غابلر» Hedda Gabler (١٨٩٠) اللتين تعالجان موضوع فردية المرأة، إذ تعاني البطلتان «هدّا غابلر» و«ربكاوست» من عدم الانسجام بين طبيعتهما ورغباتهما. وتمثل هذه المسرحيات الأوج في كتابات إبسن المسرحية، وتتصف بمستواها الرفيع، وغدت المسرحيات المفضلة لدى أعظم الممثلين والممثلات في العالم.

وكان إبسن قد لجأ إلى الرمزية في معظم مسرحياته الأولى مثل «براند» و«بيرغنت» مضفياً عليها عمقاً وشاعرية، ثم أهملها حيناً، ليعود إليها من حديد في مسرحياته الأخيرة.

ففي مسرحية «البطة البرية» ترمز البطة إلى وضع البطلة وهي في الوقت نفسه بطة حقيقية. وفي «روزمرشولم» يتخذ إبسن من الحصان الأبيض رمزاً وتصبح روح المكان أحد شخوص المسرحية. أما في مسرحية «السيدة الآتية من البحر» The Lady from the Sea فيصبح البحر رمزاً. ومن الملاحظ أن إبسن قد كتب مسرحياته الأخيرة هذه بعد عودته إلى النروج عام ١٨٩١ ليقيم في كرستيانيا، وأنه قد بالغ في استعمال الرمزية، وفي إبراز ما استقاه من سيرته الذاتية حتى غدت عائقاً يعترض تطور العمل المسرحي.

وهذا واضح في مسرحيات «البَنّاء المعلّم» The Master Builder (١٨٩٢) و«إيولف الصغير» Little Eyolf (١٨٩٤) و«جون غابريل بوركمان» John Gabriel Borkman (١٨٩٦)، و«عندما نستيقظ نحن الموتى» When We Dead Awaken (١٨٩٩)؛ إذ يبدو إبسن فيها مشغولاً بنفسه، وبعلاقته بفنه وبمكانته الفنية في المجتمع إلى درجة أفقدته القدرة على الإقناع في مسرحياته الاجتماعية. وتتصف هذه المسرحيات بكونها أكثر تأمُّلية مما سبق من مسرحيات، وقد أطلق إبسن على مسرحيته الأخيرة «عندما نستيقظ نحن الموتى» اسم «الخاتمة الدرامية» وفيها يقوّم إبسن عمله متهماً نفسه بأنه رهن جهوده كلها لإنتاج يتّصف بالجمالية بدلاً من العمل المباشر، فيبدو كأنه أخفق في إدراك التأثيرات الأخلاقية البعيدة المدى التي خلفتها أعماله الأدبية السابقة، إذ أحست أمته والعالم أجمع بوقع إصراره على وجوب التحلي بقيم أخلاقية جديدة.

ومع أنه قد مضى زمن طويل على وفاة إبسن إلاّ أنه لا يزال يؤثر تأثيراً قوياً في المسرح العالمي، فمسرحياته -الجيدة منها والرديئة- ما زالت تحظى بالإحياء والعرض. أما أثره المباشر وغير المباشر على معاصريه والأجيال التي تلت فكبير جداً. ويكمن هذا الأثر بالدرجة الأولى في الموضوعات التي أثارها أكثر مما يكمن في طريقة صوغها ومعالجتها. ومع أنه اتصف بالواقعية إلاّ أنه لم يبلغ فيها شأو الواقعيين الطبيعيين الفرنسيين، بل ظل شاعراً في كل ما كتب. وإلى هذه الشحنة من الخيال يعود بعض الفضل في أن أعماله ما زالت حية.. وقد يكون السبب الأهم في استمرار شعبية أعماله أن الموضوعات التي طرقها -وإن بدت محلية تتعلق بتعقيدات الحياة المعاصرة وضغوطها- هي موضوعات عالمية في الواقع وتتجدد باستمرار وترتبط بالصراع بين الفرد والمجتمع، وبين الواقع والوهم، وبين المثالية الحق والمثالية الزائفة. وفي روائعه المسرحية عالج إبسن هذه الموضوعات بتقنية رفيعة ووضعها في قالب مسرحي «درامي» متين ومتماسك فجمع بذلك بين الفن والفكر والخيال.

عادل عبد الله

مراجع للاستزادة:

- C.R.LYONS, Henrik Ibsen (Southern Illionois University Press, 1972).
- JOHN NORTHAN, Ibsen: A Critical Study (Cambridge, 1973).

■ إبشتاين (جيكوب -)
(١٨٨٠-١٩٥٩)

جيكوب إبشتاين Jacob Epstein نحات روسي الأصل أمريكي المولد والجنسية. ولد في نيويورك وتوفي في لندن. نشأ في مدينة نيويورك وبدأ منذ عام ١٩٠١ يتابع دروساً مسائية في فن التصوير، وأمضى ردحاً من شبابه يرسم صوراً نابضة بالحياة للحي الذي ولد وعاش فيه. إلا أن ضعف بصره اضطره إلى ترك التصوير والتحول إلى النحت الذي بدأت صلته به عندما كان يعمل في سنوات شبابه الأولى في أحد مسابك البرونز.

هاجر إلى باريس وعاش فيها بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٥ وتلقى دروساً جادة في النحت، وتأمَّل المنحوتات القديمة في متحف اللوفر وكان لها أثر عميق في نفسه.



وفي عام ١٩٠٥ انتقل إبشتاين إلى لندن وفيها حصل على الجنسية البريطانية (١٩٠٧م). وراح يشق طريقه في مجال المنحوتات الشخصية فأبدع فيها. إلا أنه أثار فضيحة صارخة بمنحوتاته المعروفة بتماثيل ستراند، وهي ثمانية عشر تمثالاً نحتها لواجهة بناء الرابطة الطبية البريطانية في لندن، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة إلى الشارع الذي وضعت فيه، وأنجزها إبشتاين في عام ١٩٠٨. وقد وجه إلى هذه التماثيل نقد عنيف لا بسبب عريها فحسب، بل بسبب تشتتها التعبيري كذلك، مما دفع بأطباء لندن إلى المطالبة بتحطيمها، وتم ذلك فيما بعد في عام ١٩٣٨.

ومع إنجاز التماثيل المذكورة ذاعت شهرة إبشتاين، واستدعي في عام ١٩١١ إلى باريس حيث قام بنحت نصب تذكاري للكاتب الإرلندي أوسكار وايلد (في مقبرة الأب لاشيز Père La Chaise)، وقد قوبل هذا النصب

باحتجاجات شديدة بسبب ما فيه من أشكال غريبة للملائكة.

وأتيحت لإبشتاين في أثناء إقامته في العاصمة الفرنسية فرصة لقاء كل من الفنانين بيكاسو [ر] وبرانكوزي [ر] وموديلياني [ر] والتأثر بأفكارهم. وقد أسهم، بعد عودته إلى بريطانية، في إنشاء رابطة «الدوّامة» Vortex، أو ما عرف باسم «جماعة لندن»، التي ضمت العديد من الفنانين التشكيليين والأدباء وفيهم لويس وندام Lewis Wyndham (١٨٨٤ـ١٩٥٧) مؤسس «الحركة الدوامية» Vorticism .

كان لاتصال إبشتاين بفناني باريس وإسهامه في إنشاء رابطة الدوامة أثر كبير في إنجازه بعض أهم أعماله التي اتصفت بالتبسيط الشديد في الأشكال وبالسطوح الهادئة المريحة، وقد نحتت معظم هذه الأعمال من الحجر ما عدا منحوتة «مثقب الصخر» The Rock Drill البرونزية (١٩١٣) (تايت غاليري) التي تعدّ أقوى أعمال هذه المرحلة. وقد أظهر شكلها، الذي يشبه إلى حد كبير شكل الإنسان الآلي، اهتمام إبشتاين، ولمدة وجيزة، بالتصميم المجرد ذي الملمس الناعم الصقيل.

وتنقسم أعمال إبشتاين عموما إلى فصيلتين: المنحوتات النصبية من الحجر، والصور الشخصية من البرونز. وقد أطلقت على إنتاجه تسمية: «الطريقتين» The Two Modes، وتناولت أعماله من الفصيلة الأولى موضوعات دينية وقصصية تحمل رموزاً خاصة، مثل منحوتة «التكوين» Genesis (١٩٣٠) ومنحوتة «هاكم الرجل» Ecce Homo (١٩٣٥)، وكلتاهما تعتمدان أشكالا قاسية عليها مسحة من التوحش، ومنحوتة من الميغاليت Megalith، وهو حجر قاس استخدم في آثار ما قبل التاريخ، تبرز بوضوح شكل الكتلة الأصلية التي نحتت منها.

أما أعماله من الفصيلة الثانية فهي انطباعات مباشرة عن الأشخاص بكامل العفوية، وبهدف إبراز خصائصهم، وتتصف بالسطوح المضطربة في غناها. فلقد بالغ إبشتاين في استخدام السطوح الخشنة مما أتاح له إبراز حركة الضوء على البرونز، ولم يعد لهذه المنحوتات سوى صلة واهية بالكتلة الأصلية، صلة حولتها إلى عمل تزييني ليس أكثر.

استمر إبشتاين، منذ عام ١٩٢٠ وحتى نهاية حياته، في نحت التماثيل النصفية للشخصيات من البرونز وأتقنها فيما بعد إتقاناً حمل النقاد على تقديرها والإشادة بها. وكان بينها تمثال أينشتاين (١٩٣٣) وتمثال برنارد شو (١٩٣٤). إلا أن إبشتاين استمر مع ذلك في إنتاج تلك المنحوتات الحجرية الضخمة المثيرة للجدل والخلاف مثل منحوتة «إبليس» Lucifer (١٩٤٥)، ومنحوتة «المسيح في جلاله» Christ in Majesty (١٩٥٧) (كاتدرائية لانداف)، ومنحوتة «القديس ميخائيل والشيطان» (١٩٥٨) (كاتدرائية كافنتري).

تتجلى مكانة إبشتاين في تاريخ النحت البريطاني بإنتاجه الوفير والمتنوع. وإذا ما كانت بعض منحوتاته الكبرى قد لقيت انتقادات حادة، فإن بعضها الآخر حظي برضا النقاد وإعجابهم. يضاف إلى ذلك أن ما نحت من تماثيل نصفية كثيرة لقي الكثير من ثناء النقاد كذلك. وكان هذا ما دفعهم إلى أن يوازنوه بكبار نحاتي هذا الفن لا في تاريخ النحت البريطاني فحسب بل في تاريخ نحت التماثيل النصفية لدى جميع الشعوب. وإليه يعزى الفضل في إنقاذ فن النحت في بريطانية من الركود الذي كان يكتنفه.

فريد جحا

مراجع للاستزادة:

- R. BUCKLE, Jacob Epstein (Sculptor, 1963).

الأبشيهي (بهاء الدين ـ)
(٧٩٠ـ٨٥٠ هـ / ١٣٨٨ـ١٤٤٦م)

الأبْشيهي أو الإبْشيهي: نسبة إلى قرية أبشُويه من قرى محافظة الغربية بمصر، وقد لقب به طائفة من الأدباء والعلماء، وبهاء الدين، أبو الفتح، محمد بن أحمد منصور الأَبْشيهي المحلّي الشافعي.

كاتب وشاعر، ولد في أبشُويه، وحفظ القرآن وهو صغير ثم درس النحو والفقه. وولي الخطابة في بلدته بعد وفاة أبيه فكان خطيباً مسموع الكلمة مهيب المحضر، ووصف بالورع والتقوى.

تردد على القاهرة مرات، واستمع إلى دروس جلال الدين البُلقيني، وجالس علماء عصره وأئمتهم ونقل عنهم، وأخذ عنه طائفة من العلماء. وقف حياته على الأدب والتأليف فيه وفي غيره، أشهر تصانيفه كتاب «المستطرف في كل فن مستظرف»، وقد جمع فيه موضوعات في العلم والأدب وأحاديث نبوية وأمثالاً شعرية ومسائل لغوية وحكايات هزلية وجدية وأساطير شعبية، كما جمع فيه حكماً ومواعظ دينية وأخلاقية، وفوائد علمية وتاريخية وجغرافية ومنتخبات من الشعر والنثر، وكانت غايته أن يجمع طرفاً من كل فنٍ وعلم بالمعنى الواسع.

وتبدو شخصية الأبشيهي متميزة في كتابه المستطرف، وقد كشف عن دراية واسعة بالحديث والتشريع والأدب وفقه اللغة، وكان له أسلوبه الواضح في التعبير الأدبي الذي اتسم بالإيجاز غير المخل، غير أنه كان بيّن التأثر بكتاب «العقدالفريد» لابن عبد ربه، فحاكاه في ترتيب الأبواب واختيار المواد، وفي النقل وإيراد المعارف والأخبار، وإن كان قصّر عنه في ذلك. كما ذكر أنه أخذ كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار» والدميري في كتابه «حياة الحيوان» وابن سبع في كتابه «شفاء الصدور»، إضافة إلى مصادر أخرى ذكر أنه أخذ عنها.

قسّم الأبشيهي كتابه إلى أربعة وثمانين باباً، كما قسم بعض الأبواب إلى فصول، وكان في كتابه جامعاً ومعلقاً أكثر منه مؤلفاً.. ومع ذلك فقد كان كتابه جزيل الفائدة في تثقيف الناشئة وتعريفهم فنون الأدب حتى أصبح الكتاب، على الرغم مما أخذ عليه من الهنات، ذا قيمة كبيرة. وقد توالت طبعات الكتاب في مصر، ونقله إلى الفرنسية المستشرق رات G.Rat سنة ١٨٩٩م، وله ترجمة تركية طبعت سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٧م، واختصره كثيرون.

وقد نسب إليه السخاوي كتابين، الأول عنوانه: «أطواق الأزهار على صدور الأنهار» في الوعظ، في مجلدين، وكتاب «صناعة الترسل والكتابة» الذي لم يتمّه.

على الرغم من تقدير السخاوي للأبشيهي فقد انتقد لغته ووقوعه في اللحن، وعزا ذلك إلى عدم إلمامه بشيءٍ من النحو.

نسب إليه حبيب الزيات صاحب كتاب خزائن الكتب في دمشق وضواحيها تأليفه

لكتاب « تذكرة العارفين وتبصرة المستبصرين » . للأبشيهي مقطوعات شعرية أوردها في كتبه. وهو شعر فيه ضعف، تسوده عقلية عصر الدول المتتابعة وأنماط الصوفية المتأخرة.

ح.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الأدب العربي (عصر الدول المتتابعة).

مراجع للاستزادة:

- السحاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (دار مكتبة الحياة، بيروت).

■ الإبطال ← البطلان

■ أبعاد المركبات

هي الأبعاد الخارجية Gabarit التي تحدد اتساع المركبة في مقطعيها العرضي والطولي (أو في مسقطيها الجبهي والجانبي)، وتشمل في المركبة وأجزائها، أبعاد الطول والعرض والارتفاع، إضافةً إلى بعض الأبعاد الخاصة المتعلقة بحركة المركبة وعملها. وتوضع الأبعاد العامة على الرسوم والمخططات لدى تصميم المركبة، لتكون في حدودها الدنيا التي تضمن حسن توزيع أجزاء المركبة وآلاتها من جهة، وتحقيق مهمة المركبة من جهة أخرى.

ويرتبط طول المركبة الكلي الأعظمي بمنعطفات الطرق ويؤثر في درجة مناورتها، أما العرض والارتفاع الإجماليان فيرتبطان بسعة الطرق الإنشائية ويتوقف عليهما توازن المركبة واستقرارها.

وتفيد الأبعاد في تحديد شروط حركة المركبة وعملها على الطرق، سواء أكانت بمفردها أم مع مركبات أخرى، ولدى نقلها بمختلف الوسائل. وتقسم الأبعاد، بحسب أنواع المركبات، إلى مايلي:

أبعاد السيارات والشاحنات

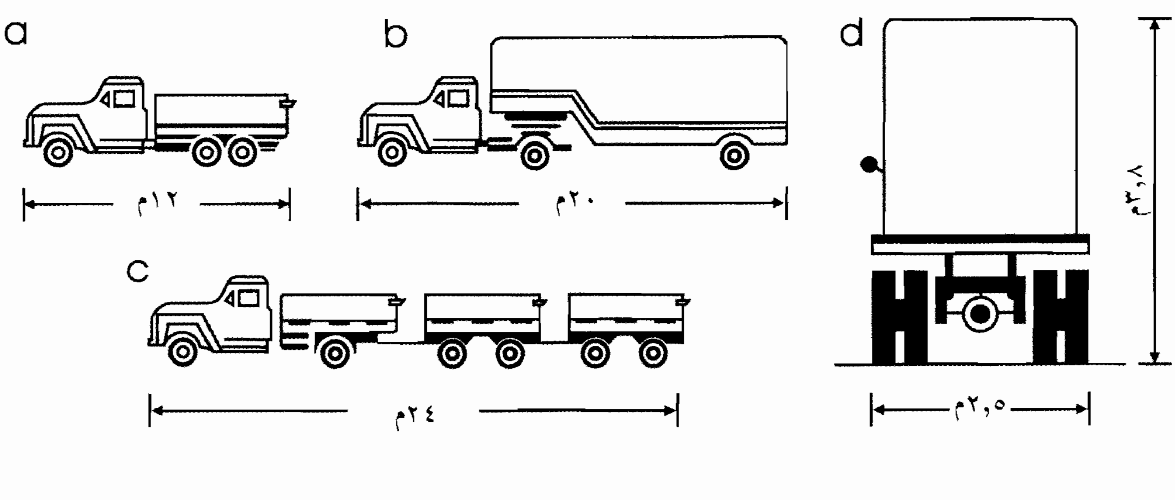
هي أبعاد عامة خارجية ثابتة لا تتغير في أحوال حركة السيارة، تُحدَّد للسيارة بمفردها كما في الشكل (١). وللسيارة القاطرة مع نصف مقطورتها، وللسيارة مع مقطورة واحدة أو أكثر. وعلاوة على الأبعاد العامة هنالك أبعاد خاصة: كالمسافة بين المحاور، العرض بين العجلات، وارتفاع حافة الصندوق عند التفريغ أو التحميل، والارتفاع الأدنى للحافة السفلى عن سطح الطريق، وزاويتي العبور الأمامية والخلفية، وغير ذلك. وتؤثر هذه الأبعاد تأثيراً كبيراً في حمولة السيارة وقدرتها على المناورة والعبور واستقرارها وثباتها، وهي تتعلق بسعة الطرق الإنشائية واستيعابها وبسرعة الحركة الوسطية المسموح بها.

وتتحدد سَعة الطريق الإنشائية بعرض الطريق، وبارتفاع الحافة السفلى للجسر المار فوقه، وبميول الطريق وبدرجة انعطافاته وبحالة سطحه. ولذلك فإن الأبعاد الحدية العظمى للسيارة مع ملحقاتها المقطورة ونصف المقطورة تحدد في العادة بموجب أنظمة قياسية دولية، ويجب الانتباه لعدد محاور السيارة وحمولتها. ويبين الشكل (٢) الأبعاد العامة الحدية بحسب النظام القياسي السوفييتي للسيارة وللقاطرة مع نصف مقطورتها وللسيارة مع مقطورات عدة، وهو مشابه للأنظمة الدولية الأخرى.

ويجب ألا تتجاوز أبعاد السيارة مع الحمولة هذه الأبعاد الحدية. إلا في حالات استثنائية تتطلب موافقة خاصة على الحركة مع توفير احتياطات معينة لسلامة المرور.

أبعاد معدات البناء والطرق والمكنات الزراعية

لهذه المعدات والمكنات في العادة أبعاد عامة أساسية ثابتة مثل عرض هيكلها وارتفاعه وآليات السير، وأبعاد خاصة تتغير بتغير أجهزة العمل مثل عرض المحراث وعمقه، أو طول امتداد سهم الرافعة وارتفاعه، أو امتداد ذراع الحفارة مع المغْرفة، ويبين الشكل (٣) أبعاد حفارة هدروليكية بمغرفة وحيدة ومجال عملها. وإن الأبعاد الأساسية الثابتة تكون في



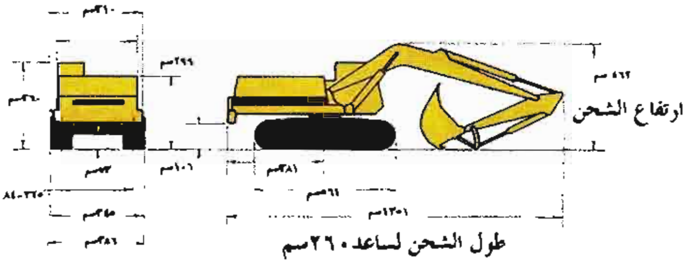
(الشكل ٢) الأبعاد العامة الحدية للسيارة الشاحنة مع نصف المقطورة ومع مقطورات عدة.

العادة في حدودها الدنيا الممكنة، لأنها تعين حجم المكنة ووزنها وتسهّل مناورتها ونقلها، وهي تقع في الحدود النظامية التي تسمح بنقلها على السكك الحديدية أو الطرق العامة. أما إذا تجاوزت أبعادها الحدود النظامية فتُنقل مفككة إلى أجزاء. أما أبعاد أجهزة العمل وامتداد حركتها ومجالها فتقع في النطاق الذي يحقق مهمة المكنة واستقرارها في أثناء العمل.

أبعاد قاطرات السكك الحديدية وعرباتها:

إن من الضروري، لتحقيق سلامة الحركة، أن تستطيع قاطرات السكك الحديدية وعرباتها المرور بحرية مع حمولاتها المكشوفة في مجال السّعة الإنشائية للخطوط ومنشآتها وفي محطاتها وفي محاذاة القطارات المتحركة أو المتوقفة على خطوط السكك المجاورة. ويتم تحقيق هذا الأمر بمراعاة الأبعاد الموضوعة بموجب الأنظمة القياسية الدولية، وبخاصة أنظمة الاتحاد الدولي للسكك الحديدية. وهذه الأبعاد هي:

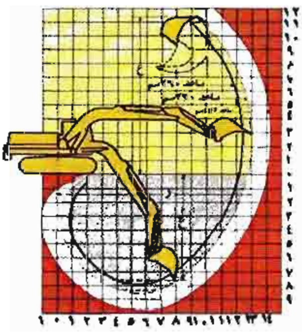
سعة الخط الحديدي الإنشائية: تنفذ منشآت الخطوط الحديدية كافة، سواء أكانت على الخط الرئيس أم على التفريعات في المحطة أو خارجها، على نحو يضمن شروط السّعة الإنشائية التي تبين حدود اقتراب البناء أو التجهيزات من الخط الحديدي. فالسّعة هي إطار تحدده أبعاد معينة ويقع في المقطع العرضي العمودي على الخط الحديدي ولا يُسمح بأن يبرز إلى داخله أي جزء



من إنشاء أو تجهيز مجاور للخط الحديدي، (الشكل ٤-١).

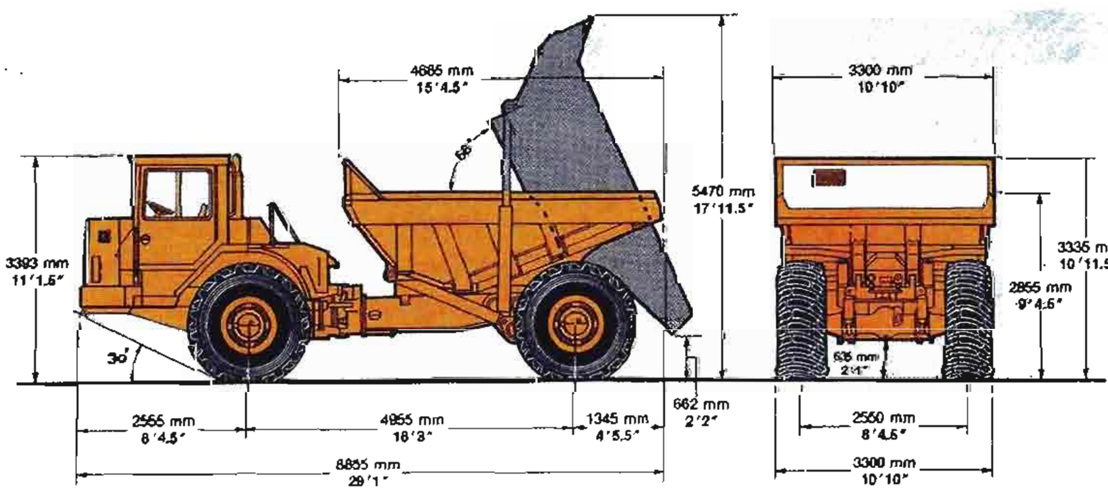
وتكون المسافة بين محوري السكتين اللتين تسير عليهما عجلات القطار محددة، وتبلغ ١٤٣٥مم وهي معتمدة في معظم بلدان العالم. ولكن بعض الدول، انطلاقاً من اعتبارات خاصة، تعتمد مسافة أعرض هي ١٥٢٤مم كما في الاتحاد السوفيتي (سابقاً)، أو أضيق هي ١٠٦٧مم كما في اليابان. وتحدد المسافة بين محاور خطوط السكك الحديدية المتجاورة بموجب أبعاد نظامية، فللخطوط الرئيسة في مجال المحطات ٤٨٠٠مم وفي خارج المحطات ٤١٠٠مم. وللخطوط التفريعات الثانوية ولساحات التفريغ والتحميل وأرصفتها ٤٥٠٠مم.

سعة القاطرات والعربات المتحركة: هي إطار خارجي تحدده الأبعاد الأعظمية للمقطع العرضي العمودي على مسار الخط الحديدي



(الشكل ٣) الأبعاد العامة لحفارة هدروليكية بمرفقة وحيدة.

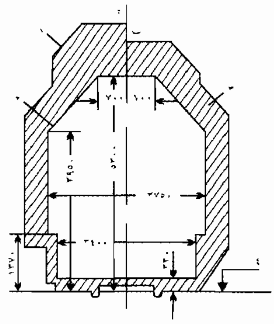
للقاطرة أو للعربة المقطورة، (الشكل ٤-٢). ويجب أن تستقر ضمن هذه السّعة القاطرات والعربات المتحركة كافة مع حمولاتها وأجزائها الخاضعة لاهتزازات نوابض التعليق. ويؤلف الفراغ الحاصل بين اتساع القاطرة أو العربة



(الشكل ١) الأبعاد العامة لسيارة شاحنة قلابة

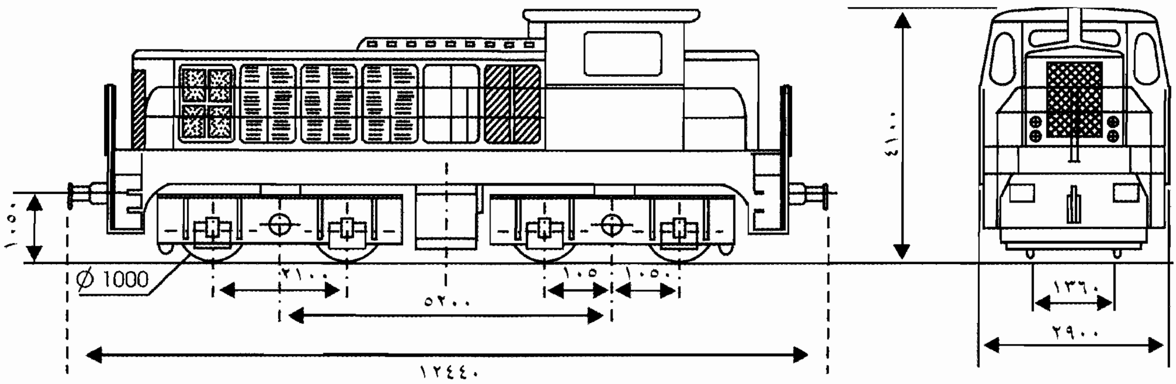
المتحركة وبين السَّعة الإنشائية للخط الحديدي فراغ الأمان الحر للحركة، (الشكل ٤ ـ ٣).

الأبعاد العامة لقاطرات السكك ومقطوراتها: هي أبعاد عامة خارجية ثابتة لا تتغير تُحدَّد في العادة على المسقطين الجبهي والجانبي سواء للقاطرة أو للمقطورة، (الشكل ٥). وتبين هذه الأبعاد الطول الإجمالي للقاطرة أو للعربة الذي يُراوح بين ١٢ و١٨ متراً، بحسب عدد المحاور والحمولة التصميمية، وتُحدَّد المسافة بين المحاور، والفتحة بين العجلات، بالإضافة إلى العرض والارتفاع الإجماليين كما تُحدَّد أبعاد خاصة أخرى. ولا يُحدَّد في العادة الطول الإجمالي للقطار نفسه ببعد معين، كما في السيارات، فهو يتعلق بقدرة القاطرة على الجر وبحمولة المقطورات.



(الشكل ٤) السعة في السكك الحديدية

١ـ السعة الإنشائية.
٢ـ اتساع القاطرة أو العربة المتحركة.
٣ـ فراغ الأمان.
٤ ـ مستوى السكة الحديدية آ ـ في مجال المحطة.
ب ـ خارج المحطة.



(الشكل ٥) الأبعاد العامة للقاطرة

الموضوعات ذات الصلة:
سكة الحديد ـ الطريق.

مراجع للاستزادة:

ـ نظام الاستثمار الفني، وزارة النقل، المؤسسة العامة للخطوط الحديدية السورية (حلب ١٩٨٤).
ـ م.م فيليبوف، السكك الحديدية (موسكو ١٩٦٨، باللغة الروسية).

■ الأبقار

الأبقار bovins حيوانات مجترة ذات أظلاف وقرون جوفاء غير متساقطة تتبع في معيشتها البرية نظام القطعان. وليس لها في الفك العلوي قواطع وأنياب. وللإناث ضرع مكوّن من أربعة أجزاء. وتلد الأنثى في العادة فرداً واحداً في السنة.

والأبقار من طائفة (صف) الثدييات، من رتبة ذوات الظلف، من الفصيلة البقرية، من الجنس بوس Bos . وفي هذا الجنس عدة أنواع أهمها نوعان اثنان: البقرة الأهلية أو الثور الأهلي بوس توروس Bos Taurus وهو بلا سنام وتنتمي إلى هذا النوع غالبية العروق التي نشأت في المناطق المعتدلة والمعتدلة الباردة. والبقرة الهندية ذات السنام بوس إنْدِكوس Bos Indicus وتنتمي إلى هذا النوع العروق التي نشأت في المناطق الحارة وشبه الحارة. وتعد مجموعتا هذين النوعين أهم المجموعات من ناحية الاستثمار في نطاق تربية الحيوان.

توزع الأبقار الجغرافي وتدجينها

تشير الدراسات التاريخية الحيوانية إلى أن الفصيلة البقرية كانت أصلاً في إفريقية وأواسط آسيا إلا أن نقل بعضها إلى أوربة والمناطق المعتدلة أدى إلى اكتسابها صفات جديدة نتيجة للانعزال الجغرافي، وللظروف البيئية الحديدة فأصبحت هناك فروق كثيرة بين الأبقار التي انتقلت إلى أوربة وتلك التي بقيت في موطنيها الأصليين. وعلى هذا يمكن تقسيم الأبقار من حيث المنشأ الجغرافي إلى الأبقار الأوربية أو أبقار المناطق المعتدلة الباردة التي تناسلت في شمال غربي أوربة حيث تتفاوت درجة الحرارة بين أقل من ٦,٦٦ْم شتاء و١٧,٢٢ْ م صيفاً والأبقار الهندية والإفريقية التي تناسلت في بلاد مرتفعة الحرارة في فصل الصيف خاصة. وتختلف الأبقار الهندية والإفريقية عن الأبقار الأوربية بوجود سنام فوق الرقبة أو خلفها وبكبر الحجم وطول القرون وتدلي اللبب.

ولا يعرف تاريخ تدجين الأبقار معرفة دقيقة. وتذكر المراجع العلمية أن هذا التاريخ يقع بين عامي ٥٠٠٠ و٤٠٠٠ قبل الميلاد. وقد

كان قدماء المصريين من أوائل الشعوب التي دجنت الحيوان الزراعي. وتجمع الآراء على أن مواطن تدجين غالبية الحيوانات الزراعية هي آسيا وإفريقية وأوربة.

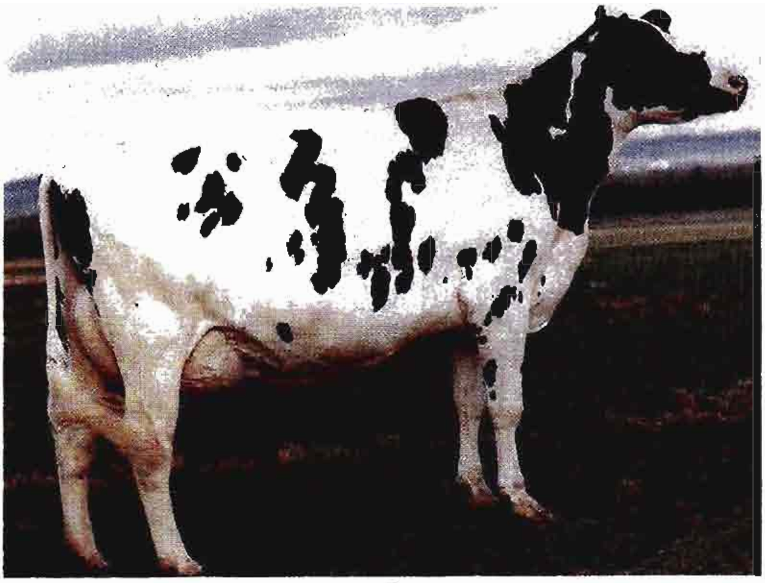
عروق الأبقار

إن للتركيب الوراثي والانعزال الجغرافي وظروف البيئة الدور الأساسي في تميز العروق. والعرق مجموعة من الأفراد متشابهة في مظهرها الشكلي والإنتاجي. وتقسم العروق البقرية قسمين: عروق أحادية الغرض تتخصص بنوع واحد من المنتجات كالحليب أو اللحم، وعروق ثنائية الغرض تتصف بقدرتها على إعطاء النوعين كليهما من المنتجات: الحليب واللحم. وفيما يلي وصف موجز لأهم عروق أبقار الحليب وأبقار اللحم والأبقار الثنائية الغرض المنتشرة في جميع أنحاء العالم.

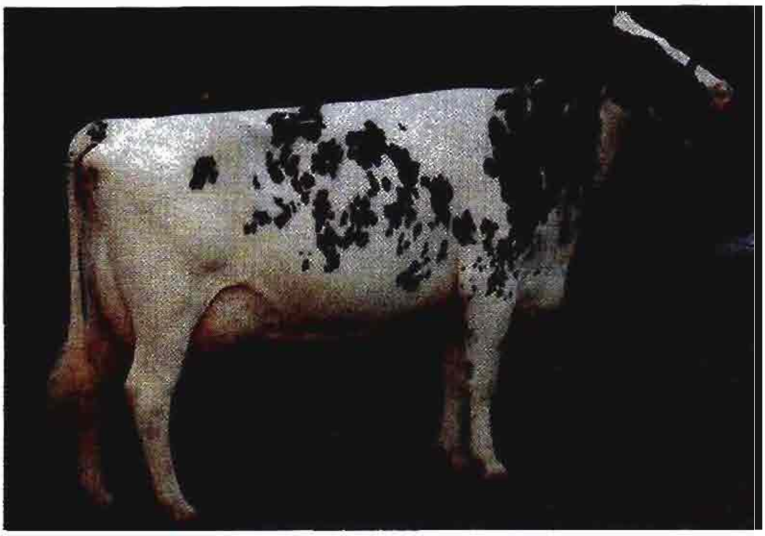
عروق الأبقار التي نشأت في المناطق المعتدلة الباردة:

عروق أبقار الحليب الأصيلة:

ـ الفريزيان The Friesian: نشأ هذا العرق في هولندة حيث الجو معتدل الحرارة (٢ـ٦٧م) والأمطار غزيرة (٦٠٠ ـ ٨٠٠ مم سنوياً) والمراعي غنية، في مقاطعتي فريزلاند الغربية وهولندة الشمالية، نتيجة خلط مجموعتين من الأبقار كانتا في أواسط أوربة إحداهما سوداء والأخرى بيضاء، وتحسين صفات الأفراد الناتجة وتثبيت المربين هذه الصفات. واللون السائد في هذا العرق هو الأسود والأبيض وهما مرتبان بدءاً من رأس الحيوان كما يلي: أسود ـ أبيض ـ أسود ـ أبيض ـ أسود. وهنالك حيوانات تتصف باللون الأسود أو الأبيض أو الأحمر والأبيض. والفريزيان من أثقل أبقار الحليب وزناً إذ يبلغ متوسط وزن الإناث التامة النمو ٦٣٠ ـ ٦٧٥ كغ والثيران البالغة ٨٥٠ ـ ١٠٠٠ كغ والمواليد عند الولادة ٣٥ ـ ٥٠ كغ، وهي سريعة النمو، وتُسمّن الذكور لإنتاج اللحم. ومعدل إدرار الحليب السنوي ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ كغ بنسبة دسم مقدارها ٣,٨٪. وقد سجلت بعض الأبقار أرقاماً قياسية في إنتاج الحليب بلغت ١٩ طناً في الموسم السنوي. وتنضج العجلات في عمر مبكر، وتلقح عادة أول مرة وعمرها ١٣ـ١٥ شهراً لتضع مولودها الأول وعمرها ٢٢ـ٢٤ شهراً. وتضع الأبقار بانتظام مرة كل ١٣ـ١٥ شهراً. والفريزيان أكثر العروق انتشاراً في العالم لارتفاع إدراره من الحليب، فهو موجود في أوربة وكندا وأمريكة وجنوب إفريقية واسترالية وغيرها. وقد أثبت نجاحه وتأقلمه مع الظروف البيئية المختلفة. وأدخل إلى سورية في أواخر الستينيات (الشكل ١).



(الشكل ١) الفريزيان

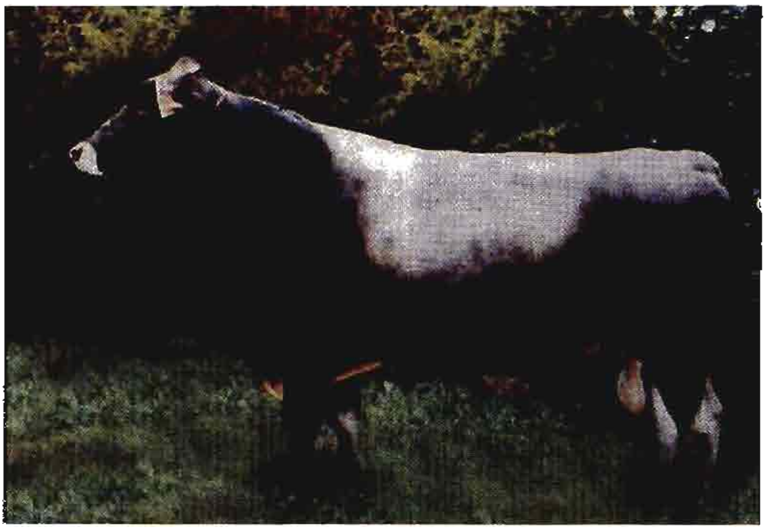


(الشكل ٢) بقرة الآير شاير

ـ **الآير شاير** The Ayrshire: نشأ هذا العرق في منطقة آير Ayr الجبلية في جنوب غربي اسكتلندة، حيث المراعي فقيرة والجو معتدل نسبياً وإن كان يتخلله بعض العواصف الباردة. ويتصف هذا العرق بتحمل برودة الجو. واللون السائد فيه هو الأبيض مع بقع صغيرة بنية أو سود متفرقة على الرقبة ومقدم الصدر، وقد توجد أفراد بيض أو سود. وهو متوسط الحجم، وتزن الإناث التامة النمو نحو ٥٠٠ـ٦٣٠ كغ، والذكور ٧٢٠ـ٩٠٠ كغ. وذكور هذا العرق قابلة للتسمين. ومتوسط إدرار إناثه من الحليب في الموسم السنوي ٣٢٠٠ـ٤٠٠٠ كغ بنسبة دسم مقدارها ٤٪ ويتم تلقيح العجلات وعمرها ١٨ـ٢١ شهراً وتلد وعمرها ٢٧ـ٣٠ شهراً. وهذا العرق محدود الانتشار نسبياً في العالم إذا ما وزن بعرق الفريزيان (الشكل ٢).

ـ **السويسري البني** The Brown Swiss: نشأ في سويسرة في منطقة جبال الألب حول زوريخ وهي منطقة معتدلة الحرارة (١٠°م) غزيرة

الأمطار (٧٥٠ مم) خصبة المراعي. ويتصف هذا العرق بقدرته على العيش في المناطق الجبلية. لونه بني يراوح بين الفضي والبني الداكن، وقد تلاحظ بقع بيض على أسفل الجسم قرب الضرع وعلى الرأس والرقبة. ومتوسط وزن الإناث التامة النمو ٥٧٥ ـ ٦٧٥ كغ والثيران التامة النمو ٩٠٠ـ١٠٨٠ كغ. ووزن المولود عند الولادة نحو ٤٥ـ٥٠ كغ. وهي أبقار سريعة النمو وقابلة للتسمين. وإنتاجها من الحليب ٣٦٠٠ ـ ٤٥٠٠ كغ سنوياً بنسبة دسم مقدارها ٤٪. والنضج الجنسي متأخر نسبياً، وتضع العجلات أول مولود لها وعمرها ٣٦ شهراً. وهذا العرق منتشر في أوربة وأمريكة وفي مناطق متعددة من حوض البحر المتوسط (الشكل ٣).



(الشكل ٣) ثور السويسري البني

ـ الجرسي The Jersy : نشأ في جزيرة جرسي الصغيرة في بحر المانش. وهو أحد العروق الحيوانية القديمة، ويعتقد أن أصله من ماشية بريتانية ونورمندي الفرنسيتين حيث المناخ معتدل ودرجة الحرارة وسطياً ١٠ ْم، وكمية الأمطار ٧٥٠ـ٨٥٠ مم سنوياً. واللون السائد في هذا العرق هو الرمليُّ الفاتح أو الداكن، وقد يكون فيه بقع بيض على الجسم. ومعدل الإدرار السنوي من الحليب ٢٥٠٠ـ٣٠٠٠ كغ بنسبة دسم مقدارها ٥ـ٦٪. وبلغ إنتاج بعض أفراده ١٠٠٠٠ كغ من الحليب في العام. ولون الحليب أصفر لعدم قدرة الحيوان على تحويل الكاروتين إلى فيتامين A . والجرسي أصغر عروق أبقار الحليب، فوزن الإناث التامة النمو ٣٥٠ـ٤٥٠ كغ والثيران البالغة ٦٥٠ـ٧٥٠ كغ. ووزن المواليد ٢٠ـ٣٠ كغ، وهي بطيئة النمو لا تصلح للتسمين وإنتاج اللحم. وتنضج العجلات في وقت مبكر إذ تضع مولودها الأول في عمر سنتين. وانتشر هذا العرق بنجاح في إنكلترة، وأمريكة وكندا، وفرنسة والدنمرك وإيرلندة كما أدخل على نطاق واسع إلى كثير من البلاد الحارة مثل الهند والفلبين وسيلان والصين وذلك لقدرته الكبيرة على تحمل الحرارة (الشكل ٤).



(الشكل ٤) بقرة الجرسي

ـ الغرنسي The Guernsey : نشأ في جزيرة جرنسي في بحر المانش في جو يشابه إلى حد كبير الأحوال البيئية في جزيرة جرسي. اللون السائد ليموني أو برتقالي فاتح مع بقع بيض. ومتوسط وزن الإناث ٤٥٠ـ٥٥٠ كغ والثيران ٧٥٠ـ٩٠٠ كغ ومتوسط وزن المولود ٣٠ـ٣٥ كغ، وهو بطيء النمو لا يصلح للتسمين. وإدراره السنوي من الحليب نحو ٢٧٠٠ـ٣٢٠٠ كغ بنسبة دسم مقدارها ٤,٩٪ ووصل إنتاج بعض أفراده إلى ١٥ ألف كغ في السنة. ويُميّز الحليب باللون الأصفر لارتفاع نسبة الكاروتين فيه. والنضج الجنسي متأخر نسبياً عن الجرسي إذ تلقح العجلات عادة وعمرها ١٩ـ٢٠ شهراً. وانتشاره في العالم محدود. وأدخل إلى بعض المناطق الحارة مثل الهند والفلبين (الشكل ٥).

ـ الدنمركي الأحمر The Red Danish : هو عرق حديث نشأ في الدنمرك، يتدرج اللون فيه من الأحمر إلى الأحمر الداكن. ومتوسط وزن الإناث ٥٠٠ كغ، والذكور ٧٥٠ـ٩٠٠ كغ وإدرار الإناث من الحليب ٣٥٠٠ـ٤٥٠٠ كغ سنوياً، بنسبة دسم مقدارها ٤٪ وهو محدود الانتشار في العالم.

ـ الأنغلر The Angler : نشأ في ألمانية ويعتقد أن أصله وأصل العرق الدنمركي واحد. وصفاته الشكلية والإنتاجية تشابه العرق الدنمركي الأحمر. وهو كذلك محدود الانتشار في العالم.

عروق الأبقار المتخصصة في إنتاج اللحم:

ـ الأبردين انغس The Aberdeen - Angus : نشأ هذا العرق في المناطق الشمالية الشرقية من إنكلترة في مقاطعات أبردين Aberdeen وبانف Banff وأنغُس Angus التي تشتهر بوفرة المراعي.

وهذه الحيوانات سوداء اللون، سريعة النمو، ومتوسط وزن الإناث التامة النمو ٧٢٥ كغ والذكور البالغة ٩٠٠ كغ. ويتلاءم هذا العرق مع الجو البارد ولا يتلاءم مع المناطق الحارة أو شبه الحارة (الشكل ٦).

- **الهيرفورد** The Hereford : نشأ في مقاطعة هيرفورد شير في وسط إنكلترة. لون الجسم أحمر ما عدا الوجه والرقبة وأسفل البطن والأرجل فهي بيض، بالإضافة إلى خط أبيض يبدو في مقدمة الظهر. وسرعة النمو أقل في الغالب منها في عرق أبردين أنغس. ومتوسط وزن الثور التام النمو ١٠٠٠ كغ، والإناث التامة النمو ٩٠٠ كغ. ويتلاءم هذا العرق مع المناطق الباردة، ومع المناطق الحارة نسبياً (الشكل ٧).

- **شورتهورن اللحم** The Beef Shorthorn : نشأ في المناطق الشمالية الشرقية من إنكلترة. ألوانه مختلفة ويغلب عليها الأحمر أو الأبيض أو الآجري، والمرغوب فيه من بينها هو اللون الأحمر. ويبلغ متوسط وزن الثيران التامة النمو ١٠٠٠ كغ والإناث البالغة ٨٠٠ كغ. وهو يلائم المناطق ذات الجو المعتدل البارد ولا توافقه الأجواء شبه الحارة (الشكل ٨).

- **الغالوي** The Galloway : نشأ في جنوب اسكتلندة. لونه أسود، ومنه سلالة ذات منطقة بيضاء في وسط الجسم ويطلق عليها اسم الغالوي المزنّر Belted Galloway.

- **الهايلَند** The Highland : نشأ في المناطق الشمالية الغربية من إنكلترة. لونه أسود أو بين الأحمر والأصفر. سرعة نموه بطيئة.

- **الساسكس** The Sussex : يعد من أكبر مواشي اللحم في إنكلترة بالنظر إلى قوته وضخامته وكان يستخدم في العمل. وأدخل إلى جنوب إفريقية حيث اشتهر هناك بإنتاج اللحم. لونه أسود قاتم ما عدا خصلة الذيل فهي بيضاء.



(الشكل ٥) بقرة العرنسي



(الشكل ٦) الإبردين إنغس

عروق الأبقار الثنائية الغرض : تعرف الأبقار الثنائية الغرض بأنها ذات كفاية متقاربة أو متماثلة في إنتاج الحليب واللحم. ولها خواص كل من أبقار الحليب وأبقار اللحم؛ ولكنها ليست متخصصة في أي منهما تخصص العروق الأحادية الغرض في الإنتاج.

- **شورتهورن الحليب** Dairy Shorthorn : نشأ في إنكلترة، لونه أحمر آجري أو أبيض. ومتوسط وزن الإناث ٥٤٠-٦٧٥ كغ والثيران نحو ٨٦٠-٩٠٠ كغ، ووزن المولود ٣٦-٣٤ كغ. إدرار الإناث من الحليب ٢٢٥٠-٢٧٠٠ كغ سنوياً بنسبة دسم مقدارها ٤٪. وتلد إناث هذا العرق أول مرة وعمرها ٢٧-٣٠ شهراً. وانتشاره محدود بالموازنة مع انتشار عرق أبقار الفريزيان وهو يلائم المناطق المعتدلة (الشكل ٩)

- **البُول الأحمر** The Red Poll : نشأ هذا العرق في مقاطعة نورفولك Norfolk في إنكلترة، لونه أحمر وقد تُرى بعض البقع البيض الصغيرة على مقدمة الضرع وعلى خصلة الذيل. ومتوسط وزن الإناث التامة النمو ٥٤٠-٦٣٠ كغ والذكور ٧٧٠-٩٥٠ كغ. وإنتاج هذا العرق من الحليب يبلغ سنوياً ٢٢٥٠-٢٧٠٠ كغ وهو منتشر في البلدان التي تتصف بكثرة المراعي الطبيعية، كما توجد قطعان منه في جنوب إفريقية وكينية حيث يجري خلطه مع الأبقار الإفريقية.

- **الديفون** The Devon : من أقدم عروق الأبقار الثنائية الغرض، نشأ في إنكلترة، لونه أحمر داكن، ومتوسط وزن أفراده نحو ٤٥٠ كغ ومتوسط إنتاجه من الحليب سنوياً ٢٢٥٠ كغ



(الشكل ٧) الهيرفورد



(الشكل ٨) شورتهورن اللحم



(الشكل ٩) شورتهورن الحليب

بنسبة دسم مقدارها ٤٪.

عروق أبقار المناطق الحارة: لا يوجد في أبقار المناطق الحارة التخصص الموجود في الأبقار الأوربية. وإذا كان هناك نوع من التخصص بين الحيوانات في بعض المناطق، فإن درجة هذا التركيز في التخصص ليست كما هو معروف في العروق القياسية. لذلك اتجهت أنظار المهتمين بتربية الحيوان في المناطق الحارة إلى الأبقار الهندية التي نشأت في مناطق حارة تكثر فيها الأمراض والحشرات وسوء التغذية، وتمكنوا من تثبيت صفات إنتاجية جيدة في بعض عروقها فأصبحت لها أهميتها في البلدان المشابهة للهند.

الأبقار الهندية:

- **السندي الأحمر** The Red Sindhi : نشأ هذا العرق في مقاطعة السند الهندية حيث تصل درجة الحرارة في فصل الصيف إلى ٤٦-٥٠ْم. لونه أحمر قاتم ويندر أن توجد فيه بقع بيض على الجسم. وأفراد هذا العرق صغيرة، فوزن الإناث التامة النمو نحو ٢٩٠ كغ والذكور التامة النمو ٤٠٠-٤٥٠ كغ. ويلاحظ وجود السنام المميز للأبقار الهندية. والقرون غليظة القاعدة. وإدرار الحليب سنوياً يراوح بين ١٦٥٠ و ٢٢٥٠ كغ بنسبة دسم مقدارها ٤,٩٪ والنضج الجنسي متأخر، وتضع الأنثى أول مولود لها وعمرها ٤٠ شهراً. ويعد هذا العرق من عروق الحليب .

- **الساهيوال** The Sahiwal : نشأ هذا العرق في مقاطعة البنجاب Punjap في منطقة مونتغمري Montgomery في الباكستان حيث درجة الحرارة مرتفعة. لونه أحمر داكن أو رمادي فاتح، وتظهر أحياناً بقع بيض على الجسم. متوسط وزن الإناث التامة النمو ٤٠٠ كغ والذكور ٥٤٠ كغ، وإنتاجه من الحليب ٢٢٥٠ كغ سنوياً. والنضج الجنسي متاخر وتضع الأنثى أول مرة وعمرها ٣٠-٣٦ شهراً. وهو من عروق الحليب.

- **البراهماني** The Brahman : نشأ هذا العرق في الهند، وله سنام عضلي واضح عند منطقة الكتف ونهاية الرقبة، وله لبب واضح في أسفل الرقبة يمتد إلى أسفل البطن، وهذا يزيد من مساحة الجلد والغدد العرقية الموجودة فيه فيكون أكثر ملاءمة فيزيولوجياً للجو الحار. واللون الشائع هو الرمادي الفضي، ومتوسط وزن الذكور التامة النمو ٩٠٠ كغ والإناث ٥٧٥ كغ. وهو عرق للحم، أدخل إلى الولايات المتحدة الأمريكية بغرض تهجينه بالعروق الأوربية للحصول على صفة مقاومة الحرارة والحشرات في النسل الناتج منهما (الشكل ١٠)

وأهم العروق الناتجة من هذا التهجين:

- **سانتا جرترودس** Santa Gertrudis : الذي نشأ من عرقي البراهماني وشورتهورن اللحم عام ١٩١٠ في ولاية تكساس التي تتصف بالمناخ الحار، ويحتوي تركيبه

الوراثي على ٣٧,٥٪ براهماني و٦٢,٥٪ أبردين أنغس.

- **البرانغس** Brangus: تكوّن هذا العرق عام ١٩٣٢ في الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة تلقيح بين البراهماني والأبردين أنغس، وتركيبه الوراثي هو ٣٧,٥٪ براهماني و٦٢,٥٪ أبردين أنغس.

- **ماستر اللحم** The Beef Master: تكوّن هذا العرق في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٠٠ بتلقيح البراهماني والهيرفورد ثم استخدمت معهما أبقار الشورتهورن فتكوّن التركيب الوراثي لهذا العرق من ٢٥٪ شورتهورن و٢٥٪ هيرفورد و٥٠٪ براهماني (الشكل ١١).

- **الشاربري** The Charbray: تكون في الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة تلقيح البراهماني مع الشاروليه Charolais الفرنسي. والتركيب الوراثي لأفراده هو ٧٥٪ شاروليه و٢٥٪ براهماني.

- **الأنغول** The Angol: يطلق عليه اسم النِلُور Nillore نشأ في شمال مدراس. ولونه أبيض وإن كان لون السنام والرقبة وجزء من الرأس في الثيران رمادياً داكناً، وهو حيوان للحم أكثر من كونه للحليب. وإنتاجه من الحليب في حدود ١٣٥٠ كغ في موسم حليب طوله ٣٠٠ يوم. ويستعمل هذا العرق بكثرة في أمريكة الاستوائية لتحسين أبقار اللحم فيها.

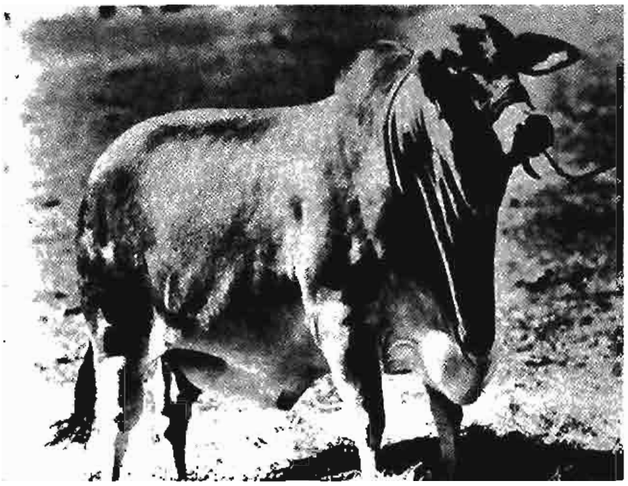
- **الهِلّيكار** The Hillikar: يشبه هذا العرق الأبقار التي توجد في جنوب شرقي الهند مثل الكانغايام Kangayam، والكلاري Killari لونه أحمر رمادي، وهو متوسط الحجم، والسنام معتدل الحجم نسبياً. وتستعمل هذه الحيوانات في الجر وهي من أبقار اللحم.

الأبقار الإفريقية:

- **الناندي** Nandi: تتصف أبقار هذا العرق بإنتاج لا بأس به من الحليب. ويصل متوسط وزن الإناث إلى ٣١٠ كغ والثيران التامة النمو إلى ٤٠٠ كغ وتختلف الحيوانات في اللون وإن كان اللون السائد هو الأحمر مع وجود بقع سود (الشكل ١٢).

- **البوران** Boran: منتشر في كينية وإثيوبية والصومال. وتتصف هذه الأبقار بإنتاج اللحم، ومتوسط وزن الذكور التامة النمو ٦٧٥ كغ وبعض إناث هذا العرق لها كفاية لا بأس بها في إنتاج الحليب (الشكل ١٣).

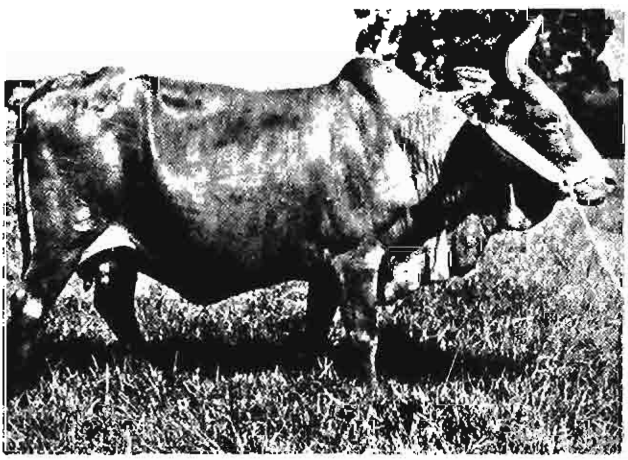
- **الكنانة** Kenana: ينتشر هذا العرق في منطقة النيل الأزرق، وفيه سلالتان إحداهما كبيرة الحجم والأخرى صغيرة، ولون هذه الأبقار عموماً رمادي فضي وللذكور سنام كبير وهو صغير في الإناث، وتنتج من الحليب في المتوسط ١٣٥٠ كغ بنسبة دسم مقدارها ٥٪، ويبلغ



(الشكل ١٠) ثور البراهماني



(الشكل ١١) ماستر اللحم



(الشكل ١٢) الناندي

متوسط وزن الإناث نحو ٤٠٠ كغ والثيران نحو ٦٠٠ كغ ووزن المولود عند الولادة نحو ٢٣ كغ (الشكل ١٤).

- **السوكوتوغودالي** Sokoto godali : منشأ هذا العرق منطقة سوكوتو في نيجيرية. والألوان السائدة فيه الرمادي والبني الفاتح أو الأبيض. وتعطي إناثه كميات لابأس بها من الحليب. وله قابلية للتسمين لذلك يعد من أبقار اللحم.

تقويم الأبقار

إن لتقويم الأبقار أهميةً بالغةً، إذ يجب أن يراعى عند انتقاء حيوان ما، إلى جانب كفايته الإنتاجية، ما يتمتع به من صفات شكلية جيدة أو رديئة. وإن توجيه الاصطفاء في مجموعة حيوانات نحو تحسينها إنتاجاً وشكلاً يقتضي دوماً دراسة الأفراد كافة دراسة دقيقة من الوجهتين الإنتاجية والشكلية وانتقاء أفضلها وأكثرها تحقيقاً للصفات المطلوبة. لذلك وضعت مبادىء معينة يسترشد بها المربي عند انتقاء الصفات الشكلية المحددة. وتتخذ هذه المبادىء قواعد أيضاً من قبل حكام المعارض الحيوانية عند انتقاء أفضل الحيوانات.

تقويم الأبقار بحسب مظهرها الخارجي:

نموذج حيوان الحليب The Dairy Type :

وضع المربون وجمعيات مربي الأبقار نصب أعينهم الوصول بعروق أبقار الحليب إلى حد كبير من الكفاية الإنتاجية مع العمل على زيادة التجانس بين الأفراد لتصل إلى الشكل النموذجي بقدر الإمكان. وتشمل مكونات النموذج الأساسية في بطاقته القياسية ما يلي:

- المظهر العام، وله ٣٠ درجة ويشمل النشاط والأنوثة والجاذبية والصفات الخاصة بكل عرق، مع مراعاة تناسق أعضاء جسم الحيوان.

- سمات الإنتاج، ولها ٢٠ درجة، وتشمل الخصائص التي تستنتج منها المقدرة على الإنتاج كمرحلة موسم الحليب، والتكوين المثلثي للحيوان. ويبدو الشكل المثلثي للجسم من المنظر الجانبي والمنظر العلوي والمنظر الأمامي، ويسهم في تشكيل هذه المثلثات طول الرقبة النحيلة وعرض الصدر الكبير. وضيق الغارب، وعرض الحوض الكبير، وكبر البطن والضرع.

- سعة الجسم، ولها ٢٠ درجة وتشمل كبر الحجم ومحيط البطن.

- الضرع، وله ٣٠ درجة. ويجب أن يكون جيد السعة، لدن القوام، وأن تكون الحلمات



(الشكل ١٣) ثور البوران



(الشكل ١٤) بقرة الكنانة

متجانسة الشكل والأبعاد.

نموذج حيوان اللحم: تمتاز حيوانات اللحم بأن شكلها الخارجي يدل دلالة جيدة على ما تمتلكه من لحم؛ لذلك ينصف الشكل العام لحيوان اللحم باندماج أعضاء جسمه بعضها ببعض مكوناً متوازي مستطيلات محمولاً على أربع قوائم قصيرة حيث يكون الجسم طويلاً وعميقاً (المسافة بين خط الظهر والخط البطني) وعريضاً (المسافة بين جانبي الحيوان)، والرأس صغيراً نسبياً. والرقبة قصيرة غليظة ممتلئة باللحم عند اتصالها بالصدر. ويكون الظهر مستقيماً عريضاً مكسواً بالعضلات، والبطن والصدر كبيرين، والأرباع الخلفية مستقيمة مكسوة من الداخل والخارج باللحم. وبناء على ذلك وضع المربون مكونات النموذج الأساسية في البطاقة القياسية الموحدة لحيوان اللحم وتشمل ما يلي:

- المظهر العام وله ٤٠ درجة ويأخذ بالحسبان الشكل العام للحيوان ووزنه وحالته العامة.

- الرأس والرقبة ٧ درجات.

- الأرباع الأمامية Fore Quarters ٨ درجات

وتشمل الكتفين ومقدم الصدر والطرفين الأماميين.

-الأرباع الخلفية Hind Quarters ١٣ درجة وتشمل الإليتين والفخذين وبقية الطرفين الخلفيين.

-الجسم ٣٢ درجة ويشمل الصدر والأضلاع والظهر والبطن.

نموذج الحيوان الثنائي الغرض: حالة وسط بين حيوانات الحليب واللحم. الجسم مندمج قصير الأرجل نسبياً، يميل إلى العمق. والضرع أقل في الحجم وفي درجة الملمس من ضرع عروق أبقار الحليب. والشكل المثلثي لا ينطبق عليها تماماً بل يميل الجسم إلى شكل متوازي المستطيلات الخاص بأبقار اللحم.

تقويم الأبقار بحسب السجلات: لمعرفة إنتاج الأبقار من الحليب واللحم لابد من تتبع صفات الإنتاج الوراثية التي تؤدي إلى الإنتاج العالي المطلوب. وتعتني السجلات بقياس هذه الصفات للاستفادة منها في اصطفاء الحيوانات العالية الإنتاج. ومن هنا يرى أن السجلات تفيد في الكشف عن الأفراد ذات التراكيب الوراثية الممتازة أو الضعيفة داخل القطيع الواحد فتعين على تحقيق المزيد من صحة انتقاء الحيوانات على أسس علمية سليمة. لذلك لابد من أن يكون لكل حيوان سجل خاص به يدون فيه كل ما يتعلق بحياته وإنتاجه ويعطى فيه كل حيوان اسماً ورقماً خاصين به. وفيما يلي فكرة عن أنواع السجلات:

- سجلات الإنتاج: يمكن بهذه السجلات معرفة إدرار البقرة ونسبة الدسم في حليبها، فيسهل على المربي بذلك انتخاب أحسن أفراد قطيعه للإكثار منها واستبعاد الأفراد المنخفضة الإنتاج. ولهذه السجلات نماذج متعددة هي السجل اليومي للحليب والسجل الأسبوعي والسجل الشهري والسجل السنوي.

- سجلات التربية: تشمل سجل التلقيح والولادة الذي يحتوي اسم كل من الثور والبقرة الملقحة منه ورقميهما وتاريخ التلقيح المخصب، وتاريخ الولادة المنتظر أو الفعلي، وسجل النسب ويحوي أسماء كل من الحيوان وأبيه وأمه وأجداده وأرقامها وتاريخ ميلاده ومكانه وملاحظات عن شكله ولونه، وسجل النسل وفيه تسجل معلومات عن ولادات الحيوان الواحد وتشمل تاريخ كل ولادة وجنس المولود واسم أبيه ورقمه.

- سجلات النمو والوزن: يسجل فيها وزن الحيوان مرة كل شهر. وتستحسن إضافة بعض المقاييس المهمة المرتبطة بالوزن مثل محيط الصدر والبطن.

- سجلات التغذية: تسجل فيها كميات العلف المستهلكة وتركيب الخلائط التي تستعمل في التغذية بحسب هدف الإنتاج.

- سجلات صحية: يذكر فيها تاريخ إصابة الحيوان بالمرض، وتاريخ شفائه منه، والعلاج الذي طبق، وتاريخ التحصين ضد الأمراض الوبائية، وتواريخ الاختبارات لكشف السل والإجهاض المُعْدي وغيرهما.

- سجلات إدارية: وتختلف هذه السجلات من مزرعة إلى أخرى وتنظم بحسب الإدارة المتبعة في كل منها.

اصطفاء الأبقار

هو الوسيلة التي يستطيع بها المربي إكثار التراكيب الوراثية المرغوب فيها على حساب التراكيب الوراثية غير المرغوب فيها، بإعطاء الحيوانات التي تمتلكها فرصة التزاوج بعضها ببعض، وحرمان غيرها من هذه الفرصة. ويطلق على عملية إخراج الأفراد غير المرغوب فيها من القطيع لسبب أو أكثر مصطلح الاستبعاد gulling وهي عملية تسير جنباً إلى جنب مع الاصطفاء فكلاهما يرفع من إنتاج القطيع. ويعد الاصطفاء الحجر الأساسي في رفع مستوى الإنتاج الحيواني، وهو أول طريقة من طرائق التربية مارسها المربون لتحسين حيواناتهم وتوحيد صفاتها الشكلية والإنتاجية، ويقسم قسمين أساسيين: الاصطفاء الطبيعي والاصطفاء الصنعي.

أما الاصطفاء الطبيعي فهو الذي تمارسه الطبيعة إذ يكون البقاء للأصلح نتيجة لتأثير الظروف البيئية المختلفة.

وأما الاصطفاء الصنعي فهو الذي يتحكم فيه الإنسان إلى درجة كبيرة بتحديد نتائجه وعواقبه ويتم اصطفاء الحيوانات استناداً لأحد مبدأين: المظهر phenotype أو التركيب الوراثي genotype. أما الاصطفاء بحسب المظهر فيكون تبعاً لصفاته الظاهرية إلا أن هذا الاصطفاء لا يؤدي دائماً إلى نتائج اقتصادية جيدة لذا يجب أن يصاحبه الاصطفاء بحسب الإنتاج، أي الاصطفاء على أساس الصفات الإنتاجية. وأما الاصطفاء بحسب التركيب الوراثي فيشمل الاصطفاء تبعاً للنَسب pedigree selection والاصطفاء تبعاً لاختبار النسل.

أما الأول فيتم فيه اختيار الحيوان الذي تثبت الدراسة تميز آبائه وأجداده عن طريق سجلات الإنتاج لكل الأفراد التي يشملها نسب الحيوان المنتخب ومعرفة مقدار ما شارك به كل جد من أجداد الحيوان في تركيبه الوراثي.

وأما الثاني فيعد أدق طريقة من طرائق التربية جميعها للحكم على كفاية الحيوان الوراثية بمعرفة إنتاج نسله الفعلي. في حين أن الاصطفاء تبعاً للنسب يدل على أن أسلاف الحيوان كانت جيدة ولايدل دلالة قاطعة على تميز الحيوان نفسه أو على نقاء تركيبه الوراثي.

التناسل reproduction

تراوح سن التلقيح في الأبقار بين ١٦ و٣٠ شهراً بحسب العرق، ويستمر الفصل التناسلي طوال أيام السنة. ولإناث الأبقار دورات جنسية منتظمة تدعى دورات الشبق estrous cycles تتعاقب فيها على مدار السنة مرة كل ١٦-٢٤ يوماً أي في المتوسط مرة كل ٢١ يوماً إذا لم يكن هنالك من حمل. ويكون تلقيح إناث الأبقار إما طبيعياً بالوثب، بترك الذكر مع الأنثى في طور الشبق وإما اصطناعياً بنقل السائل المنوي المأخوذ من الذكر إلى الأنثى آلياً.

ويرمي التلقيح الاصطناعي إلى تحسين العروق باستخدام ذكور متفوقة وراثياً ونقل سائلها المنوي المجمد إلى إناث موجودة في أي بقعة من العالم. وباستخدام التلقيح الاصطناعي يمكن تلقيح ثلاثة آلاف بقرة أو أكثر في العام من ثور واحد، في حين لا يزيد ما يستطيع الثور تلقيحه طبيعياً على ٥٠-٦٠ بقرة سنوياً. ويتم جمع السائل المنوي من الثيران بوساطة المهبل الصنعي artificial vagina وبعد الجمع يبرد تدريجياً لدرجة حرارة ٤ْم ريثما تجري على السائل المنوي اختبارات لمعرفة حجمه ولونه وحركة الحيوانات المنوية وعددها وأشكالها الشاذة. ومن ثم يمدد بمحلول خاص (غليكوز وفوسفات) ويعبأ في أنابير (امبولات) ويحفظ في درجة حرارة ٤ْم إذا كانت مدة الخزن محدودة أما إذا كان الخزن لمدد طويلة (عدة سنوات) فيحفظ السائل المنوي في الآزوت السائل في درجة حرارة -١٩٣ْ. ويدوم الحمل في الأبقار غالباً ٢٨٣ يوماً (٢٧٠-٢٩٠ يوماً) وتتم معرفة

الحمل بانقطاع دورة الشبق ورفض الأنثى للذكر، أو بجس الجنين من مستقيم البقرة، وتستغرق الولادة الطبيعية عند الأبقار نحو ساعتين وقد تزيد في بعض حالات الحمل الأول. وتلد الأبقار وهي واقفة أو مستلقية جانبياً على الأرض. وللعناية بالمولود بعد الولادة يزال المخاط أو أي غشاء آخر عن أنف المولود وفمه، ويساعد ليبدأ تنفسه وذلك بالضغط على الصدر وتدليك الجسم، ويقطع الحبل السري على بعد ٥سم من الجسم ويعقم مكان القطع. وللمولود الطبيعي القدرة على الوقوف بعد وقت قصير من ميلاده حتى إنه يستطيع الرضاعة خلال نصف الساعة الأول من حياته لذلك يجب إرشاده ومساعدته على الرضاعة بعد تنظيف ضرع البقرة، حيث يحصل على اللبأ colostrum وهو أول حليب يفرزه الضرع بعد الولادة، وهو أفضل غذاء له في أول أيامه. ويختلف تركيب اللبأ عن الحليب العادي فهو لزج، أصفر اللون، غني بالبروتينات والمعادن والفيتامينات.

العقم Sterility

يعرف العقم بأنه الإخفاق الكامل أو الجزئي لحيوان ما من الناحية التناسلية وهو يرجع إلى عدة أسباب منها:

أسباب وراثية: ولها أشكال منها إصابة الحيوان بأمراض وراثية أو اجتماع بعض العوامل الوراثية الخاصة بالعقم أو بعض العوامل المميتة أو شبه المميتة.

أسباب مرضية: وتعد أمراض الإجهاض المُعْدي، مثل داء البروسيلات Brucellosis وضمة الجنين Vibrio fetus وغيرهما من الأمراض المهمة التي تسبب إجهاض الأبقار وعقمها. ومن هذه الأسباب كل ما يصيب الجهاز التناسلي من أمراض تعطله عن القيام بوظيفته التناسلية على الوجه الأكمل.

أسباب تشريحية: فهناك عيوب تشريحية مختلفة في جهاز الأبقار التناسلي بعضها يسبب العقم الكامل في حين يسبب بعضها الآخر درجات متفاوتة من العقم.

أسباب فيزيولوجية: كعدم انتظام جهاز البقرة التناسلي في أداء وظيفته مثل ضعف ظهور علامات الشبق أو غياب دورة الشبق وغيرهما، وكلها عوامل تسبب انخفاض الكفاية التناسلية.

أسباب غذائية: تعود إلى عدم توازن الأعلاف التي تقدم للأبقار في بعض العناصر الغذائية أو المعادن النادرة المرتبطة بالوظائف التناسلية أو تعود إلى الإسراف في التغذية مما يؤدي إلى ترسيب الدهن حول الأعضاء التناسلية فتخمل أنسجتها.

رعاية الأبقار

تتطلب الأبقار عناية خاصة في معاملتها، وتنظيماً كاملاً في إدارتها اليومية من حيث حلبها ورياضتها وتنظيفها وتغذيتها بأعلاف متوازنة وغنية بالعناصر الغذائية اللازمة لنموها وإنتاجها على الوجه الأكمل.

وتعد التغذية أحد أهم العوامل التي تؤثر في إنتاج الأبقار من الناحيتين الكمية والنوعية، إذ لا يمكن الحصول على الحد الأقصى من الإنتاج الذي تتيحه الصفات الوراثية إلا إذا وضعت الأبقار في ظروف تمكنها من الحصول على كل ما تحتاجه لجسمها أو لإنتاجها من العناصر الغذائية.

رعاية المواليد في مدة الرضاعة: تعد تنشئة مواليد الأبقار الرضيعة ورعايتها الأساس الاقتصادي في بناء قطيع البقر، ويجب أن ينظر إلى اصطفائها وتربيتها والعناية بها بكثير من الاهتمام. ولذلك لابد من أن تستبعد المواليد الضعيفة أو المشوهة أو المريضة. وبعد الولادة يعطى كلّ مولود اسماً خاصاً به ورقماً يثبت على الأذن يلازمه مدى الحياة ويترك المولود مع أمه مدة ثلاثة أيام بعد الولادة ليرضع اللبأ ثم يفصل ويوضع في مربطه ويغذى بحليب الأم إما بالرضاعة الطبيعية حيث يترك مع أمه في الصباح والمساء وإما بالرضاعة الاصطناعية حيث تعوّد المواليد على شرب الحليب المخصص لها من السطل. وطريقة الرضاعة الاصطناعية تمكن المربي من تغذية مواليده بالحليب الفرز المنزوع منه الدسم skim milk أو ببدائل الحليب milk replacement (حليب فرز مجفف مضاف إليه دهون حيوانية وفيتامينات وعناصر معدنية) ولابد من تعويد المواليد على تناول الأعلاف الجافة المالئة وخلائط العلف المركزة والماء ابتداءً من الأسبوع الثاني من عمر المواليد. ويتم الفطام weaning في عمر ٥,١-٦ شهور بحسب هدف التربية ونظام التغذية.

رعاية الأبقار منذ الفطام حتى سن التلقيح: في هذه المرحلة لابد من متابعة نمو المواليد بوزنها كل شهر مرة، واستبعاد الأفراد التي لا تستجيب لبرنامج التربية المحدد لها. وأي إهمال في التغذية في هذه المرحلة يؤثر تأثيراً سلبياً في سن النضج الجنسي وفي وزن الحيوانات عند البلوغ وبالتالي في زمن التلقيح، وكذلك في كمية الحليب التي تنتجها في أول موسم لها وفي وزن مولودها الأول.

رعاية الأبقار التامة النمو: يجب الاهتمام بمواعيد الحلب اليومية والتغذية والرياضة وبمراقبة إنتاج الحليب واستبعاد الأفراد المنخفضة الإنتاج أو الأبقار المسنة أو المصابة بالتهابات الضرع الحادة والمزمنة. ويوضع برنامج التغذية اليومية الملائم لاحتياجات الأبقار اللازمة للإنتاج. ويعطى جزء من هذه الاحتياجات من الأعلاف المالئة المتوافرة في مزرعة الأبقار، ويكمل الجزء الباقي من الخلائط العلفية المعدة لهذه الغاية. ولابد في هذه المرحلة من قص الشعر وتقليم الأظلاف كل ستة شهور مرة على الأقل.

إنتاج الحليب

يتألف ضرع البقرة البالغة من أربع غدد عاملة اثنتين منها في الجانب الأيمن واثنتين في الجانب الأيسر، وبينهما حد فاصل واضح لاوجود له بين الغدتين الأماميتين والغدتين الخلفيتين، ويطلق اسم ربع على كل غدة، ويكون الربعان الخلفيان عادة أكبر من الأماميين وأكثر إدراراً من الحليب. ولكل ضرع أربع حلمات تقابل الغدد العاملة الأربع وتوجد أحياناً حلمات زائدة غير عاملة.

فيزيولوجية الإدرار: لا يصل الحليب [ر] إلى تركيبه المعروف إلا بعد أن يمر في ثلاث مراحل:

مرحلة التكوين: وفيها تأخذ الخلايا الغدية الضرعية العناصر الغذائية من الدم وتحولها إلى العناصر الغذائية في الحليب بعمليات كيمياوية كثيرة معقدة.

مرحلة الإفراز: وفيها تفرز الخلايا الغدية الحليب المتكون، ويتوقف هذا الإفراز على هرمون البرولاكتين الذي يفرزه الفص الأمامي من الغدة النخامية والذي يوجد بنسبة عالية في دم الأبقار الحلوب وبنسبة أقل في دم أبقار اللحم.

مرحلة الإفراغ: تتقلص العضلات اللا إرادية المبطنة للقنوات الحليبية بتأثير هرمون الاوكسيتوسين oxytocin أو الأوسيتوسين ocytocin، فيندفع الحليب المفرز إلى الحلمات

حيث يصبح في تصرف الحلاّب أو الآلة أو الوليد. وإفراز هرمون الأوكسيتوسين من قبل الفص الخلفي للغدة النخامية يرتبط بفعل عصبي منعكس لحدوث أفعال معينة اعتادتها الأبقار، منها رؤية البقرة وليدها، أو إرضاعه أو غسل الضرع بماء فاتر أو تدليك الضرع والحلمات باليد. وعادة تستجيب الغدة النخامية لهذا التنبيه بعد مرور ٤٥ ثانية فتفرز هذا الهرمون ويبقى تأثيره سبع دقائق، لذا يجب أن يتم الحلب في هذه المدة.

العوامل المؤثرة في إنتاج الحليب : إنتاج الحليب عملية معقدة وحساسة، ويتحكم فيه عدد كبير من العوامل التي يمكن تصنيفها في قسمين: العوامل الوراثية، والظروف البيئية. وليس إنتاج الحليب إلا المظهر النهائي للتفاعل بين قسمي هذه العوامل، فالعوامل الوراثية التي يمتلكها الفرد لاتستطيع أن تبدي أثرها إذا لم يتوافر للحيوان البيئة الصالحة من مسكن ومعاملة وغذاء وشروط جوية خاصة بظروف المكان الذي يعيش فيه.

الحلب: عملية الحلب مهمة جداً في مزارع الأبقار إذ إن كمية الحليب التي ستعطيها البقرة تعتمد إلى حد ما على الكيفية التي يتم فيها الحلب، فالبقرة التي تغذى وتعامل كما يجب لن تدر أقصى إنتاجها إذا لم تحلب بطريقة صحيحة.

ومن هنا لابد من أن يقوم بهذه العملية حلاب ماهر، وأن تدار عملية الحلب بطريقة جيدة (التحضير للحلب والحلب) وليس الحلب سوى تقليد للرضاعة الطبيعية التي تتم بضغط المولود على الحلمة ومص الحليب منها في الوقت نفسه.

وتكون عملية الحلب إما يدوية وهي طريقة قديمة الاستعمال، وما زالت متبعة في كثير من البلدان، أو آلية بوساطة آلة خاصة تسمى آلة الحلب وتتكون من جهاز تفريغ هوائي ومجموعة أنابيب، ووحدة الحلب وهي سطل الحليب تتصل به أربع كؤوس للحلمات.

تركيب الحليب : الحليب سائل متجانس يضم مجموعة كبيرة من المركبات هي الماء، وتبلغ نسبته في المتوسط ٨٧,٣ ٪ والمواد الدهنية ٣,٧ ٪، والمواد البروتينية ٣,٣ ٪ واللاكتوز ٤,٩٦ ٪ والمواد المعدنية ٠,٧٢ ٪ وفيتامينات ومكونات أخرى بنسبة ٠,٠٢ ٪ .

إنتاج اللحم

تعد اللحوم المصدر الأساسي لإمداد الإنسان بما يحتاج إليه من المواد البروتينية المهمة لنموه وبناء جسمه. وكانت مادة اللحم توفر قديماً بتسمين الأبقار التامة النمو المستبعدة من القطعان لسبب ما. ولحوم هذه الحيوانات غنية بالمواد الدهنية، ولايقبل المستهلك في الوقت الحاضر على هذا النوع من اللحوم، وأخذ يطلب لحوماً خالية من الدهون فاتجه المربون إلى توفير اللحم الأحمر بتسمين الأبقار النامية من العروق الثنائية الغرض بدلاً من العروق المتخصصة في إنتاج اللحم لأن نسبة اللحم الأحمر في عروق الأبقار الثنائية الغرض أعلى منها في عروق أبقار اللحم.

إنتاج اللحم من العجول الرضيعة : تحدد مدة تسمين العجول الرضيعة بالحليب الكامل الدسم whole milk بـ ٧ ـ ٨ أسابيع فقط حتى يبلغ وزنها ١٠٠ كغ على الأقل، وهي تحتاج في هذه المدة إلى ٦٠٠ ـ ٧٠٠ كغ من الحليب. ومعدل النمو اليومي لهذه العجول يراوح بين ١٠٠٠ و١٤٠٠ غ، وتحتاج لإنتاج كيلوغرام نمو واحد إلى ١٠ كغ من الحليب بنسبة دسم مقدارها ٣٪. ونوعية اللحم المتكونة من هذا التسمين عالية الجودة، ولون اللحم زهري فاتح ونكهته وطعمه جيدان جداً إلا أن تكلفة إنتاجه عالية جداً. وللتخفيف من تكلفة هذا النوع من اللحم تسمن المواليد بالحليب الفرز أو ببدائل الحليب، وبالخلائط المركزة التي تكون نسبة البروتين فيها ١٤ـ١٨٪. وتزاد مدة التسمين إلى ٥ـ٦ شهور ليصل وزن العجل في نهاية المرحلة إلى ٢٠٠ كغ.

إنتاج اللحم من الأبقار النامية التي عمرها أكثر من ستة شهور: يكثر هذا النوع من التسمين في معظم بلاد العالم لإنتاج اللحوم الجيدة النوعية وبكلفة اقتصادية معقولة، ويميز ثلاثة أنواع من التسمين بحسب متطلبات السوق وهي :

ـ تسمين مبكر جداً ليصل الوزن إلى ٢٥٠ كغ بعمر سبعة شهور، ويعتمد هذا التسمين بالدرجة الأولى على حليب الفرز والخلائط المركزة (١٤ ـ ١٦ ٪ من البروتين) بكميات كبيرة وكميات قليلة من الحليب الكامل الدسم. ولوحظ أن تكلفة هذا النوع من التسمين مرتفعة.

ـ تسمين مبكر إذ يصل وزن الحيوان إلى ٣٥٠ كغ بعمر عشرة شهور ويلاحظ أن تكلفة التسمين مرتفعة نوعاً ما ولكنها أقل من التسمين المبكر جداً. وأن نسبة البروتين في الخلائط المركزة المستخدمة في تغذية هذا النوع من التسمين هي ١٣ـ١٤٪.

ـ تسمين طبيعي إذ يصل وزن الحيوان إلى ٤٥٠ كغ بعمر ١٢ـ١٥ شهراً، وهذا النوع من التسمين أقل كلفة من التسمين المبكر لأنه يعتمد بالدرجة الأولى على الأعلاف المالئة وكميات قليلة من الخلائط المركزة وكميات محدودة جداً من الحليب الكامل الدسم والحليب الفرز. وإن نسبة البروتين في الخلائط المستخدمة في هذا النوع من التسمين هي ١٠ـ١٢٪.

إنتاج اللحم من تسمين الأبقار التامة النمو : يحتاج هذا النوع من التسمين إلى كميات من المواد العلفية الغنية بالطاقة (الكربوهيدرات أو النشا) أكثر مما يكون مطلوباً عند تسمين الأبقار النامية نظراً إلى تكون الدهن في جسم الأبقار التامة النمو بدلاً من اللحم، لذلك فالخلائط المستخدمة في هذا النوع من التسمين يجب أن تكون غنية بالمواد العلفية النشوية (حبوب النجيليات) ولاداعي لأن تكون هذه الخلائط غنية بالبروتين.

عبد الغني الأسطواني

الأبقار في الوطن العربي

لمحة عامة: تقدر الثروة البقرية في الوطن العربي بنحو ٤٢,١٠٨ مليون رأس. يسهم السودان فيها بنحو ٥٣,٤ ٪ ويليه الصومال بنحو ١٠,٩٪ ثم جمهورية مصر العربية بنحو ١٠ ٪ ثم المغرب بنحو ٧,٥ ٪ ثم العراق بنحو ٣,٨ ٪ وباقي الدول العربية بنحو ١٤,٣٥٪ ويبين الجدول ١ أعداد الأبقار في البلاد العربية في عام ١٩٨٨ وقُدر إنتاج الدول العربية من الحليب بنحو ١٠,٩٤٤ مليون طناً، وعدد المذبوحات بنحو ٦,٧ مليون رأس عام ١٩٨٤ وقُدر متوسط وزن الذكور عند الذبح بنحو ٣٠٠ كغ في سلالات الأبقار المحلية. ويختلف هذا الوزن باختلاف العمر والتغذية والرعاية وغيرها، فبلغ حده الأدنى ١٦٠ كغ في سلالة أبقار البطانة في السودان، وحده الأعلى ٣٨٦ كغ في الأبقار المحلية في المغرب. وبلغ متوسط نسبة التصافي في السلالات العربية المحلية ٥١٪ (عام ١٩٨٣).

نسبة التصافي = وزن اللحم والعظم ÷ وزن الحيوان الحي.

ويعد الوطن العربي موطناً لعدد من عروق الثروة الحيوانية. وقد أكدت الدراسات أن أقطار المغرب العربي ومصر إضافة إلى أوربة وآسيا كانت موطناً أصلياً لسلالات الأبقار الموجودة حالياً. وأوضحت النقوش في مقابر قدماء المصريين أن الأبقار استؤنست في وادي النيل منذ أكثر من أربعة آلاف عام قبل الميلاد. وقد انتشرت السلالات المحلية من موطنها الأصلي إلى مختلف أنحاء الوطن العربي حيث أدّى تباين المناطق المناخية فيها إلى نشوء الكثير من السلالات المتأقلمة مع الظروف البيئية المختلفة. وقام المربون باصطفاء السلالات الجيدة وتحسينها وإنتاج بعض السلالات العربية المتميزة التي تجاوزت شهرتها الوطن العربي مثل سلالة البقرة الشامية وسلالة البقرة كنانة وغيرهما.

ويتأثر إنتاج الأبقار في البلاد العربية تأثراً متفاوتاً بالمناخ سواء بتأثيره مباشرة في الحيوان نفسه أو بطريقة غير مباشرة بالتأثير في بيئة الحيوان مثل التأثير في الغطاء النباتي الطبيعي ومكوناته من المراعي والغابات، وفي المزروعات وتراكيب محاصيلها وفي الدورة الزراعية، كما يؤدي المناخ دوراً مميزاً في إنتاجية الأبقار الخاضعة لطرائق مختلفة من التربية والرعاية، ويحدد نمط هذه الإنتاجية. ولقد ساهمت الحظائر المغلقة إلى حد بعيد في الاستفادة من بعض الخصائص الوراثية لأبقار الحليب المستوردة من خارج الوطن العربي. ولقد تَبين من دراسةٍ لتأثير درجات الحرارة العالية والرطوبة في إنتاجية أبقار الفريزيان في رأس الخيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة عام ١٩٧٦ أن تلك الدرجات تؤثر سلبياً في تكوين الحيوانات المنوية وفي الأجنة وفي كفاية الأبقار الإنتاجية.

ولا تسد إنتاجية الأعلاف والمراعي في الوطن العربي احتياجات الثروة البقرية، وتفتقر السياسة الزراعية الحالية المتبعة في أكثر البلاد العربية إلى التنسيق بين الإنتاج النباتي والإنتاج الحيواني. وتبقى مصادر المياه، والكلأ، وتفادي الأمراض من العوامل الأساسية التي تحدد أيضاً نمط الإنتاج الحيواني السائد.

سلالات الأبقار: يربى البقر في الوطن العربي في مجموعتين: أما الأولى فهي سلالات الأبقار المحلية وتؤلف النسبة الكبرى من الأبقار فيه،

البلد	العدد	البلد	العدد
الأردن	٣٣	العراق	١٦٠٠
الإمارات	٥٠	عُمان	١٣٥,٥
البحرين	١١,٥	قطر	٨
تونس	٦٣٤	الكويت	٢٥,٥
الجزائر	١٤٣٥	لبنان	٥٢
جيبوتي	٧٠	ليبية	٢١٥
السعودية	١٦٥	مصر	٤٢٣٢
السودان	٢٢٥٠٠	المغرب	٣٢٠٠
سورية	٧٢٣	موريتانية	١٢٥٠
الصومال	٤٦٠٠	اليمن	١١٦٩

الجدول (١) أعداد الأبقار في البلاد العربية في عام ١٩٨٨ (العدد بألف رأس)

الجدول (٢) ـأوزان الجسم (كغ) والعمر عند أول ولادة (شهر)

الدولة العربية	السلالة (كغ) (١)	وزن المولود (كغ) (١)	وزن الفطيم (كغ)	وزن الذكور في عمر سنة (كغ)	وزن الإناث في عمر سنة (كغ)	العمر عند أول ولادة (شهر)
الأردن	محلية	١٦,٩	-	-	١١٠	-
تونس	محلية	٢٤,٧	-	٢٧٥	٢١٤	٣٠
الجزائر	محلية	١٧	٤٥	-	-	٤٢
السعودية	محلية	١٩	-	١٥٠	-	٣٢
السودان	كنانة	٢٢,٨	-	١٤٧	١٣٩	٤٣
	بطانة	٢٤	-	١٦٠	١٤٠	٤٧
	بقارة	٢١,٤	-	١٤٨	١٦٠	٦٨
سورية	الشامية	٢٥,٥	٧٧	٢١٥	-	٣٠
	العكشية	٢٠	٧٠	١٣٥	-	٣٨
الصومال	دوارا	٢١,٥	-	-	-	-
	بوران	٢٠,٩	-	-	-	٤٥
	سورق	٢٠,٦	-	-	-	-
العراق	محلية	٢٤,٤	-	١٦٩	١٧٩	٤٥
سلطنة عُمان	محلية	٢٢	-	١٣٥	١٢٠	٤٢
مصر	محلية	٢٥,١	٧١	١٨٤	١٧٠	٣٩
موريتانية	مور	-	-	٨٠	-	٣٥
	بيل	-	-	٨٠	-	٣٥

(١) ـ(وزن الذكور + وزن الإناث) ÷٢

وتتصف بانخفاض كفايتها الإنتاجية انخفاضاً واضحاً نتيجةً للعوامل الوراثية أو البيئية أو كلتيهما. وأما المجموعة الثانية فتضم الأبقار المستوردة المحسنة عالية الإنتاج مثل الفريزيان والدنمركي الأحمر وغيرهما. وتعتمد تغذية القسم الأكبر من الأبقار المحلية على المراعي الطبيعية، ولا تقدم لها أعلاف مركزة إلا نادراً، وهي تستخدم غالباً في العمل. أما الأبقار المستوردة فتغذى بأعلاف خضر تزرع خصيصاً لها، وتعطي أيضاً كميات مناسبة من الأعلاف المركزة تتناسب وإنتاجها، ولا تستخدم مطلقا في العمل الحقلي. وبوشر في استخدام بعضها في عمليات تهجين السلالات المحلية.

سلالات الأبقار المحلية: تقسم هذه السلالات بحسب شكلها الظاهر، إلى مجموعتين رئيسيتين: أما المجموعة الأولى فهي أبقار منطقة البحر المتوسط، وتنتشر انتشاراً رئيسياً في دول المغرب العربي ومصر وسورية ولبنان والأردن. شكلها الظاهري يماثل الأبقار الأوربية، وظهرها مستقيم وبدون سنام ظاهر. وتضم هذه المجموعة السلالات المحلية التالية:

السلالات المحلية	الموطن
سمراء الأطلس	المغرب
سوداء مكناس	المغرب
شقراء وألماس زعير	المغرب
سمراء الأطلس	الجزائر
بنية الأطلس	تونس
الشامية	سورية
العكشية	سورية
البلدية	مصر
أطلس الليبية	ليبية

وأما المجموعة الثانية فهي مجموعة الأبقار الدربانية ذوات السنام Zébu وهي توجد في السودان والصومال وشبه الجزيرة العربية. وهي أكبر مجموعة من الأبقار في الوطن العربي، وتصنف في ثلاثة أصناف رئيسية:

ـ أبقار ذات سنام كبير ولبب وقرون صغيرة إلى متوسطة. ويضم هذا الصنف السلالات العربية التالية: كنانة وبطانة وبقارة، وموطنها السودان، ودوارا وبوران وقسارا، وموطنها الصومال، ومور وبيل، وموطنها موريتانية. وتوجد أبقار هذا الصنف كذلك في اليمن وفي جنوب سلطنة عمان.

ـ أبقار صغيرة الحجم صغيرة السنام قصيرة القرون، وهي تنتشر في شرقي شبه الجزيرة العربية ولا سيما في جنوبي العراق وفي البحرين وفي دولة الإمارات العربية المتحدة.

ـ أبقار سانقا، وهي أبقار نتجت عن تهجين الدربانية الإفريقية طويلة القرون Bos africanus بالدربانية الآسيوية Bos indicus التي دخلت إفريقية في العصور القديمة. وهي أبقارٌ سنامُ ذكورها كبير وسنام إناثها صغير، ولببها صغير، وقرونها طويلة جداً. وتنتشر هذه الأبقار في جنوبي السودان.

بعض الصفات الإنتاجية لسلالات الأبقار المحلية:

يؤدي التباين الكبير في الشروط البيئية وطرائق الرعاية في الأقطار العربية، بالإضافة إلى الفروق الوراثية بين السلالات، إلى اختلاف أوزان المواليد، والأوزان عند الفطام، وأوزان الذكور والإناث التي عمرها سنة، والعمر عند أول ولادة، ويبين الجدول ٢ تباين هذه الصفات. والتباين كبير جداً كذلك بين السلالات المحلية في إنتاج الحليب وطول موسم هذا الإنتاج ونسبة الدسم. ويوضح الجدول ٣ هذا التباين.

الجدول (٣) ـ متوسط إنتاج الحليب (كغ) ومدة موسمه (يوم) ونسبة الدسم (٪)

الدولة	السلالة	إنتاج الحليب كغ/سنة	طول موسم إنتاج الحليب (يوم)	نسبة الدسم (٪)
تونس	محلية	١٨٥	٤٣	٤
السعودية	محلية	٤٧٥	٩٥	-
السودان	كنانة	١٥٥٥	٢٥٨	٥
	بطانة	١٠٩٥	٢٣٢	-
سورية	الشامية	٢٣٤٠	٢٧٦	٤
	العكشية	٧٤٥	١٨٠	-
الصومال	دوارا	٧٦٠	٢٠٧	-
العراق	محلية	١٢٠٠	٢٨٨	٤,١
الكويت	محلية	١١٠٠	-	٤,٩
مصر	محلية	١٠٧٥	١٦٩	٤,٤
المغرب	محلية	٥٥٠	١٦١	٤,٩
موريتانية	مور	٥٢٥	٢١٠	٤,٧
	بيل	٤٥٠	١٩٠	٥,٢

آفاق المستقبل لتنمية الثروة البقرية

ترمي الخطط الموضوعة لتنمية هذه الثروة الحيوانية في الوطن العربي إلى توفير الغذاء للمواطن العربي وذلك بتبني استراتيجية لتطوير هذه الثروة تكون في حدود المحاور التالية:

ـ جعل مبدأ التنمية الريفية المتكاملة أهم محاور تنمية الإنتاج الحيواني واعتماد الإنتاج المكثف في المدى القصير والسياسات الزراعية المتناسقة واضحة المعالم.

ـ تشجيع المشروعات العربية المشتركة وجهود الشركات العربية القائمة بما يمثل الخطوات الأولى لتحقيق التكامل الاقتصادي العربي في تخطيط برامج تطوير هذا القطاع وتنفيذها وربط ذلك ببرامج التصنيع الغذائي.

ـ التأكيد على إنتاج العروق الأصيلة والأعلاف المركزة والأجهزة والمعدات للحد من استيرادها.

ـ تطوير المراعي الطبيعية وصيانتها وتنميتها وإنتاج الزراعات العلفية الخضراء وتنفيذ التقنيات الملائمة للاستفادة من المخلفات الزراعية

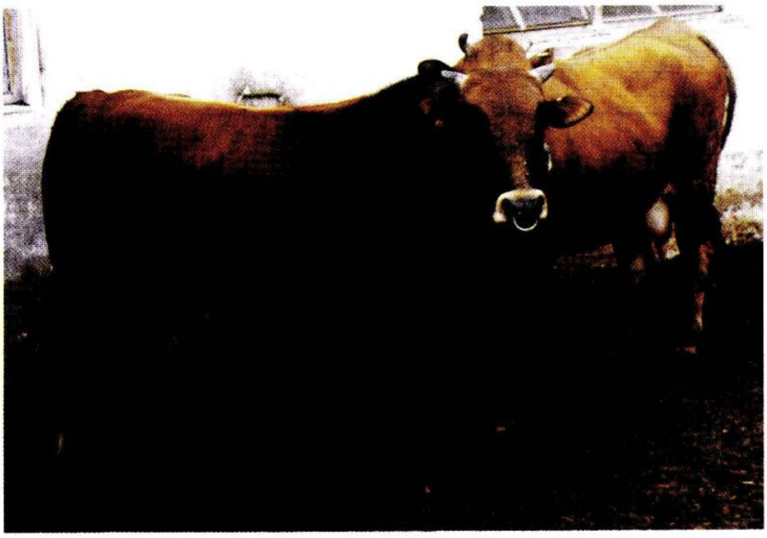
والصناعية المتاحة لإنتاج الأعلاف المتكاملة وتنمية مصادر الأعلاف على مستوى المزرعة.
- حصر سلالات الثروة البقرية المحلية المتميزة والعمل على تحسينها وتطوير تربيتها.
- الاهتمام بالنواحي الصحية ووضع البرامج الوقائية ودراسة المؤثرات البيئية وإنشاء «بنك» عربي للقاحات البيطرية.
- إقامة مشروعات بحوث علمية مشتركة في الأقطار العربية وتشجيع تبادل الخبرات العربية في مجال البحوث والدراسات وإقامة دورات تدريبية متخصصة في المجالات الفنية لتوفير الأطر العربية المؤهلة، وإحلالها محل الخبرات غير العربية، ودعم ذلك كله بالإرشاد الحيواني لضمان احتياجات المربي وحل مشاكله.
- تشجيع الدراسات المتعلقة بآثار إدخال السلالات الأجنبية وأنجع السبل للاستفادة منها، وتشجيع قيام الجمعيات لتحسين السلالات المحلية بين صغار المنتجين في المناطق الريفية.
- الاهتمام بتقديم الإحصاءات الشاملة الدقيقة باستمرار عن الثروة البقرية ومستلزماتها.

لمحة عن الأبقار في سورية

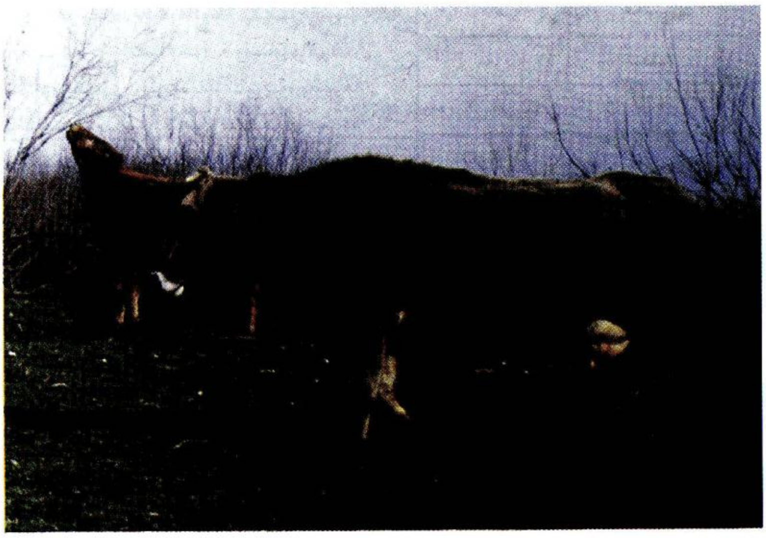
قُدر عدد الأبقار في سورية في عام ١٩٨٨ بنحو ٧٢٣٠٠٠ رأس، معظمها من الأبقار المحلية العكشية التي بلغت نسبتها المئوية نحو ٧٣٪، وبلغت نسبة الأبقار الشامية ١٣٪ ونسبة الأبقار الأجنبية نحو ١٤٪ وبلغ إنتاج الحليب نحو ٧٤٢٠٠٠ طن.

وترمي خطط تنمية الثروة البقرية في سورية إلى زيادة أعداد العروق العالية الإنتاج باستيرادها وإكثارها وتوزيعها على المربين، وذلك بإقامة محطات لتربية الأبقار وتأسيس جمعيات تعاونية متخصصة في هذه التربية في سورية كلها، كما ترمي إلى رفع إنتاج الأبقار المحلية بتحسين الأحوال البيئية المحيطة بها من مسكن وغذاء ورعاية، واصطفاء الأبقار العالية الإنتاج أو تهجين المحلية مع الأبقار الأجنبية.

وفيما يلي فكرة عن الأبقار الشامية وعن الأبقار العكشية.



(الشكل١٥) العرق الشامي



(الشكل ١٦) الأبقار العكشية

العرق الشامي: تدعى أفراده كذلك الأبقار البلدية، وموطنها الأصلي غوطة دمشق حيث الجو معتدل رطب على مدار السنة. ويعيش العدد الأكبر منها في محافظة ريف دمشق، وبعضها يعيش في بساتين حمص وحماه واللاذقية وحلب، ولايوجد منها سوى أعداد ضئيلة في المحافظات الشرقية والشمالية الشرقية من سورية.

ونموذج البقر الشامي قريب من نموذج أبقار الحليب المثلثي، ويكون أحياناً مندمجاً نسبياً. وهذه الأبقار حساسة الطبع، طيِّعة سهلة القياد صغيرة البطن نسبياً. لونها أحمر أو أشقر أو أصفر، ولايشاهد اللون الأسود إلا نادراً. وهي كبيرة الحجم، طويلة الجسم، رأسها طويل نحيف والعينان كبيرتان ونشطتان، وفتحة الأنف كبيرة، والقرنان طويلان ولهما أشكال مختلفة، وهما يختفيان أحياناً في الذكور والإناث. الرقبة متوسطة الطول نحيفة جيدة الاتصال بالرأس والجسم، اللبب كبير، والحوض ضيق والظهر متقعر في الوسط، والصدر والبطن متوسطا السعة، والضرع كبير الحجم متوازن.. ومتوسط وزن الإناث التامة النمو ٤٠٠-٥٠٠ كغ، والثيران التامة النمو ٧٠٠-٨٠٠كغ، ووزن المولود عند الولادة ٢٣-٣٠كغ، ومتوسط إنتاج الأنثى من الحليب في السنة ٣٠٠٠-٤٠٠٠ كغ

نسبة دسم مقدارها ٤٪. وهنالك أبقار تعطي أكثر من ٦٠٠٠ كغ في الموسم. وتضع الإناث أول مولود لها وعمرها ٢٨-٣٠ شهراً، وهي ذات كفاية تناسلية عالية. ويعد العرق الشامي في إنتاج الحليب أحسن من أي عرق آخر في آسيا (الشكل ١٥).

الأبقار العكشية: يطلق على هذه الأبقار أسماء مختلفة بحسب المناطق التي يعيش فيها، ففي درعا والسويداء تسمى بالبلدية، وفي دمشق وريفها بالعكشية وقد تسمى بالجولانية نسبة إلى الجولان، وفي الجزيرة بالجزراوية، وفي دير الزور بالزورية وهكذا. وهي تتحمل الظروف البيئية السيئة، وذات كفاية تناسلية عالية. وهي صغيرة الحجم ولها قابلية للتسمين. رأسها مستطيل طوله ضعف عرضه تقريباً. الجبهة مستقيمة والقرنان قصيران، والعينان كبيرتان نشطتان والعنق قصير نسبياً والظهر مقعر في الوسط والبطن صغير والحوض ضيق، والعظام والمفاصل بارزة والقوائم نحيفة قوية، وألوان هذه الأبقار كثيرة ولكن اللون الغالب فيها هو الأسود أو الأسود المبقع بالأبيض أو الأحمر المبقع بالأبيض. ويراوح وزن الأبقار التامة النمو بين ٢٥٠ كغ و٤٠٠ كغ وإنتاجها من الحليب سنوياً بين ٧٥٠ و٢٠٠٠ كغ (الشكل ١٦).

هشام قطنا

الموضوعات ذات الصلة:

المقريات (فصيلة -) - التدجين - تربية الماشية - تغذية الماشية - العَلَف.

مراجع للاستزادة:

- كامل عبد العليم، الماشية: تربية وإنتاج وأقلمة (الدار القومية للطباعة والنشر، مصر ١٩٦٥).
- محمد يحيى حسين درويش، حيوانات المزرعة (مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٢).
- عبد الغني الأسطواني وعيسى حسن وإبراهيم محمد، تربية الحيوان والدواجن (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٧٧).
- عبد الغني الأسطواني، تغذية المجترات (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٧٥)

■ أبقراط
(٤٦٠ - ٣٧٧ ق.م)

أبقراط أو بقراط أو بقرات Hippocrates أكثر أطباء اليونان تجديداً وشهرة في زمانه حتى إنه لقب في بعض المقامات بأبي الطب. ولد في جزيرة قوس Cos إحدى جزر الدوديكانيز، وتوفي في مدينة لاريسة Larissa من منطقة تسالية في جنوبي اليونان. وهو من أسرة أسقلبيادس Asclepiades.

أخذ أبقراط مبادىء الطب الكهنوتي وأوليات التشريح عن أبيه هراقليط، ثم تتلمذ لأشهر الأطباء العلمانيين الذين عرف طبهم باسم الطب الدنيوي. وبعد أن اتسعت معارفه الطبية أصبح طبيباً جوالاً ينتقل من مدينة إلى أخرى يعالج المرضى ويغني معلوماته. فكان كثير الترحال؛ زار مقدونية وشواطىء البحر الأسود وآسيا الصغرى، ونزل مدينة حمص، ثم انتقل إلى دمشق فعالج المرضى فيها، وعلم التلاميد في أحد رياضها، وعاد بعد تجواله الطويل إلى قوس مسقط رأسه فأسس فيها مدرسة للطب نحو سنة ٤٢٠ ق.م، لكنه ما لبث أن تركها ليقطن في لاريسة التي أنشأ فيها مدرسة للطب وقضى فيها بقية حياته.

الطب الأبقراطي

مارس أبقراط الطب على آلاف المرضى في قوس وفي المدن التي زارها، فذاعت شهرته حتى كان من بين مرضاه حكام وملوك، واستدعته أثينة ليحاول إيقاف وباء الطاعون الذي تفشى فيها، كما دعاه الملك أرتاحشويرش الثاني (٤٠٤ - ٣٥٨ ق.م) Artaxerxes، ملك الفرس، للحدّ من



وباء ألمّ ببلاده وعرض عليه المال الوفير لكنّه رفضه لأنّ ذاك الملك كان عدواً لبلاده.

كان لأبقراط فضل كبير في نقد المعارف الطبية القديمة. فقد استطاع أن يحرّر المعالجة من تأثير الطب الكهنوتي والمفاهيم الفلسفيّة، فأوجب الاعتماد الكلي على العلاج الطبي والابتعاد عن الطقوس والرقى السحرية؛ وكان يكره الخفاء ويبغض الأساطير، ويعتقد أن للأمراض جميعها عللاً طبيعية، وإن كان يشير أحياناً على المريض الاستعانة بالصلاة والدعاء. ولما كان للفلسفة في ذاك الحين تأثير بالغ في طرق المعالجة فقد دفعه ذلك إلى القول: «إن النظريات الفلسفية لا شأن لها بالطب ولا موضع لها فيه، وإن العلاج يجب أن يقوم على شدة العناية بالملاحظة، وعلى تسجيل كل حالة من الحالات السريريّة وكل حقيقة من الحقائق المرضية، وإن الاهتداء بالأعمال الطبية إنما يكون بالخبرة والتجربة العملية». فهو يرفض كل ما هو سابق للتجربة ولا يأخذ إلا بالاستنتاج المنطقي الصادر عن حوادثها. ولقد سعى أبقراط إلى أن يجعل الطب علماً موضوعياً ويعطيه شكلاً متكاملاً؛ فكان يتبع في فحصه الاستجواب والقرع والجسّ، كما كان يدقق في مفرغات المريض ويدرس الشروط التي يعيش فيها من مكان وغذاء ومناخ. ومع هذا فإن الطب الأبقراطي لم يخلُ من تأثير الفلسفة إذ كان أبقراط يأخذ بنظرية الأخلاط التي ترتكز على وجود الأخلاط الأربعة: الدم والبلغم والصفراء والسوداء، ويقول إن الإنسان يتمتع بالصحة الكاملة إذا امتزجت هذه العناصر بنسبها الصحيحة؛ أما في حالات المرض أو الموت فينقص بعضها أو يزيد أو يفسد، كما يقول إن هذه الأخلاط تتأثر بالجو والطعام ومزاج الفرد واختلاف محيطه. ولكن على الرغم من هذه الآراء الخيالية كلها في الأخلاط، لابد من النظر بإعجاب إلى الملاحظات التي أوحت له بها مشاهداته كتأثير العمر والفصول والمناخ وغيرها.

كان أبقراط يؤمن بالعدوى في الإصابة بالجرب والرمد والسل، ووصف في بعض كتبه لوحات سريرية كثيرة عن الصرع والكزاز والتهاب الغدة النكفية وحمى النفاس وحمى الثلث وحمى الربع وبعض آفات غشاء الجنب والرئتين، لكنه لم يأت على ذكر الحصبة والخناق (الدفتريا) والحمى القرمزية؛ كما أنه فسر سبب التقيحات تفسيراً خاطئاً. وكان تصوره لطبيعة جهاز الدوران مغلوطاً؛ فقد كان يرى أن الهواء هو العامل الحيوي في حركة الدم، إضافة إلى أنه لم يفرق بين الشرايين والأوردة، كما لم يقدم جديداً في

الجملة العصبية، وقد تبنى رأي القميون Alcmeon في عمل الدماغ فكان يقول: «به نفكر ونبصر ونسمع ونميز القبيح من الجميل والغثّ من السمين».

والمعارف التّشريحية عند أبقراط محدودة إلّا فيما يتّصل بالعظام. فقد تخيّل مقعداً من الخشب يحمل ملفافات تسمح بالشدّ لرد الخلوع والكسور المتبدّلة وإعادة العظام المصابة إلى مواضعها. وقد ذكر في بعض كتبه تعليمات تتناول تحضير غرف العمليّات الجراحيّة وتنظيم الضّوء فيها وتنظيف اليدين والعناية بالأدوات الجراحية وإيضاح طريقة استخدامها وسبل تضميد الجروح وما إلى ذلك. وقد تركت ملاحظاته الدّقيقة التي دوّنها بموضوعيّة بعض العلامات التي لا تزال ذات قيمة. فهناك عدد من الأعراض والمتلازمات التي لا يزال الأدب الطبّي ينسبها إليه كالأصابع الأبقراطية؛ وهو ضرب من تشوّه الأصابع يتّصف بتضخم عضلات السّلاميات الأخيرة وانعطاف الأظافر نحو راحة اليد، وأكثر ما تشاهد الأصابع الأبقراطية في حالات القصور الرئوي المزمن، وفي الآفات القلبيّة الوعائية المزرّقة، وفي بعض إصابات السّبيل الهضمي كالتّشمّعات والسلائل المعويّة. وهناك السّحنة الأبقراطية؛ وهي السّحنة الشديدة الضعف التي يبدو بها المريض وهو في النزع الأخير، وقد وصفها أبقراط وصفاً حسناً. وهناك أيضاً الرّجّ الأبقراطي؛ وهو طريقة استقصاء سمعية لصدر مريض مصاب بانصباب في الجنب ممزوج بهواء.

لم تختلف المواد الدوائية التي استعملها أبقراط عن تلك التي كانت تستعمل في عصره. وأكثر ما كان يعتمده منها: المقيئات والرحضات الشرجية والحجامة والكمادات والمراهم والتّدليك، ولم يلجأ كثيراً إلى الاستدماء. وكان اعتماده على نوع الغذاء والصّوم والحمّامات المعدنيّة والتمارين الرياضية والهواء النقي أكبر من اعتماده على الأدوية؛ فمن أقواله مثلاً: «عش عيشة صحية تنج من الأمراض إلا إذا انتشر وباء في البلد أو أصابتك حادثة». ومنها: «إذا مرضت ثم اتبعت نظاماً صالحاً في الأكل والحياة أتاح لك ذلك أحسن فرص الشفاء». وكذلك قوله: «كلما أكثرنا من تغذية الأجسام المريضة زدنا تعريضها للأذى».

كان الأطباء اليونان قبل أبقراط ينتقلون من مدينة إلى أخرى كلّما دعتهم الحاجة إلى هذا الانتقال. أمّا في زمنه فقد استقروا في مدنهم واتخذوا عيادات لأنفسهم يداوون فيها المرضى. وقد أنشأ أبقراط في بستان له قريب من داره مكاناً أفرده للمرضى واستعان بمساعدين يقومون على أمرهم وسمّاه مجمع المرضى.

كتبه

ينسب إلى أبقراط زهاء ستين كتاباً أصبح من الثابت أنها ليست من عمل رجل واحد. ومن العسير التفريق بين الكتب التي وضعها وتلك التي ألفها تلاميذه المقربون أو التي كتبها بعض المؤلفين المتأخرين الذين تأثروا بما أحاط به من هالة أسطورية فنسبوها إليه. وفي هذه المجموعة من الكتب التي تولى شرحها كثيرون نظريات ومشاهدات كثيرة دقيقة إلى جانب قدر غير قليل من التناقضات والأخطاء الكبيرة. وقد نقل إلى العربية في العصر العباسي عدد من الكتب التي تحمل اسمه ذكر منها صاحب الفهرست «كتاب عهد بقراط بتفسير جالينوس»، الذي ترجمه حنين إلى السّريانية وأضاف إليه، وترجمه حبيش وعيسى بن يحيى إلى العربيّة.

و«كتاب الفصول بتفسير جالينوس»، الذي ترجمه حنين إلى العربيّة.

و«كتاب تقدمة المعرفة بتفسير جالينوس» فقد ترجم حنين متنه إلى العربيّة ثم ترجم التّفسير عيسى بن يحيى.

و«كتاب الأمراض الحادة بتفسير جالينوس»، وهو خمس مقالات ترجم عيسى بن يحيى ثلاثاً منها. و«كتاب الكسر بتفسير جالينوس»، ترجمه حنين إلى العربية.

و«كتاب إبيديميا»، نقله إلى العربية عيسى بن يحيى. و«كتاب الأخلاط بتفسير جالينوس»، نقله إلى العربية عيسى بن يحيى.

و«كتاب قاطيطيون بتفسير جالينوس» ترجمه حنين إلى العربية.

و«كتاب الماء والهواء بتفسير جالينوس» ترجم حنين متنه إلى العربية وترجم التفسير حبيش بن الحسن.

و«كتاب طبيعة الإنسان بتفسير جالينوس»، ترجم حنين متنه إلى العربية وترجم التفسير عيسى بن يحيى.

ويقول كارا دي فو Carra De Vaux في دائرة المعارف الإسلامية: «لم يكتف علماء المشرق بترجمة مؤلفات هذا الطبيب اليوناني العظيم ولكنهم أضافوا إليها شروحاً وتفاسير، وفسروا كتابيه: تقدمة المعرفة، والفصول». كذلك كتب ثابت بن قرّة موجزاً لكتاب بقراط عن الماء والهواء والبلدان، وصنف الفيلسوف الكندي الطب البقراطي عن منهج بقراط في الطب.

آداب الطب والطبيب

كانت صناعة الطب قبل أبقراط كنزاً وذخيرة يكنزها الآباء ويدخرونها لأبنائهم، وكانت محصورة في بيت واحد منسوب إلى أسقليبوس. وقد خاف أبقراط على هذه المهنة من الزوال حين رأى أنها توشك أن تبيد لقلة الأبناء الذين يتوارثونها، فنقلها إلى سائر الناس، ورأى أن ينشرها بينهم، فكان بذلك أول من علم الغرباء الطب كأنهم أبناؤه. ومن أقواله: «إن الجود بالخير يجب أن يعم كل من يستحقه قريباً كان أو بعيداً». ولكن مهنة الطب بعد أن انتشرت قاست من أعمال بعض فاسدي الذمة، فسعى أبقراط إلى رفع شأن مهنته بتأكيده منزلة الأخلاق التي يجب على الطبيب أن يتحلى بها، والسلوك الذي عليه أن ينهجه، والهيئة التي يجب أن يتصف بها.

وذكر ابن أبي أصيبعة وصية أبقراط المعروفة بترتيب الطب والتي قال فيها: «ينبغي أن يكون المتعلم للطب، في جنسه حراً، وفي طبعه جيداً، حديث السّن، معتدل القامة، متناسب الأعضاء، جيد الفهم، حسن الحديث، صحيح الرأي عند المشورة، عفيفاً، شجاعاً، غير محب للفضة، مالكاً لنفسه عند الغضب، ولا يكون تاركاً له في الغاية، ولا يكون بليداً. وينبغي أن يكون مشاركاً للعليل، مشفقاً عليه، حافظاً للأسرار، لأن كثيراً من المرضى يوقفوننا على أمراض بهم لا يحبون أن يقف عليها غيرهم. وينبغي أن يكون محتملاً للشتيمة، لأن قوماً من المبرسمين وأصحاب الوسواس السوداوي يقابلوننا بذلك، وينبغي لنا أن نحتملهم عليه، ونعلم أنه ليس منهم، وأن السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة. وينبغي أن يكون حلق رأسه معتدلاً مستوياً، لا يحلقه ولا يدعه كالجمة، ولا يستقصي قص أظافير يديه، ولا يدعها تعلو على أطراف أصابعه. وينبغي أن تكون ثيابه بيضاء نقية لينة، ولا يكون في مشيه مستعجلاً لأن ذلك دليل على الطيش، ولا متباطئاً لأنه يدل على فتور النفس. وإذا دعي إلى المريض فليقعد متربعاً ويختبر منه حاله

بسكون وتأن، لا بقلق واضطراب، فإن هذا التشكل والزي والترتيب عندي أفضل من غيره».

ومما لا ريب فيه أن الجزء الذي يتناول آداب الطب في كتابات أبقراط أجمل ما ينسب إليه، فاسمه مقترن دوماً بالقسم الذي يحمل اسمه، ويبقى هذا العهد الميثاق الأساسي الذي يوجه سلوك الطبيب. ولا تزال كليات الطب في العالم كله توجب على طلابها قبل تخرجهم أداء قسم فيه الكثير من الروح الأبقراطية مع تعديل يتفق والتقدم العلمي وثقافة المجتمع. وقد جاء ذكر هذا القسم في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» مع بعض التعديل. وأما الصيغة الأساسية التي تنسب إلى أبقراط فهي:

«أقسم بأبولو الطبيب وأسقليبيوس وهيجيا وباناسيا وجميع الآلهة والإلهات وأشهدها جميعاً علي بأن أبر بهذا القسم وأفي بهذا العهد بقدر ما تسمح به قواي وقدرتي. أقسم أنّي سأضع معلمي في الطب في منزلة أبوي، وأن أشركه في مالي الذي أعيش به، وأن أقوم بأوده إن احتاج إلى ذلك، وأن أعد أبناءه إخوة لي؛ فإذا رغبوا في تعلم الطب علمتهم إياه من دون أجر أو إلزام بشرط، وأن ألقن أبنائي وأبناء أستاذي والتلاميذ الدين ارتبطوا بالالتزام وبالقسم بحسب قانون الطب الإرشادات والدروس الشفهية وسائر المعلومات الأخرى، وألا ألقنها أحداً سواهم. وأقسم أن أستخدم العلاج لمنفعة المرضى بحسب مقدرتي وحكمتي، وأن أمتنع في استخدامه عن أي فعل فيه أذى أو ظلم، وألا أعطي أحداً سماً إذا طلب إلي أن أفعل ذلك، وألا أشير بفعله، وألا أضع لامرأة فرزجة تسقط جنينها، وأن أقضي حياتي وأمارس فني في النقاوة والطهر، وألا أشق مثانة فيها حصيات، بل أتخلى عن ذلك لمن يحترف هذا العمل، وألا أدخل منزلاً إلا لمنفعة المرضى، وأن أتحرز عن كل إساءة مقصودة أو أذى متعمد، وأن أمتنع بوجه خاص عن إغواء أي امرأة أو فتى سواء أكان من الأحرار أم الأرقاء، وألا أتحدث بما لا يجوز إفشاؤه مما أرى أو أسمع في أثناء علاج المرضى أو في أوقات أخرى معتبراً أن الكتمان واجب علي. فإذا ألزمت نفسي بإطاعة هذا القسم ولم أحنث به، فإنني أرجو أن أنعم بحياتي وبمهنتي وأن أبقى دوماً وأبداً محموداً في الناس جميعاً، أما إذا نقضت هذا العهد وحنثت بقسمي فليحل بي نقيض ما رجوت».

عدنان تكريتي

مراجع للاستزادة:

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت)

- Les Médecins Célèbres. Les éditions contemporaines S.A (Editio.S.A, Paris - Genève 1947).

■ الإبـــل ← الجمل

■ آبل (نيلْز هنريك -)
(١٨٠٢-١٨٢٩)

نيلز هنريك آبل Niels Henrik Abel عالم في الرياضيات نروجي، أبوه وأجداده من القساوسة، وهو الابن الثاني في عائلة كبيرة العدد، تلقى جميع أبنائها تعليمهم على يد أبيهم. غير أن آبل وأخاه الأكبر أُرسلا في عام ١٨١٥ إلى مدرسة «كتدرائية كريستيانيا» في أوسلو، حيث تتلمذ آبل على أستاذ الرياضيات الشاب ب.م. هولْنْبوي B.M. Holnboe (١٧٩٥-١٨٥٠) الذي سرعان ما كشف موهبة آبل الفذة في الرياضيات وأصبح صديقه الحميم، وكان أول ناشر لأعماله الكاملة في عام ١٨٣٩.

واجه آبل الحياة وحيداً بعد أن توفي والده في عام ١٨٢٠، وعجزت والدته عن تلبية حاجاته فعاش على المنح الدراسية والقروض وعلى ما تدره عليه الدروس الخصوصية. والتحق في عام ١٨٢١ بجامعة كريستيانيا (أوسلو) الحديثة العهد وحصل في عام ١٨٢٢ على إجازة في الفلسفة، وتابع دراساته بفضل المساعدات المالية التي وفّرها له أساتذته. وصدرت أول كتاباته العلمية في عام ١٨٢٣، وطبع في عام ١٨٢٤ على نفقته الخاصة بحثاً بالفرنسية هو «مباحث في المعادلات الجبرية» وقد برهن فيه استحالة إيجاد الحل العام للمعادلة من الدرجة الخامسة. وفي عام ١٨٢٥ حصل على منحة حكومية للسفر خارج النروج لسنتين، والتقى في برلين بالمهندس المدني كريل A.L.Crelle الذي كان يصدر مجلة «الرياضيات البحتة والتطبيقية» فأسند إليه إدارة المجلة التي ضمت مجلداتها الأولى سلسلة مقالات كتبها آبل حول نظرية المعادلات، ونظرية الدوال fonctions ومتسلسلات القوى، ومسائل في الميكانيك النظري. وبعد أن قام آبل برحلة إلى براغ وفيينة وإيطالية أقام في باريس عشرة أشهر، حيث أُصيب بداء السل فعاد إلى النروج وعمل مدرساً لقاء أجر زهيد، بيد أن عوزه ومرضه لم يحولا دون الاستمرار في إنتاجه فكتب عدداً كبيراً من البحوث في تلك الآونة، ولاسيما ما يتصل منها بنظرية المعادلات والدوال الناقصية بما فيها نظرية «معادلات آبل» «وزمر آبل»، وعمل بسرعة على تطوير نظرية الدوال الناقصية مدفوعاً بمنافسة عالم الرياضيات الألماني كارل غوستاف جاكوبي [ر] الذي اقتسم مع والدة آبل الجائزة الكبرى للرياضيات التي قدمتها أكاديمية العلوم في باريس عام ١٨٣٠ بعد وفاة آبل في فرولاند Froland عام ١٨٢٩.



كان لبحوث آبل أثرها البالغ في علوم رياضيات القرن التاسع عشر، وكثيرٌ من نتائج الرياضيات الحديثة ومفاهيمها تحمل اسمه، وقد سُميت الدّوالّ العكسية للتكاملات «بدوال آبل» وطُبعت أعماله الكاملة في مجلدين في أوسلو عام ١٨٨١.

ج.ت

■ إبــــلا (تل مرديخ)

إبلا Ebla مدينة أثرية قديمة كانت حاضرة مملكة عريقة وقوية ازدهرت في شمالي سورية في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، فبسطت نفوذها على المناطق الواقعة بين هضبة الأناضول شمالاً وشبه جزيرة سيناء جنوباً، ووادي الفرات شرقاً وساحل المتوسط غرباً، وأقامت علاقات تجارية ودبلوماسية وثيقة مع دول المنطقة مثل مصر وبلاد الرافدين، وقد حار العلماء في تحديد مكان إبلا فلم يعثروا لها على أثر حتى كشفت عنها بعثة أثرية إيطالية من جامعة رومة يرأسها عالم الآثار باولو ماتييــه Paolo Matthiae كانــت تتولى التنقيب في موقع تل مرديخ قرب بلدة سراقب محافظة إدلب على مسافة نحو ٥٥كم جنوب غرب حلب.

التنقيبات والكشوف

شرعت البعثة الإيطالية في أعمال تنقيب منظمة منذ عام ١٩٦٤م في موقع تل مرديخ، ولم يكن أحد يتوقع أن الحفريات في هذا التل ستؤدي إلى الكشف عن حاضرة إحدى أهم ممالك الشرق الأدنى القديم عامة وسورية القديمة خاصة هي مدينة إبلا.

وكان ذكر إبلا قد ورد أول مرة في وثائق تعود إلى عصر شروكين الأكدي، مؤسس الامبراطورية الأكدية (٢٣٤٠ - ٢٢٨٤ ق.م)، إذ يقول أحد الألواح، «شروكين الملك خرّ خاشعاً في توتول أمام دجن وصلى، الأرض العليا أعطاه: ماري - يارموتي - إبلا وحتى غابة الأرز وجبال المعدن الثمين» ويقصد من هذا القول أن الإله دجن أعطى شروكين المنطقة الممتدة من مدينة ماري على الفرات حتى جبال الأمانوس على ساحل البحر المتوسط، وكان يدعى البحر الأعلى. كذلك ورد ذكر إبلا في نصوص رافدية وغير رافدية كثيرة من غير تحديد لمكانها، واختلف العلماء في موقعها فمنهم من رأى أنها تقع في وادي نهر البليخ، واعتقد آخرون أنها في منطقة ماردين، وافترض فريق ثالث وجودها في أماكن أخرى. وظلت البعثة الإيطالية تقوم بالحفريات في تل مرديخ عدة سنوات قبل أن تعرف اسمه القديم عام ١٩٦٨، عندما عثرت على تمثال من البازلت لأحد ملوك إبلا المدعو إيبيط - ليم Ibbit-Lim بن إغريش - خيبا Igrish-Chepa والتمثال في الواقع ليس كاملاً، فالرأس مفقود ولم يبق من التمثال إلا الجذع، ولكن المهم فيه وجود كتابة مسمارية باللغة الأكدية مؤلفة من ٢٦ سطراً على الجزء العلوي من صدر التمثال. تقع هذه الكتابة في قسمين غير متساويين يتضمن الأول تقديم نذر (جرن للتطهر) إلى الربة عشتار، ويتضمن الثاني وقف تمثال الملك للإلهة عشتار. وقد بينت هذه الكتابة أن الاسم القديم لهذا الموقع هو إبلا، لورود كلمة إبلا مرتين في النص، مرة صفة ومرة اسماً. ومع ذلك رفضت طائفة من العلماء في البدء هذه المطابقة ولم يقتنعوا بأن تل مرديخ هو موقع إبلا.

إلا أن كشف المحفوظات الملكية في هذا الموقع في عامي ١٩٧٤ و١٩٧٥ لم يدع مجالاً للشك في أن إبلا تقوم في موقع تل مرديخ.

تعود المحفوظات الملكية إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، نصوصها مكتوبة بالخط المسماري وبلغة جديدة لم تكن معروفة سابقاً، ويرى ماتييه أن التمثال يعود، لدواع تاريخية وفنية، إلى حقبة ما بين ٢٠٠٠-١٩٠٠ق.م. وتؤيد ذلك الحجج الكتابية واللغوية لتاريخ الكتابة. ثم إن استخدام اللغة الأكدية لكتابة النص على التمثال يدل على حدوث تحول في ثقافة إبلا نحو عام ٢٠٠٠ق.م. كما إن ركاكة الكتابة وعدم دقتها يدلان على تراجع ثقافي.

تاريخ إبلا من النصوص غير الإبلوية

ورد قبلاً أن إبلا ذكرت أول مرة في نص لشروكين الأكدي. كذلك يفاخر حفيده نارام سين(٢٢٥٩-٢٢٢٣ق.م) بأنه أخضع أرمان وإبلا والمنطقة كلها حتى جبال الأمانوس وشاطىء البحر.

وتبدو آثار حريق كبير في بقايا قصر إبلا الملكي (القصر G) العائد للألف الثالث قبل الميلاد، والذي كشف عام ١٩٧٤. ومن الواضح أن نارام سين كان السبب في هذا الحريق، والظاهر أن قوة إبلا التجارية وسيطرتها على طرق المواصلات أجبرتاه وجدّه من قبله على القيام بحملة عسكرية كبيرة على هذه المملكة التي بات نفوذها يهدد مصالح الدولة الأكدية وقد استطاع نارام سين القضاء على نفوذ إبلا في أعالي بلاد الرافدين والأناضول وسورية، ولكنها استمرت في الحياة من بعده إذ يرد ذكرها في وثائق تعود إلى عهد السلالة الثانية في لاغاش Lagash (٢١٥٠-٢١١٠ ق.م) فقد كانت شريكاً تجارياً مهماً لبلاد ما بين النهرين في هذه الحقبة، إذ كان غوديا Goudéa حاكم لاغاش (نحو ٢١٤٣-٢١٢٤ق. م) يستورد منها الأنسجة الكتانية وأخشاب الصنوبر والدُّلب وغيرها.

ويشير أحد النصوص من الحقبة نفسها إلى ثلاث قطع من نسيج كتاني من إبلا، يعادل طول الواحدة منها ٢٢,٥م. ولكن معظم الإشارات إلى إبلا تظهر في نصوص السلالة الثالثة في أور Our (٢١١٢-٢٠٠٤ ق.م)، وتدور على الأغلب حول جرايات لسعاةٍ وتجارٍ وأناسٍ عاديين من إبلا، وكذلك حول تقديم هدايا ونذور من أشخاص من إبلا لمعابد سومر وآلهتها.

استمرت علاقات إبلا مع بلاد الرافدين بعد سقوط امبراطورية أور الثالثة إذ يرد ذكر إبلا في نصوص تعود إلى هذه الحقبة. فالقائمة الجغرافية البابلية الكبرى تذكر مدينة إبلا، والعمل الأدبي المسمى رحلة نانا إلى نيبور يذكر غابة إبلا بوصفها مصدراً لخشب البناء. وتوجد من العصر الآشوري القديم رسالة تبين أن مواطنين من إبلا سافروا لأغراض تجارية إلى كاروم كانيش، المستوطنة التجارية الآشورية المشهورة في قبادوقية الواقعة في قلب الأناضول والتي ازدهرت في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. كانت إبلا في هذه الحقبة مملكة مستقلة، وتؤكد ذلك الكتابة التي على تمثال إيبيط -ليم، والمعلومات الواردة عن إبلا في نصوص ألالاخ (موقع تاريخي في شمال سورية) الطبقة السابعة.

كانت تسكن إبلا آنذاك عناصر من الآموريين والحوريين، ويُستدل على ذلك من اسم إيبيط - ليم الأموري واسم أبيه إغرش - خيبا الحوري المذكورين في النص المنقوش على التمثال. وتذكر نصوص الطبقة السابعة من ألالاخ (نهاية القرن ١٨ وبداية ١٧ ق. م) إبلا عدة مرات. فهناك نصان يشيران إلى رحلات ملك ألالاخ أو سعاته إلى إبلا. ونص مؤرخ بالسنة التي حدث فيها زواج ملكي« تلك السنة التي اختار فيها أميتاكو Ammitaku ملك ألالاخ ابنة حاكم إبلا زوجة لابنه». وهناك نص آخر يخبر عن شراء تاجر من ألالاخ بيتاً في إبلا، ويذكر نص من الطبقة الرابعة من ألالاخ (القرن ١٥ ق.م) مواطناً من إبلا يحمل اسماً حورياً، كما يرد من العصر الآشوري الوسيط ذكر ساعٍ لملك إبلا جاء إلى آشور. وكذلك يرد ذكر إلهة إبلا في

قائمة للآلهة تعود إلى هذه الحقبة. ويضاف إلى ذلك أن إبلا تذكر في المصادر الحثية والحورية والمصرية، مرة في كلٍ منها، في حين لا يرد ذكرها في نصوص أُغاريت.

ويبدو من المصادر الرافدية وغير الرافدية التي تذكر إبلا أن هذه المدينة كان لها شأن سياسي وتجاري كبير في تاريخ الممالك القديمة الواقعة شرق البحر المتوسط في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. وبدون ذلك يصعب فهم حملات الملكين الأكديين، شروكين ونارام سين، على إبلا. ولم يرد ذكر إبلا في نصوص ماري المكشوفة حتى عام ١٩٩٠ ولعل ذلك راجع إلى اضمحلال دورها السياسي وبروز حلب عاصمة لمنطقة شمالي سورية.

تاريخ إبلا من النصوص الإبلوية

الحياة السياسية: ترد في نصوص المحفوظات الملكية أسماء خمسة ملوك حكموا إبلا، ويمكن ترتيبهم على النحو التالي: (١) إغريش - خلام Igrish - Khalam (٢) إركب - دامو Irkab - Damu (٣) أر - إنّوم Ar - Ennum (٤) إبريوم Ebrium (٥) إبِّي زكر Ibbi - Zikir والعلاقة ما بين الملوك الثلاثة الأُول غير معروفة حتى الآن، في حين كان الرابع أباً للخامس ويضيف عالم الآثار الإيطالي جيوفاني بتيناتو إلى هذه القائمة ملكاً آخر هو دُوبُوشو - هادا Dubuchu- Hada ويرى أنه كان ابن إبِّي زكر.

ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن تسلسل الملوك المذكور لا يحظى بتأييد كل المشتغلين في الدراسات الإبلويّة، ولايمكن عدّه نهائياً إذ إن قراءة النصوص توفر باستمرار معلومات جديدة.

يبدو أن إغريش - خَلام كان المؤسس بين الملوك الذين حكموا إبلا في العصر الذي تعود إليه المحفوظات الملكية، أو هو على الأقل أقدم ملك إبلويّ معروف من هذه الحقبة. يمتد عصر المحفوظات الملكية نحو مئة وخمسين سنة، وقد قُدرَ في البداية أنه ما بين ٢٤٠٠ - ٢٢٥٠ ق.م. ولكن بعد دراسة النصوص المكشوفة تبين أن هناك تشابهاً كبيراً في شكل الكتابة، وعلاقة ثقافية قوية كانت تقوم بين إبلا وموقع أبو صلابيخ في بلاد الرافدين، وهذا ما جعل بتيناتو يرجع التاريخ السابق مئة سنة إلى الوراء، أي إن تاريخ المحفوظات يعود إلى ٢٥٠٠ ق.م، ولم يؤيد هذا التأريخ الجديد علماء البعثة الإيطالية المنقبة في تل مرديخ وعلى رأسهم باولو ماتييه مع أن هذا التاريخ تؤيده معلومات تاريخية وتجارية وثقافية في نصوص المحفوظات الملكية.

ولا تذكر ألواح محفوظات إبلا أكّد في حين تذكر مدناً رافدية أخرى منها كيش وأداب. لذلك يظهر أن عصر المحفوظات الملكية سبق قيام أكد وكان معاصراً لسلالة كيش الأولى (٢٦٠٠-٢٥٠٠ ق.م). وثمة برهان آخر يؤكد هذا التاريخ هو تكرار ذكر الإله زابابا، إله مدينة كيش، في النصوص الأدبية الإبلويّة، كذلك كان مدرسون للحساب يأتون من كيش إلى إبلا، مما يدل على أن العلاقات بين المدينتين كانت متينة، وتوجد نصوص تذكر أيضاً ملك كيش، lugal- Kis(Ki) ويذكر أحد النصوص شخصاً اسمه Me-Sa-Li-Ma وهذا يذكِّر على الفور باسم ملك كيش الذي حكم نحو ٢٦٠٠ ق.م. ويستنتج من هذه الوقائع أن سلالة إبلا كانت معاصرة لسلالة ميسليم في كيش في بلاد الرافدين، وللأسرة الرابعة في مصر.

كانت إبلا في عصر المحفوظات الملكية مملكة مستقلة مزدهرة يحكمها ملك يحمل لقباً سومرياً يعني «سيد» ويقابله في اللغة الإبلوية لقب «ملك» وكان الملك في إبلا رأس الدولة وكان مسؤولاً عن السياسة الداخلية والخارجية ويشرف على الأعمال الإدارية والقضائية، وكان إلى جانب الملك مجلس تذكره النصوص باسم «الآبا» Abbu: وتمكن تسميته بمجلس الشيوخ وكانت مهمته مراقبة ممارسات الملك للسلطة. وكان له أثر بارز في إدارة شؤون الدولة كما يظهر من النصوص المختلفة، أمّا الملكة واسمها Maliktum، فكان لها دور مهم في حياة إبلا، ولاسيما الاقتصادية، إذ كانت مصانع الغزل والنسيج بإشرافها.

كانت إدارة المملكة رسمياً بيد الملك ولكنها في الواقع كانت تدار من شخص يدعى بالإبلوية السيد Adanu، وكان في تصرفه عدد كبير من الموظفين. ويذكر أحد النصوص أن العدد الكامل لموظفي الدولة ١١٧٠٠ موظف، منهم ٤٧٠٠ كانوا يعملون في قصر «السيد» و٧٠٠٠ في المقاطعات المختلفة.

ويلي السيد في المرتبة مسؤول يدعى «لوغال» Lugal، وهذه التسمية معروفة في بلاد الرافدين وتعني ملكاً، في حين تدل في إبلا على الوالي أو حاكم المقاطعة. وتذكر النصوص أربعة عشر والياً. وهذا يعني أن إبلا كانت مقسمة إلى أربع عشرة مقاطعة. ولم يكن حكام المقاطعات مرتبطين بمنصب الملك أو السيد، بل كانوا يبقون في مناصبهم مدى الحياة، وكان بعض الملوك حكاماً في المقاطعات قبل أن يعتلوا العرش.

كان الاعتقاد السائد لدى المؤرخين أن أكد هي أقدم امبراطوريات المنطقة ولكن النصوص المكشوفة في إبلا دلّت على قيام هذه المملكة القوية قبل الامبراطورية الأكدية بأكثر من مئة عام. كذلك تدحض نصوص إبلا الافتراضات السابقة بأن سورية كانت تسكنها في الألف الثالث قبل الميلاد قبائل بدوية، وتؤكد بوضوح وجود دولة منظمة هي دولة إبلا.

استفادت إبلا من موقعها الجغرافي إذ كانت تمر فيها الطرق التجارية القادمة من الأناضول في الشمال إلى مصر في الجنوب، ومن إيران وبلاد الرافدين في الشرق إلى سواحل المتوسط في الغرب، فغدت دولة قوية إلى جانب كيش في بلاد الرافدين، والأسرة الرابعة في مصر. وامتد نفوذها إلى فلسطين جنوباً، وقبرص غرباً، وشمال بلاد الرافدين شرقاً، كما امتد إلى جزء كبير من الأناضول شمالاً.

كانت علاقات إبلا مع الدول والمدن المعاصرة لها تتفاوت ما بين عقد التحالفات والمعاهدات وشن الحروب، وقد عمد ملوك إبلا إلى الزواج السياسي لتعزيز علاقات الصداقة مع الملوك والحكام الآخرين. فها هو ذا الملك إبريوم مثلاً يزوّج إحدى بناته ملك إيمار [ر]، (مسكنة اليوم، وهي مدينة ذات موقع جغرافي حيوي على الفرات). وهناك أميرة أخرى أصبحت زوجة لملك مدينة لم يعرف موقعها حتى الآن.

أمّا التحالفات فيذكر أحد النصوص إقامة تحالف بين إبلا ومملكة خمازي Chamazi في شمالي إيران، والنص الذي يذكر التحالف هو رسالة موجهة من المشرف على القصر الملكي في إبلا إلى سفير مملكة خمازي في إبلا، يطلب فيها إرسال جنود جيدين، ويقول فيها: «إن ملك إبلا هو أخ ملك خمازي وإن ملك خمازي هو أخ ملك إبلا». ومن الواضح أن التحالف القوي بين المملكتين الظاهر من النص السابق هو السبب الذي دفع ملك إبلا إلى أن يطلب جنوداً من ملك خمازي. ولكن الجنود المطلوبين كانوا مرتزقة، لأن إبلا لم يكن لديها جيش دائم،

وكانت مجبرة على استئجار مرتزقة، وكان الشاغل الأساسي للأبلويّين الزراعة والصناعة والتجارة لا الحرب. ولعل اعتماد إبلا على المرتزقة جعل الملك إبريوم يزوّج إحدى بناته من زعيمهم.

أما العلاقات الدبلوماسية الدولية، فمن الشواهد عليها المعاهدات التي عقدت بين إبلا وجيرانها، فقد كشفت النصوص حتى الآن عن عشر معاهدات وأهمها المعاهدة بين ملك إبلا وملك آشور التي تنظم العلاقات ما بين المملكتين ولاسيما التجارية منها. ويتضح من هذه المعاهدة أن آشور كانت أيضاً قوة رئيسية في الألف الثالث قبل الميلاد.

ومع أن الإبلويين كانوا مهتمين بالتجارة بوجه أساسي فإنهم كانوا يلجؤون أيضاً إلى السلاح عندما كانت الحاجة تدعو إلى ذلك.

ومن الحروب التي خاضتها إبلا، الحرب مع ماري، وهي معروفة من التقرير المرسل من قائد الحملة الإبلوي إنّا ـ دجن Enna- Dagan ، إلى سيده ملك إبلا، ويقول فيه إنه انتصر على ملك ماري إبلول إل Iblul- II وخلعه عن عرشه وتسلّم مكانه. ويتحدث أحد النصوص الاقتصادية عن ضريبة كبيرة دفعتها مدينة ماري إلى ملك إبلا، ربما كانت نتيجة لهذه الحملة العسكرية.

ومما يلفت الانتباه في التقرير ذكر مستوطنة تجارية إبلوية تقع بالقرب من إيمار حررها إنّا ـ دجن، وكذلك ورود اسم ملك ماري مقروناً بلقب «سيد ماري وآشور» وهذا يعني أن الرابطة السياسية بين ماري وآشور قديمة وليست من ابتكار شمشي أدد الذي سيطر على ماري في القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

وظلت ماري بعد حملة إنّا ـ دجن تابعة لمملكة إبلا سنوات كثيرة.

الحياة الاقتصادية: كان غنى إبلا يقوم أساساً على الزراعة وتربية الحيوان، وكانتا قاعدة اقتصادها القوي وعماد صناعتها وتجارتها.

الزراعة وتربية الحيوان: مارس الإبلويون أنواعاً مختلفة من الزراعة وساعدهم في ذلك موقع إبلا في سهول زراعية واسعة خصبة تكثر فيها الأمطار فقد كانوا يزرعون على سبيل المثال سبعة عشر نوعاً من القمح وأنواعاً من الشعير. وثمة نصوص كثيرة تصف العمليات الزراعية المختلفة كالبذار والحصاد. وكان الإبلويون كذلك يزرعون الكرمة. ويذكر أحد النصوص أن المشرف على زراعة الكروم أرسل إلى حاكم المملكة ما يعادل ٣٠٠ طن من الخمر. كما كانوا يزرعون الزيتون للإفادة منه ومن زيته. وفي النصوص ذكر لكميات من زيت الزيتون وردت إلى إبلا من عدة قرى وإشارة إلى عدد أشجار الزيتون في بعض الأراضي وإلى تصدير زيت الزيتون إلى إيمار ومدن أخرى. ومن الزراعات المهمة الأخرى في إبلا زراعة الكتان الذي استعمل على نطاق واسع في صناعة النسيج التي كانت مزدهرة فيها.

أما تربية الحيوان فكانت واسعة الانتشار، وفي النصوص ذكر لأعداد كبيرة من الأغنام، كان بعضها يربّى للحمه وصوفه، وبعضها يقدّم أضحيات للآلهة. وقد ورد في أحد الألواح أن عدد الأغنام التي تخص ملك إبلا كان ٧٩٣٠٠ رأس. وفي لوح آخر ذكر لتعداد الأغنام جرى في شهر إشي Ishi بيّن أن العدد كان ٧٢٢٤٠ . وفي نص أن عدد الأغنام المخصصة للأضحيات كان ١٠٧٩٦ وكان في نص آخر ٣٦٨٩٢ . وتدل هذه الأرقام على أنّ الأغنام كانت تربّى قطعاناً كبيرة في مراعٍ واسعة، وإلى جانب الأغنام تذكر النصوص الماعز والخنازير والأبقار، وكانت الثيران تستخدم في الأعمال الزراعية.

الصناعة: كانت الصناعة تؤلف أحد الأركان الأساسية في اقتصاد إبلا، وأحد المناشط الرئيسة للإبلويين، وكانت تعتمد بالدرجة الأولى على المواد الأولية المحلية كالصوف والكتّان، أو المستوردة كالمعادن.

ومن أهم الصناعات الإبلوية، صناعة الأنسجة الصوفية والكتانية، وكانت عمليات الغزل والنسيج تتم في مشاغل الدولة وكان مشغل الغزل يدعى «بيت الصوف»، وكانت هذه المشاغل تنتج أنسجة متنوعة الألوان والأصناف وتصدّر منتجاتها إلى مختلف البلدان والممالك، ومن أشهر تلك الأنسجة النوع الذي عرف في العصور الوسطى باسم الدمقس Damask (نسبة إلى دمشق)، وهو نسيج من الكتان أو الصوف محلّى بخيوط الذهب. ويلاحظ أن المناطق السورية المختلفة حافظت على شهرتها في صناعة الأنسجة في الحقب التاريخية التي تلت حقبة إبلا مثل يمحاض وألالاخ وفينيقية، وفي العصور الوسطى والعصر الحديث، وهذا دليل على رسوخ تقاليد هذه الصناعة في سورية.

ومع أن القسم الأكبر من عمال إبلا كان يعمل في صناعة النسيج فإن هذه الصناعة لم تكن الوحيدة فيها، فقد كان إلى جانبها صناعة معالجة المعادن وسبكها، وكان الإبلويون يصنعون من الذهب والفضة تماثيل للآلهة والملوك وغير ذلك من المصنوعات الثمينة.

وقد عرف الإبلويون كيف يقيسون نقاوة الذهب، وكانت الفضة متوافرة بكثرة ولكن قيمتها تقل عن قيمة الذهب بنسبة ٥ إلى ١ .

ويذكر من المعادن الأخرى التي عرفتها إبلا واستخدمتها في صنع الكثير من الأدوات، النحاس والقصدير والرصاص وأشابات البرونز، وهناك بعض النصوص التي تذكر كميات من النحاس والقصدير والذهب كانت معدة لصهرها سبائك لصنع أدوات مختلفة. وكان صهر المعادن وسبكها متطورين في إبلا ولاسيما معالجة القصدير والنحاس لإنتاج البرونز. وإلى جانب ذلك عمل الإبلويون في صقل الأحجار الكريمة كالعقيق الأحمر، واللازورد الذي كان يستورد من أفغانستان في الغالب.

التجارة: تبين نصوص إبلا أن التجارة كانت من أهم الفعاليات الاقتصادية فيها وقد برع الإبلويون في هذا المجال، وساعدهم في ذلك موقعهم الجغرافي المناسب وحسن إدارة ملوكهم الذين كانوا يعقدون اتفاقات تجارية مع الممالك الأخرى ويقيمون معها علاقات طيبة ويهتمون بضمان سلامة الطرق والقوافل التجارية. وتأتي الأنسجة في رأس قائمة البضائع المصدرة. وتليها المنتجات المصنوعة من المعادن الثمينة ولاسيما المجوهرات والأحجار الكريمة، وكانت بعض المنتجات الزراعية تجد طريقها إلى مناطق بعيدة عن إبلا كزيت الزيتون.

أما الواردات فكانت تشمل الأحجار الكريمة كالعقيق واللازورد ومعدني الذهب والفضة اللذين كانا وسيلة في البيع والشراء ولايعرف حتى الآن من أين كان الإبلويون يحصلون على هذين المعدنين الثمينين، وربما كانت مصر المورِّد الرئيسي للذهب. كذلك كانت إبلا تستورد الأغنام إلى جانب ما كانت تمتلكه منها لحاجتها إلى كميات كبيرة من الصوف من أجل صناعتها النسيجية. ويذكر أحد النصوص استيراد سبعة عشر ألف رأس غنم من مدن مختلفة. كما يقدم أحد النصوص الكبيرة وصفاً واضحاً لعلاقات إبلا مع الدول الأخرى، وفكرة عن حجم

الصفقات التي تمت في شهر واحد، ومنها صفقة المنسوجات لأناس من مدن مختلفة مثل كركميش وحماة وماري وغيرها.

ومع أن المنطقة التي كانت تحكمها إبلا حكماً مباشراً صغيرة المساحة نسبياً وتمتد من الفرات في الشرق حتى سواحل المتوسط في الغرب، ومن طوروس في الشمال حتى منطقة حماة في الجنوب، فإن نشاطها التجاري امتد إلى مناطق بعيدة، وبلغ نفوذها الاقتصادي معظم مناطق شرقي المتوسط القديمة، فشمل كل سورية الجنوبية حتى سيناء، ويبدو أن مدينة أغاريت الساحلية كانت ميناءً مهماً تؤمه السفن المصرية التي تحمل الذهب إلى إبلا، كذلك اتجهت إبلا إلى الغرب فأقامت علاقات تجارية مع جزيرة قبرص الغنية بالنحاس. ومدت نفوذها شمالاً حتى بلغ قبادوقية في وسط بلاد الأناضول، وكانت كانيش تابعة لإبلا. ولكن نفوذ إبلا التجاري كان أكثر امتداداً في المناطق الواقعة إلى الشرق منها، فبلغ منطقة الفرات ومدنها المشهورة مثل ماري وإيمار وكركميش، وكذلك شمال بلاد الرافدين.

إن اتساع النشاط التجاري لإبلا على هذا النحو وازدياد نفوذها المرافق له يدلان على أن إبلا أنشأت مملكة تجارية كبيرة شملت مناطق واسعة من المشرق القديم وتختلف هذه الدولة عن الممالك الأخرى في المنطقة، إذ كانت مملكة تجارية عمادها القوة الاقتصادية لا العسكرية.

الحياة الاجتماعية: كانت مدينة إبلا مقسمة إدارياً إلى قسمين يضمان أحياء المدينة الأربعة، وكان لها أربع بوابات تحمل كل بوابة منها اسم إله، وهي: بوابة راســــاب أو رشف Rasap وبــــوابة شيبيش Shipish إله الشمس، وبوابــــة دجن Dagan، وبوابة بعل Baal. ويمكن تخمين عدد سكان إبلا اعتماداً على أحد النصوص الاقتصادية الذي يذكر حصصاً من الشعير مخصصة لـ٢٦٠ ألف شخص. ولا يذكر هذا النص صراحة أن هذه الحصص تشمل كل سكان إبلا، ولكن يمكن الاعتقاد أن إبلا كانت تعد ٢٦٠ ألف ساكن على الأقل، منهم نحو أربعين ألفاً في مدينة إبلا نفسها والباقي في المدن والقرى المحيطة بها والتي كانت تؤلف إبلا الكبرى.

وتطلق الوثائق على سكان إبلا اسم «أبناء إبلا» وكان هؤلاء أحراراً يتمتعون بكل الحقوق والامتيازات، ويقسمون إلى فئات تضم: موظفي الدولة، والتجار ورجال الأعمال، والحرفيين، والفلاحين، والعمال اليدويين. وقد استخدمت عدة مفردات للدلالة على التجار، ويبدو أنه كان هناك تجار كبار وتجار صغار، وتجار يعملون في خدمة الدولة وآخرون يعملون لحسابهم الخاص. أما الحرفيون فكانوا يؤلفون مجموعة كبيرة من المواطنين، ولكن من غير المعروف حتى الآن أكانوا منظمين في طوائف حرفية أم لا؟ وكان من بين هؤلاء صانع الفخار والنجار والنحات وصانع التماثيل وعامل النسيج وغيرهم.

وكان الفلاحون يقيمون في القرى المحيطة بإبلا يمارسون الزراعة وتربية الحيوان.

وضمت إبلا بالإضافة إلى الإبلويين مجموعة من السكان تسميها النصوص Bar-An Bar-An وتعني الغرباء والأجانب. ويأتي في رأس هؤلاء المحاربون المرتزقة الذين جاؤوا إلى إبلا من مدن مختلفة، ولا توجد حتى الآن معلومات عن وضعهم القانوني في إبلا، والغالب أنهم كانوا يتمتعون بامتيازات ذات شأن، وكان إلى جانب المرتزقة هؤلاء أسرى الحروب والعبيد، وكان يؤم إبلا كذلك الكثير من التجار والكتاب والمغنين والكهنة.

الحياة الثقافية:

المدارس والتعليم والآداب: لم تكن إبلا مركزاً تجارياً فحسب بل كانت كذلك مركزاً ثقافياً له مؤسساته وعلاقاته الثقافية مع البلدان المجاورة. ومن الجدير بالذكر أن الكتبة في مناطق شرقي البحر المتوسط كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في مؤسسات ملحقة بالمعابد والقصور يمكن تسميتها بالمدارس. ولم تكن المدارس في المدن الرافدية المعاصرة لإبلا مثل أور وأوروك وفارا وأبو صلابيخ وكيش وأداب ونيبور أماكن لتخريج الكتّاب وحسب وإنما كانت كذلك أماكن لحفظ التراث الثقافي، وفيها تكتب الأساطير والأشعار المنقولة بالتواتر، وتبتكر الأعمال الأدبية والدينية، وتصنف المعارف في نصوص معجمية. وثمة نصوص مدرسية كشفت يمكن تقسيمها إلى قسمين: يتضمن الأول نصوصاً ربما تكون من كتابة الطلاب، ويتضمن الثاني النصوص التي كتبها المعلمون إما لغرض تربوي أو لحفظ المعرفة والتقاليد المروية. وتظهر أهمية مدارس إبلا بصورة أفضل في الوثائق التي يمكن أن تسمى «كتباً مدرسية»، إذ كانت وسيلة للتدريس يمكن أن تميز فيها قوائم الرموز المسمارية والمعاجم اللغوية والمعاجم ثنائية اللغة. وقد وجدت كذلك معاجم تذكر الكلمة السومرية مع لفظها. وهكذا فإن النصوص المكشوفة ليست مهمة من أجل معرفة اللغات القديمة وحسب، بل من أجل البحث في اللغة السومرية كذلك. ومن الوثائق ما يسمى بالموسوعات أو بالأحرى هي قوائم موسوعية تضم كلمات مرتبة بحسب الموضوع كانت تستخدم كتباً مدرسية، وهناك قوائم بأسماء الحيوانات والأسماك والأحجار الكريمة والنباتات والأشجار والمواد الخشبية والمعادن والمصنوعات المعدنية.

إضافة إلى ما تقدم كان في إبلا أعمال أدبية متطورة، ومن بينها ما يقرب من عشرين أسطورة محفوظة في نسخة أو أكثر، وقد أمكن تعرّف نسختين من ملحمة غلغامش. ودراسة هذه الأساطير تلقي أضواء جديدة على الاتجاهات الدينية التي كانت سائدة في الألف الثالث ق.م. كذلك توجد روايات أسطورية وترانيم للآلهة ومجموعات من الأمثال. وتدل النصوص على أن إبلا أقامت علاقات ثقافية مثمرة مع عدة مراكز سومرية مهمة. ومن المعتقد أن كتّاباً من مدن أخرى كانوا يزورون إبلا، وكانت تقام بهذه المناسبة بعض اللقاءات أو ما يسمى الآن بالندوات العلمية، وهناك إشارة تدل على أن معلماً للحساب جاء من مدينة كيش إلى إبلا. والكثير من النصوص يدل على صلات ثقافية بين إبلا ومناطق الشرق الأدنى القديم الأخرى. وبعض النصوص المعجمية، ولاسيما القوائم الموسوعية، تشابه وثائق معروفة من أوروك وفارا وأبو صلابيخ.

المعتقدات الدينية. اتصفت الديانة الإبلوية بصفتين: تعدد الآلهة، وسيادة الآلهة الكنعانية في بانتيون إبلا أي مجمع أربابها، وتذكر المصادر المتوافرة أن بانتيون إبلا كان يضم عدداً كبيراً من الآلهة والأرباب، وقد كان للمعبود نيداكول (ربما كان إله القمر) مركز مرموق بين الآلهة المذكرة. ولم يكن للمعبد والكهنة في إبلا شأن كبير في القضايا السياسية والاقتصادية على خلاف ما كانت عليه الحال في بلاد سومر. ومن الآلهة المهمة الأخرى دجن الذي دخلت عبادته بلاد الرافدين في الألف الثالث قبل الميلاد

وورد ذكره في كتابات شروكين الأكدي الذي بنى له معبداً في توتول، ودكره أيضاً نارام ـ سين. وبنى شولجي ثاني ملوك سلالة أور الثالثة مدينة جديدة سمّاها بوزريش ـ دجن -Puzrish Dagan أي «في حماية الإله دجن» وكانت إحدى بوابات إبلا الأربع تحمل اسم الإله دجن، وفي التقويم الجديد خصص لهذا الإله الشهر الأول من السنة تحت لقب «سيد».

ويظهر اسم دجن في أسماء الأعلام أيضاً بمعنى «سيد»، في حين يخصص في قوائم الأضاحي بإضافة اسم مدينة لتأكيد أنه هو إلهها الحامي. ولكن تعبيرات أخرى مثل «سيد البلاد» أو «سيد كنعان» ترفع دجن إلى مرتبة أحد الآلهة الرئيسة لمملكة إبلا أو لبلاد كنعان. ومن الصفات التي كانت تطلق على دجن باللغة الإبلوية: طيلوماتيم Ti-luma-tim وتعني الطل أو ندى الأرض. وهذا ما يدعم القول بأن اسم دجن يعني الغيم أو المطر ويؤيد ذلك أن كلمة دجن بالعربية مرادفة لكلمة مطر.

ولدجن رفيقة تدعى بعلتو Belatu بمعنى «سيدة». ولكن صفتها هذه عامة لا تسمح بتعرّف طبيعتها. ومن الآلهة المذكرة الأخرى إله الشمس، وهدا Hada (أدد) أي إله العاصفة، وككّاب Kakkab (والأصل كوكب): أي إله النجم. وهذه الأرباب الثلاثة تدعى في المعاهدة التجارية بين آشور وإبلا «شهود الاتفاق» وكان عليهم أن يصبوا اللعنات على ملك آشور إذا لم يراع الشروط المنصوصة. وكان هناك أرباب أُخر مذكرة مهمة بينها كاميش Kamish الذي يظهر في الألف الأول قبل الميلاد إلهاً رئيساً لمؤاب، وراساب Rasap (رشف) أي إله الطاعون والعالم السفلي، وأشتار Ashtar إله الحب والحرب المذكر، والإله الأموري الكبير ليم Lim الذي يظهر في وثائق ماري. وكذلك النهران المؤلهان الفرات وبليخ. ومن الآلهة المؤنثة، بالإضافة إلى بعلتو، عشتارُت Ashtarte التي لها صفات أشتار، وإشاتو Ishatu إلهة النار، وتيامات Tiamat إلهة ماء المحيط. كذلك كان بانتيون إبلا يضم آلهة أجنبية بينها ما هو حوري مثل خيبات Hepat، وسومري مثل إنكي Enki. وكان لكل إله معبد خاص به تقام فيه العبادات والشعائر، ويضم عدداً من الكهنة. وكانت المعابد تدعى بيوت الآلهة. وكان الإله يجسد في المعبد على هيئة تمثال من الذهب أو الفضة. ويتحدث أحد الألواح عن وزن من الفضة يعادل خمسة كيلوغرامات لصنع تمثال أبيض لدجن. وكانت التقدمات للآلهة إمّا من الخبز والزيت والجعة وغير ذلك، أو قرابين من الأغنام وغيرها. وتتحدث الوثائق عن مواكب الآلهة من العاصمة إلى مدن المملكة الأخرى، ويشير اسم إحدى السنين إلى موكب لدجن «السنة التي ذهب فيها السيد إلى المدن» أي أن تمثال دجن غادر المدينة. وكانت هناك أعياد دينية أخرى يحتفل بها الإبلويون.

المحفوظات والكتابة واللغة

المحفوظات: أسفرت الحفريات التي تمت في تل مرديخ [ر] حتى عام ١٩٧٣ عن كشف عدة قطع من ألواح طينية مسمارية إلى جانب الكتابة التي على تمثال الملك إيبيط ـ ليم. وفي الأعوام التي تلت عثر على عدة مجموعات من المحفوظات هي:

محفوظات عام ١٩٧٤: عثر في شهر آب عام ١٩٧٤ في الغرفة ذات الرقم L.2586 الواقعة في الجناح الشمالي الشرقي من القصر الملكي على ٤٢ لوحاً وقطعة باللغة المسمارية. ومن دراسة هذه اللوحات تبين أنها ذات طبيعة إدارية، ومعظمها إيصالات تزودنا بمعلومات تاريخية واقتصادية ذات قيمة. إذ تذكر إحدى اللوحات مثلاً تسلّم منسوجات من أحد الأشخاص، أما تاريخها فهو: «سنة الحملة على غارمو Garmu». ومن ذلك معلومات عن صناعة النسيج وعن حملة عسكرية. ويتكرر ذكر مدن كيش وتوتول وماري في المحفوظات.

محفوظات عام ١٩٧٥: عثرت البعثة الإيطالية في آب ١٩٧٥ في الغرفة ذات الرقم L.2712 على نحو ألف لوح وكسرة، كما عثرت في الغرفة ذات الرقم L.2769 الواقعة في الطرف الغربي من القصر الملكي على نحو أربعة عشر ألف لوح وقطعة، وتعدّ هذه الغرفة المكتبة الملكية. كذلك عثر في الغرفة ذات الرقم L.2764 على بعض القطع والكسرات. وبذلك فاق عدد الألواح والكسرات التي عثر عليها في عام ١٩٧٥ خمسة عشر ألفاً معظمها وثائق إدارية واقتصادية، ومن بينها قوائم بأسماء الموظفين وقوائم بالمخصصات اليومية والشهرية للأسرة المالكة ولموظفين في الدولة ولمواطنين إبلويين. وتشتمل هذه المخصصات على كميات من الخبز والجعة والخمر والزيت ولحم الغنم والخنازير. كذلك تذكر القوائم مخصصات لسعاة كانوا يسافرون إلى مدن صديقة، وتقدمات للمعابد والآلهة، والأموال التي كانت تؤديها الدول الأخرى لإبلا. وهناك الكثير من النصوص التي تتحدث عن الزراعة وتربية الحيوان والصناعة والتجارة. وتحتل النصوص التاريخية والحقوقية في هذه المحفوظات المرتبة الثانية من حيث الأهمية. وهي تشمل الأوامر والمراسيم الملكية والرسائل والتقارير الحربية والمعاهدات. وأهمها المعاهدة التجارية بين إبلا وآشور، كما تشمل النصوص الحقوقية مجموعات قانونية وعقود ميراث وبيع وشراء. وتليها في الأهمية النصوص المعجمية التي تدل على مكانة إبلا الثقافية والحضارية، ومن بين تلك النصوص المعجمية قوائم الرموز المسمارية ونصوص القواعد والمعاجم ثنائية اللغة (باللغتين السومرية والإبلوية)، وهي أول المعاجم الثنائية اللغة المعروفة في التاريخ. وتحتل النصوص الأدبية المركز الرابع في هذه المحفوظات وهي تشتمل على عشرين أسطورة على الأقل، وبعضها من عدة نسخ، وعلى ترنيمات وابتهالات للآلهة تلقي ضوءاً جديداً على المعتقدات الدينية في المشرق في الألف الثالث قبل الميلاد.

محفوظات عام ١٩٧٦: عثر على هذه المحفوظات في الغرف رقم L.2769 وL.2875 وL.2764 وهي تضم نحو ١٦٠٠ لوح وكسرة.

إن العدد الإجمالي للألواح التي عثر عليها يزيد على سبعة عشر ألف لوح وكسرة، وهي ذات أشكال مختلفة كتبت بقلم خاص، ربما كان من العظم، ولكن عدد النصوص يقدّر باثني عشر ألف نص. وكان اللوح يكتب ويجفف تحت أشعة الشمس. لكن الحريق الكبير الذي التهم القصر الملكي بعد هجوم نارام ـ سين على إبلا أدى إلى شي الألواح الطينية المحفوظة فيه. وتعدّ محفوظات إبلا أكبر المحفوظات التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ويمكن موازنتها بالمكتبات والمحفوظات الأخرى التي تعود للألفين الثاني والأول قبل الميلاد، مثل محفوظات ماري وأُغاريت ومكتبات نينوى وآشور.

الكتابة واللغة: استعمل الإبلويون في كتابة وثائقهم الكتابة المسمارية [ر] التي اخترعها السومريون في جنوب بلاد الرافدين في نهاية

الألف الرابع قبل الميلاد، ومن الجدير بالذكر أن الكتابة المسمارية استعملت في الكثير من لغات المشرق القديم كالسومرية والأكدية والإبلوية والحورية والحثية. وثمة تشابه بين الرموز المسمارية المستعملة في كتابة نصوص إبلا وتلك المستعملة في نصوص «فارا» و«أبو صلابيخ» في بلاد الرافدين، ويمكن تعليل هذا التشابه بأن نصوص إبلا معاصرة للنصوص التي وجدت في هاتين المدينتين الرافديتين ويعود تاريخها إلى ٢٦٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق.م. والشكل الخارجي للألواح متشابه أيضاً. وإن مقارنة أي لوح من ألواح أبو صلابيخ بلوح من إبلا يكفي لتأكيد تطابق العلامات المسماريةفيهما. كذلك هناك بعض الألواح المعجمية من إبلا يتطابق فيها عدد الأعمدة والسطور مع عدد الأعمدة والسطور في ألواح من أبو صلابيخ.

وقد كتبت هذه النصوص على ألواح طينية مختلفة القياسات والأشكال، وعلى الوجهين، ويقسم الوجه الأمامي إلى أعمدة رأسية في كل عمود عدد مختلف من السطور، واتجاه الكتابة من اليسار إلى اليمين ومن الأعلى إلى الأسفل حتى نهاية العمود الأول، ثم العمود الثاني وهكذا حتى ينتهي العمود الأخير على الوجه الأمامي، ثم يقلب اللوح كما تقلب الورقة في الوقت الحاضر، ويقسم الوجه الخلفي كذلك إلى أعمدة تتتابع فيها الكتابة كما في الوجه الأول ولكن من اليمين إلى اليسار.

أما اللغة المستعملة في كتابة نصوص إبلا، فيدل النص المكتوب على تمثال الملك إيبيط ـ ليم، الذي يعود إلى العصر السوري القديم Old Syrian Period (٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م) والوثائق الأخرى التي تعود إلى هذا العصر على أنها كتبت جميعها باللغة الأكدية بلهجة قريبة من اللهجة الآشورية القديمة. أما نصوص المحفوظات الملكية التي تعود كما يرى ماتييه إلى العصر السوري الباكر الثاني Early Proto- Syrian Period (٢٤٠٠ ـ ٢٢٥٠ ق.م)، فإنها كتبت بلغة لم تكن معروفة سابقاً هي اللغة الإبلوية. وفي الواقع استعمل الإبلويون اللغة السومرية، إلى جانب لغتهم الخاصة، في كتابة الألواح المختلفة، ولكن التعابير السومرية هي في الواقع اصطلاحات كان الكتاب الإبلويون يقرؤونها بلغتهم بلا صعوبة.

وقبل كشف إبلا كان علماء الآثار مثل فون سودن W.Von Soden ولاندسبرجر B.Landsberger وغيرهما يعتقدون بوجود لغة سامية في سورية في الألف الثالث قبل الميلاد وكان آخرون يقولون بوجود لهجة أكدية خاصة ويرى غيرهم وجود لهجة أمورية قديمة.

وتبين بعد كشف إبلا وجود لغة جديدة انقسمت آراء العلماء حول طبيعتها وعلاقتها باللغات التي دعيت سامية. فيرى جيوفاني بتيناتو مثلاً أن لغة إبلا تختلف كثيراً عن اللغتين الأكدية والآمورية في نظام الأفعال والضمائر والاشتقاقات وتركيب الجملة وغيرها، وهي أقرب إلى اللغات التي تصنف على أنها سامية شمالية غربية، إذ تظهر الصلة وثيقة بالأغاريتية والكنعانية، وبناءً على هذه الصلة القوية يمكن أن تسمى هذه اللغة كنعانية قديمة، وهي أقدم لغة شمالية غربية معروفة حتى الآن، وتوازي زمنياً الأكدية القديمة. ويرى آخرون مثل غلْب Gelb أن أوثق العلاقات اللغوية للإبلوية كانت مع الأكدية القديمة والأمورية، وبعيدة عن الأغاريتية وأبعد ما تكون عن العبرية، ولا يمكن أن تعد لهجة أكدية أو أمورية، كذلك لا يمكن عدّ ها كنعانية. فهي لغة مستقلة يمكن أن تضاف إلى قائمة اللغات الثماني المعروفة التي تصنف تحت اسم اللغات السامية لتكون اللغة التاسعة فيها، وثمة رأي ثالث يقول به أركي A. Archi هو أن اللغة الإبلوية شديدة الصلة بالأكدية القديمة في نحوها، وبعض أشكال النحو فيها أقرب إلى العربية والعربية الجنوبية، بيد أنها من الناحية المعجمية أشد ارتباطاً باللغات الشمالية الغربية (الأغاريتية والكنعانية والآرامية) وتصعب معرفة طبيعة اللغة الإبلوية إلا بعد قراءة عدد أكبر من النصوص وتفسيرها. وكل ما يمكن عمله في الوقت الحاضر هو تقديم فكرة مختصرة عن هذه اللغة بالاستناد إلى ما نشر حتى الآن من تلك النصوص:

الأسماء: تظهر معظم الأسماء في اللغة الإبلوية ساكنة الأواخر وقد ينتهي بعضها بالضم (u) المنتهي بحرف الميم أو بالتمييم (um)، أو بالفتحة الممدودة (a) أو بالياء (i). ومن الأسماء المعروفة التي وجدت في نصوص إبلا: أب وعبد.

ويصاغ الاسم المؤنث بإضافة علامة التأنيث at-um- أو t-um- إلى الاسم مثل: MALIKTUM: ملكة في مقابل MALIKUM: ملك.

الضمائر: تظهر في اللغة الإبلوية ضمائر شخصية منفصلة مثل: أنا وأنت وأنتم ANTANU. وضمائر شخصية متصلة مثل: «ي» i، «نا» NA-، «ني» NI- كما في الأمثلة: «TUBI- DALU» أي «دالو، طيبي»، RE'INA-HADDA: راعينا هدا، EBDUNI: عبدنا. كذلك هناك ضمير كا KA- للمفرد المخاطب المذكر كما في: AMA-GAL-KA: أمكَ. وقد كتب اسم الأم بالسومرية وأضيف إليه الضمير المتصل «KA-».

أدوات الاستفهام: هناك عدة أدوات للاستفهام في لغة إبلا مثل «من» MI- كما في الاسم ميكائيل MI-KA-IL: مَنْ مثل إيل: ومينو MI-NU بمعنى: ماذا؟

حروف الجر: وفي الإبلوية حروف جر كثيرة منها: «في» IN و«إلى» LI-NA. و«على» AL، و«مع ـ من» AS-Tu

الفعل: في اللغة الإبلوية عدة أوزان للفعل الأساس: منها وزن قَتَل، GTL-GATAL. والوزن المضعف ويكون بتضعيف الحرف الثاني من الفعل على وزن قتّيل GITTIL، والوزن المتعدي السببي على وزن شيقتيل SIGTIL. والوزن المبني للمجهول على وزن نقتال NIGTAL. وإلى جانب هذه الأوزان الرئيسة توجد أوزان أخرى مشتقة أو مركبة كإضافة «تا» TA إلى الوزن الأساس كما في: «IS TA-MA»: «استمَعَ» ويبنى كل وزن من الأوزان السابقة على صيغة الماضي والحاضر بإضافة سوابق ولواحق، وفي الإبلوية إلى جانب ذلك اسم الفاعل واسم المفعول وصيغة الأمر من كل وزن. وكثيراً ما يكون الوزن الأساس على وزن إِقْتُلْ IGTUL كما في: إِكْتُبْ = IK-TUB: كَتَبَ، إشما إل IS-MA-IL: إل سمَع وهما في الزمن الماضي. ويتبين منهما أن السابقة الأولى للغائب المفرد هي «I-» كما في اللغة الأكدية وليست «YA-» كما في اللغات السامية الشمالية الغربية. وهذه السابقة للمتكلم هي «A-» على وزن AGTUL، وللمخاطب «TA-» على وزن TAGTUL. ويكون الحاضر أو المستقبل للوزن الأساس على وزن IGATTA/ I/UL.

المعالم والآثار

تدل الآثار التي كشف عنها في إبلا على أن أقدم استيطان لهذه المنطقة كما يرى ماتييه حدث في القرن الأخير من الألف الثالث قبل

الميلاد، أي في العصر السوري الباكر الثاني (٢٤٠٠-٢٢٥٠ ق.م) وفي هذا العصر بلغت مدينة إبلا أوج تقدمها وازدهارها، واتسعت اتساعاً كبيراً، فشملت على ما يبدو مساحة تقدر بنحو خمسين هكتاراً، وكانت تتألف من قسمين: قسم مرتفع (الأكروبول) للإدارة والعبادة، ومدينة سفلى محاطة بأسوار. وكان القصر الملكي G، البناء الرئيس للمدينة في هذه الحقبة، وهو يمتد إلى المنطقة الجنوبية والجنوبية الغربية من الأكروبول. وقد بدأت البعثة الإيطالية عام ١٩٧٤ بالتنقيب في القسم الإداري منه، الدي يقع في الجهة الغربية، ويتضمن البلاط الكبير مع مدخل معمّد وقاعة للاستقبال فيها منصة لعرش الملك مبنية من الآجر المجفف بالشمس.

وفي هذا القسم من القصر عثر على الألواح التي كشفت عام ١٩٧٥ في غرفتين متجاورتين: L.2712، وL.276، كما عثر هنا أيضاً على مواد مهمة تبين علاقات إبلا التجارية العالمية، وتشمل أكثر من ٢٠ كغ من اللازورد الخام المستورد من أفغانستان، وكسرات كؤوس من الديوريت والهيصم المصري Alabaster.

وكان القصر الكبير على ما يبدو مركز النشاط الإداري والتجاري ويعتقد أنه بني في عام ٢٤٠٠ ق.م وأدخل عليه تجديد فيما بعد وقد دمر هذا البناء على يد الملك الأكدي نارام - سين لوجود شواهد كتابية وأثرية تؤيد ذلك.

وقد أعيد بناء مدينة إبلا في أزمنة لاحقة ولاسيما بين ١٩٠٠ - ١٨٠٠ ق. م، عندما أحيطت بسور ترابي مرتفع تغطي قاعدته أحجار كبيرة وتعلوه أبراج للحماية والحراسة. وكان للمدينة أربع بوابات كشف منها البوابة A.

ويعود تاريخ القصر الغربي الكبير في أسفل المدينة (في المنطقة Q) إلى هذه الحقبة وتم بناؤه نحو سنة ١٩٠٠ ق.م، وكشف عنه عام ١٩٧٨، وهو يغطي مساحة تزيد على ثلاثة أرباع الهكتار. كذلك كشفت في هذه المنطقة (Q) مدافن (نكروبول) تضم قبور أمراء ونبلاء. وتنتمي إلى هذه الحقبة أيضاً معابد إبلا الكبرى مثل «المعبد الكبير» D، الـذي يعد أكبر معابد المنطقة من العصر البرونزي الوسيط، وهو يقع على الطرف الغربي للأكروبول، وربما كان معبد المدينة الرئيس، وكان مخصصاً للربّة عشتار. وهناك أيضاً المعبد B1 المخصص لعبادة راساب، والمعبد N المخصص على ما يبدو لإله الشمس. كذلك يعود تمثال الملك إيبيط-ليم والمعبد B2 والقلعة إلى هذه الحقبة.

ويعود إلى الحقبة ١٨٠٠-١٦٠٠ ق.م، وهي حقبة سيادة يمحاض (حلب) على المنطقة، «القصر الملكي» E الواقع في المنطقة الشمالية من الأكروبول.

وفي نهاية هذه الحقبة (١٦٥٠-١٦٠٠ ق.م) انهارت مملكة إبلا ودمرت. ويتزامن سقوطها مع التدمير الحاصل في ألالاخ (الطبقة السابعة)، ويرتبط تاريخياً باحتلال الحثيين المنطقة على يد حاتوشيلي الأول وحورشيلي الأول.

وقد تحولت إبلا في الأزمنة اللاحقة إلى تجمع بشري صغير ليس له أهمية تذكر إلى أن طوي أثرها.

الدراسات الإبلوية

استقطبت إبلا، ولاسيما المحفوظات الملكية، اهتمام علماء المسماريات في شتى أنحاء العالم، وصدرت دراسات كثيرة عنها إلى جانب التقارير والدراسات الرسمية التي أعدها الأستاذ باولو ماتييه، رئيس البعثة الإيطالية المنقبة في تل مرديخ، عن أعمال التنقيب الجارية وعن الكشوف التي تمت، وكذلك كتابات جيوفاني بتيناتو وغيره عن محفوظات القصر الملكي واللغة الإبلوية.

أما ما يتصل بالنصوص فقد ألفت لجنة عالمية تضم عدداً من كبار علماء المسماريات في العالم مثل: إدزارد Edzard، وغاريلّي Garelli، وكلينجل Klengel، وكوبر Kupper، وسولبرجر Sollberger برئاسة باولو ماتييه وإشراف المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية للعمل على نشرها من قبل جامعة رومة في سلسلة تحمل اسم «محفوظات إبلا الملكية-نصوص» Archivi Realidi Ebla, Testi (Aret)

وتتضمن مجلدات هذه السلسلة صورا ونسخاً وترجمات لنصوص إبلا وشروحاً عنها، وقد صدر منها حتى بداية التسعينيات أحد عشر مجلداً من النصوص الإدارية والدينية والتاريخية والمعجمية، وصدرت أربعة مجلدات أخرى عن معهد الدراسات الشرقية في جامعة نابولي بإيطالية، كما تصدر بإشراف الأستاذ باولو ماتييه مجلة للدراسات الإبلوية Studi Eblaite.

عيد مرعي

مراجع للاستزادة:

-A. ARCHI, The Royal Archives of Ebla in From Ebla to Damascus: Art & Archaeology of Ancient Syria (Washington 1985).

-I. GELB, Thoughts about Ibla, in Syro-Mesopotamian Studies. I/1 (1977).

- P. MATTHIAE, Ebla in the Late Early Syrian Period. The Royal Palace & the State Archives in Biblical Archaeologist 39 (1976).

- P. MATTHIAE, New Discoveries at Ebla, in Biblical Archaeologist 47 (1984).

-G. PETTINATO, The Archives of Ebla: An Empire Inscribed in Clay (Garden City, New York 1981).

■ أبلّيز

(نحو ٣٥٠-٣٠٠ ق.م)

أبلّيز Apelles مصـــور إغريقي من مدينة كولوفون Colophon يعدّ، بحسب ما جاء في الكتابات القديمة، من أشهر المصورين الإغريق وأبرعهم. وكان مصور البلاط عند الملك فيليب وابنه الاسكندر المقدوني.

قيل عن أسلوب أبلّيز إنه اتصف برقة خاصة لم يضارعه فيها مصور آخر. بيد أنه لم يصل إلينا أي عمل من أعماله يمكن الاعتماد عليه للحكم على فنه.

وكل ما يعرف عنه هو عن طريق الوصف الذي تركه الكتاب المعاصرون له. من أشهر أعماله «ظهور أفروديت من البحر» «فينوس أناديومين» Venus Anadiomene، ولوحة رمـــزية تمثل النميمة. ويظن أن بوتيشيلّي Botticelli [ر] اعتمد على كتابات لوسيان

Lucien ، الكاتب الإغريقي، الذي وصف بالتفصيل هذه اللوحة في تأليف لوحته المعروفة بالعنوان ذاته « النميمة ». كما أن بوتّيشيلّي في لوحته « فينوس » استلهم مفهوم الربة أفروديت لدى أبلّيز.

اشتهر أبلّيز كذلك بتصوير الاسكندر المقدوني وقادة هلنستيين آخرين.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- M. SWINDLER. Ancient Painting (New Haven 1929).
- Dictionary of Art (Mc Graw - Hill, New York 1970).

■ إبليس

إبليس Iblis اسم جامع لمعاني الشر، على اختلاف صوره في ذهن الإنسان. وعلم يدل، ببنيته الرمزية وبعده الأسطوري، على ذات تعارض، في جميع صفاتها، الصفات الرحمانية والصفات الأنسية التي يرقى بها الإنسان في معارج الرشاد والكمال. وهي ذات ضدية تنطوي على ثلاثة أبعاد: بعد ديني يحدّد الفارق بين الحلال والحرام والطاعة والمعصية والإيمان والشك والتقى والفحور.. ، وبعد معرفي، هو قوة السلب العقلية النافية على الدوام، التي تبيّن نسبية الحقيقة والتباسها بالباطل، وتحدد الفارق بين علم الله المطلق والشامل والكلي وعلم الإنسان المحدود الملتبس بالغلط والوهم والباطل. وبعد أخلاقي يتعلق بقيم الحق والخير والجمال معرّفة بأضدادها، وقد كانت هذه القيم، ولا تزال، فوق الإنسان وأمامه وفي متناول يده، وكان سعي الإنسان في سبيل تمثلها وتجسيدها في نظام سياسي ومؤسسات اجتماعية، وجهاً من وجوه الصيرورة التاريخية، صيرورة الكون والفساد التي يحتل فيها إبليس، أو الشيطان [ر] موقع الضد المعارض للإنسان، فإبليس بكل ما يحمله اللفظ من إيحاءات دلالية قوةٌ سالبة، هي قوة التعطيل والإفساد والتشويه، نقيض قوة الخلق والتكوين.

وقد نسبت إلى إبليس صفات الخيلاء والكبر والعصيان والتمرد والكراهية والحسد والباطل والغواية والخبث والخداع.. واقترن تاريخه بتاريخ الأخلاق. وكانت معرفته فاتحة التمييز بين الخير والشر بوصفهما مفهومين أخلاقيين أقامهما الفكر النظري مستنداً إلى الدين التوحيدي أو دين الإله الواحد. وأصبح الواجب والجائز والمحظور من أهم دعامات الحياة الاجتماعية. فقبل ظهور الديانات التوحيدية وتحول إبليس إلى رمز للشر في العالم، لم تكن أعمال البشر تقاس سوى بميزان النفع والضرر والأمن والخوف واللذة والألم، ولم يكن للأحكام الأخلاقية من مدلول في الكلام، ومن البديهي أنه لم يكن لها مدلول في الذهن والوجدان. فقد كان مفهوم إبليس ضرورياً لمعرفة الخير والشر والحق والباطل والحسن والقبيح.

وكلمة إبليس في اللغة العربية، من الأصل الثلاثي بلَس. وأبلس: انقطعت حجته ويئس وتحيّر. والإبلاس هو الشر. وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُون﴾ (الروم ١٢). ويذهب بعض اللغويين المحدثين إلى أن إبليس اسم معرّب من الكلمة اليونانية ديابوليس (ذيافوليس) ومعناها المشتكي زوراً أو الثالب. وثمة تشابه بين مدلول كلمة (ست) عند المصريين ومدلول اسم الشيطان Diabolos باليونانية فكلاهما يفيد الاعتراض والدخول بين شيئين للتعويق والإفساد. وأصل الكلمة اليونانية يعود إلى الكنعانية - الفينيقية وهو بعل زبوب (رب الذباب وفي السريانية بعل دبابا)، ثم أصبحت في اليونانية بعل زبول Beel Zaboul التي أصبحت بعدئذ ديابولوس.

وقد عرف إبليس أو الشيطان، في جميع الحضارات القديمة وفي أساطير الأولين وفي جميع العقائد الدينية، بأسماء مختلفة تتفق جميعها في الدلالة على الشر وعلى المعصية والاستكبار.

وكانت الحنيفية حلقة الوصل بين الوثنيات القديمة وعقائد التوحيد والتنزيه،فقد قالت بعزل قوة الشر عن الخير وحصرتها في « الشخصية الشيطانية ». وفي النصوص اليهودية لم يكن الشيطان هو الذي أغوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة (الخطيئة الأصلية) بل كانت الحية هي صاحبة الغواية جرياً على سنن الأقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسي والخطيئة الأخلاقية، قبل أن تصبح الحية رمزاً للشيطان.

ولم يذكر الشيطان في كتاب من كتبهم قبل النفي إلى أرض بابل، ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية. ولم يذكر بصيغة العلم إلا في الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الأيام « وقف الشيطان ضد إسرائيل » وكانت قرابين الكفارة عندهم تقسم على التساوي بين الإله وعزازيل رب القفار أو الجنّي الذي يهيمن على الصحراء. وكان إيمانهم بوجود الآلهة الأخرى التي يعبدها غيرهم (الأغيار) بديلاً من صور الشيطان، إذ كانت فكرة السيادة في عباداتهم تغلب على فكرة الخلق، فلم ينكروا وجود الأرباب التي تقدسها العشائر الأخرى، ولكنهم أنكروا سيادتها ودانوا بالولاء للإله يهوه.

أما في المسيحية، فقد ذكر إبليس بعدة أسماء ونسبت إليه عدة صفات: فهو الشيطان، و« روح الضعف » والشرير ورئيس هذا العالم وبعل زبول الذي قال عنه الفريسيون إنه رئيس الشياطين وهو أكبر عدو لله وللإنسان، وهو الذي جرب المسيح، والذي يغري الإنسان بارتكاب الشر، وهو الحية القديمة التي أوقعت حواء في التجربة، وهو الذي ينزع الزرع الجيد متى زرع أو يزرع في وسطه زؤاناً، وله قدرة على إعطاء الأرواح النجسة سلطة على البشر.. وتعارض الأناجيل مملكة بعل زبول بملكوت الله. وتصف طبيعة إبليس بأنها روحية، فهو ملاك سقط بسبب الكبرياء، وله جميع صفات هذه الرتبة سواء كانت عقلية أو حسية أو إرادية، وله تلاميذ « يغربلهم كالحنطة »، يداخل من يوسوس لهم، ويلازم بني الإنسان يجرّ بهم ويغويهم. وقد سماه بولس الرسول « إله هذا الدهر » و« رئيس سلطان الهواء » و« الروح الذي يعمل في أبناء المعصية ». وقد صوره إنجيل لوقا على هيئة « لوسيفر » حامل النور أو كوكب الصباح، إذ قال المسيح لتلاميذه: « إني رأيت الشيطان ساقطاً كالبرق من السماء » (الإصحاح العاشر).

لقد وصف إبليس في الكتب الدينية

المسيحية بصفات حسية تواترت في رؤى النساك والمتنبئين، وأخرى عقلية استنبطها اللاهوتيون من طبيعة إبليس وعمله بطريق القياس، وتحددت ملامح «شخصيته» تدريجياً في اللاهوت المسيحي عندما بدأت عملية تنظيم العبارات والإشارات الواردة في الكتب السماوية اليهودية والمسيحية، وتأويلها، بكل ما داخلها مع الزمن من المؤثرات الشرقية المختلفة.

ومن المتفق عليه بين الفقهاء واللاهوتيين أن إبليس مصدر الشر في العالم، وأن المسيح عليه السلام زعزع سلطانه بعقيدة الخلاص وفداء البشرية. وأنه ملعون، مطرود من ملكوت الله وصائر إلى النار يوم الحساب. وأنه ذو جسد يلائم مقامه في الهواء الكثيف المحيط بالأرض، يسري في سريرة الإنسان مجرى النفَس الذي لاتراه العينان. ويفسد القرابين الإلهية ويختلس أبخرتها ودماءها ليتحول بها عن مقصدها ويتسلل إلى الأرواح من مسكنه في طبقات الهواء أو يترصد لها وهي صاعدة إلى الملأ الأعلى. وقد رأى توما الأكويني الذي بنى فلسفته على حرية الإرادة أن الشياطين كائنات عقلية أو ذهنية مسلطة على عقول البشر لاستدراجها واستخراج ما انطوت عليه من الصدق والمناعة. وأن الشيطان كان في المنزلة العليا بين المخلوقات العلوية وكان امتحانه، من ثم، أكثر عسراً ومشقة من امتحان سواه، وكانت قدرته على الثبات والنجاة أعظم من قدرة الآخرين، فأذهلته العظمة عن كل شيء سوى نفسه وطمح إلى مساواة الله في عظمته ومشاركته في وحدانيته، وتبعه من تبعه ممن هم على غراره فهوى من عليائه، وهوى معه الآخرون.

أما الإسلام الحنيف فيحدد صورة إبليس وعمله وماهيته على أساس غير «الخطيئة الأصلية». فقد خلق الله الإنسان وحمله تبعات أعماله وأوزار أخطائه وخطاياه وجعله حراً في اختيار سبيل الحق والرشاد أو سبيل الباطل والغي والضلال. فالقرآن الكريم يحمل آدم وحواء تبعة الخطيئة التي ارتكباها بغواية إبليس. ﴿ قالاَ ربَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسنا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحمْنَا لَنَكُونَنَّ مِن الْخاسرين ﴾ (الأعراف ٢٣) ولايجعل للشيطان سلطاناً على الإنسان مادام الإنسان مؤمناً قانتاً نقي السريرة. ﴿ إنَّ عبادي لَيْسَ لَكَ علَيْهِمْ سُلْطانٌ ﴾ (الحجْر ٤٢) ذلك لأن الله سبحانه كرّم الإنسان وعلمه مالم يكن يعلم، وعلم آدم أبا البشر الأسماء كلها واستخلفه في الأرض وفضله على الملائكة إذ أمرهم أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس الذي أبى واستكبر وكان من الكافرين.

وفي التراث العربي ـ الإسلامي أقوال كثيرة في أصل إبليس وماهيته وعمله، تتفق جميعها في كونه خلقاً مفرداً خلقه الله من النار كما خلق آدم من الطين، فإبليس من مخلوقات الله سبحانه، وليس له أن ينشىء خلقاً أو يبدأ عملاً بإرادته وحده، وليس له علم الغيب، ولا هو بأقدر على الغواية من شياطين الإنس. ولا يعدو أن يكون فتنة للنفس الضعيفة وخادعاً لمن يسهل خداعه، وأن يوسوس في صدور الناس، وكل نفس بما كسبت رهينة.

ويذكر القرآن الكريم أن إبليس كان من الملائكة لكنه عصى أمر الله ولم يعترف بخطيئته بل استكبر إذ سوغ عصيانه بأنه خير من آدم يسمو عليه كما تسمو النار على الطين، فلعنه الله وأخرجه من رحمته ثم طرد آدم وحواء من الجنة إذ أزلهما إبليس بغوايته فأكلا من الشجرة المحرمة، ليكون بعضهم لبعض عدواً وليكون الشيطان الرجيم وقبيله فتنة للناس وأولياء الذين لا يؤمنون، وجعل لهم في الأرض مستقراً ومتاعاً إلى حين. ﴿ فَتَلقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّه كَلِمَات فَتَاب عَلَيْه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحِيمُ ﴾. (البقرة ٣٧) أما إبليس فلا توبة له ولا مغفرة لذنبه ومصيره إلى جهنم يوم الحساب. وقد تطورت قصة إبليس واستفاض فيها الرواة والمفسرون والوعّاظ وتزيّد بعضهم فيها واقتبس من الإسرائيليات ما أبعدها عن الأصل القرآني. وقد غلا المتصوفة كذلك فيما استنبطوه من أحكام عقلية في طبيعة إبليس ومنزلته وعمله فرأى بعضهم أن إبليس أثبت أصل التوحيد عندما رفض السجود إلا للواحد القهار. وعلى هذه الفكرة ستقوم في الأدب «مأساة إبليس» وقرر آخر أن للتكليف شقين هما الأمر والنهي وأن الأمر الذي اختص به إبليس أشق على النفس من النهي الذي صدر لآدم. وإذا كان التكليف يقتضي العقل والإرادة فإن إبليس قد اختار الإمهال ووقع آدم في الخطيئة. وظل الفرق بينهما قائماً فالأول عصى وتكبر واضطلع بالغواية والشر والثاني ندم وطلب المغفرة.

ويرى ابن الجوزي أن إبليس أو الشيطان «يجري من ابن آدم مجرى الدم»، كما ورد في الحديث النبوي، وأن منهجه في التلبيس قائم على إظهار الباطل في صورة الحق، وأن أول التباس قد حل بإبليس نفسه حين أعرض عن «النص الصريح» ولجأ إلى العقل في استعمال المفاضلة بين الأصلين: النار والطين، وزاد على ذلك بالكبر.

وجملة القول: إن إبليس شيطاني الصفات شيطاني الوظيفة، وعدو للإنسان الساعي إلى الخير، وضده الذي يجري في نفسه وروحه مجرى الدم والنفس. وهو قوّة السلب والإفساد التي تلازم عملية الخلق والتكوين كما يلازم الحق الباطل ويلابس الشر الخير فيعرف كل منهما بضده ونقيضه. فهو مخلوق ضروري جعلته الحكمة الإلهية ملازماً للإنسان كاشفاً عما في نفسه من دواعي الخير ونوازع الحق ومولداً في روحه قوة الجهاد، جهاد النفس الأمارة بالسوء وجهاد المعرفة. فكلمة إبليس تفضي للمخاطب بجميع مدلولاتها المتشابهة أو المتقاربة في جميع اللغات والتي استقرت في الفقه والتفسير والعقيدة واللاهوت وفي الفكر والأدب والفن والأخلاق وفي وعي العامة والخاصة، وتوحي له بصور حسية وصفات عقلية متشابهة أو متقاربة أيضاً عند جميع الأمم والشعوب وفي جميع الحضارات. ولئن اختلف الناس، على مر العصور، في ماهيته وطبيعته فقد اتفقوا في تحديد صفاته وفهم وظيفته.

جاد الكريم الجباعي

الموضوعات ذات الصلة:

الجن ـ الشيطان ـ الملائكة.

مراجع للاستزادة:

ـ صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني (دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩).

ابن هاني (رأس -)

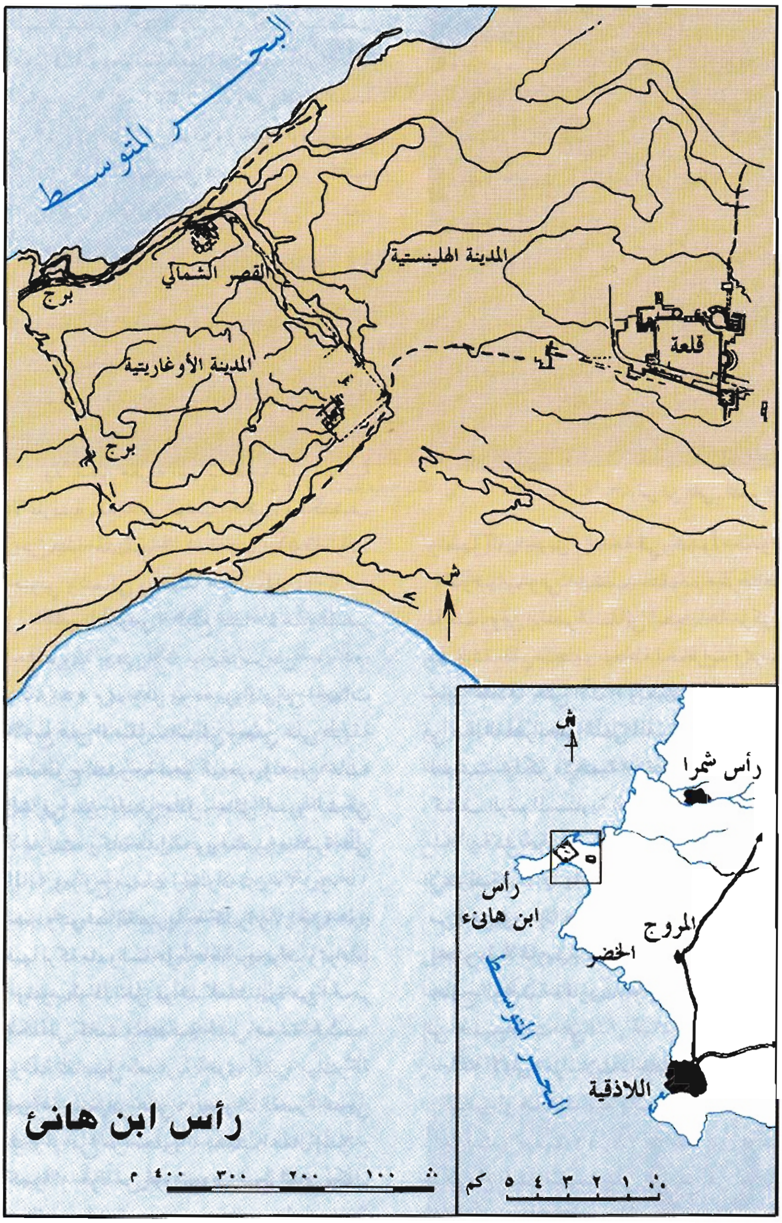
رأس ابن هاني أكثر رؤوس الساحل السوري بروزاً. وهو على بعد نحو ١٠ كم عن مركز مدينة اللاذقية شمالاً. وقد اختير لحسن موقعه وجماله لتشييد منشآت سياحية. وعند مباشرة أعمال حفر الأساسات في التل الأثري الذي يتوسط الرأس، ظهرت معالم أثرية واضحة.

كان رأس ابن هاني يُعرف قديماً باسم «رأس الفنار». وهو على شكل شبه جزيرة ممتدة من الشرق إلى الغرب بطول يقرب من ٣ كم وعرض وسطي نحو نصف كم. القسم الغربي من شبه الجزيرة هذه صخري، وأساسها حواري ميوسيني أو إيوسيني سابق للحقب الرابع الجيولوجي. وفوق هذا الأساس طبقة حوّارية رملية صفراء. وفوق هذه الطبقة الحوارية تربة رملية حمراء غير سميكة. وفي القسم الشرقي من شبه الجزيرة تختفي الطبقة الحوارية تحت رمال كثيفة نسبياً ترسم خليجين، أحدهما شماليٌّ صغير نسبياً يعرف باسم خليج القبّان، والآخر جنوبي واسع يتصل برأس الخضر.

ويبدو أن شبه جزيرة ابن هاني كانت في الأصل جزيرة مربعة الشكل، اتصلت باليابسة بذراعين رمليين بينهما منطقة واطئة تمتلىء شتاء بالمياه.

ونحو نهاية القرن الأول قبل الميلاد، على الراجح، ارتفع مستوى البحر إلى +٥٫١م عن المستوى الحالي، فقطع ذراعٌ بحريٌّ القسم الصخري من شبه جزيرة ابن هاني عن اليابسة، ثم ملأت الرمال البحرية هذا الذراع. وبعد ذلك أخذ البحر ينخفض تدريجياً مشكّلاً الذراعين الرمليين المذكورين سابقاً وكذلك القسمَ المنخفض وهو الشكل الذي يُرى الآن تقريباً.

ونحو نهاية القرن التاسع عشر وجد العالم الفرنسي رينيه دوسو R. Dussaued في رأس ابن هاني بقايا مسرح ومعبد. كما قدَّر أن هذا الرأس هو موقع مرفأ «ديوسبوليس». وفي مطلع القرن العشرين كان في رأس ابن هاني أقسام مزروعة وممالح وآبار قديمة وبقايا أسوار ضخمة كانت حجارتها المنحوتة الضخمة تستخدم في أعمال البناء في اللاذقية وفي القرى المجاورة. وقد استُقيت هذه المعلومات من بعض المسنين في المنطقة، وأكّد ذلك ما ورد عن ميثو وبوجولا في مراسلة الشرق (١٨٣٥). ولم يزل قائماً في الرأس المدفن الهلستي المعروف بمدفن القبّان الذي حُوِّ ل في العصر البيزنطي إلى كنيسة.



ويضاف إلى هذا المدفن من المعالم الباقية مدافنُ منقورة في الصخر.

باشرت بعثة عربية سورية ـ فرنسية، كانت تضم عدنان البني ونسيب صليبي وجاك وإليزابيت لاغارس، التنقيب في القسم الأوسط من رأس ابن هاني عام ١٩٧٥ وكان في هذا القسم تل أثري ترتفع ذروته ٩م عن سوية البحر الحالية. واتضح للبعثة أنه يضم مدينة أغاريتية ملكية أسست في وقتٍ ما من القرن الرابع عشر أو الثالث عشر ق.م، واستولت عليها «شعوب البحر» التي نزحت عن بلاد اليونان إثر اجتياح الدُّوريين لها في نهاية القرن الثالث عشر. وهذه المدينة هي في السوية الخامسة من التل. كما يضم التل الأثري سوية أثرية من عصر الحديد الأول (١٢٠٠-٩٠٠ ق.م) وهي السوية الرابعة. أما السوية الثالثة وهي من عصر الحديد الثاني (٩٠٠-٦٠٠ق. م) فلم تعط حتى الآن سوى الفخار وبعض القطع الأثرية. والسوية الثانية هي

الهلنستية (أواخر القرن الرابع حتى منتصف الأول ق.م) مختلطة أحياناً مع بعض آثار الحكم الفارسي (٥٣٩-٣٣٣ ق.م) وهي غير واضحة المعالم حتى الآن في الموقع. وأخيراً فإن السوية الأولى على سطح التل هي من عصر الحكم الروماني والبيزنطي (الثالث حتى السادس الميلادي).

أنشئت المدينة الأغاريتية الجديدة في السوية الخامسة، وفق تخطيط عمراني منظم وفسيح. وكان طول المدينة قرابة كيلومتر، وعرضها نحو نصف كيلومتر. وقد قام بهذا المشروع أحد ملوك أغاريت في بحر القرن الرابع عشر أو في أواخره.

ولا يمكن معرفة أسباب إقامة هذه المدينة الاغاريتية بالدقة في الوقت الحاضر. والمكتشف من هذه المدينة الجديدة حتى الآن قصران: جنوبي وشمالي وبينهما حي سكني.

القصر الجنوبي: تبلغ مساحة هذا القصر المعروفة حتى الآن ما يقرب من ٥٠٠٠م² (٨٥×٥٥ م). وهو موجه بزواياه إلى الجهات الأربع على الأسلوب البابلي ومبني على طريقة السطوح المتدرجة نحو البحر. وله من جانبه الشرقي سور دفاعي مائل، يماثل السور الشرقي لأغاريت. وكان هذا السور مشيداً مباشرة على الماء. ويراوح سمك الجدران بين ١٢٠ و١٥٠ سم. ونتوسط القصر باحة كبيرة (١٧م×١١م) فيها بركة ماء والساحة محاطة بحجرات وممرات، وتتوسط المداخل قواعد مستديرة من الحجر الكلسي كانت مخصصة لحمل أعمدة الخشب.

وثمة تفاصيل معمارية أخرى كثيرة مشتركة بين أغاريت وابن هاني، ويبدو أن القصر الجنوبي هُجر أو أُفرغ من محتوياته بسبب أعمال إصلاح كبيرة أو خوفاً من غزو شعوب البحر الذي نُكب به القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط في نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وجعل ملك قبرص (ألاشيا) يحذّر ملك أغاريت من هذا الغزو.

القصر الشمالي: من الملاحظ حتى الآن أن هذا القصر، من حيث توجيه زواياه ومخططه، مماثل للقصر الجنوبي وكان مثله مشيداً على خط الشاطىء وبأسلوب الأسطحة المتدرجة، وهو يشبهه أيضاً من حيث عمارة جدرانه وتفاصيلها. وبخلاف القصر الجنوبي كان القصر الشمالي مؤثثاً ومسكوناً عندما هاجمته جماعات من شعوب البحر ونهبته ثم أحرقته.



رأس ابن هاني، القصر الشمالي، ردهة الاستقبال (القرن ١٣ ق.م)

وتظهر آثار الحريق واضحة في كسوة الجدران والأرضيات وفي الخشب المتفحم والرصاص الذائب. وفي القصر الشمالي أيضاً باحة مركزية غير مسقوفة، مبلطة، محاطة بحجرات وممرات تجاوز عددها حتى الآن الأربعين. وقد وُجدت في هذا القصر بعض اللُقى المعبّرة التي نجت من النهب. ولكن الأهمية الحقيقية تكمن في كشف الرقم المسمارية التي بلغ عددها حتى الآن أكثر من مئة رقيم محررة بالأبجدية الأغاريتية وبالأكادية-البابلية. وقد عانى بعضها من الحريق. إن هذه المجموعة من الرقم هي المجموعة الأغاريتية المهمة الوحيدة المكتشفة خارج العاصمة أغاريت، وهي تقسم مبدئياً إلى خمس فئات هي:

الفئة الأولى: مراسلات داخلية بين سكان هذا القصر أو هذه المدينة والسلالة الملكية من أغاريت (الرقيم ١٢/٧٨ مراسلة بين أخْتُ مُلْكي أم الملك المقيمة على الأرجح في المدينة الجديدة وابنها امشْتَمْرو الثاني).

الفئة الثانية: مراسلات مع ممالك خارج مملكة أغاريت (الرقيم ٣/٧٨ مراسلة مع ملك مصر).

الفئة الثالثة: نصوص دينية تقدم معلومات جديدة عن عوالم الأرباب الكنعانية القديمة وعن الطقوس والأساطير التي كانت في الواقع من مصادر التفكير الديني في هذه المنطقة من العالم، وبعضها نصوص طبية سحرية.

الفئة الرابعة: يمكن إدراجها تحت اسم فئة الرُقُم الاقتصادية والإدارية وفيها أسماء أعلام وأسماء مدن وقرى.

الفئة الخامسة: نصوص معجمية سومرية، وسومرية-بابلية، ومنها قوائم مواقع جغرافية وكواكب وغيرها.

وفي عام ١٩٨٢ حققت البعثة أمراً عظيماً يتصل بالتاريخ الاقتصادي في سورية وفي شرق البحر المتوسط والعالم القديم، وهو العثور على منشأة لصب سبائك البرونز والنحاس المعدّة لأغراض التجارة والتصدير. تتوسط المنشأة قاعدة حجرية ضخمة منحوتة بشكل جلد ثور لصب السبائك المذكورة بطول يبلغ نحو ٦٠ سم، وهي الوحيدة المعروفة في العالم حتى اليوم. ومن المعروف أن سبائك النحاس والبرونز كانت تُصدَّر إلى أنحاء العالم القديم على ذلك الشكل مختومة بخاتم رسمي، كي تكون أساساً للتبادل التجاري أو نقل المعدن المعدّ للصناعة، وقد وُجدت مثل هذه السبائك في كريت وصقلية وقبرص واليونان والاناضول وأغاريت ومصر. ونرى هذه السبائك يحملها السوريون القدماء في مشاهد الهدايا المقدمة لملوك مصر وأمرائها. وما كان أحد يظن أن أغاريت ومدنها كانت من مراكز صنع هذه السبائك وتصديرها. فقد كان المعروف أن قبرص هي المصدرة للنحاس واسمها مشتق منه وبدرجة أقل الأناضول.

ألقى هذا الاكتشاف ضوءاً ساطعاً على نشاط مملكة أغاريت الصناعي والتجاري والدور الاقتصادي للقصر الملكي في أغاريت ومملكتها. ويبدو أن الملك نفسه أو أحد أفراد العائلة المالكة (كالملكة الام مثلاً) كان يتعاطى مثل هذه الصناعة والتصدير، تحت إشرافه المباشر وتحت الختم الرسمي الذي يشيع الثقة.

وقد تكون هذه المدينة الحائية في رأس ابن

هاني هي مدينة الأنف (آفو في الكنعانية) المذكورة مراراً في النصوص الأغاريتية، أو يكون اسمها أغاريت البحر (أُغاريت يم)، وثمة من يرى أن اسمها بيروت (الآبار في الكنعانية).

سوية عصر الحديد في القطاع الأوسط: في عام ١٩٧٧، ظهرت فوق أجزاء القصر الشمالي أجزاء منزلين كبيرين نسبياً من عصر الحديد الأول (ق١٢-ق٩ق.م). وهو مؤلف من مدخل وباحة وغرف مبلّطة. وفي أرض غرف هذا البيت مجموعة من الجرار والأواني الفخارية المحطمة بعضها مزين برسوم ملوّنة.

إن فخار مطلع عصر الحديد الأول يستدعي بعض الملاحظات، فالنموذج الغالب صنع محلياً تقليداً لنماذج من الفخار المعروف باسم IIIC1B أو ما تحت الميكيني. ومن النماذج الفخارية دنان صغيرة مزينة بلونين، أسود وأحمر، وهي تشبه الفخار الفلسطيني في الحقبة نفسها. إن نماذج الفخار الميكيني من النوع المذكور، التي أُدخلت إثر هجرة كثيفة إلى فلسطين وسورية الشمالية الساحلية تأثرت بها المنطقتان بوجه متماثل، الأمر الذي ولّد في المنطقتين فئتين جديدتين من الفخار إن لم تكونا متماثلتين فإنهما متشابهتان جداً. فهناك إذن أناس كان يستعملون فخاراً شبيهاً بفخار قبرص وفخار فلسطين قد استقروا في رأس ابن هاني بعد هدم قصر عصر البرونز الحديث في الربع الأول من القرن الثاني عشر ق.م. وهذا شيء مهم للمهتمين بمعرفة أسباب زوال الحضارات والممالك والامبراطوريات التي تألقت في عصر البرونز في الأناضول وعلى الساحل السوري، ولاسيما معرفة كيف تهدمت أغاريت ومتى تم ذلك.

وقد أصبح من المؤكد أن بعض أفواج شعوب البحر التي قدمت بحراً وبراً والتي لم تترك في أغاريت إلا سحب الدخان، استقرت بعد النهب والحرق في بعض أطلال المدينة الأغاريتية برأس ابن هاني، كالقصر الشمالي، ثم ابتنت فوقها بيوتها الخاصة.

إنّ هذه المراحل المتتالية بلا انقطاع، من مطلع عصر الحديد حتى مطلع عصر الحديد الثاني، شيء نادر في مواقع الساحل السوري.

وعلى كل حال لم تعثر البعثة المنقبة حتى اليوم على معالم معمارية ثابتة يمكن نسبتها إلى المرحلة الثانية والثالثة من عصر الحديد الثاني، وسيتم العثور على ذلك حتماً إذ إن فخار ذلك العصر، سواء منه المحلي أو المستورد من اليونان، موفور تماماً.

المدينة الهلنستية المحصّنة: هناك في القطاع الأوسط من رأس ابن هاني من آثار العصر الهلنستي شيء ليس بالقليل، ومن ذلك الجدران المشيدة بالحجارة الضخمة المعاد استعمالها في سوية العصر الروماني المتأخر والبيزنطي، والرصيف الحجري الممتد من التل باتجاه جنوبي شرقي حتى الشاطىء، والقناة الحجرية الضخمة التي تشق رأس ابن هاني وتصل إلى البحر الشمالي مخترقة في طريقها القصر الأغاريتي الشمالي.

لكن هناك فضلاً على ذلك أسوار مدينة مسوَّرة ممتدة من حدود القطاع د حتى القسم الشرقي من الرأس بطول ٩٠٠ م تقريباً، وكان لهذه المدينة الحصينة منشآت مرفئية ضخمة في الشمال والجنوب تُرى بقاياها بوضوح. وليس هذا السور وحده كل ما خلّفه العهد الهلنستي.

ويمكن تلخيص وضع الأسوار والتحصينات الهلنستية في هذا القطاع كما يلي: أنشئت في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد المدينة السلوقية وحُصّنت.

وفي أواخر القرن الثالث المذكور سقطت تلك المدينة بيد البطالمة (بطليموس الثالث) إثر الحرب السورية الثالثة، وقد زادوا في تحصينها بالأسوار المعززة بالأبراج المربعة وأبراج بشكل U وشبكات المياه، وأقاموا بناء مستديراً له رواق محمول على أعمدة محددة.

واستعاد السلوقيون المدينة وبنوا فيها قلعة



رأس ابن هاني، القصر الشمالي، قالب صب النحاس (القرن ١٣ ق.م)



رأس ابن هاني، نماذج من الحلي الأغاريتية، (القرن ١٣ ق.م)

في الزاوية الشمالية الشرقية فريدة في سورية استخدم في أساساتها عناصر معمارية من البناء المستدير المذكور في الفقرة السابقة وغيره. وهوجمت القلعة وأُشعلت النار فيها بعد الفتح الروماني لسورية على الأرجح.

المقبرة من العهد الروماني المتأخر: وبعد ثلاثة قرون من الانقطاع بسبب طغيان البحر على القسم الشرقي من رأس ابن هاني (بدءاً من أواخر القرن الأول قبل الميلاد حتى مطلع القرن الرابع الميلادي) عاد النشاط إليه مع سلالة قسطنطين، ونشأت بلدة تعرف سماتها بشيء أكثر من التفصيل في المرحلة البيزنطية (السوية العليا)، وتبينت الحقبة الرومانية المتأخرة من مقبرة فيها عشرات القبور، في كل قبرٍ هيكل مسجى على الظهر رأسه موجه نحو الشرق، ومعه في أغلب الأحيان إناء فخاري وقارورة زجاجية وبعض الحلي البسيطة، منها قرط ذهبي وقطعة نقود برونزية وجدت عند رأس الميت، والقبور مسقوفة بالآجر بشكل سنمي أو بالحجارة العرضانية، وثمة طفل مدفون في جرة كبيرة.

البلدة من العهد البيزنطي: تتركز المكتشفات من العصر الروماني المتأخر والبيزنطي (الرابع حتى السادس الميلادي) في السوية العليا من القطاع الآنف الذكر، ولاسيما في ذروته.

يمكن تمييز مجموعتين سكنيتين واسعتين بينهما ممر شمالي جنوبي فرشت أرضه بطبقة من المونة الكلسية، وفي كل من المجموعتين قاعة مفروشة بالفسيفساء البسيطة البيضاء، مكعباتها كبيرة الحجم، ولاتخلو من بعض التزيين الهندسي الذي يتشكل بتغيير وضع المكعبات. وفي المجموعة الشرقية معصرة للزيت، تضم خزانين مليئين بأوان فخارية متنوعة تعطي فكرة عن أنماط الفخار التي كانت مستخدمة في آخر حياة الموقع (القرن السادس الميلادي أو أواخر القرن الخامس).

أما الزجاج فهو أيضاً من طراز القرن السادس الميلادي وقد صنعت منه صحون كبيرة وقوارير وكؤوس منها ما هو منفوخ في الهواء الحر أو مزين بأشرطة بارزة أو بأقراص ملصقة.

وقد هدمت هذه البلدة التي كانت تقوم على الزراعة والصيد بزلزال أنطاكية الشهير الذي حدث في ٥٢٨م أيام جوستنيانوس.

عدنان البني

الموضوعات ذات الصلة:

الجاريت.

■ ابن وردان (قصر -)

قصر ابن وردان قرية وأثر جميل مميز معمارياً على بعد ٦٠ كيلو متراً شمال شرق مدينة حماة (سورية)، يرجع تاريخه إلى القرن السادس الميلادي، أي إلى عهد الامبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٦٥م).

ويعتقد أن هذا القصر دعي بهذا الاسم نسبة إلى أحد شيوخ قبائل البادية الذين سكنوه في مراحل متأخرة فنسب إليه، ويؤيد ذلك ماذكره عالم الآثار بتلر Haward Crosby Butler، مدير البعثة الأثرية الأمريكية من جامعة برنستون، التي عملت في سورية في الأعوام (١٨٨٩-١٨٩٠) (١٩٠٤-١٩٠٥) (١٩٠٩).

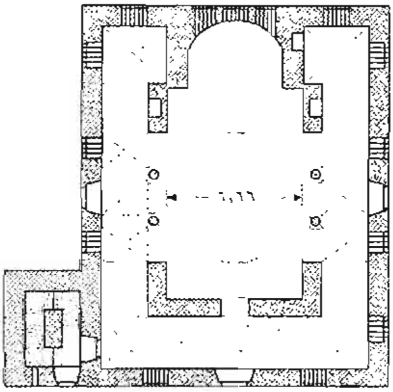
وقد زار هذا الموقع عدد من الرحالة والمؤرخين في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين منهم البارون فون أوبنهايم Von Oppenheim وستريغوفسكي Strzygowski. وقد اعتمد بتلر على المعلومات والصور التي التقطها هذان الرحالان في أثناء كتابته عن قصر ابن وردان بوجه خاص وعن الكنائس في سورية بوجه عام.

وتعد منشورات البعثة الأمريكية من جامعة برنستون المطبوعة في هولندة عام ١٩٢٠م من خير ماكتب عن هذا الموقع المهم.

يتألف قصر ابن وردان من ثلاثة أبنية مشيدة بمداميك من الحجارة البازلتية ومداميك من الآجر بأسلوب متناوب يسمى «الأبلق»، وهو أقدم مثل عن هذا الطراز في العمارة السورية، كما توجد بعض الحجارة الكلسية حول النوافذ بوجه خاص، وهذه الأبنية الثلاثة هي: القصر والكنيسة والثكنة.

- القصر وهو أوسع الأبنية الثلاثة وأكبرها، ذو طبقتين اثنتين، يتألف من باحة في الوسط تحيط بها الغرف من جهاتها الأربع، ويقع المدخل الرئيسي في الواجهة الجنوبية، وتزيد مساحة هذا القصر على ألفي متر مربع؛ وتختلف الطبقة العليا بتقسيماتها عن الطبقة السفلى، وتغطي الأخيرة سقوف بعضها ذو أقبية متقاطعة cross vaults وبعضها برميلي الشكل barrel vaults وتنفتح الجدران بنوافذ تعلوها أقواس مدببة الشكل، وهذا النوع من الأقواس هو أيضاً من أقدم نماذج العمارة السورية.

ويعلو المدخل الرئيسي عتب بازلتي lintel، عليه سطران من الكتابة اليونانية القديمة نصها: «في شهر تشرين الثاني من الخمس عشرية الثالثة عشرة من سنة ٨٧٦ (سلوقية)، وتشرين الثاني سنة ٥٦٤ ميلادية، الكل لجلال الله». وكانت أرض القاعة الشرقية وأرض الغرفتين الغربيتين في الجزء الغربي من هذا القصر مرصوفتين بفسيفساء من مكعبات حجرية ملونة، أما أرض الغرف الأخرى وبقية أقسام



قصر ابن وردان - مسقط الكنيسة
نقلاً عن بتلر

القصر فقد رصفت بالحجارة الكلسية.

- الكنيسة: تقع إلى الغرب من القصر، وهي مستطيلة الشكل (١٠,٥ × ٦,٦٥م)، لها طراز البازيليكا basilica، أي مجاز nave في الوسط يكتنفه جناحان aisles على جانبيه، وينتهي المجاز في الشرق بحنية ذات مسقط نصف دائري، وينفتح على النارثكس narthex، أي سقيفة المدخل، بباب ضيق في الغرب. لهذه الكنيسة مدخل يعلوه عتب بازلتي يحمل كتابة يونانية تؤرخ البناء بعام ٥٦٤م.

يعلو المجاز قبة ذات رقبة مثمنة، وقد تهدّم معظم هذه القبة، وما زال جزؤها الشمالي قائماً يدل على عظمتها وطريقة بنائها ولهذه الكنيسة

طبقة ثانية تضم شرفة (تريفوروم)، تطل على بهو الكنيسة الداخلي.

كانت جدران هذه الكنيسة مزخرفة بالفسيفساء الملونة ذات المكعبات الحجرية والزجاجية والآجرية. وهذه الكنيسة تُذكِّر بكنيسة سان فيتال بإيطالية التي بناها أيضاً الامبراطور جوستنيان، وما تزال فسيفساء جدرانها وأرضها وحنيتها موجودة حتى اليوم.

وكانت أرض كنيسة ابن وردان مرصوفة بالحجارة والرخام على شكل زخارف هندسية جميلة، ويحمل عتب المدخل الجنوبي للكنيسة ببعديه (٣١٠ X ٧١سم) كتابة يونانية تؤرخ البناء في عام ٥٦٤م، ترجمتها: «هذا الباب صنعه الله، وسيدخله كل الصالحين».

ـ الثكنة: معظمها خرب ومطمور تحت التراب ماعدا أجزاءها العلوية ويمكن الاستدلال من بقاياها على أنها ذات مسقط شبه مربع، وأنها تتكون من باحة (٣٦ X ٣٨م)، يتوسطها بناء عال ذو طبقتين، وتحيط بها غرف وقاعات مازال بعض أقواسها وسقوفها موجوداً، وهي كبقية أقسام هذا الموقع مشيدة بمداميك الحجارة البازلتية والآجر بأسلوب متناوب «الأبلق».

يقع مدخل هذه الثكنة في الجهة الشمالية، يعلوه عتب من الحجر البازلتي طوله أربعة أمتار، عليه كتابة من سطر واحد، كتبت باللغة اليونانية القديمة، نصها «بنيت هذه الأسكفة في عام ٨٧٣ (سلوقية) في العشرين من شهر ديبس من الخمس عشرية في شهر تشرين الثاني ٥٦١م».

وقد قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف بترميم بعض أقسام القصر والكنيسة. أما قرية قصر ابن وردان فتقع قرب الموقع الأثري وتتبع ناحية الحمراء في محافظة حماة على أطراف البادية، يعمل سكانها المقدر عددهم بنحو ٢٥٠ نسمة بتربية الأغنام والزراعة البعلية، مساكنها خليط من منازل قبابية طينية قديمة واسمنتية وحجرية حديثة.



قصر ابن وردان (الكنيسة + القصر) ـ الكنيسة على يسار الناظر

عبد الرزاق رفزوق

مراجع للاستزادة:

ـ احمد وصفي زكريا، جولة أثرية في بعض البلاد الشامية (المطبعة الأهلية بدمشق ١٩٣٤).

-Publication of the Princeton University Expeditian to Syria in 1904- 1905 (Leiden, Brill 1920).

-HAWARD CROSBY BUTLER, Early Churches in Syria (Princeton University 1929).

■ الآبنَوسيات (رتبة ـ)

الآبنوسيات Ebenales رتبة أشجار تنبت في المناطق الحارة وتضم أنواعاً ثمينة الخشب، عطرة المفرزات اللبنية، تنتسب إلى النباتات الثنائية الفلقة. من المصنِّفين من يجعلها ثلاثية الفصائل تضم: الآبنوسية Ebenaceae والسَبُّوتية Sapotacea ولحمية البذور Sarcospermaceae وهناك مصنفون آخرون يزيدون فصائلها ثلاثاً أخرى هي:

الأصْطُركية Styracaceae وضفيرية الثمر Symplocarpaceae ومنحلة الثمر Lysocarpaceae

الفصيلة الآبنوسية

تضم ٦ أجناس و٣٥٠ نوعاً. عُرفت مستحاثاتها في الزمن السينوماني Cenomanian من العصر الكريتاسي. الأشجار عادة ثنائية المسكن، والأزهار وحيدة الجنس، ساقيّة (أي محمولة أحياناً على سوق غليظة)، رباعية الأجزاء إلى خماسيتها. والكأس ملتحمة تنمو بعد الإلقاح، والتويج ملتحم البتلات، جُرَيْسيٌّ قربي، ضيّق العنق، الأسْدية غالباً مرتفعة العدد، والمبيض عديد الكرابل carpels وملتحمها، والثمرة عنبية. تنبت أغلب أجناس الفصيلة في مناطق بين المداريْن، ولكن الدَسْبروس اللُّوطي Diosporus lotus (الذي يعني سيد الحَب اللوطي) نوع آسيوي الموطن قد تحول إلى نوع شبه تلقائي مقيم في مناطق حوض البحر المتوسط. وكذلك الدَسْبروس الكاكي D.kaki، الذي ترجع أصوله إلى آسيا الشرقية، فقد أصبح مزروعاً في جميع مناطق حوض البحر المتوسط ومعروفاً بأسماء متعددة أبرزها كاكي، ودرابزين خُرْمُسي، ومشمش اليابان، وبلح طَرَاتزون، وهو يعطي ثماراً ذهبية اللون، برتقالية الحجم، قابضة الطعم وهي فجّة، لا

تؤكل إلا مرتخية من شدة النضج.

وتشغل الفصيلة الآبنوسية مرتبة اقتصادية مهمة مستمدة من خشب الآبنوس المستحصل من عدة أنواع من جنس الدسبروس. يتميز خشب الآبنوس بشدة القساوة، وتماسك البنية، وارتفاع الكثافة التي تصل إلى ١,٢ في خشب قلب جذوع الأشجار. ويُعَدُّ خشب الآبنوس الأسود من أثمن الأخشاب في العالم ويستحصل عليه من أنواع الدسبروس الشجري D. dendro والدسبروس المحلبي D. mespiliformis في إفريقية الاستوائية، والدسبروس الآبنوسي D. ebenum ودسبروس الخشب الأسود D. melanoxylon في آسيا المدارية والدسبروس مُفْرد القلم D. haplostylis والدسبروس المعيني D. microrhombus في مدغشقر وجزيرة موريس في المحيط الهندي. ويستحصل على خشب أخضر من دسبروس الخشب الأخضر D. chloroxylon في الهند وعلى خشب أحمر من الدسبروس الأحمر D. rubra في جزيرة موريس ويستحصل على خشب أبنوس مُبَرقش من الدسبروس الهَلْب (قاسي الشعر) D. hirsuta

وتستعمل أخشاب الآبنوس في صناعة الآلات الوترية كالعود والكمان، وفي صناعة الأزرار والأمشاط، وفي صناعة المرصَّعات كأجزاء الشطرنج المرصَّعة بالعاج والآبنوس، وفي صناعة منابر المساجد والخزائن والصفائح الخشبية.

الفصيلة السَبُّوتية

تضم ٤٠ جنساً و٦٠٠ نوع. تنبت بين المدارين، وتشبه الفصيلة الآبنوسية وتتميز منها بأزهارها الخنثوية وأوعيتها اللبنية. أبرز أجناسها، المقلّد Mimusops، وهو جنس مداري يضم قرابة ٢٠٠ نوع تؤكل ثمار بعضها، والخشب الحديدي Sideroxylon، وهو ينبت في المنطقة المدارية من العالم القديم ويضم قرابة ١٠٠ نوع، وذهبي الورق Chrysophyllum وهو ينبت في المنطقة المدارية من العالم الجديد وفي القارة الأمريكية، ويضم قرابة ٧٠ نوعاً يعطي بعضها ثماراً مرغوباً فيها في المناطق المدارية.

ومن الأجناس ما يقتصر على بضعة أنواع من أبرزها الأرغان الشوكي Argania spinosa الذي يوجد في المغرب العربي، والذي يُستخرج من بذوره زيت الأرغان أو ما يسمى زبدة الغريط المفضلة لدى العرب المغاربة والأخرَص سبُّوتة Achras sapota الذي ينبت في المكسيك ويُستخرج من سوقه لبن نباتي معروف بالعلكة. وبَلَقين الغُطّا Palaquinum gutta الذي ينبت في الهند الشرقية ويستحصل منه على مادة الطُبُرخا gutta percha، وهي مادة لبنية نباتية قريبة من المطاط وقابلة للانحلال في كبريت الكربون، ومستعملة في الكبلات الهاتفية عبْر المحيطات.

الفصيلة اللحمية البذور

منتشرة في الهند الصينية وهي قريبة من الفصيلتين الآبنوسية والسَبُّوتية. يستحصل من أوراق بعض أنواعها على أصبغة نباتية حمراء أو صفراء، كما تستعمل هذه الأوراق في صنع مشروب شبيه بمشروب الشاي.

الفصيلة الأصْطُرَكيّة

تضم ٨ أجناس و١٠٠ نوع تنبت في المناطق المدارية وتتميز بخماسية أجزاء أزهارها، والتحام سبلاتها sepals بتلاتها petals، وعشارية أسديتها، وثلاثية حجيرات مبيضها أو خماسيتها. ونووية ثمارها.

يتمثل الاصطرك Styrax في الوطن العربي بالاصطرك المخزني S. officinalis المنتشر في الجبال الساحلية السورية حتى ١٦٠٠م فوق مستوى سطح البحر، وهو معروف بأسماء عربية كالعَبْ هر الذي تعرف ثماره بالحُوز، وهي مستعملة في الساحل السوري في صيد الأسماك التي تتخدر بعطره وتطفو على سطح الماء، ويستحصل من الأصطرك المخزني على راتنج عطري، معروف بالمَيْعة الجافة يستعمل في صناعة العطور.

ويتمثل الأصطرك في أمريكة الشمالية بالأصطرك الأمريكي S. americana، وفي اليابان بالأصطرك الياباني S. japonica. وتعد هذه الأنواع الثلاثة ممثلة لعناصر نباتية جاءت من المناطق القطبية في الحقب الثالث الذي تكونت فيه سلاسل الجبال الكبرى كالألب وهيمالاية.

وهناك نوعان هنديان ماليزيان مستعملان في الحصول على المَيْعة السائلة benjoin المستمدة تسميتها العالمية من العربية: لبان جاوة، وهما اصطرك اللبان الجاوي S. benzoin واصطرك تونكين S.tonkinesis وقد أدخل العرب إلى فرنسة استعمال اللبان الجاوي في القرن الرابع عشر، وهو راتنج عطري يستحصل عليه بإحداث جروح صناعية تولد نسجاً مفرزة نَدبية، وتنعدم أجهزة الإفراز في الأغصان غير المجروحة. يستعمل اللبان الجاوي في معالجة أمراض الجهاز التنفسي وبعض الالتهابات الجلدية، كما يستعمله أطباء الأسنان في معالجة النخر، ويستعمله العطارون في صناعة العطور.

أنور الخطيب

مراجع للاستزادة:

- أنور الخطيب، الفصائل النباتية (منشورات جامعة دمشق ١٩٧٨).

■ أبّنيانو (نقولا -)
(١٩٠١-١٩٩٠)

نقولا أبّنيانو Nicola Abbagnano فيلسوف إيطالي معاصر يعدّ الممثل الرئيس للفلسفة الوجودية في إيطالية التي يرى أنها الفلسفة العقلية للممكن.

بدأ حياته الفلسفية مناهضاً الفلسفة الهيغليّة عند كلٍ من كروتشة Croce [ر] وجنتايل Gentile ومتأثراً بفلسفة هوسّرل Husserl [ر] الظواهريّة وفلسفة الوجودية لكيركغارد Kierkegard [ر] وهايدغر Heidegger [ر] وياسبرز Jaspers [ر]، لكنه ما لبث أن أظهر استقلاله الفلسفي في كتابه الأول عن بنية الوجود La Struttura Dell Esistenza (تورين، ١٩٣٩) الذي ابتعد فيه عن الوجوديّة الألمانيّة واتّخذ موقفاً مخالفاً هايدغر وياسبرز. وأكّد استقلاله في كتاباته اللاحقة التي تناول فيها بالنقد الفلاسفة سارتر Sartre [ر] ومارسيل Marcel ولافيل Lavelle ولو سين Le Senne فعدّ الأول، مثيل كيركغارد، تابعاً لدائرة الوجودية الألمانية، ووضع الآخرين في دائرة سمّاها «الوجودية اللاهوتية أو الأنطولوجيّة»، وهو يرى أن كل أشكال الفلسفة الوجوديّة، منذ كيركغارد، متهافتة self defeating، لأن فحصها يكشف أن ما هو أساسي لتفسير الوجود الإنساني منفيٌّ فيها ألا وهو «أوّليّة الممكن

the primary of possibility فاليساريّون، ومنهم هايدغر وياسبرز وسارتر، نفوا الوجود بوصفه إمكاناً، عندما اختزلوه إلى مستحيلات impossibilities بزعمهم أن كل ما يفعله الإنسان محتوم الإخفاق سلفاً. واليمينيون نفوا الوجود بتحويله إلى وجود بالقوة potentialities معدّ للنجاح في النهاية. كذلك رفض أبنيانو مبدأ « استحالة الممكن » عند الأولين ومبدأ « ضرورة الممكن » عند الآخرين لأنهما، في النهاية، يشتركان بأرضيّة واحدة ألا وهي جعلهما الممكن غير موجود بأي طريقة، واعتقد أن المبدأ الوحيد الصحيح البديل هو مبدأ « إمكان الممكن » the possibility of the possible وعنى بذلك الإمكان المفتوح غير المغلق. فالإنسان، عندما يختار، أو يحقق اختياره، فإن وجوده يظل وجوداً ممكناً مفتوحاً لاختيارات أخرى وتحقيقات أخرى.

واهتمَّ، خلافاً لكثير من الفلاسفة الوجوديين خارج إيطالية، بمشكلة القيم، ورأى استناداً إلى منطق الممكن، أن « مبدأ ما يجب أن يكون » what ought to be هو المكافىء الأخلاقي لمبدأ « ما يمكن أن يكون » what may be ويبدو هذا الجمع بين الممكن والحريّة واضحاً في مؤلَّفه المهم « الإمكان والحريّة » Possibilità e libertà

أما أهم مؤلفات أبنيانو بالإضافة إلى ما ذُكر فهي: « الوجودية الإيجابية » Esistenzialismo Positivo و« الفلسفة والدين والعلم » Filosofia, Religione,Scienza.

حيدر إسماعيل

مراجع للاستزادة:

-SIMONA MARIA ANGEL, La notion de liberté dans l' existentialisme positif de Nicola Abbagnano (Fribourge, Switzerland 1962).

■ الأبنين (جبال -)

تؤلف جبال الأبنين Apennines العمود الفقري لشبه جزيرة إيطالية، تمتد من شماليّها الغربي إلى جنوبيّها الشرقي على شكل قوس تختفي بعدها لتظهر من جديد في شمالي جزيرة صقلّيّة [ر]، وهي تقترب من البحر الأدرياتي [ر] في وسط شبه الجزيرة، ومن البحر التيراني في الطرف الجنوبي منها ويفصلها عن جبال الألب [ر] البحرية ممر غيوفي الذي ساعد في قيام مدينة جنوة. وتؤلف جبال الأبنين مع الألب نصف دائرة تحيط بالطرف الغربي للسهل الإيطالي.

يقارب طول سلسلة جبال الأبنين الإجمالي بدءاً من هضبة كاديبون Cadibone في إقليم ليغورية حتى أقصى جنوب شرقي الجزيرة الإيطالية ١٥٠٠ كم، ويراوح عرضها بين ٤٠-٢٠٠ كم، وتعدُّ قمة غران ساسّو Gran Sasso (٢٩١٤ م) في سلسلة جبال أبروتزي Abruzzes من أعلى قممها.

وجبال الأبنين حديثة التكوين وتنتمي من الناحية الجيولوجية إلى جبال الألب، ويتكرر حدوث الزلازل فيها ولاسيما في المناطق الوسطى والجنوبية بالإضافة إلى بعض النشاطات البركانية. أما التضاريس الغالبة على جبال الأبنين فهي هضاب مرتفعة جداً تقطعها أودية عميقة وأحواض داخلية، سطحها وعر، وتغلب على بنيتها الحجارة الرملية والصخور الكلسية وطبقات من الغضار الرملي.

يسود جبال الأبنين مناخ البحر المتوسط بصيفه الحار والجاف غير أن الارتفاعات الجبلية تلطف منه فتهبط درجات الحرارة وتهطل الأمطار في معظم أقسامها ولاسيما على السفوح الغربية، وتتساقط الثلوج على الارتفاعات التي تزيد على ١٥٠٠م، أما مواردها المائية فقليلة ولاسيما في الأجزاء المرتفعة منها، ويغلب الجفاف على الهضاب التي تبعد عن ساحل البحر الأدرياتي.

يتنوع النبيت في جبال الأبنين بحسب الارتفاعات: ففي الشمال والجنوب تنمو نباتات البحر المتوسط على ارتفاعات تراوح بين ٤٠٠ و٧٠٠ م وتظهر غابات الصنوبر والبلوط والكستناء والزان حتى ارتفاع ١٨٠٠م. وتكثر على المنحدرات والأجزاء الجنوبية الأخرى غابات الكستناء والأعشاب وأشجار الفاكهة.

وحركة السياحة في سلسلة الأبنين قليلة، ولاسيما في المناطق الكلسية مثل كامبانية Campania وبازيليكاتة Basilicata في حين تزدهر في منطقة كالابرية (قلورية) Calabria التي تكثر فيها الصخور البلورية. وعموماً فالأبنين منطقة فقيرة يضطر كثير من سكانها إلى النزوح بحثاً عن مناطق أفضل.

هـ.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الأدرياتي (البحر -) - إيطالية - صقلية.

■ أبهـــا

أبها مدينة في المملكة العربية السعودية، تقع في الجنوب الغربي من منطقة عسير وجبال السروات على وادي أبها المنحدر شرقاً ثم إلى الشمال الشرقي، وهي على ارتفاع ٢٢٠٠م فوق سطح البحر عند تقاطع خط العرض ١٨° درجة و١٢َ دقيقة شمالاً وخط الطول ٤٢ْ درجة و٢٩َ دقيقة شرقاً، وتبلغ حرارتها السنوية المتوسطة ١٦° مئوية، ومتوسط أمطارها السنوية بحدود ٤٠٠ مم.

تشتمل أبها على ثماني قرى تؤلف اليوم مجموعة إدارية واحدة، وهي القرى ومناظر ومقابل ونعمان والربوع والنصب والخَنشعْ والمفتاحة. وتطل عليها جبال الدقل شمال المدينة وشمسان شمال شرقيها.

تشتهر أبها بنموذج مساكنها المعروف بنموذج أبها المؤلف من بيوت مبنية من الطين تتألف من طبقتين أو ثلاث تحيط بها أحزمة من شرفات بارزة خارج الجدران مؤلفة من ألواح صخر الشيست لحماية البناء من الأمطار. وتتباعد بعض هذه الأحزمة الأفقية مقدار ٣٠سم.

وفي أبها مركز سوق أسبوعية تقام كل ثلاثاء في ساحة تتوسط المدينة قرب الحصن، وقد تحول هذا المركز إلى منطقة تجارية حديثة. وتحيط بأبها زراعة مزدهرة تعتمد على مياه المطر وعلى المياه المستخرجة من آبار عدة. وقد أقيم إلى الغرب من أبها مباشرة سد يحجز مياه الأمطار ويؤلف بحيرة صغيرة في وادي المدينة الذي يخترقها باتجاه الشرق.

تشرف على المدينة عدة حصون بناها العثمانيون على قمم الجبال المجاورة. ورممت الحكومة السعودية اثنين منها. أما تاريخ أبها فلا يكاد يعرف شيء منه قبل أوائل القرن التاسع عشر. ويرجح أنها كانت موجودة في مملكة سبأ قبل الميلاد بنحو ستمئة سنة، ويعتقد أنها كانت تسمى «هيفا» أو «إيفا» وأن العمالقة قد عمروها، وعاش فيها بنو ثابر حتى جاءتهم الأزد. ووصلها الإسلام في بدايات انتشاره في عسير واليمن.

وقد احتلها العثمانيون في القرن التاسع عشر وغدت مركزاً للقضاء في ولاية اليمن العثمانية. واحتلها المصريون بقيادة إبراهيم باشا الذي قبض على طامي بن شعيب القائد العسيري فيها، وأرسله إلى اصطنبول حيث أعدم. ثم تحررت من السيطرة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وانسحب منها العثمانيون عام ١٩١٨ وانضوت بعد ذلك إلى الحكم السعودي عام ١٩٢٠ في أيام الملك عبد العزيز بن سعود.

ازدادت أهميتها بعد انضمام عسير إلى السعوديين عام ١٩٢٦ وغدت أبها عاصمة ولاية عسير.

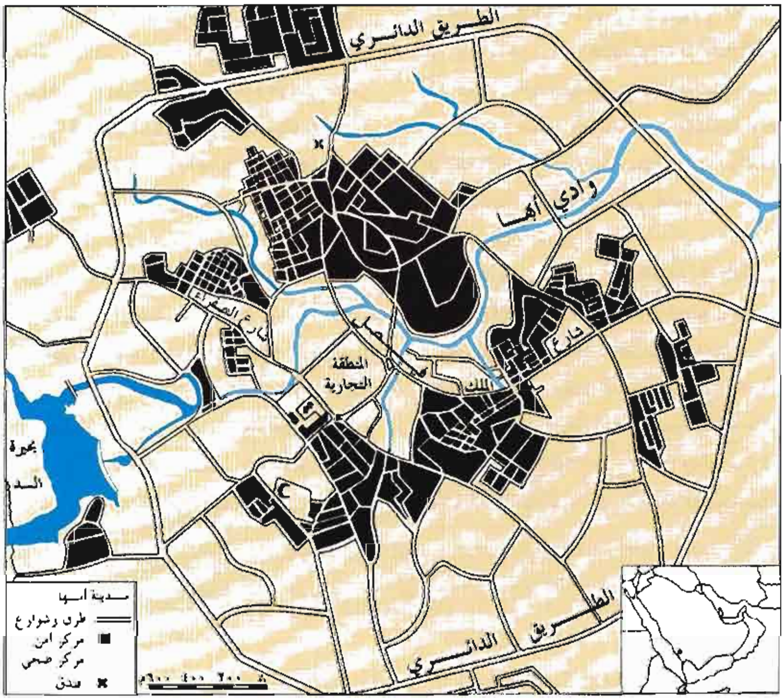
تعد أبها اليوم مدينة عصرية فيها أبنية حديثة وشوارع عريضة وحدائق ومتاجر، وهي قاعدة قبائل بني مُغيث. بلغ عدد سكانها عام ١٩٨١ نحو ٤٧١٣٤ نسمة ونحو ٥٥,٠٠٠ نسمة عام ١٩٨٩

يؤلف حي «مناظر» أصل المدينة ونواتها القديمة، ويعد بنو مغيث وربيعة ورفيدة وبنو مالك وغيرهم سكان أبها الأوائل.

وفي أبها اليوم جمعية للثقافة والفنون والنادي الأدبي وقرية المفتاحة التشكيلية للفنون التشكيلية. وتحيط بأبها مواقع سياحية وترويحية ومصايف قريبة منها في جبل السودة ومنتزهه المزود بالعربات المعلقة (التلفريك) ومنتزه الفرعاء وموقع الحبلة القديم وغيرها. وترتبط أبها بأنحاء المملكة بطرق برية حديثة، وبطريق مطار حديث (١٩٧٨) في منطقة حجلا المجاورة لأبها.



منظر عام لمدينة أبها



مخطط مدينة أبها

هـ.ت

الموضوعات ذات الصلة:

عسير ـ المملكة العربية السعودية.

■ الأبهري (المفضّل بن عمر -)
(٠٠٠-٦٦٣هـ/ ٠٠٠-١٢٦٤م)

فيلسوف ورياضي، عاش في الموصل ثم انتقل إلى إربل سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م. كان تلميذاً لعالم نال شهرة عظيمة، هو كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعة (ت ٦٣٩هـ)، وقد قال عنه «ليس بين العلماء من يماثل كمال الدين».

وضع الأبهري مؤلفات قيمة في الرياضيات وعلم الهيئة والإسطرلاب، كما وضع رسائل نفيسة في الحكمة والمنطق والفلسفة. ومن أشهر مؤلفاته: «كتاب هداية الحكمة»، وهو يتمتع بشهرة واسعة، رتبه على ثلاثة أقسام: في المنطق - والطبيعيات - والإلهيات. وشرحه قاضي مير حسين بن معين المَيْبُذيّ (ت ٨٨٠هـ)، وطبع في القسطنطينية سنة ١٣٢١هـ. وكذلك شرحه صدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي (ت ١٠٥٠ هـ)، وطبع في الهند سنة ١٢٩١هـ وكتاب زبدة الأسرار: وهو مجموعة فلسفية، ترجمها إلى السريانية ابن العبري (ت ٦٨٥ هـ). وكتاب «الإيساغوجي». وهو اقتباس من كتاب فرفوريوس الصوري المعروف بهذا الاسم. وله عدة شروح، طبع منها شرح شمس الدين أحمد الفناري (ت ٨٣٤ هـ/ ١٤٣٠م) في القسطنطينية سنة ١٨٢٠م.

وللأبهري في الهندسة مقالة في البرهان على صحة حل كمال الدين بإنشاء مربع يكافىء قطعة دائرة، ومقالة هندسية أخرى وجدت في مكتبة بلمبتون بجامعة كولومبيا، تشير إلى أن الأبهري حاول إثبات موضوعة التوازي لإقليدس. ويمتاز البرهان الذي قدّمه الأبهري بالإبداع الأصيل والتفكير العميق، إذ لم يسبق لأحد قبل الأبهري أن لاحظ الفكرة المبدعة التي استخدمها في البرهان، وهي أن العمود المقام على منصف زاوية يلاقي ضلعيها. وقد أضافت هذه الملاحظة مكافئاً جديداً لموضوعة إقليدس. ونشر أحد الرياضيين الإنكليز برهاناً لموضوعة إقليدس هذه في «مجلة الرياضيات البحتة والتطبيقية» عام ١٨٩٨م، أي بعد الأبهري بنحو ٧٠٠ سنة، وجاء برهانه مطابقاً تماماً لبرهان الأبهري، وربما يكون اطلع على برهانه. ويشار هنا إلى أنه ثبت في عام ١٨٤٦م عدم إمكان برهنة الموضوعة الخامسة لإقليدس، كما يُذكر أن النقص في برهان الأبهري هو في الانتقال من عبارته الصحيحة «لا يوجد عمود أخير يقطع ضلعي الزاوية» إلى العبارة «إن جميع الأعمدة على منصف الزاوية تقطع ضلعي الزاوية». ويشار هنا إلى أنه لما كانت مجموعتا الأعمدة التي تقطع ضلعي الزاوية والتي لا تقطعهما تكوّن قطعاً من نوع قطع ديدكند فيوجد إذن عمود أول لا يقطع الضلعين. وهذا ما تحقق فعلياً في أفكار الهندسة اللاإقليدية.

زهير الكتبي

الموضوعات ذات الصلة:

الإسطرلاب - إقليدس.

مراجع للاستزادة:

- هاشم الطيار ويحيى سعيد، موجز تاريخ الرياضيات (جامعة الموصل ١٩٧٧).
- كارلو نلينو، علم الفلك: تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (رومة ١٩١١).

■ أبو بكر بن أحمد الأسدي ◄ قاضي شهبة (ابن -).

■ أبو بكر الصديق
(٥١ ق هـ-١٣هـ/ ٥٧٣-٦٣٤م)

عبد الله بن عثمان المكنى بأبي قحافة بن عامر بن تَيْم بن مُرّة من قريش، وأمه أم الخير، سلمى بنت صخر من بني تَيْم بن مُرّة، أول خلفاء الراشدين، لقب بالعتيق لإكثاره من عتق العبيد، ولأن الرسول ﷺ بشره بأنه عتيق الله من النار، وسُمي صدِّيقاً لأنه صدّق الرسول ﷺ ليلة أُسري به، وكان أبو بكر أعلم قريش بأنسابها، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق حميد، أليفاً ودوداً حسن المعاشرة، وكان يتولى في الجاهلية أمر الديات وينوب فيها عن قريش، فما تولاه من هذه الديات صدّقته قريش وقبلته، وما تولاه غيره خذلته وترددت في قبوله وإمضائه، وكان في جاهليته وإسلامه وقوراً يغار على مروءته ويتجنب مايريب فلم يشرب الخمر قط لأنها مُخلّة بوقار مثله، ولما سُئل لم كان يتجنبها في الجاهلية قال: «كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي فإن من شرب الخمر كان مضيّعاً في عقله ومروءته»، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته، فلما أسلم أبو بكر - وكان من أوائل من اعتنقوا الإسلام - أظهر إسلامه، وجعل يدعو إليه من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم على يديه عثمان بن عفان، والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص وطلحة بن عبيد الله. وقد بقي أبو بكر في مكة إبان هجرة الكثير من المسلمين إلى الحبشة، وصحب الرسول يوم هاجر إلى المدينة، وآخى الرسول بينه وبين عمر بن الخطاب بعد الهجرة.

شهد أبو بكر بدراً وأُحُداً والمشاهد كلها، وكان فيمن ثبت مع رسول الله في أُحد حين ولّى الناس، ودفع رسول الله ﷺ رايته العظمى يوم تبوك إليه. وكانت سوداء، وأمره أن يصلي بالناس في أثناء مرضه.

بويع أبو بكر بالخلافة يوم قبض الرسول ﷺ سنة ١١ هـ إثر جدَل دار بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة وقد حاول كل فريق إبراز حقه في تولي أمور الجماعة فحسم عمر بن الخطاب الجدل بأن تقدّم هو وأبو عبيدة بن الجراح من أبي بكر وقالا له: «... إنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك أو يتولى الأمر عليك أبسط يدك نبايعك». وسبقهما إليه بشير بن سعد الأنصاري فبايعه وقام إليه مبايعاً من كان حاضراً من الأوس والخزرج والمهاجرين وهذا ماتعارف المؤرخون على تسميته باسم البيعة الخاصة التي تلتها في اليوم التالي البيعة العامة في المسجد.

ومع أن بيعة أبي بكر كانت أمراً مفاجئاً لا روية فيه ولم يستشر فيه كل المسلمين الموحودين في المدينة، وإنما بودر بها خوف وقوع الفتنة. فقد قال عمر في تعليل اختيار أبي بكر للخلافة كلمته المأثورة: «ليس فيكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبي بكر».

أبو بكر والردة:

حينما انتشر خبر مرض الرسول ﷺ إثر عودته من حجة الوداع سنة ١٠هـ، وهو غير مرض موته، وثب الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب في اليمامة وطليحة في بلاد بني أسد، مرتدين عن الإسلام، وقد تم القضاء على الأسود العنسي قبل وفاة الرسول الكريم ﷺ واستفحل أمر مسيلمة وطليحة بعد وفاة الرسول، وارتدت قبائل كثيرة من العرب. ومع دقة موقف المسلمين في المدينة. فقد وقف أبو بكر من المرتدين ومدعي النبوة، كما وقف من أولئك الذين امتنعوا عن دفع الزكاة موقفاً واحداً صارماً، ذلك أن مفهوم الإيمان والدولة ووحدة كلمة العرب ومحو العصبية القبلية وإحلال الوحدة الدينية محلها، كانت عند أبي بكر كُلاً لا يتجزأ، ومن ثم قرر محاربة المرتدين جميعاً. ولما كان الذين ثبتوا على الإسلام قلة بالقياس إلى من ارتد، فإن الناس نصحوا الخليفة ألا يحارب الممتنعين عن دفع الزكاة «لأن العهد حديث والعرب كثير، وهم شرذمة قليلة ولا طاقة لهم بالعرب كلهم.

فكان جواب أبي بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث، شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فوالله الذي لا إله إلا هو لا أقصّر دونهم». وقد حمد له عمر بن الخطاب رأيه فيما بعد قائلاً: «أنا فداؤك لولا أنت لهلكنا».

حاول أبو بكر إقناع المرتدين بالعودة إلى الإسلام الصحيح عن طريق الرسل والكتب كما كان يفعل رسول الله ﷺ إلى أن رجع أسامة بن زيد من تخوم الشام، إلا ماكان من أهل ذي حساً وذي القَصَّة. إذ إن مجموعة من القبائل اجتمعت على طليحة وأقامت في ذي القَصَّة، وبعثوا وفوداً إلى المدينة تعلن لأبي بكر أنهم مقيمون على الصلاة ممتنعون عن دفع الزكاة، فرفض أبو بكر الاستجابة إلى طلبهم، وقد أيقن بأنهم سوف يهاجمون المدينة لأنهم رأوا المسلمين قلة، وكان هذا ما حدث، اذ عمد فريق منهم إلى مهاجمة المدينة ليلاً وبقي فريق بذي حساً.

استطاع من في المدينة أن يردّوا المهاجمين وأن يتتبعوهم إلى ذي حساً، ولكنهم اضطروا إلى الرجوع حينما نفرت إبلهم، فظن القوم بالمسلمين الوهن، وبعثوا إلى القبائل المقيمة بذي القصَّة أن يقدموا عليهم وأدرك أبو بكر حرج موقف المسلمين إذا ما تعرضوا لهجوم القبائل متكاتفة، فبات يتهيأ، ثم خرج إليهم ليلاً، فما طلع الفجر إلا وقد باغت المسلمون المرتدين ووضعوا فيهم السيوف، وما أن بزغت الشمس حتى ولوهم الأدبار واتبعهم أبو بكر حتى نزل بذي القَصَّة، وترك بها النعمان بن مقرّن مع عدد من الرجال ورجع إلى المدينة، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم، وفعلت قبائل أخرى فعل عبس وذبيان، فحلف أبو بكر «ليقتُلَنَّ في المشركين كل قتلة، وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة». فلما قدم أسامة بن زيد استخلفه أبو بكر على المدينة وخرج إلى الربَذَة ليلقى بني عبس وذبيان وجماعة من بني عبد كنانة فلقيهم بالأبرق، فقاتلهم وهزمهم ثم عاد إلى المدينة، فلما استجم جند أسامة عقد الألوية، فعقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً، وكتب نسخاً من رسالة واحدة إلى جميع المرتدين، وبعث بها مع الرسل أمام الجنود، وأمر الرسل بقراءة الكتب في كل مجمع لهم والداعية الأذان. فإذا أذن المسلمون فأذنوا فليكفوا عنهم وإن لم يؤذنوا فليعاجلوهم، وإن أذنوا وسألوهم ما عليهم فأبَوا فليعاجلوهم وإن أقرّوا قُبل منهم.

إن القائد الذي كان له الفضل في القضاء على أخطر حركتين بعد ردة الأسود العنسي هو خالد بن الوليد، الذي انتصر على طليحة ومن اجتمع حوله من أسد وعبس وذبيان وغطفان في البُزاخة، أما مسيلمة الكذاب ومن اتبعه من قومه من بني حنيفة وأهل اليمامة فإن أبا بكر كان قد أرسل إليه عكْرِمة بن أبي جهل، وأتبعه بشرحبيل بن حسنة، فلما هُزم عكرمة كتب أبو بكر إلى شرحبيل أن يظل في مكانه حتى يأتيه خالد، ولكن شرحبيل لم ينتظر خالداً كما أمره أبو بكر فنُكِب مثلما نُكب عكرمة، إذ إن جيش بني حنيفة كان يقدّر بأربعين ألف مقاتل. وازداد قوة بتحالف مسيلمة مع سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية التي أقبلت من الجزيرة مدعية النبوة. ولكن فاجأهم قدوم خالد وجرت بين الطرفين معركة ضارية بعقرباء وفي حديقة الموت وانتهى القتال بمصرع مسيلمة وانطفأت الفتنة.

نجح أبو بكر في نحو عام في القضاء على حركة المرتدين فكان نجاحه تنقية للإسلام لأنه خلص الدولة الإسلامية الناشئة من كل الشكوك التي أثارها موت الرسول ﷺ وجنبها الخوف من أن يتصدع البنيان بموت الباني، كما كان تثبيتاً للإسلام ومداً له إلى الأطراف التي بدا كأنها لم تكن قد لقنت الدين كما لقنته المراكز القريبة من مكة والمدينة، ولكن أبا بكر بقي بعدها وفي كل الغزوات والفتوحات التي تمت في عهده، لا يثق بالمرتدين، وكان لا يستعين في حروبه بأحد منهم حتى مات.

الفتوح في خلافة أبي بكر

إن فكرة الفتح ونشر الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية فكرة تتفق وعمومية الدعوة التي تقتضي ألا تقتصر على عرب الجزيرة فحسب بل تتجاوزهم لتشمل العرب كافة وأمم الأرض جميعاً، وقد سار الرسول في طريق الجهاد داخل أراضي الجزيرة وخارجها، وقام هو نفسه بإرسال البعوث إلى تخوم الشام. فكانت مؤتة، وتبوك وبعث أسامة بن زيد الذي جهزه الرسول بنفسه قبل أن يتوفى، وأنفذه أبو بكر فور أن بويع بالخلافة، ولذلك فإنه لم يكد خالد يفرغ من حروب الردة حتى كتب إليه أبو بكر وهو في اليمامة أن يمضي إلى العراق فيدخلها من أسفلها، وكتب كذلك إلى عياض بن غنم أن يأتي المصَّيخ ويدخل العراق من أعلاها وأيهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه. وقد كان الهدف الأول للجيوش الإسلامية أن تبلغ الحيرة عاصمة عرب الضاحية حتى تنزلها وتنفي الفرس عنها، وتجعل الطريق بينها وبين الحجاز آمنة لا سلطان فيها لأجنبي، ثم تقتحم على أهل فارس دارهم ومستقر عزهم المدائن.

كانت أولى المعارك التي خاضها خالد بن الوليد وانتصر فيها معركة ذات السلاسل في الكاظمة سنة ١٢هـ. ثم تلتها معركة المذار، فوقعة الوَلَجة وفتح الُّيس وأمغيشيا، ثم سار خالد إلى الحيرة وأرغم أهلها على المفاوضة والصلح ودفع الجزية، واستولى على الأنبار حينما علم أن الفرس يعدون جيوشهم ويرتبونها لوقف زحفه. واضطر شيرزاد صاحب الأنبار عندما وجد أن لا قبل له بالثبات أمام خالد إلى مصالحته على ما أراد على أن يخلي سبيله وبعد أن فرغ خالد من فتح الأنبار، قصد

عين التمر فدانت له ثم كانت معارك دومة الجندل والحُصيد والخنافس والثنيّ والفراض. ثم خرج حاجاً لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٢هـ مكتتماً حجه، ووافاه كتاب أبي بكر بالحيرة منصرفه من الحج، يأمره بالتوجه إلى الشام مدداً لجيوشها التي كان أبو بكر قد سيرها إلى هناك، ويمكن أن يميز في الروايات الكثيرة التي تتحدث عن واقعات الفتوح في بلاد الشام أنها تنتظم مرحلتين: في المرحلة الأولى: تركز نشاط القادة العرب على المناطق التي كانت القبائل العربية تؤلف الكثرة السكانية فيها خاصة، وليس على مدن الشام الرئيسية ورواية ابن أعثم الكوفي تشير إلى أن أبا بكر أمر أبا عبيدة بن الجراح أن يقصر حروبه على مناطق الريف وأن لا يهاجم المدن حتى يأتيه أمر أبي بكر «فبث خيلك في القرى والسواد ولا تحاصرن مدينة من مدنهم حتى يأتيك أمري» وهذا يفسر لنا عدم اهتمام المصادر اليونانية والسريانية بذكر منجزات الجيوش الإسلامية في هذه المرحلة، لأن المسلمين في نظرهم لم يكونوا مصدر تهديد لهم، لأنهم لم يقوموا بأي هجوم على المدن الرئيسة كدمشق والقدس وغزة وبصرى أو المدن الساحلية المهمة الكثيرة، أما في المرحلة الثانية: فقد اشتبك الجيش الإسلامي مع القوى البيزنطية في معارك كبيرة، انتهت بتغلبه على بلاد الشام ومطاردة البيزنطيين، وفتحت له في الشمال الطريق إلى الجزيرة وما وراءها وفي الجنوب الطريق إلى مصر وما دونها. تبدأ المرحلة الثانية مع مجيء خالد وجيشه إلى الشام حيث التقى يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسَنة في بصرى واشترك معهم في فتحها، ثم اتجه الجميع جنوباً لنجدة عمرو بن العاص في وادي عربة، ولما علم البيزنطيون بهذا التجمع العسكري العربي، غيروا خطتهم، وقصدوا أجنادين، ولكن القوات العربية تمكنت من الانتصار عليهم انتصاراً ساحقاً في جمادى الأولى سنة ١٣هـ، وتوفي أبو بكر في جمادى الآخرة وهو ابن ٦٣ سنة بعد أن عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب الذي صلى عليه، ودُفن أبو بكر إلى جانب رسول الله ﷺ وكان قد أوصى ابنته عائشة أن يدفن إلى جانبه.

مع قصر مدة خلافة أبي بكر (١١-١٣هـ) فقد كان له فضل ترسيخ أركان الدولة العربية الإسلامية الوليدة، كما قنّن بأقواله وخطبه القواعد التي اعتمدها الفقهاء في وصفهم للخلافة الصحيحة، فقد أوضح أبو بكر أن الخلافة نظام يتولى صاحبه رعاية التراث الديني والمدني حينما قال: «لا بد لكم من رجل يلي أمركم ويصلي بكم ويقاتل عدوكم»، كما حدد أبو بكر سلطة الخليفة بالرأي العام مع تقييدها بدستور الإسلام وهو القرآن والسنة عندما خاطب المسلمين في المسجد قائلاً: «... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم» وأكد أبو بكر إدراكه لحدود سلطاته في خطاب آخر قال فيه: «... إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات وإنما أنا متبع ولست بمبتدع فإذا استقمت فأعينوني وإن زغت فقوّموني».

نهض أبو بكر بالتبعات التي ألقتها عليه خلافته لرسول الله ﷺ على خير وجه فحرص على إنفاذ ما أمر به الرسول قبل وفاته كما حرص على وحدة المسلمين بعد وفاته، وعلى ماعرف به من لين ورحمة أظهر غاية الحزم والشدة في محاربة المرتدين عن الإسلام، فقد أصر على تسيير جيش أسامة لأن النبي ﷺ ولاه وأمر بتسييره وما يكون له أن ينزع رجلاً استعمله رسول الله ﷺ «ولو تخطفته السباع ولم يبق في القرى أحد غيره»، وجنح أبو بكر إلى الصرامة في مسألة الردة وأبى أن يترك عقالاً مما كان يأخذه رسول الله ﷺ من فريضة الزكاة، ورفض أبو بكر عزل خالد بن الوليد عن القيادة حينما اقترح عمر بن الخطاب عزله إثر بنائه بامرأة مالك بن نويرة، والبناء ببنت مجّاعة في حرب بني حنيفة، وتوزيع الأموال وتأخير الحساب، لأن خالداً سيف من سيوف الله ولا يعزل أبو بكر من استعمله الرسول ﷺ وأقر عمر فيما بعد بصواب رأي أبي بكر حينما قال: «يرحم الله أبا بكر، هو كان أعلم مني بالرجال».

ويعود إلى أبي بكر الفضل بجمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر بعد أن استحرّ القتل بالقرّاء يوم اليمامة، وأسند أبو بكر هذه المهمة الدقيقة إلى زيد بن ثابت، وكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر ثم عند حفصة ابنة عمر.

نجدة خماش

الموضوعات ذات الصلة:

أجنادين - خالد بن الوليد - الخليفة - الردة (حروب -) - عمر بن الخطاب

مراجع للاستزادة:

- ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣ (دار صادر، بيروت ١٩٨٥).
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ج٣ (القاهرة ١٩٦٣).

■ أبوجـــا

أبوجا Abuja عاصمة دولة نيجيرية [ر]. تقع في وسط البلاد، في أرض ارتفاعها المتوسط نحو ٥٠٠م فوق سطح البحر على نهر إيكو Iku أحد الروافد العليا لنهر النيجر عند تقاطع خط العرض ٩ درجات و١٢ دقيقة شمالاً مع خط الطول ٧ درجات و١١ دقيقة شرقاً. ظهيرها التضريسي مؤلف من هضبة باوتشي أو (جوس) وتلال أبوتشي، مناخها مداري فوق استوائي وأمطارها صيفية وتهطل في بقية الفصول وتقدر بنحو ١٠٠٠مم سنوياً. تراوح حرارتها السنوية بين ٢١ و٢٥ درجة مئوية، تربتها بنية حمراء لاتيريتية تكونت على قاعدة من صخور حقب ما قبل الكمبري القديمة في نطاق السافانا العالية الأعشاب والغابة المدارية المفتوحة.

كانت أبوجا حاضرة إمارة تحمل اسمها وتعد منطقتها واحدة من بقاع إفريقية التي ظهرت فيها حضارة العصر الحجري الحديث. وعرفت صناعة الحديد واستعماله في الألف الأول قبل الميلاد. وتشير اللقى التي عثر عليها في المدينة وفي وادي نهر ماكابولو إلى وجود مؤثرات حضارة شعب النوك الإفريقية التي ازدهرت بين ٩٠٠ ق.م و٢٠٠م ووصلت إلى المنطقة. وظلت منطقة أبوجا مغمورة الذكر نسبياً حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر عندما أصبحت إمارة تابعة لمملكة الحوصّة التي عرفت باسم زازاو التي بلغت مساحتها نحو ٢٩٧١كم٢. وكانت تتألف من أربع زعامات

(مشيخات) من قبيلة الكورو تدفع الضرائب للحوصّة. وأبرز مدنها مدينة زوبا الواقعة على بعد ١٠كم جنوب مدينة أبوجا المعروفة اليوم. وفي عام ١٨٠٤ سقطت مملكة الحوصّة وعاصمتها زاريا بيد مجاهدي «الفولاني» مما أجبر ملك (ساركين)زازاو الحوصّي محمد ماكاو على اللجوء إلى منطقة أبوجا، وانتقل معه زعماء الحوصّة إلى مدينة زوبا. لكن خليفة ماكاو وشقيقه أبوجاتا نقل مقر حكمه من زوبا إلى موقع أبوجا حيث أنشأ المدينة سنة ١٨٢٨ وشيد سورها في السنة التالية، وأعلن نفسه أميراً على إمارة أبوجا التي أخذت اسمها من اسم أميرها مختصراً (أبوجاتا = أبوجا).

تعرضت الإمارة لهجمات متكررة من الفولانيين. لكنها صمدت أمامها وبقيت مستقلة عن مملكة سوكوتو الفولانية. وعلى الرغم من ذلك العداء أقامت أبوجا علاقات تجارية مع الإمارات المجاورة لها، منها إمارتا بيدا وزاريا الفولانيتان. وذلك في عهد أمير أبوجا أبو كواكا (١٨٥١-١٨٧٧). وظلت أبوجا مستقلة حتى سقطت بيد المستعمرين البريطانيين في أثناء احتلالهم لنيجيرية في مطلع القرن العشرين، لكن حكام الإمارة الحوصّيين احتفظوا بالحكم المحلي وبلقب ملك زازاو (ساركين زازاو). مع أن السكان هم من العواريين والكورو.

ظلت وظائف مدينة أبوجا وما زالت في أغلبها تعتمد على ظهير جغرافي تغلب عليه السمة الزراعية والرعوية. إذ يعمل أغلب سكانها المقدر عددهم بنحو ٢٩٨,٣٠٠ نسمة (١٩٩٢) في زراعة اليام (ضرب من البطاطا) والذرة والدخن والفول السوداني والقطن، وفي تربية الحيوانات كالماعز والدواجن وغيرها. وتشتهر أبوجا بأنها موطن الكثير من الصناعات الحرفية التقليدية وفي مقدمتها صناعة الفخاريات الغوارية والنسيج القطني المصبوغ باللون الأزرق من النيلة المنتجة محلياً، وكذلك صناعة الحُصر وغيرها. وأبوجا مركز تجاري مهم في وسط نيجيرية. زاد من نشاط سكانها الاقتصادي استخراج القصدير من أنحائها منذ النصف الأول من القرن العشرين. لكن التطور البارز في وظائف المدينة رافق صدور قرار الحكومة النيجيرية نقل عاصمة البلاد من مدينة لاغوس الساحلية إلى أبوجا الداخلية في ثمانينات القرن العشرين، إذ بدأ العمل بتنفيذ المخطط التنظيمي الجديد بما يناسب عاصمة جديدة لدولة يزيد عدد سكانها على ١٠٧,٩٠٠,٠٠٠ نسمة (١٩٩٤م). فظهرت فيها المؤسسات والمنشآت والدوائر الرسمية والحكومية المحلية والدولية ومناطق السكن الحديثة والخدمات والمرافق المرتبطة بها، كما أخذت السفارات الأجنبية بالانتقال إلى أبوجا التي افتتح بالقرب منها مطار دولي يربطها بالعالم وبالمدن النيجيرية الأخرى. كذلك أصبح ظهيرها القريب وحدة إدارية خاصة بمحافظة العاصمة، مساحتها ٨٠٣٤ كم٢ وعدد سكانها أكثر من ٣٧٨٦٧١ نسمة (١٩٩١). ويتوقع لأبوجا النمو السريع لتحول محاور الاهتمام والهجرة السكانية إليها نتيجة وظيفتها الإدارية والسياسية الجديدة عاصمةً للبلاد بدلاً من لاغوس التي زاد عدد سكانها على ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة (١٩٩١).

يرجع نقل العاصمة النيجيرية من لاغوس إلى أبوجا (رسمياً عام ١٩٩١) إلى عوامل كثيرة منها اكتظاظ لاغوس بالسكان وتفاقم أزمات السكن والمواصلات وغيرها من خدمات تعاني من اختناقات وتؤدي إلى مشكلات اجتماعية واقتصادية تتزايد مع استمرار الهجرة السكانية إليها وما يرافقها من مخالفات في شتى النواحي والأنحاء، ومنها كذلك ارتفاع نسبة التلوث في لاغوس الواقعة في وسط مناخ استوائي حار ورطب جداً يغلب على ساحل البحر في شريط مستنقعات شجر القرْم (المانغروف) المرزغي، مقابل مناخ أبوجا الطيب نسبياً لوقوعها على مستوى أعلى بعيداً عن الرطوبة الساحلية. ويتصف الموقع الجغرافي لأبوجا في وسط البلاد بأنه ذو ميزة استراتيجية، لبعده عن ساحل البحر وعن حدود الدول المجاورة مسافات متقاربة، في حين تقع لاغوس على المحيط الأطلسي مباشرة مما يسهل احتلالها وتهديدها في موقعها المتطرف. إلى جانب عوامل أخرى تجعل أوجه الشبه كثيرة بين حالة أبوجا ولاغوس من جهة وحالة أنقرة [ر] وإصطنبول [ر] في تركية قبل أكثر من نصف قرن من جهة ثانية.

عادل عبد السلام

الموضوعات ذات الصلة:
إفريقية - لاغوس - المناخ - النيجر.

■ أبو حامد (تل -)

أبو حامد موقع أثري، في غور الأردن من العصر الحجري النحاسي. في منتصف الطريق بين بحيرة طبرية شمالاً والبحر الميت جنوباً، على الضفة اليمنى لنهر الأردن. يتألف من مجموعة من التلال التي تكونت على امتداد منطقة مساحتها نحو ٦,٥ هكتار، وقد أزالت العوامل الطبيعية الجزء الأكبر منها ولم يبق إلا التل الرئيس ومساحته نحو ٢,٥ هكتار وارتفاعه بضعة أمتار.

بدأ التنقيب في الموقع عام ١٩٨٦ من قبل بعثة أردنية - فرنسية مشتركة بإدارة كل من جنفيڤ دلفوس G Dollfus وزيدان كفافي واستمر حتى عام ١٩٩٢، وتم الكشف عن مستوطنة مهمة، عاشت مدة قصيرة لم تتجاوز القرنين، بين نهاية الألف الخامس وبداية الألف الرابع قبل الميلاد، منازلها متعددة الحجرات مبنية من اللبن، على أساسات حجرية، بعمق ٣٠-٤٠ سم، جدرانها سميكة، وهي ذات أشكال متنوعة معظمها مستطيل وبعضها مربع، وأكثرها كبير الحجم، تراوح مساحة المنزل بين ٢٠-٢٥م٢، وهي تلتف حول ساحات واسعة عموماً وتفصل بينها شوارع وأزقة مختلفة، وكشف في المستوطنة عن حفر المواقد والتنانير وأحواض للتخزين.

ومن الآثار المنقولة هناك الأدوات الحجرية ولاسيما المناجل والبلطات والمثاقب ورؤوس النبال والشفرات والسكاكين والمكاشط. كما وجدت الأدوات البازلتية كالرحى والأجران والمدقات والبلطات والمثاقب العظمية، والأواني الحجرية - وبعضها من البازلت - وقد صنعت بدقة ومهارة كالمزهريات والأقداح ورؤوس الدبابيس، وأكثرها من الحجر الكلسي وبعضها من الهيماتيت. ومعظم الأواني الفخارية صنع

بالبد وبعضها يدل على استخدام الدولاب، وهي مزخرفة بخطوط حمراء أو متعرجة لها شكل هندسي أو أشكال أفاع وبعضها يحمل زخرفة بالحز أو بالتلوين أو باللصق، أهمها الصحون و"الزبادي" والكؤوس.

ونجدر الإشارة إلى الجرار الضخمة التي استخدمت في تخزين مواد الطعام والشراب وإلى الأواني الفخارية على هيئة حيوانات (أوان جنائزية)، والتماثيل الطينية والحجرية المختلفة التي مثلت المعز والضأن والبقر أو البشر والطيور. وهناك الخرز والحلي من الصدف والأحجار النادرة، ورسوم جدارية ذات خطوط ملونة متقاطعة.

كما كشفت في الموقع أدلة الصناعات النسيجية وصناعة السلال. وتبين أن السكان قد دجنوا الضأن والمعز والبقر والخنازير والخيول والكلاب والحمير، كما استفادوا من الحيوانات والطرائد البرية ولاسيما الغزلان والأرانب والطيور والقواقع والأسماك.

ومن مزروعاتهم القمح والشعير والحمص والعدس والجلبان والكتان، وهناك أشجار الزيتون والتين والبلوط. وهكذا فقد قامت الزراعة من جهة والرعي من جهة أخرى بالدور الأساسي في حياة السكان الاقتصادية، ولا توجد معلومات كافية عن واقعهم الاجتماعي والروحي.

تأتي أهمية هذه المستوطنة من كونها تمثل المرحلة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ، وهي تمثل حلقة في سلسلة حضارية واحدة سادت جنوبي سورية وفلسطين على امتداد ذلك العصر وتنسب إلى ما أصبح يعرف بالحضارة الغسّولية التي كشفت أول مرة في تليلات الغسّول شمال شرق البحر الميت، كما وجدت آثارها في منطقة الجولان والنقب، فقد ظهرت على امتداد تلك المنطقة المستوطنات المتطورة التي مهدت لنشوء المجتمعات التاريخية الباكرة في مطلع الألف الثالث قبل الميلاد.

سلطان محيسن

مراجع للاستزادة:

- أبو حامد قرية من الألف الرابع في وادي الأردن (منشورات دائرة الآثار العامة الأردنية والمركز الثقافي الفرنسي، عمان ١٩٨٨).
- G. DOLLFUS & Z. KAFAFI, Abu Hamid, premiers resultats.(Paleorient 1986).

■ أبو ريشة (عمر -)
(١٩٠٨-١٩٩٠م)

شاعر عربي سوري أصيل، وعلم من أعلام الشعر في العصر الحديث، ولد في مدينة عكا بفلسطين، وكان والده شافع قائمقاماً في مدينة منبج بسورية، ولكنه نفي إلى قرية بتركية بجاهرته بمعارضة الحكم التركي، فأقامت زوجته خيرة الله لدى والدها إبراهيم بن علي نور الدين شيخ الطريقة اليشرطية الشاذلية في عكا، وهناك ولد عمر. وحين سمح لوالده بالعودة إلى سورية استقر في حلب. فانتقل الطفل مع أمه إليها، وفيها تلقى علومه الابتدائية والثانوية، ثم أرسله والده إلى بيروت ليتابع دراسته في الجامعة الأمريكية.

وفي لبنان تفتحت موهبة عمر الشعرية فنظم الشعر وهو في ريّق صباه. ولا غرو أن تتفتح شاعريته في وقت مبكر فقد كان سليل أسرة اشتهرت بالشعر، إذ كان أبوه وأخوه وأخته شعراء. ولقد حاول أبوه أن يبعده عن الشعر، إلا أن هذه المحاولة لم تكن لتخمد شاعريته الفياضة. وكان للانبعاث القومي أثره في نفس الشاب فاندفع في تياره، وقيل إنه وقف خطيباً وشاعراً وهو لمّا يتجاوز الخامسة عشرة من سنه.

وقد رغب والده في تعليمه صناعة صباغة النسيج، فأرسله في عام ١٩٢٩ إلى لندن؛ ولكن الفتى لم يستطع مغالبة نزوعه إلى نظم الشعر، وأسره سحر الطبيعة هناك فانصرف إلى تأملها وتصوير مفاتنها في شعره، وكانت له تجربة عاطفية مع فتاة بريطانية اسمها نورا، ولكن الموت عاجلها، وقد تركت هذه التجربة أثرها البليغ في نفس عمر وفي شعره.

وفي عام ١٩٣٢ عاد عمر إلى حلب، وكان قد نظم قبلُ مسرحية عنوانها «ذو قار»، نشرها عام ١٩٣١، واستقبلها القرّاء بالإعجاب والترحيب. وبعد عودته إلى حلب انخرط في النضال الوطني شاعراً مناضلاً يقارع الاستعمار الفرنسي، فكانت قصائده تلهب عواطف أبناء الوطن. ووجه طائفة منها إلى رجال السياسة وزعماء البلاد، آخذاً عليهم تقاعسهم في أداء واجبهم الوطني والقومي.

وبدءاً من عام ١٩٤٩ انتظم عمر في السلك الخارجي، فعُيّن سفيراً لسورية في البرازيل ثم في الأرجنتين ثم في تشيلي ثم في الولايات المتحدة فالنمسة، واستقر به المطاف أخيراً سفيراً لبلده في الهند.

وكانت هذه المرحلة من حياته خصبة، فقد أتقن فيها عدة لغات، واتصل بعدد من الزعماء والقادة في الشرق والغرب وربطته بجواهر لال نهرو صداقة متينة.

وبعد إحالته على التقاعد كانت إقامته موزعة بين لبنان وسورية والمملكة العربية السعودية، حيث أصيب فجأة بجلطة دماغية توفي على أثرها، فنقل جثمانه إلى حلب ودفن فيها.



عمر الشاعر

وقف عمر في أثناء إقامته في بلدان أوربة وأمريكة على مذاهب الأدب الغربي وتأثر بها، مضيفاً إلى ذلك اطلاعه الواسع على التراث العربي والثقافة العربية، فكان لهذه الثقافة الخصبة المتنوعة صداها الجليّ في نتاجه الشعري. وقد حرص عمر على بيان منحاه الشعري فقال: «لقد بنيت كوخي على نحو عربي خالص، ولست نزاعاً إلى مذهب دون مذهب، وما يبدو في شعري من أطياف الغرب نوع من التمثيل والتأثر من غير قصد».

وقد تأثر في أول نشأته بشعر البحتري وأبي تمام والمتنبي، ولكن بعد وقوفه على روائع الشعر

الغربي تضاءل إعجابه بهم، وتجلّت في قصائده بعد ذلك وحدة القصيدة وانسجام أجزائها واتساع آفاقها، وأصبح يرى في المتنبي شاعراً متكسباً يسعى وراء المال، ويأخذ على البحتري ضيق أفقه، وكان رأيه سيئاً في ابن الرومي، فسلك في شعره نهجاً يغاير نهج أولئك الشعراء، على أن الأصالة العربية كانت الطابع الغالب على شعره.

نظم عمر الشعر في أغراض شتى: في الشعر الوطني والقومي، والغزل، ووصف الطبيعة، والرثاء، وغيرها. وناهض في شعره الوطني الاستعمار الفرنسي، وأثار حمية الشباب للذود عن الوطن، ووضع أناشيد وطنية تشيد بمجد العروبة وتزرع في قلوب الناشئة حب الوطن والفناء في سبيله. يقول في أحد أناشيده:

في سبيل المجد والأوطان نحيا ونبيدْ
كُلّنا ذو همّة شمّاء جبّارٌ عنيدْ
لا تطيق السادةُ الأحرارُ أطواق الحديدْ
إنّ عيش الذّلِّ والإرهاق أولى بالعَبيد

وقد وقف خاصة من القضية الفلسطينية موقف الداعي إلى نصرة فلسطين بالروح والدم، الناعي على الزعماء المتخاذلين موقفهم الخانع، وعلى الأمة تمجيدها لرجال لا يستحقون إلاّ الازدراء، يقول في إحدى قصائده:

ألإسرائيل تعلو رايةٌ
في حمى المهد وظلّ الحَرم
كيف أغضيت على الذلّ ولم
تنفضي عنك غبار التُهمِ
أمتي كم صنمٍ مجّدته
لم يكن يحمل طُهر الصَنَمِ
لا يُلام الذئب في عدوانه
إن يكُ الراعي عدوّ الغَنم

ويحاول في قصيدته هذه إثارة الغيرة والحماسة في قلوب الرجال بذكره ما تعرّضت له النساء الفلسطينيات على يد المعتدي الإسرائيلي من امتهان واعتداء على الأعراض:

رُبّ وامعتصماه انطلقت
ملءَ أفواه الصبايا اليُتّمِ
لامست أسماعهم لكنها
لم تلامس نخوةَ المعتصم

على أن انشغاله بقضايا الوطن والشؤون العربية لم يحل دون التفاته إلى المرأة، فقد احتلت حيّزاً كبيراً من شعره، وكانت لاتزال تراوده ذكرى حبّه الأول في بلاد الغربة فيناجي طيف محبوبته نورا ويسترجع ذكرى أيامه معها فتنبعث مواجده الغافية، يقول في قصيدة «الطيف»:

على شفتينا ثار طيفك وارتمى
فأبعد وَهْجَ الشوق والعطر عنهما
وتسألني ما بي فأخنق زفرتي
وأرنو إليها مُوجَعاً متبسّما
وأرجع عنها حاملاً منك وحشتي
وفي خافقي جوعٌ وفي مقلتي ظَما

وغزله في جملته ينزع إلى تصوير عواطفه المتأججة، وقد يجنح إلى تصوير مفاتن محبوبته، يقول من قصيدة:

لنا الحبُّ والكأسُ والمزهرُ
وللناس منّا الصدى المُسكرُ
فميلي نغبْ في شذا ضمّة
يرف بها العالم المُقفرُ
فأحلامُنا يقظاتُ الحياة
ووحيُ النفوس التي تشعر

وفي شعره وصف رائع لمجالي الطبيعة ومفاتنها، يقول في وصف مساء فيينة:

وتعرّت على الشتاء فيينَا
واكتست بالغمائم المجدولهْ
وتلوّى الدانوبُ بين يديها
مُتعَباً ساحباً خُطاه الثقيلهْ

وللرثاء حيّز من شعره وقفه على بكاء ذويه وأصدقائه وعظماء الرجال، وهو لا يرثي إلا بدافع ما يخامر فؤاده من الأسى واللوعة ولا يجنح إلى التملّق والإرضاء، فلا يصنّف في عداد شعراء المناسبات، أمثال شوقي وحافظ وغيرهما. ومن رائع رثائه قصيدته «لوعة» التي بكى فيها عليّاً ابن أخته زينب، ومنها يقول:

وتراءى لي عليٌّ كاسياً
من خيوط الفجر أسنى حُلَلِ
مرح اللفتة، مزهوَّ الخُطا
سلس اللهجة، حُلوَ الخجل
طلعةٌ أستقبل الدنيا بها
ناعم البال بعيدَ المأمل
قلب أختي لم أكن أجهله
إن أختي دائماً تكتب لي
مالها تنحرني نحراً على
قولها: مات ابنُها، مات علي

وقد رثى بدافع الوفاء أصدقاءه من زعماء الجهاد والمناضلين، وهو في رثائه لهم يعدّد مناقبهم ويشيد بمآثرهم ويصوّر أثر فقدهم في النفوس، وممن رثاهم عبد الرحمن الشهبندر، وسعد الله الجابري، وإبراهيم هنانو.

ولعمر قصائد تناول فيها الأحداث التاريخية البارزة في حياة الأمة العربية، ومنها «ملحمة النبي» التي تناول فيها الدعوة النبوية وما يتصل بها من أحداث، وقصيدة خالد التي تناول فيها سيرة البطل العربي خالد بن الوليد، يقول في مطلع ملحمة النبي:

أي نجوى مخضلّة النّعماء
ردّدتها حناجرُ الصحراء
سمعتها قُريش فانتفضت
غضبى وضجّت مشبوبة الأهواء
ومشت في حمى الضلال إلى
الكعبة مشي الطريدة البلهاء

وكذلك مسرحية شعرية نظمها قبل وفاته بعنوان «نحن والسلطان» ماتزال محفوظه، لم تنشر.

بديع حقي، مدحة عكاش

مراجع للاستزادة:

- ديوان عمر أبو ريشة (دار العودة، بيروت ١٩٨٨)
- سامي الدهان، الشعراء الأعلام في سورية (دار الأنوار، بيروت ١٩٦٨)

■ أبو زهرة (محمد -)
(١٨٩٨-١٩٧٩)

محمد أبو زهرة عالم، ومفكر، وباحث، وكاتب مصري من كبار علماء الشريعة الإسلامية والقانون في عصره ومن أبرزهم. ولد بمدينة المحلة الكبرى بمصر، وتربى بالجامع الأحمدي فيها، وتعلم بمدرسة القضاء الشرعي بمصر وحصل منها على إجازة «عالمية القضاء الشرعي مع درجة أستاذ» كما حصل على شهادة دار العلوم في القاهرة. وتولى تدريس العلوم الشرعية واللغة العربية فيها ثلاث

سنوات، وعلّم في المدارس الثانوية بالقاهرة سنتين ونصفاً.

بدأ اتجاهه إلى البحث العلمي في كلية أصول الدين بالأزهر نحو سنة ١٩٢٩، ثم في كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم)، ولم ينقطع إبان ذلك عن المحاضرات والندوات العامة.

عين أستاذاً محاضراً للدراسات العليا في جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٣٥، ثم عضواً بمجلس الأعلى للبحوث العلمية، ثم وكيلاً لكلية الحقوق في الجامعة، ثم وكيلاً لمعهد الدراسات الإسلامية، الذي أسسه في القاهرة مع بعض رجال العلم والفكر في مصر.

ولم ينقطع عن إلقاء محاضراته في معهد الدراسات الإسلامية وفي غيره حتى بعد إحالته على المعاش التقاعدي نحو سنة ١٩٦٠، إلى جانب إشرافه على عشرات رسائل «الماجستير والدكتوراه» في الفقه، والتفسير، والحديث، وعلم الكلام، والقانون، وغير ذلك من فروع علوم العربية والإسلامية في كليات الشريعة والآداب والحقوق وأصول الدين في جامعات القاهرة، وعين شمس، والإسكندرية، والأزهر، وبعض الجامعات العربية. وقد شارك في كثير من لجان صياغة قانون الأحوال الشخصية وتعديله في مصر، وفي كثير من المؤتمرات والندوات الوطنية، والعربية، والدولية، سواء في مجال الشريعة أو القانون أو الآداب داخل الوطن العربي وخارجه. وقد توفي بعد أن أمضى حياته في الجهاد بالكلمة والموقف دفاعاً عن الحق والفضيلة والدين.

كان شغوفاً بالتأليف والكتابة، وترك للمكتبة العربية والإسلامية مجموعة كبيرة من الكتب القيمة في شتى فروع الثقافة الإسلامية والقانونية.

فمن أهم كتبه في علم الكلام والأديان «تاريخ الجدل في الإسلام» و«المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد» و«محاضرات في النصرانية» و«مقارنات الأديان».

ومن أهم كتبه في الاجتماع «نظام الإسلام» و«تنظيم الإسلام للمجتمع» و«العلاقات الدولية في الإسلام» و«المجتمع الإنساني في ظل الإسلام والوحدة الإسلامية».

ومن أهم كتبه في الفقه، والأصول، والقانون، «أصول الفقه» و«الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلامي» و«الملكية ونظرية العقد في الشريعة الإسلامية» و«الأحوال الشخصية وشرح قانون الوصية» و«محاضرات في عقد الزواج وآثاره» و«الميراث عند الجعفرية» و«مصادر الفقه الإسلامي» و«تاريخ المذاهب الفقهية» و«محاضرات في الأوقاف» و«القضاء الإداري في الإسلام» و«ولاية المظالم في الإسلام».

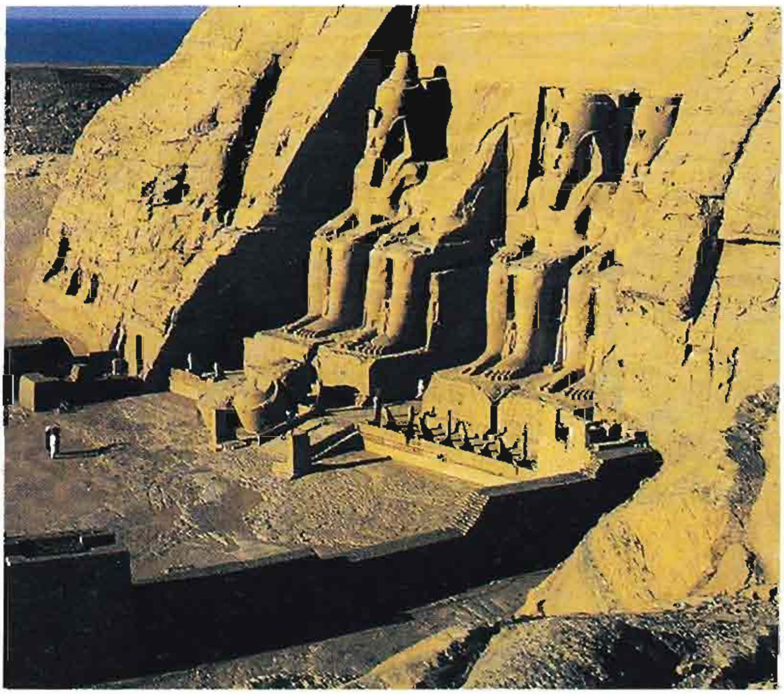
ومن أهم كتبه في الأئمة وعصرهم، وآرائهم، وفقههم: «أبو حنيفة» و«مالك» و«الشافعي» و«ابن حنبل» و«زيد» و«جعفر الصادق» و«ابن تيمية» و«ابن حزم».

وله أيضاً مؤلف ضخم في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم. فضلاً عن مجموعة كبيرة من المقالات والبحوث الشرعية والقانونية والفكرية المنشورة في المجلات المتخصصة المصرية والعربية، ومن أهمها مجموعة مقالات في تفسير القرآن الكريم كانت تنشرها تباعاً مجلة «لواء الإسلام» المصرية، وقد جاوز فيها نصف القرآن الكريم، وضمن تفسيره هذا كثيراً من معارفه ومعارف العصر العامة. ولا سيما في المسائل التربوية والاجتماعية والسياسية وأصول الديانات والقانون.

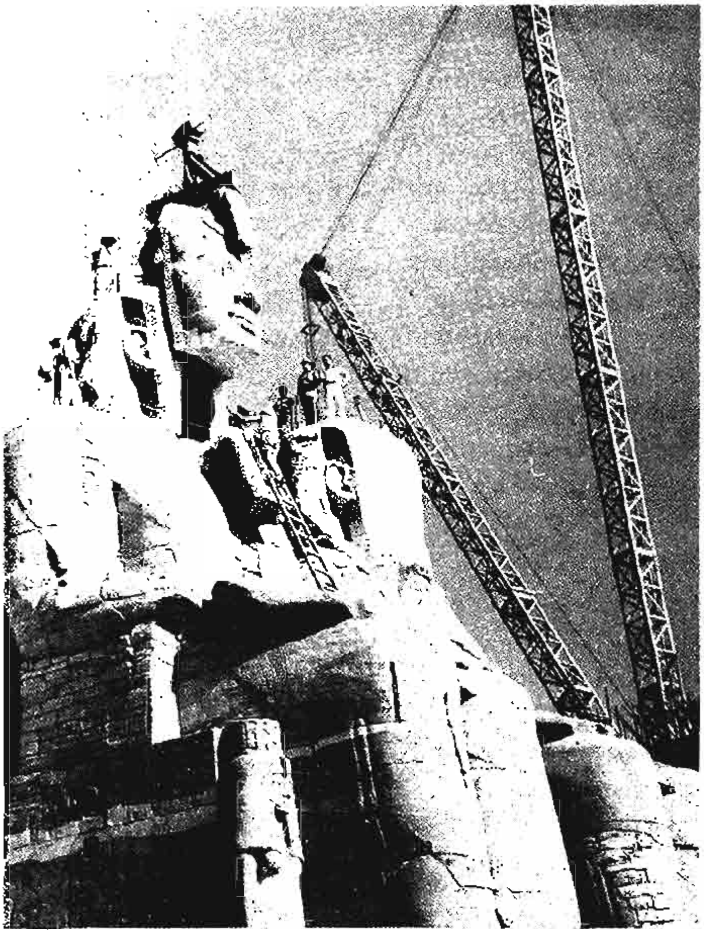
محمد وفا ريتي

■ أبو سمبل

أبو سمبل موقع في مصر في بلاد النوبة السفلى، قرب الحدود السودانية، على بعد ٢٨٠ كم إلى الجنوب الغربي من أسوان. وهو جرف جبلي من الصخر الرملي الضارب إلى الحمرة، منتصب بشموخ على الضفة الغربية للنيل (هو الآن على الشاطئ الغربي لبحيرة ناصر وراء السد العالي)، أُنشئ فيه لرعمسيس الثاني، ثالث فراعنة الأسرة المصرية التاسعة عشرة، معبدان محفوران في قلب الصخر، إعماراً للنوبة وتعزيزاً للسيادة المصرية عليها وترسيخاً لربوبيته وتخليداً لنصر على الحثيين في قادش، وقد أنجز هذان المعبدان نحو سنة ١٢٦٠ ق.م وكانا من أعظم معابد مصر القديمة. ويسميان في العادة: «معبد أبو سمبل الكبير» و«معبد أبو سمبل الصغير» وكلاهما أكثر سعة وفخامة من كل المعابد الصخرية المصرية في كل العصور، «يروعان بقوة عمارتهما وحسن نسبهما وضخامة تماثيلهما وجمال ما يحلي جدرانهما من نقوش».



أبو سمبل، المعبد الكبير



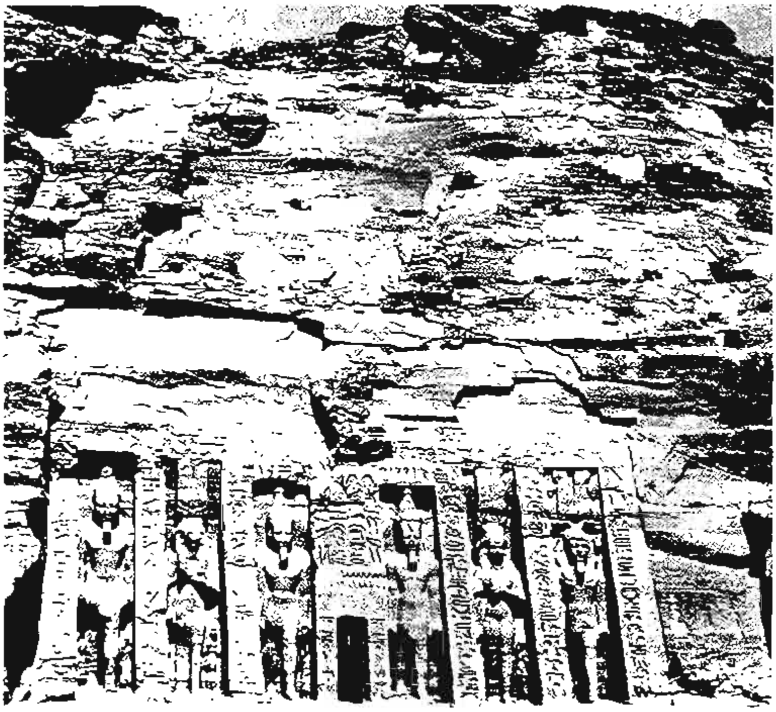
كان هذان المعبدان موضع تحسين ودراسة منذ مطلع القرن التاسع عشر وتبين نتيجة الدراسة أن المعبد الكبير مخصص لرعمسيس الثاني الموحَّد مع الربَّين أمون رع، ورع حور احتي (الشمس البازغة). أما الصغير فهو مخصص لنفرتاري زوجة رعمسيس الثاني موحَّدة مع الربة حتحور.

المعبد الكبير

يبلغ ارتفاع واجهته ٣٣م وعرضها ٣٨م، ويدخل المعبد في الصخر مسافة ٦٣م. نُحت في الواجهة أربعة تماثيل عملاقة لرعمسيس مجسِّداً الارباب، ويبلغ طول كل من التماثيل ٢٠م. والقسم العلوي من أحدها مكسور. وعلى الرغم من ضخامة هذه التماثيل فقد أبدع المثال في نحت ملامح الوجه الوسيم، والابتسامة الرقيقة التي تستقبل الشمس المشرقة. وفوق التماثيل نطاق نقشت فيه أسماء رعمسيس الثاني وألقابه «المؤله والمولود من الشمس والمختار منها». ويأتي فوق ذلك إفريز من الأفاعي المقدسة، ويليه إفريز منحوت يمثل قردة على نسق واحد، ترفع أذرعها مهللة للشمس المشرقة. وفوق البوابة التي تتوسط الواجهة تمثال للرب رع حور احتي. وبجانب أرجل التماثيل العملاقة أو بينها تماثيل أسرة الملك (أمه وزوجته المحبوبة نفرتاري وأولاده). ومن الواضح أن تمثيل أفراد الأسرة كان بتأثير أفكار أخناتون التي كانت منتشرة قبل ذلك بنحو قرن. وثمة منحوتات تمثل الأسرى.

أبو سمبل. المعبد الكبير، تقطيع التماثيل العملاقة.

يصل المرء من البوابة إلى قاعة معمَّدة فيها ثمانية تماثيل - حاملة بارتفاع ١٠م، تمثل رعمسيس على هيئة الرب أوزيريس رب العالم الأسفل والشمس الغاربة، وزين السقف بالصقور المبسوطة الأجنحة والنجوم. وعلى جدران قاعة الأعمدة نحتت مناظر تمثل مراحل معركة قادش. وتلي القاعة المعمَّدة قاعة أصغر منها وفيها أربعة أعمدة مربعة نحتت عليها مشاهد تمثل رعمسيس الثاني مع الأرباب. وفي جنبات هذه القاعة عدة غرف لحفظ القرابين. وبعد ذلك حجرة قدس الأقداس وفي صدرها تماثيل أربعة: لبتاح رب منفيس، وأمون رع رب طيبة، ولرعمسيس، ثم للرب رع حور احتي



أبو سمبل. المعبد الصغير

ر مدينة أون (هليوبوليس). يدخل أول شعاع من أشعة الشمس المشرقة لقدس الأقداس، مضيئاً التماثيل ومخرجاً الفرعون من الظلمات، مرتين في كل عام (٢٠ شباط و٢٠ تشرين الأول).

المعبد الصغير

يقع على نحو ١٥٠م إلى الشمال من المعبد الكبير. واجهته مزينة بستة تماثيل، أربعة منها لرعمسيس الثاني والآخران لزوجته الملكة العظمى نفرتاري الموحدة مع الربة حتحور.

يعبر المرء من المدخل إلى قاعة معمّدة، يزين أعمدتها من الأمام رأس الربة حتحور «الطيبة» وعلى بقية الجوانب مشاهد للملك والملكة ومختلف الأرباب. أما الجدران فهي حافلة بمناظر من حياة الملك، ومنها مشاهد تحكي قيامه مع نفرتاري بتقديم القرابين من الزهور والأطعمة والأشربة. وتلي هذه القاعة قاعة ثانية يوجد على جدرانها أيضاً مشاهد تمثل الملك وزوجته في حضرة الأرباب. وأخيراً يصل المرء إلى قدس الأقداس فيقابل في الصدر تمثالاً للربة حتحور.

إنقاذ المعبدين

كان هذان المعبدان مهددين بالغمر كغيرهما من المعابد المماثلة في بلاد النوبة، عند إنشاء السد العالي. وبدأ التفكير عام ١٩٥٥ في إنقاذ تلك المعابد، ووضع في عام ١٩٥٨ «مشروع إنقاذ آثار النوبة» وفي سنة ١٩٥٩ طرحت عدة حلول لحماية المعبدين. ووجه في ١٩٦٠ نداء عن طريق اليونسكو لكل المهتمين في العالم للمشاركة في الإنقاذ. وفي ١٩٦٣ تبنت الحكومة المصرية واليونسكو والهيئات المعنية أسلوب تقطيع المعبدين ونقلهما إلى مكانهما الحالي فوق جبل أبو سمبل على ارتفاع ٦٥م فوق المستوى السابق. وبدأت الأعمال في العام نفسه وشارك فيها ما يقرب من خمسين دولة وهيئة أثرية مع اليونسكو ومصر.

وبعد أعمال الرفع الهندسي والتصوير، والتصوير الفوتوغرامتري واستكمال كل أصناف التوثيق، تمت إزالة نحو ١٥٠ ألف متر مكعب من الصخور من فوق المعبدين، ثم بدأت عمليات نشر أحجارهما بوزن ١٠-١٥ طناً لكل قطعة، ونقلت بعد ترميمها إلى مكانها الجديد، وركبت مرة ثانية وحُقنت بدقة وكُحِّلت وانتهى ذلك العمل في ١٩٦٦، وبدأت أعمال تقنية عالية لإعادة تشكيل الجبل فوق المعبدين، فجُعلت فوق المعبد الكبير قبة خرسانية فريدة من نوعها بقطر ٥٩م وفوق المعبد الصغير قبة تعادل نصف الأولى ثم غطيتا بالصخور كما كانت الحال من قبل، ثم جُهزت المجموعتان بأحدث أساليب قياس الحرارة والرطوبة والسلامة من الهزات والكوارث وتأمين الإضاءة وغير ذلك من التدابير التي جعلت العمل قمة في الدقة والتقنية والاحترام العميق للآبدة بصفتها كنزاً من كنوز الإنسانية فضلاً على قيمتها القومية. وانتهى العمل في ١٩٦٨، وأصبح موقع أبو سمبل مركزاً سياحياً من الدرجة الأولى، يضم محطة توليد للكهرباء ومحطة لتصفية الماء وفنادق ونواد ومؤسسات رسمية وغير ذلك، والمعبدان يقومان الآن على شاطىء بحيرة ناصر يواجهان أشعة الشمس التي تشرق عليهما كل صباح.

عدنان البني

مراجع للاستزادة:

- مشروع إنقاذ آثار النوبة (الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة ١٩٦٠).
- إنقاذ آثار النوبة، معبد أبو سمبل، مهمة تمّت (وزارة الثقافة ١٩٦٨).
- Ch. Deroches - Noblecourt & George Grester, The World Saves Abou - Simbel (Vienne - Berlin, 1968).

■ أبو سيف (صلاح -)
(١٩١٥-١٩٩٦)

صلاح أبو سيف مخرج سينمائي مصري ولد في القاهرة حي بولاق وتوفي فيها. درس فن السينمائي في القاهرة، وتأثر بأفلام بعض المخرجين العالميين مثل بودوفكين [ر] Poudovkine، وآيزنشتاين [ر] Eisenstein وغيرهما.

بدأ صلاح أبو سيف العمل السينمائي بالمونتاج في استوديو مصر، وبالإخراج السينمائي عام١٩٤٥ بفيلم «دائماً في قلبي» المقتبس عن الفيلم الأجنبي «جسر واترلو»، وقدم للسينما العربية كثيراً من الأفلام المتطورة عن قصص كتبها كتّاب عرب مثل نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ويوسف السباعي. وأتاحت له هذه الأفلام إبراز سينما المقولة والقضية والإنسان في أزماته الحياتية. ومن هذه الأفلام: «لك يوم ياظالم»(١٩٥١)، و«ريا وسكينة» (١٩٥٣)، و«حمّام الملاطيلي» (١٩٧٣) وغيرها. وقد نجحت هذه الأفلام في فرض مناخ حميم أكده حنانه وقلقه وتعامله الحسي الصادق مع آلة التصوير التي جال بها في الشوارع وفي الحارات الشعبية في مواضيع مستمدة من واقع الحياة المصرية والعربية ومشكلاتها فأثراها بالبعد الإنساني بأسلوب فني لا يتحقق في المحترفات (الاستوديوهات) المغلقة. وقد أصبح أبو سيف رئيس مجلس إدارة أول شركة إنتاج سينمائي في مصر، وأستاذاً في المعهد العالي للسينما، وعميداً لمعهد السيناريو في القاهرة.

يمثل أبو سيف مرحلة مهمة في تاريخ السينما العربية عامة بأفلامه ذات المواضيع المختلفة. ففي فيلم «الوسادة الخالية» (١٩٥٧) يصور سعادة مستحيلة في إطار رومنسي راقٍ، مما يجعل هذا الفيلم من أكثر أفلامه رقة وجماهيرية. وفي فيلم «الفتوة» (١٩٥٧) يبرع في التقاط مناخات السوق الشعبية وصراعاتها المحتدمة مصوراً، بطريقة قريبة من الملحمية، شخصيات تسعى لتجاوز الضيق الذي يطوقها، وهو نهج سابق له في فيلمه «الوحش» (١٩٥٤). وتبدو علاقة أبو سيف مع الريف في فيلم «الزوجة الثانية» (١٩٦٧) مختلفة عن الأفلام التي اتخذت الأجواء الريفية مسرحاً لأحداثها. وفي هذا الفيلم يصبح الموضوع وثيق الصلة بقضية الفلاح والصراع الطبقي فضلاً عن روح المرح والسخرية اللتين غلّفتا البناء السينمائي الذي يتناول فيه القهر الإنساني ساعياً إلى تقديم صورة واقعية صادقة لما يعانيه الريف المصري من بؤس وتخلّف وإهمال. ويتناول فيلم «أنا حرّة» (١٩٥٩) موضوع المرأة ونضالها لإثبات وجودها في عالم تكبله القيود والتقاليد الموروثة في صراعها الحضاري ليقدم مقولة واقعية حارة وُصفت بجرأتها حين عرض

الفيلم أول مرة. وتنطبق هذه المقولة أيضاً على فيلم «البداية» (١٩٨٦) الذي اختار له درب الضحك للتعبير عن صراعات الديمقراطية والدكتاتورية، في القصة التي تدور حول هبوط طائرة ركاب اضطرارياً وسط الصحراء وعلى متنها حفنة من الرجال والنساء وطفل في مغامرة طريفة تضج بروح المرح والنقد اللاذعين. ويصور أبو سيف في هذا الفيلم عذاب العزلة والانقطاع عن العالم الخارجي إذ ينتظر جميع الركاب ظهور واحة وسط المكان اللاهب بالحرارة وجدب الطبيعة. ولا يتحدث المخرج في هذا الفيلم عن حبكة سينمائية انطلاقاً من التسليم بوجود عنصر المغامرة، فالمغامرة هنا ملهاة يحاول أبطالها إعادة تأسيس العلاقات الاجتماعية فيما بينهم في جو مليء بالشباب والحيوية والمرح.

ويرى صلاح أبو سيف أن أي فن لا بد أن يكون له انتماء طبقي سابق. ويعد السينما أقدر الوسائل الإعلامية على صياغة أحلام المجتمع، وهي إحدى الوسائل الناجعة التي تعبر عن تصورات كل طبقة في مواجهة الطبقة الأخرى. ويقول في هذا الصدد: «لا أستطيع أنا أو أي فنان آخر البدء من فراغ سياسي أو اجتماعي، فالموقف السياسي والاستراتيجي هما جزءان أساسيان من مكونات الفنان سواء كان هذا الفنان رجعياً أم تقدمياً، ذلك أن العمل الفني نشاط اجتماعي خلاّق ضمن علاقات جدلية مع المجتمع بغية التأثر والتأثير. والعمل الفني هو بناء اجتماعي أو تحقيق موضوعي لفكرة المثل الأعلى الاجتماعي. ولا أزعم لنفسي موقفاً محدداً من القضايا الاجتماعية المطروحة بل أطمح للمشاركة في حل هذه المعضلات الاجتماعية التي تواجهنا كبشر نعيش في هذا المجتمع عن طريق الفن السينمائي لما له من قوة تأثير جماهيرية كبيرة». وهذا ما سحبه على فيلمه «المجرم» (١٩٧٩) المقتبس عن الفيلم الأمريكي الشهير «سين» sin (الخطيئة) إذ يعيش رجل وامرأة قصة حب خاطئة تؤدي إلى جريمة قتل. ويتضمن فيلم «حمّام الملاطيلي» خلفية شعبية ملحمية بأجوائها وأشخاصها وتزييناتها (ديكورات). ويعد هذا الفيلم من أفضل أفلامه الأخيرة في التركيز الدقيق على المعالجة البيئية العميقة.

عُرف المخرج أبو سيف بعشقه للتاريخ وتولّيه إخراج أفلام تاريخية ملأى بالأحداث التي تمكنه من تسليط الأضواء على تاريخ الأمة العربية ومنها: «مغامرات عنتر وعبلة» (١٩٤٨)، و«فجر الإسلام» (١٩٧١) و«القادسية» (١٩٨٢). ويرى أبو سيف أن البيئة، بمدلولاتها الصادقة، هي التي تسمو بالعمل الفني أياً كان طموحه ونوعه، ومن هذا المنطلق كان سر نجاحه في نقل قصص الأديب نجيب محفوظ إلى الشاشة الكبيرة واعترف هذا الأخير بأن أعماله الأدبية لم تنجح كما يشتهي لها إلا عندما تولّى إخراجها صلاح أبو سيف الذي استطاع إقناع محفوظ في كتابة سيناريوهات لأفلام أخرى قام أبو سيف بإخراجها لاحقاً.

قدّم صلاح أبو سيف، في حياته الفنية (٥٠ عاماً)، أربعين فيلماً نال عليها جوائز وأوسمة كثيرة في مهرجانات عربية ودولية منها: «شارع البهلوان» (١٩٤٩)، و«الأسطى حسن» (١٩٥١)، و«لاتطفىء الشمس» (١٩٦١)، و«القاهرة ٣٠» (١٩٦٦) و«القضية ٦٨» (١٩٦٨)، و«سنة أولى حب» (١٩٧٦)، و«السيد كاف» (١٩٩٣).

محمد الأحمد

■ أبو صلابيخ

يقع تل أبو صلابيخ على بعد ١٤٥كم جنوب غربي بغداد، ونحو ٤٠ كم شمال غربي مدينة نيبور الأثرية، ويتألف هذا التل من مجموعة من التلال وسط أرضية رسوبية غير صالحة للزراعة لايزيد ارتفاعها على خمسة أمتار، ويبلغ طولها نحو ٩٠٠م وعرضها نحو ٨٥٠م. بدأت أعمال التنقيب الأثري فيها في الأعوام ١٩٦٣-١٩٦٥م ومن عام ١٩٧٨-١٩٨٩م. وذلك في ثلاثة مواقع اصطلح على تسميتها التل الرئيس والتل الغربي وتل أوروك، من قبل المعهد الشرقي بإشراف عالم الآثار دونالد هانسن Donald Hansen وكانت نتائج الكشوف الأولى في التل الرئيس مشجعة جداً إذ كشف عن مدينة قديمة لم يعرف اسمها السومري بعد، كما عثر على رقم طينية مدونة باللغة السومرية القديمة، وهي ذات محتوى أدبي، ويحدّد تاريخها في بداية عصر الأسر السومرية في مراحلها المتعاقبة الثلاث، عصر الأسرة الأولى والثانية والثالثة وتؤرّخ من ٣٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ سنة ق.م.

وقد قام الآثاري اللغوي روبرت بيغس Biggs عام ١٩٧٤م بنشرها. تولى نيقولاس بوستغيت Nicholas Postgate بتكليف من معهد الآثار البريطاني في بغداد متابعة أعمال التنقيب في التل الرئيس منذ عام ١٩٧٨م، وأسفرت هذه التنقيبات في عدة مواسم عن كشف مايزيد على ٢٠٠قبر، عثر في بعضها على لقى فخارية كثيرة تعود إلى بداية عصر السلالات السومرية. وأظهرت التنقيبات الواسعة في الطبقات السطحية من التل الغربي عدداً كبيراً من الأبنية السكنية التي تعود إلى بداية عصر الأسرة السومرية الأولى. أما في تل أوروك [ر] فقد عثر في مناطق محدودة منه على طبقات حضارية من عصر أوروك الوسيط، كما عثر على بضع كسرٍ من أوان فخارية ذات لون واحد بالإضافة إلى كسر أخرى ذات صور بألوان عدة، ترقى إلى عصر جمدة نصر، مما يشير إلى استيطان هذا التل في هذا العصر. وقد نشرت نتائج حفريات القبور، وفخار بداية عصر الأسر المكشوفة في التل الغربي في سلسلة حفريات أبي صلابيخ. وتنشر التقارير الأولية عن حفريات أبي صلابيخ سنوياً في مجلة «العراق». عثر في القطاع E من التل الشرقي على مايقرب من ٥٠٠ لوحة مسمارية على عمق قليل من سطح التل، وهي مفتتة ومغطاة بطبقة ملحية لقربها من سطح التل، وتعد من أهم الكتابات التي ظهرت في جنوبي بلاد الرافدين، إذ تتضمن موضوعات متنوعة، أدبية ولغوية معجمية وإدارية قام بدراستها الباحث اللغوي روبرت بيغس ونشرها عام ١٩٧٤م، تحت عنوان: مدونات من تل أبو صلابيخ Inscriptions from Tell Abu Salabikh

وتشابه هذه الكتابات نصوص اللوحات المكتشفة في مدينة فارا، وبعضها منسوخ عنها. ويبدو أن هذه النصوص تمثل مرحلة مهمة من مراحل تطور نظام الكتابة، والأسماء التي تذكر في هذه النصوص هي أسماء سامية قريبة جداً

من الأسماء الأكدية، وقد أظهرت المكتشفات الجديدة في إبلا بعد ثلاث سنوات من نشر لوحات أبي صلابيخ علاقة وثيقة مع نصوص أبي صلابيخ من حيث استعمال الأعداد وأسماء الأشهر، كما عثر في محفوظات إبلا على نسخ متطابقة مع نصوص أبي صلابيخ؛ وربما تكون منقولة عنها وهذا يشير إلى العلاقة الوثيقة التي كانت تربط جنوبي بلاد الرافدين مع إبلا.

أهم المكتشفات الأثرية في القطاع E هي شوارع مسقوفة وهياكل عظمية لحيوانات بحرية ودمى طينية وجرار فخارية، وطبعات أختام أسطوانية واختام أسطوانية تمثل حيوانات أليفة ومجالس شراب. وبوجه عام تشير مكتشفات أبي صلابيخ إلى بدايات نشوء المدن بدليل النصوص الإدارية في منتصف الألف الثالث ق.م.

محمد وحيد خياطة

مراجع للاستزادة

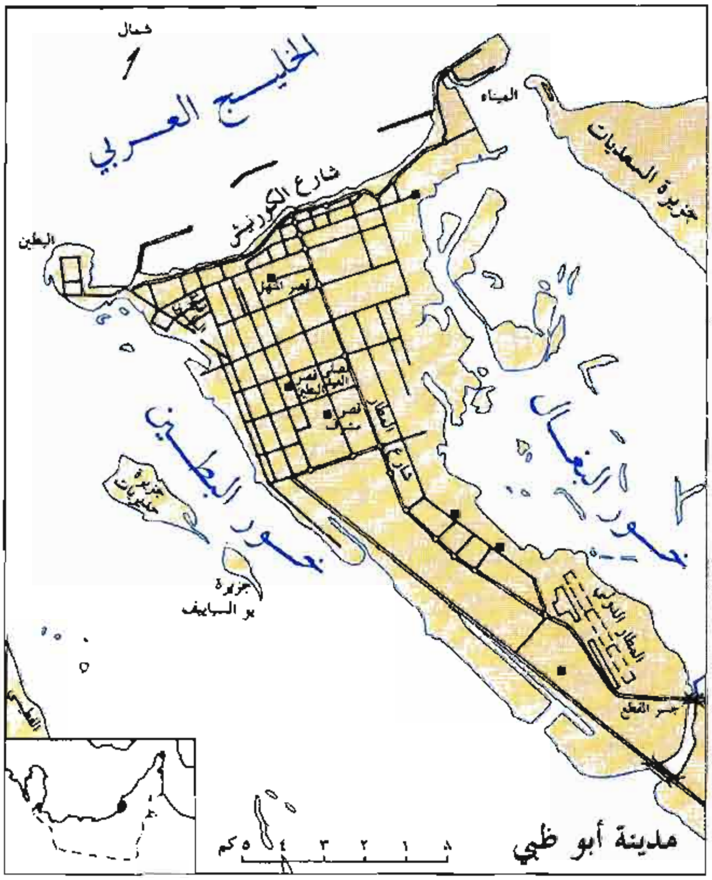
- G.N. POSTGATE, Preliminary Reports on Abu Salabikh in Iraq, XXXVIII, (1976).
- R.D.BIGGS, Inscriptions from Abu Salabikh 1975 Iraq XL (1978).

■ أبو ظبي (مدينة -)

مدينة أبو ظبي حاضرة إمارة أبو ظبي البالغة مساحتها ٦٧٣٤٠ كم٢، وعاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة [ر]. تقع على جزيرة مثلثة تتوسط الساحل الشمالي لدولة الإمارات على الخليج العربي، وتشرف على جبهة بحرية ضحلة تكثر في غربيها الشطوط الرملية، وتكاد تلامس اليابسة من جهة الشرق، ويتصل رأسها بالبر عن طريق جسر المقطع القديم وجسر المعين الحديث.

يرجع تاريخ الجزيرة إلى ما يقرب من ٣٠٠٠ سنة ق.م، كما دلت الحفريات الأثرية في جزيرة أم النار المجاورة لها والتي أثبتت وجود علاقات تجارية لها مع شبه القارة الهندية. ومنذ ظهور الإسلام، ارتبط تاريخ أبو ظبي بتاريخ الدولة العربية الإسلامية عامة وتاريخ منطقة الخليج خاصة. أما تاريخ المدينة الحديث فيبدأ بعد تحلص منطقة الخليج من القوات البرتغالية لغازية على أيدي الأئمة اليعاربة. ويرجع هجرة قبيلة بني ياس إليها إبان هذه المرحلة بزعامة آل نهيان، حكام البلاد الحاليين، عام ١٧٦١، بعد أن عثر أحد أفراد القبيلة على الماء العذب والظباء فيها؛ وقد اشتق اسم الجزيرة منها. وفي عام ١٧٩٣ أقام فيها الشيخ ذياب بن عيسى؛ الابن الأكبر لآل نهيان حصنه ومقر حكمه الذي ما زال ماثلاً حتى الآن.

لم تكن المدينة في أول نشأتها أكثر من قرية متواضعة من قرى الصيد وقدّر عدد سكانها في بداية القرن الحالي بنحو ٦٠٠٠ نسمة، وكانت بيوتها تتألف من سعف النخيل مع عدد قليل من البيوت المبنية من الحجارة، بالإضافة إلى قلعتها القديمة وسوق الهنود القريبة منها، وقد نمت المدينة نمواً بطيئاً جداً على طول جبهة بحرية شرقية غربية تمتد كيلو مترين ونصف



الكيلو متر، ويقارب عمقها كيلومتراً واحداً وكانت هذه نواة المدينة التي زالت فيما بعد، ولم يبق منها سوى الحصن (القلعة) الذي يشغله الديوان الأميري اليوم.

تقوم المدينة فوق أرض منبسطة لا يزيد ارتفاعها على مترين فوق سطح البحر. ويتصف مناخها بارتفاع الحرارة والرطوبة صيفاً، واعتدال المناخ وقلة الأمطار شتاءً، وكانت حرفة صيد اللؤلؤ النشاط الاقتصادي الرئيسي الذي يمارسه الأهالي، إذ كان يشتغل بها نحو ٨٥٪ من مجموع السكان العاملين في المدينة، والبالغ عددهم ٥٥ ألف نسمة.

وترجع البداية الحقيقية لنمو المدينة إلى أوائل الستينات، وإلى عام ١٩٦٧ بوجه خاص، ابتداءً بمنطقة النواة القديمة المجاورة للبحر وتوسعاً نحو الشرق والغرب، ثم نحو الجنوب. ولكنه كان نمواً عشوائياً إلى حد كبير. وفي عام ١٩٦٩ وضع للمدينة أول مخطط تنظيمي حديث.

ومن تتبع التاريخ العمراني للمدينة، يلاحظ أنها مرت في مراحل ثلاث، تتفق في جوهرها

مع طبيعة نمو معظم أنماط المدن المعروفة؛ فهي قد نشأت على البحر حول نواة قديمة تحت حماية القلعة. ثم اتسعت المدينة حول هذه النواة، ثم نمت بعض أحيائها متخطية القلعة، وامتدت أخيراً لتشمل قرية البطين الواقعة غربيها، وهي بهذا تحقق نظرية المدينة ذات النوى المتعددة.

وقد أدت عملية الاختلاط بين هذه الأطوار الثلاثة إلى نوع من المزج في مورفولوجية نمو مدينة أبو ظبي واختلاف في وظيفة أجزائها فتحول بعض المناطق السكنية إلى مناطق تجارية وترفيهية وتحول بعضها الآخر من مناطق سكنية فقيرة إلى مناطق سكنية غنية حديثة البناء (منطقة البطين)، وتبدل حال غيرها من مناطق كثيفة السكان إلى مناطق أعمال وتجارة، كما هو الأمر في قلب المدينة.

يقدر عدد سكان مدينة أبو ظبي بنحو ٩٢٨٣٦٠ نسمة يتوزعون على مساحة ٧٧٠٠ هكتار (١٩٩٥) بعد إضافة الأراضي المستصلحة، وبذلك تبلغ الكثافة الحسابية في الهكتار الواحد ١٢٠ نسمة، وتتضاعف هذه الكثافة تقريباً في المنطقة المركزية في حين تنخفض إلى ٢٠ نسمة في الضواحي السكنية. وقد بلغت الحركة العمرانية التي تشهدها المدينة أوجها في منتصف السبعينات، فتبدل وجهها تماماً وغدت أشبه ما تكون بمدينة غربية عصرية في نمط مبانيها وتنسيق شوارعها وساحاتها وخدماتها.

وجاء تخطيط المدينة العام وفقاً لما يعرف بالمخطط الشبكي الذي تتقاطع فيه الشوارع والطرق المتوازية بالطول والعرض بزوايا قائمة، ومن الطرق الطولية في أبو ظبي طريق المطار التي تمتد من جسر المقطع في الجنوب حتى ساحل الخليج في الشمال، ويصل طول هذه الطريق إلى نحو ١٥ كم. ومن الطرق العرضية طريق الميناء (الكورنيش) التي يزيد طولها على ١٠ كم، وشارع حمدان وامتداده في شارع الحصن وغيرها.

كذلك قسم المخطط المدينة بحسب وظائفها إلى منطقة مركزية ومناطق سكنية ومنطقة صناعية ومناطق مفتوحة وجبانات؛ فجزؤها الشمالي المجاور للبحر يضم المصارف والمصالح الحكومية وعدداً من الفنادق الرئيسة، فضلاً عن



مدينة أبو ظبي اليوم

منطقة النواة التجارية التي تضم المساكن والمتاجر ومراكز الخدمات الواقعة على جانبي شارع خليفة وشارع حمدان وغيرهما وهي منطقة النواة القديمة، التي زالت معالمها لتحل محلها العمارات الكبيرة والشوارع الحديثة.

وخارج هذه المنطقة، تنقسم مدينة أبو ظبي سكنياً إلى عدد من الأحياء (يطلق عليها الشعبيات)، وتضم أحياء المدينة أنماطاً مختلفة من دور السكن؛ فمنها البيوت الشعبية، كما هي الحال في شعبية زايد (بين شارعي زايد الثاني والفلاح) التي أقامتها الحكومة بدلاً من المساكن القديمة في المنطقة المركزية، وكما هي الحال كذلك في شعبية خليفة الواقعة إلى الغرب من المنطقة المركزية، وفي منطقة الظفرة (وتعرف باسم باورهاوس Power House حيث تشغل محطة الكهرباء القديمة جزءاً منها) وفي شعبية الرعاية.

وهناك نمط الدارات المنفصلة الخاصة (الفيلات)، التي تنتشر في أجزاء مختلفة من العاصمة، كما هي الحال في منطقة الخالدية المطلة على الكورنيش في غربي الجزيرة، ومنطقة الفيلات المطلة على شارع الميناء في شمال شرقي الجزيرة. ثم نمط العمارات الصغيرة التي حاول المخططون فيها إبراز الطابع العربي المحلي، بتبني الأقواس البارزة على الواجهات الخارجية، كما يتضح على امتداد شارع المطار. وأخيراً نمط العمارات الكبيرة، الذي يتجلى في المنطقة المركزية، وعلى جانبي الشوارع الرئيسة، والذي تبناه المخططون وطوروه لحل أزمة السكن.

أما المنطقة الصناعية، فقد كانت في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة، على امتداد طريق المطار بجوار المنطقة القديمة من المدينة، مختلطة مع الأحياء السكنية، وهي تشمل المحلات (الورشات) والمؤسسات الصناعية الصغيرة. لكن المخطط الجديد نقلها إلى منطقة المصفح في الشمال الشرقي من الجزيرة، وتشمل هذه المنطقة مئات الورشات الصغيرة الخاصة بإصلاح السيارات ومصانع الأثاث والخراطة وغيرها، وهناك أيضاً منطقة صناعية أخرى في الشمال الشرقي من الجزيرة، توجد فيها محطة تحلية المياه وتوليد الكهرباء، وأخرى إلى الشرق من منطقة الظَّفرة، فيها مصنع الإسمنت ومحطة الكهرباء القديمة.

وفي الجنوب الغربي من الجزيرة تقوم المدينة الرياضية والمناطق المفتوحة الأخرى والجزر الخضراء التي تعد مظهراً بارزاً في معظم شوارع المدن الرئيسة، وحدائق قصر المنهل، ومنطقة الخزانات في غربي الجزيرة، وحديقة المطار، بالإضافة إلى أراضي السباق وملاعب الأندية الرياضية المنتشرة هنا وهناك. وكان السكان يعتمدون على الآبار السطحية على مقربة من المدينة لتوفير مياه الشرب، ولكن مياهها لم تكن من نوعية جيدة. وكانت الخطوة الأولى لحل هذه المشكلة هي إنشاء محطتين لتحلية مياه البحر، وتلتها الخطوة الثانية، وهي نقل المياه الجوفية من منطقة بعيدة واقعة إلى الغرب من مدينة العين، وهي منطقة الساد بو سمرة، التي حُفر فيها عدد كبير من الآبار على دفعات مختلفة، ويصل ماؤها إلى أبو ظبي نحو (مليوني غالون يومياً) إلا أن ذلك لم يكن كافياً، فدعت الحاجة إلى العودة لتحلية مياه البحر من جديد.

وواكب التطور الكبير في المدينة تطور في إنتاج الكهرباء اللازمة للإنارة وأغراض الصناعة، وقد بلغت الطاقة الكهربائية المولدة فيها ما يقرب من ٦٠٠ مليون كيلو واط في عام ١٩٧٥، وارتفعت إلى أكثر من ١٠٠٠ مليون كيلو واط في عام ١٩٨٥.

صفوح خير

الموضوعات ذات الصلة:

الإمارات العربية المتحدة - الخليج العربي.

مراجع للاستزادة:

- عبد الحميد غنيم، المستوطنات البشرية في دولة الإمارات العربية المتحدة (مكتبة الفلاح، الكويت ١٩٨٥).

■ أبو الفداء ← إسماعيل بن علي (الملك المؤيد -)

■ أبو قرة (ثاودورس -)

(؟ - ٨٣٠م)

هو أحد آباء الكنيسة الشرقية وعلم من أعلام اللاهوتيين المسيحيين العرب.

وُلد في الرها في أواسط القرن الثامن الميلادي، وفيها تلقى العلم أولاً. ثم ترهّب في دير القديس مار سابا (قرب القدس) حيث كان ذكر القديس يوحنا الدمشقي [ر] لا يزال حيّاً يملأ الأرجاء. فطالع كتاباته وتخرّج فيها. انتخب مطراناً على الملكية في حرّان في أواخر القرن الثامن، لكن أسقفيته عليها وإقامته فيها لم تطُل، لأسباب لا تزال مجهولة، فعاد إلى مار سابا. استعان به بطريرك بيت المقدس الملكي توما في الحوار مع الكنيسة الأرمنية، فأنشأ أبو قرة نيابة عنه باسم البطريرك سنة ٨١٢م رسالة في العقيدة. ثم تحوّل أسقف حرّان السابق إلى داعية متجوّل يدافع عن الدين المسيحي وعن تعليم مجمع الخلقيدوني وعن إكرام الصور المقدّسة مجادلاً النساطرة واليعاقبة ومحاوراً المسلمين. تطوّف في البلاد يعظ ويعلّم، حتى بلغ أرمينية حيث خاض، سنة ٨١٥م في أغلب الظن، غمار مناظرة مشهورة في بلاط أميرها آشور مسّاكر (المتوفى سنة ٨٢٦). وأقام مدة في بغداد على ما يبدو. وقد توفي سنة ٨٣٠م.

كان أبو قرة يجيد لغات العلم الثلاث في عصره: السريانية واليونانية والعربية، وقد كتب فيها كلّها. في السريانية وضع ثلاثين ميمراً (أي مقالاً) مدحاً لرأي الأرثوذكسية كما يخبر هو نفسه. لكنها لا تزال حتى الآن مفقودة. وفي اليونانية نُشر له ٤٤ مقالة بعضها وجيز جداً في أقل من صفحة واحدة وبعضها في حجم كتيّب صغير.

لكن شهرة ثاودورس أبي قرة ومكانته قامتا على مصنفاته العربية التي تفوق اليونانية حجماً وأهمية. وإن كانت دونها عدداً، إذ لا يتعدّى مجموع ما عُرف منها حتى الآن الثلاثين بين ميمر ورسالة وعظة وما شاكلها. ويعود الفضل الأكبر في اكتشاف أبي قرة العربي ونشره وتعريفه إلى الخوري قسطنطين الباشا المخلّصي، وإن كان القس يوحنا أرنْدْزَنْ قد سبقه إلى نشر المقال « في إكرام الإيقونات » (في بون سنة ١٨٩٧) ثم لحق بهما الأب لويس شيخو اليسوعي فاكتشف المقال « في وجود الخالق والدين القويم » ونشره في مجلة « المشرق » على دفعتين (سنة ١٩١٢ المجلدة ١٥). واهتم المستشرقون بأبي قرة العربي اهتماماً بالغاً وقد نقل معظم آثاره إلى الألمانية الأب العلامة جورج غراف شيخ الباحثين في التراث المسيحي العربي... ومما يجدر ذكره أن كثيراً من آثار أبي قرة قد نُقل قديماً إلى اللغة الجورجية، بل إن بعضها لم يصل إلى الباحثين إلا بهذه اللغة.

وأبو قرة علاوة على كل ما تقدم يعد من نقلة الفلسفة اليونانية إلى العربية ومن الرعيل الأول منهم. يذكر له ابن النديم في الفهرست تعريب أحد كتب أرسطو المنطقية: أنالوطقيا الأولى. وتنسب إليه المخطوطات نقل مؤلفين آخرين منسوبين إلى أرسطو. ويعدّ الجاحظ في كتاب الحيوان أبا قرة في جملة النقلة المجيدين.

اطلع أبو قرة على الفكر الفلسفي اليوناني بشقّيه الأرسطاطاليسي والأفلاطوني الحديث.

وقد أفاد منه في إيضاح العقائد المسيحية والدفاع عنها. فعاب عليه ذلك بعض خصومه ووصموه بالفيلسوف ازدراءً ويلمس تأثره بمذهب أرسطو بالذات في ثقته العظيمة بالعقل، فهو يعتقد فيه القدرة على إدراك حقيقة الموجودات في نظرية واقعية للمعرفة، واستطاعة معرفة الله عن طريق المماثلة.

إلا أن المصدر الأساسي لفكر أسقف حرّان يظل الكتاب المقدس الذي يعرفه حق المعرفة، ويكثر من اعتماده. فبعد أن يتحقق العقل أن الكتب المقدسة القديمة والجديدة هي من عند الله يصير لزاماً عليه « أن يؤمن بما قالت هذه الكتب... بلغته معرفته أم لم تبلغه... فنحن نقبل ما قالت هذه الكتب بالإيمان ولو كانت عقولنا لا تجد سبيلاً إلى تحقيق قولها ».

وقد قرأ أبو قرة آباء الكنيسة وألف كتاباتهم وهو يجلّهم إجلالاً كبيراً وله فيهم هذا القول « درجتهم في الكنيسة فوق مراتبها كلها بعد مرتبة السليحيين [أي الرسل] والأنبياء... ومَن من النصارى يردّ شيئاً من تعليمهم إلا كان نفياً من النصرانية مقصىً من خير الكنيسة ».

لأبي قرة فضل الريادة في مجالات عديدة، من الجيل الأول من النقلة كما سلف، وهو أيضاً من أوائل اللاهوتيين الذين صنّفوا بالعربية بلغة فصيحة على الرغم من بعض الهنات. وميامره إن لم تكن أقدم تأليف عربي نصراني، كما وصفها ناشرها، فهي من أقدم ما وصل إلينا من هذا القبيل. وفيها منهج جديد في الفكر عند العرب عموماً والمسيحيين منهم خصوصاً، جدّته في اللجوء إلى الفلسفة والمنطق في البحوث الدينية اللاهوتية وفي نزعته العقلانية البارزة. ذلك أن أبا قرة لا يرضى بإيمان لا ينظر العقل في مسوغاته، بل العقائد الإيمانية ذاتها لا بد من أن تكون موضوع نظر العقل قبل أن تصير موضوع اعتقاده. فعلى المرء أن « يدبّر إيمانه بالعقل » - وهذا التعبير أثير لديه يكثر من ترداده.

هذا التشديد على الشأن العظيم للعقل في مجال الدين والإيمان يبرز مدى اندماج أبي قرة في بيئته. وكل من درس فكره لاحظ الصلات المتينة العرى بينه وبين المعتزلة، والواقع أن الصفة الغالبة على فكر أبي قرة هي الحوار والتوجه إلى الآخر لإطلاعه أو لإقناعه. ومعظم آثاره تنطق بهذا حتى في صيغة عناوينها: « محاورة »، و« جواب سؤال »، و« رد اعتراض »، و« محادلة » و« رسالة »... وتبرز هذه الصفة حتى في أسلوبه الإنشائي، فإنه يكثر من كاف المخاطب وأدوات النداء وأفعال الأمر. كما يكثر من الأمثال والتشابيه التي تضفي على حديثه طلاوة وتوضح مقاصده لغير المتفقهين، وبعضها بديع بليغ في حسن دلالته ووفائه بالغرض.

لهذه الأسباب مجتمعة يُعدّ أبو قرة من كبار اللاهوتيين الملكيين، بل لقد وضعه بعض خصومه في مصف القديسين مكسيموس المعترف ويوحنا الدمشقي: وهو أحد أبرز اللاهوتيين المسيحيين العرب وقد عبّر بالعربية أبلغ تعبير عن عقائد إيمانهم، وجسّد في حياته وآثاره عظم اهتماماتهم.

فايز فريجات

مراجع للاستزادة:

- الأب اغناطيوس ديك، ميمر في وجود الخالق والدين القويم لثاودورس أبي قرة، رقم ٣ من مجموعة « التراث العربي المسيحي » (جونية وروما ١٩٨٢).

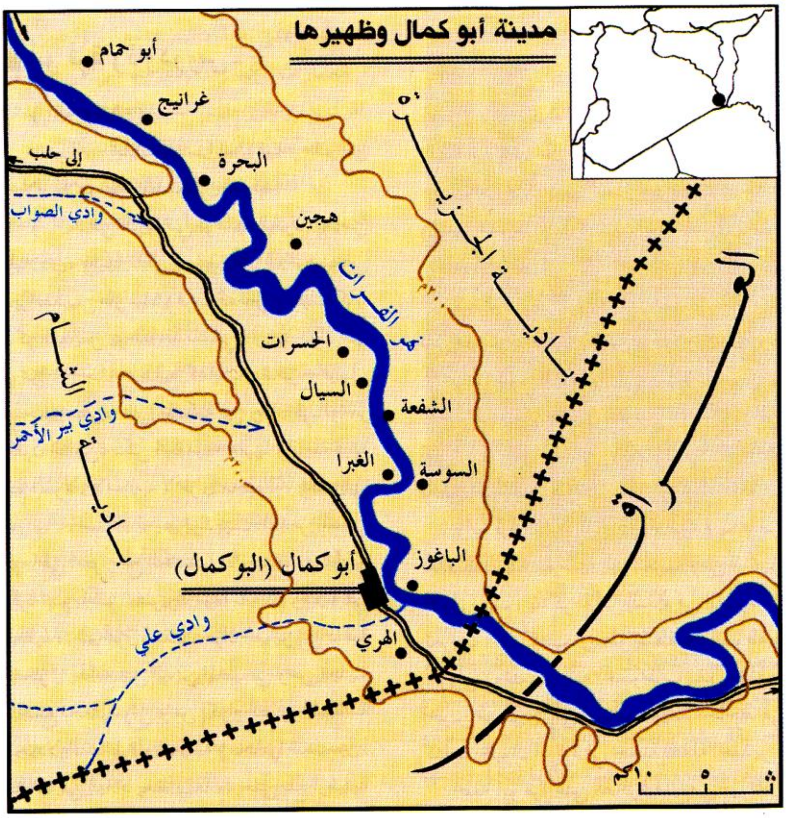
■ أبو كمال (البوكمال)

مدينة سورية حدودية تقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات شرقي سورية على مسافة ٨ كم من الحدود السورية - العراقية. وقد نسبت المدينة إلى عشيرة «أبو كمال» أو البوكمال وهي بطن من قبيلة العقيدات التي تستوطن وادي الفرات. وتعدُّ المدينة مركز منطقة حديثة العهد تتبع محافظة دير الزور. ولموقعها أثر كبير في تطورها العمراني والاقتصادي، فهي تمدُّ سكان البوادي والريف المجاورين بالخدمات المختلفة.

أقيمت مدينة البوكمال فوق أرض سهلية شاركت في اختيارها مجموعة من العوامل منها أن الجرف الصخري لأطراف هضبة بادية الشام المطلة على وادي الفرات من الغرب يؤلف حاجزاً بين الوادي والبادية على ارتفاع ٢٠-٥٠م فوق مستوى السهل، فلا يمكن اجتيازه إلا من أفواه الأودية السيلية المنحدرة من البادية، وينخفض ارتفاع الجرف عند المدينة فلا يزيد على عشرة أمتار. وهذا ما جعل الموقع مفتوحاً على البادية وسهل الاتصال بها، كما سهل الاتصال بالأراضي العراقية. ومنها أيضاً صعوبة المرور إلى العراق بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر الفرات لانحدار الحافة الصخرية الشديد، واقترابها من مجرى النهر في موقع الباغوز (المضيق). وقد تسبب ضيق السهل الزراعي (لا يزيد عرضه على ٥٠٠ م) في جعل نواة المدينة القديمة تقترب من مجرى النهر الذي كان يستخدم للنقل المائي في الأيام الغابرة. وكان هذا الموقع ممراً إجبارياً للقوافل التجارية البرية القديمة بين بلاد الرافدين والشام.

تتصل المدينة ببيئتين جغرافيتين مختلفتين، فهي تتصل من الغرب والجنوب ببادية الشام [ر]، وتتصل من الشمال والشرق بسهول الجزيرة والفرات اللحقية الخصبة التي تزداد اتساعاً بسبب ابتعاد الحافة الصخرية عن مجرى النهر، وقد أفسح ذلك في المجال لانتشار عدد من القرى تربطها بالمدينة طرق اسفلتية ومعبدة. وتمرُّ بالمدينة طريق دولية توازي مجرى الفرات تصلها بدير الزور في الشمال وبالحدود العراقية في الشرق، ويربطها بالضفة اليسرى للنهر جسران اسمنتيان.

يرجع إعمار المدينة إلى منتصف القرن التاسع عشر، فقد أنشئت لتكون قائمقامية عثمانية. وكانت تخدم المنطقة، قبل التنبه إلى أهمية موقع البوكمال، بعض المراكز البشرية السابقة



كالعشارة في سورية والقائم في العراق. وقد أقيم التجمع السكني الأول للبوكمال - بادىء بدء - بالقرب من مجرى النهر في موقع النحّامة، ولكن خطر الفيضانات حفز القائمقام العثماني آنذاك إلى محاولة نقلها إلى تل أبي سيباط المجاور، وتولى خَلَفُه إقامة ثكنة «القشلة» في موقعها الحالي لسكن الحامية العسكرية المكلفة إخضاع القبائل وتوفير الأمن للقوافل وجباية الضرائب من سكان المنطقة ولا سيما عشيرة البوكمال التي تستوطنها. وتبع ذلك إقامة الأبنية السكنية التي زادت من اتساع المدينة وامتدادها.

تتصف شوارع المدينة بالاستقامة، وتوازي الشارع الرئيس من الجانبين وتتعامد معه فتأخذ بذلك طابعاً شطرنجياً. وكانت معظم بيوت المدينة مبنية من الطين وسقوفها مستوية من جذوع الحور الفراتي المغطى بطبقة من الطين، وقد رافق نموذج البناء هذا توسع المدينة وتطورها مع استخدام الحجارة في إقامة الجدران. ويتألف بيت السكن عادة من غرفتين أو ثلاث غرف ورواق وباحة سماوية. وقد أخذت المدينة تتطور سريعاً وتبدل صورتها من سبعينات القرن العشرين فهدم قسم كبير من بيوتها الطينية وأقيمت بدلاً منها أبنية اسمنتية من طابق واحد في الغالب، بحيث يُتخذ السطح ملجأ ومتنفساً في ليالي الصيف الحارة. واتسعت المدينة أفقياً على محور شمالي غربي جنوبي شرقي موازٍ للطريق البرية الدولية من الجانبين، كما اتسعت غرباً باتجاه البادية للاستفادة من الارتفاع النسبي الذي توفره الهضبة الشامية وتأتي منها نسمات غربية تلطف الجو في الصيف. وأقيمت فيها أحياء حديثة ولا سيما من جهة الشمال حتى اتصلت بقرية السكرية التي غدت حياً من أحيائها بحسب المخطط التنظيمي الجديد (١٩٨٦) الذي حدد مساحتها بنحو ٢٠٠٠ هكتار.

تضاعف سكان المدينة في العشرين سنة الأخيرة وهم من العرب المسلمين جلهم من عشيرة «أبو كمال» وفروعها وبعض أفخاذ العقيدات. وكان عدد سكان البوكمال في عام ١٩٦١ نحو ٨٢٢٦ نسمة، وفي إحصاء عام ١٩٧٠ ارتفع العدد إلى ١٢٨١١ نسمة، وبلغ عددهم عام ١٩٩٧ نحو ٣٩٠٧٩ نسمة. وتعاني المدينة من مشكلات الهجرة الدائمة

والمؤقتة إلى الداخل السوري وإلى دول الخليج، ويقابل ذلك هجرة أهل الريف إليها وما يتبع ذلك من مشكلات معيشية وسكنية.

تشغل مدينة البوكمال مكانة تجارية مهمة لانفرادها في المنطقة ومتاخمتها الحدود مع العراق، ولموقعها الوسط بين البادية والريف الفراتي. ويتوسط المدينة سوق رئيسة وأسواق أخرى مقببة توازيها تعج بالنشاط والحركة، وتغص بأهل الريف والبادية الذين يغدون إليها صباحاً لبيع منتجاتهم الزراعية والحيوانية من خضار وصوف وسمن وغيرها، ويغادرونها ظهراً محملين بما يشترونه من أدوات ومؤن وأقمشة وغيرها.

وتنشط الزراعة في ريف المدينة على ضيق رقعتها الزراعية (١٢١ هكتاراً) وقلة اليد العاملة التي تميل إلى ممارسة الأعمال الأكثر ربحاً. وتعتمد الزراعة على الري عن طريق الضخ، والملكية الزراعية فيها صغيرة وتضم بساتين للأشجار المثمرة وفي مقدمتها الرمان والمشمش والنخيل، كما تزرع الخضراوات بين الأشجار، إلا أن إنتاج المدينة لا يكفي لسد حاجاتها وتستورد المدينة ما يلزمها من مناطق الفرات والجزيرة الأخرى.

وتنتشر في المدينة بعض الصناعات الريفية التقليدية كصناعة البسط والأثاث الخشبي ومواد البناء، وفيها عدد من «الورش» الميكانيكية لصيانة الآلات الزراعية والسيارات وإصلاحها.

تعدُّ البوكمال مركزاً ثقافياً يوفر الخدمات التربوية للمنطقة المحيطة بها وفيها ثلاث مدارس إعدادية وثانوية عامة بالإضافة إلى ثانوية صناعية وأخرى للفنون النسوية ومسجد يعود إلى العهد العثماني. وتوفر المدينة لسكانها وسكان الريف المجاور خدمات صحية، ففيها مستشفى صغير للإسعاف والخدمات السريعة وتعمل الدولة على إقامة مستشفى كبير يوفر الرعاية الصحية اللازمة للسكان.

داود جميان

■ أبولودوروس الدمشقي
(نحو ٦٠-١٢٥م)

أبولودوروس Apollodorus في اليونانية يعني «هبة أبولو» ويقابله في الآرامية «زبندبو» وهو اسم شاع استعماله في بلاد الشام بعد الاسكندر. ولد المهندس المعمار أبولودوروس الدمشقي في دمشق وعاش في رومة شطراً كبيراً من حياته ومن المرجح أنه مات مبعداً عنها وهو في قمة عبقريته وكمال شخصيته. فرض أبولودوروس على المجتمع الروماني احترامه وتقدير مواهبه. وفي عهد الامبراطور الروماني ترايانوس أو تراجان Trajanus أو Trajan (٩٨-١١٧م) تبوأ منصباً يعادل منصب وزير الأشغال العامة أو المشاريع الكبرى في لغة اليوم. وهو يعدّ واحداً من أفذاذ المعماريين الذين عرفهم التاريخ القديم. كان مبدعاً جَسوراً يتصدى بنجاح لأكثر المعضلات التقنية والفنية تعقيداً. ويتضح من تمثاله النصفي الموجود حالياً في متحف ميونيخ أنه كان متين البنية مهيباً متوازن الشخصية نبيل القسمات وتلوح على وجهه سمات شرقية واضحة. وثمة أعمال كثيرة له باقية وأخبار عن عمله الرسمي. ولكن المعروف من سيرته الشخصية قليل وفي هذا المجال يقول ويلر Wheeler في كتابه عن الفن الروماني «إن أبولودوروس الدمشقي الذي يكمن اسمه خلف أعظم المنجزات في عهد الامبراطور ترايانوس يظل لغزاً من الألغاز».

تأثر أبولودوروس الدمشقي في موطنه الأصلي بروائع العمارة وحمل إلى رومة روحاً جديدة في العمارة والفن، ويذكر تاريخ كمبردج القديم أن بعض العلماء يعتقدون «...بأن سورية في مجال العمارة كانت متقدمة على رومة، بل كانت نموذجها المحتذى... وأن سورية تفوقت على رومة في عبقريتها المبدعة وفي معارفها التقنية وفي مهارة عمالها، ويفترض أن أبولودوروس الدمشقي قد اقتبس مخططات المباني في سفح رابية الكويرينالس من موطنه الأصلي».

كان أبولودوروس الدمشقي والامبراطور ترايانوس صديقين حميمين، ويظن أن عهد صداقتهما يعود لأيام كان فيها ترايانوس محامياً عسكرياً في سورية في حقبة ولاية والده عليها. وعندما تسلّم ترايانوس عرش الامبراطورية الرومانية، كانت قد اشتهرت فيها شخصية فنية مبدعة هي شخصية أبولودوروس الدمشقي.

ومن المؤسف أن منجزات أبولودوروس في موطنه الأصلي، قبل وجوده في رومة أو في أثنائه، مجهولة لا يعرف أحد شيئاً عنها. أما أعماله في رومة، وفي أجزاء أخرى من الامبراطورية الرومانية، فمعروفة مشهورة وما بقي منها يقارب خمسة عشر أثراً أهمها ما يلي:

السوق الترايانية (سوق تراجان): كلف الامبراطور ترايانوس المعماري أبولودوروس إنشاء سوق في رومة تحمل اسمه، وذلك نحو ١٠٨-١٠٩م. وقد اعترضت المهندس مشكلة هي وجود رابية الكويرينالس في الجهة الشرقية من الأرض المعدّة للمشروع، إذ إن هذا المرتفع يعوق الحركة ويشوه المنظور العام، من جهة، ويحدث انهيارات، من جهة ثانية. وقد وفق أبولودوروس إلى حل يحقق الغايتين الجمالية والعملية في وقت واحد، فاقتطع حافة الرابية وأنشأ مكانها سوقاً مجمَّعة ومسقوفة، وفق الأسلوب الشرقي، وجعلها على شكل قوس كبيرة تتدرج عند الرابية بطوابق ستة، تضم نحو ١٥٠ دكاناً. وتنفتح دكاكين الطابق الثالث على طريق سُميت «فيابيبيراتيكا» (أي البزورية) وتضم السوق فضلاً عن ذلك مقراً لمتولّيها، وقاعة للاجتماعات والمزاد، وصالة بيع شعبية بأسعار مخفضة، وغير ذلك.

إن سوق أبولودوروس، التي ما تزال ماثلة في رومة، حققت في حينها مركزاً تجارياً واجتماعياً كبيراً في أقل مساحة ممكنة، وظلت حلاً يستهوي المصممين في كل العصور من حيث البساطة والجمال والفائدة القصوى، كما أنها منعت انهيار أطراف الرابية، فضلاً عن أنها خلقت خلفية بديعة لذلك المجمع المعماري (الفوروم) الضخم.

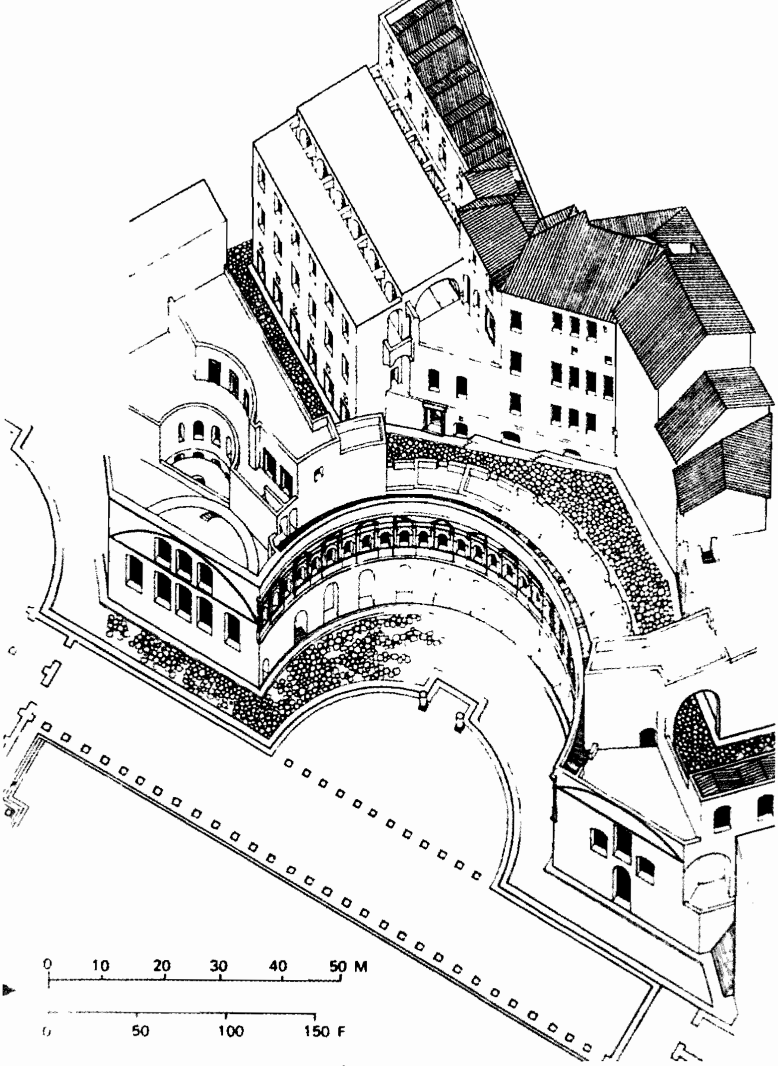
الميدان الترایاني (ميدان تراجان): بُعيد البدء في بناء السوق أو في وقت واحد معه، بدأ أبولودوروس العمل في «الميدان الترایاني» وقد أنجزه عام ١١٢م فأزرى بكل ما عداه من ميادين في رومة وفي العالم: إذ تزيد مساحته على خمسة أضعاف مساحة ميدان الامبراطور أغسطس. أما من حيث الجمال فهو، كما ورد في تاريخ كمبردج القديم، «أعجوبة كل

العصور». ومن المحتمل، في رأي بيانكي بانديميللي، أنه استوحاه من الساحة الرحيبة المروّقة التي كانت تحف بمعبد جوبيتر في دمشق.

ضم هذا الميدان، الذي يبلغ طوله ٣٠٠ متر وعرضه ١٨٥ متراً، مساحة رحيبة، وأواوين، وقوس نصر، وعموداً تذكارياً عملاقاً، وتمثالاً فروسياً، وداراً للعدل، ومعبداً، وتفاصيل معمارية وزخرفية رائعة سكبت على أرفع ما يكون من الانسجام والتناسق. وتضافر ذلك كله ليجعل منه مجمّعاً باهراً سُحر به القدماء وتمنى الملوك نظيره، وعدّ «واحداً من أروع لآلىء الفن الروماني».

عمود ترايان: طلب الامبراطور ترايانوس من أبولودوروس الدمشقي أن يشيد له عموداً يتخذه شاهد قبر له وذكرى للمنشآت البديعة المنفذة في هذا الميدان الرائع، فقادته عبقريته الفذة إلى تصميم عمود لم يسبق له مثيل في تاريخ الفن العالمي، وأتمه في عام ١١٣م. يرى النقاد أن هذا العمود العملاق (طوله ٣٣ متراً) المزين بإفريز حلزوني منحوت يدور حول جذعه، يكاد يكون فلماً تسجيلياً. ولعل أبولودوروس قد استوحى نماذج نحتية من الأوابد الآشورية في بلاده الأصلية. ويروي الإفريز الدائر بالعمود بطول ٢٠٠ م قصة الحربين اللتين خاضهما ترايانوس في داكية (رومانية) ما بين ١٠١-١٠٦م. وهو يسرد بالنحت أدق تفاصيل الاستعداد للحرب والمعارك والأزياء والأسلحة وأجناس المحاربين ومنهم الرماة التدمريون. يقول ويلر: «إن هذا الشريط هو الأعظم بين إنجازات الفن التاريخي الروماني، وإن العمل يسير فيه متتابعاً من غير تردد، ومن مرحلة إلى أخرى، والنحات يبرهن فيه على تمكن تام وعلى حساسية فائقة». وقد جرى تقليد هذا العمود مرات عدة. ففي عهد الامبراطور أركاديوس (٤٠٨م) بُني عمود مماثل في القسطنطينية. وهناك عمود برونزي مشابه في كاتدرائية هيلدسهايم في هانوفر بني سنة ١٠٢٢م تقليداً له، وتمثل المنحوتات فيه حياة السيد المسيح. وفي فرنسة أقيم عمود فاندوم تخليداً لحملات نابليون، ونقوشه البارزة تقليد للأسلوب المستمر في عمود ترايانوس.

الجسر العملاق على الدانوب: كان أبولودوروس في الأصل المهندس الحربي للامبراطور ترايانوس وقد رافقه في حربيه في

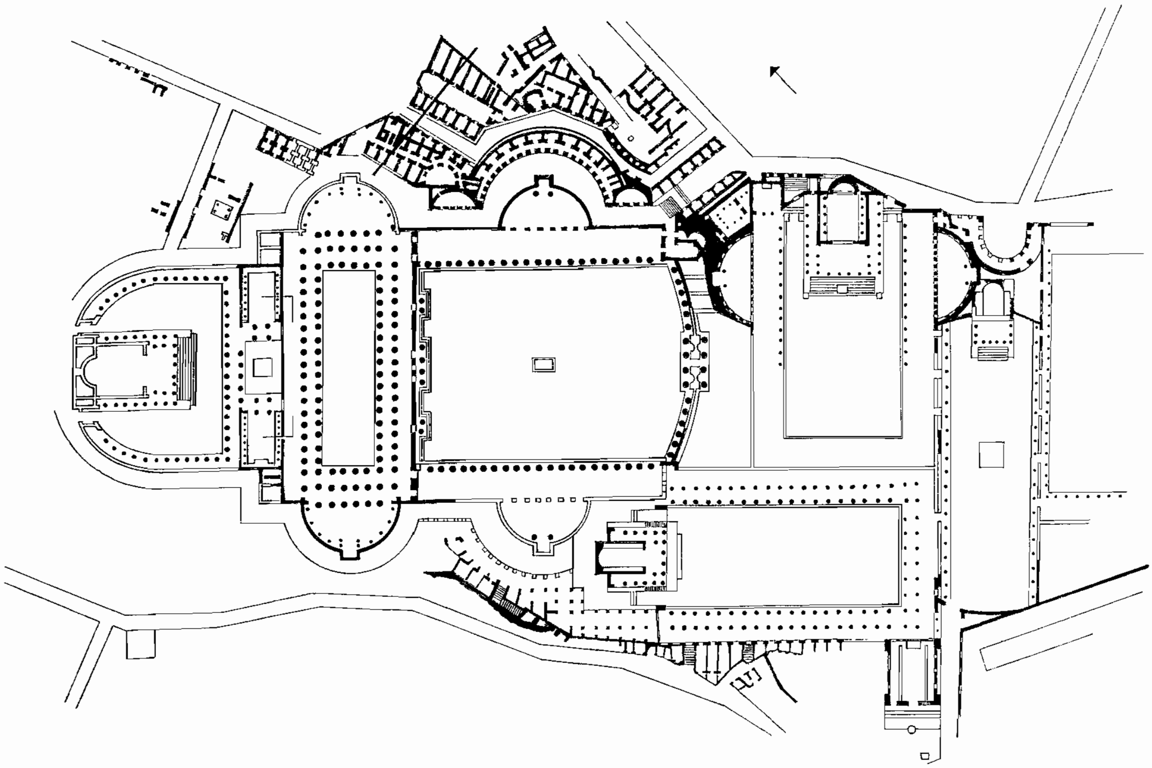


واجهة السوق الترايانية التي صممها أبولودوروس في رومة

داكية وبين الحربين الداكيتين الأولى والثانية ١٠٤-١٠٥ م، ووضع تصاميم هذا الجسر وأنشأه على الدانوب عند مضيق بوابات الحديد قرب مدينة دوبريتي دوبريسين الحالية في المجر مستخدماً جيشاً بتمامه مدة عام كامل تقريباً. وقد وصف أبولودوروس هذا الجسر في دراسة له ذكرها المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس Procopius.

اعترضت أعمال بناء الجسر إقامة أساسات وركائز في سرير النهر، إذ كان من الغزارة بحيث لا يمكن تحويله. ولكن أبولودوروس، ولأول مرة في التاريخ، تصدى لمثل هذا العمل الذي يتطلب جسارة تقنية عالية، فنجح في إرساء عشرين ركيزة قوية جداً في لجة النهر، ثم مد الجسر بطول ١٠٩٧ متراً وبعرض يراوح بين ١٣ و١٩ متراً. وكانت فرجة القناطر بين الركائز ٣٨،٣٥ متراً. وحصّن طرفي الجسر بالأبراج. وقد أزال الامبراطور إدريانوس فيما بعد سطح الجسر حتى لا يستخدمه العدو، ثم أصلحه قسطنطينوس في عام ٣٢٨م، ولا تزال بعض آثاره باقية.

أبولودوروس والبانتيون: إن معبد البانتيون (مجمع الأرباب) هو أهم المعابد الرومانية المستديرة الباقية، وأكثر المباني الدينية الرومانية روعة في كثير من الوجوه. وهو يتألف من جسم مستدير قطره ٤٣،٨٠ متراً مكون من جدار من «الكونكريت» المصفّح بالآجر سماكته ستة أمتار تقريباً. وتعلو جسم المعبد قبة رحيبة بلا



مخطط الفوروم الترایاني الذي أنجزه أبولودوروس في رومة

قبة ارتفاعها ٨٣ متراً وقطرها مثله، وهي أكبر القباب في العالم القديم. وللقبة في ذروتها فتحة مستديرة قطرها ٥ر٨ من الأمتار. ولمدخل البانتيون ١٦ عموداً باسقاً وجبهة مثلثة. وعند هذا المدخل يداخل المرء شيء من الثقل، وما أن يصل إلى الداخل حتى يحس بالرحابة والامتداد، والنور يتدفق من القمة فيجعل كل شيء مجسماً.

وعلى واجهة البانتيون كتابة تذكارية تؤرخ بناء معبد أقدم منه، يعود إلى عهد أغريبا Agrippa (٦٣ق.م - ١٢ق.م). وقد تهدم في عام ٨٠ م في حريق الحي الذي يقوم فيه، فأصلحه الامبراطور دوميتيانوس ثم احترق مرة ثانية في عام ١١٠م. وينسب إلى الامبراطور إدريانوس (١١٧-١٣٥م) إقامة البانتيون على الهيئة الموصوفة بين عامي ١٢٠-١٢٤م. ولكن ثمة اعتراضات على نسبة البانتيون إلى إدريانوس بسبب الآجر المستعمل فيه، وطرازه المعماري العام، وهيئة قبته، وقد أصبح الآن في حكم المؤكد معمارياً وأثرياً أن البانتيون هو من منجزات أبولودوروس الدمشقي.

ويرى وولف ديتر هايلماير W.D. Heilmeyer أن هذا البناء كان من إنشاء أبولودوروس، وأن تصميمه إياه يعود إلى عام ١١٤م، وأن أسلوب بنائه هو أسلوب أبولودوروس بمزجه بين العظمة والبساطة والوضوح، وهو أسلوب يعتمد على العناصر الأفقية والعمودية وزخارف معمارية تنزع إلى أشكال عهد أوغسطس وكلها أشياء واضحة في البانتيون.

منجزات باهرة أخرى: بين المنجزات الأخرى لأبولودوروس الحمامات التي شيدها لترايانوس على رابية الاسكويلينوس. ويرى ليون هومو: «أن الحمامات التي بناها أبولودوروس لترايانوس هي التي حددت هيئة الحمامات فيما بعد، إذ أصبح على التصميم أن يلبي حاجتين أساسيتين هما الاستحمام بأشكاله ومراحله المتعددة من جهة، والترويح والرياضة من جهة ثانية». ومن منجزات أبولودوروس قوس النصر في مدينة بنيفانتوم، وقوس النصر في مدينة إنكونا. وينسب إليه كذلك إفريز ضخم منحوت كان معداً ليقام في مكان ما من «الفوروم». ومن منجزاته أيضاً مسرح موسيقي (أوديون) في مونتي جوردانو . أما في مجال السباقات فقد أنشأ أبولودوروس حلبة بطول مرحلتين (أكثر من ٣٠٠ متر) إلى الشمال من موقع مدفن إدريانوس على ضفة نهر التيبر في رومة، وكانت مخصصة لتمثيل المعارك البحرية نوماكيا Naumachia وتنسب الدراسات الحديثة لأبولودوروس تعديل مرفأ أوستيا وإنشاء حوضه المضلع الذي يشبه من حيث الشكل النماذج الهلنستية - السورية، وكذلك مرفأ «كنتوم كيللي».

ومن أعمال أبولودوروس الشروع بتشييد المعبد المخصص لترايانوس، الذي حدد مكانه في

صدر «الفوروم»، وأُكمل بناؤه فيما بعد. وثمة عمل آخر يجدر ذكره هو آلات الحصار التي صممها، وقد وصلت بعض رسوم مستنسخة عنها في مخطوط بيزنطي، وبينها آلة لاقتحام الأسوار عممت في القرون الوسطى وتنسب إلى أبولودوروس. ويتضح من هذا كله أنه لم يكتف بما كان يحققه في ميادين العمارة والنحت بل ظل يمارس حتى آخر أيامه مهمته الأصلية في ميدان الهندسة العسكرية.

نهاية أبولودوروس

كان الامبراطور إدريانوس مأخوذاً بالعمارة الإغريقية، وله آراء في فن العمارة، ويقال إنه صمم معبد رومة وفينوس والفيلا الشهيرة باسمه فيلا أدريانا. ولم يكن على وفاق فني مع أبولودوروس الذي كان ينتقد تصاميمه فيضيق بذلك، وتمتلىء نفسه غيظاً وغضباً.

ويرى المؤرخ الروماني كاسيوس D. Cassius أن إدريانوس، من أجل ذلك، اتهم أبولودوروس بأشياء مختلقة ونفاه ثم أمر بقتله. وبهذه المحنة تنتهي تلك الحياة الحافلة بجلائل الأعمال.

عدنان البني

مراجع للاستزادة:

- HOMO, Siècle d'or del' Empire Romain (Paris, 1947).
- W. D. HEILMEYER, Appollodoros Von Damaskus der Architekt des Pantheon (J.D.A.I. 90, 1975).
- J.B. WARD - PERKINS, Roman Imperial Architecture (1981).

■ أبولـــون

أبولون (أبولو) Apollon هو أوسع آلهة الأساطير اليونانية نفوذاً وأسماهم منزلةً بعد أبيه زيوس. أُمُّه ليتو Leto وأختــه التوأم أرتيميس.

ترجح الأساطير أنه وُلد في جزيرة ديلوس الواقعة في بحر إيجة، وأنَّ عبادته انطلقت من تلك الجزيرة إلى اليونان وآسيا الصغرى. ويقال إنه بنى بيديه أسوار طروادة وناصَرَ الطروادين، وأوقع الخصومة بين آخيل وأغاممنون، في حين كان بقية الآلهة يناصرون الإغريق.

كانت له وظائف متعددة فقد عُبد في البدء إلهاً للشمس ولُقِّبَ «فيبوس» أي الساطع، ولهذا اللقب مغزاه عند الشعراء والفنانين. وكان يُعَدّ إلهاً لكلّ ما هو خيِّر وجميل، كحفظ النظام واحترام القانون وإسعاد الناس وشفاء المرضى وتطهير المذنبين وإبادة الجرذان والزواحف؛ ولذا تعددتْ نعوته وألقابه، ومنها أبولون بيثيون لقتله البيثيون Python (ثعبـان ضخم) ولكنه، مع ذلك، كان مخوفاً، يعاقب الخارجين على الأنظمة والقوانين الدينية فيرميهم بسهامه، ويرسل الجوائح والأوبئة ليعاقب بعض المدن... فإذا المؤمنون به دائماً بين رجائه ومخافته. وكان كذلك إلهاً للموسيقى والشعر ورئيساً لأخواته التسع ربات الإلهام اللواتي كنّ يقمن معه في قمة البرناس. ويرى الفيلسوف نيتشه أنه يمثّل التفكير والحكمة والتأمل بينما يمثّل ديونيزوس الوَلَه الديني.

وكانت مدينة دِلْفي أعظم مركزٍ لعبادته وتلقي إلهامه، حيث تقوم على خدمته كاهنة اسمها «بيثيا» تتلقى إلهامه في طقوس معينة ثم تؤديه إلى الناس وتكشف لهم في أثناء وَجْدها بعض النبوءات مما تفوه به من عبارات وأشعار. وكان لكهنته نفوذٌ كبير في حياة اليونان السياسية والاجتماعية لأن وحيه يعدُّ تعبيراً عن إرادة والده زيوس.

انتقلت عبادته إلى إيطالية فعبده الأتروسكيون ثم الرومان، واتّسعت في عهد أغسطس الذي اتخذه إلهاً، وبنى له معبداً في «البالاتان» شكراً له لأنه أظفره على أنطونيو وكليوباترة في معركة أكتيوم.

وقد أضفى عليه «هزيود» و«بندار» بعض السّمات الإنسانية من حبه الموسيقى والشعر والرقص وعشقه بعض الغانيات مثل «كورونيس» التي ولدت منه «إسكولاب» إله الطب. ومن زوجاته الإلهيات الحوريةُ «دفنة» التي هربت منه جزعاً، وتحولت شجرة غار، فضفر من أغصانها إكليلاً لرأسه؛ ومنهن أيضاً «كاليوبة» ربة الموسيقى التي ولدتْ «أورفيوس» فوَرِث عن والديه الشعر والموسيقى والقيثارة.



تظهر رسوم أبولون كثيراً على الأواني الإغريقية حيث يبدو عازفاً على القيثارة أو بصحبة ربات الإلهام أو أمام أسوار طروادة.. ووجدتْ له تماثيل ومجموعات نحتية جميلة نقـذها نحّــاتون عظام مثل «فيدياس» و«براكسيتيل» و«برنان». ومُثِّل في العصر الوسيط رامياً للسهام. أما في عصر النهضة فقد غدا موضوعاً أثيراً لدى الفنانين. وصوّره «دورر» إلهاً للشمس وجعل منه «رافائيل» مثالاً أعلى للجمال الذّكري.

عبد الرزاق الأصفر

مراجع للاستزادة:

- سهيل عثمان وعبد الرزاق الأصفر، معجم الأساطير اليونانية والرومانية (دمشق، وزارة الثقافة ١٩٨٢).
- أمين سلامة، معجم الأعلام في الأساطير اليونانية والرومانية (القاهرة ١٩٥٥).
- Dictionnaire de la Myhthologie Grecque et Romaine (Larousse, 1965).
- PIERRE GRIMAL, Dictionnair de La Mythologie Grecque et Romaine (Presses Universitaires de France, 1969)

■ أبولونيوس الرودسي
(نحو ٢٩٥ ق.م-نحو ٢٣٠ ق.م)

أبولونيوس الرودسي Apollonius Rhodius شاعر وباحث اسكندري ولد في الاسكندرية ومات فيها. يعود لقبه الرودسي إلى تقاعده عن الحياة العامة ولجوئه إلى جزيرة رودس إثر خلاف حاد بينه وبين أستاذه كاليماخوس Callimachus -أبرز شعراء العصر الهليني وباحثيه- على طبيعة الملحمة التقليدية الطويلة، زاده سوءاً كون الأستاذ في مرتبة أدنى من مرتبة التلميذ في مكتبة الاسكندرية التي كان أبولونيوس مديراً لها. وعلى الرغم من انتصار كاليماخوس وانسحاب أبولونيوس إلى جزيرة رودس فإن الغلبة في نهاية المطاف كانت لشعراء الملحمة التقليدية الطويلة على خصومهم من أنصار القصيدة القصيرة. وهكذا عاد أبولونيوس إلى مصر ليغدو قيماً على مكتبة الاسكندرية بين عامي ٢٦٠ و٢٤٧ ق. م ولتصبح ملحمته «أرغونوتيكا» Argonautica (قصة بحارة السفينة أرغو) رائعة عصرها بعد أن قام بتنقيحها وتشذيبها في أثناء اغترابه في رودس.

تتألف رائعة أبولونيوس من أربعة كتب يصف الأول والثاني منها رحلة جيسون Jason إلى البحر الأسود على متن السفينة أرغو Argo بصحبة خمسين من أشجع أبطال اليونان بغرض الحصول على الجزة الذهبية المعلقة على شجرة بلوط مقدسة في الأرض الهمجية لكولخيس Colchis. ويتناول الكتاب الثالث منها حصوله على هذه الجزة بمعونة ميديا ابنة ملك كولخيس التي فرت معه عائدة إلى بلاد اليونان في رحلة صعبة وشاقة وطويلة عن طريق نهر الدانوب وبحر الأدرياتيك والبحر المتوسط وصفها الكتاب الرابع والأخير بدقة وإسهاب.

كان أبولونيوس أول شاعر ملحمي يقسم ملحمته إلى كتب؛ وملحمته هي الملحمة الوحيدة التي ترقى في مداها وموضوعها إلى المقارنة بملحمتي هوميروس [ر]، ولذا كانت بحق الملحمة العظيمة للحقبة الاسكندرية. تقع أبيات الملحمة التي نظمت على البحر السداسي التفعيلة في ٥٨٣٤ بيتاً، قدّم فيها أبولونيوس أسطورة آرغو المشهورة على نحو ممتع ومفيد كفله تبحره في العبادات والعادات والآثار وشروحه الخبيرة للأسماء والتي عاد فيها إلى أمهات كتب الثقات التي تشير إليها حواشيه. وربما كان من أبرز عوامل السحر الذي انطوت عليه أن عاطفة الحب قد تسنمت فيها مكانة بارزة، إذ ليس هناك من شاعر يوناني، خلا سافو Sappho، استطاع تصوير يقظة الحب في قلب امرأة شابة، ومتابعة تطوره النفسي عن كثب كما فعل أبولونيوس الذي اتسم تصويره بالحيوية والروعة والسحر والصدق في آن معاً. لقد كان أبولونيوس سيد من يصف الظلال، ويجدّد في التشبيهات، ويرسم المشاهد المتألقة، ويشير إلى المفارقات الدقيقة في نفوس شخصياته وحياتها. وعلى الرغم من ذلك فإن ملحمته لم تخل من بعض العيوب التي ربما كان من أبرزها افتقارها إلى الوحدة البنيوية والتشخيص المحكم: فكثيراً ما ينحدر السرد فيها إلى مقاطع مفككة لا روح فيها، وجيسون بطلها المركزي يبدو بطلاً غير ملهم، يفتقر إلى الحيوية، وتعوزه طاقة القائد البطولي الجدير بملحمة كهذه.

ويبدو أن سر نجاح هذه الملحمة في عصرها، وما تلاه من عصور، يعود إلى قدرة أبولونيوس على التنقيح المصقول للغة هوميروس ليصف بها عالماً جديداً مفعماً بالعاطفة الرومنسية -الأمر الذي كفل له تقديراً واسعاً في الحقبة الامبراطورية، وتأثيراً ملهماً في فيرجيل [ر] صاحب الإنيادة.

والحقيقة أن ثمة أصداء واضحة لملحمته في «الفردوس المفقود» Paradise Lost لميلتون [ر] وفي «حياة جيسون وموته» The Life and Death of Jason لويليام موريس William Morris ولكن هذه الأصداء غدت خافتة ومحدودة في الأدب الحديث، وهو مصير لا تستحقه ولا يستحقه صاحبها الذي كتب قصائد كثيرة على طريقة عصره، وعدداً لابأس به من المؤلفات تناول فيها أرخيلوخوس، وأنتيماخوس، وهزيود [ر] وغيرهم.

عبد النبي اصطيف

الموضوعات ذات الصلة:

الأدب اليوناني-الملحمة-اليونان.

مراجع للاستزادة:

- GHARLES ROWAN BEYE, Ancient Greek Literature and Society (Anchor Books, New York 1975)
- JOHN BOARDMAN, JASPER GRIFFIN & OSWYN MURRAY (eds.) The Oxford History of The Classical World (Oxford University Press, Oxford 1986).

■ أبولينير (غيوم-)
(١٨٨٠-١٩١٨)

غيوم أبولينير Guillaume Apollinaire شاعر فرنسي ولد في رومة، ولازمه سوء الطالع منذ إطلالته على الحياة، فقد جاء ثمرة لحب خاطىء بين أبيه فرانشيسكو داسبيرمونت المنحدر من أسرة إيطالية نبيلة، وأمه أنجليكا كوستروفيتزكي، من أسرة بولندية الأصل، كانت قد استسلمت لغوايته فهربت معه وحملت منه، وولدت طفلاً سمته غيوم، سُجّل على أنه من أبٍ مجهول، وأتبعته بعد عامين بصبي آخرَ لم يكن حظه من الشرعية أفضل من أخيه، لأن أباهما رفض الاعتراف بهما. ولم يكتف القدر القاسي بحرمان الطفلين شرف النسب، فقد انبتّ ما بين والديهما فافترقا واضطرت الأم إلى مغادرة إيطالية مع طفليها، متنقلة بين الملاهي، إلى أن استقر بهم المقام في موناكو. في هذا الجو القلق، يتجاذبه التشرُّد والحرمان ويغيب عنه طيف الأب عائل الأسرة، عاش غيوم طفولةً شقيةً، فلا عجب، أن تنساق إلى شعره، فيما بعد، صورٌ مؤسيةٌ تمتح من مواجع ماضيه الحزين.

وقد أتيح له أن يتابع دراسته وأن يشغف بالمطالعة ليجد في الكتابة ونظم الشعر منفسحاً يرفد فيه اسمه بشرف الأدب بعد أن حُرم شرف النِّجار والنسب. وقد امتُحن قلبُه بالإخفاق في حياته العاطفية وخلّفت كلُّ قطيعة في قلبه جراحاً وحسرات، كانت كسباً للشعر وغنماً، إذ كان يفزع إلى القصيد، يجلو فيه مواجيد قلبه العميد. وفي باريس، حيث شاء الإقامة طلباً للرزق، لمع اسمه في الأوساط الأدبية، شاعراً ملهماً، مشغوفاً بالتجديد، وصحافياً مبرزاً، وناقداً فنياً متميزاً، كان له فضل كبير في التنويه بعمالقة التصوير في عصره، كبيكاسو وبراك وغيرهما، ولكن حظه العاثر لم يلبث أن لاحقه،

إذ جلبت له صداقته لمغامر بلجيكي متهم بسرقة تماثيل من اللوفر، متاعب جمةً، فأُوقف ظلماً، وأفرج عنه بعد أن ثبتت براءته، ولكن حبيبته المصورة ماري لورانسان هجرته فوجد في الشعر ملاذاً له وسلوى، وأصدر ديوانيه «كحول» و«دلالات جمالية» اللذين يُعدّان، بحق، فتحاً جديداً في الشعر الفرنسي. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى، تطوَّع في الجيش، لعله أن ينسى في غمرات الحرب خيباته المترادفة في الحياة، وأُصيب بشظية في رأسه، ولم يلبث أن شفي من جرحه. وقُدِّر له أن يتزوج فتاة صبا إليها قلبه، بيد أن طالعه النكد، كان يتربص بهناءته القصيرة فوقع مريضاً بوباء الأنفلونزا الإسبانية، وقضى نحبه في باريس في ٩/١١/١٩١٨ ولحقتْ به أمه ثم أخوه، بعد أمدٍ قصيرٍ، وكذلك غال الموت في أوقات متقاربةٍ، أفراد هذه الأسرة الشقية.

يعد كثيرٌ من النقاد أبولينير أحد كبار الشعراء الرواد الفرنسيين الذين بثّوا في الشعر الفرنسي المعاصر رعشةً جديدة يمكن أن تماثل، في تأثيرها وعمقها، ثورة بودلير الشعرية حتى إن اسمه يردُ في أي حركة تجديدٍ في الفنون عامة، وفي الشعر خاصة، لأن نفسه القلقة الطموح، كانت تملي عليه نشدان كلِّ جديدٍ مبتكرٍ ونبذَ كلِّ مألوفٍ مطروقٍ في الفن والأدب، فقد دافع عن الحركة «التكعيبية» في التصوير، وكان بيكاسو أحد أعلامها، إبّان نشأتها وذيوعها. كما أن السريالية، التي أطلق عليها أبولينير نفسه هذا التعبير الملائم، وجدت في شعره، بعد أن جفا الرمزية وأباها، الرائدَ الفذّ الحقيقيَّ بصوره الخلاّبة الغريبة المنتزعة من اللاشعور والمحلِّقة فيما وراء الواقع. كما أن حركة الدادية[ر] التي ذاعت، بعد موته بأمدٍ قصيرٍ، متحت من بعض أوابد صوره الشعرية وطفرات خياله. إن قصائد أبولينير مترعةٌ ماءً وطلاوةً ورقةً، مما أغرى كبار الموسيقيين في عصره مثل هونيغر وبولينك بتلحينها، حتى لقد ناسمتْ شفاه الشبيبة في عصره. غير أن ما استحدثه أبولينير في شعره، هو أنه استطاع أن يلائم بين الواقع والخيال، فتجد فيه صفير القطار وأطيط العجلات ونداءَ الباعة وصخب الحانة، إلى جانب الصور المجنّحة التي تنفض أعماقَ الضمير. كان شعره محاولةً جريئةً، لاقتناص الواقع وتصعيده، من ثم، إلى ما فوق الواقع بأسلوبٍ عفويٍّ مباشرٍ يتكيء على التدفُّق البريء من التكلُّف والتعسُّف، إذ تنساب كلماتهُ سهلةً رهوةً، من دون أن يحجز فيما بينها نقطةٌ أو فاصلةٌ، كأنها قطراتُ النهر المنحدرة من نبعها متماسكةً متصلة.

وكان يبتكر ويتفنّن في تسطير قصائده، كأنه طفل فنان يعبث بكلماته فيسطِّرها، وفقاً لموضوعاتها، على شكل حصان أو امرأة أو زجاجة، أو غير ذلك، فتجد سطور قصيدة «مطر» مثلاً، بحروفها المرسومة، وكأنها خيوط المطر المنهمر.

وقد قُدِّر لهذا الشاعر المجدد، الذي مات في ريّق العمر، فقيراً، بائساً، أن يغني حركة الشعر الفرنسي المعاصر، ويوشِّيها بالنغم الطلي والصورة الحية المبتكرة، كما أسهم في إغناء النقد الفني، وكان له فضل كبير في التنويه بكبار المصورين العباقرة في عصره. يقول الناقد ج. ناتان: «لقد مات أبولينير في الثامنة والثلاثين من عمره وشارك في جميع الحركات والمدارس المنتمية إلى الشعر الجديد، ولم تمض سنوات حتى اتخذ الشعر، بفضله، اتجاهاً طليعياً تهفو إليه أنظار الشبيبة، موثقةً وشائجها مع حميع أشكال الفن الحي من تصويرٍ وموسيقى وشعرٍ وتمثيلٍ وسينما».

بديع حقي

الموضوعات ذات الصلة:

الأدب الفرنسي - التكعيبية - الدادية - السريالية.

مراجع للاستزادة:

- MARCEL ADÉMA, Guillaume Apollinair Le Mal - Aimé (Edition Plon, 1950)
- PASCAL PIA, Apollinair par Lui -Meême (Edition Seuil, 1954)

■ أبوليوس (لوشيوس -)
(نحو ١٢٥ - ١٨٠ق.م)

لوشيوس أبوليوس Lucius Apuleius كاتب وفيلسوف وبلاغي لاتيني كبير، ولد في مادورا Madaura (أبوليا - إيطالية) من أبوين ينتميان إلى أسرة مرموقة وثرية، وقد أظهر أبوليوس منذ صغره ولعاً بكشف المعارف على مختلف أنواعها، فدرس البلاغة في قرطاجة، والفلسفة في أثينة، وأولى الطقوس والشعائر الدينية اهتماماً كبيراً، ولا سيما تلك التي كانت متبعة في عبادة إلهة مصر إيزيس Isis.

أسهمت قراءات أبوليوس ومطالعاته في تعدد مواهبه، وساعدته في الإلمام بالثقافة المصرية، وبأعمال الكتّاب الإغريق واللاتين، حتى صار أثرها واضحاً في أعماله البلاغية والفلسفية. وقد شهر بمحاضراته التي تتصف بأسلوبها وفصاحتها وقدرتها الفائقة على الإثارة والتسلية مما حببها إلى الناس.

ومن أشهر كتبه، كتاب «الدفاع» Apologia الذي يعد مرجعاً في الفصاحة القضائية اللاتينية، إضافة إلى كونه مصدراً أساسياً لسيرة أبوليوس الذاتية، ويتضمن هذا الكتاب ردّ أبوليوس على اتهام أسرة الأرملة أميليا بودنتلا Amelia Pudentela بممارسة السحر للفوز بقلبها، والزواج منها طمعاً في ثروتها.

وقد لاقت كتبه، وما تزال، نجاحاً منقطع النظير، ولا سيما كتابه «الحمار الذهبي» L'âne d'or الذي عرف فيما بعد بعنوان «التحولات» Métamorphoses، ويعتمد هذا الكتاب على الخيال، لكنه يحوي بعض التفاصيل عن سيرة أبوليوس الذاتية، وأفكاراً كثيرة مليئة بالرؤى والأسرار السحرية الجليلة التي تعكس التأثير المصري في وصفه لمغامرات الشاب الذي مُسخ حماراً بفضل مرهم سحري، ثم عاد بعد مدة إنساناً سوياً بمساعدة إيزيس مع تناوله نوعاً من الأزهار، ورافق عملية التحول هذه كثير من المغامرات والمخاطر.

أما أعماله الفلسفية فقد كان لها تأثير عظيم كذلك لتناولها موضوعات متعددة، أظهرت بوضوح تأثره بفلسفة أفلاطون، التي جعلت منه أفلاطونياً مُحدَثاً، وأهم هذه الأعمال: «نظرية أفلاطون» Platon et son dogme و«شيطان سقراط» Le démon de Socrate، وعمل ثالث مفقود عنوانه «حول العالم».

إن أعمال أبوليوس هذه وأعمالاً أخرى مثل «فلوريدا» Florida إلى جانب عبقريته جعلت منه مرجعاً خصباً لأجيال الأدباء والفلاسفة حتى

هذه الأيام. فقد كرر الشعراء الإنكليز محاكاة أعمال أبوليوس منهم وليم موريس William Morris في كتابه «الجنة الأرضية». وس. لويس S. Lewis في رواية «مادمنا نملك وجوهاً» ١٩٥٦م.

وقد ظهرت بعض مغامرات أبوليوس في رواية سرفانتس «دون كيشوت»، وفيما كتبه بول فاليت Paul Valette عن «أبولوجيا أبوليوس» عام ١٩٠٨م.

منصور حديفي

■ أبو ماضي (إيليا -) ◄ إيليا أبو ماضي

■ آبي (مسرح -)

افتتح مسرح آبي Abbey Theatre في دبلن (إرلندة) عام ١٩٠٤ ليكون مقراً للجمعية الوطنية للمسرح الإرلندي بمساعدة مالية من آني إليزابيث فردريكا هورنيمان Horniman (١٨٦٠-١٩٣٧م) التي عرفت برعايتها للنشاط المسرحي في إنكلتره وإرلندة أوائل القرن العشرين وبدعمها المباشر لمسارح عدة في لندن ومانشستر ودبلن.

يقترن اسم مسرح آبي بالحركة المسرحية الإرلندية، وهي من أهم الحركات المسرحية العالمية في القرن العشرين فقد قدمت للمسرح العالمي أعمالاً بارزة لوليم بتلر ييتس William Butler Yeats (١٨٦٥-١٩٣٩) وإيزابيلا غريغوري Gregory (١٨٥٢-١٩٣٦) وجون ملنغتون سينغ John Millington Synge (١٨٨٤-١٩٠٩) وشون أوكيسي Sean O'casey (١٨٨٤-١٩٦٤) وآخرين. كانت هذه الحركة جزءاً من النهضة الثقافية الفكرية الإرلندية التي كانت جزءاً من نضال الشعب الإرلندي من أجل الحرية والاستقلال.

وما كان مسرح آبي إلا وجهاً من وجوه الصراع من أجل توكيد الهوية الثقافية الوطنية التي تجلت في تأليف جمعيات وروابط أدبية ومسرحية وثقافية كانت تلتقي على ضرورة إبراز الشخصية القومية المميّزة للثقافة الإرلندية التي كادت تنحسر أمام الهيمنة الثقافية والفنية واللغوية الإنكليزية.

لم يكن مسرح آبي مجرد مكان لتمثيل الأعمال الدرامية، بل كان مدرسة مسرحية قائمة بذاتها لها شخصيتها وصفاتها الخاصة. ولم يكن الكتّاب المسرحيون يعملون منفردين ضمن هذه المدرسة بل كانت تربطهم روابط وثيقة كثيراً ما جعلتهم يشتركون في كتابة بعض المسرحيات، حتى إن ييتس كان يقول إنه من الصعب تحديد مقدار إسهامه هو أو إسهام الليدي غريغوري في مسرحية كاثلين ابنة هوليهان Cathleen ni Houlihan (١٩٠٢).

وأوجد هذا المسرح مفهومات وأسساً اعتمدها مؤسسوه ومن تبعهم، هي الإيمان بالتراث الإرلندي وبالخيال الحي الخلاق وباللغة الإنكليزية الإرلندية، وبالواقعية المبنية على حياة الشعب اليومية.

كان الاهتمام بالتراث الإرلندي أحد مظاهر الحركة الوطنية الإرلندية عامة. ولكن الحركة الأدبية تبنته وجعلته من مقوماتها. فقامت الليدي غريغوري بترجمة عدد من الأساطير والملاحم والقصائد الإرلندية السلتية القديمة، واستقت من هذه الأساطير مادة مسرحياتها الشعبية التاريخية، كذلك فعل ييتس وسينغ وغيرهما ممن لم يجدوا في تراث إرلندة مادة سهلة الاستغلال فقط، بل رابطاً يربط ماضي الشعب بحاضره أيضاً، ورأوا أن هذا التراث هو منطلق الشعب الإرلندي في بنائه لثقافته الحديثة وفي تحقيقه لنهضته. ولقد عبرت الرغبة في إحياء التراث عن رغبة في العودة إلى ماض غني مجيد وفي إعادة الفكر الإرلندي إلى بيئته الحقيقية وتحريره من ضغط ثقافة أخرى وعوائقها. وما كانت هذه الرغبة بالعودة رومانسية الطابع بل محاولة جادة في سبيل التخلص من تأثيرات متأخرة كادت تطيح بالثقافة الوطنية والروح الوطنية.

ولقد أراد بعضهم أن يجعل من لغة هذا التراث الأدبي القديم لغة الأدب الحديث والمسرح الحديث. وكان في مقدمة من دافع عن وجهة النظر هذه أعضاء العصبة الغالية The Gaelic League ورئيسها الدكتور هايد Douglas Hyde الذي كتب عدداً من المسرحيات باللغة الإرلندية السلتية، وأصبح فيما بعد أول رئيس للجمهورية إرلندة الحرة. أما الليدي غريغوري وييتس فقد دافعا عن ذلك اللون من اللغة الإنكليزية الذي تتكلمه أغلبية سكان إرلندة ولا سيما الجزء الغربي منها. وهذه اللغة، التي اصطلح على تسميتها باللغة الإنكليزية - الإرلندية، هي لغة إنكليزية في جوهرها إلا أنها إرلندية في صورها وبناء جملها وطرائق تعبيرها. ولقد وجد كُتّابُ مسرح آبي الأوائل، وفي مقدمتهم ييتس، أن هذه اللغة الحية هي وحدها التي تستطيع أن تعبر عن خيال الإرلندي الحي. فهي لغة لم تمتد إليها يد الفساد، ولم تتأثر بلغة الصحف ولا بلغة من تأثروا بها أو ورثوا لغتهم عن أشخاص فسدت لغتهم وجدبت.

كان إيمان كُتّاب مسرح آبي باللغة الإنكليزية الإرلندية يرتبط بإيمانهم أولاً بعامة الشعب والريفيين منهم خاصة وثانياً بالشعر يعدّونه خير واسطة للتعبير المسرحي.

كان ييتس وزملاؤه يؤمنون بأن الشعر لا يزال يعيش في مجتمع إرلندة الريفي، وأعاد ذلك إلى أذهانهم صورة العصور الذهبية لآداب الأمم الأخرى حين كانت اللغة حية غنية. وربط بعضهم بين نهضة المسرح في تلك العصور واستعمال الشعر في الأعمال المسرحية، فاعتمدوا اللغة الشاعرية التي وجدوا فيها أصول الشعر الحقيقي النابض بالحياة والعفوية. ونظم بعضهم هذه اللغة نظماً كييتس والليدي غريغوري، في حين استعملها آخرون مثل سينغ وشون أوكيسي كما وجدوها، فكانت ريفية لدى الأول وحضرية - مدنية لدى الثاني، وذلك تبعاً للمجتمعين المختلفين اللذين ألفا إطار مسرحياتهما.

وإذا اتفق جميع كتاب الحركة المسرحية الإرلندية على استعمال لغة الشعب الواقعية فإنهم اختلفوا حول مدى التصاق العمل الفني بالواقع ومدى معالجته لمشكلات هذا الواقع. فقد أراد بعضهم كإدوارد مارتين Eduard Martin (١٨٥٩-١٩٢٤) وجورج مور George Moore

(١٨٥٢-١٩٣٣) أن ينحو المسرح الإرلندي منحى مسرح إبسن، وأراد بعضهم كييتس وسينغ أن تكون المسرحية وأشخاصها بعيدين بعض البعد عن الواقع لتصبح المسرحية في متناول الجميع في كل زمان ومكان، أو كما قال ييتس يمكن أن يكون الموضوع بعيداً بعض البعد عن الواقع من دون أن يكون بعيداً عن النفس البشرية سواء في إرلندة أو خارجها، ذلك لأن واقعية الروح أقوى وأكثر استمراراً من واقعية الأشكال والحوادث. وكتب سينغ في مقدمة مسرحية «زفاف الصفّاح» (السمكري) The Tinker's Wedding (١٩٠٨) حول هذا الموضوع معبراً عن رأيه ورأي ييتس بمسرح إبسن وشو قائلاً: «إن ما يجعل العمل المسرحي عملاً جدياً ليس هو مدى اهتمامه بالمشكلات الجدية بقدر مدى ما يعطيه هذا العمل من ذلك الغذاء الصعب التعريف الذي يعيش عليه الخيال. فارتيادنا المسرح يجب أن يختلف عن ذهابنا إلى صيدلية، وأن يكون شبيهاً بذهابنا إلى حفل عشاء لنأكل الطعام الذي نحتاج إليه بمتعة وشغف. هكذا كان الأمر في إسبانية وإنكلترة وفرنسة حين وصل المسرح فيها إلى أوجه. أما في هذه الأيام فإن المسارح ملأى بالأدوية لمشكلات الحياة وأمراضها... إن المسرحية، كالسمفونية، لا تعلّم ولا تبرهن على شيء، فالمحللون ومسائلهم والمعلمون وأنظمتهم سرعان ما يتركهم الزمان وراءه كما ترك عقاقير غالينوس وإبسن والمسرحيين الألمان».

ولكن الاتجاه العام كان نحو مسرح واقعي يعتمد الحياة الإرلندية أساساً له من دون السماح للّون المحلي بأن يطغى، فيجعل من هذا المسرح مسرحاً محلياً إقليمياً. وهذا الاتجاه واضح في كتيب صغير اسمه «نصائح للكاتب المسرحي» كان مسرح آبي يرسله إلى كتّاب المسرحية الشباب وفيه:

«كي تصبح مسرحية ما صالحة للتقديم على مسرح آبي عليها أن تحتوي على نقد للحياة مبني على التجربة أو الملاحظة الشخصية للكاتب، أو على رؤية للحياة، وتفضل الحياة الإرلندية، وعلى الكاتب المسرحي أن يطرد من ذهنه أية فكرة تقول بوجود عناصر معينة ضرورية لإعطاء المتعة الدرامية كمطارحة الغرام في المسرح الشعبي، لأن أية عقدة للحوادث فيها عواطف عنيفة وصراع في الإرادة تصلح مادة للمسرحية. وبقدر ما تبدو مثل هذه العقدة غير مسرحية في البداية بقدر ما يرجى منها من خير في النهاية. وعلى الكُتّاب الشباب أن يتذكروا أن عليهم أن يستقوا جميع مؤثراتهم من التعبير المنطقي لموضوعهم لا عن طريق إضافة حوادث خارجية، وأن العمل الفني لا يمكن أن يكون له أكثر من موضوع واحد، وأن هذا العمل، وإن كان يجب أن يكون له تأثير الطبيعة، فإنه، بحسب تعبير غوته، فني وليس هو الطبيعة. وعليهم أن يذكروا أيضاً أنه لا بد للعمل الفني من وحدة تختلف عن غنى الطبيعة العرضي. إن مسرح آبي كثيراً ما ترسل إليه مسرحيات تدل على أن كتابها لم يدركوا بعدُ أن تحقيق هذه الوحدة عن طريق بناء العقدة وإعادة بنائها المستمر هو عمل الكاتب المسرحي الأساسي وليس كتابة الحوار».

وتقول الليدي غريغوري: «إن حركتنا عودة إلى الشعب... والمسرحية التي تعطيهم متعة طبيعية هي تلك التي تحدثهم عن حياتهم أو عن تلك الحياة الشعرية التي يرى فيها كل إنسان صورته».

ولكن نصائح مسرح آبي للكتّاب الشباب لم تقتصر على مادة المسرحية ووحدتها شكلاً وموضوعاً بل تطرقت إلى غاية المسرح في المجتمع التي يمكن تلخيصها بكلمات ييتس:

«علينا أن نكتب أو نجد مسرحيات تجعل من المسرح مكاناً يثير الفكر ويحرره كما حررته مسارح اليونان وإنكلترة وفرنسة في مراحل معينة من تاريخها. وإذا أردنا تحقيق هذه الغاية كان علينا أن نؤمن بأن الجمال والحقيقة يسوّغان نفسيهما بنفسيهما وأن إيجاد مسرح يقدم خدمة لوطننا أعظم من تلك التي تقدمها تلك الكتابة التي تضحي بأحدهما في سبيل ما يبدو أنه خدمة لقضية ما... إن الجمال والحقيقة يحكمان على الأشياء ولكنهما يبقيان فوق الحكم. إنهما يسوّغان الأشياء من دون أن يحتاجا إلى تسويغ».

أراد ييتس وزملاؤه أن تكون نهضة المسرح الإرلندي نهضة فكرية شاملة لا تحدّ منها وطنية ضيقة، وأرادوا للفكر في تفتحه واتساعه أن يعكس رغبتهم في حركة قومية غير مغلقة على نفسها. بل لقد أدخلوا إلى القومية الإرلندية نظرة إنسانية عالمية فرضتها ثقافتهم الأوربية، ولكن هذه النظرة جلبت لهم الكثير من النقد اللاذع والهجوم العنيف من قبل الجماهير ورجال الدين الذين هاجموا مسرحية ييتس «الكونتيسة كاثلين» Countess Cathleen (١٨٩٢) على أنها منافية لتقاليد إرلندة الدينية وكان أن مثلت تحت حماية الشرطة، وهاجموا مسرحية سينغ «في ظلال الوادي» In the Shadow of the Glen (١٩٠٣) لأنها، كما ادعوا، توجه إهانة للمرأة الإرلندية. وتعرضت مسرحية سينغ الأخرى «فتى الغرب المدلّل» The Playboy of theWestern World (١٩٠٧) لهجوم عنيف أدى إلى إغلاق مسرح آبي ثم محاكمة المسرحية في جو من المظاهرات والاضطرابات. وكان ذنب المسرحية أنها عالجت خيال المجتمع الإرلندي المفرط، الباحث عن البطولة إلى درجة أنه يجعل من قاتل أبيه بطلاً عظيماً. ولم ينج أوكيسي، وهو المناضل العمالي في ميدان الأدب والسياسة، من سخط الوطنيين الذين لم يرق لهم تصويرُه أبطالَ ما يُعرف بثورة عيد الفصح في «المحراث والنجوم» The Plough and the Stars (١٩٢٦) فهاجموه وقاموا بأعمال شغب أدت إلى رفض مسرح آبي لمسرحيته التالية «الكأس الفضية» The Silver Tassie (١٩٢٨) التي تدين الحرب إدانة صريحة. وحين زارت فرقة مسرح آبي الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩١١-١٩١٢ قاطعتها الجالية الإرلندية هناك وناصبتها العداء، لأن هذه الجالية، كما قال برناردشو فيما بعد، وجدت في انتقاد السخافات الإنسانية إهانة للأمة الإرلندية، لأن هذه الأمة هي الإنسانية بكاملها، وليس لها أي عيوب، بل إنها تقف نقية صافية وجميلة كالقديس لتضطهدها إنكلترة باستمرار.

وكان بين الحركة الأدبية الإرلندية والحركة السياسية صراع يشتد أحياناً ويضعف أخرى. وكان هذا الصراع نتيجة استهلاك الاهتمام السياسي لطاقات المجتمع الإرلندي فلم يترك مجالاً كبيراً للاهتمامات الفكرية والأدبية. وأدى هذا بدوره إلى شبه انعدام للتجربة الفنية لدى الجماهير عامة، فكان أن أساءت هذه الجماهير فهم بعض الأعمال المسرحية نتيجة لحكمها عليها بمقاييس وطنيتها الضيقة التي أراد الكاتب المسرحي التحرر منها. يقول ييتس: «إنني لأفضل أن يخفق مسرحنا بسبب إعراض المشاهدين وعدائهم عن أن يحقق انتصارات

هائلة على حساب حريته. وإنني لا أطالب بشيء لم يطالب به أسلافي ولكنني أطالب بكل ما أعطوه، وأنا لا أرغب في أية مساعدة قد تحد من حريتنا سواء على أيدي الرسميين أو الوطنيين، وإن كنت في الوقت نفسه أرحب بمساعدة كل من يحب الفن إلى درجة العزوف عن الرغبة في وضعه في الأسر، حتى لو كان في هذا الأسر عزيزاً مكرماً. إن الوطني الحق هو في رأيي ذلك الذي لا يتردد في بذل الكثير في سبيل المحافظة على ذلك الجزء من ممتلكات وطنه الذي أناطت به الظروف حراسته، فالمسرح الذي تهب فيه الروح العفوية المنطلقة حيثما تشاء له هو وحده أن يدعو نفسه مسرحاً قومياً».

حافظ مسرح آبي على روحه القومية الإرلندية حتى بعد وفاة ييتس عام ١٩٣٩، وكان إرنست بلايت الذي عمل مديراً للمسرح في الآونة الواقعة بين ١٩٤١ و١٩٦٧ يردد أن مهمته هي أن يحفظ هوية إرلندة القومية. إلا أن هذا التوجه أدى إلى إلحاح جديد على اللغة الغالية وانتقل هذا الاهتمام باللغة الإرلندية فيما بعد إلى مسرح البيكوك الذي أُلحق بالآبي عام ١٩٦٧ ليكون مختبراً مسرحياً تجريبياً. وقد أتى حريق على مسرح آبي عام ١٩٥١ إلا أنه لم يقض على تقاليده ودوره في الحياة الثقافية الإرلندية فأعيد بناؤه وما زال مسرح آبي الجديد يعنى بتقديم الإرلندي من المسرحيات قديمها وجديدها.

غسان المالح

الموضوعات ذات الصلة:

إرلندة (الأدب الإرلندي).

مراجع للاستزادة:

-ALAN PRICE, Synge and Anglo-Irish Drama (London ,1961)

- G. FAY, The Abbey Theatre (London, 1958).

- B. BYRNE, The Story of Ireland's National Theatre (Dublin , 1929).

■ أُبَيّ بن كعب
(٠٠٠ - ٢٢هـ/ ٠٠٠ - ٦٤٢م)

أُبَيّ بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجي الأنصاري، من بني النجار. ويكنى أبا المنذر، سيد قرّاء القرآن وحفَظته في صدر الإسلام، وقد نسب إليه أنه جمع أحد المصاحف.

سنة ولادته مجهولة، وقد اختُلف في سنة وفاته، يقول الواقدي إن هناك أحاديث تدل على أن وفاة أُبَيّ بن كعب كانت في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في سنة اثنتين وعشرين للهجرة، وأن عمر بن الخطاب قال: «اليوم مات سيد المسلمين»، وقيل إنه مات في خلافة عثمان بن عفان سنة ثلاثين للهجرة، وذلك أن اسمه ورد بين أسماء الأشخاص الاثني عشر الذين أمرهم عثمان بن عفان بكتابة القرآن والاقتصار على مصحف واحد بعد أن تعددت المصاحف والقراءات. وروى البغوي عن الحسن في قصة أنه مات قبل قتل عثمان بجمعة.

كان أُبَيّ مطلعاً على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ - على قلة العارفين بالكتابة في عصره - ولما أسلم كان من كُتّاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ قال له الرسول الكريم «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن وسمّاك باسمك ونسبك في الملأ الأعلى». وقال عنه رسول الله «أقرأ أمتي أُبَيّ».

شهد أُبَيّ بن كعب العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار، وآخى رسول الله بينه وبين طلحة ابن عبيد الله، ويقال إنه آخى بينه وبين سعيد ابن زيد بن عمرو بن نُفيل، وشهد مواقع بدر وأحد والخندق، كما شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

كان أبي رأساً في العلم والعمل، حفظ عن الرسول الكريم علماً مباركاً، كما حفظ القرآن كله في عهد النبي ﷺ وقيل إنه كان يختم القرآن في ثماني ليال، وكان الرسول الكريم يقول له: «ليهْنك العلم يا أبا المنذر» وذلك عندما سأله رسول الله ﷺ عن أعظم آية في كتاب الله عز وجل، فأجابه أُبَيّ: «الله لا إله إلا هو الحي القيوم».

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول عنه «من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبَيّ بن كعب».

أخرج الأئمة أحاديثه في صحاحهم، وله في الصحيحين وغيرها أحاديث كثيرة، وقد حدّث عنه ولداه محمد، والطفيل، كما روى عنه من الصحابة عمر بن الخطاب وكان يسأله عن النوازل ويتحاكم إليه في المعضلات، وأبو أيوب وأبو هريرة وأبو موسى وسليمان بن صرد وأنس بن مالك وزرّ بن حُبيش وغيرهم..

توفي ودفن في المدينة.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

القرآن الكريم (جمعه) - عثمان بن عفان.

مراجع للاستزادة:

- ابن سعد، الطبقات الكبرى (دار صادر، بيروت).

- ابن الجوزي، صفوة الصفوة، الطبعة الثالثة (دار المعرفة، بيروت ١٩٨٥).

- أبو نعيم الأصفهاني، حلية الأولياء الطبعة الأولى (المكتبة السلفية).

■ آبيا (أدولف -)
(١٨٦٢ - ١٩٢٨)

مصور ومزخرف décorateur ومخرج مسرحي وباحث فني سويسري، ولد في جنيف وتوفي بالقرب من مدينة نيون Nyon.

بدأت موهبة أدولف آبيا Adolphe Appia في الرسم والتصوير الزيتي حين كان يتابع دراسته في الموسيقى. وقد أثارت فيه الحفلات الموسيقية والتمثيلية التي كان يحضرها حبه للمسرح. وكانت أعمال فاغنر Wagner هي التي كوّنت ينابيع أفكاره الأولى. إلا أن تصميمات المشاهد المسرحية لأوبرا «بارسيفال» Parsifal عام ١٨٨٦، وأوبرا «تريستان وإيزولد» Tristan und Isolde عام ١٨٨٨، قد حثّته على معارضة

التقيد بنموذج التصميم الطبيعي للمناظر التي كان فاغنر نفسه يستخدمه. ومنذ عام ١٨٨٤، أي بعد سنة من تأسيس أندريه أنطوان André Antoine المسرح الحر، وبعد سبع سنوات من نشر أول نسخة من «فن المسرح» لإدوارد غوردون كريغ E.G. Kraig ، كان آبيا الوحيد تقريباً الذي آلى على نفسه أن يعارض كبار رجال المسرح في أيامه. إلا أن ذلك لم يكن يتعارض مع الأعمال الواقعية التي قام بها في تلك الحقبة مثل: إعداد نماذج للديكور، وتصميم مشاهد مسرحية لأكثر أعمال فاغنر الرئيسة وأعمال كل من غلوك Gluck وبيزيه Bizet، والمسرح الغنائي والمسرح الدرامي في أعمال شكسبير، وغوته، وإبسن Ibsen . وقد توقفت هذه الردة، في التصوير الواقعي، عند آبيا بعد تعاونه، بين عامي ١٩٠٦و١٩١٢، مع مواطنه السويسري جاك ـ دلْكْروز Jaques_Dalcroze، المؤلف الموسيقي ومبدع الحركات الإيقاعية الجسدية ومؤسس المدارس الإيقاعية في سويسرة وفي كثير من البلاد الأخرى، الذي كان يرى ضرورة توافق التعبير بالجسد مع الموسيقى. وقد وافقت هذه النظرية آراء آبيا فنفذ بعض تجاربه في ضوء ذلك في عدد من الأوبرات مثل «أورفيه» Orphée لغلوك، و«تريستان وإيزولد» و«ذهب الراين» و«الفالكيري» لفاغنر.

وقد عرضت نماذج مصغرة maquettes لأعمال آبيا في معارض أوربية عديدة أفصحت عن تطلعاته. وأسهمت محاضراته، ولا سيما كتاباته، في توضيح آرائه الفنية حول ذلك ومنها: «الإخراج المسرحي للدراما عند فاغنر» باريس عام ١٨٩٥، والترجمة الألمانية لـ«الموسيقى والإخراج» ميونيخ عام ١٨٩٩ .وبعد تجارب فنية مختلفة لآبيا سجلت في مجلات أوربية عديدة، نشرها في عمل آخر هو «الأثر الفني الحي» L'oeuvre d'art vivant ونشر بعض أصدقائه في سويسرة، بعد وفاته، مجموعة مصورة ضمت أفضل نماذجه التصميمية في الديكور، كما أقاموا «مؤسسة أدولف آبيا» لنشر جميع إنتاجه الفني. وقد حفظت كل كتاباته ومراسلاته ووثائقه ومعظم تصاميمه المسرحية في المكتبة الوطنية في مدينة بيرن.

يرى آبيا أن عناصر المسرح الأساسية هي: النص، ودور الممثل، والديكور، والإضاءة، والموسيقى. ومن هذه الرؤية انبثقت حريته واستقلاليته الفنية. فالتركيب المسرحي في نظره وحدة وانسجام، والموسيقى هي العنصر المهم الذي يساعد على تحقيق هذا التركيب. فإذا كان المسرح حركة، فإن الموسيقى، بلا شك، حركة في شكلين: أولهما مزيتها في التعبير عن الحياة العاطفية، وثانيهما انتشارها في الزمن. وفي رأي آبيا أيضاً ، أنه يجب الاستعاضة عن الديكور (المشاهد المسرحية المصممة) بجهاز مبني وفق الأصول المعمارية، بدرجات وسطيحات تظهر حركات الممثل في جميع قدراته التعبيرية.

وكتب يقول: «إن الجو المسرحي يتألف من عدد صغير من الخطوط الأفقية والعمودية والمائلة مع تنسيق فني فيما بينها». هذا التصور هو غرسة في المسرح التعبيري، وهو في الأصل نظرية «البنائية» ذاتها وهي نظرية جمالية ظهرت عام ١٩٢٠ لتحل محل النحت التقليدي، وقد أصبح هذا التصور اتجاهاً معمارياً للإخراج الحديث عند كثير من المخرجين والمزخرفين الحديثين. ويرى آبيا كذلك أن دور الإضاءة المسرحية يقتصر على وضوح مشاهدة الممثل لا أكثر، إذ إن مهمتها هي في مشاهدة التأثير التعبيري على وجه هذا الممثل وجسمه. ولهذا كان ينزع إلى إضاءة خيالية في مشاهد قليلة.

ساعدت بعض تجارب آبيا وبعض نماذج تصميماته المسرحية في تطور النظريات الفنية حول هذا الموضوع. وقد كتب يقول: «عاجلاً أم آجلاً، سنصل إلى ما يسمى بصالة كاتدرائية المستقبل، التي تحتضن، في جو واسع حر ومتغير، المظاهر المختلفة لحياتنا الاجتماعية والفنية، وتكون المكان الأمثل لازدهار الفن الدرامي مع حضور المشاهد أو من دونه». هذه الرؤية رافقت المهرجانات الكبيرة التي تقام في سويسرة الفرنسية (الإقليم الناطق بالفرنسية في الاتحاد السويسري) وألزمت عدم الفصل بين المشهد والصالة في المسرح كي تخلق جواً من الإبداع.

ج. ت

■ الأبياري (عبد الهادي ـ)
(١٢٣٦-١٣٠٥هـ / ١٨٢١-١٨٨٨م)

فقيه شافعي وأديب، مشارك في عدة علوم، من أكبر علماء مصر في القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي. ولد في أبيار، وتلقى مبادىء العلوم على أبيه، ودرس في الأزهر، وقرأ على كبار علمائه كالبيجوري والدمنهوري وغيرهما، فنبغ وذاع صيته، عهد إليه الخديوي إسماعيل بتعليم أبنائه، فقام بذلك خير قيام، وظل مواظباً على التدريس في الجامع الأزهر، وكان من تلاميذه الأدباء والعلماء كالشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيوني. ولما تولى الخديوي توفيق الحكم عيّنه إمام القصر ومفتيه، وظل في هذا المنصب حتى توفي.

عرف الأبياري بكثرة مؤلفاته وكان على صلة بأدباء عصره كالشيخ أحمد فارس الشدياق، والشيخ إبراهيم الأحدب، وغيرهما وله معهم مراسلات، وقد ترك نحو أربعين كتاباً منها: «نفحة الأكمام في مثلثات الكلام» و«حسن البيان في نظم مشترك القرآن» و«النجم الثاقب في المحاكمة بين البرجيس والجوائب»، وقد وضعه للفصل بين أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب وسليمان الحريري التونسي صاحب برجيس باريس في الخلاف الذي نشأ بينهما في بعض المسائل اللغوية، و«سعود المطالع لسعود المُطالع» و«زكاة الصيام بإرشاد العوام» و«نيل الأماني في شرح مقدمة القسطلاني»، و«ترويح النفوس على حواشي القاموس» و«الدَّوْرَق في اللغة».

ج. ت

■ أبيجـــان

أبيجان Abidjan أكبر مدن جمهورية ساحل العاج في غربي إفريقية ومیناؤها الرئيسي وأهم مركز تجاري فيها. تقع على الساحل الشمالي لبحيرة إيبري Ebrie الشاطئية التي يفصلها عن خليج غينية والمحيط الأطلسي حاجز رملي مرتفع. وتبعد المدينة عن أكرا (غانة) ٣٨٤كم وعن مونروفية (ليبرية) ٧٣٦كم.

كانت أبيجان مجرد قرية صغيرة في عام ١٨٩٨ وغدت مدينة ذات شأن في عام ١٩٠٣

بعد أن وصلها خط حديد أبيجان ـ النيجر الذي يربط بين ساحل العاج وفولتا العليا (بوركينا فاسو). وأصبحت عاصمة لمستعمرة ساحل العاج الفرنسية في عام ١٩٣٥ بدلاً من مدينة بنجرفيل Bingervilles. وكانت تعتمد، بادىء بدء، على تسهيلات مرفأ بورت بويه Port Boueët الواقع على الساحل الرملي للمحيط، ثم غدت أهم مرافيء البلاد بعد شق قناة فريدي عام ١٩٥٠ وتجهيزها للملاحة في المياه العميقة عام ١٩٥٤ . وظلت أبيجان العاصمة الأولى للبلاد حتى عام ١٩٨٤ عندما حلت محلها مدينة « ياموسوكرو » مسقط رأس رئيس الجمهورية هوفويت ـ بوانييه، مع بقاء أبيجان مقراً للحكومة.

تمتد منشـآت المدينة وأبنيتها من البر الرئيسي، وفيه المراكز الإدارية والتجارية حتى تشمل جزيرة بسام الصغرى Petit Bassam حيث تقوم المنطقة الصناعية حتى قناة فريدي التي تضم أرصفة تصدير الفلزات والنفط، وقد أنشئ أول جسرين يصلان البر الرئيسي بجزيرة بسام الصغرى عام ١٩٥٨ ، إضافة إلى الخط الحديدي الذي يربطها ببوركينا فاسو، وستة خطوط جوية دولية وخطين دوليين تربط المدينة ببقية مناطق البلاد وبالعالم الخارجي. أما أهم مناطق المدينة فهي بلاتو (الهضبة) وكوكودي (حيث تقوم الجامعة) وتريشفيل وكوماسي وأجام وماركوري.

وتعد أبيجان المركز الثقافي والحضاري لساحل العاج، ففيها جامعة أبيجان، التي تأسست عام ١٩٥٨ ، وعدد كبير من المعاهد العلمية أهمها معهد البحوث العلمية والمعاهد التقنية المتخصصة ببحوث الصحة وإنتاج المطاط والزراعات المدارية والحمضيات. وتعد المكتبة الوطنية التابعة لمعهد البحوث العلمية من أهم المراكز الثقافية ويرفدها عدد من المكتبات الأخرى المنتشرة في المدينة. أما متحف ساحل العاج فيضم معروضات كثيرة في علم الأجناس والسلالات وعلم الاجتماع وفن الحفر على العاج وغيرها من الفنون والعلوم. وشوارع المدينة عريضة تميل إلى الاستقامة وفيها الكثير من الساحات والحدائق المشجرة. وتعد المدينة مركزاً للاتصالات الدولية وفي شماليها حديقة بانكو الوطنية ذات الغابات المدارية الرائعة. ويصدر مرفؤها الدقيق والقهوة والكاكاو والموز والقطن والفول السوداني ومنتجات النخيل والمطاط والألماس الصناعي والخشب.

قدر عدد سكان أبيجان عام ١٩٦٣ بنحو ١٨٧٠٠٠ نسمة وفي عام ١٩٨١ بلغ تعداد السكان ١,٤٠٠٠٠٠ في حين بلغ عددهم في إحصاء عام ١٩٩٥ نحو ٢,٧٩٧,٠٠٠ نسمة.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

ساحل العاج.

■ أبيدوس

أبيدوس Abydos مدينـة مدافن أثرية مقدسة في مصر واسمها يوناني اشتق من الاسم المصري القديم آبدو Abdu وهو بالقبطية آبوت Abot ويعرف موقعها اليوم باسم « العرابة المدفونة » .

تعد أبيدوس من أهم المواقع الأثرية التي تعود إلى فجر التاريخ المصري القديم لمكانتها الدينية المقدسة والأعمال الفنية المدهشة التي خلفها أوائل الملوك الفراعنة فيها . وقد ترافق تاريخها السياسي والديني مع تاريخ مصر في كل مراحله القديمة .

تقع أبيدوس في أقصى جنوبي الصعيد المصري على حافة الصحراء، إلى الغرب من نهر النيل بالقرب من مدينة البليانة بمحافظة سوهاج وكانت قديماً واحدة من بلاد الإقليم الثامن من أقاليم الوجه القبلي الذي كانت مدينة ثني (طينة) Thini عاصمة له. ويرجح أن ثني هذه تقع في مكان ما قريباً من أبيدوس أو أنها قرب البربا (مدفن أثري) الواقعة في جوار جرجا .

كشفت التنقيبات الأثرية التي قامت في القرن التاسع عشر في موقع أبيدوس عن مجموعة مدافن مزدوجة ترجع في الغالب إلى ملوك الأسرة الأولى المصرية وبعض ملوك الأسرة الثانية ، وقد أثيرت التساؤلات حول صحة هذا الزعم حين كُشف في صقارة في شمالي مصر عن قبور أكبر حجماً وأغنى عمارة من تلك التي في أبيدوس وتحمل الأسماء الملكية نفسها التي للملوك هاتين الأسرتين ، ويعتقد بعض الآثاريين أن ملوك الأسرتين الأولى والثانية كانوا ينتسبون إلى مدينة ثني المذكورة وأنهم بنوا مقابرهم الحقيقية في صقارة وأقاموا أضرحة لهم في أبيدوس لقداستها عندهم ، ولأنهم إليها ينتسبون . ولا ينفي هذا أن يكون بعض فراعنة الأسرة الثانية قد دفنوا هناك ، حيث يوجد مدفن لهم مرتفع من الآجر عند الطرف الشمالي الغربي لمنطقة المدافن .

يعد الإله خنتي ـ أمنتيو Khenti - Amentiu رئيس أهل الغرب الرب الحارس لمدينة المدافن أبيدوس في المملكة القديمة ، وكان يصور على هيئة ابن آوى ، وقد انتقلت عبادته تدريجياً منذ عهد الأسرة الخامسة إلى الإله أوزيريس، الذي احتلت عبادته أعظم منزلة في الديانة المصرية القديمة . والمعروف من أسطورة أوزيريس أنه قتل وقطع جسده آراباً بعثرت في أماكن مختلفة من مصر ، وادعت مناطق كثيرة منها شرف احتوائها على أجزاء من ذلك الجسد. أما أبيدوس فكان لها شرف احتواء رأس أوزيريس، وترسخ الاعتقاد بأن مدفن الملك دجر أحد ملوك الأسرة الأولى هو الذي دفن فيه ذلك الرأس . وغدت أبيدوس منذ أوائل عصر الأسرة السادسة محجاً لأتقياء المصريين القدماء ، ويسعى كل واحد منهم إلى أن يدفن في أبيدوس ، مجاوراً لضريح أوزيريس رب الحياة الثانية . أما من لم يطق ذلك فكان يطلب أن ينقش اسمه على بلاطة أو مسلة حجرية (شاهدة) مع لقبه وبعض الأدعية أو يوصي بوضع آنية تذكارية فوق أحد المدافن الملكية أو حولها ليضمن لنفسه مكاناً بين الظافرين في الحياة الثانية .

وكان الملوك الفراعنة يشجعون هذه الشعائر ويقيمون احتفالات تأليه الملوك في أبيدوس ويعنون عناية خاصة بتزيين وتوسيع معبد أوزيريس الذي أقامه بيبي الأول، من الأسرة السادسة (٢٤٠٠-٢٢٠٠ق.م) ، في أبيدوس .

تضم أبيدوس عدداً من المعابد ـ المدافن الملكية . ويعد المعبد الذي بناه سيتي الأول (١٣١٢ -١٢٩٨ق.م) من الأسرة التاسعة عشرة وأكمله ابنه رعمسيس الثاني من أجمل المعابد المصرية القديمة وأكملها ، وتتصف نقوشه بدقتها ورشاقة خطوطها وجمال تفاصيلها وألوانها.

ويضم مخططه سبعة حُرُم يدخل إليها من قاعتين متسعتين مرفوعتين على أعمدة ، وفيه بهو متطاول يؤدي إلى عدة غرف ، وفيه نحت بارز يمثل سيتي الأول وابنه رعمسيس يقدمان القرابين لقائمة ضمت ستاً وسبعين جداً من أجدادهما تبدأ بالملك مينا Menes ، وتعرف بقائمة ملوك أبيدوس، وهي مرجع مهم لتاريخ مصر القديم مع أنها أسقطت أسماء بعض ملوكها عن عمد.

وعلى مسافة ثمانية أمتار خلف ذلك المعبد أقيم بنيان رائع عرف باسم أوزيريون ولعله ضريح سيتي الأول نفسه، وكان على شكل قاعة معقودة السقف تحت الأرض تتوسطها منصة على عشر دعامات من قطعة واحدة من الحجر وتحيط بها قناة ماء.

أما معبد رعمسيس الثاني (١٢٩٨-١٢٢٤ق.م) في أبيدوس فيقع إلى الشمال قليلاً من معبد والده ، وقد أصابه الخراب نسبياً ، وفيه مشاهد دينية كثيرة، وكان يضم لوحة نقشت عليها أسماء ملوك مصر ، وتوجد أجزاء منها في المتحف البريطاني .

شهدت أبيدوس أحداثاً تاريخية كثيرة لعل أهمها وأكثرها خطورة الصراع بين طيبة وهيراكليوبوليس (أهناسيا اليوم) في مصرالوسطى في نهاية الحقبة الانتقالية الأولى، وتمكنت فيه قوات حاكم هيراكليوبوليس الملك خنتي الثالث Khenti III من الأسرة العاشرة من احتلال أبيدوس والعبث بمقدساتها ، وقد عبر خنتي عن ندمه لما حدث في تعليماته إلى ابنه مريكارع. وتدل هذه التعليمات بوضوح على قدسية أبيدوس ومكانتها ، وقد انتهى ذلك الصراع بهزيمة أهناسيا وقيام الدولة المصرية الوسطى .

محمود عبد الحميد أحمد

مراجع للاستزادة:

- جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم (القاهرة ١٩٧٣).
- جيمس بيكي ، الآثار المصرية في وادي النيل ،ترجمة فريد ولبيب حبشي (القاهرة ١٩٧٢) .
- J. H. BREASTED, Ancient Records of Egypt, Vol II (Chicago).

■ إبيروس

مقاطعة في شمال غربي اليونان تجاور كلاً من تسالية ومقدونية وتراقية وتفصلها عن تسالية سلسلة جبال البندوس الكلسية التي تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وتدعى في اليونانية إبيروس Epiros ومنها اسمها بالإنكليزية Epirus وبالفرنسية Epire ويذكر هوميروس أن اسمها يعني «الأرض الصلبة» وهي تتصل بجنوبي ألبانية. وتغطي سلاسل الجبال الكلسية الضخمة التي قد ترتفع إلى ٢٦٠٠م جزءاً كبيراً من سطحها، وتخترقها الوديان الضيقة العميقة الجميلة. بينما تمتد السهول الفسيحة والمروج في المنطقة الشمالية.

إبيروس منذ فجر التاريخ

لمنطقة إبيروس تاريخ عريق يرقى إلى العصر الحجري القديم. وعثر فيها على مراكز لاستيطان الإنسان في هذه المنطقة في العصر الحجري الحديث. ثم احتل الرعاة والصيادون كل بلاد إبيروس في بداية العصر البرونزي، وفي هذه المرحلة انتشرت فيها اللغة اليونانية القديمة. وكانت متأثرة بالحضارة الموكينية (مسينة) Mycenae التي انتشرت في كل العالم الإيجي [ر] وكان القدماء على خلاف في عدّها من الأقاليم اليونانية، لأن الثقافة اليونانية الكلاسيكية دخلت إليها في زمن متأخر. وبعد انحطاط الحضارة الموكينية أصبحت إبيروس مركزاً لانطلاق غزوات القبائل الدورية في أواخر الألف الثاني ق.م. نحو بلاد اليونان.

وفي القرن الخامس كانت إبيروس ما تزال دائرة في محيط العالم الهليني اليوناني. وينظر المؤرخ توقيديدس من القرن الخامس ق.م. إلى شعب إبيروس نظرته إلى «برابرة»، وقد اكتسب البيت المالك في إبيروس قوة دافعة في العالم الهليني من زواج فيليب الثاني [ر] ملك مقدونية من الأميرة أوليمبياس Olympias التي ولدت له الاسكندر المقدوني [ر].

وعندما عبر الاسكندر ومعه أمه أوليمبياس المضائق من أوربة إلى آسيا لغزو الامبراطورية الفارسية قام خاله ألكسندر (الاسكندر) عاهل إبيروس بمهاجمة اليونان الكبرى في جنوبي إيطالية إلى أن تصدّت له رومة الناشئة وقتل في أرض المعركة عام ٣٣١ ق.م. وخلفه بعدئذ بيرهوس (٣١٨-٢٧٢ ق.م) الذي كان أعظم ملوك إبيروس، بعد أن مرّت هذه البلاد في مرحلة انتقالية قصيرة تحولت فيها إلى مملكة فيدرالية عُرفت بعصبة إبيروس التي كانت تحالفاً قبلياً بزعامة المُلُوسيين، القبيلة التي ينتمي إليها البيت المالك الذي قبل بوجود مجلس تمثيلي استشاري للمساعدة في إدارة شؤون البلاد.

مملكة إبيروس في عصر بيرهوس

امتدت الثقافة الهلّينية إلى إبيروس وما جاورها، منذ أن شاد الدوريون [ر] معبداً لزيوس (زفْس) في دُوْدُنا Dodona قرب الحدود الألبانية، وغدت إبيروس منطلقاً للغزوات الدورية نحو بلاد اليونان. وفي التنقيبات الأثرية التي أجراها علماء إيطاليون في عام ١٩٢٩، في موقع بُوثْروتُوم Buthrotum -(حالياً مدينة بُوتْرِيْنْ و الألبانية الواقعة على الساحل مقابل جزيرة كورْفُو)، عُثر على مجموعة كبيرة من آثار المباني والتماثيل من العهدين الهلّيني والروماني، ومنها مسرحٌ من القرن الثالث ق.م. بيد أن المعلومات عن إبيروس تظلُّ محدودة حتى نهاية القرن الثالث ق.م. حين تولّى بيْرُوس (بيْرهوس) Pyrrhus، مُلْك المُلُوسيين، أقوى القبائل الإبيروسية وأعظمها سلطاناً. وكان بيروس هذا يَدّعي أنه من سلالة البطل الأسطوري آخيْلُوس أحد أبطال حرب طروادة. ويتحدث الكاتب اليوناني بلوطَرْخُوس في مؤلفه «السِيَر المقارنة» عن بيروس، ويذكر أنه كان وسيم الطلعة، شجاعاً وحاكماً مستبداً، بيد أنه كان محبوباً من رعاياه وكانوا يفخرون به ويتغنون بإقدامه في ميدان القتال، ويسمونه «الصقر».

فمع إطلالة القرن الرابع ق.م. بدأ عصر انحطاط المدن الإغريقية في اليونان الكبرى (إيطالية الجنوبية وصقلية)، بعد عهد ازدهار ورخاء امتد ثلاثة قرون. وكان السبب الأول في ذلك الانحطاط الصراع الذي نشب بين الإغريق وسكان البلاد الأصليين. وقد قاوم



منظر زارعي في باراميتيه في إبيروس

الإغريق حركات هؤلاء السكان في بادىء الأمر، بيد أن هذه المقاومة لم تفلح وراحت المدن الإغريقية تسقط الواحدة تلو الأخرى بيد الأقوام الإيطالية.

ومن الأسباب الأخرى التي أدت إلى زوال النفوذ الإغريقي من اليونان الكبرى، تحاسد مدنها وتناحرها. وقد انتقلت عدوى الخلافات في بلاد اليونان الأم إلى هذه المدن فراحت تتنازع ويناوىء بعضها بعضاً. وفي القرن الرابع قبل الميلاد غدت مدينة تارنْتُوم Tarentum (تاراس باليونانية) من أقوى تلك المدن وأغناها وأوسعها تجارة.

ومع انتهاء الحروب السامنية (٢٩٠ ق.م)، وصلت حدود الدولة الرومانية إلى بقاع اليونان الكبرى، حيث راحت تتوسع على حسابها، مستفيدة من المشاحنات والمنازعات بين مختلف المدن الإغريقية.

توجه الرومان بأبصارهم نحو مدينة ثُوْرِيُوم Thurium (ثُوْرِيُون)، منافسة تارنْتُوم، وأمدوها بنجداتهم لحرب اللوكانيين الإيطاليين، حلفاء التارنتيين في ذلك الحين. ووصل إليها عام ٢٨٢ ق.م. القنصل الروماني فابريكيُوس Fabriciu أقام فيها حامية رومانية، بعد أن انضمت إليه مدن إغريقية أخرى، وعززت أسطوله بمراكبها. ومع وجود معاهدة عُقِدَت عام ٣٠٣ ق.م. بين رومة وتارنْتُوم (في أثناء الحروب السامنية)، تحظر على المراكب الرومانية تجاوز الرأس اللاكيني القريب من خليج تارنْتُوم فإن أسطول فابريكوس نفذ إلى الخليج المذكور. وكان هذا العمل سبب الحرب بين رومة وتارنتوم.

ثارت ثائرة سكان تارنْتُوم وسرعان ما أغرقوا أربعة مراكب رومانية وأسروا واحداً غيرها، ولاذت المراكب الباقية بالفرار، وقُتل قائد الأسطول الروماني وتمّ أسر بعض البحارة والجنود الرومان. كما أن قوات تارنْتُوم اجتاحت مدينة ثُوْرِيُوم، حليفة رومة، وأجبرت الحامية الرومانية فيها على الاستسلام.

اكتفت رومة، في بادىء الأمر بإرسال سفارة تطالب تارنْتُوم بتسليم الأسرى الرومان. ولم يرفض التارنْتِيُّون طلبات رومة فحسب، بل أهانوا أعضاء سفارتها. عندئذ أعلنت رومة الحرب على تارنْتُوم؛ فردت هذه الأخيرة طالبة المعونة من بيْروس، ملك إبْيرُوس، وعرضت عليه التحالف معه؛ فقبل الأمر، على أن يسلِّموه قيادتهم مدة الحرب شريطة أن يصون حرياتهم المدنية.

انتقل بيروُس إلى إيطالية الجنوبية في مطلع عام ٢٨٠ ق.م بعد أن تقدمته طلائع جيشه

بقيادة معاونيه. أما جيشه، فكان يتألف من ٢٥ ألف محارب مع عدد من الفِيَلَة. فاستقبلته تارنتوم استقبالاً حاراً، فأخذ ينظم شؤون المدينة، استعداداً للمستقبل ودُعي جميع من بلغوا سن التجنيد لحمل السلاح. وفي ربيع عام ٢٧٩ ق.م، كان بيْرُوس قد أكمل استعداداته.

وبعد مناوشات بين الطرفين، التقى بيْرُوس بالرومان عند هِرَقْليَة، وانتصر عليهم «نصراً بيرُوسيّاً»، إذ إنّ خسارته في هذا النصر كانت عظيمة. ولما رأى جيوش الموتى الراقدين في ميدان القتال، صاح صيحته الشهيرة «نصر آخر كهذا وأعود بمفردي إلى إبيْروس». وفي الحقيقة، لم تؤدِ المعركة إلى نتائج حاسمة.

وجرت مفاوضات بين الطرفين قبل استئناف المعارك. وراح بيروس يتنقل في بقاع إيطالية الجنوبية، قبل أن يبحر إلى صقلية، حيث كانت المستعمرات الإغريقية في خطرٍ من القرطاجيين. فقاتلهم حتى استولى على أكثر ممتلكاتهم فيها. وقد اجتمع مؤتمر إغريقي عام في سُواراكوْسَاي (سرَقُوْسَة) وانتخبه ملكاً على صقلية. غير أن أهالي الجزيرة ضاقوا ذرعاً به، فراحوا يثورون عليه بعد ثلاث سنوات، ويفتحون أبواب مدنهم للقرطاجيين، فاضطر للعودة إلى إيطالية.

كان الرومان في غياب بيروس قد أحرزوا انتصارات على حلفاء بيْرُوس، فحاول أن يقوم بعمل حربي يكافىء هذه الانتصارات. دخل كامبانية ولاقى الرومان قرب «بِنونْتُوم بنفنتوم» (واسمها القديم مَألونْتُوم Maleventum) غير أن الملك هُزم هزيمة منكرة، واضطر إلى أن يفرّ إلى تارِنْتُوم مع نفر قليلٍ من أتباعه وأدرك أنه لم يعد يستطع عمل شيء في إيطالية. فأبحر منها في ربيع عام ٢٧٥ ق.م بعد أن ترك ابنه على رأس جيشٍ في تارنْتُوم وعرج في طريق العودة على اسبارطة، فلم يستطع أخذها، وأخيراً حاصر مدينة آرجوس، فقتل أثناء الحصار.

وقد ملّ إغريقيو إيطالية من طول الحرب مع روما، وراحت مدنهم تطلب منها الصلح وتعترف بسيادة روما عليها، حتى لم يبق إلا تارنْتُوم. وكاد القرطاجيون أن يستولوا عليها، ولكنها استسلمت أخيراً للرومان عام ٢٧٢ق.م، فدخلوها وهدموا أسوارها رغم محافظتهم على استقلالها.

وبعد ثلاث سنوات من الاستيلاء على تَارنْتُـوم، أخضعت روما الشعوب الأخرى القاطنة في إيطالية الجنوبية وكذلك أغلبية المدن الإغريقية. وسرعان ما أصبحت روما تسيطر على جميع الأقاليم من نهر روبيكون Robicon (Rubico)، في إيطالية الشمالية إلى أقصى جنوبي إيطالية. وبعد ذلك ببضع سنوات بدأت روما كفاحها الطويل مع القرطاجيين، حلفائها في حربها مع بيرْوس. وتحققت بذلك نبوءة بيروس المأثورة وهو يغادر جزيرة صقلية: «أي ميدان قتال أتركه لقرطاجة وروما».

ولكن إبيروس لقيت بدورها مصير قرطاجة في صراعها مع روما، عندما تورطت المملكة الملّوسية في الحرب المقدونية، التي نشبت بين روما ومقدونية (١٧١-١٦٨ ق.م)، فاستولت عليها روما عام ١٦٧ق. م واستعبدت ١٥٠,٠٠٠ نسمة من سكانها.

إبيروس في العصور الحديثة وفي العصر الحاضر

تأسست في إبيروس إمارة بيزنطية (١٢٠٤-١٣٣٧) امتدت على بعض أراضي البلقان، عندما انقسمت الامبراطورية البيزنطية إبان غزو اللاتين الغربيين القسطنطينية في الحروب الصليبية [ر] (١٢٠٤-١٢٦١) وأصبحت إبيروس مملكة مستقلة بعد عام ١٢٠٤. لكنها عادت إلى الاعتراف بسيادة الامبراطور البيزنطي عام ١٢٦١ بعد أن تمكن من إخراج اللاتين واسترداد السيادة على عاصمته، إلى أن ألحقت إبيروس بالامبراطورية البيزنطية نهائياً عام ١٣٣٧م. لكن الصربيين والألبان اجتاحوا المنطقة أثناء ذلك في عام ١٣١٨. وفي خضم هذه الأحداث قامت إبيروس بدور ثقافي في القرن الثالث عشر عندما عملت على إحياء الدراسات الكلاسيكية التي ساعدت على تطوير النهضة في إيطالية. ثم استولى عليها العثمانيون وألحقوها بدولتهم عام ١٤٣٠. ولكن السيادة العثمانية على هذه البلاد تزعزعت بعد المنازعات العنيفة على السلطة، وبعد قيام الاضطرابات داخل البلاد منذ أواخر القرن الثامن عشر مما أفضى إلى اندلاع حرب الاستقلال في بلاد اليونان (١٨٢١-١٨٢٩)، وانتهت بلاد إبيروس إلى أن تقاسمتها الدولتان اليونانية والألبانية. ففي عام ١٩١٣ اتحد قسم كبير من مناطق إبيروس الشمالية مع الدولة اليونانية وبقيت أقلية في المناطق الألبانية. وفي عام ١٩٣٩ ضمت إيطالية أراضي ألبانية إلى امبراطوريتها الاستعمارية، لكن القوات اليونانية استطاعت طردها بعد ذلك عام ١٩٤٠ حين حاولت غزو اليونان أيضاً، وتخلصت معظم مناطق إبيروس من الاحتلال الإيطالي إلى أن جاء الألمان الذين فرضوا سيطرتهم على البلاد ما بين ١٩٤٠ و١٩٤٤، حتى تراجع الألمان وتقدم قوات الحلفاء. واحتفظ سكان مناطق إبيروس التي بقيت ضمن الدولة الألبانية بخصائصهم الاثنوغرافية وبثقافتهم اليونانية ولكنهم أخفقوا في تحقيق مطامحهم بالالتحاق ببلاد اليونان وألفت أراضي إبيروس اليونانية منطقة إدارية في شمال غربي اليونان تبلغ مساحتها ٩٢٠٣كم² أي ما يقرب من مساحة لبنان.

وقد خلّفت البلاد كل ماضيها السياسي والحربي وراءها وهي اليوم بلاد ذات موارد اقتصادية محدودة، وتستنزف الهجرة كثيراً من قوتها البشرية. ويتميز العمران المدني والريفي فيها باستخدام حجر الأردواز في بناء المنازل التقليدية وفي سقف السطوح وفيها متاحف شعبية غنية بآثارها وبتقاليدها المحلية وبصناعة الحلي العريقة من الفضة. وفيها بقايا آثار إسلامية، منها جامع أصلان باشا (١٦١٨)، وضريح علي باشا (١٧٤١-١٨٢٢) الذي تمرد على الدولة العثمانية وأسس مملكة جعل عاصمتها إيوانينا. وفي المنطقة آثار عدد من المسارح القديمة التي تقام فيها احتفالات سنوية تقدم فيها مسرحيات يونانية كلاسيكية. ويُوجد فيها بعض الأديرة القديمة المهمة مثل دير بانتاليمون.

محمد محفل

الموضوعات ذات الصلة:

ألبانية - إيطالية - اليونان.

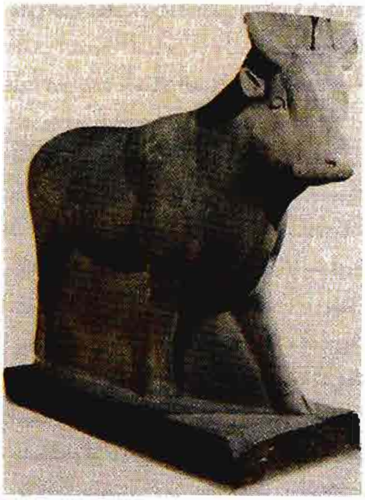
مراجع للاستزادة:

- بلوطرخوس، السير المقارنة، مادة بيروس.
- أندره بيمار وجانين أوْبوَايه، روما وامبراطوريتها (نشر دار عويدات بيروت)، (مترجم عن الفرنسية).

■ أبيس

تعود عبادة الثور أبيس Apis (هَبْ بالمصرية القديمة) إلى الأسرة الأولى، وهي ترتبط بالزراعة والخصب والقوّة. وكانت منفيس مقر عبادته التي اتحدت بعبادة «بْتَاح» المعبود المحلي حامي المدينة. أما قرص الشمس الذي يحمله أبيس بين قرنيه فهو من تأثير عبادة رع في إيون (هليوبوليس)، وأما رأس الكوبرا فهو رمز القوة التي يتمتع بها «رَع» وتُمنح للفراعنة.

وكان كهنة أبيس الذين كانوا يُدْعَون «عُصبي أبيس» في زمن الدولة القديمة يجوبون البراري بحثاً عن ثور يحمل الصفات المطلوبة لتأليهه، ومنها بقع على مختلف جوانب الجسم، ليجري بعد ذلك تعيينه خلفاً لأبيس القائم على عرشه. وعندما يموت الثور «أبيس» كانت جثته تحنّط قبل تكفينه وفق مراسم محددة وتوضع في تابوت خشبي. وقد استخدمت فيما بعد النواويس الحجرية المحفورة من الغرانيت أو البازلت، وعثر على ٢٤ نموذجاً منها. ويدفن أبيس في «السيرابيوم» ليلتحق بالصور الأخرى التي كان يعتقد أن الإله تجسد فيها. ثم يتوج أبيس الجديد وسط أجواء صاخبة من الأفراح والأعياد، وبعد أن يعرض على الشعب كان يقاد إلى معبده ليعيش فيه محاطاً بقطيع من الأبقار الجميلة وينعم بالتقدمات الوفيرة التي يقدمها إليه المؤمنون، ولا يخرج من معبده إلا للمشاركة في المواكب.


الثور المقدس أبيس (متحف اللوفر)

والسيرابيوم اسم أطلق على مقابر تقع بين أبو صير وصقّارة مخصصة لدفن مومياءات الثيران (أبيس)، وتتألف من مجموعة من السراديب المبنية تحت الأرض، استخدمت منذ أيام أمنحوتب الثالث، ولكل أبيس فيها قبر ومصلّى جنزي فوقه، وفي زمن رعمسيس الثاني أقيم لهذه المعبودات قبر مشترك كانت توضع شواهد تذكارية على عتباته الخارجية. وبقي هذا السيرابيوم مقبرةً أيام البطالمة اللاجيديين Lagid، وعُيِّن لحراسته قيّمون اختاروا الاعتكاف فيه زهداً وتعبداً، فيه مستوصف أسكلبيون Asclépieion كان يقصده المرضى أملاً بالشفاء.

وقد اختلطت عبادة أبيس بعبادات أخرى، فوجدت صلات بين عبادة أبيس وعبادة أتوم إله الغروب في هليوبوليس تعود إلى زمن الامبراطورية. وكان يعتقد أن أبيس يتحد بأوزيريس إله القمر في العالم الآخر، وكان يُعبد باسم أوزيريس-أبيس ثم سيرابيس في العصرين الهلنستي والإغريقي-الروماني. وكانت لعبادته شعبية كبيرة. ويدّعي هيرودوت أن الملك الفارسي قمبيز قتل أبيس في فورة من الغضب ولكنه أمر بأن يُصنع له تابوت فخم استرضاء للمصريين.

وقد جمع سيرابيس خصائص متعدّدة، مصرية من أوزيريس وأبيس، وهيلينية من زيوس وديونيزوس وأسكلبيوس، وأضحى المعبود الرسمي في دولة البطالمة اللاجيديين. وهو مثل على اندماج الثقافتين المصرية والهلّينية في العصر الهلنستي، وأُقيمت له معابد في كل أنحاء مصر كان أهمها في الاسكندرية ومنفيس. ولقيت عبادته استجابة عامة لا في مصر وحدها بل في كل أنحاء الامبراطورية الرومانية بعد أن أضحت مصر ولاية امبراطورية.

محمد حرب فرزات

■ أبيض (جورج-)
(١٨٨٠-١٩٥٩م)

مسرحي لبناني الأصل ولد في بيروت وتوفي في القاهرة. درس أصول إرسال البرقيات واستقبالها في بداية شبابه ثم سافر إلى مصر عام ١٨٩٩ وعمل منذ وصوله مديراً لمحطة سيدي جابر للسكك الحديدية، واتصل هناك بجمعيات هواة التمثيل، فلفت الأنظار إلى موهبته وأسند إليه دور في مسرحية البرج الهائل التي عرضت على مسرح زيزينيا.

بعث جورج إلى الخديوي عباس حلمي الثاني ثلاث رسائل يشرح فيها أوضاع الفرق التمثيلية ويطلب منه الموافقة على سفره إلى باريس في بعثة دراسية على نفقة الدولة ليتعلم فيها أصول التمثيل، وقد وافق الخديوي على سفره وأمضى هناك ست سنوات (١٩٠٤-١٩١٠) عاد بعدها إلى مصر على رأس فرقة تمثيل فرنسية قدّم معها روايتي «لويس الحادي عشر» لكازمير دي لارفني و«طرطوف» لموليير وغيرهما على مسرح دار الأوبرا في القاهرة ومن ثم في الاسكندرية. وطلب منه سعد زغلول، الذي كان آنذاك وزيراً للمعارف، تأليف فرقة مسرحية تؤدي باللغة العربية، فنهض جورج أبيض بالمهمة على خير وجه وقدم مع هذه الفرقة ثلاث مسرحيات عالمية هي «أوديب الملك» لسوفكليس و«لويس الحادي عشر» لكازمير دي لارفني و«عطيل» لشكسبير. وقد بلغت نفقات الافتتاح آنذاك عشرة آلاف جنيه، وهو مبلغ كبير جداً قياساً على تلك الأيام. ثم أخذت الفرقة تمثل مسرحيات عربية التأليف. استخدم جورج في هذه المسرحيات فرقة موسيقية وتربة بقيادة عبد الحميد علي، وفرقة راقصة كانت تقدم رقصاتها خلال المشاهد التي تتطلب ذلك. وهو أول من عني بالإخراج واهتم بالملصقات وإعلانات الغرفة، وبطبع برنامج خاص لكل حفلة، والتقيد بموعد رفع الستارة.

وانضم بعد ذلك إلى فرقة الشيخ سلامة حجازي [ر] التي أضحت تعرف باسم «أبيض وحجازي» بعد أن حُلّت فرقة المسرح الرسمية بسبب أوضاع الحرب العالمية الأولى. وكان من تلاميذه المبدعين: نجيب الريحاني [ر]، ويوسف وهبي [ر]، وزكي طليمات [ر]، وروز اليوسف [ر].

كذلك شارك جورج أبيض في تمثيل فيلم

«أرض النيل»، وفي أول فيلم غنائي مصري «أنشودة الفؤاد» أداه مع المغنية نادرة الشامية. وفي عام ١٩٥٥ عين مديراً للفرقة القومية لمدة عام، ثم أستاذاً محاضراً لفن الإلقاء في المعهد العالي للفنون المسرحية. وقد عكف في هذه المدة على كتابة مذكراته.

ولجورج أبيض ما يفوق مئة مسرحية شارك سيد درويش [ر] في تلحين بعض أغانيها.

صميم الشريف

مراجع للاستزادة:

- محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث، ط٢ (بيروت ١٩٦٧).
- محمد مندور، المسرح (القاهرة ١٩٦٣).

■ أبيقور والأبيقورية (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م)

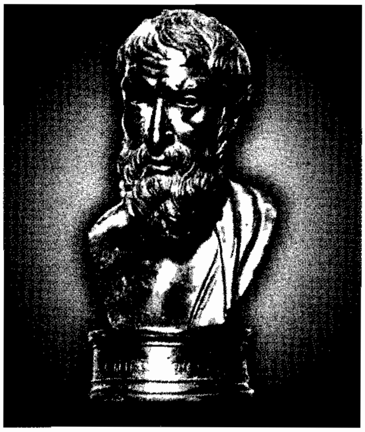
فيلسوف يوناني رأس مدرسة فلسفية عرفت باسمه. ولد أبيقور Epicure في ساموس من أسرة أثينية. ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره قصد أثينة، ولم تطل إقامته فيها، فرحل إلى آسيا الصغرى، وعلّم في بعض مدنها. ثم عاد إلى أثينة وافتتح فيها مدرسة سنة ٣٠٦ق.م. فأقبل عليه التلاميذ يتعلمون منه «حياة اللذة السهلة». كان أكثر اجتماعاتهم في الحديقة، لا في حجرات البناء، يتجاذبون أطراف الحديث في الأخلاق، فدعيت «حديقة أبيقور». ومع أن أبيقور كان كثير الاعتداد بنفسه، فإنه كان طيب القلب مع أصدقائه وتلاميذه، باراً بهم، وقف عليهم البناء والحديقة، وأوصاهم بأن يعيشوا جماعة مؤتلفة متحابة، وانتشرت تعاليمه، فتأسست مراكز أبيقورية في حوض المتوسط بعد وفاته.

أما النصوص التي وصلتنا عن أبيقور والتي حفظها ديوجينس اللايرسي Diogène في القرن الثالث الميلادي، فهي رسالة موجهة إلى هيرودوتس في الطبيعيات، ورسالة موجهة إلى فيتوكليس في الآثار العلوية، ورسالة موجهة إلى ميناقايوس في الأخلاق؛ ومئة وإحدى وعشرون فكرة هي ملخص المذهب.

مكانة الأبيقورية في مجموع الفلسفات القديمة

لم يبق شيء من المؤلفات التي كتبها الرواقيون القدماء والأبيقوريون وصغار السقراطيين. بيد أن المشكلة عند الأبيقوريين أسهل مما هي عليه عند الآخرين، لسببين: أولهما أن ديوجينس اللايرسي احتفظ بثلاث رسائل، وبمئة وإحدى وعشرين فكرة عرض فيها أبيقور خلاصة مذهبه؛ وثانيهما أن الأبيقورية، خلافاً للرواقية القديمة المتمثلة بثلاثة أعلام كبار ليس بين أفكارهم توافق أو تطابق دائماً، لا تتضمّن، بالمعنى الدقيق للكلمة، إلا اسم أبيقور. أما الأبيقوريون اللاحقون منهم، باستثناء لوكراس اللاتيني الذي يفصله عنه قرنان ونصف قرن من الزمن، ليسوا تلاميذ حقيقيين، بل فلاسفة أخلصوا له وتأثروا بفكره. وكذلك لا يوجد، حتى في بداية العصر المسيحي، أبيقوريون اتسموا بشمول إبكتاتوس Epictète وماركُس أوريليوس—Marc Auréle الرواقيين اللذين كان لهما الفضل في الحفاظ على فكر المؤسس عدة قرون بعد وفاتهما.

الفكر اليوناني والأبيقورية: يعد القرن الثالث قبل الميلاد بداية مرحلة من الاضطراب السياسي في حوض المتوسط، فأثينة، التي كانت دائماً عاصمة فكرية لامعة، فقدت سيطرتها السياسية وحقها في سك النقود وتفوقها البحري، فأصبحت أسوارها العالية التي تربطها بالمرفأ مهدّمة، وهذا ما عرّضها لهجمات قوى غريبة تمركزت على شواطئها. أما في مجال الفكر، فقد حدث اضطراب كبير، بسبب اختلاف الفلاسفة على اقتسام الإرث السقراطي. وإذا كان سقراط قد اتخذ من التهكم أفضل سلاح في وجه السفسطائيين الذين كانوا يدعون أنهم يعرفون كل الأشياء معرفة كلية وشاملة، فإن الكلبيّين هاجموا هذا التهكم بعنف محتفظين بمغزاه وحسب، وإذا كان سقراط قد وضع مقابل ادعاءات السفسطائيين الموسوعية شكاً مريباً، فإن الميغاريين قد جعلوا من الشك السقراطي، ليس سلاحاً لمحاربة مزاعم السفسطائيين، وإنما نوعاً من الجدل يقودهم إلى القول: إنّ الإنسان لا يستطيع الكلام عن شيء من دون أن يحدّده بأن ينفي عنه كل ما لا يمكن إسناده إليه، وأن القضية «أ هي أ» هي الوحيدة التي يمكن إعلانها بحكمة. وإذا كان سقراط قد وضع «اعرف



نفسك بنفسك» مقابل العلم الخارجي للسفسطائيين، فإن القورينائيين قد استنتجوا من هذه الوساطة الداخلية أن على الإنسان التمسك بمعرفة ما يحلو له والبحث عن المتعة. ولهذ اتخذوا من اللذة مقياساً للقيم جميعاً، وهدفاً يسعى إليه كل إنسان.

وهكذا، فبينما توجه فكر سقراط بأكمله بقصد الوصول إلى الاستقلالية والسيطرة الداخلية، فإن تأملات صغار السقراطيين مالت جميعها نحو تمكين الإنسان من الوصول إلى الاكتفاء الذاتي، وبالتالي من الانطواء على ذاته.

وفي هذه الأجواء المضطربة سياسياً واقتصادياً وفكرياً، حاولت مدرستا الأبيقورية والرواقية، تعليم الإنسان سمات اليقين القادرة على إعطائه قواعد الحياة، والتوفيق بينه وبين الطبيعة، ومع التناقض القائم بينهما، فإنّ لهما رمزاً مشتركاً هو العيش بتوافق مع الطبيعة، كما أنهما اتفقتا على جعل الإحساس أساس المعرفة، وعلى عدم التسليم بمبادىء غير المبادىء الجسمية. بيد أن هاتين المدرستين الطبيعيتين اتبعتا طرائق مختلفة: ففي حين طلب الرواقي من الإنسان العيش بتوافق مع الطبيعة، وبالانسجام مع العناية الإلهية، طلب الأبيقوري منه العيش بتوافق

معها، عن طريق خضوعه للإحساس معيار الحق والخير. وهكذا إذا كانت الرواقية تطورت لتكون ماديةً وعقلانيةً أخلاقية، فإن الأبيقورية تطورت حسّويةً ومُتْعيّة.

إن الطبيعة، في نظر الرواقي، هي نفسها الإله، أما في نظر الأبيقوري، فإنها حدث واقعي يجد فيه الإنسان الراحة والسلام، ومن الواضح أن الرواقيين والأبيقوريين يستعملون تعبيراً واحداً لتمييز موقف الحكيم هو غياب الاضطراب Ataraxia أو انعدامه. وإذا كان هذا الغياب مرتبطاً، عند الرواقيين، بمنطق وبطبيعة غرضهما توضيح أنّ الأشياء والموجودات والأحداث مرتبطة بعضها ببعض بعلاقة عليّة متعلقة بالإله فإنّه، عند الأبيقوريين، يجب أن يتمّ من مجرّد فكرة تقول إن كل شيء في العالم يمكن توضيحه من دون حاجة إلى إقحام الآلهة أو القوى السحرية. فالقدر، في نظر أبيقور، غريب تماماً عن الإنسان الذي يعرف سلام النفس انطلاقاً من اللحظة التي يتوقف فيها عن الخوف من الأحداث الطبيعية، لأنّ بإمكانه أن يوضّحها توضيحاً منطقياً وطبيعياً.

مكانة المدرسة الأبيقورية في تاريخ الفكر الإنساني: سيطرت الأبيقورية على حوض المتوسط بأكمله، فوجدت مدرسة أبيقورية في أنطاكية، في القرن الثاني قبل الميلاد وتأثرت المذاهب الفلسفية في الاسكندرية بالأفكار الأبيقورية. أما رومة، فمع أنها عرفت الأبيقورية في حياة مؤسسها أبيقور، فإن إشارات الخطيب الروماني شيشرون الثابتة إلى الأبيقورية تثبت أنها ـ أي الأبيقورية ـ ازدهرت فيها وسيطرت عليها في القرن الأول قبل الميلاد. وكذلك وجدت مراكز للأبيقورية في منطقة نابولي الإيطالية وجوارها. ومع أن الأبيقورية كانت ما تزال مزدهرة في القرنين الأول والثاني الميلاديين، فإنها أخذت تتفكك تدريجياً لتحلّ محلها المسيحية بمؤسستها الكنسية التي سيطرت على الفكر الأوربي في القرون الوسطى، ولكن ما إن بدأ النصف الأول من القرن السابع عشر حتى لوحظ نوع من إحياء للأبيقورية سببه معارضة التجريبيين لعقلانية ديكارت [ر]، والباعث على هذا الإحياء غاسندي الذي وضع النظرية الحسّوية للمعرفة الأبيقورية مقابل ديكارتية الأفكار الفطرية، ونصَّرَ نظرية أبيقور الذرية بأن عدّ الإله علة لحركة الذرات، خلافاً لأبيقور ذاته الذي عزا ذلك إلى الجاذبية الأرضية، كما أنّه رأى في الكون كلاً متماسكاً يتطلب وجود إله كليّ القدرة، ليوضح قوامه وغائيته. وقد حاول غاسندي أن يوفق بين دعوته الكهنوتية وتجريبيته المضادة للديكارتية والمتأثرة بالأبيقورية. ويلاحظ كذلك أن نفعية بنتام J.Bentham [ر] وستوارت مل J. Stuart Mill [ر] قد تأثرت، في جوانب منها، بالأخلاق الأبيقورية. وقد تكون الأبيقورية أول محاولة، في العالم الغربي، لتأسيس مذهب إنساني كامل.

فلسفة أبيقور

القانون الأبيقوري: يميّز أبيقور ثلاثة أقسام في الفلسفة: العلم القانوني والطبيعة والأخلاق. الأول أساس العلم، ويعلم طرائق تمييز الحقيقة من الخطأ، والثاني يبحث في كون الأشياء وفسادها وطبيعتها، والثالث يميّز الأشياء التي توفر حياة سعيدة من الأشياء الضارة التي يجب الابتعاد عنها، والعلم القانوني والطبيعة في خدمة الأخلاق، وغايتهما دراسة الأسس التي تسمح بالتحرر من الآراء الخداعة، للتوصل إلى حياة حرّة هادئة ومتزنة.

والقانون الأبيقوري مختلف عن المنطق الأرسطي التصوري، وعن المنطق الأفلاطوني الديالكتيكي، وكذلك عن المنطق الرواقي الشرطي. إنه منطق لا يحتاج إلى الكلمات إلاّ ليشير إلى ما هو موجود وهو وسيلة للاقتراب من الواقع. وتتجلّى نقطة انطلاق هذا القانون في أنّ هناك أربع سمات للحقيقة: الإحساسات والتصورات القَبْلية والانفعالات والتصورات الحدسية للفكر.

الإحساس: الإحساس في نظر الأبيقورية، ليس صياغة ذاتية ونسبية كما تعتقد الأفلاطونية، وإنما هو صورة مطابقة للواقع تنشأ من اتصال بين جسمين: الأول خارجي حسي، والآخر ذاتي متعلق بالعضو الحاس، ولما كان الإحساس خامة تبدأ معارفنا بها، لذا لا يمكن تسويغ صحته بالعقل الذي لا يكون عليه الإتيان بتفاصيل الإحساس وانتقاده، بل العكس هو الصحيح؛ أي إنّ الإحساس يفرض نفسه من دون حاجة إلى أي تسويغ، لأن مجاله، برأي أبيقور، متقدّم على مجال العقل. وبذا خالفت الأبيقورية المذاهب العقلية التي اعتقدت أن الإحساس ليس نقطة انطلاق المعرفة الصحيحة، كما خالفت المذاهب الريبية التي أكّدت استحالة المعرفة. فالإحساس، في نظر الأبيقورية، يمكّن الإنسان من العيش في توافق مع الطبيعة ومع المجتمع، وفي سلام داخلي. وهو الأساس في الأحلام، لأن الظلال الناجمة عن الموضوعات الغائبة هي التي تنتجها عندما تلاقي الحواس، وهكذا أبعد أبيقور السمة الإلهية عن الحلم، ليجعل من الإنسان سيد نفسه ومصيره.

التصور القَبْلي: حين يتكرر الإحساس يُحدث في الذهن معنى كليّاً يُطبّقه الإنسان على الجزئيات كلما عرضت له في التجربة. فالإحساس يسمح للمرء بأن يسأل: «هل هذا الحيوان ثور أم حصان؟» ويصدر أحكاماً تتجاوز التجربة الراهنة، مثل قوله: هذا الشبح الذي أبصره هناك هو شجرة. بيد أن مثل هذه الأحكام لا تصير تصديقات إلاّ إذا أيّدها الإحساس، والأسئلة تعنى أننا ندرك معانيها إدراكاً متقدماً على الإحساس الذي حملنا على إصدار الأحكام وطرح الأسئلة.

وهكذا فإن التصور القبلي ليس الأفكار الفطرية كما يدّعي شيشرون لتناقضها مع مادية أبيقور، وليس فكرة خاصة تبقى في الذهن، كما يؤكد شتاينهارت، وقد تستدعى الإرادة بقصد المقارنة، إنه، في الواقع، إحساس متكرر يترك فينا طابعاً واضحاً وأكيداً، وفكرة عامة تؤكد تفوّق الإحساسات، وذلك وفق انطباعات تتركها فينا إحساسات متقدمة تشبه الإحساسات المذكورة.

الانفعال أو الشعور السلبي: هناك، كما يقول ديوجينس اللايرسي، انفعالان يشعر بهما كل كائن حيّ: الأول موافق للطبيعة وهو اللذة، والآخر غريب عنها وهو الألم، و«بهما نستطيع تمييز الأشياء التي علينا أن نبحث عنها، وتلك التي علينا أن نهرب منها». وكلما كانت هذه الانفعالات، التي هي انطباعات الحواس فينا، مستحبة أو غير مستحبة بحثنا عن الموضوعات التي تؤدي إلى هذه الانفعالات، أو هربنا منها. فالانفعالات، كالإحساسات والتصورات القبلية، معايير الحقيقة، تنصبّ على علة المعيار وتسمح لنا بإدراكها، فندرك الملاذّ علة اللذة، والمؤلم علة الألم.

التصورات الحدسية للفكر: لهذا التعبير، الذي يعاين الكون في جملته، منهجان: منهج يؤدي إلى التصديق بأشياء ليست واقعة في التجربة،

مثل الجوهر الفرد والخلاء ولا نهاية المادة؛ ومنهج يؤدي إلى استخراج تفاصيل العالم «من نظرة إجمالية»، مثل استخراج الظواهر الجوية من معرفة مفاعيل العناصر، وإذا كان المنهج الأول يمكّن من إدراك اللامحسوسات، في علاقتها بالمحسوسات، فإن المنهج الآخر، يمكّن من إدراك اللامحسوسات ذاتها.

الطبيعيات الأبيقورية: يتلخص المبدأ الكبير لطبيعيات أبيقور بأن «لاشيء خلق من لاشيء بفعل قدرة إلهية»، ولا شيء يمكن أن يرتد إلى العدم. وهذا ما يقود إلى مبدأ آخر يقول: «إن الكون مؤلف من جسم وفراغ ومكان»: نستدل على وجود الأجسام بالحواس، وعلى وجود الفراغ والمكان بضرورتهما، وإلا فلن يكون هناك مكان تتحرك فيه الأجسام. فأجسام هذا العالم، الموجودة بأعداد غير متناهية، وفي امتداد الفراغ غير المحدود، موجودة منذ البدء. «أي إن العالم كان دائماً، كما هو اليوم، وهو هكذا منذ الأزل». أما فيما يتعلق بالذرات، فإنها، على عددها غير المتناهي، لا يمكن أن تُستنفد بخلق عالم أو عدة عوالم، لذا فمن الضروري وجود عوالم لا تُحصى مشابهة لعالمنا أو مخالفة له.

أما الغاية من دراسة الطبيعة، فهي العيش بأمان تجاه الآخرين والأشياء، ومن ثم الوصول إلى الرصانة. بيد أنّ هذه الغاية لا يتوصل إليها إلاّ من لا يخاف: لا من الأساطير الأخروية، ولا من الظاهرات الطبيعية، ولا من الموت، ولا حتى من الآلهة.

الذرات: يميّز أبيقور بين نوعين من الأجسام: أجسام مركبة، وعناصر صنعت منها الأجسام المركبة يُطلق عليها الذرات. إن الأجسام المركبة أنظمة مرتبة يمكن أن تفقد من ذراتها، لأن ليس لها هوية مطلقة. أمّا الذرة، فهي عنصر صلب متراص ثابت، لا يحتوي على أي فراغ أو أية مسافة، ومع أن للذرات مقداراً يراوح بين حدّ أعظم وحدّ أصغر، فإنها تبقى غير منقسمة، وللذرات، بالإضافة إلى خاصة المقدار، خاصتان أخريان هما الشكل والوزن. وأشكال الذرة لا يحصى عددها مع أنه متناه، أما وزنها، فهو السبب في حركة سقوطها نحو الأسفل. ومع أنّ وزن الذرات يختلف باختلاف مقدارها وشكلها، فإن هذه الاختلافات لا تؤدي إلى أي فرق في سرعة السقوط، لأن كل الذرات تسقط في الفراغ بسرعة واحدة وعلى نسق واحد.

والذرات متحركة حركةً محددةً بعناصر ثلاثة هي: الثقل والتصادم والانحراف. والأول هو سبب الحركة العمودية لسقوط الذرات. والثاني يؤدي إلى تغيير اتجاه الذرة، من دون أن يؤثّر في سرعتها التي تبقى ثابتة. والثالث يطلق على الحركة التلقائية أو الميكانيكية للذرات التي تحملها على التحول خارج خط السقوط بسبب وزنها. وعن طريق نظرية الانحراف هذه تتوضح حرية الإنسان. وهكذا فإن حرية الإنسان تقوم على أسس طبيعية مادية، لا على اعتبارات ميتافيزيقية.

ولما كانت الذرات ثابتة، فلا يمكن أن تُسند إليها كيفيات متغيرة، كاللون والرائحة والصوت وغيرها. فالكيفيات تتعلق بالأجسام المركبة فقط، وهي إمّا أن تكون محمولات تعود إلى الجسم ذاته على الدوام، كالصّور، وإما أن تكون أعراضاً يمكن أن تعود إلى الأجسام من وقت إلى آخر، أي على نحو مؤقت، كالعبودية.

المكان والزمان: المكان طبيعة موجودة لا تُلْمَس، ولا يقاوِم تحرك الأجسام؛ ويمكن أن يشغله جسم ما، فحيث يوجد الجسم يستمر المكان. وهو، أيضاً، فراغ خالٍ مؤقتاً من أي جسم، وضروري للحركة الدائمة للذرات، إذ من دونه تستحيل الحركة. وهو كذلك امتداد، وامتداده غير متناه، لأن الفراغ إذا كان «محدوداً ومحصوراً، لا يستطيع احتواء الأجسام في عدد غير متناه». أما الزمان، فهو «عرض الأعراض»، لا يوجدُ في ذاته، ولا نحسُّ به «خارجاً عن حركة الأشياء وسكونها». فهو يرافق الأحداث التي منها ينتج الإحساس به.

النفس: النفس، في نظر أبيقور، جسم حار لطيف للغاية تكمن فيه جميع قوى النفس، ولكن لا يكون إحساس إلاّ إذا ارتبطت النفس بالبدن: فهو الذي يتيح لها أن تمارس قدرتها على الإحساس، كما أنها، بالمقابل، هي التي تجعله حساساً، فإنْ تفرّ ق شملهما تبددت النفس إذ إنها تتكون معه، وتنحل بانحلاله، فهي إذن مادية وفاسدة.

والنفس مؤلفة من تجمع أربعة أنواع مختلفة من الذرات، تأتي منها خصائص الجسم الحي: النَفَ س وتأتي منه الحركة، والهواء ويأتي منه السكون، والحار وتأتي منه الحرارة، وأخيراً نوع رابع يأتي منه الفكر الذي يقوم بنشر «الحركات الإحساسية في الأعضاء». وهناك تمييز آخر تبقى صلته بالتمييز الأول غير واضحة، وهو التمييز بين الروح والنَفْس: فالروح محلها في القلب، ولها وظيفة وجدانية متمثلة في الإحساس والفكر والإرادة؛ والنفس منتشرة في البدن كله ولها وظيفة حيوية قائمة على بث الحياة في الجسم.

وعندما تتحرك ذرات النفس، ويُكرهها الجسم على القيام بحركات معيّنة بنشرها العنصر اللاجسميّ، بما تحمله من إحساسات بين عناصر النفس الأخرى وخلال الجسم بأكمله، يتولد الإحساس، فالإحساسات جميعها تعود إلى اللمس، حاسة الجسم بأكمله. وانطلاقاً من هذه الفكرة الأساسية عرف الأبيقوريون أنواع الحواس الأخرى من ذوق وسمع وشم ونظر. فغاية نظرية الحساسية هي إثبات أن الإنسان كائن يعيش في اتصال وثيق مع ما يحيط به، وفي توافق مع الطبيعة انطلاقاً ممّا يُنقل إليه من الإحساسات، التي بها، وليس بالغائية العنائية، يُقوّم الإنسان. أما الفكر، فإنه ظاهرة عارضة متولدة من تنضيد الإحساسات المباشرة وتركيبها. فالفكر يتولّد من الإحساس، وبتولده منه يعبّر عن مضمونه المجرّد من كل سمة زمانية ومكانية.

الآلهة: لم ينف أبيقور مطلقاً وجود الآلهة، بل رفض الأساطير التي أسندها الجمهور إليها، وعدّ الأفكار التي تُسندُ إلى طبيعتها دوراً في خلق العالم وتلاحق الزمان من أخطر الأفكار، لأنّ العالم وجد من التقاء الذرات. ولا يجوز الاستنجاد بالطبيعة الإلهية لتوضيح انتظام دوران الكواكب وتلاحق الزمان، إذ ليس هناك لا عناية ولا قدر، بل كل الأشياء من نتاج المصادفة. وهكذا فإن الآلهة موجودة، ومن ينفي وجودها كمن ينفي البداهة. فنحن، أولاً، نرى في المنام وفي اليقظة أشباحاً لا بدّ أن تكون منبعثة عن الآلهة ذاتها، وهذه تجربة تكفي لإثبات وجودها. وثانياً، عندنا عن الآلهة تصور قبلي بأنها موجودات سعيدة ومغتبطة تحيا في طمأنينة وسعادة كاملتين. وثالثاً، لابد من أن يقابل الوجودَ الفاني المتألم وجودٌ دائمٌ سعيدٌ، هو الآلهة المجبولة من مادة نقية خالصة، لا يتطرق إليها الفساد.

الأخلاق الأبيقورية: تهدف الأخلاق الأبيقورية، القائمة على مادية واضحة، إلى بيان أن مذهب المتعة هو أسهل الطرق إلى الحكمة؛

على طريق إعطاء الحكيم إمكانية إكفاء ذاته بذاته في وحدانية هادئة بعيداً عن الانفعاليين الحمْقى. وهي تدور حول غايتين أساسيتين هما: اللذة، وحالة الطمأنينة والخلو من الهموم. ومع أن التوفيق بين هاتين الغايتين ليس سهلاً، فإن جوهر الأخلاق الأبيقورية يكمن في الصلة بينهما. بيد أن الغاية الوحيدة التي يسلم بها أبيقور على ما يبدو، هي اللذة. أما الطمأنينة فلا قيمة لها إلاّ بقدر ما تكون تابعة للذة ومنتجة لها. ولهذا صوّر خصوم الأبيقورية الأبيقوريين في صورة فُسّاق وفجَرَة لا يردعهم عن شهواتهم روادع. ولكن بعضهم أقر، ولا سيما سنيكا Seneque الرواقي وفورفوريوس الأفلاطوني، بالسمو الأخلاقي للتعاليم الأبيقورية مستشهدين ببعض مبادئها.

والواقع أن مفهوم أبيقور عن اللذة مغاير لمفهوم القورينائيين لها، وذلك لأسباب ثلاثة، أولها، أن أبيقور قد قال بالمتعة الثابتة والمقوّمة، خلافاً للقورينائيين الذين قالوا، بتأثير فكرة هيرقليطس Heraclite في التحوّل والتغيّر، باللذة المتحركة. وثانيها: أنّ أبيقور لم يسلّم إلاّ بلذة واحدة حسية هي لذة الجسد والبطن، خلافاً للقورينائيين الذين سلموا باللذات الفكرية. وثالثها: أن اللذة، في نظر أبيقور، ليست، كما تخيّلها القورينائيون، حركة وجيشاناً، وإنما هي لذة تقوم على غياب الألم الجسدي والاضطراب النفسي.

وهنا تبدأ مشكلة التوفيق بين مبدأين أبيقوريين: الأول يقول إن الخير يتم اختياره دوماً بالإرادة؛ والآخر يؤكد أن كل لذة خير وكل ألم شر، لكن لا يتم اختيار كل لذة، ولا تحاشي كل شر بالإرادة دائماً. وهنا يميّز أبيقور، كالقورينائيين، موضوع الإرادة المتبصرة من الغاية موضوع الميل المباشر. فإذا كان الميل يحدو إلى اللذة، فإن على التبصر بالمقابل أن يزن عواقب كل لذة. وهكذا تُهمل اللذات التي تجرّ فائضاً من الآلام، وتُ تحمل الآلام التي تأتي بلذات أكبر.

ولهذا جعل أبيقور اللذات على ثلاث مراتب: اللذات الطبيعية والضرورية التي لا مندوحة من إشباعها، كالرغبة في الأكل؛ واللذات الطبيعية وغير الضرورية التي تطلب التنوع في إشباع الحاجة، مثل الرغبة في تناول نوع معين من الطعام من دون غيره؛ وأخيراً اللذات اللا طبيعية واللاضرورية، كالرغبة في تاج، وهي رغبات فارغة باطلة. وهكذا فالحكيم هو من يعلم أنّ أعلى درجات اللذة يمكن بلوغه بإشباع النوع الأول من الرغبات، أو بالأحرى، بالاكتفاء بالقليل والتلذذ بما تضعه الطبيعة المتبصرة بتصرفه. وهذا المبدأ يبيّن أن ضابط الرغبة لا يقوم في الإرادة المقابلة لها، وإنما في اللذة ذاتها.

فالأخلاق الأبيقورية طائفة من التوجيهات التي تلجم الفكر عن الشرود وتردعه عن تجاوز الحدود التي عينتها الطبيعة، والتقيّد بهذا المفهوم يوضح العلاقة بين الفكرتين المحوريتين، اللذة والطمأنينة. فطلب اللذة يستتبع وجوباً كل تلك التمارين العقلية: من تأمل في الحد الطبيعي للرغبات، ومن حساب اللذات، ومن تصور اللذات الماضية أو المستقبلة التي يكوّن جانبها السلبي طمأنينة النفس.

وهكذا يتوصل الحكيم بالعلم القانوني والطبيعيات والأخلاق، إلى أمور أربعة هي التالية: عدم الخوف من المغيّبات، وعدم الخوف من الموت، والحصول على الخير بسهولة، واحتمال الألم بسهولة. فالحكيم إذن موجود حرّ، تحرّر من فكرة الضرورة ومن الآخرين، أي إنه من دون سيّد، ويكفي ذاته بذاته. وصفوة القول إنّ أبيقور إنسان فكّر بتعمق حول تفسخ الأخلاق وحول الصيغ المختلفة للهستيريات الجماعية، وأراد، من خلال رسالته إلى معاصريه، أن يبيّن لهم أن على الإنسان أن يكون سيد قدره.

غسان فينانس

مراجع للاستزادة:

- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، (طبعة خامسة القاهرة ١٩٧٠).
- JEAN BRUN, «L'Epicurisme», Que sais-j (Paris 1979).
- KARL MARX, Différence de la philosophie de la nature chez démocrite et Epicure (Trad. par Jacques Ponnier, Paris 1970).

■ إبيكتيتوس
(٥٠-١٣٠م)

إبيكتيتوس Epictetus فيلســـوف يوناني ينتمي إلى المدرسة الفلسفية التي أسسها زينون الرواقي [ر] صاحب نظرية المدينة الكونية Cosmopolis.

كان إبيكتيتوس عبداً لأفروديت عتيقة «نيرون». وتعلم الحكمة على الفيلسوف الرواقي موزُنيوس روفوس Musonius Rufus لكنه أعتق بعد وفاة «نيرون» عام ٦٨م. وفي عام ٨٩م نفاه الامبراطور الديكتاتور دوميتيانوس Domitian من رومة فرحل إلى مدينة نيكوبوليس Nicopolis حيث قضى بقيّة عمره يعلم الفلسفة ومات فيها.

المعروف عن إبيكتيتوس أنه لم يخلف كتباً، لكن تعاليمه وصلتنا عن طريق تلميذه آريانوس Arrian الذي جمعها في كتابين هما: «المحادثات» Discourses المؤلف من أربعة أجزاء، و«الدليل المختصر» Manual.

وأهم تعاليمه الأخلاقية موجودة في نظريته حول الواجبات التي يضعها في ثلاثة أصناف هي: واجبات نحو الذات، وواجبات نحو الآخرين، وواجبات نحو الله.

فالواجبات نحو الذات تعني العناية بطهارة الجسد والروح، وطهارة الجسد بالماء، أما طهارة الروح فتكون بتجنّب الآراء السيئة عن الأشياء الخارجية التي تلوّث الروح، وبالاعتصام بالآراء المنسجمة مع الطبيعة أو العقل. لذلك كان يقول وهو عبد: إنه حر.

أما الواجبات نحو الآخرين فهي ممارسة الإنسان طبيعته الاجتماعية بوصفه عضواً في دولة هي جزء من الدولة العالمية، ويقول: «من أجل الكل (أي المجتمع) عليك أن تتعرض للمرض أحياناً، وللترحال والأخطار أحياناً، وللعوز أحياناً، وللموت المبكر أحياناً».

وأما الواجبات نحو الله فتقوم على أساس الاعتقاد بأن العالم مدينة كونية واحدة يقيم فيها البشر والآلهة معاً.

حيدر إسماعيل

مراجع للاستزادة:

-E. V. ARNOLD, Roman Stoicism (London1985).

■ أبيلار (بيير -) (١٠٧٩ - ١١٤٢م)

بيير أبيلار Pierre Abélard ou Abaılard، فيلسوف ولاهوتي فرنسي ومن كبار المناطقة والجدليين في القرن الثاني عشر. أعلى من شأن العقل فاقترن اسمه باسم القديس أنسلم اللاني Anselme de Laon.

ولد في باليه Pallet قرب نانت Nantes في فرنسة وتلقى دراسة أدبية، واتجه مبكراً في حياته نحو دراسة المنطق، وصار تلميذاً لنصير الواقعية غيوم دي شامبو Guillaume de Champeaus، ثم معارضاً له.

أنشأ أبيلار مدارس خاصة به في كل من ميلانو وكورباي وأخيراً في باريس، علم فيها الجدل، وكان من حصيلة هذا التعليم كتبه «مداخل للمبتدئين»، و«الحواشي الصغرى على فورفوريوس»، و«الجدل». وفي عام ١١١٢ م قام بدراسة اللاهوت بإشراف أنسلم اللاني.

انتهت هذه المرحلة عام ١١١٨م، إذ التجأ إلى دير سان دنيس Saınt - Denıs إثر حادثة حبه لهيلويز. غير أنه ما لبث أن عاد إلى التعليم في باراكليه، إلى أن صار رئيساً لدير سان جلدا St.Gildas في بريتاني (١١٢٥ - ١١٣٢م). وفي هذه المرحلة ألف كتبه: «نعم ولا»، و«اللاهوت المسيحي»، و«المدخل إلى الإلهيات والأخلاق»، وفيها كذلك أصدر كتابه «قصة فاجعتي» وكذلك مراسلاته الشهيرة مع هيلويز.

ولم تكن النزعة العقلانية عنده أكثر تطرفاً مما هي عند القديس أنسلم، إلا أن شخصيته وطريقته في الجدل ألّبتا عليه الخصوم، مما أثار غضب القيمين على اللاهوت، فأدى ذلك إلى إدانته من مجمعين كنسيين في كل من سواسون ١١٢١ م بخصوص الوحدة والثالوث، وسانس (١١٤١ م) بسبب كتابه «المدخل إلى الإلهيات». ولما احتكم إلى البابا أدانه من جديد، ومنعه من التعليم، فاعتزل في دير كلوني. ومات في عام ١١٤٢م ونقلت رفاته فيما بعد لتدفن مع هيلويز في سانت مارسيل.

لقد اعتقد أبيلار بنظرية الحقيقة المزدوجة، العقل والإيمان، وقال بإمكان وقوع التعارض بين كل من هاتين الحقيقتين. وكان مسعاه في استخدام المصادر الفلسفية للدفاع عن المسيحية وتوضيحها، هو مسعى القديس أنسلم ذاته، وسواء دعي أبيلار اسمياً، أو تصورياً، أو واقعياً معتدلاً، فإن المسائل التي واجهها، لم تكن تلك التي واجهت أوكام Ockham ، أو مناطقة العصور اللاحقة، بل إنه واجه النزاع المتطرف والأكثر بساطة بين المذهب الاسمي ممثلاً بروسلان والمذهب الواقعي ممثلاً بغيوم دي شامبو. ولم يكن لأبيلار مع الأول إلا وقفة بسيطة، أما مع الثاني فقد عارضه بشدة، وأحرز معه نجاحاً تكتيكياً وحمله على تصحيح آرائه.

والإيمان عند أبيلار هو البداية. ومع أنه ليس ناتجاً عن الاستدلال، فإنه ليس قسرياً ولا أعمى. بل إنه يسعى لفهم مالا يمكن أن يدرك، ومن ثم فإن حقائق الوحي يمكن أن يبرهن عليها، لأن في إمكان العقل الذي هو على صورة الله، ولأنه من خلال المسيح الذي هو كلمة الحكمة ومصدر الجدل، يمكن تلقي الحقيقة الإلهية.

أما تفسير أبيلار لموقف التصديق في الإيمان فهو تفسير تصوري، ذلك أن توجه أبيلار توجه جدلي. ولقد أعجب أبيلار بالفلاسفة غير المسيحيين لتقيدهم بالقانون الطبيعي، ورحب بحدسهم المسبق للأسرار المسيحية. وكان هذا من الأسباب التي جلبت عليه عداوة التقليديين الذين عدّوا اللاهوت مادة للقراءة في الأديرة، أكثر منه للجدل في قاعة المحاضرات.

وقد عرض أبيلار في كتابه «نعم ولا» مئة وثمان وخمسين مسألة لاهوتية وبإزائها نصوص متعارضة لآباء الكنيسة، وذلك من أجل أن يبعث في النفوس الرغبة في الكشف عن وجه الحق فيها، ثم يحاول التوفيق فيما بينها. وقد كان تلامذته يطلبون منه أن يقدم لهم براهين فلسفية على العقيدة الدينية، لأنه يمتنع الإيمان بما لا يُفهم، ويبدو الكلام عبثاً مالم يُشفع بما يجعله معقولاً.

وإذا كان العقل كما يقول أبيلار لا يستطيع البرهنة على الأسرار الدينية، فإنه مع ذلك يمكنه أن يقربها إلى الفهم عن طريق التشبيه والتمثيل.

لقد اتخذ أبيلار موقفاً وسطاً بين غلاة اللاهوتيين، الذين يرون أن التقسيمات الجدلية لاتصدق إلا على المحسوسات وحدها ويمسكون عن تطبيقها على الوجود الإلهي، وبين غلاة الجدليين الذين يسعون إلى تطبيق هذه التقسيمات ذاتها على الثالوث كما هي.

وفي كتاب «الأخلاق»، أو «اعرف نفسك»، يؤكد أبيلار ذاتية النية ويرد إليها وحدها قيمة الفعل الأخلاقي. وقد أدى هذا الموقف عنده إلى رفض عقيدة الخطيئة الأصيلة.

فالخطيئة لا يمكن إلا أن تكون شخصية، والخلاص يمكن أن يأتي للإنسان قبل تجسد المسيح، وبدون إيمان به. وهذا ما يمكن أن يطلق عليه، النزعة الطبيعية اللاهوتية.

أما منهج أبيلار في بحث الإلهيات فقد اختلف عن منهج القديس أنسلم الذي يقوم على البرهان العقلي لما يصدقه الإنسان إيماناً، وكذلك عن فلسفة الشارتريين المستقلة إلى حد ما عن العقيدة. وكان مسعاه هو العثور، ضمن المفاهيم الفلسفية، على صورة الموجود الإلهي الذي يمكن للإنسان أن يتعقله عن طريق التشبيه والمماثلة.

فالله في ذاته ينقض قواعد الفلاسفة جميعها، وهو لا يندرج في أية مقولة من المقولات حتى لا يمكن القول إنه جوهر، لأن ذلك يعني أنه موضوع للأعراض والأضداد. وكل ما يمكن أن نفعله بصدد الوجود الإلهي هو سلوك طريق المشابهة. وقد آمن أبيلار بإله واحد عالم قادر خير. وكان يرد الثالوث إلى الوحدة فليس هناك سوى أقنوم واحد يتصف بثلاث صفات، هي القدرة والعلم والخير.

والقدرة لا تأتي إلا عن طريق العلم والخير. وهو بهذه الحالة يماثل الثالوث الأقدس بثلاثية القوة والحكمة والطيبة. ويُرجع الصفات الوجودية إلى صفات نفسية ويرجع الأقنوم إلى الشخصية. وقال بأن روح العالم هي ذاتها الروح القدس، جرياً على مذهب أفلاطون في طيماوس، متأثراً في ذلك بمدرسة الشارتريين.

ولقد كان لعاقبة حبه لهيلويز، ابنة أخ فولبير Fulbert راعي كنيسة نوتردام في باريس أثر مهم في مجرى حياة الفيلسوف. فقد كانت هيلويز تلميذة لأبيلار ثم محبة فزوجة سرية. ولما انكشف أمر هذه العلاقة أثار ذلك غضب عمها فولبير، فدفع بهما منفصلين إلى سجن للكنيسة. ويعدّ كتاب أبيلار «قصة فاجعتي» الذي كتبه نحو ١١٣٦م مع رسائله إلى هيلويز المصدر الأساسي لما هو معروف عنه.

ولقد كان أبيلار رائداً للأفكار في الجدل فيما بعد، وربما يصدق ذلك على اللاهوت أكثر مما يصدق على الفلسفة. ومع أنه وضع معايير للدقة والصرامة المنهجية في الجدل، وأن هذه

المعايير سوف تطبع المذهب المدرسي في العصر الوسيط بهذا الطابع، إلا أن منهجه في مؤلفه الشهير «نعم ولا» لم يكن جديداً كل الجدة. فقد عرف القرن الحادي عشر في كتابات آباء الكنيسة مثل هذا اللون من التأليف. وطور القديس توما الأكويني هذا المنهج نفسه في القرن الثالث عشر وبلغ به درجة عالية من الكمال. فقد ورث القديس توما الصرامة العقلية عن أبيلار، لكنه قدمها بدقة أعظم وبيقين أكثر كمالاً.

وكانت مشكلة الكليات هي الموضوع الفلسفي الرئيسي لعصر أبيلار، ذلك أنها من جهة، احتلت مكانة رفيعة في النصوص التقليدية السائدة في ذلك الوقت، وكانت نتائجها من جهة أخرى ذات تأثير بالغ على عقيدة الطبيعة الواحدة والأقانيم الثلاثة في الله. وكان السؤال: هل للأنواع والأجناس وجود موضوعي وواقعي خارج الذهن أو أنها مجرد تعميمات ذهنية مشتقة من الجزئيات والأفراد التي هي وحدها الأشياء الموجودة وجوداً فعلياً؟

وكان لأبيلار دور أساسي في النزاع حول هذه المشكلة، وكان موقفه، بصورة عامة، معارضاً للمذهب الواقعي بشكله المتطرف، وللمذهب الاسمي بصورته الفجة والبسيطة. فالمذهب الواقعي المتطرف والممثل بغيوم دي شامبو، يقول بأن الطبيعة الواقعية العامة حاضرة كلياً في كل عضو من أعضاء النوع، وأن الأفراد يختلف الواحد منها عن الآخر بأعراضها لا بجواهرها. في حين إن المذهب الاسمي الممثل بروسلان يرى بأن الأفراد هم وحدهم الموجودون، أما الكليات فما هي إلا أسماء أو مسميات صوتية. ولا يمكن التأكيد فيما إذا كانت وجهتا نظر كل من روسلان وشامبو هي بمثل هذه البساطة، لكن أبيلار رفض وجهة النظر التي تقول بأن اثنين من الرجال على سبيل المثال، يمكن أن يمثلا جوهراً واحداً. في حين أوضح غيوم دي شامبو، أنه يرى في هذا المثال أن الرجلين هما الشيء ذاته ليس من حيث الجوهر، بل بعدم التعيين. فبطرس وبولس هما الشيء ذاته من جهة كون كل منهما إنساناً لأن صفات الإنسان أنه عاقل وفان. لكن إنسانية كل منهما ليست الشيء ذاته بل هي متشابهة، لأنهما رجلان. ولم يجد أبيلار صعوبة في دحض المحاولة التي تؤكد أن الكليات واقعية وأنها موجودة في المجموع المتعدد للجزئيات، أو الأفراد، وأن كل الناس هم النوع الذي هو الإنسان.

وبصدد هذه المحاولة يشير أبيلار إلى أن هذه الكليات ليست هي موضوع المناقشة لأن الكليات بالتعريف ما يمكن أن يحمل على كثير. فالذي عارضه أبيلار بالفعل في حال الواقعيين المتطرفين كان عاداتهم في التفلسف، وافتراضهم بأن الأشياء يمكن أن تحمل على الأشياء، أو أن النظامين المنطقي والواقعي هما متطابقان.

لقد تأسس موقف أبيلار في المنطق وليس في القواعد، فالمنطق كما لاحظ أبيلار، يهتم باستخدام اللغة في حدود، وقضايا، وبراهين، ويختلف عن العلم الطبيعي الذي يهتم بطبيعة الأشياء. فالإنسان حين يستخدم الكليات يفترض، أولاً، أن هناك تشابهاً بين الأفراد الذين تنطبق عليهم هذه الكليات. وعلى الرغم من أن الكليات ليست أشياء، فإنها مع ذلك تدل على هذه الأشياء وتعيّنها. وثانياً، أن هذه المفاهيم توجد في الوعي، ومع أن الفكر لا ينصب على كل ما هو موجود، فإنه مع ذلك لا يرى شيئاً سوى ماهو موجود. فالأنواع والأجناس لها مقابل في الخارج، وهذا المقابل هو طبيعة الجزئي مجردة عن الأعراض، وأن الطبيعة واحدة في الجزئيات الحاصلة عليها. فالأنواع والأجناس ذاتية في الجزئيات مجردة في العقول.

وهذا الموقف الذي توصل إليه أبيلار يجعله في طليعة الواقعية المعتدلة. فمنذ أبيلار لم يعد ثمة بحث في مشكلة الكليات من دون الحديث في الوقت نفسه عن شروط تكوين المعاني العامة.

لقد كان أبيلار فيلسوفاً لغوياً وشاعراً، وراهباً، يحمل في قلبه حباً كبيراً للعالم. ومع أنه لم يمتلك الرؤية الميتافيزيقية التي كانت للقديس أنسلم، إلا أنه كان له تأثير كبير في نفوس معاصريه. وقد أسس تلامذته من بعده مدرسة من الجدليين طبعت العصر الوسيط بطابعها. ومع أنه لم يؤسس مذهباً فلسفياً عاماً إلا أن بعض الباحثين يعدونه أعظم شخصية في العصور الوسطى لأنه رجح كفة العقل على النقل، وأنه كان مبشراً بالمذهب النقدي للفيلسوف كَنت Kant في الفلسفة الحديثة.

بشار سالمة

مراجع للاستزادة:

- إميل برهييه، تاريخ الفلسفة: العصر الوسيط والنهضة، ترجمة جورج طرابيشي (دار الطليعة، بيروت ١٩٨٣)
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط (دار المعارف، مصر ١٩٦٥).

■ الأبِيوَرْدي

(نحو ٤٦٠-٥٠٧هـ ١٠٦٨-١١١٣م)

أبو المظفر، محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد، شاعر ومؤرخ ونسّابة، ينتهي نسبه إلى صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، أمّا لقبه الأبِيوَرْدي فيعود إلى أبِيوَرْد مدينة بخراسان، وبها ولد، كما عرف بالكُوفني نسبة إلى كُوفن القريبة من أبيورد، وكانت موطن أهله وأقاربه.

قدم بغداد في صباه وأقام بها مدّة لا تقلّ عن عشرين سنة، واتصل بالخليفتين العباسيين: المقتدي بأمر الله (٤٦٧-٤٨٧هـ) وولده المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ) فمدحهما ونال حظوةً لديهما. كما اتصل بكبار رجال الدولة في عصره ومدحهم، كنظام الملك السلجوقي (٤٠٨-٤٨٥ هـ) وابنه مؤيد الملك والسلطان السلجوقي ملكشاه وابنه السلطان محمد، كما مدح عدداً من أمراء العرب.

خدم مؤيد الملك في بغداد ونال عنده منزلة رفيعة، وفي هذه الأثناء توجه إلى أمير الحلة «عميد الدولة» الذي تلقاه بالإكرام وأحاطه برعايته، فمدحه، فلمّا وقعت العداوة بين مؤيد الملك وعميد الدولة، ألزمه مؤيد الملك أن يهجو «عميد الدولة» ففعل، فشكاه «عميد الدولة» إلى الخليفة متهماً إياه بهجاء الخليفة أيضاً ومدح صاحب مصر، فأبيح دمه إلا أنه هرب إلى

همذان، وهناك بعث برسالة إلى الخليفة، اعتذر فيها وشفعها بقصيدة مديح، فعفا عنه الخليفة، فعاد إلى بغداد وتولى خزانة دار الكتب النظامية.

انتقل الأبيوردي إلى أصفهان في أواخر عمره، فأقام فيها يدرّس ويصنّف، وكان بين تلامذته أولاد زين الملك برسُق، ويقال إن السلطان محمد بن ملكشاه أعطاه الولاية على أشراف المملكة، فدسّوا له السمّ في الشراب وهو واقف عند سرير السلطان. فسقط، وحمل إلى منزله حيث مات.

أخذ الأبيوردي عن عدد من الشيوخ، منهم: إسماعيل بن مسعدة الجرجاني (ت ٤٧٤هـ) وعبد الوهاب بن محمد الشهيد، وأحمد بن خلف الشيرازي (ت ٤٨٧هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) وسمع ابن خَيْرون (ت ٤٨٨هـ)، وجاء أنه سمع الحديث ورواه.

وروى عنه جماعة، كما نقل عنه الحفّاظ الثقات كالشهرزوري بالموصل (ت ٥٣٨هـ) وأبي علي الأومي بأصبهان وأبي الفضل الأديب بهمذان، وعمرو بن عثمان المرّي بمرو كما روى عنه السلفي (ت ٥٧٦هـ) وابن سعدون العبدري (ت ٥٢٤هـ) والحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي في كتابه الذي وضعه في علم الأنساب.

ترك عدداً من الكتب والمصنفات منها تاريخ «أبيورد ونسا» و«قبسة العجلان في نسب آل سفيان» و«كتاب طبقات العلم في كل فن» و«تعلّة المشتاق إلى ساكني العراق» و«صهلة القارح» وفيه يرد على «سقط الزند» للمعري، إلا أن الأيام لم تبق من كتبه سوى كتابيه: «المختلف والمؤتلف» و«زاد الرفاق» وديوان شعره.

وقد قسم ديوان شعره قسمين: العراقيات والنجديات وفي نهاية الديوان مقطعات دعيت بالوجديات. أما العراقيات فهي القسم الرئيسي من ديوانه وهي قصائد شبابه وأكثرها في مدح الخليفتين: المقتدي والمستظهر، أما النجديات فهي مقطعات غزلية قالها بعد أن جاوز الأربعين، أما الوجديات فأكثرها في الفخر وشكوى الزمان. وقد رتّب الشاعر ديوانه وصنفه بنفسه وقدّم له.

أجمع النقّاد على جودة شعر الأبيوردي، إذ راعى في قصائده إحكام المباني وتكافؤ الألفاظ والمعاني وابتعد عن حوشي الكلام وجمع بين عذوبة الألفاظ وجزالتها وبين رقة الحضري وقوة البدوي وغلظته.

وللديوان شروح عدة أقدمها شرح علي بن القاسم الأستراباذي.

تُظهر أخلاق الأبيوردي التي اتّصف بها، مذهبه الشعري المترفع، البعيد عن المديح الرخيص، فقد وصف بأنه كان كبير النفس عظيم الهمّة جميل المنظر من الرجال، لم يسأل أحداً شيئاً، وكان عفيفاً كريماً من أهل الدين والصلاح مع بعض تيه وصلف يبدوان فيما يطلقه على نفسه من صفات، وكان يفتخر بأمويته ويطلق على نفسه «العبشمي المعاوي»، وكان ترفعه واعتزازه بأمويته يبعدانه عن الخوض في الفتن والتقلبات التي أثارتها خصومات عصره، فلم يفضّل خليفة على آخر، ولم يميّز صحابياً.

ومع ما في شعره من شكوى الزمان فقد نال من مدحه الخلفاء والأمراء ما لم يحصل عليه شاعر في عصره.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- ممدوح حقي، الأبيوردي ممثل القرن الخامس في برلمان الفكر العربي.
- ديوان الأبيوردي، تحقيق عمر الأسعد (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م).

■ الأتابكة

الأتابكة جمع أتابِك وهي كلمة مركبة من لفظين تركيين «أتا» أي الأب أو المربي، و«بك» أي الأمير، فيكون معنى الكلمة «مربي الأمير» ثم صارت مع الأيام تستعمل لدلالات أخرى بينها الملك والوزير الكبير والأمراء البارزون الذين يمتون بصلة القرابة إلى السلاجقة والأمراء الأقوياء. كذلك أطلقت في عهد المماليك على من تُعهد إليه إمارة العسكر، ومنه شاع لقب «أتابك العسكر».

وأول من لقب بهذا اللقب نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي، حين فُوض إليه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م. وقد جرى السلاجقة على أن يعهدوا بتربية أبنائهم إلى أشخاص مختارين من قادتهم وكبار رجال دولتهم يسمى الواحد منهم أتابك، فإذا ولى السلطان أحد أبنائه حكم مدينة أو ولاية، أرسل معه أتابكه ليكون عوناً له في الحكم. وكثيراً ما كان الأتابك ينزع إلى استغلال نفوذه والتسلط على الأمير، وقد استفاد هؤلاء الأتابكة من ضعف الدولة وتنازع أبناء الأسرة السلجوقية للاستئثار بالسلطنة فعملوا من أجل الانفراد بالمناطق التي تحت حكمهم، والتوسع والسيطرة على الأراضي المجاورة. كما أنهم عملوا على توريث هذه المناطق لأبنائهم فنشأت ضمن السلطنة السلجوقية دويلات كثيرة متناثرة عرفت باسم دول الأتابكة وأخذ نفوذها بالازدياد. وكان الأتابكة يستغلون نفوذهم بين الحين والآخر في تحريض أفراد البيت السلجوقي، وإطماعهم بالسلطة.

كان الأتابكة حتى عهد السلطان مسعود بن محمد (٥٢٧-٥٤٧ هـ) يستترون وراء السلاطين، وبعد وفاته أخذ نجم هؤلاء الأتابكة بالصعود، وسيطروا على مقاليد الأمور، وصار سلاطين السلاجقة أدوات في أيديهم يأتمرون بأوامرهم وينفذون رغباتهم.

وفي الوقت ذاته كانت الأتابكيات تتنافس فيما بينها وتتصارع مما مهد السبيل للمغول لاجتياح أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق وأذربيجان وغيرها.

أما أشهر دول الأتابكة فهي:

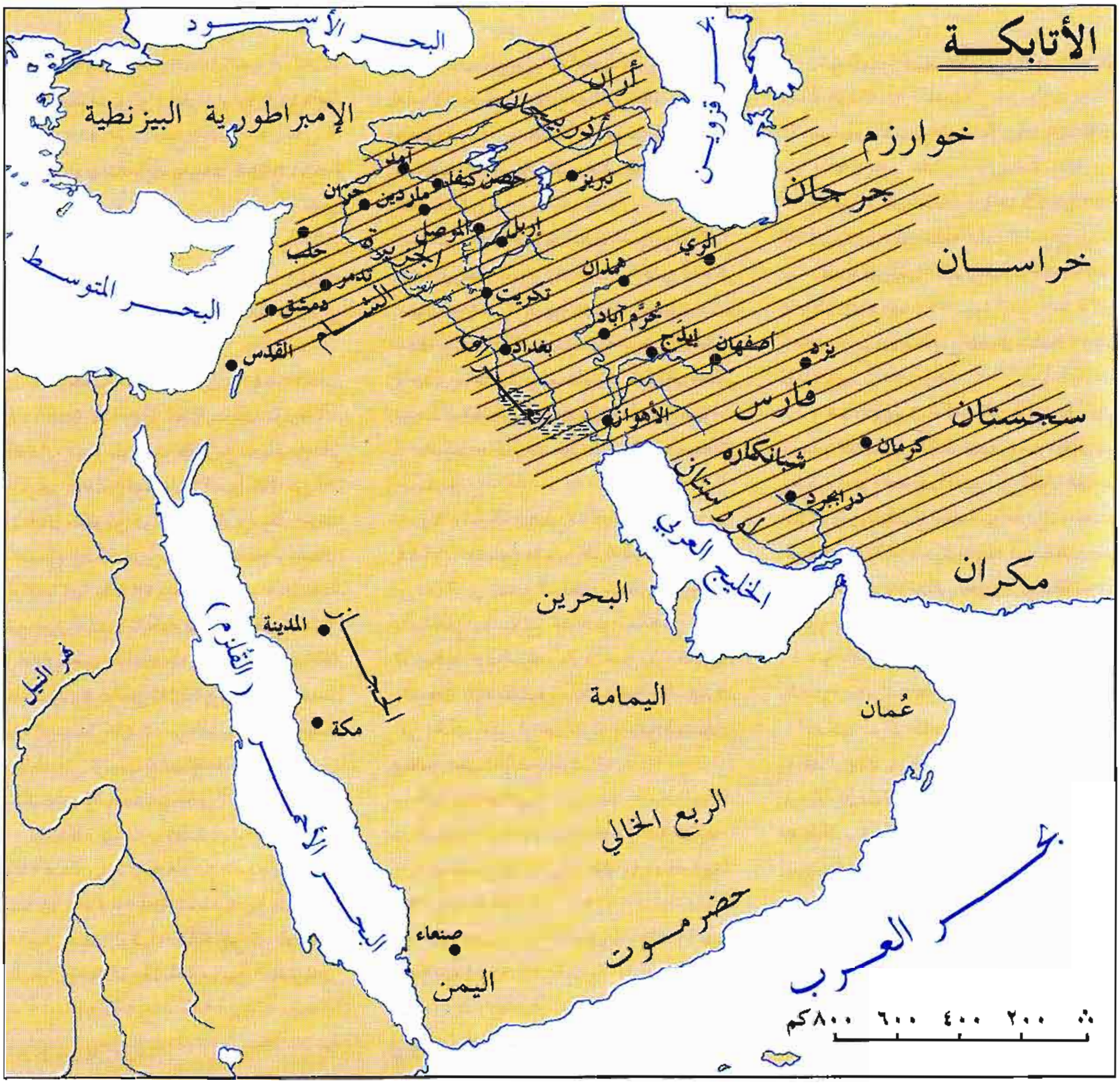
(١) أتابكة دمشق [ر. البوريون].

(٢) أتابكة الموصل والجزيرة والشام [ر. الزنكيون].

(٣) أتابكة أذربيجان [ر].

(٤) أتابكة ديار بكر وماردين وحصن كيفا وآمد [ر. الأرتقيون].

(٥) أتابكة إربل أو بنو بكتكين الذين حكموا ما بين (٥٣٩-٦٣٠ هـ / ١١٤٤-١٢٣٣م). ومؤسس هذه الأسرة زين الدين علي كوجك بن بكتكين أحد قادة عماد الدين زنكي [ر] الذي أرسله نائباً عنه إلى الموصل، وبعد وفاة عماد الدين استولى زين الدين على سنجار وحرّان وتكريت وإربل وغيرها. وجعل من إربل مقر حكمه، وبعد وفاته



سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م استولى ابنه الأكبر مظفر الدين كوكبري على حَرَّان، واستولى الأصغر زين الدين يوسف على إربل. التزم آل بكتكين جانب صلاح الدين الأيوبي في نزاعه مع الزنكيين، وتوحدت الأتابكية ثانية بعد وفاة زين الدين يوسف سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م بيد أن كوكبري (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م) لم يكن له من يرثه، فأوصى ببلاده إلى الخليفة العباسي المستنصر (تولى الخلافة ٦٢٣ـ ٦٤٠هـ).

(٦) أتابكة فارس أو السلغريون (٥٤٢ـ٦٨٥هـ / ١١٤٧ـ١٢٨٦م). أنشأ هذه الأتابكية سُنْقُر بن مودود حفيد سَلْغر (بفتح العين أو ضمها) حاجب طغرل بك السَلجوقي. وتناوب على حكمها أحد عشر أتابكاً، حكموا نحو قرن ونصف، وحمل أكثرهم لقب مظفر الدين.

اعترفت هذه الأتابكية في بعض مراحل حكمها بسلطة سلاجقة العراق، وفي مراحل أخرى بالدولة الخوارزمية، ثم بالمغول. وتزوج منكو تيمور الابن الرابع لهولاكو، أَبِش خاتون بنت سعد الثاني وهي آخر حكام هذه الأسرة، فاضطلع منكو تيمور بإدارة حكم الأتابكية عنها، وانتهى بوفاتها حكم الأتابكة السلغريين وحكام هذه الأتابكية هم:

- سُنْقُر بن مودود ٥٤٣ـ٥٥٦ هـ/ ١١٤٨ـ١١٦١م.
- زنكي بن مودود ٥٥٦ـ٥٧٠ هـ / ١١٦١ـ١١٧٥م.
- تَكْلَة بن زنكي ٥٧٠ـ٥٩٠ هـ/ ١١٧٥ـ١١٩٤م.
- طغرل بن سُنقُر ٥٩٠ـ٥٩٩هـ/ ١١٩٤ـ١٢٠٣م.
- سعد الأول بن زنكي ٥٩٩ـ٦٢٨هـ / ١٢٠٣ـ١٢٣١م.
- أبو بكر قتلغ خان بن سعد ٦٢٨ـ٦٥٨هـ/ ١٢٣١ـ١٢٦٠م.
- سعد الثاني بن أبي بكر ٦٥٨ـ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠ـ١٢٦٠م.
- محمد بن سعد الثاني ٦٥٨ ـ ٦٦٠هـ/

١٢٦٠ - ١٢٦٢م.

- محمد شاه بن سَلْغر شاه ٦٦٠-٦٦١هـ/ ١٢٦٢-١٢٦٣م.

- سلجوق شاه بن سلغر شاه ٦٦١-٦٦٣هـ / ١٢٦٣- ١٢٦٤م.

- أبش خاتون بنت سعد الثاني ٦٦٣ - ٦٨٥هـ/ ١٢٦٤ - ١٢٨٦م.

(٧) أتابكة لُورسْتان الكبرى والصغرى (في فارس).

- أتابكة لورستان الكبرى (٥٤٣-٨٢٧هـ/ ١١٤٨-١٤٢٤ م) أو الهزارسِبْيون (بنو فَضْلويه). مؤسسها أبو طاهر بن محمد بن علي بن أبي الحسن فضلويه، الذي كان من قادة الأتابك سُنْقُر بن مَودود في فارس. وقد أخضع خصوم أتابكة فارس، كما أخضع لورستان، وأنشأ بها سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م أتابكية. توسعت هذه الأتابكية فيما بعد في الأهواز، ومناطق أخرى. واتخذت من إيْذَج عاصمة لها، واستمرت قريباً من ثلاثة قرون إلى أن سقطت بيد إبراهيم بن شاه رُخ من التيموريين، ويكتنف الغموض ترتيب سلسلة حكامها وسنوات حكمهم، وشخصيات بعض أتابكتها.

- أتابكية لورستان الصغرى أو بنو خورشيد (٥٩١-١٠٠٥هـ/ ١١٩٥-١٥٩٦م). أسسها سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م شجاع الدين خورشيد، الذي خلف الوالي السلجوقي في لورستان الصغرى، بموافقة الخليفة العباسي الناصر لدين الله، واتخذ من خُرَّم أباد عاصمة له. كان حكام هذه الأتابكية متناحرين من أجل الظفر بالحكم، وكثيراً ما قتل أحدهم الآخر. ووقع أتابكتها في عداء مع الأكراد الإيوانية، مما اضطرهم إلى قبول حماية المغول.

استمر حكم هؤلاء الأتابكة حتى أوائل القرن الحادي عشر الهجري، وآخر من بقي له ذكر منهم هو شاه رستم بن جهانغير الملقب رستم خان، والذي كان يحمل رتبة الوصي أو المربي لإحدى بنات الشاه طهماسب، إضافة إلى حكم لورستان الصغرى. ويكتنف الغموض سنوات حكم حكام هذه الأتابكية، وتسلسل حكمهم.

(٨) أتابكة يَزْد في فارس (٥٩٠-٦٧٣هـ/ ١١٩٤-١٢٧٤م) مؤسس هذه الأتابكية سام بن وردان الذي نصبه السلطان سنجر السلجوقي والياً على يَزْد، ثم خلفه من بعده في حكم الأتابكية أفراد أسرته وهم فرع من بني كاكويه. خضعت هذه الأسرة لسلطة المغول، واستمرت في الحكم حتى أواخر القرن السابع الهجري، وقضى عليها الإيلخانيون.

أما حكامها فهم:

- سام بن وردان (ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م)

- عز الدين لشكر بن وردان ٥٩٠-٦٠٤هـ/ ١١٩٤-١٢٠٧م.

- وردان زور بن لشكر ٦٠٤-٦١٦هـ/ ١٢٠٧-١٢١٩م.

- أبو منصور سبهسالار بن لشكر ٦١٦هـ/ ١٢١٩م.

- محمود شاه بن سبهسالار ٦١٦-٦٢٩هـ/ ١٢١٩-١٢٤١م.

- سلغر شاه بن محمود ٦٢٩هـ/ ١٢٤١م.

- طغان شاه بن سلغر شاه.

- علاء الدولة بن طغان شاه ٦٧٠-٦٧٣هـ/ ١٢٧١-١٢٧٤م.

- يوسف شاه بن طغان شاه ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م.

(٩) أتابكة شبانكاره (في فارس). أسس هذه الأتابكية أحفاد فضلويه بن حسنويه الكردي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وحكموا قسماً من فارس، واتخذوا من مدينة دَرابْجرْد مركزاً لهم، ثم سقطت على يد المُظفريين. ولا يمكن تعيين سني حكام هذه الدولة بدقة.

(١٠) أتابكة كرمان (خانات قُطْلُغ) ٦١٩-٧٠٣هـ/ ١٢٢٢-١٣٠٣م. مؤسس هذه الأتابكية بُراك حاجب أحد قادة دولة الخَطا (المغول) الذين دخلوا في خدمة خُوارزم شاه في كرمان سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، وظلت هذه الأتابكية خاضعة اسمياً للخوارزميين في عهد جلال الدين منكبرتي، ولما أراد بُراك التخلص من سلطة جلال الدين، خضع للمغول وحصل على لقب قُطْلُغ خان. واستمرت أتابكية كرمان على ولائها لإيلخانات فارس حتى سقوطها.

أمينة البيطار

الموضوعات ذات الصلة:

أتابكة أذربيجان - الأرتقيون - البوريون - الزنكيون - السلجوقيون.

مراجع للاستزادة:

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ (طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٥).
- ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (دار حسان للطباعة والنشر، دمشق ١٩٨٣).
- ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، ترجمة محمد فررات ومحمد دهمان (مطبعة الملاح، دمشق ١٩٧٤).

■ أتابكة أذربيجان

أسس دولة أتابكة أذربيجان شمس الدين إيلدكز وهو مملوك تركي لكمال الدين أبي طالب وزير السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملك شاه، فلما اغتيل الوزير سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م في بغداد انتقل شمس الدين إلى خدمة السلطان محمود، ثم السلطان مسعود (٥٢٧-٥٤٧هـ) الذي قرّبه إليه وزوّجه أخت زوجته، وهي أرملة أخيه السلطان طغرل ابن محمد، فصار شمس الدين أتابكاً لأرسلان شاه بن طغرل، وأعطي حكم إقليم أرّان سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م، فأخذ يوسّع نفوذه في المناطق المجاورة، واستولى على معظم أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وأصبهان والرَّيّ، واتخذ من تَبْريز عاصمة له.

شارك إيلدكز أمراء الدولة السلجوقية في صراعهم للوصول إلى منصب السلطنة أكثر من مرة، وكان يؤيد فريقاً على الآخر، وكان لإسهامه في هذه الصراعات أثر كبير في وصول ابن زوجته، أرسلان بن طغرل بن محمد، إلى منصب السلطان السلجوقي في فارس والعراق.

فأبقى أرسلان أتابكه إيلدكز في همذان وعين أخاه لأمه محمد جهان بهلوان بن إيلدكز حاجباً له.

قوي نفوذ إيلدكز لكونه أتابك السلطان وحاكم أذربيجان، وهيمن على جميع مرافق الدولة، واستطاع بكفايته وحسن تدبيره ومساعدة ولديه محمد جهان بهلوان ومظفر الدين عثمان قزل أرسلان أن يرد كيد الأعداء وينتصر عليهم، وأضاف إلى ما تقدم أن زوّج ابنه محمد جهان بهلوان من ابنة حاكم الري.

ظل نفوذ إيلدكز قوياً حتى وفاته سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م ولم يكن للسلطان أرسلان إلا الاسم يخطب له على المنابر وتضرب باسمه السكة.

خلف شمس الدين إيلدكز في الحكم ابنه محمد جهان بهلوان وكان له نفوذ أبيه فسيطر على دولة سلاجقة العراق وفارس وعلى أخيه لأمه السلطان أرسلان الذي آثر الانزواء حتى وفاته سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م. وقيل إن أخاه محمد جهان بهلوان سمّه ليتخلص منه، وجعل السلطنة لابن أرسلان الطفل طغرل بن أرسلان وهو آخر ملوك سلاجقة فارس والعراق.

وظل محمد جهان بهلوان قوي النفوذ يرهب جانبه الحكام الآخرون ويرسلون السفراء إلى بلاطه. وتمكن بفضل قسوته وشجاعته ومساعدة أخيه عثمان قزل أرسلان من أن يدفع خطر عدوين في وقت واحد، أحدهما ملك الأبخاز الذي أغار على أذربيجان، والآخر محمد بن طغرل بن محمد بن ملك شاه عم السلطان السلجوقي الحاكم طغرل بن أرسلان الذي أغار على العراق.

واتصل به السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، لدى وصوله إلى الموصل ملتمساً منه السماح بالمرور في الأراضي الخاضعة لنفوذه كي يحطم قلاع الإسماعيلية الحشيشية في قزوين وبسطام ودامغان، ويقضي على قوتهم، ولكن جهان بهلوان خشي أن يشجع ذلك صلاح الدين على غزو العراق، فلم يسمح له بالمرور، ووقف في طريقه، وانتهى الأمر بالصلح بين الطرفين، ثم مرض جهان بهلوان بعد ذلك، ولم يلبث أن توفي في أوائل سنة ٥٨٢هـ/ ١١٨٦م وكان حتى وفاته يسيطر على بلاد الجبل والري وأصبهان وأذربيجان وأرّان، والأمراء والأموال بحكمه، وليس للسلطان طغرل معه إلا الخطبة.

تولى عثمان قزل أرسلان الأتابكية بعد وفاة أخيه واتخذ لنفسه لقب أمير الأمراء على أرّان وأذربيجان وهمذان وأصبهان والري، وأطاعه صاحب فارس وخوزستان، ولكنه لم يستطع السيطرة على السلطان طغرل الذي أضحى شاباً، وأراد التخلص من سيطرة عمه عثمان قزل أرسلان، فنشبت المنازعات بينهما، وانتشرت الفتنة في البلاد، وانضم كثير من الجند والأمراء إلى السلطان طغرل، فقوي أمره وكثر جمعه، ووضع يده على كثير من البلاد. فأرسل قزل أرسلان إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ـ٦٢٢هـ) يستنجده ويخوفه من طغرل ابن أرسلان، ويضع نفسه في طاعته، فأمده الخليفة بجيش وصل إلى همذان قبل وصول قزل أرسلان إليها، واضطر الجيش إلى القتال بمفرده، مما أدى إلى هزيمته سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. أمدّ الخليفة الناصر لدين الله قزل أرسلان بجيش آخر في أوائل سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، استطاع بمعونة هذا الجيش الاستيلاء على همذان والتوجه إلى كرمانشاه، فرحل طغرل قاصداً تبريز، وخشي قزل أرسلان على عاصمته تبريز، فاتجه مسرعاً إليها، وارتد طغرل إلى همذان، إلا أنه لم يستطع دخولها، وراح يتنقل في البلاد ويحاول كسب الخليفة والاستنجاد ببعض الأمراء، ومنهم صلاح الدين الأيوبي، من دون طائل.

وهكذا تحول الصراع في صالح أتابكة أذربيجان، واضطر طغرل في خاتمة المطاف إلى الاستسلام لخصمه قزل أرسلان الذي سجنه في حصن كهران قرب تبريز.

أخذ قزل أرسلان يقرب الأمراء إليه بتوزيع الإقطاعات عليهم، وتزوج بالخاتون زوجة أخيه جهان بهلوان، ووصلته رسالة من الخليفة تعرب عن رضاه وموافقته على أن يلي بنفسه عرش السلطنة سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م، فأصبح بذلك قزل أرسلان سلطان بغداد.

خشي أمراء العراق من قزل أرسلان، واتفقوا مع الخاتون التي كانت تشكو سوء سلوكه معها، وانصرافه عنها ومع ابنها قُتْلغُ (قُطْلغُ) إينانغ ابن جهان بهلوان على اغتياله وهو نائم في فراشه سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١م. وكان تدبير المؤامرة محكماً، بحيث لم يعرف قتلته على وجه التحديد، حتى قيل إنه قتل بسبب اضطهاده للشافعية وقتله مشايخهم في أصْبهان، كما اتهم الإسماعيلية الحشيشية بقتله. ما إن قُتل قزل أرسلان، حتى أصبح الأمراء سادة الموقف، فأخذوا يقتسمون النفوذ بينهم، وضعف نفوذ أتابكة أذربيجان في عهد نصرة الدين أبي بكر ابن جهان بهلوان، الذي تولى الحكم بعد عمه قزل أرسلان، واكتفى بحكم أذربيجان، في حين اقتسم الأمراء وأخوه قُتْلغُ إينانغ حكم العراق وفارس. واشتدت المنافسة بين الأخوين، فنشبت نار الحروب بينهما بلا انقطاع، أربع مرات في شهر واحد. وقد أدى ذلك إلى ضعف موقف أتابكة أذربيجان، فاستغل طغرل بن أرسلان هذا الموقف وخرج من سجنه وتعاون مع بعض الأمراء على قتال قتلغ إينانغ وأنصاره بالقرب من قزوين، فانتصر عليهم. واستمر حكمه بعد ذلك ثمانية أشهر.

أراد طغرل بن أرسلان أن يقوي نفوذه بالزواج من الخاتون زوجة جهان بهلوان فخوفه رجاله منها، خشية أن تستغل نفوذها، وتهيء الفرصة لابنها قتلغ إينانغ، فدس لها السم، مما أثار حمية ابنها الذي استنجد بعلاء الدين تُكُش شاه خوارزم، ولكن طغرل انتصر على الحليفين في سنتي ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م و٥٩٠هـ/ ١١٩٤م. وطلب قتلغ إينانغ المساعدة مرة ثالثة من حاكم خوارزم، ووافق ذلك وصول رسول الخليفة العباسي إليه يشكو طغرل ويطلب منه قصد بلاده، ومعه منشور بإقطاعه البلاد، فسار علاء الدين تكش من نيسابور إلى الري حيث تلقاه قتلغ إينانغ ومن معه بالطاعة، وأسرع طغرل لمجابهة علاء الدين قبل أن يستجمع كل قواته ولكنه انهزم بالقرب من الري وقتل سنة ٥٩٠هـ، ونسب قتله إلى قتلغ إينانغ، فأسند شاه خُوارزم حكم همذان إلى قتلغ وأقطع مماليكه بعض البلاد التي خضعت له، وعاد إلى خوارزم.

تعرضت أتابكية أذربيجان في أثناء حكم أبي بكر إلى هجمات الكرج، فاستولوا على مدينة دُوَين سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٤م من دون أن يحرك أبو بكر ساكناً لانهماكه في الشراب واللهو. وأنهى الخلاف مع الكرج بالزواج من ابنة ملكهم. ثم تعرضت أذربيجان لهجمات كل من علاء الدين قره سُنقُر صاحب مراغة، ومظفر الدين كوكبري صاحب إربل اللذين قصدا تبريز، فاستدعى أبو بكر ايدغمش مملوك أبيه الذي سيطر على همذان وأَصبهان والري وغيرها، وارتد صاحب إربل من حيث أتى خشية قوة ايدغمش فقصد أبو بكر وايدغمش مراغة وحاصراها، فصالحهما صاحبها على تسليم قلعة من حصونه إلى أبي بكر كانت سبب الخلاف بينهما، وأقطعه أبو بكر في المقابل مدينتي أُشْنُوا وأُرْمية وعاد عنه. ومالبثت الظروف أن ساعدت أبا بكر على الاستيلاء على مدينة مراغة وجميع مملكة آل قره سُنقر ما عدا قلعة دُوَين لوفاة صاحبها علاء الدين قره سُنقر سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٩م. وكان خلفه طفلاً ما لبث أن توفي في مطلع سنة ٦٠٥هـ/ ١٢١٠م.

توفي أبو بكر سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٢م، فخلفه في حكم أذربيجان أخوه أوزبك، وفي عهده خرجت بلاد الجبل عن طاعة أتابكة أذربيجان، كما تعرضت أذربيجان لهجمات المغول الذين ملكوا مراغة وأرْدَويل سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢٣م، وتوجهوا إلى تبريز، ففرّ أوزبك إلى نَقْجوُا (نخجوان)، وسيّر أهله ونساءه إلى خُوَيّ. ومع ذلك صمدت المدينة في وجههم ووافق المغول على فك الحصار عنها مقابل مال وثياب، وتوجهوا إلى مدينة سَراو فنهبوها وقتلوا كل من بها وانساحوا في البلاد يقتلون وينهبون ويخربون إلى أن غادروها. كذلك تعرضت أذربيجان في عهد أوزبك لهجمات القفجاق سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، وقصد الكرج في السنة نفسها بيلقان، ففعلوا فيها أكثر مما فعله المغول ولم يحرك أوزبك ساكناً. ثم ما لبثت البلاد أن تعرضت لخطر الخُوارزمية الذين كان سقوط دولة أتابكة أذربيجان على أيديهم. ففرّ أوزبك إلى كنجة (ألنجة) خوفاً من جلال الدين مَنكَبِرْتي بن خُوارزم شاه. وترك زوجته وهي ابنة السلطان طغرل آخر سلاطين السلاجقة، فحاصر جلال الدين تبريز خمسة أيام في سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م حتى أذعن أهلها له بالطاعة، وأرسلوا يطلبون الأمان واشترطوا الإبقاء على مدينة خُوَيّ وغيرها من أملاك روجة السلطان، وهكذا سقطت دولة أتابكة أذربيجان، وتزوج جلال الدين الخاتون على فتاوى الأئمة بطلاقها من أوزبك. وتابع جلال الدين ملاحقة أوزبك الذي مالبث أن توفي في السنة نفسها.

كانت البلاد في أيام أتابكة أذربيجان عامرة كثيرة الأموال والرحال. وكانوا منضوين تحت سلطة سلاجقة العراق وفارس، وحكموا المنطقة باسمهم، وسكوا اسم السلاطين على نقودهم ثم استقلوا وانفردوا بحكم البلاد ابتداء من سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م.

حكام أذربيجان من الإيلدكزيين

١ ـ شمس الدين إيلدكز ٥٤١ـ٥٦٨هـ / ١١٤٦ـ ١١٧٢م.

٢ ـ محمد جهان بهلوان بن إيلدكز ٥٦٨ ـ ٥٨٢هـ / ١١٧٢ ـ ١١٨٦م.

٣ ـ عثمان قزل أرسلان بن إيلدكز ٥٨٢ ـ ٥٨٧هـ/ ١١٨٦ ـ ١١٩١م.

٤ ـ نصرة الدين أبو بكر بن جهان بهلوان ٥٨٧ ـ ٦٠٧هـ/ ١١٩١ ـ ١٢١٠م.

٥ ـ مظفر الدين أوزبك بن جهان بهلوان ٦٠٧ ـ ٦٢٢هـ/ ١٢١٠ ـ ١٢٢٥م.

أمينة بيطار

الموضوعات ذات الصلة:

الاتابكة ـ الأحمديليون ـ الخلافة العباسية ـ الخوارزمية ـ السلاجقة.

مراجع للاستزادة:

ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٥).

ـ البنداري، مختصر تواريخ آل سلجوق (طبعة ليدن ١٨٨٩).

ـ الحسيني، اخبار الدولة السلجوقية (نشر محمد إقبال، طبعة لاهور ١٩٣٣).

ـ عطا ملك الجويني، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، ترجمة محمد التونجي (دار الملاح للطباعة والنشر ١٩٨٥).

■ أتاتورك (مصطفى كمال ـ)
(١٢٩٨ ـ ١٣٥٧ هـ/ ١٨٨١ ـ ١٩٣٨م)

زعيم تركي وقائد عسكري وسياسي وأول رئيس للجمهورية التركية بعد أن ألغى الخلافة العثمانية فيها. كان أبوه موظفاً في مصلحة الجمارك، ثم اعتزل خدمة الحكومة واشتغل في التجارة. وأصل أسرته من لاريسا Larissa باليونان، هاجرت إلى سالونيك حيث ولد مصطفى ونشأ فيها، ثم توفي والده وهو لا يزال صبياً يافعاً قليل الثروة.

اشتغل مصطفى مع خاله في الزراعة ورعي الماشية. والتحق بالمدرسة الإعدادية العسكرية في موناستير Monastir (١٨٩٥) حيث أضاف أحد أساتذته اسم كمال إلى اسمه لتفوقه في الرياضيات. وانتسب إلى المدرسة الحربية في اصطنبول (١٨٩٩) حيث بدأ يهتم بالحياة السياسية ويشارك في حركات المعارضة السرية المناهضة للسلطان عبد الحميد الثاني [ر]. وما إن تخرج برتبة ملازم ثان عام ١٩٠١ حتى دخل كلية الحرب العليا وتخرج فيها برتبة نقيب في مطلع عام ١٩٠٥، والتحق بفوج الخيالة في دمشق وقام بضرب قرى جبل الدروز، وحرق المزارع لقمع ثورة فيه. كما اشترك مع عدد من زملائه الضباط في الجيش الخامس المرابط في ولاية سورية، بتأسيس جمعية سرية اسمها «الوطن والحرية»، تأسست لها فروع في يافا والقدس. ثم تقرر نقل نشاط الجمعية إلى سالونيك حيث اتخذت شكلها العسكري النهائي باسم جمعية الاتحاد والترقي [ر]، بعد توحيدها مع بقية الجمعيات في الخارج. وعاد مصطفى كمال إلى سالونيك في أيلول ١٩٠٧ ضابطاً في أركان الجيش الثالث، وبدأت مشاركته منذ ذلك الحين في الأعمال السياسية والعسكرية، فشارك محمود شوكت في التوجه نحو اصطنبول لخلع السلطان عبد الحميد الثاني، كما اشترك عام ١٩١١ مع الجيوش العثمانية في قتال الطليان الذين جاؤوا لغزو طرابلس الغرب، وحارب البلغار حين نشبت حرب البلقان الثانية، وكان مع القوة التي استعادت أدرنة، ثم عيّن ملحقاً عسكرياً في صوفيا (تشرين الأول ١٩١٣). وفي الحرب



العالمية الأولى لمع اسمه في معارك الدردنيل، وكان برتبة عقيد حين برز في صدّ هجمات الإنكليز والفرنسيين على شبه جزيرة غاليبولي (١٩١٥)، ثم حارب في جبهة القفقاس واسترجع من الروس مدن تبليسي وموش Moush (آب ١٩١٦)، والتقى العقيد عصمت الذي أصبح أخلص أصدقائه. ولم يكن على وفاق مع الجنرال الألماني

فالكنهايم Falkenhaym بشأن سير العمليات فقدم استقالته، ورافق الأمير وحيد الدين في رحلة قصيرة إلى ألمانية. وحين مات السلطان محمد الخامس تولى العرش السلطان وحيد الدين محمد السادس (٣ تموز ١٩١٨)، فاستدعاه لقيادة الجيش السابع في فلسطين، ونفذ مصطفى كمال انسحاب الجيش منها إلى شمال حلب وجعل مقر قيادته مدينة حلب. وقد خرج منها بعد قتال شوارع قاده بنفسه مع سكانها الذين استولوا على معظم أحياء المدينة. ولما وقعت هدنة مودرس Mudros (٣٠ تشرين الأول ١٩١٨) أظهر معارضته لبنودها ولاسيما ما يتصل منها بالجيوش التي تشرف على الحدود السورية. ولما سرحت الجيوش التركية في الجنوب، عاد مصطفى كمال إلى اصطنبول وألح على تأليف حكومة تناضل لتحقيق الأهداف القومية التركية (تشرين الثاني ١٩١٨)، ولكنه اصطدم بمقاومة السلطان والحكومة القائمة، وحينئذ أدرك أنه لايمكن القيام بأي عمل إلا من الأناضول ولاسيما بعد أن احتل الفرنسيون والإنكليز والطليان أجزاء مهمة من تركية. وحين قرر السلطان إبعاده عن العاصمة وتعيينه مفتشاً عاماً للجيش التاسع مع سلطات كاملة في ولايات سيواس وطرابزون وأرضروم ووان وصامسون (٣٠ نيسان ١٩١٩)، رحب بالمنصب إذ أتاح له الفرصة لتنظيم حركة التحرير الوطني التي كان يتطلع إليها، وعزم بعدها على إعلان الاستقلال التام لتركية. ولاسيما حين قررت حكومة اصطنبول أن تضع تركية بحماية الدول الكبرى (٢٦ أيار ١٩١٩).

ردّ مصطفى كمال على الحكومة بمذكرة أكد فيها الحاجة إلى الدفاع عن الاستقلال الكامل للأمة والدولة التركية، ورفض الدعوة الموجهة إليه للحضور إلى العاصمة، وألقى بياناً استنكر فيه تصرفات الحكومة، ودعا الأمة للنضال من أجل إنقاذ الوطن وحماية أراضيه، وما إن أعلن عن اجتماع المجلس الوطني في سيواس للدفاع عن حقوق الولايات التركية الشرقية، وصرّح أن الأناضول يجب أن تكون مقرّ السلطة لا اصطنبول الخاضعة للنفوذ الأجنبي، حتى عزله السلطان من منصبه ووجهت إليه تهمة الخيانة، فردّ مصطفى كمال بالاستقالة من الجيش، وحمل لواء النضال زعيماً للشعب (٩ تموز ١٩١٩). وعُقد مؤتمر وطني في أرضروم ما بين ٢٣ تموز - ٧ آب، وانتخب مصطفى كمال رئيساً له، وجاء في منهاج المؤتمر أن الوطن بحدوده القومية وحدة لا تتجزأ، وأن أساس الحكم هو إرادة الأمة، ودعا إلى مقاومة كل احتلال أجنبي ورفض أي نوع من الوصاية والحماية، وإلى تشكيل حكومة مؤقتة. وعُقد مؤتمر آخر في سيواس (٤ أيلول ١٩١٩) حضره مندوبون من جميع أنحاء الأناضول والروملي، فأقر منهاج أرضروم، وأكد استقلال تركية ووحدتها، وانتخب لجنة تمثيلية برئاسة مصطفى كمال لتتولى تمثيل الأمة، وأخفقت محاولة للتقارب قام بها رئيس الحكومة الجديدة علي رضا باشا، ولاسيما بعد احتلال جيوش الحلفاء مدينة اصطنبول، واعتقال أنصار مصطفى كمال (١٦ آذار ١٩٢٠). وانعقد المجلس الوطني الكبير في أنقرة (٢٣ نيسان ١٩٢٠) وحضره المندوبون المنتخبون وأعضاء البرلمان الراغبون في الانضمام إليه، وأعلن هذا المجلس أنه يمثل الأمة، وأنه يحتفظ بالسلطات التشريعية والتنفيذية إلى أن تتمكن حكومة السلطان من ممارسة مهامها بحرّية، وأنه يخوّل هذه السلطات إلى مجلس وزراء يرأسه رئيس المجلس الوطني الكبير. وانتخب مصطفى كمال رئيساً للمجلس ورئيساً للوزارة الوطنية الأولى التي تألفت في ٣ أيار ١٩٢٠، فصدر عليه حكم بالإعدام في ١١ أيار ١٩٢٠، لكنه لم يعبأ بهذا الحكم، واتخذ الإجراءات الدفاعية لوقف زحف الجيوش التي أُرسلت للقضاء على الحركة الوطنية.

وفي ٣٠ أيار ١٩٢٠ عقد الفرنسيون هدنة مع المجلس الوطني الكبير بعد قتال دام سنة كاملة في كيليكة، في حين احتدم الصراع مع اليونانيين الذين شنوا هجوماً باتجاه الأناضول في ٢٢ حزيران بموافقة الحلفاء لفرض شروطهم بالقوة وإجبار تركية على القبول بتقسيم البلاد. وفي ١٠ آب ١٩٢٠ قبل السلطان والداماد فريد بالتوقيع على معاهدة سيفر Sèvres التي قسّمت الدولة العثمانية، فاقتصرت تركية على الأناضول واصطنبول وما حولها، لكن أتاتورك لم يقبل بهذا الأمر، فنظم في أنقرة المقاومة لإنهاء المعاهدة، وطرد اليونانيين من غربي الأناضول وتراقية (الروملي). وتغلب الأتراك على الأرمن في الجبهة الشرقية، ووقعت هدنة ١٨ تشرين الثاني ١٩٢٠، تلاها توقيع معاهدات عام ١٩٢٠ و١٩٢١ اعترفت فيها بامتلاك تركية لإقليم قارص وأردهان الذي ضمته روسية عام ١٨٧٨. وقد أدت هجمات اليونانيين المتكررة إلى استيلائهم على كوتاهية وأفيون قره حصار وأسكيشهر، وتراجعت الجيوش التركية إلى ما وراء نهر سقارية. وحينذاك سمّى المجلس الوطني الكبير مصطفى كمال قائداً عاماً مع سلطات كاملة لمدة ٣ أشهر. فخاض معركة دامت ٢٢ يوماً هُزم فيها الجيش اليوناني، وأنعم المجلس الوطني على مصطفى كمال برتبة المشير ولقب «غازي» أي المنتصر. وشن مصطفى كمال الهجوم النهائي على اليونانيين فاخترق صفوفهم ودخلت الجيوش التركية إزمير، ولم يأت منتصف أيلول ١٩٢١ حتى غادر آخر جندي يوناني الأراضي التركية. وفي ١١ تشرين الأول ١٩٢١ وقعت معاهدة مُدانية Mudanya واسترجع الأتراك تراقية، كما عقد الفرنسيون اتفاقاً مع الأتراك اعترفوا فيه بالحكومة الوطنية وجلوا عن جنوب شرقي الأناضول، ودعا الحلفاء الحكومة الوطنية في أنقرة للمشاركة في مؤتمر لوزان بغية الاتفاق على شروط السلام، ولكن مصطفى كمال جعل المجلس الوطني الكبير يصوت على خلع السلطان محمد السادس (٤ تشرين الثاني ١٩٢٢) الذي غادر اصطنبول على متن سفينة بريطانية، ونُصب ابن عمه عبد المجيد الثاني مكانه. وأسفر مؤتمر لوزان (٢١ تشرين الثاني ١٩٢٢-٢٤ تموز١٩٢٣) عن توقيع معاهدة لوزان التي عُدّت نصراً دبلوماسياً كبيراً لقضية القومية التركية، ونالت تركية كل ما رغبت فيه تقريباً من حيث إنها أمة مستقلة معترف بها دولياً ومتحررة من الامتيازات الأجنبية. ودخلت الجيوش التركية اصطنبول في ٦ تشرين الأول ١٩٢٣ بعد جلاء قوات الحلفاء عنها، وبذلك انتهت حرب الاستقلال، وجرت انتخابات المجلس الوطني الكبير الثاني (حزيران - آب ١٩٢٣). وفي ٩ آب أسس مصطفى كمال حزب الشعب الجمهوري وأصبح رئيساً له. واجتمع المجلس الوطني الجديد في ١١ آب وأقرّ انتخاب مصطفى كمال رئيساً للمرة الثانية، كما أقرّ دستوراً جديداً خوّل الرئيس تعيين رئيس وزرائه، ووافق على أن تكون العاصمة أنقرة وألغى السلطنة العثمانية وأعلن الجمهورية التركية، وانتخب مصطفى كمال رئيساً للجمهورية في ٣٠ تشرين الأول ١٩٢٣، وهو المنصب الذي ظل يشغله حتى وفاته في ١٠ تشرين الثاني ١٩٣٨، فطلب من المجلس المصادقة على إلغاء الخلافة ونفي أعضاء الأسرة السلطانية إلى خارج البلاد، ثم شرع في تنفيذ برنامج الإصلاح الداخلي المستوحى من

النظم الغربية.

اتصف حكم مصطفى كمال في السنوات الأولى للجمهورية بالإجراءات الشديدة لتحديث البلاد وتخليصها من الوصاية الاقتصادية الأجنبية. وبالاستناد إلى الحزب الوحيد الحاكم الموالي له، فرض دستوراً أعطى السلطة عملياً لرئيس الجمهورية (٣٠ نيسان ١٩٢٤)، فحكم حكماً دكتاتورياً، وأخذ بالمبدأ العلماني، وألغى المحاكم الشرعية والتعليم الديني والزوايا الصوفية، وجعل القانون المدني يقوم على أصول التشريعات الأوربية بدلاً من الشريعة الإسلامية، وألغى مادة في الدستور تنص على أن الإسلام هو دين الدولة. وأبطل استعمال الطربوش واستبدل به القبعة، وأوعز بتعميم الزي الغربي والتقويم الميلادي (تشرين الثاني ١٩٢٥) كما أمر بترجمة القرآن إلى التركية وأن يكون الأذان والخطبة بها. وتثبت أول الشهر القمري بالمرصد، واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتينية ابتداءً من مطلع عام ١٩٢٩. ووافق المجلس الوطني على هذه القرارات، وجرى نشرها في البلاد بوساطة الفروع المحلية لحزب الشعب الجمهوري وبيوت الشعب.

كان مصطفى كمال بالغ الصرامة في تنفيذ أحكامه، ولاسيما بعد أن أثارت عليه توجهاته العلمانية والغربية أزمة عنيفة، وردود فعل انتقادية في بعض الأوساط المقربة منه، ولكنه قمعها وأخمدها بقسوة حين حكم بالموت على بعض زملائه السابقين من أعضاء جمعية الاتحاد والترقي (١٩٢٤).

وبعد أن مرّ ت الأزمة انهمك في عملية التتريك بتأميم الشركات الأجنبية والمصرف العثماني الذي كان عنوان النفوذ الأوربي، وعمل على تحسين الزراعة والصناعة والمواصلات وأنشأ المصارف الوطنية. وبموجب تعديل الدستور عام ١٩٣٢، نالت المرأة المساواة الكاملة في الحقوق السياسية مع الرجل، ودخلت مجال العمل، كما صدر قانون حزيران ١٩٣٤ بشأن نسبة الأسرة، فأضيفت النسبة إلى الاسم الشخصي الذي كان يقتصر على اسم الفرد واسم أبيه، وكان ذلك وسيلة إلى تتريك الأسماء وكانت كثرتها الساحقة أسماء عربية. وتسمى مصطفى كمال بلقب «أتاتورك» أي أبو الترك، كما تم إلغاء الرتب والألقاب الرسمية السابقة، وباشر حملة كبيرة شارك فيها بنفسه للقضاء على الأمية بين صفوف الشعب. كما جعل عطلة نهاية الأسبوع يوم الأحد، بحجة أن تركية عازمة على توطيد صلاتها بالعالم الغربي. وفي جهوده الدؤوبة لتحديث بلده، استطاع أن يغير معالم تركية تغييراً كلياً، وكان في أثنائها قوياً عنيداً، ثابت العزيمة بارع الخطابة، قاسياً على نفسه وعلى الآخرين. ومع أن الصعوبات في وجهه كانت كبيرة، فإنه تغلب عليها، واستخدم أشد التدابير لإخماد معارضة الشخصيات التركية المهمة التي لم تكن متفقة معه في جميع آرائه. وقد أعانه على ذلك جهاز من الجواسيس في الداخل والخارج. كان مصطفى كمال شخصية عسكرية بارزة. وقد اتصف حكمه بالفردية، والاستبداد، وكبت الحريات، مع أنه كان في مطلع شبابه من أنصار الحرية. وقد أضرّ إدمانه الخمر بصحته، ولاسيما بعد الحياة القاسية التي عاشها في حملاته الكثيرة، فمات في سن الثانية والخمسين في قصر دولمة باغجه في اصطنبول، بعد أن نجح في استعادة مركز تركية الدولي، وأبرم معاهدات صداقة مع الاتحاد السوفييتي واستعاد قارص واردهان ووقع مع اليونان ورومانية ويوغوسلافية «الوفاق البلقاني» في شباط ١٩٣٤، كما وقع ميثاق سعد آباد مع العراق وإيران وأفغانستان في تموز ١٩٣٧، وارتبط بعلاقات صداقة مع بريطانية وفرنسة. ودفن أتاتورك في قبر مؤقت في المتحف الاثنوغرافي بأنقرة، ثم نقل رفاته إلى ضريحه المعروف بها.

أحمد طربين

الموضوعات ذات الصلة:

الاتحاد والترقي - العثمانيون.

مراجع للاستزادة:

- محمد عزة دروزة، تركية الحديثة (بيروت، مطبعة الكشاف ١٩٤٦).
- T. ALP, Le Kemalisme (Paris 1937).
- H. ARMSTRONG, The Grey Wolf, Mustafa (London 1932).

■ أتار برادش

أتار برادش Uttar Pradesh ولاية في شمالي الهند تألفت عام ١٩٥٠، من أراضٍ كانت تسمى الولايات المتحدة لأغرا وإمارات: بنارس ورامبور وتيهري غاروال، واتخذت «لكنو» عاصمةً جديدةً، بعد «الله آباد»، لوقوعها في وسط البلاد. تقع ولاية أتار برادش في حوضي نهري الغانج ويامونا وروافدهما، وتمتد أراضيها في رقعة مستطيلة، بين الشمال الغربي، والجنوب الشرقي (الشكل ١)، على طولٍ يزيد على ٩٠٠ كم، وعرضٍ يراوح غالباً بين ٣٠٠ و٤٠٠ كم، شاغلةً مساحة ٢٩٤,٥٠٠كم². وتؤلف الحدود الشمالية للولاية، جزءاً مهماً من حدود الهند الدولية مع كل من نيبال والتيبت الصينية، أما باقي الحدود فتشاركها فيها ولايات: هيماشال برادش، وهاريانا، مع قطاع دلهي [ر] وراجستان، ومدهيا برادش، وبيهار.

يغلب على أرض الولاية التركيب الجيولوجي الحديث في جبال هيمالايا [ر] في الشمال، والسهل الغانجي اللحقي المنخفض في الوسط أما أطراف هضبة الدكن في الجنوب، فممثلة بتلال ذات صخورٍ قديمة متبلورة، هذا التركيب وفر للولاية مجموعة من الثروات الطبيعية، يبرز بينها الحجر الكلسي والدولوميتي والمغنيزيت، والجص، والغضار، ورمل الزجاج، والمرمر، والمواد الفوسفورية، يضاف إليها النحاس والفحم الحجري.

تتصف جبال هيمالايا في الولاية بقممها الشاهقة، إذ يزيد الكثير منها على ٦٠٠٠م، أعلاها قمة ناندي ديفي (٧٨١٧م). تعبرها بعض الممارّ الوعرة. أما السهل الغانجي فلا تزيد أعلى نقطة فيه على ٣٠٠م، وينحدر سطحه نحو الجنوب والجنوب الشرقي في اتجاه خليج البنغال، حتى نحو ١٠٠م فوق سطح البحر عند الحدود مع بيهار.

يسيطر المناخ المداري الموسمي الحار على الولاية فأمطارها عاصفية رعدية صيفاً، من حزيران إلى أيلول، يرافقها انخفاض نسبي في درجة الحرارة، وارتفاع في نسبة الرطوبة، يليه جفاف واعتدال حتى آذار، ثم اشتداد في الحرارة والجفاف حتى موسم المطر التالي. وتتناقص كميات الأمطار من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي (٥٠٠ ملم عند حدود بيهار، إلى نحو ٣٠٠ ملم عند حدود راجستان). أما جبال هيمالايا فتتمتع بحرارةٍ أدنى وهطل أوفر بعضه ثلجي، بل إن الكثير من قممها الشاهقة تقع

فوق مستوى خط الثلج الدائم، وهي تغذي المنابع الرئيسة للمياه في الولاية، ومنها يتغذى نهرا الغانج ويامونا وروافدهما، عدا أنهار أخرى كثيرة.

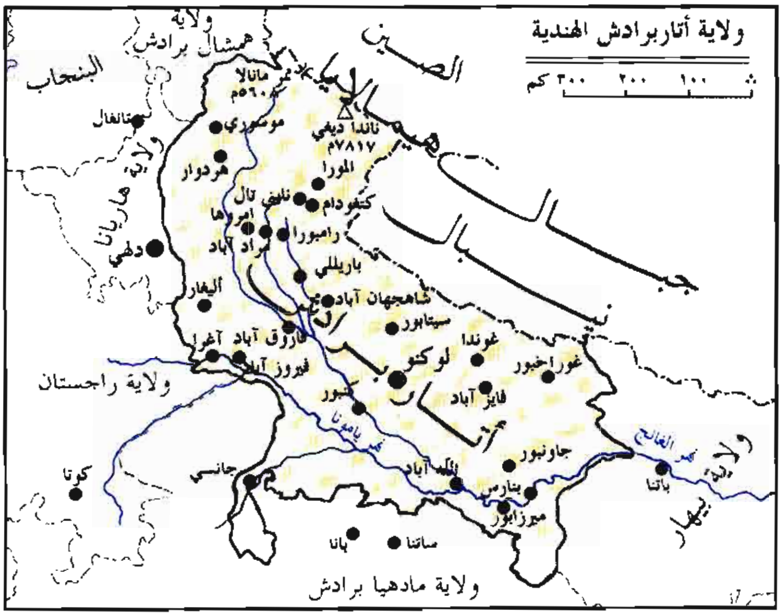
إنّ وفرة الهطل وشدة الانحدار تكونان سبباً في عنف فيضان الأنهار وظهور آثارها بسرعة، فلا تتأخر عن النصف الثاني من حزيران، مما يؤدي إلى أن يغمر الغانج سهله الفيضي المنخفض، فيوفر ماء الري للسهل في وقت مبكر.

يدخل السهل الغانجي في الولاية ضمن نطاق السافانا الغابية، حيث أشجار تين السهول، والنخيل والخيزران (البامبو) ومختلف الأزهار وعلى رأسها زهرة اللوتس. وفي الشمال الغربي يتحول الغطاء النباتي إلى سهب جاف، تتبعثر فيه أشجار الأكاسيا والأثل. وقد أزال الإنسان معظم الغطاء النباتي من السهل فاستدعى ذلك تخصيص محميات طبيعية وطنية تدعى كوربيت.

أما جبال هيمالايا فتتضمن جميع النطاقات النباتية فوق المستوى المداري، لذا جاءت متنوعة بين أرز السفوح العليا ومروجها وحور الأودية وجوزها، مروراً بالأنواع الصنوبرية والبلوطية. ويبلغ إجمالي مساحة الغابات في الولاية ٣٦٠٠٠ كم[٢].

وتتنوع الحيوانات البرية في الولاية تنوعاً كبيراً لتنوع بيئاتها الطبيعية الآنفة الذكر، كالوعول والدببة والقردة والفيلة والنمور والفهود والأفاعي الضخمة، ويؤوي نطاق تيراي أكبر عدد منها، ومعها الطيور المائية.

يعمل ٧٨٪ من سكان الولاية في الزراعة، فقد قام فيها أقدم نظام للري في الهند، يعتمد على شبكة واسعة من قنوات الري، وبعد الاستقلال جرى التوسع في إنشاء السدود والمحطات الكهرمائية التي أدت خدمات كثيرة للزراعة، حتى أصبحت الولاية أكبر منتج للحبوب الغذائية والزيتية في الهند، وفي طليعتها الأرز والذرة الصفراء، وتأتي في المرتبة الأولى بإنتاج قصب السكر، وهناك محصولات أخرى مهمة كالسمسم، والدخن، والشعير، والقطن، وغيرها. ومما ساعد في تطوير الزراعة إنشاء مزارع نموذجية حكومية، وكليات للزراعة، وجامعة زراعية، وتوسع في تطبيق الأساليب الحديثة في الزراعة.



(الشكل ١) ولاية أتاربرادش

في ظل الزراعة وتربية الحيوان، ولاسيما البقر، تطور عدد كبير من الصناعات الحرفية، من نسيجية وجلدية وخشبية وغيرها. وغدت الولاية من أكبر مراكز الصناعات الثقيلة والتحويلية في الهند وأهمها الصناعات الكيمياوية والنسيجية والجلدية والمعدنية وصهر الحديد، وصناعة قاطرات الديزل، والمضخات والمضاغط، والآلات الزراعية والكهربائية الثقيلة والمحولات والمنظومات الرقمية، وغيرها.

ويدعم ذلك النشاط الاقتصادي شبكة واسعة من طرق السيارات (١٧٤٠٠٠ كم)، منها ٢٦٠٠ كم مزدوجة (اوتوستراد)، وسكك حديدية وأهم عقدها: أغرا والله آباد وغوراخبور، التي توجد فيها أيضاً مطارات مهمة، ويضاف النقل النهري إلى كل ما سبق.

بلغ عدد سكان أتار برادش، بحسب إحصاء ١٩٩٥ نحو ١٣٩,١١٢,٠٠٠ نسمة، ويتزايدون نحو ٢٥٪، كل عشر سنوات، وهذا هو المؤشر نفسه لتزايد السكان في الهند. ويعيش معظم السكان في الأرياف في أكثر من ٧٢ ألف قرية، مزودة بالكهرباء، وهي تكثر على ضفاف الأنهار وفي الأجزاء الوافرة المطر. أما المدن فلا تضم أكثر من ربع السكان، وهي ليست من المدن الضخمة.

تمثل أتار برادش الهند بصورة مصغرة، من النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية، وفيها أفضل ما يمثل التراث الخاص بالثقافتين الهندوسية والإسلامية ومن ذلك مراكز المعرفة والعقيدة الدينية. وتقدم المدن النماذج المعبرة عن ذلك، ففاراناسي أو بنارس، أقدم مدينة تاريخية في الهند، عاصرت طيبة في مصر ونينوى في آشور، وهي معقل الديانة الهندوسية (مدينة الألف معبد)، وهي مركز استحمام نهري على الغانج، وإلى الشرق غير بعيد عنها مدينة بودغايا، مهد الديانة البوذية.

أما مدينة أغرا على نهر يامونا، فتشتهر بآثارها الإسلامية التي أنشئت في عهد حكم المغول من مساجد وقلاع ومدافن، وأشهرها مدفنا تاج محل واعتماد الدولة اللذان يعدان درتي الفن المعماري الإسلامي الهندي.

وتتمتع مدينة الله آباد بموقع جغرافي مهم عند ملتقى الغانج ويامونا، وهي مركز استحمام نهري مقدس عند الهندوس وهي مدينة المعابد والطقوس الدينية الهندية، وكان اسمها القديم براياغ (مدينة الأضحية) قبل أن تصبح «مدينة الله» وتشتهر بقلعتها التي بناها الامبراطور المغولي أكبر، وهي مركز ثقافي وإداري بارز، عرفت بنضالها ضد الاستعمار البريطاني في الهند، وبكونها معقلاً لحزب المؤتمر الهندي، وموطناً لأسرة نهرو [ر] زعيم الهند المعروف

أما العاصمة لكنو فتشتهر بحدائقها الواسعة. وفي ضوء ما ذكر من خصائص طبيعية وبشرية للولاية، فقد أصبحت مركزاً سياحياً مهماً ، من حيث المدن ومن حيث المرابع السياحية الصيفية مثل موسوري وناييني وألمورا في الشمال الهيمالائي، وهي تعتمد على شبكة الطرق الواسعة التي أشير إليها.

مصطفى الحاج إبراهيم

الموضوعات ذات الصلة:

الهند.

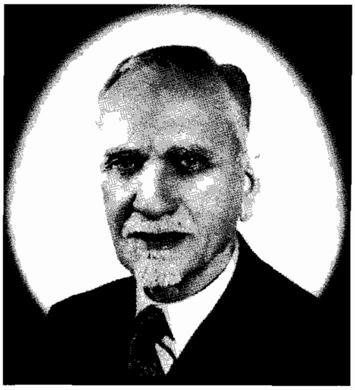
■ الأتاسي (هاشم -)
(١٢٩٢-١٣٨٠هـ/ ١٨٧٥-١٩٦٠م)

رجل دولة عربي سوري وأحد رؤساء الجمهورية السورية. ولد هاشم بن خالد الأتاسي في مدينة حمص في أسرة كبيرة اشتهرت بالعلم والوجاهة، فقد كان جده محمد الأتاسي مفتي المدينة وخلفه في هذا المنصب أبوه خالد ثم أخوه طاهر، وساعدته نشأته المنزلية على تلقي العلم صغيراً. وكانت دراسته الأولى في مدينة حمص، ثم انتقل إلى بيروت ليتابع تحصيله الثانوي في الكلية الإسلامية. وانتقل بعدها إلى الأستانة (اصطنبول) ليدرس في المدرسة السلطانية العليا، وتخرج فيها عام ١٨٩٣ ليعين بمعية والي بيروت. ومكث في عمله هذا ثلاث سنوات عين بعدها بمنصب قائمقام، وظلّ في هذا المنصب عدة سنوات متنقلاً بين مدن كثيرة كبانياس والخفة وصفد وصور والسلط (الصلت) والكرك وعجلون وجبلة وبعلبك ويافا، ثم غدا متصرفاً في حماة فعكا فجبل بركات. ومع بداية الحرب العالمية الأولى عين هاشم الأتاسي متصرفاً لمدينة بوردور في الأناضول بقصد إبعاده عن البلاد، وعاد بعد الحرب والثورة العربية الكبرى إلى مدينة حمص وعين محافظاً لها مدة قصيرة. وعندما دعت الظروف في بداية عهد الاستقلال الفيصلي في سورية إلى عقد مؤتمر وطني في عام ١٩١٩ انتخب هاشم الأتاسي، ممثل حمص، رئيساً للمؤتمر.

أعلن المؤتمر مقرراته في السابع من شهر آذار عام ١٩٢٠ وفي مقدمتها استقلال سورية الكامل بحدودها الطبيعية، وانتخب الأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سورية. وكانت رئاسة المؤتمر هذه بداية حياة هاشم الأتاسي السياسية التي كان لها أثرها في الحركة الوطنية والنضال من أجل استقلال سورية واستقرارها السياسي.

عهد الملك فيصل إلى هاشم الأتاسي في تأليف الوزارة الوطنية، التي خلفت وزارة رضا باشا الركابي الثانية، في شهر أيار ١٩٢٠، وضمت الوزارة الثانية كلاً من يوسف العظمة وساطع الحصري وعبد الرحمن الشهبندر ورياض الصلح وفارس الخوري ويوسف الحكيم. وفي عهد هذه الوزارة جرت معركة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠، واحتل الفرنسيون دمشق، فاستقالت حكومة الأتاسي وغادر الملك فيصل البلاد وبدأ عهد الانتداب.

لم تخضع البلاد للاحتلال فقامت الثورات في جميع أنحائها. وكانت الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥-١٩٢٧) أشهرها وأبعدها أثراً، وكان هاشم الأتاسي من أنصارها والمتعاونين معها، فكان نصيبه النفي إلى جزيرة أرواد مع مجموعة كبيرة من الوطنيين، ومكث في منفاه شهرين. وبعد انتهاء الثورة عقد الزعماء الوطنيون مؤتمراً لهم في بيروت في تشرين الأول عام ١٩٢٧، ترأسه هاشم الأتاسي، حددوا فيه موقفهم من الانتداب الفرنسي وأذاعوا بياناً تضمن مطالبهم. وعندما أعلن الفرنسيون في مطلع عام ١٩٢٨ موافقتهم على إجراء انتخابات لمجلس تأسيسي يضع دستوراً للبلاد خاض الوطنيون هذه الانتخابات متَّحدين باسم الكتلة الوطنية التي ترأسها هاشم الأتاسي، ونجحوا في دخول المجلس التأسيسي وانتخاب هاشم الأتاسي رئيساً له. تقدم المجلس بمشروع دستور لسورية لم ترض عنه حكومة الانتداب لإصراره على استقلال البلاد، وأمرت بتعليق أعمال المجلس. وفي ١٤ أيار عام ١٩٣٠ نشر المفوض السامي الفرنسي الدستور المقترح بعد أن أضاف إليه مادة تشل ما جاء في مواده الست موضوع الخلاف، كما أصدر المفوض السامي في ١٩ تشرين الثاني ١٩٣١ أمراً بإقالة الحكومة المؤقتة وقراراً بتأليف مجلس استشاري كان من أعضائه هاشم الأتاسي الذي رفض هذه العضوية، ولم يجتمع المجلس إلا مرة واحدة. قرر المفوض السامي في الوقت نفسه إجراء انتخابات لمجلس نيابي جديد بموجب الدستور في مطلع عام ١٩٣٢، وتدخلت السلطات الفرنسية في هذه الانتخابات وزيفتها وفرضت مرشحيها في الكثير من المناطق.



ومع ذلك فقد نجح هاشم الأتاسي وقائمته الوطنية في حمص بدخول المجلس، وغدا مرشح الوطنيين لرئاسة الجمهورية. ولما كان الوطنيون أقلية فقد قنعوا بحل وسط وانتخب محمد علي العابد لمنصب الرئاسة. وعقد أعضاء الكتلة الوطنية مؤتمراً لهم في حمص في ٤ تشرين الثاني ١٩٣٢ وضعوا فيه نظاماً أساسياً للكتلة الوطنية وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً لها. وعقب الحرب التي نشبت بين السعودية واليمن تنادى الزعماء الوطنيون في الأقطار العربية لتأليف وفد يسعى إلى إجراء مصالحة بين الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى، واختير هاشم الأتاسي عضواً في الوفد الذي ضم شكيب أرسلان والحاج أمين الحسيني ومحمد علي علوبة باشا، ونجح الوفد في مسعاه وتمت المصالحة. واستقبل هاشم الأتاسي إثر عودته إلى البلاد استقبالاً حافلاً مع أنه لم يكن يشغل أي منصب رسمي في الدولة آنذاك. وفي مطلع عام ١٩٣٦ عمت البلاد إضرابات عنيفة دامت ٦٠ يوماً احتجاجاً على بقاء الانتداب. واضطرت الحكومة الفرنسية إلى تبني سياسة التفاوض، فاتصل المندوب السامي بالكتلة الوطنية وزعيمها هاشم الأتاسي وطلب تأليف وفد يتولى المفاوضات في باريس. وسافر الوفد برئاسة الأتاسي إلى فرنسة حيث نجح في عقد معاهدة عدت خطوة في طريق الاستقلال، وتم إجراء انتخابات في دمشق لمجلس تشريعي بعد عودة الوفد، ونجح الوطنيون فيها وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً

للجمهورية في ٢١ كانون الأول ١٩٣٦، وتألفت وزارة وطنية تعهدت السير في تنفيذ المعاهدة، إلا أن الفرنسيين نكصوا عن الالتزام بها واضطرت الوزارات الوطنية إلى الاستقالة واحدة بعد أخرى إلى أن استقال رئيس الجمهورية نفسه في ٧ تموز ١٩٣٩ وعادت فرنسة إلى فرض سياسة الانتداب من جديد.

نالت سورية استقلالها بعد العدوان الفرنسي عام ١٩٤٥ وتم جلاء آخر جندي من جنود الاحتلال في ١٧ نيسان ١٩٤٦، وقام في البلاد حكم وطني دستوري. وفي ٣٠ آذار عام ١٩٤٩ تزعم قائد الجيش حسني الزعيم انقلاباً عسكرياً أطاح بالحكومة وتسلم الجيش السلطة، ولكن جماعة من الضباط برئاسة سامي الحناوي قامت في ١٤ آب من العام نفسه بانقلاب آخر أطاح بحكومة حسني الزعيم وعهد بالحكم إلى وزارة ائتلافية ضمت ممثلين عن جميع الأحزاب وترأسها هاشم الأتاسي. وتولت هذه الوزارة إجراء انتخابات لمجلس تاسيسي يضع دستوراً جديداً للبلاد. وانتخب هاشم الأتاسي رئيساً للدولة في ١٤ كانون الأول ١٩٤٩، وأعيد انتخابه رئيساً للجمهورية في ٧ أيلول ١٩٥٠ بعد إقرار الدستور الجديد. وفي ٢ كانون الأول ١٩٥١ قام العقيد أديب الشيشكلي بانقلاب عسكري واعتقل رئيس الوزارة معروف الدواليبي وأعضاءها فانسحب هاشم الأتاسي إلى منزله في حمص، وتوقفت رئاسته، إلى أن انهار حكم الشيشكلي إثر انقلاب عسكري في ٢٥ شباط ١٩٥٤. وعاد هاشم الأتاسي إلى سدة الرئاسة لاستكمال مدة رئاسته القانونية. وفي ٦ أيلول ١٩٥٥ جرى أول احتفال بتسليم الرئاسة دستورياً إلى الرئيس المنتخب الجديد شكري القوتلي. وبعد قيام الجمهورية العربية المتحدة ٢٢ شباط ١٩٥٨ اعتزل هاشم الأتاسي الحياة السياسية حتى وفاته ودفن في مدينته حمص.

كان هاشم الأتاسي وطنياً مخلصاً، صادقاً في تعامله، عفيف النفس، نافذ البصيرة متأنياً في أحكامه معتدلاً في آرائه، نصيراً للدستور والشرعية حتى كناه بعضهم أبا الدستور. وقد ضمنت له صفاته هذه احترام الأصدقاء والخصوم، وهيأت له الظروف السياسية التي مرت بها البلاد القيام بدور مشهود في تاريخ سورية الحديث.

يوسف شلب شام

مراجع للاستزادة:

- نجيب الأرمنازي، سورية من الاحتلال حتى الجلاء (القاهرة، دار الكتاب العربي ١٩٥٤).
- علي رضا، قصة الكفاح الوطني في سورية ١٩١٨ - ١٩٤٦ (حلب، المطبعة الحديثة ١٩٧٩).
- باتريك سيل، الصراع على سورية، ت. سمير عبده ومحمد فلاحة (بيروت، دار الكلمة للنشر ١٩٨٠).

■ أتامارو (كيتاغاوا -)
(١٧٥٣ - ١٨٠٦)

فنان ياباني مارس التصوير والرسم بالرواشم ولا يعرف الكثير عن حياته وقد اتخذ لنفسه اسم أتامارو كيتاغاوا Utamaro Kitagawa ما بين ١٧٨٠ - ١٧٨١ وكان يعرف من قبل باسم تيوشو Toyosho أو تويواكي Toyoaki.

كان أتامارو يعمل في رسوم تزيينية للكتب ما بين ١٧٧٥ و١٧٨٠ ثم عمل في الرسم بالرواشم الخشبية. وبدت أعماله في مطلع حياته الفنية متأثرة ببعض المرموقين من الفنانين اليابانيين، وكان لأسلوب كيوناغا Kiyonaga أثر كبير في تكوينه الفني. وقد بدأت موهبته الناضجة تظهر في أسلوبه الخاص منذ ١٧٩٠ وغدا أحد أشهر رسامي الصور النسائية المعبرة عن الانفعالات المتنوعة على الوجه. واختلف في هذه الصور عن منافسه هارونوبو Harunobu الذي تخصص في تصوير الفتيات الشابات، في حين كان أتامارو يهتم بالنساء الناضجات، معبراً في صوره عن معاني الأناقة والشهوة والإغراء في أمزجة مختلفة تظهر في لون الوجوه العاجي المحصور ضمن خطوط ثابتة توحي ببشرة ناعمة رقيقة في تباين شديد مع لون الخلفية الحيادي.

أسس أتامارو مدرسة كان يغشاها عدد كبير من طلبة الفن، ووصل هو في استعمال الرواشم إلى مستوى عال يذكر له، ولكنه مال في آخر أعماله إلى التكلف والتصنع. وفي عام ١٨٠٤ اتهم بانتقاد بعض القادة العسكريين المتنفذين وأودع السجن لمدة قصيرة، ولكن آثار التجربة كانت قاسية عليه.

وبدءاً من القرن التاسع عشر كان أتامارو من أوائل الفنانين اليابانيين الذين لقوا اهتماماً من الغرب. وما تزال أعماله متميزة في الفن الياباني



ولا سيما ما يقع منه في نزعة أوكيو - أي Ukiyo-E وتعد في القمة منه.

ج. ت

مراجع للاستزادة:

- L. V. LEDOUX, Japanese Prints, Buncho to Utamaro (New York 1948).
- J.A. MINCHENER, Japanese Print (Rutland V. T. 1959).

■ الاتباعية

ظلّت مجموعةُ القواعد التي يفصح عنها مفهوم الاتباعية classicisme في الأدب موضوع جدلٍ مثيرٍ ومتصلٍ، في أوربة بعامة وفي فرنسة بخاصة، ولم يتسنّ بعد لهذا المفهوم أن يظفر بالتعريف الموحد المناسب الذي يمكن أن يجلوه على نحو دقيق. هكذا كان للاتباعية دلالاتٌ شتّى

متباينةٌ ومتقاربةٌ معاً، علماً بأن هذه الحركة الأدبية لم تكن حكراً على الأدب الفرنسي وحدَه، فقد عرفها الأدب الغربي بصورةٍ عامةٍ من دون أن يتزامن ظهورها في فرنسة مع ظهورها في بقية البلاد الأوربية. غير أن تعريف مفهوم الاتباعية، بدلالته المعروفة، لم يُتَحْ له أن يتَّضح ويترسخ في فرنسة، إلا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حين لجَّ الخلافُ بين الاتباعية والإبداعية romantisme [ر] المتصدية لها ففي القرن الثامن عشر غلبت موجة الاتباعية في أوربة ولا سيما في ألمانية مع انتشار الثقافة الفرنسية وتألقها. بيد أن مفهوم الاتباعية أخذ في ألمانية دلالة مغايرة. فقد بدا غوته Goethe [ر] مثلاً في مغرب حياته اتباعياً في حرصه الدائب على أن يساير ذوقَ عصره على النحو الذي كانت تدعو إليه الاتباعية، مما أفضى إلى ردة فعل في ظهور حركة الإبداعية لدى الشعراء الذين أتوا بعده، ولاسيما هولدرلين [ر] Hölderlin الذي جهر بمعارضته لمبادىء الاتباعية التقليدية ودعوته إلى أدبٍ جديد ينضح بالحساسية والعاطفة المتدفقة.

وقد ظل تعبير الاتباعية يعني، في البدء، برأي جمهرة الأدباء الفرنسيين، كلَّ ما هو قمينٌ بأن يُتَّبعَ، وكلَّ ما تأتَّى له بأصالته أن يخلدَ ويغالبَ الزمن ويتحدَّى النسيان، علماً بأن بعض قواعد الاتباعية تناهت بقدمها، لتمتح من آراء أرسطو[ر] في الشعر. هكذا عنى هذا التعبير، آنئذٍ كلَّ ما هو بسبيلٍ إلى المؤلفات الأدبية السامية، الجديرة بأن تُقلَّدَ وتُتَّخذَ مثالاً وقدوةً، لتكون قادرةً ، بمنهجها المتماسك وديباجتها الرائعة، على أن تناجز الأساليب الفجَّة الركيكة.

قواعد الاتباعية في المنهج والأسلوب

بيد أن هذه السمات اللصيقة بالاتباعية، لم تكن كافيةً وافيةً، على النحو الذي جلاه الناقد الفرنسي سانت بوف Sainte Beuve [ر] في دراسته «ما هي الاتباعية؟»، لأن كثيراً من الأدباء، من قُدامى ومعاصرين، ممن أغنوا الفكرَ الإنساني وتقدموا به مراحلَ ملحوظةً في الإبداع، لم يقنعوا قط بمحاكاة القدامى والأخذ بمدرجتهم في الأسلوب المشرق فحسب، وأضحت آثارهم الأدبية، مع ذلك، قدوةً للأجيال المقبلة. هكذا نجد أن تعريف الاتباعية اتَّجه، في تحديدها واستجلائها، إلى الجهد المتواصل الذي ينبغي للكاتب أن ينهض به في أسلوبه وفكره معاً، على النحو الذي تتجلَّى فيه ملامحُ الاتباعية وإرهاصاتُها، بدءاً من ماليـــرب Malherbe [ر] الذي اشتهر بتعريفاته النظرية، ومروراً بلابروبيير La Bruyère [ر] الذي كان يدعو إلى التوق إلى الكمال، في ذروةٍ تؤالفُ ما بين الخير والجمال، وفي موعدٍ يتناغم فيه صفاءُ الأسلوب مع قيم السجايا، واتّساع التحليل مع رجاحة الفكر. ومن بين التعريفات التي وضعها ماليرب، المعروف بحرصه على صقل القصيدة وتحكيكها، أن الشعرَ الأصيلَ المنشودَ هو ما تطغى فيه صناعة الشعر على المعاني السامية التي تغلّفها الألفاظ، أي إن الأسلوب وحده هو المحكّ في جودة القصيدة وتقويمها وتقديرها. وبعد إنشاء الأكاديمية الفرنسية، في عام ١٦٣٧، ساد مفهوم الاتباعية الذي التزمه ماليرب وأتباعه، حتى جاء بوالو Boileau [ر] الذي نشر كتابه المعروف «الفن الشعري» l'art poétique في عام ١٦٧٤، فحدَّد المبادىء العامة لجمالية الشعر، كما ينبغي للشاعر أن يأخذ بها، وهي مبادىءُ صارمةٌ، لا يكتفي فيها الشاعر بأن يحاكي آثار القدامى من الشعراء فحسب، بل أن يديم التفكير في ما يأخذ، ويضيف إلى ما اقتبسه ما هو جديرٌ بأن يُضْحي، بدوره، مثالاً ينبغي أن يُحتذى. وأظهر هذه المبادىء أو القواعد ما يلي:

أمانة النقل عن الطبيعة، ويحدِّدها بوالو في قوله إن الطبيعة أوْلى وأجدرُ باهتمامنا من أيِّ شيء آخر، ويؤكد هذا المبدأ ما كان أرسطو قد دعا إليه في صناعة الشعر، وخلاصته أن الشعر هو التصوير بالكلمات، غير أن جهد الشاعر ينبغي ألا يقتصرَ على تقليد الطبيعة فقط، بل أن يجلوَها، على نحوٍ يحسن معه أن يصطفي الشاعر كلَّ ما يشارف الفنَّ الأمثل، معنىً ومبنى، لأن الحقيقة العارية وحدها ليست بكافية إن لم تُثر المتعة الجمالية.

بيدَ أن تياراً من العقلانية لم يلبث أن جاذب الاتباعية التي دعا إليها ماليرب وبوالو، بما خلص إليها من آراء مونتيني Montaigne [ر] الذي كان يرى أن على الشاعر المجوِّد أن يتطور ويأخذ حظه من الكمال والنُّـضج، لا بالصناعة الشعرية وحدها، بل بما يكتسب من ثقافة واسعة ترفد موهبَته وتهب له قيمةً ساميةً بوصفه إنساناً عاقلاً متحضراً.

وقد انضاف إلى هذا التيار العقلاني، مبدأ جديد يتمّم ما سبقه، خلاصتُه: أن أهم ما ينبغي للكاتب أن ينشده في عمله الأدبي ـ سواء أكان شعراً أم مسرحيةً أم قصصاً ـ هو أن يكون ذلك العمل لائقاً محتملاً أو مقارباً vraisemblable، أي يجدر بالكاتب أن يراعيَ، في كل ما يستلهم ويستوحي، ألا يخالف الأعراف ويصدم التقاليدَ في المجتمع، وإمَّا حلا له أن يقتبس من أحداث التاريخ موضوعاً جديراً بأن ينساق في مسرحيةٍ ما، فعليه أن يستبعدَ من هذه الأحداث ما قد يتراءى للجمهور المشاهد منافياً، غيرَ ملائمٍ، وأن يسوقه بحيث يبدو مقبولاً معقولاً. ويأخذ الشاعر لافونتين La Fontaine [ر] بهذا المبدأ، في مقدمة مؤلفه «النفس» Psyché حين يقول: «إن هدفي الأساسي الثابت في كلِّ ما أنظم أو أكتب، هو أن يكون مستحسناً مستظرفاً لأضحي، حين أحقِّق هذا الهدف، مسايراً لذوق العصر».

وقد أ ضاف بعض النقاد، إلى هذه القواعد المتبعة، قاعدةً أخرى تجعل من العقل إماماً وهادياً للكاتب، يفيءُ إليه دوماً فلا مجالَ للخروج عما يأمر به المنطق وينهى عنه، ولا مكانَ للهذيان والذُّ هان، وعلى الأدباء كافةً أن يسلكوا، في مناهجهم وأساليبهم، الطريقَ اللاحبة، الواضحة، البعيدة عن التعقيد والغموض.

وهكذا يتبين أن تطبيق قواعد الاتباعية والتقيُّدَ بها وإيلاءَها ما تستحق من تقدير، هو صنو للجمال السامي المطلق الذي ينشده الاتباعيون. ومن هنا يتطلب العمل الأدبي من الكاتب أن يبذل قصارى جهده ليكون الأثر الأدبي الذي يُتمُّـه، أشبه بالساعة الدقيقة، المضبوطة المكتملة الصنع. وإذا اتَّفق لهذا الكاتب أن يجنح، فيما هو يسوِّي هذا الجمالَ المطلقَ، إلى تصوير بعض الجوانب الغامضة، الملتاثة من النفس الإنسانية، فينبغي له أن يضربَ في هذا الدرب الصعب الشاق، حَذراً ،مستأنياً، وأن يكون هذا الجمال المطلق الذي يجلوه، مساوقاً لفكرة الخير، كما عبر عن ذلك بوســـويه Bossuet [ر] بقوله: «إن الفصاحة لا تُستلهم من عل ـ أي من السماء ـ إلا من أجل إذكاء جذوة الخير لدى الإنسان وتوجيهها نحو الفضيلة».

كل هذا يقود الكاتب الاتباعي وينحو به، فيما هو يحكّك أسلوبَه، مصطفياً اللائق الملائمَ للواقع من الموضوعات، مراعياً مجتمعه، محترماً تقاليدَ ه ـ يقوده إلى التقيُّد بما تأمر به السلطة الحاكمة أو تنهى عنه، وما توصي به الكنيسة وترضى عنه، لأن العصر الذي ازدهرت فيه الاتباعية الفرنسية يواكب العهدَ الذي استشرفت

فيه الملكية سلطتها المطلقة، إبّان عهد لويس الرابع عشر، في ربع قرن ـ وعلى وجه التحديد ما بين عامي ١٧٦٠ و١٧٨٥ ـ وكانت السلطة الملكية الحاكمة، آنذاك، تغازل الكنيسة الكاثوليكية التي دعمت المدرسة الاتباعية وعملتْ على توطيد أسسها، مع الملاحظة، أن بعض النابهين البارزين من الاتباعيين كانوا من رجال الدين المعروفين مثل بوسويه وفينيلون Fénelon . ولئن لم يتَّسق لبعضهم الآخر مثل باسكال Pascal [ر]، أن يرتديَ مسوحَ الرهبان، فقد تأتَّى لهذا الكاتب المفكر والعالم أن يغمس قلمَه في مداد الإيمان المسيحي ويستوحي منه خواطره.

وثمة سمة تتصف بها الاتباعية، بصورةٍ عامةٍ، يحسن الإشارة إليها، وقد نوَّه بها هنري بير Henri Peyre في دراسته المسهبة عن الاتباعية، هي أنها تسعى، من نحوٍ ما، إلى أن تكون لا شخصية impersonnelle . فالأديب الاتباعي هو إنسان، لكن هذا الإنسان حين يُدعى بوسويه، مثلاً، فإنه لا يعمل البتة على أن ينفض الأنا Le moi المكوِّنة لذاته، في عمله الأدبي، ولا أن يستجلي ما يمور في عطفيه من مشاعرَ متميزةٍ خاصةٍ، لأن ما يهفو إليه، في كلٍّ ما يكتب، هو الشمولية التي تنظم مشاعرَ أي فرد، ليضحَى لاشخصياً، أي إن هناك قدراً مشتركاً لدى الناس كافةً في تقويم السجايا الإنسانية المثلى وتقديرها.

ومن هنا، تتجلى بعض المآخذ الرئيسة على الاتّباعية في إهمالها المزايا والمثالبَ التي يفترق بها فردٌ، من المجتمع، عن أيِّ فرد آخر.

قانون الوحدات الثلاث في المسرح الاتباعي

إلى جانب قواعد الاتباعية في الأسلوب والمنهج، وإلى شروطها الخلقية والاجتماعية وسماتها البارزة ودلالاتها الموضحة، فلا مندوحة من الإشارة إلى قاعدةٍ أساسيةٍ هي قاعدة الوحدات الثلاث trois unités التي جرى عليها الاتباعيون، في المسرح خاصة، وحرصوا على تطبيقها حرصاً شديداً، وعدوا الخروج عليها غميزةً تنال من العمل المسرحي وعجزاً ينقص من موهبة الكاتب. وقد أخذ بها الاتباعيون الفرنسيون في القرن السابع عشر، متأثرين بتفسيرات غير دقيقة لكتاب أرسطو في فن الشعر الذي ألح على وحدة العمل، وأشار على نحو غير مباشر إلى وحدة الزمان، ولم يذكر وحدة المكان التي أضيفت إلى الوحدتين السابقتين بطريق الاستنتاج، لتنتظم كلها في وحدات ثلاث. فوحدة العمل هي اتحاد الأجزاء المختلفة التي يتَّسق بها الحادث، ووحدة المكان تفترض وقوع العمل كلِّه في مكانٍ واحدٍ لا يتجاوزه، أما وحدة الزمان فتعني أن لايستغرق العمل أكثر من يوم واحد ـ قد ينقص أو يزيد، برأي بعضهم اثنتي عشرة ساعة ـ وذلك حرصاً على مقاربة الحقيقة، لأن الذوق يفترض أن ما يُمثَّل أو يُعرض من مشاهد، على خشبة المسرح ضمن ساعتين أو ثلاث ساعات، ينبغي له أن يتمَّ في زمن معقول ومحدود، هو يوم واحد فقط. وقد برز من هؤلاء الكتاب المسرحيين في فرنسة كورنـي Corneille [ر] وراسين Racine [ر] في المأساة tragédie ، وموليير Molière [ر] في الملهاة comédie، ودرج على منوالهم شعراء وكتاب أقل شهرة وشأناً.

بيد أن هذه القاعدة الصعبة التي التزمها كتاب المسرح الاتباعيون في فرنسة خاصة، وآتت أُكلها آثاراً مسرحية رائعة خليقة بالإعجاب والتقدير، حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر، لم تلبث أن أضحت موضع النقد والتجريح من الحركة الإبداعية التي تصدَّ ت لها وناجزتها، ولاسيما في معركة مسرحية هرناني Hernani للشاعر فكتور هوغو Victor Hugo [ر] التي عُرضت على المسرح في عام ١٨٣٠، وعُدَّ هذا العام منعطفاً مهماً في تحول أنظار معظم الكتاب والشعراء الفرنسيين عن الاتباعية إلى الإبداعية.

أزمة الاتباعية ومصيرها

إن المزايا الخاصة التي عُرفت بها الاتباعية الفرنسية وأعطت ثمارها الشهية المرجوة، لم تلبث، مع مرور الزمن، أن حملت معها بذور ضعفها وقصورها عن مسايرة العصر ومتطلبات التقدم، وعجزت عن تلبية ظمأ الجمهور إلى شيء جديد مستطرف، بعد أن برم الأدباء بالقوالب والأطر التي كان الأدب حبيساً فيها، مقيداً بأغلالها. هكذا أضحى بناء الاتباعية القديم الثابت مزعزعاً، مهدداً بالانهيار، تبعاً لتبدل الأذواق الأدبية وطموحها، ولم يعد للعقل مكانه الأسمى الذي كان يطل منه آمراً ناهياً، لأن متطلبات القلب، في استجابته للعاطفة، أضحت مسموعة ناسخةً دور المنطق وقواعده الجافة المرسومة. غير أن الرغبة في التغيير لم تتم، دفعة واحدة، فقد ظل أدب القرن الثامن عشر يضرب في منحى الاتباعية، مترسِّماً خطاها، تارةً، متنائياً عنها بعض الشيء، تارة أخرى. حتى فولتير الذي يُعد إحدى القمم الفكرية والأدبية التي ترعرعت الثورة الفرنسية في ظلها، كان يطنب في مديح الاتباعية، مطبقاً في مسرحياته، قاعدة الوحدات الثلاث التي يتَّكىء عليها المسرح الاتباعي.

غير أن دم العاطفة المستوفزة الجيَّاشة، لم يلبث أن سرى في شرايين الأدب الجديد الذي حمل لواءه الإبداعيون، ولم يعد الأديب ملزماً بأن يتقيَّد بالقواعد المرسومة المطبقة التي تقسر أدبه على أن يكون رصيناً، مُستحصداً، ملائماً، لائقاً ، ترضى عنه السلطة الحاكمة وتباركه الكنيسة، بل أن يجعل همَّه إرضاء طبقات الشعب على اختلاف منازعه.

ومع ذلك كله فإن أثر الاتباعية لم ينتسخ قط من الأذهان، وظلت بعض قواعدها، ولا سيما ما يتصل منها بالأسلوب المصفَّى، قائمة تدخره الأقلام وتنشد لديه مثلَها الأعلى في الكتابة. هكذا تابعت البرناسية [ر] Le Parnasse مسيرة الاتباعية في دعوتها إلى الديباجة الناصعة، في ظل مفهوم « الفن من أجل الفن » l'art pour l'art وغالت الرمزية le symbolisme [ر] في بحثها عن الكلمات ذات الجرس الطلي والإيقاع الشجي، على نحو ما يهتم به المنهج الاتباعي أيضاً، ليأتلف، من هنا وهناك، نخبة من الكتَّاب ـ حتى من بين الكتاب المعاصرين أنفسهم ـ مثل أندريه جيد André Gide [ر] وبول كلوديل Paul Claudel [ر] وبول فاليري Paul Valéry [ر]، ممن أفصحوا عن إعجابهم الصادق بالاتباعية التي كانت تلوب على الجمال المثالي المطلق، واصطفى بعض هؤلاء المعاصرين ما يروق له من القواعد الداعية إلى اختيار ألفاظ مقدودة على قدر المعاني نفسها. يقول أناتول فرانس Anatole France [ر] أبرز كاتب فرنسي في الربع الأول من هذا القرن: « إن الكاتب المجيد هو كصانع البلور، يتبدى زجاجه شفافاً، نقياً، بمقدار ما يبذل فيه من جهد ». كذلك يضحي أسلوب الكاتب صافياً، محكَّكاً، بقدر عنايته وجهده في انتقاء ألفاظه المناسبة. وكان فاليري يتصور أن في عطفي كل كاتب اتباعي مجيد، ناقداً يوجهه وينصحه ويسدد خطاه ومن هنا، جاء أسلوب نثر فاليري، وحتى شعره الرمزي الغامض، منتخلاً، مصقولاً، شفافاً.

ويرى الناقد هنري بير أن أسلوب فاليري ودي غول De Gaule [ر] وسان جون بيرس Saint John Perse [ر] هو مثال واضح على استمرار

بعض قواعد الاتباعية، وبقائها وصيرورتها، حتى الآن، على نحوٍ لا يقل كمالاً عمّا نجد في أسلوب لوبران Le Brun وبوسويه. هكذا ظلت الاتباعية تمثل، حتى الآن، الجهد الدائب المتصل، في أسلوب نخبة من الكتاب، هم الصفوة المختارة ممن تؤالف بينهم وحدة المشاعر والأذواق ويحدوهم الشغف المتقد إلى استشراف الكمال والجمال في الأسلوب والمنهج. كان جيد يردد بحق: «سوف ينسخ الزمن كل ما نفضه أدبي من أفكار ومشاعر، أما ما سوف يتبقى مني فهو جمالية أسلوبي».

بديع حقي

الاتباعية في الموسيقى

للاتباعية في الموسيقى تفسيران متداخلان معنىً وتعبيراً. والاتباعية أصلاً مصطلح عام لأسلوب منهجي كتبت موسيقاه في حقبة خلفت عصر البـــاروك Baroque وسبـقـت عـصـر الإبداعية romanticism، أي منذ الربع الثالث من القرن الثامن عشر حتى نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر. ويبدأ هذا العصر، الموصوف بالعصر الذهبي، مع هايدن Hayden، ويستمر مع موتســـارت، وينتهي مع بتهوفن Beethoven، ويُعد الثلاثة من أساطين هذا العصر، في إطار الثقافة الموسيقية «الفيينوية» (نسبة إلى مدينة فيينة). إضافة إلى بعض الموسيقيين الإيطاليين مثل بوكّريني Boccherini وكلِمنتي Clementi وفيوتي Viotti، وبعض الموسيقيين الفرنسيين مثل غريتري Grétry ومِوُل Méhul. ويعدّ بعض النقاد عام ١٧٦٠ فاصلاً بين الباروكية والاتباعية، ونقطة تحول في فن الموسيقى. ففي هذا العام، انتقل هذ الفن إلى بداية عهد هايدن ومدرسة مانهايم Mannheim الشهيرة بفرقتها الموسيقية المتكاملة - وقتئذٍ - وخطوات موتسارت الموسيقية الأولى، وأعمال غلوك Gluck في الأوبرا، ووفاة كل من هندل Handel قبل عام، وباخ Bach قبل عشرة أعوام. فكان أن توافرت لروح التحديث آنذاك، معالم فنية جديدة ساعدت على إنشاء أسلوب حديث يناسب المطالب الروحية الخاصة بعصر جديد. وفي الموسيقى، كما في الأدب، أطلق مصطلح «الاتباعية» بعد «الإبداعية» التي كانت سبباً في ظهور الأولى. وبعد غوته Gothe، أثار هذان المصطلحان «الاتباعية» و«الإبداعية»، المتقابلان في الموسيقى، مشاعر الأدباء والفنانين ولاسيما الكتّاب منهم.

تتميز الموسيقى الاتباعية من الموسيقى الشعبية الفولكلورية أو الخفيفة light music أو غيرهـــا من الأشكال الموسيقية الأخرى، بالأناقة والتركيب والالتزام. فهي موسيقى غربية في أسلوب علمي جاد يكون هدفها الأعلى تحقيق بناء موسيقي تغلب فيه المهارة الفنية في الفكر والإحساس والصيغة والبناء والانسجام harmony والتعبير في السير اللحني في قوة وبساطة، واستخدام الإيقاعات غير المعقدة، وفي التوازن والوضوح، وكل ذلك في بناء متكامل وتناسق متوافق. وفي الطرف المقابل تقع الإبداعية التي تؤكد التعبير الخاص عن الشعور والإحساس الإنساني الذاتي الذي هو هدف رئيس فيها. وقد وجدت هذه العناصر في الاتباعية تعبيرها الأسمى في موسيقى الآلات، وإن كانت قد ظهرت مفاهيم مماثلة سابقة في الأوبرا عند غلوك ثم مع موتسارت وبتهوفن وكيروبيني Cherubini وسبونتيني Spontini.

واتخذت الاتباعية معنى آخر أيضاً غير مرتبط بالعصر الذي جاءت فيه، وأصبحت تطلق على الأعمال الموسيقية الجادة التي استقرت مع الزمن دليلاً على جودتها وقيمتها الفنية المستمرة سواء أتت في الزمن الذي سبقها أم في العصور اللاحقة.

وقد سبقت الاتباعية أساليبُ فنية تعدّ جديدة على عصر الباروك، وقد أخذت هذه الأساليب بالظهور قبيل منتصف القرن الثامن عشر. وكان الأسلوب المتعدد الأصوات «البوليفوني» polyphony الذي ساد عصر الباروك، وبلغ أوجه في أعمال باخ وهندل، قد مهد السبيل إلى ظهور اتجاهات فنية جديدة تتيح للطبقات الشعبية الوسطى، التي زادت أهميتها، الاستمتاع بالموسيقى بدلاً من حصرها في قصور الملوك والنبلاء. ولم تعد الجماهير تحرص على الفخامة في حياتها الأدبية والفنية والاجتماعية، بل أصبحت تقتنع بالبساطة والإقلال من التعقيد في التعبير، واتباع أساليب أقل تكلفاً. وازدادت الرغبة أيضاً في الحصول على أشياء تتميز بالدقة والصقل. فلم يعد الموسيقيون مثل كوبيران Couperin الفرنسي، وتيليمان Telemann الألماني، وسكارلاتي Scarlatti الإيطالي، يتقيدون بالتركيبات الصوتية الأفقية، كالقواعد «الطباقية» counterpoint الصارمة للعصر الباروكي، بل تحرروا منها وأصبحت الخطوط اللحنية تعتمد التوافقات الصوتية العمودية «الانسجامية»، وأدخلوا عليها زخارف لحنية متنوعة في أسلوب منمق اتسم بالرشاقة في التعبير عرف باسم «الأسلوب المتأنق» galant style، وكما أسماه كارل فيليب إيمانويل باخ C.P.E. Bach أحد أبناء باخ الكبير بـ galanter stil بالألمانية، أو «الروكوكو» rococo، للتشابه بين هذين المصطلحين في التزيينات والزخارف التي تميزت بها بعض الفنون التشكيلية آنذاك. فكان هذا الأسلوب الجديد، وما فيه من سحر ورقة ورشاقة، همزة وصل بين الباروكية والاتباعية، ومرحلة تنظيمية انتقالية بين عهدين مختلفين. وهكذا، لم تكن الاتباعية اتجاهاً مفاجئاً، ولكنها اتخذت شكلها النهائي في العصر الذي سمي باسمها.

كان من خصائص العصر الاتباعي وبروز معالمه ما عرف في عالم الموسيقى بمذهب مدرسة فيينة، إذ كانت فيينة مركز الإشعاع الفني طيلة ذلك العصر. ولم يكن الأمر في النمسة، مقصوراً على دعم البلاط الامبراطوري للفن والفنانين. فقد كانت هناك فرق موسيقية خاصة في قصور الأمراء والنبلاء وكبار الأثرياء، وكان الموسيقيون يعيشون داخل هذه القصور يكتبون موسيقاهم ويعزفونها تلبية لرغبة أصحابها، منهم: هايدن وموتسارت وبتهوفن. وقد توافرت في تلك المرحلة عوامل عدة، مثل وفرة المواهب الموسيقية، وافتتان الطبقات العليا من المجتمع النمسوي بالموسيقى، وشدة التنافس بين الأمراء في مدى تفوق فرقهم الموسيقية الخاصة، واستخدامهم أشهر المؤلفين والعازفين وقادة الفرق الموسيقية لديهم. وكان ذلك مما ساعد على توطيد الحركة الموسيقية، ولاسيما الآلية منها، إضافة إلى تطور صناعة الآلات الموسيقية، فحل البيانو piano محل الأرغن organ والكلافسان clavecin أو harpsichord، وأصبح الآلة المثلى من بين الآلات من ذوات لوحة الملامس keyboard التي استقطبت الموسيقيين في كل مكان. وكذلك تطورت صناعة آلات النفخ الخشبية والنحاسية منها. وهكذا تركز اهتمام المؤلفين الموسيقيين، في العصر الاتباعي، ولا سيما في النمسة وألمانية، على الموسيقى الآلية. فكانت السوناتا sonata، التي زحزحت الفوغة fugue عن عرشها التقليدي في العصر الباروكي، من أبرز الصيغ الموسيقية الآلية التي اتصفت الاتباعية بها مع ضروب أخرى مقترنة بها مثل: الحوارية «الكونشرتو» concerto،

والسمفونية symphony (وتعد سوناتا لفرقة موسيقية كبيرة)، وأصناف أخرى من موسيقى الحجرة chamber music مثل: الثلاثية trio، والرباعية quartet (وهي من أهمها)، والخماسية quintet وغيرها، بالإضافة إلى الافتتاحية overture، واللحن الرئيس theme وتنويعاته variations. وسادت هذه النماذج من الصيغ الموسيقية القرن التاسع عشر بأكمله. أما في إيطالية، فكانت الموسيقى الغنائية، ولاسيما الأوبرا، مركز الاهتمام مما أدى إلى إغفال شأن الموسيقى الأوركسترالية، إذ لم يصادف الفن السمفوني فيها الاهتمام حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفي فرنسة عامة، وباريس خاصة، كان الاهتمام كبيراً بالأوبرا والباليه ballet. وقد تميزت الحياة الموسيقية الفرنسية آنذاك بإيثارها المسرح، وبتخلفها في عالم الإبداع السمفوني حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر.

إضافة إلى مدرسة فيينة، كانت قد نشأت مدرسة موسيقية ألمانية في مدينة مانهايم، نحو منتصف القرن الثامن عشر، بزعامة شتاميتس J. Stamitz. وكانت مدرسة مانهايم هذه، بموسيقييها الألمان والبوهيميين، قد أسهمت بجهد كبير في تطوير الأداء الموسيقي الآلي، والارتقاء بمستوى الكتابة الأوركسترالية. وقد برزت في هذه المدرسة عدة صفات في مقدمتها الاعتماد على آلة الكمان violin في أداء الألحان الرئيسة في الأوركسترا، والتركيز على أسرة هذه الآلة من «الوتريات» strings مجموعة رئيسة في الفرقة الموسيقية، وزيادة عددها على عدد آلات النفخ والإيقاع في الأوركسترا الواحدة، والتلوين الأدائي، مثل تبدل درجات شدة الصوت في الارتفاع والخفوت، والبطء والسرعة في الحركة، وتضمين السير اللحني بعض السكتات، والاستغناء عن طريقة استخدام «الباص المرقّم» fingured bass التي كانت سائدة في عصر الباروك، واتباع أسس التآلفات الانسجامية.

وهكذا، استطاع شتامتس أن يجعل من أوركسترا مانهايم أبرع الفرق الموسيقية في أوربة، في ذلك العصر، أداءً وتعبيراً، وأن يسهم في تطوير الأسلوب الأوركسترالي السمفوني مع زملائه مثل ريختر F.X.Richter (١٧٠٩ - ١٧٨٩)، وفيلتس A.Filtz (١٧٣٠ - ١٧٦٠)، وكانّابيخ Ch. Cannabich (١٧٣١ - ١٧٩٨). لم يكن أساتذة مانهايم الوحيدين في تعبيد الطريق للموسيقى الأوركسترالية. فقد أسهم موسيقيون أوربيون آخرون في عملية التطوير الموسيقي ومهدوا الطريق لموسيقى الآلات ومنهم: ألبينوني T.Albinoni (١٦٧١ - ١٧٥٠) الإيطالي، الذي جاء قبل نصف قرن تقريباً من هايدن، وألف السمفونية من أربع حركات، مستخدماً الأسلوب نفسه الذي جعل منه هايدن أساساً للعمل السمفوني. وكان سامارتيني Sammartini (١٧٠١ - ١٧٧٥)، الموسيقي الإيطالي الآخر، الذي جعل من مدينة ميلانو مركزاً مهماً لدراسة الموسيقى، خير ممهد لمدرسة فيينة، وهايدن، الذي كتب نحواً من ألفي عمل موسيقي، وتتلمذ له عدد كبير من الموسيقيين من جنسيات أوربية مختلفة مثل: غلوك الفرنسي، ويوحنا كريستيان باخ أحد أبناء باخ الكبير الألماني، وموتسارت النمسوي وكان رامو J.Ph. Rameau الفرنسي، الذي عاصر ألبينوني، قد ترك أيضاً أثراً كبيراً في عالم الموسيقى بنظرياته في أسس الانسجام.

حسني الحريري

الاتباعية في الفنون والعمارة

يطلق مصطلح الاتباعية في الفنون والعمارة على ذلك المنحى المتميز الظاهر في التراث الأصيل من أعمال فنانين قدامى، وقد أصبح مرجعاً للأجيال اللاحقة تنهل منه وتنطلق من قواعده ومبادئه وموضوعاته. وبين تعريفات هذا المنحى القول إن الاتباعية في الفنون والعمارة هي الفن الذي يقوم على قواعد معينة، ويتصف بالتناسب والانسجام والخطوط المحدّدة للأشكال والنظام والتناظر والأصالة والموضوعات النبيلة ذات المكانة التقليدية والمرموقة فنياً واجتماعياً.

وكان الإبداعيون هم الذين أطلقوا مصطلح الاتباعية في أواسط القرن التاسع عشر، وأرادوا به ذلك المنحى الذي غلب على الأعمال الرائعة القديمة التي قالوا عنها بأنها تتصف بالمثالية والسمو العقلي والسعي إلى الأعمال الجليلة، والعناية بالدقة والتنظيم.

وواقع الحال أن الاتباعية في الفنون التشكيلية والعمارة تتبع قواعد معينة، وتنطلق من النظام والترتيب والوضوح والتوازن، ومن الصرامة والأبهة، ومن الرغبة القوية في تجاوز الخاص وإبراز العام. ثم إنها تلح على موضوعات ذات صلة عميقة بالأساطير والدين والنزعة الارستقراطية وتسعى إلى أن تقدم فناً متماسكاً يعبر عن القيم الخالدة مثل الحق والخير والجمال بمفهوماتها التقليدية. إلا أن الاتجاهات النقدية المعاصرة أخذت تميل إلى تحديد الاتباعية ضمن مفهومات معينة وإلى تعريفها التعريف الدقيق الذي يمنع تداخل هذا الاتجاه مع الفنون الأخرى. لهذا قيل: ولدت الاتباعية في اليونان، وورثها الرومان، وأحياها عصر النهضة، ثم بعثت في أوربة في القرن الثامن عشر.

يعد فناً تقليدياً عند اليونان العمل الفني الذي يمثل أفضل ما أُنتج ضمن التراث اليوناني والذي يتجاوز الصور الفنية السالفة. فالأسلوب التقليدي في الفن عند اليونان هو ثمرة الفكر اليوناني الذي يرتبط بالحس ويعتمد على إقامة توازن وتناسب يتجلى فيهما معنى البطولة والإنسانية، والذي يتضمن محاولة السمو بالواقع: فتمثال أبولو Apollon يحمل فكرة التعالي ويمثل صور الرجولة والنبل تمثيلاً قوياً، ويعبر تمثال فينوس Venus عن أرفع صور الأنوثة جمالاً ونبلاً. والتماثيل الرياضية اليونانية المنحوتة تصور أجساماً بشرية تعبر كذلك عن مثل عليا.

وحين انتقلت هذه المثل اليونانية إلى حضارة الرومان وإلى عصر النهضة بعد ذلك، بدأت تأخذ بنسب رياضية محددة وعلاقات هندسية وغدت هذه المثل العليا الجديدة تقوم على أساس أن الجمال تناسق وتناسب في أصوله. وقد تم في عصر النهضة، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، إحياء الفن التقليدي، إذ كان الخروج من نطاق العصور الوسطى والانطلاق نحو الغايات الإنسانية والفكرية يقتضي الاهتداء إلى نموذج من تراث سابق يصلح نقطة للبداية، وقد وجده فنانو عصر النهضة في تراث الإغريق والرومان الذي يمثل قمة النضج الفكري والفني، ويشبه روح النهضة بما فيه من نزعة إلى الحرية والإنسانية.

وكان بين أهم الظواهر المميزة لعصر النهضة من غيره ظهور حركة الكشوف الجغرافية التي ألقت الأضواء على شعوب كثيرة كانت مجهولة والتي أدت إلى اتساع أفق الإنسان مما يعد مظهراً أساسياً من مظاهر هذه الحقبة المهمة في حياة الفكر الإنساني في أوربة.

وكان لازدهار التجارة واتساع نطاقها بين أجزاء مختلفة من العالم ولاسيما في المناطق الواقعة شرقي البحر المتوسط، الفضل في نقل كثير من معالم الحضارة العربية إلى أوربة. وأدى كل ذلك إلى ثورة فكرية فيها، ولاسيما في إيطالية، عرفت

باسم «الحركة الإنسانية». وقد التجأ رواد الفكر والفن في ذلك العصر إلى تأكيد وجهة نظرهم الجديدة بضرورة الرجوع إلى التراث الإغريقي - الروماني وإحيائه واتباع مبادئه.

وفي مجال العمارة انفتحت مجالات جديدة وكثيرة أمام رجال العمارة نتيجة نمو المدن، وما تحتاج إليه من مبانٍ عامة وقصور للطبقات الغنية الجديدة. وكان لرجال الفن في عصر النهضة أثر كبير في تقدم العلم، ومثال ذلك التقدم الذي أحرزه علم المنظور وعلم التشريح. ومن أبرز الذين احتلوا مكانة الصدارة في هذه المجالات ليوناردو دافنتشي Leonardo da Vinci (١٤٥٢-١٥١٩) الذي يعد رمز الطموح العلمي في عصر النهضة إذ استطاع ربط المثل الفنية بالعلم ربطاً محكماً.

وعندما تبلورت اتجاهات عصر النهضة الفكرية وما صاحبها من تغيير في النظام الاجتماعي، تحول فن العمارة نحو الفن الاتباعي. وبدهي أن فناني عصر النهضة التقليديين لم ينقلوا العمارة الرومانية كما هي، بل أخذوا بعض عناصرها، كالأعمدة الإيونية والكورنثية، واهتموا بالتنظيم الذي يعتمد على التماثل، واستعمال القباب بدلاً من الأبراج العالية المدبّبة، وجعلت فتحات الأبواب والنوافذ نصف دائرية أو أفقية وزيّنت بزخارف كثيرة بارزة، وقلّ استعمال الزجاج الملون، وكثر استعمال التصوير على الجص اللين. وكانت التماثيل المستعملة في المباني أكبر من الحجم الطبيعي. ويعد الفلورنسي برونلّسكي F. Brunelleschi (١٣٧٧-١٤٤٦) في مقدمة المعماريين الإيطاليين التقليديين الذي وضعوا ركائز العمارة في عصر النهضة، ومن أهم هذه الركائز النظام الدقيق المبني على أصول حسابية هندسية محكمة، والتناسب في أجزاء العمارة، وبساطة التخطيط، وتماسك العناصر. ومن أعظم أعماله قصر بيتي Pitti (١٤٤٠) المستعمل اليوم متحفاً فنياً، وقبة كنيسة فلورنسة التي يبلغ ارتفاعها نحو ١٠٠ متر. أما ألبرتي B.L. Alberti (١٤٠٤-١٤٧٢) الذي يُعد في مقدمة منظري عصر النهضة فقد اشترك مع فيليلفو Filelfo في وضع قواعد رياضية وهندسية لفن العمارة ولفن التصوير والنحت، وترتكز هذه القواعد على المبادىء الأفلاطونية في علم الجمال، وكانت وراء ظهور قوانين علم المنظور والتخطيط والنسبة الذهبية أي النسبة المثالية في العمارة. وكانت مدينة رومة مركزاً مهماً للعمارة التي تمثل عصر النهضة إذ كانت النماذج الرومانية فيها كثيرة يقتبس منها المعماريون والفنانون ويتبعونها في مبانيهم. وقد كثر استعمال الأعمدة الرومانية والأكتاف في الواجهات لإعطاء المبنى الفخامة والعظمة. ومن أشهر المهندسين الرواد آنذاك برامانته D.A. Bramante (١٤٤٤-١٥١٤) الذي وضع التصميم الأول لأعظم الكنائس في العالم وهي كنيسة القديس بطرس في الفاتيكان في رومة التي بدأ بناؤها بإشرافه عام ١٥٠٦. أما تصميم قبة هذه الكنيسة، وهي بارتفاع ١٣١ متراً فمن عمل المثال المشهور ميكيلا نجلو (١٤٧٥-١٥٦٤) الذي أضاف لفن العمارة عناصر جمالية إبداعية، وقد تابع ميكيلا نجلو بناء كنيسة القديس بطرس من دون أن يتمّها. وفي القرن السابع عشر أقام برنيني Bernini (١٥٩٨-١٦٨٠) القبتين الجانبيتين. وقد تأخر بروز طراز عصر النهضة في البندقية عنه في فلورنسة ورومة لتأثرها بالطراز القوطي أكثر من تأثرهما به، ويبدو ذلك واضحاً في «قصر الدوقات» في البندقية حيث تظهر العقود المدبّبة إلى جانب العقود نصف الدائرية.

أما في فرنسة فلم يزدهر طراز النهضة إلا في وقت يقرب من مطلع القرن السابع عشر إذ كان الطراز القوطي واسع الانتشار لأنه كان طرازاً قومياً، وكانت أغلب المباني التي أنشئت في العصر الذي سبق ذلك القرن هي القصور التي انتشرت في الريف وضواحي المدن. أما الكنائس فكان ما بُني منها في العصور الوسطى كافياً لاحتياجات العبادة. وقد شيّد في القرن السادس عشر عدد من القصور امتزج فيها الطراز القوطي بطراز النهضة فكانت مرحلة انتقال، ومن أهمها قصر اللوفر الذي بُدئ بتشييده في مطلع القرن الثالث عشر. وقد أسهم، فيما بعد، عدد غير قليل من المعماريين الفرنسيين في ترميم بعض أقسامه أو إتمامها، ومن بين هؤلاء لسكو P. Lescot (١٥١٠-١٥٧١) وبيرّو C. Perrault (١٦١٣-١٦٨٨) في عصر النهضة، ثم، فيما بعد، فيسكونتي E.R. Visconti (١٧٩١-١٨٥٣) الإيطالي الأصل الذي أكمل جناح التويلّري في عهد نابليون الثالث. ويعدّ الفناء المربع وواجهة الأعمدة في اللوفر نموذجاً للفن الاتباعي الفرنسي. وأما في ألمانية فقد احتفظ الكثير من المباني التي شيدت ابتداءً من القرن السادس عشر بالطابع القوطي إلى جانب عناصر النهضة. ومن أهم القصور التي شيدت في هذه الحقبة قصر هايدلبرغ. وقد ازدهر طراز عهد النهضة في ألمانية ابتداءً من القرن السابع عشر متأثراً بطراز النهضة في إيطالية وفرنسة.

وأخذ التطور في إسبانية وإنكلترة المسار نفسه. إلا أن المباني الجديدة في إسبانية تأثرت بالطراز العربي الذي كان سائداً. أما النحت الذي يأخذ بمنحى عصر النهضة فقد بدأ في إيطالية في القرن الرابع عشر على يد بعض الفنانين الموهوبين أمثال غيبرتي L. Ghiberti (١٣٧٨-١٤٥٥) ودوناتلّو D. Donatello (١٣٨٦-١٤٦٦) ويعد دوناتلّو مؤسس فن النهضة في النحت الإيطالي: فقد استطاع الخروج على التقاليد البيزنطية مستلهماً الآثار القديمة، وإيلاء الأبعاد الثلاثة، والحركة في الفراغ، التي تحددها الخامة المستعملة، عناية كبيرة في منحوتاته. ومن أهم أعماله تمثال داود الذي صنعه من البرونز وتمثال الفارس. أما غيبرتي فقد شارك مع برونلّسكي في صنع الأبواب البرونزية لمعمودية كنيسة فلورنسة، وكانت بالنحت البارز واستطاع أن يحقق فيها البعد الثالث مما يُعدّ إضافة جديدة إلى فن النحت البارز في عصر النهضة. ومن النحاتين البارزين أيضاً فِروكيو Verrocchio (١٤٣٥-١٤٨٨) الذي كان تلميذاً لدوناتلّو وأستاذاً لليوناردو دافنتشي. ومن أشهر أعمال فِروكيو تمثال الفارس في البندقية.

وقد وصلت النهضة الإيطالية إلى ذروتها بفضل أعمال ميكيلانجلو الذي يعد من أعظم فنانيها كما يُعدّ عَلَماً في فنون النحت والتصوير والعمارة. ومن أعظم أعمال ميكيلا نجلو في النحت تمثال الرحمة وتمثال النبي موسى، وتصميمه قبة كنيسة القديس بطرس في رومة. وقد أنجز صوراً جدارية ضخمة في مصلّى سيستينا في الفاتيكان.

كان التصوير في العصور الوسطى في خدمة العمارة، وبدأ التصوير على المخطوطات يصبح فناً له كيانه المستقل مع تباشير عصر النهضة. ومن أشهر الفنانين المصورين الفلورنسي مازاتشو G.T. Masaccio (١٤٠١-١٤٢٨) وهو أول من استطاع، بعد الرومان، أن يقدم رسماً لإنسان يتميز بجميع مظاهر الطبيعة. أما بوتيتشلّي S. Botticelli (١٤٤٥-١٥١٠) فقد اهتم بالموضوعات الدينية والأساطير الإغريقية.

وقد وصل التصوير في عصر النهضة إلى أوجه

في القرن السادس عشر على يد مجموعة من الفنانين كان في مقدمتهم ليوناردو دافينتشي وميكيلانجلو ورافايلّو. ويعد دافينتشي من أبرز أعلام عصر النهضة، ليس في الفن فحسب، وإنما في العلوم كذلك، لأنه حقق مثالية عصر النهضة في أكمل صورها في مجال التصوير، كما نبغ في العلوم الطبيعية والميكانيكية والتشريح والموسيقى... ومن أعظم أعماله لوحة «العشاء الأخير» التي أنجزها في ميلانو ويبلغ طولها نحو تسعة أمتار. وتُعدّ «الجوكندا» (الموناليزا) من أشهر لوحاته في العالم.

وأعمال رافايلّو الرائعة كثيرة جداً وفي مقدمتها لوحتا «العذراء» و«الصعود إلى السماء»، ومن مزايا أعماله نبل الموضوع والتكوين المحكم لأطراف اللوحة وعناصرها وبهاء الألوان وكمال الإنجاز. أما فنانو البندقية مثل تيتسيانو V. Tiziano وتينتورتو J.R.Tintoretto وفيرونيزه C.P. Veronese فقد استمدّوا موضوعاتهم من الأساطير القديمة.

وكان للأراضي المنخفضة دور ملحوظ في النهضة الفنية، كما كان للأخوين الفلمنكيين هوبرت فان أيك Hobert Van Eyck (١٣٦٦ - ١٤٢٦) وجان فان أيك Jean Van Eyck (١٣٩٠ - ١٤٤٠) الفضل في ابتكار استعمال الألوان الزيتية في التصوير.

وقد أعقب هذه النهضة حقبة ركود بسبب الاضطرابات الدينية والسياسية التي سادت هذه المنطقة. وكان من نتيجة الاستقرار أن عاد إلى الفن ازدهاره وحمل لواءه عدد من الفنانين منهم روبنس P.Rubens (١٥٧٧ - ١٦٤٠) وفرانس هالس F. Hals (١٥٨١ - ١٦٦٦) على أن التصوير الهولندي بلغ ذروته على يد رمبرانت H. Rembrandt (١٦٠٦ - ١٦٦٩)، إلا أن أعماله تعكس المفهوم الباروكي أكثر مما تعكس الجانب الاتباعي، ومن أبرز أعماله «حراس الليل» و«الفلاسفة» و«درس في التشريح».

أما في إسبانية فقد برز في القرن السابع عشر الفنان الاشبيلي فلاسكيز Velasquez [ر]، وقد خلدت أعماله بلاط فيليب الرابع. ومن أعماله «فيليب الرابع» و«الوصيفات». واتجه إلغريكو Elgreco [ر] في أغلب أعماله إلى الموضوعات الدينية وأسبغ عليها نوعاً من السمو والرفعة.

ومع أن فرنسة كانت موطن ازدهار الفن القوطي إلا أنها كانت في عصر النهضة متأخرة عن سائر بلاد أوربة التي انتشر فيها أسلوب النهضة. وقد بقي التصوير في فرنسة مقصوراً على الموضوعات الدينية وصور الملوك والأمراء حتى القرن السابع عشر إذ زاد فيه الاهتمام بالتعبير عن مظاهر الطبيعة المختلفة. وكان من روّاد هذا الاتجاه التقدمي المصور كلود لورّان C.G. Lorrain (١٦٠٠ - ١٦٨٢) ولوبران Ch. Le Brun (١٦١٩ - ١٦٩٠) وفاتو A. Watteau (١٦٨٤ - ١٧٢١). إلا أن نيكولا بوسان Nicolas Poussin (١٦٦٥ - ١٦٩٤) كان خير من مثّل الاتباعية. وتعدّ تجربته ذات أهمية كبيرة لأنها تقدم أول محاولة لتطبيق القواعد الاتباعية على الفن الفرنسي عن طريق دراسة الطبيعة: فقد أعاد ربط الاتباعية بالموضوعات المعاصرة له، وأظهر التماسك في التعبير، وفي الحركة. وهو أكثر معاصريه تعبيراً عن المفهوم الاتباعي، إذ يدرس المنظور ويقوّم الموضوع بمتانة في الخطوط مطبّقاً الاتباعية على الموضوعات المصورة عن الطبيعة الخارجية، ومن أبرز أعماله لوحة «الصيف» و«طفولة باخوس وديوجين».

وهكذا كان الفن الاتباعي في عصر النهضة في خدمة الارستقراطية الإقطاعية كما كان في خدمة الكنيسة. وعندما زادت أناقة هذا الفن وأسرف في استعمال العناصر الزخرفية سمي الباروك barouque [ر]. وفي الربع الأخير من القرن الثامن عشر تغلبت على هذا الأسلوب في العمارة وفي الأثاث والتصوير الخطوط اللولبية في أناقة متكلفة بعيدة عن واقع الحياة، وسمي هذا الأسلوب الروكوكو.

وسيطر أسلوب الباروك على الفن في أوربة منذ القرن السابع عشر، واستعملت هذه التسمية للدلالة على فن بعيد عن الذوق السائد، مخالف لمفهوم الفن الاتباعي التقليدي. واستخدمها فنانو الاتباعية الجديدة منذ القرن التاسع عشر. ويعد النحات والمعمار والمصور الإيطالي برنيني أعظم من مثل عصر الباروك في النحت. فقد سيطر بأسلوبه الباروكي الجديد على النحت في رومة وطغى على الأعمال النحتية التقليدية التي كان قد أنجزها النحاتون الذين سبقوه. وقد اهتم برنيني بالموضوعات الأسطورية مثل تمثال «أبولون ودافنه».

وانتقل التأثير الإيطالي إلى فرنسة مكوناً أسلوباً تقليدياً. ومن النحاتين الذين تأثروا ببرنيني جيراردون Girardon (١٦٢٨ - ١٧١٥) الذي أنجز بعض تماثيل قصر فرساي، ومن أعماله تمثال ريشيليو.

أما أنطون كويزفوكس Antoine Coysevox (١٦٤٠ - ١٧٢٠) فقد لمع في أعماله النحتية في فرساي. كذلك اشتهر نيكولا كوستو Nicolas Coustou (١٦٥٨ - ١٧٣٣) بتحفته «أحصنة مارلي» التي وضعت في مدخل الشانزيليزيه في باريس، وأعماله النحتية في قصر فرساي والتريانون. ويعد بيير بوجيه P.Puget (١٦٢٠ - ١٦٩٤) من أبرز الفنانين الفرنسيين في عصر الباروك، وكان قد تشبع بهذا الفن في أثناء إقامته في رومة وفلورنسة، وعمل بصورة خاصة في قصر فرساي.

وفي ألمانية انتشر فن الباروك الإيطالي لمدة طويلة في الجنوب في حين استقر الأسلوب الفرنسي في برلين. ومن أشهر المعماريين الباروكيين في درسدن بيرموزر Balllthasar Permoser (١٦٥١ - ١٧٣٢) وأندريا شلوتر Andera Schluter (١٦٦٢ - ١٧١٤) وهو من أكبر نحاتي القرن السابع عشر.

وسام نويلاتي

الموضوعات ذات الصلة:

الإبداعية - الآلات الموسيقية - الصيغ الموسيقية - الفرقة الموسيقية - الموسيقى.

مراجع للاستزادة:

- عبد الحكيم حسان، مذاهب الادب في أوربة. دراسة تطبيقية مقارنة الكلاسيكية، ط٢ (دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩)
- هوجو لايختنتريت، الموسيقى والحضارة، ترجمة أحمد حمدي محمود (المؤسسة المصرية للتأليف، القاهرة ١٩٨٦)
- هنري لاغ، الموسيقى في الحضارة العربية، ترجمة أحمد محمود (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٥).
- P. MARTINO, Littérature Francaise, tome II (Ed. Larousse, Paris 1949).
- P. A. SCHOLES, The Oxford Companion to Music (OUP. London 1986).
- REN DUMESNIL, Histoire illustreé de la musique (Lib. Plon. Paris 1974).

■ الاتباعية الجديدة في الفنون والعمارة

يطلق مصطلح الاتباعية الجديدة أو الاتباعية المحدثة le néoclassicisme في الفنون والعمارة على الطراز الفني والمعماري الذي غلب في الحقبة ما بين نحو منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر، ذلك الطراز المنبثق بتأثير من نزوع جديد نحو الحضارة الاتباعية بعد أن تنكر عدد من الفنانين لطراز الروكوكو المفرط في الأناقة والتنميق، وآثروا العودة إلى صيغ العصر الاتباعي القديم وموضوعاته.

كانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ منطلقاً لتحول مهم في أوربة، ولا يصدق ذلك على الأوضاع السياسية والعسكرية فحسب، بل إنه يصدق كذلك في حال البنى الاجتماعية والفكرية والثقافية. ولم يقف الفن بعيداً عن هذا التحوّل المفاجىء في عالم الاختراع التقني: فقد استفاد المعماريون من الحديد في بناء الجسور والمعامل والمحطات والأسواق الكبرى. وواجه المصوّرون أمام آلة التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) التي طوّرها الفرنسي داغير Daguerre (١٧٨٩-١٨٥١) انحسار التصوير الزيتي للوجوه، وشهد القرن التاسع عشر حماسة جديدة في السعي إلى كشف آثار الحضارات القديمة، ولاسيما حضارات الشرق الأوسط.

شهد عهد لويس الخامس عشر (١٧١٠-١٧٧٤) اهتماماً جديداً بالفن الاتباعي في فرنسة، وكان صالون مدام دي بومبادور Pompadour يضم الكثير من الكتّاب والفنانين، من أمثال بوشيه Boucher، ممن أصرّوا على العودة إلى الاتباعية. غير أن تغيراً طرأ على هذا الاتجاه في عهد لويس السادس عشر (١٧٥٤ - ١٧٩٣) بتأثير ماري انطوانيت في شؤون الفن. وبقي تيار الاتباعية يجري ببطء يدفعه شاب طموح هو جاك لويس دافيد David (١٧٤٨ - ١٨٢٥) الذي اشترك في الثورة الفرنسية وفي القضاء على لويس السادس عشر وإنهاء الملكية.

وفي عهد نابليون دفع الحنين إلى إقامة امبراطورية مقدسة جديدة، بالمشرفين على الفكر والمشرفين على الفن، من أمثال دافيد، إلى الإلحاح على بعث التراث الروماني القديم. ودعم هذا الاتجاه ظهور مكتشفات أثرية في إيطالية في هيركولانم Herculaneum (١٧٣٨)، وبومبيي Pompéi (١٧٤٨) أعادت إلى الذاكرة أمجاد الإغريق والرومان في الحضارة والفن، ووفرّت الفرصة للموازنة بين فنٍ رصين مثالي قديم وفنٍ زخرفي ماجن مفرط في التأنق هو فن الروكوكو الذي كان مخصصاً لخدمة البلاط قبل الثورة.

وزاد الاهتمام بالخرائب والأطلال القديمة، وازداد في رومة على وجه الخصوص، الإقبال على دراسة هذه الأطلال وعلى محاولات حفظ بعض الآثار المهملة، وكان الفنان كانوفا Canova [ر] من أشهر من تمسّك بالأسلوب الاتباعي في النحت. وتأثّر المعماريون في باريس أمثال برسييه Charles Percier (١٧٦٤ - ١٨٣٨) وفونتين P.F.L. Fontaine (١٧٦٢-١٨٥٣) بالفن الإتروسكي [ر] والفن في مصر، وبدت ألوان الغرف الزرقاء تحاكي تلك التي في بومبيي. وجنح الرسّامون أمثال رنيو J.B.Regnault (١٧٥٤-١٨٢٩) إلى الموضوعات الأسطورية، وكان برودون P.Prud' hon (١٧٥٨-١٨٢٣) من أكثر المصوّرين تأثراً بهذه الموضوعات القديمة.

الاتباعية الجديدة في العمارة

استمر الإقبال في العمارة على أسلوب الفن الاتباعي في فرنسة قبيل الثورة الفرنسية وحتى الجمهورية الأولى، وقد مرّ هذا الفن في هذه الحقبة بالأسلوب الامبراطوري stylle empire الذي تمثّل خاصة بالفنون التطبيقية وبالأثاث والأدوات، وهو في حد ذاته مزيجٌ من تأثير الفن الروماني القديم والفن المصري.

وكان على المعماريين، قبل أي شيء آخر، أن يستفيدوا من مبتكرات الصناعة، وأن يطوّروا الأصول التقنية باستعمال الحديد مثلاً، ولكن اهتماماتهم الأولى كانت منصبّة على الشكل الخارجي الذي يجب أن يقوم على الأسس المعمارية الاتباعية، كوجود الحامل والمحمول والأعمدة والجبهة والإفريز والرواق. وقد فُرض هذا الطراز في جميع العمارات مهما اختلفت وظائفها سواء أكانت معبداً أم مسرحاً أم مستشفى أم سوقاً للخضار، فالمهم هو التقليد الحرفي للشكل الاتباعي الخارجي.

وفي فرنسة كان ثمة اتجاهان متناقضان. تزعمت مدرسة البوليتكنيك الشهيرة الاتجاه الأول القائم على مبدأ الجمال العقلاني، وكان من أبرز أعلام هذا الاتجاه المهندس الفرنسي بالتار V. Baltard (١٨٠٥ - ١٨٧٤) والمهندس دوك Duc (١٨٠٢ - ١٨٧٩) الذي أقام قصر العدل في باريس. أما الاتجاه الثاني فتتزعمه مدرسة الفنون الجميلة التي كانت تنادي بالمبادىء الاتباعية في العمارة، وبهذا يقول المهندس الفرنسي لودو Ledoux (١٧٣٦-١٨٠٦): «الجمال ليس إلا التناسب الاتباعي». ومن آثار دعوة هذه المدرسة إقامة عمود الفاندوم Vendome وقوس نصر كاروزيل Carrousel وقوس نصر النجمة Etoile وكنيسة المادلين Madeleine، وقد ابتدىء بهذه العمارات في عام ١٨٠٦.

ومن أشهر المعماريين الاتباعيين آنذاك شارل برسييه الذي اشتهر بإنشاء بعض واجهات اللوفر، كما صمم قوس نصر كاروزيل (١٨٠٦-١٨٠٨).

أما سوفلو G.Sufflot (١٧١٣ - ١٧٨٠) فقد أقام البانتيون Banthéon في باريس، كما خطط فينيون Vignon كنيسة المادلين.

وانتشرت العمارة الاتباعية في أنحاء أوربة: ففي برلين ما تزال بوابة براندنبورغ Brandenborg التي صممها لانغهانز Langhans قائمة إذ أعيد بناؤها بعد تهدّمها في أثناء الحرب العالمية الثانية. وفي إنكلترة أقام جون فان بروغ John van Brogh (١٦٦٤ - ١٧٢٦) قصر بلنهيم Blenheim، كما أقام لورد بورلنغتون Burlington قصر تشيزيك Chiswick House في لندن.

الاتباعية الجديدة في النحت

يعدّ النحات الإيطالي كانوفا A. Canova (١٧٥٧ - ١٨٢٢) رائد النحت الاتباعي في عصره. ومن أشهر أعماله «الحب والنفس» والتمثال الرأسي «القنصل الأول - نابليون» والتمثال الكبير «نابليون يحمل النصر» وقد بدا فيه نابليون عارياً كالإغريق وبدا النحت أشبه بأسلوب النحات اليوناني ليسيبي Lysippe (٣٧٠ ق.م-٠٠٠) ولقد تأثر بكانوفا في فرنسة بعض النحاتين من أمثال شينار J.Chinard في تمثاله النصفي «مدام ريكامبيه». وجاء برادييه Bradier في تمثاله سافو Sapho وفرانسوا جوزيف بوسيو Bosio في تمثال «الفارس» الذي يمثل لويس الرابع عشر.

أما في ألمانية فيعدّ قبر الكونت فون ديرمارك الذي زيّنه غوتو فرد شادو Schadow من أبرز الآثار النحتية الاتباعية.

وقد اشتهر في إنكلترة جون فلاكسمان

J. Flaxman (١٧٥٥ - ١٨٢٦) وفي السويد جون توبيا سيرجيل Sergelle (١٧٤٠ - ١٨١٤) في تمثاله « الحب والنفس ».

الاتباعية الجديدة في التصوير

تقوم الاتباعية الجديدة في التصوير على نبالة الموضوع، وصرامة الخطوط، ورصانة الألوان، وانتقاء العاطفة.

ويعدّ هذا الاتجاه الصارم ردّ فعل على التيار الزخرفي ذي الأناقة المصطنعة، في فن الروكوكو، الذي حفل بموضوعات مكرورة، لا علاقة لها بالحياة اليومية. وكان الملك فيليب (١٧٧٣ - ١٨٥٠) الذي حكم فرنسة بين عامي ١٨٣٠ و١٨٤٨ من أشدّ المتحمّسين لهذا الاتجاه الجديد. ومن كبار فناني الاتباعية الجديدة الفرنسيين ج. ل. دافيد الذي تتلمذ على بوشيه واتبع أسلوبه وتأثر خاصة بالرسام بوسان Nicolas Poussin (١٥٩٤ - ١٦٦٥) وكانت لوحته « قسَم الأخوة هوراس » Le serment des Horaces (١٧٨٤) بداية اتجاهه الجديد. وتتالت الموضوعات الاتباعية لديه مثل « موت سقراط » La mort de Socrate ثم « السابيون » Les Sabines (١٧٩٩) والسابيون من الشعوب القديمة في أواسط إيطالية. وفي جميع هذه اللوحات يبدو الرسم تحليلياً دقيقاً كما تبدو الحركة جامدة والألوان كامدة. وعندما اتصل دافيد بنابليون أصبح من أبرز أتباعه في زمن الامبراطورية وصار أول فنان في القصر، ومن أبرز لوحاته في ذلك الوقت « تتويج الامبراطور نابليون الأول ». وكان دافيد يتزعّم الحركة الفنية في بلاده آنذاك.

وإلى هذا الفنان الحاذق تدين الاتباعية الجديدة أو « الدافيدية » في التصوير بشهرتها. فقد أراد بناء صرحٍ مجيد للفن يقوم على الجدية والمثالية ويناهض الأسس الواهية التي قام عليها الفن يوم كان لخدمة البلاط وتابعاً لذوق البلاط وأغراضه.

بيد أن القيود التي وضعها هذا الفنان الفرنسي في حياته على الفن، ومعها سيطرة غرو A.Gros (١٧٧١ - ١٨٣٥) وجان أوغست دومينيك أنغر J.A.D.Ingres (١٧٨٠ - ١٨٦٧) وهما من أتباع دافيد أساءت إلى مكانة هذا الفن وكانت سبباً في كبتٍ لم يلبث أن تفجّر فيما بعد في انطلاقات حرة لاحدود لها.

وكان غرو قد سار بركاب دافيد محتذياً حذو الأسلوب الاتباعي، ويعدّ من أقوى رسامي المعارك والحروب ومن أبرع مصوّري الوجوه، ومن لوحاته: « زيارة نابليون إلى مرضى الطاعون في يافا » و« معركة أبو قير » و« موقعة الأهرامات ».

وكان أنغر تلميذ دافيد الثاني قد درس الفن في رومة وأُشبع هناك بعالم الفن الاتباعي وأصبح زعيم الاتباعية بعد وفاة دافيد. ومن أبرز خصائص أسلوبه تأكيده أهمية الخط والرسم الأنيق والحجم والدقة. وقد استمد أسلوبه الروحاني من رافايلّو Raffaello (١٤٨٣ - ١٥٢٠) ومن روائعه « الوصيفة الكبرى » La grande odalisque (١٨١٤) و« النبع » La source (١٨٥٦) وتعبران عن ظاهرة الاهتمام بالشرق.

ومن الفنانين الاتباعيين أيضاً البارون فرانسوا جيرار Baron Francois Gérard (١٧٧٠ - ١٨٣٧) الذي عاصر غرو وقام مثله بتصوير نابليون وأحداث في حياته، وتصوير عدد كبير من المرموقين في السياسة والحياة الاجتماعية في أوربة.

أما بيير بول برودون فكان معاصراً للاتباعيين إلا أنه كان متعلقاً بأسلوب ليوناردو وكوريجيو. ومن أعماله « النسيم الشاب » Le jeune zephyr.

وأما في إنكلترة فقد تزعّم الاتجاه الاتباعي الجديد في الفن لورد لايتون Lyton (١٨٣٩ - ١٨٩٦) وبوينتر Boynter (١٨٣٦ - ١٩١٩) وألبرت مور Moor (١٨٤١ - ١٨٩٣) وقد حافظ الأخير على الروح الإغريقية في فنه في موضوعات شاعرية.

وسام نويلاتي

مراجع للاستزادة:

- عفيف بهنسي، موسوعة تاريخ الفن والعمارة (دار الرائد اللبناني، بيروت ١٩٨٣).
- أبو صالح الألفي، الموجز في تاريخ الفن العام (دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٨٢).
- محمود إبراهيم حسين، تاريخ الفن الأوربي (مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٨٤).
- JOSÉLUIS MORALES Y MARIN, Histoire universelle de l'art (Larousse, Paris 1990).
- ELIE FAURE, Histoire de l'art (Jean. Jacques Pauvert, Paris 1964).

■ الاتجاهات

تستعمل كلمة الاتجاه لأكثر من معنى في مجالات العلم والحياة اليومية، ومثال ذلك استعمال الكلمة في الدلالة على وجهة الرياح أو الطائرة، ووجهة الارتفاع أو الانخفاض في الدراسة العلمية لسعر عملة ما، والمنحى الذي تأخذه الدولة في مواجهة أمرٍ عام يتصل بسياستها الداخلية أو الخارجية.

أما في علم النفس فيعبر الاتجاه attitude عن حالة نفسية، وله مكوناته ووظائفه وخصائصه، ويعد من أهم جوانب الشخصية. وتقع دراسة الاتجاهات، موضوع هذا البحث، في مقدمة موضوعات علم النفس الاجتماعي. ثم إن كثرة الاتجاهات لدى الفرد، والترابط القائم بينها، يعدان معاً المسوغ الرئيس في إيثار الكثير من البحوث النفسية المعنية بالاتجاه اعتماد لغة الجمع، أي الاتجاهات، في الدراسة. وفي اللغة العربية يصادف القارئ أحياناً مصطلح « الموقف » وقد استعمل في التعبير عن الاتجاه في دراسة ما نفسية أو تربوية.

ويصعب تعريف الاتجاه بدقة في علم النفس شأنه في ذلك شأن الشخصية. ومع ذلك فإن البحوث التي تتناوله بالدراسة تورد عدة تعريفات. وبين التعريفات التي يتكرر ذكرها قول ألبورت Allport إن الاتجاه حالة استعداد عقلي أو عصبي نُظّمت عن طريق الخبرات الشخصية تعمل على توجيه استجابات الفرد لكل تلك الأشياء والمواقف التي تتعلق بهذا الاستعداد. وبين التعريفات التي يتكرر ذكرها كذلك قول غيلفورد Guilford « إن الاتجاه تهيؤ أو استعداد لأن نفضل أو لا نفضل نوعاً من الأمور أو الأعمال الاجتماعية، وإنه، من الناحية النفسية، ينطوي على اعتقادات كما ينطوي على مشاعر، وإن هذه الخاصة الأخيرة هي التي تميزه من الميل ».

على أن من الممكن الانطلاق من تحليل عدد من الاتجاهات لدى عدد من الأفراد والوصول من ذلك إلى تعريف يغلب عليه أنه وصفي ويذكر أن الاتجاه تهيؤ أو نزوع متعلّم، وثابت نسبياً، لدى الشخص لاستجابة تفضيل أو عدم تفضيل موضوعها الأفراد أو الجماعات أو المؤسسات أو الأفكار وذلك في مجال يستثير تلك الاستجابة، مع العلم أن موضوع الاتجاه

يغلب عليه أنه موضوع تهتم به الجماعة.

وتشير المراجع المتصلة بدراسات الاتجاهات إلى أن ظهور مصطلح الاتجاه في علم النفس بدأ مع الأعمال العلمية الأولى في علم النفس التجريبي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولكن الكلام عنه كان آنئذ مرتبطاً بالحديث عن اتجاه العقل حين يناقش أموراً تهمه. إلا أن البحوث الخاصة بالاتجاهات غدت أكثر اتساعاً وانتشاراً مع الربع الثاني من القرن العشرين ولا سيما مايتصل من هذه البحوث بقياس الاتجاهات وبآثارها في سلوك الشخص وآرائه.

خصائص الاتجاهات

جعلت خصائص الاتجاهات موضوعاً لكثير من الدراسات، ولكن نتائج هذه الدراسات لم تكن متفقة في كل ماتذكره. واعتماداً على ما تبرزه هذه الدراسات يمكن ذكر الخصائص التالية:

ـ **الاتجاه حادث نفسي** لا يخضع للملاحظة مباشرة، شأنه في ذلك شأن الذكاء والشخصية، ولكنه يمكن أن يدرس عن طريق ما يؤدي إليه أي عن طريق السلوك الذي يظهره والذي يمكن أن يكون موضع ملاحظة مباشرة. ومن هذه الزاوية كثيراً ما يقال إن الاتجاه افتراضي ويجري التحقق من وجوده ووجهته عن طريق دراسة أنماط السلوك المنبئة عنه.

ـ و**الاتجاه تهيؤ**، إنه يبدو على شكل استعداد أو نزوع للقيام بفعل ينطوي على علاقة بين الشخص وموضوع الاتجاه، ومن هذه الزاوية يكون اختلافه عن السمات التي يذكر وجودها في الشخصية والتي تكون لاصقة بها وتميزها من حيث هي «كل».

ـ **الاتجاه محوري** ، أي إنه مستقطب، وله محوران: مع أو ضد، تفضيل أو لا تفضيل، تحبيذ أو رفض. ومن هذه الزاوية يقال عن الاتجاه إنه ينطوي على نوع من التحيز الشخصي، وإن فيه تقويماً أي منح قيمة من الشخص لموضوع الاتجاه. وقد تكون القيمة (أي التفضيل) عالية وقد تكون دون ذلك. ومن هذه الزاوية ينظر إلى الاتجاهات على أنها يمكن أن تختلف من حيث شدتها أكانت «مع» أم كانت «ضد».

ـ **الاتجاهات متعلَّمة**، أي إنها لا تكون لدى الشخص لعامل وراثي بل هي مكتسبة وتأتي من تفاعل الشخص (بكل ما عنده) مع محيطه (بكل ما فيه) ومن الخبرات الناجمة عن هذا التفاعل. ويدخل في هذه الخبرات المشاعر الانفعالية التي ترافقها وتكون جزءاً منها. ومن هذه الزاوية يكون النظر إلى تكوّن الاتجاهات لدى الشخص مع نموه والنظر إلى التفاوت بين الأفراد في اتجاهاتهم، وإن كان موضوع الاتجاه واحداً.

ـ **الاتجاه متخصص**، أي إن لكل اتجاه موضوعه الخاص به، ومثال ذلك الاتجاه لدى الأشخاص نحو عمل المرأة في القوات المسلحة أو الاتجاه نحو النظام الرأسمالي أو نحو الحرية. فإذا قيل ولكن اتجاه الشخص الإيجابي مثلاً نحو عمل المرأة في القوات المسلحة يظهر في أنماط السلوك المتصلة بهذا الموضوع والصادرة عن ذلك الشخص، وفيها أقواله وأفعاله، قيل، في شرح ذلك، إن تلك الأنماط من السلوك مترابطة ومتجهة نحو موضوع واحد في الأصل ولذلك يقال إن الاتجاه يعبرعن نظام تأتلف فيه أنماط من السلوك وتقدم مجتمعة دلالة على وجهة التفضيل في الاتجاه.

ـ **الاتجاه متغير أو متحول**، أي إنه ينطوي على درجات، وقد يهتم قياس الاتجاه بثلاث درجات من الشدة وقد يتناول عدداً من الدرجات يفوق ذلك. وفي كل الحالات تشمل الدرجات في دراسة الاتجاهات درجات في شدة التفضيل الإيجابي ودرجات في عدم التفضيل أي التفضيل السلبي.

ـ **الاتجاه عقلي عاطفي** ، أي إنه ينطوي على تفاعل بين جانب عقلي لدى الشخص وجانب عاطفي أو انفعالي، ولكن الغلبة في الاتجاهات للجانب العقلي، ومع ذلك يجب الانتباه إلى تفاوت الأشخاص في قوة الجانب العقلي وقوة الجانب الانفعالي.

ـ **الاتجاه ثابت نسبياً** ، ويبدو هذا الثبات في استمرارية الاتجاه لدى الشخص لسنوات من حياته بعد تكوّ ن الاتجاه، ويظهر هذا الثبات واضحاً في أعمال ذلك الشخص المتصلة بموضوع الاتجاه وفي إدراكه للعالم حوله.

ـ **الاتجاه ثلاثي الأبعاد**: ففيه بعد الماضي من حيث تكونه (أي تكون الاتجاه) واستمراريته حتى الحاضر والعوامل فيه، وفيه بعد المستقبل، ويبدو ذلك واضحاً في استمراره مستقبلاً وفي إجراءات اعتماد الاتجاهات للتنبؤ بما يمكن أن يفعله صاحبها إذا واجهته ظروف تتصل بموضوع تلك الاتجاهات، وفيه بعد الحاضر ويبدو في ظهور الاتجاه حاضراً، عن طريق أنماط السلوك المعبرة عنه، حين وجود استثارة معينة ترتبط بموضوعه أو حين تدعو حاجة حاضرة إلى ذلك.

مضامين الاتجاه وتكونه

يتناول الحديث عن المضامين أو المكونات العناصر الأساس العاملة في بنية الاتجاهات. أما الحديث عن التكون فيهتم بموضوعين: تكون الاتجاهات مع نمو الشخص ونضجه والعوامل المؤثرة في ذلك، وتعديل الاتجاه بعد أن يكون موجوداً بحيث يتغير في شدته أو نطاق موضوعه ويحل محله اتجاه آخر يخالفه في وجهته.

مضامين الاتجاه: في الاتجاه ثلاث فئات من المضامين: العقلية والعاطفية والإجرائية. تتألف المضامين أو المكونات العقلية من مجموعة الأفكار والقناعات والاعتقادات لدى صاحب الاتجاه المتعلقة بموضوع اتجاهه، وتظهر واضحة فيما يورده صاحب الاتجاه حين يدفع إلى تسويغ اتجاهه. وتتألف المضامين العاطفية أو الانفعالية من مجموعة العواطف والمشاعر التي تظهر لدى صاحب الاتجاه في تعامله مع موضوع الاتجاه: إنها تظهر في حبه ذلك الموضوع من درجة ما أو في نفوره منه ـ من درجة ما كذلك. أما المضامين أو المكونات الإجرائية فتتمثل في نزوع صاحب الاتجاه إلى القيام بأنماط من السلوك تتصل بموضوع الاتجاه وذلك حين تدعو الحاجة إلى مثل ذلك الإجراء أو يتوافر الموقف أو المجال الذي يقع فيه الشخص وموضوع اتجاهه.

إن هذه الفئات الثلاث من المكونات متفاعلة، وهي قابلة لأن يصل إليها الباحث مباشرة أو بطريقة غير مباشرة. إلا أن مكانة فئة المكونات العقلية أعظم من مكانة المكونات العاطفية وذلك في بنية الاتجاه.

تكوّن الاتجاهات: تتكون الاتجاهات لدى الفرد مع نموه ونضجه وتكون نتيجة لخبراته الناجمة عن التفاعل بينه وبين المحيطين الاجتماعي والمادي حوله. وفي جملة ما تضمه هذه الخبرات تأثير الآخرين في الشخص حين يكون ناشئاً يعيش داخل الأسرة ويتلقى التربية التي توفرها له ويتفاعل معها، وحين يكون موضع تفاعل مع الآخرين خارج محيط الأسرة وتفاعل مع البيئة المادية وما فيها من مؤثرات الطبيعة ومن مؤثرات صنعها الإنسان. وكذلك حين يكون متفاعلاً مع شروط مؤسسات

اجتماعية متعددة بينها المدرسة والنادي ومؤسسات العمل والمؤسسات الدينية والسياسية وغيرها، أو يكون متفاعلاً مع وسائل الإعلام والأتراب والآخرين في محيطه الاجتماعي خارج الأسرة أو داخلها. ولعل مما يساعد في فهم الأثر الذي تتركه في الشخص، الطفل والشاب والكهل، ظروف البيت والمدرسة والمجتمع الخارجي، فحص ما تنطوي عليه توجيهات الأسرة باستمرار، وفحص ما تنطوي عليه أهداف التعليم في مراحله المتعددة، والأهداف التي تعمل من أجلها المؤسسات السياسية وغيرها ووسائل الإعلام، وما توحي به شروط العمل والمهنة.

على أن من اللازم الإشارة هنا إلى مكانة قدرات الشخص العقلية ومعارفه وبناء شخصيته في تكون الاتجاهات لديه. إن لهذه القدرات والمعارف والشخصية مكانتها في التفاعل بين الفرد ومحيطه، في مستوى محاكماته وفهمه للأمور حوله، وفي محاولاته الوصول إلى الكشف والإبداع والإسهام، إذ إن تكوّن اتجاه ما يعتمد اعتماداً عميقاً على المعارف التي تنطوي عليها خبراته، وعلى قناعاته واعتقاداته وعلى مستوى تقبله الإيحاء والتلقين والنصائح، وعلى أخذه بأسلوب المناقشة الشخصية المستفيضة أو من دونها في أمر ما يقبله.

تعديل الاتجاهات وتغييرها: إن الاتجاهات التي يكتسبها الفرد في حياته، ولا سيما في مراحل ما قبل الشيخوخة، والتي يقال عنها إنها ثابتة نسبياً، يمكن أن تخضع للتعديل والتغيير. فقد ينال الاتجاه بعض التعديل في مدى مضمونه أو شدته، وقد يتغير الاتجاه ويأخذ منحى جديداً مختلفاً اختلافاً واضحاً عن السابق. وبسبب من هذه الحال يكون القول بالثبات النسبي في الاتجاهات.

وقد يتم التغيير أو التعديل ضمن شروط أو ظروف متنوعة. فقد يحدث التغيير لدى الفرد بتأثير خبرات جديدة وعميقة الأثر تتكون لدى الشخص. وقد يحدث بعد تكوّن معارف جديدة لدى الفرد تتصل به وبشخصيته وبموضوع الاتجاه ولا تكون متوافرة لديه من قبل وكثيراً ما يحدث هذا التغيير ضمن هذه الظروف في حال اتجاه سياسي أو اقتصادي أو اتجاه من زعيم. وقد يكون العامل الرئيس في حدوث التغيير عمل منظم تقوم به وسائل الإعلام أو مؤسسة خاصة وذلك حين يخضع الشخص لآثار تلك الوسائل أو المؤسسة الخاصة. ثم إن العامل الرئيس في التغيير قد يأتي من تغير في حاجات الفرد، ومثال ذلك أثر حاجة الفرد الشديدة والجديدة إلى الانتماء إلى كتلة سياسية أو فريق لعبة رياضية.

ويحتمل أن يأتي العامل من الحاجة إلى الدفاع عن النفس ولا سيما حين يدعو بقاء الشخص في مجتمع ما إلى تعديل في قناعات لديه لا تتفق وشروط الحياة في ذلك المجتمع، ثم يلحق بذلك تغير عنده في اتجاه أو أكثر، ويقدم هنا المهاجرون إلى مجتمع جديد أمثلة على هذا التعديل حين تستدعي حياتهم الجديدة تغييراً في اتجاهاتهم نحو حرية سلوك الأولاد ولا سيما الإناث منهم.

وإن تعديل الاتجاه كثيراً ما كان موضع دراسات تجريبية تمكّن فيها برنامج معد من قبل، ونفذ في حال مجموعة من الأفراد من الطلاب أو العمال، من إحداث تغيير ملحوظ في اتجاه أفراد تلك المجموعة نحو نوع من الدراسة أو العمل: نحو نوع من الدراسات العلمية ونحو نوع من الأعمال اليدوية كانت مجموعة الأفراد لا تفضلها.

وظائف الاتجاهات

تعد الاتجاهات من المكونات الأساسية للشخصية، ويحقق وجودها لدى الشخص مجموعة من الوظائف أهمها ما يلي:

وظيفة إرضاء الحاجات أو إشباعها: يكشف فحص تكوّن الاتجاهات عن أنها ترتبط بمكافآت أو عقوبات رافقت استجابات لدى الشخص بدت في قوله أو فعله مما يتصل بشخص أو فكرة أو مؤسسة أو موضوع اجتماعي، وحين ينال التعزيز دعم استجابته، أي قوله أو فعله أو الأمرين معاً، فإن تكوّن الاتجاه يستمر ويتعمق. فقد غدا يلبي حاجة لدى الفرد، أي غدا له نفع خاص. ويبدو النفع أحياناً في وصول الفرد إلى أهداف عن طريق إظهار اتجاهه، كما يبدو في مساعدة الفرد، أحياناً أخرى، على التكيف مع أوضاع حياتية. ويسمح النفع بالقول عن الاتجاه إنه نفعي. كما تسمح الخدمة التي يقيمها الاتجاه في تكيف صاحبه مع ظروف طارئة بالقول إنه - أي الاتجاه - تكيفي، وظهور السلوك المعبر عن الاتجاه، في الحالين، هو دليل على أن السلوك يلبي أو يشبع حاجة أو حاجات لدى الفرد.

ومثال ذلك الاتجاه الإيجابي القوي الذي ظهر عند طالب نحو الرياضيات، على صورة تفضيل مرتفع الشدة، والذي بدأ يتكون بعد حصوله على علامات عالية في امتحانات الرياضيات، وبعد تعزيز جاء من ثناء صدر عن المعلم. ومثال ذلك أيضاً تفضيل عامل ما حزباً سياسياً بعد أن عرف أن ذلك الحزب يناضل في سبيل مصلحة الإنسان العامل.

الوظيفة التقويمية: تظهر الوظيفة التقويمية للاتجاه في ناحيتين. الأولى متضمنة في تفضيل الاتجاه أمراً - أو عدم تفضيله - مما يدل على أن لذلك الأمر قيمة ما لدى صاحب الاتجاه (قيمة إيجابية أو قيمة سلبية). من هذه الزاوية فإن الفرد الذي يكون اتجاهه نحو الديمقراطية اتجاه تفضيل، وهو يعبر عن حسنات الديمقراطية اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وغير ذلك، يرى أن في تفضيله تعبيراً عن تقويم عالٍ للديمقراطية. أما الناحية الثانية فتكون في دلالة الاتجاه على قيم معينة لدى الشخص، أو نظام قيم، ويبدو الشخص في اتجاهه كأنه يقول معتزاً: هذا أنا، والمثال على هذه الناحية الثانية الاتجاه الظاهر لدى الشخص نحو المساواة بين الرجل والمرأة والذي يكشف فحصه (أي فحص الاتجاه) أنه موجود لدى شخص تكون العدالة في مكان عالٍ بين قيمه ويكون احترامه لإنجازات المرأة في الأسرة واقتصاد الأسرة في المجتمع وفئاته احتراماً يقع في الصدارة من قيمه.

وظيفة الدفاع عن «الأنا»: الأصل في الاتجاه أنه نظام يظهر في أنماط من السلوك بينها تناسق وفيها مستوى مقبول من الثبات، وذلك على الرغم من وجود الاختلاف في الظروف التي يمكن أن يظهر فيها موضوع الاتجاه. ومثال هذه الحال اتجاه شاب نحو مهنة التعليم وكيف يبدو هذا الاتجاه في مناقشة يسهم بها هذا الشاب وفي تعامله مع المعلمين وفي سلوكه المعبر عن اختيار المهنة. إن هذه الوظيفة يؤديها الاتجاه في توفير التناسق بين مكونات «الأنا»، الذي يتعامل مع الواقع لدى صاحب الاتجاه، وفي دعم تقدير الذات لدى هذا الشخص وهو يدافع عن نفسه أمام ظروف الحياة ولا سيما حين يكون هذا الاتجاه الحجة التي بها يواجه الشخص ظروف الواقع وحين يقول: «هذا أنا».

الوظيفة المعرفية: تساعد الاتجاهات صاحبها في فهم عالمه فهماً يسهم في تكوين الاطمئنان

لديه، وفي جعل حوادث هذا العالم ذات معنى خاص. إنها توفر للشخص نوعاً من الثبات والوضوح في رؤية العالم وتفسير حوادثه. إن هذا القول لا يعني أن الاتجاهات تقدم صورة صحيحة عن العالم، بل يعني أن الصورة ذات معنى لمن يدرك العالم بوساطة اتجاهاته. وأن هذه الصورة تقدم نوعاً من الإطار أو الأساس لمعارف جديدة يصل إليها صاحب الاتجاه ويسعى إلى إدخالها في نظام اتجاهاته أو قناعاته: أي أن يضمها ضم تنسيق إلى ما كان لديه من قبل. من هذه الزاوية يؤدي الاتجاه الإيجابي لدى الشخص نحو العمل اليدوي خدمة في الوصول إلى مجموعة غنية من المعارف عن قيمة العمل اليدوي في الدخل القومي وفي خدمة مجتمعه وخدمة الإنسانية. ومن هذه الزاوية كذلك يمكن فهم سعي صاحب الاتجاه نحو نظام اقتصادي ما إلى الحصول على مزيد من المعارف عن ذلك النظام.

وظيفة الانتماء والتوحد مع الآخرين: يربط الاتجاه بين الفرد ومجتمعه، أو فئة من ذلك المجتمع، ويدعم شعور ذلك الفرد بالانتماء إلى ذلك المجتمع أو تلك الفئة وشعوره بأنه مثل الآخرين ويؤلف وحدة معهم. بهذه الصورة يمكن فهم وظيفة الاتجاه الإيجابي نحو القومية الموجود لدى الشخص في توحده مع الآخرين في مجتمع ساده الفكر القومي، كما يمكن فهم وظيفة الاتجاه الإيجابي نحو حكومة الخدمات في مجتمع يغلب على مظاهر حياته الأخذ بسياسة حكومة الخدمات. وحين يراجع الباحث ما جاء في دراسات الشخصية من أن الانتماء حاجة عميقة من حاجات الشخص، فإنه يدرك أهمية هذه الوظيفة التي يقوم بها الاتجاه في خدمة صاحبه.

الاتجاهات وبعض الظاهرات النفسية الوثيقة الصلة بها

بين الاتجاهات وعدد من الحالات أو الظاهرات النفسية أشكال من التفاعل والترابط مع وجود أشكال من التباين والاختلاف. وإن مما يوفر مزيداً من البيانات في فهم الاتجاهات ومكوناتها الوقوف عند خمس من هذه الظاهرات، هي: الدوافع والميول والاعتقادات والقيم والآراء، في محاولة لبيان ما بينها وبين الاتجاهات من اختلاف مع الاعتراف بأن نقطة الاختلاف ليست دائماً واضحة كل الوضوح.

الاتجاهات والدوافع: يتكرر في الدراسات النفسية القول: إن وراء كل سلوك دافعاً أو أكثر يحرض ذلك السلوك أو يستثيره ويوجهه. ويكون السؤال هنا: ما مكانة الدوافع في الاتجاهات؟

إن لدى الشخص الكثير من الاتجاهات، ولكنها لا تعمل باستمرار ولا تكون باستمرار في مستوى الشعور بل يمكن أن تكون وراء الشعور وفي نوع من «النوم» أو «الحفظ» إلى أن يأتي ما يستثيرها. وقد يأتي المثير من الداخل وقد يأتي من الخارج، ويكون النظر إلى الاتجاه في الحالتين على أنه «تهيؤ» أو «نزوع» لتحريك السلوك باتجاه معين. فإذا وجد المؤثر، مثل ظهور فكرة تتصل بالكتل السياسية لدى شخص يناقش الموضوع بينه وبين نفسه أو يناقشه مع آخر، فإن هذا المؤثر يستثير الدافع للاستجابة، ويستثير الدافع بدوره ذلك التهيؤ. ومن هنا يقال إن الاتجاه تهيؤ لسلوك يدعو إليه دافع ما، أو أكثر، والمؤثر هو الذي يحرض الدافع. ومن هنا يقال كذلك إن مثل هذا السلوك سلوك موجه، إنه موجه بالاتجاه الموجود لدى الشخص، وهو موجه لتنفيذ ما يعبر عن ذلك الاتجاه. والدافع قوة داخلية، وشدته اللاحقة بشدة تحريضه من المؤثر تنعكس على شدة ظهور الاتجاه. والاتجاه نفسه قوة كذلك لما يتضمنه من اعتقادات وقيم وعواطف، فإذا بدأ تحقيق وظيفته وتوجيه السلوك، فإنه يغدو قوة تتفاعل مع قوة الدافع وتتعاون معها. ومع ذلك يبقى الدافع مختلفاً عن الاتجاه من حيث هو حالة أو حادثة نفسية.

الاتجاهات والميول أو الاهتمامات

يكشف فحص اهتمام الشخص بشيء ما عن رغبة يحتمل فيها أن تكون في واحد من طرفين: الرغبة في الحصول على ذلك الشيء أوالرغبة في البعد عنه وتفاديه (راغب فيه، أو راغب عنه). والرغبة ظاهرة يراها علماء النفس لاصقة بمصطلح الاهتمام أو دالة عليه، كما يرونها لاصقة بمصطلح الميل ودالة عليه. فالرغبة في الشيء تعبير عن الاهتمام به أو الميل إليه، أو عن الاهتمام بتفاديه أو الميل عنه. ومن هذا المنظور، وبسبب من أن ظهور الاهتمام أمام عين الدارس أكثر سهولة من ظهور الميل، غدت دراسات نفسية كثيرة تستعمل مصطلح الاهتمام interest بدل مصطلح الميل للمعنى نفسه.

والغالب في الاهتمام، أو الميل، الصبغة الانفعالية التي ترافق سلوك الشخص نحو موضوع اهتمامه: إنه يبدو محباً لذلك الموضوع أو نافراً منه، منجذباً إليه أو مبتعداً عنه. والصبغة الانفعالية، كما ذكر من قبل، موجودة في الاتجاه. ثم إن في الاهتمام صبغة عقلية تبدو واضحة حين يقدم الفرد مسوغات عقلية تفسر عاطفته نحو شيء يحبه أو شيء ينفر منه. وفي الاتجاه. كما ذكر من قبل، صبغة عقلية كذلك.

ولكن هنا فرقاً أو اختلافاً، مع ذلك بين الحالتين، ويظهر هذا الفرق في أمور أهمها أربعة:

الأول أن الصبغة العقلية تغلب على الاتجاه وتكون الصبغة الانفعالية ضعيفة، وأن الصبغة الانفعالية غالبة على الميل أو الاهتمام وتكون الصبغة العقلية ضعيفة. والأمر الثاني هو الاختلاف في درجة الثبات والاستمرار: فالاتجاه أكثر ثباتاً في النفس واستمراراً في حياة الفرد مما عليه الحال في الاهتمام. أما الأمر الثالث: فالاختلاف في الموضوع أو الهدف: فالغالب على موضوعات الاتجاهات أنها اجتماعية وأن العناية بها في المجتمع واضحة والحال ليست كذلك في موضوع الاهتمام أو هدفه: إذ يحتمل كثيراً أن يكون موضوع الاهتمام شيئاً يخص الشخص وحده. وأما الأمر الرابع فهو أن الاتجاه أكثر عمقاً في بناء الشخص وأشد أثراً من الاهتمام وذلك بسبب من غلبة الصبغة العقلية على الاتجاه ومن توظيف الاتجاه قناعات الشخص واعتقاداته حين يغدو هذا الاتجاه قائماً عنده.

الاتجاهات والاعتقادات: الاعتقادات أحكام ضمنية أو ظاهرة تدل على وجهة نظر للشخص بشأن خاصية أو خصائص لشيء ما أو أمر ما. إنها تعبر عن الصحة أو الخطأ فيما ينسب إلى ذلك الشيء أو الأمر، أو إنها تثبت في الذهن علاقة بين ذلك الشيء أو الأمر وبعض الخصائص. ومثال ذلك الاعتقاد بأن متحدثاً يروي حادثة ما صادق فيما يقول. يضاف إلى ذلك أن الاعتقادات أفكار تعبر عن نوع من الأحكام المعرفية التي تتكون، على الغالب، من محاكمة أو عدة محاكمات، وأنها لا تحمل الصبغة الانفعالية في أعماقها. أما الاتجاهات فلكل منها موضوعه وهو أوسع من موضوع الاعتقاد في تنوع حالات ظهوره. ثم إن في

الاتجاه من الصبغة الانفعالية ما لا يوجد في الاعتقاد على وجه العموم. ومع ذلك فإن من اللازم القول إن الاتجاه الواحد يلخص أو يحتض أو ينطوي على عدة اعتقادات ولكن من دون أن يقف عندها أو يتطابق مع كل منها: فقد يبدو الاتجاه مختلفاً مع اعتقاد يكون جزءاً أو طرفاً من عدة اعتقادات ينطوي عليها الاتجاه.

الاتجاهات والقيم: تؤلف القيم نظاماً عميق المكانة في بنية الشخصية، ومن بين النظريات في طبيعة الشخصية النظرية القائلة إن الشخصية نظام قيم. والقيم متنوعة بينها العقلي، والاجتماعي، والأخلاقي، والجمالي، والاقتصادي وغير ذلك. ويوضح تحليل أي منها على أنها تعبر عن هدف حياتي وأنها معيار لسلوك الفرد. إن المال لدى شخص لا يهمه إلا المال يعبر عن أن للمال لديه قيمة ترتفع فوق كل القيم الأخرى وتؤثر في تنظيمها في بنية شخصيته. وحين يفحص قوله وفعله يرى أن المال معيار لديه يحكم عن طريقه على كل أنماط سلوكه المختلفة. والاتجاه لا يؤلف معياراً للسلوك، ولا يكون هو ذاته هدفاً حياتياً. ومع ذلك فإن من الممكن القول إن الاتجاه تعبير داخلي عن قيمة أو مجموعة قيم وإن عمق القيم ونطاق عموميتها من حيث الموضوعات التي تتناولها أعظم مما هي الحال في الاتجاهات.

الاتجاهات والآراء: الرأي مصطلح قريب من مصطلح الاتجاه ولا سيما في حديث الإنسان العادي في مناسبات الحياة اليومية. يضاف إلى ذلك أن الآراء كثيراً ما تعتمد في الكشف عن الاتجاه أو الاتجاهات لدى شخص ما وضع موضع الملاحظة أو في دراسة علمية عن الاتجاهات لدى مجموعة من الأشخاص. وكثيراً ما أوردت قياسات الرأي العام أن نتائجها ـ الخاصة بالرأي العام ـ تعبر عن اتجاهات الناس نحو هذا الحزب أو ذاك. نحو هذا المرشح لرئاسة الجمهورية أو ذاك. والرأي حكم شخصي يطلق على شخص أو حادثة أو علاقة أو غير ذلك في مناسبة أو ظرف ما ويعبر عما يراه الشخص بشأن ما يطلق رأيه عليه. فإذا اتجه البحث إلى المقارنة بين الاتجاه والرأي، تبين أن الاختلاف بينهما يمكن أن يظهر في أربع نقاط. الأولى أن الرأي حكم محدد يطلق على حادثة محددة في مناسبة ما، والأمر ليس كذلك في الاتجاه الذي يعد تهيؤاً للسلوك باتجاه ما نحو أمر ما يمكن أن يظهر ضمن شروط متنوعة وفي مناسبات مختلفة. والثانية أن الصبغة الانفعالية المرافقة للسلوك المعبر عن الاتجاه هي أكثر بروزاً أو ظهوراً من الصبغة الانفعالية في الرأي، مع العلم أن العوامل الانفعالية، مثل المشاعر وغيرها، يمكن أن تتدخل في تكون رأي ما كما يمكن أن تتدخل في تكون اتجاه ما. والنقطة الثالثة أن من الممكن التأكد من صحة الرأي أو الخطأ فيه أي من التطابق بين حكم صاحب الرأي وواقع الحال أو الأمر الذي يطلق عليه الحكم، أما الاتجاه فلا تتوافر الفرص فيه للتحقق من صحته بعد التأكد من وجوده لدى صاحبه. فمن الممكن التأكد من صحة رأي يقول إن دولة «س» خسرت مئة دبابة في الأيام الثلاثة الأولى من حربها مع «ع»، ولكن مثل هذا التأكد غير وارد حين يعبر شخص عن اتجاهه الذي ينطوي على استهجان الحرب ونفوره منها. وأما النقطة الرابعة فهي أن الرأي سلوك واضح يوضع موضع الملاحظة مباشرة، أما الاتجاه فتهيؤ ضمني لا يلاحظ مباشرة بل تدل عليه أنماط من السلوك بينها الآراء.

دراسة الاتجاهات وقياسها

دراسة الاتجاهات: ورد في فقرات سابقة أن الاتجاهات لا تخضع للملاحظة مباشرة وأن كشفها يكون عن طريق أنماط السلوك المعبرة عنها.

وهناك خمس طرائق شائعة في دراسة الاتجاهات.

تعرف الطريقة الأولى بأنها نظرية وأنها دراسة موجهة بفكرة تكوين نظرية حول الاتجاهات. ويهتم الباحث الآخذ بهذه الطريقة بتكون الاتجاهات والعوامل في ذلك، وتعديل الاتجاهات وكيف يأخذ مجراه، والتفاوت في الاتجاهات من جانبها الإيجابي وجانبها السلبي، لينتهي إلى وضع نظرية حول طبيعة الاتجاهات ومكانتها في نظام الشخصية. وكثيراً ما يستفيد الآخذ بهذه الطريقة من نتائج دراسات تفصيلية سلكت طرائق أخرى في الدراسة الخاصة بالاتجاهات.

وتعرف الطريقة الثانية بأنها وصفية قائمة على الملاحظة. وتبدو هذه الطريقة واضحة في تنظيم ملاحظة علمية متعددة الخطوات والتكرار تتناول سلوك مجموعة من الأفراد تكون اتجاهاتهم موضوع الدراسة وتكون الغاية سبر تلك الاتجاهات لديهم ووصفها. وكثيراً ما يتم اعتماد هذه الطريقة في دراسة اتجاه مجموعة من الأطفال نحو لعبة ما من الألعاب الرياضية. ولكن هذه الطريقة تواجه صعوبات عادة بسبب من الوقت الذي تستغرقه الملاحظة ويحتاج إليه تكرارها، وكذلك بسبب من صعوبة تدريب الأشخاص على القيام بملاحظة علمية دقيقة.

أما الطريقة الثالثة فهي الطريقة التجريبية، وفيها تنظيم تجربة موضوعها أمر علمي ما تنظيماً تتوافر فيه شروط الضبط والتحكم بالمتغيرات وإمكان استخراج النتائج بلغة الكم. ويغلب أن تنظم التجربة للتحقق من فرضية تم تأليفها من قبل. وكثيراً ما تعتمد هذه الطريقة في التعرف على الاتجاه الذي يتكون لدى الطلبة نحو مهنة أو موضوع دراسي بعد تعرضهم لمؤثرات كثيرة تبرز خيرات ذلك الموضوع أو تلك المهنة.

وفي الطريقة الرابعة تعتمد دراسة الاتجاهات على الاستفتاء الذي يتناول مجموعة كبيرة من الأفراد في مجتمع ما. وفي الاستفتاء استطلاع للرأي العام، وفي تجمع الآراء حول أنماط من السلوك تعبر عن اتجاه ما دليل على ذلك الاتجاه: على منحاه الإيجابي، التفضيل الإيجابي، أو على منحاه السلبي وما فيه من عدم التفضيل.

ويكون القياس الطريقة الخامسة التي تعتمد في دراسة الاتجاهات، وهي أكثر الطرائق استخداماً. هنا تعتمد دراسة الاتجاهات على مقياس علمي موثوق أُعدّ من قبل، لكشف اتجاه شخص، أو مجموعة أشخاص، نحو موضوع ما انطلاقاً من الإجابات التي تقدم استجابة لعبارات المقياس.

قياس الاتجاهات: يعتمد قياس الاتجاهات على الإجابات التي يقدمها الشخص عن عبارات نظمت تنظيماً علمياً دقيقاً في مقياس خضع لإجراءات علمية معينة قبل أن يعد مقياساً موثوقاً. وقد تأخذ العبارة صيغة سؤال، وقد تكون بيانية وصفية. وتتناول العبارات في المقياس الواحد كل الجوانب والتفصيلات المتصلة بموضوع الاتجاه وما يحتمل أن يظهر من أنماط في السلوك المعبر عن ذلك الاتجاه. وينظم المقياس تنظيماً يسمح بوضع إشارة بسيطة، أو كتابة كلمة، أمام كل عبارة تبين مدى انطباق تلك العبارة على حاله، مع العلم أن «المدى» يوضع في درجات من شدة الموافقة إيجاباً أو سلباً: أوافق بشدة عظيمة. حتى.. لا أوافق أبداً. كذلك ينظم المقياس تنظيماً يسمح بنقل إجابات الشخص إلى

لغة الكم. والفكرة الأساس في المقياس هي أن الشخص يقدم تقريراً عن ذاته حين يقول إنه يوافق بشدة على ذلك الأمر، وأن المقياس يشمل في عباراته شمولاً مناسباً عينة جيدة من أنماط السلوك التي يظهر الاتجاه عن طريقها وتعبر عنه.

ولما كانت الاتجاهات كثيرة لدى الأشخاص، وكانت موضوعاتها مختلفة، فإن قياس هذه الاتجاهات يحتاج إلى عدد كبير من المقاييس يكون كل منها معداً لاتجاه ما. وانطلاقاً من تنوع المجتمعات والاختلافات بينها في النمط الثقافي، وتنوع الدراسات العلمية، وتنوع الطرائق في حساب النتائج في المقاييس وفي صوغ عباراتها، فإن هناك تنوعاً كبيراً في المتوافر من المقياس في العالم للاتجاه الواحد.

وفي مقدمة الطرائق المعتمدة في حساب النتائج الكمية للمقياس طريقتان: تعرف الأولى باسم ثورستون Thurstone الذي بدأ بها، وتعرف الثانية باسم ليكرت Likert الذي اعتمدها في المقاييس التي بناها لعدد من الاتجاهات. وتقوم طريقة ثورستون على استخراج القيمة السُلّمية (أي القيمة ضمن السُلّم) للإجابة الخاصة بالعبارة انطلاقاً من قيمة الوسيط في إجابات المجموعة التي تم اعتمادها في بناء المقياس. ولما كانت قيمة الوسيط هي القيمة التي تقابل الإجابة التي تقع فوقها ٥٠٪ من الحالات وتحتها ٥٠٪ من الحالات، فإن المحصلة لإجابات المفحوص تكون بجمع القيم السلّمية التي حصل عليها كل من إجابات لدى مقارنتها مع القيم السلّمية الموضوعة للمقياس المعد علمياً من قبل.

أما طريقة ليكرت، وهي الأكثر استعمالاً في البحوث النفسية والتربوية فتقوم على منح قيم كمية محددة لكل درجة من درجات الإجابة عن العبارة الواردة في المقياس، وينطلق منح إجابة المفحوص قيمة كمية من ذلك الأساس. فإذا كانت الإجابات المختلفة منظمة في المقياس على أساس درجة من خمس درجات أعلاها «أوافق بشدة»، وأدناها «أخالف بشدة» (والموافقة والمخالفة كل منهما تعبير يقدمه الشخص المفحوص عن نفسه) وكانت القيم الكمية ممنوحة ما بين ٥ علامات وعلامة بالتدرج، فإن إجابة شخص عن عبارة ما بقوله أوافق تكون ٤ علامات، ويكون مجموع العلامات التي حصل عليها نتيجة إجابات عن كل عبارات المقياس هو التعبير عن مستوى شدة وجود الاتجاه لديه، أي الاتجاه موضوع القياس.

أما إذا صيغت بعض الأسئلة صوغاً سلبياً فيجب البدء بقلب الأجوبة حتى تعد اتجاهاً ايجابياً أو سلبياً، ويسهل تطبيق ذلك عندما تكون درجات ليكرت ثلاثاً.

نعيم الرفاعي

الموضوعات ذات الصلة:

الشخصية.

مراجع للاستزادة:

- نعيم الرفاعي، التقويم والقياس في التربية (مديرية المطبوعات الجامعية، جامعة دمشق ١٩٨٢).
- STUART OSKAMP, Attitudes and Opinions (Prentice- Hall Inc., New Jersey 1977).
- K.M.ESEDNS, L' action pédagogique sur les attitudes et les intérts (E.S.F, Paris 1970).

■ أتجه

اسم دولة وَردَ على وجوه، فبعض المصادر الهولندية أطلقت عليها اسم أتجه Atjeh أو أتشن Atchin وذكرت مصادر أخرى اسم أسه Aceh. ويبدو أن الاسم أتجه أطلقه الهولنديون على الإقليم الشمالي الغربي من جزيرة سومطرة، وما كان يخضع له من مناطق، وكان يؤلف سلطنة إسلامية مهمة تدعى أشن أو أشي قبل وصول البرتغاليين إلى المنطقة.

يضم إقليم أتجه الأصلي المنطقة الشمالية الغربية من جزيرة سومطرة بما فيه نهر أتجه ومرفأ أتجه ومساحته ٥٥٣٩٢ كم². وقد أطلق الهولنديون اسم كوتاراجا على عاصمة سلطنة أتجه الإسلامية الواقعة على هذا النهر، والتي تبعد نحو ٥ كم عن الساحل، ومعناها مدينة الأمير. ويعد إقليم أتجه منطقة جبلية صعبة المسالك، تمتد السلاسل الجبلية الطويلة فيها موازية للساحل، ويتجاوز ارتفاع قممها المتعددة ٢٧٤٣م. ويفصلها عن الساحل سهل عريض إلى حد ما. أما أنهار الإقليم فقصيرة وتنحدر بشدة نحو البحر، أهمها نهر أتجه. ومن أهم مراكز المناطق الساحلية التابعة لسلطنة أتجه مولابوه وتابق توان وسنكيل في المنطقة الغربية، وسيغلي وغيغيينج وموررودو وسمالنجا وبوسانغن ولوه سماوي في المنطقة الشمالية، وسمبانغ أولم وإيدي في المنطقة الشرقية. في حين تقع مدينة بازه أوباسي التي زارها ابن بطوطة عام ١٣٤٥م في المنطقة بين لوه سماوي ونهر جمبو آبي.

المعلومات حول أصل سكان أتجه قليلة. فما هو معروف عنهم أنهم خليط من الشعوب الملاوية (ملاويين وباتّق Battak)، تأثروا من حيث التكوين إلى درجة ما، بالصقالبة الذين وفدوا إلى الإقليم من جزيرة نياس وغيرها، كما تأثروا بأجانب آخرين كالتجار الهنود والمسلمين الذين وفدوا إلى أتجه من الصين وكجرات في الهند وحضرموت. ويتألف سكان أتجه من أربع قبائل، يطلق على القبيلة باللغة الأتجية اسم «كاوم» وهو مشتق من كلمة «قوم» العربية. والقرابة بينهم تقوم على النظام الأبوي. وقد انتشر أفراد هذه القبائل في مختلف أرجاء إقليم أتجه. ونحو عام ١٦٢٠م، تجاوز عدد سكان أتجه ١٠٠,٠٠٠ نسمة. ويبلغ عددهم اليوم في إقليم أتجه ذي الحكم الذاتي أكثر من ثلاثة ملايين نسمة.

في اللغة الأتجية عدة لهجات شديدة التباين، إلا أن هناك تشابهاً مهماً بين لغة الأدب الأتجي واللغة الدارجة في إقليم بارو Baroh. وتنتشر اللغة الملاوية بين سكان الموانىء البحرية ومع أن هذه اللغة تستخدم في الكتابات الأدبية والوثائق الرسمية والمؤلفات المختلفة، فإن الأتجيين الذين لا يتمتعون بثقافة علمية لا يفهمون اللغة الملاوية.

والنشاط الغالب لدى الأتجيين زراعة الأرز الذي يؤلف المادة الغذائية الرئيسية. كما يمارسون زراعة أشجار المطاط والنارجيل (جوز الهند) Coprah والتوابل (ولا سيما الفلفل) وهي المنتجات الزراعية التصديرية الأساسية. وتضم الصناعات المحلية المنسوجات الحريرية والصوفية المنقوشة. ويعد صيد الأسماك أحد النشاطات المهمة في أتجه. كما برع الأتجيون في التجارة البحرية.

لا يزال تاريخ أتجه قبل القرن السادس عشر غامضاً، وما هو مؤكد تاريخياً أن تأسيس سلطنة

أتجه يعود إلى بداية القرن المذكور. وكانت أتجه تقيم علاقات تجارية مع هندستان (الهند) منذ القدم، وقد تأثرت حضارتها ولغتها بادىء الأمر بالهندوسية. إلا أنه منذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادي كان للإسلام حضور قوي في شمالي سومطرة في كل من بيدي Pidie وبازة Pasai أوباسي Pase . فلدى زيارة ابن بطوطة لمدينة بازة عام ١٣٤٥م، كان الإسلام منتشراً فيها، وكان أميرها يشن الحرب على جيرانه لنشر الدين الإسلامي. ولربما انتشر الإسلام في تلك المناطق عن طريق التجار الهنود الذين كانوا يترددون على سواحل أتجه. وبعد احتلال البرتغاليين لِمَلَقَة في أرخبيل الملايو عام ١٥١١م هاجر التجار المسلمون المقيمون فيها من هنود وصينيين وعرب إلى الموانيء المجاورة في شمالي سومطرة، مثل بيدي وأتجه. وسرعان ما أصبحت أتجه مركزاً لسلطنة إسلامية قوية جداً.

كان علي مغايت شاه (٩٢٠-٩٣٤هـ / ١٥١٤-١٥٢٨م) أول من اعتنق الإسلام من ملوك أتجه، وتعده بعض المصادر الأتجية مؤسس سلطنة أتجه، التي كانت في البداية تابعة لمملكة بيدي. أما ملوكها الآخرون فالمعلومات عنهم قليلة وتقتصر على ما ورد عرضاً في التواريخ الملاوية وبعض المؤلفات الأوربية والمصادر الأخرى.

وفي عهد السلطان علي مغايت شاه المذكور، جرى فتح كل من داجا Daja في غربي جزيرة سومطرة، وبيدي وبازه في شرقيها.

وفي عهد ولديه صلاح الدين (٩٣٤-٩٤٤هـ / ١٥٢٨-١٥٣٧م) وعلاء الدين رعايت القهار (٩٤٤-٩٧٧هـ / ١٥٣٧-١٥٦٨م) أصبح للدولة الجديدة نفوذها القوي. ففي عام ١٥٣٦م، أرسل السلطان علاء الدين سفارة إلى القسطنطينية يطلب مساعدة الأتراك العثمانيين في حربه البرتغاليين. وأعد حملة عسكرية على ملقة. فكانت تلك بداية حرب طويلة بين الأتجيين والبرتغاليين لم تنته إلا في عام ١٦٤١م. بعد أن طرد الهولنديون البرتغاليين من ملقة. وأصبحت حملة علاء الدين على باهانغ وملقة بأسطوله الضخم موضوع ملحمة أتجية. وما لبثت أتجه، وهي المرفأ الغربي للأرخبيلات، أن أصبحت مركز تأثيرات متعددة ولا سيما المغولي منها.

وفي عهد السلطان العظيم اسكندر مودا أو اسكندر الجديد (١٠١٦-١٠٤٦هـ / ١٦٠٧-١٦٣٦م)، وصلت سلطنة أتجه إلى أوج عظمتها. ويبدو أن اسم «اسكندر الجديد» الذي أطلقه سلطان أتجه على نفسه، تيمناً بالاسكندر المقدوني، اسم غير مبالغ فيه عندما يقف المرء على الفتوحات التي قام بها هذا السلطان. ففي الثلاثين عاماً من حكمه، استطاع اسكندر مودا أن يفرض سلطانه على النصف الشمالي من جزيرة سومطرة بكامله (بيري، وبازه، وأرو، وديلي، وبارو Barus وتيكو، وبازامان، وبادانغ). كما أخضع لنفوذه جزءاً كبيراً من الأرخبيل الملاوي (كيده، وبيراك وجوهور، وباهنغ)، وفي عام ١٦٢٩م، حاصر اسكندر مودا «ملقة» وعاد عنها بعد أن كاد ينتصر على البرتغاليين.

فرض اسكندر مودا احتكار السلطنة لمادة الفلفل، وحرص على أن تتركز تجارة الفلفل في مرفأ السلطنة وميناءها الرئيسي. ولم يتردد قط في إتلاف مزارع منافسيه وتخريبها، وهذا ما مكّنه من فرض السعر الذي يريده لهذه المادة على التجار القادمين من الهند والصين وأوربة. وفي عهده تم صك عملة ذهبية أتجية، وعاش السلطان اسكندر مودا حياة ترف وأبهة أثارت إعجاب السفراء السياميين (تايلند) والبرتغاليين والفرنسيين. ولقب بعد وفاته بلقب« ماكوتا عالم» أي تاج العالم تعظيماً له. وفي عهد خلفه اسكندر الثاني (١٠٤٦-١٠٥٢هـ / ١٦٣٦-١٦٤١م) تم إنشاء حديقة غنّاء بالقرب من القصر السلطاني، وأُعد كتاب ضخم تاريخي فلسفي بعنوان «بستان السلاطين»، وبعد وفاة اسكندر الثاني، تعاقب على عرش السلطنة أربع أميرات، في النصف الثاني من القرن السابع عشر (١٦٤١-١٦٩٩)، وفي عهدهن أخذ الضعف والانحطاط يدبان في جسم السلطنة لتصاعد نفوذ «الأولي بالانغ» أو أمراء الجيش في الأقاليم التي تتكون منها وأدى ذلك إلى ضعف سلطة الأميرات ونفوذهن. وقد عارض كثيرون حكم النساء للسلطنة استناداً إلى فتوى جاءتهم من مكة وأدت هذه الخلافات إلى قيام سلسلة من الحروب بين السلالات المالكة من أجل العرش منذ مطلع القرن الثامن عشر.

كان من بين المطالبين بالعرش فريق من الأمراء المولودين في أتجه وينتسبون إلى السادة الأشراف، وأشهرهم جمال العالم بن المنير (١١١٥-١١٣٩هـ / ١٧٠٣-١٧٢٦م) الذي ناصب السلاطين الشرعيين العداء بعد خلعه عام ١٧٢٦م ولا سيما السلطان علاء الدين أحمد شاه (١٧٢٧-١٧٣٥م) البوجيني الأصل ومؤسس آخر سلالة من ملوك أتجة، وابنه السلطان علاء الدين جهان (١١٤٨-١١٧٤هـ / ١٧٣٥-١٧٦٠م). وقد أدت هذه الصراعات إلى هدر ثروة البلاط وضعف نفوذه، وانتقال مركز الثقل تدريجياً من أتجه إلى جاوة، ولا سيما أن تجارة العبيد وأعمال القرصنة التي أخذ الأتجيون يمارسونها أصبحت مصدر خطر دائم على الأقاليم المجاورة للسلطنة. كما أن تجار الفلفل الذين كانوا يتاجرون مع أتجه أصبحوا عرضة للموت والنهب، مما جعلهم يترددون في الذهاب إلى السواحل الأتجية. الأمر الذي أسهم في ركود التجارة مع تلك البلاد.

والأتجيون اليوم مسلمون من أهل السنة عموماً. ويدرّس القرآن باللغات الملاوية والعربية والأتجية. وفي كل عام تقوم أعداد كبيرة من الأتجيين بالسفر إلى مكة لأداء فريضة الحج. ويتبع الكثير من الأتجيين الطرق الصوفية ولا سيما القادرية والنقشبندية. كما ساد في أتجه بعض الطرق الحلولية . (القائلة بوحدة الوجود) التي كانت منتشرة في الهند منذ زمن. وكان من أبرز ممثليها في أتجه شمس الدين السومطري أو البازي المتوفى عام ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م وسلفه حمزة البنسوري، في حين كان من أهم مناهضي الطرق الحلولية رانيري وعبد الرؤوف السنكيلي. وقد تابع عبد الرؤوف هذا دراسته في عدة بلدان، منها المدينة المنورة، حيث تتلمذ على أحمد القشاشي. وبعد وفاة أستاذه عام ١٠٧٢هـ/ ١٦٦١م عاد عبد الرؤوف إلى أتجه ونشر فيها طريقة أستاذه الصوفية المتشددة المعروفة باسم «الشطارية». ومع ذلك فقد بقيت بعض مظاهر التصوف وممارساته منتشرة. وازداد الاتصال بالمراكز الدينية في مكة والقاهرة. ويحتل الاعتقاد بالأولياء مكانة مهمة في ذهن الأتجيين، وأشهر هؤلاء الأولياء هم من غير الأتجيين، ومنهم العربي «تنكو أنجونغ» المتوفى عام ١٧٨٢م. و«ولي كامبونغ بيتاي »التركي أو الشامي، بالإضافة إلى عبد الرؤوف السنكيلي الذي حارب زندقة أبناء وطنه وآثامهم لدرجة أن الأجيال اللاحقة عزت إليه إعادة الإسلام إلى

طريقه القويم في أتجه.

وفي عهد ازدهار السلطنة، غالباً ما اجتذبت أُتجهة بلاط السلاطين العلماء من الهند والشام ومصر، ومن بينهم أحد أبناء ابن حجر الهيثمي الشهير. وقد قام بعض هؤلاء العلماء بتأليف عدد من الكتب باللغة الملاوية تلبية لطلب سلاطين أتجه، وما زالت تحظى بالتقدير حتى الوقت الحاضر، ومنها كتاب الفقه الملاوي «الصراط المستقيم» للعالم الهندي الكُجُراتي رانيري (طبع في مكة عام ١٨٩٢) وهو الذي أهدى في عام ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م إلى اسكندر الثاني، سلطان أتجه آنذاك، كتابه الجامع «بستان السلاطين»، وأهدى عبد الرؤوف السنكيلي كتابه في الفقه إلى الأميرة صفية الدين (١٠٥١-١٠٨٦هـ / ١٦٤١-١٦٧٥م) وكان طلاب العلم يتوافدون إلى أتجه من بلدان بعيدة.

تعد الكامبونغ (أي القرية) الوحدة الإدارية الأساسية في سلطنة أتجه، ويتزعم كلاً منها «كهجي» أو «شيهي» أي المتقدم بالسن من أبنائها وتعني كامبونغ كذلك الحي في المدن الرئيسية. وإلى جانب «الكهجي» يوجد مجلس للشورى مكون من كبار الشيوخ يستعين به عند الحاجة، ويتولى الأمور الدينية (مثل الإمامة) في القرية «التنكو». ويطلق هذا اللقب أيضاً على أصحاب المناصب الدينية، أو الأشخاص الملمين بالشريعة الإسلامية. وبعد الكامبونغ أو القرية يأتي الإقليم وتقسم أتجه إلى عدة أقاليم صغيرة. يطلق على ولاتها اسم «أولي بالانج» أو أمراء الجيش. وهم يدينون بالولاء لمولاهم ملك أتجه، ويلقب في الوثائق الملاوية بالسلطان. أما أتباعه فيطلقون عليه اسم «راجا» أو «بوتو» أي مولانا.

وتقوم قوة سلاطين أتجه ونفوذهم وثروتهم وعظمة بلاطهم على الرسوم التي يدفعها لهم حكام المناطق الساحلية المجاورة، والمكوس البحرية التي يجبونها في عاصمة أتجه، أما أتجه نفسها فكانت قليلة الموارد، وكان سلاطين أتجه يعتمدون على ما يأتيهم من المناطق المجاورة لعاصمتهم حتى في أوج عظمة السلطنة. وهذا ما أدى منذ نهاية القرن السابع عشر إلى وقوع السلاطين تحت رحمة الـ«أولي بالانج» في أتجه العظمى، الذين ألّفوا ثلاثة اتحادات عرفت باسم «ساجي» لحماية مصالحهم، ويتولى كل منها «بانجليما ساجي» أو سيد كبير، ولا تتعدى سلطته رعاية المصالح العامة للساجي. وأصبح حكام الساجي الثلاثة ينتخبون السلطان الذي ينتمي عادة إلى أسرة سلفه. وفي حالات نادرة قد يكون السلطان المنتخب من الغرباء من أمثال السادة الأشراف المقيمين في أتجه، وبمرور الزمن أصبح لبعض الشيوخ دور في انتخاب السلطان. ومع ذلك فقد ظل معظم الـ«أولي بالانج» في أتجه والولايات التابعة لها يحصلون على ألقابهم ومناصبهم من السلطان.

بدأ التوغل الأوربي في إقليم أتجه مع البرتغاليين عندما زارها ألفارو تيليز Tellez عام ٩١٢هـ/١٥٠٦م. كما أقام كل من الإنكليز والألمان مستقرات لهم في أتجه سنة ١٠٠٨هـ/١٥٩٩م و١٠١١هـ/١٦٠٢م على التوالي. وفي عام ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، عقد البريطانيون معاهدة مع سلطان أتجه تعهد العاهل الأتجي بموجبها بعدم السماح لأجانب آخرين بإقامة مستقرات دائمة لهم في السلطنة، إلا أن الإنكليز بادلوا مستقراتهم في سومطرة مع مستقرات للهولنديين في مكان آخر من آسيا عام ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م، وفي عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م عقد الهولنديون معاهدة مع إنكلترة أطلقت يد الهولنديين في سومطرة. وبادر الهولنديون إلى احتلال عاصمة أتجه والمناطق المجاورة لها وبعض الموانىء في الولايات التابعة لها احتلالاً مباشراً عام ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م. وقد أمل الهولنديون بخضوع سكان المناطق الداخلية لهم تدريجياً. إلا أن أملهم هذا تلاشى بعد أن نشطت مقاومة الأتجيين بقيادة فريق من الفقهاء الوطنيين الذين دعوا إلى الجهاد المقدس. وقد تم للهولنديين احتلال سلطنة أتجه والمناطق التابعة لها بعد سنوات من العمليات العسكرية (١٢٩٤-١٢٩٩هـ / ١٨٧٧-١٨٨١م) وحصلوا على اعتراف السلطان محمد داود بسلطتهم منذ مطلع عام ١٣٢١هـ/١٩٠٣م. ولكن الأتجيين لم يذعنوا ولم يخضعوا تماماً لهم، واضطر الهولنديون بسبب ذلك إلى الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة دائمة في مناطق متعددة من السلطنة للرد على المناوشات المستمرة التي كان يقوم بها السكان المحليون، وللكشف عن مخابىء الثوار وتعقبهم. كما لاقى اليابانيون الإخفاق نفسه في أثناء الحرب العالمية الثانية، وتلبية لرغبة الأتجيين في الحصول على الحكم الذاتي اضطرت الحكومة الأندونيسية بعد الاستقلال إلى أن تجعل من أتجه محافظة مستقلة ذاتياً عام ١٩٥٦م.

جدول بأسماء السلاطين الذين تعاقبوا على حكم أتجه

علي مغايت شاه ١٥١٤ - ١٥٢٨، صلاح الدين ١٥٢٨-١٥٣٧، علاء الدين القهار ١٥٣٧-١٥٦٨، حسين ١٥٦٨-١٥٧٥، سلطان مودا بضعة أيام، سلطان سري عالم ١٥٧٥-١٥٧٦، زين العابدين ١٥٧٦-١٥٧٧، علاء الدين البراكي حكم باسم منصور شاه ١٥٧٧ - ١٥٨٦، سلطان بويونغ ١٥٨٩، علاء الدين رعايت شاه ١٥٨٦ (١٥٨٩) - ١٦٠٤، علي رعايت شاه ١٦٠٤-١٦٠٧، اسكندر مودا ساكوتا عالم ١٦٠٧-١٦٣٦، اسكندر الثاني ١٦٣٦-١٦٤١، صفية الدين تاج العالم ابنة اسكندر مودا وأرملة اسكندر الثاني ١٦٤١-١٦٧٥، نقية الدين نور العالم ١٦٧٥-١٦٧٨، عنايت شاه ١٦٧٨-١٦٨٨، كمالت شاه ١٦٨٨-١٦٩٩، بدر العالم شريف هاشم جمال الدين ١٦٩٩-١٧٠٢، بركرا عالم شريف لمتوي ١٧٠٢-١٧٠٣، جمال العالم بدر المنير ١٧٠٣-١٧٢٦، جوهر العالم أمين الدين بضعة أيام فقط، شمس العالم بضعة أيام فقط، علاء الدين أحمد شاه ١٧٢٧-١٧٣٥، علاء الدين جُ هان ١٧٣٥-١٧٦٠، محمود شاه ١٧٦٠-١٧٨١ [؟]، بدر الدين ١٧٦٤-١٧٦٥، سليمان شاه ١٧٧٣، علاء الدين محمد ١٧٨١-١٧٩٥، علاء الدين جوهر العالم ١٧٩٥-١٨١٥ حكم تحت الوصاية إلى ١٨٠٢، شريف سيف العالم ١٨١٥-١٨١٨، جوهر العالم الثاني ١٨١٨-١٨٢٤، محمد شاه ١٨٢٤-١٨٣٨، منصور شاه ١٨٣٨-١٨٧٠، محمود شاه ١٨٧٠ - ١٨٧٤.

صباح كعدان

الموضوعات ذات الصلة:

أندونيسية - التصوف - سومطرة.

مراجع للاستزادة:

- C. S.HURGONJE, The Achehense, (Batavia leyed, Trad. Anglaise par O'Sullivan).

-D. LOMBARD, Le Sultanat d'Atjéh au Temps d'Iskandar Muda,(Paris 1967).

■ الإتحاد الأثيني ← أثينة

■ اتحاد إذاعات الدول العربية

اتحاد إذاعات الدول العربية Union of Arab Broadcasting Services منظمة عربية متخصصة، يعمل ضمن الإطار العام لجامعة الدول العربية مستقلاً تماماً عنها من الناحية القانونية.

أنشيء الاتحاد بموجب اتفاقية أقرها مجلس جامعة الدول العربية بقراره ذي الرقم ١١٠٠ المؤرخ في ١٥/١٠/١٩٥٥. وقد عدلت هذه الاتفاقية باتفاقية أخرى أقرها مجلس الجامعة بقراره ذي الرقم ٢١٢٥ المؤرخ في ٢٠/٤/١٩٦٥. وقد حلت هذه الاتفاقية محل الأولى ابتداء من ٤/٣/١٩٧٣. وكانت القاهرة مقراً دائماً للاتحاد، ثم أصبحت تونس مقراً مؤقتاً له بعد تجميد عضوية مصر في مؤسسات العمل العربي المشترك إثر توقيعها معاهدة السلام مع «إسرائيل» في ٢٦/٣/١٩٧٩، وبقي المقر في تونس رغم عودة الجامعة العربية إلى القاهرة في عام ١٩٩٠.

من أهداف اتحاد إذاعات الدول العربية: تعزيز روح الإخاء العربي، وتنمية الاتجاهات العربية المشتركة، ووضع خطة منسقة تسير عليها إذاعات الدول العربية في برامجها، وتعريف شعوب العالم بواقع الأمة العربية وإمكاناتها وآمالها وأمانيها وقضاياها، وتنمية الجهود التي لها علاقة بالإذاعة ودراستها وتنسيقها، والعمل على تبادل الخبرات والمعلومات عن كل المسائل التي تعود بالنفع العام على إذاعات الدول العربية الأعضاء، والعمل على زيادة إمكانات البلاد العربية في الحقل الإذاعي والنهوض به، وترسيخ التعاون الهندسي بين دول الاتحاد، وتنظيم استخدام موجات الإذاعة اللاسلكية في الوطن العربي بالتعاون مع المنظمات الدولية للإذاعات، وإعداد جداول الموجات اللاسلكية التي تحتاج إليها الدول العربية وتنسيقها فلا تتعارض أو تتداخل، وتوحيد الدفاع عن حاجات الدول العربية في المنظمات الدولية، والعمل على إيجاد الحلول للخلافات التي يمكن أن تنشأ بين البلاد العربية في الحقل الإذاعي.

ينقسم أعضاء الاتحاد إلى أعضاء عاملين وأعضاء منتسبين. أما الأعضاء العاملون فهم إذاعات الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية. وعند وجود أكثر من هيئة إذاعية في دولة أو بلد عربي فإن واحدة منها، تعينها حكومة الدولة أو البلد المعني، هي التي تكون عضواً عاملاً في حين تكون الهيئات الإذاعية الأخرى أعضاء منتسبين إذا ما طلبت ذلك ووافقت الجمعية العامة للاتحاد على طلبها، وتضاف إلى هؤلاء الأعضاء الإذاعات الأخرى التي توافق الجمعية العامة للاتحاد بأغلبية ثلاثة أرباع أعضائه العاملين على قبولها في الاتحاد.

يتكون الاتحاد من جمعية عامة ومجلس إداري وأمانة عامة ومركز هندسي: أما الجمعية العامة فهي الهيئة العليا للاتحاد وتنعقد في دورة عادية سنوية مع جواز انعقادها استثنائياً، وتتولى رسم سياسة الاتحاد والمصادقة على برامجه وموازنته.

وأما المجلس الإداري فيتألف من رئيس الجمعية العامة ونائبه وعضو عامل وفقاً للترتيب الهجائي لأسماء الأعضاء العاملين ويجتمع مرتين على الأقل في السنة ويتولى جميع السلطات الخاصة بالجمعية العامة فيما بين دورتي الانعقاد ويقوم بتنفيذ قراراتها ومتابعتها، وله وحده حق عقد الاتفاقات مع المنظمات الأخرى بتفويض من الجمعية العامة ويتولى تمثيل الاتحاد قضائياً.

وأما الأمانة العامة فيرأسها أمين عام، تعينه الجمعية العامة بناء على اقتراح المجلس الإداري، يساعده عدد من الموظفين الإداريين وتتولى الأمانة العامة القيام بجميع الأعمال الإدارية في الاتحاد. وأما المركز الهندسي فيكون برئاسة مدير فني تعينه الجمعية العامة بناء على اقتراح المجلس الإداري ويكون مسؤولاً عن جميع الأعمال الهندسية والفنية اللازمة لحسن قيام الاتحاد بعمله. وفي مطلع السبعينات من القرن العشرين انبثقت عن الاتحاد ثلاثة مراكز فرعية هي: المركز العربي للتدريب الإذاعي والتلفزيوني في دمشق وقد أنشيء عام ١٩٧٢ ، والمركز العربي لبحوث المستمعين والمشاهدين في بغداد وأنشيء عام ١٩٧٧ ، والمركز العربي لتبادل الأخبار والبرامج في الجزائر وأنشيء عام ١٩٨٤.

ومن أبرز ما أنجزه الاتحاد في ثلاثين عاماً ونيف إصدار مجلة هندسية تعنى بالشؤون الإذاعية، وإعداد دراسات أو ترجمات عن الخدمات التلفزيونية، (أصول قياس الألوان ومبادىء التلفزيون الملون)، واستخدام الأقمار الصناعية للأغراض الإذاعية والتلفزيونية وعن رموز التزامن بين كاميرات التلفزيون ومسجلات الصوت وعن محطة الرصد في الخرطوم، وعن أهداف المركز الهندسي ومشروعاته، والتلفزيون الرقمي، والشبكة الفضائية العربية لأغراض الاتصال ووسائل الإعلام، وشبكة تلفزيون منطقة الخليج وتبادل الأخبار بينها عن طريق سواتل انتلسات، وإعادة استخدام القنوات التلفزيونية. وأقام الاتحاد ندوات كثيرة متخصصة وشجع إقامة مراكز تدريب فنية في الأقطار العربية، وأنشأ شبكة محطات رصد وقياسات على نمط المحطة النموذجية في الخرطوم ودرس إمكانية تنفيذ مشروعات تبادل الأخبار بين تلفزيونات الدول العربية بوساطة المحطات الأرضية العاملة مع «عرب سات» ولا سيما نقل المباريات الرياضية والدورات الأولمبية بأسعار معقولة. وفي نهاية عام ١٩٩٥ وافقت الجمعية العامة للاتحاد في دورتها السادسة الاستثنائية على اقتراح تعديل اتفاقية الاتحاد بما يتماشى ومقتضيات التمويل الذاتي للاتحاد.

محمد عزيز شكري

الموضوعات ذات الصلة:

جامعة الدول العربية - الوظيفية.

مراجع للاستزادة:

- محمد عزيز شكري، جامعة الدول العربية ووكالاتها المتخصصة بين النظرية والواقع (دار ذات السلاسل، الكويت ١٩٧٥)

■ اتحاد أطباء الأسنان العرب

اتحاد أطباء الأسنان العرب Arab Dental Federation: منظمة مهنية دائمة تضم أطباء الفم والأسنان وجرّاحيهما الأعضاء في نقابات أطباء الأسنان وهيئاتهم وجمعياتهم في الوطن العربي. تأسس عام ١٩٦٨، في إثر انعقاد المؤتمر العربي السادس لطب الفم وجراحة الأسنان. ومقره الحالي مدينة بغداد.

من أهداف الاتحاد: الإسهام في دعم تحرير الوطن العربي سياسياً واقتصادياً وفكرياً ووحدة

الأمة العربية وتقدمها، والعناية بالتراث الطبي العربي والإسلامي وجمعه وترجمته ووضعه في متناول أطباء الأسنان العرب، وتمكين الأطباء وجرَّاحي الفم والأسنان العرب من التعارف وتوثيق عُرى الزمالة والتعاون في المجالات العلمية والتقنية، ونشر رسالة طب الفم والأسنان وجراحتهما من نواحيها العلاجية والوقائية والإنسانية في كل الأقطار العربية وربطها بالمجتمع، والعمل على توفير العلاج لجميع أفراد الشعب العربي، وتوحيد المصطلحات الطبية العربية، واستكمال المؤلفات الطبية وتعميم تدريس جراحة الفم والأسنان باللغة العربية، ودراسة أمراض الفم والأسنان في الوطن العربي ومشكلاتها الصحية دراسةً علمية للعمل على علاجها والوقاية منها.

العضوية في الاتحاد على نوعين: عضوية كاملة وعضوية مشاركة، والعضوية الكاملة هي للمنظمات المهنية لأطباء الفم والأسنان وجراحيهما في الأقطار العربية، أما العضوية المشاركة فهي للهيئات الرسمية في الأقطار العربية التي ليس فيها منظمات مهنية لأطباء الأسنان وللأطباء وجرَّاحي الفم والأسنان العرب الذين يقطنون الوطن العربي أو المهجر.

يمارس الاتحاد نشاطه ويعمل على تحقيق أهدافه بالأجهزة التنظيمية التالية:

١ـ الجمعية العمومية
٢ـ المجلس الأعلى
٣ـ المكتب التنفيذي

فالجمعية العمومية هي السلطة العليا في الاتحاد، وتتكون من ممثلي الأقطار العربية الأعضاء بأعداد تتناسب مع عدد الأطباء في كل قطر بنسبة ممثل لكل ١٠٠ طبيب على ألاّ يزيد عدد ممثلي كل قطر على خمسة ولا يقل عن واحد إضافة إلى أعضاء المجلس الأعلى وفيهم أعضاء المكتب التنفيذي.

تنعقد الجمعية العمومية مرة كل سنتين في أحد الأقطار العربية في دورة عادية وتجوز دعوتها لعقد دورات غير عادية أو استثنائية، ويرأس اجتماعاتها الأمين العام للاتحاد. وتتولى الجمعية العمومية رسم سياسة الاتحاد وتوجيه نشاطاته واتخاذ القرارات الكفيلة بتحقيق أهدافه.

ويتألف المجلس الأعلى من ممثلين اثنين عن المنظمة المهنية من كل قطر من الأقطار الأعضاء في الاتحاد ومن ممثل عن كل من الهيئات الرسمية المشاركة ومن أعضاء الشرف الذين ينتخبهم المجلس الأعلى، إضافة إلى أعضاء المكتب التنفيذي للاتحاد. ومن مهمات هذا المجلس إقرار طلبات الانتساب إلى الاتحاد والعمل على تنفيذ قرارات الجمعية العمومية. ويعقد المجلس الأعلى اجتماعاته برئاسة الأمين العام مرة كل سنة على الأقل.

أما المكتب التنفيذي فيتألف من خمسة أعضاء ينتخبهم المجلس الأعلى من بين أعضائه الأصليين لمدة أربع سنوات وهم: الأمين العام، والأمين العام المساعد، والأمين المالي، ورئيس المؤتمر العلمي للاتحاد (ويكون حكماً من القطر الذي يعقد فيه المؤتمر) وعضو خامس. يجتمع المكتب التنفيذي مرتين في السنة على الأقل ويكون مسؤولاً عن تنفيذ قرارات المجلس الأعلى والجمعية العمومية ومتابعتها والإشراف على تحضير المؤتمرات والندوات العلمية.

وللاتحاد لجان دائمة يؤلفها المجلس الأعلى وهي: لجنة العلاقات العامة وتنسيق المؤتمرات، واللجنة العلمية وتطوير برامج الدراسة وتنسيقها، ولجنة الشؤون الصحية والأبحاث العلمية والمجلة، ولجنة تعريب المصطلحات الطبية وتوحيدها، ولجنة أطباء الأسنان في القوات المسلحة.

ينظم الاتحاد مؤتمراً علمياً لطب الفم والأسنان وجراحتهما يعقد مرة كل سنتين على الأقل في أحد الأقطار العربية. وتصدر عن الاتحاد مجلة علمية وثقافية خاصة به.

محمد عربي كاتبي

■ اتحاد الأطباء العرب

اتحاد الأطباء العرب Arab Medical Union منظمة مهنية عربية تضم جميع الأطباء أعضاء نقابات الأطباء وهيئاتهم وجمعياتهم الطبية في مختلف الأقطار العربية، مقره الدائم مدينة القدس لكن مقره الحالي المؤقت هو مدينة تونس.

نشأة الاتحاد ومقره

بدأ الأطباء العرب لقاءاتهم الطبية والنقابية على الصعيد العربي عن طريق المؤتمرات الطبية التي كانت تنظمها الجمعية الطبية المصرية منذ عام ١٩٢٨، ويشارك فيها أطباء من مختلف الأقطار العربية. وكانت هذه المؤتمرات تعقد دورياً، سنة في مصر وسنة أخرى خارجها في إحدى الدول العربية، إلى أن تبلورت، في المؤتمر الطبي العربي الثامن والعشرين الذي عقد في بيروت عام ١٩٦٠، فكرة ضرورة قيام منظمة أو اتحاد يضم الأطباء في مختلف الأقطار العربية. وتم تأسيس هذا الاتحاد في المؤتمر الطبي العربي التاسع والعشرين الذي عقد في القاهرة عام ١٩٦١، وتم الإعلان رسمياً عن قيام اتحاد الأطباء العرب.

أهدافه

يهدف الاتحاد، فيما يهدف إليه، إلى العمل على تحرير الوطن العربي من الاستعمار والتخلف، ورفع المستوى الصحي والطبي للمجتمع العربي، ونشر رسالة الطب الإنسانية من نواحيها الوقائية والعلاجية والاجتماعية في كل أرجاء الوطن العربي، وإنماء الروح النقابية ودعم العمل النقابي بين الأطباء العرب، وتقوية وسائل التعارف والتعاون المخلص بينهم، والارتقاء بمهنة الطب علمياً وتنظيمياً، وإحياء التراث الطبي العربي، وتوحيد أسس مزاولة مهنة الطب وشروطها عربياً ومناهج التدريس والتدريب والاختصاص في المعاهد الطبية العربية، والعمل على تعليم الطب باللغة العربية، وتشجيع تصنيع الدواء العربي واستعماله.

هيئاته التنظيمية

يباشر الاتحاد أعماله بوساطة هيئاته الأساسية الآتية: المجلس الأعلى والمؤتمر العام والأمانة العامة واللجان الفنية التخصصية.

المجلس الأعلى: هو الهيئة العليا في الاتحاد

ويتكوّن من أعضاء الأمانة العامة المنتخبين، إضافة إلى ممثلين اثنين لكل قطر عربي عضو في الاتحاد تعينهما الهيئة أو الهيئات الطبية القائمة في ذلك القطر.

ومن مهام هذا المجلس انتخاب الأمين العام وأعضاء الأمانة العامة، وإقرار النظام الداخلي والنظام المالي للاتحاد وموازنته السنوية وإقرار التعديلات على القانون الأساسي للاتحاد، وإقرار قبول طلبات العضوية في الاتحاد وتجميدها، واعتماد خطة العمل لمشروعات الاتحاد ونشاطاته ورسمها، ودراسة توصيات المؤتمر العام واتخاذ القرارات المناسبة بشأنها، وتأليف اللجان الفنية التخصصية.

المؤتمر العام: يتكوّن من مجموع الأطباء المسجلين في جداول الهيئات الطبية الأعضاء في الاتحاد، ويجتمع مرة كل سنة، ويناقش في اجتماعه تقرير الأمين العام للاتحاد عن أعمال الاتحاد في العام المنصرم ويتخذ التوصيات التي يراها مناسبة ويرفعها إلى المجلس الأعلى.

الأمانة العامة: هي الهيئة التنفيذية للمجلس الأعلى، وتتألف من الأمين العام وستة أمناء مساعدين ينتخبون لمدة أربع سنوات. تجتمع الأمانة العامة اجتماعاً دورياً مرة كل ثلاثة أشهر على الأقل وطارئاً بدعوة من الأمين العام. وتعقد اجتماعاتها في مقر الاتحاد أو في أي مكان آخر. ومن مهامها تنفيذ توصيات المجلس الأعلى وقراراته ومتابعتها، والإشراف على نشاطات اللجان الفنية التخصصية ووضع مشروع موازنة الاتحاد، والتحضير لانعقاد المؤتمر السنوي وتنظيم أعماله، ودعوة المجلس الأعلى للانعقاد والإشراف على تحضير اجتماعاته وتسجيل وقائع جلساته، وإعداد التقارير عن أعمال الاتحاد للمجلس الأعلى وتقديم الاقتراحات بشأن نشاطات الاتحاد وأنظمته المختلفة، وتنظيم أمور مكتب الاتحاد والإشراف على أعماله وتعيين الموظفين الدائمين له.

اللجان الفنية التخصصية: وهي لجان استشارية يرأسها الأمناء العامون المساعدون وتتألف كل لجنة من ثلاثة أعضاء إلى سبعة يتم تحديدهم على أساس الأقطار. وللهيئات الطبية الممثلة لتلك الأقطار تسمية أعضائها في هذه اللجان. واللجان الفنية القائمة الآن في الاتحاد هي: لجنة التخطيط والمتابعة واللجنة العلمية ولجنة الإعلام والثقافة ولجنة العلاقات العامة.

وللأمانة العامة حق تأليف لجان مؤقتة لإعداد دراسات خاصة بقضايا ضرورية ومهمة قومية وطبية وغيرها.

ويمكن ضمن إطار اتحاد الأطباء العرب إنشاء روابط طبية تخصصية هدفها تمتين أواصر الزمالة والأخوّة بين الأعضاء من مختلف الأقطار العربية بالتعارف والتزاور في سبيل التعاون على رفع شأن مهن الطب في اختصاص الرابطة من الناحيتين العلمية والعملية.

نشاطات الاتحاد

يقيم الاتحاد علاقات تعاون وطيدة مع المنظمات الطبية والصحية العربية والإقليمية والدولية. فهو عضو مراقب في مجلس وزراء الصحة العرب، وعضو عامل في اللجنة العليا لشؤون الدواء وفي المجلس العربي للاختصاصات الطبية التابعين لمجلس وزراء الصحة العرب. ويرتبط باتفاقية تعاون وتنسيق مع المركز العربي للوثائق والمطبوعات الصحية.

وللاتحاد علاقات متميزة مع المكتب الإقليمي لشرق البحر المتوسط لمنظمة الصحة العالمية ومن ثمار هذه العلاقة كان «المعجم الطبي الموحد».

ومن أهم المنظمات الطبية المهنية والإنسانية العربية والإسلامية والدولية التي يتعاون معها الاتحاد من أجل تحقيق أهدافه وتنفيذ برامجه المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية، ورابطة أطباء البحر المتوسط، ورابطة الأطباء العرب في أمريكة، ورابطة الأطباء العرب في أوربة، والمنظمة العالمية للوقاية في الحروب النووية وغيرها.

وللاتحاد علاقات قوية وهادفة مع الاتحادات المهنية العربية لتنسيق النضال القومي والمهني المشترك.

عدنان تكريتي

■ **الاتحاد الألماني** ← ألمانية

■ **الاتحاد الأوربي** ← الأوربي (الاتحاد -)

■ الاتحاد البرلماني الدولي

الاتحاد البرلماني الدولي Inter Parliamentary Union منظمة دولية تتألف من شعب تمثل المجالس البرلمانية في العالم، ويرجع تاريخ المنظمة تحديداً إلى عام ١٨٨٩، عندما انعقد في باريس بمبادرة من وليم راندل كريمر من بريطانية وفريديريك باسي من فرنسة أول مؤتمر برلماني للتحكيم الدولي وحضره مندوبون من تسعة بلدان. وفي عام ١٨٩٤ أنشئت منظمة دائمة لها نظامها الأساسي وأمانتها الدائمة باسم الاتحاد البرلماني الدولي. ومنذ ذلك الحين، وعلى الرغم من التطورات الكبيرة التي شهدها العالم، ومنها الحربان العالميتان، يواصل الاتحاد أنشطته موسّعاً بالتدريج مجالات عمله ومكيفاً وسائله مع الظروف المتغيّرة.

أهداف الاتحاد

يهدف الاتحاد البرلماني الدولي إلى تنمية الاتصالات الشخصية بين أعضاء جميع البرلمانات التي تؤلف شُعَباً وطنية والجمع بينهم للقيام بعمل مشترك لضمان إسهام دولهم إسهاماً تاماً في دعم المؤسسات التمثيلية وتطويرها وتنمية العمل من أجل السلام العالمي والتعاون الدولي ولا سيما عن طريق مؤازرة أهداف الأمم المتحدة. وتحقيقاً لهذه الغاية يعبِّر الاتحاد البرلماني الدولي عن رأيه في جميع المسائل الدولية التي يمكن تسويتها بالعمل البرلماني، ويقدم المقترحات لتطوير المؤسسات البرلمانية بهدف تحسين سير أعمالها.

تكوين الاتحاد وبنيته التنظيمية

يتألف الاتحاد البرلماني الدولي من شُعَب وطنية تقيمها البرلمانات المكوَّنة وفقاً لقوانين دولة ذات سيادة تمثل سكانها وتعمل على أرضها. وفي بعض الحالات يتم اختيار أعضاء الشُعب الوطنية على أساس فردي، وفي حالات

أخرى يمكن أن يؤلف البرلمان بأكمله شعبةً وطنية. وحتى نيسان ١٩٨٨ بلغ عدد الشعب المنضمة إلى الاتحاد ١٠٩ شُعبة موزعة على قارات العالم الخمس.

ويتكون الاتحاد البرلماني الدولي الذي مقره مدينة جنيف، من الأجهزة التالية:

المؤتمر البرلماني الدولي: ويتكون من الأعضاء الذين تعينهم شُعَبُهم الوطنية مندوبين. وتمثّل الشعب الوطنية بوفود تتباين أعدادها وتحدد حقوقها في التصويت تبعاً لتعداد سكان الدولة التي يمثلونها. ويناقش المؤتمر جدول أعمال يحدده مجلس الاتحاد ويتضمن المشاكل الدولية المختلفة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والبيئية وغيرها. وتقوم بذلك أربع لجان دائمة هي: لجنة القضايا السياسية والأمن الدولي ونزع السلاح، ولجنة القضايا البرلمانية والقانونية وحقوق الإنسان، ولجنة القضايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وشؤون البيئة، ولجنة المناطق غير المستقلة والقضايا العرقية.

ويضع المؤتمر التوصيات المعبرة عن آراء الاتحاد إزاء هذه المشكلات. ويعمل البرلمانيون الأعضاء في الاتحاد على تنفيذ تلك التوصيات عن طريق برلمانات بلدانهم وينعقد المؤتمر العام مرتين في العام كما يمكن أن يعقد مؤتمرات واجتماعات إضافية.

مجلس الاتحاد البرلماني الدولي: هو الجهاز الموجه للاتحاد البرلماني الدولي. ويتألف من ممثلين اثنين عن كل شعبة وطنية عضو في الاتحاد. وهو الذي يقرر قبول عضوية الشُعب الوطنية أو تعليقها، ويحدد عدد لجان الدراسة واختصاصاتها، ويقرر جدول أعمال المؤتمر ومكان انعقاده وتاريخه، ويقر ميزانية الاتحاد السنوية ويقترح انتخاب أعضاء اللجنة التنفيذية، ويعرب عن رأيه في الاقتراحات المقدمة لتعديل النظام الأساسي للاتحاد. ويجتمع المجلس سنوياً مرتين في العام (دورة في إطار كل مؤتمر).

اللجنة التنفيذية: هي الجهاز الإداري للاتحاد، وتتألف من رئيس الاتحاد، الذي هو، بحكم منصبه، رئيس للجنة التنفيذية، ومن اثني عشر عضواً ينتمون إلى شُعب وطنية مختلفة، ينتخبهم المؤتمر من بين أعضاء مجلس الاتحاد البرلماني الدولي.

الأمانة العامة: هي الجهاز الدائم الذي ينسق أنشطة الشُعب الوطنية، ويقوم بتنفيذ مقررات الاتحاد. كما أنها تسهم، عن طريق المركز الدولي للوثائق البرلمانية التابع لها، في دراسة المؤسسات البرلمانية وتطويرها. ويرأس الأمانة العامة أمين عام يعينه مجلس الاتحاد.

رابطة الأمناء العامين للبرلمانات: وهي جهاز استشاري يختص بدراسة الأنظمة البرلمانية بالتعاون مع باقي أجهزة الاتحاد وذلك في مراحل إعداد المشروعات وتنفيذها وللرابطة إدارة مستقلة إلا أن ميزانيتها جزء من ميزانية الاتحاد.

أنشطة الاتحاد

للاتحاد البرلماني الدولي وضع استشاري من الفئة الأولى مع المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للأمم المتحدة. كما أنه يقيم علاقات وثيقة مع منظمة العمل الدولية واليونسكو ومنظمة الصحة العالمية. وله صلات رسمية مع الوكالات المتخصصة الأخرى للأمم المتحدة.

كذلك يقيم الاتحاد علاقات منتظمة مع عدد كبير من المنظمات الإقليمية مثل: مجلس أوربة ومنظمة الدول الأمريكية والبرلمان الأوربي والاتحاد البرلماني العربي واتحاد البرلمانات الإفريقية وغيرها. ويحضر ممثلون عن هذه المنظمات، مؤتمرات الاتحاد البرلماني الدولي بصفة مراقب.

إضافة إلى المؤتمرات الدورية التي يعقدها الاتحاد لدراسة المشكلات البرلمانية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية ذات الأهمية الدولية، يمكن عقد اجتماعات ومؤتمرات إضافية حول موضوعات معينة لها أهمية خاصة.

ولدراسة المؤسسات البرلمانية وتقويتها يستعين الاتحاد، على وجه الخصوص، بالمركز الدولي للوثائق البرلمانية الذي أنشىء في عام ١٩٦٥.

كما يقوم الاتحاد بتقديم مساعدات للشُعب الأعضاء بهدف دعم الخدمات التي تؤديها البرلمانات عن طريق المنح العلمية وتقديم الاستشارات والخبرات للبرلمانات التي تطلبها.

المطبوعات

يزود الاتحاد الشُعب الأعضاء سنوياً بمحاضر جلسات المؤتمرين البرلمانيين ودورتيّ مجلس الاتحاد. ويصدر الاتحاد نشرتين دوريتين بالإنكليزية والفرنسية هما: النشرة البرلمانية الدولية وهي المجلة الرسمية للاتحاد، والمعلومات الدستورية والبرلمانية وهي مجلة تعالج الأمور الدستورية والبرلمانية وتقوم بإصدارها رابطة الأمناء العامين للبرلمانات.

ويصدر عن المركز الدولي للوثائق البرلمانية نشرة سنوية إخبارية تهتم بأخبار الانتخابات البرلمانية التي تجري في مختلف دول العالم.

عبد الرحمن بوراوي

■ الاتحاد البرلماني العربي

الاتحاد البرلماني العربي Arab Inter Parliamentary Union منظمة برلمانية عربية تتألف من شُعب تمثل المجالس البرلمانية العربية. وقد ولد الاتحاد البرلماني العربي في أعقاب حرب تشرين الأول عام ١٩٧٣ في جو التضامن والعمل العربي المشترك الذي عاشته الأمة العربية في تلك الحقبة والذي وفر مناخاً مؤاتياً لنمو التعاون العربي عن طريق المؤسسات النقابية والمهنية والاختصاصية. ونتيجة للاتصالات التي جرت بين البرلمانيين العرب تمت دعوة البرلمانات العربية إلى عقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد البرلماني العربي في دمشق في المدة من ١٩-٢١ حزيران ١٩٧٤. وشارك فيه ممثلو عشرة برلمانات عربية. وأقر المؤتمر التأسيسي ثلاث وثائق هي: البيان التأسيسي ومشروع الميثاق ومشروع النظام الداخلي.

واتسعت عضوية الاتحاد تدريجياً بانضمام برلمانات عربية جديدة إليه. وأصبح الاتحاد يضم في عضويته عام ١٩٩٨ تسع عشرة شعبة برلمانية تمثل البرلمانات العربية في كل من الأردن والإمارات العربية المتحدة وتونس والجزائر وجيبوتي والسودان وسورية والصومال والعراق وفلسطين والكويت ولبنان والمغرب والجمهورية اليمنية وقطر والبحرين وعمان.

أهداف الاتحاد

حدد ميثاق الاتحاد أهداف الاتحاد البرلماني العربي على النحو التالي: تعزيز اللقاءات والحوار

بين المجالس البرلمانية العربية وفيما بين البرلمانيين العرب في سبيل العمل المشترك وتنسيق الجهود البرلمانية العربية في مختلف المجالات وتبادل الخبرات التشريعية، وتنسيق جهود المجالس النيابية في مختلف المحافل والمجالات والمنظمات الدولية، ولاسيما في نطاق الاتحاد البرلماني الدولي للبرلمانات العربية المشتركة فيه، وبحث القضايا العربية المشتركة في النطاق القومي والدولي واتخاذ التوصيات والقرارات بشأنها، والعمل على تعميق المفاهيم والقيم الديمقراطية في الوطن العربي، والعمل على تنسيق التشريع في الدول العربية وتوحيده، والعمل على تعزيز التعاون بين شعوب العالم من أجل سلام قائم على العدل.

تكوين الاتحاد وميزانيته ومقره

يتكون الاتحاد من الأجهزة التالية: المؤتمر: ويعقد مرة كل سنتين بضيافة إحدى الشعب الأعضاء، ومجلس الاتحاد: ويعقد مرة كل سنة بالتناوب في إحدى العواصم العربية وفق الترتيب الهجائي للشعب، والأمانة العامة: ويديرها الأمين العام المعين من قبل مجلس الاتحاد لمدة عامين قابلة للتجديد. وللاتحاد ميزانية مستقلة تتكون من إسهامات الشعب البرلمانية الأعضاء وفق نسب معينة يحددها مجلس الاتحاد كل عام. والمقر الدائم للاتحاد هو مدينة دمشق، عاصمة الجمهورية العربية السورية.

أنشطة الاتحاد

تشمل هذه الأنشطة الصعيد العربي والصعيد الدولي والنشاط الثقافي والإعلامي.

على الصعيد العربي: عقد الاتحاد منذ تأسيسه حتى عام ١٩٩٨م ثلاثين مؤتمراً عادياً واستثنائياً عالج فيها الكثير من القضايا التي تتعلق بتحقيق أهدافه السياسية والاقتصادية والتشريعية وغيرها. وكذلك أولت مؤتمرات الاتحاد اهتماماً كبيراً لتحقيق تضامن عربي فعال يضع الأساس لاستراتيجية عربية موحدة تعكس تطلعات الجماهير العربية وتكون قادرة على مواجهة التحديات التي تستهدف وجود الأمة العربية.

ويقيم الاتحاد علاقة تتوطد باستمرار مع الجامعة العربية ومختلف مؤسساتها لتنسيق الأنشطة في المؤتمرات الدولية وفي العلاقة مع المنظمات الدولية ولا سيما البرلمانية منها.

وللاتحاد أيضاً علاقة مع عدد من المنظمات الإقليمية العربية غير الحكومية مثل اتحاد الصحفيين العرب واتحاد المحامين العرب واتحاد الحقوقيين العرب والاتحاد العام للكتاب والأدباء العرب والاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب وغيرها.

على الصعيد الدولي: يشكل النشاط الدولي ركيزة مهمة في عمل الاتحاد البرلماني العربي. ويجري تجنيد كل الإمكانات في سبيل طرح القضايا العربية على المحافل البرلمانية الدولية وإقامة علاقات وثيقة مع الجهات البرلمانية المختلفة من أجل شرح عدالة الموقف العربي وكسب التأييد السياسي له. ويتبلور النشاط الدولي للاتحاد في ميدانين أساسيين.

العمل داخل الاتحاد البرلماني الدولي: يتمتع الاتحاد البرلماني العربي بصفة مراقب في الاتحاد البرلماني الدولي منذ عام ١٩٧٤. ويسهم إسهاماً فعالاً في جميع أنشطته. ويعمل على تنسيق مواقف الوفود العربية ووضع خطة تحركها، وإعداد البيانات والمذكرات الضرورية للمؤتمرات الدولية وتأمين الترجمة الفورية من اللغة العربية وإليها في تلك المؤتمرات.

الحوار مع مختلف المنظمات البرلمانية الإقليمية: وهو يشمل الحوار البرلماني العربي ـ الإفريقي في أثناء مؤتمرات ذلك الحوار التي تعقد مرة كل عامين، والحوار البرلماني العربي ـ الأوربي عن طريق الرابطة البرلمانية للتعاون العربي الأوربي التي بدأت منذ عام ١٩٧٤، والحوار مع برلمانات البلدان الاشتراكية وأمريكة اللاتينية وآسيا عن طريق الزيارات المتبادلة.

النشاط الثقافي والإعلامي: يقوم الاتحاد بنشاط ثقافي يتناول القضايا البرلمانية والتشريعية ونشر الدراسات حول مختلف القضايا الاقتصادية والسياسية ذات الطابع القومي العام. وينظم كل عامين ندوة برلمانية عربية حول أحد الموضوعات التي تهم البرلمانيين العرب، كما ينظم ملتقى حول الخبرات التشريعية العربية مرة كل عام.

وقد نظم الاتحاد حتى عام ١٩٨٩م عدداً من الندوات برلمانية، كان آخرها عام ١٩٩٨ في الأقصر عن الإرهاب كعائق للتنمية والتقدم.

ويصدر عن الأمانة العامة للاتحاد منذ تسع عشرة سنة مجلة فصلية هي «البرلمان العربي» ومجلة أخرى باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية هي «الحوار البرلماني» وذلك بالتعاون مع الرابطة البرلمانية للتعاون العربي الأوروبي. ويصدر عن الاتحاد عدد من الكتب والدراسات باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية.

عبد الرحمن بوراوي

■ الاتحاد البريدي العالمي

الاتحاد البريدي العالمي Universal Postal Union هو أقدم المنظمات الدولية الحالية، إذ يعود تأسيسه إلى أكثر من قرن من الزمن، وغايته تنظيم الخدمات البريدية في العالم وتحسينها، ومقره مدينة برن عاصمة سويسرة. ويحق لكل دولة عضو في الأمم المتحدة الانضمام إلى الاتحاد، أما بقية الدول فيتم قبولها بموافقة ثلثي الدول الأعضاء. وقد زاد أعضاء الاتحاد في عام ١٩٩٨ على ١٨٠ عضواً. كما بلغت موازنة الاتحاد في العام نفسه ١٠,٥ مليون دولار. وللدلالة على أهمية الاتحاد، يكفي أن يذكر أن دوائر البريد في العالم تنقل سنوياً ما يزيد على أربعة مليارات ونصف المليار من المراسلات لمصلحة ما يقرب من أربعة مليارات من الأشخاص، وأن عدد مكاتب البريد في العالم يزيد على ٦٥٠,٠٠٠ مكتب يعمل فيها نحو ٥ ملايين موظف. والخدمات البريدية ضرورية لكل مجتمع ولحياة المجموعة الدولية، فهي تنمي الاتصالات بين الأفراد والشعوب وتسهم في تعزيز التعاون الدولي في المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وفي التقريب بين الأمم.

لمحة تاريخية

مرت الخدمات البريدية في مراحل مختلفة منذ أقدم عصور التاريخ حتى اليوم، وتطورت بانتشار التعليم وكشف البلاد الجديدة وزيادة الاتصالات بين الدول وتطور سرعة وسائل النقل. بدأت هذه الخدمات عن طريق الوسائل الخاصة الفردية التي كان ينظمها الحكام والتجار والجماعات الدينية، ثم مرت بمرحلة الاتفاقيات الثنائية بين بعض الدول في القرن السادس عشر

واستمرت إلى أن وصلت إلى التنظيم العالمي الحالي الذي يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد عُقد أول مؤتمر دولي للبريد في باريس في ١١ أيار ١٨٦٣ وشاركت فيه ١٥ دولة أوربية وأمريكية .

وقد أقر المؤتمر عدداً من المبادىء العامة وأوصى الإدارات البريدية باتباعها عند عقد اتفاقات بريدية مع الإدارات الأخرى. واتضح بعد ذلك أن طريقة تحسين الخدمات البريدية بتطبيق مبادىء موحدة غير كافية، واقتُرح بحث موضوع إنشاء اتحاد بريدي بين الدول، ودعت سويسرة إلى هذا المؤتمر، الذي انعقد في برن في ١٥ أيلول ١٨٧٤ وشاركت فيه ٢٢ دولة منها دولة عربية واحدة هي مصر، ودولة إسلامية هي تركية. وقد أقر المؤتمر في اتفاقية برن (٩ تشرين الأول ١٨٧٤) إنشاء «الاتحاد العام للبريد» وبدأ نفاذ الاتفاقية في ١ تموز ١٨٧٥ وتزايد عدد أعضاء الاتحاد، وتغير اسمه في المؤتمر البريدي الثاني الذي عقد في باريس عام ١٨٧٨ وأصبح يعرف بالاتحاد البريدي العالمي.

ثم أصبح الاتحاد وكالة من الوكالات المتخصصة للأمم المتحدة عقب اتفاق عقد بين المنظمتين بتاريخ ٤ تموز ١٩٤٧ . وقد عقد الاتحاد حتى عام ١٩٩٧ تسعة وعشرين مؤتمراً منها مؤتمر القاهرة عام ١٩٣٤ . وعدّل في مؤتمر بروكسل عام ١٩٥٢ اتفاقية برن لعام ١٨٧٤ وذلك بإقراره اتفاقية البريد العالمية السارية منذ ١ تموز ١٩٥٣ ، كما أقر في مؤتمر فيينة عام ١٩٦٤ وثائقه الأساسية بحيث أصبحت منذ ١ كانون الثاني ١٩٦٦ ثلاثاً: ١ـ الدستور ٢ـ اتفاقية البريد العالمية ونظامها التنفيذي المفصل ٣ـ النظام العام للاتحاد.

أهداف الاتحاد

يرمي الاتحاد إلى تعزيز التعاون الدولي في مجال الخدمات البريدية عن طريق إنشاء منطقة بريدية واحدة لتنظيم تبادل المراسلات بين أعضائه، وتشمل هذه المنطقة اليوم العالم بأسره، ويشمل هذا التنظيم ما يلي : توحيد الرسوم البريدية التي تستوفيها كل دولة عن المراسلات الموجهة إلى جميع بلاد الاتحاد ضمن حدود معينة وتوحيد فئات الأوزان والمقاييس الخاصة بالمراسلات، وإلغاء توزيع الرسوم بين الدولة المرسلة والدولة المرسل إليها بحيث تحتفظ كل دولة بالرسوم التي تتقاضاها كاملة وتدفع إلى البلاد التي يمر البريد فيها تعويضات معينة، وضمان حرية مرور البريد في دول الاتحاد، واللجوء إلى التحكيم لفض المنازعات التي قد تنشأ بين إدارات البريد، وإنشاء مكتبٍ دولي، وعقد مؤتمر دوري لإعادة النظر في قرارات الاتحاد ومناقشة المسائل الجارية.

وتلتزم الدول الأعضاء تنفيذ نصوص الاتفاقية ونقل البريد بأنواعه والامتناع عن نقل المواد الممنوعة كالمخدرات والمفرقعات، كما تتعهد بإعادة الرسائل التي تعذر إيصالها إلى أصحابها. وإذا خالفت دولة ما الاتفاقية فإن الاتحاد يستطيع أن ينهي معها الاتصالات البريدية كافة.

وتنظيم الخدمات البريدية، وفقاً للوثائق الأساسية، يشمل: الرسائل والبطاقات البريدية والمطبوعات والرزم الصغيرة والبريد الجوي. أما الاتفاقيات الخاصة فهي اختيارية ولا تلزم إلا الأعضاء المنضمين إليها. وهي تشمل الطرود والحوالات و«الشيكات» البريدية والادخار واشتراكات الصحف والبريد المضمون وإرسال الحاجات مقابل تحصيل القيمة وغير ذلك.

أجهزة الاتحاد

يتكون الاتحاد من أربعة أجهزة هي :

المؤتمر العام: ويشترك فيه جميع أعضاء الاتحاد ويُعقد مرة كل خمسة أعوام لمراجعة الوثائق الأساسية وإقرار الاتفاقيات الاختيارية وتحديد نفقات الاتحاد وانتخاب أعضاء المجلس التنفيذي والمجلس الاستشاري، والنظر في اقتراحات هذين المجلسين واقتراحات الدول الأعضاء.

المجلس التنفيذي: ويتألف من ٤٠ عضواً ينتخبهم المؤتمر وفقاً لتوزيع جغرافي عادل ويجتمع مرة كل سنة في مقر الاتحاد .

ويشرف المجلس على نشاط الاتحاد في المدة التي تفصل بين كل مؤتمرين ويدرس المشكلات الإدارية والقانونية المتعلقة بهذا النشاط .

كما يراقب المكتب الدولي ويضع الاقتراحات للمؤتمر العام وينسق أشكال المعونة الفنية البريدية. وللمجلس سلطة مؤقتة لحل المشاكل العاجلة التي قد تثار بين مؤتمرين.

المجلس الاستشاري للدراسات البريدية: ويتكون من ٣٥ عضواً ينتخبهم المؤتمر لمدة تعادل المدة بين كل مؤتمرين. ويُكلف هذا المجلس دراسة المشكلات الفنية والاقتصادية ومشاكل الاستثمار والمسائل المتعلقة بالتعليم والتأهيل المهني، ويعد التقارير والدراسات عن هذه الموضوعات .

المكتب الدولي: ويقوم بمهام الأمانة العامة للاتحاد، وهو ينسق البيانات التي تهم الاتحاد وينشرها ويوزعها كطلب تعديل الوثائق الأساسية، ويشارك في إعداد أعمال المؤتمر العام، ويعطي الرأي في المسائل المتنازع عليها، ويقوم بعمل مقاصة لتصفية الحسابات بين الإدارات البريدية فيما يتعلق بنفقات المرور والنفقات الختامية وقسائم الجواب الدولية .

اختصاصات الاتحاد ونشاطه

تشمل اختصاصات الاتحاد اتخاذ القرارات اللازمة لتحقيق الأهداف والمبادىء التي قام عليها وتحديد الوسائل التي تكفل ذلك، وإقامة العلاقات مع المنظمات الدولية الأخرى لتسهيل تطبيق مقرراته ومساعدة الدول الأعضاء على تنفيذ برامجه في مختلف مجالات الخدمة البريدية وهي تشمل:

النواحي الفنية: كمكننة العمليات البريدية أو التسيير الآلي لها، وتوحيد المقاسات وتحديد الأجهزة اللازمة لمكاتب البريد.

النواحي الإدارية والعملية: كتحديد صفات الأبنية اللازمة لإدارات البريد وتنظيم العمل فيها وتحديد شروط العمل الصحية. وتأمين سرعة إيصال البريد إلى المناطق النائية والريفية.

النواحي الاقتصادية: كتحديد كلفة العمليات البريدية والأسعار الواجب تطبيقها على كل عملية ومعدل الأسعار لكل فئة من المراسلات.

المعونة الفنية للدول: وتشمل التخطيط والتنظيم والاستثمار والتدريب والخبراء والمنح والتمويل، كما تشمل التوسط بين الدول المتقدمة والدول النامية لكي تقدم الدول الأولى للدول الثانية، ضمن بعض الشروط، التجهيزات والمعدات واللوازم للخدمات البريدية.

العلاقات مع المنظمات الدولية: وتشمل العلاقات، التي تكون أحياناً على شكل لجان مشتركة، مع الأمم المتحدة بشأن تنسيق برامج المعونة الفنية، ومع منظمة الطيران المدني الدولي لتنمية الحركة البريدية الجوية. ومع مجلس التعاون الجمركي بشأن تخليص الطرود البريدية. ومع منظمة الاتصالات السلكية

واللاسلكية لتنسيق التعاون في مجالي التأهيل المهني والبريد الالكتروني، ومع الوكالة الدولية للطاقة الذرية بشأن نقل المواد المشعة، ومع منظمة الصحة العالمية حول نقل المواد الحيوية القابلة للتلف، وغير ذلك.

وقد برهن الاتحاد البريدي العالمي على فعاليته حتى في الأوقات العصيبة إبّان الحربين العالميتين، وإذا كانت الحواجز تقام أمام الإنسان دائماً خارج حدود بلاده فإن حدود كل البلدان تزول أمام خدمات البريد.

بدر الكسم

الموضوعات ذات الصلة:

الأمم المتحدة (منظمة -)، الوظيفية.

■ الاتحاد البريدي العربي

الاتحاد البريدي العربي Arab Postal Union منظمة عربية متخصصة تهدف إلى التعاون والتنسيق بين دول الجامعة العربية فيما يتعلق بأمور البريد.

أنشىء الاتحاد البريدي العربي بموجب قرار مجلس جامعة الدول العربية ذي الرقم - ١١٨ - المتخذ بتاريخ ٩ / ١٢ / ١٩٤٦م. وقد باشر أعماله في ١٢ / ٤ / ١٩٥٢م. فهو بهذا أقدم منظمة عربية متخصصة.

يهدف الاتحاد البريدي العربي إلى تنظيم الخدمات البريدية وتطويرها واستكمالها والعمل على توحيدها، وتنمية التعاون والتضامن وتوثيق الروابط بين بلدان الاتحاد، ووضع أحكام أكثر فائدة للجمهور من الأحكام الواردة في وثائق الاتحاد البريدي العالمي، وتنسيق التعاون بين الدول الأعضاء ووفودها في إطار اجتماعات اتحاد البريد العالمي وانتهاج خطة موحدة في جميع أوجه النشاط البريدي خارج نطاق الاتحاد.

يضم الاتحاد جميع الدول العربية. وتكوّن البلاد الأعضاء في الاتحاد منطقة بريدية واحدة تتبادل فيما بينها الرسائل والخدمات البريدية. أما مقر الاتحاد فيكون في البلد الذي فيه مقر جامعة الدول العربية.

تتألف البنية التنظيمية للاتحاد من الهيئات التالية:

المؤتمر: وهو السلطة العليا للاتحاد ويتألف من الممثلين المفوضين للدول الأعضاء. والمجلس التنفيذي: وهو مجلس يضمن مواصلة أعمال الاتحاد في المدة ما بين انعقاد مؤتمرين. والمجلس الاستشاري للدراسات البريدية: وهو مجلس يقوم بمتابعة أعمال المجلس الاستشاري للدراسات البريدية التابع للاتحاد البريدي العالمي ويعمل على تطوير الخدمات البريدية العربية مراعياً التوجيهات التي يرسمها المؤتمر والمجلس التنفيذي. واللجان الخاصة: إذ يحق للمؤتمر أو للمجلسين التنفيذي والاستشاري تأليف لجان خاصة للقيام بدراسات أو أعمال محددة. والأمانة العامة: فللاتحاد أمانة عامة مركزها مقر الاتحاد ويرأسها أمين عام يساعده نائب أمين عام وعدد من الموظفين والمستخدمين. ويعدّ جميع العاملين في الأمانة العامة موظفين في الاتحاد يخضعون لأحكام وثائق الاتحاد. وتعدّ الأمانة العامة للاتحاد حلقة اتصال بين الإدارات الأعضاء و الاتحاد والهيئات العربية والأجنبية ومركز ارتباط واستعلام للاتحاد.

وتتبع الاتحادَ كليةُ البريد العربية التي مقرها مدينة دمشق، وتعدّ مركزاً للأبحاث البريدية إضافة إلى مهامها التعليمية. وللاتحاد مجلة لنشر أخباره ونشاطاته.

ينعقد مؤتمر الاتحاد مرة كل خمس سنوات لمراجعة وثائق الاتحاد وأنظمته. أما فيما يتصل بالندوات فإن لدى الاتحاد برنامجاً ثقافياً وتأهيلياً سنوياً يتضمن عدداً من النشاطات أهمها توفير الخبراء وإيفاد الموظفين في دورات تدريبية وعقد حلقات دراسية وقد عقد الاتحاد حتى الآن ندوتين على مستوى المديرين العامين، إضافة إلى قيامه بعقد لقاء خاص عام ١٩٨٦م، لدراسة خدمة البريد العاجل للبلدان الأعضاء، على هامش اجتماعات المجلس التنفيذي. كذلك تم عقد ست حلقات دراسية بين عامي ١٩٨٠-١٩٨٦م للموظفين المختصين بالشؤون المالية والبريدية.

وأوفدت الأمانة العامة على حسابها نحو مئة موظف عربي في دورات تدريبية وزيارات استطلاعية لأقطار عربية وأجنبية.

وتم بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية ومع الاتحاد البريدي العالمي تأهيل ٣٠ خبيراً بريدياً عربياً دربوا نظرياً وعملياً.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاتحاد ألغي بموجب قرار المجلس الاقتصادي والاجتماعي رقم ١٠٥٦ وتاريخ ٦ / ٧ / ١٩٨٨. وأنيطت مهامه بالإدارة المختصة في جامعة الدول العربية تحت إشراف مجلس الوزراء العرب المختصين.

محمد فاروق أبو الشامات

الموضوعات ذات الصلة:

جامعة الدول العربية. الوظيفية.

■ اتحاد الجامعات العربية

اتحاد الجامعات العربية Union of Arab Universities منظمة عربية هدفها دعم الجامعات العربية في إعداد الإنسان القادر على خدمة أمته العربية وتحقيق تطلعاتها.

تأسس الاتحاد في أثناء ندوة عقدها ممثلو الجامعات العربية بمدينة بنغازي في ليبية في أيار ١٩٦١م لبحث مشكلات التعليم العالي، واقترح المجتمعون تكوين اتحاد للجامعات العربية. وفي اجتماع آخر لممثلي الجامعات العربية عقد في بيروت عام ١٩٦٤ تم وضع الشروط الأساسية للاتحاد التي وافق عليها وأقرها مجلس الجامعة العربية في أيلول ١٩٦٤ ثم أنشئت على أساسها أمانة مؤقتة للاتحاد عام ١٩٦٥. وفي أيلول ١٩٦٩ عقد أول اجتماع للمؤتمر العام، وهو المؤتمر التأسيسي، بالاسكندرية وتحولت الأمانة المؤقتة إلى دائمة وثابتة وأصبح للاتحاد شخصية اعتبارية مستقلة، ومقره الدائم مدينة عمّان بالمملكة الأردنية الهاشمية. وقد بلغ عدد الجامعات العربية الأعضاء في الاتحاد حتى عام ١٩٨٧م ٥٧ جامعة عربية من بينها جامعات الأرض المحتلة وقد ازداد هذا العدد بعد تكاثر ظاهرة الجامعات الخاصة في عدد من البلدان العربية.

أهداف الاتحاد

إن الهدف الأساس من الاتحاد كما ذكر من قبل، هو دعم الجامعات العربية في إعداد الإنسان القادر على خدمة أمته العربية وتحقيق تطلعاتها، وذلك بالعمل على أن تلتزم الجامعات العربية

القيم النابعة من عقيدة الإسلام ورسالته الخالدة، وتعمل على تطبيقها فكراً وعملاً، ويعمل الاتحاد على تحقيق هذا الهدف بجميع الوسائل، وعلى الأخص توثيق التعاون بين الجامعات والمعاهد العالية العربية وتنسيق جهودها في تحقيق أهداف الأمة العربية، والتعاون على رفع مستوى التعليم الجامعي بما يكفل للطلبة المستوى الأمثل، ورفع مستوى البحوث العلمية في جميع المجالات وتبادل نتائجها، وتوجيه العناية إلى البحوث التطبيقية التي تعالج مشكلات الأمة العربية والإسلامية، وربط موضوعات البحوث بخطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية، والعناية بالتراث العربي الإسلامي وحفظه ونشره ونقله إلى اللغات الأخرى وبيان مكانته وأثره في الحضارة الإنسانية والعمل على أن تكون اللغة العربية لغة التعليم في الجامعات والمعاهد العالية مع توحيد المصطلحات العلمية والحضارية، وتشجيع إنشاء الجامعات في البلاد العربية مع تقديم العون الفني والمادي والمساعدة في إنشاء مراكز البحوث العلمية والجامعات الإسلامية ودعمها، وتوثيق التعاون بين الجامعات العربية والإسلامية وغيرها من جامعات العالم وتنسيق جهود الجامعات العربية في الهيئات والمؤتمرات الدولية، والعمل على ضمان حرية السعي إلى استنباط الحقائق العلمية والإفصاح عنها وتوفير الاستقلال والحصانة للجامعات العربية ولأعضاء هيئة التدريس فيها، وحماية حقوقهم وتقوية أواصر التضامن بينهم، والعمل على تطوير الإدارة الجامعية والأخذ بالأساليب الهادفة إلى رفع فعالية الأداء وكفايته في مؤسسات التعليم العالي، وكذلك بذل الجهود لتكوين الطالب الجامعي ورعايته ثقافياً واجتماعياً ورياضياً، والعمل على رفع مستوى الوسائل التعليمية في الجامعات بما فيها المكتبات والمختبرات العلمية وغيرها.

عضوية الاتحاد

يشترط لعضوية الاتحاد أن تكون الجامعة عربية في هيئة تأسيسها وإدارتها ومصادر تمويلها عند إنشائها أو بعد تعريبها، ويجوز أن يقبل الاتحاد أعضاء مشاركين من المعاهد العالية العربية في البلاد العربية التي ليس فيها جامعات، بالشروط التي تبينها اللائحة الداخلية للاتحاد، وللعضو المشارك حضور جلسات مجلس الاتحاد والمؤتمر العام من دون أن يملك حق التصويت. وتعلق عضوية الجامعة أو تسقط إذا أخلت بشروط العضوية أو لأسباب أخرى يقررها مجلس الاتحاد، ويجوز بقرار مماثل إعادة العضوية.

هيئات الاتحاد

يتكون اتحاد الجامعات العربية من المؤتمر العام ومجلس الاتحاد والأمانة العامة.

المؤتمر العام: وهو الهيئة العليا للاتحاد، ويتألف من ممثلي الجامعات الأعضاء، ويمثل كل جامعة رئيسها (مديرها) أو من ينوب عنه من أعضاء مجلس الجامعة أو الهيئة المسؤولة عنها واثنان على الأكثر من أعضاء هيئة التدريس، ويكون لكل جامعة صوت واحد. ويختص المؤتمر العام بتحديد السياسة العامة للاتحاد واعتماد برنامج عمل الاتحاد أو تعديله ووضع المبادىء العامة لموازنة الاتحاد وتعديل النظام الأساسي للاتحاد، ويكون ذلك بأغلبية ثلثي الأعضاء.

ينعقد المؤتمر العام مرة كل ثلاث سنوات في المكان والزمان اللذين يحددهما المؤتمر العام السابق، ولثلث أعضاء مجلس الاتحاد أن يدعو المؤتمر العام إلى دورة استثنائية إذا لزم الأمر.

مجلس الاتحاد: وهو الهيئة التنفيذية للاتحاد، ويتألف من رؤساء (مديري) الجامعات العربية الأعضاء أو من ينوبون عنهم من أعضاء مجلس الجامعة أو الهيئة المسؤولة عنها ويختص مجلس الاتحاد بإعداد برنامج عمل الاتحاد ومشروع جدول أعمال المؤتمر العام، ومتابعة تنفيذ قرارات المؤتمر العام، واقتراح تعديل النظام الأساسي للاتحاد، وإقرار اللوائح المالية والإدارية والداخلية، والنظر في طلبات الانضمام إلى الاتحاد من الجامعات والمعاهد العالية العربية والبت فيها، والنظر في الموازنة والحساب الختامي للاتحاد وإقرارهما، وتحديد اشتراكات الأعضاء. وقبول التبرعات والهبات والمنح بما لا يتعارض مع أهداف الاتحاد، وإقرار وسائل استثمار أموال الاتحاد بما لا يخالف الشريعة الإسلامية. وإقرار برامج نشاط الأمانة العامة، والنظر فيما تعرضه الأمانة العامة أو إحدى الجامعات الأعضاء من موضوعات ومشروعات واتخاذ القرار المناسب بشأنها. والنظر في كل ما يتعلق بتنسيق العمل والتعاون وتبادل الخبرة بين الجامعات العربية من حيث التنظيم الجامعي وبرامج الدراسة والدرجات العلمية والبحوث وتبادل أعضاء هيئة التدريس والطلاب، والنشاط الرياضي والاجتماعي والثقافي والفني وغير ذلك، في حدود السياسة العامة التي يضعها المؤتمر العام. وكذلك تنظيم علاقة الاتحاد بالهيئات الإقليمية والدولية بما يحقق أهداف الاتحاد، وتأليف لجان لدراسة موضوعات معينة مما يدخل في اختصاصه، أو للقيام بمهمة يكلفها بها.

ينعقد مجلس الاتحاد مرة كل عام.

الأمانة العامة للاتحاد: وهي تختص بتوجيه الدعوة لحضور المؤتمر العام ومجلس الاتحاد، واتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك، ووضع مشروع جدول الأعمال والعمل على تنفيذ القرارات. وبحث طلبات العضوية وعرضها على مجلس الاتحاد. وإعداد مشروع موازنة الاتحاد واقتراح ما تراه على المجلس من عقد المؤتمرات والندوات واللجان وموضوعات بحثها وغير ذلك مما يحقق أهداف الاتحاد، واقتراح المطبوعات التي ترى نشرها باسم الاتحاد، وإعداد مشروعات اللوائح المالية والإدارية والداخلية للاتحاد وعرضها على مجلس الاتحاد، وجمع المعلومات والبيانات الإحصائية الخاصة بالشؤون الجامعية ونشرها والقيام بمهام أمانة سر المؤتمر العام ومجلس الاتحاد، والقيام بما يكلفها به المؤتمر العام ومجلس الاتحاد من مهام.

تقدم الأمانة العامة تقريراً سنوياً وافياً عن أعمالها إلى مجلس الاتحاد. وتتألف الأمانة العامة من أمين عام وأمينين عامين مساعدين وعدد من العاملين.

وقد أصدرت الأمانة العامة للاتحاد الكثير من المطبوعات والدراسات ووقائع الندوات إضافة إلى المجلة التي تصدرها بانتظام والأعداد المتخصصة منها، كما عقد بإشراف الأمانة العامة ما يزيد على خمسين ندوة علمية متخصصة.

نبيه العاقل

■ الاتحاد الدولي للاتصالات

الاتحاد الدولي للاتصالات International Telecommunication Union (I.T.U.) منظمة دولية متخصصة من منظمات الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٧ . ومقرها مدينة جنيف بسويسرة.

أقيم الاتحاد في مدريد عام ١٩٣٢ ليضم اتحاد البريد الدولي الذي أنشيء في عام ١٨٦٥ والاتحاد اللاسلكي الدولي الذي قام عام ١٩٠٦ .

يهدف الاتحاد إلى تنظيم التعاون بين الدول الأعضاء فيه لتحسين الاتصالات بجميع أنواعها واستعمالها استعمالاً رشيداً، ولتقديم المساعدة الفنية للدول النامية في مجال الاتصالات، والعمل على تطوير الوسائل الفنية للاتصالات واستغلالها استغلالاً ناجعاً لتحسين مردود الخدمات في نطاق الاتصالات وتعميمها على الجمهور إلى أقصى حد ممكن. ويهدف الاتحاد أيضاً إلى تنسيق الجهود بين الدول لإزالة التشويش بين محطات البث اللاسلكي في مختلف الدول، وتنظيم استعمال طيف الترددات وتنمية وسائل الاتصالات ولاسيما التي تقوم على تقنيات فضائية بغية الاستفادة المثلى من إمكاناتها.

يتكون الاتحاد من كل الدول الموقعة على الاتفاقية الدولية للاتصالات والمصادقة عليها ومن كل دولة انضمت إلى هذه الاتفاقية سواء أكانت عضواً في منظمة الأمم المتحدة أم لم تكن.

للاتحاد هيئات تنظيمية مختلفة أهمها: مؤتمر المندوبين المفوضين، وهو الهيئة العليا في الاتحاد، ويتولى وضع النصوص القانونية الأساسية والتنظيمية للاتصالات وتوحيد القواعد الإدارية والفنية والتعرفات بين الدول، وكذلك المؤتمرات الإدارية التي تعقد في أدوار محددة لمعالجة قضايا معينة في مجال الاتصالات. وللاتحاد أمانة سر ومجلس إدارة، يتألف من واحد وأربعين عضواً من أعضاء الاتحاد ينتخبهم مؤتمر المندوبين المفوضين.

وتنبثق عن الاتحاد لجان دائمة منتخبة أهمها: اللجنة الدولية لتسجيل الترددات واللجنة الدولية الاستشارية للاتصالات اللاسلكية واللجنة الدولية الاستشارية للبرق والهاتف. ولهذه اللجان هيئات عامة تجتمع كل أربع سنوات لمراجعة القواعد الفنية.

وتعد الاتفاقية الدولية للاتصالات الأساس القانوني لعمل الاتحاد ولنشاطه في مجال تنظيم الاتصالات، وتلحق بهذه الاتفاقية ثلاثة أنظمة فنية وبروتوكول إضافي تم التوقيع عليه في نيروبي عام ١٩٨٢ ولم يصبح نافذاً إلا في عام ١٩٨٤، ويتعلق بالتسوية الإلزامية للمنازعات.

محمد فاروق أبو الشامات

■ الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب

الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب The International Confedration of Arab Trade Unions (ICATU) منظمة نقابية قومية شعبية تضم المنظمات النقابية العمالية العربية في المستوى القومي.

تأسست في الرابع والعشرين من شهر آذار عام ١٩٥٦ ومركزها دمشق.

وكانت الحركة العمالية العربية قد ارتبطت منذ ظهورها بحركة التحرر الوطني العربية سياسياً واقتصادياً، وكان العمال في طليعة مناهضي الاستعمار والساعين إلى التحرر وإزالة أسباب التخلف. وقد أخذت المنظمات النقابية العربية تظهر إلى الوجود مع بزوغ فجر النهضة الصناعية فتأسست نقابات للعمال في البلاد العربية تحت أسماء وشعارات مختلفة منها الاتحاد العام لنقابات العمال في سورية [ر]، واتحاد نقابات العمال في الأردن، ورابطة نقابات العمال والمستخدمين في لبنان، والمؤتمر العام لنقابات العمال في مصر وغيرها.

وقد تداعت هذه المنظمات النقابية فيما بينها لإنشاء اتحاد نقابي عربي. وفي أثناء انعقاد المؤتمر الثامن للاتحاد العام لنقابات العمال في سورية (آذار ١٩٥٥) اقترح عدد من أعضاء المؤتمر إنشاء منظمة قومية عمالية عربية وتضمنت مقررات المؤتمر توصية بتأسيس اتحاد عمالي عربي، وتم توجيه الدعوات إلى المنظمات النقابية العربية لبحث هذه المسألة ولبى الدعوة كل من مصر وليبية والأردن ولبنان إضافة إلى سورية، وبعد لقاءات متعددة بين وفود المنظمات العمالية لهذه الدول في عام ١٩٥٥ اتخذ قرار بتأليف لجنة تحضيرية للإعداد لهذا المشروع، ووضع دستور للاتحاد، وتم الاتفاق بتاريخ ٦ / ١٢ / ١٩٥٥ على أن يكون الأعضاء والمؤسسون للاتحاد هم المؤتمر العام لنقابات العمال في جمهورية مصر والاتحاد العام لنقابات العمال في سورية، والاتحاد التقدمي لنقابات العمال بدمشق، ورابطة نقابات العمال والمستخدمين في لبنان، واتحاد نقابات العمال في المملكة الأردنية الهاشمية، وأن يكون مقر الاتحاد دمشق وأن تكون السلطة العليا في الاتحاد مكونة من المندوبين المفوضين للمنظمات النقابية المؤسسة والمنضمة إلى الاتحاد. وعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد الجديد ما بين ٢٢ و٢٤ آذار ١٩٥٦ وانتهى إلى الإعلان عن قيام الاتحاد الدولي لنقابات العمال وإقرار دستوره وانتخاب أول أمين عام له.

وقد جاء قيام هذا الاتحاد تتويجاً لمساعي نقابات العمال وتأكيداً لوحدة المصير على أسس ديمقراطية شعبية. وقد شاركت في المؤتمر التأسيسي سبع منظمات عمالية عربية، وانضمت إلى الاتحاد في السنوات التي تلت منظمات أخرى عديدة مختلف مجالات العمل والاختصاص، كالنفط والزراعة والنقل والنسيج والصناعات الغذائية والمعدنية والبناء والمصارف والطباعة، وهي ترتبط بالاتحاد وتعمل بالتنسيق معه ووفق أهدافه. ومقر الاتحاد مدينة دمشق ويمكن تبديل المقر بقرار من المؤتمر العام، وتعطى الأفضلية في هذه المسألة إلى الدولة التي تتوافر لديها حرية العمل وتمنح مكاتب الاتحاد وأمواله والعاملين فيه حصانة دبلوماسية.

أما أهداف الاتحاد فقد حددها دستوره المعلن وفي مقدمتها السعي إلى توفير حياة أفضل للعمال العرب ورفع مستوى معاشهم، وضمان حق العمل وتوفير الضمان الاجتماعي والصحي للعمال وتنشيط الحركة التعاونية ونشر الوعي النقابي والثقافة العمالية والدفاع عن حرية النشاط النقابي، والعمل على توحيد التشريعات العمالية وحماية وحدة الحركة النقابية، وتوكيد أواصر الأخوة والتعاون بين عمال الوطن العربي، وكذلك تشجيع الصناعة والاستثمار ووضع الثروات في خدمة الأمة ومصالحها، والتعاون مع الاتحادات والمنظمات

الدولية، وكسب الرأي العام العالمي إلى جانب القضايا والمصالح العربية، والعمل من أجل السلام العالمي والعدالة الاجتماعية للشعوب ومكافحة التمييز العنصري والتفرقة الطبقية.

يتألف الاتحاد من المؤتمر العام والمجلس المركزي ومكتب الأمانة العامة. أما المؤتمر العام فهو السلطة العليا للاتحاد ويتألف من مندوبي المنظمات النقابية المؤسسة والمنضمة ويراوح عددهم بين ٧ و٢١ مندوباً. ويعقد المؤتمر العام دورات عادية ودورات استثنائية غير عادية ولها قواعد محددة للتصويت والقبول. وأهم ما يختص به المؤتمر العام دراسة تقرير مكتب الأمانة العامة والميزانية وإقرارهما، وانتخاب أعضاء المجلس المركزي والأمين العام وقبول المنتسبين وإقرار الفصل وإجراء التفتيش المالي، وتكون قرارات المؤتمر العام بأغلبية الأصوات.

أما المجلس المركزي فيتألف من عضوين عن كل منظمة أو مجموعة منظمات بالإضافة إلى الأمين العام ينتخبهم المؤتمر العام للاتحاد. وتكون جلساته قانونية إذا حضرها أكثر من نصف المندوبين، ومدة عضوية المجلس أربع سنوات وللمجلس حق إنشاء مكاتب فرعية خارج الوطن العربي أو في بلدانه عند الضرورة القصوى. وقد حددت اختصاصات المجلس في المادتين ٢٤ و٢٥ من الدستور وفي مقدمتها انتخاب رئيس المجلس ونائب الرئيس وانتخاب ست منظمات أساسية وثلاث منظمات احتياطية يكون منها الأمناء المختصون وينتخب من هؤلاء نائب الأمين العام. ولكل منظمة منصب واحد في مكتب الأمانة العامة. ويملك المجلس صلاحيات المؤتمر العام في المدد بين دورات المؤتمر العادية أو الاستثنائية.

وأما مكتب الأمانة العامة فيتألف من الأمين العام والأمناء المختصين ويشترط تفرغهم لهذا العمل، وهم مسؤولون مسؤولية جماعية أمام المجلس المركزي، وتتخذ قراراتهم بأغلبية الأصوات، ويعمل المكتب برئاسة الأمين العام، وله قواعد يسير عليها وله صلاحيات المجلس المركزي في المدد بين دورات انعقاده.

وأما الأمين العام فينتخبه المؤتمر العام ومدة ولايته أربع سنوات، ولايجوز أن يتولى منصباً آخر ذا سلطة تنفيذية. وهو يمثل الاتحاد وينطق باسمه ويدير شؤونه، ومن اختصاصاته توقيع الوثائق المالية وتعيين موظفي الأمانة العامة، ووضع اللوائح الناظمة لشؤونهم، وتعيين الخبراء والمستشارين.

وتضم الأمانة العامة إدارات وأقساماً متخصصة بشؤون العمال والعمل، ويدخل في اختصاصها جمع المعلومات عن العمالة العربية والدولية وتنظيمها والقيام بالبحوث والدراسات المتعلقة بها وتنسيق العمل مع الاتحادات المهنية وإعداد وثائق المؤتمر والمجلس المركزي وتقاريرهما، وتقديم العون إلى المنظمات الأعضاء، والإعداد للمؤتمرات والزيارات والدورات والحلقات الدراسية وتبادل الخبرات مع المنظمات الأخرى وإصدار النشرات والدوريات وترجمة المطبوعات ونشرها.

وأما الأمناء فعددهم ستة ومدة كل منهم أربع سنوات ويدخل في اختصاصهم متابعة الشؤون العمالية العربية والخارجية والشؤون المالية والإدارية والثقافية وقضايا الاتحادات المهنية العربية. وتتبع الأمناء لجان اقتصادية للدراسة والبرمجة والشؤون الاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وعضوية الاتحاد مفتوحة لجميع المنظمات العمالية العربية وفق شروط حددها دستور الاتحاد وتشمل القبول في العضوية والانسحاب والفصل والتجميد، وكلها من صلاحيات المجلس المركزي.

سعى الاتحاد منذ تأسيسه إلى تحقيق وحدة الصف العربي وتطبيق مقررات مؤتمراته ومجالسه والبرامج التي وضعت له، وقد عمل على عقد ندوات ومؤتمرات ودورات عادية واستثنائية وطارئة ومارس نشاطات متنوعة في مختلف المناسبات القومية والدولية كتنظيم المسيرات وإقامة المهرجانات وتقديم العون المادي والمعنوي، وكان له دور بارز في دعم القضية الفلسطينية والقضايا القومية العربية ومن بينها الوقوف إلى جانب مصر في حرب السويس عام ١٩٥٦ ودعم مجهودها العسكري والاقتصادي ودعم ثورتي الجزائر واليمن الجنوبي من أجل الاستقلال ودعم الانتفاضة الفلسطينية والدفاع عن الحريات النقابية والإسهام في المؤتمرات العمالية العالمية وإقامة صلات مع المنظمات العمالية في العالم والتنسيق معها كالاتحاد النقابي العالمي والاتحاد العالمي للعمل ومنظمة الوحدة النقابية الإفريقية ومنظمتي العمل العربية والدولية وغيرها.

ويضاف إلى ذلك كله سعي الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب إلى ترسيخ الروح القومية في صفوف الطبقة العاملة وتنمية روح العمل الجماعي بين العمال ومتابعة الخطط والبرامج المتصلة بتطوير نظم العمل الذي يقومون به وذلك كله تحقيقاً للأهداف التي وجد الاتحاد من أجلها.

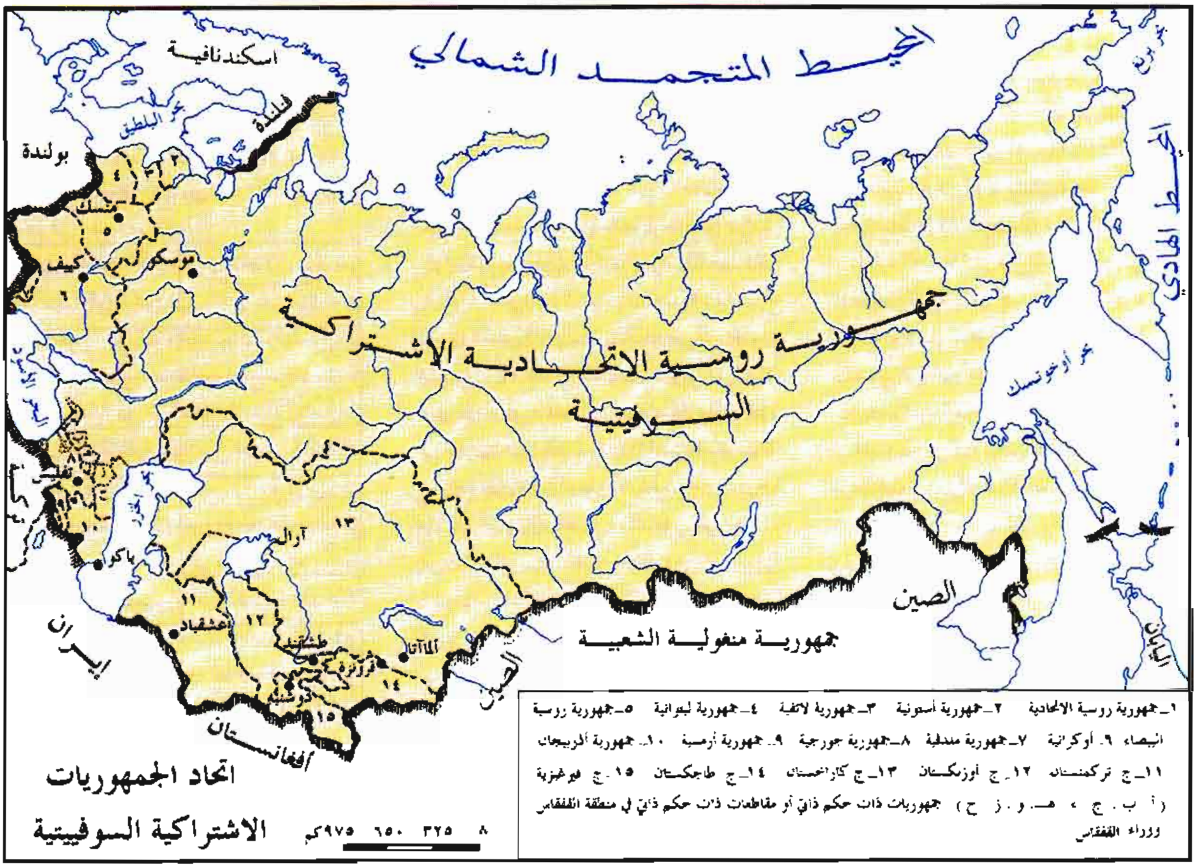
محمد وليد الجلاد

■ اتحاد الذمة ◄ الالتزام (انقضاء -)

■ الاتحاد السوفييتي

كان ما عُرِف بالاتحاد السوفييتي أو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية Union of the Soviet Socialist Republics حتى عام ١٩٩١ أكبر دولة في القرن العشرين وفي التاريخ، تنبسط أراضيها على قارتي آسيا وأوربة على مساحة من الأرض تعادل ٢٢٤٠٢٠٠٠ كم² أي ما يساوي نحو ١٥٪ من مساحة اليابسة. وكانت أراضي الاتحاد تمتد على ٤٦ خط عرض بين جنوب مدينة كوشكا التركمانية عند العرض الجغرافي ٣٥ درجة و٨ دقائق، والعرض ٨١ درجة و٥ دقائق في أرخبيل فرانس جوزيف شمالاً. وعلى أكثر من ١٧٠ خط طول مجموع الأطوال الشرقية والغربية بين خطي الطول ١٩ درجة و٣٨ دقيقة، ، و١٦٩ ° درجة طول غرباً . تحدها أراضي ١٢ دولة هي النروج وفنلندة وبولندة وتشيكوسلوفاكية وهنغارية ورومانية إضافة إلى بحر البلطيق والبحر الأسود في الغرب، ودول تركية وإيران وأفغانستان والصين ومنغولية وكورية الشمالية في الجنوب، ثم مياه المحيط الهادئ في الشرق والمحيط المتجمد الشمالي في الشمال. وبهذا كان الاتحاد السوفييتي يشغل شمالي قارة آسيا ومعظم شرقي قارة أوربة.

قامت هذه الدولة التي كانت تعد واحدة من أكبر قوتين عالميتين (والثانية هي الولايات المتحدة الأمريكية) على أراضي روسية القيصرية ومستعمراتها في تركستان وباقي



أنحاء آسيا وفي القفقاس وما وراء القفقاس وأجزاء من أوربة الشرقية، بعد الثورة الاشتراكية (البلشفية) عام ١٩١٧ وإعلان قيام الاتحاد السوفييتي في ٣٠ كانون الأول من سنة ١٩٢٢، حتى انهيار هذه الدولة العظمى وتفككها رسمياً إلى عدد من الدول والجمهوريات سنة ١٩٩١. ولقد قامت على أنقاض الاتحاد المنهار وعدد من جمهورياته الاتحادية الخمس عشرة ما يعرف برابطة أو (كومنولث) الدول المستقلة، وتضم جمهوريات روسية الاتحادية وأوكرانية وبيلوروسية ومولدفية وجورجية وكازاخستان. واختارت الجمهوريات الأخرى الانفصال الكامل عما كان يتألف منه الاتحاد السابق. وما زال وضع روسية الاتحادية غير مستقر.

فرض الاتساع الكبير لأراضي الاتحاد على عروض جغرافية تمتد من النطاق القطبي الشمالي حتى النطاق فوق المداري، ومن الشرق الأقصى إلى أواسط أوربة تنوعاً في الأوضاع الجغرافية الطبيعية والبشرية ـ السكانية والاقتصادية كان عاملاً أساسياً في تكوين الدولة وتكاملها مما جعل منها قوة عالمية كبرى.

ولكن هذا الاتساع نفسه كان من أسباب انهيارها وانقسامها إلى جمهوريات قومية السمة بسرعة قياسية.

الجغرافية الطبيعية

فيما يلي لمحة عامة عن الجغرافية الطبيعية لما كان يسمى الاتحاد السوفييتي أما التفصيل الخاص بكل من الدول التي كان يضمها الاتحاد فيرد في البحوث الخاصة بتلك الدول.

التضاريس: تعكس تضاريس الاتحاد السابق الأرضية الجيولوجية والقاعدة البنائية (التكتونية) المؤلفة من الركيزتين الروسية والسيبيرية القديمتين، ومن الغشاء الرسوبي لصخور الحقب الجيولوجية الأولى والثانية والثالثة والرابعة. كما تعكس الحركات الالتوائية والصدعية والبنى المرافقة لها رفعاً وخفضاً، وعمليات الحت والتعرية والترسيب التي تعرضت لها تلك التضاريس في العصور الجليدية الرباعية. ويميز في التضاريس المساحات السهلية الشاسعة في الغرب والشمال الغربي والهضاب والمرتفعات في الشرق والجنوب. وجميعها محاطة بجبال عالية وشاهقة الارتفاع في أقصى الجنوب على امتداد الحدود الجنوبية للاتحاد سابقاً.

تمتد السهول من الغرب من سواحل بحر البلطيق وخليج فنلندة وأوربة الشرقية شرقاً وباتساع متزايد لتشمل جميع البقاع بين المحيط المتجمد الشمالي والبحر الأسود والقفقاس وبحر الخزر (قزوين) حتى هضاب سيبيرية الوسطى (النجد السيبيري الأوسط) الواقعة شرق نهر الينيسي. وتتألف من السهل الأوربي الشرقي والسهل السيبيري الغربي ويفصل بينهما حزام جبال الأورال [ر]. ثم من سهل المنخفض الطوراني الواقع شرق بحر الخزر ويحتل بحر آرال وسطه. وتراوح الارتفاعات المتوسطة للسهول بين ٢٠ـ٢٠٠ م كما أن أجزاء منها تقع دون مستوى سطح البحر على سواحل الخزر الشمالية والشرقية (ـ١٣٢م). لكن عدداً من التلال يعلو سطح السهول لأكثر من ٣٢٠م كما في تلال فالداي وتلال وسط روسية.

ترتفع سهول سيبيرية باتجاه الشرق وراء وادي نهر الينيسي حيث تظهر هضاب، أو هضبة سيبيرية الوسطى. وهي ذات تضاريس معقدة وصخور متنوعة خددتها أودية الأنهار وروافدها الكثيرة المنتهية إلى نهري الينيسي ولينا وغيرهما

من أنهار تصب في المحيط المتجمد الشمالي وبحاره الهامشية. وتراوح الارتفاعات المتوسطة لهضاب سيبيرية الوسطى بين ٥٠٠-٧٠٠م وترقى أعلى نقطة فيها إلى ١٧٠١م فوق سطح البحر في هضبة بوتورانا.

وإلى الجنوب من سهول الاتحاد السوفييتي السابق، وإلى الشرق من وادي نهر لينا الذي يرسم الحدود الشرقية والجنوبية الشرقية لهضاب سيبيرية الوسطى يمتد إطار متقطع من السلاسل الجبلية العالية بل الشاهقة الارتفاع. وهي من الغرب نحو الشرق سلاسل جبال: الكربات والقرم (١٥٤٥م) والقفقاس [ر] وكوبت داغ ثم جبال وهضبة بامير [ر] وفيها أعلى قمة في الاتحاد، وهي قمة كومونيزم (٧٤٩٥م) وتقع الآن في أراضي جمهورية طاجكستان، ثم جبال تيان شان (٧٤٣٩م) فجبال ألطاي (٤٥٠٦م) فجبال سايان وستانوفا، ثم جبال جوغجور المطلة على بحر أوخوتسك في الشرق الأقصى. أما جبال سيخوته آلين (٢٠٧٧م) فهي سلسلة ساحلية تطل على بحر اليابان وتواجه جزيرة سخالين. وتتصل جبال جوغجور من جهة الشمال بسلاسل جبلية تنفرج غرباً في جبال فرخويانسك (٢٣٨٩ م) وجبال تشيرسكي (٣١٤٧ م) في الوسط، وجبال كوليما في الشرق وجبال تشوكوتسكا في أقصى الشمال الشرقي. وأخيراً ترتفع سلاسل جبال شبه جزيرة كامتشاتكا، ومعظمها بركاني الأصل، إلى (٤٧٥٠ م) في بركان كليوتشيف. وتتعرض جميع الجبال المذكورة آنفاً للزلازل والهزات الأرضية ومازالت البراكين ناشطة في جبال كامتشاتكا مما يدل على حداثة تكوينها. وتنتشر بين الجبال والمرتفعات منخفضات وأحواض وكذلك سهول مسايرة للأنهار. كما تنتهي على البحار والمحيطات بسهول ساحلية واسعة في الشمال وضيقة نسبياً في الشرق.

الأوضاع المناخية: مناخات الاتحاد السوفييتي السابق متنوعة لامتداد أراضيه على عروض جغرافية تقع بين القطبية وشبه المدارية، وكذلك لتباين تضاريسه وارتفاعاتها وإحاطته بمساحات بحرية كثيرة. وتتأثر نماذج مناخاته بالكتل الهوائية المميزة لشمالي آسيا وأواسطها وشرقي أوربة. لكن أبرز سمات المناخ هي سمة القارية لبعد أكثر أجزاء البلاد عن البحار والمحيطات ولا سيما في سيبيرية الشرقية وآسيا الوسطى، حيث يصل المدى الحراري السنوي إلى ٤٥-٦٥ درجة مئوية. كما أن درجات الحرارة المنخفضة هي الغالبة على معظم أنحاء البلاد في الشتاء إذ ينخفض متوسط حرارته إلى ما دون الصفر، باستثناء رقعة ما وراء القفقاس وجزء من هوامش أواسط آسيا حيث يكون متوسط الحرارة في الشتاء أعلى من ٦ درجات مئوية. وتتدرج الحرارة الشتوية المتوسطة بالانخفاض من الجنوب والغرب باتجاه الشرق والشمال الشرقي من الصفر حتى -٥٠ في منطقتي فرخويانسك وأويمياكون في ياقوتيا حيث قطب البرد الأقصى الذي سجل درجة حرارة دنيا مطلقة بلغت -٧٠ درجة مئوية. أما حرارة الصيف فتتناقص من الجنوب إلى الشمال وباتجاه أعالي الجبال ومن الغرب إلى الشرق في أقصى شرقي البلاد. ويصل متوسطها إلى ٣٠ درجة مئوية في آسيا الوسطى وإلى ١٠ درجات مئوية على سواحل المحيط المتجمد الشمالي في شهر تموز. وتهب على البلاد رياح قادمة من الغرب تحمل الدفء والرطوبة، وأخرى موسمية قارية باردة وجافة في الشرق في الشتاء، تلطفها رياح قادمة من المحيط الهادئ، إضافة إلى رياح قادمة من الشمال البارد نحو أواسط البلاد. أما الهطل فثلجي في شتاء جميع أرجاء البلاد تقريباً ويدوم بين بضعة أيام في القرم إلى أكثر من ٢٦٠ يوماً في أقصى الشمال، وهو مطري في الصيف وتقل كمياته من الغرب نحو الشرق وفي سهول طوران. وتهطل أكبر الكميات في القفقاس الغربي (١٠٠٠-١٢٠٠م) وأقلها في المناطق الداخلية (٥٠-١٠٠م) وصحارى تركستان.

يقسم الاتحاد السوفييتي السابق إلى أربعة نطاقات مناخية رئيسية هي: النطاق القطبي ويضم أربعة نماذج ثانوية ثم النطاق شبه القطبي ويضم ثلاثة نماذج مناخية. ويشغل هذان النطاقان شريطين مسايرين لسواحل المحيط المتجمد الشمالي حتى الدائرة القطبية والعرض الجغرافي ٦٠ درجة شمالاً. ويمتد نطاق المناخ المعتدل على باقي أنحاء البلاد ويضم ١٣ نموذجاً مناخياً ثانوياً. وأخيراً نطاق المناخات شبه المدارية ويضم نموذجين هما نموذج ما وراء القفقاس وجنوب غربي طوران القاري. وتميز النماذج الثانوية بحسب المؤثرات الجغرافية والبيئية الطبيعية المتباينة من منطقة إلى أخرى، كالارتفاع ومصدر الكتل الهوائية والقرب من البحار ومقدار القارية وغيرها.

المياه: تحيط بالاتحاد السابق مياه ثلاثة محيطات وبحارها الهامشية، هي المحيط المتجمد الشمالي والهادئ والأطلسي وبحاره الهامشية، بحر البلطيق والأسود وآزوف. أما المياه العذبة فأبرزها مياه أكثر من ١٥٠٠٠٠ نهر طول أقصرها أكثر من ١٠كم ومجموع أطوالها نحو ثلاثة ملايين كيلومتر تجري في أنحاء البلاد وتنتهي إلى أحد البحار أو المحيطات أو إلى بحار أو بحيرات وأحواض داخلية مغلقة مثل بحر الخزر (قزوين) أو بحر آرال أو بحيرة بالخاش وغيرها. ومن أهم الأنهار: دفينا الشمالي وبتشورا والأوب-إيرتش والينيسي وخاتانغا ولينا وكوليما، وغيرها من أنهار تصب في المحيط المتجمد الشمالي، وأنهار: آمور وأنادير وكامتشاتكا وغيرها وتصب في المحيط الهادئ، ثم أنهار الدانوب-البروت والدنيستر والدنيبر والدون والكوبان (بشيز) وريون وتصب في البحر الأسود-آزوف.

ومن أنهار البلطيق النيفا والدفينا الغربي. أما أبرز الأنهار الداخلية فهي نهر الفولغا وروافده والأورال وترتش (تيرك) والكورا وإيمبا وتنتهي في بحر الخزر (قزوين). ونهر إيلي الذي يصب في بحيرة بالخاش ونهرا سيرداريا (سيحون) وآموداريا (جيحون) وينتهيان في بحر آرال (خوارزم). ويقدر صبيب أنهار الاتحاد السابق بنحو ٣٠٠٠ كم³ سنوياً يضاف إلى ذلك مخزون المياه العذبة في حالتها الصلبة في جليديات جبال القفقاس وجبال آسيا الوسطى، وفي حالتها العادية في الخزانات الجوفية للمياه. كذلك مياه أكثر من ٢٥٠٠٠٠ بحيرة مختلفة المنشأ مياه بعضها ملحة أو مسوس. وتتعرض مجموعة كبيرة من أنهار البقاع القطبية وشبه القطبية والمعتدلة الباردة للتجمد من شهر إلى شهرين حتى تسعة أشهر. وبالمقابل تعاني أنهار صحارى تركستان من شح المياه صيفاً.

التربة والنبيت: يتنوع غطاء تربة الاتحاد السوفييتي سابقاً تنوعاً كبيراً ويتوزع على نطاقات مسايرة للعروض الجغرافية في محاورها العامة مع تأثرها بالعوامل الجغرافية والجيولوجية والمناخية المختلفة. وهي نطاق تربة التوندرا في الشمال. يليه جنوباً نطاق التربة البودزولية والبودزولية-المستنقعية والغدقة وتشغل مساحات واسعة من البلاد. يليه نطاق ضيق

ومتقطع من تربة الغابة الرمادية، ثم نطاق عريض من التربة السوداء الخصبة يغطي ٩٠٪ من مساحة الاتحاد السابق. ولهذا النطاق أهمية بارزة في الاقتصاد الزراعي ـ الرعوي. يليه نطاق التربة الكستنائية الداكنة للسهوب الجافة التي تزداد فيها المركبات الملحية.

أما في الجنوب، حيث يزداد الجفاف، فتظهر نطاقات التربة البنية الرمادية ثم التربة السيرازيومية والتربة الرملية الصحراوية وشبه الصحراوية ومساحات من تربة الخَبْرات (التاكير) الطينية وتربة السبخات الملحية (سولونتشاك). أما في أودية الأنهار فتظهر التربة اللحقية.

إن النطاقات المذكورة تظهر شاقولياً في الجبال، كما في جبال القفقاس التي تتدرج فيها من نطاق التربة السوداء عند أقدامها إلى التربة الغابية الرمادية فالتربة البودزولية وهكذا حتى حدود الجليديات.

وينسجم الغطاء النباتي للبلاد مع الأوضاع الجغرافية الطبيعية من تضاريس ومناخ ومياه وتربة وموقع جغرافي، ففيها قرابة ١٧ ألف نوع نباتي موزعة نطاقياً. وتتدرج النطاقات من الشمال إلى الجنوب من النطاق القطبي الجليدي الصحراوي ثم نطاق التوندرة فالغابة التوندرية فالغابة المعروفة بالتايغا ذات الأشجار الإبرية الممتدة من الحدود الغربية حتى المحيط الهادئ بعرض يراوح بين ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠ كم. يليها نطاق الغابة المختلطة (ذات الأشجار الإبرية والعريضة الأوراق أو التيجانية) فالغابة التيجانية ثم تختفي الغابات، وتحل الغابة السهبية محلها باتجاه الجنوب حيث تغلب الأعشاب السهبية التي تتخللها بقع غابية تيجانية أو مختلطة. وأخيراً تغلب نطاقات الأعشاب شبه الصحراوية والصحراوية الأليفة الملوحة والأليفة الجفاف والرمال. وتظهر النطاقات النباتية الرأسية (مستويات شاقولية) في جبال القفقاس حيث تظهر الأعشاب السهبية عند أقدامها، وتتدرج فوقها النطاقات الأخرى حتى المروج الألبية ونباتات التوندرة.

وتعيش في النطاقات المختلفة أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور والحشرات تنتمي لوحيش المملكة القطبية القديمة وأقاليمها وهي الإقليم القطبي حيث يعيش الثعلب والوعل والدب الأبيض وعجل البحر وغيره إلى جانب الطيور القطبية. ثم الإقليم الأوربي السيبيري وهو غني بالأنواع ثم إقليم البحر المتوسط وإقليم آسيا الوسطى والإقليم المنشوري ـ الصيني.

السكان

التركيب العرقي واللغوي: وصل عدد سكان الاتحاد السوفييتي قبل انهياره إلى أكثر من ٢٩٠,١٠٠,٠٠٠ نسمة (١٩٩١). وكان سكانه يؤلفون تشكيلة كبيرة من الأقوام والشعوب يزيد عددها على ١٢٠ قومية عرقية ولغوية، منها ٢٢ قومية كان تعداد كل منها أكثر من مليون نسمة و٣٠ قومية تعداد كل منها ما بين ١٠٠ ألف ومليون نسمة والباقي أقوام صغيرة. ويرجع التركيب العرقي الفسيفسائي لسكان الاتحاد السابق إلى العهد القيصري الذي استعمر بلدان شعوب وأقوام كثيرة في تركستان والقفقاس وسيبيرية. وجاء العهد السوفييتي فرسخ الفروق حتى إنه ميز متكلمي لهجات لغة واحدة وقومية واحدة وخلق لها كيانات إدارية شكلية حملت اسم جمهورية (أو منطقة أو إدارة) ذات حكم ذاتي في الأجزاء غير الروسية من الاتحاد.

وتنتمي قوميات الاتحاد السابق إلى المجموعات العرقية التالية:

المجموعة السلافية: وتضم الروس والأوكرانيين والروس البيض والبولنديين والبلغار، ويتكلمون اللغات السلافية.

المجموعة الطورانية: وتضم الكازاخ والأوزبك والتركمان والقرغيز والتتار والتشوفاش والبشكير والقوموق والنوغاي والأذربيجانيين والبلقار والقرتشاي والغاغاوز والقره قلبق والألطائيين والشور والياقوت والخاكاس والدولغان. ويتكلمون اللغات التركية من الأسرة اللغوية الألطائية.

المجموعة الفنية ـ الأوغرية: وتضم الأستونيين والكاريليين والفنيين واللوبار (السام) والكوميين والأودمورت والماريين والموردفيين والخانتيين والمانسي. ويتكلمون الفنية ـ الأوغورية من الأسرة الأورالية.

المجموعة البلطيقية: وتضم اللاتفيين والليتوانيين. ويتكلمون اللغة البلطيقية من الأسرة الهندية الأوربية.

المجموعة القفقاسية: وتضم الجورجيين (الكارتوليين) والداغستانيين (الأوار واللزغ والدارغين وغيرهم) والشركس (الأديغة والأبخاز) والشاشان ـ الإنغوش. ويتكلم الجيورجيون الكرجية من الأسرة الكارتوالية. والشركس اللغة الأديغية ـ الأبخازية من الأسرة القفقاسية الشمالية. والباقي اللغة الناخية ـ

القوميـــــة	العدد بالألف (١٩٨٩)
الروس	١٤٥,١٥٥
الأوكرانيون	٤٤,١٨٦
الأوزبك	١٦,٦٩٨
الروس البيض	١٠,٠٣٦
الكازاخ	٨,١٣٦
الأذربيجانيون	٦,٧٧٠
التتار	٦,٦٤٩
الأرمن	٤,٦٢٣
الطاجيك	٤,٢١٥
الجورجيون	٣,٩٨١
المولدفيون	٣,٣٥٢
الليتوانيون	٣,٠٦٧
التركمان	٢,٧٢٩
القرغيز	٢,٥٢٩
الألمان	٢,٠٣٩
التشوفاش	١,٨٤٢
أقوام الداغستان	١,٧١٠
اللاتفيون	١,٤٥٩
البشكير	١,٤٤٩
اليهود	١,٣٨٧
الموردفيون	١,١٥٤
البولنديون	١,١٢٦
الأستونيون	١,٠٢٧
التشتشان	٠,٩٢٧
الأودمورت	٠,٧٤٧
الشركس (الأديغة)	٠,٦٧٤
الماريون	٠,٦٧١
الأوسيتيون	٠,٥٩٨

الداغستانية.

المجموعة الإيرانية: وتضم الطاجيك وتفرعاتهم والأوستين والتات والتالش والأكراد. ويتكلمون لغات إيرانية من الأسرة الهندية الأوربية.

المجموعة المنغولية: وتضم البوريات والقالمق ويتكلمون اللغة المنغولية.

إضافة إلى الأرمن والرومانيين والألمان واليونان وأقوام الصاموئيد والتونغوز والتشوكوت وغيرهم من الأقوام الشمالية والغجر وقلة من العرب (٧٧٠٠ نسمة) والجدول المرفق يبين أهم القوميات.

إن التصنيف السلالي والعرقي والقومي السابق لا يعني أن كل قومية تسكن في مجال أرضها ومواطنها، بل وخارجها، ولا سيما الروس والعناصر السلافية الرئيسية، التي سارت على مبدأ إغراق القوميات الأخرى بالمستوطنين الروس والأوكرانيين و«ترويسهم» منذ العهد القيصري حتى زوال الاتحاد السوفييتي. ولقد عانت الجمهوريات والمناطق الإسلامية في القفقاس وتركستان ثم مناطق البلطيق وسيبيرية من سياسة الهجرة الروسية إليها. ولقد ظهرت نتائج هذه السياسة السكانية بعد تفكك الاتحاد وقيام الجمهوريات والدول الجديدة، بإثارة المشكلات والصراع فيها بين أبناء البلاد الأصليين والمستوطنين الروس وأنصارهم.

التوزع والكثافة والنمو السكاني: يتوزع السكان بحسب مجموعاتهم العرقية ـ القومية في مواطنهم الأصلية مع انتشار واسع للسلافيين وعلى نحو أقل للعناصر الأخرى خارج مواطنهم الأصلية. ويعيش السلافيون في معظم أراضي الاتحاد السابق ولاسيما في الجزء الممتد غربي الأورال. أما الطورانيون فينتشرون في آسيا الوسطى وكازاخستان وفي القفقاس وما وراء القفقاس وفي بقاع متفرقة من روسية، ويتوزع في القفقاس عدد كبير من الأقوام الصغيرة إلى جانب السكان الأصليين من الجورجيين وأقوام الداغستان والشركس الأديغة والشاشان ـ الإنغوش.

تتفاوت الكثافات في الاتحاد السابق ولاسيما الكثافة الريفية، فتزيد على ١٠٠ ن/كم² في منطقة موسكو وغربي البلاد وفي بعض بقاع القفقاس وآسيا الوسطى. وتقل عن شخص واحد في الكيلومتر المربع في معظم أرجاء القسم الآسيوي من الاتحاد السوفييتي السابق. وباستثناء القفقاس والحوضين الأوسطين من نهري سيرداريا وأموداريا، وهي بقاع عالية الكثافة نسبياً (٥٠ـ١٠٠ ن/كم²)، فإن مناطق الكثافة بين ٢٥ـ٧٥ ن/كم² تمتد على شكل إسفين مثلثي قاعدته في الغرب ورأسه عند بحيرة بالخاش. وهناك جزر متفرقة في الشرق الأقصى وياقوتيا كثافة سكانها بين ١٠ـ٢٥ن/كم². وهناك مساحات شاسعة في سيبيرية وصحارى تركستان والجبال العالية خالية من السكان تقريباً. أما الكثافة العامة للاتحاد قبل تفككه فكانت ١٢٩ ن/كم².

كان معدل النمو السكاني مرتفعاً نسبياً بسبب انخفاض معدلات الوفيات ولكن بعض الظروف الاجتماعية وقيام الحرب العالمية الثانية أدت إلى اضطراب المعدلات السكانية وإلى انخفاض معدل الولادات وارتفاع معدل الوفيات. ويذكر هنا أن خسائر الاتحاد في الحروب تقدر بنحو ٢٠ مليون نسمة.

استقرت الأوضاع بعد الحرب حتى مطلع الستينات حين بلغ النمو السكاني ١٧ـ١٨٫١ بالألف. لكنه تراجع في الثمانينات من القرن العشرين إلى حدود ٨ بالألف مع تباين في المعدلات والنسب بين جمهورية وأخرى. إذ ارتفعت معدلات الولادات في جمهوريات آسيا الوسطى والقفقاس وازداد حجم الأسر وارتفعت نسبة النمو السكاني فيها، بالمقارنة مع روسية وأوكرانية وبيلوروسية وجمهوريات البلطيق حيث يدين السكان بالنصرانية، في حين يدين معظم الأقوام التي ارتفعت معدلات النمو بينها بالإسلام. ولقد بلغت معدلات المواليد في الاتحاد ١٦٫٨ بالألف والوفيات ١٠٫٣ بالألف والزيادة السكانية ٦٫٥ بالألف عام ١٩٩٠.

وترتفع نسبة الإناث بين السكان إذ تبلغ ٥٢٫٧٪ مقابل ٤٧٫٣٪ للذكور نتيجة الاضطرابات والحروب وخسارة أعداد كبيرة من الرجال المنجبين. لكن الفارق بين الجنسين أخذ بالتراجع حتى وصل إلى زيادة عدد الإناث على الذكور بنحو ١٥٫٧ مليون أنثى (١٩٩١) قبل زوال الاتحاد. ويعيش نحو ٣٣٫٨٪ من سكان الاتحاد السابق في الريف مقابل ٦٦٫٢٪ منهم في المدن إذ بلغ عدد المدن التي تجاوز سكانها ٥٠٠٠٠٠ نسمة أكثر من ٦٠ مدينة، أبرزها موسكو وسان بطرسبورغ (لينينغراد سابقاً) وكييف وطشقند ثم باكو وخاركوف ومنسك وغوركي وغيرها. وكان السكان موزعين إدارياً على ١٥ جمهورية سوفييتية اتحادية هي: روسية الاتحادية (١٤٨٤٨٥٠٠٠ نسمة) وأوكرانية (٥١٨٧٥٠٠٠ نسمة) وأوزبكستان (٢٠٧٣٩٠٠٠ نسمة) وكازاخستان (١٦٧٩٣٠٠٠ نسمة) وبيلوروسية (١٠٢٩٧٠٠٠ نسمة) وأذربيجان (٧١٧٤٠٠٠ نسمة) وجورجية (٥٤٧١٠٠٠ نسمة) وطاجكستان (٥٣٥٧٠٠٠ نسمة) وقرغيزية (٤٤٢١٠٠٠ نسمة) وملدفية (٤٣٧٣٠٠٠ نسمة) وليتوانية (٣٧٣٩٠٠٠ نسمة) وتركمنستان (٣٧١٧٠٠٠ نسمة) وأرمينية (٣٣٥٤٠٠٠ نسمة) ولاتفية (٢٦٨٦٠٠٠ نسمة) وأستونية (١٥٨٣٠٠٠ نسمة). وكانت الجمهوريات الاتحادية تشتمل على ٢٠ وحدة عرفت (بجمهوريات ذات حكم ذاتي) و٨ (مقاطعات ذات حكم ذاتي) و١٠ دوائر.

كانت أقوام الاتحاد السوفييتي وشعوبه وجمهورياته ووحداته الإدارية الأصغر تؤلف دولة اتحادية قامت على أساس الاتحاد الطوعي بحسب المصادر الشيوعية والسوفييتية التي كانت تنفي أي اتحاد أو ضم بالقوة أو الإكراه، حتى انهار كيان الدولة المذكورة وانفرط عقدها إلى دول جديدة قامت فيها اضطرابات وأحداث لاتؤيد ما دأبت قيادة الاتحاد السوفييتي على قوله طوال ٧٤ سنة.

الأوضاع الاقتصادية

كان النظام الاقتصادي الاشتراكي الهادف إلى بناء مجتمع شيوعي في ظل سيادة الحزب الحاكم، أساساً للخطط الاقتصادية وتطوير فروع الاقتصاد وتنميتها بهدف التفوق على الدول الرأسمالية. وكان يعتمد على قاعدة غنية وواسعة من الموارد الطبيعية والثروات الباطنية والسطحية المتنوعة جداً. كانت كلها ملكية اشتراكية، تسيرها مؤسسات اقتصادية تابعة للدولة وأخرى تعاونية ـ كولخوزية، وتشمل تلك الملكية الأرض وثرواتها الباطنية والغابات والمياه والمعامل والمصانع وكل المنشآت الاقتصادية.

الزراعة: تقدر مساحة الأراضي الزراعية بنحو ٥٥١٫٥ مليون هكتار، المستغل منها ٢١٦٫٥ مليون هكتار، تستثمر بنسب مختلفة بين

السهول والجبال والعروض الجغرافية العالية والمتوسطة، وأنواع الترب المكونة لها. وتنخفض مساحة الأراضي المزروعة بالمحصولات الحقلية والخضر والأشجار المثمرة في المناطق الجبلية التي تتسع فيها مساحات المراعي. وتأتي في مقدمة المحصولات الزراعية زراعة الحبوب (القمح والشوفان والشعير والجودار والذرة والأرز والدخن وغيرها)، وزراعة المحصولات الصناعية (الشوندر السكري والقطن والكتان والقنب وعباد الشمس وغيرها)، وزراعة الخضر وتشتمل على أكثر من ٥٠ صنفاً، تليها الأشجار المثمرة فالكرمة فالزراعات العلفية. وتجود المحصولات المذكورة في سهول أوكرانية وجنوب روسية والقفقاس وما وراء القفقاس وجمهوريات آسيا الوسطى في الدرجة الأولى. وتعد تربية الحيوانات فرعاً مهماً في القطاع الزراعي، وتأتي الأبقار والأغنام والماعز والخنازير والدواجن والطيور الأخرى والسمك والأيائل على رأس الحيوانات التي تقدم الغذاء والصوف والجلود وغيرها من المنتجات الحيوانية. ولقد كان الإنتاج الزراعي يعتمد على المزارع الكبيرة الممكننة والدراسات العلمية والبحوث، لكن الاتحاد السابق، كان على الرغم من ذلك كله، عاجزاً عن تلبية حاجات السكان ومضطراً إلى استيراد أصناف مختلفة من السلع الغذائية والاستهلاكية الزراعية ـ الحيوانية المنشأ، إضافة إلى قيامه بالتوسع في زراعة المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية باعتماد الري وشق القنوات كقناة فرغانة وقره قوم (منذ ١٩٥٩) مما أدى إلى ظهور مشكلات بيئية خطيرة فيما بعد، وكذلك زراعة مناطق باردة أو مستنقعية باعتماد نتائج البحوث الزراعية وتجفيف الأراضي. وعلى العموم كانت الجمهوريات الجنوبية في آسيا الوسطى والقفقاس وماوراء القفقاس مصدر أكثر المحصولات كماً ونوعاً، إذ كانت توفر معظم احتياجات جمهوريات العروض الوسطى والباردة. وبالمقابل فإن هذه المناطق غنية بثرواتها الغابية ومحصولاتها الحقلية.

الصناعة: يمتلك الاتحاد السابق ثروات باطنية من المعادن وأشباهها بكميات كبيرة ساعد استثمارها على قيام صناعة متطورة فيه. ويأتي النفط في رأس القائمة ومكامنه في القفقاس الشمالي وأذربيجان وسيبيرية الغربية وغيرها، وكان الاتحاد الأول في العالم بإنتاجه مايعادل ٢٠٪ من نفط العالم. ومن ثرواته الأخرى الغاز والفحم الحجري والحديد والمنغنيز والنحاس والزنك والرصاص والنيكل والتنغستين والموليبديوم والقصدير والبوكسيت والنيفلين والذهب والألماس وجميع أنواع الصخور ومواد البناء تقريباً وكذلك شتى أنواع الأملاح، وغيرها. وتعد جبال القفقاس وآسيا الوسطى والأورال من مناطق المكامن الغنية بالثروات الدفينة المتنوعة. ولقد قامت في البلاد صناعات متطورة اعتمدت المواد الأولية المحلية، تصدرتها الصناعة الثقيلة بنسبة أكثر من ٧٣٫٧٪ من مجموع الصناعات تليها الصناعات الخفيفة والتحويلية (٢٦٫٣ ٪) وتعد الصناعات الاستخراجية من القطاعات المهمة في الصناعة السوفييتية السابقة ولاسيما في مجال النفط والغاز والفحم الحجري والمعادن الأخرى. تليها صناعة إنتاج الطاقة الكهربائية من الماء والوقود والغاز والذرة، ثم صناعة الحديد والصلب وبقية المعادن وأشباهها. ثم الصناعة الكيمياوية والخشبية وصناعة الآلات والسيارات والجرارات وغيرها. وتسهم الصناعات الخفيفة والغذائية في إنتاج السلع الاستهلاكية وأبرزها الصناعات النسيجية والغذائية والجلدية والسلع المنزلية والأجهزة الكهربائية. وتعد صناعة الطحن والسكر وحفظ الأغذية والزيوت وتحضير الأسماك وتعليبها، وصناعة الألبان واللحوم وغيرها من الصناعات المنتشرة في معظم أرجاء الاتحاد السابق. وقد كان الاتحاد السوفييتي السابق من أبرز الدول الصانعة للأسلحة الثقيلة والخفيفة لأغراضه الخاصة وللاتجار بها إذ كان أكبر مصدر للسلاح إلى بلدان العالم الثالث والدول الاشتراكية سابقاً. وتتركز معظم الصناعات في مناطق توافر المواد الأولية. لكن توزيعها أقرب إلى المركزية في الصناعات الثقيلة والكبرى في حين تنعدم المركزية في انتشار بقية الصناعات ولا سيما الصناعات الغذائية والخفيفة.

المواصلات والتجارة: تمتد على القسم الأوربي من الاتحاد السابق شبكة من طرق المواصلات، طول السكك الحديدية منها نحو ١٣٧٫٠٠٠ كم وطرق السيارات نحو ١٫٣٦٥٫٠٠٠ كم والطرق المائية (أنهار وقنوات) نحو ١٤٦٫١٠٠ كم. وتزداد كثافة الشبكة في الغرب وتتناقص شرق الأورال لتعود فتزداد نسبياً في جمهوريات آسيا الوسطى. وفي البلاد شبكتان مهمتان من أنابيب النفط والغاز تقرب أطوالهما معاً من ١٧٠٫٠٠٠كم. أما المواصلات الجوية فتزيد أطوال شبكتها الداخلية على ٥٩٤٠٠٠كم. كما تسير السفن على خطوط بحرية تربط موانيء الاتحاد السابق وتربطها مع العالم الخارجي. وتعاني المواصلات من الأحوال الجوية والأوضاع الطبيعية القاسية من تجمد التربة وتجلد مياه الأنهار ومياه البحار الشمالية والهامشية مدداً متباينة كما يسبب تشكل الصقيع وتساقط الثلوج وغيرها تعطيل حركة المواصلات في أنحاء الاتحاد السابق التي تتعرض للظواهر المذكورة.

بلغ مقدار التبادل التجاري الخارجي للاتحاد السابق ١٣١٫٦ مليار روبل لعام ١٩٩٠ (الدولار يعادل ٠٫٧٦ من الروبل بأسعار ١٩٨٥، وأصبح يعادل ٥٠٠٠ روبلاً في مطلع ١٩٩٧). قيمة الصادرات منها ٦٠٫٩ مليار روبل والواردات ٧٠٫٧ مليار روبل، أي إن الميزان التجاري كان خاسراً بمقدار ٩٫٨ مليار روبل. وكان تعامل الاتحاد التجاري مع مجموعة الدول الاشتراكية ودول حلف وارسو سابقاً ومع الدول الرأسمالية والدول النامية. وكان التعامل بالاتجاهين يشمل الكثير من السلع، منها الآلات ووسائل المواصلات والنفط والغاز والمعادن والمنتجات الكيمياوية والفوسفات ومنتجات الأخشاب والورق والمواد الغذائية والمنسوجات والمواد نصف المصنعة والمنتجات الصناعية الاستهلاكية والإلكترونيات والسلع الكهربائية وسلعاً أخرى.

عادل عبد السلام

التاريخ

أدت الأزمات الحادة التي شهدتها روسية القيصرية في الحرب العالمية الأولى إلى سقوط النظام القيصري بعد أن أخفقت محاولات القيصر إنقاذ حكم أسرته من آل رومانوف. وبعد أن رفضت الحكومات المؤقتة الثلاث التي تعاقبت على السلطة (آذار ـ تشرين الأول ١٩١٧) الاستجابة لمطلب الجماهير بوقف الحرب وعقد سلام بلا ضم ولا تعويض، رأى لينين أن الوقت قد حان للقيام بالثورة وتسلّم البلاشفة (فريق الأكثرية في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي) السلطة في روسية. فقام

أنصاره في ليل ٢٤-٢٥ تشرين الأول ١٩١٧ بالاستيلاء على السلطة في العاصمة بتروغراد (لينينغراد فيما بعد، وسان بطرسبورغ منذ ١٩٩١)، بعد أن تغلبوا على مقاومة المنشفيك (فريق الأقلية في الحزب).

وفي مساء يوم ٢٥ تشرين الأول أيد مؤتمر المجالس السوفييتية الروسية ثورة أكتوبر، وأقال الحكومة المؤقتة التي كان يرأسها كيرنسكي Kerenski، وبذلك أصبحت السلطة في روسية بيد البلاشفة بزعامة لينين [ر] بعد إسقاط سلطة الملاكين الكبار والبرجوازيين.

عهد لينين (١٩١٧ - ١٩٢٤)

عقب تسلم البلاشفة السلطة في روسية، باشروا تنفيذ برنامجهم الثوري من أجل إقامة نظام اشتراكي بقيادة البروليتارية. ففي ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٧ قرروا تشكيل حكومة جديدة من البلاشفة برئاسة لينين. وأصدروا «قرار السلام» الذي يعرض السلام على الدول المشاركة في الحرب العالمية الأولى بلا ضم ولا تعويضات، و«قرار الأرض» الذي يقضي بإلغاء الملكيات العقارية الكبيرة بلا تعويضات ومنحها للفلاحين الفقراء.

وفي الأسابيع اللاحقة، تبنت الحكومة البلشفية سلسلة من الإصلاحات مثل قرار القوميات الذي يقر بالمساواة بين شعوب روسية وسيادتها وحقها في تقرير مصيرها، وتطبيق الزواج المدني، والفصل بين الكنيسة والدولة، والرقابة العمالية على المنشآت الصناعية. كما أُممت بعض المصانع. وسرعان ما أثارت هذه الإصلاحات المتاعب أمام الحكومة البلشفية. إذ قام كيرنسكي رئيس الحكومة المؤقتة بالهجوم على العاصمة بتروغراد في محاولة لاستعادتها، ودعا مجلس «الدومة» المحلي في بتروغراد السكان إلى المقاومة وأيدته بعض النقابات. ودارت المعارك بين الكتائب الحمراء وقوات «البيض» في موسكو. وبدءاً من نهاية ١٩١٧ تألفت في المناطق الجنوبية من روسية بضعة جيوش بيضاء معادية للثورة، في حين قرر كثير من القوميات إقامة دول مستقلة لهم (فنلندة، أوكرانية، شعوب القفقاس...) واستغلت بعض الدول الأجنبية الظروف التي تمر بها الثورة لتوسيع مناطق نفوذها (الأتراك في ماوراء القفقاس، واليابانيون في الشرق الأقصى). وردت الحكومة البلشفية بإنشاء دائرة الأمن السياسي (التُشكا) أواخر ١٩١٧، وبتأسيس الجيش الأحمر (٢٨ كانون الثاني ١٩١٨) بهدف القضاء على الفوضى وعلى الثورة المضادة والتدخل الخارجي. ووقعت مع الحكومة الألمانية معاهدة سلام منفرد (معاهدة بريست - ليتوفسك ١٣ آذار ١٩١٨).

رأت الدول الحليفة أن توقيع هذه المعاهدة خيانة من روسية. فقدمت دعمها للقوى المناهضة للثورة (الجيوش البيضاء)، وقام الإنكليز بعملية إنزال في مورمانسك (آذار ١٩١٨) وفي أرخانجلسك (آب ١٩١٨)، واحتل الألمان أوكرانية، واستولى اليابانيون على فلاديفوستك.

الحرب الأهلية: عزز توقيع الحكومة البلشفية على معاهدة السلام معارضة الاشتراكيين الثوريين الذين لجؤوا إلى استخدام العنف (اغتيال السفير الألماني ميرباخ، ومحاولة الانقلاب غير الناجحة على البلاشفة في موسكو ومدن أخرى، تموز ١٩١٨). وقاد ذلك إلى القطيعة بينهم وبين البلاشفة وإلى قيام نظام الحزب السوفييتي الوحيد. وفي شهر آب تعرض لينين لمحاولة اغتيال على يد أحد الاشتراكيين الثوريين وأصيب بجروح خطيرة. وانتشر الإرهاب في جميع أنحاء البلاد على يد «البيض» والدخلاء الأجانب.

وبدءاً من أيلول ١٩١٨، ردت الحكومة البلشفية على «الإرهاب الأبيض» بـ «الإرهاب الأحمر»، فعلى أثر أحداث آب، شمل الحظر الذي كانت الثورة قد فرضته على الأحزاب البرجوازية وصحفها (كانون الثاني ١٩١٨) كل الأحزاب الأخرى وصحفها، وأصدرت أوامرها بإحداث محاكم الثورة. فاشتد أوار الحرب الأهلية التي أدت إلى دمار البلاد وسقوط مئات الألوف من القتلى. وعلى الرغم من التدخل الخارجي وتقديم السلاح والعتاد والمؤن والمال إلى جنرالات «البيض» من قادة الحرب الأهلية في أوكرانية وسيبيرية وبلدان البلطيق، وقوة الفئات المعارضة في الداخل (أنصار النظام القيصري، والبرجوازية الليبرالية، والاشتراكيين الثوريين والمنشفيك)، فقد تمكنت الحكومة البلشفية من كسب الحرب: لتفتت أعدائها، واختلاف وجهات نظرهم حول نظام الحكم المزمع إقامته، ولاسيما بعد أن أعدم البلاشفة القيصر وأفراد أسرته، ولاعتماد الحكومة الثورية على العمال وعلى قسم مهم من الفلاحين، ولضخامة الجيش الأحمر وقوته، وقوة قوى الأمن السياسي (التشكا) واستخدامها في القضاء على جيوش «البيض» واغتيال قادة المناهضين للثورة وأنصارهم. وكذلك الإجراءات الاقتصادية الصارمة أو شيوعية الحرب (إخضاع الفلاحين للرقابة الصارمة واقتطاع جزء مهم من محاصيلهم للقضاء على المجاعة، وتأميم المنشآت الصناعية الصغيرة، وتأميم التجارة الداخلية والخارجية، وتأميم السكك الحديدية والمصارف، وفرض العمل الإجباري على الأشخاص الذين تراوح أعمارهم بين ١٦-٥٠ عاماً). وقد تصدى الجيش الأحمر للجيوش الأجنبية المتدخلة، مما اضطر الحلفاء إلى إخلاء الأراضي التي كانوا يحتلونها من روسية بدءاً من عام ١٩١٩. في حين أنهت معاهدة ريغا (١٩٢١) الحرب البولندية - الروسية. وغدا البلاشفة من عام ١٩٢١ سادة روسية وأوكرانية وبيلوروسية والقفقاس. في حين صارت فنلندة وبولندة وبلدان البلطيق (أستونية وليتوانية، ولاتفية) دولاً مستقلة (١٩٢٠). وأعيدت بسارابية إلى رومانية.

كانت خسائر الحرب العامة الأولى والحرب الأهلية وحرب التدخل المادية والبشرية مريعة. فقد انخفض الإنتاج الزراعي انخفاضاً شديداً. وفقدت روسية في المدة بين عامي ١٩١٣ و١٩٢١ نحو ١٣ مليون نسمة (ضحايا الحرب والأوبئة الشديدة والمجاعة). وأثارت الصعوبات الاقتصادية (اختفاء المواشي، وتهدم المناجم، وانخفاض الإنتاج الصناعي إلى ١٣٪ بالموازنة مع عام ١٩١٣، ودمار وسائل المواصلات، وانخفاض قيمة العملة...) أزمات خطيرة أدت إلى انتفاضات فلاحية وعمالية لم تلق نجاحاً، وأدى ذلك إلى انقسامات في صفوف الحزب الشيوعي حول الوسائل الواجب اتباعها للتغلب على الصعوبات التي تعاني منها البلاد، في حين حدث تمرد في صفوف البحرية على النظام البلشفي وإجراءاته التعسفية. واضطر لينين أمام هذا الوضع الذي هدد مستقبل الثورة البلشفية إلى الإعلان أمام المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي (آذار ١٩٢١) عن تخلي الحكومة عن سياسة «شيوعية الحرب» وتبني سياسة اقتصادية جديدة، تقوم على أساس برنامج يهدف إلى تحقيق الاشتراكية في ملكية وسائل الإنتاج

والتبادل، وأن تقوم الحكومة بتطبيق برنامجها هذا نيابة عن المجتمع الاشتراكي بإقامة تعاونيات زراعية (كولخوزات) وصناعية وتخطيط اقتصاد الدولة على هذه الأسس.

السياسة الاقتصادية الجديدة: تمثلت هذه السياسة في المجال الزراعي في إلغاء مصادرة المحصولات الزراعية بهدف كسب الفلاحين إلى جانب الثورة، في حين حوفظ على الملكية الاشتراكية للأرض التي بدأت عام ١٩١٩ بتأسيس مزارع الدولة (السوفخوزات) والتعاونيات، ومُنح الفلاحون حق حرية الاختيار بين البقاء في هذه المؤسسات أو تركها، وأدت هذه السياسة في مدى خمسة أعوام إلى نتائج مرضية في القطاع الزراعي ولاسيما في مجال إنتاج الحبوب.

أما في المجال الصناعي فقد تمثلت هذه السياسة بإعادة بناء القطاع الخاص في المنشآت الصناعية الصغيرة والمتوسطة على قاعدة التنافس فيما بينها. وأُعيدت التجارة الداخلية إلى هذا القطاع بهدف تشجيع التصنيع وإيجاد الأسس المادية للاشتراكية بتحقيق التراكم الرأسمالي اللازم لبناء المجتمع الاشتراكي. ومنحت بعض الامتيازات للرأسماليين الأجانب، مثل فورد الذي بنى مصنعاً للسيارات في غوركي Gorki. كذلك شجعت الدولة تطوير القطاع الاشتراكي الذي شمل النشاطات الاقتصادية الرئيسية كالنقل والمصارف والتجارة الخارجية والصناعة الكبيرة. واستفادت منشآت هذا القطاع من تمويلات الدولة الضخمة، ولاسيما في مجال الطاقة، لإنشاء التروستات (٤٢١ تروستاً في عام واحد) التي كانت تضم المنشآت الصناعية والفروع التي تمارس النشاط نفسه (الفحم في حوض الدونتز، والتعدين في أوكرانية...) وهي مؤسسات عامة كانت تتمتع باستقلال مالي وتتحمل مسؤولية إدارتها التي يجب أن تكون رابحة. ومع أن هذه المشروعات حققت بعض النجاحات (مثل بناء عدة مفاعلات للطاقة الكهربائية وصنع أوائل السيارات والطائرات وإنجازات متنوعة في مجال الصناعات الاستهلاكية)، فإن نقص الأموال والتقنين جعل عملية النهوض الصناعي صعبة ولاسيما في مجال الصناعة الثقيلة. وكان لينين يأمل أن يؤدي التنافس بين القطاعين العام والخاص إلى تحقيق تقدم اقتصادي يسمح بالانطلاق نحو بناء الاقتصاد الاشتراكي.

تزامن تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة، مع محاولات تنظيم الحياة الاجتماعية والأسرية بإصدار قوانين متعلقة بتحرير المرأة وتنظيم الأسرة (حق الطلاق للزوجين، الإجهاض المجاني...) كما تزامنت مع محاولات تعزيز الحياة الثقافية. ومع أن الدولة لم تسع إلى فرض نموذج معين في مجال الأدب والفن، وشجعت الإبداع، فإن السلطة احتفظت لنفسها بحق الحكم على الأعمال الأدبية والفنية وفقاً لفائدتها الاجتماعية. مما أدى إلى سيطرة ثقافة معينة تمجد السلطة ومذهبها العقائدي إلا أنها كانت خصبة في مجال البحث الجمالي وأشكال التعبير.

وفي هذه المرحلة عزز الحزب الشيوعي سلطته للتخلص من المنشفيك والاشتراكيين الثوريين الذين كانوا يدعون أنهم أصحاب الفضل في «السياسة الاقتصادية الجديدة» فتعرضوا للقمع والملاحقة. وتعد السياسة الاقتصادية الجديدة تراجعاً استراتيجياً على طريق بناء الاشتراكية يسوغه تأخر روسية الاقتصادي. فقد رأى لينين أنه لابد من وقفة تُستغل في تصحيح الاقتصاد الروسي، وتربية الطبقة الفلاحية تربية شيوعية، وذلك بانتظار انتصار الثورة الاشتراكية في البلدان المتقدمة. وكان لينين يرى، بالنظر إلى أوضاع روسية السوفييتية عام ١٩٢٠، أن بناء المجتمع الاشتراكي يستغرق زمناً طويلاً. لأنه لابد أولاً من تطوير الصناعة على قاعدة حديثة، وإيجاد زراعة ممكننة، وتطبيق اشتراكية قائمة على انضمام الفلاحين الطوعي إلى التعاونيات الإنتاجية، وإحداث ثورة ثقافية بتطوير التعليم والثقافة بين الجماهير بهدف تغيير المواقف وتربية العقول وفق النظام الجديد.

تأسيس اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية: في المدة بين عامي ١٩٢٠ و١٩٢٢، توصلت الحكومة البلشفية إلى حل مسألة القوميات بعقد تحالفات ثنائية اقتصادية وعسكرية تربط جمهورية روسية الاتحادية الاشتراكية السوفييتية بكل جمهورية من الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية الأخرى بوصفها دولاً ذات سيادة (بحسب دستور ١٩١٨) وفي ٣٠ كانون الأول ١٩٢٢ أعلن عن قيام اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية بقرار من مجلس السوفييت في أربع جمهوريات هي: جمهورية روسية الاتحادية الاشتراكية السوفييتية وجمهوريات أوكرانية وبيلوروسية وما وراء القفقاس. وطغى مبدأ الوحدة على الاتحاد، فأبناء الجمهوريات هم سوفييت قبل أن يكونوا أوكرانيين، أو بيلوروسيين أو غيرهم، واختيرت موسكو عاصمة للاتحاد (١٩٢٢). وبعد أن تبنت الجمهوريات المذكورة دستوراً مشتركاً (١٩٢٤) أصبحت الشؤون الأساسية، أي الشؤون الخارجية والحرب والبحرية والتجارة الخارجية والمواصلات والبريد، من اختصاص الاتحاد. ولا تتمتع الجمهوريات إلا بأجهزة تنفيذية محلية، باستثناء الاستقلال اللغوي.

وقد انضم إلى الاتحاد بعد ذلك كل من جمهوريات أوزبكستان وتركمنستان (١٩٢٤) وطاجكستان (١٩٢٩) وأستونية ولاتفية وليتوانية ومولدفية (١٩٤٠). وتعد هذه الجمهوريات متساوية في الحقوق والسيادة. وتتمتع دستورياً ونظرياً بحق الخروج من الاتحاد وإقامة علاقات مباشرة مع الدول الأجنبية. ولها استقلال ذاتي وطني يشمل الشؤون السياسية والعسكرية واللغوية والثقافية.

وفي المجال التشريعي غدا مجلس السوفييت الأعلى جهاز السلطة العليا للدولة وينتخب بالاقتراع العام لمدة أربع سنوات. ويتكون من مجلسين (مجلس السوفييت الاتحادي ومجلس سوفييت القوميات). وهو الذي يعين مجلس رئاسة الدولة (البريزيديوم) الذي يمارس مهام رئيس دولة الاتحاد السوفييتي جماعياً، كما يعين مجلس الوزراء. ويضمن الحزب الشيوعي للاتحاد السوفييتي وحدة القيادة السياسية، وهو حزب وحيد يتكون من الأحزاب الشيوعية في الجمهوريات. والمؤتمر العام هو السلطة العليا للحزب وهو الذي ينتخب اللجنة المركزية التي تتولى قيادة الحزب والتي تنتخب المكتب السياسي وعلى رأسه الأمين العام للحزب.

السياسة الخارجية: خرجت روسية من عزلتها منذ عام ١٩٢٠ بعقد مفاوضات تجارية مع بعض دول أوربة الغربية. وفي عام ١٩٢١ وقعت معاهدات تجارية مع بريطانية العظمى وألمانية. فتغلبت الواقعية والمنفعة المتبادلة في هذا المجال على الصراع الإيديولوجي. ومهدت هذه المعاهدة للاعتراف الدولي بالاتحاد السوفييتي،

وفتحت معاهدة رابالو الموقعة بين ألمانية والاتحاد السوفييتي (١٩٢٢) الطريق أمام الاعتراف الدبلوماسي بالاتحاد السوفييتي، وقد تنازلت الدولتان بموجب هذه المعاهدة عن ديونهما، وقررتا تطبيق مبدأ الأفضلية في المجال الجمركي، وإعادة العلاقات الدبلوماسية بينهما.

وفي عام ١٩٢٤ اعترف بالاتحاد السوفييتي كل من بريطانية العظمى وإيطالية وفرنسة، ثم تبعتها بلدان أخرى أوربية وأمريكية (المكسيك) وآسيوية (الصين واليابان) واستمرت الولايات المتحدة الأمريكية في تجاهل الاتحاد السوفييتي دبلوماسياً حتى عام ١٩٣٣ مع قيام علاقات اقتصادية وتقنية بينهما.

وفي آذار ١٩١٩ كان لينين قد قام بتأسيس الكومنترن أو التنظيم الشيوعي الأممي الثالث ومقره موسكو وغايته مساعدة الثورات الأوربية عن طريق جمعها في منظمة مشتركة تحل محل التنظيم الاشتراكي الأممي الثاني الذي فقد اعتباره لإخفاقه في منع قيام الحرب وتبنى الكومنترن المبادىء التنظيمية التي نصح بها لينين.

واتبع الاتحاد السوفييتي سياسة نشطة في الشرق فوقع معاهدات مع إيران وأفغانستان وتركية، مع الدعاية الواسعة لصالح تحرير الشعوب المضطهدة في الشرق (مؤتمر باكو ١٩٢٠).

عهد ستالين (١٩٢٤ - ١٩٥٣)

يقسم عهد ستالين تاريخياً إلى مرحلتين تبدأ الأولى من تسلمه السلطة حتى بداية الحرب الوطنية العظمى كما يسميها الروس (١٩٤١) وتنتهي المرحلة الثانية بوفاته عام ١٩٥٣.

المرحلة الأولى (١٩٢٤-١٩٤١): في عام ١٩٢٢ أصيب لينين بفالج شقي، فطرحت مسألة خلافته على بساط البحث، ودار الصراع على السلطة بين تروتسكي [ر] وستالين [ر] (أمين عام الحزب الشيوعي منذ عام ١٩٢٢) بسبب اختلافهما حول عدد من المسائل الاقتصادية والتنظيمية والإيديولوجية. وتفاقم الصراع بينهما بعد وفاة لينين سنة ١٩٢٤. واستطاع ستالين بمساعدة رفيقي لينين - كامينيف وزينوفيف - التغلب على تروتسكي وأنصاره. فأجرى تعديلاً في الدستور ١٩٢٤ ساعده على الانفراد في السلطة، وجرد تروتسكي من مسؤولياته في الدولة (١٩٢٥).

ولكن تمسك ستالين بالسياسة الاقتصادية الجديدة وتطويره لنظريته « بناء الاشتراكية في بلد واحد » أدى إلى القطيعة بينه وبين كامينيف وزينوفيف فتقرب هذان من تروتسكي والتف حولهم الجناح اليساري للحزب. واستمرت المعركة الإيديولوجية بين الطرفين حتى عام ١٩٢٧، وانتهت بانتصار ستالين التام وتجريد تروتسكي من مسؤولياته في الحزب وإقصائه عنه مع كامينيف وزينوفيف.

وفي عامي ١٩٢٨ و١٩٢٩، نجح ستالين في إجبار الجناح اليميني للحزب على الإذعان له بعد أن أقصى زعيمه بوخارين من المكتب السياسي. وبذلك أصبح ستالين سيد السلطة.

السياسة الاقتصادية: في عام ١٩٢٨ تخلى ستالين عن « السياسة الاقتصادية الجديدة » وطرح شعار « تصنيع وتخطيط ونشر الشيوعية ». وأجمع قادة الاتحاد السوفييتي على ضرورة تبني مبدأ « التخطيط » الاقتصادي بهدف ترشيد الإنتاج الوطني وتحسينه. ومنذئذ أخذ الاتحاد بوضع خطط خمسية عامة، أعطيت فيها الأولوية للاستثمار على الاستهلاك، وللتجهيز الشيوعي وتطوير الصناعة الثقيلة على رغد العيش الفردي. وبدأت هذه الخطط تمتد إلى مناحي الحياة كافة وإلى كل المناشط واتسمت المدة بين عامي ١٩٢٨ و١٩٤١ بالتخطيط الاقتصادي وفرض الشيوعية في الأرياف. فكان من أهداف الخطة الخمسية الأولى (١٩٢٨-١٩٣٢) إلغاء القطاع الخاص وتطوير الإنتاج الاقتصادي الأساسي. واتسم تنفيذ هذه الخطة بتمويل الدولة لعملية التصنيع ومشاركة عدد كبير من التقنيين الأجانب، ووضع نظام كامل وصارم (عقوبات ومكافآت ورواتب أفضل للعمال...) للحصول على أقصى إنتاج ممكن، وأدى تنفيذ هذه الخطة إلى شيوعية الزراعة (شملت ٨٤٫٥٪ من الفلاحين) وازدهار التعاونيات الزراعية ومزارع الدولة ونشر التعليم العام والتقني بين الشباب، والقضاء التام على القطاع الصناعي الخاص، وقيام نهضة صناعية سريعة ارتفع فيها نصيب الصناعة في الإنتاج الوطني من ٤٢٪ إلى ٧٠٪، وتضاعف إنتاج الصناعة الثقيلة من ضعفين إلى ثلاثة أضعاف، وتضاعف إنتاج الفحم الحجري والحديد. وأحدثت الصناعة الكيمياوية، وفتحت طرق مواصلات جديدة. إلا أن الصناعات الاستهلاكية حققت تقدماً بسيطاً. ولم تحقق بعض الصناعات الثقيلة المعايير المقررة بسبب التأخر التقني، ونقص وسائل المواصلات، وعدم التنسيق بين القطاعات الصناعية المختلفة، وفقدان قطع الغيار.. كما أنشىء عدد من المدن، وانفتح الكثير من الأقاليم السيبيرية على الصناعة حتى أن مركز الثقل الصناعي في الاتحاد السوفييتي أخذ ينتقل إلى الشرق.

وتابعت الخطتان الخمسيتان، الثانية (١٩٣٣ - ١٩٣٧) والثالثة (١٩٣٨ - ١٩٤٢) الهدفين الرئيسين للخطة الخمسية الأولى. وجرى تلافي الأخطاء السابقة، فخفضت النسب، ورفعت حصة الزراعة ووسائل النقل في الميزانية، وشُدّد على تحسين نوعية الإنتاج، وبذلت جهود لزيادة عدد الآلات الزراعية في محطات الآلات والجرارات الزراعية وللنهوض بالتعليم التقني لأعضاء المزارع التعاونية. ومنح الفلاحون قطعاً صغيرة من الأرض لزراعتها بالخضار والفواكه وتربية المواشي فيها لإثارة اهتمامهم بالإنتاج. مما زود البلاد بقسم مهم من الإنتاج المسوّق، وفي نهاية الخطة الخمسية الثانية أصبح إنتاج الحبوب أكثر أهمية، وحقق إنتاج القطن والسكر نتائج جيدة، لكنّ أعداد المواشي ظل غير كاف وظل الإنتاج العام قاصراً عن تلبية حاجات السكان.

وفي مجال الصناعة، جعلت الخطة الخمسية الثانية الأولوية للصناعة الثقيلة وتطوير الصناعات التحويلية والمنتجات الاستهلاكية. وفي عام ١٩٣٧، أصبح الاتحاد السوفييتي الدولة الصناعية الثالثة في العالم، واستدرك جزئياً تأخره في طرق المواصلات بتوسيع شبكة السكك الحديدية وإنجاز بعض القنوات الملاحية كقناة ستالين، وقناة موسكو - فولغا، وتم تمديد أول خط من مترو موسكو. غير أن النتائج المأمولة لم تحقق في جميع المجالات، فقد دفع خطر النازية [ر] ستالين إلى تخصيص جزء كبير من التوظيفات المالية للتسليح.

كان هدف الخطة الخمسية الثالثة تجاوز الدول الرأسمالية الكبرى في الإنتاج القومي للفرد. لكن الأولوية منحت للتسليح. فتقدم الإنتاج العسكري ٣٠٠٪ في العام. وأدت الحرب في عام ١٩٤١ إلى تعليق تنفيذ الخطة.

ومع ذلك فقد حقق الاتحاد السوفييتي حتى عام ١٩٤١ تقدماً هائلاً، فارتفعت قيمة الإنتاج الزراعي ٤١ ٪ منذ عام ١٩١٣. وسجلت الصناعة الثقيلة أفضل النتائج، فبلغ إنتاج الاتحاد السوفييتي ١٢٪ من الإنتاج العالمي (مقابل ٤٪ عام ١٩١٣) كما تحقق تقدم عظيم في المجال الثقافي. فاختفت الأمية بين الشباب، كما اختفت تقريباً بين الأشخاص الذين تقل أعمارهم عن ٥٠ عاماً. وشهد التعليم الابتدائي والثانوي تقدماً مدهشاً. فأصبح أكثر من عشرة ملايين طفل يتابعون تحصيلهم العلمي لمدة سبع سنوات. وتمتع التعليم المهني بحظوة خاصة.

السلطة السياسية ـ الستالينية (١٩٢٩ ـ ١٩٤١): استصدر ستالين دستوراً جديداً عام ١٩٣١ توخى فيه تطوير البنية الاقتصادية والاجتماعية الذي عرفته البلاد منذ عام ١٩٢٤، وأكد بوضوح السمات الديمقراطية للنظام، وتحول ديكتاتورية البروليتارية إلى ديكتاتورية الحزب. إلا أن السلطة الحقيقية كانت في يد ستالين الذي مارس ديكتاتورية مطلقة، خلف قناع دستوري، فأخضع الحزب لإرادته بعد سلسلة من عمليات «تطهير» أقصى فيها كل الذين يستطيعون أو قد يستطيعون نقد سياسته أو تأليف فريق بديل. فكان عام ١٩٣٤ عام إرهاب اتسم بموجة من «المحاكمات الكبرى» لم تطل معارضي النظام فحسب بل طالت البلاشفة أيضاً، وذهب ضحيتها رفاق لينين القدامى وفيهم زينوفيف وكامينيف، ومعارضو البرنامج الاقتصادي (بوخارين) وكبار الموظفين، وعدد من الفنانين والأدباء والعلماء والموسيقيين وقادة الجيش الأحمر.

السياسة الخارجية: اتصفت هذه المرحلة من حكم ستالين بتفاقم خطر الحرب لتفاقم خطر النازية. وقد سعى الاتحاد السوفييتي في البدء إلى عزل هتلر بتحالفه مع الدول الغربية. وبعد أن أصبح الاتحاد السوفييتي عضواً في عصبة الأمم (١٩٣٤) أبرم معاهدات تعاون متبادل مع كل من تشيكوسلوفاكية وفرنسة (١٩٣٥). لكن جهوده للتقارب مع الدول الغربية الأخرى اصطدمت بمناهضة غالبية قادتها للشيوعية، إذ رفضت بريطانية إبرام أية اتفاقية مع الاتحاد السوفييتي واكتفت فرنسة بمعاهدة عامة جداً من دون أية التزامات عسكرية. وعلى الرغم من ذلك فقد وقعت فرنسة وبريطانية معاهدة مع هتلر وموسوليني تخلت بموجبها لألمانية عن إقليم السوديت التشيكوسلوفاكي (أيلول ١٩٣٨). وأدى عدم إخطار الاتحاد السوفييتي بهذه المعاهدة إلى تعزيز شكوك ستالين في نوايا الغربيين بإطلاق يد ألمانية في الشرق، مما دفع ستالين إلى عقد معاهدة عدم اعتداء متبادل مع هتلر (آب ١٩٣٩). وتضمنت هذه المعاهدة بنوداً سرية منحت الطرفين حق «تحديد مناطق منفعة متبادلة»: بلدان البلطيق وفنلندة والجزء الشرقي من بولندة وبسارابية، وهي أقاليم كانت تشكل جزءاً من الامبراطورية الروسية عام ١٩١٣.

المرحلة الثانية (١٩٤١ ـ ١٩٥٣): على إثر احتلال هتلر بولندة (أيلول ١٩٣٩) احتل الجيش الأحمر الجزء الشرقي من تلك البلاد الذي كان قد اقتطع من الاتحاد السوفييتي عام ١٩٢١. وكانت الحرب التي بدأت بين الاتحاد السوفييتي وفنلندة في ٣ تشرين الأول ١٩٣٩، قد انتهت في آذار ١٩٤٠ باستسلام فنلندة وتنازلها للاتحاد السوفييتي عن مضيق كاريلية والقاعدة البحرية هانغو. وفي حزيران ١٩٤٠، اضطرت رومانية إلى التنازل للاتحاد السوفييتي عن إقليمي بسارابية وبوكوفين اللذين تكونت منهما جمهورية مولدفية الاشتراكية السوفييتية (آب ١٩٤٠). وفرض الاتحاد السوفييتي معاهدات تعاون متبادل على بلدان البلطيق التي ما لبثت أن أصبحت تؤلف جمهوريات اشتراكية سوفييتية جديدة داخل الاتحاد (تموز ١٩٤٠). وفي الوقت ذاته، تطورت العلاقات الاقتصادية مع ألمانية إلى درجة بدت فيها متينة مع اقتراب عام ١٩٤٠ من نهايته. إلا أن هتلر كان قد أوعز إلى قادة جيوشه بإعداد الخطط لاجتياح روسية منذ شهر تموز ١٩٤٠. وقد بدأ الاجتياح فعلاً في ليلة ٢١-٢٢ حزيران ١٩٤١.

الاتحاد السوفييتي في الحرب العالمية الثانية (١٩٤١ ـ ١٩٤٥): كانت الأسابيع الأولى من الحرب كارثة على الاتحاد السوفييتي فقد أصيبت آلة الحرب السوفييتية بالشلل التام على الرغم من المقاومة العنيدة، واحتلت القوات النازية في أقل من أربعة أشهر أراضي جمهوريات البلطيق الثلاث وبيلوروسية والجزء الأكبر من أوكرانية وجميع الأقاليم الواقعة إلى الغرب من خط لينينغراد وموسكو تقريباً. غير أن القوات السوفييتية نجحت في خاتمة المطاف في احتواء القوات النازية عند ضواحي لينينغراد وعلى أبواب موسكو، واستطاع الاتحاد السوفييتي أن يتمالك نفسه بعد كارثة الأشهر الأولى. وتمكن في بضعة أسابيع، من تفكيك آلاف المنشآت الصناعية ونقلها إلى منطقة الأورال وما وراءه وتركيبها هناك من جديد، لتصبح مراكز حيوية للإنتاج الحربي. وتحمل الاتحاد السوفييتي وحده عبء الحرب في مواجهة هتلر طوال أربع سنوات. ففي تموز ١٩٤٢، توغل الألمان في القفقاس حتى وصلوا إلى مدينة ستالينغراد (فولغاغراد) ونجح الجيش الأحمر مرة أخرى في احتواء هذا التقدم، وفي ستالينغراد وعلى ضفاف الفولغا شنت القوات السوفييتية هجوماً معاكساً انتهى إلى تطويق ٢٢ فرقة عسكرية ألمانية وإبادة القسم الأكبر منها واستسلام ٩٦ ألف رجل مع قائدهم المارشال فون باولوس (٢ شباط ١٩٤٣).

وفي موقعة كورسك التي بدأها الألمان بهجوم قوي (تشرين الثاني ١٩٤٣) تمكن الجيش الأحمر من احتواء الهجوم والقيام بهجوم عام معاكس أدى إلى تحرير مدينة كييف، وفك الحصار عن لينينغراد (كانون الثاني ١٩٤٤). وفي صيف عام ١٩٤٤ وخريفه تمكنت القوات السوفييتية من تحرير جميع الأراضي السوفييتية المحتلة، وشرعت في تحرير بولندة، في حين طلبت رومانية الهدنة (٢٣ آب)، وأعلنت الحرب على ألمانية، بعد أن تخلصت من حكومتها الفاشية. وفي كانون الثاني ١٩٤٥ توغل الجيش الأحمر في بروسية الشرقية وسيليزية العليا، وحرر كل أراضي أوربة الشرقية تقريباً وقسماً من أوربة الوسطى، ودخل برلين في ٢ أيار عام ١٩٤٥. ووقعت ألمانية صك استسلام الجيش الألماني من دون قيد أو شرط في رانس (فرنسة) في السابع من أيار ١٩٤٥. وفي ظروف الحرب هذه تحسنت العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والحلفاء وازدادت وثوقاً بعد مؤتمر طهران (تشرين الثاني ١٩٤٣) الذي حضره كل من تشرشل وروزفلت وستالين، واتفق هؤلاء في مؤتمر يالطة على شاطىء القرم (شباط ١٩٤٥) على تنظيم عالم ما بعد الحرب. وفي آب ١٩٤٥، حررت القوات السوفييتية منشورية من الاحتلال الياباني. وباستسلام اليابان في ٢ أيلول انتهت الحرب العالمية الثانية.

خرج الاتحاد السوفييتي من هذه الحرب منتصراً، لكن خسائره المادية والبشرية كانت فادحة. فقد قضت الحرب على أكثر من ١٠٪ من سكانه، و٥٠٪ من ممتلكاته العقارية، و٧٠٪ من منشآته الصناعية، و٦٠٪ من معدات النقل وتجهيزاته الزراعية وأصبح أكثر من ٧٠٪ من أراضيه الزراعية غير قابل للإنتاج في المدى القريب وقضت الحرب على ٣٠ إلى ٧٠٪ من مواشيه من مختلف الأجناس، فانخفض إنتاجه في كل الميادين. أما الجانب الإيجابي في هذه المحصلة المأساوية للحرب فتمثل بالتطور الاقتصادي في المناطق الشرقية من الاتحاد وفي آسيا بدءاً من عام ١٩٤١. وفي عام ١٩٤٥ أصبحت منطقة الأورال المركز الصناعي الأول للاتحاد السوفييتي وينتج ٥٨٪ من الصلب و٥٣٪ من الفولاذ وكان الجيش الأحمر في هذا الوقت يحتل شرقي ألمانية والنمسة، وحررت قواته رومانية وبلغارية وبولندة وكورية الشمالية وشمالي الصين.

الاتحاد السوفييتي في نهاية المرحلة الستالينية: استأنف الاتحاد السوفييتي بعد الحرب سياسة التخطيط الاقتصادي، واستطاع في مدى أربع سنوات (١٩٤٥-١٩٤٩)، إعادة بناء ما خربته الحرب، وأجرى تعديلات جوهرية على الدستور (١٩٤٦)، وظلت الأولوية للصناعة الثقيلة، التي بلغت حصتها ٨٨٪ من التوظيفات المالية، ولتطوير خطوط السكك الحديدية ووسائط النقل.

وتضمنت أولويات الخطة الخمسية الرابعة (١٩٤٦-١٩٥٠) تطوير الزراعة والتقدم التقني في جميع الفروع الاقتصادية، وإعادة تجهيز الأقاليم التسعة التي أصابها الدمار، وتطوير الجمهوريات الاتحادية. لكن الإنتاج الزراعي في نهاية الخطة لم يتجاوز إنتاج ١٩٤٠ إلا بقليل، وظل إنتاج الزراعات الغذائية والمنتجات الحيوانية أقل من التوقعات بكثير. وبقيت الزراعة نقطة ضعف الاقتصاد، في حين أن إعادة البناء في المجال الصناعي سجلت نقاطاً إيجابية، إذ تجاوز الإنتاج التوقعات في كل فروعه باستثناء الصلب. وتمثلت الناحية الإيجابية الثانية بتقدم المشاريع الكبرى، أي بناء الأقنية (قناة لينين، قناة ري تركستان). وفي عام ١٩٤٩، صنع الاتحاد أول قنبلة ذرية. في حين كان العجز واضحاً في الصناعات الاستهلاكية نتيجة لاهتمام ستالين بتعزيز القدرة القتالية للاتحاد السوفييتي أكثر من اهتمامه بتوفير حياة رغد لمواطنيه، ولاهتمامه بالمستقبل أكثر من الحاضر، واتسمت الخطة الخمسية الخامسة (١٩٥٠-١٩٥٥) بمساوىء الخطة السابقة في ميدان الزراعة والإنتاج الزراعي.

لكن غداة وفاة ستالين كان الاتحاد السوفييتي قد عاد من جديد دولة صناعية كبرى. وكان الثمن الاختلالات التي وسمت المرحلة الستالينية كالتضحية بالريف، وضعف مستوى معيشة السكان، وتعميم استخدام الطرائق القسرية. فبعد الحرب، مارس ستالين ديكتاتورية مطلقة شاملة: فاضطهد الأقليات القومية وسعى إلى طمس معالمها الثقافية والدينية، وألزم الشعوب السوفييتية الالتفاف حول الشعب الروسي. فقضى بذلك على جميع التطلعات القومية. وبدأت عملية إعادة المثقفين الذين أصابتهم عدوى الأفكار الغربية إلى «صوابهم» وتعيَّن على الأدباء والمفكرين أن يصبحوا «مهندسي النفوس» ومن لا يلتزم منهم توجيهات النظام يخضع لعمليات «التطهير» وحلت «الستالينية» محل الماركسية-اللينينية.

ومع أن ستالين احتفظ بزعامته للحزب الشيوعي، إلا أنه تخلى عن منحه الأهمية التي كانت له في عهد لينين، وجعله مجرد قناة لنقل الأوامر والسهر على تنفيذها: فأهمل المكتب السياسي للحزب، ولم تجتمع اللجنة المركزية منذ عام ١٩٤٧ حتى وفاته، كما حصر سلطة اتخاذ القرارات بشخصه ومستشاريه الشخصيين. وأصبحت عبادة شخصية ستالين بلا حدود، ونصّب ستالين نفسه مُنظراً للاشتراكية.

وفي المجال الدولي، ظهر الانقسام واضحاً بين الحلفاء المنتصرين في الحرب في مؤتمر بوتسدام (١٩٤٥). وبإسدال الستار الحديدي على تشيكوسلوفاكية مساء انقلاب براغ (٢٥ شباط ١٩٤٨) أنجز ستالين القضاء على تحالفه مع الغرب، وتنامى شعور الاتحاد السوفييتي بتخلي حلفائه الغربيين عنه (خطة مارشال وزير خارجية الولايات المتحدة وتقديم المساعدات إلى دول أوربة الغربية وفنلندة)، فبدأت الحرب الباردة (١٩٤٦) بين الشرق والغرب. واتسمت فيما اتسمت به بإنشاء الكومنفورم، أي مكتب الإعلام (تشرين الأول ١٩٤٧)، بهدف دعم الإضرابات الثورية في فرنسة وإيطالية، ونشبت أزمة برلين (١٩٤٨)، والحرب الكورية (١٩٥٠). كما عزز الاتحاد السوفييتي موقعه في دول المعسكر الاشتراكي بإنشاء الكوميكون أو مجلس التعاون الاقتصادي (١٩٤٩) رداً على خطة مارشال. ودعّم علاقاته مع الصين الشعبية بعد انتصار الثورة الشيوعية فيها بقيادة ماوتسي تونغ (١٩٤٩).

عهد خروشوف (١٩٥٣-١٩٦٤)

بعد وفاة ستالين ٥ آذار ١٩٥٣، حرص قادة الاتحاد السوفييتي على العودة إلى نظام القيادة الجماعية. فعهد إلى مالنكوف برئاسة الحكومة السوفييتية (٦ آذار)، وإلى نيكيتا خروشوف بمنصب الأمين العام للحزب (١٤ آذار). لكن خروشوف سرعان ما أقصى حلفاءه من الستالينيين (مولوتوف) ومن ذوي النفوذ الخطرين (الماريشال جوكوف) وذوي الميول الليبرالية السياسية والاقتصادية (مالنكوف) فعين المارشال بولغانين رئيساً للحكومة (١٩٥٥) ثم أقصاه في عام ١٩٥٧ ليجمع في يده الأمانة العامة للحزب ورئاسة الحكومة، وسيطر على الحياة السياسية في الاتحاد في المدة بين ١٩٥٧ و ١٩٦٤. وعمل خروشوف على تخفيف التعسف البوليسي، وحاول القضاء على فساد الإدارة، ثم وجه ضربة قاضية إلى الستالينية حين تقدم بتقريره «السري» الشهير إلى المؤتمر العشرين للحزب (١٩٥٦)، وكشف فيه فظائع حكم ستالين والأخطاء السياسية والتقنية التي اقترفها منذ عام ١٩٣٥، واستنكر فيه «عبادة الشخصية» مذكراً أنها اتخذت أبعاداً هائلة لأن ستالين شجع على تعظيم شخصه وأحاط نفسه بهالة من العبقرية. وخلص التقرير إلى ضرورة العودة إلى مبادىء الديمقراطية اللينينية بكاملها.

استهل خروشوف حكمه بسياسة اقتصادية أكثر ليبرالية مما في السابق وكان هدفها تحسين أوضاع المواطنين المادية وتمثلت بتخفيض أسعار المواد الغذائية والسلع المصنعة، ورفع الأجور الدنيا. كما حاول حل مشكلة السكن في المدن، وتخفيف الأعباء عن الفلاحين، وتحسين أسعار منتجاتهم الزراعية. لكن إزالة الستالينية لم تطل مبدأي تشييع الأراضي والتخطيط الاقتصادي. وكان شعار الخطة السبعية (١٩٥٩-١٩٦٥) «استدراك تأخر الاتحاد السوفييتي

وتجاوز البلدان الرأسمالية المتقدمة». وركزت هذه الخطة على تطوير الأقاليم الشرقية، والصناعة الكيمياوية والطاقة الحرارية وكهربة وسائل النقل. كذلك اتخذ خروشوف سلسلة من الإصلاحات لتعزيز السلطات المحلية وتخفيف وصاية السلطة المركزية. إلا أن نتائج هذه السياسة كانت مخيبة للآمال فاضطر إلى التراجع عنها. وأدت نتائج الإصلاحات في القطاع الزراعي إلى أزمة اقتصادية نجمت عن تقهقر الإنتاج الزراعي، وانخفاض عائدات المزارعين واستيائهم. وحُمّل خروشوف مسؤولية ذلك. كذلك أثار برنامج خروشوف للتغيير في الحياة السياسية والاجتماعية بهدف زيادة الاهتمام بحاجات المواطنين وتطلعاتهم وزيادة مشاركتهم في الحياة السياسية، وتحسين العلاقات بين الشعوب التي يتكون منها الاتحاد السوفييتي والقضاء على مراكز القوة التي تعرقل جهوده الإصلاحية ـ أثار هذا البرنامج غضب مجموعة القادة التقليديين الذين كانوا يريدون الحفاظ على امتيازاتهم. وأدت محاولته جعل الحزب مجرد أداة تنفيذية إلى إثارة عداء الحزب بكامله. وفي تشرين الأول ١٩٦٤ أجبر أعضاء مجلس الرئاسة خروشوف على الاستقالة وعينوا ليونيد بريجنيف خلفاً له.

وفي مجال السياسة الخارجية حرص خروشوف على الحفاظ على ما حققه الاتحاد السوفييتي من مكاسب في المستوى الدولي بعد الحرب العالمية الثانية باقتسام العالم مع الولايات المتحدة الأمريكية. واستأنف العلاقات مع يوغوسلافية، وأقام حلف وارسو (١٩٥٥) مع دول الديمقراطيات الشعبية في أوربة الشرقية باستثناء يوغوسلافية وعارض إدخال إصلاحات ليبرالية على النظام السياسي في دول المعسكر الاشتراكي (تشرين الأول ـ تشرين الثاني ١٩٥٦) بالتفاوض حيناً (في بولندة) وبالقوة حيناً آخر (في هنغارية). ويبدو أن هذه الليبرالية كانت من أسباب حل الكومنترن (نيسان ١٩٥٦). في حين أن خشية الاتحاد السوفييتي من رغبة بكين في تبني سياسة المد الشيوعي الثوري، دفعت خروشوف والولايات المتحدة إلى إنهاء الحرب الباردة وتبني سياسة التعايش السلمي (١٩٥٤).

وفي شباط ١٩٦٠ أبرم الاتحاد السوفييتي معاهدة تجارية مع كوبا، ووقف إلى جانبها في أزمتها مع الولايات المتحدة ١٩٦٠، وأعلن عن استعداده للدفاع عنها، ولو اضطر إلى استخدام السلاح الذري إذا اقتضى الأمر، (أيلول ١٩٦٢)، وأكد عزمه هذا بإرسال سفن تحمل صواريخ سوفييتية إلى كوبا، مما أدى إلى تأزم في العلاقات بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة كاد يؤدي إلى حرب ذرية بينهما لولا تراجع خروشوف وإصداره الأوامر إلى السفن بالعودة إلى الاتحاد السوفييتي، وسحبه الصواريخ والقاذفات السوفييتية من كوبا. وفي الوقت نفسه أخذت علاقات الاتحاد السوفييتي تسوء مع الصين الشعبية بسبب الخلاف على عدد من النقاط تتعلق بالسياسة الداخلية في الصين ومعارضة الصين سياسة التعايش السلمي. وانتهى الأمر إلى القطيعة التامة بينهما (١٩٦٠).

عهد بريجنيف (١٩٦٤ ـ ١٩٨٢)

بعد تعيين ليونيد بريجنيف أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي أصبح كوسيغن رئيساً للحكومة، وميكويان [ر] رئيساً لمجلس رئاسة الدولة حتى عام ١٩٦٦ ثم خلفه في هذا المنصب بودغورني [ر] وبذلك عاد الاتحاد السوفييتي إلى القيادة الجماعية من جديد. لكن سرعان ما انفرد بريجنيف بالسلطة عندما جمع في يده الأمانة العامة للحزب ورئاسة الدولة (١٩٧٧).

لم يؤد رحيل خروشوف إلى تغييرات جذرية في الخيارات السياسية والاقتصادية ومع ذلك عرف الاتحاد السوفييتي في عهد بريجنيف بعض التحولات. ففي المجال الاقتصادي استؤنف العمل بالخطط الخمسية. وبدأ تطبيق الإصلاحات التي نادى بها ليبرمان في المصانع (إدخال مفهوم الربح في إدارة المنشآت الصناعية وإجبارها على تنظيم برنامجها الإنتاجي تبعاً لطلبات زبائنها، والتسيير الذاتي)، ثم في المجال الزراعي. وأعطت هذه السياسة نتائج مرضية نسبياً. وبعد سنوات من التردد، ساعد استخدام الحوافز المادية، وتحسين تقنيات الإدارة، وتحديد الأسعار بربطها بسعر الكلفة الحقيقية للإنتاج على الحصول على نتائج مؤكدة مع الخطة الخمسية الثامنة (١٩٦٦ ـ ١٩٧٠). والتاسعة (١٩٧١ ـ ١٩٧٥). وازداد إنتاج الأدوات الاستهلاكية موازياً إيقاع إنتاج الصناعة الثقيلة. وفي الميدان الأيديولوجي، تعزز في عهد بريجنيف العمل بالواقعية الاشتراكية في الوقت الذي تزايدت فيه معارضة المنشقين بدءاً من عام ١٩٧٠.

وفي مجال السياسة الخارجية، حقق الانفراج الدولي تقدماً مهماً بدءاً من عام ١٩٦٥. فتحسنت العلاقات السوفييتية ـ الأمريكية ولاسيما بعد معاهدات ١٩٧٢ الخاصة بالحدّ من الأسلحة النووية وتوقف حرب فييتنام. كما تحسنت العلاقات السوفييتية مع ألمانية الاتحادية (١٩٧٠) في حين توترت العلاقات مع دول المعسكر الاشتراكي بسبب استمرار الاتحاد السوفييتي في سياسة الحفاظ على وحدة العالم الاشتراكي وفقاً للمعايير التي حددها بنفسه. وهذا ما يفسر تدخله في تشيكوسلوفاكية (١٩٦٨). واستمر الاتحاد السوفييتي ببسط نفوذه في إفريقية وأمريكة اللاتينية، وفي تدعيم موقفه في الشرق الأوسط وتأييده للبلدان العربية في مواجهة العدوان الإسرائيلي (١٩٦٧). ومنذ كانون الأول ١٩٧٩، تدخل عسكرياً في أفغانستان بهدف مساعدة الحكومة الماركسية فيها على الحفاظ على السلطة. وقد اتسمت مدة حكم بريجنيف بالجمود والمحافظة ومقاومة كل تجديد. وتمثّل ذلك باستقرار الأطر نفسها في أجهزة الحكم، والتمسك بالتخطيط الاقتصادي، مع الرغبة في تقريب شروط معيشة أبناء الأرياف من أبناء المدن عن طريق تطوير «المدن في الأرياف» وكذلك مواصلة الأهداف السياسية الخارجية نفسها.

عهد أندروبوف (١٩٨٢ ـ ١٩٨٤)

بعد وفاة بريجنيف (تشرين الثاني ١٩٨٢)، أصبح الرئيس السابق للاستخبارات السوفييتية KGB يوري أندروبوف [ر] أميناً عاماً للحزب الشيوعي ثم رئيساً للدولة. وقد اصطدمت محاولاته الإصلاحية بثقل المؤسسات البيروقراطية، ومقاومة الجهاز الذي أنشأه سلفه، وسياسة الترقب التي تبناها القادة السوفييت الذين ترددوا في دعم أندروبوف المصاب بالشلل والذي لم يعد يظهر في المحافل العامة منذ صيف ١٩٨٣ إلى أن توفي في ٩ شباط ١٩٨٤.

عهد تشيرنينكو (١٩٨٤ ـ ١٩٨٥)

بعد وفاة أندروبوف، أصبح قسطنطين تشيرنينكو [ر] أميناً عاماً للحزب، فأعاد الطمأنينة إلى رجال الجهاز الذي أنشأه بريجنيف وأزال قلقهم من أطياف الإصلاحات

التي حاول أندروبوف القيام بها. ورأى هؤلاء في تشيرنينكو عنصر توازن بين الفئات المختلفة داخل الحزب، وظهر تقدمه في السن عاملاً يضمن الاستقرار، ولايحول دون تحقيق طموحات القادة الأصغر سناً. وكان طبعه المتواضع وعدم خبرته بالمشكلات الداخلية يبشر بالعودة إلى القيادة الجماعية. وقد اضطر أكثر من مرة إلى الرضوخ للآخرين في تسيير الأمور، ولاسيما أندريه غروميكو في المجال الدبلوماسي، وديمتري أستينوف في أمور الدفاع، حتى بات من الممكن القول بأن ثلاثة رجال كانوا يملكون مقاليد السلطة في الكرملين. وكانت سياسة الكرملين الداخلية والخارجية حصيفة تمثلت بالاستمرار على صعيد السياسة الداخلية بسبب الاعتماد على عناصر من عهدي بريجنيف وأندروبوف وحافظت على بقاء المؤسسات القديمة والأيديولوجية، مع تأكيد انتظام العمل والبحث عن الفعالية في البُنى القائمة.

أما على صعيد السياسة الخارجية فيمكن تمييز مرحلتين. اتسمت الأولى منهما بالتشدد في أفغانستان وبفرض شروط قاسية لاستئناف الحوار بين موسكو وواشنطن حول الحدّ من انتشار الأسلحة النووية بعد توقفه في تشرين الثاني ١٩٨٣ إثر وصول الصواريخ الأمريكية بيرشينغ Perching إلى أوربة الغربية. واتسمت الثانية «بتسخين» العلاقات بين موسكو وواشنطن بعد انتخاب رونالد ريغان رئيساً للولايات المتحدة، وبذل الجهود لاستئناف المفاوضات بينهما حول الحدّ من الأسلحة الدفاعية والهجومية والأسلحة النووية عابرة القارات والمتوسطة المدى.

وفي ١٠ آذار ١٩٨٥، توفي تشيرنينكو. وانتخب محله ميخائيل غورباتشوف أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي.

عهد غورباتشوف (١٩٨٥ - ١٩٩١)

شهد الاتحاد السوفييتي مع وصول غورباتشوف [ر] إلى السلطة سلسلة من التحولات شملت كل جوانب الحياة. ففي البداية عزز غورباتشوف سلطاته بصفته أميناً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي، بتعيين ثلاث شخصيات موثوقة في المكتب السياسي للحزب هم رئيس الحكومة ريجكوف، وليجاتشف، وتشيبريكوف. وأقصى من المكتب السياسي ثم من الأمانة العامة للحزب منافسه الأول رومانوف، ووزير الخارجية غروميكو.

وبعد شهر من تسلمه السلطة، وفي الاجتماع الكامل للجنة المركزية للحزب، تحدث غورباتشوف عن ظواهر الركود التي يعيشها المجتمع السوفييتي منذ الستينات (الانخفاض المستمر في نسبة النمو الاقتصادي، وانخفاض نسبة متوسط الدخل القومي الفردي وغيرهما) ورأى وضع استراتيجية لتقويم تشوهات هيكل المجتمع وإزالة ما لحق بالنظام من عيوب منذ الثلاثينات وتسريع التنمية الاقتصادية والاجتماعية لإخراج المجتمع من أزمته. وبعد مضيّ نحو ثلاث سنوات على تسلمه دفة الحكم، أدرك غورباتشوف أن «إجراءات التجميل وحدها لاتكفي» وقادته دراسة الأسباب الجذرية للأزمة التي يعيشها المجتمع السوفييتي، وما تحدثه ثورة العلم التقني في العالم، وما يوليه هذا العالم من اهتمام للحفاظ على الحضارة المعاصرة - إلى طرح استراتيجية «إعادة البناء» (البيريسترويكا Peristroika) على أنها عملية «تجديد ثوري للاشتراكية وللمجتمع السوفييتي كله» واقترح برنامجاً متكاملاً للبيريسترويكا يشمل الميادين السياسية والأيديولوجية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والقانونية بهدف تحقيق الرفاه ورغد العيش وحرية التطور الشامل لكل أفراد المجتمع.

استمدت استراتيجية البيريسترويكا أسسها من المبادىء اللينينية بعد إزالة ما لحق بها من تفسير «دوغماتي» وجمود عقائدي وتشوهات وبعد إغنائها بالمستجدات التي يطرحها تطور المجتمع وتُمليها روح العصر، فجاءت برنامجاً شاملاً للمجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والقومية والتنظيمية الحزبية. ويدعو هذا البرنامج إلى الانتقال من النظام التسلطي - البيروقراطي القائم على الأمر والنهي إلى النظام الاشتراكي الإنساني الديمقراطي القائم على سيادة حقوق الإنسان وحماية حرياته الأساسية، واحترام مبدأ سيادة الشعب وممارسة رقابته على السلطتين التشريعية والتنفيذية، وإشاعة الديمقراطية، وتنمية روح الحوار والنقد، وجعل هذا النظام في خدمة الإنسان لا العكس، والقضاء على «عبادة الشخصية».

وفي المجال الاقتصادي كان هدف البيريسترويكا الانتقال إلى اقتصاد السوق، بتحويل جميع الحلقات الاقتصادية إلى العمل طبقاً لنظام «الحساب الاقتصادي» والتمويل الذاتي، أي بناء «اقتصاد قانوني» والفصل بين إشراف الدولة على الاقتصاد وإدارة الاقتصاد بحيث تُعطى المؤسسات والاتحادات الإنتاجية والشركات المساهمة والتعاونيات دوراً رئيساً في الاقتصاد، في حين يقتصر دور الدولة على وضع الأطر المعيارية العامة، وتوفير الشروط اللازمة لنشاطات الحلقات الاقتصادية، وحماية البيئة، وتسخير الاقتصاد لخدمة الإنسان والعناية بمتطلباته، والوفاء بحاجاته الأساسية، وإعادة الإنسان الزراعي إلى الأرض وتسليمه وسائل الإنتاج وجعله سيد هذه الأرض وحفز اهتمامه الشخصي بذلك، وتقوية مصلحته المادية في زيادة الإنتاج الزراعي، وتهيئة أسباب الرفاه الاجتماعي في القرية.

أما في المجال الاجتماعي فهي تعني العمل على رفع المستوى المعيشي للسكان الأقل يسراً، وتحسين الرعاية الطبية، وحل مشكلة توفير المستحضرات الطبية، وحل مشكلة السكن والمشكلات التي تعاني منها المرأة، والاهتمام بحماية البيئة، واجتثاث المساواة الظاهرية والاتكالية أخذاً بمبدأ «من كل بحسب قدرته ولكل بحسب عمله».

وفي المجال الثقافي ترمي البيريسترويكا إلى العمل بالمفهوم اللينيني للثقافة الشامل لكل مجالات تعامل الإنسان مع العالم والمجتمع، ومع نفسه، والنبذ الكامل لأساليب الأمر والنهي وفرض التصورات الذاتية، وعدّ العمل الذهني ثروة يمتلكها المجتمع لا تقدر بثمن، وقوة هائلة محركة له في درب التطور، وانتهاج الموقف نفسه في الميادين العلمية الأخرى والتعليم، وكذلك تشجيع التبادل الثقافي والعلمي الواسع والحرّ مع البلدان الأجنبية، وتطوير نظام التعليم العام والتقني بكل مراحله وفقاً لمتطلبات العصر السريعة التغير، وتربية ثقافة إنسانية رفيعة لدى اختصاصيي الغد.

وفي المجال القومي، تعني البيريسترويكا تحديث السياسة القومية بالعودة إلى السياسة القومية اللينينية القائمة على مبدأ حرية القوميات في تقرير مصيرها، وإيجاد اتساق حقيقي في العلاقات القومية يضمن مصالح كل أمة على حدة ومصالح الشعب عامة، ويكون ذلك بتوسيع حقوق الجمهوريات والكيانات

القومية الأخرى، ورفع درجة استقلالية الأجهزة الجمهورية والمحلية، وتحديد صلاحياتها ومسؤولياتها وصلاحيات الحكومة الاتحادية بدقة، وتنسيق العلاقات الاقتصادية بين الاتحاد والجمهوريات على أساس الجمع العضوي بين الاستقلال الاقتصادي والمشاركة الفعالة في تقسيم العمل على صعيد الاتحاد، والاعتراف الفعلي بتنوع الثقافات القومية وعدم الانتقاص منها أو التفريط بها لأن كل واحدة منها فريدة في بابها.

ومن جملة اهتمامات البيريسترويكا إصلاح الحزب من الداخل والفصل الدقيق بين وظائف هيئات الحزب والدولة والأجهزة الاقتصادية... ووضع الحزب تحت رقابة الهيئات المنتخبة، وإعادة بناء العمل الحزبي إيديولوجياً انطلاقاً من الجذور بحيث يصبح عملاً مبدعاً وجهته الناس وقضاياهم... والاستعاضة عما تعوده الحزب في الماضي من حوار مع الذات بحوار واسع مع المجتمع في ظل تعددية الرأي وإشاعة الروح الديمقراطية داخل الحزب نفسه.

وفي مجال السياسة الخارجية، تنطلق البيريسترويكا من مبدأ التحرر من التصورات القطعية والاعتراف بأولوية المصالح والقيم البشرية العامة، والقيم الأخلاقية العامة لتكون معياراً إلزامياً لكل سياسة، وكذلك الاعتراف بحرية الاختيار الجماعي التي تستبعد التدخل في شؤون الدول وبضرورة تخليص العلاقات بين الدول من المجابهة الأيديولوجية.

أما المبادىء التي قامت عليها السياسة الخارجية للاتحاد السوفييتي في ظل البيريسترويكا فكانت في مقدمتها ضمان أمن الاتحاد السوفييتي بالوسائل السلمية ضمن مكونات الأمن الشامل المتكافىء وتجريد العلاقات الدولية من النزعة العسكرية وإشاعة مبادىء الديمقراطية الإنسانية فيها، استناداً إلى نفوذ الأمم المتحدة وإمكاناتها، وتصفية السلاح النووي عن طريق مفاوضات تستهدف نزع السلاح وتقليص الطاقات الدفاعية للدول إلى حدود الكفاية المعقولة، وعدم جواز استعمال القوة أو التهديد باستخدامها من أجل تحقيق غايات سياسية واقتصادية، واحترام سيادة الدول واستقلال أراضيها وسلامتها في العلاقات مع الدول، وتبني الحوار والمفاوضات وسيلة وحيدة لحل القضايا وتسوية النزاعات الدولية، والنظر إلى التعايش السلمي بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي على أنه مرحلة يصعب رؤية حدودها في الزمن، فالتاريخ سيقرر أياً من النظامين أكثر قدرة على العيش، ودمج الاقتصاد السوفييتي في الاقتصاد العالمي على أسس متكافئة والمشاركة الفعالة في صوغ قواعد تقسيم العمل الدولي المعاصر والتبادل العلمي والتقني والتجارة والتعاون مع من يبدي الاستعداد لذلك.

صباح كعدان

تفكك الاتحاد السوفييتي

تزامن اختيار غورباتشوف عام ١٩٨٥ أميناً عاماً للحزب الشيوعي مع تزايد المخاوف من استفحال أزمة النقص في المواد الغذائية التي أعلن عن بداياتها عام ١٩٨٠، واستمرت مع تطبيق خطة زراعية جديدة من ١٩٨٢ وحتى ١٩٩٠ كان هدفها الحد من استيراد الحبوب ولاسيما القمح من الولايات المتحدة. وعلى الرغم من لقاء غورباتشوف أربع مرات عام ١٩٨٧ مع الرئيس الأمريكي رونالد ريغان، وانتهاجه خطة إصلاحات جذرية وإطلاقه الحريات ونشر الديمقراطية بتطبيق سياسة «الانفتاح» و«إعادة البناء» فقد أخفق غورباتشوف في تحقيق أهدافه، وواجه معارضة شديدة من بعض دول الكتلة الشرقية وأكثر أنصار الشيوعية محافظة داخل الاتحاد السوفييتي. ومع هذا فقد عقدت جلسة للبرلمان السوفييتي في عام ١٩٨٩ لأول مرة منذ عام ١٩١٨ كانت نتائجها في صالحه. إلا أنه واجه في عام ١٩٩٠ مشكلات اقتصادية حادة واضطرابات عرقية وقومية في الجمهوريات، زادت في حدة المصاعب الاقتصادية التي لم يعرف الاتحاد مثيلاً لها منذ الحرب العالمية الثانية، وأدت إلى ازدياد النقمة على غورباتشوف من اليمين واليسار على حد سواء.

وفي ١٩ آب عام ١٩٩١ عاشت البلاد انقلاباً عسكرياً تسلم فيه نائب الرئيس السلطة وعزيت هذه التدابير الاستثنائية إلى مرض غورباتشوف في منتجعه الصحي في القفقاس في الوقت الذي كان فيه غورباتشوف يستجم في القرم. وأعلن الانقلابيون تأليف حكومة خلاص لمدة ستة أشهر. لكن رئيس جمهورية روسية الاتحادية بوريس يلتسن شجب الانقلاب وقاومه علانية ودعا إلى إضراب عام دعمه نحو ٥٠,٠٠٠ متظاهر أمام البرلمان الروسي ونجح في مساعيه فاستسلم الانقلابيون بعد ثلاثة أيام وأعيد غورباتشوف رئيساً للدولة. وفي ٢٤ آب عام ١٩٩١ استقال غورباتشوف من رئاسة الحزب الشيوعي وأوصى بحل اللجنة المركزية للحزب. وأعلنت جمهوريات الاتحاد السابقة استقلالها عن الاتحاد في شهري آب وأيلول من العام نفسه عدا تركمنستان (تركمانية) التي أعلنت استقلالها في ٢٧ تشرين الأول ١٩٩١.

وجاءت الضربة القاصمة للحزب الشيوعي السوفييتي في ٢٩ آب ١٩٩١ حين صوت البرلمان السوفييتي على إيقاف جميع نشاطات الحزب وإغلاق مكاتبه. وبذل غورباتشوف محاولة لإحلال اتحاد سوفييتي جديد محل الاتحاد المنهار، فأعلن في الثاني من أيلول ١٩٩١ أن الأمة على شفير كارثة واقترح نقل جميع السلطات المركزية إليه وإلى رؤساء الجمهوريات العشر ومجلس تشريعي معين.. ولكنه أخفق في مسعاه مرة أخرى وأُقصي عن مناصبه كلها، وآل الأمر إلى تفكك الاتحاد السوفييتي تماماً وحل الحزب الشيوعي. ونشأت في مقابل ذلك ١٥ جمهورية مستقلة وعدد من الجمهوريات الصغيرة التي أعلنت استقلالها في شمالي القفقاس وما وراء القفقاس. وأعلن غورباتشوف بنفسه نهاية الاتحاد في خطاب تاريخي وجهه إلى شعوب الاتحاد السوفييتي في نهاية عام ١٩٩١.

الأدب السوفييتي

يوحد مصطلح «الأدب السوفييتي» الذي ظهر بعد ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ آداب الشعوب التي كانت تقطن أراضي اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية، والتي يزيد عددها على مئة قومية، وتختلف فيما بينها في اللغة والعادات والتقاليد والتاريخ. وقد تطورت آداب هذه الشعوب حتى أصبحت تطبع بأكثر من سبعين لغة في عموم الاتحاد السوفييتي السابق. وتؤلف المبادىء الأيديولوجية والاجتماعية الاشتراكية والقيم الإنسانية والجمالية الأساس الموضوعي لوحدة هذه الآداب المتنوعة في إطار الأدب السوفييتي.

أخذ الكتّاب السوفييت من مختلف القوميات والمذاهب على عاتقهم مسؤولية عكس تجربة التحولات الاشتراكية ومجابهة التيارات البرجوازية في مجالي الفن والأدب في

المجتمع الجديد.

ولكن الأدب السوفييتي المتعدد القوميات لم يخرج إلى الوجود وحدةً فنيةً وفكرية متكاملة بعد قيام الثورة الاشتراكية مباشرة. إذ اعترضته عقبات وصعوبات كثيرة، ولاسيما أن المضمون الفكري والبنية التكوينية وغيرهما من العوامل التي تؤلف هذا الأدب كانت مرتبطة بالتطور التاريخي لمختلف القوميات ضمن أطر الاتحاد السوفييتي السياسية والثقافية والاقتصادية. زد على ذلك أن الوعي والثقافة العامة في مختلف الجمهوريات السوفييتية كانا على درجة كبيرة من التباين. وإذا قدر للاتحاد السوفييتي أن يتكون بقرارات سياسية أوجدتها الثورة وأملاها الواقع، فإن مسألة صهر الآداب والفنون في مختلف أراضي الاتحاد السوفييتي لم تكن مسألة سهلة لتنوع الشروط التاريخية والعوامل الثقافية والنفسية التي مر بها كل شعب من شعوب الاتحاد السوفييتي وهي كثيرة. وكان من الضروري، قبل كل شيء، محو الحساسيات والفروق الملموسة بين مختلف القوميات القاطنة في هذه الأراضي التي تؤلف سدس اليابسة تقريباً. ومن المعروف أن الأدب الروسي حقق في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الكثير من النجاحات على أيدي كتاب وشعراء معروفين من أمثال بوشكين [ر] وليرمنتوف [ر] وغوغول [ر] وتورغينيف [ر] ودستويفسكي [ر] وتولستوي [ر] وتشيخوف [ر] وغوركي [ر] وغيرهم. وقد أثر هؤلاء الكتاب بأدبهم تأثيراً كبيراً في آداب الشعوب الأخرى القريبة من الشعب الروسي قومياً أو جغرافياً، وتعدى تأثيرهم حدود روسية إلى مناطق بعيدة في العالم، وترجم الكثير من أعمال النقاد والأدباء الروس إلى مختلف لغات العالم، ووجد فيها علماء الأدب الآخرون خير معين على تقويم شتى الظواهر والاتجاهات والتيارات الأدبية في الآداب العالمية.

وتجدر الإشارة إلى أن المجموعة الأولى من الكتاب السوفييت الذين تكاتفوا بعد الثورة لوضع الأسس النظرية للأدب السوفييتي كانوا ينتمون إلى قوميات مختلفة ومن هؤلاء غوركي، وبيدني، وسيرافيموفيتش، وأوبيت، وأغوبيان، وأردوبادي، وكولا خميتوف، وسيفولين، وغابيييف، وغادييف، وسعيدوف، وفيرتانين وغيرهم. وقد برز في تلك الآونة عدد كبير من النقاد من أمثال لونا تشارسكي، وفاردفسكي، وشاوميان، وميا سنيكيان، وناريمانوفار، وماخارادزه وغيرهم. وأخذت الحركة الثقافية تتسع في عموم الاتحاد السوفييتي السابق بعد أن انتهت الحرب الأهلية (١٩١٧ - ١٩٢٢) وبدأ تطبيق السياسة الاقتصادية الجديدة فأخذ الكتّاب على عاتقهم مهمة إبراز مزايا الحياة العملية كما أصبحت بعد الثورة. وإلى جانب الشعراء الثوريين، وفي مقدمتهم ماياكوفسكي [ر] الذي لقب بشاعر الثورة، أخذ ينشط عدد من كتّاب القصص والروائيين السوفييت الذين أخذوا يبتعدون عن الرمزية في الأدب ويقتربون من الواقعية الاشتراكية شيئاً فشيئاً، وراح هؤلاء يتخلون عن سياسة الهجوم العفوي والفوضوي على العالم القديم، ويميلون إلى تقويم آثاره السلبية والإيجابية تقويماً سليماً، وإلى عكس الظواهر الجديدة التي عصفت بالمجتمع بعد الأحداث الثورية، والصراع الدموي في الحرب الأهلية.

وفي هذه المرحلة المعقدة أخذ بعض الكتّاب الروس موقفاً معارضاً من الثورة الاشتراكية فساندوا التنظيمات السياسية المناوئة لها. وهاجر عدد منهم إلى خارج الاتحاد السوفييتي بعد أن تأكد لهم رسوخ أقدام الثورة وانصرام العهد القيصري إلى غير رجعة، ومن بين هؤلاء باسترناك [ر] وأخماتوفا [ر] وماندلشتام.

ومن أهم المسائل التي عاقت وحدة الآداب السوفييتية نشاط التيارات المتعصبة التي حاولت أن تستغل المشاعر القومية لتشويه الشعارات التي أتت بها الثورة. وقد عمل الكتاب السوفييت المؤيدون للثورة على تمتين عُرا التعاون والمحبة والصداقة بين شعوب الاتحاد السوفييتي وقومياته كافة، وأسهموا إسهاماً فعالاً في القضاء على تلك الحساسيات القومية والدينية التي خلفتها العصور الغابرة، وفي وضع السياسة المناسبة لحل المسائل القومية وتقليص الفروق الثقافية والاقتصادية وتحقيق شعار الفن في خدمة الشعب.

وتكونت منذ العشرينات من القرن العشرين تجمعات وتنظيمات أدبية عدة مثل منظمة الثقافة البروليتارية والأخوة سيرابيونوف في روسية، والاتباعيون الجدد في أوكرانية، والجماعة الأكاديمية في جورجية، وغيرها.

وقد كان لفلاديمير ماياكوفسكي باع طويل في ولادة الشعر الثوري وتطويره قبل الثورة وبعدها، واشتهر بقصائده العنيفة في نقد أعداء الثورة وبنزعته المستقبلية الثورية، وشاركه آراءه شعراء كبار من بينهم تينشين، وتشارفيتس، وتاكتاش، وفيرغون وغيرهم أخذوا على عاتقهم التعبير عن مشاعر الإنسان المعاصر وأفكاره في صور لغوية واضحة يفهمها عامة الشعب. كما يبدو ذلك جلياً في أشعار ديميان بيدني وسيرغي يسنين وغيرهما. وربما كانت أفضل مجموعة شعرية صدرت في بدايات العهد السوفييتي هي مجموعة روسية السوفييتية عام ١٩٢٥. أما في مجال النثر فصدرت في حقبة العشرينات مجموعة مؤلفات اعتمدت الواقعية في التعبير منهجاً، وعكست الكثير من الوقائع والأحداث المهمة، ويلاحظ ذلك في قصة «الانهيار» (١٩٢٧) لغادْييف، و«الاسمنت» (١٩٢٥) لغلادكوف، و«الأرض» (١٩٢٨) لتْشورني، و«الجذور العميقة» لإبراهيموف. وكان صدور الجزء الأول من «الدون الهادىء» لميخائيل شولوخوف [ر] عام ١٩٢٨ ظاهرة مهمة من ظواهر تطور الأدب السوفييتي لأن شولوخوف تمكن من وصف حياة القوزاق في منطقة الدون وصفاً دقيقاً وواقعياً، وعكس في قصته ذلك الصراع التاريخي بين القديم والجديد في إطار أحداث الثورة التي طرحت الكثير من القضايا الجديدة، إذ كان على المرء آنئذ أن يحدد موقفه من قضية الثورة في تلك الأوضاع المعقدة التي لم تكن مفهومة للجميع، وأن يؤمن بولادة الإنسان الجديد الذي تحدث عنها الكثير من الكتاب والشعراء السوفييت.

وكان انعقاد مؤتمر الكتاب السوفييت الأول في عام ١٩٣٤ نقطة انعطاف مهمة في تاريخ الأدب السوفييتي، فقد أُقرّ فيه الدستور العام لاتحاد الكتاب السوفييت، وأشير إلى أن الواقعية الاشتراكية هي المدرسة الأساسية للإبداع الفني والأدبي. وتعني الواقعية الاشتراكية، بحسب ما جاء في قرار المؤتمر، «عكس الواقع من خلال تطوره الثوري وتحقيق الانسجام بين الحقيقة والدقة التاريخية في التصوير الأدبي للواقع وللمهمات الفكرية من أجل تربية الكادحين على روح الاشتراكية». وأكد المؤتمر تقارب آداب القوميات السوفييتية المتنوعة والتفافها حول هذا المنهج الأدبي الجديد بالاعتماد على التراث الأدبي الكبير للشعوب التي تقطن أراضي الاتحاد

السوفييتي. وتوجه نشاط الكتاب السوفييت منذئذ نحو مناهضة الاتجاهات الأدبية الشكلية والمتطرفة، وكان لمكسيم غوركي فضل كبير في إقرار الاتجاه الجديد للأدب السوفييتي. وكان لإنتاجه الأدبي أثر بارز في توضيح أسس هذه المدرسة الواقعية الاشتراكية بدءاً من أعماله الإبداعية الرومنسية في التسعينات من القرن التاسع عشر وروايته «الأم» ومسرحيته «في الحضيض» و«الأعداء» وانتهاءً بأعماله الواقعية التي عكس فيها سيرة حياته: «طفولتي» و«في الناس» و«جامعاتي» بالإضافة إلى قصصه «عمل أسرة أرتامونوف» و«حياة كليم سامغين» وغيرها. وسخّر الكثير من الكتاب السوفييت في العشرينات والثلاثينات جلّ نشاطهم لأدب الأطفال ومن أبرز هؤلاء ماياكوفسكي، وتشوكوفسكي، ومارشال، وبارتو، وميخالكوف. كما أسهم نيقولاي أستروفسكي [ر] في كتابه «والفولاذ سقيناه» (١٩٣٤) إسهاماً فعالاً في تربية الشباب على الروح الثورية والصمود والتضحية والتصدي للمصاعب الماثلة أمام الشباب في تلك الحقبة التاريخية الصعبة التي مر بها الاتحاد السوفييتي في مراحل بنائه الأولى.

ومع تصاعد حدة المجابهة السياسية والعسكرية مع القوى النازية والفاشية في أوربة في نهاية الثلاثينات وفي الأربعينات سخّر معظم الكتاب السوفييت نشاطهم الأساسي لتجسيد حب الوطن وتنمية روح النضال الوطني وتمجيد البطولة والشجاعة والتضحية في الصراع مع الفاشية. ومن أهم شعراء هذه المرحلة وكتّابها سوركوف، وسيمونوف [ر] ولوغوفسكي وتيتشين، وموسى جليل. وشارك كثير من الكتاب في القتال في جبهات الحرب واستشهد الكثير منهم، وفي مقدمة هؤلاء غايدار، وألتاوزن، وأوتكين، وكريموف، ولابين، وبتروف، وموسى جليل وأُشاكوف وغيرهم.

وتجدر الإشارة إلى أن أحداث الحرب العالمية الثانية قربت بين مصاير مختلف القوميات السوفييتية، حتى أصبح من الصعب أن يجد المرء كاتباً من الكتاب السوفييت مهما كانت قوميته لم يتناول قضية النضال الوطني في مواجهة الفاشية. وتوصل هؤلاء إلى إيجاد أدب غني شامل سُمي أدب الحرب عكس فيه الكتاب بطولات الجنود السوفييت في مختلف الجبهات ومنجزات العمال والفلاحين في جبهات العمل الداخلية، ومآثر حرب الأنصار الرديفة، والتضحيات الجسيمة التي قدمها الشعب. وتناول بعضهم في أعماله ذوي النفوس المريضة والمتخاذلين أمام الصعوبات، والخونة المتعاونين مع المحتل، كما في قصة شولوخوف «مصير إنسان» التي يصور فيها روح البطولة وما يلحقه وجود عميل بين صفوف المقاتلين من ضرر. ولعل أبدع ما كتب عن أحداث الحرب مسرحية «الجبهة» (١٩٤٢) لكارنيتشوك و«الاجتياح» (١٩٤٢) لليونوف [ر] و«الناس الروس» (١٩٤٢) لسيمونوف، وكذلك «ملحمة كيروف معنا» (١٩٤٠) للشاعر تيخونوف و«راية القائد» (١٩٤٣) لكوليشوف، و«فاسيلي تيوركين» (١٩٤١-١٩٤٥) لتفاردوفسكي [ر].

ومن المهم الإشارة إلى أن جميع الأعمال الأدبية التي كُتبت في أثناء الحرب أو بعدها تتسم بالدقة الوثائقية والواقعية في عكس الأحداث والبطولات والتضحيات والمصائب والويلات. وهذا ما يلاحظ في رواية ليونوف «الغابة الروسية»، ورواية شولوخوف «هم دافعوا عن وطنهم» وغيرها.

أخذ الكتاب السوفييت في نهاية الخمسينات يتحررون من القيود التي وضعتها سياسة عبادة الفرد في زمن حكم ستالين، وهذا ما يلاحظ في ملحمة الشاعر تفاردوفسكي «خلف البعد - أبعاد» التي تناول فيها مصير الاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية الثانية، فضلاً عن التناقضات السياسية والحيوية وطرائق حلها والتخلص منها.

ومن بين الموضوعات التي تطرّق إليها الكتاب السوفييت أيضاً قصص الخيال العلمي [ر] فقد صدر في مرحلة الثلاثينات وما بعدها مؤلفات أدبية كثيرة تتناول موضوعات الفضاء والعلاقة بين الكواكب والتنقيبات الجيولوجية والاستكشاف، ومن بينها روايات «قفزة في الفراغ» (١٩٣٣) لبِلياييف، و«نجمة الصبح» (١٩٥٧) لفولكوف، و«الأخت الأرض» (١٩٥٩) لمارتينوف و«الأرض الساخنة» (١٩٥٠) لكاندييا و«أسرار محيطين» (١٩٣٩) لأداموف [ر]. ومع تطور الثورة العلمية التقنية واتساع آفاق استكشاف الفضاء ظهرت أعمال أدبية تتسم بطابع الخيال العلمي بالاستناد إلى بعض المعطيات العلمية والكشوف الفعلية الجديدة.

ومن أشهر الكتاب السوفييت المعروفين عالمياً في الوقت الحاضر أيتماتوف الذي ذاع صيت مؤلفاته «جميلة» و«المعلم الأول» و«وداعاً يا غولساري» و«الأرض الأم» و«النطع» وغيرها. وقد ترجم عدد كبير منها إلى اللغة العربية. كذلك يعد الشاعر الداغستاني رسول حمزاتوف والشاعر يفتو شينكو [ر] والكاتب راسبوتين من الأدباء المشهورين عالمياً، وغيرهم كثير كذلك.

وفي ثمانينات القرن العشرين أخذ الكتاب السوفييت يعملون على تطوير مدرسة الواقعية الاشتراكية في أعمالهم بالانفتاح على المدارس والاتجاهات والتيارات الأدبية الأخرى في العالم. وبرز هذا الاتجاه بوضوح بعد الشروع في عملية إعادة البناء (بيريسترويكا) والانفتاح (غلاسنست) في الاتحاد السوفييتي السابق وفي بقية البلدان الاشتراكية، وأخذ بعضهم يتوجه بالنقد الشديد للمدرسة الواقعية الاشتراكية لأنها أطّرت الأدب بأطر حزبية ضيقة، ويدعو إلى تبني المدارس الأدبية الأخرى التي صبغت الآداب الأوربية في هذا العصر. وظل الصراع قائماً تحتدم فيه الخلافات حول مجموعة من القضايا الأساسية وفي مقدمتها قضية تقويم الماضي وتحديد التوجهات الرئيسة للتطور الأدبي السوفييتي في المستقبل. ولكن انهيار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١ وتفككه إلى جمهوريات عطل هذه المحاولات وصرف الأنظار عنها إلى إحياء الآداب القومية للجمهوريات المستقلة.

ماجد علاء الدين

الموضوعات ذات الصلة:

آرال (بحر) - الأسود (بحر) - آسيا - أوربة - الخزر (بحر) - روسية - المحيط المتجمد الشمالي - المحيط الهادئ - جميع الجمهوريات التي كانت تؤلف الاتحاد السوفييتي.

مراجع للاستزادة:

- مجموعة من المؤلفين، جغرافية الاتحاد السوفييتي «بالعربية» (موسكو ١٩٨٤).
- ن. بكسانوف، غوركي والآداب القومية «بالروسية» (موسكو ١٩٤٦).
- Soviet Union : A Geographical Survey (Ed. S. V. Kalesnik & Others, Moscow 1976).
- S. BERSTEIN & P. MILZA, Histoire du vingtième siècle, 3. Vol. (Paris, Hatier 1984 – 1987).

■ اتحاد شبيبة الثورة

اتحاد شبيبة الثورة Revolutionary Youth Union منظمة تربوية سياسية في الجمهورية العربية السورية أعضاؤها من الشباب. ينص المرسوم التشريعي رقم ٢٣ الصادر عن رئيس الجمهورية بتاريخ ١٢/١/١٩٧٠ على تأسيس الاتحاد ومقرّه وأهدافه والعضوية فيه وبناؤه التنظيمي وشؤونه المالية وكل ما يتصل بوضعه القانوني ومهامه. وللاتحاد نظام داخلي يتضمن الأحكام التفصيلية ويبينها الإجراءات الخاصة بسير الأعمال في مختلف هيئاته. مقر الاتحاد دمشق وله فروع في محافظات الجمهورية ويتمتع بالشخصية الاعتبارية.

شهدت دول كثيرة في العالم، منذ مطلع القرن العشرين، توسعاً وتطوراً في ظاهرة حركات الشباب [ر]، وكانت هذه الحركات من قبل ضيقة الحدود والأهداف. وغلبت على منظمات الشباب، في تطورها هذا، الأهداف التربوية والاجتماعية والسياسية. وبين هذه المنظمات ما نشأ وتطور برعاية من الدولة، وبينها ما نشأ وتطور برعاية توفرها جهات أو مؤسسات خاصة.

وقد شهدت سورية حركات شباب متنوعة ولا سيما في الثلاثينيات من القرن العشرين، وفي السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية، وبداية عهد الاستقلال. وكان لهذه الحركات أسماء عدة. ومنذ أن تسلم حزب البعث العربي الاشتراكي مسؤوليات قيادة الدولة والمجتمع في القطر العربي السوري كان في مقدمة اهتماماته تأسيس منظمات جماهيرية تغلب عليها صبغة التخصص، وكان بينها منظمة للشباب. ففي اجتماع مشترك لقيادتي الحزب القومية والقطرية تمَّ إقرار الإعلان عن قيام اتحاد شبيبة الثورة، وصدر فيما بعد المرسوم التشريعي الذي يحدد كل ما يتصل بهذا الاتحاد. وفي جملة ما ينصّ عليه ذلك التشريع إسهام الدولة في ميزانية هذا التنظيم، وتحديد أهدافه انطلاقاً من فلسفة الحزب التربوية وأهدافه الاجتماعية والسياسية والقومية.

تطور نشاط الاتحاد بسرعة، وشهدت السنوات التي تلت تأسيسه زيادة مضطردة في فروعه وعدد أعضائه العاملين والأنصار، وتوسعاً في الخدمات التي يوفرها للشباب من أعضائه. وفي مقدمة إنجازاته المعسكرات التدريبية والإنتاجية التي يقيمها كل سنة، ودورات التدريب والتأهيل المهني، وبرامجه التي ينفذها في مجالات النشاط الرياضي والفني، وفي الإذاعة والتلفزيون، وفي الدراسات والبحوث وإقامة الندوات الثقافية، وذلك بالإضافة إلى النشرات التي يصدرها وإلى صحيفته ومجلته الثقافية. وقد غدا الاتحاد منظمة ذات مكانة مرموقة في القطر وبالغة الأهمية. وفي جملة العوامل التي تدعم هذه المكانة إنجازات الاتحاد الكثيرة، وقيمة الشباب ووظيفتهم في حاضر الحياة الاجتماعية والسياسية ومستقبلها، والأهداف التي توجه كل فعاليات الاتحاد والمرتبطة ارتباطاً كيانياً بأهداف الحزب.

وقد بين التشريع الخاص بالاتحاد الأهداف التي يعمل الاتحاد من أجل تحقيقها. وتقع هذه الأهداف في ثلاثة مجالات: الداخلي والعربي والعالمي.

ينطلق عمل الاتحاد، في المجال الداخلي، من بعدين متداخلين ومتعاونين: البعد التربوي والبعد السياسي. فالاتحاد يعمل من أجل تربية جيل الشباب في القطر، وإنماء طاقاتهم، وانتظامهم في العمل الجماعي، وتدريبهم وتأهيلهم. وهو يعمل، في الوقت ذاته، في مجال بناء الدولة وإعداد الشباب للإسهام في حماية الثورة التي يقودها الحزب. ويكون عمل الاتحاد في البعدين نابعاً من منطلقات الحزب التربوية والسياسية.

ويعمل الاتحاد، في مجال الوطن العربي، على تمكين أواصر الأخوة والتعاون مع منظمات الشباب العربية، وعلى محاربة التخلف والتجزئة والاستعمار والوجود الصهيوني، كما يعمل من أجل تحقيق الوحدة العربية.

أما في المجال العالمي فيعمل الاتحاد على طرح القضايا العربية وتوضيحها والنضال من أجلها، كما يعمل على الإسهام في حركة التحرر والتقدم العلمي، والتعريف بالتراث العربي، والكشف عن طبيعة الصهيونية وأخطارها. وهو يعمل كذلك من أجل إقامة علاقات التعاون مع اتحادات الشباب التقدمية والإسهام معها في النضال للقضاء على كل أشكال الاستعمار والاستغلال والتفرقة والتمييز العنصري.

وأعضاء الاتحاد شباب يلتزمون النضال لتحقيق أهداف هذه المنظمة ويقع عمرهم ما بين ١٣ و٣٥ سنة وتتوافر فيهم الشروط الأخرى اللازمة ليقبل الاتحاد عضويتهم، ولهم حقوق وعليهم واجبات ينص عليها التشريع الخاص بالاتحاد. وللاتحاد هيئاته وقياداته، ويكون انتخاب القيادات في جميع الهيئات من القاعدة إلى القمة، وتكون القيادات مسؤولة عن أعمالها أمام مؤتمرات منظماتها والقيادة الأعلى منها.

ويتألف البناء التنظيمي للاتحاد من الوحدة، والرابطة، والفرع، وقيادة الاتحاد، والمجلس المركزي، والمؤتمر العام.

أما الوحدة الشبيبية فتكون في كل قرية، أو تجمع مهني، أو حيّ في المدينة أو مجموعة أحياء فيها. وتضم الوحدة خمسة عشر عضواً عاملاً على الأقل، وفيها أعضاء عاملون، وأنصار، وأعضاء شرف. وللوحدة قيادة تتولى شؤونها تضم خمسة أعضاء تنتخبهم الوحدة لمدة سنتين وتقدم تقارير شهرية إلى قيادة الرابطة وتقريراً سنوياً إلى اجتماع الوحدة السنوي.

وأما الرابطة فتتألف من عدد من الوحدات في كل منطقة على ألاّ يقل عدد الوحدات فيها عن ثلاث. وللرابطة مؤتمرها وقيادتها. يتألف المؤتمر من أعضاء قيادة الرابطة، وأعضاء قيادات الوحدات التابعة لها، وعدد من الممثلين المنتخبين عن كل وحدة، ويجتمع مرة في السنة. وتضم قيادة الرابطة سبعة أعضاء ينتخبهم مؤتمر الرابطة لمدة سنتين من بين أعضائه وهي تسير أعمال الرابطة، وتقدم التقارير اللازمة عن نشاط الرابطة إلى قيادة الفرع.

وأما الفرع فيكون في مركز كل محافظة ويضم جميع الروابط والوحدات فيها على أن لا يقل عدد الروابط في المحافظة عن اثنتين. وللفرع مؤتمره وقيادته. يضم مؤتمر الفرع أعضاء قيادة الفرع، وأعضاء قيادات الروابط في المحافظة، وممثلين منتخبين عن كل رابطة ويجتمع في دورة عادية مرة كل سنة، ويتولى مناقشة الأمور المتصلة بالفرع. أما قيادة الفرع فتتألف من تسعة أعضاء ينتخبهم مؤتمر الفرع من بين أعضائه لمدة سنتين وتتولى شؤون الفرع والإشراف على نشاطات الاتحاد في المحافظة.

وأما قيادة الاتحاد فهي أعلى سلطة فيه، وهي مسؤولة مسؤولية مباشرة أمام المجلس المركزي وتتألف قيادة الاتحاد من ثلاثة عشر عضواً ينتخبهم المجلس المركزي من بين أعضائه لمدة سنتين، ومنهم رؤساء المكاتب أو الأعمال المتخصصة مثل: التنظيم والعلاقات العامة، والعلاقات الخارجية، والشؤون الإعلامية،

وشؤون الرياضة والمعسكرات، وغيرها. وتعقد قيادة الاتحاد اجتماعاً دورياً مرة في الأسبوع وتتولى الشؤون التنفيذية وفي جملتها تسيير شؤون الاتحاد وتنفيذ السياسة العامة ووضع مشروع الميزانية، وتأليف الروابط ودعوة اللجنة المركزية لعقد دوراتها.

يتألف المجلس المركزي (وكان الاسم في البدء اللجنة المركزية) من خمسة وثلاثين عضواً ينتخبهم المؤتمر العام من بين أعضائه لمدة سنتين، ويعقد أربع دورات عادية في السنة، ويتولى الإشراف على شؤون الاتحاد وتنفيذ قرارات المؤتمر العام ومناقشة الخطط التي تضعها قيادة الاتحاد لتنفيذ قرارات المؤتمر العام. وينتخب المجلس المركزي قيادة الاتحاد من بين أعضائه ويتولى محاسبة هذه القيادة، كما ينتخب أعضاء لجنة الرقابة والتفتيش من بين أعضائه كذلك.

والمؤتمر العام هو السلطة العليا لاتحاد شبيبة الثورة وله رسم السياسة العامة للاتحاد وكل ما يقود إلى تحقيق أهدافه، وتسري قراراته على جميع قيادات الاتحاد وأعضائه ومؤسساته. وهو يتولى انتخاب المجلس المركزي من بين أعضائه ومحاسبته. ويتألف المؤتمر العام من أعضاء المجلس المركزي وأعضاء قيادات الفروع، وممثلين عن كل فرع ينتخبهم مؤتمر الفرع. يعقد المؤتمر العام اجتماعاً عادياً مرة في السنة، ويناقش الموضوعات المدرجة في جدول أعماله والموضوعات التي تقرر أكثرية المؤتمر وجوب بحثها، ويصدق على الحساب الختامي للسنة المالية المنتهية، ويقر الموازنة الخاصة بالسنة الجديدة، ويبحث أمور الاتحاد وما تم تنفيذه من مقررات المؤتمر العام وما قام به المجلس المركزي. وللمؤتمر العام عقد اجتماعات استثنائية في حالات ينص عليها التشريع الخاص بالاتحاد.

نعيم الرفاعي

■ اتحاد الصيادلة العرب

اتحاد الصيادلة العرب Union des Pharmacians Arabs منظمة مهنية تضم المنظمات الصيدلية ونقابات الصيادلة في الوطن العربي، مقره الأساسي في مدينة القاهرة ثم نقل في عام ١٩٧٩ إلى مدينة دمشق.

تأسس اتحاد الصيادلة العرب في مدينة القدس في ٢ نيسان ١٩٦٦ استجابة للضرورة الملحة لجمع المنظمات المهنية الصيدلية في الوطن العربي في إطار تنظيم نقابي عربي يهدف إلى تنسيق عملها وتوحيد جهودها لرفع شأن المهن الصيدلية وتهيئة دورها في توفير الخدمات الصحية للمواطن العربي.

أهدافه

من أهداف الاتحاد الأساسية العمل على خدمة الوطن العربي في سبيل تحريره من الاستعمار والتخلف وتحقيق أهدافه القومية في الوحدة، والعمل على رفع شأن مهنة الصيدلة والنهوض بمستواها العلمي وتشجيع البحث العلمي في العلوم الصيدلية ودعم معاهد الصيدلة ومراكز البحوث والصناعة الدوائية لتؤدي رسالتها لمصلحة الوطن العربي ولتفي بمتطلبات النهضة العربية، ودعم الهيئات الصيدلية القائمة في مختلف الأقطار العربية والإسهام في مساعدة الصيادلة على تأليف المنظمات الصيدلية في البلاد التي لم يتم فيها مثل ذلك، والإفادة من الثروات الطبيعية في الوطن العربي في صناعة الأدوية والنهوض بها تحقيقاً لمبدأ الاكتفاء الذاتي وتبادل الخبراء والخبرات بين الأقطار العربية في مجالات الصناعة الدوائية والشؤون الصيدلية، والسعي لتحقيق سوق عربية دوائية مشتركة تهدف إلى التناسق والتكامل في صناعة الأدوية في الوطن العربي وتحقيق حرية تبادل الأدوية العربية داخل الوطن العربي وتوفير الحماية لها، ورفع مستوى الصيادلة العرب من الناحيتين العلمية والمهنية، والتعاون مع المنظمات الصيدلية الأجنبية والدولية، والسعي لتوحيد مناهج التدريس والاختصاص في المعاهد الصيدلية في الوطن العربي وتشجيع تعريب التعليم الصيدلي، والعمل على استصدار دستور أدوية عربي موحد وتوحيد التشريعات الصيدلية في الأقطار العربية.

بنيته التنظيمية

يباشر الاتحاد اختصاصاته ويعمل على تحقيق أهدافه بالمجلس الأعلى والمكتب التنفيذي.

أما المجلس الأعلى فهو أعلى سلطة في الاتحاد ويتكون من ممثلين اثنين عن كل منظمة صيدلية عضو في الاتحاد، أحدهما الصيدلاني النقيب أو الصيدلاني الرئيس أو من يمثله من الصيادلة بالإضافة إلى أعضاء المكتب التنفيذي. ولكل قطر صوت واحد في اجتماعات المجلس الأعلى. ويعقد المجلس الأعلى للاتحاد دورة عادية في الشهرين الأخيرين من كل سنة، على أن تعقد هذه الدورة في المدة التي ينظم فيها مؤتمر اتحاد الصيادلة العرب كل سنتين.

وأما المكتب التنفيذي فيتكون من رئيس الاتحاد والأمين العام للاتحاد وثلاثة أعضاء من بينهم الأمين المالي والآخران يتوليان النيابة عن الرئيس دورياً لمدة سنة واحدة لكل منهما. وينتخب المكتب التنفيذي من قبل المجلس الأعلى للاتحاد ويراعى في انتخاب أعضائه أن يكونوا من بلاد عربية مختلفة وهو يجتمع ثلاث مرات في السنة على الأقل وكلما دعت الحاجة إلى ذلك. ومدة دورة المكتب التنفيذي سنتان ولا يجوز انتخاب أي من أعضاء المكتب لأكثر من ثلاث دورات متتالية.

المنظمات الصيدلانية الأعضاء في الاتحاد

يضم الاتحاد في عضويته النقابات والجمعيات والهيئات التالية: نقابة صيادلة المملكة الأردنية الهاشمية، وهيئة الصيادلة بالجمهورية التونسية، وجمعية العلوم الصيدلية بتونس، والاتحاد الطبي الجزائري، واتحاد الأطباء والصيادلة الفلسطينيين، ونقابة صيادلة الجمهورية اللبنانية، والجمعية الصيدلية الكويتية، ونقابة المهن الطبية بالجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، والجمعية الصيدلية العربية الليبية، ونقابة صيادلة جمهورية مصر العربية، والجمعية الصيدلية المصرية، والمجلس الوطني للصيادلة بالمغرب، ونقابة صيادلة السودان، ونقابة صيادلة الجمهورية العربية السورية، ونقابة صيادلة الجمهورية العراقية، والجمعية الصيدلانية العراقية، ونقابة المهن الطبية بالجمهورية العربية اليمنية (قبل الوحدة)، واتحاد الأطباء والصيادلة في جمهورية

اليمن الديمقراطية (قبل الوحدة)، والجمعية الصيدلية الجزائرية.

نشاط الاتحاد

يمارس الاتحاد، على الصعيد العربي والدولي، نشاطات مهنية وعلمية مهمة في المجالات التالية:

ففي مجال التعليم الصيدلي والبحوث الصيدلية يقوم الاتحاد بمتابعة تنفيذ خطط التعليم المستمر للصيادلة الخريجين في الأقطار العربية وتبادل خطط التعليم المستمر بينها. وقد أنشأ الاتحاد «المجمع الصيدلي العربي» ووضع نظاماً لهذا المجمع. وأوجد صندوقاً لدعم البحوث العلمية الصيدلية. ويقوم الاتحاد حالياً بدراسة لتأسيس المركز العربي للبحوث الدوائية.

ويعمل على تعريب التعليم الصيدلي في كليات الصيدلة العربية، إذ يشارك في المؤتمرات والندوات الخاصة بتعريب العلوم الصحية في الوطن العربي التي تهتم بها وزارات الصحة ووزارات التعليم العالي ونقابات المهن الصحية في الوطن العربي. ويعدّ تعريب التعليم الصيدلي من إحدى المهمات الرئيسة لندوات عمداء كليات الصيدلة في الوطن العربي.

وتصدر عن الاتحاد مجلة ثقافية علمية تسمى مجلة «الصيدلاني العربي».

وفي مجال الأدوية والتوعية الدوائية يتابع الاتحاد الدراسات المستجدة في أمور الأدوية ونشر الوعي الدوائي عن طريق دعم نشاطات المؤسسات المهتمة بهذا الموضوع كاللجنة العربية لشؤون الدواء والشركة العربية لصناعة الأدوية والمستلزمات الطبية ولجنة مصنعي الأدوية العرب.

وفي مجال الشؤون المهنية والتشريعات يعمل الاتحاد على إصدار دستور الأدوية العربي وعلى إصدار الجدول الوطني للتراكيب الدوائية. ويعمل على تقريب التشريعات الصيدلية في مختلف أقطار الوطن العربي.

وفي مجال العلاقات مع المنظمات الصيدلية العربية والدولية يهتم الاتحاد بتوثيق التعاون مع المنظمات الصيدلية العربية والدولية ولا سيما اتحاد الصيادلة الدولي ومنظمة الصحة العالمية ومكتبها الإقليمي في الاسكندرية ومجلس وزراء الصحة العرب.

عبد الغني ماء البارد

■ الاتحاد العام العربي للتأمين

الاتحاد العام العربي للتأمين Arab General Union of Issurance منظمة عربية مهنية متخصصة تضم مؤسسات وشركات التأمين وإعادة التأمين العربية، تهدف إلى دعم الروابط والصلات بين هيئات التأمين العربية وتوثيق أواصر التعاون فيما بينها، وتنسيق نشاطاتها المختلفة، بغية حماية مصالح الأعضاء وتنمية صناعة التأمين وإبراز كيانها العربي.

تأسس الاتحاد العام للتأمين عام ١٩٦٤ بمبادرة خاصة من شركات التأمين وشركات إعادة التأمين والهيئات والمؤسسات العاملة في مجال التأمين في الأقطار العربية. وهو إحدى المنظمات العربية الدولية النوعية المتخصصة. ففي أواخر الخمسينات ومطلع الستينات شهد الوطن العربي نشوء اتحادات نوعية متخصصة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية لتؤلف نواة للعمل العربي المشترك ومن بينها الاتحاد العام العربي للتأمين. وقد نشأت هذه المنظمات على أساس مهني، وهي تتمتع باستقلال إداري ومالي عن جامعة الدول العربية والمنظمات التابعة لها. ومقر الاتحاد حالياً مدينة دمشق. وكان منذ تأسيسه حتى عام ١٩٧٩ في مدينة القاهرة، وقد تم نقله إلى دمشق بقرار من المؤتمر العام للاتحاد عملاً بالمادة الثانية من نظامه الأساسي التي تخوله حق نقل المقر إلى أي بلد عربي.

يتمتع الاتحاد بالشخصية الاعتبارية التي تخوله القيام بممارسة التصرفات القانونية الرامية إلى تحقيق أهدافه، كما يتمتع باستقلال إداري ومالي في حدود ما يقرر مجلس الاتحاد. وتبرز أهمية الاتحاد العام العربي للتأمين في الدور الذي يقوم به لتنسيق التعاون بين شركات التأمين وإعادة التأمين العربية وتوثيقه، ودعم الصلات والروابط فيما بينها، والتخفيف قدر الإمكان من اعتماد قطاع التأمين في الأقطار العربية على الأسواق العالمية لإعادة التأمين. ويسهم الاتحاد في تأمين تبادل الخبرات والمعلومات بين أسواق التأمين العربية.

أنيط بالاتحاد مهمات متعددة تكفل تحقيق أهدافه بكل الأساليب والوسائل المتاحة. وأهم تلك المهمات معالجة مشاكل التأمين وإعادة التأمين على الصعيدين العربي والدولي، والعمل على تنسيق تشريعات التأمين وأنظمتها في الدول العربية وتطويرها، ورفع المستوى العلمي والعملي للعاملين في أسواق التأمين العربية بتبادل الخبرات والمعلومات، وإنشاء معاهد أو مراكز متخصصة بالدراسات التأمينية، وإقامة الدورات والندوات التأمينية وكل ما يتعلق باختصاصات النشاط التأميني، وإصدار النشرات والمطبوعات الدورية وغيرها. ومن مهمات الاتحاد الأخرى إعداد الدراسات عن مشروعات التأمين، وتجميع البيانات والإحصاءات والبحوث الخاصة بالأسواق العربية منفردة ومجتمعة لتعميق التعاون بين أعضاء الاتحاد وإمدادهم بالبيانات والإحصاءات والبحوث، وتنظيم لقاءات دورية يجتمع فيها العاملون في حقل التأمين وإعادة التأمين في البلدان العربية للتعارف وتبادل الآراء والخبرات، وتعزيز الصلات بين الأسواق العربية، والسعي لتعريب لغة التأمين، بتبني مصطلحات تأمينية عربية موحدة، وإعداد نماذج عربية موحدة لوثائق التأمين واتفاقيات إعادة التأمين وغيرها من النماذج التي يستلزمها النشاط التأميني، والتي تساعد في الوقت نفسه على توحيد لغة التأمين وعلى تناسق العمل بين هيئات التأمين في البلدان العربية، وتكوين لجان فنية متخصصة ودائمة ومؤقتة للبحث في توحيد الوثائق وتعريب المصطلحات الفنية ودراسة الموضوعات المستجدة في مجال التأمين وإعادة التأمين، وكذلك إنشاء مراكز خدمة واستشارات تابعة للاتحاد تختص بتقديم المشورة الفنية والقانونية، والقيام بمهمات الوساطة والتحكيم بين أعضاء الاتحاد وفق النظام الذي يقرره مجلس الاتحاد، والعمل على كل ما من شأنه توثيق السياسة الاستثمارية ودعمها في مجال التأمين وإعادة التأمين لخدمة مصالح الأعضاء ومصالح الاقتصاد الوطني والقومي، وتعميق أواصر التعاون بين الاتحاد والمنظمات والهيئات العربية في المؤتمرات أو الندوات التأمينية العربية

والدولية، والتنسيق بين مواقف الأعضاء وجمعيات التأمين العربية في هذه المؤتمرات والندوات، وتطبيق كل ما من شأنه تحقيق أهداف الاتحاد.

ويبدو جلياً من الأهداف المحددة للاتحاد في نظامه الأساسي أنه لا يدخل في اختصاصات الاتحاد أي ممارسة لأعمال تجارية سواء كانت ترتبط بالتأمين المباشر أو تدخل في نطاق إعادة التأمين.

يمارس الاتحاد مهماته وصلاحياته عن طريق أجهزته الأساسية وهي: المؤتمر العام ومجلس الاتحاد والأمانة العامة واللجان المختلفة التي يؤلفها.

المؤتمر العام: وهو السلطة العليا للاتحاد ويتألف من ممثلين عن جميع أعضاء الاتحاد طبقاً لما نصت عليه الفقرة «أ» من المادة الأولى من النظام الأساسي. وينعقد المؤتمر العام مرة واحدة كل سنتين على الأقل، عدا الحالات الاستثنائية، وهو يتمتع بجميع الصلاحيات التي تكفل له تحقيق أهداف الاتحاد ومهامه المحددة في المادة التاسعة من النظام الأساسي وأهمها: رسم الخطوط الأساسية لسياسة الاتحاد الكفيلة بتحقيق أهدافه، وإقرار أسس العمل بين أعضاء الاتحاد والمنظمات والاتحادات العربية والدولية، ومناقشة خطط العمل وبرامجها وإقرارها بناء على اقتراح مجلس الاتحاد، ومناقشة تقارير اللجان المنبثقة عن المؤتمر العام وإقرارها، والإشراف على أعمال مجلس الاتحاد ومراقبتها، واختيار مقر الاتحاد أو نقله وفقاً لمقتضيات المصلحة العامة، كما يحق للمؤتمر العام تعديل أحكام النظام الأساسي.

مجلس الاتحاد: ويضم ممثلين عن أسواق التأمين التي ينتمي إليها الأعضاء ولكل سوق ممثل واحد. وقد حددت المادة الحادية عشرة من النظام الأساسي صلاحيات مجلس الاتحاد وفي مقدمتها: اتخاذ جميع الخطوات التنفيذية لتحقيق أهداف الاتحاد، وتنفيذ قرارات المؤتمر العام وأية أعمال أخرى يعهد بها إليه، وإعداد خطة عمل الاتحاد للدورة القادمة ورفعها إلى المؤتمر العام، ووضع برامج العمل وجدول أعمال المؤتمر العام، وبحث الموازنة التقديرية والحسابات الختامية التي يقدمها الأمين العام وإقرارها، وتأليف لجان خاصة لدراسة الموضوعات الطارئة، وتحديد رسم الانتساب للاتحاد ورسم الاشتراك السنوي. وبحث اللائحة الداخلية واللوائح الإدارية والمالية وغيرها من اللوائح التنفيذية وإقرارها، وتأليف الوفود الممثلة للاتحاد لحضور المؤتمرات والاجتماعات الإقليمية والدولية، وقبول طلبات انتساب الأعضاء والأعضاء المشاركين والأعضاء المراقبين الراغبين في الانضمام إلى الاتحاد وتحديد رسم الانتساب والاشتراك السنوي، واختيار الأمين العام للاتحاد وتحديد تعويضاته ومخصصاته وشروط تعيينه، وتعيين مدققي الحسابات وتحديد تعويضاتهم وغير ذلك.

الأمانة العامة: تعدّ الأمانة العامة الجهاز التنفيذي للاتحاد وتتكون من الأمين العام والموظفين. وتنص المادة الثالثة عشرة من نظام الاتحاد على أن يقوم الأمين العام بتمثيل الاتحاد أمام الغير وتنفيذ قرارات مجلسه، ويتولى القيام بجميع الأعمال التنفيذية الأخرى، بالإضافة إلى تعيين العاملين في الأمانة العامة ضمن حدود الموازنة التقديرية للاتحاد وأنظمته المالية والإدارية.

والأمين العام للاتحاد هو المسؤول عن مالية الاتحاد وجهاز الأمانة فيه. ويخضع في ممارسة أعماله وصلاحياته للسؤال أمام مجلس الاتحاد.

اللجان: لمجلس الاتحاد العربي للتأمين تأليف لجان عمل دائمة ومؤقتة من أجل تحقيق أهداف الاتحاد. ويتم تأليف اللجان الدائمة من ممثلي الأسواق العربية ومن خبراء عرب متخصصين. ومن هذه اللجان: لجنة التأمين البحري والطيران ولجنة التأمين غير البحري ولجنة التأمين على الحياة ولجنة التأمين على السيارات وغيرها من اللجان التي يقررها مجلس الاتحاد.

وقد حددت المادة الرابعة من النظام الأساسي للاتحاد شروط العضوية فيه كما يلي: «عضوية الاتحاد متاحة لجميع مؤسسات وشركات التأمين وإعادة التأمين العربية التي تمارس أعمال التأمين وإعادة التأمين لحسابها بشرط أن تعود ملكية ٥١٪ من رأس مالها على الأقل إلى مساهمين يحملون جنسية إحدى الدول العربية. وفي البلاد التي توجد فيها مؤسسة أو هيئة عامة للتأمين تضم الشركات المختلفة العاملة في تلك الأسواق، تكون العضوية مفتوحة لتلك المؤسسات أو الهيئات العامة للتأمين».

ويمكن تصنيف أعضاء الاتحاد في فئات ثلاث: أعضاء عاملين وأعضاء مشاركين وأعضاء مراقبين. ويحدد مجلس الاتحاد قواعد قبول كل فئة من هذه الفئات وإجراءاته. وللأعضاء حق الانسحاب وفق الشروط التي نصت عليها المادة الخامسة من النظام الأساسي. ولمجلس الاتحاد، بموجب المادة السادسة من هذا النظام، حق إنهاء العضوية أو تعليقها. ويتركز نشاط الاتحاد على التنسيق بين شركات التأمين العربية لتغطية تأمين المشروعات العربية المشتركة كالساتل العربي (عربسات) وشركة الملاحة العربية والأحواض الجافة والأساطيل الجوية العربية، ولتحقيق التعاون في مجال إعادة التأمين بين شركات التأمين العربية وشركات إعادة التأمين، والاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من الأقساط التأمينية في داخل المنطقة العربية. وقد انبثقت عن الاتحاد شركة إعادة التأمين العربية برأس مال عربي أسهم فيه عدد كبير من الشركات الأعضاء في الاتحاد، وتم للغاية نفسها تأسيس المجمع العربي لإعادة التأمين، وإحداث رابطة بين شركات إعادة التأمين العربية. ويعمل الاتحاد على تخفيف الاعتماد على أسواق إعادة التأمين العالمية، إلى جانب دوره في العمل على تبادل المعلومات والخبرات بين الشركات العربية بإصدار مجلة الاتحاد وعقد المؤتمرات والندوات العربية والدورات التدريبية لتطوير كفايات الجهاز الفني العامل في قطاع التأمين العربي.

سعيد النابلسي

■ الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب

الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب General Union of Arab Literaturs and Writers تجمع أدبي عربي قومي يضم الاتحادات والروابط والنوادي الأدبية في الأقطار العربية، وهو يختلف عنها في أن عضويته مقصورة على الاتحادات والروابط القطرية، في حين يمثل كل اتحاد قطري أو رابطة قطرية الأدباء والكتاب الذين ينتمون إليه أو إليها في كل قطر من الأقطار العربية. ففي كل دولة عربية منظمة تهتم بشؤون الأدباء والكتاب وترعى مصالحهم وتعمل على توحيدهم وتوثيق الصلات بينهم، وتسمى هذه المنظمة اتحاداً في بعض الدول العربية كما في سورية وتونس والإمارات العربية المتحدة ومصر ولبنان على سبيل المثال، وتسمى رابطة في دول عربية أخرى كما في ليبية والأردن والكويت، والصفة الجامعة بين هذه الاتحادات والروابط هي أن عضويتها لا تقتصر على الأدباء وحدهم، بل تضم الكتاب في مختلف حقول المعرفة، ويبدو ذلك جلياً في التسميات التي تعرف بها، فيميزون الأدباء من الكتاب كما هو الحال في «اتحاد أدباء وكتاب الإمارات العربية المتحدة» أو «اتحاد الأدباء والكتاب الليبيين»، أو يتبنون في التسمية المفهوم الشامل للكتابة فيكتفون باسم «الكتّاب» كما هو شأن «اتحاد الكتاب العرب في سورية »و«اتحاد الكتاب» في كل من تونس ولبنان. وليس لهذا الاختلاف في التسمية تأثير في طبيعة الاتحادات والروابط من الناحية التنظيمية، فكلٌّ منها خاص بأدبائه وتقتصر عضويته على الكتاب من القطر العربي الذي هو فيه، ويستثنى من ذلك اتحاد الكتاب العرب في سورية [ر]، فهو يقبل في عضويته أي كاتب عربي من أي قطر عربي كان، على أن الكثرة الكاثرة من أعضائه كتاب وأدباء سوريون، كذلك يستثنى الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين الذي يضم في عضويته الصحفيين بالإضافة إلى الكتاب.

وثمة تسمية أخرى لمثل هذه التجمعات الأدبية هي «النادي» وتطلق في المملكة العربية السعودية، ففي كل مدينة في المملكة نادٍ أدبيّ ينهض بمهمة النشاط الثقافي وإصدار الكتب والدوريات، وتشرف إدارة رعاية الشباب في المملكة على هذه النوادي الأدبية كلها فتقر خططها وتقدم لها المساعدات التي تعينها على النهوض بمهامها الأدبية.

تأسس الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب في عام ١٩٥٤ وعقد أول مؤتمر له في العام نفسه في لبنان، ثم توالت مؤتمراته من دون التزام فاصل زمني محدد فعقد المؤتمر الثاني في دمشق بعد سنتين من ذلك التاريخ (١٩٥٦) وعقد المؤتمر الثالث في مصر (١٩٥٧) وعقد المؤتمر الرابع في الكويت (١٩٥٨)، أما الخامس فكان في العراق (١٩٦٥) وتلاه المؤتمر السادس الذي عقد في مصر (١٩٦٨) والسابع في العراق (١٩٦٩)، ثم انتظم الفاصل الزمني بعد ذلك ابتداء من المؤتمر الثامن (سورية ١٩٦٩) فغدا يعقد كل سنتين، واستمر الأمر على هذه الحال حتى المؤتمر التاسع عشر (المغرب ١٩٩٥) الذي أقر تعديل النظام الداخلي للاتحاد وأقرّ عقد المؤتمر العام كل ثلاث سنوات.

يعد المؤتمر العام للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب مؤتمراً ذا طابع أدبي وتنظيمي تلقى فيه محاضرات حول موضوعات محددة، وينتخب في أثنائه الأمين العام ونائباه وأعضاء المكتب الدائم والمكاتب الفرعية، وجرى العرف على أن تكون الدولة التي ينتمي إليها الأمين العام المنتخب هي مقر الأمانة العامة للاتحاد. أما المكاتب الفرعية فتتوزعها الاتحادات والروابط بالاتفاق أو بالتصويت.

أصدر الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ابتداء من شهر كانون الثاني سنة ١٩٧١ مجلة فصلية تعبر عن أهدافه وتنشر إنتاج الأدباء والكتاب العرب وكان اسمها في مبتدئها «الأدباء العرب» ثم أصبح اسمها «الكاتب العربي»، وجرت العادة على أن تصدر هذه المجلة عن الأمانة العامة في الدولة التي ينتمي إليها الأمين العام، فكان أول صدورها في مصر ثم في سورية فالعراق فليبية فتونس وهكذا. وفي عام ١٩٩٤ دخل الاتحاد العام مجال النشر فأصدر عدداً من الكتب لمؤلفين عرب، ويدخل في خططه إصدار دليل يؤرخ لمؤتمراته ويعرف بأعضاء الاتحادات والروابط التي تنتسب إليه.

كذلك يعقد الاتحاد العام ندوات ثقافية في الدول العربية، ويعمل على تعزيز حقوق الكتّاب العرب وضمانها ولاسيما حق الكاتب العربي في التعبير عن رأيه من دون قيود، وتشجيع التعاون الثقافي بين الدول العربية وتمتين الصلات بين الاتحادات والروابط وتبادل الخبرة بينها ويسعى إلى أن يكون تجمعاً فاعلاً في الحياة الثقافية العربية.

سمر روحي الفيصل

■ الاتحاد العام للجمعيات الحرفية

الاتحاد العام للجمعيات الحرفية في الجمهورية العربية السورية General Federation of Artisans Associations in S.A.R منظمة شعبية تضم الحرفيين المنتجين وأصحاب حرف الخدمات من العرب السوريين وغيرهم.

أسس الاتحاد العام للجمعيات الحرفية بعيد قيام ثورة الثامن من آذار، اهتماماً منها بالحرفيين وإيماناً بضرورة تخليصهم من احتكار المستغلين والوسطاء، وإيجاد تنظيم لهم يسهم مع المنظمات الشعبية الأخرى في البناء الاقتصادي والاجتماعي للقطر العربي السوري. واستجابة لمقررات المؤتمرات الحزبية صدر في ١٣ / ١٠ / ١٩٦٩ المرسوم التشريعي ذو الرقم ٢٥٠ بإحداث الاتحاد العام للحرفيين في الجمهورية العربية السورية.

يهدف الاتحاد العام للجمعيات الحرفية إلى إشراك الحرفيين في بناء المجتمع العربي الاشتراكي بتنظيم الإنتاج والخدمات، والعمل على زيادتهما وتطويرهما، وتحسين نوعيتهما، ورعاية مصالح الحرفيين المادية والمعنوية والصحية والثقافية والاجتماعية، ورفع مستوى معيشتهم ووعيهم القومي، وتحريرهم من الاستغلال، وإنهاء دور الوسطاء بتوفير المواد الأولية لأعضاء الاتحاد، وتسهيل عمليات التحويل والتسويق، والعمل على رفع كفاية الحرفيين، وزيادة إنتاجية العمل، وإعداد اليد الفنية الماهرة، وتنمية المواهب والكفايات الحرفية وتشجيعها، وتشجيع قيام تعاونيات إنتاجية بين الحرفيين، وربط نضال الحرفيين بنضال سائر جماهير الثورة والحرفيين العرب في سبيل مستقبل أفضل،

وإبداء المشورة في مشروعات الأنظمة المحالة على الاتحاد من الجهات المختصة والتي لها علاقة بقطاع الحرفة التي تمثلها الجمعية.

ويدأب الاتحاد العام للجمعيات الحرفية في القطر العربي السوري على تحقيق تلك الأهداف منطلقاً من مقررات الحزب والنظامين الداخلي والمالي للجمعيات الحرفية.

يتمتع الاتحاد العام للجمعيات الحرفية بالشخصية الاعتبارية، وبحق تملك الأموال المنقولة وغير المنقولة، وإبرام العقود وتثمير الأموال، وله أيضاً صلاحيات غرف الصناعة وصلاحيات اتحاد أرباب العمل والصناع فيما يتعلق بالحرفيين.

ويمارس الاتحاد الاختصاصات التي تمكنه من تحقيق أهدافه في مستوى القطر العربي السوري ولا سيما الإشراف على عقد المؤتمرات السنوية للجمعيات الحرفية والاتحادات الفرعية وتنفيذ توصيات المؤتمر العام، وإقامة دورات وندوات مركزية وفرعية تهدف إلى رفع المستوى الثقافي والتعاوني والاجتماعي والسياسي والتنظيمي للحرفيين، ووضع خطط العمل التعاوني في مجال الخدمات، وتمثيل الاتحاد في اللجان الحكومية التي لها مساس بأمور الحرفة، ومشاركة الهيئات المختصة في تنفيذ خطط التنمية الاقتصادية ولاسيما ما يتعلق بتطوير الإنتاج وتحسينه، وتحديد دور الحرفيين في مجالات التنمية، ووضع خطط العمل المناسبة لها. ومشاركة الاتحاد في بناء الديمقراطية الشعبية، وتمثيل القطاع الحرفي في المجالس واللجان المختلفة.

والحرفي كما عرفه قانون الاتحاد الصادر بالمرسوم التشريعي ذي الرقم ٢٥٠ لعام ١٩٦٩ «هو الذي يعمل بيده أو يستعين بأعضاء أسرته على ألا يزيد عدد العمال العاملين لديه على تسعة ولا يزيد سقف دخله السنوي على خمسة عشر ألف ليرة سورية». أما البناء الهيكلي للتنظيم الحرفي فيعتمد التسلسل الهرمي أساساً له، إذ تؤلف الجمعيات الحرفية قاعدة هذا الهرم، وتتألف كل جمعية من الحرفيين المنتسبين إليها، وهم يؤلفون بمجموعهم مؤتمر الجمعية الذي ينتخب مجلس إدارة يضم سبعة أعضاء يتولون شؤون الجمعية المعنية. ويؤلف أعضاء مجالس إدارة الجمعيات الحرفية والأعضاء المتممون مؤتمر المحافظة الذي يقوم بانتخاب مجلس الاتحاد الفرعي للمحافظة المؤلف من ٢١ عضواً في المحافظات التي يقل عدد الحرفيين فيها عن ثلاثة آلاف، و٣١ عضواً في المحافظات التي يزيد عدد حرفييها على ذلك، ويتولى أعضاء مجلس الاتحاد الفرعي انتخاب المكتب التنفيذي لاتحاد المحافظة الذي يتألف من سبعة أعضاء.

يؤلف أعضاء المكاتب التنفيذية للاتحادات الحرفية في المحافظات المؤتمر العام للاتحاد العام للجمعيات الحرفية في القطر، وينتخب المؤتمر العام مجلس الاتحاد العام في القطر، وهو يتألف من ٤٥ عضواً يقومون بانتخاب مكتب تنفيذي عام للاتحاد مؤلف من تسعة أعضاء يتولون إدارة التنظيم الحرفي في القطر العربي السوري، ويكون مقره في دمشق العاصمة.

ويمارس الاتحاد العام للحرفيين نشاطات محلية وعربية ودولية مختلفة منها: إحداث معهد مركزي لتأهيل الأطر القيادية للتنظيم الحرفي، وإحداث مراكز تجارية لعرض المنتجات الحرفية وبيعها ودعمها مادياً وإعلامياً وتجارياً، وإيجاد مشروعات اقتصادية تعود بالفائدة المادية على صندوق الاتحاد العام، والمشاركة، مع باقي المنظمات الشعبية، في حملات محو الأمية في صفوف الحرفيين. والسعي لتأسيس جمعيات تعاونية حرفية وتطوير إنتاجها بمدها بالقروض اللازمة وتوفير الآلات والأجهزة المتطورة لهذه الجمعيات، وتوفير الفرص لمشاركتها في المعارض المحلية والعربية والدولية للتعريف بالمنتجات الحرفية وتسويقها. والمشاركة في الدورات والندوات التعاونية الدولية التي تقام في الدول الصديقة التي يرتبط الاتحاد العام باتفاقات تعاون مع المنظمات المشابهة فيها، وتبادل الزيارات الاطلاعية لاكتساب الخبرات في مجال تطوير العمل التعاوني وتبادل الخبرات في هذا المجال، والسعي لتطوير الحرف ذات الطابع التقليدي، وإحياء بعض الحرف التي آلت إلى الانقراض، والسعي لتوفير المناطق الصناعية في المحافظات السورية، وتذليل الصعوبات التي تعترض إقامتها وتطويرها، والسعي لتأسيس الاتحاد العام للحرفيين العرب والانتساب إلى الاتحاد التعاوني الدولي، والمجلس الحرفي الدولي. ويصدر الاتحاد مجلة شهرية تنطق باسمه تسمى «الحرفيون»، ويشرف على البرامج الإعلامية الخاصة بالحرفيين في الإذاعة والتلفزيون.

علي تركماني

■ الاتحاد العام للصحفيين العرب

الاتحاد العام للصحفيين العرب Fédération Générale des Journalistes Arabes منظمة شعبية عربية مهمتها إبراز مكانة الصحفي العربي في مجالي الإعلام والتوعية بالكلمة الصادقة والفكر الحر النزيه، وإرساء قواعد المهنة الصحفية في الوطن العربي.

البداية والتأسيس

تقرر تأسيس الاتحاد في اجتماع اللجنة التحضيرية لمؤتمر اتحاد الصحفيين العرب الذي عقد في القاهرة ما بين ١٩ و٢١ شباط عام ١٩٦٤ في أثناء انعقاد القمة العربية لعام ١٩٦٤. وضمت اللجنة التحضيرية ممثلين عن صحافة الأردن والجزائر ومصر وسورية والعراق والكويت والمغرب واليمن وتونس وفلسطين ولبنان. وقررت هذه اللجنة بالإجماع الموافقة على تأسيس الاتحاد العام للصحفيين العرب، وتم اختيار عدد من الصحفيين في الوطن العربي أعضاء في اللجنة التأسيسية، واختير من بينهم أعضاء المكتب التأسيسي، وتم إصدار دستور للاتحاد أشير في مقدمته إلى عزم الصحفيين العرب على استخدام أقلامهم وفنهم الصحفي في النضال لتحرير الوطن العربي من كل تدخل أجنبي أو نفوذ استعماري، وتؤكد المقدمة كذلك أن الوطن العربي، مهد الحضارات والديانات، يشرف على نهضة حضارية كبيرة، وإيماناً من الصحفيين العرب برسالة الفكر العربي الحر يعلنون تكتيل جهودهم في اتحاد عام يكون قوة شعبية جماهيرية. وتضمّن الدستور كذلك ميثاق العمل الصحفي وأهداف الاتحاد السياسية والمهنية.

ميثاق العمل الصحفي: يتألف الميثاق من ١٥ مادة تنص على احترام حرية الكلمة والمناداة بها حقاً وشرفاً، وتوجب على الصحفيين العرب أداء

رسالتهم بأمانة وصدق، والتزام شرف ممارسة المهنة، وتجنب الافتراء والتشهير، والاحتفاظ بسرية المصدر، وعدم التستر على الزميل المسيء، والتزام ميثاق العمل، والتعاون لرفع مستوى الصحافة العربية. ومن المفروض أن يؤدي الصحفي قبل أن يبدأ مهمته الصحفية قسماً يتعهد فيه أن يكون وفياً لهذه المبادىء ملتزماً إياها.

أهداف الاتحاد: وهي أهداف سياسية وأهداف مهنية:

أما الأهداف السياسية فتشمل: العمل على تحرير الوطن العربي تحريراً شاملاً كاملاً، والقضاء على الاستعمار الصهيوني في فلسطين، والعمل على تحقيق الأهداف القومية للشعب العربي، وتحقيق الاستقلال الاقتصادي وتدعيمه، وصيانة الحرية السياسية وتحقيق العدالة الاجتماعية، والإيمان بسياسة عدم الانحياز والحفاظ على السلام العالمي، والعمل على دعم التضامن بين الشعوب الآسيوية والإفريقية وشعوب أمريكة اللاتينية، واستنكار التفرقة العنصرية والعدوان على حقوق الإنسان.

أما الأهداف المهنية فتشمل: التعاون مع المنظمات والنقابات الصحفية، والدفاع بجميع الوسائل عن حرية الصحافة والصحفيين، وإقامة نقابات ومنظمات صحفية في البلاد العربية التي لا توجد فيها مثل هذه النقابات أو المنظمات، والعمل على توحيد قوانين النشر والصحافة في البلاد العربية، والسعي لإصدار البطاقة الصحفية العربية تسهيلاً للعمل الصحفي، وتبادل الرحلات الصحفية في أرجاء الوطن العربي، وإنشاء صندوق عربي لمعاونة الصحفيين المتضررين، وإنشاء معاهد للصحافة العربية، وإصدار نشرة دورية باسم الاتحاد، والتزام شعار الاتحاد.

عقد الاتحاد العام للصحفيين العرب مؤتمرات عدة منذ تأسيسه صدر عنها عدد من القرارات والتوصيات والأنظمة أهمها النظام الأساسي للاتحاد الذي أقره المؤتمر الثالث المنعقد في بغداد بين ١٧ و٢١/٤/١٩٧٢. كما أصدر المكتب الدائم للاتحاد، الذي يضم عضواً من كل قطر عربي مشترك فيه، سلسلة من القرارات والأنظمة في النطاقين المهني والسياسي أهمها: النظام الداخلي الإداري والمالي للاتحاد، والنظام الداخلي للمعهد القومي للصحفيين، وقد أقر المكتب الدائم للاتحاد هذين النظامين في اجتماع عقد في بيروت ٢٤ و٢٧/٣/١٩٧٥. وتضمن النظام الداخلي للاتحاد ٣٣ مادة تتناول تأسيس الاتحاد وكيفية مباشرة أعماله عن طريق المؤتمر العام والمكتب الدائم، والأمانة العامة، واختصاصات كل منها، ومدة العضوية وأسباب سقوطها، وكيفية انتخاب المكتب الدائم، وصلاحيات أمين الصندوق، ومركز الاتحاد، ومواعيد اجتماع المكتب الدائم واختصاصاته، وكيفية اتخاذ القرارات، واختصاصات رئيس الاتحاد وأمينه العام، ومهمات المؤتمر العام صاحب السلطة العليا في اتخاذ القرارات واختصاصاته ورئاسته، ونظام الجلسات والمناقشات والمشاركة في المؤتمرات الدولية، وكيفية تعديل دستور الاتحاد.

صابر فلحوط

■ الاتحاد العام للفلاحين في سورية

الاتحاد العام للفلاحين Union Générale des Paysans منظمة شعبية نقابية واقتصادية تمارس نشاطها في المجالين النقابي الفلاحي والإنتاج الزراعي في الجمهورية العربية السورية.

نشأة الاتحاد

بدأت حركة تنظيم الفلاحين في سورية في العام ١٩٤٣، حينما تداعى فلاحو قرية دير عطية بمحافظة ريف دمشق بدافع الحاجة إلى توفير مياه الشرب وسقاية الأراضي إلى تأسيس أول جمعية فلاحية تعاونية في سورية. ولما لم يكن هنالك تشريع أو نص قانوني يسمح بتشكيل الجمعيات الفلاحية في ذلك الحين، فقد أحدثت تلك الجمعية استناداً إلى قانون الشركات. وبذلك ارتبطت حركة تنظيم الفلاحين بالحركة التعاونية في سورية.

ساعدت على نجاح هذه التجربة عوامل عدة منها: تكاتف فلاحي «دير عطية» وعثورهم على الماء، واستثماره جماعياً، وتغلبهم على الصعوبات التي واجهت حركتهم التعاونية، فارتفع عدد أعضاء الجمعية من ٦٠ عضواً إلى ٥٥٠ عضواً، كما شجع ذلك فلاحي محافظات أخرى على الأخذ بالنهج ذاته. وفي العام ١٩٥٠ صدر أول تشريع أوكل إلى وزارة الزراعة أمر الإشراف على الجمعيات الزراعية، وإلى وزارة الاقتصاد أمر الإشراف على الجمعيات التي تعمل في المجالات الأخرى.

وفي زمن الوحدة بين مصر وسورية، صدرت مجموعة من التشريعات والأنظمة والقرارات وفرت الحماية للجمعيات التعاونية، ووزعت الأراضي على الفلاحين، وأزالت بعض العقبات التي اعترضت تأليف المزيد من الجمعيات الفلاحية وشجعت الإقراض من المصرف الزراعي. ولكن الحركة التعاونية واجهت لعدة سنوات بعض الصعوبات التي أعاقت تطورها. وبعد ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣ صدرت مجموعة من التشريعات والأنظمة أعادت الحياة إلى الحركة الفلاحية التعاونية. وشهد القطر بعد ذلك حركة تعاونية زراعية ناشطة، وبلغ عدد الجمعيات التابعة لوزارة الزراعة ٤٧٥ جمعية في نيسان ١٩٦٤ بالإضافة إلى ٣٦١ جمعية تابعة لوزارة الإصلاح الزراعي. وبتاريخ ١٤/١٢/١٩٦٤ صدر المرسوم رقم ١٢٧ الذي قضى بتأسيس الاتحاد العام للفلاحين، ثم أصدرت الدولة المرسوم رقم ٢٥٣ بتاريخ ٢٠/١٠/١٩٦٩ الذي تلافى الثغرات في المرسوم ١٢٧ وحدد تعريفاً واضحاً للفلاح.

أهداف الاتحاد

كان لا بد للاتحاد العام للفلاحين من أن يعتمد أسساً ثابتة في مسيرته، ليستطيع أن يحدث التحول المناسب في حياة الفلاحين والزراعة على حد سواء.

وقد أخذ الاتحاد على عاتقه تحقيق ما يلي: توحيد العاملين في الزراعة، من فلاحين وعمال زراعيين ومزارعين صغار ومزارعين شركاء أو بالبدل والملاك الصغار الذين لا تتجاوز ملكية واحدهم الحد الأعلى المقرر للتوزيع بموجب قوانين الإصلاح الزراعي، وتعميق الوعي لدى الفلاحين، وتشبثهم بحقوقهم وحمايتها، واتباع الأساليب العلمية الحديثة في الزراعة، وإيجاد الطريق الأمثل للاتصال المباشر بالفلاحين

لضم صفوفهم، وتوحيد إمكاناتهم وتوظيفها في مصلحة الوطن العليا، وصولاً إلى المشاركة الفاعلة في بناء المجتمع العربي.

وعلى الصعيد القومي يسعى الاتحاد العام للفلاحين إلى تحقيق المهمات التالية: الوصول إلى الفلاحين العرب، وتوعيتهم، ودفعهم لتأليف منظمات فلاحية مماثلة، والعمل على إقامة اتحاد للفلاحين العرب، وتشجيع المنظمات الفلاحية ودعمها للتخلص من واقعها المتخلف، وتحقيق المكاسب الوطنية والقومية لما فيه مصلحة فلاحي الوطن العربي والتطور الزراعي والاقتصادي، ونشر الوعي السياسي، وإذكاء الشعور بالانتماء القومي ووحدة الطبقة الكادحة في الوطن العربي، والإسهام في تحقيق الثورة الزراعية، واستخدام الأساليب العلمية الحديثة في الزراعة وحماية العمل والإنتاج، وتطوير التعاون في قطاع الزراعة، والعمل على نشر التعاونيات في الريف، وممارسة الرقابة الشعبية على الأجهزة ذات العلاقة بالتنظيم الفلاحي والقطاع الزراعي.

اختصاصات الاتحاد

إن اختصاصات الاتحاد العام للفلاحين واسعة ومتشعبة ويمكن أن تجمل بما يلي: الإشراف على المنظمات الفلاحية في القطر، والعمل على تحقيق أهدافها، وقيادة الفلاحين وتمثيلهم في كل المجالس واللجان والهيئات والمؤتمرات المحلية والعربية والدولية وفي كل ما يتعلق بقضاياهم وزراعتهم، والمشاركة في رسم السياسة الزراعية في القطر، ووضع خطط العمل الإنتاجي والنقابي والسياسي والثقافي في القطاع الفلاحي، ومشاركة الهيئات المختصة في تحقيق أهداف التنمية الاقتصادية والتطور الاجتماعي ولا سيما ما يتعلق بتطوير الإنتاج الزراعي وحياة الفلاحين، والمشاركة في إعداد مشاريع القوانين والأنظمة الأساسية المتعلقة بالقطاع الزراعي، والاهتمام بمصالح الفلاحين، والعمل على تحقيق وحدة نضالهم وطنياً وقومياً وتوفير التلاحم بينهم وبين العمال والمنظمات الشعبية الأخرى، وتنظيم العلاقات الخارجية بين الاتحاد وما يماثله قومياً ودولياً.

بنيته التنظيمية ومقره

تتكون البنية التنظيمية للاتحاد العام للفلاحين مما يلي:

الجمعية الفلاحية التعاونية: في مستوى القرية الواحدة أو القرى المتعددة، ولا يجوز تأليف جمعية يقل عدد أعضائها عن ثلاثين عضواً، وهي إما أن تكون جمعية متعددة الأغراض، أو نوعية متخصصة، أو إنتاجية متخصصة، أو مشتركة. ويدير الجمعية مجلس إدارة تنتخبه الهيئة العامة ،وهي مجموع المنتسبين للجمعية، التي تعقد اجتماعاتها أو مؤتمراتها سنوياً أو استثنائياً ، ويحدد النظام الداخلي كيفية انعقادها. ويتألف مجلس إدارة الجمعية من ثلاثة أعضاء على الأقل.

الرابطة الفلاحية: وتتكون من الجمعيات التعاونية الفلاحية القائمة في المنطقة الإدارية، ويدير أعمالها مكتب تنفيذي ينتخبه مجلس الرابطة الذي ينتخبه المؤتمر السنوي من بين أعضائه. ويراوح عدد أعضاء مكتب الرابطة بين ٣ و٥ أعضاء من أصل ٧-١٩ عضواً هم مجلس الرابطة. وتعقد الرابطة مؤتمرها سنوياً أو استثنائياً. ويحدد النظام الداخلي كيفية انعقاده.

اتحاد فلاحي المحافظة: ويتكون من مجموع الروابط الفلاحية في المناطق الإدارية في مستوى المحافظة ويدير أعماله مكتب تنفيذي يراوح عدده بين ٥ و٩ من أعضاء مجلس اتحاد المحافظة المنتخب من بين أعضاء مؤتمر الاتحاد. ويعقد اتحاد المحافظة مؤتمره كل سنتين دورياً أو استثنائياً وفق أحكام النظام الداخلي.

الاتحاد العام للفلاحين: ويتكون من مجموع الاتحادات الفلاحية في المحافظات ويسيِّر أعماله مكتب تنفيذي مؤلف من ١١-١٣ عضواً ينتخبهم مجلس الاتحاد العام المنتخب من بين الأعضاء الأصلاء في المؤتمر العام للفلاحين الذي ينعقد كل خمس سنوات دورياً أو استثنائياً وفق أحكام النظام الداخلي.

وإلى جانب مجالس إدارات الجمعيات والمكاتب التنفيذية للروابط والاتحادات الفلاحية في المحافظات والمكتب التنفيذي للاتحاد العام للفلاحين تنتخب المؤتمرات الفلاحية لجان التفتيش والمراقبة في كل منظمة فلاحية على حدة ويكون عدد أعضاء كل منها ثلاثة. والهيئة العامة في الجمعية الفلاحية، أو المؤتمر (في الرابطة أو اتحاد المحافظة أو الاتحاد العام) هما السلطة العليا في التنظيم الفلاحي، وقراراتهما ملزمة للمجلس (مجلس الإدارة ـ مجلس الرابطة ـ مجلس الاتحاد الفرعي ـ مجلس الاتحاد العام) ولجميع أعضائها.

ويكون اجتماع الهيئة العامة أو المؤتمر قانونياً إذا حضرته أغلبية الأعضاء، فإذا قل عددهم عن ذلك انعقد في اليوم الخامس عشر الذي يلي تاريخ الاجتماع السابق، ويكون قانونياً مهما كان عدد الأعضاء الحاضرين.

أما المقرات فلكل منظمة فلاحية مقرها الكائن في منطقة عملها. أما الاتحاد العام ففي العاصمة.

عضوية الاتحاد

حدد المرسوم رقم ٢٥٣ تاريخ ٢٠/١٠/١٩٦٩ تعريفاً واضحاً للفلاح الذي يحق له الانتساب للتنظيم الفلاحي، لكن القانون تاريخ ٢٠/٤/١٩٧٤ هو الذي عرَّف الفلاح على نحو دقيق، فقد نصّت المادة الأولى منه على أن الفلاح هو كل رجل أو امرأة ينتمي إلى إحدى الفئتين التاليتين: العمال الزراعيين، سواء كانوا عاديين أو فنيين أو وكلاء أو عمال خدمات زراعية، وكل من يعمل في الأرض بنفسه مباشرة أو بالاشتراك مع أفراد أسرته أو جمعيته الفلاحية من دون الاستعانة بجهود الآخرين سواء كان مزارعاً بالمشاركة أو بالبدل، وكذلك المالك الذي لا تتجاوز ملكيته الحد الأعلى للتوزيع المقرر للفلاحين بموجب قانون الإصلاح الزراعي وتعديلاته.

والانتساب إلى الجمعية الفلاحية اختياري إلا فيما ورد عليه نص تشريعي خاص. وقد حددت المادة ١٦ من القانون المشار إليه شروط العضوية بما يلي: أن يكون طالب العضوية متمتعاً بالجنسية العربية السورية أو بجنسية إحدى الدول العربية، وأن يكون قد أتم الثامنة عشرة من العمر، وأن ينطبق عليه تعريف العضو الوارد في القانون.

وتسقط العضوية عن المنتسب في حالات حددها القانون وهي: فقدانه أحد شروط العضوية أو إذا فرضت بحقه إحدى العقوبات المنصوص عليها بالقانون ٢١ أو التلاعب بسجلات المنظمة أو أوراقها أو تعمد إتلافها أو إساءة استعمالها أو الإدلاء ببيانات غير صحيحة بقصد عرقلة الإنتاج أو عرقلة تحقيق أهداف المنظمة، أو عدم تسديد الالتزامات المستحقة الأداء أو العُهد الشخصية في المدة المحددة، أو إساءة التصرف، بعد إجراء تحقيق خطي من المنظمة الأعلى يثبت فيه إضرار العضو بمصالح المنظمة أو مخالفته للقوانين والأنظمة المرعية.

صلاحيات الاتحاد ونشاطه وبرامجه

من الصعوبة الفصل بين أهداف الاتحاد وصلاحياته ونشاطه، وقد تناولت الأهداف التي سبق ذكرها كل ما يسعى الاتحاد إلى تحقيقه. ومع ذلك فثمة صلاحيات ونشاطات يمكن تلخيصها على النحو التالي: الإشراف على المنظمات الفلاحية في القطر والسعي لتحقيق أهدافها، ورعاية مصالح الفلاحين وتمثيلهم في المجالس واللجان والهيئات المختلفة محلياً وعربياً ودولياً، والمشاركة في رسم سياسة القطر الزراعية، وتنفيذ ما يخص الاتحاد منها، ووضع الخطط العملية وتحديد مسؤوليات منظمات الاتحاد في مجالات الإنتاج والخدمة، والإسهام في إعداد مشاريع القوانين والأنظمة المتعلقة بالقطاع الزراعي، ورعاية مصالح الفلاحين غير المنتسبين إلى الاتحاد والسعي إلى تنظيمهم، وإصدار المطبوعات التي تخدم قضايا الزراعة والفلاحين، ومن نشاط الاتحاد كذلك تنفيذ المشروعات الإنتاجية والإنمائية لمصلحة المنظمات الفلاحية، وتوفير مستلزماتها، والإشراف عليها، والإشراف على معاهد التثقيف الفلاحية وإعداد الأطر الفلاحية المؤهلة وعقد دورات تثقيفية فلاحية في المحافظات، والمشاركة في عقد دورات لمحو الأمية بالتعاون مع الجهات المعنية وإقامة المخازن الاستهلاكية ومراكز بيع الأدوية الزراعية ومحطات إصلاح الآلات الزراعية ومحطات المحروقات، وتزويد الجمعيات الفلاحية بالآلات الزراعية، وتسويق الحاصلات الزراعية تعاونياً، ودعم المشروعات الزراعية مادياً ومعنوياً وتوفير الرعاية الصحية للفلاحين في القطر وخارجه. وللاتحاد الفلاحين معهد تثقيفي مركزي (معهد آذار) وأحد عشر معهداً فرعياً في المحافظات ينظم كل منها عدداً من الدورات سنوياً، ويقدم الاتحاد للدارسين فيها مستلزمات الدراسة والإقامة وتعويضات مادية شهرية، كما يصدر الاتحاد جريدة أسبوعية (نضال الفلاحين).

مصطفى العايد

■ الاتحاد العام لنقابات العمال

الاتحاد العام لنقابات العمال General Federation of Trade Unions منظمة شعبية ديمقراطية تضم جميع العمال المنتسبين إلى الاتحادات والنقابات المهنية العمالية القائمة في الجمهورية العربية السورية.

ترتبط نشأة الاتحاد بنضال الطبقة العاملة في سورية في مرحلة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. فقد بدأت ملامح تكوّن الطبقة العاملة تأخذ صورتها الحقيقية والمستقلة في المجتمع مع بزوغ فجر النهضة الصناعية وإنشاء معمل الإسمنت في دمشق عام ١٩٢٨ ومؤسسة «ترامواي وكهرباء دمشق». وأخذ الوعي العمّالي يتنامى ويتطور، وبدأ نضال الطبقة العاملة يتصاعد في ظل ظروف صعبة سياسية واقتصادية. وتُوِّج هذا النضال بتأسيس الاتحاد العام لنقابات العمال في ٢٤/٣/١٩٣٨.

وأسهم التنظيم النقابي الجديد في تعزيز وحدة الطبقة العاملة، وزج طاقاتها في معركة التحرر الوطني، وفي تنظيم علاقات العمل وحماية العمال، ولاسيما بعد ازدياد حجم الاستثمارات الوطنية في مجال صناعة الغزل والنسيج والكبريت وغيرها، وذلك بالسعي لإصدار قانون للعمل يوفر للعمال الحماية القانونية. ومع بداية الاستقلال، في عام ١٩٤٦، صدر القانون المنشود.

وبعد إنشاء مصفاة حمص لتكرير النفط عام ١٩٥٥ دخلت الطبقة العاملة مرحلة جديدة في سعيها من أجل نيل حقوقها والإسهام في الكفاح الوطني والقومي. وعزز من أهمية هذا الدور موقف الطبقة العاملة العربية في أثناء العدوان الثلاثي على مصر بإعلان الإضراب العام الشامل في المطارات والمرافىء العربية. ولقد تنبه الاتحاد العام لنقابات العمال في سورية إلى أهمية وحدة العمال العرب ونضالهم القومي فدعا العمال والنقابات العمالية العربية إلى عقد مؤتمر تأسيسي بتاريخ ٢٤/٣/١٩٥٦ انبثق عنه الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب [ر] وهو منظمة قومية شعبية تعبر عن وحدة العمال في جميع الأقطار العربية.

وفي ظل الجمهورية العربية المتحدة دخل التنظيم النقابي العمالي مرحلة جديدة بصدور قانون العمل ذي الرقم ٩١ لعام ١٩٥٩.

وقد وضع قانون العمل الجديد أسساً جديدة للتنظيم أهمها: اعتماد البنية الهرمية، وتجميع المهن المتشابهة في نقابة مهنية واحدة هي النقابة العامة، إضافة إلى ترسيخه للحقوق العمالية وتوفير الحماية القانونية لها.

وبعد الانفصال بين سورية ومصر، صدر بتاريخ ٢/٧/١٩٦٢ مرسوم تشريعي برقم ٥٠ تم بموجبه حل قيادة الاتحاد العام للنقابات، واعتماد مبدأ التعيين في مكاتب النقابات، وحُظِّر على النقابيين ممارسة العمل السياسي، وألغيت النقابة العامة واللجان النقابية، وأُعطي وزير العمل حق حل أي منظمة نقابية من دون الرجوع إلى القضاء.

ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً. فبعد قيام ثورة الثامن من آذار في سورية عام ١٩٦٣ وضع قانون جديد للتنظيم النقابي، هو القانون ذو الرقم ٣١ لعام ١٩٦٤، أعيد بموجبه للنقابة ما كان لها من حقوق واستقلال ومكانة.

وفي ظل هذه الثورة حصلت تحولات مهمة في بنية الاقتصاد الوطني بينها تأميم العديد من الشركات والمنشآت الصناعية مما أدى إلى توسع نطاق القطاع العام الصناعي والتجاري. وأبدت قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي اهتماماً كبيراً بالطبقة العاملة، وأكدت دورها في مجال ممارسة الديمقراطية الشعبية، وفي عملية التحويل الاشتراكي وحماية المنجزات والمكاسب التقدمية، فأصدرت قانوناً جديداً للتنظيم النقابي هو القانون ذو الرقم ٨٤ لعام ١٩٦٨ أدخلت عليه تعديلات عدة فيما بعد.

ومن بين المبادىء التي اعتمدها هذا القانون: إلغاء مبدأ التعيين كلياً، واعتماد مبدأ الديمقراطية في الانتخاب المباشر على جميع المستويات، والأخذ بأسس واضحة في تشكيل اللجان النقابية في كل مؤسسة تضم ٥٠ عاملاً فأكثر، استناداً إلى جدول المهن الذي تصدره قيادة التنظيم النقابي، واعتماد مبدأ التمثيل النسبي لقيادة التنظيمات النقابية في المؤتمرات النقابية.

وضع القانون ٨٤ الآنف الذكر أهدافاً متكاملة للاتحاد العام لنقابات العمال أهمها: تحقيق أهداف الشعب العربي في الوحدة والحرية والاشتراكية، وحماية العمل والإنتاج على أنهما

الثروة القومية، والعمل على تطويرهما وتوسيعهما باستمرار، والمشاركة في إعداد اليد العاملة الاختصاصية إعداداً مهنياً وفنياً يمكنها من تحمل مسؤوليتها، وتوحيد نضال العمال، ورعاية مصالحهم المادية والمعنوية والثقافية والاجتماعية، والدفاع عن حقوقهم والسهر على قيامهم بواجباتهم، ورفع مستوى وعيهم المهني والوطني والقومي والإنساني، وإدخال الأساليب الحديثة والمتطورة في العمل والإنتاج، ومكافحة البيروقراطية، وصيانة الملكية العامة وتعزيزها.

ويولي الاتحاد العام لنقابات العمال اهتماماً كبيراً بمصالح الطبقة العاملة بأكملها. كما يهتم بتنسيق الصلات والعلاقات الخارجية بين المنظمات النقابية ومثيلاتها في خارج القطر والإشراف على إصدار النشرات التوجيهية الخاصة بالمنظمات النقابية ووضع خطط العمل النقابي، وتحديد مسؤوليات المستويات النقابية على اختلافها في مجال الخدمات والثقافة العمالية، ومشاركة الهيئات المختصة في تحقيق التنمية الاقتصادية، ولاسيما ما يتعلق منها بتحسين الإنتاج وزيادته، وتحديد دور الطبقة العاملة في مجالات التنمية.

ويقع على عاتق الاتحاد كذلك تحديد المهام التي يضطلع بها المتفرغون النقابيون، وإبداء الرأي في مشاريع القوانين المحالة عليه من الجهات المختصة، والمشاركة في وضع الأنظمة الأساسية للعمال، والعمل على توحيد شروط العمل ورعاية مصالح العمال غير المنضوين في منظمات نقابية.

ومن مهام الاتحاد كذلك تمثيل الحركة العمالية في اللجان والمؤتمرات الدولية والعمل على توحيد نضال الطبقة العاملة العربية وشد أزرها وتعزيز تضامن الطبقة العاملة في العالم.

ويسعى الاتحاد إلى تنظيم العاملين كافة في تنظيمات نقابية واجتذاب التنظيمات النقابية القائمة خارج نطاقه وتهيئة الظروف الملائمة لانضمامها إليه.

أما البنية التنظيمية للاتحاد العام لنقابات العمال فهي هرمية قاعدتها اللجان النقابية في التجمعات العمالية المهنية وذروتها الاتحاد العام، وما بين القاعدة والذروة تقع النقابة ثم اتحاد عمال المحافظة فالاتحاد المهني.

واللجنة النقابية، هي التنظيم النقابي الأولي في التجمع العمالي. وبموجب أحكام قانون التنظيم النقابي رقم ٨٤ الآنف الذكر وتعديلاته، يحق لكل تجمع عمالي يبلغ عدد أفراده خمسين عاملاً فأكثر تأليف لجنة نقابية تتمتع بالشخصية الاعتبارية ويديرها مكتب، وتتألف اللجنة من خمسة أعضاء ينتخبهم العمال المنتسبون إليها بطريقة الاقتراع السري.

أما النقابة فهي التنظيم النقابي لعمال المهنة الواحدة على مستوى المحافظة، وتضم جميع اللجان النقابية للمهنة الواحدة فيها.

وتتمتع نقابة المهنة بالشخصية الاعتبارية ولها حق تملك الأموال اللازمة لتحقيق أغراضها وحق التقاضي باسمها وباسم جميع عمال المهنة التي تمثلها أمام جميع المحاكم والجهات ذات الاختصاص القضائي، كما تتمتع بغير ذلك من الحقوق والصلاحيات.

وللنقابة مؤتمر يضم جميع أعضاء مكاتب اللجان النقابية القائمة في التجمعات العمالية للمهنة في المحافظة، إضافة إلى عدد من المندوبين الإضافيين عن كل لجنة تنتخبهم الهيئة العامة للجنة.

وينبثق عن مؤتمر النقابة مكتب يدير النقابة يتكون من تسعة أعضاء ينتخبهم أعضاء مؤتمر النقابة من بينهم بطريقة الاقتراع السري.

والعضوية في النقابة اختيارية وليست إلزامية، وهي متاحة لكل عامل عربي، سواء أكان سورياً أم غير سوري. أما العمال غير العرب فلا يحق لهم الانتساب إلى النقابة إلا بعد مضي أكثر من سنة على استخدامهم في القطر العربي السوري، وبشرط المعاملة بالمثل مع الدول التي ينتمي إليها العامل غير العربي.

ويتم الانتساب إلى النقابة بطلب يقدمه العامل إلى نقابة المهنة التي يعمل بها، وذلك عن طريق مكتب اللجنة النقابية المختصة في مكان عمله ويوافق عليه مكتب النقابة التي يود الانتساب إليها.

وأما اتحاد عمال المحافظة فهو الصيغة التنظيمية لعمال سائر المهن المختلفة في المحافظة الواحدة، ويتكون من نقابات العمال القائمة في المحافظة على اختلافها ويختص اتحاد عمال المحافظة بمعالجة القضايا النقابية التي تتجاوز حدود مصلحة مهنة معينة في المحافظة واهتمامها، ويتمتع بالاختصاصات نفسها التي تتمتع بها النقابة على مستوى المحافظة.

ولكل اتحاد في المحافظة مؤتمر ومجلس ومكتب. ويعدّ مؤتمر اتحاد عمال المحافظة السلطة العليا في هذا الاتحاد، ويتكون من ممثلين عن نقابات عمال المحافظة بمعدل خمسة مندوبين عن كل مكتب نقابة منتسبة للاتحاد، ينتخبهم مكتب النقابة من بين أعضائه، إضافة إلى عدد من المندوبين الإضافيين من كل نقابة، ينتخبهم أعضاء مكتب النقابة إذا كان عددهم يقل عن عدد أعضاء مكتب النقابة، وأما إذا زاد عدد المندوبين على عدد أعضاء مكتب النقابة، فينتخبهم أعضاء مؤتمر النقابة.

وأما مجلس اتحاد عمال المحافظة فيتولى الإشراف على الاتحاد ووضع السياسة العليا له، ويتكون من ١٥ إلى ٢١ عضواً ينتخبهم المؤتمر العام لاتحاد عمال المحافظة من بين أعضائه.

وأما مكتب اتحاد عمال المحافظة: فيسمى المكتب التنفيذي لاتحاد عمال المحافظة ويتولى إدارة شؤون الاتحاد. ويتكون من سبعة أعضاء ينتخبهم مجلس اتحاد عمال المحافظة من بين أعضائه.

وأما الاتحاد المهني: فهو التنظيم النقابي الذي يضم نقابات المهنة الواحدة أو مجموعة المهن على مستوى القطر، ويهتم بالقضايا المهنية المشتركة للاتحاد المهني ولعمال النقابات التابعة له وبمعالجتها على مستوى القطر وفق أحكام قانون التنظيم النقابي وأنظمة الاتحاد، ويتمتع بمثل الاختصاصات المقررة للنقابة على مستوى المهنة في القطر. ولكل اتحاد مهني مؤتمر ومكتب.

ومؤتمر الاتحاد المهني هو السلطة العليا في الاتحاد، ويتكون من ثلاثة مندوبين عن كل نقابة منتسبة للاتحاد المهني، ينتخبهم مكتب النقابة من بين أعضائه ومن عدد من المندوبين ويضاف إليهم عن كل نقابة عضو في الاتحاد.

أما المكتب التنفيذي للاتحاد المهني فيتولى إدارة الاتحاد المهني، ويتألف من سبعة أعضاء ينتخبهم مؤتمر الاتحاد المهني من بين أعضائه.

والاتحاد العام هو الصيغة التنظيمية الشاملة للتنظيمات النقابية العمالية على اختلافها، ويضم كل الاتحادات المهنية واتحادات عمال المحافظات في الجمهورية العربية السورية ومقره مدينة دمشق وللاتحاد العام مؤتمر ومجلس ومكتب.

أما المؤتمر، ويسمى المؤتمر العام للاتحاد، فهو السلطة العليا في الاتحاد ويتكون من أعضاء

المكاتب التنفيذية لاتحادات عمال المحافظات، ومن مندوبين إضافيين من كل اتحاد من اتحادات عمال المحافظات ومن أعضاء المكاتب التنفيذية للاتحادات المهنية ومن أعضاء المكتب التنفيذي للاتحاد العام لنقابات العمال.

وأما مجلس الاتحاد العام فيتولى الإشراف على الاتحاد العام ورسم السياسة العامة له في ضوء مقررات مؤتمرات الاتحاد العام وتوصياتها. ويتمتع بالصلاحيات والاختصاصات اللازمة للنهوض بمسؤولياته. ويتكون من ٧٥ عضواً ينتخبهم المؤتمر العام للاتحاد من بين أعضائه بالاقتراع السري.

وأما المكتب فيسمى المكتب التنفيذي للاتحاد العام، ويتولى إدارة الاتحاد ويتمتع بأوسع الصلاحيات لإدارة أعمال الاتحاد والإشراف على المنظمات النقابية في القطر العربي السوري والقيام بما يحقق أهداف الاتحاد الأساسية. ويتكون من ١١ عضواً ينتخبهم مجلس الاتحاد من بين أعضائه بالاقتراع السري.

وتجري انتخابات مكاتب اللجان والنقابات والاتحادات المهنية والاتحاد العام مرة كل خمس سنوات. وبلغ عدد مكاتب النقابات ١٩٤ مكتباً موزعين على ١٣ اتحاد محافظة وبلغ عدد اللجان النقابية ١٧٣٥ لجنة في القطاع العام و٣٤١ لجنة في القطاع الخاص. أما عدد المنتسبين للاتحاد فبلغ عام ١٩٩٨ ٤٨٦٧١٧ في القطاع العام و١٨٠٢٧٣ في القطاع الخاص.

يقوم الاتحاد بنشاطات واسعة في المجال الاقتصادي ويتخذ المبادرات المختلفة من أجل حشد جهود الطبقة العاملة والنقابات لإنجاز خطط التنمية وتحسين نوعية الإنتاج، والحد من الهدر، والاستخدام الأمثل للموارد والعُدد والأدوات، واستخدام الطاقة البشرية والإمكانات الفنية أفضل استخدام للحصول على أعلى نسبة في ريع المشروعات. ومن أهم مبادرات الاتحاد العام عقد مؤتمر الإبداع الوطني والاعتماد على الذات في عام ١٩٨٩ الذي انتهى إلى اتخاذ توصيات، وإقرار توجهات عامة، وكان من نتائج ذلك تأليف عدد كبير من اللجان ومجموعات العمل المشتركة بين الحكومة والاتحاد العام لمتابعة تنفيذ تلك التوصيات.

ويواصل الاتحاد العام مساعيه الدائمة مع اللجان الحكومية المشتركة لإقامة مزيد من التعاون والتنسيق، لتحرير الاقتصاد الوطني من الصعوبات التي يعانيها، والتركيز على إنجاز المشروعات وتحسين مردودية العمل والإنتاجية بهدف توفير حاجات التنمية الشاملة وتحسين الظروف المعاشية للجماهير الشعبية.

وفي مجال الخدمات النقابية يهتم الاتحاد بتطوير الخدمات للعاملين وتحسين أوضاعهم الصحية والسكنية والمعاشية، ورعاية شؤون المرأة وأبناء العمال، وذلك بخلق شبكة واسعة من الخدمات الاجتماعية والثقافية. وتم فعلاً إقامة العديد من مراكز الخدمات والجمعيات والمخازن الاستهلاكية والمستوصفات والصيدليات وغيرها العائدة إلى الطبقة العاملة.

ولعل من أبرز المنجزات التي حققها الاتحاد العام في مجال المشاريع الاستثمارية مجمع اتحاد عمال دمشق العمالي، والنادي الثقافي الاجتماعي المسمى «الصحارى» الذي يُعد مشروعاً حضارياً متطوراً من المشروعات الاستثمارية لأموال المنظمات النقابية التي تعود وارداتها وأرباحها إلى مصلحة الطبقة العاملة وإلى خدمة برامجها الاجتماعية. ومن أهم المنجزات الثقافية معهد السادس عشر من تشرين للثقافة العمالية والإعداد الثقافي. ومن منجزات الخدمات مشروعات التوسع في إقامة دور الاستجمام العمالية في مناطق مختلفة من القطر العربي السوري السياحية. وكان آخر منجزات الاتحاد العام إحداث صندوق تكافل مركزي لتقديم إعانات وخدمات متنوعة جديدة للطبقة العاملة، وفي المجالات الأخرى يسهم الاتحاد العام إسهاماً كبيراً في مكافحة الأمية بين صفوف العمال عن طريق دورات يقيمها لهذا الغرض.

ويهتم الاتحاد العام بوضع السياسات والوسائل الكفيلة بتوفير فرص العمل وتشجيع المرأة على دخول مجالات العمل المختلفة.

ويضاف إلى ذلك كله أن الاتحاد العام لنقابات العمال يعمل باستمرار على ترسيخ التقاليد النضالية في صفوف الطبقة العاملة وتنمية روح العمل الجماعي ورعاية المبادرات الطوعية وتشجيع المبادرين وتعميق الديمقراطية والديمقراطية المركزية في حياة المنظمة واتباع أسلوب المحاسبة والمتابعة لتنفيذ الخطط والبرامج الموضوعة لعمل النقابات.

هادي آقبيق

■ الاتحاد العام النسائي في سورية

الاتحاد العام النسائي General Federation of Syrian Women منظمة شعبية لنساء الجمهورية العربية السورية، وهو يتمتع بالشخصية الاعتبارية ممثلاً برئيسة المكتب التنفيذي أو نائبتها في حال غيابها، ومقره مدينة دمشق.

تأسس هذا الاتحاد بالمرسوم التشريعي رقم ١٢١ تاريخ ٢٦/٨/١٩٦٧ ثم ألغي هذا المرسوم وحل محله القانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٧٥ المعدل بالمرسوم التشريعي رقم ٣ تاريخ ٥/٢/١٩٨٤. ويعد الاتحاد أول تنظيم جماهيري في الجمهورية العربية السورية يوحد جهود المرأة في مؤسسة تخصها ويعبر عن إرادتها الواعية وتستطيع المرأة فيه أن تمارس دورها الفعال في مختلف نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية. وقد صدر قرار وزير الشؤون الاجتماعية والعمل رقم ٦٩٤ وتاريخ ١٦/٩/١٩٨٦ بالنظام الداخلي للاتحاد العام النسائي.

أهداف الاتحاد

يعمل الاتحاد العام النسائي على تحقيق مجموعة متكاملة من الأهداف التي تتصل بالمرأة ونشاطها ومكانتها. وفي مقدمة هذه الأهداف تنظيم طاقات المرأة وجهودها في العمل الجماعي الموحد، وتعميق الوعي القومي لديها ورفع مستواها الثقافي وتنمية خبراتها لتتمكن من الإسهام الفعّال في الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية بما يحقق إقامة المجتمع العربي المتوازن العادل في الحقوق والواجبات، والعمل على توفير الخدمات اللازمة للمرأة لتكون مطمئنة في المنزل وفي العمل، والاهتمام بالمرأة السورية خارج القطر وإقامة صلات تنظيمية معها، والعمل مع جماهير

النساء والمنظمات النسائية في البلاد العربية من أجل تحرير المرأة العربية وإيجاد الوسائل العلمية والعملية الهادفة إلى خدمة قضية المرأة العربية، والتعاون مع المنظمات والحركات النسائية في العالم.

ويحرص الاتحاد العام النسائي على القيام بكل ما من شأنه تلبية أهدافه ويدخل في ذلك إقامة الندوات والدورات التثقيفية والتأهيلية، وإصدار النشرات والمجلات والصحف، والإسهام الفعال في خطة محو الأمية وفي رعاية الأطفال ولاسيما أولاد المرأة العاملة، والإسهام في الخدمات اللازمة لرعاية المرأة والعناية بالأسرة الريفية، والتعاون مع المنظمات الشعبية والمؤسسات الحكومية في كل ما يخدم مكانة المرأة وإسهامها في حياة مجتمعها.

بنية الاتحاد التنظيمية

يضم الاتحاد العام النسائي ما يلي: الوحدة النسائية والرابطة النسائية والفرع والمكتب التنفيذي ومجلس الاتحاد والمؤتمر العام. ويحدّد النظام الداخلي للاتحاد مسؤوليات كل تنظيم وأعماله وطريقة تكوينه.

الوحدات والروابط والفروع: الوحدة النسائية هي التنظيم القاعدي للاتحاد وتقوم في المدينة أو الحي أو القرية وفي التجمعات الأخرى وتحدث بقرار من الفرع. وتتكون الوحدة من عضوات عاملات وعضوات مشاركات. ويجب أن تتوافر شروط خاصة في المرأة لتكون عضوة. ويتألف مكتب الوحدة من خمس عضوات عاملات تنتخبهن الهيئة العامة للوحدة. تعقد الهيئة العامة للوحدة اجتماعات سنوية دورية ويجتمع مكتب الوحدة دورياً كل خمسة عشر يوماً ويسيّر شؤون الوحدة.

أما الرابطة النسائية فهي تنظيم يضم عدداً من الوحدات لا يقل عن ثلاث. تحدث الرابطة بقرار من المكتب التنفيذي بناء على اقتراح من المكتب الإداري للفرع. ويشرف على شؤون الرابطة مكتب مؤلف من سبع عضوات يجتمع دورياً مرة كل أسبوع وينتخبهن مجلس الرابطة الذي يتألف من ١٥ إلى ٢١ عضوة ينتخبهن مؤتمر الرابطة. ويتألف مؤتمر الرابطة من عضوات مجلس الرابطة وعضوات مكاتب الوحدات النسائية التي تتألف منها الرابطة وعدد من الممثلات لكل وحدة، ويعقد مرة كل سنة.

وأما الفرع فهو التنظيم في المحافظة، ويحدثه المكتب التنفيذي للاتحاد النسائي ويضم جميع الروابط والوحدات النسائية في المحافظة. يشرف على أمور الفرع وتسيير أعماله مكتب إداري مؤلف من ٧ إلى ٩ عضوات ينتخبهن مجلس الفرع الذي يتألف من ٢١ إلى ٣١ عضوة ينتخبهن مؤتمر الفرع. ويتألف مؤتمر الفرع من عضوات مجلس الفرع وعضوات مكاتب الروابط في المحافظة وممثلات عن كل رابطة ويعقد اجتماعه مرة كل سنتين.

المكتب التنفيذي: ينتخب مجلس الاتحاد من بين عضواته مكتباً تنفيذياً مؤلفاً من ١١ عضوة لمدة خمس سنوات. ويجتمع المكتب التنفيذي كل أسبوع ويتولى تسيير شؤون الاتحاد وإدارة أعماله والإشراف على تنفيذ خططه السنوية التي يقرها مجلس الاتحاد، ويُعدّ التقرير السنوي عن نشاط الاتحاد ويقدمه إلى مجلس الاتحاد، ويضع كذلك مشروع الميزانية السنوية للاتحاد ويقوم بإعداد الحساب الختامي للسنة المالية المنتهية ويقدمه إلى مجلس الاتحاد. ويفصّل النظام الداخلي للاتحاد المهمات المختلفة التي يقوم بها المكتب التنفيذي في إدارته شؤون الاتحاد.

مجلس الاتحاد: يتألف مجلس الاتحاد من ٥١ عضوة ينتخبهن المؤتمر العام لمدة خمس سنوات وهو يشرف على أمور الاتحاد ونشاطاته وتنفيذ قرارات المؤتمر العام وتوصياته وينتخب المكتب التنفيذي ويناقش التقارير الدورية المقدمة كما يقوّم سير العمل في الاتحاد ويعقد أربع دورات في السنة.

المؤتمر العام: هو السلطة العليا للاتحاد العام النسائي ويملك صلاحية رسم السياسة العامة له وكل ما يؤدي إلى تحقيق أهدافه، وتسري قراراته على جميع مجالس الاتحاد ومكاتبه وعضواته ومؤسساته المختلفة. ويتألف المؤتمر العام من عضوات مجلس الاتحاد العام، وعضوات المكاتب الإدارية للفروع وممثلات لكل فرع، ويعقد مرة كل دورة انتخابية أي كل خمس سنوات. يبحث المؤتمر العام للاتحاد الموضوعات المدرجة في جدول أعمال اجتماعه، وأمور الاتحاد عموماً وما تم تنفيذه من مقررات وتوصيات في مدة دورة انتخابية وما قام به المكتب التنفيذي. ويضع المؤتمر العام خطة الاتحاد في مختلف المجالات وبرامج العمل للدورة القادمة. كما يناقش التقرير المالي وتصديق الحسابات. وله إقرار ما يرى إدخاله من تعديلات على النظام الداخلي، ويقوم بانتخاب عضوات مجلس الاتحاد.

نشاط الاتحاد ومكاتبه المتخصصة

يؤلف المكتب التنفيذي للاتحاد العام مكاتب متخصصة لتنفيذ خططه والقيام بنشاطاته التي تتطلبها أهدافه. وترأس كل مكتب أو أكثر عضوة من عضوات المكتب التنفيذي. وتحدّ د هذه المكاتب المختصة في المكتب التنفيذي على الوجه التالي: مكتب التنظيم والمكتب المالي والمكتب القانوني ومكتب محو الأمية ومكتب الخدمات الصحية والتعبئة الدفاعية ومكتب الإعلام والنشر ومكتب دور الحضانة ورياض الأطفال ومكتب الدراسات ومكتب التخطيط والإحصاء ومكتب العلاقات الخارجية ومكتب التأهيل المهني ومكتب الثقافة والإعداد. ويحدد النظام الداخلي للاتحاد العام مهام كل مكتب، وتتم في المكتب التنفيذي برمجة خطط الاتحاد التي تقرها المكاتب المختصة ثم ترسل إلى الفروع التي تتولى تنفيذ هذه البرامج عن طريق وحداتها وروابطها، ويمارس كل مكتب النشاطات المتصلة به في حدود أهداف الاتحاد العام.

فريال مهايني

■ الاتحاد العربي للحديد والصلب

الاتحاد العربي للحديد والصلب Arab Iron and Steel Union أول اتحاد عربي نوعي تم إنشاؤه في الوطن العربي، بناء على توصية من الملتقى العربي الأول لتنمية صناعة الحديد والصلب في البلاد العربية الذي انعقد في الجزائر ما بين ١٤ و١٩ كانون الأول ١٩٧٠. وقد أعلن عن قيام الاتحاد رسمياً في اجتماع الجمعية التأسيسية للاتحاد العربي للحديد والصلب الذي عقد في القاهرة ما بين ٢٦-٢٩ نيسان ١٩٧١ وشارك

فيه ممثلو خمس عشرة شركة عربية للحديد والصلب من سبع دول عربية هي: الجزائر ومصر والسودان وسورية والعراق والكويت ولبنان.

يتمتع الاتحاد بالشخصية الاعتبارية الدولية، وليس له طابع سياسي أو صبغة تجارية، ومقره الدائم مدينة الجزائر، وله فروع في عدد من العواصم العربية كدمشق وبغداد والقاهرة.

ويهدف الاتحاد إلى تطوير التعاون والتنسيق والتكامل في مجالات صناعة الحديد والصلب في الوطن العربي، وإلى تدعيم التعاون والتعارف والمبادلات بين أعضاء الاتحاد في جميع المجالات التقنية والتجارية والاقتصادية. أما أهم اختصاصاته فهي تقديم المساعدة للشركات الأعضاء لتسويق منتجاتها وتوفير ما يلزمها من المواد الأولية ومستلزمات الإنتاج، وتقديم المعلومات والبيانات الفنية والاقتصادية والتجارية إليها، والتدريب الفني والمهني للعاملين في مجال هذه الصناعة، والقيام بأعمال التحكيم بين الأعضاء وغير الأعضاء. وكذلك القيام بالدراسات الفنية والاقتصادية، وتنظيم الدورات، وعقد المؤتمرات، إضافة إلى اختصاصات أخرى تساعد على تحقيق أهداف الاتحاد ومجالات نشاطه التي تتركز في قطاعات استخراج الحديد والصناعة التحويلية المتصلة بالحديد والصلب. وينظم الاتحاد سنوياً عدداً من الندوات والمؤتمرات العربية والدولية أهمها: المؤتمر العربي للحديد والصلب الذي ينعقد مرة كل أربع سنوات .

يقوم الاتحاد بإصدار مجلة شهرية تخصصية عنوانها «الصلب العربي» وهي مجلة دورية رافقت قيام الاتحاد منذ إنشائه قبل عشرين عاماً. كما يمارس نشاطات أخرى في مجال إعداد الدراسات القطاعية حول صناعة الحديد والصلب، والتقنيات المستخدمة في هذه الصناعة، كالصب المستمر، والاختزال المباشر، والأفران الكهربائية وغيرها.

يتألف الاتحاد من هيئات تدخل بمجموعها في بنيته التنظيمية وهي:

الجمعية العامة: وتضم جميع الأعضاء العاملين، وتعقد دورة اعتيادية مرة كل سنة.

مجلس الإدارة: ويتألف من أربعة عشر عضواً تنتخبهم الجمعية العامة لمدة أربع سنوات، وتجدد عضوية نصف أعضائه دورياً كل سنتين، ويجتمع المجلس ثلاث مرات في العام.

الأمانة العامة: وتتألف من أمين عام يعينه مجلس الإدارة لمدة أربع سنوات ويساعده عدد من الموظفين.

أما عضوية الاتحاد فتتألف من أعضاء عاملين وأعضاء منتسبين وأعضاء مراقبين وتشتمل على الشركات والمؤسسات التي لها صفة علمية أو تقنية أو صناعية أو تجارية، ونشاطاتها موجهة نحو صناعات الحديد والصلب ومشتقاتها، سواء في مجال استخراج الخامات والمواد الأولية لهذه الصناعات واستخدامها، أو في مجال إنتاجها وتسويق منتجاتها.

ويشترط في العضو العامل أن يكون عربي الجنسية وأن يكون ٥٠٪ من رأسماله على الأقل عربياً.

يضم الاتحاد في عضويته اليوم مايزيد على ٦٢ شركة من خمسة عشر قطراً عربياً تتوافر لديها مصانع للحديد والصلب هي: موريتانية والمغرب والجزائر وتونس وليبية ومصر والسودان وسورية والأردن ولبنان والعراق والعربية السعودية والكويت وقطر والبحرين.

يونس حيدر

■ الاتحاد العربي للصناعات النسيجية

الاتحاد العربي للصناعات النسيجية Arab Union of Textile Industries منظمة عربية مهنية متخصصة تهدف إلى تنمية العلاقات التجارية والإدارية والفنية وتطويرها في مجال الصناعات النسيجية في الوطن العربي، وهي تقدم المساعدة إلى أعضائها في مجال تسويق منتجاتهم وتذليل المصاعب التي تعترض تلبية حاجاتهم من المواد الأولية ومستلزمات الإنتاج، كما تقوم بتوفير البيانات والمعلومات الإحصائية في المجال الفني والتجاري والاقتصادي في المستويين العربي والعالمي. ويعمل الاتحاد كذلك على تطوير تأهيل العاملين في الصناعات النسيجية في الوطن العربي وتدريبهم مهنياً وتقنياً.

أنشىء الاتحاد العربي للصناعات النسيجية في أثناء انعقاد الجمعية التأسيسية للاتحاد في القاهرة يوم ١/٢/١٩٧٥ استجابة إلى دعوة الأمانة العامة لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية [ر] والمنظمة العربية للتنمية الصناعية [ر]، وبمشاركة سبع دول عربية هي: الأردن والجزائر والعراق واليمن وليبية ومصر والمغرب، وتم في ذلك الاجتماع الإعلان عن قيام الاتحاد العربي للصناعات النسيجية واعتماد نظامه الأساسي.

يمارس الاتحاد مهامه ويقوم بنشاطاته عن طريق أجهزته التي تتكون من: الجمعية العمومية ومجلس الإدارة والأمانة العامة التي مقرها مدينة دمشق. ويضم الاتحاد في عضويته شركات ومؤسسات من تسع دول عربية، ويعد عضواً عاملاً كل من يتمتع بالجنسية العربية، من الشركات والمؤسسات العامة والخاصة للصناعات النسيجية، وكذلك الغرف والاتحادات الصناعية النسيجية، ومصانع الغزل القطني، ومصانع النسيج والتجهيز والغزل والتريكو والملابس الجاهزة والسجاد الميكانيكي، وذلك بحسب الطاقات الإنتاجية التي يحددها النظام الأساسي للاتحاد، كما يقبل الاتحاد في عضويته أعضاء منتسبين بالشروط التي يحددها مجلس الإدارة.

وللاتحاد نشاطات عدة منها: إصدار موسوعة تحوي أحدث التطورات في الصناعات النسيجية بمراحلها المختلفة، بالإضافة إلى إقامة الندوات الفنية والاقتصادية، وتدريب العمال والفنيين في مراكز تدريب الغزل والنسيج في المصانع العربية، وإصدار النشرات الفنية والإحصائية، وكذلك إجراء الدراسة الفنية والاقتصادية الخاصة بإنشاء شركة عربية لإنتاج معدات الغزل والنسيج.

وتدخل نشاطات الاتحاد ضمن إطار تنمية صناعات النسيج وتطويرها في الوطن العربي.

يونس حيدر

■ الاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية

الاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية Arab Telecommunications Union منظمة عربية متخصصة أنشئت بموجب قرار مجلس جامعة الدول العربية ١١٩٦ـ٩/٩/١٩٥٣، وباشر أعماله بدءاً من عام ١٩٥٧ . وكان آخر مقر له مدينة بغداد بالجمهورية العراقية.

يتكون الاتحاد من الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية الموقعة على اتفاقية إنشائه، ويهدف الاتحاد إلى توفير سبل التعاون بين الدول الأعضاء من أجل تنظيم المواصلات بينها والعمل على تطوير وسائل المواصلات السلكية واللاسلكية وتحسينها وتعميمها في دول الاتحاد وتيسير استخدامها إلى أقصى حدٍ ممكن، وكذلك تشجيع البحوث العلمية والعملية بشأنها، والسعي لخفض أجور الاتصالات ونفقاتها والعمل على توحيد جهود أعضاء الاتحاد في مؤتمرات الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية لتحقيق مصالح الدول العربية المشتركة. وتشجيع إقامة أجهزة الاتصالات السلكية واللاسلكية وشبكاتها وإنمائها وتحسينها في الدول العربية بكل الوسائل المتاحة. أما الهيئات التنظيمية في الاتحاد فهي:

مؤتمر المندوبين المفوضين: وهو أعلى هيئة في الاتحاد وينعقد مرة كل ثلاث سنوات ويمكن دعوته استثنائياً في غير ذلك. ومن مهماته: رسم السياسات العامة الكفيلة بتحقيق أهداف الاتحاد، ودراسة نتائج أعمال المؤتمرات التنفيذية، ووضع أسس ميزانية الاتحاد، ووضع ملاك العاملين في الاتحاد ورواتبهم وأسسها، والبت في الاتفاقيات التي تعقد بين الاتحاد والمنظمات الأخرى والنظر فيها.

المؤتمر التنفيذي: وهو مجلس منبثق عن مؤتمر المندوبين ويتولى تنفيذ السياسة العامة التي يرسمها مؤتمر المندوبين المفوضين تحقيقاً لأغراض الاتحاد. وله تأليف لجان استشارية متخصصة، يمكن أن يعهد إليها بدراسة الموضوعات التي يرى المؤتمر ضرورة لها.

الأمانة العامة: للاتحاد أمانة عامة مركزها مقر الاتحاد ويرأسها أمين عام متفرغ ينتخبه مؤتمر المندوبين المفوضين لمدة ثلاث سنوات، على أن يكون مختصاً بشؤون المواصلات السلكية واللاسلكية ومن دولة عضو في الاتحاد، ويساعده عدد كافٍ من الموظفين والخبراء والمستشارين.

وللاتحاد نشاطات مهمة في مجالات متعددة، فقد أنجز الاتحاد في مجال البحوث والدراسات دليل التلكس المزدوج اللغة، ودليل المحطات الأرضية العربية للاتصالات الفضائية، ودراسات حول الشيفرة العربية وتعريب الرموز البرقية. كما أسهم الاتحاد في مجال الأنظمة والتشريعات في وضع عدد من الأنظمة الفنية التي تدخل في نطاق اختصاصه، إضافة إلى إسهامه المهم في إعداد اتفاقية المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية (عربسات) التي انبثقت عن الاتحاد، كذلك أسهم الاتحاد في تنمية الأُطُر الفنية العربية بإتاحته الفرصة لتدريب العاملين في مجال اختصاصهم في مراكز التدريب ومعاهده المقامة في الأقطار العربية على نفقة الاتحاد (صندوق المساعدات الفنية)، وبتنظيم حلقات دراسية وندوات ودورات تدريبية قصيرة، وتوفير زيارات للإطلاع على تجارب إدارات المواصلات السلكية واللاسلكية العربية. وقد حل هذا الاتحاد منذ ١٩٨٧ وحل محله مجلس وزراء المواصلات العرب على أن تقوم الإدارة المختصة في جامعة الدول العربية بمهمة أمانته الفنية .

محمد فاروق أبو الشامات

■ الاتحاد العربي للهيئات العاملة في رعاية الصم ← الأصم

■ اتحاد الفنانين العرب

يتكون اتحاد لفنانين العرب Arab Artists Union (AAU) من الاتحادات والنقابات والروابط وجمعيات الفنانين العرب وما يؤلف منها اتحاداً نوعياً في الوطن العربي، ويضم الفنانين المشتغلين في السينما والمسرح والموسيقى والغناء والإذاعتين المسموعة والمرئية والفنون الشعبية وفنون الباليه. ويجوز أن ينضم إلى الاتحاد الفنانون العاملون في مجال الفنون التشكيلية إذا كانوا أعضاء في اتحاد أو نقابة أو رابطة أو جمعية عضو في الاتحاد.

أعلن عن قيام الاتحاد في مهرجان دمشق العاشر للفنون المسرحية في النصف الثاني من تشرين الثاني ١٩٨٦ وانعقدت جمعيته العمومية أول مرة في شهر كانون الأول ١٩٨٦ في القاهرة، التي تقرر أن تكون مقراً للاتحاد، واشترك في التوقيع على تأسيس الاتحاد ممثلون عن منظمات تنتمي إلى الأقطار العربية التالية: الأردن، والبحرين، وتونس، والجزائر، وجيبوتي، والسعودية، والسودان، وسورية، والعراق، وعُمان، وفلسطين، وقطر، والكويت، ومصر، والمغرب، واليمن.

يهدف الاتحاد في قانونه الأساسي إلى توفير حرية التعبير للفنان العربي وتمكينه من أداء رسالته، وتنمية الوعي المهني بين الفنانين، وتشجيع التنظيمات المعبرة عن مصالحهم في كل قطر عربي، والتزام شرف المهنة وأخلاقها، والدفاع عن حقوق الفنانين العرب المادية والأدبية، والعمل على إعداد تشريعات مهنية تحدد حقوق الفنانين العرب وواجباتهم في أقطارهم، وعلى توحيد أسس معاملة الفنانين في الأقطار العربية، وتوفير فرص التعارف بين الفنانين العرب، وتنمية روح الصداقة والتعاون فيما بينهم بتشجيع تبادل الزيارات والخبرات الفنية بين الأقطار العربية، ودعم الجهود الخاصة لإيجاد فن عربي معبر عن الهوية القومية في وحدتها وتنوعها، ودعم الدراسات الهادفة إلى تعميق الفنون العربية وتأكيد وجودها، ومراعاة التمسك بالأهداف القومية في كل ما يقوم به الاتحاد من نشاط.

ويمارس الاتحاد اختصاصاته ويعمل على تحقيق أهدافه من خلال هيئاته التنظيمية وهي: الجمعية العمومية، والمكتب التنفيذي، والمراكز القطرية، ولجان الاتحاد النوعية وهي سبع لجان: لجنة الفنانين السينمائيين العرب، ولجنة الفنانين المسرحيين العرب، ولجنة فناني الموسيقى والغناء العرب، ولجنة فناني الفنون التشكيلية العرب، ولجنة فناني الإذاعة المسموعة العرب، ولجنة فناني الإذاعة المرئية العرب، ولجنة فناني الفنون الشعبية وفنون الباليه العرب.

وتعد الهيئات العليا للاتحادات العربية النوعية القائمة لجاناً نوعية للاتحاد العام ويكون مقرها مقر تلك الاتحادات.

هشام حداد

■ اتحاد الكتاب العرب

اتحاد الكتاب العرب Union of Arab Writers في الجمهورية العربية السورية منظمة عربية مستقلة ذات شخصية اعتبارية، تأسس بالمرسوم التشريعي رقم ٧٢ لعام ١٩٦٩ وتعديلاته، ويضم الكتاب العرب من السوريين وغيرهم، ومقره مدينة دمشق، وله فروع في المحافظات السورية، وهو عضو مؤسس في الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب[ر]، وفي اتحاد كتاب آسيا وإفريقية، وكان قيامه تلبية لحاجة ثقافية وقومية، ومن أهدافه الأساسية تعبئة الطاقات الأدبية والفكرية في القطر العربي السوري، والكشف عن المواهب الأدبية ورعايتها، ورصد الواقع العربي في الإنتاج الأدبي والثقافي والانفتاح على الأدب والأدباء في الوطن العربي، واستلهام الجوانب الكفاحية والإنسانية في التراث القومي، وتطوير الأدب العربي وإغناؤه، وتأكيد مكانته في مسار الأدب العالمي، وإذكاء روح المقاومة، والصمود لدى المواطن العربي في وجه الأخطار التي تهدد الوجود العربي، وتحاول فصل الإنسان العربي عن تراثه الأصيل، وإلغاء دوره في مناضلة الاستعمار والامبريالية والصهيونية، ومحاربة التيارات الثقافية المنحرفة الداعية إلى الانحلال والانهزامية والاستسلام للواقع الذي يعانيه المجتمع العربي، وتهيئة مناخ ثقافي يتيح للإمكانيات والمواهب المبدعة أن تتفتح وتنمو في جو من الديمقراطية والحرية المسؤولة، ومن أهدافه أيضاً تعميق الصلة بينه وبين اتحادات الكتاب وروابطهم في الوطن العربي، وبينه وبين اتحاد كتاب آسيا وإفريقية وجميع اتحادات الكتاب في العالم.

يحق لكل كاتب في الوطن العربي الانتساب إلى اتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري إذا كان يمارس الكتابة بمستوى أدبي وفني مقبول في مجال التأليف أو الترجمة، أو الشعر، أو القصة، أو المسرح، أو النقد الأدبي، أو الدراسة... وتوافرت فيه الشروط المنصوص عليها في نظام الاتحاد، وهي أن يكون له كتابان مطبوعان على الأقل في أحد الأجناس الأدبية، وينال تزكية اثنين معتمدين من أعضاء لجنة التزكية في مجال اختصاص إحدى جمعيات الاتحاد التي يود الانتساب إليها، ثم موافقة المكتب التنفيذي للاتحاد، وأن يلتزم بأهداف الاتحاد، ويكون مستمراً في الكتابة.

يتألف الاتحاد من المؤتمر العام ومجلس الاتحاد والمكتب التنفيذي وجمعيات الاتحاد وفروعه ويضم المؤتمر العام للاتحاد جميع الأعضاء المنتسبين إليه، المؤدين التزاماتهم المالية، ويعد المؤتمر العام السلطة العليا في الاتحاد، ويملك صلاحية تقرير كل ما من شأنه رفع مستوى مهنة الكتابة وتحقيق أهداف الاتحاد ووضع خططه ورسم سياسته العامة، ويعقد المؤتمر العام اجتماعه العادي السنوي في شهر كانون الثاني من كل عام، وله أن يعقد اجتماعات غير عادية كلما رأى المجلس ضرورة لذلك، أو بناء على طلب موقع من ثلث أعضاء المؤتمر على الأقل، وينتخب المؤتمر العام من أعضائه مجلس الاتحاد الذي يتألف من خمسة وعشرين عضواً ينتخبون مرة كل خمس سنوات، ومن مهام المجلس بت كل ما من شأنه تحقيق أهداف الاتحاد وتنفيذ خطط عمله.

ينتخب مجلس الاتحاد من بين أعضائه مكتباً تنفيذياً لمدة خمس سنوات، ويتألف المكتب التنفيذي من تسعة أعضاء ينتخبون من بينهم رئيس الاتحاد ونائبه، ولمجلس الاتحاد حق سحب الثقة من أي عضو من أعضاء هذا المكتب إذا أخل بنظم الاتحاد.

يقوم المكتب التنفيذي بتنفيذ قرارات مجلس الاتحاد والمؤتمر العام، واقتراح تعديل النظام الداخلي، وبت طلبات الانتساب، ووضع مشروعات الميزانيات، وعرضها على مجلس الاتحاد، كما يتولى تأليف اللجان الدائمة والمؤقتة، وإدارة أعمال الاتحاد، والقيام بما يحقق أهداف الاتحاد وغاياته وفقاً لقرارات المؤتمر العام ومجلس الاتحاد وتوجيهاتهما، ضمن حدود القوانين والأنظمة النافذة، ويقدم في نهاية كل سنة تقريراً عن أعماله إلى المؤتمر العام.

أما جمعيات الاتحاد فعددها سبع وهي: جمعية البحوث والدراسات، وجمعية الشعر، وجمعية القصة والرواية، وجمعية المسرح، وجمعية النقد الأدبي، وجمعية الترجمة، وجمعية أدب الأطفال. وتضم كل جمعية الأعضاء المهتمين بالجنس الأدبي الذي تمثله، وتنتخب كل جمعية مقرراً لها وأميناً للسر في مطلع كل عام، ويحق لكل عضو في الاتحاد الانتساب إلى جمعية يرى أنها أكثر ملاءمة لممارسة نشاطه الأدبي أو الفكري، وتعقد الجمعية اجتماعاً واحداً كل شهر، يديره المقرر ويسجل أمين السر وقائعه.

يتولى اتحاد الكتاب العرب نشر نتاج الكتاب السوريين والعرب طباعة وتوزيعاً ولو لم يكونوا أعضاء فيه، ويقدم إلى الكتاب السوريين ومن في حكمهم من العرب المقيمين في سورية، خدمات اجتماعية وصحية عن طريق صندوق الضمان الصحي والجمعية التعاونية السكنية، وصندوق تقاعد الكتاب، ويتقصى أحوال المحتاجين للرعاية في حال تعرضهم للأمراض والكوارث والنكبات، ويوفر لأعضائه القيام بالزيارات الاطلاعية إلى البلدان العربية والأجنبية التي يرتبط مع اتحادات كتابها بعلاقات أدبية وثقافية، ويتبادل الوفود معها.

يصدر الاتحاد عدداً من المنشورات والدوريات الأدبية وهي: مجلة «الموقف الأدبي» الشهرية، ومجلتا «الآداب الأجنبية» و«التراث العربي» الفصليتان، وجريدة «الأسبوع الأدبي» الأسبوعية، ويمنح مكافآت للكتاب الذين يسهمون في كتابة المقالات التي تنشر فيها، كما يمنح المكافآت إلى الكتاب الذين يؤلفون الكتب أو يترجمونها، ويوافق الاتحاد على طباعتها ونشرها. ولايقل ما يصدر عن الاتحاد سنوياً عن أربعين كتاباً من مختلف الأجناس الأدبية.

تتكون موارد الاتحاد المالية من الاشتراكات التي يؤديها الأعضاء، ومن مبيعات منشوراته ودورياته، واستثمار أمواله وأملاكه، ومن الإعانات التي تقدمها له الجهات الرسمية، ويوافق عليها الاتحاد.

وللاتحاد مناشط كثيرة وإسهامات متعددة في داخل الجمهورية العربية السورية وخارجها ويشرف على تنظيم المحاضرات والندوات والأمسيات والمهرجانات الشعرية والأدبية في دمشق وفي مراكز الفروع المنتشرة في عشر محافظات، كما يقوم بتكريم الأدباء بمن فيهم الأحياء، وتقديم المساعدات المالية لهم، وتنظيم المسابقات الأدبية ذات الجوائز المادية والتقديرية للكتاب العرب وتنظيم المعارض، واستقبال الوفود الأدبية العربية والأجنبية، ويدافع عن حقوق المؤلفين المادية والمعنوية، ويعمل على توفير العيش الكريم لهم عند تقاعدهم وتفرغهم لينصرفوا إلى الكتابة من دون أن يشغلهم عنها أي شاغل.

عيسى فتوح

■ اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية

كانت اللغةُ الرسمية في البلاد العربية التي وقعت تحت سيطرة العثمانيين اللغة التركية، فهي لغة الدواوين، ولغة التعليم، ولسان الدولة. فلما قامت الحكومة العربية بدمشق، بعد زوال الهيمنة العثمانية (تشرين الأول ١٩١٨ م) كان تعريب الدولة وتعريب التعليم بجميع مراحله من أبرز المهامّ التي أولتها عنايتها. فأنشأت شعبة للترجمة والتأليف، ثم ديوان المعارف، لتؤسس في ٨/٦/١٩١٩م المجمع العلمي العربي، ووكلت إليه تعريب الدواوين والمدارس، وتقويم لغة الكتابة والصحافة والتأليف، وإزالة ما علق بالعربية من شوائب الضعف، ونشر آداب العربية وإحياء تراثها، ووضع ما تتطلبه الحياة العصرية من ألفاظ الحضارة والمصطلح العلمي.

ونهض المجمع بالمهمة على خير وجه، وكان لتعاونه الوثيق مع أساتذة الجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) ما هيّأ لتدريس العلوم باللغة العربية، وانتظم التعليم بالعربية في جميع مراحل التعليم منذ السنة الأولى لقيام الحكم العربي.

كان مجمع دمشق المجمع الأول بين المجامع العربية القائمة الآن. ثم أنشئ مجمع القاهرة (١٩٣٢ م)، وتلاه مجمع بغداد (١٩٤٧م)، وتعاونت المجامع الثلاثة للنهوض بالعربية، وجعلها وافية بمتطلبات العلم والحضارة.

ولقد فطن القائمون على المجامع الثلاثة إلى ضرورة تنظيم الاتصال بينها، وتنسيق جهودها، ووضع الخطط الكفيلة بتوحيد المصطلحات العلمية والفنية والحضارية التي تقرها، فلا يجوز أن يوضع للمعنى العلمي الواحد أكثر من لفظ اصطلاحي واحد، لما يحدثه اختلاف المقابلات العربية للمعنى الواحد من بلبلة.

وكانت الخطوة الأولى انعقاد مؤتمر المجامع اللغوية العلمية العربية بدمشق (٢٩/٩-٤/١٠/١٩٥٦م) بإشراف الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، وأسفرت بحوث المؤتمر ومناقشاته عن توصيات مهمة ترمي إلى تحقيق نهضة لغوية شاملة.

وقد أُدرجت هذه التوصيات في خمسة أقسام أساسية:

أولها: تأسيس اتحاد للمجامع اللغوية العلمية العربية ينظم الاتصال بينها، وينسق أعمالها، ويكون المرجع الذي يوحّد المصطلحات التي تضعها المجامع والمؤسسات العلمية والعلماء.

الثاني: وسائل ترقية اللغة العربية.

الثالث: تشجيع التأليف والترجمة.

الرابع: وضع المصطلحات العلمية.

الخامس: تحقيق المخطوطات ونشرها.

لم تكن الأحوال العامة مسعفة لتأسيس الاتحاد على إثر هذه الاجتماعات، ولكن الصبر والعمل الدؤوب أنجحا القصد، وأُسس الاتحاد في ١٨/٣/١٣٩١ هـ-١٣/٥/١٩٧١م بحضور ممثلي المجامع. وتمّ إقرار نظامه الأساسي ولائحته الداخلية، وانتُخب الدكتور طه حسين رئيسُ مجمع القاهرة رئيساً للاتحاد.

ويتألف النظام الأساسي للاتحاد من خمس عشرة مادة. من أبرز ما نصّت عليه:

أن للاتحاد شخصية معنوية مستقلة، وأن مقره مدينة القاهرة. وهو يتألف من المجامع الثلاثة في دمشق والقاهرة وبغداد، وكلٍ مجمع لغوي علمي تنشئه دولة عربية مستقلة، ويوافق مجلس الاتحاد على قبوله. وللاتحاد هدفان أساسيان:

أولهما: تنظيم الاتصال بين المجامع اللغوية العلمية العربية، وتنسيق جهودها في الأمور المتصلة باللغة العربية وبتراثها اللغوي والعلمي.

وثانيهما: العمل على توحيد المصطلحات العلمية والفنية والحضارية العربية ونشرها.

ويدير أعمال الاتحاد مجلس يسمى «مجلس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية»، ويؤلَّف من عضوين عن كل مجمع لغوي، يختارهما المجمع العضوُ، لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد.

وينتخب أعضاء مجلس الاتحاد من بينهم رئيساً وأميناً عاماً، وأمينين عامين مساعدين، لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد.

ويجتمع مجلس الاتحاد مرة على الأقل كل سنة في دورة عادية في مقره الرسمي (القاهرة) أو في بلد من بلاد المجامع الأعضاء. ويجوز أن يجتمع بدعوة من الأمين العام للاتحاد، بناء على طلب مجمعين على الأقل في دورة غير عادية عند الضرورة.

نشاط الاتحاد الأساسي

عقد اتحاد المجامع منذ تأسيسه حتى الآن تسع ندوات. ودرج الاتحاد على أن يكون لمعجمات المصطلح التي تصدرها المجامع والمؤسسات العلمية جانب كبير من اهتمامه وعنايته، لما لذلك من شأن في تيسير تعريب التعليم العالي. وسارع الاتحاد إلى إصدار حصيلة هذه الندوات في كتيبات خاصة، ليسهل نشرها وتوزيعها في الجامعات والمراكز العلمية، فتغدو قريبة المتناول لطالبيها.

ضمّت ندوات الاتحاد الأولى ممثلين عن المجامع الثلاثة في دمشق والقاهرة وبغداد، مع مشاركة صفوة طيبة من كبار العلماء واللغويين، فلما أُسس مجمع اللغة العربية الأردني عام ١٩٧٦م انضم إلى الاتحاد (١٩٧٧م) وحضر ندواته.

ثم انضم إلى الاتحاد في عام ١٩٩٥م مجمعا السودان أُسس(عام ١٩٩٣م) والقدس (أُسس عام ١٩٩٤م)، كما انضمت في عام ١٩٩٦م أكاديمية المملكة المغربية (أُسست عام ١٩٧٧م).

وينتظر أن ينضم إلى الاتحاد قريباً مجمعا تونس أسس عام١٩٩٣ م وليبية (أسس عام ١٩٩٤م).

عقد الاتحاد أولى ندواته بدمشق ١٩٧٢م، وعُني فيها بتوحيد مصطلحاتٍ في القانون المدني والتجاري والبحري والإداري والتأمين بلغت ١٨١١ مصطلح.

وتلتها الندوة الثانية التي عقدت ببغداد (١٩٧٣م) وعُني فيها بمصطلحات النفط، وبلغ عدد المصطلحات التي انتهى الاتحاد إلى توحيدها ٩٩٧ مصطلح. أما الندوة الثالثة فقد عُقدت بالجزائر (حزيران ١٩٧٦م)، وعالجت موضوع تيسير تعليم اللغة العربية، وأسفرت البحوث والمناقشات عن توصيات مهمة، أبرزها:

- استعمال الكلمات والاصطلاحات التي أقرتها المجامع في كتب القراءة المدرسية.
- والعناية بمكتبة الطفل وتزويدها بقدر صالح من الثروة اللغوية.
- والالتزام باستخدام العربية، وحظر استعمال العامية في وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية.
- والعمل على وضع معجم عربي مدرسي يرجع إليه الطلاب.
- والسعي لتيسير تعليم النحو في مراحل التعليم العام.

وعقد الاتحاد في عمّان ندوته الرابعة (تشرين الأول ١٩٧٨ م) التي خُصِّصَت لدراسة موضوع: «تعليم اللغة العربية في ربع القرن الأخير»، وخلصت إلى جملة من التوصيات أبرزها:

- إسراع المجامع في إخراج المعاجم المتخصصة في مختلف الموضوعات العلمية والفنية، والعمل عن طريق الاتحاد على وحدة المصطلح العربي في مختلف الأقطار العربية.

- والتوسع في ترجمة الكتب العلمية المختلفة، وكتب المعارف الإنسانية.

وانعقدت الندوة الخامسة بالرباط (تشرين الثاني ١٩٨٤ م)، وكان الموضوع الذي تناولته هو «تعريب التعليم العالي والجامعي في ربع القرن الأخير»، وأسفرت بحوث الندوة عن عدة توصيات، يأتي في طليعتها:

- أن قضية التعريب قضية قومية ذات أثر كبير في النهوض بالتعليم العالي والجامعي ورفع مستوى الخريجين.

- وأن في غنى العربية وشمولها وحيويتها قدرة فائقة على استيعاب التطور العلمي المتلاحق في شتى قطاعات العلم والمعرفة.

- وأن السبيل الوحيد لتعريب لغة العلم هو المعلم والكتاب، فلا بد من أن ندرّس ونحاضر في كلياتنا العلمية باللغة العربية، وعلينا أن نؤلف ونترجم بلغة عربية واضحة سليمة، ونعدَّ لكل علمٍ مراجعه العربية. وعلى الجامعات أن تشارك في التشجيع على التأليف والترجمة بالعربية، كي نغني المكتبة العلمية العربية المتخصصة.

وكانت الندوة السادسة بعمّان (كانون الثاني ١٩٨٧ م)، ونوقش فيها موضوع الرموز العلمية وطريقة أدائها باللغة العربية. ثم كانت عودة إلى المصطلح العلمي في الندوة السابعة التي عقدت بتونس (أيار ١٩٩٢ م) فعرض موضوع توحيد تعريب المصطلح الطبي، وقُدِّم إلى الندوة الجزآن الأول والثاني من معجم المصطلحات الطبية لمجمع اللغة العربية في القاهرة. وناقشت الندوة معجم المصطلحات مناقشة واسعة، وأوصت باتباع منهجه في وضع المعجمات العلمية المتخصصة بإيراد تعريف علمي دقيق لكل مصطلح، وبضرورة أن تكون معجمات المصطلحات ثلاثية اللغة: بالعربية والفرنسية والإنكليزية. وقُدّم في الندوة بحوث تناولت موضوع توحيد المصطلح، ومنهجية التوحيد.

وعقدت الندوة الثامنة بدمشق (كانون الثاني ١٩٩٤ م) وكان موضوعها النظر في معجم النفط الذي أعدّه مجمع القاهرة، وهو يضم نحو أربعة آلاف مصطلح، وكان المعجم قد وُزِّ ع على المجامع والجهات العلمية المعنيّة لدراسته وإعداد تقاريرها بشأنه. ونوقش في الندوة حصيلة هذه الجهود، وانتهت الندوة إلى توصيات أهمها:

ضرورة صدور معجمات المصطلح ثلاثية اللغة، وأن يُضبط اللفظ العربي بالشكل، وأن يُستفاد من كتب التراث في وضع المصطلح.

وعقدت ندوة الاتحاد التاسعة بتونس (تشرين الأول ١٩٩٤ م)، وكان موضوعها «دراسة المعجم الجيولوجي» الذي أنجزه مجمع القاهرة.

لقد كان هدف اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية الذي رمى إليه منذ تأسيسه هو توحيد المصطلح العلمي العربي للقضاء على ما يورثه تعدد المصطلح للمقابل العلمي الواحد من بلبلة وفوضى، ويسعى الاتحاد دائباً لهذا التوحيد، وما يستتبعه من تعزيز لنهضة علمية عربية، يتعاون فيها العلماء العرب في شتى أقطارهم.

ولم يستطع الاتحاد، لظروف خارجة عن إرادته، أن ينهض بمهمته على الوجه الأمثل، ولا بد من مضاعفة الجهد للقضاء على جميع العقبات التي تقف في طريق الاتحاد كي يقوى على تأدية ما نيط به من مهام.

شاكر الفحام

■ اتحاد المحامين العرب

اتحاد المحامين العرب Union of Arab Lawyers منظمة عربية دولية غير حكومية تضم تنظيمات المحامين في الوطن العربي، ومقره مدينة القاهرة.

نشأته

نشأ اتحاد المحامين العرب في ظروف دولية وعربية صعبة، في أثناء الحرب العالمية الثانية، وكان الوطن العربي مجزأً محتلاً فبادر مجلس نقابة المحامين في دمشق إلى اتخاذ قرار بتاريخ ٢٠/٥/١٩٤٢ دعا فيه إلى عقد مؤتمر للمحامين السوريين لبحث المسائل التي تهم القضاء والمحاماة، تمهيداً لعقد مؤتمر أوسع يشترك فيه محامو الأقطار العربية، ورحبت نقابتا حلب واللاذقية بهذه الدعوة إذ كان في سورية آنذاك ثلاث نقابات للمحامين.

وبتاريخ ١١/٦/١٩٤٢ اجتمع مندوبون عن النقابات الثلاث في دمشق وأقروا برنامج أعمال المؤتمر الأول للمحامين السوريين الذي انعقد في ٢٠ آب ١٩٤٢ وكان في جملة مقرراته الدعوة إلى مؤتمر للمحامين العرب.

وبعد مراسلات واتصالات كثيرة بين النقابات العربية تقرر انعقاد المؤتمر الأول للمحامين العرب يوم السبت ١٢/٨/١٩٤٤ في مدينة دمشق لدراسة الشؤون الحقوقية والأهداف المشتركة والأماني القومية، واشتركت فيه نقابات المحامين في سورية وشرقي الأردن والعراق وفلسطين ولبنان ومصر، وكانت قضية الهجرة اليهودية إلى فلسطين من أهم القضايا التي تشغل البلاد العربية. وقد افتتح المؤتمر رئيس الجمهورية السورية بكلمة قومية.

وبتاريخ ١٨/٨/١٩٤٤ عقدت الجلسة الختامية للمؤتمر واتخذت بالإجماع مقررات مهمة منها: تأييد المؤتمرين لجهاد الأمم الديمقراطية في الدفاع عن حريات الأفراد والأمم، وأن إسهام البلاد العربية بالعقيدة والعمل في الجهاد من أجل الديمقراطية كفيل بإسهامها في إنشاء عالم جديد تسود فيه الحريات التي بذل العالم أغلى التضحيات في سبيل نشر لوائها. ومنها ما يتعلق بالتشريعين المدني والتجاري، والصلات القضائية والوضع المسلكي للمحاماة، وتوحيد المصطلحات الحقوقية والمؤتمرات الدورية للمحامين إذ قرر المؤتمرون بالإجماع:

وجوب عقد مؤتمرات دورية في كل سنة يتناوبون فيها الاجتماع في كل قطر من الأقطار العربية. واتخذوا عبارة «الحق والعروبة» شعاراً للمؤتمر. وجعلوا شارته من الألوان الأربعة، الأسود والأحمر والأبيض والأخضر. وتقرر وجوب وضع نظام أساسي لمؤتمر المحامين العرب يتضمن شروط الانتساب إليه

وتعيين أسماء هيئاته ووظائفها وكل ما يتعلق بالمحاضرات واللجان العلمية ومناقشة المقترحات والتصويت عليها.

أهدافه

للاتحاد أهداف مهنية وعلمية، وأهداف قومية سياسية.

أما الأهداف المهنية والعلمية فتتمثل بتطوير مهنة المحاماة في الوطن العربي ورعايتها بما يمكّنها من القيام بدورها الأساسي في إرساء قواعد العدالة وذلك بالعمل على ضمان استقلال مهنة المحاماة واستقلال نقابات المحامين واستقلال قرارها وضمان حرية المحامي في أداء رسالته وحرمة عمله ومكتبه وضمان حقوقه، وتنمية الوعي النقابي في صفوف المحامين والتزام شرف المحاماة وأخلاقها، وتشجيع تكوين النقابات والمنظمات للمحامين في الأقطار العربية التي لم تتكوّن فيها بعد، والسعي إلى توحيد قوانين مهنة المحاماة على نحو يكفل للمحامي العربي حق الممارسة في الأقطار العربية كافة.

وتتمثل كذلك بالسعي لإقرار مبدأ استقلال السلطة القضائية والدفاع عنه وضمان حقوق القضاة وحصانتهم واستقلالهم، وبتجميع الطاقات العربية القانونية والفقهية من أجل إغناء القانون والفقه العربيين وتأصيل الاجتهادات الخاصة بهما بما يسهم في توحيد التشريعات والمصطلحات القانونية في الأقطار العربية وبما يحقق مصلحة الإنسان العربيين وتقدمه وحقوقه الأساسية ويؤهله لتحقيق أمانيه القومية والإنسانية، وبالإسهام في إحياء الدراسات القانونية الإسلامية والعمل على أن تكون الشريعة الإسلامية مصدراً أساسياً من مصادر التشريع، وبإرساء مبادىء الحقوق الأساسية والحريات العامة وسيادة حكم القانون في الأقطار العربية تشريعاً وتطبيقاً وضمانها والدفاع عنها.

وأما الأهداف القومية والسياسية فتشمل الكفاح لتحرير الأرض العربية من كل أشكال الاستعمار والاغتصاب والتبعية، والإسهام الإيجابي في بناء المجتمع العربي المتحرر القائم على أسس العدل والكفاية وفي ظل مبادىء الحق والحرية وسيادة حكم القانون، والنضال مع الشعب العربي الفلسطيني من أجل تحرير فلسطين من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني وعودتها قطراً عربياً ديمقراطياً متحرراً بوصفه هدفاً استراتيجياً ومركزياً للأمة العربية في إطار حركة التحرر الوطني العالمية، ومناهضة الصهيونية وأطماعها بوصفها شكلاً من أشكال العنصرية، وحماية الوطن العربي أرضاً وثقافة وحضارة منها، ومناهضة كل أشكال التمييز العنصري والعمل على تلاحم الثورة العربية وحركات التحرر الإفريقية ومكافحة الاستعمارين القديم والجديد والإسهام في الدفاع عن الحقوق الأساسية لكل الشعوب ودعم التضامن والتعاون والمساواة بينها وتأييد حقها في الاستقلال والسيادة وتقرير المصير ومساندة حركات التحرر الوطني العالمية ومناصرة قضايا التحرر والتقدم والسلام في العالم أجمع، والنضال من أجل تحرير الإنسان في الوطن العربي من كل مظاهر الظلم والتخلف والاستغلال وذلك بضمان حقه في ممارسة الديمقراطية السياسية والاجتماعية وإطلاق حرياته العامة والنقابية، وحمايته من التعذيب والتصفيات الجسدية، وضمان حقوقه الأساسية الواردة في المواثيق الدولية لحقوق الإنسان، بما يمكنه من المشاركة الفعلية في اتخاذ القرارات بشأن مستقبله ومستقبل وطنه، والسعي إلى تحرير الاقتصاد العربي من أشكال التبعية، وضمان استقلاله بما يكفل تنميته على طريق تحقيق العدالة الاجتماعية والتكامل والتوحد لخدمة الوطن والمواطن العربي، ومواصلة النضال لتحقيق الوحدة العربية الشاملة بوصفها ضرورة حتمية وهدفاً استراتيجياً للأمة العربية، ومقاومة دعوات الفرقة والتجزئة، وإعداد الدراسات المتخصصة حول القضايا العربية العامة بما يساعد على دعم القضايا والمصالح العربية وتحقيق أهداف الاتحاد، ودعم العلاقات الثنائية والجماعية مع الاتحادات والهيئات والمنظمات النقابية والمهنية والشعبية العربية والدولية وتوسيع هذه العلاقات بما يخدم أهداف الاتحاد ويحقق أهداف الأمة العربية.

بنيته التنظيمية

يباشر اتحاد المحامين العرب اختصاصاته على الوجه المبين في قانونه الأساسي ونظامه الداخلي وذلك بوساطة الهيئات التنظيمية: المؤتمر العام والمكتب الدائم والأمانة العامة.

المؤتمر العام: هو الهيئة العليا للاتحاد وصاحب السلطة في رسم سياساته وتوجيه نشاطه وإصدار القرارات الكفيلة بتحقيق أهدافه، ويختص بصفة أساسية بمناقشة تقرير الأمين العام وإقراره، ودراسة القضايا القومية والدولية والقانونية، وبحث تقارير لجان المؤتمر وتوصيات المكتب الدائم حولها، وإصدار القرارات والتوصيات النهائية بشأنها، والبت في قرارات المكتب الدائم بتجميد عضوية النقابات أو المنظمات أو الجمعيات في الاتحاد أو انسحابها منه أو عودتها إليه.

المكتب الدائم: ويختص بانتخاب الأمين العام وأعضاء الأمانة العامة وتحديد مكان انعقاد المؤتمر وزمانه ووضع جدول أعماله وتكوين اللجان الدائمة والمؤقتة اللازمة لأعمال المكتب والمؤتمر، ووضع السياسة المالية للاتحاد وتحديد موارده ومصروفاته، والبت في طلبات الانضمام إلى الاتحاد ووضع النظام الداخلي والمالي وسائر اللوائح التنفيذية اللازمة لتنفيذ قانون الاتحاد ووضع النظم واللوائح اللازمة لأعمال مركز اتحاد المحامين العرب للبحوث والدراسات القانونية.

الأمانة العامة: وتتكون من الأمين العام وعدد من الأمناء العامين المساعدين، وهي المكلفة تنفيذ قرارات الاتحاد وتوجيهاته. ويختص الأمين العام بتمثيل الاتحاد أمام المنظمات والهيئات الحكومية والدولية والقضاء، ودعوة المكتب الدائم إلى الاجتماع وإعداد مشروع جدول أعماله والإعداد للمؤتمر العام.

تكوين الاتحاد وعضويته

يتكون اتحاد المحامين العرب من النقابات والمنظمات والجمعيات الخاصة بالمحامين في الأقطار العربية التي انضمت إلى الاتحاد وقت إقرار قانونه الأساسي (المعدل في عام ١٩٨٧) والتي قد تنضم إليه فيما بعد وفق أحكامه، وهي الموجودة في مصر والعراق وسورية وبيروت وطرابلس لبنان والأردن وفلسطين والسودان وموريتانية والكويت والبحرين وقطر وتونس والجزائر والمملكة المغربية: (نقابات الدار البيضاء والرباط وفاس ومكناس وأسطات والقنيطرة وأغادير وطنجة وآسفي ووجدة والناضور) والجماهيرية الليبية واليمن.

ويحق لكل نقابة أو منظمة أو جمعية منتخبة من المحامين في الوطن العربي الانتساب إلى الاتحاد إذا كانت أهدافها أو أنظمتها لا تتعارض مع أهدافه ويتم قبول طلبات الانضمام بقرار من المكتب الدائم للاتحاد.

نشاط الاتحاد

يشمل هذا النشاط المجالين العربي والدولي

أما في المجال العربي فيحتم القانون الأساسي للاتحاد انعقاد المؤتمر العام للمحامين العرب مرة كل سنتين في أحد الأقطار العربية ، وقد تطول هذه المدة أحياناً وفق مقتضيات الظروف السائدة.

ولا شك في أن تتبع التوجهات العامة للبحوث التي تقدم بها المحامون العرب منذ مؤتمرهم الأول الذي انعقد في دمشق عام ١٩٤٤ وربْطَ هذه التوجهات بالقضايا النضالية المطروحة أمام الأمة العربية، الثابتة منها والمتغيرة، يتيحان تعرُّف حركة التاريخ العربي الحديث. ويمكن تعرف نشاطات اتحاد المحامين العرب في مؤتمراتهم المتعددة، بتقسيم المجالات الموضوعية التي تندرج تحتها بحوثهم إلى المجالات التالية: بحوث في مجال قضايا الديمقراطية والحريات السياسية وحقوق الإنسان، وبحوث في قضايا الاشتراكية والاقتصاد المخطط والعدل الاجتماعي، وبحوث في المسألة الفلسطينية وقضايا الصراع العربي الإسرائيلي، وبحوث في مسائل التوحيد القانوني كتوحيد التشريعات العربية وتوحيد المصطلحات القانونية على مستوى الوطن العربي، فضلاً عن البحوث في مجالات قانونية بحتة تهم رجال القانون من محامين وقضاة وفقهاء.

إن نشاطات اتحاد المحامين العرب في هذه المجالات الأربعة تعكس بجلاء ظاهرة المسيرة النضالية للأمة العربية منذ الأربعينات حتى الآن، والتحديات التي واجهتها، والتصور القومي العام لمواجهة هذه التحديات.

وأما في المجال الدولي فإن اتحاد المحامين العرب هو منظمة عربية دولية غير حكومية ذات صفة استشارية لدى المجلس الاقتصادي والاجتماعي بالأمم المتحدة ومنظمة اليونيسكو، ويسهم بهذه الصفة في المناقشة وتقديم التقارير واقتراح القرارات والتوصيات في لجنة حقوق الإنسان التابعة لهيئة الأمم المتحدة في جنيف، وهو عضو في أكثر المنظمات الحقوقية الدولية انتشاراً في العالم: كاللجنة الدولية للحقوقيين، والاتحاد الدولي لنقابات المحامين، والاتحاد الدولي للمحامين، والرابطة الدولية للحقوقيين الديمقراطيين، واتحاد المحامين الأفارقة، واتحاد المحامين الشباب، والمركز الدولي للدفاع عن استقلال القضاء والمحاماة، ومركز السلم العالمي عن طريق القانون، ومركز السلام العالمي، ومنظمة العفو الدولية، والاتحاد الفيدرالي للنساء الحقوقيات، والاتحاد الديمقراطي الدولي للنساء، واتحاد الحقوقيين في كل من الاتحاد السوفييتي (السابق) وألمانية الديمقراطية (قبل الوحدة الألمانية) وبلغارية وكوبة وكورية الشمالية. وللاتحاد صلات وثيقة بنقابات المحامين في كل من باريس والهند واليابان والصين والأرجنتين.

زهير الميداني

■ اتحاد المهندسين الزراعيين العرب

اتحاد المهندسين الزراعيين العرب Arab Agricultural Engineers Union منظمة عربية تعنى بشؤون المهندسين الزراعيين العرب وبقضايا التنمية الزراعية في الوطن العربي.

تأسس الاتحاد بمبادرة مشتركة من نقابة المهن الزراعية في مصر ونقابة المهندسين الزراعيين في سورية، حين اتفقتا على الاتصال بمنظمات المهندسين الزراعيين العرب والسعي لتوحيد جهودها. ووافق على فكرة التأسيس كل من منظمات المهندسين الزراعيين في العراق والأردن والسودان ولبنان. وعقد الاجتماع التأسيسي في القاهرة في شهر تشرين الأول ١٩٦٨ وتم تصديق وثيقة تأسيس الاتحاد واختيرت مدينة دمشق مقراً له.

تنبع أهمية الاتحاد من أنه يحشد جهود المهندسين الزراعيين العرب في منظمة شعبية تعمل على تبادل الخبرات بين أقطار الوطن العربي وتشارك في حل المشكلات التي تعترض التنمية الزراعية في الوطن العربي. وقد حدد النظام الأساسي للاتحاد أهدافه وغاياته ومنها: الإسهام في تحقيق الأهداف القومية، والعمل على رفع شأن مهنة الزراعة وتطويرها والارتقاء بمستواها العلمي لتفي بمتطلبات النهضة العربية وتسهم في تطوير المجتمع العربي في مختلف الميادين والمجالات الزراعية، والاهتمام بالموضوعات والقضايا الزراعية، وتبادل الخبرات والمعلومات في مختلف المجالات الزراعية ووضعها في خدمة الوطن العربي، والعمل مع الجامعات والوزارات والجهات العلمية الأخرى في الوطن العربي للارتقاء بمستوى الاختصاص الزراعي وتوفير الاختصاصات النادرة، والإسهام في دعم البحث العلمي في شتى مجالات العلوم الزراعية، وبذل الجهود لتحقيق أهداف التنمية الاقتصادية في المجال الزراعي ومواجهة مشكلات التطبيق بوضع الحلول المناسبة لها، وإجراء الدراسات حول تنسيق التكامل الاقتصادي الزراعي العربي وتحقيقه والإسهام في توفير الخبرات الزراعية الفنية دعماً للأجهزة التي تفتقر إليها، والإسهام في تخطيط برامج التعليم الزراعي وتطوير نظمه لتساير حاجات المجتمع العربي الجديد وتخدم مصالحه وتفي بمتطلباته، ودعم منظمات الاتحاد والتنسيق بين نشاطاتها وتوجيهها بما يخدم تطوير الاقتصاد العربي وتحقيق الأهداف القومية، والسعي لتأسيس منظمات للمهندسين الزراعيين في الأقطار العربية التي لا توجد فيها. ووضع المبادىء الأساسية للارتقاء بمهنة الهندسة الزراعية والعمل على توحيد شروط مزاولتها ورفع شأنها وشأن العاملين فيها. وتوثيق عرى الأخوة والتعاون بين المهندسين الزراعيين العرب وتنسيق تبادل المعلومات والخبرات والبحوث بينهم، والتعاون مع المنظمات المهنية والاتحادات والهيئات القومية العربية والدولية من أجل تحقيق أهداف الاتحاد.

تتكون البنية التنظيمية للاتحاد من:

المجلس الأعلى: ويتكون من رئيس المكتب التنفيذي وأعضائه وخمسة ممثلين عن كل من المنظمات الأعضاء في الاتحاد. وهو السلطة العليا في الاتحاد وله إصدار القرارات في كل ما يتعلق بتنفيذ أهداف الاتحاد بما في ذلك إقرار النظام الأساسي والنظام الداخلي وتعديلهما، وإقرار طلبات الانضمام لعضوية الاتحاد، واعتماد خطة عمل الاتحاد ومشروعاته ونشاطاته، واعتماد

تسمية أعضاء المكتب التنفيذي، وانتخاب الأمين العام والأمناء المساعدين وأمين الصندوق من بين مرشحي المنظمات الأعضاء الذين تتوافر فيهم الشروط المطلوبة، وكذلك إقرار برامج النشاط التي يقوم بها المكتب التنفيذي والأمانة العامة واللجان الدائمة، تصديق الحساب الختامي وموازنة الاتحاد، وإقرار وسائل استثمار أموال الاتحاد وقبول الإعانات. يعقد المجلس الأعلى دورة عادية واحدة كل عام ودورات استثنائية عند اللزوم.

المكتب التنفيذي: ويتكون من رئيس الاتحاد وممثل عن كل منظمة عضو في الاتحاد تسميه منظمته، ومن الأمين العام والأمناء المساعدين وأمين الصندوق. ومدة العضوية في المكتب التنفيذي سنتان،وهي قابلة للتجديد.

يختص المكتب التنفيذي بالإشراف على تنفيذ قرارات المجلس الأعلى للاتحاد وتوصياته وإعداد جدول أعمال المجلس الأعلى ومشاريع الأنظمة والقرارات التي تعرض عليه والتوصية بقبول طلبات انتساب الأعضاء الجدد للاتحاد.

رئاسة الاتحاد: وهي دورية وبالتناوب بين المنظمات الأعضاء ومدتها سنة واحدة فقط.

الأمانة العامة: تتكون من أمين عام ينتخبه المجلس الأعلى من بين أعضائه لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد ممن تتوافر فيهم شروط أهمها أن يكون مارس العمل النقابي القيادي في منظمته المرشحة، وأن تزيد مدة ممارسته المهنة على عشر سنوات. ومن أمناء مساعدين ينتخبهم المجلس الأعلى من بين أعضائه لمدة سنتين، وهي قابلة للتجديد. يتولى الأمين العام صلاحيات تنفيذ قرارات المجلس الأعلى والمكتب التنفيذي للاتحاد، وإصدار قرارات تعيين الموظفين، ودعوة المكتب التنفيذي للانعقاد، وتحديد مكان انعقاده وزمنه، وتمثيل الاتحاد في الاجتماعات والمؤتمرات التي يدعى إليها، وتنظيم جدول أعمال المكتب التنفيذي، والإشراف على اجتماعاته وضبط جلساته، وتوقيع أوامر الصرف بالاشتراك مع أمين الصندوق، والإشراف على تنظيم المؤتمرات والندوات، وعلى طبع البحوث والدراسات عن أعمال الاتحاد ونشاطاته وتعميم قرارات الاتحاد وتوصياته.

اللجان العلمية الدائمة: وتؤلف بقرار من المجلس الأعلى للاتحاد وتختص بإنجاز ما تكلف به من نشاطات علمية.

والعضوية في الاتحاد هي لمؤسسة وليست لأفراد، ويقبل في عضوية الاتحاد منظمة واحدة من كل قطر عربي، وتعطى الأفضلية لنقابات المهندسين الزراعيين إن وجدت أو للمنظمات الزراعية الأخرى التي تضم في عضويتها المهندسين الزراعيين، ويشترط في المنظمة طالبة الانتساب أن تكون أهدافها متسقة مع أهداف الاتحاد وتساعد في تنفيذ خططه. وبذلك يتكون اتحاد المهندسين الزراعيين العرب من النقابات والهيئات التي تضم في عضويتها المهندسين الزراعيين منفردين أو مجموعين في تنظيمات تضمهم وفئات أخرى، وفي مقدمتها منظمات المهندسين الزراعيين في جميع الأقطار العربية التي يوجد فيها مثل هذه المنظمات وهي الأردن وتونس وسورية والسودان وليبية ولبنان والكويت والمغرب والعراق ومصر وفلسطين واليمن.

أما أهم نشاطات الاتحاد فهي: عقد الاجتماعات الفنية المتخصصة لدراسة المشكلات المعيقة للتنمية الزراعية ووضع التوصيات اللازمة بشأنها. وتدريب الملاكات العلمية على الجديد في عالم الزراعة. وإجراء دراسات للمشكلات الزراعية التي تعاني منها الأقطار العربية. وعقد الندوات العلمية التي تدرس قضايا التنمية الزراعية، والمؤتمرات العلمية المتخصصة بمعدل مؤتمر واحد كل سنتين، وكذلك المشاركة في المؤتمرات والندوات التي تعقد بالتعاون مع الجهات العاملة في القطاع الزراعي العربي، والتعاون مع مؤسسات البحوث والتمويل الدولية لإنجاز دراسات عن الخبرات والكفايات العلمية العربية، وإقامة جمعيات علمية عربية متخصصة تضم في عضويتها مهندسين زراعيين متخصصين.

وتصدر الأمانة العامة للاتحاد مجلة «المهندس الزراعي العربي»، وهي مجلة دورية فصلية تضم أهم المقالات العلمية والبحوث الجارية في الدول العربية، كما تشرف على ترجمة عدد من الكتب العلمية المهمة ونشرها.

يحيى بكور

■ اتحاد المهندسين العرب

اتحاد المهندسين العرب Union of Arab Engineers منظمة عربية تضم الهيئات الهندسية في الأقطار العربية ومقره الحالي مدينة بغداد.

بدأ النشاط المهني والعلمي للمهندسين العرب في المستوى القومي بالمؤتمر الهندسي العربي الأول الذي عقد في مدينة الاسكندرية في آذار سنة ١٩٤٥ بمشاركة وفود مهندسين من الأردن وسورية والعراق ولبنان ومصر، وكان الهدف منه تبادل المعلومات والخبرات بين المهندسين العرب، ومعالجة المشكلات الهندسية ذات الطابع القومي، والتعاون في دراسة خطط التنمية للإسهام في تطوير الأمة العربية وتقدمها، فضلاً عن توثيق أواصر التعاون والصداقة.

وقد انعقد المؤتمر الثاني للمهندسين بدعوة من جمعية المهندسين المصريين في نيسان سنة ١٩٤٦ في القاهرة وفيه تكونت اللجنة التحضيرية الدائمة للمؤتمرات الهندسية العربية، التي تولت تنظيم عقد المؤتمرات الهندسية العربية بصفة دورية. ثم عقد المؤتمر الثالث في دمشق سنة ١٩٤٧، والرابع في بيروت سنة ١٩٥٠، والخامس في القاهرة سنة ١٩٥٤، والسادس في بغداد سنة ١٩٥٥، والسابع في بيروت سنة ١٩٥٩، ومن هذه المؤتمرات ونشاط اللجنة التحضيرية الدائمة للمؤتمرات الهندسية العربية تبلورت فكرة تكوين اتحاد يضم المنظمات الهندسية في الأقطار العربية. وقد رعت اللجنة الدائمة الاجتماع التأسيسي لهذا الاتحاد الذي انعقد بدمشق في ٢٨ نيسان سنة ١٩٦٣، وأعلن رسمياً قيام اتحاد المهندسين العرب في الثامن من أيار سنة ١٩٦٣ في أثناء انعقاد المؤتمر الهندسي الثامن في القاهرة. وكان الأعضاء المؤسسون الهيئات الهندسية في كل من الأردن وسورية والعراق والكويت ولبنان ومصر. وانضمت بعد ذلك إلى عضوية الاتحاد الهيئات الهندسية في السودان وليبية وتونس والجزائر والبحرين والمغرب وفلسطين والجمهورية اليمنية والإمارات العربية المتحدة. وتابع اتحاد المهندسين العرب عقد مؤتمراته كل ثلاث

سنوات في واحد من الأقطار العربية الأعضاء في الاتحاد.

تنبع أهمية اتحاد المهندسين العرب من كونه تجمعاً علمياً يضم جميع التنظيمات الهندسية القائمة في الأقطار العربية الأعضاء في الاتحاد، وكان لهذا الاتحاد أثر كبير في عملية التنمية العربية المشتركة عن طريق الدراسات العلمية التي قدمها إلى المنظمات والحكومات العربية، وعن طريق المؤتمرات الهندسية والندوات العلمية التي ينظمها الاتحاد. وقد تم توثيق جميع هذه التظاهرات العلمية والتوصيات التي اتخذت في أثنائها لتؤلف مراجع علمية لها قيمتها، إذ إن من أهداف الاتحاد التي نص عليها نظامه الأساسي: تجميع إمكانات المهندسين العرب وتوجيه جهودهم لخدمة أهداف الأمة العربية، ورفع شأن مهنة الهندسة وتنظيم مزاولتها والنهوض بمستواها بما يفي بمتطلبات النهضة العربية، والحفاظ على التراث الهندسي العربي وإبراز أثره في تقدم الحضارة، ودراسة القضايا الهندسية ذات الطابع القومي أو المشترك بين الأقطار العربية، ودعم الهيئات الهندسية القائمة في الوطن العربي ومساندتها، والعمل على تأسيس مثيلاتها في الأقطار العربية التي لم تقم فيها بعد مثل هذه الهيئات، والعمل على رفع مستوى المهندسين العرب اجتماعياً وأدبياً وعلمياً، وتوفير حرية تنقلهم وعملهم في الوطن العربي، والعمل على إرساخ التفكير العلمي العربي تخطيطاً وممارسة، وتنسيق الجهود مع الاتحادات المهنية العربية والتعاون معها وتوطيد علاقة الاتحاد بالمنظمات الهندسية الدولية لإبراز الشخصية الهندسية العربية دولياً، والاستفادة من الخبرات التقنية العالمية، وتقويم الدرجات والمؤهلات العلمية الهندسية العربية والأجنبية، وإعداد جداول بالمؤسسات الهندسية التعليمية التي يعتمد الاتحاد تقويمها.

يمارس اتحاد المهندسين العرب اختصاصاته عن طريق الهيئات الهندسية القطرية الأعضاء التي تنظم الندوات واللقاءات العلمية وتستضيف المؤتمرات الهندسية، وعن طريق اللجان المهنية والعلمية المتخصصة وأهمها:

لجنة التعليم الهندسي: وتهتم بتوحيد أسس تدريس العلوم الهندسية في الجامعات وبوضع الأسس العلمية المتطورة لتوحيد مستوى التعليم الهندسي وتعريبه أكاديمياً وتطبيقياً.

لجنة ممارسة المهنة: وتهتم بجمع أنظمة ممارسة المهنة وتنسيقها في البلدان العربية الأعضاء في الاتحاد، والعمل على تطويرها وتوحيدها للنهوض بالمستويين العلمي والمهني في مهنة الهندسة بما يتفق ومتطلبات التنمية القومية.

لجنة المعلومات والنشر: وتهتم بحصر الكفايات الهندسية في الوطن العربي، وإصدار النشرات الدورية والمجلات العلمية الهندسية العربية التي تهتم بالشؤون العلمية والمهنية في الوطن العربي والعالم.

لجنة الطاقة: وتهتم بالتنسيق بين الأقطار العربية في مجالات الطاقة وعقد الندوات لبحث مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة وتبادل الخبرات في الميادين المختلفة للطاقة.

لجنة نقل التكنولوجية: وتهتم بوضع الدراسات العلمية لتطويع التكنولوجية واختيار ما يلائم البيئة العربية منها، والتنسيق بين الأقطار العربية في مجال تبادل الخبرات التقنية.

لجنة الموارد المائية: وتهتم بالتنسيق بين الأقطار العربية في مجالات الموارد المائية وحسن استخدامها والاستفادة منها وعقد الندوات لتبادل المعلومات الهندسية في حقل الموارد المائية.

هيئة مؤسسات الهندسة الاستشارية ومكاتبها: وتهتم بتنظيم العمل الهندسي الاستشاري، ورفع مستوى مهنة الهندسة الاستشارية وتطويرها، وتشجيع تأليف مكاتب استشارية في المستوى القومي، والسعي لدى الهيئات الحكومية العربية لاعتماد المكاتب الهندسية الاستشارية العربية مستشارين لديها كالمصارف العربية ومنظمات جامعة الدول العربية وغيرها.

يتكون اتحاد المهندسين العرب من الهيئات الهندسية في الأقطار العربية المنضمة إليه والتي تنضم إليه، شريطة ألا تتعارض قوانين هذه الهيئات وأنظمتها مع أهداف الاتحاد ونظامه الأساسي.

ويباشر الاتحاد اختصاصاته ويعمل على تحقيق أهدافه والقيام بالمهمات المطلوبة منه عن طريق:

المجلس الأعلى: وهو في مقام الجمعية العمومية والسلطة العليا للاتحاد ويتكون من ممثلي الهيئات الهندسية في الأقطار العربية الأعضاء في الاتحاد، ومن رئيس المكتب التنفيذي وأعضائه، ويقتصر حق التصويت على الهيئات الهندسية الأعضاء فقط، ولكل عضو صوت واحد. يعقد المجلس الأعلى للاتحاد دورته العادية في الربع الأول من كل عام. كما يعقد دورة متابعة في الربع الثالث من كل عام، إضافة إلى الاجتماعات الاستثنائية التي تعقد بقرار من المكتب التنفيذي للاتحاد أو بطلب من ثلث أعضاء مجلس الاتحاد على الأقل.

المكتب التنفيذي: وتشمل صلاحياته الإشراف على تنفيذ قرارات المجلس الأعلى وتوصياته ومتابعتها، وتقديم التوصيات حول تعديل النظام الأساسي ولوائحه الداخلية وتأليف اللجان التي تقتضيها مصلحة العمل. ويتكون المكتب من خمسة أعضاء هم رئيس الاتحاد ونائبه والأمين العام وأمينان عامان مساعدان لشؤون المشرق العربي والمغرب العربي. ويجب أن يتمتع شاغلو هذه المناصب بالكفايات والمؤهلات التي تلائم طبيعة الأعمال الموكلة إليهم. ويتم شغل هذه المناصب بين الهيئات الأعضاء في الاتحاد بالتناوب وفقاً للحروف الهجائية لأسماء الأقطار العربية المنتمية إلى الاتحاد.

يعقد المكتب التنفيذي ثلاثة اجتماعات في السنة يحدد مواعيدها رئيس المكتب، على أن يتوافق موعدا اجتماعين منها مع موعدين اثنين من اجتماعات المجلس الأعلى السنوية، ويجوز عقد اجتماعات استثنائية بناء على طلب رئيس الاتحاد أو ثلاثة من أعضاء المكتب التنفيذي على الأقل.

رئاسة الاتحاد: يتناوب على رئاسة الاتحاد رئيس من إحدى الهيئات الأعضاء وفقاً للحروف الهجائية لأسماء الأقطار العربية ولمدة سنة غير قابلة للتجديد، وهو يمثل الاتحاد في المحافل الرسمية والدولية وأمام المحاكم، ويكون رئيساً للمجلس الأعلى وللمكتب التنفيذي وللمؤتمرات الهندسية التي يعقدها الاتحاد. وينوب عنه في غيابه أو عند خلو منصبه نائب رئيس الاتحاد الذي يشغل هذا المنصب سنة غير قابلة للتجديد، ويصبح بعدها حكماً رئيساً للاتحاد.

ويجب أن يكون كل من رئيس الاتحاد ونائبه متمتعين بالجنسية العربية، ولديهما المؤهلات والكفايات التي تلائم طبيعة مهمتهما ومنصبهما، وسبق لهما أن شغلا منصباً قيادياً

في الهيئة الهندسية التي ينتميان إليها وأسهما بنشاطات الاتحاد مدة تزيد على أربع سنوات.

الأمانة العامة للاتحاد والأمانتان العامتان المساعدتان في المشرق والمغرب العربيين: تتكون الأمانة العامة للاتحاد من أمين عام ينتخب من مهندسي هيئة القطر العربي الذي فيه مقر الأمانة العامة. ويكون الأمين العام متفرغاً أو شبه متفرغ لأعمال الاتحاد ومدة عضويته سنتان، قابلة للتجديد. ويعاونه عدد من المستشارين والخبراء الذين يختارهم الأمين العام بصفة دائمة أو مؤقتة ومكتب دائم يضم موظفين ومستخدمين.

تتكون الأمانة العامة المساعدة من أمين عام مساعد في المشرق العربي، وأمين عام مساعد في المغرب العربي ومدة عضوية كل منهما سنتان، غير قابلة للتجديد. ويعاون كل منهما جهاز إداري وفني تقترحه الهيئة الهندسية التي لها الدور في شغل منصب الأمانة العامة المساعدة. ويحدد مقر الأمانة العامة المساعدة في كل من المغرب العربي والمشرق العربي وفقاً للحروف الهجائية لأسماء الأقطار العربية الأعضاء في الاتحاد.

يَعُد اتحادُ المهندسين العرب نفسَه هيئةً تطوعية تضم جميع الخبرات الهندسية في الوطن العربي القادرة على الإسهام في التخطيط القومي، والتصدي لمعالجة المشاكل والقضايا الهندسية التي تواجه الوطن العربي ولإيجاد مرتكزات علمية وبناء قواعد ثابتة لنقل التكنولوجية وتطويعها وتطوير معلومات المهندسين وتنميتها عن طريق الندوات المتخصصة والمؤتمرات الهندسية.

وقد أسهم الاتحاد إسهاماً ملموساً في الجهود القطرية والقومية الرامية إلى تحقيق التقدم الصناعي والحضاري، وبرز تأثيره في المجالات التي تستلزم تعاون أكثر من قطر عربي واحد.

يعقد الاتحاد ندواته بناء على قرار مجلسه الأعلى الذي يحدد الزمن المناسب لعقدها والموضوعات التي ستبحث نتائجها في مؤتمرات الاتحاد التي يعقدها كل ثلاث سنوات.

ومن أهم إنجازات الاتحاد دعوته المجلس الاقتصادي لجامعة الدول العربية عام ١٩٦٥ للموافقة على إحداث المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس، ووضعه نظاماً عربياً موحداً للخرسانة المسلحة، وإصداره كتيباً باسم الخريطة الصناعية للوطن العربي كان الهدف منه بحث إمكان التنسيق الصناعي بين الدول العربية. وقد سجل مؤتمر الاتحاد الذي عقد في الكويت عام ١٩٦٩ تقديره لاستجابة المجلس الاقتصادي في جامعة الدول العربية لإقامة مركز للتنمية الصناعية للدول العربية، كما كان الاتحاد أول من نادى بإنشاء صناديق للتنمية العربية. ومن نشاطات الاتحاد كذلك سعيه إلى تطوير إنتاج الطاقة الكهربائية وربط البلاد العربية بشبكة كهربائية موحدة، وتعميم كهربة الريف. وقد خرجت مؤتمرات الاتحاد بتوصيات ومشروعات محددة تبنتها الحكومات العربية في مجالات الطاقة والري والصرف والتصحر واستصلاح الأراضي القاحلة ونقل التكنولوجية وغير ذلك.

كذلك فقد تولى الاتحاد أيضاً وضع معجم للمصطلحات العلمية والهندسية باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية.

غسان طيارة

■ الاتحاد والترقي (جمعية -)

جمعية الاتحاد والترقي Union and Progress Committee حركة سياسية كانت توجّه مقدرات الدولة العثمانية وتدير شؤونها منذ الانقلاب الدستوري عام ١٩٠٨م حتى هزيمة الدولة في الحرب العالمية الأولى وتوقيع معاهدة مودروس Modrus عام ١٩١٨م.

ترجع أصول هذه الجمعية إلى العام ١٨٦٥م حين ظهرت فئة من المثقفين الشبان أطلقوا على أنفسهم اسم «العثمانيين الجدد» أو «العثمانية الفتاة». وقد رأى هؤلاء أن الإصلاحات التي أدخلها رجال التنظيمات منذ العام ١٨٣٩م قد ضعضعت الأساس الأخلاقي والعقدي للمجتمع العثماني من دون أن تقدم بديلاً مناسباً. وذهب بعضهم مثل نامق كمال وضيا باشا إلى أبعد من ذلك، فقالوا إن التنظيمات قضت على الحقوق التي كان الناس ينعمون بها في ظل الحكم الإسلامي، ولم تعطهم شيئاً من مزايا الحكم الغربي المقتبس، وإن هذا الحكم فتح ممالك السلطنة أمام النفوذ والتدخل الأجنبيين فكان الانهيار الاقتصادي نتيجة حتمية للاستغلال الأجنبي والاستبداد الداخلي. أما العلاج، في نظر زعماء «العثمانية الفتاة»، فهو الحكم الدستوري النيابي القائم على أساس إسلامي، وبذلك كانوا من أوائل المفكرين المسلمين الذين حاولوا التوفيق بين النظم السياسية الغربية ومبادىء الشورى الإسلامية.

وعندما صدر دستور العام ١٨٧٦م الجديد تحقق فيه جُلُّ ما كانوا ينادون به من الحقوق والحريات. ولكن حلَّ المجلس النيابي وتعليق الدستور وتركيز السلطان عبد الحميد السلطة بيده، وما تلا ذلك من استبداد، أدت كلها إلى تحول «العثمانية الفتاة» إلى حركة سرية. وفي العام ١٨٨٩م بُعث نشاط «العثمانية الفتاة» مجدداً حين ألفت جماعة من طلبة «الطبية العسكرية» جمعيةً سريةً ثوريةً تهدف إلى محاربة الحكم الفردي وإعادة الحياة الدستورية. وتذرّع أحمد رضا مدير معارف بروسة آنذاك بزيارة معرض قومي في باريس فبقي هناك وأصدر جريدة «المشورة» بالتعاون مع عدد من أحرار العثمانيين هناك. ثم جرى اتصال بين الجمعية السرية في اصطنبول وجماعة أحمد رضا، وتقرر أن تندمج الجماعتان باسم «جمعية الاتحاد والترقي العثمانية»، وطالب منهاجها بالإصلاحات في جميع ولايات السلطنة لمصلحة العثمانيين كافة من جميع القوميات والأديان والمذاهب. وقد اكتسبت جمعية الاتحاد والترقي دعماً جديداً بانضمام صهر السلطان عبد الحميد الداماد محمود باشا وولديه صباح الدين ولطف الله بعد فرارهم إلى باريس في أواخر ١٨٨٩م، في وقت كان السلطان يعتقد فيه أنه نجح في القضاء على خصومه الدستوريين.

وشهد العام ١٩٠٦م تطوراً مهماً في حركة المطالبة بالدستور حين تسربت تنظيماتها إلى صفوف الضباط داخل السلطنة، وكان هؤلاء وحدهم قادرين على الحركة، ولهم اتصالات بكل جزء من أجزاء السلطنة العثمانية، ولعل أولى خلايا هذه الحركة كانت «جمعية الحرية العثمانية» التي أسّسها في دمشق عدد من ضباط الجيش الخامس المرابط في ولاية سورية، وكان لها فروع في يافا والقدس وبيروت

والعريش، كذلك تولى عدد من الضباط الصغار تأسيس فروع للجمعية في الروملي، وبينهم أنور ومحمد صادق وأيوب صبري وجمال. ولم يلبث أن انتقل نشاط الجمعية إلى سالونيك Salonique في مقدونية التي كانت مسرحاً للدسائس الدولية والمشاكل الدائمة، وفيها توافر للجمعية حرية أوسع ورقابة أقلّ.

عقدت جمعية الحرية العثمانية في سلانيك صلات مع أعضاء جمعية تركية الفتاة المنفيين في أوربة أسفرت عن اندماج الجمعيتين في أيلول ١٩٠٧م تحت اسم جمعية باريس أي جمعية الاتحاد والترقي، وهدفها الرئيسي المعلن هو إعادة الدستور. وفي سلانيك اتخذت الجمعية سمتها العسكرية، وتمّت فاعلياتها، ولا سيما بعد الاتصال بالمحافل الماسونية العاملة هناك، كما تلقت معونة اليهود الشرقيين (السفارديين) الذين طُردوا من الأندلس وتحوّل عدد منهم إلى الإسلام في القرن السابع عشر، وعرفوا باسم «الدونمة». ويبدو أن اندماج الجمعيتين في باريس وسلانيك لم يكن له مردود عملي، إذ حافظت جمعية سلانيك على تنظيمها العسكري واستقلالها، ولم ترغب في أن يشاركها أحد في السلطة مع أنها كانت تفتقر إلى التنظيم والعقيدة.

وحين خشيت الجمعية كشف تنظيماتها في سلانيك، سارعت إلى العمل قبل أن يتحرك السلطان لضربها وتصفيتها، وقامت بانقلاب سلمي في تموز ١٩٠٨م واضطر السلطان معه إلى إعادة العمل بالدستور فانتهى بذلك عهده وبدأ عهد الاتحاديين. وبقيت جمعية الاتحاد والترقي تنظيماً سرياً مقره في سلانيك تحكم من وراء ستار وتمارس نفوذها السياسي عن طريق مندوبين اثنين أو ثلاثة من أعضائها البارزين مثل طلعت ورحمي وجاويد والدكتور ناظم وبهاء الدين شاكر وأحمد رضا. ثم أوفدت إلى اصطنبول لجنة تمثلها من سبعة أعضاء وتم اتخاذ الخطوات لإقامة حكومة جديدة وإجراء الانتخابات.

نشرت الجمعية بياناً يتضمن منهاجها في تحقيق الإصلاحات السياسية وضمان حرية الجماهير، وتعزيز سيادة الدولة ووحدتها، وتطوير الزراعة والصناعة، وتحقيق العدالة في دفع الضرائب. وسرعان ما اعتقدت المجموعات القومية التي تتألف منها عناصر السلطنة أن تعاونها مع الاتحاديين سيحقق لها مطالبها ولا سيما في الأخذ بمبدأ اللامركزية الإدارية في الولايات. وحين اتضح أن جمعية الاتحاد والترقي ظلت تتمسك بالسياسة المركزية السابقة عادت مجدداً الخلافات والعداوات القديمة، ولكنها لم تنحصر في مسألة المركزية واللامركزية فحسب، وإنما تناولت أيضاً الأساس الذي سيقوم عليه بناء الدولة وتنطلق منه سياستها. وهنا تباينت الآراء بين التزام السياسة العثمانية أو السياسة الإسلامية أو السياسة الطورانية التركية.

مال الاتحاديون في البدء إلى الأخذ بالسياسة العثمانية أملاً في ضمان ولاء العناصر الدينية والقومية التي كانت تضمها السلطنة ولكن انتشار الروح القومية عموماً زعزع إمكانات قيام اتحاد حرّ ومتكافىء بين هذه العناصر في إطار من الولاء المشترك للسلطان. ومع أن مسألة التزام إحدى هذه السياسات كانت موضع نقاش وبحث قبل الانقلاب الدستوري داخل الدولة وخارجها (ولا سيما في باريس، بين الطلبة الأتراك من العثمانيين وأتراك روسية) فإن النقاش حولها لم يتوقف بعد الانقلاب.

أضف إلى ذلك أن جمعية الاتحاد والترقي نفسها لم تتخذ موقفاً معيناً إزاء المسألة، بدليل أن ثلاثة من أبرز زعمائها كانت لهم وجهات نظر مختلفة: فطلعت باشا كان ينزع إلى السياسة العثمانية، وأنور باشا كان يتبنى السياسة الإسلامية، وجمال باشا كان يتجه نحو السياسة التركية الطورانية. وقد شهدت الانتخابات لعام ١٩٠٨م صراعاً حاداً بين أنصار هذه السياسات الثلاث، إضافة إلى الصراع بين القائلين بالمركزية والقائلين باللامركزية. وكانت الوقائع تتوالى بسرعة وتؤثر في وجهات النظر هذه فتقوي بعضها وتضعف بعضها الآخر إذ كانت تزود أصحابها ببراهين وأدلة جديدة على مصداقية وجهتهم.

استنكر أنصار الوضع القديم مظاهر العلمانية والسير على خطا الغرب التي اتصف بها العهد الجديد، فطالبوا بالعودة إلى أحكام الشريعة الإسلامية. وفي ١٣ نيسان ١٩٠٩م تحول السخط إلى تمرد قام به عدد من الضباط والجنود، وهاجموا مجلس «المبعوثان» والباب العالي. وطالبوا بسقوط الحكومة الاتحادية وحل المجلس ونادوا بإلغاء الدستور وإعلان حكم الشريعة الإسلامية وانتشرت حركات مماثلة في الأناضول. واتهم السلطان عبد الحميد بتدبير الثورة المضادة، فزحف جيش سلانيك إلى اصطنبول بقيادة محمود شوكت وهو من أصل عربي، وخُلع السلطان ونصّب أخوه محمد رشاد باسم محمد الخامس، ومنذ ذلك الوقت حتى انهيار السلطنة أصبح الاتحاديون أصحاب النفوذ الأول فيها.

من الوجهة النظرية كانت اللجنة المركزية في جمعية الاتحاد والترقي تمارس قيادة جماعية في الإشراف على الإدارة وإصدار المراسيم والقرارات التي كانت تربط فروع الجمعية على مختلف المستويات من الولاية إلى الناحية. أما من الوجهة العملية، فقد بقيت الجمعية تمارس السلطة عن طريق اثنين أو ثلاثة من أقطابها لتعريف السلطان والصدر الأعظم والسفارات الأجنبية بسياسات الجمعية. ومع أن المعارضة اتهمتها بأنها تمارس السلطة بعيداً عن مبادىء الحكم الدستوري، وتؤلف دولة ضمن دولة، فإن الجمعية لم تردّ على هذه الاتهامات، وظلت تحافظ على طابعها السري في قراراتها المتصلة بالتنظيم الداخلي، كما أعلنت أن الاتحاديين سوف يعملون معاً في مجلس المبعوثان، وأن لجنة مركزية منتخبة من ثمانية أعضاء ستتولى إدارة شؤون الجمعية. وكان في نيتها المحافظة على سيطرتها على مجلس المبعوثان بالغالبية التي تتمتع بها، ولكن، بعد أن استسلم مجلس المبعوثان للثورة المضادة، قررت الجمعية أن تشارك في الحكومة فعلياً، فعينت اثنين من أعضائها هما طلعت وجاويد وزيرين للمالية والداخلية. مع ذلك ظل الانشقاق الداخلي والصراع بين كبار الضباط يهدد بنسف مركز الجمعية، كما ظل الأعضاء المدنيون يدركون الأخطار الناجمة عن كون العسكريين يؤلفون الغالبية العددية فيها، ولذا كانوا يسعون باستمرار إلى التغلب على هذا التهديد.

وحين ظهر حزب الحرية والائتلاف في تشرين الثاني عام ١٩١١م، رداً على احتكار الاتحاديين للسلطة وتمسكهم بالمركزية، ونادى بوجوب السير على مبدأ اللامركزية الإدارية، انضم إليه المنشقون عن جمعية الاتحاد والترقي والمعارضون لمنهاجها وأعمالها، ولا سيما العناصر غير التركية في الإدارة الحكومية ومجلس المبعوثان. وبما أن كثيراً من أعضاء الحزب كانوا نواباً في مجلس المبعوثان، فقد

استصدر الاتحاديون إرادة سلطانية بحلّ المجلس في كانون الثاني ١٩١٢ م، وأجروا انتخابات جديدة داخلها التزوير وحققوا بها غالبية ساحقة في المجلس.

ولكن الاتحاديين لم يلبثوا أن واجهوا مشكلات معقدة، فقد ردت المعارضة على تزييف الانتخابات، ونجح نفر من الضباط، معظمهم من أصل ألباني، في إسقاط الحكومة التي يدعمها الاتحاديون (تموز ١٩١٢م)، وتألفت حكومة ائتلافية جديدة حظرت على الضباط الانضمام إلى أي جمعية سياسية أو التدخل في شؤون الدولة، وأعلنت عن عزمها على تطبيق مبدأ اللامركزية. وشُغلت الحكومة بمقاومة الغزو الإيطالي لليبية، كما واجهت الحلف البلقاني الذي اقتربت قواته من العاصمة في مطلع عام ١٩١٣ م، فعاد الاتحاديون إلى الحكم بانقلاب عسكري في أواخر كانون الثاني ١٩١٣م، واستقالت الوزارة الائتلافية وتألفت وزارة اتحادية. وفي حزيران كان الاتحاديون قد دعموا سلطتهم وقمعوا أحزاب المعارضة، ونفوا زعماءها وأعدموا الكثير من أعضائها، واشتد ساعد الاتجاه الطوراني التركي بعد ثورة ألبانية (تموز ١٩١٣ م) وحرب البلقان على حساب الاتجاه العثماني وبرز التيار الداعي إلى فرض السيادة التركية على العناصر غير التركية، وأهمها العرب.

وعلى الصعيد الحزبي، شعرت جمعية الاتحاد والترقي بعد التجربة المريرة التي خاضتها بين ١٩٠٨م و١٩١٣ م بالحاجة إلى تحديث بنية الإدارة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الدولة في إطار شبه اتحادي متعدد القوميات، وحدّدت سلطات الجمعية وصلاحياتها من حيث إنها حزب سياسي، فصارت صلاحية اتخاذ القرارات منوطة بالجمعية العامة المؤلفة من عشرين عضواً، والتي تمثل مختلف الآراء.

وتتولى الجمعية العامة كذلك تنسيق أعمال اللجنة المركزية المؤلفة من اثني عشر عضواً برئاسة الأمين العام. أما الأمانة العامة فكانت تشرف على النواب الاتحاديين في مجلس المبعوثان. وهي مؤلفة من ستة أعضاء برئاسة نائب الرئيس. ولكن اللجنة المركزية بقيت أقوى الأجهزة في الجمعية.

وبعد أن دخلت السلطنة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول الوسط، اتخذت كل الوسائل الممكنة لاجتذاب عطف العالم الإسلامي وأعلنت الجهاد، ولكن هذه الجهود لم تثمر الثمرات المرجوة كما هو معلوم، وألف الاتحاديون وزارة اتحادية صرفة، وغدت السلطنة ذات حزب حاكم واحد. وفي سنوات الحرب فقدت اللجنة المركزية الكثير من نفوذها، وأصبح تنظيم جمعية الاتحاد والترقي أكثر لامركزية، وصارت السياسة تناقش في مستويات أربعة: الوزارة، واللجنة المركزية، والجمعية العامة، والفرقة النيابية التي كانت بديلاً عن الرأي النيابي لأن مجلس المبعوثان لم يجتمع إلا لوقت قصير، ولم تلبث الجمعية العامة أن حلّت محل اللجنة المركزية لأن تصريف الشؤون اليومية كان يتطلب ذلك.

في حين كانت العاصمة اصطنبول تحت حكم فئة من الاتحاديين يتزعمهم أنور باشا وطلعت باشا، كانت الولايات ترزح تحت وطأة حكام طغاة، مثل رحمي باشا في إيدين وجمال باشا في سورية، يتمتعون بما يشبه الاستقلال الذاتي.

كانت الحرب العالمية الأولى نكبة على السلطنة العثمانية وعلى جمعية الاتحاد والترقي. وفي أواسط العام ١٩١٨م تطلّع الاتحاديون إلى إنشاء حزب سياسي لا يحمل طابعهم للتفاوض مع دول الحلفاء على معاهدة سلام، ولكن الأحوال تطورت بسرعة، فأرجيء مؤتمر الجمعية عام ١٩١٨م الذي كان قد تقرر عقده في مطلع تشرين الأول بسبب هدنة بلغارية، وافتتح المؤتمر في مطلع تشرين الثاني بعد توقيع هدنة مودروس. ترأس طلعت باشا الاجتماع. وفي جلسة أخرى انسحب هو وأعضاء اللجنة المركزية من المؤتمر وهربوا إلى أوربة بعد ذلك، وتُرك لأحد أعضاء الجمعية مهمة حلّها، وإعادة تشكيلها باسم جديد هو حزب التجدد (تجدد فرقة سي).

وعلى الرغم من المشكلات والحروب التي واجهت جمعية الاتحاد والترقي فإن عهدها، عموماً، حقق الكثير من أهداف التنظيمات العثمانية التي كانت ترمي إلى تنظيم أمور الدولة الحديثة على أسس جديدة في جميع الميادين، وإرساء القواعد التي وضعها رجال التنظيمات في القرن التاسع عشر، التي قامت عليها دعائم الجمهورية التركية الحديثة في القرن العشرين.

أحمد طربين

مراجع للاستزادة:

ـ ساطع الحصري، نشوء الفكرة القومية (القاهرة ١٩٥٠).

ـ ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (القاهرة ١٩٥٥)

-E.E.RAMSAUR, The Young Turks, Prelude to the Revolution of 1908 (Prineeton 1957).

-F.AHMAD, The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish Politics 1908- 1914 (Oxford 1969).

■ الاتحاد الوطني لطلبة سورية

الاتحاد الوطني لطلبة سورية National Union of Syrian Students هو منظمة شعبية تضم طلبة الجامعات والمعاهد العليا والمتوسطة في الجمهورية العربية السورية، والطلبة السوريين الدارسين خارج القطر. مقر الاتحاد مدينة دمشق، وله فروع في داخل سورية وخارجها، وهو يمثل الطلبة العرب السوريين داخل سورية وخارجها.

ولقد شكل تأسيس الاتحاد الوطني لطلبة سورية الإطار التنظيمي للنضال الطلابي الذي بدأ مع البدايات الأولى للتعليم في سورية، وتفاعل نشاط الطلاب مع حركة الجماهير ومع نضالها الوطني والقومي في عملية تأثر وتأثير متبادلين. ولأن الطلاب كانوا يمثلون الفئة المثقفة في المجتمع بما يتاح لهم من الإطلاع على الأفكار والمبادئ الوطنية والتحررية، فقد كان لهم المهمة القيادية في تاريخ النضال الوطني للتحرر من الاستعمار ومخلفاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية سواء قبل الاستقلال أو بعده.

وقد حاول الطلبة تنظيم نضالهم في وقت مبكر، منذ الخمسينات فكانت الخطوة الأولى نحو هذا الهدف يوم الثلاثين من آذار لعام ١٩٥٠ عندما انعقد المؤتمر الطلابي الأول في اللاذقية برئاسة الطالب حافظ الأسد آنذاك. وترسم المقررات التي اتخذت في ذلك المؤتمر صورة عن الوعي الطلابي المبكر، وكان أهم تلك المقررات:

١ـ الدعوة إلى النضال ضد الاستعمار بجميع

أشكاله وألوانه.

٢ - الدعوة إلى تحقيق الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج.

٣- المطالبة بالتدريب العسكري في الصفوف الثانوية.

٤ - تعريب الشركات الأجنبية الموجودة في القطر ثم تأميمها.

٥- تحقيق العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص أمام المواطنين.

ومن هنا أصبح ذلك اليوم جديراً بأن يمثل عيد الطالب العربي السوري، كما انعقدت مؤتمرات أخرى في دمشق وحمص وحلب.

وكان من الطبيعي أن تتفاعل مسيرة النضال الطلابي مع مسيرة حزب البعث العربي الاشتراكي [ر] منذ الخطوات الأولى لتأسيسه، فقد اعتمد الحزب على الفئة المثقفة في بداياته وعلى الطلبة الذين انضموا إليه وناضلوا في صفوفه وأسهموا إلى جانب قوى الشعب الأخرى في مواصلة معركة البناء الوطني والتحرر الاقتصادي والتقدم الاجتماعي، وتعزيز مرتكزات الاستقلال بكل أشكاله.

وهكذا تطورت أساليب النضال الطلابي مع تطور مراحل التعليم في سورية، ومع تطور المجتمع، وتطور النضال السياسي والقومي وأخذ ذلك النضال أشكالاً متعددة في تلك المراحل التاريخية وخاصة إبان الوحدة مع مصر، كما كان الاتحاد الطليعة الطلابية التقدمية التي أسهمت في النضال ضد حركة الانفصال، وقادت النضال الطلابي للقيام بدور فاعل إلى جانب بقية فئات الشعب لتفجير ثورة الثامن من آذار [ر] سنة ١٩٦٣ .

تأسيس الاتحاد الوطني لطلبة سورية

كان تأسيس الاتحاد ثمرة من بواكير ثمرات ثورة الثامن من آذار فبعد نحو شهر أي في الثالث والعشرين من نيسان ١٩٦٣، كان المؤتمر التأسيسي الذي أعلن فيه تسمية الاتحاد الوطني لطلبة سورية منظمة شعبية نقابية. ومع الدعم الذي وفرته الثورة للقطاع الطلابي وللقطاعات الجماهيرية الأخرى لم يكن للاتحاد ذلك النشاط الفعال الذي كان يطمح إليه لأن الصراعات التي رافقت مسيرة الثورة وحالة عدم الاستقرار التي عاشتها آنذاك انعكسا سلباً على نشاطات الاتحاد وممارساته النضالية. غير أنه كان للحركة التصحيحية التي قادها الرئيس حافظ الأسد سنة ١٩٧٠ الدور الأساسي في دعم المنظمات الشعبية والمهنية السياسي والاهتمام الخاص بالتعليم وبالقطاع الطلابي وتعزيز الاتحاد وقيادته للجماهير الطلابية وترسيخ دوره في حياة المجتمع بصورة عامة، وفي الحياة الجامعية بصورة خاصة، وتبلورت على نحو أعمق مبادئه الأساسية وأهدافه السياسية والنقابية، كما تطورت نشاطاته وشملت جوانب كثيرة في حياة القطاع الطلابي. كالنشاطات السياسية والنقابية والثقافية والرياضية والاجتماعية والإعلامية للطلبة وأسهم بفروعه الداخلية والخارجية في تطوير الحياة التعليمية وربط الجامعة بالمجتمع وتعزيز صلة الطلاب الدارسين في الخارج بوطنهم وتحقيق تفاعلهم مع قضاياه إضافة إلى قيادة نشاطاتهم الثقافية والسياسية والعلمية.

أهدافه الأساسية ومبادئه العامة

- إيمان الاتحاد بأهداف الأمة العربية في الوحدة والحرية والاشتراكية.

- تعزيز روح انتماء الجماهير الطلابية إلى الوطن، والولاء لقائده، وتعميق روح الوطنية والإسهام الكامل في تعزيز بناء الوحدة الوطنية.

- الالتزام بمسيرة حزب البعث العربي الاشتراكي، وبفكر أمينه العام حافظ الأسد.

- الإسهام الفعال في الحياة الجامعية وتحقيق شعار ربط الجامعة بالمجتمع، والدفاع عن مصالح الطلبة.

- العمل على إتاحة الفرصة أمام أبناء الكادحين لإتمام تحصيلهم الدراسي.

- إعداد الطلبة فكرياً ونضالياً لمواجهة الرجعية بكل مظاهرها وأدواتها والدفاع عن مكتسبات الثورة والإسهام في بناء مجتمع التقدم والاشتراكية.

- العمل على تحقيق وحدة الحركة الطلابية العربية، ودعم حركات التحرر العالمية، ومكافحة النشاط الاستعماري والصهيوني والتفرقة العنصرية.

الهيئات القيادية

أ- المؤتمر العام، وهو أعلى سلطة تشريعية في الاتحاد، ويتألف من ممثلي الفروع الداخلية والخارجية المنتخبين بالإضافة إلى أعضاء المجلس المركزي السابق، وينعقد المؤتمر كل خمس سنوات.

ب- المجلس المركزي وهو أعلى سلطة في غياب المؤتمر، وينتخب من المؤتمر العام، ويتألف من سبعين عضواً ومن أبرز مهامه انتخاب المكتب التنفيذي، ووضع السياسة العامة للاتحاد في غياب المؤتمر العام.

ج- المكتب التنفيذي: وينتخبه المجلس المركزي من بين أعضائه، وهو أعلى قيادة تنفيذية في الاتحاد، ينفذ قرارات المؤتمر العام والمجلس المركزي وتوصياتهما.

د- وعلى مستوى الفروع هناك مؤتمرات الفروع، ومؤتمرات الوحدات الطلابية، ويقود الفروع المكاتب الإدارية المنتخبة من مؤتمرات الفروع والهيئات الإدارية على مستوى الكليات والمعاهد.

ويضم الاتحاد خمسة عشر فرعاً في الداخل وثمانية وعشرين فرعاً في الخارج.

نشاطات الاتحاد في المجالات السياسية والنقابية والثقافية والعلمية

يضطلع الاتحاد بدور بارز في الحياة الجامعية، بقيادة القطاع الطلابي وتطوير إمكاناته الفكرية والسياسية والعملية، وبما يؤهله للإسهام في معركتي البناء والتحرير، وتنفيذ مقررات الحزب وتوجيهات قائد مسيرته السيد الرئيس حافظ الأسد.

ولذلك تتركز الدورات التثقيفية ودورات الإعداد النقابي والسياسي والتقارير المقدمة إلى المؤتمرات بمستوياتها كافة، والمنشورات الفكرية والإعلامية، والندوات والمحاضرات السياسية والنقابية التي تنظم في معسكرات التدريب العسكري والمعسكرات الإنتاجية لتشكيل أساليب فعالة لرفع السوية السياسية والفكرية للطلبة.

وجاءت معسكرات التدريب العسكري الجامعي، لتجعل القطاع الطلابي رديفاً حقيقياً للقوات المسلحة في الدفاع عن الوطن وحماية مكتسبات الثورة. كما شكلت تجربة المعسكرات الإنتاجية، الطبية الصيدلانية، والطبية السنية، والزراعية، والصيدلانية والطبية البيطرية، والهندسة بأنواعها(المدنية والكهربائية والميكانيكية والعمارة) والجيولوجية والبيئة، والحقوقية ومعسكرات الصحافة والجغرافية وعلم الاجتماع ومعسكرات المعاهد المتوسطة، خطوة عملية مهمة على طريق ربط الجامعة بقضايا المجتمع، وزيادة دور القطاع الطلابي في الإسهام بعملية التنمية الاقتصادية

والاجتماعية.

ويسهم الاتحاد في إنجاح العملية التعليمية من خلال تمثيله في مجلس التعليم العالي ومجالس الجامعات واللجان المنبثقة عنها وفي مجالس المعاهد المتوسطة وينقل آراء الطلبة واقتراحاتهم إلى تلك المجالس.

كما ينظم الاتحاد النشاطات الفنية والرياضية والمسرحية والإعلامية ويشرف عليها، وله مجلة دورية« جيل الثورة » بالإضافة إلى برنامجه التلفزيوني الأسبوعي.

ويُدير، مباشرة أو بطريق غير مباشر، المطاعم والمقاصف والندوات الطلابية لتقدم الخدمات للطلبة بالصورة المثلى والأسعار المناسبة.

ويولي الاتحاد أهمية خاصة للطلبة العرب الدارسين في الجامعات والمعاهد ليكونوا أكثر قدرة على تلقي العلم والمعرفة من جهة وعلى القيام بدورهم القومي من جهة أخرى.

حامد حسن

■ الاتحادات الجمركية والاتفاقيات التجارية

السياسة الجمركية ودورها في الاقتصاد الوطني

السياسة الاقتصادية هي مجموعة التوجهات والإجراءات الاقتصادية التي تتخذها حكومة من الحكومات من أجل دفع الاقتصاد الوطني نحو التقدم والنمو. وتعد السياسة الجمركية جزءاً أساسياً من السياسة الاقتصادية إلى جانب السياسات المكونة الأخرى كسياسات الضرائب والأسعار والإقراض والتصنيع وغيرها.

وتتناول السياسة الجمركية بصورة رئيسة قطاع التجارة الخارجية الذي يضم حركة البضائع استيراداً وتصديراً، وتسعى الحكومات عادة من خلال السياسة الجمركية إلى التأثير في حركة تبادل السلع فتشجع الصادرات وتقلص الواردات لتحقيق توازن في الميزان التجاري مع العالم الخارجي. ويجب أن تكون السياسة الجمركية منسجمة مع الوضع الإنتاجي والاستهلاكي في البلد المعني إذ تفرض رسوم جمركية عالية على البضائع المستوردة المنافسة للمنتجات الوطنية في حين تخفض هذه الرسوم على المواد الأولية لتشجيع الإنتاج الصناعي الوطني وتدعيم قدرته التنافسية. وتقوم السياسة الجمركية الرشيدة بدورٍ مهم في الاقتصاد الوطني عن طريق التمايز في الرسوم المفروضة سواء على الصادرات أم الواردات في الاتجاهات التالية:

- تشجيع صادرات فوائض الإنتاج الوطني بإلغاء الرسوم على هذه الصادرات أو حتى بتقديم المعونات التصديرية.
- الحد من تصدير المواد الأولية اللازمة للصناعة الوطنية من أجل منع ارتفاع أسعارها سواء بفرض رسوم تصدير عالية أو بوضع تقييدات كمية على هذه الصادرات أو حتى منعها.
- الحد من استيراد السلع المنافسة للمنتجات الوطنية سواء بفرض رسوم جمركية عالية (سياسة الحماية الجمركية) عندما تكون المنتجات الوطنية غير كافية لإشباع حاجة السوق أو بمنع الاستيراد كلياً عندما يكون الإنتاج الوطني كافياً لإشباع الطلب الاستهلاكي.

فالسياسة الجمركية تعد إحدى أدوات السياسة الاقتصادية لدعم الإنتاج الوطني وتيسير عملية النمو الاقتصادي ورفع مستوى رفاه الشعب كما تؤلف السياسة الجمركية أداة لرفد خزينة الدولة بالإيرادات اللازمة لتمويل عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

ومن الضروري الإشارة إلى أن لسياسة الحماية الجمركية آثارها السلبية على الاقتصاد الوطني فهي، بإيجاد الحواجز الجمركية العالية أمام البضائع الأجنبية، تقلل من سعي قطاعات الإنتاج الوطني إلى تحسين النوعية وزيادة الإنتاجية مما يرهق كاهل المستهلك ويؤدي إلى جمود الإنتاج. لهذا تلجأ الحكومات إلى التوفيق بين حماية الإنتاج الوطني من جهة والسماح بالمنافسة الدولية على نطاق محدود من جهة ثانية باللجوء إلى الانضمام إلى الاتحادات الجمركية أو الاتفاقيات التجارية الثنائية أو متعددة الأطراف.

الاتفاقيات التجارية بين الدمج والتكامل

الاتفاقية التجارية trade agreement هي عقد بين دولتين لتنظيم التجارة بينهما وفقاً لما يعبر عن إرادتهما المشتركة بهدف زيادة حجم المبادلات التجارية وتنميتها لكل منهما وتحقيق مصالحهما الاقتصادية والسياسية المشتركة. وتهدف الاتفاقيات التجارية إلى تسهيل التبادل التجاري بين الدولتين المتعاقدتين ولاسيما تيسير تبادل بعض السلع التي تنص عليها القوائم الملحقة بالاتفاقية ويكون للاتفاقيات التجارية أهداف متعددة منها زيادة حجم المبادلات التجارية بين البلدان المتعاقدة ومنح تسهيلات خاصة متبادلة لبلد معين من قبل البلد الآخر وتشجيع التعاون الاقتصادي بتخفيض الرسوم الجمركية أو الإعفاء من قيود وشروط وإجراءات « روتينية » تفرض على سلع البلدان الأخرى إضافة إلى تشجيع المقايضة بين البلدين المتعاقدين سواء في عمليات محددة أم في إطار ما يسمى بالصفقات المتكافئة إذ يلتزم كل من الطرفين استيراد وتصدير سلع بقيمة محددة من الطرف الآخر.

قد تكون الاتفاقية التجارية جزئية تنظم تبادل سلع محددة تتضمنها القوائم الملحقة بالاتفاقية وقد تكون شاملة تنظم العلاقات التجارية بين الدول المتعاقدة وهذه الأخيرة هي الأهم لأنها ترسم الخطوط العريضة للسياسات التجارية الواجب اتباعها من قبل الدول المتعاقدة. وتترافق الاتفاقيات التجارية باتفاقيات مدفوعات أحياناً ولكنها قد تكون مستقلة بذاتها أحياناً أخرى إذ يتم تسديد قيمة المبادلات بوسائل الدفع الدولية المعروفة وفي هذه الحال يعد تنشيط العلاقات التجارية أمراً مهماً للطرفين بصرف النظر عن طريقة الدفع. وكذلك قد تكون الاتفاقيات التجارية ثنائية بين دولتين أو قد تكون متعددة الأطراف تنظم العلاقات بين عدد من الدول أو قد تكون جماعية عامة كما هي الحال في الاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة (غات) G.A.T.T [ر]. والاتحادات الجمركية ذاتها هي اتفاقيات تجارية تنظم العلاقات بين دولتين أو أكثر، وتركز اهتماماتها على تخفيض الرسوم الجمركية أو إزالتها عن المبادلات التجارية بين الأطراف المتعاقدة وتشمل التبادل التجاري برمته بين الدول الأعضاء في الاتحاد.

الاتحادات الجمركية وتوسيع الأسواق

الاتحاد الجمركي custom's union هو اتفاق بين دولتين أو أكثر على إزالة الحواجز الجمركية التي تعرقل تصدير السلع واستيرادها وتحرير التجارة والمبادلات بين الدول المنضمة إلى الاتحاد كلياً أو جزئياً لتكوين منطقة جمركية واحدة في مواجهة العالم الخارجي. وبحسب الاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة المعروفة باسم غات فإن قيام اتحاد جمركي بين بعض البلدان يعني إلغاء الرسوم الجمركية والقيود الكمية على تبادل السلع بينها مع التزام الدول الأعضاء تعرفة جمركية موحدة على السلع المستوردة من الدول خارج الاتحاد وتحل التعرفة الموحدة محل التعرفات الخاصة بكل دولة من الدول الأعضاء، وقد يكون تطبيق الاتحاد الجمركي دفعة واحدة أو بالتدريج تبعاً للأوضاع الإنتاجية في البلدان الأعضاء والمزايا النسبية لإنتاج كل منها من السلع.

تقوم الاتحادات الجمركية بدور كبير في توسيع الأسواق أمام منتجات كل من الدول الأعضاء بفتح أسواق الدول الأخرى أمامها في الوقت الذي لا تجعل هذه المنتجات معتمدة على الحماية فقط إذ تلقى منافسة من منتجات الدول الأعضاء الأخرى أي إنها توفق بين حماية الإنتاج الوطني من المنافسة الأجنبية الشاملة بفرض تعرفة جمركية على المنتجات من خارج الاتحاد مع السماح بمنافسة محدودة بفتح الحدود أمام السلع المنافسة الواردة من دول الاتحاد من جهة ثانية. وبذلك تحصل كل دولة من دول الاتحاد على السلع ذات التكلفة الأقل من الدول الأخرى وتصدر إليها السلع التي تتمتع هي بمزايا نسبية بإنتاجها. غير أن الاتحادات الجمركية قد تؤدي إلى سيطرة الدولة الأقوى اقتصادياً بسبب إزالة الحواجز الجمركية بين الدول الأعضاء. ولهذا فإن الاتحادات الجمركية الناجحة يجب أن تتم بين دول متقاربة في مستويات النمو يتمتع كل منها بمزايا نسبية في إنتاج بعض السلع ليتم تسويقها على مستوى الاتحاد أو بين دول يجمعها انتماء قومي واحد فيكون الاتحاد الجمركي خطوة تمهيدية لتحقيق الوحدة الاقتصادية ومن ثم التوحيد السياسي كما حدث للولايات الألمانية في القرن التاسع عشر عندما أقامت بزعامة بروسية الاتحاد الجمركي المسمى زولفراين Zollverein الذي قاد إلى الوحدة الاقتصادية ومن ثم إلى تجميع هذه الولايات سياسياً في دولة واحدة. ولعل واقع البلدان العربية اليوم أقرب ما يمكن إلى واقع الولايات الألمانية في القرن التاسع عشر سواء من ناحية حاجة إنتاج كل منها إلى سوق واسعة أم من ناحية حاجتها جميعها إلى التكامل الاقتصادي لحماية اقتصاداتها الوطنية من المنافسة الخارجية الشديدة.

الاتفاقيات التجارية والاتحادات الجمركية

يلاحظ أن الاتحادات الجمركية هي اتفاقيات تنظم العلاقات التجارية بين الأطراف المتعاقدة وتشمل التبادل التجاري برمته وتعمل على إزالة الحواجز الحمركية التي تعرقل انسياب البضائع بين الدول المتعاقدة الأعضاء في الاتحاد. وبمعنى آخر فإن الاتحادات الجمركية هي اتفاقيات تجارية متطورة ومتقدمة تشمل مجالات أوسع وتضم أحياناً شركاء أكثر عدداً.

لقد ظهرت الحاجة إلى الاتفاقيات التجارية نتيجة أزمات الكساد واضطرار الدولة إلى التدخل في الحياة الاقتصادية لحماية الاقتصاد الوطني ودفع عملية النمو إلى الأمام.

وما مبادىء التدخل والتخطيط إلا نتيجة لعجز آلية السوق عن حل المشكلات الاقتصادية الوطنية والدولية، لهذا جاءت الاتفاقيات التجارية تعبيراً عن إرادة الحكومات المتعاقدة في مواجهة الأزمات ولتسهيل عملية النمو الاقتصادي على المستويات الوطنية والإقليمية والدولية.

بعد انتشار الثورة الصناعية في بلدان متعددة اقتنع علماء الاقتصاد ورجالات الدولة بعجز نظريات التجارة الحرة عن تيسير التبادل التجاري وتم تركيز الاهتمام بداية على الاتفاقيات التجارية الجماعية لتشجيع التبادل التجاري الدولي. ولكن بسبب اختلاف مستويات النمو على المستوى العالمي وسيطرة بعض الدول على الأسواق الدولية اتجهت بعض الدول إلى عقد الاتفاقيات التجارية الثنائية أو بين دول محددة متقاربة في مستويات النمو، في إطار منطقة جغرافية واحدة. وفي أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩ - ١٩٣٣) ومرحلة الكساد العالمي الواسع (١٩٣١) تبين للدول عجز الحرية التجارية، التي كانت غالبة آنذاك، عن خدمة مصالحها الوطنية مما حدا بهذه الدول إلى التدخل لحماية اقتصاداتها القومية وانصبت الجهود الدولية بداية على البحث في اتفاق جماعي دولي عام فعقد في لندن عام ١٩٣٣ المؤتمر الاقتصادي والمالي العالمي بهدف الوصول إلى اتفاق جماعي لحل مشكلة التجارة الدولية. وتعددت الآراء داخل المؤتمر بسبب اختلاف مصالح الأطراف المشاركة الذي يرجع أساساً إلى اختلاف أوضاعها الاقتصادية الموضوعية وكان الحل في الاتجاه نحو الاتفاقيات التجارية الثنائية أو محدودة الأطراف. وانتشرت هذه الاتفاقيات بين معظم الدول الأوروبية لمواجهة الصعوبات التالية:

- صعوبة تمويل عمليات التبادل بسبب تحول الدولار إلى عملة دولية شبه وحيدة وكان على أية دولة الحصول على الدولار لتسوية مدفوعاتها مما جعل الدول تتجه في تعاملها إلى الولايات المتحدة الأمريكية للحصول على الدولارات وهذا ما دفع الدول الأوربية إلى تسهيل التجارة فيما بينها بغية تقليص حاجتها إلى الدولار لدفع قيمة وارداتها وتسوية حساباتها.
- صعوبة الحصول على المواد والسلع اللازمة للسوق المحلية مقابل التسديد بالعملة الدولية مما حدا بالدول إلى إيجاد وسيلة تبادل فيما بينها عن طريق اتفاقيات المقاصة القائمة على مبدأ التوازن في الميزان التجاري بين الأطراف.
- مواجهة منافسة الدول الأقوى اقتصادياً بسبب تقدمها التقني ومزايا الإنتاج النسبية مما حدا بالدول المتعاقدة إلى النص في الاتفاقيات التجارية على شرط الدولة الأكثر رعاية الذي يمنح الدولة الشريكة في الاتفاقية التمتع بأية مزايا ممنوحة للشركاء التجاريين الآخرين على أن تكون هذه المزايا أفضل للدولة الشريكة.
- صعوبات التسويق الناجمة عن ضيق السوق الداخلية وعدم قدرتها على استيعاب الإنتاج الوطني بكامله مما يحدو بالدول المتعاقدة إلى تضمين الاتفاقيات شرطاً يقضي بتحديد حجم التبادل بين الأطراف وعدم اضطرار أي منها إلى تسوية حساباتها قبل وصول التبادل إلى الحجم المحدد.

لقد قامت الاتفاقيات التجارية بدور مهم في تجاوز الصعوبات الاقتصادية وتسهيل حصول كل من الاقتصادات الوطنية على مستلزمات الإنتاج والسلع الاستهلاكية بشروط أفضل من تلك التي كان يمكن أن توفرها

بنفسها. ولكن لهذه الاتفاقيات بعض المساوىء أيضاً لأن الاتفاقيات تعقد بين أطراف محددة مما يؤدي إلى خفض حجم التبادل الدولي ومن ثم يفقد الاقتصاد العالمي إحدى أهم المزايا وهي مزية التكاليف النسبية التي تفترض أن يتم إنتاج السلع في حدود حاجة الاستهلاك العالمي من قبل المنتجين الذين يتمتعون بمزايا نسبية أفضل وإيصالها إلى المستهلكين في أي مكان بتكلفة أقل. لأن الاتفاقيات التجارية هي إحدى وسائل الحماية التي تعمد إليها الدول المتعاقدة لمواجهة منافسة الدول خارج الاتفاقية، ولهذا السبب فإنها من أهم الأساليب التي يجب أن تعتمد عليها الدول النامية لحماية اقتصاداتها الوطنية من المنافسة الدولية من طرف الدول الأكثر تطوراً من جهة، وتوسيع سوق منتجاتها الوطنية لبلوغ الحجم الاقتصادي للإنتاج من جهة أخرى.

وغالباً ما تكون الاتفاقيات التجارية الثنائية أو متعددة الأطراف خطوة تمهيدية لبلوغ مرحلة الاتحاد الجمركي الذي يعد بمنزلة اتفاقية تجارية متطورة إذ يتحقق قيام الاتحاد الجمركي بثلاثة إجراءات رئيسية.

أ ـ تحرير التجارة بين الدول الأعضاء من أية رسوم جمركية أو أية تحديدات كمية.

ب ـ وضع تعرفة جمركية موحدة تطبقها كل الدول الأعضاء على التعامل التجاري مع الدول خارج الاتحاد وتراعي هذه التعرفة حماية الإنتاج الوطني لكل منها وتسهيل تبادله فيما بينها.

حـ ـ توزيع الحصيلة المشتركة للرسوم الجمركية التي تجبى في الدول الأعضاء وفقاً لقواعد يتفق عليها تراعي مصلحة كل منها ووضعها الاقتصادي العام ومستوى نموها مقارنة فيما بينها فيكون التوزيع عامل دعم للدول الأضعف في الاتحاد لمساعدتها في تحقيق النمو الاقتصادي لأن الاتحاد الجمركي يؤلف مرحلة للارتقاء بالتعاون الاقتصادي بين الدول الأعضاء إلى مرحلة متقدمة من التكامل بما في ذلك الوحدة الاقتصادية. وتعد تجربة الاتحاد الجمركي بين الولايات الألمانية المسمى بالزولفراين والذي تطور إلى وحدة اقتصادية بين الولايات ومن ثم أعقبها اتحاد سياسي بينها خير مثال على ارتقاء التكامل الاقتصادي بين الأقاليم ولاسيما المنتمية إلى أمة واحدة كما هي حال الدول العربية لبلوغ الوحدة السياسية المعبرة عن طموحات شعوبها وضمان مصلحتها الاقتصادية المشتركة.

لقد ازداد الاهتمام بالاتحادات الجمركية بعد أن أصبحت التكتلات الاقتصادية واحدة من التطورات البارزة في العلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، وبدأ الفكر الاقتصادي بصوغ الأساس النظري لدراسة الاتحادات الجمركية وتحليل نتائجها وصوغ نظريات خاصة بالاتحادات الجمركية. وكان الاقتصاديون يعتقدون، سنداً لنظرية التكاليف النسبية، أنه ما دام الاتحاد الجمركي ينطلق من مبدأ تحرير التجارة بين الأعضاء فإنه سيؤدي إلى تحسين الرفاه الاقتصادي لشعوب دول الاتحاد، إذ إن تحرير التجارة يقود إلى تحقيق منفعة لكل الأطراف غير أن فاينر Viner دحض هذه الفكرة مشيراً إلى أن تحرير التجارة بين بلدين قد يؤدي إلى خسارة أحدهما أو كليهما عندما يجري تحويل مشتريات البلد المعني من مصدر ذي تكلفة منخفضة إلى آخر ذي تكلفة مرتفعة (في هذه الحالة البلد الشريك في الاتحاد). وعلى الرغم من دور الاتحاد الجمركي في توزيع الموارد ومراكز الإنتاج داخل دول الاتحاد فإنه، مما لا شك فيه، يؤدي إلى خسارة جزئية في حال تحويل التجارة. غير أن هذه النتيجة لا تلاحظ فقط على مستوى الدول الأعضاء في الاتحاد وإنما تلاحظ على مستوى الاقتصاد الوطني الواحد أيضاً. في حين تكون الآثار الإيجابية للاتحادات الجمركية واضحة، ولاسيما على مستوى البلدان النامية الساعية إلى بسط سيطرتها على مواردها وتخصيصها لأغراض التنمية، إضافة إلى توسيع الأسواق أمام صناعاتها الوطنية التي لا يمكن أن تكون فعالة إلا بتوفير الأسواق لها. وتكون هذه الآثار الإيجابية كبيرة جداً على التنمية حتى إن الاتحادات الجمركية قد تكون الحل الوحيد لتنشيط التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تعد المسألة المركزية لهذه الدول والهدف الرئيسي لإقامة التكتلات فيما بينها. ولهذا يرى كثير من الاقتصاديين المعاصرين أنه إذا أرادت البلدان النامية الاستفادة من مزايا الاتحادات الجمركية عليها أن تربط قيام هذه الاتحادات بسياسات وخطط إنمائية متكاملة على أساس رفع الطاقات الإنتاجية المبنية على تخصيص كل منها بتنمية فروع أو صناعات معينة وفتح أسواقها بصورة متبادلة أمام منتجات هذه الفروع. كما أن على هذه البلدان أن تطور الاتحادات الجمركية إلى صيغة وحدة اقتصادية تامة حتى تتحول اقتصاداتها الوطنية إلى اقتصاد إقليمي موحد تكون فيه حرية انتقال عوامل الإنتاج والمنتجات متاحة للجميع بغير حدود أو تقييدات.

الاتحاد الجمركي والوحدة الاقتصادية

قد يُلحق الاتحاد الجمركي بعض الخسائر ببعض أعضاء الاتحاد إذا كانت مستويات نمو الأعضاء غير متقاربة مما يؤدي إلى كسب الأعضاء الأكثر تقدماً على حساب الأعضاء الأقل تطوراً. وهذا يؤدي إلى خلق تناقضات بين أعضاء الاتحاد إذا لم يراع نظام الاتحاد تعويض الدول المتضررة على حساب الدول الأكثر استفادة من الاتحاد وهو ما يمكن تحقيقه بإحدى طريقتين: إما بإقرار تعويضات للأعضاء الأقل تطوراً تسهم في رفع مستوى نموها ليصبح متقارباً مع الأقطار الأخرى أو بتطوير الاتحاد الجمركي ليصبح وحدة اقتصادية تامة. وفي هذه الحالة يمكن للدول الأعضاء أن تحافظ على سيادتها على أراضيها ومواردها الطبيعية على أن تتيح لمواطني الدول الأعضاء الآخرين الإسهام في تنمية هذه الموارد وتطويرها أو أن يتم تطوير الوحدة الاقتصادية لتتحول إلى وحدة سياسية. وتجارب الاتحادات الجمركية تبين إمكانية مثل هذا التطور الصاعد، أو عكس ذلك ينهار الاتحاد وتعود الدول الأعضاء في الاتحاد إلى التنافس فيما بينها والعودة إلى التبعية الاقتصادية للدول المتقدمة.

وإذا أريد للاتحاد الجمركي أن يستمر ويتطور تطوراً صاعداً لابد أن تراعى فيه المصالح الوطنية لكل من أعضائه، وإلا فإنه سيؤول إلى الانهيار.

إن التجربة التاريخية لكل من الاتحاد الجمركي الألماني الزولفراين والاتحاد الجمركي السوري اللبناني تؤكد هذه الحقيقة.

الاتحاد الجمركي الألماني (الزولفراين):

واجهت الولايات المتحدة الألمانية بزعامة بروسية، أكبر هذه الولايات، في بداية القرن التاسع عشر تحديات كثيرة في تصريف إنتاجها بعد أن رفعت روسية عام ١٨١٠ الرسوم الجمركية على المنتجات الزراعية وتبعتها في ذلك فرنسة عام ١٨١٣ في حين اشتدت على نحو كبير منافسة الصناعة الإنكليزية ولم يبق

أمام الولايات الألمانية سوى الاعتماد على السوق الداخلية المتبادلة. فاتجهت بروسية إلى العمل على تخفيض الرسوم الجمركية المفروضة على التجارة بين الولايات الألمانية أو إلغاء هذه الرسوم من أجل تشجيع التجارة البيْنية. إضافة إلى ذلك ظهرت دعوات من قبل الاقتصاديين ورجال السياسة إلى إقامة سوق ألمانية مشتركة للوقوف أمام المنافسة التي أوجدتها التقنية الفرنسية والإنكليزية في وجه الصناعة الألمانية وكان من نتيجة ذلك تأسيس الزولفراين الذي اعتمد التعرفة الجمركية وسيلة لتشجيع التجارة البينية وذلك بإعفاء التجارة البينية من الرسوم وفرض رسوم عالية على التجارة مع الدول خارج الاتحاد وكان من نتيجة ذلك قيام سوق ألمانية موحدة بين جميع الولايات، التي حافظت على وجودها السياسي مقاطعات داخل الاتحاد، ثم ما لبثت أن تحولت إلى وحدة اقتصادية تمثلت بحرية انتقال المنتجات وعوامل الإنتاج بين الولايات بما يحقق الإفادة من المزايا النسبية لكل منها. فكان ذلك سبباً رئيساً في اندماج هذه الولايات في دولة اتحادية جمعت كل الأقاليم الألمانية وتحولت بعدها إلى دولة قوية اقتصادياً وسياسياً كادت أن تسيطر على العالم. وهي اليوم تهدد كل القوى الاقتصادية العالمية بنموها وسرعة تقدمها وتعد من بين الدول الأكثر تقدماً التي يخشى العالم منافستها.

الاتحاد الجمركي السوري اللبناني: ألفت سورية ولبنان إقليماً اقتصادياً واحداً إبان الحكم العثماني ومن ثم إبان الانتداب الفرنسي وقامت بينهما روابط اقتصادية متينة جعلت من مرفأ بيروت مرفأ سورياً لبنانياً كما كانت التجارة ناشطة جداً بين المدن السورية واللبنانية. وبعد حصول البلدين على استقلالهما حاولا المحافظة على هذه الروابط بإنشاء اتحاد جمركي بينهما ووقعا اتفاقية الاتحاد في ١/١٠/١٩٤٣. وقد نصت الاتفاقية على أن تكون سورية ولبنان منطقة جمركية واحدة تطبق فيها تعرفة جمركية موحدة ويسمح بحرية انتقال السلع فيما بينهما بحرية تامة من دون أية رسوم أو ضرائب جمركية وعلى أن تكون لهما إدارة جمركية واحدة تعمل في إطار خطة جمركية موحدة ويتم توزيع عائدات الرسوم والضرائب الجمركية بين البلدين. وبغية تطوير هذا الاتحاد لكي يلبي مقتضيات النمو الاقتصادي في البلدين جرت مفاوضات في عامي ١٩٤٦ و١٩٤٧ لتنسيق السياسة الاقتصادية والمالية في البلدين. ولقد كان واضحاً للمتفاوضين أن استمرار الاتحاد الجمركي بين البلدين ونجاحه يقتضي تطويره باتجاه تنسيق السياسات الاقتصادية فيهما. وبسبب اختلاف النهج الاقتصادي بين البلدين وعجز الحكومتين عن التوصل إلى اتفاق بينهما يخدم مصالحهما المشتركة، أصبح الاتحاد الجمركي مهدداً بالزوال ولا سيما بعد أن وقعت الحكومة اللبنانية اتفاقاً مالياً منفرداً مع فرنسة، مما أدى إلى انهيار الاتحاد النقدي بينهما وخروج سورية نهائياً من منطقة الفرنك الفرنسي في شباط ١٩٤٩. ومن أجل حماية المصالح الوطنية لكلا البلدين عرضت الحكومة السورية على الحكومة اللبنانية الأخذ بأحد الحلول الثلاثة التالية:

- وحدة اقتصادية كاملة.
- تبادل حر بين البلدين في إطار اتحاد جمركي بينهما يقوم على تعرفة جمركية موحدة وتعفى المنتجات المحلية من الضرائب والرسوم الجمركية في حين تخضع السلع الأجنبية المتبادلة بين البلدين لتعرفة موحدة أي استمرار الاتحاد الجمركي بما يوسع السوق أمام المنتجات المحلية لكلا البلدين ويدعم قدرة منتجاتهما على المنافسة عن طريق فرض التعرفة على السلع الأجنبية وإعفاء المحلية منها.
- تحسين النظام المالي وإنشاء مجلس مشترك للإشراف على التجارة الخارجية بهدف حماية الإنتاج المحلي وتوحيد العملتين في البلدين أو المساواة بينهما.

ولأن المنطلق كان نحو تحقيق المصالح القطرية الآنية وبسبب كون الوكالات التجارية الأجنبية متمركزة في لبنان للسوقين السورية واللبنانية لم تستطع الحكومتان الاتفاق على تطوير الاتحاد الجمركي بينهما فانفصل الاقتصادان السوري واللبناني وعانى كلا البلدين من هذا الانفصال.

في حين كان الاندماج الاقتصادي سيعود عليهما معاً بالنفع إذ إن طاقات إنتاجية أقيمت في كلا البلدين لا يستفاد منها بكامل طاقتها بسبب ضيق السوق الداخلية من جهة ومنافسة البضائع الأجنبية في كل من البلدين لبضائع البلد الآخر من جهة ثانية. إن محاولة الاستئثار بالمنفعة الاقتصادية من قبل أي شريك في الاتحاد الجمركي ستقود بالضرورة إلى الإخفاق والتراجع في حين إن حماية المصالح الوطنية لجميع الدول الأعضاء ستقود إلى التطور الصاعد فالوحدة الاقتصادية، وقد تؤدي إلى الوحدة السياسية أيضاً. ويعاني الاتحاد الجمركي بين دول مجلس التعاون الخليجي هو الآخر من مشكلات بسبب التفاوت في النمو الاقتصادي بين أعضائه ويخشى ألاّ يستطيع تحقيق مهمة الاندماج الاقتصادي بين بلدان الخليج العربية. إن تحقيق التنمية القومية العربية تفترض حداً أدنى من التعاون التجاري العربي وزيادة حجم التجارة العربية البينية. والطريق الأفضل لتحقيق ذلك يكون في تطبيق أحكام السوق العربية المشتركة أو في إقامة اتحاد جمركي على الأقل وذلك بسبب تقارب مستوى النمو الاقتصادي في معظم الدول العربية ومعالجة أوضاع بعض الأقطار العربية الأقل تطوراً بتخصيصها بنسبة أكبر من الفوائد التي تترتب على قيام الاتحاد بكل أقطاره من أجل مقاربة مستويات النمو تمهيداً لتطوير الاتحاد باتجاه وحدة اقتصادية تخدم كل الأعضاء في عصر التكتلات الاقتصادية الكبرى، عصر الأسواق العملاقة من السوق الأمريكية إلى السوق اليابانية إلى السوق الأوربية وغيرها إضافة إلى الاتحادات الجمركية والمناطق التجارية الحرة التي تكاد تجمع في عضويتها كل بلدان العالم تقريباً.

مطانيوس حبيب

الموضوعات ذات الصلة:

الاتفاقية العامة للتجارة والتعرفة (غات) ـ التكامل الاقتصادي.

مراجع للاستزادة:

ـ محمد خليل برعي وعلي حافظ منصور، العلاقات الاقتصادية الدولية (مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧٤).
ـ محمد زكي شافعي، مقدمة في العلاقات الاقتصادية الدولية (القاهرة ١٩٦٧).
ـ منير الحمش، التجارة الدولية والبلدان النامية (منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٧٩).

■ الاتحادات الكيمياوية (قوانين -)

تتحد المواد اتحاداً كيمياوياً chemical combination فتتحوّل نتيجة لذلك إلى مواد أخرى جديدة ذات خواص مختلفة، ووجد أن هذه التفاعلات تخضع لسلسلة من القوانين تتعلق بكتل المواد المتفاعلة والناتجة وبحجومها. وتبيَّن فيما بعد أنه يمكن استنتاج هذه القوانين بسهولة من النظرية الذرية. وهذه القوانين هي:

قانون حفظ الكتلة

ويبيِّن أنه لا تخلق المادة ولا تفنى في أثناء التفاعل الكيمياوي، وبعبارة أخرى لا تحدث للكتلة خسارة ولا اكتساب وإنما يمكن تحويل المادة من شكل إلى آخر. وقد استنتج هذا القانون العالمُ الروسي م.ف. لومونوسف M.V. Lomonosov عام ١٧٥٦ بعد إجراء الآلاف من التجارب المضنية. إلا أن الكيميائي الفرنسي لافوازيه Antoine Lavoisier [ر] هو الذي أقنع المجتمع العلمي عام ١٧٨٣ بقبول مفهوم حفظ الكتلة الذي استنتجه، منفرداً، من تجاربه المتعلقة بالعلاقات الكمية بين الأكسجين والزئبق من جهة وبين الأكسيد الناتج من اتحادهما من جهة أخرى. فعند تسخين ١٠٠ غرام مثلاً من أكسيد الزئبق، كمادة متفاعلة، ينتج ٩٢,٦ غرام من الزئبق و٧,٤ غرام من الأكسجين، أي إن مجموع كتل المواد المتفاعلة يساوي مجموع كتل المواد الناتجة. إلا أن أوزان المتفاعلات والمنتجات غير متساوية بصورة مطلقة. ففي التفاعل الكيمياوي الناشر للحرارة يتحول قسم ضئيل جداً من المادة إلى طاقة، ويحدث العكس في التفاعل الماص للحرارة إذ إن الكتلة تتحول إلى طاقة وفق علاقة أينْشتين المشهورة: $E=mc^2$ حيث E هي الطاقة المنتشرة وm نقصان الكتلة وc سرعة الضوء في الخلاء. وفي الواقع فإن التغير الموافق في الكتلة في أمثال هذه التفاعلات غير النووية، وهو من رتبة $١٠^{-٨}$ غرام، لايمكن كشفه بأشد الموازين حساسية، وتفسّر هذه المعادلة الطاقة الهائلة الناتجة عن نقصان المادة في التفاعلات النووية، فالطاقة الناتجة عن تحوّل مكرو غرام ($١٠^{-٦}$ غرام) من المادة إلى طاقة هي $٢,٥ \times ١٠^{٩}$ حريرة (كالوري).

قانون التركيب الثابت

ويطلق عليه اسم قانون النسب الثابتة أو قانون بروست J.L Proust الذي وضعه عام ١٨٠١. وهو يبيِّن أن نسبة كتل العناصر في المركب النقي ثابتة. وبعبارة أخرى، عندما يتعين تركيب مادة نقية، فمن المؤكد معرفة تركيب أية عينة نقية أخرى من هذه المادة نفسها بصرف النظر عن مصدر هذه العينة أو طريقة تحضيرها. فعلى سبيل المثال، يدل تحليل ملح الطعام، كلوريد الصوديوم، النقي على أنه يحوي ٣٩,٣٤ بالمئة وزناً من الصوديوم و٦٠,٦٦ بالمئة من الكلور. أي:

$$\frac{\text{كتلة الصوديوم}}{\text{كتلة الكلور}} = \frac{٣٩,٣٤}{٦٠,٦٦} = \text{ثابت}$$

ويستنتج من ذلك أن العناصر تتحد بنسب كتلية ثابتة لتكوين المركبات الكيمياوية.

وقد بقي قانون النسب الثابتة معمولاً به في القرن الثامن عشر على الرغم من الجدل الحاد الذي أثاره هذا القانون. وكان أكبر معارضيه الفرنسي برتوليه Berthollet [ر] الذي اعتمد على تجارب قام بها غيره في المختبر، وكان يعتقد أن تركيب المركب يتوقف على ظروف تحضيره. وقد دحض بروست أفكار برتوليه معتمداً على أمرين:

١- إن برْ توليه لم يستعمل في تجاربه، في أكثر الأحيان، مواد نقية بل استعمل محاليل أو أشابات أو مزائج أخرى.

٢ - إن النظرية الذرية التي وضعها دَلْتون John Dalton [ر] أيدت نتائج بروست التجريبية. وبقي قانون النسب الثابتة مقبولاً من دون نقاش مدة تزيد على القرن. ولكن من المعروف، في الوقت الحاضر، أن تركيب كثير من المواد الصلبة ليس ثابتاً بل يمكن أن يتغير ضمن مجال ضيق تبعاً لطريقة التحضير: ففي مركب كبريتيد الحديد مثلاً تراوح نسبة الحديد المئوية في التركيب بين ٦٣,٥ و ٦٠,١ ويعزى نقص الحديد في الجسم الصلب إلى الفراغات الشبكية في البلورات lattice vacancies. وللغالبية العظمى من المركبات تركيبٌ محدَّد، ويطلق على هذه المواد اسم الدلْتونيدات daltonides نسبة إلى دَلْتون، ولبعض المركبات في الحالة الصلبة تركيب غير ثابت نوعاً ما، ولهاأهمية خاصة وتدعى برتوليدات berthollides نسبة إلى برتوليه.

قانون النسب المضاعفة

اكتشفه دَلْتون عام ١٨٠٣ ويبين أنه عندما يتحد عنصران A و B في ظروف مختلفة لتكوين أكثر من مركب (AB و AB_2 مثلاً) فإن النسبة بين كتل أحد العناصر B التي تتحد مع كتلة ثابتة من العنصر الآخر A هي نسبة عددية بسيطة. فالكربون مثلاً يحترق بوجود زيادة من الأكسجين مكوّناً غازاً كثيفاً غير سام لا يشتعل noncombustible ويكوِّن، بوجود كمية محددة من الأكسجين، غازاً ساماً قابلاً للاشتعال. وتبيّن من تحليل هذين المركبين أن لكل من هذين الغازين تركيباً محدّداً. ففي الغاز الأول الذي يشتعل يتحد غرام واحد من الكربون مع ٢,٦٧ غرام من الأكسجين، أما في الغاز الثاني فيتحد غرام واحد من الكربون مع ١,٣٣ غرام من الأكسجين، أي إن نسبة كتلتي الأكسجين الذي يتحد مع الكتلة نفسها من الكربون هي:

$$\frac{٢,٦٧}{١,٣٣} = \frac{٢}{١} \quad \text{وهي نسبة بسيطة}$$

وتتحد المعادن metals، كالرصاص والحديد والنحاس مع الأكسجين مكوِّنة أكاسيد مختلفة. يبيِّن الجدول التالي بعضها مع بيان كتلة الأكسجين (مقدرة بالغرام) المتحدة مع ١٠٠ غرام من المعدن.

ويلاحظ من الجدول أن النسبة بين كتلتي الأكسجين المتحدتين مع كتلة ثابتة من العنصر المعدني نسبة عددية بسيطة.

قانون الأعداد المتناسبة أو قانون النسب المتكافئة

وينسب إلى الكيمياوي الألماني ريختر Jeremias Benjamin Richter (١٧٦٢-١٨٠٧).

إذا تفاعلت المادتان A و B (عناصر أو مركبات) إحداهما مع الأخرى وأمكن أن تتفاعل كل منهما مع مادة ثالثة C، فكمية معينة من C ستتفاعل مع كميتين مختلفتين من A وB وتكون نسبة كمية A المتفاعلة مع C إلى كمية B المتفاعلة مع C عدداً ما لا يكون عادة عدداً صحيحاً، ولتكن هذه النسبة ب. ولتكن بَ نسبة كمية A إلى كمية B عندما تتفاعلان مباشرة. فقانون الأعداد المتناسبة أو قانون النسب المتكافئة equivalent proportions يبيّن أن بَ تساوي ب أو أنها مضاعف بسيط لها أو جزء بسيط منها، أي بَ= ع ب، حيث ع عدد بسيط أو هو نسبة عددين صحيحين. فالنتروجين (A) والأكسجين (B) يتحدان مع

المعدن	الأكاسيد	كتلة الأكسجين (غرام)	النسبة بين كتلتي الأكسجين	تحويل النسبة إلى نسبة أصغر عددين صحيحين
الرصاص Pb	PbO	١,٨٠	١,٠٠	١
	PbO_2	٣,٦٠	٢,٠٠	٢
الحديد Fe	FeO	٢٩,٦	١,٠٠	٢
	Fe_2O_3	٤٤,٢	١,٥٠	٣
النحاس Cu	Cu_2O	١٢,٦	٠,٥٠٠	١
	CuO	٢٥,٢	١,٠٠	٢

الهدروجين كل على حدة ويكوّن أولهما النشادر (NH_3) ويكوّن الثاني الماء (H_2O). ويتحد غرام واحد من الهدروجين مع ٤,٦٦ غرام من النتروجين لتكوين النشادر، ومع ٨,٠ غرامات من الأكسجين لتكوين الماء.

فالنسبة ب تساوي $\frac{٤,٦٦}{٨,٠٠}$ = ٠,٥٨٣

أما النتروجين فيتحد مع الأكسجين ويكوّن عدة أكاسيد، منها NO على سبيل المثال، وتكون قيمة بَ وهي نسبة كتلة النتروجين في هذا الناتج إلى كتلة الأكسجين مساوية

$\frac{٢٨}{٣٢}$ = ٠,٨٧٥

وينتج وفق قانون الأعداد المتناسبة أن: ٠,٨٧٥ = ٠,٥٨٣ع حيث (ع) عدد صحيح أو نسبة عددين صحيحين. وتكون قيمة (ع) في هذه الحالة:

$\frac{٠,٨٧٥}{٠,٥٨٣}$ = $\frac{٣}{٢}$

أما من أجل مركبات الأكسجين الأخرى مع النتروجين، فتكون قيم (ع) مختلفة ولكنها جميعها تساوي نسبة عددين صحيحين.

قانون غاي-لوساك Gay- Laussac أو قانون الحجوم المتحدة

وقد وُضع عام ١٨٠٨، وهو يبين أن حجوم الغازات المتفاعلة أو الناتجة من هذا التفاعل تؤلف فيما بينها نسباً عددية بسيطة، على أن تقاس هذه الحجوم في الظروف نفسها من درجة الحرارة والضغط. فعلى سبيل المثال، يتفاعل حجمان من الهدروجين مع حجم واحد من الأكسجين لتكوين الماء، وعندما يتفاعل حجم واحد من H_2 مع حجم واحد من Cl_2 ينتج حجمان من غاز كلوريد الهدروجين HCl ويتفاعل ثلاثة حجوم من الهدروجين مع حجم واحد من النتروجين لتكوين حجمين من غاز النشادر NH_3.

وقد بيّن هذا القانون بكل وضوح أن الغازات تتبع نظاماً خاصاً في اتحادها أو تفككها. ولم يمكن تفسير هذا السلوك إلا بالفرضية التي وضعها الفيزيائي الإيطالي أفوغدرو [ر] Amadeo Avogadro عام ١٨١١ إذ افترض أن حجوماً متساوية (في الظروف نفسها من درجة الحرارة والضغط) تحوي العدد نفسه من الجزيئات، وأن جزيئات العناصر الغازية قد تحوي أكثر من ذرة واحدة. وقد أمكن التأكد من صحة هذه الفرضية بإجراء كثير من التجارب، وتعرف الفرضية اليوم بقانون أفوغدرو الذي أمكن به تفسير تجارب غاي-لوساك.

وبناء على قانون أفوغدرو فإن المول (الجزيء الغرامي) mole الواحد من أي غاز يشغل الحجم نفسه في ضغط ودرجة حرارة محددين، وهذا الحجم يساوي ٢٢,٤ لتر في الظروف المعيارية من الضغط ودرجة الحرارة (ضغط جوي واحد ودرجة حرارة صفر سلسيوس) ويسمى الحجم المولي (الجزيئي).

هيام بيرقدار

مراجع للاستزادة:

- موفق شخاشيرو، الكيمياء العامة واللاعضوية (منشورات جامعة دمشق، المطبعة الجديدة ١٩٨١-١٩٨٢)

-QUAGLIANO & VALLARINO, Chemistry, 3ed Edition (Prentice- Hall Inc. 1969).

-HOLUM BRADY, Fundamentals of Chemistry (John Wiley & Sons Inc. 1981).

■ الاتحادية

الاتحادية أو الفدرالية Fédéralisme نظرية ترى أن الاتحاد الحرّ بين أفراد البشر والجماعات والدول هو الشكل المثالي للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ومن خصائصها الاتجاه نحو إحلال علاقات التنسيق محل علاقات التبعية، أو على الأقل، تضييق نطاق هذه الأخيرة ما يمكن، وإحلال المشاركة محل الإكراه، والإقناع محل الأمر، والقانون محل القوة. والمظهر الأساسي لهذه النظرية هو التعددية، واتجاهها الأساسي التنسيق، والمبدأ الناظم لها هو التضامن. وإذا كان المبدأ الديمقراطي يهدف إلى الغاية نفسها، لأنه يتجه إلى إشراك الأفراد في تكوين القرارات التي تلزمهم، فإن الديمقراطية لا تعنى إلا بمشاركة الأفراد على أنهم أفراد. أما الفكرة الاتحادية فتتجه إلى تغليب مشاركة الجماعات والدول.

الاتحادية والسيادة

يذهب بعضهم إلى أن الاتحادية كشف أمريكي، والواقع أن هذا القول غير صحيح، لكن المصطلح ينطبق على صفة الدولة الاتحادية الحديثة التي أقرها مندوبو الولايات الأمريكية في فيلادلفية عام ١٧٨٧.

ولا يوجد في مؤلفات العصور القديمة مايشير إلى هذا الموضوع، أما في القرون الوسطى فثمة تحالفات اتحادية قامت في أوربة ولا سيما بين المدن، وقد ظهر هذا المفهوم واضحاً عند يوهانس ألتوسيوس [ر] للمرة الأولى بعد دراسته التجارب السويسرية والهولندية والامبراطورية الجرمانية المقدسة، وهو يَعدّ تأليف الاتحادات غاية كتابه الشهير «السياسة» (١٦٠٣-١٦١٠)، ويذهب فيه إلى أن النظام السياسي يتدرج من سلسلة اتحادات، تبدأ بالقرى والنقابات المهنية وتنتهي بالامبراطورية. ويمكن النظر إلى فكر ألتوسيوس هذا على أنه محاولة لتحويل مفهوم تسلسل الإقطاع إلى تسلسل دستوري معاصر.

وبعد انهيار الامبراطورية الجرمانية المقدسة قدمت مشروعات متعددة لتحل محلها حماية للسلم ولتوحيد الدول الأوربية، ومنها مشروعات الملك هنري الرابع ومستشاره دوق سولي Maximilien de Béthume, duc de Sully وكَنت Kant.

ويمكن تلمس شيء من الفكر الاتحادي في الجمهورية الاتحادية لمونتسكيو، وهو أول من استخلص ضرورة وجود حد أدنى من التجانس في أي نظام من هذا النوع.

وقد كان موضوع الاتحادية محل جدل وخلافات قانونية بسبب محاولة تحديد مصطلح «الحائز السيادة» بالمعنى التقليدي لنظرية الدولة التي قال بها بودان [ر] في كتاب «الجمهورية» عام ١٥٧٦، ذلك أن الدولة الحديثة قامت على مفهوم أساسي هو نظرية السيادة التي ابتدعها الفقهاء الفرنسيون في أواخر القرون الوسطى، وشهروها سلاحاً سياسياً لدعم الملكية وتعزيز مركزها في صراعها مع الامبراطورية والبابوية في الخارج، ومع نبلاء الإقطاع في الداخل، ولتمهيد السبيل لإقامة حكم مركزي قوي. ولهذه السيادة وجهان: السيادة الخارجية، وهي الاستقلال السياسي، أي عدم خضوع الدولة لغيرها، وحقها في تمثيل ذاتها والتصرف باسمها تجاه الدول الأخرى، والسيادة الداخلية وهي حق إصدار الأوامر إلى جميع الأفراد الخاضعين للدولة. والسيادة بهذا المعنى وحدة لاتقبل التجزئة ولا التنازل، ولم يتغير هذا المفهوم كثيراً بانهيار الملكية وقيام الثورة الفرنسية إذ حلت محل السيادة الملكية سيادةُ الأمة مع سائر النتائج التي ترتبت عليها. وهكذا فإن الدولة تتميز بوحدة المؤسسات الحكومية والدستورية، أو بمركز موحد للسلطة، ويطلق عليها اسم الدولة البسيطة أو الموحدة. وكان الجدل القانوني يدور بوجه عام حول التفريق بين اتحاد الدول والدولة الاتحادية. وكان معيار التمييز: أين تكمن «السيادة». فإذا حافظت العناصر المكونة للاتحاد على سيادتها قيل: إنه «اتحاد دول» أو إنه «دول متعاهدة» كما يذهب بعضهم، أما إذا كان الاتحاد هو صاحب «السيادة» فيقال إنه «دولة اتحادية» أو «دولة تعاهدية». ولم يكن ظهور هذا النمط الجديد للدولة، أي الدولة المركبة أو الاتحادية، وليد نظرة فلسفية أو محاكمة منطقية، بل جاء مصادفة ونتيجة مساومات وتسويات. فقد اجتمع في فيلادلفية ممثلو ولايات (دول) الاتحاد الأمريكي الثلاث عشرة للنظر في تعديل ميثاق الاتحاد بعد أن تبين أن هذا النظام لايصلح للبقاء، لأن السيادة التي احتفظت بها كل ولاية من الولايات الأعضاء كانت تعرقل، في الواقع، مصالح الطبقة البرجوازية الناشئة. وواجه المؤتمر عقبة كادت تتحطم فوقها كل رغبة في الاتحاد وهي سعي الدول الصغيرة إلى المساواة مع الدول الكبيرة بعدد سكانها في كل شأن من شؤون الاتحاد، وانتهى الأمر إلى الأخذ بوجهة نظر توفيقية، فاستقر رأي المؤتمرين على انتخاب مجلسين، يكون أحدهما بنسبة عدد السكان وهو مجلس النواب، والثاني مجلس الشيوخ، ويتكون على أساس عضوين اثنين لكل ولاية كبيرها وصغيرها، ولكل عضو منهما صوته المستقل، خلافاً لما كان عليه الحال في عهد الميثاق الاتحادي. وقد رضيت الدول الصغيرة بهذا الحل ووافقت على قبول الأحكام الأخرى، ولم يدر في خلد المؤتمرين أنهم بذلك قد أرسوا الأساس لنمط جديد من الاتحادات هو الدولة المركبة أو الاتحادية. ولم تلبث الخلافات أن دبت بين ولايات الشمال وولايات الجنوب، خشية ولايات الجنوب أن يقوم الاتحاد بإلغاء الرق، إلى جانب الخلاف على التعرفات الجمركية. فعندما أصدر الاتحاد قانوناً جديداً للتعرفة عدّ المجلس التشريعي المحلي في كارولينة الجنوبية هذا القانون مخالفاً للدستور، لأن الدستور يقضي ألا تستخدم التعرفة إلا لجباية الأموال الضرورية لصالح السلطة الاتحادية، لا لاتباع سياسة اقتصادية معينة. وقد وجدت هذه الولاية المسوغ لها في حق الولايات الأعضاء في إبطال أي قانون يصدره الكونغرس ورفض تطبيقه استناداً إلى نظرية قانونية أعدها كالهون J.C.Calhoun الذي كان نائباً للرئيس الأمريكي (١٨٢٥-١٨٣٢)، وكان محور هذه النظرية يدور حول وحدة السيادة وعدم قابليتها للتجزئة. فالسيادة لا تقبل التجزئة بطبيعتها لأنها إرادة مجتمع سياسي، وعلى ذلك يمكن في الأمة الاتحادية توزيع السلطات بين الاتحاد والدول الأعضاء فيه، أما السيادة فلا يمكن أن تكون إلا للاتحاد أو للدول الأعضاء. وفي الحالة موضوع البحث فإن السيادة هي من حق الدول الأعضاء (الولايات) والتاريخ يؤيد ذلك، ولا سيما في تصديق هذه الدول للدستور.

وعندما أصر الاتحاد على موقفه اقترح كالهون أن يصدر القانون على صورة تعديل دستوري، فإذا ما أقر هذا الاقتراح يجب على الدولة (الولاية) القبول بتصرف السلطة الاتحادية أو الانسحاب من الاتحاد. ويقول كالهون: «لايمكن معرفة إرادة جماعة إلا بعد أن يؤخذ بالحسبان أغلبية كل من الزمر الرئيسة

التي تؤلف هذه الجماعة» أو بعبارة أخرى، كان كالهون ينظر إلى الولايات المتحدة نظرته إلى «الاتحادية القديمة» أي أنها اتحاد دول. وكان يشاركه في هذه الفكرة أكثر الأمريكيين ولاسيما سكان الجنوب من أنصار الرق.

مع أن كالهون استهدف بنظريته المذكورة حماية الجنوب من القوانين الاتحادية الصادرة وفق مصالح الشمال، فإن هذه النظرية سقطت بانتصار الشمال في الحرب الأهلية (١٨٦٠-١٨٦٥) وهيأ زوالها الطريق لاتحادية أوثق.

الدولة الاتحادية

في الدولة الاتحادية مراكز متعددة للسلطة خلافاً للدولة الموحدة «البسيطة» التي تتصف بوحدة مركز السلطة السياسية. وتضم تلك المراكز مركزاً عاماً أو مشتركاً هو «السلطة الاتحادية» ومراكز خاصة، هي السلطات المحلية. فللدولة الاتحادية دستور عام وهيئات اتحادية تشريعية وتنفيذية وقضائية يشمل اختصاصها جميع أنحاء الاتحاد. وإلى جانب ذلك دستور خاص لكل جزء سياسي من أجزاء الاتحاد مع هيئات تشريعية وتنفيذية وقضائية لايتعدى اختصاصها حدود ذلك الجزء، ومن هنا يقال إن هذه الدولة مركبة. وتتحقق هذه الظاهرة في الدولة الاتحادية التي يُعرِّفها بعض الباحثين بأنها اتحاد دول تخضع جزئياً لسلطة موحدة وتحتفظ جزئياً باستقلالها.

تنشأ الدولة الاتحادية بأحد أسلوبين: اتحاد بالتجمع، وهو أن تتحد دول كانت في الأصل مستقلة وتنتظم في دولة اتحادية كالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السويسري وألمانية الاتحادية وكندا واسترالية واتحاد جنوب إفريقية، واتحاد بالتفكك وينتج عن تفكك دولة بسيطة موحدة إلى عدة دويلات تنتظم في اتحاد يجمعها كما حدث في الاتحاد السوفييتي والبرازيل والأرجنتين والمكسيك. ويلاحظ أن الرابطة الاتحادية في الصورة الثانية أقوى منها في الصورة الأولى وأوثق لأن الدول في الحالة الأولى تنتظم بإرادتها، وكانت في الأصل مستقلة ذات سيادة فتحرص على أن تضيق اختصاصات السلطة الاتحادية إلى أضيق الحدود لتحتفظ لنفسها بقدر أوسع من الحرية في العمل.

وللدولة الاتحادية طابع مزدوج، أي أنها تتمتع في آن واحد، بمظاهر وحدة الدولة وبمظاهر الاستقلال في الدويلات الأعضاء.

مظاهر الوحدة في الدولة الاتحادية: تكون الدولة الاتحادية دولة واحدة في المجال الدولي من حيث وحدة الشخصية الدولية ووحدة الجنسية ووحدة الإقليم. فالدولة الاتحادية في نظر الدول الأخرى كتلة واحدة، شأنها شأن الدولة البسيطة. والدولة الاتحادية في نظر القانون الدستوري وحدة سياسية، لأنها تملك تنظيماً دستورياً كاملاً مقرراً بمقتضى الدستور الاتحادي. وللسلطة التشريعية الاتحادية إصدار تشريعات عامة توجه إلى رعايا الدويلات الأعضاء كافة، ولها كذلك سلطة الإدارة فيما يتعلق بالشؤون الداخلة في اختصاصها. وللدولة الاتحادية سلطة القضاء أيضاً، فلها محاكمها الخاصة، ولا سيما المحكمة العليا التي تبت في المنازعات التي قد تنشأ بين الدويلات الأعضاء، وفي جميع هذه الحالات تبدو الدولة الاتحادية كأنها دولة بسيطة موحدة.

مظاهر استقلال الدويلات الأعضاء: تضم الدولة الاتحادية عدداً من الدويلات لكل منها كيانه الخاص. فللدويلة العضو تنظيم دستوري تقيمه سلطتها المؤسسة فيها وهي تملك حرية تعديله ضمن القيود والحدود التي ينص عليها الدستور الاتحادي. ويكوِّن هذا التنظيم الدستوري الإقليمي نظاماً كاملاً يشتمل على كل الهيئات التي تتجلى فيها سلطة الدولة عامة، وعلى رأس هذه الدويلات حكام، بالمعنى الحقيقي للكلمة، يمارسون اختصاصاتهم في الحدود المرسومة في الدستور.

أسس التنظيم الاتحادي

الدولة الاتحادية هي اتحاد دول تخضع جزئياً لسلطة موحدة وتحتفظ جزئياً باستقلالها. ويتم التوفيق بين الأمرين بالأخذ بمبدأين هما: مبدأ المشاركة ومبدأ الاستقلال.

مبدأ المشاركة: ومضمونه أن تشارك الدويلات الأعضاء على قدم المساواة في اتخاذ القرارات التي تُلزم الاتحاد كله. وتطبيقاً لمبدأ المشاركة فإن جميع الدول الاتحادية بلا استثناء تأخذ بنظام المجلسين في تكوين السلطة التشريعية، فيمثل أحد المجلسين الدويلات الأعضاء على قدم المساواة بصرف النظر عن اتساع رقعتها أو عدد سكانها، ويمثل الآخر مجموع سكان الدولة الاتحادية، وتتمثل فيه بوجه غير مباشر الدويلات الأعضاء تبعاً لعدد سكانها.

والأصل في الدولة الاتحادية أن يتمتع المجلسان بسلطات متساوية، أي إنه ما من قانون يمكن أن يصدر إلا بعد إقراره من المجلسين. ويترتب على ذلك نظرياً أن بإمكان عدد من الدويلات الصغيرة التكتل في مجلس الدويلات فتحول دون اتخاذ قرار في موضوع ما. وإذا كانت المساواة هي القاعدة فيما يتعلق بممارسة السلطة التشريعية فإن لهذه القاعدة استثناء في بعض القرارات الاتحادية. ففي دول كثيرة ولا سيما في الولايات المتحدة الأمريكية، يختص مجلس الشيوخ بالموافقة على بعض تصرفات رئيس الجمهورية، كحق عقد المعاهدات وإعلان الحرب وتعيين كبار الموظفين، ويمكن أن تكون تلك الموافقة لمصلحة مجلس النواب الذي يمثل الشعب بأسره. وإن بعض القرارات في سويسرة، كانتخاب المجلس الاتحادي وأعضاء المحكمة الاتحادية وحق العفو، تخضع لتصويت المجلسين معاً منعقدين في جمعية وطنية، ويكون الرجحان في هذه الحالة لمجلس النواب لأن عدد أعضائه مثْلا عدد أعضاء المجلس الذي يمثل الدويلات الأعضاء.

مبدأ الاستقلال أو الحكم الذاتي: ومقتضاه أن الدويلات الأعضاء تحتفظ بنوع من الاستقلال في إدارة شؤونها. فلها دساتيرها وهيئاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية، ومن الممكن أن تمارس هذه الدويلات، بمقتضى الدستور الاتحادي، بعض الاختصاصات في العلاقات الدولية تحت إشراف السلطة الاتحادية. بل يمكن أن تنضم هذه الدويلات في حالات استثنائية إلى المنظمات الدولية، فبعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي عضو في هيئة الأمم المتحدة (أوكرانية، روسية البيضاء). وإن قبول عضوية هذه الدويلات في المنظمات الدولية يقوم في واقع الأمر على بواعث سياسية، فقد أتاح ذلك للاتحاد السوفييتي ممارسة تعدد الأصوات في منظمة دولية لم يكن له فيها في البدء، كثيرمن الأنصار. والمهم أن الدويلات الأعضاء في الدولة الاتحادية تفقد من حيث المبدأ شخصيتها الدولية لأنها فقدت الخصائص الأساسية التي تتصف بها السلطة العامة، وهي أن تكون أصلية وعليا ومتفردة، وليس لها على إقليمها اختصاص مانع، إذ تمارس السلطة الاتحادية

اختصاصاتها الدستورية مباشرة على هذا الإقليم، ومن ذلك استخدام سلطة الإكراه. والدويلات الأعضاء لاتملك على إقليمها كامل الاختصاص، أي حق تحديد اختصاصاتها، إذ تتحدد هذه بالدستور الاتحادي، ويمكن تعديله وفق الإجراءات المنصوصة فيه، أي خلافاً لإرادتها عند الاقتضاء. فحرية الدويلات الأعضاء في العمل واختصاصاتها تتحدد بما جاء في الدستور. فإذا احتفظت هذه الدويلات لنفسها باسم الدولة كاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية فإنما يكون ذلك لاعتبارات سياسية.

توزيع الاختصاص في الدولة الاتحادية

يتم توزيع الاختصاص بين السلطة المركزية الاتحادية والدويلات الأعضاء بمقتضى الدستور الاتحادي. وليس ثمة قاعدة مسلم بها توزع الاختصاصات على هديها. والملاحظ اتباع أحد أسلوبين: في الأول منهما يحدد الدستور الاتحادي الشؤون التي تدخل في اختصاص السلطة المركزية حصراً ، ويترك ما عداها لاختصاص الدويلات الأعضاء مثل الولايات المتحدة وسويسرة، وفي الثاني يحدد كل ما يدخل في اختصاص الدويلات الأعضاء، ويبقى ما عدا ذلك من اختصاص السلطة الاتحادية.

وهذا الأسلوب الأخير شائع في الدساتير الاتحادية الحديثة وهو أكثر واقعية ويستجيب للتطورات الاقتصادية والاجتماعية، وقد أخذت به دساتير كندا والهند، وتأخذ به في العادة الاتحادات التي تتكون بالتفكك.

ويلاحظ أن التطور الحديث يدفع بالدول الاتحادية نحو المركزية النامية.

ولما كان لا بد أن تقوم المنازعات بسبب توزيع الاختصاصات فلا غنى عن إقامة قضاء يتولى البت فيها وفق أحكام الدستور الاتحادي. وهذه إحدى مهمات المحكمة العليا في الولايات المتحدة الأمريكية والجمهورية الاتحادية لألمانية الغربية وسائر الدول الاتحادية.

الاتحاد الدولي أو الدول المتعاهدة

يمكن تعريف الاتحادات الدولية بأنها اتحاد دول ذات سيادة، له سلطة مركزية تتمتع بالشخصية القانونية، وفيه هيئات دائمة. ومن خصائص هذه الاتحادات أنها تتألف من دول ذات سيادة تمثل في هيئة مركزية، ولكل دولة من حيث المبدأ صوت واحد، ولو أن الميثاق قد ينص على ما يخالف ذلك.

وهكذا تبرز أوجه التشابه بين الاتحاد الدولي الذي تتمتع فيه الهيئة المركزية بحقوق واسعة، والدولة الاتحادية التي تتراخى فيها الرابطة الاتحادية وتحتفظ الدويلات بحرية عمل واسعة، حتى ليكاد يصعب التمييز بينهما.

ومرد هذا التشابه في الواقع إلى أن الاتحادات الدولية كانت دائماً مرحلة انتقال، ومصيرها إلى الانحلال إذا تغلبت القوى النازعة إلى الانفصال، أو إلى اتحاد سياسي أوثق رباطاً يتخذ غالباً شكل الدولة الاتحادية كالولايات المتحدة الأمريكية وألمانية وسويسرة إذا تغلبت القوى النازعة إلى الوحدة. ومع ذلك فإن الفروق بين الدولة الاتحادية والاتحاد الدولي تبقى أساسية وجوهرية وفي مقدمتها:

ـ الدولة الاتحادية دولة واحدة على الصعيد الدولي، أما الاتحاد الدولي فيمكن أن يعترف له بالشخصية القانونية الدولية من دون أن يعترف له بصفة الدولة.

ـ تقوم الدولة الاتحادية على دستور في إطار القانون الداخلي، أما الاتحاد الدولي فيستمد وجوده من معاهدة أو من اتفاق دولي.

ـ في الدولة الاتحادية هيئة تشريعية تتألف من مجلسين تصدر قوانين تشمل جميع رعايا الدولة، وفيها سلطة تنفيذية يشمل اختصاصها جميع أنحاء الدولة. أما الاتحاد الدولي فله هيئة مركزية هي شبه مؤتمر دبلوماسي، يتألف من ممثلين من الدول الأعضاء وتنفذ قراراته عن طريق الدول الأعضاء وضمن أنظمتها الدستورية.

ـ لا يحق للدولة العضو في الدولة الاتحادية أن تنفصل عنها. أما في الاتحاد الدولي فلكل دولة عضو حق الانفصال إن رغبت، وحق الانسحاب هذا من الضوابط الأساسية التي تميز الاتحاد الدولي من الدولة الاتحادية.

الاتحادية في الوطن العربي

عرف الوطن العربي الاتحادية في شكل الاتحاد الدولي. ففي ٢٢ آذار ١٩٤٥ عقدت سبع دول عربية ميثاق جامعة الدول العربية [ر] وهي منظمة ذات توجه إقليمي قومي، ولم يلبث عدد الدول الأعضاء أن ارتفع إلى إحدى وعشرين دولة، تمتد من المحيط إلى الخليج.

وهذه الدول العربية جميعها أعضاء في منظمة الأمم المتحدة [ر] وهي أعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي [ر]. كما أن تسعاً من هذه الدول، وهي مصر والسودان والجزائر وليبية وتونس والصومال والمغرب وموريتانية وجيبوتي، أعضاء في منظمة الوحدة الإفريقية [ر]. وكل الدول العربية أعضاء في حركة عدم الانحياز.

وفي عام ١٩٥٨ وبعد قيام الجمهورية العربية المتحدة التي ضمت مصر وسورية، أقيم الاتحاد الهاشمي بين المملكتين الأردنية والعراقية، ولكنه انهار بانهيار النظام الملكي في العراق بثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

وفي الأول من أيلول عام ١٩٧١ أقر باستفتاء شعبي اتحاد بين أقطار سورية ومصر وليبية، نص دستوره على أنه دولة اتحادية، مع أنه كان اتحاداً دولياً يتسم دستوره بمرونة شديدة تتيح له النمو والتطور السريع باتجاه الدولة الاتحادية، ولكن تطور الأحداث السياسية بعد حرب تشرين ١٩٧٣ أدى إلى تجميده ثم انحلاله.

وفي ٢٥ أيار ١٩٨١، أعلن عن قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية، وقد ضم المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وقطر وعمان والبحرين.

وفي ١٦ شباط ١٩٨٩ أعلنت مصر والعراق والأردن والجمهورية العربية اليمنية تأسيس مجلس التعاون العربي.

وفي ١٧ منه، أي في اليوم التالي، أعلنت خمس دول عربية أخرى عن قيام اتحاد المغرب العربي، وهي المغرب وتونس والجزائر وليبية وموريتانية.

أما الوجه الثاني من الاتحادية، ويقصد بذلك الدولة الاتحادية، فالملاحظ أن انتشارها قليل في الوطن العربي. وفيما يلي نظرة سريعة على بعض المشروعات التي وضعت على أساس دولة اتحادية. فالمشروع الأول الذي لم يقدر له أن يرى النور كان مشروع الدستور الذي وضعه المؤتمر السوري في دورته الثانية، ففي ٧ آذار ١٩٢٠ اتخذ المؤتمر بالإجماع قراراً يؤكد استقلال سورية الطبيعية (سورية ولبنان والأردن وفلسطين)، مع رفض الادعاء الصهيوني بالوطن القومي، وتطبيق مبدأ اللامركزية الإدارية وإعطاء ضمانات لإقامة نظام خاص في لبنان، وإقامة حكومة مسؤولة أمام المؤتمر الذي عدّ نفسه مجلساً تأسيسياً ونيابياً في آن واحد، وتقديم عرش سورية للأمير فيصل بن الحسين، على أن تتم البيعة له يوم الثامن من آذار.

وكان المؤتمر قد قرر في ٦ آذار، بناء على طلب الأمير فيصل، شكل الدولة ووضع دستور للبلاد، فتألفت لجنة لوضع الدستور أنجزت مهمتها، وعرض المشروع على المؤتمر. وقبل أن تتم مناقشته فوجىء المؤتمر بإنذار الجنرال غورو وما تلا ذلك من أحداث انتهت بموقعة ميسلون واحتلال الجيش الفرنسي دمشق في ٢٤ تموز ١٩٢٠.

أما المشروع الثاني الذي قام كذلك على أساس دولة اتحادية، ولم يقدر له أن يرى النور فهو ميثاق ١٧ نيسان ١٩٦٣.

وقد توجهت الجهود لإقامة وحدة ثلاثية بين مصر وسورية والعراق بعد سقوط الجمهورية العراقية الأولى (٨ شباط ١٩٦٣) وانتهاء عهد الانفصال في سورية (٨ آذار ١٩٦٣)، وجرت في القاهرة محادثات على ثلاث مراحل بين ١٤ آذار و١٧ نيسان ١٩٦٣، انتهت بإعلان قيام دولة اتحادية برلمانية أساسها ميثاق ١٧ نيسان وحملت من جديد اسم الجمهورية العربية المتحدة، وهيئاتها الاتحادية هي مجلس الأمة ورئاسة الجمهورية ومجلس الوزراء.

وكانت ليبية قبل ذلك الدولة العربية الأولى التي قامت على أساس دولة اتحادية لمدة محدودة. فبعد انتهاء المعارك التي نشبت على الأراضي الليبية وأدت إلى تحريرها من قوات المحور تولت فرنسة إدارة ولاية فزّان، وتولت إنكلترة إدارة ولايتي طرابلس وبرقة. ثم تم الاعتراف باستقلال ليبية عام ١٩٥١، وكونت دولة اتحادية ملكية انضمت إلى جامعة الدول العربية عام ١٩٥٣.

وتألفت المملكة الليبية من ثلاث ولايات هي برقة وطرابلس الغرب وفزان، تولى فيها الملك محمد إدريس المهدي السنوسي بالاشتراك مع مجلس الأمة السلطة التشريعية. وكان مجلس الأمة يتكون من مجلسين: مجلس نواب ومجلس شيوخ. ويتألف مجلس النواب من نائب لكل عشرين ألفاً من السكان أو ما زاد على نصف هذا العدد ومدته أربع سنوات. أما مجلس الشيوخ فيتكون من عدد متساو من الأعضاء لكل ولاية بصرف النظر عن مساحتها وعدد سكانها ويكون لكل ولاية ثمانية أعضاء يعين الملك نصفهم، وتقوم المجالس التشريعية المحلية بانتخاب الباقين. وهناك محكمة عليا تؤلف من رئيس وقضاة يعينون بمرسوم. وقد استمر النظام الاتحادي حتى عام ١٩٦٣ حين عدل الدستور وتحولت ليبية إلى دولة بسيطة. ومع الفاتح من أيلول ١٩٦٩ أطاحت القوات المسلحة بالنظام الملكي وأعلنت جمهورية هي الجماهيرية العربية الليبية.

وفي الوقت الراهن ثمة دولة عربية واحدة تتخذ الشكل الاتحادي هي دولة الإمارات العربية المتحدة. وقد صدر دستورها المؤقت النافذ في ٢ كانون الأول ١٩٧١.

ويتألف الاتحاد من إمارات: أبو ظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين والفجيرة ورأس الخيمة وملحقاتها. وتتألف السلطات الاتحادية من المجلس الأعلى للاتحاد، وهو السلطة العليا، ويتألف من حكام جميع الإمارات أو من يقوم مقامهم عند غيابهم. ولكل إمارة صوت واحد في مداولات المجلس. وتصدر قرارات المجلس الأعلى في المسائل الكلية بأغلبية خمسة أعضاء على أن يكون بينها صوتا إمارتي أبو ظبي ودبي. أما قرارات المجلس في المسائل الإجرائية، وتحددها اللائحة الداخلية، فتصدر بأكثرية الأصوات.

ينتخب المجلس الأعلى من بين أعضائه رئيساً للاتحاد ونائباً للرئيس، ومدة كل منهما خمس سنوات، ويجوز إعادة انتخاب أي منهما. ويتولى مجلس الوزراء الاتحادي بوصفه الهيئة التنفيذية للاتحاد، وتحت رقابة رئيس الاتحاد والمجلس الأعلى، تصريف جميع الشؤون الداخلية والخارجية التي يختص بها الاتحاد وينص عليها الدستور، وتنفرد كل إمارة بكل مالا يقع في اختصاص الهيئات الاتحادية.

ولاتحاد الإمارات مجلس وطني اتحادي يمثل السكان ويتألف من أربعين عضواً، وتوزع مقاعده بين الإمارات على الوجه التالي: ٨ لكل من أبو ظبي ودبي، و٦ لكل من الشارقة ورأس الخيمة، و٤ لكل من عجمان وأم القيوين والفجيرة. ولكل إمارة أن تحدد طريقة اختيار من يمثلها من مواطنيها.

وللاتحاد كذلك محكمة اتحادية عليا تتألف من رئيس وعدد من القضاة لا يزيد على خمسة يعينون بمرسوم يصدره رئيس الاتحاد بعد موافقة المجلس الأعلى.

كمال غالي

■ الأتربة النادرة

الأتربة النادرة terres rares أكاسيد متماثلة جداً لسلسلة من العناصر المعدنية تضم أربعة عشر عنصراً تلي عنصر اللانتانيوم، وتنتهي باللوتسيوم بدءاً من العدد الذري ٥٨ وحتى ٧١.

وهي عناصر دعيت قديماً «المعادن الترابية النادرة» مع أنها ليست كلها نادرة، إذ إن بعضها أكثر انتشاراً في الطبيعة من الرصاص، وقد احتفظت بتسميتها هذه مع أنها تصنف اليوم باسم العناصر اللانتانيدية نسبة إلى أول عناصرها وهو اللانتانيوم (La) كما يشار إليها أحياناً باسم العناصر الانتقالية الداخلية. وقد وسمت قبل بداية القرن التاسع عشر بالندرة وارتفاع الثمن، إذ لم تكن تستدعي اهتمام إلا قلة من العلماء لم يكن عددهم يتجاوز في العالم آنذاك مئتي عالم، ثم تضافرت الجهود تدريجياً، وازداد توجه الأنظار إلى هذه الأتربة لسبر أغوار عناصرها على الصعيد التجريبي بغية فصل بعضها عن بعض من جهة، وتبيُّن خواصها الفيزيائية والكيمياوية من جهة أخرى.

تتضمن السلسلة اللانتانيدية أربعة عشر عنصراً يُرمز إليها عموماً بـ(Ln) ولم تعرف بنيتها الإلكترونية معرفةً جيدة، وقد اعتُمدت بنية اللانتانيوم الإلكترونية $5d^1 6s^2$ أساساً لها، وافتُرض البدء بالملء الإلكتروني بالسِّريوم وانتهاءً باللوتسْيوم Lu الذي يحوي أربعة عشر إلكتروناً في المدار 4f (انظر الجدول). ومع أن الاختلاف بين هذه العناصر يكمن في ملء سوية الطاقة الداخلية 4f، إلا أنها تتميز بخواص كيمياوية متقاربة.

وتغلب على هذه العناصر في مركباتها حالة الأكسدة «+٣»، وتظهر في بعضها الحالتان «+٢» و «+٤». وتعد الحالة «+٣» الحالة الوحيدة الأكثر ثباتاً في اللانتانيوم والغادولينيوم

اسم العنصر	الرمز والعدد الذري	ملء f	أرقام الأكسدة
لانتانيوم Lantanium	$_{57}La$	$4f^0$	٣
سيريوم Cerium	$_{58}Ce$	$4f^1$	٣، ٤
براسيوديميوم Praseodymium	$_{59}Pr$	$4f^2$	٣، ٤
نيوديميوم Neodymium	$_{60}Nd$	$4f^3$	٢، ٣، ٤،
بروميثيوم Promethium	$_{61}Pm$	$4f^1$	٢، ٣
ساماريوم Samarium	$_{62}Sm$	$4f^5$	٢، ٣
أوروبيوم Europium	$_{63}Eu$	$4f^6$	٣
غادولينيوم Gadolinium	$_{64}Gd$	$4f^7$	٣
تربيوم Terbium	$_{65}Tb$	$4f^8$	٣، ٤
ديسبروسيوم Dysprosium	$_{66}Dy$	$4f^9$	٣، ٤
هولميوم Holmium	$_{67}Ho$	$4f^{10}$	٣
إربيوم Erbium	$_{68}Er$	$4f^{11}$	٣
ثوليوم Thulium	$_{69}Tm$	$4f^{12}$	٢، ٣
إتربيوم Ytterbium	$_{70}Yb$	$4f^{13}$	٢، ٣
لوتسيوم Lutetium	$_{71}Lu$	$4f^{14}$	٣

عناصر الأتربة النادرة. (يدل رقم الأكسدة الموجب على عدد الإلكترونات التي يخسرها العنصر)

واللوتسيوم لأنها تتوافق مع شغور المدار المحط 4f فيها وامتلائها إلى النصف ثم امتلائها الكامل. وتميل العناصر اللانتانيدية إلى التوضع في الفلزات التي تتبلور أخيراً على السطح بدءاً من المُهْل (الصهارة) magma ، نتيجةً لكبر شواردها (أيوناتها) ولذا تصادف في ضرب من حجر الصوان هو البغماتيت pegmatite .

وتستخرج العناصر اللانتانيدية الخفيفة خصوصاً من «المونازيت» المكون غالباً من فوسفات التوريوم والسريوم وغيرهما، أما العناصر اللانتانيدية الثقيلة فتستخرج من الغادولينيت $Fe\ Be_2\ Y_2\ Si_2\ O_{10}$.

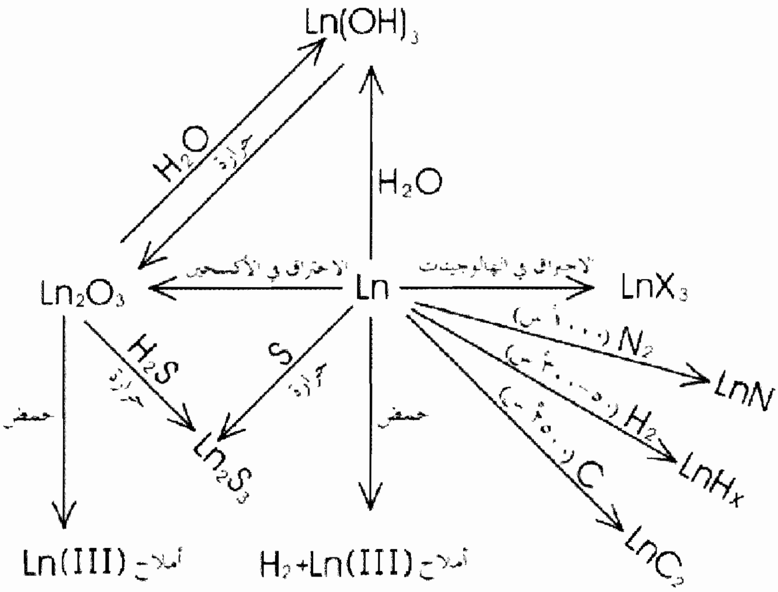
وتنحصر درجات انصهار هذه العناصر بين ٨٢٤ْ س في الإترّبيوم (Yb) و١٦٥٢ْ س في اللوتسيوم (Lu) . ومع أنها تُعدُّ من المعادن إلا أنها ليست على درجة عالية من الجودة في صفاتها الميكانيكية وفي نقلها الحراري والكهربائي . وهذه العناصر ذات لون أبيض فضي، وتبقى الثقيلة من هذه العناصر لامعةً في الدرجات العادية من الحرارة، أما الخفيفة منها فلا تلبث أن تكسوها طبقة من الأكسيد .

وتشبه العناصر الأولى منها الكلسيوم في خواصه الكيمياوية، ولكن هذه الخواص تتبدل كلما ازداد العدد الذري فيها شيئاً فشيئاً حتى تقارب خواص الألمنيوم . ومع ذلك فإن جميع عناصرها تُكوّن هدروكسيدات شاردية صيغتها العامة $Ln\ (OH)_3$ ، وهي أقل أساسيةً من هدروكسيد الكلسيوم، لكنها أكثر أساسيةً من هدروكسيد الألمنيوم، وتتفكك كربوناتها ونتراتها بالحرارة إلى الأكاسيد الموافقة بسهولة أكبر مما هي في أملاح الكلسيوم الموافقة .

إن أكاسيد الزمرة اللانتانيدية (Ln_2O_3) ثابتة جداً حرارياً ، وهي تتكون في درجات حرارة عالية وتتميز بمقاومتها الشديدة للحرارة refractory وتتناقص أنصاف أقطارها الشاردية من السريوم (Ce^{3+}) إلى اللوتسيوم (Lu^{3+}) وهكذا يصبح $Ce\ (OH)_3$ أقواها أساسيةً و$Lu(OH)_3$ أضعفها أساسيةً .

وينفرد السّريوم عن باقي أترابه بتفاعليْن لم يظهرا في الشكل، يتحد في أحدهما بالفلور ليكوّن CeF_4 ويتحد في الثاني بالأكسجين ليعطي CeO_2 .

أما أملاح العناصر اللانتانيدية فعديمة



تفاعلات العناصر اللانتانيدية (Ln = ذرة لانتانيدية).

الانحلال في الماء، وهي تشبه أملاح العناصر القلوية الترابية مع اختلاف طفيف فيما يتعلق بملح الكبريتات المنحل. وتبدو بعض الشوارد اللانتانيدية الثلاثية ملوَّنةً سواءً أكانت صلبةً أم منحلة، ويبدو أن اللون يعود إلى عدد الإلكترونات الحرة في المدارات (4f). وأن شوارد العناصر التي يحتوي فيها المدار (f) على (x) إلكتروناً تتلون بلون شوارد العناصر التي يحتوي فيها المدار (f) على (١٤ ـ x) إلكتروناً.

وتتصف الشوارد اللانتانيدية بمغناطيسية (طردية) مسايرة paramagnetic باستثناء ذات المدار $4f^0$ أو المدار $4f^{14}$ ؛ وللعناصر اللانتانيدية ومشتقاتها تطبيقات عملية محدودة، فالسريوم مثلاً يدخل في بعض الأشابات (السبائك الخليطة) مثل فولاذ السريوم مكوّناً مايدعى حديدي السريوم لصنع أحجار القداحات، وتستعمل بعض أكاسيد السريوم لتلوين الزجاج.

عبد المجيد البلخي

مراجع للاستزادة:

- R B. HESLOP et P.L.ROBINSON, Chimie inorganique (Flammarion scienees 1977)

■ الإتربيوم ← الأتربة النادرة

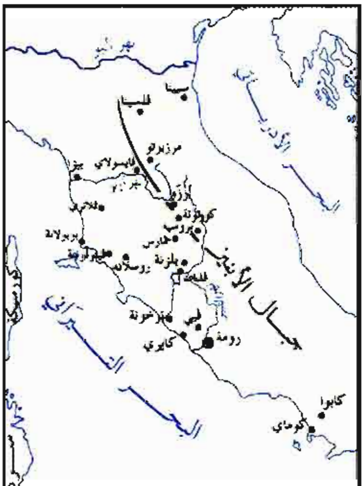
■ الإتروسكيون

الإتروسكيون Etruscans شعب قديم سكن منطقة إترورية الإيطالية (بين نهر التيبر ونهر آرنو غربي جبال الأبنين وجنوبيها). وبلغت حضارته أوج ازدهارها واتساعها في القرن السادس قبل الميلاد. وقد اقتبس الرومان الكثير من حضارة هذا الشعب الذي تمكنوا من إخضاعه وطمس آثاره بعد صراع مديد. وكان للإتروسكيين دور كبير في تاريخ شبه الجزيرة الإيطالية من بداية القرن السابع قبل الميلاد حتى نهاية العصر الجمهوري في رومة، إلا أن سيطرتهم السياسية التي كادت توحد إيطالية كلها أخذت تنحسر شيئاً فشيئاً منذ القرن الخامس ق.م مع مزاحمة الإغريق والقرطاجيين، ثم الرومان، إلى أن زالت تماماً بسقوط آخر معاقل الإتروسكيين أمام ضربات الفيالق الرومانية في معركة سنتينيوم Sentenium سنة ١٩٥ ق.م.

على أن التراث الإتروسكي، مع كل ما حظي به من اهتمام الدارسين منذ القرن الثامن عشر، لا يزال يكتنفه شئ من الغموض إلى اليوم، ولايزال أصل الإتروسكيين ولغتهم وتاريخهم السياسي موضع جدل وبحث. وربما كانت رومة المسؤول الأول عن إخفاء معالم تلك الحضارة للتدمير الشديد الذي ألحقته قواتها بالمدن الإتروسكية، ومحاولة كتابها إغفال ذكر هؤلاء في حولياتهم، بل إن منهم من يعد الإتروسكيين مستعمرين بكل معنى الكلمة.

أصل الإتروسكيين

يطلق الإتروسكيون على أنفسهم اسم «راسِنّا» Rasenna أو Rasna ويدعوهم الإغريق باسم «التورنيين» Tyrrhenoi أو «التورسنيين» Tyorsenoi ويسميهم الرومان «التوسكيين» Tuscé أو «الإتروسكيين» Etrusci، ويكاد المؤرخون القدامى يجمعون على أن الإتروسكيين هم من اللوديين سكان مقاطعة لودية في آسيا الصغرى، على قول هيرودس، وأن قسماً من شعب لودية اضطر إلى النزوح عن وطنه بسبب مجاعة كبيرة في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقد غادر هؤلاء ميناء سميرنة (إزمير اليوم) بزعامة أمير منهم اسمه تورنوس بن آتيس، وهاموا على وجوههم في البحر زمناً إلى أن ألقوا مراسيهم عند سواحل إيطالية الوسطى، في أرض الأمبريين (نسبة إلى أمبرية) حيث أسسوا مدناً جديدة، وانتسبوا فيها إلى أميرهم فسماهم الإغريق التورنيين في حين نسبهم الكتاب الرومان إلى موطنهم الأول فسموهم لوديين، ومن هؤلاء الكتاب فرجيل Vergil وهوراشيوس Horatius وأوفيد Ovide (القرن الأول ق.م)، كما دعوهم توسكيين نسبة إلى توسكانة، وإتروسكيين نسبة إلى إترورية وهي المقاطعة التي تألقت فيها حضارة هذا الشعب في القرن السابع قبل الميلاد. وثمة مؤرخون يرفضون هذه الرواية، وفيهم المؤرخ الإغريقي ديونيسوس الهاليكارناسي (ت سنة ٨ ق.م)، ويقول هؤلاء إن الإتروسكيين هم شعب إيطالي محلي من أحفاد سكان توسكانة، وهذا ما يفسر انفرادهم بلغة وحضارة ومعتقدات تخصهم وحدهم، ولم يتمكن الباحثون إلى اليوم من إعطاء الجواب الكافي بهذا الصدد، ومنهم من يزعم أنهم من الشرق وأنهم تسربوا إلى إيطالية عن طريق الألب. ويزيد في غموض هذه المسألة أن اللغة الإتروسكية ـ على ندرة ما يعرف عنها ـ تختلف كثيراً عن لغات شعوب إيطالية الأخرى، وفيها عناصر من أسرة اللغات الهندية ـ الأوربية، إلا أن تركيبها غامض وحروف كتابتها بائدة، وربما كانت لها صلة بلغات شعوب بحر إيجة قبل العصر



الأماكن المهمّة في إترورية

الهليني، وقد بادت هذه اللغة بسبب طغيان اللغة اللاتينية. وما تبقى من الوثائق الإتروسكية النادرة مكتوب بحروف إغريقية يسهل تحليلها ويصعب تفسيرها، ومعظمها يطرق موضوعات دينية أو جنازية قصيرة. ومن جملة الوثائق التي عثر عليها نصب في جزيرة لمنوس، إحدى جزر الأرخبيل الإيجي، عليه كتابة إتروسكية، يرجع إلى القرن السابع قبل الميلاد، وقد يكون دليلاً على أن الإتروسكيين جاؤوا من آسيا الصغرى، وأن بعض سفنهم رسا في تلك الجزيرة زمناً قبل أن يواصل إبحاره غرباً.وفي هذه الحالة يكون تاريخ هجرتهم هو القرن الثامن ق.م وليس الثالث عشر ق. م كما يقول هيرودس. ومن الأدلة الأخرى التي تشير إلى أصل الإتروسكيين الشرقي السمة الشرقية التي وسمت تراثهم وعاداتهم ومعتقداتهم الدينية، ومنها مكانة المرأة في الأسرة

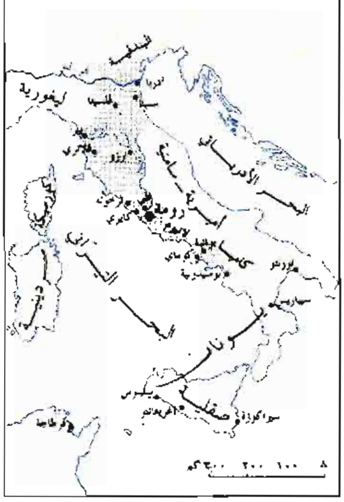
والمجتمع التي تماثل ما كانت عليه في المجتمع الكنعاني والنبطي والتدمري، ومنها كذلك اعتقادهم بدين مُنزل دونت تعاليمه في كتب مقدسة، واعتقادهم بالعرافة والتنبؤ وفحص كبد الضحية لمعرفة المستقبل، على نهج بلدان المشرق القديمة.

نهضة الإتروسكيين وانحطاطهم

من المتعذر ترتيب تاريخ الإتروسكيين مفصلاً في غياب الوثائق والأساطير التي توارثها هذا الشعب، ولندرة ما تشير إليه الكتابات الإغريقية والرومانية. وكل ما يعرف عنهم أن بلادهم كانت تتألف من مدن ـ دويلات مستقلة أقامت فيما بينها تحالفاً دينياً وسياسياً كان له أثره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وأنهم ظهروا في توسكانة (إترورية) في مطلع القرن السابع ق.م وراحوا يمدون نفوذهم شيئاً فشيئاً على المناطق المجاورة، ويشيدون المدن الحصينة، وينشطون زراعياً وصناعياً وتجارياً. فسيطروا على منطقة لاتيوم في وسط إيطالية في العصر الملكي، ويعود إليهم فضل نشوء رومة التي غدت جسراً يربط شمالي إيطالية حيث يقيم الإتروسكيون بجنوبيها الذي كان الإغريق قد وفدوا إليه منذ القرن الثامن قبل الميلاد وأقاموا لهم فيه مستعمرات تجارية وزراعية. وقد استمر الإتروسكيون في زحفهم جنوباً حتى أدركوا ربوع كامبانية وأسسوا مدينة كابوا Capua واصطدموا بالإغريق في هذه البقاع. ووجد الإتروسكيون في القرطاجيين حلفاء طبيعيين لهم فتعاونوا معهم على هزيمة الإغريق في معركة ألريه Aleria البحرية سنة ٥٣٥ ق.م (تسميها بعض المصادر آلالية Alalia). وتوقف توسع الإغريق مؤقتاً ، كما اضطروا إلى الجلاء عن قواعدهم في كورسيكة (قرشقة). وفي الوقت نفسه شرع الإتروسكيون في التوسع شمالاً حتى سهل البو وسواحل الأدرياتي، وهكذا بلغ الإتروسكيون في القرن السادس ق.م أوج سطوتهم عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، وشجعهم وضعهم هذا على محاولة طرد الإغريق من اليونان الكبرى (جنوبي إيطالية) فحاصروا مدينة كوماي Cumae. ولكن هيرو Hiero حاكم سيراكوزة (سرقوسة) الصقلية هب لنجدة المدينة وأجبر الإتروسكيين على رفع الحصار عنها سنة ٤٧٤ ق.م. وبعد تراجع الإتروسكيين عن مدينة كوماي بدء انحسارهم عن جنوبي إيطالية وأواسطها، ومع أنهم لم يخلوا جميع مواقعهم في كامبانية، فقد تعرضت مواصلاتهم مع الجنوب للخطر بسبب المتاعب التي كان يثيرها اللاتين (سكان مقاطعة لاتيوم ومركزها رومة). وعندما لجأ الإتروسكيون إلى تأمين مواصلاتهم بحراً انبرى لهم أسطول الإغريق بزعامة مدينة سيراكوزة فقضى على تجارتهم البحرية قضاء تاماً، كذلك استطاع اللاتين، الذين أخذ نجمهم في الصعود، مد سيطرتهم إلى أجزاء كبيرة من لاتيوم وكامبانية والاستيلاء على مدينة كابوا كبرى مدن كامبانية سنة ٤٢١ ق.م. وتفاقم الوضع تماماً بظهور الأقوام الغالية في أقصى الشمال الإيطالي، التي عبرت جبال الألب واكتسحت سهل البو وهددت إترورية نفسها. بل إن بعض قبائل الغال أوغلت حتى رومة ونهبتها سنة ٣٩٠ ق.م ولم يهل منتصف القرن الرابع ق. م حتى كان الإتروسكيون قد فقدوا جميع مواقعهم خارج إترورية، وانتقلت المبادأة إلى أيدي الرومان الذين أقاموا لأنفسهم دولة قوية في لاتيوم واستخدموها قاعدة انطلاق لتوسعهم اللاحق. واستطاعت رومة في المدة ما بين بداية القرن الرابع ومنتصف القرن الثالث قبل الميلاد إخضاع معظم المناطق التي كانت في يد الإتروسكيين والغاليين والإغريق، وتوحيد شبه الجزيرة الإيطالية بزعامتها. ولم يفد الإتروسكيين تحالفهم مع بعض شعوب إيطالية القديمة كالسامنيين (من أقوام إيطالية الوسطى) للحد من السيطرة الرومانية المتنامية، فسقطت مدنهم الواحدة تلو الأخرى، واضطر بعضها إلى الدخول في حلف مع رومة ولا سيما المدن الشمالية منها، التي كانت قد بلغت أوج ازدهارها. وفي المرحلة الأخيرة من تاريخ الإتروسكيين فقدت إترورية استقلالها السياسي بعد معركة سنتينيوم (١٩٥ ق.م) واندمجت في الاتحاد الإيطالي الروماني مع احتفاظها بطابعها ولغتها، ثم ألحقت برومة إلحاقاً تاماً في بداية القرن الأول ق.م، وحملت سماتها وحقوق المواطنة فيها.

يرجع بعض المؤرخين أسباب غلبة رومة واندحار الإتروسكيين ثم غيابهم عن صفحات التاريخ إلى عدم وجود وحدة نافذة بين مدنهم المختلفة. فقد كانت إترورية تتألف من اتحاد مدن ـ دويلات مستقلة ومتنافسة فيما بينها، وكان سكانها يتألفون من طبقة فقيرة جلها من سكان إيطالية القدماء، وطبقة موسرة حاكمة من

شبه جزيرة إيطالية في القرن الخامس ق . م.



الإتروسكيين. ويعد المؤرخون ١٢ـ١٥ مدينة ـ دويلة إتروسكية هي الأكثر شهرة في الاتحاد الإتروسكي ومنها:

أرزّو Arezzo (أرّتيوم Arretium) وبلزنة (فولسيني Volsinii وهي فلزنة اليوم) وروسلانة Rusellana (روسل اليوم Roselle) وبروزية Perusia (بروجية اليوم Perugia) وبوبولانة Pupulana (بوبولونية Populonia) وكايري Caere (سرفتوري Cervetori) وترخونة Tarchuna (تركوينية Tarquinia) وخمارس Chamars (كلوسيوم Clusium أو كيوزي Chuisi) وكورتونة Cortona وفلخة Velch (فولتشي Vulchi) وفلسينا Felsina (بولونية اليوم Bologna) وفايسولاي Faesulae (فيسولي Fiesole قرب فلورنسة) وفلاتري Velathri (فولتيرا Volterra) وفيي Veii (فيو Veio) وفيتولونية Vetulonia. ولعل هذه المدن كانت من قبل قرى يقطنها سكان إيطالية القدماء ثم تحولت في أواخر عصر الحديد (القرنين ٨ و٧ ق.م) إلى مدن مزدهرة.

وكانت هذه المدن ـ الدويلات عواصم إقليمية للإتروسكيين ويحكم كلاً منها ملك يحمل لقب «لوكومون» أي شيخ القبيلة، وبيده السلطات السياسية والعسكرية والدينية.

وتقول الروايات إن رومولوس ـ مؤسس رومة ـ كان يحمل هذا اللقب، كما حمله الملك الإتروسكي ترقوينس الأول قبل أن يصبح أول ملك إتروسكي يحكم رومة (٦١٦ ـ ٥٧٨ ق.م). وقد خضعت رومة لسلالة هذا الملك حتى

عام ٥١٠ ق.م عندما طرد منها الملك ترقوينس سوبيربوس وغدت جمهورية. كذلك شهدت المدن الإتروسكية، تطوراً جديداً في نظام حكمها، وتبنت النظام الجمهوري تدريجياً، فيما عدا مدينة فيو التي تقع على مسافة ٢١ كم شمال رومة، والتي خاضت معها صراعاً مريراً دام زهاء قرن، وانتهى بسقوط المدينة في يد الدكتاتور الروماني كاميلوس بعد حصار عشرة أعوام (٤٠٥ ـ ٣٩٥ ق.م) فنهبها وأحرقها. وأدى سقوط مدينة فيو إلى سلسلة من الكوارث حلت بمدن الإتروسكيين الأخرى التي آل أمرها إلى السقوط بيد رومة وحلفائها اللاتين.

كان لكل مدينة إتروسكية مجلس يمثل أسرها الأرستقراطية. وينتخب مجلس المدينة رئيساً من أعضائه يطلقون عليه لقب رلات بورثنه Purthne Zilath أي «حاكم المدينة». وكانت المدن الإتروسكية المختلفة توفد ممثلين عنها إلى مدينة بلزنة في وقت محدد من كل سنة، وينعقد مجلس الممثلين هذا بالقرب من المعبد المخصص للإلهة فولتومنة ويناقشون قضاياهم ومصالحهم المشتركة بعد أداء الواجبات الدينية. وفي القرن السادس قبل الميلاد، عندما بلغ الإتروسكيون أوج ازدهارهم وعظمتهم، عمدوا إلى انتخاب حاكم عام يمثل اتحادهم، ويملك صلاحيات التفاوض مع الأطراف الخارجية، واتخاذ القرار في قضايا السلم والحرب، ووضع الخطط. ولا تعد توجيهاته ملزمة إلا بموافقة جميع مدن الاتحاد. وفي الأوقات الحرجة، عندما يتهدد الشعب الإتروسكي خطر شديد، كانوا يضعون قواتهم بإمرة قائد عام منهم يعاونه ضباط أركان من مختلف المدن. ولكن الإتروسكيين لم ينجحوا أبداً في تحقيق وحدة من أي نوع، أو في إزالة التناقضات بينهم، وعلى الرغم من اضمحلال نفوذهم السياسي فقد حافظوا على تأثيرهم الحضاري في المجتمع الروماني في شتى الميادين، ومنها اقتباس الرومان أنظمة الحكم عنهم، فأطلق الرومان لقب (لوكومون) على من يرث صلاحيات الملك، ثم اقتصرت مهامه، بعد التحول إلى النظام الجمهوري، على الشؤون الدينية. وكان موكب اللوكومون الإتروسكي يضم حرساً يحملون فؤوساً ذات حدين وترمز لسلطة الحاكم. وقد جعل الرومان هذه الفأس رمزاً لسلطان بعض حكامهم كالدكتاتور والقناصل وقادة الفرسان. وقد عرفت بعض جوانب التنظيم العسكري عند الإتروسكيين من إناء برونزي محفوظ في متحف مدينة بولونية، ويعود إلى القرن الخامس ق.م وقد رسمت على هذا الإناء أشكال تمثل جيشاً في حالة المسير، ويأتي الفرسان في المقدمة ثم يليهم المشاة الخفيفو التسلح، ثم المسلحون بأسلحة ثقيلة. أما لباس جندي المشاة فيتألف من ثوب مختصر إلى الركبتين ومن بيضة (خوذة) تقي رأسه ووجهه على نحو ما كان شائعاً لدى الإغريق، وأما سلاحه فيتألف من الفأس المزدوجة والسيف والمزراق والرمح ومجن مستدير يتقي به الجندي ضربات العدو. وكان الإتروسكيون يخصون القائد المنتصر بموكب نصر ديني الطابع، فيطلون جسده بالزنجفر الأحمر (أكسيد الرصاص)، ويحيطون عنقه بسلسلة تحمل تعويذة ذهبية، ويتوجونه بإكليل من ذهب على هيئة غصن سنديان، ويخلعون عليه حلة حمراء، وفي يده صولجان من عاج عليه نسر باسط جناحيه. وقد اقتبس الرومان فيما بعد جل هذه المراسم في مواكب النصر التي كانوا يقيمونها.

الحضارة الإتروسكية

تختلف الحضارة الإتروسكية، من نواح عدة، عما كانت عليه لدى الأقوام التي عاشت في شبه الجزيرة الإيطالية في عصري البرونز الحديث والحديد الأول (١٢٢٥ ـ ٥٠٠ ق.م). ومن العسير حداً تحديد مظاهرها جميعاً لندرة الوثائق والمصادر من جهة، وغموض اللغة الإتروسكية التي لم تحل رموز كتابتها حلاً مقنعاً إلى اليوم، من جهة أخرى. ومع أن العثور على مئات المدافن الإتروسكية ودراسة محتوياتها منذ منتصف القرن التاسع عشر قد ألقى بعض الضوء على السمات العامة لهذه الحضارة فلا تزال جوانب كثيرة منها مجهولة تماماً .

المجتمع: يمكن القول إن الإتروسكيين أقاموا حضارة مدينية في عصر كانت شعوب إيطالية الأخرى تعيش فيه حياة الرعي والزراعة البدائية، وإن المجتمع الإتروسكي في المدينة ـ الدويلة كان يقوم على نظام طبقي يضم فئات متباينة المهام والمكانة. وقد ظهر هذا المجتمع بملامحه المميزة منذ منتصف القرن السابع ق.م وكان يضم طبقة أرستقراطية موسرة من التجار والملاك والعسكريين ورجال الدين، ويعيش أفرادها في قلاع وقصور حصينة فوق المرتفعات. كما يضم طبقة متوسطة من حرفيين ووسطاء وغيرهم، وطبقة دنيا من العبيد والأقنان من أقوام الشعوب المقهورة التي خضعت للإتروسكيين، وكان كل هؤلاء يسكنون المدن والأرياف، ويلزمون بدفع الضرائب والقيام بأعمال السخرة كبناء الأسوار ومد القنوات والعمل في المناجم والمزارع وفي قصور الأرستقراطيين والحكام، وكان عددهم كبيراً جداً. وكانت لكل مدينة من مدن الإتروسكيين مؤسساتها السياسية والدينية، ولها جيش نظامي.

الاقتصاد: عاشت المدن الإتروسكية حياة مترفة نسبياً، وكان اقتصادها يقوم على الزراعة والصناعة والتجارة. وتذكر المصادر أن إترورية اشتهرت بخصب تربتها ووفرة غلالها، وكانت تزرع الحبوب والأشجار المثمرة والخضراوات، ويندر أن يكون ثمة حقل غير مستثمر فيها، وكانت تصدر ما يفيض عن حاجاتها إلى المدن الأخرى وتتبادل معها منتجاتها. وقد اشتهرت خمور إترورية في مختلف أرجاء حوض البحر المتوسط وكان الإتروسكيون متفوقين على سكان لاتيوم في ميدان زراعة الكرمة وصناعة الخمور. كما عرف الإتروسكيون زراعة الكتان ونسجه وكان لهم في هذا الميدان باع طويل. ويعزو الشاعر اللاتيني «أوفيد» مهارة الإتروسكيين في الزراعة إلى علاقاتهم مع بلاد المشرق ولا سيما قرطاجة التي اشتهر خبراؤها ومهندسوها بمهاراتهم، ومنهم القائد القرطاجي «ماجون» (ق٣ ق.م) الذي صنف موسوعة زراعية ضخمة ذاع صيتها، واهتم بها الرومان فترجموها إلى اللاتينية كما ترجمها الإغريق إلى اليونانية.

وإلى جانب الزراعة تفوق الإتروسكيون في أعمال التعدين ومعالجة الحديد، ومع ما تزخر به إترورية من خامات الحديد والنحاس فقد سعى الإتروسكيون إلى وضع يدهم على جزيرة إلبة وتوفير موارد إضافية لصناعتهم، وقد اشتهرت بأعمال المعادن كل من بوبولونية وفتولونية الواقعتين على البر الإيطالي إزاء جزيرة «إلبة». كذلك ذاعت شهرة مدن إتروسكية أخرى بمسكوكاتها من الحديد والبرونز والحلي الذهبية والفضية واشتهر بعضها بصناعة الخزف والفخار. وقد حافظت المدن الإتروسكية على تفوقها الزراعي والصناعي بعد خضوعها لرومة. وتذكر المصادر أن المدن الإترورية زودت حملة القائد سيبيون الإفريقي التي أعدها لمهاجمة قرطاجة سنة ٢٠٥ ق.م، بالقمح والمؤن الضرورية للجيش والأسطول وبالعتاد والأسلحة المختلفة كالدروع

والخوذ والرماح والفؤوس والمعاول والأجران والمعالف والرحى والخشب اللازم لصنع المراكب.

أما التجارة فقد سارت جنباً إلى جنب مع التوسع الإتروسكي في شبه الجزيرة وبلغت أوج ازدهارها في أواخر القرن السابع ق.م، وكانت علاقاتها التجارية مزدهرة مع منطقتي اللاتيوم وكامبانية خاصة. وبعد أن أسس الإتروسكيون مدينة كابوا في كامبانية،جنوبي إيطالية، اتسعت تجارتهم حتى شملت مناطق اليونان الكبرى ولا سيما صقلية عن طريق بوسيدونية بوابة الإغريق في جنوبي إيطالية. وتدل اللقى الأثرية التي عثر عليها في المدافن الإتروسكية على أن الإتروسكيين أقاموا علاقات تجارية واسعة مع بلاد اليونان القارية وبقية بلدان الحوض الشرقي للبحر المتوسط ومصر وقرطاجة.

الديانة: لا يمكن فهم الحضارة الإتروسكية من دون اعتبار لحقيقة أنها عاصرت الحضارة الإغريقية وعاشت معها جنباً إلى جنب، وأنها كانت على اتصال وثيق ومباشر بالعالم الإغريقي، و اكتسبت منه الكثير من المفاهيم والعادات والمهارات. إلا أن الإتروسكيين، كغيرهم من شعوب إيطالية القديمة، لم يسهموا إسهاماً مباشراً في تطور الفكر الإغريقي، وحافظوا في كثير من أوجه تفكيرهم على طابعهم الشرقي وعلى ثقافة المشرق والبحر المتوسط، ولا سيما في معتقداتهم الأولى. وتظهر هذه الحقيقة جلية في ديانتهم التي آمنت بالقدر قوة خفية وبالحياة الآخرة، مع اعتقادهم بإمكانية التنبؤ بما سيحدث، ومعرفة إرادة الآلهة عن طريق تحري أحشاء الحيوانات ومراقبة البرق والرعد وطيران الطيور. وثمة كتب مقدسة للإتروسكيين تتضمن وصايا الإلهة فيغويه Vigoe ونصف الإله تاجس Tages، وتبحث في شعائر العبادة والقدر والإنسان والعالم الآخر وتدبير شؤون العالم. أما آلهة الإتروسكيين وطرائق العبادة وترتيب المعابد ومذابحها فتماثل نظائرها عند الإغريق والرومان. ومن آلهتهم تينية (جوبتر) ويوني (جونو) ومنرفة (مينرفة) وتوران (فينوس) وماريس (مارس) وستلاند (فولكان) ونيثوس (نبتون) وفوفلوس (باخوس) وكاثا (الشمس). وثمة أنصاف آلهة وآلهة للعالم السفلي وشياطين يخشونها ومنهم شارو (شارون) الذي كانوا يعتقدون أنه يسكن عالم ما وراء القبر. وكان الإتروسكيون يعنون عناية خاصة بشعائر الموت ويقيمون الأضرحة الضخمة ويزودونها بالأدوات المنزلية والأسلحة وكل ما يلزم لاستعمال الميت في الحياة الأخرى.

محمد محفل ، محمد وليد الجلاد

اللغة الإتروسكية: كان الإتروسكيون يتحدثون لغة تختلف في أصولها عن لغات الأقوام الإيطالية القديمة وهي ليست من أسرة اللغات الهندية الأوربية على الرغم من تأثرها بها. وبعد سيادة رومة حلت اللغة اللاتينية محل اللغة الإتروسكية التي اضمحلت تدريجياً إلى أن غدت لغة ميتة. وأغلب النصوص الإتروسكية التي عثر عليها هي نقوش جنازية في المدافن، ويرجع أغلبها إلى القرن السابع ق.م، وقد ساعدت هذه النصوص الكثيرة بمقارنتها مع بعض النصوص اللاتينية المستعملة في مناسبات مماثلة، على توفير معلومات مهمة، على ضآلتها، كمعرفة شجرات نسب بعض الأسر الإتروسكية والرومانية والتقاليد الدينية والتنظيم السياسي، كما ساعدت على كشف بعض جوانب اللغة الإتروسكية التي لا تزال صعبة الحل. وثمة ثلاثة نصوص مطولة نسبياً باللغة الإتروسكية تمثل مكانة خاصة عند علماء اللغات القديمة، وأول هذه النصوص وأطولها مكتوب على لفيفة كتانية قطعت إلى عصائب تشبه العصائب التي استعملت في تحنيط مومياء مصري، وهي محفوظة في أحد متاحف مدينة زغرب في كرواتية اليوغوسلافية، ويتألف النص من ٢٨١ سطراً ويضم ١٣٠٠ كلمة. أما النص الثاني فمنقوش على قطعة من الآجر عثر عليها في مدينة كابوا في كامبانية ويتألف من ٤٦ سطراً. أما النص الثالث فهو نقش شاهدة مدفن نذرية عثر عليها في مدينة بروجيه. وقد عثر في عام ١٩٦٤ على نصين منقوشين من لوحين من ذهب، كما عثر كذلك على نموذج كبير من البرونز عليه نقش من ٤٥ كلمة ربما كانت إرشادات لشعائر دينية.

وقد غدا من الممكن اليوم قراءة الكتابات الإتروسكية، لأن الألفبائية الإتروسكية مشتقة بوجه أو بآخر من الألفبائية اليونانية (الصيغة الخلقيدونية على الأرجح) وتكتب من اليمين إلى اليسار كأغلب اللغات المشرقية واللغة اليونانية القديمة، وقد تكتب بعض نصوصها بالأسلوب المحراثي boustrophedon (أي إن اتجاه الكتابة يتبدل في كل سطر، فيكون السطر الأول من اليمين إلى اليسار والثاني من اليسار إلى اليمين وهكذا). وقد طرأت تعديلات كثيرة على أشكال الحروف وعددها وتركيب الكلمات والجمل بمرور الزمن إلى أن اتخذت صيغتها الأخيرة (الكلاسيكية) نحو سنة ٤٠٠ ق.م فصارت تتألف من عشرين حرفاً (أربعة صوائت وستة عشر ساكناً). ومع أن اللغة الإتروسكية ظلت متداولة قروناً عدة بعد ذلك، إلا أن الكتابة بحروفها توقفت في القرن الأول للميلاد. ولايعني فك رموز الأحرف أو قراءة الكلمات القدرة على فهم معناها، إذ لاتزال اللغة الإتروسكية مستعصية على الفهم على الرغم من مختلف الدراسات المقارنة للغة الإتروسكية مع مفردات اللغات القديمة المعروفة كاليونانية والمصرية والآشورية والكنعانية، ومنها اللغة البونية القرطاجية. وكل ما يمكن تأكيده في هذا المجال أن الإتروسكية تشبه اليونانية في تركيبها وتصريف بعض كلماتها، وأنها تضم مفردات وصيغاً مشتقة من لغات سكان إيطالية القدماء وأوربة الجنوبية، وأنها قد تكون متفرعة عن بعض لغات آسيا الصغرى القديمة أو الساحل السوري.

يحيى العريضي

الفن والعمارة: بقي الفن الإتروسكي مهملاً إلى الربع الأول من القرن العشرين. وكان مؤرخو الفن القديم يرون الفن الروماني متمماً للفن الإغريقي وتقليداً له، وأن الفن الإتروسكي لا يعدو كونه فناً هجيناً ساذجاً ومتفرعاً عما قدمه الإغريق. إلا أن الكشوف الأخيرة برهنت على غنى هذا الفن وأصالته وخروجه عن الكلاسيكية القديمة. ولا يمكن فهم مظاهر الفن والعمارة وغيرهما من أوجه الثقافة الأخرى عند الإتروسكيين منفصلة عن مثيلاتها في بقية مناطق البحر المتوسط المعاصرة لهم، ولا سيما بلاد اليونان ومستعمراتها في الشرق وفي إيطالية. ومما لاشك فيه أن للفن الإتروسكي سماته الخاصة وأنه تأثر بالأساليب الإيطالية المحلية وأنه أثر بدوره في تطور الفن عند الرومان. وقد مر الفن الإتروسكي في تطوره بمراحل ثلاث كالفن الإغريقي. فقد كانت الحقبة القديمة (٨٠٠ - ٤٧٥ ق.م)مرحلة ازدهار كبير للفن الإتروسكي حين ساد الاتحاد الإتروسكي وسط إيطالية والبحار المجاورة له، وكان للحرفيين الإغريق ومنتجاتهم أثرهم في إضفاء سمات خاصة. وفي العصر الهليني (٤٧٥-٢٠٠ق.م) انحسرت الهيمنةالإتروسكية تدريجياً وأخذ الفن الإتروسكي يبتعد عن

الأسلوب الإغريقي وتدنت قيمته الفنية. وعندما بدأت رومة توحد إيطالية في القرنين الرابع والثالث ق.م عاد التأثير الإغريقي الهليني يثبت وجوده مع تعديلات فرضتها المعتقدات الدينية الإتروسكية، وازدادت هذه الاتجاهات وضوحاً في أواخر العصر الهليني الروماني (٢٠٠ - ١ ق.م).

النحت: استعمل الإتروسكيون الحجر والطين النضيج (تراكوتا) والمعدن لإنتاج منحوتاتهم. ومعظمها سخر لغايات دينية كالمدافن والنواميس والمرمدات (جرار حفظ رماد الموتى) والنصب المقدمة نذوراً أو التي تزين المعابد. وقد عثر على مرمدات فخارية ذات أغطية برونزية ومرمدات على هيئة كوخ ريفي وعلى أقنعة جنازية تحمل زخارف بسيطة، كما عثر على مباخر وجرار وكؤوس فخارية ومعدنية نقشت عليها شخوص أو حيوانات أليفة أو متخيلة أو نقوش تمثل مشهداً أسرياً، وتعود جميعها إلى حقبة ما قبل التاريخ الأخيرة (القرنين ١٠ و٩ ق.م). أو القرنين الثامن والسابع ق.م ويبدو الأسلوب الإغريقي القديم بتفصيلاته القاسية واضحاً في المنحوتات القديمة كالقنطور الذي يحرس أحد مدافن مدينة فولتشي، وهو تمثال لمخلوق خرافي نصفه رجل ونصفه حصان (نحو ٦٠٠ ق.م)، كما يظهر التأثير الإيوني اللاحق في تمثال الرجل والمرأة المتكئين على أريكة من الطين النضيج على غطاء ناووس في مدينة كايري نحو (٥٠٠ ق.م)، أما أكثر المنحوتات إثارة فهي تماثيل الآلهة المصنوعة من الطين النضيج بالحجم الطبيعي كتمثال أبولو وهرمس (مركوري) وهرقل وغيرهم في سقف معبد في مدينة فيي أوائل القرن الخامس ق.م أما المنحوتات التي تعود إلى العصر الكلاسيكيّ الهليني فتمثلها مجموعة تماثيل من الطين النضيج في معبد ببرغي (نحو ٤٥٠ ق.م) وهي تمثل صراعاً بين أحد الآلهة وأحد العمالقة في حضور تينية ومنيرفة، وقد عثر في بعض الأضرحة التي تعود إلى العصر الهليني، على مئات النواويس الحجرية والمرمدات المنحوتة من الحجر المسامي أو الكلسي أو الطين النضيج أو المصنوعة من الفخار وعليها ألواح جانبية منقوشة بنحت نافر قليلاً، ولها أغطية تحمل نحتاً نصف بارز يتنوع ما بين أشكال هندسية غير متقنة ونماذج واقعية وفق الأسلوب الإغريقي الهليني، ولا سيما المنحوتات المتأخرة منها. وقد مهد هذا النوع من النحت لظهور الأسلوب الروماني الواقعي فيما بعد.

أما التماثيل البرونزية الكثيرة ومن كل العصور فتشهد على مهارة الإتروسكيين في معالجة البرونز وسبكه، ومعظمها من الحجم الصغير المقدم نذوراً وتمثل محاربين أو نساء أو آلهة، ومنها ما هو بالحجم الطبيعي أو على هيئة حيوان. ولكن ثمة خلاف حول من صنع تمثال الذئب الكبتولي (نحو ٥٠٠ ق.م) وتمثال شمايرا (ق ٥-٤ ق.م) وهل هم من الإتروسكيين أم من الإغريق في إترورية.

التصوير: صور الإتروسكيون رسومهم على جدران الأضرحة وسقوفها إما مباشرة أو بالجص. وقد عثر في مقبرة تركويني على الكثير من اللوحات الجدارية السليمة كما عثر على لوحات أخرى في فولتشي وفيي وكلوسيوم وآرتيوم. ومعظم الصور الإتروسكية باهتة اللون كامدة ومخططة بالأسود، وبشرة الرجال تضرب إلى الحمرة أما بشرة النساء فبيضاء. وثمة لوحة موجودة في ضريح الثيران (نحو ٥٣٠ ق.م) تمثل أحد مشاهد حرب طروادة وتصور «أخيل» وقد كمن لأمير طروادي يدعى ترويلوس على صهوة حصان أسطوري طويل. ولكن معظم لوحات الأضرحة القديمة تصور الحفلات والمآدب الجنازية للنبلاء الإتروسكيين، مثل لوحات ضريح أورغوس (أواخر القرن ٦ ق.م) التي تصور مشهد مصارعة ونوعاً من قتال المجالدة يبدو فيه أحد الرجال وقد ألبس كيساً على رأسه ويهاجمه كلب يثيره شخص آخر. أما اللوحات التي تعود إلى العصر الهليني فيطغى عليها التشاؤم والقسوة كما يبدو في لوحات ضريح فرانسواز في فولتشي (أواخر القرن ٤ ق. م)، وهي تصور أحداث الحروب الإتروسكية وذبح الأسرى الطرواديين، وكما يبدو من تكرار تصوير شيطان الموت الوحشي «توشولكا» بوجهه الأزرق المخيف، وإلهة الموت «لاسي» وإله الجحيم «شارو» وهم يرافقون الميت إلى عالم الجحيم المظلم.

الفخار: تبين مصنوعات الفخار التي عثر عليها في تركويني وكايري وفولتشي وغيرها مستوى الإتروسكيين الحضاري، وربما استورد الإتروسكيون الفخار المزين بالرسوم من بلاد الإغريق بكميات كبيرة منذ القرن الثامن أو أنهم نسخوا عنه مصنوعاتهم. ويحمل الخزف الملون من القرن السابع ق.م سمات الأسلوب الكورنثي الأول بألوانه السوداء التي تزين الزهريات وزجاجات العطر والأباريق وغيرها، وأما ما يعود منها إلى القرن السادس ق. م فيغلب عليه الأسلوب الأثيني بألوانه الحمراء بعد عام ٥٢٥ ق.م. ولكن المنتجات الإتروسكية لم تبلغ النماذج الإغريقية في مستواها.

العمارة: تعد المعابد الإتروسكية، التي لم يبق منها أي أثر كامل، خير مثال على ما بلغه فن العمارة عند الإتروسكيين وربما كانت المعابد الأولى مبنية من الآجر المجفف بالشمس ومن الخشب. ولم تظهر المعابد المبنية من الحجارة المربعة وفق طراز مميز إلا في القرن السادس ق.م، وهي تكثر في فيي وسيفنتيا وكاتسيلانا وأورفيتو وغيرها، وهي مشيدة على نمط المعابد الإغريقية ضمن سياج مسور، إلا أن اتجاه المعبد شمالي جنوبي وفقاً للتقليد الديني الإتروسكي، ويقام فوق مصطبة عالية، وهو مستطيل الشكل، أرضه من الحجر، وله رواق معمد واحد عميق يصعد إليه على درج، ولايمكن دخوله إلا من أمام، وله صفان من الأعمدة، وهي إما ملساء خالية من الزخرف وتستند إلى قاعدة مستديرة ويعلوها تاج توسكاني الطراز، أو مخددة ذات تيجان على النمط الإغريقي، وسقف المعبد على هيئة جملون بسطحين مائلين وواجهة مثلثة ومغطى بالقرميد، وعلى حافتيه ساترات فخارية بأشكال زخرفية أو رؤوس مخلوقات عجيبة، ومثلها أشكال فخارية تستر رؤوس الجسور الخشبية التي تؤلف هيكل السقف. أما جبهة المعبد العليا المثلثة فيغطيها نحت بارز فخاري ملون، وفي العهد الهليني (ق٤ ق.م)غطت المشاهد الملونة واجهات المعبد، وينفتح الرواق على ثلاث حجرات هياكل تحتوي على تماثيل ثلاثة من الآلهة، والوسطى منها هي الأكبر. وعلى الرغم من الشبه الكبير بين المعبدين الإتروسكي والإغريقي فالخلاف بينهما واضح في المواد المستعملة في البناء وفي الزخارف والنسب بين عناصر البناء. وقد اقتبس الرومان في تشييد معابدهم الكثير من قواعد البناء الإتروسكي، وخير مثال على ذلك معبد جوبتر الضخم في كبتول رومة الذي شيد عام ٥٠٩ ق.م، وتزعم المصادر أن النحات الإتروسكي فولكا من مدينة فيي هو الذي نحت تمثال زيوس فوق قوصرة معبد جوبتر، والذي يمثله واقفاً فوق عربة تجرها أربعة جياد. ولا تزال بعض آثار القوصرة قائمة إلى اليوم.

أما المساكن الإتروسكية فتدل الحفريات على وجود قصور للنبلاء تتألف من باحة داخلية تحيط بها الغرف والقاعات، وإلى جانبها بيوت للعامة موحدة البناء تتألف من غرف ثلاث ومدخل.

ويبدو أن الإتروسكيين اقتبسوا بناء العقود والقباب من موطنهم الأصلي ومن بحر إيجة. وقد وجدت مدافن من القرن السادس ق.م مسقوفة بنوع من الأقباء يدعى جشوة (مصطبة tamulus) وهي فردية أو أسرية تسمى «البيت ـ المقبرة» وقد طورت هذه المدافن فيما بعد فصارت تضم ممراً أو بهواً صغيراً تجتمع حوله غرف الدفن.

وكانت مدافن النبلاء من الإتروسكيين تميز من غيرها بواجهاتها المعمارية المقتبسة عن المعابد الهلينية مع استعارات محلية.

المدينة الإتروسكية: دمر الرومان جل المدن الإتروسكية، ثم درستها أحداث القرون اللاحقة فلم يبق من آثارها إلا النادر. وكان يعتقد أن المدن الإتروسكية القديمة كانت عشوائية البناء على نمط التجمعات الزراعية، ولكن الحفريات في بومبي كشفت عن مدينة إتروسكية منظمة من القرن السادس أو السابع ق. م يقوم بنيانها حول شارع عريض يؤلف شريانها الرئيس، ويمكن القول إنها كانت منظمة وفق مخطط الشوارع المتعامدة. ثم صار للمدن الإتروسكية في العصر الهليني بوابات ضخمة مزينة بمنحوتات، وظلت هذه البوابات مألوفة إلى ما بعد السيادة الرومانية حتى قيل إن قوس النصر الروماني لا يخرج عن كونه بوابة إتروسكية معدلة. وقد سبقت الإشارة إلى أشهر المدن الإتروسكية وأكثرها ازدهاراً، وما بقي من أسوارها ومدافنها ومعابدها أكبر شاهد على حضارة شعب حير العلماء والمؤرخين أصله ومنشؤه.

إلياس زبات، محمد وليد الجلاد

الموضوعات ذات الصلة:

إيطالية ـ رومة ـ قرطاجة.

مراجع للاستزادة:

- R. BLOCH, Le mystère étrusque (Paris 1956).

■ أتريو (موريس ـ) (١٨٨٣ـ١٩٥٥)

موريس أتريو Maurice Utrillo مصور فرنسي ولد في باريس وتوفي في داكس، وهو ابن لفنانة تعرف باسم سوزان فالادون Suzanne Valadon، كانت تمارس التصوير وتعمل في الوقت نفسه نموذجاً في محترفات الفنانين. ولم يُعرف أبوه، ومنحه اسمه صديق لأمه هو الناقد الإسباني ميغيل أتريو Miguel Utrillo Y Moline، الذي كان شخصية مرموقة في برشلونة.

تعوّد أتريو الشراب منذ حداثته وأدمنه، وعمل في أحد المصارف زمناً قصيراً وطرد لمجونه، وأدى إدمانه إلى إدخاله المستشفى عام ١٩٠٢.

وقد نصح الطبيب المعالج والدته بأن تشغله بالتصوير. واتجه أتريو نحو التصوير وراح ما بين ١٩٠٣ و١٩٠٦ يصور مناظر الطبيعة في ضواحي باريس، ولكن أسلوبه كان قاتماً وتغلب عليه المعاجين الكثيفة، ومع ذلك لفت عمله نظر أصحاب صالات العرض. وفي عام ١٩٠٧ تحول إلى الألوان المشرقة وأخذ يكثر من اللون الأبيض في رسومه. وقد أطلق على هذه المرحلة التي امتدت حتى مطلع ١٩١٥ من حياته الفنية اسم «المرحلة البيضاء» وقدم فيها بعض أفضل إنتاجه مما جلب له الثروة والشهرة، وبدأت لوحاته تدخل المعارض منذ ١٩٠٩.

لم يكن أتريو يميل كثيراً إلى الاختلاط في الأوساط الفنية، وكان يمضي الكثير من وقته في دور الشراب واللهو، وأدخل أحد المصحات عام ١٩١٢. وخرج بعد شهرين، ثم سافر إلى مقاطعة بريتاني وبعدها إلى كورسيكا حيث أنتج مجموعة كبيرة من الرسوم، وأقيم له عام ١٩١٣ معرض ضم أعماله الفنية. وتطور أسلوبه بعد ذلك بتأثير من والدته، واتجه نحو الألوان المشرقة والمساحات المغلقة. وقد لاقى معرضه عام ١٩١٩ نجاحاً كبيراً زاد في شهرته وغدا نجماً لامعاً في المحافل الفرنسية وفي خارجها. وكان بين أعماله، بعد ذلك، تصميم زخرفة مشاهد الباليه الروسية التي كان يخرجها دياغيليف Diaghilev [ر]. وقد منحته الحكومة الفرنسية وسام جوقة الشرف عام ١٩٢٨ . وأقيم في نيويورك عام ١٩٣٩ معرض لأعماله كان إقبال الجمهور عليه كبيراً، وأفردت له عام ١٩٥٠ قاعة خاصة في معرض السنتين (بينيالي) في البندقية. ورافق شهرته هذه تداول عدد كبير من اللوحات المزورة التي نسبت إليه وقد جرّت معها فضائح كثيرة.

استمر أتريو في حياة المجون والشراب والفوضى، وحاول الانتحار. وقد بدأت موهبته بالتراجع تدريجياً وفقدت رسومه أصالتها وشهرتها ولاسيما عندما أمسى يقتصر في أواخر أيامه على رسم البطاقات البريدية.

لايمكن تصنيف فن أتريو في أي من النزعات الفنية التي عاصرها، وقد حاول بعض النقاد ربطه بالفن الساذج [ر] لاهتمامه البالغ بالتفاصيل واختياره أشكالاً شعبية، ولكن تعليل هذا الربط لم يكن مقنعاً. والواقع أن أتريو كان عصامياً ولم يتلق تعليماً منتظماً ولكنه تأثر بنصائح والدته وتوجيهاتها وصديقه المصور كيزيه Quizet الذي كان يشاركه وحدته ويرسم معه في الشوارع في



السنوات الأولى من إنتاجه. وقد اقترب أسلوبه الأول من الانطباعية [ر]، وكان يحب أن ينسب فنه إلى سيسلي Sisley [ر]، إلا أنه تميز بأسلوب شخصي فيه مفهوم واضح للحيز، وللمنظور الصاعد تارة والهابط تارة أخرى، ولانحناءات الطرق وكتل المنازل مبتكراً على هذا النحو أسلوباً فنياً رائعاً يتوازى مع التكعيبية [ر].

ومن جهة أخرى، اتسمت موهبته بالقدرة البالغة على التعبير الذي كان يضفيه على جدران المنازل وبولعه بتكرار النوافذ السوداء والطرقات والأرصفة المقفرة وزوايا الشوارع المهجورة في الضواحي. ويذكر له توصله إلى حسّ شاعري عميق من شكل تافه لبناء عادي هو بناء مطعم الأرنب الرشيق Le Lapin Agile (١٩١٠) وتوصله إلى التعبير عن العظمة الكامنة في بناء كنيسة نوتردام دو شارتر Notre- Dame de Chartre وتتوزع أعمال أتريو حالياً بين عدد من متاحف أوربة والولايات المتحدة الأمريكية. وفي المتحف الوطني للفن الحديث في باريس مجموعة كبيرة من هذه الأعمال.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

-R. COUGHLAN, The Wine of Genius, A life of Maurice Utrillo (1952).

■ الإتريوم

الإتريوم Yttrium عنصر معدني يرافق عناصر الأتربة النادرة [ر] في الطبيعة، وهو ذو لون رمادي غامق وقابل للالتهاب عندما يكون مسحوقاً. رمزه الكيمياوي Y، وعدده الذري ٣٩، ووزنه الذري ٨٨,٩٠٥. اكتشفه يوهان غادولين J.Gadolin (١٧٦٠-١٨٥٢) عام ١٨٤٣ في فلز من السيليكات قرب إتِرْبي Ytterby في السويد، وسمي الفلز بعدئذ غادولينيت. ويستحصل الإتريوم حراً بإرجاع كلوريده اللامائي بالصوديوم أو بالتحليل الكهربائي لصهارة مزيج كلوريده مع الصوديوم. أما خواص الإتريوم الفيزيائية فهي وسط بين خواص الاسكنديوم [ر] واللانتانيوم من الأتربة النادرة. وتتلخص فيما يلي:

- الإلكترونات التكافؤ الخارجية: $4d^1 5S^2$؛
- نصف القطر الذري (أنغستروم): ١,٧٨
- نصف القطر الإيوني (الشاردي) (أنغستروم): ٠,٩٢؛
- الكتلةالحجمية (غ/سم³): ٥,٥١؛
- درجة الانصهار (سْ): نحو ١٥٢٢؛
- درجة الغليان (سْ): نحو ٣٣٣٨؛
- حرارة التبخر (حرة/ جزيء غرامي): ٥,٥١؛
- كمون التأين (إلكترون فلط): ٦,٦ الأول و١٢,٣ الثاني و٢٠,٤ الثالث.

مركبات الإتريوم: يمتص الإتريوم الهدروجين مكوّناً هدريد الإتريوم YH_2 القريب جداً في خواصه من المعادن، ويعد أحد هدريدات الإتريوم أفضل نقلاً للكهرباء من المعدن الصرف نفسه. ويكوّن الإتريوم مع الأكسجين أكسيد الإتريوم Y_2O_3. ويحضّر هذا الأكسيد بتسخين المعدن مباشرة مع الأكسجين أو بتسخين أملاحه كالنترات والكبريتات والحماضات oxalates أو بتسخين الهدروكسيدات. كذلك يكوّن الإتريوم هدروكسيدات بلورية بإضافة محلول خلات الإتريوم إلى محلول هدروكسيد البوتاسيوم الساخن، ويكوّن الإتريوم مع الفلور فلوريداً بسيطاً صيغته YF_3 يصادف في الطبيعة، كما يكوّن الإتريوم فلوريدات معقدة مثل «سداسي فلور إتريوم ثلاثي البوتاسيوم» $K_3[YF_6]$ ويكوّن مع الكلور «كلوريد الإتريوم المائي» $YCl_3 . 6H_2O$، ويكوّن مع اليود «يوديد الإتريوم اللامائي» YI_3 المتميع ذا اللون الأصفر الفاتح.

ومن أملاح الإتريوم كربونات الإتريوم المائية البسيطة $Y_2(CO_3)_3 . 3H_2O$ وبورات الإتريوم YBO_3، وزرنيخات الإتريوم $YASO_4$ وفوسفات الإتريوم YPO_4 وهو ملح يصادف في الطبيعة ويعد أهم مصدر للإتريوم، ونترات الإتريوم المائية $(NO_3)_3 . 6H_2O$ وكبريتات الإتريوم المائية $Y_2(SO_4)_3 . 8H_2O$

ويكون الإتريوم أملاحاً معقدة مثل «معقد سداسي سيانو كوبلت ثلاثي الإتريوم» $Y_3[Co(CN)_6]$ و«معقد رباعي سيانو بلاتين ثنائي الإتريوم المائي» $Y_2[Pt(CN)_4]_3.21H_2O$ الذي يفقد لونه الأحمر بالتسخين في الهواء في الدرجة ٤٨ْس.

تطبيقات الإتريوم الصناعية: للإتريوم تطبيقات صناعية مهمة. يكوّن الإتريوم ضروب فسفور الإتريوم الأوربيومي المنشط active الذي يصدر عند تهيجه بالإلكترونات ضوءاً أحمر نقياً زاهياً، ويستفاد من هذه الخاصة في تصنيع شاشات التلفزيون. ولأحجار خماسي حديدات الإتريوم $Y_3Fe_5O_{12}$ وأحجار أخرى تطبيقات مهمة في أجهزة الرادار والاتصالات، وذلك بسبب نقلها الموجات القصيرة بأقل ضياع ممكن. ويستعمل الإتريوم في صناعة المفاعلات الذرية بسبب ضآلة تفاعله مع النترونات.

محمد علي المنجد

مراجع للاستزادة:

- هيام بيرقدار، كيمياء المعادن الانتقالية «الكيمياء اللاعضوية ٣» (جامعة دمشق ١٩٨٣)

- J.C. BAILAR & H.J.EMELEUS. Comprehensive Inorganic Chemistry. vol.3. (Pergamon Press, Oxford 1973).

■ أتسزْ بن أوق

(٠٠٠-٤٧١هـ / ٠٠٠-١٠٧٨م)

الملك المعظم، أحد القادة الرؤساء التركمانيين، وأول من ملك دمشق من الأتراك، فأزال حكم الفاطميين عنها وقطع الخطبة للمستنصر الفاطمي، وأقامها للخليفة العباسي القائم بأمر الله.

قدم أتسز إلى بلاد الشام في حملة السلطان السلجوقي ألب أرسلان [ر] لإعادتها إلى طاعة العباسيين، وبقي فيها مع بعض القادة الترك بعد عودة ألب أرسلان إلى خراسان، وحاول، ومعه إخوته في جيش صغير، احتلال دمشق، غير أنهم أخفقوا في مسعاهم بعد حصار لم يدم طويلاً. واستعان به الفاطميون على أيام المستنصر لإخضاع بعض القبائل الثائرة في فلسطين لقاء مكافأة لم ترضه، فعمل لمصلحته الشخصية، وقام باحتلال بيت المقدس والرملة وطبرية وغيرها من أعمال فلسطين، وأقام عليها عمالاً. ولم يسكت الفاطميون عن خروجه عليهم، فأرسلوا حملة تلو أخرى لحربه، وخرج أمير الجيوش بدر الجمالي [ر] على رأس إحدى الحملات فاستطاع استرداد الرملة وبيت المقدس إلا أن أتسز استعاد المدينتين بعد حين.

أعاد أتسز المحاولة لفتح دمشق، فحاصرها وأتلف زرعها لسنوات متتالية، فغلت الأسعار وأصاب أهلها ضيق شديد، فجلا أكثرهم عنها، واستحكم الخلاف بين العسكر المصامدة (من البربر الفاطميين) وزعماء الأحداث [ر] من أهلها (وهم جماعات متطوعة من أهالي دمشق لها تنظيمها)، فهرب والي دمشق الفاطمي معلّى بن حيدرة، وتسلّم الحكم فيها إمام عسكره الأمير رزين الدولة المصمودي.

نجح أتسز في دخول دمشق صلحاً عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م، فقطع الخطبة للفاطميين وأقامها للعباسيين وأوقع بأهلها أذى كبيراً انتقاماً منهم لوقوفهم في وجهه تلك المدة الطويلة ومناصرتهم الفاطميين عليه، لكنه شجع الفلاحين وأهل الريف على الزراعة وإعمار البلاد مما أدى إلى رخص الأسعار.

لم يكتف أتسز بدمشق، فاتجه شمالاً واستولى على مناطق كثيرة وأساء أخوه، الذي كان على رأس الحملة، معاملة السكان وعمد إلى السلب والنهب وتخريب المحاصيل، وتصدى لجيشه صاحب حلب نصر بن محمود المرداسي فرده على أعقابه مهزوماً.

وغرّ أتسز ما عنده من قوة، فعزم على احتلال مصر، فقصدها في جمع عظيم من الجند. ولكن

الجيوش الفاطمية بقيادة بدر الجمالي ألحقت به هزيمة منكرة وقتل من جيشه خلق عظيم كان فيهم أخوه، وارتد أتسز في نفر قليل من أصحابه إلى دمشق التي ظلت على ولائها له، في حين خرجت القدس عن طاعته، فدخلها بعد حصار قصير، وأعمل السيف في أهلها، وظلت المدينة في طاعته حتى جاءت حملة فاطمية بقيادة ناصر الدولة الجيوشي عام ٤٧١هـ / ١٠٧٨م، فاستولت على المدينة ومناطق فلسطين الأخرى والأردن، ثم توجهت إلى دمشق وحاصرتها.

كان تتش بن ألب أرسلان [ر] في هذه الأثناء يحاصر حلب بعد أن أقطعه أخوه السلطان ملكشاه [ر] بلاد الشام وما يفتحه من نواحيها، فاستنجد به أتسز لرد الفاطميين عن دمشق، واضطر ناصر الدولة الجيوشي إلى رفع الحصار والانسحاب. وتخلص تتش، بعد حين، من أتسز وأخيه فأمر بقتلهما وانفرد بحكم الشام.

كانت مدة ملك أتسز بدمشق ثلاث سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين يوماً.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الأحداث ـ ألب أرسلان ـ بدر الجمالي ـ ملكشاه.

مراجع للاستزادة:

ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (القاهرة، المؤسسة المصرية العامة ١٩٧٠).
ـ ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان (دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية).

أتشيلو (باولو دي دونو، الملقب ـ)

(١٣٩٧-١٤٧٥)

مصور إيطالي اسمه الأصلي باولو دي دونو Paolo Di Dono، أما أتشيلو Uccello، أي العصفور، فلقب عرف به لولعه الشديد بالطيور.

ولد أتشيلو في براتوفيتشيو قرب فلورنسة. ويذكر عنه أنه كان في العاشرة من عمره حين بدأ يعمل في مشغل المعمار والنحات المعروف لورنزو غيبرتي L.Ghiberti [ر] الذي أنجز أبواب معمدانية فلورنسة. وفي عام ١٤١٤ انضم أتشيلو إلى جمعية المصورين المعروفة باسم «جمعية القديس لوقا». وفي السنة التي تلتها غدا عضواً في جمعية «مديتشي وسبيزيالي الفنية» التي كان ينتمي إليها مصورو فلورنسة. ولاتذكر المراجع إلا القليل عن إعداده المبكر وتدريبه الفني.

رحل أتشيلو إلى البندقية في عام ١٤٢٥ وظل فيها نحو ست سنوات يعمل في فسيفساء (موزاييك) كاتدرائية القديس مرقص San Marco. ثم عاد إلى فلورنسة وصور فيما بين ١٤٤٠ و١٤٤٥ في دير سان منيانو San Miniano «مشاهد من حياة الرهبنة»، كما صور في كنيسة سانتا ماريا نوفيلا Santa Maria Novella «مشاهد من قصة الخلق». وله في كاتدرائية فلورنسة لوحة جصية من لون واحد للسير جون هوكوود Sir John Hawkwood على جواده، وهو قائد قوات فلورنسة في أواخر القرن الرابع عشر. وقد أنجز في عام ١٤٤٣ عمله «رؤوس الأنبياء الأربعة» حول ساعة حائط ضخمة في الكاتدرائية وشارك في تصميم وتنفيذ نافذتين من الزجاج في قبة الكاتدرائية. وفي عام ١٤٤٧ قام برحلة قصيرة إلى بادوا Padova بدعوة من صديقه النحات المشهور دوناتيلو Donatello [ر] عاد بعدها إلى فلورنسة حيث أنجز رائعته «الطوفان» في كنيسة سانتا ماريا نوفيلا. ومن أهم أعماله، بعد هذه الحقبة، «معركة سان رومانو» التي أنجزها في عام ١٤٥٠، وهي تمثل انتصار القوات الفلورنسية بقيادة نيكولو دي تولينتينو Nicollo Di Tolentino على قوات سيينا Siena في عام ١٤٣٢، وقد صورت المعركة على ثلاثة ألواح لتزين قصر آل مديتشي Medici، وهذا العمل موزع اليوم بين المتحف الوطني في لندن [ر]، ومتحف اللوفر [ر] ومتحف أوفيزي Uffizi [ر] في فلورنسة. ومن أهم أعماله كذلك «أسطورة هوستي» أو «أسطورة القربان» واللوحة موجودة اليوم في متحف أوربينو.

يعدّ أتشيلو أحد أوائل المصورين الفلورنسيين الذين أبدوا اهتماماً كبيراً بثورة المنظور التي جاء بها كل من مازاتشيو Masaccio [ر] ودوناتيلو. ففي عام ١٤٢٥ عندما كان أتشيلو يعمل في البندقية، وحين شارك، فيما بعد، أندريا دل كاستانيو Andrea Del Castanio، ظهر لديه اهتمام بمعالجة الأشكال الحديثة لعصر النهضة في مقاطعة توسكانية، وكان آنئذ من أصحاب نظرية المنظور المتحمّسين لها. وكان في جملة ما قيل عنه من الناقدين فيما بعد: إنه استطاع تشكيل الفراغ بمعالجته المنظور بنقاط معقدة وفي أقسام متعددة من اللوحة، وإن ألوانه جاءت تسبق الحقيقة فكانت رائعة ومتناغمة ونادرة، وخير مثال على ذلك



ثلاثيته «أسطورة القربان» وفيها الألوان الترابية على الخشب، وهي غنية بالغموض الدرامي.

إن قوانين المنظور الذي أغرم به أتشيلو مع عدد من معاصريه، جاءت في وقت كان فيه فن التصوير يحاول تجاوز القوانين الهندسية، لأن على الفن أن يتخطى المستويات العلمية ويعلو عليها. ولعلّ أتشيلو أراد باتجاهه هذا نحو الاستغراق في المنظور أن يشحن أعماله بالغرابة كما يتضح في ثلاثيته «معركة سان رومانو» التي استخدم فيها المنظور الذي أخذ به ديلا فرنشيسكا Piero Della Francesca ولكنه اتجه فيه اتجاه مازاتشيو إذ كان ديلا فرنشيسكا يرى أن المنظور يجب ألا يحدد العمل ويجمّده في الفراغ، وكان يضفي على أعماله النصبية ثقة أخلاقية ويؤمن بخلود التاريخ، وهذا ما لم يشأ أتشيلو الأخذ به. وكان أتشيلو متطرفاً باستخدام المنظور ويعدّه عملية حركية عجيبة وخفية تتفاعل مع البشر والخيول التي تسقط ميتة أو جريحة؛ كأن هناك قانوناً مفروضاً على الطرفين يلصقهما بسطح اللوحة. ويعتمد أتشيلو كل الإمكانات الرياضية التي يمنحه إياها سطح اللوحة ولايأخذ بالحسبان التجربة الخُلقية أو التاريخية أو الإحساس الدقيق بالطبيعة. وقد نظر بعض النقاد إلى أرض معركته وخيوله على أنها رؤى مدهشة تذكر بالخيول الخشبية التي

تدور وعلى ظهورها الأطفال في الأعياد، ويبدو الفرسان في «منظورهم الجريء» كأنهم يقفزون من اللوحة، وقد عالج موضوع الطبيعة بإيقاع متزايد النظام ولكنه أغفل العاطفة الإنسانية في وجوههم.

جاء في دراسة عن أتشيلو للمؤرخ فازاري Vasari : أنه كان بمقدور أتشيلو أن يكون معلماً كبيراً لو تخلّى عن عدّ المنظور الحلَّ النهائي أو الهدف في إنجاز عمله، وأن أعماله غريبة وتتسم بالإفراط لأنه لم يعدّ المنظور وسيطاً لبلوغ الهدف، وأن في لوحته «معركة سان رومانو» مثالاً على ذلك. إلا أن من العدل القول: إن ثورة أتشيلو هي نتيجة مباشرة لزوال عقائد العصور الوسطى التي كانت تصور الدنيا غلالة من الدموع، وترى أن الآخرة هي الحقيقة. فقد اتجه الإنسان في القرن الخامس عشر نحو وقائع الحياة وعدّ نفسه وارثاً للأرض وظهر ذلك في إنتاجه الفني، في العمارة والنحت والتصوير، وحين يظهر أن فناناً ما لم يتخل عن الأساطير القديمة مادة لأعماله، كما هو الأمر عند بوتيتشلي Botticelli في لوحته «ولادة فينوس»، يبدو آخرون متجهين نحو الواقعية في كلاسيكية علمية، كما يتبين ذلك في تفصيل الرأس البرونزي المسمى «غاتا ميلانا» من أعمال دوناتيلو.

ويرى المؤرخ الناقد ألبرتي Alberti أن فن التصوير لا يتجاوز كونه تمثيلاً للأشياء المرئية، ويرى تشينيني Chennini أن التصوير المهم هو لأشياء تراها العين. أما رؤية أتشيلو فهي كشف بنية الفراغ الذي لاتراه العين وهو بذلك يربط بين نظرة ألبرتي ونظرة تشينيني. ومما يرى عند أتشيلو أنه يتجه، في كثير من الأحيان، نحو إضاءة ليلية إذ تبدو الألوان مشعة، لا بسبب النور، ولكن بسبب من الإتقان والدقة في استخدام المادة، وأن منظوره في العمل ليس حذلقة، أو إلماماً بالنظرية كمعرفة رياضية، بل إنه - أي منظوره - تقنية كانت في حينها اختراعاً شائعاً. لقد أراد ألبرتي من الرؤية أن تبقى بعيدة عن المادة أو متعالية عليها حتى حدود ما وراء الطبيعة (الميتافيزيق metaphysic) لأن ذلك من طبيعة الفن أصلاً، ورأى أن اللون ذاته يستطيع، في معالجته الحكيمة، اختزان جمال ميتافيزيقي مادةً طبيعيةً محافظة على كل القيم اللونية الدقيقة بعون من المنظور الذي وزن الشكل والمادة في آن واحد وقوّ مهما، وأن تلك المادة يمكن أن تحمل في طبيعتها كل أنواع المفارقات. أما منظور أتشيلو فليس عامل رؤى، ولابناء فراغ، بل هو تحولات تسمح لفكره ببناء الشكل وبقيم مطلقة متسلطة ذات محمول ميتافيزيقي، لا لأنه يمثل مسألة دينية، بل لكونه يحمل في أعماقه تماسكاً ولديه شخصية قادرة على البناء ولأنه اخترع عالماً مستحيلاً قذف في الفراغ وفي زمن غير حقيقي.

فائق المدرس

الموضوعات ذات الصلة:

بوتيشلي - دوناتلو - مازاتشو - المنظور (علم -)

مراجع للاستزادة:

.GERMAIN BAZIN, Histoire de l'avant-gard en peinture (Hachette, Paris 1969).

■ الاتصال

الاتصال communication هو تبادل معلومات بين أفراد أو جهات بوسائل نقل مختلفة كالأمواج الصوتية والضوئية والكهرمغنطيسية.

استرعى تطور الاتصال وازدياد تأثير تقنياته انتباه كثرة من الاختصاصيين، وحاول كل منهم حصر علم الاتصال في مجال اختصاصه. فقد طوّر علماء النفس في دراستهم سلوك الإنسان، مفاهيم في الاتصال مفيدة لبحوثهم، وللمعالجة النفسية. وميز علماء الاجتماع صيغاً مختلفة لتناقل الأساطير وطرائق المعيشة والسلوك والتقاليد من جيل إلى جيل، في المجتمع الواحد أو انتقالها من مجتمع إلى آخر. أما علماء السياسة والاقتصاد فقد تبين لهم أن أنواعاً عدة من الاتصال تنضوي في صميم طريقة تنظيم المجتمع.

وحاول الرياضيون والمهندسون، بتأثير التقنيات الجديدة، ولا سيما الحواسيب عالية السرعة، تحديد وحدة لقياس مكونات المعلومات المتبادلة تحديداً كمياً وتطوير طرائق لترجمة مختلف الأفكار المتبادلة إلى كميات يسهل قياسها والتحكم فيها بالطرائق والتجهيزات المتوافرة لديهم.

رسم المربي مارشال مكلوهان Marshal McLuhan، في الستينات من القرن العشرين، الخطوط الرئيسة للاهتمام في مجال الاتصال، حين ربط بين معظم الظواهر النفسية والاجتماعية المعاصرة وتوظيف وسائل الإعلام media في الحضارة الحديثة.

ونبهت عبارته الشهيرة «تكمن أهمية الرسالة في وسيلة نقلها» كثيراً من صانعي الأفلام والمصورين والفنانين وغيرهم إلى أن المجتمع المعاصر ينتقل من ثقافة المطبوعات، كالكتب والمجلات والجرائد وغيرها، إلى ثقافة المرئيات والمسموعات. وأهم الصيغ الثقافية التي اهتم بها مكلوهان وأتباعه هي التي ترافقت مع التجهيزات المتطورة والمعقدة التي أظهر الجيل الشاب اهتماماً واضحاً بها مثل السينما والتلفزيون والمسجلات. ومن الواضح أن الاهتمام بالاتصال بدأ، في الوقت الراهن، يبتعد عن المكلوهانية ويرتكز على الإعلام الجماهيري وصناعته وأثره في مستمعيه، والاتصال الموجّه وأثره في المعارضة، والاتصال بين الأفراد بوصفه وسيلة لتبادل المعلومات، وديناميكية الاتصال الكلامي وغير الكلامي بين الأفراد، ومنه التخاطر telepathy، والإدراك الحسي لمختلف أنواع الاتصال، واستخدام تقنيات الاتصال لأغراض اجتماعية وفنية وتعليمية، وتطوير وسائل نقد المحاولات الفنية باستخدام تقنيات الاتصال الحديثة.

نماذج الاتصال

إن تباين وجهات نظر الكثيرين من الاختصاصيين والباحثين في الاتصالات وطرائقها ومعالجتها أدى إلى حدوث جدل حول كيفية التخاطب مع المجتمع، ومدى تأثير ذلك في الناس على اختلاف ثقافاتهم وبناهم الاجتماعية. ولكن معظم العلماء متفقون على رأي السياسي هارولد لاسويل Harold Lasswell أن مهمة علماء الاتصال هي الإجابة عن السؤال التالي: «مَن قال، وماذا قال، ولمن قال، وما هو أثر قوله». ولقد فُسِّر كل عنصر من هذا السؤال تفسيراً مختلفاً تبعاً لاختلاف اختصاصات الباحثين، وفي ضوء ذلك تم تطوير النموذجين

الخطي والديناميي في الاتصال.

النموذج الخطي: نجم هذا النموذج الفعال المبسط، في نهاية الأربعينات من القرن العشرين، عن افتراضات وضعها كل من الرياضيين ك شانون K.Shanon وويفر D.Weaver. إن بساطة هذا النموذج من جهة، وشموليته من جهة أخرى، جعلتاه ذا أهمية خاصة في نظر المختصين في علوم الاتصال. ويتكون هذا النموذج من خمسة عناصر أساسية مرتبة على التوالي وهي: مصدر المعلومات source of information والمرسل transmitter وقناة الاتصال channel والمستقبل rceeiver والوجهة destination . وبذلك تنتقل الرسائل على طول قناة الاتصال، بعد أن يتم تحويلها إلى طاقة كهربائية بوساطة المرسل، ومن ثم يعيد المستقبل بناء الإشارة إلى شكلها الأساسي. ومع مرور الزمن أعيدت تسمية العناصر السابقة الذكر لتأخذ صيغة أكثر شمولية تلائم التطبيقات المختلفة في أنظمة الاتصال. وعلى هذا فقد قُسم مصدر المعلومات إلى مركبتين هما المصدر والرسائل الحاوية على المعلومات المراد نقلها من جهة إلى جهة أخرى. والنموذج المعدَّل للتسمية هو: المصدر والمرمِّز والرسالة والقناة وكاشف الترميز والمستقبل.

ومع شمولية النموذج المقترح وترتيبه، فإنه لم يتضمن شروط عمل أنظمة الاتصال المحيطية والمشكلات المرافقة لها ولا سيما ظواهر التشويش وتغير معالم الإشارات تغيراً عشوائياً. وتتدخل مصادر عشوائية الطابع في أنظمة الاتصالات على شكل ضجيج داخلي أو خارجي مؤدية إلى تغيير معالم الرسالة وتشويهها، وهذا ما يسمى الأنتروبية entropy أو معيار الانحراف عن النظام الأصلي. وفي السياق نفسه ثمة ظاهرة أخرى متلازمة مع أنظمة الاتصال وهي التعددية redundancy التي لا تظهر على العموم في مخططات الأنظمة المختلفة على الرغم من أهميتها.

هذه الظاهرة هي الحل الأنجع لمعالجة مظاهر الضجيج المختلفة التي تغيّر من معالم الرسالة، إذ إن الضجيج يلازم أنظمة الاتصالات ولايمكن التخلص منه كلياً، إنما يمكن الحد من تأثيراته التشويهية. ولذلك فإن النموذج الخطي يعالج الحالة الساكنة، لأنه يمثل انتقال الرسائل من نقطة إلى أخرى وليس نتائجها أو تأثيرها في المستقبل أو المرسل.

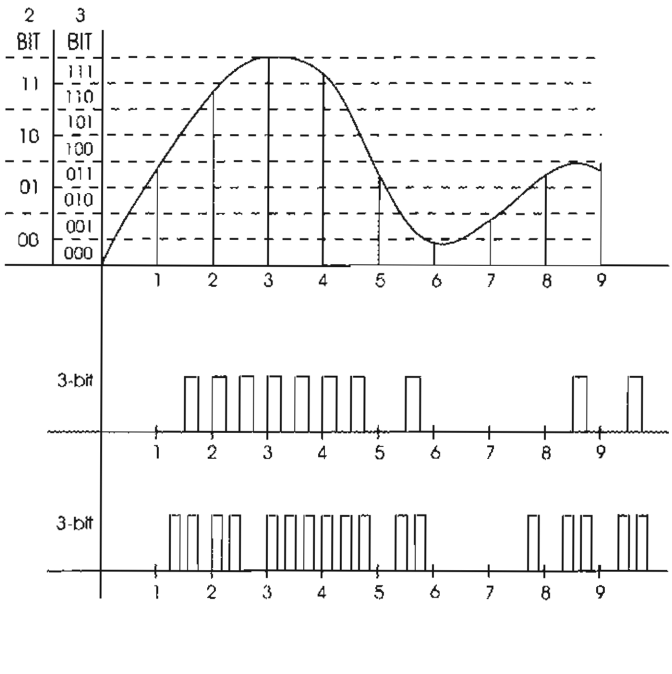
وقد أضيف مبدأ التغذية الخلفية، أو الراجعة فيما بعد، إلى النموذج الخطي، وذلك لتبيان التأثير المتبادل بين أنظمة الاتصالات وتأثيراتها في العنصر البشري. واستخلص هذا المبدأ من الدراسات والأبحاث التي راعت استجابة الأنظمة لأدائها وإمكانية تصحيح هذا الأداء للتقليل من الضجيج والتكرار وظواهر التشويه المختلفة.

النموذج الديناميي: استنتجت نماذج أخرى لمعالجة نظم الاتصالات وتقويمها تقويماً يختلف عن اهتمامات بعض النظريين، مثل شانون وويفر. وعلى الرغم من سهولة النموذج السابق وعموميته إلا أنه يفتقر إلى القدرة على التوقع والتحليل والتوصيف. ولهذا طور عالم النفس تيودور نيوكومب T.Newcomb نموذجاً يهتم بالتفاعل التبادلي لعناصر أنظمة الاتصالات بين البيئة وعناصر النظام. ولايهتم نموذج نيوكومب بالنواحي الكمية والرياضية لأنظمة الاتصالات كما هي الحال في نموذج شانون، بل يهتم بالسلوك الإنساني ومتغيراته وعلاقاته، وذلك إضافة إلى مراعاة النواحي العاطفية والفنية للاتصالات في المجتمعات الإنسانية. وفي رأي كثير من أتباع النموذج الديناميي أن وسط انتقال المعلومات هو متغير يؤثر تأثيراً فعالاً في الاتصال على خلاف أتباع نظرية شانون، والدليل على ذلك أن تأثير الرسالة المرئية أو الصوتية في الجمهور أكبر من تأثير الرسالة المكتوبة لما تحمله الرسالة المرئية من نقل للعواطف والمشاعر الإنسانية.

ويبقى نموذج شانون هو الأكثر ملاءمة للتعامل مع أنظمة الاتصالات ونظرياتها المختلفة لما يحمله من منطق رياضي قابل للإثبات. ويتيح هذا المنطق للمتعاملين مع أنظمة الاتصالات تحليلها رياضياً مهما تعقدت علاقاتها ومواصفاتها وذلك لتحسين أدائها والتقليل من الضجيج والتكرار.

الاتصالات غير الصوتية

تمثل الإشارات signals والعلامات أو اللافتات signs والرموز symbols العناصر الثلاثة



(الشكل ١) مثال على ٢و٣ بت، تعديل نبضي مرمز PCM

الأساسية في الاتصال عند الشعوب عامة لأنها أقل رقياً من اللغة ببنيتها وخصائصها وقواعدها ذات المعالم الثابتة. وكل واحد من هذه العناصر هو أكثر تطوراً وتعقيداً من سابقه.

فالإشارات تغيير خطي في حقل ثابت من الطاقة، كإشارات مورس في أنظمة البرق، أو إطلاق الدخان المتقطع على سطح مرتفع لإثارة الانتباه، وتنقل الإشارة معاني ورسائل مختلفة.

أما العلامات أو اللافتات فتحمل معاني أكثر عمقاً من الإشارات كالصور واللوحات الفنية وحركات اليدين. والفرق الأساسي بين العلامات والإشارات يكمن في أن الأولى تحمل معاني مجرّدة تعبر عن جوهر الموضوع، والثانية تساعد على تكوين انطباع أو معنى ما.

وأما الرموز فهي أكثر صعوبة وتعقيداً من العلامات وتحمل معاني مجرّدة تعبر عن جوهر رسالة ما، وقد عرفت الرموز بأنها وسائل مجردة ومقتضبة وغير بنيوية بطبيعتها.

الاتصالات الصوتية

يتم التعبير عن المعلومات، في الاتصالات الصوتية، بأصوات كالتنهد أو الصفير مثلاً أو بكلمات من اللغة التي يستخدمها مجتمع ما.

إن أثر تقنية الاتصال في الإعلام يأتي من تأثير كثير من الاختراعات والكشوف تأثيراً عميقاً في الحضارة الغربية مع العلم أن بعضها كالإعلام المطبوع قد سبق الثورة الصناعية. إن تقنية القرنين التاسع عشر والعشرين أدت على نحو مباشر، إلى إيجاد وسائل جديدة للاتصالات الإعلامية ولا سيما البث الإعلامي الذي جعل من الممكن تبادل المعلومات، بأشكالها المختلفة: المطبوعة والمرئية والصوتية، في الكرة الأرضية كلها. كما أن حاجة المجتمع إلى تبادل المعلومات أدت إلى تطوير وسائل تقنية تفي بالغرض بوجه آني وسريع.

وهذه الميزة جعلت أفراد المجتمع يقبلون على هذه الوسائل إقبالاً متزايداً مما جعل التقنية تتطور لتحقق لهم ما يرغبون فيه بوسائل أقل تعقيداً وأكثر تطوراً ووثوقاً.

وتتجه المجتمعات الإنسانية إلى تبادل المعلومات بوسائل لم يسبق لها مثيل جعلت من الممكن التأثير في رأي الجماهير من جهة، وخدمة هذه المجتمعات تجارياً وعلمياً وثقافياً من جهة ثانية. وذلك نتيجة لاستخدام الحواسيب وشبكات الاتصالات وبنوك المعلومات عن طريق خطوط الهاتف ومحطات السواتل الصنعية وأجهزة الفاكس fax.

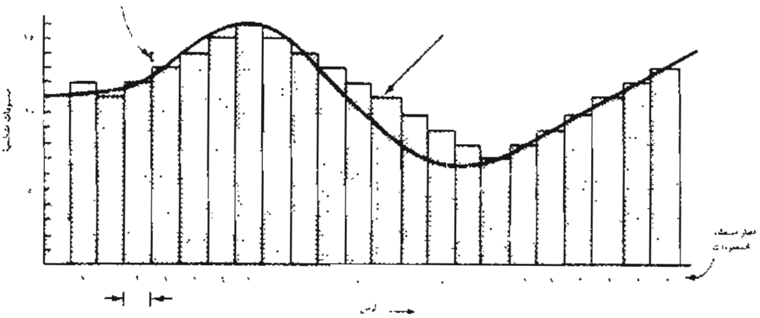
وتختلف الآراء في وظيفة الاتصال والإعلام وتأثيرها في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كافة. وللمتحكمين في الإعلام أو مالكي وسائله دور في التوجيه والتخطيط وتكييف الأمور كما يرغبون.

الاتصالات التمثيلية

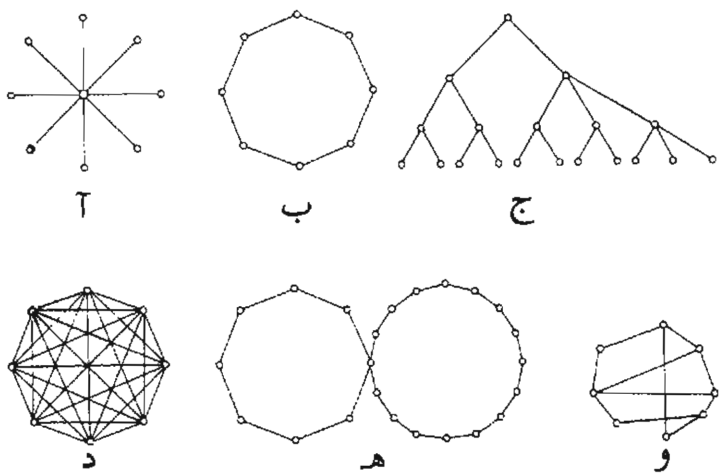
تقع الإشارات في هذا النوع من الاتصالات بوجه عام في المجال الترددي الأدنى من ٢٠ كيلوهرتز. وبسبب التخامد الذي تتعرض له عند الإرسال فقد وجد من المناسب تعديلها قبل الإرسال، وذلك برفع مجالها الترددي باستخدام حامل ذي تردد عال ليمكن إرسالها ومن ثم إعادتها إلى شكلها الأصلي عند الاستقبال. وبفرض أن إشارة الحامل هي من الشكل

$$S_c(t)= A_c \sin(2\pi F_c t +\phi)$$

فإنه من الممكن أن يعدل المطال A_c أو التردد F_c أو الطور ϕ.



(الشكل - ٢) مثال لإشارة مكممة من أجل تعديل دلتا.



(الشكل ٣)

طرق الوصل المختلفة لشبكات الحواسب

آ - النجمية Star

ب - الحلقية Ring

ج - الشجرية Tree

د - الكاملة

هـ - الحلقية المتقاطعة Intersecting Rings

و - غير النظامية Irregnler

ففي تعديل المطال amplitude modulation تُغيِّر شارة المعلومات كالصوت مثلاً مطال الحامل ذي التردد العالي، وبذلك ينجم لدينا إشارة مزاحة تردديًا تكون حول الإشارة الحاملة.

وفي تعديل التردد frequency modulation تعدّل إشارة المعلومات التردد في موجة الحامل مغيّرة بذلك مجالها الترددي. وفي تعديل الطور phase modulation، تقوم إشارة المعلومات بتغيير طور الحامل بما يتناسب مع تغيراتها. ومن الجدير بالذكر أن كلاً من تعديل التردد وتعديل الطور يقع ضمن إطار واحد يسمى بالتعديل الزاوي angle modulation

ويتعامل التعديل النبضي pulse modulation مع إشارات غير مستمرة (نبضات) تحدث في مدد زمنية متقطعة. ومن المناسب استخدام حامل متقطع discrete يقوم بتعديل الإشارات الحاملة للمعلومات، لذا تكون إشارة الحامل قطاراً من النبضات الدورية فيمكن تغيير المطال أو عرض النبضة أو مكانها تغييراً يتناسب مع الإشارة المعدلة.

أما أنواع التعديل النبضي فهي على الترتيب: تعديل مطال النبضة pulse (PAM) amplitude modulation وتعديل عرض النبضة pluse width modulation (PWM) وتعديل مكان النبضة pulse position modulation (PPM)

وإحدى النتائج المهمة للتعديل النبضي هي إمكانية إرسال الكثير من الإشارات في آن واحد عن طريق قناة الإرسال نفسها باستخدام مبدأ التنضيد بتقسيم الزمن time division (TDM) multiplexing. ويعتمد هذا المبدأ بوجه مبسط على إرسال كل إشارة ضمن حيز زمني لكي لا تتداخل هذه الإشارات زمنياً أو ترددياً وذلك عن طريق المجمّعات multiplexers ليمكن استقبال كل منها على حدة. وقد أتاحت هذه التقنية المهمة استثمار قنوات الاتصالات بوجه كامل ومردود أعظمي.

ويصل معدل الإرسال في التطبيقات المختلفة إلى ١,٥ ميغا بايت / ثا كما هي في نظام T1-Carrier الأمريكي. وتحوي خطوط الاتصال مضخمات ومردّ دات، الهدف منها تحسين مستوى الإشارة وتخفيض الضجيج إلى أقل قدر ممكن. وعندما تستقبل الإشارة يقوم المستقبل بإعادتها إلى المجال الترددي الذي كانت فيه، ثم تعالج هذه الإشارة للتخلص من الضجيج وعناصر التشويه التي دخلت فيها.

الاتصالات الرقمية

تؤدي الاتصالات الرقمية دوراً مهماً في الوقت الراهن، ويتوقع أن تحل محل الاتصالات التمثيلية في العقد القادم وذلك لأنها أقل تأثراً بالضجيج من جهة، ويمكن إعادة تشكيلها بوساطة المردّدات repeaters التي تولد إشارة جديدة خالية من أي تشوّه من جهة أخرى، إضافة إلى مرونة العتاد الرقمي ورخص ثمنه كالمعالجات المكروية والدارات الرقمية. والخطوة الأولى لتحويل الإشارة التمثيلية إلى رقمية تمهيداً لتعديلها هي استخدام مبدلات الإشارة من تمثيلية إلى رقمية analog to digital convertors إذ تقوم هذه بتكميم الإشارة وفقاً لمستوياتها وبترميز كل مستوى لما يعادله رقمياً. ويذكر أن هناك الكثير من المبدلات أهمها التسلسلية serial والمتوازية parallel وتلك التي تعمل بمبدأ العد counting quantizers.

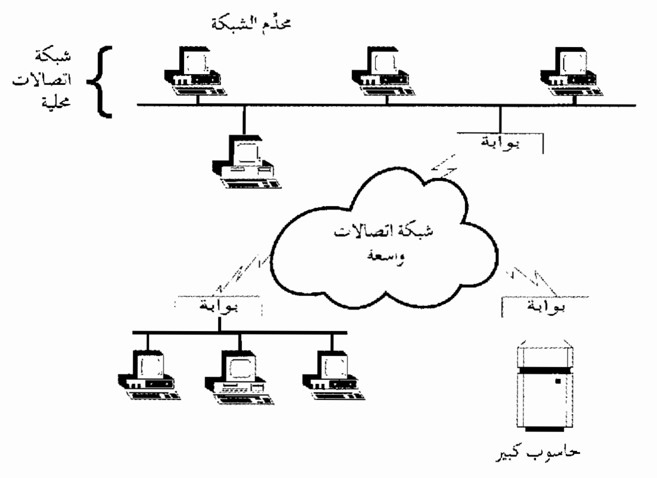
ومن أنواع الاتصالات الرقمية الاتصال باستعمال التعديل النبضي المرمز pulse (PCM) code modulation الذي يعد من أكثر أنواع التعديل شيوعاً، لما يتمتع به من قدرات منها إمكانية إعادة تكوين الإشارة الرقمية المكونة من مجموعة من النبضات بوساطة المرددات، إضافة إلى بساطة الدارات التي يستخدمها وكلفها القليلة (الشكل ١).

ومنها أيضاً الاتصال باستخدام تعديل دلتا delta modulation وهو يهدف إلى تبسيط الترميز المستخدم في تعديل PCM وإلى تقليل الكلفة، وهو يعتمد على توفير الإشارة بخطوات ذات قيمة ثابتة أو متغيرة (الشكل٢).

وأحد التطبيقات المهمة للاتصالات الرقمية هو المودم modem (التعديل وكشف التعديل) الذي يحول الإشارات الرقمية إلى تمثيلية تستطيع المرور في خطوط الهاتف. ويتيح ذلك ربط الحواسيب بعضها ببعضها الآخر وتبادل المعلومات بصورة فعالة ورخيصة بين أمكنة مختلفة قد تكون متباعدة. ومن الممكن اليوم استخدام أجهزة الفاكس التي تستطيع نقل الرسائل المكتوبة بين الشركات والمكاتب في أنحاء العالم.

شبكات الاتصال

هي أحد أهم عناصر الاتصالات، في الوقت الراهن، التي أتاحت تبادل المعلومات محلياً وخارجياً لتأخذ هذه المعلومات أشكالاً مختلفة من حيث نوعيتها والتطبيقات الناتجة عنها. ومن



(الشكل ٤) شبكة اتصالات محلية واسعة

شبكات الاتصال. شبكات الاتصال الواسعة wide area network (WAN) وشبكات الاتصال المحلية local area network (LAN).

أما شبكات الاتصال الواسعة فهي الشبكات العامة التي تصل بين أقطار ومدن مختلفة وتتيح لأنظمة مختلفة الطبيعة الاتصال والتوفيق فيما بينها. وتتكون بوجه عام من شبكات الهاتف ومقاسمه والأنظمة التي تنضوي ضمنها كمحطات السواتل الصنعية المستخدمة في الاتصالات. وبنتيجة الحاجة إلى الربط بين شبكات غير متوافقة وضعت «بروتوكولات» تنظم هذه الاتصالات وتنسقها وتحقق التوافق بينها.

وأما شبكات الاتصال المحلية فهي نظام للاتصال على مسافات محدودة يسمح لأي وسيلة مربوطة على الشبكة بإرسال معلومات رقمية من حيث طبيعتها. ومن المتوقع أن يصبح تبادل المعلومات الصوتية والمرئية ممكناً في المستقبل القريب نتيجة للتطور الهائل في الحواسيب والطرفيات terminals والإلكترونيات التي أسهمت إلى حد بعيد في تطوير هذا المجال المهم من علوم الاتصالات.

ومن أمثلة شبكات الاتصال شبكة الاتصالات الحاسوبية التي شاع استخدامها اليوم، وأهم عناصرها: خطوط الاتصالات التي تكون على شكل كبلات أو خطوط هاتف أو ألياف ضوئية وبطاقات الربط مع الشبكة network interface card، وذلك لتمكين الحواسيب والطرفيات والبرمجيات من التعامل فيما بينها، ومخدّم الشبكة network server، إذ تستخدم شبكات الاتصالات المحلية حواسيب خاصة لإدارة أعمال الشبكة وتنظيمها إضافة إلى قدرتها على التخزين الواسع النطاق للبرمجيات والتطبيقات والمعطيات المختلفة المستعملة في أرجاء الشبكة، وهناك الكثير من وسائل التخزين. ومحطات العمل work stations، وهي الطرفيات المربوطة على الشبكة، وتكون بوجه عام حواسيب أو نهايات أو طابعات تمكن المستثمرين من استخدام القدرات المتاحة للشبكة من برمجيات مختلفة ومعلومات. ونظام تشغيل الشبكة network operating system وهو يتيح للمستثمرين استخدام كل وسائل الشبكة بصورة يمكنهم معها المشاركة والعمل المنظم في آن واحد من أجل التخزين والبرمجة وتعرُّف الطرفيات إضافة إلى مهام أخرى متعددة.

وتأخذ شبكات الاتصالات المحلية أشكالاً مختلفة من حيث توضعها الفيزيائي كالربط الخطي والحلقي والنجمي وتنظم عملها «بروتوكولات» متعددة تستطيع كشف الأعطال الممكن حدوثها في الشبكة من حيث إتاحة الفرصة لكل طرفية لإرسال معلومات من مخدم الشبكة أو استقبالها أو طلبها أو كشف أي عطل طارىء على إحدى الطرفيات أو عدم التزامن في استخدام مصادر الشبكة. ويبين الشكل ٣ طرق الوصل المختلفة لشبكات الحواسيب أما الشكل ٤ فيبين شبكة حاسوبية محلية خطية مربوطة بشبكة اتصالات واسعة.

عسان فلوح

الموضوعات ذات الصلة:

الاتصال من بعد - إرسال المعطيات - الإرسال من بعد - الاستقبال اللاسلكي

مراجع للاستزادة:

- E. BRYAN CARNE, Modern Telecommunication (Plenum Press, New York 1984).

■ الاتصالات الحيوانية

تتضمن الاتصالات الحيوانية animal communications إطلاق أحد الأفراد إشارةً كيمياوية أو فيزيائية يتلقاها فردٌ آخر فتبعث فيه سلوكاً ما. ولا تعد استجابة البعوضة مثلاً لجسم الإنسان اتصالاً، لأن الإنسان لا يطلق الحرارة بهدف جذب البعوضة، في حين أن انجذاب ذكر البعوض إلى أنثاه يتم لأن الأنثى تطلق رائحة بهدف جذب الذكور؛ كما أن رائحة الزهرة تعد إشارة كيمياوية لأنها تجذب النحلة إليها، على الرغم من أنها لم تولِّد إشارة بالمعنى الحقيقي، لأن الرائحة موجودة فيهاأصلاً.

غايات الاتصال في العالم الحيواني

سيقتصر الأمر هنا على حالة «التآثر» interaction التي يكون فيها مرسل الإشارة ومستقبِلُها من النوع الحيواني نفسه، ولعل الآلية التالية توضح ذلك:

يقوم الحيوان المرسِلُ، بتأثير عوامل أو منبهات داخلية أو خارجية، بإصدار إشارة فيزيائية أو كيمياوية تستقبلها أعضاء حساسة نوعية لدى الفرد الذي يتلقاها، فتحدث فيه تبدلات داخلية يكون من نتيجتها تبدلٌ في سلوكه الخارجي.

إن حاجة الحيوانات إلى تعرُّف أفراد نوعها تستوجب استخدام إشارات اتصال لهذا الغرض بقصد تأليف تجمعاتها، ولئن كان الكثير من الحيوانات يعيش حياة انفرادية، فيما عدا أزمان التزاوج، فإن أي حيوان من هذه الحيوانات يستخدم الإشارات للتعريف بنفسه لدى بقية الأفراد من نوعه بقصد بقائه منفرداً ضماناً لمورده الغذائي.

أما الحيوانات التي تقيم فيما بينهاعلاقات اجتماعية فإن إشارات الاتصال لديها تستخدم لأغراض عدة منها: تنبيه أقرانها من أفراد النوع إلى وجود خطر ما، كما أن هذه الإشارات قد تفيد في ردع الضواري المحتملة بالصراخ الجماعي بقصد إخافة الأعداء.

ولئن كان معظم الحيوانات يأكل منفرداً، فإن المعروف عن الحيوانات الراقية أنها تتقاسم الأكل، وفي حالة كهذه قد تستخدم إشارات اتصال للدلالة على مصادر الطعام. ويمكن أن يجري ذلك بإشارات الهداية المعقدة كالإشارات التي تستخدمها الحشرات الاجتماعية لهداية أقرانها في العش نحو مصادر الغذاء البعيدة.

ولعل أهم إشارات الاتصال الحيوانية يُستخدم في عملية التزاوج، وحينما تتشابه ذكورُ الأنواع المختلفة وإناثها، تزداد أهمية تحديد النوع. فالنطاف لايجوز توجيهها نحو بيوض لا تستطيع إخصابها. وهنا تؤدي إشارات الاتصال دور كلمة السر لتعريف أفراد النوع الحيواني الواحد بعضها ببعضها الآخر أولاً ولتلاقي الجنسين المناسبين ثانياً. وما إن يلتقي الذكرُ الأنثى حتى تُستخدم إشارات الاتصال في الغزل والاقتران بينهما. فالإشارات الجاذبة الأولية لا توفر إلا تحديداً بدئياً للهوية. وقبل أن يجري الاقتران الحقيقي لا بد من التحديد الإيجابي والقطعي لتلك الهوية. وما رقصات الغزل عند العناكب والحركات الاستعراضية عند الطيور إلا إشارات اتصال تفيد في تحديد هوية الذكور لدى الإناث استعداداً للجمع بينهما في عملية الاقتران الأخيرة، التي ينبغي أن تكون في غاية

الدقة، والتي تتطلب تعاون الذكر والأنثى في أدائها.

وعندما ينتهي الاقتران ويجري إلقاح البيوض يبدأ الاستعداد لخروج النسل الصغير إلى الحياة. صحيح أن بعض الحيوانات لا يولي صغاره أية رعاية، ولكن الكثير منها يرعى الصغار، أو حتى البيوض والصغار كليهما. وهذا مايتطلب وسيلة للإيعاز بين الأبوين فيما يخص مكان الغذاء ومكمن الخطر. وحيثما يرعى الكبارُ الصغارَ، كما هي الحال عند الطيور والثدييات مثلاً، تقوم حياة «أسرية» وتكتسي إشارات الكبار الاتصالية أهمية إضافية لدى الصغار، وحينما يكبر الصغارُ فإنهم يطوِّرون إشاراتهم الخاصة التي يتأثر بها سلوك الأبوين. ومن ثم فليس غريباً أن تكون الحيوانات ذات الحياة الأسرية الأرقى في التنظيم الاجتماعي قد طورت أكثر جمل الاتصال إتقاناً.

آليات الاتصال الحيواني

تُسخِّر الحيوانات جميع حواسها تقريباً من أجل الاتصال. ويستخدم كثير من الحيوانات أكثر من قناة حسية، وعلى نحو متكامل، لضمان التقاط الإشارة الاتصالية. ويتناول البحث فيما يلي جميع القنوات الحسية الممكنة مع أمثلة عن كل منها.

الجمل اللمسية: يمكن للحيوان أن يكتشف الأشياء التي تقع على تماس معه (مصادفة أو إرادياً) بفضل حاسة اللمس لديه. ويصعب، حتى في الإنسان، الفصل بين المستقبلات المختلفة الموجودة في الجلد والتي تتنبه بالأشياء التي تلامسه. ولا بد، في مجال الاتصالات الحيوانية بحاسة اللمس، من قيام التماس المباشر بين الأفراد، وهذا يعني أن الاتصال الحيواني باستخدام هذه القناة لا يتعدى المسافات القصيرة للغاية بين الأفراد.

أنماط الاتصال اللمسي: تتفاوت أنماط التماس كثيراً في طبيعتها وتوقيتها. فالإشارات اللمسية يمكن أن تتبدل بسرعة في شدتها وطبيعتها، كما يسهل تشغيلها وإيقافها. ولذلك تنفع الإشارات اللمسية بوجه خاص في نقل المعلومات الكمية، إذ تلْزَمُ إشاراتٌ متغيرة باستمرار لنقل عناصر معلوماتية متغيرة باستمرار.

يقوم الحيوان المُرسِلُ للإشارات اللمسية بإنتاج هذه الإشارات من حركات خاصة يُذكر منها: القبض والمَسْك بفضل المخالب واللواقط والأذرع، وكذلك الصَدْم بكامل الجسم وغير ذلك. فالنحلات مثلاً تجوب أرجاء خليتها مصطدمة بأجسام أقرانها لإشعارها بالإشارة الاتصالية. وهنا يجري استقبال الإشارة بوساطة مستقبلات للتماس واقعة على سطح الجسم.

الاستقبال اللمسي: تعرف بعض الحيوانات بمستقبلات لمسية خاصة شديدة الحساسية، فنحل العسل مثلاً له مستقبلات للحركة في أرجله على جانب كبير من الحساسية تمكنها من كشف حركة الكريات في دماء الحشرات، وكذلك فإن «الشوارب» الطويلة في وجه القطة يكفيها أن تتحرك جزءاً بسيطاً من المليمتر حتى يستشعر الحيوان بفضلها الحركة التي تلامسه.

وتوجد قنوات الاتصال اللمسي في جميع المجموعات الحيوانية. فبعض معائيات الجوف Coelenterata البحرية يعيش في مستعمرات من بولبات Polyps دقيقة، يحتفظ كل بولب منها باتصال عضوي مع البولبات الباقية. فإذا لمس أحدها فإنه ينكمش، ولكن لاتلبث البولبات الباقية أن تستشعر المنبه وتنكمش هي أيضاً على الرغم من أن المنبه لم يتناولها مباشرة. وبالانتقال من هذه الجملة الاتصالية اللمسية البسيطة إلى جملة نظيرة راقية، كتلك التي لدى نحل العسل، يرى أن النحلة، إذا ما اكتشفت مصدراً للرحيق فإنها تدل على موقعه وبعده وقيمته بفضل ماتقوم به من الجري بنسق محدد داخل خليتها. وهنا تلتقط النحلات الأخريات المعلومة الاتصالية باستشعار إيقاع حركات النحلة الكشافة وتوجهاتها.

ومن أمثلة استخدام المنبهات اللمسية في الاتصال عند الثدييات ماتقوم به الخنازير من دفع بالجسم وحك بالأنف في سلوكها الغزلي، وما يقوم به ذكر الزراف من إثارة لأنثاه في عملية «معانقة»، إذ تلتوي رقبتاهما الطويلتان الواحدة حول الأخرى وتفرك كل رقبة رقبة شريكها، وما تقوم به ذكور القطط والخيول من عض حقيقي للإناث يثيرها ويحثها على التقبل الجنسي من جانب الذكر. وإذا ما أخذ بالحسبان دور الشفاه «تلمظاً وتقبيلاً» لدى الرئيسات Primata، كما عند القردة في عمليتي الغزل والاقتران، تبينت أهمية القنوات اللمسية في لغة الاتصال الجنسي لديها.

الجمل الكيمياوية: تعد الحواس الكيمياوية أكثر قنوات الاتصال استخداماً في عالم الحيوان. ومن المعروف أن للإنسان حاستين كيمياويتين هما الشم والذوق. ولكن يصعب أو يستحيل فصل هاتين الحاستين الواحدة عن الأخرى في العديد من الحيوانات. وعلى العموم تعد خاصة الاستقبال الكيمياوي البعيد أو حاسة الشم هي الحاسة الأهم شأناً في الاتصال الحيواني.

ويمكن أن تؤثر الإشارات الكيمياوية من مسافات بعيدة، ولكنها قد لا تعطي إلا القليل من المعلومات عن جهة مصدرها، ما لم يكن هناك حركة للماء أو الهواء الذي يحملها. ولما كانت مثل هذه الحركة متوافرة في كثير من الأحيان، فإن تلك الإشارات الكيمياوية تستخدم استخداماً واسعاً في جذب الأقران من الذكور والإناث بعضها إلى بعضها الآخر.

وتتصف الروائح بخاصة الديمومة مدة من الزمن فلا يمكن استخدامها مؤشراً لتواتر الإشارة الكيمياوية (حضوراً أو غياباً) مثلما هي حال اللمس والضوء والصوت.

إصدار الإشارات الكيمياوية: قد تَصْدُرُ الإشارات الكيمياوية عن جسم الحيوان، بمعنى كونها رائحة الجلد نفسه. ولكن مايعد إشارات كيمياوية حقيقية في الاتصال الحيواني هو تلك المواد الكيمياوية التي تفرزها غددٌ خاصة لهدف معين، كالروائح الجنسية لدى بعض الحيوانات، فهذه الغدد تفرز كيمياويات نوعيةً specific تدهن بها الحيوانات أجسامَها، ثم تتبخر هذه الكيمياويات أو تطلق في الهواء أو الماء مباشرة.

ويذكر على سبيل المثال أن بعض الأساريع caterpillars تُخْرِجُ عند الإنذار «قروناً» تنفث روائح خاصة من حولها. وقد يدوم إنتاج الرائحة طويلاً، كما في الروائح المميزة للأنواع الحيوانية، أو يقتصر إنتاجها على اندفاعات قصيرة، كما في الروائح الجنسية وروائح الإنذار.

استقبال الإشارات الكيمياوية: يتم استقبال الإشارات الكيمياوية بما يسمى المستقبلات الكيمياوية chemical receptors التي تؤلف أعضاء الشم والذوق. وغالباً ماتقع أعضاء الذوق في الفم أو بالقرب منه، كما هو متوقع مادامت تُستخدم في الغالب في تعرف الطعام قبل ابتلاعه. ولكن بعض الأسماك يضم، إلى جانب أعضاء الذوق حول الفم، نظائر لها على الزعانف والذيل. كما أن بعض الحشرات تحوي أعضاء للذوق على قرون استشعارها حتى على أرجلها.

قد يصعب، في كثير من الحالات، التفريق بين أعضاء الذوق وأعضاء الشم. فاللافقاريات المائية تتحسس بالكيمياويات على امتداد أجسامها دونما تفريق بين أعضاء للشم وأعضاء للذوق. ولئن كان للحشرات، في الغالب، أعضاء للشم على قرون الاستشعار المتحركة، مما يتيح لها إدراك الروائح على نحو مجسَّم (إذا جاز التعبير)، فإن أعضاء الشم هذه لا تقتصر في الحشرات على تلك القرون، إذ إن لبعض أنواع الحشرات نظائر لها بالقرب من الفم أو في أجزاء أخرى من الجسم.

وأما في الفقاريات فإن أعضاء الشم تقع داخل الأنف، وفي بعض الحالات بالقرب من الفم. ولا يغرب عن البال أن أعضاء الشم أكثر حساسية من أعضاء الذوق في الاستقبال الكيمياوي، فذكور بعض أنواع العثّ تكتشف رائحة إناثها من مسافات بعيدة قد تبلغ ثمانية كيلو مترات بأعضاء الشم في قرون استشعارها.

انتشار الاتصالات الكيمياوية في العالم الحيواني: سنذكر هنا أمثلة قليلة عن استخدام الحواس الكيمياوية في الاتصال بين الحيوانات، مع العلم أن الروائح ربما تؤلف أهم قناة لتحديد هوية النوع لدى معظم الحيوانات. وهنا لا تُستثنى من المجموعات الحيوانية الكبيرة سوى الطيور التي تفتقر، كما يعتقد، إلى حاسة نامية للشم. ولكن مع ذلك لا شك في أن بعض أنواع الطيور تعرف برائحة خاصة يشعر بها حتى الإنسان الذي يتصف بضعف حاسة الشم. ويذكر في هذا الصدد أن طائر الحميمق long-legged bizzard يتمتع بحاسة قوية للشم مثلما هي حاسة الإبصار عنده.

أما الحشرات فقلما يوجد منها ما لا يستخدم الشم في الجذب الجنسي أو لتحديد الهوية؛حتى ما كان منها يعتمد الإشارات الضوئية الوامضة (كاليراعة fire fly) أو الإشارات الصوتية الغنائية (كالجنادب)، فإنه يستخدم الروائح في بعض مراحل العملية التناسلية. فالفراشات، التي تعد أقرباء نهارية للعث الليلي، تضم أنواعاً لذكورها حراشف على أجنحتها تفوح منها رائحة تفيد في تعرف الأنثى هوية الذكر بعد أن تكون قد جاءته من بُعْد من إشارات إبصارية. ولعل من الممتع حقاً أن تُرى مجموعةٌ من ذكور الصراصير العادية تقف ساكنة بلا حراك عند تحريك قطعةٍ نظيفة من ورق النشاف فوقها، في حين تشرع بهَزِّ أجنحتها عند استخدام قطعة من ورق نشاف كانت قد وقفت عليها إناث الصراصير. ولقد أمكن عزل المادة الجاذبة للجنس من إناث الصرصور الأمريكي، وجرى تحديد صيغتها الكيمياوية. وفي بعض أنواع النمل تلقي النملة الكشافة في رحلة العودة، بعد عثورها على مصدر غذائي، سلسلة من قطيرات ذات رائحة تؤلف أثراً خطياً ذا رائحة؛ تتبعه العاملات وتهتدي به إلى الغذاء، (على الرغم من بقاء النملة الكشافة في العش). وهناك عدد من التجارب يشير إلى أن الأثر الخطي ذا الرائحة الذي يكونه النمل يتصف بقطبية اتجاهية يتعرف النمل بها طريق الذهاب وطريق الإياب، ويرى فوريل Forel (الباحث الكبير في سلوك النمل) أن للنمل حاسة كيمياوية خاصة تتيح له أن يميز الرائحة وأن يميز في الوقت نفسه شكل القطيرة التي تنشرها. وتفتقر هذه الفكرة إلى البرهان، ذلك أنه يعرف عن النمل استخدامه الشمس لتعرف طريق العودة إلى العش. وهكذا ربما يفضل قبول استخدام النمل للأثر ذي الرائحة في معرفة المسار، مع استخدامه الشمس في معرفة الاتجاه. وليس الذباب بأقصر باعاً من غيره من الحشرات في استخدام الإشارات الكيمياوية في هداية بعضه بعضاً إلى مكان الغذاء. فالذباب مع كونه لا يعيش حياة اجتماعية فإنه يسم الطعام الذي يعثر عليه برائحة خاصة تجتذب باقي الذباب إليه.

أما استخدام الحشرات للإشارات الكيمياوية بهدف الإنذار، فإنه يشاهد لدى نحل العسل الذي يثير باقي المستعمرة بالطواف جرياً وبإطلاق رائحة هي نفسها رائحة لسعة النحل فتهيج هذه الرائحة النحل ولكنها لا تحثه على اللسع.

ولا يستخدم الروائح بوجه عام للجذب الجنسي من الفقاريات غير الثدييات، مع أن الكثير من المجموعات الأخرى في الفقاريات يستخدم الروائح في تعرف النوع. وإذا كان معروفاً عن بعض السمك أنه يطلق مواد كيمياوية تحدد هوية النوع، أو حتى الفرد من النوع الواحد، فليس هناك دليل على استخدامه لها في تلاقي الجنسين حتى اليوم، وإن كان لا يستبعد ذلك ولا سيما لدى بعض أسماك القوبيون gobies. وبالمقابل فإن كثيراً من أنواع الثدييات تطلق إناثه روائح مميزة، عندما تكون مستعدة للتزاوج في فصل الوداق أو الشبق oesturs، وتجذب هذه الروائح ذكور تلك الأنواع. حتى عندما يجري استخدام الوسائل الأخرى للجذب فإن تعرف النوع في معظم الثدييات غالباً مايجري عن طريق اكتشاف الذكر لرائحة الأنثى.

وهناك من الثدييات مايستخدم الذوق عوضاً عن الشم. فذكر الزراف مثلاً يتذوق بول الأنثى لمعرفة حالتها الجنسية.

ويحدث في بعض الثدييات أن يُطلق الذكرُ رائحة متميزة تجذب الإناث إليه أو تتيح لها تعرف هويته. فذكر الشمواه Chamois (من الظباء) مثلاً يَسِمُ الشجر في منطقته بعلامات ذات رائحة، عن طريق فَرْك تلك الأشجار بقرونه التي تمتلك غدداً للرائحة في قواعدها. وتنجذب إناث الشمواه إلى هذه المناطق الموسومة حيث تلاقي الذكور.

أما تعرف الأبوين صغيرهما عند الثدييات فيبدو أنه شَمِّيٌّ بالدرجة الأولى، خلافاً لتعرف الصغير أبويه، فهو من طبيعة بصرية وسمعية.

الجمل البصرية: تقوم الحيوانات المزَوّدة بعيون نامية بإصدار إشارات بصرية (ضوئية). ولئن كانت هذه الإشارات تعمل عن بعد، فإن ذلك البعد لا يكون كبيراً في معظم الحالات. ومن الواضح أن المسافة المجدية للإشارة البصرية إنما تعتمد على حساسية الواحدة المُسْتَقبلة البصرية (المستقبلة الضوئية). ثم إن الإشارات الضوئية تعطي أفضل دلالة على الاتجاه، كما أنها تتغير بسرعةٍ مع الزمن وتستخدم مجالاً كبيراً من الشدة، الأمر الذي يمنحها قدراً كبيراً من المرونة. وأخيراً تتصف هذه الإشارات الضوئية بسرعة تشغيلها وإيقافها مما يسمح بالترميز الدقيق للمعلومات.

طبيعة الإشارات البصرية: يتمثل أكثر الإشارات البصرية تخصصاً في الوميض الذي تولّده متعضيات مضيئة مثل اليراعة والبق المضيء بوساطة أعضاء خاصة مولدة للضوء، انطلاقاً من تفاعلات كيمياوية معقدةٍ لا تنشر حرارة. ولكن ليس لمعظم الحيوانات مع ذلك جملٌ خاصة لتوليد الضوء. يضاف إلى ذلك أن الأعضاء المولدة للضوء، إن وجدت، لا تعمل إلا في الظلام، من ثم يكون استخدامها محدوداً.

تتصف جميع الحيوانات بأجسام محددة الأشكال، كما يتصف الكثير منها بألوان نوعية، وهذا يُعَدُّ بحد ذاته إشارات بصرية (ضوئية). ولعل الطراز اللوني المميز في ذكور الطيور يوضح إمكان استخدام الشكل واللون في تعيين هوية النوع الحيواني وفي تحديد جنسه ذكراً كان أو أنثى. ولكن كثيراً من الحيوانات لا يتصف بألوان نوعية، ومع ذلك يمكن تحديد هويته بصرياً بما يقوم به من أنساق حركية تختلف من نوع لآخر، وتكفي لنقل معلومة الهوية والجنس.

استقبال الإشارات البصرية: تتفاوت إمكانات استقبال الضوء، ولا سيما حس الألوان والنماذج، إلى حد كبير. فباستثناء المفصليات التي تضم القشريات والحشرات، وباستثناء الرخويات التي تضم الأخطبوط والحبّار، يكون هناك ضعف في نمو العيون لدى اللافقاريات، إذ إن لهذه الأخيرة عيوناً لا تستجيب إلا لمجرد الضياء والظلام فحسب.

وكذلك الأمر لدى بعض الفقاريات الدنيا التي عيونها ليست أفضل حالاً من سابقتها. ولكن لمعظم الفقاريات عيوناً نامية راقية لا تمكن من التمييز بين الضياء والظلام فحسب بل بين الأشكال المختلفة أيضاً، حتى الألوان المتباينة في كثير من الأحيان. ولا يخفى ما تتيحه هذه الإمكانات المختلفة من سبل متنوعة للاتصال الحيواني. ولعل الأمثلة القليلة التالية توضح مدى استخدام الحيوانات للإشارات البصرية في اتصالاتها. فلقد طوَّر العديد من ذكور السرطان مخالب وأرجلاً ساطعة الألوان ترهب بها منافسيها، كما تُغْري بها إناثها أيضاً. وكذلك تستخدم ذكور العناكب والطيور لواحقها في أوضاع متقنة ومناورات راقصة بقصد تحديد هوياتها وجنسيتها. ولا تقل الثدييات في هذا المضمار براعةً، فالكلاب والقرود تستخدم تعابير الوجه في الإعلان عن استعداداتها العدوانية مثلاً. ويمكن استخدام كامل الجسم إشارة بصريةً، كما هي حال بط الرنكة herring duck الذي يحوم فوق مصدر الطعام معلناً للأفراد الأخرى عن وجود الغذاء.

الاتصال الضوئي لدى الحيوانات ذات النشاط الليلي: يتطلب استخدام الإشارات البصرية، فيما تقدم من أمثلة وغيرها، شيئاً من الضوء حول الحيوان بحيث يقتصر جدواها على النهار.

أما الحيوانات ذات النشاط الليلي والحيوانات التي تعيش في أعماق البحار والمحيطات فقد طوَّرت أعضاء مولدة للضوء تصدر ومضات ضوئية (ملونة أو غير ملونة) محددة التوزيع في مواقعها من الجسم والإيقاع في انبعاثها، مما يجعلها صالحة لاستخدامها إشارات اتصالية. فهناك كثير من الحيوانات البحرية، ولا سيما تلك التي تعيش في الأعماق، تأتي إلى السطح ليلاً وتولد ضوءاً ينبعث من أعضاء ضوئية متطورة ذات عدسات تركِّز الضوء وتزيده سطوعاً. وقد تومض هذه الأعضاء بإيقاعات مميزة لأغراض التعريف بالنوع والجذب للجنس. ومن أمثلة ذلك بعض الحشرات التي تعيش على اليابسة والديدان البحرية والأسماك العظمية، مع العلم بأن هذه الأسماك لا تصعد إلى السطح بل تولِّد الضوء وتستخدمه في الأعماق.

والمعروف أن الضوء الذي تنتجه الأعضاء المولدة للضوء إنما ينجم عن فعل إنظيم يدعى «لوسيفراز» luciferas في ركيزة تدعى «لوسيفرين» luciferine في حال وجود الأكسجين والماء. وقد أمكن تحديد البنية الكيمياوية للوسيفرين، على الأقل، فوجد أنها تختلف من حيوان إلى آخر، كما تختلف كذلك طبيعة العناصر الأخرى المشتركة في التفاعلات الضوئية.

الجمل السمعية: تشارك الإشارات السمعية (الصوتية) الإشارات اللمسية بعض خصائصها. ولما كان الصوت يمثل حركة آلية في الوسط فإنه يمكن للأعضاء اللمسية عند بعض الحيوانات أن تستقبله. ولكن مايسمى صوتاً حقيقياً هو ذاك الذي يجري استقباله في أعضاء خاصة للسمع. وتعتمد الحيوانات ذات الأعضاء السمعية الراقية على الأصوات في اتصالاتها إلى حد كبير. ولعل مايميز الأصوات أنها تُستَقْبَلُ من بعيد، وأنها اتجاهية المسار بحيث توفر إمكانية التعريف بموقع مصدر الصوت إلى جانب مدلوله. ويمتاز الصوت من الضوء بقدرته على الالتفاف حول الحواجز، فلا تعيقه تلك الحواجز. وتكون الاتجاهية الصوتية على أشدها في التواترات العالية. كما تتمتع الأصوات بطيف واسع من التواتر والشدة والطراز. ويسمح هذا التنوع بفروق نوعية هائلة يمكن استخدامها في الاتصال الحيواني على نحو كبير الجدوى. ويمكن للأصوات علاوة على ذلك أن تكون مرحلية عابرة، بمعنى أنها تظهر فجأة وتختفي فجأة، ومن ثم تسمح بتوقيت دقيق يصلح لترميز المعلومات ترميزاً دقيقاً.

إصدار الأصوات: هناك عدة طرائق تولد بها الحيوانات الأصوات التي تستخدمها في الاتصال. ولئن كانت كل فعاليات الحيوان (من بلع ومشي وطيران) تولد أصواتاً عابرة، إلا أن هذه الأصوات لا تزيد على كونها تسهم في الضوضاء العامة للوسط وقلما تحمل سمات بيولوجية بمعنى الإشارة الاتصالية. ولكن مع ذلك، هناك حيوانات تستخدم هذه الأصوات لأغراض اتصالية. فمثلاً يجذب صوت أجنحة أنثى البعوض ذكورها بهدف التزاوج. أما معظم أصوات الحشرات فإنها أصوات قرع يولدها النقر على جسم ما أو حك بنى مشطية الشكل بعضها ببعض. وفي هذه الحالة الأخيرة يمكن لبعض الحشرات أن تولد أصواتاً ذات جرس موسيقي نوعاً ما. أما في الفقاريات فإن بعض الأسماك يولد الصوت باهتزاز كيس مملوء هواء، وبعضها الآخر يفرك أجزاء من هيكله العظمي ليولد صوتاً. كما أن الثدييات تستخدم حبالاً صوتية تهتز بفعل تيار هوائي متحرك، وأن الطيور تستخدم حجرات وأعمدة هوائية تتجاوب بالطنين. ويجري تحوير الأصوات في أثناء مرورها في حجرات جوفاء، أو في الفم الذي يقويها أو يضعفها فيتيح تنوعاً هائلاً في نماذجها.

استقبال الأصوات: يتم استقبال الأصوات في تشكيلة كبيرة من الأعضاء. فهناك العديد من الحيوانات الدنيا التي تستقبل الأصوات بالأعضاء اللمسية في الجلد. إلا أن الحيوانات التي تستخدم الأصوات في الاتصال على نحو مميز تمتلك مستقبلات خاصة بالصوت وحده. فذكور البعوض مثلاً تستخدم قرون استشعارها المكسوة بأشعار دقيقة، إذ يقوم عضو خاص بصلي الشكل عند قواعدها يدعى عضو جونستون Johnston's body باستقبال الاهتزازات الصوتية. كما أن للجنادب grasshoppers آذاناً على جانبي الجسم، في حين يمتلك الزيز cicada والجدجد cricket آذاناً مشابهة في الأرجل، ويمتلك العث moth آذاناً راقية متخصصة على صدره، وربما أمكن عد هذه الأعضاء آذاناً بحق، إذ إنها لا تكتفي بالتقاط الصوت فحسب، بل تميز أجزاءه المهمة من

ضوضاء الوسط.

وإذا استعرضت الفقاريات وجد أن لها كذلك آذاناً متخصصة تمكن من تمييز تواتر الصوت وأنساقه الزمنية بحيث تستفيد من تشكيلة واسعة من الإشارات الصوتية لغرض الاتصال.

أغراض الاتصال الصوتي: يستحسن البدء بأمثلة من الطيور والثدييات فيما يخص استخدام الإشارات الصوتية في الاتصال الحيواني لما هو مألوف منها. فكثير منا يعد تغريد الطير شكلاً ابتدائياً من الموسيقى يعبر به الطائر عن سعادته وابتهاجه. ولكن صداح الطيور له من الأغراض ماهو أكثر جدية من ذلك بكثير، شأنه في ذلك شأن أصوات الثدييات التي لا تعد أغاني. ففي أغنية ذكر الطير إعلان لباقي الذكور من نوعه في الجوار عن منطقته التي يحميها ويدافع عنها، ودعوة للإناث من نوعه للتزاوج معه. وكذلك الحال مع ذكر الفقمة (من الثدييات) الذي يخص نفسه بأرض في إقليم ملائم للتكاثر ويعلن استعداده للدفاع عنها بزئير مرتفع، ومع الرئيسات، ولا سيما الغوريلا الذي يضرب بقبضة يده على صدره أو على الأرض ويزمجر زمجرة قوية معلناً عزمه على الدفاع عن حماه.

وفي غرض آخر من أغراض الاتصال يطلق الطائر أصوات تحذير لباقي أفراد النوع إذا ما رأى خطراً، أو يشترك أفراد المجموعة في صياح جماعي لإرباك الحيوان المفترس. وليست الثدييات أقصر باعاً في استخدام الأصوات للتحذير، من بعيد. فالموظ moose والإلكة elk والأيل تطلق خواراً قوياً عندما تفلت من ساحة الخطر، كما يبعث الشمواه الأوربي بصفير تحذيري، وكذلك العديد من الرئيسات مثل القرود ومنها البابون baboon التي تنبح عند الطوارئ، حتى الزرافة التي تلزم عادة الصمت تعلن عن حالة الخطر بصهيل أو مأمأة حادة. أما الجرذان والفئران التي تعيش في مجموعات كبيرة متخلخلة التماسك فإنها، وإن بقيت منفصلة (فيما عدا وقت التكاثر)، تطلق عند الخطر نداء كرب من طبيعة فوق صوتية لا يسمعها الإنسان بل يسمعها أفراد نوعها فتعدو إلى أوكارها مسرعة.

وفي غرض ثالث من أغراض الاتصال يطلق نورس الرنكة herring gull والحجل المقوقي أو شقر chukar partridge وقرد الجيبون gibbon وغيرها نداءات خاصة للدلالة على موقع الطعام.

وفي غرض رابع وحيوي يستخدم ذكر الطير الغناء في اجتذاب الإناث. ولما كانت نماذج أغاني الطيور عاملاً محدداً في لقاء الجنسين، فإنها تؤسس مجموعات منفصلة ضمن النوع الواحد، فتؤدي دوراً مهماً في تطور الطيور وتنوعها. أما بين الثدييات فيذكر ذكور الهر والنمر والأسد والعديد من الحافريات Ongulata التي تستخدم الأصوات في اجتذاب الجنس الآخر.

ولئن كان المقام لا يسمح بالخوض في تفاصيل استخدام الإشارات الصوتية عند باقي المجموعات الحيوانية فإنه يكتفى بذكر نقيق الضفادع بأنواعه المختلفة وقباع بعض أنواع السمك وزئير بعض التماسيح وفحيح بعض العظايا. كما يذكر صرير الزيز والجندب والجدجد الذي يعد لغة للاتصال تعتمد تواتر النبضات الصوتية في الأغراض السلوكية المختلفة.

الجمل الكهربائية: إن لبعض الأسماك مستقبلات تستشعر بها الوسط بالاستناد إلى خصائص الإشارة الكهربائية. وتستطيع هذه الأسماك المولدة للنبضات الكهربائية أن تتعرف مايدور في الوسط الذي تعيش فيه من اختلاف الناقلية الكهربائية لعناصر ذلك الوسط، كما تستطيع استخدام تلك الأعضاء المولدة للكهرباء والأعضاء المستقبلة الكهربائية في أغراض الاتصال فيما بينهما. فالمعروف أن الأنقليس الكهربائي electric eel يطلق أرتالاً من التفريغات الكهربائية تجذب إليه الأقران من نوعه. فإذا وضعت مثل هذه السمكة بمعزل عن أقرانها فإنها تبث إيقاعاً معيناً من النبضات الكهربائية ساعات طوالاً وربما أياماً، ولكن الإيقاع سرعان ما يتغير بوضوح عندما يدخل الوسط قرين يقترب منهاحتى مسافة ٢٠ ـ ٣٠ سنتمتراً. وما هذا التآثر بينهما إلا وسيلة لتبادل المعلومات بينهما، وكأنه يمكن القول بأن مثل هذه الأسماك إنما يتصل بعضها ببعض بالإشارات الكهربائية، ولإيضاح هذا القول يذكر أن سمكة المورميريد mormyrid مثلاً تطلق نسقاً نمطياً من التفريغ الكهربائي في أثناء الأكل، فإذا ما تلقت سمكة أخرى من نوعها هذه الإشارة فإنها سرعان ما تبدي استجابات حركية وكهربائية خاصة بتناول الطعام.

تطور الاتصالات الحيوانية مع التطور النوعي phyllogenic والتطور الفردي ontogenic: من الواضح أن إشارات الاتصال بين الحيوان تطورت على نهج تطور البنى والفعاليات المختلفة لدى الحيوانات. لكنه لا يعرف إلا القليل عن هذا التطور لعدم إمكان العثور على مستحاثات للسلوك مثلما أمكن العثور على مستحاثات للأسنان والعظام قدمت بدورها إطاراً لأفكارنا عن الماضي البنيوي للحيوانات. فلا يملك المرء إذاً إلا أن يؤول ما يراه حاضراً من السلوك. وباستقراء مايراه، يبدو أن إشارات الاتصال تنشأ عادة على شكل حركات غرضية متحورة؛ بمعنى أن الحيوان عندما يقوم بحركة ما فإنه يهدف إلى غرض ما، ثم تغدو هذه الحركة بالتدريج إشارة يستفيد منها أقرانه، كما يغدو تسلسل الحركات وطرازها نموذجاً نمطي التجسيم هادفاً وقابلاً للتوريث على مستوى النوع الحيواني الواحد. إلا أن مايرثه الصغير من هذه النماذج الاتصالية والسلوكية مرهون في أدائه بالتوقيت المناسب الذي تكتمل عنده أسباب الأداء. فأساريع الفراشات مثلاً لا بد أن تنتظر ظهور الأجنحة حتى تقوم بأداء الإشارات الجنسية التي تؤديها الفراشات البالغة. ولئن أمكن توريث نماذج الترميز الاتصالي النمطية النوعية، فهناك جانب يتعلمه فرد الحيوان في أثناء نموه ويكون غير قابل للتوريث. وهكذا يسهم في الأداء الاتصالي مكونان اثنان: أولهما مبدئي وراثي، وثانيهما فردي اكتسابي. ويختلف وزنا هذين المكونين بين نوع وآخر، أو بين مجموعة حيوانية وأخرى. فالسمك البالغ يؤدي إلى نموذج سلوك النوع بشكله الكامل حالما تتوافر الأسباب البنيوية لهذا الأداء دونما مران أو تعلم، في حين يتدخل عامل الاكتساب في صوغ الأداء الاتصالي عند بعض الطيور على نحو ملحوظ.

زياد القطب

مراجع للاستزادة:

-KLAUS IMMELMANN, Grizmek's Encyclopedia of Ethology (English Edition, Van Nostrand Reinholde Ltd, London 1977).

■ الاتصال بالجماهير

يعرّف الاتصال في علوم السلوك بأنه العملية التي يتم بها نقل آثار التغيّر من أحد أطراف المجال السلوكي، وهو مصدر الإثارة، إلى الطرف الآخر بهدف إحداث تغيير فيه. ويمضي الاتصال في معظم المواقف من مصدر الإثارة وإليه، ويقل أن يمضي في اتجاه واحد حين يكون مباشراً.

وتتواصل المخلوقات فيما بينها بأنماط كثيرة ومختلفة، وعلى درجات متفاوتة، وتتحدد العملية، في كل حال، بمكونات الاتصال الأساسية وفي مقدمتها: خصائص الأطراف التي يجري الاتصال فيما بينها، والحدود الفاصلة بين تلك الأطراف، وأدوات الاتصال، ومحتوى عملية الاتصال.

ويسمى الاتصال باسم الاتصال الاجتماعي social communication حين يتم به تبادل الفهم بين الكائنات البشرية ونقل المعاني من إنسان إلى آخر أو إلى جماعة، أو من جماعة إلى أخرى أو إلى فرد. ويعد هذا النوع من الاتصال أساس الحياة الاجتماعية والحضارة والتقدم وبه تتم عملية نقل تجارب الأجيال وتجارب الآخرين.

ويسمى الاتصال باسم الاتصال الجماهيري mass communication حين يكون المستقبل جمهوراً. فإذا كان الحديث عن السلوك الحيواني عرف الاتصال عندئذ باسم الاتصال الحيواني animal communication.

الإشارات في الاتصال

تجري عملية الاتصال بوساطة أنواع من الإشارات التي يتم بها التعبير عن المحتوى. والإشارة، بمعناها العام، هي كل ما يشير من كلمة أو حركة أو صورة أو إيماءة أو شيء مادي أو غير ذلك، إلى شيء غير ذاته أو إلى تصور فكري بحيث يؤدي إلى اختصار الأفكار المجردة وعمليات تركيب المعاني المطولة بما يمكن أن يرمز إليها أو يدل عليها. وفي الإشارة، بمعناها العام، دال ومدلول، أي شكل ومحتوى، ويمثلان، بوجه عام، شيئاً أو مفهوماً هو المشار إليه، أي المضمون، (سواء من العالم الخارجي أو الداخلي). تنقل الإشارة المعاني إلى أحد أطراف الاتصال ويدخل كل من طرفي الاتصال (المرسل والمرسَل إليه) في تحديد شكل الإشارة ونوعها. لهذا تندرج الإشارة ضمن عملية الاتصال وتعمل وسيلة للاتصال وهدفه، ويصبح كل شيء أو صفة أو فكرة، أو غير ذلك من موضوعات الاتصال، إشارة في عملية الاتصال.

ومن هذه الزاوية يمكن أن تصبح الظاهرة الطبيعية إشارة إذا دخلت في عملية الاتصال البشري وتضمنت تفسيراً معيناً، وهذا هو حال الرعد والغيوم لدى من يرى فيها إشارة لما ينتظر أن يحدث. وانطلاقاً من هذا الفهم يمكن القول إن الإشارة، بمعناها العام في الاتصال، هي علاقة محددة بين الأطراف أو الأفراد الذين يستعملونها والواقع الذي تدل عليه، ولايتم استعمالها إلا ضمن عمل جماعي محدد يعيه من يقوم به ويحاول فيه وضع نفسه مكان الطرف الآخر بغية فهم موقفه.

يدخل استعمال الإشارة في عملية الاتصال في كل بنية اجتماعية مهما كانت بسيطة أو معقدة. ومن البدهي القول: إن الاختلاف كبير بين الإشارات التي يستعملها الإنسان في اتصاله بالآخرين وتلك التي يستعملها الحيوان: فلكل مستواه من حيث المنعكسات الغريزية والعمليات الفكرية. فإذا وقف الحديث عن الإشارات عند الإنسان قيل عنها إنها نتاج اجتماعي واعٍ يتكون من مجموعة علاقات بين الدال والمدلول، أو بين الإشارة والواقع الذي تدل عليه، أو بين كل هذه الجوانب والأفراد الذين يستعملون الإشارات وبين الإشارات الأخرى التي تنتمي إلى نظامها.

وتصنف الإشارات من حيث معناها العام في الاتصال إلى نوعين: الرموز symbols والعلامات signs، ويضيف بعضهم نوعاً ثالثاً يطلق عليه مصطلح «الإشارات الاصطلاحية» أو «الإشارات» بالمعنى الضيق للكلمة.

تدل الرموز على الأشياء، أو الأفكار، وتحل محلها وتصبح بديلة عنها بفعل قاعدة متواضع عليها، ويتعلمها الأفراد الذين يستعملونها، وهي لاتكون إلا بوجود علاقة تجريدية تجمع مابين طرفيها الدال والمدلول. فالميزان مثلاً رمز للعدل، وكلمة «كتاب» تدل على شيء معين. ويفقد الرمز صفته الدلالية إذا فقد تفسيره.

وبين الرموز ما هو لغوي، وبينها ما ليس كذلك. أما الرموز اللغوية فتتألف من الألفاظ المكتوبة والمنطوقة التي تؤلف منظومة من الإشارات المتعارف عليها، وهي من أكثر أنظمة الإشارات تعقيداً. وتتكون الرموز اللغوية بفعل علاقة دلالية تربط ما بين الدال والمدلول، وتُعدّ أداة الاتصال البشرية الأساسية وأكثر أنواع أدوات الاتصال تعبيراً، ذلك لأن الإشارات غير اللفظية لاتأخذ معناها إلا بصفتها بديلة للإشارات اللفظية، ولأن الرموز اللغوية تحمل شحنة من المعاني الثانوية اللاحقة مثل الاستنكار والتعجب والسرور وغيرها التي ترتبط بعلاقة ما بالمعنى الأصلي لها. ومع كل ذلك فإن الرموز اللغوية كثيراً ما تضلل ويساء فهمها.

تتصف الرموز اللغوية بأنها اتفاقية أي جرى الاتفاق بشأنها، ولاتخضع دائماً للمنطق من حيث ارتباطها بما تدل عليه. ثم إنها تتألف من وحدات دلالية قابلة للانقسام إلى رموز أبسط منها، ويمكن أن يدخل كل رمز منها في تركيب وحدات دلالية مختلفة. وتقوم الرموز اللغوية بدور رئيس في عملية الاتصال الفكرية والاجتماعية، ويمكن بوساطتها التعبير عن كل شيء. إنها لغة الحضارة المادية والروحية: الملموسة والمجردة.

وأما الرموز غير اللغوية فإشارات مادية تدل على شيء آخر، أو معنى آخر، غير ذاتها: فرسم الميزان يدل مثلاً على العدل، ورسم الجمجمة على الخطر، ويكون الدخان رمزاً للاتصال لدى بعض القبائل، كما يكون السكوت من الرموز التعبيرية ويستعمل في عملية الاتصال لأنه قد يعني أحياناً رفض أمر، أو التردد فيه، أو عدم القدرة على البوح به.

أما العلامات فإشارات تعود إلى شيء ما لأنها تملك ترابطاً دينامياً ومكانياً بينها وبين الشيء من جهة، وبينها وبين حواس أو (ذاكرة) الشخص الذي يستعملها، من جهة أخرى. ويعني ذلك أن العلامة وما تشير إليه يحدثان معاً بحيث يرتبط كل واحد منهما بالآخر في ذهن الفرد عن طريق عملية التعلّم. وبهذا فإن العلامة تحمل عادة لأي كائن حي معنى واحداً محدداً يتصل بالظروف التي تحدث فيها وتجعل الفرد يربط نتيجة أو «علامة» بسبب أو مؤثر.

ومن الممكن التفريق بين العلامات الطبيعية والعلامات الاصطناعية. فالعلامات الطبيعية هي جميع العلامات المادية التي تدل على شيء آخر يرتبط بها: كأن تدل الغيوم على المطر، والدخان على الحريق. ويدخل ضمن هذه الفئة جميع العلامات اللاإرادية التي تفصح عن الحالات الوجدانية والمشاعر والنوايا: هكذا يدل بريق العينين مثلاً على الأمل، والعبوس على الغضب، واحمرار الوجه على الخجل.

وأما العلامات الاصطناعية فإشارات يصطنعها الإنسان ويربطها بموقف أو بشيء معين بغية تحميلها رسالة ما، ومثال ذلك إشارات السير، وإشارات الاتصالات البرقية. ولا تصبح «الإشارة الاصطناعية» إشارة إلا إذا كان معناها المتفق عليه معروفاً لدى المرسَل إليه.

الاتصال بالجماهير

يعرّف الاتصال بالجماهير بأنه العملية التي يتم بوساطتها الاتصال بجمهور، أو بغالبية المجتمع الكلي أو جمع كبير منه، اتصالاً (يمكن أن يكون مباشراً ويكثر أن يكون غير مباشر) يهدف إلى إحداث تغيير في استجاباته السلوكية الظاهرة أو غير الظاهرة. وفي الاتصال بالجماهير مجموعة من المكونات الأساسية يقع في مقدمتها ما يلي:

المرسل: ويعد نقطة الانطلاق في عملية الاتصال، وعنه تصدر الرسالة التي تحمل معنى محدداً يتفق مع وجهة نظره، وهو يهدف من الرسالة إلى استثارة استجابة محددة لدى الجمهور المستقبل. وتقوم في الغالب مؤسسة اتصال بمهمة المرسل تضم القائمين بالاتصال من مراسلين ومحررين وغيرهم، وهم يعملون متعاونين ويؤلفون وحدة الاتصال التي يكون في مقدمة مهماتها تلقي المعلومات واستخراج دلالة رموزها وتفسيرها ووضع ما اختير منها في رموز جديدة يمكن نقلها.

المستقبل: تعدّ جماهير المجتمع هدف الاتصال، ويجعلها المرسل في حسابه دائماً عند النظر في كل عنصر من عناصر الاتصال. يستقبل المواطن (أي كل فرد من أفراد الجماهير) الرسالة ويؤول رموزها ويفسرها متأثراً بتكوينه النفسي وتجربته الذاتية الحاضرة والتاريخية وبمضمون الرسالة ومصدرها. تُنقل الرسالة عادة من المرسل إلى الجمهور المستقبل على مرحلتين، أو على عدة مراحل بوساطة قادة الرأي العام «الوسطاء» أو بوسائل متعددة القنوات.

الرسالة: وهي المادة أو المحتوى في عملية الاتصال، وتتكون من مجموعة المعاني التي يضعها القائم بالاتصال في رموز تنقل إلى المستقبلين. تتعدد أنواع الرسائل بتعدد محتواها، إذ تنقل الرسائل الموضوعية الجانب الموضوعي العقلاني، بينما تنقل الرسائل العاطفية المشاعر والعواطف والانفعالات.

ويغلب على الرسائل أن يكون محتواها عقلانياً وعاطفياً.

ومن الأمور التي تؤخذ بالحسبان في كل رسالة رموزها وموضوعها ومعالجة المضمون.

أما رموز الرسالة فهي مجموعة الاصطلاحات المتعارف عليها وتتألف من عناصر (رموز) ترتب بنظام معين بحيث يمكن بوساطتها نقل المعاني إلى المستقبلين. وتحمل الرسالة عدداً كبيراً من الدلالات الأخرى التي تسهم في تكوين المعنى عند المستقبلين وفيها طريقة النطق والمؤثرات المادية المحيطية.

وأما موضوعات الرسالة فهي المضمون أو المحتوى، وقد اختارها القائم بالاتصال لتعبر عن أهدافه. ويتألف هذا المضمون من عناصر متعددة بينها العبارات والمعلومات والاستنتاجات والأحكام وتقدم بترتيب معين.

وأما معالجة الرسالة فهي الطريقة التي يقدم بها المرسل أو المصدر الرموز والمضمون مثل اختيار معلومات معينة وتكرار دليل معين وعرض جميع الحقائق أو بعضها.

الوسيلة: وهي الأداة أو الوساطة التي تنقل بها الرسالة إلى أعداد كبيرة من الأفراد المنتشرين على مساحات واسعة ومتفرقة. وقد تكون الوسيلة سمعية مثل الإذاعة، أو بصرية مثل الملصقات واللوحات والإعلانات، أو سمعية بصرية مثل التلفزيون والسينما، أو متعددة القنوات كالفيديو والحاسوب.

وتختلف الوسائل فيما بينها من حيث نوع الآثار التي تخلفها ونوع الرسائل التي تحملها ونوع الجمهور الذي تتصل به. ويتوقف نوع الوسيلة على قدرات كل من المصدر المرسل والجمهور المستقبل، ولهذا تختلف وسائل الاتصال القائمة في الدول الصناعية عنها في الدول الآخذة بالنمو سواء في إطار تطويرها أو إطار المؤسسات المعنية بها.

فالدول الصناعية التي اعتمدت الاتصال بالجماهير اعتماداً كبيراً منذ أوائل القرن العشرين تأخذ بوسائل اتصال متطورة تواكب تطورها العلمي والتقني. فقد تعاظم شأن النظم الإلكترونية، وتنوعت تقنيات الاتصال بطريق الأقمار الصنعية، وحدث تطور هائل في مؤسسات الاتصال التي غدت تعتمد أساليب حديثة في الإدارة وتطوير برامج الاتصال وأشكالها وتبادلها. والواقع أن وسائل الاتصال في هذه الدول أصبحت جزءاً من نظام الإنتاج فيها مثلها مثل أي مشروع صناعي آخر. وهي في المجتمع الصناعي القائم على نظام المشروعات الحرة قادرة على توفير الأرباح وعلى الاحتكار في حالات، وهي قادرة على التأثير الواسع في الجماهير.

أما الدول الآخذة في النمو فيغلب أن تعتمد على نظم اتصال ما تزال تعتمد على ما تقدمه الدول الصناعية.

ردود الفعل: يقصد بردود الفعل استجابة المستقبل التي يستدل المرسل بوساطتها على تأثير رسالته في المستقبل ووجهة نظر هذا الأخير بشأنها. وكثيراً ما يسمى رد الفعل بمصطلح «رجع الصدى» و«التغذية الراجعة» و«الرجع». وقد يكون رد الفعل مقصوداً كأن يقوم أفراد من المستقبلين بكتابة تقرير إلى المؤسسة (أي المرسل)، وقد يكون غير مقصود كأن يُعرف عن طريق إقبال الجماهير على وسيلة الاتصال والحديث عن محتوى الرسالة.

التشويش: يقصد من التشويش تدخل أي مثير عارض أو عرقلة عملية الإرسال والاستقبال. يؤدي التشويش إلى اختلاف الرسالة التي تم إرسالها عن الرسالة التي يتلقاها المستقبل. وتوجد عدة أنواع من التشويش منها التشويش الخاص بالدلالة والتشويش الميكانيكي. يحدث التشويش الخاص بالدلالة نتيجة المؤثرات الذاتية التي تؤثر في فهم المستقبل للرسالة. ويزداد هذا النوع من التشويش بازدياد غموض الرسالة أو عندما تكون العلاقة بين المرسل والمستقبل غير محايدة، أي عندما تكون مثقلة بالمعاني الانفعالية السلبية أو الإيجابية. أما التشويش الميكانيكي فيقصد به التدخل الفني أو المادي الذي يطرأ على إرسال الرسالة في سيرها من مصدر المعلومات إلى الهدف الذي يراد الوصول إليه. ويزداد هذا النوع من التشويش بازدياد طول سلسلات الاتصال أي بازدياد عدد المراكز الوسيطة.

الأغراض: المقصود من الأغراض هو أهداف الاتصال من وجهة نظر القائم بالاتصال أو نوع الاستجابة التي يريد استثارتها. وقد تكون أغراض الاتصال مقصودة وظاهرة يهدف القائم بالاتصال إلى تحقيقها، وقد تكون خفية أو غير مقصودة. ثم إنها قد تكون عاجلة وقد تكون آجلة. ومن جانب آخر قد تكون أغراض الاتصال

إعلامية أو تثقيفية أو ترفيهية .

الآثار: يقصد بالآثار أو التأثيرات التغيرات التي يؤدي إليها الاتصال في الجماهير أو في أفرادها. وقد تكون وظيفية تفيد الجماعة والفرد، وقد لاتكون كذلك. وقد تكون ظاهرة أو ضمنية. ويكثر في الاتصال بالجماهير أن يحدث التأثير في الأفراد عن طريق التأثير في الجمهور ذاته من حيث هو جماعة.

وتتوقف طبيعة الآثار على التفاعل بين الرسائل والظروف الشخصية وغيرها العاملة في الجماعات. وقد يتم هذا التفاعل بأساليب متنوعة من بينها الإيحاء والإقناع والتعليم. وهناك مستويات متعددة للتأثير وشدته تبدأ بالاهتمام بحدوث تغيير في طرائق الأفراد التي ينظمون بمقتضاها تصوراتهم بشأن الظروف المحيطة، إلى الطريقة التي يتصرفون بموجبها ومن ثم إلى حدوث تغيير في السلوك الجماهيري، ويدخل في ذلك معتقدات الجمهور ومصالحه وتحركاته.

ليلى داود

■ الاتصال من بعد

الاتصال من بعد telecommunication هو العمليـة التي يتم بوساطتها نقل المعلومات مهما تكن طبيعتها من نقطة معينة في المكان والزمان تسمى المصدر إلى نقطة أخرى تسمى الجهة المقصودة أو المستثمر.

أما وسيلة الاتصال فخطوط الاتصال السلكية أو اللاسلكية أو الضوئية. ويعرّف نظام الاتصال في معناه الشامل بأنه مجموعة العناصر والعمليات الضرورية لتحقيق تبادل المعلومات بين المرسل والمستثمر، وهو في معناه الخاص، الأكثر شيوعاً ، نظام للاتصال يعتمد أساساً، وليس حصراً ، على مبادىء الكهرباء ومفاهيمها. وهو موضوع هذا البحث.

لمحة تاريخية

أدرك الناس ضرورة تحقيق الاتصال من بعد فيما بينهم منذ قديم الزمان. وتحت ضغط هذه الضرورة جرت بحوث وتجارب لإيجاد الوسائل والطرق التي تمكّن الإنسان من تجاوز المسافات والأزمنة، وتحقيق تبادل المعلومات ونقلها من بعد. وهكذا استخدم الإنسان الوسائل الضوئية لتوفير هذا التبادل والنقل مستفيداً من النار التي هي مصدر الضوء الصنعي والدخان، ولكنه لم يعرف نظام اتصال من بعد حقيقياً إلا بعد اكتشاف البرق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

وبعد اختراع جهاز البرق الكهرميكانيكي عام ١٨٣٧ وأبجدية مورس عام ١٨٣٨ أقيمت مكاتب الخدمة العامة للاتصال البرقي.

يعد اختراع غراهام بل G. Bell الهاتف عام ١٨٧٦ البداية الفعلية لعصر الاتصال من بعد، وقد أحدث هذا الاختراع تغييراً كبيراً في حياة الناس وعاداتهم، وانتشر استخدامه بسرعة في جميع الدول الصناعية. وبعد عشرين عاماً من هذا الاختراع، أتت تجربة ماركوني Marconi للاتصال اللاسلكي، مستفيدة من انتشار الموجات الكهرمغنطيسية في الهواء المحيط بالكرة الأرضية.

وقد أتاحت تجربته توسيع مجال الاتصال من بعد، وأمكن بفضل ذلك نشر المعلومات الصوتية بالبث الإذاعي، ثم تطورت استخدامات هذا الاكتشاف في التلفزة [ر] لنقل الصورة والصوت معاً، وفي منظومات نقل المعطيات والصور والاستشعار عن بعد [ر] والرادار [ر]والاتصالات الفضائية المدنية والعسكرية.

المكوّنات الأساسية للاتصال من بعد

يبين الشكل ١ العناصر الرئيسة في أيّ نظام اتصال كهربائي: يقدم المصدر المعلومات المراد إرسالها إلى محول طاقة الدخل (المكرفون، كاميرا التصوير التلفزيوني...) الذي يحول طاقة المعلومات إلى إشارة كهربائية يمكن نقلها عبر منظومة الاتصال. ويقوم المرسل بملاءمة هذه الإشارة مع خواص قناة النقل المستخدمة.

ويعـد التعـديل modulation من أهـم العمليات التي تتم في هذه المرحلة ويتم فيها تغيير أحد عوامل الموجة الحاملة carrier wave ، بما يتناسب مع إشارة الدخل. وقناة النقل هي الوسيلة التي تربط طرفي المرسل والمستقبل ويمكن أن تكون هذه القناة سلكية كخطوط الهاتف والبرق والكبل المحوري، أو لاسلكية كالموجات الراديوية، أو حزمة أشعة ضوئية كالليزر[ر] laser .

ومهما تكن طبيعة القناة فإن الإشارة تتخامد في أثناء النقل تخامداً يتناسب مع المسافة بين المرسل والمستقبل وقد تتعرض إلى التشويش الذي ينتج من ضجيج خارجي أو داخلي بسبب العوامل الطبيعية أو التداخل مع المنظومات المجاورة، أو بسبب التشويه الخطي وغير الخطي الناتج من مكونات المنظومة نفسها.

ويقوم المستقبل في الطرف الآخر من قناة النقل باستخلاص إشارة الخرج من الإشارة المستقبلة وتتم فيه، بالإضافة إلى عمليـات التكبير الضرورية للإشـارة المستقبلة الضعيفة عملية كشف التعديل detection أو إلغائه demodulation لاسترجاع الإشارة المنقولة لتأتي مطابقة قدر الإمكان للإشارة الأصلية.

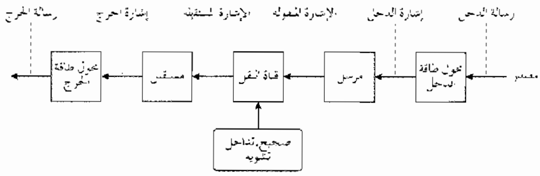
وأخيراً يقوم محول طاقة الخرج (سماعة، صمام الصورة...) بتحويل إشارة الخرج إلى الشكل الذي تستفيد منه الجهة المقصودة مباشرة.

منظومات الاتصال من بعد

يعتمد تصنيف منظومات الاتصال من بعد اعتماداً كبيراً على خصائص المعلومات المنقولة وطبيعة القناة المستخدمة للنقل وطريقة التعديل.

أما أهم هذه المنظومات وخصائصها العامة واستخداماتها الرئيسية فهي:

المنظومات التمثيلية : analog systems يتم في هذه المنظومـات نقل الإشارة الممثلة للمعلومات آنياً وباستمرار مع الزمن. وعند استخدام التعديل في طرف الإرسال يتم تغيير أحد عوامل الموجة الحاملة بما يتناسب مع الإشارة المنقولة، وتكون الموجة الحاملة في العادة جيبية الشكل وذات تردد أكبر بكثير من تردد أيّ من مركبات الإشارة المراد نقلها، ويسمى هذا النوع من التعديل تعديل الموجة المستمرة continuous wave modulation ، وواضح أن هذا النوع من التعديل يلائم الإشارات التي تتغير باستمرار مع الزمن. فإذا كان العامل الذي يتم تغييره في عملية التعديل هو مطال الموجة الحاملة فيسمى التعديل تعديلاً مطالياً أو تعديلاً سعوياً



(الشكل ١) العناصر الرئيسية في أي نظام اتصال كهربائي.

amplitude modulation .

أما إذا كان العامل هو التردد فيسمى التعديل تعديلاً ترددياً frequency modulation، وإذا كان العامل هو طور الموجة الحاملة فيسمى التعديل تعديلاً طورياً phase modulation .

يستخدم التعديل المطالي استخداماً رئيسياً في أنظمة البث الإذاعي والتلفزيوني وفي منظومات الاتصال وحيدة الحزمة الجانبية single side band للمسافات البعيدة، وفي دارات تأليف المنضِّدات بالتقسيم الترددي (FDM) frequency division multiplex، وذلك للحصول على إشارة واحدة تمثل عدداً كبيراً من الإشارات المستقلة المعبرة عن معلومات مختلفة (قنوات هاتفية، قنوات تلفزيونية) ويتم ذلك بإزاحة حزمة الترددات الأساسية، لتشغل كل إشارة منها حيزاً جديداً ، ثم تنضيد الواحدة تلو الأخرى. ويستخدم التعديل الترددي في أنظمة البث الإذاعي عالي الجودة وفي نظم الاتصالات المكروية الأرضية والفضائية. أما التعديل الطوري فهو نادر الاستخدام في المنظومات التمثيلية في حين يستخدم كثيراً في المنظومات الرقمية على شكل الانزياح الطوري المفتاحي phase shift keying (PSK).

وتكمن أهمية التعديل الطوري في العلاقة الوثيقة بينه وبين التعديل الترددي فيمكن تصنيفهما باسم التعديل الزاوي angle modulation .

ويدخل أيضاً في هذا التصنيف منظومات الاتصال من بعد في حزمة القاعدة base band التي تنقل الإشارة مباشرة على خطوط النقل السلكية المختلفة، ويمكن أن تكون هذه الإشارة مفردة (إشارة هاتفية، إشارة صورة...) أو تكون إشارة لعلها منضدة بالتقسيم الترددي (FDM) .

المنظومات الرقمية digital systems : تُنقل في هذه المنظومات عينات من الإشارة المراد إرسالها مأخوذة دورياً في أزمنة محددة وتعتمد هذه المنظومات أساساً على نظرية شانون shannon theorem ، التي تقول : « يكفي لإعادة تركيب الإشارة المنقولة من طرف المستقبل إرسال عينات منها بتردد يساوي ضعفي أعلى تردد في مركبات تلك الإشارة المنقولة أو أكبر منهما ». ويستفاد من هذه الخاصية استفادة رئيسة في إرسال عينات لإشارات أخرى متعددة، ومستقل بعضها عن بعض، في الزمن الفاصل بين كل عينتين متتاليتين من الإشارة المنقولة، وهو ما يعرف بالتنضيد بالتقسيم الزمني time division multiplexing (TDM).

ويتم إرسال هذه العينات عادة بطرائق مختلفة تندرج جميعها تحت اسم التعديل النبضي pulse modulation، وأهم أنواعه :

- تعديل مطال (سعة) النبضة PAM
pulse amplitude modulation
- تعديل عرض النبضة PWM
pulse width modulation
- تعديل مكان النبضة PPM
pulse position modulation
- تعديل رمز النبضة PCM
pulse code modulation

ويعد تعديل رمز النبضة PCM أشهر أنواع التعديل النبضي وأكثرها استخداماً في النظم الرقمية، ويتم فيه تقويم كل عينة قبل إرسالها بسلم تقويم ذي عدد معين من مستويات التقويم المنفصلة، لتعطي العينة القيمة العشرية الصحيحة الأقرب إلى وضع العينة على سلم التقويم، ومن ثم يتم ترميز هذه القيمة الصحيحة بالنظام الثنائي binary system، ويرسل العدد الثنائي المعبر عن قيمة العينة على شكل إشارة كهربائية مناسبة. وقد أخذت هذه المنظومات اسمها أي « المنظومات الرقمية » من هذا النوع من التعديل.

وتستخدم المنظومات الرقمية بكثرة في مجال الاتصالات الهاتفية الحديثة ولاسيما في المقاسم الهاتفية الإلكترونية وفي نظم الاتصالات ذات السعات الكبيرة كالمنظومات المكروية الأرضية أو عن طريق السواتل الصنعية.

قنوات الإرسال السلكية

تعد قنوات الإرسال السلكية الوسيلة المادية للوصل بين طرفي الاتصال : المصدر والجهة المقصودة، وهي أقدم وسائل نقل المعلومات وأهمها. وتتألف قنوات الإرسال السلكية فيزيائياً من خطوط النقل transmission lines بأنواعها كافة وأشكالها المختلفة، وأبسط هذه الأنواع خط النقل الذي يتألف من سلكين ناقلين معزولين أحدهما عن الآخر ومتوازيين أو مجدولين.

تطبق الإشارة المراد نقلها عند بداية الخط فتنتشر فيه على شكل موجة جهد وموجة تيار كهربائيتين تتغير قيم محدديهما الرئيسين المطال والطور تبعاً لكل من المسافة والزمن. وتكون سرعة انتشار الموجتين مساوية تقريباً لسرعة الضوء، وتتعلق تغيراتُ محددات الإشارة المنقولة بالخواص العامة لخط النقل، التي تتحدد هي أيضاً بثوابته الأولية والثانوية.

تتوقف الثوابت الأولية لخط النقل على تركيبه الفيزيائي (المادة المصنوع منها وقطر الأسلاك المستخدمة والبعد بينها وأشكالها ونوع العازل المستخدم).

وتتوقف ثوابته الثانوية على كل الثوابت الأولية وتردد العمل. ويبين الشكل ٢ الدارة الكهربائية المكافئة لجزء من خط نقل طوله ΔX بدلالة ثوابته الأولية.

أما الثوابت الثانوية للخط فهي : الممانعة المميزة ZO وثابت الانتشار (γ)

ويعرفان بالعلاقتين التاليتين:

$$ZO=\sqrt{\frac{R+j\omega L}{G+j\omega C}}$$

حيث:

$(\varpi = 2\pi f)$: السرعة الزاوية وتقاس بواحدة راديان / ثانية، وf تردد العمل ويقاس بواحدة هرتز.

$$\gamma=\sqrt{(R+j\omega L)(G+j\omega C)}=\alpha+j\beta$$

(α): ثابت التخامد للخط ويقاس بواحدة نيبر / متر.

(β): ثابت الطور للخط ويقاس بواحدة راديان / متر.

j: العدد التخيلي المعرف بالعلاقة

$$j=\sqrt{-1}$$

ويعتمد حساب الثوابت الأولية على تطبيق نظريات التيار الكهربائي والحقول الكهرمغنطيسية. وتعطى هذه الثوابت في العادة من الصانع أو بجداول خاصة ضمن شروط محددة. ويلجأ في التطبيقات العملية إلى إجراء بعض التقريبات الحسابية مع مراعاة قيمة تردد العمل وأثره عند حساب الثوابت الأولية والثانوية مما يسمح بالحصول على علاقات بسيطة تعطي نتائج جيدة.

أما تصنيف خطوط النقل فيكون بحسب أشكالها واستخداماتها وأنواعها على النحو التالي:

الخطوط الهوائية: وهي من أقدم الخطوط المستخدمة لنقل المعلومات وتتألف من ناقلين نحاسيين عاريين ومثبتين بوساطة عوازل مناسبة على أعمدة خشبية أو حديدية أو إسمنتية، ويكون البعد بين كل عمودين متتاليين نحو ٥٠ متراً وارتفاع مكان تثبيت النواقل على الأعمدة من ٤ إلى ١٢ متراً. وتستخدم هذه الخطوط لنقل القنوات الهاتفية المنضدة بالتقسيم الترددي FDM ذات السعات الصغيرة أو القنوات الهاتفية المفردة.

الكبلات الهاتفية: وهي خطوط نقل شفعية مفردة أو متعددة الأزواج مصنوعة من نواقل نحاسية معزول بعضها عن بعض بعازل مناسب وموجودة ضمن غلاف عازل خارجي وتختلف فيما بينها بحسب أسلوب جدلها، فتكون زوجية أو رباعية نجمية أو رباعية زوجية كما تختلف بحسب نوع العازل ورقياً كان أم من اللدائن المحقونة، أو بحسب نوع الشبكة فتكون شبكة بعيدة المدى أو متوسطة المدى أو كبلات مباشرة مع المشتركين.

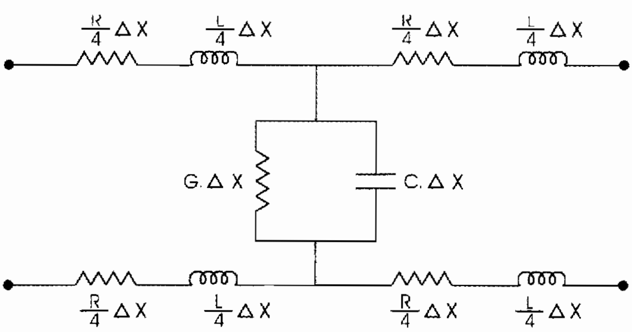
الكبلات المحورية: وتتألف من ناقل نحاسي يخترق أنبوباً ناقلاً شبكياً أو أسطوانياً، ويفصل بينهما مادة عازلة مناسبة ويحيط بالأنبوب الخارجي كذلك عازل مناسب آخر. ويوجد نوعان رئيسان من الكبلات المحورية: الكبلات المرنة flexible coaxial cable والكبلات الصلبة solid coaxial cable أما من حيث عدد الأنابيب المستخدمة فيها فهناك الكبلات ذات الأنبوب الواحد، وهي أبسط أشكال الكبلات المحورية، والكبلات ذات الأنابيب المتعددة (ثنائية أو رباعية أو أكثر). كما قد يوجد ضمن الكبلات متعددة الأنابيب عدة أزواج من النواقل المعزول بعضها عن بعض تستخدم لأغراض خاصة أو لخدمة بعض خطوط الاتصال الفرعية على طول مسار الكبل الرئيسي.

ويمثل الشكل ٣ مقطعي كبلين محوريين للاتصالات البعيدة.

الكبلات ذات الألياف الضوئية: fibre optic cables ظهرت هذه الكبلات نتيجة تزايد الحاجة إلى خطوط ذات سعات (عدد قنوات) كبيرة جداً، وارتفاع كلفة المواد الأولية، وثقل الكبلات التقليدية، وقد أمكن ذلك بفضل تطور علم الضوء ولا سيما الليزر واستخدام الألياف الزجاجية وسطاً لانتشار الأمواج الضوئية وتتميز هذه الكبلات بقدرتها على نقل كمية كبيرة من المعلومات في آن واحد، وقلة الضجيج بالموازنة مع الكبلات التقليدية إذ تختفي هنا مشاكل التداخل والإشعاع على طول الكبل ويختفي تأثير المجال الكهرمغنطيسي. ومن ميزاتها كذلك ضآلة التخامد الذي تتعرض له الموجة الضوئية الحاملة للمعلومات في أثناء النقل مما يسمح بزيادة المسافة بين المقويات، وكبر عرض المجال الذي قد يصل إلى بضع مئات من الميغاهرتز، إضافة إلى خفة الوزن والمرونة العالية.

قنوات الإرسال اللاسلكية

تعتمد قنوات الإرسال اللاسلكية على خواص انتشار الموجات الكهرمغنطيسية في الهواء والفراغ المحيط بالكرة الأرضية لتحقق الاتصال بين المصدر والجهة المقصودة. وتعد الموجة الكهرمغنطيسية، وتسمى أيضاً الموجة الراديوية، وسيطاً لنقل المعلومات بين طرفي الاتصال وتتألف الموجة الكهرمغنطيسية من حقلين متلازمين دائماً: الحقل الكهربائي والحقل المغنطيسي. ويتغير هذان الحقلان بتردد يساوي تردد الموجة، ويكونان متعامدين وتنتشر الموجة باتجاه عمودي على جبهتها وهي المستوى المشكل من شعاعي حقليها الكهربائيين



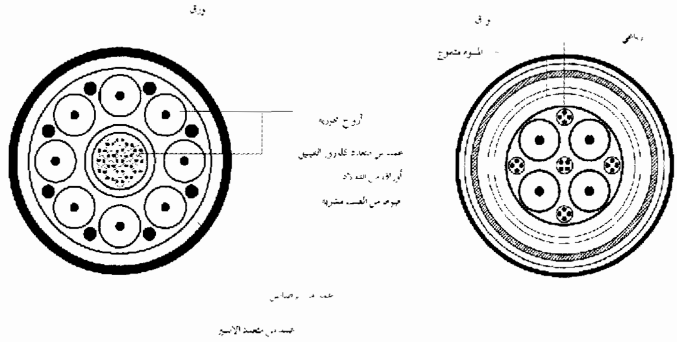
شكل (٢) - الدارة الكهربائية المكافئة لجزء من خط نقل.

R: المقاومة الأومية الحقيقية لواحدة الطول وتقاس بواحدة أوم/متر.

L: التحريض الذاتي الحلقي لواحدة الطول ويقاس بواحدة هنري/متر.

G: الناقلية بين سلكي خط النقل لواحدة الطول وتقاس بواحدة مو/متر أو سيمنس/متر.

C: السعة بين سلكي خط النقل لواحدة الطول وتقاس بواحدة فاراد/متر.

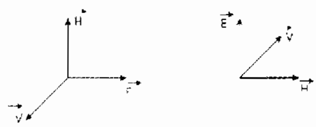


(الشكل-٣) مقطعا كبلين محوريين للاتصالات البعيدة

والمغنطيسي.

ويبين الشكل ٤ التمثيل الشعاعي لكل من الحقل الكهربائي $\vec{E}$ والحقل المغنطيسي $\vec{H}$ وسرعة انتشار الموجة $\vec{V}$ وتؤلف هذه المقادير الثلاثة ثلاثية شعاعية تحدد اتجاه انتشار الموجة الراديوية.

أما الخواص الرئيسة للموجة الراديوية فهي:



(الشكل ٤) التمثيل الشعاعي للموجة الكهرمغنطيسية الراديوية

التردد f: وهو عدد الدورات في الثانية ويقاس بواحدة هرتز وعلاقته مع الدور T هي:

$$f = \frac{1}{T}$$

طول الموجة λ: وهو المسافة التي تقطعها الموجة في زمن يساوي دوراً واحداً T وتقاس بالمتر.

سرعة الانتشار V: وهي تساوي سرعة الضوء C التي تساوي ٣,١٠^٨ متر/ثانية.

ويمكن حساب طول الموجة من العلاقة:

$$\lambda = V.T = \frac{V}{f} = \frac{3.10^8}{f}$$

وباستخدام الوحدة العملية لقياس تردد الموجة وهي الميغاهرتز MHz التي تساوي مليون هرتز $1MHz = 10^6Hz$، فإن طول الموجة يحسب من العلاقة:

$$\lambda = V.T = \frac{V}{f} = \frac{3.10^8}{f}$$

شدة الموجة: وهي مقدار يعبر عن الاستطاعة الناتجة من الموجة في نقطة ما. ويستخدم عادة للتعبير عن شدة الموجة الكهرمغنطيسية شدة حقلها الكهربائي الذي يقاس بواحدة ميكروفُلط/متر.

وتتوقف قيمة شدة الحقل الأصغرية، للحصول على استقبال جيد ومقبول، على عدة عوامل أهمها: التردد ونوع الإشارة المحمولة ومقدار التداخل الموجود، ونوع الهوائي المستخدم للاستقبال.

استقطاب الموجة: وهو تعبير يحدد اتجاه الحقل الكهربائي للموجة الراديوية ويكون الاستقطاب أفقياً عندما يكون اتجاه الحقل الكهربائي موازياً لسطح الأرض، ويكون عمودياً عندما يكون اتجاهه شاقولياً على سطح الأرض. وهناك نوع آخر من الاستقطاب وهو الاستقطاب الدائري وفيه يرسم رأس شعاع الحقل الكهربائي في أثناء انتشار الموجة شكلاً لولبياً.

وتصنف قنوات الإرسال اللاسلكية عادة بحسب تردد الموجة أو طولها ويختلف بعضها عن بعضها الآخر بخواص انتشار الموجة الكهرمغنطيسية ومجالات استخدامها. وفيما يلي أهم هذه الأصناف:

الموجات الطويلة جداً very long waves (VLW): أو الموجات ذات الترددات المنخفضة جداً very law frequency (VLF) وتراوح تردداتها بين ١٠ و٣٠ كيلو هرتز. وتتصف خواص انتشارها بتخامد ضعيف في كل الأوقات وتستخدم للاتصالات البعيدة جداً.

الموجات الطويلة long waves (LW): أو الموجات ذات الترددات المنخفضة low frequency (LF) وتراوح تردداتها بين ٣٠ و٣٠٠ كيلو هرتز. وتشبه خواص انتشارها في الليل الموجات الطويلة جداً وتتعرض للامتصاص في أثناء النهار، وتستخدم أيضاً للاتصالات البعيدة والخدمات البحرية.

الموجات المتوسطة middle waves (MW): وتراوح تردداتها بين ٣٠٠ و٣٠٠٠ كيلوهرتز وتتصف بتخامد قليل في الليل وكبير في النهار وتستخدم في البث الإذاعي ذي التعديل المطالي (التعديل السعوي) والاتصالات البحرية والهاتفية بين الموانيء والسفن.

الموجات القصيرة short waves (SW): أو الموجات ذات الترددات العالية high frequency وتراوح تردداتها بين ٣ و٣٠ ميغاهرتز وتختلف شروط انتشارها بحسب أوقات النهار والفصول وتستخدم للاتصالات لمسافات بعيدة ومتوسطة مستفيدة من خواص الانكسار والانعكاس في طبقات الجو المتأينة وكذلك في البث الإذاعي ذي التعديل المطالي (التعديل السعوي).

الموجات القصيرة جداً: أو الموجات ذات الترددات العالية جداً very high frequency (VHF) وتراوح تردداتها بين ٣٠ و٣٠٠ ميغاهرتز. وتعتمد خواص انتشارها اعتماداً رئيساً على وجود خط نظر بين طرفي الاتصال وتستخدم للاتصالات على مسافات قصيرة وفي البث التلفزيوني والإذاعي عالي الجودة وأنظمة الملاحة الجوية والرادار.

الموجات ذات الترددات فوق العالية جداً ultra high frequency (UHF): وتراوح تردداتها بين ٣٠٠ و٣٠٠٠ ميغاهرتز وتشبه خواص انتشارها واستخداماتها الموجات القصيرة جداً.

الموجات المكروية micro waves: ويطلق هذا التعبير على الموجات التي تراوح تردداتها بين ١ و١٠٠ غيغاهرتز (غيغا هرتز= ألف ميغاهرتز) وتشبه خواص انتشارها واستخداماتها الموجات ذات الترددات فوق العالية جداً وتستخدم في الرادار ووصلات الاتصالات المكروية الأرضية أو في السواتل الصنعية.

الناحية الاقتصادية في الاتصالات من بعد

لا يعتمد اختيار أي نظام اتصال من بعد لتحقيق أغراض معينة على التقنية الممكن استخدامها وكلفتها فقط، بل على الكلفة النسبية للحلول المختلفة المتوافرة، ويلجأ للموازنة بين مختلف الحلول والمنظومات المحتملة اقتصادياً إلى

دراسة القيمة الحالية للكلفة السنوية present value of annoal charges (PVAC) التي تراعي كلاً من رأس المال والنفقات المستمرة للمشروع في المدة الزمنية الكلية المتوقعة لاستثماره، والتي لاتقل عادة عن عشرين سنة. أما من وجهة نظر مميزات التمويل النقدي لمختلف النفقات فإن أفضل المشاريع هي التي يمكن تجزئتها إلى مراحل لتفي كل مرحلة منها بالمتطلبات الحالية والمتوقعة لمدة زمنية قصيرة.

وقد تبيّن أن القيمة الحالية النسبية للكلفة السنوية تنخفض مع زيادة عدد الدارات الكلية للمنظومة المختارة ومع زيادة سعة المنظومة المعتمدة، ويلاحظ أيضاً أن المنظومات الرقمية أقل كلفة من التمثيلية ولاسيما عند زيادة عدد الدارات الكلية.

محمد الصباغ

الموضوعات ذات الصلة:

الإرسال من بعد - البث الإذاعي - البرق - دليل الموجة - الكبل الكهربائي - الليف الضوئي - الهتف.

مراجع للاستزادة:

- G. S. FERREL, Introduction to Communication Systems (Addison Wesley 1977).
- M. D. ARMITAGE, Electronic and Telecommunication Systems (Harrap 1976).
- TOMASI WAYNE, Advanced Electronic Communication Systems (Printice –Hall 1987).

■ الاتفاق ← الاتفاقية الدولية

■ الاتفاق (في الموسيقى) ← الموسيقى (الانسجام في -)

■ اتفاق هلسنكي

اتفاق هلسنكي L' accord de Helsinki وثيقة صدرت عن مؤتمر هلسنكي المنعقد في عام ١٩٧٥ نظمت أسساً جديدة للأمن والتعاون بين الدول الأوربية.

منذ منتصف الخمسينيات تقريباً بدأت تظهر فكرة عقد مؤتمر عام للأمن والتعاون في القارة الأوربية من أجل إيجاد حلول للمشكلات القائمة بين الشرق والغرب، وتطويق الأزمات، وترسيخ الأمن والاستقرار، وتغيير نوع العلاقات الدولية القائمة.

وقد اشتركت مجموعة من العوامل المختلفة داخل القارة الأوربية وخارجها في تطوير هذه الفكرة ونقلها من الإطار النظري إلى الواقع العملي، كاتساع العلاقات السياسية الاقتصادية بين دول الكتلة الشرقية (سابقاً) ودول الكتلة الغربية، والتوصل إلى حلول لبعض القضايا المهمة في القارة الأوربية. وتحقيق توازن في الأسلحة الاستراتيجية يضمن عدم قدرة أي طرف على تحقيق انتصار في أية حرب مقبلة، والخسائر الكبيرة التي ستحدثها هذه الأسلحة، وبروز فكرة إمكان التعايش السلمي بين الأنظمة السياسية الاجتماعية الاقتصادية المختلفة، ودور الأمم المتحدة وحركة عدم الانحياز في العمل على ترسيخ مظاهر الأمن والاستقرار في العالم، وتعاظم دور الرأي العام العالمي المناهض للحروب.

كان للعوامل السابقة أثر كبير في دفع دول الكتلتين الشرقية والغربية إلى البحث عن وسائل وصيغ عملية لعقد مؤتمر عام للأمن والتعاون الأوربيين.

أخذت فكرة عقد مثل هذا المؤتمر تتطور وتتخذ صيغاً وأشكالاً مختلفة من المقترحات الأحادية الجانب التي أعلنت من قبل الشرق والغرب، مثل خطة وزير الخارجية السوفييتي مولوتوف عام ١٩٥٤، وخطة انتوني إيدن وزير الخارجية البريطاني في العام نفسه، ومشروع بولغانين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٥ ، ومشروع رابانسكي وزير الخارجية البولوني عام ١٩٥٧، ومشروع كرستيان هرتر الأمريكي عام ١٩٥٩.

ثم انتقلت الفكرة إلى الأمم المتحدة في الستينات بمقترحات رابانسكي وزير الخارجية البولوني، وأقرت الجمعية العامة في دورتها العشرين ضرورة بذل الجهود لتقوية السلام والأمن في القارة الأوربية عن طريق اتفاقات جماعية.

وبعد ذلك انتقلت الفكرة لتدرس في الهيئات الرسمية المختصة لحلف وارسو [ر] وحلف الأطلسي [ر] (الناتو).

وفي نهاية الستينات وافق الطرفان على عقد مثل هذا المؤتمر، وتعهدت الدول الاسكندنافية في اجتماع لوزراء خارجيتها بعقد المؤتمر في شهر نيسان ١٩٦٩ ، وكلفت فنلندة إنجاز الإجراءات التنفيذية لتحقيق ذلك.

وقد عقد المؤتمر في هلسنكي في ٣٠/٧ - ١/٨/١٩٧٥ بعد اجتماعات عقدها سفراء الدول الأعضاء ووزراء خارجيتها وخبراؤها الدبلوماسيون، وحددت فيها موضوعات المؤتمر وأسلوب عمله. وهو من أهم المؤتمرات الدولية في تاريخ الدبلوماسية الأوربية لأنه ضم دول الكتلتين الشرقية والغربية وبقية الدول الأوربية المحايدة. وأقر المؤتمر ما عرف بوثيقة هلسنكي التي تضمنت النقاط الرئيسة التالية:

١ - حددت الوثيقة المبادىء التالية أساساً لإقامة علاقات جديدة في القارة الأوربية وهي: المساواة في السيادة، واحترام حقوق السيادة الوطنية لكل دولة، وحصانة حدودها ووحدة أراضيها وسلامتها، وحل الخلافات بالطرق السلمية وعدم استخدام القوة، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول، واحترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية بما فيها حرية التفكير والمعتقدات، والمساواة بين الدول وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وترسيخ مظاهر التعاون بين الدول وتنفيذ الالتزامات والتعهدات الدولية بما ينسجم مع ميثاق الأمم المتحدة وأحكام القانون الدولي.

٢- تضمنت الوثيقة مجموعة من الإجراءات رَمَت إلى تدعيم الثقة العسكرية بين الدول المشاركة مثل الإبلاغ المسبق عن المناورات العسكرية التي ستقام في القارة الأوربية، وتحديد هدف المناورات وزمانها والدول وعدد القوات المشاركة فيها، وتبادل المراقبين والخبراء العسكريين للاشتراك في هذه المناورات.

٣- أشارت الوثيقة في مجال نزع السلاح إلى ضرورة بذل الجهود الممكنة للوصول إلى تحقيق نزع عام وشامل للسلاح، وتوفير رقابة دولية فعالة لإنجاح ذلك.

٤- أشارت الوثيقة إلى ضرورة الربط بين الأمن السياسي والعسكري، وبين أمن كل دولة من دول المؤتمر وأمن القارة الأوربية، والربط بين أمن القارة الأوربية والأمن العالمي وأمن منطقة البحر المتوسط، وأكدت أهمية المفاوضات وسيلة لتسوية الخلافات بين الدول وتبادل وجهات النظر.

٥-أكدت الوثيقة ضرورة قيام الأمن والتعاون الأوربيين على قاعدة واسعة من التعاون المتعدد الجوانب بين الدول المشاركة في المؤتمر، مثل التعاون الاقتصادي والعلمي والتقني والتجاري والصناعي ولا سيما في المشاريع البعيدة المدى ذات المصلحة المشتركة بين الدول المختلفة، وتبادل المعلومات العلمية والزيارات، وتنسيق الخطط التي تسهم في حماية البيئة.

٦- تضمنت الوثيقة ضرورة تمتين الروابط في الحالات الإنسانية، كروابط الاتصال بين شعوب القارة بما فيها الأسر الموزعة في أكثر من دولة، وإعادة تجميع الأسر المتباعدة، والسماح بالزواج بين مواطني الدول المختلفة، والسماح بالسفر بين دول القارة لأسباب شخصية أو مهنية، وتشجيع السياحة واللقاءات المختلفة للشباب.

٧ - تضمنت الوثيقة في المجال الإعلامي ضرورة تسهيل نقل المعلومات وانتشارها وتبادلها بين دول القارة بالوسائل الإعلامية المختلفة (راديو، تلفزيون، صحافة)، وتوسيع إطار التعاون الثقافي بالوسائل المختلفة مثل إقامة علاقات بين الجامعات والمعاهد وتسهيل تعليم اللغات المختلفة، وتبادل الزيارات العلمية، والمشاركة في المؤتمرات ذات الصفة العلمية.

٨ - تضمنت الوثيقة ضرورة استمرار مؤتمر الأمن والتعاون الأوربيين مستقبلاً بصيغ وأشكال مختلفة. واتفق على عقد المؤتمر التالي في العاصمة اليوغسلافية بلغراد عام ١٩٧٧.

كوّن مؤتمر قمة هلسنكي للأمن والتعاون الأوربي خطوة متقدمة على طريق ترسيخ مظاهر الانفراج في العلاقات بين الشرق والغرب، وتطوير مظاهر التعاون المختلفة بين دول القارة الأوربية، ووسيلة لترسيخ مظاهر الأمن والسلام في العالم.

وفي ضوء هذه المبادىء عقدت بعد قمة هلسنكي عدة مؤتمرات أوربية أهمها مؤتمر بلغراد لعام ١٩٧٧ / ١٩٧٨ ومؤتمر مدريد لعام ١٩٨٠ / ١٩٨١ غير أن كلاً منها كان تراجعاً ملموساً عما حققه مؤتمر هلسنكي سواء على مستوى الحضور، أو على مستوى القضايا التي نوقشت أو على مستوى المناقشات والقرارات المتخذة، ولعل السبب في هذا كله يعود إلى اشتداد المواجهة الدبلوماسية بين طرفي القطبية الثنائية التي كانت تتحكم بالعالم: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وقد تبدل الوضع الدولي تبدلاً جذرياً، بعد انحلال الكتلة الاشتراكية وتفرد الولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة الدولية، لاسيما بعد حرب الخليج والآثار التي ترتبت عليها.

ماجد شدود

مراجع للاستزادة:

- ماجد شدود، قضايا عالمية معاصرة (جامعة دمشق ١٩٨٦).

- M.PALMER, The Prospects for European Security Conference (London 1971).

■ اتفاقيات بريتون وودز (١٩٤٤)

ارتبطت تسمية «اتفاقيات بريتون وودز» Bretteon Woods Conventions بالنظام النقدي الدولي لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حين خيمت على المجتمع الدولي حالة من الفوضى السياسية والاقتصادية التي عرضت المبادلات الخارجية والنمو الاقتصادي الدولي للخطر، وأوقعته في حالة كساد ولاسيما بعد تزايد القيود المفروضة على المدفوعات وحرب التخفيضات النقدية المستمرة وتعقد علاقات المديونية والدائنية. فبعد أن لاح في الأفق انتصار الحلفاء، تداعت، بمبادرة من الحكومة الأمريكية، ٤٤ دولة واجتمعت في تموز ١٩٤٤ في مدينة بريتون وودز في الولايات المتحدة الأمريكية (ولاية نيوهامشير) للاتفاق على نظام نقدي دولي جديد يوفر حرية التجارة ويمد الدول الأعضاء بالسيولة الكافية، ويضمن عدم فرض القيود والعوائق في وجه المعاملات الدولية وذلك بغية تأمين الاستقرار والنمو الاقتصادي الدولي.

وفي هذا المؤتمر برزت هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية وسيطرتها على أعماله، إذ اعتمد المؤتمر في مقرراته اعتماداً أساسياً خطة الأمريكي «هوايت» التي تعكس وجهة النظر والمصلحة الأمريكيتين واستبعد مشروع كينز الذي يمثل مصلحة بريطانية. وقد توصل المؤتمر إلى وضع اتفاقيات تم بموجبها إنشاء صندوق النقد الدولي [ر] والمصرف الدولي للإنشاء والتعمير [ر]. وعلى الرغم من مشاركة الاتحاد السوفييتي في أعمال المؤتمر ومناقشاته فإنه لم ينضم لعضوية الصندوق لأنه رأى فيه هيمنة واضحة للاقتصاد الأمريكي على النظام المقترح.

وكانت أهداف الصندوق تتحدد بتشجيع التعاون النقدي الدولي والعمل على تحقيق النمو المتوازن للتجارة الدولية وتجنب فرض القيود على المدفوعات الخارجية والوصول إلى نظام متعدد الأطراف للمدفوعات الدولية والتخلص من القيود المفروضة على الصرف والعمل على ثبات أسعار الصرف بين عملات البلدان الأعضاء. ويمكن أن يعدّ نظام ثبات أسعار صرف العملات حجر الزاوية في مؤتمر بريتون وودز إذ يقوم هذا النظام النقدي الجديد على أساس «قاعدة الصرف بالدولار الذهبي» وعلى أساس «مقياس التبادل-الذهبي» وبذلك تحول الدولار الأمريكي من عملة محلية أمريكية إلى عملة احتياط دولية، وبموجب أحكام الصندوق يجب على كل دولة عضو في الصندوق أن تحدد قيمة تبادل عملتها الوطنية بالنسبة إلى الذهب أو بدولار الولايات المتحدة على أساس الوزن والعيار النافذين في أول تموز ١٩٤٤ أي ١ دولار = ٠,٨٨٦٧١ غرام من الذهب الصافي. وقد التزمت الولايات المتحدة الأمريكية أمام المصارف المركزية للدول الأعضاء بتبديل حيازتها من الدولارات الورقية بالذهب وعلى أساس سعر محدد وثابت وهو ٣٥ دولاراً للأونصة، وبذلك تساوى الدولار بالذهب في السيولة والقبول العام به احتياطياً دولياً. ولغايات المرونة فقد سمح الصندوق بتقلبات أسعار صرف عملات البلدان الأعضاء ضمن هامش محدد ±١٪، وإذا ما تجاوز سعر صرف عملة ما هذه الحدود فإنه يجب على المصرف المركزي أن يتدخل في السوق بائعاً أو شارياً لعملته الوطنيةمن أجل إعادة السعر إلى الهامش المسموح به. وأقر الصندوق أيضاً السماح للبلدان الأعضاء بتغيير معادلات قيم عملاتها بنسبة ١٠٪ حداً أقصى من سعر التعادل الأساسي، وإذا ما زاد التغيير المرغوب فيه على هذه النسبة فإنه يلزم أولاً أخذ موافقة الصندوق. ومن أهداف الصندوق أيضاً منح المساعدات للأعضاء لمعالجة الخلل المؤقت في موازين

مدفوعاتهم، وتجدر الإشارة إلى أن قوة التصويت في مجلس إدارة الصندوق ترتبط بحصة العضو، لذلك فإن مجموعة البلدان الصناعية الرأسمالية مجموعة العشرة تسيطر على ثلثي الأصوات. وقد استمر العمل في هذا النظام حتى ١٥ آب ١٩٧١ عندما أعلن الرئيس الأمريكي نيكسون عن وقف قابلية تبديل الدولار إلى ذهب وهو أهم أركان نظام بريتون وودز.

ولقد حقق هذا النظام في أول الأمر نجاحاً ملحوظاً في تحقيق النمو والاستقرار الاقتصادي والنقدي الدولي. ولكن مع تزايد القوة الاقتصادية والسياسية لأوربة الغربية واليابان على المسرح الدولي من جهة ودور البلدان الاشتراكية والنامية من جهة ثانية، فقد برزت معطيات جديدة تتعارض مع ثبات أسعار صرف العملات وهو أساس نظام بريتون وودز كما تتعارض مع الهيمنة الأمريكية على الاقتصاد العالمي من هيمنة عملتها المحلية على النظام النقدي الدولي. وعلى الرغم من تعديل اتفاقيات بريتون وودز مرتين فإن آلية ثبات سعر صرف العملات قد ألغيت تماماً من الناحية العملية وبدأت مرحلة جديدة هي مرحلة «التعويم» [ر] التي تعني ترك سعر صرف العملة يتحدد بحرية وفق آلية العرض والطلب.

أكرم الحوراني

الموضوعات ذات الصلة:

صندوق النقد الدولي ـ المصرف الدولي للإنشاء والتعمير.

مراجع للاستزادة:

ـ رمزي زكي، «التاريخ النقدي للتخلف»، عالم المعرفة (الكويت ١٨/ ١٠/ ١٩٨٧).

■ الاتفاقية البابوية ← الاتفاقية الدولية ■ الاتفاقية التجارية ← الاتحادات الجمركية والاتفاقيات التجارية

■ الاتفاقية الدولية

الاتفاقية الدولية international convention أو المعاهدة treaty (والمصطلحان أصبحا مترادفين) هي اتفاق مكتوب بين شخصين أو أكثر من الأشخاص الدولية من شأنه أن ينشىء حقوقاً والتزامات متبادلة في ظل القانون الدولي العام.

خصائصها

يتضح من هذا التعريف ما يلي:

١ ـ أن الاتفاقية أو المعاهدة هي اتفاق agreement = accord يعبر عن التقاء إرادات موقعيها على أمر ما، فهي ذات صفة تعاقدية الغرض منها إنشاء علاقة قانونية بين الأطراف المتعاقدة. لذلك تخرج عن وصف الاتفاقية الدولية أو المعاهدة الوثائق الدولية التالية:

ـ المذكرة memorandum: هي وثيقة دبلوماسية تحتوي على خلاصة وقائع معينة مثارة بين دولتين أو بين دولة ومنظمة دولية أو ماشابه ذلك.

ـ الاقتراح proposal: هو وثيقة تتضمن إيجاباً أو عرضاً من دولة لأخرى.

ـ الكتاب الشفوي note verbal: وهو وثيقة غير موقعة تتضمن خلاصة محادثات بشأن حادث معين أو ماشابه ذلك.

ـ المحضر process verbal: وهو السجل الرسمي لمحاضر اجتماعات مؤتمر ما أو إجراءاته أو النتائج غير الرسمية التي توصل إليها الممثلون المجتمعون.

ـ التسوية المؤقتة modus vivendi: وهو اتفاق مؤقت يُرغب في استبدال غيره به فيما بعد، باتفاق أكثر دقة ووضوحاً. وتعقد التسوية المؤقتة عندما لاتريد الدولتان الارتباط فوراً بالتزامات دائمة ومطلقة، والغرض منها معالجة الصعوبات الوقتية المستعجلة.

ـ تبادل المذكرات exchange of notes: وهو أسلوب غير رسمي تحاول الدول بموجبه التعاون على إيجاد تفاهم بينها، أو الاعتراف ببعض الالتزامات الواجبة عليها.

ـ التصريحات الوحيدة الطرف unilateral declarations: هي بيانات تصدرها دولة من جانبها توضح فيها موقفاً معيناً من مسألة ما.

٢ ـ الاتفاقية أو المعاهدة هي اتفاق مكتوب written agreement ولذا لاتعد الاتفاقات الشفوية ولا سيما مايعرف باتفاقيات الجنتلمان gentlemen agreements أو ما يسميه بعضهم «اتفاقيات الشرفاء» معاهدات بالمعنى الدقيق للمصطلح مع أن اتفاقية فيينة لقانون المعاهدات المبرمة عام ١٩٦٩ The Vienna Convention on the Law of Treaties لم تنكر ما قد يكون لهذه الاتفاقات الشفوية من قيمة قانونية. ومثال اتفاقات الجنتلمان الاتفاق الشفوي الحاصل عام ١٩٤٥ على توزيع المقاعد غير الدائمة في مجلس الأمن بين دول المناطق الجغرافية المختلفة. وقد عدل باتفاق شفوي آخر في عام ١٩٦٤ بعدما ارتفع عدد هذه المقاعد غير الدائمة من ستة مقاعد إلى عشرة عقب تعديل الميثاق الذي أصبح نافذاً في ٣١ آب ١٩٦٥.

أما إذا كان الاتفاق بين شخصين دوليين أو أكثر مكتوباً فيعدّ اتفاقية دولية مهما كانت الصيغة التي كتب بها ومهما تعددت الوثائق التي تضمنته، بغض النظر عن الاسم الذي يطلق عليه. فقد يسمى معاهدة treaty وقد يسمى اتفاقية agreement أو accord أو ميثاقاً charter أو عهداً covenant أو صكاً pact أو دستوراً constitution أو شرعة convention أو غير ذلك بحسب ما يتفق الفرقاء. فمعاهدة المعاهدات لعام ١٩٦٩ مثلاً سميت «اتفاقية فيينة لقانون المعاهدات».

أما تعبير بروتوكول protocol في مجال الاتفاقيات الدولية، فقد يطلق على خلاصة محاضر الاجتماعات التي أدت إلى توقيع المعاهدة، وقد يطلق على ملحق الاتفاقية، وقد يطلق على الاتفاقية ذاتها مثل البروتوكول التجاري بين الجمهورية العربية السورية والمملكة الأردنية الهاشمية مثلاً.

٣ ـ والاتفاقية الدولية بين شخصين دوليين أو أكثر، وهذا يعني أنها قد تكون بين دول، وقد تكون بين دولة ومنظمة دولية، وقد تكون بين منظمات دولية. وفي حين نَظّمت اتفاقية فيينة لعام ١٩٦٩ (والجمهورية العربية السورية طرف فيها) المعاهدات بين الدول، فإن اتفاقية أخرى أعدتها لجنة القانون الدولي وتم إقرارها في آذار ١٩٨٦ نظمت المعاهدات التي تكون المنظمات الدولية أحد أطرافها. والمعاهدتان متشابهتان في الجوهر مع مراعاة خصوصية المنظمة الدولية على أنها شخص دولي اعتباري على خلاف الدول

التي تُعد، تجاوزاً ، الشخص الطبيعي في العلاقات الدولية. ويطلق على اتفاقية فيينة لعام ١٩٦٩ اسم «معاهدة المعاهدات» لأنها الأساس الذي انبنت عليه المعاهدة الثانية.

وعلى هذا الأساس فالمعاهدات المعقودة بين الفاتيكان وإحدى الدول الكاثوليكية والتي تسمى اتفاقيات بابوية (كونكوردات Concordats) هي معاهدات بالمعنى الصحيح للكلمة، مثلها في ذلك مثل أية معاهدة يعقدها البابا، بوصفه رئيساً لدولة الفاتيكان، مع أية دولة أخرى بعدما اعترفت له معاهدة لاتران Latran لعام ١٩٢٩ بالصفة الدنيوية إضافة لصفته الدينية، وألغت بذلك قانون الضمانات الذي حصر صلاحياته بالأمور الدينية.

كذلك تعد معاهدات بالمعنى الصحيح للكلمة تلك الاتفاقات الموقعة بين الدول الأعضاء في رابطة الكومنولث البريطانية بعدما غدت هذه الرابطة رابطة دول كاملة الاستقلال والسيادة ترتبط فيما بينها بعدد من الروابط الثقافية والتجارية وسواها، إضافة إلى كونها مستعمرات سابقة للتاج البريطاني.

وتعد معاهدة بالمعنى الصحيح أيضاً الاتفاقات المعقودة بين دولة ما مثل سورية وهيئة الأمم المتحدة أو أي من وكالاتها المتخصصة، أو بين سورية وجامعة الدول العربية أو أي من منظماتها المتخصصة. كما تعد معاهدة تلك المعقودة بين الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، أو بين هذه الأخيرة وأي من المنظمات العربية المتخصصة كاتحاد البريد العربي، أو بين جامعة الدول العربية ومنظمة إقليمية أخرى كمنظمة الوحدة الإفريقية. في حين لاتعد معاهدة دولية يحكمها القانون الدولي العام الاتفاقات التي تعقد مع القبائل أوفيما بينها، ولا عقود الزواج الملكية، ولا الاتفاقات المعقودة بين الدولة وشخص طبيعي أو اعتباري أجنبي، كاتفاق التنقيب عن النفط بين الجمهورية العربية السورية وشركة بيكتن أو ماراثون لأن أحد أطراف الاتفاق هنا وهو الشركة ليس شخصاً دولياً.

٤ـ والمعاهدة هي الاتفاق الذي من شأنه أن ينشىء حقوقاً والتزامات متبادلة بين الأطراف المرتبطة، يحكمها القانون الدولي العام. فاتفاق قرض بين دولة ما ومؤسسة نقدية حكومية لدولة أخرى ليس معاهدة إذا نص على خضوعه للقانون الداخلي للدولة المقرضة، بل إنه عقد دولي يخضع في تكييفه لأحكام القانون الدولي الخاص [ر] عند أي شك في تحديد القانون الذي يجب أن يطبق عليه.

تصنيف الاتفاقيات الدولية

تصنف الاتفاقيات الدولية أو المعاهدات بحسب شكلها وموضوعها وأطرافها. فالمعاهدة من حيث الشكل إما رسمية formal تتبع فيها إجراءات التفاوض والتوقيع والتصديق والإيداع، وإما بسيطة يتم في عقدها تجاوز بعض ما تقدم من إجراءات، كأن يكتفى بعد التفاوض بالتوقيع وتبادل وثائق هذا التوقيع. وهي من حيث الموضوع إما عَقْدية contract treaties ومثال ذلك الاتفاقية الثقافية أو العسكرية أو الاقتصادية بين سورية والجزائر، وإما شارعة law making treaties أي تنظم أموراً موضوعية تهمّ أكثر من دولتين مثال ذلك ميثاق الأمم المتحدة لعام 1945 واتفاقية فيينة لقانون المعاهدات لعام 1969 . وهذه المعاهدات الشارعة قد تكون مفتوحة open لجميع الدول، تصدق عليها أو تنضم إليها وقد تكون مغلقة closed أي مفتوحة لعدد محدد من الدول. وهي من حيث الأطراف ثنائية bilateral بين دولتين أو جماعية multi lateral بين أكثر من ذلك.

انعقاد الاتفاقيات ونفاذها

يشترط لكي تعد المعاهدة منعقدة بوجه صحيح أن تتمّ برضى موقعيها، وألا يتجاوز ممثلو الدولة الحدود المرسومة لهم، وألا تتعارض مع قاعدة آمرة من قواعد القانون الدولي العام، وأن يتم اعتمادها اعتماداً سليماً من قبل الدول الأطراف.

١ ـ يجب انعقاد المعاهدة برضى موقعيها. وهذا يقتضي أن يكون أطراف المعاهدة ذوي أهلية للتعاقد وأن يكون رضاها سليماً خالياً من أيّ من عيوب الرضى، وهذا يعني:

أ ـ لكي يكون أطراف المعاهدة أهلاً للتعاقد يجب أن يكونوا إما دولاً مستقلة ذات سيادة كاملة، أو منظمات دولية معترفاً لها بالشخصية الحقوقية الدولية.

أما الدول ذات السيادة الناقصة كالدول الخاضعة للحماية التعاقدية مثل ليشتنشتاين فإن أهليتها للتعاقد تحدد بالصك القانوني المنشىء للحماية [ر] كنظام قانوني دولي معروف. وأما الولايات الداخلة في اتحاد فدرالي فالأصل أن لاشخصية قانونية دولية لها، بل إن شخصيتها هذه ذابت في شخصية الدولة الاتحادية ذاتها. لكن للأمر استثناءات، فبموجب تعديل الدستور السوفييتي الجاري في مطلع الأربعينات من القرن العشرين منحت الجمهوريات الداخلة في الاتحاد حق تبادل التمثيل الدبلوماسي وعقد المعاهدات بصورة مستقلة عن الدولة الاتحادية. كما سمح الدستور الأمريكي، بشروط معينة، للولايات الأمريكية الحدودية بإبرام معاهدات مع الدول المجاورة حول ترسيم الحدود. والأمر في كل الأحوال عائد للدستور الاتحادي الذي يمنح الولايات الأهلية الدولية للتعاقد أو يمنعها.

ب ـ يجب ألاّ يكون إبرام المعاهدة مشوباً بأحد عيوب الرضى وهي الغلط [ر] error والغش والتدليس fraud وإفساد corruption ممثل الدولة أو إكراه coeresion ممثل الدولة والأهم من ذلك كله إكراه الدولة ذاتها. فقد وضعت اتفاقية فيينة لعام ١٩٦٩ حداً للجدل الطويل حول مدى صحة المعاهدات التي تبرمها الدول وهي مكرهة كأن تكون دولة منهزمة في حرب، وذلك بالنص على عدم جواز الاعتداد برضى الدولة التي تبرم معاهدة عن طريق استخدام القوة أو التهديد بها على نحو يخالف مبادىء القانون الدولي التي يجسدها ميثاق الأمم المتحدة.

٢ ـ ويجب أن تعقد المعاهدة ضمن الحدود المرسومة للممثلين المفوضين عن الطرف الذي يمثلونه، وأي تجاوز للسلطة يرتكبه هؤلاء الممثلون يمكن أن يؤدي إلى بطلان المعاهدة، إلا إذا أقرت السلطة المسؤولة في الطرف المعني هذا التجاوز وفق المبدأ المعروف «الإجازة اللاحقة كالوكالة السابقة». وتزود الدولة أو المنظمة الدولية ممثليها المفاوضين بوثيقة تسمى وثيقة «التفويض الكامل» full powers . ولايجوز قبول من لايحمل مثل هذه الوثيقة ممثلين يعبرون عن رضى دولتهم أو منظمتهم، ويستثنى من حمل وثيقة التفويض في تمثيل الدول فئات خاصة من الناس مثل رئيس الدولة ورئيس الحكومة ووزير الخارجية في جميع الإجراءات الخاصة بعقد المعاهدات، كما يستثنى ممثلو الدولة المعتمدون لدى دولة أو مؤتمر أو منظمة فيما يخص الموافقة على صحة نص معاهدة أو إقرارها في بلد الاعتماد أو المؤتمر أو المنظمة بحسب الحال. وليس لدولة أن

تتمسك بأن التعبير عن قبولها بالتزام معاهدة قد تم خلافاً لنص في قوانينها الداخلية يتعلق بالاختصاص بإبرام المعاهدات وأن تتخذه حجة لإبطال رضاها. ويستثنى من ذلك حالة الإخلال الواضح بأحكام قاعدة أساسية من قواعد القانون الداخلي وعلى الأخص دستور الدولة.

٣ ـ ويشترط كذلك ألاّ تكون المعاهدة متعارضة مع قاعدة آمرة peremptory norm من قواعد القانون الدولي وهي القواعد العامة التطبيق التي لايجوز الخروج عليها ولايمكن تغييرها إلا بقاعدة لاحقة من قواعد هذا القانون لها الصفة ذاتها، وهذا هو النظام العام الدولي. وعليه فلا تصح معاهدة تجيز القرصنة أو تستهدف العدوان أو تستهدف إبادة الجنس البشري أو امتهان حقوق الإنسان أو المساس بحق الشعوب في تقرير مصائرها.

أما من حيث الإجراءات فإن عقد المعاهدة يمر بمراحل تبدأ بالمفاوضة negotiation وتتطلب توقيع الدول المتفاوضة عليها signature ولا تصبح نافذة إلا بعد إقرارها والتصديق عليها وفق الأصول الدستورية من الطرف المعني. فالإجراءات التقليدية لإبرام المعاهدة تقتضي دراسة ثانية ومتأنية تعبر الدولة أو المنظمة الدولية بنتيجتها عن رضاها النهائي بالتزام المعاهدة، وعندها تصبح الدولة أو المنظمة الدولية طرفاً في المعاهدة ويتم التعبير عن الرضى إما بالتصديق ratification أو بالقبول acceptance أو بالموافقة approval أو بالانضمام accession ، إذا كان الأمر يتعلق بمعاهدات مفتوحة، أو بتبادل وثائق التصديق exchange of notification، وفي جميع الأحوال يتعلق الأمر بأعمال استنسابية تنجز بحسب إجراءات يحددها القانون الدستوري لكل دولة بعد أن يكون مشروع المعاهدة قد اشترط الشكل اللازم، أي الإجراء التقليدي أو الإجراء المبسط.

استخدمت اتفاقية فيينة لقانون المعاهدات ما تقدم من مصطلحات لحصر العبارات التي قد تستخدمها الدساتير والأنظمة الأساسية للدول في وصف عملية ارتضاء الدولة التزام المعاهدة على المستوى الدولي. أما على المستوى الداخلي فالأمر متروك لدستور كل دولة وللنظام الأساسي للمنظمة الدولية. ففي حين يبرم رئيس الولايات المتحدة الأمريكية المعاهدات التي تدخلها بلاده بموافقة مجلس الشيوخ ومشورته فقط، لابد من عرض المعاهدة على مجلس العموم في بريطانية إذا تضمنت عبئاً مالياً أو تضمنت تعديلاً للقانون البريطاني. أما في فرنسة فقد فرق الدستور بين معاهدات يبرمها رئيس الجمهورية من دون حاجة إلى العودة لأي مرجع آخر، ومعاهدات لابد من مصادقة الجمعية الوطنية عليها، وكذا الحال في الجمهورية العربية السورية. ففي حين تنص المادة ١٠٤ من الدستور الدائم على أن يبرم رئيس الجمهورية المعاهدات والاتفاقيات الدولية ويلغيها وفقاً لأحكام الدستور، نصت الفقرة ٥ من المادة ٧١ من هذا الدستور على أن يختص مجلس الشعب بإقرار المعاهدات والاتفاقيات الدولية التي تتعلق بسلامة الدولة، وهي معاهدات الصلح والتحالف وجميع المعاهدات التي تتعلق بحقوق السيادة، أو الاتفاقيات التي تمنح امتيازات للشركات أو المؤسسات الأجنبية، وكذلك المعاهدات والاتفاقيات التي تحمل خزانة الدولة نفقات غير واردة في موازنتها، أو التي تخالف أحكام القوانين النافذة، أو التي يتطلب نفاذها إصدار تشريع جديد. والتوفيق بين هذين النصين يعني أن رئيس الجمهورية هو الذي يبرم المعاهدات التي ترتبط بها سورية في كل حال، لكنه يحتاج قبل ذلك إلى إقرار مجلس الشعب فيما يتصل بما ورد ذكره من معاهدات في الفقرة ٥ من المادة ٧١ ، أو أن الرئيس يبرم المعاهدة بمرسوم تشريعي يصدره ويعرض على مجلس الشعب لاعتماده.

ومع أنه لا فرق في الحقوق والواجبات بين دولة التزمت المعاهدة بعملية تصديق وأخرى التزمتها بعملية انضمام، فإن الفقه القانوني يفرق بين الطريقتين، ففي التصديق، يلي الرضى بالمعاهدة التوقيع عليها، في حين إن الانضمام يصدر عن دولة لم توقع على النص في أثناء المفاوضات، ويدل أيضاً على موافقتها على النص وعلى رغبتها في التقيد بأحكام المعاهدة.

وفي التعامل الغالب اليوم تكتمل عملية انعقاد المعاهدة ومن ثم نفاذها بتبادل وثائق التصديق أو إيداع وثائق الانضمام، وتبدأ المعاهدة بالنفاذ من تلك اللحظة أو في التاريخ الذي يحدده نص المعاهدة، فتكون لها آثار دولية بين الأطراف المتعاقدة، والمثال على ذلك المادة ٨٤ من اتفاقية فيينة لقانون المعاهدات. فقد نصت على أنها تدخل حيز التنفيذ «في اليوم الثلاثين التالي لإيداع وثيقة التصديق أو الانضمام الخامسة والثلاثين وأنها تصبح نافذة لكل دولة تصدق عليها أو تنضم إليها بعد إيداع وثيقة التصديق أو الانضمام الخامسة والثلاثين في اليوم الثلاثين التالي لإيداع وثائق التصديق أو الانضمام الخاصة بها».

أما تسجيل المعاهدات فالقصد منه جعلها علنية أي معروفة للجميع. وقد كان هذا أثراً من آثار الدبلوماسية المفتوحة التي ستّها الرئيس الأمريكي ويلسون عقب الحرب العالمية الأولى، ليضع بذلك حداً للدبلوماسية السرّية التي غلبت قبل الحرب. وعلى هذا جاء عهد عصبة الأمم بالنص على ضرورة تسجيل الدول للمعاهدات التي تعقدها لدى الأمانة العامة للعصبة تحت طائلة البطلان. ثم جاء ميثاق الأمم المتحدة لينص في المادة ١٠٢ على أنه لايجوز لأي طرف في معاهدة دولية لم تسجل لدى الأمانة العامة للمنظمة الدولية أن يتمسك بهذه المعاهدة أمام أي فرع من فروع المنظمة بما فيها محكمة العدل الدولية، وقد أعدت الأمانة العامة للأمم المتحدة ترتيبات ملائمة لتسلم نصوص المعاهدات وتسجيلها، ونشرها بين الدول جميعاً في مجموعات دورية تصدر باللغات الرسمية لهيئة الأمم. ومع هذا فالمعاهدات السرية ما زالت معروفة في التعامل الدولي.

آثار الاتفاقية الدولية

ينحصر أثر المعاهدات أو الاتفاقيات الدولية، من حيث المبدأ، بين الأطراف المعنية بها وقد يكون لها آثار تتناول غير أطرافها، وهناك معاهدات ترتب آثاراً على الأفراد.

أثـــر المعاهدات في الدول الأطـــراف: القاعدة العامة في هذا المجال هي أن العقد شريعة المتعاقدين، فعلى الأطراف المشتركة في معاهدة دخلت حيز النفاذ أن تلتزمها وأن تنفذها بحسن نيّة. وهكذا تصبح المعاهدة كالقانون الداخلي ملزمة لسلطات الدولة ويجب نشرها ليقوم القضاة بتطبيقها من تلقاء أنفسهم وترجيحها على القوانين الداخلية السابقة المعارضة لها. وكذلك إذا تعارضت القوانين اللاحقة ومعاهدة سابقة فيجب إعمال المعاهدة وإعطاؤها الأولوية على التشريع الداخلي تحت طائلة المسؤولية للدولة المخالفة.

ومبدأ تفوق المعاهدة على النصوص التشريعية الداخلية منصوص عليه صراحة في

دساتير بعض الدول كالدستور الأمريكي. في حين إن الفقه والاجتهاد استقرا عليه في دول أخرى. وباستثناء الكيان الصهيوني في فلسطين يمكن القول إنه مامن دولة من دول العالم إلا وتقضي دساتيرها أو قوانينها أو اجتهادات محاكمها برجحان المعاهدات على أي نص قانوني داخلي باستثناء الدستور، وإن كانت بعض الدول، كفرنسة مثلاً ، تشترط مبدأ المعاملة بالمثل من جانب الدول الموقعة على المعاهدة لترجيحها. وفي سورية لم ينص أي من الدساتير المتلاحقة على انتهاج مذهب معين في موضوع رجحان المعاهدة على القانون الوطني سواء سبق المعاهدة أم تبعها، غير أن القانون المدني السوري نص في المادة ٢٥ على أن أحكام المواد السابقة، وهي تتعلق ببعض قواعد القانون الدولي الخاص ،لاتسري إلا حيث لايوجد نص على خلاف ذلك في قانون خاص أو معاهدة دولية نافذة في سورية وهذا يعني غلبة المعاهدة على النص القانوني الداخلي. وقد أكدت اتفاقية فيينة لقانون المعاهدات هذه القاعدة حين نصت في المادة ٢٧ منها على أنه لايجوز للدولة أن تتذرع بنصوص قانونها الداخلي عندما تخفق في تنفيذ المعاهدة التي تنضم إليها. والجمهورية العربية السورية طرف في هذه المعاهدة الشارعة بموجب المرسوم التشريعي ١٨٤ لعام ١٩٧٠ . وبصدد أثر المعاهدة في أطرافها يثار موضوع التحفظات reservations والتحفظ كما عرفته معاهدة المعاهدات، هو إعلان من جانب واحد، أياً كانت صيغته أو تسميته، تعلنه الدولة عند توقيعها أو تصديقها أو انضمامها إلى معاهدة أو عند موافقتها عليها، وترغب من ورائه في استبعاد، أو تعديل، الأثر القانوني لنصوص معينة في المعاهدة فيما يختص بتطبيقها على هذه الدولة. والمثال الواضح للتحفظات هو ماتدرجه جميع الدول العربية، عدا مصر بعد صلحها مع إسرائيل، في جميع المعاهدات الجماعية التي ترتبط بها من أن التزامها المعاهدة لايعني بحال من الأحوال الاعتراف بإسرائيل أو الدخول معها في معاملات مما قد تنص عليه أحكام تلك المعاهدة. والأصل أن التحفظ على نص أو أكثر من نصوص معاهدة جماعية جائز، إلا في حالات ثلاث هي:

أ ـ إذا كان التحفظ محظوراً بنص في المعاهدة مثال ذلك ماورد في اتفاقية جامايكا لقانون البحار لعام ١٩٨٢ من عدم جواز التحفظ على أي من بنودها.

ب ـ إذا أباحت المعاهدة أنواعاً معينة من التحفظات ليس منها التحفظ المرغوب فيه.

جـ ـ إذا كان التحفظ مخالفاً لموضوع المعاهدة والغرض منها، وهذه الحالة الأخيرة استقرت في الفقه والاجتهاد الدوليين قبل أن تدرجها المادة ١٩ من معاهدة المعاهدات.

أثر المعاهدة في الغير: القاعدة العامة المستقرة والتي تبنتها «معاهدة المعاهدات» أن المعاهدات لاتنشىء للغير حقوقاً والتزامات من دون رضاه. لكن لهذا المبدأ استثناءات:

ـ يمكن للمعاهدة أن ترتب حقوقاً للدولة الغير إذا رضيت هذه الدولة الغير الحقوق المرتّبة، ويعد سكوتها قبولاً. وحين يحصل هذا القبول لايجوز إلغاء الحق المرتب للدولة الغير إلا برضاها. ومن أمثلة المعاهدات المرتبة حقوقاً للغير معاهدة استثمار القطب لعام ١٩٥٩ واتفاقية القسطنطينية الخاصة بالملاحة في قناة السويس لعام ١٨٨٨ .

ـ كذلك يمكن للمعاهدة أن ترتب التزاماً على الدولة الغير شريطة أن تكون هذه قد قبلت الالتزام صراحة وكتابة.

ـ كما أنه ليس هناك ما يحول دون أن تكون قاعدة واردة في معاهدة دولية ملزمة لدولة ليست طرفاً في هذه المعاهدة إذا كانت هذه القاعدة قاعدة عرفية معترفاً لها بهذه الصفة، من ذلك سريان أهداف الأمم المتحدة ومبادئها على جميع الدول الأعضاء وغير الأعضاء في ميثاق المنظمة الدولية (المادة ٢ / فقرة٦).

ـ وأخيراً يمكن للدولة الغير أن تكتسب حقاً من معاهدة ليست طرفاً فيها إعمالاً لشرط الأمة الأكثر رعاية [ر] The most favored nation's clause، ومقتضاه أن تتعهد الدول المتعاقدة بأن تسمح كل منها للأخرى بالإفادة من أي امتياز تمنحه مستقبلاً لدولة أو دول غيرها فيما يتصل بأمر من الأمور التي تم التعاقد عليها.

أثر المعاهدات في الأفراد: هناك طائفة من المعاهدات ترتب حقوقاً أو التزامات على الأفراد مباشرة، كالمعاهدة التي تحرّم القرصنة أو تحرّم أفعالاً معينة تتعلق بسلوك الأفراد في الحرب، أو المعاهدة التي تعطي الفرد حق الالتجاء إلى محكمة دولية. وقد أثار هذا النوع من المعاهدات خلافاً في الفقه الدولي حول ما إذا كانت آثاره تتولد مباشرة للأفراد أو بمواجهتهم أم يكون تطبيقها عن طريق دولهم الأطراف في المعاهدة، فيكون أثر المعاهدة في الأمثلة السابقة هو التزام الدولة تحريم القرصنة وتجريم جرائم الحرب. غير أن اتفاقية دولية كاتفاقية رومة لعام ١٩٥٠ حول حقوق الإنسان في الدول الأوربية تخاطب الأفراد مباشرة بحقوق تمكنهم من مواجهة دولهم ذاتها أمام اللجنة الأوربية لحقوق الإنسان أو أمام المحكمة الأوربية لحقوق الإنسان وفق أحكام تلك الاتفاقية.

انقضاء الاتفاقية الدولية

تنتهي المعاهدات أو الاتفاقيات الدولية لأسباب شتى أهمها مايلي:

ـ **تنفيذها**، كما لو قضت المعاهدة بتبادل تجاري محدد وتم هذا التبادل.

ـ **انقضاء أجلها**، كما لو نص في المعاهدة على سريانها مدة محددة ولم يجددها أطرافها.

ـ **اتفاق الأطراف على إلغائها**، وفي هذا إقرار جديد بأن المعاهدة اتفاق يحمل رضى الأطراف فمن له حق إنشاء الشيء له حق إلغائه.

ـ **الفسخ**، ويكون نتيجة للإخلال الجوهري بأحكام المعاهدة، مما يخول أطرافها الآخرين التمسك بهذا الإخلال أساساً لإنهاء المعاهدة أو لإيقاف العمل بها كلياً أو جزئياً. ويكون الإخلال جوهرياً بموجب معاهدة المعاهدات إذا رفض الطرف المخل العمل بالمعاهدة فيما لا يبيحه قانون المعاهدات، أو أخلّ بنص ضروري لتحقيق موضوع المعاهدة أو الغرض منها. ومن أهم الأمثلة على الإخلال الجوهري بالمعاهدة اشتراك بريطانية في العدوان الثلاثي على مصر العربية عام ١٩٥٦ خلافاً لأحكام معاهدة الجلاء عن مصر لعام ١٩٥٤ التي كان يحق لبريطانية بمقتضاها استخدام قواعدها العسكرية إذا تعرضت مصر أو أي بلد عربي أو تركية لعدوان خارجي وسارعت بريطانية للدفاع عن البلد المعتدى عليه. والإخلال هنا كان جوهرياً لأن بريطانية كانت أحد المعتدين على مصر بدل الدفاع عنها مما حمل مصر على إعلان إلغاء البنود الخاصة بالقواعد العسكرية في معاهدة الجلاء.

ـ **استحالة تنفيذ المعاهدة**، كما لو كان للمعاهدة محل اختفى أو هلك أو تعطل، فإذا كانت الاستحالة مؤقتة توقف سريان المعاهدة

في أثناء الاستحالة، ومن أمثلة ذلك توقف تنفيذ اتفاقية القسطنطينية حول الملاحة في قناة السويس لعام ١٨٨٨ عند توقف الملاحة فيها جراء الاحتلال الإسرائيلي لسيناء، وتعطيل الملاحة في القناة مرتين؛ مرة عام ١٩٥٦ ومرة عام ١٩٦٧ واستمر حتى عام ١٩٧٥.

ـ زوال الشخصية القانونية لإحدى الدول المتعاقدة، وذلك بانضمامها إلى دولة أخرى، ويستثنى من ذلك المعاهدات المتعلقة بالحدود الدولية وبالحقوق الارتفاقية لدول أخرى فتبقى سارية على الدولة الخلف.

ـ التغير الجوهري في الظروف: فالمعاهدات تعقد تحت شرط ضمني مفاده بقاء الأمور على حالها. فإذا حصل تغير جوهري في الأحوال كان للدولة المعنية أن تطالب مطالبة مشروعة بإبطال المعاهدة أو تعديلها. ويشترط لاستناد الدولة على هذا البند شرطان متلازمان هما: أن يكون وجود الظروف، التي طرأت عليها تغيرات جوهرية، من العوامل الأساسية لارتضاء الأطراف التزام المعاهدة في الأصل. وأن يترتب على التغير تبديل جذري في نطاق الالتزامات التي لم تنفذ بعد طبقاً للمعاهدة. على أنه لايجوز الاستناد إلى شرط التغير الجوهري للظروف، وفق ماجاءت به «معاهدة المعاهدات»، في حالة المعاهدات المنشئة للحدود، أو إذا كان التغير الجوهري في الظروف ناتجاً عن إخلال الطرف المتمسك به.

ـ ظهور قاعدة آمرة جديدة عامة التطبيق في القانون الدولي: إذ تعد المعاهدة باطلة ومنتهية إذا تعارضت مع قاعدة آمرة جديدة عامة التطبيق في القانون الدولي استقرت بعد نفاذها.

ونصت اتفاقية فيينة لقانون المعاهدات على طرق ووسائل ودية لحل النزاعات الناجمة عن المعاهدات المدعى ببطلانها أو القابلة للإبطال وذلك بالتوفيق الإلزامي (وهو ملزم بداية وغير ملزم من حيث النتائج) والتحكيم الدولي والقضاء الدولي في حالات معينة هي حالات تعارض المعاهدة مع النظام العام الدولي (المادة ٦٦).

محمد عزيز شكري

الموضوعات ذات الصلة:

ـ القانون الدولي العام.

■ الاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة (الغات)

الاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة الغات The General Agreement on Tariff &Trade (G.A.T.T) اتفاقية معقودة بين معظم دول العالم لتنظيم العلاقات التجارية وتنشيطها وتشجيع المبادلات الدولية بما يضمن نمواً متزايداً للاقتصاد عن طريق زيادة تخصص الدول وفقاً للمزايا التي تتمتع بها.

نشأة الغات

اتخذ المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة في شباط ١٩٤٦ قراراً بعقد مؤتمر دولي للتجارة والتشغيل، وأنشأ في الوقت نفسه لجنة تحضيرية تولت تهيئة مشروع اتفاقية بإنشاء منظمة دولية للتجارة. وقد انعقد هذا المؤتمر في هافانا في المدة من تشرين الثاني ١٩٤٧ إلى آذار ١٩٤٨، وتمخض عن صوغ مشروع اتفاقية لإحداث منظمة التجارة الدولية ويطلق عليه اليوم ميثاق هافانا. وقد وقع هذه الاتفاقية وصدق عليها أربعة وخمسون بلداً، ولكن لم يقيض لمنظمة التجارة الدولية أن تخرج إلى الوجود قبل ١٩٩٥ بسبب امتناع الولايات المتحدة وبلدان أخرى عن التصديق عليها.

وفي مرحلة الإعداد لعقد اتفاقية منظمة التجارة الدولية، اتفق فريق مؤلف من ثلاثة وعشرين بلداً في نيسان ـ تشرين الأول ١٩٤٧ على الدخول في مفاوضات ترمي إلى تبادل الامتيازات الجمركية، وتطبيق بعض الأحكام المتعلقة بالسياسة التجارية الواردة في ميثاق هافانا. وقد تمخضت المفاوضات عن الاتفاقية العامة للتعرفة والتجارة (الغات). وتعدّ هذه الاتفاقية معاهدة متعددة الأطراف تنص على نظام عالمي من الحقوق والالتزامات التي تحكم التجارة الدولية وتقبلها البلدان الأعضاء طوعاً. وقد بدأ سريان الاتفاقية المذكورة في أول كانون الثاني ١٩٤٨، وبلغ عدد البلدان الموقعة على الاتفاقية العامة حتى نهاية ١٩٩٤ مئة وثمان وعشرون بلداً في حين استفادت البلدان الأخرى من قواعدها تحت مظلة «الدولة الأكثر رعاية» ومع هذا فإن الغات لم تنتظم رسمياً في سلك المنظمات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة، وأهم من ذلك أن الغات لم تملك صفة العالمية لعدم انضمام بعض الدول التجارية الرئيسية إليها كالاتحاد السوفييتي (سابقاً) وبعض البلدان المنتجة للنفط.

أدارت الغات أمانة عامة يرأسها أمين عام. دأبت الأمانة العامة على الاجتماع من وقت إلى آخر في دورات سنوية أو نصف سنوية. وتألف جهاز الغات من لجان ثلاث دائمة، ولجان أخرى ذات صفة مؤقتة.

المبادئ الأساسية للغات

اعتمدت الغات عدة مبادئ رئيسية أهمها: تطبيق قاعدة عدم التمييز في التجارة الدولية: أي إن الدول الأعضاء تمنح بعضها بعضاً تخفيضات في التعرفة الجمركية، لا تقل عن التعرفة الممنوحة لأية دولة أخرى، وهو المبدأ المعروف باسم «شرط الدولة الأكثر رعاية» The most favored nation's clause.

إن الاستثناء الوحيد من تطبيق هذه القاعدة يتعلق بإنشاء اتحاد جمركي أو منطقة للتجارة الحرة لحماية الدولة نفسها من المنافسة الخارجية، أو للمحافظة على ما لدى الدولة من العملات الأجنبية، على أن يكون ذلك بفرض رسوم جمركية من دون اللجوء إلى القيود الكمية مثل نظام الحصص (الكوتا)، ويمكن أن يتفق على خفض الرسوم الجمركية عن طريق المفاوضات بين الدول الأعضاء.

كذلك وجب اتباع أسلوب المفاوضات عند وجود خلاف بين الدول الأعضاء، أو تعرض المصالح التجارية لإحداها للضرر، على أن يتم ذلك بالتفاوض المباشر مع الدول المعنية أو مع مجموعة الدول الأعضاء.

كما وجب على الدول الأعضاء اتخاذ تدابير جماعية قد تشمل اقتراح إجراءات مختلفة للتجارة العالمية وتنفيذها مثل برنامج التوسع التجاري وتخفيض الرسوم الجمركية بين الدول الأعضاء ما دامت هذه الإجراءات تحقق أهداف الاتفاقية.

دور المفاوضات التجارية في تخفيض التعرفات الجمركية

كان الأسلوب الذي ساد حتى عام ١٩٦٣ يقضي بالدخول في المفاوضات لتخفيض التعرفات الجمركية على كل بند من بنود التجارة، وقد تم معظم هذه المفاوضات على أساس ثنائي وسلعة بسلعة. لذلك كانت المفاوضات ذات فائدة مباشرة للدول المشتركة

فيها، لأن كلاً منها كان يحاول تخفيض الرسوم الجمركية على البنود التي تعنيه أساساً في تجارته مع الدول الأعضاء في الغات والتي لم تشترك في هذه المفاوضات.

وفي عام ١٩٦٣ اقترح مجلس وزراء الأطراف المتعاقدة تعديل طريقة المفاوضات وجعلها تجري بصفة أساسية على مجموعة من بنود التجارة الخارجية، وقد اتفق على أن يكون التخفيض جماعياً ، فأصبحت تخفيضات التعرفات الجمركية أكثر انتشاراً من ذي قبل.

وفي عام ١٩٦٤ أنشئ المركز الدولي للتجارة لتزويد البلدان النامية بالمعلومات المتعلقة بأسواق التصدير والتسويق، ولمعاونتها على تنمية الوسائل الفنية لتشجيع الصادرات، ولتدريب العاملين اللازمين لهذا الغرض.

وقد نظمت الأطراف المتعاقدة عدة مؤتمرات رئيسية للمفاوضات التجارية المتعددة الأطراف منذ الحرب العالمية الثانية وهي:

- مفاوضات جنيف ١٩٤٧ .
- مفاوضات آنسي ١٩٤٩ .
- مفاوضات توركواي ١٩٥٠-١٩٥١ .
- مفاوضات جنيف «جولة ديلون» ١٩٥٩-١٩٦٢ .
- مفاوضات جنيف «جولة كنيدي» ١٩٦٣-١٩٦٧ .
- مفاوضات جنيف «جولة طوكيو» ١٩٧٣-١٩٧٤ .
- مفاوضات الأورغواي ١٩٩٤ .

وقد تركز الاهتمام في الجولات الست الأولى كلها تقريباً على تخفيض التعرفات الجمركية المتعددة الأطراف، واتفق على خفض تعرفات الكثير من المواد التي تدخل السوق العالمية أو تثبيتها. وقد تميزت هذه الجولات بشمولها للسلع الزراعية، وللقيود غير الجمركية على التجارة، وبتعرضها لمشكلة دور الدول النامية في التجارة الدولية.

ومع التخفيض الناجح التصاعدي للتعرفات أصبحت الحواجز غير الجمركية موضع اهتمام أكبر. وكانت جولة طوكيو جهداً شاملاً لتناول التدابير الجمركية وغير الجمركية. وقد توصلت هذه الجولة إلى سلسلة من الإجراءات غير الجمركية مثل أسلوب الإعانات، والحواجز التقنية أمام التجارة، وإجراءات تراخيص الاستيراد، ومكافحة الإغراق [ر]، والمشتريات الحكومية، وتقويم الرسوم الجمركية. كما تم التوصل إلى اتفاقات تتعلق بمنتجات الألبان واللحوم وبالطيران المدني.

وفي كانون الثاني عام ١٩٨٦ اتخذت البلدان الأعضاء في منظمة الغات خطوات أولية لإجراء جولة جديدة من المفاوضات التجارية المتعددة الأطراف طرحت فيها مبادئ أربعة رئيسية للنظام التجاري العالمي هي: عدم التمييز، والتفريق بين تدابير على الحدود مثل الضرائب على التجارة الدولية والتدابير غير الحدودية أو الداخلية مثل الإعانات، وتطوير العلاقات التجارية بين البلدان المتقدمة والنامية، ودور منظمة الغات في المستقبل. وقد ظهرت نتائج هذه الجولة الجديدة في مطلع عام ١٩٩٥ .

برنامج الغات لمساعدة الدول النامية

إ ن الأصل في سياسة الغات أن تقوم على التمييز في التجارة الدولية، إلا أنها خضعت أساساً لمصالح البلدان المتقدمة. صحيح أن الغات سمحت للبلدان النامية بمتابعة سياسة الحماية التجارية لحماية الصناعة الناشئة أو لأغراض التنمية على سبيل المثال، وتساهلت إزاءها فيما يتعلق بتطبيق القواعد والأنظمة، بالموازنة مع البلدان المتقدمة وسمحت لها بأن تدعم صادراتها من المواد المصنعة دعماً أكبر مما تسمح به البلدان المتقدمة، إلا أن الجدل دار حول تنفيذ هذه القواعد وتأثيرها. فالقيود والحواجز التجارية التي فرضتها الدول المتقدمة أثقلت كاهل البلدان النامية، وقد عارضت الدول المتقدمة إلغاء الرسوم الجمركية على السلع المستوردة من البلدان النامية، وامتنعت عن مساعدة الدول النامية على زيادة صادراتها من المواد المصنعة ونصف المصنعة عن طريق التخفيض التدريجي للرسوم الجمركية، كما امتنعت عن مساعدة البلدان النامية على تنويع إنتاجها وتدعيم إمكاناتها التصديرية لزيادة عائدات هذه الصادرات. وعارضت إلغاء القيود الكمية على صادراتها، وعدم فرض قيود جديدة عليها سواء أكانت هذه القيود تعرفات جمركية أم قيوداً كمية.

وقد حددت الغات في دراسة لها قبل انقضائها سياسة البلدان المتقدمة والنامية التي يعدّها شركاؤها التجاريون عقبات أمام اتساع التجارة وأشارت الدراسة إلى أن الخطوة المنطقية الأولى في أي مبادرة لتشجيع التجارة هي تخفيف القيود على صادرات البلدان النامية.

ويمكن للبلدان النامية أن تتخذ خطوات لتبسيط نظم استيرادها، أو تثبيت مستويات الحماية، أو تخفيض الحماية الزائدة بالتدريج.

مصير منظمة الغات

مع أن خطط إقامة منظمة للتجارة الدولية بعد الحرب العالمية الثانية أخفقت قبل عام ١٩٩٤، ولم تظهر الغات إلى الوجود إلا بفضل ميثاق وقتيّ التطبيق، فإن ما حددته الاتفاقية العامة من حقوق المتعاقدين والتزاماتهم وفر درجة عالية من تنظيم العلاقات التجارية العالمية. وقد استفاد أعضاء منظمة الغات من مجموعة من القواعد مكنت السلطات النقدية أن تلجأ إليها عند الضرورة لتقوية نفسها في مواجهة الضغوط المحلية والخارجية.

وقد أدت زيادة القيود الثنائية المرتبطة بقطاعات محددة إلى إثارة المناقشات بشأن كيفية تعزيز إجراءات الغات ومبادئها. ومن السمات الخاصة لنمو التدابير الثنائية أن المصلحة الدولية لا تؤخذ في الحسبان في المفاوضات بين البلد المصدر والبلد المستورد.

على أن جولة الأورغواي في مؤتمرات الغات انتهت إلى إرساء نظام جديد للتجارة والتعرفة وأدت إلى إنشاء منظمة التجارة العالمية [ر] التي ولدت مع مطلع عام ١٩٩٥ . وقد عقدت الغات آخر اجتماع لها يوم ١٢/١٢/١٩٩٥ بعد أن ساعدت طوال عام المنظمة الجديدة التي حلت محلها لتشرف على نظام تجارة متعدد الأطراف يوصف بأنه أكثر طموحاً. وقد أشاد المدير العام للمنظمة الجديدة ريناتو روجييرو بدور الغات قائلاً: لقد مهدت الغات الطريق أمام منظمة التجارة العالمية التي باتت تغطي ٩٠٪ من الاقتصاد العالمي ورأى أن مصيرها النجاح لأن وظائف الغد وتحسن الظروف الاجتماعية والبيئية رهن بها.

محمد خالد الحريري

مراجع للاستزادة:

- عبد الرحمن يسري احمد، مقدمة في الاقتصاد الدولي (بيروت١٩٧٤).
- محمد زكي شافعي، مقدمة في العلاقات الاقتصادية الدولية (بيروت١٩٧٠).

■ اتقاء الأمراض

اتقاء الأمراض prophylaxis هو اللجوء إلى مجموعة الوسائل التي تمنع حدوث الأمراض أو انتشارها أو اشتدادها. وللاتقاء شأن كبير في تدبير الأمراض لدرجة عدّه معها بعضهم شكلاً من أشكال المداواة. وسيتناول البحث أشكال الاتقاء واتقاء الأمراض الخمجية واتقاء الأمراض العضوية واتقاء الأمراض الوراثية واتقاء السرطان.

أشكال الاتقاء

للاتقاء أشكال مختلفة منها:

الاتِّقاء السببي: الذي يرمي إلى إزالة العامل المُسبِّب للمرض والتخلُّص منه مثل القضاء على بعوضة الأنوفيل للتخلص من مرض البرداء (الملاريا).

الاتِّقاء السريري: الذي تُقصد منه الحيلولة دون ظهور أعراض المرض السريري ولايحولُ دون الخمج [ر] كما هي الحال في إعطاء التتراسيكلين لمنع ظهور الأعراض السريرية للريكتسيا في المعرَّضين لها طول مدة تعرضهم. وحقن الغاماغلوبلين لمخالطي المصابين بالتهاب الكبد الخَمَجي «المعدي» الفيروسي.

الاتِّقاء الآلي: لمنع الأمراض الجنسية كما في استعمال الرِّفال condom لاتقاء الافرنجي والسيلان والعوز المناعي البشري المكتسَب (الإيدز AIDS).

الاتِّقاء الدوائي: وذلك باستعمال الدواء لمنع حدوث المرض مثل إعطاء البنسيلين لاتِّقاء الافرنجي بعد التعرض له، أو للحيلولة دون اشتداده مثل إعطاء البنسيلين للمصابين بالرثية المفصلية، وإعطاء البنسيلين كذلك عند إجراء مداخلات سنّية على المصابين بتشوهات ولادية أو مكتَسَبة في دسامات القلب، وإعطاء الدواء للمرضى المصابين بأمراض تُسهل إصابتهم بمضاعفات خمجية كالمصابين باللُّزاج المخاطي والنُفاخ وتوسع القصبات، وإعطاء الريفامبين لمخالطي المصابين بالتهاب السحايا بالسحائيات أو بالمستدميات، وإعطاء الاريتروميسين لمخالطي المصابين بالسعال الديكي، وإعطاء البريماكين لاتقاء البرداء طول مدة التعرض للإصابة، وإعطاء الصادات حين إجراء العمليات الجراحية الملوثة، وللمصابين بعَوَز مناعي خشية تسلُّط عوامل الأخماج الانتهازية عليهم.

اتقاء الأمراض الخمجية

ترجع أهمية هذه الأمراض إلى شيوعها وانتشارها وإلى ما تُحدثه من آثار مهمة في الصحة العامة بسبب انتقالها بالعدوى. وتنجم هذه الأمراض عن عوامل ممرضة كثيرة تضم الجراثيم والفيروسات والطفيليات والفطور. وينتقل بعض هذه العوامل مباشرة إلى الإنسان من دون أن يكون لها حيوان مضيف يؤلف مستودعاً لها وبعضها الآخر ينقله ناقل من مستودعها إلى الإنسان. ولما كان بعض هذه الأمراض سواء منها الجرثومية مثل الطاعون والجذام والسل أو الفيروسية مثل النزلة الوافدة قد أحدث في التاريخ الإنساني كوارث أدت إلى فناء أعداد كبيرة من البشر، فقد انصرف اهتمام الإنسان لاتقاء شرور هذه الأمراض بوسائل اختلفت باختلاف وعي المجتمعات لسبب هذه الأمراض، حتى إذا ما تمّ تَعرُّف أسبابها بَدأ العمل على اتِّقائها وفق مناهج علمية مُنظَّمة. ومع ما حققته الصادات من نجاحٍ عظيم في معالجة هذه الأمراض فإن أمر اتِّقائها ما زال يشغَل حيّزاً مهماً في علم الصحة ويتم ذلك باتباع خطوات منتظمة بعد تعرف المرض هي: الإعلان والتبليغ عنه وعزل المريض والتطهير ومكافحة النواقل ووقاية المحيط والتمنيع.

الإعلان عن المرض المعدي والتبليغ عنه: إن سهولة الاتصالات العالمية وسرعة التنقل والحركة اقتضت وجود نظام للإعلان والتبليغ عن الأمراض المعدية بغية اتخاذ إجراءاتٍ تكافح هذه الأمراض على النطاق العالمي وعلى النطاق الإقليمي. وتقوم أولى خطوات المكافحة على تعرُّف المرض وتحديد عامله ثم تبليغ السلطات الصحية المحلية بوجود هذا المرض في نطاق سلطتها. وتختلف النُظم الإدارية المتبعة في التبليغ عن المرض المعدي باختلاف البلدان واختلاف ظروفها وتواتر المرض فيها. ويتم التبليغ على مرحلتين: مرحلة أولى يتم فيها التبليغ عن حالات المرض المحدودة ومرحلة ثانية يتم فيها التبليغ عن حدوث الوباء إذا وصلت حالات المرض إلى حد الوباء.

أما الخطة العالمية للتبليغ عن الأمراض فتشمل:

- أمراضاً يتم التبليغ عنها على النطاق العالمي: وهي أمراض الطاعون والهيضة والحمى الصفراء والجدري وحمى التيفوس والحمى الراجعة وشلل الأطفال والبرداء والنزلة الوافدة الفيروسية.
- أمراضاً يتم التبليغ عنها في أمكنة حدوثها: مثل الحمى التيفية والخُناق والبروسيلة والجذام.
- أمراضاً متوطنة يتم التبليغ عنها في مناطق توطنها: مثل التولاريمية والفُطار الكرواني وحمى الفواصد.

وأما التبليغ عن الأوبئة فيشمل عدد الحالات والمدة الزمنية التي حدثت فيها وطريقة انتشارها.

- أمراضاً لايتم التبليغ عنها لأنها تصيب الأفراد ولا تنتقل من إنسان إلى آخر، أو لأن طبيعتها الوبائية لاتسمح باتخاذ إجراءات عملية لمكافحتها مثل الزكام.

عزل المريض: أي وضعه في مكان معزول طول مدة سراية مرضه واتخاذ إجراءات تمنع انتقال العامل الممرض إلى المستعدين انتقالاً مباشراً أو غير مباشر. وللعزل عدة أنواع هي:

العزل الصارم: يطبَّق على المرضى المصابين بأخماج شديدة السراية يمكن أن تنتشر بالهواء أو التّماس مثل الخُناق الذي يُعزَل المصاب به ١٤ يوماً أو إلى أنْ يتم الحصول على نتيجتين سلبيتين للزرع بفاصل ٢٤ ساعة، والطاعون الذي يُعزَل المصاب به عزلاً صارماً ثلاثة أيام بعد بدء العلاج، والجدري الذي يُعزَل المصاب به حتى تسقط القشور جميعها. يوضع المصاب بأحد هذه الأمراض في غرفة خاصة جيدة التهوية تدخلها الشمس. ويستعمل الأشخاص الذين يدخلون هذه الغرفة الأقنعة والأردية الطبية والقفّازات.

العزل لمنع التماس: يطبق على المرضى المصابين بأخماج أقلّ خطورة وتنتقل بالتماس القريب أو المباشر مثل التهاب السحايا بالمكورات السحائية الذي يُعزَل المصاب بها ٢٤ ساعة من بدء تطبيق المعالجة. ويمكن أن يوضع في الغرفة الواحدة عدةُ مرضى مصابين بالعامل الممرض نفسه.

العزل الهوائي: يطبَّق على المرضى المصابين بأمراض ينقلها الهواء مسافةً قصيرة. وأبرز هذه الأمراض الحصبة التي يعزَل المصاب بها أربعة أيام بعد ظهور الطفح، والحصبة الألمانية ويعزَل المصاب بها سبعة أيام بعد الطفح مع الانتباه إلى إبعاد الحوامل المستعدات، والحُماق (جدري الماء) الذي يعزَل المصاب به مدة أسبوع أو حتى جفاف القشور وسقوطها، والنُكاف الذي يعزَل المصاب به تسعة أيام بعد ظهور التورم، والسعال

الديكي الذي يعزَل المصاب به خمسة أيام بعد بدء علاجه بالاريتروميسين.

العزل في التدرن: يوضع المصاب بالسل النشط المفتوح الذي تملأ العصيات السلية قشعَه في غرفة خاصة جيدة التهوية تدخلها الشمس ويرتدي الأشخاص الذين يدخلون هذه الغرفة الأقنعة والأردية الطبية.

العزل في الحواضن: إن إصابة الوليد بداء العنقوديات تقتضي عزلَه عن الولدان الآخرين في الحاضنة عزلاً تاماً وتطبيق قواعد التطهير والنظافة الشخصية على القائمين على رعايته فضلاً عن ارتدائهم الأردية الطبية والأقنعة والقفازات.

العزل في الأخماج التي تنتقل عن طريق البراز بالتماس المباشر أو غير المباشر: يكفي الركون إلى التزام القواعد الصحية في المتعاملين مع المريض وتجنب تلوثهم وذلك بارتدائهم الأردية الطبية. وقد تحتاج بعض الحالات منها مثل الهيضة والحمى التيفية إلى المعالجة في المستشفى. ولاداعي لعَزل المصاب بالتهاب الكبد الخمجي الفيروسي أكثر من أسبوع بعد بدء اليرقان.

العزل في الأمراض الجنسية: مثل السيلان والافرنجي: يجب على المصاب بأي منهما الامتناع عن الجماع إلى أن يتم شفاؤه شفاء تاماً.

التطهير: يُقصَدُ منه في هذا المجال إتلاف العوامل الممرضة خارج جسم المريض وذلك بتعريضها مباشرة لعوامل كيمياوية أو فيزيائية تُعرَف بمواد التطهير [ر. التعقيم والتطهير]. ويتم **تطهير المرضى في مرحلتين اثنتين:** الأولى في أثناء المرض وتطبَّق فيها وسائل التطهير على المواد الممرضة المفرَزة أو المفرَغة من البدن بأسرع ما يمكن، والثانية بعد شفاء المريض أو موته أو انتقاله إلى مكان آخر، ولاتُجرى هذه المرحلة إلا في بعض حالات الأمراض الخطرة التي تنتقل بالتماس المباشر والشديدة السراية. أما المألوف فهو اللجوء إلى وسائل التنظيف العادية في أغلب الأمراض مثل غسل الأمكنة والأسرّة بالماء الساخن والصابون أو بمواد مطهرة مناسبة للتخلص من العوامل الممرضة التي قد تكون علقت بها، وتهوية الغرف والمفروشات وتعريضها لأشعة الشمس.

يتم إجراء التطهير على جلد المريض وشعره وجوفي أنفه وفمه، ومفرزاته ومفرغاته وكل ما يتلوث بهما، والأواني والأدوات التي يستعملها وألبسته وفراشه وسريره ومكان وجوده والأدوات التي تُستعمل في معالجته طبياً أو جراحياً.

مكافحة النواقل: النواقل هي الحشرات وغيرها التي تنقل العوامل الممرضة من مضيف إلى آخر نقلاً بيولوجياً أو آلياً. ونعني بالنقل البيولوجي أن العامل الممرض يُكمل نموه في الناقل قبل أن ينقله إلى الإنسان. والأمثلة على ذلك بعوض الأنوفيل في البرداء والزاعجة المصرية Aedes Aegypti في الحمى الصفراء والبرغوث في الطاعون والكلْب في السُعار. أما النقل الآلي فيقتَصِر دور الناقل فيه على حمل العامل الممرض ونقله فقط. وأبرز مثال على ذلك ما يقوم به الذباب بأرجله وأجنحته من نقل المواد الملوثة من مكان إلى آخر.

دعت أهمية النواقل في نقل الأمراض إلى السعي إلى تجنبها ومكافحتها والقضاء عليها ويتم ذلك بتدابير فردية تقوم على وضع حواجز سلكية على نوافذ أمكنة النوم والمعيشة وأبوابها ووضع الكلة (الناموسية) على الأسرَّة واستعمال المواد الطاردة للنواقل، وبتدابير عامة تهدف القضاء على النواقل بالمبيدات الحشرية وعلى رأسها الـد.د.ت رشاً أو تعفيراً، أو اللجوء إلى وسائل تحسين البيئة وإصلاحها للتخلص من مواطن توالد النواقل وأماكن هجوعها. وترتبط هذه الوسائل بمشروعات التنمية الريفية التي تقوم على ردم الأهوار وتسوية الأراضي وتجفيف المستنقعات.

وقاية المحيط: وذلك بالمحافظة على شبكات المياه بعيدةً عن التلوث ومراقبتها صحياً والتخلص المجدي من الفضلات والمياه العادمة والمفرغات الإنسانية وجرها بوسائل الصرف الصحية التي تُجرى فيها عملياتٌ تقتل العوامل الممرضة والمحافظة على مصادر الغذاء والخضروات وحسن نقلها وتخزينها على نحو يحول دون تلويثها. ويمنع نشر طبقة من كرات البوليسترين polystyrene في المراحيض تفقيس الحشرات ويقتل قوائبها، كما يمنع السرخس المائي المعروف بـAzolla والذي يغطي سطح الماء في حقول الأرز تفقيس الحشرات ونمو قوائبها.

التمنيع: هو إدخال اللقاح إلى البدن بقصد إحداث المناعة. ولاشك أن اللقاحات أسهمت إلى حدٍ كبير في إنقاص معدل المراضة morbidity ومعدل الوفيات في العالم المتقدم بصورة واضحة وفي العالم النامي بصورة تدعو للتفاؤل، ولا أدل على ذلك من إسهام التلقيح ضد الجدري في استئصال شأفة هذا الداء من العالم [ر. اللقاحات والمصول].

اتقاء الأمراض العضوية

على رأس هذه الأمراض مرضان هما فرط الضغط الشرياني [ر. ضغط الدم] والتصلب العصيدي. ففرط التوتر الشرياني يمكن اتقاء اشتداده بتقليل الملح والامتناع عن التدخين، وتجنب الانفعال، وإنقاص الوزن، والابتعاد عن حياة الخمول. أما التصلب العصيدي ومايُفضي إليه من مرض القلب بنقص التروية فيُعَدّ اتقاؤه الهدف الأسمى لجميع البرامج الصحية ولا سيما أن ما توافر من معارف في الوقت الحاضر عن التصلب العصيدي يكفي لتوجيه بعض المؤهبين إلى تحاشي عوامل الخطر التي تساعد على حدوث مرض القلب بنقص التروية [ر. احتشاء القلب وأمراض الشرايين الإكليلية].

اتقاء الأمراض الوراثية

يُعرف في الوقت الحاضر نحو ٣٠٠٠ مرض ينتقل بالوراثة، ويختلف انتشار هذه الأمراض باختلاف المجتمعات والعروق. وقد يَسَّر تقدمُ العلم والطب تشخيص هذه الأمراض واتقاءَها بل معالجتها، وذلك بالاستشارة الوراثية التي تحدد نسبة انتقال المرض الوراثي وترك أمر الإنجاب بعد ذلك للوالدين بحسب ما تمليه عليهما ظروفهما الاجتماعية والمادية ومعتقداتهما، أو تشخيص المرض الوراثي في الجنين عن طريق بزل السلى الذي يُجرى في الأسبوع الرابع عشر من الحمل. ويُجرى على النموذج المستحصل بالبزل بعد تثفيله استنبات الخلايا وتحليل كيمياوي ودراسة صبْغية توصل إلى التشخيص، فكشف البروتين الجنيني الألفي في السائل يدل على التشوهات العصبية، ونقص الإنظيمات فيه يشير إلى أمراض الاستقلاب. ويفيد فحص خلايا الجنين التي في السلى بتعيين جنس الجنين، ومعايرة الحموض الأمينية في هذه الخلايا تفيد في تشخيص أدواء الدم الانحلالية. أما المستنبت الخلوي فيفيد في إجراء دراسة صبغية لتشخيص مرض داون Down disease أو تيرنر Turner disease ونقص الإنظيمات في هذا المستنبت يشخص مرض هنتر Hunter disease أو مرض هيرلر Hurler disease أو مرض نيمان بيك Niemann Pick disease أو مرض تاي ساكس Tay Sacks disease

ومعايرة الحموض الأمينية فيه تشخص أدواء الدم الانحلالية (الشكل ١). ويؤمَّل أن تنجح الهندسة الوراثية في المستقبل باستبدال جين سليم بالجين المعيب.

اتقاء السرطان

إلى أنْ يتم الوقوف على سبب السرطان الحقيقي والجزم بذلك تظل البيانات الوبائية خير مرشد لاتخاذ الإجراءات التي يجب اتباعها لاتقائه [ر. الورم]. وقد أظهرت تلك البيانات أنَّ أكثر السرطانات شيوعاً وهي سرطان القولون والشرج وسرطان الثدي وسرطان الموثة، والسرطانات الأقل شيوعاً منها أيضاً ترتبط بارتفاع مقدار الدهن في الغذاء. كما تبيَّن أنَّ انخفاض مقدار الفيتامين آ يترافق بازدياد خطر الإصابة بسرطان الرئة، وانخفاض مدخول الألياف في الغذاء يترافق بازدياد خطر سرطان القولون والشرج، وتناول مقادير كبيرة من الأطعمة المدخّنة والمملّحة والمخلّلة يزيد خطر الإصابة بسرطان المعدة.

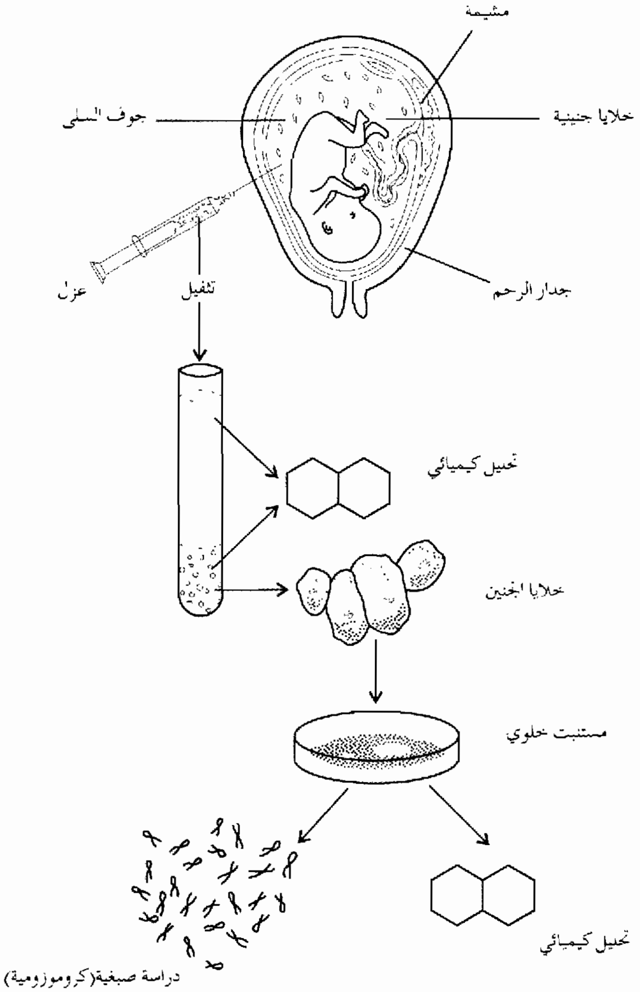
أما التدخين فقد ثَبَتَت علاقته السببية بأغلب سرطانات الرئة، وهو يزيد خطر الإصابة بسرطان الفم والبلعوم والمريء والمثانة والمعثكلة والكلية، وسرطان عنق الرحم في النساء.

ويعد الإفراط في استهلاك الكحول عامل خطر في سرطانات جوف الفم والبلعوم والمريء والكبد. ويرتفع وقوع سرطان المثانة بين المشتغلين في الصناعات الكيمياوية التي تستخدم مركبات النفتيل أمينات كثيراً على وقوعه في السكان بوجه عام. ويسهم التعرض للمواد السامة التي في البيئة في زيادة معدلات الإصابة بالسرطان، فقد اتضح أن الاسْبَسْت (الأمينت) يسبب السرطان في البشر.

وهكذا يُرى أنَّ ارتفاع مقدار الدهن في الغذاء ونقص الفيتامين آ وانخفاض الألياف في الغذاء، والتدخين والإفراط في استهلاك الكحول، والمواد السامة المهنية والبيئية تكوِّن عوامل خطورة في السرطان الذي يمكن اتقاؤه بتناول الغذاء الذي ينخفض مقدار الدهن فيه ويرتفع مدخول الألياف وعدم التدخين وعدم معاقرة الخمر.

ولا يخفى ما لتقدم وسائل الكشف المبكر عن السرطان من دور في منع تفاقمه واشتداده بل قد يُيَسّر معالجة بعض أنواعه بنجاح.

محمد ياسين



■ الإتلين

الإتلين ethylene فحم هدروجيني صيغته (C_2H_4)، وهو الحد الأول في سلسلة الألكنات أو الأولفينات، ويحتوي على رابطة مزدوجة بين ذرتي الكربون $CH_2=CH_2$ وتجعل منه فعاليته - التي تعزى إلى صفة عدم الإشباع - المنتج الأساسي في البتروكيمياء [ر. الألكنات].

منشأ الإتلين

يوجد الإتلين بكميات ضئيلة في غازات الأفران العالية ومصانع الكوك، وقد حصل عليه بادئ الأمر بتسخين مزيج من الغول الإتيلي وحمض الكبريت المركز إلى الدرجة ١٦٠ْس. وحددت خواصه بعد اكتشافه في غازات الأفران العالية.

أخذ الإتلين في الأربعين سنة الأخيرة مكاناً مرموقاً بين أكثر صناعات تكرير النفط أهمية، إذ يحصل عليه بالتحلل الحراري (التكسير في درجة حرارة مرتفعة من غير وسيط) للغاز والبنزين (الغازولين) وحتى للمازوت

(الغازويل)؛ كما يحصل عليه بالتكسير البخاري. ولما كان المادة الأولية المتزايدة النصيب في الصناعة الكيمياوية وفي صناعة اللدان، فقد غدا ممكناً نقله من المصافي إلى معامل التحويل بخطوط السكك الحديدية أو الشاحنات أو السفن أو بخطوط الأنابيب، وغدا يُخَزَّن بكميات كبيرة لمجابهة زيادة الإنتاج ولدعم التوزيع والاستهلاك.

خواصه الفيزيائية

الإتلين غاز في الحالة الطبيعية لا يتسيل إلا في الدرجة −١٠٤° س، وهو قليل السمية، يسبب استنشاقه نوماً عميقاً، لذلك يعطى في العمليات الجراحية القصيرة الأمد ممزوجاً بالهواء أو الأكسجين. تنفجر مزائجه بالهواء، عندما تراوح نسبته فيها بين ٣٪ و٣٤٪، معطية غاز الكربون وبخار الماء، لذلك يُعدّ خطراً في الأماكن المغلقة ولا سيما بحضور الأدوات الحارة أو الأجهزة الكهربائية المعرضة لإطلاق الشرر. وهو يُسَرِّعُ نضج الفواكه لذلك يستعمل تجارياً في مخازن الفواكه.

صنع الإتلين

يطلق اسم التحلل الناري pyrolyis أو التكسير ببخار الماء steam-cracking على طريقة صنع الإتلين، ففي التحلل الناري تتفكك الفحوم الهدروجينية المشبعة المستقيمة السلسلة والموجودة سواء في الغاز الطبيعي أو في شتى قطفات النفط كالبنزين والمازوت تفككاً غير وساطي يرافق الارتفاع الشديد في درجة الحرارة (٧٥٠-٩٠٠° س) وفي ضغط ضعيف (١-٢ بار).

ويعتمد تكسير الغاز الشديد الانتشار في الولايات المتحدة على تفاعل أساسي هو نزع الهدروجين من الإتان:

$$C_2H_6 \longrightarrow C_2H_4 + H_2$$

ويدخل بخار الماء في مدخل الفرن لزيادة سرعة المرور في الأنابيب، وبذلك يتكسر المنتج بعنف، ولا يتركه بخار الماء يمكث في الفرن إلا بضع ثوان، وحين يخرج الناتج يُبَرَّد تبريداً عنيفاً بالتبادل الحراري في مراحل تدعى مراحل الإسقاء quench وذلك لإيقاف التفاعل قبل أن يبلغ مرحلة تكوين الكوك (التكويك).

كيمياء الإتلين

تنفتح الرابطة المزدوجة الواقعة في مركز جزيء الإتلين بسهولة كبيرة لتضم جزيئات الأكسجين أو الكلور، أو لتضم جزيئات إتلين أخرى (التماثر) polymerization.

ويحصل أكسيد الإتلين $(CH_2)_2O$ بأكسدة الإتيلين رأساً بالهواء أو بالأكسجين. وهو غاز عديم اللون، سهل التسيل، يتبخر في الدرجة ١٠,٧° س، وهو خطر التداول جداً لأنه يكوّن مزيجاً صاعقاً في الجو. وهو منتج وسطي عظيم الأهمية يستعمل مادةً أولية في الكثير من الطرائق التي تؤدي إلى نسق كامل من شتى المُصَنَّعات كمضادات التجمد والمنظفات والمذيبات والألياف النسيجية التركيبية والموائع الهدرولية للمكابح وناقلات الحركة وغيرها.

ويكوّن الإتلين مع الكلور مركباً وسطياً هو ثنائي كلور الإتان أو كلور الإتلين $C_2H_4Cl_2$ الذي يعطي كلور الفينيل $CH_2=CHCl$، ويعد هذا الأخير أكثر المواد الأولية في صنع اللدان أهمية كمتعدد كلور الفينيل (PVC) والراتنجات الفينيلية (الزجاج العازل أو البرانيق أو الجلود الاصطناعية).

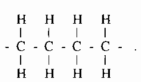
يتحد الإتلين بسهولة ويسر بالبنزن C_6H_6 بحضور كلوريد الألمنيوم وسيطاً لإعطاء إتيل البنزن $C_6H_5-C_2H_5$، ويعطي هذا بدوره الستيرين $C_6H_5-CH=CH_2$ بنزع الهدروجين، والستيرين ذو دور أساسي في صناعة المواد اللدنة (متعدد الستيرين polystyrene) والمطاط (مطاط البوتادين).

وأخيراً يزداد ميل الإتلين يوماً بعد يوم ليحل محل الأستيلين نقطة انطلاق لكيمياء الأستالدهيد (CH_3-CHO) والخلات acetates.

وقد نافست إماهة الإتلين إلى الغول الإتيلي التخمر الغولي منافسة شديدة.

وتُصنف متماثرات الإتلين في نوعين مختلفين:

- متعدد الإتلين العالي الكثافة (٠,٩٦ تقريباً) والذي يُعْرَفُ بالمنخفض الضغط أيضاً لأنه يحصل بتفاعل وساطي في الضغط الجوي أو في ضغط قريب من الجوي، وهو يتألف من جزيئات مستقيمة ذات سلاسل طويلة تحوي ٥٠٠-١٠٠٠ ذرة كربون.



ويستعمل لقولبة الأشياء الحسنة المتانة والمقاومة للماء في حالة الغليان. وتتم القولبة بالبثق extrusion (القوارير، والصفيحات، والأنابيب، والأفلام والأكياس والكُيَيْسات للرِّزم والتغليف)، أو بالحقن injection (اللُّعَب، وقطع السيارات، والأجهزة المنزلية والصحية)، أو بالانضغاط compression (الصفائح).

- متعدد الإتلين المنخفض الكثافة (٠,٩٣ تقريباً) والذي يُعرف بالعالي الضغط أيضاً لأنه يُماثَر في مفاعلات تعمل في ضغوط قد تبلغ عدة آلاف البارات، وقوامه سلسلة طويلة متفرعة تتألف من ٨٠٠ إلى ٢٥٠٠ ذرة كربون،



وهو أكثر ليونة وأقل مقاومة للحرارة من النمط العالي الكثافة، ويتيح بالقولبة الحصول على أشياء متعددة كثيرة الاستهلاك في المنازل أو الصناعات.

بلغ الإنتاج العالمي لمتعدد الإتلين رتبة الخمسة ملايين طن عام ١٩٧٠، ثم تجاوز إنتاجه إنتاج متعدد كلور الفينيل. كما بلغ إنتاج الولايات المتحدة في عام ١٩٧٧ من متعدد الإتلين المنخفض الكثافة ٢٩٣٥٠٠٠ طناً، واستهلك من متعدد الإتلين العالي الكثافة ١٦٥٧٠٠٠ طناً.

التخزين والنقل

يتطلب تنوع استعمال الإتلين وانخفاض سعر تكلفته وحدات تكسير ببخار الماء عملاقة قادرة على أن ينتج كل منها ٥٠٠٠٠٠ طناً من الإتلين في العام. وقد استكملت عدة تقنيات لتخزين هذا الغاز في الحالة السائلة:

- خزان الضغط، وهو مكلف جداً لما يتطلبه من أوعية فولاذية ثخينة الجدران، لذلك لا يلجأ إليه إلا لتخزين مقادير صغيرة في المعمل.
- خزان الضغط الجوي، وفيه يحصل العزل الحراري الضروري لتجنب التبخر بغلاف مزدوج يصنع جداره الداخلي من سبيكة خليطة بالنيكل أو الألمنيوم، ويصنع الجدار الخارجي من الفولاذ أو من الخرسانة، أما العازل الوسطي فهو من اسفنج متعدد الأورتان.
- الخزن القرّي في أرض مجمّدة: لما كان الإتلين سائلاً في نقطة غليانه (−١٠٤° س) فإن تبريده لجدران كهف التخزين يكفي لضمان عدم تسربه.
- الخزن في الملح، وقوامه إيجاد مكمن ملح على عمق يزيد على ٢٥٠م، فيجوّف ويُملأ

بعد ذلك بالإتلين السائل.

ويتم نقل الإتلين بالقاطرة والشاحنة والسفينة، علماً بأن نقله بالأنابيب يزداد يوماً بعد يوم؛ وقد أخذت تنتشر في أوربة والولايات المتحدة شبكات تصل ما بين منتجي مختلف المناطق.

صلاح يحياوي

الموضوعات ذات الصلة:

الألكنات ـ تكسير المنتجات النفطية تكسير النفط بالبخار.

مراجع للاستزادة:

ـ صلاح يحياوي، الكيمياء العضوية المفتوحة (منشورات جامعة دمشق ١٩٦٨).

ـ بيتر وايرمان، المدخل إلى الكيمياء العضوية الصناعية، ترجمة يحياوي، القادري، قنديل (منشورات وزارة التعليم العالي، حلب ١٩٨٣).

■ الأتماتية

ليس ثمة تعريف دقيق متفق عليه لمصطلح الأتماتية Autamatism (ومعناها الحرفي «ذاتي الحركة» أو «تلقائي الحركة»)، بيد أنها تخص في الواقع مجالاً من مجالات العلم والتقنية يهتم بدراسة النظريات والتطبيقات المتعلقة ببنية منظومات التحكم التي تعمل من دون تدخل مباشر من الإنسان. والأتماتية، بهذا المعنى، مجموعة الطرائق والوسائل التقنية التي تستبعد تدخل الإنسان في أعمال معينة، وتضع حلولاً لنماذج رياضية تضبط عمل المنظومات المطلوب تشغيلها ذاتياً وتوجهه. وغالباً ماتكون تلك الحلول في صيغة خوارزميات أو تكون مبنية على أسس نظرية خاصة. عُرف مصطلح الأتماتية منذ أواخر القرن التاسع عشر، وكان القصد منه إيجاد حلول لمشاكل الضبط الذاتي في الآلات والمكنات على النحو الذي وضع أسسه عدد من المهتمين في هذا المجال ومنهم جورج ماكسويل (١٨٦٨). ولم تحتل الأتماتية مكانتها بأنها فرع مستقل من فروع التقنية إلا في أوائل الثلاثينات من القرن العشرين في المؤتمر الدولي الثاني للطاقة (برلين ١٩٣٠)، الذي أقر موضوع التحكم الأتماتي والتحكم من بعد. ولم يمض عقد من الزمن حتى أضحت الأتماتية مقرراً علمياً وتقنياً له أصوله ومنهجه. ويرتبط تاريخ الأتماتية بتطور الأجهزة الذاتية الحركة والآلية التي ترجع جذورها في الأصل إلى علم الميكانيك والدارات الكهربائية ومنظوماتها، إذ اعترضت تطبيقاتها مشاكل تطلبت حلولاً كضبط الضغط في المراجل البخارية وضبط مسارات المكابس في المحركات البخارية والانفجارية وضبط تواتر دورات المولدات الكهربائية والتحكم في المخارط الأتماتية وفي أجهزة الأمان الكهربائية. وهكذا فإن الأتماتية كانت تعني منظومات الضبط التي تتحكم في الوسائل التقنية المعروفة آنذاك. غير أن التطور السريع الذي تناول جميع مجالات العلم والتقنية في أواخر النصف الأول من القرن العشرين أدى إلى ازدياد أهمية تقنيات الأتمتة والتحكم حتى شاع استعمالها واتسع مجالها في النصف الثاني من هذا القرن، فشملت مختلف مجالات العلم والصناعة والاقتصاد بدرجات متفاوتة مع زيادة في التعقيد ودقة في الأداء. ولعلّ أوضح مثال على ذلك ماطرأ على منظومات التحكم الأتماتي في الصناعة، إذ كانت تقتصر على أتمتة بعض المجموعات والجُمل أو مكنات بمفردها، ثم أصبحت اليوم منظومات متنامة تتحكم في «ورشات» أو معامل بأكملها. والأهم من ذلك منظومات التحكم في الأشياء التي يبتعد بعضها عن بعض مسافات كبيرة، كالتحكم في المحطات الكهرمائية والمنشآت الصناعية والمركبات الفضائية والمركبات الطائرة المسيرة من بعد وغير ذلك. وتحتل التقنيات الميكانيكية المسيرة من بعد والخاصة بجمع المعلومات ومعالجتها أتماتياً مكانة مهمة في الوقت الحاضر، ويُعد الحاسوب ومنظومات التحكم المعقدة أساس هذه التقنيات، إذ لايمكن حل المسائل ذات الصلة بمنظومات التحكم إلا بوساطة تقنيات الحاسوب. بل إن علم الأتماتية توصل إلى إيجاد طرائق ووضع نماذج تجريدية نأت به عن التقنية المجردة، وفسحت له في مكان الصدارة في مختلف مجالات الحياة حتى شملت تطبيقاته الاقتصاد والإدارة وعلم السكان ومختلف العلوم الطبية والصيدلانية والحيوية والجيولوجية والمائية وغيرها.

وتهتم الأتماتية اليوم، من منطلقها العلمي هذا، بوضع نماذج رياضية للمسائل التي تتناولها العلوم الأساسية وتضع الحلول لبعض المسائل الرياضية الصرفة كحساب المتغيرات مثلاً، غير أنها تبقى في أساسها علماً تطبيقياً يستخدم المنهج الرياضي والنماذج الرياضية لتفسير تصرف المنظومات الأتماتية وبعض الظاهرات الطبيعية إلى جانب محاولة التحكم في بعض هذه الظاهرات وتوجيه نشاطها. ولقد أدى تطور الحواسيب إلى إجراء حسابات معقدة لم تكن ممكنة في السابق، وإلى تحويل الرياضيات من علم افتراضي بحت إلى علم تطبيقي حتى غدت نظرية المنظومات والتحكم الأتماتي موضوعاً شاملاً يوحد جميع أوجه النشاط التي تهتم بها الأتماتية وتصلح أساساً لنظرية السيطرة العامة المعروفة باسم السيبرنية [ر].

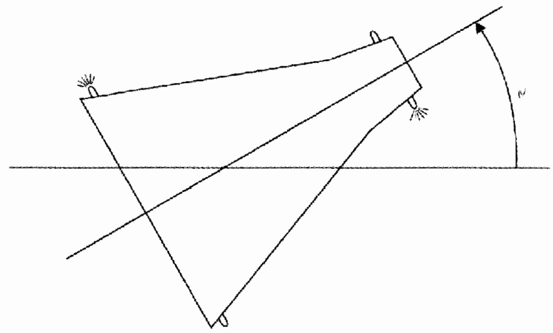
بنية المنظومات الأتماتية

إن الأتماتية بطبيعتها هي مجموعة من الطرائق والنظريات التي تفرق بوضوح بين المسائل ذات الحالات المتقطعة والأخرى ذات الحالات المستمرة علماً أن كلاً منهما يمكن أن يتخذ أشكالاً متفرعة كأن تكون المنظومة بحلقة واحدة مفتوحة أو مغلقة أو أن تكون خطية أو غير خطية، أو أن تكون ذات معالم (بارامترات) ثابتة أو متغيرة أو أن تكون دينامية محددة أو إحصائية، وغير ذلك.

الأتماتية المتقطعة: إن أبسط أنواع المنظومات الأتماتية هي المنظومات ذات التتابع المشروط، ومثالها حالة الآلة التي يجب عليها القيام في كل مرة بثقب قطعة ميكانيكية تقدم لها بوساطة صحن متحرك.

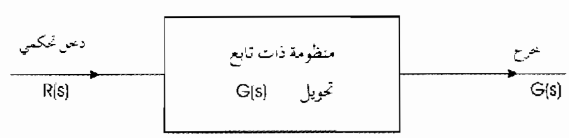
وقد مرت نظرية المؤتمتات [ر] automates بتطور كبير بفضل الأتماتية.

الأتماتية المستمرة: إن المسائل الرئيسية التي تعد أصل الأتماتية المستمرة هي مسألة الضبط والتحكم باستمرار في منظومة فيزيائية للمحافظة على القيم المحددة سلفاً والتي تسمى تعليمات مرجعية، وذلك مع مراعاة التشويش (التأثيرات غير المرغوب فيها) الذي يميل إلى حرف هذه القيم. والمثال على ذلك مسألة المحافظة على مسار مركبة فضائية تدور حول محور عطالتها (الشكل ١) بالإبقاء على قيمة قريبة من الصفر للزاوية «θ» المحصورة بين محور المركبة والاتجاه المرجعي أي الاتجاه الصحيح المطلوب. وللقيام بذلك فإن في المركبة صواريخ صغيرة لتعديل الاتجاه تؤثر فيها



(الشكل ١) التحكم في مركبة فضائية

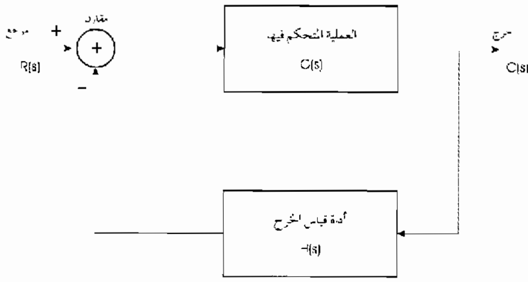
عن طريق مزدوجة معروفة القيمة في أحد الاتجاهين، وتستخدم للتعويض عن التشويش الناتج من أسباب خارجية مثل ضغط الإشعاع الشمسي الذي يميل إلى حرف المركبة عن مسارها . ويسمى هذا النوع من التحكم التحكم بالوصل والفصل . on- off control أو بانغ بانغ bang- bang وقد يؤدي هذا النوع من التحكم إلى احتمال حدوث اهتزازات زائدة للمركبة وإلى استخدام مستمر لصواريخ التحكم ثم إلى استهلاك سريع للوقود . ويمكن تحسين أداء هذا النوع من القيادة بترك عتبة حرة يكون التحكم فيها معدوماً . ويحتوي هذا المثال الأولي على العناصر الأساسية لمسألة التحكم في الدخل التي هي مزدوجة تؤثر في الخرج . وهنا يوجد نظام حركي يقال عنه إنه ذو متحول وحيد أو نظام حركي أحادي لأنه لا يؤخذ في الحساب إلا دخل واحد وخرجٌ واحد، ويرمز المؤتمتون لهذه العملية بالمخطط الصندوقي لمنظومة ما (الشكل ٢) .



(الشكل ٢) مخطط صندوقي لمنظومة تحكمية ذات دارة مفتوحة

ويتغير مفهوم النظام الحركي الأحادي إلى نظام متعدد عندما يكون الدخل والخرج أكبر من الواحد . وهي الفكرة التجريدية الأساسية للتحكم الذاتي إذ يمكن تطبيق المفهوم نفسه على كثير من المنظومات الفيزيائية ذات الحالات المتقطعة أو المستمرة . ولهذا التحليل الرياضي تطبيقات واسعة في كل المجالات ليمكن التحكم مثلاً في موضع عربة قطار على سكة حديد أو في قيادة سيارة على طريق أو في غير ذلك . والشيء الأساسي الذي وضح من هذا المثال هو أنه يجب، لضبط نظام ما، قياس خرج النظام أو استجابته، ومقابلته بالدخل، واختيار نوع التحكم فيه، وهذا مايسمى بالتحكم بالتغذية الخلفية (الراجعة) أو التحكم بالحلقة المغلقة (الشكل ٣) بالمقابلة مع تحكم من نوع آخر لا يرتبط بقياس الخرج ويسمى التحكم بالحلقة المفتوحة كما هو مبين في الشكل ٢ .

الروبوت Robot : (الإنسان الآلي) تلبي نظرية الأتمتة نظرية حل مسائل



(الشكل ٣) مخطط صندوقي لمنظومة تحكمية ذات دارة مغلقة

أتمتة المنظومات المستمرة، ولكن تبقى هنالك مجالات الإنتاج الصناعي المتميزة بعدد من العمليات المتقطعة كما هي الحال في الصناعات التجميعية (كصناعة السيارات)، وتُتَّبَعُ هنا طريقتان متكاملتان تتمثل الأولى بإعادة تصميم عملية التصنيع لتتكامل عمليات النقل والتشكيل والتلقيم في مفهوم كلي يجعل تدخل العاملين في حده الأدنى، وهذا مايسمى « بالورشات القابلة للتكيف » لأن هذا التنظيم الجديد مبني على تحكم الحواسيب فيها، ويعتمد على البرامج القابلة للتعديل لتنظيم عمل الورشة على النحو المرغوب فيه . والتنظيم الأمثل لعمل هذه الورشات مسألة معقدة جداً وكثيرة الاحتمالات فيما يتصل بالرياضيين التطبيقيين والمهندسين . أما الطريقة الثانية فتختلف عن الأولى بالمحافظة على التنظيم التقليدي لخط الإنتاج وبأتمتة مواقع العمل أيضاً وذلك بمساعدة أجهزة تقلد حركات الإنسان وقد تكون لها صفات تشبه صفاته وتسمى الروبوت (أو الإنسان الآلي) .

أما جيل الروبوت المصنَّع حالياً فما هو إلا أجهزة تحكم تتحكم فيها معالجات مبرمجة processors وأهم مشاكل أتمتتها هو ضبطها والتحكم فيها مهما يكن وضع الذراع وحِمْلها . وتسمح هذه الروبوتات بتصنيع قطع مختلفة مثل عناصر هياكل السيارات الموضوعة على خط الإنتاج وتركيبها . ويقوم السير الناقل بإعطاء إشارة البرنامج المطلوب لتنفيذ التصنيع والحركة بحسب الإشارات أو الرموز الموضوعة عليه .

والاتجاه العام اليوم هو إيجاد جيل جديد يكون فيه للروبوت مجسات أكثر تطوراً وكمالاً تمكنه من العمل طبقاً لتغير الأحوال، لا على نحو جامد وطبقاً لبرنامج ثابت معد من قبل . ومن هذه الأجهزة المجسات البصرية واللمسية التي تتحسس بالشروط الحرارية والكيمياوية والإشعاعية والصوتية وغيرها . وتتيح هذ العناصر للروبوتات التصرف بفاعلية في بيئات معقدة جداً، ويقال عن هذا التصرف إنه « ذكاء صنعي » .

نظرية المنظومات الأتماتية

إن إحدى الطرائق لضبط أداء منظومة ماهي قياس إشارة خرجها (استجابتها) ثم اختيار إشارة التحكم المناسبة تبعاً للخرج المقيس وإشارة المرجع أي التحكم بالتغذية الخلفية (الراجعة) أو بالحلقة المغلقة :

(الشكل ٣) .

وقد استخدمت نظرية التحكم التقليدية في جيل الحواسيب التمثيلية analogue computers لمعالجة المنظومات الخطية ذات المعالم (البارامترات) الثابتة .

ويعبر رياضياً عن استجابة المنظومة المعطاة في المخطط الصندوقي المبين في الشكل ٢ وذات البارامترات الثابتة بالعلاقة الرياضية التالية :

$$c(t) = \int_{-\infty}^{\infty} g(t-\tau)\, r(\tau)d\tau = \int_{-\infty}^{\infty} g(\tau)\, r(t-\tau)d\tau$$

وهي مايعرف باسم نظرية الطي convolution ويرمز له بالصيغة :

$$c(t) = g(t) * r(t)$$

وتكون الاستجابة النبضية $g(t)$ صفراً من أجل القيم السالبة للزمن t وذلك لكي تكون المنظومة حقيقية فمن أجل $\tau > t$ لا يؤثر الدخل $r(t)$ في الخرج $c(t)$. وبتطبيق تحويل لابلاس على هذه المتغيرات وباستعمال الأحرف اللاتينية الكبيرة لهذا التحويل تابعاً لمتحول عقدي « S » نحصل على :

$$C(s) = G(s)\, R(s)$$

حيث يسمى $G(s)$ تابع تحويل المنظومة الذي يمكن بوساطته إيجاد توابع تحويل المنظومات التسلسلية والتفريعية ذات التغذية الخلفية . وإذا أردنا إيجاد تابع تحويل منظومة ذات تغذية خلفية سالبة كما في الشكل ٣ فإننا نحصل على مايلي :

$$T(s) = \frac{C(s)}{R(s)} = \frac{G(s)}{1+G(s)H(s)}$$

وتوصف المنظومات التحكمية في مستوى الزمن إما بمجموعة من المعادلات التفاضلية من الدرجة الأولى (فضاء الحالة) أو بوساطة معادلة تفاضلية درجتها مساوية لدرجة المنظومة . ولإيجاد تابع تحويل المنظومة المعطاة بهذه الصيغة التفاضلية أي :

$$c^{(n)}+a_1c^{(n-1)}+\ldots+a_{n-1}c^{(1)}+a_nc = b_1r^{(n-1)}+b_2r^{(n-2)}+\ldots+b_{(n-1)}r^{(1)}+b_{(n)}r$$

حيث C = هي خرج المنظومة و $r \equiv$ هو دخل المنظومة التحكمي

$$r^{(i)} \equiv \frac{d^i}{dt^i} r \quad , \quad c^{(i)} \equiv \frac{d^i}{dt^i} c$$

تستعمل قاعدة تحويل لابلاس لمشتق التابع التالية :

$$L\,[c^i] = s^i c(s)+s^{i-1}c(0)^{i-1}+s^{i-2}c(0)^{i-2}+\ldots+c(0)$$

وبفرض أن القيم الابتدائية للتابع وجميع مشتقاته مساوية للصفر

$$\left\{c(0) = c(0)^{i-1} = c(0)^{i-2} = \ldots = c(0)^1 = 0\right\}$$

فإن تحويل لابلاس للمعادلة التفاضلية السابقة يصبح :

$$(s^n+a_1s^{n-1}+\ldots+a_{n-1}s+a_n)C(s) = (b_1s^{n-1}+b_2s^{n-2}+\ldots+b_{n-1}s+b_n)R(s)$$

وبالتالي فإن تابع تحويل هذه المنظومة يعطى بالصيغة :

$$G(s) = \frac{C(s)}{R(s)} = \frac{b_1s^{n-1}+b_2s^{n-2}+\ldots+b_{n-1}s+b_n}{s^n+a_1s^{n-1}+\ldots+a_{n-1}s+a_n}$$

ويمكن إيجاد معكوس تحويل لابلاس لذلك التابع بتحليله إلى عوامل بسيطة وباستخدام جداول تحويل لابلاس . وللتثبت من استقرار المنظومة ينبغي أن يكون الجزء الحقيقي لجذور المعادلة المميزة الممثلة لهذه المنظومة سالباً . وتعتمد طرائق التصميم والتعويض على دراسة المعادلة المميزة (مثل معيار روث Routh) أو على نظرية نكويست Nyquist التي تفترض معرفة مسار نكويست البياني $|G(jw)|$ في المستوى العقدي من أجل : $-\infty \le \omega \le +\infty$

وذلك إما اعتماداً على تابع تحويل الحلقة المفتوحة للمنظومة أو بالطريقة التجريبية إذا كان هذا التابع مجهولاً . وتبين نظرية نكويست أن المنظومة ذات التغذية الخلفية الواحدية السالبة تكون مستقرة إذا كان مسار نكويست محيطاً بالنقطة (- ١) بالاتجاه الموجب عدداً من المرات مساوياً لعدد الأقطاب المسببة لعدم الاستقرار في التابع $G(s)$ وعند وجود منظِّم أو معوِّض له تابع تحويل $G_c(S)$ فيتم التثبت من الاستقرار باستخدام مسار $G(S)G_c(S)$ بدلاً من مسار $G(s)$ على حدته . لهذا فإنه يمكن اختيار المعوِّض $G_c(s)$ الذي يقوم بإعادة تشكيل المسار بالشكل المرغوب فيه مثل إبعاده عن النقطة (- ١) ، وهناك طرائق بيانية أخرى لتحليل المنظومات وتصميمها، وأكثرها استخداماً طريقة « بود » التي تعتمد على رسم مخططين أحدهما لوغاريتم ربح تابع التحويل $\text{Log}\,|G(jw)|$ بدلالة $\text{Log}\,w$ والآخر طور $G(jw)$ بدلالة $\text{Log}\,w$. وهي تبنى على افتراض دخل جيبي بتردد w وثمة طريقة أخرى هي طريقة مسار الجذور وتبين تغير مواقع جذور المعادلة المميزة بدلالة تغير الربح الصرف في المنظومة .

المنظومات اللاخطية : المنظومات اللاخطية nonlinear system هي كل المنظومات التي لايمكن تطبيق مبدأ التراكم superposition عليها، وتُطرح مسألة منظومات التحكم اللاخطية إما بسبب كون عناصر المنظومة لا خطية أو لأن التعويض المدخل على المنظومة لاخطي، وذلك لتحسين أداء هذه المنظومة .

وأهم العناصر اللاخطية هو العنصر الواصل الفاصل ON - OFF الذي يبيّن الشكل (٤ـ أ) خواص تابع تحويله، والعنصر ذو المنطقة الميتة المبينة خواص تابع تحويله بالشكل (٤ـ ب) والعنصر ذو الإشباع المبين بالشكل (٤ـ ج) والكثير من العناصر الأخرى التي لاتخضع لتعريف العنصر الخطي . ويستخدم لمعالجة هذه المنظومات اللاخطية عدد من الطرائق التحليلية والبيانية، وتسمى أولى هذه الطرائق طريقة التابع الوصفي describing function حيث تطبق على العناصر اللاخطية التي لها خاصية وجود خرج « Y » على شكل تابع ترددي، وذلك إذا كان دخل المنظومة جيبياً . وهي لسهولتها أكثر الطرائق استخداماً لفحص تأثير خواص العناصر اللاخطية .

أما الطريقة الثانية فتسمى « مستوى الطور » the phase plane وهي طريقة يغلب عليها أنها بيانية تعتمد على رسم تغيرات متحولات الحالة state variables بدلالة بعضها واعتبار الزمن متحولاً ضمنياً .

أما الطريقة الثالثة فتسمى طريقة ليابونوف المباشرة Liapunov direct method وتعتمد أيضاً على تمثيل فراغ الحالة State Space من أجل عدد « n » من المتحولات وتستخدم عندما تكون درجة المنظومة كبيرة نسبياً .

منظومات التحكم الرقمية : عندما تذكر المتحولات في أثناء مناقشة المنظومات عامة فإن المقصود منها المتحولات المستمرة زمنياً والمعروفة من أجل الزمن « $0 \le t < +\infty$ » .

لكن يفضل في بعض الحالات أن تعرف المتحولات عند أزمان متقطعة $t_1, t_2, t_3, \ldots$ ، أي أنه يفترض أن تكون توابع كل دخل وكل خرج في المنظومة متقطعة زمنياً بدلاً من أن تكون توابع مستمرة زمنياً، لذلك فإن الإشارات في المنظومات المتقطعة في موضع أو أكثر تكون على قطار من النبضات، وإذا رُمِّزت النبضات ترميزاً رقمياً فإن المنظومات تسمى حينئذ منظومات

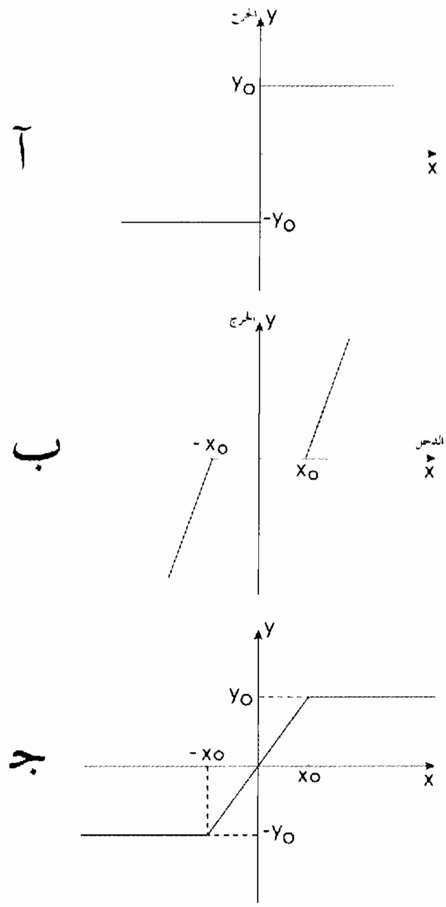
التحكم الرقمي Digital Control Systems . وعندما يستخدم في المنظومة معالجٌ رقمي (حاسوب مثلاً) فإنه تستخدم أيضاً عناصر قياس رقمية في حلقة التحكم في المنظومة (الشكل ٥) .

لهذا تميز منظومات التحكم الرقمية بأنها تتلقى المعطيات أو المعلومات بصورة متواترة فقط، وفي لحظات محددة من الزمن، وفي الغالب على هيئة نبضات مرمزة رقمياً، ويوجد في العادة عنصر يقوم بتحويل الإشارات المستمرة التمثيلية إلى إشارات متقطعة رقمية، ويسمى هذا العنصر المبدِّل التمثيلي الرقمي analog- digital converter الذي يتيح ربط إشارات خرج أجهزة القياس بالحاسوب الرقمي بعد تبديلها .

ويوجد في منظومة التحكم الرقمي عنصرٌ آخر أو أكثر يسمى المبدل الرقمي التمثيلي digital analog - converter يقوم بالعملية العكسية، أي إنه يحول إشارات القيادة والتصحيح الرقمية الناتجة من برنامج خاص في الحاسوب إلى إشارات تمثيلية مستمرة تستطيع أن تتلقاها المنظومة المقودة التي تكون في العادة منظومة تمثيلية مستمرة، ويمكن تمثيل المنظومات المتقطعة الخطية ذات المعالم (البارامترات) الثابتة زمنياً بالعلاقة التالية :

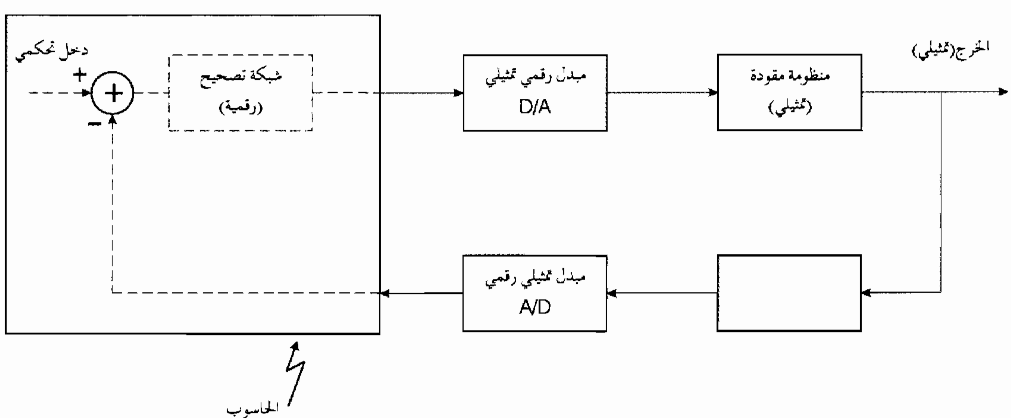
$$\sum_{j=o}^{n} a_j y[(k+T)T] = X(kT)$$

حيث المعالم a_j هي ثوابت من أجل (j...0,I...n) وحيث k ثابت يأخذ القيم ٠ , ١ , ٢ ، . . . . وT ثابت موجب، أما Y(kT) فيمثل سلسلة الخرج وX(kT) سلسلة الدخل . وتسمى المعادلات الواصفة لعمل المنظومة الرقمية أو المتقطعة بمعادلات الفرق التي يمكن تطبيق تحويل (Z) عليها بالطريقة نفسها التي يطبق فيها تحويل لابلاس (S) لحلّ المعادلات التفاضلية العادية، وليس تحويل (Z) بالحقيقة إلا تفسيراً خاصاً أو تعديلاً بسيطاً لتحويل لابلاس .



(الشكل ٤) خواص تابع تحويل عدد من العناصر اللاخطية الرئيسية

آ - واصل فاصل (بانغ - بانغ) .
ب - ذو منطقة ميتة .
ج - عنصر ذو إشباع .



(الشكل ٥) منظومة تحكم رقمية

نظريات التحكم الحديثة

هنالك عدد من العوامل التي أدت إلى تطور نظريات التحكم الحديثة، ومن هذه العوامل ضرورة التعامل مع نماذج للمنظومات أكثر واقعية وأكثر استخداماً للتقنيات الحديثة. والاتجاه السائد هو تحقيق مزيد من التحكم الأمثل وتصميم منظومات مثلى بتطوير تقنيات المجسات والدارات الرقمية والمتكاملة والمعالجات المكروية وخفض تكاليفها وتجاوز سلبيات الطرائق التقليدية ونقائصها.

والانتقال من استخدام النماذج التقريبية البسيطة السهلة إلى أكثر النماذج واقعيةً أدى إلى وجود أثرين: أولهما إمكان إدخال عدد كبير من المتحولات في النموذج المطلوب، وثانيهما ميلُ النموذج الأكثر واقعية إلى احتواء العناصر اللاخطية والمعالم (البارامترات) المتغيرة زمنياً وإلى إدخال كثير من الجوانب التي كانت تهمل سابقاً لصعوبة معالجتها بالطرائق التقليدية.

وإن الميل إلى التعامل مع منظومات أكثر تعقيداً ومؤلفة من مكونات كثيرة متفاعلة فيما بينها، والحاجة المتزايدة إلى دقة أكبر ومردود أعلى، قد أديا إلى تغير اتجاهات تحديد أداء المنظومات. وقد تبدلت التقييدات التقليدية المعروفة مثل نسبة التخطي Overshoot وزمن الركود Settling Time وحزمة المرور وغيرها إلى معايير مثلى مثل الطاقة الأصغرية والكلفة الأصغرية وزمن التشغيل الأصغري، وكذلك فإن الرغبة في جعل هذه الخواص أصغرية تستدعي عدم التغاضي عن بعض الخواص اللاخطية، وقد يتطلب الأمر في بعض الحالات، التي تستهدف جعل المنظومة مثلى، تطبيق قوانين تحكم لاخطية ومتغيرة زمنياً، حتى ولو كانت المنظومة الأساسية خطية وذات معالم (بارامترات) ثابتة زمنياً.

نظرية المنظومات باستخدام متحولات الحالة: (التمثيل المصفوفي): تدرس نظرية المنظومات الخطية (الثابتة المعالم والمحدودة البعد) المنظومات المستمرة أو المتقطعة باستعمال نماذج رياضية كما يلي: في حالة المنظومة المستمرة يكون النموذج:

$$\dot{X}(t) = FX(t) + Gu(t)$$

$$y(t) = HX(t) + Du(t)$$

حيث:

$$\dot{X} = \frac{dx}{dt}$$

وفي حالة المنظومة المتقطعة يكون النموذج:

$$X[(k+1)T] = FX(kT) + Gu(kT)$$

$$y(kT) = HX(kT) + Du(kT)$$

ويسمى هذا الترتيب بتمثيل فراغ الحالة حيث:

U(t) شعاع الدخل المؤلف من m عنصر عند اللحظة t

X(t) شعاع من فراغ الحالة ذي البعد n المسمى ببعد المنظومة

Y(t) شعاع الخرج المؤلف من p عنصر

F وG وH وD تمثل مصفوفات ذات أبعاد مناسبة تكون قيم عناصرها أعداداً حقيقية (ومستقلة عن الزمن لمنظومة ثابتة).

وإذا كان m=p=1 فيقال عن المنظومة إنها متحول وحيد monovariable والتعريفات السابقة تبقى صحيحة في منظومة متقطعة ماعدا تغير كل متحول زمني مستمر عند اللحظة t إلى آخر متقطع يكون موجوداً فقط عند لحظات محددة (KT)، حيث T الزمن بين عينتين، وK المتحول لقيم صحيحة، ويأخذ كل القيم الممكنة K=0,1,2...m ويمكن حل معادلات الحالة بالمجال الزمني بدءاً من الحالة الابتدائية $X(t_0)$ حيث:

$$X(kT) = \Phi(t - t_0)X(t_0) + \int_{t_0}^{t} \Phi(t - \tau)Gu(\tau)d\tau$$

ومن أجل $t_0 = 0$ تصبح:

$$X(t) = \Phi(t)X(0^+) + \int_{0}^{t} \Phi(t - \tau)Gu(\tau)d\tau$$

حيث $\Phi(t)$ مصفوفة الحالة العابرة المعرفة بما يلي:

$$\Phi(t) = L^{-1}\left\{[sI - F]^{-1}\right\}$$

وإذا أخذ تحويل لابلاس من أجل المنظومات المستمرة يكون:

$$X(s) = (sI - F)^{-1}[sX(0) + Gu(s)]$$

وإذا أخذ تحويل z من أجل المنظومات المتقطعة يكون:

$$X(z) = (zI - F)^{-1}[zX(0) + Gu(z)]$$

وإذا أخذت عينات منظومة مستمرة كل T ثابتة وكان الدخل ثابتاً بين لحظتي أخذ عينتين متتاليتين يكون:

$$X(kT) = F^{k}X(0) + \sum_{i=0}^{k-1} F^{k-i-1}Gu(iT)$$

التحكم الأمثل: إن إحدى نقاط الضعف الرئيسة في تصميم المنظومات باستخدام أساليب التحكم التقليدية تتعلق باعتماد هذه الأساليب كثيراً على طريقة الخطأ والصواب في حين يتعلق أسلوب التحكم الأمثل Optimal Control بالحصول على منظومة تحكم هي أفضل مايمكن بالنسبة لمعيار أداء محدد سابقاً، وذلك عن طريق قياس الأداء الفعلي للمنظومة، ويسمى هذا المعيار أو المقياس «معيار الأداء»، وتعد عملية تصميم منظومات التحكم المثلى إحدى أهم المشكلات التي تواجه مهندس التحكم في وقتنا الحاضر وأعقدها.

وقد شُرع في تطوير مفهوم التحكم الأمثل في الخمسينيات من القرن العشرين انطلاقاً من المفهوم العام لتصميم المنظومة المثلى واعتماداً على جعل معيار أداء معين معياراً أمثل لبعض الكميات والمعالم (البارامترات) المحددة سابقاً، وقد طور عدد من العلماء فيما بعد مفهوم التحكم الأمثل، فمنهم من عمل على جعل زمن الاستجابة العابرة هو الأمثل، ومنهم من جعل استهلاك الطاقة هو الأمثل (أي أقل مايمكن)، ولقد حدث تطور كبير منذ ذلك الوقت لمفهوم التحكم الأمثل، وتتعلق أهم هذه التطورات بما يسمى البرمجة الحركية ومفهوم الأعظمية.

وتتعلق المشكلة الرئيسة في نظرية التحكم الأمثل باختيار الدخل «u» لمنظومة التحكم ليكون أداء هذه المنظومة أمثل بالنسبة إلى معيار أداء محدد. أما الهدف الرئيس لنظرية التحكم فيتعلق بتصميم عناصر تحكم يمكنها التجاوب مع متطلبات عمل واسعة المجال وذلك أفضل طريقة ممكنة، ويمكن وصف هيكلية مسألة التحكم الأمثل بتحديد معيار أداء له الشكل العام التالي:

$$J = \int_{t_0}^{t} G[c(t), u(t), t]dt$$

حيث: J يمثل هنا معيار الأداء

$\dot{X} = F(x,u,t)$ تمثل حركية المنظومة المتحكم فيها

(u) تمثل التحديدات على الدخل أو على حالة المنظومة (x).

(r) تمثل إشارة المرجع أو الجواب المرغوب فيه للخرج (c).

ويقال عن التابع (G) إنه تابع الخسارة، ويمثل مقياساً للتغير الآني للأداء الأمثل، ولهذا يمكن تفسير معيار الأداء على أنه الخسارة الكلية.

وتتعلق مسألة التحكم الأمثل بتحديد دخل التحكم (u) الذي يجعل معيار الأداء أقل مايمكن، مع الأخذ بالحساب بعض التحديدات الواقعة على (u) و(x) ، وقد يكون التحكم الأمثل إما حلقة مفتوحة أو حلقة مغلقة، وتفضل طريقة الحلقة المغلقة لأن عمل التغذية الخلفية يجعل المنظومة أقل حساسية بالتغيرات الداخلية الحاصلة في المنظومة وبالتشويش الداخلي والخارجي وتستخدم فيه أحدث المعلومات المتوافرة عن الحالة الحاضرة للمنظومة المتحكم فيها.

البرمجة الحركية (الديناميكية): يعتمد مفهوم البرمجة الحركية Dynamic Programming على نظرية التحكم الأمثل وعلى النتائج الحاصلة من تطبيق هذه النظرية. ويبين مفهوم الحالة المثلى أنه مهما كانت الحالة الابتدائية للمنظومة أو القرار الأولي المطبق عليها، فإن على القرار اللاحق أن يكوّن سياسة تحكم مثلى وذلك بالنسبة إلى الحالة الناتجة من القرار الأول، وبذلك تنقسم مسألة القرار الأمثل إلى سلسلة مسائل صغيرة سهلة الحل. وتعدّ عملية القرار ذي المراحل مثالاً على المسألة التي يمكن تبسيطها كثيراً بتطبيق مفهوم البرمجة الحركية. ويمكن تبسيط مسألة عدد مراحل قراراتها (n) إلى مسائل تتطلب حل مراحل عددها (n) كل منها على حدته، أي تصبح المسألة إيجاد (n) قرار بشكل تسلسلي، وتكون البرمجة الحركية المباشرة عملياً ، طريقة حل أمثل وبشكل عكسي مع الزمن، أي نجد أولاً حل المرحلة الأخيرة للعملية ثم حلول المراحل الباقية تباعاً حتى الحصول على حل كامل.

وينتج من تطبيق مفهوم الأمثلية معادلة تفاضلية جزئية تسمى معادلة هاملتون ويؤدي حلها إلى تحقيق سياسة تحكمية أمثلية.

$$\min U(t_0)\left[G\left(c(t_0),u(t_0),r(t_0),t_0\right)+\frac{\partial S^0}{\partial c_1}c_1^0+\ldots+\frac{\partial S^0}{\partial c_n}c_n^0+\frac{\partial S^0}{\partial t_0}=0\right]$$

حيث (G) تابع الخسارة و (u) تحديدات الدخل و(r) إشارة مرجعية و(t_0) الزمن الابتدائي و(C) الخرج.

المحاكاة التمثيلية والمهجنة والرقمية: تمكن محاكاة منظومة تمثيلية بوساطة تكامل المعادلات التفاضلية للمنظومة باستخدام الحاسوب التمثيلي، وتعتمد الدارات الإلكترونية لهذا الحاسوب اعتماداً رئيساً على مايسمى بمضخم العمليات:

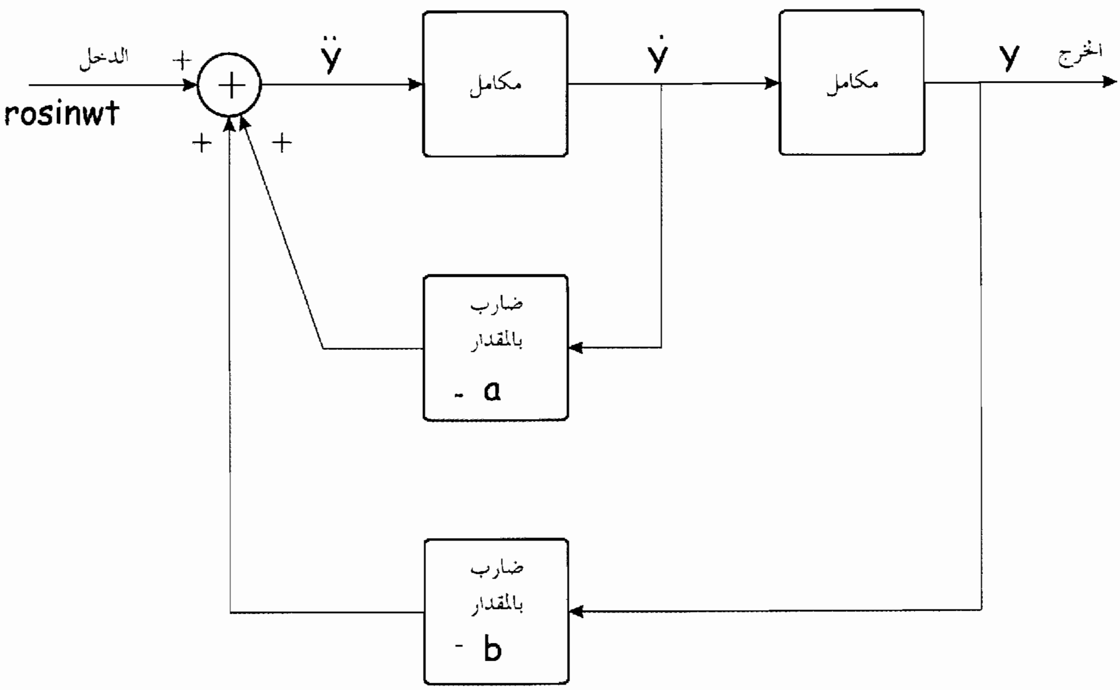
وإذا أخذنا مثالاً على ذلك محاكاة المنظومة الممثلة بالمعادلة التفاضلية التالية:

$$\ddot{y}+a\dot{y}+by=r_0\sin wt$$

حيث $r_0 \sin wt$ الدخل و y الخرج فنحصل على:

$$\ddot{y}=r_0\sin wt-a\dot{y}-by$$

ويمكن تمثيل ذلك بالمخطط الصندوقي التالي مع مراعاة قيم الشروط الابتدائية اللازمة (الشكل ٦) ويؤدي استخدام حاسوب رقمي مع الحاسوب التمثيلي إلى تكوين مايسمى بالحاسوب المهجن. وهو مفيد جداً لمحاكاة منظومات التحكم الرقمية التمثيلية حيث يتولى القسم



(الشكل ٦) محاكاة للمنظومة الممثلة بالمعادلة التفاضلية

التمثيلي من الحاسوب المهجن معالجة المتغيرات التمثيلية ويتولى القسم الرقمي منه معالجة المتغيرات الرقمية. وإذا استخدمت خوارزمية عددية لمنظومة ما على حاسوب رقمي فإنه يكون لدينا محاكاة رقمية للمنظومة.

وهنالك بعض البرامج الجاهزة المساعدة على تطوير المحاكاة الرقمية لمنظومة ما، وهذه البرامج موجهة للتطبيقات المباشرة. ويلاحظ أن العنصر الرئيس في المحاكاة الرقمية هو عنصر التأخير. فإذا أخذنا مثالاً على ذلك محاكاة المرشح الرقمي المعطى بمعادلة الفروق التالية:

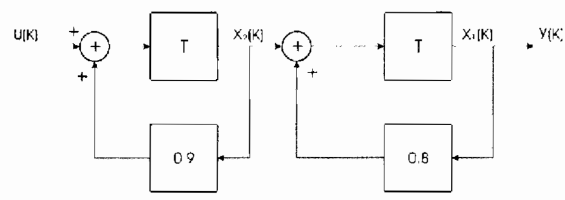
$$y(k+2) = u(k)+1.7y(k+1) - 0.72y(k)$$

حيث (u) الدخل و(y) الخرج

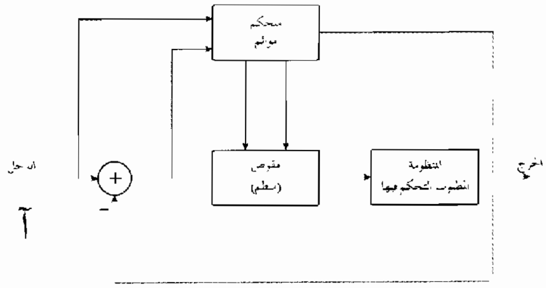
وبتطبيق تحويل z على معادلة الفرق السابقة فإننا نحصل على:

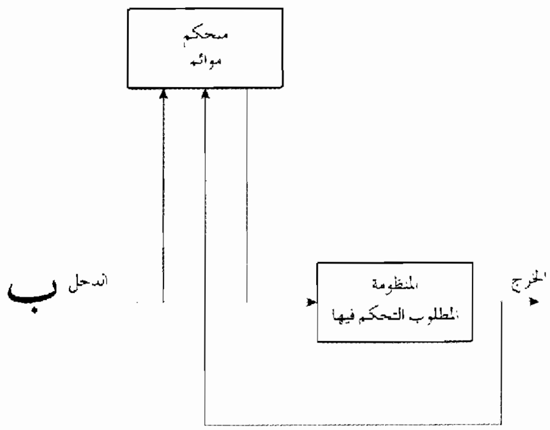
$$\frac{Y(z)}{U(z)} = \frac{1}{z^2-1.72+0.72} = \left[\frac{1}{z-0.9}\right]\left[\frac{1}{z-0.8}\right]$$

ويصبح مخطط المحاكاة، مع اعتبار التأخير، ممثلاً بالصندوق T، كما في الشكل ٧



(الشكل ٧) محاكاة رقمية للمنظومة الممثلة بمعادلة فرق





آ–طريقة تغيير إشارة التحكم
ب–طريقة تركيب إشارة التحكم

(الشكل ٨) التحكم الموائم

التحكم الموائم (التكيف)

إن نظرية التحكم الموائم Adaptive control هي محاولة لحل مسألة قيادة المنظومات ذات النماذج المجهولة أو ذات البيئة المجهولة أو القابلة للتغير بشكل غير معروف من قبل، وذلك باستخدام التقنيات الخطية لتقدير المعالم (البارامترات) وللقيادة.

ويعدّ مفهوم الأمثلية الذاتية أو التحكم الأمثل طريقة متطورة لتجاوز مشاكل التحكم التقليدي بشكل أكثر واقعية، فبدل أن ترتب المنظومات لتستطيع التجاوب مع دخول ومعالم (بارامترات) متوقعة فإنها تصمم لتستطيع ذاتياً مراقبة أدائها مراقبة مستمرة وذلك بالنسبة إلى معيار أداء معرَّف من قبل أو إلى شرط أمثل، وتهيأ لها وسيلة لتعديل معالمها الذاتية بتأثير حلقة مغلقة للوصول إلى ذلك الشرط الأمثل. وبمعنى آخر فإن المنظومة تعدل نفسها ذاتياً، ويظهر ذلك توضيحاً بالشكل ٨-آ بطريقة تغير إشارة التحكم أو بالشكل ٨-ب بطريقة تركيب إشارة التحكم.

ويمكن القول إن التحكم الأمثل يبدي أيضاً نمطاً بدائياً من أنماط التعلم وذلك من خلال تعديله الذاتي للوصول إلى هدف محدد، وهنالك بحوث كثيرة حول جانب التعلم هذا وخصوصاً الجوانب التطبيقية من نظريات التكيف حيث يتلاقى الكثير من النظريات والتقنيات الحديثة، مثل الذكاء الصنعي والتمييز النظري والفعلي والروبوتات المتطورة والحواسيب الرقمية والمهجنة ونظريات التحكم الأتماتي الرقمية والمستمرة وتقنياتها.

هادي العرفي

الموضوعات ذات الصلة:

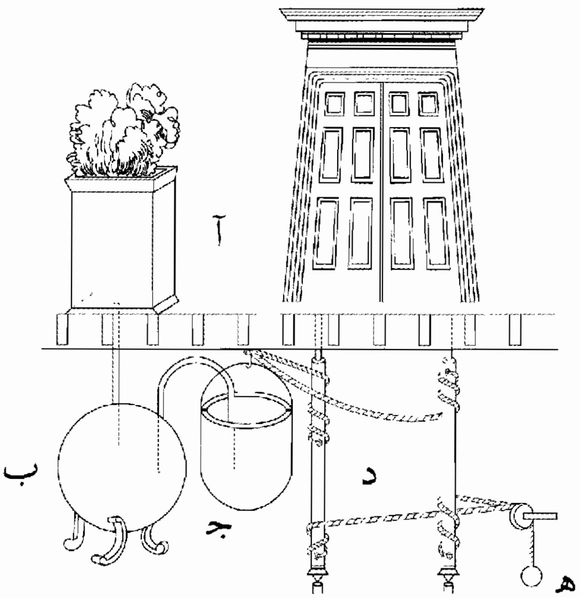
الأتمتة - الآلية المؤازرة - السيبرنية - المحاكاة.

مراجع للاستزادة:

- هادي العرفي، نظم التحكم الآلي (الكتب الجامعية بدمشق ١٩٨٣).
- W.L.BROGAN, Modern Control Theory (Quantum Series, N.Y. 1974).
- P.EMANUEL, Introduction to Feedback Control Systems (Mc Graw- Hill 1979).
- C.L.PHILIPS & H.T.NAGLE, Digital Control System: Analysis and Design (Printice- Hall 1984).

■ الأتْمَتَة

الأتمتة automatization هي إلغاء تدخل الإنسان إلغاءً كلياً أو جزئياً في تنفيذ مهمات صناعية أو منزلية أو إدارية أو علمية، من أكثرها بساطة، كتنظيم درجة الحرارة في فرن أو التحكم التسلسلي (التعاقبي) في المراحل العملية لمكنة ـ أداة، حتى أكثرها تعقداً كالتحكم بوساطة الحاسوب في وحدة كيمياوية أو كالإدارة المؤتمتة لمؤسسة مصرفية. ولقد استعملت كلمة الأتمتة منذ منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين للتعبير عن جميع العمليات التي استطاع الإنسان تسخير آلات ميكانيكية للقيام بها بدلاً عنه. واتسع استعمالها حتى غدت تعبر عن جميع عمليات الإنتاج التي يتطلب إنجازها استعمال نظريات وطرائق تحكمية متطورة بلا تدخل الإنسان تدخلاً مباشراً كما في مجالات الهندسة الكيمياوية والبتروكيمياوية والطبية وغيرها.



(الشكل-١-) طريقة هيرو لفتح باب المعبد.

لمحة تاريخية

الأتمتة هي نتاج التطور الفكري منذ القدم ولايمكن القول بأنها بدأت في وقت محدد. ذلك لأن ما أدى إلى وصول الأتمتة إلى واقعهاالمتطور الحالي هو تراكم الإسهامات في محاولة التقليل من جهد الإنسان المبذول لإنجاز الأعمال اليومية وابتكار الأدوات اللازمة لذلك أو تطوير ما كان متوافراً منها.

إن طريقة الروماني هيرو Hero لفتح باب المعبد عن بعد والموضحة في الشكل١ من أقدم المحاولات لإنجاز نظام مؤتمت وفق المعايير الحالية. إن الدخل التحكمي لهذه الطريقة هو النار التي يضرمها الراهب في شعلة المذبح «آ» ليؤدي تمدد الهواء الساخن تحت النار إلى دفع الماء من المرجل «ب» إلى الدلو «ج» . ويزداد ثقل الدلو بتزايد كمية الماء فيه فيؤدي ذلك إلى هبوطه نحو الأسفل فاتحاً باب المعبد بوساطة الحبال «د» ورافعاً الثقل المعاكس «هـ» نحو الأعلى. أما إغلاق الباب فكان يتم بإطفاء النار الذي يؤدي إلى تبريد الهواء في المرجل ومن ثم رجوع الماء إليه من الدلو مقللاً ثقله ليصبح أخف وزناً من الكتلة المعاكسة فتهبط الكتلة شادةً الحبال بالاتجاه المعاكس للحالة الأولى ومغلقةً باب المعبد.

وبعد قرون كثيرة، استطاع الأمريكي أوليفر إيفانز Oliver Evans (١٧٨٤) بناء مطحنة حبوب مؤتمتة إذ استخدم أدوات ميكانيكية لنقل الحبوب من العنبر إلى دلو المطحنة بوساطة سيور ميكانيكية لتُطحن وتُعبأ آلياً ولم يكن للإنسان من دور في هذه سوى المراقبة.

لقد كانت جميع المنظومات المؤتمتة تعتمد مبدأ التحكم ذي الدارة المفتوحة حتى ذلك التاريخ. ومع تطور المنظومات المطلوبة أتمتتها وازدياد تعقدها بدت الحاجة إلى استخدام التغذية الخلفية (الراجعة) السالبة negative feedback لما لها من مزايا في تحسين استجابة المنظومات واستقرارها. ويمكن أن تعد منظومة التحكم في سرعة المحرك التي اخترعها جيمس واط James Watt (١٧٨٨) أولى المنظومات المؤتمتة التي تستخدم نظريات التحكم ذي التغذية الخلفية. ولم يُعط برهان رياضي تحليلي يثبت صحة ما أنجزه واط واستقرار منظومته إلا في عام ١٨٦٨ على يد ماكسويل Maxwell ثم بعد ذلك أيضاً، وبصيغة أدق، على يد المهندس الروسي فيشنغرادسكي Wischnegradsky عام ١٨٧٦.

إن من أهم الإسهامات التي قدمت إلى التحكم الآلي ذي التغذية الخلفية والأتمتة هي تلك التي قدمها هازين Hazen عام ١٩٣٤ إذ طور ما يسمى بالآلية المؤازرة servomechanism.

وأنجزت في السنوات التالية بحوث كثيرة وأعمال مهمة ولكن لم يعلن عنها في حينها بسبب الحرب العالمية الثانية. أما بعد هذه الحرب فقد تسارع انتشار الأتمتة وتطورها بسبب اختراع الحاسوب وتطور التقنيات الإلكترونية واستخدامها في هذا المجال. ويعتمد معظم المنظومات المؤتمتة اليوم اعتماداً كلياً على الحاسوب وتطبيقاته.

النمذجة والمحاكاة

أدخل التطور التقني الكبير في هندسة الحاسوب وعلومه في الأعوام الأخيرة مفاهيم جديدة في الأتمتة، منها تخطيط الأتمتة قبل إنجازها إذ أصبحت أتمتة أي عملية أو منظومة تمر بمرحلتين أساسيتين هما النمذجة modeling والمحاكاة simulation قبل البدء بتنفيذ تلك المنظومة. والنمذجة هي المرحلة التي يتم فيها بناء نموذج رياضي للمنظومة المطلوبة أتمتتها يصف سلوكها الدينامي وصفاً كاملاً. ويتم إنجاز ذلك باستخدام عدة طرائق رياضية تعتمد على مبدأ حفظ مصونية الطاقة وعلى بنيتها الدينامية وطريقة ترابط العناصر المكونة لها. أما المحاكاة فتتضمن بناء منظومة مصغّرة، لها مواصفات المنظومة الأصلية نفسها المطلوبة أتمتتها وتحاكيها في السلوك. ويمكن إنجاز ذلك ببناء نموذج إلكتروني مخبري باستخدام العناصر الإلكترونية الفعالة المتوافرة أو باستخدام الحاسوب وكتابة برنامج بإحدى لغات البرمجة المعتمدة، ثم تشغيل هذا النموذج بالشروط المحيطية نفسها المطلوب تشغيل المنظومة الأصلية فيها.

والفائدة من إجراء النمذجة والمحاكاة قبل

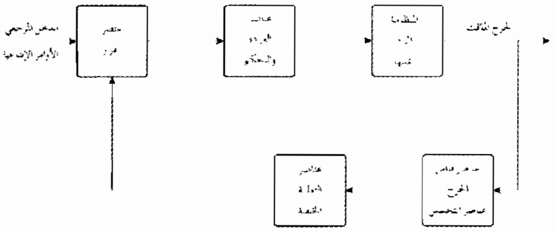
إنجاز الأتمتة هي اختصار مراحل الإنجاز، والتثبت من صحة النتيجة النهائية لعمل المنظومة. ويمكن تصحيح أي خطأ وظيفي بضبط النموذج الرياضي المستعمل وبتعديل البرنامج بلا أي كلفة إضافية، في حين إن كشف مثل هذه الأخطاء في مراحل إنجاز الأتمتة بلا استخدام هذه الطريقة يوجب تغيير بعض أجزاء المنظومة أو طريقة ربطها وهذا مكلف جداً في المنظومات المعقدة.

المبادىء العامة للأتمتة

ثمة عوامل كثيرة ساعدت في انتشار الأتمتة وإعطائها أهمية خاصة. فقد تكون شروط الإنتاج المحيطية في بعض الصناعات غير سهلة وصعبة على الإنسان فتستلزم محاولة تصميم آلات للقيام بعملية الإنتاج عوضاً عنه كما في المفاعلات النووية وأماكن صهر بعض المعادن أو بعض الصناعات الكيمياوية الخطرة. وتتطلب بعض الصناعات دقة وسرعة عاليتين في الأداء يعجز الإنسان عن القيام بهما فيتحتم استخدام آلات معقدة متطورة ومبرمجة لهذا الهدف. وهنالك بعض الصناعات التي تكون الغاية منها إنتاج أدوات معقدة ومتماثلة، وذلك يقلل من إمكانية الإنجاز بالصناعة اليدوية ويتطلب استخدام وسائل إنتاج مؤتمتة متقدمة كما في صناعات قطع غيار الآلات والسيارات والدارات (العناصر) الإلكترونية. هذه الأسباب مجتمعة تجعل الأتمتة مسألة ملحة في الوقت الراهن.

وتتطلب أتمتة أي عملية إنتاجية مراعاة عدة عوامل إضافة إلى النمذجة والمحاكاة. فبعد تحديد المنظومة المطلوبة أتمتتها لإنجاز العملية الإنتاجية بدقة يحدد الخرج output المطلوب وتحدد وسيلة قياس هذا الخرج (عناصر التحسس senors). ويجب توفير وسائل لتقرير توافق هذا الخرج المقيس مع ما هو مطلوب (وحدة قرار) ثم توفير آلية لتبديل بنية النظام لتغيير قيمة هذا الخرج (وحدة تحكم) للوصول إلى القيمة المطلوبة للخرج عبر وحدات قيادة ما، مثل المحركات أو الصمامات وغيرها. وهذا يؤدي إلى تمثيل كل منظومة مؤتمتة بمنظومة تحكم ذات دارة مغلقة كما في الشكل ٢.

فالعملية أو المنظومة المراد أتمتتها المبينة في الشكل هي المنظومة المراد التحكم فيها تحكماً كاملاً ودائماً يوفر الخرج المؤتمت من غير تدخل



(الشكل ٢) تمثيل المنظومة المؤتمتة بمنظومة تحكم ذات دارة تغذية خلفية مغلقة

الإنسان. وهي في العادة مجموعة التجهيزات الميكانيكية في مصنع ما أو هي مواد المعالجة الكيمياوية والمعالجة الحرارية في إنتاج كيمياوي ما. أما عناصر القيادة والتحكم فهي التي تضمن مصدر الحركة الذي يقود مجموعة التجهيزات الميكانيكية بوساطة حركات محددة سلفاً للقيام بالعمل المطلوب، وهي مجموعة المحركات الكهربائية أو الهيدروليكية وجميع المبدلات والصمامات الملحقة بها في أي منظومة ميكانيكية. وهي أيضاً، من جهة أخرى، مصادر الطاقة الحرارية ومصادر التحكم في تغذية المواد الكيمياوية الأولية اللازمة للإنتاج. أما عناصر قياس الخرج فهي عناصر لضمان مراقبة تغيرات الخرج، ويتم ذلك عن طريق عناصر التحسس. وهي عناصر إلكترونية تعمل على مبدأ حفظ الطاقة فتعطي على خرجها إشارات كهربائية تتناسب مع القيم المقيسة ليصار إلى استخدام هذه الإشارة الكهربائية في أغراض التحكم والأتمتة. وتمرر هذه الإشارة الكهربائية في حلقة التغذية الخلفية لمعالجتها في عناصر التغذية الخلفية التي قد تكون عناصر تناسب أو تفاضل أو تكامل في بعض المنظومات أو قد تكون منظومات جزئية معقدة في منظومات أخرى. وتقارن إشارة حلقة التغذية الخلفية في عنصر القرار مع قيم الدخل المرجعي input الذي يمثل القيم المطلوبة لمتغيرات الخرج المطلوب التحكم فيها، ويستخدم ناتج المقارنة في تسيير عناصر التأثير والتحكم وفقاً لسياسة تحكمية مقررة مسبقاً تعتمد على أسس التحكم الأمثل أو التحكم الموائم أو التحكم الموزَّع أو غيرها. وتظهر الصيغة المعطاة في الشكل السابق منظومة مؤتمتة، تندرج تحت اسم المنظومات المؤتمتة الثابتة لأنه يتعذر تغيير وظيفتها من دون استبدال معظم أجزائها. ولقد تزايد استخدام الحاسوب في مختلف مجالات التطبيقات الصناعية وفي الأتمتة أيضاً، إذ استعيض عن حلقة التغذية الخلفية وعناصر القرار بالحاسوب الذي يكتب فيه برنامج بلغة ما من لغات البرمجة لتحقيق الفلسفة التحكمية المطلوبة. ولقد أعطى إدخال الحاسوب في الأتمتة مرونة عالية للمنظومات المؤتمتة، إذ إن تغيير السياسة الإنتاجية لن يتطلب تغيير أجزاء المنظومة بل يتطلب فقط تغيير البرنامج المخزون ضمن الحاسوب بلا أي تغيرات بنيوية إضافية.

تطبيقات الأتمتة في الصناعة

شهد العالم في السنوات الأخيرة دخول الأتمتة معظم مجالات الإنتاج الصناعي والإدارة. وفيما يلي بعض هذه التطبيقات:

الأتمتة في صناعة السيارات: تطورت صناعة السيارات تطوراً مهماً وانعكس ذلك على تعقيد السيارات المنتجة وغلاء أسعارها. ونتيجة لطبيعة العمل التكرارية في هذه الصناعة لجأت بعض الشركات إلى أتمتة معامل إنتاجها باستخدام وحدات نقل مؤتمتة و«روبوتات» (إنسان آلي) ذكية تقاد بوساطة حواسيب متقدمة ومزودة بعدد من عناصر التحسس المختلفة للتأكد من صحة العمل المطلوب ودقته. وتبرمج حركة هذه «الروبوتات» بقيادتها يدوياً مرة واحدة عبر مسار محدد، ويختزن الحاسوب في ذاكرته المواقع النسبية لجميع مكونات «الروبوت» ويجبر الحاسوب «الروبوت» على تكرار هذه الحركات في عمليات الإنتاج بتنفيذ البرنامج الذي اختُزن.

يتألف خط الإنتاج المؤتمت من محطات كثيرة قد يصل عددها إلى المئات ويمر فيها سير نقـ ـال، وهذه المحطات هي «روبوتات» تقوم بوظائف مختلفة، منها ما هو مسؤول عن ترتيب القطع المراد تجميعها ويكون مزوداً بكاميرات تلفزيونية تمكنه من تعرّف القطع ووصفها وصفاً صحيحاً مستخدماً خوارزميات برمجية معقدة،

ومنها ما يناط به مهمة لحم القطع نقطياً ومن ثم اختبار جودة هذا اللحم باستخدام تقنيات ليزرية وغيرها، ومنها ما هو مسؤول عن دهن السيارة باستخدام نافثات الدهان المؤتمتة (جزء من الروبوت)، ومنها ما يكون مسؤولاً عن شد اللوالب الرابطة شداً دقيقاً. ويكون دور الإنسان التأكد من صحة العمل في نهاية خط الإنتاج. ويقوم الحاسوب أو مجموعة الحواسيب بالإشارة إلى أي خطأ يرتكب في الإنجاز بإعطاء إشارات مناسبة أو كتابة رسالة على ورق الطابعة الملحقة.

الأتمتة في توليد الطاقة الكهربائية وتوزيعها:

لقد ازداد عدد محطات التوليد الكهربائية في معظم البلدان. واختلفت كثيراً في أنواعها. ويراوح الطلب المتزايد للطاقة بين ٣ و٤ بالمئة سنوياً في الدول المتقدمة وبين ٧ و١٢ بالمئة سنوياً في الدول النامية. وازدادت المسألة تعقيداً أمام الحاجة إلى ربط مولدات الطاقة جميعها على اختلاف ضخامتها وأنواعها (مائية، بخارية، نووية) في شبكة واحدة وتوفير التزامن اللازم بينها لضمان نقل الطاقة وتوزيعها توزيعاً جيداً.

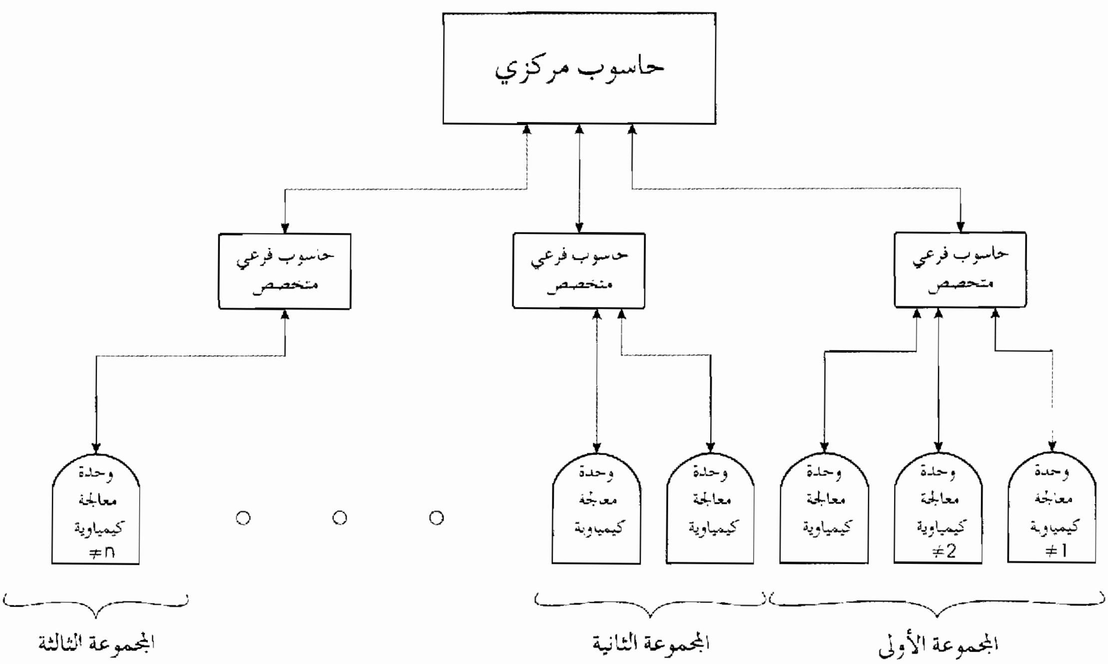
ولهذا كان إيجاد منظومات مؤتمتة تضمن توليد الطاقة الكهربائية ونقلها وتوزيعها من دون انقطاع أمراً ملحاً.

ويعد بدء الإقلاع في مولدات الطاقة الكهربائية العالية الاستطاعة (ميغاواط)، ومدد توقف هذه المولدات، مراحل حرجة يجب أن يراقب فيها أداء كل مولد على حدة مراقبة جيدة من حيث السرعة والتردد والتحريض والتوتر وفرق الطور، إذ يجب أن يتم وصل المولد مع شبكة التوزيع الكهربائية أو فصله عنها بدقة عالية من التوافق والتزامن لتكون الطاقة الكهربائية المولدة متفقة في الطور مع التي في الشبكة وإلا فسيجهد المولد والشبكة. ويتطلب تحقيق هذا التوافق في الطور مراقبة عدد كبير من المتغيرات في أثناء زمني الإقلاع والتوقف مراقبةً يعجز الإنسان عن القيام بها يدوياً وتصبح الأتمتة أمراً ضرورياً. فمثلاً يبلغ عدد المتغيرات التي يراقبها تحكم مؤتمت في محطة كهربائية ذات عنفة بخارية باستطاعة ٣٠٠ ميغاواط ٦٠٠ متغير (دخل) مثل درجات الحرارة والضغط وسرعة الدوران وأوضاع المفاتيح وغيرها. وفي محطة توليد نووية يتضاعف عدد هذه المتغيرات لتصبح الحاجة إلى نظام مؤتمت متكامل ومحوسب، يؤلف باستخدام برنامج مناسب منظومة خبيرة expert system، ضرورة لاغنى عنها. وتتم مراقبة جميع العمليات المؤتمتة من مركز التحكم الرئيسي الموجود في كل محطة.

ودور الأتمتة في توليد الطاقة الكهربائية ونقلها أساسي نتيجة لتعدد محطات التوليد وتنوعها وتباعدها في البلد الواحد وبين عدة دول مرتبطة بشبكات من خطوط التوتر العالي جداً. ولهذا تعتمد جميع الدول على مراكز تنسيق وترحيل dispatching centers محوسبة وموزعة في مواقع محددة تحقق مايلي:

- السيطرة على توزّع الأحمال load flow من الناحية الاقتصادية والفنية بالاعتماد على تشغيل المحطات الأقل كلفة.
- ضمان الاستقرار الديناميّ في حال حدوث عطل في أحد الخطوط أو إحدى المحطات.
- تنظيم التوتر على قضبان التجمع bass bar في محطات التوليد ومراكز الاستهلاك عن طريق التحكم في نسب تحويل المحولات وتوليد الاستطاعة الردّية reactive power.

الأتمتة في الصناعات الكيمياوية: تتطلب معظم الصناعات الكيمياوية دقة في المعايرة والقياس. وأي خطأ يرتكب في المعالجة يكون مكلفاً جداً. ويتطلب بعضها أيضاً شروطاً محيطية (من حرارة أو وسائط تفاعل أو مواد وسيطة خطرة أو غيرها) تجعل وجود الإنسان



(الشكل ٣) مخطط صندوقي لمنظومة بتروكيماوية مؤتمتة باستخدام عدة حواسيب

في مكان التفاعل أمراً فيه خطر كبير على سلامته. ولهذا كان من الضروري أتمتة معظم الصناعات الكيمياوية باستخدام «روبوتات» وحواسيب وأجهزة مناولة مختلفة، كما في صناعة الأسمدة وصناعة المتفجرات والصناعات البتروكيمياوية.

وتتألف أي منظومة بتروكيمياوية متقدمة من عدة وحدات للمعالجة بغية إنتاج أكثر من ٢٠ نوعاً من المنتجات البتروكيمياوية. وتقسم هذه الوحدات إلى مجموعات تخصصية يُسيّر كلاً منها حاسوب يراقب سويات الإنذار وتوصيفها لأكثر من ٢٠٠٠ متغير من محددات الإنتاج مثل التدفق والضغط ودرجة الحرارة والكثافة ومستوى السائل والتركيب الكيمياوي وغيرها ويتحكم فيها. ويتم ذلك دورياً وفي أزمان قصيرة نسبياً (بضع ثوان). ويبين الشكل ٣ مخططاً صندوقياً يظهر منظومة بتروكيمياوية نموذجية. ويشرف على عمل جميع هذه الحواسيب المتخصصة ومراقبتها حاسوب مركزي تكون الغاية منه جعل إنتاجية كل وحدة كيمياوية أعظمية كماً ونوعاً، ويستطيع إصدار الأوامر إلى جميع الحواسيب المتخصصة لتغيير مواصفات المنظومة لمواجهة أي حالة طارئة بإصدار إشارات الإنذار لعناصر المراقبة والتنسيق.

الأتمتة في الطيران والفضاء: إن ما يشاهد الآن من تطور كبير في الطيران وغزو الفضاء الخارجي هو نتيجة مباشرة لتطبيقات الأتمتة في تصميم المركبات الفضائية وعملها ووسائل الاتصال بها من مراكز الاتصال والمراقبة إلى محطات الإقلاع والهبوط. فالتحكم في طائرة بسيطة يتطلب عمليات معقدة من قياس ومراقبة وتغذية خلفية وغيرها. وقد يبلغ عدد هذه المتغيرات عدة آلاف في الصواريخ العابرة للقارات أو المحطات الفضائية، ويستحيل في هذه الحال تحقيق أي تحكم يدوي نظراً إلى متطلبات السرعة والدقة وضخامة العمليات الحسابية المطلوبة ولم يكن ممكناً برمجة مسار الطائرات أو قيادتها آلياً لولا تطور استخدام الحاسوب والأتمتة.

الأتمتة في مجالات أخرى: تستخدم الأتمتة أيضاً في إدارة الأعمال وصناعة الإسمنت ومختلف الصناعات النسيجية والصناعات الإلكترونية وفي شبكات المرور وفي القطارات وقطارات الأنفاق وفي غيرها.

الأتمتة والمجتمع

تؤدي الأتمتة، كما هي الحال في أي تطور رئيسي في التقنية إلى تبدلات اقتصادية واجتماعية مهمة. وقد يكون بعض هذه التبدلات مقبولاً وقد يكون بعضها الآخر غير مرغوب فيه.

تؤدي الأتمتة إلى رفع إنتاجية اليد العاملة في المصانع، نتيجة إحلال المناولة الآلية محل المناولة الإنسانية، إذ تخفض مدة الدورة التصنيعية لحذفها وقتاً كثيراً غير إنتاجي في العملية التصنيعية، كان يصرف من قبل في عملية المناولة، وتخفض تعب الإنسان في الرفع والمناولة أو تحذفه كلياً وتخفض الوقت الضائع من عمل العامل والآلة إلى أدنى حد ممكن لإلغائها التوقفات والتسليمات غير الميكانيكية.

ويمكن أن تحرر الأتمتة الصناعة من الاعتماد على المناطق التي تتوافر فيها اليد العاملة بأعداد كبيرة، وتتيح بناء مصانع صغيرة، أكثر لامركزية، تكون على العموم أقرب إلى الأسواق والمواد الأولية.

محاذير الأتمتة

إن للأتمتة مساوئها أيضاً، فهي تتطلب استثماراً كبيراً في التجهيزات يستلزم مدة طويلة من الاستعمال المكثف لاسترداد الأموال المستثمرة. وباستثناء البرامج القابلة للاختيار، قد يكون هناك عدم مرونة في التصنيع، إذ تجمد تصاميم الإنتاج مدداً طويلة. وهذا النقص في المرونة في التصنيع قد يكون خطراً في صناعة يكون التغيير فيها سريعاً أو غير قابل للتنبؤ به. ولاتستطيع الإدارة في أثناء ركود الأعمال أو في المدد التي ينخفض فيها حجم الإنتاج، أن توقف خط إنتاج مؤتمت وتستخدمه فوراً في عمل آخر. ويمكن أن يؤدي الأمر إلى خسارات مالية كبيرة. ويميل اعتماد بعض التجهيزات على بعضها الآخر اعتماداً متداخلاً إلى جعل المنظومة معتمدة على أضعف عنصر فيها، ويكون إخفاق التجهيزات إخفاقاً تراكمياً، إذ إن إخفاقاً واحداً يمكن أن يوقف خط الإنتاج كله. وتميل تكاليف صيانة الأدوات وتبديلها إلى الارتفاع، لأن الأدوات كلها يجب أن تفكك في آن واحد لأغراض معينة في مدد منتظمة سواء أكانت هذه الأدوات بحاجة إلى ذلك أم لم تكن (صيانة وقائية).

والسيئة الكبرى التي تسببها عملية إدخال الأتمتة بسرعة من الناحية الاجتماعية هي البطالة، إذ إن الأتمتة تحذف أعمالاً عدة وبالتالي يفقد عدد كبير من العمال أعمالهم السابقة. وإلى أن تحدث أعمال جديدة لليد العاملة التي فقدت أعمالها السابقة وإلى أن تطور هذه اليد العاملة مهارتها لتتوافق مع الأعمال الجديدة، يعاني العمال الذين فقدوا أعمالهم نتيجة إدخال الأتمتة معاناة كبيرة. ولذلك لاينصح بإدخال الأتمتة إلا تدريجياً وببطء، وعندما يوجد نقص في اليد العاملة اللازمة.

ويعاني العالم الثالث، في بعض بلدانه وليس فيها كلها، فائضاً في اليد العاملة وشحاً في رأس المال اللازم للاستثمار في التجهيزات. وتختلف درجة هذه المعاناة بين بلد وآخر إذ تكون شديدة في بعض البلدان وقليلة في بعضها الآخر، ومع ذلك يظل النقاش دائراً حول عملية إدخال الأتمتة في بلدان العالم الثالث التي تشكو من وجود فائض في اليد العاملة عاطل عن العمل، فيرى بعضهم ضرورة إدخال الأتمتة لأن تكاليف الإنتاج في الصناعة المؤتمتة تكون أقل بكثير من تكاليف الإنتاج في الصناعة غير المؤتمتة، وبالتالي يمكن للبلد ذي الصناعة المؤتمتة أن ينتج سلعه بتكلفة مقبولة وأن يزاحم بإنتاجه في الأسواق العالمية عندما يتوافر لديه فائض عن حاجات الاستهلاك المحلي. ويرى بعضهم الآخر عدم إدخال الأتمتة لوجود فائض كبير من اليد العاملة يزداد تعرضه للبطالة عند إدخال الأتمتة ويحتاج إلى مدة طويلة لتطوير مهاراته بحسب الأعمال الجديدة إضافة إلى أن توافر الأعمال الجديدة يحتاج إلى وقت طويل.

فيصل العباس، أكرم شقرة

الموضوعات ذات الصلة:

الأتماتية ـ الآلية المؤازرة ـ الحاسوب ـ الروبوتية ـ المحاكاة.

مراجع للاستزادة:

ـ أكرم شقرة، التنظيم الصناعي وإدارة الإنتاج (جامعة دمشق، مطبعة طربين، دمشق ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦).

- C.H.HOUPIS & G.B.LAMANT, Digital Control Systems (Mc Graw - Hill 1985).
- J.J. DAZZO & C.H. HOUPIS. Linear Control System : Analysis and Design (Mc Graw - Hill).

■ الإتنولوجية

الإتنولوجية ethnology هي العلم الذي يدرس الأجناس والسلالات البشرية في نشأتها وخصائصها المميزة ونموها وتطورها والعوامل التي خضعت لها في هذا التميّز. ويهتم هذا العلم كذلك بدراسة الفروض والنظريات التي وضعت لتصنيف الشعوب على أساس الخصائص والمميزات السلالية والثقافية، وبيان مدى إمكان ردّ الإنسانية إلى جنس واحد أو أكثر، ومايثار من جدل حول الجنس الأمثل، والفروق العنصرية وأثرها في التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي. وقد يقتصر هذا العلم على دراسة الشعوب والثقافات، وتاريخ حياة الجماعات من دون النظر إلى مدى تطورها وتقدمها. وقد عرفت الإتنولوجية كذلك بأنها علم تصنيف الشعوب على أساس خصائصها ومميزاتها السلالية والثقافية، وتفسير توزعها في الماضي والحاضر نتيجة لتحركها واختلاطها وانتشار الثقافات.

وتستفيد الإتنولوجية عملياً من البيانات التي تزودها بها الإتنوغرافية، ويقوم الباحث الإتنولوجي بعد ذلك بتصنيف الحضارات إلى مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة، وبتحليلها واستخلاص المبادىء منها، ليعمد، بعد تحديد موضع دراسته، إلى إقامة الفروض والنظريات التي تتعلق بطبيعة التصرفات الإنسانية، والنماذج الحضارية ووظائفها، ووضع الطرائق والوسائل لمعرفة صحتها. وعلى هذا فالإتنولوجية تهتم بتحليل معطيات المجتمع المحلي في ضوء النظريات المختلفة، وبإقامة مقارنات بين المجتمعات والأنماط الحضارية، إذ يرمي الإتنولوجي إلى الوصول إلى قوانين عامة للعادات الإنسانية وظاهرة التغير الحضاري، وآثار الاتصال بين الحضارات المختلفة.

ويدخل في الإتنولوجية عدد كبير من التخصصات كدراسة الأساطير والآداب الشعبية والموسيقى واللغات والرقص ونظم القرابة والأسرة في المجتمعات البدائية، بالإضافة إلى البحث في الأنشطة الاقتصادية لتلك المجتمعات وأنظمتها الحكومية والقانونية والدينية.

وتقوم الإتنولوجية بدراسة كل حضارة يمتاز بها مجتمع ما من غيره، فتبحث في النظم السياسية والاقتصادية والدين والتقاليد والفنون الشعبية وفروع المعرفة والفنون الصناعية والمثل العلياوالفلسفات، أي إنها تبحث عن كل ما يتعلق بهذا المجتمع من مسائل حضارية.

وقد اعتمدت الأصول الأولى للإتنولوجية في المستويين النظري والمنهجي، على الوصف والتحليل في دراسة ما خلفته الشعوب القديمة من حكايات شعبية وأساطير معقدة وذلك بقصد استنباط أنماط من الإنجازات الحضارية المهمة التي تشكل منعطفات في تاريخ تطور الإنسان، كاكتشاف النار واختراع بعض الأدوات والفنون المفيدة أو صنعها، أو البدايات الأولى للتقنيات المختلفة المستخدمة في إنتاج الطعام.

ومنذ عصر الاكتشافات الكبرى في القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً بدأت تتراكم كمية من المعلومات تجمعت على يد الرحالة والمبشرين والجنود، امتزج فيها الوصف بالتراث الشعبي وحكايات العجائز والمسنين، إذ كتب المؤرخون عن خبراتهم الشخصية وعن الأقاصيص والأساطير التي صادفوها أو سمعوها في رحلاتهم. وهكذا فإن مصادر المعلومات كانت مبنية على التحليلات الصورية وما تتناقله الأفكار والألسن، لهذا تعرضت جوانب كثيرة من هذه المعلومات للتشويه، ذلك أن معظم الرحالة كانوا ينظرون إلى الشعوب والحضارات الأجنبية من منظار ميولهم الثقافية المتعصبة.

الإتنولوجية والإتنوغرافية

يتضح الارتباط الوثيق بين الإتنولوجية والإتنوغرافية من التركيب اللغوي لكل منهما، فالمعنى اللفظي لاصطلاح الإتنوغرافية يتحدد بالكتابة عن الأجناس، إذ تعني كلمة «أتنو» الجنس، وكلمة «غرافية» الكتابة. أما الدراسة في الإتنوغرافية فتقتصر على الناحية الوصفية للحضارات، وتكون مهمة الباحث الإتنوغرافي جمع البيانات من دون تقديم تفسير أو تحليل لها، أي إنها تنصب على وصف حضارة ما من دون أي تعليق عليها.

وجاء في معجم العلوم الاجتماعية أن الإتنوغرافية تعني «وصف الشعوب» فهي الدراسة الوصفية للمجتمعات الإنسانية، ولاسيما المجتمعات البدائية، أو التي لاتزال في مراحل متأخرة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وفكرياً. وتُعنى كذلك بجمع المعلومات وشرحها بطريقة وصفية أكثر مما تعنى بتحليلها واستخلاص بعض الفروض والنظريات منها. إلا أن الإتنوغرافية استطاعت في منتصف القرن التاسع عشر أن تغذي الأنتروبولوجية بأبحاث نظرية.

وقد قام العرب بدراسات إتنوغرافية منذ عهد بعيد، واشتهر رحالتهم بالكشف عن معالم مجتمعات مختلفة، وفي مقدمتهم المسعودي (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٦م) في كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وابن حوقل (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠ م) صاحب كتاب «صورة الأرض» والمقدسي (ت٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) صاحب كتاب «أحسن التقاسيم» والإدريسي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥ م) صاحب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) صاحب «تحفة الأنظار في عجائب الأسفار». وتوسع الرحالة الأوربيون في دراساتهم فيما بعد ولاسيما بعد الكشف عن العالم الجديد.

تبدأ الدراسات الإتنوغرافية بوصف البيئة المادية للمجتمع المحلي موضع الدراسة، فتصف مكان المجتمع والمسكن والملابس والأدوات، ثم ينتقل الباحث إلى وصف القطاع الاجتماعي لثقافة هذا المجتمع الذي يتضمن النظم الاجتماعية المختلفة فيه، وأهمها النظم الاقتصادية والسياسية والدينية والتربوية وأواصر القرابة والزواج، وقواعد الضبط الاجتماعي، والتنشئة الاجتماعية، وينتقل الباحث أخيراً إلى وصف القطاع الفكري والرمزي لثقافة المجتمع، وهنا يهتم بوصف لغة المجتمع وفنونه وقيمه.

إلا أن الدراسات الإتنوغرافية الفردية تختلف في تصنيف الموضوعات التفصيلية وترتيبها. وهكذا تتصف الإتنوغرافية بالعرض الشامل للمجتمع المحلي موضوع الدراسة، وبغلبة أسلوب الوصف وتقرير الوقائع كما هي، وتتصف بفردية البحث إذ لايتم البحث الإتنوغرافي إلا عن المجتمعات المحلية الصغيرة الحجم.

الإتنولوجية وعلم الآثار

يدرس علم الآثار ماضي الإنسان، ويبحث في الحضارات القديمة، والمراحل البعيدة للمدنيات الغابرة، ويرمي إلى تحديد التغير الحضاري وتتابعه على مر العصور، ويهدف كذلك إلى إعادة بناء الحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ. وهناك اختلاف كبير بين طبيعة دراسة كل من التاريخ وعلم الآثار فعالم التاريخ يدرس الأزمنة المسجلة كتابة للمدنيات الكبرى، والحوادث الماضية المؤرخة،

إذ يعتمد، إلى حد كبير، على الوثائق والمخطوطات وغيرها من الوسائل التي تنقل أحداث التاريخ بمنتهى الدقة والتحديد، في حين يهتم الإتنولوجي وعالم الآثار بالحقب والمراحل التاريخية الطويلة التي قضاها الإنسان قبل معرفة القراءة والكتابة. فإذا كانت الكتابة قد اخترعت منذ نحو ٥ آلاف عام فإن أول حضارة إنسانية يرجع تاريخها إلى نحو مليون عام، هذا بالإضافة إلى أن الكتابة لم تكن من نصيب جميع الشعوب، حتى إن بعض المجتمعات المعاصرة لاتعرف الكتابة حتى الآن. فالإتنولوجي، وإن كان يستخدم الوثائق المكتوبة للحضارات الماضية، يعتمد اعتماداً رئيسياً على بقايا الحضارات التي خلفها الإنسان، إذ ينصب اهتمامه حول الآثار ليرسم صورة أقرب ما تكون إلى الأصل المنقرض وإن لم تطابقه، وذلك باستخدام أساليب دقيقة في القياس ليصل إلى أكبر قدر ممكن من الدقة والتحديد في القياس الزمني.

وقد توصل العلماء إلى أساليب دقيقة لحفر طبقات الأرض التي يحتمل وجود بقايا حضارية فيها، كما اهتدوا إلى طرائق دقيقة لفحص تلك البقايا وتسجيلها، وتحديد المواقع التي توجد فيها وتصنيفها لتعرّفها ومقارنتها بعضها ببعض، ويستطيع العلماء بوساطة تلك الطرائق استنتاج الكثير من المعلومات عن الحضارات القديمة وتغيراتها واتصالاتها بغيرها.

ويتعاون علماء الآثار مع الإتنولوجيين والأنتروبولوجيين والمؤرخين في أبحاثهم، ويستفيدون كذلك من أبحاث علماء الجيولوجية والنبات والحيوان والمناخ ودراساتهم في تاريخ هوية البقايا التي يكتشفونها وتحقيقها، وأكثر ما يتعاون علماء الآثار مع علماء الأنتروبولوجية الطبيعية وذلك لكثرة وجود الحفريات الإنسانية مع البقايا الحضارية.

الإتنولوجية وعلم اللغات

يهتم علم اللغات بلغات المجتمعات المدروسة من حيث أصولها وتطويرها وتركيبها، ويختلف الإتنولوجي عن دارس اللغات لمجرد معرفتها، أو عن دارس الأدب الذي يهتم بالأعمال الأدبية، أو عن الفقيه اللغوي الذي ينظر إلى اللغة وسيلةً لفهم أدق معالم التاريخ من الناحية الأدبية. فالإتنولوجي يرمي إلى الكشف عن الأصول التاريخية لنشأة اللغة عموماً والمجموعات المتشابهة فيها على وجه الخصوص، ويقارن اللغات بعضها ببعض ليحدد الظواهر اللغوية الشائعة بينها على وجه العموم، وفي ضوء ذلك يتمكن من فهم العمليات والظروف التي أدت إلى نشأة اللغات وتطويرها واختلافها. وكذلك يسجل لغات المجتمعات البدائية ليحيلها إلى لغات مكتوبة تخضع للتحليل اللفظي ومن ثم يستخرج مضمونها الحضاري. والإتنولوجي لايربك نفسه بالمشكلات اللغوية البحتة، إذ إن العلاقة بين لغة القوم وحضارتهم تلقى منه اهتماماً بالغاً ومثال ذلك العلاقة بين اللهجة والمرتبة الاجتماعية. وكذلك يهتم أيضاً بدراسة بعض العبارات والمقاطع التي يقتصر استعمالها على الطقوس والشعائر فقط، ويجري مقارنة بين التغيير الاجتماعي الحاصل لحضارة مجتمع ما، ومايتعكس من تغير موازٍ على مفردات لغة هذا المجتمع. ويركز الإتنولوجي اهتمامه في الكشف عن كيفية نقل اللغة من جيل إلى جيل، وكيف أن مثل عمليات التوريث اللغوي هذه تنقل معها بالتالي عقائد المجتمع وتقاليده وأعرافه. وبعبارة أخرى فإن الإتنولوجي اللغوي ينظر أساساً إلى الدور المهم الذي تقوم به اللغة في المجتمعات الإنسانية، والعلاقات الوثيقة القائمة بين لغة مجتمع من المجتمعات الإنسانية وحضارته.

وبهذا تعدّ اللغة من أهم عناصر الحضارة، والتبادل بينهما وُاضح. وينقسم علم اللغات إلى قسمين أساسيين يتمثلان بما يلي:

علم اللغات الوصفي: ويهتم بتحليل اللغات في زمن محدد، ويدرس النظم الصوتية، وقواعد اللغة والمفردات. ويعتمد الإتنولوجي اللغوي في دراسته على اللغة الكلامية، ولذلك يستمع إلى المواطنين، لأن معظم أبحاثه تتعلق بلغات كلامية لم تكتب بعد، فيقوم بكتابة تلك اللغات، عن طريق استخدام رموز دولية متعارف عليها. وتتركز معظم هذه الدراسات في المجتمعات البدائية، التي لم تعرف القراءة والكتابة، ولكن لها لغة كلامية خاصة بها، إذ لايوجد مجتمع إنساني مهما تخلفت حضارته من دون لغة كلامية.

علم أصول اللغات: ويختص بالجانب التاريخي والمقارن، إذ يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التي يمكن متابعة تاريخها عن طريق مكتوبة.

وتتعقد المشكلة هنا في حال اللغات القديمة التي لم تترك وثائق مكتوبة، إلا أن هناك وسائل خاصة لبحث تاريخ اللغات، وتحديد أصولها الإنسانية.

ومن الواضح أن العلاقة متينة بين علم اللغة والإتنولوجية الحضارية، وذلك لأن عليهما دراسة لغة المجتمع الذي يبحثانه، ولايتم ذلك إلا عن طريق دراسة مبادىء علم اللغات.

ولعلم اللغات أقسام مستقلة في الجامعات، ويعود السبب في ذلك إلى إمكان دراسة اللغة وتحليل عناصرها دراسة مستقلة عن بقية عناصر الحضارة، ويقوم المتخصصون في تلك الأقسام بتدريس طلبة أقسام الأنتروبولوجية والإتنولوجية مادة اللغات وفروعها.

وقد تقدم علم اللغات في العصر الحاضر ويستخدم الآن طرائق ومناهج وأدوات دقيقة في دراسة لغات العالم، وتوصل إلى قوانين عامة دقيقة.

الإتنولوجية والأنتروبولوجية

يتحدد الارتباط الوثيق بين الإتنولوجية والأنتروبولوجية بقيامهما بدراسة حضارة الإنسان وتمايزها، والطرائق التي يستجيب بها الإنسان إلى ذلك التمايز، والعناصر التي تكوّن الحضارة، والعوامل التي تدفع إلى انتشارها من مجتمع إلى آخر، وانتقالها من جيل إلى جيل في المجتمع الواحد. ويؤلف مجال الأنتروبولوجية الحضارية المحور الثالث لميدان الأنتروبولوجية إلى جانب كل من الأنتروبولوجية الطبيعية والأنتروبولوجية الاجتماعية، ويتوجه نحو دراسة العناصر التي تكوّن مضمون الحضارة بغية تعرف أصولها ومراحل تطورها. فإذا كانت الأنتروبولوجية الطبيعية تبحث في علم أصل الإنسان وارتقائه وانتظامه في سلالات، وكانت الأنتروبولوجية الاجتماعية تبحث في تطور الأنساق الاجتماعية وتباينها والعوامل التي تدفع إلى تكوين البناء الاجتماعي، فإن الأنتروبولوجية الحضارية تبحث في أسس تكوين الحضارات، وهو ماتشترك فيه مع الإتنولوجية بقاعدة عريضة ويكوّن ذلك القاسم الأعظم لاهتماماتهما.

إن الإنسان كما هو معلوم يكتسب قدراته عن طريق التعلّم والتدرب وما يختزنه من تراث ينتقل عبر الأجيال، فتولد معارف عامة يستخدمها في علاقاته مع البيئة المادية ومع أخيه

الإنسان. وتتمايز الحضارة الإنسانية من مجتمع إلى آخر، كما أنها تتصف بتجديد العلاقات الاجتماعية وتبدل الظروف الاقتصادية والاجتماعية، وقد أعطى هذا التنوع مادة لعلماء الأنثروبولوجية الحضارية والإتنولوجية ليبحثوا في أسس تكوين الحضارات، وأنماط توزعها، وأسلوب انتشارها والعوامل التي تؤدي إلى انتقالها من جيل إلى آخر، والعناصر العامة التي تكوّن مضمون الحضارة، والرموز التي يستخدمها الإنسان في التعبير عنها. ويؤكد العلماء أهمية ذلك التمييز وأثره في سلوك الإنسان، فالحضارة تضغط باتجاه التمايز بين المجتمعات من جهة والتصاق سلوك الأفراد برموز الحضارة ومعانيها من جهة أخرى.

محمد صفوح الأخرس

مراجع للاستزادة:

- محمد جوهري، الأنثروبولوجية أسس نظرية وتطبيقية عملية (سلسلة علم الاجتماع المعاصر، الكتاب الثالث والثلاثون، الطبعة الأولى ١٩٨٠).

الموضوعات ذات الصلة:

الانثربولوجية - الآثار (علم -).

■ الإتنولوجية النباتية

الإتنولوجية النباتية ethnobotany علمٌ يدرس خبرةَ شعبٍ من الشعوب في نطاق النباتات، وهي مجموعة المعارف والتقاليد والمعتقدات المرتبطة بالعالَم النباتي. ويرتبط علم الإتنولوجية النباتية بعلم الإتنولوجية الحيوانية ليؤلفا علماً واحداً يعرف بالإتنوبيولوجية، وهي تعالج خبرات الشعوب وتقاليدها وعاداتها في التعامل مع وسطها، من جماد ونبات وحيوان. (والكلمة اليونانية «Ethnos» تعني الأمّة أو الشعب).

التطور التاريخي لمفهوم علم الإتنولوجية النباتية

يمكن إيجاز التطور التاريخي لمفهوم علم الإتنولوجية النباتية في ست حقب هي: التاريخ القديم - العصر الروماني - العصر الإسلامي - العصر الأندلسي - مطلع القرن الثامن عشر ثم القرن العشرين.

١- الإتنولوجية النباتية في التاريخ القديم:

تتلخص أفكار علم الإتنولوجية النباتية في التاريخ القديم بوجود ارتباط وثيق بين الإنسان والطبيعة. ففي هذه المرحلة الطويلة التي امتدت ١٠ آلاف سنة ونيفاً، كان هذا الارتباط واضحاً في مفاهيم الحضارات القديمة، كالسومرية والكنعانية واليونانية والرومانية. ففيما يتصل بالحضارة السومرية في جنوب الرافدين - ما بين النهرين - وجدتْ قوائم خاصة باستعمال النبات والحيوان، كشفها الأب شيل Schell، بعد دراسته الرُّقم (الألواح الطينية) الأثرية التي عُثر عليها في مدينة لارسا Larsa السومرية، ويرجع تاريخها إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وقد صُنِّفَتْ تلك الكائنات تصنيفاً نفعياً، فقُسِّم عالم الحيوان إلى أسماك ومفصليات وأفاعٍ وطيور وذوات أربع. كما قسِّم عالم النبات إلى أشجار وبقول وبهارات وعقاقير وحبوب. وجُعلتْ الأشجار المثمرة كالتين والتفاح والرمان في مجموعة واحدة. ومن أبرز هذه الرُّقُم الأثرية رقيم بالخط المسماري وُجد في مدينة نيبور Nippur (نُفَّرْ)، يرجع إلى القرن السابع عشر قبل الميلاد، درسه عالم السومريات الشهير صموئيل نوح كرامر S.N.Kramer، وبيَّن أنه مؤلف من ١٠٨ أسطر، تشرح الأعمال الزراعية، المعتمدة في ذلك العهد في بلاد الرافدين. كما وجَد العالم كامْبل طُمسُن Campel Thomson نحو ٦٠٠ رقيم دُوِّن فيها أكثر من ٢٥٠ اسماً لنباتات طبية، كان يستعملها أهل سومر وبابل وآشور في مداواة المرضى.

وفي الحضارة الكنعانية (الفينيقية)، التي انتشرت في حوض البحر المتوسط في الألف الأول قبل الميلاد، تَمثَّلَ علم الإتنولوجية النباتية في رسالة في الزراعة دوَّنها في تاريخ غير معلوم عالم قرطاجي يُدعى ماغو Mago، وترجمها إلى اللاتينية الكاتب الروماني ماركوس فارون M.Varron (١١٦-٢٧ ق. م) الذي عدّ ماغو القرطاجي أبا الزراعة.

وفي الحضارة اليونانية تَمثل علم الإتنولوجية النباتية في قصيدة «الأعمال والأيام» التي نظمها الشاعر اليوناني هزْيودس Hesiodes في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، وهي تُمثِّل التقويم الزراعي الذي شاع استعماله في تلك الأيام؛ كما ترجم كاسيوس ديونيسيوس Cassius Dionysios كتاب ماغو إلى اليونانية في مطلع القرن الأول للميلاد.

٢ - الإتنولوجية النباتية في العصر الروماني:

ومن أشهر المؤلفات التي ظهرت في هذا العصر كتاب في علم الأعشاب الطبية أو الأدوية المفردة، ألفه طبيب يوناني الأصل، يدعى بيدانيوس ديوسقوريدس Pedanius Dioscorides، عاش في القرن الأول للميلاد، وهو من مدينة عين زربة شمال حلب، وعمل جراحاً في الجيش الروماني في عهد الامبراطور نيرون (٥٤-٦٨م). وكان يجمع في أثناء تنقله النباتات الطبية، ويدرس خصائصها الدوائية وصفاتها، ومكان انتشارها، ويصنع منها أدوية مركبة. ثم قام بعدئذ بتصنيف كتاب «الحشائش» ضمّنه خمس مقالات، وهي:

المقالة الأولى: ذكر فيها أنواعاً من العطور والتوابل والصموغ والأدهان.

المقالة الثانية: وفيها مجموعة من العقاقير الحيوانية المنشأ، إلى جانب حبوب وبقول وأعشاب حرّيفة.

المقالة الثالثة: جمع فيها النباتات التي تستعمل جذورها أو بذورها.

المقالة الرابعة: وتشتمل على أعشاب باردة، وأخرى حارة أو مسهلة أو مقيئة، أو مضادة لتأثير السموم.

المقالة الخامسة: وخصصها المؤلف للكلام عن شجرة الكرمة، وأنواع الأشربة والأدوية المعدنية.

وأُلحق بكتاب ديوسقوريدس مقالتان نسبتا إليه، جاء في الأولى منهما وصف لأنواع الطيور، وبعض الأسماك والحيوانات البحرية والبرية، وما يستفاد من ألبانها وأصوافها وشحومها ومراراتها وأزبالها وأبوالها. وفي الثانية كلام عن السموم والاحتراز من تناولها وعلاج الضرر إذا وقع فيها، وقد بلغ عدد العقاقير والأدوية التي جاء ذكرها في كتاب الحشائش لديوسقوريدس نحو ٩٥٠ عقاراً، أما النباتات الطبية فبلغ عددها نحو ٥٥٠ نباتاً.

ويقول سليمان بن حسّان، المعروف بابن جلجل، في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء»: «إن كتاب ديوسقوريدس ترجم بمدينة السلام (بغداد) في أيام الخليفة جعفر المتوكل. وكان المترجم له اصطفن بن باسيل، نقله من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي. وتصفحه حنين بن اسحاق، فصحح الترجمة وأجازها. فما علم اصطفن من تلك الأسماء اليونانية في وقته له اسماً في اللسان العربي فسره بالعربية، وما لم يعلم له اسماً تركه في الكتاب على اسمه

اليوناني».

وثمة نموذج ثانٍ من كتب الأشياء عنوانه «التاريخ الطبيعي» Historia Naturalis، وهو موسوعة تقع في ٣٧ مجلداً، ألفها كايوس بلينيوس الأكبر [ر. بليني الأكبر] Plinius Caius (٢٣-٧٩ م) وتشمل موضوعاتها المفردات والمركبات والطب والسحر والفلك والعقائد والتقاليد والطقوس والتعاويذ والتمائم والأعشاب والأشجار والسموم والحيوانات والأحجار والجواهر والإلهام والشعوذة. وقد ذكر بلينيوس كل المراجع التي اقتبس منها، وقضى نحبه اختناقاً قرب بركان فيزوف Vesuvio عام ٧٩ للميلاد.

والنموذج الثالث من كتب الأشياء التي صنفت في العصر الروماني ماجاء في كتاب هرمس Hermes «مثلث الحكمة» Trimegist الذي وصف فيه ٣٦ نباتاً شجرياً تمثل العلاقة بين السماء والأرض، وهما اللتان توجهان الوظائف الحيوية الإنسانية.

٣ـ الإتنولوجية النباتية في العصر الإسلامي:

كانت قبائل الجزيرة العربية تعيش على صلة مباشرة بالنباتات والحيوانات التي اعتمدت عليها للحصول على غذائها ودوائها، وعلى العلف لمواشيها. وكانت خبراتهم في هذا المجال تنتقل وتتطور بالممارسة من جيل إلى آخر من غير تدوين. واشتمل القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، على كثير من الإشارات إلى فوائد بعض النباتات والمنتجات الحيوانية. وفي القرن الثاني للهجرة بدأ بعض علماء العربية يهتمون بتسجيل أسماء الكائنات الحية وضبط صفاتها، ومن أشهرهم عبد الملك بن قُريب، المشهور بالأصمعي الباهلي (١٢٢-٢١٦ هـ/ ٧٤٠-٨٣١م) [ر] وهو من مواليد مدينة البصرة، كان إماماً في الأخبار والملح والغرائب. قدم بغداد في زمن الرشيد، ثم عاد إلى البصرة، وتوفي فيها. صنف الأصمعي أكثر من ثلاثين كتاباً، بعضها في علوم العربية، وبعضها في وصف أحياء البيئة الطبيعية التي عاش فيها. ومن تلك المؤلفات: كتاب النبات والشجر، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الأجناس، وكتاب الخيل، وكتاب الإبل، وكتاب الوحوش وصفاتها، وكتاب مياه العرب، وكتاب الأنواء، وكتاب الأخبية والبيوت.

وقد حقق كتاب النبات والشجر أوغست هفنر A.Haffner والأب لويس شيخو، ونشراه في بيروت عام ١٩٠٨م. وأعاد تحقيقه ودراسته الدكتور عبدالله يوسف الغنيم، ونشره في القاهرة عام ١٩٧٤م.

تحدث الأصمعي في مقدمة هذا الكتاب عن أسماء الأرض وصفاتها، وما يصلح للزرع فيها من نبات وشجر. ثم ذكر أدوار النمو التي تمر فيها النباتات، وقسمها بعد ذلك إلى أحرار وذكور. فأحرار البقول ما رقّ منها وحسن، وذكورها ما غلظ منها وخشن. ثم قسمها بحسب طعمها إلى حَمْض وخُلَّة، فالحمض ماكان طعمه مالحاً، والخلة ماكان طعمها مائلاً للحلاوة. وقسمها بحسب الأمكنة التي تنمو فيها إلى سهلية ورملية وجبلية، وبلغ عددها ٢٨٠ نباتاً.

توالى بعد ذلك ظهور عدد من المصنفين في علم النبات عند العرب، وكان من أشهرهم أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م) [ر]. كان تلميذاً لابن السكيت، كما كان ابن السكيت تلميذاً للأصمعي. وقد صنف أبو حنيفة ثلاثة كتب مشهورة في ثلاثة علوم مختلفة: علم الأنواء ـ وعلم القرآن ـ وعلم النبات. ويعد كتابه في النبات موسوعة جمع فيها أسماء كثير من الأعشاب والجنبات والأشجار، التي تنمو في الجزيرة العربية، وجعلها في خمسة أجزاء. وبقيت هذه الموسوعة بكامل أجزائها حتى زمن الطبيب موفق الدين البغدادي (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١ م)، الذي كان يملك نسخة مخطوطة منها. ثم فُقدت بعض أجزاء تلك الموسوعة، ولم يعثر إلا على الجزء الثالث والنصف الأول من الجزء الخامس. وقام المستشرق الألماني برنهارد لفين B.Lewin بتحقيق ما بقي من كتاب النبات لأبي حنيفة، وشرحه (طبع في بيروت ١٩٧٤م).

ولم يكن أبو حنيفة، في موسوعته بعلم النبات، مجرد جامع لمفردات هذا العلم، أو باحث عنها بين أبيات الشعر وأخبار الرواة، بل تجاوز التعريف الموجز لكل نبات، كما سار عليه من سبقه من علماء اللغة، وقدم وصفاً دقيقاً لجميع أعضاء النبات، وخاصة تلك التي تعرّفها عن قرب، وهو يجوب أنحاء الجزيرة العربية، ثم قام بتصنيفها بحسب فائدتها العملية، ذاكراً الجزء المستعمل منها، وتأثيره الدوائي في الإنسان أو الحيوان أحياناً.

لذا يمكن أن يقال بأن أبا حنيفة الدينوري هو أول من وضع أساس علم الإتنولوجية النباتية في البلاد العربية، بالاعتماد على ماورد في كتابه الذي قسمه إلى اثني عشر باباً وهي:

ـ باب الرعي والمراعي، وخصصه للكلام عن الإبل، وصفاتها وأمراضها، وما يسقط عليها من الحشرات، وما تستطيبه من النباتات، وما يحصل لديها من فائدة أو ضرر عند أكلها، ومنها الخلة والنجيل والأراك والطلح والغضا والقتاد والسَمُر والعُرْفُط والرَمَث والصليّان والحلي والسعدان والسخبر.

ـ باب الكمأة والجبأة: وقسمه إلى عراجين وأفاتيج وضغابيس وذآنين وطراثيث وبنات أوبر.

ـ باب الصموغ: وتكلم فيه عن النباتات التي تعطي: العلوك واللثا والمغافير والقطران، ومن أشجارها: الطلح والمقل والدوم والسُمُرة والأيدع.

ـ باب الدباغ: ويشمل النباتات المستعملة في دبغ الجلود، وأهمها: القرظ والأرطى والسلَمَ والألاء.

ـ باب الزناد: تكلم فيه عن الأشجار التي يستعمل خشبها أو أعوادها في قدح الزناد، ومنها المَرْخ والدفلى والأثأب والبان والقطن وغيرها.

ـ باب ألوان النيران والأرمدة والأدخنة: ويستعمل فيها نبات العرفج والرمث والتنضب.

ـ باب ما يصبغ به: ومنها نبات الورس والعُصفر والكُركم، وقرف الأرطي، وقرف السدر، وعروق الفُوّة.

ـ باب الروائح، ومنها الطيّبة ومنها النتنة: فالطرفاء والقرنفل والحوذان والخزامى والشيح والقيصوم، من النباتات الطيبة الرائحة. أما النباتات الكريهة الرائحة فقليلة العدد ذكر منها السَنَعْبق وأم كلب.

ـ باب المساويك: وهي تصنع من الأراك أو البشام أو الإسحل أو الرند أو عراجين النخل.

ـ باب الحبال: وهي تصنع غالباً من لحاء الشجر أو من أليافها وسوقها. وأجودها ما تصنع منها الأرشية التي يستقى بها وهي: الطلح والسلَم والعُرْفُط والسَمُر. وذكر الأصمعي سوى هذا الكرات والكنب. كما تتخذ الحبال أيضاً من كَرَب النخل أو القطن أو الكتان.

ـ باب العسل والنحل: ذكر فيه أبو حنيفة صفات العسل وأسماءه، وقال عنه أنه لعاب النحل أو ريقه أو مُجاجه. ثم عدد النباتات التي يجرسها النحل ومنها: الندغ والسحاءُ، وعسلهما أبيض. وعسل الضرم لونه كلون الماء. وأشد العسل حرافة وأرقه عسل الصعتر، وعسل

الإفسنتين مر الطعم.

ـ باب القسي والسهام: وهو من أبواب الجزء الخامس من كتاب النبات. لقد أطنب أبو حنيفة في وصف القسي وأوتارها والسهام والنبل وطرق تحضيرها وكيفية استعمالها، حتى تجاوز عدد صفحات هذا الباب المئة صفحة.

٤ـ علم الإتنولوجية النباتية في الأندلس وبلاد المغرب: لم ينتشر كتاب الأدوية المفردة لديوسقوريدس، بعد ترجمته في بغداد، انتشاراً واسعاً في شرقي العالم الإسلامي. ويعود السبب في ذلك إلى أن كثيراً من النباتات الطبية التي ورد ذكرها في ذلك الكتاب كانت أسماؤها أعجمية، لهذا بقيت مجهولة من قبل أكثر الأطباء، ولم يقم أحد بالربط بينها وبين النباتات التي ورد ذكرها في مؤلفات الأصمعي وأبي حنيفة وغيرهما. وعند الرجوع إلى مؤلفات الرازي والبيروني وابن سينا يلاحظ أنهم حذفوا في مؤلفاتهم كثيراً من تلك الأسماء الأعجمية. ولكن حينما وصل كتاب ديوسقوريدس إلى قرطبة، وقدم إليها بعده نقولا الراهب، اهتم بهما بعض الأطباء الأندلسيين المشهورين، والمتشوقين إلى معرفة جميع مفردات ديوسقوريدس. وقد استطاع نقولا، الذي كان يتقن اللغتين اليونانية واللاتينية، عن طريق جولات اطلاعية قام بها في أطراف قرطبة في صحبة هؤلاء، أن يريهم كثيراً من نماذج تلك النباتات، فربطوا بين أسمائها اليونانية، كما وردت في كتاب ديوسقوريدس، وأسمائها باللغات اللاتينية والبربرية والعربية، المعروفة في بلاد الأندلس آنذاك. وظهر بعد ذلك عدة مؤلفات في تفسير مفردات ديوسقوريدس، قام بوضعها أطباء أندلسيون من أشهرهم:

ـ سليمان بن حسّان المعروف بابن جلجل: ألف كتابه في تفسير أسماء العقاقير عام ٣٧٢هـ/ ٩٨٣م في قرطبة، إبان حكم هشام بن الحكم المؤمن بالله. كما ألّف مقالة في ذكر الأدوية المفردة التي لم يذكرها ديوسقوريدس في كتابه.

ـ أحمد بن محمد بن مفرج ابن الرومية الإشبيلي، المشهور بأبي العباس النباتي. كان فقيهاً، ظاهرياً، ومتعصباً لمذهب علي بن حزم. لذلك غلب عليه في مباحثه النباتية التخلص من طريقة الرواية والإسناد، معتمداً على المشاهدة الشخصية. أخذ علم النبات عن أبيه وجده، وكانا قدوة في هذا العلم.

طاف أبو العباس بلاد الأندلس باحثاً عن النباتات الجديدة التي لم يقع عليها من سبقه، وموضحاً ما اشتبه بأمره من النباتات التي ذكرها ديوسقوريدس. ثم اجتاز بعد ذلك مضيق جبل طارق في طريقه إلى شمالي إفريقية نحو سنة ٦١٢ هـ/ ١٢١٥ م، فزار المغرب وإفريقية (تونس) وطرابلس الغرب وبرقة ومصر. وكان يجمع في كل مرحلة مايجده من غريب النبات ويسجل صفاتها ومنافعها. ولما طلب منه الملك العادل الأيوبي البقاء في مصر اعتذر متعللاً برغبته في أداء فريضة الحج. وبعد أن تم له ذلك تابع جولته فزار العراق وبلاد الشام، ثم عرج على صقلية، في طريق عودته إلى الأندلس، التي وصل إليها عام ٦١٥هـ/ ١٢١٨م.

استقر أبو العباس النباتي بعد ذلك في مدينة إشبيلية، حيث ألف كتاب «الرحلة الشرقية»، ودوّن فيه نتيجة أبحاثه ومشاهداته لنباتات شمالي إفريقية وأطراف البحر الأحمر. والكتاب مفقود، ولكن العالم النباتي، المعروف بابن البيطار، وهو تلميذ أبي العباس النباتي، نقل في كتابه «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية» مئة وثلاث مواد مقتبسة من كتاب الرحلة، من بينها ٩٧ مادة تتعلق بالنباتات الطبية.

ـ أبو محمد عبدالله بن أحمد المالقي، والمشهور بضياء الدين بن البيطار[ر]: ولد هذا العالم العربي في مدينة مالقة بالأندلس، في الربع الأخير من القرن السادس الهجري، وذهب بعض المؤرخين أن ولادته كانت بالتحديد عام ٥٧٥هـ وعاش حقبة من حياته الأولى في مالقة، ولم يغادرها إلا بعد أن قارب العشرين من عمره.

ابتدأ اهتمام ابن البيطار بعلم النبات منذ شبابه، فعشّب في بلاد الأندلس، وتعرّف محيطها الطبيعي، وخاصة صحبة أستاذه أبي العباس النباتي. وبعد أن تمكن ابن البيطار من دراسة ما صادفه من نباتات الأندلس، قرر الرحيل إلى بلاد المشرق نحو عام ٦١٧هـ/ ١٢١٩م، أي عقب رجوع أستاذه. فسلك الطريق نفسه الذي سار عليه أبو العباس النباتي، ومرّ في رحلته بالمغرب الأقصى والأوسط (عام ١٢٢٠م)، وتوقف فيهما بعض الوقت. ثم تابع طريقه إلى إفريقية (تونس) وطرابلس الغرب وبرقه. ثم أخذ طريق البحر إلى سواحل آسيا الصغرى وبعض جزر بحر إيجه. وفي طريق العودة مر بمدينة أضالية عام ١٢٢٤م كما زار مدينة أنطاكية. ثم اتجه إلى شرقي العالم الإسلامي فزار بلاد فارس والعراق وسورية ومصر. وكان يقيم بكل بلد يحلّ به مدة ينصرف فيها إلى التعشيب فاحصاً مدققاً. كما كان يسعى إلى الاجتماع بالأطباء والعشابين في المناطق التي كان يزورها.

وحينما زار ابن البيطار الديار المصرية رحب به الملك الكامل الأيوبي (٦١٦ـ٦٣٥هـ/ ١٢١٨ـ١٢٣٨م) وألحقه بمعينه، ونصّبه رئيساً للعشابين وأصحاب البسطات بمصر. وفي عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م أصبح الملك الكامل سلطاناً على سورية ومصر، فاحتفظ ابن البيطار بمنصبه وحظوته عنده، وصار يتنقل معه بين دمشق والقاهرة. وأصبح له في هاتين المدينتين طلاباً ومريدين. وكان أشهر هؤلاء الطلاب موفق الدين أحمد بن القاسم المشهور بابن أبي أصيبعة، والذي تكلم عنه مادحاً أخلاقه وعلمه في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»:

صنف ابن البيطار عدة مؤلفات أشهرها كتاب الجامع لمفردات الأغذية والأدوية، وتفسير كتاب ديوسقوريدس، والمغني في الأدوية المفردة. وقد قام الدكتور لوسيان لوكلرك بترجمة كتاب الجامع إلى اللغة الفرنسية وطبعه في ثلاثة أجزاء ضخمة، ظهر الجزء الأول منها عام ١٨٧٧، والثاني ١٨٨١ والثالث١٨٨٣. وبين في مقدمة كتابه هذا تاريخ علم الأعشاب في بلاد الأندلس بإيجاز، موضحاً فضل من ألّف في علم النبات عامة، وعلم الأعشاب والنباتات الطبية خاصة. وقال عن ابن البيطار إنه أكبر عالم نباتي ظهر في الشرق. وهنالك ثلاثة أو أربعة أطباء يمكن أن يقارنوا به هم أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)، والشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) وأبو العباس النباتي (ت ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م)، ورشيد الدين الصوري (ت ٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) وجميعهم قاموا بدراسة النباتات دراسة متعمقة، واختص الأول والثاني بدراسة نباتات الأندلس والمغرب، وعني الثالث والرابع منهم بدراسة نباتات الجزيرة العربية.

٥ـ الإتنولوجية النباتية في القرن الثامن عشر: إن الأفكار الفلسفية المنادية بمذهب الكُلّيّة holism، الذي طُرحت أوائل أفكاره في منطقة الرافدين منذ ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد، استمرت حتى نهاية القرن السابع عشر. وترتكز فلسفة مذهب الكلية على عدّ الطبيعة كلاً (أو عضوية) لا تنفصل أجزاؤه بعضها عن بعض، وتتألف من عالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان. وانطلاقاً من مذهب الكُلّية هذا ألّف

جـــورج إرهـــارد رُمْـــف G.E.Rumph (١٦٢٨-١٧٠٢ م) كتاباً عنوانه « مَعْشَب أمْبوانة » Herbarium Amboinense الذي طُبع في هولندة ما بين سنتي ١٧٤١ و١٧٥٦م. ويمثل هذا الكتاب جرداً إحصائياً للأنواع النباتية الموجودة في حزر أمْبوانة (أندونيسية). ويتصف رُمْـــف بدقة الملاحظة، ووضوح الوصف، وباستعمال التسمية النباتية الثنائية. وهو يذكر كثيراً من المعارف النباتية المرتبطة بحضارة تلك الجزر في ذلك العهد، سارداً أسماء النباتات المحلية مع ذكر مرادفاتها، ومحدداً أسماء النباتات الدخيلة أو المُنْدَسَّة التي حلبها المستعمر الأبيض ممثلاً بالغزو الأوربي. ولقد أبرز رُمْف في كتابه مايُعرف اليوم بعلم الإتنولوجية النباتية باسطاً الخبرة في نطاق النبات، وطرائق تصنيفها من قبل سكان جزيرة أمبوانة، مسلطاً الضوء على الموارد النباتية ودورها في حياة المجتمع في تلك الجزيرة.

ولكن عهد الدراسات المعتمدة على مذهب الكُلِّية انصرم بعد أن أصدر أوغست كرينوس ريفيرُس A.Q.Rivirus المعروف باسم باخْمان Bachman كتابـاً عنوانـه « المدخل العالمي للمَعْشَب » Introduction Universalis Rem Herbarium طُبع في لَيْبزغ سنة ١٦٩٠م. وأعلن باخمان في مؤلفه المذكور ضرورة فصل دراسة النبات النفعي الصيدلي، أي العقَّار، عن دراسة النبات البحت، ونعت الطريقة النفعية لدراسة النبات بالبدائية لأنها لاترى في عالم النبات إلا أنواعاً تخدم الإنسان في الحصول على الدواء أو البهار أو العطر.

وقد لقيت آراء باخمان صدىً كبيراً في نفوس العاملين في دراسة علم النبات في مطلع القرن الثامن عشر. وتحول نداء باخمان إلى منعطف في مسيرة الدراسات النباتية التي أخذت الوجهة اللانفعية، والتي ظهرت بوادرها في العهد الليني، المنسوب إلى العالم النباتي السويدي لينيوس Linnaeus (١٧٠٧-١٧٧٨)، الـذي انطلق يجمع نباتات العالم ويسميها تسمية لاتينية ثنائية، ويرتبها ضمن نظام طبيعي، مبتعداً عن استخدام الفوائد النباتية ومايرتبط بها من أمور تطبيقية. واستمر الحال على ذلك حتى القرن التاسع عشر، مع تركيز الاهتمام على التصنيف النباتي والدراسات الوصفية للنباتات الإقليمية، فظهرت الأُفلورة Floras فـي كـثير من أقطار العـالمين الغربي والشرقي. واشتهـر مـن مؤلفيهـا بطرس فورسكال P.Forskal الذي زار مصر وأطراف الجزيرة العربية، واطلع على نباتاتها وأعشابها. ثم ألَّف « الأُفلورة المصرية - العربية » Flora Aegyptico - Arabico ، والتي ظهرت بعد وفاته عام ١٧٧٥ . وتتابع بعد ذلك ظهور عدة علماء في التصنيف النباتي، منهم روبير براون في إنكلترة (١٧٧٣)، ودوكاندول في سويسرة (١٧٧٨)، وهنري بايون في فرنسة (١٨٢٧)، وجـورج بـوسـت فـي سـوريـة ولـبـنـان (١٨٣٧-١٩٠٩). وكانت مؤلفات أوائلهم باللاتينية، ولكن في مطلع القرن التاسع عشر أصبحت الأُفلورة تدون باللغات المحلية، فيما عدا الاسم العلمي الثنائي الذي بقي باللغة اللاتينية الحديثة. وهكذا كان لابد للعلم من أن يبتكر اسماً جديداً يودع فيه المعارف التطبيقية الشعبية للنبات فكانت ولادة علم الإتنولوجية النباتية الحديثة.

٦- الإتنولوجية النباتية في مطلع القرن العشرين : ولم تكن ولادة هذا العلم ميسّرة وقد تمت على يد العالم الأمريكي هَرشْبرْغر Harshberger سنة ١٨٩٥م، وهو الذي تدين له الإتنولوجية النباتية بكثير من المعلومات القيِّمة عن أصل الذرة الصفراء الأمريكية، والمعروفة في الوطن العربي باسم الذرة الشامية. لقد طُلب من هرشبرغر أن يحدد بقايا نباتية جُمعَتْ من حفريات أثرية عُثر عليها في مسكن هندي أمريكي قديم، الأمر الذي دعاه إلى وضع نظام جديد لدراسة النبات، مستمد من طرائق استعمال القبائل الهندية للنباتات النافعة. وقد تمكن هرشبرغر من رسم الطرائق القديمة المعتمدة في تبادل المنتجات النباتية، كما استطاع أن يُحدِّد، بوساطة علم الإتنولوجية النباتية، طريقة لكشف عدد من المواد القابلة للاستعمال الصناعي المعاصر، أو التي يمكن استغلالها تجارياً في الوقت الحاضر. ولاقت هذه الدعوة رواجاً لدى رواد أمريكة الذين كانوا بحاجة ماسة إلى معرفة النباتات النافعة، ومكنتهم من الاستفادة من المساحات الواسعة التي يذخر بها العالم الجديد.

لقد ترعرع علم الإتنولوجية النباتية، الذي طرحه هرشبرغر في الولايات المتحدة الأمريكية، وتفرع إلى أربعة علوم هي :

- الإتنولوجية النباتية المستحاثة : paleoethnobotany وهي ترتبط بعلم الآثار archeology ومَكَّنت الوافد الأمريكي من التعامل مع السكان الأصليين.

- الإتنولوجية النباتية الاقتصادية : وهي ترتبط بالنبات الاقتصادي وتحدد المواد النباتية الأولية ومشتقاتها الاقتصادية التي مَكّنت القادم الجديد من التخطيط للاستيلاء على مواقع جديدة غنية بالنبات الاقتصادي.

- الإتنولوجية الحيوانية : ethnozoology وقد أسسها الباحثان هـدرسون Henderson وهارنْغتون Harington، وهما من معهد البحوث الإتنولوجية في الولايات المتحدة الأمريكية، عندما نشرا في سنة ١٩١٤ بحثاً عنوانه « الإتنولوجية الحيوانية »، وضمّناه خبرة الهنود الحمر فيما يحيط بهم من عالم الحيوان.

- الإتنولوجية البيولوجية : ethnobiology وهي التي اقترحها ي. ف. كَسْتتَر E.F.Castetter سنة ١٩٤٤ ، بعد دمْـجه الإتنولوجية النباتية والإتنولوجية الحيوانية في علم واحد، هدفُه الإحاطة بالعلاقات المتبادلة بين أنماط المجتمعات البشرية والعالم الحيوي الذي تتعامل معه، داعياً إلى عودة اللقاء بين ما هو طبيعي من جهة وما هو إنساني من جهة ثانية.

وكثيراً ما وقف علماء الطبيعة من هذا المنهج الذي يُقرِّب الدراسات الإنسانية من الدراسات الطبيعية موقف الحذر في بعض الأحيان، وموقف المستاء في أحيان أخرى. وقد خاف علماء النبات من هذا الاتجاه النفعي على نباتاتهم النادرة، أو الجديدة علمياً ، والتي قد لا تتمتع بأهمية اقتصادية. واستاء علماء الطبيعة على اختلاف ميولهم من الإنسان الذي يُعَدّ مسؤولاً بالدرجة الأولى عن الإخلال بالنظم البيئية الطبيعية، ووقف علماء البيئة المفاخرون بالمنجزات البشرية موقف الحذر من التلوث. وهكذا كانت التجربة الأمريكية حافزاً لبعض الدول الأوربية على دراسة علم الإتنولوجية النباتية وإدخاله أول مرة في برامج التدريس الجامعي سنة ١٩٤٣ بوساطة المؤلفين أ. ج. هودريكور A.G Haudricourt ول. هيدان L.Hedin في مؤلفهما : « الإنسان والنباتات الزراعية » وهو من منشورات المتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في باريس.

لقد طرأ على مفهوم علم الإتنولوجية النباتية، الذي أبدعه هرشبرغر عام ١٨٩٥ ، بعض التبدلات. فمن علماء الطبيعة من سار وراء ركب هرشبرغر أمثال الأمريكي فولني جُونز Volney Jones (١٩٤١م) الذي عرَّف علم الإتنولوجية النباتية بأنه « علم يدرُس العلاقة بين الإنسان البدائي والنبات »، ووسّع أمريكيون آخرون هـذا

المفهوم أمثال ر.ي. شولتس R.E Schultes، الذي عدّ علم الإتنولوجية النباتية علماً «يدرس مجموع العلاقات بين الإنسان والنبات». في حين تبنت المدرسة الفرنسية علم الإتنولوجية النباتية منحرفة به عن المفهوم الأمريكي على يد هيدان Hedin سنة ١٩٤٦ الذي عرّف هذا العلم بأنه «دراسة العلاقات بين المعتقدات والتقنيات الإنسانية ومجموع العالم الخُضَري». كما دعت عزلة العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية إلى تقوية أواصر علم الإتنولوجية النباتية وجعلته منهجاً وسطاً بين علم الحياة وعلم الاجتماع، أو بتعبير آخر منهجاً وسطاً بين ماهو طبيعي وماهو إنساني. وهكذا طالب جاك روسو Jacques Rousseau سنة ١٩٦١ أن يبرهن علم الإتنولوجية النباتية بأن النبات لُحْمَة في نسيج التاريخ الإنساني. وهذا ما أدى إلى تعريف علم الإتنولوجية النباتية من قِبَل الفرنسي رولان بورْتيير Roland Portières بأنه «دراسة العلاقات المتبادلة بين الجماعات البشرية والنبات في سبيل فهم الحضارات وشرح ولادتها وتقدمها».

وفي خضم هذا التاريخ الحافل لعلم الإتنولوجية النباتية وشبابه، عادت المدرسة الأمريكية لترسم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، منعطفاً مهماً في علم الإتنولوجية النباتية على يد عالم البشريات الأمريكي مُردوك Murdock سنة ١٩٥٠ الذي عدّ هذا العلم الجديد من العلوم الجماهيرية أو العلوم الشعبية، وتبنى سنة ١٩٥٤ كُونْكْلِن H.C. Conklin، الاختصاصي العالمي في علم الإتنولوجية النباتية، هذا الاتجاه وسمى المدرسة الأمريكية الجديدة «الإتنوغرافية الحديثة» New Ethnography . وهكذا أضحت الإتنولوجية النباتية عند هذه المدرسة تهدف أساساً إلى دراسة نُظُم الأفكار وتنوع المفاهيم والمواقف التي تتخذها مجموعة بشرية محددة عندما تتعامل مع العالم الأخضر الذي تعيش في كنفه. وعلى الإتنولوجية النباتية أن تختص بكشف معرفة «الناس» بالنبات ومايرتبط بهذه المعرفة من بناء اجتماعي.

ميدان الإتنولوجية النباتية وطرائق معالجتها

تترجح ميادين البحث في الإتنولوجية النباتية بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، كما تتوجه، بدلالة عنوانها، إلى دراسة الخبرات المحلية والعلوم الشعبية التي تعالج الطبيعة وظواهرها المحلية المنعكسة في الأمثال والأساطير النباتية لشعب من الشعوب. ويُلاحظ في هذا التوجه عودة إلى دراسة التاريخ الطبيعي الإنساني الذي هيمنت عليه قرابة ٦٠٠٠ سنة فلسفة حضارات المشرق العربي القديم ثم حضارات البحر المتوسط القديمة، وربطت الموضوعات الفلسفية الإنسانية بالموضوعات الطبيعية، وانتهت بنهاية القرن السابع عشر. وهكذا تمثل العلوم الإتنية (أي التي لها صلة بالبادئة إتنو Ethno ومعناها العرق أو الجنس) اتجاهاً جديداً في علم الحياة شمل الإتنولوجية النباتية والإتنولوجية الحيوانية، والإتنولوجية الحيوية، والإتنولوجية البيئية ethnoecology، كما تَسْتَعدُّ سلسلة العلوم الحيوية الأخرى إلى استقبال البادئة إتنو في جميع تسمياتها فيما إذا اقتفت خُطا هذا المنهج الجديد.

ولقد دخلت البادئة إتنو اللغة الفرنسية، منذ أمد ليس ببعيد، بدعم من المركز القومي للبحث العلمي، الذي قدم إعانات مالية لدراسة علم الإتنولوجية ethnoscience بفرعيه النباتي والحيواني، وبدد تحفظات كثير من علماء الحياة تجاه هذا المنهج الجديد. كما أدى رواج علم البيئة إلى عناية جادة بعلاقات المجتمعات والحضارات بالمحيط الطبيعي، وإلى إظهار دور الإنسان وأهميته التاريخية في بناء المحيط الحيوي.

ولإدراك دور المجتمعات الإنسانية في بناء المحيط الحيوي لابد من الإجابة عن ثلاثة نماذج من الأسئلة: أوّلها مرتبط بالإدراك، وثانيها مرتبط بالمعتقدات والثقافة، وثالثها مرتبط بالاستعمال والتقنية.

وتتمثل نماذج أسئلة إدراك الإنسان للطبيعة بما يلي: كيف تدرك البشرية، أياً كانت وحيثما كانت، عناصر البيئة المحيطة بها؟ وكيف تفهمها وتُشخصها وتستعملها؟... وكيف ترتبط البشرية بالكنف الذي تعيش فيه؟ وكيف تحوِّره وكيف تستثمر ثرواته وتديرها؟. وكيف تتعرف البشرية معطيات البيئة؟.. وكيف تسميها؟.. وكيف تصنفها؟..

وتتمثل نماذج أسئلة المعتقدات والثقافة المتصلة بالطبيعة بما يلي: ماهي المعتقدات المرتبطة بالنبات والحيوان والظواهر الطبيعية؟ وماهي القيم الرمزية الممنوحة لمثل هذه الموضوعات؟ وما هي المعاني الثقافية للمَحْيا biotope وللنظم البيئية في أمة من الأمم أو مجتمع من المجتمعات؟

وتتوجه نماذج الأسئلة المرتبطة بالاستعمال والتقنية على النحو التالي: ما هي أصول الثروات الطبيعية المستعملة؟ وماهي خصائصها وقيمها الاقتصادية وطرائق استعمالها؟ وماهي التقنيات المستخدمة في استعمال الثروات الطبيعية، وماهو تاريخ إبداعها أو استيرادها؟

إن الإجابات عن أسئلة كثيرة كهذه تفتح فجراً جديداً من العلاقات المتبادلة بين الإنسان ومحيطه، وتنقله إلى آفاق جديدة من معرفة المجتمعات الإنسانية، وتعد فتحاً جديداً في اختيار أفضل الوسائل لفهم الثروات الطبيعية، ونظم إدارتها الفُضلى.

إن هذا المنهج الجديد، في دراسة «التاريخ الطبيعي»، الواقع على مفترق طرق بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، يمكننا من تطويرها جميعاً، كما يمكننا من سلوك طرائق جديدة لدراسة العلاقة الإنسانية بالكنف الطبيعي من جهة وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان من جهة ثانية. كما يقود إلى إدراك مايحيط بالإنسان من طبيعة وثروات، وفهمها والتعامل معها بواقعية ودقة ويساعده في زيادة خبراته وتحسين تقنياته للتحكم في ثرواته الطبيعية. وهكذا يستطيع الإنسان بهذا التاريخ الطبيعي المُجَدَّد، والمستمد من العلوم الإتنولوجية النباتية والحيوانية والحيوية والبيئية، أن يقف على التبدلات العميقة التي أحْدَثها الإنسان في الماضي في كنفه الحيوي، كما يستطيع تقدير أثر التبدلات التي يحدثها الإنسان المعاصر في الحياة على سطح هذا الكوكب والتي تهدد وجوده. وبهذا يسهم «التاريخ الطبيعي» في حلّ جزء من أبرز المشكلات الملحة المطروحة والممثلة بربط الإنتاجية بمصير النظم البيئية الطبيعية المكوِّنة للكرة الأرضية.

محمد زهير البابا

مراجع للاستزادة:

- جورج سارتون، تاريخ العلم، ترجمة إبراهيم بيومي مدكور وآخرين (دار المعارف، القاهرة١٩٥٧).
- لوسيان لوكلرك، تاريخ الطب العربي (وزارة الأوقاف، الرباط ١٩٨٠).
- أحمد عيسى بك، تاريخ النبات عند العرب (مطبعة الاعتماد، مصر ١٩٤٤).

■ **الاتهام ← التحقيق القضائي**

■ **أتوس (جبل -)**

أتـوس Athos جبل في اليونان هو الرأس الشرقي من الرؤوس الثلاثة التي تنتهي بها شبه جزيرة خلقدونية في إقليم مقدونية، ويفصله عما يجاوره قناة حفرها أحشورش سنة ٤٨٠ ق.م. طول الجبل ٤٥ كم ومتوسط عرضه ٦ كم وارتفاع أعلى قممه ٢٠٣٣م ويسمى أيضاً أغيو أورُس أو آيون أورس أي «الجبل المقدس». وكان قدماء اليونان يرونه أعلى جبل في العالم، واستخدمه فلكيوهم مرصداً. تحيط بالجبل غابات واسعة من أشجار الكستناء والسنديان وغيرها، وكان يقطنه رهبان في القرن الخامس عشر ويقيمون فيه أديرتهم حتى نافت على ٣٠ ديراً بقي منها ٢٠ ديراً فقط.

يؤلف جبل أتوس من الناحية الإدارية جمهورية رهبانية تخضع قانونياً لبطريركية القسطنطينية، وترتبط باليونان كونفدرالياً، وتتبعها سياسياً. وفيها مدير يوناني مهمته حفظ الأمن، ومجلس عام يطلق عليه اسم «المجمع المقدس» يتألف من عشرين عضواً يمثل كل منهم واحداً من الأديرة العشرين الرئيسة في الجبل.

ويقوم هذا المجمع كذلك بوظائف المحكمة البدائية وتختص بالقضايا التي ترفع إلى الجمعية العمومية والمحكمة الاستئنافية التي تبت القضايا الداخلة في اختصاص الأديرة.

ترجع الحياة الدينية في جبل أتوس إلى القديس إثناسيوس (٩٢٠-١٠٠٣م) الذي خرج إلى جزيرة إقريطش (كريت) برفقة ابن أخيه الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس، ثم عاد إلى جبل آتوس بعيد انتصار البيزنطيين على مسلمي إقريطش، وبنى ديراً هناك (٩٦١-٩٦٣م) وتبعه آخرون في إقامة الأديرة حتى غدت على ما هي عليه، وتتبع هذه الأديرة نظام رهبنة يتألف من عدة مراحل ينتهي فيها المرشح إلى ارتداء ثوب الرهبنة الكبير.

وتشتهر مجموعة الأديرة والأبنية الأثرية في الجبل بما فيها من مخطوطات مكتوبة باليونانية، وبما تحويه من أيقونات يمثل أكثرها المسيح والعذراء، وكذلك بآثارها الفنية النادرة الغنية بالزخرف، والتي تمثل الفن البيزنطي، ويقطن الجبل اليوم أكثر من ٣١٠٠ نسمة.

ج.ت

■ **الإتيرات الكبريتية ← كبريت الهدروجين (مشتقات -)**

■ **أتّيلا (ت٤٥٣)**

أتِّيلا Attila بن موندزوك ورث مع أخيه بليدا Bléda حكم امبراطورية الهون [ر] في أوربة خلفاً لعمهما روجيلا سنة ٤٣٤م. ثم قتل أتيلا أخاه وانفرد بالحكم سنة ٤٤٥م.

ينحدر الهون الأوربيون من عناصر آسيوية تنتمي إلى المجموعة التركية المغولية التي كانت تستوطن السهوب السيبيرية الشرقية. وقد أخذت قبائلهم تنفذ نحو سنة ٣٧٥م إلى أوربة عن طريق مجرى الفولغا الأدنى لتظهر ثانية على مسرح التاريخ. وبدأت تظهر فيهم منذ ٤٥٠م تأثيرات طفيفة للمدنية الرومانية، مع احتفاظهم بقدر كبير من عاداتهم المتوارثة. فظلوا وثنيين يعتنقون الشامانية القائمة على عبادة السماء والجبال. وكان احتكاكهم الأول بالعالم الروماني سلمياً، وعمل بعضهم خدماً في المدن الإيطالية، ثم أخذت قبائلهم تتحد نحو سنة ٤٠٥ و٤٠٦م إلى أن كونت امبراطورية حكمها روجيلا (٤٢٥-٤٣٤م). وأجبرت حروبه بيزنطة على دفع أتاوى سنوية له.

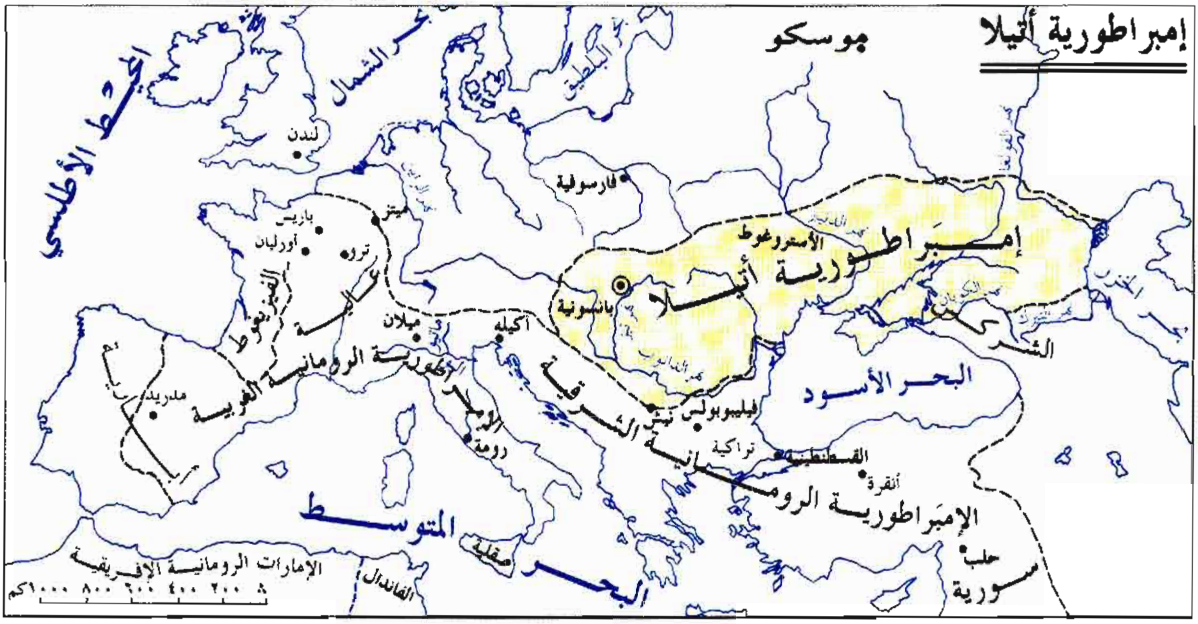
عاش أتيلا في صباه رهينة مدة في البلاط الروماني، ولم يشأ على صغر سنه أن يجرفه تيار الترف هناك، فظل أمياً مع أنه أتقن اللغة اللاتينية. وعمل بعد تسلمه الحكم على إبعاد شعبه عن تأثير المدنية الرومانية.

وكانت عاصمته قرية كبيرة في حوض الدانوب الأوسط، وصفها المبعوث البيزنطي بريسكوس Priscos (٤٤٨). وكان قصر الملك على تل يتوسط منازل الرعية، بني من الخشب المزخرف. وقد استهل أتيلا حروبه مع بيزنطة ٤٤١، متذرعاً برفضها مضاعفة الإتاوة، فاجتاز الدانوب واكتسح عدة مدن بيزنطية وبلغ تراقية، فأذعن له الامبراطور تيودوسيوس الثاني وقبل زيادة الغرامة المالية المعتادة، وفي سنة ٤٤٧ وصل إلى أسوار القسطنطينية. ولم تحقق المفاوضات بين البعثات المتبادلة بين الطرفين على مدى عامين (٤٤٨-٤٤٩) فائدة تذكر لأتيلا، فتوجه بقواته نحو الغرب وقد أغراه ضعف رومة. ولما رفض الامبراطور فالنتنيان الثالث دفع الإتاوة السنوية ادعى أتيلا أن الأميرة هونوريا شقيقة الامبراطور أرسلت تعرض عليه الزواج، وأنه جاء يطالب بغالية مهراً لها. وأغار عليها بـ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل عبر بهم نهر الرين (٤٥١)، فاجتاح عدة مدن ثم حاصر أورليان. ولكن حلفاً من الرومان والفيزيقوط والفرنجة قاده الروماني آيتيوس Aétius، أجبر أتيلا على التراجع إلى كامبوس ميرياكوس حيث دارت معركة طاحنة انتهت بهزيمة غير حاسمة للهون وتمكنوا من الانسحاب بسلام.

لم تؤثر هزيمة كامبوس ميرياكوس في قدرات أتيلا المعنوية والعسكرية. ولذلك زحف في ربيع ٤٥٢م إلى إيطالية عن طريق الألب ساعياً للظفر بهونوريا. فاجتاح مدن حوض البو وتقبل خضوع ميلانو. والتقى بالبابا ليون الأول الكبير وبمبعوثي الامبراطور فالنتنيان على ضفاف نهر مانسيو Mincio رافد البو. ويقال إن مهابة البابا وفصاحته أثرتا في أتيلا وأقنعتاه بالعودة عن رومة مقابل وعد بإتمام الزواج واستمرار دفع الأتاوى. وكانت بعض إصابات الطاعون قد ظهرت في جنده.

مات أتيلا فجأة بنزيف دموي سببه انفجار شرياني سنة ٤٥٣ في عاصمته عقب عرس صاخب احتفالاً بزواجه من فتاة جرمانية في إثر عودته من إيطالية.

تبدو في أتيلا الصفات المميزة لشعبه فكان قصير القامة عريض الصدر داكن البشرة ضخم الرأس غائر العينين أفطس الأنف. لا يتميز في ثيابه من رعيته إلا بالنظافة، وكان حريصاً على العدل بين أتباعه، هادئاً متزناً، ولكنه مخيف عندما يغضب. هداه ذكاؤه الفطري إلى ترك أتباعه يتمتعون بحياة مترفة أكثر مما أباحه لنفسه، ليدفعهم إلى تقديم أقصى ما باستطاعتهم في الحرب. وكان كذلك دبلوماسياً بارعاً في تقديم البراهين على صحة آرائه مما قلل الشعور عند بعض معاصريه بأنه بلاء الإله كما أشاع هو عن نفسه.



ويعد أتيلا النموذج الأول لزعيم بدائي قدم من السهوب ليقيم أول امبراطورية بدوية في أواسط أوربة وقد ألهم جنكيزخان وتيمورلنك فكرة سيادة العالم والاستعلاء على الحكام، وتطبيق أسلوب القتل الشامل للأعداء، والاستعانة بالمهزومين من الأسرى لتحقيق انتصارات جديدة. وقد ثار الجرمان الخاضعون للهون بعد وفاته، فاستقل الأستروغوط في بانونية والجبييد في داسية (٤٥٤). واضطرت أغلبية الهون إلى الارتداد إلى سهوب شمال البحر الأسود حيث أخذت الدبلوماسية البيزنطية تعمل على تاليب بعضهم على بعض حتى قدوم الآفار Avares الآسيويين فأخضعوهم.

دفعت حركات الهون في أوربة بعض الجرمان إلى اللجوء إلى الأراضي الرومانية. وأسهمت في اتفاق الشعبين لدفع العدو المشترك. وتوقف استعمال الدانوب طريقاً للتجارة مدة طويلة لتكرر غارات الهون على الأراضي البيزنطية في أوربة الشرقية. وأدى استقرارهم هناك واختلاطهم بالسكان إلى ظهور الملامح المغولية على بعض هؤلاء. وأثارت أعمال أتيلا الخارقة في قسوتها خيال الكتاب الجرمان في العصر الوسيط فظهرت أناشيد النيبلونغن Nibelungen الملحمية التي استمدت بعض أحداثها من أعمال بطل أسطوري رهيب يدعى إتزل Etzel (الشكل الجرماني لاسم أتيلا). وأوحت مقابلته البابا للرسام الإيطالي رافائيلو موضوع لوحة في قصر الفاتيكان يظهر فيها أتيلا مبهوراً من ليون الأول وأرديته الكهنوتية.

مظهر شهاب

الموضوعات ذات الصلة:

الهون.

مراجع للاستزادة:

- J. B. BURY, Invasion of Europe by the Barbarisan (Cambridge 1928).

■ الأثاث

الأثاث Furniture لغةً: كل مايكتسبه المرء ويستعمله في الغطاء والوطاء، أو هو كل ماوجد من متاع، ولا واحد له. والمتاع كل مايُنتفع به من الحوائج، أو هو كل ماينتفع به من عروض الدنيا كثيرها وقليلها سوى الفضة والذهب.

والأثاث في العرف كل الحوائج الثابتة والقابلة للتحريك والنقل التي تفيد الإنسان في مسكنه وأماكن عمله والأماكن العامة، وتلبي حاجاته اليومية، من جلوس ونوم وراحة، وتحفظ أشياءه.

يعد الأثاث عنصراً متمماً للعمارة وملازماً لها، ويعتمد تصميمه كثيراً على وظيفته وعلى الفراغ الذي سيوضع فيه وتناسقه مع المكان، وقد نُفذت بعض قطع الأثاث في العصور المختلفة بأسلوب جميل ومهارة فائقة فعدت من الأعمال الفنية البديعة واستحقت أن تحتل مكانها اللائق في المتاحف لكونها قطعاً فنية، وفي القرن العشرين توصل عدد من المهندسين والمصممين وصناع الأثاث إلى صنع قطع أثاث فنية روعيت فيها الناحية الجمالية على حساب الوظيفة إن لم تكن الوظيفة قد أهملت تماماً فيها.

يتألف الأثاث عادة من قطع أساسية وقطع مخصصة لوظائف معينة، وقد يكون الأثاث شبه ثابت أو قابلاً للتحريك والنقل. وتصنف قطع الأثاث بحسب الوظيفة إلى قطع معدة للراحة والاستناد والحمل. كالسُرر والفُرُش والأرائك والكراسي والمقاعد والطاولات، وقطع معدة للحفظ والخزْن كالصناديق والتخوت والأصونة والخزائن والمكتبات. وأما الستائر والأواني والأغطية والملاءات والمرايا والمصابيح وما يماثلها فهي تجهيزات ومفروشات تزيينية ومكملة ولا تعد من الأثاث، وأما القطع الثابتة تماماً والمثبتة على جدران المسكن فتعد جزءاً من متممات الغرفة وتزيينها كالخزائن الجدارية والمكتبات والزوايا الثابتة.

احتاج الإنسان إلى الأثاث منذ أقدم الأزمنة وبقيت قطع الأثاث الرئيسية متشابهة في

أشكالها وأنواعها ووظائفها على مر العصور، ومع أن مظهرها العام لم يتبدل كثيراً فقد تبدلت أنماطها وطرزها وزخارفها وأساليب صنعها بين عصر وآخر ومكان وآخر، فالأثاث جزء من البيئة التي يكونها الإنسان لنفسه، ويعكس تاريخ الأثاث نظرة الإنسان إلى شؤونه المعاشية ومستوى تطوره في كل زمان ومكان، شأنه في ذلك شأن العمارة والطراز (الأزياء). وقد طورت الحضارات المختلفة أنواعاً كثيرة من طرز الأثاث وأنماطه والمواد والتقنيات المستعملة في صناعته، وكان لأوربة شأن كبير في هذا المجال وخاصة في القرون الأخيرة. وعلى العكس من ذلك فإن بعض أجزاء آسيا لم تستعمل المقاعد والكراسي والسرر، كما لم تستعمل بعض الأثاث المعد لحفظ الأشياء، لأن الناس في تلك المناطق اعتادوا النوم والجلوس والراحة على أرض أو أرضية فرشت بالبسط والزرابي والسجاد والحشيات وغيرها وخاصة في البوادي والمناطق الصحراوية. فالأثاث في هذه الحضارات يختلف كثيراً عن الأثاث العربي الإسلامي وكان تطوره مغايراً لخط تطور الحضارات الأخرى. وعلى كل حال فقد شاع اليوم استعمال الأثاث التقليدي الغربي حتى عمّ العالم، وكثيراً مايعدل هذا الأثاث ويكيف تمشياً مع التقاليد الوطنية والمحلية.

المواد المستعملة في صناعة الأثاث

تستعمل في صناعة الأثاث مواد مختلفة تتبدل تقنيات معالجتها وتتطور بتطور الإنسان، بدءاً من الحجر والطين إلى الخشب والمعدن بأنواعه بالإضافة إلى الزجاج والألياف الزجاجية واللدائن والعظم والعاج والصدف والجلود وأنواع الطلاء المختلفة.

الخشب: يعد الخشب أكثر المواد الأولية انتشاراً، ولعله أكثرها مواءمة، في صناعة الأثاث. وفي الطبيعة أنواع لا حصر لها من الأخشاب المختلفة التي يمكن استعمالها لهذه الغاية، ولكن بعض أنواع الخشب اختصت بصفات وميزات طبيعية وضعتها في المرتبة الأولى عند مصممي الأثاث والمهندسين والحرفيين.

والخشب مادة متوافرة في الطبيعة ويمكن التعامل معها بأشكال مختلفة، إذ يمكن صبغ الخشب وطليه وتمويهه ولصقه وتشكيله باليد أو بأدوات النجارة والحفر والقطع والتطعيم، كما يمكن حني الخشب وليه إذا ما سخن بالبخار للحصول على الشكل المطلوب، وهو يحافظ على شكله هذا حين يبرد. وتوفر عروق الخشب وحلقاته السنوية بنية متعددة الصفات وتمنحه سطحاً طبيعي الزخرفة يمكن معه تشكيل نماذج مختلفة بترتيب لصق الأجزاء الخشبية في أوضاع متقابلة أو متعاكسة أو باستعمال أنواع مختلفة من الخشب.

تتنوع ألوان الخشب بين الأبيض والأصفر والأحمر والبني والرمادي والأسود، وبين هذه الألوان تدرجات لونية لا حصر لها، ولبعض أنواع الخشب روائح عطرية متميزة، وقد عرف صناع الأثاث هذه الخصائص منذ القديم واستثمروها ـ وخاصة صناع المشرق العربي والشرق الأقصى ـ. والخشب مديد العمر إذا ماحفظ في شروط مناسبة، وقد عثر على قطع أثاث من حضارات موغلة في القدم، وماتزال في حالة مقبولة.

أما أكثر أنواع الخشب استعمالاً فهو السنديان والبلوط والجوز والزان والعرعر والخشب الأحمر والوردي بالإضافة إلى الأخشاب الثمينة مثل الأبنوس والماهوغاني وغيرهما.

وقد ساعد تطور صناعة الأخشاب وأدوات النجارة والتقنيات المستعملة في معالجة الأخشاب منذ نحو قرنين وإلى اليوم في إنتاج أثاث خشبي رخيص الثمن نسبياً وفي زمن قصير، واستخدمت مواد جديدة أساسها الخشب المعالج كنجارة الخشب المضغوطة وقشر الخشب وأليافه والخشب المخرم والهيكلي وألواح الخشب المصمتة والمعاكس والمصفح والمطبق وغير ذلك.

وقشر الخشب veneer رقاقة من خشب خاص عالي الجودة، تنشر وتقطع بمناشير خاصة يدوية أو ميكانيكية، وتلصق على هيكل أو أساس خشبي من نوعية أدنى فتعطيه مظهراً جميلاً وسطحاً أملس. وإكساء قطع الأثاث قشر الخشب معروف منذ العصور القديمة ولكنه لم يستغل استغلالاً كاملاً حتى أوائل القرن العشرين.

أما ألواح نجارة الخشب المضغوطة فتصنع من بقايا الأخشاب المنجورة والتالفة بعد تقطيعها و«فرمها» نثرات صغيرة وعجنها بالغراء ثم سكبها في قوالب تحت الضغط حتى تجف، وهي تنتج بثخانات مختلفة وتستعمل في صنع سطوح قطع الأثاث بعد إكسائها القشرة، ولكنها لا تتمتع بمتانة الخشب الطبيعي أو متانة ألواح الخشب المصمتة أو المعاكسة أو المصفحة.

تصنع ألواح الخشب المعاكس (البلاكيه) playwood من عدة طبقات من قشر الخشب تلصق إحداها فوق الأخرى بطريقة متعاكسة تحت الضغط، وتستعمل هذه الألواح في صنع أكثر أنواع الأثاث وخاصة الأجزاء الخلفية منها، كما تستعمل الثخينة منها في صنع الكراسي والمقاعد وجلساتها بعد تشكيلها وحنيها وضغطها في وسط من البخار الساخن.

وأما ألواح الخشب المصفحة (اللاتيه) laminated boards فتتألف من قدد خشبية ضيقة تلصق الواحدة بجانب الأخرى ثم تصفح من الوجهين برقائق الخشب أو ألواح الخشب المعاكس تحت ضغط معين وبذلك يتم الحصول على لوح مصفح بالثخانة المرغوب فيها، وتستعمل الألواح المصفحة في صناعة سطوح الخزائن والمناضد والأسرة والأبواب وغيرها. وتتمتع ألواح الخشب المصفحة بمتانة متجانسة طولياً وعرضياً وقطرياً وهي غير قابلة للانكماش أو اللي كما هو حال الخشب الطبيعي، ومثلها في ذلك ألواح الألياف الخشبية fiber board التي تصنع من ألياف الخشب المضغوطة بعد معالجتها بالمواد الكيمياوية وعجنها بالغراء.

المعادن: استخدم الإنسان المعادن في صنع أدواته وحوائجه منذ أن تعلم صهرها وسكبها وطرقها. واستعمال المعادن في صنع الأثاث وزخرفته قديم جداً، وقد عثر في مقبرة توت عنخ آمون على قطع أثاث فاخرة منها سرير عرش وكرسي مزينان بالذهب (ق١٤ ق.م)، واستعمل اليونان البرونز والحديد والفضة في صنع قطع الأثاث وزخرفتها، وعثر في رماد مدينتي بومبي Pompeii وهيراكولانيوم Heraculanneum في إيطالية على طاولات لها أطر معدنية قابلة للطي، وعلى أسرة مصنوعة من المعدن كلها أو بعض أجزائها. واستعمل الكرسي المعدني في مناسبات خاصة في العصور الوسطى في أوربة (كرسي عرش ملك الفرنجة دغابرت الأول Dagaborti من القرن السابع للميلاد). وفي دولة بنين في إفريقية كرسي من البرونز خاص بالبلاط جعلت جلسته على شكل سمكتين مجدولتين. وثمة نماذج كثيرة من أثاث فضي أو مغلف بالفضة أو الذهب المطرق.

ومنذ القرن الثامن عشر شاعت صناعة الأثاث الحديدي، وصارت السرر المعدنية والصناديق المقواة بالمعدن في متناول الناس، وازداد الطلب عليها في المعسكرات والمخيمات لسهولة طيها وفكها وتركيبها، وأشهر مثال عليها سرير نابليون بونابرت في جزيرة هيلانة.

وكانت السرر الحديدية تزين بزخارف وقطع نحاسية أو برونزية. كما استخدم الحديد في صناعة مقاعد الحدائق والكراسي التي توضع في العراء لمقاومته عوامل الطبيعة، وخاصة بعد طليه بطبقة من الدهان. وتوصل الألمان في العشرينات من القرن العشرين إلى استعمال الفولاذ في صنع الأثاث وصنع النوابض والأنابيب الفولاذية المطلية بالكروم وتطويعها في صناعة الأثاث حتى غدت الأنابيب الفولاذية رمزاً لمذهب «الوظيفية» في العمارة (أن يتناسب تصميم أجزاء البناء وأثاثه مع الوظيفة المعدة لها). ومنذ الثلاثينات من القرن العشرين شاع استعمال الألمنيوم في هذه الصناعة لمواصفاته الجيدة.

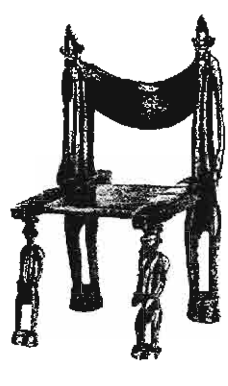
يستخدم المعدن، وخاصة الحديد والنحاس والألمنيوم، في صنع القطع كاملة بتشكيلها عن طريق السكب والثني والطي واللحام والقطع وغير ذلك، كما يستعمل في صنع الأقفال والحواضن والمفصلات وحوامل القطع وقواعدها وفي التزيين والزخرفة. وكانت صناديق حفظ الثياب تدعم بأحزمة من حديد تزيد متانتها وكثيراً ماكانت تزين نهاياتها بزخارف، وكانت المكتبات في عصر النهضة تزخرف بحواضن وقواعد من أُشابات معدنية أساسها البرونز أو النحاس أو القصدير، وبرع الفرنسيون في تشكيل حواضن مزخرفة من المعدن تركب على الزوايا والأدراج والأرجل من أجل الحماية والتقوية.

المواد الأخرى: يعد الزجاج من المواد الثانوية المستعملة في صناعة الأثاث وزخرفته، وتستعمل المرايا والبلور العادي والملون للتزيين وإضفاء الجمال على القطع ووقايتها، وقد برع الإيطاليون في صناعة الأثاث المزجج المتعدد الألوان، واستعمل العاج والعظم والصدف والذَّبْل (جلد السلحفاة الكبيرة أو عظم ظهرها) مواد للتطعيم والتنزيل والترصيع في صناعة الأثاث وشاع في القرن السابع عشر استخدام العاج في تطعيم الأثاث الفاخر، واستخدم عظم قوقعة السلحفاة للتنزيل النفيس فوق أرضية من الفضة، كما استخدمت أصداف القواقع وعرق اللؤلؤ لتطعيم الخشب واستعمل الجص المعجون بالغراء لتشكيل الزخارف وخاصة في الأثاث الإسلامي الشرقي، كما صنعت منها «شمسات» لثقوب المفاتيح وأغطية لها.

وأما الرخام والجص والخزف فاستعمل في مجالات معينة، وخاصة في تغطية سطوح «القنصليات» والمكاتب والتخوت ذوات الأدراج والمغاسل وطاولات الزينة، كما استخدمت العجينة الورقية (عجينة الورق مع الغراء ومواد أخرى) في صنع بعض قطع الأثاث في إنكلترة في العصر الفيكتوري.

وأما اللدائن بأنواعها والألياف النباتية المعالجة والألياف الزجاجية فقد شاع استعمالها بعيد الحرب العالمية الثانية وعلى نطاق واسع، وهي تستعمل في صنع القطع المقولبة (المشكلة في قالب).

الأثاث في التاريخ: يرجع ظهور الأثاث إلى عصر ماقبل التاريخ مع انتقال المجتمعات الأولى إلى الاستقرار، عندما اتخذ الإنسان مسكنه في الكهوف والمغاور وفوق مجاري الأنهار، وافترش جذوع الأشجار والأغصان وصنع منها مصاطب وفرشاً لراحته ونومه. وكان تطور الأثاث سريعاً عند المجتمعات التي احتاجت إلى مساكن مغلقة أو مسقوفة بسبب الأحوال المناخية، وكان أسهل أسلوب لتوفير مثل هذا الأثاث رصف الحجارة مداميك وتسوية سطوحها وترك فراغات بينها (كوات) لتستعمل خزائن لحفظ الأشياء، أو تنضيد الأغصان وأوراق الأشجار للجلوس والنوم. ثم تبينت الحاجة إلى صنع قطع أثاث منفصلة سهلة التحريك والنقل، وساعد على ذلك توافر مواد تتمتع بالمتانة وخفة الوزن وسهولة التعامل معها، وهذا ما تثبته الأرجوحات الشبكية والحصر والحشيات المملوءة بالقش والمقاعد الخشبية الصغيرة التي لا مساند لها ومساند الرأس والرقبة والصناديق التي تستعملها القبائل البدائية في إفريقية وأوقيانوسية وأمريكة حتى اليوم. وكانت الأقوام البدائية تختار لأثاثها أكثر المواد مواءمة للشكل المطلوب بعد تشذيبها بأدوات حجرية أو معدنية، ومع تطور النظم الاجتماعية والمعيشية وتطور أدوات التصنيع وأساليبه ظهرت أنماط جديدة من الأثاث تتوافق مع حاجات الإنسان. وكان أثاث أكثر المجتمعات الرعوية والزراعية في إفريقية جنوبي الصحراء الكبرى وفي مناطق أعالي النيل يتألف من قطع بسيطة قليلة



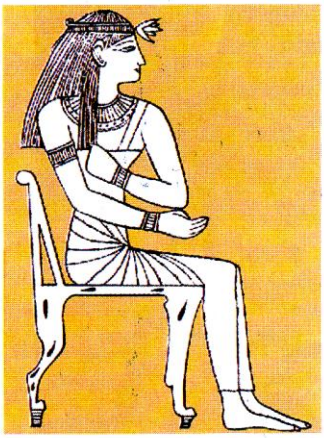
كرسي عرش من الخشب المحفور - ساحل العاج

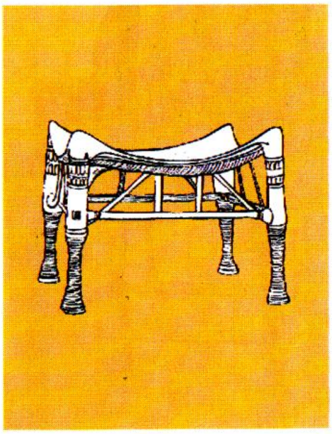


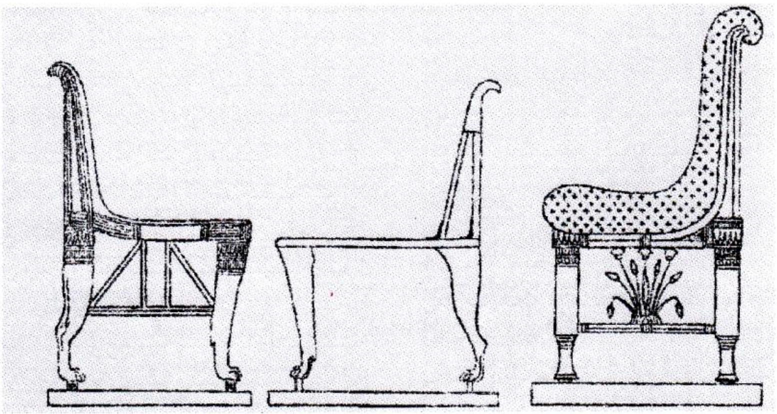
كرسي نعومبا (زائير) من الخشب ومسامير النحاس خاص بالزعماء



كرسي عرش (الكاميرون) من الخشب والخرز







كراسي منوعة ذوات مساند ظهر أو قابلة للطي، من مصر القديمة بقوائم تشبه قوائم الحيوانات.

الزخارف سهلة الحمل، وكثير منها منحوت من قطعة خشب واحدة أو من الحجر، وكانت أجزاء قطع الأثاث تنحت غالباً بأشكال هندسية أو على هيئة أعضاء الحيوانات، ومن ذلك مثلاً مسند رقبة خشبي يعرف باسم «تلم» Tellem في دولة مالي منحوت على هيئة سلحفاة، وهي حيوان مقدس هناك. وكثيراً مايكون للكراسي والمقاعد وغيرها من القطع المعدة للجلوس معنى شعائري أو قيمة شخصية، وهناك كراسي عروش كثيرة في إفريقية، بعضها مستوحى من أنماط الأثاث الأوربي، مخصصة للزعماء كماهو شأن مقاعد زعماء قبائل اللوبا Luba في زائير، ولهذه الكراسي قوائم نحتت على هيئة إنسان حامل caryatid، أو قوائم الحيوان.

أما السرر فكانت مجرد حشيات متواضعة من العشب الجاف وجلود الحيوانات وغيرها، ويستعمل الماليزيون البدائيون سريراً مسطحاً من لوح خشبي محمول على أربع دعامات ذوات شعبتين. من جذوع الشجر، وكانت السرر تطلى أحياناً بالألوان الأسود والأحمر والأبيض، وفي جزر الأدميرالية سرر مزخرفة ذوات قوائم منحوتة على هيئة البشر أو السمك ولها مساند للرقبة. وكان الصيادون الأستراليون يحملون أطفالهم في مهود من الخشب تشبه القارب. وكان السكان الأصليون في أمريكة يستعملون جلود الحيوانات المحشوة بالعشب (أمريكة الشمالية) أو الحصر المصنوعة من ألياف سعف النخل للنوم والجلوس، أما السرر إن وجدت فتتألف أساساً من أغصان نحيلة متشابكة تستند إلى ركائز ذوات شعبتين. كما استعملت السطوح الحجرية للنوم بعد فرشها بجلود الحيوانات.

واستعملت أيضاً الكراسي والمقاعد المصنوعة من القصب المجدول ومقاعد الحجر المحمولة على قواعد مخروطية، كما استعملت الصناديق المدهونة والأرائك المصنوعة من خشب الأرز المزينة بأشكال حيوانية.

١ـ الأثاث في مصر القديمة

لعل أقدم نماذج الأثاث المتعارف عليه اليوم ترجع إلى ماتركه الصناع المصريون القدماء، ومع أن إنتاج مصر من الخشب العالي الجودة نادر، فقد استعمل المصريون أخشاب بعض الأشجار المحلية كالسنط acacia والطرفاء tamarisk والجميز sycamore والتين في صنع قطع الأثاث الخفيفة، كما استوردوا الأخشاب الثمينة كالأرز والأبنوس، وكانوا يعالجون هذه الأخشاب بأدوات حجرية (في عصر ماقبل السلالات ٤٠٠٠ - ٣١٠٠ ق.م) ونحاسية وخشبية (بدايات عصر السلالات ٣١٠٠-٢٦٨٦ ق.م) ومعدنية مختلفة (منذ عهد المملكة القديمة ٢٦٨٦ - ٢١٨١ ق.م).

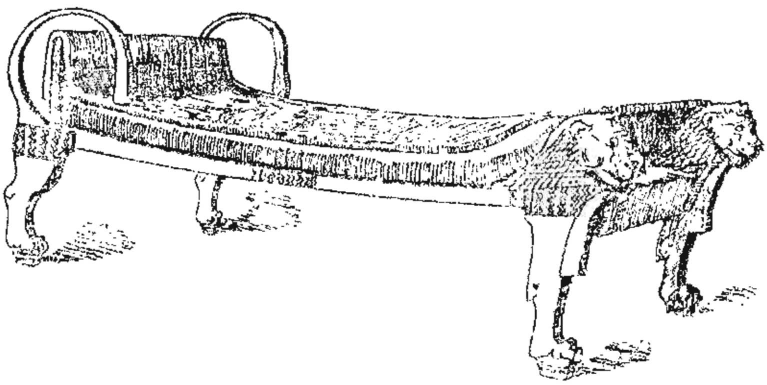
وكانت السرر ومساند الأرجل والرأس والعروش والصناديق هي القطع الأساسية للأثاث عند المصريين القدماء، ويأتي السرير في مقدمة تلك القطع، وكان يتركب من إطار متواضع من الخشب على أربع أرجل ثبتت بحبل مضفور من الكتان، وشدت عليه حبال مضفورة على طريقة الحياكة تؤلف سطحاً مرناً يستلقي عليه النائم، وكان السرير إبان حكم الأسرة الثامنة عشرة (١٥٦٧ - ١٣٢٠ ق.م) مرتفعاً عند الرأس منخفضاً عند القدمين وله مسند محفور من الخشب يمنع إنزلاق النائم، وقد عثر في قبر توت عنخ آمون على سرر ضخمة ثبتت قوائمها بخطاطيف من البرونز يمكن فكها وطيها لتصبح صالحة للنقل. إذ كان الأثاث يصنع بأعداد قليلة، وكان الملوك والحكام يصطحبون معهم سررهم في تجوالهم، ويستعيضون عن الوسائد بمساند للرأس من الخشب أو العاج تصنع على قياس صاحبها، وعثر في مقبرة الملكة «حتب حورس» Hetepheres في الجيزة (المملكة القديمة) على سرير له ظلة ثبتت قطعه بطريقة «التعشيق» كانت الأولى من نوعها، كما عثر على كرسيين بذراعين مغلفين بقشور الذهب، وعلى علبتي مجوهرات وصندوق ستائر.



أثاث غرفة نوم من مصر القديمة (عصر المملكة الحديث ١٥٥٤ - ١٠٧٥ ق.م) من الخشب . يلاحظ مسند الرأس عند الجهة العليا من إطار السرير.



كرسي مذهب من قبر توت عنخ آمون في طيبة (مصر القديمة) من الخشب المغشى بالذهب والمطعم بالخزف والزجاج والكالسيت (مصر الأسرة ١٨ نحو ١٣٥٠ ق.م).

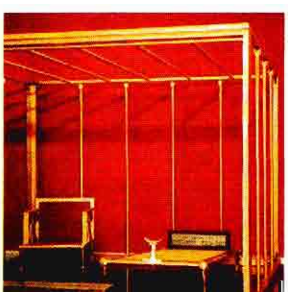


سرير من مصر القديمة مع مسند للرأس ومسند للقدمين مزخرف بأشكال حيوانية.

وتثبت هذه القطع أن قدماء المصريين كانوا أول من عرف طريقة «التلسين» في صنع الأثاث (جمع أجزاء قطع الأثاث بوساطة النقرة واللسان mortise- and- tenon .

أما الكراسي فكانت تنحت في البدء من الحجر على شكل قطع مكعبة، ثم صارت تصنع قواعدها من الخشب ومقاعدها من حجر الصوان الأملس المستوي، ثم صارت مقعرة فيما بعد . وكانوا يضعون على المقعد حشية وثيرة من جلد أو قماش . ثم أضيف إلى الكرسي مع مرور الزمن مسند للظهر وذراعان، وكانت الكراسي مخصصة لذوي الشأن، وتوضع أمامها مساند للأرجل من الخشب تنحت عليها صور الأعداء أو ترسم، وهو تقليد يرمز إلى أن الملك يدوس أعداءه. وشاع في عصر المملكة الحديثة (١٥٥٤-١٠٧٥ ق.م) صنع قوائم الكراسي على هيئة قوائم الحيوانات وقد عثر على مقاعد مدورة وثلاثية الأرجل وقابلة للطي ترجع إلى ذلك العصر .

لم يعرف قدماء المصريين المناضد والطاولات، ولكنهم كانوا يستعملون صواني (ج صينية) من القش المجدول على حامل من فخار لوضع صحاف الطعام، كما كانوا يصنعون حوامل من خشب لجرار الماء والخمر والجعة، واستعمل المصريون القدماء توابيت من رقائق الخشب الملصق بعضها فوق بعض، وقد ضمن لهاذلك عمراً مديداً . أما الملابس والأشياء الشخصية فكانت تحفظ في صناديق أو سلال من قصب، وكانت الصناديق تصنع في بادئ الأمر من ألواح خشبية متداخلة، ثم صارت تصنع في عهد المملكة القديمة من أطر خشبية تسدها ألواح من خشب ولها غطاء نصف أسطواني أو مثلثي الشكل. وكان أهم مايتصف به الأثاث المصري القديم خفة الوزن وسهولة النقل وجمال المظهر. وكانت تزيينات الأثاث وزخارفه تستوحى من دلالات دينية وتلقى عناية فائقة، وكان أثاث علية القوم غالباً مايموه



نسخة طبق الأصل لسرير مع ظلة وكرسي وصندوق من قبر الملكة حتب حورس في الجيزة(الأسرة الرابعة ٢١٠٠ ق.م) من خشب مطلي بالذهب.

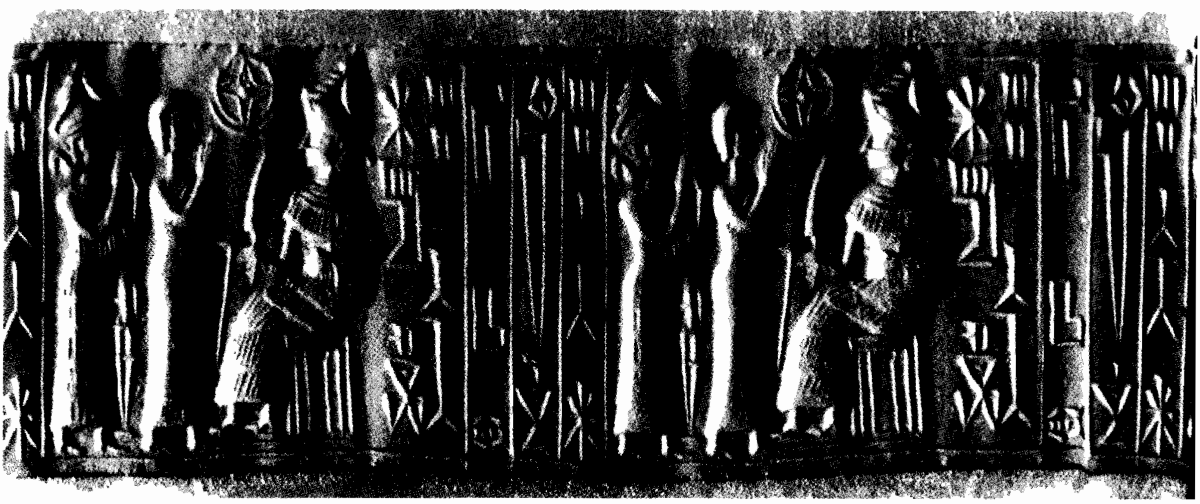
بالذهب ويطعم بالعاج والزجاج الملون والأحجار الكريمة، أو يلبس قشور الأخشاب النادرة والثمينة، وقد توصل الصانع المصري إلى استخراج قشور خشب بسماكة لا تزيد على ٤ مم غطى بهاسطوح الأثاث المصنوع من أخشاب رخيصة. كما استخدم التراكيب الصناعية الدقيقة في تجميع أجزاء قطع الأثاث لتكون قوية متينة تحقق فكرة الديمومة والخلود. وكثيراً ماكانت التزيينات تستكمل بكتابات هيروغليفية وزخارف من تويجات الزهور والزنابق وأزهار البردي وصور الآلهة. وثمة نصوص تثبت أن الأثاث المصري كان يرسل في أحيان كثيرة إلى البلدان المجاورة في جملة ماتؤديه مصر من هدايا وأتاوى.

٢ ـ الأثاث في بلاد المشرق القديمة (بلاد الشام والرافدين)

كان مناخ بلاد الشام والرافدين أقل جفافاً من مناخ مصر، فلم يحفظ لهذا السبب إلا القليل من الأثاث في مدافنها، ولم يبق إلى اليوم سوى بعض القطع النادرة المحفوظة في المتاحف إضافة إلى مايشاهد على المنحوتات الجدارية والصور والنقوش الأثرية القليلة. وكانت مناطق بلاد الشام والرافدين ـ على النقيض من مصر ـ مجزأة إلى مدن وممالك يحكم كل منها حاكم مستقل، لذلك تنوعت أنماط الأثاث فيها. وأما القطع الأساسية منه فهي: السرير والعرش والمتكأ والأريكة والكرسي والطاولة والصندوق.



نحت نافر على جدار قصر سنحريب في نينوى يمثل سنحريب جالسا على عرشه ويضع قدميه على مرقاة ويتلقى استسلام لكش (نحو ٧٠٠ ق.م)



ختم أسطواني يمثل إلهاً يجلس على مقعد له أربعة قوائم ورجل يتقرب إليه بالهبات (العصر الأكدي المتأخر ـ ٢٣٩٠ ـ ٢٢٩٠ ق.م ـ ماري، تل الحريري)



مائدة حجرية للكاهن الآرامي «أحرار» جالساً على كرسي وأمامه طاولة. نحت من البازلت، تل النيرب سورية (ق ٦ ق.م).



نحت فخاري يمثل إلهاً يجلس على كرسي له مسند ظهر مخصص ويضع قدميه على مرقاة، العصر السوري الوسيط، إيمار ـ مسكنة، سورية (ق ١٤ ـ ١٢ ق.م).

وكانت قطع الأثاث في بلاد الرافدين قريبة الشبه في تركيبها من النمط المصري إلا أن أجزاءها أغلظ وعقودها أقل، وهي غنية بالزخارف النافرة ومطعمة بالبرونز والعاج والعظم والمسامير الضخمة الرؤوس والدسر.

وقد عثر على قطع أثاث من العصر السومري القديم (٢٨٠٠ ـ ٢٣٧٠ ق.م) لها قوائم أمامية على هيئة قوائم الثيران ومساند مخرمة، أما قوائمها الخلفية فمسطحة وتمتد أحياناً لتؤلف مساند قصيرة للظهر، كما عثر في ماري (تل الحريري) على بقايا صناديق خشبية مطعمة بالعاج واللازورد كانت تستعمل لحفظ الحلي أو الأدوات الموسيقية وتمثل مشاهد من الحياة العامة.

واستعمل في العصر الأكدي الأول (٢٣٧٠ ـ ٢٢٣٠ ق.م) مقاعد مخرمة قسم الفراغ تحتها ستة مربعات أو تسعة تفصل بينها دعامات أفقية وعمودية من الخشب.

وقد برع الفينيقيون ـ الكنعانيون في صناعة



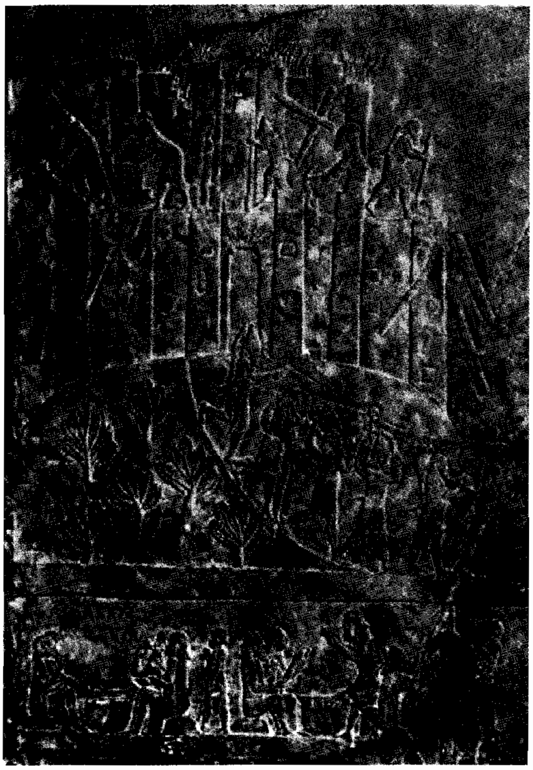
حمورابي واقفاً يتلقى عصا الملك من الإله شمش الجالس على كرسي ويسند قدميه على مرقاة (تفصيل من مسلة حمورابي).

الأثاث وتطعيمه بالعاج إلى درجة كبيرة حتى صار إنتاجهم يصدر إلى الدول المجاورة، وقد عثر في أنكوما (قبرص) على علب من عظم الفيل مزينة بزخارف تمثل مشهداً لصيد الثيران، وفي متحف دمشق الوطني صفائح من عاج لجزء من سرير عرش يرجع تاريخه إلى القرن الرابع عشر ق.م، وعثر في تلال منطقة غورديون Gordion (الأناضول ـ تركية) على قطع أثاث مزخرفة يعتقد أنها تعود إلى الملك ميداس ملك فريجية في القرن الثامن قبل الميلاد، ومنها طاولة ثلاثية الأرجل وحجب تشبه الغربال من خشب البقس والجوز، وقد طعمت بأشكال هندسية من خشب العرعر.

كانت مناطق الرافدين وبلاد الشام مصدر إلهام لثلاثة أنماط خلدها الأثاث الكلاسيكي القديم في اليونان وروما، وانتقلت منهما إلى بقية الحضارات الغربية. وأول هذه الأنماط زخرفة قوائم قطع الأثاث بحلقات معدنية «مكفاة» الجوانب حادة الحروف تقع الواحدة فوق الأخرى

مثل أساور اليد، وهي أصل القوائم الخشبية «المخروطة» في الأثاث الذي ظهر بعد ذلك.

أما النمط الثاني فاستعمال الحواشي الكثيفة في أغطية الأثاث المستعمل مما يمنح الهيكل والحشية والوسادة سمة واحدة، وقد خففت هذه الحواشي في العصور الكلاسيكية تمشياً مع الذوق السائد آنذاك، ثم عادت إلى الظهور في عصر الاتباعية الجديدة (القرن ١٨ م). وأما النمط الثالث فهو قطع الأثاث التقليدية التي ظلت تستعمل من دون تعديل يذكر طوال عصور الظلام في أوربة، ومن هذه القطع الأريكة التي كانت تستعملها الشخصيات الكبيرة عند تناول الطعام أو تبادل الأحاديث، والمنضدة المتنقلة الصغيرة التي توضع عليها المرطبات قرب الأريكة أو إلى جانب الكرسي الذي يجلس عليه «النديم» (الزوجة أو المحظية أو المغني أو غيرهم)، بحسب رغبة الشخصية التي تتكئ على الأريكة. ومن هذا التقليد الأرستقراطي انبثقت أكثر نظم البلاط تعقيداً، وهي تحدد من يحق له الجلوس في حضرة الشخصية المذكورة وأين يجلس، وماتزال مثل هذه التقاليد مرعية في قصور الملوك واحتفالاتهم.



م.

نحت نافر من نينوى يمثل جنوداً ينقلون أثاثاً من مدينة هامان، ويخربون المدينة. القسم السفلي من النحت يمثل مأدبة احتفالية بالنصر، والحضور يجلسون على مقاعد وقد فرشت أمامهم موائد الطعام.

٣ ـ الأثاث في بلاد فارس

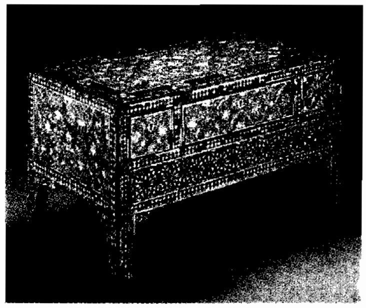
مع أن المناطق الإيرانية خضعت لتأثيرات المشرق القديم (بلاد الرافدين والشام) فقد كان للأثاث فيها سمات مميزة ويحمل تزيينات ذات طابع خاص، ويمكن تعرف أشكال بعض قطع الأثاث الإيراني الفارسي من الرسوم والمنحوتات، ويبدي نحت نافر من عهد داريوس (نحو ٥٢١ ق.م) سرير عرش يجلس عليه الملك وترتكز قوائمه المدورة على قاعدة صغيرة يطؤها الملك بقدميه وتبدو في الرسوم مقاعد واطئة ومناضد مستديرة وسرر أشكالها بدائية. وتملك إيران شهرة عالمية في صناعة بعض أنواع الأثاث المشرقي وخاصة السجاد.

٤ ـ الأثاث في الهند

تعد الهند في تاريخ صناعة الأثاث، منطقة عبور واقتباس للأثاث القادم من الغرب أكثر من كونها مناطق ابتكار مستقلة. وقد اعتاد الهنود استعمال الحصر والبسط والزرابي والفرش المصنوعة من القصب المجدول والخيزران bamboo مع ندرة استخدام الخشب في صناعة بعض قطع الأثاث. ولم يكن للهند عموماً طراز محلي من الأثاث تختص به حتى القرن السادس عشر للميلاد، بل كانت تستعير بعض أشكال الأثاث من الأنماط الكلاسيكية والشرقية والمصرية، حتى إن بعض القطع العادية المألوفة لأكثر الشعوب كالكراسي والطاولات كانت نادرة الاستعمال في الهند إلى أن شاع استعمال الأثاث البرتغالي والهولندي والإنكليزي. والحقيقة أن صعوبة الحصول على أثاث مناسب للمستوطنين الأجانب في الهند في بداية عهد الاستعمار هو الذي دفع التجار الأوربيين إلى جلب نماذج من الأثاث الغربي كي تستنسخ، وسرعان ما مهر الحرفيون الهنود في تبني الأسلوب الأوربي مع إضفاء بعض السمات الخاصة والمبتكرة على صناعة الأثاث. وأدى ذلك إلى ظهور طرز جديدة من الأثاث عرفت باسم الأثاث الهندي ـ الأوربي كانت محط إعجاب الغربيين، وأثرت بدورها في صناعة الأثاث الغربي. ويقسم الأثاث الهندي الأوربي القديم إلى مجموعتين مميزتين تأثرت إحداهما بالطابع البرتغالي وتأثرت الثانية بالطابع الهولندي، ولم يظهر التأثير الإنكليزي على صناعة الأثاث في الهند إلا في أواخر القرن الثامن عشر. أما الخشب الذي استعمل في الهند فهو الأبنوس والساج (الدلب الهندي teak) والخشب الأحمر وهي تنتج محلياً.

تتألف مجموعة الأثاث الهندية البرتغالية من الأثاث الهندي الشمالي أو المغولي والأثاث الجنوبي المنسوب إلى «غوا» Goa ولكنه يصنع في الواقع في سواحل ملبار Malabar جنوب غوا. ويبدو الطراز المغولي أكثر رشاقة وتفنناً من طراز «غوا» ويضم أنواعاً من الأثاث المزخرف والمطعم بالعظم والعاج على خشب الأبنوس وغيره من الخشب الأسود.

وقد حفظت طاولات ومكاتب من هذه الفئة مستوحاة من أشكال عصر النهضة الإيطالية التي كانت المفضلة عند البرتغاليين. أما الطراز المنسوب إلى «غوا» فيصنع على نمط واحد من حيث الشكل والزخرفة وتغلب عليه الضخامة. وغالباً مايطعم بأشكال هندسية أو مجردة. أما مجموعة الأثاث الهندي ـ الهولندي فيمكن تمييزها بسهولة من الأثاث الهندي ـ البرتغالي، وهي نمطان: الأول ينتج على سواحل كوروماندل Coromandel ويصنع من الخشب

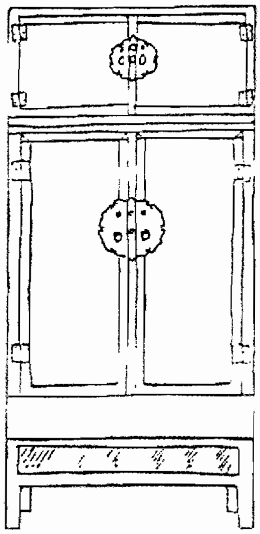


طاولة مكتب من خشب الساسم الأصفر الثمين المطلي باللك والمطعم بعرق اللؤلؤ (غجرات - الهند ق١٧م)

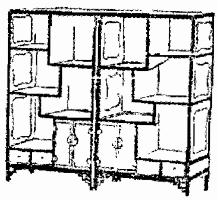
الفاتح اللون ويزخرف بتطعيمه بالعظم وبالحفر ويطلى باللك [ر]. أما النمط الثاني فيصنع من الأبنوس المحفور، ومع أن هذا النمط منتشر في الهند ويظن أنه من أصل هندي، فإنه كان ينتج - في الواقع - في باتافيه Batavia (جاكرتة اليوم) في جزيرة جاوة. أما التزيين النافر في الأبنوس فيكون على شكل أزهار أو هو قريب الشبه من شجرة تحمل أزهاراً (أغلبها أزهار السوسن tulip) كتلك التي تشاهد على أغطية الأسرة والستائر المطرزة الهندية المنشأ. ومع ازدياد النفوذ البريطاني في الهند ازداد تأثير صناع الأثاث البريطانيين فيها، وأنتجت «أطقم» كاملة من العاج من طراز تشيبنڤال Chipendale وطراز شيراتون Sheraton ومع حلول القرن التاسع عشر أصبح لدى الهند معاييرها في صنع الأثاث وخاصة فيما يتصل بالنقوش الزخرفية التي تنفرد بها.

٥ - الأثاث الصيني

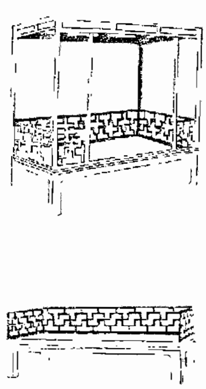
يعكس الأثاث الصيني تأثير البناء المعماري بوضوح، ويجمع بين الصرامة والبساطة. والحقيقة أن الدراسات المتصلة بالأثاث الصيني قليلة، وماتزال أصوله غامضة نسبياً، ويصعب تحديد العهود التي ينسب إليها كما لا يعرف الكثير عن مشاغله ومصمميه وصناعه، وأما أهم المصادر التي تبين أشكال الأثاث الصيني فهي الرسوم الصينية القديمة، وهي تظهر مدى التزام تصاميم هذا الأثاث على امتداد العصور. ويمكن القول إن أكثر الأثاث الصيني ينطلق من شكلين أساسيين: الصندوق والهيكل المفتوح، كما يمكن تصنيف الأثاث الصيني في نمطين رئيسيين هما: القطع الخشبية المطلية باللك سواء كانت مطعمة بعرق اللؤلؤ أو محفورة بعناية والقطع البسيطة plain المصنوعة من



خزانة صينية بدرج



نموذج مكتبة صينية متعددة الأغراض



نموذج لسرير بظلة وتحته سرير على هيئة صفة



نماذج طاولات مختلفة من الأثاث الصيني

الخشب القاسي.

ولا يعرف شيء عن النمط الأول تقريباً، إلا أنه يمكن تعرف العهد الذي تنسب إليه القطع من الموضوعات الزخرفية التي يظهرها الحفر كالتنين وزهرة الفاوانية (عود الصليب) peony، ومن خلفيات (أرضيات) هذه الزخارف، وأهم القطع التي تنسب تاريخياً إلى هذا النمط تلك المطلية باللك الأسود والمطعمة بعرق اللؤلؤ والمحفوظة في المستودعات الامبراطورية (شوزو إن Shoso in) في اليابان وهي تعود إلى القرن الثامن للميلاد. أما أقدم القطع المطلية باللك الأحمر وخاصة المقاعد والطاولات فترجع إلى عهد أسرة منغ Ming (١٣٦٨-١٦٤٤م) وتميز صنعتها من حوافها الانسيابية اللينة الأقل بروزاً من القطع المتأخرة التي تعود إلى عهد أسرة تشنغ Ching (١٦٤٤ - ١٩١١م) وتأثر بها مصممو

الأثاث في العالم.

ويلقى الأثاث الصيني البسيط المصنوع من الخشب القاسي رواجاً في الصين وخارجها لبساطته وزخارفه التقليدية وتمتعه بالمتانة ووضوح خطوطه وانسجام ألوانه.

ولما كانت متطلبات البيت الصيني من الأثاث أقل عموماً من متطلبات البيت الأوربي أو الأمريكي أو حتى العربي، فإن تنوع الأثاث فيه قليل، ويقتصر على خزائن الثياب والصناديق والطاولات العالية والمنخفضة من جميع الأشكال والأنماط، وكذلك الكراسي والسرر (قد تستر أحياناً بستائر) والحجب (بارافانات) والمقاعد المنخفضة المعدة للاستعمال عند السرير.

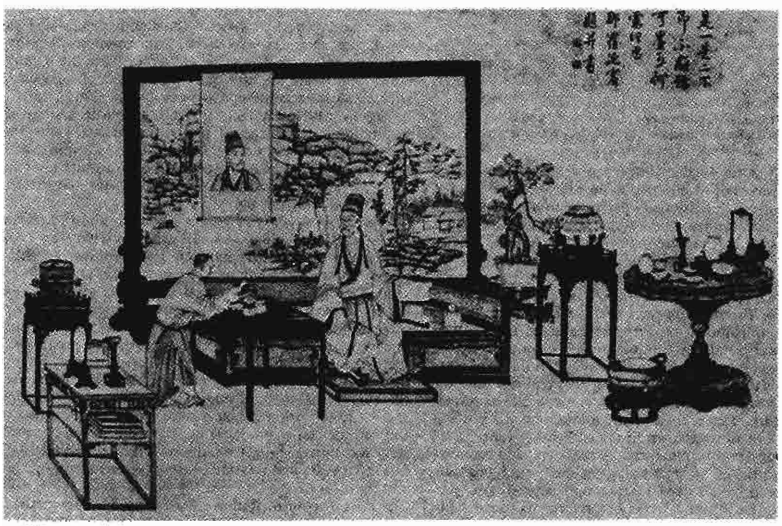


طاولة صينية مطلية باللك الأحمر من عصر أسرة مينغ (صنعت نحو ١٤٣٥) ويزيد عدد طبقات الطلاء فيها على عشر طبقات.



عرش الامبراطور الصيني تشين لونغ. (١٧٣٦-١٧٩٦) من أسرة «تشيغ»، من الخشب المحفور المطلي باللك الأحمر.

ومع أن مبادئ مهنة النجارة تكونت لدى الصينيين منذ مايقرب من ألف عام قبل الميلاد، فإنها لم تتطور تطوراً عظيماً إلا بعد دخول البوذية إلى الصين قادمة من الهند في القرون الأولى للميلاد، وكان الصينيون قبل ذلك التاريخ يجلسون متربعين أو جاثين على ركبهم على الأرض أو على مقاعد واطئة، في حين أدخلت البوذية معهاأسلوباً جديداً للجلوس على الكراسي العالية المزودة بمساند للظهر ومساند جانبية لليدين أو من دونها. وتعد الصناديق والخزائن الكبيرة أقرب الأمثلة على تقدم صنعة النجارة عند الصينيين، وكثيراً ماكانوا يصنعون لها حوامل معدنية جميلة تزيد من جمال صنعتها وتخفف من صرامة تصميمها.



مجموعة قطع أثاث عائدة للامبراطور تشين-لونغ (القرن الثامن عشر).

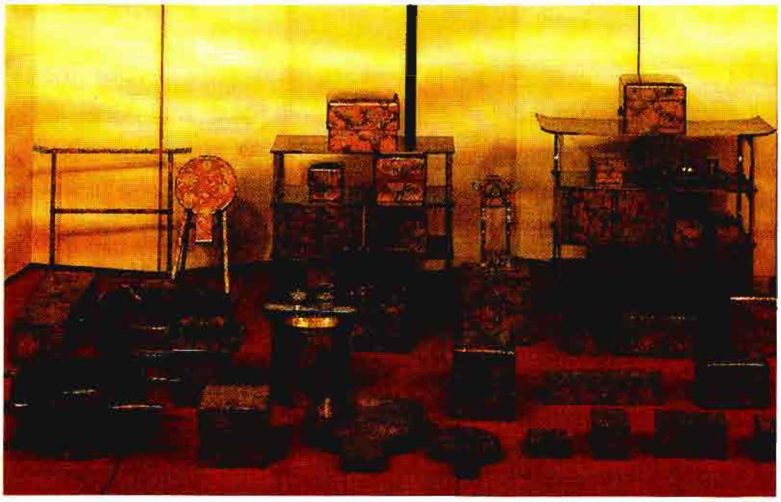
وقد استعمل الصينيون الأخشاب القاسية في صناعة أثاثهم كخشب الصندل

sandalwood والساج والخشب الوردي rosewood والبالسندر palixandre وأكثره مستورد من الهند الصينية.

كما استعملوا الخشب الأحمر والناميات الجذعية Burl (في الترصيع غالباً) وكذلك الخشب الذي يسمونه «جناح الديك»، ويستعمل الخشب الوردي خاصة في أكثر أنواع الأثاث لجمال مظهره ونعومته عند الإنهاء. ويعد الصينيون من أمهر صناع الأثاث وأكثرهم دقة صنعة. ويتعاملون مع الخشب على أنه جسم وروح، ويتقنون تناسب الخطوط والحنيات مع الحجم حتى غدوا قدوة صناع الأثاث في العالم. وأكثر مايلفت النظر في الأثاث الصيني لمعانه الذي يجتذب المشترين من أنحاء العالم. ويستخدم الصينيون في طلاء قطع الأثاث اللك والبرنيق varnish. ويعود استخدام اللك الأسود إلى عهد سلالة شانغ Shang (١٥٢٣-١٠٢٧ق.م) (١٧٦٦-١١٢٢ق.م) ويحتاج العمل به إلى دقة وصبر كبيرين، إذ تطلى به سطوح الأثاث طبقات قد تصل إلى ثلاثين طبقة وكل طبقة منها تحتاج إلى أسبوع أو أكثر كي تجف ليمكن وضع الطبقة التالية، وإذا ما حدث تشقق أو خدش بها أعيد العمل من أوله. ولم يقتصر الصينيون على اللك الأسود بل استطاعوا إنتاج ألوان أخرى منه كالأبيض والوردي والأخضر والأصفر والأزرق وغيرها، كما أضافوا إليها الذهب والفضة، وكانت لهم عناية خاصة بالزخرفة والتزيين إضافة إلى الحفر والتطعيم بالصدف والعاج، وقد عبر الرحالة العربي ابن بطوطة عن إعجابه الكبير بصنعة فناني كانتون التي زارها عام ١٣٤٥م، وهناك نماذج من الأثاث الصيني محفوظة في كثير من متاحف العالم.

٦ ـ الأثاث في اليابان

كان لتفضيل اليابانيين المنازل الخشبية الخفيفة ذوات الطابق الواحد على غيرها أثره في نوعية الأثاث عندهم وتطوره. فلم يعرف اليابانيون سوى أنواع قليلة من الأثاث المخصص لوظائف محددة. ويرى اليابانيون أن الترتيب الداخلي للمنزل مع الحديقة، التي هي جزء أساسي منه، يفي بالمتطلبات الجمالية والاجتماعية التي يوفرها الأثاث ومتمماته في المجتمعات الأخرى، والشرط الواجب توافره في جميع أنواع الأثاث الياباني هو سهولة النقل وخفة الوزن. يتألف البيت التقليدي الياباني



جهاز عروس ياباني من عصر أسرة إيدو Edo (ق ١٨م). جميع القطع مطلية باللك الأحمر والأسود ومذهبة مع تنزيل الفضة.



مكتبة يابانية صنع «كوامي ناغاشيما» (١٦٣٦م) مطلية باللك ومزينة بالرسوم.

من مبنى خشبي تقسمه من الداخل حواجز من ألواح جدارية متحركة مغطاة بالورق معلقة من الأعلى بسواكف وتنزلق في الأرضية الخشبية ضمن مجار خاصة، وهي تسمح على هذا النحو بتعديل شكل الغرف ومساحتها، وقد تستعمل لهذه الغاية حواجز جدارية حاجبة من ستة ألواح أو أربعة أو لوحين متمفصلة فيما بينها ويمكن طيها بحسب الرغبة كما يستعمل اليابانيون ستائر من عيدان الخيزران مثبتة من الأعلى ويمكن رفعها أو إنزالها عند الحاجة، والغرفة الرئيسية في البيت تدعى «توكونوفا» Tokonova وتكون مفتوحة على الحديقة على نمط «الليوان» في المنزل العربي ولها أبواب منزلقة تغلق في الأيام الباردة. ويجلس اليابانيون في هذه الغرفة على حشيات صغيرة أو حصر مستطيلة ملونة من قش الأرز تغطي أرض الغرفة وتسمى تاتامي Tatami، وقد تغلف بقماش سميك؛ أما قطع الأثاث التقليدية فأكثرها صغير الحجم قليل الارتفاع قابل للحمل portative أنيق المظهر ويشتمل عادة على طاولة خشبية منخفضة قابلة للطي أو ثابتة الأجزاء، وتكون عارية من لون الخشب أو مطلية باللك وتخصص للخدمات، كما يشتمل على متكإ ومنضدة للكتابة وأخرى للزينة وعلاقة ثياب ومجموعة من الرفوف، وأكثر هذه القطع يطلى باللك ومزخرف بذرور معدني أو يطعم بعرق اللؤلؤ.

لم تتبدل أشكال الأثاث الياباني على مر العصور إلا قليلاً، والمعلومات المتوافرة عن الأثاث القديم مأخوذة من الأوصاف الأدبية والصور والرسوم التراثية، إذ لم يتبق من أثاث الأزمنة القديمة إلا القليل النادر، ولعل أقدم قطع الأثاث الموجودة إلى اليوم صناديق مقببة الغطاء وطاولات مقتبسة من الأسلوب الإسباني والبرتغالي ومزخرفة بالأذرة المعدنية وعرق اللؤلؤ، يرجع تاريخها إلى مابين العامين ١٥٧٣-١٦١٨م وصنعت من أجل البرتغاليين، ولهذه القطع وما أنتج بعدها تأثير كبير في فن صناعة الأثاث الأوربي وزخرفته. ومع أن محاولات الصناع الأوربيين محاكاة النماذج اليابانية ليست في مستوى محاولات تقليد الصينيين، ولم يظهر أثرها إلا بعد إحياء عصر أسرة ميجي Meiji (١٨٦٠م) فإن أكثر الأثاث الأوربي

المقتبس عن اليابان يفتقر إلى اللمسة اليابانية ومعظمه من النمط الفيكتوري، وغالباً مايطلى بطبقات من البرنيق الكامد بديلاً عن اللك الأصلي.

وأما صناعة الأثاث وأنواعه في بلدان جنوب شرقي آسيا (أندونيسية، ماليزية، تايلند، فيتنام وغيرها) فقد تأثرت بالاتجاهات الشرقية التي استلهمتها من الهند والصين واليابان بالإضافة إلى التأثير الإسلامي.

٧ ـ الأثاث العربي والإسلامي

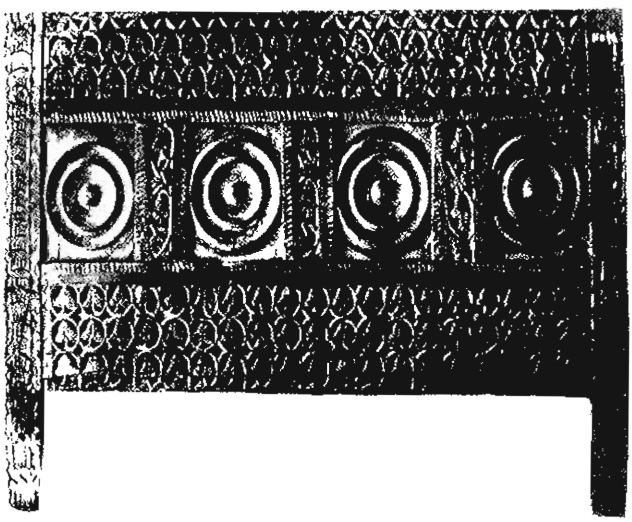
ليس ثمة تصور واضح ودقيق عن ما كانت تحتويه بيوت المدن العربية من أثاث وأدوات قبل الإسلام وفي صدر الإسلام، غير أن بعضاً منها حوى، ولا شك، كل وسائل الراحة التي كانت متوافرة في ذلك العهد. وتتحدث الروايات عن حياة بعض أثرياء الجزيرة العربية في الجاهلية ودرجة ترائهم وبذخهم، فكانوا يشربون بأوان من ذهب وفضة ويتفننون في مأكلهم ويستحضرون الخدم والحشم من الشام والعراق والعجم. وقد عرف العرب الزرابي (القطوع الحيرية الرقيقة أو هي كل مابسط واتكئ عليه) والبسط (ضرب من الطنافس طويل قليل العرض) والنمارق (ج نمرق وهي وسادة صغيرة يتكأ عليها أو وثيرة فوق الرحل). والطنافس (الثوب والحصير من سعف النخل عرضه ذراع) والحصر (جمع حصير وهي كل مانسج من جميع الأشياء والثوب الموشى الحسن)، وهناك ضرب من الطنافس الفاخرة يسمى الرحال اشتهرت به الحيرة. وكان الناس عامة يفرشون بيوتهم بالحصر المصنوعة من البردي والأسل أو خوص النخل. وأما الميسورون منهم فكانوا يفترشون البسط والزرابي المنسوجة ويتكئون على الوسائد. ويعد تقديم الوسادة إلى الضيوف من إمارات التكريم، وكانت الكراسي والموائد والأسرة معروفة ويستعملونها في مجالسهم، والسرير في عرفهم مايجلس عليه وينام فوقه ودلالة على الملك والنعمة. وهناك نوع من الكراسي وصف «بالخلب» قوائمه من حديد ومقعده من ليف مفتول صلب. وكان أهل مكة يستوردون الأثاث الراقي من بلاد الشام والعراق



منمنمة إسلامية تمثل ديوسقوريدس جالساًعلى كرسي مرتفع وقدماه على مرقاة، وأمامه طاولة. من كتاب الحشائش وخواص العقاقير (٦٤٧هـ/١٢٢٩م).



كرسي مصحف من الخشب المزخرف بالحفر البارز (آسيا الصغرى ـ ق٧هـ/١٣م).

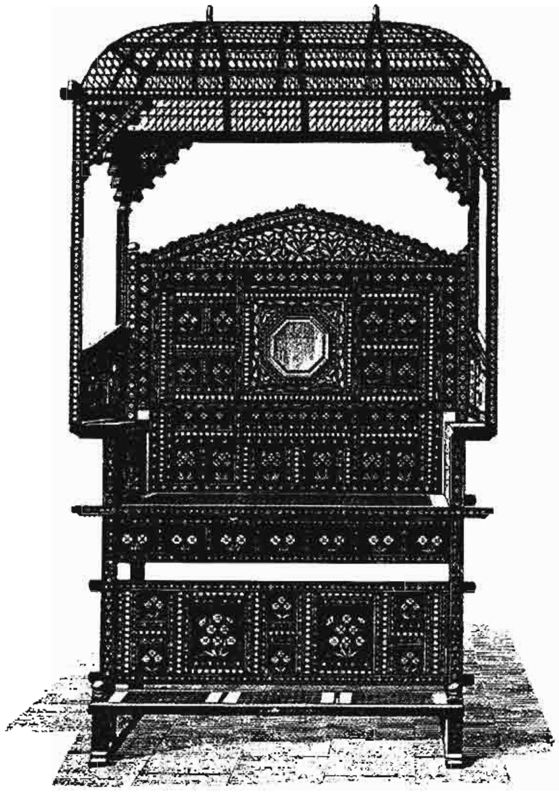


واجهة صندوق خشبي حفر بزخارف عربية إسلامية (مصر ق٢هـ/٨م).

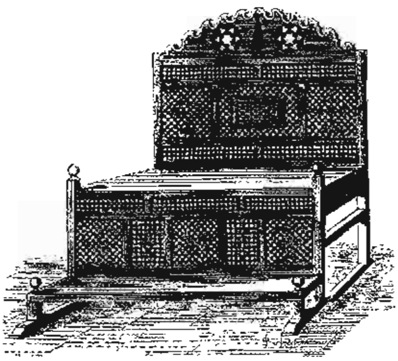
لما عرفت به هذه البلاد من حسن الصنعة والذوق، ويمكن معرفة أصول تلك الأشياء والأماكن التي استوردت منها من أسمائها. ويمكن أن يعد الهودج والمحمل والمحفة من أنواع الأثاث المستعمل في التنقل.

لم يتطور التقليد الأصلي للأثاث في الإسلام كثيراً عما سبقه كما حدث في الصين مثلاً، وقد كان الخشب على توافره بكثرة في المناطق الشمالية من إيران وآسيا الصغرى نادر الوجود في الأماكن الجافة الصحراوية كالجزيرة العربية، والأهم من ذلك أن العرب الفاتحين مع تأثرهم بمن جاورهم من الشعوب، حافظوا على كثير من تقاليدهم وعاداتهم ونقلوها إلى تلك الشعوب، وكان أكثر القبائل العربية التي شاركت في الفتح من البدو الرحل الذين يقطنون الخيام، وكانت ضرورات الحركة والتنقل تحول دون اصطحاب الأثاث الثقيل الكبير الحجم، وظل استعمال الزرابي والبسط والسجاد والحشيات والوسائد هو المفضل عندهم إضافة إلى قطع الأثاث الخفيفة السهلة النقل والقابلة للطي وصناديق الثياب.

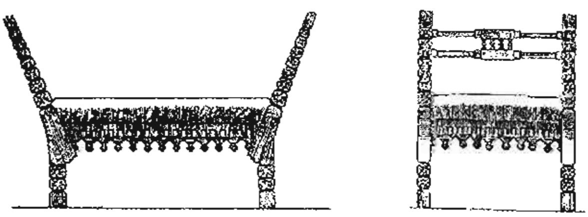
وبعد الانتقال إلى وضع الاستقرار والاستيطان ومحاكاة الشعوب المجاورة في طرائق عيشها بدأت تظهر إلى الوجود قطع أثاث معالجة بأساليب مميزة وتتناسب مع متطلبات الدين الإسلامي الذي امتدت رقعته من الصين والهند شرقاً إلى الأندلس والمغرب الأقصى غرباً ومن أقاليم القفقاس وآسيا الوسطى وصقلية وجنوبي إيطالية وجبال البرانس شمالاً إلى بحر العرب والمحيط الهندي وأواسط إفريقية جنوباً، وبلغ الفن الإسلامي أوج ازدهاره في القرنين السادس والسابع للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين) ثم بدأ يتراجع تحت تأثير النفوذ الغربي ومنتجاته بدءاً من القرن الثامن عشر، ومال الصناع المسلمون إلى تقليد تلك المنتجات تمشياً مع متطلبات عصرهم. ولم تكن مبتكرات أرباب الصنعة المسلمين من معماريين وصناع أثاث وتحف وخزافين ونساجين ورجاجين ومصورين وغيرهم من طراز واحد ولا من نمط واحد مع اختلاف الأقاليم والعصور وإن تشابهت أشكالها واستعمالاتها وموضوعات



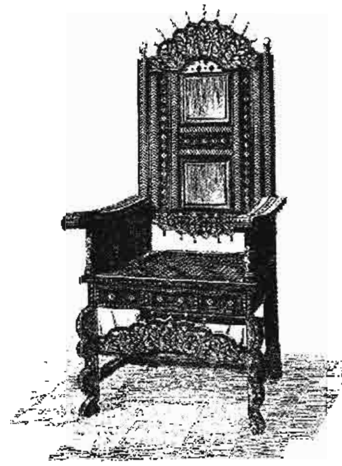
نموذج كرسي عرش إسلامي من الخشب المحفور والمطعم بالصدف بزخارف نباتية.



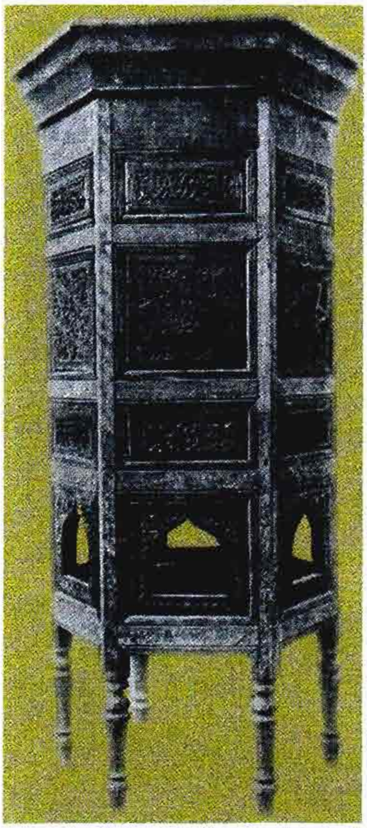
نموذج صّفة بمسند ظهر عال من الخشب المشبك مطعم بالصدف



نموذج كرسي بمسندين لليدين من الخشب المحفور.



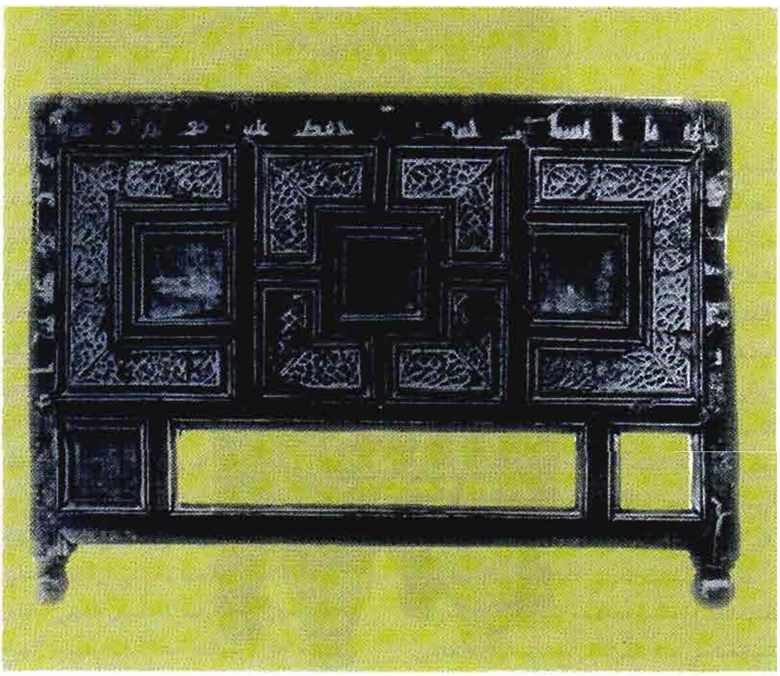
نموذج كرسي من الخشب المحفور مطعم بالصدف بظهر عال ومسندين لليدين.



طاولة مسدسة الأضلاع من الخشب المحفور من العصر المملوكي (ق٨ هـ/ ١٤م).

زخارفها، لأن الحرف والصناعات الفنية ظلت بعد انتشار الإسلام في يد أهل الأقاليم المفتوحة، وكان تطورها يسير وفقاً للمؤثرات الإسلامية من دون أن تفقد صلتها بتراثها المحلي، ويمكن تمييز أنماط الأثاث الإسلامي وطرزه من غيرها بسهولة ويسر على تباين تفصيلاتها وجزئياتها تبعاً للإقليم أو العصر فضلاً عن أن بعض أنواع الأثاث كانت تشتهر وتزدهر صناعتها في إقليم دون سائر الأقاليم الإسلامية لتوافر المواد الأولية أو مهارة أبناء ذلك الإقليم وخبرتهم المتوارثة.

أما أكثر قطع الأثاث انتشاراً في العالم الإسلامي فكانت المنبر والمحراب والرحل (كرسي المصحف) وكرسي الإمام، وكرسي الأمير والأريكة والسرير والتخت والكرسي ذو المساند والمقعد والطاولة والمنضدة وصندوق المتاع وعلب الزينة. وكان النوم والجلوس وتناول الطعام يتم عادة على الأرض المفروشة بالطنافس والزرابي الفاخرة والحشيات المطرزة، أو على مقاعد طويلة وأرائك وصفات مغطاة بالسجاد، أو أسرة منخفضة وتخوت تغطيها الحشيات والستر، وكانت الأغطية والفرش تكدس في زوايا الغرف أو في خزائن وصناديق، وكانوا يجعلون في الجدران كوات مستطيلة مفتوحة أو ذوات أبواب لرصف الكتب والأوراق والتحف والأواني الثمينة (الكتبيات). وكان عدد قطع الأثاث قليلاً في القصور والبيوت وقد عوض المعماريون والنجارون المسلمون عن جمال الأثاث بالتزيين المعماري للغرف وأولوه رعاية كبيرة، فكانوا يغطون الجدران والسقوف والعضادات بألواح خشبية محفورة أو مزخرفة وملونة تعد غاية في الروعة والفخامة، ويضيفون إليها حواجز حاجبة مخرمة وشعريات خشبية وأخصاصاً، وأكثرها مطعم بالصدف والعظم وعرق اللؤلؤ والخشب، أو مكفت بالفضة والذهب والعاج والأحجار الكريمة. واستعمل الجص الملون في تزيين الجدران الداخلية وكسوتها في كثير من البلدان الإسلامية، وخاصة إيران والعراق والشام. وكانت الزخرفة تقتصر على التزيينات النباتية والهندسية والكتابة العربية، وقد تعتمد أحياناً بعض الأشكال الحيوانية والطيور، إذ من المعروف أن من أولى ميزات الفنون الإسلامية بعدها عن تصوير الكائنات الحية، وكان الفنان المسلم

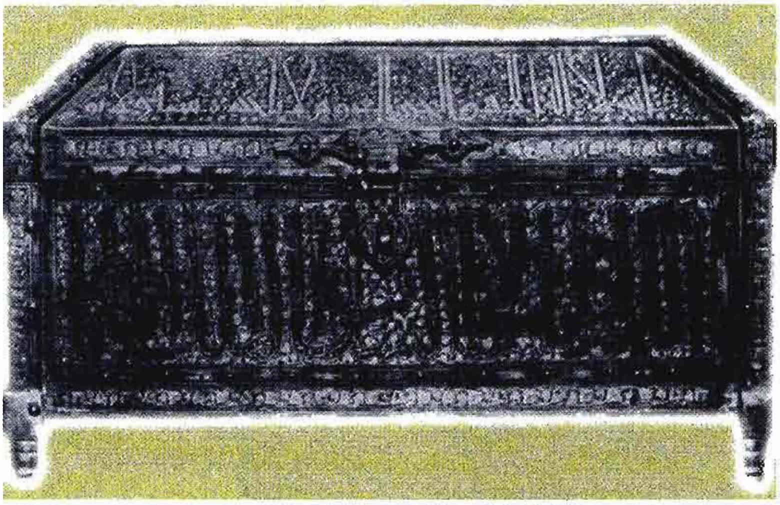


واجهة صندوق خشبي مزخرف ومطعم بالمعجون والعظم (مصر ق٣هـ/ ١٠م).

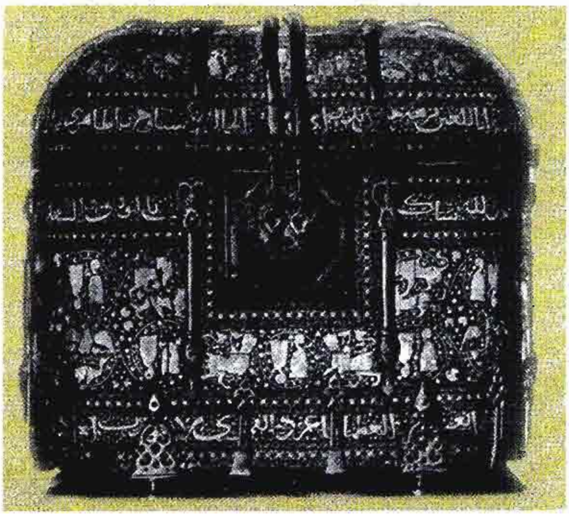
يهرب من الفراغ وينفر منه، فكان يسرف في استعمال الزخارف لتغطية الساحات والسطوح، ولا يؤمن بحصر الزخرفة في نطاق خاص بها، وقد تطلب ذلك منه تكرار عناصر الزخرفة إلى درجة تكاد تكون لا متناهية؛ مع عدم التركز على موضوع رئيس فيها. وقد تراكمت هذه العناصر وتمازجت في تشكيل زخرفي رائع الجمال انفرد به الفن العربي الإسلامي واشتهر في العالم كله باسم «أرابيسك» واستعملت في إنتاجه أدوات مختلفة وخاصة المخارط وأدوات التخريق والحفر على الخشب

أما أقدم طرز الأثاث الإسلامي فهو الطراز الأموي المتأثر بالأساليب الفنية التي سادت بلاد الشام قبل الفتح كالبابلية ـ الآشورية والآرامية ـ السريانية والهلينية والرومانية والمسيحية البيزنطية، ولم يبق من أثاث ذلك العصر إلا ماتذكره المصادر عرضاً. ويأتي بعد ذلك الطراز العباسي في بغداد وسامراء وبلاد العجم، وتبدو فيه المؤثرات الإيرانية إلى جانب المؤثرات الموروثة عن حضارات بلاد الرافدين القديمة وعن الأساليب الهلينية السلوقية، وقد بلغ هذا الطراز أوجه في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) ثم دب إليه الوهن بضعف الحكومة المركزية وتفرعت عنه طرز مستقلة إلى حد ما مع محافظتها على الطابع الإسلامي ومنها الطراز السلجوقي في النحت والزخرفة والعمارة وكذلك الطراز المغولي المتأثر بالأساليب الفنية الصينية والطراز الصفوي. ولقد ظل هذا الطراز هو الغالب في الأقاليم التي دخلها الإسلام من الهند حتى القرن السادس عشر حين ظهر طراز هندي إسلامي يجمع الخصائص المحلية مع العناصر المستمدة من الطرز السابقة .

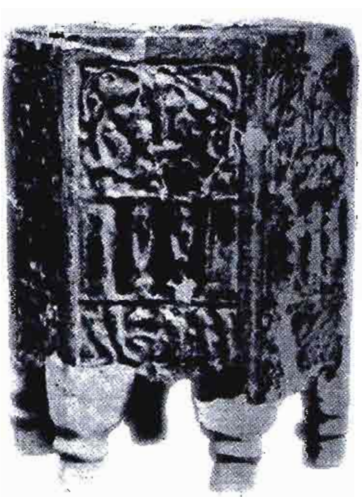
أما في مصر وبلاد الشام والمغرب فقد سادت طرز فنية في العمارة وصناعة الأثاث مميزة من غيرها، ومنها الطراز الفاطمي الذي ازدهر في مصر والشام وامتد تأثيره إلى صقلية وجنوبي إيطالية، ثم الطراز الأيوبي في مصر والشام وهو مرحلة انتقالية من الطراز االفاطمي إلى الطراز المملوكي الذي استمر من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر حين سيطر العثمانيون على الشام ومصر سنة ١٥١٧ وقضوا على دولة المماليك وفقدت الشام ومصر استقلالهما ومهرة الصناع فيهما، ومنذ ذلك العصر أصبح الأثاث



صندوق لحفظ أجزاء القرآن الكريم من الخشب المصفح بالنحاس مكفت بالذهب والفضة (مصر ـ العصر المملوكي).



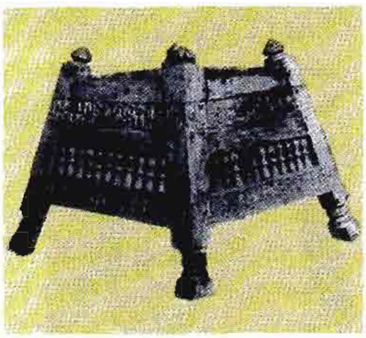
علبة زينة من الخشب المحفور المطعم بالعاج (صقلية ـ ق٧هـ/١٣م).



كرسي طاولة من الخزف المزخرف البارز (الرقة ـ ق٧هـ/١٣م).



صندوق صغير من الخشب المطعم بالعاج (الأندلس ق ٦هـ/١٢م).



كرسي خشب في مسجد بدير سانت كاترين (سيناء) يحمل اسم أمير من أمراء الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله (٤٩٠ - ٥٢٤هـ/١٠٩٧ - ١١٣٠م).

المنتج في آسيا الصغرى والجزيرة العربية ومصر يعرف بالطراز العثماني، وهو طراز إسلامي مطور عن الطرز السابقة، وقد أضيف إليه صبغ الخشب بألوان مميزة كالأخضر والأزرق والأحمر القانئ والتوشيح باللونين الذهبي والفضي، ودخلته المؤثرات الغربية من طرازي الباروك والروكوكو. وظهرت في دمشق منذ القرن التاسع عشر صناعة «الموزاييك» الخشبي لتغطية سطوح قطع الأثاث كالخزائن والصناديق وعلب الزينة والكراسي والأرائك والمقاعد والطاولات وألواح اللعب (النرد والشطرنج) .

أما في المغرب العربي فقد ظلت الأساليب الفنية القديمة قائمة هناك مع تأثرها بالفن الأموي ثم العباسي منذ القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) .

وبلغ الطراز الأموي في الأندلس ذروته في القرن الخامس للهجرة حتى ليمكن عده طرازاً أموياً غربياً ، وقد طور هذا الطراز في عهدي المرابطين والموحدين فعرف بالطراز الأندلسي المغربي وبلغ الأوج في غرناطة (الأندلس) ومراكش (المغرب) في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادي) وقد احتفظت مراكش وفاس بكثير من عناصر هذا الطراز في حين تسربت المؤثرات التركية والأوربية إلى الجزائر وقاومتها تونس زمناً طويلاً محافظة على طابعها المغربي الأصيل.

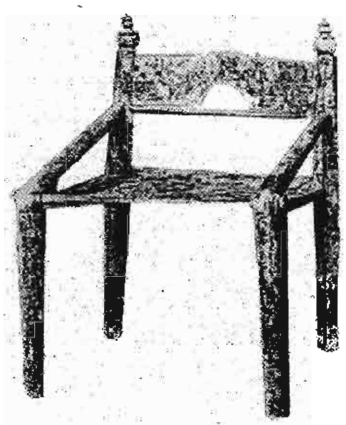
وكان الطراز الأندلسي المغربي مصدر إلهام للأساليب الفنية الإسبانية التي ازدهرت على يد المدجنين من العرب المسلمين الذين دخلوا في طاعة الإسبان، كما كان مصدر إلهام للجمهوريات الإيطالية قبل عصر النهضة وإبانه.

ولا تعني نسبة هذه الطرز إلى الدول التي بسطت سلطانها على هذا الإقليم أو ذاك من العالم الإسلامي أن الطراز المعني بدأ بظهور تلك الدولة وانتهى بانتهائها أو أنه كان محصوراً ضمن حدودها، إذ من غير الممكن تحديد تاريخ ظهور طراز جديد أو نهايته كما هو شأن تاريخ الدول، لأن هذه الطرز يتأثر أحدها بالآخر ويتطور بعضها من بعض فالفصل بينها اصطلاحي ولا يمكن تبين معالم طراز ما تماماً إلا بعد قيام الدولة المنسوب إليها بزمن كبير.

٨ ـ الأثاث الكلاسيكي القديم

اتفق المؤرخون وعلماء الآثار على إطلاق مصطلح «كلاسيكي» على العصور التي سادت فيها المؤثرات الهلينية ـ اليونانية (الإغريقية) والرومانية القديمة. وتعد الحضارة الهلينية اليونانية المصدر الرئيس للعلوم والفنون في الحضارة الغربية الحديثة.

أ ـ الأثاث عند الأتروسكيين: الأتروسكيون [ر] شعب قديم هاجر من مواطنه في آسيا الصغرى واستوطن إيطالية حيث أقام حضارة مميزة وترك آثاراً عظيمة ترجع إلى مابين القرن العاشر والقرن الثالث قبل الميلاد. وتبدي النواويس (ج ناووس) الإتروسكية المصنوعة من الطين المشوي صور نساء ورجال يضطجعون على أرائك متطاولة من خشب ذوات قوائم مربعة مدهونة أو مطعمة بأشكال تشبه أشجار النخيل والأزهار من معدن ثمين أو أحجار كريمة، وتبدو قائمتا الأريكة من جهة الرأس



كرسي من البرونز من عصر الأتروسكيين (ق٤ق.م)

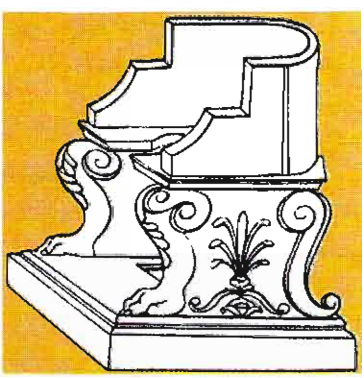
أطول من القائمتين من جهة القدمين، وقد زخرف رأساهما بعقد مزدوج. كما عثر على شمعدانات طويلة ثلاثية الأرجل وعلى قواعد ثلاثية الأرجل أيضاً تحمل مراجل من البرونز. وفي متحف اللوفر ناووس مزخرف على قوائم مستطيلة، وكرسي من البرونز من ذلك العهد.

ب ـ الأثاث عند اليونان: اعتاد اليونانيون القدامى في أوائل حضارتهم ممارسة مناشطهم وحياتهم اليومية في العراء وفي الساحات والمباني العامة، أما المنزل فكان للنوم والراحة فقط. وكان المنزل يتألف من عدة غرف تضم أثاثاً قليلاً يتألف من مقاعد وسرر وصناديق للملابس والأواني، وكانت تراعى في تصميم قطع الأثاث النواحي العملية أكثر من النواحي الجمالية. ويعد القرن الخامس قبل الميلاد العصر الذهبي لبلاد اليونان، وفيه أنتجت أروع قطع الأثاث التي تنسب إليهم. وقد كان للنقوش والرسوم الجدارية والأواني الزخرفية والنصوص الأدبية اليونانية التي حفظت إلى اليوم الفضل في معرفة تفصيلات أكثر عن الأثاث اليوناني ومنها عن الأثاث المصري والسوري القديمين.

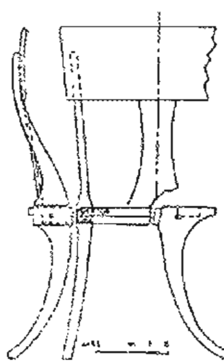
استعمل اليونانيون في صناعة الأثاث الخشب والبرونز والحجر وزينوا قطعهم بزخارف من طاقات الأزهار وأوراق الأقنثوس acanthus وأشكال نباتية وحيوانية أخرى، وكان «بسطاء» الناس يقتنون في بيوتهم مقاعد ثلاثية الأرجل وطاولات غير متقنة الصنع أما أكثر المواطنين ثراء فكانوا يقتنون أرائك من خشب أو مرمر مصممة وفق الطراز الأتروسكي فوقها حشيات ووسائد مغلفة بقماش حريري، وتدل الرسوم الموجودة على أواني الأزهار على أن هذه الأرائك كانت للرجال فقط يضطجعون فوقها على جنوبهم وتخدمهم النساء. ويتبين من المنحوتات اليونانية ورسوم الأواني وجود أنواع كثيرة من الأثاث القديم لعل أبرزها الطاولات وصناديق الملابس وعلب الزينة والأرائك والكراسي. وقد طور اليونانيون ثلاثة أنماط من هذه الكراسي هي: الكرسي الملكي (كرسي العرش) Thronos وهو كرسي قائم بذراعين له صفة رسمية ويزين غالباً بأشكال تمثل أبا الهول والغرفين Griffin (حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه سبع) والكرسي العادي Klismos وه



كرسي كليسموس يوناني مع مرقاة للقدمين
(حفر على المرمر على شاهدة قبر ـ ق٥ ق.م).



نموذج كرسي عرش thronos مدور الظهر مع مسندين لليدين.



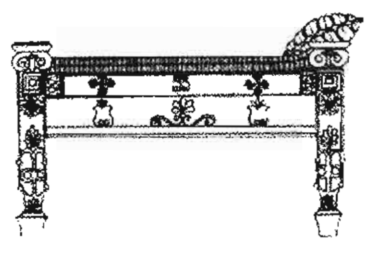
رسم تخطيطي لكرسي كليسموس يوناني



غرفة عرش من قصر الملك مينوس من مدينة كوسوس (كريت ـ ١٧٠٠ ـ ١٤٠٠ ق.م)

أخف من الأول وله قوائم محنية ومسند ظهر عال كثير التقعر.

وأما الكرسي الثالث فمقعد مربع Diphros من دون ظهر أو مساند له قوائم مخروطة متصالبة أو تصل بينها عوارض، وثمة مقعد مماثل أدق صنعة وقابل للطي يدعى Diphros Okladias. ويمكن القول إن الأثاث اليوناني تأثر بالأنماط المصرية والرافدية كما يلاحظ من الصناديق المزخرفة بقوائم السباع والطاولات المستديرة المحمولة على ثلاث قوائم غزلانية منحوتة كانت شائعة في اليونان، ويلاحظ هذا التأثير أيضاً في أشكال الأرائك الأولى التي تشبه الأسرة المصرية شكلاً ونمطاً. وكانت



نموذج أريكة مع مسند رأس من العصر اليوناني.

قوائمها تشبه قوائم الحيوانات ذوات المخالب أو الحوافر ومزخرفة برسوم محززة أو نحت نافر حلزوني. ومنذ القرن السادس قبل الميلاد غدت القوائم بارزة عن قاعدة الأريكة، ثم أصبحت لوحاً في أعلى السرير وآخر عند القدمين أخفض من الأول. وكلاهما مزخرف بنحت نافر يحمل ميداليات برونزية أو تماثيل نصفية لآلهة أو أطفال أو رؤوس طيور أو حيوانات.

جـ ـ الأثاث عند الرومان: اقتبس الرومان أثاثهم عن الإغريق والإتروسكيين والمصريين وشعوب المشرق وطوروه حتى غدا مميزاً خاصاً بهم، وقد أتاحت لهم الثروات التي غنموها من مستعمراتهم العيش بترف والمبالغة في زخرفة بيوتهم وأثاثها، ونقلوا عن شعوب تلك البلاد الكثير مما كان عندها، واستخدم الرومان في صناعة أثاثهم الخشب والبرونز والحديد والرخام، وبرع حرفيوهم في الزخرفة والنقش والتصوير والطلي بالذهب وتنزيل المعادن الثمينة والمرمر والعاج وقواقع السلاحف وقشور الخشب وأعمال الفسيفساء. ويدل إسرافهم في هذا المجال على أنهم كانوا يرون في الأثاث امتداداً لفن العمارة والنحت.

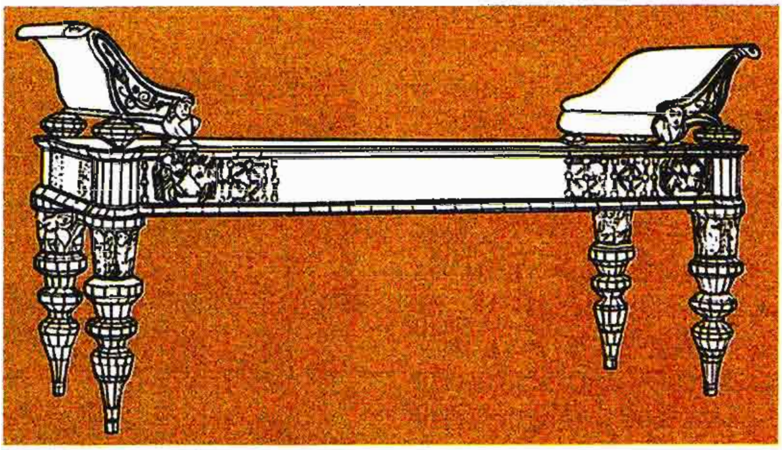
وعلى النقيض من المنزل اليوناني كانت غرف المنزل الروماني مصممة وفق الوظيفة المخصصة لها، فثمة غرف معدة للاستقبال والاحتفالات الرسمية، وغرف أخرى مخصصة للمعيشة اليومية أو النوم، وتدل السرر والخزائن الجدارية على أنها من المكونات الثابتة في الغرفة، وهذا ماتثبته خرائب بومبي Pompeii وهيركولانيوم Herculaneum في جنوبي إيطالية، وقد عثر في بومبي على فسيفساء جدارية تصور أشكال الأثاث المستعمل في المنازل الرومانية، كما صورت قطع الأثاث على شواهد القبور وحجارة النواويس، وحفظت بعض القطع المصنوعة من المرمر أو البرونز، لكن جميع قطع الأثاث الخشبية فقدت.

ومع أن الرومان استوحوا أكثر أنماط أثاثهم ممن سبقهم فقد أدخلوا عليها تنويعات مهمة، وابتكروا أنماطاً جديدة. فقد عدلوا شكل الأريكة اليونانية مثلاً بأن أضافوا إليها ظهراً مرتفعاً ومسنداً أو مسندين جانبيين مرتفعين، وابتكروا الأريكة النصف دائرية Sigma التي تستعمل في حفلات الترفيه وتتسع لثلاثة أشخاص.

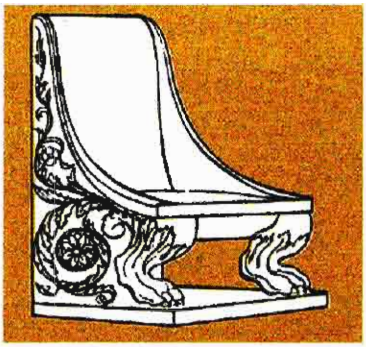


جرة يونانية من إتيكة تحمل صورة هرقل على أريكة وأمامه طاولة مستطيلة (٥١٠ ق.م)

أما الكراسي فقد تنوعت أنماطها وأشكالها، وأكثرها استعمالاً المقاعد المربعة الثابتة من دون ظهر، وقد طور الرومان الكرسي الملكي اليوناني فغدا أصغر حجماً وله مسندان للذراعين وظهر مستدير من قطعة واحدة مع المسندين وجلسته مربعة أو نصف دائرية وقوائمه على هيئة قوائم الحيوانات، وهو الكرسي المعروف باسم «سوليوم» Solium ومخصص لذوي المكانة الرفيعة. كذلك طور الرومان الكرسي «كليسموس» اليوناني فجعلوه أغلظ بنية وسموه «كاثدرا» Cathedra وصار مخصصاً



نموذج أريكة من الأثاث الروماني بمسندين.



نموذج كرسي عرش (كاثدرا)
من العصر الروماني .



طاولة مستديرة من البرونز المزخرف من العصر الروماني (معبد إيزيس في بومبي قبل ٧٩م).



طاولة مستديرة أو مقعد ثلاثي الأرجل على هيئة طائر اللقلق من العصر الروماني (ق٢ ق.م).

للنساء أساساً . وثمة كرسي آخر كان مخصصاً للقضاة وأصحاب المناصب يدعى سرج « كورول » Sella curulis ومقتبس عن اليونان، وهو كرسي قابل للنقل له إطار متصالب على شكل X وقوائم محنية وعليه حشية صغيرة مغلفة بالجلد أو بقماش ثمين.

كانت الطاولات الرومانية أكثر تنوعاً من اليونانية، وأكثرها شيوعاً الطاولة المستديرة أو المستطيلة المحمولة على ثلاث قوائم أو أربع والطاولة المستديرة أو المربعة المحمولة على قاعدة واحدة في الوسط، وكانت قوائم الطاولات عموماً على هيئة قوائم الحيوانات أو هيئة حيوانات مجنحة أو طيور، وقد عثر في مصر على طاولة من العصر الروماني من خشب مزخرفة برؤوس إوز رشيقة الأعناق تبرز من حزمة من أوراق الاقنثوس وتحتها قوائم وعل ذوات أظلاف دقيقة الصنع (محفوظة في متحف بروكسل) .

ومن أهم إسهامات الرومان في تطور الأثاث ابتكارهم الخزانة ذات البابين المطورة عن الصناديق المصرية واليونانية، وكانت تصنع من الخشب أو المعدن المطعم والمزخرف وتستخدم أصلاً لحفظ الدروع والأسلحة فعرفت باسم أرماريوم armarium (armoire) ثم صارت تستعمل لحفظ الأشياء الثمينة والنقود والأدوات المنزلية، ولحفظ الكتب.

٩ ـ الأثاث الكلاسيكي المتأخر

لم تتغير أنواع الأثاث المختلفة مع بداية انحطاط رومة في القرنين الثالث والرابع الميلاديين، وتبين الرسوم الجدارية والفسيفسائية كيف اقتبست الكنيسة المسيحية الكثير من أنواع الأثاث الروماني، فتحول الكرسي الملكي الروماني « كاثدرا » إلى كرسي عرش خاص بأصحاب المقامات الرفيعة في الكنيسة، كما يبدو في كنيسة أفامية في سورية وكرسي مكسيمليان في رافينة وعرش القديس بولس في رومة ويعود تاريخ كل من هذين الكرسيين إلى القرن السادس الميلادي وهما من القطع الضخمة الغنية بالنقوش والزخارف والمطعمة بالعاج، ومع انتقال عاصمة الامبراطورية الرومانية الشرقية إلى القسطنطينية (٣٣٠م) بدأت تطغى على الأثاث الروماني التأثيرات الشرقية والهيلينية وكثر استعمال المنسوجات الثمينة والمطرزة في الستائر والأغطية والفرش كما كثر التطعيم والتنزيل والترصيع بالصدف والعاج والأحجار الكريمة، والفرق الواضح والمميز للأثاث البيزنطي من الروماني هو قلة عمق الحفر وشموله كل سطوح قطع الأثاث.

الأثاث في العصور الوسطى

تبدأ العصور الوسطى في أوربة بسقوط رومة (٤٧٦م) وتمتد حتى بدايات عصر النهضة في إيطالية (القرن الخامس عشر)، ويمكن القول إن مابقي من أثاث تلك العصور قليل ونادر، ولكن المخطوطات المصورة والرسوم الجدارية والوثائق التجارية عن تلك الحقبة توضح بعض أنواع الأثاث وأنماطه التي كانت شائعة آنذاك. ويطلق عادة على فن العمارة والأثاث الذي أنتج في أوربة بعد تنحية آخر الأباطرة الرومان الغربيين رومولوس أوغسطس وحتى العام ١١٠٠م اسم الفن الرومانسكي Romanesque المتأثر بالفنون السورية . وقد شهدت أوربة إبان ذلك العصر تبدلات جوهرية نتيجة غزو شعوب « همج »

(الهون والقوط والتيوتون وغيرهم) مما كبح تطورها الحضاري، وانعكس تأثير ذلك على صناعة الأثاث الذي اقتصر استعماله على تلبية أكثر الاحتياجات تواضعاً ، وكانت البدائية سمته الغالبة مع استعمال المعدن في صنع بعض القطع كاملة وبحجوم صغيرة وقابلة للطي، وأهم قطع الأثاث الرومانسكي المقعد والخزانة المعدة لأكثر من غرض في آن واحد، فهي خزانة وصندوق وطاولة ومقعد، وتكاد تخلو من الزخرفة باستثناء بعض الأثاث الذي حوته القلاع والقصور ويتميز بالوانه البراقة وألقه، وفي هذا العصر استعملت القوس المستديرة المستوحاة من الشرق في العمارة. ولم يبق منها سوى قطع قليلة يعود أكثرها إلى زمن متأخر. ولعل سبب ذلك رداءة نوع الخشب وتلفه بالإضافة إلى أن قطع الأثاث كانت تصنع بأعداد قليلة نسبياً حتى بداية عصر النهضة.

مع إطلالة القرن الثاني عشر تبدأ حقبة جديدة في فن العمارة وصناعة الأثاث تعرف بالفن القوطي نسبة إلى قبائل القوط الشرقية والغربية التي غزت أوربة، وقد امتدت هذه الحقبة حتى القرن ا لخامس عشر في إيطالية والقرن السادس عشر في بقية أوربة، ويظهر أثر أسلوب العمارة القوطي في كل مناشط الحياة الأوربية التي تعود إلى ذلك العصر، ومن أهم سماته الأقواس المربعة العالية والزخرفة الشجرية



كرسي بإطارين متصالبين على شكل حرف X (فرنسة ق١٥م).

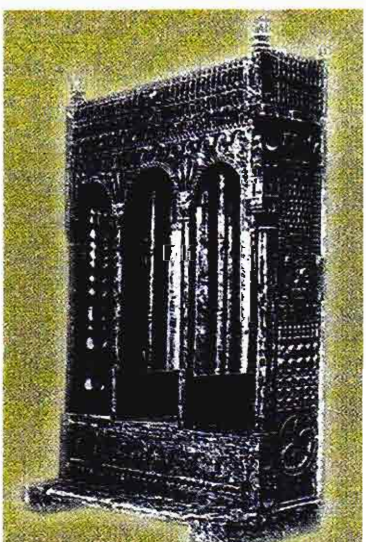


كرسي عرش الملك داغوبرت الأول.

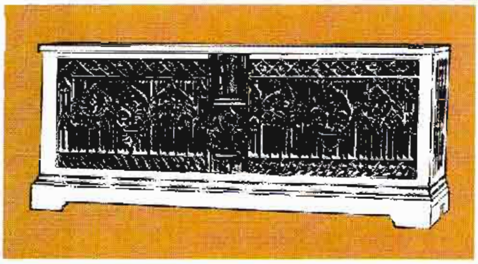
على الحجر stone tracery والنوافذ المخرمة المستديرة والزخارف النباتية والحيوانية والإنسانية وشعارات النبالة وتمثيل طيات القماش والستائر المسدلة حفراً على الخشب والحجر والمعدن، وقد انعكس ذلك كله في صناعة الأثاث من تلك الحقبة وخاصة في المناطق الواقعة إلى الشمال من جبال الألب، في حين قاومت إيطالية المؤثرات القوطية القوية، مع أنها خضعت للمؤثرات الإسلامية التي استوحت منها كثيراً من الأشكال النحتية وخاصة القوس المدببة والمستدقة والنصف دائرية.

ولم يكن عامة الناس في أوربة في ذلك العصر يمتلكون من الأثاث إلا ماندر، ومع أن قلاع الحكام والنبلاء وكبار رجال الدين وقصورهم وأديرتهم تختلف كثيراً عن مساكن العامة، فإن قطع الأثاث فيها كانت قليلة أيضاً. ولما كان أصحاب الإقطاعات يملكون أكثر من سكن ولا يملك الواحد فيهم سوى مجموعة أثاث واحدة فقد كانوا يصطحبون معهم كل مايمكن حمله عند تنقلهم من منزل إلى آخر، وكانت قطع الأثاث القليلة لا تكاد تكفي أصحاب المنزل، فكان الزائر مضطراً إلى أن يصحب سريره وكل مايلزمه من متاع حيثما حل، ولهذه الحقيقة تأثير مزدوج في أثاث ذلك العصر، فقد كانت ثمة ضرورة لمواءمة تصميم قطع الأثاث متطلبات التنقل إلى جانب صعوبة الحصول على أثاث يفيض عن الحاجة. وكانت الكراسي والمقاعد القابلة للطي والطاولات التي ترتكز إلى مناصب والسرر القابلة للفك والتركيب هي المفضلة إضافة إلى صناديق الملابس والمتاع. أما الأثاث الثقيل كموائد الطعام الضخمة والخزائن الكبيرة فكانت تترك في مكانها. وتستثنى من ذلك بيوت العبادة لأنها كانت تتمتع بضمانات كافية لم تكن تتوافر في أماكن أخرى. وكان أفضل أنواع الأثاث في تلك الحقبة يصمم خصيصاً للكنائس والأديرة التي كثر بناؤها آنذاك، ومن ذلك مقاعد المرتلين والمذبح وكرسي الأسقف ومقاعد المصلين وغيرها، وقد حفظ من ذلك العهد كرسي أسقفي في كنيسة القديس كليمنتين محفوظ في متحف برشلونة (إسبانية) غني بالزخارف المحفورة ويتألف من ثلاث جلسات تفصل بينها حواجز مخرمة في مقدمتها أعمدة تنتهي بعقود نصف دائرية.

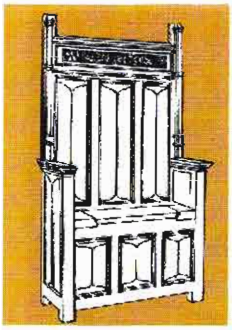
ويمكن القول إن كثيراً من الأفكار والتحسينات التي أدخلت في الأثاث المنزلي فيما بعد مستوحاة من الأثاث الديني العائد إلى ذلك العصر، وأدل مثال على ذلك قطع الأثاث المخصصة للقراءة والكتابة التي اقتبست عن مقاعد المرتلين، وكانت ألواح الخشب الرقيقة والضيقة المجموعة ضمن إطار واحد من التحسينات التي تبناها صناع الأثاث في العصور الوسطى من أجل تصميم السطوح المتسعة، بعد أن كانت تستعمل لهذه الغاية الألواح الكبيرة السميكة من قطعة واحدة القابلة للتشقق والانكسار.



مقعد ثلاثي في كنيسة سان كليمنتين من الطراز القوطي (إسبانية - ق١٢م).



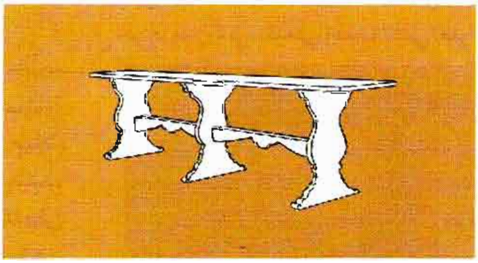
آ



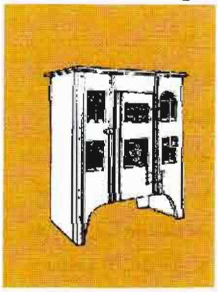
ب

نماذج من الفن القوطي:
آ ـ صوان للملابس.
ب ـ كرسي كاثدرا بمسند.
ج ـ خزانة متعددة الأغراض.
د ـ طاولة ثلاثية الأرجل.

د

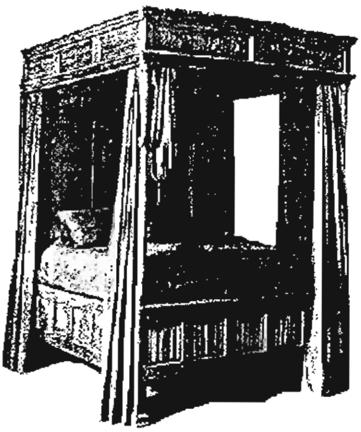


ج



كانت الضخامة سمة مميزة للأثاث القوطي عامة، وكان شكله مستطيلاً ويزود بأطواق ومفصلات معدنية كبيرة الحجم ومقابض للتقوية والزينة، وكان السرير غنياً بزخارفه المحفورة والنافرة وتحيط به ظلة وستائر، أما الكراسي فكانت قليلة جداً ويرمز استعمالها إلى رفعة المكانة والسلطان، وحتى البيوت الكبيرة لم تكن تفرش بأكثر من كرسيين اثنين أحدهما لرب الأسرة والآخر للزوجة، وربما وجد كرسي ثالث للضيوف من ذوي الشأن.

ولعل عبارة «صاحب الكرسي» الإنكليزية chair man (الرئيس) المستعملة اليوم مقتبسة من ذلك العصر، أما قاطنو المنزل الآخرون فكانوا يجلسون على مقاعد طويلة من غير مسند للظهر، أو على كراسي ليس لها مساند، أو على الصناديق المعدة سطوحها لهذه الغاية، وكانت الكراسي تصنع أول الأمر من عصي مخروطة مغزلية الشكل، ثم شاع استعمال الكراسي المتصالبة القابلة للطي على شكل X من الخشب أو المعدن، وكانت جلسة الكرسي ومسند ظهره يصنعان من شريط قماشي أو من الجلد المتين، وظهر بعد ذلك نمط جديد من الكراسي الثقيلة مطور عن الصندوق وجلسته متحركة تتيح استعمال أرضية الصندوق لحفظ الأشياء. أما مساند اليدين والظهر وكذلك قاعدة الكرسي فكانت تتألف من ألواح خشبية مزخرفة بالأسلوب القوطي، وكان الظهر مرتفعاً إلى درجة مبالغ فيها، وقد ينتهي بظلة غنية بالزخارف، أو يثبت إلى الجدار كما هو الحال في الكنائس.



سرير بظلة (فرنسة ـ نهاية ق ١٥ م).



صندوق مطعم بالمعدن على هيئة الحلزون (فرنسة ـ ق١٣ ـ ١٤ م).

وكانت الصناديق منوعة الأشكال وتعد أهم قطع الأثاث، فهي تستعمل لحفظ الأشياء الخاصة والمنزلية ولحفظ الثياب وللجلوس عليها كما تستعمل موائد للطعام، وأضيف إليها في القرن الخامس عشر أرجل أو قوائم أو قواعد ترفعها عن الأرض، ثم صارت لها أبواب أمامية أو جانبية ودروج ظاهرة أو مخفية بترتيبات متنوعة فتحولت إلى خزائن متعددة الأغراض أو خزائن خاصة ومنها خزائن الملابس وخزائن الأواني المنزلية buffet، وطور بعضها ليصبح خواناً لحفظ الطعام. وكانت الصناديق تصنع من ألواح الخشب الكبيرة المزينة بحفر غير عميق نافر أو غائر وأكثره شيوعاً الشكل المعروف باسم

« طية الكتان » linenfold الذي يشبه القماش المطوي وقد انتشر هذا النوع من الزخرفة وغيره من الزخارف القوطية في شمالي فرنسة والفلاندر والأراضي المنخفضة وألمانية واسكندنافية وإنكلترة ولكل منها خصائصها. وكانت أكثر قطع الأثاث الفاخرة في هذا القرن تطلى بالطلاء أو توشى بالذهب، كما كان بعضها يزين بقماش ثمين مثنى زاهي الألوان أو يزود بحشيات ووسائد، وقد استمر هذا التقليد حتى عصر النهضة.

الأثاث في عصر النهضة الأوربية

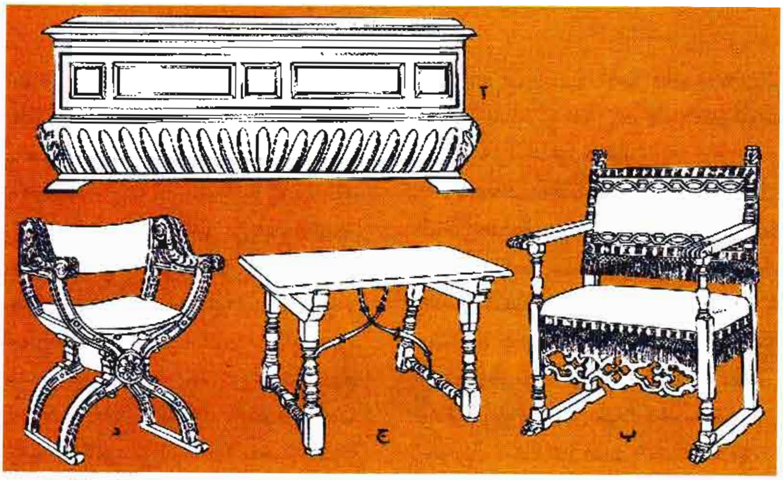
استلهم عصر النهضة، الذي بدأ ظهوره في إيطالية منذ القرن الخامس عشر، عناصره من الفنون الكلاسيكية اليونانية والرومانية التي كانت آثارها تملأ شوارع رومة والمدن الإيطالية الأخرى، وقد استمد المعماريون والحرفيون من تلك الآثار مبادئ التصميم والتناسب والتناسق بين العناصر المعمارية وانعكس ذلك على صناعة الأثاث في أوربة كلها.

١ ـ في إيطالية: كان للتبدلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المهمة التي شهدتها إيطالية في ذلك القرن أثر كبير في تبدل مفاهيم كثيرة. وأدى النشاط التجاري المتزايد إلى نمو عدد من المدن الإيطالية المهمة نمواً سريعاً فتضخمت ثرواتها وارتفع عدد الأثرياء فيها وظهرت فيها أسر حاكمة قوية نافست الكنيسة بثرواتها ونفوذها ورعايتها للفنون، كما نافستها في بناء القصور الفخمة واقتناء الأثاث الفاخر الذي بلغ درجة من الترف لم يبلغها أثاث آخر في العصور السابقة. ومع أن الانتقال من أثاث العصور الوسطى إلى أثاث عصر النهضة تم تدريجياً. فإن حرفيي عصر النهضة الإيطاليون بذلوا جهوداً كبيرة حتى توصلوا إلى إعطاء قطع الأثاث مظهرها المتناسق وخطوطها الدقيقة، وظهرت أولى علامات التغيير في تزيينات الأثاث.

ومع أن الأشكال المعمارية بقيت مفضلة في زخارف الأثاث المحفورة كما كانت في العهد القوطي فقد تبدلت موضوعاتها، وصارت تضم الأعمدة والقوصرات والأقواس وأشكالاً معمارية أخرى كتلك التي تشاهد في خرائب الآثار اليونانية والرومانية، أو تستلهم من الموضوعات الشعبية الأسطورية المجردة الموروثة من العهود الكلاسيكية كأبي الهول والغرفين والساتير satyr إضافة إلى الزخرفة العربية والحلية الدرجية scrolls وأوراق الأقنثوس والأطفال الملائكة وآلهة الحب (كيوبيد) والتماثيل الحاملة caryatid التي تقوم مقام الأعمدة.

وكانت زخارف الأثاث في بدء عصر النهضة محدودة وقليلة العمق جميلة التفاصيل، ثم ازدادت غنى مع مضي الزمن، وشاع معها التطعيم بالأخشاب الثمينة الملونة وبالعاج وبالأحجار الكريمة، ومنذ أواخر القرن الخامس عشر استعمل الجبس الممزوج بالغراء مادة متممة في الزخرفة النافرة والملونة. وأكثر الخشب استعمالاً في أثاث عصر النهضة خشب الجوز. وكانت القطع الكبيرة من الأثاث ترتكز إلى قواعد واطئة وتسند إلى الجدار عادة. وأجمل الأثاث ما كان يخصص لغرف النوم في القصور. إذ لم تكن تلك الغرف مخصصة للنوم فقط بل كانت تستعمل للقاءات الحميمة ولاستقبال الأصدقاء والزائرين، وكان السرير يزود في زواياه بأعمدة مزخرفة وتعلوه ظلة فخمة وتحيط به من الجانبين أصونة متطاولة تسمى كاسون Cassone أو « صندوق الزواج » مطورة عن الصناديق المعروفة في العصور الوسطى. وكان الصوان منها يزخرف عادة بأفاريز محفورة ومدهونة أو مطعمة.

أما موضوعات زخارفها فتشتمل على مشاهد من احتفالات الأعراس ومن الأساطير الكلاسيكية. وكثيراً ما كان ينفذ هذه الزخارف فنانون مشهورون، ويعد ما بقي منها إلى اليوم تحفاً فنية لا مثيل لها. وهناك نمط آخر مطور عن



نماذج من أثاث عصر النهضة

آ ـ صوان متطاول من طراز « كاسون ».
ب ـ كرسي من طراز « سيديا ».
ج ـ طاولة وسط.
د ـ كرسي من طراز « دانتي ».



صوان متطاول من عصر النهضة، من الخشب المغشى بالذهب ورسوم فنية (فلورنسة ـ ق١٥م).



صوان من عصر النهضة من خشب الجوز المحفور مع زخارف وحفر بارز كلاسيكي م مستوحى من النواويس الرومانية (شمالي إيطالية ـ ق١٦م).

الصندوق أيضاً يسمى « ردنزا » Redenza وهو خزانة مرتفعة ذات أبواب ودروج وتستعمل لحفظ الملابس والبياضات وأطباق الطعام والفضيات.

كذلك تنوعت الكراسي في عصر النهضة، فمنها الكرسي الكبير المسمى « سيديا » Sedia وهو كرسي ثقيل متطاول بذراعين يشبه كرسي العرش مقعده منجد ومغلف بالجلد أو المخمل. وهناك كرسي يدعى سافونارولا Savonarola وآخر يدعى دانتي Dante ولكل منهما ذراعان. وهما من الكراسي المعدة للاستعمال المنزلي ويتصفان برشاقة خطوطهما المنحنية وأطرهما المتقاطعة التي تشبه الكراسي القابلة للطي التي شاعت في العصر السابق، وثمة كرسي آخر خفيف يعرف باسم ساغابلو Sagabello على قاعدة تشبه الصندوق وظهر مرتفع ضيق نقش عليه شعار نبالة أو موضوع كلاسيكي ورصع بالعاج.

وفي القرن السادس عشر بدأ « الموزاييك » الخشبي والتطعيم بالخشب والترصيع بالعاج يزاحم الحفر النافر في تقنيات صناعة الأثاث الإيطالي. كما أصبح التنجيد بالجلد والمخمل أو بأقمشة مرقشة بالرسوم أو غيرها هو السائد. ومن مبتكرات عصر النهضة أيضاً الطاولة المنزلقة (التي يمكن زيادة طولها) والمكتبة الطويلة المزدوجة المزودة بغطاء متحرك يفتح إلى أسفل ولها أدراج وحجيرات متعددة.

٢ـ في إسبانية: احتصت إسبانية بنوع من الأثاث عرف باسم « مادخار » Madejar متأثر بالأسلوب المغربي العربي مع بقاء الظهر أوربياً إلا أن زخارفه شرقية الطابع.

وقد اقتبست إسبانية عن إيطالية الكثير من أنماط أثاث عصر النهضة وطورتها محلياً منذ القرن السادس عشر فجاءت أشكال الأثاث الإسباني بسيطة المظهر متينته مستقيمة الخطوط قليلة التفاصيل والزخارف مدعمة بأربطة من الحديد المضغوط. وكانت الطاولات والمقاعد والكراسي والصناديق تقوى بالحديد المشغول وتزين به، كما كان للسرر غالباً أعمدة من حديد ومساند من جهة الرأس مزينة بمسامير ذات طبقات تزيينية. وفي الأثاث الإسباني أثر واضح للفن الإسلامي يبدو جلياً في الأشكال الهندسية المعقدة والزخارف الزهرية المطعمة بالعظم وعرق اللؤلؤ والمعدن. وقد شاع في إسبانية استعمال الجلد المزخرف على نطاق واسع، ويعد الإسبان أول من استعمل خشب الماهوني (ماهوغاني Mahogani) في صناعة الأثاث الغربي. ولكن أخشاب الجوز والسنديان والزيتون كانت أكثر شيوعاً، وأكثر قطع الأثاث الإسباني شهرة خزانة تسمى « فارغوينو » Vargueno تستعمل لحفظ الأشياء الثمينة. ولها باب من خشب يفتح إلى أسفل ليستعمل طاولة للكتابة وخلف الباب حجيرات وكوات صغيرة مطعمة ومزخرفة بالنقش والرسم

٣ـ في فرنسة: كانت صناعة الأثاث الفرنسية أول من تأثر بعصر النهضة الإيطالي.

فقد أولع لويس الثاني عشر (١٤٦٢ـ١٥١٥) بمظهر الأثاث الإيطالي إبان زياراته المتكررة إلى إيطالية فاصطحب معه عدداً من الحرفيين الإيطاليين، وكذلك فعل كثير من أفراد حاشيته، ويمكن تقسيم أثاث عصر النهضة الفرنسي إلى مرحلتين، كانت المرحلة الأولى منهما مرحلة انتقال واقتباس. ففي عهد لويس الثاني عشر والقسم الأول من عهد فرانسوا الأول (١٥١٥ـ١٥٤٧) كانت قطع الأثاث قوطية الشكل عموماً أما تزييناتها فمختلطة تجمع بين الزخارف القوطية وتماثيل آلهة الحب والزخارف الأخرى



طاولة من الخشب مع أربطة من الحديد المبروم والمشغول (إسبانية ـ أوائل ق١٧م).

التي جاء بها عصر النهضة ـ وأما المرحلة الثانية فتبدأ من أواخر عهد فرانسوا الأول عندما حل الأسلوب الجديد محل الأسلوب القوطي نهائياً، وتخلت أشكال الزخرفة العربية arabesque المفعمة بالحيوية عن مكانتها إلى العناصر المعمارية الجديدة بعد أن كانت قد شاعت في أوائل عصر النهضة، وغلب خشب الجوز والأبنوس على السنديان. وتركزت صناعة الأثاث في فرنسة في هذه المرحلة في فونتنبلو التي أنزل فيها فرانسوا الأول حرفييه الإيطاليين، وكذلك في إيل دي فرانس وبرغندي.

اتصف الأثاث الفرنسي في القرن السادس عشر بأناقته ورشاقته وغناه بالتزيينات وخاصة التطعيم بصفائح المرمر المشكلة والأحجار النادرة والترصيع marquetry بالعاج وعرق اللؤلؤ والأخشاب الملونة الثمينة. وصار الكرسي أخف وزناً وأرشق مظهراً، ومسند الظهر فيه ضيقاً وحل محل المساند الخانبية والقاعدة المصنوعة

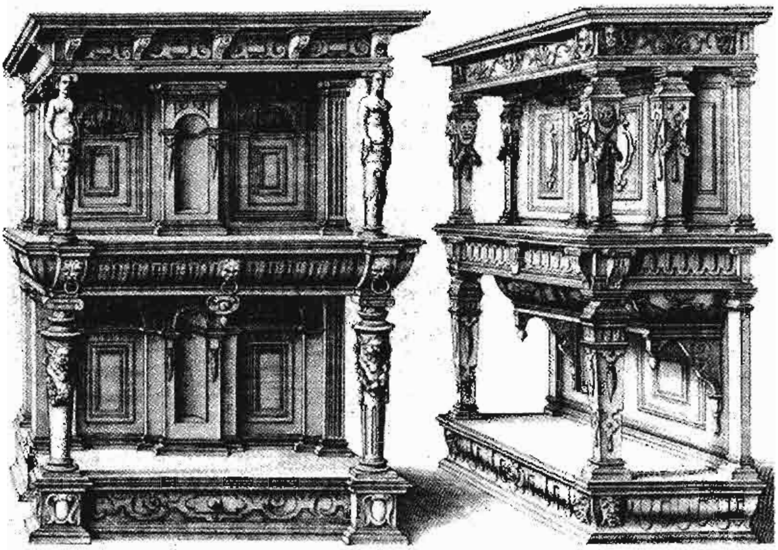
من ألواح الخشب ذراعان مخروطان ومزخرفان بالحفر، وأما قوائم الكرسي فربطت مع القاعدة بعوارض. وظهر إلى الوجود كرسي خاص سمي «كرسي الهمس» أو النميمة Caquetoire منخفض المقعد عالي الظهر ضيقه محني الذراعين يقال إنه صمم لجلوس السيدات وتبادل الأحاديث الحميمة.

أما الطاولات فقد كانت متطاولة أنيقة المظهر محمولة على كتيفات مزخرفة consoles أو أعمدة مخددة يربط بينها عوارض وتتوجها أعمدة وقناطر. وأما الصناديق المزخرفة بالأسلوب الجديد فقط ظلت مستعملة على نطاق واسع، وقد تكون الخزائن العالية بديلاً عنها، وكانت هذه الخزائن تصنع أحياناً من طابقين يضم العلوي منهما عدداً كبيراً من الأدراج الصغيرة.

٤ـ في الأراضي المنخفضة وألمانية :

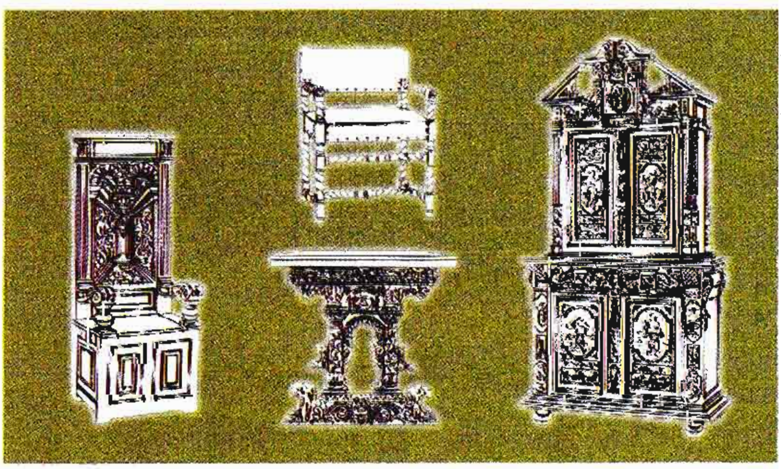
تبنى مصممو الشمال الأوربي في القرن السادس عشر زخارف عصر النهضة الإيطالي ونقلوها إلى بلادهم وطوروها حتى تحولت إلى نمط مستقل بذاته وخاصة في شمالي ألمانية والأراضي المنخفضة، وتميزت قطع الأثاث في هذه المناطق من غيرها بالحلية الشريطية المتداخلة أو المطوية وبالأطر المزخرفة والأقنعة المُنزَّل فيها الخشب، وكان الفنانون الألمان والفلمنغ يتبادلون فيما بينهم «كتالوغات» مصورة تحمل هذه الزخارف، وتأثر بها المعدنون والنحاتون والفنانون التشكيليون وصانعو الأثاث في المناطق الشمالية. ومن أبرز مصنوعاتهم طاولة ثقيلة من خشب السنديان بأرجل وعوارض ضخمة، وهي قابلة للإطالة أحياناً drawtable. كذلك كان السرير ثقيلاً مزيناً بستائر كثيمة لتوفير العزلة، إذ إنه قد يوضع في أي غرفة من غرف المنزل. أما الكراسي فالغالب فيها الكرسي الخشبي القابل للطي والمقعد المنخفض المخروط القوائم، بالإضافة إلى نمط جديد من الكراسي بقواعد ومساند تشبه «الدرابزين» أو العمود الملتف، وظهرها قائم مرتفع .

٥ـ في إنكلترة: لم يكن لعصر النهضة الإيطالي تأثير مباشر في إنكلترة حتى العام ١٥٢٠ سواء من ناحية التصميم أو الزخرفة. ولكن مرحلة تطوير متدرج من الأسلوب القوطي شهدتها إنكلترة متأثرة في أول الأمر



خزانة مكتب من طراز «ردنزا» من الخشب المحفور مرفوعة على أعمدة (عصر النهضة في الأراضي المنخفضة ـ أواخر ق١٦م)

بالأسلوب الإيطالي ثم بأسلوب الأراضي المنخفضة اعتباراً من منتصف القرن السادس عشر، فقد ظل الأثاث في بدايات ذلك القرن قوطي الشكل ثم بدأت تطغى عليه ملامح الزخرفة الإيطالية شيئاً فشيئاً، وثمة قطع كثيرة من عصر النهضة الإنكليزي المبكر تجمع بين الألواح الخشبية الثقيلة المزينة بطيات على شكل القماش والرؤوس المنحوتة على هيئة ميداليات وآلهة الحب (الكيوبيدات)، ولكن منذ منتصف ذلك القرن حلت محلها جميعاً زخارف وأشكال جديدة، وخف تأثير الفن الإيطالي المباشر ليحل محله تأثير الأراضي المنخفضة عن طريق الكتب المصورة وهجرة الفنانين والمصممين من تلك المناطق إلى إنكلترة، وعن طريق استيراد قطع الأثاث المصنعة في ألمانية والأراضي المنخفضة، وليتحول هذا الأسلوب في خاتمة المطاف إلى أسلوب إنكليزي منفرد وأهم مميزاته وفرة أعمال الحفر المتموج والخراطة والتطعيم والطلي التي تغطي كل جزء من سطوح قطع الأثاث، وهي الصفة الغالبة على عصر النهضة الإنكليزي. وفي عهد الملكة إليزابيث الأولى(١٥٥٨ـ١٦٠٣م) ارتفع مستوى الرفاه لدى الشعب الإنكليزي ارتفاعاً كبيراً في المنزل وخارجه، فتحسنت صناعة الأثاث وازداد تنوعاً . وظهرت البدايات التجريبية للأثاث المنجد، وهناك سلسلة من الصناديق المطعمة



نماذج قطع أثاث من عصر النهضة الفرنسي المتأثر بالإيطالي من الخشب المزخرف بحفر ناعم.

التي تحمل مشاهد معمارية اصطلح على تسميتها « الصناديق الفريدة من نوعها » inone such chests كانت تستورد من ألمانية أو يتولى صنعها حرفيون ألمان في إنكلترة. وقد كان لهذه الصناديق أثرها في إحكام تقنيات التطعيم التي طبقت في نهاية القرن السادس عشر على كل أنماط الأثاث.

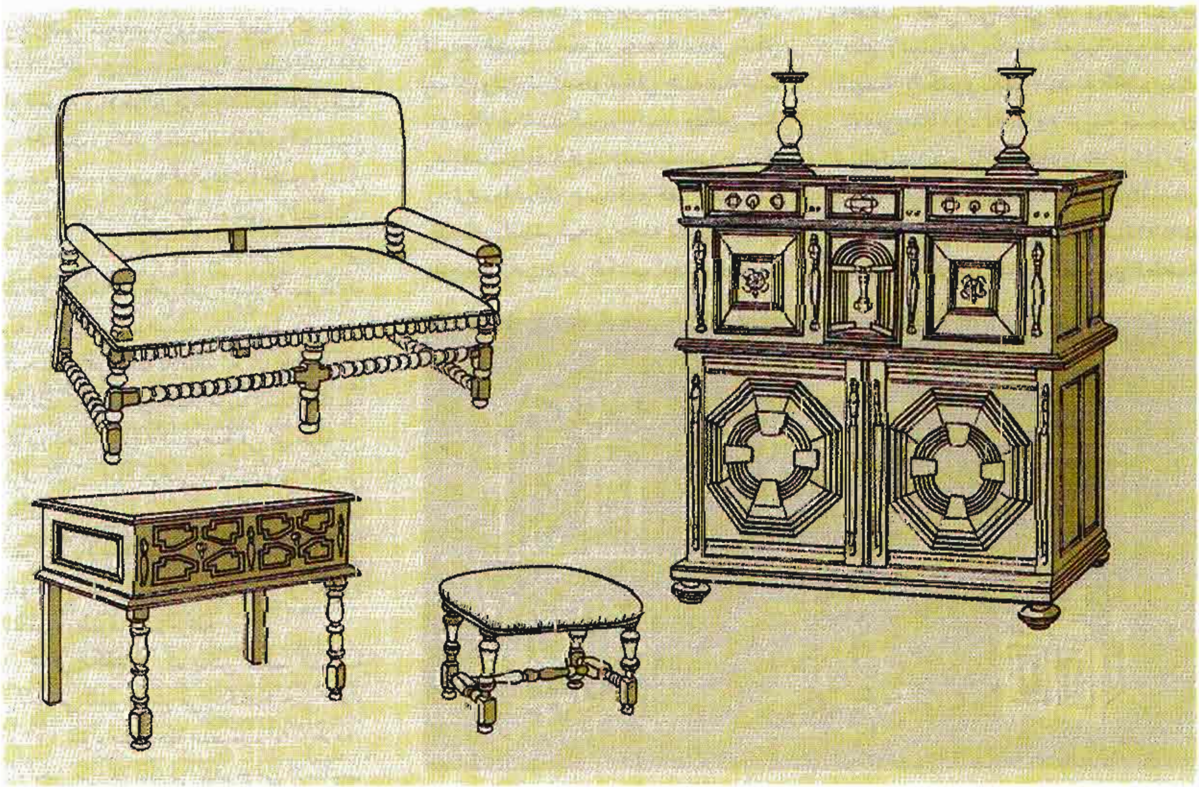
وبغض النظر عن هذا التحول في الزخرفة فقد شهدت إنكلترة تبدلات كثيرة في تصميم بعض أنماط الأثاث في القرن السادس عشر، إذ شاع استعمال الكراسي، مع أن المقاعد الخالية من المساند ظلت وسيلة الجلوس الأساسية حتى في قصور الملكة إليزابيث الأولى وجرى تطوير كرسي جديد من الكرسي الصندوقي فغدت مساند اليدين والقوائم فيه مخروطة خالية من الألواح التي تسدها، في حين ظلت مساند الظهر في الكراسي لوحية ومزخرفة بالحفر والتطعيم، كذلك كانت الكراسي القابلة للطي بأشكالها المختلفة شائعة الاستعمال. وفي أوائل القرن السابع عشر أحدث كرسي جديد منجد منخفض الظهر عريض المقعد ومن دون ذراعين سمي الكرسي المنتفخ Farthingale Chair لأنه يناسب « التنانير » العريضة المنتفخة التي كانت ترتديها النساء آنذاك. وكان القماش المستعمل غالباً من المخمل أو من المطرزات الشرقية.

وأما السرير فكان في أوائل القرن السادس عشر مرتفع الجانب الأيسر غنياً بالزخارف المحفورة وأكثر موضوعاتها تنزيل الخشب الثمين فيها والتماثيل الحاملة والزخرفة الشريطية والبصلية والدعامات المخروطة والمقنطرة والعقود المختلفة.

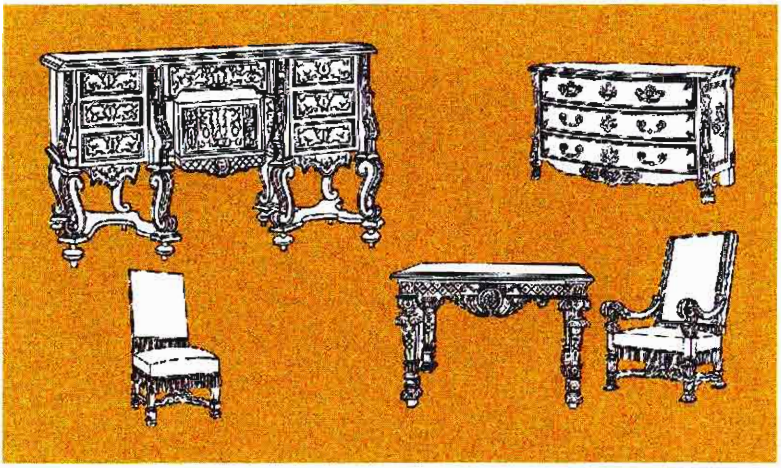
وأما الطاولات فقد حلت الطاولة الخفيفة Joyned Table محل الطاولة القوطية الثقيلة، وغدا ترسها مثبتاً بالإطار، كما أدخلت إلى إنكلترة الطاولات المنزلقة القابلة للإطالة بسحب لوحين مخفيين تحت الترس العلوي، وكانت قوائم الطاولات وجوانبها تزخرف بالحفر والتطعيم. كذلك أدخلت إلى البلاد في العهد اليعقوبي أنماط مختلفة من الخزائن وأغلبها من طابقين كما أدخل بدءاً من العام ١٦٢٠ نوع جديد من الصناديق البسيطة المزودة بأدراج.

الأثاث في عصر الباروك

ساد القرن السابع عشر أسلوب جديد في الفن والعمارة هو فن الباروك [ر] وقد ترك بصماته الواضحة على تصميم الأثاث في أوربة الغربية كلها، فغدت الخزائن والمكاتب والكتبيات الكبيرة شائعة وزودت جميعها بأعمدة ملتفة وقوصرات منكسرة وحليات كبيرة، وازدادت العناية بالتفاصيل الزخرفية حتى شملت كل جزء من التصميم الكلي للقطعة في حركة متناغمة وتناسق تام. وقد تبنت الأراضي المنخفضة أسلوب الباروك منذ عشرينات القرن السابع عشر، وشرعت ألمانية وإنكلترة في تطويره متأخرتين، وهو مدين للمؤثرات الشرقية التي اكتسحت أوربة كلها في ذلك القرن حين أقامت الدول البحرية الأوربية، ولا سيما البرتغال وهولندة وإنكلترة، علاقات تجارية منتظمة مع الهند والشرق الأقصى، ولم ينصرم القرن السابع عشر حتى كانت تقنيات الزخرفة الشرقية قد انتقلت إلى أوربة وتأصلت فيها، ومال الحرفيون إلى استعمال الأخشاب المدارية الثمينة والثقيلة،



نماذج أثاث من الطراز اليعقوبي (إنكلترة) مطور عن الأسلوب الإليزابيثي خطوطه المستقيمة من الخشب الثقيل المزخرف بالحفر وقوائم مخروطة وتنجيد فاخر.



نماذج أثاث من عصر الباروك (طراز لويس الرابع عشر) من الخشب المكسو بالقشر مع الحفر والتطعيم والتصوير والتزيين بقطع معدنية.



خزانة كتب من طراز الباروك من الخشب المطعم بأخشاب ملونة (فرنسة، ١٦٨١-١٦٨٣).



غرفة نوم من طراز الباروك (البندقية نحو ١٧١٨م).

وإلى تقليد الأسلوب الصيني خاصة والشرقي عامة في الزخرفة. ويرجع تاريخ أولى قطع الأثاث التي حملت ملامح أسلوب الباروك في الأراضي المنخفضة (الفلمنغ) إلى الربع الثاني من القرن السابع عشر، وأكثرها شيوعاً صوان الملابس المصنوع من خشب السنديان والمزود بأربعة أبواب، والكرسي المنجد الظهر والمقعد بالمخمل أو الجلد المثبت بالمسامير. ويمكن تمييز الأثاث الهولندي من الفلمنغي بوجود حواف مقولبة فوق الزخارف المحفورة إلى جانب مظهره المبسط. وقد شاع بعد ذلك استخدام الزخرفة بالتطعيم وكسوة السطوح بقشر خشب الجوز والطلاء باللك. أما إيطالية فقد تأخرت في تطبيق أسلوب الباروك على الأثاث حتى منتصف القرن السابع عشر مع أنها كانت من السابقين إلى استخدامه في العمارة والتصوير والنحت. وقد أنتجت إيطالية قطع أثاث محفورة ومطلية ومرسومة بأسلوب متماوج، ومزخرفة بموضوعات تقليدية كآلهة الحب وورق الأقنثوس والصدف واللفائف المتغضنة، كما أنتجت كراسي ومقاعد منجدة ومغلفة بالمخمل المقطع الملون، وطاولات سطوحها من المرمر أو الفسيفساء Pietra dura وخزائن ومكتبات أنيقة من خشب الجوز والأبنوس تعلوها قوصرات وأفاريز وزوايا مزخرفة بالحفر أو مطعمة بالمرمر أو الفسيفساء في قوالب.

وقد تمثل الفرنسيون التأثيرات الإيطالية إبان القرن السابع عشر تدريجياً، وبدأ يظهر لديهم أسلوب محلي متميز سرعان ما مد تأثيره إلى البلدان المجاورة. وكان عهد الملك لويس الثالث عشر الذي شمل النصف الأول من القرن السابع عشر مرحلة انتقالية، وقام لويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥) بعده بتأسيس معمل الغوبلان Gobelin (١٦٦٣) لإنتاج الأثاث الفاخر من أجل فوش القصور الملكية والمباني العامة.

وكان الأثاث يكسى عموماً بقشر الخشب المستورد أو قواقع السلاحف وينزل فيه النحاس والبيوتر pewter (أشابة معدنية أساسها القصدير) والعاج وتموه كلها، وقد تغشى أحياناً بالذهب أو الفضة النافرة، كما استعملت في صنع الأثاث الأخشاب الثمينة المتعددة الألوان. وقد اشتهر فنانون فرنسيون كثيرون بإتقانهم هذه الصنعة وأضافوا إليها لمسات تخصهم حتى



طاولة بأدراج طراز لويس الرابع عشر من خشب الجوز المكسو بالقشر الثمين المرصع بالماركتري وقواعد السلاحف والنحاس، مع حوامل من البرونز المذهب وسطح من المرمر الأخضر.

اقترنت بأسمائهم، ومنهم شارل لوبرن Charles le Brun رئيس معمل الغوبلان (١٦٦٣) وأندره شارل بول Andre Charles Boulle الذي كانت الخزائن والمكتبات التي يصممها تغطى كلية بقواقع السلاحف وزخارف النحاس المُنزّل فيها بأشكال معقدة وأسلوب بارع، فكانت القواقع تشكل مع النحاس الأرضية والنموذج الزخرفي



خزانة ثقيلة ببابين في كل باب ستة ألواح حشوة مزخرفة (فرنسة - ١٧م).

بالتناوب، وهو ما عرف عند أصحاب الصنعة بأسلوب بول، ومن مستحدثات هذا العصر في فرنسة الحشية الإضافية فوق الجلسة المنجدة في المقاعد والكراسي.

أما إنكلترة فلم تعرف أسلوب الباروك إلا بعد عودة الملكية Restoration (١٦٦٠م) وشهدت البلاد منذئذ تطوراً كبيراً في صناعة الأثاث الإنكليزي بتشجيع من الملك ورجال الحاشية العائدين من المنفى ومعهم عشرات المهنيين من الفرنسيين والهولنديين، فصار الأثاث أخف وزناً وأتقن صنعة وأكثر تلاؤماً مع متطلبات الزبائن، وكان خشب الجوز يحتل المكانة الأولى مع استمرار استعمال خشب البلوط والسنديان في المقاطعات الريفية لأجيال عدة، وطبقت أساليب جديدة في تلبيس السطوح الكبيرة بألواح رقيقة من الخشب مزينة بنماذج زهرية مرصعة بأسلوب الماركتري Marquetry، وكانت كبيرة مبسطة في بادئ الأمر ثم صارت تميل إلى الصغر والتعقيد حتى انتهت إلى طراز خاص من هذه الزخارف المرصعة المكونة من لفائف صغيرة كثيرة عرفت باسم «ماركتري طحالب البحر» Seaweed marquetry. كذلك ظهر الميل إلى تلوين الأثاث وصبغه باللك تقليداً للأثاث الشرقي المستورد من الصين واليابان. وكلف به الناس حتى صار يعرف بالأسلوب الإنكليزي - الياباني (كان تقليد الطلي باللك الشرقي في إنكلترة ينسب إلى اليابان). وبدأت تخرج إلى الوجود أشكال جديدة من الأثاث منها: السريرالنهاري، وهو نوع من الأرائك يمكن تعديل شكل نهايته، والكرسي المجنح، والكرسي المغلف ذو المساند الذي أطلق عليه في القرن السابع عشر اسم كرسي النوم Sleeping Chair، ثم «الصوفا» Sofa (الصفة) التي ظهرت في أواخر القرن المذكور ولها ظهر ومساند لليدين توفر مزيداً من الراحة.

وكان المخمل والحرير والقماش المطرز المواد المفضلة في التغليف. كذلك تطورت نماذج مختلفة من الأثاث المعد للمكاتب منها المكتب الذي يضم مقعداً وتقسيمات داخلية وأدراجاً صغيرة، وعمّ استخدام الصناديق ذوات الادراج، ولم تعد المرايا من الأشياء النادرة، وكانت أطرها تزخرف غالباً بالحفر أو الترصيع وتطلى باللك. أما الأسرّة فقد ازدادت ارتفاعاً وسعة وغلف ظهرها وظلتها وأطرافها بالقماش الفاخر، وجعلت لها أفاريز مقولبة أعطيت شكل ريش النعام أو آنية الأزهار عند زوايا الظلة. وفي أواخر القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر شاع في إنكلترة صنع الأثاث المحفور والمموه بالذهب من طراز لويس الرابع عشر، ومال المصممون والصناع إلى التخفيف من الزخارف والتعقيد الذي تميز به أثاث عصر الباروك. وفي عهد الملكة آن ظهر طراز جديد في صناعة الأثاث الإنكليزي متأثر بالأثاث الهولندي، وتميز من سابقيه باختصار أعمال الحفر والزخرفة إلى الحد الأدنى، مع العناية بجمال القطعة بالاعتماد على دقة الخطوط المنحنية ولون قشر خشب الجوز ورشاقة القوائم المحنية التي تشبه قوائم الحيوانات وتنتهي بمخالب فوق كرة أو بأظلاف مع الاستغناء عن العوارض بينها، وصار للكرسي ظهر مطوق قائم وسناد طويل يشبه آلة الكمان، ومال الناس إلى اقتناء الخزائن العالية والمكاتب المزودة بالرفوف والصناديق المزدوجة ذوات الادراج و«البيرويات» Bureaus ذوات الطابقين لمواءمتها لمتطلباتهم، كما ظهرت طرز جديدة من طاولات المائدة واللعب وغيرها.

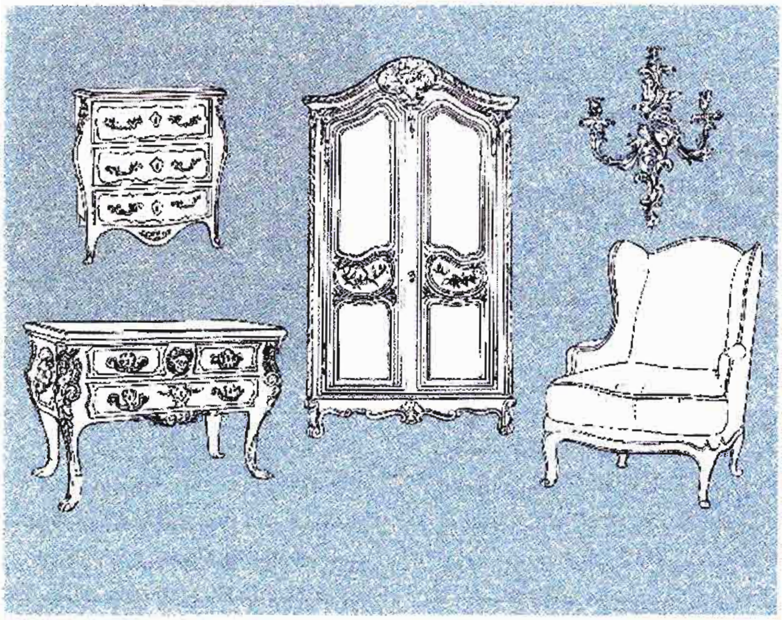
وفي أمريكة كان الأثاث الشائع بادئ ذي بدء في كل مستعمرة من المستعمرات الأمريكية متطابقاً مع ما اعتاده سكان تلك المستعمرة في

مواطنهم الأصلية . وبسبب توافر مواد جديدة في تلك البلاد بالإضافة إلى تأخر وصول الأنماط المستجدة من الأثاث الأوربي بدأت تظهر في أمريكة أساليب وأنماط من الأثاث لا رابط بينها، وتشير الدلائل المتوافرة من بدايات القرن السابع عشر إلى وجود أشكال مبسطة من المقاعد والأنضاد والطاولات والخزائن والقليل من الكراسي وأكثرها مصنوع من السنديان وفق النمط الإليزابيثي وقليل الزخارف وبلون التراب . ومع نهاية ذلك القرن شاع استعمال خشب الصنوبر والقيقب maple وغيرهما . ولما كان المستوطنون الهولنديون والاسكندنافيون قد جلبوا معهم بعض الأثاث الفردي من بلادهم، فقد ظهر في أمريكة في نهاية القرن السابع عشر طراز من الأثاث المختلط يجمع بين تأثيرات الدُّرجة mode الفرنسية والهولندية وطراز الملك جيمس ستيورات المتأخر، ومنذ ذلك الحين بدأت المستعمرات تتابع آخر ماظهر من دُ رجات، مع أن البيت العادي الأمريكي ظل محافظاً على الأثاث التقليدي المأخوذ من العصور الوسطى . فاستبدل بالصندوق العادي



صندوق حفر خشب من السنديان الأبيض والأحمر (المستعمرات الأمريكية ١٦٦٠ - ١٦٦٨) .

الصندوق ذو الأدراج الذي كان يوضع عادة على منصب خشبي قوائمه مخروطة . وحلت الكراسي محل المقاعد والأنضاد، وظهر سرير القيلولة المنجد والطاولة القابلة للطي وخزانة الكتب وخزانة الأواني، واستخدم اللون بدلاً من الحفر في تزيين القطع بالدهان وقشر الخشب والتطعيم بالأخشاب المتباينة الألوان أحياناً والمعادن أحياناً أخرى، ورافق ذلك استخدام القوائم المحنية (المقوسة) إلى الأمام أو الخلف في أكثر تلك القطع، وكانت في بادئ الأمر تزخرف بحفر قليل ثم غدت السمة الرئيسية



نماذج أثاث من طراز الروكوكو (لويس الخامس عشر) .

في قطع الأثاث الموسومة بطراز الملكة آن Queen Ann Style وظلت سائدة في المستعمرات الأمريكية حتى الثورة الأمريكية .

القرن الثامن عشر وعصر الروكوكو

شهد القرن الثامن عشر ظهور عدة أنماط من الأثاث الغربي وكانت الريادة فيه لفرنسة وإنكلترة . بيد أن المؤثرات الفرنسية كانت هي الغالبة طوال ذلك القرن وخاصة الأسلوب الجديد الذي انطلق من فرنسة وأطلق عليه اسم « الروكوكو » Rococo وهو اسم مركب من كلمتين فرنسيتين Rocailles (الرصف بالحصى) وCoquille (الصدفة) ويقصد به تواتر استعمال هذين الموضوعين وأشباههما في تزيين الأثاث بالإضافة إلى موضوعات الأزهار والطيور واللفائف وأوراق النباتات والشرائط في خطوط منحنية لا متناهية، وقد يضاف إليها موضوعات أخرى مثل رسوم الحمام والكيوبيدات (آلهة الحب) والرعاة والساتيرات (آلهة اللذة عند الإغريق) والأشكال الرمزية الأخرى . وهناك أيضاً تصاميم من نمط الروكوكو مستوحاة من موضوعات صينية ومن أشكال القرود اللاهية Siugeries ، وكل هذه الموضوعات كانت تنفذ بالحفر والتطعيم والترصيع والطلي باللك الملون وبالإضافات المزخرفة من النحاس المذهب وغيره من دون اعتبار لنوع قطعة الأثاث وشكلها .
وكان ظهور أسلوب الروكوكو في فرنسة متدرجاً إثر مرحلة انتقالية قصيرة سميت أسلوب عهد الوصاية Regency . فبعد وفاة الملك لويس الرابع عشر عام ١٧١٥م جلس على العرش في فرنسة حفيده الصغير السن لويس الخامس عشر يرعاه وصي هو فيليب الثاني دوق أورليان، واستمر الأمر على هذه الحال حتى العام ١٧٢٣ عندما بلغ لويس سن الرشد، وفي عهد الوصاية هذا تبدل مظهر الأثاث من الشكل المربع الفخم



كرسي بذراعين منجد طراز لويس الخامس عشر مغلف بسجاد مصور .



صوان مقبب بدرجين من الخشب المزخرف بالنحاس المذهب،صنع شارل كرسن (عصر الوصاية الفرنسي).

بخطوطه المستقيمة الذي تبناه لويس الرابع عشر إلى أشكال أكثر ليونة ورشاقة. ومع أن حجوم قطع الأثاث ظلت كبيرة وغنية بالزخارف فإن خطوطها غدت أكثر انحناء وتناسقاً وانسياباً، وصارت القطع أخف وزناً وأقل تناظراً، وحلت الأخشاب الخفيفة محل خشب السنديان والجوز، واستعملت في كسوتها قشور الخشب الفاتحة الألوان. ومن أبرز صناع الأثاث الذين أسهموا في رسم تصميمات عهد الوصاية شارل كرسن Charles Cressent الذي احتلت الإضافات المزخرفة من النحاس المذهب ormolu مكانة مهمة في أعماله حتى إنها زاحمت «الترصيع» بالخشب الملون والأبنوس. أما السمة الرئيسية لأثاث عهد الوصاية والروكوكو فكانت سيطرة الخطوط المنحنية على أشكال القطع وزخارفها، ولم تقتصر الانحناءات على الأجزاء الخارجية من القطعة كالمساند والقوائم بل تعدتها إلى جميع أجزاء القطعة، فلا يجد الناظر إليها أي خط مستقيم، ومن أشهر قطع الأثاث التي تحمل هذه السمات الصوان المقبب ذو الأدراج Bombe Commode الذي ظهر أول مرة في عهد الوصاية.

تغلب أسلوب الروكوكو المطور عن أسلوب الوصاية بالتدريج على صناعة الأثاث الفرنسي بدءاً من العام ١٧٣٥ واستمر حتى العام ١٧٦٥، ومن أشهر المصممين الفرنسيين في هذا المجال جوست ميسونيه Juste Meissonier وهو صائغ ونحات ومعمار عمل في خدمة لويس الخامس عشر وكذلك جان فرانسوا أوبن Jean- Francois Ocben الذي عين «صانع أثاث الملك» عام ١٧٥٤، وكان أشهر صانع أثاث في تلك الحقبة.

ومن أهم سمات هذه المرحلة أن استبدل بالأثاث الضخم أثاث أصغر حجماً يتناسب مع التوزيع المعماري الداخلي الجديد، فقد تحولت الصالات الرحبة والأبهاء الواسعة المنفتح بعضها على بعض إلى غرف وقاعات مقسمة أصغر حجماً تناسب الوظائف المخصصة لها، وصار في وسع رواد الصالونات الجلوس والاتكاء على الأرائك بدلاً من الوقوف، كما كان يحدث في بلاط لويس الرابع عشر. وكان الكرسي في عهد الوصاية قصير القوائم مقنطر الظهر، أما الكرسي المنسوب إلى الملك لويس الخامس عشر (لويكانز) فغدا أصغر حجماً وأكثر إراحة وملاءمة لجسم الإنسان ومتسقاً مع حجم الغرف، وغدت قوائم الكرسي أوثق اتصالاً بقاعدة مقعده وظهره ومسندي اليدين، فكان الكرسي يؤلف وحدة متكاملة. وظهر في هذه الحقبة أنواع كثيرة منها كرسي منجد كله باستثناء إطاراته المحيطية سمي «برجير» Bergere بأرجل محنية أو على شكل حرف S، وظهر عال ومسندي يدين متصلين بالظهر، وأضيفت



كرسي بيرجير (فرنسة ق١٨م).

إلى جلسته حشية إضافية من الحرير أو المخمل محشوة بالريش أو القطن أو الصوف. وهناك أيضاً الكرسي الطويل «شيزلونغ» Chaise Longue المخصص للتمدد والاسترخاء، والدوقية (الماركيزة) duchesse وهي «أريكة» صغيرة على هيئة الغندول لشخصين على شكل الكلوة. والسلطانية Sultane وهو كرسي طويل بمسندين وحشية غير ثابتة للاسترخاء أيضاً



مركيزة من طراز لويس الخامس عشر.

استعيرت تسميته من الشرق.

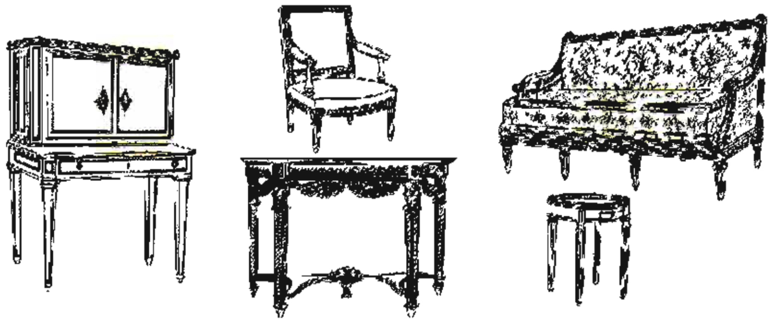
أما السرُر فكانت نوعين، الأول فرنسي صرف معد لينصب في وسط غرفة النوم وله مسند ظهر من جهة الرأس فقط، والنوع الآخر بولندي مجهز بمسند من جهة الرأس مستند إلى الجدار ومسند من جهة القدمين، أما الظلة فبقيت كما كانت في السابق وإن تبدلت زخارفها وطريقة نصبها. وتعددت كذلك أشكال الطاولات، ولعل أحدثها «القنصلية» Console وهي منضدة صغيرة تثبت إلى الجدار ولها قائمتان من الأمام، وتعلوها مرآة في إطار مثبت إلى جسم القنصلية.

أما الأخشاب الأكثر استعمالاً في طراز الروكوكو فهي الزان والجوز والاسفندان والكرز البري والزيتون والسيكامور بالإضافة إلى بعض الأخشاب النادرة في فرنسة كالخشب الأحمر والليمون والنخيل والأبنوس وغيرها.

وبدءاً من أربعينات القرن الثامن عشر



قنصيلة من طراز لويس الخامس عشر.



نماذج أثاث من عصر الملكة آن (إنكلترة ١٧٠٢ - ١٧١٤م)

انتقلت تأثيرات أسلوب الروكوكو إلى إيطالية وأنتجت فلورنسة أثاثاً جميلاً للغاية يحمل سمات الطراز الأصلي للويس الخامس عشر وفيه خطوط لينة ومنحنية وعناصر نحتية وزخارف تغطي معظم سطوح القطع، أو رسوم منمنمة لمشاهد وأشكال إنسانية وزهور وموضوعات تماشي الأسلوب الصيني وكانت بعض سطوح الأثاث تغطى باللون الأحمر الموشح بظلال ذهبية وباللون الأزرق، وهما من العناصر التزيينية في هذا الطراز الإيطالي. وفي ألمانية بالغ صناع الأثاث في استخدام أسلوب الروكوكو بنجاح كبير واستخدموا اللك في طلي القطع، وابتكروا له ألواناً متعددة بدلاً من الأحمر والأسود، وأتقنوا هذه الصنعة حتى صدرت منتجاتهم إلى فرنسة نفسها (الشكل ٣٠).

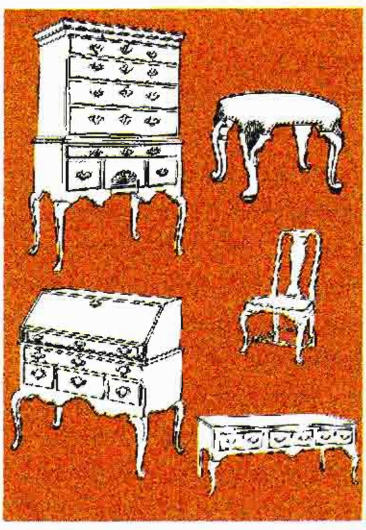
أما في إنكلترة فقد شاع منذ بداية القرن الثامن عشر استعمال خشب الماهوغاني المستورد حتى طغى على خشب الجوز، كما ساد أسلوب بلاديو في التصميم الداخلي (وهو أسلوب منسوب إلى المعمار الإيطالي أندريا بلاديو Andrea Palladio من عصر النهضة (١٥٠٨-١٥٨٠) وتطلب ذلك وجود قطع أثاث أكبر حجماً وأكثر فخامة من القطع المكسوة بقشر الجوز، وقد استلهم المصممون الإنكليز التصميمات الداخلية من القصور الفرنسية والإيطالية، وأولهم وليم كنت (١٦٨٥-١٧٤٨م) William Kent الذي شرع في تصميم قطع أثاث كلاسيكية في محافظتها على أسلوب بلاديو مع تبني زخارف أسلوب الباروك، ويعرف هذا الأسلوب باسم الملكة آن (١٧٠٤-١٧٩٤) ومن هذه القطع مرايا مموهة بالذهب ومناضد جانبية ومجموعات من الكراسي المنجدة والمقاعد المغلفة بالمخمل المطرز بالرسوم. ومع غلبة هذا الأسلوب فقد بدأ أسلوب الروكوكو يزحف على إنكلترة بدءاً من أربعينات القرن الثامن عشر، وانتشرت فيها مصورات تضم نماذج هذا الطراز المتأثر بالأسلوب الفرنسي، فقد نشر توماس تشيبندال Thomas Chippendale دليلاً لصناع الأثاث سنة ١٧٥٤ ضمنه مجموعة رسوم لكثير من الأثاث الإنكليزي من طراز الروكوكو وتفرعاته المتأثرة بالأسلوب الصيني والأسلوب القوطي. وقلده في عمله هذا كثيرون من مشاهير المصممين حتى غدا أسلوب الروكوكو شائعاً في إنكلترة منذ النصف الثاني من ذلك القرن وغدا اسم تشيبندال معروفاً على كل لسان مع أنه لم يكن هو المصمم الفعلي لما نسب إليه (الشكل ٣١).

ومنذ منتصف القرن الثامن عشر صار لكل نشاط من الأنشطة اليومية التي يمارسها الإنسان بعض قطع الأثاث المخصصة له، في حين تنوعت أشكال القطع الأساسية كالكراسي والخزائن والسرر والطاولات كما تنوعت زخارفها فصار من غير الممكن إحصاؤها، حتى إن أنواع الكراسي من طراز الروكوكو تجاوزت المئات ولم يعد لمبتكرات صناع الأثاث حدود تقريباً.

وفي المستعمرات الأمريكية استمر التأثير الإنكليزي نافذ المفعول حتى الثورة، وكان مزارعو الجنوب يميلون إلى اقتناء أثاثهم من لندن مباشرة، في حين كان تجار الشمال وأصحاب الثروات في فيلادلفية ونيويورك وبوسطن وغيرها يفضلون الاعتماد على صناع الأثاث المحليين الذين كانوا يضعون بصماتهم الخاصة على طرز الأثاث المستوحاة من إنكلترة، فظهرت لديهم نماذج محلية، وخاصة طراز تشيبندال، كما توصلوا إلى ابتكار طرز خاصة بهم وبنوعية جيدة.

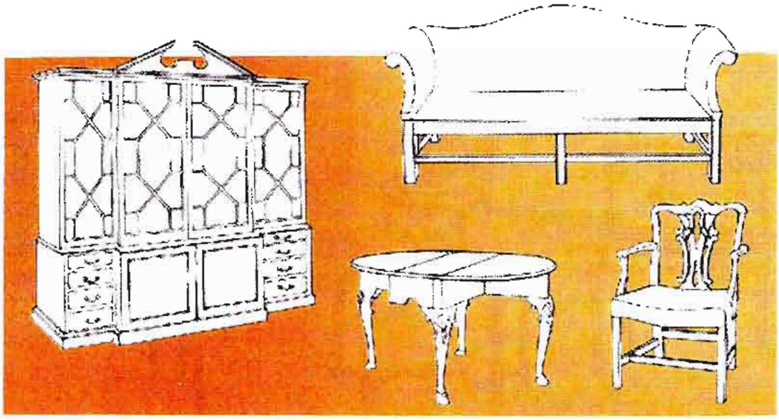
النمط الاتباعي الجديد

لم يعم أسلوب الروكوكو عالمياً، وكان الاعتراض على الإسراف فيه كبيراً، وراح مصممو الأثاث يبحثون عن ملامح جديدة لتصميماتهم منذ خمسينات القرن الثامن عشر. وإثر وفاة لويس الخامس عشر سنة ١٧٧٤ حدثت ردة فعل مهمة في فرنسة حيال حياة





كرسي من صنع تشيبندال



نماذج أثاث من طراز هبلوايت

البذخ التي تعيشها طبقة النبلاء، وتدهور الوضع المعاشي لعامة الناس. في حين لفتت التنقيبات الأثرية التي جرت في بومبي وهيركولانيوم الأنظار مجدداً إلى العالم الكلاسيكي القديم، وشدت اهتمام المثقفين والفنانين فمالوا إلى إحياء تقاليده وقيمه. ووجد المعماريون وصناع الأثاث في العودة إلى الكلاسيكية مخرجاً، وكان من رواد هذه المرحلة الفنان والحرفي جان هنري ريزنيير Jean Henri Riesener الذي طور مع آخرين طرزاً جديدة من الأثاث ابتعدوا فيها عن أسلوب الروكوكو المعقد إلى الأشكال المستطيلة والمربعة البسيطة بخطوطها المستقيمة، ومالوا إلى محاكاة الزخارف اليونانية والرومانية القديمة كالبيضة والحربة واللؤلؤة والصقور والدلافين ورؤوس الحيوانات وأوراق النباتات، واستخدمت الأخشاب الغريبة في إبراز أعمال الترصيع بأشكال هندسية وطبيعية وإنسانية وحيوانية أو تشكيلات معمارية ولوحات زهرية، مع إضافات جديدة تمثلت في ألواح الخزف المنسوب إلى مدينة سيفر Sevres porcelain Panels والزجاج المصور Verre eglomise واللك الصيني، وتراجع استخدام الحفر أمام التطعيم والترصيع والدهان بالألوان الفاتحة التي تنسجم مع تغطية الجدران، وقد عرف هذا الأسلوب بأسلوب الاتباعية الجديدة Neo chassical ويطلق عليه أيضاً طراز لويس السادس عشر Louis Seize

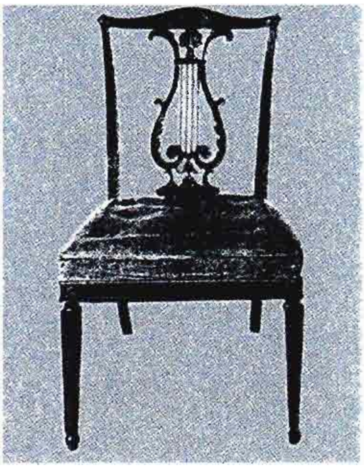


صوان من عصر الاتباعية الجديدة ببابين من حشوات كبيرة مع أطر بارزة (فرنسة منتصف ق١٨م)

وكانت الأخشاب الشبيهة بالماهوغاني والخشب الأسود والأحمر هي المفضلة في هذا الطراز، وتستعمل ألواحاً وقشوراً، ويزيد في غناها استخدام حواضن وزخارف شبكية أو على شكل أشرطة منمنمة من النحاس المذهب المشغول، مع التمويه بالذهب والبرونز ومن ابتكارات هذه المرحلة الصوان الهلالي Demi lune Commode والصوان الزاوي Encoignuer، والمكتبة الصغيرة الواطئة التي عرفت باسم «أثاث الامتناد» meuble d'appui والمكتب المغلق Secratain à abattant وأصبحت أرجل قطع الأثاث من هذا الطراز مستقيمة مخروطة أو ملفوفة أو محززة، وظهر الكرسي مستقيماً أو بيضياً أو مفرغاً على هيئة القلب أو القيثارة، أما الأسرة فظلت منوعة الأشكال ولكن ظلاتها بدأت تتقلص تدريجياً.

وفي إنكلترة التي خضعت لتأثيرات الأثاث الأجنبي ردحاً من القرن الثامن عشر توصل الحرفيون إلى تطوير الأنماط المجلوبة وتعديلها بما يتفق والذوق الإنكليزي، واستطاعوا تصميم أنماط تحمل ملامح مميزة. وساعد ارتفاع مستوى المعيشة في القرن الثامن عشر في ازدياد متطلبات المواطن الإنكليزي من الأثاث وتوابعه، وتذوقه للنواحي الجمالية، مما هيأ الشروط المناسبة لقيام صناعة أثاث راقية اتخذت منحيين في العصر الجورجي (نسبة إلى الملوك جورج الأول والثاني والثالث الذين توالوا على الحكم بين ١٧١٤ و ١٨٢٠م).

وكان المنحى الأول انتهاج أسلوب بلاديو الذي تبناه وليم كنت، وأما المنحى الثاني فهو محاكاة أسلوب الروكوكو الفرنسي وتطويره، بريادة تشيبندال، وكانت الغلبة لأنصار بلاديو بعد ظهور الاتباعية الجديدة. ويعد الأخوان روبرت وجيمس آدم [ر] Robert and James Adam من رواد الاتباعية الجديدة، فقد نشرا عام ١٧٧٧ كتاباً عن أعمالهما كان له تأثير في تذوق الأسلوب الجديد حتى اقترن باسمهما Adamesque، وقلدهما فيه صناع الأثاث المعاصرون. ومن أبرز هؤلاء جورج هبلوايت



كرسي غرفة مائدة من صنع روبرت آدم (إنكلترة).



غرفة سفرة من عصر الاتباعية الجديدة صنع روبرت آدم (نحو ١٧٦٥م).

George Hepplewhite الذي نشر دليلاً لصناع الأثاث والمنجدين (١٧٨٨) وتوماس شيراتون الذي نشر كتاب« رسوم لصناع الأثاث والمنجدين» (١٧٩١).

كان الدهان والتمويه بالذهب مفضلين عند الأخوين آدم، وأما الحفر فأقل استخداماً وخفيفاً إن وجد، وكان الأخوان آدم يميلان إلى تخديد قوائم الأثاث المستقيمة، ويميلان إلى استخدام القماش المنسوج من شعر الخيل والحرير المزهر والجلد والنسيج المصور الفرنسي والإنكليزي في تنجيد قطع الأثاث. أما هبلوايت الذي لم يات بأفكار جديدة فقد اشتهر بتطويره للأسلوب الجديد وإدخال تعديلات عليه اقترنت باسمه، ومنحت قطع الأثاث التي اقترحها نعومة وتناسقاً أكثر من تلك التي صممها الأخوان آدم، كما اشتهر بمناصرته للرسوم الملونة في زخرفة القطع، واستخدام الخشب الأطلساني satinwood الذي غدا الخشب المفضل في صناعة الأثاث أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، كما مهر هبلوايت في استخدام أخشاب أخرى كخشب شجر التوليب tulipwood والخشب الأحمر sycamore والأبنوس وخشب الورد والكرز، وفي استخدام الترصيع والتلبيس بالقشر إلى جانب الرسم زيادة في التزيين، وكانت قطع الأثاث التي صممها أصغر حجماً وأخف وزناً وأكثر أناقة من قطع معاصريه.

وفي العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر ازداد الميل في إنكلترة إلى التناظر في الشكل



أريكة ثلاثية وفق أسلوب روبرت آدم، من الخشب المحفور والمغشى بالذهب وتنجيد فاخر (نحو ١٧٧٥م).



كرسي من طراز ويندسور، إطار الظهر ومسندا اليدين من قطعة واحدة (الولايات المتحدة ١٧٨٠م).

والتناسب التام بين أجزاء القطع ونعومتها وإلى إعطاء مساند الظهر في الكراسي والمقاعد والأرائك شكل الدرع أو القلب، وإلى تخديد قوائم الطاولات وغيرها وهو الاتجاه الذي كان يفضله توماس شيراتون واقترن باسمه. ومن ابتكاراته السريران التوأمان والطاولات المتمفصلة الجوانب وكذلك الأقسام المخفية والسرية في القطع التي يصممها واستعماله الأقفال والنوابض المساعدة لتحريك مغاليق تلك الأجزاء أو إخفائها.

وأما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد راجت الاتباعية الجديدة في هذه الدولة المستقلة حديثاً ومال أصحاب الأعمال والأموال في بوسطن وسالم ونيويورك إلى فرش قصورهم بأثاث من إنتاج صناعيين محليين من أمثال صمويل ماكنتاير Samuel Mcintire وجون سيمور John Seymour . ولم يكن إنتاج كل واحد منهما سوى ترجمة شخصية لنماذج هبلوايت ـ شيراتون، والميل إلى استخدام الخشب ذي الألوان الفاتحة، وكانت سطوح القطع مستوية عموماً وتزخرف بالتطعيم بخشب متباين الألوان أو بحفر خفيف على طريقة الأخوين آدم. وأكثر القطع شيوعاً الخوان الجانبي (وهو قطعة من أثاث غرفة الطعام فيه أقسام وأدراج ورفوف لحفظ أواني المائدة) وكذلك مكتب « السكرتارية » الصغير، وكلاهما تصميم أمريكي متميز، بالإضافة إلى كرسي ويندسور Windsor والكرسي الهزاز المتقلقل .

القرن التاسع عشر

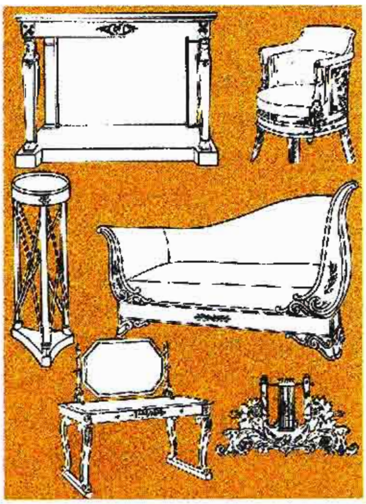
أدت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر إلى توقف كثير من المناشط والحرف في فرنسة ومنها النجارة وصناعة الأثاث، إلا أنها بدأت تسترد نشاطها تدريجياً في عهد حكومة المديرين وتولي نابليون بونابرت منصب القنصل العام. وفي هذه المرحلة ظهرت أول مرة «ورشات» للصناعة تملكها أسر ويعمل فيها أفرادها، ومنها ورشة «جاكوب إخوان» أبناء جورج جاكوب Georges Jacob التي احتلت مكانة خاصة في صناعة الأثاث في عهد حكومة المديرين وقنصلية نابليون (١٧٩٩-١٨٠٤) ومن أبرز ما قامت به هذه الورشة تأثيث قصر ماليزون الذي اتخذته جوزفين زوجة نابليون سكناً لها. وبعد تتويج نابليون امبراطوراً (١٨٠٤-١٨١٥) عاد الأثاث الفرنسي لمكانة الريادة في أوربة وامتد تأثيره إلى العالم الغربي كله، وأطلق عليه اسم «الأسلوب الامبراطوري».

وقد اتصف أثاث هذه المرحلة بمظاهر الرصانة والعظمة المستمدة من التراث اليوناني والروماني الكلاسيكيين إلى جانب السمات الزخرفية المستمدة من مصر وكريت واليونان ورومة، وقد جمع الحرفيون الفرنسيون بين هذه العناصر بمهارة وخاصة في استعمالهم النخل وأكاليل الغار والأزهار والحيوانات والطيور والأشكال الهندسية والمعمارية ورموز الأشخاص والزخارف المعدنية المذهبة كالسيف والدرع والحربة والبيضة والراية، في حين اختفت من قطع الأثاث الخطوط المنحنية والحلزونية. وكان للمعماريين الفرنسيين شارل بيرسيه Charles Pereier وبيير فونتين Piere Fontaine وكذلك لصانع الأثاث بيير دي لاميزانجير Pierre de la Mesangere فضل ابتكار هذا الأسلوب الامبراطوري الذي يعد استمراراً للاتباعية الجديدة في العمارة والأثاث، ونسخة طبق الأصل من الأثاث الكلاسيكي القديم مع بعض التعديلات واللمسات المعاصرة كالتلبيس بقشر الماهوغاني والإضافات المشغولة من النحاس المذهب. أما موضوعات الزخرفة فمستوحاة من العصور القديمة، حتى إن بعض أنواع الأثاث المحدثة التي لم يكن لها نماذج سابقة كانت تزخرف وتوشى بتزيينات من ذلك الزمن.

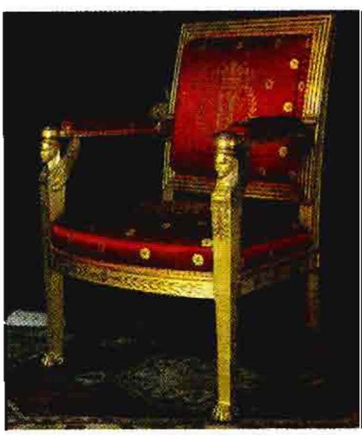
ومع أن الأسلوب الامبراطوري لم يلق الاستحسان على نطاق واسع فقد انتقل إلى بقية البلدان الأوربية وشاع في وقت قصير، وساعد في انتشاره حروب نابليون وانتصاراته في أوربة، وكانت البلاد الأوربية تتقبله وتضفي عليه قبسات من لمساتها المحلية فيبدو مختلفاً، ففي روسية تميز هذا الأسلوب من غيره باستعمال مواد معينة، ومنها الزجاج، بالإضافة إلى بساطة التفاصيل، وهذه السمة الأخيرة اتصف بها الأثاث الألماني الذي يعرف باسم بيدرميير (الأسلوب المبسط Biedermeier Style) وفي إنكلترة أضيفت على هذا الأسلوب تعديلات أخرى تتفق مع الذوق الإنكليزي واستلهمت بعض موضوعات زخارفه من الأثاث النابليوني ومن الانتصارات البحرية التي حققها الأدميرال نلسون، وصار يعرف بالأسلوب الامبراطوري الإنكليزي أو بأسلوب عصر الوصاية الإنكليزي، ذلك أن الملك جورج الثالث أصيب بلوثة في عقله في أواخر حكمه وتولى ولده الوصاية عليه بين العامين ١٨١٠ و ١٨٢٠، ولكن الأثاث الذي عرف بهذا الاسم كان قد ابتدأ يروج في إنكلترة منذ العام ١٧٩٥ وظل درجة شائعة حتى أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر مع أنه لم يكن على شيء من الأناقة والجمال.



غرفة نوم الامبراطورة جوزفين زوجة نابليون من الطراز الامبراطوري (قصر ماليزون قرب باريس ١٨١٠).



نماذج أثاث من الطراز الامبراطوري الفرنسي.



كرسي منجد خاص بنابليون بونابرت من الخشب المغشى بالذهب على الطراز الامبراطوري (فرنسة نحو ١٨٠٥م).



غرفة استقبال صنع دونكان فيف وصموئيل فوت (نيويورك ١٨٣٧م) من الطراز الاتحادي الأمريكي المستوحى من الأنماط الأوربية.

أما في الولايات المتحدة فقد عرف الأثاث المحلي المعاصر للأسلوب الامبراطوري باسم الأسلوب الاتحادي وامتد زمنه من العام ١٧٨٩، بعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية حتى العام ١٨٢٠م، وأشهر صانعي الأثاث في الولايات المتحدة في هذه المرحلة دونكان فيف Duncan Phyfe (١٧٦٨-١٨٥٤م) الذي تنوع إنتاجه وأدخل تعديلات كثيرة على الأنماط الأوربية وخاصة الأرائك والطاولات الثلاثية الأرجل والخوان الجانبي والكراسي التي لها مساند ظهر على شكل القيثارة، وأقبل عليها الناس لتناسب أجزائها وأناقة مظهرها ودقة تفاصيلها، وأفضل إنتاجه كان من خشب الماهوغاني والخشب الأطلساني، وكان يفضل لقطعه القوائم النحيلة المخروطة أو المحددة التي تنتهي بعقب معدني، ومنذ العشرينات من القرن التاسع عشر راح يصنع أثاثاً من النمط الامبراطوري المقتبس عن الأصل الفرنسي، وعرف هذا النمط باسم «أثاث الجزارين» Butchers Furniture لثقله وكثرة زخارفه. وفي أواخر العهد الفدرالي راج استعمال كرسي أطلق عليه اسم كرسي هتشكوك نسبة إلى مصممه لامبرت هتشكوك Lambert Hitchcock مأخوذ من كرسي شيراتون مع قوائم مخروطة ومقعد من الأسل rush أو الخيزران وظهر مقوس مزين برسوم الفواكه والأزهار والطيور وغيرها، وثمة نمط آخر من الأثاث ظهر في هذه الحقبة واختصت به طائفة دينية تدعى «شيكرز» Shakers (الراجفون أو الهزازون) وهي طائفة أمريكية اشتراكية يعتقد أفرادها أن حركات الجسد واهتزازه جزء من العبادة، وقد راج استعمال هذا النمط من الأثاث لبساطة مظهره وخفته وخلوه من الزخارف أو ندرتها، وهي من السمات المفضلة في الأثاث إلى اليوم.

الأثاث الفكتوري

أدت المبالغة في تفخيم الأسلوب الامبراطوري وتزويقه في أواخر عهد نابليون في فرنسة وعهد الوصاية في إنكلترة إلى تراجع واضح في مظهر الأثاث من الناحية الجمالية وتأخر مستوى الصنعة فيه، حتى توقف إنتاجه تماماً منذ أربعينات القرن التاسع عشر. وأدت الثورة الصناعية والنمو الاقتصادي السريع وإدخال الآلة وتوافر وسائل النقل والمواصلات



كرسي ممسند ظهر من دون ذراعين من عجينة الورق مذهب ومطعم بعرق اللؤلؤ (إنكلترة - العصر الفيكتوري - نحو ١٨٦٠م).

إلى قيام معامل متخصصة بصناعة الأثاث في أوربة وإنكلترة والولايات المتحدة الأمريكية، وإلى إنتاج الأثاث بوساطة الآلات بكميات كبيرة تلبية لمتطلبات السوق. وكان من نتائج ذلك غض النظر عن كثير من المبادئ والتفاصيل



طاولة زينة من خشب الماهوغاني والأطلساني وفق الطراز الاتحادي الأمريكي المتأثر بالاتباعية الجديدة في إنكلترة (بلتيمور ١٨٠٠-١٨١٠م).

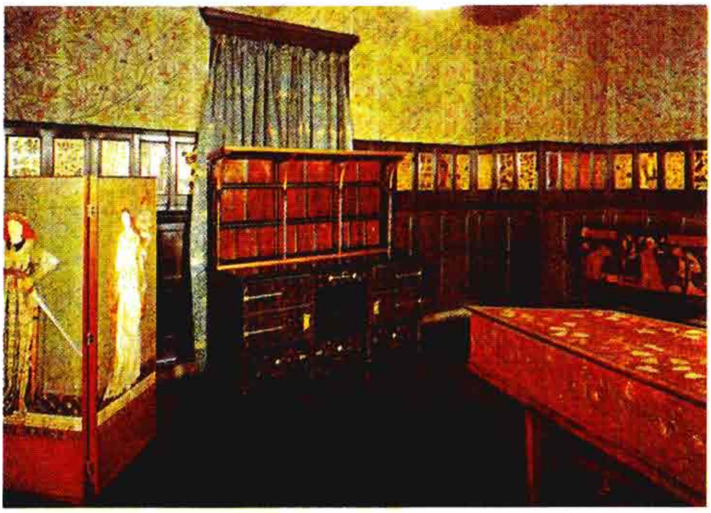
والنواحي الجمالية التي كانت تحتل حيزاً كبيراً من عناية صانعي الأثاث اليدوي، كما تقلصت أعداد الحرفيين المهرة وانصرم العصر الذهبي لصناعة الأثاث في أوربة، فلم يسجل العصر الفكتوري المنسوب إلى الملكة فكتوريا (حكمت بين ١٨٣٧ و ١٩٠١) أي ابتكار مميز، وجاءت أكثر قطع الأثاث في هذه الحقبة فجة الصنعة بعيدة عن الجمال، يستثنى من ذلك بعض الأثاث الذي كان ينتج بناء على توصيات خاصة وبكميات قليلة.

لم يسجل العصر الفكتوري أسلوباً مميزاً



كرسي ممسند ظهر وذراعين من الخشب الوردي المطبق والمقولب مع الحفر وفق طراز الروكوكو المجدد (نيويورك نحو ١٨٥٥).

يحمل سماته، بمعنى أن معامل صناعة الأثاث والمصممين لم يحدثوا أنماطاً جديدة مبتكرة، بل مالوا إلى التقليد غير الناجح، وكان معظم الأثاث في المرحلة الأولى من العهد الفكتوري (١٨٣٠-١٨٦٠م) إحياء وتجديداً للأنماط والأساليب السابقة التي عرفتها أوربة وأمريكة



عرفة مكتب إنكليزية، التزيينات وليم موريس، والأثاث صنع فيليب ويب (حركة الفن والحرفة ـ النصف الثاني من القرن ١٩).



ردهة استقبال في منزل أمريكي.

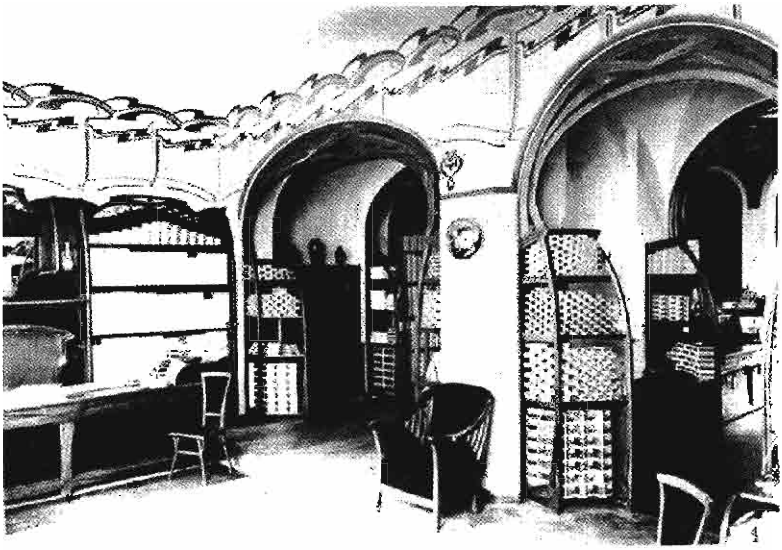
من الأسلوب اليوناني القديم والقوطي والنهضة الإيطالي إلى الباروك والروكوكو ولويس الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، وحتى الاتباعية الجديدة والأسلوب الامبراطوري مع تعديلات وإضافات وتنويعات مختلفة من هذه الأساليب في الجمع والزخرفة، إضافة إلى الأشياء التزيينية الكمالية في التصميم الداخلي للبناء كالسجاد الشرقي وجلود الدببة والوحوش الأخرى ومناديل المائدة والرفوف المخصصة للطُّرف والأغطية المطرزة لمساند الظهر واليدين والحجب وستائر الخرز وغيرها. وفي المعرض الكبير الذي أقيم عام ١٨٥١ بدت بريطانية العظمى الدولة الرائدة في صناعة الأثاث التجاري المنزلي المناسب لأكثر طبقات المجتمع في بريطانية نفسها وفي القارة الأوربية وما وراء البحار.

وفي هذه المرحلة أيضاً اخترع النابض اللولبي المعدني واستعمل في تنجيد الأثاث وساعد في توفير مقدار أكبر من الراحة في الكراسي والأرائك والأسرّة وماشاكلها، وأدى إلى تطوير فن التنجيد وإلى تغليف القطع كاملة وتزيينها بالضفائر والبريمات والهدابات، وراج إنتاج «الأطقم» الكاملة (من ست قطع أو اثنتي عشرة قطعة) بدلاً من القطع المنفردة.

وفي المرحلة الثانية من العصر الفكتوري (بدءاً من سبعينات القرن التاسع عشر) ظهرت بوادر حركة فنية جديدة تدعو إلى إحياء الحرف اليدوية وتلفت الأنظار إلى رداءة الإنتاج الآلي تزعمها في إنكلترة الشاعر الفنان وليم موريس William Morris (١٨٣٤-١٨٩٦م) وطبق دعوته عملياً بإقامة «ورشة» خاصة للأعمال الفنية والأثاث في محاولة منه لرد الاعتبار إلى هذه الصنعة وإثارة الحس الجمالي لدى مواطنيه، وقد تأثر به كثيرون في إنكلترة والبر الأوربي، وسار على حطاه المعمار البلجيكي الشهير هنري فان دي فلده Henri Van de Velde (١٨٦٣-١٩٥٧م) الذي اقترن اسمه بأسلوب «الفن الجديد» Art Nouveau في العمارة والأثاث، وتنقل بين موطنه وفرنسة وألمانية وعين في العام ١٩٠٢م مديراً لمدرسة «فايمار» للفنون والمهن التي صارت تعرف فيما بعد باسم «باوهاوس» Bauhaus [ر]. وانتقلت هذه الحركة إلى فرنسة حيث تزعمها هكتور غيمار Hector Guimard وقد اتسم الأثاث المنتج بهذا الأسلوب بالأشكال الأفعوانية الإنسيابية المستوحاة من موضوعات طبيعية وحيوانية مجموعة مع قبسات من الفن الياباني، ولاقى رواجاً كبيراً في أوربة في تلك الحقبة.

وفي الولايات المتحدة ساعد تأسيس متحف متروبوليتان للفنون (١٨٧٠) ومعرض فيلادلفية (١٨٧٦) في تقديم مفاهيم رفيعة المستوى عن الفن والأعمال اليدوية إلى الجمهور.

وقد أتاحت الاتصالات الوثيقة بين المدن



أثاث وتزيينات محل تجاري في برلين من تصميم هنري فان دي فلدة.



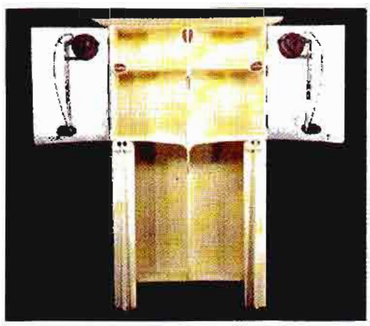
طاولة وسط وفق أسلوب مدرسة نانسي صنع لويس ماجوريل (نحو ١٩٠٨م).



كرسي هزاز من الخشب المحني تصميم ميشيل ثونت (فيينة ١٨٦٠م).

الأمريكية الكبرى وأوربة إمكانية الاطلاع على آخر الاتجاهات الفنية فيها وإنتاج نسخ من الأثاث الأوربي الرفيع المستوى، أما في المناطق الريفية والبعيدة في قلب القارة الأمريكية فقد كان عدد أصحاب الأموال القادرين على اقتناء مثل هذا الأثاث قليلاً وعدد الحرفيين الماهرين فيها قليلاً أيضاً، فكان الأثاث الذي ينتج هناك أكثر محافظة في الأسلوب وأقل تكلفة من حيث المواد والزخرفة ويميل إلى البساطة والتواضع وهي السمة العامة التي تسم صناعة الأثاث في الولايات المتحدة إلى اليوم.

أدت بعض الابتكارات والتحسينات التي شهدتها صناعة الأثاث في القرن التاسع عشر إلى إحداث تغيير في تقنيات صناعة الأثاث، وظهور أنواع وقطع مبتكرة فيه، فقد وفر استعمال الخشب الرقائقي المعاكس plywood المصنوع من طبقات مغراة من رقائق الخشب إمكانية تطويع الخشب بحسب الرغبة، وهو من ابتكار النجار جون هنري بلتر John Henry Belter الألماني الأصل الأمريكي الجنسية. ولاقى إنتاجه من قطع الأثاث من نمط لويس الخامس عشر المجدد رواجاً كبيراً في خمسينات القرن التاسع عشر. كذلك توصل صانع الأثاث النمسوي ميشيل ثونيت Michael Thonet إلى تحسين طرائق حني الخشب الرقائقي والمصمت باستخدام البخار الساخن، ولاقى إنتاجه من الكراسي رواجاً كبيراً أيضاً.



مكتبة من خشب السنديان الأبيض من تصميم ماكنتوش وفق أسلوب « الفن الحديث » (١٩٠٢).

الأثاث الحديث

تطلق صفة الأثاث الحديث عادة على الأثاث الذي أنتج منذ أوائل القرن العشرين حتى اليوم. وقد اتخذ تصميم الأثاث الحديث منحيين اثنين: أولهما إحياء الأساليب التقليدية مع حرية التصرف في إدخال تعديلات عليها، إذ يندر التقليد الحرفي في هذا المجال. وثانيهما الاستجابة للمتطلبات الحياتية المعاصرة المتأثرة بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية الاستهلاكية، وبتطور فن العمارة والمساحات السكنية. وقد اجتذب هذا المنحى أكثر المواهب المعنية بصناعة الأثاث منذ أواخر القرن التاسع عشر، وفتحت المواد والتقنيات الجديدة الأبواب واسعة أمام صناع الأثاث للابتكار والتنويع حتى صار التجديد هدفاً أساسياً من أهداف هذه الصنعة.

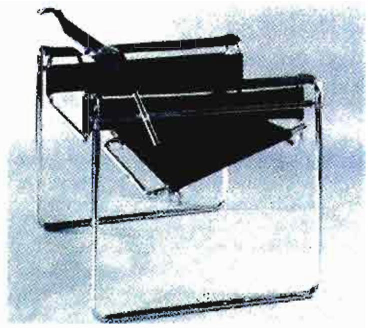
غلبت على صناعة الأثاث في العقدين الأولين من القرن العشرين الاتجاهات التقدمية التي ظهرت في أواخر القرن السابق، وكان أكثرها تأثيراً حركة « الفن الجديد » التي تزعمها البلجيكي هنري فان دي فلده، وتبنتها مدرسة « نانسي » في فرنسة، ومن مبادئها استخدام أشكال الطبيعة وأحيائها في الزخرفة والشكل واعتماد الانحناءات الأفعوانية النحيلة المعبرة عن حيوية الطبيعة، إلى جانب التركيبات البعيدة عن التناظر المستلهمة من الفن الياباني، والزخارف التجريدية التي تؤكد الأثر النفسي للانحناءات واتجاهاتها. وقد تأثر بهذا المذهب أيضاً مصممون ألمان من أمثال ريتشارد ريمرشميت R.Riemerschmid وبرنار بانكوك B.Pankok من ميونيخ.



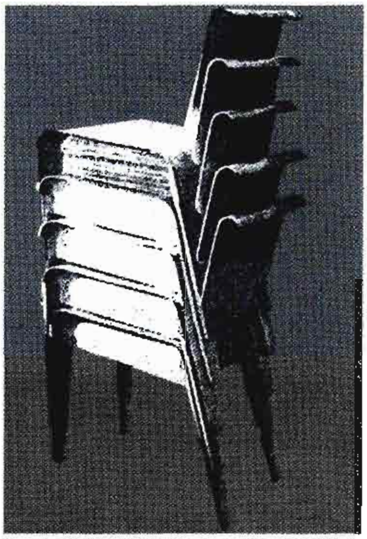
مكتبة جدارية وفق أسلوب الفن الجديد المنسوب إلى مدرسة نانسي من أخشاب منوعة محفورة ومطعمة (فرنسة - نحو ١٩٠٠م).

أما في إنكلترة فكانت الغلبة للأفكار التقدمية التي نادت بها جماعة « الفن والصنعة » ومدرسة غلاسكو واستمر تأثيرها حتى الحرب العالمية الأولى. وتبنى هذا المنهج أيضاً رواد مجموعة « ورشات فيينية » (النمسة) Wienen Werkstatte التي أسست عام ١٩٠٣ وضمت أكثر المصممين والحرفيين في العاصمة النمسوية. وكان من هؤلاء جوزيف هوفمان J.Hoffmann وكولومان موزر C.Moser. وقد أنتجت هذه المجموعة أثاثاً بسيطاً من الخشب المحني المعالج بالحرارة أو المكسو بقشر الخشب والمزخرف بالتطعيم والترصيع، واقتبس أكثره عن ماكنتوش Cherles Rennie Mackintosh البريطاني.

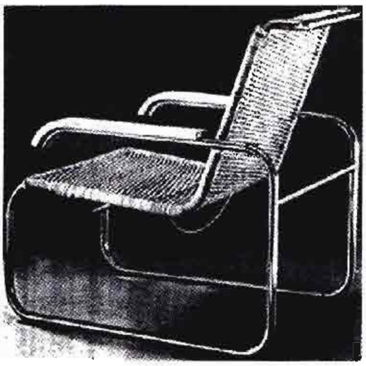
وفي ألمانية ظهرت في بداية القرن العشرين حركة تقدمية تدعو إلى الجمع بين الجمال الهندسي لقطع الأثاث والاقتصاد في المواد مع استخدام الآلات، وعمل المصممون الألمان على



كرسي من أنابيب فولاذية مطلية بالكروم
تصميم مارسيل برويور (١٩٢٥م) .



كراسي من الخشب المطبق المقولب بأطر مقواة، قابلة للتراكم (مارسيل برويور ـ ١٩٣٦) .



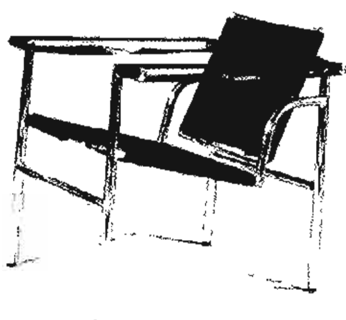
كرسي من أنابيب فولاذ مطلية
تصميم مارسيل برويور (١٩٣٠م) .

تطوير هذا المنهج حتى بلغ ذروته في مدرسة « الباوهاوس » للفنون والمهن التي أسست في مدينة « فايمار » (ألمانية) سنة ١٩١٩ بإشراف مؤسسها فالتر غروبيوس Walter Gropius ، ثم انتقلت إلى « ديساو » Dessau عام ١٩٢٥ . وكان من أهداف هذه المدرسة الجمع بين الفن والتصميم الصناعي لإنتاج كل مايلزم للاستخدام وليس للزينة، والإفادة من الخبرات المهنية في تطوير الصناعة، وتدريب الطلاب على تصميم الأثاث وإنتاجه بالجملة . وكان من مبادئ هذه المدرسة الاقتصاد في المواد وخفض التكلفة والإفادة القصوى من مردود الممكنات والتقنيات الجديدة، وإجراء التجارب على المواد المستحدثة مع المحافظة على المظهر الجمالي للقطع المنتجة . وقد تولى إدارة هذه المدرسة عدد من مشاهير المعماريين والمصممين والفنانين إلى أن أغلقها هتلر عام ١٩٣٣ ، وتمكنت من إنتاج أثاث جميل ومريح ومناسب للوظيفة المخصص لها، استعملت في إنتاجه أنابيب الفولاذ المطلي بالكروم والباكليت الأسود وألواح الزجاج والخشب، وكان أكثر الأثاث الذي أنتج في أوربة منذ ثلاثينات القرن العشرين مقتبس عن أصول ابتكرتها مدرسة الباوهاوس .

تأثر المصممون الهولنديون بأفكار المدرسة الألمانية وأنتجوا نمطاً من الأثاث أطلقوا عليه اسم « دي شتيل » (أي الأسلوب De Stijl) واقترن اسمه باسم صانع الأثاث الهولندي الشهير غيريت ريتفلد Gerrit Rietveld الذي صمم في العام ١٩١٨ كراسي من شرائح الخشب الرقائقي



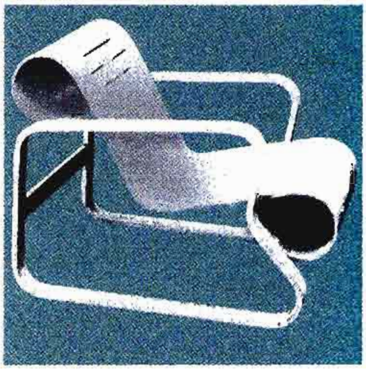
كرسي من الفولاذ المسطح مطلي
بالكروم ومنجد (لودفيغ ميز فان
در روهه ١٩٢٩م)



كرسي من أنابيب فولاذية مطلية بالكروم
تصميم لوكوربوزيه (سويسرة ١٩٢٧) .

المطبق مجموعة بوساطة لوالب (براغي) ومطلية بألوان أولية . كذلك صمم المعمار الهنغاري الأصل مارسيل برويور Marcel Breuer الذي تعلم في الباو هاوس وترأس ورشة صناعة الأثاث فيها (١٩٢٥ ـ ١٩٢٨) أثاثاً خشبياً من نوع « الستيل » كما صمم أول كرسي مصنوع من أنابيب الفولاذ Tubular Steel وعرف باسم « كرسي فاسيلي » Wassily Chair . وممن سار على النهج نفسه المعمار الألماني لودفيك ميز فان در روهه Ludwig Mies Van der Rohe الذي ينسب إليه كرسي « برشلونة »، والمعمار السويسري لوكوربوزيه Le Corbusier الذي صمم الكرسي الطويل والكرسي المحني إلى الخلف ووضع تصميمات مبتكرة من القبضان الفولاذية أما في البلاد الاسكندنافية فقد ساعد توافر الخشب على إنتاج أثاث حديث مكافئ لأسلوب الباوهاوس مع استعمال تقنيات جديدة في تطبيق الخشب ومعالجته وحنيه، وقد صمم الفنلندي ألفار آلتو [ر] Alvar Aaalto والسويدي برونو ماتسون Bruno Mathsson كراسي ذوات أطر من الخشب الرقائقي المطبق ثبتت مقاعدها وظهورها بالطريقة التي استخدمت في الباو هاوس، وكانت الكراسي التي صممها آلتو قابلة للتراكم الواحد فوق الآخر تمشياً مع متطلبات القرن العشرين والاقتصاد في المساحة .

كذلك توصل الدنمركي كار كلنت Kaare Klint وتلميذه موغنز كوخ Mogens Kooch إلى حل آخر لمشكلة الفراغ بابتكارهما الكراسي



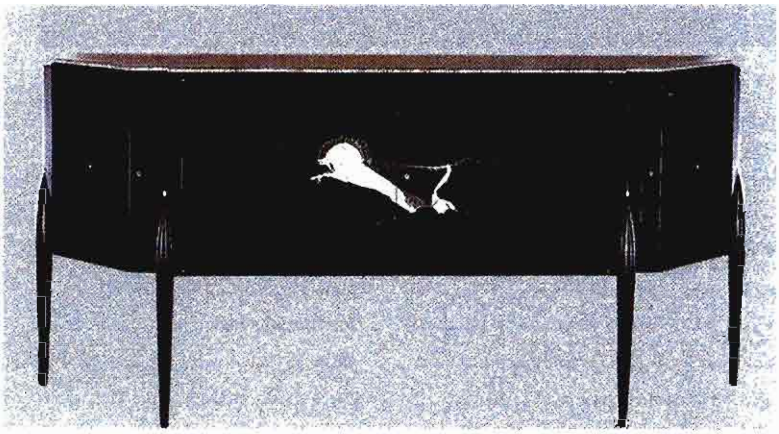
كرسي من الخشب المطبق المقولب
(آلفار آلتو ١٩٣٠ -١٩٣٣).



كرسي من الخشب المطبق منجد الجلسة
والظهر (آلفار آلتو - ١٩٤٠).



كرسي مكتبة من تصميم
آلفار آلتو (١٩٣٥م).



صوان جداري صنع إميل رولمان وفق طراز
فن الديكو الفرنسي (فرنسة ١٩١٩م).

والمقاعد المطوية collapsible chairs، كما صمم الدنمركي هانز فغنر Hanz Wegner أثاثاً مواده الخشب والفولاذ .

على النقيض من هذه المدارس حافظ المصممون الفرنسيون على إنتاج الأثاث الفاخر الأنيق من الخشب الثمين المطعم بالعاج والفضة والنحاس، وطوروا إنتاجهم وفق نمط خاص يسمى «فن الديكو» Deco Art، وأنتج المصمم الفرنسي جاك إميل رولمان J.Ruhlman أثاثاً بهذه المواصفات، كما صمم الشريكان لوي سو Louis Sue وأندره مار André Mare أثاثاً كلاسيكياً مطوراً من مواد غالية الثمن وعليه زخارف منمقة مستوحاة من الفن الإفريقي ومزينة بجلد حمار الوحش أو الجلد المحبب.

وفي إيطالية ازدهرت صناعة الأثاث في ثلاثينات القرن العشرين على غرار «الفن الجديد» وصمم الإيطالي غيو بونتي Gio Ponti كرسياً بذراعين على هيئة زهرة اللوتس، وصمم كارلو مولينو Carlo Molino بعيد الحرب العالمية الثانية طاولات وكراسي من ألواح الخشب الرقائقي المطبق مقطوعة ومحنية بأشكال متراكبة، وسار على النهج عدد من مشاهير المصممين الإيطاليين ومنهم أوزوالدو بورساني Osvaldo Borsani وماركو زانوسو Marco Zanoso ، وقاسمهما الشهرة في هذا المجال البريطانيان روبين داي Robin Day وإرنست ريس Ernest Race وقد ابتكر داي كراسي مميزة منها الكرسي المصنوع من مادة البولي بروبيلين المقولب بالحقن (وهي مادة جديدة صنعت سنة ١٩٥٤)، أما ريس فقد ابتكر كرسياً من الألمنيوم الصب نال عليه الميدالية الذهبية في معرض ميلانو عام ١٩٥٤، وصمم كرسيين من قضبان الفولاذ عام ١٩٥١ أطلق على أحدهما اسم «الظبي» Antelop وعلى الثاني اسم «القوفز» Spring bok (القوفز نوع من الظباء يعيش في جنوبي إفريقية).



كرسي من لدائن مقولبة مقواة بألياف
زجاجية على قاعدة من أنابيب الفولاذ
تصميم تشارلز إيمز (١٩٤٩م).

وفي الولايات المتحدة الأمريكية سار إنتاج الأثاث على خطى الأثاث الأوربي، فأنتج المصمم الفنلندي الأصل الأمريكي الجنسية إليل سارينين Eliel Saarinen أثاثاً من نمط «فن الديكو» عام ١٩٢٣ ولاقى رواجاً كبيراً، في حين أدخلت شركة هاول في شيكاغو أسلوب الباوهاوس إلى الولايات المتحدة وأنتجت الأثاث المصنوع من أنابيب الفولاذ بكميات تجارية وأكثره من تصميم فولفغانغ هوفمن ابن جوزيف، كما ظهر في حقبة مابين الحربين العالميتين أسلوب ثالث أكثر أصالة يعتمد الصفات الجمالية لناطحات السحاب والقاطرات والسيارات، واستعملت فيه مواد جديدة

كالألمنيوم والباكليت. كذلك جرت في الولايات المتحدة تجارب طموحة لقولبة الخشب الرقائقي بأشكال ثلاثية الأبعاد، وكان «شارلز إيمز» وزوجته «راي» Charles and Ray Eames رائدين في هذا المجال وصمما كراسي مقاعدها من الخشب الرقائقي المقولب أو البوليستر أو الأسلاك المحبوكة، وظهورها مثبتة إلى أطر معدنية من الفولاذ المطلي بالكروم.

وطور جورج نلسون G.Nelson مفهوم الخزائن أو المكتبات الجدارية Storage Wall التي تتألف من مكتبات ورفوف ومكاتب مجموعة بترتيبات مختلفة ومثبتة إلى الجدار، وابتكر آيرو سارينين Eeero Sarinen ابن إليل في الأربعينات طاولات وكراسي من اللدائن المقولبة أو الخشب الرقائقي المقولب استوحيت أشكالها من الأعضاء الحية كما تدل عليها أسماؤها: «زهرة السوسن» tulip و«الرحم» womb وغير ذلك.

وفي أوائل الخمسينات توصل هانز كنول H.Knoll (وهو سليل أسرة ألمانية من صانعي الأثاث هاجرت إلى الولايات المتحدة مع غيرها من حرفيي الباوهاوس) إلى صنع المطاط الرغوي والإسفنج الصنعي foam rubber واستعمله هاري برتويا Harry Bertoia في تنجيد كرسي صنعه من قضبان الفولاذ الملحومة.

بعد الحرب العالمية الثانية ونتيجة الانفجار السكاني وارتفاع مستويات المعيشة في أوربة والولايات المتحدة، بالإضافة إلى تطور العلوم والتقانة في مختلف المجالات، وتواتر ظهور مواد جديدة تصلح لصناعة الأثاث كالألياف الزجاجية والمطاط الرغوي والإسفنج الصنعي واللدائن والبوليستر والألمنيوم، غلب على صناعة الأثاث المفهوم التجاري الموحد العناصر فتقلصت التفصيلات الزخرفية والشكلية في التصميم، وكثر إنتاج القطع المتمفصلة والقابلة للتركيب والجمع بأشكال مختلفة كالمكتبات الجدارية والرفوف المركبة والإطارات الشبكية المتعددة الوظائف والأرائك والمقاعد - السرر (القابلة للتحويل إلى سرير)، وأطلقت يد المصممين والصناع في اختيار المواد التي تناسب تصاميمهم والوظائف المطلوبة منها من حيث توفير المتانة والراحة والجمال مع قلة التكاليف، وساعدت وسائل الاتصال والإعلام والمعارض والمؤتمرات على حل هذه المعادلة الصعبة بتوفير إمكانات الاتصال وتبادل الخبرة بين مصممي الأثاث في مختلف



عرفة طعام أمريكية استعملت فيها مواد صنعية تتفق مع الوظيفة المخصصة لها. تصميم آيرو سارينين (نحو ١٩٥٠م).

أنحاء العالم، وكان من نتائج ذلك محاولات توحيد المفاهيم التقنية المتعلقة بصناعة الأثاث، وتنامي التجارة الدولية بالمواد والسلع المصنعة، وظهور نمط عصري من الأثاث يمكن أن يطلق عليه اسم النمط العالمي Cosmopolitan Style يجمع أفكار المصممين ويقارب بينها وبين وسائل الإنتاج الحديثة والمواد المستحدثة وتتبناه صناعة الأثاث في مختلف دول العالم وتستجيب فيه لمتطلبات السوق الشعبية.

وفي المقابل يرفض كثير من المصممين والحرفيين المهرة التخلي عن مهنة صناعة الأثاث التقليدي وموادها التقليدية كالخشب الجميل والمواد الثمينة ويسعون في أعمالهم وصحفهم ومعارضهم إلى إحياء صناعة الأثاث بمظاهرها الجمالية والفنية. ومن هولاء الرسام والنحات الأمريكي هارتون إيشريك Wharton Esheriek الذي ابتكر أثاثاً خشبياً مزخرفاً بالحفر الناعم والسطوح الحبيبية، وكذلك المعمار جورج ناكاشيما G.Nakashima الذي أبدع قطعاً فنية ليس لها نظير، وسام معلوف S.Maloof الذي استوحى الأثاث التقليدي في ابتكار كرسي هزاز، ووندل كاسل Wendell Castle الذي ابتكر في سبعينات القرن العشرين نماذج شاعرية من الخشب المحفور والمطبق وصنع في منتصف الثمانينات قطعاً فاخرة ملبسة بقشر الخشب مستوحاة من فن الديكور.



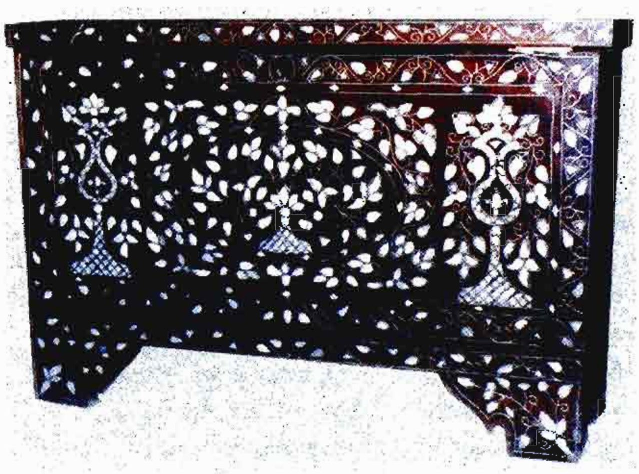
كرسي مزدوج من نمط «البوب» من الخشب الرقائقي المطبق والمقولب تصميم ويندل كاسل (١٩٥٧م).



طاولة وسط حديثة من خشب الجور المطعم مع الحفر بزخارف فاطمية (دمشق ١٩٩٠).

سورية والبلاد العربية

تسير صناعة الأثاث في أكثر البلاد العربية في اتجاهات ثلاثة مختلفة: يهتم الاتجاه الأول بمتابعة نموذج صناعة الأثاث العالمية وإنتاج قطع الأثاث النمطية المستخدمة في المكاتب والأماكن العامة على أساس الوظيفة في مصانع متخصصة لهذه الغاية وبأيد محلية. أما الاتجاه الثاني فيعنى بإنتاج الأثاث الفني العصري المقتبس في أكثره من النماذج الغربية التقليدية والحديثة مع محاولة إضفاء لمسات محلية أو شرقية عليه بما يتناسب مع استعمالاته، ومعظم هذا الأثاث من الأخشاب المعالجة أو الطبيعية وغالباً ما يتم تصنيعه يدوياً في ورشات النجارة الموزعة في المدن. وأما الاتجاه الثالث فهو محاولات إحياء الأثاث الإسلامي الشرقي المحفور والمطعم والمكفت والمُنزّل فيه الصدف و«الموزاييك» والعاج والمعدن وترميم مابقي منه في البيوت والمساجد والكنائس، وإنتاج أشكال جديدة منه، مع محاولة المصممين المحليين وضع بصمات جديدة على هذا النوع من الأثاث ليغدو مناسباً لاستعمالات العصر، ويبقى إنتاج هذه الأنواع محدوداً ومخصصاً لفئات معينة من الناس.



صندوق ملابس حديث الصنع من خشب الجوز المطعم بالصدف صنع دمشق (١٩٩٠).



طاولة مكتب موزاييك صنع دمشق (١٩٩٠).

محمد وليد الجلاد - عبدو كسحوت

الموضوعات ذات الصلة:

الباروك - الباوهاوس - الروكوكو - الزخرفة.

■ الآثار (علم -)

يهتم علم الآثار Archeology بدراسة ما تركه الإنسان من أشياء مادية بدءاً من الأدوات التي صنعها من مواد خام لمواجهة متطلبات الحياة من معيشة ومسكن وغير ذلك، وانطلاقاً من أن هذه الأدوات تبقى بعده أثراً دالاً على تجربته ومؤرخة عصره. وإذا كان من الصعب الوصول إلى تعريف دقيق يفصل بين علم التاريخ وتاريخ الفن وعلم الآثار، فإن من الممكن تحديد ميدان علم الآثار بأنه الكشف عن الأثر الإنساني المادي ودراسته وجلاء البيئة التي وجد فيها واستخلاص كل المدلولات الممكنة منه. ولايبتعد هذا التحديد لعلم الآثار كثيراً عن الدلالة التي استعملت لها قديماً الكلمة اليونانية «أركيولوجية» التي اعتمدتها اللغات الأوربية وكانت تعني «علم القديم»، وتحديد الزمن الذي يتوقف عنده علم الآثار مختلف عليه. فبعضهم يرى أن مهمته يجب أن تنحصر في دراسة زمن الشعوب التي لم تكن تعرف القراءة والكتابة، ويتوقف بعضهم الآخر بعلم الآثار عند عصر النهضة الأوربية. ولكن أكثر الدول تعد الآن أثرياً كل ماوجد قبل مئة عام أو مئتين.

وفي جميع الأحوال يعد علم الآثار فرعاً من الدراسات التاريخية أو بمعنى آخر هو علم تاريخي. ومن الصعب وضع حد يفصل علم التاريخ عن علم الآثار. والواقع أن البحث الأثري بحث تاريخي أولاً وقبل كل شيء.

إن مخلفات الإنسان مختلفة الأشكال. فإذا كانت فنية أو معمارية فإنها تدخل في ميدان تاريخ الفن، ويهتم بها علم الآثار كذلك، لا من أجل جمالها، بل لأنها شواهد على النشاط البشري ودلائل على نمط في العيش والتفكير. وباختصار فإن عالم الآثار يدرس هذه المخلفات بصفتها وثائق تنتمي إلى حضارة معيَّنة، وقد تكون لقطعة أثرية صغيرة قيمة لديه تفوق قيمة تمثال رائع إذا كانت هذه القطعة توضح له أموراً مهمة عن الإنسان الذي استعملها.

ولما كان الهدف الأساسي لعلم الآثار كشف ماضي الجماعات الإنسانية، فإن بعضهم يرى أنه من مشتقات الأنتروبولوجية، ولعل في ذلك

شيئاً من الحقيقة لأن علم الآثار يتداخل مع علوم كثيرة وفيه من التعقيد والتنوع ما يماثل ما عليه الإنسان ومجتمعه وإنتاجه المادي والثقافي.

تاريخ علم الآثار

يتناول البحث هنا: العرب وعلم الآثار، وعلم الآثار في العالم الغربي، والتنقيب عن الآثار في سورية.

العرب وعلم الآثار: كثيراً ما تغفل المؤلفات الأثرية، عند البحث في تاريخ علم الآثار، الإسهام العربي في تأسيس هذا العلم، مع أن المؤرخين والإخباريين والجغرافيين والرحالة والكتاب العرب يذكرون نبذاً قليلة أو كثيرة عن أوابد وأطلال أثرية في أكثر أجزاء العالم القديم، من حدود الصين إلى الأندلس. وفضلاً عن الأخبار التي وردت في مجال الاستكشاف المتعدد الأهداف والدوافع، فقد كانت لدى العرب بعثات استكشاف مقصودة لذاتها. ومن ذلك بعثات أرسلها الخليفة الواثق لاستكشاف سواحل بحر الخزر و«سد يأجوج ومأجوج» (سور الصين كما كانوا يعتقدون) ومدينة الرقيم. كما كان لديهم نوع من المتاحف يحفظون فيها آثاراً تاريخية، وقد احتفظ العباسيون بتحف تاريخية من مخلفات الأمويين، كما خصص الفاطميون بيوتاً للتحف التاريخية سموها «خزائن» كخزانة الجوهر، وخزانة الأسلحة، وخزانة الفَرْش. ومن ذلك ما أنشأه الخليفة المستنصر الفاطمي (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م). وثمة شواهد، من عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين في دمشق، على تدخل السلطة أو الأهلين أحياناً لإزالة المخالفات الأثرية، ومنع تغيير معالم الآثار. وبعض المؤلفات التاريخية العربية لها قيمة أثرية وصفية واضحة مثل كتاب «الأصنام» لابن هشام الكلبي (ت ٢٠٤هـ/ ٨١٩م) الذي يتحدث عن نصب وآثار زالت ويصفها وصفاً دقيقاً من حيث مادتها وشكلها ومكانها.

ويعد كتاب «الإكليل» للهمداني (ت ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م) في صنعاء مصدراً أثرياً مهماً، يصف صاحبه فيه القلاع والقصور القديمة فضلاً عن أنه كان يتقن قراءة النصوص الحميرية القديمة المنقوشة على الحجارة الأثرية.

على أن أول آثاري عربي، بالمعنى الدقيق للكلمة، هو موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (٥٦٥-٦٢٩هـ/ ١١٦٢-١٢٣١م) الرحالة العالم والطبيب الجراح، ولايرقى إليه باحث في الآثار في الشرق أو في الغرب، فهو يصف الآثار، ويفصّل في ذلك، ويشرّح المومياء ويحللها بدقة، ويحاول معرفة موادها وأسرارها. وينقل البغدادي في كتابه «الإفادة والاعتبار» شيئاً عن موقف السلطات في الدولة العربية من الآثار الخاصة بهم أو التي سبقت عهودهم قائلاً: «وما زالت الملوك تراعي بقايا هذه الآثار وتمنع من العبث بها وإن كانوا أعداء لأربابها، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخاً يُنتبه به على الأحقاب، ومنها أنها تدل على شيء من أحوال من سَلَف وسيرتهم، وتعداد علومهم، وصفاء فكرهم وغير ذلك، وهذا كله مما تشتاق النفس إلى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه...» وفي هذه العبارات تحديد سليم لأكثر مهمات علم الآثار في العصر الحديث.

ومن أشهر المواقف العربية إزاء الآثار موقف الشاعر أبو يَعْلَى المعري، وقد مر بخربة سياثَ وهي من القرى البائدة في محافظة إدلب فرأى شخصاً يحطم الأوابد الأثرية فقال أبياته المشهورة:

مررت برسمٍ في سياث فراعني
به زَجَلُ الأحجار تحت المعاول
تناولها عَبْلُ الذراع كأنما
رمى الدهر فيما بينهم حربَ وائل
فقلت له شلّت يمينُك خلِّها
لمعتبر أو زائر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم
ولم أر أحلى من حديث المنازل

ومن الرحالة والجغرافيين والمؤرخين الذين عنوا بوصف الآثار ابن خُرداذبة (ت ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م) في وصفه رومة، واليعقوبي (ت بعد ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م) في وصفه بغداد، وابن رستة (ت بعد ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) في تفصيله وصف الكعبة المشرفة والقسطنطينية وأهرامات مصر، والمسعودي (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) في حديثه عن الآثار الساسانية والفسيفساء وبيوت النار والنقوش الصخرية الشهيرة وقبر الاسكندر، وعن آثار أنطاكية وهياكل بعلبك والجامع الأموي والمدافن الفرعونية بالتفصيل، وعن أعمال التنقيب السرية التي كان يقوم بها «أهل الدفائن» واكتشافهم التماثيل والأثاث المدفون والموميات والكتابات الهيروغليفية. ويليه ابن حوقل (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) الذي أعاد شيئاً مما قاله من سبقه ولكنه يتميز عنهم بوصف قصر غمدان في صنعاء ووصف بعض مدن المغرب والهيكل الروماني العظيم في بالرمو بصقلية، كما وصف المدائن في فارس وصنم بوذا في الهند. أما ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) فيتميز بوصف مواقع أثرية شهيرة كالرصافة وقلعة صلاح الدين (صهيون عنده) ومدينة الحَضَر، ثم إن الهروي (ت٦١١هـ/ ١٢١٥م) وصف الأهرام بدقة في كتابه «الآثار والعجائب والأصنام»، كما وصف ابن جبير (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م) القلاع والأطلال في العراق والشام وآثار مصر ومنارة الاسكندرية.

ومن بين الذين اهتموا بالآثار في القرن الثامن الهجري ابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) وابن بطوطة (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) والقلقشندي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) وقد شمل وصف ابن بطوطة معظم أقطار العالم المعروف في عصره، وفصّل في وصف آثار القاهرة والاسكندرية وقبة الصخرة وقلعة حلب حتى إنه تكلم بالتفصيل عن الخزف الصيني.

علم الآثار في العالم الغربي: يُذكر هوميروس شاعر اليونان الشهير من أهل القرن التاسع قبل الميلاد على أنه أقدم الأثريين. ويعد بعض المتحمسين للتوراة أنها من المصادر الأثرية. ومن الأوائل الذين وصفوا الآثار اليوناني توقيديدس (القرن الخامس قبل الميلاد)، وكذلك هيرودوتس من حيث كونه رحالة، على أن الخيال يختلط بالواقع في رواياته.

وكان بوزانياس وكْزِنوفون وأسترابون ممن وصفوا الأوابد الأثرية التي عرفوها في بلادهم اليونانية وخارجها. ويشير الروماني فيتروفيوس (القرن الأول ق.م) في مؤلفه الشهير عن فن العمارة إلى المنشآت اليونانية الكلاسيكية، وكذلك يفعل معاصره المؤرخ بلينوس (٢٣-٧٩م) في كتابه «التاريخ الطبيعي».

وعرفت القرون الوسطى الأوربية ميلاً للاطلاع على الآثار القديمة. وفي كتابات الرحالة ماركو بولو نهج في تتبع الآثار يشبه ما ألفه الرحالة العرب. وكان الفنان الشهير ليوناردو دافنشي يهتم بالآثار ويتساءل عن المستحاثات وأسبابها.

وفي عصر النهضة الأوربية عمت دراسة العلوم الإنسانية، ومنها دراسة مخلّفات الإنسان. فنشر الهولندي غروتر كتابات منقوشة

جمعها من رومة، ومنها نصوص تركها تدمريون كانوا يعيشون فيها. ومارس جاك سبون من ليون في القرن السابع عشر للميلاد هواية العمل الأثري وصنّف الآثار تصنيفاً منطقياً. ومع ذلك فإن العلم كان ما يزال في بدايته، حتى إن بعضهم كان يظن أن الأدوات الصوانية أحجارٌ أتت بها الصواعق. وفي القرن الثامن عشر بدأت هواية الآثار تجتذب الناس، وعم الإعجاب بما تركه القدماء، وظهر الميل إلى تقليد الأساليب القديمة في العمارة، ونشأ أسلوب الكلاسيكية الحديثة في العمارة، وانتشر وصف الآثار ورسمها والاستمتاع بها، ونشرها في كتب ضخمة بديعة المظهر يتباهى باقتنائها الأثرياء والمعاهد العلمية.

ولم يكتف الباحثون الأثريون في القرن الثامن عشر بزيارة الآثار ووصفها ورسمها بل دأب القادرون منهم على السفر، مثل الدبلوماسيين والرحالة الأغنياء، على اقتناء الآثار من الشرق والغرب وجلبها إلى بلادهم. وكان بعضهم يحتفظ بما يجلبه من المجموعات، في أماكن خاصة بالمتاحف، كالأب الفرنسي بارتلمي مفسر الكتابات الفينيقية والتدمرية، الذي اقتنى من رومة مجموعات من الآثار لمصلحة «متحف المداليات» في باريس. ولابد من القول هنا إن أخذ المجموعات الأثرية بوسائل غير مشروعة من مواطنها قد أفقر التراث القومي للكثير من البلدان.

ويجدر في هذا الصدد ذكر رحلة الإنكليزيين وود ودوكنس إلى تدمر عام ١٧٥١ م، وتأليفهما الكتاب الشهير «أطلال تدمر» الذي نشر بالإنكليزية والفرنسية عام ١٧٥٣، ثم نشر مؤلفهما عن أطلال بعلبك بعد ذلك بأربع سنوات. وفي مطلع القرن الثامن عشر أسست في لندن أول جمعية أثرية. وقريباً من ذلك التاريخ بدأت أعمال التنقيب في بومبي وهركولانوم اللتين طمرهما بركان فيزوف قرب نابولي في إيطالية، وقد قام على هذه التنقيبات شارل الثالث دوبوربون ملك نابولي الذي كان يعمل على حفر سراديب في الخبث البركاني بحثاً عن الكنوز.

وفي خضم هذه الفوضى ظهر رجال ذوو نزعة علمية راحوا يحاولون وضع شيء من التنظيم، ومن أشهر هؤلاء جوهان يواكيم فينكلمان (١٧١٧ـ١٧٦٨) الذي يعد مؤسس علم الآثار في ألمانية.

كان فينكلمان قيماً على مكتبة الفاتيكان، وألف كتاباً في الفن القديم والفن الروماني وآثار هركولانوم وغير ذلك من الموضوعات. وقد كني بأبي علم الآثار لمؤلفاته وشغفه بجمع الآثار، ولاسيما النقود، ولطريقته التاريخية في تصنيف الآثار، ومع ذلك كله فقد ظلت كلمة «أركيولوجية» أي علم الآثار غائمة غير محددة المعالم، وظل ثمة خلط بين تاريخ الفن وعلم الآثار. على أن المنحى الأثري أخذ يثبت، وأصبح النشاط الأثري أكثر كثافة، وراحت المتاحف تتسع بما كان يأتيها من بلاد اليونان، ومن الشرق، فقد قدم فونيل، القنصل الفرنسي في أثينة، إلى متحف اللوفر بعض منحوتات الأفاريز المسروقة من معبد البارثنيون في أثينة. إن مثل هذه السرقات لم تكن تسمى باسمها الصريح بل كانت تعد رفداً للعلم. وإذا كان صحيحاً أن بعض الآثار المنهوبة حفظت من الدمار أو التخريب في بعض الحالات، إلا أنها أنقصت قيمة الأوابد التي سرقت منها وقللت من جمالها.

كان الهدف العلمي حينئذ ممتزجاً بالهدف الاستعماري. ومن ذلك ما تم في حملة نابليون على مصر، فمع الدراسات الأثرية والعلمية وكشف حجر رشيد (١٧٩٩) وتفسير الكتابات الهيروغليفية (١٨٢٢م)، تمت عملية نقل واسعة للآثار المصرية وامتلأت بها المتاحف الفرنسية ومن ثم المتاحف الأوربيَة. وكانت اليونان في مقدمة ما استهدفه العاملون في حقل الآثار من الأوربيين في تلك الحقبة. فقد عمل فون ستاكلبرغ في إيجينا، وعمل اللورد إلجين في أكروبول أثينة لمصلحة المتحف البريطاني (١٨١٦)، وأنشىء معهد المراسلات الأثرية في ألمانية (١٨٢٩) والمدرسة الأثرية الفرنسية في أثينة (١٨٤٦) كما قامت جمعية أثرية روسية في موسكو.

اقترن علم الآثار في القرن التاسع عشر بالسعي وراء المغامرة والمجد القومي أو الشخصي وبالجاسوسية وبالصراع الدولي. وكانت محصلة ذلك مزيداً من الكشوف. ومن ذلك قيام السويسري بوركهارت بتعريف العالم بمدينة البتراء (١٨١٢)، ومباشرة بول إميل بوتا قنصل فرنسة في الموصل بالتنقيب في نينوى قيو نجيق (١٨٤٢) وفي خورسباد (١٨٤٣) وتابع عمله الفرنسي فكتور بلاس من ١٨٥٨ إلى ١٨٦٥. ويذكر كذلك الإنكليزي هنري لايارد الذي قام بالتنقيب في منطقة ما بين النهرين (١٨٤٥ـ١٨٥١) مستطلعاً آثار البابليين والآشوريين. وقد عثر في عام ١٨٤٩ على نينوى، قرب الموصل، وكان أول من قام بالتنقيب في منطقة الجزيرة السورية ولاسيما في تل عربان على نهر الخابور (١٨٥٠).

وفي ١٨٦١ نشر إرنست رينان كتابه الشهير «بعثة إلى فينيقية» كما نشر ملكيور دوفوغي مؤلفه الضخم «سورية الوسطى» بين ١٨٦٥ و١٨٧٧، وكان قد زار سورية في الخمسينيات من ذلك القرن. وهذان المؤلفان يعدّان من المنطلقات الأساسية للدراسات الأثرية في سورية.

وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي حقق الألماني هنريش شليمان كشوفاً مثيرة في طروادة وميكيني(ميسينة) وتيرانت (في اليونان الآن)، وقريباً من ذلك الوقت اكتشف الإنكليزي آرثر إيفانس المدائن المينوية في كريت، وبدأ الفرنسي سارزيك في ١٨٧٧ التنقيب عن لاغاش في منطقة تلّو (في العراق) وعرّف العالم بالحضارة السومرية. وفي ١٩٠٤ نشر فلندرز بيتري كتاب «الطرائق والأهداف في علم الآثار» ونهج منهجاً علمياً في دراسة الفخار والاهتمام بالتعاقب الطبقي الأثري (الستراتيغرافي) في حفرياته في نوقراطيس (نقراش) في مصر. وكان الألمان قد بدؤوا في ذلك الوقت يهتمون بطريق بغداد ـ برلين فنقلوا نشاطهم إلى العراق وسورية ونقّب كولدوي في بابل، وأندره في آشور، وماكس فون أوبنهايم في الجزيرة السورية (تل حَلَف)، وفيغاند في تدمر وبعلبك، وتبعهم الأمريكيون (بعثة بتلر ١٩٠٤ / ١٩٠٥ / ١٩٠٩). ومن المكتشفات المثيرة في هذا القرن اكتشاف كارتر وكارنافون قبر توت عنخ آمون (١٩٢٣) واكتشاف مارشال ومكاي المدائن المغيبة في حوض موهنجدارو وهارابا في الهند، وأسهم في الأعمال هناك فيما بعد مورتيمور هويلر صاحب طريقة الأبعاد الثلاثة في التنقيب الأثري.

ومن أهم أعمال التنقيب بين الحربين العالميتين حفريات ليونارد وولي في «أور» جنوبي الرافدين وهنري فرنكفورت في حوض ديالى، ويوردان ونولدكه وهنريش ولنسن في

أوروك (الوركاء).

التنقيب عن الآثار في سورية: أشير من قبل إلى النشاط الأثري الذي قام به إرنست رينان في البعثة الفرنسية إلى بلاد الشام عام ١٨٦٠ وقيامه بعمليات سبر في جبيل وصيدا وصور وأرواد وكشفه بعض المدافن في مقبرة صيدا. ومن ثم كانت حفريات المقريدي بك العثماني لحساب المتحف الهمايوني في صيدا. أما أول أعمال التنقيب المهمة في سورية فقد بدأت في ١٨٨٨ في موقع زنجرلي (مدينة شمأل الآرامية القديمة) قام بها الألماني فان لوشان واشترك فيها ر. كولدوي قبل قيامه بالتنقيب في بابل. كان العمل منهجياً في الحدود الممكنة في ذلك الوقت وأعطى للمرة الأولى تقسيماً أثرياً وفنياً لآثار ضخمة من أرض سورية متأثرة بالفن الآشوري. ثم اهتم ماكس فون أوبنهايم بموقع تل حلف في الجزيرة السورية عام ١٨٩٩ وبدأ التنقيب فيه عام ١٩١١ واستمر حتى عام ١٩١٣ ومن ثم عاود الحفر بين ١٩٢٧ و١٩٢٩، وكان تأريخه للمعالم مضطرباً ومغلوطاً إلى أن تم تصحيحه فيما بعد. وعُرف العصران المميزان للموقع في الألف الخامس وعصر الحديد. وقام الألمان أيضاً بدراسة معمارية أثرية لبعض عمائر تدمر وبعلبك، وكذلك فعل الأمريكي بتلر على رأس بعثة جامعة برنستون في سورية (١٩٠٤ / ١٩٠٥ / ١٩٠٩). واهتم ولزنجر ووتزنجر الألمانيان بآثار دمشق عام ١٩١٧.

كانت البلاد تخضع للسلطة العثمانية التي سهلت عمل الأجانب، وساعدتهم حماية الحصانة الدبلوماسية فزادت المجموعات الأثرية المنهوبة أو المشتراة بأبخس الأثمان. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك لوحة القانون المالي التدمري التي قام الأمير الأرميني الروسي أباماليك لازاريف بتقطيعها عام ١٨٨٢ ونقلها إلى متحف الإرميتاج في سان بطرسبرغ (ليننغراد)، وكذلك المجموعة النادرة من المنحوتات التدمرية التي أخذها قنصل الدنمارك إلى متحف كارلسبرْغ في كوبنهاغن، وتماثيل عمريت (قرب طرطوس) التي كانت تهرّب إلى قنصل فرنسة في طرابلس، والتحف النادرة والمخطوطات التي أعطيت لغيلوم الثاني في أثناء زيارته للبلاد.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها وقام الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان ربطت السلطة الفرنسية مصلحة الآثار بالمفوضية العليا في بيروت وجعلت مديريها ومفتشيها ومهندسيها من الفرنسيين مع قلة من المساعدين الفنيين والرسامين العرب. وعملت مصلحة الآثار هذه مع مؤسسات علمية فرنسية أو محلية في عدد من المواقع السورية كأنطاكية وتدمر وشهباء وقصر الحير الغربي وحَلَبْية ـ زَلَبْية (الخانوقة) على الفرات وغيرها.

وبين ١٩٢٠ و١٩٣٩ رخصت السلطات الأثرية الفرنسية لعدد من البعثات الأثرية الفرنسية والإنكليزية والأمريكية والدنماركية والتشيكية وغيرها بالتنقيب في المواقع السورية على أساس تقاسم الآثار بينها وبين المتحفين الوطنيين في دمشق وحلب.

وكان المتحف الوطني بدمشق آنئذ مؤسسة وطنية باشر مديره الأمير جعفر الحسني، رائد الآثار السورية، بإنشاء نواة تنقيب وطنية نقبت في مقابر جوبر وطفس وخسفين (١٩٤٣) وأجرت سبراً في المعسكر ببصرى (١٩٤٤) وتحريات في تسيل والعال وفيق (١٩٤٦) في الجولان فكانت أول أعمال تنقيب وطنية أغنت المتحف الوطني بدمشق واشتهر بها في العالم. وتتعاون الآن المديرية العامة للآثار والمتاحف في الجمهورية العربية السورية وبعثاتها الوطنية للتنقيب مع نحو خمسين بعثة أثرية أجنبية.

علم آثار ما قبل التاريخ

أخذ علم آثار ما قبل التاريخ منحى علمياً منذ ١٨٣٠ حين أكد العالم الفرنسي بوشيه دوبرت أن الأدوات الصوانية هي من صنع الإنسان، وبرهن على ذلك فيما كشفه في موقع إبفيل Abbeville. وقد لاقى رفضاً لآرائه وحملة عليه أول الأمر، ولكن العلماء أخذوا يتقبلون طروحاته شيئاً فشيئاً.

بدأ البحث بعد ذلك عن آثار من صنع تلك الأدوات الصوانية، أي بقايا الإنسان المستحاثي، والاهتداء إلى أقدم وجود للإنسان على الأرض. ودخل علم آثار ما قبل التاريخ المعاهد العالمية، وبرز كثير من الباحثين في ذلك الحقل، ومن أشهرهم الفرنسيون: الأب بروي ولانتييه ودوشاردران الذي كشف مع غيره من العلماء إنسان الصين الذي يعود لنصف مليون عام، وكان في ذلك الحين أقدم إنسان مستحاثي عرفه العالم، ومنهم كذلك دومورغان الذي تعرف في ١٨٩٧ حضارة ما قبل التاريخ في سوسة جنوبي إيران. ولما كان العلماء الفرنسيون رواد علم آثار ما قبل التاريخ فهم يعدون هذا العلم فرنسياً.

تتابعت الكشوف في ميدان ما قبل التاريخ، وقسمت عصوره إلى الحجري القديم (الباليوليتي) الأدنى والأوسط والأحدث، والحجري الوسيط (الميزوليتي)، والحجري الحديث (النيوليتي) ما قبل الفخاري وما بعد الفخاري، والحجري النحاسي (الكالكوليتي). وتم تتبع أصول الإنسان إلى ما قبل ثلاثة ملايين عام وأكثر في إفريقية وإلى ما قبل مليون عام أو أكثر مثلاً في سورية وقسمت أنواعه إلى الإنسان الأحمق (ستوبيديوس) والإنسان المنتصب (إيريكتوس) والإنسان العاقل (سابيانس)، ونسبت مقتنيات صناعات ذلك الإنسان إلى أماكن اكتشافها أول مرة. ومن ذلك الشولية والأشولية والفالوازية ـ الموسترية والنياندرتالية نسبة إلى أماكن في فرنسة وألمانية، وأما فيما يتصل بسورية فهناك تسميات محلية حديثة [ر. سورية]

العلوم المساعدة لعلم الآثار

كان علم الآثار في بدايته وصفاً للعمائر الحجرية والمدافن الضخمة التي بقيت ظاهرة فوق الأرض وقاومت عوامل الطبيعة. ثم غدا علماً متميزاً يعتمد على كل الوثائق الممكنة بلا تحديد ويستفيد من وسائل أكثر العلوم ومعطياتها. وقد حصل تحول في تطور علم الآثار في السنوات العشرين الأخيرة، وحدث انقسام فكري ومنهجي في موضوع الآثار بين مدرسة أثرية تقليدية وطريقة تجديدية. فقد كان علم الآثار في السابق يعتمد تصنيف الأشياء المكتشفة وتبويبها والتقريب فيما بينها. وبعد اكتشاف طرائق التأريخ الحديثة المطلقة أصبح في يد عالم الآثار سلاح قوي يعالج به مشكلة تحديد زمن الأشياء الذي يعد من أهم أهداف البحث والتنقيب.

كذلك استفاد علم الآثار من عناصر جديدة في نطاق العلوم الفيزيائية والطبيعية، مثل علم النبات والحيوان وعلم البيئة، وأصبحت هذه العلوم أداة مهمة لتفسير المشكلات الأثرية، مثل معرفة تطور الزراعة وبداية تهجين الحيوان واختلافات المناخ الطبيعي وتطوراته على مدى الأزمان السابقة.

إن الاتجاه الحالي في علم الآثار يسعى إذن

إلى وضع أسس منهجية للبحث الأثري المتعدد الجوانب الذي يشترك فيه عدد من العلوم والتقنيات، ومعنى هذا أن عالم الآثار، عندما يبدأ في معالجة مادته أو مشكلته الأثرية، يجب أن ينظر إليها من الإطار المعيشي الكامل للإنسان سواء من ناحية التضاريس الجغرافية للمنطقة التي سكنها، أو من ناحية مواردها الطبيعية من ماء ونبات وحيوان ومعادن وغيرها، أو من حيث المناخ وظواهر التعرية. وتتطلب هذه النظرة بطبيعة الحال تضافر العديد من العلوم والتخصصات عند فحص المشكلة الأثرية.

ويمكن تصنيف العلوم المساعدة إلى عدة فئات تدخل في مجال العلوم الجغرافية البيئية والعلوم التاريخية والإنسانية، والعلوم الرياضية والمعارف الفنية والتقنية وفيما يلي أهمها.

الجيولوجية والعلوم الجيومورفولوجية وعلم الآثار: إن الجيولوجية، نتيجة دراستها للترسب والحت وتكون الصخور وتفتتها وإشعاعها وما فيها من فحم أو معادن أو مستحاثات، تقدم فكرة عن عمر هذه الصخور وعن الجو الذي نشأت فيه. وانطلاقاً من معرفة الإنسان هذه الأمور يمكنه تعرف عمرها التقريبي أو النسبي. وهذه المعرفة الأولية تقدم لعالم الآثار قاعدة ينطلق منها إلى مزيد من الدراسة، وإن الجيومورفولوجية، وهي من العلوم الجيولوجية والجغرافية الأساسية، لها مساس مباشر بالآثار فهي تقدم صورة ما طرأ في زمن محدد من تشكّلات في سطح الأرض والبحار والأنهار في المنطقة موضوع بحث الآثاري. وتعطي الجيوفيزياء (الفيزياء الأرضية) الآثاري صورة للأرض غير المرئية مستعينة بالفيزياء بأنواعها من صوت وضوء وكهرباء ومغنطيسية، وقد يدل ذلك على وجود مسكن أو سرداب أو نفق أو غير ذلك، كما أن هذه العلوم وتقنياتها الجديدة المعقدة تساعد على تأريخ الآثار بوسائل مختلفة مثل المغنطيسية الأثرية (أركيو مانيتزم) التي تساعد في تحديد الأعمار القريبة نسبياً، ومثل تحديد عمر الخشب (دندروكرونولوجي) لأزمنة أقل من ٧٤٢٠ عاماً، أو الكربون المشع (الكربون ١٤) لما بين ٣٥-٥٠ ألف عام، أو مقدار البوتاسيوم - أرغون لنحو مليون عام، أو التألق الحراري (ترمولومينيسانس) لأزمنة تراوح بين ألوف وملايين السنين وغير ذلك.

علم البيئة الإيكولوجية والآثار: يدرس هذا العلم علاقة الكائنات الحية بالبيئة الطبيعية التي عاشت فيها ويفيد الآثاري منه في وضع الإنسان القديم في المحيط الذي عاش فيه، ومعرفة مدى تأثره بهذه البيئة وتأثيره فيها، أي علاقته بها وذلك أمر له أهمية بالغة في دراسة عصور ما قبل التاريخ، ويتبع دراسة البيئة القديمة بداهة دراسة حيوانها ونباتها ولاسيما المستحاثي المنقرض منها. وهذا يقود إلى علم المستحاثات (الباليونتولوجية) الذي تطور في تقنياته وتوسع في دراسة الإنسان المستحاثي وتوصل إلى تقدير عمره على الأرض بملايين السنين.

الأنتروبولوجية والإتنولوجية: هذان العلمان هما، مثل التاريخ، من أشد الاختصاصات المساعدة التصاقاً بعلم الآثار. فالأول يبحث في التطور التاريخي الطبيعي للإنسان، والثاني يبحث في ثقافاته وعاداته وتقاليده، ولذلك يرى بعض العلماء أنهما بحثان تاريخيان وبالتالي أثريان.

علم النميات (النقود والمسكوكات): إن هذا العلم من أهم الوسائل التي تساعد الآثاري على تحديد زمن الآثار التي تقترن بها النقود وهويتها، وعلى معرفة العلاقات الاقتصادية والمد التجاري بين بلد وآخر. كما أن له فوائد في معرفة الكتابات وأشكال الحكم والأحداث والمناسبات المهمة في مختلف البلدان.. وإن قطعة النقود التي كان يضعها الرومان في فم الميت أجرة لشارو سائق عربة الموتى كانت تؤرخ الوفاة أيضاً، وظلت توضع للغاية الأخيرة فحسب في العصر البيزنطي فيفيد منها الباحث في الحالتين في تحديد التاريخ التقريبي للقبر أو المقبرة.

علم التقويم (الكرونولوجية): وهو من العلوم التاريخية المفيدة جداً لعلم الآثار. وموضوعه ينصب على التقاويم المختلفة لدى الدول والشعوب. ومنذ الألف الثالث ق.م احتاج الإنسان إلى تسجيل ما يهمه في حياته الاقتصادية والدينية والسياسية فظهرت في مصر والرافدين وسورية تقاويم لسنوات حكم الملوك مرتبطة بالأحداث التي مروا بها أو جرت في أيامهم. ومهمة المختص في شؤون التقويم دراسة هذه التقاويم ومقارنتها واستنتاج التاريخ المطلق لملك أو حدث. وهذا العلم غاية في الصعوبة ولم يتفق العلماء بعد على تقويم صحيح لأحداث الألف الثالث والثاني ق.م في الرافدين مثلاً، فهناك أصحاب التقويم الطويل والتقويم القصير والمتوسط ويقوم خلاف بين هؤلاء على عهد حمورابي مثلاً يتجاوز المئة عام. ومن المهم للآثاري الاعتماد على الكرونولوجية في تأريخ السويات الأثرية التي يكتشفها. ولاجدوى من درس التعاقب الطبقي الأثري «الستراتيغرافية» من دون خلفية تقويمية. وتعرف صعوبة علم التقويم من المطابقة بين التقويمين الهجري والميلادي فكيف يكون الأمر إذا كان تقويم إحدى الأسر يرجع إلى ثلاثة آلاف عام قبل ذلك وكان مفككاً متناقضاً ملتبساً. ويتبع هذا العلم علم الأنساب وقد برع العرب جداً في هذا العلم حتى إنهم نسبوا خيولهم بصكوك موثقة مفيدة.

علم النقوش (الإبيغرافية): وهو علم الكتابة القديمة المنقوشة في الحجر والطين والمعدن والخشب وغيرها. وهذا العلم يساعد الآثاري في معرفة سبب وجود الأثر ومعرفة صانعه وبيئة الأثر وأسرار اللغات. ويقوم المختص به بتحديد زمن النصوص ومكانتها وترميم الناقص فيها. ومن العلوم المقترنة بالإبيغرافية والمفيدة لها علم المخطوطات.

علم الكتابات القديمة (الباليوغرافية): وميدانه خطوط النصوص القديمة المكتوبة على ورق البردى ورقّ الغزال والقراطيس القديمة والمخطوطات بأنواعها من حيث مادتها وشكل كتابتها ومقارنة هذه الكتابة بغيرها وتحديد نسبتها. ومن فروعها المهمة في ميدان الآثار علم البرديات (البابيرولوجية) والكتابات القديمة العربية والإسلامية.

علم أسماء الأماكن (الطبونيمية): يفتح هذا العلم للآثاري آفاقاً جديدة في البحث، وذلك بالرجوع إلى أصل تسمية الأماكن. ففي هذه التسمية دلالة أكيدة على الشعوب التي أنشأت هذه الأماكن. وقد قيل إن المدن تتكلم لغة مؤسسيها. ثم إن المكان يمكن أن يدل على منشأة بائدة (بئر، حمّام، دير، حصن). ولا تتغير أسماء المدن والمواقع بسهولة. وفي بلاد الشام أسماء مدن يرقى بعضها إلى آلاف السنين (دمشق، حلب، تدمر، عمريت، أرواد، وغيرها).

علم الأختام: ومجال هذا العلم الأختام بأنواعها مما لدى الأفراد والمؤسسات القديمة. إن الأختام أو طبعاتها تحمل رسوماً تشهد على

الأزمنة والأماكن والأوابد والأزياء. وتتضمن نصوصاً وأسماء أعلام مفيدة أيضاً، ويدخل في هذا النطاق علم الشعارات (الرنوك) وهو يميز الأسر والحكام، وفي جملة ذلك الرنوك في الدولة الأيوبية والمملوكية التي تساعد الآثاريين في نسبة المباني والآثار المنقولة التي تعود لواحد من أهل السلطان والإفادة منها في المقارنة الأثرية ودراسة الفن والصناعة.

وعلى كل حال لا يمكن حصر العلوم التي تساعد علم الآثار. فالآثاري كالطبيب الجراح يفيد من كل العلوم ويتحسن عمله بتطور التقنيات. وفي هذا الصدد يمكن القول إن البيولوجية الإنسانية من العلوم التي تقدم خدمات جلى للبحث الأثري من حيث دراستها للعظام القديمة والموميات ومعرفة أعمار الموتى والخصائص الجسدية والأمراض التي عانوها وأساليب الطب القديم.

وعلى الآثاري الناجح أن يلم بمعارف كثيرة أو على الأقل أن يعلم كيف يسائل أهل الخبرة في كل المجالات. ولكن في ختام المعارف المساعدة لعلم الآثار يأتي علم الخزفيات (سيرامولوجية) وهو الرفيق اليومي لمعظم الآثاريين. فالفخاريات أو الخزفيات قبل اختراع الكتابة وبعدها هي وسيلة الآثاري الأولى في معرفة العصور والتأثيرات الحضارية وحركة الأمم والشعوب.

منهج علم الآثار الحديث

عقب الحرب العالمية الثانية اتجه علم الآثار نحو منهج علمي متين يقوم على تنفيذ العملية الأثرية على مراحل ثلاث: المسح الأثري والتنقيب والتوثيق.

المسح الأثري: لا يهدف هذا المسح إلى حصر الآثار المنظورة فحسب، بل يسعى كذلك إلى معرفة الإطار البيئي الكامل الذي عاصر حقبة زمنية، وذلك بدراسة مصادر المواد الطبيعية ودراسة التغيرات الجيولوجية والجغرافية الجيومورفولوجية مثل تغيرات مجاري الأنهار وانخفاض سويات البحار وارتفاعها. إن وجود الإنسان في الطبيعة يترتب عليه تغيّر في التوازن الطبيعي، ولابد إذن من معرفة العلاقة البشرية بالبيئة الطبيعية، ولابد من وسائل ميدانية متطورة لتفهم النشاط الإنساني على وجه أفضل، ومن ثم جمع عينات من مخلفات الإنسان، كالفخار والعظام والمواد العضوية وغيرها، من كل بقعة سكن فيها أو مر بها. ويستعان في عمليات المسح الأثري بالتصوير الجوي بكل أنواعه وبالتصوير الفوتوغرامتري وتستخدم الأشعة الكونية والأشعة تحت الحمراء. وقد دخلت السواتل (التوابع الصنعية) حديثاً في عمليات المسح الواسعة.

التنقيب الأثري: إن التنقيب الأثري هو عماد علم الآثار. وتعتمد طرائق التنقيب الحديثة على الخبرات العملية التي تجمعت لدى الآثاريين الذين مارسوا التنقيب في الشرق والغرب. وإن إجراء عملية تنقيب أثري في موقع ما تنتج عنه عملية بناء تاريخي والحصول على صورة أكثر دقة عن الحضارة التي يعود إليها هذا الموقع، وجودة طريقة التنقيب تحقق الهدف الذي ترمي إليه عملية التنقيب أفضل تحقيق.

والتنقيب الأثري عملية تقنية تعتمد، إلى حد بعيد، على الثقافة الأثرية والعامة، وعلى المهارة الشخصية، وعلى الخصائص الفردية للمنقبين، وعلى قابلياتهم الإدارية. وليس ثمة تنقيب يدرَّس بالمعنى المعروف بل هناك مبادىء أولية وطرائق نظرية. ولكن عملية التنقيب يجب أن تعاش، وأن تدعم خبرة التنقيب بالجهد والمعاناة. ويتطلب التنقيب الأثري معرفة بتعاقب الطبقات الأثرية (الستراتيغرافية) وعلم التقويم (الكرونولوجية) ولاجدوى من عملية التنقيب من دون خلفية تاريخية. وإن تقنية التنقيب الجيدة هي وسيلة لرؤية تاريخية واضحة وليست هدفاً بذاتها. وتعتمد طرائق التنقيب الحديثة على دراسة الموقع دراسة طبوغرافية دقيقة وشاملة، وتقسيمه إلى مربعات، وتسمية هذه المربعات، وجمع كل مايوجد على سطحه ضمن هذه المربعات وتوثيقها ثم يبدأ السبر بعد ذلك لأخذ فكرة عن طبقات الموقع وأزمنته.

إن طريقة التنقيب الشائعة في مدارس التنقيب الحديثة هي طريقة الآثاري الإنكليزي «مورتمر هويلر» وهي تقوم على أخذ الإحداثيات الفلكية الثلاثة س ع ص للأوابد واللُّقى الأثرية في أثناء التنقيب، لذلك سميت طريقة الأبعاد الثلاثة. وبإحداث حواجز بين مربعات التنقيب يرى المنقب في مقطعها مناسيب الوضع الطبقي للموقع، وتوضح الآثار مع أرضيات المساكن، وبذلك يمكن الحصول على تصور صحيح لماضي الموقع، وإعادة بنائه عند التوثيق والنشر بالاعتماد على الرسم والتصوير والتحليل إضافة إلى الوصف شيئاً فشيئاً.

بدأ الآثاريون في استخدام المعلوماتية والحواسيب بالقرب من مواقع التنقيب لخزن المعطيات التي تتوافر في أثناء التنقيب، من مكتشفات ونماذج فخارية ونصوص وسويات ومقاطع وملاحظات والمقابلة فيما بينها وبين ما هو معروف في مواقع أخرى.

التوثيق الأثري: إن هذه المهمة التي تسبق العمل التنقيبي الأثري وتليه بالضرورة، هدفها الأقصى إيصال كل المعلومات المجمَّعة في عمليات التنقيب إلى النشر العلمي الموثق بالصور والرسوم والمخططات، والمدعم بالأرقام الإحصائية، والمقترن بالتحاليل الكيمياوية والفيزيائية للعينات المجموعة بطريقة «الدراسة الطبقية» التي لا تكتفي بالعينة بل لابد من أن تحلل الوسط الترابي أو العضوي المحيط بها. ويتجه الميل الآن إلى أخذ أكبر كمية ممكنة من المكتشفات والمواد المخرجة بالتنقيب والأنقاض والتربة التي عثر عليها فيها. حتى إن ثمة من يرى أنه سيأتي اليوم الذي يدرس فيه ويحلل ويوثق كل ما تتألف منه المواقع والتلال الأثرية.

التنقيب الأثري تحت الماء

أصبح التنقيب الأثري تحت مياه البحار والأنهار والبحيرات فرعاً مهماً من فروع علم الآثار. وهو يتحرى عن المراكب الغارقة والمرافىء القديمة التي ابتلعها البحر أو غمرها بلججه بسبب الزلازل. وكان الأول في هذا الفرع هو الأب «بوادبار» وهو رائد التصوير الجوي الأثري. أما أول عملية قام بها في مجال التحري الأثري تحت الماء فهي البحث عن مرفأ صور القديم. ومن هناك انتشرت التحريات الأثرية تحت الماء في البحر المتوسط كله، واشتهرت عمليات الغطس في الشواطىء المصرية والليبية. وفي سورية تمت عمليتان مهمتان في جهات جزيرة أرواد وسجل حتى الآن اكتشاف، بل انتشال، عشرات المراكب الغارقة عند شواطىء المتوسط ولاسيما الشواطىء اليونانية والقرطاجية منها، والمجلّي في هذا المجال هو عالم البحار الفرنسي «كوستو» ومركبه الشهير «كاليبسو».

ومن أطرف مكتشفات الغطس البحري الأثري اكتشاف فريق أمريكي لمركبين أغاريتيين غارقين عند ساحل الأناضول الجنوبي (رأس

حليدونية ورأس كاش).

إن هذا النوع من النشاط الأثري يلاقي شعبية كبيرة في البلدان البحرية. ومع كثرة هواته بين الشباب يبقى ميداناً علمياً قبل كل شيء، له أصوله ومعداته، ويتطلب إتقان التصوير ورسم المخططات تحت الماء، وقوة جسدية ممتازة، ومعرفة بالحياة البحرية بكل أنواعها.

وإن أعماق البحار والأنهار ليست أصلاً مجال طبيعة الإنسان، فالغطاس الأثري يعمل في ظروف تعطل جانباً كبيراً من قدراته الجسمية والعقلية والنفسية، والوقت المتاح له للعمل محدود، ومع تطور الوسائل المستعملة في التنقيب تحت الماء ينتظر الوصول إلى وقائع مثيرة في هذا المجال. ولكن الوضوح في أعمال ما تحت الماء ما يزال قليلاً نسبياً.

عدنان البني

ترميم الآثار

الترميم restoration عملية ثقافية وتقنية وحرفية على درجة عالية من التخصص، لا يقوم بها إلا ذوو الخبرة الطويلة، ويتم التعاون فيها بين جميع فروع العلوم للوصول إلى الطرائق المناسبة للتنفيذ ويجب أن يسبق أي عملية ترميمية دراسة توثيقية ترتكز على الدراسات الإنسانية والعلمية والبحث المنهجي، وأن ينظم تقرير عن الحالة الراهنة والأسلوب الذي سيتم اتباعه مع المسوغات الداعية لكل خطوة بالدلائل والصور والمخططات مرفقة بالوثائق اللازمة لجميع خطوات الترميم والأساليب التقنية المتبعة والمواد المستخدمة. كذلك يجب أن تكون الأساليب المتبعة تقليدية، ويمكن في بعض الأحيان استخدام الأساليب الحديثة المجربة سابقاً، ولا يسمح باستخدام أي أساليب أو مواد حديثة إلا إذا كانت مناسبة وتطيل عمر المبنى. ويجب احترام الإضافات التي جرت على المبنى على مر العصور، ولا يسمح بإزالة مرحلة لإظهار مرحلة إلا عندما تكون المرحلة الأحدث ذات قيمة ضئيلة بالموازنة مع المرحلة التي تسبقها، على أن تكون الأقدم في حالة فنية جيدة تسوغ العملية.

ولا يجوز إجراء أي هدم أو تعديل على المبنى، كما لا يسمح بعملية إعادة البناء إلا إذا كانت هذه العملية تظهر قيمة المبنى، ويقتصر الترميم على أجزاء صغيرة من مادة البناء فقط بالاعتماد على الدلائل الأثرية، وتتوقف هذه العملية في اللحظة التي يبدأ فيها الافتراض والتخمين أن تكون أعمال الترميم مناسبة من حيث اللون والشكل والمقياس ومتناسبة مع المظهر العام من جهة، ومميزة عن الأصل من جهة أخرى حتى لا يتم تزوير الشواهد التاريخية، ويفضل في الترميم الأثري استخدام المواد والتقنيات القابلة للفك ما أمكن إذا دعت الضرورة إلى ذلك في المستقبل.

هزار عمران

مراجع للاستزادة:

- عدنان البني، التنقيب الأثري الحديث (الطبعة الثانية، وزارة الثقافة ١٩٧٦)
- سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ (جامعة دمشق ١٩٨٦/١٩٨٧).
- علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية (وزارة الثقافة ١٩٨٨).
- دبي بيوبييه، الطرائق الموضوعية للتاريخ أو قياس الزمن في الأركيولوجية - علم الآثار - (المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٨٨)

■ أثرْ بلتيه وأثرطمسون

أثر بلتيه وأثر طمسون ظاهرتان حراريتان كهربائيتان تستخدمان في القياسات الحرارية وفي تحقيق تحولات عكوسة بين الطاقة الحرارية والطاقة الكهربائية.

إن تحويل الحرارة مباشرة إلى طاقة كهربائية تحويلاً عكوساً يتم بثلاث ظواهر مترابطة هي: أثر سيبك Seebeck وأثر بِلْتيه وأثر طُمْسون. أما أثرسيبك فيتعلق بتولد قوة محركة كهربائية (ق.م.ك) في دارة كهربائية مكونة من ناقلين مختلفين جُعلت وُصْلتاهما في درجتيْ حرارة مختلفتين. وأما أثر بلتيه فيرتبط بالحرارة المتولدة أو الممتصة في وصلة ناقلين مختلفين عندما يمر تيار كهربائي مستمر في هذه الوصلة. وأما أثر طمسون فيتصل بتولد الحرارة أو امتصاصها في ناقل وحيد يمر فيه تيار مستمر وتتدرج فيه درجة الحرارة تدرجاً منتظماً.

وتعرَّف هذه الآثار الكهرحرارية الثلاثة بدلالة معاملاتها: معامل الاستطاعة الكهرحرارية س ومعامل بلتيه بل ومعامل طمسون ط وذلك من أجل ناقل متجانس في درجة حرارة ثابتة. وترتبط هذه المعاملات بعضها مع بعض بعلاقات كلفن Kelvin التي تؤدي معرفة معلومات كاملة عن أحد المعاملات فيها إلى معلومات كاملة عن الثلاثة معاً. لذلك يُكتفى بقياس أحدها وهو عادة س، إذ يسْهل قياسه بدقة كبيرة. وهذه العلاقات هي:

$$\text{س} = \frac{\text{بل}}{\text{د}} \quad \text{و} \quad \frac{\text{ط}}{\text{د}} = \frac{\text{نفا س}}{\text{نفا د}}$$

حيث د: درجة الحرارة المطلقة للناقل (الموصّل) conduetor

أثر طمسون Thomson effect

عندما يمر تيار كهربائي في ناقل درجة حرارته ثابتة فإنه تتولد فيه حرارة تتناسب مع مربع شدة التيار، أي أنها لا تتوقف على جهة التيار، وتعرف هذه الظاهرة بأثر (مفعول) جول Joule effect وهي ظاهرة لا عكوسة. في عام ١٨٥٤ حاول وليم طمسون (لورد كلفن) تفسير الاختلاف بين نتائج قياس هذه الحرارة تجريبياً وماتعطيه الدراسة الترموديناميكية النظرية، فافترض للتوفيق بينها وجود حرارة إضافية تتولد تولداً عكوساً حين يكون هناك تدرُّج في درجة حرارة الناقل دْ،وسُمِّيت هذه الحرارة «حرارة طمسون» وهي عكوسة، أي أن الناقل ينقلب من ناشرٍ للحرارة إلى ماصٍ لها عندما تتغير جهة التيار أو جهة تدرُّج درجة الحرارة (ولكن ليس إذا تم عكسهما معاً في آن واحد). إن تدرُّج درجة الحرارة في الناقل المعدني الواحد ينجم عنه فرق كمون potential difference بين طرفيْ هذا الناقل يُعزى إلى تولد قوة محركة كهربائية منشؤها هذا التدرج. ولكن هذه القوى المحركة الكهربائية ذات قيم ضئيلة، فهي +٢,٢ مكروفلط / دْ في النحاس و(- ٨,٤) مكروفلط / دْفي الحديد (المكرو= $١٠^{-٦}$) وهي لا تولِّد تياراً كهربائياً في دارة مؤلفة من ناقل

واحد، ولكن إذا كان هناك تدرج حراري في هذا الناقل ومر فيه تيار مستمر فإنه يضاف إلى حرارة جول حرارة عكوسة ناشئة عن أثر طمسون، وهي ذات قيمة ضئيلة جداً ويصعب قياسها.

أثر بلتيه Peltier effect

هو ظاهرة اكتشفها عام ١٨٣٤ العالم بلتيه، إذ لاحظ أنه عند إمرار تيار كهربائي مستمر في وُصْلة سلكين معدنيين مختلفين تنخفض درجة حرارة الوصلة أو ترتفع تبعاً لجهة التيار فيها. فإذا مر تيار كهربائي مستمر في دارة كهربائية مكوَّنة من وُصلتين لسلكين مختلفين فإن إحدى الوصلتين تبرد والأخرى تسخن. فأثر بلتيه هو إذن ظاهرة عكوسة كأثر طمسون بخلاف أثر جول الحراري غير العكوس.

وقد استُعملت في دراسة أثر بلتيه أزواج مختلفة من المعادن (حديد ـ نحاس) و(بزموت ـ نحاس)، ودلت التجارب على أن قوةً محركة كهربائية تتولد عن الوصلة وجهتها من البزموت إلى النحاس وسمِّيت هذه القوة «قوة بلتيه».

يعرَّف معامل بلتيه بل ب ج بأنه كمية الطاقة الحرارية المتولدة أو الممتصة في وُصلة المادتين ب و جـ من جراء مرور شحنة كهربائية في الوصلة مقدارها كولون واحد.

ونظراً لصغر كمية الحرارة التي تصاحب أثر بلتيه وللتعقيدات الناجمة عن وجود أثر جول الحراري وأثر طمسون، فإن من الصعب قياس معامل بلتيه قياساً دقيقاً، لذلك يُحسب هذا المعامل عادة من علاقات كلفن التي سبق ذكرها باستعمال القيم التجريبية للمعامل س ب ج وقد دلت التجارب على أن معامل بلتيه مستقل عن شدة التيار وعن شكل الأسلاك الناقلة، ولا يتوقف إلا على طبيعة المادتين ب، جـ وعلى درجة حرارة الوصلة.

وقد استُفيد من أثر بلتيه في التبريد الكهرحراري الذي طُبِّق منذ عام ١٩٦٠ باستعمال أنصاف النواقل semiconductors التي اكتُشف فيها هذا الأثر، وبخاصة في المادة بزموت ـ تيلوريد bismuth- telluride، التي تتميز بناقلية حرارية ضعيفة مقارنة بالمعادن، وبقيمة معامل بلتيه الكبيرة التي تبلغ ١٢٠ ملّي فلط، في حين أنها ٣ ملي فلط من أجل الوصلة «حديد ـ نحاس»، و٢١ ملي فلط من أجل الوصلة «بزموت ـ نحاس». ويتألف جهاز التبريد من صفيحة معدنية متصلة بسلسلة متناوبة من وصلتين من بزموت ـ تيلوريد، إحداهما من النوع السالب والأخرى من النوع الموجب بحيث تُمتص الحرارة عند الجانب الذي يراد تبريده بينما تنتشر الحرارة في الجانب الآخر. ويمكن قلب الجهاز إلى أداة تدفئة بعكس جهة التيار. وعلى الرغم من أن البرّاد الذي يعمل بأثر بلتيه لايضاهي البراد العادي تجارياً إلا أنه يفضل استخدامه في أحوال خاصة مثل الرحلات الفضائية لصغر حجمه وخفة وزنه واعتماده على حركة الحرارة والكهرباء بدلاً من المحركات في البرادات الشائعة الاستعمال.

شمس الدين علي

الموضوعات ذات الصلة:

أنصاف النواقل ـ القياسات الحرارية.

مراجع للاستزادة:

ـ شمس الدين علي وجورج طحانيس، تجارب متقدمة في فيزياء الجسم الصلب (منشورات جامعة حلب ١٩٨٦).
ـ عبد الله وائق شهيد، الترموديناميك التقليدي (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٦٨).

■ أثر تشيرنكوف

أثر تشيرنكوف Cherenkov effect أو إشعاع تشيرنكوف هو الضوء الذي يصدره جسيْم مشحون ذو سرعة عالية عندما يتحرك في وسط عازل شفاف بسرعة أكبر من سرعة الضوء في ذلك الوسط. وقد اكتشفه تشيرنكوف عام ١٩٣٤، وهو فيزيائي سوفييتي أهَّله اكتشافه هذا للحصول على جائزة نوبل في الفيزياء لعام ١٩٥٨ مع زميليه السوفييتين فْرَنك Frank وتام Tamm اللذيْن أثبتا هذه الظاهرة نظرياً.

إن الشرط اللازم لكي يولِّد جسيْمٌ مشحون إشعاع تشيرنكوف هو أن تكون سرعته في الوسط المادي أكبر من السرعة الطورية (سر) phase velocity للضوء في هذا الوسط $\frac{c}{ن}$

حيث ن: قرينة انكسار الوسط $= \frac{c}{سر}$ و c: سرعة الضوء في الخلاء. فإذا تحقق هذا الشرط ولّد الجسيم موجة دافعة impulsive تشبه موجة الصدم التي تحدثها قذيفة تنطلق بسرعة أكبر من سرعة الصوت، وتشبه كذلك الموجة التي تتكون في مقدمة قارب يجري بسرعة أكبر من سرعة انتشار الأمواج المائية. فإذا كان (أ) (الشكل ١) إلكتروناً يتحرك في زجاجٍ قرينة انكساره ١,٥٠ بسرعة «سر» تساوي ٠,٩ سرعة الضوء أي أكبر من سرعة الضوء في الزجاج التي تساوي $\frac{C}{١٥} = ٠,٦٧\ C$

فإن الاضطرابات التي تتولد عندما يمر الإلكترون بالأوضاع م، مَ، مً تمثِّلها مويجات ثانوية أنصافُ أقطارها م ب، مَ بَ، مً بً تتناسب مع الأزمان المستغْرَقة ومع سرعة المويجات $\frac{C}{ن}$.

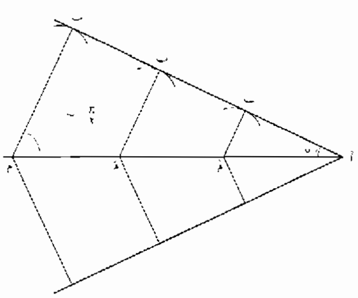
أما صدر (جبهة) الموجة الناتج فهو مغلِّف هذه المويجات، وله شكل مخروط نصف زاويته (يه) الشكل (١) ولماكان م ب عمودياً على صدر الموجة، فإنه يتبين من الشكل أن (يه) تعطى بالعلاقة التالية:

$$جب\ يه = \frac{C/ن}{سر} = \frac{١}{\beta ن} \quad (١)$$

حيث سر: سرعة الجسيم المشحون،

و $\beta = \frac{سر}{C}$.

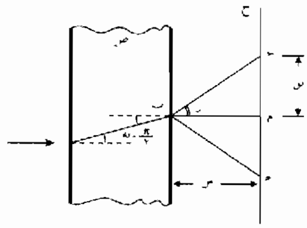
فإذا كانت $\beta = ٠,٩$ و ن = ١,٥



(الشكل ١)

كانت يه = ٤٨° درجة، ويقع جزءٌ مهم من الإشعاع في مجال الضوء المرئي فيُرى وميضٌ أزرق في الماء العائد لمفاعلٍ نووي بالقرب من عناصر الوقود الفعال، كما يمكن تصوير الإشعاع على لوح التصوير، كما هو مبين في الشكل (٢):

تسقط حزمة إلكترونية ذات سرعة عالية



(الشكل ٢)

على صفيحة عازلة «ص» ويوضع لوح تصوير «ح» على بعدٍ «س» منها فتُصوَّر عليه حلقة نصف قطرها «م حـ» يعطى بالعلاقة:

نق= س ظل ر

وترتبط زاوية الانكسار (ر) مع الزاوية $\frac{\pi}{٢}$− يه بقانون ديكارت في الانكسار

جب ر = ن جب $\left(\frac{\pi}{٢}-\right.$ يه$\left.\right)$= ن تجب يه (٢)

وتؤدي معرفة الزاوية (ر) إذن إلى معرفة الزاوية (يه) وبالتالي إلى حساب سرعة الجسيْم المشحون من العلاقة (١)، و هذا يؤدي إلى حساب طاقة الجسيم. وقد صُمِّم بناءً على ذلك عدّادُ تشيرنكوف الذي يُستخدم فيه مضاعف ضوئي photomultiplier لتضخيم الإشعاع.

طاهر تربه دار

مراجع للاستزادة:

-الفيزياء الحديثة للجامعات، الجزء الثاني، ترجمة قدورة وحصري وسمان (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٧٣).

■ الأثر السطحي

الأثر السطحي skin effect هو ظاهرة ناجمة عن سعي التيار الكهربائي العالي التواتر للجريان في طبقة سطحية رقيقة من الناقل، وهو يعرف بأثر كلفن Kelvin نسبة للعالم اللورد كلفن كما يُعرف بالأثر الجلدي أو الأثر القشري.

إذا كان جريان الكهرباء يتم في اتجاه واحد مستمر فإن التيار الكهربائي يتوزع بانتظام على سطح مقطع عرضي لناقلٍ منتظم، أي أن كثافة التيار، وهي شدته في وحدة المساحة، تكون واحدة في كل نقطة من سطح المقطع. ولا يحدث هذا الانتظام البسيط في حالة تيار متناوب بل تكون كثافة التيار قرب السطح الخارجي للناقل أكبر مما هي عليه في مركزه، ويزداد الفرق بينهما كلما ازداد تواتر التيار. ويكون هذا الأثر ضئيلاً جداً إذا كان هذا التواتر منخفضاً. أما في حالة التواترات العالية، عندما يصبح طول الموجة داخل مادة الناقل من مرتبة أبعاد مقطع الناقل أو أصغر منها فإنه يمكن أن يُعدَّ جريان التيار مقتصراً على طبقة سطحية (قشرة) من الناقل رقيقة نسبياً، ويطلق على ثخن هذه الطبقة عمق النفوذ أو ثخن القشرة دلتا.

ففي حالة ناقل أسطواني مستقيم يمر فيه تيار متناوب، يولِّد هذا التيار في الناقل حقلاً تحريضيا مغنطيسياً $\vec{B}$، ويظهر في كل نقطة حقل كهربائي تحريضي محرِّك $\vec{E_i}$ فإذا كان $\vec{E_s}$ الحقل الكهرالدي، فإن الحقل الكهربائي الكلي $\vec{E_t}$ يساوي: $\vec{E_t}=\vec{E_s}+\vec{E_i}$ وترتبط كثافة التيار $\vec{J}$ بالحقل $\vec{E_t}$ بالعلاقة: $\vec{J}=\sigma\vec{E_t}$ حيث تمثل σ ناقلية (موصلية) conductivity مادة الناقل. وينتج أن:

$$\vec{J}=\sigma\left(\vec{E_s}=\vec{E_t}\right)$$

وتؤدي الدراسة الرياضية اعتماداً على معادلات مكسويل [ر] إلى العلاقتين الآتيتين

$$E_t=E_0e^{-\frac{r_0-r}{\sigma}} \quad (١)$$

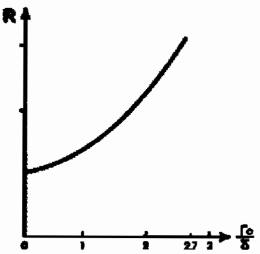
$$J=J_0e^{-\frac{r_0-r}{\sigma}} \quad (٢)$$

حيث يدل r_0 على نصف قطر السلك الناقل، ويدل r على بعد النقطة لمعتبرة عن محور الناقل، ويدل E_0 و J_0 على الحقل الكهربائي وكثافة التيار عند سطح الناقل. أما σ فيدل على عمق النفوذ أو ثخن قشرة الناقل. ويساوى:

$$\sigma=\frac{1}{\sqrt{\pi\mu\sigma f}}$$

حيث f تواتر (تردد) التيار الكهربائي، وμ السماحية المغنطيسية permeability وتبين العلاقتان (١) و(٢) تغير كلٍ من الحقل الكهربائي وكثافة التيار بتغير بعد النقطة المعتبرة عن محور الناقل $r<r_0$. وتظهر العلاقة (٣) ماسبق شرحه من أنه كلما كبُرت الناقلية σ وازداد تواتر التيار f نقص عمق النفوذ أو ثخن القشرة، وأن هذا الثخن ينتهي إلى ∞ إذا كان التيار مستمراً (متصلاً) أي f يساوي الصفر، أي يزول الأثر السطحي. كذلك تظهر العلاقة (٣) أن هذا الأثر يصبح كاملاً عندما ينتهي التواتر إلى اللانهاية.

وينجم عن الأثر السطحي أن تكون مقاومة ناقلٍ ما من حالة تيار متناوبٍ أكبر مما هي في حالة تيار مستمر، ذلك لأن سطح المقطع الفعال للناقل يصغر في الحالة الأولى، وينجم عن صغر المقطع الفعال أيضاً أن مقاومة الناقل R تتغير بتغير تواتر التيار وتزداد بازدياده. ففي حالة ناقل أسطواني مستقيم تتغير R مع تواتر التيار



(الشكل ١)

وبالتالي مع $\frac{r_0}{\sigma}$ وفقاً للخط البياني المبين في الشكل. وهناك صيغ تجريبية أولية تمكِّن من حساب المقاومة R من أجل تواتر معين f انطلاقاً من المقاومة R_0 في حالة تيار مستمر. فعلى سبيل المثال، من أجل ناقل مستقيم بعيد عن أي كتلة مغنطيسية يكون:

$$\frac{R}{R_0}=\frac{1}{4}\sqrt[6]{\left(\frac{3}{4}\right)^6+\left(\frac{S}{p\sigma}\right)^6}$$

حيث S : مقطع الناقل (ليس دائرياً بالضرورة). وP: محيط مقطع الناقل. ولكن حساب المقاومة يصبح مستحيلاً من الناحية العملية إذا كان الناقل في جوار كتل ذات مغنطيسية حديدية، إذ تصبح مسارات خطوط التحريض وبالتالي مسارات التيار معقدة جداً.

ولما كان جريان التيار العالي التواتر يقتصر على الجزء السطحي من السلك الناقل فإن هذه الأسلاك تُلْبَس بمادة ذات ناقلية عالية أو تُستعمل نواقل مجوفة أو نواقل مكونة من أسلاك دقيقة معزول بعضها عن بعض فتكون سطوح هذه الأسلاك أكبر كثيراً من سطح سلك وحيد مقطعه يساوي المقطع الكلي لجميع الأسلاك الدقيقة.

توفيق قسام

■ الأثر الفني

الأثر الفني artistic work تأليف حسي يضيف إلى الواقع شيئاً جديداً جميلاً يتجسد فيه حدس الفنان. وهو على أنواع تجمع بينهما عناصر مشتركة ويأخذ تصنيفها أكثر من شكل.

ويذكر أن تنوع الآثار الفنية يقوم على الاختلاف في طبيعتها: فالأثر الفني إما أن يرتبط بالحجم فيكون نحتاً أو عمارة، أو يرتبط باللون فيكون تصويراً، أو يرتبط بالضوء فيكون السينما والفديو والتصوير الضوئي للصور الثابتة والمتحركة. ويذكر كذلك أن تنوع الآثار الفنية يمكن أن يقوم على ما تنطوي عليه من مادة، أي على المادة التي صنعت منها: فمادة الشعر والأدب هي اللغة، ومادة الرقص هي الحركة، ومادة الموسيقى والغناء هي الصوت. والواقع أن هذين التصنيفين لايشملان كل ما يقع في حدود مصطلح الأثر الفني، إذ إن هناك جوانب أخرى يمكن أن تدخل في بنائه، كالكهرباء والإلكترون وغيرهما من المواد المبتكرة التي تزداد باستمرار وآخرها التصوير الرقمي. ولهذا يمكن القول إن هناك أنواعاً أخرى من الآثار الفنية يجب أن تجد لها محلاً في تصنيفات جديدة. ومهما يكن من أمر تصنيف هذه الآثار، فإن المهم في تحديد الأثر، على اختلاف طبيعته ومادته، الإلحاح على أنه لا يرقى إلى مستوى الأثر الفني إلا إذا توافرت فيه قيم جمالية وإبداعية. وفي جملة ما يعنيه هذا التحديد القول إن الآثار الشعبية والتقليدية والتزيينية يمكن أن تكون آثاراً فنية إذا توافرت فيها الشروط الجمالية والإبداعية الخاصة بالأثر الفني، وإن مما يدعم مكانتها آثاراً فنية التصاقها الشديد بالحياة وقدرتها على الشيوع والانتشار.

إن التعريف الذي ذكر للأثر الفني يمكن أن يبرز الخصائص التي تميزه والتي تلخص بما يلي: إن الأثر الفني شيء حسي موجود في المكان والزمان، أكان تمثالاً أو قطعة موسيقية أو زخرفة أو قصيدة من الشعر. إلا أن قيمته الفنية ليست في المادة الأساسية التي صنع منها بل هي أولاً فيما أنجزه الفنان بعد أن «ذابت» المادة الأساسية بين يديه وأصبحت شيئاً جديداً محسوساً يسمى الأثر الفني. إن هذا الأثر محصلة لعملية إبداع جاءت من الصانع وقد تدخلت فيها تجربته الخاصة التي امتدت عدة أعوام، ورؤيته الخاصة المشحونة بالكثير من الأحكام المنطقية والهواجس والأحلام والآمال مما يقع في القاعدة من «الحدس» المبدع الذي ينعكس في الأثر الفني الذي يبدعه الفنان. ثم إن الأصل في الأثر الفني أنه من صنع الإنسان وليس من صنع الآلة أو الحيوان: ذلك أن الإنسان هو القادر على اتخاذ موقف جمالي محدد من واقع الطبيعة والحياة والعالم والفكر. والأثر الفني الذي يُخرجه ليس نسخة عن الواقع، بل هو شيء جديد له صلة وثيقة بالواقع ولكن فيه تعبيراً عن رؤية الفنان لذلك الواقع. فإذا توافرت في أثر فني ما قيم جمالية وإبداعية وفنية خاصة تجعله متميزاً، فإنه يسمى عندئذ «رائعة» masterpiece.

الأثر الفني والجمال

ينطوي كل أثر فني على عنصرين متداخلين هما الشكل والمضمون، ويصدق ذلك على الآثار الفنية «التجريدية» أو «اللامعقولة». والجمال في الأثر الفني كامن فيه بعنصريه، وهو يتألف من جمال المضمون الذي يحمل طابع «التسامي» وجمال الشكل الذي يظهر بما في الأثر من تناسق وتناغم وتكامل.

إن الطبيعة هي مهد الجمال ومصدره الأول. غير أن الجمال في الأثر الفني يختلف عن الجمال في الطبيعة. إن جمال الطبيعة أزلي، وهو جمال بذاته، وهو جمال مطلق، ولكنه جمال شكلي غالباً. أما الجمال في الأثر الفني فيقوم على الصيغة الإبداعية المتغيرة باستمرار: إنه جمال نسبي لا يخضع لقانون رياضي، إنه يجمع بين جمال الشكل والمضمون، وهو لذلك يختلف في ماهيته عن جمال الطبيعة، لذا فإن قوانين الجمال الطبيعي لا يمكن أن تطبق على الجمال الفني. لقد حاول بعض فلاسفة علم الجمال استخلاص قواعد من الجمال الطبيعي، وقام بعض الفنانين بتطبيق هذه القواعد في عملهم الفني إلا أن ذلك دفع بهم إلى الخروج عن معنى الفن الإبداعي إلى الفن التطبيقي.

إن ثمة عاملاً أساسياً في تحديد الجمال في الأثر الفني هو وحدة العمل الفني ضمن نطاق التنوّع، ويتم تحقيق هذه الوحدة بترابط الأجزاء وتماسكها. فإذا جرى تحليل هذا الترابط فإن في جملة ما يُرى فيه عندئذ التناسب والتوازن والتدرج والترجيح.

الأثر الفني والقدم والديمومة

الأثر الفني إما أن يكون مكانياً كالعمارة والنحت، أو أن يكون زمنياً كالموسيقى والرقص. وفي كلا الحالين يرتبط الأثر الفني بالتاريخ ارتباطاً عضوياً، إنه يبدأ إنتاجاً حضارياً لمرحلة معينة من التاريخ ثم يستمر في المراحل المتتالية آخذاً محلاً معيناً إلى جانب غيره من الآثار المستجدة من دون أن يفقد شيئاً من أهميته أو روعته. بل على العكس فإنه يستمر نموذجاً يعبر عن أرقى مظاهر الإبداع الفني [ر] وشاهداً حضارياً مهماً له وجوده في الحاضر وفي المستقبل. إنه وثيقة مهمة ذات قيمة تاريخية تساعد على تتبع تطور الفن والفنان، وتطور الحضارات الإنسانية المختلفة.

ويمثل الأثر الفني القديم النموذج الاتباعي. فرسوم الواسطي [ر] وجامع قرطبة [ر]، تبقى أوابد صالحة لكل عصر، وتستمر مرشداً للأصالة وملاذاً للانتماء. ويحقق الأثر الفني تواصلاً زمنياً، ففي كل أثر فني قديم نفحةٌ من الماضي الذي يصبح ماثلاً في الحاضر في هذا الأثر.

وهكذا يبقى الأثر الفني القديم سائغاً ورائعاً في جميع مراحل المستقبل، مما يمنحه صفة الاستمرار في الجدارة على الرغم من تبدل الأذواق والمذاهب الفنية.

وما يسمى الفنون الشعبية والتراثية يبقى موضع اهتمام وتقدير مع تطور الفن الحديث وتطرفه. بل إن نزعة تكريم التراث إنما انبثقت عن الشعور بروعة الأثر الفني الأصيل. وهناك من ينادي بالعودة إلى القديم مهما كان بسيطاً، إيماناً بأن ما قدم في الماضي إنما قدم على أروع ما قدمه الإنسان، كما يقول هيغل Hegel [ر]. على أن تكريم التراث لايعني في الواقع الرجوع إليه وإعادة تطبيقه ونسخه، إذ يقضي بذلك على الفن بالجمود. ولكن التراث يبقى منارة تساعد في عملية تأصيل الأثر الفني من دون أن يمنع هذا من أن يكون الأثر الفني عملاً إبداعياً متجهاً نحو المستقبل وليس نحو الماضي.

على أن الأثر الفني كثيراً ما يجتاز مع الزمن دورة تاريخية جدلية (ديالكتيكية) تبدأ من الرمزية إلى الاتباعية ثم إلى الابداعية ثم تعود بأثواب جديدة.

الأثر الفني والعالمية

إن لغة الجمال هي لغة عالمية يدركها ويفهمها جميع الشعوب على اختلاف أنماطها الثقافية ولغاتها القومية. ويتمتع الأثر الفني بقدرة على التواصل لاتستطيعها اللغات الأدبية التي تبقى محدودة الانتشار في حين يجتاز الأثر

الفني الحدود بسهولة لكي يستقر عالمياً في أوسع دوائر التقدير والإعجاب وأبعدها، دونما تحفظ قومي أو لغوي.

لقد أفسحت وسائل الاتصال الحديثة مجالاً أوسع لتعميم الأثر الفني ونشره، وكثرت المهرجانات والمعارض الدولية التي دعمت تلاقي الآثار الفنية وتعايشها، وبدت عالمية الفن بمقدرة الأثر الفني على الانتشار والتواصل، لا بتوحيده وإلغاء الذاتيات الوطنية والتقليدية. وقد تزايد التذوق العالمي المتبادل للآثار الفنية المختلفة بفعل اللغة الجمالية المشتركة، وأصبح الناس على اختلاف أذواقهم وتقاليدهم الفنية يُقبلون على الأعمال الفنية الوافدة ويتفاعلون معها وقد يتأثرون بها. وهكذا أصبح الأثر الفني وسيلة تواصل وتوحيد على نطاق واسع.

وثمة دعوة إلى ربط الأثر الفني بالعالمية متخلياً عن ميزاته القومية، لكن الدعوة لم تكلل بالنجاح لأن الأثر الفني شديد الصلة بصاحبه وحضارة مجتمعه. ولا ينفي ذلك أن يسهم هذا الأثر في إغناء الثروة الفنية العالمية . وفي الاتفاقيات الثقافية بين الدول برامج وخطط ترمي إلى زيادة التعريف بالهوية القومية في الأثر الفني، مع تشجيع التواصل والتبادل والتعايش الثقافي والفني.

الأثر الفني والفائدة

إن ثمة حاجة معينة تدفع إلى الإقبال على الأثر الفني وإلى اقتنائه مهما ارتفعت قيمته، وإلى تقديره وحفظه وحمايته من العابثين. وهذه الحاجة عميقة ومتعددة البواعث، وإن كانت تبدو ظاهرياً أنها الحاجة إلى الجمال والتمتع به. ولقد تحدث فلاسفة الفن عن وظائف كثيرة للأثر الفني تعبّر عن فوائد له بينها وظائف قومية، وتاريخية، وإبداعية، ونفعية.

الوظيفة القومية: تتجلى الوظيفة القومية في استيعاب التقاليد الإبداعية، وفي تمثل أهداف الحياة الثقافية والاجتماعية في أمة من الأمم. إن هذا الأثر الفني هو لبنة أساسية في بناء الشخصية القومية المتمثلة بمجموعة الآثار الحضارية المتعاقبة في التاريخ. إن قوة الآثار الفنية الأصيلة تسهم في تحديد مستوى الحضارة القومية، وبقدر ما تكون هنالك من آثار أصيلة، فإن هذا يسهم في استمرار التقدم الإنساني على أوسع نطاق من دون أن يتعارض هذا الأمر مع الانتماء القومي. فالقومية ليست قضية عنصرية، بل هي مشاركة جماعية مسؤولة لبناء عالم أكثر إنسانية، وأكثر تفاهماً وتعاوناً، ثم إن الانتشار العالمي لايعني عدم الانتماء والالتزام، بل إن تواصل الفنون القومية في العالم يغني الذاتية الفنية. والحفاظ على الشخصية الثقافية وعلى الطابع القومي في الأثر الفني أصبح هدفاً تنظمه وترعاه المنظمة العالمية للتربية والعلوم والثقافة UNESCO التي تقاوم جميع عمليات المسخ والتشويه التي تتعرض لها الفنون القومية لأي سبب من الأسباب؛ ثم إن في مقدمة الأهداف الأساسية للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الحفاظ على الشخصية الثقافية العربية، وتأكيد الوظيفة القومية في العمل الفني.

ولكن الابتعاد عن الذاتية الثقافية والطابع القومي قد يصدر عن الفنان نفسه عندما يربط أثره الفني بخصائص مستوردة أو وافدة، أو يقلد النزعات الغربية الطارئة، عندها يفقد الأثر الفني هويته ويتخلى عن ذاتيته.

الوظيفة التاريخية التسجيلية: إن الأثر الفني قادر على التعبير عن مادة معينة تتضمن موضوعاً له أبعاد فكرية أو أخلاقية أو تاريخية. مهما كان نوعه: أكان حركياً أم تشكيلياً أم جمالياً. يذهب أصحاب «النزعة التقريرية» إلى النظر للأثر الفني على أنه وثيقة تاريخية أو صيغة تسجيلية لواقع معين. والأصح القول إنه أولاً وثيقة فنية جمالية يقدم مضمونها حدثاً ثقافياً حضارياً. ولذلك فإن موضوع التاريخ الحضاري هو الآثار الفنية في التاريخ، وليس موضوعه الأحداث التاريخية التي تبقى من اختصاص التاريخ السياسي.

ومع ذلك فإن الأثر الفني بصيغته التعبيرية لايمكنه أن يبقى خارج حدود التاريخ السياسي الذي يؤلف الخلفية الاجتماعية له. ولكن ليس من شأنه أن يكون ناقلاً حرفياً لأحداث التاريخ وإن كان يمثل جوهر التاريخ. فعندما يستمع الإنسان إلى موسيقى شهرزاد لريمسكي كورساكوف R . Korsakov ويرى لوحة الغرنيكا Guernica لبيكاسو Picasso [ر]، فإنه لايقف أمام تفاصيل تاريخية بل يقف أمام مجمل تاريخي اجتماعي. ولقد قدم الأثر الفني القديم في هذا المجال خدمات أساسية للمؤرخ الذي استقرأ الأحداث وربط بعضها ببعض من دراسته واستقرائه للآثار القديمة. وليس من مهمة عالم الآثار كشف الأحداث بقدر ما يهمه الكشف عن تطور حضارة الإنسان في آثاره الفنية التي أنجزها في تاريخه الطويل.

الوظيفة الإبداعية: إن أهم ميزات الأثر الفني ما يقدمه من صيغ جمالية جديدة لم يكن لها وجود سابق، فهو يبدع شكلاً طريفاً وينشىء موضوعاً مبتكراً لم يسبقه إليه فنان آخر، ولكنه لايقدم شيئاً من العدم. إن الإبداع الفني هو رؤية جديدة للواقع، والواقع متغير باستمرار، والتقاط لحظاته والتعمق فيها حدسياً يكوّن عند الفنان تصوراً مستقلاً وجديداً يتمثل بتعبير يتحقق في أثر فني، وذلك هو «الإبداع الفني». إن الوظيفة الإبداعية مهمة وضرورية، ولولاها لانقلب العمل الفني إلى عمل عادي. فالإبداع الفني يزيد الثروة الجمالية والثقافية، ويثير الاعتزاز بالقدرة الابتكارية، ويفتح آفاقاً لتعرّف صيغ تضاف إلى الصيغ الواقعية المألوفة، ويقدم آيات جديدة من الجمال فوق الواقعي تسد الحاجة المتزايدة إلى متعة ثقافية في عالم يعيش تحت وطأة المنجزات المدمرة التي تغذي التشاؤم وتسبب الرعب واليأس.

الوظيفة النفعية: يتحاشى علماء الجمال الربط بين الأثر الفني والمنفعة، بل إن كثيراً منهم يعتقد أن الفن يتنافى مع المنفعة. فإذا انطلق المرء من المعنى الواسع والعميق لمفهوم المنفعة فإنه لا يستطيع أن يتصور أثراً فنياً لانفع يأتي منه، حتى لو اقتصرت هذه المنفعة على تذوق الجمال. وفي رأي ديوي [ر] Dewey أن هذا التذوق ذاته هو إدراك حسّي متسام يعادل أي لذة تأتي من التمتع بالأشياء التي نستعملها.

يرى هنري دولاكروا H. Delacroix أن الفن لا يبدأ إلا في اللحظة التي يتمكن فيها الفنان من أن ينصرف عن الطابع النفعي للحياة العملية. وهو، ومعه أصحاب هذه النزعة، يجدون أن العمل الفني يجب أن يهدف إلى المتعة الفنية الخالصة التي لاتشوبها شائبة من مصلحة أو غرض نفعي مادي. والمعنى ذاته يصادف عند المفكر الألماني لانج Lange حين يذكر أن الفن هو مقدرة الإنسان على إمداد نفسه وغيره بلذة قائمة على الوهم من دون أن يكون له أي غرض يرمي إليه سوى هذه المتعة المباشرة.

ولكن هناك من المفكرين المحدثين من لايجد حرجاً في الاعتقاد بأن الوظيفة النفعية للعمل

الفني لاتكاد تنفصل عن وظيفته الجمالية التعبيرية، وأنه قد يوجد جمال ما في أثرٍ وجد أصلاً لمنفعة مادية أو اجتماعية. بيد أن هناك تياراً آخر في الفن الحديث شغلته أفكار «العدمية» nihilism عن القول بتوظيف الفن لأي غرض حتى لو كان جمالياً محضاً. وبالمقابل فإن تياراً آخر يرى أن الأثر الفني الذي لا يحقق فائدة مباشرة هو عبث.

ذهب تولستوي [ر] Tolstoi في كتابه «ما هو الفن؟» إلى وجوب النظر إلى الفن على أنه مظهر من مظاهر الحياة البشرية. والعمل الفني الحقيقي، في نظر تولستوي، هو ذلك الإنتاج الصادق الذي يمحو كل فاصل بين صاحبه من جهة، والإنسان الذي يوجَّه إليه، من جهة أخرى. من هذه الزاوية يكون للفن منفعة إنسانية اجتماعية.

وأخيراً إذا قيل إن التمتع بالجمال في الفن يمكن فهمه على أنه منفعة، فإن هذه المنفعة قد تبدو واضحة كذلك، حين يوسع معنى الأثر الفني ليشمل تلك الأشياء التي يستعملها الإنسان، والتي تكتسب، من المعالجة الفنية للشكل فيها، طابعاً حراً يدنو بها من الفنون الجميلة.

عفيف بهنسي

الموضوعات ذات الصلة:

الإبداع - الإبداع الفني.

مراجع للاستزادة:

- زكريا إبراهيم، مشكلة الفن (مكتبة مصر).
- M. DUFRENNE, Phénoménologie de l'expérience esthétique, VII (Paris, P.U.F. 1953).
- E. SOURIAU, La correspondance des arts (Flammarion, Paris 1947)

■ أثر كلفن ← الأثر السطحي

■ أثر هول

يطلق مصطلح أثر هول Hall effect على ظاهرة تغير الحقل الكهربائي electric field داخل المادة نتيجةً لتأثير حقل التحريض induction المغنطيسي فيها. ذلك لأن تطبيق حقل كهربائي $\vec{E_x}$ على مادة ناقلة (موصلة) أو نصف ناقلة يؤدي إلى مرور تيار كهربائي فيها كثافته $\vec{j}$. فإذا طُبِّق على المادة، إضافة إلى ذلك، حقلٌ مغنطيسي $\vec{B}$ ظهر فيها حقل كهربائي ثانٍ $\vec{E_y}$ عموديٌ على كلٍ من $\vec{B}$ و $\vec{j}$ يرتبط معهما بالعلاقة:

$$\vec{E_y}=R\left(\vec{B}\times\vec{j}\right) \quad (١)$$

مابين القوسين هو جداء متجهي vectorial والحرف الذي تعلوه الإشارة (→) هو متجه vector

ويكون: $E_y= R.B.j$ إذا كان $\vec{B}$ عمودياً على $\vec{j}$. وتدعى R ثابتة هول، وهي المميِّز الأساسي لأثر هول. وتصف العلاقةُ السابقة أثر هول في النواقل المتماثلة المناحي isotrop الموضوعة في حقل مغنطيسي ضعيف، أما في الحالات الأخرى فتكون الأمور أكثر تعقيداً. وقد اكتشف هذا الأثر الفيزيائي الأميركي إدوين هربِرْت هول Edwin Herbert Hall عام ١٨٧٩.

وتستند أبسط نظرية مجهرية microscopic لأثر هول إلى فكرة حوامل الشحنات الحرة التي يمكن أن تكون إما سالبة الشحنة الكهربائية (إلكترونات) أو موجبة الشحنة الكهربائية (ثقوباً holes يكافئ كل ثقب فيها شحنة موجبة ناتجة عن غياب إلكترون واحد)، فإذا افترض وجود أحد هذين النوعين فقط في الناقل، وليكن الإلكترونات، فإن كثافة التيار المار فيه بتطبيق الحقل الكهربائي E_x بين طرفيْه هي:

$$j = qvn \quad (٢)$$

حيث: «q -» هي شحنة الإلكترون، و«v» سرعته في منحى الحقل، أما «n» فهو تركيز الإلكترونات، أي عددها في واحدة الحجم. ويعبَّر عن السرعة «v» بدلالة مايسمى حركية الإلكترونات mobility μ بوساطة العلاقة:

$$v = \mu E_x \quad (٣)$$

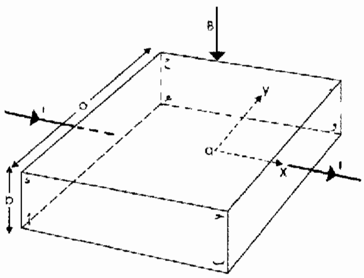
ويؤدي تطبيق الحقل المغنطيسي $\vec{B}$ إلى تأثير قوة مغنطيسية $\vec{f}$ (قوة لورنْتس Lorentz) في هذه الإلكترونات في المنحى العمودي على كلٍ من $\vec{V}$ و $\vec{B}$:

$$\vec{f} = -q\vec{v}\times\vec{B} \quad (٤)$$

وتحرِف هذه القوةُ الإلكترونات وفق المحور y فتشحن الوجه هـ و ز ح، من الصفيحة التي يمر فيها التيار، سلباً (الشكل - ١)، مما يؤدي إلى نشوء شحنات معاكسة (موجبة) على الوجه المقابل أ ب ج د، فيظهر حقل كهربائي E_y بين هذين الوجهين يؤثر في الإلكترونات بالقوة:

$$\vec{f'}=q\vec{E_y} \quad (٥)$$

وهي قوة تعاكس القوة f. وسرعان مايؤدي تراكم الشحنات على الوجهيْن المتقابلين إلى تزايد القوة $\vec{f'}$ التي ماتلبث أن تعادل القوة $\vec{f}=\vec{f'}$



(الشكل ١)

فتصبح محصِّلة القوتين المؤثرتين على الإلكترونات وفق المحور y معدومة، مما يجعل حركتها تعود موازية للحقل E_x كما كانت قبل تطبيق B.

وتُستعمل لقياس أثر هول عادة، صفيحة مستوية يكون طولها l كبيراً مقارنة بعرضها a وثخنها b. فإذا مرَّ في الصفيحة تيار كهربائي شدته l=j.a.b وفق المنحى x، وطُبِّق حقل مغنطيسي عمودي على وجه الصفيحة الكبير ظهر حقل هول $\vec{E_y}$ وفق المنحى y، ويقاس عندئذ التوتر (tension) U_H بين الوجهين الضيقين (أ ب ج د) و (هـ و ز ح)، فيُرى أنه يساوي: $U_H = \frac{RBI}{b}$ ويدعى توتر هول.

ثابتة هول

يؤدي تعادل القوتين في العلاقتين (٤) و(٥) إلى: $E_y= vB$، فإذا أُخذت العلاقة (٢) بالحسبان كان:

$E_y = -\frac{Bj}{qn}$ (٦)، ولدى مقارنة العلاقة (٦)

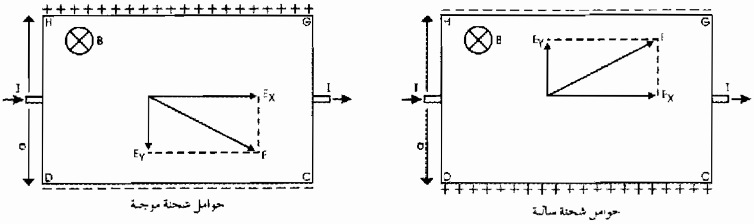
بالعلاقة (١) ينتج أن ثابتة هول R هي:

$$R = -\frac{1}{qn} \qquad (٧)$$

وبما أن تركيز الإلكترونات يبلغ في المعادن قرابة $١٠^{٢٢}$ إلكتروناً في السنتمتر المكعب، في حين أنه في أنصاف النواقل من رتبة $١٠^{١٦}$، فإن ثابتة هول في أنصاف النواقل أكبر كثيراً منها في المعادن. ويُفترَض في الحساب المبسَّط السابق أن للإلكترونات الحرة كلها الطاقة الحركية ذاتها، في حين أنها تكون في الواقع موزعة وفق قانون إحصائي. وهذا مايؤدي إلى كتابة ثابتة هول على النحو $R = -\frac{d}{qn}$ حيث يدل d على معامل انتشار diffusion يتعلق بطبيعة المادة.

زاوية هول: تُستخدم أحياناً لوصف أثر هول زاويةُ هول θ، وهي الزاوية بين الحقل الكهربائي المحصِّل $\vec{E} = \vec{E_x} + \vec{E_y}$ (الشكل-٢).

ومنحى التيار $\vec{j}$، بحيث أن $tg\theta = \frac{E_y}{E_x}$



آ ب

الشكل (٢)

وينتج باستخدام العلاقات (٥) و(٤) و(٣) وكون $f = f'$ أن:

$$E_y = \frac{f'}{q} = vB = \mu E_x B$$

فيكون $tg\theta = \mu B$

أثر هول في أنصاف النواقل: حين يتم النقل الكهربائي بوساطة نوعي حوامل الشحنات (الإلكترونات والثقوب) يصبح أثر هول أكثر تعقيداً، فإذا رُمز بالحرفين n و p لتركيز الإلكترونات والثقوب على الترتيب، ورُمز لحركيَّتيْهما بـ μ_n و μ_p، كانت ثابتة هول معطاة بالعلاقة:

$$R = \frac{1}{q} \cdot \frac{(\mu_p^2 p - \mu_n n) + \mu_p^2 \mu_n^2 B^2 (p - n)}{(\mu_p p + \mu_n n)^2 + \mu_p^2 \mu_n^2 B^2 (p - n)}$$

مما يبيِّن أن R هنا تتعلق بالحقل B. أما الحالة التي يكون فيها الحقل B ضعيفاً، فتكون R مستقلة عملياً عنه وتساوي:

$$R = \frac{1}{q} \cdot \frac{\mu_p^2 p - \mu_n^2 n}{(\mu_p p + \mu_n n)^2}$$

بسام معصراني

الموضوعات ذات الصلة:

أنصاف النواقل.

مراجع للاستزادة:

- بسام معصراني وفخري كتوت، فيزياء الجسم الصلب (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٨٣).

M. ALI OMAR, Elementary Solid State Physics (Addison Welsley Publishing Company 1975).

■ الإثراء بلا سبب

الإثراء بلا سبب enrichissement sans cause هو حصول أي شخص ولو كان غير مميِّز على كسب بلا سبب مشروع على حساب شخص آخر. لذا يلتزم، في حدود ما كسبه تعويض من لحقه ضرر بسبب هذا الكسب، ويبقى هذا الالتزام قائماً ولو زال كسبه فيما بعد.

وعلى هذا، فالإثراء بلا سبب يعدُّ واقعة قانونية تشكل مصدراً من مصادر الالتزام، وهو من مصادره الأولى التي ظهرت في فجر التاريخ.

وفي الشريعة الإسلامية، يقول بعض الفقهاء إن الشريعة لم تعتد بهذه القاعدة إلا في حدود ضيقة، ويرى آخرون بأن الكسب بدون سبب تعرفه الشريعة الإسلامية مبدأ عاماً وقاعدة كلية، فهي تقضي بأنه «لا ضرر ولا ضرار» و«الغنم بالغرم».

ويذكر الإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» الآية ﴿ولا تأكُلوا أموالَكُم بَيْنَكُم بالبَاطِلِ﴾. وجاء في خطبة الرسول (ص) يوم النحر قوله «على اليد ما أخذت حتى ترده».

أركان الإثراء بلا سبب

للإثراء بلا سبب ثلاثة أركان:

إثراء المدين: ويقصد به عادة الزيادة في الجانب الإيجابي لذمة المدين بغير حق. وهذا هو مصدر التزامه الرد. فلو وفى شخص ديناً عن ذمة شخص آخر، ثم تبين أن هذا الدين سبق الوفاء به فلا يكون المدين قد أثرى بهذا الوفاء، ولو كان الشخص الموفي قد افتقر بما دفعه من ماله، وإنما من أثرى هنا هو الذي قبض المال مرتين.

افتقار الدائن: وهو ما يقابل إثراء المدين. فلو تحقق الإثراء في جانب ولم يقابله افتقار في الجانب الآخر، فليس هناك مجال لتطبيق قاعدة الإثراء بلا سبب: كمن يبني حديقة ترفع من قيمة بناء جاره؛ فالجار هنا قد أثرى ولكن صاحب الحديقة لم يفتقر. بتعبير آخر، يجب أن يكون الافتقار هو السبب المنتج للإثراء. وإذا ما تعددت أسباب الإثراء فيؤخذ بالسبب الرئيسي الفعال.

انعدام السبب القانوني: لكي تقوم قاعدة الإثراء بلا سبب، يجب أن يتجرد الإثراء عن سبب يسوّغه، لأن وجود سبب قانوني للإثراء ينفي قاعدة الإثراء بلا سبب والمقصود بالسبب هنا المصدر القانوني للإثراء. وهذا المصدر قد يكون عقداً أو نصاً قانونياً. فمن لحقه غبن نتيجة عقد من العقود، يمتنع عليه أن يرجع على الطرف الآخر استناداً لأحكام الإثراء بلا سبب، لأن إثراء الأخير مصدره العقد المبرم بينه وبين الطرف الأول. وكذلك من كسب حقاً بنص قانوني فإنه لا يلزم بالرد.

الآثار القانونية للإثراء بلا سبب

تنشيء واقعة الإثراء التي نجمت عن الافتقار حقاً للمفتقر بإقامة دعوى التعويض، فالتعويض هو جزاء الإثراء بلا سبب. ولهذه الدعوى طرفان:

المدعي: وهو الدائن أي المفتقر الذي يحق له إقامة الدعوى للمطالبة بالتعويض ولا يشترط فيه أن يكون صاحب أهلية.

والمدعى عليه: وهو المدين أي المثري، ولايشترط فيه أيضاً توافر الأهلية. وباستطاعته أن يدفع هذه الدعوى بأحد أمرين: إما إنكار الدعوى ذاتها لفقد أحد أركانها مثلاً، وإما لأن التزامه قد انقضى بالوفاء مثلاً أو بالتقادم. وتتقادم دعوى التعويض عن الإثراء بلا سبب بإحدى حالتين: إما بانقضاء ثلاث سنوات من اليوم الذي يعلم فيه المفتقر بحقه في التعويض أو بانقضاء خمس عشرة سنة من يوم نشوء الحق بالتعويض.

ويجب ألا يزيد مبلغ التعويض على المبلغ الذي افتقرت به ذمة المدعي الدائن. كما يجب ألا يزيد على المبلغ الذي أثرت به ذمة المدعى عليه المدين.

والرأي على أن يقدر مبلغ الإثراء بوقت حدوثه ومبلغ الافتقار بوقت صدور الحكم.

تطبيقات الإثراء بلا سبب

لقاعدة الإثراء بلا سبب تطبيقات كثيرة. وأهم هذه التطبيقات: الفُضالة، ودفع غير المستحق.

الفُضالة: وهي كما عرفها القانون المدني أن يتولى شخص عن قصد القيام بشأن عاجل لحساب شخص آخر من دون أن يكون ملتزماً ذلك. وهي عند الفقهاء المسلمين: القيام بعمل ما لشخص من دون إذن شرعي منه أو وكالة للفضولي عنه.

ويستخلص من النصوص المتعلقة بالفضالة أنها تقوم على الأركان الثلاثة التالية:

الركن المادي: وهو أن يقوم الفضولي بشأن عاجل لحساب شخص آخر، سواء تم ذلك في شكل تصرف قانوني كأن يؤجر الفضولي عقاراً لصالح رب العمل، أو عمل مادي كأن يرمّم الفضولي منزل شخص آخر مهدد بالانهيار. ولايكفي لعمل الفضولي مجرد تحقيق الفائدة لرب العمل بل لابدّ من أن يكون العمل ضرورياً وعاجلاً بحيث ما كان لرب العمل أن يتوانى عن القيام به لو وُجد في الموقف نفسه، الذي قام فيه الفضولي بهذا العمل: كبيع المحصولات التي يسرع إليها التلف مثلاً.

الركن المعنوي: وهو أن يقصد الفضولي إسداء خدمة لمصلحة رب العمل وليس لمصلحته بالذات. وبغير هذه النية لا تتحقق الفضالة.

الركن القانوني: ويتمثل بألا يكون الفضولي ملزماً بالعمل الذي قام به أو موكولاً إليه، أو ممنوعاً عنه. فالحارس الذي يعمل على إدارة العين التي يتولى حراستها لا يكون فضولياً بل إنه ينفذ التزاماً مترتباً عليه. وإذا كان رب العمل قد دعا شخصاً للقيام بعمل لحسابه، فهذا الشخص يعدّ وكيلاً وليس فضولياً. وكذلك الأمر لو نهى رب العمل شخصاً عن عمل، وقام به رغم النهي، فالشخص المذكور قد ارتكب خطأ يوجب مسؤوليته.

وللفضالة أحكام: فهي مصدر التزامات على الفضولي وأخرى على رب العمل.

فالتزامات الفضولي هي أن يستمر في العمل الذي بدأه، وأن يبذل العناية الكافية به حتى يتمكن رب العمل من مباشرته، كما يجب عليه إخطار رب العمل وتقديم حساب له عما قام به. أما التزامات رب العمل فتتلخص بتنفيذ التعهدات التي باشرها الفضولي نيابة عنه، والتعويض عليه ورد النفقات الضرورية والنافعة التي دفعها.

دفع غير المستحق: يتم دفع غير المستحق في الحالتين التاليتين:

الحالة الأولى: الوفاء بدين غير مستحق، كأن يقوم شخص بوفاء دين لم يكن مترتباً بذمته بالأصل، أو أن يكون موجوداً لكنه غير مستحق، أو أن يكون مستحقاً لكنه انقضى قبل الوفاء به، أو أن يكون قد قام بالوفاء عن غلط أو إكراه أو نقص في الأهلية.

الحالة الثانية: الوفاء بدين كان مستحقاً عند الوفاء، لكنه أصبح غير مستحق بعد ذلك، كالذي يدفع الدين ثم يبطل العقد الذي تم الوفاء على أساسه.

ويرتب دفع غير المستحق التزاماً في ذمة الموفى له بأن يرد ما أخذه بدون حق إلى الموفي.

نورس بيطار

الموضوعات ذات الصلة:

الالتزام (مصادر-)

الالتزام (انقضاء-)

مراجع للاستزادة:

- عبد الرزاق السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني (الجزء الأول ١٩٥٨).
- صلاح الدين الناهي، محاضرات عن القانون المدني العراقي - الكسب دون سبب والفضالة كمصدرين للالتزام.

■ الأثرة ← الأنانية

■ الإثمد ← الأنتيموان

■ الإثنا عشرية ← الإمامية

■ ابن الأثير

علَمٌ على ثلاثة إخوة من أبرز علماء القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي). أبوهم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، الجزري، أو أثير الدين، وقد عمل رئيس ديوان وخازناً في جزيرة ابن عُمَر، ثم أصبح نائب وزير الموصل في إمارة الزنكيين، واشتغل في التجارة فاغتنى وتملك الأرض والدور. وكان على حظ كبير من الفطنة والعلم، فربى أولاده أفضل ما تكون التربية.

ولد الإخوة الثلاثة في جزيرة ابن عُمَر، وإليها انتسبوا، فقيل لكل منهم «الجَزَريّ»، وهي بلدة تقع على ضفة دجلة، الذي يحيط بها كالهلال، قريباً من الحدود الشمالية الشرقية لسورية، بناها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي نحو منتصف القرن الثالث الهجري.

رحل أثير الدين بأولاده إلى الموصل سنة ٥٦٥ هـ وكانت تزخر بالعلماء والمدارس التي أقامها أتابكتها من آل مودود والزنكيين، فنهل أبناء الأثير العلم منها، وهم:

المبارك بن محمد

٥٤٤-٦٠٦هـ / ١١٥٠-١٢١٠م

أبو السعادات، مجد الدين، ابن الأثير الجزري، علاّمة في التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة. درس على علماء أجلاّء. فأخذ الأدب واللغة عن ناصح الدين أبي محمد سعيد ابن المبارك الدّهان النحوي البغدادي [ر] (ت ٥٦٩هـ)، وأبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي [ر] النحوي واللغوي والأديب المقرىء (ت ٥٦٧ هـ)، وسمع الحديث من جماعة من المحدِّثين منهم خطيب الموصل عبد الله بن أحمد ابن محمد الطوسي (ت ٥٧٨هـ)، وأبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب الحراني (ت٥٩٦هـ). وأخذ العلم كذلك عن عبد

الوهاب بن سكينة الصوفي الشافعي (ت ٦٠٧هـ). وأحاط بثقافة عصره فذاع صيته واشتهر بورعه وخلقه المستقيم وفضله وإحسانه، ويزين ذلك عقل كبير وفكر نَيِّرٌ ومهابة. كما كان أبو السعادات شديد التواضع، ينسب الفضل لذويه ويُعْلي من شأن العلماء الذين سبقوه، ولا يكاد ينسب لنفسه شيئاً من العلم أو المعرفة، بل تراه يحثّ قارىء كتبه على أن يتفضَّل بإرشاده إلى مواطن الخطأ فيما كتب. كانت لمجد الدين مكانة رفيعة عند أتابكة الموصل وأولي الأمر فيها. وقد عرضت عليه الوزارة أكثر من مرة فأباها ليتفرغ للعلم والتأليف.

أصيب المبارك بن الأثير بمرض النقرس، فأقعده، ورأى فيه فرصة طيبة تبعده عن محافل الناس، وتعينه على التزود من المعرفة. وقصده طلاب العلم من كل مكان، وكان من أبرزهم الشهاب الطوسي نزيل مصر (ت٥٩٦هـ)، وقاضي القضاة فخر الدين علي بن هبة الله البخاري (ت٥٩٣هـ). ترك أبو السعادات ابن الأثير مجموعة من الكتب القيمة تشهد على ثقافته الواسعة، وعلمه الغزير، وتفكيره العميق. وقد أخرج معظمها في أيام مرضه الذي لازمه حتى مات ودفن في بلدته بظاهر الموصل.

من كتبه في التفسير «الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف»، جمع فيه بين تفسيري الثعلبي والزمخشري، وله في النحو «البديع في شرح الفصول» لابن الدَّهان، و«الباهر في الفروق»، و«الفروق في الأبنية». وله في التراجم «المختار في مناقب الأخيار»، و«تجريد أسماء الصحابة»، و«المُرَصَّع في الآباء والأمهات والبنات». وله في الأدب: «الرسائل»، و«صنعة الكتابة». وله في الحديث: «الشافي في شرح مسند الشافعي»، و«شرح طوال الغرائب». على أن أعظم كتب مجد الدين وأشهرها: «جامع الأصول في أحاديث الرسول»، و«النهاية في غريب الحديث والأثر».

أما الكتاب الأول، فجمع فيه بين كتب البخاري ومسلم وموطأ مالك وسنن الترمذي وسنن أبي داود والنَّسائي بعد حذف الأسانيد، مكتفياً بذكر الصحابي الذي رواه، وأتى بالأحاديث مرتبة على حسب الموضوعات مجموعة في كتب، وقد قسم كل كتاب إلى باب وفصل ونوع وفرع وقسم، ثم رتَّب الكتب وفق حروف الهجاء، وجعل لكل ذلك عنواناً مناسباً. وذكر الحديث ومن أخرجه ومعاني كلماته وما فيه من أحكام وترجم لرجاله.

وإذا كان للحديث صلة بأكثر من موضع، جعله في موضع وأشار إليه في المواضع الأخرى، وجعل لهذا الكتاب مقدمة ضافية في مصطلح الحديث. وقد اختصره عدد من العلماء منهم ابن الدَّيْبَع الشيباني (ت٩٥٠هـ)، وهبة الله البارزي الحموي (ت٧٣٨هـ) وللفيروز آبادي صاحب «القاموس المحيط» زوائد عليه سماها: تسهيل طريق الوصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول. وقد طبع «جامع الأصول» أول مرة عام ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م بإشراف الشيخ عبد المجيد سليم ومحمد حامد الفقي، وصدر في أحد عشر جزءاً.

وأما كتابه الآخر «النهاية في غريب الحديث والأثر»، فقد رجع فيه أبو السعادات إلى كتب الحديث المختلفة، واستخلص ما فيها من كلمات تحتاج إلى تفسير، فشرحها معتمداً على كتب اللغة وما تقدم من كتب مشابهة، وذكر الجملة من الحديث الذي وردت فيه الكلمة، ثم رتب الكلمات وفق ترتيب المعجم، ولم يخرج على ذلك إلا إذا كانت للكلمة شهرة على الألسنة بحروفها المزيدة، فإنه كان يضعها وفق حروفها المزيدة، فقد ذكر كلمة «أبهر» مثلاً في حرف الهمزة، مع أن أول حروفها زائد، وحقها أن توضع في حرف الباء. وللأمانة العلمية، فقد صرح بأنه اعتمد على كتاب «غريب القرآن والحديث» للهروي، وكتاب أبي موسى محمد بن أبي بكر بن المديني الأصفهاني في الغريب، وزاد عليهما زيادات كبيرة جداً، حتى غدا أشهر كتاب في هذا الفن، ولا ينافسه كتاب آخر في بابه إلى العصر الحاضر. وقد صبّ ابن منظور في «لسان العرب» كتاب «النهاية» بتمامه. وطبع الكتاب أول مرة سنة ١٢٦٩هـ، ثم صدرت طبعة منقحة حققها الطاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م في خمسة مجلدات كبيرة.

عمر الدقاق

علي بن محمد

٥٥٥ - ٦٣٠هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٢م

أبو الحسن، عز الدين، ابن الأثير الجزري مؤرخ وعالم بالحديث وأنساب العرب ولد في جزيرة ابن عمر والتحق في طفولته بمكتب في الجزيرة، حيث حفظ القرآن، وتعلم مبادىء القراءة والكتابة. ثم أخذ في تحصيل العلم على شيوخ الجزيرة والموصل والشام كأبي الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي، وأبي الفرج يحيى الثقفي. وسمع من كثيرين كأبي القاسم يعيش ابن صدقة، وأبي أحمد بن عبد الوهاب بن علي الصوفي، وعبد المؤمن بن كليب، وعبد الوهاب ابن سكينة، وزين الأمناء، وأبي القاسم بن صصرى، وابن سويدة التكريتي، وابن رواحة، وابن طبرزد وغيرهم.

اهتم عز الدين بعلوم عدة، منها الأصول والفرائض والمنطق والهيئة والقراءات والحساب ولكنه أتقن علم الحديث وعلم التاريخ. فكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفته، وحافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيراً بأنساب العرب وأيامهم وأخبارهم. ويبدو أن شهرته مؤرخاً كانت أكبر منها محدّثاً. وقد يكون للمحيط السياسي الذي عاش فيه أثره في هذا الاهتمام. فقد عاش في زمن احتدمت فيه الصراعات بين شعوب المشرق المختلفة كالسلاجقة والخوارزمية والغور والمغول (الخطا) والكرج. وكان الخوارزميون قد تمكنوا من مد سلطانهم على الإمارات الصغيرة المتاخمة لهم، وأقاموا دولة ذات نفوذ، لم تلبث أن انهارت أمام جحافل المغول.

تمتع ابن الأثير بمكانة رفيعة عند معاصريه نبعت من علمه وشخصيته ومن مكانة أسرته الرفيعة. ولمع اسمه في الشام لتردده عليها أكثر من مرة، وعقده صداقات مع علمائها ورجالها البارزين من أبناء الأسرة الأيوبية وكبار رجال حكومتهم. فكانت له صلات وثيقة بالطواشي شهاب الدين طغريل الخادم، أتابك الملك العزيز ابن الملك الظاهر صاحب حلب، كما خرج مع صلاح الدين الأيوبي في غزو الفرنجة الصليبيين، ومن ذلك حضوره فتح برزية وغيرها، كما زار بغداد مراراً رسولاً لصاحب الموصل.

كتب عز الدين في الموضوعات التاريخية المختلفة، كالتاريخ العام، وتاريخ الأسر الحاكمة، والتراجم والأنساب، ووضح في كتبه فوائد التاريخ والعبر التي يجنيها قراؤه من معرفة حوادث الأمم السالفة وأخبارها، وأشهر مؤلفاته في التاريخ:

- الكامل في التاريخ: وهو كتاب في التاريخ العام، ويعد قمة في الكتابة التاريخية، اعتمد

في كتابته على كبار المؤرخين الذين سبقوه، وعلى رأسهم الطبري وابن الكلبي والمبرد والبلاذري والمسعودي وكثيرون غيرهم. ورتب فيه الأخبار والحوادث على السنين، لم يفرق بين أخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما من أول الزمان حتى سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م. وذكر إلى جانب ذلك علاقات العرب المسلمين بالشعوب الأخرى، كالهنود والصينيين والروس. كما عني بالحوادث المحلية في كل إقليم، إلى جانب اهتمامه بالظواهر الجوية والأرضية وأثرها في الحياة المعاشية من رخص وغلاء وقحط ورخاء. والكتاب متفاوت القيمة، فما اتصل منه ببدء الخليقة يعوزه التعمق والدقة، وما تعلق بالسيرة النبوية فيه أخبار كثيرة موضوعة، وما اتصل منه بالتاريخ الإسلامي فهو جاد متزن ولذلك كثر اعتماد المؤرخين عليه ونقولهم منه.

ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (تاريخ أتابكة الموصل): ويتضمن تاريخ ملوك الموصل الزنكيين منذ أن أسس عماد الدين دولته سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م حتى سنة ٦٠٧هـ / ١٢١٠ـ١٢١١م، وذلك رغبة منه في إظهار مكانة الزنكيين الذين عاش عز الدين وأسرته في كنفهم، وجهودهم في قتال الصليبيين.

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة: عرَّف فيه بالصحابة رجالاً ونساء، ورتبه على حروف الهجاء، وضبط بالحروف الأسماء المتشابهة في الرسم المختلفة في النطق، كما شرح الألفاظ الصعبة التي ترد في بعض التراجم. واستعان في كتابه هذا بكتاب «معرفة الصحابة» لابن مندة الأصفهاني، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر القرطبي وغيرهما. وقد زادت مصادره على ثلاثين كتاباً.

ـ اللباب في تهذيب الأنساب: وهو تهذيب لكتاب السمعاني في الأنساب. وقد حظي هذا الكتاب باهتمام كثير من العلماء. واعتمد في كتابه هذا، إضافة إلى كتاب السمعاني، على كتاب الحميدي «تاريخ الأندلس»، وابن عساكر «تاريخ دمشق»، وخليفة بن خياط، وأبي عبيد القاسم بن سلام البغدادي، وابن ماكولا، والدارقطني، وابن حبيب، وأبي عبيدة معمر بن المثنى.

أمينة بيطار

نصر الله بن محمد
٥٥٨ ـ ٦٣٧هـ / ١١٦٣ ـ ١٢٣٩م

أبو الفتح، ضياء الدين، ابن الأثير الجزري الشيباني أديب ونحوي ووزير من وزراء الأيوبيين ولد في جزيرة ابن عمر ودرس على شيوخ الموصل النابهين، وفي طليعتهم أخوه الأكبر المبارك مجد الدين العالم المحدّث، ثم انتقل إلى الشام عام ٥٨٣هـ للالتحاق بخدمة الأيوبيين فأحسن وزير صلاح الدين القاضي الفاضل لقاءه وقدمه إلى السلطان صلاح الدين بعد أن تم له النصر المبين في حطين وفتح القدس. وقد أعجب الملك الأفضل ابن السلطان صلاح الدين صاحب دمشق بنباهة ضياء الدين ومواهبه فاتصلت بينهما المودة. وكان أن رغب الأفضل إلى أبيه أن يستلحق ضياء الدين، فترك صلاح الدين الخيار له، وآثر ضياء الدين اللحاق بالأفضل، وصار وزيره وصفيه. غير أن الأفضل ووزيره، ولاسيما بعد وفاة صلاح الدين لم يحسنا إدارة الأمور. وفي غمرة التصارع بين أبناء صلاح الدين من جهة وبينهم وبين عمهم الملك العادل من جهة أخرى اضطر الأفضل إلى تسليم دمشق والخروج منها، وهرب وزيره متخفياً.

كان لإقامة ابن الأثير في دمشق زهاء أربع سنين أثر بعيد في تكوينه ورفد ثقافته ولا سيما في مجال ترسله وإنشائه، إذ أتيح له الاتصال بأعلام دولة صلاح الدين من علماء وكتاب وشعراء وفي طليعتهم القاضي الفاضل وعماد الدين الأصفهاني.

وفي عام ٥٩٦هـ سافر ضياء الدين إلى القاهرة واتصل بأعلام الأدب فيها وناظر بعض علمائها. وكان لمشاركته في الحياة الأدبية بمصر أثر واضح أيضاً في توسيع آفاقه وإغناء كتبه مع أن مقامه فيها لم يتجاوز بضعة عشر شهراً.

وبعد طول تنقل وإخفاق قصد حلب سنة ٦٠٧هـ عساه يجد لدى صاحبها الملك الظاهر ابن صلاح الدين ما يرضي مطامحه، ولكنه لم يجد عنده ما كان يأمل، ولعل «الظاهر» كان حذراً تجاهه، فانعطف إلى العراق وتنقل بين إربل وسنجار والموصل وبغداد، ثم آثر العودة إلى الموصل، وانتهى به المطاف إلى خدمة الزنكيين فيها، وأمضى هناك تسعة عشر عاماً عرف فيها حياة الاستقرار بعد كثرة الترحل والأسفار وأقام يدرس طلابه الأدب والنقد من كتاب «المثل السائر» ومن كتب أخيه وأستاذه مجد الدين المبارك، فكان مقصد المتعلمين والمتأدبين. وكانت وفاته في بغداد وفيها دفن.

حفظ ضياء الدين كتاب الله الكريم وكثيراً من الأحاديث الشريفة وطرفاً وافراً من منظوم العرب ومنثورهم، وفقه النحو واللغة وعلم البيان. ولعله أنس في نفسه ميلاً إلى الشعر المحدث من أمثال ابن المعتز [ر] وديك الجن [ر] وغيرهما من الشعراء العباسيين، وفي ذلك يقول في «المثل السائر»: «حفظت من الأشعار القديمة والمحدثة ما لا أحصيه كثرة. ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن أوس وأبي عبادة البحتري وشعر أبي الطيب المتنبي، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة. وكنت أكرر عليها الدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً»، ودلّل على شغفه بهؤلاء الشعراء الثلاثة المحدثين بقوله: «هم لات الشعر وعزّاه ومناته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته».

كتبه كثيرة، بعضها لم يصل إلينا. ومنها مختارات في الحديث، وفي الشعر والأمثال. وينسب إليه كتاب «تحفة العجائب وطرفة الغرائب» وهو مجموعة من منظوم العرب ومنثورهم في عناصر الكون والطبيعة من سماء ونجوم وماء وشجر... وكتاب «عمود المعاني» وهو في معاني الشعر، وكتاب «الوشي المرقوم في حلّ المنظوم»، وكتاب «الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور»، وكتاب «البرهان في علم البيان»، ثم كتاب «رسائل ابن الأثير» ويضم ما دبجه من رسائل متأنقة العبارة موجهة إلى أعلام العصر وكبراء حكامه، وهي تنم على علو كعبه في النثر فضلاً عن القيمة التاريخية والاجتماعية التي انطوت عليه. أما كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» فهو أجل آثاره وأوفاها، وقد جعله في الأدب والبلاغة والنقد. وهذا الكتاب يرفع ابن الأثير إلى مصاف كبار النقاد العرب. وكان موضع ثناء الأقدمين ونقدهم، ولابن أبي الحديد «الفلك الدائر على المثل السائر»، ولصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي «نصرة الثائر على المثل السائر»، وكلاهما في نقد كتاب ابن الأثير.

عمر الدقاق

الموضوعات ذات الصلة:

الأتابكة ـ الأيوبيون ـ التاريخ.

مراجع للاستزادة:

ـ ياقوت الحموي، معجم الأدباء (بيروت، دار إحياء التراث العربي).

■ أثينة

تقع مدينة أثينة Athens في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة أتيكة اليونانية على درجة عرض ٣٨ شمالاً على شواطىء بحر إيجة وسط سهل خُوْطْست المروي بنهر كيفيسوس ورافده اليسوس. وتحيط بأثينة من ثلاث جهات مدن اميتوس وبينليكون وبارنتوس واكاليبون وتشرف على خليج سارنيكوس الواقع إلى الجنوب الغربي منها.

تضم أثينة وضواحيها (تعداد عام ١٩٩٢) أكثر من ٣,٣ مليون نسمة ويفوق هذا العدد ثلث سكان الجمهورية اليونانية. وقد ازداد عدد سكانها ازدياداً سريعاً نتيجة النمو السكاني والهجرة الداخلية والخارجية ولاسيما في الحروب اليونانية التركية في عامي ١٩٢٢-١٩٢٣، ويوضح الجدول المرافق الزيادات السكانية لأثينة وضواحيها.

وتبلغ الكثافة السكانية العامة أكثر من أربعة آلاف نسمة في الكم² الواحد في أثينة وضواحيها.

توسعت مساحة أثينة بسرعة كبيرة بعد الحرب العالمية الثانية فأصبحت أثينة الكبرى تضم في عام ١٩٨١ أكثر من ٣٥ ضاحية أكبرها مدينة بيريه التي تعد من أكبر المرافىء اليونانية وسكانها في العام نفسه ١٨٧ ألف نسمة.

ويشرف على شؤون أثينة مجلس بلدي منتخب يمثل كل الضواحي ما عدا بيريه ففيها مجلس خاص.

وتتنوع في أثينة الأبنية الأثرية العائدة لحقب مختلفة وكذلك الحديثة، وذلك إلى جانب المتاحف والتماثيل، وتقع في مركزها المؤسسات الحكومية والمصارف والفنادق. وتختلف أشكال المباني والمنازل ومظاهرها في أثينة وضواحيها: فهناك «الفيلات» الحديثة ويسكنها الموسرون وهناك بالمقابل المباني الشعبية في الأحياء المخصصة للعمال.

تعد أثينة أكبر المدن اليونانية ومن أكبر مدن البحر المتوسط وموانيه، وتتمتع بأهمية سياسية واقتصادية وثقافية وعلمية، وتضم حالياً أكبر المراكز والمؤسسات العلمية والأكاديمية ومعاهد العلوم التقنية والطبية والهندسية ومعهداً للعلوم الذرية والفلكية إضافة إلى الجامعة اليونانية.

تعد أثينة الكبرى المركز الصناعي الأول في البلاد، وتضم أكثر من نصف الصناعات التحويلية ولاسيما النسيجية، والصناعات

السنة	السكان (١٠٠٠ن)	الزيادة (١٠٠٠ن)	نسبة النمو السكاني ٪
١٩٢٠	٤٥٣		
١٩٢٨	٨٠٢	٣٤٩	٧٧,٠٤
١٩٤٠	١١٢٤	٣٢٢	٤٠,١٤
١٩٥١	١٣٧٨,٥	٢٥٤,٥	٢٢,٦٤
١٩٦١	١٨٥٢,٧	٥٧٤,٢	٣٤,٤
١٩٩٢	٣٣٠٠	١٤٤٧,٣	٧٨,١١

الخفيفة والغذائية والمعدنية والآلات والأدوات الصناعية. وقد تطورت فيها الصناعات الكيمياوية والبتروكيمياوية ولا سيما صناعة تكرير النفط ومشتقاته إلى جانب صناعة بناء السفن العملاقة. وازدهرت في ضواحيها صناعة الإسمنت والأحذية والجلود والورق والمشروبات الروحية ولاسيما في مدن بيريه واليفيسيس واسبروبيروكس.

استطاعت أثينة جذب رؤوس الأموال الأجنبية والشركات الغربية لاستخدامها في تطوير المنشآت الصناعية والإنتاجية وفي تنمية المؤسسات السياحية والخدمية.

وتشتهر أثينة وضواحيها بجمالها وروعة مناظرها الجبلية وبسواحلها البحرية الجميلة ولا سيما في ضاحية ريفيرا التي تعد من أجمل مراكز السياحة العالمية. وتشتهر بملعبها الأولمبي الكبير الذي بني عام ١٨٩٥، وقد منحها موقعها الجغرافي مكانة مهمة، وفي المدينة عقدة مواصلات تربطها بقارات أوربة وآسيا وإفريقية. وقد استطاعت بواخرها الوصول إلى معظم موانىء العالم التجارية. وترتبط أثينة بخطوط حديدية جيدة مع يوغسلافية وتركية إضافة إلى الطرق الدولية المعبدة. وتربطها مع ضواحيها طرق معبدة كذلك ومع مدينة سالونيك في الشمال. ويرتبط الميناء الرئيس بيريه مع مركز العاصمة بخط قطار أنفاق (مترو) واحد يعمل بالطاقة الكهربائية. وقد وسعت الحكومة اليونانية مطار العاصمة وأصبح يستقبل أكبر الطائرات العالمية من مختلف الدول والقارات.

تصدر أثينة وتستورد معظم سلع تجارتها الخارجية عن طريق ميناء بيريه (٧٠٪ من الاستيراد و٤٠٪ من التصدير). وقد بلغ حجم النقل فيه أكثر من ١٣ مليون طن في عام ١٩٨٤ وتؤلف المنتجات النفطية أكثر من ثلثه.

أسامة قدور

تاريخ أثينة

تعد أثينة واحدة من أشهر مدن التاريخ القديم والتاريخ الكلاسيكي، وهي عاصمة إقليم أتيكة Attikea. استوطن الإقليم والمدينة عدد من شعوب حوض البحر المتوسط كالكريتيين والآخيين والموكينيين.

وتذكر الأساطير القديمة أن الملك كِكْروبس Kekrops ـ وكان نصفه رجلاً ونصفه الآخَر ثعباناً ـ أنشأ المدينة ووضع أوائل قوانينها الاجتماعية والسياسية، وكان أول ملوكها إذ قام بدور الحكم في النزاع الذي استعر بين الإلهين بوسيدون وأثينة حول الوصاية الدينية على المدينة، وأفتى بأنه سيهب اسم المدينة والوصاية عليها للإله الذي يقدم للبشر أعظم فائدة، وقد حكم لمصلحة الإلهة أثينة فأطلق اسمها على المدينة لأنها أوجدت شجرة الزيتون التي عُدت أكثر نفعاً لبني البشر من الحصان الذي أوجده بوسيدون.

وقد حكم من ذرية هذا الملك عدد من الملوك أشهرهم إيجيوس Aegeos ـ الذي أطلق اسمه على بحر إيجة ـ وابنه تيسيوس Theseos الذي ارتبطت باسمه مغامرات كثيرة في الأساطير أشهرها أسطورة تيسيوس والمينوتوروس Minotoros. ويرجع إليه الفضل في دمج مدن أتيكة الاثنتي عشرة في مدينة واحدة أطلق عليها اسم أثيناي Athenae بصيغة الجمع باللغة اليونانية للدلالة على عظمتها وعلى أنها كانت أكثر من مدينة.

النظام الأثيني

يستخلص من أساطير المدينة أنه كانت للمدينة علاقات ربطتها بعدد من معاصراتها، ولاسيما مدن جزيرة كريت، وأن نظام الحكم في صدر تاريخ المدينة كان ملكياً مطلقاً، لكنه لم يدم طويلاً أمام إصرار النبلاء على أن يقوموا بدور في الحياة السياسية للمدينة. وكوّن هؤلاء حول الملك مجلساً استشارياً سرعان ما سيطر على مقاليد الأمور، وحول الحكم إلى النظام الأرستقراطي.

ويبدو أن أول منصب استحدث وانتزع بعضاً من صلاحيات الملك كان منصب قائد الجيش «البوليمارخوس» Polemarchos الذي تبعه إحداث منصب الحاكم أو «الأرخون»

Archon الذي اختص بالشؤون الإدارية. وكان شغل هاتين الوظيفتين مدى الحياة أسوة بالملك، وفي منتصف القرن الثامن ق.م عدلت المدة إلى عشر سنوات ثم إلى سنة واحدة في بداية القرن السابع ق.م. ولا يعرف يقيناً متى أُحدث، إلى جانب هذا الثالوث، مجلس يضم ستة من المشرعين مهمتهم الإشراف على تسجيل القوانين وعلى تطبيقها، وكذلك الاجتهاد في القضايا التي لم تتعرض لها مواد القانون المطبق. وبمرور الزمن اتحد مجلس الملك والبوليمارخوس والأرخون مع هذا المجلس مكونين مجلساً أطلق عليه مجلس التسعة أُنيطت به إدارة شؤون الحكومة الأثينية في ذلك العهد. وكان كبار الموظفين هؤلاء يتحولون فور انتهاء ولاياتهم إلى أعضاء مدى الحياة في مجلس أو محكمة يطلق عليها «محكمة الأريوباغوس» Areopagos - وهو اسم التل الذي كانت تجتمع عليه - وكانت تكلف مهمة انتخاب كبار الموظفين وفيهم الملك، وكذلك الفصل في القضايا الجنائية.

ولا يعرف بالتحديد متى أُلغي النظام الملكي في أثينة وإن كانت بعض الروايات تذكر أنه حكم أثينة في تاريخها الباكر ثلاثون ملكاً فقط، وأن آخر ملوك المدينة ويدعى كوردوس Kordos كان شجاعاً عادلاً نزيهاً حتى أن الأثينيين رأوا بعد مقتله في حرب الدوريين أنه لا يمكن العثور على رجل بمثل صفاته، وقرروا إلغاء المنصب والاكتفاء بمنصبي البوليمارخوس والأرخون، وهذه الرواية على سذاجتها تعكس على الأقل الطريقة السلمية التي تم بها إلغاء النظام الملكي وانتقال السلطة إلى الأرستقراطيين.

ومع بداية القرن السابع ق.م وجد الأثينيون وغيرهم من سكان المدن اليونانية حلاً لمشكلة الانفجار السكاني، التي أدت إليها حالة السلم بعد استقرار الدوريين، وذلك بالالتجاء إلى البحر وإقامة المستعمرات الاستيطانية في معظم أرجاء حوض البحر المتوسط ولا سيما في جنوبي إيطالية وصقلية، إضافة إلى ممارسة التجارة التي أغنت عدداً من الأثينيين بسرعة قياسية. وكان من الطبيعي أن تقلب الظروف الاقتصادية الجديدة مفهوم نظام الطبقات في المجتمع الأثيني وأن تؤدي المعايير الجديدة للثروة إلى تنظيم جديد للطبقات، وبسبب مطالبة الأثرياء الجدد بامتيازات سياسية لم تكن لهم في السابق وتمنّع الأرستقراطيين عن الاعتراف لهم بهذه الحقوق، فقد توترت الأوضاع السياسية وأدت بأحد النبلاء إلى القيام بمحاولة انقلاب مخفقة شعر بعدها الجميع بأن الوضع أضحى في حاجة إلى الإصلاح. وبدأ دراكون Drakon الإصلاح وتابعه صولون Solon بإعطاء الأثرياء الجدد بعض الامتيازات حين قسم المجتمع على أسس مادية بغض النظر عن الأصول الطبقية، ووضع بذلك أول أسس الديمقراطية الأثينية.

ويبدو أن التقدم الفكري المتطلع إلى إحداث ثورة في المسيرة الاقتصادية والإدارية والثقافية قد ساعد على تسويغ قيام حكم الطغيان المستنير في أثينة على يد نبيل آخر يدعى بيسيستراتوس Pisistratos الذي تمكن - لطول مدة حكمه التي دامت نحو عشرين سنة - من تحقيق عدد من الإنجازات السياسية والاقتصادية فاقت ما قدمه الأرستقراطيون والديمقراطيون قبله. على أنه سرعان ما تحول حكم الطغيان المستنير إلى طغيان دموي في عهد ولديه هيبياس Hippias وهبّارخوس Hipparchos اللذين حاولا الحفاظ على دوام حكمهما بالإكثار من وسائل البطش، وعندما لم يعد الأثينيون يحتملون وطأة الطغيان عمل زعيم الأرستقراطيين كليستنس Kleisthenes بمساعدة من الاسبرطيين على إنهاء حكم الطغيان في أثينة وإعادة الديمقراطية.

وفي هذه الحقبة وضع كليستنس اللبنة الثانية في بناء صرح الديمقراطية الأثينية بإلغائه ارتباط المواطنين بقبائلهم، وأحل بدلاً منه ارتباطاً إدارياً بمحال الإقامة، وبهذا القانون وضع حداً للثغرات الإقليمية ونفوذ الزعامات الأسرية وأخطاء النظام القبلي. وأسند القانون إلى كل وحدة إدارية جديدة حق انتخاب ممثلها في مجلس جديد هو مجلس القادة الذي أصبح بمنزلة مجلس للوزراء توكل إليه مهمة تصريف شؤون البلاد، كما أوكل القانون إلى هذه الوحدات الإدارية انتخاب ممثليها بالتساوي لمجلس الجمعية العمومية أو الإكليزية، وكان هؤلاء الأعضاء يُنتخبون لمدة سنة واحدة عن طريق القرعة من المواطنين الذين بلغوا الثلاثين شريطة عدم انتخاب العضو لأكثر من دورتين. وأضاف كليستنس إصلاحاً ديمقراطياً قوّض بموجبه أحلام الطغاة ومؤيديهم في اغتصاب الحكم عن طريق القوة إذ أصدر قانونه الشهير الأستراكيسموس Ostrakismos أي قانون النفي الذي أصبح للجمعية العمومية بموجبه الحق في التصويت عند الاقتضاء على نفي أي مواطن يُخشى منه على أمن الدولة لمدة عشر سنوات، شريطة أن يؤيد الحكم ستة آلاف مواطن ولا يفقد المنفي في هذه الحال حقوق مواطنته لدى عودته.

ولا يعرف الكثير عن تاريخ أثينة بعد كليستنس - الذي أصبح عرضة للنفي بموجب قانونه السابق - وحتى بداية الحروب الفارسية التي قاد فيها قوات أثينة القائد ميليتيادس Militiades أولاً ثم ثيميستوكلس Themistokles اللذان أسهما، بما حققاه من انتصارات في هذه الحروب، في إبراز ضرورة قيام أثينة بالدعوة إلى إقامة تحالف هليني بقيادتها لمتابعة حرب الفرس، هذا التحالف الذي تطور في عهد بريكلس Perikles ليصبح امبراطورية أثينية.

أثينة في عصر بريكلس

يُعد بريكلس أشهر حكام أثينة القديمة لأسباب كثيرة منها: انحداره من أسرة سياسية معروفة، وطول مدة حكمه التي تجاوزت ثلاثين سنة (٤٦١ - ٤٢٩ ق. م) والإصلاحات الديمقراطية التي حفل بها حكمه، وكذلك شخصيته المتميزة التي ارتكزت على وطنية صادقة وموهبة خطابية بارزة وقدرة على إقناع مواطنيه، وأخيراً عمله على مساندة قوة أثينة العسكرية والاقتصادية. كذلك يعد عصر بريكلس العصر الذهبي للحضارة اليونانية في معظم مظاهرها.

ففي مجال الإدارة والتطور الديمقراطي دعم بريكلس سلطات المجالس الشعبية على حساب النفوذ الذي تمتع به السياسيون التقليديون، وتحولت مهام الحكام أو «الأراخنة» من مهام سياسية إلى تنفيذية إذ أصبح الحكام ينفذون القوانين المحولة إليهم عن طريق المجالس التشريعية (الإكليزية والبولي Boule). وفي مجال القضاء قسم بريكلس السلطات القضائية بين المحاكم البدائية والاستئنافية، وعن طريق إدخاله نظام الأجور للمحلفين ضمن بريكلس نزاهة القضاء ولم يعد حكراً على المقتدرين مادياً.

وفي مجال الاقتصاد حقق بريكلس لأثينة نشاطاً تجارياً ممتازاً عن طريق دعمه قوة الأسطول الأثيني وضمان الأمن والاستقرار السياسي. ونتيجة لتزايد قوة العملة الأثينية في أسواق

العالم فقد نشأت طبقة أثرت من التجارة، وعملت على تنشيط حركة الاستعمار الاستيطاني في معظم مناطق حوض البحر المتوسط مما أدى إلى زيادة دخول الدولة بدرجة مكنتها من الإنفاق ببذخ على تجميل مدينة أثينة وتأهيلها لاحتلال مركز الزعامة.

وفي مجال الآداب برز عدد من الشعراء اختص بعضهم بمدح الأبطال الأولمبيين والنبلاء والآلهة في أعمال مسرحية كالشاعر بيندار Pindar . واهتم عدد كبير منهم بالأعمال التراجيدية وأبرزهم أسخيلوس Aeschylos وسوفوكلس Sophokles ويوريبيدوس Euripides ، واهتم عدد أقل بالأعمال الكوميدية وأشهرهم أريستوفانس Aristophanes . كما برز عدد من الفلاسفة في مقدمتهم أناكساغوراس Anaxagores وسقراط Socrates وبروتاغوراس Protagoras . أما الكتابة التاريخية فقد تطورت على يدي هيرودوت وتوقيديدس Thucydides من مادة للتفكه إلى مادة ترتكز دراساتها على العلم والمنطق والاستدلال.

وفي مجال العلوم برز من العلماء مثل الطبيب أبقراط هيبوقراطس Hippokrates صاحب القَسم المشهور، وكذلك عالم الطبيعيات أمبيدوكلس Empedokles الذي قام بتحديد عناصر الحياة في أربعة هي: النار والهواء والتراب والماء، ويعد واحداً من أبرز المسهمين في تقدم نظرية التطور. كما قام العالم ديمقريطس Demokrites بتقديم عام لنظرية الذرة لأول مرة في التاريخ، وأكد عدد آخر من العلماء كروية الأرض نظرياً. وفي عصر بريكلس عم استخدام النظام العشري في الحساب والاثني عشري والستيني في الفلك والجغرافية.

أما في مجال الفنون فقد أبرزت خطة بريكلس لإعادة إعمار أثينة وتجميلها بعد تدميرها في الحروب الفارسية عدداً من أشهر المهندسين والفنانين في التاريخ القديم، وفي مقدمتهم المهندس هيبوداموس Hippodamos من مدينة ملطية في آسيا الصغرى الذي قام بتخطيط المدينة وفق نظام جديد هو النظام الشبكي، ومنهم الفنانون الذين قاموا ببناء معابد الأكروبوليس[ر] Akropolis ومنشآته وتزيينها.

والأكروبوليس كلمة مؤلفة من مقطعين تعني المدينة العليا أو أعلى المدينة، وهي واحدة من المظاهر التي كان وجودها شائعاً في المدن كافة في بلاد اليونان ليكون خط دفاع ثانياً للمدينة في حال سقوطها. وأكروبوليس أثينة هو صخرة بيضوية أبعادها ٢٧٥×١٥٥م تقريباً، وترتفع عن سهل المدينة بنحو مئة متر. ويعد الأكروبوليس قلب أثينة الديني والتاريخي والسياسي، تعرضت مبانيه إلى التدمير في أثناء الحروب الفارسية. وعندما قرر بريكلس إعادة تشييد مبانيه قام مهندسوه بتوسيع سطح الأكروبوليس بإقامة جدار استنادي في الطرف الجنوبي وردموا الفجوة المحدثة ببقايا الأبنية وحطام التماثيل التي دمرت في أثناء الحرب مما مكنهم من إقامة عدد من المعابد أشهرها وأبقاها البارثنون، والأرخيتيوم، وأثينة زيكه.

ويعد معبد البارثنون درة العمارة الإغريقية وأجمل أبنية الأكروبوليس وأعظمها أطلق عليه لقب الإلهة أثينة ويعني العذراء. قام ببنائه المهندسان إبيكتيتوس Epiktitos وكاليكراتس Kalikrates فيما بين ٤٤٧-٤٣٢ ق.م مكان المعبد الخشبي القديم. وقام بنحت تماثيله وأعمدته وواجهاته الفنان فيدياس Phidias وتلامذته. وقد تعرض المعبد إلى عدة حوادث مفجعة أهمها انفجار مخزن للبارود سنة ١٦٨٧م وانتزاع عدد من ألواح أفاريزه التي سلمت من الانفجار ونقلها إلى عدد من المتاحف أبرزها المتحف البريطاني. وعلى الرغم من عوادي الزمن فإن بقايا البارثنون الحالية ومفقوداته المعروفة في متاحف العالم والمعلومات الواردة في المصادر تعطينا كلها صورة لما كان عليه في أيامه الأولى. فقد أقيم المعبد على قاعدة مؤلفة من ثلاث درجات ترتفع ١٧٠ سم عن سطح الأكروبول بطول ٦٨,٤٠ م وعرض ٣٠,٣٠ م ويحيط بقاعدته أعمدة دورية الطراز عددها ثمانية في كل من الواجهتين وسبعة عشر عموداً في كل من الطرفين ويرتفع كل واحد منها ١٤,٣٠م ويحمل مجموعها سقف المعبد المائل والمثلثي من طرفيه مشكلاً واجهة مثلثة ارتفاعها ٣,٣٩م، وتتجه واجهته الرئيسة إلى الشرق وهي مزدانة مع الجيزان الرابطة بينها architraves بمنحوتات جدارية تصور بعضاً من الأساطير الإغريقية ولا سيما الأثينية منها.

أثينة والاتحاد الأثيني

كان الأثينيون قد رافقوا خطتهم لإعمار مدينتهم بدعوة المدن الدول في بلاد اليونان لتأسيس حلف مهمته الدفاع عن بلاد اليونان في وجه الأطماع الخارجية. ونجحت أثينة في تكوين الحلف من بعض المدن اليونانية وجزر البحر الإيجي تحت اسم الحلف الديلوسي بزعامتها، وهو الحلف الذي تطور فيما بعد ليصبح امبراطورية أثينية حينما بدأت أثينة تتعسف في استخدام صلاحياتها ضد أعضاء الحلف، ونقلت خزانة الحلف من جزيرة ديلوس إلى أثينة وأصبح الحلف نتيجة هذه التصرفات معرضاً في أية لحظة للتفكك والانهيار، لولا ظهور الزعيم الأثيني بريكلس في الوقت المناسب.

وفي المدة ما بين ٤٣١ و٤٠٤ ق.م نشبت حرب ضروس بين أثينة الراغبة في تأسيس امبراطوريتها وعدد من المدن المناهضة لهذه الرغبة بزعامة اسبرطة، وكتب تاريخ هذه الحرب المؤرخ الشهير توقيديدس، وأطلق عليها المؤرخون اسم حرب البيلوبونيز، وكانت أحداثها سجالاً في مراحلها الأولى إذ كانت معظم المعارك البحرية تنتهي بتفوق أثينة، والبرية بتفوق اسبرطة. لكن المرحلة الثانية شهدت نجاحاً اسبرطياً في إنشاء أسطول بحري تمكن من حصار أثينة وإكراهها على إنهاء الحرب وقبول شروط التسليم، وأهمها الاعتراف بزعامة اسبرطة وهيمنتها.

على أن اسبرطة لم تكن مؤهلة للدور القيادي الذي آل إليها في بلاد اليونان، ووقعت، نتيجة عزلتها السابقة، في الأخطاء نفسها التي وقعت فيها أثينة من قبل، وكان طبيعياً أن تؤدي معاملتها حلفاءها معاملة قاسية إلى تدهور علاقاتها معهم، وبرزت من بين الحليفات مدينة طيبة Thebes التي لم تعد تحتمل صلف اسبرطة وغرورها وخاضت ضدها معركة قضت على كل آمال اسبرطة وأحلامها السياسية والعسكرية وهي معركة لوكترا Luktra (٣٧١ ق.م) التي فتحت المجال لبروز أثينة مرة أخرى. وقد دعت أثينة، بعد إبعاد اسبرطة عن المسرح السياسي، إلى اتحاد كونفدرالي انضمت إليه كل المدن الساخطة على اسبرطة. وظهر الاتحاد في بداياته ظهوراً ديمقراطياً، إلا أنه سرعان ما تحول إلى امبراطورية أثينية ثانية، وظل كذلك حتى سقوطه سنة ٣٣٨ ق.م، وهي السنة التي برزت فيها قوة مقدونية، وتحطمت قوة الاتحاد الأثيني

في موقعة خايرونية Chaeronea وبدأ بعدئذ عصر جديد هو العصر الهليني (٣٣٦ - ٣٠ ق.م).

أثينة في العصر الهليني

حاول ملوك العصر الهليني نقل أهمية أثينة إلى عواصمهم الجديدة، ولا سيما إلى الاسكندرية وأنطاكية، مما أدى إلى تدهور مكانة المدينة في تلك الحقبة، ولا سيما بعد قضاء رومة على مملكة الأنتيغونيين [ر] وضمها مع ممتلكاتها إلى رومة. واحتفظت أثينة في العصر الامبراطوري بأهمية علمية تقليدية محدودة، ظهرت أكثر ما يكون في تفاخر المثقفين الرومان بدراستهم في مدارسها.

في القرن الثالث الميلادي أدّت النزاعات في رومة إلى تعدي البرابرة على أثينة واحتلالها سنة ٢٦٧ م وزوال أي تأثير لها حتى بدايات المسيحية فيها.

أثينة في العصرين البيزنطي والعثماني

بدأت المسيحية باكرة في أثينة إثر زيارة القديس بولص لها سنة ٥١م، ولكنها لم تنتشر على الرغم من تحول بعض المعابد القديمة إلى كنائس، مثل البارثنون والأرخيتوم وغيرهما، وبناء كنائس جديدة. واستمرت الوثنية سائدة وقوية حتى إغلاق مدارس الفلسفة بموجب مرسوم جوستنيان [ر] (٥٢٩م).

وتعد المدة من القرن السابع إلى العاشر حقبة مظلمة في تاريخ أثينة، فقد أغفلت كتب التاريخ في تلك المدة أي ذكر للمدينة، كما أن بقاياها الأثرية محدودة للغاية. ويبدو أن المدينة قد استعادت بعض رخائها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، بدلالة العثور على بقايا عدد من الكنائس، بنيت بحسب الطراز البيزنطي مثل كنيسة كابنيكاريا Kapnikarea.

وفي سنة ١٢٠٤ م وقعت أثينة في قبضة الحملة الصليبية الرابعة وأصبحت المدينة دوقية. ويدل على ذلك أن أحد حكامها من النبلاء البورغونديين وهو اوتو دو لا روش Otto de la Roche أطلق على نفسه مدة حكمه لقب «دوق أثينة». وبقيت المدينة في قبضة اللاتين مدة قرنين ونصف، ولم يطرأ عليها أي تحول يذكر، باستثناء تحول تبعية كاتدرائية البارثنون من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية، مع إنشاء برج للأجراس إلى جانبها.

وعندما احتل العثمانيون المدينة سنة ١٤٥٦ م حولوا البارثنون إلى مسجد وبرج الأجراس إلى مئذنة، إضافة إلى إنشائهم عدداً من المساجد في باقي أرجاء المدينة. وبقي حال المدينة قائماً على وضعه حتى سنة ١٦٨٧م حينما تمكن البنادقة من احتلال مرفأ المدينة بيرايوس (بيريه) وحصار اكروبوليس المدينة. وفي أثناء الحصار أطلقت مدفعية الكونت اوتو فلهلم فون كونيغسمارك Otto Wilhelm Von Koenigsmark قذيفة فجرت مخزن البارود في البارثون وأدت إلى تحطيم القسم الأكبر منه. وأخفقت محاولة البنادقة احتلال أثينة واستمر العثمانيون في حكمها حتى سنة ١٨٣٣م حين استقلت بلاد اليونان وأصبحت أثينة عاصمة الدولة اليونانية الجديدة.

مفيد رائف العابد

الموضوعات ذات الصلة:

اليونان.

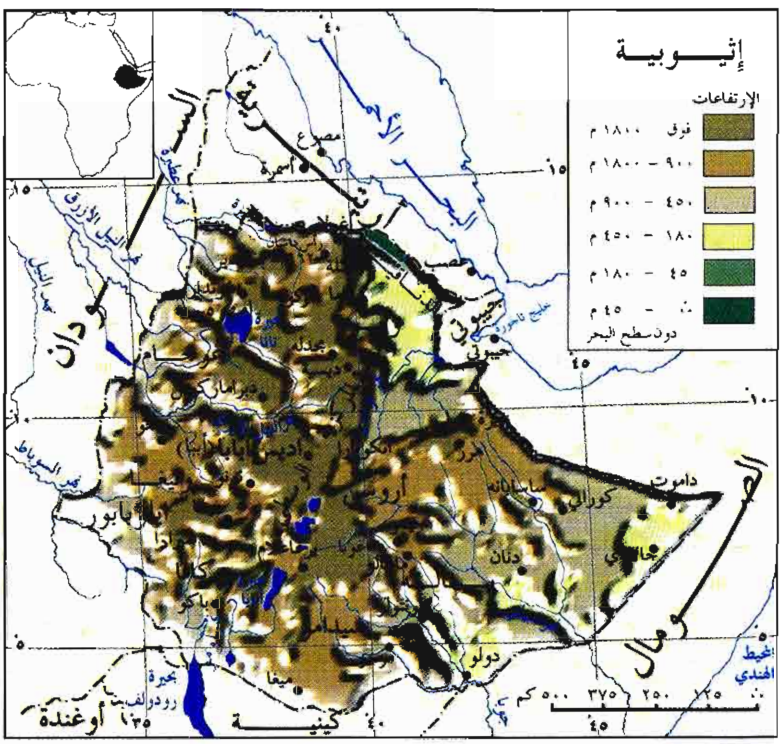
مراجع للاستزادة:

- لطفي عبد الوهاب يحيى، اليونان مقدمة في التاريخ الحضاري (بيروت ١٩٧٩).
- I.FEKETE, Athens (1966).
- I.T.HILL, The Ancient City of Athens (London1951).

■ إثيوبية (دولة -)

إثيوبية Ethiopia دولة إفريقية عاصمتها أديس أبابا [ر] ومساحتها ١,١٣٣,٣٨٠ كم² منذ استقلال أريترية عنها وهي تحتل مساحات واسعة من وسط شرقي القارة الإفريقية. وفي الوقت نفسه تطل على الواجهة الجنوبية الغربية للبحر الأحمر [ر] عبر أريترية وجيبوتي. وتكوّن إثيوبية العمق التضريسي الداخلي للقرن الإفريقي الذي يمتد داخل القارة، وتشغل موقعاً محصوراً بين العروض الجغرافية ٣ درجات و٣٠ دقيقة و١٨ درجة شمالاً، وبين الأطوال الجغرافية ٣٣ درجة و٤ دقيقة و٤٨ درجة شرقاً.

وتعدُّ إثيوبية بلداً داخلياً مغلقاً، يحدها من الغرب السودان ومن الشمال والشمال الشرقي أريترية ومن الشرق جيبوتي، ثم كينية والصومال من الجنوب والجنوب الشرقي. ولكن الاتحاد الفيدرالي الذي فرضته على أريترية عام ١٩٥٢ وما تبعه من ضم نهائي منذ عام ١٩٦٢ سمح لها بأن تملك - حتى عام ١٩٩٣ - واجهة بحرية طويلة إلى حد ما تطل



من خلالها على البحر الأحمر. أما خط حديد أديس أبابا - جيبوتي فيمكن أن يعدّ منفذاً حيوياً جداً يربط إثيوبية بخليج عدن.

وتؤلف دولة إثيوبية، أو الهضبة الإثيوبية، حاجزاً إدارياً وطبيعياً في وجه امتداد الصحراء العربية نحو الجنوب ويفصل النهايات الجنوبية للصحراء المتمثلة بالصومال وإقليم أوغادين وهرر وغيرها عن السودان وأريترية.

الأوضاع الطبيعية

الملامح الجيولوجية: تحوي الهضبة الإثيوبية في قسمها الأكبر صخوراً قديمة تعود للحقب الجيولوجي ما قبل الكمبري والحقب الثاني وتتكشف أجزاء من هذه الصخور في أريترية. أما في الأطراف الجنوبية للهضبة الإثيوبية، ولاسيما في مناطق سيدامو ومقاطعة هرر، فتمتد طبقات صخرية رسوبية ثخينة جداً تعود للحقب الجيولوجي الثاني. وتظهر في وسط البلاد، أو ما يعرف بالهضبة المركزية الوسطى، المظاهر البركانية والأغشية البازلتية، وتبرز على شكل جزر بركانية معزولة وفوهات ومخاريط براكين قديمة، تشاهد حتى في تلك الأجزاء المرتفعة جداً من الهضبة التي يصل ارتفاعها إلى نحو ٤٦٢٠م. والتفسير الممكن لهذه الظواهر الجيولوجية هو أنها نتيجة عوامل بنائية (تكتونية) وحركات أرضية كانت سبباً في تكوين المنخفض البنيوي في الزمن الأوليغوسيني - الميوسيني من الحقب الجيولوجي الثالث وذلك على أثر نهوض الركيزة القارية العربية - الإثيوبية في الزمن الجوراسي - الإيوسيني وما رافق ذلك من أنشطة بركانية تجاوزت إثيوبية من جزئها الجنوبي وسارت من بحيرة ستيفاني Stephanie حتى خليج تاجورة مؤلفة منخفض أواش، ثم انقسمت بعد ذلك إلى فرعين الأول يساير امتداد البحر الأحمر والثاني خليج عدن.

التضاريس: تتألف المساحات الكبرى من الأجزاء الداخلية لإثيوبية من هضبة تنحدر من الشرق نحو الغرب، وتهبط تدريجياً نحو النيل الأعلى باستثناء بعض الحالات الشاذة حيث يصبح الانحدار غير نظامي ومتقطعاً يسمح بظهور تدرجات ونتوءات تضريسية لا يتفق ميلها وانحدارها مع التضاريس التي قبلها ولا مع التي بعدها. إن القمم العالية التي ترتفع إلى نحو ٣٤٣٩ - ٤٠٠٠م في الجزء الغربي للهضبة المركزية الإثيوبية الوسطى، تهبط تدريجياً إلى مستوى يصل إلى نحو ٢٠٠٠-٢٥٠٠م في الأجزاء الشرقية، أي باتجاه البحر الأحمر وسهل الدناقيل. ولكن هذا الهبوط التدريجي في أكثر الأحيان، وفي الأجزاء العليا من الهضبة يقطعه ظهور مجموعات مختلفة من السلاسل الجبلية التي كانت مراكز أساسية لنشاط بركاني قديم مثل: سلسلة جبال سيمين أو راس داشان التي ترتفع إلى نحو ٤٦٢٠م، وقمم جبال شوك أو غاجام، وسلسلة جبال لاستا وتكيزة العليا التي تصل إلى ارتفاع ٤١٩٨ في قمة أبونا جوزيف.

المناخ والمياه: يتميز مناخ المناطق الداخلية والعالية بكونه بارداً ورطباً إلى حدّ ما بسبب الارتفاعات الشاهقة التي تهيمن على أجزاء واسعة جداً من الهضبة الداخلية الإثيوبية، وتؤلف التضاريس العالية في إثيوبية عوائق طبيعية حقيقية للسحب وكتل الغيوم الرطبة المحملة ببخار الماء، لذلك فإن الأمطار تهطل تقريباً طوال الأشهر الثلاثة في فصل الصيف وتغذي الأنهار الكبرى وتكفي حاجة التربة في الأجزاء العليا من الهضبة المركزية.

أما الأجزاء الشرقية من البلاد فتتلقى أمطارها بفعل الرياح الموسمية. ولكن هذا النوع من الهطل يتعرض لعمليات تبخر هائلة، وكميات الهطل لا تزيد على ٢٥٠مم وهي غير كافية لقيام زراعات اقتصادية ولا تساعد على قيام حياة بشرية مستقرة ولاسيما في أقاليم وادي أواش والدناقيل وأوغادين. وعلى العكس من ذلك، فإن الأجزاء الجنوبية الغربية من الهضبة الإثيوبية الوسطى تتمتع بأمطار نظامية وتتلقى كميات تزيد على ٢٠٠٠ مم في فصلي الخريف والربيع.

أما أنهار إثيوبية فتتجه جميعها بوجه عام نحو الغرب وتنتهي في حوض وادي النيل باستثناء نهر أومو الذي يجري في الجنوب ويتجه إلى بحيرة رودولف (توركانة) ويجري في الشمال نهر تكيزة أو كما يسمى محلياً «الرهيب» مع روافده هابطاً من جبال لاسكا. ولكن أكبر أنهار إثيوبية هو نهر آباي، أو النيل الأزرق، الذي يتغذى من بحيرة تانا ومن نهر آباي الصغير أو النيل الأزرق الصغير الذي يهبط من جبال شوك ويصب في بحيرة تانا المذكورة.

تزداد غزارة هذه المجاري المائية مع هطل الأمطار الموسمية الصيفية وهذا ما سمح لها بأن تحفر أودية وخوانق مدرجة عظيمة جداً في جسم الهضبة وصل عمقها أحياناً إلى نحو ١٠٠٠ م مثل نهر تكيزة ونهر النيل الأزرق الصغير ويسير كل منهما في خانق يصل عمقه إلى نحو ١٥٠٠م. أما الأنهار التي تتجه بوجه عام نحو الجنوب الشرقي من البلاد فإنها تنتهي في الأراضي المنخفضة والسهول من المنطقة نفسها ما عدا نهر جوبا الذي يعد النهر الوحيد الذي يعبر جمهورية الصومال ويصب في المحيط الهندي. وفي الأجزاء العليا من الهضبة الوسطى يتكون منخفض بنيوي انهدامي - أخدودي مكون من حفر وأحواض ملأتها مجموعات من البحيرات التي تمتد باتجاه جنوبي - غربي، شمالي - شرقي.

تتوضع هذه السلسلة من البحيرات أحياناً على ارتفاع ٣٤٣٠م كما في منطقة أروسي، وفي أحيان أخرى تتوضع على مستوى منخفض يهبط إلى نحو ٣٠٠ م في النهايات الجنوبية الشرقية الدنيا للهضبة بالقرب من هرر وسهول الصومال.

وينفتح منخفض البحيرات المذكورة أعلاه نحو الشمال الشرقي، أي نحو الأراضي المنخفضة والسهول ولاسيما نحو سهول إقليم عفار الذي يعد المصرف المائي لغالبية المصادر المائية المختلفة والكثيرة بما فيها نهر أواش الكبير الذي يهبط من إقليم أديس أبابا.

النبيت: إن التغير الكبير في المظاهر التضريسية وما يتبعه في العادة من تباين في بنية الترب، من جهة، وتباين في تأثير المصادر المائية المختلفة، من جهة ثانية، يقود إلى تنوع في أنماط الغطاء النباتي والوجود الحيواني بالإضافة إلى ظهور أقاليم مناخية متنوعة.

ففي الأجزاء العليا من الهضبة الإثيوبية يسود مناخ الجبال العالية الباردة ويرافق ذلك سيادة نباتات جبال الألب. وعلى العكس من ذلك تسود الأجزاء الشرقية والجنوبية الشرقية من البلاد مناخات صحراوية وشبه صحراوية وصحراوية جافة جداً ترافقها سيادة نباتات سهبية ملائمة لتربية الماشية ولاسيما في إقليم أوغادين والمنطقة الحدودية الصومالية الإثيوبية.

ويسود أغلب الأراضي الأريترية المجاورة وسهولها مناخ حار جداً وصحراوي، قليل الأمطار أيضاً يلائم تربية الماشية. أما في السفوح الشرقية للمرتفعات الإثيوبية الداخلية فتهطل الأمطار في العادة في فصل الشتاء وتسمح

بانتشار غطاء نباتي وعشبي إضافة إلى انتشار أشجار الدغلة البرية القصيرة.

وأما صحراء الدناقيل البازلتية المغطاة بطبقة من الحجارة البازلتية الصغيرة في معظم أرجائها والتي تقوم في جزئها الغربي جبال ترتفع إلى نحو ١٩٠٠م، فإنها تتلقى كميات من الأمطار بمعدل كاف لنمو الغابة.

ومن دراسة الهضبة الداخلية يمكن تمييز المناخات والأقاليم الجغرافية الآتية:

إقليم الغالا: ويشغل النهايات المنخفضة للهضبة حتى مستوى ١٥٠٠-١٨٠٠م ويحوي أراضي قابلة للزراعة ولاسيما في الأودية والنجود. وأكثر المناطق الملائمة للزراعة هي التي تتوضع بالغرب من مدينة هرر وذلك إضافة إلى سيادة الغطاء النباتي الاستوائي الحار، وأهم أشجاره المطاط والموز والنخيل وشجرة البن البرية.

إقليم ويناديغا: ويشغل المساحات التي تبدأ من بداية انحسار خصائص الإقليم الأول وترتفع حتى ٢٥٠٠م فوق سطح البحر وتتنوع في هذا الإقليم المظاهر النباتية. ففي الأجزاء الجنوبية تنمو نباتات المناطق الحارة إضافة إلى الغابة التي تحمل خصائص البحر المتوسط من أشجار الحمضيات والكرمة وفي الأجزاء الشمالية تنتشر نباتات السهوب وأشجار الخيزران والزيتون.

إقليم ديغا: ويشغل الأراضي الممتدة من ارتفاع ٢٥٠٠م حتى ٣٥٠٠م وهي مناطق باردة على العموم، وتنتشر فيها نباتات جبال الألب على حساب انحسار الغابة.

إقليم شوك: ويحتل أعلى أجزاء الهضبة الإثيوبية أي يشغل القمم العالية التي تصل إلى ٤٦٢٠ م وبسبب البرودة الشديدة واستمرار وجود الثلج فإن الحياة تكون تقريباً معدومة في هذه المناطق.

السكان والاقتصاد

السكان: إن أصول السكان في إثيوبية متنوعة جداً. ويؤلف الأمهريون الأكثرية الساحقة منهم ويقدرون بنحو ثلث السكان، ويعدون من الطبقات الاجتماعية العليا من بين أوساط السكان، وينتمون إلى العرق الحامي السامي، ويتوزعون على الهضبة الإثيوبية المركزية الوسطى وفي أديس أبابا العاصمة. ثم يليهم شعوب الغالا ويؤلفون نحو خمسي السكان. ويلي ذلك مجموعات بشرية متعددة الانتماء العرقي والقومي منهم: قبائل التغرة التي تعيش في الشمال، والجماعات النيلية التي تقيم في الجنوب والغرب من البلاد، والعرب الذين يتوزعون على أقاليم أوغادين وصحراء الدناقيل، وغيرهم مثل الصوماليين والدناقيل والسودانيين.

إن عدد السكان والمعطيات الديمغرافية وخصائص السكان الحيوية ما تزال حتى الآن غير معروفة بصورة صحيحة والبيانات الإحصائية عنها ما تزال غير موثوقة.

وجاء في بعض المصادر الإحصائية أن عدد سكان إثيوبية كان ما بين ٢٤ و٢٥ مليوناً في عام ١٩٧٠. وقدرت مصادر أخرى عدد السكان بنحو ٤٤ مليوناً في عام ١٩٨٦. وتقدر مصادر الأمم المتحدة عدد سكان إثيوبية بنحو ٤٣ مليوناً في عام ١٩٨٣ ويقدر عدد السكان لعام ١٩٩٧ بنحو ٥٧,١ مليون نسمة.

يقطن القسم الأعظم من السكان الهضبة المركزية الوسطى وأجزاءها المرتفعة، وينتشرون وفق مسار خط القمم الذي يمتد من بحيرة أبايا في الجنوب حتى أسمرة [ر] في الشمال. ويتوضع قسم آخر من السكان في الأجزاء المنخفضة والصحارى في الجنوب والشرق. أما في المناطق الجبلية العالية فإن التجمعات السكانية تشغل القمم الجبلية المسطحة بفضل المناخ المعتدل والمقبول من السكان المحليين والسائد حتى ارتفاع ١٨٠٠-٢٥٠٠م وصلاحية التربة للزراعة. وهذه المناطق هي أماكن مفضلة لدى قسم كبير من السكان إذ يرونها خيراً من الأقاليم المنخفضة وضفاف الأنهار العميقة ذات الحرارة المرتفعة جداً.

أما الكثافة العامة للسكان فقد بلغت نحو ٥٠ نسمة/كم² في عام ١٩٩٧ ولكن هذه الكثافة لا تعطي فكرة صحيحة عن التوزع الحقيقي للسكان لعدم وجود معلومات كافية عن الكثافة الزراعية أو الكثافة الحقيقية التي تتطابق مع توزع السكان على الأراضي المأهولة فعلاً.

وبحسب التقسيم الإداري كانت إثيوبية مقسمة إلى أربعة عشر إقليماً أو ولاية، وأكبر الأقاليم مساحة هو إقليم هرر الذي يبلغ ٢٥٩,٧٠٠ كم² ويليه إقليم باله وإقليم سيدامو. أما الأقاليم التي هي أكثر إعماراً فهي على التوالي إقليم هرر، وإقليم شوا ثم إقليم ولو، ولذلك يمكن القول إن أكثر الأقاليم كثافة هو إقليم أروسي يليه إقليم شوا، حيث العاصمة أديس أبابا وإقليم تغري أي الأقاليم التي تشغل الأقدام الشرقية للهضبة الإثيوبية الوسطى وتقسم إلى تسعة أقاليم إدارية مع العاصمة منذ تسميتها جمهورية فدرالية عام ١٩٩٤.

واللغة الأمهرية هي اللغة الرسمية لعموم البلاد. ومع ذلك يوجد نحو ٥٠ لغة محلية أخرى لكثير من الأقوام التي تنتشر في المناطق المختلفة من إثيوبية إضافة إلى ذلك ينتشر استعمال اللغة الإنكليزية والعربية والإيطالية والفرنسية.

إن تعدد اللغات والعروق البشرية يرافقه تعدد في الانتماءات الدينية. وتعتنق المسيحية الغالبية العظمى من السكان في القسم الأكبر من الهضبة المركزية الوسطى وتصل نسبة الذين يعتنقون هذه الديانة على مستوى عموم البلاد إلى نحو ٤٠٪ معظمهم من أتباع الكنيسة الإثيوبية. أما الذين يعتنقون الإسلام فتبلغ نسبتهم نحو ٤٥,٥٪ من مجموع السكان ولاسيما في أقاليم أريترية وأوغادين. وهناك جماعة قليلة جداً من اليهود (الفلاشة) يتوزعون على أطراف بحيرة تانا وقد غادر معظمهم أو كلهم إثيوبية في مطلع التسعينيات. أما ماتبقى من السكان فيمكن أن يعدوا وثنيين.

وغالبية السكان ريفيون وتصل نسبتهم إلى ٨٧٪ تقريباً يقابلهم ١٣٪ فقط من سكان المدن. ومما يلفت النظر في هذه البلاد غياب المدن الكبيرة. والمدينة الرئيسة هي أديس أبابا. ولكن الأمور تغيرت سريعاً بعد السبعينات بسبب تغير نظام الحكم وإلغاء النظام الامبراطوري وقيام النظام الاشتراكي الذي حث السكان على القدوم إلى المدن للقيام بأعمال إدارية ومهنية وحزبية ويدوية، أو بسبب التصحر الهائل الذي تعاني منه البلاد وانتشار الفقر والمجاعة. هذه العوامل مجتمعة كانت سبباً رئيساً في ظهور كثير من المدن الإقليمية الصغيرة والمتوسطة وظهور زيادة سريعة في عدد سكان المدينتين الرئيسيتين أديس أبابا وديريداوا (١٦٤,٨٥٢ نسمة).

الاقتصاد: ما تزال إثيوبية دولة متأخرة جداً في الحقل الاقتصادي إذ لا يزيد ناتجها القومي الإجمالي العام على خمسة مليارات دولار سنوياً. ويعد مستوى معيشة السكان فيها من

أكثر المستويات المنخفضة من بين جميع دول إفريقية . ودخل الفرد فيها لا يكاد يزيد سنوياً على ١٠٠ دولاراً عام ١٩٩٥ .

ومع أن القطاع الزراعي قد عرف مؤخراً تحديثاً في الأساليب الزراعية واستخدام المكننة، فإن المحراث التقليدي والسماد الحيواني مايزال استخدامهما ينتشر على مساحات واسعة جداً من الأراضي الزراعية ولاسيما تلك الأراضي المخصصة لزراعة الحبوب والتوابل والنباتات الزيتية وغيرها.

إن تعدد نماذج المناخات وتباينها سمحا بتعدد أنواع الزراعات وتعدد المواسم ،وسمحا لذلك، بنجاح الكثير من الزراعات المدارية مثل الذرة البيضاء، والصفراء في الأقاليم المنخفضة وزراعة قصب السكر والقطن في الأراضي المروية وأحواض الأودية العميقة بالإضافة إلى زراعة الحبوب التقليدية المختلفة في المناطق ذات الارتفاعات المتوسطة. وبالمقابل تسود الأجزاء الغربية والجنوبية الغربية من الأطراف المنخفضة من الهضبة الوسطى زراعة الكرمة والزيتون البري وتنجح زراعة القطن أيضاً.

ويعد البن في إثيوبية من أهم الزراعات النقدية والمحصول الرئيس الذي يحتل مكانة كبيرة بين الصادرات الوطنية. وقسم كبير من محصول هذه النبتة يأتي من إقليم كافا الذي تسود فيه زراعة البن العشوائية التي لاتلقى الحد الأدنى من الاهتمام. وبالمقابل فإن النوعية الجيدة تزرع في الأراضي المروية من أقاليم هرر وأروسي.

وأخيراً فإن تربية الحيوانات والاهتمام بالإنتاج الحيواني يرافق نظام حياة البداوة الذي ينتشر على الأطراف الجنوبية الشرقية والشرقية من إثيوبية وفي الأقاليم الجافة والصحراوية. وأهم قطعانها الأغنام والماعز والأبقار والإبل، وفي النهاية لابد من القول : إن نسبة العاملين في القطاع الزراعي وتربية الحيوان ترتفع إلى نحو ٧٣٪ من مجموع اليد العاملة في البلاد. ومع ذلك فإن المردود لايسهم إلا في ٥٧٪ من الإنتاج المحلي.

إن النظام السياسي الجديد في إثيوبية الذي أنهى الحكم الامبراطوري قد قام بتعديل الأنظمة والقوانين الزراعية التي كان معمولاً بها إبان الحكم الامبراطوري وألغى نظام الملكيات الكبيرة، وصادر مساحات هائلة من الأراضي الزراعية التي كانت تسيطر عليها الأسر الإقطاعية المالكة والأسر المقربة من الامبراطور، أو كانت تحت تصرف الكنيسة، ووزع ما يقارب سبعة ملايين هكتار على الفلاحين الذين أسهموا فعلاً في تعميم بعض الزراعات النقدية مثل القطن وقصب السكر. ومع ذلك فإنه لابد من القول : إن الزراعة التي تعد المصدر الاقتصادي الأول للبلاد والنشاط الرئيس لغالبية السكان لايمكنها في وضعها الحالي أن تقود إلى تغيير مهم في بنية الاقتصاد الإثيوبي، فالإنتاج الزراعي مايزال ضعيفاً جداً ومردوده لايكفي الاستهلاك المحلي، والفلاحون من أكثر الفئات فقراً. والمجاعات التي ماتزال حتى التسعينات تضرب البلاد أكبر شاهد على ماتقدم.

أما قطاعا الصناعات والحرف اليدوية فيعدّان من القطاعات غير الناشطة فعلاً وإنتاجهما ليس له قيمة اقتصادية مهمة. والثروة الوطنية محدودة جداً وأهمها على الإطلاق الذهب والبلاتين، ولكن استثمارهما ما يزال عديم الجدوى الاقتصادية. أما عدد العاملين في القطاع الصناعي فلم يزد على ٩٥٠٠٠ عامل يتوزعون على نحو ٤٠٠ مؤسسة إنتاجية ومصنع يحوي كل منها أكثر من خمسة أشخاص. ويبين هذا العدد أن نسبة العاملين في هذا القطاع تساوي ما يقرب من ٧٪ فقط من مجموع العاملين في البلاد، وهذا القطاع لايسهم إلا بنحو ١٦٪ من الناتج المحلي الإجمالي.

إن ضعف القطاع الصناعي يعود بالدرجة الأولى إلى غياب الطاقة، والنقص الكبير في المواد الأولية الضرورية لتنمية القطاع الصناعي. أما أهم الصناعات فهي صناعة المنسوجات وحلج الأقطان، وصنع السكر والحلويات، والصناعات التي يمكن تصدير بعض إنتاجها هي صناعة الاسمنت والجلود.

المواصلات

يعد قطاع الخدمات المختلفة في حياة السكان محدوداً وإسهامه في البنية الاقتصادية للبلاد وفي معظم مجالاته قليل جداً.

وإثيوبية بلد فقير جداً بطرق المواصلات، وطول مختلف أنواع خطوط المواصلات لايزيد على ٦٨٥٠ كم وأهم هذه الخطوط طريق أديس أبابا ـ ديسية ـ عصب، وطريق أديس أبابا ـ ديسية ـ أسمرة ـ مصوع، وخط حديد أديس أبابا ـ جيبوتي، الذي يبلغ طوله ٦٨٤ كم. ويعد هذا الأخير من أكثر الطرق حيوية لأنه يصل بين داخل الهضبة الإثيوبية والعالم الخارجي عن طريق جيبوتي، ولقد شهدت المواصلات الجوية الخارجية نمواً قليلاً في السنوات الأخيرة، ولكن خدمات الخطوط الجوية الداخلية ما تزال محدودة جداً بسبب قلة الطرق الداخلية البرية التي تصل بين الأقاليم والعاصمة وقلة المطارات والطرقات الإقليمية. والشيء نفسه يقال في حال النقل المائي.

فيصل قماش

تاريخ إثيوبية وحضارتها

إثيوبية كلمة يونانية الأصل ومعناها بلاد الوجوه المحروقة ـ وقد ذكرها هوميروس في الأوديسة وفي الإلياذة، وهيرودوت في تاريخه، واسترابو في جغرافيته، وديودوروس الصقلي في مؤلَّفه «مكتبة التاريخ»، وبلينيوس Pliny في موسوعته «التاريخ الطبيعي». ولكن أياً من هؤلاء لم يكن يعني إثيوبية الحالية، بل بلاداً ـ قد تكون قريبة منها أو بعيدة عنها ـ يسكنها أقوام ذوو بشرة داكنة. وأشار الإنجيل (أعمال الرسل ٨/ ٢٧) إلى أن وزير ملكة إثيوبية «كندالة» اعتنق المسيحية. غير أن المراد هنا مملكة تعاقب على حكمها بضع ملكات حملن هذا اللقب وكانت حاضرتها «مروى» على النيل شمال الخرطوم الحالية. أما وصف بعض الباحثين الأسرة الخامسة والعشرين (٧٣٠ـ٦٦٥ ق.م) في مصر الفرعونية بأنها إثيوبية فلا يعني سوى أنها نوبية أو سودانية.

ويرى بعض المؤلفين أن إثيوبية حملت أيضاً اسم «كوش» عند القدماء غير أن الراجح أنه ورد ذكر بلاد كوش في الكتابات المصرية القديمة منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٥ ـ ١٣٠٨ق.م) ثم في تاريخ وقائع الملك الآشوري آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٦ق.م) أما في العهد القديم فيرد اسم كوش علماً على أحد أبناء حام الأربعة أو اسماً لبلاد لم تحدد تحديداً دقيقاً وإن كان الغالب أن المراد بها النوبة والسودان. وتمثل رسوم على جدران معبد الملكة حتشبسوت (١٤٩٠ ـ١٤٦٨ ق.م) ـ الأسرة الثامنة عشرة ـ في الدير البحري بطيبة الغربية بعثة بحرية أوفدتها الملكة إلى بلاد بونت Pont للحصول على أشجار الكندر والأبنوس والبخور والمرّ والعاج وسواها، وقد قيل إن تلك البلاد هي إثيوبية، بيد أن آراء الباحثين تذهب في تحديد

موقعها مذاهب شتى حتى يجعلها بعضهم في الصومال بل في موريتانية.

أما الاسم الآخر لإثيوبية وهو «الحبشة» - فقد ورد، أول ما ورد، في النقوش اليمنية القديمة بدءاً من أواخر القرن الثاني الميلادي إشارة إلى «أكسوم» أقدم دولة قامت هناك. .

التاريخ القديم

ما قبل أكسوم: إن ما يتوافر من معلومات مستقاة من مصادر قديمة ومن الكشوف الأثرية لايعود بنا إلى تلك الحقبة البعيدة، ذلك أن نتائج دراسة المواقع الأثرية في شمالي إثيوبية ترجح عبور جماعات يمنية البحر الأحمر في النصف الثاني من الألف الأول ق.م، حيث استقرت أول الأمر في المنطقة الساحلية ثم توسعت إلى الداخل لتقيم حضارة شبيهة بتلك المعروفة في اليمن القديم، وتقدم الدليل على ذلك النقوشُ المكشوفة في المنطقتين المذكورتين من حيث لغتها وخطها ومضمونها، وكذلك الطراز المعماري وأسلوب النحت، فقد عثر على مجموعة من النقوش المكتوبة بالخط العربي الجنوبي «المُسند» أو بخط قريب منه - ولغتها سبئية أو وثيقة الصلة بها - تتضمن أسماء لآلهة وأشخاص وأمكنة وردت في النقوش اليمنية القديمة. وثمة شبه واضح بين تصميم واجهة معبد يحا Yeha - على بعد ٥٠ كم إلى الشرق من أكسوم - وقاعدته المدرجة والمباني المماثلة له - ولا سيما المعبد الكبير - في مأرب، كما يلاحظ هذا الشبه في المباخر والمذابح الحجرية وكذلك في أسلوب المنحوتات البارزة وفي أشكال التماثيل ومنصات القرابين وفي استخدام الرموز المقدسة كالهلال مثلاً.

وكان الباحثون حتى عهد قريب يرون أن حضارة هذه الحقبة المبكرة من صنع المهاجرين الذين عبروا البحر الأحمر وحدهم، غير أن الرأي السائد الآن يذهب إلى مشاركة السكان المحليين في ذلك ويقسمها إلى مرحلتين: أولاهما مرحلة سبئية - إثيوبية مشتركة تمتد من عام ٥٠٠ق.م إلى عام ٣٠٠ق.م، والثانية مرحلة يظهر فيها تأثير قادم من مملكة مروى في الشمال ممثلاً في الأدوات البرونزية والحديدية والفخارية وفي الحلي الذهبية، وكذلك من مصر الهلينية ممثلاً في الأساليب الفنية في النحت. ولكن هذا الأمر لا يعني زوال تأثير اليمن القديم، إذ كشفت قطع برونزية مثقوبة على شكل بطاقات مزينة برسوم حيوانات تتضمن نقوشاً عربية جنوبية قصيرة يبدو فيها - وفي نقوش أخرى - تطور في الخط واللغة على السواء. أضف إلى ذلك استمرار ورود أسماء الآلهة وأسماء الأعلام المعروفة في النقوش اليمنية القديمة، وختام هذه المرحلة هو نهاية القرن الأول الميلادي.

مملكة أكسوم: ورد ذكر أكسوم أول مرة في كتاب «الإبحار في البحر الأحمر» أي في المحيط الهندي Periplus of the Erythraean Sea وهو دليل ملاحي ألّفه باليونانية رحالة مصري مجهول في مطلع القرن الثاني الميلادي ووصف ملكها زوسكالس Zoscales بأنه كان بخيلاً جشعاً عارفاً بلغة الإغريق وآدابهم، كما وصف ميناء عدولي Adulis جنوب مصوّع بأنه كان سوقاً للعاج. وأشار بلينيوس إلى هذا الميناء على أنه واحد من أهم موانئ البحر الأحمر آنذاك، وورد ذكر الأكسوميين لدى الجغرافي كلاوديوس بطليموس Claudius Ptolemaeus في القرن الثاني الميلادي. وجعل ماني Mani (٢١٦-٢٧٤ م) مؤسس المانوية في كتاب «العقائد» Kephalaia مملكتهم إحدى الممالك الأربع في العالم. وتدل النقوش المكتوبة باللغتين الجعزية واليونانية - وكذلك النقوش السبئية المعاصرة لها المكشوفة في اليمن - على نشوء هذه المملكة في القرن الثاني الميلادي وعلى عبور الأكسوميين البحر الأحمر إلى الجنوب العربي في الربع الأخير من ذلك القرن.

و في مجموعة من النقوش تنسب إلى الملك عيزانا Ezana ذكر لآلهتهم الكبرى مَحْرم Mahrem وبحر Beher ومدر Medr ، ووصفاً لتوسعه هو وحلفاؤه شمالاً حتى مروى وجنوباً حتى بحيرة تانا. ومما يشير إلى هذا التوسع الألقاب التي اتخذها هؤلاء الملوك، مثل ملك أكسوم وحمير وكاسو وسبأ وحبشة وريدان وسلحين وسيدامو وبُجة. ويرى الباحثون استناداً إلى استهلال أحد نقوش عيزانا بعبارة «بعون إله السماء والأرض» أن المملكة تحولت في عهده - أي في منتصف القرن الرابع أو الخامس - إلى المسيحية. ويرجع ازدهار هذه المملكة في المقام الأول إلى مواردها الوافرة من التجارتين البرية والبحرية بالسلع الرائجة آنذاك كالعاج والبخور والعطور والرقيق والذهب والفيلة. وقد أورد كوزماس أنديكوبلويستس Cosmas Indicopleustes وصفاً مستفيضاً لذلك في كتابه «الطبوغرافية المسيحية» الذي يرجع تأليفه إلى منتصف القرن السادس. وقد اشتملت الكشوف الأثرية على أدوات ومصنوعات فخارية وزجاجية من حوض المتوسط ومروى والهند. ويؤكد ذلك أيضاً المسكوكات الذهبية والفضية والنحاسية التي سكها ملوك أكسوم فحملت أسماء نحو عشرين منهم وإن كنا لا نعرف عن معظمهم شيئاً. وكان لهذه الصلات التجارية الواسعة أثر واضح في الحضارة الأكسومية، فقد أصبحت الإغريقية - بعد أن تحولت المملكة إلى المسيحية - لغة البلاط حتى اتخذ الملوك أسماء يونانية نحو، زوسكاليس وأفيلاس Aphilas وأوساناس Ousanas وانديبيس Endybis وسمبروتس Sembruthes، وأطلقت نقوشهم الإغريقية على الإله القومي محرم اسم أريس Ares إله الحرب الإغريقي.

ووفد على البلاد رهبان بيزنطيون يعرفون الإغريقية والسريانية، وأنشئت الكنائس والأديرة وأقيمت المسلات وشيّدت القصور. غير أن كثيراً منها لحقه الخراب والتدمير، فلم يبق من قصور أكسوم الثلاثة «اندا سمعون» «وإند ميكائيل» و«تعخا مريم» سوى قواعدها. على أن كوزماس يقول: إنه رأى في إثيوبية قصراً ملكياً يتألف من أربعة أبراج، مما يذكّرنا بالطراز المعماري الذي لايزال قائماً في اليمن حتى اليوم. أما المسلات العملاقة فقد تهشمت خمس منها وبقيت اثنتان، أخذت إحداهما إلى رومة عام ١٩٣٧، وظلت الثانية وارتفاعها ٣٣ متراً في مكانها وقد حفر على أحد جوانبها رسم يمثل مبنى مؤلفاً من تسع طبقات. ويجد المرء قبالة هذه المسلات ألواحاً حجرية ضخمة يبلغ طول أحدها ١٧ متراً وعرضه ٦ أمتار وسماكته متراً. أما العروش والتماثيل الضخمة التي ورد ذكرها في النقوش، أو وصفها كوزماس، فلم يبق منها سوى المصاطب والقواعد التي كانت تحملها. وما زالت أكسوم تعد حتى اليوم المدينة المقدسة عند نصارى إثيوبية جميعهم. ولم يبق في المراكز العمرانية الأكسومية الأخرى وأهمها عدولى - المهجورة الآن - ومطرا Matra على بعد ١٣٥ كم إلى الجنوب من أسمرة وقوحايتو Kohayto - قرب مطرا - سوى أطلال كنائس وقصور وبيوت وقبور. غير أن أعمال التنقيب الأثري مستمرة في هذه المواقع وسواها في منطقة تبلغ مساحتها زهاء ٥٠ ألف كم^2 في أريترية

وتغري، قلب المملكة الأكسومية آنذاك .
وتتحدث مصادر متعددة منها رسالة أزقير Azqir الإثيوبية وكتاب كوزماس وكتاب بروكوبيوس (وهو مؤرخ بيزنطي من القرن السادس) عن تاريخ الحروب، ومصادر أخرى عربية وغير عربية عن تدخل ملك «أكسوم إلأ ـ أصبحا» الملقب بـ «كالب» Kalib ، الذي يرد في اليونانية في صيغة Ellesbaas، على الأرجح بمساعدة الأسطول البيزنطي في اليمن، انتقاماً لنصارى نجران الذين اضطهدهم في أوائل القرن السادس يوسف ذو نواس، وإن كان المرء لا يستطيع أن ينظر إلى هذا الأمر بمعزل عن الصراع الدائر آنذاك بين الامبراطوريتين الكبريين الفارسية والبيزنطية.

فلما حلّ القرن السابع بدأ ذكر مملكة أكسوم يضمحل شيئاً فشيئاً، إذ لا يتجاوز مايُعرف عنها آنذاك هجرة المسلمين إلى الحبشة وأسماء تسعة من ملوكها على مسكوكات تحمل إشارة الصليب، ويبدو أن اضمحلال دورها يعود إلى أمور ثلاثة: أحدها قيام الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق وفارس ومصر مما أدى إلى إضعاف أكسوم سياسياً بإبعاد حليفتها بيزنطة من الشرق كله، واقتصادياً بإنهاء دورها التجاري براً وبحراً ولا سيما بعد فتح الأمويين جزائر دهلك في خليج مُصوّع وسيطرتهم على الطرق التجارية في البحر الأحمر. وثانيها نشوء إمارات مسيحية منافسة في الشمال الغربي من المملكة وأهمها علوة ومُقُرّة والنوبة. وثالثها زحف قبائل البجّة من الشمال مما اضطر الأكسوميين إلى الابتعاد نحو الجنوب ليستبدلوا بأكسوم حاضرة جديدة هي الناصرة Nazaret . ولانكاد نعرف عن تاريخ الأكسوميين في القرن الثامن والتاسع شيئاً يستحق الذكر ماخلا حديث اليعقوبي ثم المسعودي عن حاضرة مزعومة للحبشة تدعى «كعبر» لم يتمكن أحد حتى اليوم من معرفة موقعها. ولعلّ هذا مايجعل الباحثين ـ في تاريخهم لأكسوم ـ يقفون عند القرن السابع ولا يجاوزونه.

الأسرة الزغوية: تصوّر المصادر الإثيوبية ـ ويجاريها في هذا الباحثون الغربيون ـ الصراع بين المملكة المسيحية الإثيوبية ـ بعد زوال مملكة أكسوم في القرن الثامن أو التاسع الميلادي ـ وجيرانها من المسلمين والوثنيين حتى القرن السادس عشر على أنه صراع بين نظام شرعي وعصاة متمردين. بيد أن الحقائق التاريخية تثبت أن هذه المملكة كانت طوال الحقبة المذكورة إحدى دول المنطقة، تتحالف معها مرة وتقاتلها مرّات. وكانت حدودها تضيق أو تتسع من عهد إلى عهد. ولم يصل إلينا من أخبار هذه المملكة حتى منتصف القرن الثالث عشر سوى نتف متفرقة لاتكفي لتأليف صور واضحة عن تلك الحقبة فقد ذكر ابن حوقل المتوفى عام ٩٧٧ م في كتابه «صورة الأرض» أن المملكة المسيحية في زمانه كانت تحكمها منذ ثلاثين سنة ـ امرأة ثارت على ملكها المعروف باسم «الحضاني» وقتلته. وتؤكد المصادر الإثيوبية ذلك ولكنها لاتحدّد هوية المرأة بل تصفها بأبشع الأوصاف. ثم وصل إلى السلطة في ظروف غامضة أمراء منطقة لاستا في شمالي ولاية ولّو Wallo الحالية. وترى المؤلفات الكنسية المتأخرة أن هذه الأسرة التي تسمى الأسرة الزغوية لم تكن ذات حق مشروع في الملك. بيد أن عهد سابع ملوكها ـ الذين يقال إن عددهم بلغ اثني عشر ـ المدعو «لاليبلا» Lalibala شهد بناء مدينة مقدسة مازالت تحمل اسمه حتى الآن في أحد جبال الإقليم المذكور تشمل إحدى عشرة كنيسة منحوتة في الصخر صنعها ـ أو شارك في صنعها ـ بنّاؤون قدموا من الخارج، مما جعل الكنيسة الإثيوبية ـ فيما بعد ـ تعدّه قديساً.

العصر الوسيط

الإمارات الإسلامية: لقد قامت في الشرق والجنوب الشرقي من إثيوبية عدة إمارات إسلامية عرفت باسم «إمارات الطراز الإسلامي» نشأت نتيجة الهجرة التدريجية من الجزيرة العربية إلى هذه المنطقة منذ القرن السابع الميلادي .وجعلها موقعها متحكمة في الطريق التي تصل الى البحر الأحمر وخليج عدن بداخل الحبشة . هذه الإمارت كان يحكمها سلاطينها المسلمون الذين اتخذوا مظاهر الملك المختلفة على الرغم من التبعية السياسية لملوك إثيوبية . وكان ينظر إلى إمارة أوفات [ر] على أنها أقوى هذه الإمارات الإسلامية السبع . وقد سعت أسرتها العربية الحاكمة إلى التحرر من التبعية الإثيوبية ونشر الدين الإسلامي والتوسع في المناطق المجاورة فبسطت سيطرتها على مرفأ زيلع المهم ، وهكذا تزعمت أوفات حركة الجهاد الإسلامي في الحبشة . ولكن منذ وصول الأسرة السليمانية إلى الحكم في إثيوبية حاول السليمانيون تدعيم سلطتهم والتوسع على حساب الإمارات الإسلامية .

لقد ابتدأ الصراع بين أوفات والحبشة في أواخرالقرن الثالث الميلادي ولم يهدأ طوال قرن من الزمن وكان أبرز مراحله تلك الحرب التي قامت بين نجاشي الحبشة المسمى «عمدة صهيون» (١٣١٣ـ١٣٤٤) وسلطان أوفات «حق الدين الأول» ومن بعده أخويه صبر الدين وجلال الدين بالتحالف مع الإمارات الإسلامية وانتهت هذه الحرب بفوز النجاشي الذي نهب المدن الإسلامية وأحرق المساجد . وثار سلطان أوفات «حق الدين الثاني» مرة أخرى وتحالفت معه الإمارات الإسلامية فهزموا جيوش الملك «سيف أرعد» (١٣٤٤ـ١٣٧٢) . وبعد استشهاد حق الدين تابع أخوه سعد الدين أبو البركات خطة أسلافه في الجهاد وألحق الهزيمة بالملك الإثيوبي، ولكن هذا عاد فحاصر مدينة زيلع وتمكن من الاستيلاء عليها وتدميرها ، واستشهد سعد الدين سنة ١٤١٥م، وكان ذلك نهاية سلطنة أوفات .

ولكن أولاد سعد الدين أسسوا إمارة جديدة إلى الجنوب الشرقي من هرر، وسموا أنفسهم «ملوك عَدَلْ»، وبدأت صفحة جديدة من الكفاح ، الذي استمر طوال القرن الخامس عشر، عندما تسلم القيادة أحمد غران(١٥٠٦ ـ١٥٤٣) الذي لقب «إمام عَدَلْ»،واتخذ من هرر عاصمة له وخاض حروباً مظفرة كادت تقضي على المملكة الإثيوبية لولا النجدة البرتغالية بالجند والأسلحة التي أنقذتها وساعدت في التغلب عليه فسقط شهيداًعام ١٥٤٣م. وبذلك طويت صفحة مهمة من تاريخ «إمارات الطراز الإسلامي» في إثيوبية .

الأسرة السليمانية: استطاع يكونو أملاك Yakunno Amlak حاكم أمهرة انتزاع السلطة من الأسرة الزغوية عام ١٢٧٠ م إثر تحالفه مع الإمارات الإسلامية التي كانت تمتد من ميناء زيلع حتى منطقة باله Bale شاملة قسماً كبيراً من الهضبة الإثيوبية، فقد ذكر الملك في رسالة بعث بها إلى الظاهر بيبرس في مصر أن جيشه كان يضم مئة ألف فارس مسلم. وبدأ بذلك عصر جديد سيطر فيه الأمهريون على الحكم ـ باستثناء مدد قصيرة ـ سيطرة مطلقة حتى خلع

هيلاسلاسي. وحظي الحكام الجدد بتأييد الكنيسة، فوضعت كتاب «جلال الملوك»، كما سبق، معلنة أنهم الورثة الشرعيون لملوك أكسوم المنحدرين من نسل سليمان الحكيم. غير أن هذه الأسرة السليمانية ـ التي أصبح مقرّها إقليم شوا Shoa ـ وجدت نفسها طوال القرون الثلاثة التالية مهدّدة من خصمين قويين أحدهما: على ساحل البحر الأحمر وفي الشرق ممثلاً بالمسلمين، والآخر في الجنوب والغرب حيث كانت الجماعات الوثنية تزحف بأعداد ضخمة باتجاه الهضبة رويداً رويداً، والتفت العثمانيون بعد استيلائهم على سورية ومصر عام ١٥١٦-١٥١٧ إلى توسيع سلطانهم على جزيرة العرب، ثم أرادوا إحكام سيطرتهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر، فاستولوا على مينائي سواكن وزيلع وقدّموا العون إلى الإمام أحمد بن إبراهيم الذي اشتهر باسم أحمد غران [ر] Gran (أي الأعسر) صاحب الإمارة الإسلامية الكبرى في هرر، فشن، بدءاً من عام ١٥٢٣، حرباً ضروساً على الملك لبنا دنغل Lebna Dengal (١٥٠٨-١٥٤٠م) وهزم جيوشه واحداً تلو الآخر حتى أوشكت البلاد كلها أن تدين له، فاستغاث الملك المهزوم بملك البرتغال الذي أغاثه بقوة مدججة بالأسلحة الحديثة ساعدت على هزيمة الإمام أحمد وقتله عام ١٥٤٣ في عهد الملك كلاوديوس Claudius (١٥٤٠-١٥٥٩م)، غير أن المعارك ـ التي سقط كلاوديوس نفسه في إحداها ـ استمرت بعد ذلك قرناً أو يزيد حتى استقر الأمر أخيراً للمملكة المسيحية.

العصر الغوندري: أراد البرتغاليون ـ نظير مساعدتهم ـ أن تتحول إثيوبية إلى المذهب الكاثوليكي وتقطع صلتها بالكنيسة القبطية المصرية مرسلين بعثات تبشيرية لتحقيق هذا الهدف، فلما اعتلى سوسنيوس Susenyos (١٦٠٧-١٦٣٢م) العرش رأى أن الأخذ بهذا المذهب سينهي عزلة بلاده ويقيها خطر المسلمين وحلفائهم العثمانيين فضلاً عما يقدمه ذلك من فوائد اقتصادية وثقافية، فأعلن تحول مذهب بلاده رسمياً إلى الكاثوليكية عام ١٦٢٦، بيد أن رجال الكنيسة أثاروا الناس ودعوهم إلى الرفض، فاستعرت حرب أهلية انتهت بعودة الملك عن قراره وتنحّيه عن العرش ليخلفه ابنه باسيلدس Basilide (١٦٣٢-١٦٦٧م)، وبدأ عصر جديد يسمى العصر الغوندري إذ أسس الملك عاصمة جديدة هي غوندر Gondar شمال بحيرة تانا وطرد المبشرين الكاثوليك، وأرسل إلى والي مصر العثماني يرجوه تعيين مطران جديد، واتصل بحكام اليمن بعد خروج العثمانيين منه فأرسل رسلاً محملين بالهدايا إلى الإمام المؤيد بالله ثم إلى أخيه الإمام المتوكل على الله طالباً إليه أن يرسل رجلاً من خاصته. ومع أن المصادر الإثيوبية لاتشير إلى تلك البعثة، فهناك عرض وافٍ لهذه السفارة كتبه الرسول نفسه وهو القاضي الحسن بن أحمد الحيمي وصف فيه لقاءه الملك ورحلته في الذهاب والإياب وصفاً مفصلاً. وأغلب الظن أن الهدف من هذه الاتصالات كان الوصول إلى شكل من أشكال التحالف أو التعاون بين الدولتين اليمنية المسلمة والإثيوبية المسيحية ضد العثمانيين عدوّهما المشترك. غير أن الأمر لم يتجاوز تبادل الرسل والهدايا.

ثم أخذت سلطة الملوك تضعف شيئاً فشيئاً واستفحلت في هذه الأثناء مشكلة هيمنة قبائل الأورومو Oromo أو الغالا Galla الوثنية ـ التي انتشر الإسلام فيها سريعاً ـ على أقاليم الجنوب، فتزوج الملك إياسو الثاني Iyasu II (١٧٣٠-١٧٥٥) ابنة أحد زعمائها ليتودد إليها، غير أن الأمر ازداد سوءاً في عهد خليفته إيواس Iyoas (١٧٥٥-١٧٦٩) إذ تدخل حكام إقليم تغري فغدا الملوك المتعاقبون، بعدئذ، ألعوبة في أيدي زعماء الأورومو وتغري من دون أن يكون لهم حول ولاقوة حتى إن أربعة منهم ـ وأحدهم إيواس المذكور ـ سُمّموا أو اغتيلوا. وقد تحدّث الاسكتلندي بروس J.Bruce، الذي وصل إلى إثيوبية عام ١٧٦٩ وقضى فيها ثلاث سنوات بحثاً عن منابع النيل، عن أهوال تلك الحقبة في كتاب وصف فيه رحلته. فلما انتصف القرن التاسع عشر كانت البلاد مفككة الأوصال يتنازع الحكم فيها حكام أقاليم شوا وأمهرة وتغري. فاستغل قائد طموح يدعى كاسا Kassa هذا الوضع المضطرب وحارب الحكام المتنافسين واحداً واحداً وقضى عليهم والتفت إلى قبائل الأورومو فأخضعها، ثم أعلن نفسه عام ١٨٥٥ ملكاً باسم ثيودور الثاني (١٨٥٥-١٨٦٨) ليُنهي بذلك العصر الغوندري الذي تسمى الحقبة الأخيرة منه أي بدءاً من عام ١٧٦٩ «عصر الأمراء» للدلالة على ما اتسم به من صراع وضعف واضطراب.

العصر الحديث

التوسع الإثيوبي والاستعمار الغربي: بدأت في عهد ثيودور الثاني حقبة توسيع رقعة المملكة الإثيوبية، وأعلنت الدول الاستعمارية الكبرى تأييدها ودعمها لهذا الاتجاه نظير تحقيق مصالحها في القرن الإفريقي عامة والمناطق الساحلية خاصة. بيد أن تلكؤ الملكة فكتوريا في الرد على رسالة سلمها ثيودور إلى القنصل البريطاني تعبر عن رغبته في التعاون بين المملكتين المسيحيتين أدى إلى اعتقاله عدداً من الرعايا البريطانيين. فأرسلت بريطانية، لإطلاق سراحهم، حملة عسكرية بقيادة اللورد نابير Napier قدم لها خلفاء محمد علي باشا المؤن والمساعدات عند رسوها قرب مصوع الخاضعة آنذاك للحكم المصري، فطاردت الملك الإثيوبي حتى اضطر إلى الانتحار عام ١٨٦٨ بعد أن حوصر في قلعة مجدلة Magdala إلى الجنوب الشرقي من لاليبلا وكانت أشبه بعاصمة له، وانتهى الأمر بانسحاب الحملة بعد أن جهز البريطانيون حليفهم كاساي حاكم إقليم تغري بالسلاح والمال، فرجحت كفته على منافسيه، وتولى السلطة عام ١٨٧٢ باسم الملك يوحنا الرابع. وقد شهد عهده القضاء على حملتين مصريتين أرسلتا عامي ١٨٧٥ و١٨٧٦، أعقبهما عقد صلح مع إسماعيل خديوي مصر عام ١٨٧٩، ثم خاض معارك متتالية مع جماعة المهدي وخليفته التعايشي الذين يسمون «الدراويش» إذ استطاع هؤلاء اجتياح غوندَر عام ١٨٨٨ فاتجه الملك غرباً للانتقام منهم والتقى بهم في معركة دامية في القلاّبات عام ١٨٨٩ انتهت بهزيمته ومصرعه.

وخلفه في العام نفسه حاكم شوا باسم منليك الثاني (١٨٨٩-١٩١٣) الذي يعد المؤسس الحقيقي للامبراطورية الإثيوبية الحالية. فقد بنى العاصمة الجديدة أديس أبابا، وتوسع شرقاً وجنوباً وغرباً فضم إلى دولته مساحات شاسعة لم تكن أجزاء من إثيوبية من قبل، وحاول استغلال التنافس بين الدول الاستعمارية الثلاث: بريطانية وفرنسة وإيطالية لتحقيق ما يريد، فاعترفت ثلاثتها بالحدود الجديدة لمملكته مقابل موافقته على مقاسمتها المناطق الساحلية أريترية وجيبوتي والصومال، وإن كان

هدفه النهائي، وفقاً لرسالة وجهها عام ١٨٩١ إلى الدول الثلاث وإلى ألمانية وروسية، استعادة السيطرة على المنطقة الساحلية وكذلك على المنطقة الشمالية الغربية حتى الخرطوم والجنوبية حتى بحيرة فيكتوريا لأنها، كما زعم، كانت في الماضي جزءاً من إثيوبية وهو زعم لاسند له في التاريخ. بيد أن الدول الاستعمارية كانت أكثر دهاء وأشد بأساً من منليك، فمضت في تنفيذ خططها في استعمار القرن الإفريقي بالقوة تارة وبالدبلوماسية تارة أخرى، فقد استولت إيطالية على ميناء عصب عام ١٨٨٢، ثم شجعتها بريطانية على الاستيلاء على مصوع عام ١٨٨٥ لتحقيق هدفين اثنين: أحدهما أن تقدم إيطالية المساعدة في القضاء على الحركة المهدية، وثانيهما: أن تمنع فرنسة، التي كانت حصلت على موطىء قدم لها في جيبوتي عام ١٨٦٢، من التوسع. غير أن فرنسة أقنعت منليك بالقيام بعمل مشترك يصد الخطر البريطاني الزاحف من الشمال، بعد أن احتلت بريطانية مصر ثم السودان إثر إخماد الحركة المهدية، ومن الجنوب حيث كانت لها السيادة على ميناءي زيلع وبربرة في المنطقة التي سميت فيما بعد «الصومال البريطاني». واتفقت الدولتان على إرسال حملتين عسكريتين إثيوبية وفرنسية تلتقيان في فاشودة عام ١٨٩٧ ، ولكن الخطة انتهت بالإخفاق وانسحاب الحملتين كلتيهما.

وأقنعت فرنسة عام ١٨٩٢ ملك إثيوبية بالموافقة على مد خط للسكة الحديدية يربط عاصمته الجديدة أديس أبابا بميناء جيبوتي، وكان هدفها الحقيقي من ذلك أن يمتد هذ الخط فيما بعد غرباً ليصلها بمستعمرتها الكونغو - برازافيل. ولم تقنع إيطالية بحصتها من الغنيمة - وهي أريترية، وعلى الرغم من اعتراف إثيوبية في معاهدة أوشيالي Uccialli أو Wuchali عام ١٨٨٩ بالسيادة الإيطالية هناك زحفت جيوش إيطالية نحو الداخل، فتصدّى لها الملك وخاض معارك كثيرة حتى ألحق بها هزيمة ساحقة في عدوة Adawa عام ١٨٩٦ ، وقد قدم الفريق صادق المؤيد العظم الذي زار إثيوبية عام ١٩٠٤ لينقل رسالة ودية من السلطان العثماني عبد الحميد الثاني إلى منليك - في كتاب وضعه عن مهمته هناك - عرضاً وافياً لهذه المعارك جميعها. على أن منليك عاد فأبرم معاهدة مع الدول الاستعمارية الثلاث تمنحها امتيازات كثيرة بينها استمرار السيادة الإيطالية على أريترية. فلمّا توفي عام ١٩١٣ - بعد مرض عضال دام سبع سنوات - خلفه ولي عهده ليج اياسو Lij Iyasu وكان عمره ستة عشر عاماً. وتودّد الحاكم الجديد إلى مسلمي إثيوبية - وأعلن إسلامه - فقام ضده تحالف مؤلّف من الكنيسة وزعماء الأقاليم والدول الاستعمارية تمكن من خلعه عام ١٩١٦ قبل أن يجري تتويجه، فخلفته زوديتو Zauditu ابنة منليك على أن يكون الأمير الشاب تفاري Tafari - الذي كان أبوه ابن عم لمنليك - وصياً على العرش وولياً للعهد.

عهد هيلاسلاسي: ما لبث تفاري أن قضى سريعاً على منافسيه فقد أصبح صاحب اليد العليا في المملكة بل إنه أجبر الامبراطورة على الاعتراف به ملكاً على إقليم شوا عام ١٩٢٨ فصارت منذ ذلك الحين تملك ولا تحكم، ولما توفيت عام ١٩٣٠ توّج تفاري امبراطوراً باسم هيلاسلاسي الأول، وشرع بإحكام قبضته على البلاد بتقييد نفوذ الكنيسة وإضعاف سلطة الحكام في الأقاليم. غير أن إيطالية غزت إثيوبية عام ١٩٣٦ - على الرغم من معاهدة الصداقة التي عقدها البلدان عام ١٩٢٨ - منطلقة من مستعمرتيها في أريترية والصومال الإيطالي لتؤلّف ما سمّته «إفريقية الشرقية الإيطالية». ولجأ الامبراطور إلى بريطانية ولم يستطع العودة إلى عاصمته عام ١٩٤١ إلا بعد أن طردت القوات البريطانية الإيطاليين منها، وعقدت بريطانية وإثيوبية معاهدات ضمنت للبريطانيين التحكم في شؤون البلاد السياسية والعسكرية والمالية عقداً كاملاً، ثم حل محلّها معاهدات مماثلة مع الولايات المتحدة. وقد ساعد الحلفاء المنتصرون - نظير تحقيق مصالحهم - نظام هيلاسلاسي على البقاء ولو إلى حين، كما باركوا ضمّه أوغادين عام ١٩٥٠ ثم أريترية عام ١٩٦٢ إلى إثيوبية فبلغت أقصى اتساع جغرافي لها في تاريخها كله.

إلغاء النظام الملكي: عمل الإيطاليون في مرحلة استعمارهم لإثيوبية على شق الطرق وإقامة الجسور ومد شبكات الكهرباء والهاتف وتأسيس المستشفيات وتنفيذ المشروعات العمرانية لأهداف عسكرية بالدرجة الأولى وتدفق الآلاف منهم - آنذاك - على إثيوبية فعملوا فيها واختلطوا بأهلها، مما أدى إلى نشر الثقافة الأوربية بين كثير من الناس، وحمل العائدون إلى البلاد ممن هربوا من الاحتلال أو من الطلاب والعسكريين والفنيين الذين درسوا في الخارج رياح التغيير معهم. وكان هيلاسلاسي يواجه المعارضة المتزايدة - ولاسيما لدى القوميات غير الأمهرية - بالمراوغة والمماطلة وبذل الوعود. فكرّت السنون تلو السنين والحال هي الحال، وعلى الرغم من وقوع محاولة انقلاب بقيادة قائد الحرس الامبراطوري ومدير المخابرات عام ١٩٦٠ - كادت أن تعصف به - فإن نهجه لم يتبدّل، ولما وقعت المجاعة التي قضت على أكثر من ٣٠٠ ألف نسمة في ولايتي ولّو وتغري عامي ١٩٧٢ و١٩٧٣ ثم تبعتها هزيمة الجيش الإثيوبي المنكرة في أريترية مطلع عام ١٩٧٤ دُقّ الإسفين الأخير في نعش النظام الملكي، فخرج الجيش من ثكناته، وتسلم مجلس عسكري الحكم، وأعلن خلع الامبراطور في أيلول من العام نفسه ثم ألغي النظام الملكي الامبراطوري العام التالي (١٩٧٥م).

التركيب العرقي

سمّى الباحث الإيطالي كونتي روسيني Conti - Rossini إثيوبية «متحف الشعوب» لكثرة ما فيها من عروق وقوميات، غير أن أهم الجماعات، من حيث عددها أو هيمنتها على شؤون البلاد، خمس.

الأمهريون: كانت بداية ظهورهم الأسرة الحاكمة المسماة «السليمانية» في الثلث الأخير من القرن ١٣ وقد هيمنوا منذ ذلك الحين على جميع القوميات الأخرى وجعلوا لغتهم لغة البلاد الرسمية، ويقدر عددهم اليوم بنحو ٢٥٪ من عدد السكان يتوزعون في ثلاث ولايات هي شوا، وولو، وبغمدير Begemdir وسيمن Simen.

التغريون: موطنهم ولاية تغري التي تقع فيها المدن القديمة الثلاث أكسوم ولاليبلا وغوندر، وعددهم أقل من عدد الأمهريين، ويقدّر بـ١٢٪ من السكان. وقد استعاد الأمهريون السلطة منهم بوصول منليك الثاني إلى الحكم عام ١٨٨٩ ولكنهم قاوموا الهيمنة الأمهرية السياسية والثقافية بعد انتهاء الاستعمار الإيطالي حتى إنهم استطاعوا عام ١٩٤٣ تحرير عاصمتهم مكله Mekele من القوات الحكومية، ففرض عليهم هيلاسلاسي بعد إخماد ثورتهم، بمعونة عسكرية بريطانية، قوانين تعسفية.

الصوماليون: وهم سكان منطقة أوغادين

التي خضعت لسيطرة إثيوبية في عهد منليك الثاني بعد أن تخلت عنها الدول الاستعمارية لفقرها. وتوحد روابط اللغة والإسلام والثقافة بينهم وبين إخوانهم في الصومال، وقد تزعّم محمد عبدالله حسن حركة مقاومة مسلحة منذ بداية القرن العشرين حتى موته عام ١٩٢٠. ثم أعلن ثوار أوغادين ـ التي يقدر عدد سكانها اليوم بمليون نسمة ـ الحرب على الحكومة الإثيوبية في العقد السابع بدعم من حكومة الصومال.

الغوراجيون Gurages: وهم خليط من المسلمين والمسيحيين والوثنيين يمارسون الزراعة البدائية والرعي ويتحدثون لغة سامية ذات لهجات متعدّدة، وموطنهم غرب بحيرة زوي Zwai إلى الجنوب من أديس أبابا وعددهم يقارب مليون نسمة.

الأورومو Oromo: (أو الغالا Galla باسم لغتهم وهي لغة حاميّة) أكثر القوميات في إثيوبية عدداً، إذ يؤلفون وحدهم ما يقرب من نصف سكان البلاد كلها. وقد ضمّ منليك الثاني المناطق التي كانوا يسكنونها في الجنوب إلى امبراطوريته، وأدت وسائل الترغيب والترهيب إلى تنصير قسم منهم وتخليهم عن هويتهم وثقافتهم، غير أن قسماً آخر تحول إلى الإسلام، وما زال قسم ثالث باقياً على الوثنية.

الديانات

قُدّر عدد سكان إثيوبية عام ١٩٧٦ بتسعة وعشرين مليوناً وبلغ عام ١٩٩٧ نحو ٥٧,١٧١,٦٦٢ يختلف الباحثون في توزيعهم بحسب عقائدهم، فيرى بعضهم أنهم موزعون ثلاثة أثلاث بين الإسلام والمسيحية والوثنية، على حين يذهب آخرون إلى أنّ المسيحيين وحدهم يؤلفون نحو ٤٠٪ وأن المسلمين يؤلفون ٤٥,٥٪ (١٩٩٧) منهم أما الباقون فهم وثنيون.

الإسلام: بدأت صلات إثيوبية بالإسلام مع هجرة المسلمين إلى الحبشة هرباً من اضطهاد المشركين وذلك في السنة الخامسة من بداية الدعوة الإسلامية أي في عام٦١٤م. وقيل إن الخليفة عمر بن الخطاب أنفذ سنة ٦٤١ م حملة بحرية صغيرة إلى ساحل الحبشة. وفي العصر الأموي سيطر الأمويون على جزائر دهلك في خليج مُصوَّع، ثم قامت فيها سلطنة إسلامية في القرن العاشر، وقد عثر هنالك على كتابات عربية كثيرة مؤرخة يعود أقدمها إلى مطلع القرن المذكور. وعبر التجار والمهاجرون المسلمون في هذه الحقبة نفسها من الساحل الشرقي للبحر الأحمر إلى الجزء الجنوبي من ساحله الغربي فانتشر الإسلام على أيديهم سلماً على طول الساحل أول الأمر ثم انتقل إلى الداخل، وكانت سلطنة داموت Damot في المنطقة الواقعة غرب أديس أبابا اليوم ـ فيما يبدو ـ أول كيان إسلامي في الداخل، وتبعتها سلطنتا شوا، في الولاية المعروفة بهذا الاسم حتى اليوم، وإيفات Ifat إلى الشرق منها. وما لبثت سلطنتان أخريان أن نشأتا إحداهما عدل Adal إلى الشرق من إيفات والأخرى هديا Hadya في ولاية سيدامو Sidamo الحالية في الجنوب. ولكن المملكة الإثيوبية المسيحية قضت عليها واحدة تلو الأخرى.

غير أن أعظم الإمارات الإسلامية شأناً وأطولها عمراً وأشدها بأساً هي تلك التي ظهرت في هرر في القرن الخامس عشر، وكادت في القرن الذي تلاه أن تقضي على المملكة المسيحية قضاء مبرماً كما سبق. ويبدو أن الصراع الدامي بين الإسلام والمسيحية آنذاك لم يكن محلياً صرفاً، فقد شعرت أوربة المسيحية بالخطر إثر استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ثم على البلقان فأرادت ضربهم من الخلف، ولعلها ظنت أن المملكة الإثيوبية المسيحية تستطيع الزحف شمالاً وإخراج العثمانيين من مصر. غير أن هذه المملكة شغلت حتى أواخر القرن التاسع عشر بمقارعة خصومها المحيطين بها. وقد أخذ الحكام منذ منتصف القرن التاسع عشر بسياسة تنصير السكان بالإكراه، إذ أعلن ثيودور الثاني أن كلمتي إثيوبية والمسيحية ينبغي أن تصبحا مترادفتين، كما عقد خلفه يوحنا الرابع مجلساً كنسياً عام ١٨٧٨ قرّر إعطاء المسلمين مهلة ثلاث سنوات والوثنيين خمساً ليظهروا تنصرهم علانية، وألزم المسلمين ببناء الكنائس في مناطق سكناهم. ويعدّ ميخائيل والد ليج إياسو الذي خلعه هيلاسلاسي ومناصروه عام ١٩١٦ كما سبق، أحد الذين أُجبروا على الارتداد عن الإسلام وكان اسمه قبل التنصر محمد علي.

المسيحية: تنسب المصادر الإثيوبية المترجمة من اليونانية دخول المسيحية إلى مملكة أكسوم إلى غلام يدعى فرومنتيوس استطاع بعد أن تقلد منصب «راعي القانون وكاتب أكسوم» تنصير الملك «عيزانا» الذي حكم في القرن الرابع ـ وقيل الخامس ـ ثم ارتحل إلى مصر فعيّنه بطريرك الأقباط أول مطران لإثيوبية، وأخذت الكنيسة الإثيوبية عن الكنيسة القبطية مذهب الطبيعة الواحدة وظل رأسها مطراناً مصرياً يسميه الإثيوبيون «أبونا» حتى منتصف القرن العشرين. بيد أننا لانعرف شيئاً عن مدى انتشار المسيحية بين سكان إثيوبية ولا عن ديانة حكامها في أواخر العهد الأكسومي وما تلاه ما عدا «لا ليبلا» باني الكنائس المنحوتة في المدينة التي نسبت إليه. حتى إذا جاء القرن الثالث عشر بدأت الكنيسة تقدم السند الشرعي للحكام الجدد من الأسرة السليمانية فقابل الحكام، هذا الصنيع بمثله وأقطعوا الكنيسة مساحات واسعة من الأراضي وأذنوا لها بجباية ضرائب خاصة بها، فبنت بأموالها الطائلة عدداً كبيراً من الكنائس والأديرة تجاوزت في نهاية عهد هيلاسلاسي ١٦ ألفاً، وبنت كذلك المدارس الدينية التي لم يكن في البلاد حتى نهاية القرن الماضي سواها، وهيمنت الكنيسة بذلك على حياة عامة الناس هيمنة تكاد أن تكون مطلقة بحيث لم يكن أحد يقدم على عمل إلا بعد مباركة القس وتقبيل يديه.

اليهودية: يسمي اليهود أنفسهم كيلا Kayla أو بيت إسرائيل Betaisrael ويسميهم الإثيوبيون فلاشة Falasha أي المنفيون أو المهاجرون.

والآراء في أصلهم مختلفة وموطنهم اليوم منطقة سيمن الجبلية شمال بحيرة تانا ولا يعرف عددهم على وجه اليقين، والأغلب أنهم لا يتجاوزون ٣٠ ألفاً هُجّر منهم أكثر من أربعة عشر ألفاً عامي ١٩٨٤ و١٩٨٥ إلى فلسطين المحتلة طبقاً لاتفاق عقد بين الإسرائيليين والحكومة الإثيوبية. ومذهبهم توراتي خالص، أي أنهم يعترفون بأسفار موسى الخمسة وحدها المترجمة إلى الجعزية وهي لغتهم الدينية وبها وضعوا مؤلفاتهم، ولكن لغة الحديث عندهم هي الأمهرية أو التغرينية، أما العبرية فيجهلونها جهلاً تاماً.

نظام الحكم

لم تكن سلطة حكام إثيوبية منذ تسلم الأسرة السليمانية الحكم حتى بداية عهد منليك الثاني تتجاوز الهضبة الإثيوبية، فقد تعاقب على حكم المنطقة الساحلية المصريون، ثم العثمانيون ينافسهم البرتغاليون، ثم

الإيطاليون والفرنسيون، وظلت المنطقة الشرقية في أيدي المسلمين قروناً طوالاً، أما الجنوب فكان في أيدي الصوماليين وقبائل الأورومو. وهكذا كانت المملكة الإثيوبية المسيحية حتى بداية عهد منليك محصورة في ثلاثة أقاليم هي تغري وأمهرة وشوا، وكانت تمر أحياناً سنوات بعد وفاة أحد الملوك يبقى فيها العرش شاغراً فيشتد الصراع بين الحكام حتى يخلص الأمر أخيراً لأحدهم بفضل قوّته العسكرية ودهائه وما يعقد من صفقات وتحالفات. وكانت مراكز القوة ثلاثة، الملك والكنيسة وحكام الأقاليم. فأما الملك أو ملك الملوك Negusa Nagast فكانت سلطته ـ استناداً إلى أسطورة انحداره من سلالة سليمان ـ مطلقة شريطة أن يكون قوياً وإلا فإنها تتقلص حتى تغدو شكلية تماماً. وأما الكنيسة فكانت تدعم الملك دعماً كاملاً إذا ضمن لها أمرين: أحدهما عدم المساس بنفوذها وثروتها وسيطرتها، وثانيهما عدم المساس بالمسيحية عامة وبمذهبها خاصة، فإن مُسّ أحدهما أو كلاهما قاومت الملك مقاومة شديدة وقد ينتهي الأمر بعزله أو إجباره على التنحي كما فعلت بزا دنغل Za Dengal (١٦٠٣ـ١٦٠٤م) وسوسنيوس (١٦٠٧ـ١٦٣٢م) وليج إياسو (١٩١٣ـ١٩١٦م).

وكان حكام الأقاليم «الرؤوس» (جمعاً لكلمة «رأس» التي تنطق في الأمهرية «راس» بتسهيل الهمزة) يؤيدون الملك ويدفعون له ضريبة، ولكنهم يديرون شؤون أقاليمهم بأنفسهم، وقد يتخذ بعضهم لقب «ملك»، وربما انفصلوا عن ملك البلاد وساعدوا على الإطاحة به، إذا لم ترقهم سياسته كما فعلوا بثيودور الثاني (١٨٥٥ـ١٨٦٨ م) ثم بليج إياسو. ولم يكن ملوك إثيوبية ـ في أغلب الأحيان ـ قادرين على كسر شوكة هؤلاء الحكام بسبب جيوشهم الخاصة بهم وبسبب وعورة الطرق واتساع المساحات.

عَدّ حكام إثيوبية، وغالبيتهم من الأمهريين، أنفسهم سادة للشعوب والقوميات المجاورة التي خضعت لهم قروناً، فكانوا يبيعون جماعات من هؤلاء الأقوام عبيداً إلى الجزيرة العربية ومصر والسودان، وكانوا يستملكون الشعوب المقهورة في الحرب أرضاً وسكاناً. فأما الأرض فكانت توزّع على الكنيسة والقادة ورجال الحاشية. وأما أصحابها الأصليون فكانوا يلزمون بالبقاء فيها لاستغلالها وتقديم ريعها إلى أصحابها الجدد، وهكذا يتوارث هؤلاء العبودية جيلاً فجيلاً، وجرى العرف آنذاك أيضاً أن يتقاسم المنتصرون الأسرى والسبايا عبيداً فيما بينهم. وقد روى شاهد عيان من القرن التاسع عشر أن حصة منليك الثاني وحده بلغت من غنائم إحدى المعارك ١٨٠٠ من الأسرى العبيد؛ وروى آخر زار إثيوبية في العقد الثالث من القرن العشرين أن بطريرك الكنيسة الإثيوبية يعدّ من كبار مالكي العبيد. ولم يكن حكام الأقاليم وجيوشهم وحاشيتهم ـ حتى عهد هيلاسلاسي ـ يأخذون رواتبهم من خزينة الملك، بل كان عليهم أن يضمنوا نفقاتهم بأنفسهم فضلاً عن الضريبة التي ينبغي إرسالها إلى الملك، فجعلوا الأرض ومن عليها وما عليها ملكاً لهم يسخّرون من فيها وما فيها للحصول على ما يريدون، وكان الملك والحكام في حاجة إلى تأييد الكنيسة لتحقيق أغراضهم فأقطعوها مساحات واسعة من الأرض حتى صارت تمتلك في عهد هيلاسلاسي نحو ثلث أراضي الدولة كلها.

عمل هيلاسلاسي على تمكين قبضته على البلاد بإجراءات متعددة فأنشأ جيشاً نظامياً بمساعدة البريطانيين وأضاف إليه الحرس الامبراطوري وقوات المقاومة السابقة ضد الإيطاليين فضمن بذلك تفوقاً عسكرياً ساحقاً على جميع خصومه ومنافسيه، وهكذا ألغى جيوش الأقاليم وعزل حكامها واحداً إثر الآخر، وقسم البلاد إلى ولايات يدير شؤونها موظفون تعيّنهم حكومة الملك وتعزلهم وتدفع رواتبهم، وأصبح هيلاسلاسي، بعد انفصال الكنيسة الإثيوبية عن الكنيسة القبطية، رأس الكنيسة الذي يعين ـ وفقاً للدستور ـ أساقفتها، فألغى حق الكنيسة في جباية الرسوم والغرامات من الناس، واستبدل بحق السلب والنهب الذي كان يمارسه حكام الأقاليم السابقون ومعاونوهم نظاماً جديداً لجباية الضرائب، وأبطل كذلك نظام السخرة، وإن كان ما نُفّذ من ذلك كله قليلاً جداً. وقد قرر النظام العسكري الذي أسقط نظام هيلاسلاسي ١٩٧٤ تحويل إثيوبية إلى دولة اشتراكية ذات نظام ماركسي لينيني، واتبع نظاماً أوتوقراطياً عسكرياً، الغلبة فيه للقومية الأمهرية، مما أدى إلى ازدياد نشاط المنظمات المعارضة في البلاد وخاصة جبهات تحرير أريترية وتغري وأورومو. وتكررت الهزيمة في أريترية التي نالت استقلالها عام١٩٩٣ كما سقط الحكم الشيوعي فيها وحكم منغستو هايله مريام، وغدت إثيوبية جمهورية فدرالية تسير على هدي دستور جديد وضع عام ١٩٩٥.

اللغات والأدب

تقسم اللغات الإثيوبية إلى ثلاث مجموعات كبيرة: كوشية ونيلية وسامية، فأما أولاها فأهمها الصومالية وهي السائدة في أوغادين، والأورومو وهي لغة القبائل المعروفة بهذا الاسم (وتسمى أيضاً الغالّية Gallenna نسبة إلى الغالا)، وأما الثانية فتضم مجموعة من لغات القبائل الصغرى في أريترية ومنطقة الحدود مع السودان وهي محدودة الانتشار. وأما المجموعة السامية فأهم لغاتها ست: الجعزية Geez والأمهرية Amharic والتغرينية Tigrinya، والتغرية Tigre والغوراجية Gurage والعربية، وتعدّ الجعزية أقدمها وأهمها لأنها لغة النقوش الأكسومية ولغة التراث الإثيوبي حتى عهد قريب، وخطها متطور عن الخط العربي الجنوبي «المُسند»، الذي أضيفت إلى حروفه رموز للحركات فخلّصته من اللبس وعدم الوضوح، غير أن الأمهرية أخذت منذ القرن الثالث عشر تحل محلّها بسلطان حكام إثيوبية الأمهريين وكانت أول الأمر لغة الحديث للقومية الأمهرية وحدها، ثم انتشرت انتشاراً واسعاً حتى أصبحت اللغة الرسمية والأدبية للبلاد، فتراجعت الجعزية واقتصر استعمالها على الشؤون الكنسيّة فحسب، شأنها في ذلك شأن اللاتينية في أوربة في العصر الحديث. ويلي الأمهرية في الانتشار التغرينية ومواطنها في شمالي إثيوبية وبعض مناطق أريترية وتغري، فالتغرية في أجزاء من أريترية، والغوارجية في المنطقة التي تحمل اسم غوارجية في جنوب أديس أبابا وهي تتفرع إلى لهجات متعددة. أما العربية فموطنها في المنطقة الساحلية حيث يكثر المسلمون، وهي لغة التفاهم في الأسواق والمراكز التجارية في الداخل ولها مكانة خاصة في المدارس الإسلامية في هرر وسواها بصفتها لغة القرآن الكريم. وظلت العربية والتغرينية لغتين رسميتين لحكومة إقليم أريترية حتى عام ١٩٥٧.

ويتسم الأدب الإثيوبي الذي وصل إلينا بسمتين مميزتين: إحداهما غلبة الطابع الديني عليه، والأخرى أنه أدب مترجم، ولعل ذلك يرجع إلى أن التعليم كان محصوراً برجال

الكنيسة الذين لم يهتموا بآداب اليونان والرومان والعرب وفلسفتهم وعلومهم، بل جعلوا الكتاب المقدس وما يتصل به من علوم لاهوتية مصدر المعارف كلها. وقد مرّت الترجمة في عهدين تفصل بينهما مرحلة دامت نحو خمسة قرون لم يصل إلينا منها شئ يستحق الذكر، وكانت الترجمة في العهد الأول منهما - أي من القرن الخامس إلى القرن الثامن - من اليونانية وشملت الكتاب المقدس، وأسفاراً أخرى أهمها: كتاب «اليوبيل» Jubilees و«أخنوخ» Enoch و«صعود اشعياء» Ascension of Isaiah و«ابن سيراخ» Sirach، وكتابان في الرهبنة هما «قوانين باخوم» مؤسس نظام الرهبنة في مصر و«كتاب الرهبان»، وكتاب عنوانه «كيرلس» Kyrillos نسبة إلى بطريرك الاسكندرية المتوفى عام ٤٤٤م، وكتاب آخر يدعى «الفيزيولوجية» Physiologos عن النبات والحيوان مع تضمينه رموزاً مسيحية، وكانت الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب شائعة في أوربة في القرون الوسطى. وبدأ العهد الثاني أواخر القرن الثالث عشر، وفيه صارت المؤلفات العربية مصادر الترجمة، وإن كان بعضها مترجماً أصلاً عن اليونانية أو السريانية، كما تدل بعض المواضع في النصوص المترجمة على أن أصولها العربية مترجمة عن القبطية. وأهم ما وصل إلينا «جلال الملوك» (كما سبق) و«نظام المملكة» وهو سجل للبلاط الملكي من القرن الثامن عشر، و«بيان يسوع» الذي يتنبأ بظهور ملك يدعى ثيودور يملأ العالم سعادة وقد ألف في عهد ثيودور الأول (١٤١١-١٤١٤م) دعاية له وكتاب «الضياء» المنسوب إلى الملك زرع يعقوب Zara yakob (١٤٣٤-١٤٦٨م) وكتابان قانونيان يشملان التشريعات الكنسية هما «قانون الملوك» وهو ترجمة «المجموع الصفوي» لصفي الدين بن العسال و«السندوس» Synodus، ومجموعة منها: كتاب الميلاد ومعجزات مريم وتقويم القديسين وسيرة الاسكندر، ضمن سلسلة طويلة من الكتب المحشوة بالأساطير تتحدث عن معجزات المسيح ومريم العذراء والقديسين والاسكندر المقدوني الذي يعدونه قديساً مسيحياً، وثلاث ترجمات في التاريخ، هي «تاريخ العالم» لجريس بن العميد الملقب بالمكين، و«الوقائع» لأبي شاكر، و«الوقائع» ليوحنا من نيقية وثمة مؤلفات أخرى كثيرة في الوعظ والتنجيم والسحر واللغة والنحو وسواها.

وللشعر الديني الذي يمجد مريم العذراء والقديسين منزلة خاصة عندهم، وهو ضربان يسمى أولهما «سلام أو صورة» Malke يحيّي ناظمه فيه صديقاً أو محبوباً أو يصف محاسن فتاة من الرأس حتى القدم، ويمثل ثانيهما مقطوعات قصاراً تغنّى غناء في المناسبات الدينية. ومما أُلف في الأناشيد والتراتيل مجموعة في تسبيح مريم العذراء ونشيد آخر ظهر في مطلع القرن الخامس عشر يسمّى «دقة» Deggua وإن كانوا ينسبونه خطأ إلى المغني ياريد Yared الذي عاش في القرن السادس.

أما التأليف بالأمهرية فكانت بدايته على يد المبشرين الذين ترجموا الكتاب المقدس ومؤلفات دينية أخرى إلى الأمهرية لينشروا المذهب الكاثوليكي، ثم ظهر ما يسمّى «أناشيد الملوك» وهو قصائد في مدح الملوك وتمجيدهم، ووصل إلينا سيرة حياة ثيودور الثاني التي ألفها أحد القساوسة، وقد نشر أفاورق جبرا إياس Afawarq Gabra Iyasus أول رواية بالأمهرية عام ١٩٠٨ وأتبعها سيرة حياة منليك الثاني، كما نشر هروي ولد سيلاسي Herouy Walda Sellase سيراً أخرى ومجموعات شعرية وروايات تاريخية. ومن الأسماء المعروفة في الأدب الأمهري المعاصر: ماكونين إندال كاتشو Makonnen Endal Katchew وكابادا ميكائيل Kabbada Mikaelومانغستو لاما Mangestu Lamma وليبان تادسة Liban Tadesse ولاما منغاسا Lamma Mangasa وبلاتا غبرا إغزيابحر Blatta Gabra Egziabher. وأما آداب اللغات الأخرى وهي لغات الحديث للقوميات غير الأمهرية فقد اهتم المستشرقون الذين قدموا إلى إثيوبية بجمعها من أفواه الناس ونشروا مجموعات منها ووضعوا لبعضها معجمات وافية.

العمارة والفن

تعدّ أكسوم ولاليبلا وغوندر المراكز الثلاثة الكبرى التي تمثل حضارة إثيوبية المسيحية في تاريخها ويمتاز الطراز المعماري الأكسومي - المتأثر بنظيره في اليمن القديم - بشكل البناء المربع والمستطيل وإقامته على قاعدة مدرجة يصعد إليها بسلّم مؤلف في العادة من سبع درجات، واستخدام الحجارة والخشب، ويتناوب في الجدران بروز بعض العوارض الخشبية وتراجع بعضها الآخر - ويسمّون ذلك النمط «رأس القرد» وليس فيها من الملاط سوى الطين. ونجد تطويراً لهذا الطراز في كنائس لاليبلا التي بنيت في عصر تال، أي بدءاً من القرن العاشر، وأكبرها كنيسة مخلّص العالم التي يبلغ طولها ٣٣ متراً وعرضها ٢٣ متراً وارتفاعها ١١ متراً، ولكن أكثرها غرابة كنيسة القديس جورج المنحوتة على شكل صليب مربع في منخفض عميق بحيث لا يرى المرء سقفها إلا بعد أن يدنو منها، أما غوندر فكان تأسيسها بعد انفتاح إثيوبية على الغرب وقدوم المبشرين اليسوعيين البرتغال والإسبان، وسرعان ما أصبحت بفضل استقرار الملوك فيها وإنفاقهم الأموال الطائلة على توسيعها وتطويرها إحدى المدن الكبرى في إفريقية في القرن السابع عشر، ويذكّر الطراز المعماري الغوندري كما تعرضه قلاع المدينة وقصورها وأبراجها وكنائسها وجسورها وبواباتها، بالطراز المعماري المعروف في أوربة في عصر النهضة.

ويلمح المرء فيما بقي سالماً من أيقونات ورسوم تمثل الحواريين والقديسين وموضوعات أخرى مستوحاة من الدين المسيحي أثر الفن البيزنطي الذي ساد آنداك، وإن كان هنا أكثر بساطة. وفي بعض الكنائس كما في كنيسة مريم في دبرا صهيون Derba Seyon زخارف هندسية ونباتية على النمط المألوف في العمارة الإسلامية، وتحلّى المخطوطات برسوم دينية الطابع كصليب المسيح، والبشارة، وشجرة الحياة.

أما الطراز المعماري الإسلامي فما زالت منه بقية في هرر حتى اليوم، ومع أن منليك الثاني أخضعها في نهاية القرن الماضي لسلطانه وأقام عليها ابن عمه ماكونن Makonnen، وهو والد هيلاسيلاسي، ليصبغها بالصبغة الأمهرية، فإن هذه المدينة بسورها ذي البوابات السبع - المزينة بالآيات القرآنية وكتابات بالتركية العثمانية - ومساجدها الأربعة وأسواقها وبيوتها لا تختلف كثيراً عن مدن اليمن.

رفعت هزيم

الموضوعات ذات الصلة:

أديس أبابا - أريترية - أسمرة - إفريقية - أكسوم - إيطالية - العربية (شبه الجزيرة -) - اليمن.

مراجع للاستزادة:

- ممتاز العارف، الأحباش بين مأرب وأكسوم (بيروت ١٩٧٥).

- J. DORESSE, Histoire de L'Ethiopie (Paris 1970).

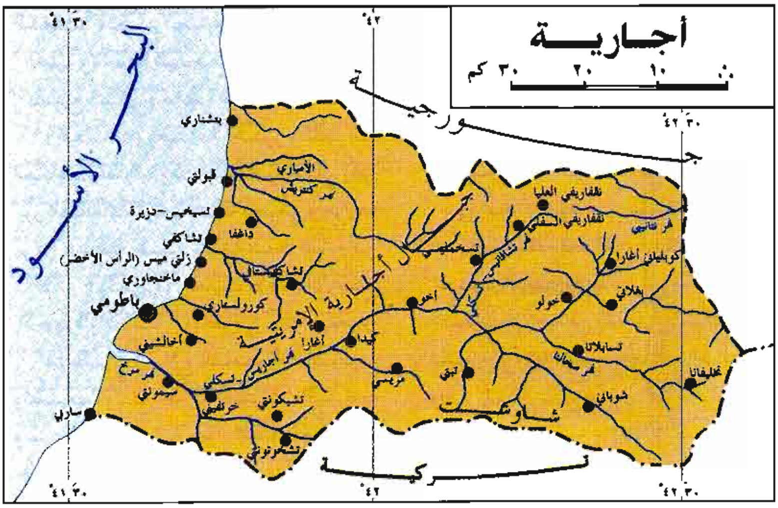
■ الإجارة الطويلة والإجارتين (حق -) ← الوقف

■ أجارية

أجارية Ajariya جمهورية ذات حكم ذاتي في جمهورية جورجية [ر] التي تحيط بها من جهتي الشرق والشمال، وتحدها من الجنوب تركية، ومن الغرب البحر الأسود. مساحتها ٣٠٠٠كم[٢] . ذات موقع مهم بين جورجية والقفقاس، وحوض البحر الأسود وتركية. عاصمتها مدينة باطومي (باطوم)، الواقعة على الواجهة البحرية القصيرة (٥٣كم)، وهي ميناء البلاد ومركز أغلب نشاطاتها.

وأجارية بلاد جبلية تتألف في أغلبها من النهايات الغربية لجبال القفقاس الصغير في إقليم ماوراء القفقاس. وتبرز على هيئة سلسلتين شبه متوازيتين تمتدان من الشرق نحو الغرب هما سلسلة جبال المسخيت (سماها الجورجيون جبال أجارية إلايميرتية)، وأعلى قممها جبل ساكورينا (٢٧٥٥م)، وتحتل هذه السلسلة أغلب المناطق الشمالية والوسطى من أجارية تنتهي بمساحة سهلية صغيرة على الساحل وتتصل بسهل كُبوليتي Kobulety وغخير المستمر في الشمال في سهول كولخيدية. أما السلسلة الثانية فهي جبال شاوشت التي تحتل المناطق الجنوبية من أجارية وتساير الحدود التركية وأعلى قممها جبل خيفا (٢٨١٢م). ويفصل بين السلسلتين وادي نهر أجاريس - تسكالي ومجراه الرافد الأيمن المهم والأخير لنهر تشوروخ القادم من تركية ويصب في البحر الأسود جنوب باطومي بدلتا واضحة. وترتفع في شرقي الجمهورية كتلة جبال أرسيانة التي تربط النهايات الشرقية للسلسلتين السابقتين، وتزيد ارتفاعاتها المتوسطة على ٢٢٠٠م وتخترقها طريق باطومي - تفليس عند ممر غودردزي (٢٠٢٥م).

مناخ أجارية متنوع، فهو بحري ما فوق المداري على الساحل وسهوله، ذو حرارة صيفية عالية تصل إلى ٤١ درجة قصوى في باطومي، لكنها تنخفض إلى -٩ درجات مئوية في الشتاء. وهو جبلي في الداخل. ويراوح متوسط حرارة كانون الثاني بين ٢ و-٢ درجة مئوية في الجبال، و٤-٦ درجات مئوية في الساحل. أما متوسط تموز فيراوح بين ١٦- ٢٠ درجة مئوية في الجبال، و٢٠-٢٣ درجة مئوية في الساحل.



وتعد أجارية غزيرة الأمطار إذ تراوح معدلاتها السنوية بين ١٠٠٠-١٤٠٠ مم في الأودية والمنخفضات، و١٤٠٠-١٨٠٠ مم في الجبال، و٢٤٠٠-٢٨٠٠ مم في الساحل. كما تسقط الثلوج في الجبال شتاءً.

أما أهم أنهارها فهو نهر أجاريس - تسكالي الذي يحتل حوضه ١٥٤٠كم[٢] من مساحة أجارية بطول قدره ٩٠ كم وينبع من جبال أرسيانة ويرفد نهر تشوروخ قبيل انصبابه في البحر الأسود. وترفد نهر أجاريس - تسكالي عشرات الروافد والجداول الجبلية. وفي البلاد أنهار صغيرة تصب مياهها في البحر الأسود أبرزها نهر كنتوريش.

وفي أجارية، ولاسيما في مرتفعاتها، مساحات واسعة من غابات الزان والشوح والعرعر والشربين والسنديان القفقاسي وصنوبريات مختلفة. وتنتشر المروج في الأعالي ولاسيما في الشرق. وتعيش في غاباتها الدببة والخنازير البرية وغيرها، كما تكثر في أنهارها وسواحلها أنواع كثيرة من الأسماك.

يتألف سكان أجارية من عناصر بشرية شتى، أغلبهم من الأجاريين وهم من الجورجيين أصلاً، لكنهم يُعدّون قومية مختلفة ومجموعة أثنية مغايرة تتكلم اللغة الأجارية باللهجة الغورية المتأثرة باللغتين التركية والعربية. بيد أن تعداد السكان لعام ١٩٣٦ صنّف الأجاريين من الشعب الجورجي. وهناك اللازيون والأتراك والأكراد والشركس (الأبخاز)، وهم والأجاريون مسلمون، وهنالك الروس والأرمن والجيورجيون واليونان وهم مسيحيون. ويقدر عدد السكان بنحو ٤٠٠٠٠٠ نسمة (١٩٩٥) بكثافة متوسطة قدرها ١٣٣ن/كم[٢]، قرابة ٦١٪ منهم مسلمون. ويعيش في العاصمة باطومي نحو ١٤٠٠٠٠ نسمة وفي مدينة كُبوليتي نحو ٢٥٠٠٠ نسمة. وتصل نسبة الحضر إلى ٥٠٪ من السكان.

تعد أجارية بلداً ذا إمكانيات اقتصادية جيدة ولاسيما في المجال الزراعي - الحيواني والموارد الطبيعية المختلفة من مناخ وتربة ومياه وغطاء نباتي وبحر. وتحتل الزراعة فوق المدارية مقاماً بارزاً في أجارية، ولاسيما زراعة الحمضيات والشاي والخيزران وغيرها، وتزدهر زراعة الكرمة والخضراوات في كل مكان صالح للزراعة تقريباً وكذلك الذرة والتبغ. ويشتهر السهل الساحلي بإنتاجه الخضراوات، أما في المرتفعات فتزرع البطاطا خاصة. وتربى الحيوانات وخاصة الأبقار الحلوب والطيور والدواجن في الأنحاء المنخفضة والساحلية، في حين تختص مراعي الجبال ومزارعها بتربية الحيوانات من أجل اللحم، وأهمها الأبقار والمعز والضأن، وتربى

الخنازير في البقاع المسيحية. وتنتج أجارية مشتقات الحليب واللحوم والبيض، كما تتوافر في مياهها العذبة والمالحة كميات مهمة من السمك. وتعتمد الصناعة على المواد الأولية المحلية ولاسيما المنتجات الزراعية، إذ يأتي تصنيع الشاي وحفظ الخضراوات والفواكه (المعلبات) وصناعة الخمور وكثير من الصناعات الغذائية ومنتجات الحيوانات في رأس أبرز الصناعات. وتعد مدينة باطومي وجوارها مركزاً صناعياً يضمن معالجة النفط القادم من باكو [ر] وتكريره، وتعليب الأغذية، وصنع الأجهزة والآلات. وباطومي ميناء يحوي مؤسسات إصلاح التجهيزات البحرية وتصنيعها. وتنتج أجارية مصنوعات كيمياوية وصيدلانية وكهربائية ومواد البناء ومصنوعات خشبية وجلدية. كما تنتج نحو ١٤٠ مليون كيلوواط من الكهرباء سنوياً. وفي أجارية عدد من المنتجعات السياحية والعلاجية في مراكز مختلفة في الساحل والداخل.

لأجارية تاريخ قديم ترجع بداياته إلى ظهور الإنسان وحضاراته في زاوية تلاقي حضارات القفقاس مع حضارات آسيا الصغرى والأناضول الشرقي. فقد كانت جزءاً من الحضارة الكولخيدية في غربي ماوراء القفقاس، طمع بها اليونان واحتلوها، وأعقبهم الرومان الذين أنشؤوا على ساحلها في عهد هادريان قلعةً وميناء باتيس في موقع باطومي الحاضرة ثم أصبحت أجارية بعدها جزءاً من الامبراطورية البيزنطية وأقام جوستنيان فيها حصن بترا شمال باطومي. وكانت كولخيدية التي عرفت بـ«لازيا» فيما بعد تؤلف مملكةً تابعةً لروما ثم لبيزنطة، وتمتد على الساحل الجنوبي الشرقي حتى البحر الأسود عند طرابزون. ومع دخول المسيحية المنطقة منذ القرن الرابع للميلاد كثرت المنشآت الدينية والحصون في أجارية، وازداد اتصالها بجورجية في الداخل (المملكة الكرجية الشرقية)، ووقعت في ساحة الصراع بين بيزنطة وفارس ثم العرب مع وصول الفتوحات الإسلامية وفتح المنطقة سنة ٧٣٠-٧٣١م. لكن تأثير الإسلام في هذه الأنحاء بقي محدوداً بالقياس على الأنحاء الداخلية والشرقية أي في جورجية وأرمينية وأذربيجان. لذا أقام السكان المسيحيون تحالفات مع بيزنطة في مواجهة العرب المسلمين وارتبطوا بالكرج الذين نزح كثير منهم إلى بلاد المسخيت وتاوكلاجيتي (أسماء أخرى لأجارية أو أجزاء منها). وفي القرن الثاني عشر حصلت مسخيتيا من جورجية على لقب «أتابكية» الذي كُرمت به مقاطعات أخرى مشابهة (أجارية وغورية وما حولها). وبعد مدة قصيرة من الاستقلال عن جورجية سقطت المنطقة وجوارها بيد العثمانيين في عهد سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦ م) وخلفائه، وأصبحت جزءاً من دولتهم منذ ١٦٢٧م. ومنذئذ بدأ انتشار الإسلام بين الأجاريين، واكتمل إسلامهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. لكنها انتقلت إلى حكم الروس باحتلالهم لها سنة ١٨٧٧م وكانت تعرف باسم «منطقة باطوم»، وألحقت بروسية في عام ١٨٧٨م، وبقيت أجارية ذات استقلال ذاتي حتى سنة ١٩٠٣م عندما وضعت تحت سلطة الحاكم العام لجيورجية، ثم أصبحت سنة ١٩١٨م جزءاً من جمهورية ماوراء القفقاس. وبعد انحلالها تعرضت لاحتلال تركي ثم إنكليزي حتى سقطت بيد البلاشفة وأصبحت جزءاً من الاتحاد السوفييتي السابق في ١٨ آذار ١٩٢١م بعد القضاء على الثورات المناهضة للشيوعية، وتوزيع أراضي الوقف الإسلامي والإقطاعيات، وفرض اللغة الجورجية لغةً رسميةً وإلغاء اللغتين التركية والعربية. وتخضع أجارية اليوم للحكم الجورجي.

عادل عبد السلام

الموضوعات ذات الصلة:

الأسود (البحر-) - جيورجية - القفقاس.

مراجع للاستزادة:

- أطلس القفقاس (موسكو ١٩٨٩).
- A. SANDERS, Kaukasien (Muenchen 1942).

■ الإجازة

الإجازة: لغة: الإذن، والاستجازة: طلب طالب العلم من أستاذه، وشيخه أن يجيزه بمسموعاته، ومروياته، التي حصل عليها، وأن يأذن له بالنقل عنه، فالطالب مجازٌ له، والأستاذ مجيزٌ.

ولا تمنح الإجازة إلا لماهر في صنعته، أو متقن لمعارفه. وينبغي للمجيز (أو من أنابه) أن يكتب الإجازة، أو يصدق على صحتها، أو يتلفظ بها «أمام شهود» أو يقتصر على الكتابة «مراسلة»؛ مع قصد الإجازة.

تطور الإجازة

اعتمد العرب في جاهليتهم. على «الرواية»؛ والاستظهار لأشعارهم وأنسابهم، وأخبارهم. شأنهم شأن الأمم المجاورة لهم.

وفي أواخر العهد الأموي، ومطلع العهد العباسي؛ حين بدأ العرب تدوين علومهم وآدابهم حتى منتصف القرن الثاني، كان للرواية السيادة في آداب الجاهلية وآداب صدر الإسلام وكان الشعر ديوان العرب يحمله الرواة ويستظهرونه، ويستصوبونه، ويتزيدون فيه أحياناً. وكان رواة الشعر يستجيزون الشعراء رواية شعرهم، وأغلب الرواة شعراء مجيدون، مثل «زهير بن أبي سلمى» و«الحطيئة» و«أبي ذؤيب» وغيرهم (الشكل ١).

وكانت الرواية وسيلة لتناقل الأخبار، والأنساب. وتتبع الحدث وفصيح اللغة. وقد اهتم الناس بالرواة، وتتبعوا أنباءهم. حتى إن معاوية بن أبي سفيان دعا إليه عبيد بن شرية الجرهمي المعمر ليدون أخبار من سلف. وكذلك فاخرت العرب بأنسابها. وتخصص أناس برواية الأنساب. كأبي بكر الصديق، وعقيل بن أبي طالب، ودغفل النسابة، أما رواة القرآن، وحفظته في صدر الإسلام فهم كثيرون كزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وأُبيُّ بن كعب وأبي الدرداء وعبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وعبد الله بن عباس والخلفاء الراشدين وغيرهم. فلما قل عددهم في مجاهدة الأعداء جمعت المصاحف، واستنسخت ووزعت في الأمصار، ومنع الناس من القراءة غيباً إلا من أجيز.

ولم يدون الحديث الشريف في زمن الرسول وصدر الإسلام، خوفاً من اختلاط ألفاظه بألفاظ القرآن. قال الرسول ﷺ: «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن. ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه» وكتب بعض الصحابة كعبد الله بن



الشكل (١)

عمر الحديث النبوي كما سمعه.

وكان الناس يتناقلون الحديث، ولهذا كثرت الأحاديث الكاذبة والموضوعة أوالمروية على المعنى لا بألفاظ النبي ﷺ، فانبرى لجمع الأحاديث الصحيحة علماء غيورون، وضعوا قواعد أصول الحديث، والجرح، والتعديل، ومناهج رواية الحديث وأصوله وأسانيده.

وكذلك اللغة فكان العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، فصحاء السجية إلى أن خالطهم الأعاجم وسكان المدن، وكثر النحل فيهم. فراح علماء اللغة يدونون فصيحها، ويقعّدون قواعدها وعلومها ويدرسونها طلابهم ومريديهم ويجيزونهم بالنقل عن الأساتذة والشيوخ والتعلم منهم.

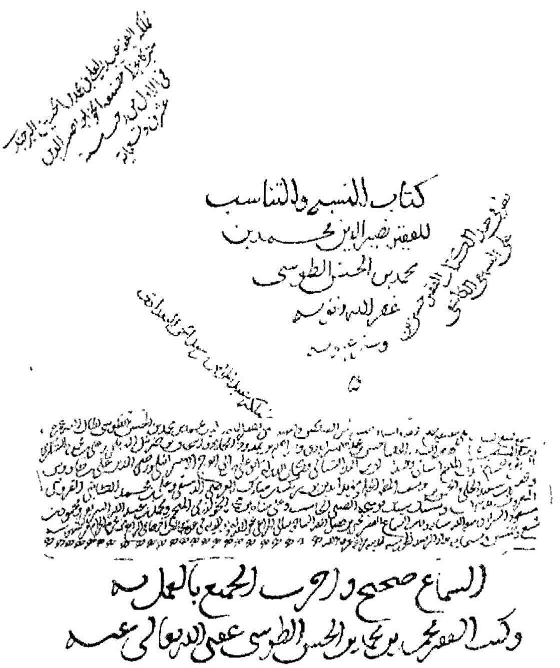
واتخذ العلماء، والأدباء نساخاً لهم يملون عليهم من معارفهم، ويجيزونهم بالنسخ، والكتابة، كالجاحظ (ت٢٥٥هـ) الذي قدم للوزير العباسي عبد الملك بن الزيات نسخة من كتاب سيبويه كتبها الفراء وقابلها الكسائي. وصححها الجاحظ بنفسه. وكان لحنين بن إسحاق كاتب أجازه يعرف بالأزرق، كما كتب الربيع بن سليمان لأستاذه الإمام الشافعي (ت ٢٠٤هـ) كتاب الرسالة سنة ٢٦٦هـ، وكتب الجوزجاني لأستاذه الرئيس ابن سينا بعض كتبه التي أملاها عليه. وكثرت الإجازات، والسماعات في القرن السادس الهجري، والسابع الهجري، لكثرة نشوء المدارس ودور الحديث والقرآن، وخاصة في بلاد الشام ومصر، ومثل ذلك الإجازة بالإفتاء والتدريس.

أما المهن والحرف فقد دعت الضرورة إلى إعطاء الأطباء والصيادلة إجازة بممارسة هذه المهنة ومراقبتها لخطورة ممارسة هذه المهنة سياسياً واجتماعياً وصحياً.

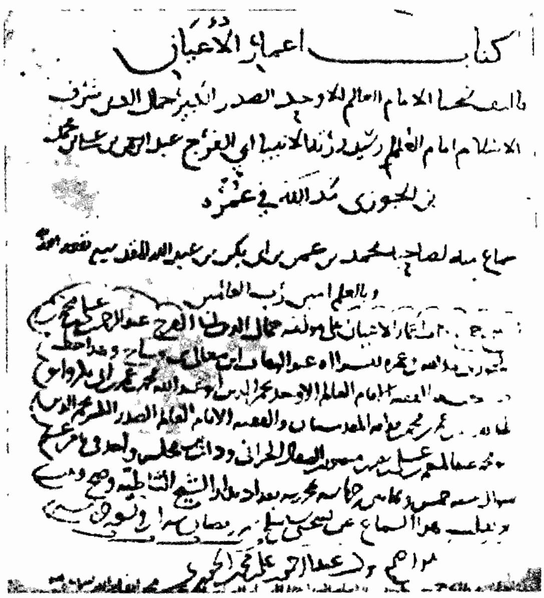
وقد لجأ بعض الخلفاء العباسيين إلى إنشاء فرق لمرافقتهم سمّوا بالفتيان كما لاحظ الرحالة ابن بطوطة، وكانوا منقسمين أقساماً وفق حرفهم: كالحلاقين والبزازين وغيرهم، ولكل فئة منهم «شيخ كار» يشرف عليهم، ويعطونه من كسبهم. ولهم راوية لطيفة يجتمعون فيها. ولا يمارس أحد منهم مهنته إلا بإجازة من «شيح الكار»، والمعروف أن العرب سبقوا العرب في مفهوم الإجازات وأهميتها بزمن طويل.

وظل منح الإجازات العلمية في أوربة بيد الكرسي البابوي حصراً، حتى القرن الثالث عشر الميلادي، حين منح البابا غريغوريوس التاسع جامعة باريس إعفاءات عدة، ومنها: الحق في منح الإجازة العلمية، ووضع الأنظمة من قبل الأساتذة. وكان للحروب الصليبية دور في نقل كثير من العلوم الإسلامية، وتقاليد الفروسية والفتوة، ونظام الحرف والمهن، المتبع في المشرق إلى أوربة. كما كان لحضارة الأندلس دور في منح الإجارات العلمية من حامعاتها لعدد مں الباباوات والعلماء الأوربيين الذين درسوا في معاهدها ومساجدها، ومن أشهر المدارس التي كانت تمنح مثل هذه الإجازات: المدرسة العمرية في دمشق، والجامع الأزهر، وبيت الحكمة في القاهرة، والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية في بغداد، ومسجد القيروان في تونس، وجامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في فاس ومسجد قرطبة في الأندلس، وكذلك المدرسة العصرونية والمسجد الأموي بدمشق، ومدارس بحاري وسمرقند ونيسابور ومساجدها، وغيرها كثير في العالم الإسلامي. وقد تطورت الإجارات في العصر الحديث حتى أصبحت كلمة «إجازة نامة» في اللغة الحديثة تدل على الشهادات الدراسية، وكثر التخصص في العلوم والفنون والآداب والطب والصيدلة وغيرها. وأصبحت الإجازة التربوية والتعليمية ضرورة في التربية، والتعليم لتأهيل حاملها للتعليم خاصة.

وهناك «الإجازة المطلقة الحرة» التي لا يستهدف حاملها مهنة التعليم: كالحقوق والعلوم السياسية والاقتصادية وعيرها. وهناك إجازة لممارسة المحاماة، والمرافعة أمام المحاكم.



الشكل (٢)



الشكل (٣)

والإجازة درجة ضرورية للحصول على شهادات الدراسات العليا. وهي «دبلوم الدراسات العليا»، و«الماجستير»، و«دكتوراه الحلقة الثالثة» ثم الدكتوراه. والنظام المتبع في سورية لمنح الإجازات الجامعية أن مدتها الدراسية أربع سنوات بعد الثانوية العامة في العلوم النظرية والإنسانية، أما الهندسة بأنواعها والصيدلة فمدتها خمس سنوات دراسية بعد الثانوية العامة، والطبابة ست سنوات، ويشترط بعد الحصول على الإجازة سنتان للدراسات العليا (الماجستير) في سائر العلوم والآداب، وسنة للدبلوم التربوي. كما يشترط سنتان على الأقل بعد الحصول على دبلوم الدراسات العليا (الماجستير) للدكتوراه العلمية والأدبية. ولا يحق الحصول على شهادات الدراسات العليا إلا بعد الحصول على الإجازة الدراسية. وتعادل الإجازة السورية في مواد الآداب والعلوم والتربية في النظام التعليمي الأنكلو سكسوني شهادة «معلم علوم» M.A. (Master of Art).

أنواع الإجازات، وكيفية منحها

تنوعت الإجازات في التراث العربي على اختلاف العصور، والمهن ويمكن تصنيفها على النحو التالي:

إجازات الحديث، والفقه، والقراءات، والتفسير، والعلوم الأساسية، والإجازة بالإفتاء، والإجازة بالتدريس: وتدعى صيغة الإجازات «طرائق التحميل» وهي ثماني طرائق: السماع والإقراء والإجازة المكتوبة والمناولة والكتابة بالمراسلة والإعلام والوصية والوجادة.

ثم صارت «الإجازة» مصطلحاً خاصاً عند علماء مصطلح الحديث، وهي أن يأذن ثقة من الثقات لغيره بأن يروي عنه حديثاً أو كتاباً، سواء أكان ذلك الكتاب من تصنيفه، أم كان يرويه عن شيوخه بالإسناد إلى مؤلفه، وتكون هذه الرواية بالإذن معتبرة وموثوقاً بها، ويقول صاحبها «أجازني فلان» أو «أخبرني إجازة» ونحو ذلك.

ولفظ الإجازة لا يشترط القبول فيها، وهي خمسة أقسام:

١ـ إجازة مُعيّن لمعيّن سواء كان واحداً أو أكثر: كأجزتك كتاب البخاري، أو أجزت فلاناً جميع ما اشتمل عليه فهرسي.

٢ـ إجازة معيّن في غير معين: كأجزتك مسموعاتي.

٣ـ إجازة العموم: كأجزت الحاضرين.

٤ـ إجازة المعدوم كأجزت لمن يولد، والصحيح بطلانها. ولو عطف على الموجود كأجزت لفلان، ولمن يولد فجائز.

٥ـ إجازة المجاز كأجزت جميع مجازاتي، وهي صحيحة.

ومن محسنات الإجازة أن يكون المجيز عالماً بما يجيزه، والمجاز له من أهل العلم. وهذه الإجازات أو السماعات أو الإقراء، وغير ذلك من طرائق التحميل، تكتب مفردة للمجاز أو مع جماعة هو بينهم، وتسجل في نهاية الكتاب أو حواشيه أو مقدمته أو بجانب عنوانه أو برقعة منفردة أو في كتيب خاص. وتكون صيغة الإجازة نثراً أو شعراً. وقد يكون المجاز له والمجيز ذكراً أو أنثى.

وقد يجيز العالم تلميذاً، أو عدة تلاميذ لدرس واحد حضروه، ويسمى هذا الحضور «البلاغ» ولا يعد من طرق التحميل والإجازة، وعلى الشيخ المجيز أن يضع علامة البلاغ في الكتاب عند بداية الدرس وفي نهايته في شكل نجمة أو دائرة فيها نقطة أو أية علامة غيرها. وكاتب الإجازة أو السماع غير المجيز يسمى «كاتب الطباق» أو «الطبقة» أو «مثبت السماع» وهو دليل على ثقة الشيخ وحسن خطه، وقد ينسخ الطالب نسخة عن النسخة

المحفوظة في المدرسة أو المسجد، وينقل ما أثبت فيها من إجازات أو سماع (وهي صورة عن أصل) وكانت الإجازات في الحضارة العربية الإسلامية تعطى لكل عالم، فلا تفرقة بين جنس أو دين أو مذهب. مثال ذلك إجازة نصير الدين الطوسي سنة ٦٥٩هـ لعلماء مرصد مراغة لكتاب «النسبة والتناسب» التي جاءت على الصيغة التالية: «سمع جميع الكتاب على مصنفه حكيم الأمة، أستاذ البشر، رئيس الفلكيين، والمهندسين، نصير الملة والدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي أطال الله عمره، ومتع المسلمين بحياته، كل من السادة الحكماء: حسن بن عبد الله الإستراباذي وإبراهيم بن ممدود (محمود، مودود) الحلاد وإسحاق بن جبرائيل الديلمي وعلي بن محمود اليشكري الربعي وحسام الدين المنجم الشامي وعبد الرزاق أحمد الشيباني (ابن الفوطي) وكمال الدولة أبو علي الفرج الإسرائيلي ورضي الدين علي بن طاووس وجعفر العروضي الدمشقي (كتب العرضي خطأ) وعلي بن محمد الكاتبي القزويني المعروف بديبران، وسنيك سنك قومنجة الصيني الحاسب وعلي شاه محمد الخوارزمي المنجم ومحمد بن عبد الله الشريفي ومحمود ابن مسعود الشيرازي متعه الله بشبابه، وكاتب السماع الفقير يحيى بن فضل النساجوستاني المراغي، في عدة مجالس آخرها الرابع من محرم الحرام من شهور سنة تسع وخمسين وستمئة للهجرة بدار الرصد المحروسة بمدينة مراغة عمرها الله».

وفي نهاية السماع: «السماع صحيح، وأجزت الجميع وكتب الفقير محمد بن محمد بن الحسن الطوسي غفر الله تعالى له». والإجازة صورة عن الأصل (الشكل ٢).

أما معنى السماع: فهو سماع لفظ الشيخ: أي تحديث من غير إملاء. من محفوظات الشيخ، أو من كتابه. مع الإجازة للتلميذ. وهو جماعي (الشكل ٣).

أما الإقراء: فهو القراءة على الشيخ سواء قرأ المجاز له من كتاب الشيخ، أو من حافظته، أو قرأه غيره، وهو يسمع، وإمساك الأصل عند البعض ضروري. والإقراء منفرد (الشكل ٤).

أما المناولة: فهي أن يدفع الشيخ أصل سماعه، أو مقابلاً به للتلميذ أو يعرض عليه الطلب فيقول «هو حديثي أو روايتي فاروه عني، وأجزت لك روايته» ويسمى هذا العمل «العرض».

وأما الكتابة والمراسلة: فهي أن يكتب الشيخ مسموعاته لحاضر، أو غائب بخطه، أو بأمره.

وأما الوصية: فهي أن يوصي الشيخ عند موته، أو سفره، بكتاب يرويه فلان عنه.

وأما الوجادة: فهي من فعل «وجد» فيما أخذ من صحيفة من غير سماع ولا إجازة، ولا مناولة: أي أن يحدث أحاديث وجدها بخط راويها.

والإجازة في البيع أو غيره من العقود عند الفقهاء: إمضاؤه. والإجازة عندهم تعمل في تنفيذ الموقوف كإجازة المشتري بالخيار للبيع، لا في تصحيح الفاسد.

ويشترط في المجيز أن يكون أهلاً للتصرف، أو ينعقد به العقد، وأن يكون عالماً بالتصرف الذي أجازه، مع بقاء محل التصرف، وتكون الإجازة للعقد إما بالقول الصريح أو بالكناية أو بالفعل أو الإشارة أو الكتابة، والإجازة تلحق الأقوال وتلحق الأفعال كالغصب واللقطة والتسلُّم، كما تتحقق الإجازة بمضي المدة في التصرفات الموقوتة وبالقرائن. ومتى أجاز الشخص التصرف نُفِّذ، وإذا ردّه بطل، ولا يحق له أن يرجع عن الإجازة.

والإجازة في الشعر: اقتران حرف الروي بما يباعده في المخرج أو أن يكون الحرف الذي يلي حرف الروي مضموماً ثم يكسر أو يفتح، ويكون حرف الروي مقيداً أو أن يتمم الشاعر البيت الذي أنشده غيره مصراعاً منه، أي أن تتم مصراع غيرك.

إجازة مهنة التدريس: قد تكون الإجازة بالتدريس مرسوماً من الحاكم، فيصدر أمراً يسمى «التوقيع» ومعناه الإجازة والإذن بتعاطي مهنة التدريس في المدارس، ويرد المدرس على صاحب التوقيع بكتاب الشكر والقبول، ويطلق عليه اسم كتاب «الإنهاء».

الإجازة العلمية (الطبية، والصيدلانية): قيد الخليفة المقتدر العباسي عام ٣١٦هـ/ ٩٣١م مهنة الطب في بغداد بالحصول على إجازة تخول الطبيب ممارسة المهنة. وكان الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد، قد سبقه إلى هذا الأمر بالإيعاز إلى وزيره الإفشين أن يأمر



الشكل (٤).

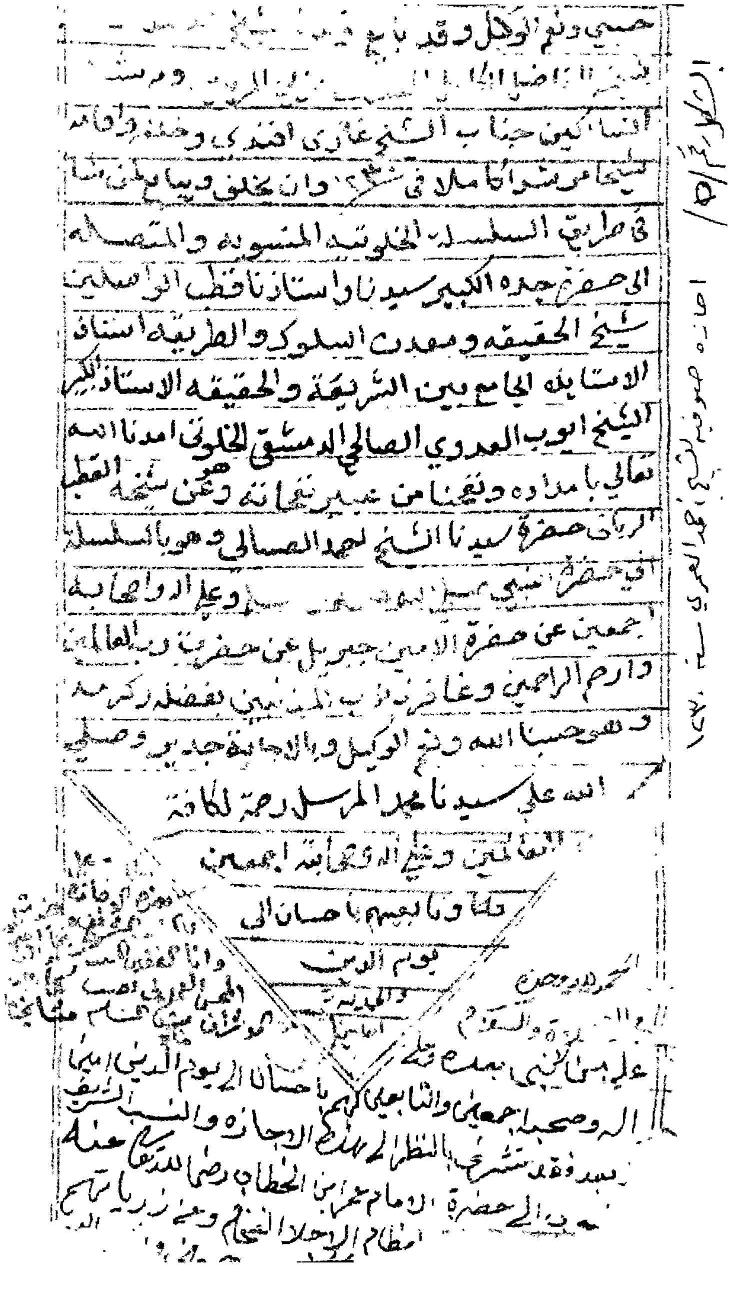
الصيدلاني زكريا الطيفوري بضبط الصيادلة ومراقبتهم وامتحانهم وإعطائهم الإجارة بممارسة مهنة الصيدلة، وعم هذا التقليد من بعد ذلك في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكان لرئيس الأطباء، والمحتسب دور في مراقبة الأطباء والصيادلة. والتحقق من صحة إجازتهم التي حصلوا عليها من مدارس دمشق أو القاهرة أو غيرها. كالمدرسة «اللبودية النجمية» والمدرسة «الدينسرية» والمدرسة «الدخوارية» والبيمارستان النوري في دمشق وغيرها.

الإجازة بنسخ الكتب: إن أقدم إجازة عثر عليها فيما يتصل بنسخ الكتب تلك التي عثر عليها العلامة أحمد محمد شاكر عند تحقيقه لكتاب «الرسالة» للإمام الشافعي في أصول الفقه، إذ ورد في نهاية النسخة المخطوطة المعول عليها في التحقيق: إجازة من ناسخ الكتاب تلميذه الربيع بن سليمان في سنة خمس وستين ومئتين للهجرة بالإذن في نسخ كتاب الرسالة وهي ثلاثة أجزاء وكتب الربيع بن سليمان بخطه.

الإجازة العلمية: وهي إجازة معرفة العلوم. فإذا آنس الطالب من نفسه القوة في العلم، والتدريس، والإفتاء في مجالات العلوم، وطلب من أشياخه أن يجيزوه، كالإجازات التي كان يمنحها الجامع الأزهر والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية والمدرسة العمرية وجامعة القرويين والمدارس العصرونية ومدارس بخارى وسمرقند ونيسابور وقرطبة وغيرها من مدن العالم الإسلامي.

الإجازتنامه: ويقصد بها «كتاب الإجازات» وهو مصطلح تركي متأخر، ويقابله في بلاد الشام «الثبت» وكذلك «معجم الشيوخ» في بغداد وبلاد الشام، وفهرس الفهارس والفهرسة في بلاد فارس، والبرنامج في بلاد المغرب، وهي: مجموع إجازات العالم، ومروياته من شيوخه. كفهرسة ابن خيبر الإشبيلي وثبت ابن عابدين، ومعجم شيوخ الذهبي، وبرنامج شيوخ الرعيني، وفهرس الفهارس للكتاني، وتدل «إجازة نامة» في اللغة الحديثة على الشهادات الدراسية.

إجازة الفتوة والصوفية والجمعيات الحرفية: وهي إجازة يعطيها شيخ الطريقة لتلميذه وفق مراسيم معينة في احتفال خاص، وتمهر الإجازة بخاتم شيخ الطريقة (الشكل ٥) ويؤخذ العهد من


في طريق السلسلة الخلوتية المنسوبة والمتصلة
الى حضرة جده الكبير سيدنا واستاذنا قطب الواصلين
شيخ الحقيقة ومعدن السلوك والطريقة استاذ
الاساتذة الجامع بين الشريعة والحقيقة الاستاذ الكبير
الشيخ ايوب العدوي الصالحي الدمشقي الخلوتي امدنا الله
تعالى بامداده ونفعنا من عبير نفحاته وعن شيخه هو القطب
الرباني حضرة سيدنا الشيخ محمد الصالحي وهو بالسلسلة
اجمعين عن حضرة الامين جبريل عن حضرة رب العالمين
ارحم الراحمين وغافر الذنب

الشكل (٥)

المريد بالتقيد بتقاليدها، وتعاليمها. وهذه الإجازة تكاد تكون متماثلة في منظومات الفتوة والأخية وأكثر الجمعيات والطرق الصوفية، كالقلندرية، والملامتية، والرفاعية، والنقشبندية، والشاذلية، والكيلانية، وغيرها.

وإن تشابه الشعارات والتقاليد في الطرق الصوفية والفتوة والجمعيات الحرفية دليل على أنها من منبع واحد. ولم يكن يسمح لأحد بممارسة الحرفة إلا بإجازة من «شيخ الكار» أو «جاويش المهنة» أي النائب في احتفال خاص

يدعى « الشد »، ويؤخذ العهد على المنتسبين والمترقين من درجة عامل إلى معلم بالمحافظة على المهنة وأسرارها. ويتم التعارف بين المستجدين والمتقدمين في المهنة الواحدة، ويدفع المنتسب رسم الانتساب « لشيخ الكار ». وقد ظلت هذه التقاليد مرعية حتى مطلع القرن العشرين وكان « شيخ الكار » في دمشق من آل العجلاني. وفي الاحتفال بإعطاء الإجازة يشد الزنار ويوسط المريد، ويشرب من كأس الفتوة ويذوق الملح. ويرجع سند الفتوة في إجازاتهم إلى سيد الفتيان علي بن أبي طالب.

إجازة الخط: وهي إجازة يمنحها الأستاذ في الخط والزخرفة لتلميذه عندما يأنس عنده البراعة في معرفة الأقلام والخطوط والزخرفة، وتكون الإجازة على شكل لوحة « بسملة » أو « حلية » أو « دعاء » أو على شكل لفافة، أو رسالة يذكر المجيز فيها للمجاز له سلسلة الخطاطين الذين أخذ منهم وطريقتهم. وسند الخطاطين يرتقي إلى الخطاط الكبير ابن البواب (ت٤١٣هـ) أو الوزير المبدع ابن مقلة العباسي (ت٣٢٨هـ) أو قبلة الخطاطين ياقوت المستعصمي (ت٦٩٨هـ) أو غيره وتكتب الإجازة بخط « قلم الإجازة » (الشكل ٦)



(الشكل ٦)

إجازة حفظة القرآن، والمؤذنين، والوعاظ، والخطباء وغيرهم: وما تزال تمنح إلى اليوم في معاهد حفظ القرآن « كمعاهد الأسد » بدمشق لحفظ القرآن، والزوايا الصوفية المنتشرة في أرجاء العالم الإسلامي، وقد تمنح الإجازة لحفظة القرآن مع التجويد لجزء من القرآن أو بكامله، وتجري للحفظة مسابقات ويمنح الفائزون منهم مكافآت مناسبة، كذلك يحصل المؤذنون، والموقتون في المساجد على إجازة إتقانهم للأذان ومعرفة الأنغام ومراقبة الأوقات، ويؤخذ العهد منهم على الوضوء للأذان وعدم الاطلاع على عورات المسلمين وهم فوق المآذن، وسند إجازتهم عندهم يرتقي إلى بلال بن رباح الحبشي مؤذن الرسول. وأما الوعاظ والخطباء فما زالوا إلى اليوم تحت مراقبة وزارة الأوقاف في المشرق، والحبوس في المغرب. وتمنع ممارسة الوعظ والخطابة في القرى والمدن من دون إجازة تحت طائلة عقوبة القانون.

الإجازات الإدارية والقانونية: وهي مظهر من مظاهر نشاط الإدارة تعرب فيه عن إرادتها بإعطاء الخيار لصاحب العلاقة بعمل معين، وتحرره من القيود الخاضع لها. وإن قام بالعمل من دون الحصول على الإجازة يتعرض للعقاب. ففي نطاق الضابطة الإدارية في المواضيع العامة أو الخاصة تخضع النصوص ببعض الأعمال للإجازة أو الترخيص والغرض من فرضها تمكين الإدارة من ممارسة رقابتها: فصنع الأسلحة والذخائر ونقلها يخضع لترخيص وزارة الداخلية وموافقة مجلس الوزراء، كما يخضع للترخيص أيضاً نقل السلاح، واستعمال السيارة وسوقها، وبناء الأبنية وتشييدها، والتنقيب عن المناجم، وحفر الآبار، واستثمار الغابات، وتأليف الشركات، وبيع التبغ والتنباك والمشروبات الروحية، والمطبوعات الصحفية، والمؤسسات الفندقية، والصيدليات، وقابلات التوليد المجازات من معاهد التوليد، والأطباء وإجازات الاستيراد والتصدير، وكل هذه الإجازات تخضع للرقابة والتفتيش، وكل عامل في الدولة سواء كان عسكرياً أو موظفاً، لا يستطيع مغادرة عمله من دون الحصول على إجازة من رؤسائه بحسب القوانين والأنظمة المعمول بها.

وكذلك يخضع افتتاح المؤسسات التعليمية والمعاهد التعليمية الخاصة لمراقبة وزارة التربية في الدولة. ولا تمنح إجازة ممارسة مهنة المحاماة والمرافعة أمام المحاكم إلا بعد تمرين مدته سنتين، والانتساب إلى نقابة المحامين. ويحق للنقابة سحب الترخيص وسحب الإجازة بممارسة المرافعة والدعاوى حين الإخلال بشروط المهنة وأخلاقها.

أهمية الإجازة في التراث العربي

تحتل الإجازة مكانة مهمة في مجال تحقيق الكتب، إذ يمكن للمحقق أن يستنبط أموراً كثيرة منها: أسماء المجيزين، والمجاز لهم وولادتهم ووفياتهم ومؤلفاتهم، وأسماء الحاضرين والمعاصرين لهم. ونسخة النص الذي قرئ وتاريخ نسخها. والإجازات وثائق صحيحة تدل على ثقافات العلماء الماضين مما قرؤوه أو سمعوه من شيوخهم، ومصدر للتراجم والألقاب والوفيات وسنيها، ومراكز العلم في البلاد الإسلامية، والحالة الاجتماعية للمجازين ومن عاصرهم، والكتب المفقودة وأسمائها وأسماء مؤلفيها، والنسخ المذكورة في الإجازة، ورجال إسنادها أو رواتها وغير ذلك.

وما زالت الإجازة سارية المفعول عند العلماء حتى اليوم. يتداولها الأئمة والعلماء ويعتزون بنيلها والحصول عليها، سواء أكانت من الدولة أم من الأفراد.

محمد عدنان الجوهرجي

مراجع للاستزادة:

- أحمد محمد شاكر، شرح ألفية السيوطي في مصطلح الحديث (مصر ١٣٥٣هـ).
- عبد الرحمن السيوطي، تدريب الراوي (مصر - الخيرية ١٣٠٧هـ).

■ إجازة العمل

الإجازة congé هي انقطاع العامل عن العمل في الحدود المسموح بها وفقاً لنظام العمل النافذ في الجهة التي يعمل لديها، لأن الأصل أن يخصص العامل وقته وجهده لأداء واجبات عمله وألا ينقطع عن مباشرتها إلا إذا حصل مقدماً على إجازة أو كان في أحد الأوضاع التي تسمح له بالغياب عن العمل.

وقد تناول التشريع السوري بالبحث موضوع الإجازات، فحدد مدتها وعدد أسباب منحها، وطريقة الحصول عليها، بموجب القانون الأساسي للعاملين في الدولة رقم (١) لعام ١٩٨٥، فيما يخص العاملين في الجهات العامة، وأما إجازات العاملين في القطاع الخاص فقد تولى قانون العمل رقم ٩١ لعام ١٩٥٩ أمرها من وجوهها كافة، وثمة أنظمة أخرى تحكم وضع العاملين المستثنين من الخضوع للقانون الأساسي للعاملين في الدولة ووضع العاملين في القطاع الزراعي الذين ينتظمهم قانون العلاقات الزراعية رقم ١٣٤ لعام ١٩٥٨، وهذه النظم في مجموعها وجوهرها لا تخرج عن الأسس المحددة في التشريعين السابقين.

والإجازات بوجه عام تنقسم بحسب طبيعتها وأسباب منحها إلى إجازات إدارية سنوية، وصحية، واضطرارية، كما تنقسم بحسب استحقاق الأجر عنها إلى إجازات مأجورة وأخرى بدون أجر.

الإجازة الإدارية السنوية

هي انقطاع العامل عن عمله مدة من الزمن، ليستعيد نشاطه وقوته، ويعود بعدها أقدر على النهوض بالعمل المنوط به، وتحرص التشريعات الاجتماعية على منع العامل المجاز من أن يعمل في أثناء إجازته لدى رب عمل آخر تحقيقاً للغاية المرجوة من منح هذه الإجازة. وتلتزم الجهة صاحبة العمل منح كل من العاملين لديها هذه الإجازة السنوية بحسبانها حقاً مقرراً في التشريعات النافذة، وفقاً للأنظمة التي تحكمهم في هذا الصدد. وقد حددت المادة ٤٤ من القانون الأساسي للعاملين في الدولة مدة هذه الإجازة، فأوجبت منح العامل الذي تقل خدمته الفعلية أو ما في حكمها عن خمس سنوات، إجازة سنوية مدتها خمسة عشر يوماً، وأما العامل الذي بلغت خدمته الفعلية أو ما في حكمها خمس سنوات حتى عشر سنوات فيمنح واحداً وعشرين يوماً، ويمنح العامل الذي بلغت خدمته الفعلية أو ما في حكمها عشر سنوات، ستة وعشرين يوماً، وأما إجازة العامل الذي أتم الخمسين من العمر أو تجاوزت خدمته الفعلية أو ما في حكمها عشرين سنة، فتكون ثلاثين يوماً. وتنظم الجهة العامة موضوع منح هذه الإجازة على نحو تراعي فيه رغبة العامل بشرط ألا تتعارض مع مصلحة العمل، مع أن الإجازة السنوية إلزامية بحسب مطلع نص المادة ٤٤ من القانون، فإن الجهة العامة تترخص في منحها أو منعها أو تقصير مدتها أو قطعها، بحسب ما يقتضيه حسن سير العمل. ويستفيد الوكلاء من هذه الإجارة إذا تجاوزت خدمتهم ستة أشهر مستمرة، ولكن بنسبة خدمتهم، على ألا تتجاوز مدتها خمسة عشر يوماً في السنة الواحدة، على ما تنطق به المادة (٧٧-١) من القانون المذكور، أما العاملون الذين يتمتعون بالعطلات المدرسية فليس لهم الحق في الحصول على هذه الإجازة، المادة (٤٧-ب١).

وأما في القطاع الخاص، فقد نظمت المادة ٥٨ من قانون العمل رقم ٩١ لعام ١٩٥٩، الإجازة السنوية التي تعطى للعمال، فقضت بإلزام صاحب العمل، إعطاء كل عامل أمضى في خدمته سنة كاملة إجازة سنوية مدتها أربعة عشر يوماً بأجر كامل، على أن تزاد الإجازة إلى ٢١ يوماً متى أمضى العامل عشر سنوات متصلة في خدمة صاحب العمل، وحظرت المادة المذكورة على العامل أن ينزل عن حقه في الإجازة، إلا أنها أجازت لصاحب العمل، وبناء على طلب كتابي من العامل، أن يؤجل إعطاء العامل إجازته التي تزيد على ستة أيام إلى سنة تالية، ويبقى للعامل الحق في الحصول على أجره عن أيام الإجازة المستحقة له، إذا ترك العمل قبل استعمالها.

وفي قطاع العمل الزراعي نظمت المادة ١٠٧ من قانون العلاقات الزراعية رقم ١٣٤ لسنة ١٩٥٨ موضوع الإجازة السنوية إذ أوجبت هذه المادة على صاحب العمل الذي يستخدم عاملاً زراعياً بصورة مستمرة مدة عشرة أشهر فأكثر، أن يعطيه إجازة سنوية مدتها أسبوعان ينال العامل فيها أجراً كاملاً، ويحق لصاحب العمل أن يختار تاريخ هذه الإجازات بحسب مقتضيات العمل أو أن يمنحها بالتناوب كي يضمن سير العمل. وتجوز تجزئة الإجازة السنوية بشرط ألا تقل مدة الاستفادة من الإجازة المستمرة عن أسبوع في السنة.

الإجازة الصحية أو المرضية

تمنح الإجازة الصحية إذا ألمت بالعامل حالة مرضية تستلزم منحه الإجازة، وهكذا نصت المادة (٤٨-١) على استحقاق العامل لإجازة صحية إذا قامت موجباتها. وجعلت حدها الأقصى ٢٠٠ يوم متصلة أو منفصلة، في كل عام من خدمته يتقاضى عنها ٨٠٪ من أجره عن الثلاثين يوماً الأولى وأجراً كاملاً عن المئة والسبعين يوماً التالية، وإذا كانت حالة العامل المريض في بعثة خارجية لاتسمح بنقله إلى الوطن فيمنح بقرار من وزير الخارجية، إجازة صحية إضافية لمدة ثلاثة أشهر، حتى يتم نقله أو شفاؤه في أثنائها، ويستمر العامل المريض في هذه الحالة على تقاضي أجوره وتعويضاته وبدل اغترابه. وتعد الإجازة الصحية من الخدمات الفعلية.

وتجدر الإشارة إلى أنه يتعين على العامل المريض أن يخطر الجهة العامة التي يتبعها فوراً، لتتخذ الإجراءات اللازمة لسد الفراغ الذي يحدثه انقطاعه عن العمل أولاً، ولتتحقق من واقعة المرض ثانياً.

وقد عرضت المادة (٥٢ ـ آ) من القانون الأساسي للعاملين لحالة العامل المريض الذي قد تطول مدة مرضه فأوجبت إحالته على لجنة التسريح الطبية المختصة في الحالتين التاليتين: إذا بلغت مدة إجازاته الصحية ١٨٠ يوماً بصورة متصلة، وإذا بلغت مدة إجازاته الصحية ٢٠٠ يوم في السنة الميلادية الواحدة. وعلى ألا تتجاوز مدة الغياب الصحي بأجر أو بنسبة ٨٠٪ من الأجر ١٨ شهراً بصورة متفرقة في خمس سنوات بما فيها السنة الجارية.

وقد حدد القرار رقم ٢٧٠٠ الصادر عن رئاسة مجلس الوزراء في ٢٥/٩/١٩٨٥ كيفية تشكيل لجان التسريح الطبية في دمشق وطبيعة اختصاصها، كما قضى بتشكيل لجان للغاية المذكورة ذاتها في مراكز المحافظات وبين الأصول التي تتبعها هذه اللجان في ممارسة عملها في هذا الصدد.

أما في القطاع الخاص، فقد عالجت المادة ٦٣ من قانون العمل رقم ٩١ لعام ١٩٥٩ حالة العامل المريض، فقضت بمنح العامل الذي يثبت مرضه الحق في أجر يعادل ٧٠٪ من أجره عن التسعين يوماً الأولى، تزاد بعدها إلى ٨٠٪ عن التسعين يوماً التالية وذلك في السنة الواحدة.

إجازة الأمومة

إن إجازة الأمومة تلحق بالإجازة الصحية وتدخل في مفهومها، إلا أن المشرع أفردها بقسم مستقل، بحسبان أن الإفادة منها إنما تقتصر على الحوامل من العاملات من دون غيرهن. ومنح إجازة الأمومة يأتي استجابة لدواعي الضرورة التي تفرض على الأم أن تتفرغ لرعاية وليدها اداء لواجب أسري لاغنى عنه وتحقيقاً لغاية إنسانية قررتها التشريعات الاجتماعية. وقد نصت المادة ٥٤ من القانون على منح العاملة إجازة أمومة بكامل الأجر مدتها خمسة وسبعون يوماً، تبدأ في الأحوال العادية في الشهر التاسع من الحمل، وتعطى هذه الإجازة كاملة ولو توفي المولود، على أن منح هذه الإجازة مشروط بتقديم شهادة طبية، مصدقة، تبين أن العاملة في الشهر التاسع من الحمل، فإذا وقعت الولادة في الشهر التاسع من الحمل، قبل طلب الإجازة، تكون مدة الإجازة ستين يوماً من تاريخ الولادة، أما إذا وقعت الولادة بين الشهر السابع والتاسع؛ فتكون مدة الإجازة خمسة وسبعين يوماً من تاريخ الولادة، كما يسوغ منح من ترغب من العاملات إجازة أمومة إضافية مدتها شهر واحد تتقاضى فيه ٨٠٪ من الأجر، ومن دون أجر مدة شهر آخر.

الإجازات الاضطرارية

هي الإجازات التي تستدعيها أسباب عارضة أو طارئة تتصل بحياة العامل الخاصة الأسرية والاجتماعية. وقد نصت المادة ٥٥ من القانون على حق العامل في الانقطاع عن عمله بأجر كامل مدة أسبوع عند زواجه، وكذلك في الانقطاع عن العمل مدة خمسة أيام متصلة بأجر كامل عند وفاة أحد أصوله أو فروعه أو زوجه أو أخيه أو أخته.

إجازة الحج

تمنح إجازة الحج مرة واحدة طوال مدة الخدمة، وقد سمحت المادة ٥٦ من القانون للعامل أن ينقطع عن عمله مدة ٣٠ يوماً للمسلمين و٧ أيام للمسيحيين. ويتوقف منح إجازة الحج على وجود العامل مدة لاتقل عن خمس سنوات في الخدمة المؤقتة لدى الجهات العامة.

مظهر العجلاني

■ الأجانب (المركز القانوني لـ)

يقصد بالمركز القانوني للأجانب Condition juridique des étrangers مجموعة القواعد القانونية التي تنظم الحقوق التي يتمتع بها الأجانب والالتزامات التي تترتب عليهم في أثناء وجودهم على أرض دولة ما خارج بلادهم.

والأجنبي في دولة معينة هو كل شخص لا يتمتع بجنسيتها، سواء أكان يحمل جنسية دولة أخرى أم كان لا يحمل جنسية دولة ما، أي عديم الجنسية، وسواء أكان مقيماً على إقليمها أم لا.

ومن الناحية التاريخية لم تكن المجتمعات القديمة تعترف باية حقوق للأجانب في أقاليمها، بل كان الأجنبي بمنزلة عدو لها مهدد دائماً بالعبودية ومجرد من أية حماية قانونية، فكان في حكم الأشياء محلاً للحق لاطرفاً فيه، يباع ويشترى من دون أن يكون أهلاً للتمتع بالحق. وظل الأجنبي زمناً طويلاً محروماً من الشخصية القانونية في نظر هذه المجتمعات ومن أبسط الحقوق الملازمة لوجوده ولإنسانيته كحق الزواج والإرث والتصرف والتملك. ولم يتحسن وضع الأجنبي إلا مع تطور علاقات الأفراد والمجتمعات البشرية وتطور حاجاتها وأفكارها ومشاعرها، مما أدى إلى إيلاء وجود الأجنبي بعض الاهتمام. فكان نظام الضيافة، الذي عرف في الحقوق اليونانية، ثم في الحقوق الرومانية، أول تعبير قانوني عن تقدم وضع الأجنبي. وعندما تطورت علاقات الرومان بالأجانب من شعوب البلاد التي خضعت لحكمهم، وضع الرومان قانوناً خاصاً بالأجانب، هو ما يُعرف باسم «قانون الشعوب»، يحدد حقوقهم وينظم علاقاتهم فيما بينهم من جهة، وعلاقاتهم مع الرومان من جهة أخرى.

وهكذا بدأ وضع الأجانب بوجه عام بالتحسن تدريجياً، ولكن هذا التحسن لم يصل إلى حدّ انتزاع شعور الكراهية من النفس البشرية تجاه الأجنبي والحذر منه ولاسيما في أوربة. ففي عهد الإقطاع مثلاً، الذي ساد في العصور الوسطى، ساء وضع الأجنبي ولم تعد له حرمة في شخصه أو ماله.

أما الشريعة الإسلامية فقد عرفت بهذ الشأن نظاماً يضمن للأجانب في دار الإسلام التمتع بحقوق معينة. فمن المعلوم أن دار الإسلام كانت تضم، إلى جانب المسلمين، الذميين والمستأمنين. والذميّون هم أتباع الكتب السماوية المقيمون إقامة دائمة في دار الإسلام بموجب عقد الذمة، وهؤلاء كانوا يعدّون وفق الرأي الراجح في الفقه من أتباع دار الإسلام تحدد حقوقهم وواجباتهم وفقاً لنظام عقد الذمة. أما المستأمنون، وهم الذين يتبعون دولاً وأمماً من أهل دار الحرب والذين يقيمون إقامة مؤقتة في دار الإسلام بمقتضى نظام الأمان، فكانوا يُعدون من الأجانب في دار الإسلام، وكان لهم بموجب هذا النظام حق الإقامة المؤقتة لمدة لاتزيد على سنة واحدة من دون التعرض لهم بسوء في هذه المدة، وكذلك التمتع بالحقوق الخاصة التي كان يتمتع بها الذمّيون، وعلى المستأمن بعد عام الأمان أن يعود إلى بلاده أو أن يعلن إسلامه، فإذا لم يعد ولم يُسلم زال الأمان عنه.

وفي زمن الامتيازات الأجنبية [ر] التي سادت البلاد العربية في أثناء الحكم العثماني

من القرن السادس عشر حتى أواخر الحرب العالمية الأولى طرأت تطورات مهمة على مركز الأجانب. فلقد أصبح هؤلاء ،أفراداً ودولاً، يتمتعون بحقوق وامتيازات متعددة قانونية وقضائية ومالية وذلك بمقتضى الاتفاقيات الثنائية التي عقدتها الدولة العثمانية مع بعض الدول الأوربية، وكوّنت ما يسمى بنظام الامتيازات الأجنبية، وبموجبه ظلّ الأجنبي، من أتباع هذه الدول، المقيم في البلاد العثمانية، خاضعاً لأحكام قضاء بلاده وقوانينها. وظل الأمر على هذه الحال حتى ألغيت الامتيازات الأجنبية عام ١٩٢٣، وبعد ذلك طرأ تطور تشريعي مهم على المركز القانوني للأجانب في البلاد العربية، ولاسيما بعد أن نالت هذه الدول استقلالها، حتى أعيد تنظيمه وفقاً لمبادىء القانون الدولي ولمتطلبات المصلحة الوطنية والقومية وفي ضوء المبادىء العامة الناظمة للمركز القانوني للأجانب السائدة في العصر الراهن.

المبادىء العامة الناظمة للمركز القانوني للأجانب

تتمثل هذه المبادىء بالقواعد التي أقرها المجتمع الدولي لحماية حقوق الأجانب، وبالأسس والأساليب التي تسير عليها التشريعات الوطنية لمختلف دول العالم عند تنظيمها للمركز القانوني لهم.

مبادىء القانون الدولي: هناك اتجاه في القانون الدولي ينادي بحرية الدولة واستقلالها في تحديد الحقوق التي يتمتع بها الأجانب في إقليمها، وحريتها في ذلك لا يحدها أي قيد. وعلى هذا فالأجنبي الموجود خارج إقليم دولته لايتمتع إلا بالحقوق التي يمكن أن تمنحه إياها قوانين الدولة المضيفة وتتنازل له عنها تنازلاً طوعياً.

وهناك اتجاه آخر يرى، على العكس، أن حرية الدولة في تحديد هذه الحقوق ليست مطلقة بل هي مقيدة بالتزامات دولية وإنسانية تفرضها العدالة الدولية، وتقضي بضرورة الاعتراف للأجنبي بالحقوق الأساسية التي ترافق الإنسان وتلازمه أينما وجد. ويؤيد هذا الاتجاه الفقه والقضاء الدوليان، وتنادي به المحافل والمؤسسات الدولية، ولقد تم تأكيده في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٨ ، والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والعهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الصادرين عن هذه الجمعية أيضاً عام ١٩٦٦، وقد صدّق هذين العهدين أو انضم إليهما عدد كبير من الدول الأجنبية والعربية الأعضاء في الأمم المتحدة (سورية عام ١٩٦٩)، وعليه يمكن القول إن التعامل الدولي في هذا الصدد يقوم على أساس وجود قواعد دولية مشتركة تلزم الدول الاعتراف للأجنبي بالقدر اللازم من الحقوق الأساسية التي لا تستقيم حياته من دونها وتلازمه أينما وجد، ويمثل هذا القدر الحد الأدنى من الحقوق تكفله الدول للأجانب على أرض إقليمها، وبالتالي فإن إخلال الدول بهذا الالتزام بحرمان الأجنبي من هذه الحقوق كلها أو بعضها يعرضها، بموجب مبادىء القانون الدولي، للمساءلة الدولية وفقاً لهذه المبادىء ولنظام محكمة العدل الدولية.

إضافة إلى هذه المبادىء تكوّن الاتفاقيات الدولية الثنائية والجماعية قيداً على حرية الدول في تنظيم مسألة تمتع الأجانب بالحقوق في إقليمها، كما تعد وسيلة ناجعة ومهمة لمعالجة كثير من المشكلات المتعلقة بهذه المسألة. وغالباً ما تنطوي هذه الاتفاقيات على تقرير مبادىء مهمة في هذا المجال كمبدأ الدولة الأولى بالرعاية مثلاً وبموجبه تضمن الدول المتعاقدة لرعاياها الحصول على معاملة تساوي أفضل معاملة يمكن أن تمنحها أي من الدول المتعاقدة لرعايا دولة أخرى.

وإذا كانت حرية الدول في هذا المجال تتقيد بمبادىء القانون الدولي والقواعد الاتفاقية فإنها في نظر الفقه الدولي يجب أن تقف أيضاً عند حدود معينة تمنع استخدامها استخداماً تعسفياً ، فإذا كان من حق الدول أن تلزم الأجانب احترام القواعد الدستورية والإدارية والجزائية والإجرائية، فإنها لاتملك ذلك إلا بشرط أن تحترم هي أيضاً هذه القواعد في تعاملها معهم، فلا يجوز لها مثلاً توقيف الأجنبي على إقليمها أو أن تبعده عنه إبعاداً تعسفياً أو خلافاً لأحكام التوقيف والإبعاد المنصوص عليها قانوناً، ولا أن تحرمه من حق الملكية بطريقة لا يبيحها قانونها لا لشيء إلا لكونه أجنبياً عنها، وفيما عدا ذلك تبقى حرية الدولة واسعة جداً في تنظيم تشريعاتها المتعلقة بالمركز القانوني للأجانب.

التشريعات الوطنية: تحدد الدول بتشريعاتها الوطنية الحقوق التي يمكن أن يتمتع بها الأجانب على إقليمها استناداً إلى مبادىء القانون الدولي بهذا الشأن، من دون الإخلال بالتزاماتها الدولية التعاقدية أو غيرها. ويحرص بعضها على ضمان الحقوق الأساسية للأجانب بنصوص دستورية.

ولكن من الملاحظ أنه ليس هناك اتفاق أو نهج موحد حول تحديد مضمون الحد الأدنى الذي يجب أن تلتزمه دول العالم. كما أن الدول عندما تتولى تنظيم المركز القانوني للأجانب تنتهج سياسة وطنية خاصة بها تختلف عن سياسة غيرها وتتأثر في ذلك بعوامل متعددة سياسية وديموغرافية واقتصادية واجتماعية وعقائدية ودينية. فهي في الدول التي تعاني من زيادة السكان أو من البطالة مثلاً تغاير ما في الدول الفقيرة إلى السكان، وهي في الدول التي تعاني من الاضطرابات الاجتماعية أو السياسية تختلف عما في الدول ذات الاستقرار الاجتماعي والسياسي. لذلك تعد القواعد الخاصة بتحديد المركز القانوني للأجانب من عوامل التحكم والتأثير في كثير من المسائل الوطنية. ومن حيث الأسلوب الذي تنتهجه التشريعات الوطنية المختلفة، يتضح أيضاً أن هذه التشريعات تنطلق بوجه عام، في تحديد الحقوق التي يمكن أن يتمتع بها الأجانب، من مركز الشخص الوطني نفسه في تشريعات الدول التي ينتمي إليها الأجانب أو من مركزه في تشريعاتها الوطنية، وإذا كانت النتيجة لذلك واحدة تدور حول المساواة بالوطني أو عدمها فإن الأسلوب المتبع يختلف باختلاف الدول واتجاهاتها ومصالحها. فقد أخذ بعضها بمبدأ المعاملة بالمثل [ر] ، وبموجب هذا المبدأ يتمتع الأجنبي في إقليم هذه الدول بالحقوق التي يتمتع بها رعاياها في الدولة التي ينتمي إليها الأجنبي. وبهذا المعنى يستخدم هذا الأسلوب وسيلة دفاع لدرء المعاملة القاسية التي تتبعها بعض الدول مع الأجانب من جهة، ووسيلة لحمل الدول على الاعتراف للأجانب في إقليمها بالحقوق التي تحرص على توفيرها لرعاياها في الخارج من جهة أخرى.

وسار بعضها الآخر، ممن وجد له مصلحة في ذلك، على مبدأ تشبيه الأجنبي بالوطني إذ يتمتع الأجنبي بحقوق مشابهة للحقوق التي يتمتع بها الوطني باستثناء الحقوق السياسية

والحقوق الأخرى التي حرم منها أصلاً بنصوص محددة.

وبهذا الأسلوب أو ذاك لايمكن الوصول إلى تحديد مركز الأجنبي تحديداً ثابتاً، ففي الدول التي تأخذ بالمعاملة بالمثل لايمكن معرفة مركز الأجنبي في تشريعاتها فيما يتصل بحقٍ معين أو بسائر الحقوق إلا بعد الرجوع إلى قوانين بلاده، وبالتالي فإن مركز الأجنبي يختلف باختلاف جنسيته وباختلاف موقف بلاده. وفي الدول التي تأخذ، من حيث المبدأ ،بأسلوب تشبيه الأجنبي بالوطني لا يمكن الوصول إلى تحديد مركز الأجنبي إلا بعد العودة إلى الاستثناءات الخاصة التي تستبعد الأجنبي من التمتع ببعض الحقوق. ومن المعلوم أن هذه الاستثناءات قابلة دوماً للتغيير بتبدل الظروف ومصالح الدول، وأنها لا تستخلص من النصوص التشريعية فقط، بل من التطبيق العملي لها أيضاً. وهذا ما يحمل على القول إن المساواة في المعاملة بين الأجنبي والوطني لم تصل بعد إلى مستوى المبادىء الدولية، ولم تتحول إلى واقع ملموس في النظم القانونية المختلفة، وإن التمييز في المعاملة مازال أمراً جائزاً وقائماً في مختلف التشريعات الوطنية، وهو في نطاق الحقوق العامة أكثر منه في نطاق الحقوق الخاصة.

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أن المساواة في الحقوق الناجمة عن تشبيه الأجنبي بالوطني، في بعض المجالات، لاتمثل الحد الأقصى من الحقوق التي يمكن الاعتراف بها للأجنبي في الدول التي تأخذ بهذا الأسلوب، بل من الممكن أن يرافقها بعض المزايا المتمثلة ببعض الإعفاءات أو التسهيلات أو الامتيازات التي لا يتمتع بها الوطنيون.

حقوق الأجانب في سورية

عند استعراض واقع النظم القانونية العربية المتعلقة بالمركز القانوني للاجانب يتضح أنها تفتقر إلى وجود نص يمثل مبدأ عاماً محدداً ينظم مختلف حقوق الأجانب والتزاماتهم، وأنها تتوزع في نصوص تشريعية وتنظيمية متعددة ومختلفة. وتنطوي هذه النصوص على الاعتراف ضمناً للأجنبي ببعض الحقوق على قدم المساواة مع الوطنيين، أو منع الأجنبي من التمتع ببعضها، وهذا ما يضفي على هذه التشريعات عموماً طابعاً سلبياً. كما أن هذه التشريعات تقوم على استخدام مبدأ شرط المعاملة بالمثل في تقرير كثير من الحقوق التي يمكن أن يتمتع بها الأجنبي، أو تعلق ممارستها على توافر شروط أخرى، سواء في نطاق الحقوق الخاصة أو العامة، كما هي الحال في سورية. ومما يختص به تنظيم المركز القانوني للاجانب في سورية أنه يميز في المعاملة الأجنبي العربي من الأجنبي غير العربي.

الحقوق الخاصة: يستخلص من النصوص الناظمة لتنازع القوانين من حيث المكان في القانون السوري أن الأجانب يتمتعون بجميع الحقوق الخاصة التي يتمتع بها السوريون باستثناء التي حرموا منها بنص قانوني خاص.

ومن أهم الحقوق الخاصة التي يتمتع بها الأجانب في سورية، الاعتراف لهم بالشخصية القانونية وحق الزواج والطلاق والولاية والوصاية والقوامة وغيرها من حقوق الأسرة بما في ذلك حق الإرث والوصية ولكن بشرط المعاملة بالمثل، كل ذلك مع مراعاة اعتبارات النظام العام. فلا يجوز لرجل غير مسلم الزواج من امرأة مسلمة، سواء أكانت سورية أم أجنبية، لمخالفة ذلك للنظام العام في سورية. كما لا يجوز للأجنبي عموماً تلقي حق الإرث من مورثه إذا كان مختلفاً عنه في الديانة. وبالإضافة إلى ذلك يتمتع الأجنبي بحق مباشرة جميع التصرفات القانونية من بيع وشراء وإيجار واستئجار ورهن وحق التقاضي أمام المحاكم السورية، بشرط أن تكون له أموال في سورية أو أن يقدم كفالة ملاءة سواء بتقديم كفيل مقتدر أو أن يودع صندوق المحكمة مبلغاً كافياً لتأمين التعويض على المدعى عليهم، عند الضرورة، بالإضافة إلى حق ممارسة التجارة باستثناء حقه في أن يكون وكيلاً للشركات والمحلات التجارية المؤسسة خارج أراضي الجمهورية العربية السورية.

أما فيما يتصل بحق الملكية، فيختلف الأمر في الأموال المنقولة عنه في الأموال غير المنقولة. والقاعدة السائدة في سورية وغيرها من البلاد العربية هي أن الأجنبي حرّ في تملّك ما يشاء من منقولات مادية مع بعض الاستثناءات والقيود بخصوص بعض هذه الأموال، ومنها منع الأجانب من تملك سندات الإصلاح الزراعي، وتقييد حقهم في تملك أسهم شركات الطيران، وأسهم الشركات المساهمة وذلك بتقييد حق تمثيلهم في مجالس إدارة هذه الشركات بنسب محددة.

كما ان من حق الأجانب تملك المنقولات غير المادية مثل حق الملكية الأدبية والفنية والصناعية والتجارية. ولقد نظم المشرع السوري حماية هذه الحقوق بصورة مطلقة من دون تمييز بين سوري وأجنبي. وإن الاتفاقيات الدولية المتعلقة بهذه الحقوق، والتي انضمت إليها سورية، كفلت لرعايا الدول الأطراف في هذه الاتفاقيات التمتع بهذه الحقوق وضمنت لهم حمايتها.

أما حق الأحنبي في تملك الأموال غير المنقولة (العقارات) في سورية فقد خضع لتطور تشريعي مهم، وبموجب التشريعات النافذة اليوم، قسّم المشرع السوري العقارات من حيث تملك الأجانب لها إلى فئات ثلاث: فئة العقارات الكائنة داخل الأماكن المبنية في مراكز المحافظات، وغير الداخلة في مناطق الحدود. وفئة العقارات الكائنة خارج الأماكن المبنية في مراكز المحافظات وغير الداخلة في مناطق الحدود. وفئة العقارات الداخلة في مناطق الحدود.

ففي الفئة الأولى يحق للأجانب اكتساب حق الملكية أو أي حق عيني آخر على هذه العقارات، سواء أكان سبب هذا الاكتساب عقداً أو غيره من المعاملات الجارية بين الأحياء، أم كان تصفية وقف أو ميراثاً أو وصية، وذلك بشرط الحصول على ترخيص مسبق من وزارة الداخلية، إضافة إلى شرط المعاملة بالمثل إذا كان سبب الاكتساب الميراث أو الوصية.

وفي الفئة الثانية، لايحق للأجانب اكتساب حق الملكية أو أي حق عيني آخر على هذه العقارات سواء أكان هذا العقار ملكاً أم أميرياً وسواء آل إليهم عن طريق المعاملات بين الأحياء أو الميراث أو الوصية أو تصفية الوقف. وفي حال انتقال هذه العقارات لأجنبي لأي سبب من أسباب كسب الملكية يسقط حقه المترتب على هذه العقارات وينتقل إلى إدارة أملاك الدولة لقاء دفع قيمته وفقاً لقانون الاستملاك.

وفي الفئة الثالثة لا يحق للأجانب اكتساب أي حق عيني على هذه العقارات إذا كانت موجودة خارج الأماكن المبنية في المحافظات، ولكنه يجوز له بالمقابل إنشاء أو نقل أو تعديل أي من الحقوق العينية على العقارات الكائنة ضمن الأماكن المبنية في مراكز المحافظات داخل مناطق الحدود وذلك بعد الحصول على رخصة

تصدر عن وزير الداخلية بناء على اقتراح وزير الإصلاح الزراعي بعد موافقة وزير الدفاع. ويستثنى من شرط الترخيص اكتساب الحقوق العينية على هذه العقارات إذا كان اكتسابها قد تم بطريق الإرث.

أما أبناء البلاد العربية فقد خصهم المشرّع السوري بامتيازات مهمة لا يتمتع بها الأجانب من غير العرب وهي:

- اكتساب حق الملكية وغيره من الحقوق العينية على العقارات الكائنة خارج مناطق الحدود في أراضي الجمهورية العربية السورية، سواء كانت هذه العقارات من الفئة الأولى أو الثانية، أي سواء كانت داخلة ضمن مناطق الأماكن المبنية في مراكز المحافظات أو خارج هذه المناطق، وذلك بشرط توافر المعاملة بالمثل والحصول على رخصة من وزير الداخلية.

- اكتساب حق الملكية وغيره من الحقوق العينية على العقارات الواقعة ضمن مناطق الاصطياف أو ضمن المناطق الواقعة داخل حدود بلديات مراكز المحافظات خارج مناطق الحدود وذلك من دون التقيد بشرطي المعاملة بالمثل والترخيص، ولو كان اكتساب هذه الحقوق بسبب الإرث أو الانتقال أو الوصية شأن أبناء البلاد العربية في ذلك شأن المواطنين العرب السوريين.

- الإعفاء من شرط المعاملة بالمثل فيما يتصل بتملك العقارات الكائنة في مناطق الاصطياف أو في حدود بلديات مراكز المحافظات إذا كانت هذه البلديات وتلك المناطق تقع في مناطق الحدود.

يستثنى من الأحكام السابقة رعايا الدول المرتبطة مع سورية بمعاهدة خاصة في هذا الصدد تنظم ملكيتهم العقارية في الأراضي السورية على خلاف ما نصت عليه أحكام القوانين الداخلية، مثل الاتفاقية المعقودة مع تركية عام ١٩٧٢.

وفي مقابل تمتع الأجانب بهذه الحقوق تخضع أموالهم في سورية لما تخضع له أموال السوريين من الاستملاك والمصادرة والتأميم بالشروط نفسها ولاسيما شرط التعويض العادل.

الحقوق العامة: إذا كانت الحقوق الخاصة التي يتمتع بها الأجانب في سورية تقترب من الحقوق التي يتمتع بها الوطنيون فإن بعض الحقوق العامة ما زال بعيداً عن حدود هذا الاقتراب.

فالقوانين السورية تقضي باحترام شخصية الأجنبي، وتعترف له بالحقوق والحريات الأساسية كالحرية الشخصية وحرية العقيدة الدينية وحرية الرأي ضمن حدود الأنظمة والقوانين النافذة الكفيلة بتحقيق الأمن والمحافظة على النظام، وكذلك بحق الانتفاع بالمرافق العامة، كالمواصلات ومياه الشرب والكهرباء والمعالجة الصحية والتعليم ومن ذلك التعليم الجامعي (نسبة من المقاعد مخصصة للطلاب العرب والأجانب). غير أن الأجنبي بالمقابل يحرم من التمتع ببعض الحقوق العامة الأخرى، ويقصد بذلك: الحقوق السياسية وغيرها من الحقوق المقصورة بحكم طبيعتها على المواطنين العرب السوريين، فلا يجوز للأجنبي في سورية أن يكون ناخباً أو مرشحاً لرئاسة الجمهورية أو عضوية مجلس الشعب والمجالس المحلية.

ومن الحقوق الأخرى التي يحرم منها الأجنبي في سورية أيضاً حق تولي الوظائف في الجهات العامة، باستثناء العرب الذين يرى رئيس مجلس الوزراء توظيفهم لضرورات قومية، وحق تقلد القضاء.

أما الحقوق العامة الأخرى التي يتمتع بها الأجانب في سورية ولكن بشروط معينة فهي حق الدخول والخروج، وحق العمل، وحق ممارسة المهن.

ففي مجال حق الدخول والخروج والإقامة ميز المشرّع، فيما يتصل بتنظيم هذا الحق بين أبناء البلاد العربية والأجانب من غير العرب فمنح أبناء البلاد العربية بعض الاعفاءات والتسهيلات. ففي نطاق دخول الأجانب وخروجهم لايجوز للأجنبي دخول الأراضي العربية السورية والخروج منها إلا إذا كان يحمل جواز سفر ساري المفعول أو أية وثيقة أخرى تقوم مقامه تخوله حق العودة، صادرة عن سلطة بلده المختصة أو أية سلطة أخرى معترف بها. ويجب أن يكون الجواز أو الوثيقة مؤشراً عليه أو عليها بسمة دخول أو مرور من وزارة الداخلية السورية أو إحدى الجهات الأخرى المخولة بموجب المرسوم التشريعي ٢٩ لعام ١٩٧٠. ويمكن أن يعفى من حمل جواز السفر والحصول على التأشيرة عند الدخول رعايا الدول الأجنبية التي يتم تحديدها بمرسوم جمهوري. كما يمكن لوزير الداخلية إعفاء أي أجنبي من الحصول على التأشيرة وحمل جواز السفر. وعلى الأجنبي أن يتقدم، خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ دخول الأراضي العربية السورية، إلى إدارة الهجرة والجوازات، أو إلى الجهات الأخرى المحددة في المرسوم التشريعي ٢٩ لعام ١٩٧٠، وأن يحرر إقرارات حالته الشخصية (التسجيل). ويستثنى من ذلك الأجانب الذين يتمتعون بإقامة خاصة عند عودتهم إلى سورية فيما إذا كانت مدة غيابهم في الخارج لا تزيد على ستة أشهر. كما يمكن التجاوز عن شرط التسجيل بإذن خاص من وزير الداخلية. ويتم دخول أراضي الجمهورية العربية السورية والخروج منها بصورة مشروعة من الأماكن التي يتم تحديدها بقرار من وزير الداخلية. وبعد الدخول لايجوز لأحد من الأجانب أن يغادر هذه الأراضي إلا إذا كان حاصلاً على تأشيرة خروج، غير أنه يعفى من هذه التأشيرة، الأجانب القادمون بتأشيرة دخول إذا لم تزد مدة إقامتهم على ستة أشهر، وأعضاء السلكين الدبلوماسي والقنصلي الأجانب المعتمدون لدى الجمهورية العربية السورية وموظفو الأمم المتحدة من الأجانب.

وفي نطاق إقامة الأجانب، يحق لهم الإقامة في سورية. والإقامة التي يمكن الحصول عليها تكون خاصة أو عادية أو مؤقتة.

تمنح الإقامة الخاصة للأجانب الذين مضى على إقامتهم الفعلية أكثر من ١٥ سنة من تاريخ نفاذ المرسوم التشريعي ٢٩ لعام ١٩٧٠، وللذين قاموا بأعمال مفيدة للاقتصاد القومي أو أدّوا خدمات علمية أو ثقافية أو فنية للبلاد ومضى على إقامتهم الفعلية أكثر من خمس سنوات، وللعلماء ورجال الأدب والفن والصناعة والاقتصاد وغيرهم ممن يؤدون خدمات جليلة للبلاد، ولزوجات العرب السوريين اللواتي مضى على إقامتهن الفعلية في البلاد أكثر من سنتين ما دامت الزوجية قائمة. وينتفع بهذه الإقامة الشخص المرخص له بها وزوجته وأولاده القاصرون الذين يعيشون في كنفه.

وتمنح الإقامة العادية للأجانب الذين ولدوا في سورية ومضى على إقامتهم الفعلية فيها ٣ سنوات متواصلة عند تقديم الطلب، وللذين مضى على إقامتهم الفعلية في سورية أكثر من ٥ سنوات متواصلة. ولا يحق لذوي الإقامة

الخاصة أو العادية الغياب في الخارج مدة تزيد على ستة أشهر إلا بإذن من رئيس إدارة الهجرة والجوازات، ولمدة لا تتجاوز السنتين وذلك تحت طائلة سقوط الحق بالإقامة. وتمنح الإقامة المؤقتة للأجانب الذين لا تتوافر فيهم شروط الإقامة الخاصة أو العادية ومدتها سنة قابلة للتجديد.

وإذا أخل الأجنبي بالأمن أو بالمصلحة العامة الوطنيَيْـن كان عرضة للإبعاد بقرار من وزير الداخلية. ولا يسمح للأجنبي المبعد بالعودة إلى أراضي الجمهورية العربية السورية إلا بإذن من وزير الداخلية. كما أن الأجنبي الذي يخالف بعض أحكام قانون الدخول والخروج والإقامة يمكن أن يعرض نفسه لعقوبات جزائية ولغرامات مالية أو لإحدى هاتين العقوبتين.

ويستثنى من قيود الدخول والخروج والإقامة فئات محددة من الأجانب عينتهم المادة ٢٩ من المرسوم التشريعي ٢٩ لعام ١٩٧٠.

ويطبق على رعايا الدول الأجنبية، التي توجد بينها وبين الجمهورية العربية السورية اتفاقيات خاصة بتأشيرات الدخول والخروج والمرور والإقامة، مضمون هذه الاتفاقيات. أما أبناء البلاد العربية فيعفون، بموجب المادة ١ من قرار وزير الداخلية رقم ١٣٥٠ لعام ١٩٨١، من تأشيرة الدخول أو المرور أو الإذن بالإقامة أو تأشيرة الخروج ومن حمل جوازات السفر ومن الرسوم المترتبة على ذلك ومن مراجعة إدارة الهجرة والجوازات من دون اشتراط المعاملة بالمثل مع بعض الاستثناءات أحياناً. وعلى أبناء البلاد العربية عند دخولهم أو مغادرتهم البلاد إبراز الهويات أو البطاقات الشخصية أو العائلية أو جوازات سفرهم إذ يكتفى بتسجيلهم أصولاً في سجلات القادمين والمغادرين وتوشّح جوازاتهم فقط عند وجودها بأختام الدخول أو المغادرة.

أما الفلسطينيون العرب فيخضعون لأحكام خاصة بهم (قرار وزير الداخلية رقم ١٥٣١ لعام ١٩٨٠).

وفي مجال حق العمل، يجوز للأجانب من غير العرب أن يزاولوا عملاً صناعياً أو تجارياً أو زراعياً أو مالياً أو غيره، وكذلك أية مهنة ومن ذلك الخدمة المنزلية إذا كان مرخصاً لهم بالإقامة في سورية بشرط الحصول على رخصة عمل من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، إضافة إلى شرط المعاملة بالمثل أيضاً، كما يحق لهم الانتساب إلى نقابة المهنة التي ينتمون إليها إذا مضى على استخدامهم في القطر أكثر من سنة بشرط المعاملة بالمثل أيضاً.

أما أبناء البلاد العربية المقيمون في سورية فيحق لهم العمل في القطر، بشرط الحصول على رخصة عمل، والانتساب لنقابة المهنة التي يزاولونها وتولي عضوية مكاتبها وذلك كله من دون التقيد بشرط المعاملة بالمثل.

وفي مجال حق ممارسة المهنة، ففي نطاق الهندسة، لا يجوز للمهندسين الأجانب من غير العرب مزاولة مهنة الهندسة في سورية إلا إذا كانوا أزواجاً للمواطنين العرب السوريين بشرط الحصول على رخصة عمل من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وبإجازة تصدر عن مجلس نقابة المهندسين، أما المهندسون العرب غير السوريين فيحق لهم مزاولة المهنة بعد الحصول على رخصة العمل بشرط المعاملة بالمثل.

وفي نطاق الطب يجوز للأطباء الأجانب غير العرب الذين تسمح أنظمة بلادهم بالمعاملة بالمثل مزاولة مهنة الطب في سورية من دون الانتساب للنقابة بعد حصولهم على ترخيص سنوي بمزاولة الطب من وزارة الصحة يصدر بعد موافقة مجلس النقابة، وترخيص بالعمل من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل. وإذا كان الطبيب الأجنبي زوجاً لأحد المواطنين العرب السوريين أو من أبناء البلاد العربية فيعفى من شرط المعاملة بالمثل. ويعامل أطباء الأسنان غير السوريين معاملة أقرانهم من الأطباء البشريين.

وفي نطاق المحاماة، لا يحق للمحامين الأجانب المرافعة أمام القضاء السوري إلا بالاشتراك والتعاون مع محام أستاذ مسجل في جدول النقابة وبعد الحصول على إذن من نقيب المحامين، وبشرط المعاملة بالمثل. أما أبناء البلاد العربية فيحق لهم الانتساب للنقابة، ولهم أيضاً، إذا كانوا مسجلين أصولاً في جدول المحامين العاملين لدى إحدى نقابات الدول العربية، حق المرافعة أمام سائر المحاكم العربية السورية، بموافقة النقيب أو مجلس الفرع المختص، وذلك كله بشرط المعاملة بالمثل. وفي نطاق الصيدلة يجوز لمواطني الدول العربية وللأجانب من غير العرب مزاولة مهنة الصيدلة بعد الانتساب للنقابة وبشروط هي: التسجيل في وزارة الصحة والحصول على ترخيص منها وترخيص من وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل، إضافة إلى شرط المعاملة بالمثل للأجانب من غير العرب.

فؤاد ديب

الموضوعات ذات الصلة:

الأمان (نظام ـ) ـ الذمة (عقد ـ) ـ الامتيازات الأجنبية.

مراجع للاستزادة:

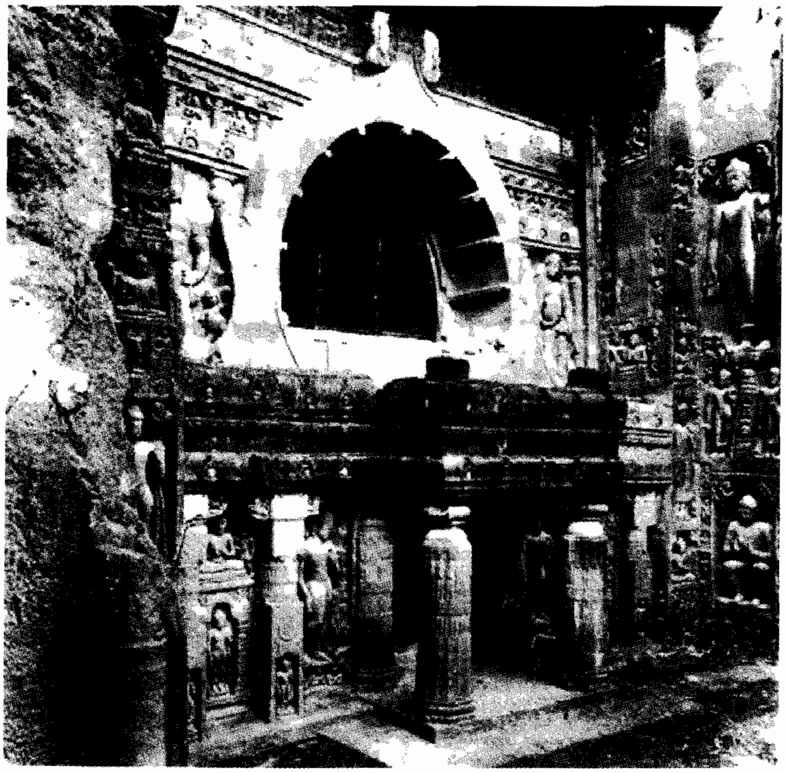
ـ نعوم سيوفي، الحقوق الدولية الخاصة (منشورات جامعة حلب ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧).

ـ فؤاد شباط، المركز القانوني للأجانب (دمشق ١٩٦٥).

■ آجانتا

تقع كهوف آجانتا Ajanta الشهيرة في إقليم الدكن Deccan، بمنطقة حيدر آباد من الهند وتبعد نحو ١٠٥ كم عن مدينة أورنغ أباد Aurrangabad في ولاية ماهاراشترا Maharashtra في أواسط الهند وغربيها. وقد ظهرت في هذا الموقع نهضة فنية استمرت نحو خمسة قرون ونيف بين القرنين الأول والسابع بعد الميلاد، وبرزت هذه النهضة في ثلاثين كهفاً ضخماً محفورة في الصخور وتبدو مصطفة في أعلى وادي نهر الغانج في ما يشبه مدينة دينية. وتتميز هذه الكهوف باحتواء معظمها على لوحات جدارية مهمة تزين جدرانها وتعبّر عن نبض روحي وحسٍ جمالي ومهارة فائقة في التنفيذ.

تدل منحوتات كهوف آجانتا على مدى تطور فنّ النحت في عهد أسرة غوبتا Gupta (ما بين القرنين الرابع والسادس بعد الميلاد) ويتضح ذلك من تماثيل بوذا ويبدو متدثراً بثوبه، وتظهر عيناه شبه مغمضتين وحاجباه على شكل قوسين مخططين بوضوح وشفتاه مقوستين. وتبرز التماثيل صفات أخرى جاءت من الفن الإغريقي ـ البوذي، وانصهرت في عبقرية الهند التي أبدعت فناً أكثر توازناً وصفاء ورقة وحيوية. هنا يظهر بوذا (٥٦٠ ـ ٤٨٠ ق.م) [ر] ملتفاً بثوب يبدو كأنه من قماش «الموسلين» وقد ابتل



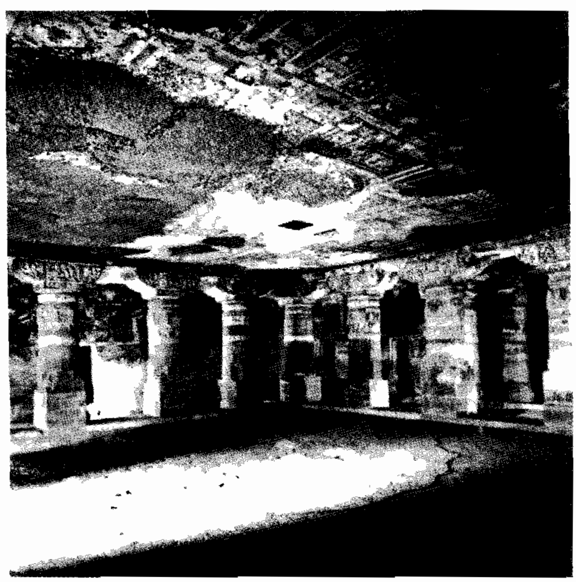
واجهة المعبد (١٩)

بالماء فتموجت ثنياته. أما في بداية عصر غوبتا فقد اختفت الثنيات وبدا الثوب مصقولاً شفافاً يغطي جسم بوذا بكامله. وهناك نوعان من تماثيل بوذا: تماثيل يبدو فيها واقفاً تنسدل ملابسه الفضفاضة لتؤكد الوقار والاتزان، وتماثيل في جلسة ملكية وحول رأسه هالة من نور.

وفي جميع الأحوال يبدو بوذا طويل القامة ويوحي بالرقة. إلا أن المثّالين اتجهوا، بعد عصر غوبتا، وفي القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، نحو التعبير عن قوة الإنسان العلوي فظهرت نماذج تمثل بوذا بجسم وأطراف ثقيلة ضخمة.

وقد اشتهرت كهوف آجانتا بلوحاتها الجدارية الرائعة التي تبرز المعاني الإنسانية وفيها تجسيد حياة بوذا. غير أنه لم يبق من الأعمال التي سبقت عصر غوبتا سوى بعض الآثار في الكهف التاسع. وفي الكهف العاشر يوجد إفريز طويل يتميز بحيوية نادرة ويمثل مشاهد فيلة بين نباتات اللوتس ومحاربين وراقصات. أما القسم الأكبر من اللوحات فيعود إلى حقبة متأخرة ترجع إلى عهد أسرة غوبتا وتتجلى في الكهوف ذات الأرقام ١ ، ٢ ، ١٦ ، ١٧ وقد اتبعت في تنفيذها طريقة تشبه الفريسك [ر].

والفن في آجانتا فن مثالي لا يبحث عن التعبير المباشر أو الإيحاء بالواقع بطريق النور والظل لأنه يطمح إلى هدف أعمق وأبعد غوراً، مستخدماً تعابير الوجوه والحركات للدلالة على مضامين روحية وجمالية. إن الصور التي تمثل الـ« بوديستافا » Boudistavas (نظراء بوذا) تتميز بالعظمة والتوازن في هدوء لا تشوبه شائبة. ففي صدر الكهف الأول صورة رجلين من « البوديستافا » يحيطان بالبناء النموذجي للعمارة البوذية « داغوبا » Dagoba ويؤكدان في انحنائهما التوازن، وتعبّر



داخل الكهف (١) في القرن السادس بعد الميلاد



بوذا جالس على الطريقة الأوربية، معبد(٢٦)
القرن السادس بعد الميلاد

ملامح وجهيهما عن الصُّفار والحزن الناحمين عن الإعياء.

ويلاحظ في لوحات آجانتا تجمع موفق وثابت ينبض بالحياة بأشخاص في لقاءات ومشاهد غرامية ومواقف مأساوية، وهو تجمع خفيّ يرصد البطولة ومظاهرها وتبدو الأوضاع فيه كأنها سكبت في أبيات من الشعر، ويبدو المشهد كأنه يروى في قصة، وتكفي خطوة الشخص للدلالة على تغير المكان. فالتجمع مرن، ولكنه مدروس ومتوازن، ولا ينطوي الانتقال من حيّز إلى آخر، في هذه الأعمال، على أي مفاجأة. وإذا كان الانطباع الأول يوحي بأن تجمع الأشخاص جاء عفوياً، إلا أنه سرعان ما تدرك العين نظاماً فنياً في تكوين المشاهد وارتباطها بعضها ببعض وخضوعها لإيقاع واضح يتحقق معه الانسجام والتوازن، ويتم التمركز في اللوحات من خلال الشخصيات الثانوية التي تحيط بالتكوين وهي منحنية لتقود البصر نحو الشخصيات الرئيسية.

تتعدد الطرز الفنية في كهوف آجانتا وتمثل اختلافاً بين المدارس الفنية متطوراً مع الزمن. ولعلّ أهم هذه الطرز ما يشاهد في الكهفين الأول والثاني، وفي بعض التفصيلات في الكهف السادس عشر، مما يتميز بالضخامة وحسن معالجة الظلال والأضواء، والثقل في قماش الملابس، والوجوه ذات الفم الضيّق الكثيف، وأقواس الحواجب المحددة بخط مستمر.

والخلاصة فإن ما يغلب على المشاهد المصورة في آجانتا أنها مستوحاة من قصص بوذية وقد تمثلت فيها بيئة تظهر فيها حياة الدين الخيالية ويتجلى فيها الانسجام مع الرقة والنعومة مما يذكّر بفخامة مسرح الحبّ السنسكريتي.

ويحتل فن آجانتا مكانة مهمة في تاريخ الفن الهندي، وهو يعبر عن الصفاء والحب الروحي في بيئة رأت «أن ممارسة الفن نشاط مبارك ومن مصدر إلهي».

بشير زهدي

الموضوعات ذات الصلة:

لودية ـ الهند.

مراجع للاستزادة:

ـ محمد إسماعيل الندوي، الهند القديمة: حضارتها ودياناتها (دار الشعب، دمشق ١٩٧٠)

-G. BAZIN, Histoire de l'art (Garamon, Paris 1953).

■ الاجتماع (علم-)

يهتم علم الاجتماع sociology بدراسة المجتمع وما يسود فيه من ظواهر اجتماعية مختلفة دراسة تعتمد على أسس البحث العلمي بغية التوصل إلى قواعد وقوانين عامة تفصح عن الارتباطات المختلفة القائمة بينها.

ويتضح من هذا التعريف أن موضوع علم الاجتماع هو المجتمع الإنساني، وأن ما تطرحه الجماعات الإنسانية من ظواهر ومسائل اجتماعية هي مجال الدراسات الاجتماعية، ويقوم علم الاجتماع بدراسة تلك الجماعات من حيث هي مجموعات من الأفراد انضم بعضهم إلى بعض بعلاقات اجتماعية تختلف عن الفئات الإحصائية التي تشير إلى أفراد لا رابط بينهم.

وعلم الاجتماع، من هذا المنظور، يسعى إلى معرفة الحياة الاجتماعية، عن طريق الحصول على بيانات صادقة من الواقع الاجتماعي بوسائل وأدوات تتطور مع تطور العلوم ذاتها، فالعلم مجموعة من المعارف وطريقة للعمل على حد سواء، والظواهر الاجتماعية تخضع للبحث العلمي الدقيق إذا ما اتبع في دراستها منهج علمي يماثل في أسسه ومنطقه ما هو معتمد في مجالات علمية أخرى.

وهكذا يعالج الباحث في علم الاجتماع الأفعال الاجتماعية ذات المعاني المشتركة، والأشكال التي تتخذها العلاقات المتبادلة في الحياة الاجتماعية، بقصد البحث عن الظواهر والنظم الاجتماعية والكشف عن المبادىء التي تحدد طبائعها، ليصل الباحث الاجتماعي إلى مقارنة البيانات الإحصائية من جوانبها المختلفة وفي أوقات متعددة، وبذا تتضح له معالم الحياة الاجتماعية والوقائع الاجتماعية، ويتعرف النظم السائدة، فيمكّنه ذلك من إصدار الأحكام والقواعد والقوانين العامة التي تخضع لها تلك الظواهر.

وتعتمد أصول البحث في علم الاجتماع على مبادىء أساسية مستمدة من النظرية العامة للمجتمع وعلى منهج علمي في البحث مستقى من طرائق العلم في المعرفة، وعلى طرائق وأدوات ووسائل في التحليل ترتبط بالتقدم العلمي والتقني (التكنولوجي)، وتتفاعل تلك العناصر فيما بينها لتولد نسقاً فكرياً وعملياً يمكّن من تعرّف الواقع الاجتماعي في حقبة تاريخية معينة، وتتطور أصول المعرفة بتطور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتتأثر بها، لذلك فإن المعرفة التي تتولد بالرجوع إلى تلك الأصول تبقى نسبية ويجب أن تمتحن في ضوء تلك التطورات.

وعلى الرغم من ذلك التشابك في عناصر الاجتماع، وتأثرها بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية السائدة، فإنها تتمايز على المستوى التحليلي. والإشكالات الأساسية التي قد توجد على المستوى النظري تختلف عن تلك التي تصادف على مستوى المنهج، أو تجابه في أدوات التحليل ووسائله. لذلك لابد من معالجة كل منها بوجه منفصل عن الآخر، على أن يؤخذ بالحسبان تشابك تلك العناصر وترابطها في الواقع العملي، وإن أي خلل في أحدها يؤثر في العناصر الأخرى، ويكوّن معرفة اجتماعية لاتقدم عندئذ صورة صادقة عن الواقع الاجتماعي موضوع الدراسة.

إن تفسير الواقع الاجتماعي يجب أن يتم بالرجوع إلى النظرية الاجتماعية العامة، والمقولات النظرية التي تحدد المرتكزات الرئيسية، والأبعاد الحقيقية للمسائل الاجتماعية في سبيل استشفاف الواقع الاجتماعي. ثم إن تلك المقولات النظرية يجب أن تمتحن في ضوء الواقع الاجتماعي نفسه، وفي ضوء التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي تتم فيه لأن ذلك الواقع هو المحك الأول والأخير لصحة تلك المقولات والافتراضات المجردة ودقتها. فأي تطور في النظرية الاجتماعية يؤدي إلى فهم أعمق للواقع الاجتماعي، كما أن امتحان النظرية في الواقع يطرح أبعاداً جديدة في النظرية. وتأسيساً على ذلك فإن أي تفسير

للواقع الاجتماعي لا يأخذ في حسابه هذا التفاعل بين النظرية والواقع هو تفسير مغلوط ويتسم بفقدان حلقة أساسية تربط ما بين النظرية والواقع. والتفاعل بين العناصر السابقة لا يتحدد باتجاه وحيد، أي بعلاقة سبب ونتيجة أو تابع ومتحول، وإنما في علاقة تكاملية وفق إطار تنموي وحركي.

نشأة علم الاجتماع وتطوره

لا ينفصل تاريخ الفكر الاجتماعي عن تاريخ الفلسفة الاجتماعية، فقد ارتبط علم الاجتماع في نشوئه بالفلسفة، شأنه في ذلك شأن بقية العلوم. غير أن هذا الارتباط أخذ يتوضع على مستوى النظرية الاجتماعية، ويتميز في أدوات التحليل وأساليب البحث الاجتماعي، في حين بقي الارتباط وثيقاً بين الفلسفة الاجتماعية والنظرية الاجتماعية.

فعلم الاجتماع لا يستطيع فهم الواقع فهماً صحيحاً من دون إطار فلسفي يرجع إليه في تجريد الظواهر الاجتماعية والربط بين معطياتها ومعطيات التاريخ والمجتمع، كما أن أي فلسفة اجتماعية تبتعد عن الواقع ولا تستند إليه تصبح ضرباً من التفكير المجرد الذي يصعب امتحانه.

وأخذ علم الاجتماع في التطور بعد أن حقق استقلاله الذاتي بفعل تعقد الحياة الاجتماعية، فتشعب إلى ميادين متعددة يشمل كل منها جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية.

وفي نطاق هذا التخصص لم يفقد علم الاجتماع ارتباطه الوثيق بالعلوم الاجتماعية الأخرى، فبقيت بينه وبينها اهتمامات مشتركة وموضوعات متماثلة لاهتمامه بدراسة السلوك الاجتماعي الإنساني، فهو في ذلك علم قديم النشأة، يمتد في جذوره إلى ابن خلدون (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) [ر] الذي أرسى الدعائم الأولى لعلم الاجتماع وأعطاه اسم «علم العمران». وقد أشار ابن خلدون إلى أن سابقيه لم يكتبوا في هذا الميدان الذي يعد بتقديره أهم معيار لصحة الأخبار. وبفرض أنهم فعلوا ذلك، فإن كتاباتهم لم تصل إليه. ويشير إلى ذلك في مقدمته بقوله: «وكأن هذا علم مستقل بذاته: فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل: وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى». وكأن ابن خلدون قد وعى أنه أسس بعمله هذا علماً جديداً عظيم الأهمية حين قال في مقدمته «وأعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة».

وعلم العمران عند ابن خلدون يتفرع إلى ميادين متعددة، فبعض ما كتبه قد تناول ميدان علم الاجتماع السياسي حينما أشار إلى الدولة، وضرورتها وقيامها، كما تناول بالدراسة ما يسمى في هذه الأيام «علم الاجتماع الاقتصادي» فبحث فيه: الصنائع وأشكال كسب الرزق وقوانين حصول الازدهار والضمور الاقتصاديين، كما درس العلوم والآداب والفنون من الناحية الاجتماعية، أي إنه تناول ما يسمى اليوم «علم الاجتماع الثقافي».

ولقد قدم في كتاباته لمحة عن كل ميدان من هذه الميادين تعد دراسات تمهيدية كافية لمن يريد أن ينطلق منها ليتعمق في موضوعاتها.

واكتسب علم الاجتماع أبعاده الحقيقية في أواسط القرن التاسع عشر، حينما حدد الرياضي الفرنسي أوغست كونت الإطار العام لهذا العلم مبتكراً اسمه المعاصر وهو «علم دراسة المجتمع» وعرفه بأنه: «علم دراسة قوانين ظواهر المجتمع» ومن هذا التعريف يستنتج أن توضيح العلاقات ما بين ظاهرة وأخرى بغية استخلاص قوانين عامة، أو ثوابت تشرح العلاقات وتنظمها، هو الشيء المهم لديه.

وكان للمهندس الإنكليزي هربرت سبنسر الأثر البالغ في إيجاد علم مستقل يبحث في الحياة الاجتماعية وظواهرها بوجه عام.

ومع أن كلاً من العالمين كان يعمل بمفرده، مستقلاً عن الآخر، فقد توصلا إلى ضرورة بحث الظواهر التي ترتبط بالحياة الاجتماعية بطريقة تتميز من طرائق تناول الظواهر الفيزيائية والكيمياوية والحيوية، ونتج لديهما أن الظواهر الاجتماعية يجمعها علم متكامل مستقل، هو علم الاجتماع الذي يهتم بدراسة سلوك الإنسان اجتماعياً.

وقد أرجع ماركس المتغيرات السياسية والسكانية والاجتماعية والفكرية كلها إلى النظام الاجتماعي السائد، ورأى أن للظروف الاجتماعية والاقتصادية أثراً كبيراً في تلك المتغيرات، فالسياسة الفكرية والأخلاقية والاجتماعية والسكانية هي جزء من السياسة العامة للدولة وهذه السياسة ترتبط بالمصالح الطبقية لبعض الأفراد.

ويلاحظ من عرض النظرية الاجتماعية عند ماركس أن اهتمامه انصب على البحث في التغير الاجتماعي، من حيث العوامل التي تسببه، والتي تميز مجراه وتطور آلية التغير واتجاهه وأبعاده والهدف النهائي له. ورأى ماركس أن العامل الحاسم في تطور المجتمع يكمن في التحولات التي تتم في قوى الإنتاج وعلاقاته، أي بالتحولات التي تتم في نطاق البنية التحتية، والتي تنعكس آثارها على مستويات البنية الفوقية غير أن ذلك لايعني أن جهة التغير تتم بوجه آلي ومطلق، فالتغيرات في البنية الفوقية تتوقف على شدة التفاعلات والتحولات في البنية التحتية، كما أن البنية الفوقية تعكس آثارها على البنية التحتية فتوفر الشروط الكافية للتحول الاجتماعي.

ويعد ماكس فيبر(١٨٦٤- ١٩٢٠) واحداً من أهم واضعي أسس المقولات النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، وهو بالتأكيد من أكثر علماء الاجتماع اهتماماً بمسألة الموضوعية في البحوث الاجتماعية. كما تعدّ بحوثه في الاقتصاد والسياسة والإدارة مراجع رئيسية للعاملين في تلك الميادين. وينظر إلى دراسته في نشوء الرأسمالية الصناعية في أوربة الغربية على أنها من أبرز المعالم التي تميز كتاباته، وقد أراد في تلك الدراسة، التي صنف فيها مؤلفاً خاصاً ربط فيه موضوع الدراسة باسم الكتاب، أن يطل على مسائل التغير الاجتماعي من خلال تحليله للعلاقة بين الأخلاق البروتستنتية والروح الرأسمالية، وأن العامل الديني عامل مفسر لوجود الظواهر الاقتصادية، بما فيه من قيم تعد المنطلق لتغيير السلوك الاجتماعي وبالتالي البيئة الاقتصادية.

إن أعمال فيبر كثيرة ومتنوعة، واتجاهاته في البحث لم تكن واحدة في أصولها النظرية والمنهجية، ففي بعض كتاباته، ولاسيما تحليله لمجتمع الأمطار والأنهار وما ينبثق عنهما من نماذج دينية، كان أقرب ما يكون إلى تحليل ماركس في العلاقة بين البنية الاقتصادية وما ينبثق عنها من قيم وأخلاق ترتبط بها أشد الارتباط، فالديانات التي نشأت في مصر وبابل على ضفاف دجلة والفرات تختلف عن الأديان التي سادت في بعض المجتمعات التي تعتمد على الأمطار.

وفي مكان آخر ينتقل فيبر إلى الإلحاح على

عنصر الأخلاق والقيم الاجتماعية حتى يخيل للقارىء بأن هذا العامل هو العامل الوحيد والرئيسي في تفسير ظواهر الكون والمجتمع عند فيبر.

وفي سعي العلماء لتحديد أطر علم الاجتماع أكمل دركهايم ما بدأه أسلافه من علماء الاجتماع، وحدد طرائق بحثه كما طبق هذه الطرائق في دراسة الظواهر الاجتماعية مميزاً وموضحاً الطبيعة الخاصة والصفات التي تستقل بها ظواهر التحرك الإنساني الاجتماعي وأشكاله عن الظاهرات الفيزيولوجية والكيمياوية والنفسية وغيرها، لأن الظواهر الاجتماعية تنشأ وتتوالد في بيئة جمعية نتيجة علاقات اجتماعية، وتتحدد معالمها بنظم ومؤسسات تنصهر فيها جميع المعتقدات وضروب السلوك التي تفرضها الحياة الاجتماعية. وقد أوصله هذا إلى ضرورة وجود علم يدرس الظواهر الاجتماعية لكونها ذات طبيعة اجتماعية خاصة لا يمكن ردها إلى حوادث فردية نفسية أو فيزيولوجية أو كيمياوية. واستناداً إلى ذلك عرف دركهايم علم الاجتماع بأنه «علم النظم الاجتماعية الذي يبحث في طرائق نشأتها ووظائفها». ويلاحظ أن دركهايم، في تعريفه لعلم الاجتماع، لم يقتصر على ضرورة دراسة النظم ونشأتها وتطورها فقط، بل تعدى ذلك إلى دراسة وظائفها وتفاعلها مع بقية النظم الاجتماعية الأخرى انطلاقاً من كونه أحد أركان المدرسة الوظيفية.

ويميز دركهايم بين الظواهر السليمة والظواهر المعتلة في المجتمع، فيرى أن أحد المعايير الأساسية للتفريق بين النوعين السابقين هو ارتباط الظاهرة الاجتماعية بالشروط العامة للمجتمع. إنه يقرر أن الظاهرة الاجتماعية تعد ظاهرة سليمة (في حال نموذج اجتماعي معين ومرحلة معينة من مراحل تطوره) إذا تحقق وجودها في أغلب المجتمعات، وإذا لوحظت في هذه المجتمعات في المرحلة المقابلة نفسها لذلك النموذج في أثناء تطورها هي الأخرى. فشيوع العائلات الصغيرة الحجم في المجتمعات الصناعية ظاهرة سليمة، أما شيوعها في المجتمعات الزراعية فظاهرة معتلة. إذن، فالنظرة الموضوعية إلى الظاهرات الواقعية في المجتمعات ذات الأطوار الاجتماعية المعنية تدل على سلامة الظاهرة، أو اعتلالها بوساطة معرفة العموم أو الشيوع.

وتحتل المدرسة الوظيفية مكانة بارزة لدى جمهرة من الباحثين في مجالات علمية متعددة. ولعل أهم انتشار لها كان في نطاق علم الحياة، ذلك الانتشار الذي شجع كثيراً من الباحثين والعلماء على تبني المنطلقات الرئيسية لتلك المدرسة في مجالات أخرى شملت العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيمياوية. وقد تأثرت البحوث الاجتماعية بذلك الانتشار، فاعتمد بعض البحوث مفهوم المنظومة الاجتماعية إطاراً تحليلياً في سبر الواقع الاجتماعي. ولعل أهم توظيف لتلك المدرسة كان في نطاق البحوث التي تعنى بنمط العلاقات الاجتماعية ضمن المنظومة الاجتماعية لأجل فهم التغيرات والتفاعلات التي تتم في رحابها بغية رصدها والتعامل معها. فكان الاتجاه في تلك البحوث سائراً نحو محاولة تفسير آلية عمل النظام الاجتماعي من دون محاولة التدخل في تغيير أطره.

ويرتبط مفهوم «الوظيفة» بالغائية التي ترى أن ظواهر الحياة بأجمعها تسير إلى غاية موجهة وفقاً لنظام ثابت ومحدد، يؤثر فيه كل عضو بالأعضاء الأخرى ويستجيب لتأثيرات من تلك الأعضاء. فأعضاء البدن، مثلاً، مع أنها منفصلة ومرتبة بحسب أجهزة ووظائف محددة تسير وفق نظام ثابت ومحدد يؤثر بعضها في بعض. وكل ظاهرة بيولوجية من هذا المنظور تعدّ وظائفها علة من جهة ومعلولة من جهة أخرى. لذلك يوصف هذا النوع من العلاقات الوظيفية بالسببية الدائرية. وترمي هذه العلاقات الوظيفية إلى غاية محددة تتمثل في استمرار الحياة، فالغائية من هذا المنظور تتمثل إذن في وحدة وظيفية ضمن منظومة محددة تنتظم فيها ظواهر ووظائف محددة ومرتبة وفقاً لنظام ثابت، تتكيف متغيراتها الوظيفية تبعاً للشروط الأساسية التي تستوجب بقاء الكائن الحي في بيئته. فعملية التنفس من هذه الوجهة عملية تشترك فيها كل وظيفة من وظائف الحياة، علماً بأن الجهاز الموكل بها هو جهاز محدد منفصل عن بقية أعضاء البدن.

ويستخدم علماء الاجتماع تعبير «الوظيفة» للدلالة على ترابط الظواهر الاجتماعية فيما بينها في نسق وظيفي يوضح وظائف الأجهزة الاجتماعية التي تقوم بها في سبيل استمرار حياة المجتمع الإنساني، والتفاعلات التي تتم فيه. وتتحدد العناصر الرئيسية التي يتضمنها التحليل الوظيفي بوجود منظومة system اجتماعية ووجود حدود تحدد أطر تلك المنظومة، فتميزها من بقية النظم والمنظومات، ويتقاسم الأفراد ضمن المنظومة توقعات أساسية ترتبط بالأدوار التي يقومون بها، وتعدّ هذه التوقعات شرعية من وجهة نظر المنظومة وتخدم وظائف حيوية أساسية فيها. يضاف إلى ذلك أنه لابد من وجود أهداف محددة تسعى إليها المنظومة: فالتنظيمات الاجتماعية عند بارسونز مثلاً، وفق هذا الشرط، هي منظومات اجتماعية تتوجه مباشرة نحو تحقيق أهداف محددة تعد حيوية لبقاء النظام الاجتماعي ويبرز ضمن المنظومة الاجتماعية مفهوم التبادل بين الخلايا الرئيسية بوصفه واحداً من أهم المفاهيم التي توضح اعتماد كل خلية على الخلايا الأخرى، في التفاعل المستمر والدائم. وعند حدوث أي خلل في إحدى الوظائف تتأثر بقية الخلايا ضمن المنظومة، فإذا ما فرضت على منظومة حضارية ناحية سلبية، أو نفيت منها مسألة ما، تنتابها بذلك حالة من التوتر الحضاري. ثم إن المدرسة الوظيفية تميل إلى استخدام بعض المفاهيم الأخرى الخاصة بها مثل البنية الاجتماعية والمنظومة الاجتماعية والمكافأة والاتساق (الانتظام) وغيرها. وتثير المدرسة الوظيفية تساؤلات عدة في أذهان كثير من الباحثين الاجتماعيين، حول إمكان العزل والفصل مابين آلية عمل النظام الاجتماعي والعوامل التي تتدخل في تغييره. ولعل غياب العوامل المحركة للتغير الاجتماعي في نطاق دراسات بعض أتباع تلك المدرسة كان من المحرّضات التي دعت كثيراً من علماء الاجتماع لطرح اتجاهات معاصرة في نطاق المدرسة الوظيفية، ترم تلك الفجوات فيها وتستفيد من معطيات هذه المدرسة ونجاحها في فهم المسائل الاجتماعية. فبرزت اتجاهات معاصرة تربط ما بين الماركسية والوظيفية، وتستخلص عناصر التغير من الأولى من دون تحديد مسبق لأهمية كل عامل. كما برزت اتجاهات معاصرة في نطاق النظرية الماركسية تحاول أن تفهم آلية العمل ضمن المنظومة الاجتماعية بالرجوع إلى قوانين الجدل وتأكيد أهمية البنية التحتية، والتصورات التي تتم ضمنها في تحديد الوجهة الأساسية للتغيرات التي تتم ضمن المنظومة الاجتماعية من جهة،

وتلك التي تؤدي إلى تغيير أطرها من جهة أخرى.

علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية الأخرى

يشترك علم الاجتماع مع العلوم الاجتماعية الأخرى في دراسة المجتمع وما ينبثق عن تكويناته من مسائل اقتصادية واجتماعية وسياسية، ولاسيما ما يتعلق منها بألوان النشاط الذي يمارسه الإنسان في علاقاته مع أبناء جنسه في المجتمع الواحد والمجتمعات المختلفة.

وتتعدد العلوم الاجتماعية بتعدد نشاطات الإنسان الذي يحيا في مجموعات بشرية تقيم فيما بينها علاقات متنوعة ومتعددة، تعد في جوهرها موضوعات أساسية لتلك العلوم، ومنها الاقتصاد، والسياسة، والانتروبولوجية، والنفس، والإحصاء، والسكان، وغيرها. ويُدخل بعضهم علم اللغة ضمن مجموعة هذه العلوم.

ومع أن علم الاجتماع هو آخر علم استقل بمضمونه عن الفلسفة من بين جملة العلوم الاجتماعية، إلا أنه طبعها بطابعه الخاص فوصفت جميعها بأنها «اجتماعية». ومع أن النظرة الأولى إلى تلك العلوم توحي بأنها منفصل بعضها عن بعض، فإنها في الحقيقة تؤلف وحدة متكاملة. إنها تؤلف وحدة في كثرة، وكثرة في وحدة، وهذه الوحدة هي كما قيل «وحدة تجمع المتعددات المتمايزة» لأن هذا التمايز لا يعني انفصال أحد العلوم الاجتماعية عن الإطار العام لها، ولا يعني عدم تأثره بها أو تأثيره فيها. فالعلوم الاجتماعية برمتها تتشابك في موضوعاتها. إذ إنها بعمومها تتخذ الإنسان وسلوكه وأنماط تحركه هدفاً للدراسة مما يجعلها تترابط ترابطاً وثيقاً، ولكن الاختلاف يأتي من جهات يقع في مقدمتها أن بعض العلوم الاجتماعية ينظر إلى مسألة ما من زاوية تختلف عن التي ينظر منها بعضها الآخر وأن كيفية المعالجة متباينة في حالات كثيرة.

وتكتسب الفلسفة أهميتها ووجودها من كونها الميدان الذي يجمع العلوم كلها ويربط ما بينها كيما تبقى النشاطات والعلوم التي يمارسها الإنسان في تفاعل متكامل يبغي خير الإنسانية جمعاء. كما أن الفلسفة هي الأم التي ما زالت العلوم باتجاهاتها وأنماطها المختلفة تنفصل عنها مع بقاء روابط تجمعها بها، ذلك أنه لابد لمعقولية أي علم، وبرمجة خطواته ومنهجة مواضيع دراسته، من الارتكاز على فلسفة تسوّغ وجوده وضرورته وأهميته.

إن موضوعات الفلسفة تتمحور حول« ما وراء الطبيعة» ومشكلات الطبيعة الكبرى والوجود والصيرورة. إلا أن من مواضيعها ما هو قريب من التعبير عن واقع الحياة العقلية كالمنطق وتحليل أنماط التفكير، كما أن موضوعات كثيرة تتناولها العلوم الاجتماعية المعاصرة كانت قد شغلت بال الفلاسفة القدامى حتى العصر الحاضر: فمسألة البنيان الاجتماعي وألوان النشاط الإنساني حظيت بالقسط الأوفر من اهتمام الفلسفة، منذ أفلاطون في «جمهوريته»، وأرسطو في «سياساته».

وهكذا فإن علم الاجتماع علم منفصل عن الفلسفة ومستقل بذاته ولكن هذا لا ينفي أن يعود إليها من آن لآخر مستفيداً مما تقدمه.

وعلى صعيد آخر يرتبط علم الاجتماع وعلم السكان بروابط تجمعهما على مستوى واحد، هو صعيد السكان الذين لا تقوم للمجتمع قائمة إلا بهم، ولكن ما يميز أحدهما من الآخر هو طريقة تناول الظاهرة بالدرس والتحليل. فالهجرة ظاهرة ذات أبعاد سكانية وأخرى اجتماعية، فإذا اتجهت دراسة الهجرة مثلاً إلى أسبابها وعواملها ونتائجها فالدراسة عندئذ في نطاق علم الاجتماع، أما حين تتجه الدراسة إلى حركة السكان، وبحث أثرها في التركيب العمري للسكان ومعدلات الأعمار وما إلى ذلك فإن الدراسة تكون عندئذ في إطار علم السكان.

وأما علاقة علم الاجتماع بعلم الإحصاء فتبرز في الموضوع وهو الإنسان، غير أن علم الإحصاء يختلف عن علم الاجتماع من جهة معالجته للموضوع ذاته، فهو ينتهج طريقة القياس بقصد كشف لون أو ألوان التحرك الإنساني، أو الوجود البشري على نحو معين معتمداً لغة الأرقام أساساً في عمله.

وتتجلى العلاقة واضحة بين علمي الاجتماع والأنتروبولوجية في كونهما يدرسان مواضيع اجتماعية واحدة. فالمجتمع والسكان والإنسان تؤلف محاور رئيسية ترتكز عليها أبحاثهما ودراساتهما، فالأنتروبولوجية على نحو ما، يمكن النظر إليها على أنها دراسة السكان القدامى والمجتمعات التي سلفت، إنها، من هذا المنظور، محصلة تاريخ العلوم الاجتماعية. ومن الواضح أن وحدة البحث والتحليل في الأنتروبولوجية هي المجتمع المحلي، غير أن الأنتروبولوجية الاجتماعية، وهي فرع حديث من الأنتروبولوجية، تدرس مجتمعات معقدة معاصرة، مستخدمة مفهوم الحضارة في التحليل، وقد شاع استخدام هذا المفهوم في البحوث الأنتروبولوجية، حتى أصبح من سماتها المميزة. ومقابل ذلك فإن مفهوم المجتمع هو ما يميز الدراسات في علم الاجتماع. ويذهب بعض علماء الاجتماع، أمثال تالكوت بارسونز وكروبر إلى التمييز نظرياً بين هذين العلمين، الاجتماع والأنتروبولوجية، على أساس استخدام الباحثين للمفهومين: مفهوم الحضارة ومفهوم المجتمع.

أما علماء الاقتصاد المعاصرون فإنهم لا يختلفون في أن للظواهر الاجتماعية الأثر الكبير في علم الاقتصاد، ويكون اعتماده عليها أساسياً. فهو يتناول مسائله بالدرس والتحليل من جهة علاقتها بالمجتمع، حتى إن كثيراً من الاقتصاديين يرون أن الأساس في عملهم ليس الاقتصاد بل الاقتصاد السياسي، أي الاقتصاد من جهة علاقته بالمجتمع، لأنه علم يوجه عنايته لخدمة المجتمع. كما أن دراسة هذه المواد من زاوية علاقتها بالتحرك الإنساني يعطيها بعداً اجتماعياً وصورة مثلى، على أساس أن الواجب الأول هو توفير الرخاء والرفاه لأفراد المجتمع كافة. فلا عجب إذا احتل علم الاقتصاد مكانة بارزة ضمن مجموعة العلوم الاجتماعية التي تتبادل التأثير مع علم الاجتماع وترتبط به بوشائج متينة، انطلاقاً من ناحيتي وحدة الموضوع ووحدة الهدف.

كما أن العلاقة بين علم الاجتماع والسياسة تظهر جلية ضمن إطار السياسة الاجتماعية. فعمليات تسييس الأفراد معروفة منذ القدم، وقد ظهرت فيها نظريات كثيرة، مثل محاولات تنظيم النسل أو تحديد حجم مجتمع مدينة ما، أو برامج تشجيع الزواج. كما يعدّ توصيف المحاولات المؤدية إلى الاستعمار، على سبيل المثال، والغزو، واحتلال أراضي الغير بوصفها بلداناً غنية بالموارد الطبيعية أو مصادر الخيرات، ضمن شبكات علاقة علم الاجتماع بالسياسة.

ولما كان السلوك البشري والظواهر التي تسود في المجتمع والتي تؤلف محاور ينطلق منها الفعل الإنساني بجانبيه الواعي وغير الواعي هو مجال اهتمام علم النفس وعلم الاجتماع، فإن أول ما

يتبادر إلى الذهن أن موضوعاتهما متماثلة، غير أنها في الواقع لاتتطابق تماماً، كما أن شكل المعالجة يختلف بين العلمين لأن علم الاجتماع يتناول الإنسان بالدراسة لا على أساس أنه فرد، بل على أساس أنه ضمن مجموعة بشرية ينتمي إليها، وأنه واقع في بوتقة التحرك الإنساني. ومع ذلك كله يبقى صحيحاً أن كلاً من العلمين يأخذ بمعطيات الآخر وتتشابك نتائجهما، وهما يغنيان العلوم الاجتماعية ويأخذان منها معطياتها على مبدأ التأثير المتبادل الذي يحكم جملة العلوم الاجتماعية.

المنهج وطرائق البحث في علم الاجتماع

تتعدد مناهج العلم في سبر الواقع بتعدد الفلسفات العلمية السائدة في الحقب التاريخية المتلاحقة، وترتبط تلك المناهج بالظروف الموضوعية المكوّنة لتلك الفلسفات، وتبعاً لذلك فإن بنية المجتمع تعكس أنماطاً من طرائق التفكير العلمي، تتعدى النطاق الاجتماعي إلى بقية مجالات المعرفة الأخرى، كما تمثل النقلة من مرحلة إلى أخرى في التحولات الاجتماعية تغيراً في طريقة التفكير الإنساني، ونمط المعرفة السائدة.

ولقد كان المنطق الصوري، أو الشكلي، في رأي بعض الفلاسفة، ولمدة زمنية طويلة، الطريقة العلمية الوحيدة لاكتشاف ظواهر ومسائل جديدة في الكون والمجتمع. غير أن العلماء تمكنوا إبان عصر النهضة من اكتشاف وسائل جديدة في العلوم الطبيعية والوضعية عن طريق استقراء الواقع، والملاحظة المباشرة من دون الرجوع إلى المبادىء الأولى لأحكام المنطق الصوري. وكان لتلك الاكتشافات أثر عظيم في نقل الفكر العلمي من أسلوب المنطق الصوري إلى أسلوب البحث العلمي المعتمد على استنباط النتائج من الواقع باستقرائه وملاحظة حوادثه.

وقد شهد الفكر الإنساني نمطاً ثالثاً في البحث عن الحقيقة كان عمادها المنطق الجدلي، وكان تحمس بعض العلماء لهذا النوع من المنطق شديداً إلى حد جعل هيغل يقول في مقدمته لكتاب المنطق: إنه لا يعلم طريقة صالحة سوى طريقة الجدل في الكشف عن أمور الطبيعة والمجتمع.

وقد يطول استعراض طرائق العلم في سبر الواقع والمراحل التي مر بها تاريخ الفكر الإنساني، غير أن المهم هنا هو تسليط الأضواء على التفاعل المستمر ما بين العلم وبنية المجتمع سواء أكان العلم طريقة في البحث، أم معارف متراكمة تؤثر في البنية الاقتصادية والاجتماعية وتتأثر بها. فالعلم بطريقته ومعارفه ـ مع أنه نتاج الظروف الموضوعية ـ يؤثر في تغيير البنية الاقتصادية لما يطرحه من معارف تستخدم في وسائل التقدم التقني وخلق الظروف الجديدة في التفاعل الاجتماعي.

وتتكون عناصر الاستراتيجية المنهجية في علم الاجتماع من جملة مسائل تبرز في مقدمتها طرائق البحث المعتمدة في سبر الواقع الاجتماعي وهذه الطرائق هي الطريقة التاريخية، والمقارنة، ، وتحليل المضمون، والمسح الاجتماعي، ودراسة الحالة، والطريقة التجريبية.

الطريقة التاريخية. تعرف الطريقة التاريخية بأنها استخلاص المبادىء عن طريق الماضي، وتحليل حقائق المشكلات البشرية والعوامل أو القوى التي أثرت في الحاضر وجعلته على ما هو عليه. فالطريقة التاريخية في ذلك تنظر إلى المعلومات التاريخية على أنها مركبات للقوى الاجتماعية، وتصف الظواهر الاجتماعية بأنها عمليات اجتماعية مركبة ومترابطة ومتشابكة. وهي بذلك توضح ماهية الظاهرة المدروسة في عصورها المختلفة وتمكن الباحث من الوصول إلى استنتاجات وتعميمات عامة، وذلك باستخدام مجموعة من الوسائل والتقنيات يلجأ إليها الباحث بغية الوصول إلى حقيقة الظواهر الاجتماعية.

وتنبع أهمية الطريقة التاريخية من أن الحياة الاجتماعية متطورة ومتغيرة ومتجددة لاتعرف الجمود ولا التوقف، ويحتاج فهمها فهماً كلياً إلى تعرُّف طبيعة ما تحتضنه من أمور متنوعة ترافق مراحل نموها المختلفة.

إن الظواهر التاريخية متشابهة، إلا أنها تحدث في قرائن تاريخية متباينة، ويمكن اكتشاف أسبابها وتعليلها عن طريق دراسة كل من هذه التطورات دراسة مفصلة، ولكن لن ينجح الباحث في ذلك إذا نظر إلى تلك الظواهر بطريقة تتخطى المراحل التاريخية بمجملها، ولابد للباحث الاجتماعي هنا من فهم الظاهرة الاجتماعية المدروسة ضمن المنظور التي كانت سائدة فيه، لا أن يستخدم مفاهيم عصره لفهم ظاهرة تاريخية غابرة.

تستخدم الطريقة التاريخية في البحوث الاجتماعية بقصد الوصول إلى المبادىء والقوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية في إطارها التاريخي. واعتماد الباحث الاجتماعي الطريقة التاريخية في بحث ما لا يقتصر على الوقوف عند هذا الماضي فحسب، بل يرتبط بالقدر الذي يمكنه من تتبع نشأة العمليات الاجتماعية ونموها، ودراسة أثر ذلك، وتحديد الظروف التي أحاطت بها لمعرفة طبيعتها، وما تخضع له من قوانين ومؤثرات تقوم بدور مهم في نشأتها وتطورها، ففي ضوء الماضي يمكن فهم حاضر الشيء وتطوره في مراحل نموه المختلفة. ومن جهة أخرى فإن الماضي يتيح بلورة صورة ما يمكن أن يحمله المستقبل، ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك فيقرر أن الحاضر ما هو إلا نتاج الماضي، إذ إن حياة أية جماعة وما يسود فيها من أنظمة اجتماعية مختلفة تتصل اتصالاً وثيقاً بماضي هذه الجماعة وتاريخها.

وإن مما يدعو إلى استخدام الطريقة التاريخية في بحث الظاهرات الاجتماعية، طبيعة هذه الظاهرات المميزة لها فمن طبيعتها أنها لاتعيش في عصر الجيل الواحد (كجيل الفرد الحاضر) بل تعيش في وجود الجماعة، الذي بدأ في الماضي ماراً بمرحلة الحاضر متجهاً نحو المستقبل، لذلك يكون من الضروري في دراسة هذه الظاهرات دراسة وجودها في ماضيه، إضافة إلى دراسة حاضره.

وباختصار شديد، إن انتهاج الطريقة التاريخية في علم الاجتماع طريقةً علمية في البحث والاستقصاء يمكن الباحث الاجتماعي من دراسة منشأ الظاهرة، ومقارنة النشوء الأقدم بالحاضر، وبيان العوامل التي تقف وراء التبدل والتغير في سمات الظاهرة وأعراضها.

طريقة المقارنة: تشمل طريقة المقارنة إجراء مقارنات بين ظاهرتين اجتماعيتين أو أكثر، بقصد الوصول إلى حكم معين بوضع الظاهرة في المجتمع، والحكم هنا مرتبط باستخلاص أوجه التشابه أو التباين بين عناصر الظاهرات موضوع الدراسة لتحديد أسس التباين وعوامل التشابه. وطريقة المقارنة لذلك هي نوع من البحث يهدف إلى تحديد أوجه الخلاف والتشابه بين وحدتين فأكثر. وتتمثل المقارنة في ثلاثة أبعاد: بعد تاريخي يقارن بين أوضاع الظاهرة

في مراحل تاريخية متعاقبة، وبعد مكاني يقارن بين الظاهرة في مكان معين ووجودها في مكان آخر، وبعد ثالث هو البعد الزماني المكاني الذي يقارن بين وجود الظاهرة في مكان ما وزمان معين مع وجودها في أمكنة أخرى وأزمنة متباينة.

فالبحث الاجتماعي بطريقة المقارنة يتناول من جهة، تغيرات الحادث الاجتماعي في مجتمع واحد، إذ تتم دراسة التغيرات المتتالية ومقارنتها بعضها مع بعض في آن واحد للخروج بنتائج يمكن تعميمها حول هذا الحادث الاجتماعي من خلال تطوره التاريخي. ويتناول، من جهة ثانية، تغيرات الحادث الاجتماعي في عدة مجتمعات من جنس واحد، إذ تدرس تغيرات هذا الحادث الاجتماعي في تطوره التاريخي ولكن في عدة مجتمعات من جنس واحد كالمجتمعات العربية، ويعني ذلك توسع دائرة المقارنة، لتشمل عدداً من المجتمعات المنسجمة فيما بينها أي الجنس نفسه. ثم إن البحث الاجتماعي يتناول، من جهة ثالثة، تغيرات الحادث الاجتماعي في عدة مجتمعات من أجناس مختلفة، أي إنه يقوم بدراسة الحادث الاجتماعي وتغيراته في عدد من المجتمعات.

ويزداد في البحوث الاجتماعية، ولا سيما تلك التي تستخدم فيها المقارنات الكمية، الاعتماد على الرياضيات والطرائق الرياضية فيتناول البحث الاجتماعي معطيات علم الإحصاء ليصبها في دراسته الاجتماعية للظواهر والحوادث الاجتماعية.

طريقة تحليل المضمون: تتوخى طريقة تحليل المضمون الوصول إلى وصف موضوعي منظم أو كمي لمضمون مادة معينة. ويعرف كارترايت تحليل المضمون في مجال الاتصالات بكونه يشير إلى الوصف الموضوعي المنظم والكمي لأي سلوك رمزي. فالغرض الرئيسي إذن من تحليل المضمون هو تحويل الظواهر إلى معطيات علمية، وقد ذكر كارترايت خصائص أساسية للمعطيات العلمية هي: الموضوعية والاستجابة لمتطلبات القياس، ومراعاة شروط التكميم masking، وأهمية هذه المعطيات للنظرية، وإمكان التعميم انطلاقاً من هذه المعطيات.

ولعل في طريقة تحليل المضمون ما يلبي الشروط السابقة ويستجيب لها وهذا، بلا شك، هو أحد الأسباب التي تفسر زيادة الإقبال على استخدام هذه الطريقة المنهجية. ويمكن النظر إلى تحليل المضمون بصورة خاصة (والتحليل الوثائقي بصورة عامة) بوصفه أحد المصادر الأساسية والفنية للمعلومات ومن المؤكد أن هناك مجالات في البحث الاجتماعي لايمكن أن تدرس ويستحصل على معلومات عنها إلا بطريقة تحليل المضمون.

وخلاصة القول، يستخدم مصطلح «تحليل المضمون» للإشارة إلى مجموعة واسعة من تقنيات البحث الاجتماعي التي يمكن استعمالها بصورة واضحة ومنتظمة لجمع البيانات حول ظاهرة محددة وتفسيرها والقيام باستنتاجات معينة حولها. وعلى أية حال فإن البحث في أمر وجوب أو عدم وجوب استخدام طريقة تحليل المضمون، أو أي من تقنياتها، يعتمد كلياً على طبيعة مشكلة البحث، وتوجهات الباحث، والإمكانات الفنية والمادية المتوافرة.

وتصلح طريقة تحليل المضمون للاستخدام في جميع فروع العلوم الاجتماعية. فقد استخدمت في علم الاجتماع لدراسة الظواهر المتعلقة بالتفاعل الاجتماعي، واستخدمت بنجاح في حقل علم النفس الاجتماعي والتحليل النفسي، والتاريخ، وفي العلوم السياسية واللغات، وعلم الجريمة وغير ذلك. وقد استخدمت هذه الطريقة في أثناء الحرب العالمية الثانية أداةً فعالة لتحليل مضمون الدعاية المعادية ومدى فعالية الدعاية الصديقة ووسائلها كالسينما والإذاعة وغير ذلك. وطبقت في مجال دراسة الأزمات الدولية، وأمور الاتصال. وكان استخدام هذه الطريقة في الأدب ناجحاً، إذ استعملت طريقة تحليل المضمون بنجاح لمعرفة المؤلف الحقيقي لعمل أدبي مشكوك بصحة نسبته إلى مؤلف معين، أو لمعرفة صاحب مؤلفات مجهولة المؤلف. وبصورة عامة فإن مجالات تطبيق تحليل المضمون واسعة جداً: فهناك فيض زاخر من الوثائق التاريخية والرسمية عن الأفراد والجماعات والمؤسسات وعن الحياة الاجتماعية بصورة عامة. وهناك المؤلفات والأعمال والصحف والمجلات والأقوال والأحداث المرئية أو المروية أو المحكية أو المرسومة وما تنتجه، وهناك ما يحيط بالمرء ويعيش معه من أجهزة إذاعية وتلفزيونية وسينمائية وغيرها، وهناك التقارير والمذكرات والرسائل الدبلوماسية وتقارير أجهزة الاستخبارات والسير الذاتية والمذكرات الشخصية.

طريقة المسح الاجتماعي: تعنى عملية المسح الاجتماعي بجمع الحقائق عن موضوع معين وتسجيل الملاحظات حوله، ويعد المسح الاجتماعي أحد الوسائل التي لجأ إليها الإنسان منذ القديم بغية تعرف ظواهر المجتمع والوصول إلى الحقيقة الكامنة وراءها. ومع تطور طريقة البحث في المراحل التاريخية المختلفة، أخذت عملية المسح الاجتماعي طابعاً جديداً، إذ بدأت تستخدم في جمع المعلومات حول مجالات محددة لإعطاء صورة عن مسائل ومواقف اجتماعية معينة (كاستقصاء أعداد السكان وجمع الحقائق حول أوضاعهم الاجتماعية وغير ذلك) من أجل اتخاذ القرارات والأحكام ذات الأغراض الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها.

ولقد تميز استخدام طريقة المسح في بداياته الأولى بالبساطة والسهولة، تبعاً لطبيعة المجتمعات القديمة وطبيعة الموضوعات المدروسة، فلم يكن ليتعدى مجرد التدوين الرقمي لكل ما يتعلق بالموضوع المطروح للدراسة بصورةعشوائية. وكان لابد من تغيير وسائل المسح وتطويرها نتيجة لتعقد المجتمعات وظهور الضرورة الملحة إلى جمع الحقائق عنها قبل وضع أية خطة أو سياسة أو برامج تتعلق بهذه المجتمعات، ضماناً لصحة الحقائق المجموعة ودقتها. فكان أن عمل العلماء في أواخر القرن التاسع عشر على تطوير عملية جمع البيانات وأساليبها، وأضفوا عليها ترتيباً منطقياً متسلسلاً بهدف الحصول على الحقائق المطلوبة بالدقة والصحة اللازمتين لأي بحث علمي، وفق طريقة نظامية أطلق عليها اصطلاح «المسح الاجتماعي».

طريقة دراسة الحالة: استخدم الباحثون دراسة الحالة منذ أمد بعيد لوصف الحياة الاجتماعية وتفسيرها. وما الشعر والنثر والقصص والأساطير إلا نوع من دراسة الحالة وتأريخ وجودها، غير أن الأسلوب الذي اتبع لسنوات طويلة ماضية في وصف الظاهرة الاجتماعية بطريقة دراسة الحالة يختلف عما هو عليه استخدامها في الحياة المعاصرة فاعتمادها أسلوباً علمياً لدراسة الأفراد والجموع البشرية والهيئات الاجتماعية، لم

يؤخذ به إلا منذ عهد قريب.

إن الدارس لتطور تاريخ طريقة دراسة الحالة يرى أن أول من استعملها في البحث الاجتماعي هو فردريك لوبلي في بحثه «العمال الأوربيون» فقد استعمل طريقة دراسة الحالة في هذا البحث عاملاً مساعداً للطريقة الإحصائية التي كانت عماد بحثه ولاسيما الشطر المتعلق منه بميزانية الأسرة.

ويعدّ الباحثان توماس وزنانيتشي أول من استعملا دراسة الحالة على نحو منفرد في ميدان البحث الاجتماعي. فقد أوردا في كتابهما عن الفلاّح البولندي مصادر مختلفة كالرسائل، وتاريخ الحياة، والسجلات من هيئات مختلفة. وكان غرضهما من ذلك معرفة مدى تأقلم الفرد في المجتمع الجديد الذي انتقل إليه، أو مقدار استطاعته هضم ثقافة هذا المجتمع.

وواضح مما سبق أن طريقة دراسة الحالة تتعدى نطاق وصف البيانات وجمعها إلى مرحلة التحليل والموازنة، وصولاً إلى تعميمات ومبادىء عامة تحكم السلوك الاجتماعي. ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذه الطريقة تشمل في تعريفها دراسة العمليات الاجتماعية التي تنبع فيها الخبرة البشرية ضمن الإطار الاجتماعي لجزء من حياة الوحدة أو لها كلها، سواء أكانت تلك الوحدة مرتبطة بالفرد أم بالأسرة أم بالجماعة أم بالنظام الاجتماعي.

وتأسيساً على ذلك فإن دراسة الحالة هي طريقة منهجية لدراسة السلوك الفردي في إطاره الاجتماعي إذ ينصب اهتمام الباحث على حالة واحدة، يتمكن من دراستها بعمق ودقة واهتمام، مشخصاً جميع جوانبها سواء أكانت هذه الحالة، فرداً أم أسرة أم مؤسسة أم هيئة اجتماعية (كجمعية تعاونية مثلاً) أم جماعة، أم مجتمعاً صغيراً (كالقرية مثلاً)، وهذا ما يُتّبع عادة في الدراسات الأنتروبولوجية.

الطريقة التجريبية: تعد الطريقة التجريبية واحدة من الطرائق الأساسية المستخدمة في المنهج الاستقرائي، وهي تعتمد على قواعد عامة في التجريب وإعادة حدوث الظاهرة، أو التدخل في شروط ذلك الحدوث، وتصبح الطريقة التجريبية في نطاق المنهج الاستقرائي دلالة على استقراء الحوادث وجمع البيانات حول كثير من الشواهد بما يؤيد صحة افتراض معين بدأ به الباحث بشأن موضوع الدراسة وهذا ما يخالف المنهج الاستدلالي.

وينطلق التجريب من موضوعات لها وجود خارجي بالنسبة للعقل، أي إنها لاتنطلق منه بل تفرض نفسها عليه من الخارج ليعمل على تفسيرها وتحليلها. وبمعنى آخر يمكن القول إن موضوع التجريب هو الوقائع الخارجية في حين يكمن موضوع المنهج الاستدلالي في المقولات العقلية. وقد برزت الطريقة التجريبية بتأثير الثورة التي تمت في نطاق العلوم، والانتقال من المنهج الاستدلالي إلى المنهج الاستقرائي في البحث. وتتوضح حقيقة المنهج الاستقرائي من خلال موازنته بالمنهج الاستدلالي الذي يقوم أساساً على أشياء من صنع العقل، والاستدلال هو الوصول إلى أشياء جديدة بالرجوع إلى قرائن أخرى لها عناصر في مقولات الفكر وفي مبادىء المنطق.

ورداً على هذا الاتجاه في كشف الظواهر، برز المنهج الاستقرائي وألح الباحثون ضمن هذا الإطار على أن الاستقراء منهج ناجح في الكشف عن الحقائق، وأن بالإمكان اكتشاف وجود عناصر وظواهر طبيعية عن طريق استقراء الحوادث والملاحظة المباشرة ومن خلال التجريب عوضاً عن مقولات الفكر. يستدعي هذا الأمر وجود وساطة بين الأشياء والظاهرة قيد الدراسة تُمكّن الباحث من الكشف عن موقع الظاهرة. وقد تكون هذه الوساطة الحواس المباشرة أو أدوات أخرى إذا قصرت تلك الحواس عن الملاحظة والمراقبة الدقيقة. أما الوساطة في المنهج الاستدلالي فهي مقولات العقل والفكر وليس ما يبتدعه الإنسان من وسائل مادية ترتبط بالحواس مباشرة.

ويعتمد المنطق التجريبي في نطاق الطريقة التجريبية على عمليات أساسية من ضمنها وأهمها مراقبة آثار التغيير التي يحدثها إدخال عنصر معين على ظاهرة ما، ليقرر في النهاية إن كان ما أدخل سبباً في حدوث الآثار الناجمة عن تلك التغيرات أم لا.

وللتجريب في العلوم أنماط تطبيقية تختلف من علم لآخر، تبعاً لمواضيع الدراسة في كل علم، ويذهب البعض إلى أن الملاحظة المتكررة، أو المراقبة أحياناً، تماثل التجريب بمعناه العلمي وتقوم مقامه. وتكوّن الملاحظة وسيلة من وسائل المنهج الاستقرائي تستخدم في دراسة الظواهر التي لا يمكن التحكم في كم متغيراتها، بهدف ملاحظة أو مراقبة مجموعة الارتباطات بين المتغيرات المكونة للظاهرة المدروسة.

ولم يميز بعض الباحثين بين الاستقراء بصفته منهجاً من مناهج التفكير الإنساني والبحث العلمي والتجريب بصفته طريقة من طرائق هذا المنهج، لما يتمتع به التجريب من أهمية في إطار المنهج الاستقرائي. ومع ذلك فمن الممكن القول إن الاستقراء يتميز من التجريب، لأن الأول يكوّن الخطوط العريضة التي يسلكها الباحث بغية الوصول إلى حقيقة العلاقات الموضوعية في الواقع قيد الدراسة، في حين تعدّ الطريقة التجريبية واحدة من طرائق المنهج العام. فإذا كان المنهج الاستقرائي يعتمد الواقع الخارجي أساساً لاختبار صحة افتراضات ومقولات أساسية في الفكر، فإن لديه طرائق متعددة لاختبار صحة هذه الافتراضات والمقولات، وكلها تنظر إلى الواقع الخارجي على أنه أساس في هذه الاختبارات، وهي تستخدم في العلوم تبعاً لمواضيع الدراسة ولتطور كل علم.

أما أدوات الطريقة التجريبية فهي الملاحظة والمراقبة والتجريب، ولا تستخدمها العلوم على درجة واحدة من التطابق. فمن هذه العلوم ما يقتصر على الملاحظة كما هو الحال في علم الفلك، ومنها ما يستخدم الملاحظة والمراقبة كما كان حال علم الحياة. كما أن هناك من العلوم ما يستخدم طرائق المنهج الاستقرائي الثلاث: الملاحظة والمراقبة والتجريب كالفيزياء والكيمياء.

ويستعين الباحث في إطار المنهج الاستقرائي ضمن كل طريقة من الطرائق المذكورة بمجموعة من الافتراضات التي يسير الباحث بهديها بغية التأكد من صحتها، والوصول إلى قوانين عامة يفسر بها حركة العناصر. والباحث يستخدم أدوات ووسائل تقنية في ملاحظته هذه، وقد تحول ظروف موضوعية محددة دون تمكينه من تكرار الملاحظة للظاهرة المدروسة، كمرور كوكب بوجه دوري، كل خمسين عاماً أو مئة عام، الأمر الذي يجعله يقتصر على المعطيات والمواد التي استخلصها من ملاحظته الأولى، واعتمادها أساساً لاختبار صحة الفرضيات التي وضعها لتفسير الظاهرة في أثناء حدوثها، إضافة إلى الاطلاع على الدراسات المشابهة لمثل هذه الظواهر.

وفي الدراسات الاجتماعية يلجأ الباحث إلى

دراسة الظواهر والنظم ساعياً وراء الأسباب والعوامل التي تؤدي إلى بروزها، ويستخدم في ذلك الطريقة التجريبية، إذ يبدأ بملاحظة الظاهرة، ثم يضع الفروض العلمية لتفسيرها. وأخيراً يلجأ إلى التأكد من صحة هذه الفروض وذلك باستخدام المراقبة الدقيقة أحياناً، والتجربة العلمية أحياناً أخرى.

وقد أثار دخول التجريب في ميدان البحث الاجتماعي مسائل كبيرة وكثيرة تداولها الباحثون ولهم فيها مواقف مختلفة، منها القانون الاجتماعي والسببية في العلوم الاجتماعية، ومسألة صعوبات التجريب ومنطقه في هذه العلوم.

كما طرحت مسألة العلاقات القانونية بين المتغيرات بحدة كبيرة في ميدان العلوم الاجتماعية، وبرزت اتجاهات متعددة حاولت نفي إمكان التجريب في هذه العلوم لعدم ثقتها في تحديد العلاقات القانونية في ميدان الحياة الاجتماعية من جهة وفي مضمار العلوم التطبيقية عامة.

وتجابه الباحثين ضمن إطار الدراسات الاجتماعية مسألة العلاقات السببية بين العناصر. فمن الصعوبة حصر أي تجربة على المستوى الاجتماعي بين متغيرين وحسب، من دون الأخذ بالحسبان تفاعل الجوانب والمتغيرات الأخرى في الظاهرة المدروسة، إذ لا يمكن التأكيد أن هذا العامل أو ذاك هو المسبب لهذه الظاهرة أو تلك أو نفي ذلك.

إن الظاهرة الاجتماعية أو السلوك الاجتماعي أو النظام الاجتماعي، وكل ما يتسم بصفة اجتماعية محددة، وقائع لا يمكن تفسيرها بالرجوع إلى عامل محدد رئيسي أو وحيد لأنها تنجم بصورة عامة عن تفاعل مجموعة تغيرات وعلاقات تؤدي إلى تكوين هذه الوقائع الاجتماعية. لذلك لا يمكن، ضمن مستوى تطور العلم الحالي، تأكيد صحة علاقة سببية بين متغيرين في العلوم الاجتماعية، تهمل دور التفاعل الذي تؤديه متغيرات أخرى مع هذين المتغيرين.

وتقترب فكرة السببية من فكرة العلّيّة إلى حد كبير، بل تتطابق معها أحياناً، فإذا كانت «ب» هي السبب في حدوث «ج» فمن الممكن القول إن «ب» هي علة «ج». وقد كانت الفيزياء، حتى القرن التاسع عشر، ترى أن القوانين الفيزيائية تنجم عن طبيعة الأشياء، وأن القوة تولد الأثر، فتكون القوة هي العلة، ويكون الأثر هو المعلول.

وفي العلوم الاجتماعية يبدو التشابك أشد تعقيداً، فمن الصعب تحديد العلاقة بين حدين، أي بين سبب ونتيجة، لأن هذه النتيجة في الواقع الاجتماعي لا تحدث إلا من خلال تفاعل مجموعة أخرى من العوامل مع العامل قيد الدراسة والاختبار والتجريب. وإن ما يدرس هو مدى إسهام هذا المتغير في إحداث التغير مع جملة المتغيرات الأخرى التي تسهم في هذه العملية.

ويعتقد بعض الباحثين أن من شأن التجريب على الظاهرات الاجتماعية التأثير في عفويتها، لما يتضمنه التجريب من تدخل الباحث في السير الطبيعي للظاهرة وجعلها تسير سيراً مصطنعاً، وبهذا لاتعود طبيعية، هذا إن أمكن إجراء بعض العمليات التجريبية. ولذلك فهم يرون أنه ليس من طريق أمام الباحث الاجتماعي سوى إجراء دراسات مقارنة بين الظاهرات الاجتماعية كما تجري في جوها الاجتماعي الطبيعي العفوي. ويقصد بالمقارنة هنا أن يقابل الباحث بين الظاهرات نفسها أو بين عناصر منها. ولهذا يقول دركهايم: «لما كانت الظواهر الاجتماعية لا تسمح بداهة بتدخل الملاحظ في سيرها الطبيعي، فإن الطريقة الوحيدة التي تتناسب مع طبيعة الموضوع الذي يدرسه علم الاجتماع هي طريقة المقارنة».

وهذه الفاعلية المحدودة من حيث مدى التأثير في الحوادث تنحصر في موقف الباحث، إذ إنه يلاحظ الظاهرات ثم يقارن بينها، وهذا التأثير المحدد هو تأثير باحث ملاحظ وتأثير باحث مقارن، وهكذا فالفرق بين التجريب في الظاهرة بقصد إيجادها أو تغيير جزء منها والملاحظة بانتظار مقارنة تليها هو فرق في الإيجاد أو التغيير، والمقارنة أيضاً تجري بين الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية على السواء كما تجري الملاحظة تماماً. وإذا كان الفرق ينحصر في الخطوة الأولى من الدراسة، وهي إيجاد الظاهرة أو تقبلها كما هي موجودة من قبل، فإن المقارنة مسبوقة بالملاحظة، وهي تجربة غير مباشرة، أي تجربة فيها بعض التأثير، ويتضح مقداره بعملية الفكر حين يلاحظ الفكر الظاهرات وعناصرها ويقارنها بغيرها.

ميادين علم الاجتماع

تأثر علم الاجتماع كغيره من العلوم بظاهرة التخصص التي برزت بصورة واضحة مع انتشار الحركة الصناعية وتقدم البحث العلمي فتشعبت اهتماماته وتعددت ميادينه، وأخذ كل منها يتناول جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية.

تتحدد ميادين علم الاجتماع وتتعدد تبعاً لنوع المتغيرات الاجتماعية المطلوب تحليلها وتفسير الظواهر الاجتماعية المتنوعة والمتداخلة معها، ولقد أصبحت الميادين في علم الاجتماع تنوف على ثلاثين ميداناً منها السياسي والبدوي والحضري والريفي وغير ذلك.

ويزداد التخصص في العلوم الاجتماعية عامة، وفي نطاق علم الاجتماع بوجه خاص نتيجة الجهود المبذولة في تحليل أطر معينة لبعض الظواهر الاجتماعية التي لها حركة خاصة بها، إضافة إلى تفاعلها وحركتها ضمن المنظومة الاجتماعية.

وإذا كان التفريق بين ميادين المعرفة يتم عادة بالرجوع إلى المتغيرات الأصلية التي تستخدم في تحليل الظاهرة وتعليلها ضمن منهج العلوم الواحد فإن التفريق بين ميادين علم الاجتماع يتم بالرجوع إلى الموضوعات التي تكوّن محور الدراسة والطرائق المستخدمة في تفسيرها.

وقد أضحت ميادين علم الاجتماع مجالات للتخصص يتصدى لدراستها باحثون اختصاصيون يجمعهم منهج علمي يرتبط بعلم الاجتماع العام، وقد اتسعت تلك الميادين لتشمل الحياة الاجتماعية بجوانبها المتباينة، والمجتمعات الإنسانية بمراحلها المختلفة، وفيما يلي مجموعة من تلك الميادين.

علم الاجتماع البدوي: يدرس هذا الفرع من فروع علم الاجتماع النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات البدوية أو المجتمعات التي تعيش على الرعي والانتقال وراء الكلأ. ويعد ابن خلدون أول باحث في علم الاجتماع البدوي إذ يتحدث في مقدمته عن «العمران البدوي والأمم الوحشية» فيصف حياة البدو بما فيها من خشونة العيش، والاقتصار على الضروريات في معيشتهم، وعجزهم عن تحصيل الضروريات... وفي جملة ما يقوله: «قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، العاجزون عما فوقه وأن أهل البدو وإن كانوا

مقبلين على الدنيا إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها... وإن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر».

وقد بحث الكثير من علماء الاجتماع المعاصرين في حياة كثير من الشعوب والقبائل البدوية ولاتزال الجهود مستمرة في دراسة القبائل البدوية ومسائل توطينها في حياة اجتماعية مستقرة.

علم الاجتماع التربوي: يهتم هذا الميدان من علم الاجتماع ببحث الوسائل التربوية التي تؤدي إلى نمو أفضل للشخصية، لأن الأساس في هذا الميدان هو أن التربية عملية تنشئة اجتماعية. لذا فإن علم الاجتماع التربوي يبحث في وسائل تطبيع الأفراد بحضارة مجتمعهم. والتربية أساساً ظاهرة اجتماعية، يجب أن تدرس في ضوء تأثيرها في الظواهر الاجتماعية الأخرى من سياسية واقتصادية وبيئية وتشريعية، وتأثيرها في المتغيرات الاجتماعية الأخرى من خلال عمليات التفاعل الاجتماعي. من هنا أكد الاجتماعيون ضرورة تحليل الدور الذي يقوم به النظام التربوي في علاقته بأجزاء البناء الاجتماعي الديمغرافية أو الاقتصادية أو السياسية، وعلاقته بمثالية المجتمع أو نظراته العامة والايديولوجيات التي تفعل فيه.

ويحتل علم الاجتماع التربوي مكانة خاصة في البلدان التي تعيش مرحلة نقلة حضارية، إذ تجري مجموعة من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية، تلك التغيرات التي تستوجب إعادة النظر في مسائل التربية والتعليم وما يتعلق بها من ظواهر اجتماعية تواكب تلك التغيرات وتعمق جذورها.

علم الاجتماع الحضري: يبحث علم الاجتماع الحضري تأثير حياة المدينة - الحضر - في أنماط السلوك والعلاقات والنظم الاجتماعية، فيدرسها ضمن إطار نشأتها، وطرق تفاعلها في الحياة المدنية، إنه يدرس الحياة المدنية من حيث هي ظاهرة اجتماعية ويتناول تكونها ونموها وتركيبها وجملة الوظائف التي تؤديها، ومنطلقه في ذلك هو أن ثمة عوامل تشترك وتتآلف ينتج عنها مجتمع مدينة على نحو متميز أو مألوف، فالمدينة لاتنشأ عفواً، بل لابد لذلك من عوامل طبيعية وجغرافية وسكانية واجتماعية وسياسية واقتصادية. ثم إن للعوامل الدينية والثقافية دوراً تقوم به في نشوء المدن ولا سيما في المجتمعات المتدينة والشرقية.

إن التفسير الكامل لنمو مدينة ما مرتبط بالتاريخ الكلي لها، وبطابعها الخاص، وبوظيفتها المتميزة (دينية وسياسية وإدارية وتجارية وصناعية)، ومن جملة هذه الجوانب يمكن استقراء العوامل المتداخلة في بلورة نمو مدينة ما على نحو معين. يضاف إلى ذلك أن ثمة مشكلات كثيرة لابد من بحثها هنا مثل مشكلة نمو المدن، وزيادة الكثافة السكانية في الكيلو متر المربع، وكذا الموقع بوصفه عامل جذب للمهاجرين، آخذين بالحسبان تباين أدوار المدينة نفسها في تطور المجتمعات. وثمة مشكلات أخرى يبحثها علم الاجتماع الحضري تتعلق أحياناً بالأطر الاجتماعية للحياة في المدينة، وما يتفرع عن ذلك من مسائل كالنقل والأجور، وحجم الأسرة أيضاً، وتداخل قيم التصنيع مع تطور المجتمعات. وتدخل ضمن المشكلات التي يبحثها علم الاجتماع الحضري مسائل تنظيم المدن، فيتدخل في قضايا تخطيطها شكلياً ورسمياً.

علم الاجتماع الجنائي: يتناول البحث، في علم الاجتماع الجنائي، أسباب الجريمة والانحراف والعوامل الاجتماعية الممهدة لكليهما، كما يدرس نسبة تواتر الجريمة وتعدد أساليبها وأشكالها، ويربط ذلك باختلاف المجتمعات وتباين النظم وباختلاف أحوال الأفراد المعيشية، وجملة العوامل والظروف الموضوعية والنفسية للموقف أو الحالة، أي الظروف التي تمهد للجريمة على هذا النحو أو ذاك، كما يرجع إلى نمط التفاعلات في البيئة الاجتماعية. وباستخدام لغة البحث العلمي يمكن القول: إن جملة هذه الظروف هي متغيرات تعمل على تفسير أشكال الجريمة ودوافعها.

ويدرس علم الاجتماع الجنائي الجريمة من منظورين: أولهما تأثير العوامل والتفاعلات الاجتماعية في حدوثها، وثانيهما أثر الجريمة في المجتمع.

ويأتي اهتمام علم الاجتماع الجنائي بالجريمة من كونها ظاهرة اجتماعية لازمت المجتمعات منذ حدوثها، وارتبطت بالنظم الاجتماعية المختلفة، وتركت أبعاداً في عمق المجتمع تختلف، ولو نسبياً، باختلاف المتغيرات الاجتماعية الأخرى في هذا المجتمع أو ذاك. وقد أضحت مشكلة الجريمة في القرن العشرين موضوعاً يشغل بال الكثيرين من علماء الاجتماع والنفس والقانون. ويرى أكثرهم أنها أصبحت معضلة يجب على الجنس البشري مواجهتها بغية تحقيق الإصلاح الاجتماعي، وتوفير الجو النفسي الملائم لنمو المجتمع وتطوره السليمين. والجريمة، بوصفها ظاهرة اجتماعية، متفشية في المجتمعات ذات الطور الحضاري غير الثابت، أو التي تعاني من هجرة أبناء الريف إلى المدينة حيث تنتشر البطالة الموسمية أو المقنعة ناهيك عن الدائمة. وليس المقصود هنا بالجريمة نمطاً واحداً من الفعل الإجرامي بل كل ما يهدد أمن الوطن أو المواطن من قبل مواطن آخر. والجريمة ظاهرة اجتماعية، ولها متغيرات اجتماعية ونفسية متعددة، وبنيان اجتماعي يحددها على هذا النحو أو ذاك، لذا فمن الواجب أن يشترك في دراستها، إضافة إلى الباحث الاجتماعي، المتخصص النفسي، ورجل القضاء ورجل الأمن، ليكشفوا مجتمعين عن جملة نتائج تسهم في عمليات ضبط الجريمة، والإقلال من نسبة تواترها أو حدوثها. مما يوفر على المجتمع والدولة الكثير من الطاقات والإمكانات المادية والبشرية.

علم الاجتماع الديني: يتناول علم الاجتماع الديني بالتقصي والتحليل النظم والتيارات الدينية السائدة في المجتمعات الإنسانية على اختلاف العصور، واختلاف البيئة الاجتماعية لمجتمع ما في نمط معيشته أو في طبيعة العلاقات الاجتماعية فيه على السواء. ولأن علم الاجتماع الديني يرى في المجتمع العوامل التي تحدد شكل الأديان ووظائفها، لذا فإنه يعني تباين أثر العوامل الاجتماعية، وارتباطها مع الدين بصفته ظاهرةً لايخلو منها أي مجتمع.

وما يهتم به علم الاجتماع الديني ويتناوله بالدراسة والتمحيص شعائر المناسبات المختلفة المرتبطة بالدين على نحو معين، وتأثير البيئة الاجتماعية فيها واختلافها بين مجتمع وآخر. وبين عصر وعصر (مثال ذلك اختلاف عادات الأعياد والزواج والوفاة والحداد). وبتأثير النظريات الاجتماعية الحديثة. فإن محدثين من علماء الاجتماع يغفلون النظر إلى نشأة الدين. فأصحاب المدرسة الوظيفية ينظرون إلى الدين نظرة موضوعية. ويحنمون لوظائف الاجتماعية الدينية من الناحية العملية ويخضعونها للدراسة

العقلية والميدانية في إطار المنهج التكاملي الوظيفي، أما المدرسة البنيوية فتعنى بتتبع التنظيمات والمؤسسات والطوائف والفرق الدينية وتشعباتها من حيث هي وحدات اجتماعية كان لها دورها ونشاطها في مظاهر النشاط الاجتماعي المختلفة سياسياً واجتماعياً وتربوياً واقتصادياً.

ولقد كثرت الدراسات في هذا الميدان المهم من علم الاجتماع وتباينت. ومن الأمثلة على ذلك دراسات ماركس حول وظيفة الدين ومكانته في المجتمع، وبحوث دركهايم حول نشأة الدين وتطوره، ووظيفته الاجتماعية وأثر العوامل الاجتماعية في تحديد بنيته وممارسة شعائره والأثر الكبير الذي خلفته دراسة ماكس فيبر عن الدين وعلاقته بالرأسمالية الصناعية، والنقد الذي وجهه مكسيم رودنسون إلى هذه الدراسة الأخيرة في بحثه حول الدين والتخلف.

علم الاجتماع الريفي: يهتم علم الاجتماع الريفي بدراسة العلاقات الاجتماعية القائمة في الجماعة الإنسانية التي تعيش في بيئة ريفية ويدرسها من حيث طبيعتها إذ تواجه الجماعة الريف وجهاً لوجه. إنه يبحث في خصائص المجتمعات الريفية من حيث نمط المعيشة أو نظام الإنتاج السائد بوصفه أكثر بدائية، كما يعنى بتحليل العلاقات الاجتماعية الأولية، والرباط العائلي (رباط الدم أو الزواج الداخلي)، ويحدد السمات والمميزات التي تميز المجتمعات الريفية من المجتمعات الحضرية. إن هذه السمات كانت منطلقاً لعلماء الاجتماع في دراستهم حين حددوا موضوع علم الاجتماع الريفي، وأبرزوا الصفات المحلية لهذا المجتمع من عوامل وتفاعلات اجتماعية، يتقبل بعضها التقدم ويرفضه بعضها الآخر ويعوقه. ومع أنه، من الناحية النظرية، يدرس أسس البنيان الاجتماعي الريفي، إلا أنه، من الناحية التطبيقية، يستخدم المعلومات التي جمعت عن السكان الريفيين لتحديد المشكلات التي تعوق نموهم وتقدمهم، لإيجاد الوسائل الكفيلة بحل مجمل المشكلات التي يعانون منها ولتحسين مستوى الحياة الاجتماعية الريفية، وأخيراً لرسم سياسة اجتماعية تعمل على رفع إسهام الريف بيئة وسكاناً في الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

ومرد الأهمية التي يحظى بها علم الاجتماع الريفي في الوطن العربي، إلى أن قسماً كبيراً من سكانه ريفيون، يعملون في الزراعة، ولهم طريقتهم الخاصة في الحياة التي تتميز من غيرها، ولقد حظي علم الاجتماع الريفي بمكانة مهمة في ميادين التعليم بالوطن العربي، فأصبح يدرس في الكثير من الجامعات والمعاهد العليا بكليات متعددة وأقسام مختلفة، كالجغرافية، وعلم الاجتماع، والزراعة، وأصبحت له فيها مناهج خاصة للبحث والدراسة.

ولعلم الاجتماع الريفي فروع تدخل في نطاقه منها: التنظيم الريفي، وتنمية المجتمع الريفي، والسياسات الاجتماعية الريفية، والسكان الريفيون، والإرشاد الريفي.

وباختصار، إن موضوع علم الاجتماع الريفي هو المجتمع الريفي، وما يسود فيه من علاقات اجتماعية، وما يحكمه من متغيرات بنيوية اجتماعية، ومن نظم وعادات ترتبط بالزراعة والصناعات الأولية. وتتسم موضوعاته بأنها تنصب على دراسة المجتمعات الأولية، والعوامل التي تساعد على تنمية المجتمع الريفي، وزيادة نسبة إسهام منتوجاته في الدخل القومي، كما يبحث في وسائل بناء الريف والمؤسسات والمراكز الاجتماعية العامة فيه، والسياسات التي تعمل على تطويره، والعوامل التي تدفع الريفيين للهجرة إلى المدينة، والوسائل الكفيلة بالحد من هذه الهجرة.

علم الاجتماع السياسي: يهتم علم الاجتماع السياسي بأثر المتغيرات الاجتماعية في تكوين بنية السلطة السياسية وتطور أنظمة الحكم في المجتمع. فالنظم الاجتماعية من وجهة نظر علم الاجتماع السياسي ليست إلا عوامل متغيرة (أو متحولات) أو عوامل مسببة، وما أمور السياسة وشؤونها غير عوامل تابعة، تتأثر بالعوامل الاجتماعية وتتغير بتغيرها. وعلى هذا فإن أي فهم دقيق للنظم والمؤسسات السياسية يتطلب تحليلاً لمرتكزاتها الاجتماعية ورصداً لعناصر التغير في المجتمع.

إن علم الاجتماع السياسي يُعنى بتوضيح الأساس الاجتماعي للنظريات السياسية مقابل الأساس التاريخي، كما يهتم بتوضيح جملة مشكلات تتعلق بالحياة السياسية مثل الحرية وعلاقتها بالدولة والسلطة، والديمقراطية السياسية، والثورة والرأي العام، والأمة والقومية، والطبقة والنخبة والقيادة والزعامة، واللامبالاة في كل ما يتفرع عنها. كما يبحث علم الاجتماع السياسي في علاقات الإنتاج ومكانتها في نشوء ظاهرة الاغتراب، بوجوهها المتعددة السياسي منها والاقتصادي والاجتماعي، وأثرها في إبراز تفسخ المجتمع إلى طبقات في المجتمعات البرجوازية والرأسمالية، ومكانة الدولة في حماية مصالح الطبقة الاجتماعية المسيطرة اقتصادياً. كذلك يبحث في العوامل التي تؤدي إلى نشوء الاستعمار والاحتكارات الكبرى، والتفاعل الاجتماعي في إطار الدول الرأسمالية الصناعية الكبرى، وما ينتج عنه من تنافس. وبالمقابل يدرس التفاعل الاجتماعي في البلدان الاشتراكية من حيث اتجاهه نحو التعاون، وما يتضمنه التفاعل الاجتماعي في مجموعة الدول النامية من تغيير وتحديث، لأن للتفاعل الاجتماعي بين القوى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أثراً بالغاً في تحديد شكل الدولة التي هي معقولية المجتمع، وأثراً في الثقافة والقانون والدستور وفي تسييس المجتمع وتغيير بنيته.

ثم إن علم الاجتماع السياسي يبحث في كيفية نشوء مجتمع دولي «مُسَيس» يقوم على السلام والعدل ويسعى إلى سعادة البشرية جمعاء، غير أن هذا لا يعني تطابق النظرة والمعالجة لهذه الموضوعات بين علم الاجتماع السياسي وعلم السياسة فالنظرة الاجتماعية إلى أمور السلطة والسياسة تختلف عن النظرة السياسية، لأن العلوم السياسية تركز اهتمامها على تبيان أثر السلطة في إحداث التغير الاجتماعي وتدرس مسائل الإدارة وشؤونها بمعزل عن التطورات الاجتماعية والاقتصادية في نطاق المجتمع الواسع، في حين يهتم علم الاجتماع السياسي بأثر العامل الاجتماعي والتغير الاجتماعي في تكوين بنية السلطة والدولة والحكم والسياسة وتفسيرها.

علم الاجتماع الصناعي: يعنى علم الاجتماع الصناعي بالبناء الاجتماعي للتنظيمات الصناعية من جهة وبالعلاقات والتفاعلات الحادثة بين هذه التنظيمات والبناء الاجتماعي الكلي من جهة أخرى، ويهتم علم الاجتماع الصناعي بكيفية ارتباط نسق اجتماعي فرعي، بالأنساق الفرعية الأخرى (أي النظم الاجتماعية الأخرى)، ويهتم علم الاجتماع الصناعي كذلك بالكيفية التي يبنى بها النسق

الاجتماعي الفرعي، كما يهتم كذلك بالكيفية التي يصبح بها الأشخاص مناسبين للأدوار التي يقومون بها. ويشتمل النسق الاجتماعي في هذه الحالة على الأنساق الاجتماعية الفرعية، الأسرية والسياسية والدينية والتربوية والطبقية والقيمية وغيرها من الأنساق الفرعية الأخرى التي ترتبط بالنسق الاجتماعي الاقتصادي الصناعي الفرعي.

وعلى هذا الأساس يمكن تعريف علم الاجتماع الصناعي، بأنه العلم الذي يدرس العلاقات الاجتماعية في محيط الصناعة وتنظيماتها، والطبيعة الاجتماعية للعمل والظواهر الاجتماعية المرتبطة بها كالفراغ والتقاعد والبطالة، ويحلل البناء الحرفي والمهني، ويبحث كل حرفة وكل مهنة بحثاً اجتماعياً شاملاً متكاملاً، ويتقصى علاقات البناء الحرفي والمهني بالبناء الاجتماعي العام.

ويمكن وصف ميدان علم الاجتماع الصناعي بأنه دراسة العلاقات الاجتماعية في أوضاع صناعية أو تنظيمية متعلقة بالإدارة، والطريقة التي تؤثر بها هذه العلاقات في العلاقات الجارية في الجماعة الأكثر اتساعاً وتتأثر بدورها بها.

وهناك شبه إجماع بين من كتبوا في علم الاجتماع الصناعي على أن ميدانه يشمل دراسة تطور الإنتاج من الشكل المبسط في المجتمع التقليدي إلى الشكل المركب المعقد في المجتمع الحديث، الذي يعد العلم والتقنية أهم مظهرين من مظاهره. ويتضمن ميدان علم الاجتماع الصناعي دراسة المصنع من حيث هو جماعة تشتمل في داخلها على مجموعات اجتماعية شتى لكل منها نسق اجتماعي معين، كما يتضمن التنظيم النقابي للعمال في المصنع الواحد، وفي الدولة ، ويشتمل كذلك على دراسة بالغة الأهمية موضوعها الصناعة والمجتمع من النواحي المختلفة، وعلاقة التغير التقني بالتغير الاجتماعي والآثار المتبادلة بينهما.

علم اجتماع العائلة: يتناول علم اجتماع العائلة بالدراسة والتحليل والتعليل خصائص الأسرة، والوظائف التي تؤديها والعوامل التي تتأثر بها وتؤثر فيها، كما يوجه عناية خاصة إلى الدور الذي تقوم به العائلة في تنظيم علاقات الأفراد في المحيط الأسري. ويبحث في النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تساعد على استمرار تركيب العائلة وتطورها. وللعائلة جذور تاريخية أعمق من أي ميدان آخر في علم الاجتماع، أو من أية ظاهرة اجتماعية أخرى فلقد وجدت العائلة مع وجود المجتمعات الإنسانية. ويمكن القول بأن المجتمعات الإنسانية وجدت بوجود العائلة، ولسوف تستمر المجتمعات تستمد ديمومتها من ديمومة العائلة. ولقد ارتبط تغيرها بتغير المجتمعات من حيث بنيتها أو وظائفها، فعرفت المجتمعات أشكالاً متعددة للأسرة، وأنماطاً عدة للزواج، والوصال الجنسي، وصلات القربى، ونشأ في كل مجتمع نموذج للعائلة، يلازمه نظام معين للقرابة ينسجم معه تماماً.

ويهتم علم اجتماع العائلة اهتماماً كبيراً بالعادات والتقاليد والقوانين المتعلقة ببنيان العائلة وكيانها، وكذلك ينظم الزواج، في كل من المدينة والريف، وعلاقاتها بالمعتقدات الدينية، وبالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والبيولوجية، كعامل رباط الدم ونظام القرابة. ويهتم علم اجتماع العائلة كذلك بما يترتب على نظم الزواج من نتائج مثل ظاهرة التأثر بالقرابة أو زواج القربى ـ الزواج الداخلي ـ وعلاقة ذلك بالتقدم العلمي التقني (التكنولوجي) والاجتماعي، وزيادة نسبة ظاهرة الأخذ بالثأر في المجتمعات الريفية والبدوية، ومدى تواترها مع شدة القرابة الدموية، واختفائها في المجتمعات المدنية الحديثة التي يظهر فيها تغيّر في أسلوب الإنتاج وانتشار التعليم على نطاق أوسع. كما يهتم بدراسة أسباب التفكك الأسري الذي وصلت إليه المجتمعات الصناعية، وما مسألة خلق جيل جديد يتفاعل مع معطيات التقدم الحضاري عن طريق التنشئة الاجتماعية المدروسة والمبرمجة إلا حلقة مهمة ضمن سلسلة دراسات علم اجتماع العائلة.

ولا يمكن إغفال أثر الدراسة المقارنة التي يقوم بها علم اجتماع العائلة من رصد لواقعها بين الريف والمدينة ومضارب البدو بغية كشف الخلل في عمليات الإنتاج في تلك المجتمعات، ولأجل رسم صورة مستقبلية على أفضل نحو مستطاع لكل من هذه المجتمعات الأسرية.

علم الاجتماع القانوني: يعنى علم الاجتماع القانوني بدراسة القانون والنظم القانونية من جهة تركيبها الاجتماعي، ويهتم بوصف الكثير من الاتجاهات المعنية بالعلاقات الموجودة بين القانون نصاً والمجتمع حيويةً (التحرك الاجتماعي)، كما يصف الحياة القانونية والسياسية بغية فهم مضامينها الاجتماعية العلمية. وهو بالتعريف ذلك الفرع من علم الاجتماع الذي يدرس الحقيقة الكلية للقانون مبتدئاً بأوجه التغير التي يمكن الإحساس بها وملاحظتها وتعرف مداها وآثارها المادية في السلوك الجسمي، ويرمي إلى تفسير هذا السلوك، وتلك المظاهر المادية للقانون تبعاً لما تنطوي عليه من معان خفية، بغية الكشف عن الحقيقة الكاملة للقانون في علاقته بالمتغيرات الاجتماعية التي تعمل على نحو ما في صيرورته وفي وجوده على هذا النمط. إلا أن علم الاجتماع القانوني يختلف في كثير من الحدود عن التحليل القانوني للمعايير والأعراف، وكذلك عن فقه القانون وفلسفته. وليس ثمة انسجام في أسلوب التفكير، أو في طريقة البحث، بين العلماء في ميدان فقه القانون وعلم الاجتماع، لأن القانون يمثل في نظر علماء الاجتماع ميداناً عملياً تطبيقياً، ولأن القانونيين يرون ميدان علم الاجتماع ميداناً نظرياً بحتاً. والحقيقة أن كلاً من الميدانين مرتبط بالآخر ارتباطاً وثيقاً وأن الواحد منهما مكمل للثاني، فيمكن تطبيق علم الاجتماع لدراسة النظام القانوني الذي يحفظ النظام العام في المجتمع، ويمكن أن يدرس رجل القانون ـ الذي يتجه وجهة اجتماعية ـ القوانين بوصفها ضابطاً اجتماعياً ذا ميزات خاصة في الدولة.

وعلم الاجتماع القانوني يهتم بوصف الكثير من الاتجاهات المعنية بالعلاقات الموجودة بين القانون والحقائق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والنفسية، كما يعدّ من أهم ميادين علم الاجتماع التي تحظى في العصر الحديث بعناية فائقة لدى كثير من القانونيين والاجتماعيين على حد سواء.

علم اجتماع المعرفة: يبحث علم اجتماع المعرفة في صحة التراكيب الفكرية السائدة في المجتمع، مع اهتمام خاص بتفسيرها وربطها بالمعلومات التي توصل إليها علماء الاجتماع بطريق التجريب، وعلى أساس ربطها بالظروف والمتغيرات الاجتماعية.

ومن هذا المنطلق يصبح علم اجتماع المعرفة امتداداً لنظرية المعرفة (الإبستيمولوجية) في الفلسفة يهتم بدراسة ومشاهدة كيف، وعلى

أي نحو، ترتبط الحياة العقلية في حقبة تاريخية ما بالقوى السياسية والاجتماعية، إلا أنه يبتعد عن أية أحكام تقديرية، سواء أكانت سياسية أم اجتماعية، ويخضع لمنطق الوقائع ويفسرها تفسيراً محايداً.

على أن هناك من يرى أن علم اجتماع المعرفة يبحث في الأفكار والوقائع والمعايير السائدة في المجتمع والعوامل التي أدت إلى وجودها، ومدى مطابقة هذه الأفكار لمنطق التطور التاريخي في المجتمع، وفي هذه الحال تبقى للإبستيمولوجية وظيفتها المستقلة.

ولكن مما يجعل موضوع علم اجتماع المعرفة قريباً من موضوع نظرية المعرفة أنه يهتم بتحليل العلاقات الوظيفية المتبادلة بين التراكيب والعمليات الاجتماعية والعلمية، وأنماط الحياة الفكرية بما في ذلك أنماط المعرفة أو الطريقة التي يتكون بها نسق التفكير عن طريق الوقائع الاجتماعية والتفاعلات الحاصلة ما بين المتغيرات الاجتماعية في البنية الاجتماعية.

ويمكن في العصر الحاضر الوقوف عند جملة أمور يتحدد بها علم اجتماع المعرفة، منها الموضوعية واستبعاد كل العناصر القيمية والمعيارية، وكذلك الأفكار الميتافيزيقية التي لا يوجد دليل واقعي على صحتها، لأن علم اجتماع المعرفة، الذي يراد له أن يكون علماً بالمعنى الصحيح، يجب أن يقوم على البحث العلمي السليم والدقيق لمسائله.

إن علم اجتماع المعرفة يهتم أولاً وآخراً بالحياة الفكرية، أو نسق التفكير على وجه العموم متضمناً نوع المعرفة، أو طريق دراسة الحقائق الاجتماعية أو تجريبها واقعياً أو كشفها في مرحلة تاريخية معينة من فحص الجذور الاجتماعية للمعرفة الإنسانية التي تتباين مابين مجتمع وآخر، وكذلك في المجتمع الواحد على مر العصور. وهو يعنى بأسس التفكير المنطقية من خلال دراسته للتحولات الاجتماعية التي تعزز تلك المعارف والأسس إذ تتشابك المعرفة الإنسانية بالمعرفة العلمية، ولقد أوضح كثير من علماء الاجتماع أن المعرفة العلمية والإنسانية ترتبطان بالنمط التحليلي للحوادث الطبيعية والاجتماعية.

ولما كانت المعرفة الإنسانية تتوزع على المنطق والفلسفة (ومنها فلسفة العلم ونظرية المعرفة)، وكذلك علم الاجتماع، وكان المنطق، من وجهة نظر علم اجتماع المعرفة، ليس إلا طريقة أو طريقاً في التحليل، وكانت الفلسفة النظرة الشمولية للكون والمجتمع، ولما كانت هذه الجوانب الفكرية الثلاثة ترتبط بجذور اجتماعية كان القول إن أي تحليل وظيفي أو بنائي للمجتمع لابد له من أن يأخذ بالحسبان التحولات الاجتماعية التي تسود في المرحلة المعنية. وقد ساد هذا النمط من التحليل الاجتماعي في علم اجتماع المعرفة في المجتمعات الاشتراكية والرأسمالية سواء بسواء، ولكن بوظائف متباينة.

علم الاجتماع وقضايا التنمية

يتناول علم الاجتماع قضايا التنمية من منحيين متكاملين، يرمي الأول منهما إلى غايات نظرية تتلخص في الوقوف على طبيعة الظواهر الاجتماعية والنظم، وكيفية نشوئها وتطورها، إضافة إلى ما تؤديه من وظائف في إطار البنية الاجتماعية العامة. ويرمي الثاني إلى الكشف عن طرق الاستفادة من القوانين الاجتماعية الطبيعية في تحقيق المنافع المادية والمعنوية لمجموع السكان المقيمين الذين يؤلفون بمجملهم المجتمع المعني. والثاني هو ما يعرف عادة بالجانب التطبيقي لعلم الاجتماع، أو ما يسميه بعضهم علم الاجتماع التطبيقي، غير أن هذه التسمية قد تؤدي إلى ملابسات نظرية تجعل من الجانب التطبيقي لعلم الاجتماع ميداناً خاصاً من ميادينه المتعددة، كعلم الاجتماع الريفي والصناعي وغير ذلك. وحقيقة الأمر، أن لكل ميدان من هذه الميادين منحى نظرياً، وآخر تطبيقياً ، الأمر الذي يجعل استخدام كلمة «الجانب التطبيقي» أو «المنحى التطبيقي» في علم الاجتماع أكثر سلامة من الناحية المنهجية من استخدام مفهوم «علم الاجتماع التطبيقي».

ويهتم الجانب التطبيقي في علم الاجتماع بدراسة أساليب الانتفاع من الحقائق النظرية والقوانين الاجتماعية الطبيعية في رسم السياسة التنموية وبرامجها من أجل تحقيق النقلة النوعية للمجتمعات والجماعات المدروسة.

ويعتمد المخطط والباحث في علم الاجتماع على محاور عدة، تتلخص بما يأتي:

- **رسم الصورة الاجتماعية لعملية التغير الاقتصادي والاجتماعي**: ويكون ذلك بتحديد وجهة التغير الاجتماعي وكذلك التغيرات المقصودة المزمع إحداثها في البيئة الاقتصادية والتركيب الاجتماعي. إن تحديد الأهداف الاستراتيجية لعملية التنمية من الأمور التي يجب أن يعنى بها عالم الاقتصاد والاجتماع والسياسة. فالاختيار بين التصنيع والنشاط التجاري، أو التحوّل من أحدهما إلى الآخر، أو الوصول إلى المزيج الأفضل في مرحلة زمنية معينة، مسائل ترتبط بخلايا اقتصادية واجتماعية على حد سواء، وإن رسم الصورة الاجتماعية لعملية التغير الاقتصادي والاجتماعي تتعدى الأمور الاقتصادية لتتناول نوع الخدمات الاجتماعية، ونسبة زيادة الدخل القومي، وكيفية توزيعه، وسياسة محو الأمية، وتعميم الخدمات التعليمية وتحسينها، وربط التعليم والتدريب بخطط التنمية، وتوفير المناخ الاجتماعي المناسب لتفاعل الناس مع معطيات الشروط الجديدة للتقدم والوصول إلى عملية التشغيل الكامل، أي ضمان حق كل فرد في العمل، والقضاء على البطالة، ورفع مستويات العمالة في كل المناطق، والعمل على توفير الشروط الاجتماعية المناسبة التي تعمل على استقرار قوة العمل الوافدة، ودفعها إلى تكوين شريحة سكانية منصهرة في بوتقة المجتمع المحلي، وذلك في المجتمعات التي تتصف بندرة المهارات الفنية وضيق القاعدة السكانية، وباختصار فإن رسم الصورة الاجتماعية لعملية التغير الاقتصادي والاجتماعي تتمثل بتوفير الاحتياجات الاجتماعية للأفراد وربطها بشروط التقدم المتطورة من خلال رسم استراتيجية عامة للتنمية تتفاعل فيها الأهداف الاقتصادية مع الأهداف الاجتماعية في حركية مستمرة وموازنة دائمة بين الحاجات والإمكانات.

وتؤلف الموضوعات التالية تحديداً للعناصر الأساسية التي يمكن مناقشتها نقاطَ ارتكاز لبحوث اجتماعية في نطاق المحور الأول: تركيب القوى الاجتماعية الرئيسية في الوطن العربي وخصائصها، ومجتمعات «الأنهار» ومجتمعات «الأمطار»، والعلاقة بين النخبة الزراعية والصناعية، ومنحى التغير الاجتماعي وأنماطه، وتحديد بعض الأهداف الاجتماعية لعملية التغير: ويشمل تحديد الأهداف الاجتماعية لعملية التغير في البلاد العربية: نوع الخدمات الاجتماعية ومستواها، والعمالة والاستخدام، ومحو الأمية، وتوزيع الدخل ومسألة الموازنة بين العمل والأجر، والتكامل

الاجتماعي العربي، وتغير العلاقات الإنتاجية في الريف، والإصلاح الزراعي وآثاره الاجتماعية.

ـ توضيح الأساس الاجتماعي لعملية التنمية الاقتصادية: ويتم ذلك بتحليل الأوضاع الاجتماعية اللازمة لعملية التنمية. فالتعليم مثلاً الذي يعد شرطاً ضرورياً لعملية التنمية الاقتصادية يجب أن ينظر إلى تأثره بالوعاء الاجتماعي وتأثيره فيه، وبالتالي فإن سياساته يجب أن تأخذ في حسابها المتغيرات الاجتماعية والسكانية المختلفة التي تميز مجتمعاً من مجتمع آخر. وعند ذكر التعليم تجمل كل المراحل التعليمية ابتداء من دور الحضانة وانتهاء بالدراسات العليا، فهو استثمار، موضوعه الإنسان، يمر بمراحل متصلة تتعاقب آثارها. ويؤكد علماء التربية، والمتخصصون في ميادين التعليم ذلك التلازم بين التعليم والإنتاج تأكيداً يدفعهم إلى حد القول إن الثورة التقنية (التكنولوجية) ترتبط إلى حد بعيد بالثورة التعليمية. ويتضمن العمل الاجتماعي في مجال التعليم جملة من المسائل أهمها ما يتعلق بسياسة القبول في المعاهد والجامعات، التي يجب أن تستند إلى حاجات النشاطات الاقتصادية والاجتماعية من القوى العاملة من جهة، والأطر الاجتماعية والقاعدة السكانية من جهة ثانية، فقد يرى المخطط مثلاً خفض السن الإلزامية للتعليم وتقصير المراحل التعليمية في مجتمعات تبرز الحاجة فيها لأعداد متزايدة من الخريجين وتؤذيها الموارد البشرية المحدودة والقاعدة السكانية الضيقة. ومن تلك الشروط أيضاً تحديد حاجات التنمية الاجتماعية والتغير الاجتماعي. فإذا كان للتربية أهداف اقتصادية، فإن لها كذلك أهدافاً اجتماعية وإنسانية تتمثل في تكوين فكر إنساني معتمد على العلم وموجّه نحو الخير والحق. فالتعليم وسيلة أساسية للتفاعل الاجتماعي، وهو أيضاً استثمار للطاقة البشرية التي تمثل أهم عناصر الإنتاج. ومما لاشك فيه أن لتطور الخدمات التعليمية أثراً كبيراً في استقرار قوة العمل الوافدة وجذب المزيد منها، لارتباط هذه الخدمات بمستقبل أبنائهم، ومن هنا كان من أهم العوامل الأساسية في تحديد جهة الاستقرار والحركة للقوى العمالية الوافدة هو مستوى الخدمات التعليمية وتطورها: فبقدر ما تمنح الدولة خدمات وتيسر انتساب أبناء الوافدين إلى مدارسها، فإنها تسهم باستقرار قوة العمل الوافدة وانخراطها في المجتمع.

وما ينطبق على التعليم ينطبق كذلك على التدريب المهني وتوفير الخدمات الصحية والترويحية والسكنية وغيرها من الأسس الاجتماعية المهمة لتنشيط العملية الاقتصادية. إن التنمية الاقتصادية لا تحقق أهدافها الكاملة إلا إذا سايرتها تنمية في مجال الخدمات الاجتماعية تلبي حاجات الاقتصاد من العناصر الفنية المدربة وتخلق قاعدة متعلمة تستوعب التقدم الاقتصادي وتعمقه وتوفر خدمات تضمن الاستقرار النفسي والاجتماعي والصحي لجميع أفراد المجتمع.

ويتم توضيح الأساس الاجتماعي لعملية التنمية بدراسة للأنظمة القائمة في الأقطار العربية في نواح عدة منها: النظم والمؤسسات الاجتماعية، والتربية والتعليم والتدريب المهني، والصحة، والترويح واستغلال أوقات الفراغ، والوعي الاجتماعي والمشاركة الفعالة في النشاطات الحيوية والأساسية.

ـ التصدي للعقبات الاجتماعية التي تحول دون عملية التنمية: هناك عقبات من نوع اجتماعي تحول دون تنفيذ عملية التنمية. ومن ذلك ما في البيئة الاجتماعية من العادات والتقاليد والوظائف المختلفة للتركيبات الاجتماعية التقليدية.

فالبناء الاجتماعي الذي يعتمد على الترابط القوي داخل الوحدة الاجتماعية ترابطاً يحد من التفاعل مع الوحدات الاجتماعية الأخرى يقف عقبة في طريق التنمية الاقتصادية والاجتماعية إذ إن عملية التنمية هذه تعتمد على التحرك والتغير والتفاعل الاجتماعي بين جميع أفراد المجتمع وإسهامهم البنّاء في رسم صورة المجتمع الحديث.

ومن هنا تبرز مسؤولية المخطط الاجتماعي أو المنظم والعامل في إطار التنمية الاجتماعية في أن يعمل على تغيير تركيب هذه البنية الاجتماعية الموجودة. وتتم عملية التغيير هذه عن طريق التأثير في هذا النظام وتفتيته ومن ثم إيجاد نظام جديد لتلك الهيئة يقوم مقام النظام السابق ويلبي متطلبات التغير الاجتماعي التي تعد أساساً لعملية التنمية.

وتتمثل العقبات الاجتماعية بمستويات متعددة، بعضها يتعلق بالتركيب الاجتماعي، وبعضها بالوظيفة الاجتماعية لذلك التركيب، وبعضها في مستوى العلاقات الاجتماعية والظواهر والتقاليد، ومن تلك العقبات المتعددة والمتنوعة في المجتمع العربي يذكر تركيب العائلة العربية في المرحلة التقليدية، والتشتت السكاني، والتركيب الاجتماعي، وبعض العادات والتقاليد الاجتماعية وانخفاض نسبة مشاركة المرأة العربية في النشاطات الاقتصادية والاجتماعية، وتوزيع الدخل والتخلخل السكاني وبعض الاتجاهات العامة نحو العمل، والوقت.

ولعل التركيز على الموضوعات التالية يعين على فهم بعض العقبات الاجتماعية التي تقف في طريق التنمية في الوطن العربي: البُنى والتراكيب الاجتماعية التي تقف في طريق التنمية، والعائلة التقليدية والتركيب الاجتماعي الطبقي، والتشتت السكاني وتركيبه وتوزعه، والتفاعل الاجتماعي بين الوحدات الاجتماعية ضمن المدينة والريف وبينهما، والقيم التي تحد من الحراك الاجتماعي، والحوافز الاجتماعية، وإسهام المرأة في العمل، والظواهر والعادات والتقاليد الاجتماعية التي تؤثر في نمط العلاقات الاجتماعية.

ـ مواجهة المشكلات الاجتماعية التي تنشأ عن عدم التوازن بين العلاقات الاجتماعية والتغير في البيئة الاقتصادية: إن التغيير في البيئة الاقتصادية قد تواكبه مشكلات اجتماعية خطيرة إذا لم يحسن توجيهه. وقد بدأت تظهر في الدول النامية مشكلات اجتماعية ترتبط بنشاطات اقتصادية جديدة. ومن هذه المشكلات ارتفاع نسبة الجرائم، وانحرافات الأحداث، والطلاق. ويكون في جملة الطرائق التي تعتمد في مواجهة مثل هذه المشكلات القضاء على الظروف التي تؤدي إليها، وإيجاد الحلول المناسبة للمشكلات التي تنشأ في أثناء عملية التغيير الاجتماعي وبعدها، والعمل على تفادي تلك المشكلات والتصدي لها قبل استفحالها.

وقد أضحت مسائل التكيف الاجتماعي مع التغيرات الاقتصادية والتقنية (التكنولوجية) المتلاحقة مما يثير قلق علماء النفس والاجتماع، إذ إنها تفرض أنماطاً من السلوك المتجدد المتطور. والتغيرات المستمرة في تلك الأنماط قد تخلق

اضطرابات تترك لمساتها على شخصية الإنسان واستقراره النفسي والاجتماعي. وقد أوضحت الدراسات المتعددة من أيام ابن خلدون أن مسائل التغير الاجتماعي لها انعكاسات على أنماط السلوك المختلفة تمتد إلى الجوانب السياسية والأخلاقية.

ومن أهم المشكلات الاجتماعية التي يمكن أن تنشأ عن عملية التغير السريع تفكك الأسرة والطلاق، والجريمة وانحراف الأحداث، وسوء التكيف الاجتماعي، وتكوّن أنماط جديدة من الاستهلاك وتلوث البيئة.

- **ضرورة رسم سياسة اجتماعية لتضييق الهوة بين التقدم الاقتصادي والاجتماعي**: إن التقدم الاقتصادي، كما هو معلوم، يسير عادة بخطوات سريعة على خلاف التغير في العلاقات الاجتماعية الذي يحتاج إلى وقت أرحب. فقد يكون من السهل إنشاء مصنع في غضون عام أو أقل، غير أن بناء قيم التصنيع، وما تحتاج إليه وما تقتضيه من سلوك اجتماعي لا يتوافر بمثل تلك السهولة وفي ذلك الزمن المحدود.

والمثال على هذه الظاهرة إيجاد مصنع حديث في بيئة اجتماعية تقليدية. فالتخلف الاجتماعي في هذه البيئة ينعكس على النشاط الإنتاجي داخل المصنع ويستلزم الأمر عندئذ التصدي لمعالجة التناقضات التي تنشأ عن ذلك.

محمد صفوح الأخرس

الموضوعات ذات الصلة:

ابن خلدون - الانتروبولوجية - البنية - دركهايم - المجتمع - مورينو.

مراجع للاستزادة:

- محمد صفوح الأخرس، علم الاجتماع (منشورات جامعة دمشق، المطبعة الجديدة، دمشق ١٩٨٣-١٩٨٤).

■ الاجتماع التربوي (علم-)

علم الاجتماع التربوي sociology of education وهو العلم الذي يدرس أثر العمل التربوي في الحياة الاجتماعية، ويدرس في الوقت نفسه، أثر الحياة الاجتماعية في العمل التربوي، أو هو العلم الاجتماعي الذي يدرس الظاهرة التربوية في مناحيها المتعددة، وفي إطار تفاعلها مع الواقع الاجتماعي.

مجالات علم الاجتماع التربوي

يهتم علم الاجتماع التربوي بمسائل مثل إيصال القيم الاجتماعية والثقافية والتربوية والدينية والوطنية إلى الطفل عن طريق النظام التعليمي، كما أنه يدرس المحددات الاجتماعية التي تؤثر في تقرير السياسات التربوية وأهداف النظام التعليمي، وكذلك تأثير المؤسسات الاجتماعية في النظام التعليمي، وتأثير العلاقة بين المدرسة والأسرة، في التحصيل المدرسي للطلاب، ودور النظام التعليمي في الحراك الاجتماعي، وأثر الأنماط الثقافية السائدة على النظام المدرسي، والتعلم عن طريق جماعات الأقران، والعلاقات بين أفراد تلك الجماعات، ودور التربية في إعداد الناشئة لسوق العمل، والتحليل الاجتماعي لبنية النظام المدرسي والعلاقات السائدة فيه، ودور النظام المدرسي بصفته أداة للسيطرة الاجتماعية والضبط، وإعادة إنتاج العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة، وتحديد الطبقات الاجتماعية المستفيدة من النظام المدرسي، والتي تطبعه بخصائصها اللغوية والثقافية، وأخيراً دور التربية في عمليات التحديث الاجتماعي.

تطور علم الاجتماع التربوي

ظهر هذا العلم نتيجة لجملة من التطورات الاجتماعية، منها توقع دور النظام التعليمي في ترسيخ الديمقراطية الاجتماعية والتربوية والحراك الاجتماعي عن طريق التحصيل المدرسي، وإعداد الطلاب للحصول على فرص عمل، وتعزيز دور المدرسة في التنشئة الاجتماعية للطفل، وتمثل أعمال إميل دوركهايم [ر] Emile Durkheim (١٨٥٨-١٩١٧)، وماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠) وكارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-١٨٨٣)، المقدمات النظرية لولادة علم الاجتماع التربوي. وقد تجلى إسهام كل منهم في هذا المجال في كتبه، إذ كتب دوركهايم: «التربية والمجتمع» Éducation et sociologie و«التطور التربوي في فرنسة» Evolution pedagogique en France وأسهم كتاب ماكس فيبر «الأخلاق البروتستنتية وروح الرأسمالية» L'éthique Protestante et l'espirt du capitalisme في شرح التطور الاجتماعي الرأسمالي في أوربة الغربية، وعرض كارل ماركس الفكر الاجتماعي التربوي بشرح تأثير البنية التحتية، وأنماط الإنتاج وعلاقات الإنتاج، على البنية الفوقية كالبناء الثقافي والحقوقي للمجتمع والنظام التربوي والمدرسي السائد، كما ركز على أهمية الموازين الطبقية في العملية التربوية، وعلى قيم كل طبقة اجتماعية وتصوراتها. وانتقد تربية الأطفال بأساليب الإكراه في المجتمعات الرأسمالية.

ومهّد هؤلاء الرواد لتطور علم الاجتماع التربوي، فقد بحث جاكار P. Jaccard في كتابه «علم الاجتماع التربوي» (١٩٦٣) أفكار دوركهايم، كما درس كل من جيرار A. Girard وباستيد K.Pastide، أثر الانتماء الاجتماعي على قوة التحصيل المدرسي في بحثهما «حول الطبقة الاجتماعية، وديمقراطية التعليم»، عام ١٩٦٣، وكتب بول كلارك Paul Clerc حول «الأسرة والتوجه المدرسي لتلامذة الصف السادس الابتدائي». ولعل أكثر الأعمال إثارة للاهتمام والجدل هي الدراسة التي قام بها كل من بورديو Bourdieu وباسرون J.C. Passeron بعنوان «إعادة الإنتاج: حول نظرية نظام التعليم» la reproduction: pour une theorie du système d' enseignement وهي دراسة تكشف عن أن النظام التعليمي السائد في فرنسة يعيد بناء العلاقات الإنتاجية القائمة على تعزيز السيطرة الاقتصادية للطبقات السائدة. وتكررت الفكرة نفسها في عمل كل من بودلو Baudelot واستابليه Estabelet في كتابهما: «المدرسة الرأسمالية في فرنسة» l'école capitaliste en France عام ١٩٧١. ويبين ريموند بودون Bodon في بحثه «ثقافات الحظوظ التعليمية» عام ١٩٧٤، أثر النظام المدرسي في عملية الحراك الاجتماعي في المجتمعات الصناعية.

ولعل أبرز الأعمال المهمة التي صدرت في بريطانية هو ماقام به فريد كلارك، حول «التربية والتغير الاجتماعي» الصادر في لندن عام ١٩٤٠، محللاً تاريخ التربية في المجتمع

البريطاني، وداعياً إلى توظيفها في خدمة الطبقات السائدة، واهتم باسيل برنشتاين Basil Brenstien عام ١٩٧٥ بمسألة العلاقة بين اللغة والانتماء الطبقي، مبيناً أن لغة النظام المدرسي في بريطانية كانت وما تزال تعكس فكر الطبقات المتوسطة في المجتمع البريطاني.

وقدمت مرغريت آرشر Margaret Archer في كتابها «الأصول الاجتماعية للأنظمة التربوية» Social Origins of Educational Systems الصادر في لندن عام ١٩٦٧، تحليلاً للقوى الاجتماعية التي أثرت في تطور النظام المدرسي لخدمة مصالحها الاجتماعية والاقتصادية. وبين فرانك مسغروف F. Musgrove في كتابه «المدرسة والنظام الاجتماعي» School and Social Order الصادر في لندن عام ١٩٦٨، دور المدرسة في تعزيز التفاوت الطبقي بين طلابها، ويؤكد كتاب مايكل دون المعروف باسم «التربية في بريطانية» Education in Britain الصادر في لندن عام ١٩٧٩ وفي الفصل المعنون باسم «التربية والفقر»، الحقيقة نفسها مبيناً أن النظام التعليمي في بريطانية جعل الناس المستفيدين منه قادرين على تحسين ظروف حياتهم المعيشية.

وقام جون ديوي [ر] J. Dewey (١٨٥٩ـ١٩٥٢) بدراسات تربوية واجتماعية وخاصة في كتابيه «المدرسة والمجتمع» The School and Society عام ١٨٩٩، و«الديمقراطية والتربية» Democracy and Education عام ١٩١٦ مبيناً أثر الحياة الاجتماعية التقليدية على العمل التربوي، وترك هذان الكتابان أثراً تربوياً كبيراً في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت مؤلفاته إجمالاً مؤثرة في التربية والمجتمع العالمي بتركيزه على الخبرة والحرية والديمقراطية والتعاون بين التلاميذ وأبناء المجتمع. ويؤكد داتون S.T. Datun في كتابه «الجوانب الاجتماعية للتربية» عام ١٩٠٠، ضرورة ربط التربية بخبرات الطفل الاجتماعية في المنزل والمجتمع المحلي. وكان لهنري سوزلو H. Suzzlo فضل استعمال تعبير «علم الاجتماع التربوي» في الولايات المتحدة الأمريكية أول مرة عام ١٩١٠ في جامعة كولومبية.

وفي المرحلة نفسها صدر أيضاً كتاب وليم هاولي سميث W.H. Smith «مدخل إلى علم الاجتماع التربوي»، الذي عرف هذا العلم بأنه «يستخدم نظرية علم الاجتماع وميادينه في دراسة قضايا التربية ونظرياتها وممارستها». ويطلق البعض على جورج باين G.Payne، لقب «أبو علم الاجتماع التربوي» فقد أصدر نشرة علم الاجتماع التربوي عام ١٩٢٨، التي أصبحت فيما بعد النشرة الرسمية للجمعية الوطنية لعلم الاجتماع التربوي التي تأسست عام ١٩٢٣.

وفي الستينات والسبعينات من القرن العشرين حصلت أزمات اجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية بسبب البطالة والجريمة والصراعات العرقية، وصدرت مجموعة من الدراسات المهمة حول ديمقراطية التعليم، لعل أشهرها الدراسة المشتركة لكل من باول وجنتس Bowels- Gentis بعنوان «النظام المدرسي في أمريكة الرأسمالية» Schooling in Capitalist America الصادرة عام ١٩٧٧، وكذلك دراسة إيفان إيليتش I.Iliych الشهيرة بعنوان «اللامدرسية» Deschooling. لقد حلل كل من باول وجنتس الطابع الطبقي للنظام المدرسي في الولايات المتحدة الأمريكية الذي يعزز فرص أبناء الطبقة الغالبة من الطلاب في النجاح الاقتصادي والمادي، في حين اهتم ايليتش ببيان مساوئ النظام المدرسي وطابعه القهري، ولذلك نعتها بهذه التسمية ودعا إلى التعلم الذاتي، والتعلم عن طريق جماعات الأقران التعليمية، وكتب بعد ذلك عدداً من الكتب بالاتجاه نفسه مدعماً أقواله بتطور التقنيات ونظم المعلومات وتغيرها مما يؤدي إلى تغييرات اجتماعية وتربوية سريعة.

ويحلل باتريك فيتز Patrich Fitz في كتابه «التربية والحراك الاجتماعي في الاتحاد السوفييتي» Education and Social Mobility in the Soviet Union الصادر في لندن عام ١٩٧٩، دور المدرسة السوفييتية في تمكين أبناء الطبقات الفقيرة من المجتمع السوفييتي من تحسين ظروف حياتهم المعيشية.

وأسهمت الدراسات الاجتماعية في دول العالم الثالث في الكشف عن مختلف أشكال القهر الاجتماعي والثقافي الذي تعرضت له مجتمعات تلك الدول في حقبة الهيمنة الاستعمارية، مما أدى إلى تعزيز تخلفها الثقافي والتربوي، وتمكن الإشارة هنا إلى كتاب فرانز فانون «معذبو الأرض» ودراسة ج. كابرال J.Kabral «السلطة والإيديولوجية» Power and Ideolgy.

وقد بينت بعض الدراسات الصادرة في تلك المجتمعات مسؤولية الأنظمة المدرسية في عهود الاستعمار عن الأمية الواسعة التي خلفتها في تلك المجتمعات بعد استقلالها، وخاصة اقتصار تعليمها على نخب معينة كي تخدم في أجهزتها الإدارية، وكشف باولو فرايري Paulo Freiri زيف حملات محو الأمية الرسمية في مجتمعات أمريكة الجنوبية والطابع القهري لمضامين المقررات المعتمدة في تلك الحملات لمحو أمية الفقراء من سكان الأحياء الفقيرة في البرازيل، ودعا إلى «تعليم للكبار» قائم على توعية الدارسين في صفوف محو الأمية بحقوقهم الاجتماعية والاقتصادية، وتعزيز ثقتهم بأنفسهم، مما يتيح لهم الإسهام في الإنتاج الاقتصادي والثقافي لمجتمعاتهم، والتخلص من هامشيتهم الاجتماعية. ويتضمن كتابه «تربية المقهورين» Pedagogy of the Oppressed وكتاب «التربية من أجل الحرية» Education for Freedom إشارات واضحة لتمكين الأميين الكبار من التحرر من دونيتهم الاجتماعية والثقافية.

وانتشرت أفكار فرايري في أمريكة اللاتينية وبقية أرجاء العالم، ولذلك اختير رئيساً فخرياً لمؤتمر تعليم الكبار في العالم الذي عقد في جومتيان في تايلند عام ١٩٩٠.

تطور علم الاجتماع التربوي في البلاد العربية

قامت معظم الجامعات العربية، وخاصة كليات التربية فيها بتدريس مادة علم الاجتماع التربوي مادة أساسية، إلا أن الدراسات والبحوث العلمية مازالت قليلة في مختلف مجالاته، وهناك دراسات قليلة لباحثين مهدت العلاقة بين فرص التعليم والاعتبارات الاجتماعية مثل دراسة زهير حطب المسماة «تكافؤ الفرص التعليمية للجنسين والاعتبارات الاجتماعية»، المنشورة عام ١٩٨١، و«صورة الشخصية العربية في أدبيات الأطفال التجارية في الكيان الصهيوني» لفوزي الأسمر، ودراسة نبيل بدران بعنوان «التعليم والتحديث في فلسطين من عام ١٩١٧ـ١٩٤٨» المنشورة عام ١٩٧١، و«الواقع الاجتماعي والأهداف التربوية» لعدنان عبد الرحيم، ودور التعليم العالي في الحراك الاجتماعي للطلاب الفلسطينيين في بحث

« التأثيرات الاجتماعية والتحصيل التربوي » Social Influences and Education Attainments . وصدرت كتب جامعية عن كليات التربية في الجامعات العربية، اهتمت بدراسة علم الاجتماع التربوي وخاصة فيما يتصل بتاريخه ومشكلاته وتطبيقاته في الحياة المعاصرة.

ونشطت في العقد الأخير من القرن العشرين كليات التربية العربية في تشجيع الطلاب على إعداد رسائل ماجستير ودكتوراه تناقش مشكلات تربوية معينة كالأسباب الاجتماعية للتسرب المدرسي، ومشكلات التعليم في الريف، وقضايا تتصل بدور التعليم في الحراك الاجتماعي، ويمكن أن يكوّن هذا التوجه بداية جدية لتطور البحوث الميدانية في مختلف ميادين علم الاجتماعي التربوي.

علي وطفة، عدنان عبد الرحيم

الموضوعات ذات الصلة:

التربية (علم -) - تعليم الكبار- دوركهايم - محو الأمية.

-FRANK, MUSGROVE, School and the Social Order (J.Wily and sons. London 1967).

-H.GINTOES & H.BOWELS Schooling in Capitalist America (Basic Books Publishers, New York 1967).

■ الاجتماع النباتي (علم -)

علم الاجتماع النباتي phytosociology هو العلم الذي يدرس الجماعات النباتية التي تكوّن الأَخْضُـورة الطبيعية vegetation من حيث تشكلها وبنيتها وتركيبها وتغيراتها وتصنيفها. والأخضورة هي محصلة تأثير العوامل البيئية في نباتات تعيش في مكان معين. أما الأُزْهورة flora فهي العد الإحصائي لكل الأنواع النباتية المنتشرة في مكان معين وجدولتها.

لمحة تاريخية

اكتشف النباتيون بعد زمن طويل أن الأخضورة في مكان معين ليست مجموعة عشوائية من أنواع نباتية متنوعة لا ترابط بينها، بل هي مجموعة محددة من نباتات ترتبط فيما بينها بقوانين تتحكم بحياتها الجماعية.

وكانت المحاولات الأولى في هذا الاتجاه قد بدأت في القرن الثامن عشر، في زمن انصب فيه الاهتمام الرئيسي للنباتيين على دراسة الأزهورة، أي وصف النباتات وجدولتها. وهكذا حاول العالم الجغرافي الألماني ألكسندر فون هَمْبُلت Alexander Von Hmboldt في عام ١٨٠٧ استنتاج مبدأ تصنيفي يعتمد على هيئة الأخضورة أو ملامحها العامة في منطقة معينة كالغابات والمروج، وصنف الغابة بدورها في غابة صنوبر أو غابة سنديان أو غابة شوح أو غير ذلك. وفي عام ١٨٣٩ استعمل غريزباخ Griesbach تعبير تشكيل جغرافي نباتي phytogeographic formation للدلالة على مجموعة من النباتات تتميز بهيئة خاصة محددة. وقد بقيت هذه الطريقة مستعملة لتصنيف الأخضورة حتى بداية القرن العشرين حين ظهر نظام آخر عرف باسم الأنماط الحيوية biologic types أوجده وقام بنشره العالم راونكير Raunkier في عام ١٩٠٥، وهو ما يزال يستعمل حتى يومنا هذا. ويعتمد هذا النظام التصنيفي على وضعية براعم الاستعاضة وطرائق حمايتها في الفصول غير الملائمة للنمو. وقد تبيّن أن هذه الطرائق غير كافية لتفسير كل الحقائق الطبيعية المتعلقة بالأخضورة، وأن السبب الرئيسي في عدم كفايتها هو كونها تحاول وصف الأخضورة وتصنيفها بالاعتماد على وحدات غير أخضورية.

وفي عام ١٩١٠ استحدثت في أوربة الغربية طريقة منظمة لدراسة الأخضورة تعتمد على التحليل الأُزْهوري floristic analysis لدى وصف الجماعات النباتية وتصنيفها في وحدات أخضورية. وكان أول من مهد لهذه الطريقة وبين أسلوب العمل فيها هو العالم براون بلانكيه Braun Blanquet الذي حاول تمييز الجماعات النباتية plant associations وتصنيفها بالاستناد إلى وحداتها الطبيعية. وهي الأنواع النباتية التي تميز انطلاقاً من المبدأ القائل بأن التركيب النباتي للجماعات النباتية يعكس الخصائص البيئية للمواقع المدروسة.

ثم تطور التحليل الأزهوري للأخضورة باتجاهين رئيسين: اهتم الأول بالنواحي الكمية للأنواع النباتية المكوِّنة للمجتمعات النباتية فقط واهتم الثاني بالنواحي الوصفية للأنواع النباتية مع عدم إغفاله لبعض الجوانب الكمية. ويعتمد هذا الاتجاه على خبرة علماء النبات الشخصية في الأزهورة وفي بيئة المنطقة المدروسة. وقد انتشر الاتجاه الأول في نصف الكرة الشمالي، ولاسيما في اسكندينافية، بتأثير العالم دُورِتْس Duritz الذي اعتمد أساساً على طرائق التحليل الإحصائي في دراسة الجماعات النباتية. وانتشر الاتجاه الثاني في مناطق كثيرة من العالم ولا يزال متبعاً حتى اليوم. وظهر في الولايات المتحدة الأمريكية اتجاه ثالث عام ١٩١٠ بتأثير آراء كليمنت Clements يعتمد دراسة حركية الجماعات النباتية، بوصفها وحدات قابلة للتغيير، ويمكن معرفة أصلها والتنبؤ بتطورها ومستقبلها. وعرف هذا الاتجاه باسم « الطريقة الديناميكية (الحركية) لدراسة الأخضورة » أو « ظاهرة التعاقب الأخضوري » succession، في حين عُرفت الطريقة الأوربية باسم « الطريقة الستاتيكية » أو الساكنة. وقد ظهر لمبدأ « التعاقب الأخضوري » تطبيقات عدة في علم البيئة النظري والتطبيقي لاستغلال الموارد الطبيعية وصيانة الطبيعة.

وظهر في فرنسة اتجاه آخر بتأثير العالم الفرنسي شارل فلاهو Flahaut (١٨٥٢ - ١٩٣٥) يعطي العوامل البيئية دوراً أساسياً في دراسة الأخضورة، ويحاول ربط دراسة الأخضورة باستغلال الأراضي. وقد تفرع هذا الاتجاه فرعين رئيسيين ظهر أحدهما عام ١٩٤٨ في مدينة طولوز (فرنسة) بتأثير أفكار العالم هنري غوسان Gaussen (١٨٩١ - ١٩٨١) ونتجت عنه دراسات حول إدارة الأراضي في جنوب غربي فرنسة واستثمارها بالاستعانة بمصورات ذات مقياس صغير ومتوسط وظهر الفرع الآخر في مدينة مونبلْيه بمبادرة كارل

شروتر Carl Schroter من زوريخ وعرف باسم «مدرسة زوريخ ومونبليه في علم الاحتماع النباتي» وكان العالم براون بلانكيه هو مؤسس هذه المدرسة.

ويعود الفضل إلى العالم الفرنسي لويس أمبرجيه Louis Emberger (١٨٩٧-١٩٦٩) من كلية العلوم في مونبليه بفرنسة وتلاميذه الذين استفادوا من تعاليم من سبقوهم وطوروها بتأسيس اتجاه جديد يرمي إلى إيجاد تفسير إجمالي لتنوع الجماعات النباتية بالاستناد إلى أسس بيئية، وإيجاد أشكال جديدة للتعبير عن العلاقات بين الأخضورة والوسط باستخدام طرائق رياضية وإحصائية مع الاستعانة بالمصورات المتعددة المواضيع، وكذلك تنشيط الربط بين دراسة الأخضورة والتطبيقات العملية في استغلال الأراضي.

وقد تطورت مدرسة أمبرجيه ووطدت ركائزها في بلاد المغرب العربي ولاسيما في المغرب وتونس. وقد سمحت البحوث في مونبليه بتطوير طريقة الزمر البيئية ecological groups في دراسة الأخضورة باللجوء إلى الرياضيات والتحليل الإحصائي بإشراف غونو M. Gounot (١٩٦٥) وغودرن Godron (١٩٧١)، وكان من أهم خصائص مدرسة أمبرجيه في هذا المضمار تركيز الاهتمام على العلاقة الوثيقة بين الأخضورة والمتغيرات البيئية على أسس كمية، وهنا يصبح للتحليل الإحصائي والحاسوب دور مهم.

انتشرت مدرسة أمبرجيه في الكثير من دول حوض المتوسط وخارجه وأصبح لها تلاميذ قاموا بتطبيق مفاهيمها في دراسة الأخضورة واستغلال الموارد الطبيعية، وبتطوير هذه المفاهيم بحسب الظروف البيئية التي يعملون فيها، ولاسيما في شرقي المتوسط (سورية ولبنان وتركية).

طرائق دراسة الأخضورة

جرت محاولات عدة لتصنيف وحدات الأخضورة الطبيعية تمخضت عن طرائق كثيرة واتجاهات متنوعة. فهناك طرائق تعتمد على تصنيف الأشجار السائدة في الغابات كأن تصنف الغابات إلى غابات صنوبر وغابات سنديان أو غير ذلك من دون محاولة إيجاد العلاقة بين هذه الغابات والبيئة المحيطة، وثمة طرائق أخرى تستند إلى بعض الصفات الأساسية للأشجار السائدة في الغابة، وتقسيم الغابات إلى غابات أليفة الجفاف وغابات أليفة الرطوبة وغابات مستديمة الأوراق وغابات متساقطة الأوراق وغيرها. وإن الطرائق الصحيحة في تصنيف الأخضورة يجب أن تعتمد العلاقة الأساسية بين الأخضورة والبيئة وفيما يلي عرض للطرائق المعتمدة في تصنيف الوحدات الأخضورية بدءاً من الوحدات الكبرى.

طرائق الملامح أو التشكيل النباتي plant formation: كان العالم غريزباخ أول من استعمل تعبير «تشكيل جغرافي نباتي» في عام ١٨٣٩ للدلالة على مجموعة من النباتات تتميز بهيئة أو بملامح خاصة محددة.

وتحدد أنماط التشكيلات النباتية المنتشرة في العالم بعوامل بيئية مختلفة كعوامل المناخ والتربة. فإذا كانت العوامل المناخية هي التي تحدد صفات تلك التشكيلات أطلق عليها اسم «التشكيلات المناخية»، أما إذا حددتها عوامل التربة فتسمى «التشكيلات التربية». وفي العالم أنماط مختلفة من المناخات تحدد أنماطاً متنوعة من التشكيلات المناخية. فالمناخات الجافة في العالم تتميز بتشكيل خشبي جاف. والمناخات الاستوائية الرطبة تتميز بتشكيلات من غابات دائمة الخضرة وأليفة الرطوبة. ومن أمثلة التشكيلات التربية غابات الأتربة المالحة التي تسمى المنغروف mangrove وغابات ضفاف الأنهار.

طرائق الاجتماع النباتي: كان العالم النباتي كريستن راونكير Christen Raunkiaer (١٨٦٠ - ١٩٣٨) أول من أطلق تعبير «الجماعات النباتية» plant communities على المجموعات النباتية المتجانسة كيفاً وكماً. وهكذا فإن غابة الشوح وغابة الأرز وغابة السنديان العذري وغابة السنديان العادي وغابة البطم الأطلسي هي جماعات حراجية أوجية في الظروف البيئية المتوسطية التي تعيش فيها في سورية وما يشبهها في خصائص بيئتها. وتتم دراسة الجماعات النباتية المكونة للأخضورة الطبيعية بإحصاء النباتات التي تؤلف الأخضورة ودراسة العوامل البيئية الخاصة بالمنطقة المدروسة، ولاسيما خصائص التربة والمناخ والشروط الطبوغرافية. ويتم في البدء انتقاء موقع متجانس الملامح النباتية والطبوغرافية، ثم تحدد المساحة الدنيا التي يجب أن تتم فيها الدراسة والإحصاء، وتعد المساحة الدنيا نظامية حين لاتوجد في زيادة رقعتها أنواع جديدة تدخل في الدراسة.

ثم تصف النباتات المكونة للأخضورة بحسب ارتفاعها بأرقام تتدرج من الواحد إلى الخمسة تدل على النباتات الملاصقة للأرض فالنباتات العشبية فالجنبات فالشجيرات فالأشجار.

وإذا كانت المنطقة المدروسة غابة فيجب قياس أطوال الأشجار وأقطارها الوسطية وكذلك مقدار تغطية التربة بالنسبة المئوية. ومن ثم يتم تسجيل النباتات طبقة بعد طبقة ويعطى لكل نوع نباتي رقمان يدل الأول على معامل الغزارة والسيطرة abondance - dominance ويدل الثاني على معامل الدرجة الاجتماعية sociability وتراوح أرقام المعاملين بين الواحد والخمسة. وتُجرى عادة عدة كشوف نباتية في منطقة ما، ومن ثم تُجرى موازنتها بعضها مع بعض وتصنيفها في عدة مجموعات بحسب أوجه التشابه والاختلاف مما يؤدي في النهاية إلى وضع جداول نباتية تسمح بوصف الجماعات النباتية في المنطقة المدروسة. وكانت هذه الجداول تنظم يدوياً في السابق أما اليوم فإنها تنظم بوساطة الحاسوب الذي يسمح بإجراء موازنة بين ألوف الجرود.

ومن الأنواع المؤلفة للجماعة النباتية ما ينم على بيئة محددة الخصائص، ويطلق عليه اسم الأنواع المميزة characteristic species ومنها ما ليس له قيمة بيئية محددة، ويسمى بالأنواع المرافقة companion. وبعد وصف المجتمعات النباتية يمكن جمعها أو تجزئتها في وحدات عليا مثل الصف class والرتبة order والحلف alliance ووحدات دنيا مثل تحت الجماعة subassociation.

الطرائق الديناميكية أو ظاهرة التعاقب النباتي: إن الجماعات النباتية، وهي الوحدات الطبيعية المكونة للأخضورة تظهر وتنمو وتنضج بتأثير تفاعل الأخضورة والعوامل البيئية. وينعكس نمو الجماعات النباتية بالتعاقب النباتي الديناميكي phytodynamic succession والميزة الأساسية في ظاهرة التعاقب هذه هي النمو التدريجي للأخضورة نتيجة توالي عدة جماعات نباتية ذات متطلبات بيئية وتركيب أزهوري مختلفين في الموقع نفسه.

فالتعاقب يبتدىء في مساحات عارية ثم يتدرج من مرحلة إلى أخرى حتى ينتهي بمرحلة نهائية من الأخضورة الممكنة في الظروف البيئية للمنطقة. ويطلق على الجماعة النهائية اسم «الأوج» climax، وهو يكون في حالة توازن مع البيئة المحيطة، ولاسيما إذا أخذ بالحسبان عمر الإنسان. فالجماعة النباتية الأوجية هي محصلة تعاقب مجتمعات عرضية متنوعة في المواقع نفسها. ويكون هذا الأوج غابة في البلاد المعتدلة المناخ، علماً بأن التربة تتابع التطور نفسه لكي تناسب الجماعة الأوجية تربة أوجية أيضاً.

ويجب التمييز بين نوعين من التعاقب هما التعاقب الأولي والتعاقب الثانوي.

فالتعاقب الأولي هو الذي يظهر في أرض عارية جديدة لم يسبق أن غزتها نباتات، ويمر بالمراحل التالية: الأشن القشرية، فالأشن الورقية، فالحزاز (البريون) فالأعشاب، فالجنبات، فالغابة الأوجية.

أما التعاقب الثانوي فيحدث بعد تهديم غابة، نتيجة الحرائق أو السيول أو الرعي الجائر أو الاستثمار السيء. فإذا أدت إزالة الغابة إلى تهدّم التربة تهدماً جزئياً، كما هو الحال في الحرائق البسيطة غير المتكررة، فإن مراحل التعاقب تكون قليلة العدد، وتعود بسرعة إلى الأوج. أما إذا كان تهديم التربة كلياً، كما يحدث في الحرائق المتكررة، فإن مراحل التعاقب كثيرة تقتضي مدة طويلة للعودة إلى الأوج. ويلاحظ هنا أن التعاقب من حيث نوعيته لايجري على طريقة واحدة، فقد يكون التعاقب تقدمياً أو تراجعياً، فالتعاقب التقدمي هو تقدم الجماعات النباتية باتجاه الجماعة الأوجية، كما هو التعاقب الأولي والتعاقب الثانوي المذكورين آنفاً. أما التعاقب التراجعي فهو ابتعاد الأخضورة عن الأوج بتأثير عوامل التخريب المختلفة التي تُدخل اضطراباً في توازن الجماعة الأوجية وتسبب تدهورها تدريجياً. وينتج عن هذا التعاقب التراجعي حلول جماعات نباتية أدنى محل المجتمع الأوجي حتى تصل إلى التربة العارية.

الطرائق البيئية: إن بعض النباتات الداخلة في تركيب الجماعة النباتية ذات دلالة بيئية دقيقة تعتمد على خصائص التربة الفيزيائية والكيمياوية والبيولوجية للمواقع التي تصادف فيها. لذلك فإن معرفة هذه النباتات الدالة قد تكون ذات فائدة تطبيقية عند استغلال الأخضورة اقتصادياً سواء أكانت أخضورة حراجية أم رعوية.

ويظهر بعض هذه النباتات الدالة زمراً متلازمة في الشروط الخاصة للموقع يطلق عليها اسم «الزمر البيئية» ويمكن معرفتها عند جرد النباتات ودراسة العوامل البيئية للمواقع، ويمكن إيجاد علاقة إحصائية بين وجود الزمر البيئية في مواقع معينة في الغابات الطبيعية ودرجة إنتاجية هذه المواقع من الأخشاب في الهكتار الواحد سنوياً.

إبراهيم نحال

الموضوعات ذات الصلة:

البيئة (علم-).

مراجع للاستزادة:

-J. BRAUN BLANQUET, Plant Sociology, « The Study of Plant Communities » (Translated and Edited by G. D. Tuller & H. S. Conard, 1st Edition 1932).

- M. GUINOCHET, Phytosociologie (Masson ed., Paris 1972).

■ الاجتهاد

الاجتهاد في اللغة مأخوذ من الجهد، وهو الطاقة، ولايستعمل إلا فيما يحتاج إلى كلفة ومشقة. وفي اصطلاح علماء أصول الفقه الإسلامي: هو استفراغ الجهد في إدراك الأحكام الشرعية من أدلتها المقررة شرعاً، أو هو عملية استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية في الشريعة، أو استنفاد الطاقة للوصول إلى الحكم من مصدره الشرعي.

مصادر الاجتهاد وطريقته

ليس الاجتهاد عند أكثر العلماء مقصوراً على القياس: وهو إلحاق الأمور بأشباهها المنصوص عليها. وإنما يشمل كل مالا نص فيه وما فيه نص، سواء في العبادات أم المعاملات، وسواء قصد به التحقق من ثبوت النص النبوي، أم بيان المراد من النص كالإيجاب والندب والعموم والإطلاق والتقييد، أم النظر فيما لانص فيه بالإجماع أو القياس أو الاستحسان أو الاستصلاح أو العرف أو سد الذرائع أو الاستصحاب أو شَرْعُ مَنْ قبلَنا الثابت الصحة، ونحو ذلك من مصادر التشريع، أم بأمارات أخرى يرشد إليها العقل السليم، كقواعد لزوم دفع الضرر المحتمل، وقبح العقاب بلا بيان وغيرها، واستعمال الرأي أو العقل، كاجتهاد أبي بكر في الكلالة وقوله: «إنها ما عدا الوالد والولد».

وأمثلة الاجتهاد: اشتراط النية في العبادات والطهارة في الطواف، والعلم بالمبيع والثمن والمأجور والأجرة، وضوابط تطبيق الحدود الشرعية والعقوبات التعزيرية الأخرى، وإناطة ذلك بالحكم، أي الدولة، وقواعد المعاهدات في الإسلام.

وقصر الإمام الشافعي الاجتهاد بمعنى الاستنباط على القياس على أمر ورد في الكتاب أو في السنة. وأضاف إلى ذلك الاستدلال بالأصول، أي الاجتهاد بالمفهوم العام.

ولم يُجز الظاهرية الاجتهاد في غير دائرة النص قط، واقتصرت المصادر عندهم على القرآن والسنة وإجماع الصحابة فقط، وأنكروا العمل ببقية المصادر الاجتهادية، ومنها شَرْع مَنْ قبلنا.

وعمل أغلب الأئمة بجميع مصادر الاجتهاد وهم أبو حنيفة ومالك وأحمد وجابر بن زيد مؤسس مذهب الإباضية. وزيد بن علي زين العابدين مؤسس مذهب الزيدية. إلا أن الزيدية إذا عدمت هذه الأدلة جعلوا للعقل سلطاناً على معرفة مافي الأفعال من حسن وقبح، فرأوا مثلاً في الحظر والإباحة: أنه ليس الأصل في الأشياء الإباحة، وإنما ما يراه العقل في الأشياء من نفع أو ضرر، فالعقل عندهم هو الحاكم إذا لم يقم دليل، وعلى هذا فلا يقولون باستصحاب الإباحة الأصلية.

ويرى الشيعة الجعفرية أن أدلة الأحكام الشرعية منحصرة في الكتاب والسنة ثم الإجماع ثم العقل، والمراد بالإجماع: اتفاق جماعة يكشف اتفاقهم عن رأي الإمام المعصوم. ولا يأخذون بالقياس والاستحسان، ولكن عندهم أصولاً أخرى يعتمدون عليها هي القواعد الشرعية. ويراد بدليل العقل عندهم

الأصول الأربعة: البراءة، والاحتياط، والتخيير، والاستصحاب.

والاجتهاد في محاكم القضاء اليوم يطلق على المسلك الذي يتبعه القضاة في أحكامهم، سواء منها ما يتعلق بنصوص القانون، أو باستنباط الحكم الواجب تطبيقه عند عدم النص. ومجاله ضعيف في بلادنا التي لها قوانين مدونة، ويكثر الاعتماد عليه في الدول التي ليس لها قانون مدون جامع مثل إنكلترة، وهذا هو العرف العام، ويتقيد الحاكم فقط باجتهاد المحاكم العليا.

والمنهج العام للمجتهد أو طريقة الاجتهاد إذا وقعت حادثة أو أراد المسلم معرفة حكم الشرع في مسألة: أن ينظر العالم المجتهد المتمكن من البحث والنظر أولاً في النصوص الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله، سواء في دلالة النص أو ظواهر النصوص بمنطوقها ومفهومها، مقدّماً القرآن على السنة، ثم ينظر في إجماع العلماء ثم في القياس، ويلاحظ القواعد الكلية أولاً ويقدّ مها على الجزئيات، ثم يأخذ بالمصادر الاجتهادية الأخرى كالاستحسان والاستصلاح (المصالح المرسلة) والعرف، وسد الذرائع، ومذهب الصحابي، والاستصحاب.

الحكم الشرعي

الاجتهاد أصل من أصول الشريعة وهو مشروع بدلالة القرآن والسنة وفعل الصحابة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بما أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥) فهذا يتضمن إقرار الاجتهاد بطريق القياس، وطالب القرآن الكريم بالتفكر والتدبر في أحكام الشرع وغيرها، فقال تعالى: ﴿إنَّ في ذلكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾ (الرعد: ٣) و﴿ يَعْقِلُون ﴾ (الرعد: ٤).

وقال النبي ﷺ فيما أخرجه الجماعة عن عمرو بن العاص وغيره: «إذا حكم الحاكم، فاجتهد فأصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر». وأجمع الصحابة على الاجتهاد، فكانوا إذا حدث لهم حادثة شرعية من حلال أو حرام، اجتهدوا إن لم يجدوا نصاً أو خبراً في الكتاب أو في السنة.

والاجتهاد: إما فرض عين على المجتهد في حق نفسه فيما طرأ له من حوادث، أو إذا سئل عن حادثة وقعت، وخاف فوتها على غير وجهها الشرعي، ولم يوجد غيره، لأن عدم الاجتهاد يقضي بتأخير البيان عن وقت الحاجة وهو ممنوع شرعاً.

وإما فرض كفاية إذا لم يخف فوت الحادثة على نحو شرعي ووجد غيره من المجتهدين، فيجب على أحدهم الاجتهاد، فإذا اجتهد أحد المجتهدين، سقط الطلب عن الباقين، وإن تركه الجميع أثموا.

وإما مندوب: وهو الاجتهاد بافتراض المسائل قبل حدوثها، واستنباط حكمها استعداداً لمواجهة الأحداث والاحتياط للنوازل، سواء سئل عنها المجتهد أو لم يسأل.

وإما حرام: وهو وقوع الاجتهاد في مقابلة نص قاطع من كتاب أو سنة أو في مقابلة الإجماع، وفيما عداه يكون جائزاً، كما يكون حراماً إذا كان صادراً ممن ليس أهلاً للاجتهاد، أو كان نتيجة الأهواء والشهوات والأغراض.

الفرق بين الاجتهاد والإفتاء وحكم الحاكم

الإفتاء [ر] أخص من الاجتهاد، فالاجتهاد استنباط الأحكام للمسائل سواء أكان السؤال في موضوعها أم لم يكن، فيشمل الاجتهاد في الوقائع النازلة، والمسائل الافتراضية أو المحتملة المتوقع حدوثها في المستقبل.

أما الإفتاء فإنه لايكون إلا إذا كانت واقعة وقعت، ويتعرف الفقيه حكمها، وتتطلب الفتوى السليمة عدا توافر شروط الاجتهاد شروطاً أخرى، وهي معرفة واقعة الاستفتاء، ودراسة نفسية المستفتي، والجماعة التي يعيش فيها ليعرف مدى أثر الفتوى سلباً وإيجاباً.

والمفتي في الأصل هو المجتهد أو الفقيه الذي يكون أهلاً للاستدلال والاستنباط أو الترجيح أو التخريج، إلا أن لفظ المفتي أصبح في عصرنا يطلق على متفقهة المذاهب الذين يقتصر أمرهم على مجرد نقل نصوص كتب الفقه الإسلامي، وتطبيقها على الوقائع المستفتى عنها، وهذا الإطلاق من باب المجاز أو الحقيقة العرفية الموافقة لعرف الاصطلاح الحكومي والعوام.

وأما حكم الحاكم أو القاضي: فهو ما يصدره من حكم يفصل فيه في الخصومة الواقعة المرفوعة إليه، معتمداً على نصوص الشريعة الصريحة أو الظاهرة، أو فتوى الفقهاء، أو الاجتهاد فيما لانص فيه. ويتميز بأن له صفة الإلزام أو الإجبار من جهة الدولة، وتتولى جهة التنفيذ المخصصة من قبل الدولة تنفيذ الأحكام القضائية بعد اكتساب الحكم الدرجة القطعية جبراً عن المحكوم عليه.

أما الاجتهاد والإفتاء: فليس لهما صفة الإلزام أو الجبر من قبل الدولة، وإنما يجب ديانة على المقلد أو المستفتي الذي ليس أهلاً للاجتهاد العمل بفتوى المجتهد أو الفقيه واتباع قوله في المسألة المستفتى فيها، لأن العمل بالظن الغالب واجب شرعاً، ولأنه لاسبيل إلى معرفة أحكام الشرع من غير طريق المجتهد.

محل الاجتهاد

هو كل حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي، وعلى هذا تكون الأحكام الشرعية للاجتهاد نوعين: ما يجوز الاجتهاد فيه، ومالا يجوز الاجتهاد فيه.

أما مالا يجوز الاجتهاد فيه فهو ما يلي:

الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة أي بالبداهة، والأحكام التي ثبتت بدليل قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، مثل فريضة الصلوات الخمس، والصيام والزكاة والحج والشهادتين، وتحريم الزنا والربا والسرقة وشرب الخمر والقتل وأكل أموال الناس بالباطل، وحل البيع والزواج، ووجوب الوفاء، وإعطاء الذكر ضعف نصيب الأنثى في الميراث عند تساويهما في الدرجة، وإرثهما بالتعصيب. وفرض العقوبات الشرعية كالحدود، والكفارات المقدرة وجميع المقدرات الشرعية التي لامجال للرأي فيها، وثبتت بالسنة المتواترة، كأعداد الركعات ومواقيت الصلوات، ومقادير الزكوات، ومناسك الحج، ونحو ذلك من كل ما جاء في القرآن الكريم صراحة أو في الأحاديث المتواترة التي نقلتها جموع غفيرة جيلاً عن جيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا مساغ للاجتهاد في مورد النص.

والأحكام المقررة بإجماع سابق للعلماء، حتى لو لم يرد فيها نص قطعي، كتوريث الجدات السدس، وإباحة عقد الاستصناع ومنه المقاولة في عصرنا.

وأما ما يجوز الاجتهاد فيه فهو ما يلي:

ما ورد فيه نص ظني الثبوت والدلالة معاً، أو ظني الثبوت أو ظني الدلالة، فإذا كان النص ظني الثبوت، كان مجال الاجتهاد فيه البحث في سنده وطريق وصوله إلينا وصحة ثبوته ودرجة رواته من العدالة (الاستقامة على أحكام الشرع) والضبط في النقل، فينظر المجتهد في ذلك ويحكم بعد البحث بصحة الحديث النبوي وضعفه. ومجال هذا السنة النبوية فقط،

لأن القرآن الكريم قطعي الثبوت.

وإذا كان النص ظني الدلالة، كان الاجتهاد فيه بالبحث في معرفة المعنى المراد من النص وقوة دلالته على المعنى. ومجال هذا يكون في القرآن وفي السنة أيضاً فقد يكون النص عاماً أو مطلقاً أو وارداً بصيغة النهي أو الأمر، والعام قد يكون باقياً على عمومه، وربما يكون مخصصاً ببعض مدلوله، والمطلق قد يجري على إطلاقه، وقد يقيد ببعض القيود. والأمر وإن كان في الأصل للوجوب، فربما يُراد به الندب أو الإباحة، والنهي وإن كان حقيقة في التحريم، فأحياناً يصرف إلى الكراهة، وهكذا.

والقواعد اللغوية ومقاصد الشريعة هي التي يلجأ إليها لترجيح وجهة على ما عداها، وهذا سبب في اختلاف اجتهادات المجتهدين.

وإذا لم يكن في الحادثة نص أو إجماع: حينئذ يبحث المجتهد عن حكم الحادثة بأدلة عقلية في ضوء مبادىء الشريعة وروح التشريع العامة، وهذا هو الاجتهاد بالرأي، ويتعرف على الحكم بالقياس أو الاستحسان أو المصالح المرسلة أو الاستصحاب أو العرف، ونحو ذلك من الأدلة المختلف فيها، ومجال الاجتهاد فيه أوسع من غيره، مثل شؤون الشورى ونظام الحكم، وقوانين الإجراءات والمرافعات ونحوها.

وقد أثمرت جهود الفقهاء في هذا المضمار ثماراً يانعة، وأنتجت ثروة كبرى من الأحكام الشرعية بالاجتهاد لانظير لها، ويمكن تصنيفها في نوعين:

أحكام مستقرة ثابتة لا تختلف المصلحة فيها باختلاف الأحوال أو الأزمان.

وأحكام جزئية روعيت فيها مصالح الناس وأعرافهم، وهذه قابلة للتجديد والتغيير باختلاف المصالح والأعراف، بعكس النوع الأول.

تبدل الاجتهاد ونقضه

يجوز تبدل الاجتهاد إما من المجتهد نفسه أو من مجتهد آخر بسبب تغير الظروف والأحوال، والمصالح والأعراف والحاجات والأغراض، فللمجتهد تغيير اجتهاده، فيرجع عن قول قاله سابقاً، لأن مناط الاجتهاد هو الدليل، فمتى ظفر المجتهد به، وجب عليه الأخذ بموجبه، لظهور ما هو أولى بالأخذ به، مما كان قد أخذ به، ولأنه أقرب إلى الحق والصواب. جاء في كتاب عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري قاضيه على الكوفة: «ولا يمنعنّك قضاء قضيته به اليوم، فراجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل».

هذا من حيث المبدأ، لكن في مجال الحياة العملية، والإفتاء، والقضاء وفض المنازعات والخصومات بين الناس، قد يختلف الحكم، فيجوز نقض الاجتهاد السابق أحياناً ولايجوز أحياناً أخرى.

فإذا كان المجتهد يجتهد لنفسه ورأى حكماً معيناً، ثم تغير ظنه، لزمه أن ينقض اجتهاده وما ترتب عليه، كأن يرى أن الخلع (فراق الزوجة على عوض منها) فسخ، فتزوج امرأة كان قد خالعها ثلاث مرات، ثم رأى بعدئذ أن الخلع طلاق، لزمه أن يفارق تلك المرأة، ولايجوز له إمساكها، عملاً بمقتضى الاجتهاد الثاني، لأنه تبين أن الاجتهاد الأول خطأ، والثاني صواب، والعمل بالظن واجب شرعاً.

ولو كان المجتهد يرى أن الولي (كالأب أو الجد) ليس شرطاً في صحة عقد الزواج للمرأة الرشيدة، فتزوج امرأة من غير ولي، ثم رأى بعدئذ أن الولي شرط في صحة الزواج، لزمه مفارقة تلك المرأة، ولايحل له البقاء على الزواج بها، مالم يكن الحاكم قد حكم بصحة الزواج في الحالتين لأن حكم الحاكم لاينقض، ولأن حكمه في مسائل الاجتهاد يرفع الخلاف، ويرجع المخالف عن مذهبه لمذهب الحاكم وقضائه.

وأما إذا كان المجتهد حاكماً، فقضى في واقعة بما اجتهد، ثم تغير اجتهاده في واقعة مماثلة، فإذا كان حكمه مخالفاً لدليل قاطع، من نص أو إجماع أو قياس جلي، فينقض باتفاق العلماء سواء من الحاكم نفسه، أو من أي مجتهد آخر، لمخالفته الدليل.

أما إذا كان حكمه في مجال الاجتهادات أو الأدلة الظنية، فإنه لا ينقض الحكم السابق؛ لأن نقضه يؤدي إلى اضطراب الأحكام الشرعية، وعدم استقرارها، وإضعاف الثقة بأحكام الحاكم، وهو مخالف للمصلحة التي عُيِّن الحاكم لها وهو الفصل في المنازعات.

ويؤيد ذلك ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قضى بحرمان الإخوة الأشقاء من الميراث في بعض المسائل، لأن الفروض استوعبت جميع التركة، كما إذا مات شخص وترك زوجاً وأماً وإخوة لأم، وإخوة أشقاء، ثم قضى عمر في مسألة مشابهة بالمقاسمة في الثلث بين الأخوة لأم والإخوة الأشقاء، فلما سئل عن سبب التفرقة، قال: «تلك على ما قضينا، وهذا على ما نقضي» فهو لم ينقض اجتهاده السابق، وإنما أقره.

وأما تغير الأحكام بتغير الأزمان: فهو أمر مقرر شرعاً إذا كانت الأحكام اجتهادية: قياسية أو مصلحية، متعلقة بالمعاملات المدنية التي لها صلة بشؤون الدنيا وحاجات التجارة والاقتصاد، وفي حدود المبدأ الشرعي، وهو إحقاق الحق وجلب المصالح ودرء المفاسد. أما الأحكام التعبدية والمقدرات الشرعية والأحكام الأصلية العامة، فلا تقبل التبديل مطلقاً، مهما تبدل المكان وتغير الزمان، كحرمة النساء المحارم، ووجوب التراضي في العقود، وضمان الضرر الذي يلحقه الإنسان بغيره، وسريان إقراره على نفسه من دون غيره، وعدم مؤاخذة بريء بذنب غيره، وهو مبدأ المسؤولية الفردية أو الشخصية.

وعامل التغير نوعان: إما فساد أو تطور، فقد تتغير الأحكام لتغير العرف أو المصالح أو للضرورة، أو لفساد الأخلاق وضعف الوازع الديني، أو لتطور الزمن وتنظيماته المستحدثة، أما الفساد، فهو كالإفتاء بجواز أخذ الراتب أو الأجر على تعليم القرآن والقيام بالشعائر الدينية كالإمامة والخطابة والآذان والإقامة، لتغير العرف بسبب انقطاع المكافآت من بيت المال عن هؤلاء. والحكم بتضمين الصناع والأُجَرَاء لأموال الناس التي تهلك في أيديهم، محافظة على الأموال من الضياع، وتحقيقاً لمصلحة المجتمع، ومثل ذلك جواز التسعير دفعاً للضرر العام عن الناس. والحكم بطهارة سؤر سباع الطير، كالصقر والغراب للضرورة؛ إذ لا يمكن الاحتراز منها بالنسبة لسكان البوادي. والإفتاء بتزكية الشهود لتغير أحوال الناس وفساد الذمم والضمائر.

وأما التطور، فهو كالإفتاء بصحة بيع العقار بذكر رقم المحضر في السجلات العقارية من دون حاجة لذكر الحدود من الجهات الأربع؛ والحكم بحصول تسليم العقار بمجرد تسجيل البيع في السجل العقاري أخذاً بهذا النظام الحديث بدلاً من التسليم الفعلي الذي لابد منه لإتمام البيع.

الحاجة إلى الاجتهاد

هناك حاجة دائمة إلى الاجتهاد ولاسيما في

العصر الحاضر، بسبب تجدد مشكلات الحياة وتعقدها، وتطور أنظمتها، واستحداث عقود في المعاملات تحقق المصلحة وتمنع الضرر. والاجتهاد حياة التشريع، فلا بقاء لشرع ما لم يظل الاجتهاد فيه قائماً موجوداً، ومتفاعلاً مع أحوال المجتمع، ضماناً لحيوية الفقه، ومرونة التشريع، وتحقيق الغاية المنشودة التي راعاها التشريع في إباحة العقود، وهي رعاية المصالح، ومنع الأضرار.

والاجتهاد أصل من أصول الدين، وفرض من فرائضه التي تثبت حيوية الشريعة وقدرتها على إيجاد الحلول المناسبة لمشكلات الحياة المتجددة. ويكفينا دلالة عنوان هذا الكتاب على المطلوب للإمام السيوطي في القرن العاشر الهجري وهو: «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض».

فماذا حدث في حركة الاجتهاد، وهل أغلق بابه، أو أن بابه مفتوح؟

إغلاق باب الاجتهاد ومسوغاته

ظل الاجتهاد مزدهراً طوال القرون الأربعة الهجرية الأولى، في عصر الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب والاجتهاد، أنتج المجتهدون خلالها ثروة خصبة لامثيل لها في التاريخ، وكانوا في كل هذه العهود مثال التفتح والحيوية والمرونة، والتجاوب مع تطورات الحياة وتجدّد الوقائع، واتساع رقعة البلاد الإسلامية.

ثم انقسمت الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري إلى دويلات وممالك، وكثرت الفتن السياسية في داخل الدولة، وضعفت الدولة ذاتها في السياسة، وظهرت الفرق والأحزاب، وبرزت التيارات الهدامة والدعوات الخطيرة التي أرادت زعزعة الإسلام وبنيته، مما أدى إلى انعدام الاستقرار وضعف الاستقلال الفكري، وجمود النشاط العلمي، وكثرة الجدل والمناظرة، والوقوع في دائرة التعصب المذهبي، وفقدان الثقة بالنفس، وابتلي الناس بقضاة غير أكفاء.

فخاف العلماء المخلصون من هذه الظواهر المرضية ومن ضعف الوازع الديني، فنادوا بسد باب الاجتهاد وإغلاقه، منعاً من تصدي فئة للاجتهاد والاستنباط ليست أهلاً له، ورأوا التقيد بما قرره أئمة الاجتهاد السابقون. فبعد أن كان الخليفة يختار قضاته من المجتهدين، أصبح القضاة يُولَّون من أتباع مذهب معين، وأُقفل باب الاجتهاد بعد الأربعمئة، ولكن ظل في الواقع علماء لهم قدرة على الاجتهاد، إذ لم يخل عصر من العصور من مجتهد يبين للناس أحكام شريعة الله.

ولم يكن ترك الاجتهاد دفعة واحدة وإنما كان تدريجياً، فقد كان لكثير من فقهاء المذاهب اجتهادات رائعة ذات تخريجات جديدة، لكنهم أخفوا أنشطتهم، مراعاة لما ساد من إقفال باب الاجتهاد، وذلك مثل الغزالي وابن تيمية وابن القيم والعز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وابن سيد الناس وزين الدين العراقي وابن حجر العسقلاني والسيوطي.

وظل هذا الحال إلى عصرنا الحاضر عصر التقليد واتباع المذاهب في القرن الثالث الهجري، وصاحب هذا الجمود والتعصب المذهبي مرحلة الخلافة العثمانية، مع ظهور أعلام وصلوا إلى رتبة الاجتهاد، كالدَّهْلوي (١١٦٦هـ) والشوكاني (١٢٥٥هـ) وبدأ جمال الدين الأفغاني بالدعوة إلى الاجتهاد، واستمر أتباعه في الدعوة إليه، ونشطت حركة الاجتهاد في رحاب الجامعات وبين أساتذتها، ولكن من دون وجود جرأة كافية على مخالفة المذاهب.

فتح باب الاجتهاد

الحق أن إغلاق باب الاجتهاد كان من قبل السياسة الشرعية التي تعالج شأناً خاصاً، أو أمراً مؤقتاً، أو فوضى اجتهادية قائمة بسبب ادعاء غير الأكفاء الاجتهاد.

فإذا زال الظرف الموجب، وجب العود إلى أصل الحكم الشرعي المقرر في نصوص الشريعة وأصولها، ولدى الصحابة والتابعين وأئمة المذاهب أنفسهم، فليس هناك دليل واحد مقبول على سد باب الاجتهاد.

ولا يصح خلو العصر من وجود مجتهد تتوافر فيه شروط الاجتهاد، لبيان أحكام الشريعة للناس، واستجابتها لمعرفة حكم الله في الوقائع المتجددة في كل زمان ومكان، ولو خلا عصر من مجتهد، لأفضى ذلك إلى تعطيل الشريعة، وعدم إمكان تطبيقها في مستجدات الوقائع.

لذا أَلَّف السيوطي كتابه المشار إليه سابقاً لبيان بقاء فرضية الاجتهاد، وحكم الشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» بعصيان أهل العصر بأسرهم إذا قصروا في القيام بهذا الفرض، وأقام على فرضيته دليلاً عقلياً قطعياً لا شبهة فيه وهو أن الحوادث والوقائع متجددة غير متناهية، والنصوص متناهية، وما لايتناهى لايضبطه ما يتناهى، ولاسبيل إلى ذلك إلا بالاجتهاد في دائرة المعاملات والتصرفات. ورأى الإباضية أن الاجتهاد عنصر ضروري يتطلبه صلاحية التشريع لكل زمان ومكان وأن باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه.

وكذلك رأى الزيدية ضرورة بقاء الاجتهاد في الفروع لاستنباط حكم ما جدّ من مسائل أو تخير حكمه من أقوال المذاهب الأخرى بعد دراسة وتأمل في الدليل واقتناع به، ويلزمون المفتي أن يفتي دائماً باجتهاده.

وقال الشيعة الإمامية: إن باب الاجتهاد مفتوح بل هو عامل ضروري للحياة التشريعية والمجتهد لا يتبع غيره في اجتهاده لا في الأصول ولا الفروع وإنما هو تابع للإمام المعصوم، ولايجوز تقليد الأموات، وإنما أخذ الأحكام عن طريق المجتهدين الأحياء، ولكن بعد غيبة الإمام تبدل الأمر، ففتح علماء الشيعة أبواب الاجتهاد المطلق، وأصبح لكل مجتهد رأيه الخاص، ولايعبر مجتهد عن مجموع المجتهدين إلا ما كان من ضروريات المذهب.

ويمكن الاجتهاد في عصرنا وفي كل عصر إذ توافرت أهلية الاجتهاد لدى بعض العلماء، ولا يعني الآن فقط إحداث آراء جديدة لوقائع جديدة وهو المراد بالتحديد، أو اختيار حكم من أرجح الأقوال في المذاهب الإسلامية وهو ما يسمى بالاجتهاد الانتقائي، وإنما مجاله أيضاً النظر في الأدلة الشرعية ذاتها من دون تقيد بمذهب أحد، وهو ما يسمى بالاجتهاد الإنشائي. وثمة حالات كثيرة اليوم تتطلب الاجتهاد، مثل أعمال المصارف وشركات التأمين، والأسواق المالية والبورصات وشركات النقل البري والبحري والجوي، ووكالات الاستيراد والتصدير، والوكالات العالمية في البيع والشراء، والإيجار والاستئجار، والاستصناع والمقاولات وغيرها، في جميع مجالات الحياة المعاصرة، وما يستتبع ذلك من ضرورة معرفة حكم العقود المتعامل بها، والالتزامات المتقابلة على العاقدين.

ومنعاً من التشكيك في مدى كفاية المجتهدين الجدد، فقد دعا الكثيرون من أساتذة الجامعات إلى الاجتهاد الجماعي، وتكوين المجامع الفقهية، وظهر على الساحة فعلاً نشاط بعض هذه المجامع، كمجمع الفقه الإسلامي في

جُدّة التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي، والمجمع الفقهي في مكة التابع لرابطة العالم الإسلامي، وقامت المؤتمرات الفقهية ومجامع البحوث الإسلامية، ومؤتمرات السنة والسيرة، والدعوة والإرشاد في البلاد العربية وغيرها منذ نحو ربع قرن بدور بنَّاء في مجال الاجتهاد وحسم بعض المشكلات الطارئة. كما أن الموسوعات الفقهية الحديثة مهَّدت الطريق لمعرفة الفقه وأحواله ومسائله والقياس عليها.

أهلية الاجتهاد

الاجتهاد اختصاص دقيق جداً لا يتوافر إلا لفئة قليلة من كبار العلماء، والمجتهد هو الفقيه الذي يبذل قُصارى جهده لتحصيل ظن بحكم شرعي، ولابد أن تكون له مَلَكة يقتدر بها على استخراج الأحكام الشرعية من مصادرها، ولايتصور فقيه غير مجتهد، ولامجتهد غير فقيه. قال جلال الدين المحلي في شرحه على جمع الجوامع:

«والفقيه: المجتهد، لأن كلاً منهما يصدُق عليه ما يصدق على الآخر» لكن أطلق لفظ الفقيه أخيراً على غير المجتهد من قبيل التوسع والمجاز.

والمجتهد نوعان: مجتهد مطلق يفتي في جميع الأحكام، كالصحابة وأئمة المذاهب، ومجتهد متجزئ في حكم أو أحكام خاصة من دون أن تكون له قدرة على الاجتهاد في كل ما يطلب منه.

أما المجتهد المطلق: فيشرط له عدة شروط أجملها الأصوليون، ويمكن تفصيلها وتحليلها إلى شروط تسعة هي:

ـ أن يعرف معاني آيات الأحكام المذكورة في القرآن الكريم لغة وشرعاً، ولايشترط حفظه لها عن ظهر قلب، ولاحفظ سائر القرآن، وإنما يكفي أن يكون عالماً بمواضعها حتى يرجع إليها في وقت الحاجة، وقد حدد الغزالي والرازي وابن العربي عدد هذه الآيات بمقدار خمسمئة آية، أي التي في أصول الأحكام والظاهر منها.

ـ أن يعرف أحاديث الأحكام لغة وشريعة ولايلزم أيضاً حفظها ولاحفظ جميع أحاديث السنة، وإنما أن يكون متمكناً من الرجوع إليها عند الاستنباط بأن يعرف مواقعها بوساطة فهرسها، وحدد ابن العربي مقدارها بثلاثة آلاف.

ـ معرفة الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة في آيات وأحاديث مخصوصة، وقليلة، حتى لا يعتمد على المنسوخ المتروك مع وجود الناسخ، فيؤدي اجتهاده إلى ما هو باطل، ويكفي أن يرجع إلى ما كتب في هذا الموضوع، مثل كتاب أبي خزيمة وأبي جعفر النحاس وابن الجوزي والحازمي وابن حزم في ناسخ القرآن ومنسوخه، والطحاوي في معاني الآثار، وغيرهم، ولايشترط معرفة جميعه وحفظه، وإنما يكفيه في كل واقعة يفتي فيها بآية أو حديث أن يعلم أن ذلك الحديث وتلك الآية محكمان.

ـ أن يكون متمكناً من معرفة مسائل الإجماع ومواقعه، حتى لا يفتي بخلافه، وليس من اللازم أن يحفظ جميع مواقع الإجماع والخلاف، بل في كل مسألة يفتي فيها ينبغي أن يعلم أن فتواه ليست مخالفة للإجماع.

ـ أن يعرف وجوه القياس وشرائطه المعتبرة وعلل الأحكام المبنية عليها، وطرق استنباطها من النصوص ومصالح الناس وأصول الشرع الكلية؛ لأن القياس قاعدة الاجتهاد، وتبنى عليه أحكام كثيرة.

ـ أن يعلم علوم اللغة العربية من لغة ونحو وصرف ومعانٍ وبيان لأن القرآن والسنة عربيان، فلا يمكن استنباط الأحكام منهما إلا بفهم كلام العرب إفراداً وتركيباً، ومنه معرفة حكم العموم والخصوص، والحقيقة والمجاز، والإطلاق والتقييد، وحكم دلالات الألفاظ، وغريب اللغة ونحوها. ولا يشترط أن يكون حافظاً لها عن ظهر قلب، بل تكفي القدرة على استخراجها من مظانِّها ومؤلفاتها، مثل مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير.

ـ أن يكون عالماً بعلم أصول الفقه؛ لأنه عماد الاجتهاد وأساسه الذي تقوم عليه أركان بنائه؛ لأن دلالة الأدلة التفصيلية على الأحكام أمراً أو نهياً أو عاماً أو خاصاً أو عبارةً أو إشارة أو دلالة أو اقتضاء ونحو ذلك لاتعرف كيفيتها وحكم كل منها إلا بأصول الفقه.

ـ أن يدرك مقاصد الشريعة في استنباط الأحكام؛ لأن فهم النصوص وتطبيقها على الوقائع متوقف على معرفة هذه المقاصد، كما أن الترجيح بين الأدلة الفرعية المتعارضة يكون بما هو أوفق مع قصد الشرع، ولاتعرف أحكام الوقائع الجديدة من طريق الأدلة الاجتهادية، كالاستحسان والمصلحة المرسلة والعرف ونحوها إلا في ضوء مقاصد الشريعة العامة.

والمراد من هذه المقاصد: حفظ مصالح الناس بجلب النفع لهم ودفع الضرر عنهم. ومعيار تحديد النفع والضرر هو الشرع وليس عقول الناس؛ لأن الإنسان قد يرى ما هو ضارّ نافعاً، وما هو نافع ضاراً.

ـ أن يكون مؤمناً بالله ورسوله، عالماً بأدلة الإيمان عدلاً مجتنباً للمعاصي القادحة في العدالة. وشرط الإيمان والإسلام لمنع التهمة، وشرط العدالة لجواز الاعتماد على فتواه، فمن ليس عدلاً لاتقبل فتواه لغيره.

وأما المجتهد المتجزىء في بعض الأحكام: فيشترط فيه معرفة ما يتعلق بهذا الحكم فقط من دون غيره من جميع الأحكام؛ لأن المجتهد في حكم يتعلق بالزواج مثلاً لايحتاج إلى ما يتعلق بالحج أو الزكاة أو الصلاة، إذ قد يتخصص المجتهد في موضع فقهي من دون غيره.

والصحيح جواز تجزيء الاجتهاد، وهو رأي أكثر العلماء، أي أن يتمكن العالم من استنباط الحكم الشرعي في مسألة من المسائل من دون غيرها، أو في باب فقهي من دون غيره، فهو العارف باستنباط بعض الأحكام.

وتجزؤ الاجتهاد خفف مساوىء سد باب الاجتهاد، نزولاً تحت عامل الضرورة أو الحاجة التي تصادف العلماء في كل زمن للإفتاء في حكم الحوادث المتجددة، وهو ما نحتاج إليه في واقعنا المعاصر، لأن المجتهد المطلق فقد من زمان، وعرفت قواعد الأصول، ولسنا في حاجة إلا لإعمال تلك الأصول والقواعد الشرعية الكلية في المسائل الطارئة.

مراتب المجتهدين

تتفاوت مراتب المجتهدين ودرجات الفقهاء في الاجتهاد سعة وضيقاً، وهي خمس مراتب، وفي الجملة: المجتهد إما مستقل أو غير مستقل، وغير المستقل أربعة أقسام، وهذه المراتب هي التالية:

المجتهد المستقل: وهو الذي استقل بقواعده لنفسه، يبني عليها الفقه خارجاً عن قواعد المذاهب المقررة، قال السيوطي «وهذا شيء فقد من دهر، بل لو أراده الإنسان اليوم لامتنع عليه». وهذا مثل أئمة المذاهب المستقلة.

المجتهد المطلق غير المستقل: هو الذي وجدت فيه شرائط الاجتهاد التي اتصف بها المجتهد المستقل، ثم لم يبتكر لنفسه قواعد، بل سلك

طريقة إمام من أئمة المذاهب في الاجتهاد، فهو مطلق منتسب، لامستقل ولا مقيد، إذ إنه لم يقلِّد إمامه ولكنه سلك طريقته في الاجتهاد، مثل أبي يوسف ومحمد وزفر من الحنفية، وابن القاسم وأشهب من المالكية، والبويطي والزعفراني والمزني من الشافعية، وأبي بكر المَرْوَذي وأبي بكر الخلاَّل من الحنابلة.

المجتهد المقيد أو مجتهد التخريج أو مجتهد المسائل التي لا نص فيها عن صاحب المذهب: وهو أن يكون مقيداً في مذهب إمامه، مستقلاً بتقرير أصوله بالدليل غير أنه لا يتجاوز في أدلته أصول إمامه، وقواعده، كالحسن بن زياد والكَرْخي والخصَّاف والطَّحاوي والسَّرْخسي وقاضيخان والبَزْدوي من الحنفية، والأبَهْري، وأبي إسحاق الشيرازي والمروزي من الشافعية، والخِرَقي وأبي يعلى من الحنابلة، ونحوهم من أصحاب الوجوه والآراء المقولة في المذهب تخريجاً على منصوص الإمام في مسألة. وهذه هي رتبة الاجتهاد في المذهب: وهو الذي يتمكن فيه المستنبط من معرفة الأحكام في الوقائع التي لم يرد فيها نص عن إمام المذهب، بطريقة التخريج على النصوص الفقهية أو القواعد المنقولة عن إمام المذهب. وهذا يعني أن لهؤلاء آراء جديدة في مسائل لم يتعرض لها إمام المذهب ولكنها مستنبطة من مقتضى كلامه في مسألة مشابهة لها في الجملة.

مجتهد التخريج من المقلِّدين: وهو الفقيه المتمكن في مذهب ما، ويستطيع ترجيح قول لإمام المذهب على قول آخر، أو الترجيح بين ما قاله الإمام وما قاله تلاميذه أو غيره من الأئمة، مثل القُدوري والمَرْغيناني صاحب الهداية من الحنفية، والنووي والرافعي من الشافعية، والدردير والدسوقي من المالكية، وأبي الخطّاب وابن قدامة من الحنابلة.

مجتهد الفتيا: وهو أن يقوم بحفظ المذهب ونقله وفهمه في الواضحات والمشكلات، ولكن عنده ضعف في تقرير أدلته وتحرير أقيسته. وهذا يعتمد نقله وفتواه فيما يحكيه من مقررات مذهبه في كتبه ونصوصه.

وقسم ابن القيم المجتهدين أربعة أقسام هي بإيجاز:

عالم بكتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة، كأئمة المذاهب.

ومجتهد مقيد في مذهب من ائتم به، فهو مجتهد في معرفة فتاويه وأقواله ومأخذه وأصوله، عارف بها، متمكن من التخريج عليها، كالقاضي أبي يعلى.

ومجتهد في مذهب من انتسب إليه، مقرر له بالدليل، متقن لفتاويه، عالم بها لكن لا يتعدى أقواله وفتاويه ولا يخالفها، كأكثر المصنفين في مذهب أئمتهم.

وطائفة تفقهت في مذاهب من انتسبت إليه وحفظت فتاويه وفروعه، وأقرت على نفسها بالتقليد المحض من جميع الوجوه، مثل علماء المذاهب المتأخرين.

وهبة الزحيلي

مراجع للاستزادة:

- علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، كشف الأسرار عن أصول البزدوي، تحقيق وتعليق وتخريج محمد المعتصم بالله البغدادي (دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩١).
- سيف الدين أبو الحسن الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام (دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠).

■ الاجتهاد القضائي

الاجتهاد la jurisprudence في اصطلاح فقهاء الشريعة الإسلامية هو بذل الجهد والوسع في استنباط الأحكام من أدلتها بالنظر المؤدي إليها.

وقد يقوم بالاجتهاد فقيه من الفقهاء فيكون اجتهاداً فقهياً، أو يقوم به القاضي عند النظر في النزاع المعروض عليه فيكون اجتهاداً قضائياً.

وفي مجال القانون يمكن القول، قياساً على تعريف الفقهاء للاجتهاد، إن الاجتهاد القضائي هو بذل القاضي جهده في استنباط الأحكام القانونية من مصادرها الرسمية. على أن مصطلح الاجتهاد القضائي يقصد به غالباً الرأي الذي يتوصل إليه القاضي في مسألة قانونية والذي يقضي به. وعلى هذا يقال اجتهادات المحاكم بمعنى الآراء التي أخذت بها هذه المحاكم في أحكامها.

ويطلق على الاجتهاد القضائي أيضاً اسم القضاء. وكلمة القضاء تفيد في أحد معانيها الحكم الصادر عن القاضي في قضية ما. والقاضي ليس في حاجة إلى أن يجتهد في كل حكم يصدره، بل إن عمله يقتصر في كثير من القضايا على مجرد تطبيق نصوص التشريع الصريحة الواضحة. ولذا فإن كلمة القضاء لايقصد بها هنا جميع أحكام المحاكم وإنما الأحكام التي تتضمن اجتهادات قضائية فقط.

ضرورة الاجتهاد القضائي

للاجتهاد القضائي في مجال القانون دور بالغ الأهمية والأثر لا يكاد يقل في أهميته عن دور التشريع نفسه. فالاجتهاد القضائي هو الذي يضفي على القانون طابعه العملي الحي، وهو الذي يحدد مداه وأبعاده.

وقد نادى بعض مفكري الثورة الفرنسية ورجالها بإلغاء كل دور للاجتهاد القضائي وبضرورة قصر عمل القاضي، في جميع الأحوال، على تطبيق أحكام التشريع تطبيقاً آلياً. فقال مونتسكيو «إن قضاة الوطن ليسوا سوى الفم الذي ينطق بكلمات التشريع...»، وقال روبسبيير «إن كلمة الاجتهاد القضائي يجب أن تمحى من لغتنا...» ولكن هذا الاتجاه الذي جاء ردَّ فعل على تدخل القضاء الفرنسي قبل الثورة في أمور التشريع لم يكتب له النجاح، وما كان ليكتب له أن ينجح. فلا يمكن بحال من الأحوال تجريد القاضي من سلطة الاجتهاد وإلا تعطل عمله وتعذّر عليه الفصل في الخصومات في بعض الأحيان.

والقاضي قد يجتهد إما من خلال النصوص التشريعية التي يلتزم تطبيقها أو من خارج هذه النصوص. فعند تطبيق النصوص التشريعية يضطر القاضي إلى أن يجتهد في حالتين أساسيتين: غموض النص أو إبهامه من جهة، والنقص في النص أو سكوته عن بعض المسائل من جهة ثانية.

وغموض النص يعني أن النص ليس له معنى واضح محدد وإنما هو يحتمل أكثر من تأويل. وعلى القاضي في هذه الحالة أن يجتهد في فهم النص وتحديد معناه، وهو حين يفعل ذلك إنما يحدد الحكم الذي يتضمنه هذا النص. ولذا قد تختلف الاجتهادات القضائية تبعاً لاختلاف القضاة في فهم النصوص وتفسيرها.

وأما النقص في النص فيقع عندما يتعرض

المشرع لبعض المسائل مباشرة ويتناولها بالتنظيم، ويغفل في الوقت نفسه مسائل أخرى فلا يبين أحكامها. ويحاول القاضي في هذه الحالة أن يستخلص من نصوص التشريع أو التشريعات النافذة الحلول المناسبة للمسائل التي سكت عنها المشرع مستعيناً في ذلك بطرائق التفسير المتاحة له، ولاسيما طرائق الاستنتاج المختلفة.

ولا يقف القاضي في اجتهاده عند تفسير النصوص التشريعية محدداً معانيها أو مستخلصاً منها أحكاماً جديدة، بل قد يتخذ من التفسير أحياناً وسيلة لتغيير معاني هذه النصوص وتعديل أحكامها. فنصوص التشريع تمثل غالباً آخر ما وصل إليه في الوقت الذي وضعت فيه، ولكن هذه النصوص تبقى ثابتة، ويستمر المجتمع في تطوره فتنشأ فيه ظروف وأوضاع مادية واقتصادية واجتماعية جديدة، بل قد تتغير فيه المبادىء والمثل، فتصبح النصوص التشريعية، إذا لم تعدل، متخلفة عن مواكبة تطور المجتمع وتلبية حاجاته. ويحرص القضاء في مثل هذه الحالة على التوفيق بين نصوص التشريع الثابتة وأوضاع المجتمع المتغيرة، فيتجاوز، كما ترى المدرسة التاريخية في التفسير، إرادة المشرع الذي وضع تلك النصوص، ويعطي النصوص معاني جديدة تختلف عن معانيها الأصلية، وأحكاماً مغايرة لما أراده واضعوها كي تصبح أكثر ملاءمة لأوضاع المجتمع الذي تطبق فيه.

وإذا لم يجد القاضي في نصوص التشريع قاعدة يقضي بموجبها كان لابد له من البحث عن القاعدة خارج هذه النصوص، وذلك باللجوء إلى مصادر القانون الرسمية الأخرى.

ومن أهم هذه المصادر العرف. والقاضي لا يصنع العرف طبعاً كما أنه - خلافاً لما يراه بعضهم - ليس هو الذي يكسبه قوته الإلزامية، لأن العرف ملزم بذاته قبل أن يطبقه القضاء، ولكن للقاضي مع ذلك دوراً مهماً في الأخذ بالعرف لأنه هو الذي يتحقق من توافر شروطه ويثبت وجوده.

ومن المصادر الرسمية التي أحال عليها كل من القانونين المصري والسوري وبعض القوانين العربية الأخرى «مبادىء القانون الطبيعي وقواعد العدالة». وهذه المبادىء والقواعد ليست مدونة في مرجع معين أو قائمة محددة، فإذا احتاج القاضي إلى الرجوع إليها، ونادراً ما يحتاج إلى ذلك، كان عليه أن يحدد ما يراه موافقاً منها. لذا فإن إحالة القاضي على هذه المبادىء والقواعد إنما يقصد منها، كما تقول المذكرة الإيضاحية للقانون المدني المصري، «إلزام القاضي أن يجتهد رأيه حتى يقطع عليه سبيل النكول عن القضاء».

موقع الاجتهاد القضائي بين مصادر القانون

يختلف موضع الاجتهاد القضائي بين مصادر القانون باختلاف النظم القانونية. ففي النظم التي يمكن أن يضع القضاء فيها قواعد عامة وملزمة - كما كان الحال في القانون الروماني وفي القانون الفرنسي القديم في بعض الحالات وكما هو عليه حالياً في القانون الإنكليزي - يُعدُّ ما يصدر عن القضاء من قرارات أو اجتهادات من المصادر الرسمية للقانون. أما في النظم التي لا يجوز فيها للقضاء وضع قواعد عامة وملزمة، وإنما يرجع إلى احتهاداته على سبيل الاستئناس - كما هو الحال في الفقه الإسلامي وفي القانون الفرنسي الحالي والقوانين العربية التي تأثرت به - فيعد الاجتهاد القضائي من المصادر غير الرسمية للقانون أو من المصادر التفسيرية.

ففي القانون الروماني أحدث منذ القرن الرابع قبل الميلاد منصب البريتور Préteur (أي الحاكم الشرعي) لتنظيم التقاضي في الأمور المدنية. وكان البريتور يعين لسنة واحدة ويصدر عند توليه منصبه منشوراً يبين فيه القواعد التي سيسير عليها في قبول الدعاوى والدفوع. وكان كل بريتور يستبقي من منشور سلفه القواعد التي يرى استبقاءها، ويعدل بعض القواعد الأخرى أو يضيف إليها، إلى أن نشأ من مجموع القواعد التي تكرر الأخذ بها والنص عليها ما أطلق عليه اسم «المنشور الدائم» وقد تم في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد تجميع قواعد المنشور الدائم في قانون عرف باسم «القانون البريتوري».

ويصف الفقهاء الفرنسيون اليوم الاجتهادات القضائية التي تتضمن تعديلاً لأحكام القواعد القانونية أو تقريراً لمبادىء غير منصوص عليها بأنها «اجتهادات بريتورية» نسبة إلى ما كان يقوم به البريتور الروماني من وضع قواعد قانونية بنفسه.

وفي القانون الفرنسي القديم قبل الثورة كان للقضاء، ولاسيما المحكمة العليا في باريس التي كان يطلق عليها اسم «برلمان باريس» ويرأسها الملك، سلطة إصدار أنظمة أو لوائح تتضمن قواعد قانونية.

وفي القانون الإنكليزي يعدُّ الاجتهاد الصادر في قضية ما عن إحدى المحاكم، باستثناء بعضها، سابقة قضائية تلتزم المحكمة التي أصدرته، والمحاكم التي هي أدنى منها، السير عليه في القضايا المماثلة. وإذا صدر هذا الاجتهاد عن أعلى محكمة في الدولة، وهي اللجنة الاستئنافية بمجلس اللوردات، التزمت سائر المحاكم السير عليه. وكان مجلس اللوردات نفسه يتقيد أيضاً بما يصدر عنه من اجتهادات، ولكن سمح له منذ عام ١٩٦٦ بالعدول عن اجتهاداته إذا دعت إلى ذلك أسباب قوية تقتضيها مصلحة العدالة.

وأما في الفقه الإسلامي فعلى الرغم مما كان للاجتهاد الفقهي والقضائي من دور كبير في إثراء هذا الفقه حتى عدّ أحد مصادره، فإنه لايمكن عدّ الاجتهاد مصدراً رسمياً فيه. فالاجتهادات الفقهية ليست سوى آراء لأصحابها قد يؤخذ بها أو لا يؤخذ. والاجتهادات القضائية لا تتمتع بأية قوة إلزامية إلا في القضايا التي صدرت فيها، ومن الجائز للقاضي الذي صدر عنه اجتهاد ما، ولغيره من القضاة، عدم التقيد باجتهاده في القضايا المماثلة.

وفي القانون الفرنسي المعمول به اليوم، والقوانين العربية التي تأثرت به ومنها القانون السوري، لايجوز للقاضي إصدار قواعد عامة وملزمة. كما عدّ رجال الثورة الفرنسية هذا الأمر من النتائج الحتمية لمبدأ الفصل بين السلطات. ولذا فالاجتهاد القضائي في هذه النظم، كما هو الحال في الفقه الإسلامي، ليست له قوة ملزمة إلا في القضية التي يصدر فيها.

أهمية الاجتهاد القضائي من الوجهة العملية

إذا لم تكن الاجتهادات القضائية في القانون الفرنسي والقوانين العربية التي سارت على خطاه تعد من الوجهة النظرية قواعد قانونية عامة وملزمة، فإنها في الواقع تتمتع من الوجهة العملية بقوة ملزمة تكاد لا تقل أهمية عما تتمتع به قواعد القانون الناشئة عن مصادره الرسمية. وكثير من الاجتهادات التي صدرت عن القضاء الفرنسي مثلاً منذ عشرات السنين

قد استقرت في النظام القانوني الفرنسي ولاتزال تطبق حتى اليوم كأنها قواعد ملزمة مع أنها ليست قواعد قانونية. ولعل السبب الرئيس لهذه القوة التي يتمتع بها الاجتهاد القضائي من الوجهة العملية يكمن في تسلسل أنواع المحاكم من جهة، ووجود رقابة من محكمة النقض على أحكام المحاكم التي هي أدنى منها من جهة ثانية. فحين تتبنى محكمة النقض في أحكامها رأياً معيناً وتستقر عليه تتبنى بعدها سائر المحاكم هذا الرأي وتطبقه بانتظام. ولاشك في أن اجتهاد محكمة النقض ليست له، من الوجهة النظرية أية قوة إلزامية. ويمكن لأية محكمة مخالفته إذا شاءت، ولكن المحاكم التي هي أدنى من محكمة النقض تدرك أن لافائدة من مخالفة اجتهاداتها المستقرة، لأن أحكامها ستنقض إن هي فعلت ذلك، لذا فهي تلزم نفسها غالباً تلك الاجتهادات سواء اقتنعت بها أم لم تقتنع، حتى لا تكون أحكامها عرضة للنقض. وعلى هذا تصدر عن محكمة النقض أحكام تتضمن مبادىء قانونية، يطلق عليها اسم «الأحكام المبادىء»، وهكذا ينشأ اجتهاد ثابت مستقر تطبقه جميع المحاكم كما تطبق قواعد القانون.

وليس ما يمنع محكمة النقض من تغيير اجتهادها الثابت إذا رأت حاجة إلى تغييره، ولاسيما إذا دعا إلى ذلك تغير ظروف المجتمع وأوضاعه، وعندئذ يقال: إنه حصل تحول في الاجتهاد، وينشأ اجتهاد جديد لدى محكمة النقض يغدو بعد حين اجتهادها المستقر الذي تتبعها فيه المحاكم الأخرى.

محمد هشام القاسم

مراجع للاستزادة:

- سليمان مرقس، الوافي في شرح القانون المدني، ج١، الطبعة ٦ (القاهرة ١٩٨٧).

- Archives de philosophie du droit et de sociologie juridique, Tom xxx (La juri spredence éd. 1985).

■ الأجدابي (ابن -)

(... - بعد سنة ٤٥٦هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله اللواتي الأجدابي الطرابلسي فقيه متكلم لغوي أديب مصنف. شارك في جمهرة علوم عصره، إلا أن الغالب عليه في تصانيفه اللغة. وأكثر التجاني في «رحلته» من وصفه بالفقه.

ينتسب إلى لواتة، وهي قبيلة من أكبر قبائل البربر. وأجدابية بلد أسلافه لا بلده هو. وهي بلدة بين برقة وطرابلس الغرب. وقد كانت في عصر ابن الأجدابي مدينة كبيرة، وفيها حمامات وفنادق كثيرة، وأسواقها حافلة مقصودة، وأهلها ذوو يسار. ثم تضاءلت مكانتها بعد ذلك، وأجدابية اليوم في ليبية، على مقربة من ساحل خليج سرت، إلى الجنوب الشرقي منه. نشأ ابن الأجدابي في طرابلس الغرب، وفيها حصل علومه، وعاش دهره كله وفيها توفي.

لا يعرف له فيما تميز به من علوم أساتذة معروفون، على ما كان معهوداً في تلك العصور، إلا أنه أقبل على من كان يجتاز بطرابلس من العلماء فأخذ عنهم: من المشارقة المتوجهين إلى الغرب، أو من المغاربة المتوجهين إلى الشرق. وللتجاني في «الرحلة» نص طريف للغاية، يصور ما كان من أمر ابن الأجدابي في ذلك ويدل على مبلغ جده في تحصيل العلم، قال: «ولم تكن له (أي لابن الأجدابي) رحلة عن طرابلس إلى غيرها؛ وقد سئل: أنَّى لك هذا العلم ولم ترحل؟، فقال اكتسبته من بابي هوارة وزناتة، وهما بابان من أبواب البلد نسبا إلى من نزل بهما في أول الزمان. يشير إلى أنه إنما استفاد ما استفاده من العلم بلقاء من يفد على طرابلس، فيدخل من هذين البابين من المشرقيين والمغربيين».

ويبدو أن ابن الأجدابي كان من ذوي اليسار، لأن التجاني قال بعقب ذلك: «وكان له اعتناء بلقاء الوفود والقيام بضيافتهم».

ومن دلائل يساره الذي يتيح لمثله أن يفرغ لنفسه، وهو أيضاً من دلائل حرصه على تحصيل العلم، عنايته بنسخ بعض تصانيف الأئمة بخطه، وكان من أحسن الناس خطاً. ذكر التجاني أن الأمير أبا زكريا الحفصي [ر] - وكان شديد البحث عن خط ابن الأجدابي - سمع أن بطرابلس كتابين بخطه: كتاب «الفصيح» لثعلب، وكتاب «أمثلة الغريب المصنف» لأبي الحسن الهنائي، المعروف بكراع النمل، فأرسل في طلبهما.

توفي ابن الأجدابي في طرابلس، وقبره خارج المدينة إلى الشمال الشرقي منها - بحسب وصف التجاني - قبر معظم، يكثر الناس من زيارته والدعاء عنده. وكانت داره في وسط المدينة لا تزال قائمة إلى السنة التي كتب فيها التجاني «رحلته» (٧٠٧ هـ)، وكان خطه على بعض جدرانها لا يزال باقياً. ولاتعرف سنة وفاته، إلا أن هناك من القرائن ما يجعل الباحث يطمئن إلى أنها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري: بعد سنة ٤٥٦ هـ، بل ربما بعد سنة ٤٦٣هـ.

أشهر مؤلفات ابن الأجدابي كتابه المختصر في اللغة: «كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ»، انتفع به الناس دهراً طويلاً، وذاع صيته حتى كاد ابن الأجدابي ألا يُعرف إلاّ به، وكتابه «الأزمنة والأنواء». ولايعرف من آثار ابن الأجدابي إلى هذه الغاية غير هذين الكتابين، وكلاهما مطبوع.

وذكر له التجاني كتابين في العروض، أحدهما مختصر والآخر مطول، وكتاباً في الأنساب، اختصر فيه كتاب الزبير بن بكار «نسب قريش» وزاد فيه زيادات، وكتاباً في الرد على ابن مكي الصقلي في كتابه «تثقيف اللسان» وكتاباً في شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء، وبيان اعتلال هذه الياء، ورسالة في الحُول، وكان ابن الأجدابي أحول؛ وكان سبب تأليفها أنه حضر يوماً بطرابلس عند القاضي بها أبي محمد عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن هانش، فحكم القاضي بحكم أخطأ فيه، فرد عليه ابن الأجدابي، فقال له: «اسكت يا أحول، فما استُدعيت ولا استُفتيت»، فألف تلك الرسالة.

وذكر له ابن عبد المنعم في «الروض» كتاباً سماه «شحذ القريحة» ولم يذكر مضمونه؛ إلا أن عنوانه ربما دل على أنه في الأدب.

عز الدين البدوي النجار

مراجع للاستزادة:

- رحلة التجاني أبي محمد عبد الله بن محمد بن أحمد أخرجها وقدم لها: حسن حسني عبد الوهاب (الدار العربية للكتاب، ليبية - تونس ١٩٨١م).

■ الأجر

الأجر salaire في اللغة هو الثواب والمكافأة، وكلمة الأجر تدل على معنيين متقاربين: معنى ديني يفيد الجزاء على العمل الصالح أو الثواب والمكافأة، على نحو ما جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف - ١٧٠)، ومعنى اقتصادي يعني الجزاء على العمل فهو بهذا المعنى قيمة قوة العمل البشري أو بدلها مادياً كان أم غير مادي.

وكلمة الأجر وجمعها أُجور تبدو دخيلة على اللغة العربية وتعود، على الأرجح، إلى أصل أكَدي دخلت العربية عن طريق الأكدية منذ العصر الجاهلي، وخضعت لأحكام العربية في الاشتقاق والتصريف، بدخولها القرآن الكريم في أكثر من موضع وآية.

والأجر بالمفهوم الاقتصادي هو المبلغ الذي يدفع للعامل مقابل قيامه بعمل ما أو عند تنفيذ هذا العمل لحساب شخص آخر. ويتوسع بعضهم في مفهوم الأجر حتى يشمل جزءاً من دخل صاحب المشروع الذي يقوم بإدارته بنفسه وذلك لقاء قيامه بالعمل تنظيماً أو إدارةً. وذهب بعض فقهاء المسلمين إلى عدم جواز انفصال الملكية عن العمل وعدّوا العمل فريضة وواجباً يمليه الشرف معتمدين على قول الرسول ﷺ «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده» وقوله: «لأن يحتطب أحدكم حزمةً على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه» وقوله: «أفضل الكسب بيع مبرور وعمل الرجل بيده».

المنظور التاريخي للأجر

العمل، بالمفهوم الاقتصادي، هو النشاط الإنساني المبذول للحصول على منفعة بتحويل المواد إلى سلعة تشبع حاجة الإنسان. والعمل بهذا المعنى نافع ومؤلم في آن واحد، فهو يتضمن عنصر الألم، أي الجهد الذي يكون العامل ملزماً ببذله، وعنصر المردود أو المنفعة، وهو ما يحصل عليه العامل سواء عمل لنفسه وحصل على النتيجة مباشرة أو عمل لحساب غيره وحصل مقابل ذلك على أجر. قديماً كانت الخيرات متوافرة بكثرة في الطبيعة وكان عدد السكان على الكرة الأرضية قليلاً جداً فكان الإنسان يستطيع العيش ببذل كمية ضئيلة من العمل، ولم يكن قد حدث الانفصال بين ملكية وسائل الإنتاج والعمل، ولم تكن قد برزت الحاجة إلى العمل المأجور، ولذلك كان الاهتمام مركزاً على الربط بين العمل والمعيشة، ولم تكن هناك أية مسوّغات للبحث في الأجر ومستواه. وبعد ظهور الملكية الخاصة وانقسام المجتمعات البشرية إلى طبقات يختلف موقعها من ملكية وسائل الإنتاج، وما ترتب على ذلك من ظهور طبقة لا تملك سوى قدرتها على العمل، وطبقة أخرى تملك وسائل إنتاج أكثر من طاقتها على التشغيل، برز العمل المأجور ضرورة اقتصادية، وظهرت الحاجة إلى دراسة ظاهرة الأجر وعوامل تحديد مستواه، وبدأ العلماء والمفكرون يهتمون بدراسة مفهوم الأجر ومستواه وعدالة تحديده، وصار مفهوم الأجر العادل والحد الأدنى للأجور وغيرهما من المقولات موضوعات لاقتصاد العمل [ر] وعلم الاقتصاد. ومن الجدير بالذكر أن الاهتمام بالأجر وعدالته كان من الموضوعات التي عنيت بها الديانتان السماويتان الإسلام والمسيحية قبل ظهور علم الاقتصاد. فقد اهتم المفكرون المسلمون والمسيحيون انطلاقاً من تعاليم هاتين الديانتين بحقوق العمال، ويمكن تلمس شبه تطابق بين موقفي الديانتين ومواقف المفكرين من أتباعهما من هذه المسألة. فالإسلام الحنيف يقدس العمل ويرفعه إلى مستوى العبادة. فقد امتدح قوم رجلاً إلى رسول الله ﷺ بالاجتهاد في العبادة والغنى عن العمل وقالوا: صحبناه في سفرنا فما رأينا بعدك، يارسول الله، أعبد منه. كان لا ينتقل من صلاة ولا يفطر من صيام فقال لهم: فمن كان يمونه ويقوم به؟ فقالوا: كلنا يا رسول الله. قال ﷺ: «كلكم أعبد منه». ويوجب الإسلام أن يكون أجر العامل عادلاً وفورياً فالرسول ﷺ يقول: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه». كذلك يحث موقف الكنيسة المسيحية على أن يعطى العامل أجره العادل. فقد كان القديس توما الإكويني، وهو يعد الممثل الرسمي للمذهب الكنسي، يؤكد ضرورة حصول العامل على أجر عادل يوفر له ولأفراد عائلته أسباب العيش. وقد كرر البابوات هذا الحكم في رسائلهم الكنسية. ومع مرور الزمن وتطور علم الاقتصاد برز فرع خاص حول اقتصاد العمل، وتطور البحث في موضوعات العمل والأجر لتشمل مفاهيم الأجر الأساسي والإضافات الملحقة به، والأجور النقدية والمزايا العينية المتممة للأجر، والحد الأدنى للأجور، وطرق تحديد الأجر وطرق دفع الأجور وغيرها.

نظريات الأجور

تعد نظرية الأجور أهم موضوعات علم الاقتصاد. فمنذ بداية القرن التاسع عشر، أي منذ نشأة علم الاقتصاد كانت المدرسة الاقتصادية التقليدية classique الإنكليزية (دافيد ريكاردو وآدم سميث) تسعى لتقرير حد توازن ثابت يستقر عنده مستوى الأجر في تقلباته في مدة قصيرة. وقد ذهب دافيد ريكاردو David Ricardo إلى أنّ مستوى توازن الأجور يتعادل مع الحد الأدنى الضروري للحياة. وانطلاقاً من نظرية ريكاردو هذه صاغ لاسال F. Lassalle قانون الأجور الحديدي وطور ماركس نظريته في العمل والأجر، إذ فرق بين العمل الضروري الذي ينتج العامل في أثنائه قيمة قوة عمله ويتقاضى مقابله أجراً، والعمل الزائد الذي يعود إنتاجه إلى الرأسمالي مالك وسائل الإنتاج [ر. فضل القيمة]. وتقسم نظريات الأجور إلى مجموعتين: مجموعة النظريات الليبرالية البرجوازية في الأجور والنظرية الماركسية في الأجور.

النظريات الليبرالية في الأجور: تنطلق النظريات الليبرالية في الأجور من مبدأ الحرية الاقتصادية القائم على أساس أن آلية السوق هي المنظم الوحيد للأسعار والمحدد للنشاط الاقتصادي [ر. السوق (اقتصاد-)]. وتقوم هذه النظريات على عدم التفريق بين العمل وقوة العمل، وهي تعالج الأجر على أنه ثمن العمل الذي يبيعه العامل من صاحب العمل، وهكذا يرى الاقتصاديون الليبراليون أنصار الحرية الاقتصادية أن العامل يبيع كمية معينة من العمل، أي عدداً من ساعات العمل اليومية، مقابل أجر نقدي أو عيني يتفق عليه فردياً أو جماعياً مع صاحب العمل بحرية تامة أو بتدخل من الحكومة أو المنظمات الأخرى ورعايتها.

ويختلف الاقتصاديون الليبراليون فيما بينهم حول عوامل تحديد الأجر، فقد ظهرت عدة نظريات في هذا الشأن منها:

نظرية الحد الأدنى لمستوى المعيشة: يرى أنصار هذه النظرية أن مستوى الأجور يتحدد بما يعادل قيمة المواد والحاجات الضرورية لمعيشة العامل في الحد الأدنى. ويقولون إن حركة العرض والطلب في سوق العمل كفيلة بالمحافظة على الأجور مدة طويلة في مستوى الحد الأدنى

للمعيشة اللازم للمحافظة على حياة العامل.

وواضع أسس هذه النظرية هو الاقتصادي الفرنسي تورغو Turgot وتبناها في منتصف القرن التاسع عشر الاقتصادي والزعيم العمالي الألماني لاسال ودافع عنها وسماها «القانون الحديدي للأجور». وبحسب هذا القانون إذا ارتفع مستوى الأجور عن الحد الأدنى الضروري للحياة وتحسنت الحالة المعيشية للعمال فإنهم يميلون إلى التزاوج فتكثر بذلك الولادات، ويزداد عدد العمال ويزداد بالتالي عرض العمل في السوق، مما يقود إلى انخفاض مستوى الأجور إلى الحد الأدنى الضروري للمعيشة أو حتى إلى أدنى منه مؤقتاً. ولكن الأجور لا يمكن أن تبقى مدة طويلة في مستوى أقل من الحد الأدنى الضروري للمعيشة لأن العمال، في هذه الحالة لا يستطيعون إعالة أسرهم فيحجمون عن الزواج وتقل الولادات فينخفض عرض العمل في السوق وترتفع الأجور إلى مستواها السابق أو إلى أعلى منه. وهكذا فإن حركة العرض والطلب في سوق العمل تجعل الأجور، في رأي أنصار هذه النظرية، تراوح في حركتها حول مستوى الحد الأدنى الضروري للمعيشة، أي ما يعادل قيمة المواد والحاجات الضرورية لمعيشة العامل.

نظرية إنتاجية العمل: تنبثق هذه النظرية من النظرية العامة لتوزيع الدخل القومي في الاقتصاد الحر أو اقتصاد السوق، إذ تنطلق نظرية التوزيع من فرضية أثمان عوامل الإنتاج، التي تزعم أن كل من يشترك في الإنتاج يحصل على نصيب منه يعادل إنتاجيته، أي بمقدار إسهامه في تكوين ذلك الإنتاج. لما كان الأجر، بحسب أنصار هذه النظرية، هو ثمن العمل، فإن العامل يحصل على الثمن الكامل للعمل الذي يقدمه، ويتحدد مستوى الأجر مباشرة بإنتاجية العمل. وقد وضع الاقتصادي الفرنسي جان باتيست ساي Jean-Baptiste Say أساس نظرية إنتاجية العمل، إذ رأى في الأجر مكافأة على الخدمة الإنتاجية التي يقدمها العامل، وبالتالي فإن العامل يحصل على أجر يعادل إسهامه في تكوين الإنتاج. وفي أواخر القرن التاسع عشر حلت نظرية «القيمة ـ المنفعة» محل نظرية «القيمة ـ التكلفة»، وترتب على ذلك فهم جديد بأنه ليست للسلعة قيمة إلا إذا كانت تحمل قيمة استعمالية نافعة ومطلوبة في السوق. وليس لعوامل الإنتاج ـ والعمل أحد عوامل الإنتاج ـ إلا قيمة مشتقة من قيمة السلع التي تسهم في إنتاجها. وبالتالي فإن ما يحدد الأجور هو إنتاجية العمل، أي ما يعادل نصيب العمل في تكوين الإنتاج. وفي بداية القرن العشرين طور عدد من الاقتصاديين ج. ب. كلارك J.B. Clark وفون فيزر Von Wieser وهانس ماير Hans Mayer هذه النظرية فقالوا: إن ما يحدد الأجر ليس إنتاجية العمل بصورة مطلقة بل إنتاجية وحدة العمل الأخيرة أو الإنتاجية الحدية [ر. الإنتاجية] ويقول كلارك إنه في كل فروع الإنتاج يمارس قانون المردود المتناقص [ر. المردود] عمله إذ يتزايد الإنتاج بمعدلات أقل من تزايد العمل الحي المصروف في إنتاجه، وإنتاجية وحدة العمل الأخيرة هي الإنتاجية الحدية للعمل، وهي التي تحدد مستوى الأجر فيميل الأجر إلى التطابق مع الإنتاجية الحدية للعمل.

النظرية الاجتماعية للأجور: يرى أنصار هذه النظرية أن الأجور أداة من أدوات توزيع الدخل القومي وبالتالي فإن مستوى الأجور في أي بلد يتحدد بعاملين اثنين: الأول إنتاجية العمل الاجتماعي التي تحدد الناتج الإجمالي الذي يتم اقتسامه بين الطبقات الاجتماعية من جهة، والثاني الوزن الاجتماعي للطبقة العاملة الذي يحدد نصيب العمال من الناتج من جهة ثانية. ولا تختلف هذه النظرية في جوهرها عن نظرية الأجور المنظمة أو نظرية الأجور التفاوضية فكلتاهما تفسران مستوى الأجور بمدى قدرة التنظيم النقابي على ممارسة الضغط سواء على منظمات أرباب العمل أو على الحكومات والأحزاب السياسية.

نظرية الأجور المنظمة: إن جميع نظريات الأجور السابقة لم تستطع بيان الأساس الحقيقي لتحديد الأجور، وقد بينت أحداث القرنين التاسع عشر والعشرين تزايد قوة الطبقة العاملة السياسية وتأثيرها الكبير في الحياة السياسية والاقتصادية في كل البلدان الصناعية المتقدمة، كما شهدت مستويات الأجور بالمقابل قفزات لا يمكن تفسيرها بتحسن الإنتاجية أو بتغير الحد الأدنى الضروري للمعيشة، مما أفسح في المجال أمام تطوير النظرية الاجتماعية للأجور إلى نظرية الأجور التفاوضية (اتفاقيات الأجور الجماعية) أو نظرية الأجور المنظمة. وبحسب هذه النظرية يتحدد الأجر بطريق التفاوض الفردي بين العامل ورب العمل. ولأن العامل الفرد في موقف تفاوضي ضعيف، وبسبب زيادة دور المنظمات النقابية العمالية، فقد أصبح مستوى الأجور يتحدد بالمفاوضات بين منظمات أرباب العمل والنقابات العمالية. وبسبب أهمية كتلة الأجور وتأثيرها في حسن سير الاقتصاد الوطني، ودورها المتزايد في تنشيط الاستهلاك وتحقيق التوازن على مستوى الاقتصاد الكلي، إضافة إلى الأضرار الكبيرة التي تلحقها الإضرابات العمالية في حال عدم الاتفاق بين النقابات وأرباب العمل على مستوى الأجور فقد راحت السلطات العامة تتدخل في المفاوضات وتقوم بدور المنظم لمستويات الأجور في كثير من الأحيان.

النظرية الماركسية في الأجور

الماركسية نظرية فلسفية اقتصادية يؤلف الاقتصاد السياسي جزءاً رئيساً فيها، ويعد نظرية اقتصادية متكاملة تعالج آلية التطور والتوازن الاقتصاديين، وتعد نظرية القيمة الزائدة (فضل القيمة) حجر الزاوية في النظرية الاقتصادية الماركسية. يقسم ماركس عمل العامل إلى قسمين: العمل الضروري وهو الوقت الذي يصرفه العامل في العمل كي ينتج قيمة المواد الضرورية اللازمة لمعيشته ومعيشة أفراد أسرته، أي لتجديد قوة عمله، والعمل الزائد وهو الوقت الذي يمضيه العامل في العمل زيادة على وقت العمل الضروري وفيه ينتج القيمة الزائدة أو فضل القيمة التي تعود إلى صاحب العمل مالك وسائل الإنتاج. من هنا فإن النظرية الماركسية على الرغم من التقارب الملاحظ بينها وبين بعض النظريات الليبرالية في ربط الأجور بالحد الأدنى الضروري اللازم لمعيشة العامل فإنها تختلف عنها في تفسير مستوى الأجور وفي تفسير النتائج المترتبة على ذلك.

تنطلق النظرية الماركسية الاقتصادية من أن التبادل (البيع والشراء) يتم بين سلع متساوية القيمة وأن الأجر هو قيمة السلعة التي يبيعها العامل إلى صاحب العمل وهي قوة عمله أو قدرته وأهليته للعمل. وهكذا فإن العامل لا يبيع الرأسمالي عمله بل يبيعه قدرته على العمل، أي قوة عمله، لأن العامل بذاته ليس سلعة قابلة للتبادل للأسباب التالية:

ـ إن لكل سلعة قيمة، والعمل ليست له قيمة

بذاته ذلك أن القيمة هي العمل المجرد المتجسد في السلعة، والذي يظهر في عملية التبادل. وهكذا يكون من غير المقبول الحديث عن قيمة العمل بذاته، وهو ليس سلعة منفصلة قائمة بذاتها.

-إن السلعة موجودة فعلاً قبل دخولها عملية التبادل أما العمل فهو غير موجود في لحظة عملية البيع والشراء وإنما الموجود بحوزة العامل هو قدرته على العمل وهي التي يبيعها إلى صاحب العمل.

-إن عملية بيع العمل وشرائه تتناقض بالضرورة مع القوانين الاقتصادية الفاعلة في الاقتصاد الحر. فإذا عُدّ العمل سلعة، يجب أن يدفع ثمنه كاملاً بحسب قوانين التبادل السلعي. وإذا حدث ذلك فلا يستطيع صاحب العمل الحصول على أية قيمة إضافية. وهذا يتناقض مع سعي الرأسمالي وراء الربح. لذلك ترى الماركسية أن ما يبيعه العامل هو قوة عمله التي تتحدد قيمتها وفقاً لقانون القيمة. وبذلك يكون الأجر شكلاً متحولاً لقيمة قوة العمل. وتتحدد قيمة قوة العمل، كقيمة أية سلعة أخرى، بكمية العمل الاجتماعي اللازم لإنتاجها [ر. القيمة]. ولما كانت قوة العمل سلعة ذات صفات خاصة وإنتاجها وتجديد إنتاجها مرتبطين بوجود الشخص الذي يحملها وحياته ويتحققان بإشباع حاجات العامل فإن قيمة قوة العمل هي قيمة جميع السلع والخدمات اللازمة لإشباع حاجات العامل من أجل معيشته وتجديد قوة عمله، ويكون أجر العامل معادلاً لثمن جميع السلع والخدمات اللازمة له لتجديد قوة عمله، ويكون الأجر شكلاً متحولاً لقيمة قوة العمل.

وعلى الرغم من التشابه بين النظرية الماركسية في الأجور ونظرية الحد الأدنى لمستوى المعيشة فهما تختلفان فيما بينهما، فالأخيرة تقصر حاجات العامل على السلع المادية في حين تدخِل النظرية الماركسية في حساب قيمة قوة العمل، في مكونات الأجر، العنصر التاريخي والأخلاقي، إذ يجب أن يتطور مستوى الأجور بما يتفق مع مستوى النمو الاقتصادي والرفاه الاجتماعي. وقد عارض ماركس صراحة في كتابه «نقد برنامج غوته» قانون الأجور الحديدي الذي طرحه لاسال. فهو يرى أن قيمة قوة العمل ترتفع مع الزمن بسبب التقدم الاقتصادي وارتفاع المستوى الثقافي ومستوى الرفاه، وكذلك بسبب إدخال سلع استهلاكية جديدة، وبسبب تزايد شدة العمل ووتيرته نتيجة إدخال أساليب جديدة في تنظيم العمل، مما يجعل العامل مضطراً إلى صرف مجهود عضلي وذهني أكبر، وبالتالي يزداد استهلاكه المادي، كما تزداد حاجته إلى الراحة والاستجمام، وكل ذلك ينعكس زيادة في قيمة قوة العمل، وفي الأجر الذي يجب أن يكون معادلاً لها.

تحديد الأجور

تعرض نظريات الأجور العوامل التي تسهم في تقرير مستوى الأجور. وتميز هذه النظريات بين الأجر ثمناً للعمل يتحدد كما يتحدد ثمن أية سلعة أخرى بعوامل العرض والطلب مع ضرورة أخذ عنصر التكلفة بالحسبان، وبين كونه شكلاً متحولاً لقيمة قوة العمل يتحدد كما تتحدد قيمة أية سلعة أخرى بالعمل اللازم اجتماعياً لإنتاجها، وفي كلتا الحالتين لم تستبعد أي من النظريات إمكانية انحراف الأجر الفعلي عما يجب أن يكون عليه بفعل عوامل العرض والطلب أو بفعل عوامل أخرى. لهذا فإن تحديد الأجور فعلاً وواقعياً لا يتفق تماماً مع مضمون نظريات الأجور، وإن كان يعتمد على بعض مبادئها وأسسها. فالأصل في تحديد أجر العامل هو قبوله بالأجر الذي يعرضه عليه رب العمل في ضوء المفاوضات الفردية بينهما. وبسبب عدم التكافؤ بين الطرفين تتدخل المنظمات المهنية والسلطات العامة، أحياناً، لتحديد الحد الأدنى للأجور. وفي بعض الأحيان تكون مستويات الأجور موضوعاً لمفاوضات جماعية بين أرباب العمل والنقابات العمالية وقد تتدخل السلطات العامة أحياناً في فرض الحد الأدنى للأجور لكل مهنة أو للأجور بوجه عام، ويكون الحد الأدنى الذي تقرره السلطات العامة مرتبطاً غالباً بمستوى أسعار المستهلك، وتلجأ هذه السلطات إلى تحريك الحد الأدنى كلما رأت أن أسعار المستهلك قد ارتفعت إلى الحد الذي يخل بالتوازن بين الأسعار والأجور. وفي بعض الدول ولاسيما المتقدمة منها تلزم التشريعات النافذة أرباب العمل زيادة الرواتب والأجور لعمالهم بنسبة ارتفاع المؤشر العام لأسعار المستهلك لكي يبقى مستوى الأجور الفعلية مستقراً. وسواء تحدد مستوى الأجور بالمفاوضات الفردية أو بالاتفاقيات الجماعية، بتدخل من السلطات العامة أو بدونه، فإن هذا التحديد يأخذ بالحسبان عدداً من العوامل مثل العرض والطلب في سوق العمل، إذ ترتفع الأجور كلما كان العرض متدنياً، ويتضح ذلك أكثر ما يمكن في التمايز الواضح لأجور بعض المهن عندما يزداد الطلب عليها، ويكون عدد العاملين المتوافر غير كاف. ويقوم عامل العرض والطلب بدور كبير في تحديد القوة التفاوضية للعمال وأرباب العمل، كما يؤثر في مواقف السلطات العامة من تحديد الحد الأدنى للأجور. يقوم كذلك مستوى الأسعار بدور مهم في تحديد مستوى الأجور. فمن غير الطبيعي ألا يستطيع العامل الأجير توفير الحد الأدنى الضروري للمعيشة بالأجر الذي يتقاضاه، وإن حدث هذا لمدة قصيرة فلا يمكن أن يستمر على المدى الطويل، وإلا حدثت اضطرابات اجتماعية. وقد تسوء أوضاع العمال الصحية فيتناقص عددهم فيعود التوازن إلى سوق العمل. ولاشك في أن مستوى المعيشة العام والوضع الاقتصادي في البلد ومستوى التقدم ودرجة النمو، تؤثر كلها في تحديد مستويات الأجور، فلا يعقل أن يكون مستوى الأجور في بلد متقدم مزدهر اقتصادياً كمثيله في بلد نام أو متخلف فقير. وإن نظرة على مستويات الأجور في البلدان العربية تؤكد ذلك، بصرف النظر عن طبيعة الأنظمة الاجتماعية القائمة في هذه البلدان، سواء تدخلت السلطات العامة في تحديد الأجور أم لم تتدخل. ويكون، لمستوى التنظيم النقابي وقوة الطبقة العاملة سياسياً واجتماعياً، دور أيضاً في تحديد مستوى الأجور، ويلاحظ ذلك بوضوح عند موازنة الوضع في الدول الصناعية المتقدمة بالأوضاع في الدول النامية. فنمو الحركة النقابية العمالية وزيادة وعيها التنظيمي حوَّل سوق العمل من سوق تنافسية إلى سوق شبه احتكارية. فمنذ أواخر القرن التاسع عشر تم الاعتراف قانوناً في الدول الصناعية المتقدمة بحق الإضراب، ومنذ مطلع القرن العشرين أصبحت التنظيمات النقابية منظمات وطنية بحكم القوانين، وأصبحت الاتحادات العمالية قوة كبيرة لها دورها في الحياة السياسية، وتتبع لها معاهد ومراكز بحوث ودراسات لتقصّي مستويات الدخول والأسعار وتوزيع الناتج القومي وبيان

نصيب العمال منه، كما أن لها دورها الواضح في إعداد التشريعات العمالية. وتبين الأرقام الإحصائية المتوافرة بأن نسبة حصة العمال من الدخل القومي في الدول الصناعية المتقدمة أعلى من مثيلتها في الدول النامية، كما أن هناك علاقة طردية بين نصيب العمال من الدخل القومي ومستوى النمو الاقتصادي من جهة وبين هذا النصيب ومستوى التنظيم النقابي من جهة ثانية.

أشكال الأجور

يتقاضى العاملون أجورهم بأشكال مختلفة وتبعاً لطرق وأساليب متباينة تحددها الاتفاقيات أو عقود العمل، وغالباً ما يرغب كل من العمال وأصحاب العمل في اللجوء إلى شكل للأجور يلبي رغبتهم المشتركة. وتختلف رغبات الطرفين بحسب ظروف العمل وشروط السوق. إذ يميل العمال عادة إلى الحصول على أجر مضمون في حالة الركود الاقتصادي، ويرغبون بربط الأجر بالإنتاج في حالة الرواج، وكذلك أرباب العمل. ولكن قد لا تتفق رغبات الطرفين دائماً وفي مختلف الظروف، وقد تدفع الأجور نقداً أو عيناً، أسبوعياً أو شهرياً. وقد دأب رجال الأعمال وعلماء الإدارة على السعي المتواصل إلى ابتكار أشكال للأجور تحقق أرباحاً أكبر لأصحاب العمل، وترفع في الوقت نفسه أجور العمل أيضاً. وحدثت تطورات مهمة على سوق العمل في كل الدول الصناعية المتقدمة حققت ضمانات أكبر للعاملين ما يزال عمال كثيرون يطمحون إلى تحقيقها في بلدان أوربة الشرقية والعالم الثالث. وتتخذ الأجور في الوقت الراهن أحد الأشكال الثلاثة التالية:

أجر الوقت: يُعد أجر الوقت أفضل تعبير عن ثمن العمل أو عن قيمة قوة العمل إذ يضع العامل نفسه بتصرف رب العمل للقيام بأعمال محددة في مدة زمنية معينة (وقت العمل) لقاء أجر محدد، ويتم تحديد أجر ساعة العمل، ثم يحسب أجر العامل بقدر الوقت المتفق على بقائه في العمل، وهذا الأسلوب يلائم أصحاب العمل من عدة نواح، فهو يمكّنهم من التحكم بالوقت الذي يدفعون مقابله أجراً بحسب حاجتهم، كما يمكّنهم من إطالة يوم العمل إذا أرادوا، وقد يرغب العمال في الحصول على دخل أعلى فيضطرون إلى العمل ساعات أكثر. وغالباً ما يتم تحديد سعر متدنٍ لساعات العمل العادية، وسعر أعلى لوقت العمل الإضافي. وقد لجأ المشرّع السوري إلى تحديد الأجور على أساس عدد ساعات عمل يومية محددة، ألزم بعدها أصحاب الأعمال دفع أجور زائدة مقابل ساعات العمل الإضافية، قد تصل إلى ضعف الأجور العادية. كما حرص المشرّع السوري على حماية قوة العمل من الاستنفاد السريع، فوضع حداً أعلى لعدد ساعات العمل الإضافي اليومية التي يجوز تشغيل العامل فيها. ويسمح هذا الشكل من الأجر بتحقيق التكيف مع مقتضيات الإنتاج وظروف السوق، إذ يتمكن صاحب العمل من تقليص ساعات العمل عند الضرورة بما يتلاءم مع الحاجة إلى الإنتاج ويخفض أعباء مؤسسته في أوقات الركود.

أجر القطعة: لاحظ أصحاب العمل وعلماء الإدارة أن أجر الوقت لا يعطي العامل أي حافز لزيادة وتيرة العمل وزيادة الإنتاجية، وغالباً ما يحتاج صاحب العمل إلى تطبيق نظام دقيق للرقابة من أجل تحقيق هذا الهدف، مما يزيد في أعبائه المالية لضمان الاستغلال الكامل لوقت العمل. لهذا أدخل أسلوب جديد لحساب الأجر وهو أجر القطعة. وفي مرحلة معينة حل أسلوب أجر القطعة محل أجر الوقت، أما اليوم فقد تمت العودة إلى التوسع في أسلوب أجر الوقت لأن إدخال التقنيات العصرية والآلات ذاتية الحركة جعل وتيرة العمل وشدته محددتين مسبقاً بمتطلبات الآلة وليس بالعامل نفسه.

ولهذا الأسلوب الذي يتحدد به الأجر على أساس عدد القطع التي ينتجها العامل أو على عدد المراحل التي يقوم بها في عملية إنتاج السلعة مزايا متعددة منها:

- يخفف من شعور العامل بأن صاحب العمل يستغله، إذ يبدو العامل كأنه يتقاضى دخلاً مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بكمية الإنتاج والعمل الذي يقوم به.
- يساعد في زيادة وتيرة العمل والاستخدام المجدي لوقت العمل. فالعامل يسعى إلى الحصول على أجر أكبر، ولهذا فإنه يعمل بكل قدرته لزيادة عدد القطع المنتجة، ويحقق بذلك نفعاً له (زيادة الأجر)، ولصاحب العمل (زيادة الإنتاج وزيادة الأرباح) وكذلك للاقتصاد الوطني (زيادة إنتاجية العمل ورقم الإنتاج).
- يساعد في تخفيض العمل غير الإنتاجي (المراقبة) لمصلحة زيادة الأعمال المنتجة، ويسهل عملية ربط الأجر بالإنتاج فيحقق عدالة أكبر في توزيع الأجور بين العاملين.

أجر الحوافز: على الرغم من مزايا أجر القطعة، فإن تدخل السلطات العامة وكذلك موقف النقابات من ضرورة تحديد أجر مضمون أو حد أدنى من الأجر للعاملين، قاد رجال الأعمال وعلماء الإدارة إلى استنباط شكل آخر من أشكال الأجور وهو أجر الحوافز، الذي يتلافى المساوىء التي تنجم عن أجر الوقت أو أجر القطعة. إن أجر الحوافز شكل معدّل من أجر الوقت أو أجر القطعة يؤدي في الوقت نفسه إلى زيادة الإنتاج وتحسين أجور العمل، إضافة إلى زيادة أرباح أصحاب العمل وزيادة مرونة العمل في مؤسساتهم. والقواسم المشتركة بين أجر الحوافز، بمختلف أساليبه، والأنظمة المعمول بها، على تنوعها، تكمن في أنها تنطلق من تحديد معدل أداء متوسط للعمال، ومن تحديد أجر أساسي للعمل (بحسب الوقت أو بحسب القطعة)، فيبدو نظام المكافأة بمنزلة أجر إضافي عن الإنتاج الذي يتجاوز معدل الأداء المتوسط المحدد.

ولا بد من الإشارة إلى أنه مهما يكن أسلوب الحفز المتبع فإن حساب مكافأة العامل الذي يتجاوز حد الأداء يضمن أن تكون زيادة الأجر التي يحصل عليها العامل أقل من زيادة الإنتاج التي يحققها. فيبقى للمؤسسة فائض من الإنتاج الزائد الذي يحققه العامل.

يقوم أسلوب أجر الحوافز على أساس تحديد أجر ثابت مع تقديم مكافآت (حوافز إنتاجية) تكون مرتبطة دائماً بتحسن الأداء والمردود. وأسلوب أجر الحوافز يشتمل على عدد من الأنظمة، تختلف فيما بينها في طريقة الحفز مع حفاظها على الجوهر ذاته ومنها:

مشاركة العمال مباشرة في النتائج المالية للمؤسسة: وتتخذ هذه المشاركة أشكالاً مختلفة أولها الأجور النسبية أو ما يسمى بنظام شولر Schuller الذي يقوم على أساس إعطاء العاملين في المؤسسة مكافآت إضافية بنسبة ثابتة من رقم أعمال المؤسسة. وهكذا يصبح العمال معنيين عناية مباشرة بتقدم المؤسسة وزيادة الإنتاج لأنهم يشاركون باقتسام النتائج. وثانيها المشاركة بالأسهم، أي يمنح العمال حق الاكتتاب بما يسمى أسهم العمل action de travail فيصبح العمال شركاء في

ملكية رأس المال، ويحصلون، إضافة إلى أجورهم، على عوائد من أسهمهم تتناسب مع نتائج عمل المؤسسة كما يشاركون في إدارة المؤسسة عن طريق إسهامهم في الهيئة العامة للمساهمين، وثالث أشكال المشاركة المساهمة العمالية copartnership وهو أسلوب مطبق في إنكلترة، ويكون فيه العمال مشاركين في أرباح الشركات مع حقهم في تحويل حصتهم من الأرباح إلى أسهم أو تقاضيها نقداً.

نظام مكافأة الإنتاجية: يحصل العمال في هذا النظام على زيادة في أجورهم إضافة لقاء تحسين الإنتاجية من دون أن يؤدي ذلك إلى مشاركتهم في رأس المال.

وهناك أنظمة مبتكرة كثيرة تهدف إلى توفير الشروط التي تجعل العمال يبذلون جهداً أكبر لزيادة الإنتاج وتحسين فعالية الموارد المتاحة للمؤسسة مثل نظام تايلور ونظام روفان وغيرهما، ومثل هذه الأساليب تحقق ربحاً إضافياً للمؤسسة وتقود في الوقت نفسه إلى زيادة أجور العمال وتحسين أوضاعهم كما تؤدي إلى زيادة الإنتاج وتحسين الإنتاجية مما ينعكس إيجابياً على النمو الاقتصادي والرفاه الاجتماعي.

التنظيم الحكومي للأجور (سياسة الأجور)

تشكل كتلة الأجور أحد المتغيرات الاقتصادية المهمة المؤثرة في حسن سير الاقتصاد الوطني. فقد رأى الاقتصادي ج. م. كينز J.M. Keynes أن من الضروري في حالة الركود الاقتصادي أن تلجأ السلطات العامة إلى توسيع قاعدة الإنفاق العام لتوزيع مزيد من الأجور مما يتسبب في زيادة الطلب الفعال demande efficace يسهل عملية الخروج من الأزمة الاقتصادية. لهذا السبب ولأسباب اجتماعية وسياسية تولي الحكومات في الدول الصناعية المتقدمة اهتماماً كبيراً لمسألة الأجور وتنظيمها إذ تفسح في المجال أمام النقابات وأرباب العمل لعقد اتفاقيات الأجور الجماعية وترعى مثل هذه الاتفاقيات وتتدخل أحياناً في إقرارها. كما تتدخل الحكومات في إقرار نظام الحد الأدنى للأجور الذي يتحدد في ضوء مرونة الطلب وأسعار المواد الاستهلاكية.

ومن الجدير بالذكر أن نظام الحد الأدنى للأجور لا يضمن تشغيل العمال ولا مدة عملهم ويتحدد عادة بناءً على رأي لجنة عليا لاتفاقيات الأجور الجماعية تضم في عضويتها مندوبين عن نقابات العمال وأرباب العمل بالإضافة إلى ممثلين حكوميين. وتتدخل الحكومات في تطبيق سلم متحرك على نظام الحد الأدنى للأجور فتتغير الأجور بعلاقة ثابتة مع الرقم القياسي لأسعار المستهلك الذي يمثل تطور مستوى المعيشة.

وقد حرصت جميع الدول الصناعية المتقدمة على تطبيق أنظمة الضمان الاجتماعي sécurité sociale في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وتكفل أنظمة الضمان الاجتماعي المطبقة بدرجات متفاوتة تغطية أجر الضمان وهو الأجر الذي يحصل عليه العامل المتعطل عن العمل إضافة إلى تغطية الأخطار المهنية التي يتعرض لها العمال كحوادث العمل والأمراض المهنية وحالات العجز والأمومة والشيخوخة والوفاة. كما يتقاضى العامل عن طريق إعادة توزيع الدخل الضريبي، إضافة إلى أجره المباشر تعويضات ملحقة منها التعويضات العائلية، وهي غير مرتبطة بالعمل وإنما تعطى في ضوء عدد الأولاد الذين يعيلهم العامل لمساعدته في تحمل نفقاتهم. وكذلك تعويضات الأجر الوحيد الذي تمنحه في بعض الدول الصناعية المتقدمة صناديق الضمان الاجتماعي تعويضاً للأسر التي تعتمد في معيشتها على دخل فرد واحد، ويرتبط مستوى هذا التعويض بعدد الأولاد في الأسرة أيضاً. وتعويضات الولادة والأمومة التي تغطي، بدرجات متفاوتة، نفقات الولادة، كما تغطي الالتزامات المترتبة على الحمل. وتعويضات السكن التي تمنحها بعض الدول للأسر ذات الدخل المتدني لمساعدتها في إيجاد السكن الملائم.

وهكذا يتضح أن التدخل الحكومي في تنظيم الأجور يهدف إلى تحقيق أهداف اقتصادية كتوزيع الدخل بما يضمن تحقيق التوازن بين العرض والطلب في السوق، وتنشيط الاقتصاد وحمايته من الأزمات والهزات الاقتصادية، إضافة إلى تحقيق أهداف اجتماعية مثل تخفيف الاضطرابات والمشكلات وتحقيق الاستقرار السياسي. كما قد تهدف الحكومات من تدخلها في تنظيم الأجور إلى تحقيق أهداف سياسية لكسب العمال والمنظمات النقابية إلى جانبها. ولابد من الإشارة إلى أن أنظمة الأجور ومتمماتها المطبقة في الدول الصناعية المتقدمة قد جاءت أصلاً نتيجة زيادة وعي الطبقة العاملة ونجاح الثورات الاشتراكية في بعض الدول، ومحاولة تلافي مثل هذه الثورات في الدول الصناعية الأخرى. وقد حققت هذه الأنظمة فعلاً استقرار الطبقة العاملة وقادت إلى تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في هذه البلدان.

تطور المستوى العام للأجور

يرتبط المستوى العام للأجور بعوامل متعددة ويتغير هذا المستوى تبعاً لتأثير تلك العوامل، ولكن من المهم جداً الإشارة إلى أن حركة الأجور، حتى تكون فعلية من جهة، وإيجابية في تأثيرها على الاقتصاد الوطني من جهة ثانية، يجب أن تنسجم مع حركة إنتاجية العمل من ناحية ومع حركة الأسعار من ناحية أخرى. إذ لابد من التفريق بين الأجر الاسمي salaire nominal والأجر الفعلي salaire réel . فالأجور الاسمية هي مجموع المبالغ النقدية التي تدفع إلى العمال لقاء الأعمال التي يقومون بها. ولكن كمية النقود التي يتقاضاها العمال لا تعطي أي مؤشر عن استهلاكهم الفعلي. في حين تدل الأجور الفعلية، في ضوء مستوى الأسعار، على كمية السلع والخدمات التي يمكن للعمال الحصول عليها مقابل أجورهم الاسمية، وبتعبير آخر إن الأجر الاسمي يقيس كمية النقد أما الأجر الفعلي فيقيس القوة الشرائية pouvoir d'achat والمهم للعامل وللاقتصاد الوطني حركة الأجر الفعلي، لأنها تحدد الطلب الاستهلاكي الفعال الذي يتوقف عليه تصريف الإنتاج في الأسواق، وتجديد الإنتاج الاجتماعي. ومن نافلة القول إن جميع العوامل المؤثرة في تحديد مستوى الأجور تسهم أيضاً في تطور المستوى العام للأجور، فكلما ارتفعت تكاليف المعيشة مثلاً يتحرك الحد الأدنى للأجور ليتلاءم مع ارتفاع التكاليف ويكون فعل «القانون الحديدي للأجور» مؤثراً أيضاً.

ثم إن ازدياد قوة الطبقة العاملة وتحسن مستوى تنظيمها النقابي يجعلها أكثر قدرة على زيادة نصيبها من الناتج القومي، إضافة إلى أن ارتفاع مستوى النمو الاقتصادي وزيادة الدخل القومي يعملان في اتجاه حركة الأجور نحو الأعلى لتكون كتلة الأجور متوافقة مع التحسن الذي يطرأ على مستوى الرفاه من جهة، وقادرة على امتصاص السلع الاستهلاكية

التي يزداد إنتاجها من جهة ثانية.

تجدر الإشارة إلى أن قياس المستوى العام للأجور يجري بعدة مقاييس أهمها نسبة كتلة الأجور إلى الدخل القومي، وبالطبع كلما كانت هذ النسبة مرتفعة دل ذلك على تحسن المستوى العام للأجور، ولكن يجب الأخذ بالحسبان أيضاً تغير نسبة العاملين بأجر إلى مجموع عدد العاملين في الاقتصاد الوطني ليكون القياس أكثر دقة. كما يمكن قياس تطور المستوى العام للأجور بمقارنة متوسط الأجر أو الحد الأدنى للأجور المقرر مع مستوى المعيشة [ر]. وكلما كان متوسط الأجر أو الحد الأدنى مرتفعاً قياساً بمستوى المعيشة دل ذلك على تحسن في مستوى الأجور لصالح العمال. وتدل الإحصاءات المتوافرة على أن المستوى العام للأجور يتطور في الدول الصناعية المتقدمة نحو التحسن في مصلحة زيادة حصة الأجور من الدخل القومي من جهة ونحو تحسن النسبة بين متوسط الأجور ومستوى المعيشة من جهة ثانية، مما يخلق وضعاً مستقراً من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في هذه البلدان. في حين يلاحظ اتجاه معاكس في البلدان النامية على الرغم من تزايد نسبة العاملين بأجر إلى مجموع العاملين في هذه البلدان.

أما في سورية فلا تتوافر دراسات عن توزيع الدخل القومي، غير أنه من الملاحظ أن أوضاع العاملين بأجر في تراجع وتسعى الدولة إلى حماية مصالحهم عن طريق تحريك سلم الرواتب والأجور من جهة ورفع الحد الأدنى للأجور من جهة ثانية، كما تسعى دائماً إلى تعديل سلم الرواتب والأجور في مصلحة ذوي الأجور المتدنية، فقد اتبعت حكومة الجمهورية العربية السورية مبدأ زيادة رواتب العاملين وأجورهم بنسب متناقصة على شرائح الدخل العليا في العقدين الماضيين وذلك بقصد تقليص الفروق في الأجور بين العاملين من مختلف الأصناف والدرجات. كما تسعى الحكومة من الزيادات المتعاقبة على الرواتب والأجور إلى تخفيف أثر تآكل الأجور من جهة وتحسين نسبة الأجور إلى الدخل الوطني من جهة ثانية.

مطانيوس حبيب

الموضوعات ذات الصلة:

اقتصاد العمل - مستوى المعيشة.

مراجع للاستزادة:

- مطانيوس حبيب، الاقتصاد السياسي (منشورات جامعة دمشق ١٩٩٠ - ١٩٩١).

-RENÉ MAURY, Economie politique (Ed. Sirey 1974).

- R. MOSSÉ, Les salaires (Ed Rivière).

■ الآجر

الآجر briquette مادة من مواد البناء تستخدم في إنشاء الجدران والسقوف المقبَّبة وفي تبليط الأرضيات وكسوة السقوف المائلة والجدران.

ويصنع الآجر من الغَضَار «المقولب». وصناعة الآجر من أقدم صناعات مواد البناء المعروفة، إذ كان الطين يوضع في القالب ويجفف في الشمس، ثم بدأت عملية شيّ الغضار لصنع الآجر على يد البابليين الذين استخدموه استخداماً واسعاً في أعمال بناء قصورهم ومعابدهم وبرج بابل الشهير.

وقد لوحظ عَرَضياً على أثر بعض الحرائق أن الشيّ يجعل الآجر المجفف أشد قساوة، كما أن استعمال الرواسب الغضارية التي تصلبت تصلباً شديداً لم يكن ممكناً إلا بعد طحنها باستعمال آلات السحق. وقد مكّن التقدم التقني من تنمية صناعة الآجر على نحو جعل منها اليوم صناعة ذات منتجات متنوعة جداً تدخل في مختلف عناصر البناء من الجدران والسقوف إلى التغطيات ومجاري المياه.

صنع الآجر

المادة الأولية: إن المادة الأولية لصنع الآجر هي الغضار، وهو ناتج من تفتت بعض الصخور الرسوبية بفعل عوامل الطبيعة. ويوجد الغضار في طبقات التربة بشكل صفائح وخيوط، وأشهر فلزات الغضار هي: الكاولينيت kaolinite (نسبة إلى تل كاولنغ في الصين)، والإيليت illite (نسبة إلى ولاية إيلينوي في الولايات المتحدة الأمريكية)، والمونموريُّونيت montmorillonite (نسبة إلى مدينة مونموريون في فرنسة). وتحتوي كلها على نسب مختلفة من السيليس (السيليكا) SiO_2 والألمين (الألمينا) Al_2O_3

وفي تركيب الغضار، إضافة إلى ذلك، شوائب من فلزات متحدة معه مثل الكوارتز وبعض أكاسيد الحديد وكربونات الكلسيوم والمغنزيوم وأحياناً مواد عضوية. وتعطي أكاسيدُ الحديد غضاريات الآجر ألوانها التي تتميز بها.

مراحل صنع الآجر: يمر صنع الآجر بالمراحل الخمس التالية (الشكل ١):

- استخراج المواد ونقلها إلى المصنع.

- تهيئة المواد: وفيها يتم تفتيت كتل الغضار وتنقيتها من الشوائب، ثم تحضير العجينة بالسحق والهرس والخلط في آلات خاصة. وبعد ذلك يتم ترطيب العجينة في آلات الخلط بإضافة الماء أو بخار الماء في أنفاق خاصة.

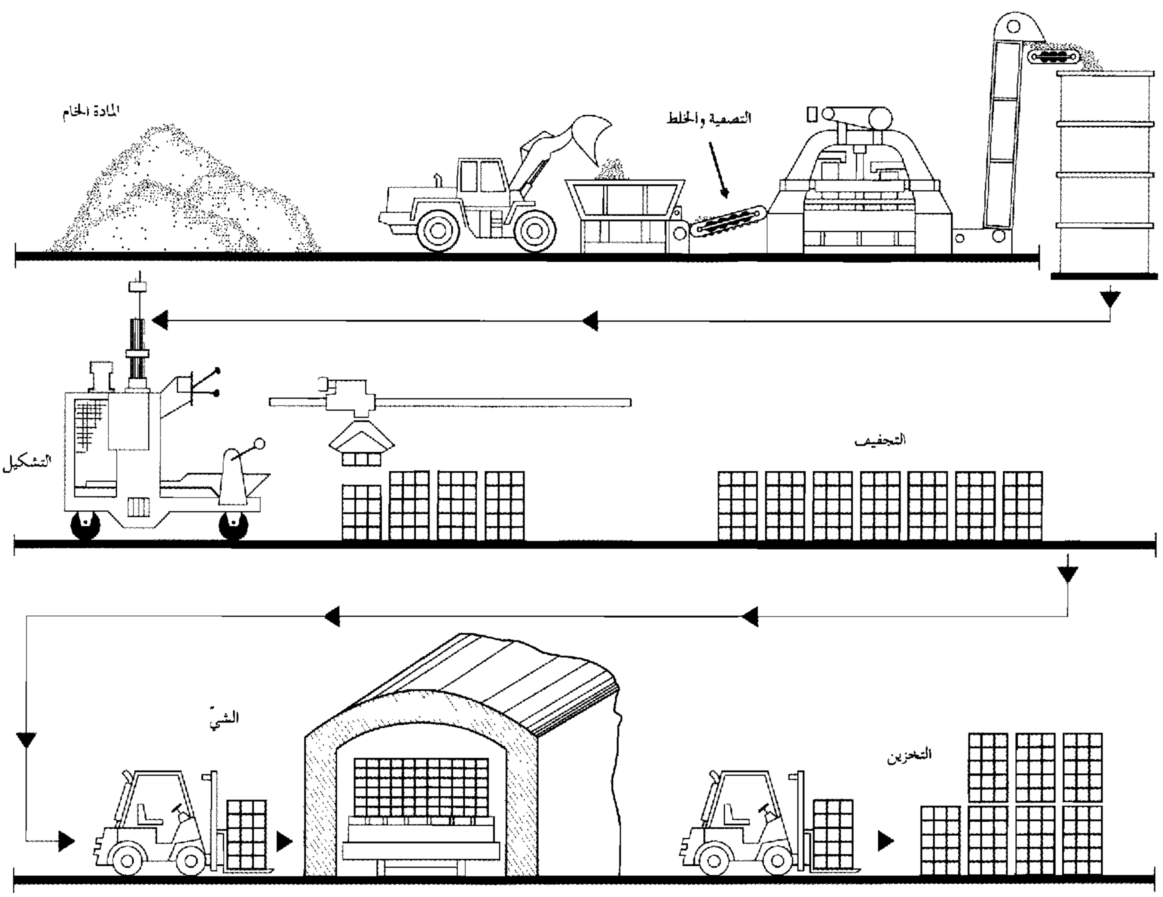
- التشكيل: وفيه يتم تشكيل الخليطة الرطبة في قوالب ومكابس خاصة لإعطائها الشكل المطلوب. وهناك ثلاث طرائق للتشكيل هي:

طريقة التشكيل الرطبة: وفيها تكون نسبة الماء المضاف إلى العجينة الغضارية من ٢٠٪ إلى ٣٠ ٪ من الوزن الجاف للخليطة، وذلك تبعاً لدرجة لدونة الغضار المستخدم لتكون العجينة قابلة لأن تأخذ في القالب الشكل المطلوب من دون أن تتفتت عند فك القالب أو أن تتكسر عند كبسها فيه. وهذه الطريقة هي الأكثر شيوعاً في إنتاج الآجر المُصْمت والآجر المثقب والآجر المجوّف.

طريقة التشكيل نصف الرطبة: وفيها تكون نسبة الماء بحدود ١٥ ٪ إلى ٢٠ ٪ من وزن الخليطة الجافة. ويتم تشكيل العجينة في هذه الطريقة بالبَثْق في مكابس وقوالب سحّابة.

طريقة التشكيل الجافة: وفيها تكون نسبة الماء بحدود ٨٪ إلى ١٢ ٪ من وزن الخليطة الجافة. ويتم تشكيلها في مكابس خاصة معقدة تحت ضغط يصل إلى ٢٥٠ كغ/سم٢. ومزايا هذه الطريقة أنها تخفف مرحلة التجفيف وتجعل تقلص القطع المشكلة صغيراً جداً.

- التجفيف: وفيه يتم تجفيف القطع المشكلة وتخليصها من الماء لتصبح نسبة الماء من ٧٪



(الشكل ١) مراحل صنع الآجر

إلى ٩ ٪ من وزنها. ويتم التجفيف بتكديس القطع في الهواء الطلق عدة أسابيع أو في أفران نَفَقيّة تصل حرارتها إلى ٧٠ْ مئوية، أو بتعريضها لتيار هواء جاف ساخن.

- **الشيّ**: وفيه تتم عملية إكساب القطع المشكّلة المجففة القساوة والصلابة بحرقها في أفران خاصة نفقية أو دوارة أو متعرجة. ويكتسب الغضار صلابته اللازمة في درجة حرارة ٨٠٠ْ مئوية بالانصهار الذي يحدث للمكونات المعدنية الداخلة في تركيبه فتربط بين الحبيبات التي احتفظت بصلابتها في هذه الحرارة. وتتم عملية الشيّ بتدريج ارتفاع درجة الحرارة حتى تصل إلى ٨٠٠ْ أو ١٠٠٠ْ مئوية. ويُتَّخَذُ هذا التدريج للحيلولة دون التصلب السابق لأوانه لسطح القطع قبل انطلاق الماء الذي في أعماقها، مما يسبب ضعفاً في داخل القطعة، ويسبب تشققها وتصدعها عند الاستخدام، ويجب أن يتم تبريد القطع المشوية تبريداً متدرجاً للحيلولة دون تشققها أيضاً.

أنواع الآجر

يقسم الآجر بحسب استخدامه إلى الأنواع الرئيسة التالية:

الآجر العادي: وهو آجر مصمت أو مثقب أو مجوف (الشكل ٢). تراوح مقاومته للضغط بين ٥٠ و٣٠٠ كغ/سم^2. ويستخدم هذا النوع في إنشاء الجدران الحمّالة والجدران الحاجزة والعناصر القوسية والأعمدة والسقوف المقببة.

الآجر التزييني: وهو آجر مصمت أو مثقب (الشكل٢) تراوح مقاومته للضغط بين ١٠٠ و٥٠٠ كغ/سم، ويكون في العادة قليل الثخانة ويتم شيه في حرارة تصل حتى ١٢٠٠ْ مئوية لإكسابه صلابته العالية، ويستخدم هذا الآجر في تغطية مقدمة البناء وجدرانه. وهناك أنواع خاصة منه لتغطية الأرضيات.

الآجر الحراري: وهو آجر مقاوم للحرارة من الشكل المصمت. يتم شيّه في حرارة عالية تصل إلى ٢٠٠٠ْ مئوية. ويستخدم هذا الآجر في تبطين جدران الأفران والمداخن.

القرميد: وهو آجر قليل الثخانة مسطح (الشكل ٢) يستخدم في تغطية السطوح المائلة في البناء، وتكون مقاومته للضغط بحدود ٨٠ كغ/سم^2.

أنواع خاصة من الآجر: وهي ذات أشكال ومقاومات واستخدامات مختلفة مثل الآجر المزجج، والآجر الإسفلتي، والآجر المحرَّق، والآجر

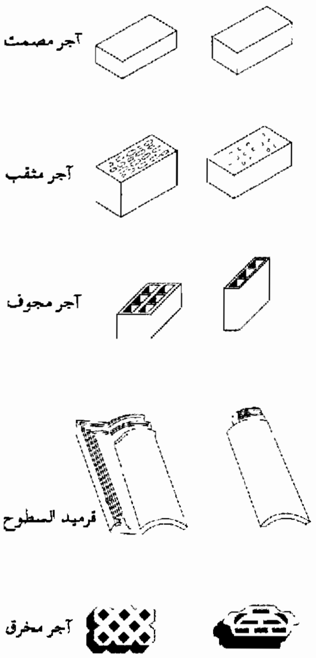
المقاوم للكبريتات، والأنواع المختلفة للمواد السيراميكية..

مواصفات الآجر

يتمتع الآجر بمواصفات إنشائية كبيرة، فهو مادة عالية المقاومة للضغط وخفيفة الوزن، وجيدة العزل للحرارة والرطوبة والصوت، واقتصادية الكلفة إضافة إلى كونها جميلة شكلاً ولوناً.

يراوح الوزن الحجمي للآجر بين ١٢٠٠ و١٥٠٠ كغ/م^3 للآجر المثقب والمجوف، و١٨٠٠ كغ/م^3 للآجر المصمت، وتراوح مقاومة الآجر العادي للضغط بين ٥٠ و٣٠٠ كغ/سم^2، وهناك أنواع من الآجر يتم إنتاجها بتقنيات خاصة تصل مقاومتها إلى ١٠٠٠ كغ/سم^2. ويتصف الآجر بتحمله للضغط وضعفه بتأثير الشد. لذلك يستخدم في العناصر الخاضعة لقوى ضغط في البناء. وتختلف الناقلية الحرارية للآجر باختلاف وزنه الحجمي وحجم الفراغات والثقوب والمسامّ فيه. ويُراوح معامل الناقلية الحرارية للآجر بين ٠٫٥ و٠٫٧ كيلوكالوري/م^2 ساعة درجة مئوية. لذلك يعد الآجر عازلاً حرارياً جيداً يضمن أجواء داخلية مريحة في البناء. ويجب ألا تقل نسبة امتصاص الآجر للماء عن ٨٪، أما الآجر المستخدم في تغطية مقدم البناء فيجب أن يكون مقاوماً لتغيرات الجو وقليل الامتصاص للرطوبة فلا يتشقق بفعل الصقيع والعوامل الجوية الأخرى.

عمر العرفي



(الشكل ٢) أشكال الآجر الرئيسية

■ الإجراءات ← أصول المحاكمات

■ الإجرام (علم-)

هناك من يعرّف علم الإجرام criminology بأنه العلم الذي يدرس الجريمة من الوجهة الواقعية، بوصفها ظاهرة فردية اجتماعية، دراسة علمية، للكشف عن العوامل التي تسبب تلك الظاهرة. ويتناول هذا العلم بالتالي دراسة شخصية المجرم لبيان الأسباب التي دفعته إلى الإجرام، ويهتم ببيان خصائص المجرمين والتوصل من وراء ذلك إلى تصنيفهم. ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل يتناول علم الإجرام أيضاً دراسة أفراد آخرين يكونون في حالة خطرة تنذر بوقوعهم في الجريمة مستقبلاً. وفي تعريف آخر، إن علم الإجرام هو علم دراسة الانحراف بحثاً عن أسبابه وأصله ووسائله ونتائجه. ويضيف بعض المحدثين إلى التعريف السابق القول إن علم الإجرام لا يهتم بالجرائم فقط بل يهتم كذلك بضحايا الجرائم والاعتداءات.

نشأة علم الإجرام وتطوره

ولد هذا العلم في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على يد أساطين المدرسة الوضعية الإيطالية وهم، لومبروزو Lombroso وفيري E.Ferri وغاروفالو R.Garofalo ويعدّ لومبروزو صاحب الجناح النفسي الفيزيولوجي في هذه المدرسة، لأنه عزا الجريمة إلى أسباب داخلية في بنية المجرم. ولومبروزو هو صاحب نظرية المجرم بالولادة، أو الإنسان المجرم، التي لاتزال حتى الآن موضع جدل بين المهتمين بمكافحة الجريمة ومعاملة المجرمين. أما فيرّي فيُعدّ صاحب الجناح الاجتماعي في هذه المدرسة، لأنه عزا الجريمة إلى أسباب اجتماعية خارجية تقع في المحيط الذي يعيش فيه المجرم.

وأما غاروفالو، الذي كان قاضياً مشبعاً بالشدة والنقمة على المجرمين، والذي يذكر عنه أنه مؤسس علم الإجرام لأنه أول من استخدم هذا الاصطلاح، ووضعه عنواناً لكتابه الذي أصدره عام ١٨٨٥، فقد عرّف الجريمة وجعلها في صنفين: جريمة طبيعية وجريمة اصطناعية، وصنف المجرمين كذلك وبيّ ن العوامل في إجرامهم وذكر أنها نفسية وعضوية. وقد استطاعت دراسات رواد المدرسة الوضعية الإيطالية وأعمالهم أن تحلّ المجرم محل الجريمة، فأصبح قطب الرحى، واحتل مركز الصدارة بالاهتمام بعد أن كانت الجريمة هي الشغل الشاغل للمدارس الجزائية السابقة مثل المدرسة التقليدية والمدرسة التقليدية الجديدة أو الحديثة.

وقد تطور علم الإجرام وصار له فرع جديد هو علم الإجرام السريري أو الاكلينيكي clinical criminology.

استقلال علم الإجرام والتداخل بينه وبين علوم أخرى

هناك من ينكر على علم الإجرام استقلاله ويعدّه ثمرة تجميع اصطناعي لمعلومات وآراء متنوعة. وقد اختلف الفقهاء في العلوم التي تدخل في تأليفه أو ترفده بنتاج أبحاثها. فهناك من يقول: «إنه وعلم الإجرام السريري يعتمدان على علوم أساسية مختلفة هي: علم الحياة الجنائي، وعلم النفس الجنائي، وعلم الاجتماع الجنائي، وعلم العقاب، وإن لهما علاقة وطيدة بعلوم أخرى مثل الطب الشرعي وعلم النفس القضائي والشرطة العلمية». ويذكر الفقيه الإيطالي فيليبو غريسبيني Filippo Grispigni أن علم الإجرام يتكون من علم الإنسان الجنائي، وعلم النفس الجنائي مع علم الاجتماع الجنائي، وهدفه دراسة المجرم والجريمة وتحديد سبل قمع الجريمة والوقاية منها.

ويرى آخرون أن علم الإجرام هو نتيجة لتجمع علوم مختلفة أولها علم الإنسان الجنائي، وعلم الاجتماع الجنائي مضافاً إليهما علم النفس الجنائي المعتمد على علم الأمراض النفسية والعقلية والمتعلقة جميعها بالإنسان مرتكب الأفعال التي تعدّ جرائم استناداً لنص القانون. والخلاصة أن هذه العلوم الجنائية المساعدة

قد تكون مستقلة إذا ما نظر إليها وحدها، ولكنها على هذا النحو لا تكفي دائماً لشرح ظاهرة الجريمة والإجرام إلا إذا تعاونت مع غيرها في سبيل الوصول إلى غاية واحدة هي هدفها الذي تصبو إليه. لذلك فمن الممكن القول إن التعاون بين هذه العلوم المساعدة لعلم الإجرام من أجل تفسير ظاهرة الجريمة وبيان عواملها وظروفها ووضع قواعد عامة تفسر هذه الظاهرة بوجه دقيق اعتماداً على الملاحظة والتجربة والبحث والاستنتاج العلمي لاينفي - أي هذا التعاون - الإقرار باستقلال علم الإجرام وأنه علم قائم بذاته معتمد على نتاج دراسات بقية العلوم الجنائية الأخرى التي تساعده في نموه وتقدمه واستمراره.

علاقة علم الإجرام بالعلوم الجنائية الأخرى

هناك علاقة وطيدة بين علم الإجرام والعلوم الجنائية الأخرى الأصلية والمساعدة إذ يرفدها بنتائج دراساته ويستفيد مما توصلت إليه من نتائج أيضاً. وهذه العلوم هي:

- علم الحقوق الجزائية العامة والخاصة وعلم أصول المحاكمات الجزائية وعلم السياسة الجزائية (أو الجنائية كما تسمى في مصر وبعض الدول العربية) وعلم السياسة العقابية وعلم العقاب أو علم تنفيذ العقاب وعلم الانثروبولوجية الجنائي (علم الإنسان الجنائي) وعلم الاجتماع الجنائي وعلم الإحصاء الجنائي وعلم الإحصاء العقابي وعلم النفس الجنائي وعلم النفس القضائي وعلم الحياة (أو البيولوجية) الجنائي وعلم الأمراض العقلية والعصبية الجنائي وعلم الطب الشرعي وعلم كشف الجرائم والمجرمين.

موضوع علم الإجرام

استأثر المجرم والجريمة والضحية باهتمام علم الإجرام، وإن كانت هناك دراسات وجهود حديثة في العالم تسعى إلى استحداث علم خاص يهتم بالضحية victim اسمه علم الضحية victimology.

وفيما يلي بيان مختصر يوضح كيف يؤلف المجرم والجريمة والضحية جميعاً موضوع علم الإجرام ومجالاته الأصلية.

ففي إطار اهتمام علم الإجرام بالمجرم: يُرى أن علم الإجرام يهتم بصورة عامة بالإنسان السوي وكذلك بالإنسان غير السوي الذي يعاني من الاضطرابات النفسية العامة أو العقلية أو العصبية وقد انعكس اهتمامه هذا على التصانيف المختلفة للفاعل المجرم الواردة في بعض قوانين العقوبات في العالم.

وفي إطار اهتمام علم الإجرام بالجريمة يُلاحظ أن علم الإجرام قد اهتم بأسباب الجريمة وعواملها وبالنزعات والمذاهب الأساسية المختلفة في تفسيرها. وهذه النزعات هي: النزعة البيولوجية (الحيوية) والنزعة الاجتماعية والنزعة المختلطة أو البيولوجية الاجتماعية (التكاملية) والنزعة التكوينية الاستعدادية.

وفي إطار اهتمام علم الإجرام بالضحية، يُرى أن علم الإجرام قد اهتم بالضحية لأنها أحد أركانه الأساسية التي لا تنفصل عن المجرم فللضحية أحياناً أثر كبير في الجريمة التي وقعت، وقد يكون جنس المعتدى عليه أو لونه أو لغته أو دينه أو سنه أو وضعه الوظيفي أو الاجتماعي أو السياسي أو غير ذلك، هو السبب الرئيس فيما وقع عليه من جرائم.

أهمية علم الإجرام

يحتل علم الإجرام مكانة عالية من الأهمية لما يقدمه من فوائد وخدمات في مجالات الدراسات المتصلة بالجريمة. وتبرز هذه الفوائد واضحة في الوصول إلى فهم للمجرم والجريمة والضحية، أو المجني عليه. كما تبرز في تسويغ العقوبة ومعرفة ارتباطها بحالات الإجرام أو أشكاله.

يضاف إلى ذلك أن علم الإجرام يقدم وقائع لازمة إلى أجهزة القضاء والعدالة الجزائية (أو الجنائية) والعدالة العقابية والسياسة التي تنطلق منها العدالتان. والوقائع التي يقدمها علم الإجرام ضرورية للمشرع الجزائي، والقاضي الجزائي، وممثل النيابة العامة، ولجميع أطراف الدعوى الجزائية (الجنائية) وفيهم المحامي. وهي مفيدة كذلك لرجل الشرطة والأمن ومن يضطلع بتنفيذ الأحكام الجزائية المختلفة من عقوبات وتدابير احترازية أو تدابير إصلاحية [ر].

محمد رياض الخاني

الموضوعات ذات الصلة:

الاضطرابات النفسية

مراجع للاستزادة:

- محمد رياض الخاني، مبادىء علميّ الإجرام والعقاب (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٨٢-١٩٨٣).
- يسر أنور علي وآمال عبد الرحمن عثمان، علم الإجرام وعلم العقاب (القاهرة ١٩٧٠).
- G. STEFANI, R. LEVASSEUR, & R.J.MERLIN, Criminologie et science pénitentiaire (Paris, Dalloz1968).

■ الإجرام الدولي

تعبير الإجرام الدولي criminalité internationale تعبير حديث نسبياً، وموضوعه لا يزال غير محدد بدقة. فقد كان التعامل في القديم جارياً ومألوفاً على أن المنتصرين في الحروب، العادلة والظالمة، يأخذون نساء المنكسرين سبايا ورجالهم وأولادهم أرقاء. وكانت كل قسوة تستعمل في المعارك لكسبها مسوغة بقاعدة «الغاية تبرر الوسيلة». ولم يحدث أن فكر أحد بمحاسبة مرتكبي هذه الجرائم الفظيعة، خشية أن تمس هذه المحاسبة مبدأ سيادة الدولة التي يعملون باسمها. وكان على المنكسرين انتظار فرصة قادمة للثأر.

غير أن الأفكار أخذت تتطور منذ أواسط القرن التاسع عشر. فقد صدر عن قيادة الجيش الأمريكي بلاغ في عام ١٨٦٣، نص على معاقبة مرتكبي بعض أفعال عنيفة في الأعداء أو الأسرى، من دون ضرورة تقتضيها العمليات الحربية. وأحس المجتمع الدولي بحاجة ملحة وإنسانية إلى تخفيف ويلات الحرب عن الناس، فتداعت الأمم إلى عقد معاهدة جنيف عام ١٨٦٤ التي تنص على منع ارتكاب الأعمال الفظيعة في أثناء الحروب، وتلتها معاهدة أخرى عقدت عام ١٨٩٩ في لاهاي لتأكيد الأهداف نفسها. وبعد ذلك صدر عن رئاسة الأركان العامة للجيش الألماني عام ١٩٠٢ بلاغ يمنع استعمال بعض أنواع الأسلحة الفتاكة، ويعاقب من يقتل الجرحى أو أسرى الحرب، كما يعاقب أعمال القسوة في المدنيين من سكان البلاد المحتلة، ويعد من يعبث بالملكية الفردية، من مجوهرات أو نقود، كمن يرتكب جريمة سرقة موصوفة. وقد كانت تعد فيما مضى غنائم حرب. وتبنّى قانون العقوبات العسكري الفرنسي عام ١٩١٣ نصوصاً مشابهة.

ولكن أحداث الحرب العالمية الأولى أثبتت أن الوقائع غير النصوص، لذلك فكر الحلفاء المنتصرون على ألمانية وحلفائها، بمعاقبة الذين أوقدوا نار الحرب والذين ارتكبوا أعمالاً إجرامية فظيعة. وأول من فكروا بمعاقبته الامبراطور الألماني غليوم الثاني. ولكن لم تكن في متناول أيديهم نصوص قانونية منشورة تطال أية تهمة يمكن أن توجه إليه وإلى حكومته، ولاسيما إنه رأس الدولة، وكانت محاكمته تعني محاكمة «الدولة الألمانية». ولم يكن مقبولاً آنذاك أن تحاكم دولة على أعمالها، لأن محاكمةً كهذه تنتهك سيادة الدولة، وحق السيادة حق مطلق.

ولكن الحلفاء ضربوا صفحاً عن كل هذه الاعتبارات، ووضعوا المادة ٢٢٧ من معاهدة فرساي لهذا الغرض، «على أساس أن الامبراطور المذكور ارتكب إهانة عظمى ضد الأخلاق الدولية وضد قدسية المعاهدات». ونُصَّ في هذه المعاهدة على إنشاء محكمة خاصة لمحاكمته. غير أن الامبراطور وولي عهده لجأا إلى هولندة، التي رفضت تسليم الامبراطور إلى أعدائه.

وبعد ذلك أنشئت عصبة الأمم [ر] عام ١٩٢٠، واتخذت لها مقراً في جنيف «من أجل المحافظة على السلام العالمي وتنمية التعاون بين الدول»، وأوجبت المادة ١٢ من صكها اللجوء إلى التحكيم أو القضاء أو وساطة المجلس التنفيذي للعصبة لحل كل الخلافات. ثم عقدت معاهدة بريان (الفرنسي) وكيلوغ (الأمريكي)، وقبلتها دول العصبة، وبموجب هذه المعاهدة عدت الحروب «خارجة على القانون».

ولكن كل من هذه المعاهدات لم تنفع في منع ألمانية من شن حرب جديدة على بولندة عام ١٩٣٩، فاتسعت حتى أصبحت حرباً عالمية ثانية، وقد ارتكبت فيها جرائم لايستطيع قلم أن يحيط بفظاعاتها... وتُوِّجت هذه الجرائم بإلقاء القنبلتين الذريتين الأمريكيتين على هيروشيما اليابانية في ٦/٨/١٩٤٥ وناغازاكي اليابانية أيضاً يوم ٩/٨/١٩٤٥.

واستسلمت ألمانية بلا قيد أو شرط يوم ٧ أيار ١٩٤٥، كما استسلمت اليابان أيضاً بلا قيد أو شرط يوم ٢ أيلول ١٩٤٥، وبذلك انتهت الحرب المدمرة.

وعادت فكرة معاقبة الذين شنوها إلى البحث. وعاد الخلاف حول المبدأ القانوني الذي يجيز محاكمة المنكسرين في الحروب. وفي النهاية انتصر الاتجاه الذي طالب بوجوب المحاكمة، على أساس أن المنكسرين ارتكبوا ثلاث مجموعات من الجرائم هي: شنهم حرباً عدوانية خرقاً لأحكام القانون الدولي، وارتكابهم جرائم حرب لاتسوغها الأعراف الحربية، وارتكابهم جرائم بحق الإنسانية.

وكان هذا الاتجاه يستند إلى عدة تصريحات دولية، وجهها الحلفاء إلى القادة الألمان واليابانيين وحلفائهم في أثناء الحرب، بأنهم سيتحملون مسؤولية الجرائم التي يرتكبونها، هم أو مواطنوهم، سواء أكانوا عسكريين أم مدنيين. وأهم هذه التصريحات، تصريح موسكو الصادر في ٣٠/٨/١٩٤٣ الذي وقع عليه الرئيس الأمريكي روزفلت والرئيس الروسي ستالين ورئيس الوزراء البريطاني تشرشل.

وبمجرد أن سكتت المدافع اتخذ الحلفاء إجراءين أساسيين: الأول اتفاق ٢٨/٨/١٩٤٥ القاضي بإنشاء محكمة نورمبرغ [ر] الخاصة بمحاكمة كبار مجرمي الحرب. والثاني القانون الحليف ذو الرقم ١٠ المؤرخ في ٢٠/١٢/١٩٤٥، القاضي بإنشاء محاكم إقليمية لمحاكمة مجرمي الحرب الآخرين.

ثم أصدر القائد الأعلى لقوات الحلفاء في الشرق الأقصى قراراً أنشأ بموجبه محكمة طوكيو لمحاكمة كبار مجرمي الحرب في بلاد عمليات الشرق الأقصى.

وفيما يلي لمحة عن هذه المحاكم:

ـ **محكمة نورمبرغ**: تشكلت هذه المحكمة من أربعة قضاة يمثلون الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي (سابقاً) وإنكلترة وفرنسة. وللمحكمة نيابة عامة تتمثل فيها الدول الأربع المذكورة، للتحقيق والاتهام، وتتخذ قراراتها بالأكثرية.

وتختار النيابة العامة المتهمين من الذين لايوجد مكان محدد جغرافياً لجرائمهم. وقد اختارت اثنين وعشرين متهماً ألمانياً، يمثلون مختلف قطاعات الدولة، بينهم الماريشال غورنغ، نائب هتلر وقائد سلاح الطيران، وردولف هس، والماريشال كايتل قائد الجيش الألماني، والأميرال الأكبر دونيتز.

وصدر الحكم بإعدام اثني عشر متهماً نفذ فيهم حكم الإعدام شنقاً، وبحبس أربعة مدى الحياة.

ـ **محكمة طوكيو**: وقد أنشئت بقرار من القائد العام للقوات الحليفة عام ١٩٤٦. وهي تتألف من أحد عشر قاضياً، يمثلون إحدى عشرة دولة حاربت اليابان. وقد دافع المتهمون عن أنفسهم بأنه لاتجوز محاكمتهم عن أفعال لم تكن معاقبة بنص قانوني يوم ارتكابها، وقد رفضت المحكمة هذا الدفاع، على خلاف في الرأي بين أعضائها، وقضت بإعدام عدد من كبار المسؤولين، بتهمة ارتكابهم جرائم بحق السلام، وجرائم حرب غير مسوّغة.

ـ **المحاكم الإقليمية**: وهي محاكم أنشئت في عدة دول، ولاسيما في ألمانية لمحاكمة مجرمين دوليين، لم يحالوا على محكمة نورمبرغ، استناداً إلى القانون الحليف رقم ١٠ لعام ١٩٤٥، أو إلى محكمة طوكيو. وقد أصدرت هذه المحاكم سلسلة من الأحكام على عدد من مرتكبي الإجرام الدولي في أوربة والشرق الأقصى. وتم إعدام كثيرين منهم.

ولما كانت هناك اتفاقية دولية معقودة بتاريخ ٢٦/١١/١٩٦٩، تنص على عدم سقوط الجرائم الدولية بالتقادم، فإنه لاتزال بعض المحاكمات تجري لعدد من مجرمي الحرب، كلما كشف أحد منهم.

وقد أرسخت هذه المحاكمات مفهوم الإجرام الدولي، وأرست محكمة نورمبرغ أركانه بقرارها الذي أصبح المرجع الأهم في هذا الموضوع.

وهكذا يكون التطور قد انتهى إلى إبراز عدة جرائم دولية فيما يلي أربع منها، أخطرها وأفظعها:

ـ **الجنايات المرتكبة بحق السلام**: وتشتمل على شن الحروب العدوانية وإدارتها والتحضير لها ومتابعتها خرقاً للمعاهدات والتأكيدات أو الاتفاقيات الدولية والمشاركة في مخطط مدروس أو مؤامرة لارتكاب أي من الأفعال السابقة (المادة ٦ ف أ من نظام محكمة نورمبرغ، والمادة ٢ ف أ من القانون الحليف رقم ١٠).

وقد وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على تعريف العدوان بتاريخ ١٤/١٢/١٩٧٤.

ـ **جنايات الحرب**: وتشمل الجرائم التي ترتكب انتهاكاً لقوانين الحرب وأعرافها، ويدخل فيها القتل مع سبق العمد، وإقصاء المدنيين عن أماكنهم وتشغيلهم بأعمال شاقة، وقتل أسرى

الحرب أو إساءة معاملتهم، وقتل الرهائن ونهب الأموال العامة والخاصة وتخريب المدن والقرى من دون سبب، وكل تخريب لاتسوغه المقتضيات العسكرية (المادة ٦ف ب من نظام نورمبرغ).

- الجرائم بحق الإنسانية: وتشمل جرائم القتل العمد والإفناء والاسترقاق والإقصاء، وكل فعل آخر غير إنساني يرتكب بحق المدنيين، قبل الحرب أو بعدها، وكل اضطهاد لأسباب سياسية أو عرقية أو دينية سواء ألفت هذه الأفعال والاضطهادات خرقاً للقانون الداخلي في البلد الذي ارتكبت فيه أم لا (المادة ٦ ف جـ من نظام نورمبرغ).

- جناية الإبادة: وتتحقق هذه الجناية بإفناء مجموعة من الناس، كلياً أو جزئياً، جسدياً أو بيولوجياً.

وتختلف عن الجرائم الموجهة للإنسانية بأن هذه الجرائم تستهدف اضطهاد الأفراد بسبب عرقهم أو دينهم أو رأيهم السياسي، في حين أن جناية الإبادة تهدف إلى إبادة مجموعات وطنية أو عرقية أو سلالية أو دينية، من دون نظر إلى الاعتبارات السياسية. ومن أمثلتها المذابح الجماعية لمجموعة محددة من الناس، وتهديم المدن الآهلة بالسكان على أهلها بوسائل الحرب الحديثة.

ويدخل في مفهوم الإجرام الدولي أيضاً، جرائم الإرهاب الدولي والقرصنة البحرية وخطف الطائرات للحصول على فدية...

ولكي يصبح الإجرام الدولي مفهوماً قانونياً معاقباً عليه بنصوص مقررة ومعلنة، فقد قررت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ ١١/١٢/١٩٤٦ اعتبار المبادىء الواردة في قرار محكمة نورمبرغ وما في حكمها من قواعد القانون الجزائي الدولي، كما قررت تأليف لجنة لصوغ هده المبادىء. وقد أنجزت هذه اللجنة مهمتها عام ١٩٥٠ . وبذلك يكون مفهوم الإجرام الدولي قد اتخذ شكل التشريع المعلن.

ومع ذلك فقد وضع مشروعان اثنان لايزالان قيد الدراسة في الأمم المتحدة، الأول مشروع قانون متكامل للجرائم الدولية والثاني مشروع قانون لإنشاء محكمة دولية لمرتكبي هذه الجرائم.

عبد الوهاب حومد

الموضوعات ذات الصلة:

الإجرام السياسي - محاكمات نورمبرغ.

مراجع للاستزادة.

- عبد الوهاب حومد، الإجرام الدولي (جامعة الكويت ١٩٧٨)
- C.LOMBOIS, Le droit pénal international, 2[ed] Ed.(Paris1979).
- GRAVEN, La définition et la répression des crimes contre l'humanité (Rev. de dr. International 1948).

■ الإجرام السياسي

الإجرام على العموم هو ارتكاب أفعال يحرِّمها التشريع الجنائي تحريماً صريحاً، ويحدد أركانها ويضع لها عقوبات محددة. أما الإجرام السياسي criminalité politique فهو إجرام ينتهك مرتكبه التشريع الجنائي، إلا أنه يتميز من الإجرام العادي بطبيعته الخاصة، وبنظرة المجتمع المتسامحة إلى مرتكبه. وهو إجراء قديم جداً في تاريخ البشرية، لكنّ الجديد فيه هو تسميته أولاً، وتطور معاملة مرتكبه إلى اللين ثانياً.

ففي القديم كان المجرم السياسي يعدّ عدو المجتمع وكان يعاقب معاقبة في منتهى القسوة، لأنه كان يعمل على تغيير نظام المجتمع وتبديل قواعده السياسية أو الاجتماعية.

ولما كان الرئيس أو الملك في المجتمعات القديمة هو رأس الدولة وممثلها، فقد كان المجرم السياسي عدواً شخصياً له ولدولته.

وكان من عادة الملوك القدماء أن يعقدوا فيما بينهم معاهدات من أجل تسليم المجرم السياسي، الذي يلجأ إلى أراضيهم، إلى دولته التي فر من ضغطها وظلمها، لتنكل به، كما يحلو لها، وبذلك كانت تسد في وجه أعداء الداخل أبواب كل أمل في النجاة، ليكونوا عبرة لسواهم.

وقد ازدهر في تلك الحقب مفهوم «الجلالة البشرية» في مقابله مفهوم «الجلالة الإلهية» للتخلص من الأشخاص الخطرين على النظام السياسي، واستصفاء أموالهم ومعاقبتهم بوحشية، والتنكيل بأسرهم وجماعتهم.

وقد عرّفت الشريعة الإسلامية الإجرام السياسي باسم البغي والمجرمين السياسيين باسم البغاة. وكانت أول شريعة تضع قواعد واضحة لمعاملة هؤلاء معاملة حسنة. فهم، في نظرها، مجتهدون يثورون على الإمام الظالم لخلعه، وتخليص الناس من آثامه وقد قال فيهم الفقيه شمس الدين بن شهاب، في مؤلفه «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج»: «إنه لا يرى في تعبير البغي ما يشين أصحابه» ويشترط أن يكون لهم تأويل سائغ يخرجون به على الإمام، وأن يكون لهم منعة وحوزة. وتتمثل معاملتهم الحسنة في أنهم إذا انكسروا في حرب لا يقاتل مدبرهم (أي أنهم يستفيدون من حق الملجأ) ولاجريحهم، ولا من ألقى سلاحه ولا يقتل أسيرهم، وإذا انتهت الثورة أعيدت إليهم أموالهم وأسلحتهم وخيلهم.

أما في ممالك أوربة في العهد الوسيط فقد أدى نمو الأساليب العنيفة فيها إلى تحرك أصحاب الضمائر الخيرة في مصلحة المجرمين السياسيين، وطالبوا بمعاملة هؤلاء معاملة إنسانية، لأنهم ينطلقون من أفكار ودوافع شريفة تختلف عن دوافع القتلة والمزورين واللصوص ومنتهكي الأعراض وأفكارهم.

وكان أول بوادر التحول القرار الذي اتخذه مجلس النواب الفرنسي عام ١٧٨٩ بعد الإطاحة بالنظام الملكي، والذي منح حق الملجأ السياسي لكل من يدخل البلاد هرباً من تعسف حكام بلاده. وحين وصل لويس فيليب إلى السلطة، أكد نظامه عام ١٨٣٠ أن بلاده لن تبعد أي مجرم سياسي دخلها لاجئاً وهي لن تطلب استرداد أي مجرم فرنسي غادر بلاده لدافع سياسي. وفي عام ١٨٣٢ أصبح للإجرام السياسي مفهوم قانوني واضح، لأنه أصبح يعاقب بعقوبات سياسية خاصة، تختلف عن العقوبات العادية. وفي عام ١٨٤٨ ألغيت عقوبة الإعدام عن الجرائم السياسية، وأصبح المجرمون السياسيون يعاملون في السجون معاملة خاصة كريمة. وقد نهجت هذا النهج دول كثيرة من دول أوربة وأمريكة الجنوبية، ورسخ في التعامل الدولي مبدأ رفض تسليم المجرم السياسي إلى دولته.

ولكن الشارع العثماني لم يفسح صدره لهذه الإصلاحات فظل يعامل المجرم السياسي على أنه عدو نظامه اللدود وبقي القانون الجزائي العثماني مطبقاً في سورية. وبعد أن استقلت سورية، وجلت القوات الأجنبية عنها عام ١٩٤٦ صدر قانون جديد للعقوبات عام ١٩٤٩، تبنى ما تحقق من إصلاحات في نطاق الإجرام السياسي، وتأكد هذا الاتجاه في دستوري ١٩٥٠ و ١٩٧٣.

وقد اعترفت شرعة الأمم المتحدة بحق كل إنسان في الحصول على «ملجأ يقيه من الاضطهاد»، ولكن لايجوز منح هذا الملجأ إذا كان هذا الإنسان مرتكباً جرماً عادياً، كما تنص المادة ١٤ من ميثاق الأمم المتحدة.

كذلك قبلت الدول العربية مبدأ حق الملجأ، إذا كان الفاعل مرتكباً جريمة سياسية، كما جاء في المادة ٤ من اتفاقية ١٤ / ٩ / ١٩٥٢ الملغاة، والمادة ١٧ ج من اتفاقية الرياض المعقودة بتاريخ ١٦ / ٤ / ١٩٨٣، الأمر الذي يعني أن الإجرام السياسي أصبح منظماً تنظيماً قانونياً، في معاهدات دولية، حتى في البلاد العربية التي لم تتبن في تشريعها الداخلي هذا النوع من الإجرام، على أن تقرر كل دولة بحسب رأيها، فيما إذا كانت الجريمة سياسية أم لا.

ويتصف قانون العقوبات السوري بتعريفه الإجرام السياسي وتحديد أركانه، والنص على التسامح في معاقبته. ومن ميزات هذا القانون، أنه جمع النظريتين السائدتين في الفقه وهما النظرية الشخصية التي تنظر إلى الدافع، والنظرية الموضوعية التي تنظر إلى الحق المعتدى عليه، وعلى هذا الأساس، تقسم الجرائم السياسية إلى ثلاث طوائف، هي الآتية:

الجرائم السياسية المحضة: وهي جرائم تهدف إلى الإضرار بالمصلحة العامة للدولة، ولا تضر الأفراد إلا ضرراً غير مباشر، ويظهر فيها التقاء النظريتين الشخصية والموضوعية، لأنها تشتمل على زمرتين أساسيتين: الزمرة الأولى هي الجرائم التي يكون الدافع الذي دفع بالمجرم إلى ارتكابها دافعاً سياسياً، والدافع باعث نفسي يتحرك في نفس الفاعل، وليس من شأنه أن يلغي الجريمة، وإنما يمكن أن يكون مسوغاً لتخفيف العقوبة إذا كان نبيلاً. والقاضي هو الذي يستخلص الدافع السياسي من الوقائع، ليعطي الجريمة وصفها السياسي، أو يرفضه. أما الزمرة الثانية فهي الجرائم الواقعة على الحقوق السياسية العامة والفردية «مالم يكن الفاعل قد انقاد لدافع أناني دنيء».

ويدخل في مفهوم هذه الطائفة من الجرائم، على سبيل المثال الجرائم الواقعة على أمن الدولة الداخلي، واغتصاب سلطة سياسية أو مدنية، والفتنة، والجرائم التي تنال من الوحدة الوطنية، والنيل من مكانة الدولة المالية لغايات سياسية، والجرائم الموجهة ضد سلامة الانتخابات العامة.

الجرائم المركبة: الجريمة المركبة هي جريمة واحدة، من حيث ركنُها المادي، غير أنها تضرب في آن واحد مصلحتين: مصلحة عامة تتمثل في النظام السياسي، ومصلحة خاصة، هي حق واحد أو أكثر من الأفراد. والمثل عليها اغتيال مسؤول كبير في الدولة، أو في حزب سياسي مناوئ، لغاية سياسية. فالدافع إلى الجريمة سياسي، لاريب فيه، ولكنّ ضحيتها المباشرة فرد من الناس، له حق مقدس في الحياة وفي سلامة جسمه. وبسبب الأذى الذي لحق بحياة مواطن إنسان، عُدّت هذه الجرائم عادية.

الجرائم المتلازمة: وهي جرائم عادية تتلازم مع جريمة سياسية. ومثلها أن يستسنح شخص مناسبة مظاهرة سياسية قامت لتحقيق هدف سياسي، فيكسر أحد مخازن الأسلحة، ويستلب ما فيه من سلاح ليقدمه إلى المتظاهرين.

وقد حرص الشارع السوري على أن يعدّ طوائف الجرائم الثلاث، المحضة والمركبة والمتلازمة، جرائم سياسية من حيث المبدأ، إلا أنه ينزع الصفة السياسية عن أية جريمة منها إذا كانت خطيرة من «حيث الأخلاق والحق العام» وقد أعطى أمثلة عن هذه الجرائم، ومنها القتل والجرح الجسيم، والاعتداء على الأملاك إحراقاً أو نسفاً أو إغراقاً، والسرقات الجسيمة ولاسيما ما ارتكب منها بالسلاح أو العنف: فهذه الجرائم، وإن كانت سياسية من جهة الدافع إليها، تفقد هذا الطابع بسبب الوسائل الفظيعة التي لجأ إليها الفاعل، ولذلك تعدّ جرائم عادية، وتعاقب بهذا الوصف.

ولكن إذا ارتكبت الجرائم المركبة والمتلازمة في حرب أهلية أو عصيان فإنها تعدّ جرائم سياسية، بشرط ألا تخالف عادات الحرب المقبولة دولياً، وألا تكون من الأعمال الوحشية.

وإذا ثبتت للجريمة صفتها السياسية، استفاد المجرم من معاملة حسنة. فهو لا يعاقب بالإعدام، ولا بالأشغال الشاقة المؤبدة، لأن عقوبته تكون الاعتقال المؤبد (وهو أرحم من الأشغال الشاقة المؤبدة)، أو الاعتقال المؤقت أو الإقامة الجبرية أو الإبعاد أو التجريد المدني، ويستفيد من تسهيلات كثيرة في أثناء إقامته بالسجن، كالسماح له بإحضار طعامه من خارج السجن، وتزويده بالجرائد والمجلات ولايوضع في زنزانة، ولايلبس لباس السجناء، ولا يكلف العمل، ويستقبل زواره وفق نظام ميسر. وهذه المعاملة المتسامحة تنبع من تقاليد متحررة.

عبد الوهاب حومد

الموضوعات ذات الصلة:

الإجرام (علم-).

مراجع للاستزادة:

ـعبد الوهاب حومد، الإجرام السياسي (دار المعارف بيروت ١٩٦٣).

■ ابن آجُرُّوم

(٦٧٢-٧٢٣هـ/ ١٢٧٣-١٣٢٣م)

أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، فقيه ونحوي مغربي من صنهاجة، ويعرف بابن آجُرُّوم، وآجُرُّوم كلمة أمازيغية معناها الفقير والصوفي، وكان جده داود أول من عُرف بهذا اللقب.

ولد ابن آجُرُّوم بفاس، ودرس فيها، وقصد مكة حاجاً مروراً بالقاهرة حيث لبث مدة ودرس على النحوي الأندلسي أبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي [ر] المتوفى بالقاهرة عام ٧٤٥هـ/ ١٣٤٥م، وحظي بإجازته.

وفي مكة عاش زمناً وألّف مقدمته الآجُرّومية، وعندما عاد إلى فاس لازم تعليم النحو والقرآن في جامع الحي الأندلسي إلى أن مات.

اشتهر ابن آجَرُّوم بالتقوى والصلاح ووصفه

معاصروه بأنه كان فقيهاً أديباً رياضياً، إماماً في النحو ومتبحراً في علوم أخرى منها التجويد وقراءات القرآن الكريم.

وقد اشتهر ابن آجُرُّ وم بكتابه «المقدمة الآجُرّ ومية في مبادئ علم العربية» أوجز فيه كتاب «الجُمَل في النحو» لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجّاجي (ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) في خمسة وأربعين ومئة باب تناولت أبواب النحو والصرف والأصوات والضرورات الشعرية، وهي مباحث سهلة الحفظ تتعلق بعلامات الإعراب وتصريف الأفعال وإعرابها وأنواع المعربات من الأسماء، فكانت أساس الدراسات النحوية في زمنه، وتأخذ بمبدأ الاختيار من المدرستين الكوفية والبصرية، مع أن ابن آجُرُّوم كان أقرب إلى مذهب الكوفيين على خلاف الزَجّاجي الذي كان ميالاً إلى البصريين. وقد ذاع صيت الآجُرّومية وكثر شرّاحها من النحويين ومنهم أحمد الفاكهي في كتابه «الكواكب الدرية في شرح متممات الآجُرّومية» وإبراهيم الباجوري (ت ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م) في كتابه «الدرة البهية في نظم الآجُرّومية». كما شرحها خالد بن عبدالله الأزهري وحسن الكفراوي وغيرهما، حتى أربت شروحها المطبوعة على أحد عشر شرحاً. طبعت المقدمة عدة طبعات في البلاد العربية وفي رومة وليدن وباريس ولندن وميونيخ مع ترجمات إلى اللاتينية والفرنسية والإنكليزية والألمانية.

واختُلف في الآجُرّومية، فوصفها بعضهم بأنها قليلة النفع للمبتدئين الذين يحتاجون إلى بسط أوفى للقواعد، وذلك لإمعانها في الإيجاز، ورآها آخرون صالحة كي تكون أساس الدراسات النحوية للمبتدئين لسهولتها.

وكتب ابن آجُرُّوم عدة مصنفات كما ألّف جملة أراجيز في القراءات والتجويد. منها شرح لمنظومة الشاطبي (ت ٥٩٠هـ/ ١١٩٤م) «حرز الأماني ووجه التهاني» التي اشتهرت بالشاطبية نسبة إلى صاحبها، وسمّى ابن آجُرُّوم أرجوزته هذه «فرائد المعاني في شرح حِرز الأماني» وعرفت بشرح الشاطبية.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١ (مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة ١٩٦٤م).
- ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ط٢ (دار المسيرة، بيروت ١٩٧٩م).

■ الأجل

الأجل le delai هو أمر مستقبل محقق الوقوع، يُجعَل حلوله موعداً لنفاذ التزام [ر] أو انقضائه. وقد يكون الأجل اتفاقياً، أي مصدره إرادة المتعاقدين، كأن يتفق المشتري مع البائع على تأجيل دفع الثمن، أو دفعه على أقساط معينة في آجال محددة. وقد يكون الأجل قانونياً، أي مصدره القانون، ومثاله ما قضى به المشرع فيما يخص حقّ الانتفاع حين جعله ينقضي بوفاة المنتفع، وكذلك ما تفعله الدولة في الحروب أو في الأزمات الاقتصادية من تأجيل المطالبة بالديون إلى أجل معين تحدده، مراعية في ذلك المصلحة العامة. كما قد يكون الأجل قضائياً، إذا منح القاضي المدين المعسر نظرة الميسرة، استناداً إلى السلطة الاستثنائية التي منحه إياها القانون بإضافة تنفيذ الالتزام إلى حين يستطيع المدين ذلك، وعلى القاضي عند اللزوم أن يحدد ميعاداً مناسباً لحلول الأجل الذي تُعدّ فيه المقدرة متوافرة.

والأجل نوعان: مُوقف وفاسخ.

فالأجل الموقف هو الذي يترتب على حدوثه نفاذ الالتزام. فلو اشترى شخص شيئاً ودفع جزءاً من الثمن، وتعهد بدفع باقي الثمن بعد سنة من تاريخ البيع، فإن الالتزام في هذه الحالة يضاف إلى أجل مُوقِف، فإذا انقضى هذا الأجل نفذ الالتزام، ويكون على المشتري أن يدفع عندئذ باقي الثمن.

أما الأجل الفاسخ، فهو الأجل الذي يترتب على انقضائه انقضاء الالتزام النافذ قبله، كأن يلتزم المؤجر بتمكين المستأجر من الانتفاع بالعين المؤجرة في مدة الإيجار، فإن انقضاء هذه المدة يعني انقضاء التزام المؤجر بتمكين المستأجر من الانتفاع بالعين المؤجرة.

ويشترط في الأجل أن تتوافر فيه صفتان: الأولى أن يكون الأجل أمراً مستقبلاً، فإذا كان غير ذلك، كأن يكون قد تم في الماضي أو في الحاضر، أصبح الالتزام منجزاً ومستحقاً الأداء فوراً، فلو جعل موت شخص أجلاً لتنفيذ التزام، ثم تبين أنه ميت منذ زمن، فإن الالتزام يكون منجزاً مستحقاً الأداء منذ البداية. أما الثانية فأن يكون الأمر محقق الوقوع، أي أن يكون وقوعه مؤكداً أو ضمنياً. فلو تعهد شخص بالإشراف على تعليم فتى بدءاً من تاريخ وفاة والده، فالتزام المتعهد هنا معلق على أجل هو موت والد الفتى، وموت الوالد أمر محقق الوقوع، لكن لا يمكن تحديده مسبقاً.

الآثار القانونية التي تترتب على إضافة الالتزام إلى أجل

إذا أضيف الالتزام إلى أجل فإن الآثار التي تترتب قبل حلول الأجل تختلف عن الآثار التي تترتب عند انقضائه.

آثار الأجل قبل حلوله: تختلف هذه الآثار بحسب ما إذا كان الأجل موقفاً أو فاسخاً.

في الأجل الموقف: عندما يشتري شخص شيئاً ويتعهد بدفع الثمن بعد سنة من تاريخ البيع، يكون للبائع قبل انقضاء الأجل حق مؤكد الوجود في الثمن المؤجل، ولكنه غير مستحق الأداء، لأن الأجل المضروب هو أجل موقف، فالأجل الموقف يوقف الالتزام.

ويترتب على كون حق الدائن مؤكد الوجود النتائج التالية:

- ينتقل حق الدائن بالثمن المؤجل إلى الورثة، فإذا مات الدائن قبل انقضاء الأجل، انتقل الحق بالثمن إلى الورثة.
- وللدائن أن يتصرف في حقه إلى الغير بأية وسيلة من وسائل انتقال الحقوق، كالوصية والبيع والهبة والرهن.
- وله أن يتخذ الإجراءات الاحتياطية والوسائل التحفظية اللازمة للمحافظة على حقه كوضع الأختام وقيد الرهن. كما له أن يستعمل حقوق مدينه بطريق الدعوى غير المباشرة لدرء الضرر الذي يمكن أن يعود عليه، كما له أن يطالب بتأمين إذا خشي إفلاس المدين أو إعساره، واستند في ذلك إلى سبب معقول.

ويترتب على كون حق الدائن غير نافذ قبل انقضاء الأجل النتائج التالية:

ـ لا يجوز للدائن أن يجبر مدينه على الوفاء بالالتزام قبل حلول الأجل. فإذا قام المدين بالوفاء وهو غير عالم بقيام الأجل، أو أنه كان معتقداً أن الأجل قد انقضى كان له أن يسترد ما أداه استناداً لقاعدة دفع غير المستحق، على أن للدائن أن يحتفظ بأصل الأداء الواقع قبل انقضاء الأجل، لأن حقه في الأداء مؤكد الوجود، ويقتصر ما يرده للمدين بسبب الوفاء المعجل على ما استفاده بسبب هذا الوفاء في حدود ما لحق بالمدين من ضرر طبقاً لقاعدة الإثراء بلا سبب [ر].

أما إذا كان الوفاء المعجل نقوداً، التزم الدائن رد الفائدة إلى المدين عن المدة الباقية لحلول الأجل بالسعر الاتفاقي، فإذا لم يكن بينهما اتفاق رد الفائدة بالسعر القانوني.

في الأجل الفاسخ: الحقّ المقترن بأجل فاسخ، حق موجود ونافذ، أي مستحق الأداء، لكنه مؤكد الزوال عند حلول الأجل.

ويترتب على كون حق الدائن مستحق الأداء النتائج التالية:

ـ يجوز للدائن أن يطالب المدين بالوفاء منذ نشوء الحق، وله في سبيل ذلك أن يتخذ الاحتياطات اللازمة للوصول إلى حقه، وأن يقتضي حقه من المدين بالتنفيذ الجبري، كما له أن يوقع الحجز على ما للمدين لدى الغير وأن يستعمل الدعوى «البوليصية»، (وهي الدعوى التي يرفعها الدائن على مدينه السيّىء النية بعدم نفاذ تصرفات المدين في حق دائنه)، لأن حقه مستحق الأداء.

ويترتب على كون الحق المقترن بأجل فاسخ ومؤكد الزوال عند حلول الأجل عدم جواز المقاصة القانونية بينه وبين حق مطلق. لأن الأول موقوت ومحقق الزوال بحلول الأجل، والثاني غير ذلك.

انقضاء الأجل والآثار المترتبة عليه: لانقضاء الأجل أسباب وتترتب عليه آثار:

أسباب انقضاء الأجل: انقضاء الأجل يعني انتهاء المهلة التي يملكها المدين من أجل الوفاء بالتزامه، وحلول الموعد الذي يصبح فيه الالتزام مستحق الأداء. وينقضي الأجل إذا تحقق سبب من الأسباب التالية:

ـ حلول الموعد المضروب لاستحقاق الأداء، وهو السبب العادي لانقضاء الأجل. فإذا حدد يوم معين، كأول الشهر مثلاً موعداً ليفي المدين بالتزامه، فإن الأجل ينقضي بانقضاء هذا اليوم.

ـ التنازل الإرادي عن الأجل: ويكون ممن له مصلحة في ذلك، فإذا كان الأجل قد تقرر لمصلحة المدين، كما في القرض بلا فائدة، فإن للمدين أن يرد مبلغ القرض قبل الموعد المتفق عليه للوفاء. وإذا كان لمصلحة الدائن، كما في الوديعة غير المأجورة، فإن للدائن أن يطالب برد الوديعة قبل الموعد. أما إذا كان الأجل قد تقرر لمصلحة الطرفين، كما في القرض بفائدة، فلا يجوز النزول عنه إلاّ باتفاق الطرفين على ذلك.

ـ سقوط الأجل بنص قانوني: وينقضي الأجل إذا كان هناك نص يقضي بسقوطه. وقد بينت المادة ٢٧٣ من القانون المدني السوري ثلاثة أسباب يسقط فيها الأجل.

ـ شهر إفلاس المدين أو إعساره.

ـ إضعاف المدين تأمينات الدين المؤجل.

ـ تخلف المدين عن تقديم ما وعد به من تأمينات.

الآثار التي تترتب على الأجل بعد انقضائه: تختلف الآثار التي تترتب على الأجل بعد انقضائه بحسب ما يكون موقفاً أو فاسخاً.

ـ فإذا انقضى الأجل الموقف، بحلوله أو بالتنازل عنه أو بسقوطه قانوناً، ترتبت النتائج التالية:

(١) يجب على المدين أن يقوم بتنفيذ ما التزم به، وللدائن أن يطالبه بالوفاء بعد إعذاره، وأن يجبره على التنفيذ.

(٢) وللدائن أن يطعن بتصرفات مدينه بدعوى عدم نفاذ تصرفات المدين على دائنه، وهي الدعوى المسماة بالدعوى «البوليصية».

(٣) كما يترتب على انقضاء الأجل بحلوله جواز المقاصة بين هذا الحق وأي حق آخر منجز. فإذا كان الحق هو ثمن سيارة اشتراها المدين من دائنه ومنحه أجلاً للوفاء، ثم اقترض بائع السيارة من مشتريها قرضاً يعادل قيمة السيارة، وانقضى الأجل بحلول موعد دفع ثمن السيارة، جازت المقاصة في هذه الحالة بين هذا الحق والحق الآخر الذي نشأ منجزاً.

(٤) ويترتب أيضاً على انقضاء الأجل الموقف، أن يصبح الالتزام نافذاً من تاريخه لا من تاريخ نشوء الالتزام، أي لايكون له أثر رجعي.

ـ أما الأجل الفاسخ فيترتب على انقضائه زوال الالتزام الذي كان مقترناً به. فإذا التزم المؤجر أن يمكن المستأجر من الانتفاع بالعين المؤجرة مدة الإيجار، وانقضت هذه المدة، وجب على المستأجر أن يرد العين المؤجرة. وإذا انتقل الحق المقترن بأجل فاسخ إلى الغير، فإن الالتزام الناشىء عنه يزول بانقضاء الأجل الفاسخ، لأن هذا الحق إنما ينتقل بصفة كونه موقوتاً بمدة معينة يزول بانقضائها. فإذا أجر المستأجر العين التي استأجرها إلى شخص من الباطن، فإن انقضاء مدة الإيجار ينقضي معها التزام المؤجر بتمكين المستأجر من الانتفاع بالعين المؤجرة ويتعين على المستأجر من الباطن رد العين، لأن حقه بالانتفاع بالعين موقوت بهذا الأجل.

ويترتب على انقضاء الأجل الفاسخ زوال الالتزام من دون أن يكون لهذا الزوال أثر رجعي.

محمود جلال حمزة

مراجع للاستزادة:

ـ سليمان مرقس، أحكام الالتزام (القاهرة ١٩٧٥).

ـ عبد الرزاق أحمد السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني، ج٣ (القاهرة ١٩٥٨).

■ الإجماع

الإجماع مصدر من مصادر التشريع الإسلامي الأصلية، ومعناه لغة: العزم والاتفاق، واصطلاحاً عند الجمهور: اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ بعد وفاته في عصر من العصور على حكم شرعي.

ضوابط الإجماع

ينعقد الإجماع بالضوابط التالية:

الاتفاق: الاتفاق ركن الإجماع. وقولهم في التعريف «اتفاق» يعمُّ الأقوال والأفعال والسكوت والتقرير. وللاتفاق شروط هي:

اتفاق جميع المجتهدين: فلا إجماع إذا خالف أحدهم. وقال بعضهم بانعقاد الإجماع إذا اتفق

الأكثر وخالف الأقل.

التعدد في المجمعين: ذلك أن المقصود من الاتفاق هنا الاشتراك، فلا بدّ فيه من متعدد. وهذا يقتضي وجود عدد من المجتهدين، فلا ينعقد الإجماع بمجتهد واحد، ورأيه ليس حجة.

أن يظهر الاتفاق بإبداء رأي واحد من المجمعين في المسألة المعروضة: فإذا اختلفوا على قولين أو أكثر فهل لمن يأتي بعدهم من المجتهدين إحداث قول ثالث في تلك المسألة؟.

هناك ثلاثة مذاهب في هذه الحال: فمنهم من منعه مطلقاً وهم الأكثرون، ودليلهم على ذلك أن المجتهدين إذا اختلفوا على قولين فقد أجمعوا من جهة المعنى على المنع من إحداث قول ثالث، فيكون القول الثالث خرقاً لإجماع سابق وهو لا يجوز. ومنهم من جوّزه مطلقاً، ودليلهم على ذلك أن المجتهدين الذين تكلموا في المسألة لم يصرحوا بتحريم القول الثالث، فليس إحداثه خرقاً لإجماع سابق. ومنهم من فصّل فقال: إن كان القول الثالث المحدث لم يرفع شيئاً مما استقر عليه القولان الأولان جاز إحداثه لعدم مخالفته لما أجمع عليه، وإن رفعه فلا يجوز لأنه يخالف ما أجمع عليه، مثال ذلك الجد مع الأخوة. فقد قال بعضهم: المال كله للجد في التركة، وقال بعضهم: الجد يقاسم الأخوة، فالفريقان أجمعا ضمناً على أن للجد شيئاً من المال، فإحداث قول ثالث بعدم إرثه رافع لما أجمع عليه الفريقان فلا يجوز.

أن يظهر الاتفاق بإبداء الرأي صراحة قولاً أو فعلاً: أما إذا قال بعض المجتهدين قولاً، أو فعل فعلاً، وسكت الباقون، ففيه خلاف بين العلماء، وسيأتي بيانه.

أن يتحقق الاتفاق من جميع المجتهدين في وقت المسألة: وعليه فلا يعقد الإجماع بمن صار مجتهداً بعد حدوث تلك المسألة.

المجتهدون: قد يسمى المجتهدون بأهل الرأي والاجتهاد أو أهل الحل والعقد، وهم الذين يعتبر اتفاقهم إذا اتفقوا على حكم مسألة في عصر من العصور ويعتد بمخالفتهم إذا خالفوا فلا ينعقد الإجماع بمخالفتهم.

فقولهم في التعريف «المجتهدون» احتراز عن اتفاق بعضهم وعن اتفاق العامة:

كونه احترازاً عن اتفاق بعض المجتهدين: فذلك لأن كلمة «المجتهدين» جمع معرّف بأل الجنسية، والجمع المعرّف بأل الجنسية يفيد العموم، وعليه فإنه يجب اتفاق جميع المجتهدين. ولا يعتبر الإجماع عند الجمهور: إجماع أكثر المجتهدين مع مخالفة الأقل، وإجماع أهل المدينة، وإجماع أهل الحرمين (مكة والمدينة) وأهل المصرين (الكوفة والبصرة)، وإجماع الخلفاء الراشدين، وإجماع العترة (علي وفاطمة وابناهما الحسن والحسين)، وذلك لأن الأدلّة التي ثبتت بها حجية الإجماع متناولة للمجتهدين كلهم، فلا خصوصية لأهل بلد معين أو لطائفة من المجتهدين من دون غيرهم.

كونه احترازاً عن اتفاق العامة: يعني أنه يخرج بقيد المجتهدين عوام الأمة الذين يأخذون الأحكام عن علمائهم بطريق الاتباع والتقليد، وليسوا من أهل النظر في الشرعيات فلا يعتد بمخالفتهم في انعقاد الإجماع.

أن يكون المجتهدون من أمة محمد ﷺ: وذلك احترازاً عن اتفاق علماء الشرائع والديانات الأخرى، لقيام الأدلة على أن المقصودين هم أمة محمد ﷺ فلا يعتد في الإجماع بقول غير المسلم.

اتفاق المجتهدين بعد وفاته ﷺ: وذلك احترازاً عن الإجماع في عصره فإنه لا اعتبار به، لما عُلِمَ من أن مصدر التشريع في عصر النبوَّة الوحي فقط. فإذا وافق الرسول ﷺ المجمعين في المسألة، فالدليل والحجة في قوله، وإن خالفهم فاتفاقهم باطل.

اتفاق المجتهدين في عصر من العصور: تظهر أهمية هذا الضابط من ناحيتين الأولى: كي يندرج كل من كان من أهل الإجماع في الزمن الذي وقعت فيه المسألة. والناحية الثانية: كي لا يُتوهم أن الإجماع لا يتم إلاّ باتفاق جميع المجتهدين في جميع العصور إلى يوم القيامة، وعليه فلا يعتد برأي من صار مجتهداً بعد وقوع المسألة.

ولم يشترط الجمهور انقراض المجمعين في عصر ما ليكون إجماعهم حجة ودليلاً. فإذا اتفق المجتهدون ولو في لحظة، انعقد الإجماع وصار واجب الاتباع لا تجوز مخالفته من أحد، سواء كان هو من المجمعين أنفسهم أو كان ممن أتى بعدهم، وذهب الإمام أحمد بن حنبل وأبو الحسن الأشعري وغيرهما إلى اشتراط الانقراض، لاحتمال رجوع الكل أو البعض عما اتفقوا عليه، ولو رجع واحد منهم عن رأيه قبيل وفاته بطل الإجماع على حكم المسألة عندهم.

الاتفاق على حكم شرعي: وقولهم في التعريف «على حكم شرعي» احتراز عن اتفاق العلماء على حكم لغوي أو قضية عقلية أو أمر دنيوي مما لا يتعلق بأفعال المكلفين من حيث هم مكلفون. وإنما المراد بمحل الإجماع الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات وغير ذلك من مسائل الحلال والحرام.

أنواع الإجماع

الإجماع نوعان: صريح وسكوتي.

الإجماع الصريح: وصورته أن يبدي كل واحد من المجتهدين رأيه صراحة في المسألة وتتفق الآراء على حكم شرعي واحد، أو أن يفعل كل واحد منهم فعلاً يوافق في ذلك فعل الآخر، فيكون ذلك إجماعاً صريحاً، وهو حجة عند الجمهور.

الإجماع السكوتي: وهو أن يتفق بعض المجتهدين على قول أو فعل ويسكت الباقون عن إنكاره، مع قدرتهم على إنكاره، ومضي مدة كافية للبحث في المسألة، فلا يُعرف من أحدهم مخالفة ولا تأييد. وهو حجة عند أكثر الحنفية والإمام أحمد بن حنبل. لأن السكوت في موضع الحاجة إلى البيان بيان. وذهب الإمام الشافعي والمالكية إلى عدم عدّه إجماعاً، ولا حجية له. لأن السكوت كما يكون للموافقة يكون للمهابة مع إضمار الخلاف.

حجية الإجماع ومستنده

الإجماع دليل ملزم من أدلة الأحكام الشرعية عند الجمهور. ويلي السنة النبوية من حيث الاستدلال به. واستدل الجمهور على حجيته بالقرآن الكريم والسنة النبوية، ومنهم من زاد على ذلك فاستدل بالمعقول. أما الإجماع فلا يمكن إثبات الإجماع به، لأنه إثبات للشيء بنفسه على ما ذكره الإمام الغزالي وغيره.

أما القرآن الكريم: فقد استدلوا منه بمجموعة آيات دار نقاش كثير بينهم فيها وتراه مفصلاً في كتب الأصول. وخلاصته أن بعض هذه الآيات فيها احتمالات، ومع الاحتمال لا يتم الاستدلال. وبعضها الآخر ليس فيه ما يدلّ على أن الإجماع دليل بنفسه.

ومن هذه الآيات الكريمة ما يلي مع إظهار وجه الدلالة في كل منها ووجه الاحتمال والتعليق على الاستدلال بها.

قال الله تعالى: ﴿ ومن يُشاقق الرَّسولَ من

بعْد ما تَبيّنَ لَهُ الهُدَى ويتّبعْ غيرَ سبيل المؤْمنينَ نُوَلِّه ما تولَّى ونُصْله جهنَّم وساءَتْ مصيراً ﴾ (سورة النساء: آية ١١٥).

وجه الاستدلال: أن الله تعالى توعّد من يتبع غير سبيل المؤمنين بدخول جهنم، فيلزم أن يكون اتباع غير سبيل المؤمنين باطلاً، لأنه لو لم يكن باطلاً لما ضمّه إلى الباطل الذي هو مشاقة الرسول في الوعيد. فكان ذلك دليلاً على وجوب اتباع سبيل المؤمنين، ويلزم من ذلك أيضاً أن يكون الإجماع دليلاً شرعياً ملزماً.

وجه الاحتمال: يحتمل أن يكون المراد بهذه الآية: من يقاتل الرسول ويشاققه ويتبع غير سبيل المؤمنين في متابعته ومناصرته والاقتداء به وإطاعته فيما يأمر وينهى.

وقوله تعالى: ﴿ كُنْتُم خَيْرَ أُمّة أُخْرِجَتْ للنّاس تَأمُرُونَ بالمعْرُوف وتنهوْنَ عَن الْمُنكَر ﴾ (سورة آل عمران: آية ١١٠).

وجه الاستدلال: أن الله تعالى وصف المؤمنين بالخيرية، والخيرية توجب الحقية، فإذا اتفقوا على أمر فاتفاقهم يدل على حقية ما اتفقوا عليه. ويضاف إلى ذلك أن الله تعالى وصف المؤمنين بكونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذا يستلزم أن يكون قولهم حجة، لأنهم إذا أجمعوا على أمر أنه معروف كان معروفاً، وإذا أجمعوا على أمر أنه منكر كان منكراً. ويكون المخالف لهم ضالاً. فماذا بعد الحق إلاّ الضلال؟ وأيضاً لو أجمعوا على الخطأ لكانوا آمرين بالمنكر وناهين عن المعروف، وهو خلاف النص.

مناقشة هذا الاستدلال: إن اتصافهم بكونهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا يستلزم أن يكون قولهم حجة ملزمة، بل المراد أنهم يأمرون بما هو معروف، وينهون عما هو منكر في هذه الشريعة.

وأما السنة: فهي الدليل الأقوى على حجية الإجماع. فقد تواترت الأحاديث النبوية من حيث المعنى على عصمة الأمة الإسلامية عن الخطأ، ممثلة بمجتهديها، من نحو قوله عليه الصلاة والسلام: « لا تجتمع أمتي على الخطأ » و« لاتجتمع أمتي على الضلالة » و« يد الله مع الجماعة »، وغير ذلك كثير من الأحاديث.

أما المعقول: فمن المقطوع به أنه لابدّ لكل حكم اجتهادي فردي من دليل شرعي يستند إليه. فكيف الأمر إذن في اتفاق جميع المجتهدين على حكم قضية وجزمهم بها جزماً قاطعاً؟.

إنه من المستحيل عادة إجماع مثل هؤلاء المجتهدين على حكم والقطع به وليس له دليل شرعي قاطع، بحيث لا يتنبّه واحد منهم على وجه الحق في ذلك.

هذه هي أدلة الجمهور القائلين بحجية الإجماع.

أما مستند الإجماع: فيرى الجمهور فيه أنه لابد للإجماع من دليل شرعي يستند إليه، حتى إذا انعقد الإجماع سقط البحث عن الدليل الذي استندوا إليه مع حرمة مخالفة الحكم المجمع عليه وصيرورة هذا الحكم مقطوعاً به.

وسند الإجماع قد يكون دليلاً قطعياً وهو الكتاب والسنة المتواترة، وهذا متفق عليه وقد يكون السند ظنياً، ففيه رأيان: رأي الجمهور الذين لم يشترطوا القطعية في دليل الإجماع، فيجوز عندهم أن يكون الدليل ظنياً كخبر الآحاد والقياس. ورأي الظاهرية والشيعة وغيرهم الذين اشترطوا القطعية في الدليل، فلا ينعقد الإجماع عندهم بخبر الآحاد والقياس، لأن الإجماع دليل قطعي وخبري الآحاد والقياس دليلان ظنيان، والظن لايفيد القطع.

أما المصلحة المرسلة: فيجوز أن تكون دليلاً للإجماع عند القائلين بحجيتها. وإذا كان الإجماع المستند إلى الكتاب والسنة دليلاً شرعياً ثابتاً، فإن الإجماع المستند إلى المصلحة المرسلة [ر] تكون له الحجية نفسها ما دام محصلاً للمصلحة، فإذا تغيرت المصلحة، جازت مخالفة هذا الإجماع وإحداث حكم آخر يحقق المصلحة المستجدة. مثل ذلك: ما أفتى به فقهاء المدينة السبعة من جواز التسعير الجبري على الباعة محافظة على مصالح الناس وأموالهم مع سبق إجماع الصحابة على ترك التسعير.

ومن المسائل المختلف فيها إمكان وقوع الإجماع. فذهب الجمهور إلى إمكان وقوعه وأنه وقع فعلاً. فمن ذلك: الإجماع على جمع القرآن في المصحف في عهد الخليفة الأول أبي بكر، والإجماع على تحريم الربا في الأصناف الستة (الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح)، وإجماعهم على توريث الجدة سدس التركة، ونحو ذلك، وخالف في ذلك أصحاب النظام وبعض الخوارج والشيعة، وخلاصة ما ذكروه أن انتشار المجتهدين في الأقطار يمنع من معرفة أشخاصهم ورأي كل واحد منهم في المسألة، وأن اتفاقهم إما أن يكون عن دليل قطعي أو ظني، فإن كان قطعياً أغنى عن الإجماع، لأن العادة قاضية بمعرفة الناس له والاطلاع عليه، وإن كان ظنياً استحال الاتفاق عادة لاختلاف العقول في الفهم وتباين الأنظار.

محمد فاروق العكام

الموضوعات ذات الصلة:

الاجتهاد - الاستحسان - الاستصحاب - أصول الفقه (علم -) - المصالح المرسلة.

مراجع للاستزادة:

- الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام (دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٠).
- الشوكاني، إرشاد الفحول (دار المعرفة، بيروت ١٩٧٩).

■ أجنادين

أجنادَين أو أجنادِين على التثنية والجمع، بلدة بين الرملة وبيت جبرين (لغة في بيت جبريل) من أرض فلسطين، كانت ميداناً لأكثر من معركة بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين، وذكر كثير من المحدثين من العرب والمستشرقين أنها في الموضع المعروف اليوم بالجنابة الشرقية والجنابة الغربية وقد يطلق عليهما اسم واحد يجمعهما فيقال لهما الجنابتان.

تتفق المصادر الأولية على أن معركة أجنادين الفاصلة كانت في جمادى الأولى سنة ١٣هـ في خلافة أبي بكر الصديق وبعد قدوم خالد ابن الوليد مدداً للمسلمين في الشام، ولكنها تختلف في تحديد اليوم وإن تواترت معظم الروايات على أنها حدثت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى.

اجتمع خالد بن الوليد مع أبي عبيدة بن الجراح، وشُرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي

سفيان على حصار بصرى، التي صالحت على الجزية، فكانت أول مدينة من مدائن الشام فتحت في خلافة أبي بكر، ثم ساروا جميعاً إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص، وعمرو مقيم بالعربات من غور فلسطين، وسمعت الروم بهم فتوجهوا عن جلِّق إلى أجنادين وعليهم تذارق (تيودور Theodore) شقيق هرقل، وسار عمرو بن العاص حين سمع بقدوم أبي عبيدة ابن الجراح وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان حتى لقيهم، فاجتمعوا بأجنادين، وكان عدد جند المسلمين عشرين ألفاً في حين زاد عدد جند الروم على أربعين ألفاً. وذكر ابن الأعثم أن القيادة كانت يومئذ لخالد بن الوليد الذي قام بتعبئة أصحابه فجعل على الميمنة معاذ ابن جبل وعلى ميسرته سعيد بن عامر بن حذيم وعلى جناح الميمنة يزيد بن أبي سفيان وعلى جناح الميسرة شرحبيل بن حسنة، وخالد بن سعيد بن العاص على الكمين، ثم جعل خالد ابن الوليد نساء المسلمين وراء الصفوف «فتشمَّرن وأخذن في أيديهن الحجارة، وجعلن يدعون الله ويستنصرنه على أعداء المسلمين». أما خليفة بن خياط في تاريخه فيذكر أنه عند التقاء المسلمين في أجنادين، كان الأمراء كل على جنده، وأن بعض الناس يزعمون أن عمرو ابن العاص كان عليهم جميعاً، وسواء أكانت القيادة لخالد بن الوليد أم لعمرو بن العاص، فإن المسلمين قاتلوا الروم قتالاً شديداً كان من نتيجته انتصار العرب وهزيمة الروم وتفرقهم وتشتتهم في الحصون، وقتل من الروم في المعركة ألف وسبعمئة رجل واستولى المسلمون على غنائم كثيرة، وقُتل خليفة هرقل، وقتل من المسلمين أربعة عشر رجلاً، وقتلت أم حكيم بنت الحارث بن هشام (زوجة عكرمة بن أبي جهل) وحدها أربعة من الروم بعمود فسطاطها، وقد توجه هرقل عندما انتهى إليه خبر هذه الوقعة من حمص إلى أنطاكية وفق رواية البلاذري في حين تشير رواية الطبري إلى أن هرقل رجع للمسلمين فالتقوا بالواقوصة.

نجدة خماش

الموضوعات ذات الصلة:

اليرموك.

مراجع للاستزادة:

- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣ (دار المعارف، مصر).
- البلاذري، فتوح البلدان (بيروت، دار الكتب العلمية).
- ابن أعثم الكوفي، الفتوح، ج١ (بيروت، دار الكتب العلمية).

■ الأجناس الأدبية (نظرية -)

نظرية الأجناس الأدبية theory of literary genres مصطلح يشير إلى مبدأ تنظيمي يصنف الأعمال الأدبية تبعاً لأنماط أدبية خاصة من التنظيم أو البنية الداخليين لهذه الأعمال، وتستمد غالب هذه الأنماط من الأعمال الأدبية الرفيعة التي تتحول تقنياتها وقواعدها ومبادىء تنظيمها وطرائق بنائها، بفعل جملة من العوامل الاجتماعية، إلى معايير يأخذها الكتاب بالحسبان عندما ينشئون نصوصهم، ويجعل النقاد من هذه المعايير كذلك منطلقاً في تقويمهم للنصوص التي يواجهونها، كما يحدد بها القراء آفاق توقعاتهم من النصوص عند قراءتها وتقديرها. وتكوّن الأجناس الأدبية ساحة مغنطيسية ذات تأثير فعال جداً في عملية إنتاج الأعمال الأدبية ونقدها واستهلاكها في أي تقليد أدبي قومي. وهي - أي الأجناس الأدبية - مؤسسة مهمة من مؤسسات أي مجتمع وتؤدي جملة من الوظائف تتصل بالكاتب والقارىء العام والقارىء الخبير معاً.

فأما الكاتب فإنه باستخدامه مؤسسة الجنس الأدبي، من جهة اختياره لها شكلاً فنياً يجسد رؤيته للعالم، يدلي ببيانات مهمة عن أسلافه في الجنس الأدبي المختار، وفي الفن عامة وفي الحياة جملة، مثلما يفصح عن آرائه فيهم وفيها. وهو كذلك يستخدم الجنس الأدبي لنقل رؤيته الفنية والاجتماعية والسياسية، ونشرها في مجتمعه بوساطة العمل الأدبي الذي يجسدها. وفضلاً عن ذلك فإنه يحدد النظام الترميزي code الذي يحكم رسالته الفنية التي يود أن تبلغ قارئه عندما يحسن تفسيرها تبعاً لهذا النظام الترميزي، مثلما يحدد آفاق توقعات قارئه ليرضيها أو يحبطها، فيما بعد، بحسب الغرض الذي يريده من عمله.

وأما القارىء العام فإن مؤسسة الجنس الأدبي تكوّ ن لديه نظام ترميز يتعامل به مع العمل الأدبي ويرسم آفاق توقعاته تبعاً له، ويحكم في النهاية استجابته له القريبة والبعيدة، مثلما يكوّن ذوقه النوعي الخاص بهذا الجنس الأدبي - هذا الذوق الذي يكون حصيلة تراكم قراءاته في أطوار حياته المختلفة.

وأما القارىء الخبير، أو ما يعرف عادة بالناقد الأدبي، فإن مؤسسة الجنس الأدبي غالباً ما تكون الإطار المرجعي frame of reference الذي يحكم قراءته النقدية للعمل الأدبي: أي اختياره إياه وشرحه لغوامضه وتحليله لبناه الكبرى والصغرى وتفسيره لدلالاته، وتبينه لصلاته الأدبية وفوق الأدبية، وتحديده لمصادره الأدبية القومية والعالمية، ثم الحكم عليه في النهاية وذلك عن طريق وضعه له في عدة سياقات contexts من الجنس الأدبي المحلي، والجنس الأدبي القومي، والجنس الأدبي العالمي آنياً وتاريخياً.

إن الجنس الأدبي بهذا المعنى هو المحرك الذي تلتقي فيه القوى الفاعلة في عملية الإنتاج الأدبي في أي مجتمع من المجتمعات: من كاتب وقارىء وجملة عوامل وشروط ومحددات تسهم جميعاً في تشكيله.

ترجع نظرية الأجناس الأدبية في أصولها الغربية إلى تمييز أفلاطون [ر] بين نمطين من أنماط إعادة إنتاج موضوع، أو شيء أو شخص ما، هما نمط الوصف أو التصوير بالكلمات ونمط المحاكاة mimesis أو التقليد. ولما كان الشعر، أداة الأدب الأقدم،في إعادة إنتاجه للموضوعات الخارجية، فقد قسمه أفلاطون إلى شعر محاكاة مباشرة للأشخاص هو الشعر المسرحي، وشعر وصف وتصوير للأعمال الإنسانية هو الشعر السردي. وتقسيم كهذا يترك الكثير من الشعر خارج دائرة التصنيف، الأمر الذي اضطر أفلاطون إلى إدخال قسم ثالث ذي نمط مختلط يتناوب فيه الحوار والسرد كما هو الشأن في الملحمة حيث يندر استخدام السرد الصرف. ومع ذلك فقد بقي الشعر الغنائي الذي يعبر فيه الشاعر عن

أفكاره ومشاعره خارج دائرة أفلاطون ومخططه.

وإذ تبنى أرسطو [ر] في كتابه «فن الشعر» Poetics قسمة أستاذه الأساسية، فإنه لم يلتفت إلى الشعر الغنائي بوصفه جنساً أدبياً رئيساً. والتقسيم الثلاثي الشائع للشعر إلى مسرحي وملحمي وغنائي، الذي ينسب عادة إلى العبقرية اليونانية، لايعود في حقيقة الأمر إلى عصر أرسطو ولا إليه، وإنما إلى عملية طويلة من الجمع والتعديل والإعادة مع التغيير الطفيف لقوائم تقليدية معينة من الأجناس الأدبية، ولم يأخذ هذا التقسيم صيغته الثلاثية هذه إلا في القرن السادس عشر الميلادي. والحقيقة أن فن الشعر عند أرسطو ينصرف في معظمه لدراسة جنس المأساة [ر] بوصفه جنساً أدبياً يسمو على ما سواه من الملهاة [ر] والملحمة [ر] وغيرهما. وأما إشاراته العابرة أو المتأنية للملهاة والملحمة فقد جاءت في معرض مقارنتهما بالمأساة بهدف توضيح جوانب مهمة من هذا الجنس الرفيع الذي بلغ أوج تطوره في عصر أرسطو، وكان من الطبيعي أن يتناوله بهذا الاهتمام والتفصيل الشديدين، وأن يعير اهتماماً أقل لكل من الملحمة والملهاة لأنهما دون المأساة وظيفةً (في التطهير) وأسلوباً (في اعتمادها الأسلوب النبيل كما أسماه اليونانيون).

وفي العصر الأثيني Attic Age لايجد المرء تقسيماً واضحاً وبسيطاً للأجناس الأدبية، وإنما يصادف تشكيلة واسعة من المصطلحات المستخدمة في الإشارة إلى أجناس محددة مثل الملحمة (أو الشعر المنشد) والمسرحية (أو الشعر الممثل)، بنوعيها المأساة والملهاة، والشعر الهجائي المعروف باسم الإيامبي iambic لأنه منظوم على البحر الإيامبي، والشعر الإليجي elegiac المنظوم على الدوبيت الإليجي، والشعر الإنشادي melic أي الشعر المغنى من الجوقة والمصاحب بالناي أو القيثارة أو بهما معاً، وهو الأقرب إلى مفهوم الشعر الغنائي اليوم، وغير ذلك مثل النشيد أو الترنيمة hymn والديثرامب (أو أمدوحة باخوس) dithyrambo وأغاني الجوقة وأغاني النصر والاحتفالات.

وقد قامت مدرسة الاسكندرية فيما بعد بتمثل الإنتاج الأدبي اليوناني وتصنيف القصائد ووضعها في مجموعات وطبقات تيسر تحديد القوانين والقواعد التي تحكم أعمال أفضل الشعراء، مما عزز الوعي بالأجناس الأدبية. وأثمر هذا عملاً متميزاً قام به ديونيسيوس تراكس Dionysius Thrax في القرن الثاني ق. م عندما وضع قائمة بعدد من الأجناس الأدبية تضم المأساة، والملهاة، والمرثية، والملحمة، والشعر الغنائي وغيرها. وقصد بالشعر الغنائي lyric ما توحي به التسمية ذاتها، أي الشعر المغنى المصاحب بالعزف على القيثارة lyre . كما أضيفت إلى هذه الأجناس أجناس أخرى مثل أنشودة الرعاة idyll والشعر الرعوي pastoral والنثر القصصي prose fiction . ومع ذلك فقد ظل تقسيم أفلاطون يلقي بظله على تصنيف الأعمال الأدبية قروناً طويلة، وهو التقسيم الذي يجده الباحث لدى النحوي ديوميدس Diomedes في القرن الرابع الميلادي ممثلاً بجنس التمثيل genus activum وجنس السرد genus enarrativum والجنس المزيج genus mixtum . ولكن هذا الظل ما لبث أن انحسر تماماً في العصور الوسطى إذ ضاعت كل فكرة المسرحية مثلما نسيت المعاني الدقيقة لمصطلحات الأجناس الأدبية بعد إغلاق المسارح، وجُعل الأدب مجرد خادم مطيع للاهوت، فالمسرحية drama على سبيل المثال كانت تستخدم في الكتابات البيزنطية لتشير إلى الرواية [ر] وكانت تعني في الغرب الأوربي الحوار الفلسفي. ومع مجيء دانتي أليغيري [ر] تبددت فكرة المسرحية تماماً، فقصيدته، التي تعد بحق رائعة عصرها، غدت عنده ملهاة لأنها حكاية ينتهي المطاف فيها بالفردوس، ولأنها منظومة بأسلوب وسط لا نبيل ولا وضيع، و«الإنيادة» ملحمة فرجيل الخالدة غدت مأساة. وهذا خلط واضح لكل ما أنجزته العصور السابقة من تقدم في نظرية الأجناس الأدبية. ولكن هذا لايعني بحال من الأحوال أن العصور الوسطى لم يكن لها أجناسها الأدبية الخاصة بها. وكل ما في الأمر أنه لم يكن ثمة من أرسطو يصنفها ويؤطرها ويقيم دعائمها النظرية على أسس فلسفية واضحة.

من هنا قامت مجهودات عصر النهضة في نظرية الأجناس الأدبية على أساس من عودتها إلى كتاب «فن الشعر» لأرسطو الذي أهمله كتاب العصور الوسطى باستثناء الفلاسفة العرب المسلمين من أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم. وهكذا ترجم الكتاب في القرن الثالث عشر. وتزامن ذلك مع عودة، قوامها الخبرة والمعرفة الدقيقة، إلى الآداب القديمة وإحياء للمسرح في شكله الكلاسيكي. والحقيقة أن عودة النقاد ومنظري الأدب من جديد إلى النص الأصلي لكتاب أرسطو في القرن السادس عشر جاءت كشفاً جديداً واستدعت الكثير من التعليقات والمعارك غدت معها نظرية الأجناس الأدبية أساساً للنظام النقدي السائد. وشرع نقاد العصر في وضع قوانين وقواعد متطورة للمسرحية والملحمة استنبطت افتراضاً من أرسطو، وقاد هذا إلى خلافات حادة حول «الملهاة الإلهية» لدانتي وأعمال أريوستو Ariosto [ر] وسبنسر Spenser [ر] التي لم تتفق على أي نحو، مع المخططات الكلاسيكية. وفضلاً عن ذلك فقد غدت قصائد بترارك [ر] Petrarch في الغزل والحب نموذجاً يحتذى في مختلف الآداب الأوربية الوليدة، الأمر الذي اضطر النقاد إلى مواجهة مشكلة إغفال الشعر الغنائي هذا الإغفال الذي لم يعد مقبولاً منذ ذلك الحيْن. وحاول بعضهم حل المشكلة بإخضاع الشعر الغنائي لنظرية المحاكاة الأرسطية زاعماً أن الشاعر الغنائي إنما يحاكي نفسه، في حين رفضه بعضهم الآخر جملة بحجة أنه ليس شعراً. ومع ذلك لم يعدم الشعر الغنائي من يدافع عنه، فقد أثبته منترنو Minturno عام ١٥٥٩ في قائمة أنواع الشعر الثلاثة الرئيسة واصفاً إياه على نحو يذكر بتقسيم أفلاطون الآنف الذكر. فهو شعر إنشادي يحاكي الأعمال الإنسانية حيناً، ويسردها حيناً آخر، ويدخل متحدثين آخرين حيناً ثالثاً.

والحقيقة أن سيادة الإيمان بنظرية الأجناس الأدبية لم تكن كاملة في القرن السادس عشر، فقد كان هناك من يشكك فيها. وها هو برونو Bruno يردد أن ثمة أجناساً للشعر بعدد الشعراء. وكذلك فإن ازدهار المسرحية الإليزابيثية والإسبانية اللتين خرجتا على القواعد الكلاسيكية، ولا سيما الوحدات الثلاث: الزمان والمكان والعمل، زعزع من سيادة النظرية، وشهد القرنان السابع عشر والثامن عشر خلافات حادة حول أجناس أخرى من مثل الشعر الرعوي ومسرحية البرلسك burlesque والملحمة الساخرة mock epic . وامتد هذا الخلاف إلى الحركة الرومنتية (الإبداعية) التي كانت وراء الثورة على

الفواصل والحدود بين الأجناس الأدبية كالفصل بين المأساة والملهاة. وقد تفاوت الرومنتيون في مواقفهم تجاه هذه القضية: ففضل فريق منهم المزج بين جنسين أو أكثر داعياً إلى شكل شعري شامل، وحاجّ فريق آخر من أجل جنس جديد كالرواية التاريخية والمسرحية التاريخية، ومجد فريق ثالث الشعر الغنائي لأنه جوهر كل الشعر وروح الإحياء فيه، وتصور فريق رابع إلغاء كل التعريفات والتصنيفات المتصلة بالأجناس الأدبية كما فعل فريدريك شليغل F.Schlegel في كتابه« حوار عن الشعر ١٨٠٠ »، في حين ألمح أخوه أوغست ويليام شليغل A.W.Schlegel إلى نوع من التوازي بين ثالوث الأجناس الأدبية الشعر الغنائي، الملحمة، المسرحية، من جهة، والثالوث الجدلي الأطروحة thesis، والنقيض antithesis، والتركيب synthesis من جهة أخرى: فالملحمة موضوعية، والشعر الغنائي ذاتي، والمسرحية مزيج متداخل منهما معاً. وقد غدا هذا التوازي شائعاً، وراج بين مختلف منظّري القرن التاسع عشر الذين استلهموه بطرق مختلفة، ولا سيما علماء الجمال الميتافيزيقيين الذين اتخذوا منه حافزاً لإقامة نظمهم الخاصة بالفنون الجميلة والأجناس الأدبية.

وشهد القرن التاسع عشر مؤثراً قديماً ـ جديداً في نظرية الأجناس الأدبية هو مفهوم التطور الذي تعود جذوره الأولى إلى أرسطو. ويبدو أن التطور وجد في أفكار داروين [ر] وسبنسر حافزاً قوياً على معاودة دوره، فغدت أفكار التطورية الجديدة تطبق بشغف على تاريخ الأدب في أقطار عدة وهكذا طبق جون أدنغتن سمندز John Addington Symonds في إنكلترة التشبيه البيولوجي (١٨٨٤) بصرامة لا ترحم، وقال:« إن الدراما الإليزابيثية خط واضح المعالم قوامه الولادة، فالتوسع، فالازدهار، فالذبول» ووصف هذا التطور فعدّه تفتحاً لعناصر جنينية لايمكن إضافة شيء لها، تسير مسيرتها بحتمية حديدية إلى مرحلة الذبول المحتومة. وتبعه رتشارد غرين مولين الإنكليزي، وبوزنْتْ النيوزيلندي وغمير ومكنزي الأمريكيان وغيرهم. ويظل الفرنسي برونتيير Brunetière. في كتابه « تطور الأجناس في تاريخ الأدب » من أبرز مستلهمي هذا المفهوم. فقد حاول أن ينقل بعض المفاهيم البيولوجية الصرفة من الداروينية إلى الأدب، واعتقد أن الأجناس الأدبية لها وجود في الواقع كوجود الأجناس البيولوجية. وكان يقارن باستمرار بين تاريخ الأجناس الأدبية وتاريخ الكائنات البشرية، وقال:« إن التراجيديا الفرنسية ولدت مع جوديل، ونضجت مع كورني، وشاخت مع فولتير، ثم ماتت قبل هوغو» وأكثر من هذا فقد استخدم برونتيير في تأريخه للأجناس الأدبية تشبيه الصراع من أجل البقاء، لكي يصف تنازع هذه الأجناس فيما بينها، وقال إن بعض الأجناس تتحول إلى أجناس أخرى.

وقد حاول بعض أتباع برونتيير أن يمضوا إلى أبعد مما مضى هو من دون أن يكون عملهم أكثر إقناعاً من عمله. وسرعان ما واجه مفهوم التطور الكثير من النقد والرفض باسم العبقرية حيناً، والتقويم الانطباعي في بعض نواحيه حيناً آخر، ولا سيما من جانب كروتشه [ر] Croce الذي كان هجومه على مفهوم الجنس الأدبي بالذات مقنعاً من جميع النواحي. وقد عملت أفكاره المتعلقة بتفرد كل عمل أدبي عما سواه، ورفضه الوسائل والطرائق والأساليب الفنية ولو كانت موضوعات للتاريخ، على تقويض أساس التطورية برمتها في نظر الكثيرين. انطلق كروتشه في هجومه هذا على مفهوم الجنس الأدبي من نظريته في المعرفة التي تتخذ لديه وجهين رئيسين: الحدسي الذي يتم من خلال الخيال، ويتألف من معرفة الظواهر الفردية، وينتج الصور، والمنطقي الذي يتحقق من خلال الذهن، ويركز على الظواهر العامة الشاملة، وينتج المفاهيم. ولما كان إبداع الفن والاستجابة له فعلين يمثلان المعرفة الحدسية في عرفه، فإن مقولات الأجناس الأدبية، تشوه، كما يرى، استجابات القارىء الذي يسعى إلى تطبيقها على العمل الفني، لأنها تقوده إلى أن ينتقل من الاستجابة الحدسية إلى الاستجابة المنطقية لذلك العمل، ولايمكن للاستجابتين أن تجتمعا معاً. وفضلاً عن ذلك فإن تصنيف الأدب إلى أجناسه المختلفة إنكار لطبيعة الأدب ذاتها، ولا سيما أن كل عمل أدبي جدير بهذه التسمية يعمل على تحطيم قوانين الأجناس الأدبية في مسعاه لتحقيق تفرده.

وقد وجدت تحفظات كروتشه أصداء مختلفة لدى عدد كبير من نقاد القرن العشرين، فرأى بعضهم أن العمل الفني الجديد باسمه يكون فريداً ، وقال بعضهم الآخر بعدم « تحديدية »النص indeterminacy ومن هؤلاء جاك ديريدا Jacques Derrida ورولان بارت Roland Barthes [ر] الذي بيّن في كتاباته الأخيرة أن القارىء إذ يواجه بسلسلة غير محدودة من الإشارات ونظم الترميز المتصارعة، يكاد يكون من المستحيل عليه تفسير عمل أدبي بدقة وموضوعية. وأقر بعضهم، من ناحية أخرى، أهمية نظرية الأجناس الأدبية في الآداب القديمة، وزعم أنها لاتقوم بالدور نفسه في الأدب الحديث.

ومع ذلك فإن نظرية الأجناس الأدبية لم تعدم من يدافع عنها في هذا القرن. وربما كان من أبرز هؤلاء ريناتو بوتجيولي Renato Poggioli الذي أكد في دفاعه عنها أن « الشعرية الحديثة » مثلها مثل نظيرتها القديمة، ما هي إلا نظام من الأجناس الأدبية، وطرح فكرة الشعرية غير المكتوبة unwritten poetics (أو الافتراضات التي تتناقل عن الأدب والتي لم تقنن في بيانات رسمية مكتوبة) التي تتولى عادة نقل المعايير والأعراف الأدبية إلى جانب « الشعرية الرسمية المكتوبة »، ومنهم كذلك الباحث الفرنسي المشهور بول فان تيغم P.V. Tieghem الذي بين في مقالته المعنونة بـ« مسألة الأجناس الأدبية » التي نشرتها له مجلة هليكون Helicon (مع مقالات أخرى لغيره تناصر جميعها فكرة الأجناس الأدبية) أن « فكرة الأجناس ليست ميتة ، ولايمكن أن تكون كذلك، لأنها مؤسسة بثبات في النفس الإنسانية »، « فكل ذوق عاطفي، وكل حاجة اجتماعية أو دينية، يؤلف أو تؤلف جذراً لجنس مختلف يزهر على نحو أكثر أو أقل إرضاء ».

ويبقى نقاد شيكاغو أو الأرسطيون المحدثون Neo-Aristotelians من أهم المنافحين عن مبدأ الجنس الأدبي في هذا القرن، وأكثرهم تقليدية ومحافظة في مناهجهم وافتراضاتهم. فقد سعوا، على سبيل المثال، إلى التوسع في النظام الأدبي الذي ينطوي عليه كتاب أرسطو « فن الشعر » وإلى تطويره، وذلك « بتصنيف أشكال أدبية لم يقدم أرسطو ذاته تعليقاً مطولاً عنها، أو بإضافة تمييزات أخرى لمقولات لا يقيمها هو نفسه ». يتحدث إلدر أولسون Elder Olson في مقالته « مخطط لنظرية شعرية » An Outline of Poetic Theory عن أربعة أنماط أساسية للعمل: الأعمال التي تقدم شخصية واحدة في

وضع مغلق أي في وضع لا تعقّد أعمالُها أعمالَ أي فاعل آخر، مثل معظم الشعر الغنائي، والأعمال التي تظهر شخصيتين أو أكثر في وضع مغلق، والأعمال المؤلفة من مجموعة من المشاهد، والأعمال المؤلفة من مجموعة من الحلقات episodes. ويقدم ر. س. كرين R.S.Crane في مقالته «مفهوم الحبكة وحبكة توم جونز» سلسلة من المبادىء لدراسة السرد، يمكن للمرء أن يلاحظ ما وراءها من أشكال النظر لأرسطو في موضوع المحاكاة.

وبمقدار ما كان الأرسطيون المحدثون ـ الذين صدروا عن فن الشعر لأرسطو ـ محافظين في موقفهم من نظرية الأجناس الأدبية، كان الشكليون الروس والبنيويون التشيكيون والفرنسيون مجددين في هذا الموقف منطلقين من اللغويات الحديثة لفرديناند دو سوسور وسواه. وقد برز من بينهم خاصة يوري تينيانوف Juri Tynyanov الذي عني بمشكلة تطور الأجناس الأدبية، واقترح «قانون الأضداد Law of Contrast» ناظماً لهذا التطور، ويان موكارجوفسكي Jan Mukarjovsky الذي تناول الأجناس الأدبية من وجهة تمييز أقامه بين الحواري dialogic والمناجاتي monologic، ودرس مشكلة التطور الذي تخضع له هذه الأجناس دراسة خاصة، وتزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov الذي قدم دفاعاً مجيداً عن نظرية الأجناس الأدبية من منطلق بنيوي مؤكداً فكرة الصراع في تطور الأجناس الأدبية، ولا سيما عندما يثور العمل الأدبي الحاد على المعايير القائمة للأجناس الأدبية ويعدلها في ثورته هذه على نحو يطول الأجناس ذاتها.

وعلى الرغم من أهمية من تقدم ذكرهم في تاريخ نظرية الأجناس في القرن العشرين فإن نورثروب فراي Northrop Fraye وحده الذي ينهض قمة شامخة تطمح إلى هدف لايقل عن متابعة ما بدأه أرسطو نفسه. ذلك أن فراي يعتقد، كما يشير إلى ذلك صراحة في كتابه« تشريح النقد » Anatomy of Criticisim (١٩٥٧)، أن نظرية الأجناس الأدبية لم تبارح النقطة التي بلغها أرسطو. ومن هنا كان إسهامه في تطوير هذه النظرية أصيلاً وخلافياً إلى درجة لم يبلغها مُنظّر آخر منذ أرسطو. وربما كان ذلك أمراً طبيعياً بعد أن أسند إلى الناقد مهمة استكشاف النظام الأدبي وشرحه. فعلى سبيل المثال اقترح فراي تصنيف الأدب تبعاً لأنماطه أو صيغه modes وهذه فكرة مطورة عن فكرة موضوع المحاكاة لدى أرسطو، كما اقترح مقولة أخرى لتصنيف الأدب استعارها من اليونانية، وهي الكلمة نفسها التي استخدمها أرسطو للإشارة إلى العقدة من النمط الأولي وهذه هي الـ« mythos ». ورأى أن العقدة من النمط الأولي أوسع وأسبق من الأشكال الأدبية العادية، وميز أربعاً منها يتطابق كل منها مع فصل من فصول السنة. أما ما يعرف بطريقة المحاكاة، فقد عمد فراي إلى إعادة تعريفها وسماها بالجنس genre وبيّن أن الأجناس بهذا المعنى داخلية intrinsic وأساسية في الأعمال المعنية، فالمسرحية وإن طبعت ولم تمثل، تظل تخلص للجنس ذاته، وكذا الشأن في الملحمة التي تحتفظ بأعراف الإلقاء وإن لم يتم إلقاؤها. والقصة التي تتبع جنس الصفحة المطبوعة. والحقيقة أن عمل فراي، الذي امتد ما يقرب من أربعة عقود، على درجة من التعقيد والدقة والأهمية والتأثير الواسع والغني يصعب معها اختزاله في حيّز محدود، ولا سيما أنه لا يزال يشارك على نحو فعال في ميدان النقد ونظرية الأدب حتى اليوم. والخلاصة أن المنظور التاريخي لنظرية الأجناس الأدبية قد بيّن أنها مقولة باقية بقاء الأدب نفسه، ذلك الفيض المستمر، وأن أي عمل أدبي، مهما كان موقفه من الأجناس القائمة في التقليد الذي ينتمي إليه، لايستطيع أن يقطع صلته بها. ذلك أن الأجناس، على حد تعبير تزفيتان تودوروف، هي بالتحديد نقاط الأبدال relay - points التي يُعاود فيها العمل [الأدبي] الصلة بعالم الأدب.

عبد النبي اصطيف

الموضوعات ذات الصلة:

الأدب.

مراجع للاستزادة:

-PAUL HERNADI, Beyond Genre (Cornell University Press, Ithaca, New York 1972).

-HEATHER DUBROW, Genre (Methuen, London 1982).

■ الإجهاض

الإجهاض abortion لغةً مصدر فعل لازم. وأجهضت المرأة أسقطتْ حملها لغير تمام فهي مُجْهِض. والولد السقْط هو الجِهْض والمُجْهَض والجَهِيض. والمجهاض من الإناث هي التي من عادتها إلقاء الولد لغير تمام.

الإجهاض في الطب

الإجهاض في نظر الطب، هو خروج محصول الحمل من الرحم فيما بين بداية الحمل وقابلية الحياة. ومع أن هذا التعريف يبدو واضحاً وصريحاً ، إلا أنه يقتضي تحديد تاريخين تكتنف كل منهما بعض الصعوبات، وهما تاريخ بدء الحمل وتاريخ قابلية الحياة.

أما تاريخ بدء الحمل، أي تاريخ الإلقاح، فلا يمكن تحديده بدقة، سواء سريرياً أم بالفحوص المخبرية، وكل الوسائل المستعملة تحتمل الخطأ زيادة أو نقصاً ولو بنسب بسيطة. وأما قابلية الحياة فيحددها بعضهم بانتهاء الشهر السادس من الحمل، ويحددها آخرون ببلوغ الجنين ١٠٠٠ غ من الوزن. وقد يكون أحد هذين الحدين أو كلاهما مقبولاً لو ترك المولود للحياة عفوياً، ولكن تقدم وسائل العناية الطبية المختلفة أتاحت للمولود أن يعيش في حدود أدنى بكثير من هذين الحدين. ويتدخل في تعيين قابلية الحياة كثير من العوامل المحيطية والخاصة مما يثير كثيراً من المشاكل القانونية في هذا الشأن.

وللإجهاض نوعان: الإجهاض العفوي spontaneous abortion والإجهاض المحرَّض induced (artificial) abortion

الإجهاض العفوي

هو الإجهاض الذي يحدث من تلقاء نفسه من دون عامل خارجي، كاستعمال آلة أو دواء أو وسيلة أخرى. وهو نوعان: الإجهاض الحادثي (العارض) accidental abortion الذي يحدث بين حمول تبلغ نهايتها، والإجهاض المتكرر (أو المعتاد) recurrent (habitual) abortion

الـذي يتكرر ثلاث مرات متتاليات فأكثر.

الإجهاض الحادثي: تقدر منظمة الصحة العالمية نسبة الإجهاضات العفوية بـ ١٠٪ من مجموع الحمول، ويعتقد بعضهم أن النسبة تزيد على ذلك.

أسباب الإجهاض الحادثي: تموت المضغة قبل الإجهاض غالباً، في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل: ولمعرفة سبب الإجهاض لابد من معرفة سبب موت المضغة. أما الإجهاض بعد الشهر الثالث فيحدث من دون موت المضغة غالباً، وأسبابه مختلفة عما هي عليه في الأشهر الثلاثة الأولى، وتكون هذه الأسباب في جسم الحامل أو في جهازها التناسلي ويندر أن تكون في الأب وأهم أسباب هذه الإجهاضات:

(١) الزيغ الصبغي chromosomal aberration وهو اضطراب عدد الصبغيات الجسدية أو الجنسية أو كليهما معاً. وأكثر أنواع الزيغ مشاهدة التثلث الصبغي trisomy وعدد الصبغيات فيه ٤٧ بدلاً من ٤٦، وتثلث الصيغة الصبغية triploidy وعدد الصبغيات فيه ٦٩ صبغياً، والصبغي X الوحيد monosomy وعدد الصبغيات فيه ٤٥ صبغياً، وتربع الصيغة الصبغية tetraploidy وعدد الصبغيات فيه ٩٢ صبغياً، وهناك أنواع أخرى قليلة المشاهدة.

والملاحظ أن حوادث الزيغ تكثر في الوالدين الكبيري السن ولاسيما الوالدة. وليس من الضروري أن يؤدي الزيغ الصبغي إلى موت المضغة وحدوث الإجهاض، فقد يستمر الحمل، مع وجود بعض أنواع الزيغ، حتى تمامه. ولكن المواليد تحمل الآفات الخاصة بكل نوع من أنواع الزيغ، كمتلازمة تورنر Turner syndrome التي تشاهد في النساء المصابات بالصبغي الجنسي الوحيد الذي يرمز له بـ X0 أو X44 والمغولية mongolism في تثلث الصبغي ٢١، وداء مواء الهر cri du chat في خبن الذراع deletion القصير في الصبغي الخامس.

(٢) الإزفاء (الانتقال) translocation: وهو انفصال قطعة صبغية من صبغي وتثبتها على صبغي آخر لايماثله. وينجم عن تبدل في بيئة الرحم نتيجة عوامل داخلية أو خارجية متعددة كالاضطراب الهرموني أو التعرّض للأشعة أو الإصابة ببعض الأمراض الخمجية أو تناول بعض المواد الكيمياوية. ويؤدي الإزفاء إلى الزيغ الصبغي بنسبة ٢٪ من حوادث الزيغ كما يؤدي إلى الإجهاض.

(٣) الاضطرابات الهرمونية: يؤدي قصور الجسم الأصفر corpus luteum إلى الإجهاض، ومن المعلوم ضرورة وجود البروجسترون الذي يفرزه الجسم الأصفر لتعشيش البيضة قبل الأسبوع الثاني من الحمل. كذلك يؤدي كل من قصور الغدة الدرقية thyroid والإصابة بالسكري ومتلازمة كوشينغ Cushing syndrome، وفرط الأندروجينات الكظري adrenal أو المبيضي إلى الإجهاض أحياناً.

(٤) الاخماج الحادة infections: التي ترفع درجة حرارة الحامل سواء كان سببها الجراثيم أم الطفيليات أم الفيروسات (الحمات).

(٥) الأخماج المزمنة: ومنها الإصابة بداء المقوسات toxoplasmosis أو البروسيلة المجهضة brucella abortus أو اللسترية listeria مكونة الوحيدات أو الإفرنجي في حالات نادرة.

(٦) التسمم بالمعادن الثقيلة أو غازات الاحتراق.

(٧) تناول بعض الأدوية: ولاسيما مضادات حمض الفولي وبعض العوامل المناعية.

(٨) تناول المخدرات: ويحدث الإجهاض بسببها بنسبة ١٤,٢ - ٢٩,٨ ٪ بحسب الإحصاءات.

(٩) الرضوض: يندر أن تؤدي الرضوض إلى الإجهاض. ومع ذلك فإن الحامل وأهلها يميلون دائماً لعزو الإجهاض أو إصابة الجنين إصابة ما للرضّ، ولذلك يجب أن يؤكد الفحص النسائي حياة البيضة، حين حدوث الرض، بالفحص السريري أو مخبرياً أو بالصدى، فقد تؤكد هذه الفحوص موت الجنين قبل حدوث الرض، ولهذا الأمر طبعاً شأنه من الناحية القضائية. وقد تؤدي رضوض العمليات الجراحية المجراة في البطن إلى الإجهاض ولاسيما العمليات المجراة على الجهاز التناسلي كاستئصال كيسة مبيض أو نواة ليفية. كما أن الرضوض النفسية العنيفة تحدث الإجهاض أحياناً بسبب تقبض الرحم الشديد وانفكاك البيضة عن جدارها.

(١٠) تشوهات الرحم: ومنها الرحم الطفلية infantile uterus والرحم ذات القرنين u. bicornis والرحم وحيدة القرن u. unicornis . وتحدث الإجهاضات في هذه الأرحام بنسبة ٢٥٪ فقط من الحمول.

(١١) توسع فوهة العنق الباطنة: وهو السبب في نحو ٢٠٪ من الإجهاضات المتأخرة. ويتصف الإجهاض الناجم عن هذا السبب، بسيره السريع من دون أي عرض متقدم سوى انبثاق جيب المياه bag of water وانقذاف الجنين الحي بعده بقليل. وذلك خلافاً لكل الإجهاضات الأخرى.

(١٢) انقلاب الرحم الخلفي الثابت: يمنع انقلاب الرحم الخلفي الثابت retroversion نموّ الرحم لاحتوائها في الحوض الصغير، ويرضّها لاصطدامها بالطَنَف promontory، مما ينبه تقلصات الرحم ويؤدي إلى الإجهاض، الذي يحدث غالباً في نهاية الشهر الثالث من الحمل.

(١٣) الأورام الليفية fibroma: وهي تؤدي إلى الإجهاض في بعض الأحيان لأنها تمنع التعشيش أو تمنع احتواء الرحم لمحصول الحمل بسبب حجمها أو توضعها، أو تعيق نمو الأوعية الرحمية المشيمية.

(١٤) الالتصاقات الرحمية synechiae: وهي تمنع نموّ الجنين بوجودها أو بتأثيرها في بطانة الرحم.

(١٥) الحمول التوأمية: وتبلغ نسبة الإجهاضات فيها مثليها في الحمول المفردة.

(١٦) الحمول الخلالية interstitial gestation: وهي التي تحدث في المنطقة الخلالية من البوق وتنتهي بالإجهاض في بعض الظروف.

(١٧) الحمول الواطئة: وهي التي ترتكز في عنق الرحم وقد تكشف باكراً حين إجراء تجريف رحم مجزأ لمعرفة سبب النزف.

(١٨) الورم الدموي الساقطي القاعدي خلف المشيمة: وهو يحدث في الثلث الأول من الحمل بسبب عوارض وعائية وموضعية.

(١٩) شذوذ المشيمة: ومنه التهاب باطن الأوعية غير الإفرنجي الحادث في الزغابات villus والمؤدي إلى اضطراب المبادلات المشيمية والاحتشاء infarct الواسع الذي يخرب قسماً كبيراً من النسيج المشيمي. ومنه كذلك المشيمة المنزاحة placenta previa وانفكاك المشيمة الباكر abruptio placentae وارتكاز السَرَر المظلي velamentous insertion of cord وكل هذه الآفات تؤدي إلى موت الجنين وإلى الإجهاض، ولكن بعد الأسبوع العشرين من الحمل.

ومن المناسب القول، بعد تعداد أسباب الإجهاضات الكثيرة هذه، إن الإجهاض قد يحدث عن اشتراك أكثر من سبب واحد، وإنه من الصعب التفريق بين الأسباب الوالدية والأسباب البيضية للإجهاض، ولو أنه من المعروف أن الأسباب البيضية تغلب في الإجهاضات المبكرة، والأسباب الوالدية تكثر في الإجهاضات المتأخرة.

سير الإجهاض الحادثي وأعراضه: يسير الإجهاض في مراحل ثلاث تبدأ بمرحلة الإجهاض المهددالتي تبدأ بنزف أو بألم قولنجي أو بكليهما معاً، وتختلف كمية النزف وشدة الألم. والغالب أن يبدأ النزف قليلاً ثم يغزر ويصاحبه الألم الذي يشتد تدريجياً أيضاً. وقد ينقطع النزف وتهدأ الآلام من دون معالجة، ويستمر الحمل حتى ينتهي بمولود طبيعي أو مصاب بشذوذ صبغي، أو يموت محصول الحمل وينحبس في الرحم (الإسقاط المنسي)، أو يستمر النزف والألم وينتقل الإجهاض إلى المرحلة الثانية وهي مرحلة الإجهاض الوشيك أو الإجهاض في طور الحصول imminent abortion، ويضاف إلى العرضين السابقين عرض جديد يكشفه الفاحص هو انفتاح عنق الرحم وقصره (امحاؤه)، وتبرز الأغشية (جيب المياه)، إذا كان الحمل بعد الشهر الثالث، ثم تنبثق. ويدل انفتاح عنق الرحم على أن الإجهاض غير قابل للتراجع، وبعد زمن ما (بضع ساعات على الأغلب) ينطرح محصول الحمل، وتدخل المرحلة الثالثة وهي مرحلة عواقب الإجهاض: وتختلف هذه المرحلة حسبما ينطرح محصول الحمل كله أو يبقى جزء منه. ففي الحالة الأولى تهدأ الآلام ويخف النزف وينغلق العنق تدريجياً. وبعد بضعة أيام على الأكثر يعود كل شيء في الأعضاء التناسلية إلى الحالة التي كان عليها قبل الحمل. أما في الحالة الثانية فيبقى العنق مفتوحاً بضع ساعات أو أكثر ثم ينغلق، ولكن النزف والألم يستمران بدرجات متفاوتة. وقد يكون النزف بسيطاً يستمر أياماً أو أسابيع من دون أن ينقطع، أو يشتد فجأة. وكذلك الحال في الألم فقد يكون خفيفاً أو تماشي حدته زيادة كمية الدم. ولابد في هذه الحالة من التدخل لاستخراج القطع المنحبسة في الرحم، وبذلك تزول الأعراض.

أما الإجهاض المنسي الذي مرَّ ذكره، فقد يتوقف محصول الحمل عن النمو في مرحلة الإجهاض المهدد، ولكنه لا ينطرح بل ينحبس في الرحم مدة تطول أو تقصر، فإذا انحبس أكثر من أربعة أسابيع بعد تشخيص موته سريرياً ومخبرياً فهو عندئذ الإجهاض المنسي missed abortion. ويكون التشخيص السريري بزوال الأعراض الودية - إن كانت موجودة من قبل - وبتوقف الرحم عن النمو ثم بتراجع حجمها، وبعدم شعور الحامل بحركة الجنين (في الثلث الثاني من الحمل). أما التشخيص المخبري فيكون بسلبية تفاعل الحمل المكرر عدة مرات بفاصلة بضعة أيام، وبالصدى.

وتحدث في محصول الحمل المنسي تبدلات تختلف باختلاف سن الحمل ومدة الانحباس: فتنحل البيضة تماماً في الإجهاضات المبكرة، ويتحول محصول الحمل إلى ما يسمى البيضة الرائقة clear ovum، ويتحنط الجنين في الإجهاضات المتأخرة أو يتفسخ إذا وصلت الجراثيم إلى جوف الرحم بطريقة ما.

وقد يؤدي انحباس محصول الحمل الميت مدة طويلة إلى فقر دم الحامل، أو إلى الإنتان، أو إلى نقص كمية مولد الفبرين fibrinogen التي تؤدي إلى عيوب التخثر في الأوعية، أو إلى اضطرابات نفسية في الحامل.

تشخيص الإجهاض الحادثي: يمكن تشخيص الإجهاض في كل مرحلة من مراحله الثلاث السابقة. ففي الإجهاض المهدد: يكون التشخيص سهلاً، إذا كان الحمل معروفاً، بالاستناد إلى عرضيه النزف والألم مع كبر حجم الرحم الذي يوافق سن الحمل المفروض. ومع ذلك لايدل النزف حتماً على التهديد بالإجهاض، فقد يكون فيزيولوجياً (نزف التعشيش)، أو يكون مصدره آفة في المهبل أو في عنق الرحم. ويجب التأكد من ذلك بالفحص السريري الجيد قبل التشخيص، كما يجب التأكد من أن الحمل داخل الرحم وليس خارجها. أما إذا كان الحمل غير معروف، كأن يبدأ النزف في زمن الطمث أو بعده ببضعة أيام فيظن معه تأخر الطمث من دون حمل، أو أن الطمث مقطوع بسبب الإرضاع، أوأن الطمث مضطرب ومن عادته أن يتأخر، ففي كل هذه الحالات يجب التفكير بوجود الحمل والتفتيش عنه بالصدى وبعيارالـ H.C.G. وقد تجهض المرأة مع ذلك ولا يشخص الإجهاض إلا اتفاقاً أو لايشخص أبداً إذا حدث في وقت مبكر جداً. والأمر الذي يفرض الإهتمام البالغ في مرحلة الإجهاض المهدد هو التأكد من حياة محصول الحمل لوضع خطة المعالجة والسير بها أو إيقافها، لأن استمرار معالجة حمل متوقف عن النمو يؤدي إلى انحباسه وإلى مخاطر هذا الانحباس. ويستند في التشخيص إلى الصدى وإلى عيارH.C.G الذي تكون مقاديره أقل من المقادير الطبيعية في تسع حالات إجهاض من أصل عشرة في الأيام وحتى الأسابيع التي تسبق الانطراح. أما الإجهاض الوشيك، أو الإجهاض في طور الحصول فتشخيصه أسهل استناداً إلى أعراض الحمل مع النزف والألم الذي يصبح قولنجياً يشبه ألم المخاض، واستناداً إلى انفتاح عنق الرحم مع تشكل جيب المياه، أو من دون حدوث ذلك بحسب سن الحمل.

وتشخص عواقب الإجهاض استناداً إلى السيرة السريرية السابقة وإلى رؤية محصول الحمل المطروح. أما تشخيص الإجهاض الناقص فيستند إلى استمرار النزف والألم، أو النزف فقط، وإلى الصدى، وقد يلجأ إلى التجريف الاستقصائي أخيراً إن لزم الأمر.

العناية الصحية والطبية: إذا عرف الحمل في مرحلة الإجهاض المهدد ودل الفحص السريري والصدى والمخبر على حياة محصول الحمل تستعمل محاكيات بيتا ومحاصرات ألفا والبروجسترون الذي يؤثر بإنقاص مقوية الرحم tonicity وزيادة مقوية المضيق، وربما أثر كذلك في تسهيل التحمل المناعي للجنين. وتعطى الحامل المهدئات ومضادات التشنج وتوصى بالراحة. وتستمر المعالجة مع المراقبة السريرية والمخبرية وبالصدى، بحسب اللزوم، حتى تتحسن الأعراض، أو حتى تتحول هذه المرحلة إلى مرحلة الإجهاض في طور الحصول، أو حتى يثبت توقف محصول الحمل عن النمو. فإذا دخل الحمل مرحلة الإجهاض في طور الحصول وكان النزف قليلاً يتريث المعالج حتى يتم الإجهاض من تلقاء نفسه، أما إذا كان النزف غزيراً أو كان الألم شديداً أو لم يُطرح محصول الحمل في بضع ساعات وجب إفراغ الرحم بالطريقة المناسبة لسن الحمل.

وأما في الإجهاض الناقص: فيجب إفراغ الرحم للإقلال من النزف والألم والوقاية من الخمج، وقد يتطلب الأمر نقل الدم أو إعطاء

المصول.

وفي الإجهاض المنسي: لا يكون لانحباس الحمل الميت محاذير خطرة إن لم يستمر الانحباس أكثر من شهر. إلا أن الحامل وأهلها يصرون غالباً على التخلص من هذا الحمل، كما يخشى من حدوث نقص مولد الفبرين إذا استمر الانحباس أكثر من شهرين، لذا ينصح بإفراغ الرحم بالتجريف بعد التوسيع أو بالمص بالمحجم أو بالتحريض بخلاصة فص النخامى الخلفي أو بالبروستاغلاندين بحسب الحالة.

ويجب بعد كل حادثة إجهاض تحري السبب -إن لم يكن معلوماً- للوقاية من حدوث إجهاض قادم -إن أمكن ذلك.

الاختلاطات: وأهمها الخمج والنزف. أما الخمج فقد يكون التهاب الرحم metritis أو التهاب النفير salpingitis أو التهاب الصفاق الحوضي pelviperitonitis أوخمج الدم septicemia ذا الإنذار الخطر. وكل هذه الأخماج نادرة في الإجهاضات العفوية.

وأما النزف فقد يكون شديداً إلى درجة تحدث الصدمة، وينجم عن إهمال المريضة أو عن انثقاب الرحم بالتجريف أو بتوسيع العنق وتمزقه.

ومن الاختلاطات البعيدة التصاق الرحم أو المضيق بعد التجريف غير الجيد، والاختلاطات النفسية كالسوداوية melancholia والفُصام schizophrenia.

الإجهاضات المتكررة أو المعتادة: يقال إن الإجهاضات متكررة أو معتادة حين حدوث ثلاثة إجهاضات عفوية متتالية من دون حدوث حمل بينها يصل إلى تمامه. وتزداد نسبة الإجهاض مع زيادة عدد الإجهاضات السابقة كما تدل الإحصاءات، فقد تبين أن محذور الإجهاض الأول ١٠٪، ومحذور الإجهاض بعد إجهاض واحد ١٥٪. والمحذور بعد إجهاضين ٢٥٪ والمحذور بعد ثلاثة إجهاضات ٣٠٪ أما المحذور بعد أربعة إجهاضات فهو ٤٥٪ وقد تختلف هذه النسب قليلاً.

أسباب الإجهاضات المتكررة: تنجم الإجهاضات المتكررة عن أسباب في محصول الحمل، وهي الأقل، وعن أسباب في الوالدة وهي الأكثر. وتكثر الإجهاضات من النوع الأول في وقت مبكر من الحمل، في حين تكثر الإجهاضات من النوع الثاني في وقت متأخر.

ومن الضروري دراسة صبغيات الوالدين حين تجهض المرأة مرتين متتاليتين أو أكثر، أو حين يكشف شذوذ صبغي في حاصلات الإجهاضات السابقة، أو حين ولادة جنين مصاب بتشوه يشك بأنه ناجم عن شذوذ في بنية الصبغيات. أما الأسباب الوالدية المحتملة للإجهاضات المتكررة فقد ذكرت في الحديث عن الإجهاض الحادثي، كالاضطرابات الهرمونية، وأسواء شكل الرحم الخلقية، وانقلاب الرحم الخلفي الثابت، وتوسع فوهة عنق الرحم الباطنة. وقد يكون من أسباب الإجهاضات المتكررة الوالدية العوز الغذائي وتنافر الزمر ABO وبعض الاضطرابات النفسية مثل الشخصية غير الناضجة أو الخائبة، ولو أن ذلك غير ثابت فيها كلها. وتبين حديثاً وجود الأسباب المناعية، ذلك أن الحمل يعد طعماً غيرياً للحامل، ومع أن الجسم يطرح الطعوم الغيرية من نسج وأعضاء عفوياً، فإن الوالدة تتحمل هذا الطعم الغيري. ووضعت لهذه المسألة نظريات متعددة، والمقبول منها اليوم شأن المشيمة، فالمشيمة في الحالة الطبيعية تحرض استجابة مناعية للتحمل فتمنع دخول الخلايا التائية القاتلة للخلايا، ومعظم الأضداد الناجمة عن الأم إلى الجنين ولايمر منها إلا الـIgG ولاتحدث هذه الاستجابة المناعية في الحالات غير الطبيعية فتصاب المشيمة بآفة تنكسية، ويفقد الجنين حمايته ويحدث الإجهاض.

تشخيص الإجهاضات المتكررة: يمكن التوصل إلى معرفة سبب الإجهاضات المتكررة غالباً بالفحص المنهجي الجيد قبل الحمل وفي أثنائه باستجواب المريضة المفصّل عن سوابقها وسوابق أسرتها، ثم بالفحص السريري الدقيق، وبالتحريات المختلفة الأخرى لدراسة صبغيات الوالدين، وعيار الهرمونات، ودراسة المخططات الحرارية، وفحص الخزعة، وفحص الدرق، وقياس التوتر الشرياني، وتحري السكري، ولاسيما الكامن، وإجراء صورة ظليلة للرحم لتحري التشوهات وتوسع العنق وغير ذلك.

المعالجة: إذا عرف سبب الإجهاضات المتكررة توجه المعالجة لإزالة السبب المحدث. ففي الاضطرابات الهرمونية: تتم المعالجة قبل الحمل إن أمكن، وتستمر المعالجة في أثنائه بإعطاء الهرمون المناسب، ولاسيما البروجسترون وخلاصة الدرق، وفي أسواء شكل الرحم الخلقية يمكن إصلاح بعضها بالمداخلات الجراحية المناسبة، كعملية ستراسمان Strasmanns أو عملية بالمر Palmer. وفي توسع فوهة عنق الرحم: تتم المعالجة بتطويق العنق في بدء الشهر الثالث من الحمل.

وفي كل الحالات توصى الحامل بالخلود إلى الراحة في أثناء الحمل. وتختلف نسبة نجاح جميع هذه المعالجات باختلاف نوع الآفة المسببة وطريقة المعالجة وزمن البدء بها.

الإجهاضات المحرَضة

وهي إخراج محصول الحمل من الرحم قبل قابليته للحياة، وهي نوعان: الإجهاضات المحرضة الدوائية therapeutic abortions، والغاية منها إنقاذ حياة الحامل من مرض خطر يهدد حياتها إذا استمر الحمل، سواء كان المرض بسبب الحمل أو غير ذلك. والإجهاضات المحرضة الجنائية criminal abortions، والغاية منها تخليص الحامل السليمة من حمل غير مرغوب فيه لأسباب أخلاقية أو اقتصادية أو اجتماعية.

وقد تطور مفهوم كل من هذين النوعين في الوقت الحاضر. فتقلص عدد الإجهاضات الدوائية كثيراً لتقدم الوسائل العلاجية لمختلف الأمراض التي كان يستطب فيها بالإجهاض، لأنها كانت تعد شديدة الخطورة على حياة الحامل. وظهر من جهة ثانية نوع جديد من الإجهاضات المحرضة غايتها تحسين النسل بالتخلص من جنين يحمل عيباً أو تشوهاً إرثياً. ويمكن ضمّ هذا النوع الحديث من الإجهاضات إلى الإجهاضات الدوائية أو جعله نوعاً مستقلاً.

وأما الإجهاضات الجنائية فقد زاد عددها كثيراً حتى أصبحت تشمل ٩٥٪ من مجموع الإجهاضات في الدول التي نزعت عنها الصفة الجنائية، وألبستها حلة قانونية، وأوجدت لها المسوغات الاجتماعية الكافية. وبهذا التفكير الجديد أصبحت الإجهاضات المحرضة تسمى الإجهاضات الوقائية وتقسم إلى ثلاثة أنواع: الإجهاضات الدوائية، وإجهاضات تحسين النسل، والإجهاضات الاجتماعية.

الإجهاضات الدوائية: الإجهاض الدوائي عمل وقائي غايته تجنب اشتداد مرض ما بتأثير الحمل، سواء هدد حياة الحامل بالموت أو أثر في صحتها تأثيراً شديداً من دون أن يهدد حياتها.

ونظراً لتقدم وسائل العلاج فقد أصبحت هذه الإجهاضات قليلة.

استطبابات الإجهاض الدوائي: إن أهم استطبابات الإجهاض الدوائي هي:

- **الآفات الوعائية الكلوية**: وأكثرها شأناً في هذا الموضوع التهاب الكلية الكبيبي glomerular nephritis مع ارتفاع التوتر الشرياني، بسبب اشتداده الثابت منذ بداية الحمل وقصور الكلية والاعتلال الشبكي.
- **الآفات القلبية**: والاستطباب الوحيد للإجهاض الدوائي هو الآفات القلبية المحدثة للزراق cyanosis مع فرط التوتر الرئوي التي لم تُبضع سابقاً، أما النساء المبضوعات فيستطعن الحمل سواء كن يحملن صمام ستار Starr أو الناظمة pacemaker أو أية عملية جراحية لسوء شكل ولادي. أما الآفات الصمامية فيمكن أن تصل فيها الحامل إلى تمام حملها وأن تضعه تحت الرقابة الجيدة بولادة طبيعية.
- **الآفات التنفسية**: وتنحصر في بعض حالات القصور التنفسي الخطرة الناجمة عن تدرن منتشر، أو عن تضيق القصبات، أو في النساء المستأصلة إحدى رئتيهن.
- **السرطانات**: وتشمل سرطان عنق الرحم، وسرطان الثدي، وداء هودجكين Hodgkin.

ويعد سرطان عنق الرحم المنتشر استطباباً أكيداً للإجهاض الذي يجب أن يجرى عن طريق البطن، فإما أن تستبقى الرحم وتفرغ إذا تقررت المعالجة الشعاعية، أو تستأصل مع الحمل إن تقررت المعالجة الجراحية. أما السرطان الموضّع فيمكن الإبقاء على الحمل في حالته وقطع عنق الرحم فقط، وهو يكفي للتشخيص والمعالجة في وقت معاً، ولا يؤثر في سير الحمل، وتراقب الحامل بعد ذلك بالفحوص الخلوية، وبالتنظير المكبر.

وأما سرطان الثدي فيستطب فيه الإجهاض إلا إذا رفضت المريضة ذلك فيستمر الحمل عندها وتعالج المريضة بالجراحة التي لاتضر بسير الحمل، أو شعاعياً مع وقاية البطن وقاية جيدة.

ويستطب الإجهاض في داء هودجكين: لأن الحمل يعيق إجراء بعض الاستقصاءات الضرورية للتشخيص كتصوير الأوعية اللمفية كما يعيق بعض المعالجات السريعة كالمعالجة بالكوبالت.

- **الآفات الجلدية**: يستطب الإجهاض في بعض الأمراض الجلدية المكتسبة كالقوباء الحلئية الشكل impetigo herpetiformis، والبرفيرية الشديدة porphyria ولاسيما الكبدية، والملانوم melanoma الخبيث الذي ينتقل عبر المشيمة. كما يستطب في بعض الآفات الإرثية بسبب الخطر الكبير على الجنين، ويجب أن يتخذ القرار بعد فحص **الخلايا الجنينية**: كالصوملة الصباغية xeroderma pigmentosumوالسماك الشائع ichtyosis vulgaris . وثمة أمراض جلدية إرثية أخرى يستطب الإجهاض في حالات منها فقط بحسب شدة الآفة عند الحامل وتقدير الخطر على الجنين، كالداء العصبي الليفي أو داء ركلينكهاوزن Recklinghausen الذي ينتقل في الأسرة بنسبة ١٠٠٪، وتمزق النسيج المرن elastorrhexis، أو داء غرونبلاد ـ ستراندبرغ.
- **الأمراض النفسية**: إن أكثر الآفات النفسية خطراً على الحمل هي التي يخشى معها من انتحار المريضة. وليس من السهل الجزم بإمكان الإقدام على الانتحار الذي قد تتظاهر المرأة به نوعاً من الابتزاز، علماً بأن انتحار النساء الحوامل ليس نادراً أيضاً. وموقف الطبيب من تقرير استطباب الإجهاض موقف شديد الصعوبة.

ومن الحالات التي يستطب فيها الإجهاض حالة المريضات العقليات، أو المعتوهات اللواتي لا يمكن مراقبتهن في استعمال موانع الحمل، والمشكلة في حملهن هي مشكلة الأطفال الذين ستضعهم هؤلاء النسوة وإمكان انتقال الآفة إليهم بالإرث.

ومن الحالات التي يصعب فيها وضع الاستطبابات كذلك حالة الذهان psychosis التي قد تشتد في أثناء الحمل، ولكن شفاءها غير مؤكد باللجوء إلى الإجهاض الدوائي.

كيف يتم الإجهاض الدوائي: إن طرائق إفراغ الرحم هنا هي نفسها التي ذكرت في إفراغ الإجهاض المنسي، كالتجريف الآلي، أو بالمص، والتحريض بخلاصة الفص الخلفي للنخامى، أو بالبروستاغلاندين. وقد يلجأ في بعض الحالات إلى طريق البطن رأساً أو بعد إخفاق التحريض.

الإجهاض لتحسين النسل: الغاية من هذا الإجهاض التخلص من جنين يحمل عيباً إرثياً أو تشوهاً خلقياً (ولادياً) ولوضع استطباب الإجهاض تجب معرفة وجود التشوه، الأمر الذي لم يكن التأكد منه ممكناً في الماضي على الرغم من الشك به، فقد كان يشك بولادة مولود مغولي مثلاً إذا حملت المرأة بعد سن معينة، ويشك بولادة جنين مشوه إذا أصيبت الحامل بالحميراء (الحصبة الألمانية) من دون أن يستطاع في الحالتين الجزم بالنتائج.

أما اليوم فقد أصبحت معرفة تشوه المضغة داخل الرحم والتنبؤ بحدوث التشوه الجنيني ممكنين بفضل تقدم العلوم في الآونة الأخيرة ولاسيما علم الوراثة ومبحث الأمصال من جهة، وبتقدم وسائل الاستقصاء المختلفة ولاسيما بزل السلى (السائل الأمنيوسي) من جهة ثانية، وبالتحليل العلمي لعوامل الخطورة بحسب مختلف المعطيات كالإرث وعادات الحياة والمحيط ووجود بعض الأمراض وتناول بعض الأدوية من جهة ثالثة.

وأسباب الشذوذات إما وراثية وإما ولادية. وترتبط الوراثية منها غالباً بشذوذ صبغي أو بمرض استقلابي، في حين تحدث الولادية من اضطراب في أثناء الإلقاح نتيجة اضطراب البيضة في بدء الحمل بسبب الأخماج أو الانسمام أو التعرض للأشعة.

تشخيص الآفات الوراثية قبل الولادة: يمكن تشخيص هذه الآفات بدراسة السائل الأمنيوسي الذي يبزل نحو الأسبوع الرابع عشر من الحمل، أي في نهاية الشهر الثالث، وتدرس الخلايا الجنينية المتوسفة فيه بالفحص المباشر وبالزرع من الوجهات النسيجية والحيوية الكيمياوية والخمائرية والاستقلابية، ويعين الجنس الصبغي (جسم بار)، كما يدرس السائل نفسه من الوجهات الحيوية والكيمياوية والهرمونية. وتكشف بهذه الدراسة الشذوذات الصبغية والاستقلابية. أما الشذوذات الصبغية فلبعضها مظاهر سريرية وصفية كمتلازمة تورنر ومتلازمة كلينفلتر Klinefelter syndrome والمغولية، في حين تبدو لبعض الشذوذات الأخرى متلازمات سريرية أقل نوعية، ومع ذلك يعد الشخص الذي يحمل هذه الشذوذات غير طبيعي. ويفيد فحص الخلايا في تعيين جنس الجنين كذلك، فإن كانت الوالدة مصابة بالناعور hemophilia وكان الجنين ذكراً كانت نسبة إصابته ٥٠٪.

وأما الشذوذات الاستقلابية فهناك أمراض استقلابية ترتبط بنقص فعالية الجملة الخمائرية أو بغيابها، ويمكن كشف بعض هذه الأمراض في الجنين بدراسة الفعالية الخمائرية للخلايا الأمنيوسية المزروعة، فقد تكون اضطرابات الاستقلاب هذه في الحموض الأمينية أو في ماءات الفحم أو في الشحميات (اللبيدات).

الأمراض الجنينية المشوِّهة: تتأثر المضغة ولاسيما في بدء تكونها ببعض العوامل الخارجية، ويؤدي ذلك إلى حدوث تشوهات في الأجنة. ولايمكن حتى الآن حصر هذه العوامل أو معرفة مدى تأثير معظمها. ولايمكن اعتماد نتائج التجارب على الحيوانات في الإنسان، فكثير من العوامل التي ثبت تأثيرها المشوه في الحيوانات كانت غير مشوهة في الإنسان وبالعكس. ومن العوامل التي ثبت تأثيرها المشوه في الإنسان الأخماج. فمن المحتمل أن تؤثر كل الأمراض الخمجية التي تصيب الحامل في محصول الحمل، وكلما كانت الإصابة مبكرة كان الخوف من التشوه أكبر. ولكن لايمكن الجزم بحدوث التشوه، لأن الحمل ينتهي بمولود طبيعي في كثير من الحالات، ويستثنى من ذلك الحميراء (الحصبة الألمانية) التي ثبت تأثيرها المشوه في المضغة، ويستطب لذلك إجراء الإجهاض الدوائي بعد التأكد بالتفاعلات المصلية أن الإصابة حديثة وأن المرأة كانت غير ممنعة من الحصبة.

ومن العوامل كذلك العوامل الكيمياوية ولاسيما الصادات والأدوية المضادة للسرطان ومنها الهرمونات، فالهرمونات المؤثرة في المضغة هي مضادات الغدة الدرقية التركيبية ومضادات السكري المستعملة عن طريق الفم. أما الستروئيدات الجنسية فلبعضها تأثير مشوّه بسيط كالبروجسترونات المشتقة من النورستروئيد norsteroides والأندروجينات التي لها تأثير مذكِّر كذلك. ومن هذه العوامل الإشعاعات، ويتعلق تأثير الإشعاع المشوّه بعاملين: سن الحمل، وكمية الإشعاع، ويزداد تأثر البيضة كلما كانت أصغر سناً. وتكون الأشعة في الأيام الأولى من تطور البيضة، أي في طور التوتة morula، مميتة أو غير مؤثرة إطلاقاً، وهذا هو قانون «كل شيء أو لاشيء»، وتكون البيضة بعد ذلك، أي في طور تكون المعيدة gastrulation، شديدة الحساسية بالأشعة. ويكبر الخطر على الجنين مع زيادة كمية الأشعة. واستعمال الأشعة في المعالجة أشدّ خطراً من استعمالها في التشخيص، لأن مقاديرها في المعالجة تكون أكبر. أما تقدير درجة الخطورة حين استعمال الأشعة للتشخيص في نساء لا يعلم أنهن حاملات، فيتطلب دراسة رياضية للمقدار الكلي المعطى من الأشعة، ويبدو أن الخطر معدوم على الجنين في الشهر الأول إذا كان المقدار أقل من ٢٠ رنتغن، أما إذا كان المقدار بين ٤٠ رنتغن و٥٠ رنتغن فخطر التشوه ٤٠-٦٠٪ ويصبح الخطر ١٠٠٪ إذا كان المقدار أكبر من ٦٠ رنتغن.

الإجهاض الاجتماعي: الغاية من الإجهاض الاجتماعي (أو القانوني أو الجنائي) التخلص من حمل غير مرغوب فيه من دون أن يكون في الحمل أو الحامل سبب طبي ما. وهو أكثر أنواع الإجهاضات خطراً لأنه يبلغ ٩٥٪ من كل الإجهاضات الوقائية، وقدر عدد هذه الإجهاضات في العالم عام ١٩٨٥ بخمسين مليون حادثة. والواقع أن عدد الإجهاضات في البلاد الأوربية يزيد على عدد الولادات، ومن المؤكد أن سهولة الإجهاض وقلة التكاليف ومجانيته في بعض البلدان من الأسباب التي تفسر انتشار هذه الطريقة.

أسباب الإجهاض الاجتماعي: إن الأسباب التي تدفع الحامل إلى التخلص من الحمل كثيرة، فهو الحل الوحيد الممكن لحالات الاغتصاب، والعلاقات بين الأقارب، وحمول المطلقات والأرامل والبنات العازبات. وهو الحل عند المتزوجات اللواتي لا يقبلن استعمال موانع الحمل أو لايعرفن كيف يستعملنها أو لا يتحملن استعمالها، ويردن مع ذلك تحديد حمولهن ،وهو الحل الذي يلجأ إليه المتزوجون الجدد ذوو الطموح الكبير والدخل المحدود الذين يضعون الأولاد في ترتيب الأفضليات بعد السيارة والدار.

كل هذه الأسباب، وغيرها كثير، لم يكن الإجهاض من أجلها مسموحاً به في الماضي، وكان يعد جناية تستوجب العقاب، ومازال الأمر كذلك في بعض البلدان. لذلك يقوم به بعض الأطباء أو غير الأطباء بقصد الربح المادي خارجين بذلك على القانون.

ولما كانت معظم هذه الإجهاضات تجري بأيد غير خبيرة وبطرائق غير فنية، وبوسائل غير معقمة، فقد كانت الاختلاطات الناجمة عنها كثيرة وخطيرة ولاسيما الأخماج المختلفة التوضعات التي قد تصل أحياناً إلى حدّ الصدمة الانتانية أو خمج الدم septicemia الشديدي الخطورة، وهذا ما حدا إلى التفكير بتوسيع استطبابات الإجهاض الاجتماعي لتشمل كل الأسباب التي تدعو إلى اللجوء إليه. وقد بلغ الأمر في بعض البلدان السماح الكامل بالإجهاض من دون قيد أو شرط على أن يتم في أوساط فنية وبشروط جيدة، تحافظ على صحة المريضات وحياتهن وتحول دون تعرضهن للاختلاطات الخطرة.

تشخيص الإجهاض الاجتماعي: تراجع المريضة لنزف تناسلي، ويبدو بالفحص أن عنق الرحم مفتوح بدرجات مختلفة، ويكون حجم الرحم أكبر من الحجم الطبيعي، والحالة العامة متوسطة تدل على الخمج أكثر مما تدل على النزف المديد. وهنا يجب وضع المريضة تحت المراقبة للتأكد من توقف النزف ولإجراء الفحوص الدموية والضرورية، ولتطبيق المعالجة بالصادات ومضادات الكزاز.

وإذا ما وجد بالفحص أن الإجهاض لم يتم بعد، وكان عنق الرحم طويلاً ومغلقاً فيجب التوقف عن كل فعل، وإقناع المريضة بالعدول عن تكرار محاولة الإجهاض ولو أن هذا غير مجدٍ في الغالب. أما إذا كان الإجهاض تاماً فيجب فحص جوف الرحم تحت التخدير للتأكد من فراغها ومن سلامة جدرها.

ومن المناسب دائماً محاولة معرفة الوسيلة التي استعملتها المريضة للإجهاض، فقد يساعد ذلك في تعليل الاختلاط الحادث.

الاختلاطات والتدبير: يؤدي الإجهاض الجنائي إلى اختلاطات موضعية ومنطقية وعامة. ومن الاختلاطات الموضعية انحباس المشيمة الذي قد يؤدي إلى النزف أو إلى الخمج ويعالج بالتجريف الإصبعي أو الآلي بمجرفة كليلة. ويعوض النزف الحادث، ويحارب الخمج بالصادات. ومنها الآفات الرضيّة الناجمة عن استعمال وسائل راضة، ويغلب أن تتوضع في مضيق الرحم، وقد لا يتعدى الرض الصفاق، ويكفي عندها مراقبة المريضة وإعطاء الصادات وقد يتعداه فيصل إلى جوف البطن، ولابد عندئذ من التدخل الجراحي لاستئصال الرحم. ومنها كذلك احتشاء الرحم وهو نادر وخطر، يبدو بصدمةٍ مع هبوط التوتر الشرياني وحالة التهابية شديدة وزرام anuria ويغلب أن تنجم عن العصيات الحاطمة bacillus perfringens. تعالج الصدمة وتعطى الصادات، وتستأصل الرحم مع الإبقاء على المبيضين إن أمكن، ومع كل الوسائل الحديثة في المعالجة تبقى نسبة الموت في هذه الإصابة مرتفعة.

أما الاختلاطات المنطقية فهي اختلاطات خمجية تنتشر من الرحم إلى أعضاء الحوض الأخرى ومنها التهاب الصفاق الحوضي، وخراج رتج دوغلاس وفلغمون الرباط العريض، والتهاب النفيرين. ولكل هذه الاختلاطات أعراضها المعروفة.

وقد يتلو انثقاب الرحم التهاب الصفاق المعمم، كما قد تحدث الاختلاطات الوريدية مع الخثرات والصمامات النتنة، وإنذارها سيء.

وأما الاختلاطات العامة فمنها خمج الدم ولاسيما بالمكورات العقدية الحالة للدم streptococcus hemolytic التي قد تؤدي إلى خمج معمم وخيم مع فقر الدم. ومنها الانسمامات الخمجية، بالعصيات الحاطمة، أو بالعصيات القولونية أو بعامل الكزاز، وكلها سيئة الإنذار بدرجة شديدة. ومنها كذلك الانسمام بالأدوية المجهضة التي تناولتها المريضة وتبدو باضطرابات حواسية وفقد الوعي، ويرقان وزُرام بالتهاب الكبد والكلية أو التهاب الكلية الحاد التالي لتناول أملاح المعادن الثقيلة. ثم إن منها الاضطرابات العصبية، كالإغماء المميت حين دخول المادة المجهضة لعنق الرحم فوراً وقد يكون سبَبَه منعكسٌ محرك وعائي يبدأ موضعياً، والخثرات الوريدية الدماغية مع النوب الاختلاجية والاضطرابات النفسية.

وقد تترك الإجهاضات المحرضة ـ سواء حدثت اختلاطات سريعة أم لم تحدث ـ بعض العراقيل البعيدة، كالتهاب ما حول الرحم المزمن، والتهاب النفيرين المزمن، والعقم، والاضطرابات الوظيفية كعسرة الطمث، والاضطرابات النفسانية ولاسيما الشعور بالذنب الذي يزداد حين حدوث العراقيل العضوية كالألم أو العقم. وإذا حدث الحمل بعد مدة فقد يحدث الحمل البوقي أو المشيمة المنزاحة أو نزف الخلاص أو تمزق الرحم، ولكل من هذه العوارض اختلاطاتها الخاصة التي قد تؤدي إلى الموت.

إن كثرة اختلاطات الإجهاض الجنائي وعراقيله تدعو للعمل على وقف تيار هذه الإجهاضات بكل الوسائل وإيجاد الحلول المناسبة لمنع حدوث الحمول غير المرغوب فيها بوسائل أقل خطراً.

إبراهيم حقي

الإجهاض في التشريع

اختلفت آراء الفلاسفة والمصلحين والمشرعين ورجال الدين وغيرهم حول الإجهاض والموقف حياله مابين مؤيد ومعارض، ولكل منهم حجته. ويرى المؤيدون أن في الإجهاض مخرجاً لتفادي الانفجار السكاني، وأنه يخفف عن المرأة متاعب الحياة، ويوفر لها القدرة على الانصراف إلى عملها، والحرية التامة في اختيارها للأمومة. بالإضافة إلى استحالة منع عمليات الإجهاض مطلقاً، كما أن مثل هذه العمليات قد تتم بعيداً عن رقابة القانون.

أما معارضو الإجهاض فيقولون إن الجنين كائن حي، والإجهاض قتل نفس بريئة، وإن إباحته ستؤدي إلى شيوع الفاحشة، وإن نتائجه تبقى خطرة على الصحة والسلامة العامة مهما تقدم الطب وفن المداواة، فضلاً عن أنه يقوض بنيان الجماعة ويقلل من المواليد، ويقلل بالتالي من الأيدي المنتجة مما ينعكس سلباً على الوضع الاقتصادي للمجتمع.

وانطلاقاً من هذه الحجج والأسانيد بنيت مواقف الشرائع من الإجهاض على مر التاريخ. وربما كان قانون حمورابي من أوائل التشريعات التي عاقبت على الإجهاض الذي يقع على المرأة من دون رضاها. أما الإجهاض الذي تقوم به المرأة نفسها أو يساعدها فيه شخص آخر برضاها فلم يرد بشأنه أي نص في قانون حمورابي أو في غيره من القوانين والأنظمة القديمة. وفرقت الشريعة الموسوية في تحريم الإجهاض وإباحته بين مرحلتين من عمر الجنين، فأباحته في الأشهر الثلاثة الأولى وحرمته بعد ذلك. ولم ترد في الشريعة المسيحية أي نصوص أو أحكام تبيح الإجهاض أو تحرمه. إلا أن أكثر الكنائس المسيحية كانت، ولم تزل إلى اليوم، تحرم الإجهاض مطلقاً. وهي تعده جريمة دينية يستحق مرتكبها عقوبة الإعدام. وهي لا تبيح الإجهاض لأي سبب مطلقاً، ولو كان استمرار الحمل أو الولادة، سيؤديان إلى وفاة الأم الحامل. ولقد سجل قانون الحقوق الكنسية هذا الحكم صراحةً. فقضى أنه إذا كان لابد من موت الأم أو الجنين فيجب التضحية بحياة الأم والإبقاء على حياة الجنين. وقد انتقل هذا الحكم، كما هو، إلى قانون الجزاء الذي وضعه شارلكان (شارل الخامس) واستمر العمل به في كل أوربة منذ سنة ١٥٣٢ حتى قيام الثورة الفرنسية.

أما في الشريعة الإسلامية فقد تم التفريق بين حالتين من حالات الإجهاض هما: الإجهاض الواقع على المرأة من دون رضاها، وإجهاض المرأة نفسها أو برضاها. ففي الحالة الأولى يكون الفاعل قد ارتكب جريمة يترتب عليها التزام عصبة الفاعل (أي أقاربه) بدية الجنين يؤدونها إلى ورثته. أو يؤدونها إلى أمه. ودية الجنين عشر دية الشخص العادي. أما في الحالة الثانية فقد لاحظ الفقهاء أن النصوص الشرعية جاءت خالية من بيان الحكم فيها. وقد اجتهد الفقهاء في الحكم الشرعي لهذه الحالة وانعقد إجماعهم على أن الإجهاض حرام بعد تمام الأشهر الأربعة الأولى من عمر الحمل، لأن الروح تنفخ في الجنين عند تمامها وفقاً لعدد من الأحاديث النبوية. أما قبل ذلك فقد اختلفوا بين مبيح مطلقاً ومبيح في الأربعين يوماً الأولى من عمر الحمل.

ومع ذلك فإن المانعين مطلقاً، وكذلك المبيحين في الأربعين يوماً الأولى أباحوا الإجهاض للضرورة أو الحاجة كالمحافظة على حياة الأم أو صحتها، أو إذا كان الحمل ناشئاً عن جريمة اغتصاب، أو غير ذلك من الأسباب التي تتسع لها حالة الضرورة دفعاً للضرر الأشد بالضرر الأخف.

وقد ظلت أحكام الشريعة الإسلامية هذه مطبقة في البلاد العربية والإسلامية كافة حتى منتصف القرن التاسع عشر عندما أقدمت الدولة العثمانية على استمداد قانون للعقوبات من التشريع الفرنسي سنة ١٨٥٨، ومنعت بموجب المادتين ١٩٢و١٩٣ منه الإجهاض مطلقاً بصرف النظر عن عمر الجنين. وقد طبق هذا القانون على كل البلدان العربية التي كانت خاضعة للحكم العثماني آنذاك. باستثناء مصر التي كانت قد أصدرت سنة ١٨٥٥ قانون الجزاء «الهمايوني» المستمد من التشريع الفرنسي أيضاً. ومن هنا جاء تحريم الإجهاض مطلقاً في غالبية الدول العربية والإسلامية حتى اليوم.

وتجدر الإشارة إلى أن تعاليم الكنيسة حول تحريم الإجهاض مطلقاً، والمعاقبة عليه بالإعدام، ظلت هي السائدة في أوربة، وفي الدول التي استعمرتها أوربة زمناً طويلاً.

إلا أنه منذ أواخر القرن التاسع عشر بدأت التشريعات تخفف من عقوبة الإجهاض. فأصبحت السجن المؤبد، أو السجن عشرين

عاماً، بدلاً من الإعدام. وتوالت التطورات بعد ذلك، فكان قانون العقوبات الفنلندي الصادر سنة ١٨٨٩ أول قانون يبيح الإجهاض إنقاذاً لحياة الأم من خطر الموت، أو تفادياً لإرباكات خطيرة بدنية أو نفسية أو عقلية يمكن أن يسببها الحمل للمرأة. وكانت الدنمرك أول دولة تبيح الإجهاض مطلقاً سنة ١٩٣٣، وتبعتها سويسرة سنة ١٩٤٢، ثم اليابان سنة ١٩٤٨، ثم تشيكوسلوفاكية والمجر سنة ١٩٥٠، ثم يوغسلافية سنة ١٩٥١، وكذلك بلغارية وآيسلندة واليونان. ثم الاتحاد السوفييتي سنة ١٩٥٥، ثم فرنسة سنة ١٩٧٥.

والواقع أن معظم القوانين الأوربية قد تخلت اليوم عن حكم الكنيسة في تحريم الإجهاض، فأصبح مباحاً.

أما الدول العربية فما زالت تحرمه إلا إنقاذاً لحياة الأم من خطر الموت. وبعض هذه الدول كالأردن تبيحه أيضاً محافظة على الصحة العامة للأم، أو تفادياً لولادة أطفال مشوهين شريطة أن يتم الإجهاض قبل مرور أربعة أشهر على الحمل كما في الكويت.

والواقع أن التشريعات التي مازالت تعد الإجهاض - أو بعض حالاته - جريمةً، تختلف فيما بينها في طبيعة الحق المعتدى عليه وفي العقوبة على هذه الجريمة.

الحق المعتدى عليه في جريمة الإجهاض: يذهب بعض التشريعات إلى أن الإجهاض المسبب جريمة واقعة على المرأة الحامل وسلامتها. ومن هذا الاتجاه قانونا العقوبات المصري والعراقي. وتذهب تشريعات أخرى إلى أنها واقعة على الأسرة. ومن هذا الاتجاه قانون العقوبات في روسية الاتحادية. في حين تذهب تشريعات أخرى إلى أنه جريمة واقعة على الأخلاق والآداب العامة. ومن هذا الاتجاه قوانين العقوبات اللبناني والسوري والأردني. وذهبت تشريعات أخرى إلى أنه جريمة واقعة على السلالة التي ينتمي إليها المواطن. ومن هذا الاتجاه قانون العقوبات الإيطالي. أما الشريعة الإسلامية فقد انفردت في نظرتها إلى هذه الجريمة التي رأت فيها اعتداءً على حق الجنين في الحياة. وهذا هو الاتجاه الذي سار عليه قانون العقوبات السوداني الصادر سنة ١٩٩١.

أركان جريمة الإجهاض: لجريمة الإجهاض، ككل جريمة، ركن مادي وركن معنوي.

أما الركن المادي: فيتألف من عناصر ثلاثة هي: المسلك الإجرامي، والنتيجة الجرمية، والعلاقة السببية بينهما.

١ - المسلك الإجرامي: وهو يتمثل بأي وسيلة إيجابية أو سلبية، مادية أو معنوية تُفضي إلى الإجهاض. فالضرب أو الجرح أو الضغط على البطن أو ارتداء الملابس الضيقة أو تناول بعض العقاقير المجهضة أو تجويع المرأة الحامل أو صيامها - ولو في رمضان - أو الامتناع عن معالجتها من عارض صحي أو ترويعها أو تهديدها بالقتل أو الضرب أو الصراخ في وجهها أو تفجير قنبلة صوتية على مقربة منها؛ كل ذلك تشمله جريمة الإجهاض شرعاً وقانوناً.

٢ - النتيجة الجرمية: وتتمثل في إسقاط المرأة الحامل حملها. إلا أن جريمة الإجهاض يمكن أن تقوم ولو لم يخرج الحمل من رحم أمه بعد وفاته فوراً، وتأخر ذلك حتى إجراء عمل جراحي لإخراجه، كما لو حقنه الطبيب وهو في رحم أمه بحقنة قاتلة. في حين لاتقوم هذه الجريمة إذا خرج الجنين حياً ثم تابع حياته خارج رحم أمه كسائر المواليد وبقي على قيد الحياة مدة. لأن المطلوب في النتيجة الجرمية اجتماع أمرين اثنين: موت الجنين، وخروجه - عاجلاً أو آجلاً - من رحم أمه. وهذا هو ما تقضي به أحكام الشريعة الإسلامية. أما في القوانين الوضعية، فقد اختلف رجال القانون في تحديد الإجهاض. فاكتفى بعضهم بخروج الجنين قبل الموعد الطبيعي للولادة، وتطلب آخرون وفاة الحمل وخروجه من الرحم معاً.

٣ - العلاقة السببية: لابد لنسبة جريمة الإجهاض إلى فاعلها من قيام رابطة سببية حقيقية بين مسلك هذا الفاعل الإجرامي من جهة، والنتيجة الجرمية المنسوبة إليه من جهة أخرى. ومالم تتحقق هذه الرابطة السببية فلا يمكن مساءلته عن جريمة الإجهاض.

وأما الركن المعنوي: فله صورتان اثنتان هما: القصد الإجرامي، والخطأ.

١ - القصد الإجرامي: وهو في جريمة الإجهاض إرادة ارتكاب هذه الجريمة، مع العلم بكونها جريمة يعاقب عليها القانون. وذلك لأن العلم والإرادة هما عنصرا القصد الإجرامي.

ومن الممكن أن يتنوع القصد الإجرامي في الإجهاض. فهو قد يكون بسيطاً يقصده الفاعل وقت ارتكاب الجرم من دون تبييت. وقد يكون عمداً، أي مخططاً له من قبل. والحكم واحد في الحالتين، ذلك أن القوانين التي تفرق بين القصد من جهة، والعمد من جهة أخرى إنما تقصر هذا التفريق على جرائم الدم فقط، وهي القتل والجرح والضرب والإيذاء. وليس الإجهاض - مع ما يسفح فيه من دماء - واحداً من جرائم الدم هذه لدى أيٍّ من قوانين العالم حتى اليوم.

والقصد الإجرامي أيضاً، قد يكون مباشراً يقصد الفاعل منه أن تجهض المرأة الحامل وقد يكون احتمالياً لايقصده الفاعل مباشرة، ولكنه لايبالي باحتمال حدوثه، أو ربما يرحب به، في سبيل الوصول إلى غرض معين آخر.

٢ - الخطأ: إن من الممكن تصور وقوع الإجهاض بطريق الخطإ، ولكن معظم التشريعات الجزائية تعد جريمة الإجهاض، جريمة مقصودة دائماً ولاتقع بطريق الخطإ. إلا أن تشريعات قليلة خالفت هذا الاتجاه العام. فنصت صراحةً على أن الإجهاض الواقع بطريق الخطإ جريمة. من ذلك مثلاً قانون العقوبات القطري لسنة ١٩٧١ (المادة ١٧٣).

أما في الشريعة الإسلامية فالإجماع منعقد على أن الإجهاض بطريق الخطإ جريمة يترتب عليها جزاؤها المقرر شرعاً.

عقوبة جريمة الإجهاض: العقوبة هي الجزاء المقرر في التشريع على ارتكاب الجريمة. وعقوبة الإجهاض في القوانين الجزائية الوضعية هي الحبس. وربما أضافت إليها بعض القوانين الأشغال الشاقة، في بعض الحالات.

وتميّز هذه القوانين في العقوبة، رضا الحامل بالإجهاض من عدم رضاها به. كما تميّز وفاة المرأة الحامل بنتيجة الإجهاض من عدم وفاتها من جهة أخرى. فالإجهاض الرضائي - وهو الذي تقوم به المرأة الحامل بنفسها، أو ترضى أن يجريه لها شخص آخر - يُعد إذا لم يفض إلى الوفاة جنحة لدى معظم التشريعات الوضعية، باستثناء قانون العقوبات القطري لسنة ١٩٧١ الذي عد جميع صور الإجهاض جنائية الوصف (المادة ١٧٠). أما الإجهاض غير الرضائي فيعد جناية، ولو لم يفض إلى وفاة الحامل. وأما الإجهاض الذي يفضي إلى موت المرأة الحامل، فإنه يعد جناية سواء أكان رضائياً أم غير رضائي.

ويذهب بعض التشريعات إلى تشديد العقوبة إذا نتج الموت عن استعمال وسائل أشد

حصْراً من الوسائل التي رضيت المرأة أن يتم الإجهاض بوساطتها. من ذلك قانون العقوبات اللبناني لسنة ١٩٤٣، وقانون العقوبات السوري لسنة ١٩٤٩.

ويشدد معظم التشريعات العقوبة إذا كان الفاعل طبيباً، أو صيدلياً، أو ممرضاً، أو قابلة قانونية، وذلك لسهولة ارتكاب هذه الجريمة من قبل هؤلاء الأشخاص، ولقدرتهم - أكثر من غيرهم - على استخدام فنهم وعلمهم في طمس معالمها، مما يغري الحامل باللجوء إليهم، ولمعرفتهم أكثر من غيرهم بأخطار الإجهاض وسوء آثاره. على أن القانون الروسي ذهب مذهباً معاكساً في هذه المسألة، فقد عدت المادة ١١٦ منه عدم تمتع الفاعل بصفة الطبيب أو من في حكمه، هو السبب المشدد في العقوبة. وذلك لأن الطبيب أقدر من غيره فناً وعلماً على إجراء الإجهاض. ولن يكون لقيامه هو بهذا العمل - في أغلب الأحيان - تلك الآثار السيئة التي قد تنتج عن قيام غير الطبيب به. ولأن في إقدام غير الطبيب على التسبب في إجهاض الحوامل استخفافاً بحياتهن. وهذا يدل على نفسية آثمة وخطرة تستحق أن يشدد عليها العقوبة.

ويذهب بعض القوانين إلى منح المجرم في جريمة الإجهاض عذراً مخففاً إذا قام به حفاظاً على شرف إحدى فروعه أو إحدى قريباته. من ذلك مثلاً قانون العقوبات الإيطالي لسنة ١٩٣٠، وقانون العقوبات الإسباني لسنة ١٩٤٤، وقانون العقوبات اللبناني لسنة ١٩٤٣، وقانون العقوبات السوري لسنة ١٩٤٩، وقانون العقوبات الأردني لسنة ١٩٦٠.

أما في الشريعة الإسلامية فالجزاء على الإجهاض هو الدية. والدية الواجبة هنا هي دية الجنين، وتسمى «الغُرّة». وهذا هو الجزاء القضائي. أما الجزاء الشرعي فهو الكفارة وفقاً لبعض المذاهب. وهي - في الأصل - تحرير رقبة مؤمنة. فمن لم يجد - وهذا هو واقع الحال اليوم - فصيام شهرين متتابعين.

ولا فرق في الجزاء على الإجهاض هنا بين رضا المرأة الحامل به أو عدم رضاها. ويرجع السبب في ذلك إلى أن الشريعة الإسلامية تعد الإجهاض المحرّم جناية واقعة على الجنين وحقه في الحياة. ولذلك لا يعتد برضاها أو عدم رضاها به. كما لا فرق أيضاً بين الإجهاض الذي يفضي إلى موت المرأة الحامل، والإجهاض الذي لم يفض إلى موتها. فعقوبة الإجهاض مستقلة تماماً عن عقوبة إزهاق روح المرأة الحامل. وهذا محل إجماع الفقهاء.

أما إذا كان الإجهاض ناتجاً من موت المرأة الحامل فهذا ما اختلفت فيه المذاهب الفقهية. فذهب الحنفية، والمالكية، إلى أنه لاشيء فيه. لأن موت الأم سبب لموت الجنين ظاهراً فيحال عليه. وذهب الجعفرية من الشيعة، والشافعية، والحنابلة إلى أن فيه «الغُرة» لأنه تلف بجناية الجاني، وعلم موته بخروجه، فوجب ضمانه.

ويتطلب جمهور الفقهاء لاستحقاق «الغُرة» في الإجهاض أن يكون في محصول الحمل معالم صورة ظاهرة أو خفية. وإلا فلا تجب «الغُرة». وخالف المالكية فلم يشترطوا مثل هذا الشرط.

كما ذهب الجمهور أيضاً إلى أن هذه «الغُرة» تجب حتى آخر مراحل الحمل، أي حتى قبيل الولادة ولو بلحظات. وخالف في ذلك الحنابلة، والجعفرية من الشيعة. فذهب الحنابلة إلى أن الجنين إذا بلغ الشهر السادس من عمره ثم أسقط ففيه الدية الكاملة مثله مثل المولود والكبير. لأنه بعد الشهر السادس صار قادراً على الحياة خارج رحم أمه فيلحق بالمواليد والكبار. وذهب الجعفرية من الشيعة إلى استحقاق للدية الكاملة كالمولود والكبير بدءاً من الشهر الرابع وهو زمن ولوج الروح فيه لأنه أصبح منذ ولوج الروح فيه كائناً إنسانياً مستقلاً في إنسانيته وروحه عن أمه.

أما لو أسقط الجنين حياً، ثم مات بعد ذلك بسبب فعل الجاني الذي أسقطه فقد ذهب الجمهور إلى أن الواجب فيه هو الدية الكاملة كالمولود والكبير، لأنه أصبح مولوداً، وعاش مدة، ولو لحظات. أما المالكية فقالوا إن كان الجاني قد فعل ذلك خطأ ففيه الدية الكاملة كما قال الجمهور. أما إذا كان الجاني قد فعل ذلك عامداً فقد وجب القصاص ويقتل الجاني به قصاصاً.

محمد وفا ريشي

الموضوعات ذات الصلة:

الجريمة - الجنين - الدية - العقوبة.

مراجع للاستزادة:

- إبراهيم حقي وصادق فرعون، فن التوليد (دمشق ١٩٨٢).
- رؤوف عبيد، الجرائم: الاعتداء على الأشخاص والأموال في قانون العقوبات المصري، الطبعة الخامسة (القاهرة ١٩٦٥).
- موفق الدين بن قدامة، المغني (دار الكتاب العربي الجديدة، بيروت).
- L. M. HELLMAN & J. PRITCHARD, William's Obstertrics (Appleton Century Crofts, New York 1986).
- J. P. GRINHILL & E. A. FRIEDMAN, Biological Principles on Modern Practic of Obstretrics (W. B. Saunders Company, London 1985).

■ أجهزة التعليق في المركبات

أجهزة التعليق في المركبات suspension systems هي مجموعة الأجهزة التي تربط بين جسم المركبة أو هيكلها وجهاز الحركة فيها، وتسمى أيضاً مجموعة التعليق وتقسم مجموعةُ التعليق، بحكم موقعها، المركبة إلى كتلتين: كتلة تحتية مؤلفة من عناصر السير، مثل العجلات والمحاور، التي ينتقل تأثير وزنها إلى سطح الطريق بالتماس المباشر، وكتلة فوقية مؤلفة من جسم المركبة أو هيكلها وما يضمه، ينتقل تأثير وزنها إلى الكتلة التحتية فسطح الطريق من خلال أجهزة التعليق.

وفي أثناء حركة المركبة وعملها، بسبب وعورة الطريق ومنعطفاته، أو بسبب تشوه العجلات وعدم توازنها، أو بسبب قوى العمل، تؤثر في المركبة قوى وعزوم دينامية عدة، يمكن تحديدها استناداً إلى جملة إحداثيات من حيث حركتها هي: المحور الطولي الموافق لاتجاه حركة المركبة X، والمحور العرضي للمركبة والموازي لسطح الطريق Y، والمحور الشاقولي للمركبة والعمودي على سطح الطريق Z، وينتقل تأثير هذه القوى والعزوم من خلال مجموعة التعليق إلى جسم المركبة فتسبب إزاحات خطية وزاويّة لأجزاء المركبة، مما يؤدي إلى اهتزازات كل من كتلتي المركبة الفوقية والتحتية وترجحاتها.

وتتلخص مهمة مجموعة التعليق الأساسية في ضمان سلاسة حركة المركبة وثباتها قدر الإمكان، وتحقيق راحة القيادة وسلامتها، ويتم

ذلك بتخفيض تأثير الحمولات الدينامية ونقلها بمرونة معينة في اتجاه محدد مع امتصاص الاهتزازات المرافقة لها وإخمادها، ولاسيما اهتزاز الكتلة الفوقية في الاتجاه الشاقولي. وكلما كانت نسبة الكتلة التحتية إلى الكتلة الفوقية أقل ارتفعت درجة سلاسة حركة المركبة على أن تكون مؤشرات مرونة عناصر مجموعة التعليق وقدرتها على الإخماد متناسبة مع كتلتي المركبة.

عناصر أجهزة التعليق ودور كل منها

تتألف أجهزة التعليق من العناصر الأساسية التالية: العناصر المرنة والعناصر الموجِّهة والعناصر المخمدة.

العناصر المرنة: وهي تتلقى القوى الدينامية المؤثرة في الاتجاه الشاقولي، على نحو أساسي، فتحولها إلى قوى اهتزازية انسيابية ويمكن لبعض العناصر المرنة أن تتلقى القوى الطولية والعرضية الناتجة من علاقة عجلات السير مع الطريق. وتقوم بهذه المهمة عناصر مرنة بتصاميم عدة منها:

- النوابض الصفيحية(المقصات) laminated leaf springs، بشكليها نصف الإهليلجي أو ربع الإهليلجي.
- نوابض الضغط الحلزونية helical compression springs.
- قضبان الفتل: torsion bars
- مصادم مطاطية rubber buffers
- مخمدات ذات أسطوانة أو وسادة هوائية air spring bellows and cylinders.

وإن المؤشر المميز للعنصر المرن هو الصلابة stiffness ، وهي تعبر عن مقاومة العنصر للَّيِّ deflection، وهي عكس المرونة elasticity.

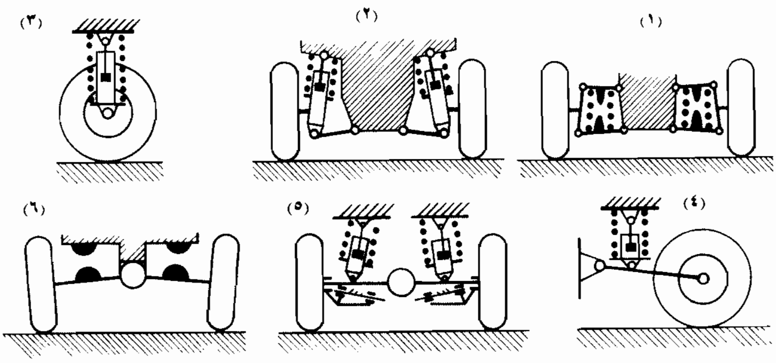
ويعبَّر عن الصلابة بالقوة المنسوبة إلى واحدة اللي(نيوتون / مم N\mm) في مواصفات نوابض الضغط أو الشد، أو بعزم الفتل المنسوب إلى واحدة زاوية الفتل نيوتون مم/ه، ه/N.mm للنوابض العاملة على الفتل. ويكون مؤشر الصلابة ثابتاً للنوابض المعدنية في مجال التوائها المرن، أما مؤشر الصلابة للعناصر المرنة المطاطية أو الهوائية فلا يكون ثابتاً وإنما تزداد قيمته مع ازدياد التواء العنصر، ويشترط في أغلب الأحيان أن تتصف مجموعة التعليق بمؤشر مرونة أو صلابة متغيرتين، لذلك تكون مجموعة التعليق من عناصر مرنة مركبة ذات صلابة أو مرونة مختلفة فيما بينها للحصول على محصلة صلابة متغيرة في مجال الالتواء المرن.

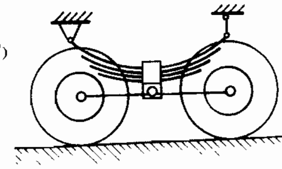
العناصر الموجِّهة: وهي تنقل بوجه أساسي تأثير القوى الطولية والعرضية وعزومها فتحرر العناصر المرنة من تأثير هذه القوى وتحد من الحركة الاهتزازية في الاتجاه الشاقولي، وهي مخصصة للحفاظ على حركية صحيحة للمركبة، وخاصة الحفاظ على أبعاد توضُّع العجلات والمحاور وزواياه في المجال المناسب. وتقوم بهذه المهمة سواعد ذات مفاصل، تضمن حركة عجلات المركبة ومحاورها في مجال محدد. وتكون المفاصل مزودة في أغلب الأحيان بعناصر مطاطية لزيادة المرونة في نقل القوى.

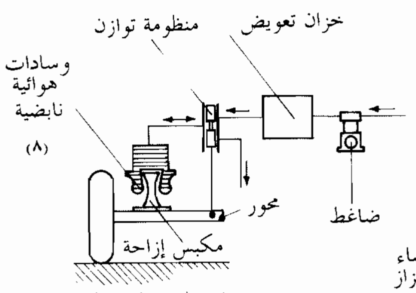
العناصر المخمدة: وهي مخصصة لامتصاص الاهتزازات والصدمات الناشئة في العناصر المرنة وفي أجزاء المركبة الفوقية. فهي تخفض سرعة الإزاحة الشاقولية وتسارعها بين كتلتي المركبة بمقاومة الحركة الاهتزازية ومنع حدوث الطنين فيها. وتقوم بهذه المهمة مخمدات هيدرولية أو هيدروهوائية تتكوّ ن في داخلها، عند تعرضها للاهتزاز، مقاومة هيدرولية لحركة السائل مما يؤدي إلى تحول جزء من الطاقة الحركية التي تنشأ عن الاهتزازات إلى طاقة حرارية في السائل، ثم يتم إخماد الاهتزازات وامتصاصها.

وتعمل هذه المخمدات إما باتجاه واحد، أي مقاومة حركة التمدد فقط، وإما باتجاهين، أي مقاومة حركتي التمدد والانضغاط، وتتصف بعض العناصر المرنة بإخماد الحركة الاهتزازية إخماداً ذاتياً بنسب مختلفة، وهذا تابع لنمط المقاومة الداخلية التي تحدث بالاحتكاك.

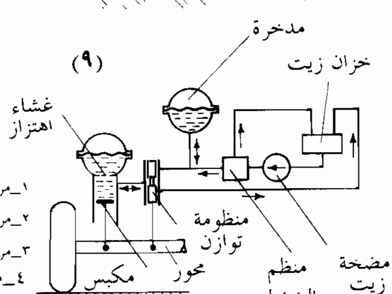
وتكون مؤشرات العناصر المخمدة جيدة في مجموعة التعليق إذا أمكنها تخفيض مدى الاهتزاز بمقدار ٣ ـ ٥ مرات لكل دور. ويمكن أن تقوم بمهام مجموعة التعليق عدة عناصر لكل منها وظيفة محددة، أو تقوم بها العناصر نفسها مثل النوابض الصفيحية (أو المقصات) التي تتميز بالمرونة الجيدة وبإمكان إخماد الاهتزازات العمودية بنسبة معينة بفضل مقاومة الاحتكاك





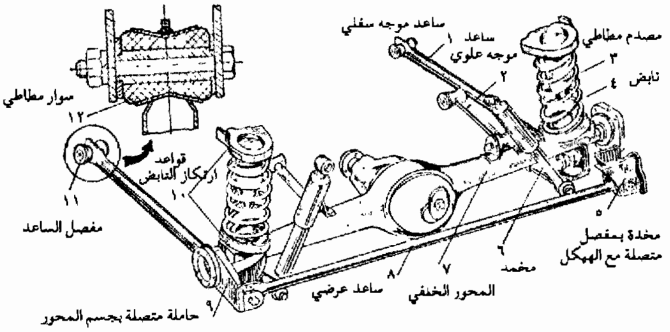


جهاز تعليق بالهواء المضغوط



جهاز تعليق هيدروهوائي

١ـ مرنة مستقلة بعدة سواعد عرضية
٢ـ مرنة مستقلة بساعد عرضي ومحمّد
٣ـ مرنة مستقلة اسطوانية شاقولية
٤ـ مرنة مستقلة بساعد طولي
٥ـ مرنة غير مستقلة
٦ـ قاسية غير مستقلة مع مصاده
٧ـ مرنة غير مستقلة توازنية
٨ـ مع دارة وعناصر هوائية
٩ـ مع دارة وعناصر هيدروهوائيه



(الشكل ٢) مجموعة تعليق غير مستقرة لمحور خلفي في سيارة سياحية

الناشيء بين صفائحها، ويمكنها أن تنقل القوى والعزوم الطولية بدرجة معينة بفضل صلابتها في هذا الاتجاه وتعد المصادم المطاطية مخمدة للاهتزازات بدرجة معينة.

أجهزة التعليق في السيارات والجرارات ذات العجلات

تتعرض أجزاء هذه المركبات في أثناء عملها إلى الاهتزاز والترجح في اتجاهات عدة بحسب المحاور الثلاثة: الطولي X والعرضي Y، والشاقولي Z. وتتشابه على العموم أجهزة تعليق هذه المركبات فيما بينها، لكن اختيار عناصر مجموعة التعليق وتصميمها يتمان انطلاقاً من طبيعة عمل السيارة أو الجرار. فمن الضروري لسيارات الركوب ضمان سلاسة الحركة وسلامتها وراحة السائق والركاب ضماناً جيداً.

لذا يجب أن تتصف مجموعة التعليق فيها بالمرونة العالية، وبنسبة ملائمة لإخماد الاهتزازات الشاقولية، وبالمتانة وبالخدمة المديدة.

أما في الجررات والشاحنات فيمكن أن تكون مجموعة التعليق أقل مرونة وأن تتطلب نسبة أقل في إخماد الاهتزازات، ولكنها تتطلب متانة عالية وخدمة طويلة. ويكون لسرعة المركبة دور مهم في تحديد مجموعة التعليق المناسبة لهذه المركبات.

ويبين الشكل (١) مخططات عدة لأنواع مجموعة التعليق الشائعة في السيارات والمركبات على عجلات مطاطية عموماً. وتكون مجموعة التعليق في هذه المركبات قاسية أو مرنة.

وتضم مجموعة التعليق القاسية عناصر موجِّهة فقط، وتقوم العجلات بمهمة العناصر المرنة فيها مع بعض المصادم المطاطية. ويستخدم هذا النوع من مجموعة التعليق في بعض الجرارات الثقيلة البطيئة السرعة.

وأما مجموعة التعليق المرنة فيستخدم فيها نوع واحد من العناصر المرنة المعدنية أو المطاطية أو الهوائية أو الهدروهوائية أو نوعان أو أكثر.

وتقسم مجموعة التعليق، بحسب المخطط الحركي لربط العجلات مع المحاور ومع الهيكل، إلى مجموعة مستقلة ومجموعة غير مستقلة وهي على عدة أنواع:

١ـ مجموعة تعليق مستقلة أسطوانية شاقولية تتصل فيها العجلة اتصالاً مستقلاً بالهيكل من دون سواعد بوساطة عنصر واحد موجِّه ومرن ومخمِّد، وتكون إزاحة العجلة في الاتجاه الذي يسمح به العنصر الموجِّه.

٢ـ مجموعة تعليق مستقلة بساعد موجِّه واحد أو بساعدين أو بعدة سواعد تربط العجلة ربطاً مستقلاً بالهيكل، وتحوي أيضاً عناصر مرنة ومخمدة. وتسمح مجموعة التعليق هذه بالإزاحة الشاقولية للعجلة لكنها تحدُّ من حركتها في الاتجاه الطولي أو العرضي أو في اتجاه فراغي معين بحسب توضع السواعد.

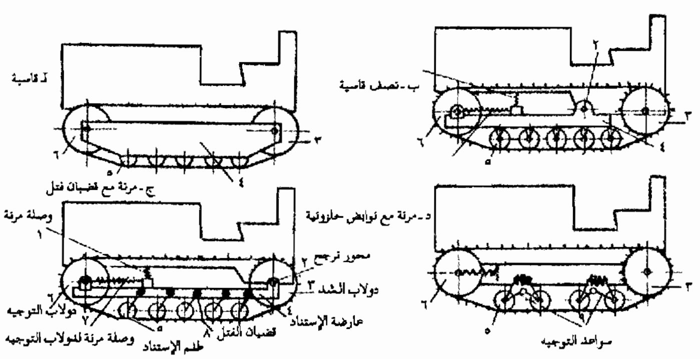
٣ـ مجموعة تعليق غير مستقلة محورية، تتصل فيها كل عجلتين إحداهما بالأخرى بوساطة محور جسر وتحوي أيضاً عناصر مرنة وموجهة ومخمدة تربط المحور بالهيكل، ويشيع استخدام مجموعة التعليق هذه في السيارات والجرارات. ويبين الشكل (٢) عناصر مجموعة تعليق غير مستقلة لمحور خلفي في سيارة سياحية.

٤ـ مجموعة تعليق غير مستقلة توازنية، تتصل فيها كل عجلتين إحداهما بالأخرى بوساطة وصلة طولية توازنية وتحوي عناصر مرنة وموجهة تربط الوصلة بالهيكل. وتستخدم مجموعة التعليق هذه في بعض الشاحنات المتعددة المحاور وفي بعض معدات الطرق.

أجهزة التعليق في الجرارات المزنجرة

تعمل الجرارات المزنجرة في أماكن وعرة غير معبدة غالباً وبسرعات بطيئة نسبياً ٣ـ ١٠كم/سا وبقوى دفع كبيرة. وتتعرض في أثناء سيرها وعملها لقوى وعزوم في مختلف الاتجاهات X.Y.Z تنتقل من الزناجير من خلال أجهزة السير والتعليق إلى هيكل الجرار. لذلك فمن الضروري لأجهزة السير والتعليق تخفيف قوى الصدم ما أمكن في أثناء العمل وضمان سير انسيابي. ويتصل جسم المركبة ببكرات أو طُلَم الاستناد من خلال عناصر مجموعة التعليق التي تشمل بعض العناصر المرنة كالنوابض الحلزونية أو الصفيحية أو قضبان الفتل المرنة إضافة إلى المصادم المطاطية. أما دور العناصر الموجِّهة فتقوم به عارضة الاستناد مع السواعد الحاملة للبكرات التي تسند الزنجير، ولاتحتوي مجموعة التعليق هنا على مخمدات خاصة لامتصاص الاهتزازات لقيام النوابض والمصادم المطاطية ذاتياً بهذه المهمة. لذلك تتصف مجموعة تعليق الجرارات المزنجرة عموماً بمرونة منخفضة نسبياً لطبيعة عملها وسرعتها البطيئة.

وتُقسم مجموعة تعليق المركبات المزنجرة إلى



(الشكل ٣) مخططات مجموعة تعليق المركبات المزنجرة

ثلاثة أنواع أساسية هي: مجموعة التعليق القاسية ومجموعة التعليق نصف القاسية ومجموعة التعليق المرنة. ويبين الشكل (٣) مخططات مجموعة تعليق المركبات المزنجرة.

مجموعة التعليق القاسية: يكون فيها اتصال كل من دولاب التوجيه وعارضة الاستناد والبكرات ودولاب الدفع بجسم المركبة ثابتاً أو قاسياً من دون عناصر مرنة.

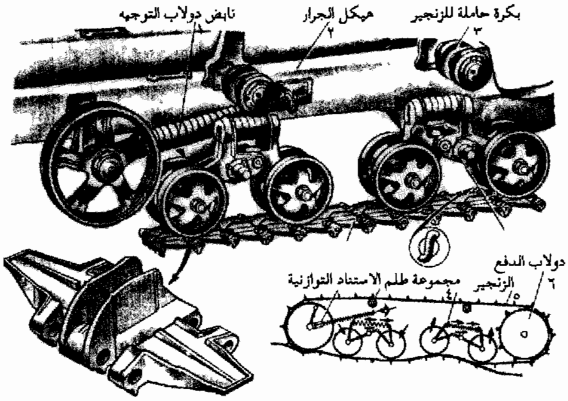
وتستخدم مجموعة التعليق هذه للمركبات شبه الثابتة كالحفارات الوحيدة السطل والروافع السهمية، وتكون سرعة سيرها بطيئة جداً (نحو ٣-٤ كم/سا)، وتسير في طرق ممهدة ولمسافات قصيرة.

مجموعة التعليق نصف القاسية: تكون فيها محاور بكرات الاستناد والعارضة من دون وصلات مرنة، أما دولاب التوجيه فيتصل مع العارضة بوصلة مرنة على شكل نابض حلزوني للتحكم في شد الزنجير في حين يرتكز جسم المركبة على العارضتين بعنصر مرن على شكل نابض صفيحي نصف إهليلجي يتوضع عرضيّاً، أو على شكل بنية معدنية محدودة المرونة ترتكز على مساند مطاطية فوق كل عارضة، ومن جهة أخرى يتصل الجسم مع العارضتين بمحور في كل جانب يكون محور ترجح لكامل الزنجير مع أجهزة الاستناد كي تتحقق المرونة المطلوبة لسير المركبة في المناطق الوعرة غير المستوية. وتُستخدم مجموعة التعليق هذه استخداماً واسعاً في المركبات والجرارات العاملة على نظام الدفع كالقواحط فهي تجمع ما بين إمكان تحقيق قوى دفع كبيرة ضرورية للعمل، وإمكان تخفيف قوى الصدم الناتجة في أثناء العمل، وهي تكفل سرعة سير تصل إلى ٨ - ١٠ كم/سا.

مجموعة التعليق المرنة: تكون فيها بكرات الاستناد متصلة مع العارضة أو مع هيكل المركبة مباشرة بوصلات مرنة على شكل قضبان فتل أو نوابض حلزونية.

وتوفر مجموعة التعليق هذه مرونة جيدة لأجهزة الاستناد مما يتيح للزنجير تماسكاً أكبر مع تعرجات سطح الطريق فتحقق قوى دفع كبيرة. وتأخذ مجموعة التعليق هذه أشكالاً عدة في الجرارات والمركبات المزنجرة وذلك بحسب طبيعة العمل المطلوب.

وفي بعض الجرارات الزراعية المزنجرة (الشكل ٤)، يتصل كل شفع من بكرات الاستناد بوصلة



(الشكل ٤) مجموعة تعليق مرنة لجرار رراعي مزنجر

مرنة توازنية ذات نابض حلزوني تتصل بدورها مباشرة بهيكل المركبة بوساطة محور استناد، ويتصل دولاب التوجيه بالهيكل أيضاً بنابض حلزوني، وتصل سرعة المركبة إلى ٨-١٠كم/سا.

وفي آلات الطرق العاملة على نظام الدفع تكون مجموعة التعليق المرنة مشابهة لمجموعة التعليق نصف القاسية، إلا أن كل بكرتين هنا تتصلان بوصلة توازنية مرنة تعتمد على قضبان فتل مستقلة مع مصادم مطاطية تحدد إزاحتها الشاقولية. وتكفل مجموعة التعليق هذه السير بسرعة تصل إلى ١٢كم/سا.

وفي بعض الجرارات العاملة على نظام النقل يستند الهيكل إلى بكرات، استناداً مستقلاً، بقضبان فتل مرنة طويلة، تمتد عرضياً في أسفل هيكل المركبة، مما يعطي مرونة كبيرة لاستناد الكتلة الفوقية. وتكفل مجموعة التعليق هذه سرعة حركة تصل إلى ٢٠كم/سا أو أكثر. وتستخدم مجموعة التعليق المرنة هذه في معظم المركبات المزنجرة العسكرية، إنما تتميز بكراتُ استنادها أو ظُلَمها بأقطارها الكبيرة المزودة بإطار مطاطي ثخين، بحيث تستطيع المركبة السير بسرعة تصل حتى ٧٠-٩٠ كم/سا.

أجهزة التعليق في مركبات السكك الحديدية

تتعرض مركبات السكك الحديدية من قاطرات أو مقطورات إلى الحمل الديناميي الذي ينتقل من العجلات إلى الجسم أو الهيكل من خلال المضاجع ومجموعة التعليق وقواعد ارتكاز الجسم.

وينشأ هذا الحمل من درجان العجلات على الخط الحديدي بسبب التواءات السكك والعجلات وتشوهاتها وعند مرور العجلات على الفواصل في نقاط اتصال السكك وفي المنعطفات أيضاً. ولتخفيف هذه القوى والصدمات الديناميية المتواترة توضع مجموعة التعليق بين جسم المركبة العلوي upper frame وهيكل العجلات (الكراسي) bogies ومضاجعها bearing boxes

وتؤثر القوى الديناميية في جسم القاطرة أو المقطورة فتسبب الإزاحة الشاقولية القفز على طول المحور الشاقولي والترجح الطولي حول المحور العرضي والترجح العرضي الجانبي حول المحور الطولي.

وتعمل مجموعة التعليق على تحويل الحمل الديناميي المتواتر إلى اهتزازات قابلة للخمود فتخفض تواتر الحركة الاهتزازية وسعتها وتسارع كتلة الجسم الفوقية. وتحوي مجموعة تعليق مركبات السكك الحديدية عناصر مرنة ومخمدة وموجهة. وتُستخدم النوابض الحلزونية والصفيحية والمساند المطاطية عناصرَ مرنة، كما تُستخدم في القطارات السريعة، إضافة إلى النوابض الحلزونية، عناصرُ مرنة هوائية وعناصر مخمدة في آن واحد، وهي على شكل حجرات مزدوجة مرنة تزود بالهواء المضغوط من خزان رئيس له دارة خاصة. وتتوضع هذه الحجرات فوق مضاجع العجلات، فتمتص القوى الديناميية بمرونة متغيرة، إذ تزداد صلابة بزيادة قوى التحميل وتخمد الاهتزازات المرافقة. ويستفاد من النوابض الصفيحية والمساند المطاطية في عملية امتصاص الاهتزازات، وإضافة إلى ذلك توضع مخمدات خاصة هدرولية أو هدروهوائية أو احتكاكية لزيادة نسبة إخماد الاهتزازات، وتقوم بعض السواعد والمساند، التي تزود بوصلات نابضية أو

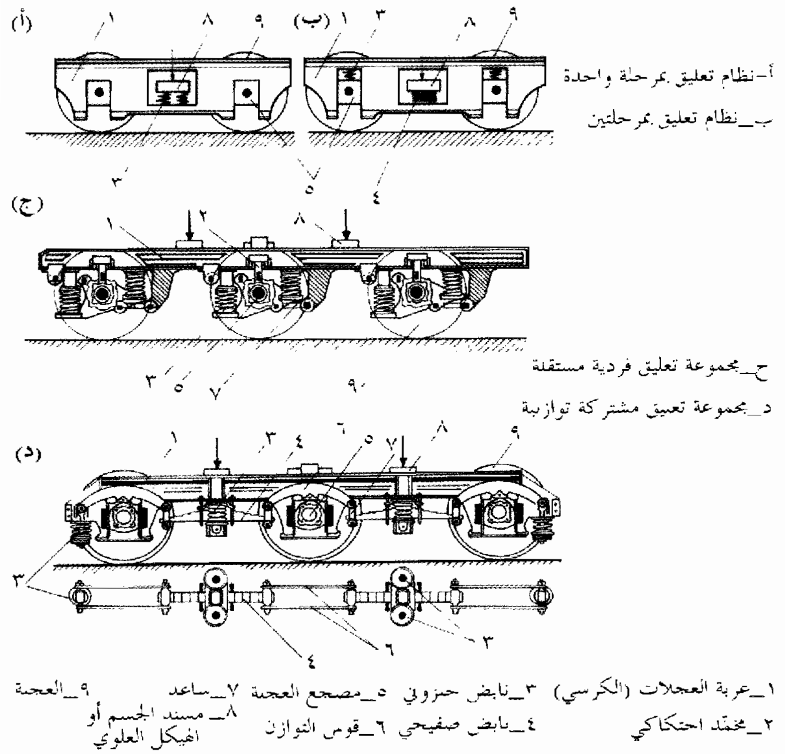
مطاطية، بدور العناصر الموجهة للحد من ترجّح جسم المركبة في الاتجاهين الطولي والعرضي.

ويبين الشكل(٥) مخططات مجموعة تعليق مركبات السكك الحديدية. ويوجد نظام التعليق في مركبات السكك الحديدية بنوعين أساسيين: بمرحلة تعليق واحدة، وبمرحلتين اثنتين.

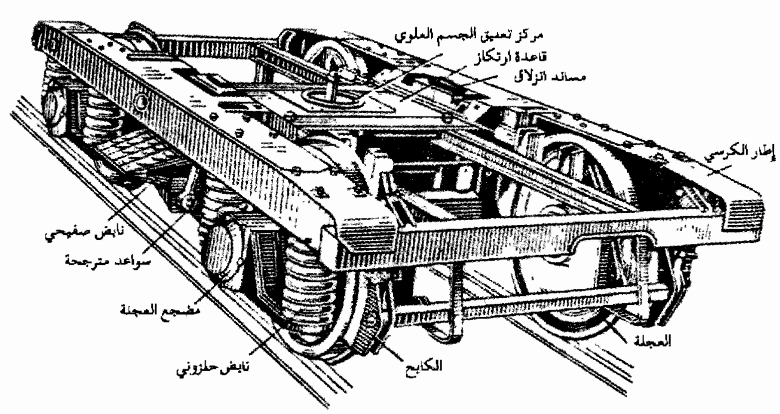
وتتوضع عناصر مجموعة التعليق ذات المرحلة الواحدة إما بين الكراسي ومضاجع العجلات غالباً، أو بين جسم المركبة وكراسي العجلات، في حين تتوضع عناصر مجموعة التعليق ذات المرحلتين بين الكراسي والمضاجع جهازَ تعليق أساسياً، وبين الجسم والكراسي جهازَ تعليق ثانوياً. ويستخدم نظام التعليق ذو المرحلة الواحدة في قطارات الشحن. في حين يستخدم نظام التعليق ذو المرحلتين في قطارات نقل الركاب لضرورة سلاسة الحركة فيها.

وقد تكون مجموعة التعليق منفردة لكل مضجع من مضاجع العجلات أو تكون مشتركة بين مضجعين أو أكثر بوساطة أقواس توازنية ترتكز عليها لتوفير توزع القوى على المضاجع توزعاً عمودياً منتظماً، وهي تستخدم أساساً في القاطرات وتسمى أيضاً جهاز التعليق العمودي.

وفي بعض أنواع أجهزة التعليق ذات المرحلتين يكون العنصر المرن المتوضع بين قاعدة ارتكاز الجسم وكرسي العجلات على شكل نابض صفيحي إهليلجي كامل عرضي يتمفصل بسواعد مترجِّحة متصلة بالكرسي، ويسمى جهاز التعليق العرضي وهو يكفل مرونة جيدة في الاتجاهين الشاقولي والجانبي للمركبة (الشكل ٦) وهو مستخدم في مقطورات نقل الركاب.



(الشكل ٥) مخططات لأنواع مجموعة تعليق مركبات السكك الحديدية



(الشكل ٦) عربة العجلات (الكرسي) بنظام تعليق على مرحلتين مع جهاز اعتراضي مترجح

أهم خصائص أجهزة التعليق

تتوقف قلة اهتزازات المركبة وجودة تعليقها في الدرجة الأولى على مرونة جملة التعليق أو صلابتها، وإطارات المركبة، وكتلة الأجزاء الفوقية المتأثرة بالفعل النابضي وتورعها، وكتلة الأجزاء التحتية غير المتأثرة بالفعل النابضي، ومقاومة الاحتكاك الداخلي لعناصر مجموعة التعليق، ومقاومة المخمدات ونسبة إخمادها. كما تتوقف على العوامل الخارجية القسرية كتعرجات الطريق وانعطافاته وسرعة المركبة الخطية.

أما المقاييس التي يمكن بوساطتها تقويم جودة مجموعة التعليق ومقدار تأثير العوامل المذكورة فهي الإزاحة والتسارع في الاتجاه الشاقولي للكتلة الفوقية وسعة التواء عناصر مجموعة التعليق المرنة والإطارات لحالتي التحميل في الثبات والحركة، والإزاحة الشاقولية

للكتلة التحتية وتواتر الاهتزازات وسعتها لكل من الكتلة التحتية والفوقية. وتتغير هذه المقاييس تغيراً دورياً غير منتظم غالباً.

ومن المهم جداً لمجموعة التعليق تعيين سعة التواء العناصر المرنة في حالتي التحميل في الثبات والحركة لأنها تحدد بدورها تواتر الاهتزازات. ومن المعلوم أن تواتر الاهتزازات التي تحقق شروط سلاسة حركة المركبة، والتي يتحملها الإنسان بسهولة، لايزيد على ٢,٥ هرتز، بالمقارنة مع تواتر السير العادي على الأقدام الذي يراوح في المجال ١,١-٥,١٪ هرتز، ولحالة السير النشيط في المجال ٢,١-٥,١٧ هرتز. وفي المركبات ذات مجموعة التعليق المرنة يتغير تواتر الاهتزاز عكسياً مع الجذر التربيعي لسعة الاهتزاز أو التواء العنصر المرن، وهذا يتعلق بدوره بمقدار الحمولة المؤثرة فيه. لذلك ينخفض تواتر الاهتزازات مع زيادة حمولة المركبة بنسبة معينة. وفي هذا المجال يمكن ذكر القيم التقريبية لتواتر اهتزازات بعض المركبات التي تكفل سلاسة حركة جيدة: للسيارات السياحية ٠,٦٧-١ هرتز وللحافلات ١,٥-١ هرتز، وللشاحنات ٥,١-٢ هرتز، وللمكنات والجرارات ٥,١-٢,٥ هرتز، وللقاطرات والمقطورات ٥,١-٧,١ هرتز.

ويؤثر تحسين جودة أجهزة التعليق تأثيراً إيجابياً في سلاسة الحركة وثباتها وسلامتها، فيحسّن خصائص شد المركبة، مما يخفض الطاقة المهدورة لدى اهترازات المركبة ويزيد اقتصاديتها وطول خدمتها، ويقلل من تآكل سطح الطريق أو السكة.

مسلم طعمة

الموضوعات ذات الصلة:

السيارة - العربة - المركبة (ثبات -)
- المركبة (هيكل -) - المقطورات في السكك الحديدية.

مراجع للاستزادة:

-Kent's Mechanical Engineers Handbook (John Wiley & Sons, New York 1970).
-MARKS, Mechanical Engineers Handbook (Mc Graw Hill Co., London 1969).
-H.E.WELCH, Basic Mechanical Drawing (Mc Graw Hill, New York1975).

■ أجهزة الرصد الفلكي

أجهزة الرصد الفلكي astronomical instruments هي أجهزة مكونة أساساً من جزء يجمّع أشعة النجم ومن تجهيزات متممة تساعد في رؤية صورة مكبرة للنجم أو تصويره.

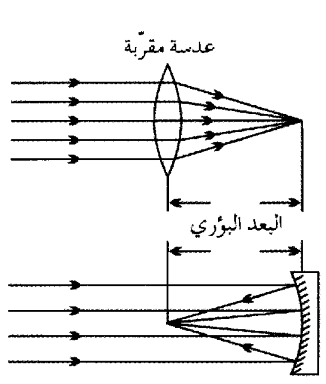
لقد ظل الرصد الفلكي يجري بالعين المجردة حتى بداية القرن السابع عشر، حين اخترع العالم الإيطالي غاليليو المنظار الفلكي، واخترع العالم نيوتن في الثلث الأخير من القرن ذاته الراصدة الفلكية العاكسة. ومنذ ذلك الحين مازالت هاتان الآلتان تتلقيان التحسين والعناية حتى أصبحتا على الشكل المتقن الذي بلغتاه اليوم ويطلب الآن من جهاز الرصد أن يوفر للفلكي الأمور الثلاثة الآتية وهي: تلقي إشعاع النجوم على جهاز الاستقبال (وهو العين أو لوحة التصوير أو المطياف..)، وتشكيل صورة لجرم أو لمنطقة معينة من السماء في المستوى البؤري (المحرقي) للجهاز، والفصل بين أجرامٍ واقعة على بعدٍ زاوي صغير فيما بينها، مما يجعل العين المجردة غير قادرة على الفصل بينها لولا جهاز الرصد.

إن القسم البصري الأساسي في المنظار أو في الراصدة هو الجسمية. ويتلخص عملها في تلقي الضوء الآتي من الجرم السماوي وإنشاء صورة له أو لمنطقة من السماء. وتتصل الجسمية بأداة الاستقبال بوساطة أنبوب. أما القسم الميكانيكي الذي يحمل الأنبوب ويوفّر له توجيهه فيسمى الحاضنة mounting. وإذا كان مستقبل الضوء هو العين، فإن المنظار ينبغي بالضرورة أن يكون مزوّداً بعينية eye- piece لفحص الصورة التي تشكلها جسمية الجهاز. وأما في حالات الرصد بالتصوير أو الرصد الكهرضوئي أو الطيفي، فلا حاجة إلى العينية. إن لوحة التصوير وشق المطياف، والحجاب الذي يتحكم في شدة الضوء الكهربائي، تركَّب مباشرة في المستوى البؤري للجهاز.

إن الراصدة التي جسميتها عدسات تسمى راصدة كاسرة أو منظاراً. ولما كانت الأشعة الضوئية التي لها أطوال موجية مختلفة تنكسر بزوايا انكسار مختلفة، فإن الجسمية المؤلفة من عدسة واحدة تشكل صورة مقزَّحة. هذه الظاهرة تسمى الزيغ اللوني chromatic aberration وهذا الزيغ يمكن أن يصبح زهيداً إذا تكونت الجسمية من عدستين تحققان شروطاً معينة (وذاك في الجسمية اللالونية).

أما قوانين الانعكاس فلا تتعلق بطول موجة الضوء، لذلك انصرف التفكير إلى أن يُستبدَل بالجسمية ذات العدسات مرآة كروية مقعَّرة. فالمنظار الفلكي الذي يعمل على هذه الطريقة يسمى راصدة عاكسة refracting telescope أو راصدة. وأول راصدة كان قطر فتحتها ٣ سم فقط وطولها لايتجاوز ١٥سم، وقد صنعها نيوتن عام ١٦٧١، أي بعد منظار غاليليو بـ ٧١سنة. أما اليوم فهناك راصدة قطر فتحتها ٥ أمتار وأخرى قطر فتحتها ٦ أمتار.

إن المرآة الكروية لا تجمّع أشعة الحزمة المتوازية في البؤرة تماماً، ولكنها تشكل في البؤرة بقعة غير واضحة الحافة. إن هذا التشويش في الصورة يسمى زيغاً كروياً spherical aberration. أما إذا جُعل شكل المرآة قطعاً مكافئاً دورانياً مجسماً، فإن الزيغ الكروي يزول، وعندئذ، إذا سقطت على المرآة حزمة متوازية موجَّهة وفقاً لمحور هذا القطع المكافئ، تجمّعت الأشعة في البؤرة بلا تشويش تقريباً، ماعدا التشويش الناجم عن الانعراج (الحيود) diffraction وهذا مادفع إلى اختيار شكل القطع المكافئ في مرايا الراصدات الحديثة (الشكل ١).



(الشكل ١) مرآة كروية أو مكافئية

لقد كان الهدف الأساسي للرصد بالمناظير والراصدات، حتى نهاية القرن التاسع عشر، هو دراسة المواقع الظاهرية للنجوم.

وكان هنالك دور مهم لرصد المذنَّبات وتفاصيل أقراص الكواكب السيارة، وكل هذه الأرصاد كانت تجري بالبصر، وكان المنظار الكاسر المزوَّد بجسمية ذات عدستين يكفي تماماً لحاجات ذلك العهد.

في أواخر القرن التاسع عشر، وفي القرن العشرين، طرأ على الفلك بوصفه علماً، تغيرات جوهرية، إذ انتقل مركز ثقل البحوث إلى نطاق فيزياء النجوم وإلى فلك النجوم، وأصبح الهدف الرئيسي للبحوث دراسة المميزات الفيزيائية للشمس والكواكب السيارة والنجوم والمنظومات النجمية. وظهرت أدوات مستقبِلة للإشعاع جديدة هي لوحة التصوير والخلية الكهرضوئية، وتم تطبيق الكشف الطيفي على مقياس واسع، لذلك فإن المطالب والشروط التي غدت مفروضة على الراصدات، صار عليها أن تفي في المستقبل بمتطلبات غير التي كانت تفي بها قبلاً.

لقد غدا من المرغوب في بحوث فيزياء النجوم ألاّ تفرِض بصريات الراصدات أي قيود على الفاصل المتاح والمتيسر من أطوال أمواج الضوء: لأن الحدود والقيود التي يفرضها جو الأرض مفرطة في حد ذاتها. ولكن العدسات تُصنع من زجاج يمتص الإشعاعات فوق البنفسجية والإشعاعات تحت الحمراء، وإن مدى حساسية لوحات التصوير والخلايا الكهرضوئية يشمل نطاقاً من الطيف أوسع من نطاق حساسية العين وإن تأثير الزيغ اللوني في هذه المستقبلات هو أقوى.

لذلك فإن الأبحاث والدراسات التي تجري في نطاق فيزياء النجوم تقتضي استعمال الأجهزة العاكسة، إضافة إلى أن صنع مرآة كبيرة للعاكس أسهل بكثير من صنع جسمية لا لونية ذات عدستين، لأنه بدلاً من معالجة أربعة سطوح كاسرة بدقة بصرية (أقل من ثُمن طول الموجة λ تقريباً، أي ٠,١ مكرون تقريباً من أجل أشعة الإبصار) لا يضطر صانع الجهاز إلى أن يهتم إلا بسطح واحد، إضافة إلى أنه لايتحتم عليه عندئذ أن يراعي قيوداً شديدة تتعلق بالتجانس الذي يتطلبه زجاج العدسات. إن كل هذه الأمور قد جعلت من العاكس الجهاز الأساسي لفيزياء النجوم، أما بحوث قياسات النجوم فتُستعمل فيها عدسات كاسرة. ذلك أن العاكسات حساسة جداً بأدنى دوران طارئ يصيب المرآة فيها لأن زاوية الورود تساوي زاوية الانعكاس، فإذا دارت المرآة المستوية بزاوية قدرها يه، انتقلت الصورة (الخيال) بزاوية قدرها ٢ يه. وأما الانتقال الذي يولده دوران مماثل لعدسة جسمية فهو أصغر، ومادامت مواقع النجوم في بحوث القياسات النجمية يجب أن تقاس بالدقة العظمى، فإن اختيار العدسات الكاسرة هو المفضَّل.

إن الصورة التي يولدها العاكس ذو المرآة المكافئية واضحة جداً، كما سبق ذكره ولكن يقتضي هنا إبداء احتياط: يجوز أن تُعدّ الصورة كاملة مادامت قريبة من المحور، ولكن الابتعاد عن المحور يُظهر فيها تشويهات، فالعاكس الذي له مرآة مكافئية واحدة لا يمكِّن من تصوير مناطق كبيرة من السماء، من رتبة ٥ درجات ×٥ درجات مثلاً، وذلك أمر ضروري لدراسة الحشود النجمية والمجرات والسدم المجريّة، لذلك فمن أجل الأرصاد التي تتطلب حقلاً واسعاً تُصنع كواسر-عواكس تُصحَّح فيها زيوغ المرآة بعدسة رقيقة تكون في أغلب الأحوال شفافة للأشعة فوق البنفسجية. وقد كانت مرايا العاكسات قديماً مابين القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر تصنع من أشابة معدنية خاصة. ثم بعد ذلك، لأسباب تقنية استعاض صانعو الآلات البصرية عن المعدن بالزجاج. يعالج أولاً معالجة بصرية، ثم يغطى بطبقة رقيقة من المعدن ذات معامل انعكاس كبير (الألمنيوم خاصة).

المميزات الرئيسية للأجهزة الفلكية

إن العنصرين الرئيسيين المميزين للمنظار وللراصدة هما: قطر الجسمية (قط)، وبعدها البؤري (ق). وكلما كان القطر أكبر كان التدفق الضوئي (تد) الذي يلتقطه الجهاز أكبر، وتعطى عبارة التدفق بالصيغة:

$$\text{تد} = \text{ض سط} = \frac{\pi\,\text{قط}^{٢}\,\text{ض}}{٤}$$

حيث (ض) هي استنارة الجسمية و(سط) سطحها. إن مايميز الجهاز الفلكي، سواء أكان منظاراً أم راصدة، شيئان هما مقدرة الفصل resolving power والتجسيم magnification.

مقدرة الفصل: نظراً لظواهر الانعراج الناجمة عن الطبيعة الموجية للضوء، لاتكون صورةُ النقطة الضوئية المشكَّلة بوساطة جسمية (عدسة كانت أو مرآة) نقطة بل بقعة، ولما كان محيط الجسميات مستديراً، فإن هذه الصورة تكون في الواقع بقعة ضوئية صغيرة مستديرة، ضياؤها أعظمي في مركزها، وتحيط بها حلقات متحدة المركز، هي على التناوب مظلمة ومضيئة. وهذه الحلقات المضيئة يتناقص ضياؤها بسرعة بحيث لا ترى إلا البقعة الصغيرة.

إن الزاوية (يه) التي تقابل في السماء نصف قطر أول حلقة مظلمة تحيط بالبقعة المضيئة تعطى بالصيغة: $\text{يه} = ٠,٢٢ \frac{\pi}{\text{قط}}$ حيث تقدَّر (يه) بالراديان، وحيث (قط): قطر فتحة الجسمية. ويمكن أيضاً تقدير (يه) بثواني القوس و(قط) بالسنتيمترات، وبتطبيق الصيغة السابقة باعتبار طول الموجة λ، طول موجة الشعاع الأصغر (λ = ٠,٥٥٠ مكرون) (وهو الذي تبلغ عنده حساسية العين قيمتها العظمى)، تصبح الصيغة عندئذ:

$$\text{يه} = \frac{\text{١٤ثانية}}{\text{قط (سم)}}$$

وتمثِّل الزاوية (يه) قياس أصغر التفاصيل الدقيقة التي تمكِّن الآلة البصرية من رؤيتها وتمييزها، أو بعبارة أخرى: البعد الزاوي لنجمين يمكن رؤيتهما مفصولين أحدهما عن الآخر. وهذه هي العبارة النظرية لمقدرة الفصل.

إن مقدرة الفصل تكون أحسن كلما صغرت قيمتها. وهكذا فكلما كان قطر جسمية الآلة البصرية (قط) أكبر كانت مقدرة الفصل لهذه الآلة أحسن. ومن جهة ثانية، عندما يكون القطر محدداً، تصغر مقدرة الفصل عند ازدياد طول موجة الضوء.

إن مقدرة الفصل النظرية للراصدة التي قطر فتحتها ٥ أمتار، المركبة في مرصد جبل بالومار Palomar بكاليفورنية هي ٠,٠٢٤ ثانية، أما في الواقع، وبمراعاة اضطراب الجو فإن من الشاذ أن تهبط قيمة مقدرة الفصل دون ٠,١ ثانية.

التجسيم: تتعين مقدرة المنظار الفلكي خاصة بالتجسيم الذي يمكِّن من استعمال المنظار استعمالاً مفيداً، وهو مع بقاء جميع الشروط الأخرى على حالها، يتعلق بضيائه وبمقدرة الفصل فيه. إن التجسيم لايتحدد إلا في حالة الرصد بالعين، وذلك بوساطة عينية

تتألف دوماً من عدستين يكون لهما حقل زاوي خاص أكبر بكثير من حقل المكبرة البسيطة، وزيغ هندسي أقل. والتجسيم موجب دوماً بحيث يتيح استعمال معلمات مادية مثل الخيوط أو المكرومترات المنقوشة على الزجاج، في مستوي الصورة البؤرية الذي هو المستوى البؤري الجسمي للجملة العينية، فإذا كان البعد البؤري الناتج لهذه الجملة (**ق**) والبعد البؤري لجسمية النظارة (ق)، فإن التجسيم الحاصل

هو: $\text{تج} = \frac{\text{قَ}}{\text{ق}}$

ولما كان بؤبؤ الدخول إلى الجهاز هو الحافة الحرة للجسمية، فإن بؤبؤ الخروج هو صورته التي تكونها العينية أو القرص العيني، وهي صورة حقيقية وتقع إلى الوراء قليلاً من العدسة الثانية التي تسمى عدسة العين، في حين أن العدسة الأولى هي عدسة الحقل، فإذا كان قطر هذه العدسة (قطَ) فإنه يمكن كتابة التجسيم أيضاً

على النحو: $\text{تج} = \frac{\text{قط}}{\text{قطَ}}$ حيث

(قط): قطر جسمية المنظار، فيمكن إذاً حساب (تج) انطلاقاً من قياس (قطَ)، وقد كان هذا مبدأ قياس التجسيم (دينامتر) لرمسدن Ramsden حيث كان يُجلب إلى مستوى حلقة البقعة زجاجة شفافة قد نقش عليها سلم دقيق جداً ينظر إليه بمكبّرة تمكّن مباشرة من قراءة قيمة (قطَ). هنالك قيمة دنيا $\text{تج}_{\text{د}}$ للتجسيم تسمى «متساوية البؤبؤ» إذا نزلنا إلى ماهو أدنى منها لاتتم الاستفادة من الجسمية بكاملها، وقيمتها

$\text{تج}_{\text{د}} = \frac{\text{قط}}{٠,٦}$ ذلك لأنه إذا كان $\text{تج}_{\text{د}} > \text{تج}$

فإن بؤبؤ الخروج يفيض على بؤبؤ العين، وهذا الأخير يحجب أو يحظر بنفسه بؤبؤ الدخول المفيد فينقص الضياء الفعلي للجهاز.

يُعرَّف كذلك تجسيم أدنى تكون مقدرة الفصل - ابتداءً منه - قد استُثمرت استثماراً حسناً. وينبغي من أجل ذلك لهذا التجسيم الذي يسمى «الفاصل» $\text{تج}_{\text{ف}}$ أن يُري مقدرة فصل الجسمية ضمن زاوية تساوي حدة البصر، أي دقيقة واحدة أو ٦٠ ثانية.

$$\text{تج}_{\text{ف}} = \frac{٦٠'' \times \text{قط(سم)}}{١٤''} \approx ٥\ \text{قط}$$

وينتج أن $\text{تج}_{\text{ف}} = ٣\text{تج}_{\text{د}}$

وهكذا، فإن الجسمية التي قطرها ٦٠سم، يكون فيها $\text{تج}_{\text{ف}} = ٣٠٠$ و $\text{تج}_{\text{د}} = ١٠٠$

الراصدة الكاسرة أو المنظار

إن جسمية المنظار هي دوماً زوج لا لوني من العدسات. ولا يظهر الزيغ اللوني إلا في الآلات الكبيرة، فيبدو هدباً بنفسجياً على حافة القمر، أو هالةً من اللون نفسه حول النجوم الشديدة اللمعان. وهناك بعض الجسميات تتألف من ثلاثيات بحيث أن تصحيحها من حيث اللالونية أميز من الأولى ولكن قطرها محدود بـ ٢٠ سم تقريباً لأنها تتطلب عدسات خاصة جداً، منحوتة وفقاً لسطوح كبيرة الانحناء، ولذلك فإن مَرْكَزَتها صعبة وكلفتها كبيرة. إن الجسميات المؤلفة من عدستين فيها تعويض جيد للزيوغ الهندسية (الزيغ الكروي والتذنب والتشوه) التي توجد في العدسة البسيطة. ويوجد من هذه الثنائيات عدة أشكال تقليدية يختلف بعضها عن بعض ولا سيما بانحناءات وجوه العدسات المستعملة، بحسب ما يكون المطلوب فيها هو الوضوح إلى أبعد إمكاناته مع نعومة الصورة على المحور، أو الحصول على صورة صحيحة مضبوطة ضمن حقل متسع، ويكون المطلوب أحياناً بعداً بؤرياً أقصر مع فتحة معينة.

تركَب العدسات في طاحونة مع وصلة تجنِّبها الضغط ولكن من دون أن تترك للعدسات مجالاً للتحرك في مكانها. إن الجسميات الصغيرة وحدَها، أي التي قطرها أصغر من ٤سم، التي توجد في المصوِّبات أو في غيرها من الأدوات الملحقة، تلصق بوساطة صمغ كندا، وأما جسميات المناظير فإن عدساتها تكون مفصولة بثلاثة أسناد موزعة على ١٢٠° درجة وموضوعة على المحيط. ويرافق المنظار حقيبة فيها عدد من العينيات تُراوح أبعادها البؤرية بين بضعة دسيمترات وبضعة مليمترات. وأطول هذه العينيات هي التي تعطي التجسيم ($\text{تج}_{\text{د}}$) ويبلغ بعدها البؤري ٩ سنتيمترات.

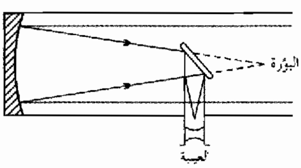
الراصدة العاكسة أو الراصدة

إن مرآة الراصدة سطح مكافئ دوراني، خواص مقطعه الطولي تجعله نقطياً بالنسبة إلى جسم نقطي واقع في اللانهاية على المحور. وفي الأحوال التي يكون فيها قطر الفتحة أصغر من ٢٠سم تقريباً يمكن الوصول عملياً إلى هذه النتيجة حتى بالمرآة الكروية. إن البعد البؤري للراصدة هو على وجه التقريب أصغر بثلاث مرات من البعد البؤري لمنظار يساويه في الفتحة. وفي ذلك فائدة كبيرة فيما يتعلق الحاضن وقبة المرصد. ولا يكون هنالك إلا سطح واحد يحتاج إلى تشكيل، فالمادة التي تصنع منها المرآة ليس لها من دور سوى أنها حامل ميكانيكي للطبقة العاكسة التي تطلى بها، لذلك كان من الأسهل الحصول على مرايا لها أقطار أكبر كثيراً من أقطار الجسميات الكاسرة.

إن المرايا الكبيرة ثقيلة جداً وينبغي سندها من ظهرها في عدد من النقاط، بوساطة جملة من الروافع لا اتجاهية أو مطلقة يتوافق ضغطها آلياً مع ميل المرآة من أجل التعويض عن إجهاد الالتواء.

وتسمح الراصدة باستعمال عدة تركيبات بصرية تقليدية (مع الإبقاء على المرآة الرئيسة عينها) وتكون الأبعاد البؤرية المتدرجة المكافئة لها واسطة لمضاعفة إمكانية الجهاز. والراصدات أنواع منها:

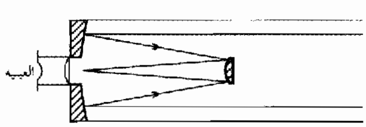
راصدة نيوتن: تقع البؤرة فيها مباشرة على محور المرآة، ولا يجلس الراصد عندها إلا في حالة الراصدات الكبيرة وذلك بفضل حجرة معدّة لهذه الغاية. ويُكتفى على نحو عام، بردّ الحزمة جانبياً بوساطة مرآة تمثل بزاوية ٤٥° على



(الشكل ٢) راصدة نيوتن

الحزمة المنعكسة (الشكل ٢).

راصدة كاسّغران: هذه التركيبة التي استنبطها عام ١٦٧٢ الفيزيائي الفرنسي ن. كاسّغران Cassegrain تعتمد على مرآة ثانوية زائدية (قطع زائد) موضوعة على المحور قبل البؤرة بقليل، تعكس الحزمة من خلال فتحة مركزية في وسط المرآة الرئيسة، فتحصل بهذه الصورة بؤرة مكافئة أكبر من البؤرة الرئيسة بـ٢ إلى ٥ مرات، وتتولد صور أبعادها الخطية مكبَّرة بالنسبة عينها. وإن الوصول إلى البؤرة وراء المرآة سهل جداً (الشكل ٣).



(الشكل ٣) سير الأشعة في راصدة كاسّغران

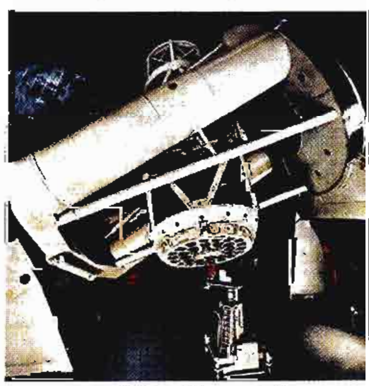
الراصدة ذات المرفق: هذا الاسم الذي اشتُق من اسم الراصدة الاستوائية ذات المرفق، والتي غايتها كانت مماثلة، يعني تركيبة تمكّن من إيصال الصورة إلى داخل جُمل معقدة ثقيلة وتشغل حجماً كبيراً مثل مرسامات الطيف الكبيرة المركبة في مكان ثابت من المختبر. ترسل الحزمة أولاً في محور الميل ثم في المحور الأصلي المسمى «القطبي» وتُستقبل في نهايته السفلى. ولكل الراصدات الكبيرة هذا الجهاز الذي تنتج فيه في النهاية بؤرة أطول بـ ٨ إلى ١٠ أمثال البؤرة المباشرة.

الحواضن

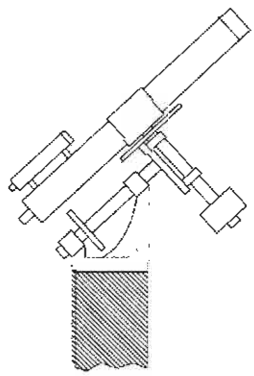
إن المناظير والراصدات تكون على شكل أنابيب يقتضي أن يتمكن الإنسان من توجيهها نحو جميع نقط السماء وتحريكها بحيث تتبع الحركة اليومية للنجوم، فالمحور الرئيسي أو القطبي يكون إذاً موازياً لمحور العالم ويدور المنظار حوله بمعدل دورة واحدة كل ٢٤ ساعة نجمية. إن الأجهزة المتوسطة القد تركّب في نهاية محور ميل قصير يحمل ثقلاً معادلاً في الطرف الآخر (الركوبة أو الحاضنة mountiug الشكلان ٤، ٦)، وتركّب الراصدات غالباً بطريقة مماثلة، على أن يكون المحور القطبي مع ذلك ممسوكاً بمسطحتين: مسطحة في كل طرف (الحاضنة الإنكليزية البسيطة الشكلان ٥ و٧)، مع الاستفادة من الوضع المنخفض لمركز الثقل في الجوار القريب من المرآة. ويمكن أيضاً وضع الأنبوب في مذراة. وهنالك بعض الآلات المفرطة الثقل قد ركِّبت في سرير هو مذراة مغلقة من الأعلى، ولذلك فإنها تمنع من الرصد حيزاً شكله قبة حول القطب. وقد اختير من أجل راصدة جبل بالومار ذات الأمتار الخمسة، حل وسط وهو حل حدوة الحصان، حيث المحور ممسوك مسكاً جيداً في طرفيه، ويمكن للأنبوب أن يكون مضطجعاً على طول محور العالم. وقد اعتمد على الركوبة ذات السرير أيضاً من أجل المناظير المسماة «مناظير خريطة السماء» وكانت وظيفتها تقتصر على تصوير مناطق محددة تماماً بعيداً عن القطب.



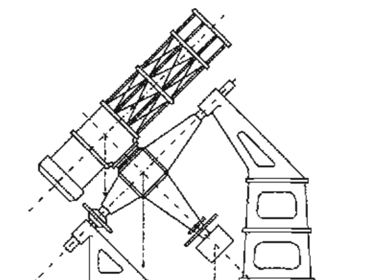
(الشكل ٦) الحاضنة الألمانية



(الشكل ٧) الحاضنة الإنكليزية



(الشكل ٤) مقطع مبسط للحاضنة الألمانية



(الشكل ٥) مقطع مبسط للحاضنة الإنكليزية

إذا كانت الأشكال العامة للحواضن قد ثبتت تقريباً منذ أمد طويل، فإن تحسينات تقنية قد أُدخلت على الأجهزة التي تقوم بتنقيل جهاز الرصد وتصويبه بحركات واسعة وسريعة، وبتصحيح موقعه بتنقيلات صغيرة من أجل الانتقال من جرم إلى آخر والتحكم بتعريض تصويري إلى نجم متحرك، ولم تعد الآن وضعية الجهاز تُقرأ عامة على دوائر تتفاوت في إمكان الوصول إليها، ولكن على مَقارئ للمراقبة والتحكم، تُعلن عليها الزوايا بطريقة إلكترونية، ويمكن أيضاً عمل إعلان مسبق للإحداثيات المرغوب فيها والحصول على تصويب آلي للجهاز.

الموازنة بين إمكانية الجهازين: المنظار والراصدة

لقد ظل المنظار أمداً طويلاً جهاز الرصد الوحيد في الفلك. ولم تحتل الراصدة العاكسة مكان الصدارة إلا بعد أن تم استخدام الزجاج في صنع المرآة بدلاً من المعدن الذي صنعت منه المرايا الأولى. ومنذ عهد قريب جاء استعمال المواد الحديثة التي لها عامل تمدد معدوم تقريباً. إن هذين الجهازين الفلكيين: المنظار والراصدة، بدلاً من أن يتزاحما قد أصبحا يتمم أحدهما الآخر.

إن المناظير، ولها على الغالب فتحات تبلغ ق/١٨ أو ق/٢٠ هي أطول من الراصدات بثلاث مرات عند تساوي قطر الفتحة مع الراصدات. ومن جهة ثانية إن صنع المرآة أسهل من صنع جسمية لها القطر نفسه، لذلك فإن المناظير قد ظلت على المقاسات التي كانت تصنع عليها في نهاية القرن التاسع عشر وأقواها هو منظار مرصد يركس Yerkes الواقع على خليج وليامز، وهو تابع لجامعة شيكاغو ويبلغ قطر فتحة هذا المنظار ١٠٢ سم وقد صنع عام ١٨٩٧، ومنظار مرصد ليك Lick (٩١ سم، عام ١٨٨٨) ومنظار مرصد ميدون Medon (٨٣سم، عام ١٨٩٦)، أما الراصدات فقد تابعت تقدمها، ففي أول القرن العشرين لم تكن هنالك أية راصدة يتجاوز قطرها متراً واحداً. ولكن في عام ١٩١٧ صنع جورج ريتشي George Ritchey راصدة قطر فتحتها ٢٥٠ سم، رُكبت في مرصد جبل ولسون، ويوجد في الوقت الحاضر قرابة اثنتي عشرة راصدة يتجاوز قطرها المترين، أكبرها الراصدة ذات الـ ٥٠٠ سم المركبة في مرصد جبل بالومار، وراصدة قطرها ٦٠٠ سم مركبة في شمال جبال القوقاز في الاتحاد السوفييتي، كما توجد عدة راصدات قيد التصميم بـ ٥٫٣م و٤م.

إن الراصدة هي الآلة المثالية لبحوث فيزياء النجوم بفضل قطرها الكبير ولا لونيتها التامة والانعدام الكامل لكل ترشيح ضوئي من أي عضو بصري في أكثر تركيباتها. ولدى الموازنة بين الراصدة والمنظار في حالة تساوي الفتحة فيهما، فإن الراصدة أصغر حجماً من المنظار وأقل تعرضاً للتقوس وأسهل على الموازنة وعلى التوجيه. ولكن نادراً ماترى في الراصدة صورة الانعراج النظرية لنجم، وهي بقعة مركزية تحيط بها حلقات مظلمة ومضيئة على التناوب. وإن الإنسان ولو حزر وجودها حزراً، فإنها تكون دوماً غارقة في ضياء طفيلي.

إن المنظار هو آلة التصويب المثلى من بين جميع آلات رصد مواقع النجوم، سواء أكانت آلات مراقبة أم آلات تصوير، وحجمه غير مربك إذا لم يتجاوز قطر جسميته ٢٠ إلى ٤٠سم، وهو صلب قليل التحسس بالاضطرابات الجوية ويمكنه أن يكشف نجوماً بمراتب العظمة العادية للنجوم الواردة في الفهارس. فيمكن إذن القيام بوساطة المناظير بعمل منتظم جداً. أما المناظير الكبيرة، فهي، خلافاً لذلك، لا يمكن استعمالها دوماً بكامل قدرتها، ولكن حين تكون الشروط مواتية فإنها هي الوحيدة التي تستطيع إعطاء أدق الأرصاد والقياسات، في حالة النجوم المزدوجة المتراصة مثلاً وسطوح الكواكب السيارة. إن مقدرة الفصل التي يعينها ويحددها

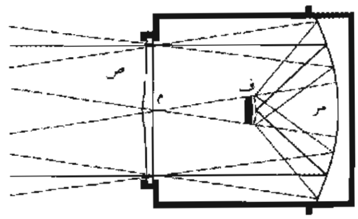
حد الفصل به = $\frac{١٤''}{\text{قطر(سم)}}$ تمثل في الواقع

نصف قطر أول حلقة مظلمة من صورة الانعراج. وأحسن معيار لنوعية الجسمية وجودتها هو رصد النجوم المزدوجة المتراصة، وذلك هو أيضاً أحد الاستعمالات التي تناسبها، فإذا كانت الزاوية بين مركبتي النجم تساوي حد الفصل (به). فإنه يُرى عندئذ قرصان متقاطعان تقاطعاً كبيراً ولكنهما مع ذلك قابلان للتمييز، ويظل ذلك ممكناً في حالة زوايا أصغر من ذلك أيضاً، فترى عندئذ صورة غير مميزة ولكنها متطاولة تطاولاً يمكّن من القيام بقياسات زاوية ويمكّن في أسوأ الحالات من إجراء تقدير جيد للبعد الزاوي بين مركبتي النجم المزدوج يرتكز على مظهر الصورة. إن جميع المراقبين والراصدين المتمرنين يتفقون على أن أحسن الشروط الجوية تمكّن الجسمية الجيدة من عمل قياسات جيدة حتى قيم فصل مقدارها $\frac{٣}{٤}$ به، ومشاهدة ازدواج زوجين غير مفصولين بين هذا الحد وبين $\frac{٣}{٢}$

آلات الفلك الخاصة

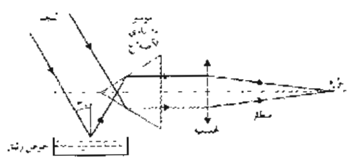
إن الأجهزة التي تستشعر صورة النجوم أو إشعاعها تستعار غالباً مع تهيئاتها المفيدة من مختبر الفيزياء مثل: مقاييس شدة الضوء، ومسجلات الطيف وغيرها.

راصدة شميدت: في عام ١٩٣٠ بيّن برنهارد شميدت Schmidt وهو من مرصد همبورغ أنه يمكن الحصول على صور مضبوطة في حقل واسع بوساطة مرآة كروية تسبقها صفيحة مصححة بحسب مقطعها الزوالي لهذا الغرض.

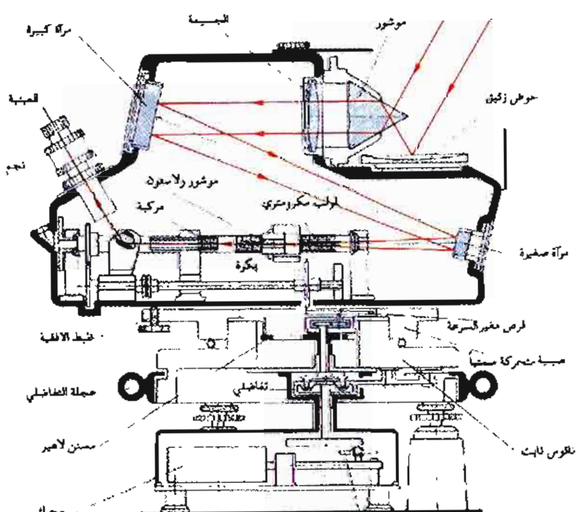


(الشكل ٨)

مخطط سير الحزمة في راصدة شميدت



(الشكل ٩) مبدأ الاسطرلاب ذي الموشور



الشكل ١٠) مقطع مبسط للاسطرلاب ذي الموشور لدانجون

إن راصدة شميدت كثيرة الانتشار وأكبر هذه الراصدات لها مرايا قطر فتحتها ٢م وصفيحة أكبر من متر. تتلقى الصورة على سطح منحن يطبق عليه إما «فيلم» يثبت عليه بالامتصاص وإما صفيحة رقيقة تجرب قبلاً في مكبس تقسر فيه تحت انحناء مضاعف (الشكل٨).

المنظار الزوالي: ظل هذا المنظار ـ الذي يسمى أيضاً الدائرة الزوالية ـ الأداة الأساسية لتعيين المواقع. وهو منظار لا يسمح سوى مستوى الزوال، إذ يقرأ الراصد الارتفاع الظاهري للتصويب بدقة كبيرة على دائرة مدرجة تصوب بوساطة ٤ أو ٦ أو ٨ مجاهر مركبة بشكل مضلع منتظم، وعندما يمر نجم في هذا المستوى يتم التعيين في آن واحد للساعة النجمية وللارتفاع بإعطاء الإحداثيين الاستوائيين لهذا النجم. رأما الميقاتية المشتركة مع هذا الجهاز فيُتحقق منها برصد عدد من النجوم تدعى «أساسية» في الحين الذي تقوم فيه جهازية تقليدية للقياس، فوق حوض زئبقي وشواخص ومجمعات، بإعطاء ثابتات الجهاز (ميل المحور وسَمْته والغراءة عند السمت والتجميع) وهذه الثابتات تدخل في تصحيحات للساعات وللارتفاعات الإجمالية المقيسة. وهكذا تكون الدقة من رتبة

٠,٠٢ ثا في الطلوع المستقيم night ascension و٠,٣ في الميل declination (البعد عن خط الاستواء).

الاسطرلاب ذو الموشور: في هذا الجهاز يُلتقط النجم عند مروره بالارتفاع الظاهري ٦٠° برصد الانطباق بين صورتين حاصلتين تبعاً لمسارين مختلفين انطلاقاً من الحزمة الواردة، ولما كانت إحداهما ناتجة من انعكاس واحد والأخرى من انعكاسين، فإن الحركة اليومية تجعلهما تسيران في اتجاهين متعاكسين. ويتعين الارتفاع النموذجي بكامله بزاوية الموشور لا بالتوجيه الصحيح لوجهه الخلفي أو توجيه المنظار، ويبين الشكل (٩) مبدأ هذا الاسطرلاب وسير الأشعة فيه أما الشكل (١٠) فيبين مقطعاً مبسطاً لهذا الاسطرلاب.

إن هذا الجهاز، بشكله الحديث الذي صنعه فيه عام ١٩٥٤ الفلكي أندريه دانجون Andre Danjon (١٨٩٠-١٩٦٧) قد أعطى نتائج دقيقة جداً في عدة مجالات أساسية: فهارس النجوم، وحركة القطب، وعدم التساوي في دوران الأرض.

المصوِّرة الإلكترونية: في عام ١٩٣٥ سعى أندريه لالمان Andre Lallemand (المولود في عام ١٩٠٤) للاستفادة من خواص الطبقات الحساسة ضوئياً من أجل زيادة إمكانات أجهزة الرصد. ففي مصوّرته الإلكترونية يوجّه الضوء إلى مهبط ضوئي يُصدر تدفقاً من الإلكترونات بعدد متناسب تماماً مع عدد الفوتونات الواردة، ثم تجمّع هذه الحزمة على لوحة مناسبة للحصول على صورة إلكترونية للجسم. إن هذا الجهاز يضاعف الحساسية بنسبة ٥٠ إلى ١٠٠ مرة، ويمكّن من الحصول على صورة فورية تقريباً للنجوم والكواكب السيارة وهو ينطبق على كشف النجوم الشديدة الضعف ودراستها وعلى بعض المنابع الراديوية الضوئية وعلى التصوير الإلكتروني للسيارات وعلى التسجيل الطيفي الشديد الدقة.

وجيه السمان

الموضوعات ذات الصلة:

الأدوات والآلات البصرية - الانعراج - الفلك (علم -) - الفلك الإشعاعي (علم -) - الكازار - النابوض.

مراجع للاستزادة

منجد وتربدار وسماه، الأخيلة الضوئية - الكتاب الثاني مترجم عن الفرنسية (مطبوعات المجلس الأعلى للعلوم، دمشق ١٩٧٥)

الفلك لعدد من العلماء الفرنسيين بإشراف فيليب دولاكوتا رديير، ترجمة وجيه السمان (باريس ١٩٨١)

■ الأجيال ← النفس (علم -)

■ الأحافير (علم -) ← المستحاثات (علم -)

■ الإحباط

لكل دافع لدى الإنسان غرضه، فإذا قام الإنسان بالسلوك المحرِّك بالدافع قيل عن السلوك إنه موجه بغرض. وقد يكون الغرض واضحاً، وقد يكون غير واضح. ويتم إشباع الدافع بوصوله إلى غرضه، في بعض الأحيان، وقد يمتنع ذلك، في بعض الأحيان، بسبب عائق، وتكون النتيجة شعور الإنسان بالخيبة وبضيق يرافقها. في مثل هذه الحال يقال إن الدافع قد أُحبط، أو إن سلوك ذلك الإنسان قد أُحبط. ولما كان الدافع، والسلوك الموجّه به، والنتيجة الناجمة عن الإعاقة، تؤلف كلها عملية نفسية متكاملة، اتجه استعمال مصطلح «الإحباط» frustration نحو الدلالة على كامل العملية، أي إنه يدل على حالة الحبوط لدى الإنسان من حيث الدافع والسلوك الذي ظهر لديه. وحين تُؤخذ هذه العملية المتكاملة ومعها الظروف المحيطية فإن المصطلح الذي يغلب استعماله عندئذ هو «الموقف الإحباطي».

والإحباط حادث يمر به الحيوان كما يمر به الإنسان، والمصادر التي تُعتمد في جمع المعلومات عنه هي الملاحظة والتجريب في الحالين. تتجه الملاحظة مثلاً نحو التلميذ وقد جاءت نتيجة الامتحان سيئة خلافاً لما توقع، أو نحو طالب العمل وهو يقرأ في لوحة الإعلانات ما يدل على أن طلبه لم يحظ بالقبول، كما تتجه نحو القط الجائع الذي يُمنع من الوصول إلى طعام تراه عيناه، أو الحصان الذي يمنع من الخروج من حظيرته وقد فتح بابها وحان وقت خروجه. أما التجريب فقد ينظم لدراسة الإحباط الذي يمكن أن يحدث مثلاً لدى مجموعات من الشباب مُنع عنهم عرض تمثيلية بعد أن وعدوا بذلك، أو لدراسة الإحباط لدى فأر اشتد به العطش وهو يُمنع، مرة تلو المرة، من الوصول إلى مصدر للماء.

والعائق الذي يؤدي إلى الإحباط قد يكون خارجياً يقع في محيط صاحب السلوك وقد يكون داخلياً. فإذا كان خارجياً فمن المحتمل أن يكون مادياً، مثل باب مغلق يمنع الطفل من الخروج، أو أن يكون جسدياً، مثل وجود عيب في قدمي طفلة يمنع قبولها للتدريب على رقص الباليه وهي ترغب كثيراً في ذلك، أو أن يكون اجتماعياً مثل موقف الآخرين من لون البشرة لدى طالب عمل في مجتمع ما يزال يتأثر بالفروق في لون البشرة لدى قبول العمال. وحين يكون العائق داخلياً فيحتمل أن يكون في شعور الفرد بضعف في قدراته، أو في ثقته بنفسه، أو في توقعه حدوث الإعاقة، ويقدم الطلاب الذين يرغبون في الانتساب إلى كليات الطيران أمثلة متعددة على الاحتمالات الثلاثة.

إن تحليل كل حالة من حالات الإحباط يدل على وجود الدافع والسلوك والإعاقة التي تعوق إرضاء الدافع، كما يدل على وجود شعور بالضيق، وشعور بوجود تهديد ناجم عن عدم تلبية غرض الدافع أو الحاجة التي يعبر عنها. ومن هذه الزاوية يمكن تعريف الإحباط بالقول: إنه حالة نفسية تحدث حين يُعوّق سلوك موجه بغرض أو هدف، أو إنه العملية التي تتضمن إدراك الفرد وجود عائق (أو توقع وجود عائق) يعوق إشباع دافع لديه إدراكاً يرافقه شعور بالتهديد.

ومع أن الإحباط ينطوي على امتناع إرضاء دافع، وأن الحرمان ينطوي كذلك على مثل هذا الامتناع، إلا أن بين الحالين اختلافاً يدعو إلى التفريق بينهما. فالإحباط مرتبط بوجود عائق، أو توقعه، أما الحرمان ففيه امتناع وجود الوسائل التي تؤدي إلى إشباع الدافع. فالإنسان الذي يشعر بالجوع الشديد في الصحراء، وليس هناك ما يأكله، يشعر بالحرمان، أما إذا كان الطعام أمامه ويستطيع القيام بالسلوك الموصل إليه،

ولكنه يُمنع من ذلك، فإن ما ينتهي إليه جوعه في النهاية هو الإحباط.

أشكال الإحباط

الإحباط على أشكال، والتمييز بينها قائم على المنطلق المعتمد في التمييز. فالإحباط قد يكون فردياً وقد يكون جماعياً حين ينظر إليه من ناحية من يقع عنده الإحباط: فهو فردي حين يقع عند فرد واحد، وجماعي حين يحدث لدى جماعة توجد بين أفرادها روابط خاصة كما هو الحال لدى مشايعي فريق كرة القدم حين ينهزم فريقهم خلافاً لما كانوا يتوقعون أو يأملون.

ويكون الإحباط داخلياً في حالات وخارجياً في حالات، وذلك حين يُنظر إليه من زاوية مصدر الإعاقة. فإذا جاءت الإعاقة من داخل الشخص، مثل الشعور بضعف القدرة أو مثل توقع الإعاقة، سُمي الإحباط الداخلي. أما إذا جاءت الإعاقة من الشروط المحيطية، المادية أو الاجتماعية، فإنه يسمى الإحباط الخارجي.

وهذه الأشكال الأربعة المذكورة هي ما يغلب الحديث عنه. ولكن هناك احتمالات أخرى لدى باحثين آخرين تشير إلى إمكان التمييز بين إحباط وآخر انطلاقاً من الفئتين الكبيرتين للدوافع، الدوافع الأولية والدوافع الثانوية، أو من درجة التهديد الذي ينطوي عليه الإحباط.

آثار الإحباط

يكون الإحباط على درجات من حيث شدته، أي من حيث وقعه على صاحبه. ويغلب أن يكون الإحباط ضعيفاً إذا كان الدافع المُحبَط ضعيف القوة، وأن يكون من شدة عالية إذا كان الدافع المحبط عظيم القوة، وكان الغرض الذي يسعى إليه المرء بالغ الأهمية. والإحباط الضعيف ذو أثر بسيط في صاحبه، ولكن الإحباط العظيم الشدة يترك أثراً بالغاً في صاحبه سرعان ما تظهر نتائجه. وانطلاقاً من وجود إحباط ضعيف من طرف وإحباط عظيم الشدة من طرف آخر، ومن وجود درجات بين الطرفين، جُعل الإحباط موضوع قياس في حالات كثيرة بنيت فيها مقاييس نفسية خاصة للكشف عن درجة شدته.

يحدث في حالات أن يمرّ زمن غير قصير بين إحباط وآخر يحدثان لدى الفرد الواحد، ويكون الارتباط بينهما غير قائم أو يكون ضعيفاً جداً. ولكن يحدث، في حالات أخرى، أن تتوالى الإحباطات لدى الفرد وأن تتراكم آثارها فيؤدي تراكمها إلى أشكال من السلوك لا تتناسب وشدة الإحباط الأخير، فيبدو كأن «الكيل قد طفح» أو أن الإحباط الأخير هو «القشة التي قصمت ظهر البعير».

تأخذ الآثار التي يخلفها الإحباط أشكالاً متعددة سواء أكان إحباطاً واحداً شديداً أم تراكم إحباطات. ومن هذه الآثار شعور الفرد بشيء من الغم أو الكرب، وقد يغدو هذا الشعور شديداً حين يرى الفرد أن الغرض الذي أخفق في الوصول إليه ينطوي على خسارة فادحة، ولا يُستغرب، في حالات شدة من هذا النوع، كوقوع خسارة بالغة بتاجر كان ينتظر الربح الوفير، أن تؤدي آثار الإحباط إلى اضطراب نفسي يمكن أن يكون شديداً. والنظرة العلمية إلى آثار الإحباط عندئذ هي أن هذه الآثار تقع بين العوامل المتسببة في حدوث ذلك الاضطراب.

ومن الآثار التي يكثر وقوعها لدى الأفراد بنتيجة الإحباط القيام بسلوك عدواني. ولهذا السلوك العدواني عدة أشكال منها إيقاع الأذى بالأشخاص أو الممتلكات أو بالأشياء المادية الأخرى. وقد يكون العدوان رمزياً يظهر في الشتائم أو في حركات رمزية عدوانية مثل نظرات التوعد. وكثيراً ما لوحظ أن أباً يعاقب ابنه من غير خطأ ارتكبه الابن ويتضح، بعد تحليل الموقف، أن طعام الغداء لم يكن جاهزاً في البيت في وقته المعتاد. وكثيراً ما لوحظ إغلاق العامل باب مكتب مديره بعنف حين يخرج من المكتب ولم يحقق المدير له ما طلب. وتجدر الإشارة هنا إلى كثرة تكرار أشكال العدوان الذي يتجلى في سلوك المشايعين لفريق كرة القدم حين يخرج الفريق منهزماً. إن شدة الارتباط بين الإحباط والعدوان، التي ظهرت في دراسات متنوعة، جعلت عدداً كبيراً من علماء السلوك يقولون: «فتّش عن الإحباط وراء العدوان».

ومن الممكن أن يقود الإحباط صاحبه إلى الاستسلام أو اليأس ولا سيما حين يكون عظيم الشدّة، كما يمكن أن يقود صاحبه إلى واحدة أو أكثر من تلك الوسائل الدفاعية النفسية التي تسمى «وسائل الدفاع الأولية» أو «وسائل الدفاع اللاشعورية» أو آليات الدفاع النفسي. فكثيراً ما يلاحظ الإحباط على الطفل الدارج عند انشغال الأم عنه بابنتها الرضيعة، وقد يدفع هذا الإحباط الطفل ابن السادسة إلى طلب تناوله الحليب من زجاجة الإرضاع كما تفعل أخته الصغيرة، وهذا السلوك النكوصي يشبه السلوك النكوصي لدى سيدة في الستين من عمرها وهي تحاول الأخذ بسلوك يخص ابنة العشرين. وقد تكون وسيلة الدفاع الأولية الغرق في أحلام اليقظة.

وثمة جانب آخر تتجه إليه آثار الإحباط وهو الدافع المحبَط ذاته. فقد دلت الملاحظة، كما دلّ التجريب، على أن الإحباط الضعيف، أو الشديد، قد يؤدي إلى دعم الدافع المُحبَط وتعزيزه فيزداد شدة وتزداد محاولات صاحب الإحباط القيام بأشكال جديدة من السلوك لإشباع غرض الدافع الأول. ويحدث ذلك، بوجه خاص، لدى من تكون ثقته بنفسه كبيرة. ولكن الإحباط البالغ الشدة قد يؤثر في الدافع تأثيراً سلبياً فيضعفه ويتجه الفرد عندئذ نحو الاستسلام.

توظيف الإحباط

اتجهت دراسات نفسية تطبيقية متعددة إلى بيان إمكان الإفادة من الإحباط في بعض الآثار التي يخلفها، ولا سيما ما يتصل منها بتعزيز الدافع المحبَط. ومن هذه الدراسات دراسات في التعلم والتعليم ودراسات في الحرب النفسية.

فقد ألحت دراسات في التعلم والتعليم على ضرورة الإفادة من صعوبة المسألة التي يستهدفها التعليم لتتحدى المتعلم تحدياً يدفعه إلى مزيد من محاولات إيجاد الإجابة السليمة، ويحميه من الاستسلام أو قبول الإخفاق. ومن هنا جاء القول: «اجعل صعوبة المسألة ليكون الإحباط الناجم عن إخفاق المحاولة الأولى في إيجاد الحل حافزاً لمزيد من المحاولات، ثم يكون في جملة ما تنتهي إليه هذه المحاولات إيجاد الحل والتعلم المكين». ويتجه مثل هذا التوظيف إلى تربية المبدعين وضرورة دعم ثقتهم بأنفسهم وتكرارهم المحاولات لكشف الجديد أو ابتكاره.

وقد ألحت دراسات أخرى على مكانة الإحباط في الحرب النفسية، ولا سيما العدوان الذي يمكن أن ينتهي إليه الإحباط. وفي توظيف الإحباط هنا حالان: أولهما توظيف الإحباط لدى المقاتل ليكون أكثر قوة في الهجوم وفي الدفاع عن مقدساته وشعبه أمام عدو يهاجم. وثانيهما زيادة الإحباط لدى أفراد العدو وجماعاته كي ينقلب إلى سلوك عدواني موجه

إلى قياداتهم أو ممتلكاتهم. ويبلغ الإحباط أوجه في هذه الحالة حين يصيب الأفراد والجماعات في طريقة تنظيمهم وتزويدهم بالمعدات والطعام ويصيب طريقة الاتصال بأهلهم. وفي الحروب والثورات الداخلية أمثلة كثيرة على عدوان نال القيادات والممتلكات بسبب أشكال من الإحباط أصابت الدوافع والسلوك لدى الأفراد أو الجماعات.

نعيم الرفاعي

الموضوعات ذات الصلة

العدوان ـ النفسية (الاضطرابات ـ) ـ النفسية (الصحة ـ).

■ احتراق الخشب (تعطيل ـ)

يقصد من «تعطيل احتراق الخشب أو المواد المصنوعة منه» تشريبه بمركبات كيمياوية تمنع انتشار النار فيه أو تخفف انتشارها نتيجة تحلل تلك المركبات بفعل الحرارة. يتعرض الخشب بمرور الزمن إلى تدهور خواصه الفيزيائية والكيمياوية، ويتوقف مدى هذا التدهور وسرعته على عوامل عدة منها: درجة الحرارة والزمن والنداوة، وإن زيادة درجات الحرارة التي يتعرض لها الخشب تؤدي إلى تحلل طبقاته السطحية، وتغلغل هذا التحلل إلى طبقاته الداخلية كلما طال أمد تعرضه للحرارة. كما يؤدي تسخين الخشب مدة طويلة في درجات حرارة لا تتجاوز ٩٥ْم إلى تفحم طبقاته السطحية. أما إذا سخن الخشب تسخيناً سريعاً في الدرجة ٢٠٠ْم فإنه يتفكك إلى بخار ماء مع آثار من ثنائي أكسيد الكربون وحمض النمل وحمض الخل والغليوكسال، ولا تكون الغازات المنطلقة قابلة للاشتعال عادة. وتحدث تفاعلات الأكسدة الناشرة للحرارة في درجات الحرارة القريبة من ٢٠٠ْم، وقد يحصل اشتعال ذاتي self ignition في الشروط التي ترتفع فيها الحرارة، لذلك توصي سلطات الحماية من الحرائق بألا تزيد درجة الحرارة التي تتعرض لها الأخشاب الموجودة لمدة طويلة بالقرب من مصادر الحرارة على ٧٧ْم.

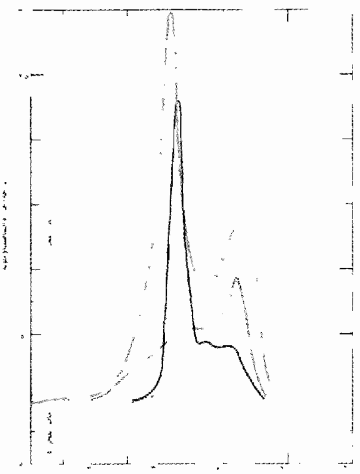
ولدى تحلل الخشب في درجات الحرارة المرتفعة يحدث نقصان الوزن. ولا يتغير هذا النقص بتغير درجة الحرارة فحسب بل بتغير مدد التسخين أيضاً. ويظهر التحليل الوزني الحراري thermogravimetric للخشب وسلولوز ألفا والليغنين lignine برفع درجة الحرارة رفعاً منتظماً بمقدار ٦ْم / دقيقة أن النقص الأولي البطيء في الوزن يبدأ في الليغنين والخشب من الدرجة ٢٢٠ْم.

ويشير التحليل التفاضلي الحراري differential thermal analysis للخشب إلى أن تفاعلات التَدَرُّك الحراري thermal degradation في جو خامل تُحرّر أقل من ٥٪ من الحرارة المنطلقة من الاحتراق في الهواء. وتشير معطيات التحليل التفاضلي الحراري للخشب والسلولوز والليغنين في جو من الأكسجين إلى وجود قمتين رئيسيتين لنشر الحرارة في الخشب أولاهما قرب الدرجة ٣٢٠ْم، وهي تمثل تفاعل التأجج، ويبدو ذلك واضحاً في الشكل البياني. وتقع قمة نشر الحرارة الرئيسية في سلولوز ألفا قرب قمة الالتهاب، أما القمة الرئيسية في الليغنين فتقع قرب قمة التأجج.

يمتاز الخشب غير المعالج بمقاومة جيدة لاختراق النار له عندما يستعمل بثخانات كبيرة في الجدران والأبواب والأرضيات والأعمدة والسقوف. وتعزى خاصة مقاومته هذه إلى ناقلية الحرارية thermal conductivity الرديئة التي تحدّ من سرعة تغلغل الحرارة إلى الطبقات الداخلية منه. لقد ثبت عند بلوغ درجة الحرارة على سطح الخشب ٨٧٠ْ ـ ٩٨٠ْم أن درجة حرارة منطقة التفحم الداخلية تصل إلى الدرجة ٣٠٠ْم تقريباً في حين لا تتجاوز الدرجة ١٧٥ْم في نقطة أعمق من منطقة التفحم بمقدار ٠,٦٥سم، ويتوقف ذلك على الفراغات الموجودة في الخشب وكثافته ومحتواه من النداوة. وهكذا يحتفظ قسم كبير من جسم الخشب بالقسم الأعظم من طاقته على التحمل مدّة لابأس بها عند تعرضه للحريق نتيجة لبطء سرعة تغلغل الحرارة في منطقة التفحم وانخفاض ناقليته الحرارية.

ويمكن الحد من مخاطر احتراق الخشب ومشتقاته بزيادة مقاومته للاشتعال، وذلك بإخضاع الخشب إلى معالجات خاصة، ولايعني ذلك جعل الأخشاب غير قابلة للاشتعال تماماً بل العمل على إنقاص قابليتها للاشتعال والحد من انتشار اللهب. وتتم معالجة الخشب بمعيقات الحريق fire retardants بالتشريب الكيمياوي chemical impregnation أو بالطلي coating.

ومن أهم الكيمياويات المعطلة للحريق



درجة الحرارة المرجعية (مئوية)

التحليل التفاضلي الحراري لاحتراق الخشب ومكوناته وتفككه الحراري عند ارتفاع درجة حرارة التسخين بمعدل ١٢ / دقيقة بسرعة تدفق غازي مقدارها ٣٠ مل / دقيقة لكتل العينات التالية: الخشب ٤٠مغ، سليلوز ٢٠مغ، الليغنين ١٠مغ، فحم الخشب ١٢مغ.
[المفتاح: ـــــ خشب غير معالج في ،
- - - فحم خشب غير معالج في ؛
-------- خشب غير معالج في ؛
ـــــ كبريتات الليغنين غير معالج في ؛
--- خشب معالج بمعيق للحريق
(بسبة ٩ من التلة)].

فوسفات الأمونيوم وكبريتات الأمونيوم وكلوريد الزنك وثنائي سيان ثنائي أميد حمض الفوسفور والبورق وحمض البور، وهي تستعمل غالباً على هيئة تراكيب combination للحصول على نتائج أفضل مما لو استُعمل كل منها على حدة.

ففوسفات الأمونيوم مثلاً تعد معيقاً فعالاً للّهب والتأجج ولكنها تسهم في التفحم المبْتسَر الحادث قبل الأوان premature charring والانتشار السريع للدخان والائتكال corrosion أما كبريتات الأمونيوم فتحد من انتشار الدخان، كما أنها أرخص ثمناً. ولمزيج البورق وحمض البور فعالية متوسطة في إنقاص انتشار اللهب

ومدة ما بعد التأجج من دون حدوث تفحم مُتَبَسِّر في أثناء التجفيف. ويعد كلوريد الزنك معيقاً فعالاً للهب. ويضاف إليه حمض البور غالباً لإعاقة التأجج يُشَرَّب الخشب بمحاليل هذه الكيمياويات المعيقة للحريق في ضغط يعادل الضغط الخلوي وذلك للحصول على تشربات كيمياوية جافة بمعدل ٠,٠٧ – ٠,١ غ/سم٣ وبذلك ينقص انتشار اللهب والتأجج إلى حد كبير. وقد اقترحت نظريات عدة تناولت إعاقة اشتعال الخشب، وتنص أهمها على أن الكيمياويات الفعالة المعيقة للحريق تتفكك في درجات حرارة أخفض من درجة حرارة التفكك المبدئي الطبيعي للخشب مطلقة مواد قادرة على تحويل السلولوز بسرعة إلى فحم الخشب والماء، وهذا يمنع تفككه، في درجات حرارة أعلى، إلى غلوكوزان ـ ل l- glucosan ومنتجات متطايرة قابلة للاشتعال، منقصاً بذلك خواص الالتهاب في الخشب. واستُعْمِلت كيمياويات أخرى في تحضير طلاءات واقية كالمطاط المكلور والبارافين المكلور وثلاثي أكسيد الأنتيموان وكربونات الكلسيوم وبورات الكلسيوم وبنتا أريتريتول pentacrythrithol وتتميز هذه الطلاءات بتضخم طبقتها عند تعرضها للنار عازلة بذلك سطح الخشب.

ويحد من استعمال الكيمياويات المعيقة للحريق كلفتها ورداءة مقاومتها لتقلبات الجو إضافة إلى انخفاض تاثيراتها في خواص الخشب إلى الحد الأدنى.

ويتصدى الخشب المعالج لفعل مصادر النار الصغيرة، وقد يعيق انتشار هذا الفعل إلاّ أنه ينهار عند حدوث حرائق كبيرة. وهكذا يعالج الخشب المستخدم في الأطر الخشبية وداعمات السقوف وهياكل السفن والطائرات، وفي تغطية جدران الممرات وأماكن التجمعات في الأبنية العامة.

فاروق قنديل

■ احتشاء القلب وأمراض الشرايين الإكليلية

احتشاء عضلة القلب cardiac infarction طارئ أساسي ينجم عن قصور دوراني حاد في الشرايين الإكليلية arteria coronaria يؤدي إلى عدم تروية عضلة القلب أو أجزاء محددة منها تروية كافية. ويراد بالاحتشاء اليوم وجود بؤرة محددة من النخر الإقفاري (المقفر من الدم) يسببها انسداد شرياني في مكان ما من الجسم، والاحتشاء أنواع، منها الاحتشاء الأبيض أو الاحتشاء الإقفاري كاحتشاء الكلية، ومنها الاحتشاء الأحمر أو الاحتشاء النزفي كاحتشاء الرئة. أما احتشاء عضلة القلب فيراد به وجود أذيات في أحد جدر القلب من منشأ إقفاري مهما كانت آلية هذا الإقفار. ويسبب هذا الاحتشاء نخراً في عضلة القلب ثم تصلبها، وتمثل هذه الآفة التشريحية معظم حالات الطوارئ الأساسية المترافقة مع التصلب العصيدي الشرياني atherosclerosis، وهي من أهم أسباب الوفيات في العالم الصناعي اليوم.

وأما الشرايين الإكليلية فيراد بها الشريانان الإكليليان (التاجيان) المتفرعان عن الأبهر وما يتشعب عنهما من شرايين صغيرة تغذي جدر القلب. ويسمى الشريان الأول منهما الشريان الإكليلي الأيمن أو الخلفي، وهو الأضخم، ويمر في الثلم الأذيني ـ البطيني ثم في الثلم الخلفي السفلي لما بين البطينين وينتهي هناك. ويسمى الثاني الشريان الإكليلي الأيسر أو الأمامي ويصل إلى الثلم الأمامي بين البطينين وينتهي هناك بعد أن يحيط بقمة القلب، وتتفرع من هذين الشريانين شعب تغذي جدر الأوعية الكبيرة وتفرعات تغذي جدر الأذينين والبطينين.

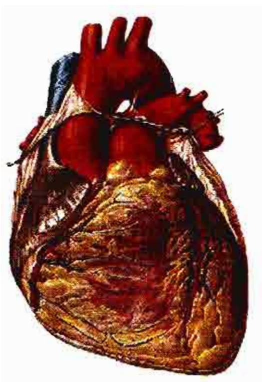
ويعد انسداد الشرايين الإكليلية من أخطر العوامل الممرضة التي تصيب عضلة القلب وتتسبب في الوفاة، وفي مقدمتها التصلب العصيدي الشرياني.

التصلب العصيدي الشرياني

هو تسمك الأوعية الشريانية المتوسطة والكبيرة وتصلبها وتضيق لمعتها، أي تكوّن ما يعرف بالصفيحة العصيدية، وأسباب التصلب العصيدي الشرياني كثيرة، منها عوامل خطر يمكن تجنبها، ومنها مالا يمكن تجنبه كالاستعداد الوراثي والعوامل الديناميية الدموية hemodynamic الموضعية وجنس الإنسان (ذكر أو أنثى).

فإذا تكونت الصفيحة العصيدية في الوعاء الشرياني قد يتقرح سطحها الداخلي أو يتخثر ويسد الوعاء. وغالباً ما تتوضع الصفيحة العصيدية في السنتيمترات الستة الأولى من منشأ الوعاء وفي أماكن التفرع، وتكشف هذه العصائد بتصوير الشرايين الإكليلية، وتنظيرها، ولايؤدي تضيق اللمعة لأقل من ٥٠٪ إلى نقص الجريان الدموي، في حين يؤدي تضيقها أكثر من ذلك إلى نقص الجريان بدرجة تتناسب طرداً مع شدة الإصابة.

هنالك عوامل خطر لايمكن تغييرها كالجنس، إذ تزداد الإصابات في الذكور تحت سن الخمسين وتتساوى في الجنسين بعد سن الخمسين، وكالعمر إذ تزداد نسبة الإصابة بازدياد العمر، وكذلك العامل الوراثي.

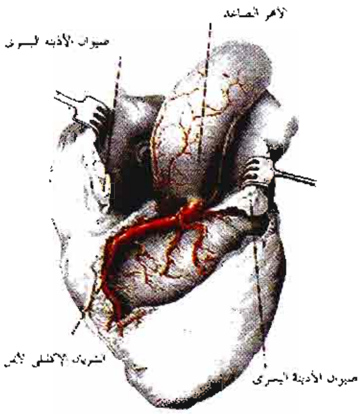


أما عوامل الخطر الكبيرة التي يمكن السيطرة عليها فهي ارتفاع الضغط الشرياني، وفرط كولسترول الدم والتدخين والسكري. وتتناسب الإصابة طرداً مع ارتفاع جزء الكولسترول، البروتين الشحمي ذي الوزن المنخفض LDL، وتتناسب عكساً مع ارتفاع البروتين الشحمي ذي الوزن العاليHDL . أما الشحوم الثلاثية فلم يثبت حتى اليوم أنها وحدها من عوامل الخطر.

وأما عوامل الخطر الصغيرة فهي البدانة، والحياة الساكنة من دون رياضة وارتفاع حمض البول، وكذلك الشخصية من النوع «آ» أي الإنسان المكافح الطموح الذي يعيش في وسط شديد التوتر. وكلما تضافرت هذه العوامل ازدادت نسبة الإصابة.

وهناك أسباب غير عصيدية لانسداد

الشرايين الإكليلية، وهي نادرة، ومنها الصمة الإكليلية والرضوض المفتوحة والمغلقة، والأشكال الكثيرة من التهاب الشرايين كالأفرنجي، والتهاب ما حول الشريان العصيدي، وداء تاكاياشو، والذئبة الحمامية الجهازية المنتشرة والداء الرثواني، ومنها كذلك المتلازمة المخاطية الجلدية العقدية البلغمية (داء كاوازاكي)، وتسلخ الأبهر الصاعد وتسلخ الشرايين الإكليلية نفسها، والخثار الإكليلي كما في احمرار الدم، وفرط الصفيحات، والخثار داخل الوعائي المنتشر، وشَنَج الشريان الإكليلي كما في خناق الصدر من نموذج برنزميتال Prinzmetal's angina.



أوعية العروق للأبهر الصاعد. تشريح القطعة الأولية للشريان الإكليلي الأيمن الذي تدرك فروع راجعة منه جدار الأبهر الصاعد لتشكل شبكة وعائية.

وثمة عوامل أخرى قد تتسبب في نقص التروية الإكليلية إلا أنها غير سادة للشرايين الإكليلية كارتفاع الضغط داخل البطين الأيسر وزيادة الشد الجداري كما في تضيق مخرج البطين الأيسر وكذلك انخفاض الضغط الانبساطي الارورائي كما في قلس الصمام الأبهري، وزيادة كتلة العضلة القلبية كما في تضيق الأبهر والاعتلالات الضخامية ونقص الوارد الدموي كما في حالات فقر الدم وهبوط الضغط الشرياني والانسمام بأول أكسيد الكربون وعدم تخلي الخضاب عن الأكسجين بسهولة. كذلك تكون الشرايين الإكليلية سوية في ٢٪ من حالات احتشاء العضلة القلبية.

الفيزيولوجية المرضية في نقص التروية الإكليلية

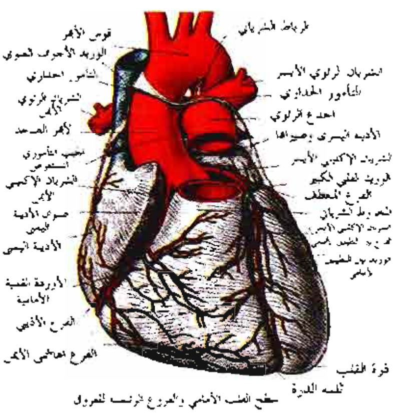
تحدث تظاهرات نقص التروية القلبية عندما يكون متطلب القلب من الأكسجين أكثر مما يصل إليه. وأهم سبب لعدم التوازن هذا وجود عائق ثابت داخل الشرايين الإكليلية، فعندما يصل التضيق فيها إلى ٥٠٪ أو أكثر لاتستطيع هذه الشرايين تزويد القلب بالدم اللازم في حال زيادة المتطلب، وقد يحدث شنج في منطقة التضيق في أثناء الجهد أيضاً. أما في خناق برنزميتال فقد يحدث التشنج من دون تضيق سابق. ومن الأسباب الأخرى لزيادة الطلب زيادة كتلة القلب العضلية، وارتفاع الضغط داخل القلب، كما في تضيق الصمام الأبهري.

يؤدي نقص التروية القلبية إلى سوء مطاوعة البطين. ويؤدي هذا الاحتشاء إضافة إلى ما سبق إلى تحرير عدد من الإنظيمات enzymes (غلوتاميك أوكسالو أسيتيك ترانس أميناز SGOT ، والنازعة اللبنية LDH، والكرياتين فوسفوكيناز). كما تؤدي التغيرات الكهربائية الخلوية إلى حدوث عدة لانظميات arrhythmia ولاسيما تسرع القلب البطيني والرجفان البطيني.

ومن المهم معرفة الوقت الذي يمكن أن تُنقذ فيه الخلايا بعد انقطاع الدوران عنها. فعودة الجريان إلى الشريان في مدة ١٥-٢٠ دقيقة من الانسداد ينقذ النسج الناقصة التروية كافة، أما عودة الجريان بعد مرور ٤-٦ ساعات فإنه ينقذ قليلاً من النسج من التموت. وقد يحدث في جسم الإنسان دوران جانبي للمعاوضة يصل المناطق المتضيقة، ولكن من المشكوك فيه كفاية هذا الدوران وخاصة في المتطلب الشديد، ولايحدث مثل هذا الدوران المعاوض إذا حدث الانسداد فجأة من دون تضيق سابق.

خناق الصدر (الذبحة الصدرية)

خناق الصدر angina pectoris شعور طارىء بعدم الراحة في الصدر يترافق بألم يظهر خلف



سطح القلب الأمامي والفروع الرئيسة للعروق الإكليلية. يقع السهم في جيب مستعرض التامور

عظم القص عادة وينتشر إلى الطرف العلوي الأيسر والظهر، مع إحساس عميق بالقلق والخوف من الموت. وخناق الصدر متلازمة syndrome تتصف بنوبات ألم اشتدادية تقع في المنطقة الأمامية من القلب وتنتشر إلى الطرف العلوي الأيسر ويثيرها الجهد والانفعال، وهي تمثل إقفاراً دموياً يصيب عضلة القلب بسبب عدم ملاءمة مؤقتة لجريان الدم في الشرايين الإكليلية. ويُسكن الألم الناجم عنها بالراحة وإعطاء مادة الترينترين.

ينجم الخناق الصدري عن نقص تروية عابر من دون تنخر نسجي، ويرتبط في معظم الأحيان بالتصلب العصيدي الذي يصيب الأوعية الإكليلية، كما يرتبط في أحوال نادرة بآفات وعائية إكليلية أخرى. وقد يحدث الخناق من دون آفة إكليلية في أثناء الاضطرابات اللانظمية الاشتدادية أو باعتلال قلبي أبهري متطور. وينجم الشعور بالألم عن عدم قدرة الشريان المتضيق على زيادة المتطلب من الدم، أو عن حدوث شنج إكليلي مع وجود آفة سابقة أو من دونها. وقد يكون مستقراً عندما يكون مزمناً ويحدث في شروط واحدة، أو غير مستقر إذا زاد تواتره أو طالت مدته أو شدته أو بدأت أعراضه من مدة أقل من شهر. ويسمى هذا النوع أيضاً «الخناق قبل الاحتشاء» أو «الخناق المتسارع» أو «القصور الإكليلي الحاد» أو «المتلازمة الإكليلية المتوسطة». وتتطلب معالجته المكوث في المستشفى لنفي وجود الاحتشاء.

يحدث الألم الخناقي عادة في أثناء الجهد والانفعال أو بعد الوجبات الطعامية الثقيلة، ويتوضع خلف عظم القص أو في أيسر الصدر.

ويبدأ متدرجاً (يستمر بين ٠,٥-٢٠ دقيقة) ويزول بالتدريج بعد توقف المريض عن الجهد أو تناول النتروغليسرين (بعد ٠,٥ دقيقة إلى عدة دقائق)، ويصفه المريض بحس ضغط أو عصر أو حرق أو شدّ أو امتلاء، وقد ينتشر إلى الناحية الزندية من الطرف العلوي الأيسر أو إلى الطرفين معاً أو إلى بين الكتفين أو إلى العنق أو الفك السفلي.

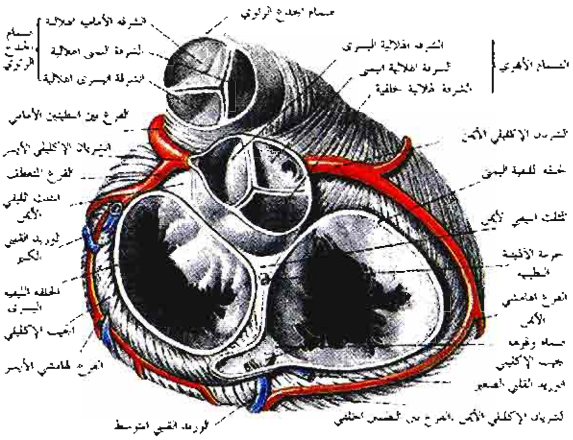
ولايكون الفحص السريري وصفياً، فقد يسمع صوت رابع ولاسيما في أثناء النوبة، كما تسمع نفخة سوء وظيفة العضلة الحليمية. ويكون تخطيط كهربائية القلب إيجابياً في نصف الحالات، وتزداد هذه الإيجابية إلى أكثر من ٨٥٪ في تخطيط القلب الجهدي مع استعمال النظائر المشعة (الثاليوم) أو من دون ذلك. ويظهر كذلك في تصوير القلب بجهاز غاما، ولاسيما عند الذين لايمكن الحكم على تخطيط القلب الجهدي عندهم (استعمال الديجتال أو التغيرات التخطيطية غير الوصفية أو حصار الغصن الأيسر). ويمكن استعمال جهاز الصدى الثنائي البعد في أثناء الجهد لكشف أي تغيرات في حركة جُدُر القلب. ولايجوز إجراء اختبار الجهد عند الاشتباه باحتشاء القلب أو في الخناق غير المستقر.

يعتمد الإنذار على عدد الأوعية المصابة وشدة تضيقها وعلى وظيفة البطين الأيسر.

وقد تحدث التغيرات التخطيطية الوصفية من دون ألم ولاسيما عند السكريين وهو ما يعرف بالخناق الصامت، أو قد يتظاهر الخناق بزلة جهدية.

التدبير الدوائي للخناق: تعتمد معالجة خناق الصدر إما على إنقاص المتطلب من الأكسجين أو زيادة الوارد منه إلى العضلة القلبية مع تجنب الحالات التي تزيد المتطلب من الأكسجين مثل الجو البارد، ووجبات الطعام الثقيلة، والجهد الزائد، مع ضبط ارتفاع الضغط الشرياني، وتصحيح فقر الدم، ومعالجة الأخماج، ومعالجة فرط نشاط الدرق، كما يجب إيقاف التدخين، ومعالجة استرخاء القلب، وتشجيع التمارين الرياضية البدنية تحت المراقبة. بالإضافة إلى العلاجات الملائمة كالنتروغليسرين وحاصرات مستقبلات بيتا وحاصرات قنيات الكلسيوم.

المعالجة غير الدوائية لخناق الصدر: تفيد المجازة bypass الإكليلية في إراحة المريض من الألم

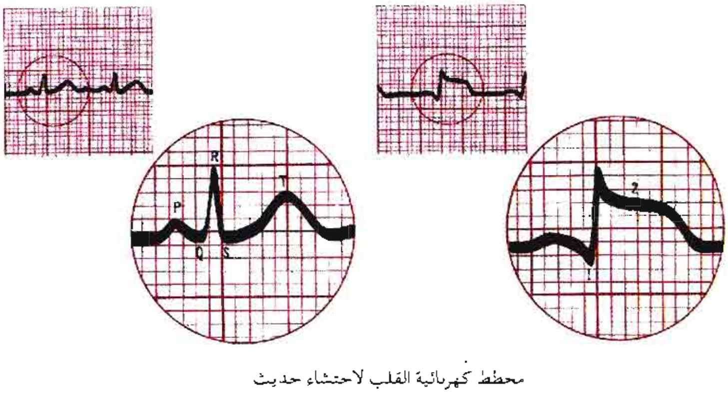


صمامات القلب منظورة من الأعلى بعد إزالة الأذينين وقطع الجذع الرئوي والأبهر الصاعد. ويرى في الأسفل الصمام الأيمن والصمام الأيسر بين الأذينين والبطينين.

الصدري عند إخفاق المعالجة الدوائية، وقد تطيل الحياة عند بعض المرضى. ويجرى ذلك باستعمال الوريد الصافن ووصله من الأبهر الصاعد إلى منطقة ما بعد التضيق، أو باستعمال الشريان الثديي الباطن الأيمن أو الأيسر أو كليهما أو باستعمال كلا الطريقتين، ويجب أن لايقل قطر الوعاء المجرى له المجازة عن ١-٢ مم. وتقدر نسبة الوفيات في هذه العمليات في المراكز المتمرسة بنحو ٠,٧-٢,٥٪ بحسب نوع الإصابة وتزداد هذه النسبة بتقدم العمر ونسبة احتشاء العضلة القلبية. ويزول الألم الصدري تماماً عند ٦٥٪ من المرضى ويخف كثيراً عند ٢٥٪ من الآخرين. وتدل الإحصائيات على أن العمل الجراحي لايطيل العمر إلا في إصابة الجذع الرئيسي الأيسر أو إصابة الأوعية الثلاثة مع سوء وظيفة البطين الأيسر ويعتمد بقاء المجازة سالكة على معدل الجريان فيها (٧٠ مل/د) فإن قل عن ذلك كان حظها من الانسداد أكبر، كما يعتمد بقاؤها سالكة على التقنيات المستعملة وقطر الوعاء ونوعية الجريان النهائي فيه.

توسيع الشرايين الإكليلية بالبالون: يدخل قثطار في نهايته بالون على شريط دليل خاص حتى منطقة التضيق ثم ينفخ هذا البالون بضغط يعادل الضغط الجوي عدة مرات، ويزاد تدريجياً حتى تتوسع المنطقة المتضيقة. يستطب بهذه الطريقة في العمل الجراحي وعندما تكون الآفة قريبة، ولايستطب عند إصابة الجذع الرئيسي الأيسر. أما نسبة النجاح فيها فتبلغ ٨٠٪ فإن لم تنجح المحاولة وحدث انسداد في الشريان يلجأ عندها إلى العمل الجراحي إسعافياً، وقد يعود التضيق بنسبة ٢٠٪ في ستة الأشهر الأولى عادة ويمكن أن ينجح توسيع الشريان عندهم مرة ثانية. أما نسبة الوفيات فلا تزيد على ٠,٥ إلى ١٪.

الخناق المختلف: ويدعى كذلك خناق برنزميتال نسبة إلى العالم الذي وصفه عام ١٩٥٩ وهو ألم صدري لاعلاقة له بالجهد، ويترافق غالباً مع لانظمية قلبية بما فيها الرجفان البطيني وإحصارات القلب والموت المفاجىء. ويحدث هذا الخناق عادة بعد منتصف الليل حتى السادسة صباحاً ومن النادر أن يتسبب في احتشاء العضلة القلبية. ويعتقد أنه ينجم عن شنج في الشرايين الإكليلية. وقد يحدث الشنج في شرايين إكليلية سوية أو في شرايين



مخطط كهربائية القلب لاحتشاء حديث

إكليلية شديدة أو خفيفة التضيق العصيدي. والإنذار أحسن في شنج الشرايين السوية. ويتم التأكد منه بحقن الارغونوفين وريدياً في أثناء تصوير الشرايين الإكليلية. ويعالج بحاصرات قنيات الكلسيوم والنترات.

احتشاء العضلة القلبية

يشير احتشاء العضلة القلبية إلى تنخر العضلة القلبية غير العكوس. وينجم عن تضيق عصيدي atheromatous في أحد الشرايين الإكليلية المهمة. فتظهر على المريض في البدء أعراض نقص التروية فإذا كان هذا النقص شديداً ومديداً تلاه احتشاء العضلة القلبية، ويتوقف اتساع الاحتشاء على شدة نقص التروية ومساحة العضلة القلبية التي يرويها الشريان المُنسد، وعلى الدوران الجانبي، وعلى متطلب النسج المرواة بهذا الشريان من الأكسجين.

يمكن أن يكون الاحتشاء شاملاً لسمك العضلة القلبية كله، أو يقتصر الاحتشاء على ما تحت الشغاف endocardium . ولا تتواقت التغيرات التي تظهر في مخطط كهربائية القلب مع شدة التغيرات النسجية، إذ تحدث التغيرات النسجية عادة بعد ست ساعات من الاحتشاء. فتبدو العضلة القلبية في البدء شاحبة مع وذمة خفيفة، ويتغير لونها في الأيام التالية عند حدوث النتحات والارتشاح بالعدلات neutrophils . وبعد نحو عشرة أيام تبدو العضلة القلبية المصابة رقيقة بسبب إزالة النسج المتموتة من قبل وحيدات النوى monocytes . ويبدأ النسيج الحبيبي بالتكون ويمتد خلال النسج المتموتة في الأسبوع الثالث إلى الرابع. وبعد ذلك تتكون ندبة رقيقة ثم تصبح متماسكة في الأسبوع السادس.

ويترافق ٩٠٪ من حالات الاحتشاء الشامل للجدار بانسداد كامل في الشريان الإكليلي تحدثه خثرة متوضعة على آفة شديدة التضيق، في حين تتوضع الخثرة في الاحتشاء تحت الشغاف بعد منطقة التضيق، ولكن الشريان المتضيق يبقى سالكاً. ومن أسباب حدوث الخثرة تغير الطبقة الباطنة للعصيدة الشريانية، أو تقرح الصفيحة العصيدية أو تخثر الصفيحات الدموية، أو حدوث شنج في الشريان الإكليلي مكان العصيدة الشريانية. ويمكن إعادة الجريان إلى الشريان باستعمال المواد الحالّة للفبرين وريدياً أو حقناً في الشرايين الإكليلية.

التظاهرات السريرية: يشكو المريض من ألم صدري غالباً في أثناء الراحة يشبه ألم الخناق ولكنه أشد إيلاماً وأطول مدة، ولايزول إلا بمسكنات الالم. وغالباً ما يشكو المريض من غثيان أو إقياء مع تعرق ووهن وزلة تنفسية. وقد يحدث الاحتشاء من دون ألم، ولاسيما عند السكريين ويبدي تخطيط كهربائية القلب علامات خاصة، أما الصورة الشعاعية للصدر فلا تفيد في تشخيص الاحتشاء، ويزداد عدد الكريات البيض في اليوم الأول ثم تعود إلى حدها الطبيعي في مدى أسبوع، وترتفع سرعة التثفل، ومقدار الخمائر القلبية (الكرياتين كيناز)، كما ترتفع النازعة اللبنية LDH وقد يستمر ارتفاعها لمدة عشرة أيام تقريباً، وترتفع كذلك خمائر الـSGOT وتعود إلى السواء في اليوم الثالث تقريباً.

أما سريرياً، فيبدو المريض متهيجاً، وضغطه الشرياني مرتفعاً في غياب الصدمة، ونبضه متسرعاً، وقد يكون بطيئاً في الاحتشاء السفلي، كما قد يظهر اضطراب في وظيفة البطين الأيسر وقد تظهر علامات الصدمة إذا أصاب الاحتشاء أكثر من ٤٠٪ من كتلة البطين الأيسر.

التدابير العامة في احتشاء العضلة القلبية: لما كان نصف الوفيات يحدث في الساعات الأولى من الإصابة بالاحتشاء ولاسيما قبل وصول المصاب إلى المستشفى، فمن المفيد وجود سيارات إسعاف مجهزة للمعالجة.

ويوضع المريض عند وصوله إلى المستشفى في وحدة العناية المشددة القلبية لمعالجة المضاعفات إن وجدت ولاسيما اللانظميات، ولإعطائه المهدئات ومعالجة الألم، كما يعطى المريض الأكسجين بالقناع أو عن طريق القنيات الأنفية ويبقى المصاب في وضع الراحة المطلقة مدة ٢٤-٣٦ ساعة في غياب المضاعفات ثم يسمح له بالجلوس مدة قصيرة إلى جانب السرير، وينقل من العناية المشددة بعد ثلاثة أيام. وبدءاً من اليوم الرابع يبدأ بتحريك المريض، وتزاد الحركة تدريجاً حتى يصبح في مقدوره صعود درج من طابق واحد.

وفي غياب المضاعفات يمكن أن يخرج المريض من المستشفى بعد ٧-١٢ يوماً ويزيد من فعاليته تدريجاً مع تجنب أية فعالية تحتاج إلى جهد عضلي. ويبقى المريض تحت المراقبة مع تخطيط القلب الجهدي العادي بعد ستة أسابيع من الاحتشاء لتحديد خطة العمل المستقبلية. وإن استعمال حاصرات مستقبلات بيتا بعد الاحتشاء بخمسة أيام إلى شهر ولمدة سنتين يقلل من نسبة الوفيات أو عودة الاحتشاء إذا لم يكن هنالك مانع من الاستطباب بها.

مضاعفات احتشاء العضلة القلبية: قد تحدث بعد احتشاء العضلة القلبية مضاعفات يمكن معالجة بعضها دوائياً، كاسترخاء القلب المترافق باحتقان رئوي خفيف، أو جراحياً كأم الدم البطينية، إلا أن بعضها ذو إنذار سيىء كالصدمة القلبية.

كذلك تجب معالجة اللانظميات الحادثة في سياق احتشاء العضلة القلبية، إذا أحدثت تلك اللانظميات تغيرات دينمية دموية سيئة، أو إذا تسببت في زيادة متطلب الأكسجين أو إذا تطورت إلى لانظمية خبيثة مثل تسرع القلب البطيني المتواصل أو الرجفان البطيني.

مفيد جوخدار

الموضوعات ذات الصلة:

القلب (تخطيط كهربائية -) ـ القلب (تشريح -)

مراجع للاستزادة:

- Acute Myocardial Infarction, Sections 8-18 in Parmley and Chatterjee, Cardiology, Volume 2 (1987).
- T.T.BASHOUR& MYLER, Modern Concepts in Unstable Myocardial Ischemia, American Heart Journal 115 : 850-861 (1988).

■ الاحتكار

يقصد بالاحتكار monopoly، في المصطلح الاقتصادي، انفراد مشروع واحد بعرض سلعة ليس لها بديل، وشرط وجود الاحتكار اختفاء المنافسة التي يَعْرِضُ بها الاحتكار السلعة.

المنظور التاريخي

سادت المنافسة الحرة أسواق أوربة، وبلغت

قوة نموها أقصاها ما بين ١٨٦٠ و١٨٨٠م، وذلك في ظل انتشار مذهب الاقتصاد الحر وتأكيد هذا الانتشار وحمايته مما جعل حجم المشروعات آنئذ ضئيلاً، إذ كان المشروع الواحد لايعدو أن يكون جزءاً صغيراً جداً في وسط سوق ممتلىء بمثله أو أصغر منه أو أكبر بقليل؛ والواقع أنه لم يكن لأي مشروع وحده أن يؤثر في السوق، سواء دخله أول مرة أم استمر أم انسحب منه.

إلا أن هذا الوضع لم يدم طويلاً مع اكتشاف المستثمرين لمزايا المشروع الكبير وحصولهم على أرباح تفوق بكثير ما كان يتحصل لديهم منها حينما كان العرف السائد يقضي بالاكتفاء بحجم صغير معين من المشروعات، وهكذا كان النزوع نحو التركز الاقتصادي، وقد ساعد على ذلك أيضاً طابع العلاقات الدولية القائمة آنئذ.

ويمكن إرجاع نشأة الاحتكارات إلى تلك الحقبة (أي إنها ولدت من باطن سوق المنافسة الحرة) وذلك ما بين عامي ١٨٦٠-١٨٧٠ حين تكرر قيام أزمات اقتصادية ابتداء من عام ١٨٦٣ أدت إلى تغير في الفكر الاقتصادي السائد وشيئاً فشيئاً أصبح قيام التكتلات والاحتكارات أمراً مقبولاً وأصبح «الكارتل» منذ نهاية القرن التاسع عشر واحداً من أهم أسس الحياة الاقتصادية، وذلك في إثر الأزمة الاقتصادية التي حدثت ما بين ١٩٠٠-١٩٠٣، إلى أن تحول النظام الرأسمالي إلى مرحلة متقدمة جداً سميت فيما بعد رأسمالية الدولة الاحتكارية. ولقد لوحظ أنه بالرغم من صدور قوانين تحرم التكتل أو الاحتكار في كثير من دول النظام الرأسمالي مثل قانون ١٧ حزيران ١٨٩١ وقانون التفرقة بين الاتفاقات الاحتكارية الحسنة والسيئة ١٩٢٦ في فرنسة، وقانون شيرمان Act Sherman الذي أصدره الرئيس الأمريكي تيودور روزفلت في الثاني من تموز عام ١٨٩٠، وقضى بمحاربة اتفاقات قيام الاحتكارات، وذلك في بداية الحرب العالمية الأولى وقانون / ١٩١٤ / الصادر عن حكومة فيمان Weiman الألمانية الذي يجيز حل كل احتكار من قبل وزير الاقتصاد الذي شكل محكمة سميت «الكارتل» وعلى الرغم من كل هذه القوانين التي انصبت على محاربة الاحتكار، تغير الحال في أعقاب الحرب العالمية الأولى، فقد شجع قانون صدر في الولايات المتحدة الأمريكية في أول عهد الرئيس فرانكلين روزفلت ١٩٣٣ نشوء الاحتكار، ويرى بعض الباحثين أن القانون المذكور ذهب إلى حد إنشاء الاحتكار الإجباري. وفي ألمانية تكرر الأمر بعد صعود هتلر إلى سدة الحكم ١٩٣٣. وفي فرنسة شجع المشرع ما بين ١٩٣٨ و١٩٣٩ تكوين جماعات الاستيراد وإقامة اتفاقيات بين المنتجين.

لقد اشتدت وتيرة «التركز الاقتصادي» اشتداداً ملحوظاً في القرن العشرين وأصبحت الطابع الرئيسي للنظام الاقتصادي الرأسمالي سواء كان ذلك على صعيد الوحدات الإقليمية أم على صعيد بروز نزعة التمركز الاقتصادي على مستوى الفعاليات الاقتصادية الرأسمالية العالمية.

الاحتكار في التاريخ العربي

فهم الاحتكار أو دراسته في التاريخ العربي مرتبط برأي الشريعة الإسلامية وفقهها، فعلى مر العصور كانت الشريعة الإسلامية المصدر الوحيد للتشريع وما زالت في بعض الأمصار مصدره الوحيد، وفي بعضها مصدره الأول، والاحتكار في الشريعة اشتراء طعام ونحوه وحبسه إلى الغلاء (ابن عابدين) وهو حرام في الإسلام، ولقد ورد ذكر تحريمه في أحاديث نبوية كثيرة نجدها في كتاب البيوع من صحيح البخاري وموطأ مالك وسنن الترمذي وأبي داود، وفي كتاب المساقاة من صحيح مسلم، وفي مواضع من مسند الإمام أحمد بن حنبل.

وأما حكم الاحتكار في الفقه، فقد أورد ابن القيم شرحاً واضحاً له فقال: «إن المحتكر هو الذي يعمد إلى شراء ما يحتاج إليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد غلاءه عليهم وهو ظالم لعموم الناس ولهذا كان لولي الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل، عند ضرورة الناس إليه، مثل من عنده طعام لا يحتاج إليه والناس في مخمصة مجاعة أو سلاح لايحتاج إليه والناس يحتاجون إليه للجهاد أو غير ذلك، فإن اضطر إلى طعام غيره أخذه منه بغير اختياره بقيمة المثل، ولو امتنع من بيعه إلا بأكثر من سعره فأخذ منه بما طلب لم يجب عليه إلا قيمة مثله».

وفي آثار الفقهاء ما يدل على أنهم لاحظوا أشكالاً من الاحتكار في غير ما يخص الأرزاق وحبسها، فأخضعوها للدرس والتمحيص وأعملوا فيها الأحكام التي أعملوها في احتكار الأموال.

قال ابن القيم: «ومن أقبح الظلم إيجار الحانوت على الطريق أو في القرية بأجرة معينة على أن لايبيع أحدٌ غيره فهذا ظلم حرام من المؤجر والمستأجر، وهو نوع من أخذ أموال الناس قهراً أو أكلها بالباطل».

ومنع غير واحد من العلماء (كأبي حنيفة وأصحابه) القسّامين الذين يقسمون العقار وغيره بالأجرة أن يشتركوا، فإنهم إذا اشتركوا والناس يحتاجون إليهم أغلوا الأجرة.

وأضاف ابن القيم إلى ذلك قوله «وكذلك ينبغي لوالي الحسبة أن يمنع مغسلي الموتى والحمالين لهم من الاشتراك، لما في ذلك من غلاء الأجرة عليهم، وكذلك اشتراك كل طائفة يحتاج الناس إلى منافعهم كما الشهود والدلالين وغيرهم. والمقصود أنه إذا منع القسّامون ونحوهم من الشركة لما فيه من التواطؤ على إغلاء الأجرة، فَمَنْعُ البائعين الذين تواطؤوا على أن لايبيعوا إلا بثمن مقدر أولى وأحرى». وكذلك يحرم الاحتكار عند الحنفية والشافعية والحنابلة في طعام البهائم.

بنية الأسواق وأنواعها

يقصد بالسوق، الاتصال الذي يقوم بين البائع والمشتري وليس من المحتم في عصرنا هذا أن يكون للسوق مكان محدد، أو زمان معين، فمجرد قيام الاتصال بين البائع والمشتري (عبر وسائل الاتصال أو عبر نشاطات الوسطاء) وسيادة هذا النوع من الاتصال أو ذلك يَعْقِد السوق.

سوق المنافسة الحرة: الأصل في السوق أن تقوم على منافسة العارضين الحرة الكاملة فيما بينهم التي تضمن حرية المبادلات التجارية، وبالتالي حرية إنتاج السلع، وفي هذا النوع من الأسواق لايمكن قيام تفاهم واتفاق بين المتزاحمين، وينتج من ذلك عدم جواز حصول جزء من العارضين على أرباح تجارية زائدة ـ من دون بقيتهم ـ ويرى المدافعون عن هذا النموذج من الأسواق أنه يؤمن التنظيم العفوي للاقتصاد في ظل وفرة كبيرة من السلع تتناسب وإمكانات استيعاب السوق، بحيث تنخفض الأسعار والأرباح ويختفي العارضون الهامشيون ويصبح الطلب هو السيد المطلق في السوق. ويمكن أن تعمل المزاحمة الحرة على تحقيق الانتقاء بين المؤسسات والأسعار في مستويات متقاربة في كل فروع الإنتاج.

ولقيام سوق منافسة كاملة أركان وشروط

معينة هي:

كثرة عدد البائعين والمشترين: ويعني هذا عدم تأثر العرض الكلي أو الطلب الكلي نتيجة لدخول بائع فرد إلى السوق أو خروجه منه، أو تغير حجم إنتاجه، وبالتالي عدم تأثر الثمن بحركة البائع الآنفة الذكر.

حرية دخول السوق والخروج منه وانعدام وجود اتفاق بين أطرافه: وهذا يعني عدم قيام حواجز أو موانع في وجه البائعين أو المشترين تحول بينهم وبين دخول السوق والخروج منه بحرية مطلقة سواء أكان القيد يقع على الاستهلاك أم على الإنتاج، أم كان منصباً على حجم المعروض والمطلوب منه، ويعني من جهة أخرى عدم جواز قيام اتفاق بين المشترين أو بين البائعين على اتباع سياسة معينة كتحديد الأسواق أو الأثمان أو توزيع الأرباح ويتطلب هذا حرية انتقال عوامل الإنتاج بين مختلف فروع الإنتاج.

التجانس المطلق بين وحدات السلعة: ويعني هذا قدرة وحدة ما من وحدات السلعة على أن تحل محل أية وحدة أخرى في تقديم الإشباع نفسه للحاجة نفسها، وذلك من وجهة نظر المستهلك، ويفترض، في حالة المنافسة الحرة الكاملة أن العارضين يعملون في أماكن متقاربة حتى تنعدم نفقات النقل.

العلم: ويعني معرفة البائع والمشتري المسبقة بظروف السوق، وبالشروط الأخرى الخاصة بالبيع والشراء، وبالتالي بالثمن السائد فيه.

سوق الاحتكار: إن سوق الاحتكار الكامل هو نقيض سوق المنافسة الكاملة، وهو نموذج يعقد بمعزل عن شروط انعقاد المنافسة الكاملة الآنفة الذكر.

ولما كان تحقق الشروط الأربعة المذكورة لقيام سوق المنافسة الحرة الكاملة تحققاً كاملاً حالةً افتراضية يصعب تحققها في الواقع العملي فإن أمر انتفاء وجودها وتحقق الاحتكار الكامل هو أمرٌ افتراضي أيضاً. والحال إن الأسواق الواقعية هي حالات أو نماذج تقع بين الحدين السابقين: حد المنافسة الكاملة وحد الاحتكار الكامل. ويمكن إجمالها تحت عنوان المنافسة غير الكاملة، أو المنافسة الاحتكارية.

تُعقد سوق المنافسة الاحتكارية في كل مرة ينعدم فيها شرط تجانس السلعة مع وفرة البائعين والمشترين، وعلى هذا فإن المنافسة الاحتكارية تقع في مركز وسط بين الاحتكار والمنافسة الكاملة.

والمقصود بعدم تجانس السلعة اختلاف السلعة موضوع البحث في ذهن المستهلك عن السلع الأخرى التي يعرضها الآخرون. والمنتجات المعروفة ليست متجانسة كما هو الحال في سوق المنافسة الكاملة، ولاهي بديلات بعيدة بعضها عن بعض كما في سوق الاحتكار. وهذا يعني وجود محتكرين متعددين يتنافس كل منهم مع الآخرين، ولاينتج هؤلاء سلعاً متطابقة تماماً، كما أنهم لاينتجون سلعاً تختلف فيما بينها اختلافاً كاملاً. والتباين بين هذه السلع، في الحدود المذكورة يعود إلى بعض الشروط المتعلقة بالتصنيف والتنويع: العبوات والعلامات التجارية والشكل الخارجي وتغيرات طفيفة في التكوين الطبيعي للسلعة.

وقد يعزى عدم تجانس السلعة من وجهة نظر المستهلك إلى عاملين:

الأول: هو صفات البائع الشخصية وطريقة معاملته للزبائن وأمانته وقرابته مع المشترين وأسلوب مقاربته لهم وطريقة عرضه للسلعة، وقدرته على إقناع المشترين.

والثاني: هو الصفات الموضوعية للسلعة، سواء كان ذلك فيما تحمله السلعة من بعض الفروق التي ذكرت آنفاً، أم ما يمكن أن يحدثه البائع من فروق بين سلع متشابهة في ذهن المشتري، وأخيراً ما يمكن أن تؤدي إليه الدعاية أو الإعلان من فروق أيضاً في ذهن المشتري. إن ارتفاع الثمن في المنافسة الاحتكارية، عن النفقة المتوسطة يؤدي إلى ربح غير عادي، ويؤدي أيضاً إلى دخول مشاريع جديدة تنتج سلعاً متقاربة من سلعة المشروع الأول، مما يدفع المشتري إلى الانصراف عن سلع المشروع الأول، وإلى انخفاض الطلب على منتجاته وبالتدريج يقترب الثمن من النفقة المتوسطة، ويختفي الربح غير العادي، وتتوقف المشروعات الجديدة عن الدخول أو الإقبال على الاستثمار في مثل هذه الفروع الإنتاجية، وينتج عن ذلك أن هذا التوازن المفترض الذي يمكن أن يتم في سوق المنافسة الاحتكارية يترافق مع تبذير في الطاقة الإنتاجية، إذا ما أخذنا بالحسبان ظروف السوق العامة، التي تمنع المنتجين من الوصول إلى الحجم الأمثل للمشروع، أو الوصول إلى حدود النفقات المتناقصة، وهذا يعني وجود فائض غير مستغل من الطاقة الإنتاجية. ومن جهة أخرى فإن نفقات الدعاية والإعلان، ونفقات البيع إضافة إلى النفقة المتوسطة تجعل الثمن في سوق المنافسة الاحتكارية أعلى من مثيله السائد في سوق المنافسة الحرة. وأخيراً فإن ارتفاع الثمن في هذه السوق يخفض من الكمية الكلية التي يحصل عليها المستهلكون في سوق المنافسة الحرة، والتوازن هنا مقترن بالتقصير عن حاجة المستهلكين.

احتكار القلة: إن أشكال السوق في نموذج المنافسة الاحتكارية، تلك التي تقع بين حدي السوق، المنافسة الحرة الكاملة والاحتكار الخالص، كثيرة. ومن الأشكال المهمة السائدة في سوق المنافسة الاحتكارية احتكار القلة oligopoly وهي أضيق أنواع المنافسة الاحتكارية. واحتكار القلة سوق تحوي عدداً صغيراً من المنتجين قد لا يتجاوز في بعض الحالات اثنين وتدعى سوق الاحتكار الثنائي duopoly. إن مشاكل سوق احتكار القلة تختلف اختلافاً واضحاً عن مشاكل أسواق المنافسة الحرة الكاملة والمنافسة الاحتكارية وسوق الاحتكار الخالص. ففي الاحتكار الثنائي، سواء كانت السلعة مصنفة أم متنوعة أم متشابهة، يضطر المنتج الفرد إلى أن يأخذ بالحسبان الآثار غير المباشرة التي تترتب على اتخاذ قرار تغيير الثمن أو الإنتاج، فأي قرار سيتخذه المنتج أو العارض الأول سيلقى رد فعل مباشراً من المنتج الثاني، وسينعكس قراره على حالة العارض الأول. إذ إن منحنيات إيراد المنتج، في حالتي المنافسة الكاملة والاحتكار الكامل وتكلفته هي مستقلة تماماً عن تصرفات العارض في حالة السلع غير المصنفة. والحال إن تحديد كل من حجم الإنتاج وتكلفته في احتكار القلة لايعرف إجابة واحدة أو حلاً محدداً، بل هو خاضع لافتراضات كثيرة تمليها قرارات الطرفين، وردود الفعل المحتملة في كل مرة يَتَّخذ فيها أحدهما قراراً متعلقاً بحجم إنتاجه. وبالتالي فإن على كل من المتنافسين أن يدرك - حين اتخاذ قراراته - أن له غريماً منافساً.

إن سيادة ثمن واحد (مع تشابه السلع وتساوي كلفة الإنتاج) في حالة الاحتكار الثنائي يمكن أن يتم نتيجة لاتفاق فعلي أو ضمني بين الطرفين، أو نتيجة لقرار يتخذه كل منهما بمعزل عن منافسه. ومن الواضح أنه لن يكون من مصلحة المتنافسيْن والمحتكريْن أن يحددا ثمناً يختلف عن الثمن الذي يعرضه

المحتكر الفرد، وهو الثمن الذي يحقق أقصى ربح ممكن، ومن ثم فإن الأرباح المشتركة لهما ستكون في ذروتها، وإلا فإن أحدهما سيقضي على الآخر بآلية رفع الأثمان وخفضها من دون اتفاق. هذا الأمر نتيجة طبيعية لحرب الأسعار التي يثيرانها في ظل شروط معينة.

أما في حالة احتكار القلة في سوق تعرض فيها منتجات مصنفة أو متنوعة فإن الاتفاق الاحتكاري قد يكون أصعب منه في حالة السلع غير المصنفة أو المتنوعة، كما أن الوصول إلى اتفاق حول سياسة سعرية معينة سيكون صعباً أيضاً، إذ إن لكل مؤسسة سلعها ومواصفاتها التي تحملها، ولها أيضاً زبائنها الذين تحرص على الإنتاج لهم، ولن يكون قرار رفع الثمن من قبل أحد العارضين سبباً في دخول حرب سعرية بين العارضين أو المنتجين (كما في الحالة الأولى)، وذلك بسبب اختلاف السلع بوجه أو بآخر، وبالتالي فإن اقتسام السوق بالتساوي بين العارضين كما في الحالة الأولى فرض بعيد الاحتمال في هذه الحالة، أما إذا قرر المنتجون الخروج من هذه الفروض والدخول في حرب الأسعار فإن النتائج ستكون قاتلة لبعض المنتجين أو ستكون سبباً في إزالة الأرباح غير العادية ثم في إقصاء مجموعة من المنتجين الذين لم يستطيعوا الصمود في حرب كهذه، ويكون التوازن في السوق مشابهاً للتوازن في سوق المنافسة الاحتكارية.

الاحتكار الكامل: يقصد بالاحتكار الكامل أو الخالص انفراد مشروع واحد أو عارض واحد بعرض سلعة ما ليس لها بديل، وهذا يعني أن هذا العارض لا يصطدم بأية منافسة في السوق لا من مشروع ينتج السلعة نفسها ولا من مشروع ينتج سلعاً بديلة. وعلى ذلك فإن شرط الاحتكار الكامل هو اختفاء المنافسة تماماً من السوق، وانفراد منتج فرد أو عارض وحيد بإنتاج سلعة ليس لها بديل أو عرضها.

ويتحقق الاحتكار الكامل عندما يبلغ المنتج من القوة درجة كبيرة تمكنه من الحصول على جميع دخول المستهلكين مهما كان حجم إنتاجه، أو بتعبير آخر عندما يصل إلى درجة تمكنه من أن يرفع الثمن إلى المستوى الذي يحصل معه على كل دخول المستهلكين. وهذا يعني أن المحتكر لا يستطيع أن يحصل على أكثر من هذه الدخول في أحسن الحالات.

ويتم ذلك حينما يكون الإيراد الكلي للمشروع ثابتاً عند أي ثمن، أي حينما تكون درجة مرونة منحنى الطلب (منحنى الإيراد المتوسط) واحداً صحيحاً. وما دام المنتج في حالة الاحتكار الكامل فإنه يستطيع أن يحصل على إيراد كلي وثابت (وهو دخول المستهلكين جميعاً). وبغض النظر عن مستوى الإنتاج فإن ربحه يبلغ أقصاه ـ وهو ما يسعى إلى تحقيقه ـ حينما تكون النفقات الكلية عند أدنى حد ممكن، ولذلك فإنه يسعى، تحقيقاً لهذا الغرض، إلى خفض الإنتاج إلى أدنى درجة ممكنة ـ ولو إلى وحدة واحدة ـ وإلى رفع الثمن إلى أقصى مستوى ممكن، وهذا يعني أن المنتج أو العارض يستطيع أن يحصل في حالة الاحتكار الكامل على جميع دخول المستهلكين.

ولا يعدو الاحتكار الكامل، بالمعنى الذي سبق، والذي ينصرف إلى انعدام المنافسة انعداماً تاماً، أن يكون أكثر من حالة افتراضية، إذ لايمكن وجود محتكر لايقابل أية منافسة له، ذلك أن السلع تتنافس فيما بينها، ولاتوجد سلعة لابديل لها.

الاحتكار البسيط: ينصرف الاحتكار البسيط إلى انفراد منتج أو عارض واحد بعرض سلعة لها بديل قريب، مما يعني أن المحتكر الموجود في الواقع يقابل منافسة من السلع الأخرى البديلة لسلعته. ويمكن أن يعرَّف المحتكر بأنه المنتج الوحيد لسلعة ليس لها بديل قريب. ومن هنا يتضح الفرق بين الاحتكار الكامل إذ لايقابل المحتكر فيه أية منافسة، والاحتكار البسيط إذ يقابل العارض منافسة غير شديدة. أما الإيراد فإن وضعه يختلف في هذه الحالة عن وضعه في حالة المنافسة الكاملة نتيجةً لاختلاف سلطة المنتج أو العارض الفرد عن سلطته في السوق الأخيرة. ذلك أن المحتكر يملك سلطة مجموع المنتجين في حالة المنافسة الكاملة.

سلوك الاحتكارات

يتبين مما سبق أن من الممكن القول إن الاحتكارات العارضة تستطيع وحدها تحديد كمية ما تعرضه من السلع التي تنتجها، الأمر الذي يضمن لها سلطة تحديد الكمية المعروضة للبيع وسلطة تحديد الثمن. على أن سيطرة الاحتكار على كل عناصر السوق ليست كاملة، فهو يسيطر على العرض، ويمكنه أن يؤثر بذلك في الثمن، ولكنه لايسيطر على الطلب، وعلى هذا فإنه لايستطيع أن يحدد الكمية المبيعة والثمن معاً، بسبب عدم سيطرته على الطلب: فهو إما أن يحدد الكمية المبيعة وفي هذه الحالة يترك تحديد الثمن للطلب، وإما أن يحدد الثمن وفي هذه الحالة يترك تحديد الكمية المبيعة للمشترين. فإذا اختار تحديد الثمن مثلاً عليه أن يضع في حسابه مرونة الطلب ودرجته، فهو قيد على سلطة المحتكر، في تحديد الثمن، إذ إن شدة مرونة الطلب تعني عدم استجابته لرفع الثمن، بل قد يكون في مصلحة العارض خفض الثمن لكي يرتفع الطلب بنسبة كبيرة، والعكس في حال ما إذا كان الطلب غير مرن.

ويمكن القول إن المنافسة الكاملة قد تؤدي إلى وحدة الثمن، إلا أن وحدة الثمن ليست ضرورية في حالة الاحتكار إذ يمكن للمحتكر أن يلجأ إلى تعدد الأثمان للسلعة المعروضة نفسها في الوقت ذاته، ويبدو التباين بين أثمان السلع على وجوه كما يأتي:

ـ **التمييز في الأثمان تبعاً لفئات المستهلكين**: وذلك في السوق الواحدة، كأن يعمد إلى اقتضاء ثمن مرتفع للسلعة المخصصة للاستهلاك المباشر، وآخر منخفض على ثمن تلك التي تستخدم مادة أولية في الإنتاج.

ويستند في ذلك إلى درجة مرونة الطلب لكل فئة من فئات المستهلكين، كما يتوقف نجاح سلوكه هذا على قدرته على الفصل بين هذه الفئات، إذ لا تتمكن فئة اشترت منه بثمن منخفض من أن تنوب عنه وتبيع فئة أخرى بهامش ربحي.

ـ **التمييز تبعاً للكميات المشتراة فيما يتعلق بالمستهلك الواحد**: وذلك تبعاً للكمية التي يشتريها إذ يطلب الاحتكار ثمناً أعلى عن الوحدات الأولى حتى حد معين، وثمناً أقل عن الوحدات التالية.

ويفسر هذا التمييز فيما يتعلق بالمستهلك الواحد «بفائض المستهلك» أو ما يعرف أيضاً «بربح المستهلك» ذلك أن الوحدات السلعية الأولى تمثل للمستهلك منفعة أكبر من تلك التي تمثلها الوحدات التالية، كما ترى المدرسة النمسوية في المنفعة الهامشية ومؤسسها كارل منجر، وهو ما يعني أن المستهلك مستعد لأن يدفع في الوحدات الأولى ثمناً أعلى مما يدفعه في الوحدات التالية.

ـ **التمييز في الثمن تبعاً لطبيعة السلعة**: وذلك

بإدخال تعديلات على بعض وحدات السلعة المحتكرة، كتقسيم خدمات النقل إلى درجات مختلفة وهذا التمييز منتشر في حقل الخدمات، وذلك لأن الخدمة أو السلعة المعروضة بثمن منخفض لايمكن لشاريها أن يبيعها إلى مستهلك آخر بثمن مرتفع.

- **التمييز في الثمن تبعاً للأسواق**: يلجأ المحتكر إلى التمييز في الثمن من سوق إلى أخرى حينما يكون الطلب على سلعته مرناً، بسبب وجود سلع أخرى بديلة يمكن أن تحل محل سلعته، ويحدث هذا في حالة عرض المحتكر لبضاعته في سوق أجنبية، حيث يعمد إلى عرض بضاعته بثمن يقل عن ذلك الذي يتقاضاه في سوقه الوطنية [ر. الإغراق] على أن تكون في هذه السوق بضائع أخرى يمكن أن تحل محل سلعته. ويشترط لنجاح هذا الأسلوب أن تكون الأسواق منفصلة بعضها عن بعض، وهو ما يحدث عندما تكون تكاليف النقل والرسوم الجمركية لاتقل عن الفرق بين الثمنين في السوقين، حتى لاتعود السلعة إلى السوق الوطنية ويعاد بيعها بسعر مزاحم يكسر الاحتكار، أو عند وجود حظر على الاستيراد في السوق الوطنية.

التركز الاقتصادي والتطور الاقتصادي

يرى المعارضون للنظام الرأسمالي أن المشروعات الرأسمالية تميل نحو التركز أو التمركز concentration من دون توقف إذ إنها، لاستعدادها الضخم من حيث التقنيات ورأس المال، تستبعد صغار المنافسين وتسلبهم منافذهم، وكأن المنافسة طبقاً لرأي هؤلاء المعارضين تؤدي إلى الاحتكار. ويرى الرأسماليون أن من العسير على الكثيرين أن يفهموا من الأرقام المتاحة ما إذا كان ذلك الاتجاه قائماً باستمرار أم لا. والواقع أن هناك نزعة واضحة في العالم الصناعي ترمي إلى إيجاد نوع من التعاون بين المشروعات الاحتكارية الضخمة والمشروعات الصغيرة، وذلك في حقل تكليف الأولى الثانية تصنيع بعض القطع التبديلية أو أجزاء معينة من السلع النهائية، وذلك للاستفادة من مزايا التخصص التقني التي تتمتع بها بعض المشروعات الصغيرة إضافة إلى تخلصها من زيادة رأس المال الثابت ومفاجآت تغيرات الفن الإنتاجي.

وبغض النظر عن وجهتي النظر السابقتين فإن التركز الاقتصادي المستمر في المشروعات يعدّ مظهراً من مظاهر التقدم المادي والنمو الاقتصادي في المجتمع، سواء أكان ذلك في ظل نظام اقتصادي رأسمالي حر أم تدخلي مخطط، وذلك لما تحققه المشروعات الكبيرة -التي تنتهي عادة إلى حالة احتكار أو شبه احتكار- من مميزات اصطلح على تسميتها بـ «الوفورات الداخلية»، تلك الوفورات التي تعود بأصلها إلى الموارد الخاصة بالمشروع أو إلى تنظيمه ومقدرته الإدارية والفنية، علماً بأن حركة التركز الاقتصادي في التجارة قد ظهرت متأخرة عنها في الصناعة. وتمثل المشروعات الضخمة الاحتكارية مركزاً مفصلياً في دول العالم المتقدم صناعياً، علماً بأن نمو المشروعات ووصولها إلى الحجوم السائدة في عالمنا هذا قد سار ضمن اتجاهين: اتساع حجم المشروع القائم وزيادة عدد منشآت المشروع.

ومن الممكن أن يتخذ التحول إلى المشروع الكبير شكل التركز الأفقي أو الرأسي. ويعني التركز الأفقي نماء نشاط المشروع في فرعه الإنتاجي نفسه، وذلك بزيادة عدد عماله أو رأس ماله من دون أن يغير نوع نشاطه الذي يمارسه. أما التركز الرأسي فهو قيام المشروع بإنجاز عمليات إنتاجية متكاملة، بمعنى أن تستخدم منتجات كل فرع فيه مادةً أولية في الفرع الذي يليه من المشروع نفسه.

ولفهم علاقة التركز الاقتصادي بالتطور الاقتصادي فإنه لابد من دراسة مزايا المشروعات الضخمة الاحتكارية أو شبه الاحتكارية.

إن من الممكن القول، في ميدان الوفورات الداخلية، إن زيادة جميع عوامل الإنتاج تؤدي إلى تزايد الناتج الكلي وكثيراً ما يتجه هذا التزايد نحو الارتفاع سعياً وراء التوسع وللإفادة من مزايا المشروع الكبير. ويفترض في أثناء عرض مزايا المشروع الكبير ثبات مستوى الفن الإنتاجي (التقنية الإنتاجية) السائد في الاقتصاد القومي، إذ إن المعالجة تنصب على آثار توسع المشروع وليس على أثر المستوى التقني وتغيراته، علماً بأن هذا لا يتعارض مع قدرة المشروع الكبير على استيعاب أحدث التقنيات المحلية والعالمية. وتبدو الزيادة الإنتاجية في الجوانب الأربعة التالية:

الأول هو ارتفاع إنتاجية عامل الإنتاج المتزايد: ترتفع إنتاجية بعض عوامل الإنتاج إلى حد ما بزيادة عدد الوحدات المستخدمة من هذه العوامل، وذلك لأن زيادة هذه الوحدات تؤدي إلى الإفادة من نفقة عوامل الإنتاج (وهذا هو مضمون ظاهرة الغلة المتزايدة) وتترجم هذه الظاهرة بانخفاض نفقة الإنتاج.

والثاني هو الوفورات الفنية: وتتمثل في الإفادة من الفن الإنتاجي المتقدم، ذلك أن اتساع مشروع يؤدي، مع افتراض ثبات مستوى الفن الإنتاجي، إلى الأخذ بمعطيات هذا الفن القائم في الإنتاج. ففي حالة المشروع الكبير يمكن لهذا النمط أن يأخذ بتقسيم العمل وبالتنظيم العملي على نطاق واسع، وأن يستخدم متخصصين من مستوى رفيع، وأن يحصل على أحدث أنواع التقنية وأن يستوعبها، وأن يوفر لهذه التقنيات إمكانات الاستخدام المستمر، على عكس المشروعات الصغيرة التي لاتستطيع الحصول عليها أو لاتستطيع تشغيلها تشغيلاً مستمراً. ويمكن أن يضاف إلى ذلك قدرة المشروع الكبير على تخصيص مبالغ مهمة للبحث العلمي، بغية الوصول إلى مكتشفات علمية جديدة أو تطوير ما بين يديه، وإدخالها في دورته الإنتاجية.

والثالث هو الوفورات الإنتاجية: يمكن للمشروع الكبير أن يحقق وفورات كبيرة في أثمان عوامل الإنتاج التي يشتريها بسبب ضخامة استجراراته، مستفيداً من أثمان الجملة، ويمكنه أيضاً أن ينقل بضائعه بتعرفات مخفضة ويتمتع بقدرة ملحوظة على مساومة البائعين بنسبة ضخامة مشترياته، كما يمكن أن يصل إلى حد تمتعه بمركز محتكر الشراء وبذلك تتاح له فرصة سعر الشراء الملائم له.

ومن جهة أخرى يحقق المشروع الكبير في غالب الأحوال مبيعات كبيرة بسبب قدرته على الانتشار في الأسواق بالدعاية والإعلان، علماً بأن نفقاتهما لا تزداد بزيادة رقم المبيعات، وقد تصل في حالات أخرى إلى مرحلة التأثير المطلق أو شبه المطلق في السوق كما في حالة الاحتكار.

يضاف إلى هذا كله قدرة المشروع الكبير على الشراء من أسواق متعددة (حرية الاختيار) والبيع في أسواق متعددة. ويؤدي تنوع مصادر الشراء والمنافذ إلى تقليل المخاطر، علماً بأن الطابع الاحتكاري السائد في عالمنا المعاصر في أسواق البيع والشراء بدرجة أو بأخرى يقلل إلى حد بعيد من شأن هذه الميزة، وأخيراً يمكن للمشروع

الكبير أن يعمد إلى سياسة البيع بأثمان منخفضة لتحقيق أرقام كبيرة في المبيعات.

أما الرابع فهو الوفورات المالية: يتمتع المشروع الكبير بثقة أطراف السوق سواء كانوا أفراداً أم مؤسسات، ويوفر له هذا فرصاً سهلة لإيجاد مقرضين له أو قروضاً بأسعار فائدة مخفضة، كما تقدم الحكومات الدعم للمشروعات الكبيرة وذلك بأشكال كثيرة سواء كان العون مباشراً أم ضماناً أم معونات تصدير أم تعويضاً.

وتسمح حجوم هذه المشروعات وقدرتها الإنتاجية والمالية بتغطية فعاليتها وتقلبات السوق بعقود تأمين مناسبة تقيها شر المخاطر، وتؤمن هذه العقود من جهة أخرى القدرة على تخفيض احتياطاتها إلى حدود دنيا تبعدها عن تفضيل السيولة لمواجهة الطوارىء.

تحتاج المشروعات الكبيرة حتى تصل إلى حجوم تتمتع بالميزات المذكورة إلى طاقة تركيز اقتصادي عالية، علماً بأنها تحاول التغلب على الصعوبات الناتجة عن حجومها الكبيرة في تقسيم هذه الحجوم إلى منشآت شبه مستقلة، مرتبطة فيما بينها بمركز تنسيق موحد، يدير مجموعة المنشآت طبقاً لاستراتيجية عمل موحدة مقسمة لآجال محدودة، وإدارة المشروع الكبير تستعين في عصرنا بأحدث التقنيات الإدارية سواء على صعيد تأهيل العنصر البشري الإداري أو العامل، أو على صعيد استخدام الحواسيب المركزية التي تتناسب وحجومها وفعالياتها. إن هذه الحجوم تترافق وأعلى درجات الاحتكار، وتعمل ضمن صراع أو اتفاق فيما بينها، إلا أنها تسهم في دفع عجلة الاقتصاد الكلي في الدولة، وكذلك تعمل على صعيد معطيات الثورة التقنية في العالم، بغض النظر عن طابع النظام السياسي الاقتصادي الذي تعمل في ظله.

أنواع الاحتكار

يأخذ الاحتكار في العصر الحاضر عدة أشكال أو أنواع تتناولها الفقرات الآتية:

التروست: يعود تعبير التروست Trust في أصله القانوني إلى استعماله لدى رجال القانون الانكلوسكسون في الحديث عن النظام الذي يدير بمقتضاه شخص موضع ثقة أموالاً لحساب غيره. أما الاستعمال الاقتصادي لهذا الاصطلاح فيعبر عن نوع من الاتحاد الاحتكاري يبدو في اندماج مشروعات بهدف تكوين مشروع واحد كبير، وذلك بغرض تحقيق حالة احتكارية أو شبه احتكارية، أو بغرض تخفيض النفقات، ورفع معدلات الأرباح. ويأخذ الاندماج عدة أشكال قانونية على الوجه التالي:

ـ ابتلاع مشروع مشروعاً آخر.

ـ انحلال عدد من الشركات بهدف تكوين شركة جديدة، على أن يمنح المساهمون القدماء أسهماً في الشركة الجديدة تعادل ما كان لهم من ملكية في شركاتهم القديمة. ويلاحظ أن هذه العملية (الانحلال والاندماج) تحمل الشركات نفقات باهظة. لذلك تعمد المشاريع التي تود إنجاز مثل هذا الاندماج إلى أسلوب الشركة القابضة holding.

ـ الشركة القابضة هي مؤسسة أو مشروع مشارك في مؤسسة أو في عدة مؤسسات إنتاجية بحيازة أسهم هذه المؤسسات بما يتيح لها الحق في مراقبة إداراتها مالياً وإنتاجياً وتجارياً وهي بوجه عام أحد الأشكال الأكثر انتشاراً في بلدان عديدة من أجل الوصول إلى وضع احتكاري أو شبه احتكاري. والشركة القابضة من جهة ثانية تتكون أصولها أو معظم أصولها من أسهم شركات أخرى مستقلة صورياً.

ـ ويمكن التفريق بين التروست الأفقي الناتج من اتحاد شركات فرع صناعي واحد، والتروست العمودي وهو الشكل الذي يقوم بين مشروعات تؤلف سلسلة متكاملة ويكوّن مُنْتَج كل واحد منها مادة أولية أو مساهمة رئيسية في منتج المشروع الذي يليه، والتروست في هذه الحالة إما أن يكون تجمعاً متبايناً ينتج مواد أولية ويدير مؤسسات صناعية تستخدمها، ثم ينتج منتجات نهائية وشبه نهائية وإما أن يكون متجانساً يتألف من تجمع شركات تنتج مواد أولية ومنتجات شبه نهائية، تسهم كلها في إخراج منتج نهائي واحد.

ويغلب أن تحتفظ الشركات المندمجة بشخصيتها القانونية وتبقى مستقلة من حيث الشكل إلا أنها تفقد في الواقع استقلالها الاقتصادي لتكون مشروعاً واحداً.

الكارتل: نشأ الكارتل Cartel أو اتحاد المنتجين في ألمانية أول مرة في عام ١٨٦٢ حينما تأسس كارتل الحديد الأبيض، وفي عام ١٩٠٦ وصل عدد هذا النوع من الاندماج الاحتكاري إلى ٣٨٥ تضم ١٢٠٠٠ مؤسسة.

والكارتل اتفاق بين عدد من المشروعات التي تنتمي إلى فرع معين من فروع الإنتاج يكون الهدف منه الحد من المنافسة فيما بينها أو منع قيام المنافسة وفي غير موضوع الاتفاق يحتفظ كل من المشروعات باستقلاله الاقتصادي والمالي والفني. وهذا يعني أن السوق تواجه عدة مشروعات، ولاتواجه مشروعاً واحداً كما في حالة التروست. والكارتل والحالة هذه، هو اتحاد تجاري مهتم باقتسام الأسواق فيما بين الأطراف المتعاقدة، أو بتحديد أسعار معينة للبيع، أو بتحديد حصص الإنتاج. ولا تعني السوق في هذه الحالة السوق الوطنية فقط، فقد تكون سوقاً قاريّة أو عالمية. ويقوم الكارتل أخيراً بتوزيع الأرباح بعد أن تقوم الهيئة العليا بجمع أرباح المشروعات المنضمة، وبإعادة توزيعها على أساس النسب المتفق عليها.

ويشترط لنجاح الكارتل، في النظام الاقتصادي الرأسمالي شروط عدة أهمها:

ـ التزام الأطراف المتعاقدة نصوص العقد التزاماً مطلقاً.

ـ انضمام أغلب المنتجين إلى اتفاق الكارتل، وذلك لتشكيل القوة اللازمة لتنفيذ الاتفاق في السوق.

ـ قلة عدد المشروعات التي تقوم بالإنتاج في الفرع الذي يراد إقامة الكارتل فيه لتكون عملية الاتفاق سهلة.

ـ تقارب درجة كفاية المشروعات الفنية التي تندمج في الكارتل وذلك في الغالب من الأحوال.

الكونسورتيوم (اتحاد شركات): الكونسورتيوم Consortiom أو اتحاد الشركات هو تجمع يضم شركات كبيرة يقوم لمواجهة طلب كبير يفوق قدرة كل واحدة منها على حدة. ويمكن أن يكون اتفاقاً مؤقتاً أو اتفاقاً منصباً على طلب معين لمصلحة جهة حكومية أو خارجية. كما يمكن أن يكون اتفاقاً دائماً في حالات تكتل المصدرين أو المستوردين، وهو شكل حديث من حيث الانتشار أو كثافة الفعالية وحجمها. وفي هذه الحال يحتل اتحاد الشركات مركزاً مسيطراً على أقنية العرض في حالة الطلب الخاص (أي الاتفاق المؤقت) ومركزاً مشابهاً إن لم يكن مطابقاً لهذا في الحالة الثانية (أي تجارة الاستيراد والتصدير) ومع انتشار الهيئات المشتركة للتصدير التي تحاول أن تواجه الصراع على الأسواق، فإن هذا النوع

من الاتحادات يعمل بفعالية عالية ويفلح في معظم الأحيان في السيطرة على العرض في السوق الرأسمالية وذلك في الحالتين المذكورتين.

المجموعة المالية: إن كثافة التركز الاقتصادي لرأس المال الصناعي، في القطاع المصرفي وفي فروع اقتصادية أخرى، وتطور الاحتكارات الصناعية والمصرفية، والدمج بين رأس المال الصناعي والمصرفي، إن كل ذلك أدى إلى ولادة نموذج جديد من التمركز عرف بالمجموعة المالية أو مجموعة رأس المال المالي. ويتميز هذا النموذج من سابقيه في أن فعالياته الاقتصادية متسعة جداً وتصيب مجمل الفروع الاقتصادية في الاقتصاد الوطني، بل كثيراً من المجالات الحيوية الاجتماعية السياسية في الدولة. وفي الوقت نفسه فإن تركيب هذه المجموعات يتمتع بقدرة عالية على الحركة واللامحدودية، والقدرة هذه خاصة استراتيجية تتطلبها بنيته أولاً، وأهدافه البعيدة ثانياً.

ففي النظام الاقتصادي الرأسمالي، ولاسيما في أوربة الغربية وأمريكة الشمالية تقع مجاميع كبيرة من الشركات المنتجة في دائرة نفوذ المجموعات المالية، وتقوم الشركات الكبيرة جداً بدور مراكز القرارات المهمة للشركات المنضمة، وذلك فيما يخص القضايا التي تقع خارج النشاطات اليومية الجارية لها.

وتقوم المجموعة المالية بمراقبة عدد من المؤسسات المنتجة التي تسيطر عليها وتدفع بقدراتها باستمرار حتى إنها تخرج في كثير من الأحيان من السوق الوطنية إلى السوق الدولية. وترتبط المجموعات المالية الرئيسية بروابط قوية جداً تعمل على تنسيق النشاطات والفعاليات الاقتصادية والسياسية فيما بينها. وتُهمل المجموعات المالية الرئيسية الإطار الجغرافي لحقل نشاطاتها ويزداد انفصالها عن المصالح الوطنية العليا للدولة الأم وتتجه نحو النظر إلى العالم وحدةً اقتصادية واحدة تمارس فيها فعالياتها.

وتتشكل المجموعات المالية في غالب الأحيان بالسبل التالية: تبادل الشركات الأسهم فيما بينها، وإعادة تعيين أشخاص كانوا معينين من قبل أعضاء في إدارة أكثر من شركة، الاتفاق فيما بينها وهو اتفاق يختلف عن الاتفاق في حالة الكارتل.

الاحتكارات الدولية والسيطرة الاقتصادية

في الثلث الأخير من القرن العشرين تنامى دور الاحتكارات الدولية في الاقتصاد العالمي وفي السياسة العالمية أيضاً، وقد شمل تأثيرها جميع مجالات الاقتصاد الرأسمالي العالمي من دون استثناء، وقد بلغ الصراع العالمي بين الاحتكارات العملاقة حداً لم تعرفه من قبل، ومن الملاحظ أن هذا الصراع قد ترافق مع بروز اتجاه متزايد نحو التعاون والتشاور بين احتكارات دول مختلفة.

إن الثورة التقنية العلمية وتنامي تدويل العلاقات الاقتصادية الدولية وتكثيف التمركز العالمي في الإنتاج ورأس المال، وتقليص رقعة السيطرة الإقليمية للاستعمار بتأثير حركة التحرر القومي الجارية في العالم وتخطي الحدود الوطنية من قبل الرأسمالية الاحتكارية الدولية، كل هذا لا يتطلب تكون احتكارات عالمية وتعزيز دورها في العلاقات الاقتصادية والسياسية الدولية فحسب، وإنما يتطلب كذلك تنويعاً في نشاطات هذه الاحتكارات وتعقيداً أكبر وأشكالاً جديدة، وطرائق أحدث من تلك التي سادت في حقبة «الاحتكارات الكلاسيكية».

لقد أدت الاحتكارات الكلاسيكية الدور الرئيسي في الصراع على مناطق النفوذ وأسواق التصريف في بداية القرن العشرين، (التروستات العالمية، وكذلك الكونسرتات، والكارتلات) وتعدّ التروستات والكونسرتات من الأشكال الأقل انتشاراً بالنسبة للاتحادات الدولية، إذ يجب تفريقها عن الاحتكارات الوطنية التي لها نشاطات خارجية. أما التروستات والكونسرتات الضخمة التابعة لدول رأسمالية كبرى، فإن سيطرتها تغطي أيضاً جزءاً لا يستهان به من النشاط الاقتصادي في دول كبيرة.

وعلى ذلك فإن التفريق بين الاحتكار الوطني أو الدولي يتوقف على مدى سيطرة أقطاب المال على قيادة هذا الاحتكار أو ذاك في بلد معين وتوجيهه، ويمكن تسمية احتكار ما احتكاراً عالمياً أو متعدد الجنسيات عندما يسيطر على مقدراته رأسماليون من بلدين أو أكثر، ويلاحظ أن التروستات والكونسرتات ظهرت حتى الحرب العالمية الثانية من اندماج أو انصهار شركات بلد معين بمشروعات بلد آخر، أو عن طريق تأسيس شركات جديدة مشتركة من قبل احتكارات دول مختلفة. أما بعد الحرب فإنه يصعب القول إن هذين الشكلين كانا أكثر انتشاراً. فلقد تغير مضمون اتفاقات الكارتلات اليومَ تغيراً جذرياً إذ حلت الشركات المتحدة محل الكارتلات الدولية التقليدية أو الكارتلات الغنية.

والشركات المتحدة إنما هي اتحادات من أنواع مختلفة يتم تنظيمها وفقاً لمنطلقات إنتاجية وعلمية وتقنية، وتنفذ في الوقت نفسه مهام الكارتل التقليدي. يرمي هذا النوع من الاحتكارات إلى تطوير المواصفات وتوحيد القطع والأجزاء التي تنتجها الشركات الأعضاء من بلدان مختلفة، وإلى تبادل المعلومات العلمية والتقنية والتجارية، وإلى تنسيق النشاطات التجارية الدولية لهذه الشركات كما تقوم بإجراءات تنظيمية تتعلق بالسياسات السعرية، مستخدمة الطرائق الكلاسيكية التي كانت تستخدمها الكارتلات الدولية على نحو واسع، وعن طريق شكل هذه الاتحادات (اتحاد الشركات العاملة في فرع معين ضمن الأهداف المنوه عنها) تقوم الاحتكارات القيادية بإخضاع المتوسطة والصغيرة المنتسبة للاتحاد لسيطرتها التامة. ويتم توجيه هذه الشركات إلى القيام بالتوريدات الثانوية، أو إلى التخصص بإنتاج أنواع القطع التبديلية أو بعض أجزاء السلعة النهائية، الأمر الذي يحكم ارتباطها بالاحتكارات القيادية إحكاماً أشد.

ويلاحظ أن اتحاد الشركات يعمل كشخص اعتباري مشهور تجارياً أو صناعياً إذ يتم تسجيله شركة مساهمة في غالب الأحوال وهنا يبرز فارق كبير بينه وبين الكارتل، إذ يتيح هذا الشكل القانوني لإدارة الاتحاد إكمال النظام وتعديله واتخاذ القرارات وفقاً لتقديراته الخاصة، من دون أخذ موافقة جميع المشاركين، على عكس ما هو الحال في الكارتل الذي تمنع اتفاقياته اتخاذ أي إجراء بصورة منفردة. وتملك اتحادات الشركات الوطنية المنضمة إلى اتحادات الفروع الدولية، وسائل ضخمة للتأثير في حكوماتها، فهي تمارس نفوذها الواسع في التدخل في التركيب الشخصي لمختلف اللجان الاقتصادية الحكومية العليا، وتشارك مشاركة مباشرة في إعداد مشاريع القوانين المتعلقة بالسياسة التجارية وحقوق براءات الاختراع والصنع والضرائب، وتعدّ اتحادات الشركات الدولية غالباً بمنزلة مكان حتمي للاتفاق بين

الاتحادات الضخمة لفروع حول التعرفة الجمركية وغيرها من القضايا الاقتصادية، ويتم فيما بعد تنفيذ اتفاقاتها عن طريق الحكومات التي تساندها أو من قبل أجهزة قارية أو عالمية مثل الأسواق المشتركة.

ولهذا يمكن عدّ اتحادات الفروع الدولية، الشكل الحديث للتنظيم الاقتصادي الرامي إلى اقتسام العالم الرأسمالي، وهو أشمل وأرقى من شكل الكارتلات الدولية وفعاليتها. ومن جهة ثانية ينسجم هذا الشكل مع المرحلة الحالية لتطور رأسمالية الدولة الاحتكارية بسبب قدرته على السيطرة على القرار الحكومي واتساع رقعة فعالياته وكثافة التركز الرأسمالي فيه، وأخيراً استخدام أعلى القدرات التقنية والإدارية الحديثة.

وفي معرض معالجة الاحتكارات والاقتصاد العالمي لابد من ذكر ما يمكن ذكره عن الاحتكارات الوطنية التي خرجت عن حدود وطنها الأم. فلقد اتسعت حركة خروجها هذه بعد الحرب العالمية الثانية اتساعاً كبيراً، وينطبق ذلك على الاحتكارات الأمريكية خاصة. لقد ساعدت قدرة هذه الاحتكارات، وانتشار بعض الليبرالية في التجارة الدولية وتخفيف القيود المفروضة على القطع، وزيادة حجم كتلة الأموال في أسواق العملات الأوربية لقد ساعد هذا كله على إيجاد الأسس الموضوعية لتطوير فعاليات الاحتكارات بهذا الاتجاه. علماً بأن هذه الظاهرة تعممت بعد ذلك فيما سُمي بالشركات «المتعددة الجنسيات» ولم تعد مقتصرة على الاحتكارات الأمريكية. إن حصة هذه الاحتكارات الوطنية في مجمل الاقتصاد العالمي الرأسمالي ـ على شكل استثمارات خارجية ـ في نمو مستمر، وإن كثيراً من الفروع الصناعية المتقدمة غدت تخضع لسيطرة هذه الاحتكارات (أوربة الغربية) وتختار هذه الاحتكارات «المتعددة الجنسيات» الفروع التي تتميز بالتقنية المتقدمة، عن طريق استخدام المبتكرات الجديدة، وتحقيق معامل مرتفع في النمو، وتنتشر هذه الشركات في دول العالم الثالث (في الصناعات الاستخراجية والملوثة) وتسهم في الخلل الكبير والواضح في معدلات التبادلات التجارية الدولية بين هذه الكتلة وتلك الشركات. وتتسع الفجوة السعرية بين منتجات هذه الشركات النهائية وأسعار المواد الأولية المسيطر على مكامنها في العالم الثالث من قبل الشركات المتعددة الجنسيات ويمكن القول إن مركز القرار الموحد للشركة المتعددة الجنسيات هو أحد مميزاتها الرئيسية، تلك الميزة التي تؤلف تهديداً خطيراً لبلدان العالم المضيفة لها. والحال إن مركز القرار المرتبط ارتباطاً وثيقاً بالبنى والمصالح الاقتصادية وميزان مدفوعات الدولة الأم، لايمكن أن ينطلق في قراراته إلا من ظروفه المحلية المذكورة المحيطة به، كما أن كثيراً من نشاطاتها لم يخضع ولايمكن أن يخضع لضوابط قانونية دقيقة في البلدان المضيفة، ومن ذلك قدرتها على تغيير حجم الإنتاج وحقها في بناء منشآت إنتاجية جديدة، أو إغلاق بعضها، واختيار التخصصات الإنتاجية، واختيار الموردين والمشترين والأسواق وتحويل الأرباح. وبصورة عامة ترتكز قراراتها على قاعدة جني أكبر قدر ممكن من الأرباح في صراعها الخارجي، ولاتراعي تلك الشركات المصالح الوطنية العليا للدول المضيفة أو برامج التنمية فيها، كما أنها لا تهتم بتطوير الفروع الاقتصادية في الدول المضيفة بصورة متناسبة ومتوازنة، وتتجاهل أيضاً إمكانات التشغيل أو حجم التجارة الخارجية واتجاهها وإسهاماتها في التنمية الاقتصادية والاجتماعية لتلك الدول. لقد دفعت نشاطات الاحتكارات الدولية بكل أنواعها ـ كارتل كونسرتيوم ـ تروست، اتحاد شركات وطنية، اتحاد شركات فروع، شركات متعددة الجنسيات...، الاقتصاد العالمي إلى حال من اللاتوازن واللاتكافؤ، سواء كان ذلك على صعيد تشديد وتيرة نمو معدلات الأرباح على مستوى الاقتصادات الوطنية، أو على مستوى الاقتصاد العالمي، أو على صعيد الخلل في معدلات التبادل الدولية.

إن نزعة الاحتكارات الرأسمالية الواضحة إلى النظر إلى العالم كله وحدةً جغرافية اقتصادية واحدة، وانتشارها على هذا الأساس، وقيام أشكال متعددة من التنسيق بين إداراتها، فيما يتعلق بالمواجهة مع المصالح الوطنية لدول العالم الثالث، أو باقتسام الأسواق أو تنظيم السعر العالمي. إن هذه النزعة لايمكن أن تتحقق بمعزل عن الحماية الرسمية والدعم الحكومي لحكوماتها الأم.

رأسمالية الدولة الاحتكارية

إن رأسمالية الدولة الاحتكارية أعلى طور للرأسمالية في مرحلتها السائدة في البلدان الرأسمالية المتقدمة اقتصادياً. ولقد ظهرت رأسمالية الدولة الاحتكارية من خلال التطور الرأسمالي نتيجة للتناقض بين رأس المال والعمل من جهة، وبسبب تركز رأس المال وازدياد الطابع الاجتماعي لقوى الإنتاج من جهة أخرى. ويمكن أن يضاف إلى ذلك الظروف التي رافقت الحربين العالميتين وقيام الدول الاشتراكية، ثم ما طرأ على النظام الرأسمالي القديم، وتنامي حركات التحرر القومي.

إن رأسمالية الدولة الاحتكارية هي نمط رأسمالي جديد تتحد فيه قوة الاحتكارات الرأسمالية الكبرى وقوة الدولة في فعاليات واحدة مشتركة، بهدف حماية المؤسسات الامبريالية وتشديد وتيرة أرباحها. وبهذا يظهر شكل جديد من احتكار المجموعات المالية للسلطتين الاقتصادية والسياسية. وتقدم الدولة في هذه المرحلة إسهامات جدية ومهمة في عمليات تطور التراكم الرأسمالي وتركز رأس المال والإنتاج على كل الصعد، ومنها الصعيد الدولي. كما ترتبط العلاقات السياسية والعقائدية بعلاقات الإنتاج السائدة وتخضع لها بوجه متزايد، وتزداد روابط الاقتصاد بالسياسة، ويصبح تدخل الدولة بالاقتصاد أكثر عمقاً وتتوطد العلاقات بين جهاز الدولة والمجموعات الاحتكارية.

وفي المراحل الأولى لبلورة هذا النمط الاحتكاري برزت الدولة ممثلاً للمصالح الاقتصادية المشتركة للطبقة الرأسمالية في السياسة الخارجية. ولأن الدولة هي التي ضمنت المصالح المشتركة لبرجوازيتها في الصراع التنافسي في الأسواق العالمية، فقد تحملت نفقات حماية النشاط التجاري وغيره من نشاطات البرجوازية الوطنية في الدول الأخرى (السفارات والقنصليات). كما جعلت الدولة، في هذه الحقبة، من النشاط العسكري (نحو الخارج) وسيلة لحماية المصالح التجارية للأمة كلها ووسيلة للحفاظ على هيبتها. أما على الصعيد الداخلي فقد أصبح تدخل الدولة لحماية شكل الإنتاج السائد عن طريق التنظيمات القانونية للعلاقة بين العمل ورأس المال من أهم وظائف الدولة.

لقد أصبح التدخل في شؤون السوق من جانب الدولة أمراً ممكناً بعد دخول الرأسمالية

مرحلة الاحتكار بسبب قلة عدد العاملين في السوق وسهولة التفاوض والاتفاق معهم. وصدرت قوانين عديدة (قوانين منع الاحتكار مثلاً) توحي بأنها تعمل على حماية المستهلك، إلا أن المستثمرين الكبار التفوا عليها واستفادوا من قوانين أخرى دفعت بالتركز الرأسمالي إلى مراحل كبيرة (مثل قانون المشاركة المتعددة بأكثر من شركة) من دون أن يكون رصيد أموالهم مرتبطاً بواحدة منها (قانون دمج الشركات) وتقديم ضمانات الدولة لقروض الشركات (قانون دعم الشركات التي تعاني من صعوبات مالية). إن الدولة، في مرحلة رأسمالية الدولة الاحتكارية، تتصرف كمالك لجزء من الدخل القومي الذي يدخل الخزينة العامة عن طريق فرض الضرائب وطريق الأوراق المالية والرقابة على الدورة النقدية، وإذا أضيف دور الدولة (كمقرض) في مجال التسليف يتبين أنها تمارس تأثيراً فعالاً في مجمل نظام علاقات الإنتاج في مجال الإنتاج والتوزيع والاستهلاك. وثمة مثال يمكن ذكره هنا. فقد اتضحت، في حقبة الحرب العالمية الثانية وما بعدها، محدودية قدرة حركة السوق على تنظيم الاقتصاد الرأسمالي بما يتناسب وظروف الحرب، وظهر أنه لم يكن على الدولة إقامة الصناعات العسكرية فقط، بل وَجَب عليها كذلك إدخال رقابة صارمة على توزيع مصادر الإنتاج المحدودة وظهر كذلك أنه كلما ازدادت عسكرة الاقتصاد اتسع إطار ملكية الدولة في المجال الاقتصادي، الأمر الذي ارتبط منذ البدء ارتباطاً مباشراً وغير مباشر بإنتاج الأسلحة.

خالد رعد

الموضوعات ذات الصلة:

التركز الاقتصادي ـ المجمع الصناعي.

مراجع للاستزادة:

ـ رفعت محجوب، الاقتصاد السياسي (دار النهضة، القاهرة ١٩٧٣).

ـ آ. ح ميلياكوتسكي، الرأسمالية الاحتكارية المعاصرة، ترجمة ربيدة برقاوي، ج٣ (دار ميسلون، دمشق).

■ الاحتلال ◄ الحرب (قانون ـ)

■ الاحتمال

تستعمل كلمة الاحتمال probability في الوقت الحاضر للدلالة بصورة كمية على درجة القناعة التي يراد إضفاؤها على حوادث معينة، أو على الاتجاه الذي تبديه بعض الحوادث للظهور «بتواتر منتظم» عند تكرار تجارب معينة بالشروط نفسها.

إن هذا الاستعمال لم يترسخ قبل منتصف القرن السابع عشر على الرغم من وجود الكثير من الأدلة على أن الاحتمالات والمفاهيم العشوائية كانت موجودة منذ قديم الزمان، فهنالك الكثير من الأمثلة على أن الآشوريين كانوا يستخدمون الكعب لتوليد حوادث عشوائية يستعملونها في اللعب، وكذلك هنالك مايؤكد أن فكرة التواتر المنتظم كانت معروفة لدى المصريين القدماء، وفي القاعة القديمة في متحف القاهرة نرد من العاج هو نَرْد متوازن (كل وجه له الحظ نفسه في الظهور) على الرغم من عدم انتظام شكله. كذلك كان اليونان يطلقون اسم فينوس على ظهور أربعة أوجه مختلفة لدى إلقاء أربعة نرود مرة واحدة وذلك لصعوبة ظهور تلك الحادثة.

أما عند العرب فكانت فكرة الاحتمالات وفوائدها واستعمالها واضحة تماماً عند الكندي [ر] (ت ٢٦٠هـ) وعند آخرين غيره. لقد وضع الكندي في كتابه «علم استخراج المعمَّى» (كسر الشيفْرة) جدولاً لتواتر أحرف اللغة العربية ودرس تواتر الثنائيات واستخدم ذلك لاستخراج المعمَّى. وكان بذلك متقدماً على الأوربيين الذين لم يعالجوا هذه الأمور إلا بعده بسبعة قرون على الأقل. وكما يرى هوكنْغ Hocking فإن التسمية القديمة للاحتمال (كما هو الحال في كلمة الجبر) عربيةُ الأصل. فالكلمة الرديفة لكلمة احتمال في اللغات اللاتينية التي كانت تستعمل قبلها هي hasard (بالفرنسية) hazard (بالإنكليزية) وأصل هذه الكلمة كما تورد المعاجم الفرنسية والإنكليزية من الزهر (النرد) وأصبحت في الإسبانية azar في القرن الثاني عشر، ومنها انتقلت إلى اللغات الأخرى.

ويذكر هوكنغ كذلك أن الاحتماليين الأوربيين الأوائل كانوا في إيطالية حيث كانوا يهتمون بالكثير من المسائل الحسابية والجبرية ومسائل أخرى احتمالية مستوحاة من النرد، وكان مصدر هذه المسائل شمالي إفريقية. إن كل هذه الأدلة لا تسمح بإنكار دور العرب في هذا الجزء من الرياضيات، مع أن تاريخ الرياضيات عند العرب لم يكتمل وضوحه ولما تكتب فصوله الأخيرة.

نشوء نظرية الاحتمالات في العصر الحديث وتطورها

يتفق المؤرخون على أن علم الاحتمال في العصر الحديث بدأ منذ منتصف القرن السابع عشر، وأنه يمكن تتبع تطوره بدقة منذ ذلك التاريخ، ويعطون سببين لبدئه في ذلك التاريخ، أولهما أن الاحتمالات قد نشأت من مسائل متعلقة بالنرد، ويدلّون على ذلك بأولى المسائل والرسائل المتبادلة بين فرما [ر] Fermat وباسكال [ر] Pascal في عام ١٦٥٤، التي يعدّها البعض نقطة انطلاق الاحتمالات الحديثة إذ تمّ حل مسألة أيهما أكثر احتمالاً، ظهور المجموع ١١ أو ١٢ لدى إلقاء ثلاثة نرود. وثاني السببين هو أن هنالك ضرورات عدة واستعمالات للاحتمالات دفعت تطورها، ولاسيما مسائل التأمين التي انتشرت في ذلك الوقت، وكذلك الإحصاءات السكانية المختلفة التي ظهرت في عددٍ من الدول الأوربية، والتي جعلت مفاهيمَ مثل الاحتمالات الشرطية ضرورية، ويربط القائلون بهذا السبب بين تطور الاحتمالات وتطبيقاتها عند تفسير هذا التطور.

ومنذ منتصف القرن السابع عشر مرت الاحتمالات بثلاث مراحل:

ـ تمتد المرحلة الأولى حتى عام ١٧١٣، ويتفق المؤرخون على أن هذه الحقبة شهدت بداية الاحتمال بوصفه علماً، فقد ظهرت المفاهيم الأساسية مثل الأمل الرياضي وقوانين جمع الاحتمالات وضربها والاحتمالات الشرطية. وفي عام ١٦٥٧ نشر هويْغنْز Huygens أول كتاب عن الاحتمالات، ويُعَدُّ اسما فِرْما وباسكال مرتبطين بهذه الحقبة، وشهدت هذه الحقبة أيضاً

عدداً من تطبيقات هذا العلم في مجال تعداد السكان، ولكن لم تذهب الاحتمالات بعيداً لعدم وجود حساب تفاضلي وتكاملي بعد، فبقيت الاحتمالات مقتصرة على الحالات المنتهية.

ـ وتمتد المرحلة الثانية حتى عام ١٩٣٣، وهي تبدأ مع برنولي [ر] Bernoulli في كتابه «فن التخمين» الذي نُشر عام ١٧١٣ إذ برهن فيه أول شكل لقانون الأعداد الكبيرة الضعيف. وفي عام ١٧١٤ نشر دوموافر De Moivre أول شكل لمبرهنة النهاية المركزية في كتابه «قانون الحظ»، وظهرت بالتالي أول مرة التوزيعات الاحتمالية المستمرة وذلك بظهور التوزيع النظامي، وتشكل الأمور التالية أهم المعالم البارزة لتلك الحقبة.

ففي عام ١٧٦٣ نُشر للعالم بايْز Bayes بعد وفاته مقالة بعنوان «تجربة» تحوي علاقته المشهورة في احتمال الأسباب والتي قامت بدور مهم في النظرية الشخصية لتفسير الاحتمالات.

وفي أواخر القرن الثامن عشر تطورت مسألة معالجة القياسات الفلكية ولا سيما بأعمال غوْص Gauss، ونشر لابلاس Laplace في عام ١٨١٢ كتابه «النظرية التحليلية للاحتمالات»، ويحوي الكتاب عدداً من النتائج والتطبيقات المختلفة لهذا العلم ويلخص ماكان معروفاً حتى ذلك التاريخ.

ثم جاءت المدرسة الروسية للاحتمالات، أو مايسمى بمدرسة سان بطرسبُرغ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى عام ١٩٢٠ التي تضم أعمال كلٍ من ليبانوف Lyaponnov وماركوف Markov وتشيبيشيف Tchebychev. وشهدت هذه الحقبة تقدماً كبيراً لمبرهنة النهاية المركزية، كما شهدت تطبيقات عدة للاحتمالات في علم الحياة وفي الفيزياء الإحصائية بوجه خاص، وبُرهن في نهاية هذه الحقبة قانون اللغرتمات المتكررة كما برهن كولموغورف Kolmogorov قانون الأعداد الكبيرة. وبقيت الاحتمالات على الرغم من تقدمها في هذه الحقبة تفتقر إلى تعاريف واضحة، كما بقيت تحوي عدداً من التناقضات.

أما المرحلة الثالثة وهي المرحلة الحاضرة فتبدأ عام ١٩٣٣ عندما نشر كولموغورف كتابه حول «أسس الاحتمالات» أرسى فيه الموضوعات الأساسية التي يرتكز عليها هذا العلم، وربطها بالعلوم الرياضية الأخرى ولاسيما نظرية القياس والتكامل، وأعطى الشكل النهائي لمبرهنة النهاية المركزية (ولاسيما في حالة التشتت المحدود). ولقد شهدت هذه الحقبة تقدم استعمال الاحتمالات في العلوم الفيزيائية حتى أصبحت صيغة الكثير من القوانين الفيزيائية الحديثة صيغة احتمالية.

وقد ثبت نجاح الاحتمالات في مجابهة المواقف المتعددة في مجالات الفيزياء النووية وفي الاقتصاد التطبيقي وفي مجالات التخطيط والتنهيج ونظرية الألعاب [ر] والإدارة... كما ثبت بما لا يقبل الجدل أن احتمالات الأحداث المرتبطة بتجربة مفروضة ذات وجود موضوعي مستقل عن الأفراد، وأن على الباحث اكتشاف احتمال حدث بالتجريب.

معنى الاحتمال وتعريفه الرياضي

معنى الاحتمال: هنالك مدرستان لتفسير معنى الاحتمال:

المدرسة الذاتية أو مدرسة البايزيين Bayses: التي ترى أن الاحتمال يمثل درجة القناعة بصحة الحادثة وذلك بعد موازنة الأسباب التي تؤدي إلى حدوثها.

المدرسة الموضوعية: وترى أن للاحتمال وجوداً موضوعياً مستقلاً عن الباحث وأن على الباحث اكتشافه بالتجريب، وتفترض هذه المدرسة أن احتمال حادثة **س** مرتبطة بتجربة مفروضة يمكن تمثيله بنسبة من الشكل $\frac{ن_١}{ن}$ حيث يمثل ن عدد مرات تكرار التجربة ويمثل $ن_١$ عدد المرات التي تتحقق فيها الحادثة **س**، ويُكتب:

حت (س) = $\frac{ن_١}{ن}$ = عدد الحالات المواتية (التي تتحقق فيها) س / عدد الحالات الممكنة كلها

حيث تعني حت(**س**) احتمال الحدث **س**.

فإذا رُمي، على سبيل المثال، نرد مغشوش (غير متوازن) له ستة وجوه، مئة مرة، وإذا كانت عدد مرات ظهور كل وجه من وجوهه كما يلي:

الوجه	٦	٥	٤	٣	٢	١
تكراره	٢٠	١٥	١٨	٢٠	١٥	١٢

فمن الواضح أن احتمال ظهور الوجه ٤ هو $\frac{١٨}{١٠٠}$، أي أن احتمال الحادثة (ظهور الوجه ٤) هو ٠,١٨، واحتمال ظهور الوجه ١ هو ٠,١٢ وهكذا.... أما إذا كان الحدث **س** هو ظهور وجه زوجي فإن حت (س) = $\frac{١٥+١٨+٢٠}{١٠٠}$ = ٠,٥٣ وإن احتمال ظهور وجه فردي هو ٠,٤٧.

التعريف الرياضي للاحتمال: تعرف التجربة بأنها قيام بعمل ما أو إجراء ملاحظة أو تسجيل مايتم عن هذا العمل أو هذا الإجراء. لتكن ف مجموعة النتائج الممكنة لتجربة مفروضة، فإذا فُرض أن هذه المجموعة منتهية مثل: ف={$و_١$, $و_٢$،...، $و_ن$} وكانت ق مجموعة أجزاء ف، فإنه يدعى كل عنصر من ق حدثاً (أو حادثة) مرتبطاً بالتجربة المفروضة. يدعى ϕ الحدث المستحيل و ف الحدث الأكيد أو فضاء العيِّنة، وتدعى كل مجموعة جزئية من ف وحيدة العنصر حدثاً ابتدائياً، ويقال عن حدثين **س، ع** إنهما متنافيان إذا كان س $\cap$ ع = ϕ. ويعرف الاحتمال في هذه الحالة على أنه أية دالة حت منطلقها ق ومستقرها مجموعة الأعداد الحقيقية ح وتتمتع بالخواص التالية: آ ـ حت(**س**) $\geq$ ٠ أيا كان الحدث **س**

ب ـ حت (ف) = ١ (أي أن احتمال الحدث الأكيد يساوي الواحد).

جـ ـ حت (س $\cup$ ع) = حت(س) + حت(ع) فيما إذا كان الحدثان **س، ع** متنافيين.

يسمى حت دالة الاحتمال أو الاحتمال اختصاراً، وتنص الخاصة حـ على مايلي: «احتمال اتحاد حدثين متنافيين يساوي مجموع احتماليهما».

وينتج من تعريف الاحتمال أن ٠ $\leq$ حت(**س**) $\leq$ ١ مهما كان الحدث **س**. تدعى الثلاثية (ف،ق،حت) فضاء الاحتمال المنتهي الموافق للتجربة التي تكون مجموعة نتائجها ف منتهية.

أمثلة: آ ـ في تجربة إلقاء حجر النرد مرة واحدة وقراءة عدد النقط التي يحملها الوجه العلوي يكون فضاء العينة (مجموعة النتائج الممكنة لهذه التجربة) هو: ف={١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦} وتمثل المجموعة الجزئية **ص**={١، ٣، ٥} الحدث الذي يُعدّ محقَّقاً عندما يظهر رقم فردي، فإذا كان لكل عنصر من عناصر ف الحظ نفسه في الظهور، فإن احتمال حدث **س** في مثل هذه الحالة يعرّف عادة أنه عدد عناصر **س** مقسوماً على عدد عناصر ف:

حت (س) = عدد عناصر س / عدد عناصر ف = عدد الحالات المواتية / عدد الحالات الممكنة   (١)

وهذه المساواة تعيّن على ق احتمالاً، بمعنى أن حت المعرفة بهذه

المساواة تحقق الخواص آ، ب، جـ السابقة. واعتماداً على (١) ينتج أن حت (ص) = ٣/٦ وإذا كان ع = {١ ، ٢ ، ٤ ، ٥} فإن حت (ع) = ٤/٦ و

حت (ص ∩ ع) = حت {١ ، ٥} = ٢/٦ = ١/٣

ب ـ إذا كان ف، مجموعة نتائج إلقاء حجريْ نرد متوازييْن متمايزين (غير متماثلين)، فيمكن تمثيل هذه المجموعة وفق الجدول التالي :

١١ ٢١ ٣١ ٤١ ٥١ ٦١

١٢ ٢٢ ٣٢ ٤٢ ٥٢ ٦٢

حيث يشير الرقم الأول من هذه الأعداد إلى الرقم الذي يظهر على النرد الأول، ويشير الرقم الثاني إلى الرقم الذي يظهر على النرد الثاني، وحيث تتعين كل نتيجة برقمين متساويين أو مختلفين من المجموعة ف= {١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦}. إن الحدث الذي يُعدّ محققاً عند ظهور وجهين مجموع رقميهما ثمانية أو تسعة، يمكن تمثيله بالمجموعة : **س**= {٦٢ ، ٦٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٣٥ ، ٢٦ ، ٣٦} ويكون :

حت س = عدد عناصر س / عدد عناصر ف، = ٩/٣٦ = ٢٥ .

جـ ـ إذا ألقي حجرا نرد متماثلان فتتعين في هذه الحالة كل نتيجة برقمين متساويين أو مختلفين من المجموعة ف= {١ ، ٢ ، ٣ ، ٤, ٥ ، ٦} نفسها، ولكن لا مجال هنا كما هو واضح لترتيب هذين الرقمين. لقد جرت العادة أن تمثل مجموعة النتائج ف٢ في هذه الحالة بالجدول التالي :

[١١] [٢١] [٣١] [٤١] [٥١] [٦١]

[٢٢] [٣٢] [٤٢] [٥٢] [٦٢]

[٣٣] [٤٣] [٥٣] [٦٣]

حيث تدل النتيجة [٤٢] مثلاً على ظهور الرقم ٢ على أحد النردين والرقم ٤ على النرد الآخر. ولا بُدّ عند حساب الاحتمالات الموافقة لهذه النتائج (أي الموافقة للأحداث الابتدائية المتعلقة بهذه التجربة) من أخذ الفرص الموافقة لظهور هذه النتائج بالحسبان، ولا بُدَّ بالتالي من العودة إلى الحالة التي يكون فيها الحجران متمايزين، لأن أمام كل نتيجة [س ع] فرصتان للوقوع إذا كان س≠ع وفرصة واحدة إذا كان س=ع ، ويغدو احتمال حدث **س** مرتبط بهذه التجربة في مثل هذه الحالة :

حت (س) = عدد الفرص التي تؤدي إلى وقوع الحدث س / عدد الفرص التي تؤدي إلى وقوع الحدث ف٢ (٢)

وينتج، إذا كان **س**= {[٢١]، [٦٦]}، أن : حت (س) = (٢+١)/٣٦ = ١/١٢

وتحقق الدالة حت المعرفة بـ (٢) الخواص آ ، ب، جـ السابقة.

د ـ مثال النرود الثلاثة : يعد البعض المثال التالي نقطة البدء لعلم الاحتمال.

يُذكر أن الفارس دوميري De Mere كتب لباسكال يقول له : «إنه لدى إلقاء ثلاثة نرود متماثلة يظهر الحدث الذي يعد محققاً عندما يكون مجموع النقط التي تظهر مساوياً ١٢ بـ ٦ طرائق مختلفة هي :

[٦ ٥ ١]، [٦ ٤ ٢]، [٦ ٣ ٣]، [٥ ٥ ٢]، [٥ ٤ ٣]، [٤ ٤ ٤]

كذلك يظهر المجموع ١١ بـ ٦ طرائق مختلفة هي :

[٦ ٤ ١]، [٦ ٣ ٢]، [٥ ٥ ١]، [٥ ٤ ٢]، [٥ ٣ ٣]، [٤ ٤ ٣]

في حين تدل التجربة على أن فرصة ظهور المجموع ١١ أفضل من فرصة ظهور المجموع ١٢، فما هو السبب؟» وكان جواب باسكال : إنه لابد عند حساب الاحتمال الموافق لكل نتيجة من حساب عدد الفرص المواتية لظهور هذه النتيجة، وإنه أمام كل نتيجة من الشكل [س ع ص] ست فرص للحدوث إن كانت الأعداد الثلاثة مختلفة مثنى، وثلاث فرص إن تساوى اثنان منها فقط، وفرصة واحدة إن تساوت جميعها. وهكذا يكون عدد الفرص الموافقة لظهور المجموع ١٢ هو ٦+ ٦+ ٣+ ٣+ ٦+١= ٢٥، بينما يكون عدد الفرص الموافقة لظهور المجموع ١١ هو ٦+ ٦+ ٣+ ٦+ ٣+ ٣= ٢٧، ويكون احتمال الحدث الأول ٢٥ / ٢١٦ واحتمال الحدث الثاني ٢٧ / ٢١٦ (حيث يكون عدد الفرص التي تؤدي إلى وقوع الحدث الأكيد وهو بالضبط عدد نتائج إلقاء ثلاثة أحجار متمايزة هو ٦ X ٦ X ٦ = ٢١٦)، وهذا هو الذي يجعل فرصة المجموع ١١ أفضل من فرصة ظهور المجموع ١٢ .

خصائص الاحتمال

إذا كانت ف مجموعة نتائج تجربة مفروضة و ق مجموعة أجزائها، وكانت حت :ق ⟵ ح دالة الاحتمال على المجموعة ق فإنه، بفرض أن **س، ع، س١، س٢، س٣** أحداث كيفية مرتبطة بالتجربة المفروضة، يصح مايلي : ١ ـ حت (**سَ**) = ١ـ حت (**س**) بفرض أن **سَ** هو الحدث المتمم (المضاد) للحدث **س**. ولإثبات ذلك يلاحظ أن : حت (س ∪ سَ) = حت (ف) = ١ ولما كان حت (س ∪ سَ) = حت (س) + حت (سَ) لأن الحدثين **س، سَ** متنافيان، فإنه يكون : حت(**سَ**) + حت(**س**) = ١ وهذا يؤدي إلى المطلوب.

٢ ـ حت(ϕ) = صفر وتتضح هذه العلاقة من كون ϕَ هو ف، ومن ثم فإن حت (ϕ)= ١ ـ حت (ف)= ١ ـ ١= ٠.

٣ ـ حت (س - ع) = حت (س) - حت (س ∩ ع) ولإثبات ذلك يلاحظ أن (س - ع) ∪ (س ∩ ع) = س وأن (س - ع) ∩ (س ∩ ع) = ϕ ومنه حت (س - ع) + حت (س ∩ ع) = حت س وهذا يؤدي إلى المطلوب.

٤ ـ يمكن كذلك إثبات هذه الخاصة :

حت (س ∪ ع) = حت (س) + حت (ع) - حت (س ∩ ع) التي تعمم على الشكل :

حت (س١ ∪ س٢ ∪ س٣) = حت(س١) + حت(س٢) + حت(س٣)

- حت(س١ ∩ س٢) - حت(س٢ ∩ س٣) - حت(س٣ ∩ س١) + حت(س١ ∩ س٢ ∩ س٣)

والمسمى علاقة بوانكاريه Poincare [ر].

الاحتمال المشروط :

من المسائل المهمة في حساب الاحتمالات دراسة مابين الأحداث المتعلقة بتجربة مفروضة من ارتباطات احتمالية، لأن للأحداث المتعلقة بتجربة مفروضةٌ احتمالاتها قبل إجراء التجربة. ولكن إذا أجريت هذه التجربة وكان ثمّة إعلام جزئي عن النتيجة التي وقعت، كأن يُعلم أن حدثاً معيناً قد وقع، فإنه من شأن ذلك أن تتغير الصورة الاحتمالية وأن تتغير بالتالي الأحكام الاحتمالية الأخرى : فقد يزيد احتمال بعض الأحداث وينقص احتمال بعضها الآخر، وقد توجد أحداث لا تتغير احتمالاتها فتبقى كما كانت عليه قبل إجراء التجربة. فلو كانت التجربة المدروسة، على سبيل المثال، هي اختيار فرد من مجموعة ف من الناس عدد عناصرها ن، وكان **س** الحدث الذي يتحقق إذا كان الفرد المختار أنثى وكان **ع** الحدث الذي يتحقق إذا كان الفرد المختار ذا عينين خضراوين، كان الحدث س ∩ ع هو ذاك الحدث الذي يتحقق إذا كان الفرد المختار أنثى ذات عينين خضراوين،

ويكون $\text{حت}(\text{س}) = \frac{\text{عدد عناصر س}}{\text{عدد عناصر ف}} = \frac{|\text{س}|}{\text{ن}}$

$\text{حت}(\text{ع}) = \frac{|\text{ع}|}{\text{ن}}$، $\text{حت}(\text{س} \cap \text{ع}) = \frac{|\text{س} \cap \text{ع}|}{\text{ن}}$ ولو اقتصر الاختيار لهذا الفرد على الإناث فقط، فإن عدد مجموعة النتائج الممكنة يصبح مساوياً عدد الإناث أي $|\text{س}|$، وتغدو مجموعة النتائج الموافقة لـ ع والحالة هذه، مساوية مجموعة الإناث ذوات العيون الخضر وعدتها $|\text{س} \cap \text{ع}|$ ويكون: احتمال تحقق الحدث ع علماً بأن الحدث **س** قد وقع $= \frac{|\text{س} \cap \text{ع}|}{|\text{س}|}$.

وإذا رُمز لهذا الاحتمال بـ $\text{حت}_{\text{س}}(\text{ع})$ أو $\text{حت}(\text{ع}|\text{س})$، فإنه ينتج:

$$\text{حت}(\text{ع}|\text{س}) = \frac{|\text{س} \cap \text{ع}|/\text{ن}}{|\text{س}|/\text{ن}} = \frac{\text{حت}(\text{ع} \cap \text{س})}{\text{حت}(\text{س})} \qquad (٣)$$

ومن ثُمَّ فإن $\text{حت}(\text{س} \cap \text{ع}) = \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\text{ع}|\text{س}) \qquad (٤)$

يسمى الاحتمال $\text{حت}(\text{ع}|\text{س})$ الاحتمال المشروط، وتسمى الصيغة (٤) دستور الاحتمال المركب؛ ويمكن النص على هذا الدستور كما يلي: احتمال تقاطع حدثين يساوي جداء احتمال أحدهما في احتمال الآخر علماً بأن الأول قد وقع. ويمكن التحقق من أن الاحتمال المشروط يحقق الشروط آ، ب، جـ من تعريف الاحتمال.

مبرهنة أساسية (قانون الاحتمال الكلي): إذا كانت الأحداث $\text{س}_{١}، \text{س}_{٢}، ...، \text{س}_{\text{ن}}$ تجزئة للحدث الأكيد ف لتجربة مفروضة، وإذا كان احتمال كل منها مختلفاً عن الصفر، وإذا كان ع حدثاً مرتبطاً بالتجربة المفروضة، فإن: $\text{حت}(\text{ع}) = \text{حت}(\text{س}_{١}) \times \text{حت}_{\text{س}_{١}}(\text{ع}) + \dots + \text{حت}(\text{س}_{\text{ن}}) \times \text{حت}_{\text{س}_{\text{ن}}}(\text{ع})$

ولإثبات ذلك يلاحظ أن: $\text{ع} = \text{ع} \cap \text{ف}$ ، $\text{ف} = \text{س}_{١} \cup \text{س}_{٢} \cup \dots \cup \text{س}_{\text{ن}}$ ومنه:

$$\text{ع} = \text{ع} \cap (\text{س}_{١} \cup \text{س}_{٢} \cup \dots \cup \text{س}_{\text{ن}}) = (\text{ع} \cap \text{س}_{١}) \cup \dots \cup (\text{ع} \cap \text{س}_{\text{ن}})$$

أي $\text{ع} = (\text{س}_{١} \cap \text{ع}) \cup (\text{س}_{٢} \cap \text{ع}) \cup \dots \cup (\text{س}_{\text{ن}} \cap \text{ع})$

ومنه $\text{حت}(\text{ع}) = \text{حت}(\text{س}_{١} \cap \text{ع}) + \text{حت}(\text{س}_{٢} \cap \text{ع}) + \dots + \text{حت}(\text{س}_{\text{ن}} \cap \text{ع})$

$= \text{حت}(\text{س}_{١}) \times \text{حت}_{\text{س}_{١}}(\text{ع}) + \dots + \text{حت}(\text{س}_{\text{ن}}) \times \text{حت}_{\text{س}_{\text{ن}}}(\text{ع})$

مثال: قُرع الجرس في مدرسة ابتدائية فهرع تلاميذ أحد الصفوف، وعددهم ثلاثون، إلى الانتظام في صف أحادي. فإذا كان سعد وسعيد تلميذين في هذا الصف فما هو احتمال أن يكونا متجاورين؟

ليكن $\text{س}_{١}$ الحدث الذي يتحقق إذا كان سعد في أول الصف و$\text{س}_{٢}$ الحدث الذي يتحقق إذا لم يكن سعد في أول الصف أو في آخره و $\text{س}_{٣}$ الحدث الذي يتحقق إذا كان سعد في آخر الصف و ع الحدث الذي يتحقق إذا كان سعد وسعيد متجاورين.

من الواضح أن الأحداث $\text{س}_{١}، \text{س}_{٢}، \text{س}_{٣}$ تشكل تجزئة للحدث الأكيد في هذه التجربة وأن احتمال كل منها مختلف عن الصفر:

$\text{حت}(\text{س}_{١}) = \frac{١}{٣٠}$، $\text{حت}(\text{س}_{٢}) = \frac{٢٨}{٣٠}$، $\text{حت}(\text{س}_{٣}) = \frac{١}{٣٠}$ وأن المطلوب هو حت (ع). لما كان $\text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{١}) = \frac{١}{٢٩}$، $\text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{٢}) = \frac{٢}{٢٨}$، $\text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{٣}) = \frac{١}{٢٩}$ فإن:

$$\text{حت}(\text{ع}) = \text{حت}(\text{س}_{١}) \times \text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{١}) + \text{حت}(\text{س}_{٢}) \times \text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{٢}) + \text{حت}(\text{س}_{٣}) \times \text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{٣})$$

$$= \frac{١}{٣٠} \times \frac{١}{٢٩} + \frac{٢٨}{٣٠} \times \frac{٢}{٢٩} + \frac{١}{٣٠} \times \frac{١}{٢٩} = \frac{١+٥٦+١}{٨٧٠} = \frac{١}{١٥}$$

قانون بايز: إذا كانت الأحداث $\text{س}_{١}، \text{س}_{٢}، ...، \text{س}_{\text{ن}}$ تشكل تجزئة للحدث الأكيد لتجربة مفروضة، وإذا كان ع حدثاً مرتبطاً بالتجربة ذاتها فإن:

$$\text{حت}(\text{س}_{\text{ر}}|\text{ع}) = \frac{\text{حت}(\text{س}_{\text{ر}}) \times \text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{\text{ر}})}{\text{حت}(\text{س}_{١}) \times \text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{١}) + \dots + \text{حت}(\text{س}_{\text{ن}}) \times \text{حت}(\text{ع}|\text{س}_{\text{ن}})}$$

حيث ر = ١، ٢، ...، ن. تسمى هذه الصيغة قانون بايز أو الاحتمال الاستدلالي. وتعود هذه التسمية إلى أن هذه الصيغة تعطي احتمال وقوع الحادثة $\text{س}_{\text{ر}}$ بفرض أن الحادثة ع قد وقعت. وبالمقابل فإن الاحتمال $\text{حت}(\text{س}_{\text{ر}})$ الوارد في هذه الصيغة يسمى الاحتمال الاستنتاجي أو الاحتمال البدهي.

الاستقلال العشوائي

لماكانت معرفة وقوع حدث من الأحداث المتعلقة بتجربة مفروضة من شأنها أن تغير بوجه عام احتمالات الأحداث الأخرى المتعلقة بالتجربة ذاتها، فإن الاحتمال المشروط $\text{حت}(\text{ع}|\text{س})$، بفرض أن **س**، **ع** حدثان مرتبطان بالتجربة المفروضة و $\text{حت}(\text{س}) \neq ٠$، لا يساوي بوجه عام الاحتمال المسبق حت(ع). ولكن إذا كان: $\text{حت}(\text{ع}|\text{س}) = \text{حت}(\text{ع}) \qquad (٧)$

فإن معرفة وقوع **س** لا تعطي أية معلومات تتعلق بوقوع ع. يقال في هذه الحالة إن الحدث ع مستقل عشوائياً أو احتمالياً عن **س**.

ولما كانت (٧) تكتب على الشكل $\frac{\text{حت}(\text{ع} \cap \text{س})}{\text{حت}(\text{س})} = \text{حت}(\text{ع})$ فإنه يكون: $\text{حت}(\text{ع} \cap \text{س}) = \text{حت}(\text{ع}) \times \text{حت}(\text{س}) \quad (٨)$، وقد جرت العادة أن يعد الحدث **س** مستقلاً عن ع أو ع مستقلاً عن **س** إذا ماتحققت (٨).

أمثلة آ ـ إذا ألقي حجرا نرد مرة واحدة، وكان **س** الحدث «وجه الحجر الأول يحمل الرقم ١» و ع الحدث «وجه الحجر الثاني يحمل رقماً فردياً»، فإن من الواضح أن: $\text{حت}(\text{س}) = \frac{١}{٦}$، $\text{حت}(\text{ع}) = \frac{٣}{٦}$، $\text{حت}(\text{س} \cap \text{ع}) = \frac{٣}{٣٦} = \frac{١}{٦} \times \frac{٣}{٦}$ ،

ومن ثم فإن: $\text{حت}(\text{س} \cap \text{ع}) = \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\text{ع})$: فالحدثان مستقلان عشوائياً.

ب ـ إذا كان احتمال أن يصيب أحد صيادَيْن هدفاً ٦٠٪، واحتمال أن يصيب الهدفَ الصيادُ الآخر ٧٠٪ ، وإذا أطلق الصيادان معاً على الهدف فما هو احتمال أن يصيبا الهدف معاً، وماهو احتمال أن يصاب الهدف.

إذا كان **س** الحدث الذي يتحقق إذا أصاب الصياد الأول الهدف و ع الحدث الذي يتحقق إذا أصاب الصياد الثاني الهدف؛ فالمطلوب هو حساب $\text{حت}(\text{س} \cap \text{ع})$ و $\text{حت}(\text{س} \cup \text{ع})$. ولما كان واضحاً أن الحدثين مستقلان احتمالياً فإن: $\text{حت}(\text{س} \cap \text{ع}) = \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\text{ع}) = \frac{٦٠}{١٠٠} \times \frac{٧٠}{١٠٠} = ٤٢$.

$\text{حت}(\text{س} \cup \text{ع}) = \text{حت}(\text{س}) + \text{حت}(\text{ع}) - \text{حت}(\text{س} \cap \text{ع}) = ٨٨$.

تعريف: يقال عن ثلاثة أحداث $\text{س}_{١}، \text{س}_{٢}، \text{س}_{٣}$ إنها مستقلة عشوائياً أو احتمالياً إذا تحقق مايلي:

$$\text{حت}(\text{س}_{١} \cap \text{س}_{٢}) = \text{حت}(\text{س}_{١}) \times \text{حت}(\text{س}_{٢})$$

$$\text{حت}(\text{س}_{٢} \cap \text{س}_{٣}) = \text{حت}(\text{س}_{٢}) \times \text{حت}(\text{س}_{٣})$$

$$\text{حت}(\text{س}_{٣} \cap \text{س}_{١}) = \text{حت}(\text{س}_{٣}) \times \text{حت}(\text{س}_{١})$$

$$\text{حت}(\text{س}_{١} \cap \text{س}_{٢} \cap \text{س}_{٣}) = \text{حت}(\text{س}_{١}) \times \text{حت}(\text{س}_{٢}) \times \text{حت}(\text{س}_{٣})$$

وقد تكون الأحداث الثلاثة مستقلة مثنى (بمعنى أنها تحقق الشروط الثلاثة الأولى) ولكنها تكون غير مستقلة عشوائياً إذا لم تحقق الشرط الأخير.

مثال إذا لُوِّنت الوجوه الأربعة لرباعي وجوه منتظم: أحدهما باللون

الأخضر والثاني بالأزرق والثالث بالأحمر والرابع يحوي الألوان الثلاثة معاً. فإذا ألقي هذا الرباعي كان: $\text{حت}(\text{ح}) = \frac{٢}{٤} = \frac{١}{٢}$، $\text{حت}(\text{ز}) = \frac{١}{٢}$، $\text{حت}(\text{ح}) = \frac{١}{٢}$

وذلك بفرض أن خ الذي يتحقق إذا حُصل على لون أخضر وأن ز الحدث الذي يتحقق إذا حصل على لون أررق، وأن ح الحدث الذي يتحقق إذا حصل على لون أحمر؛ وعلى هذا فإن:

$\text{حت}(\text{خ} \cap \text{ز}) = \text{حت}(\text{ز} \cap \text{ح}) = \text{حت}(\text{ح} \cap \text{خ}) = \text{حت}(\text{ح} \cap \text{ح} \cap \text{ز}) = \frac{١}{٤}$ وأن:

$\text{حت}(\text{ز} \cap \text{ح}) = \text{حت}(\text{ز}) \times \text{حت}(\text{ح}) = \frac{١}{٢} \times \frac{١}{٢} = \frac{١}{٤}$

$\text{حت}(\text{ح} \cap \text{خ}) = \text{حت}(\text{ح}) \times \text{حت}(\text{خ}) = \frac{١}{٢} \times \frac{١}{٢} = \frac{١}{٤}$ في حين أن:

$\text{حت}(\text{ح} \cap \text{خ} \cap \text{ز}) = \frac{١}{٤} \neq \text{حت}(\text{ح}) \times \text{حت}(\text{خ}) \times \text{حت}(\text{ز}) = \frac{١}{٨}$

فالأحداث خ، ز، ح مستقلة مثنى ولكنها غير مستقلة عشوائياً.

ملاحظة: آ ـ أياً كان الحدث **س** المرتبط بتجربة مجموعة نتائجها ف، فإن الحدثين **س**، ف مستقلان، والحدثين **س**، ϕ مستقلان، لأن:

$\text{حت}(\text{س} \cap \text{ف}) = \text{حت}(\text{س}) = \text{حت}(\text{س}) \times ١ = \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\text{ف})$

$\text{حت}(\text{س} \cap \phi) = \text{حت}(\phi) = \text{صفر} = \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\phi)$

ب ـ إذا كان **س**، **ع** حدثين مستقلين، وإذا كان **سَ** الحدث المتمم (المضاد) للحدث **س** و **عَ** الحدث المتمم لـ **ع** فإن **س**، **عَ** مستقلان وكذلك **سَ**، **ع** و **سَ**، **عَ** فمثلاً إن:

$\text{حت}(\text{س} \cap \text{عَ}) = \text{حت}(\text{س} - \text{ع}) = \text{حت}(\text{س} - \text{س} \cap \text{ع}) = \text{حت}(\text{س}) - \text{حت}(\text{س} \cap \text{ع})$

إذن

$\text{حت}(\text{س} \cap \text{عَ}) = \text{حت}(\text{س}) - \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\text{ع}) = \text{حت}(\text{س})(١ - \text{حت}(\text{ع})) = \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\text{عَ})$

وإن: $\text{حت}(\text{سَ} \cap \text{ع}) = \text{حت}(\text{ع} \cap \text{سَ}) = \text{حت}(\text{ع}) \times \text{حت}(\text{سَ}) = \text{حت}(\text{سَ}) \times \text{حت}(\text{ع})$

كذلك: $\text{حت}(\text{سَ} \cap \text{عَ}) = \text{حت}((\text{س} \cup \text{ع})') = ١ - \text{حت}(\text{س} \cup \text{ع})$

$= ١ - [\text{حت}(\text{س}) + \text{حت}(\text{ع}) - \text{حت}(\text{س} \cap \text{ع})] = ١ - \text{حت}(\text{س}) - \text{حت}(\text{ع}) + \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\text{ع})$

$= (١ - \text{حت}(\text{س}))(١ - \text{حت}(\text{ع})) = \text{حت}\,\text{سَ} \times \text{حت}\,\text{عَ}$

جـ ـ يجدر عدم الخلط بين مفهوم الاستقلال العشوائي لحدثين ومفهوم الحدثين المتنافيين، فإذا كان **س**، **ع** حدثين متنافيين فإن $\text{س} \cap \text{ع} = \phi$ ومنه $\text{حت}(\text{س} \cap \text{ع}) = \text{حت}(\phi) = ٠$، في حين إذا كان **س**، **ع** حدثين مستقلين عشوائياً وكان $\text{حت}(\text{س}) \neq ٠$، $\text{حت}(\text{ع}) \neq ٠$، فإن: $\text{حت}(\text{س} \cap \text{ع}) = \text{حت}(\text{س}) \times \text{حت}(\text{ع}) \neq ٠$.

قانون الأعداد الكبيرة لـ «برنولي» (قانون الأعداد الكبيرة الضعيف)

إذا كان احتمال تحقُّق حدثٍ **س** مرتبطٍ بتجربة مفروضة مساوياً للعدد س، وإذا كان $\text{ن}_{\text{ن}}$ العدد الطبيعي الدال على عدد مرات تحقق الحدث حلال ن تكراراً للتجربة المفروضة بالشروط ذاتها، فإن التواتر النسبي $\text{س}_{\text{ن}} = \frac{\text{ن}_{\text{ن}}}{\text{ن}}$ للحدث يكاد يكون مساوياً للاحتمال س عندما يكون ن كبيراً كبراً كافياً. وبعبارة أدق فإنه: أيا كان **ر** > ٠ فإن: $١ - \frac{١}{٤\,\text{ن}\,\text{ر}^{٢}} \leq \text{حت}(|\text{س}_{\text{ن}} - \text{س}| < \text{ر}) \leq ١$

أي $١ - \frac{١}{٤\,\text{ن}\,\text{ر}^{٢}} \leq \text{حت}(\text{س}_{\text{ن}} - \text{ر} < \text{س} < \text{س}_{\text{ن}} + \text{ر}) \leq ١$ أي أن احتمال أن يقع س في الفترة $]\text{س}_{\text{ن}} - \text{ر}، \text{س}_{\text{ن}} + \text{ر}[$ يكاد يكون مساوياً للعدد الصحيح ١ عندما يكون ن كبيراً كبراً كافياً. يكتب في هذه الحالة $\text{س}_{\text{ن}} \approx \text{س}$

وليد مستت

الموضوعات ذات الصلة:

الإحصاء ـ الألعاب (نظرية ـ) ـ التحليل التوليفي ـ الحدانية (قانون ـ) ـ العشوائي (المتغير ـ).

مراجع للاستزادة:

ـ صلاح الأحمد، الاحتمالات (جامعة دمشق ١٩٨١)

- W. FELLER, An Introduction to Probability Theory and its Applications, Volume I (John Wiley 1962).

■ الاحتواء (سياسة ـ)

سياسة الاحتواء policy of containment تعني في نظر أصحابها «التعهد الشامل لمقاومة الشيوعية أنّى وجدت». أما العالم الاشتراكي فيراها مخططاً للسيطرة العالمية أعدته الامبريالية الأمريكية، وتقويضاً للنظام الذي انبثق عن الحرب العالمية الثانية والذي يقوم على توازن لعالمين رأسمالي واشتراكي ينبذان الحرب ويأخذان بمبادىء التعايش السلمي، ويفترض فيهما مساعدة بلاد العالم الثالث على التحرر والاستقلال والتنمية.

كما أن أول من استعمل تعبير الاحتواء، بوصفه فكرة فاعلة تحمل بذور استراتيجية دبلوماسية وعسكرية وتؤدي إلى إنشاء أجهزة للتخطيط والتصميم والتنفيذ ويكاد أن يكون لها كيان قائم بذاته، هو جورج كينان الدبلوماسي الأمريكي المعروف باهتمامه بالعلاقات الأمريكية السوفييتية.

وجاء استخدام كينان تعبير الاحتواء أول مرة في مقالة كتبها ونشرت بتوقيع مغفل في المجلة الأمريكية الفصلية المعروفة باسم «الشؤون الخارجية» Foreign Affairs في عددها الصادر في صيف ١٩٤٧. وكان كينان آنئذ رئيساً لهيئة تخطيط السياسة في وزارة الخارجية الأمريكية. وقد أحدثت المقالة ضجة كبيرة في الأوساط السياسية لأنها كانت، بمضمونها، الأولى من نوعها في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية إذ حل التوتر في العلاقات الأمريكية السوفييتية محل التحالف الذي قام زمن الحرب بهدف تقويض ألمانية الهتلرية، فكانت الحاجة ماسّة لإعادة تقويم السياسة التي يجب على الولايات المتحدة اتباعها إزاء الاتحاد السوفييتي، فكان كينان من أوائل المفكرين الدبلوماسيين الذين حاولوا وضع أسس ثابتة للاستراتيجية السياسية الجديدة.

خصص كينان معظم بحثه في هذه المقالة لشرح أسباب ما سماه عداء الاتحاد السوفييتي للغرب عامّة وللولايات المتحدة على الأخصّ، فعزا السبب الرئيس إلى ما يراود زعماء الكرملين من حسّ دفين متأصل بافتقاد الأمن على وطنهم من العالم الخارجيّ، وقد نشأ هذا الحس في الأصل من افتقاد الحواجز الجغرافية المنيعة التي تصون سلامة الروس الإقليميّة، فضلاً عن العامل التاريخي المتمثّل بالغزوات المتكررة التي رزحت بلادهم تحت عبئها، فلم تتسنّ لها قطّ نعمة الأمن التي ينعم بها الأمريكيون وكأنها شيء مفروغ منه. وفي رأي كينان أن اعتماد الزعماء البولشفيك على العمل السّريّ لإنجاح ثورتهم ثم لضمان سلامة الاتحاد السوفييتي من الأخطار الخارجية عوّدهم على عدم الثقة بأحد، وبهذا

فسّر كينان ما سمّاه بسلوك الاتحاد السوفييتي الصعب في عهد جوزيف ستالين. ثمّ يرى كينان في الأيديولوجية الشيوعية السوفييتية مجرّد مسوّغ لسياسة القمع الداخلية التي ينتهجها الزعماء السوفييت، ولقسوة التدابير التي يتخذونها لصيانة الدولة الشيوعية القائدة إزاء عالم رأسمالي في أكثريته، ثمّ أداةً لاستقطاب الثوريين في البلاد الأخرى عن طريق حركة الشيوعية الدولية، ولكن هدفهم الحقيقي في رأيه توسيع النفوذ السوفييتي وراء الحدود مما ينفي عن ستالين أي التزام مبدئي حقيقي بالعمل من أجل مجتمع دولي لا طبقي كما تنادي به الشيوعيّة، فعدم شعور ستالين بالأمن يحول بينه وبين التفكير الجديّ بإمكان السيطرة على العالم.

يستنتج كينان من هذه المقدّمات أن نزعة السوفييت إلى التوسّع أسهل معالجةً مما كانت عليه مطامح نابليون أو هتلر لأن هذه النزعة لا ترتبط بتوقيت معيّن وبرامج منظمة، وعندما تلاقي مقاومة جدّية يتراخى عنفها، ولكنها من جهة أخرى، أصعب معالجة، لأن فيها عامل الاستمرار، ولاتثبطها النكسات بل تتخذها عظة من أجل عمل أنجع. لذا يدعو كينان إلى احتواء هذه النزعة، بسياسة طويلة الأمد، وراءها جهد دائب، وصبر جميل، وحزم في التنفيذ، وتيقّظ للأحداث. ويعرب عن مذهبه هذا بقوله: إن الضغوط السوفييتية على المؤسسات الغربية الحرّة هي ظاهرة يمكن احتواؤها بتطبيق متحلّ بالمهارة واليقظة لمبدأ إيجاد قوة معاكسة في سلسلة من المواقع الجغرافيّة والمواطن السياسيّة تتحول وتتنقّل باستمرار تبعاً لتغيّرات السياسة السوفييتية ومناوراتها.

وقد رأى كينان أن جملة من نقاط الضعف السوفييتية تعين أمريكة على إنجاح سياستها وإدراك هدف الاحتواء، ويجمل هذه النقاط في التكاليف البشريّة التي يتحمّلها الاتحاد السوفييتي في حملته في التصنيع الإجباريّ، واستخدامه الإرهاب لفرض التقيّد بسياسته، والأضرار البالغة التي لحقت به جرّاء الحرب وهو مالا يمكن إصلاحه بسرعة، والطبيعة غير المتوازنة لنموّه الاقتصادي فضلاً عن المشاكل التي تثيرها خلافة ستالين، والخصام المحتمل بين قادة الحزب وصفوفه وإمكان تطلع الحركات الثوريّة إلى قيادة غير القيادة السوفييتيّة، وقطب غير قطب موسكو للتوجيه والإلهام. ومجمل ما يريد تثبيته هو أن الاتحاد السوفييتي ليس بهذا العملاق الذي يُتخيّل، وبمقدور سياسة احتواء ذكيّة كبح امتداده، واستشهد في هذا السياق بقول لتوماس مان:

«غالباً ما تظهر المؤسسات البشرية بطلاء خارجي لامع، حتى إذا تفحصتها من الداخل وجدت أن الفساد قد استشرى فيها».

يخلص كينان إلى تصميم الخط الاستراتيجي الأمريكي إزاء الاتحاد السوفييتي، فيعد من المقولات البدهيّة أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي دولتان عظيمتان لا يرجى بينهما ائتلاف في السياسة، ومع ذلك لا ينبغي أن ينظر إلى خصومتهما كأن الحرب بينهما واقعة لامحالة. ليس معنى استبعاد الحرب أن تقنع الولايات المتحدة بالحالة الراهنة وتنتظر حدوث الأفضل، كلاّ، لأن بإمكانها، فيما يؤكد كينان، التأثير في التطورات الداخليّة في الاتحاد السوفييتي، وفي الحركة الشيوعية الدوليّة معاً، وكلاهما عامل في توجيه خطوط السياسة السوفييتية؛ هذا إذا عرفت الولايات المتحدة كيف تظهر أمام العالم دولةً عظمى حقاً، تعرف ما تريد، وتقدر على حلّ مشكلاتها الداخلية بنجاح، وتضطلع خير اضطلاع بمسؤولياتها العالمية، مع حيوية روحيّة تجعلها تقف شامخة الرأس بين تيارات العصر الأيديولوجية الكبرى. فبهذه القدرات، وبالمهارة التي تطبق بها القوة المعاكسة، تجنح القوة السوفييتية نحو الانكماش التدريجيّ فسياسة الاحتواء توقف امتدادها، وما من قوّة تبشيرية أو صوفيّة في رأيه بقادرة على تحمل التوقف والرّكود من دون أن تعمد إلى تكييف الأسس التي تقوم عليها مع منطق العصر والضرورة.

ظهرت أكثر الانتقادات التي تعرّضت لها نظرية كينان داخل الولايات المتحدة نفسها وقد وصفت بالقصور حينما أفلح الاتحاد السوفييتي في صنع القنبلة النووية مما أنشأ في العلاقات الدولية وضعاً جديداً من التوازن أصبح ينتفي معه إمكان وقوع حرب نووية تدمّر الجميع على السّواء، وبدا أن نظرية كينان لم تعد كافية لمعالجة الموقف الجديد. وقد وصف وولتر ليبمان كبير رجال الصحافة والسياسة الأمريكية آنذاك، النظرية بأنها استراتيجية شنيعة الخلقة تجعل المبادهة بيد موسكو فتحدد هي مكان أية مجابهة وتوقيتها، كما عيب على النظرية أنها لم توضّح ما إذا كانت جذور السلوك السوفييتي أيديولوجية أو قومية، ولم تفرّق بين مبادىء الشيوعية الدّولية والنزعات التوسعية السوفييتية، وأنها بتأسيسها الاستراتيجية على المجابهة قد استبعدت أي تحرك نحو فك الارتباط بين القوات السوفييتية، والقوات الأمريكية في أوربة، وقضت على إمكان تسوية خلافات العملاقين عن طريق المفاوضة.

وقد ظهر فيما بعد من الوثائق الرسمية التي نشرت ومن محاضرات كينان أنّ عدداً من آرائه قد أسيء فهمه. فهو مع تحبيذه لبرنامج مارشال لمساعدة أوربة، وكان الكثير من الدوافع إليه تنطلق من سياسة الاحتواء، لم يؤيد اللغة الكاسحة لمنحى ترومان بالمبادرة لبذل المساعدة العسكرية والاقتصادية لأية بقعة في العالم يخشى من نجاح الدعوة الشيوعية فيها؛ بل كان من أنصار التبصّر بالملاءمة بين الأغراض المنشودة والوسائل المتاحة، وبالتفريق بين المناطق الحيوية لمصالح الولايات المتحدة كأوربة واليابان والمناطق الأقل شأناً، وقد أقر بوجود حدود لفاعلية الولايات المتحدة، ولم يوص بأن تتورط في الحرب الصينية الأهلية ولا بالبقاء في الفيليبين، ولا بإبقاء قواتها في كورية، كما حذّر من مغبة استمرار الولايات المتحدة على حملها وحدها عبء مقاومة التوسع السوفييتي. ومع تطور نظريته غدا يحدّد المناطق التي يجب أن تحظى باهتمام الولايات المتحدة فيجعلها خماسيّة: الولايات المتحدة نفسها وبريطانية، ووادي الراين مع ما يحيط به من الأراضي الصناعية، والاتحاد السوفييتي واليابان، وهي مناطق قادرة على الإنتاج الحربي الكثيف لاتقع الآن منها تحت القبضة الشيوعية إلاّ واحدة فقط، فالمهمة الرئيسية للولايات المتحدة إذن هي في رأيه انتهاج سياسة احتواء لا تمكّن الشيوعية من إحراز أية منطقة أخرى من بين هذه المناطق.

أما ما أخذه النقاد على كينان من أنه اهتمّ حصراً بالأيديولوجية الماركسية متناسياً ـ على ما جاء في أقوال ليبمان على الأخصّ ـ أن القوة الكبيرة للجيش الأحمر وليس أيديولوجية كارل ماركس هي التي مكّنت روسية من التوسع وراء حدودها، فقد تبين فيما بعد من أوراقه أنه كان يعدّ الأيديولوجية عنصراً في تكوين خلفيّة السياسة السوفييتيّة وكيفية التعبير عنها،

ولكنها ليست أساساً لابدّ منه في العمل السياسي. واستنتج من ذلك إمكان وجود نظم شيوعية تتمرّد على سلطة موسكو كما حدث في يوغسلافية، حتى إنه تنبأ في إحدى محاضراته قائلاً: إن رجال الكرملين سيكتشفون فجأة يوماً ما، أن حركة الشيوعية الصينية الشرقية الذكية التي حسبوها في راحة كفهم قد أفلتت من أصابعهم ولم يبق لهم من مسايرة الصين سوى انحناءة مجاملة وضحكة مهذبة لايمكن استكناه مغزاها.

ومع ما كان يعتور نظريّة الاحتواء من غموض حيناً ومعارضة في بعض الأحيان فقد ظلت في خطوطها الرئيسة هي الاستراتيجية التي تطبقها الإدارات الأمريكية واحدة بعد الأخرى، بفروق في التفاصيل كسياسة حافة الهاوية التي اشتهر بها وزير الخارجية في عهد الرئيس أيزنهاور جون فوستر دالس، وسياسة الرد المرن وسياسة الردع النووي إلى أن أتت إدارة الرئيس نيكسون فاختارت المفاوضة عوضاً عن المجابهة وأدى تطبيقها على يد وزير الخارجية هنري كيسنجر إلى عهد من الانفراج، وعقد لعدد من الاتفاقيات بين العملاقين بشأن الحدّ من السلاح النووي وغيره.

بيد أن النظرية مسؤولة إلى حد كبير عن انقسام أوربة إلى معسكرين وانقسام ألمانية إلى دولتين، ونشوء الأحلاف المتخاصمة، وحلول الحرب الباردة محلّ التعاون، واتساع الالتزامات التي تورّطت فيها الولايات المتحدة بحيث كادت تصبح على نطاق عالمي، فكأنها أرادت تجنيد العالم كلّه ضدّ ما تخيّلته من الخطر السوفييتي؛ وفي هذا المسار أضحت تتدخل في شؤون الدول الداخلية، وتسعى لاحتكار النفوذ في البلاد النامية، وغالباً ما قاومت حركات التحرّر عندما رأت في تعاطف الاتحاد السوفييتي معها، بحكم أصوله الثورية، خطراً يهدّد مصالحها التي أصبحت تنظر إليها في إطار عالميّ شامل، حتى بلغ الأمر بوزير الخارجية دالس أن يعدّ الحياد الإيجابي غير أخلاقيّ، ويخاصم كل من لم يكن معادياً للاتحاد السوفييتي.

وفضلاً عن أن المعارضة الأمريكية لتبوؤ الصين الشعبية مقعدها الشرعي في الأمم المتحدة كانت هي أيضاً منبثقة عن سياسة احتواء الشيوعيّة، إلى أن تحصّلت في المنظمة الدولية الأكثرية اللازمة للتغلّب على هذه المعارضة في أوائل السبعينات، فإن النموذج الناظم لما أدت إليه سياسة الاحتواء هذه أو ما أدى إليه سوء تفسيرها على الأقلّ، كان هو هذا التورط من الولايات المتحدة في حرب فييتنام الضروس التي أفقدتها المصداقية في تصرفاتها وفي سلامة اضطلاعها بمسؤولياتها الخاصة بوصفها دولة عظمى في إقرار السلم والأمن الدوليين لافي تعريضهما لأفدح الأخطار، وأثارت في وجهها معارضة شبه عالميّة، كان الرأي العام الأمريكي نفسه من حملة لوائها.

وكان تأثر السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط بهذه السياسة الاحتوائية واضحاً أيضاً، فكان محور تحركها هو إبعاد الاتحاد السوفييتي عن المنطقة، لاتركيز الجهد على حلّ عادل للمأساة الفلسطينية وتسوية النزاع العربي الإسرائيلي على أساس قرارات الأمم المتحدة. ويندرج تشجيع الولايات المتحدة لفكرة حلف بغداد وإنشاؤه آنذاك، كما يندرج كل من البيان الثلاثي ومذهب آيزنهاور، في هذا السياق من الاهتمام بالاحتواء عوضاً عن صرف الجهد إلى إقرار السلم والعدل ومؤازرة التنمية في هذه المنطقة البالغة الشأن في الاستراتيجية والموارد الطبيعية والبشرية.

وكان من أعنف مظاهر سياسة الاحتواء هذه أن قلبت الولايات المتحدة سياستها المتعاطفة مع الثورة المصريّة التي قامت سنة ١٩٥٢ لتحرّر مصر من ربقة الملكية الفاسدة والسيطرة الإقطاعية، وتنجز الاستقلال السياسي والاقتصادي، إلى خصومة معلنة عندما سحبت الولايات المتحدة عروضها لمساعدة مصر على بناء سدّ أسوان لأن الزعيم المصري جمال عبد الناصر اضطر آنذاك، تعزيزاً لقدرات مصر الدفاعية أمام الاعتداءات الإسرائيلية المتزايدة إلى اقتناء الأسلحة من دول أوربة الشرقية، فكان جواب الزعيم المصري على هذا النقض للعهد اللجوء إلى حق مصر المشروع في تأميم قناة السويس مما اتخذته بريطانية وفرنسة ذريعة لشنّ الحرب على مصر سنة ١٩٥٦ بالتآمر مع إسرائيل. وحينما عارضت الولايات المتحدة هذا الغزو الثلاثي لمصر كان من أكبر دوافعها الخشية من أن يظهر الاتحاد السوفييتي وبقية الدول الاشتراكية بمظهر القوة التي تتعاطف مع أماني شعوب العالم الثالث في التحرر والاستقلال، وعلى الأخصّ في المنطقة العربية الحساسة.

ولكن يبدو أن سياسة الاحتواء قد فقدت معظم مسوغاتها الأساسية مع مطلع التسعينات من القرن العشرين بعد التطورات المهمة التي حدثت في أوربة الشرقية وفي الاتحاد السوفييتي نفسه ولاسيما توحيد ألمانية، وانفراط عقد حلف وارسو، وتغيير معظم هذه الدول موقفها من الأيديولوجية الشيوعية والسوفييتية، وتفكك الاتحاد السوفييتي وغياب قوته.

رفيق جويجاتي

الموضوعات ذات الصلة:

الاتحاد السوفييتي - ألمانية - حلف شمال الأطلسي (منظمة -) - حلف وارسو - الولايات المتحدة الأمريكية.

مراجع للاستزادة:

- JOHN LEWIS GADDIS, Containment (J. Foreign Affairs July 1970).
- WILLIAM APPLEMAN WILLIAMS, From Colony to Empire : Essays in the History of American Foreign Relations New York.

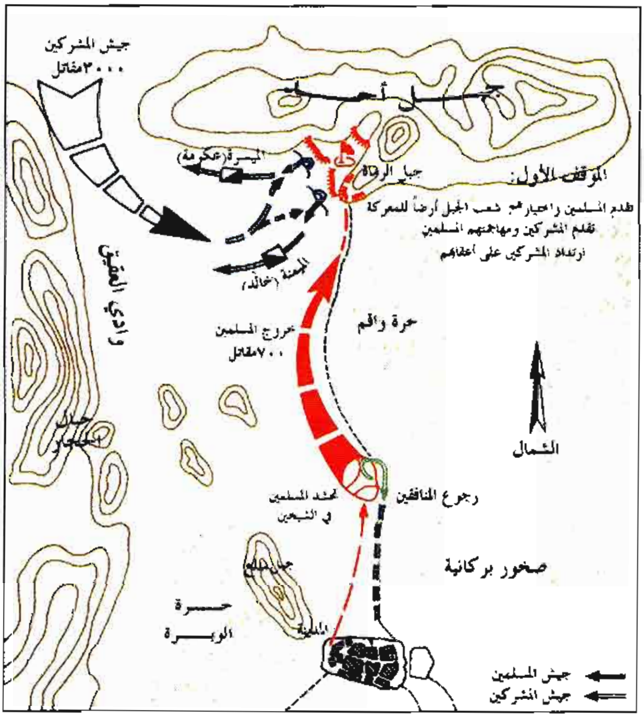
■ الاحتيال ← الجرائم (أنواع -)

■ الأحجار الكريمة ← الجواهر

■ أُحُد (غزوة -)

أحد جبل شمال المدينة المنورة بينه وبينها قرابة ميل، وعنده كانت الوقعة بين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ والمشركين بقيادة أبي سفيان بن حرب، في يوم السبت لسبع خلون من شوال وقيل للنصف منه سنة ٣هـ.

وكانت قريش قد أمضت حولاً كاملاً بعد موقعة بدر تستعد للأخذ بالثأر، وبذلت في هذا السبيل جُلّ جهودها، وخصصت أموال القافلة التي حاول المسلمون اعتراضها (التي كانت



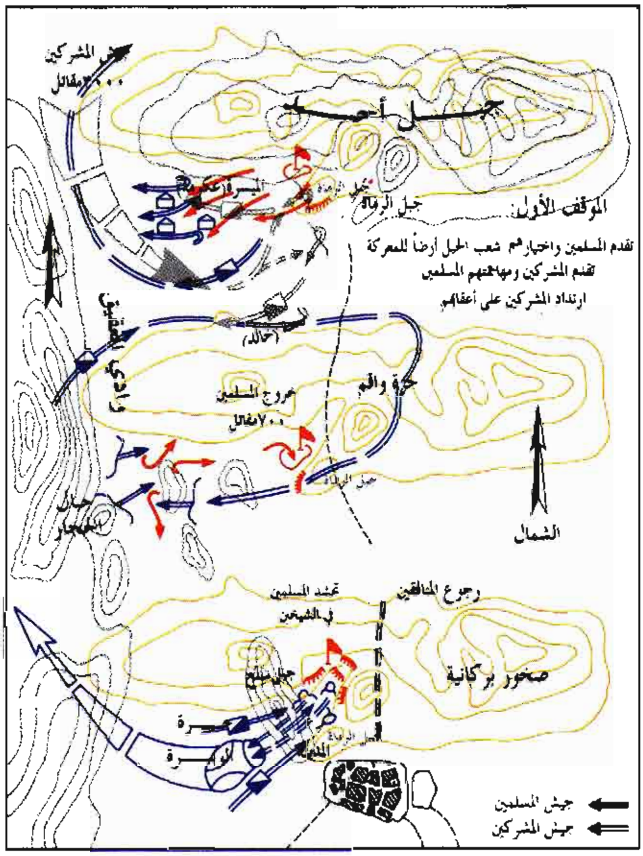
السبب في وقعة بدر) للإنفاق على هذه الاستعدادات. وقد أرسلت أشخاصاً ليسيروا في العرب يستنفرونهم. ولما أتمت قريش استعداداتها، واجتمعت بأحابيشها ومن أطاعها من قبائل كنانة وتهامة خرجت بحلفائها تقصد المدينة، وكان عدد من خرج ثلاثة آلاف، منهم سبعمئة دارع ومعهم مئتا فرس. وكان أبو سفيان قد خرج بزوجته هند بنت عتبة، كما خرج غيره من رؤســاء قريش بنسائهـــم، فكان عددهـــن خمس عشرة امرأة. وكان بين من خرج كذلك وحشي غلام جُبير بن مُطعم وكان حبشياً يقذف بحربة له قذف الحبشة وقد وعده جبير بأنه سيعتق إن هو قتل عمّ محمد بعمه طعيمة بن عدي.

عندما علم الرسول ﷺ بخروج قريش، استشار أصحابه كعادته وتعددت الآراء. كان من رأي الرسول في البدء المقام في المدينة ووافقه على ذلك عبد الله بن أبيّ، والأكابر من أصحاب رسول الله. ولكن الفتيان الذين لم يشهدوا بدراً طلبوا من رسول الله الخروج إلى عدوهم، رغبة منهم في الشهادة ولقاء العدو، كما أن رجالاً من أهل السن والتجربة منهم حمزة، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك بن ثعلبة، وغيرهم من الأوس والخزرج، كان من رأيهم الخروج لملاقاة قريش حتى لا يظن عدوهم أنهم كرهوا الخروج إليهم جبناً، ولاسيما أن قريشاً مكثت حولاً تجمع وتستجلب العرب من بواديها ومن تبعها من أحابيشها ومعهم الخيل والإبل، وأن المشركين إذا نزلوا بساحتهم وحاصروهم في بيوتهم وحصونهم، فإنهم سوف يرجعون بعد ذلك وافرين لم يُكْلَموا، فيجرئهم ذلك على المسلمين في المدينة حتى يشنوا الغارات عليهم ويصيبوا أطرافهم.

ويبدو أن الرسول اقتنع بهذه الحجج فدخل ولبس لأمته وخرج عليهم. وقد ندم بعضهم وقالوا لعلنا استكرهنا رسول الله، فقالوا: يارسول الله إن شئت مكثنا، فقال رسول الله: «ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له». وسار الرسول في ألف من أصحابه واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، فلما كان المسلمون بالشوط (مكان بين المدينة وأحد) عاد عبد الله بن أبيّ بثلث الجيش من المقاتلين من جماعته أهل النفاق والريب بحجة أن الرسول ﷺ لم يأخذ برأيهم، وأدى خروج هذا الفريق إلى حدوث بعض البلبلة في صفوف المسلمين. ولكن الرسول ﷺ لم يلبث أن وحّد صفوف البقية وسار بهم حتى نزل الشعب من أُحد في عدوة الوادي، حيث غدت المدينة أمامه وجبل أحد خلفه.

تهيأ الرسول للقتال وهو في سبعمئة من أصحابه، وأمّر على الرماة عبد الله بن جُبير وكانوا يومئذ خمسين رجلاً جعلهم وراءه وأوصاهم أن يحموا ظهور المسلمين حتى لا يؤتوا من ورائهم، وأن يلزموا مكانهم لا يبرحونه حتى لو رأوا المسلمين يقتلون، وأن يرشقوا خيل الأعداء بالنبل، لأن الخيل لا تقدم على النبل. وأعطى اللواء مصعب بن الزبير وأجاز بعض الغلمان يومئذ وأخّر آخرين.

أما المشركون فقد جعلوا المدينة خلفهم واستقبلوا أحُداً، واستعملوا على الميمنة خالد ابن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية، وعلى الرماة عبد الله بن ربيعة، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار، وكان النصر في بادئ الأمر للمسلمين، حتى قال كثير من الصحابة ممن شهد أحداً «ما ظَفَّر الله نبيه في موطن قط ما ظَفَّرَه وأصحابه يوم أحد»، فقد قتل المسلمون تسعة من بني عبد الدار من أصحاب اللواء وكان آخر من أخذه منهم صؤاب غلام لبني أبي طلحة حبشي، فقاتل حتى قطعت يداه ثم أخذ اللواء بصدره وعنقه حتى قتل عليه، وانكشف المشركون وهربوا منهزمين لا يلوون على شيء. ولم ينقلب انتصار المسلمين إلى هزيمة إلا عندما ترك الرماة مكانهم مخالفين أمر رسول الله وسارعوا لجمع الغنائم. ومع أن عبد الله بن جبير ناشدهم ألا يخالفوا أمر الرسول، فإنه لم يبق من الرماة مع عبد الله إلا عدد لا يكاد يبلغ العشرة، ولاحظ خالد بن الوليد ترك المسلمين أماكنهم وخلوّ الجبل من المدافعين عن مؤخرة المسلمين فأتاهم من الخلف وأعمل الرماح في ظهورهم، وانتقضت صفوف المسلمين وصاروا بين قتيل، وجريح، ومضطرب جهدته الحرب حتى لا يدري ما يصنع، وأصيبت رباعية الرسول (السن التي بين الثنية والناب) وشقت شفته وجرح في وجنتيه. ومما زاد الفوضى التي عمت المسلمين الإشاعة التي سرت مفادها أن الرسول الكريم قد قتل، فأضعف هذا من حماسة المسلمين في قتال عدوهم. ولكن الرسول، على الرغم من إصابته، استطاع أن يصل إلى سفح جبل أحد مع الفئة التي كانت حوله، فكان لظهوره سالماً أكبر الأثر في رفع معنويات المسلمين، فالتفوا حوله، وغسلوا جراحه، واستمروا في مقاومة عدوهم بعد أن كثر فيهم القتل، ويبدو أن قريشاً اكتفت بما حققت ورأت أنها قد ثأرت للعار الذي لحقها ببدر فقررت الانصراف والعودة إلى مكة. فقد صعد



أبو سفيان على ربوة ونادى بأعلى صوته: «إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر، أعل هبل» ودعا صحبه للعودة، فطلب الرسول من عمر بن الخطاب أن يجيبه، فقام عمر وقال: «الله أعلى وأجل، لاسواء: قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». وهكذا انتهت هذه الموقعة وانصرفت قريش إلى مكة بعد أن أعلن أبو سفيان للمسلمين أن الموعد بينه وبينهم سيكون بدراً العام المقبل.

خسر المسلمون في معركة أحد ما يزيد على سبعين قتيلاً بينهم رجال لهم مكانتهم كحمزة ابن عبد المطلب عم الرسول وقد قتله بالرمح وحشي غلام جبير بن مطعم، ومصعب بن عمير وغيرهما. وقد ذكرت كتب التاريخ والسيرة أسماءهم. على أن الجانب المعنوي من الخسارة كان أفدح من الجانب المادي في البدء وكان من الممكن أن تؤدي هذه الخسارة إلى هبوط معنويات المسلمين أو شعورهم بعدم رضى الله عنهم، ولكن تنزلت آيات قرآنية، تضمنها سورة آل عمران، فيها شرح لأسباب الخسارة وحض للمسلمين على عدم عصيان الرسول وعلى الأخذ باوامره، وعدم الالتفات إلى الشائعات كمقتل الرسول وغير ذلك، وفيها تنديد بجماعة المنافقين وثناء على شهداء المعركة وأن لهم الجنة. وقد هدأت الآيات خواطر المسلمين وزال الغم عنهم.

وإذا كانت موقعة أحد هزيمة للمسلمين فهي لم تكن نصراً كاملاً لقريش، فقريش كانت تريد من وراء الإعداد الطويل لهذه المعركة القضاء على الرسول والإسلام، وضرب مركز قوته وتجمعه ضربة قاصمة، ولكن النتائج جاءت على غير ما ارادت قريش؛ ولم تؤد إلى تحقيق أي هدف من أهدافها، كما أن في عودة أبي سفيان ورجاله إلى مكة من دون مهاجمة المدينة خير دليل على عدم ثقته بقوته وعلى شعوره بأن ما تم في أحد كان أقصى ما يستطيع. ويؤكد هذا ما تذكره المصادر من أن المسلمين كانوا المنتصرين في أول المعركة، وأن خسارتهم جاءت نتيجة فوضى صفوفهم بعد تخلي الرماة عن مواقعهم التي أوصاهم الرسول بالاحتفاظ بها مهما كانت الظروف والأحوال. ولو كانت قريش على جانب كبير من القوة لقبلت تحدي الرسول بعد المعركة حين لحقها حتى حمراء الأسد التي تبعد ثمانية أميال عن المدينة، ولعادت إليه، ولكنها آثرت السلامة وقنعت بنصر غير كامل.

وبسبب خسارة المسلمين في أحد، فقد ألح الرسول الكريم على درء أي تحرك عدائي يوجه إلى المدينة والتصدي له. وقد أكثر من بث العيون والأرصاد حول عاصمته لإخباره بكل التحركات المريبة. وكان حال سماعه بأنباء تحركات من هذا القبيل يرسل جماعة من أصحابه لردها قبل وصولها أو لتفريق جموعها. وكان خروج الرسول السريع في محرم من السنة الرابعة للهجرة إلى دومة الجندل التي تبعد نحو ٥٠٠ ميل عن المدينة ليفرق تجمعاً معادياً من قبائل قضاعة وغسان قد أظهره بمظهر القوي أمام عرب الجزيرة، وهكذا فإن الإسلام، على الرغم من الانكسار في أحد، غدا يزداد منعة وعزة على مر الأيام.

نجدة خماش

مراجع للاستزادة:
ـ الواقدي، المغازي (عالم الكتب، بيروت).

■ الأحداث (تنظيمات ـ)

يطلق مصطلح «تنظيمات الأحداث» في التاريخ الإسلامي على جماعات من قوات شعبية تطوعية مسلحة شبه عسكرية ظهرت في بلاد الشام ما بين القرن الرابع وأواسط القرن السادس للهجرة (ق ١٠ـ١٢م)، وكان لها شان كبير في الكثير من مدنها. فقد عرفت بلاد الشام جماعات شعبية شبه عسكرية منذ أواسط القرن الثالث للهجرة ق٩م كانت تتطوع للحالات الطارئة، وكان وجودها مؤقتاً بحسب مقتضيات الحال، ثم غدت دائمة بمرور الأيام فكونت ما يشبه الحرس الشعبي المحلي في مدينة دمشق وضواحيها وفي حلب وغيرها. وكانت لها مهمة مزدوجة هي حفظ الأمن الداخلي في حالات الطوارىء تعزيزاً لرجال الشرطة والعسس، أو القيام بأعبائهم في غيابهم، والدفاع عن المدينة جنباً إلى جنب مع الجند النظامي أو من دونه أحياناً. وقد تكون هذه التنظيمات إلى جانب حاكم البلد أو عليه بحسب الظروف. وتشير

المصادر إلى أن الأحداث في القرن الثالث للهجرة كانوا حرساً لأمير الشام من الطولونيين. وليس من الواضح إن كان هؤلاء جماعات شعبية مسلحة ثم ألحقوا بحرس الأمير أم أن نواتهم الأولى كانت في البداية ممن اختيروا لخدمة الأمير ثم أهملوا فتحولوا إلى جماعة شعبية مسلحة تعمل مستقلة من أجل مصالحها.

شهد القرن الرابع للهجرة ق ١٠م ذروة نشاط الأحداث وقوتهم في الشام، واستمر نشاطهم هذا إلى أواخر القرن السادس، وكانت أوضاع البلاد آنذاك مواتية لبقاء تنظيمات الأحداث ونموها وازدياد نفوذها. فقد كان الأمن مزعزعاً والوضع السياسي غير مستقر. وكان النزاع على أشده بين العباسيين والفاطميين والقرامطة والروم من أجل السيطرة على أجزاء من الشام، ولكن الغلبة كانت فيه للفاطميين أكثر الوقت. وبرز الأحداث في ظل هذه الأوضاع قوة ذات شأن يعبر نشاطها عن رفضها السيطرة الخارجية وعن طموحها إلى إقامة حكم محلي على أسس شعبية، وكان من مظاهر هذا النشاط الصراع الطويل الأمد بين تنظيمات الأحداث وجيوش الفاطميين شهدت دمشق في أثنائها ثورات عنيفة من بينها: حركة ابن عصودا وأخيه إسحاق، وثورتا صدقة الشوا وأحمد الجسطار ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م وثورة ابن المارود ٣٦٣-٣٦٤هـ/ ٩٧٤-٩٧٥م وثورة قسام التراب ٣٦٥-٣٧٣هـ/ ٩٧٦-٩٨٣م، وهي أشدها عنفاً وأطولها أمداً، وثورة الدهيقين ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م وثورة محمد الجزار ٤١٢هـ/ ١٠٢١م، كما شهدت مدينة صور ثورة العلاّقة الملاح ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م.

كذلك شهدت المناطق الشمالية من الشام بعد أن خضعت للنفوذ السلجوقي ثورة بركات ابن فارس الفوعي المعروف بالمجن في حلب على يوسف بن آبق سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م.

من المرجح أن هذه التنظيمات لم تتكون نتيجة جهد واع قصد منه هدف معين ولكنها جاءت عفوية استجابة لظروف سياسية واقتصادية واجتماعية صعبة كانت تعيشها البلاد في ذلك الحين، وربما تأثر نشوء تنظيم الأحداث في الشام بإحدى مؤسستين كانتا معروفتين من قبل هما: الفتيان والعيارون في العراق وفارس، وسرايا الجهاد في العواصم والثغور، لوجود تماثل كبير بين حركة العيارين أو الشطار أو الفتيان في العراق وحركة الأحداث في الشام. كما يلاحظ الشَّبه الكبير بين هؤلاء الأحداث وحركة الحرافيش والزعّر اللاحقة في مصر. وكل هذه الحركات تعبير عن معارضة شعبية للقوى السياسية المسيطرة، ودفاع عن مصالح العامة في وجه الخطر الخارجي، وجميعها ظاهرات احتجاج وتمرد على ظروف وأوضاع ضاغطة وعلى السلطة التي تستغل تلك الأوضاع. ويشهد على التماثل في طبيعة حركات أحداث الشام وشطار العراق وحرافيش مصر تلك النعوت التي ينعت بها المؤرخون أفراد هذه التنظيمات وأعمالهم، وتشابه المنبت الطبقي لأعضائها، وأنها حركات احتجاج عنيفة دعامتها العامة من الناس في مواجهة المستغلين وعلى رأسهم السلطة السياسية.

كان لجماعات الأحداث تنظيمات وقيادات وروابط بين أفرادها تجعلها أقرب ما تكون من الميليشيات الشعبية المسلحة في مفهوم العصر الحاضر، ولكنها لم تكن على قدر عال من التنظيم والربط المحكم مما يجعل إطلاق مصطلح «التنظيم» أو «المنظمة» عليها من قبيل المجاز فقط. وقد استعمل مصطلح «الأحداث» في حالات كثيرة دلالة على الذين يثورون على الحاكم أو إشارة إلى العامة من الناس. ولم يكن أعضاء هذه التنظيمات متجانسين طبقياً ولا مهنياً ولامن حيث السكن، ولم تكن مجموعاتهم كذلك، وكان من شروط العضوية في جماعة الأحداث العزوبة والشباب والشجاعة والمروءة والإخلاص للجماعة وتحمل المشاق والتعذيب. وغالباً ما كان أفراد الأحداث من العامة أو الرعية وكذلك شأن بعض رؤسائهم، وأشهرهم قسام الحارثي التراب الذي كان يعمل «زبالاً» في دمشق، والمجن بركات بن فارس الفوعي الذي كان لصاً من الشطار وقاطع طريق من زعار حلب، وقد أنصفهم بعض المؤرخين فوصفوهم بالشهامة والشجاعة والعدل.

وكان لأحداث كل مدينة عدة تنظيمات لكل منها رئيسه ونظامه وأعرافه وتنضوي جميعها تحت زعامة قائد واحد، ولكل تنظيم أعلامه وأبواقه وشعاراته ولديهم نظام ترقية وتدرج في المراتب، ولكل تنظيم منطقة نفوذ على حي من الأحياء، ويعرف أفراده باسم حُمّال السلاح، ولديهم قدر من التدريب العسكري والمهارة في القتال. وكان عدد تنظيمات الأحداث في دمشق عندما نكبها القائد الفاطمي جيش بن الصمصامة سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م اثني عشر تنظيماً لكل منها رئيس ولها كلها رئيس عام، وكان الرئيس يختار عادة لمؤهلاته ولصفاته التي تفوق ما لدى الآخرين من شجاعة وإقدام وشهامة وقوة وصبر ومقدرة على القيادة والتنظيم. وكان عدد الأحداث في كل مدينة يراوح بين بضع مئات وبضعة آلاف، وكانت دمشق تضم العدد الأكبر منهم على الدوام، أما أشهر مدن الشام الأخرى التي تألفت فيها جماعات الأحداث فهي حلب وصور وحمص وبعلبك وعسقلان، وربما كان هناك جماعات منهم في الرملة وطرابلس وأنطاكية لتشابه الظروف الحياتية في هذه المدن وفقدان الأمن. ومن الصفات التي أطلقها المؤرخون على هذه الجماعات: العيارون والشطار والغوغاء، والأوباش، والدعّار، والزعّار، واللصوص، والحرامية، والمشالح، وأهل الشره، وأهل الشر، وأهل الشر والفساد، وطلاب الشر، وطلاب الباطل، وحمال السلاح، وقطاع الطرق، والرعية، والعوام، وغير ذلك، وبعض هذه الأوصاف صحيح في أساسه مع التسليم بوجود شيء من المبالغة. فقد تداخلت في مسلك الأحداث أعلى القيم والفضائل وأسوأ الرذائل في مزيج غريب. وتعد ظاهرة الأحداث «مدنية» لا ريفية، ولاينفي هذا وجودهم في القرى المحيطة بالمدينة وأرباضها. وكان معظم الرؤساء من أهل المدن، مع أن بعضهم كان من القرى كالمجن الذي ينسب إلى قرية فوعة في ريف حلب، وقسام التراب الحارثي الذي قدم من تلفيتا إحدى قرى ريف دمشق، أو من الغرباء القادمين من مناطق بعيدة كمحمد بن سعدان (أو سعدانة) رئيس حلب في أوائل القرن السادس للهجرة (ق١٢م) وأصله من مدينة حران. ومكي بن قرناص رئيس حلب الثاني في ذلك الحين كذلك وأصله من حماة. ومما يلفت النظر ذلك التبدل الجذري الذي طرأ على أسلوب اختيار الرؤساء في القرنين الخامس والسادس للهجرة، فقد صارت السلطة الحاكمة هي التي تختار رئيس الأحداث العام من أفراد الطبقة العليا المتنفذة أو من السادة والأشراف، أما رؤساء التنظيمات الفرعية فكانت تختارهم تنظيماتهم أو يفرضون أنفسهم عليها كما هو الحال من قبل. ومع حلول القرن السادس للهجرة (ق١٢م) صار منصب الرؤساء شبه وراثي

تحتكره الأسرة الواحدة، ومن هؤلاء آل الصوفي في دمشق، وآل البديع في حلب، وكان أفراد أسرة الرئيس أعضاء في تنظيمه عادة، ومن حرسه الخاص بعد أن جرت عادة اصطناع الرؤساء للحراس الشخصيين. وكثيراً ما كان ظلم الرئيس وسوء تدبيره أو عدم انتمائه إلى فئة الأحداث في الأصل أو أنه من الغرباء سبباً في خيانة مرؤوسيه، كما جرى للشريف الحتيتي رئيس حلب (أواخر ق٦هـ/ ١٢م) ومكي بن قرناس والمجن.

كانت مصادر تمويل الأحداث متنوعة، ولعل الجزء الأكبر منها كان يأتي من أعمال السلب والنهب والسرقة، إلى جانب ما يدخل خزائنهم من أتاوى وخوات يفرضونها على أصحاب الأموال من تجار وصناع وأصحاب إقطاع لقاء حمايتهم، وضرائب أو رسوم يجبونها من الناس في ظل حاكم ضعيف أو عند تمردهم على الحكم، مع ما يصلهم من هبات الحكام وعطاءاتهم لقاء مساعدتهم في خصوماتهم، أو بقصد استمالتهم تجنباً لشرهم، وكذلك ما يخصص لهم من رواتب وإقطاعات (مخصصات) شهرية أو سنوية أو من الأوقاف وهو الأغلب في عهودهم المتأخرة.

وكان الأحداث يعدون الصراع مع الفرنجة حرباً مقدسة والدفاع عن مدنهم ودساكرهم واجبهم الأول. فكانوا يتناسون خلافاتهم ومصالحهم عندما يتهدد المدينة خطر ويتضامنون متحدين عندما يدعوهم الداعي إلى جهاد الفرنجة، ويروي مؤرخ دمشق ابن القلانسي أن أحداث دمشق وحمص نهضوا لحرب الفرنجة عندما استنهضهم أتابك دمشق ظهير الدين طغتكين حين غزا هؤلاء حوران سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م. وأما علاقة الأحداث بالسكان وأصحاب الحكم فلم تكن ثابتة المنهج والخط، ولما كان الأحداث من العامة فقد كان تعاملهم حسناً مع الأهلين على وجه العموم وغالباً ما كانوا ينحازون إلى صفهم في مواجهة الحكام. فقد وقف الأحداث في صف سكان دمشق في القرن الرابع للهجرة (ق١٠م) عندما اشتكى هؤلاء ظلم الجند المغاربة في الجيش الفاطمي وتعدياتهم. وظلت هذه العلاقات جيدة حتى سقوط الحكم الفاطمي. وفي القرنين الخامس والسادس للهجرة (ق١١ و١٢م) حدث تقارب واضح بين الأحداث وأصحاب السلطة، وكان الأحداث في هذه الحقبة يقومون بما يشبه دور الوسيط بين الرعية والحاكم أو الناطق باسم الأهلين أمام السلطة، ومع ذلك فثمة شواهد تشير إلى سوء معاملة الأحداث للأهلين أو جورهم في أوقات معينة، ولاسيما عند وقوع الفتن وفي عمليات النهب والاغتصاب، كما تشير إلى حدوث انشقاق في تنظيمات الأحداث بسبب ظلم الرؤساء وتجبرهم على العامة فينحاز بعض أتباعهم إلى صف هؤلاء، وقد يتألبون على رؤسائهم فينهبونهم. وقد يضطر الحاكم إلى رشوة الرؤساء في بعض الأحيان ليكفوا أذاهم عن الناس أو ليضمن ولاءهم، كما فعل عطية المرداسي في حلب عندما خشي انحياز الأحداث إلى خصمه محمد المرداسي. وثمة حوادث تدل على أن العامة كانت تثور على الأحداث فتطاردهم أو تطيح برئيسهم وتنهب أمواله لسوء إدارته وظلمه، كما حدث لسالم بن مستفاد والمجن الفوعي. ومن جهة أخرى كان الأحداث يسعون غالباً إلى استرضاء الأعيان والأشراف والعلماء ورجال الدين ليضمنوا تأييدهم أو السكوت عنهم، وكان هؤلاء بالمقابل يسعون إلى الإبقاء على علاقات طيبة مع الأحداث درءاً لشرهم وللاستعانة بهم عند الحاجة. وفي جميع الأحوال فإن الأعيان لم يكونوا راضين عن نفوذ الأحداث في المدن ويخشون تسلطهم واستقلالهم بالأمر، وكانت مخاوفهم هذه تستند إلى أسس حقيقية برزت جلية في زمن حكم قسام التراب دمشق وحكم الحتيتي حلب.

وأما علاقة الأحداث بالسلطة فكانت متقلبة، وكان ظهورهم أول الأمر دعماً للسلطة حتى إن الحكام اتخذوهم حرساً لهم، ثم مالوا إلى مناوأة الفاطميين ومقاومة نفوذهم والثورة عليهم، وقد تخلل ذلك أوقات بذلوا فيها الطاعة والولاء لهم. وتشهد بذلك أخبارهم مع جيش ابن الصمصامة وجعفر بن فلاح ومعلى بن منزو وبدر الجمالي، وكثيراً ما كانوا يخضعون رهبة من الحاكم أو لأنه يترك لهم بعض النفوذ، ويثورون أو يتمردون أو يميلون إلى الخصوم عندما يتشدد الحاكم في معاملتهم أو تسوء معاملته، إلا أنهم كانوا في جميع الأوقات أعداء ألداء للفرنجة الصليبيين ويقاومونهم بكل ما عرف عنهم من إقدام وجرأة.

كان الأحداث في بداية أمرهم (القرن الرابع للهجرة) أشبه بعصابات منظمة يفرضون الأتاوى على الأغنياء ويخشاهم العامة والأعيان، يتقنون فن القتال والسطو وتحسب السلطة لهم حساباً وتغض الطرف عن أعمالهم المخلة بالأمن لحاجتها إليهم، ومع مرور الزمن غدت هذه التنظيمات جماعات مسلحة من غير مبدأ، استأنستها السلطة والطبقات الميسورة وتحولوا إلى حرس محلي أو جند ملحق بالحاكم الفاطمي يعملون بمشورته، فانشقت صفوفهم وانفرط عقدهم يوم نكبهم جيش بن الصمصامة والي الفاطميين على دمشق سنة ٣٧٩هـ/ ٩٩٩م وأوقع بهم مذبحة كبرى، بلغ ضحاياها الآلاف منهم، وأمر بأن يعدم رئيس كل تنظيم في حيه، ولكن هذه النكبة لم تقض على حركتهم، فقد عادوا إلى الظهور في العهد السلجوقي يتزعمهم هذه المرة رؤساء من الملاك والأعيان، ويعملون من أجل مصالحهم، ويتعاونون مع السلطة في درء الخطر عن البلد إلى أن انتهى الأمر بهم في أوائل القرن السادس للهجرة (ق١٢م) إلى أن أصبحوا رديفاً للجيش النظامي وعوناً للشرطة، وإلى انشغالهم بقضايا الدفاع الخارجية عن شؤون البلد الداخلية، ولكنهم لم يستطيعوا قط أن يحلوا محل الجيش أو أن يقوموا بأعبائه كاملة لقلة عددهم وضعف تنظيمهم، وبدأت أعدادهم تتناقص تدريجياً بسبب خسائر الحرب من غير أن تعوض حتى كانت الضربة القاضية في أواخر عهد الزنكيين وبداية العصر الأيوبي عندما استحدثت السلطة نظام « الشحنة » وهو نمط جديد من الشرطة يتولى مهام الأمن، فانتفت أسباب وجود الأحداث باستقرار السلطة في أيد قوية من جهة واستتباب أسباب الأمن من جهة أخرى، فكانت نهاية وجودهم.

ج.ت

الأحداث الجانحون

الأحداث الجانحون juvenile delinquents مصطلح يهتم به القانون الجزائي، وبصفة خاصة قانون الأحداث الجانحين، ويطلق على الذين يرتكبون جرائم قبل بلوغهم سن الرشد القانوني، ويلاحق جزائياً منهم أولئك الذين يرتكبون جرائم وهم في سن التمييز.

ويقصد بالحدث كل ذكر أو أنثى لم يبلغ بعد سن تحمل المسؤولية الجزائية، أي لم يصل بعد إلى سن الرشد الجزائي الذي يعدّ بداية مرحلة المسؤولية الجزائية الكاملة، وعلى ذلك تفرق التشريعات الجزائية في مختلف الدول بين الحدث والراشد من حيث المعاملة الجزائية ومن حيث القواعد التي تحكم المسؤولية الجزائية.

ومناط التفريق بين الحداثة والرشاد هو العقل أو الإدراك أو التمييز، فالإنسان لايعد مسؤولاً جزائياً إلا في الوقت الذي يصبح فيه قادراً على فهم الطبيعة غير المشروعة للفعل وتوقع الآثار أو النتائج التي تترتب على هذا الفعل. وعندما يصل إدراكه إلى هذا الحد يمكن القول إنه بلغ سن العقل، ويعامل معاملة إنسان راشد لأن قدراته العقلية تكون قد اكتملت إلى درجة تترتب عليه معها المسؤولية الجزائية كاملة بتوافر ركنيها: حرية الاختيار والإدراك أو التمييز. أما إذا انعدم الإدراك أو التمييز أو لم يكتمل بعد فلا يمكن القول إن الإنسان قد بلغ سن العقل أو الرشد. وعلى ذلك فإن الإدراك أو التمييز هو في الوقت نفسه علة وضابط: فهو علة التمييز في المعاملة الجزائية بين الحدث والراشد، وهو فوق ذلك ضابط التمييز بين الحداثة والرشاد. وهذا ما اتفقت عليه التشريعات الجزائية في مختلف الدول ومنها قانون العقوبات السوري الذي ينص في المادة ٢٠٩ / ١ على ما يلي: «لايحكم على أحد بعقوبة مالم يكن قد أقدم على الفعل عن وعي وإرادة».

وما دام الانتقال من الحداثة إلى الرشاد يتم باكتمال الوعي أي النضج العقلي للإنسان، أي عندما تكتمل قدراته العقلية، فهل يمكن للمشرع تحديد سن معينة للقول بتوافر الرشد؟ يتبادر إلى الذهن أول وهلة ترك هذه المسألة لسلطة القاضي التقديرية، إذ إن الانتقال من حالة عدم الإدراك أو حالة الإدراك الناقص إلى حالة الإدراك الكامل لايتم فجأة أو دفعة واحدة، كما أنه لايتم لدى الأفراد في سن واحدة مجردة، لكنه يتم بالتدريج، ويخضع لعوامل كثيرة لايمكن إغفالها ولاإغفال الدور الذي تؤديه في تكوين الحدث من الناحيتين الجسدية والذهنية. ومن هذه العوامل: البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان وما يكتسبه من تعاليم وعادات، والجنس الذي ينتمي إليه، والموقع الجغرافي للإقليم الذي نشأ فيه وتأثير العوامل الطبيعية. فقد يختلف النمو وتختلف العادات والأخلاق بحسب طبيعة الإقليم جبلياً كان أو صحراوياً أو سهلياً، كما يختلف ذلك باختلاف الجو والمناخ، يضاف إلى ذلك العوامل الذاتية في تكوين الحدث وعوامل الوراثة والعوامل الاقتصادية. إن كل ذلك يوحي بترك مسألة تحديد سن الرشد إلى تقدير القاضي في كل حالة على حدة، لكن ذلك مدعاة لاختلاف الرأي والتحكم وعدم تماثل درجات التقدير لاختلاف اجتهادات القضاة، مما جعل غالبية التشريعات الجزائية في مختلف الدول، تحت ضغط الظروف العملية، تلجأ إلى تحديد سن مجردة للرشد. وهي في معظم هذه التشريعات تمام سن الثامنة عشرة. وسار قانون الأحداث السوري على هذا النهج عندما عرف الحدث بأنه: «كل ذكر أو أنثى لم يتم الثامنة عشرة من عمره». وفي ضوء ما تقدم يمكن استخلاص التعريف القانوني للحدث على الوجه التالي: «الحدث هو الصغير في المدة منذ ولادته حتى بلوغه السن التي حددها القانون للرشد، وهي في تشريع الأحداث السوري ثماني عشرة سنة». وبالمقابل فإن الراشد هو الشخص الذي أتم الثامنة عشرة من عمره.

ثم إن التشريعات في مختلف الدول تفرق بين طورين أساسيين من أطوار الحداثة، طور عدم التمييز وطور التمييز، وتخصص لكل منهما أحكاماً خاصة، وقد كانت التشريعات القديمة تعترف بالبلوغ الجسدي الطبيعي حداً بين الطورين المذكورين. أما التشريعات الجزائية الحديثة فلا تقرن التمييز بالبلوغ الجسدي، بل تهبط بسن التمييز إلى ما دون ذلك، ولكنها لا تتفق جميعها على سن واحدة. وقد حددت غالبية التشريعات، ومنها تشريعات الدول العربية، سن السابعة فيصلاً مجرداً بين طور عدم التمييز والتمييز، ويطلق على الطور الأول اصطلاحاً «مرحلة الطفولة» أو «مرحلة عدم التمييز» إذ يكون فيها الحدث غير مميز قانوناً، وعلى الطور الثاني «مرحلة التمييز». وفي سورية، أجمعت التشريعات المتعاقبة على تحديد بدء سن التمييز، التي تنتهي بها مرحلة الطفولة، بتمام السابعة من العمر.

ويكون الحدث في مرحلة الطفولة عديم التمييز من وجهة نظر القانون، وهو أيضاً عديم الأهلية، فلا يتحمل التبعة الجزائية للفعل الجرمي، وتنعدم مسؤوليته الجزائية، ولايصح أن تتخذ الإجراءات القانونية في مواجهته، ولا أن توقع عليه عقوبة عن فعل تتوافر فيه أركان الجريمة. ولهذا نصّ قانون الأحداث الجانحين في سورية: أنه لا يلاحق جزائياً الحدث الذي لم يتم السابعة من عمره حين ارتكابه الجريمة.

وانعدام التمييز لدى الحدث في هذه المرحلة لا يقتصر أثره على عدم إنزال عقوبة به، بل إنه يجاوز ذلك إلى عدم جواز اتخاذ تدابير إصلاحية بحقه، وعدم جواز رفع الدعوى العامة عليه. ويدل كل ذلك على أن أعمال الحدث غير المميز لاتعني القانون الجزائي في شيء. ويتضح من كل ما تقدم أن الحدث الذي يسري عليه قانون الأحداث الجانحين، ويجوز أن تقام عليه الدعوى العامة ويواجه بتدبير إصلاحي، إنما هو الحدث الذي يرتكب جريمة في وقت يكون فيه قد أتم السابعة ولم يتم الثامنة عشرة من عمره. ويلاحظ من ذلك أن ثمة شرطين يجب توافرهما حتى يعد الحدث جانحاً: أن يرتكب جريمة يعاقب عليها القانون، وأن يكون قد أتم السابعة ولم يتم الثامنة عشرة من عمره حين ارتكاب الجريمة.

أسباب جنوح الأحداث

بذل الباحثون جهوداً ضخمة للكشف عن أسباب إجرام الأحداث والوصول إلى جذور هذه المشكلة المهمة وإرساء الحلول الكفيلة بالقضاء عليها أو الحد منها ما أمكن. ومع تعدد التقسيمات التي وضعها الباحثون، فإن من الممكن وضع الأسباب في فئتين: ما هو داخلي خاص بالحدث نفسه، وماهو خارجي يتعلق بالوسط الذي يعيش فيه.

الأسباب الخاصة بشخص الحدث: يرى الباحثون أن اضطرابات النموّ لدى الحدث، والعاهات، والأمراض البدنية والنفسية، والدوافع ومنها دافع الجنس، هي عوامل تؤثر في السلوك الاجتماعي للحدث وتنعكس في تصرفاته وقد تكون وراء ارتكابه الجريمة. ولايمكن في هذا المجال الجزم بحتمية أثر الوراثة في الإجرام، وهي

النظرة التي قال بها لومبروزو [ر]، ولكن يمكن القول إن التكوين الجسمي أو العقلي للأبوين قد ينعكس على الطفل، فإذا كان الوالدان، أو أحدهما، من مدمني المسكر أو المخدرات، أو من المصابين ببعض الأمراض الخاصة، فإن هذا الوضع يحتمل أن يؤثر في تكوين ابنهما جسمياً ونفسياً.

الأسباب الخارجية المحيطية: إن للبيئة التي يعيش فيها الحدث تأثيراً واضحاً وكبيراً في سلوكه وتصرفاته، وتحتل العوامل الاجتماعية والاقتصادية مكان الصدارة بين العوامل التي تنطوي عليها البيئة والتي يمكن أن تؤدي إلى جنوح الأحداث. فالجانح مصنوع لامولود، وإجرام الصغار حادث يسهم الكبار في صنعه، والحدث المنحرف هو في الغالب ضحية وسط اجتماعي اقتصادي سيىء.

الوضع الاقتصادي: يحتمل أن يكون الفقر حافزاً على التفوق والنبوغ. ولكنه، من جهة ثانية، كثيراً ما يكون السبب في الانحراف والجريمة. وفي جملة ما يعنيه الفقر فقر الأسرة والسكن الحقير، وسوء التغذية والجوع والمرض والملبس الزري. وقد يؤدي الفقر في الأسرة إلى تفكك الروابط بين أفرادها، وإلى أشكال من القلق والكآبة واليأس. ويؤثر ذلك كله في أحوال الحدث الجسمية والنفسية والتربوية والثقافية. وقد يكون من شأنه إسقاطه في بؤرة الانحراف. لكن الفقر في حد ذاته ليس السبب الحتمي، فقد يقدم على الجريمة أناس ليسوا من الفقراء، وكثيراً ما يحجم عنها أناس في حضيض الحياة. وقد ثبت من فحص الحالة الاجتماعية لبعض الطلاب الذين ارتكبوا أخطر الجرائم وأخلوا بالأمن إخلالاً خطيراً انفعل له سكان بعض المدن أنهم ينحدرون من الفئات الاجتماعية الغنية المترفة. وعلى ذلك فإن الانحراف قد ينشأ عن سوء الرعاية الذي يغلب أن يلازم الحياة الفقيرة. ومن هنا يكون من الضروري التنبه إلى عوامل أخرى اجتماعية وصحية وغيرها تسهم وحدها، أو مع الفقر، في جنوح الأحداث.

تفكك الأسرة: من المؤكد أن البيئة الأسرية تؤدي دوراً مهماً في صنع شخصية الحدث ولاسيما في السنين الأولى من حياته، فالبيت المتداعي اجتماعياً يعدّ من العوامل الرئيسة التي تفتح السبيل لجنوح الأبناء، ويكفي أن يشب الصغير في رحاب الانحراف لدى الأبوين، أحدهما أو كليهما، أو انحراف أكبر الأبناء أو البنات، حتى يستمرىء الانحراف ويصبح ارتكاب الجريمة عنده أمراً مستساغاً ومقبولاً. ومن ناحية أخرى إن الإسراف في اللين والتدلّل، أو في الصرامة والقسوة، أو في التهاون والسلبية وعدم الاكتراث من جانب الوالدين أو أحدهما، قد يؤدي بالحدث إلى النتيجة نفسها. وقد بينت إحدى الدراسات الفرنسية لأحوال مئة سجين محكوم عليهم بعقوبة الإبعاد أن ٥٢ منهم عاشوا في طفولتهم في بيئة أسرية مضطربة: من بينهم ٢١ سجيناً عاشوا فاقدين أحد الوالدين، ومنهم ٥ عاشوا فاقدين الوالدين معاً، و١٢ وجدوا في أسرة كان يسودها الشقاق الأسري، و٦ نشؤوا في معاهد إصلاحية، و٤ كانوا قد عهد بهم إلى مؤسسات الإسعاف العام لتربيتهم.

الصحبة السيئة: إن اتصال الأحداث الذين لم تتكون شخصيتهم بعد بفئة من المجرمين قد يوصلهم إلى الجريمة، وهذا تفسير لما نسمعه اليوم عن عصابات الأحداث، مثل عصابات القمصان السود في فرنسة، والقمصان المذهبة في السويد.

وسائل التسلية والإعلام: إن السينما والمسرح والصحافة والكتب والمذياع وغيرها من وسائل التسلية والإعلام، إذا لم تكن قائمة على أسس سليمة في طريقة، أو في مضمون، ما تعرض، قد تساعد على انسياق الأحداث إلى ارتكاب الجريمة، ويحدث هذا أحياناً نتيجة إبراز مقترفي بعض الجرائم بمظهر البطولة مما يبدو أثره في تغير القيم الاجتماعية لدى الأحداث والمراهقين بصورة خاصة فيندفع بعضهم وراء الجريمة متأثرين بالتقليد.

الفراغ والبطالة والعمل غير المناسب: إن هذه العوامل كثيراً ما تمهد للحدث طريق الانحراف. فالأشخاص الذين يعمل معهم كثيراً ما يكونون مصدر خطر معنوي وأخلاقي جسيم عليه، وكثيراً ما يتسببون بتوجيهه توجيهاً سيئاً ينتهي به إلى الانحراف والجريمة. ويصدق هذا القول على شروط العمل: فالمناطق التي تولد الجنوح، أو ما يمكن تسميتها «مناطق الجنوح»، مثل بعض دور اللهو والحانات، من شأنها تغذية عوامل الانحراف الخلقي والسلوك المضاد للمجتمع لدى الحدث.

ويبدو من هذا العرض السريع للأسباب الداخلية والخارجية المحيطية التي تدفع بالأحداث إلى هوة الجريمة أن سبباً أو عاملاً واحداً منها ليس كافياً، في حد ذاته، لتكوين الانحراف، وأن الواقع يكشف عن تضافر عدد من العوامل، علماً بأن العامل الاجتماعي بأشكاله المختلفة، والعامل الاقتصادي، واستعداد الحدث للانحراف، وهو الاستعداد الذي ينطوي عليه تكوينه الشخصي - هي عوامل تتصدر قائمة الأسباب التي يمكن أن تؤدي بالحدث إلى الجنوح.

الأحكام الموضوعية الخاصة بالأحداث الجانحين

يقف الحديث هنا عند ما يخص هذه الأحكام من صفات، وعند التدابير التي تتخذ بحق الحدث الجانح.

السمة الخاصة لهذه الأحكام: تبرز في مجال الأحكام الموضوعية الخاصة بالأحداث الجانحين السمة الخاصة لقانون الأحداث الجانحين التي تمنحه نوعاً من الاستقلال عن قانون العقوبات العام. فقانون العقوبات العام يتوسل بالعقوبات لتحقيق أغراضه في حماية المجتمع من الخارجين على أحكامه، في حين يلجأ قانون الأحداث الجانحين، من حيث المبدأ، إلى مواجهة الأحداث الجانحين بتدابير خاصة تختلف تماماً عن العقوبات العادية المقررة في القانون العام للمجرمين الراشدين، وهي تدابير تستهدف إصلاح الحدث الجانح، ولاتفرض بالمقابل وفقاً للجريمة ومدى جسامتها، بل وفقاً لحالة الحدث الفردية وضرورة إصلاحه. وعلى ذلك فإن قانون الأحداث الجانحين يتمتع بذاتية خاصة به فيما يتصل بسياسة الجزاء تبعده عن قانون العقوبات العام. ولايرجع القاضي إلى القانون الأخير إلا عند فقدان أي نص في قانون الأحداث الجانحين ينظم الواقعة المعروضة، وحتى في هذه الحالة لايؤخذ بالأحكام العامة إذا كانت لاتتمشى مع السياسة الخاصة التي انتهجها المشرّع في مجال إصلاح الأحداث.

التدابير المقررة للأحداث الجانحين: إذا ارتكب الحدث الذي أتم السابعة ولم يتم الثامنة عشرة من عمره جريمة ما فيمكن أن تفرض عليه محكمة الأحداث واحداً أو أكثر من بين عدد من التدابير.

تدبير التسليم: يعدّ تدبير تسليم الحدث من تدابير الحماية والإصلاح، وهو مقرر لمن يرتكب

أية جريمة، جناية أو جنحة أو مخالفة، في مرحلة الحداثة بين سن السابعة والخامسة عشرة، وهو جائز كذلك في حال الأحداث الذين أتموا الخامسة عشرة ولم يتموا الثامنة عشرة في الجنح والمخالفات فحسب. وقد يتم التسليم إلى واحدة من عدة جهات.

التسليم إلى الوالدين أو لأحدهما أو للولي الشرعي: بشرط أن تتوافر فيمن يسلم إليه الحدث الضمانات الأخلاقية، وأن يكون في إمكانه القيام بتربية الحدث بحسب إرشادات المحكمة أو مراقب السلوك.

التسليم إلى أحد أفراد الأسرة: ويكون التسليم إلى أحد أفراد الأسرة غير الوالدين إذا لم تتوافر في والدي الحدث، أو في وليه الشرعي، الشروط المنوه بها في الفقرة السابقة.

تسليم الحدث إلى غير ذويه: إذا لم يكن بين ذوي الحدث من هو أهل لتربيته أمكن وضعه لدى مؤسسة أو جمعية صالحة لتربية الحدث، وعلى مراقب السلوك أن يراقب تربية الحدث وأن يقدم له وللقائمين على تربيته الإرشادات اللازمة.

تدبير الوضع في مركز للملاحظة: تقرر هذا التدبير تطبيقاً لمبدأ تحقيق شخصية الحدث والوقوف على حالته النفسية والاجتماعية، هذا المبدأ الذي يعدّ بمنزلة العمود الفقري في محاكمة الحدث، لأن اهتمام قاضي الأحداث ينصرف بالدرجة الأولى إلى دراسة شخصية الحدث قبل توجيه اهتمامه إلى دراسة الفعل المرتكب من الناحية المادية. وانطلاقاً من هذا المبدأ يجوز لقاضي الأحداث أن يقرر في أثناء النظر بالقضية، وقبل إصدار حكمه النهائي، وضع الحدث مؤقتاً في مركز الملاحظة مدة لا تتجاوز ستة أشهر إذا رأى أن حالته الجسمية أو النفسية تستلزم دراسةً وملاحظة واسعتين بغية تقرير التدبير الملائم. ويجب على القاضي في هذه الحال تأجيل البت في القضية إلى ما بعد انتهاء مدة الملاحظة والدراسة. ويتصف هذا التدبير بأنه عام يجوز فرضه حتى على الأحداث الذين أتموا الخامسة عشرة من عمرهم في الجنايات.

تدبير الوضع في معهد إصلاحي: وهو تدبير إصلاحي مقرر للأحداث الذين أتموا السابعة ولم يتموا الخامسة عشرة في جميع الجرائم، وللأحداث الذين أتموا الخامسة عشرة ولم يتموا الثامنة عشرة في المخالفات والجنح فحسب. ويحكم الحدث بوضعه في معهد إصلاح الأحداث مدة لاتقل عن ستة أشهر إذا تبين للمحكمة أن حالته تستدعي ذلك. وعلى مدير المعهد الإصلاحي أن يقدم تقريراً للمحكمة بعد انقضاء ستة أشهر على وضع الحدث في المعهد يبين فيه حالة الحدث، وله أن يقترح في التقرير إعفاءه من باقي المدة أو فرض أي تدبير إصلاحي آخر يراه ضرورياً، وعليه أن يقدم تقارير دورية إلى المحكمة في كل ثلاثة أشهر حتى يتم إخلاء سبيل الحدث. وتنتهي مدة تدبير وضع الحدث في معهد إصلاحي حتماً بإتمام الحدث السنة الحادية والعشرين من عمره.

تدبير الحجز في مأوى احترازي: يلجأ القاضي إلى وضع الحدث في مصحّ ملائم إذا تبين له أن جنوحه ناشيء عن مرض عقلي، ويستمر هذا الحجز حتى يتم شفاء الحدث.

تدبير الحرية المراقبة: الحرية المراقبة تدبير يهدف إلى مراقبة سلوك الحدث الجانح والعمل على إصلاحه بإسداء النصح له ومساعدته على تجنب السلوك السيىء وتسهيل امتزاجه بالمجتمع، ويقوم بهذه المراقبة موظف تكلفه وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل أطلق عليه القانون اسم «مراقب السلوك». ويجوز فرض هذا التدبير على الأحداث في جميع الجرائم. ويجوز فرضه حتى على الأحداث الذين أتموا الخامسة عشرة عند ارتكابهم جناية وذلك كتدبير تكميلي إضافة إلى العقوبات المخففة المقررة لهم في هذه الحالة. ويجوز للمحكمة أن تمنع الحدث المفروض عليه تدبير الحرية المراقبة من ارتياد كل محل أو مكان ترى فيه خطراً على سلوكه، ولها أن تفرض عليه الحضور في أوقات معينة أمام أشخاص أو هيئات تعينهم، وأن تأمره بالدوام على بعض الاجتماعات التوجيهية المفيدة، أو أي أمر آخر تراه ضرورياً لإصلاحه.

ومدة الحرية المراقبة من ستة أشهر إلى ثلاث سنوات. ولايحول إتمام الحدث الثامنة عشرة من عمره من دون الاستمرار في تنفيذ هذا التدبير إذا لم تكن المدة التي حددتها المحكمة قد انتهت ببلوغه سن الرشد وعلى مراقب السلوك أن يرفع إلى محكمة الأحداث تقريراً دورياً كل شهر عن حالة الحدث الموضوع تحت رقابته وعن سلوكه وتأثير المراقبة فيه. وعليه أن يرفع للمحكمة تقريراً عن كل حالة تدل على سوء سلوك الحدث أو يرى من المفيد اطلاع المحكمة عليها.

تدبير منع الإقامة: للمحكمة أن تمنع إقامة الحدث في أماكن معينة، كالمنطقة التي وقعت فيها الجريمة أو مكان سكن المجني عليه، على أن يكون الحدث قد تجاوز عند الحكم عليه بهذا التدبير الخامسة عشرة من عمره.

تدبير منع ارتياد المحلات المفسدة: يمنع الحدث الجانح من ارتياد الخمارات والمقامر والمحلات المفسدة عموماً وكل مكان آخر ترى المحكمة أن المنع من ارتياده مفيد له.

تدبير المنع من مزاولة عمل ما: إذا تبين لمحكمة الأحداث أن سبب جنوح الحدث هو مزاولته لمهنة معينة، أو أن مزاولته لتلك المهنة قد تسبب جنوحه مرة أخرى، جاز لها أن تمنعه من ذلك.

تدبير الرعاية: وهو تدبير إصلاحي يوفر للذي فرض عليه التعليم والتدريب المهني والعمل المناسب وتلقي النصح والإرشاد ليباشر حياته أو يكسب عيشه بطريقة شريفة. ويتخذ هذا التدبير مع جميع الأحداث في جميع الجرائم ويعد تدبيراً تكميلياً إضافة إلى العقوبة إذا كان الحدث قد ارتكب جناية وأتم الخامسة عشرة من عمره. ويفرض تدبير الرعاية على كل حدث وجد متشرداً أو متسولاً لامعيل له ولا يملك مورداً للعيش، أو كان يعمل في أماكن أو يمارس أعمالاً منافية للأخلاق والآداب العامة. ويعهد بالرعاية إلى معاهد إصلاحية معترف بها من الدولة. وعلى المعهد تقديم تقرير إلى محكمة الأحداث عن حالة المحكوم عليه بتدبير الرعاية كل ثلاثة أشهر. وإذا تعذر وضع الحدث الذي فرض عليه تدبير الرعاية في إحدى مؤسسات الرعاية جاز لمحكمة الأحداث أن توفر له عملاً في إحدى المهن الصناعية أو التجارية أو الزراعية حيث يتولى رقابته مراقب السلوك.

طبيعة التدابير الإصلاحية: لم تعد التشريعات الحديثة الخاصة بالأحداث الجانحين قائمة على تحديد المسؤولية الجزائية للحدث وفرض العقاب عليه، وإنما أصبحت تقوم على أساس تعويض الحدث عمّا فقده من رعاية صالحة، وعلى إصلاح ما أفسده التوجيه الخاطىء الذي تعرض الحدث له والذي أدى به إلى الإجرام. وتطبيقاً لذلك فإن المشرّع السوري أفرد قانوناً خاصاً بمرحلة الحداثة وأحاطها بمعاملة خاصة في ضوء سياسة اجتماعية تهدف إلى توفير الرعاية

والحماية للجيل الناشئ. وقد كان واضع قانون الأحداث الجانحين سنة ١٩٥٣ صريحاً حين قال في الأسباب الموجبة: إن القصد من هذه التدابير هو إصلاح الحدث فعلاً لا التضييق عليه كما هو الأمر في العقوبات التي تفرض على غير الأحداث.

فالتدابير المقررة للأحداث الجانحين ليست عقوبات بالمعنى التقليدي، وهناك اختلاف بين الإجرائين من حيث كل من الطبيعة والهدف:

فالتدبير الإصلاحي يختلف عن العقوبة من حيث طبيعته، إذ تقوم العقوبة في جوهرها على الإيلام المقصود للجاني عن طريق مسّها حريته أو ماله أو اعتباره، ولتحقيق ذلك يجب أن تكون متناسبة مع مدى جسامة الجريمة. أما التدبير الإصلاحي فإنه لا يقوم مطلقاً على هذا الإيلام المقصود، بل يقوم في جوهره على مدّ العون إلى الحدث الجانح لإصلاحه وإعادة بنائه اجتماعياً، وإذا نتج عن تنفيذ التدبير الإصلاحي إيلام شخص الحدث، كإيداعه في معهد الإصلاح أو في مأوى احترازي، فإن هذا الإيلام يحدث عرضاً وعلى نحو غير مقصود.

ثم إن التدبير الإصلاحي يختلف عن العقوبة من حيث الهدف: فلم تزل العقوبة تهتم بتحقيق الردع العام، إذ إن الإيلام الذي تقوم عليه يؤدي إلى تخويف الآخرين وتهديدهم ومنعهم من محاكاة المجرم. بيد أن هذا الأمر ليس من شأن التدبير الإصلاحي الذي يهدف بصورة أساسية إلى تحقيق الردع الخاص عن طريق إصلاح الحدث فعلاً لا التضييق عليه كما هو الأمر في العقوبات التي تفرض على غير الأحداث.

الاستثناء من فرض التدابير: الأصل أن الحدث مهما كان عمره، أتم السابعة ولم يتم الثامنة عشرة، ومهما كانت الجريمة التي ارتكبها، جناية أو جنحة أو مخالفة، لا تفرض عليه سوى التدابير الإصلاحية المذكورة من قبل. لكن المشرّع السوري وضع استثناء من هذا الأصل، وهو يتناول فئة من الأحداث ونوعاً معيناً من الجرائم: فإذا ارتكب الحدث الذي أتم الخامسة عشرة من عمره جريمة من نوع الجناية [ر] تطبق عليه في هذه الحالة عقوبات مخففة، ويجوز للمحكمة أن تفرض عليه بالإضافة إلى العقوبة بعض تدابير الإصلاح.

الأحكام الإجرائية الخاصة بالأحداث الجانحين

أفرد قانون الأحداث الجانحين قواعد إجرائية خاصة بالأحداث الجانحين تتفق والغرض الاجتماعي المتمثل في إصلاح حالة الحدث، وتتميز هذه القواعد الخاصة مما ورد في أصول محاكمة الراشدين بالمرونة والبعد عن الشكليات المفرطة والخروج في كثير من النقاط على القواعد العامة.

قضاء الأحداث: كان الأحداث الجانحون يحاكمون في ظل التشريع العثماني أمام محاكم القضاء العادي كسائر المجرمين من دون تفريق. ولقد ظل هذا الوضع على حاله حتى نفاذ قانون العقوبات السوري في سنة ١٩٤٩ الذي حقق بعض التقدم. ولما صدر قانون الأحداث الجانحين سنة ١٩٥٣ جاء بتعديلات في هذا الخصوص أهمها إحداث محاكم خاصة تسمى محاكم الأحداث. وأحدث هذا القانون محكمتين للأحداث إحداهما في دمشق والأخرى في حلب، على أن تتولى قضايا الأحداث في بقية المحافظات المحاكم الابتدائية، كما عهد هذا القانون إلى محاكم الجنايات العادية النظر في الجنايات التي يرتكبها الأحداث الذين أتموا الخامسة عشرة ولم يتموا الثامنة عشرة. وقد غير قانون الأحداث الجانحين لسنة ١٩٧٤ الوضع بصورة جذرية، إذ عمم محاكم الأحداث، على جميع المحافظات من ناحية، وأطلق اختصاصها لتشمل جميع الجرائم التي يرتكبها الأحداث، وفيها الجنايات التي يرتكبها من أتم منهم الخامسة عشرة من عمره.

تنظيم قضاء الأحداث: إن هدف إصلاح الحدث الجانح جعل المشرّع السوري في قانون سنة ١٩٧٤ ينحو منحى جديداً ومتطوراً في اختيار قضاة الأحداث، فجاء بقاعدة جديدة في هذا الصدد لم تكن مقررة في التشريع السابق، وهي تقضي باختيار هؤلاء من بين القضاة ذوي الخبرة في شؤون الأحداث بصرف النظر عن فئاتهم ودرجاتهم القضائية، على أن تجري ترقيتهم في محاكمهم كلما استحقوا الترقية مع زملائهم من غير قضاة الأحداث في جدول الأقدمية، ونص على إنشاء نوعين من محاكم الأحداث: محكمة الأحداث الجماعية ومحكمة قاضي الأحداث الفرد.

كان من أهم ما استحدث قانون الأحداث لسنة ١٩٧٤ محكمة الجماعة، إذ نصّ أن يحاكم الأحداث أمام محاكم خاصة تسمى محاكم الأحداث، ولجأ إلى فكرة إنشاء محاكم للأحداث متفرغة لقضاياهم وأخرى غير متفرغة.

وتتألف محكمة الأحداث، متفرغة كانت أو غير متفرغة، برئاسة قاضي الأحداث وعضوية اثنين من حملة الشهادة العالية ينتقيهما وزير العدل مع عضوين احتياطيين من بين العاملين في الدولة الذين ترشحهم وزارات التعليم العالي والتربية والشؤون الاجتماعية والعمل ومنظمة الاتحاد النسائي وتجري تسميتهم بمرسوم بناء على اقتراح وزير العدل.

وقد أبقى المشرّع في قانون سنة ١٩٧٤ على مؤسسة قاضي الأحداث المنفرد، كما كانت عليه الحال في التشريعات السابقة، وخصه بسلطة النظر في بعض قضايا الأحداث. بيد أن المشرّع رجع عن فكرة التخصص هذه في القانون ذي الرقم ٥١ لسنة ١٩٧٩ المعدل لقانون الأحداث الجانحين فأسند إلى محاكم الصلح سلطة النظر في بعض قضايا الأحداث بوصفها محاكم أحداث. كذلك نص قانون الأحداث الجانحين لسنة ١٩٧٤ على تشكيل غرفة خاصة لدى محكمة النقض تتألف من رئيس واثنين من المستشارين للنظر في قضايا الأحداث.

الإجراءات الخاصة بالأحداث: أفرد قانون الأحداث الجانحين السوري قواعد إجرائية خاصة بالأحداث الجانحين تتسم بالمرونة، والبعد عن الشكليات الإجرائية المفرطة، وسرعة البت في القضايا، والحفاظ على شخصية الحدث الجانح، وتستهدف، بالدرجة الأولى، تحقيق غرض المشرّع بإصلاح الحدث الجانح.

وقد أقرّ هذا القانون أن توجد شُرَط للأحداث في كل محافظة تتولى النظر في كل ما من شأنه حماية الأحداث، وأن يكلف أحد ممثلي النيابة العامة، في المراكز التي يوجد فيها أكثر من ممثل واحد لها، العمل بقضايا الأحداث إضافة إلى أعماله الأخرى وألاّ تخضع الأحداث للأصول المتعلقة بالجرائم المشهودة أو المتعلقة بإقامة الدعوى مباشرة أمام المحكمة وذلك باستثناء الجنح المعاقب عليها بالغرامة أو بعقوبة الحبس مدة لا تتجاوز السنة أو بالعقوبتين.

وفي حال التحقيق الابتدائي يكلف أحد قضاة التحقيق، في المراكز التي يوجد فيها أكثر

من قاض واحد، النظر في القضايا المتعلقة بالأحداث إضافة إلى أعماله الأخرى. وأوجب القانون التحقيق في الجنح المعاقب عليها قانوناً بالحبس أكثر من سنة إضافة إلى وجوبه في الجنايات إطلاقاً. وأوجب كذلك تعيين محام للحدث الجانح في الجنايات والجنح. وقضى بعدم توقيف الحدث إلا في مراكز الملاحظة التي أنشأتها وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل أو اعترفت بها، أو في محل توقيف خاص عند عدم وجود مثل هذه المراكز، وبعدم لزوم مرور القضية، بعد التحقيق، على قاضي الإحالة وإن كانت الجريمة المنسوبة إلى الحدث من نوع الجناية.

أما فيما يتعلق بمحاكمة الحدث فإن مهمة محكمة الأحداث لا تنحصر، كسائر المحاكم الجزائية، في إدانة المجرمين وتبرئة الأبرياء، بل تتركز في كونها مؤسسة اجتماعية غايتها الرئيسة حماية الأحداث الجانحين وتقويم اعوجاجهم ودعم ائتلافهم مع المجتمع وفي سبيل تحقيق هذه الغاية خص المشرع إجراءات المحاكمة أمام قضاء الأحداث بقواعد خاصة تختلف اختلافاً جوهرياً عن الإجراءات التي تتبع في محاكمة المتهمين من غير الأحداث، وهي تتجلى فيما يلي.

سرية المحاكمة: القاعدة عند محاكمة الراشدين هي وجوب إجراء المحاكمة بصورة علنية وإلا تعد باطلة ما لم تقرر المحكمة إجراءها سراً بداعي المحافظة على النظام العام أو الأخلاق العامة، والعلة في تقرير العلانية عدها المشرع من الضمانات المقررة لحسن سير العدالة الجزائية ولحرية المتهم في الدفاع عن نفسه، ولكن ضمانة علانية المحاكمة هذه قد تنقلب وبالاً على الحدث وعلى ذويه، فقد تسيء إلى الحدث وتعرض مستقبله للخطر لأن القانون يوجب اللجوء إلى فحص شخصيته جسدياً ونفسياً، والوقوف على جميع المعلومات المتعلقة بأحوال ذويه المادية والاجتماعية وبأخلاقه، وبدرجة ذكائه، وبالبيئة والمدرسة اللتين نشأ فيهما، وبحالته الصحية، وبأفعاله السابقة. لكل هذا قرر قانون الأحداث الجانحين وجوب إجراء محاكمة الأحداث سراً بحضور الحدث ووليه أو وكيله أو الشخص المسلم إليه والمدعي الشخصي ووكيله ومندوب مكتب الخدمة الاجتماعية أو مركز الملاحظة، ومراقب السلوك، فضلاً عن ممثل النيابة وكاتب المحكمة. وقد ذهب القانون إلى أكثر من ذلك حين أعطى المحكمة سلطة إخراج الحدث من الجلسة بعد استجوابه إذا وجدت ضرورة لذلك.

وفضلاً عن ذلك فقد حظر المشرّع أيضاً نشر صورة المدعى عليه الحدث ونشر وقائع المحاكمة أو ملخصها أو خلاصة الحكم في الكتب والصحافة والسينما وبأي طريقة كانت مالم تسمح المحكمة بذلك، وكل مخالفة لهذه الأحكام تؤدي إلى مساءلة المخالف جزائياً عملاً بالمادة ٤١٠ من قانون العقوبات.

بحث حالة الحدث: خلافاً لقانون أصول المحاكمات الجزائية الذي لم ينص إجراء البحث السابق على الحكم في قضايا الراشدين، فإن قانون الأحداث الجانحين قد أوجبه في القضايا الخاصة بالأحداث ولاسيما إذا كانت الجريمة من نوع الجناية، فألزم هذا القانون محكمة الأحداث أن تحصل بوساطة مكتب الخدمة الاجتماعية أو مراقب السلوك أو بوساطة مركز الملاحظة عند عدم وجود المكتب أو بطريق التحقيق العادي الذي تجريه مباشرة أو عن طريق شُرَط الأحداث، أن تحصل على جميع المعلومات الممكن الحصول عليها والمتعلقة بأحوال ذوي الحدث المادية والاجتماعية وبأخلاقه وبدرجة ذكائه وبالبيئة والمدرسة اللتين نشأ فيهما وبحالته الصحية وبأفعاله السابقة وبالتدابير الناجعة في إصلاحه.

إصدار الأحكام والطعن فيها: بعد انتهاء المحاكمة تصدر محكمة الأحداث حكمها في جلسة علنية. وخلافاً للقواعد العامة فإن أحكام محاكم الأحداث تصدر بالدرجة الأخيرة فلا تقبل إلا الطعن بالنقض من دون الاستئناف، ويجوز لها أن تصدر أحكاماً معجلة التنفيذ إذا اقتضت مصلحة الحدث ذلك.

إعادة النظر وقوة القضية المقضية: خرج قانون الأحداث الجانحين عن مبدأ عدم جواز المس بالحكم بعد صدوره حين أجاز لمحكمة الأحداث إعادة النظر في التدابير الإصلاحية المفروضة على الحدث تبديلاً أو تعديلاً. وعلة الخروج عن القواعد العامة تكمن في أن الغرض النهائي لهذا القانون هو إصلاح الحدث وتقويمه، ويجب الوصول إلى هذا الهدف بأية وسيلة كانت ومن دون التمسك بشكليات معينة. فإن اتضح للقاضي، وهو يتابع الحدث في أثناء تنفيذه للتدبير، أن هذا التدبير غير ملائم لحالته في نوعه أو من حيث مدته، يمكنه تبديله بآخر أو تعديل مدته أو نظامه، كما هو الأمر في حال المريض حين يقرر طبيبه ضرورة تغيير الدواء على أثر تشخيص جديد له، فمن غير المعقول بعد أن ظهر ضرر العلاج الأول الاستمرار فيه لمجرد شكليات معينة. ويلاحظ على هذا الأساس أنه إذا كانت قوة القضية المقضية إنما تصيب الأحكام الجزائية العادية بمجملها، فإنها في قضايا الأحداث لاتصيب الحكم إلا في الجزء المتعلق بماديات الوقائع الإجرامية وإسنادها، أما الجزء الخاص بالتدبير المفروض على الحدث فلا تمسه هذه القوة، وكل ما يشترط على محكمة الأحداث لكي تعيد النظر في التدبير الإصلاحي المفروض على الحدث مرور ستة أشهر على الأقل على البدء بتنفيذه.

حسن جوخدار

الموضوعات ذات الصلة:

التدابير الإصلاحية ـ الجريمة ـ النفسية (الأضطرابات ـ).

مراجع للاستزادة:

ـ حسن جوخدار، قانون الأحداث (المطبعة الجديدة، دمشق ١٩٨٠ / ١٩٨١).

ـ محمد الفاضل، إصلاح الأحداث الجانحين، مجلة القانون (السنة السادسة، العددان ٥ و٦، دمشق).

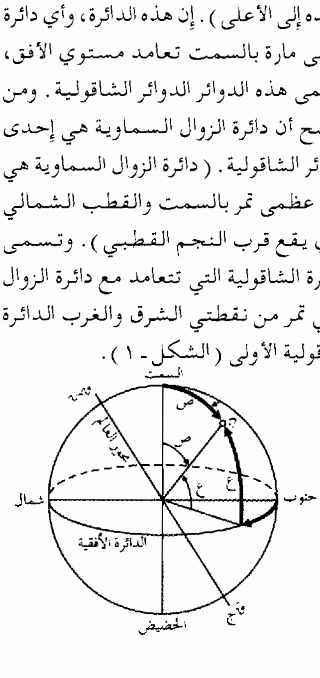
■ الإحداثيات الجغرافية ◄ الخرائط (علم ـ)

■ الإحداثيات الفلكية

يطلق اسم الإحداثيات الفلكية astronomical coordinates على كل مجموعة من الأعداد تحدد موضع جرم سماوي في الفضاء، أو موضع نقطة من هذا الجرم. وعلى سبيل المثال، يمثِّل الطول والعرض الجغرافيان لمدينة إحداثيين فلكيين يسميان الإحداثيين الجغرافيين، وهما يمكّنان من تحديد موقع هذه المدينة على الكرة الأرضية. وثمة عدة أنظمة للإحداثيات الفلكية يحوي كل منها مستوياً يسمّى المستوي الأساسي للنظام. ويختلف بعض الأنظمة عن بعضها الآخر باختلاف مستوياتها الأساسية ومبادئ العد في هذه المستويات. ففي بعض المسائل الفلكية يسهل استخدام نظام إحداثي معين، في حين أن مسائل أخرى تتطلب استعمال نظام إحداثي آخر. ولما كانت الأرصاد تعطي فقط الاتجاه الذي يُرصد به جرم سماوي، فإن موقع هذا الجرم على القبة السماوية، أو موقع نقطة على الكرة السماوية، يتحدد تماماً بإحداثيين اثنين.

أنظمة الإحداثيات الفلكية المختلفة

الإحداثيات الأفقية: إنَّ المستوي الأساسي في هذا النظام هو مستوي الأفق: لتحديد موقع نجم ن على القبة السماوية، تُرسم دائرة عظمى مارة بهذا النجم والسمت (السمت هو النقطة التي يقطع فيها الشاقول القبة السماوية عند تمديده إلى الأعلى). إن هذه الدائرة، وأي دائرة عظمى مارة بالسمت تعامد مستوي الأفق، وتسمى هذه الدوائر الدوائر الشاقولية. ومن الواضح أن دائرة الزوال السماوية هي إحدى الدوائر الشاقولية. (دائرة الزوال السماوية هي دائرة عظمى تمر بالسمت والقطب الشمالي الذي يقع قرب النجم القطبي). وتسمى الدائرة الشاقولية التي تتعامد مع دائرة الزوال والتي تمر من نقطتي الشرق والغرب الدائرة الشاقولية الأولى (الشكل - ١).

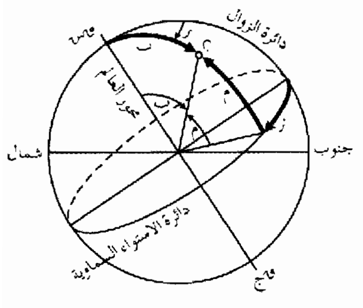


(الشكل ١) الإحداثيات الأفقية

يتحدد موقع جرم سماوي بإحداثيه الأفقيين: الارتفاع والزاوية السمتية. أما ارتفاع الجرم ع فهو البعد الزاوي لهذا الجرم عن الأفق الذي يُحسب على الدائرة الشاقولية للجرم. وغالباً مايستعمل البعد السمتي ص عوضاً عن الارتفاع، وهو البعد الزاوي للجرم عن السمت. ويتغير البعد السمتي بين ٠ْ و ١٨٠ْ، في حين يتغير الارتفاع بين ٠ْ و ±٩٠ْ . ومن الواضح أن ع+ ص= ٩٠ْ. ولكل النقاط الواقعة على دائرة صغرى موازية للأفق ارتفاع واحد. أما الزاوية السمتية فهي الزاوية المحصورة بين دائرة الزوال والدائرة الشاقولية للجرم. ومن الأسهل حسابها بقوس الدائرة الأفقية المحصورة بين نقطة الجنوب ونقطة تقاطع الدائرة الشاقولية للجرم مع الدائرة الأفقية. وتُحسب الزاوية السمتية في علم الفلك من نقطة الجنوب باتجاه الغرب (وفق اتجاه دوران عقارب الساعة) من ٠ْ إلى ٣٦٠ْ؛ ولجميع النقاط الواقعة على دائرة شاقولية واحدة زاوية سمتية واحدة.

ولما كانت الكرة السماوية تقوم ظاهرياً بدورة كاملة يومياً، فإن كلاً من الإحداثيين الأفقيين لجرم سماوي مقدار متغير.

النظام الأول من الإحداثيات الاستوائية: إن المستوي الأساسي هنا هو مستوي الاستواء السماوي الذي يتعامد مع محور العالم، وهذا المحور هو الذي تدور حوله الكرة السماوية دورتها اليومية الظاهرية. وتسمى الدائرة العظمى المارة بالنجم والقطبين (وهما النقطتان اللتان يتقاطع فيهما محور العالم بالكرة السماوية) دائرة الميل أو الدائرة الساعيَّة، ومن الواضح أنها تتعامد مع خط الاستواء السماوي، وهو الدائرة التي يتقاطع وفقها مستوي الاستواء السماوي مع الكرة السماوية. ويتحدد موقع الجرم السماوي بالميل والزاوية الساعية. أما الميل م للجرم ن فهو بعده الزاوي عن خط الاستواء السماوي مقيساً على دائرة الميل. ويتغير الميل بين ٠ْ و ±٩٠ْ، ويعدُّ موجباً شمال خط الاستواء السماوي وسالباً جنوبه. ومن الجدير بالذكر أن للشمس في الربيع والصيف ميلاً موجباً، في حين أن ميلها في الخريف والشتاء سالب. ويستعمل أحياناً عوضاً عن الميل م البعد القطبي ب، وهو البعد الزاوي للجرم عن القطب الشمالي ق ش. ويحسب البعد القطبي بدءاً من القطب الشمالي ق ش ويتغير من ٠ْ حتى ١٨٠ْ، ومن الواضح أن م+ ب= ٩٠ْ (الشكل ٢).



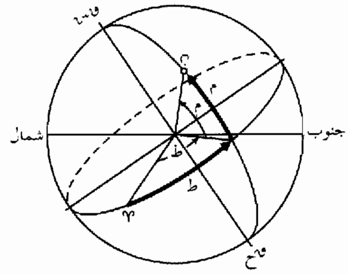
(الشكل ٢) النظام الأول من الإحداثيات الاستوائية

وأما الزاوية الساعية ز فهي الزاوية المحصورة بين دائرة الزوال ودائرة ميل النجم. ومن الممكن قياس هذه الزاوية بقوس دائرة الاستواء السماوية المحصورة بين مستوي دائرة الزوال ومستوي دائرة ميل الجرم. وتقاس الزاوية الساعية عادة من القسم الجنوبي من دائرة الزوال باتجاه الغرب من ٠ْ إلى ٣٦٠ْ. وفي حال وقوع النجم شرق دائرة الزوال فإن زاويته الساعية تكون أكبر من ١٨٠ْ.

ونتيجة الدوران اليومي، فإن الزاوية الساعية ز هي المتغير الوحيد، فهي تتزايد بانتظام في يوم كامل من ٠ْ إلى ٣٦٠ْ. لذا كان من السهل التعبير عن الزوايا الساعية بالميقاتيات الزمنية من صفر إلى ٢٤ ساعة.

النظام الثاني من الإحداثيات الاستوائية: من المفيد الحصول على نظام إحداثي لا تتغير فيه الإحداثيات نتيجة للدورة اليومية للكرة السماوية. ولهذا الغرض يغير النظام السابق بحيث تشارك نقطة البدء التي يحسب منها الإحداثي الثاني (أي الزاوية الساعية) في الدورة اليومية للكرة السماوية. ولما كان من السهل حساب هذا الإحداثي بقوس من دائرة الاستواء السماوية، وجب اعتماد أي نقطة من هذه الدائرة مبدأ للحساب. إن أنسب نقطة يمكن اختيارها هي نقطة الاعتدال الربيعي ♈، وهي تلك النقطة من دائرة الاستواء السماوية التي تجتازها الشمس في ٢١ آذار منتقلة من نصف الكرة السماوية الجنوبي إلى النصف الشمالي. وتشارك هذه النقطة في الدورة اليومية مثل جميع نقاط الدائرة الاستوائية الأخرى (الشكل ٣).

إن الإحداثي الأول في هذا النظام هو الميل م كما في النظام السابق. والإحداثي الثاني هو المطلع المستقيم الذي يُرمز له بـ ط، وهو الزاوية المحصورة بين الدائرة الساعية للنجم ن والدائرة



(الشكل ٣) النظام الثاني من الإحداثيات الاستوائية

الساعية لنقطة الاعتدال الربيعي. وكما هي الحال في الزاوية الساعية، فيمكن قياس المطلع المستقيم بقوس دائرة الاستواء السماوية بدءاً من نقطة الاعتدال الربيعي حتى نقطة تقاطع الدائرة الساعية للنجم مع دائرة الاستواء السماوية.

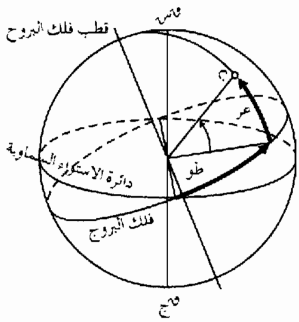
يقاس المطلع المستقيم من نقطة الاعتدال الربيعي ♈ بعكس اتجاه دوران عقارب الساعة، أي باتجاه الشرق، من ٠° إلى ٣٦٠°، أو باستخدام الميقاتية الزمنية من صفر إلى ٢٤ ساعة.

نظام الإحداثيات البُروجية: لقد لوحظ منذ القدم أن تنقل القمر والسيارات بين النجوم يجري بحيث تظل قريبة من فلك البروج (وهو المدار الظاهري للشمس بين النجوم الذي يميل على مستوي الاستواء بزاوية قدرها ٢٣,٥° تقريباً). ولهذا السبب فإن فلك البروج يمثل دائرة ملائمة تماماً لتحديد مواقع هذه الأجرام السماوية. وهكذا برز نظام الإحداثيات البروجية ecliptic، وهو تاريخياً أقدم من نظام الإحداثيات الاستوائية.

تسمى النقطتان الواقعتان على الكرة السماوية اللتان تقعان إلى الشمال والجنوب من فلك البروج وتبعدان عنه زاويّاً ٩٠° قطبي فلك البروج. كما تسمى الدوائر العظمى المارة بهذين القطبين، ومن ثم المتعامدة مع فلك البروج دوائر العرض (الشكل ٤).

تتحدد مواقع الأجرام السماوية في نظام الإحداثيات هذا بالعرض والطول البروجيين (أو الفلكيين). أما العرض عر للنجم ن فهو بعده الزاوي عن مستوي فلك البروج محسوباً على دائرة العرض؛ وهو يتغير من ٠° إلى ±٩٠°، مع العلم بأن العرض يُعدُّ موجباً عند الاتجاه إلى القطب الشمالي، وسالباً عند الاتجاه إلى القطب الجنوبي. وأما الطول طو للنجم ن فيقاس بالزاوية المحصورة بين دائرة العرض للنجم ودائرة العرض المارة بنقطة الاعتدال الربيعي. ويمكن قياس الطول بقوس فلك البروج بدءاً من نقطة الاعتدال الربيعي حتى دائرة عرض النجم بعكس اتجاه دوران عقارب الساعة (وذلك بالنسبة للراصد في نصف الكرة الشمالي)، وهي تتغير بتغير النجوم من ٠° إلى ٣٦٠°.

وفيما يلي تعريف بنظام جديد من الإحداثيات يُسمى نظام الإحداثيات المجرِّيَّة، ولهذا الغرض لابد من تعرف مجرتنا التي تسمى «درب التبانة»: يمكن للمرء أن يشاهد في ليلة



(الشكل ٤) نظام الإحداثيات البروجية

صافية غير مقمرة شريطاً مضيئاً يمتد عبر القبة السماوية من الأفق إلى الأفق. ويتابع هذا الشريط طريقه تحت الأفق إلى نصف الكرة السماوية الجنوبي بحيث يظل في جوار دائرة سماوية عظمى. يتسع هذا الشريط في بعض المناطق ويضيق في أخرى، كما أن لمعانه غيرمنتظم. وقد وُجد بالاستعانة بالراصدات (التلسكوبات) أنه مؤلف من ملايين النجوم الباهتة التي تكوّن مجموعات نجمية منفصلة، ومن مجموعات سديمية متألقة وباهتة. وقد توصل العلماء إلى أن درب التبانة مؤلف من مجموعات نجمية ليست موزعة عشوائياً، بل إن هذه المجموعات أجزاء من نظام نجومي ضخم، وأن شمسنا تنتمي إلى هذا النظام وتقع قرب المستوي المتوسط له الذي، كما ذُكر، يتقاطع مع الكرة السماوية وفق دائرة عظمى. يسمى هذا المستوي المستوي المجرِّيّ، وتسمى الدائرة العظمى دائرة الاستواء المجرية.

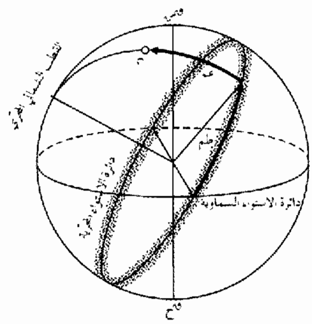
نظام الإحداثيات المجرِّيَّة: يُعرّف هذا النظام كما عُرِّف نظام الإحداثيات البروجية شرط أن يُستعاض عن مستوي فلك البروج بالمستوي المجرّي. وعندئذ يعرف بالطريقة نفسها الطول المجري طم والعرض المجرّي عم (الشكل ٥). وقد وُجد أن القطب الشمالي لدائرة الاستواء المجرية موجود في نقطة إحداثياها في النظام الثاني من الإحداثيات الاستوائية هما ط= ١٩٠° (أي ١٢ ساعة و٤٠ دقيقة)، م= +٢٨°، وتقع إحدى نقطتي تقاطع دائرة الاستواء المجرية مع فلك البروج في كوكبة العقاب Eagle التي يمثل النسر الطائر Altair أشد نجومها تألقاً.

والمطلع المستقيم لهذه النقطة ١٨ ساعة و٤٠ دقيقة. أما مقدار الزاوية بين دائرة الاستواء المجرية ومستوي الاستواء السماوي فهو ٩٠° – ٢٨°= ٦٢°.

نظام الإحداثيات الأرضية أو الجغرافية: تُحدَّد النقطة على سطح الكرة الأرضية بعرضها وطولها الجغرافيين.

أما العرض الجغرافي لنقطة ن، أو اختصاراً العرض ن، فهو الزاوية التي يصنعها الشاقول في تلك النقطة مع مستوي الاستواء الأرضي، وهي تساوي أيضاً ارتفاع القطب عن أفق تلك النقطة.

وأما طول النقطة ن فيتحدد بالزاوية الساعية بين مستوي زوال هذه النقطة ومستوي الزوال



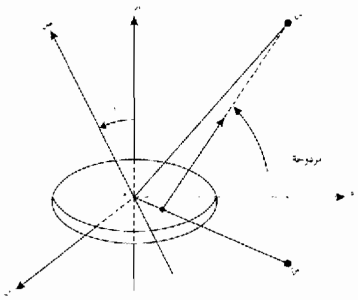
(الشكل ٥) نظام الإحداثيات المجرية

المار من غرينويتش في إنكلترة. وفي حين تقاس الزوايا عادة بالدرجات، فإن الزوايا الساعية تقاس بالساعات والدقائق والثواني. فإذا كانت الزاوية بين مستوي زوال غرينويتش ومستوي زوال نقطة ٧٥° مثلاً، فإن الزاوية الساعية لهذه النقطة تساوي ٥ ساعات.

التغيرات في الإحداثيات الفلكية للنجوم

إن ميل نجم ومطلعه المستقيم مقداران ليسا ثابتين تماماً، وفي الحقيقة فإن محور دوران الأرض ليس ثابتاً على الإطلاق في الفضاء. ولما كانت قوى الجذب لأقرب جرمين سماويين من الأرض (وهما القمر ،الشمس) غير واقعة في مستوي الاستواء الأرضي الإهليلجي س م ع (الشكل٦)، فإنه تنشأ مزدوجة تُحدِث أرجحة

في الأرض بحيث يسعى مستوي استوائها إلى المرور بالجرم الذي يحدث الاضطراب.

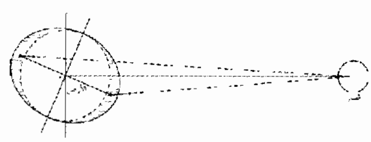


(الشكل ٦) التغييرات في الإحداثيات الفلكية للنجوم

وينشأ عن التسارع الحاصل دوران لمحور دوران الأرض م ص في الفضاء حول النجم القطبي للمستوي الذي يحوي النجم المحدث للاضطراب. وهذا الدوران ليس بسيطاً، إذ يرسم محور دوران الأرض منحنياً متموجاً على دائرة صغيرة من الكرة السماوية، ويترتب على ذلك أمران:

ـ حدوث دوران مستمر (باتجاه تقهقري) للمحور م س حول النقطة م في المستوي س م ع، وتسمى هذه الحركة المنتظمة مبادرة precession، وهي تعبير عن حقيقة تحرك الجرمين المحدثين للاضطراب في مستويين مختلفين (الشكل ٧).

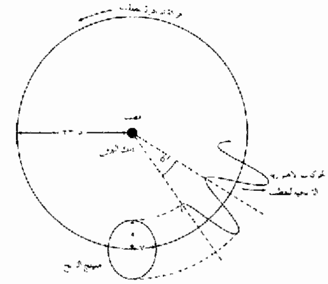
ـ حدوث حركة معقدة تسمى الحركة الترنُّحية nutational motion تنشأ عن تغيرات



(الشكل ٧) تفسير المبادرة

في أوضاع محور دوران الأرض حول موضع متوسط. وهي تنعكس أولاً على سرعة دوران المحور م س الذي يكف عن الحركة المنتظمة لانضمام عدد من الحركات الدورية إلى حركته يترتب عليها مايسمى ترنحاً في الطول. كذلك فإن الحركة الترنحية تنعكس على ميل دائرة البروج الذي يتغير بصورة دورية، وتسمى هذه التغيرات ترنحاً في الميل (الشكل ٨).

وتسمى مواقع النجوم المحسوبة كدوال (توابع) لحركة المبادرة وحدها مواقع متوسطة. أما إذا أُدخلت في الحسبان التصحيحات



(الشكل ٨) حركة القطب نتيجة المبادرة والترنح

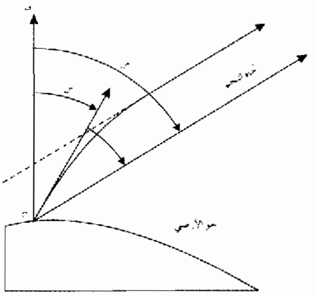
الناجمة عن الحركة الترنحية، فعندئذ تنتج المواقع الحقيقية للنجوم. وتحدَّد الأزياج (الجداول الفلكية) للنجوم بالمواقع المتوسطة لها (المطلع المستقيم والميل) في أول يوم من السنة، أو في أول يوم من سنة معتمدة. وإذا رُغب في مقابلة هذه المواقع بنتائج الأرصاد فمن الضروري أولاً حساب التصحيح المتعلق بالمبادرة، وذلك بأن يؤخذ في الحسبان التاريخ الدقيق للرصد، ثم حساب التصحيحات الناتجة عن الترنح.

وفيما يخصّ عدداً محدوداً من النجوم المسماة بالنجوم الأساسية، فإن هذه الحسابات قد تم إجراؤها، وهي تُعطى بفواصل زمنية قدرها عشرة أيام، لذا لا يتطلب الأمر إلا القيام بعمليات استكمال interpolation.

التصحيحات التي يجب إجراؤها على الأرصاد الفلكية

من الواجب إخضاع نتائج الأرصاد التي أجريت للنجوم إلى التصحيحات التالية:

١ ـ تصحيح الانكسار الجوي. وفي الحقيقة، فإن وجود الغلاف الجوي المحيط بالأرض يغير من مقدار البعد السمتي س. والقسم الرئيسي من تصحيح الانكسار، وهو مقدار سالب، يساوي مـ= ٦٠ً ظل س، حيث يُعبَّر عن مـ بالثواني. وعند الحساب الدقيق لهذا التصحيح، فإنه يجب أن يؤخذ في الحسبان درجة حرارة الجو وضغطه في تلك اللحظة التي يجري فيها الرصد ولئِنْ كان تصحيح الانكسار ليس سوى دقيقة واحدة عندما يكون البعد السمتي ٤٥ْ، فإنه يساوي ٣٦ً ٣٦َ عندما يكون هذا البعد ٩٠ْ. ومن الواضح أن عدم دقة النتيجة تزيد مع تزايد قيم مـ. ولإجراء قياسات دقيقة، فمن الضروري الامتناع عن رصد الأجرام القريبة من الأفق (الشكل ٩).



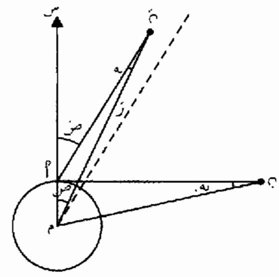
(الشكل ٩) تصحيح الانكسار الجوي

٢ ـ تصحيح زيغ الضوء aberration. ينشأ التصحيح عن أن نسبة سرعة انتقال الراصد على فلك الأرض (٣٠كم / ثا تقريباً) إلى سرعة الضوء (٣٠٠,٠٠٠كم / ثا تقريباً) لايمكن إهمالها، لذا فإن ثابت الزيغ (وهو الزاوية يه التي تتحدد بالمساواة ظل يه = $\frac{٣٠}{٣٠٠٠٠٠}$) لايمكن إهماله (وهو يساوي $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ راديان # ٢٠ ″). ونتيجة للزيغ، فإن الجرم يبدو وكأنه يتحرك في اتجاه سرعة الراصد الأرضي. والتصحيح الذي يطرأ على الطول البروجي هو Δ=٢,٤٩٦ً تجب(طو ـ نْ) قا عر

وهذا يعدل موقع الجرم في اتجاه سرعة الراصد. وترمز طو، عر في هذا الدستور إلى الطول البروجي والعرض البروجي للجرم على التوالي، أما نْ فيرمز إلى الطول البروجي للأرض.

٣ ـ تصحيح اختلاف المنظر parallax. تُعطى إحداثيات جرم سماوي في الجداول الفلكيةبافتراض أن مبدأها ينطبق على مركز الأرض. وبما أن الرصد يجري من نقطة على سطح الأرض وليس من مركزها، فمن الضروري إجراء تعديلات على الإحداثيات المقيسة. فمثلاً إن البعد السمتي المقيس س م^ن أكبر من البعد السمتي الحقيقي س م^ن بالزاوية يه = أ ن^م وهذه الزاوية هي اختلاف منظر الجرم ن.

إذا رمز للبعد السمتي الحقيقي بـ ص وللبعد السمتي المرصود بـ صَ، فإنه ينتج بالنظر



(الشكل ١٠) تصحيح اختلاف المنظر

إلى المثلث ا م ن (الشكل ١٠) أن:

يه = ص - صَ، حب يه / حب ص = ر / رَ حيث تكون ر نصف قطر الأرض، رَ بعد الجرم ن عن مركز الأرض م.

لذا فإن: حب يه = ر / رَ حب ص = حب يه حب ص

حيث تكون «يه» اختلاف منظر الجرم عندما يكون في أفق النقطة أ. ولما كان «يه، به» مقدارين صغيرين عادة، فيمكن أن يستعاض عن حب يه، حب به بالزاويتين يه، به، وتنتج الصيغة: ص= صَ-به حب ص التي تُبين تصحيح البعد السمتي المقيس ص لجرم سماوي اختلاف منظره الأفقي «به».

خضر الأحمد

الموضوعات ذات الصلة:

الفلك (علم-).

- R. A. ORITI & W. B. STARBIRD, Introduction to Astronomy, (Glence Press, London 1977).

■ الأحساء (إقليم-)

عرف الأحساء قديماً باسم البحرين، ويشمل المنطقة السهلية الساحلية المطلة على الخليج العربي [ر] الممتدة بين البصرة شمالاً ومشارف عُمان جنوباً. وعرف باسم هَجر حتى عام ٣١٧ هـ حين بدأ يعرف باسم الأحساء ليشمل الواحة إضافة إلى السهول المطلة على الخليج العربي، وتقلصت رقعة الأحساء لتقتصر على الواحة ومساحات من البادية حولها، وأصبح إقليم الأحساء حديثاً إحدى إمارات المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية تمتد بين دائرتي عرض ٢٥ درجة و ٢٥ دقيقة، و ٢٥ درجة و ٤٥ دقيقة شمالاً، ويشغل مساحة ٩٠٣٠ كم٢ وتُعدّ واحاته (مساحتها ٣٠٠٠ كم٢) أكبر مراكز الثقل السكاني والزراعي في هذه المنطقة، وعاصمتها مدينة الهفوف.

تظهر في الإقليم تكوينات جيولوجية تعود إلى الحقبين الجيولوجيين الثالث والرابع، وأراضيه منبسطة مستوية بوجه عام، لا يزيد متوسط ارتفاعها على ١٥٥ م، تتخلّلها مجموعة من التلال أعلاها جبل قارة الذي يرتفع ٢٠٧ م عن سطح البحر، ويشتهر بوجود الكهوف فيه، ومساحات من القيعان والخَبْرات (مفردها خَبْرَة) والكثبان الرملية، يبلغ ارتفاع بعضها ١٢ م وتهدد بالزحف على الواحة.

مناخ الأحساء قاري، إذ تراوح فيه درجات الحرارة بين ١,٥ و ٤٤ْ ومعظم رياحه شمالية تثير عواصف رملية تنشأ عنها كثبان رملية تزحف على المساحات الزراعية، ورطوبة الهواء عالية نسبياً وأمطاره فجائية قلما يزيد متوسطها السنوي على ١٠٠ مم، لذا قلّت الأمطار في الأحساء وزادت أهمية المياه الجوفية.

وأهم تكوينات المياه الجوفية في الأحساء تكوينات الدمام والنيوجين (الثلاثي الحديث) والتكوينات الرباعية، وهي أهم الطبقات الحاملة للمياه هناك. ويتألف الأحساء من واحتين رئيسيتين هما الواحة الشرقية والواحة الشمالية، وهي مجموعة من الواحات تتخللها مستنقعات، وهناك ٩٨٩ مورداً مائياً جوفياً و ٨٨٧ بئراً ارتوازية.

وتربة الأحساء فيضية لحقية رملية، ترتفع فيها نسبة الأملاح في الوسط وتقل في الأطراف، ونصف مساحتها قابل للزراعة الاقتصادية.

تضم إمارة إقليم الأحساء إدارياً، إلى جانب مدينتي الهفوف والمبرز، ٣٦ قرية وتجمعاً عمرانياً، واشتهر منها في الماضي موقع كان له شأن عظيم يسمى جواثا وكان بمنزلة عاصمة للإقليم، وفي هذا الموقع أقيم ثالث مسجد بني في الإسلام هو مسجد جواثا المندثر الذي لا تزال رسومه باقية حتى اليوم.

تعرض الإقليم طوال تاريخه القديم إلى تغيرات ديموغرافية مختلفة سببتها الحروب القبلية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين ونجم عنها تناقص عدد السكان، وكان الإسلام أحد العوامل التي نجم عنها تضخم سكاني استمر قرنين تقريباً، تلاه نقص سكاني بعد انتقال الحكومة الإسلامية من المدينة المنورة إلى دمشق.

وفي أوائل القرن الثامن عشر الميلادي، نما عدد سكان الواحات ولاسيما في مدينة الهفوف، إلا أن الواحات تعرضت إلى سنوات من الجفاف بلغت ٣٥ سنة على مدى ٢٤٣ سنة. وإبان الحكم العثماني أخذ سكان الأحساء بالتزايد مع بعض التقلبات الطارئة. وفي النصف الثاني من القرن العشرين بلغ عدد سكان الأحساء نحو نصف مليون نسمة وهو عدد يزيد على ٤٠ ٪ من جملة سكان المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية، وقد استقر أكثر من ٢٠ ٪ من السكان في مدينتي الهفوف والمبرز، وحولهما. وتتميز مدينة الهفوف بانخفاض نسبة الذكور فيها إذ تبلغ ٤٨ ٪ بسبب هجرة الرجال، ونسبة الفئة العاملة في الإقليم قليلة العدد نسبياً، ويبلغ متوسط عدد أفراد الأسرة فيه نحو سبعة.

يعاني الإقليم صحياً من انتشار الأمراض في البيئة الريفية نتيجة لاختلال توازن النظام البيئي المحلي، الناتج عن زيادة إنتاج النفايات للأنشطة الزراعية والصناعية، ويمثل ذلك إحدى المشكلات الجوهرية للتنمية الريفية في الإقليم. وتتوافر في مدينتي المبرز والهفوف الخدمات والمشافي والمراكز الصحية بعد تنفيذ خطط التنمية، كما أن الإقليم يعيش نهضة تعليمية ملموسة حيث توجد فيه المدارس والمعاهد، وقد أنشئت فيه جامعة الملك فيصل عام ١٩٧٥.

كان الأحساء منذ القديم مهداً لحضارة زراعية واسعة، ورخاء عريض عم أرجاءه بسبب ما توافر فيه من عيون الماء. اشتهر بنخيله وتموره حتى غدت مثلاً يضرب لمن يأتي بشيء ما إلى مكان حافل به، فقيل «كحامل التمر إلى هَجَر».

تشكل الزراعة في إقليم الأحساء المصدر الرئيسي للدخل والإنتاج، وهي تشتهر ببساتين النخيل ثم بأشجار الفاكهة والكروم والحمضيات والتين والرمان، وفيها محاصيل حقلية أخرى كالأرز والبرسيم والبصل والخضر، وأشهر هذه

المحاصيل التمور، وقد بلغ مجموع أشجارها المثمرة أكثر من مليون شجرة ونصف المليون، وقد أقيم فيها معمل لحفظ التمور وتصديرها، ويلي التمور في الأهمية الحبوب. وبدأت زراعة الخضر تنتشر على نطاق واسع في الأحساء بسبب وجود أسواق قريبة لتصريفها في مدن المنطقة الشرقية.

تعاني الزراعة في الأحساء من مشكلات طبيعية واجتماعية، أهمها: زحف الرمال، وارتفاع الحرارة، وملوحة التربة الزائدة، وطرائق الزراعة التقليدية، ونظم الري والصرف القديمة، وهجرة الكثير من الزُّرّاع من الواحات وتحولهم من الزراعة إلى مجال صناعة النفط. واتخذت حديثاً تدابير حازمة، لمواجهة المشكلات، ومن بين هذه التدابير تنفيذ مشروع الري والصرف في الأحساء ومشروع تثبيت الكثبان الرملية التي تهدد الواحات.

يُعنى إقليم الأحساء بتربية الحيوانات الأليفة، وفيه بعض الثروات المعدنية أهمها الجص في سبخة المريقب شرقي الهفوف ويستغل بطرائق بدائية، ومنذ عهد قريب كانت الصناعات الريفية المعتمدة على منتجات النخيل من غير التمور تمثل أحد عناصر التراث الثقافي ومصدراً مهماً من مصادر الدخل بواحة الأحساء، ولقد تضاءل دورها في الآونة الأخيرة.

ولقد نشطت حركة الصناعة في الإقليم، وأصبح عدد المؤسسات الصناعية في الهفوف والمبرز يربو على ٨٠٠ مؤسسة، كما زادت الطاقة الكهربائية المولدة.

وهناك معمل الإسمنت في الهفوف، إضافة إلى عدد من الصناعات الأخرى كالصناعات الكيمياوية والغذائية. وتحتل مدن الإقليم مكانة تجارية مهمة، فهي مركز تبادل مهم بين شرقي المملكة العربية السعودية ووسطها.

وتنتشر في الإقليم شبكة من طرق المواصلات وتقطعه سكة حديد الرياض ـ الدمام. وقد نشأت حولها المناطق الزراعية والمواقع البشرية، كما يعبر الإقليم طرق معبدة عديدة. ويستفاد من الثروة السمكية والربيان (القريدس) في مياه السواحل حيث يصاد منها. وميناء الدمام نافذة إقليم الأحساء على الخليج العربي، أما النقل الجوي فيتم عن طريق مطار الهفوف ومطار الظهران، وهما يربطان إقليم الأحساء ببقية أرجاء المملكة العربية السعودية.

رجاء دويدري

الموضوعات ذات الصلة:

الخليج العربي ـ السعودية (المملكة العربية ـ).

مراجع للاستزادة:

ـ أمين محمود عبد الله، واحات الأحساء: دراسة في الخلفية الجغرافية للتنمية (الرياض ١٤٠٦هـ).

ـ عبد الرحمن صادق الشريف، جغرافية المملكة العربية السعودية، ج١ (١٩٨٧).

■ الأَحسائي (أحمد ـ)

(١١٦٦-١٢٤١هـ/ ١٧٥٣-١٨٢٦م)

أحمد بن زين الدين الأحسائي، عالم ديني ورئيس مدرسة «الشيخية» الشيعية في إيران.

ينتمي الأحسائي إلى قبيلة عربية استقرت في منطقة الأحساء، وكانت أسرته حتى الجد الخامس من الشيعة الاثني عشرية.

ولد الأحسائي في بلدة المطيرفي بمنطقة الأحساء في وقت انتشر الجهل فيه وعم منطقته، وقد نبغ بين أقرانه والتفت إلى الدرس عازفاً عن حياة اللهو، وكان ميالاً إلى التأمل في الموت وتقلب الأحوال منذ طفولته، وقد نزح عن مسقط رأسه في سن مبكرة إلى بلاد فارس ومكث في يزد ثم في كرمان، ويظهر أنه عاش بعد ذلك متنقلاً ما بين كربلاء والنجف وقزوين.

نمت شخصية الأحسائي الروحية حول محور ثابت هو حبه الجارف لآل البيت، وكانت الأحلام ذات الطابع الإلهامي من مصادر معرفته الأساسية فقد كان بحسب روايته يرى في المنام النبي والأئمة ويستوحي منهم أفكاره، وكان يرى مناماته أنها إلهامات حقيقية، كما ذكر في ترجمته الذاتية. ويقر بتتلمذه للأئمة من دون سواهم.

ولكن هذا لم يمنع أن يكون له أساتذة في عالم الواقع، فقد درس في بلدته المطيرفي على الشيخ محمد بن محسن الأحسائي.

وحين رحل إلى العراق، وهو في سن العشرين، حضر دروس الشيخ الوحيد البهبهاني الآغا باقر، والسيد الميرزا مهدي الشهرستاني والسيد علي الطباطبائي في كربلاء. أمّا في النجف فقد لازم الشيخ جعفر كاشف الغطاء. وكان الأحسائي شديد الولوع بالمطالعة، فقد شملت ثقافته الكتب الدينية والصوفية والتاريخية والأدبية، وتأثر بالفكر الإسماعيلي والإشراقي، ولم يكتف بمطالعة كتب كبار الفلاسفة بل عمد إلى شرح بعضها مثل شرحه لكتاب الأسفار الأربعة للفيلسوف ملاّ صدر الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ/ ١٦٤١م)، إلا أن الأساس الذي يرتفع عليه بناؤه الفكري إنما يعود إلى فهمه للحديث النبوي وأخبار الأئمة.

انتقل الأحسائي بعد زواجه إلى البحرين، ثم عاود الرحلة إلى العراق وسكن البصرة سنة ١٢١٢هـ وهناك التقى حكيماً أطلعه على مبادىء حكمته، وفيها عبارات مقتضبة مثل: «لاتنظر إلى الحركات انظر إلى المحركات، لاتنظر إلى الأسباب انظر إلى المسببات، إن الحيوانات تسير إلى الله في سلسلة الطول والجمادات تسير إلى الله في سلسلة العرض» ويظهر في هذه الأفكار أنها لا تخلو من تأثيرات إشراقية وصوفية.

وقف الأحسائي موقفاً متميزاً بين التيارين الأساسيين للشيعة في عصره، «الأخباريين» الذين اعتمدوا في تعاليمهم على التقيد بظاهر الأحاديث النبوية وأحاديث الأئمة، و«الأصوليين» الذين أخضعوها للعقل. ويُعثر في تحليل الأحسائي «للرؤيا» على ما يذكّر بابن عربي والسهروردي المقتول، وبأفكارهما بصدد عالم المثال وهو عالم متوسط بين عالم الأرواح والعالم المادي تظهر فيه الصور منسلخة عن أجسامها، كما تظهر الصورة في المرآة.

لقيت بعض الأفكار التي أذاعها الأحسائي بين أتباعه وفي مؤلفاته معارضة شديدة في الأوساط الشيعية ولاسيما الإيرانية، مثل التفريق بين جسدين عند الإنسان، أحدهما عنصري محسوس يفنى بعد الموت، والآخر برزخي. وفي ذلك يقول: «يبقى في القبر مستديراً.. وهو الجسد الأصلي الباقي بعد الموت». وهذا ما دعا علماء قزوين إلى تكفيره.

ذاع صيت الأحسائي في إيران في العقدين الأخيرين من حياته، وبعد جولات وتنقلات عديدة في المدن الإيرانية التف حوله عدد من الأتباع كوّنوا بعد وفاته المدرسة الشيخية نسبة إلى لقبه الشيخ أحمد. وما يزال مركز هذه المدرسة حتى اليوم في مدينة كرمان.

ونتيجة لتطور الأفكار الجديدة في المدرسة «الشيخية» ابتداء من أشهر تلاميذه كاظم رشتي (ت ١٢٥٩ هـ/١٨٤٣م) وللآفاق الجديدة التي أطلقتها هذه المدرسة، فقد ظهرت حركة البابية [ر] ثم البهائية [ر] في إيران، كما انقسمت «الشيخية» نفسها إلى «كشفية» و«رشتية». ولايمكن فهم هذه المدرسة إلا في إطار أوسع للنهضة التي شملت العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، وظهور عدد من المدارس الأخرى مثل الوهابية في الجزيرة العربية والأحمدية في الهند والسنوسية في شمالي إفريقية.

بكري علاء الدين

الموضوعات ذات الصلة:

البابية - البهائية - الشيعة.

مراجع للاستزادة:

- آغا بزرك الطهراني، طبقات أعلام الشيعة (النجف ١٩٥٤).
- HENRI CORBIN, Islam Iranien : Aspects spirituels et philosophique (Paris 1972).

■ الإحصاء (علم -)

الإحصاء Statistics هو مجموعة الطرائق التي تهدف إلى تجميع معطيات رقمية تخص ظاهرة أو ظواهر تتعلق بمجموعة أفراد من مجتمع ما، وتحليل هذه المعطيات وتفسيرها واستخدامها في تفهم حقيقة الظواهر وفي معرفة القوانين التي تخضع لها. وتستعمل عبارة الإحصاء أيضاً للدلالة على مايقدَّم وفق جداول أو بيانات من معلومات رقمية أو وصفية تخص الدولة أو إحدى مؤسساتها أو تتعلق بمشروع ما بغية دراستها واتخاذ القرار الأمثل استناداً إلى تلك المعطيات مع تقدير كمي للمخاطرة.

والإحصاء، بمعنى العدّ والحصر، فكرة قديمة يرجع منشؤها إلى عهد بعيد في تاريخ المدنية الإنسانية، فالحاجة إلى الحصول على معلومات رقمية أو وصفية عن المجتمعات وظروفها المادية وشروط وجودها كانت حاجة ملحّة منذ أن وجدت المجتمعات البشرية المنظمة، وهنالك إحصاءات عند قدماء المصريين والصينيين والإغريق تخص مجتمعاتهم من حيث عدد السكان ومقدار الثروة الزراعية والمعدنية جُمعت للاهتداء بها في تصريف أمور الدولة ورسم سياستها.

ولقد كان العرب والمسلمون من أوائل من استعان بلغة الأرقام في إحصاء مواردهم وحصر غنائمهم وجندهم وأعطياتهم وأسلحتهم، ومعرفة الثروات لتحصيل الزكاة عنها. وكان لهم في الإحصاء اللغوي الباع الأطول فالكندي المتوفى سنة ٢٦٠هـ، يصف في مؤلَّفه «رسالة في استخراج المعمَّى» عملية إحصاء تواتر الحروف في لغة ما، وذلك بأخذ عينة كافية من الكلام المنثور في تلك اللغة، وقد أحصى نصاً مؤلفاً من ٣٦٦٧ حرفاً ثم استعمل تلك النتائج بعد ترتيبها في استنباط نص معمَّى وينبه فيها على أمرٍ ذي بال، وهو أن النص المعمَّى ينبغي أن يكون ذا طول كافٍ يسمح بانطباق القواعد الإحصائية عليه، وهي فكرة رياضية على غاية من الأهمية، هي فكرة قانون الأعداد الكبيرة.

ولعل الكندي هو أول من أجرى ذلك الإحصاء في تاريخ الدراسات الكمية على اللغة، ولا شك في أنه أفاد من إحصائيات حروف القرآن الكريم التي سبقت عصره (وهي تعود إلى القرن الهجري الأول، وينسب بعضها إلى صدر الإسلام).

كما كان للعرب في الإحصاء الاجتماعي أيضاً أثرٌ يجدر ذكره، وهو أن المفكر العربي ابن خلدون ربما كان أول من عالج قضايا السكان معالجة علمية، فبحث في عمران الدول واتساعها وتأخرها، وربط كل ذلك بنمو عدد السكان ونقصانهم.

وقد عرف القرن السابع عشر الميلادي مدرستين للإحصاء، أولاهما المدرسة الألمانية الوصفية، وكان على رأسها هـ. كُنْرِنْغ H. Conring (١٦٠٦-١٦٨١) الذي بدأ بتدريس علم جديد سماه علم شؤون الحكومات Staatkunde يتناول دراسة الدولة وما يتعلق بها من أمور كثيرة كالأرض والسكان والثروة وغيرها، وكان ذلك في عام ١٦٦٠، ولقد كان هذا العلم وصفياً لايُعنى بالتعبير الرقمي كثيراً، وقد تبع كنْرِنغ في هذا العلم غ. آخِنْوول G. Achenwall (١٧١٩-١٧٧٣)، وأطلق على هذا العلم تسمية جديدة هي الإحصاء Statistik، وهذه التسمية هي التي انتقلت من الألمانية إلى كثير من اللغات الأخرى. وقد نشر آخِنْوول عام ١٧٤٩ كتاباً حول مبادئ الإحصاء في الدول الأوربية.

وكان على رأس المدرسة الثانية التي عرفت باسم «مدرسة الحسَبة السياسيين الإنكليزية» ج. غرونت J. Grount (١٦٤٠-١٦٧٤) الذي نشر سنة ١٦٦٦ كتاباً درس فيه سجلات نفوس لندن وحسَب منها نسب الوفيات، ثم و. بيتي W. Petty (١٦٢٣-١٦٨٧) الذي ألف عام ١٦٨٣ كتاباً استخدم فيه الطرائق الكمية وسماه «الحساب السياسي»، ومن هذا الاسم أخذت المدرسة الثانية اسمها.

وفي بداية القرن التاسع عشر الميلادي دخل الإحصاء مرحلة جديدة من مراحل تطوره على يد لابلاس Laplace [ر] (١٧٤٩-١٨٢٧) الذي يجب أن يوضع في مقدمة أولئك الذين جعلوا من حساب الاحتمالات الأداة الأساسية لدراسة التحليل الإحصائي، وقد أوضح في كتابه «النظرية التحليلية للاحتمالات» عام ١٨١٢ الفوائد والميزات التي يمكن أن تستخلص من دراسة الظواهر الطبيعية التي أسبابها معقدة جداً إلى حد لا يمكن معه معرفتها جميعاً. ثم وسّع أ. كيتلي A. Quetelet (١٧٩٦-١٨٧٤) حقل تطبيقات الإحصاء مسترشداً بأعمال لابلاس، فدرس الصفات الفيزيائية والفكرية والنفسية للكائنات البشرية، وأوجد بذلك نوعاً من «الفيزياء الاجتماعية» تتوزع وفقها هذه الصفات المتنوعة للجماهير على كائن اعتباري هو «الرجل الوسط». وبناءً على مبادرة كيتلي انعقد في بروكسل عام ١٨٥٣ المؤتمر الدولي الأول للإحصاء الذي بشر «بالمعهد الدولي للإحصاء» الذي أسس في لندن عام ١٨٨٥.

وقد توسعت منذ نهاية القرن التاسع عشر وإلى يومنا هذا طرائق التحليل الإحصائي

فوصلت إلى كل مجالات التحريات والدراسات العلمية، وأدت المسائل العلمية الحديثة المدروسة وفق هذا الأسلوب إلى تطوير سريع وكبير للنظرية الإحصائية.

فبعد أعمال كيتلي والسير ف. غالتون F. Galton (١٨٢٢-١٩١١) أنشأ ك. بيرسون K. Pearson (١٨٥٧-١٩٣٦) فرعاً جديداً للإحصاء يحمل اسم الإحصاء الحيوي « Biostatistics » الذي امتد حالياً إلى ميادين الاختبارات المتعلقة بعلم المداواة والطب العلاجي.

كذلك فقد توطدت الصلة بين الإحصاء والاقتصاد بابتداع فرع علمي جديد هو الاقتصاد القياسي Econometrics [ر] ويدعوه بعضهم الإحصاء الاقتصادي وكان رواده الأوائل أ.أ. كورنو [ر] A.A. Cournot (١٨٠١-١٨٧٧)، وف. باريتو [ر] V. Pareto (١٨٤٨-١٩٢٩)، ول. فالراس [ر] L. Walras (١٨٣٤-١٩١٠)، وف. ديفيزيا F. Divisia (١٨٨٩-١٩٦٣)، و ر. فريش R. Frish (١٨٩٥-١٩٧٣) الحائز جائزة نوبل عام ١٩٦٩ في الاقتصاد السياسي وقد أسس مع ديفيزيا الجمعية الدولية للاقتصاد القياسي.

أما أعمال ج.ك. ماكسويل [ر] J.C Maxwell (١٨٣١-١٨٧٩) التي أوصلت إلى النظرية الحركية للغازات فقد كانت نقطة البدء للميكانيك الإحصائي وللفيزياء النووية.

وقد امتدت استخدامات الإحصاء إلى الزراعة على يد ر.أ. فيشر (١٨٩٠-١٩٦٢) وإلى الصناعة على يد و. شيوهارت W. Shewhart (١٨٩١-١٩٦٧) بدراسة المراقبة الإحصائية للجودة والوثوق، أما في ميادين العلوم الإنسانية فإن دراسة إ. سبيرمان E. Spearman (١٨٦٣-١٩٤٥) حول سلوك الأفراد، التي طوِّرت بعد ذلك في علم النفس التطبيقي فقد أدت إلى وجود طرائق التحليل العاملي Factor Analysis الذي هو امتداد منطقي لدراسة الارتباط [ر] Correlation. وفي إدارة الأعمال والمشاريع غدت الطرائق الإحصائية عاملاً مساعداً لابدّ منه في دراسة حالة السوق ومراقبة الميزانية وإدارة المخزون الاحتياطي، وهي إضافة إلى نظرية الألعاب [ر] game theory، ونظرية القرار decision theory وإلى الطرائق الحديثة في الحساب قد مهدّت لولادة بحوث العمليات operations research.

إن أعمال فيشر وإ. بيرسون E. Pearson (١٨٩٥-) وج. نيمان J.Neyman (١٨٩٤-١٩٨١) حول نظرية الاختبارات test theory ونظرية التقدير estimation theory التي تمخضت عن البحوث التجريبية المتعلقة بتطبيق طرائق السبر، جعلت من الطرائق الإحصائية أداة قوية وفعالة في البحث العلمي والتقني ومازال حقل استخدامها في نمو مستمر.

الإحصاءات في الفيزياء

يتبنى الفيزيائي وجهة نظر إحصائية كلما دعا الأمر إلى شرح نظام جهري (عياني) macroscopic انطلاقاً من مكوناتها المجهرية الكثيرة جداً. وقد أُدخلت وجهة النظر الإحصائية تاريخياً في منتصف القرن التاسع عشر وذلك مع تطور النظرية الحركية للغازات حيث فُسِّرت القوة الضاغطة التي يؤثر بها غاز في حاجز بالصدمات التي يتلقاها من جزيئات هذا الغاز، غير أن العدد الكبير من الجزيئات الذي يحتويه لتر واحد من الغاز مثلاً، يجعل حساب الصدم الناتج عن كل جزيء على حدة أمراً لا يمكن إجراؤه. لذلك تم اللجوء إلى حساب الصدم بدلالة سرعة الجزيء ومن ثمّ دراسة التوزع الإحصائي لقيم السرعة المختلفة بين جزيئات الغاز.

ويمكن حساب هذا التوزع الإحصائي نظرياً بدءاً من فرضيات بسيطة خاصة بظواهر المصادفة وبتطبيق قوانين حساب الاحتمالات. غير أن هذا يتطلب اللجوء إلى المحاكمات الحاذقة والحسابات الدقيقة للترموديناميك الإحصائي للاستفادة من هذه الفرضيات البسيطة التي توجهها الفكرة التالية: يمكن تغيير المعطيات المميِّزة لكل مكوِّن ذري في نظام (مثل وضع كل ذرة، وسرعتها، وجهتها...) من دون أن تتغير نتيجةً لذلك الحالة الإجمالية الجهرية للنظام، ويرى بسهولة أن عدداً كبيراً من الحالات المجهرية المختلفة توافق الحالة الجهرية نفسها، وتسمح الفرضيات الموضوعة بتعداد كل هذه الحالات المجهرية، ويعدّ مقبولاً أن حالة التوازن الجهرية لنظام ما، هي الحالة الأكثر احتمالاً، أي الحالة التي توافق عدداً أعظمياً من الحالات المجهرية الممكنة.

إن هذه المحاكمات هي التي قادت إلى قانون بُلتزمان Boltzmann الإحصائي التقليدي: إن أهم المعطيات التي تميز الحالة المجهرية للجسيمات الذرية طاقتها (طا)، غير أن ثمة معطيات أخرى تسمح بتمييز حالات مجهرية مختلفة لها كلها الطاقة نفسها. لتكن $ع_{١}$ عدد الحالات المجهرية الممكنة لجسيم ما، مميز بقيمة للطاقة $طا_{١}$، ولتكن $ع_{٢}$ عدد الحالات المجهرية الموافقة للطاقة $طا_{٢}$، ... (هذا ويقال أيضاً إن $ع_{١}$، $ع_{٢}$، ... هي الأوزان الإحصائية لسويات الطاقة $طا_{١}$،$طا_{٢}$، ...). وحين يكون نظام فيزيائي مكوّنٌ من جسيمات متماثلة، في حالة توازن حراري في درجة الحرارة المطلقة (د) فإن هذه الجسيمات تتوزع بين قيم الطاقة الممكنة $طا_{١}$، $طا_{٢}$، $طا_{٣}$، .... بحسب الأعداد $ن_{١}$، $ن_{٢}$، $ن_{٣}$ .... بحيث تخضع لعلاقة بُلتزمان:

$$\frac{ن_{١}}{ع_{١}\, e^{-\frac{ط_{١}}{ك\, د}}} = \frac{ن_{٢}}{ع_{٢}\, e^{-\frac{ط_{٢}}{ك\, د}}} =$$

حيث ك هو ثابت بُلتزمان (k) لذي تأكدت قيمته بعدد كبير من التجارب المستقلة ويساوي $١,٣٨١ \times ١٠^{-٢٣}$ جول / درجة سلزيوس و e # ٢,٧١٨٢٨ أساس اللغرتم الطبيعي.

ويتضح من هذا القانون أن عدد الذرات يكبر كلما انخفضت الطاقة. إن هذا القانون عام في الفيزياء. فحالات الطاقات الصغرى هي الأكثر ثباتاً، وإذا كان الفرق $طا_{٢}-طا_{١}$ صغيراً جداً بالنسبة إلى الطاقة الحرارية ك×د كان العددان $ن_{١}$ و$ن_{٢}$ قريبين جداً أحدهما من الآخر (يقال إن سويتي الطاقة $طا_{١}$ و$طا_{٢}$ مأهولتان بالتساوي تقريباً، أو إن عددي المقيمين فيهما وهما $ن_{١}$ و $ن_{٢}$ متساويان تقريباً)، ونقيض ذلك إذا كان الفرق $طا_{٢}-طا_{١}$ كبيراً جداً بالنسبة إلى ك×د فإن $ن_{٢}$ عدد المقيمين في سوية الطاقة المرتفعة $طا_{٢}$ يكاد يكون معدوماً. ويستخدم الفيزيائيون غالباً درجات الحرارة المنخفضة للحصول على فرق ملحوظ في عدد المقيمين، من بين حالات تكون في الدرجة العادية مأهولة بالتساوي تقريباً. (يمكن باستخدام الهليوم السائل تحت ضغط منخفض، أن تهبط درجة الحرارة إلى أقل من درجتين مطلقتين، أما بإزالة التمغنط الكظوم adiabatic، فيمكن أن تصل درجة الحرارة إلى جزء من مئة من الدرجة المطلقة).

ولا يطبق إحصاء بلتزمان التقليدي إلا في الحالة التي يكون فيها عدد المقيمين $ن_{١}$، $ن_{٢}$،

أصغر بكثير من الأوزان الإحصائية ع، ع، ... أما في الحالة المعاكسة فيجب تعديل حسابات بلتزمان ليُستخدم، بحسب نموذج الجسيم، أحد قانوني الإحصاء الكمومي quantum statistics.

إن الإحصاء الكمومي لبوز ـ أينشتيْن Boso-Einstein ينطبق على الجسيمات التي يمكن أن توجد في آن واحد بأية أعداد كيفما كانت حالتها الكمومية، وتسمى هذه الجسيمات لهذا السبب بوزونات Bosons. وتتوزع في حالة التوازن الحراري في الدرجة المطلقة «د» بين سويات الطاقة طا، طا، ... بحسب عدد المقيمين ن، ن، ... بحيث تتحقق العلاقة:

[illegible]

حيث يتعلق الثابت أ بعينات الجسيمات المدروسة. وينطبق هذا الإحصاء بصورة خاصة على الفوتونات ويسمح بحساب الطاقة الضوئية المشعة في ظاهرة الإصدار الحراري (قانون بلانك Planck). كما ينطبق أيضاً على ذرات الهليوم (٤) ويسمح بتفسير الصفات الخاصة جداً لهذا المائع في درجات الحرارة المنخفضة جداً. وينطبق إحصاء الكم لـ فرمي ـ ديراك Fermi- Dirac على الجسيمات التي لايمكن أن توجد في الحالة الكمومية نفسها في آن واحد، وتسمى هذه الجسيمات لهذا السبب باسم فرميونات fermions. وتتوزع في حالة توازن حراري في الدرجة المطلقة د بين سويات الطاقة بحسب عدد المقيمين بحيث تتحقق العلاقة:

[illegible]

وينطبق هذا الإحصاء على الإلكترونات خاصة، ويسمح بتفسير سلوك الإلكترونات الحرة في المعادن، والتي تتعلق بها الناقلية الكهربائية والناقلية الحرارية، كما يفسِّر أيضاً خواص أنصاف النواقل.

والخلاصة: يسمح قانونا الإحصاء الكموميان بتفسير ظواهر متعددة لا يمكن تفسيرها في الإحصاء التقليدي، ومن الممكن البرهان على أن النتائج التي يتم الحصول عليها تكون هي نفسها بتطبيق إحصاء بلتزمان وذلك في الحالة التي يكون فيها عدد المقيمين ن ضعيفاً جداً بالنسبة إلى الوزن الإحصائي ع.

محمد بشير قابيل، سيف الدين بغدادي

الموضوعات ذات الصلة:

الإحصائية (المواءمة ـ) ـ الارتباط ـ الألعاب (نظرية ـ) ـ الانكفاء ـ البيان الإحصائي ـ التحكم الإحصائي ـ الدليل الإحصائي ـ المتسلسلة الزمنية.

مراجع للاستزادة:

ف. ماندل الفيزياء الإحصائية، (ترجمة د. موري عوض، د. عمر دريرش، د. أحمد بغدادي، جامعة دمشق ١٩٨٢).

-C.FOURGEAUD et A.FUCHS, Statistique (Dunod 1967).

■ الإحصائية (المواءمة ـ)

المواءمة الإحصائية ajustement statistique عملية هدفها الوصول إلى تمثيل بياني لسلسلة إحصائية من الثنائيات المرتبة (س،ع) لقيم متغيرين ملاحظين «س،ع» أو إلى الصيغة التي تميز المظهر الأساسي للعلاقة بين هذين المتغيرين، وذلك بعد حذف التجاوزات العرضية أو تلك التي تُرد إلى عوامل خارجة عن نطاق الظاهرة المدروسة.

فالعلاقة بين قياس المتغير «س» وقياس متغير آخر «ع» لظاهرة ما تعرَّف، في الحالة العامة، بسلسلة إحصائية ذات متغيرين (س،ع) توافق، في التمثيل البياني، مجموعة من النقط ذات الإحداثيات (س،ع). فالسلسلة الزمنية مثلاً لا تقدم سوى متتالية من الصور الآنية للظاهرة حتى لو كانت التغيرات تتم باستمرار، كما في العلاقة بين درجة الحرارة والزمن في مكان ما. كذلك فإن ملاحظة توزيع أطوال جماعة من البالغين لا تعطي سوى مجموعة من الثنائيات (س،ع) حيث يكون «ع» عدد الأشخاص ذوي الطول «س».

والتمثيل البياني للعلاقة القائمة بين المتغيرين هو، بوجه عام، خط منكسر يصل بين النقط «س،ع» مع بعض الشاذات التي تناقض الحدس في أن الظاهرة تتغير باستمرار، ويعزى هذا الشذوذ إلى أسباب عدة هي: أخطاء الملاحظة أو القياس، وتقلبات العينات (إذ إن الوحدات الإحصائية الملاحظة لا تمثل دائماً على نحو تام المجتمع الإحصائي الذي أُخذت منه)، وعوامل طارئة أو ثانوية في الارتباط المطلوب توضيحه (أي تأثير متغير آخر غير «س» المعتبر في الدراسة).

إن قبول مفهوم الاستمرار في ارتباط الظواهر يقود إلى محاولة حذف المشاهدات التي يمكن افتراضها. بمحاكمة عقلية، غريبة عن الظاهرة، من أجل هذا يتم اختيار قيم «عَ» جديدة بدل قيم «ع» الملاحظة وذلك لتحقق، ما أمكن، هذا الافتراض. وتعرف هذه العملية باسم المواءمة (الملاءمة أو التوفيق)، كما تعرف في حالات معينة باسم التمليس أو التمهيد.

التحقيقات العملية

المواءمة الميكانيكية: تستخدم هذه الطريقة، بوجه خاص، لتمليس سلاسل إحصائية ذات متغيرين (س،ع) عندما تشكل قيم «س» متتالية حسابية (السلاسل الزمنية بفروق متساوية). ويتم ذلك بأن توضع بدلاً من كل قيمة لـ«ع» من السلسلة قيمة أخرى «عَ س» محسوبة بدلالة «ع س» وبعض القيم المجاورة لها من هذا الجانب أو ذاك. إن اختيار النظام المتبنى من أجل حساب «عَ» يعتمد على الفرضية، التي قبلت حول شكل التغيرات الفعلية لـ«ع» في جوار قيمة «س» الخاصة الملاحظة. وإذا كان هذا التغير، على وجه التقريب، خطياً، بغض النظر عن تغيرات عشوائية، موجبة أو سالبة، فإن حساب القيمة «عَ» الذي يتعلق بمحصلة عدد من هذه التأثيرات العشوائية يسعى إلى التقليص من تأثيرها وهذا مايقود إلى استخدام طريقة التمليس بوساطة المتوسطات المتحركة (البسيطة أو المثقّلة)، فتستبدل بكل مجموعة مشاهدات متعاقبة من الثنائيات (س،ع) ثنائية (سَ،عَ) يكون فيها «سَ» وسط قيم «س»، ويكون «عَ» المتوسط الحسابي لقيم «ع» المقابلة.

المواءمة البيانية: تحدد النقط [ق(س،ع)] الموافقة لقيم السلسلة الإحصائية ذات المتغيرين، ثم يرسم خط مستمر يصل بين النقط ق(س،ع) تاركاً بعض النقط فوقه وأخرى تحته على نحو يكون فيه بعدها عن الخط المضلعي الذي تحدده النقط المذكورة أصغرياً ما أمكن ذلك. وعلى الرغم من العامل الذاتي في الإنشاء البياني، فإن الطريقة البيانية تسمح بتجاهل النقط العرضية التي تعود لأسباب خارجة عن نطاق العلاقة التي يُراد إظهارها.

المواءمة التحليلية: تفترض هذه الطريقة احتياراً مسبقاً لنموذج رياضي من الشكل [ع=تا(س)] تتحقق من أجله هذه الملاحظات بصورة مرضية. وينبع هذا الاختيار، سواء كان لأسباب بيانية أو بواعث تقنية، من طبيعة الظاهرة. وتعين الثوابت التي تحدد هذه الدالة [ع=تا(س)] بصورة توصل إلى أفضل توافق بين النتائج الملاحظة «$\text{ع}_{\text{س}}$» والمحسوبة [ع=تا(س)].

ثمة طرائق مختلفة يمكن أن تستخدم لرد مجموعة الفروق [ع س - تا(س)] إلى أقل قدر ممكن. وتستخدم غالباً طريقة المربعات الأصغرية، وتعين فيها ثوابت الدالة [ع=تا(س)] بشرط يكون فيه مجموع مربعات الفروق أصغرياً، أي يكون المقدار $\left[\sum\left(\text{ع} = \text{تا}(\text{س})\right)^{2}\right]$ أصغر ما يمكن.

تتسم كل من هذه الطرائق بخصائص معينة، فطريقة «المتوسطات المتحركة» هي ما تمتاز به المواءمة الميكانيكية. وتلاحظ المحاكمة العقلية والمهارة في الرسم في المواءمة البيانية، أما الاختيار الأمثل للدالة [ع=تا(س)] فهو ما تمتاز به التسوية التحليلية.

إن اختيار الطريقة المستخدمة يتوقف على المعلومات المسبقة المعروفة عن طبيعة الظاهرة المدروسة والتغيرات التي يراد التخلص منها أو إبرازها، وهو الهدف المنشود من العرض البياني المبسط لمجموعة الثنائيات بغية استخدام ذلك لحسابات لاحقة.

محمد شفيق ياسين

الموضوعات ذات الصلة:

الإحصاء (علم ـ)

■ الأحكام العرفية ← الطوارئ (حالة ـ)

■ الأحلاف الدولية (نظرية ـ)

يعرف قاموس العلوم السياسية الحلف alliance «بأنه علاقة تعاقدية بين دولتين أو أكثر يتعهد بموجبها الفرقاء المعنيون بالمساعدة المتبادلة في حالة الحرب. وسياسة الأحلاف هي بديل لسياسة العزلة التي ترفض أية مسؤولية عن أمن الدول الأخرى، وهي تتميز كذلك عن سياسة الأمن الجماعي [ر] التي من حيث المبدأ، تعمم مبدأ التحالف، حتى تجعله عالمياً بحيث يردع العدوان ويتصدى له عند الضرورة».

إن التحالفات وظيفة ضرورية لتوازن القوى تعمل ضمن نظم الدول المتعددة لذلك فهي قديمة قدم انشطار العالم إلى كيانات سياسية تصطرع على القوة والنفوذ.

يقول مورغنثاو Morgenthau إن الدولتين(أ) و (ب) المتنافستين تجدان أمامهما ثلاثة خيارات لتدعيم مراكز قواهما وتطويرها: فبإمكانهما أن تزيدا من قوتهما، وبإمكانهما أن تضيفا إلى قوتهما قوة دول أخرى، وبإمكانهما أن تسحب كل منهما من قوة الخصم قوى الدول الأخرى، فإن هما اختارتا السبيل الأولى فإن عليهما الدخول في سباق التسلح. أما إذا اختارتا السبيل الثانية أو الثالثة فقد اختارتا سبيل الأحلاف.

وإذن فاختيار دولة ما لطريق الأحلاف ليس مسألة مبدأ بل مسألة ملاءمة. فالدولة تستغني عن أحلافها إذا ما هي اقتنعت بأنها من القوة بحيث يمكنها الصمود أمام أعدائها من دون دعم أحد، أو أن أعباء الارتباطات الناتجة عن الأحلاف تفوق حسناتها المرتقبة. فلأحد هذين السببين أو لكليهما معاً، مثلاً، رفضت بريطانية وأمريكة الارتباط فيما بينهما بأحلاف زمن السلم في الماضي. لكن اتساع رقعة اللعبة الدولية بين الكبار المتصارعين على النفوذ في العالم جعلت الأحلاف ضرورة لهما في الخمسينات وخاصة مع هبوب رياح الحرب الباردة.

وليست كل مجموعات المصالح المشتركة التي تستدعي سياسات وتصرفات متناسقة أو متطابقة تستدعي الدخول في تحالفات صريحة. ولكن التحالف، من جهة أخرى، يتطلب وجود مصالح مشتركة وثيقة لقيامه. وفي هذا يقول أحد المفكرين «وحدة المصلحة هي الرباط الأكثر قوة سواء بين الدول أو الأفراد» وهذا ما يعبر عنه في اللغة السياسية الدارجة بالقول: «ليس في العلاقات الدولية صداقة دائمة أو عداوة دائمة بل مصلحة دائمة». فلا عجب والحالة هذه أن يضم ألمانية وفرنسة اليوم حلف شمال الأطلسي (الناتو) في حين استمر عداؤهما عقوداً طويلة من الزمن. وبالعكس فما كان يعرف بالتحالف الصيني السوفييتي الذي أبرم في ١١ / ٤ / ١٩٥٠ بدأ يضعف منذ ١٩٥٦ لينقلب إلى خصومة مكشوفة منذ مطلع الستينات أججتها الثورة الثقافية في الصين في منتصف عام ١٩٦٦ إذ تحولت العلاقات بين البلدين إلى توتر مستمر لم يخل أحياناً من صدامات مسلحة أو تحالفات متضادة دخلتها الواحدة ضد الأخرى، مثال ذلك موقف البلدين في الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٧١.

كل هذا يحمل على التساؤل عن الشروط التي تتطلب في ظلها مجموعة المصالح المشتركة إنشاء الأحلاف بينها إنشاء صريحاً وعما يضيفه الحلف إلى هذه المجموعة من المصالح المشتركة.

التحالف يضيف الدقة وخاصة بمعنى التحديد لمجموعة المصالح المشتركة القائمة وللسياسات العامة والتدابير الدقيقة المتخذة ولخدمتها. وإذا طالع المرء معاهدات التحالف التي شهدها القرنان السابع عشر والثامن عشر لفوجىء بالتفصيل الدقيق الذي صيغت به الالتزامات القاضية بتقديم الجيوش والمعدات والتموين والمساعدات المالية وسواها مما هو ضروري لفعالية الحلف. والمصالح المشتركة هذه ليست بالضرورة محددة بإقليم جغرافي أو هدف محدد مثلما كانت مصلحة أمريكة وبريطانية في حفظ توازن القوى الأوربي. وكذلك فهذه المصالح لا تكون متعذرة على الدقة والتحديد عندما تتصل بعدو مرتقب. ففي حين يمكن أن يوجه التحالف النموذجي ضد دولة أو دول بعينها فقد يكون ذلك غير ممكن كما كانت الحال مع أعداء المصالح البريطانية الأمريكية إذ لم يكن تحديدهم ممكناً بصورة مسبقة ذلك أن كل من يهدد التوازن الأوربي للقوى كان عدواً لهما. وعلى هذا فالمصالح النموذجية التي توحد دولتين أو أكثر ضد الغير هي في الوقت نفسه أكثر جزماً في

تحديد العدو ولكنها أقل دقة في تحديد الأهداف المراد تحقيقها ضده والسياسات الواجبة الاتباع حياله.

أنواع الأحلاف

يميز بعضهم مع مورغنثاو التحالفات التي تخدم مصالح أو سياسات متطابقة من التحالفات المتممة complementery أو العقائدية بل يمكن تمييز التحالفات المتبادلة من الوحيدة الطرف، والتحالفات العامة من المحدودة، والتحالفات الدائمة من المؤقتة، والتحالفات الفعالة من غير الفعالة.

فالتحالف الأمريكي البريطاني ضمن حلف شمال الأطلسي يقدم مثالاً نموذجياً لتحالف يخدم مصالح متطابقة. فهدف أحد الشريكين فيه وهو الحفاظ على توازن القوى في أوربة، هو عينه هدف الشريك الآخر. وعلى عكس ذلك فالتحالف بين الولايات المتحدة الأمريكية والباكستان هو أحد الأمثلة المعاصرة لتحالف يخدم مصالح متممة. فأما للأولى فهو يخدم الهدف الأمريكي الرئيس، بتوسيع نطاق سياسة الاحتواء [ر] للشيوعية. وأما للباكستان فهو يفترض أن يخدم بالدرجة الأولى هدف زيادة إمكاناتها السياسية والعسكرية والاقتصادية تجاه جيرانها. وقد قلنا « يفترض أن يخدم »، لأن التجارب المريرة التي مرت بها الباكستان أثبتت انتفاء مصلحتها من هذا التحالف يوم تعرضت هذه المصلحة لخطر حقيقي وخاصة في حرب ١٩٧١ مع الهند حول بنغلادش.

وتقدم معاهدة الحلف المقدس لعام ١٨١٥ وتصريح الأطلسي لعام ١٩٤١ وربما حلف وارسو لعام ١٩٥٥ أمثلة جيدة لتحالف أيديولوجي. فكل هذه الوثائق تضع مبادىء عقائدية عامة التزم المتعاقدون احترامها وصيانتها. ومن الممكن القول إن ميثاق جامعة الدول العربية واتفاقية الدفاع المشترك لعام ١٩٥١ الناتجة عن تجربتها المرة الأولى (حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨) يعد مثالاً للتضامن العقائدي ضد كيان غريب على الوطن العربي (إسرائيل).

وأحياناً تندمج الالتزامات الأيديولوجية بالالتزامات المادية في معاهدة التحالف ذاتها. مثال ذلك تحالف الأباطرة الثلاثة عام ١٨٧٣ الذي نص على التعاون العسكري بين النمسة وألمانية وروسية في حالة وقوع عدوان على إحداها. وفي الوقت نفسه أكّد الملوك المتعاقدون تضامنهم ضد احتمال التخريب من جانب الجمهوريات المجاورة. والشيء ذاته يقال في الأحلاف التي قامت ضد الشيوعية في أيامنا. وقد يظهر العامل الأيديولوجي أيضاً في التفسير الرسمي لتحالف مبني على عوامل مادية في شكل تضامن عقائدي يتجاوز حدود المصلحة المادية البحتة. مثال ذلك في رأي بعضهم التحالف الواقعي الأمريكي البريطاني قبل العدوان على السويس فهو مبني على الاشتراك في الحضارة والمؤسسات السياسية والأفكار بين المتحالفين.

أما عن الأثر السياسي لهذا العامل الأيديولوجي في الأحلاف فينبغي التفريق بين احتمالات ثلاثة: التحالف الأيديولوجي البحت الذي لاتدعمه مصالح مادية وهذا لايمكن أن يولد إلا ميتاً. فلا يمكن تحديد سياسات وقيادة تصرفات بمجرد التظاهر بوجود تضامن سياسي حيث لايوجد هذا التضامن. وإذا كان العامل العقائدي مفروضاً من علٍ على مجموعة المصالح الحقيقية فإنه يمكن أن يدعم الحلف بتسخير المعتقدات الأخلاقية والمسوغات العاطفية لتقويته. غير أنه من الممكن للعامل العقائدي أن يضعف الحلفاء من جهة أخرى، وذلك بعرقلة مدى المصالح المشتركة التي يفترض أن التحالف قام ليحددها، وبإثارة آمال مكتوب عليها الإخفاق. ويقدم التحالف الواقعي الأمريكي الإنكليزي مثالاً لكل من الاحتمالين.

ومن الناحية النظرية يجب أن يكون توزيع المنافع ضمن التحالف متبادلاً. أي أن تكون الخدمات التي يقدمها الأطراف لبعضهم فيها متعادلة مع المنافع المتوخاة. ويتجلى هذا بصورة مثالية في تحالف قائم بين دول متساوية في القوة وتعمل لمصالح متطابقة. فهنا تكون الإمكانات المتساوية للجميع والمتجاوبة مع البواعث المتساوية للجميع في خدمة مصالح الجميع.

أما الشكل المضاد لتوزيع المنافع فهو الانتفاع وحيد الطرف حيث يتلقى طرف واحد في الحلف حصة السبع من المنافع في حين تتحمل الأطراف الأخرى أثقل الأعباء. ومادام هدف مثل هذا التحالف هو صيانة الاستقلال السياسي والسيادة الإقليمية للدول المستفيدة فإن مثل هذا التحالف لايختلف كثيراً عن معاهدات الحماية.

وهكذا فتوزيع المنافع يمكن أن يعكس توزيع القوة في الحلف وكذلك تحديد سياساته، فدولة كبرى مثلاً يمكن أن تتحكم في حلف ضعيف فيما يتصل بالمنافع والسياسات. ولهذا السبب حذّر ميكافيلي الدول الضعيفة من الانخراط في أحلاف مع دول كبرى إلا بدافع الضرورة الملحة. وتمثل العلاقة بين واشنطن وكورية الجنوبية صورة لما ذكر.

على أن هذا التلازم بين المنافع والسياسات والقوة ليس حتمياً بصورة مطلقة. فيمكن لدولة ضعيفة أن تكون قادرة على استغلال علاقتها بحليف قوي وذلك بإلزام الأخير بدعم مصالحها الحيوية التي قد لاتعني الكثير له أو التي يمكن أن تناقض مصالحه. يقابل ذلك أنه يمكن للدولة الضعيفة أن تفرض على الحليف القوي دعمها الذي هو من دون شك، أقل أهمية للأخير من دعمه لها.

ومن الناحية التاريخية كانت العلاقة بين ألمانية والمجر والنمسة قبل الحرب العالمية الأولى من هذا النوع الذي تدخل فيه حالياً العلاقة بين أمريكة من جهة والباكستان وتايوان من جهة ثانية.

لكن من الممكن أن يكون لدى الدول الضعيفة من الإمكانات ما يكون له قيمة كبرى للحليف الأقوى بحيث لايمكن استبدالها أو التعويض عنها. فالفائدة الفذة التي يمكن لهذه الدولة أن تمنحها أو تسحبها يمكن أن تعطيها ضمن التحالف مركزاً لايمكن قياسه بالمعايير العادية لتبادل المنافع في الحلف مثال ذلك العلاقة بين إيسلندة وأمريكة فيما يتعلق بالقواعد العسكرية وبين البرتغال وحلف الأطلسي بالنظر للموقع الاستراتيجي وبين أمريكة وإسرائيل بالنظر للعاملين معاً، إضافة لقيام إسرائيل بدور المخفر الأمامي الأمريكي في الشرق العربي.

والتحالف المثالي هو ذلك الذي يحاول تحويل جزء صغير من إجمالي المصالح المشتركة للدول المتعاقدة إلى سياسات وتدابير مشتركة، لأن بعض المصالح قد لاتكون مهمة لأهداف الحلف بحيث يؤيدها بعضهم ويتنصل منها آخرون، بل قد تعارضها جماعة ثالثة. وهكذا فالتحالف المثالي محاط في ميدان ديناميكي بالمصالح والمقاصد المختلفة.

والسؤال حول ما إذا كان هذا التحالف سيكون فعالاً وإلى أي حد يعتمد على قوة المصالح المنبني عليها بالقياس إلى قوة المصالح الخاصة بالدول الأعضاء التي يمكن أن تتواءم مع الأولى. على أن فرص نجاح حلف ما مهما كان محدود النطاق يمكن أن تفحص ضمن سياق السياسات الإجمالية التي عليه أن يتصرف بمقتضاها.

والأحلاف العامة عادة مؤقتة، ومعظمها يسود وقت الحرب، لأن المصلحة المشتركة التي تتمثل بالسعي للانتصار وضمان المصالح عن طريق تسويات السلام التالية للحرب من شأنها أن تفسح في المجال، بمجرد انتهاء المعارك، لبروز المصالح الفردية المتعارضة للدول الحليفة سابقاً. ومن جهة أخرى فهناك تلازم بين دوام الحلف والإطار المحدود للمصالح التي قام عليها. فكلما تحددت هذه المصالح وضاق نطاقها كانت فرص استمرار التحالف أكبر. مثال ذلك التحالف بين بريطانية والبرتغال الذي قام عام ١٧٠٣. فقد استمر قروناً عديدة لأن المصلحة المشتركة التي قام لصيانتها بسيطة ومحدودة. فبريطانية لازمة لحماية شواطىء البرتغال، وشواطىء الأخيرة مهمة لاستمرار سيطرة بريطانية على مداخل الأطلسي.

إن اعتماد الأحلاف على مجموعة المصالح المشتركة للدول الأعضاء يدعو أيضاً للتفريق بين الأحلاف النشطة والفعالة والأحلاف المخفقة أو غير الفعالة. فلكي يكون الحلف فعالاً، أي قادراً على التنسيق بين السياسات العامة والتدابير الدقيقة لأعضائه، لابد أن يتفق أعضاؤه ليس على الأهداف العامة وحسب، بل على السياسات والتدابير التفصيلية أيضاً. وكثير من الأحلاف بقي مجرد حبر على الورق لعدم توافر هذا الشرط. مثال ذلك الأحلاف الفرنسية الروسية لعام ١٩٣٥ و١٩٤٤ والحلف البريطاني الروسي لعام ١٩٤٢ والحلف العربي المعروف بمعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي لعام ١٩٥٠.

وقد تسهم المشروعية القانونية لمعاهدة التحالف والحملات الدعائية التي ترافق عقده في خداع الباحثين بشأن قيمته العملية الحقيقية التي لايمكن تقديرها إلاّ بفحص موضوعي لسلوكية الأعضاء في الحلف في الواقع العملي.

نشوء الأحلاف

الطريقة المتبعة، عادة، لدراسة كيفية نشوء الأحلاف تكون بدراسة حلف معين لاستخلاص العوامل الأساسية التي نفخت فيه الحياة ومن ثم تطبيقها على الأحلاف الأخرى. فإذا تقاربت هذه العوامل أو تطابقت أمكن التوصل إلى نظرية معينة يصحّ إعمالها قاعدةً على ما يدرس من أحلاف قائمة أو مستقبلية. وقد درج الكتاب على عدّ حلف وارسو نموذجاً ممتازاً لمثل هذه الدراسة.

جاءت معاهدة الصداقة والتعاون في المساعدة المتبادلة المبرمة في مدينة وارسو بين الاتحاد السوفييتي وحلفائه الأوربيين السبعة ألبانية وبلغارية والمجر وألمانية الديمقراطية ورومانية وبولونية وتشيكوسلوفاكية في الرابع عشر من أيار ١٩٥٥، أي بعد تسعة أيام فقط من تدشين اتحاد أوربة الغربية الذي جعل ألمانية الاتحادية دولة ذات سيادة وقبلها عضواً عاملاً في حلف شمال الأطلسي. وكانت معاهدة حلف شمال الأطلسي هذا قد أبرمت قبل ست سنوات بين الولايات المتحدة وكندا وبريطانية وفرنسة وإيطالية وبلجيكة وهولندة واللوكسمبورغ والدنمرك والنروج وإيسلندة والبرتغال وانضمت إليها اليونان وتركية عام ١٩٥٢.

وتنص المادة الخامسة من هذه المعاهدة على ما يلي: «أي اعتداء مسلح على دولة أو أكثر منها في أوربة أو أمريكة الشمالية يعدّ اعتداء عليها جميعاً وبالتالي تلتزم كل منها بمساعدة الدولة أو الدول المعتدى عليها باتخاذ ما تراه لازماً من تدابير بما في ذلك استخدام القوة المسلحة فردياً أو بالاتفاق مع الأطراف الأخرى».

وقد نصت المعاهدة على سريانها مدة عشرين عاماً. أما معاهدة وارسو التي أبرمت لعشرين عاماً أيضاً فقد نصت في مادتها الرابعة على ما يلي: «في حالة وقوع اعتداء مسلح في أوربة على طرف أو أكثر من أطراف المعاهدة من قبل دولة أو مجموعة دول تبادر كل دولة في المعاهدة فردياً أو بالاتفاق مع الأطراف الأخرى إلى مساعدة الدولة أو الدول التي كانت عرضة للعدوان بكل الوسائل التي تراها ضرورية بما في ذلك استخدام القوة المسلحة».

وهكذا فحلف وارسو ـ على الأقل في نصوصه الرسمية ـ يشبه كثيراً حلف شمال الأطلسي غير أن حلف وارسو لم يأت رداً مباشراً على حلف الأطلسي ،فالآخر سبق بست سنين لكنه بالتأكيد جاء رداً مباشراً لحلف الأطلسي الجديد الذي ضم ألمانية الاتحادية.

فبعد اجتماع الدول الغربية في لندن من ٢٨/٩ـ٣/١٠/١٩٥٤ ثم في باريس من ١٩ ـ٢٣/١٠/١٩٥٤ وموافقتهم على الاعتراف بحق ألمانية الكامل في السيادة وقبولها عضواً في حلف الأطلسي دعا السوفييت لعقد مؤتمر يضم الدول الأوربية والولايات المتحدة يجتمع في موسكو في المدة الواقعة بين ٢٩/١١ و٢/١٢/١٩٥٤ بقصد حل المسألة الألمانية وتجنب انقسام أوربة إلى ترتيبات دفاعية متضادة. غير أن أحداً من المدعوين الغربيين لم يحضر. وكان أن صدر عن جماعة موسكو تحذير علني بأنه إذا أصرّت الدول الغربية على إبرام اتفاقات باريس فإن دول شرقي أوربة ستجد نفسها مضطرة لاتخاذ تدابير دفاعية جماعية خاصة بها لمواجهة تهديد العسكرية الألمانية التي أحياها الغرب. وهكذا يبدو حلف وارسو رداً مباشراً على انبعاث ألمانية الغربية دولةً عسكرية قوية في قلب أوربة. ثم إن الحلف الاشتراكي كان مهماً من الناحية العسكرية لأنه حلّ محل معاهدات ثنائية كان الاتحاد السوفييتي يرتبط بها مع كل عضو من أعضائه، فجاء البيان المشترك الصادر مع معاهدة إنشاء حلف وارسو ونص على إنشاء قيادة عسكرية موحدة لقوات الدول الأعضاء فيه.

لكن معاهدة حلف وارسو كانت أيضاً نتيجة مهمة لتطورات أخرى. فقد أبرمت قبل يوم واحد من توقيع معاهدة الدولة النمسوية التي وضعت حداً قانونياً لاحتلال النمسة من السوفييت والدول الأوربية الأخرى. لقد كان الاحتلال السوفييتي للنمسة الأساس القانوني لعسكرة القوات السوفييتية في المجر ورومانية فلما انتهى هذا الاحتلال لم يعد ثمة مسوغ قانوني لهذه العسكرة. كذلك فإن معاهدة وارسو أدخلت ألمانية الديمقراطية في الكومنولث الاشتراكي لاستمرار الوجود السوفييتي في أراضيها.

وهكذا استجابت معاهدة وارسو لهذين الوضعين بإيجاد أساس قانوني للوجود العسكري في كل دول أوربة الشرقية خاصة بعد زوال الستالينية التي مارست هيمنة على هذه الدول خشي بعده من تقهقرها. فجاء حلف

وارسو يشد الدول الاشتراكية في أوربة إلى موسكو برباط قانوني متين، فهو إضافة لما تقدم يعطي موسكو ميزة أخرى هي تحريم دخول أي دولة في الحلف: في أي حلف أو ترتيب مضاد له.

على أنه لاينبغي للمرء أن يعتقد أن حلف وارسو كان نتاج الفكر السوفييتي المحض أو أنه سخر لمصلحة موسكو وحدها. فدول أوربة الشرقية التي عانت الأمرين من الاحتلال النازي لأراضيها وجدت في إحياء العسكرية الألمانية ما يسوغ انخراطها في حلف تقوده الدولة الأعظم الأخرى في العالم.

هذه هي الشروط والعوامل التي يبدو أنها كانت وراء إنشاء حلف وارسو.

فإذا كانت الحال هكذا، وهي كذلك، فإنه من الممكن التوصل إلى فرضية تشرح إنشاء أي حلف. بعبارة موجزة يمكن توقع إنشاء حلف ما تتعرض فيه أسس النفوذ السياسي ضمن تكتل ما للضعف بسبب التغيرات السياسية، في وضع لاتكون الدول المُستَغلة فيه من القدرة بحيث تقاوم الخصم الخارجي من دون مساعدة أو تحد من تضاؤل الاستقلال السياسي الناجم عن الانضمام إلى التحالف، وبجمع هذه العوامل في فرضية عامة وعلمية يمكن موافقة إدواردز على الصيغة التالية:

«تكوّن الدول حلفاً عندما تواجه تغييراً جديداً ومهدداً في الوضع العسكري، وتحاول الدولة المسيطرة فيها إيجاد طرق جديدة لتدعيم مركز قوتها في مواجهة الخصم ومركز نفوذها على حلفائها إذا تعرض أحد المركزين للخطر».

فإذا طبقت هذه الصيغة العامة على الأحلاف الرئيسة التي شهدها عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية وهي حلف الأطلسي NATO وحلف جنوب شرق آسيا SEATO والحلف المركزي CENTO لوجد أن عناصرها الثلاثة (وهي (أ) تغيير جديد مهدد في الوضع العسكري، (ب) الدولة المسيطرة تسعى لتدعيم مركزها في مواجهة الخصم، (ج) الدولة المسيطرة تسعى لتدعيم مركزها تجاه حلفائها) تنطبق عليها تماماً مع تركيز أكثر على إحداها أو بعضها في حالة هذا الحلف أو ذاك. بل يذهب بعضهم إلى صلاحية هذه الصيغة العامة حتى للأحلاف الثنائية الرئيسة كالحلف الروسي الصيني والحلف الواقعي والمستمر بين بريطانية والولايات المتحدة والمعرّف بالعلاقات المميزة بين البلدين.

تطور الأحلاف وزوالها

لكل حلف دورة حياة تمثل تطوره وما يتعرض له من تغيرات وآثار حتى ينقضي.

إن أهم مظاهر تطور الحلف حجمه. والافتراض السائد في التحليل النهائي أن الفاعل السياسي، وهو هنا الدولة السائدة في الحلف، سيسعى لزيادة الدعم السياسي الممنوح إلى حده الأعلى ولذا سيزيد قدر المستطاع من عدد الدول الداخلة في حلفه أو أحلافه. ويؤكد هذا المنحى سياسة الأحلاف الأمريكية أيام الرئيس أيزنهاور التي تميّزت بانتشار الأحلاف الأمريكية الثنائية والجماعية إلى حد سميت معه تلك المرحلة بمرحلة هَوَس الأحلاف. لكن نظرة ذرائعية لبناء التكتلات قد تحمل على الاعتقاد بأن الدولة تسعى لحد أدنى من هذه التكتلات أو الأحلاف النشطة بقدر ما تعتقد أنها ستضمن لها ربح نزاع قائم أو تحقيق أي غرض آخر قصد من الحلف تحقيقه، لا أكثر ولا أقل، وذلك حتى تتلافى وقوع الحلف في المصاعب الناجمة عن تصادم المصلحة المشتركة لأعضائه مع مصالحهم الفردية المتعارضة. كذلك لابد من الاهتمام بعوامل المد والجزر في تطور الحلف أو تدهوره.

فإذا تأملنا تطورات أحلاف كالأطلسي ووارسو والحلف المركزي في السنين المتتالية لوجدنا تغييرات مهمة فيها، إذا لم يكن في الشكل الرسمي للعضوية ففي درجة التزام الأعضاء دعمها لبعضها على الأقل. من ذلك مثلاً موقف فرنسة من حلف الأطلسي منذ أيام الجنرال ديغول وموقف اليونان منه فيما بعد. كذلك موقف الصين من تحالفها مع السوفييت وموقف الباكستان من حلف جنوب شرق آسيا الذي أعلنت انسحابها منه في ٨/ ١١/ ١٩٧٢ مما آل في النهاية إلى حلّه.

ولابد أيضاً من الاهتمام بدرجة التكامل التي حققها الحلف. فالتكامل السياسي وما يستبقه من تكامل عسكري أمران يهمّان فعلاً السياسات الوطنية والدولية لأنهما أدّيا إلى تغيرات كبيرة في حجم الكثير من الفاعلين السياسيين واستقلالهم في سنوات ما بعد الحرب، ولايمكن هنا أن ينفصل التحليل عن الأحداث السياسية ضمن الحدود الوطنية. ولعل التكامل، سواء في السوق الأوربية المشتركة أو الكوميكون أو الناتو أو الحركات الرامية إلى تدعيم التعاون بين الدول في إفريقية وأمريكة اللاتينية وآسيا، أوضح مذكر للمحلل بهذا. ويبقى أمر التكامل مجالاً خصباً لدراسات مشتركة أجراها ويجريها المختصون في السياسات الوطنية والمقارنة والعلاقات الدولية. ومن مثل هذه الدراسات يمكن التعمق موضوعياً في فهم دورة حياة أي حلف.

كذلك ينبغي دراسة آثار الأحلاف، واهتمام القارىء هنا ذو وجهين، فالمعروف أن للأحلاف أثراً مهماً في ممارسة السياسة الدولية لأنها من إنشاء الأطراف الفاعلة في هذه السياسة كما أنها ميدان التحركات الكبرى لها. ولو تمعّن المرء في الأحداث التي تطرأ للأحلاف والتي تراوح بين التفاعل اليومي للدبلوماسية العادية والأحداث الأكثر تعقيداً كسباق التسلح لوجد أن فهم فلسفة الأحلاف يساعد على التبحر في كل ذلك. فالعلاقات الدبلوماسية بين الحلفاء في شمال الأطلسي تأثرت، وتتأثر بوضوح، بوجود حلف الناتو وكذلك العلاقات بين هؤلاء من جهة وأعضاء حلف وارسو من جهة ثانية وبين هؤلاء جميعاً والتكتلات الأخرى التي تنظر إليهما بعين الريبة. ثم إن الحلف يفترض أن يؤمّن، بطرق ما، بديلاً لسباق التسلح. لأن أحد البواعث على إقامته هو زيادة قدرات الدول المعنيّة من دون زيادة سلاحها. لكن الواقع أثبت أنه حيثما واجهت الأحلاف بعضها فإن زيادة قدرة أحدها عن طريق العدوان من شأنه أن يحرضها على شعور مقابل من الحلف الآخر أو على زيادة تسلح الخصم. وهكذا فتسابق التسلح بين الدول في غياب الأحلاف قد ينقلب إلى تسابق للتسلح بين الأحلاف نفسها. وهذا النوع الأخير من تسابق التسلح عملية معقدة ومتقلبة لأن الأحلاف بحد ذاتها معقدة ومتقلبة وخاضعة للتبديل والتغيير العسكري والدبلوماسي وذلك أمر يدعو للتفكير حقاً خاصة إذا أخذ دليلاً على هذه المقولة سباق التسلح بين حلفي الأطلسي ووارسو في سنوات الحرب الباردة خلال الخمسينات وقسم من الستينات.

وكما تنشأ الأحلاف وتتطور فإنها تنقضي، والانقضاء يأخذ أشكالاً شتى، بعضها رسمي وبعضها الآخر واقعي. وأهم أسباب انقضاء الأحلاف الرسمية انتهاء مدتها المحددة في

معاهدة إنشائها وذلك بصورة اتفاقية أو بصورة منفردة.

كذلك تنتهي الأحلاف بهزيمة أو تحطم أحدها أو كل أطرافها أو برفض الالتزام بها أو بشذوذ أحد الأطراف أو بعضهم عنها بطريقة أو بأخرى. كما قد تنتهي الأحلاف بسبب تغير السياسة الداخلية لأحد أطرافها أو بعضهم كحلف بغداد أو الحلف المركزي الذي انتهى عملياً بانسحاب العراق منه عقيب ثورة ١٩٥٨ وكنتيجة لتبدل العلاقات الدولية. وهكذا وكنتيجة لسياسة البيروسترويكا (إعادة البناء) في الاتحاد السوفييتي وما طرأ على سياسته الخارجية انفلتت الدول الأعضاء في حلف وارسو من تحالفها مع السوفييت ومع بعضها وأدى ذلك إلى وضع حد رسمي للحلف في صيف عام ١٩٩١ مما كان له أثره الكبير في وضع نهاية للحرب الباردة بين الدول الأعضاء في حلف الناتو ودول أوربة الشرقية، بل لقد حلت سياسة «الوفاق» بين دول المعسكرين محل سياسة المواجهة السابقة. والإشكال هنا هو تحديد السبب المباشر والحاسم لانقضاء الحلف أو تزعزعه وكيف ومتى تم ذلك.

ثمة أمر آخر تحسن الإشارة إليه في مجال آثار الأحلاف هو أثر الأحلاف في العلاقات الدولية. إذا انطلقنا من أن الأحلاف تسهم في استتباب الأمن لأطرافها فإن هذا يعدّ مهماً بحد ذاته. لكن هذا الادعاء الذي يراه بعضهم غنياً عن الشرح هو لدى آخرين موضع شك كبير، ومن هؤلاء المشككين بجدارة الأحلاف كلوز كنور الذي يقول:

«باعتبار أن القوة المسلحة أقل فائدة إما بسبب مشروعيتها المحددة وإما بسبب الخوف من التصاعد في استخدامها فإن الأحلاف ينبغي أن تكون أقل قيمة مما كانت عليه». ويذهب بورتن Burton إلى أبعد من هذا إذ يقول: «إن التنافس العسكري بين مجموعتين متصارعتين وشيوع القطبية الثنائية في البنيان السياسي الدولي لايفشل في تحقيق مزيد من الأمن فحسب بل يسهم باطراد في زيادة التوتر وجعل الخلاف أكثر حدوثاً. إن الأحلاف لاتفشل فقط في تحرير أعضائها من الإنفاق الزائد على التسلح بل إنها تخلق تنافساً بين كل من الدول مما يحتم مزيداً من الإنفاق» ويضيف بورتن «ما أن يقوم تحالف مع دولة حتى تزداد أهمية استمرار حكومة تلك الدولة ويصبح التركيز على الحيلولة دون حصول أي تغيير سياسي داخلي يكون من شأنه تهديد التحالف. وهكذا انساقت الولايات المتحدة إلى دعم حكومات طاغية أو غير شرعية ولا شعبية لكي تضمن عدم حدوث مثل هذا التغيير. وكذلك وبصورة حتمية فإن المساعدات الاقتصادية والتكتيكية قد أعطيت على أساس تمييزي مناطه اعتبارات الاستراتيجية قصيرة المدى أكثر من أهداف الرفاهية البعيدة».

وينتهي بورتن إلى الاستنتاج بأن عدم الانحياز سيكون الطابع الغالب للسياسات الدولية في المستقبل. ذلك حلم عزيز وأمنية طوباوية لا يؤيدها ما يدور في العالم من معطيات.

في العالم اليوم حلفان غربيان مهمان هما حلف شمال الأطلسي وحلف الريو أما الأول فيضم الولايات المتحدة وكندا وأربع عشرة دولة أوربية. في حين يضم الثاني الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأعضاء في منظمة الدول الأمريكية O.A.S [عدا كوبة] وهو الساعد العسكري لهذه المنظمة لكن أهميته لاتقارن بحلف شمال الأطلسي (منظمة حلف شمال الأطلسي).

أما في المعسكر الاشتراكي فكان هناك حلف وارسو (منظمة حلف وارسو) الذي ضم الدول الاشتراكية في أوربة عدا ألبانية التي دفعتها سياستها المنعزلة وقربها العقائدي من الماركسية الماوية إلى التقرب من الصين على حساب عضويتها في حلف وارسو غير أن حلف وارسو حل في صيف عام ١٩٩١ ولم يبق لدول أوربة الشرقية أي حلف أو ائتلاف نتيجة تغيير الأنظمة الاشتراكية فيها.

وفي الوطن العربي اتفاقية للدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي وقعت عام ١٩٥٠ واستهدفت فيما استهدفت سد الثغرات الواردة في ميثاق جامعة الدول العربية بإيجاد ساعد عسكري لها يضم مجلساً للدفاع ولجنة استشارية وأمانة عسكرية (الدفاع العربي المشترك) بغية تحقق الأمن للأمة العربية وخاصة في مواجهة الأخطار المحدقة بها من كل حدب وصوب.

محمد عزيز شكري

الموضوعات ذات الصلة:

حلف جنوب شرقي آسيا- حلف شمال الأطلسي
- الحلف المركزي-حلف وارسو.

مراجع للاستزادة:

- محمد عزيز شكري، الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية، سلسلة عالم المعرفة رقم ٧ (الكويت، تموز ١٩٧٨).

- F.A. BEER, Alliances: Latent War Communities in the Contemporary World (Holt Rinhart & Winston Inc., NY 1970).

■ الأحلام

الحلم dream ظاهرة نفسية تأخذ مجراها لدى الإنسان حين يكون نائماً، وهو نوع من النشاط العقلي التخيّلي تكون الغلبة فيه للصور الحسية: البصرية والسمعية واللمسيّة والذوقية والشمية والحركية، مع العلم أن البصرية هي الصور الأكثر تكراراً وسيطرة. والحلم تركيب نفسي يضم سلسلة من الأحداث المتخيّلة ولكنه يتميز بأن النائم يعدّ الحلم الذي يجري لديه أمراً واقعاً. ويمر الإنسان النائم بعدد غير قليل من الأحلام في الليلة الواحدة، ويكون هذا الأمر عاملاً وراء غلبة استعمال لغة الجمع عند الحديث عن الحلم.

وتذهب الدراسات المهتمة بحياة الإنسان النفسية وهو في حالة النوم إلى أن هناك نوعاً من النموذج السائد لدى الأفراد في حدوث الأحلام يسمح بوضعها في أربع مدد ضمن حدود نوم مدته سبع أو ثماني ساعات. تكون الأحلام قصيرة الديمومة في المدة الأولى، وتكون أكثر طولاً في المدد الأخرى وقد تستغرق ديمومتها ساعة أو ساعة ونصف الساعة. ويغلب أن يقع الفاصل بين كل مدة وأخرى في حدود تسعين دقيقة. ثم إن كل إنسان يحلم كل ليلة، وإن ما تشغله الأحلام من نوم شخص في العشرينات من عمره، في كل ليلة، يعادل ما

بين ٢٠ ـ ٢٢ ٪ من ساعات نومه. ويضاف إلى ذلك أن أحلام النوم تحدث لدى الإنسان في كل مراحل عمره، وقد تستغرق ٤٠ ٪ من ساعاتِ نومه حين يكون في السنتين الأوليين من حياته. وتؤكد الدراسات أن الحيوانات الثديية تحلم، ولكن أحلامها أقل تعقيداً وطولاً من أحلام الإنسان.

يتفاوت الناس في مقدار ما يتذكرونه من أحلامهم، ويلاحظ هذا الأمر في المجتمعات الإنسانية المختلفة. ولكن من الممكن القول إن الأشخاص أو الجماعات الذين يجعلون للأحلام مكانة مهمة في حياتهم اليومية يكونون أكثر تذكراً لأحلامهم من أولئك الذين لا يعيرون الأحلام إلا أهمية قليلة. وإذا صادف أن ذكر شخص ما أنه لا يحلم أبداً، فالواقع العلمي يؤكد أنه يحلم ولكن عدم تذكره لأحلامه يعود إلى عملية كظم لديه، ويتمثل الكظم بإبعاد الذكريات عن شعوره حين يستفيق أي الذكريات الخاصة بآلامه لأن وصولها إليه يؤدي إلى تهديد يشعر الشخص معه بخطر ما، وهو يؤثر تفادي ذلك الخطر. وتبدو هذه الحالة واضحة في محاولات عدد غير قليل من الناس تناسي حلم قبيح أو مؤذ مروا به في نومهم.

يذهب علم النفس إلى أن درجة شعور الإنسان بحوادثه أو حالاته النفسية تقع في ثلاثة مستويات: «الشعور» وهو وعي الفرد حالاته النفسية بوضوح، و«ما قبل الشعور» ويمثل الوضع الذي تكون عليه الحوادث النفسية غير الموجودة في مستوى الشعور الواضح الواعي التي يمكن استدعاؤها إلى ذلك الشعور بسهولة ويسر، و«اللاشعور» ويمثل الحوادث النفسية البعيدة عن متناول الشعور التي يصعب جداً استدعاؤها إلى الشعور أو يستحيل في حالات. والشعور العامل بوضوح لدى الإنسان في حال اليقظة، القائم بمراقبة الحوادث النفسية لديه، تضعف رقابته هذه في أثناء النوم. وتغدو الفرصة سانحة عندئذ أمام اللاشعور ليقوم بتحريك الحياة النفسية أي لتتحرك بتأثير ما فيه وتكون الأحلام محصلة هذا التحرك.

وتضعف رقابة الشعور أحياناً بعض الضعف في حال اليقظة ويكون ذلك مع تشتت انتباه الشخص، ويحدث لدى الشخص عندئذ ما يسمى «أحلام اليقظة» وهي تركيبات خيالية تشبه أحلام النوم من حيث المحتوى وعمل اللاشعور فيها وغلبة الصور الحسية عليها، ومن حيث بعض الوظائف كذلك. ولكن أحلام اليقظة تختلف عن أحلام النوم من جهات كثيرة بينها أن عودة الشعور الواعي لدى الفرد إلى الرقابة يكون أكثر سرعة في حالة أحلام اليقظة، وأن الضعف في رقابة الشعور لا ينخفض في هذه الأحلام إلى المستوى الذي يصل إليه في أحلام النوم، وأن اهتمام الإنسان بدلالة أحلام اليقظة يبدو بسيطاً جداً إذا قيس باهتمامه الموجه إلى أحلام النوم.

محتوى الأحلام

تتأثر الأحلام بخبرات النهار السابق لليل حدوثها، وخبرات الأيام القريبة من الحاضر، كما تتأثر بما تنطوي عليه حياة الشخص من خبرات قديمة وقديمة جداً. ويظهر الحلم على شكل تركيب غريب لمن يفحصه؛ إنه تركيب فيه ما هو جديد، ولكنه لا يخضع لقواعد المنطق أو لمقولتي الزمان والمكان أو لمبدأ السببية. إن فيه عناصر تأتي من خبرة حديثة ويبدو فيها أنها تتجمع مع بقايا من ذكريات ماضية ضمن عملية «إخراج» تحركها، وتجمع بين الأطراف المختلفة فيها، دوافع متنوعة يكون همها تحقيق أغراضها الخاصة في حال الضعف الشديد لرقابة الشعور لدى النائم. ولما كانت دوافع الإنسان كثيرة ومتنوعة، وكانت خبراته واسعة وعظيمة الاختلاف في إطارها ومحتوياتها وتفصيلاتها، كانت النتيجة المنتظرة في الأحلام أن تكون محتوياتها كثيرة التنوع والتفاوت في تركيبها وفي تفصيلاتها. وبين المحتويات ما يتصل بدافع الجنس، وبينها ما يتصل بشؤون حياتية كثيرة أخرى.

وتتأثر كمية الأحلام لدى النائم ومحتوياتها بمدى عمق الخبرات السارة أو المزعجة التي يكون ذلك الشخص قد مرّ بها في نهاره وتزداد مع ازدياد ما يضايقه. وترتفع عادة كمية الأحلام لدى الذين يعانون من توتر عاطفي دوري أو من اضطراب نفسي يكون في مطلع تكونه أو شدته. فإذا أخذ الحلم في علاقته بالمؤثرات الخارجية المحيطة بالنائم، مثل الروائح والدخان والأصوات المرتفعة، فالغالب القول إن المؤثر الخارجي لا يتسبب بوجود الحلم ولكنه يؤثر في الحاسة لدى النائم تأ ثيراً يمكن معه أن يصبح جزءاً من حلم كان يأخذ مجراه، وبذلك يتغير الحلم من حيث محتواه.

يتكرر بين الناس القول إن الفعالية النفسية في الأحلام يمكن أن تعمل في إنجاز حل لمسألة عجز صاحبها عن حلّها في يقظته، ويقدّم الآخذون بهذا القول الكثير من الشواهد. والواقع أن الحلم لا يسير وفق المنطق في حين يقتضي حلّ المسألة المنطق وأسسه. ثم إن الحلم موجه بالكثير من الدوافع اللاشعورية وهو يتكون في النوم لتلبية أغراضها. لهذا فإن الأصل في الأحلام أنها بعيدة عن العناية بحلول لمسائل رياضية أو فيزيائية أو مالية. ولكن من الممكن القول إن التركيب التخيلي الذي يتألف منه الحلم والذي يتذكر الشخص عادة الكثير منه حين يستفيق من نومه، يمكن أن يقدم إشارات يستفيد منها اليقظ، وقد يكون بين هذه الإشارات ما يقدم المفتاح لحل المسألة التي كان الشخص يناقشها قبل النوم. يضاف إلى ذلك أن الفعالية النفسية المستمرة في حالة النوم، الذي يكون على درجات من حيث عمقه، يمكن أن تنضج تركيبات نفسية بدأت قبل النوم من دون أن يكون الشخص شاعراً بها شعوراً واضحاً. والأمر هنا شبيه بما يحدث لدى شخص يتوقف عن محاولات إيجاد حل لمسألة صعبة ويشغل نفسه عنها بأمور أخرى ثم ينكشف له الحل فجأة.

وظائف الأحلام

يميل الكثير من الناس إلى القول إن الأحلام كثيراً ما تكون مختلطة وشديدة التداخل ويصعب فهمها حين يجعلها اليقظ موضوع فحص وتأمل، إلا أنها قد تكون واضحة في بعض الحالات ويمكن عندئذ أن تكون هادية للإنسان في عمل ينوي القيام به، وقد تؤدي هذه الوظيفة بصورة مباشرة أو غير مباشرة وذلك عن طريق التفسير والتأويل.

ولكن البحث العلمي المهتم بالأحلام يأخذ منحى آخر حين يقول إن فحص حياة الإنسان يؤكد أن الأحلام ظاهرة نفسية لازمة له لأنها تؤدي وظائف خاصة فإذا حرم أفراد من الأحلام تجريبياً عن طريق إيقاظهم من نومهم مرة تلو المرة مع تأخير عودتهم إلى النوم فإن هذا الإجراء يؤدي لديهم إلى توتر نفسي واضطراب، ويكون بين الأعراض التي تظهر لديهم الضعف في تركيز الانتباه، والقلق، والضعف في التوافق الحركي.

وتبدو وظائف الأحلام في صور متعددة

تتقدمها اثنتان. فالحلم تركيب نفسي يسمح بتفريغ طاقات مخزونة وذلك بأن يحقق الحلم رغبات لصاحبه منع ظهورها في الحياة الواقعية عدد من الظروف بينها ضعف إمكاناته أو عدم توافرها، وبينها شعور الفرد بما هو محرم اجتماعياً أوما هو غير مقبول. ومن هذه الرغبات ما يتصل بحياة الإنسان في الأيام القريبة من حاضره، ومنها ما يعود إلى حقبة سابقة من عمره قد تصل حتى أيام طفولته. ومن هذه الزاوية يكون القول إن الكثير من الرغبات المكبوتة لدى الفرد تعمل في تكوين أحلامه وتلبي أغراضها.

أما الوظيفة الثانية للأحلام فتبدو في تيسير استمرار النائم في نومه وتمتعه بخيرات النوم وذلك عن طريق ما تنطوي عليه الأحلام من تمويه وتحويل ومما هو جذاب وملذّ. وحين يخفق الحلم في الاستمرار ضمن هذه الخصائص أو الصفات، ويصبح مؤذياً أو مؤلماً، فإنه يغدو عندئذ مقلقاً لدرجة ينجم عنها استيقاظ النائم: أي يأتي عنها إخفاق الحلم في أداء وظيفته الثانية هذه. والمثال البسيط، في مثل هذا الحال، استمرار الحلم لدى النائم حتى وإن رأى أنه جرح ثم استيقاظه بسرعة عندما ينطوي حلمه على ما يشير إلى أنه يموت.

تفسير الأحلام

المقصود من تفسير الأحلام أو تأويلها، في الدراسات النفسية، هو استخراج دلالتها. والقول بوجود دلالة للأحلام قديم في حياة الإنسان وواضح الانتشار في حضاراته المختلفة. وفي استخراج الدلالة أكثر من اتجاه، وفي المقدمة الاتجاه الذي يشير إلى المستقبل والاحتمالات فيه، والاتجاه الذي يشير إلى واقع حياة الشخص وماضيه وما يوجد لديه من مشكلات. يستشهد جماعة من الاتجاه الأول بقصة يوسف ورؤيا الملك المتصلة بسبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف، وتأويل يوسف للرؤيا بأنها تدل على سبع سنوات خصاب تأتي بعدها سبع سنوات يسودها القحط. ولكن التدقيق في هذه القصة ينتهي إلى أن قصة يوسف حالة خاصة، إذ إن الله اجتباه وعلمه من تأويل الأحاديث ما لم يكن يعلم. لذلك يأخذ أكثر القائلين بهذا الاتجاه الأول بمبدأ الاحتمال والإمكان لدى تأويل الأحلام وذكر ما تتصل به من أمور المستقبل. ويمثل هذا المنحى ابن سيرين في كتابه عن تفسير الأحلام حين يورد الكثير الكثير مما يمكن أن تنطوي عليه الأحلام وما يحتمل أن تدل عليه مع الإلحاح على أن العلم عند الله وأن العامل في تفسير الأحلام يجب أن تتوافر فيه صفات علمية وأخلاقية ودينية من مستوى عال ليكون قادراً على استخراج ما يحتمل من دلالة للحلم.

أما الاتجاه الثاني الذي يقف عند حاضر الشخص ومشكلاته، وما ينطوي عليه ماضيه مما يقف وراء هذه المشكلات، فالممثل الأول له هو فرويد[ر] Freud يقول فرويد في مطلع كتابه «تفسير الأحلام»: «سأقيم البرهان في الصفحات المقبلة على أن ثمة منهجاً سيكولوجياً يمكن به تفسير الأحلام، وأننا إذا اصطنعنا هذا المنهج تكشّف أمامنا كل حلم فإذا هو بناء نفسي ذو معنى يمكن الربط بينه وبين مشاغل اليقظة في موضع معلوم». ويعد هذا المنطلق أساساً في نظرية «التحليل النفسي» وحجر قاعدة في التطور الواسع الذي عبّر عنه باحثون كثيرون اهتموا، بعد فرويد، بالأحلام ووظائفها.

وفي عملية تفسير الأحلام اهتمام بأمرين: الأول أن الحلم رمزي في الكثير من عناصره وفي شكل تجمعها مع بعضها، والثاني أنه ذو معان خاصة يجب استخراجها. ويحتاج فهم الحلم واستخراج دلالته إلى معرفة واسعة بدلالة الرموز، وإلى حدس علمي وبصيرة ثاقبة، وإلى سعي حثيث وتدقيق عميق من أجل إدراك التشابه في جهات بين أمرين هما: الرمز، وما يدل عليه، وذلك من حيث الشكل والوظائف والصفات المميزة.

ويفصِّل فرويد القول في ما يلزم لتفسير الحلم ويلح على ضرورة فهم نوع الارتباطات الموجودة بين عناصر الحلم والرغبات التي تحركه والأغراض التي ينتهي إلى تحقيقها. ويقتضي تفسير الحلم كذلك فهماً دقيقاً لسير العمليات العقلية و«آلياتها»، وما تعبر عنه من دفاع، وما تشير إليه من هروب إلى الرموز بدلاً من مواجهة الوقائع وذلك بغية اتقاء المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها النائم بسبب من بقايا الشعور لديه ونزوعه إلى أن يتفادى في حلمه أمراً يحرمه المجتمع ويحاسب عليه. وإذا كان الغالب عند ابن سيرين أن يقدم الحل جاهزاً ذاكراً ما يدل عليه هذا الرمز أو ذاك، فإن أصحاب الاتجاه الحديث الذين يعبرون عن منحى فرويد ويتابعون خطواته ويحلّون الأحلام مكانة خاصة في فهمهم للشخص ومشكلاته يضعون قوائم مطولة في الرموز التي يمكن أن تظهرفي الأحلام ودلالتها، ولكن تأويل الحلم يبقى لديهم عملية فردية خاصة بكل حلم وكل شخص، مع العلم أن الشخص يساعد عالم النفس العامل في تفسير الحلم على الوصول إلى غرضه وذلك عن طريق ما يذكره الشخص من شروح وبيانات بشأن الحلم الذي يوضع موضع التفسير.

أصناف الأحلام

تذهب الدراسات المتأثرة بمدرسة التحليل النفسي إلى وضع الأحلام في أربعة أصناف هي: الأحلام النموذجية، وأحلام العقاب، وأحلام القلق، وأحلام الكابوس. تمثل الأحلام النموذجية الأشكال الشائعة بين الأحلام من حيث المحتوى والدلالة، ومثال ذلك أحلام الامتحانات أو موت شخص عزيز. أما أحلام العقاب فتنطوي على تحمّل الشخص عقاباً ما في محتوى الحلم، ويعبّر ذلك عن تغلّب الرغبة في وقوع العقوبة وهي الرغبة المتأثرة بمحاسبة الأنا الأعلى أو الضمير على الرغبات المتصلة بشهوات تكون بين محتويات الحلم وتكون محرّمة في حياة اليقظة. وتحدث أحلام القلق حين يخفق الحلم في وظيفته الهادفة إلى تحقيق رغبة لاشعورية بطريقة تبقى مقبولة ساعة الحلم، وتكون النتيجة ظهور القلق واستفاقة الشخص من نومه. أما أحلام الكابوس التي يغلب فيها أن تكون قاسية فهي نوع من أحلام القلق، ويمرّ بها كل إنسان، ولكنها تكثر في مراحل الطفولة لشدة ما يمرّ به الطفل من صراعات في حياته اليومية.

مكانة الأحلام في المعالجة النفسية

يُعدّ تفسير الأحلام واحداً من القواعد الأساسية في المعالجة النفسية كما يقول بها فرويد وأدلر [ر] Adler ويونغ [ر] Jung والآخذون باتجاهاتهم، وكثيرون غيرهم من المتأثرين بإنجازات مدرسة التحليل النفسي. ويجتمع هؤلاء عند القول إن فهم الحلم يعني الوصول إلى جزء مهم من محتويات اللاشعور عند الفرد المضطرب نفسياً مما يكون العامل والمحرك في اضطرابه: أكانت هذه المحتويات رغبات أو دوافع مكبوتة، أم كانت مركبات متصلة بمشاعر الإثم أو بخبرة مؤلمة حدثت قديماً أيام الطفولة. وحين يجتمع المعالج النفسي

والمعالَج المضطرب نفسياً في موقف المعالجة، فإن الأول يوفر للثاني الفرصة لينطلق في الحديث عن حلمه وتفصيلاته حديثاً يعتمد التداعي أي استدعاء بعض العناصر النفسية بعضها الآخر بسبب من روابط بينها. ويتأثر هذا الحديث بضعف في رقابة الشعور يرافق عملية التداعي، ويكون من نتيجة هذا الحديث البعيد عن رقابة الشعور الصارمة أن تنفتح نافذة على اللاشعور العامل عند المعالَج في تكوين الحلم تظهر منها تدريجياً، للمعالج والمتعالج معاً، عناصر من محتويات ذلك اللاشعور فتغدو واضحة أمام الاثنين من حيث دلالتها الحقيقية وطريقة تكوّنها. ويؤدي هذا الفهم لمحتويات اللاشعور العاملة في تكوين الحلم إلى ضعف أثر تلك المحتويات لأنها أصبحت شعورية عند المتعالج وغدت مفهومة منه فهماً جديداً وواضحاً لم يعد معه يشعر بالتهديد. وبهذا الطريق يتخلص المتعالج من اضطرابه النفسي تدريجياً مع التغير في انفعالاته التي كانت تأخذ صورة قاسية مع غموض محتويات اللاشعور وغدت تأخذ صورة جديدة مع انكشاف هذه المحتويات ووضوحها وفهمه لها. ويكون هذا التغيُّر الإشارة الأولى الدالة على سير المعالجة النفسية المعتمدة على تفسير الأحلام نحو تحقيق أغراضها.

نعيم الرفاعي

الموضوعات ذات الصلة:

التحليل النفسي - الشعور واللاشعور - النفس (علم -)

مراجع للاستزادة:

- محمد بن سيرين، تفسير الأحلام الكبير (مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة ١٩٦٣).
- سيغموند فرويد، تفسير الأحلام، ترجمة مصطفى صفوان (دار المعارف بمصر القاهرة).
- E. JERRY PHARES, Clinical Psychology, 3ed Ed. (The Dorsey Press, Chicago, Illinios 1988).

■ أحمد (زكريا -)
(١٨٩٦ - ١٩٦٠م)

موسيقي وملحن مصري، ولد في القاهرة وتوفي فيها. لقب بالشيخ منذ صغره، وكان في بداية حياته الفنية مقرئاً ومؤذناً ومنشداً للابتهالات.

درس الشيخ زكريا أصول الغناء والتلحين على الشيخ درويش الحريري مدة عشر سنوات ثم تابع دراسته الموسيقية، ولاسيما العزف على العود، مع الملحن محمد القصبجي الذي درس عليه كذلك محمد عبد الوهاب.

كانت طقطوقة «إرخي الستارة اللي في ريحنا» التي لحنها للمطرب عبد اللطيف البنا سبباً في شهرته والتفاف المغنين حوله. وفي العام ١٩٢٤ اتجه زكريا إلى المسرح الغنائي، وفي مدة عشرين عاماً لحن ثلاثاً وخمسين مسرحية غنائية ضمت خمسمئة وثمانين أغنية. ومن أشهر المسرحيات التي لحنها: «يوم القيامة»، و«عزيزة ويونس» و«الهادي» لفرقة يوسف وهبي، و«علي بابا» لفرقة علي عكاشة. وفي هذه الحقبة بدأت سيطرة السينما على المسرح الغنائي فقام زكريا في عام ١٩٣٢ بتلحين معظم أغاني فيلم «أنشودة الفؤاد»، من تمثيل جورج أبيض، وغناء نادرة الشامية، الذي يعدّ أول فيلم غنائي في مصر وفي الوطن العربي. وقد شارك حتى عام ١٩٥٢ في تلحين أغنيات ما ينوف على ثلاثين فيلماً زاد عدد الأغاني التي لحنها فيها على تسعين أغنية نال معظمها شهرة واسعة.

بدأ زكريا يلحن لأم كلثوم منذ ١٩٣١ واستمر أكثر من خمس عشرة سنة. وقد قاضى الإذاعة المصرية في هذه الحقبة من أجل حقوقه في إذاعة ألحانه كما قاضى أم كلثوم فيما بعد من أجل حقوقه المتصلة بغنائها لألحانه، وكان الرابح في القضيتين ومنعت أم كلثوم من غناء ألحانه. وفي سنة وفاته غنت أم كلثوم أغنية هو صحيح التي لحنها لها وقتئذ بعد تصالحهما، وكانت مسك الختام.

كانت علاقة زكريا بالشيخ سيد درويش وطيدة، وكان أشد الناس إعجاباً به. وقد أسهم زكريا أحمد في تطوير الطقطوقة والدور [ر. الصيغ الموسيقية] مع أنه تقليدي يعاند التجديد. فقد جعل لكل غصن في الطقطوقة لحناً جديداً بعد أن كانت الأغصان فيها متشابهة اللحن. كما أغنى الدور في ألحانه وتبادل الآهات بين المغني ومجموعة المنشدين.

يمتاز زكريا أحمد بمزاجه الخاص وبمحافظته على مضمون أشكال الغناء العربي التقليدي، كما كان غناؤه، مع جشة صوته، مدرسة لكثير من المطربين. وكان غزير الألحان متفوقاً على غيره في الكثرة والجودة إذ كان عدد الأغاني التي لحنها نحو ألف وسبعين أغنية، وقد بدأ يلحن وهو في سن العشرين، وامتازت ألحانه بالانفعال في الترداد والتصعيد الغنائيين وغنى ألحانه ثلاثون من أشهر المغنين في عصرهم.

صميم الشريف

الموضوعات ذات الصلة:

الموسيقى العربية.

مراجع للاستزادة:

- صبري أبو المجد، زكريا أحمد (المؤسسة المصرية العامة، القاهرة).
- فيكتور سحاب، السبعة الكبار (دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧).
- صميم الشريف، السنباطي وجيل العمالقة (دار طلاس، دمشق ١٩٨٨).

■ أحمد (فايزة -)
(١٩٣٠-١٩٨٢م)

ولدت المغنّية فايزة أحمد في صيدا (لبنان) وتوفيت في القاهرة. مالت إلى الموسيقى والغناء منذ طفولتها، وترجع ذخيرتها الأساسية إلى ما كانت تحفظه من الإذاعة والأسطوانات لمشاهير المطربين والمطربات.

التحقت فايزة أحمد في بداية حياتها الفنية بكورس الإذاعة السورية وذلك بعد نزوحها وعائلتها إلى دمشق، وغنت في الملاهي ألحان الأعلام مثل محمد القصبجي، وزكريا أحمد، والسنباطي. وتعدّ هذه المرحلة من حياتها الفنية، وهي مرحلة التقليد، مرحلة مهمة لأنها أسهمت في صقل صوتها وتدريبه عن طريق تلك الأغاني. وكانت قصيدة «ياجارتي ليلى» من ألحان عازف البزق محمد عبد الكريم والموشحة الدينية «صلِّ على النبي» من ألحان محمد محسن أولى الأغاني التي غنتها.

لمع اسم فايزة أحمد بسرعة في أجواء دمشق وبدأت تحيي الحفلات الغنائية، وشاركت في حفلات الجمعيات الخيرية بدون مقابل، وأحيت الكثير من الحفلات الخاصة التي كانت تنظمها أسرة الجندي. وفي عام ١٩٥٥ سافرت فايزة إلى القاهرة لتمارس عملها الغنائي في مجال أوسع، وبدأت تصعد السلم درجة درجة يساعدها في ذلك صوتها الدافىء وحسّها الفني.

وقد تزوجت من الملحن محمد سلطان وخصت صوتها منذ ذلك الحين لألحانه. وفي عشر سنوات غدت نجمة المسارح تزاحم الشهيرات ممن سبقنها. وقد شاركت في التمثيل في ستة أفلام سينمائية، واضطلعت ببطولة مسرحية استعراضية واحدة بعنوان «مصر بلدنا»، كما شاركت بالغناء في عدد من الأعمال الموسيقية الإذاعية. وتمتلك وسائل الإعلام المسموعة والمرئية في القاهرة أربعمئة أغنية ونيف لفايزة أحمد منها ثمانون أغنية مسجلة تلفزيونياً.

صميم الشريف

■ أحمد آباد

أحمد آباد Ahmadabad مدينة كبيرة في غربي الهند وعاصمة ولاية كجرات Gujarat ومركز رئيس لإقليم أحمد آباد، تقع على الضفة اليسرى لنهر سابَرْمتي Sabarmati على ارتفاع ٥٥ متراً فوق سطح البحر وتبعد ٧٥١ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة دلهي[ر].

تأسست أحمد آباد في عهد السلطان أحمد شاه الأول، أول سلاطين كجرات المستقلين، سنة ١٤١١م. وكانت في زمن ملوك المغول الأوائل في القرنين الخامس عشر والسادس عشر واحدة من أعظم مدن الهند.

مرّت أحمد آباد بعهود متعاقبة من الانحطاط والتطور، فقد واصلت تقدمها في عهد الدولة الكجراتية. ولما استقر الأمر للامبراطور المغولي الشهير أكبر دخلت في حكمه سنة ١٥٧٢ مع سائر أنحاء المملكة، ولم تفقد رونقها وازدهارها بل ظلت أجمل مدينة في الهند طوال القرن السابع عشر. وأخذت بالانحطاط في أواخر عهد الامبراطورية المغولية ولاسيما بعد أن سقطت في يد قبيلة المهرات إذ استغل صاحب مملكة بارودا ضعف ممثل الامبراطورية المغولية في تلك المنطقة فزحف سنة ١٧٣٧ على المدينة وألحقها ومقاطعتها بمملكته. وظلت في حكم تلك المملكة حتى اضطر سلطانها إلى النزول عنها للإنكليز سنة ١٨١٨. وفي سنة ١٨١٩ أصيبت بزلزال شديد قوّض بعض مبانيها وزاد في انحطاطها. وبقيت في يد الإنكليز حتى استقلال الهند سنة ١٩٤٨ فغدت عاصمة لمنطقة أحمد آباد من ولاية بومبي.

أخذت المدينة تستعيد شيئاً من حركتها الصناعية والتجارية منذ عام ١٨٥٩، فعُززت فيها صناعة المنسوجات القطنية والحريرية التي اشتهرت بها منذ القدم.

وبعد إدخال المناسج الآلية وطرائق الصناعة العصرية مالت إلى نوع من التخصص الصناعي استدعى عشرات الألوف من العمال فضلاً عن أرباب المتاجر والمصانع وسائر المستفيدين من تلك الحركة، فازداد سكانها زيادة كبيرة فاقت كل تقدير، وغدت من كبريات مدن الهند وأحد المراكز الصناعية الناشطة فيها وبلغ عدد سكانها ٢٩٥٤٥٠٠ نسمة عام ١٩٩٥، وقد زودت بشبكة محسنة من الخطوط الجوية والسكك الحديدية، وأنشىء فيها مايزيد على ربع مصانع ولاية كجرات البالغ عددها نحو ١٠٠٠ مصنع، وهي ثاني مراكز حلج القطن في الهند. ومن صناعاتها الأخرى التبغ وصناعة الزجاج.

تكثر في أحمد آباد الجوامع الجميلة والأضرحة والبوابات القديمة التي يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ويجتمع في بعضها إبداع الفن الإسلامي والإبداع الهندوسي، وخير مثال على هذا التمازج المسجد الجامع أو جامع أحمد آباد الكبير الذي بني عام ١٤٢٣. وثمة أضرحة جميلة لبعض السلاطين والأمراء ونسائهم وأبنائهم تزينها النقوش والفسيفساء. وهذا كله يجعلها من خير المواقع لدراسة الفن المعماري الإسلامي في الهند.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:
الهند.

■ أحمد بن إبراهيم بن أحمد
(١٠٥٢-١١٠٦هـ / ١٦٤٣-١٦٩٥م)

هو السلطان العثماني الحادي والعشرون (١١٠٢-١١٠٦ / ١٦٩١-١٦٩٥)، ويعرف بالسلطان أحمد الثاني، وهو الابن الثالث للسلطان إبراهيم، ولد في ٦ ذي الحجة / ٢٥ شباط، وخلف في الحكم أخاه السلطان سليمان الثاني في ٢٦ رمضان / ٢٣ حزيران. شهد حكم السلطان أحمد احتدام القتال بين الجيش العثماني والقوى الأوربية بزعامة آل هابسبورغ حكام النمسة، وقتل في أثنائه الصدر الأعظم

فاضل مصطفى باشا كوبريلي Koprulu في وقعة سلانكمن Szlankemen جنوب شرق كارلوفيتز. وقد أخفق البنادقة في الاستيلاء، في العام التالي، على خانية في جزيرة كريت، وأجبر الصدرُ الأعظم بوزوتلي مصطفى باشا الجيش النمسوي على رفع الحصار عن بلغراد عام ١٦٩٣م، ولكن العثمانيين لم يتمكنوا من منع البنادقة من الاستيلاء على جزء من دلماسية، وعلى جزيرة خيوس في أيلول ١٦٩٤، واضطر البنادقة إلى الخروج من خيوس في العام التالي إثر ثورة شعبية فيها.

وشهدت الولايات العربية اضطرابات متعددة في عهد السلطان أحمد، من ذلك كثرة تعرّض البدو لقافلة الحج الشامي، وهي إحدى قافلتين رئيسيتين في الدولة العثمانية إلى جانب قافلة الحج المصري، وكانت حماية قوافل الحج ذات شان كبير لدى السلطان العثماني الملقب بحامي الحرمين الشريفين، وقد كان أمراء الحج الشامي



آنذاك من الموظفين العثمانيين الذين كانوا أغراباً، ولم يتمكنوا من التفاهم مع البدو المسيطرين على طريق الحج، وكانت رغبة هؤلاء الموظفين الأمراء استغلال وظيفتهم للإثراء، فامتنع بعضهم عن دفع القسط الثاني من الصرّة أي الإتاوة، للبدو لشراء حمايتهم، وكان هذا القسط يدفع عند العودة، فردّت القبائل بمهاجمة القافلة مما أساء إلى سمعة السلطان الدينية، فعمد إلى تعيين ولاة دمشق أمراء للحج لضمان سلامته، وكان لهذا التعيين الذي بدأ في عام ١٧٠٨ آثاره الإيجابية والسلبية على دمشق منذئذ.

وقامت في عهد السلطان أحمد اضطرابات في العراق، وحدثت تعديات على تونس قام بها حكام الجزائر وطرابلس الغرب.

توفي السلطان أحمد بمرض الاستسقاء في ٢٢ جمادى الآخرة / ٦ شباط. ويكاد يجمع المؤرخون على أن السلطان أحمد الثاني كان سوداوي المزاج، سريع الغضب قريب الرضا، ضعيف الإرادة، يتأثر كثيراً بالمقربين إليه، وكان يكره سفك الدماء. وكان إلى ذلك، محباً للموسيقى، هاوياً للصيد، متفنناً بأنواع الخطوط.

عبد الكريم رافق

الموضوعات ذات الصلة:

العثمانيون.

مراجع للاستزادة:

- عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، الطبعة الثانية (دمشق ١٩٦٨).
- S. SHAW, History of the Ottoman Empire & Modern Turkey, Vol.I California University Press 1976.

■ أحمد بن إدريس الحسني ← (الصوفية (الطرق-)

■ أحمد بابا التكروري

(٩٦٣-١٠٣٦هـ/ ١٥٥٦-١٦٢٧م)

فقيه مالكي، ومن مؤرخي التراجم في السودان الغربي في القرن العاشر-الحادي عشر للهجرة / السادس عشر-السابع عشر للميلاد. اسمه الكامل ونسبه: أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى التكروري، الصنهاجي، الماسي، المستوفي، التنبكتي.

ولد بقرية عرْوان قرب تنبكتو، ليلة الأحد في ٢١ ذي الحجة ٩٦٣هـ / ٢٦ تشرين الأول ١٥٥٦م. ونشأ في عصر كانت فيه بلدة تنبكتو قد حظيت في عهد ملوكها من الأسيقيين (٨٩٩-١٠٠٠هـ / ١٤٩٣-١٥٩١م) بنهضة علمية وتعليمية، تمثلت برعاية للعلماء والفقهاء، وبتشجيع للأدب والعلوم الدينية، وبحفز على التأليف، وتأسيس المكتبات.

وكانت أسرته أسرة علم ودين فمعظم أفرادها من العلماء والقضاة، وقد أخذ العلم عن والده وعمه، وعن كثير من كبار علماء عصره، من أمثال الشيخ محمد بَغْيع، وقرأ عليهم أمهات الكتب العربية الإسلامية، وبرع في التفسير والحديث والفقه والعربية، والتصوف. ونهل من نفائس الكتب التي كانت تضمها مكتبتا والده وجده، وكوّن لنفسه مكتبة غنية لم تتبعثر مقتنياتها حتى اليوم، على الرغم من أن جزءاً منها قد فقد في أثناء نفيه إلى مراكش.

بدأ بالتأليف في سن مبكرة، واشتهر اسمه في السودان على أنه فقيه مالكي متمكن. وعندما ضمَّ أحمد المنصور السعدي، سلطان المغرب (٩٨٦-١٠١٢هـ / ١٥٧٨-١٦٠٣م)، بلاد السودان إليه عام ١٠٠٠هـ/ ١٥٩٣م، رفض أحمد بابا الاعتراف بسلطانه على بلاده، فقبض عليه قائده محمود زرقون بتهمة تدبيره ثورة في تنبكتو لتقويض الحكم المغربي. وحمل والحديد في قدميه، هو وأسرته إلى مراكش، في الفاتح من رمضان ١٠٠٢هـ/ ٢١ أيار ١٥٩٤م. وبعد سنتين من السجن، وفي ٢١ رمضان ١٠٠٤هـ/ ١٩ أيار ١٥٩٦م أفرج عنه على ألا يغادر مدينة مراكش. فانصرف إلى تعليم الفقه والحديث في جامع الشرفاء، واستمع لدروسه خلق كثير، من كبار علماء المغرب وقضاتها ومفتيها، على الرغم من أن لسانه كان معقداً لا يفهم إلا بعد ممارسة.

وكان يطلب إليه بين حين وآخر أن يفتي في بعض القضايا، فكان يفعل إنما على مضض.

وعند وفاة أحمد المنصور السعدي، أذن خليفته مولاي زيدان لأحمد بابا في عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥-١٦٠٦م، بالعودة هو ومن بقي من أسرته إلى موطنه تنبكتو. ويبدو أنه حج إلى الديار المقدسة قبل أن يلتحق بموطنه. وفي تنبكتو وقف بقية حياته على تدريس الفقه

المالكي بصفة خاصة. وقد اتفق مؤرخوه ـ ما عدا المحبّي ـ على أن وفاته كانت في ٦ شعبان ١٠٣٦هـ/ ٢٢ نيسان ١٦٢٧م، بينما جعلها المحبي في ٧ شعبان سنة ١٠٣٢هـ / ٦ حزيران ١٦٢٣م.

ولأحمد بابا ما يربو على خمسين مصنفاً في الفقه المالكي، والقواعد العربية، وفي موضوعات عقلية ونقلية، ومن أبرزها: شرحان موجزان لمختصر الخليل، و«نيل الأمل في تفضيل النية على العمل»، و«النكت الزكية لشرح الألفية».

إلا أن أهم هذه المؤلفات كتابه في التراجم المسمى «نيل الابتهاج بتطريز الديباج»، الذي جعله ذيلاً لكتاب «الديباج المذهّب في معرفة أعيان المذهب»، لابن فرحون المتوفى ٧٩٩هـ / ١٣٩٧م. وقد بدأ أحمد بابا كتابه هذا في تنبكتو وأنهاه في مراكش عام ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م. وهو يضم ٨٣٠ ترجمة لعلماء المالكية في المغرب العربي الإسلامي، ممن لم يأت على ذكرهم ابن فرحون. وقد طبع الكتاب على الحجر في فاس، عام ١٣١٧هـ، كما طبع في القاهرة ١٣٢٩هـ، على هامش كتاب «الديباج».

ومؤلفه هذا مظهر حيّ من مظاهر تمكن الحضارة العربية الإسلامية، واللغة العربية في السودان الغربي، في القرن العاشر الهجري، كما أنه صورة نيّرة للتفاعل الحضاري بين بلاد المغرب الإسلامي والسودان الغربي. وهو إلى جانب ذلك مصدر مهم جداً عن الحياة الفكرية وتياراتها في الإقليمين في المرحلة التي ترجم أعلامها، ناهيك عن طرحه معلومات قيّمة عن التصوف في تلك البقاع، بترجمته عدداً من أعلامه الكبار.

وقد اختصر أحمد بابا كتابه وهذّبه في مؤلف آخر هو «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج»، الذي لم يضمّنه سوى ٦٣٠ ترجمة، وهو الرقم نفسه من الأعلام الذي حواه كتاب «الديباج».

وقد عرف عن أحمد بابا أنه كانت لاتأخذه في الحق لومة لائم، وبأنه كان لايهاب أحداً، ولو كان السلطان ذاته في المجابهة بالكلمة التي يعتقد بأنها حق وصواب. ويذكرون عنه، عندما أخذ لمقابلة أحمد المنصور السعدي سلطان المغرب، الذي نفى أحمد بابا وسجنه، أراد السلطان أن يكلمه وهو مستتر وراء حجاب، فرفض أحمد بابا أن يجري بينهما حديث ما طالما هو محتجب وراء ستارة، لأن السلطان بعمله هذا يقلد الله تعالى جلّ شأنه. فانصاع أحمد المنصور ورفع الحجاب بينهما.

ليلى الصباغ

مراجع للاستزادة:

ـ السعدي، تاريخ السودان، حزءان: ٣٥ ـ ٣٦ (نشر هوتسما).

ـ القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، حزءان: ١٥١ ـ ١٥٣ (فاس ١٣١٥هـ).

ـ المحبّي، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ٤ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤هـ).

- M. A. ZOUBEIR, Ahmed Baba de Tombouctou 1556- 1627(Sa Vie et Son Oeuvre, Paris 1977).

■ أحمد باي ◄ الحسينية

أحمد باي ◄ الحسينية

■ أحمد جودت باشا

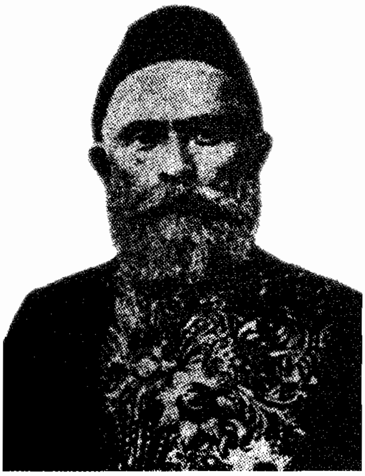
(١٢٣٧ـ١٣١٢هـ / ١٨٢٢ـ١٨٩٥م)

أحمد جودت باشا، رجل دولة تركي عثماني، ومؤرخ شهير، وأديب، من القرن التاسع عشر للميلاد. ولد في لوفجة Lofea شمالي بلغارية، حيث كان والده حاجي إسماعيل آغا عضواً في المجلس الإداري للمدينة. وتلقى أحمد مبادىء العلوم الإسلامية في مسقط رأسه، وتابعها، وتعمق فيها، في إحدى مدارس اصطنبول، عاصمة الدولة العثمانية، والمركز الأكبر للإشعاع الفكري فيها، مضيفاً إليها بعض العلوم العصرية، كالرياضيات، والفلك، والجيولوجية، والفلسفة. وسعى وهو في العاصمة، لإجادة اللغتين العربية والفارسية، حتى نظم الشعر بهما كما نظمه بالتركية، فأعطي اسم «المخْلَص جودت» الذي عُرف به. ونال نتيجة دراساته الإجازة التي تسمح له بالانخراط في سلك القضاء.

ويمكن أن يُميَّز في حياة أحمد جودت بعد تخرجه وحتى وفاته، أربع مراحل:

المرحلة الأولى: وتمتد ثلاثة عشر عاماً (١٢٦٢ـ١٢٧٥هـ / ١٨٤٦ـ١٨٥٨م) والمرحلة الثانية: وتمتد ثماني سنوات (١٢٧٥ـ١٢٨٣هـ / ١٨٥٨ـ١٨٦٦م) والمرحلة الثالثة: وهي أطول المراحل، ودامت ما يقرب من ربع قرن (١٢٨٣ـ١٣٠٧هـ/ ١٨٦٦ـ١٨٩٠م) والمرحلة الرابعة: ومدتها خمس سنوات (١٣٠٧ـ١٣١٢هـ/ ١٨٩٠ـ١٨٩٥م) وهي التي انتهت بوفاته.

المرحلة الأولى: بزغ نجم أحمد جودت في ميدان الأدب، والفكر التاريخي والتشريعي. ويبدو أنه أظهر في أثناء دراسته فكراً واسعاً وعميقاً، ودقة في تفهم الأمور الشرعية، حتى إنه عين وهو في الرابعة والعشرين من عمره (١٨٤٦م) بتوصية من شيخ الإسلام، مساعداً للصدر الأعظم، مصطفى رشيد باشا، في أثناء إعداده للقوانين، و«النظام نامه الجديدة»، التي كانت الدولة العثمانية بصدد تهيئتها في هذه



المرحلة الإصلاحية من حياتها. وبقي ملازماً للصدر الأعظم ثلاثة عشر عاماً، أي حتى وفاة هذا الأخير عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م. وتحت تأثير رشيد باشا عُيّن لمناصب تعليمية وثقافية لها شأنها، منها إدارة دار المعلمين المنشأة حديثاً،

والسكرتارية الأولى لمجلس المعارف. وفي المنصبين أدى خدمات مفيدة للتربية والتعليم والثقافة. وإلى هذه المرحلة يرجع إسهامه الفعال في إنشاء ماسمي بـ« الإنجومين دانيش » (١٨٥١م)، التي كانت أشبه ماتكون بالأكاديمية الفرنسية وتحت تأثير هذه الجمعية، وبدفع من السلطان عبد المجيد (١٢٥٥-١٢٧٨هـ/ ١٨٣٩-١٨٦١م) شرع أحمد جودت بتأليف عمله التاريخي الكبير الذي عرف فيما بعد باسمه، وهو تاريخ وقائع الدولة العثمانية. وعندما قدم الأجزاء الثلاثة الأولى منه إلى السلطان كافأه السلطان بتعيينه مؤرخاً رسمياً للدولة (وقعة نويس). وإلى جانب تأليفه التاريخي ذاك، فإنه أسهم في وضع « القانون النامه الجزائية »، و« قانون نامه الطابو » نتيجة عمله عضواً في مجلس التنظيمات، ثم رئيساً لـ« لجنة الأراضي السنية » وألف كتاباً في القواعد التركية تحت عنوان « قواعدي عثمانية » بالاشتراك مع فؤاد باشا.

المرحلة الثانية: وتبتدىء بوفاة رشيد باشا، وقد شجعه فيها كل من فؤاد باشا وعالي باشا - وهما أكبر شخصيتين سياسيتين كان لهما دور رئيسي في الإصلاحات التي حققتها الدولة العثمانية - على ترك عمله ذي الطابع العلمي، والاتجاه إلى الأعمال الإدارية والسياسية. ولثماني سنوات بقي أحمد جودت عاملاً في المنحيين معاً: المنحى العلمي، والمنحى الإداري الذي أثبت كفاية في مضماره عندما عمل على تهدئة بعض الأقاليم الثائرة بإدخال الإصلاحات الضرورية فيها، كمنطقة قُزان في طوروس، وإقليم البوسنة.

المرحلة الثالثة: وفيها انصرف أحمد جودت تماماً إلى الأعمال الإدارية والسياسية، فترك عمله التاريخي بصفته « وقعة نويس »عام ١٨٦٦م، ومنح رتبة وزير، ولقب باشا، وتنقل لربع قرن تقريباً، وبالتناوب بين منصبي الولاية والوزارة فعين لمنصب ناظر الحقانية (وزير العدل) خمس مرات (١٨٧٠ ، ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ ، ١٨٧٩ ، ١٨٨٦) ولمنصب ناظر المعارف (وزير التربية) ثلاث مرات (١٨٧٣ ، ١٨٧٥, ١٨٧٦) ولمنصب ناظر الداخلية مرة واحدة (١٨٧٦)، وللأوقاف (١٨٧٧) وللتجارة (١٨٧٨) مثلها. كما عمل صدراً أعظم مدة عشرة أيام عام ١٨٧٩، بعد عزل خير الدين باشا.

وقد أظهر جودت باشا، نشاطاً كبيراً في أثناء وزاراته المختلفة، وحماسة للإصلاح والتقويم، وإن كانت أفكاره مزيجاً من نزعات تقدمية ورجعية. فهو يريد الإصلاح، وتقدم المجتمع العثماني، وهو يهاجم بقوة كل مظاهر الجهل، والتعصب، والانصراف وراء المصلحة الخاصة، التي كانت من صفات الهيئات الحاكمة آنذاك كما كان يحارب بشدة الخرافات المنتشرة بين الشعب، إلا أنه بالمقابل كان لاينسجم مع أخذ الجديد من الحضارة الغربية. وقد ازدادت أفكاره تقليدية مع تقدمه بالسن، وخصومته لمدحت باشا، فقد كان هذا الأخير يندد دوماً بعدم إجادته اللغة الفرنسية، وبضآلة معرفته بالأفكار الأوربية المعاصرة.

وقد يكون أبرز ما قدمه في أثناء تسنمه منصب ناظر الحقانية تدوينه قانون القضاء أو ما يسمى بـ« مجلة الأحكام العدلية » وقد استند في صياغته إلى التشريع الإسلامي على الفقه الحنفي، متجاوزاً الأفكار التي كان يؤيدها عالي باشا التي كانت تطالب بتبني القانون المدني الفرنسي. وقد ثابر على عمله هذا حتى إنجازه في عام ١٨٧٧ ، على الرغم من التحاقه بأعمال ووزارات أخرى.

وفي أثناء وجوده في نظارة المعارف أصلح المدارس الابتدائية للذكور، ووضع البرامج التعليمية للمدارس الرشدية والإعدادية، وعمل على إيجاد كتب للطلاب، وألف هو نفسه ثلاثة منها، وأعاد تنظيم دار المعلمين.

ولم يظهر أحمد جودت باشا كفاية في أعماله الوزارية فحسب، وإنما حقق نجاحاً في أعمال الولاية عندما تسنم منصبها على التوالي، في حلب، وبروصة، ومرعش، ويانينة، والشام مرتين، على الرغم من المدد القصيرة نسبياً التي كان يمكث فيها.

ولكن إذا كان لأحمد جودت باشا ما يشرّفه في أثناء ممارسته لمناصبه في الوزارة والولاية، فإن توافقه التام مع نظام السلطان عبد الحميد، وموقفه من قضية مدحت باشا التي جرت في أثناء وزارته الرابعة للحقانية (١٨٧٩ - ١٨٨٢) يجرّحانه ويسيئان إليه. فقد كان على خلاف وعداء مع مدحت باشا لأن هذا الأخير كان يرى أن موقف جودت باشا من الدستور موقف رجعي، وأن أفكاره بعيدة عن الأفكار المعاصرة. ومن ثمَّ فقد نسب إلى جودت باشا أنه كانت له يد طولى في اتهام مدحت باشا بالخيانة ومناصرة النصرانية. وهو الذي ذهب بنفسه إلى أزمير للقبض عليه، وحمله إلى العاصمة بصفته رئيساً للفرقة التي كلّفت هذا الأمر.

المرحلة الرابعة والأخيرة من حياته:

وفيها اعتزل أحمد جودت باشا العمل السياسي تماماً، بعد أن استقال من النظارة الخامسة للحقانية عام ١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م. فاعتكف في بيته لمتابعة ما ابتدأه من تآليف أدبية وتاريخية، حتى وافته المنية في منزله في « بيبك » على شاطىء البوسفور، ودفن في تربة السلطان محمد الفاتح.

خلّف أحمد جودت عدداً من المؤلفات، بعضها بالعربية، وبعضها الآخر بالتركية. أما الأولى فهي: خلاصة البيان في جمع القرآن، وتعليقات على أوائل المطوّل في البلاغة، وتعليقات على الشافية في النحو.

ومؤلفاته باللغة التركية أكثر عدداً وتنوعاً. فهناك إسهاماته القانونية الكثيرة والمهمة، التي أشير إلى معظمها آنفاً. وهناك ما دونه في ميدان قواعد اللغة التركية وبلاغتها، ومنها « قواعدي تركية » و« بلاغتي عثمانية » وقد ألف الكتاب الأخير لطلاب مدرسة الحقوق. وله في الأدب « آداب سداد »، كما له « تقويم أدوار » وقد أثار فيه لأول مرة قضية ضرورة إصلاح التقويم. وقد كان لأحمد جودت باشا أيضاً إنتاجه الشعري الذي جمعه في ديوان « ديوانجه » بناء على طلب من السلطان عبد الحميد، وشرح « ديوان صائب »المشهور بين دواوين الشعر الفارسية.

إلا أن المؤلَّف الذي شغل مكان الصدارة بين مؤلفاته هو « تاريخ وقائع الدولة العثمانية » الذي عرف بـ« تاريخ جودت » وهو في اثني عشر جزءاً، ويتناول من تاريخ الدولة العثمانية، المرحلة الممتدة من معاهدة كوشوك قينارجه عام ١٧٧٤م، إلى القضاء على الانكشارية عام ١٨٢٦م. وقد كتبه على طريقة الحوليات، واستغرق تدوينه له ثلاثين عاماً، وطبع أول مرة في اصطنبول بين ١٢٧١ و١٣٠١هـ/١٨٥٦ و١٨٨٤م. وكررت طباعته. ونقل عبد القادر دنا البيروتي الجزء الأول منه إلى العربية. ويتصف الكتاب بصورة عامة، بوفرة مصادره، واعتماد مجلداته الأولى على الوثائق الرسمية، وبحس صاحبه النقدي، ومحاكمته الصائبة، إلا أنه بالمقابل زاخر بتحيزاته للدولة العثمانية.

ومن مؤلفاته التاريخية أيضاً: «قصص الأنبياء وتاريخ الخلفاء»، وهو كتاب ذو هدف تعليمي تربوي، فقد كان أحمد جودت باشا يؤمن بأهمية التاريخ في التربية. وهو مؤلف من ١٢ جزءاً، ويبتدىء بآدم وينتهي بعهد السلطان مراد الثاني.

ومن تدويناته التاريخية مجموعة من التقارير قدمها للسلطان عبد الحميد، وتؤرخ المرحلة من ١٨٣٩ إلى ١٨٧٦م، وهي في خمسة أجزاء، وقد نشر منها فقط الجزء الثاني، والثالث، والرابع، وله كذلك مجموعة من الملاحظات، دوّنها عن حوادث عصره عندما كان «وقعة نويس»، وأطلق عليها «تذاكري جودت» وقد اعتمدت ابنته فطمة علية خانم على بعضها في كتابها «جودت باشا وزماني».

ويضاف إلى مدوّناته التاريخية إكماله ترجمة مقدمة ابن خلدون التي ابتداها «بيري زاده محمد صائب».

ليلى الصباغ

مراجع للاستزادة:

- أديب تقي الدين الحصني، منتخبات التواريخ لدمشق (بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م).
- حرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، الطبعة الثالثة (بيروت).

■ أحمد بن حنبل
(١٦٤-٢٤١هـ / ٧٨٠-٨٥٥م)

أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشّيباني، أحد مشاهير أئمة الإسلام، ومؤسس المذهب الرابع عند أهل السنة.

ولد في بغداد، وبها نشأ، وفيها توفي، وكان أبوه جندياً في الجيش العباسي المرابط في خراسان، وتوفي في الثلاثين من العمر، وكان ولده أحمد ابن ثلاث سنين، فرعته أمه صفية بنت عبد الملك الشيبانية.

تعلم الكتابة والقراءة صغيراً، واتجه، وهو فتىً، إلى طلب العلم على علماء بغداد. وبدأ في سنة ١٨٢هـ الرحلة في طلب المزيد من علوم الشريعة، ولاسيما الحديث الشريف. فقصد الكوفة والبصرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ومدن اليمن والشام والجزيرة وأخذ عن علمائها. وعاد بعدها إلى بغداد بزادٍ علمي كبير، وبشهرة واسعة فقصده طلبة العلم من كل مكان. وفي الرابعة والخمسين من عمره تعرض للمحنة في عصر المأمون بسبب مسألة خلق القرآن التي هي من أظهر مبادىء المعتزلة [ر]. فقد كتب المأمون سنة ٢١٨هـ إلى نائبه في بغداد إسحق بن إبراهيم ابن مصعب يأمره بدعوة العلماء، وامتحانهم، فمن قال منهم بأن القرآن مخلوق تركه وشأنه، ومن قال غير ذلك سجنه، وأرسله إلى الخليفة في مدينة طرسوس حيث كان يقيم. وأرسل نسخاً من ذلك الكتاب إلى ولاة الأقاليم، ليقوموا بمثل ذلك.

استجاب العلماء لطلب المأمون خوف بطشه، إلا قليل منهم وفي مقدمة هؤلاء أحمد ابن حنبل، ومحمد بن نوح، فحبسا، وأرسلا إلى الخليفة مُقَيَّدَيْن. وما إن وصلا مدينة الرقة في الجزيرة حتى جاء نَعي المأمون وتولية المعتصم بالله سنة ٢١٨هـ، فأعيدا إلى بغداد وفي الطريق مات محمد بن نوح، وانتهى أحمد إلى السجن.

كان المعتصم يرسل إلى السجن من يناظر أحمد بن حنبل ويتوعده. وكان من أقارب أحمد من يحضه على القبول بخلق القرآن، لأنه مُكره، فكان يأبى كل ذلك، ويقول: «إذا أجاب العالم تَقيَّةً، والجاهل يجهل، فمتى يتبين الحق؟».

ورأى المعتصم أن يجمع بين أحمد بن حنبل ورؤوس المعتزلة للمناظرة في القصر. فاجتمع إليه أحمد بن أبي دُواد، رأس المعتزلة وقاضي القضاة، ووجوه من العلماء المؤيدين، ووقف أحمد يرسف في قيوده ويرد عليهم بالحجة ويطالبهم بالنص في البرهان على أقوالهم. واستمرت المناظرة ثلاثة أيام، وكاد المعتصم يميل إلى قول أحمد والعفو عنه، لولا أن ابن أبي دُواد صدّه عن ذلك، وحرضه عليه، فاندفع المعتصم يلطم أحمد، وأمر بربطه وجلده، حتى خُلعت يده اليسرى، وتمزق لحمه، وحُمل إلى منزله بعد ثلاثين شهراً من السجن.

وفي عام ٢٢٧هـ تولى الواثق الخلافة، فسار سيرة المعتصم والمأمون. ونفى أحمد من بغداد ومنعه من الاجتماع بأحد، فاختفى متنقلاً من موضع إلى آخر. بيد أنه عاد بعد أشهر إلى بيته، فلم يبرحه، ولو إلى صلاة الجمعة، إلى أن مات الواثق سنة ٢٣٠هـ وخلفه المتوكل على الله، فأبطل القول بخلق القرآن، ونكّل بالمعتزلة، وطلب من أحمد بن حنبل، وغيره من العلماء العودة إلى قول السلف.

ودعاه المتوكل إلى زيارته في سامرّاء، فاستجاب، ورحل إليها مع أهله، وأقام فيها ستة أشهر، ثم عاد إلى بغداد وظل فيها إلى وفاته. وكانت جنازته مشهودة ضمت آلافاً من المشيعين.

كان أحمد حسن العشرة متواضعاً، حليماً، طلق الوجه، شديد الحياء، قليل الكلام، محباً للوحدة، أنيق المظهر والثوب.

وكان على فقره زاهداً، امتنع عن ولاية القضاء أيام الرشيد والأمين. ورفض عطاء الجميع، بما في ذلك المأمون قبل المحنة والمتوكل بل إنه حين سافر إلى سامراء أنزله المتوكل أحد القصور فتحول عنه إلى بيت بسيط اكتراه، ولم يأكل من طعام الخليفة شيئاً، لأنه كان لايجيز ذلك، ويرى مقاطعة من يقبل عطاء الخلفاء والأمراء كما فعل مع عمه إسحق وولديه صالح وعبد الله بعد أن قبلوا عطاء المتوكل.

ولعل أبرز ما في شخصيته وخُلُقه تقديره للعلم وصبره على اكتسابه، وتكبده مشاق الانتقال من مدينة إلى أخرى في سبيل ذلك، وكان لايسمع من عالم شيئاً إلا كتبه وحفظه ولا يحدّث بحديث إلا كان من حفظه وكتابه. ويحرص على أن يعمل بما يعلم وكان كثير الإجلال لشيوخه، والثناء عليهم.

ومن أهم ميزاته الأخرى صلابته في الحق، وثباته عليه، وتجلّى ذلك أيام المحنة، وصبره على السجن والعذاب.

وكان يعيب على العلماء الذي اختاروا رخصة الإكراه قولهم بخلق القرآن تقية خوفاً من بطش الخليفة، وكان يرى أنهم لو صبروا في سبيل الله لخافهم المأمون وانتهت المحنة. وكان مع مالقيه من السجن والعذاب يدعو للخليفة بالاستقامة والرشاد ولايحرض الأمة عليه.

قال الشافعي: «أحمد إمام في السُّنَّة، إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في القرآن. إمام في اللغة».

أما إمامته في السُّنة، فلأنه يمثل عقيدة أهل السنة والجماعة، وهو المجاهر بها، والمدافع عنها وقت المحنة.

فالإيمان عنده اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، وهو يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية وإن التوبة تمحو كل ذنب. ومن ارتكب كبيرة، فهو بمشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له وعفا، وإن شاء عذبه، ولكنه لايخلد بالنار، خلافاً للخوارج [ر] الذين قالوا بتكفيره وخلوده في النار، وخلافاً للمعتزلة الذين قالوا هو بمنزلة بين المنزلتين: الإيمان والكفر.

وكان يرى أن أسماء الله تعالى، وصفاته يجب التسليم بها كما جاءت بالنصوص من دون تأويل أو تشبيه أو تعطيل. ولذلك كره علم الكلام وقاطع علماءه، لأنهم يبحثون أمور العقيدة بأسلوب منطقي جدلي يؤدي بهم إلى تفسير تلك الأسماء والصفات على غير الوجه المأثور الذي جاء عن السلف من الصحابة والتابعين.

وأما إمامته بالحديث فإنه لم يكن في عصره عالم حفظ من الحديث ما حفظ، فضلاً عن علم واسع بالرواة والجرح والتعديل وبعلل الحديث ونقده. وقد أخذ عن كبار علماء عصره. وكتب عمَّن وثق به، وفي مقدمتهم هشيم بن بشير بن أبي خازم الذي أثر فيه. وكذلك سفيان بن عُيَيْنَة، وإسماعيل بن عُلَيَّة، ووكيع بن الجرّاح، وعبد الرزاق بن همّام، ويحيى القطّان، ويزيد بن هارون، وعبد الرحمن ابن مهدي، وأبو بكر بن أبي شيبة، وغيرهم.

وتلقى الحديث عن أحمد بن حنبل جمع غفير من العلماء وفدوا عليه من كل مكان، منهم ولداه صالح وعبدالله، ومحمد بن إسحق والبخاري ومُسْلم وأبو داود والنَّسائي وبَقيُّ بن مَخْلَد مُحَدِّثُ الأندلس، وأبو زَرْعَة وأبو حاتم ويحيى بن معين وأبو القاسم البَغَوِيّ، حتى إن بعض شيوخه أخذ عنه الحديث كالشافعي ووكيع وعبد الرزاق.

وأما ما يتصل بإمامته في الفقه، فهو صاحب المذهب الحنبلي الذي يؤثره أهل الحديث، لأنه يلتزم فيه نصوص الكتاب، والسُّنّه والآثار المنقولة عن الصحابة والتابعين وقد أخذ أحمد فقه أبي حنيفة عن صاحبه أبي يوسف. كما أخذ فقه الحجاز عن سفيان بن عُيَيْنَة. وكان الإمام الشافعي أعمق شيوخه أثراً في تكوينه الفقهي. فقد التقاه في الحجاز سنة ١٨٧هـ، وفي بغداد سنة ١٩٥هـ، ولازمه فيها حتى سافر إلى مصر سنة ١٩٩هـ وتلقى عنه أصول استنباط الفقه من النصوص، وقواعد الاجتهاد.

وذهب بعض العلماء إلى أن أحمد ليس بفقيه، إنما هو صاحب حديث وأثر. والحق أن إحاطته بمعرفة إجماع الصحابة واختلافهم، وأقوال التابعين، والتزامه كل ذلك، لايعني أنه غير فقيه ولامجتهد. ومن وقف على الفقه الحنبلي وجد فيه من الدقائق الفقهية مالا يجده في مواضع أخرى، ولاسيما في المعاملات والعقود والشروط.

ومن العلماء من ذهب إلى أن الإمام أحمد لم يشتهر بالفقه إلا بعد المحنة والحق أن شهرته بالفقه كانت قبل ذلك بكثير، وهي ملازمة لشهرته بالحديث. وقد ذكر الذهبيّ، وأبو نعيم أن أحمد حجّ سنة ١٩٨هـ، وكان يفتي الناس، وله فتيا واسعة. وقد شهد له بالإمامة بالفقه والاجتهاد أئمة كبار، كوكيع بن الجراح، والشافعي، وعبد الرزاق، وجميعهم ماتوا قبل المحنة.

وأما إمامته بالقرآن الكريم، وباللغة، فلم يشتهر ذلك عنه شهرته بالعقيدة والحديث والفقه ولكن تكفيه شهادة الشافعي.

كان الإمام أحمد يقرأ بقراءة نافع بن عبد الرحمن، وهي قراءة أهل المدينة المنورة، وقد أخذها عن شيخه يحيى بن آدم. وكان يكره القراءة بالألحان، ويَعُدُّها بدعة. وكانت لأحمد مقدرة لغوية دقيقة ظهرت في فهمه لنصوص الكتاب والسُّنَّة. فلا يلحن هو، ويحرص على ألا يلحن أولاده. وقد تلقى اللغة عن أبي عمرو إسحق بن مرار الشيباني، أحد أئمتها في عصره، وهو الذي جمع أشعار نيّف وثمانين قبيلة من قبائل العرب ودوَّنها، وكان أحمد يلزم مجالسه، ويكتب أماليه. ولعله أخذ اللغة عن غيره أيضاً، وكان إلى جانب ذلك يتقن اللغة الفارسية.

كان أحمد يوصي طلابه بكتابة النصوص، والآثار المروية عن الصحابة، وينهاهم عن كتابة أقواله وأقوال أي عالم مهما بلغت منزلته العلمية، وذلك لاحتمال خطئه أو رجوعه عما قال. غير أنه لما خاف تحريف كلامه، أذن لكبار تلاميذه بتدوين أقواله وفتاويه. وجاء بعدهم أبو بكر الخلاَّل (ت ٣١١هـ)، فجمع ما دوَّنوه، وطوَّف بالبلاد سعياً وراء العلماء الذين لديهم شيء من فقه الإمام أحمد وكلامه، ورتَّب ما جمعه، فبلغ نحو أربعين مجلداً، أشهرها: كتاب السنة في أصول الدين، وكتاب العلَل في نقد الحديث وبيان علله، وكتاب العلم، وكتاب الجامع لعلوم الإمام أحمد.

ولم يطبع من هذه الكتب شيء. غير أن أعظم ما تركه الإمام أحمد من أثر علمي هو كتاب «المسند» الذي صنَّفه بنفسه. وهو أصل كبير، ومرجع وثيق لعلماء الحديث. ويُعَدُّ من أجمع الكتب المعروفة للسنة النبوية، من الأحاديث التي رواها عن شيوخه الأعلام. وكان أحمد قد رتبها عن كل صحابي على نحو مستقل، وأضاف إليها ما نقل عن ذلك الصحابي من فقه وفتاوى. وبلغ عدد الصحابة ٧٠٠ رجل، ومئة امرأة. وقد توفي قبل إنجازه. فقام ولده عبدالله، ورتبه على ما هو عليه. وجاء أبو بكر القطيعي فروى المسند عن عبدالله، وزاد كل منهما أحاديث متميزة رواها عن شيوخه.

يبدأ المسند بأحاديث الصحابة المبشرين بالجنة، ثم من يليهم وهذا الترتيب يجعله صعباً لا يرجع إليه إلا الحُفّاظ، ولاينتفع به إلا الذين تمرَّسوا بالحديث. وليس في المسند أحاديث موضوعة، لأن الإمام أحمد كان يَتخيّر الرواية عن الثقات. فلا يروي عن شخص يتعمد الكذب، أو يعتقد بضعفه، أو أنه غير ضابط أو غير فاهم لما يروي. كما لم يكن يروي عن عالم قال بمسألة خلق القرآن، ولو تقية وخوفاً. وشَرْط أحمد في الراوي أقوى من شرط أبي داود في السُّنَن. ومن الثابت أيضاً أن في المسند بعض الأحاديث الضعيفة التي يمكن الاحتجاج بها في فضائل الأعمال، لأن أحمد كان يتساهل في ذلك، ويتشدَّد في أحاديث الأحكام. وهذا التساهل مقبول عند بعض جهابذة المُحدِّثين.

وفي المسند ٣٣٧ حديثاً يفصل أحمد عن الرسول ﷺ فيها ثلاثة رواة، ووجودها دليل على علو السَّنَد.

وفي المسند تكرار لبعض الأحاديث، فيروى الحديث الواحد بأسانيد متعددة، وبألفاظ مختلفة، وبعضها مُطَوّل، وبعضها مختصر. ولعل هذا هو الذي حمل العلماء على الاختلاف في أحاديث المسند، فمنهم من قال

بأنها ثلاثون ألفاً، ومنهم من قال: أربعون ألفاً. وليس ثمة إحصاء دقيق لأحاديث المسند.

والمسند مطبوع أكثر من طبعة. وقد قام الشيخ عبد الرحمن البنّا الساعاتي بترتيب المسند على حسب الموضوعات وفق الترتيب المعتاد في كتب الحديث. وصدر تحت عنوان «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني».

سعدي أبو جيب

الموضوعات ذات الصلة:

الإسلام ـ المذهب الحنبلي.

مراجع للاستزادة:

ـ محمد أبو زهرة، أحمد بن حنبل. حياته وعصره، آراؤه وفقهه (القاهرة، دار الفكر العربي بمصر).

ـ عبد الغني الدقر، أحمد بن حنبل إمام أهل السنة (دمشق، دار القلم ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

■ أحمد خان

(١٢٤٢-١٣١٦هـ/١٨١٧-١٨٩٨م)

ولد أحمد خان بن محمد متقي خان في دهلي، وكان مصلحاً اجتماعياً، ومؤرخاً أثرياً، وسياسياً، ولقب بسيد. وهو ينتمي إلى أسرة نبيلة، تعود أصولها إلى فارس، وقد ارتحلت إلى هَراة في أفغانستان، ومنها إلى الهند في عهد الشاه جهان (١٦٢٨-١٦٦٦م). كان جدّه لأبيه يلقب بجواد الدولة، وكان جده لأمه من ذوي المناصب السياسية الرفيعة، كما كان والده من كبار القوم، وقد عُرض عليه منصب الوزارة فرفضه.

توفي والده وهو دون التاسعة عشرة من عمره، ولم يكن قد أتمّ تعليمه، فتولت أمه ذلك، وكانت سيدة فاضلة.

بدأ أحمد حياته العملية بالاتصال بالامبراطور بهادر شاه آخر ملوك دهلي، فأنعم عليه برتب والده ونعوته مع لقب «أستاذ حرب».

ولما تغلّب البريطانيون على الهند، اتصل بهم أحمد عام ١٨٣٧م، وعمل في شركة الهند الشرقية، ثم أصبح أميناً للسجلات في القلم الجنائي في دهلي، فأحسن العمل وأظهر إخلاصاً ونشاطاً.

كوفيء بترفيعه إلى رتبة «مُنْصِف» (نائب القاضي) في قضاء فاتحبور من إقليم أَكْرا عام ١٨٤١م. وبعد خدمة سنوات نقل إلى بجْنور Bijnaur.

وحين ثار الهنود في دهلي على البريطانيين فيما عرف بتمرد عام ١٨٥٧م، وفتك المستعمرون بالثوار المسلمين خاصة فتكاً ذريعاً، أدرك أحمد خان أن الثورة ستؤدي إلى الأذى بشعبه، لأنهم لم يكونوا مستعدين لها. فأخذ يعمل على إنهائها، وعرض حياته للخطر، وقدم النصح لبعض قادتها، فهددوه. كما عمل على إنقاذ الجاليات الأوربية عن طريق وساطة شخصية. وحاول توقيع معاهدة لتهدئة الوضع، ووجه اللوم إلى الهنود والبريطانيين معاً. وكان رأيه أن سبب التمرد هو إساءة فهم الشعب الهندي لطبيعة الحكم البريطاني، وتجاهل الحكومة البريطانية لشروط الحكم. وقد كتب عن الثورة وكان لما كتبه أثر كبير في البريطانيين بالهند.

ولما انتهت الثورة أكرمه البريطانيون بلقب «صاحب نجمة الهند»، كما عين «زميلاً» و«عضو شرف» في الجمعية الملكية الآسيوية في لندن، وعينوا له راتباً شهرياً يرثه ابنه البكر من بعده.

وقد أثرت هذه الثورة في حياته، لأن نتائجها السلبية على الهنود عامة، وعلى الهنود المسلمين خاصة، جعلته يهتم بمصالح المسلمين، فحاول أن ينشر الثقافة بينهم ولاسيما الغربية منها، فأسس جمعية الترجمة ومهمتها نقل علوم الغرب وتبسيطها أمام مواطنيه، ونشر عام ١٨٦٢م شرحاً واسعاً للإنجيل فكان أول مسلم يقوم بهذا النوع من البحث.

كما نجح بافتتاح جامعة إسلامية شرقية في عليكرة عام ١٨٧٥م، جمع لها التبرعات من الشعب، وعُدّت معادلة لجامعتي اكسفورد وكامبردج. تسلم العلماء البريطانيون إدارتها مدة سنتين، وما لبث أحمد خان أن تولى إدارتها بنفسه منذ عام ١٨٨٠م بعد أن استقال من منصبه في القضاء، وبقي يديرها حتى وفاته. ودرّست الجامعة اللغات الهندية والفارسية والعربية والإنكليزية. وكان لها صحيفة باللغتين الأُردية والإنكليزية نشرت فيها مقالات أحمد خان.

ومنذ أن تسلم أحمد خان إدارة الجامعة، وقف حياته على التأليف والترجمة والتعليم والخطابة، وتطوير الجامعة وتقدمها، وأسس جمعية أدبية علمية، جعل لها مجلة خصصها لكتابة موضوعات دورية بعنوان تهذيب الأخلاق، أخذ يعمل بوساطتها على نشر فكرته الإصلاحية.

ولتعزيز هذه الفكرة، أنشأ مجلس التربية الإسلامية عام ١٨٨٦م، وكان يرمي منه أيضاً إلى جعل الهنود المسلمين يقبلون على العلوم الجديدة بعد اقتناعهم بأنه ليس فيها ما يخالف العقائد الإسلامية.

وأخذ أحمد خان يشرح الآيات القرآنية، ويبين أنها لاتعارض العلوم العصرية. وكانت شروحه تنشر تباعاً على مدى خمسة عشر عاماً ثم جمعت في كتاب واحد. وقد أكسبته أعماله الثقافية ثقة مواطنيه، ودعمت لديهم ثقتهم بأنفسهم. وكانت كتاباته الإصلاحية من بين الأسس في اليقظة التي أدت إلى إنشاء دولة باكستان.

ترك أحمد خان عدة مؤلفات في مجال التاريخ والآثار والدين أهمها: «آثار الصناديد» وهو تاريخ أثري لمدينة دهلي، كتبه عام ١٨٤٧م وترجم إلى الفرنسية. ورسالة في «أسباب الثورة الهندية»، نقلت إلى الإنكليزية عام ١٨٧٣م. وشروح على الكتاب المقدس وشرح القرآن الكريم، وكتب فصولاً عن حياة الرسول ﷺ وله فصول ومحاضرات ومقالات في موضوعات متنوعة.

أمينة بيطار

الموضوعات ذات الصلة:

دهلي ـ الهند.

مراجع للاستزادة:

ـ جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، الجزء الثاني (مصر ١٩٢٢).

■ أحمد شاه

اسم عدد من ملوك الطوائف في الهند منذ أن أصاب الضعف السلطنة التغلقية فيها وتعرضت لغزو تيمورلنك. كذلك حمل هذا الاسم أحد سلاطين المغول التيموريين العظام في الهند، ومؤسس دولة أفغانستان الحديثة. وهؤلاء الملوك هم بحسب ترتيبهم الزمني في دولهم:

- أحمد شاه بن داوود البهمني (٨٢٥ - ٨٣٨هـ / ١٤٢٢ - ١٤٣٥م) تاسع ملوك الدولة البهمنية [ر].

- أحمد شاه الثاني علاء الدين بن أحمد الأول البهمني (٨٣٨ - ٨٦٢هـ / ١٤٣٥ - ١٤٥٧م) عاشر ملوك الدولة البهمنية.

- أحمد شاه الثالث بن محمود شاه الثاني (٩٢٤ - ٩٢٧هـ / ١٥١٨ - ١٥٢٠م) الخامس عشر من ملوك الدولة البهمنية.

- أحمد شاه الأول الغجراتي بن تترخان بن مظفر شاه الأول (٨١٤ - ٨٤٦هـ / ١٤١١ - ١٤٤١م) ثاني ملوك الغجرات [ر]، خلف جده مظفر خان مؤسس الدولة بعد انفصالها عن سلطنة دلهي التغلقية.

- أحمد شاه الثاني بن محمود شاه الثالث الغجراتي ٩٦١ - ٩٦٩هـ / ١٥٥٣ - ١٥٦١م الثالث عشر من ملوك الغجرات.

- أحمد شاه شمس الدين بن شمس الدين بن محمد شاه (٨٣٥ - ٨٤٦هـ / ١٤٣١ - ١٤٤٢م) السلطان الثالث والأخير من أسرة راجة كانس التي حكمت البنغال من (٨١٢ إلى ٨٤٦هـ / ١٤٠٩ - ١٤٤٢م).

أحمد شاه بهادر (١١٣٨-١١٨٩ هـ/ ١٧٢٥-١٧٧٥م)

مجاهد الدين أبو النصر بن ناصر الدين محمد شاه السلطان الثالث عشر من سلاطين المغول التيموريين العظام في دلهي، حكم ١١٦١ - ١١٦٧هـ / ١٧٤٨ - ١٧٥٤م، خلف أباه على عرش السلطنة والأخطار تحيق بالدولة من كل جانب، فقد كان رجال الدولة منهمكين في حبك المؤامرات والدسائس من أجل النفوذ والسلطة. وكان المستعمرون الأوربيون يسعون إلى مد تجارتهم وبسط نفوذهم خارج مستعمراتهم على سواحل الهند الغربية التي نزلها البرتغاليون منذ سنة ١٠٠٩هـ / ١٦٠١م. وتبعهم الهولنديون فالإنكليز ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م فالفرنسيون ١٠٥٢هـ/ ١٦٤٢م فبقية الأوربيين. إلا أن التنافس والصراع انحصرا أخيراً بين الفرنسيين والإنكليز وانتهيا برجحان كفة الإنكليز وتفردهم في سيادة أجزاء كبيرة من الهند. وزاد في إفقار الدولة وإضعافها غزوات الإيرانيين بزعامة نادر شاه سنة ١١٥١هـ / ١٧٣٨م، والأفغان الأيداليين بزعامة أحمد شاه الدراني، وتمادي المهرات في تطلعاتهم إلى التوسع شمالاً بعد أن أقاموا دولة لهم في الدكن.

وكان أحمد بهادر على رأس الجيش الذي توجه لإيقاف زحف أحمد شاه الدراني في غزوته الأولى (١١٦١هـ/١٧٤٨م) حين استدعي إلى العاصمة على جناح السرعة لمرض والده الذي لم يلبث أن توفي بعد سبعة أيام، وتوج أحمد بهادر سلطاناً باسم أحمد شاه. وانصرف منذ توليه العرش إلى حياة الدعة تاركاً أمور الدولة في يد وزيره صفدرجنك نواب حاكم أود. وأراد هذا أن يحد من نفوذ قبائل الروهيلة الأفغانية فاستنجد بالمهرات الذين عاثوا فساداً في العاصمة والمقاطعات الأخرى، كما أخفق في إصلاح الإدارة فنقم عليه رجال البلاط واضطر إلى الاختفاء، وخلفه في الوزارة عماد الملك غازي الدين خان حفيد حاكم ولاية مالوه. وكان الوزير الجديد مبغضاً لأحمد شاه فتآمر عليه وأعلن عدم صلاحه للحكم وسجنه وسمل عينيه وعيني ابنه معه سنة (١١٦٧هـ/ ١٧٥٤م)، ونصب على العرش سليلاً آخر من الأسرة التيمورية هو عز الدين عالم كير الثاني (١١٦٧-١١٧٣هـ). وامتد العمر بالسلطان المخلوع إلى عام ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م ومات فقيراً معدماً.

أحمد شاه درّاني (١١٣٥-١١٨٦هـ/ ١٧٢٢-١٧٧٢م)

أحمد شاه بن محمد زمان خان السدوزائي مؤسس دولة أفغانستان الحديثة وأول الشاهات الدرّانيين. ينتسب أحمد شاه إلى الأسرة السدوزائية سيدة عشيرة البوبال زائي من قبيلة الأبدالي (العبدالي أو العبدي) الأفغانية. وكانت منازل الأبداليين في جوار قندهار الهند إلى أن زاحمهم عليها الغلزائيون الأفغان، واضطروهم إلى النزوح شمالاً إلى إقليم هراة، في زمن الشاه عباس الأول الصفوي، الذي عهد إلى المدعو سدو إدارة شؤون القبيلة بعد أن سيطر على إقليم هراة. وظل الأبداليون زمناً يتمتعون بنوع من الاستقلال بزعامة ورثة سدو مع بقائهم على الولاء للصفويين إلى أن سنحت الفرصة لأسد الدين خان فاحتل هراة سنة ١١١٦هـ / ١٧٠٤م مستفيداً من ضعف الشاه حسين تاسع شاهات الصفويين. وتمكن من فرض سيطرته على جزء كبير من خراسان، ولم تفلح جهود الصفويين في استرداد هراة حتى سنة ١١٤١هـ/ ١٧٢٨م عندما نجح القائد الصفوي نادر شاه في إخضاع الأبداليين بسبب شقاق نشب بين فرعي الأسرة السدوزائية أدى إلى إضعافها. ولم يمض وقت طويل حتى تمرد الأبداليون من جديد بزعامة ذو الفقار بن زمان خان الأخ الأكبر لأحمد شاه، ولكن نادر شاه هزمهم من جديد ودخل هراة سنة ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م ونفى زعماء الأبداليين وشتت أعداداً كبيرة منهم في مدن خراسان. وكان نصيب ذو الفقار وأخيه الصغير أحمد النفي إلى فرح جنوبي هراة. ولمس نادر شاه في الأبداليين كفاية قتالية عالية فجند أعداداً كبيرة منهم في جيشه بعد أن اغتصب العرش الصفوي سنة ١١٤٨هـ / ١٧٣٦م. كما سمح للقبيلة بالعودة إلى منطقة قندهار بعد أن استخلصها من يد الغلزائيين خصومهم، وأطلق سراح الأخوين ذو الفقار وأحمد اللذين كانا في أسر هؤلاء وقربهما، فجعل من أحمد خان ضابطاً في جيشه وحاملاً لسلاحه (ياصوال). وكانت هذه الفرصة مناسبة ليظهر أحمد خان خصاله ومزاياه فاستعمله نادر شاه حاكماً على مازندران، ثم قائداً لفرقة الأبداليين في جيشه عندما غزا الهند. وبعيد اغتيال نادر شاه في جمادى الآخرة سنة ١١٦٠هـ/ حزيران ١٧٤٧م على يد القزل باش، قرر أحمد خان الارتحال مع جنوده الأفغانيين إلى قندهار، وتم انتخابه من زعماء الأبداليين وزعماء القبائل الأفغانية الأخرى شاهاً عليهم، فاستقر به المقام في قندهار واتخذ لنفسه لقب «درّي درّان» أي درة الدرر، وسكه على نقوده، وعُرف الأبداليون منذئذ بالدرّانيين.

أسند أحمد شاه مهام الوزارة، وهي الرئاسة الثانية في أفغانستان، إلى جمال خان زعيم قبيلة البارك زائيين المنافسة، وظل هذا التقليد قائماً مدة قرن، إذ يكون شاه أفغانستان درانياً ووزيره من البارك زائيين.

اتخذ أحمد شاه من قندهار عاصمة له بادىء الأمر، ونهج على خطا نادر شاه الذي اتخذه مثالاً يحتذى. فألف فرقة خاصة به عرفت

باسم «غلام شاهي» تضم عناصر محاربة من الطاجيك والقزل باش واليوسف زائيين مع اعتماده بالدرجة الأولى على أتباعه من الدرانيين. ولما كان أحمد شاه شديد الطموح ويعد نفسه وارثاً لأملاك نادر شاه الشرقية، أي البلاد الواقعة غرب نهر السند، فقد عمد إلى جمع شمل الأفغان في دولة واحدة. فضم إليه غزنة وكابل وبلخ واستولى على بشاور، وانتزع هراة من شاه رُخ حفيد نادر شاه، وأقام ابن تيمور حاكماً عليها سنة ١١٦٥هـ/ ١٧٥٢م، ثم راح يوسع حدود دولته شمالاً حتى نهر جيحون وبحر قزوين، وتوقف في الغرب عند مدينة مشهد التي تركها لشاه رخ احتراماً لذكرى جده، وضم إليه من الجنوب سجستان وبلوجستان، ونظم شؤون الدولة الداخلية، وابتنى عاصمة دعاها أحمد شاهي قرب قندهار واستمال إليه القبائل فأعفاها من الخراج مقابل الولاء والتجنيد في جيشه.

وجد أحمد شاه في الهند مسرحاً مناسباً لإشغال عسكره، ومصدراً ثرياً لتمويل مشاريعه، وكانت سلطنة دهلي المغولية التيمورية قد تزعزعت أركانها بسبب الخلافات الداخلية وغزوات نادر شاه التي أنهكتها، فتوجه إليها أحمد شاه يريد غزوها. وتعد حروبه في الهند أهم أعماله العسكرية والسياسية، فقد غزاها تسع مرات بين عامي ١١٦٠ و١١٨٠هـ / ١٧٤٧ و١٧٦٩م ولكنه لم يعزم أبداً على أن يقيم سلطنة راسخة له في الهند. ومع أن أسباب النجاح كانت متوافرة لديه فقد أخفقت أولى غزواته التي انطلق بها من بشاور في ذي الحجة سنة ١١٦٠هـ / كانون الأول ١٧٤٧م فاستولى على لاهور وسرهند، ولكن جيشاً تيمورياً هزمه في مانوبور في ربيع الأول ١١٦١هـ / آذار ١٧٤٨م بقيادة معين الملك ميرمانو ابن الوزير قمر الدين الذي قتل في أول اشتباك مع الدرانيين.

تراجع أحمد شاه إلى قاعدته في أفغانستان. وكوفيء معين الملك بتعيينه حاكماً على البنجاب. إلا أنه لم يكد يستقر في عمله الجديد حتى عاود أحمد شاه الغزو في أوائل عام ١١٦٣هـ / كانون الأول ١٧٤٩م فعبر نهر الهندوس بجيشه وأجبر معين الملك على الخضوع والتنازل له عن إقليمي لاهور والملتان، ثم ارتد إلى عاصمته قندهار. وطبقاً لاتفاق مع دلهي حصل أحمد شاه على خراج جهار محل (كجرات، وأورنغ باد، وسيالكوت، وباسرور) التي كان سلطان المغول محمد شاه قد أقطعها نادر شاه في سنة ١١٥٢هـ. وفي غياب أحمد شاه في البنجاب تآمر عليه أحد القادة السابقين المدعو نور محمد علي زائي وسعى إلى عزله، إلا أن المؤامرة أحبطت وأعدم زعيم المتآمرين قبل عودة أحمد شاه إلى قندهار. وفي السنوات الأربع التي تلت شغل أحمد شاه بتثبيت حدوده الغربية، ولم تكد تنصرم سنة ١١٦٣هـ/ ١٧٥٠م حتى كان قد سيطر على هراة ومشهد ونيسابور، واضطر شاه رخ إلى التخلي له عن عدة مقاطعات تتاخم هراة. وفي السنة نفسها اصطدم أحمد شاه بقوى القاجاريين المتنامية وأخفق في دحرهم عند استراباذ فلم يستطع التقدم غرباً إلى أبعد من ذلك، إلا أنه حقق نجاحاً أكبر عندما اجتاز جبال هندكوش فضم بلخ وبذخشان حتى بلغ جيحون وهو أقصى حدوده الشمالية.

كان امتناع معين الملك، مجدداً عن دفع الخراج وتسديد الالتزامات التي تعهد بها، سبباً مباشراً لقيام أحمد شاه بحملته الثالثة على الهند في عام ١١٦٥هـ / ١٧٥١م. فحاصر لاهور أربعة شهور واجتاح أرباضها وهزم معين الملك ميرمانو، وضم إليه كشمير ثم قفل راجعاً إلى أفغانستان.

توفي معين الملك في أواخر ١١٦٦هـ وانتقلت السلطة إلى أرملته مغلاني بيكم، فكان عهدها عهد اضطراب استغله الوزير المغولي عماد الملك لإعادة سلطة دلهي على البنجاب، وولى عليها حاكماً يدعى أدينة بك. فسار أحمد شاه إلى لاهور للمرة الرابعة يريد استرداد ما فقد، ووصلها في أول عام ١١٧٠هـ / أواخر ١٧٥٦م، وطرد أدينة بك منها، ثم توجه إلى دلهي فدخلها من غير مقاومة في أوائل صفر ١١٧٠هـ / كانون الثاني ١٧٥٧م، وفي ركابه سلطان المغول عالم كير الثاني ووزيره غازي الدين، وانضم إليه زعيم الرهيلة نجيب الدين. مكث أحمد شاه في المدينة أربعين يوماً أباحها لجنوده، وضربت عملة ذهبية في ذكرى هذا الفتح، وكان نصيب مدن متهورا وبرندبان وآكرا مثل دلهي. إلا أن انتشار الريح الصفراء (وباء الهيضة) بين جنود أحمد شاه اضطره إلى مغادرة الهند بعد أن ألحق إقليم السرهند بأملاكه وسلم السلطة في دلهي إلى نجيب الدولة، وأقام ولده تيمور نظاماً نائباً على البنجاب، وزوجه ابنة السلطان عالم كير الثاني، في حين تزوج هو من ابنة السلطان الأسبق محمد شاه. ولم يكد يغادر أحمد شاه البلاد حتى رفع السيخ المتحالفون مع أدينة بك راية العصيان من جديد على ابنه تيمور واضطروه إلى مغادرة البنجاب. ودخل أدينة لاهور في حين احتل السيخ أمرتسار ونهبوا إقليم سرهند. وانضم المهرات إليهم بتحريض من الوزير غازي الدين فجبوا خراج البنجاب عام ١١٧٣هـ / ١٧٥٩م. عندئذ قرر أحمد شاه غزو الهند من جديد للمرة الخامسة في ١١٧٣-١١٧٥هـ / ١٧٥٩-١٧٦١م. ولكنه توجه قبل ذلك إلى خلاط في بلوجستان لإخضاع نصر خان زعيم إحدى القبائل العاصية. ومع أن الدراني أخفق في دخول المدينة فقد أعلن نصر خان خضوعه وتعهد بتقديم قوات من عنده لتنضم إلى جيش الشاه. وبعد أن اطمأن أحمد شاه إلى أمور دولته قصد الهند على جناح السرعة مستهدفاً البنجاب. وأحس المهرات بقدومه فغادروها ولجؤوا إلى دلهي، ثم تركوها إلى الدكن عندما اقترب الشاه منها. وقبيل انسحابهم قتل الوزير غازي الدين السلطان عالم كير الثاني ليتخلص منه، في حين فر الأمير علي جوهر الذي أصبح سلطاناً باسم شاه عالم الثاني، والتجأ إلى الإنكليز.

لم يشأ أحمد شاه دخول دلهي هذه المرة لخرابها الشديد، فاكتفى بوضع حامية صغيرة فيها وتقدم إلى منطقة دوآب. وكان المهرات (المراهتة) قد نظموا صفوفهم من جديد وتقدموا بجيش لجب ضم نحو ٣٠٠ ألف مقاتل و٣٠٠ مدفع وفرقة مدربة على القتال الحديث بإشراف ضباط فرنسيين. وكان يقود هذا الجيش شقيق زعيم المهرات سداشيو بهاو، والتحق به السيخ وقبائل الهندوس الأخرى في المنطقة. أما جيش أحمد شاه والقبائل المسلمة التي انضوت تحت لوائه فلم يكن يزيد على ٨٠ ألف مقاتل، ولايملك سوى ٢٠ مدفعاً، وعماده الأساسي الفرسان الأفغان من الأبدالية وغيرهم.

دخل المهرات دلهي من دون مقاومة، والتقى الجيشان في ٢١ ربيع الثاني ١١٧٥هـ / ١٣ كانون الأول ١٧٦١م عند باني بت (بنيبت) التي اختارها أحمد شاه مسرحاً للمعركة المقبلة.

واستهلا الموقعة بمناوشات صغيرة ثم تطورت إلى قتال طاحن تقدم فيه المهرات تحت غطاء من نيران مدافعهم، حتى تزعزعت مواقع الأفغان. إلا أن هجوماً مضاداً مباغتاً شنه أحمد شاه الدراني بفرسانه رد الأعداء على أعقابهم، وأوقع الذعر والاضطراب في صفوفهم، فانهزموا لا يلوون على شيء، تلاحقهم قوات الدراني ويتخطفهم أهل القرى، فقتل من قتل من زعمائهم، ووقع في الأسر أعداد كبيرة منهم. واكتفى أحمد شاه بالنصر فلم يعمد إلى مطاردتهم ولم يفد في الوقت نفسه من نتائج هذا النصر لاستعادة ما فقد، بل قفل راجعاً إلى أفغانستان. ولم يكن السلاطين التيموريون قادرين على ملء الفراغ السياسي والعسكري الذي تركه في الهند بعد انسحابه، فاستغل الإنكليز الوضع لمصلحتهم وراحوا يمدون نفوذهم إلى المتنازعين على السلطة في دلهي، كما عاد السيخ إلى تمردهم، وراحوا يهاجمون خطوط مواصلات الأفغان في شمالي الهند. ومع أن نجيب الدولة وفق في دفعهم عن دلهي زمناً فقد نجح هؤلاء في اجتياح البنجاب سنة ١١٧٥ هـ/ ١٧٦٢م وحاصروا جنديالة، إلا أنهم غادروها على جناح السرعة عندما فوجئوا بقدوم أحمد شاه، في حملته السادسة، الذي عمد إلى مطاردتهم من دون إبطاء وألحق بهم هزيمة منكرة قرب غجروال. ويطلق السيخ على هذه الوقعة اسم «غلو غارة» أي الغارة الكبرى.

مكث أحمد شاه في البنجاب تسعة أشهر أعاد في أثنائها ضم كشمير إلى مملكته بعد أن كان حاكمها الأفغاني قد استقل بها. ولم يمتنع السيخ بعد هزيمتهم تلك عن مجاهرة الأفغان العداء، فراحوا يتربصون بالحاميات الأفغانية في كل مكان، واضطر أحمد شاه إلى القيام بثلاث حملات أخرى فيما بين ١١٧٧ و١١٨٢هـ / ١٧٦٤-١٧٦٩م لإخضاعهم من دون تحقيق نتائج ذات شأن. كما أنه أدرك استحالة المحافظة على ممتلكاته البعيدة هذه بالقوة لقلة الوسائل المتاحة له، فسعى في غزوته الأخيرة إلى استمالة السيخ إلى جانبه سلماً، فلم يزدهم ذلك إلا عتواً.

اتصف عهد الدراني داخلياً بهدوء نسبي لم يخل من بعض حركات التمرد البسيطة التي غالباً ما كانت تحدث في غيابه في حروب الهند. ومن ذلك ثورة الغلزائيين نحو سنة ١١٦٧هـ / ١٧٥٤م بزعامة نادر شاه الغلزائي، ومنها أيضاً تمرد نصر خان حاكم بلوجستان واستقلاله بها ١١٧٢هـ/ ١٧٥٩م وعصيان قبائل الأيماق التركية المغولية في ضواحي هراة ١١٧٧هـ/ ١٧٦٣م، والاضطرابات الخطرة التي حدثت في خراسان سنة ١١٨٠هـ/١٧٦٧م. كما شهد عصره تمرد بعض جنوده أو تخليهم عنه لما كانوا يكابدونه من مشاق في تحركاته السريعة، ولتأخر مرتباتهم. وعندما أخذ نشاطه يخونه في أواخر أيامه وأحس بالخور والإنهاك اعتكف في مرغاب في جبال توبا من بلاد الأشزائيين، ولم يلبث أن توفي ودفن في قندهار، مخلفاً مملكة مترامية الأطراف صعبة الإدارة، سرعان ما تفككت أوصالها في ظل خلفائه، ولم يبق منها سوى أفغانستان المعروفة.

كان أحمد شاه دراني جندياً بالفطرة يملك صفات الزعامة ويتحلى بالشجاعة والحزم والكرم وحسن الإدارة فضلاً عن مواهبه العسكرية في التعبئة وإدارة المعارك. وقد أحبه الأفغان فأطلقوا عليه لقب بابا أحمد شاه ومكنته الأموال التي استولى عليها في حملاته من تجنب فرض الضرائب على رعيته. كما أدرك ببعد نظره وثاقب بصيرته استحالة تعزيز فتوحاته في الأقاليم البعيدة أو فرض حكم مباشر عليها، فتركها في أيدي أفراد يدينون له بالاسم، ويرى فيه كثيرون صورة جديدة لمحمود الغزنوي [ر]ومحمد الغوري [ر] اللذين عملا على نشر الإسلام في الهند وترسيخ أركانه فيها. ومما لا شك فيه أن أحمد شاه رجل من أعظم الرجال الذين عرفتهم أفغانستان في تاريخها الحديث، ومؤسس أول دولة أفغانية مستقلة.

أحمد نظام شاه

(٠٠٠-٩١٤هـ / ٠٠٠-١٥٠٨م).

أحمد بن نظام الملك بحري مؤسس دولة شاهات نظام في أحمد نكر في الهند (٨٩٦-١٠٠٨هـ/ ١٤٩١-١٥٩٩م). وكان والده نظام الملك بحري قد أصبح وزيراً للسلطان البهمني الرابع عشر محمود شاه في إقليم الدكن في الهند عقب اشتراكه في مؤامرة أطاحت الوزير السابق في ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م. وبسبب نفوذه القوي أقطع نظام الملك بحري ولده أحمد منطقة جونير (شمال غربي أحمد نكر اليوم) سنة ٨٩٤هـ إلا أن الوالد قضى غيلة سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م بأمر السلطان لطموحه ودسائس أعدائه، فاستغل أحمد مقتل أبيه ليستقل بما تحت يده، واغتصب جاه والده ولقبه، ورد الجيوش التي سيرها السلطان محمود في تلك السنة على أعقابها. ثم لم يلبث أن نقل عاصمته إلى مدينة أحمد نكر التي تأسست حديثاً، واستطاع أن يمد سلطانه إلى مدينة دولت أباد شمال شرقي أحمد نكر والمناطق المحيطة بها بعد معارك طاحنة خاضها مع جيوش السلطان محمود (٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م).

دام حكم أحمد نظام شاه حتى وفاته وخلفه ابنه برهان وعمره سبع سنين فقام بإدارة الدولة وزيره عزيز الملك إلى أن بلغ الرشد، وتمكن مع أمراء دولته من التخلص من الوزير ليتفرد بالحكم خمسين عاماً، ويخلفه أولاده من بعده.

وإمارة أحمد نكر هي واحدة من خمس إمارات آلت إليها السلطنة البهمنية بعد انقسامها وانهيارها سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٥م. وقد دامت إمارة أحمد نكر أكثر من قرن وحكمها أحد عشر حاكماً عرفوا باسم شاهات نظام أو شاهات أحمد نكر وانتهى أمرها باستيلاء السلطان التيموري أكبر على البلاد، وإلحاقها بسلطنته مع الإبقاء على آخر شاهاتها حسين ابن مرتضى حاكماً اسمياً (١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م).

مظهر شهاب

الموضوعات ذات الصلة:

أفغانستان - المغول العظام (سلطنة -) - نادر شاه - الهند

مراجع للاستزادة:

- I.PROSAD, A Short History of Muslim Rule in India from the Conquest of Islow to the Death of Aurangzeb Allohaba 1930.
- J. SARKAR, Fall of the Mughul Empire Calcutta 1934.

■ أحمد بن طولون
(٢٢٠ - ٢٧٠هـ/ ٨٣٥ - ٨٨٤م)

أحمد بن طولون أبو العباس، مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام والثغور، تركي مستعرب من عشيرة الطُغُزغُز، أمه جارية اسمها قاسم وقيل هاشم، كان أبوه مملوكاً أهداه نوح ابن أسَد الساماني عامل بخارى إلى المأمون في جملة رقيق حمل إليه سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٦م، فرقاه الخليفة المأمون حتى صار من جملة الأمراء، وقيل إن طولون تبناه ولم يكن أحمد ابنه.

ولد في بغْداد، وعاش في سامرّاء وبها تعلم وتأدّب وتفقّه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وحفظ القرآن الكريم، ورزق حُسن الصوت في تلاوته. انتشر له من حسن الذكر في قلوب الخلفاء، ما زاد على طبقته، وكان محله عندهم محل من يؤتمن على الأسرار والأموال وغيرها. اتصل بخدمة الخليفة المتوكل على الله، ففوض إليه ما كان لأبيه.

كان شديد الازدراء للأتراك لأنهم تسنموا من المراتب ما لا يستحقون، ولانتهاكهم حرمة الدين، وقيامهم بقتل الخلفاء، فطلب من الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان أن يكتب له برزقه في ثغر طَرَسوس، فانتقل إليها واشتغل فيها بالحديث والجهاد، ثم عاد إلى سامرّاء لما لحق بأمّه من الجزع على غيابه، وبَدَرَ منه في طريق العودة من الشجاعة مازاد قدره في أعين رفاقه. ولما علم الخليفة المستعين بالله بذلك اصطنعه وحمل إليه ألف دينار. وتوالت عليه جوائز الخليفة المستعين بالله، حتى حسنت حاله، وأهداه جارية اسمها ميّاس، ولدت له أبا الجيش خُمارَوَيْه سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، وكان قد تزوج قبلها بابنة عمه خاتون.

تنكرت الأتراك للخليفة المستعين، فعزلوه بعد أن استقر الأمر على خلافة المعتز. ونفي المستعين إلى واسط، مع أصلح من يختار ويرضى به الأتراك، فوقع الاختيار على أحمد بن طولون، ومضى به إلى واسط، فأحسن أحمد بن طولون عشرته، وأطلق له التنزه والصيد، ورفض قتله حين أمره الأتراك بذلك لقاء تقليده مدينة واسط، وكتب إليهم «والله لاأرى الله وأنا قد قتلت خليفة بايعته أبداً». فأنفذوا سعيداً الحاجب فقتله، ولم يبرح ابن طولون حتى واراه ثم عاد إلى سامراء.

كُلّف أحمد بن طولون ولاية الفسطاط، قصبة مصر، نيابة عن واليها الأصلي باكباك التركي سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م. وحين دخل إلى مصر وجدها مقسمة بين عدة أشخاص، ولذلك كان موقفه ضعيفاً لأنه كان نائباً على منطقة محدودة من مصر، وفي استطاعة واليها الأصلي عزله إذا لم يحز رضاه. يضاف إلى ذلك ماكان من منافسة ابن المدبّر، عامل الخراج في مصر، ومحاولته الإيقاع به عند الخليفة، ويبدو أن أسباب كره ابن المدبّر لأحمد بن طولون تكمن في ما لمسه من شهامته، وما يعرفه من كره الأهالي له بسبب زيادة الضرائب عليهم، واستعماله القسوة في الجباية.

وما لبثت الأحوال أن تغيرت لمصلحة أحمد ابن طولون، فقد قتل باكباك، فتولى مصر القائد التركي يارجوخ، وكان بينه وبين أحمد بن طولون مصاهرة، فاستخلفه على مصر كلها. وحين توفي يارجوخ سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م تقلد ابن طولون ولاية مصر من الخليفة مباشرة، فتوطدت قدمه فيها، وتمكن من تأسيس الدولة الطولونية في مصر.

عمل أحمد بن طولون على تقوية نفوذه في مصر، فشرع في تحصين البلاد، وإعداد الجيش وتسليحه، وإنشاء السفن الحربية، وتطلّع إلى حماية حدوده الشمالية، فمد سلطانه إلى بلاد الشام بما فيها الثغور سنة ٢٦٤هـ/ ٨٧٨م، بموافقة الخلافة العباسية بعد شعورها بعجز قواتها عن الدفاع عن الحدود أمام البيزنطيين. فنظّم شؤون الشام والثغور، وترك بها قوّات كثيرة، ووزع الحاميات في المدن الرئيسية فجعل حامية في دمشق، وثانية في الرقة، وثالثة في حَرّان. كما ضم إلى دولته منطقة بُرقة، وعمل على ضمّ الحجاز.

نشب نزاع بين أحمد بن طولون والموفّق أخي الخليفة العباسي المعتمد على الله، منذ سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م، بسبب إرساله الأموال إلى الخليفة من دونه وهو في حاجة إليها لقتال صاحب الزنج. فعمل على تقليص نفوذه وتأليب ولاته عليه في الشام والثغور. وزادت الأمور حدّة حين عزم الخليفة المعتمد على الله، سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٢-٨٨٣م، على ترك بغداد هرباً من أخيه الموفق. فشجعه ابن طولون، وحسّن له المجيء إلى مصر، وأرسل له سفتجة بمئة ألف دينار، لم يستطع الخليفة الالتجاء إلى ابن طولون، لتنبّه الموفق إلى الأمر، عندئذ عقد ابن طولون اجتماعاً في دمشق، ضمّ القضاة والأشراف في دولته، واتخذ قراراً بخلع الموفق لمخالفته للمعتمد وحصره، وذلك سنة ٢٦٩هـ/ ٨٨٣م، فأمر الموفق بلعن أحمد بن طولون على المنابر، وحمل المعتمد على إصدار هذا القرار إضافة إلى قرار بمنح ولاية المناطق التابعة لابن طولون إلى إسحاق بن كنداج.

كان لموقف الموفق الحازم من أحمد بن طولون أكبر الأثر في قوته وموقفه في الشام، ولا سيما أنه سبق ذلك هزيمة قوات ابن طولون في مكة على يد قوات الموفق، فقد شغب الأمراء في الولايات، وكان لهذا أثره في موقفه العسكري، فثارت عليه بعض المدن، وحلت به الهزيمة في طَرَسوس، وخرج عليه ابنه العباس.

وفي غمرة هذه الأحداث، بنى ابن طولون على قبر معاوية بن أبي سُفيان أربعة أروقة، ورتب عند القبر أناساً يقرؤون القرآن، ويوقدون الشموع. وقد يكون ذلك تحدياً لبني العباس، ويبدو أن ما استحدثه ابن طولون استمر في عهد أبنائه.

كان أحمد بن طولون سياسياً محنكاً، وقائداً ماهراً، خبيراً بأساليب الحروب وتعبئة الجيوش، جواداً، فقد كانت له مائدة ينفق عليها ألف دينار في كل يوم يحضرها العام والخاص. وكان يبعث بالصدقات إلى دمشق والعراق والجزيرة والثغور وبغداد وسامراء والكوفة والبصرة والحرمين وغيرها، فحُسِبَ ذلك فكان ألف ألف ومئتي ألف دينار.

كان عادلاً يتفقد أحوال رعاياه، شديداً على خصومه يفتك بمن عصاه، ويقال إنه أُحصي من قتله، ومن مات في حبسه، فكان عددهم ثمانية عشر ألفاً، فاستتب له الأمن، وسادت الطمأنينة.

كان يحب أهل العلم ويقرّبهم إليه. واهتم بتعمير البلاد، فبنى مدينة القطائع، واتخذها عاصمة له، وفرّق فيها الأزقة والشوارع والسكك. كما بنى المسجد الذي عرف باسمه فيها، وأنفق على عمارته مئة وعشرين ألف دينار. وبنى قبة الهواء على جبل يشكر خارج القاهرة، وبنى البئر بالقرافة والبيمارستان في أرض العسكر. وأنشأ حمامين أحدهما للرجال، وآخر للنساء، وبنى المنظر لعرض الخيل، كما بنى قصراً لنفسه في الميدان السلطاني، الذي

تحت قلعة الجبل، فسمي القصر بالميدان.

توفي أحمد بن طولون في مصر في ذي القعدة، وخلّف ثلاثة وثلاثين ولداً، منهم سبعة عشر ذكراً، وخلف في خزائنه أموالاً كثيرة، وسبعة آلاف مملوك، وأربعة وعشرين ألف غلام، وعدداً من الخيل والبغال والدواب. وقد خلفه في حكم الدولة ابنه أبو الجيش خمارويه.

أمينة البيطار

الموضوعات ذات الصلة:

بخارى ـ السامانيون ـ سامراء ـ الطولونية ـ المأمون.

مراجع للاستزادة:

ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك (طبعة دار المعارف، مصر ١٩٦٧).

ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧ (طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٥).

ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج١ (دار صادر، بيروت).

ـ ابن تغري بردي الأتابكي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٣ (طبعة دار الكتب، مصر).

■ أحمد غران

(٩١٢-٩٥٠هـ / ١٥٠٦-١٥٤٣م)

أحمد غران بن إبراهيم، زعيم صومالي سيد مدينة هَرَر، وإمام دولة عَدَل، وقائد الفتح الإسلامي في إثيوبية، في الربع الثاني من القرن العاشر الهجري / الربع الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. ويسميه المسلمون صاحب الفتح، وأحمد الغازي، وأحمد المجاهد، إلا أنه اشتهر باسم: أحمد غران (أو غرانْج كما يسميه الأوربيون أحياناً). ويعني هذا اللقب باللغة الأمهرية، الأَشْوَل، لأنه كان يضرب بالسيف بيده اليسرى. والمصدر الأول في التعرّف به، وتعرّف أعماله، المؤرخ العربي شهاب الدين أحمد بن عبد القادر الملقب «بعَرَب فقيه» الذي اشترك معه شخصياً في حركة الجهاد، التي قادها في الحبشة النصرانية، تجاه النجاشيَّيْن لِبْنا دِنْغِل (١٥٠٨ ـ ١٥٤٠م)، وابنه كلوديوس (١٥٤٠-١٥٥٩م). فقد دوّن أخباره حتى عام ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م في كتابه «تحفة الزمان»، الذي أعطي أيضاً عنوان «فتوح الحبشة».

ولد أحمد في إقليم حوبات من أعمال دولة عدل، في أسرة صومالية عمل أفرادها جنوداً في جيش أمير هرر وهذه الدولة هي إحدى «دول الطراز» الإسلامية التي قامت منذ القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد في شرقي وجنوبي شرقي الحبشة. وكانت تقع على الساحل الصومالي، مطلة على خليج عدن ومضيق باب المندب، وكانت تحتوي هرر وزيلع وبربرة، وتتاخم في الشمال منطقة الدناقلة. وهي التي ذكرها المؤرخون والجغرافيون العرب تحت اسم سلطنة زيلع. ويبدو أنها قد حلّت منذ القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي محل دولة أوفات (إيفات) [ر] الإسلامية، التي كانت في القرنين السابع والثامن الهجريين / الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، أقوى الدول الإسلامية في الحبشة، لسيطرتها على طرق التجارة، وسعيها المتواصل للتخلص من تبعيتها للحبشة، وقيادتها للحركة الجهادية تجاهها، فمنذ أن أفل نجم دولة أوفات في عام ٨١٨هـ / ١٤١٥م على إثر سقوطها بيد النجاشي يسحاق واستشهاد أميرها القوي سعد الدين في حربه معه، وتشتت الأسرة العربية في شبه الجزيرة العربية، برز اسم عَدَل بدل أوفات مع أن هذا الاسم لا يذكره المؤرخون العرب ضمن «دول الطراز».

نشأ أحمد وفي دولة عدل صراع على السلطة، بين الطبقة الأرستقراطية الإسلامية التقليدية، التي تمثلها بصفة خاصة فئة التجار ومن يساندها من العلماء، وكانت هذه تدعو إلى دعم السلام مع الحبشة (إثيوبية) ولو بتأدية الجزية، وذلك لضمان مصالحها الاقتصادية، وبين الفئة العسكرية من الصوماليين المسلمين، التي كانت تسعى للتخلص من التبعية الحبشية عن طريق الجهاد، والتوسع في أرض الحبشة، فبذلك يكسب الصوماليون أراضي جديدة ينتشرون فيها، ويحصلون على الكثير من الخيرات والغنائم، وفي الوقت ذاته ينشرون الإسلام. ورافق هذا الصراع الداخلي، صراع خارجي مع الحبشة، ذلك الصراع الذي لم يتوقف منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي. لأن الحبشة كانت حريصة على الحد من النشاط التجاري للمسلمين، وضم بلادهم إليها، ولاسيما أن الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها، كانت تفوق في مساحتها أرض مملكة الحبشة النصرانية نفسها. وكانت تلك الأراضي تحيط بها من الجنوب والشرق مما جعلها مطوقة بالمسلمين، إذا ما أضيف إليها من الغرب السودان المسلم أيضاً.

وإلى جانب ذلك، كانت جميع الموانىء على ساحل البحر الأحمر بيد المسلمين، مما عزلها عن العالم الخارجي.

ويبدو أن القدرات العسكرية لأحمد غران قد ظهرت مبكرة، فالأخبار تذكر أنه حضر المعركة التي استشهد فيها الأمير محفوظ حاكم هَرَر، عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م، وهو لما يتجاوز الثانية عشرة من عمره. وفتح له أخوه غاراد آبون ـ وكان على رأس الحزب العسكري ـ باب الطموح عندما قام بالاستيلاء على عرش زيلع عام ٩٣١هـ / ١٥٢٥م. مع أن الأهالي ثاروا على هذا الأخ وقتلوه، إلا أن أحمد غران كان قد صمم أن يسير في الطريق نفسها. وواتته الفرصة عندما حقق نصراً حاسماً على الأحباش في معركة أديس أو كبوت عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م، تلك المعركة التي انتقم فيها لمقتل الأمير محفوظ. فعلى إثرها، التف حوله بنو جلدته من الصوماليين لما أظهره من شجاعة وحنكة عسكرية، وفي الوقت ذاته تزوج من دِبْل مَعْبره ابنة الأمير محفوظ مكافأة له على نصره. وبذلك ضمن عرش هرر وولاء الطبقة العسكرية الصومالية. وشجعه هذا على أن يزيح عن العرش أمير عَدَل أبا بكر محمد ـ وهو من أسرة سعد الدين من آل وَلَشْمَع العربية ـ وأن يقيم بدلاً منه أميراً من الأسرة نفسها، كان أشبه بالدمية في يده. واكتفى هو بلقب إمام مؤكداً بذلك قيادته الدينية الإسلامية الشعبية، وأنه لا مطمع له في الملك، وإنما همّه الإصلاح، والجهاد، وخدمة الإسلام، متشبهاً في ذلك بإمام اليمن، وإمام عُمان.

وبعد أن كوّن جيشاً قوياً من الصوماليين البدو الأشداء، أعلن عن رفضه دفع الجزية للنجاشي، وبدأ بذلك حربه الجدية مع الحبشة، التي استغرقت حياته كلها. ويمكن أن يميز في تلك الحرب مرحلتان:

الأولى: وتمتد خمسة عشر عاماً (٩٣٣ - ٩٤٨هـ / ١٥٢٧ - ١٥٤١م). وفيها كان أحمد غران والأحباش يتحاربان وحدهما من دون عون من الخارج. وتمكن في أثنائها من هزيمة النجاشي لِبْنا دِنْغِل، في معركة مهمة في شِمْبرا كوره Shembra Kuré عام ٩٤٢هـ / ١٥٣٥م، تابع بعدها، لمدة ست سنوات، فتوحاته في أرض الحبشة. فسيطر على الجزء الأكبر منها، وحصل على غنائم كثيرة. إلا أنه لم يفلح في تثبيت انتصاراته، لأن جيشه، المؤلف من صوماليين بداة، لاهمّ لهم سوى الغزو السريع وكسب الغنائم، لم يكن عوناً له في هذا المجال؛ ناهيك عن نقص السلاح، والاعتماد على الأسلحة القديمة التقليدية.

أما المرحلة الثانية: وهي قصيرة نسبياً لا تتعدى العام إلا قليلاً، فقد تميزت بوصول نجدات للطرفين من الخارج. فقد أرسلت البرتغال إلى إثيوبية النجدة العسكرية التي كان قد طلبها النجاشي منها، لأنها إلى جانب العامل الديني، كانت حريصة على تثبيت أقدامها في موانىء البحر الأحمر، بعد كشفها لطريق الهند.

وكانت النجدة، حملة من أربعمئة جندي ومئة وثلاثين عبداً، بقيادة كريستوفر دوغاما وكانت مزودة بالمدفعية والبنادق. وبالمقابل استنجد أحمد غران بالأتراك العثمانيين في اليمن. وتمكن البرتغاليون في بادىء الأمر من الانتصار، إلا أن أحمد غران عاد فتغلب عليهم، وقتل قائدهم. فأسرع البرتغاليون والأحباش معاً إلى إعادة تنظيم جيشهما، واستطاعا في معركة زَنْطرا Zantra قتل أحمد غران بطلقة رصاصة، فدب الذعر في صفوف جيشه، وتفرق شذر مذر، وكان ذلك في ١٧ ذي القعدة ٩٤٩هـ / ٢٢ شباط ١٥٤٣م.

وعلى الرغم من أن الحرب الجهادية قد توبعت من بعده، من قبل بعض قادته من أسرته نفسها، وأبلت فيها أرملته بلاء حسناً، إلا أن المسلمين أضاعوا ما حققه لهم أحمد غران من فتوح.

ليلى الصباغ

الموضوعات ذات الصلة:

إثيوبية - الصومال.

مراجع للاستزادة:

- عرب فقيه، فتوح الحبشة، ترجمه للفرنسية رنيه باسه R. Basset تحت عنوان

- Histoire de la conquête de l' Abyssine (Paris 1897-1901).

- إبراهيم علي طرخان، «الإسلام والممالك الإسلامية بالحبشة»، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٨ (القاهرة ١٩٥٩).

■ أحمد بن محمد بن إبراهيم
(١٠٨٣ - ١١٤٩هـ / ١٦٧٣ - ١٧٣٦م)

السلطان العثماني الثالث والعشرون (١١١٥ - ١١٤٣هـ / ١٧٠٣ - ١٧٣٠م) ويعرف بالسلطان أحمد الثالث. خلف أخاه مصطفى الثاني في الحكم في ١٠ ربيع الثاني / ٢١ آب إثر تخلي مصطفى عن الحكم في أعقاب ثورة الجيش الانكشاري.

بدأ السلطان أحمد حكمه بالقضاء على زعماء الثورة ومعاقبة مؤيديهم، وبالعودة إلى نظام «الدفشرمة» (وهو نظام تجنيد الشبان من البلقان، وكان قد تم التخلي عنه من قبل، وتجنيد المسلمين الأحرار، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي طبقت فيها الدفشرمة).

عانى السلطان أحمد في السنوات الأولى من حكمه من خطر الفتن وعدم وجود صدر أعظم قوي لدرئها. وكانت السلطنة آنذاك تعاني من نتائج معاهدة كارلوفيتز Carlovitz التي وقعت في ٢٦ كانون الثاني ١٦٩٩ مع آل هابسبورغ، وتخلت لهم السلطنة بموجبها عن جميع هنغارية وترانسلفانية، وبودولية، وكانت هذه أول خسارة كبيرة للعثمانيين منذ نحو ثلاثمئة سنة حين هزمهم تيمورلنك (١٤٠٢م)، وأول مرة وقع فيها العثمانيون الصلح منهزمين، وتخلوا بموجبه عن مناطق سيطروا عليها منذ مدة طويلة. ولم يتمكن العثمانيون بعد ذلك من استعادة ما خسروه.

ولكن العثمانيين تمكنوا بموجب معاهدة بسّاروفيتز Passarovitz عام ١٧١٨م من استعادة شبه جزيرة المورة من جمهورية البندقية بعد أن احتلتها عشرين عاماً، وبذلك ظهر عجز البندقية عن الاحتفاظ بسلطتها في البحر المتوسط. وبالمقابل كسبت الامبراطورية النمسوية وحكامها من آل هابسبورغ بموجب هذه المعاهدة من العثمانيين مناطق بنات تمسفار والأفلاق (فالاشية) الصغرى وبلغراد وأجزاء من شمالي صربية. ولكن العثمانيين، ودعم من فرنسة استعادوا هذه المناطق بموجب معاهدة بلغراد (١٧٣٩م) ولم تعد النمسة مصدر خطر كبير عليهم.

كانت علاقات الدولة العثمانية مع روسية عدائية في عهد القيصر بطرس الأكبر الذي هزم الملك شارل الثاني عشر ملك السويد (١٧٠٩م)، فلجأ الملك السويدي إلى العثمانيين. وقد حرّض ملك السويد وسفراء فرنسة والبندقية السلطان أحمد على محاربة روسية وإلغاء الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لها في عام ١٧٠٠ ومواجهة طموحات قيصر روسية في البحر الأسود. وأعلنت السلطنة الحرب على روسية في عهد الصدر الأعظم بلطجي محمد باشا في ٢٠ تشرين الثاني ١٧١٠ بحجة بناء روسية أسطولاً حربياً في بحر آزوف، وإقامة القلاع على طول حدودها مع الدولة العثمانية، والتدخل في شؤون خان التتر، ونشر الدعاية بين رعايا الدولة من الأرثوذكس



لتحريضهم على الانفصال عن الدولة. وجرى القتال في تموز ١٧١١، وتوغلت القوات الروسية في مولدافية، ولكن صعوبة تموين هذه القوات، وهجوم الجيش العثماني عليها، وهي تتجه نحو نهر بروث Pruth، جعلها تتراجع وتطلب الصلح. وتم ذلك في اتفاقية بروث ٢٣ تموز ١٧١١م وبموجبها تخلى القيصر للعثمانيين عن بحر آزوف، وهدم القلاع التي أقامها، وتعهد بعدم التدخل في شؤون القرم وبولونية، وبالكف عن التدخل في شؤون الأرثوذكس. ولكن القيصر لم يف بتعهداته، فاستؤنفت الحرب (١٧١١-١٧١٣)، وانتهت باتفاقية أدرنة (١٧١٣) التي أكدت الاتفاقية السابقة، وكانت مدتها خمسة وعشرين عاماً، وذلك بفضل السياسة الحكيمة للصدر الأعظم سلحدار علي باشا.

وعلى الجبهة الفارسية، استغل العثمانيون الاضطرابات التي تعرضت لها الدولة الصفوية نتيجة غزوات الأفغان بزعامة أشرف، فاحتلوا تفليس وجورجية (بلاد الكرج) وأريوان وشروان وأذربيجان وجميع المنطقة الفارسية غرب خط أردبيل - همذان، وأوجدوا فيها عشر ولايات جديدة. واستمر العثمانيون في هذه المناطق على الرغم من محاولة سيّد إيران أشرف الأفغاني طردهم، إلى أن تمكن نادرشاه، الذي أطاح أشرف، من استعادتها عام ١٧٣٠.

أدى الصراع بين العثمانيين والقوى الأفغانية المسيطرة في بلاد فارس، والتي أطاحت الأسرة الصفوية، إلى ظهور حكام أقوياء في العراق، كان أولهم حسن باشا والي بغداد (١٧٠٤-١٧٢٣) وابنه أحمد باشا (١٧٢٤-١٧٤٧) ثم مماليكهما من بعدهما. وتمكن هؤلاء من الوقوف في وجه حكام فارس.

أدت انتصارات نادرشاه على العثمانيين إلى قيام ثورة شعبية في اصطنبول (١٧٣٠) بقيادة انكشاري من أصل ألباني هو باترونا خليل Patrona، أطاحت الصدر الأعظم الذي قتل، وأجبرت السلطان أحمد على النزول عن عرش السلطنة.

شهدت السنوات الأخيرة من حكم السلطان أحمد الثالث تطورات ملحوظة في مجالات الأدب والموسيقى وفن العمارة المتأثرة بالغرب، وعرفت هذه السنوات بالحقبة الزنبقية (نسبة إلى زهرة الزنبق التي راجت على نحو واسع جداً بين الناس) واشتهر فيها الشاعر نديم، وترجمت الكتب عن العربية والفارسية، وبنيت المكتبات في اصطنبول، ونشطت صناعة الخزف، وبنيت السفن الحربية، كما بني سدّ لتموين اصطنبول بالماء. وفي عهد السلطان أحمد الثالث صدر الفرمان بإنشاء المطبعة عام ١١٤٠هـ/١٧٢٧م وذلك بمبادرة من إبراهيم متفرقة [ر].

عبد الكريم رافق

الموضوعات ذات الصلة:

الصفويون - العثمانيون.

مراجع للاستزادة:

- STANFORD J.SHAW, History of the Ottoman Empire & Modern Turkey, 2Vols. (California University Press 1976).

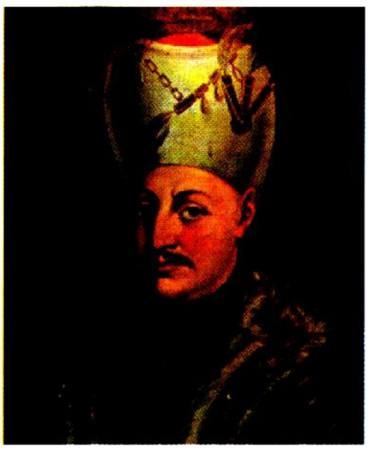
■ أحمد بن محمد بن مراد
(٩٩٨-١٠٢٦هـ/ ١٥٩٠-١٦١٧م)

هو السلطان العثماني الرابع عشر (١٠١٢-١٠٢٦هـ/١٦٠٣-١٦١٧م) ويعرف بالسلطان أحمد الأول، وهو الابن الأكبر للسلطان محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣م). ولد في مانيسة. خلف أباه في السلطنة واستمر في الحكم إلى أن توفي إثر مرض عضال.

لم يقتل السلطان أحمد الأول أخاه، للتخلص من منافسته، بل اكتفى بأن أرسله إلى السرايا العتيقة حيث أقام ليخلفه في الحكم من بعده. ولصغر السلطان عند اعتلائه عرش السلطنة فقد اعتمد على أمّه ثم على كبير طواشية القصر درويش محمد آغا.

شُغل السلطان أحمد بالحرب على جبهتي فارس وأوربة. ففي الأولى جابه قوات الشاه الصفوي عباس الأول (١٥٨٧-١٦٢٩م) الذي احتل أريوان وقارص وهزم الجيش العثمانيَّ بقيادة جغال زاده سنان باشا (١٦٠٥) واحتل غنجة وشروان. وكان هذا الانتصار الصفوي مقدمة لاحتلال قوات الشاه عباس بغداد (٢ صفر ١٠٣٣هـ/ ٢٥ تشرين الثاني ١٦٢٣م)، وقد سهل احتلاله بغداد ثورة بكر اللوباشي فيها على الحكم العثماني واستنجاده بالصفويين، واستمر هؤلاء في حكم بغداد، ودحر القوات العثمانية التي حاولت استرجاعها حتى تمكن السلطان العثماني مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠) من دحر الصفويين واستعادة بغداد (١٨ شعبان ١٠٤٨هـ/ ٢٥ كانون الأول ١٦٣٨م) وعرف بفاتح بغداد. ويذكر أن الصفويين لم يتمكنوا، طوال حكمهم بغداد، من احتلال البصرة على الرغم من محاولاتهم ذلك، ولكنهم سيطروا على كركوك والموصل.

وفي الجبهة الأوربية دار القتال في هنغارية، فاحتل الصدر الأعظم لالا محمد باشا بعد هزيمته في بشتة مدينة غران (أسترغون) في عام ١٦٠٥، ونصّب العثمانيون حليفهم أمير ترانسلفانية بوكسكاي حاكماً، وأقرّ النمسويون للعثمانيين بهذه الانتصارات والمكاسب في ترانسلفانية وهنغارية وذلك في اتفاقية سيتغاتوروك (وهي المكان الذي يصب عنده نهر سيتغا في الدانوب) وذلك في ١١ تشرين الثاني عام ١٦٠٦، وحصل العثمانيون على تعويضات مالية كبيرة مقابل اعترافهم بلقب



امبراطور لملك النمسة، مما جعل الحاكم النمسوي على قدم المساواة مع الحاكم العثماني.

وواجهت السلطنة في عهد السلطان أحمد الأول اشتداد ثورات الأمراء المتمردين في الأناضول الجلالية، وكانت ثوراتهم قد بدأت في العقد الأخير من القرن السادس عشر، واشتدت في العقد الأول من القرن السابع عشر. وكان من أشهر هؤلاء الثائرين حسين باشا وعبد الحليم اليازجي المعروف بالمصادر التركية بلقب قره يازجي (الأسود)، وقد ثار الأول في ولاية

كرمان، واستولى الثاني على سيواس وذي القدر. واعتمد الثائرون على قوات من المرتزقة المعروفين بالسكبان، وكانت أسباب هذه الثورات اقتصادية واجتماعية بالدرجة الأولى بسبب الجفاف الذي أصاب الأناضول آنذاك، ونقص الموارد الطبيعية، وازدياد السكان وانتشار البطالة بينهم، يضاف إلى ذلك أسباب سياسية، فقد قاد هذه الثورات أمراء متنافسون من التركمان والأكراد المتمردين في مناطق الثغور الأولى، حيث التفّ حولهم الفلاحون الفقراء، واتخذت الثورات طابع تمرّد الأطراف على السلطة المركزية.

وانتشرت هذه الثورات في بلاد الشام، إذ ثار علي باشا جانبلاط (دمج لكلمتي جان وبولاد وتعنيان بالتركية: النفس الفولاذية)، الكردي الأصل، في حلب احتجاجاً على قتل العثمانيين عمّه حسين باشا والي كلّس ثم حلب، لعدم مساعدتهم في حرب الصفويين. ودامت ثورة علي باشا في حلب بين عامي ١٦٠٥ و١٦٠٧، وقد تحالف مع ثائر آخر هو فخر الدين المعني الثاني، أمير الشوف وجبل لبنان (١٥٩٠-١٦٣٥) وحاصرت قواتهما، ومعظمها من المرتزقة السكبان من الأناضول، دمشق إثر الانتصار الذي حققته هذه القوات على العساكر الشامية في موقعة العرّاد (من ضواحي دمشق) في ٢٧ جمادى الأولى ١٠١٥ / ٣٠ أيلول ١٦٠٦، ولكن الثائرين فكّا الحصار عن دمشق بعد أن دُفع لهما مبلغ من المال، ثم دبّ الخلاف بين الرجلين، فتمكنت السلطنة من هزيمة علي باشا في منطقة مرعش في ٢٧ جمادى الآخرة ١٠١٦/ ١٩ تشرين الأول ١٦٠٧، ثم قتلته بعد نحو أربع سنوات، ولجأ من نجا من الأسرة الجانبلاطية إلى منطقة الشوف حيث أقاموا. ثم تمكنت القوات العثمانية في عهد السلطان مراد الرابع من هزيمة فخر الدين بعد عدة ثورات قام بها، وقتلته عام ١٦٣٥.

وشهدت مصر ثورات قام بها العساكر على الحكم العثماني في المدة بين ١٥٨٩ و١٦٠٩، وكانت أسبابها اقتصادية بالدرجة الأولى لانهيار قيمة النقد، فتضرر العساكر من أصحاب المرتبات الدنيا في الريف وقاموا بفرض ضرائب إضافية، عرفت بالطلبة، على أصحاب الأراضي، وحين حاولت الدولة منعهم ثاروا. ومما أعطى ثوراتهم عنفها وشدتها وشعاراتها السياسية، استغلال المماليك الناقمين على العثمانيين لهذه الثورات. وتمكنت السلطنة في عهد السلطان أحمد الأول من القضاء عليها في عام ١٦٠٩.

واستطاع العثمانيون تحقيق جملة انتصارات بحرية بقيادة أمير البحر العثماني خليل باشا، فقد انتصر الأسطول العثماني على أسطول فلورنسة ومالطة في مياه قبرص ١٦٠٩، ولكن الأسطول العثماني هُزم في ليبانتو ١٦١٠. وكانت الحرب البحرية سجالاً.

دحر الجيش العثماني قوات القوزاق التي هاجمت سينوب، كما أوقفت هجومهم على مولدافية، وتم الصلح بين الطرفين في عام ١٦١٧.

كان السلطان أحمد الأول ميالاً إلى العدل راغباً في التنظيم، وقد رتب القوانين الإدارية والتجارية في مجموعة عرفت بـ«قانوننامه». إلا أنه كان ضعيف الإرادة متردداً في أحكامه وقراراته ورغباته.

وكانت للسلطان جملة من المآثر مما يدخل في باب التقوى، منها بناء المساجد ومنشآت البرّ والإحسان، وكان أول من أمر بصنع كسوة الكعبة باصطنبول وكانت إلى عهده ترسل من مصر، كما اعتنى بالحجرة النبوية بالمدينة وأضرحة البقيع. وأجمل آثاره على الإطلاق الجامع الذي ابتناه في «آت ميداني» في اصطنبول، ونسب إليه فسمي «جامع السلطان أحمد» أو «جامع الاحمدية» وعرف كذلك باسم «الجامع الأزرق» لغلبة لون القاشاني الأزرق عليه.

عبد الكريم رافق

الموضوعات ذات الصلة:

الصفويون ـ العثمانيون.

مراجع للاستزادة:

ـ المحبي، خلاصة الأثر (دار صادر، بيروت).

ـ البوريني، تراجم الأعيان في أبناء الزمان، ت. صلاح الدين المنجد (مطبوعات المجمع بدمشق ١٩٦٦)

ـ عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون.

ـ S. SHAW, History of the Ottoman Empire & Modern Turkey, Vol.I (California 1976).

■ أحمد المنصور السعدي ← السعديون

■ أحمدو لبّو

(٠٠٠-١٢٦٠هـ / ٠٠٠-١٨٤٤م)

أحمدو لبّو Ahmado Lobbo زعيم ديني لقبيلة فُل Ful من عشيرة باري Bari المستقرة في وسط منطقة ماسينة Masina في السودان الغربي، اسمه الحقيقي حَمَدو بن حَمَدو لبّو وكان والده حمدو مسلماً تقياً، عاش في قرية يوغونسيرو Yogunsiru في وسط منطقة ماسينة، وسمي لبّو نسبة إلى والدته.

كانت قبيلة فُل تحكم منطقة ماسينة، وكانت في أكثريتها من الوثنيين أو من الذين لم يتخذوا من الإسلام إلا مظاهر سطحية، وكانت تحكمها أسرة ديالو Dyallo وهي من أتباع حكام بمبارا Bambara في سيغو، أما ناحية جنّة Djenne فكانت تحت سيطرة القوات المغربية.

كان أحمدو لبّو أحد أتباع الشيخ سيدي محمد من أولياء الطريقة القادرية، ورافق عثمان دان فوديو في حملاته الناجحة المعدة لنشر الإسلام في سنة ١٨٠٠م، واتخذ إحدى القرى الصغيرة قرب جنّة مقراً له. لكن المغاربة أجلوه عنها خشية امتداد نفوذه وتأثير تعاليمه، فانتقل واستقرّ بسيبيرة مسقط رأس والدته حيث جمع حوله عدداً من الطلبة.

ثار أحمدو على حكومة ماسينة نتيجة الحادث الذي وقع بين طلابه وغوروري ديالو Gurori Dyallo ابن حاكم ماسينة واستطاع هزيمة جيش بمبارا الذي وجه إليه وخلع أسرة ديالو وجميع قادتها عن عرش ماسينة سنة

١٨١٠م، وضوى إليه أفراد قبيلة فُل كافة، واستولى على جنّة بعد حصار دام تسعة أشهر، وهزم غلاجو Geladjo قائد الكوناري Kunari، وفي سنة ١٨١٥ بنى عاصمة جديدة في المنطقة سماها حمد الله. وفي سنة ١٨٢٥ غزا بعض مدن الطوارق Touareg ثم تمبكتو سنة ١٨٢٧ وبسط سلطته إلى الشرق حتى جبال تومبو وإلى الجنوب الشرقي حتى التقاء نهري فولتا الأسود وسورو Suru.

اتخذ لبّو لقب أمير المؤمنين واندفع في نشر الإسلام محارباً كل ما كان في رأيه من البدع. وحرم التبغ، وأقام علاقات مع السلطان العثماني، وعمل على تنظيم الأراضي الخاضعة لسيطرته فعين على القرى والمقاطعات والإمارات موظفين حكوميين كانوا مسؤولين أمام قاضي المنطقة. ونظم الضرائب من زكاة وخراج وعشور. وكان ينظم الحملات العسكرية في كل ربيع ملزماً كل قرية بتزويد هذه الحملات بعدد ثابت من الرجال يعبأ ثلثه سنوياً ضمن جدول الخدمة، وخصص للجند رواتب لإعالة أسرهم في أثناء غيابهم. وعين خمسة ضباط عسكريين من ذوي الرتب العالية يتولى كل منهم حماية قطاع مخصص له.

توفي أحمدو الأول لبّو وخلفه ابنه أحمدو الثاني الذي أعاد في سنة ١٨٤٦م فرض سلطة ماسينة على تمبكتو التي كانت قد ثارت عند موت والده. وفي عام ١٨٥٢م ورث أحمدو الثالث والده أحمدو الثاني، وحاول إيقاف توسع الحاج عمر تل Umar Tal، لكن هذا الأخير استطاع في سنة ١٨٦٢م الاستيلاء على حمدالله وأسر أحمدو الثالث وقتله، وبقيت دولة ماسينة مركزاً إسلامياً.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

التصوف ـ السودان.

■ الأحمدي

مدينة في الكويت تقع على الساحل الشرقي تبعد نحو ٦ كم عن البحر و٣٦ كم إلى الجنوب من مدينة الكويت العاصمة. ويزيد عدد سكانها على ٢٤٠,٠٠٠ نسمة (١٩٨٩). سمّيت باسم حاكم الكويت الأسبق الشيخ أحمد الجابر الصباح (١٩٢١ - ١٩٥٠) وأنشئت عام ١٩٤٦ مركزاً لشركة نفط الكويت وميناء لتصدير النفط، وتبعد نحو ١٠كم عن حقول النفط في البُرقان والمقْوَع. وقد زوِّد ميناء الأحمدي بأحدث المعدات وأضخمها لضمان تصدير النفط بأقصر وقت وأكثر كمية، فجهز برصيفين واحد إلى الشمال وآخر إلى الجنوب جعلاه أكبر ميناء لتصدير النفط في العالم يستطيع استقبال أضخم الناقلات العالمية. وفي شمالي المدينة وجنوبيها خزانات ضخمة للنفط معظمها في الجنوب تتسع في مجموعها لنحو ١٠ ملايين برميل يمكن تصديرها في خمسة أيام. وتتصل بخزانات الشمال والجنوب أنابيب تنقل إليها النفط من مراكز التجميع. وبعد أن يُفصل النفط الخام عن الغاز يضخ النفط في أنابيب إلى الخزانات في جنوبي الكويت وشماليها، وينقل الغاز بالأنابيب إلى مراكز التجميع في ميناء الأحمدي ليستعمل في معمل التكرير ومحطة الطاقة الرئيسة. ويشمل معمل تكرير النفط بالأحمدي ثلاث وحدات للتقطير تحت الضغط الجوي، ووحدة لمعالجة البنزين، ومعملاً للمزج، ومعملاً للقار، ومعملاً لإنتاج كيروسين لوقود الطائرات وغاز البيوتين والبروبين المسيل، إضافة إلى محطة توليد الكهرباء وطاقتها ٣٧٥٠٠ كيلو واط، ومحطات ضخ، وخزانات، ومرافق لضبط التعبئة، ومعمل لتقطير مياه البحر بدأ تشغيله عام ١٩٥٠.

تعود أهمية ميناء الأحمدي إلى أنه حوّل المنطقة التي أنشيء فيها من منطقة لصيد اللؤلؤ والتجارة بالسفن الشراعية إلى إنتاج النفط وتصديره، فادى ذلك إلى وجود مدينة عصرية تحوي كل مقومات المدينة الحديثة، وتتضمن كل الخدمات التي تسهّل حركة الحياة فيها وهي مركز محافظة الأحمدي.

ويتصف مخطط الأحمدي بانتظامه حيث المساكن ذات الحدائق والشوارع العريضة المتقاطعة ومراكز التسويق والخدمات الأخرى من مدارس وأماكن عبادة لأبناء الجنسيات المختلفة من الموظفين والعمال العرب والأجانب. ومدينة الأحمدي آخذة بالتوسع باتجاه الشرق حيث ميناء الفحيحيل ومدينة الصباحية، وباتجاه الشمال والجنوب أيضاً.

ج.ت

■ الأحمديليون

(٤٢٠-٦٠٤هـ/ ١٠٢٩-١٢٠٧م)

الأحمديليون Ahmadilis أو بنو روّاد، أسرة من الأسر المحلية التي أقامت لها حكماً في جزء من أذربيجان (بين مدينتي تبريز ومراغة في الوقت الذي كانت تقوم دويلات أخرى في الأجزاء المتبقية من أذربيجان) في مطالع القرن الخامس الهجري (مطالع القرن الحادي عشر الميلادي)، في الوقت الذي كانت فيه قبائل الغز الأتراك بقيادة أمراء من بني سلجوق، تعبر جيحون (أموداريا) وتتجه غرباً نحو بغداد لتبسط نفوذها في عاصمة الخلافة العباسية، التي أصابها الضعف الشديد، تحت نفوذ آل بويه المتحكمين هناك.

ويرجع الأحمديليون في نسبهم إلى ابن الروّاد الكردي، الذي كان يحكم منذ عهد الخليفة العباسي المعتصم [ر] قلعة شاهي الحصينة في أذربيجان، وتتبع له تبريز، المدينة الرئيسة في المنطقة. والأكراد الروّادية من أشراف الأكراد، انحدر منهم فيما بعد، أيوب بن شادي والد صلاح الدين الأيوبي. والروّاديون فرع من أسرة كردية أخرى تعرف ببني سلاّر، كانوا يحكمون مناطق أخرى من أذربيجان وأرّان شمال أذربيجان.

وكان على رأس الدولة أبو منصور وَهْسوذان ابن مملان (حكم بين ٤٢٠-٤٥٠هـ / ١٠٢٩ - ١٠٥٨م) عندما بدأت طلائع الغز تغزو المنطقة في سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م. وأحسن أبو منصور استقبالهم عندما وصلوا إليه في عاصمته تبريز،

وصاهرهم بهدف أن يستعين بهم لدرء خطر شعوب الأبخاز والكرج والأرمن التي كانت تغزو بلاده من ناحيتها الشمالية. ولكن الغز دأبوا على أعمال الشر والفساد، فأغاروا على مدينة مراغة التابعة له، وأحرقوا مسجدها، وقتلوا عدداً من سكانها فدفع ذلك أبا منصور إلى أن ينسى خلافاته الإقليمية مع جيرانه، حكام المناطق الأخرى من أذربيجان، وإلى التعاون لدفع الغز عن المنطقة، وتمكن وهسوذان من إجلائهم في سنة ٤٣٢هـ / ١٠٤١م عن أملاكه، عندما اعتقل ثلاثين من زعمائهم في أثناء وليمة أقامها لهم في تبريز فاضطر الباقي منهم إلى الجلاء واسترجع وهسوذان سلطته على أملاكه.

ولما بلغ الزعيم السلجوقي طُغْرل بك [ر] أذربيجان، وهو في طريقه نحو العراق سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤م. عرَّج على تبريز، وأحسن وهسوذان استقباله. ودخل في طاعته. وخطب له وحمل إليه من الأموال ما أرضاه. وأعطاه ولده رهينة على إخلاصه. وأمضى طغرل بك ذلك العام في أذربيجان. وقام خلال إقامته بغزوة إلى بلاد الروم ثم عاد ليتابع التقدم إلى بغداد.

خلف وهسوذان أحْمديل (٤٥٠ ـ ٥١٠هـ / ١٠٥٨ ـ ١١١٦م). فنقل مركز حكمه إلى مراغة وقُدِّر دخله السنوي من أملاكه بأربعمئة ألف دينار، وبلغ عدد جيوشه خمسة آلاف. لبى أحمديل دعوة السلطان السلجوقي محمد ابن ملكشاه (٥٠٥هـ / ١١١١م)، للاشتراك مع عدد من الأمراء الأكراد والأتراك في حملة على الفرنجة الصليبيين الذين كانوا قد تمكنوا من الاستقرار في بعض مناطق بلاد الشام. وكان هدف الحملة إمارة الرها ولم تتمكن الحملة من تحقيق هدفها لإحجام رضوان بن تتش حاكم حلب عن التعاون معها، وتشكك حاكم دمشق طغتكين في نوايا سلاجقة العراق، الذين أرسلوا الحملة، وخشي أن يكون الغرض منها القضاء على حكمه. ووقعت الخلافات بين قواد الحملة، ومات أحدهم وهو سكمان القطبي حاكم ميافارقين. وتقدم الباقون ومعهم أحمديل الكردي لحصار تل باشر في شمال حلب. وكادت أن تقع في أيديهم، لولا أن أميرها الفرنجي، تمكن من رشوة أحمديل بمبلغ من المال ليعمل على رحيل العساكر، وفك الحصار ففعل. ولما أرادت الحملة التقدم إلى شَيْزَر عاد أحمديل بقواته وقوات سكمان المتوفى إلى بغداد، ليطالب السلطان بضم أملاك سكمان إلى أملاكه ومات أحمديل غيلة في بغداد، بيد أحد الباطنية، عندما كان بحضرة السلطان السلجوقي.

وخلف أحمديل على أملاكه في أذربيجان ابنه آق سُنْقُر (٥١٠ـ٥٢٧هـ / ١١١٦ ـ ١١٣٣م). وكان له دور نشيط في الصراعات التي دارت بين الأمراء السلاجقة، بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه. فجاهر بعداء السلطان السلجوقي الجديد محمود بن محمد (٥١٦هـ / ١١٢٢م) وحرّض عليه شقيقه طغرل فاضطر السلطان محمود إلى إرسال جيش اكتسح أذربيجان واتجه لحصار مراغة، لولا توسط أحد الحكام المحليين.

وساعدت آق سنقر الأحمديلي الظروف عند وفاة السلطان محمود بن محمد (٥٢٥هـ / ١١٣١م.) والمناداة بابنه داود خلفاً له، على أن يكون آق سنقر أتابكاً له. وخطب آق سنقر لحميه بالسلطنة في أملاكه بأذربيجان، ولكنه عاد فانهزم مع داود في العام التالي أمام عمه طغرل بن محمد واضطر آق سنقر إلى الفرار مع داود لاجئين إلى الخليفة العباسي في بغداد. ووجد داود أن من مصلحته أن يتخلى عن أتابكه آق سنقر. ويتفق مع عمه الآخر مسعود ابن محمد على عمه طغرل، على أن ينزل له عن السلطنة بمقابل أن يكون ولياً لعهده. واجتاحت جيوش الحليفين السلجوقيين أذربيجان ومرت على مراغة فاضطر آق سنقر إلى أن يقدم لهما الأموال والإقامات. ولذلك لم يتعرضا له بأذى، ولكنه اغتيل في العام نفسه (٥٢٧هـ/١١٣٣م) على يد أحد الباطنية أيضاً.

خلف آق سنقر الأحمديلي ابنه خاص بك (٥٢٧ ـ ٥٧٠؟هـ / ١١٣٣ ـ ١١٧٤؟م)، واشتهر أيضاً بابن الأحمديلي، وسار على سياسة والده نفسها، في الدخول في صراعات الأمراء السلاجقة ونجح سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٩م، في الحصول على أتابكية أحد الأمراء الصغار، مثل سليمان شاه بن محمد، في الوقت الذي حصل فيه منافس آخر له هو إيلدكز مملوك السلطان مسعود السلجوقي وحاكم أران، على أتابكية أخرى لأمير سلجوقي آخر هو أرسلان ابن طغرل. وسار إيلدكز وأولاده من بعده على سياسة تطويق أملاك الأحمديليين القائمة بين تبريز ومراغة من الشمال والجنوب فسيطروا على بلاد الري والجبل وهمذان وأصفهان (٥٦٤ ـ ٥٦٦هـ / ١١٦٩ ـ ١١٧١م). على الرغم من إخفاق إيلدكز في تاريخ سابق (٥٥٦هـ / ١١٦١م)، في حملة على خاص بك قرب نهر سفيدرود (قزيل رود الحالي) في شرقي أذربيجان بعد أن استعان خاص بك بحاكم خلاط أو اخلاط (شرق آسيا الصغرى اليوم). ولذلك أرسل إلى بغداد (٥٦٣هـ / ١١٦٨م) يطالب بالخطبة لأميره، وأعلن عن استعداده لدفع ما عليه من أجل ذلك من أموال سنوية، وتعهد بالامتناع عن مهاجمة العراق. وظل إيلدكز أكبر معارض له في مشروعاته وسير إليه جيشاً هدد عاصمته مراغة إلى أن أبرم الصلح بينهما من دون التوصل إلى نتيجة حاسمة.

توفي خاص بك نحو ٥٧٠هـ / ١١٧٤م، وخلفه ابنه فلك الدين، واستطاع محمد البهلوان بن إيلدكز وخليفته أن ينتزع منه تبريز وأبقى له مراغة.

ولا يُعلم متى كانت وفاة فلك الدين الأحمديلي. إلا أن خليفته علاء الدين آق سنقر الثاني كان آخر حكام الأسرة الأحمديلية، وكانت وفاته ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م. لأن ولي عهده كان طفلاً صغيراً، وقام بتدبير دولته خادم والده ولذلك وجد البهلوان أن الفرصة سانحة للاستيلاء على مراغة ثاني المدينتين الرئيستين للأحمديليين في العام نفسه. وتوفي الطفل الوارث في العام التالي.

أسهم الأحمديليون، بسبب موقع مناطق حكمهم في أذربيجان المجاورة لأملاك الكرج والأرمن والأبخاز، في رد غزوات هؤلاء على حدود العالم الإسلامي في هذه المنطقة. وكان من وراء هذه الأقوام الروم البيزنطيون. فردوا غزوة الأبخاز عن تفليس (تبيليسي اليوم) سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٨م. وأشركوا حكام الدويلات الأخرى بالمنطقة في غزوات انتقامية لصدّ غارات هذه الأقوام.

الأسرة الأحمديلية

١ـ وهسوذان بن محمد ٤٢٠ ـ ٤٥٠ هـ / ١٠٢٩ ـ ١٠٥٨م.

٢ـ أحمديل ٤٥٠ ـ ٥١٠ هـ / ١٠٥٨ ـ ١١١٦م.

٣ـ آق سنقر الأول ٥١٠ ـ ٥٢٧ هـ / ١١١٦ ـ ١١٣٣م.

٤-خاص بك ٥٢٧ -نحو ٥٧٠ هـ / ١١٣٣ - نحو ١١٧٤م.

٥-فلك الدين نحو ٥٧٠-؟ هـ/ نحو١١٧٤-؟ م.

٦-علاء الدين آق سنقر الثاني ؟-٦٠٤هـ / ؟- ١٢٠٧م.

* لسنا متأكدين من علاقة القرابة بين الحاكمين الخامس والسادس.

مظهر شهاب

الموضوعات ذات الصلة:

أذربيجان - السلاجقة - طغرل بك - مراغة.

■ الأحمدية ← القاديانية

■ الأحمر (البحر-)

البحر الأحمر بحر داخلي عربي يقع بين قارتي آسيا وإفريقية، عرف عند العرب ببحر القُلزم وعند اليونان والروم بالبحر الأحمر Rubrum Mare والبحر الأريتري Aerethris Mare، واكتسب اسمه من لون بعض المرجانيات التي تضفي على الماء اللون الأحمر أو بسبب تجمع نباتات طحلبية بحرية أزهارها تلوّن الماء بالأحمر المائل إلى البني.

الموقع والأبعاد

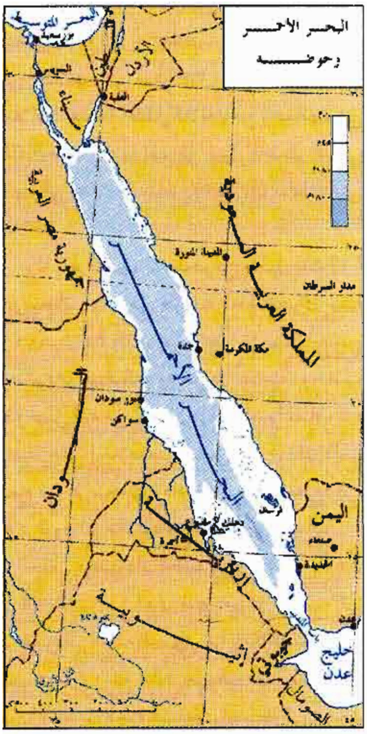
تحيط بالبحر الأحمر أقطار الأردن وفلسطين ومصر من الشمال، والمملكة العربية السعودية والجمهورية اليمنية من الشرق، ومصر والسودان وأريترية من الغرب (الخريطة ١). ويشغل حفرة انهدامية متطاولة ضيقة. طوله ١٩٣٢ كم وعرضه الأقصى ٣٠٦ كم ويغطي مساحة ٤٥٠ ألف كم² وحجم مائه لا يقل عن ٢٥١ ألف كم³ وعمقه المتوسط ٥٥٨م، والأقصى ٢٦٣٥م، وسواحل البحر رملية وصخرية تحيط بها الشعاب المرجانية غالباً. وينتهي شمالاً بخليجي العقبة والسويس ويبلغ طول الأول ١٨٠كم وعرضه ١٥ - ٢٨ كم أما عمقه فلا يتجاوز ١٨٢٨م. ويبلغ طول خليج السويس ٣٢٥كم وعرضه ١٥-٤٦ كم ولا يتجاوز عمقه ٨٠م. ويرتبط هذا الخليج بقناة السويس، التي تصل بين البحرين الأحمر والمتوسط. وفي البحر جزر أهمها أرخبيل سواكن وفرسان ودهلك. ويمتد في مركز البحر خانق طويل ضيق شديد الانحدار تراوح أعماقه بين ٢٠٠٠ و٢٥٠٠م وفي وسطه أعظم أعماق البحر التي تتناقص كلما اتجهنا جنوباً. ويتزايد عرض العتبة البحرية من الشمال إلى الجنوب، إذ يكون عرضها ١٠-٢٠كم في الشمال ويصبح ٣٥-٤٠كم في الجنوب ويزيد على ١٠٠ كم عند جزر فرسان.

ويقع في أقصى جنوبي البحر مضيق باب المندب الذي يصل بينه وبين المحيط الهندي وهو ليس بالعميق غير أن عمقه لايقل عن ١٤٠م أما عرضه فنحو ٢٧,٧كم وترجع نشأة حوض البحر إلى مجموعة معقدة من الصدوع والانكسارات التي فصلت آسيا عن إفريقية ضمن الصدع السوري الإفريقي الكبير، ونتيجة لذلك تتألف جوانب البحر من سفوح متدرجة شديدة الانحدار، بل قائمة أحياناً، تصل رمية الصدوع أو الدرجات فيها إلى ٥٠٠-٧٠٠م وتزيد على ١٥٠٠م أحياناً ولاسيما في الجنوب. ويكون التصدع شديداً كذلك في خليج العقبة. أما الترسبات في قعر البحر فأكثرها حيوي المنشأ مصدره الشعاب المرجانية وكسر القواقع الكلسية بالإضافة إلى جزئيات الغبار القارية المنشأ.

المناخ

يحدد موقع البحر الأحمر بين شبه جزيرة العرب وإفريقية خصائصه المناخية، فيرتفع الضغط الجوي في فصل الشتاء فوق شمالي إفريقية، بينما يشتد النشاط الجبهي الجوي فوق حوض البحر المتوسط، الأمر الذي يؤدي إلى سيطرة الرياح القادمة من الشمال الشرقي في القسم الشمالي من البحر، في حين تسيطر في القسم الجنوبي منه الرياح القادمة من الجنوب الشرقي. أما في الصيف فتمتد ذراع ضغط مرتفع تابع لمركز ضغط آصور فوق شمالي إفريقية مقابل الضغط المنخفض في جنوبي آسيا وشبه الجزيرة العربية. إلا أن الضغوط فوق البحر المتوسط تبقى أكثر ارتفاعاً، لذا تسيطر فوق البحر الأحمر كله رياح شمالية غربية المصدر، وهكذا تُرى سيطرة الرياح الموسمية في الجزء الجنوبي من البحر، فهي جنوبية شرقية المنشأ شتاء وشمالية غربية المنشأ صيفاً. أما في الشمال فتسيطر الرياح القادمة من الشمال.

أما الحرارة فمرتفعة دائماً والفصول واضحة في الشمال، حيث تبلغ حرارة شهر كانون الثاني



الوسطية ٢٤ درجة مئوية عند باب المندب وفي الشمال ١٥,٥ درجة، أما في شهر تموز فإنها تعادل ٣٢,٥ درجة في الجنوب و٢٧,٥ في الشمال. والأمطار قليلة بل نادرة، إذ تعادل كمياتها ٢٠٠-٣٠٠م في السنة قرب مضيق باب المندب و٣٠-٥٠م في الشمال، وهي أمطار شتوية. ونظراً لقلة المياه العذبة الرافدة للبحر وللتبخر الكبير الذي يصل إلى ٢٢٠٠-٣٠٠٠م في السنة، فإن البحر يفقد كميات كبيرة من مياهه يعوضها بالمياه البحرية المنشأ القادمة عن طريق باب المندب من المحيط الهندي وخليج عدن الذي يمده بنحو ١٠,١ ألف كم³ من المياه في السنة، في حين يتلقى منه ٩,١ ألف كم³. ويعادل هذا التبادل ٠,٢٥ من التبادل المائي بين البحر المتوسط والمحيط الأطلسي.

التيارات المائية

الجريان في البحر الأحمر معقد وللرياح دور

أساسي في ذلك. ويلاحظ وجود طبقتي جريان في فصل الشتاء، العليا منهما تمتد حتى عمق ١٠٠م ويتجه جريانها من خليج عدن إلى البحر، الأمر الذي يتطابق مع اتجاه الرياح في هذا الفصل. أما الطبقة السفلى فإنها أكثر ملوحة من السطحية وتتحرك من البحر الأحمر إلى خليج عدن. أما في الصيف فالأمر أكثر تعقيداً لأن الرياح تغير اتجاهاتها، فتشكل تيارات سطحية تدفعها الرياح من البحر إلى خليج عدن ويصل عمقها إلى ٢٥-٥٠م أما أسفل هذه التيارات وعلى أعماق تراوح بين ٢٥-١٥٠م فتتجه التيارات هنا نحو البحر الأحمر. أما تيارات القعر فسبب حدوثها هو اختلاف قيم الملوحة هنا، وتتجه كما في الشتاء من البحر إلى المحيط. وبالإضافة إلى الحركات المائية الأفقية، هناك الحركات المائية الرأسية الحملانية. فالمياه المندفعة شمالاً تزداد ملوحة وتبرد شتاء مما يزيد من وزنها النوعي فتغوص نحو الأسفل مشكلة تياراً مائياً باطنياً عائداً يجري في المضيق إلى المحيط الهندي.

وللحركات الحملان المائية الباطنية دور أساسي في تحديد خصائص التطبق المائي فتبلغ هذه الحركات أشدها في شهر شباط وتزداد عمقاً كلما اتجهنا شمالاً، حيث تراوح بين ٧٠م جنوباً و٥٠٠م شمالاً. ويعتقد أن لخليج العقبة والسويس دوراً حيوياً في تكوين مياه الأعماق. وتصل درجة حرارة مياه الأعماق المتشكلة في فصل الشتاء في شمالي البحر الأحمر إلى ٢١,٦-٢١,٧ درجة مع ملوحة ٤٠,٦ بالألف وكثافة تقع بين ٢٨,٥ و٢٨,٦ وتشغل هذه الكتلة المائية قرابة ٧٥٪ من حجم ماء البحر. ويلاحظ أن خصائصها ثابتة تقريبا حتى الأعماق. وتتسخن الطبقات المائية العليا بشدة في الصيف كما تهب الرياح نشطة قوية محدثة حركة مزج مائية فعالة تراوح سماكتها بين ٤٠ و٥٠م في الشمال و٢٠-٤٠م في الجنوب حتى باب المندب، وتراوح الحرارة في شهر آب ما بين ٣٢ درجة جنوباً و٢٧ درجة شمالاً. أما الملوحة فتزداد من الجنوب نحو الشمال وذلك من ٣٨-٣٩ بالألف، إلى ٤٢ بالألف وتنخفض حرارة المياه في الشتاء عن حرارتها في الصيف بمقدار ٥-٦ درجات فتصل حرارة الطبقة المائية الحملانية في شهر شباط إلى ٢٦,٥ درجة في الجنوب و٢٠-٢٢ درجة في الشمال وتتدنى في أقصى الشمال إلى ١٨ درجة.

أما الملوحة فمرتفعة في الشتاء كما في الصيف. وشفافية الماء عالية حتى عمق ٥٠ متراً.

أما لون الماء فأخضر سماوي، تصل كمية الأكسجين المحلول فيه إلى ٢-٣٪ وأدنى قيم له تقع على عمق ٣٠٠-٥٠٠م.

ومن الملاحظ أن عمق الأصغري الأكسجيني يزداد كلما اتجهنا شمالاً، وكمية الأكسجين في الشمال أكبر منها في الجنوب. ويعود سبب الاختلاف هذا إلى تزايد فعالية المزج المائي الرأسي باتجاه الشمال. ولقد اكتشف حديثاً وجود مياه معدنية عالية الحرارة في الجزء المركزي العميق من البحر تصل فيه حرارة المياه إلى ٤٤-٧٢ درجة مئوية، وسماكة هذه المياه لا تقل عن ٢٠٠-٣٠٠م لكن الأكسجين قليل جداً فيها. ويختلف تركيب الأملاح الموجودة في الماء هنا عن مياه البحر النموذجية، ويُذكّر تركيبها بالمحاليل الملحية المستخرجة من أعماق المناجم وآبار التنقيب. أما نوعية الترسبات الصخرية الموجودة في القعر فإن تركيبها يشير إلى أنها قد تكونت على حساب عمليات الترسيب المائية في الطبقات المائية الأكثر ارتفاعاً، وتكثر في هذه الترسبات التجمعات الحديدية والزنك والنحاس. ويعتقد بعض العلماء أن عمليات كيمياوية باطنية معقدة تتم في أسفل البحر وتذكر بتلك التي كانت تتم في أزمنة جيولوجية غابرة وأدت فيما بعد إلى ظهور المكامن المعدنية المختلفة في أرجاء المعمورة.

والمد والجزر في البحر الأحمر نصف يومي عموماً، يُظهر تضاداً في مواعيد أطوار هذه الظاهرة ما بين الشمال والجنوب. ولايزيد مدى المد والجزر على ٠,٦م في كل أرجاء البحر، لكنه يصل إلى ١,٨م في بعض أنحاء خليج السويس. كما أن المدى يقارب المتر عند باب المندب. وينقلب المد والجزر في أواسط البحر الأحمر إلى يومي، ولكن مداه ضعيف جداً. ويؤدي اختلاف قيم الضغط الجوي الفصلي واختلاف شدة التبخر والتبادل المائي مع المحيط إلى تبدل في مستوى ماء البحر بمعدل ٣٠سم.

الأهمية الاقتصادية

للبحر الأحمر أهمية اقتصادية كبيرة جداً، لأنه يمثل الطريق الأقرب والإجباري تقريباً بين المحيطين الأطلسي والهندي، وهو أقصر طريق ما بين أوربة وآسيا المدارية والاستوائية. لذا تمخر قناة السويس أكبر حمولة للسفن مقارنة بالممرات المائية الأخرى إذ تصل نسبة الحمولة إلى ١٥٪ من البضائع العالمية المحمولة على السفن. ولقد قام على شواطىء البحر الأحمر الكثير من المرافىء والمراكز العمرانية. من أبرزها ميناء السويس في مصر وبور سودان في السودان وجدة في السعودية والحُديدة في اليمن ومصوع في أريترية. أما الثروة السمكية فمتواضعة وغير مستغلة جيداً ولا تزال وسائل الصيد بدائية وقليلة التطور، وبالمقابل يحتوي خليج السويس على كميات قليلة من النفط تستخرجها مصر.

شاهر جمال آغا

مراجع للاستزادة:

- ف. ف سوخوفي، بحار المحيط العالمي (لينغراد ١٩٨٦) بالروسية.

- أ. ك نويمان، البحر الأحمر، موسوعة البحار والمحيطات (نيويورك ١٩٦٦) بالانكليزية.

■ الأحمر (بنو-) ← نصر (بنو-)

■ أحموس الأول

أحموس الأول Ahmose I ومعناه بالهيروغليفية «القمر يولد» ويسميه الإغريق أماسيس Amasis؛ ملك مصر القديمة ومؤسس الأسرة الثامنة عشرة من الفراعنة التي عاشت مصر في ظلها أزهى عصورها، وأقام ملوكها أكبر مملكة عرفها الشرق العربي القديم وأقواها، فامتد سلطانهم من الفرات شمالاً إلى أرض النوبة جنوباً.

تولى أحموس الحكم بعد أخيه كاموس (١٥٧٥-١٥٧٠ ق.م) الذي خلف والده سقنن رع. وقد دام حكم أحموس نحو ربع قرن (١٥٧٠-١٥٤٦ ق.م) تمكن في أثنائه من

تحرير مصر من الهكسوس وإعادة توحيدها وجعلها دولة قوية مرهوبة الجانب، فعده المصريون القدماء بطلاً محارباً وعظيماً من عظمائهم، وصنفوه نداً للملك مينا، مؤسس الأسرة الأولى وموحد مصر (٣٢٠٠ ق.م)، وللملك منتوحُتب الثاني مؤسس الأسرة الحادية عشرة ٢٠٥٠ ق.م الذي أعاد توحيد مصر بعد أن تمزقت أواصرها في الحقبة الوسيطة الأولى. وقد عثر على نقش في أحد معابد الأسرة التاسعة عشرة فيه اسم كل من الملك مينا والملك نب حبت رع (منتوحتب الثاني) والملك أحموس الأول. وواضح أن هذا النقش يشير إلى أعظم حكام مصر في تاريخها القديم الذين كان لهم فضل قيام الممالك المصرية القديمة والمتوسطة والحديثة.

سار أحموس الأول منذ توليه الحكم على تقاليد السلطة التي بدأت في أواخر عهد الأسرة السابعة عشرة، فتزوج من أخته أحموس - نفرتاري، وكان لهذا الزواج مدلول ديني متوارث إذ تمنح الملكة بموجبه لقب زوجة الإله آمون. ومع أن زواج الأخت هذا لم يتعد العهدين الأولين من الأسرة الثامنة عشرة فقد ظل لقب «زوجة الإله» من ألقاب الوريثات الشرعيات في سن الطفولة، وكان الفرعون يتزوج من أكثر القريبات حقاً بالوراثة ليؤكد شرعية حقه بالعرش. وكانت أحموس - نفرتاري امرأة رفيعة المقام في عهد أحموس، ويدل على ذلك تبجيلها بعد موته في طيبة حيث نقشت صور فراعنة لاحقين يقدمون لها القرابين كإلهة بين الآلهة.

وجب على أحموس أن يتابع مسيرة أخيه وأبيه في حرب الهكسوس وأن يسعى إلى طردهم من مصر وإعادة توحيد البلاد. وكان الهكسوس قد سادوا مصر تدريجياً منذ نهاية القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وكانت مصر السفلى (الدلتا) تخضع لحكمهم المباشر، أما مصر العليا (طيبة) وبلاد النوبة، فكانتا تخضعان لهم اسمياً وتؤديان نوعاً من الجزية السنوية طيلة قرن ونصف إلى ملك الهكسوس في عاصمته حت وعرة (تل الضبعة اليوم في الدلتا الشرقية من مصر، وقد حرف الإغريق اسمها إلى أفاريس). وكان لملوك طيبة وأمراء النوبة نوع من الاستقلال الذاتي وحرية التنقل والتجارة مكنتهم من تنمية ثرواتهم وتأليف جيش محلي قوي وإقامة تحالف فيما بينهم. وقد استطاع أحد فروع الأسرة الثالثة عشرة تسنم عرش طيبة منذ عام ١٦٥٠ ق.م مؤسساً ما يعرف بالأسرة السابعة عشرة. وفي عهد الملك سقنن رع الثاني والد أحموس نحو (١٥٨٠ ق.م) كانت طيبة قد بلغت من القوة والمكانة السياسية شأناً جعل الصدام مع الهكسوس أمراً لامفر منه. وهذا ما دفع ملك الهكسوس «أبوبي» إلى اختلاق الأعذار لبدء الصراع. ويظن أن سقنن رع حقق في هذا الصراع بعض النجاح إلا أنه سقط فيه صريعاً (١٥٧٥ ق.م)، إذ لوحظ وجود جروح وإصابات قاتلة في موميائه ربما كانت بسبب معركة خاضها. وخلفه في عرش طيبة ابنه الأكبر كاموس (١٦٥٠-١٥٧٠ ق.م)، وهو آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة، وامتد حكمه خمس سنوات فقط. حافظ كاموس في بداية حكمه ولمدة ثلاث سنوات على علاقات حسنة مع الهكسوس، ثم بدا له أن يتابع حرب التحرير التي شرعها أبوه فشن هجوماً مفاجئاً على معاقل الهكسوس المتاخمة لحدوده بقوات من القبائل الصحراوية وأسطول نيلي كبير، وراح يتقدم شمالاً حتى بلغ عاصمة الهكسوس نفسها. وتتحدث النصوص القديمة التي تعود إلى عهده عن استيلائه على ثلاثمئة مركب مصنوعة من خشب الأرز مشحونة بالأسلحة والذهب والفضة والمؤن، كما تتحدث عن بطشه بالمصريين الذين كانوا يهادنون العدو. وقبض رجاله في تلك الأثناء على رسول بعث به ملك الهكسوس إلى أمير النوبة في كوش يحثه على مهاجمة أراضي طيبة من الجنوب، فلم يتردد كاموس في إرسال قوة احتلت واحة البحرية محبطاً خطط أعدائه، ثم ارتد عائداً إلى طيبة بانتهاء موسم الحملات بعد أن قضى على تمرد قام به أحد أتباعه. وتذكر النصوص اسم كاموس وأخيه أحموس، الذي جاء بعده، عند الشلال الثاني في النوبة، مما يحتمل توغل كاموس في أراضي النوبة حتى ذلك الموقع، ولكنه مات قبل أن يتمكن من تحرير كل الأراضي المصرية.

لم يدخر أحموس وسعاً في متابعة جهود أخيه، وأمكنت معرفة وقائع حروبه مع الهكسوس من نقش على جدران مقبرة أحد ضباطه ويدعى أحموس بن إبانا يتحدث فيه عن أعماله وبطولاته في المعارك التي خاضها أمام ناظري الملك، وتلقى مكافأته عليها. ويستنتج من هذا النقش أن أحموس الأول استطاع في أول عهده سحق حلف بين الهكسوس والنوبة في أواسط مصر، وبعد أن عهد إلى أمه إدارة شؤون البلاد من طيبة (قرب الأقصر اليوم) تابع تقدمه شمالاً بقوات برية يساندها أسطول نهري. فاستولى على عاصمة مصر التقليدية ممفيس (قرب القاهرة اليوم)، ثم تابع مسيره المظفر فضرب حصاراً برياً ونهرياً على أفاريس «حت وعرة» عاصمة الهكسوس في الدلتا الشرقية للنيل. ولكن ثورة قام بها أحد النبلاء في مصر العليا اضطرته إلى رفع الحصار والمسارعة إلى إخمادها بمساعدة الملكة الأم. وبعد أن تم له ما أراد قفل راجعاً إلى حت وعرة فاحتلها من غير عناء، وأوغل في مطاردة العدو حتى بلغ شاروهين (تل الفرعة اليوم جنوبي غزة) معقل الهكسوس في فلسطين، فحاصرها ثلاث سنوات ثم غادرها. ويبدو أن حملات أحموس الأول في فلسطين لم تكن واسعة النطاق، وكان تقدمه بطيئاً فيها مع أن جيشه كان مجهزاً بمركبات قتال تجرها الخيول. ولم يصل أحموس بقواته إلى شمالي فلسطين إلا في أواخر عهده. وقد جاء في نقش مقبرة أحد النبلاء المدعو أحموس بن ذخيت أنه رافق الملك المظفر أحموس في زاهي (ساحل فلسطين حتى لبنان) وأسر له أسيراً. ويشير نقش آخر عثر عليه في مقلع معصرة قرب القاهرة إلى أن الحجر كان يستخرج من هذا المقلع في السنة الثانية والعشرين من حكم أحموس الأول، وكانت تجره الثيران التي استولى عليها الملك في حروبه مع الفنخو (الاسم الذي كان يطلقه الفراعنة على الفينيقيين)، وتحت ذلك النقش رسم يمثل ستة ثيران تجر زحافة عليها صخرة كبيرة، ويسوقها ثلاثة رجال ذوي لحى قصيرة يعتقد الباحثون أنهم من الأسرى الذين ساقهم أحموس معه إلى مصر من الساحل السوري لأن الفنان المصري خص العرب من المشرق القديم بهذه اللحية.

لم تقتصر جهود أحموس الحربية على طرد الهكسوس وملاحقتهم، فقد تحول بعدها إلى جنوب مصر فقاد ثلاث حملات متوالية استهدف فيها بلاد النوبة لتاديب اميرها الذي تعاون مع الهكسوس عليه، ولتأديب قائد قلعة بوهن (وادي حلفا) الذي كان في خدمة أمير النوبة، وللاستيلاء على مناجم الذهب في تلك

الأرجاء، وقد وصلت جيوشه إلى الشلال الثاني حيث أقام معبداً فوق حصن بوهن القديم، واستحدث لإدارة هذا الإقليم منصباً جديداً يأتي صاحبه في المرتبة الثانية بعد الوزير، وكان يحمل لقب «ابن الملك» دلالة على مسؤوليته المباشرة أمامه.

بعد أن ضمن أحموس حدود مصر ووحد أرضها انصرف إلى تنظيم شؤونها فاقطع أعضاء الأسرة المالكة وقادته المبرزين أراضي الدولة، ومنحهم الأسرى والعبيد، وأعاد تشغيل مناجم النحاس في سيناء، وأعاد العلاقات التجارية مع مدن الساحل السوري، وتشهد بذلك النقوش التي تتحدث عن استخدام خشب الأرز المجلوب من سورية، وكنز الجواهر الضخم الذي عثر عليه في مقبرة أمه. كذلك عني أحموس بتجديد المعابد التي كانت مهجورة وأقام معابد جديدة لأفراد أسرته، ويبدو أنه كان يخطط لأعمال أكثر طموحاً، كما يدل نقش في أحد المقالع، إلا أن المنية عاجلته فرحل تاركاً مصر عزيزة الجانب موحدة الأرض ومزدهرة، وعثر على تابوته وموميائه في الدير البحري أما الموقع الحقيقي لمقبرته فلم يعرف إلى اليوم.

محمود عبد الحميد أحمد

الموضوعات ذات الصلة:

طيبة ـ مصر ـ الهكسوس.

مراجع للاستزادة:

ـ عبد الحميد زايد، مصر الخالدة (القاهرة ١٩٦٦).

ـ عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم (القاهرة ١٩٧٦).

ـ محمود عبد الحميد أحمد، سلسلة العلاقات السورية المصرية عبر التاريخ (دمشق ١٩٨٤).

ـ أ. غاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم (القاهرة ١٩٧٣).

ـ جيمس بيكي، الآثار المصرية في وادي النيل، ترجمة شفيق فريد ولبيب حبشي (القاهرة ١٩٧٢).

- J. H. BREASTED, Ancient Records of Egypt, Vol. III (Chicago).

■ الأحنف بن قيس

(ت نحو ٧٠ هـ / نحو ٦٨٨م)

أبو بحر صخر بن قيس بن معاوية من بني مرّة بن عُبيد من بطن بني سعد التميميين وقيل إن اسمه الضحاك وقيل الحارث، مات أبوه وهو صغير فربته أمه وهي باهلية من فواضل نساء العرب في زمانها.

لقّب الأحنف لحنف في قدمه ـ أي عوج ـ ولم تكن هي العاهة الوحيدة المشوهة لخلقه، بيد أنه استطاع سيادة قومه من تميم البصرة وغدا زعيمهم برصانته وعمق تفكيره وصحة رأيه وسداد حكمه وامتلاكه عواطفه وحنكته ووقاره وصدقه.

يقال إنه أدرك النبيﷺ، ولم يره، وقد تقبل دعوة الإسلام، وتخلّق بخلقه، فكان يصلي ليله، ويقرأ القرآن في خلوته، ويحاسب نفسه، وقد روى عن عمر بن الخطّاب وعلي بن أبي طالب وأبي ذرّ وكان ثقة مأمون الحديث.

أعجب به عمر بن الخطاب حين أتاه عام ١٧هـ مع وفد من أهل البصرة فاستبقاه في المدينة عاماً كاملاً، ثم أذن له بالعودة، وكتب إلى أبي موسى الأشعري والي البصرة إذ ذاك: أدْنِ الأحنف وشاوره واسمع منه.

وكان له شان كبير في فتوح فارس زمن ولاية أبي موسى الأشعري فشارك في فتح كور الأهواز وقاشان وأصفهان وقُم، ثم شارك أيام الخليفة عثمان في فتح خراسان، تحت إمرة عبدالله بن عامر والي البصرة فكان من أنشط القوّاد، وأكثرهم جلداً، وصبراً، حتى افتتح كوهسْتان وهَراة ومَرْو ومَرْو الرّوذ وبَلْخ وغير ذلك من الأقاليم، ولكنه لم يفلح في أسر يَزْدَجُرد ملك فارس أو قتله إذ كان يتقهقر نحو أواسط آسيا، غير أنه استطاع أن يمنعه من تثبيت أقدامه في أي مكان، ومن إثارته القبائل الفارسية على المسلمين، كما حال دون تالب الترك على العرب، واستطاع أن يحمي ما فتحوا من البلاد. وقد ولي بعض أعمال خراسان مدة من الزمن، ثم عاد إلى البصرة، فتزعم قومه من بني تميم الذين كانوا ذوي النفوذ الأقوى في البصرة حينذاك.

وفي موقعة الجمل عام ٣٦هـ/٦٥٦م التي جرت بعد مبايعة علي بن أبي طالب، لم يستطع الأحنف أن يحمل قومه بني سعد على مناصرة علي، ولكنه جعلهم يقفون موقف الحياد، في حين أن سائر بني تميم انحازوا إلى صف عائشة.

غير أنه انحاز إلى عليّ في موقعة صفّين عام ٣٧هـ/٦٥٧م وكان أول أهل البصرة الذين قدموا له الطاعة عقب انتصاره، وقيل إنه عارض اختيار أبي موسى الأشعري للتحكيم، وعرض على عليّ أن يكون هو الحكم مكان أبي موسى.

ولما استتب الأمر لمعاوية، استقرّ الأحنف في البصرة، مضطلعاً بشؤون قومه. بيد أن معاوية لم يهمل شأنه إذ كان يعلم أن الرجل إذا غضب غضب لغضبه مئة ألف من تميم لا يسألونه لماذا غضب، فقرّبه منه وأدنى مجلسه إذ قدم عليه. وكان أحد الرجال المبرزين الذين استدعاهم معاوية إلى دمشق عندما أقرّ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد، وقال قولته المشهورة عندما سئل عن سكوته: «أخاف الله إن كذبت وأخافكم إن صدقت».

وفي أثناء ولاية زياد بن أبيه للبصرة كان زياد كثير الرعاية للأحنف، يقدّمه ويسمع له. وعندما تولى ابن زياد البصرة لم يعرف قدره في البدء، ولكنه ما لبث أن قرّبه، واستمع إليه كما كان يفعل أبوه.

كان موقفه في البصرة موقف الحكيم المصلح بين القوى المتنافسة المتخاصمة من ربيعة ومُضَر، وقد تمكن من تدارك العراك مدة وإن لم يتمكن من إزالة العداوة.

وبعد أن تولى يزيد بن معاوية الحكم ثارت الأحقاد، ونشأت الاضطرابات في البصرة، وتحالفت الأزد وربيعة على بني تميم ومضر وتفاقم الخطب فكان الأحنف يدعو إلى السلم وتناسي الأحقاد على الرغم من اضطراره إلى الاشتراك في المعارك التي نشبت في طرقات البصرة. وكان جلّ اهتمامه منصرفاً إلى التوفيق بين القبائل المختلفة، والدعوة إلى تضافر رجالها للوقوف أمام العدو المشترك: الخوارج، لذلك قبل بشروط الأزديين التي تنص على دفع الدية عن جميع الأرواح التي أزهقت من الأزد وربيعة

ويقبل بهدر دماء قومه مع أنها كانت مجحفة بحقهم، ودفع جزءاً من الدية من ماله الخاص حتى ثبت الصلح وعاد الهدوء إلى البصرة. ولما غلب ابن الزبير على العراق دخل الأحنف في طاعته مع قومه. وفي عام ٦٥هـ/ ٦٨٤م طلب إليه أهل البصرة أن يسير إلى محاربة الأزارقة الذين دنوا من مدينتهم، فأشار عليهم بتأمير المهلّب لأنه أشد كفاية منه وأقوى.

وفي عام ٦٧هـ/ ٦٨٦م اشتدت مقاومة المختار، فاضطر الأحنف ـ وهو في شيخوخته ـ أن يقود كتيبة من التميميين في حملته على الكوفة مقر المختار. وكانت وفاته بعد ذلك بمدة قصيرة، واختلف المؤرخون في تعيينها وأرجح الأقوال أنها كانت بين سنتي ٦٩هـ و٧١هـ، بعد أن جاوز السبعين، ودفن في الكوفة.

وللأحنف أخبار كثيرة وأقوال في كتب التاريخ والأدب تدلّ على ما اتصف به من سداد الرأي والحكمة وقوة الحجّة وسعة الحلم، حتى كان يضرب به المثل فقيل: «أحلم من الأحنف». كما عرف بفصاحة اللسان وإجادة الخطابة، وقد أعجب عمر ببلاغته، وأثرت عنه طائفة من الخطب والأقوال البليغة. سأله معاوية مرة: «يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟» فأجاب: «يا أمير المؤمنين، هم عماد ظهورنا، وثمرة قلوبنا، وقُرة أعيننا بهم نصول على أعدائنا، وهم الخلف منّا لمن بعدَنا، فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماءً ظليلة، إن سألوك فأعطهم، وإن استعتبوك فأعتبهم، ولا تمنعهم رفدك فيملوا قُربك، ويستثقلوا جناحك، ويتمنوا وفاتك». فقال معاوية: «لله درُّك يا أبا بحر، هم كما وصفت».

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

العصبية القبلية ـ صفين.

مراجع للاستزادة:

ـ ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس (بيروت ١٩٧٠).

ـ ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس (بيروت ١٩٥٧).

■ الأحوال الشخصية

الأحوال الشخصية personal status مصطلح فقهي تشريعي عربي حديث نسبياً، فهو لم يكن معروفاً في الفقه والتشريع العربيين قبل مطلع القرن العشرين، وقد أدخل إلى اللغة العربية بتأثير المصطلحات الأجنبية التي وفدت إلى العالم العربي مع القوانين الأجنبية التي دخلت التشريع العربي بعد الحملة الفرنسية على مصر وقد استحسن الفقهاء العرب هذا المصطلح في نطاق المصطلحات الفقهية والتشريعية، ولعله في أصله اصطلاح إيطالي ابتدعه الفقهاء الإيطاليون في القرنين الثاني عشر والثالث عشر حلاً لمشكلة تنازع القوانين، ثم انتشر بعد ذلك وعم كل القوانين الأجنبية الأخرى. ولعل أول من استعمل هذا المصطلح في الفقه العربي الإسلامي في مطلع القرن العشرين العلامة المصري محمد قدري باشا عندما ألف كتابه «الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية»، وهو كتاب صنفه في مواد قانونية بلغت ٦٤٧ مادة أخذها كلها من القول الراجح في مذهب الإمام أبي حنيفة من دون غيره تلبية لحاجات القضاء الشرعي الإسلامي في مصر الذي يعتمد هذا المذهب في أحكامه على المصريين المسلمين، ثم شاع هذا الكتاب وانتشر في أكثر الأقطار العربية والإسلامية ومنها القطر العربي السوري واعتمده القضاة في أقضيتهم وإن لم يصدر به قانون ملزم، كما شاع هذا المصطلح بين الفقهاء والقانونيين. وظهرت كتب كثيرة بهذا الاسم أو ما هو قريب منه بعد ذلك، ومنها كتاب «الأحوال الشخصية» للشيخ عبد الرحمن تاج وكتاب «الأحوال الشخصية» للشيخ محمد أبي زهرة، وكتاب «الأحوال الشخصية للوطنيين غير المسلمين، والأجانب في مصر» للدكتور أحمد سلامة، وغيرها. كما صدرت قوانين وتشريعات عربية كثيرة بهذا الاسم أيضاً منها «قانون الأحوال الشخصية السوري» الصادر بالمرسوم التشريعي رقم ٥٩ تاريخ ١٧/ ٩/ ١٩٥٣ والمعدل بالقانون رقم ٣٤ تاريخ ٣١/ ١٢/ ١٩٧٥ وقانون «الأحوال الشخصية الأردني» الصادر بالقانون رقم ٦١ تاريخ ٥/ ٩/ ١٩٧٦م وغيرهما.

وليس معنى هذا أن مضمون هذا المصطلح جديد أيضاً، بل هو قديم قدم التشريع الإسلامي، وقد وردت مفرداته ومشتملاته في القرآن والسنة وسائر المذاهب الفقهية ولكن تحت أسماء أخرى ومصطلحات مغايرة، فقد كان مضمونه جزءاً من فقه المعاملات في الفقه الإسلامي (وهي الأحكام التي تعالج علاقات الناس بعضهم ببعض وتنظمها كالبيع والإجارة والقرض تحت أبواب متعددة معنونة بحسب نوع الأحكام التي تعالجها: أبواب النكاح ـ الطلاق ـ العدة ـ النفقة ـ الحضانة...) وربما أطلق الفقهاء عليها اسم «المناكحات». وربما صُدِّرت بها أبواب فقه المعاملات لدى بعض الفقهاء أو أخرت عن أبواب البيوع والإجارات، وذلك إلى أن صدر كتاب قدري باشا المتقدم ذكره، ومن بعده شاع هذا المصطلح بين الفقهاء، وأُفرد بالتأليف والبحث، وكثرت فيه المنشورات على النحو المشار إليه. هذا مع الإشارة هنا إلى أن بعض مشتملات هذا المصطلح قد أفردها الكثير من الفقهاء في مؤلفات خاصة بها منذ القرن السابع الهجري، وعنونوها بعناوينها الخاصة بها، ومن ذلك أحكام الأوقاف، فقد أفردها الإمام الخصاف في كتاب خاص بها باسم «أحكام الأوقاف وأحكام التركات» وقد أفردها الإمام سراج الدين محمد ابن محمد بن عبد الرشيد السجاوندي في كتاب سماه «متن السراجية» وغيرها.

وقد عُنيت الجامعات العربية الإسلامية منذ الربع الأول من القرن العشرين بتدريس الأحوال الشخصية في مقرر مستقل خاص بها يحمل اسمها، وذلك في كليات الشريعة والحقوق، وكان أسبقها إلى ذلك الأزهر وجامعة القاهرة ثم تبعهما في ذلك جامعة دمشق (الجامعة السورية سابقاً) بكليتيها الحقوق والشريعة، ويدرس مقرر الأحوال الشخصية فيهما إلى جانب سائر المقررات الأخرى الشرعية والقانونية.

نطاق الأحوال الشخصية

منذ نشوء هذا المصطلح في الفقه الأجنبي والفقهاء مختلفون في تحديد نطاقه ومضمونه، مع اتفاقهم على إطاره العام. فالأحوال عندهم نوعان نوع ذو طابع شخصي ويُسمى بالأحوال

الشخصية، ونوع ذو طابع مالي يسمى بالأحوال العينية. وعندما انتقل هذا المصطلح إلى العربية انتقل حاملاً معه الخلاف في مضمونه. وقد اتفق الفقهاء العرب على أن هذا المصطلح يضم سائر الأحكام المنظِّمة للعلاقات الأسرية مثل الزواج والطلاق والولاية، وكذلك الأحكام الخاصة بالإنسان كالأهلية. ولعل أوضح ما يدل على ذلك تسمية القانون العثماني الصادر في عام ١٩١٧م المتضمن لهذه الأحكام باسم «قانون حقوق العائلة». إلا أن هنالك أحكاماً أخرى هي محل اختلاف بين الفقهاء إذ يرى بعضهم دخولها في نطاق الأحوال الشخصية، ويرى آخرون خروجها عنها ودخولها في الأحوال العينية، ومن ذلك الوصية والهبة والوقف والمهر. وقد اتجه محمد قدري باشا إلى توسيع نطاق الأحوال الشخصية وأدخل فيها الأبواب الآتية:

-الزواج وما يتضمنه من أركان وشروط، وما ينتج عنه من أحكام وآثار كالمهر، والطلاق وما يتضمنه من أركان وشروط وما ينتج عنه من أحكام وآثار كالعدة، وحقوق الأولاد كالنسب والرضاعة والنفقة والولاية والوصاية، والحَجْر وأسبابه وآثاره، والهبة، والوصية، والتركات، والمواريث.

واتجه آخرون إلى إخراج الهبة والوصية والمواريث من دائرة الأحوال الشخصية وهم أكثر فقهاء مصر المعاصرين، فقد قصروا كتاباتهم في الأحوال الشخصية على نطاق الزواج والطلاق وآثارهما، وحقوق الأولاد كالنسب والنفقة والولاية والوصاية.

أما الوصية والمواريث والهبة فقد أفردوها ببحوث خاصة بها بعيدة عن عنوان الأحوال الشخصية، وذلك على خلاف الفقهاء السوريين الذين أدخلوا في مؤلفاتهم عن الأحوال الشخصية كل ما أدخله محمد قدري باشا باستثناء الهبة التي اتفقوا على إبقائها خارجها، وهي لدى فقهاء الشريعة الإسلامية من فقه المعاملات ولدى القانونيين من أحكام القانون المدني.

إن هذا الاختلاف في نطاق الأحوال الشخصية مهم وخطر لعلاقته الوثيقة بمبدأ تنازع القوانين واختصاص المحاكم، وخاصة عندما يكون طرفا النزاع أو أحدهما من الأجانب. لهذا فقد حاول المشرع المصري إنهاء هذا الاختلاف فعرف الأحوال الشخصية وبين نطاقها في المادة ٤ من القانون المدني المختلط وفيها «تظل المسائل المتعلقة بحالة الأشخاص وأهليتهم وبالنظام المالي للزوجية وبحقوق الإرث الطبيعية والإيصائية وبالوصاية والقوامة من اختصاص قاضي الأحوال الشخصية». ولكن بالنظر لعدم دقة هذا التعريف وعدم الحصر الدقيق لنطاق الأحوال الشخصية في هذه المادة، حاولت محكمة النقض المصرية أن تأتي ببيان شاف في ذلك فنصت في حكم لها صدر في ٢١/٦/١٩٣٤ ما يلي «والمقصود بالأحوال الشخصية هو مجموعة ما يتميز به الإنسان عن غيره من الصفات الطبيعية أو العائلية التي رتب القانون عليها أثراً قانونياً في حياته الاجتماعية ككون الإنسان ذكراً أو أنثى، وكونه زوجاً أو أرملاً أو مطلقاً أو ابناً شرعياً، أو كونه تام الأهلية أو ناقصها لصغر السن أو عتهٍ أو جنون، أو كونه مطْلق الأهلية أو مقيدها بسبب من أسبابها القانونية». إلا أنه يتبين من ذلك أن الوقف والهبة والوصية والنفقات لم تدخل في نطاق الأحوال الشخصية في هذا الحكم، وذلك موافق لما هو عليه الوضع في التشريع الفرنسي.

إلا أن اتجاه محكمة النقض هذا لم يرق للفقهاء والقضاة في مصر، وكثرت النداءات منهم لتغييره وتوسيع نطاق الأحوال الشخصية. لذلك عدل المشرع عن هذا الاتجاه واستجاب لنداءات الفقهاء والقضاة ونص في المادة ٢٨ من لائحة التنظيم القضائي للمحاكم المختلطة الصادرة بالقانون رقم ٤٩ لعام ١٩٣٧ ما يلي «تُمثل الأحوال الشخصية المنازعات والمسائل المتعلقة بحالة الأشخاص وأهليتهم أو المتعلقة بنظام الأسرة وعلى الأخص الخطبة والزواج وحقوق الزوجين وواجباتهما المتبادلة والمهر ونظام الأموال بين الزوجين والطلاق والتطليق والتفريق والبنوة والإقرار بالأبوة وإنكارها والعلاقات بين الأصول والفروع والالتزام بالنفقة للأقارب والأصهار وتصحيح النسب والتبني والوصاية والقوامة والحجر والإذن بالإدارة وكذلك المنازعات والمسائل المتعلقة بالهبات والمواريث وغيرها من التصرفات المضافة إلى ما بعد الموت وبالغيبة وباعتبار المفقود ميتاً».

وبذلك تكون أحكام الهبات والمواريث والوصايا والمهر والنفقات قد دخلت في نطاق الأحوال الشخصية بعد أن كانت خارجة عنه بموجب الاجتهاد السابق لمحكمة النقض المصرية.

وبالنظر لزوال المحاكم المختلطة في مصر وإلغاء هذا القانون، فقد صدر القانون المدني المصري رقم ١٤٧ بتاريخ ١٩٤٩ ونص في المادتين ١٣-١٤ منه تعريفاً للأحوال الشخصية وبياناً لنطاقها كما يلي: المادة /١٣/ «تشمل الأحوال الشخصية... المنازعات والمسائل المتعلقة بحالة الأشخاص وأهليتهم أو المتعلقة بنظام الأسرة كالخطبة والزواج وحقوق الزوجين وواجباتهما المتبادلة والمهر والدوطة ونظام الأموال بين الزوجين والطلاق والتطليق والتفريق والبنوة والإقرار بالأبوة وإنكارها والعلاقة بين الأصول والفروع والالتزام بالنفقة للأقارب والأصهار وتصحيح النسب والتبني والولاية والوصاية والقوامة والحجر والإذن بالإدارة وبالغيبة واعتبار المفقود ميتاً وكذلك المنازعات والمسائل المتعلقة بالمواريث والوصايا وغيرها من التصرفات المضافة إلى ما بعد الموت»، المادة ١٤ «وتعتبر الهبة من الأحوال الشخصية بالنسبة إلى غير المصريين إذا كان قانونهم يعتبرها كذلك».

ومن استعراض هاتين المادتين ومقارنتهما بنص القانون المختلط السابق يتبين أن القانون الجديد أضاف إلى نطاق الأحوال الشخصية موضوعين هما: الولاية والدوطة إلا أنه أخرج من نطاقها الهبة إذا كانت بين المصريين الأجانب وكان قانونهم لا يخالف ذلك.

إلا أن هذا القانون في مصر أُلغي بالقانون رقم ٤٣ لعام ١٩٦٥، ولم يتضمن القانون الجديد بديلاً للأحوال الشخصية، ولهذا بقي العمل في مصر على التعريف السابق على الرغم من إلغائه، إلا أنه سبب اختلافات بين القضاة والفقهاء في بعض الأحيان.

أما المشرع السوري فلم ينص صراحةً على تعريف خاص للأحوال الشخصية ولكنه حسم النزاع بالنص على اختصاص المحاكمَ الشرعية السورية، وذلك في المادتين ٥٣٥ و٥٣٦ من قانون أصول المحاكمات المدنية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم ٨٤ لعام ١٩٥٣ ونصها: المادة ٥٣٥: «تختص المحكمة الشرعية بالحكم نهائياً في قضايا: أ-الولاية والوصاية والنيابة الشرعية، ب-إثبات الوفاة وتعيين الحصص الشرعية للورثة، جـ-الحجر وفكه وإثبات الرشد، د-المفقود، هـ-النسب، و-نفقة الأقارب من غير الزوجين والأولاد».

والمادة ٥٣٦ وفيها: «تختص المحكمة

الشرعية بالحكم نهائياً في قضايا الأحوال الشخصية للمسلمين وتشمل: أ - الزواج، ب - انحلال الزواج، جـ - المهر والجهاز، د - الحضانة والرضاع، هـ - النفقة بين الزوجين والأولاد، و - الوقف الخيري من حيث حكمه ولزومه وصحة شروطه».

وبذلك يكون المشرع السوري قد سار في الاتجاه الذي سار فيه المشرع المصري في تحديد نطاق الأحوال الشخصية نفسه إلا أنه زاد عليه إدخال الوقف بنص صريح.

تشريعات الأحوال الشخصية النافذة في مصر وسورية

كان العالم العربي قبل مطلع القرن العشرين يخضع في محاكمه كافة إلى الشريعة الإسلامية سواء منها الأحكام المدنية أو الجنائية...أما غير المسلمين فكانوا يخضعون إلى شرائعهم الخاصة في أحوالهم الأسرية وكثير من الأحوال الأخرى ذات المساس بالدين، أما باقي الأحوال فكانوا يخضعون فيها إلى ما يخضع له المسلمون من هذه الأحكام بوصفها من النظام العام، وكان المرجع في ذلك كله كتب الفقه من دون تقنين أو تشريع محدد صادر عن سلطة رسمية. وكان كل قطر من أقطار الأمة العربية يرجع إلى المذهب الشائع فيه، فأقطار المغرب العربي كانت تحتكم إلى مذهب الإمام مالك لشيوعه فيها، ودول المشرق العربي إلى مذهبي الإمامين أبي حنيفة والشافعي، وأقطار الجزيرة العربية إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل.

وفي عام ١٩١٧، وفي ظل حكم الدولة العثمانية لمعظم أقطار العالم العربي، صدر قانون حقوق العائلة الذي تضمّن أحكام الأسرة للمسلمين وغير المسلمين. وقد استقى أحكامه الإسلامية من مجمل المذاهب الإسلامية الأربعة وهي المذهب الحنفي والمذهب الشافعي والمذهب المالكي والمذهب الحنبلي، وإن كان اعتماده على المذهب الحنفي الذي كان المذهب الرسمي للدولة العثمانية أكثر. أما الأحكام الخاصة بغير المسلمين فقد استقاها من فقه مللهم وطوائفهم. وقد طبق هذا القانون في الأقطار العربية التابعة للدولة العثمانية كافة. إلا أن ازدهار حركة التقنين في العالم العربي في مطلع القرن العشرين، وظهور حركات التمرد على الحكم العثماني حدتا بالسلطات التشريعية العربية إلى الانفصال تشريعياً عن الدولة العثمانية وإصدار تشريعات خاصة بها.

ففي مصر صدر في عام ١٩٢٠ القانون رقم٢٥ ويتضمن مواد قليلة تبحث في النفقة والعدة والمفقود والتفريق بالعيب. وفي عام ١٩٢٩ صدر القانون رقم ٢٥ ويتضمن مواد قليلة أيضاً تبحث في أحكام الطلاق والتفريق للضرر والنسب والنفقة والعدة والمفقود. وفي عام ١٩٤٣ صدر القانون رقم ٧٧ ويتضمن أحكام المواريث. ثم صدر في عام ١٩٤٦ القانون رقم ٤٨ ويتضمن أحكام الأوقاف. وفي عام ١٩٤٦ صدر القانون رقم ٧١ ويتضمن أحكام الوصية.

أما ما سكتت عنه هذه القوانين من أحكام الأحوال الشخصية فيرجع فيه إلى القول الراجح من مذهب أبي حنيفة وفقاً للمادة ١ من القانون رقم / ٢٤ / لعام ١٩٤٩. أما غير المسلمين فإن كانوا مختلفي الملة والطائفة فإنه يطبق عليهم في أحوالهم الشخصية ما يطبق على المسلمين من أحكام، وكذلك المتّحدي الملّة والطائفة إذا لم تكن لهم جهات قضائية مليّة منظمة. أما غير المسلمين من المختلفي الملة والطائفة الذين لهم جهات قضائية منظّمة فإنهم يرجعون إلى شرائعهم الخاصة ما لم تكن مناقضة للنظام العام.

والجهة القضائية المختصة في ذلك هي محاكم مليّة قائمة منذ عهد الدولة العثمانية وقد بقيت مستمرة في ذلك حتى عام ١٩٥٥ إذ صدر القانون رقم ٤٦٢ الذي وحّد جهات القضاء في أحكام الأحوال الشخصية للمسلمين وغيرهم في مصر وجعلها للمحاكم المدنية (دائرة الأحوال الشخصية) وإن اختلفت أحكامهم التي يخضعون لها عن المسلمين، ولايزال الأمر على هذه الحال في مصر.

وفي سورية صدر في عام ١٩١٧، في أواخر الحكم العثماني لسورية، قانون حقوق العائلة الذي مرّ ذكره وتضمن أحكاماً للمسلمين وغير المسلمين، كما صدر في العام نفسه قانون أصول المحاكمات الشرعية الذي جعل المحاكم الشرعية في سورية مختصة بالنظر في جميع قضايا الأحوال الشخصية للسوريين مسلمين وغير مسلمين، وبذلك تم توحيد المرجع القضائي في الأحوال الشخصية للمواطنين جميعاً. غير أن هذه الحال لم تدم طويلاً. ففي عام ١٩١٩ صدر قانون عن الملك فيصل، ملك سورية يومئذ، جاء فيه ما يلي: «المحاكم الطائفية للطوائف غير المسلمة تحتفظ باختصاصاتها القضائية وبحقوقها كما في السابق». وبذلك أعيد العمل بنظام المحاكم الطائفية التي تخضع للسلطات الروحية الدينية الخاصة بها. وتمّ توطيد هذا الواقع بالقرار رقم (٦٠ ل.ر) الصادر بتاريخ ١٣ آذار ١٩٣٦ عن المفوض السامي الفرنسي في سورية (في مرحلة الانتداب الفرنسي) المتعلق بنظام الطوائف الدينية، وترتب على ذلك، من الناحيتين الواقعية والقانونية، استمرار العمل بنظام تعدد الشرائع المطبقة على السوريين في مسائل الأحوال الشخصية من جهة، وتعدد الجهات القضائية المختصة بالنظر في هذه المسائل بتعدد الطوائف المعترف بها من جهة أخرى.

فلقد تضمن هذا القرار (وهو بمنزلة قانون) نوعين من الطوائف: الطوائف ذات النظام الشخصي والطوائف ذات النظام العادي. والطوائف ذات النظام الشخصي قسمان.

ففي القسم الأول الطوائف التي حدد تنظيمها ومحاكمها وشرائعها في صك تشريعي وهي الطوائف القائمة بتاريخ صدور القرار (٦٠ل.ر) لعام ١٩٣٦ وتضم:

من المسيحيين: الموارنة، الروم الأرثوذكس، الروم الكاثوليك، الأرمن الأرثوذكس، الأرمن الكاثوليك، السريان الأرثوذكس، السريان الكاثوليك، الآشوريين الكلدان، الكلدان، اللاتين، البروتستنت.

ومن اليهود: كنيس دمشق، وكنيس حلب، وكنيس بيروت.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الملحق رقم ١ التابع للقرار (٦٠ل.ر) قد أدخل في عداد الطوائف ذات النظام الشخصي الطوائف الدينية الإسلامية إلا أن تطبيق هذا النظام على المسلمين أدى إلى موجة من التذمر والاحتجاجات العلنية حملت السلطات المنتدبة الفرنسية على إصدار قرار مرقم (٥٣ل.ر) لعام ١٩٣٩ يقضي بعدم تطبيق نظام الطوائف الدينية على المسلمين.

وفي القسم الثاني الطوائف التي لم يكن قد حدد تنظيمها ومحاكمها وشرائعها في صك تشريعي عند صدور القرار رقم (٦٠ ل.ر) المشار إليه سابقاً، ولكنها كانت حائزة على بعض ميزات أو كانت متمتعة ببعض الحصانات بموجب أوامر سنية أو قرارات من المفوض السامي أو قرارات من حكومة دولة سورية ولبنان (في

ذلك الوقت) أو بمفعول من حيازتها حالة راهنة ناتجة عن تقاليد ترجع إلى أكثر من قرن. ويمكن لهذه الطوائف الحصول على اعتراف بها فيما إذا تقدمت بنظام كامل لها مستخلص من النصوص التي تدار الطائفة بموجبها بشرط أن لا يخالف هذا النظام الأمن أو الآداب أو دساتير الدول والطوائف أو أحكام القرار رقم (٦٠ ل.ر).

أما الطوائف التابعة للقانون العادي فهي باقي الطوائف من غير المسلمين وكانوا يخضعون في أحوالهم الشخصية للقانون المدني.

وبعد الاستقلال، وفي عام ١٩٥٣، صدر قانون الأحوال الشخصية السوري بالمرسوم التشريعي رقم ٥٩ ونص في مادته ٣٠٦ مايلي: «تطبق أحكام هذا القانون على جميع السوريين سوى ما تستثنيه المادتان التاليتان: المادة ٣٠٧ وتتضمن بعض الأحكام الخاصة المتعلقة بأهلية الزواج وتعدد الزوجات واللعان والرضاع والمهر والطلاق والوصية والميراث، لأتباع الطائفة الدرزية، والمادة ٣٠٨ وفيها أنه يطبق على الطوائف المسيحية واليهودية ما لدى كل طائفة من أحكام تشريعية دينية تتعلق بالخطبة وشروط الزواج وعقده والمتابعة والنفقة الزوجية ونفقة الصغير وبطلان الزواج وحله وانفكاك رباطه والبائنة (الدوطة) والحضانة».

وهكذا أصبحت مسائل الأحوال الشخصية في سورية تخضع لعدة تشريعات فقانون الأحوال الشخصية هو بمنزلة قانون عام يسري على جميع السوريين أياً كانت ديانتهم وإلى جانبه تشريعات الطوائف غير الإسلامية التي تطبق بشأنهم في المسائل التي حددتها المادة ٣٠٨ من قانون الأحوال الشخصية.

وبناء على ذلك يمكن القول إن القواعد المتعلقة بالنسب ونفقة الأقارب والأهلية والنيابة الشرعية ومعظم القواعد الخاصة بالوصية والتركات التي جاءت في هذا القانون هي قواعد عامة واحدة لجميع السوريين، أما مسائل الأحوال الشخصية الأخرى فتتعدد بشأنها الشرائع في سورية بتعدد الطوائف.

وكما تتعدد القوانين الناظمة لمسائل الأحوال الشخصية في سورية تتعدد المراجع القضائية المختصة بشأنها. فبموجب المادة ٣٣ من قانون السلطة القضائية الصادر بالمرسوم التشريعي رقم ٩٨ لعام ١٩٦٥، النافذ اليوم، تؤلف محاكم الأحوال الشخصية من:

أ ـ المحاكم الشرعية وهي خاصة بالمسلمين، ب ـ المحاكم المذهبية للطائفة الدرزية، ج ـ المحاكم الروحية لغير المسلمين التي ما زالت خاضعة للأحكام النافذة قبل صدور القرار رقم (٦٠ل.ر) تاريخ ١٣ آذار ١٩٣٦.

ومن المعروف أن مسائل الأحوال الشخصية في بعض الدول العربية الأخرى كلبنان والعراق والأردن والمغرب تماثل تقريباً من حيث واقعها وتنظيمها ما هو عليه الحال في سورية مع بعض الاختلاف ولاسيما في لبنان حيث لايوجد قانون عام للأحوال الشخصية.

أحمد الحجي الكردي

الموضوعات ذات الصلة:

الأهلية ـ التركة ـ الحضانة ـ الزواج ـ الطلاق ـ القوامة ـ المهر ـ النسب ـ النفقة ـ الوصاية ـ الوصية ـ الوقف ـ الولاية.

مراجع للاستزادة:

ـ محمد قدري باشا، الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية (المطبعة العثمانية، القاهرة ١٣٤٧هـ)
ـ أحمد سلامة، الأحوال الشخصية للوطنيين غير المسلمين والأجانب (المطبعة العالمية ١٩٦٠)

■ الأحوص

(٠٠٠ ـ ١٠٥هـ / ٠٠٠ ـ ٧٢٣م)

عبد الله بن محمد الأنصاري، من قبيلة الأوس، ولُقب بالأحوص لحوَص كان في عينيه (وهو ضيق في مؤخّر العين)، وكنيته أبو محمّد. جدّه عاصم بن ثابت بن الأقلح صحابيّ جليل قُتل يومَ الرَّجيع وأراد المشركون أخذه ليمثّلوا به فمنعته الدَّبْر ـ أي النحل ـ فقيل له حَميّ الدَّبْر.

جُهلت سنة ولادته كما جهلت سنة وفاته، ولكنّ أخباره تدلّ على أنه توفي في آخر خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠٢ ـ ١٠٥هـ).

عُرف الأحوص بمجونه وهجائه الفاحش، وقد جرّ عليه هذان الأمران الأذى مراراً وأسخطا عليه أولي الأمر، ومن ذلك أنه لمّا قدم على الوليد ابن عبد الملك أخذ يتحرّش بوصفائه، فأرسله الوليد إلى ابن حزم والي المدينة وأمره أن يجلده مئة ويصبّ على رأسه زيتاً ويشهّر به.

كان الأحوص قد تعرّض لابن حزم ـ وهو من الخزرج ـ لمّا وُلّي المدينة وهجاه، فلمّا أقامه على البُلُس (وهي غرائر كبار كان يجعل فيها التبن ويشهّر عليها من ينكّل به) هجاه كذلك وفخر بنفسه فقال:

ما من مُصيبة نكبة أُمنى بها
إلاّ تشرفُني وترفعُ شاني

وكان الأحوص يتحرّش بنساء المدينة ويتغزّل بهنّ، وأكثر غزله في امرأة من الأنصار تعرف بأمّ جعفر، ومن جيّد غزله فيها قوله:

وإنّي ليدعوني هوى أمّ جعفرٍ
وجاراتها من ساعةٍ فأُجيبُ
وإني لآتي البيت ما إنْ أُحبُّه
وأُكْثر هجرَ البيت وهو حبيبُ
وأُغضي على أشياءَ منكم تسوءُني
وأُدعى إلى ما سرَّكم فأُجيب

فلمّا كثر تشبيبُه بها توعّده أخوها أيمن وهدّده، فلم ينته، فاستعدى عليه والي المدينة، فربطهما في حبلٍ ودفع إليهما سَوطَين فتجالدا فغلب أخوها وفرّ الأحوص.

ولمّا كثر هجاؤه أشراف المدينة وتشبيبُه بالنساء أمر سليمان بن عبد الملك واليه على المدينة بجلده ونفيه إلى جزيرة دَهْلَك (وهي جزيرة صغيرة في بحر اليمن كان بنو أمية ينفون إليها من يسخطون عليهم)، وقد ظلّ في منفاه ذاك طوال خلافة سليمان. فلمّا استُخلف عمر ابن عبد العزيز كتب إليه الأحوص يستأذنه في القدوم ومدحه بأبيات، ولكن عمر أبى أن يأذن له وأقسم لا يردّه ما كان له سلطان، لسوء سيرته وفُحش غزله وتعرّضه للنساء.

ولمّا وَلي يزيد بن عبد الملك بعد عمر دسّ الأحوص إلى حَبَابة المغنّية فغنّت يزيد بأبيات يمدحه فيها، فسألها عن قائلها فقالت إنه الأحوص، فأمر بإقفاله من دهلك، وأمر له بكسوة ومال.

وقد دخل الأحوص على يزيد بعد ذلك فقال له يزيد: والله لو لم تمُتَّ إلينا بحُرمة ولا توسّلت بدالّةٍ ولا جدّدت لنا مدحاً غير أنك مقتصر على البيتين اللذين قلتهما فينا لكنت مستوجباً لجزيل الصلة مني حيث قلت:

وإني لأستحييكم أن يقودني
إلى غيركم من سائر الناس مطمعُ
وأن أجتدي للنفع غيرَك منهم
وأنت إمامٌ للرعيّة مَقْنَعُ

وقد أجازه يزيد بمال كثير لمدائحه في بني أمية.

وهذان البيتان من قصيدة قالها في مديح عمر بن عبد العزيز ليعفو عنه ويأذن له بالقدوم ولكن عمر لم يفعل.

وكان الأحوص يجترىء على الأشراف فيهجوهم، صنيعه بابن حزم والي المدينة، وسعد ابن مصعب بن الزبير، ومعن بن حُميد الأنصاري وغيرهم. وممّن تناولهم بالهجاء كذلك يزيد بن المهلّب، فقد طلب يزيد بن عبد الملك إلى الشعراء أن يهجوا يزيد بن المهلب بعد إخفاق ثورته وقتله، فاستعفاه الفرزدق وكُثيّر من ذلك، فأعفاهما. أمّا الأحوص فقد أقدم على هجاء ابن المهلّب فكاد له من جرّاء ذلك الجرّاح ابن عبد الله الحَكمي، والي أذربيجان، حين قدم عليه، فأمر أتباعاً له بصبّ الخمر عليه ثم اتّهمه بشرب الخمرة وضربه الحدّ.

والأحوص من شعراء الغزل والهجاء البارزين في العصر الأموي، ولمقدرته الهجائية كان الشعراء يتحامون التعرّض له، وقد ذكروا أن رجلاً من الأنصار يقال له ابن بشير هجاه الأحوص فلجأ إلى الفرزدق وأهدى إليه ألطافاً واستجار به ليهجو الأحوص، فلم يقدم الفرزدق على هجائه لما يعلمه من فحش هجائه. فلجأ إلى جرير فردّه كذلك، فلم يجد بُدّاً من استرضاء الأحوص بالهدايا والألطاف ليكفّ عن هجائه.

وقد شهد النُقّاد والشعراء القدامى للأحوص بجودة الشعر فشهد له جرير والفرزدق وحمّاد الراوية بالتقدم في النسيب، وجعله ابن سلاّم في الطبقة السادسة من فحول الإسلام، وهي طبقة شعراء الحجاز: ابن قيس الرقيات، والأحوص، وجميل، ونُصيب. وقد علّق أبو الفرج الأصفهاني على صنيع ابن سلاّم فقال: «والأحوص، لولا ما وضع به نفسه من دنيء الأخلاق والأفعال أشدُّ تقدّماً منهم ـ أي من ابن الرقيات وجميل ونصيب ـ عند جماعة أهل الحجاز وأكثر الرواة، وهو أسمح طبعاً وأسهلُ كلاماً وأصحُّ معنى منهم، ولشعره رونق وديباجة صافية وحلاوة وعذوبة ألفاظ ليست لأحدٍ منهم».

وقد تناول الأحوصَ بالدراسة طائفة من الباحثين المحدَثين منهم طه حسين وشوقي ضيف والمستشرق بتراتشك.

إحسان النص

مراجع للاستزادة:

ـ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، الأجزاء ٤, ٦, ١٧, ٢١ (ط. دار الكتب).

ـ طه حسين، حديث الأربعاء، ج١ (ط. دار المعارف).

■ الإحيائية

يُطلق اسم الإحيائية animism أو الأرواحية أو الأنيمية على الاعتقاد أو المذهب القائل بوجود نفس أو روح (anima باللاتينية) في كل ما له مظهر مادي مفرد ويكون لها وجود خاص ومتميز من المادة. ففي كل موجود، بشراً كان أو حيواناً، نباتاً أو جماداً، روح في جسده تكون من طبيعة مختلفة عن المادة، وهي مستقلة عن الجسد وتفارقه مؤقتاً في حالات مثل النوم، وتفارقه نهائياً عند الموت.

كان أول من نبه إلى هذا المذهب الانتروبولوجي الإنكليزي إدوارد تايلور Edward E. Tylor (١٨٣٢ ـ ١٩١٧)، وقد درس هذه الظاهرة وتقصّى أشكال وجودها لدى عدد من الأقوام البدائية، وحلل عدداً من الشروح التي تُقدم عند تلك الأقوام في التدليل على القول بالروح والجسد، ورأى في هذا الاعتقاد الأصل في الاعتقادات الدينية لدى تلك الأقوام. وماتزال نظريته هذه أساساً لدى بعض الباحثين في فهم الأفكار الدينية التي تسود الأقوام البدائية وفي تطورها.

يرى تايلور أن أصل الإحيائية عند من لديهم هذا الاعتقاد، يعود إلى تجارب النوم والمرض والموت. ففي حالات النوم تنفصل الروح عن الجسد وتحيا حياتها الخاصة، ويدلل على ذلك الأحلام التي تحدث لدى النائم. وفي حالات المرض آثار على تدخل الأرواح الأخرى التي تكون موجودة في عالم حول الإنسان، ويدل على ذلك أن الإنسان يرى في منامه روح أحد الأقارب أو الأصدقاء وتتعايش روحه معها، وكثيراً ما تسبب له الارتباك والتعب والمرض ولولا وجود الأرواح الأخرى لما جرى هذا اللقاء والتعايش. يضاف إلى ذلك أن الإنسان (وكذلك الحيوان) قد تتملكه روح أخرى، أو تتلبسه، ويبدو لديه تصرف غير ما كان معروفاً عنه من قبل. أما مفارقة الروح الجسد نهائياً فيدلل عليه حدوث الموت.

وفي جملة ما يقول به تايلور إن السحر ظاهرة لحقت بظاهرة الإحيائية، وأن مثل ذلك يقال في الأساطير. ثم إنه يتابع شرح تطور الأديان ويرى أن الإحيائية أصل في الكثير من المعتقدات الدينية أو شبه الدينية مثل عبادة الأجداد، وعبادة الأوثان والاعتقاد بالتقمص والتناسخ، وأنها أصل في التطور والقول بتعدد الآلهة، والاعتقاد بأن لكل من ظواهر الطبيعة، مثل الأنهار والغابات والأمطار وغيرها، إلهاً خاصاً، وكثيراً ما تقام الحفلات الدينية تكريماً لهذا أو ذاك من آلهة هذه الظواهر. وكثيراً ما غدا أحد هذه الآلهة، مع تطور حياة الإنسان، ذا مكانة عالية تفوق مكانة غيره فيبرز وحده.

ولكن هذه النظرية كانت موضع نقد، واتجه النقد إلى أنها غير كافية في تفسير ديانات التوحيد، وإلى أنها لاتقدم الدليل الكافي على تطور الديانات في أمكنة أخرى من العالم غير مواطن الأقوام البدائية، وبأنها لم تقدم دليلاً كافياً على بعض الوقائع. وكان من بين الذين وجهوا إلى نظرية تايلور انتقاداً معمقاً أندرو لانغ Andrew Lang حين ذهب إلى أن النظرية لاتفسر ما لدى بعض الأقوام البدائية من اعتقاد بوجود قوة عليا بعيدة عن كل الأفراد تقوم بتحريك العالم والتصرف بشؤونه. وكان من

بين الانتقادات التي وجهها آخرون إلى نظرية تايلور القول بأن السحر سبق الإحيائية في وجوده ولم يكن من نتاجها، وأن القول بتعدد الآلهة تطور لدى بعض المجتمعات تطوراً لم يعتمد الاعتقاد بالإحيائية، وأن القول بالآلهة الخفية سبق القول بالإحيائية.

حافظ الجمالي

الموضوعات ذات الصلة:

الانتروبولوجية ـ الدين ـ الروح.

مراجع للاستزادة:

ـ ول ديورانت، مباهج الفلسفة (الكتاب الثاني)، ترجمة أحمد فؤاد الأهواني (مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٦).

■ أُحيحة بن الجُلاح

(٠٠٠ ـ نحو ١٣٠ ق.هـ/ ٠٠٠ ـ ٤٩٧م)

أُحَيْحة بن الجُلاح بن الحَريش الأوسي، وكنيته أبو عمرو، شاعر جاهلي من دهاة العرب وشجعانهم، كان سيد الأوس في الجاهلية، وعاش في زمن تُبّع الأصغر أبي كرب حسّان ملك اليمن. وكان غنياً يحسن تدبير المال ويبيع بيع الربا بالمدينة حتى كاد يحيط بأموال أهلها، وكان يفخر بذلك بقوله:

إنّي أكُبُّ على الزوراء أعمرها

إنّ الكريم على الإخوان ذو المال

وكان إلى هذا شحيحاً. وقد روى المبرّد في كتابه الكامل أموراً تظهر بحله وتمسكه الشديد بأمواله. وقد اتّصف بأنه صائب الرأي حتى زعم قومه، لكثرة صوابه، أن مع أحيحة تابعاً من الجن.

كان لأحيحة مزارع وأملاك، وكان له تسع وتسعون بئراً يأخذ منها الماء، وكان له أُطُمان (أي حصنان) المستظلّ والضحيان، وقد تحصّن في الضحيان عندما قاتل أبا كرب تبّع بن حسان. وكان تبّع قد أقبل من اليمن يريد المشرق فمرّ بالمدينة وترك فيها ابناً له ومضى إلى الشام فالعراق، وفي المشقّر جاءه خبر مقتل ابنه غيلة، فكرَّ راجعاً وهو مجمع على تخريب المدينة وقطع نخلها وإفناء أهلها. ثم أمر أن يأتيه أشراف المدينة وكان أحيحة بينهم، وظنّ الأشراف أن تبّع قادم كي يملكهم على أهل يثرب، إلا أن أحيحة فطن إلى ما كان يبيته تبّع من الغدر، فاستأذن بالذهاب إلى خبائه، وهناك أمر قينته أن تغني، حتى إذا نام الحرس الذين وضعهم تبّع عليه، قال لها: أنا ذاهبٌ إلى أهلي فشدّي عليك الخباء، فإذا جاء رسول الملك فقولي له: هو نائم، فإن أبوا إلاّ أن يوقظوني فقولي: قد رجع إلى أهله، وأرسلني إلى الملك برسالة، فإن ذهبوا بك إليه فقولي له: يقول لك أحيحة: اغدر بقينةٍ أو دَعْ.

فلما انطلق إلى قومه تبعته كتيبة من خيل تبّع تطلب قتله فوجدوه قد تحصّن بأطمه الضَحيان، فحاصروه ثلاثة أيام يقاتلهم بالنهار ويرميهم بالنبل والحجارة، ويرمي إليهم بالليل بالتمر، فلمّا لم يقدروا عليه أمرهم تبّع أن يحرقوا نخله.

تزوج أحيحة من سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجّار، وكانت امرأة شريفة لاتتزوج أحداً إلاّ وأمرها بيدها.

وفي إحدى المناوشات القبلية قتل أحيحة رجلاً من بني النجّار، وكان أخاً لعاصم بن عمرو، فأراد هذا أن يقتل أحيحة ليأخذ بثأر أخيه، فلم يستطع أن ينال منه، حينئذٍ عزم أحيحة على الإغارة على بني النجار ليؤدب عاصماً ويتخلص منه، فلمّا علمت سلمى بذلك احتالت في مغادرة بيتها بالتدلي من الحصن وانطلقت إلى قومها فأنذرتهم وحذّرتهم، فاستعدّوا، فلما أقبل أحيحة لم يكن بينهم قتال شديد ورأى القوم على حذر، فلما رجع افتقد امرأته فلم يجدها، فقال: هذا عمل سلمى، خدعتني حتى بلغت ما أرادت. وسمّاها لذلك قومها «المتدلّية» وقد قال أحيحة في ذلك شعراً.

أما سلمى فقد تزوجت بعده هاشم بن عبد مناف حين قدم المدينة فولدت منه عبد المطلب، فأولادها من أحيحة هم إخوة عبد المطلب جدّ الرسول ﷺ لأبيه.

اشتهر أحيحة بشعره، فقد اختار منه أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب قصيدة جعلها من المذهبات ومطلعها:

صحوت عن الصبا والدهرُ غولُ

ونفس المرء آونةً قَتول

كما انتخب منه البحتري في حماسته، وأورد الأصمعي قصيدة له في مختاراته، وتناقلت شيئاً منه كتب الأدب. غير أنّ شعره لم يجمع في ديوان حتى اليوم، وتصف قصائده التي وصلت إلينا جوانب حياته الخاصة ونظرته إلى الحياة والناس والمال، كما تصف تخلّيه عن مجالس لهوه في سبيل جمع المال وتركه من أجل ذلك الشهوات التي تتطلب أن يبذل لها.

وشعره سهل مستساغ وإن كان لا ينفرد فيه بميزة فنية خاصة، إلاّ في أبيات قليلة، وهو لايخلو من عبرة أو حكمة، وهو في شعره سيئ الظن بالحياة التي تغتال أبناءها.

ج ت

مراجع للاستزادة:

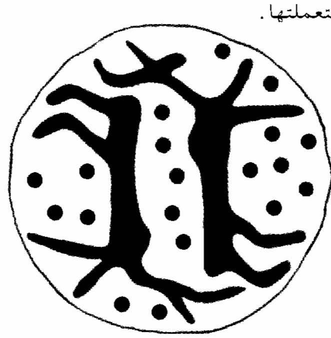
ـ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، جزء ١٥ (ط: دار الكتب المصرية).

■ الأختام

الختم seal قطعة رمزية من معدن، أو طين، أو زجاج، أو صلصال، أو حجر كريم، أو غيره، تحمل طابعاً أو كتابة أو رسوماً، ويعبر نقشها أو رسمها عن «الملكية»، في الأثر الذي تطبعه عليه لدى استخدامها. ولكل ختم علامة تميزه من غيره، ويختلف باختلاف الأشخاص، والمناطق.

وتعد الأختام نقلة حضارية، من مظاهر تطور الفن، وتساعد في رصد الأحداث التاريخية

وتشخيصها، وتعطي فكرة عن الأقوام التي استعملتها.



(الشكل ١) ختم من الحجر الكلسي يحمل نقش نقش ثورين في وضعين متعاكسين، أوروك نحو ٣٠٠٠ ق.م .

تاريخ الأختام

اخترع الإنسان الختم في الألف الخامس ق.م وصنعه من الحجر الطري والطين على أشكال منها المثلث، والهرم، والفأس، والريشة، والمخروط، والمنجل، أو على شكل حيوان. وفي طرف الختم ثقب لتعليقه حليةً أو تميمة بالمعصم أو العنق.

وقد يكون الختم على شكل قرص، أو أسطوانياً، سطوحه مستوية أو محدبة، ومنقوشة أو عليها روسم. وفي العصر الحجري الحديث (٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م) استخدم الإنسان الختم تميمة لحماية نفسه، وعليها رسوم تدل على الصيد، والرعي، وأشكال هندسية ونباتية وحيوانية للتقرب من الآلهة (الشكل ١). وأول من استعمله سكان بلاد الشام في الألف الثالث قبل الميلاد، وكانوا يختمون به الجرار وغيرها. وينقشون الأشكال معكوسة على سطح الختم فتظهر صحيحة بعد طبعها.

ومع بدء نشوء الممالك (٢٩٠٠- ٢٣٥٠ ق.م) كانت الأختام رديئة الصنع، ثم اتجه صانعوها نحو تحسينها، ونقش الموضوعات المهمة عندهم، من أشكال متناظرة، وبجانبها اسم صاحب الختم أو رسمه وهو يتعبد.

وفي العصر الأكدي (٢٣٥٠- ٢١٥٠ ق.م) أصبح رسم الختم باسم صاحبه تقليداً، واحتل موضوع تصوير الأرباب على الختم منذ العام ٢١٥٠ ق.م أهمية خاصة ولا سيما « رب الطقس ». كما صور البابليون رمز الرب بدلاً من صورته، وكذلك فعل الآشوريون بمحافظتهم على تقاليد صناعة الأختام (الشكل ٢).

وفي العصر الكاشي (١٥٠٠- ١٢٠٠ق.م) كتب على الختم مقاطع من الصلوات أمام رجل متعبد.

وكانت أختام الميتانيين، والآشوريين (١٥٠٠- ١٢٠٠ ق.م)، متميزة من الكاشية، وتحمل صورة شجرة بين حيوانين، أو ضفائر، أو قرص الشمس، أو غير ذلك .

في حين فقدت هذه الأختام أهميتها لدى الآراميين لأنهم كتبوا على الحجر، والجلد، وورق البردي. واستعملوا في هذا العصر « الختم القرصي ».

أما الكلدانيون (٦١٢- ٥٣٩ ق.م)، فاستعملوا الختم الأسطواني والختم القرصي المزين سطحه برمز الرب، وأمامه متعبد، مع النقوش الهندسية .

وقلد الأخمينيون (٥٢٠ - ٣٣٠ ق.م) أختام حضارة بلاد الشام، والرافدين. وزينوا أختامهم بنقوش مستمدة من زخارف أختام الآشوريين والبابليين ونقوشها. وبانقضاء العصر الأخميني، استغنى الناس عن الختم الأسطواني، واتخذوا بدلاً منه الختم القرصي. وكان الختم الفارسي يحمل صورة الملك، وهو يصطاد، أو يقارع الأعداء، أو صور الحيوانات الأليفة.

وانفردت حضارة مصر القديمة في مطلع القرن الثالث قبل الميلاد بصنع الختم على شكل « الجعل »؛ وهو « خنفس الزبل »، تمثيلاً للمعتقد المصري « الخلق من العدم »، واستخدم الختم حلية، وتميمة. وكتبت على سطحه مأثورات من كتاب « الأموات »، واستخدموا الختم الأسطواني أحياناً بتأثير حضارة بلاد الشام (الشكل ٣).



(الشكل ٣) جعران من اللازورد « ١,٥ » يحمل صورة رمسيس الثاني على هيئة أبي الهول ويدوس على عدوه، واسمه إلى جانبه (مصر ١٣٠١ - ١٢٣٤ ق م)

أما الممالك اليونانية فقد استخدم فيها الختم للأعمال الاقتصادية، ولتحديد الملكية. كأختام جزيرة كريت، وقد حرم قانون صولون Solon على صانع الأختام إنتاج أكثر من نسخة واحدة معاً للتزوير. واستخدم ختم « الخنفس » بتأثير من حضارة مصر القديمة وحضارة الكنعانيين، وأصبح الختم والخاتم صنوين في بلاد الإغريق، لأنه يستعمل حلية للأصبع وختماً للوثائق (الشكل ٤).

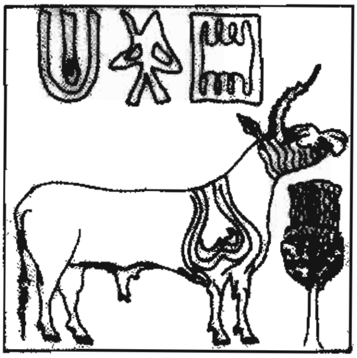


(الشكل ٢) صورة ختم اسطواني يمثل إلهاً يجلس على مقعد له أربع قوائم ورجل يتقرب إليه بالهبات، العصر الأكدي المتأخر ٢٣٩٠ - ٢٢٩٠ ق م (ماري - تل الحريري)



(الشكل ٤) فص خاتم من حجر أبيض ارتفاعه ١,٥ سم يحمل صورة العنقاء (القرن ٣ - ٢ ق.م).

وفي عصر الإسكندر الكبير: أصبح الختم على شكل «الخنفس»، ودخلت الأختام إيطالية، منذ القرن السادس قبل الميلاد، وتأثرت صناعة الأختام فيها بصناعة النقود، ونقشت عليها صور «فينوس»، وصور الرب «أرتميس»، والرب «إيروس»، وصور الأسر الأرستقراطية، وأصبح الختم سلعة دعائية .



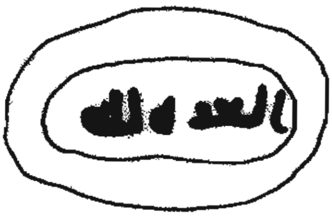
(الشكل ٥) طبعة ختم عليها نقش اسم الرب الهندي «أيان»، تحته صورة ثور أمامه وعاء ماء فوار، ٦×٦ سم (الألف الثالث ق.م) .

أما في الصين، والهند، فقد صنع الختم من الحجر، والزجاج والصلصال، وجعلوه على شكل «زر»، أو مستطيل له مقبض هرمي فيه ثقب لدخول الخيط وتعليقه .

وانفردت الهند بنقش الختم على عدة وجوه . ووجدت أختام أسطوانية في الصين عليها صور «التنين» و«الحية ذات الرأسين»، التي أصبحت شعاراً للختم الصيني، مع ذكر اسم صاحبه بجانبه .

الأختام في الحضارة العربية الإسلامية

أخذ العرب الختم بشكله التقليدي، ونفروا من التصوير عليه . واتخذ الرسول العربي الكريم خاتماً من ورق «فضة»، وكان نقشه «محمد رسول الله»، وتناقله كل من أبي بكر وعمر وعثمان الذي وقع منه في بئر «أريس»، وكان نقش خاتم خليفة رسول الله أبي بكر الصديق «نِعْمَ القادر الله»، ونقش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «كفى بالموت واعظاً»، ونقش الخليفة



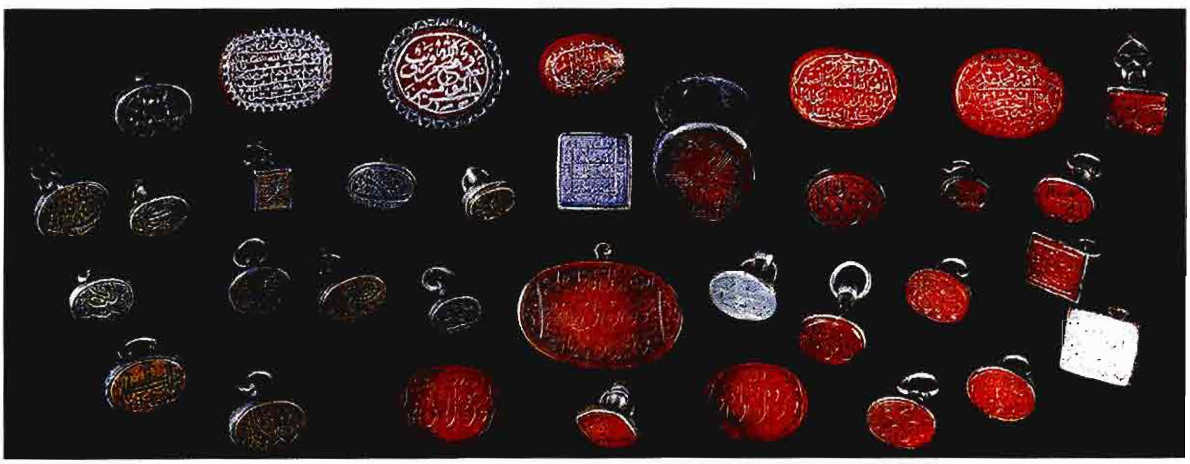
(الشكل ٦) طبعة ختم محفور على حجر غرانيت من العصر الأموي يحمل عبارة « العزة لله » .

عثمان بن عفان «آمنت بالذي خلق فسوى»، ونقش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عبارة «الله الملك الحق»، وفي العهد الأموي أمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان بترتيب الرسائل، وتطيينها على سطحها، وختمها، وصنعت الأختام الزجاجية ذات الوجه الواحد للمكاييل والأوزان . وأنشأ العباسيون «ديوان الخاتم»، الذي يتبع ديوان الرسائل، وأصبحت الأختام مزينة بالأحجار الكريمة المنقوشة حليةً للملوك والأمراء، وكانت تختم بها أوامر العفو والأمان .

وقد كانت الخواتم تنقش بأنواع الخطوط الجميلة، وتحمل آيات من القرآن الكريم (الشكل ٦) أو عبارات الحكم، والألغاز، والمعميات .

واستخدم الختم على المعاملات، والمعاهدات، والمراسيم، والكتب (الشكل ٧)، والوقفيات، وحجج العقارات والأملاك، والمراسلات، والإجازات بأنواعها، ولفائف الحسب والنسب، واستخدمت الأختام الزجاجية لمراقبة صحة المكاييل والأوزان وغيرها .

واهتم العلماء بدراسة أحكام الأختام وقانونيتها، ولغتها، وشأنها في الحكم الشرعي ومنها تصانيف ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) في كتابه «أحكام الخواتيم» الذي اعتمد في مصادره على كتابي «الخواتيم» لحمزة السهمي (ت٤٢٨ هـ)، و«الخواتيم» لابن منجويه . ومن التصانيف الأخرى كتاب «الخواتيم» لابن أبي الدنيا، وكتاب «التختيم من اليمين أو اليسار» للبيهقي، وكتاب



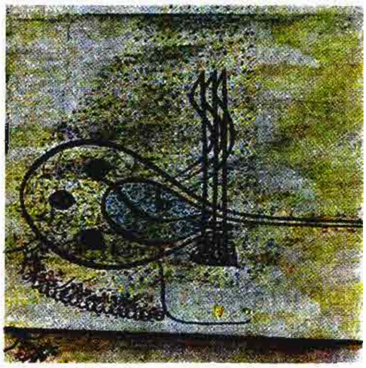
(الشكل ٧) أختام منوعة من العصور الإسلامية المختلفة تحمل كتابات من القرآن الكريم أوأقوالاً مأثورة

«الخواتيم» لابن أبي حية، وكتاب «الخواتيم» لعبد الله الدبيلي. وصنف ابن بابويه القمي كتاب «الخواتيم». ولمحمد رضا الطبسي النجفي كتاب «الدر الثمين في التختم باليمين». وقد ضمّن القلقشندي كتابه «صبح الأعشى» بحثاً عن الخواتيم وأنواعها واستعمالاتها، وكذلك فعل الخزاعي في كتابه «تخريج الدلالات»، واقتبس منه الكتاني في كتابه «التراتيب الإدارية». ولقد تأثر الغرب بالحضارة العربية الإسلامية إبان الحروب الصليبية، ومن اتصاله بحضارة الأندلس، حتى إن الملك النرمندي «روجر الثاني»، ملك صقلية، اتخذ خاتماً عربياً عليه نقش حكمة عربية.

وقد حافظت الأختام على أهميتها في الدولتين «الزنكية» و«الأيوبية». وفي العصر المملوكي اخترعت طرق لختم الرسائل بالشمع الأحمر. وظهرت «الطرة»، و«الطغرة» أي الطغراء على المراسيم (الفرمانات). فالطرة تحمل ألقاب السلطان، وأوامره، ومرسومه. أما الطغرة فتحمل اسم السلطان، وأسماء آبائه، ولقبه. وللطرة، والطغرة كاتب خاص.

واصبح ختم الطغرة منقوشاً على النقود العثمانية، والأختام العثمانية، شعاراً للدولة.

وقلدتها في ذلك الدول الفارسية والمغولية، والأفغانية. وكلمة الطغرة تركية دالة على توقيع السلطان، وتأشيره، وقد نقلت من المراسيم المملوكية، ويختلف تركيبها الشكلي بكثرة منتصباتها «الألف واللام» أو قلتها.





(الشكل ٨)

طغراء السلطان سليمان القانوني (١٤٩٥ - ١٥٦٦)

طغراء السلطان عبد العزيز (١٨٣٠ - ١٨٧٦).

وكانت مهارة الخطاطين وبراعتهم في النقش تقاسان بنوع الأختام التي يصنعونها (الشكل ٨).

صناعة الأختام

يصنع الختم أو الروسم من مادة قاسية. كالصلصال والحجر، والمعدن، والزجاج، والأحجار الكريمة وغيرها. لقد صنعت أختام بلاد الشام القديمة أسطوانية الشكل، واستخدم في صنعها الطين والحجر الكلسي والصدف والزجاج والرخام والكوارتز الأبيض. أما أختام بلاد الرافدين، وإيران، فكانت مسطحة دائرية، وكذلك أختام بلاد مصر القديمة، والعرب.

وكان نقش الأختام وكتابتها في الحضارة العربية الإسلامية من يسار الختم إلى يمينه لتظهر طباعته صحيحة على المادة المستعملة، واستخدم الإزميل، والقلم الحاد المعدني، والمبرد، والمثقب اليدوي أدوات في صنعه (الشكل ٩). وربما كان النقش على سطح واحد من الختم الذي يشبه شكل قطعة الشطرنج.



(الشكل ٩) رسم يمثل صناعة الأختام من عصر السلالة السادسة في مصر القديمة (٢٢٩٠ - ٢١٣٥ ق.م).

وقد يكون للختم حامل أو ممسك يدور الختم على محوره، وقد يكون الختم هرميا ثلاثي الوجوه، أو ثنائي الوجه. وربما كان مربعاً، أو مستطيلاً، أو دائرياً أو بيضياً أو بأشكال مختلفة.

واستخدمت الصور، والكتابات والزخارف الهندسية في نقش الأختام القديمة.

وتميزت الأختام العربية من غيرها باستخدام الكتابة والنقوش الزخرفية والنباتية، وبعدها عن التصوير والتجسيم. وتنوعت الأقلام في



(الشكل ١٠) نماذج أختام عربية منوعة الخطوط

كتابتها؛ فاستخدم الخط الكوفي القديم، والخط الفارسي الانسيابي لسهولة حفره. ونقشت الأختام الدقيقة بالخط الغباري، في حين نقشت الأختام الكبيرة كأختام المحاكم والإجازات الصوفية والعلمية والمراسيم (الفرمانات) بخط الطغراء والخط الديواني الجلي، والثلث وغيرها (الشكل ١٠).

وكان الخطاط هو صانع الختم، وكاتبه، ومن ينقشه.

وفي أواخر العهد العثماني بدأ استخدام الأكاسيد، والأحماض الكيمياوية في صناعة الأختام، فكان سطح الختم يغطى بالللك، والشمع، وينقش عليه النقش المطلوب، ثم يغطس في الحمض عدة مرات لتعميق الحفر.

وفي العصر الحديث بدأت الأختام المعدنية، والحجرية تختفي، وحلت محلها الأختام المطاطية، وانتشرت المكننة الآلية في صناعتها. وانفصلت صناعة الأختام عن مهنة الخطاط الذي اكتفى بكتابة النص وزخرفته. وظهر الختم المعدني النافر المستعمل في ختم الوثائق المهمة كجوازات السفر والشهادات العلمية وغيرها.

ومن الدول من استغنى عن الأختام تماماً ليحل محلها الرموز والأرقام السرية باستعمال الأشرطة الممغنطة، وأشعة الليزر وغيرها، وأصبح الوضع القانوني للختم واستعمالاته غير ملزم للقاضي إلا للاستئناس بصحة الوثيقة، مع التوقيع، والتأشير، واقتصر استعمال الختم على الوثائق الرسمية.

وصار للأختام هواة يجمعونها، ويعرضونها في مجموعات أثرية أو تقام لها مزادات عالمية.

محمد عدنان الجوهرجي

■ اختبار المواد

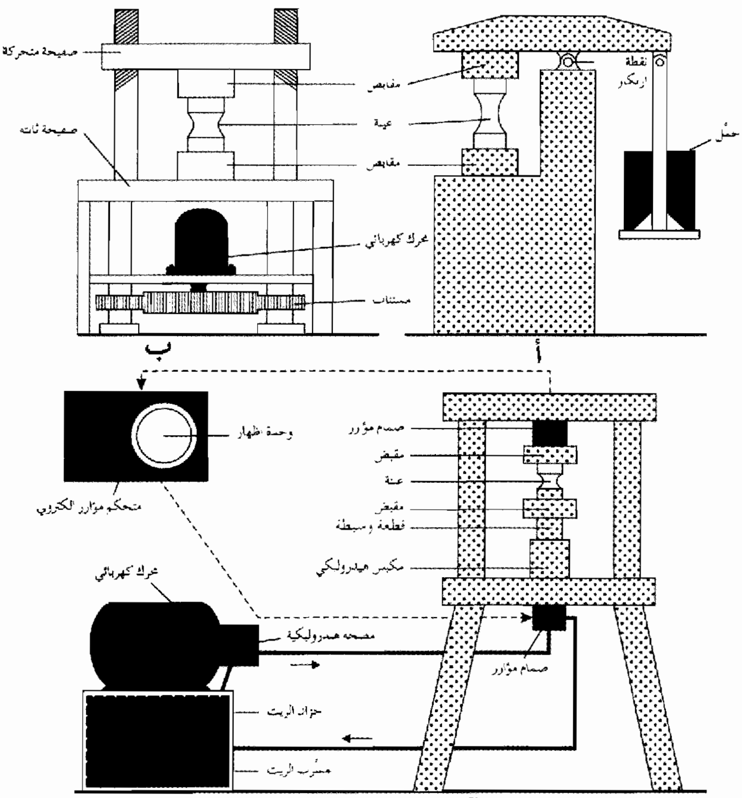
اختبار المواد materials testing هو قياس خصائص المواد وسلوكها في شروط شتى، وتفيد النتائج المستخلصة من هذا القياس في تحديد المواد وصفاتها المميزة في مختلف الاستعمالات. يمكن أن يُجرى الاختبار على نموذج مصغر للآلة أو المادة، وقد يستعاض عن ذلك ببناء نموذج رياضي بالاعتماد على خصائص المادة وسلوكها المعروفين مسبقاً للتنبؤ بقدرات النموذج.

ثمة خمسة اختبارات رئيسة للمواد هي: الاختبار الميكانيكي واختبارات الخصائص الحرارية واختبارات الخصائص الكهربائية واختبارات تلف الصدأ والإشعاع والتلف البيولوجي والاختبارات غير المخرِّبة. وقد قامت هيئات وطنية وعالمية كالمنظمة العالمية للمعايرة International Organization for Standardization (ISO) ومقرها جنيف والجمعية الأمريكية للاختبار والمواد American Society for Testing and Materials (ASTM) في فيلادلفية بوضع طرائق اختبار قياسية.

الاختبار الميكانيكي

يتعطل معظم الآلات والقطع أو مكوناتها نتيجة تصدعها أو تشوهها الزائد. ومنعاً لحدوث هذا التعطل يقوم المصمم عادة بدراسات تحليلية على نموذج رياضي أو دراسات تجريبية على نموذج حقيقي لمعرفة مدى تحمل الآلة للإجهادات ولأوضاع العمل، كما يقوم باختبار المواد التي يجب تصنيع كل جزء من الآلة منها لضمان حسن أدائها، وفيما يلي بعض الاختبارات التي يمكن توظيفها للوصول إلى هذه الغاية.

اختبارا الشد والضغط: تستطيل كل مادة عند تعرضها للشد strain وتنهار إذا ما استمرت هذه العملية. ويحدد اختبار بسيط للشد السكوني نقطة انهيار المادة بعد استطالتها. ويتطلب هذا الاختبار توافر عينة اختبار أسطوانية أو يكون جزؤها الأوسط أصغر قطراً من نهايتيها، وآلة اختبار تطبق مختلف الأحمال وتقيسها وتسجلها، ومجموعة مناسبة من المقابض grips للإمساك بعينة الاختبار. تقوم آلة الاختبار بشد جزء صغير من العينة (يسمى عادة مقطع الاختبار) شداً متسقاً ويستخدم



(الشكل ١) رسم تخطيطي لآلات الاختبار الميكانيكي

أ: آلة ذات حمل ثابت   ب: آلة ذات معدل إزاحة ثابت   ج: آلة ذات معدل حمل ثابت

بعدئذ مقياس الاستطالة extensometer لقياس طول جزء الاختبار (يسمى طول المعيار guage) عند مختلف الأثقال توصلاً لحساب الشد.

أما اختبارات الانضغاط فتحدد استجابة المادة لحمل ساحق crushing أو لحمل استنادي كما في حالة دعامات المنازل ويكون للعينات شكل أسطواني ويكون الطول المعياري في اختبار الانضغاط مساوياً طول العينة كله. ويجب الانتباه في هذه الاختبارات إلى وجوب إبقاء قطع الاختبار قصيرة وغليظة منعاً لانثنائها في أثناء الاختبار.

يمكن تصنيف آلات الاختبار التقليدية في ثلاثة أنواع هي: الآلات ذات الحمل الثابت constant load rate وذات معدل الحمل الثابت constant load rate وذات معدل الإزاحة الثابت constant desplacement ويبين الشكل ـ ١ رسماً تخطيطياً لهذه الأنواع الثلاثة. تستخدم الآلات ذات الحمل الثابت أثقالاً لتطبيق الحمل وقياسه في حين تستخدم الآلات ذات معدل الحمل الثابت وحدتي تحميل وقياس منفصلتين ويستخدم مكبس هيدروليكي عادة لتطبيق الأحمال، ويتم التحكم في آلات الاختبار ذات معدل الإزاحة الثابت بوساطة مسننات لولبية.

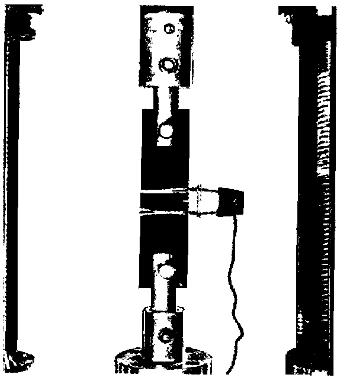
اختبارا القص واللي السكونيين: تشير اختبارات القص في مستو إلى قيمة التشوه في المادة نتيجة للقوى المطبقة مماسياً، وتطبق مبدئياً على المواد ذات الصفائح الرقيقة سواء كانت معدنية أو مركبة كاللدائن المقواة بألياف الزجاج. تتولد في اختبار اللي إجهادات شد على أحد وجهي العنصر المعرض للي وتتولد إجهادات ضغط مقابلة على الوجه الآخر. ويمكن استخدام هذا الاختبار في قياس مقاومة الشد للمواد التي يصعب إجراء اختبار الشد عليها مباشرة إذ يختلف تشوه المادة على وجهي العنصر المختبر باختلاف مقاومتيه للشد والضغط وبذلك يمكن معرفة قيمة مقاومة المادة للشد.

اختبار قابلية السحب: قابلية السحب ductibility هي سمة للمادة تبين قابليتها للتشوه تشوهاً دائماً نتيجة لتطبيق إجهاد عليها. وتتشوه المادة عادة في البداية تشوهاً مرناً يزول بزوال الإجهاد الموضعي ثم يصبح دائماً. فمثلاً تأخذ أسطوانة فولاذية شكل عنق متطاول نتيجة شدها، وتكون المادة قابلة للسحب إذا كان هذا التشوه دائماً لاتعود معه الأسطوانة إلى شكلها السابق. ويمكن التعبير عن قابلية الأسطوانة للسحب بالشد وبتقلص المساحة في واحدة المساحة أو بالمتانة toughness التي هي كمية القدرة اللازمة لإحداث تشوه دائم في المادة.

اختبار الصلابة: يتم اختبار صلابة مادة ما hardness بضغط كرة فولاذية مقسّاة (اختبار برنيل Brinell) أو مخروط من الفولاذ أو الألماس (اختبار روكويل Rockwell) على سطح القطعة التي يجري عليها الاختبار. ويجري معظم اختبارات الصلابة باستخدام آلات تسجل قيماً اختيارية تتناسب عكساً مع عمق تغلغل الكرة أو المخروط في القطعة. ويجب الانتباه إلى أن اختبار صلابة المطاط واللدائن، وفق هذه الطريقة، لايعطي نتائج ذات معنى لأن التشوه، نتيجة تغلغل الكرة أو المخروط، قد يكون مؤقتاً. وينجز بعض الاختبارات دينامياً بإسقاط ثقل ذي قيمة معروفة من ارتفاع محدد ويتم ذلك عادة في الاختبارات المعدة لقياس تأثير الاحتكاك.

اختبار الصدم: تستعمل أكثر اختبارات الصدم شيوعاً نواساً ثقلياً مترجحاً يضرب قضيباً ذا أثلام مصنوعاً من المادة المختبرة. ويستخدم ارتفاع النواس قبل الصدم وبعده لحساب القدرة اللازمة لتصدع القضيب وبالتالي لحساب قوة صدمه. تتباين بعض المواد في مقاومتها للصدم بتباين درجات حرارة الوسط المحيط إذ تصبح شديدة القابلية للكسر في درجات الحرارة المنخفضة جداً، وقد أظهر بعض الاختبارات أن تدني مرونة المادة ومقاومتها غالباً ما يكون فجائياً عند درجة حرارة معينة تدعى درجة الحرارة الانتقالية للمادة.

اختبار مقاومة التصدع: أدت المتطلبات المتشددة المفروضة على المواد المستخدمة في برامج الفضاء إلى إجراء تبدلات أساسية في فلسفة التصميم، إذ طلب المصممون من المختصين في هندسة المواد تطوير اختبارات كمية قادرة على قياس نزوع مادة ما إلى التشقق crack واستبقيت الطرائق التقليدية لتحليل الإجهاد واختبارات خصائص المواد، ولكن تغيّر تعليل النتائج فأصبح معيار الانهيار failure هو النزوع المفاجىء إلى التشقق وليس إلى التكسر fracture (انظر الشكل ٢). لقد أظهرت الاختبارات أن الشقوق تحدد بالانفلاق، إذ تنفصل قطعتان من المادة، تقعان في مستوٍ شاقولي واحد، فتتجه



(الشكل ٢) اختبار ميكانيكي نوعي لمقاومة التصدع

إحداهما إلى الأعلى والأخرى إلى الأسفل، وبانزلاق الحواف، إذ تنشطر المادة في مستوٍ أفقي تتجه قطعة منها نحو اليسار والأخرى نحو اليمين، وبالتمزق، إذ تنشطر المادة فتتحرك قطعة قطرياً إلى الأعلى نحو اليسار وتتحرك الأخرى قطرياً إلى الأسفل نحو اليمين.

اختبار تغير الأبعاد: تغير الأبعاد creep هو التبدل البطيء في أبعاد المادة نتيجة لإجهاد طويل الأمد. تطبق على المادة في اختبار تغيّر الأبعاد أثقال أقل من تلك التي تحدث صدعاً آنياً، ويقاس تشوه الأبعاد عادة باستخدام مقياس التمدد في مدة معينة يبقى فيها الحمل ثابتاً. كما يقاس في الاختبار ذاته زمن الانهيار تابعاً لمستوى الإجهاد في شكل منحن يسمى منحني التمزق الناتج من الإجهاد stress rupture أو التمزق الناتج من تغير الأبعاد، ويستفاد من هذا المنحني في استقراء سلوك المواد والتنبؤ به مستقبلاً. وأخيراً تجدر الإشارة إلى وجود بعض المواد التي تستعيد أبعادها الأصلية بعد زوال الإجهاد المؤثر فيها وتسمى المواد اللزجة ـ المرنة viscoelastic.

الكلال: يعرف الكلال fatigue بأنه انهيار المواد نتيجة تطبيق الإجهادات عليها تطبيقاً متكرراً. ويقاس باختبارات ميكانيكية تتضمن تطبيقاً متكرراً لإجهادات مختلفة تراوح بين قيمتين صغرى وعظمى على نحو دوري، وتستخدم معظم آلات اختبار الكلال ثقلاً دواراً غير منتظم لتوليد هذا الحمل الدوري. ويقال

إن المادة تعاني كلالاً منخفض الدورة إذا انهارت عند ١٠٠٠٠ دورة أو أقل.

تكون الإجهادات التي تتعرض لها المادة عادة ذات طبيعة عشوائية وليست دورية ولهذا تم تطوير عدة نظريات للتلف الناتج من الكلال التراكمي comulative fatigue damage لتمكن الباحثين من استقراء سلوك المادة تحت تأثير إجهادات عشوائية اعتماداً على معطيات الاختبار الدوري. ولأن معظم هذه النظريات غير قابل للتطبيق على أكثر المواد فقد استخدمت في مخابر اختبار المواد تقانة جديدة نسبياً تتضمن تطبيقاً ميكانيكياً لإجهادات كلال عشوائية موافقة إحصائياً للشروط الفعلية. يتضمن كلال المواد عدداً من الظواهر منها الانزلاق الذري atomic slip وابتداء التشقق وانتشاره. ولهذا فإن اختبار الكلال قد يقيس عدد الدورات المطلوب لإحداث شق إضافة إلى عدد الدورات اللازم لانهيار المادة.

اختبار الخصائص الحرارية

ويتناول الناقلية الحرارية والحرارة النوعية والتمدد الحراري.

الناقلية الحرارية: إن الحرارة التي تسري في جسم صلب بانتقال الإلكترونات الحرة انتقالاً فيزيائياً وباهتزاز الذرات والجزيئات تتوقف عن السريان عندما تتساوى درجات الحرارة في جميع نقاط الجسم الصلب وتتساوى كذلك مع درجة حرارة الوسط المحيط. ويحدث سريان إجمالي للحرارة في الجسم (عند الوصول إلى حالة التوازن الحراري) يعتمد في قيمته على التباين الحراري بين مختلف نقاط الجسم وعلى قيم درجات الحرارة فيها. تقاس الناقلية الحرارية تجريبياً بتحديد درجة الحرارة تابعاً للزمن على امتداد طول القضيب أو على سطح صفائح مسطحة، في حين يتم التحكم آنياً في الدخل الخارجي والخرج الحراريين من سطوح القضيب أو من حواف الصفيحة.

الحرارة النوعية: تعرّف بأنها الحرارة الممتصة في واحدة الكتلة لإحداث تغير بقيمة درجة واحدة للحرارة. وتقاس الحرارة النوعية للمواد الصلبة عموماً بطريقة الغمر drop method التي تتم بغمر كتلة معروفة من المادة ذات درجة حرارة معلومة في كتلة من الماء لها درجة حرارة معروفة القيمة ثم قياس درجة حرارة توازن المزيج الناتج. تحسب عندئذٍ الحرارة النوعية بقياس الحرارة التي امتصها الماء والوعاء وتكون مساوية للحرارة التي أطلقتها المادة الساخنة.

التمدد الحراري: يقاس التمدد الحراري بطريقة خطية ويعرف بأنه التغير في واحدة طول المادة الذي يسببه تغير درجة الحرارة بقيمة درجة واحدة. تتم هذه القياسات بوساطة المجاهر لأن مواد كثيرة لا يزيد تمددها على أجزاء من المكرومتر.

اختبار الخصائص الكهربائية

يتطلب فهم الخصائص الكهربائية شرحاً موجزاً لنظرية سحابة الإلكترونات الحرة للناقلية الكهربائية لأن الناقلية الكهربائية هي سريان تيار من الإلكترونات في جسم صلب. وبعض المواد كالمعادن نواقل جيدة للكهرباء لامتلاكها إلكترونات حرة ليست مرتبطة ارتباطاً دائماً بالذرات بل تؤلف سحابة إلكترونية حول الذرات وتكون حرة الحركة داخل الجسم الصلب في حين تكون هذه الإلكترونات مقيّدةً، إلى حد ما، في مواد أخرى كاللدائن ولا تؤلف سحابة إلكترونية حرة لذلك فهي تقاوم مرور التيار.

تؤثر الحرارة في الناقلية الكهربائية للمواد الناقلة والعازلة. وفي حين تنخفض ناقلية المواد الناقلة مع زيادة الحرارة فإن الناقلية الكهربائية للمواد العازلة تزداد مع هذه الزيادة. وتؤدي زيادة درجة الحرارة إلى زيادة كبيرة في عدد الإلكترونات الحرة في مواد محددة مثل السيليكون والجرمانيوم والكربون التي تسمى أنصاف النواقل، فهي تعمل عوازل في درجة الصفر المطلق وتصبح ناقلة جيدة عند درجة حرارة الغرفة. وتغير الأشابة ناقلية المواد نصف الناقلة بتوفيرها عدداً من الإلكترونات الحرة.

تقاس ناقلية مادة ما عادة بتمرير تيار معروف الشدة عند جهد ثابت في حجم محدد من المادة وتحديد المقاومة بالأوم فتكون الناقلية الكلية مساويةً مقلوب المقاومة الكلية.

اختبارات تلف الصدأ والإشعاع والتلف البيولوجي

ازدادت في الأعوام الأخيرة اختبارات انهيار المواد أو تلفها عند تعرضها لأحوال بيئية محددة. وغالباً ما تدرس الخواص الميكانيكية والكهربائية لمادة ما قبل تعريضها لهذه الأحوال وفي أثنائها وبعدها لمعرفة تغير هذه الخواص مع تبدل الأحوال البيئية من حرارة ورطوبة وضغط أو كلها معاً.

التآكل: هو عملية كيمياوية يتم فيها نزع الإلكترونات من المادة وتكوين مركبات أكثر استقراراً مثل أكسيد الحديد الذي تكون فيه الإلكترونات الحرة أقل عدداً. تتكون مركبات التآكل عادة فوق سطح المعدن، فإذا كانت هذه المركبات قاسية وصماء وملتصقة جيداً بالمعدن يتوقف تطور التآكل، أما إذا كان المركب رخواً ونفوذاً فإن التآكل يتوالى بسرعة وباستمرار.

يجري اختبار التآكل للتحقق من عمل المعادن وغيرها من المواد بوجود محاليل كهربائية electrolytes مختلفة وذلك لتشابه عمليتي التآكل وتحليل المعادن كهربائياً.

وقد يتضمن الاختبار غمراً كاملاً للمعدن كما في حالة مياه البحر أو تعريض المعدن لضباب مالح كما في عمليات المعالجة الكيمياوية الصناعية، أو قرب المحيطات حيث يختلط الماء المالح بالضباب. وتغمس المواد عموماً في محلول كلور الصوديوم أو كلور الكلسيوم الممددين بالماء ويكون تركيز هذا المحلول خمسة بالمئة أو عشرين بالمئة أو قد يرش المحلول في حجرة تكون العينات فيها مدلاة حرة. ويراعى في اختبار التدلي منع ناتج التكثف من أن يتقطر من عينة إلى أخرى، وتعرّض العينات لهذه البيئة بعض الوقت ثم ترفع وتفحص على أساس المظاهر المرئية للتآكل. وكثيراً ما تجرى اختبارات ميكانيكية ـ كميّة بعد تعريض المادة للتآكل للتحقق من تراجع المواصفات الميكانيكية للمادة. كما طورت أساليب اختبار أخرى لقياس تآكل المعادن عن طريق دراسة الغازات الخارجة من مسارب اللهب أو المداخن.

الإشعاع: يمكن اختبار المواد لمعرفة رد فعلها على أشعة إكس X الكهرمغنطيسية وأشعة غاما والموجات الراديوية والإشعاعات الذرية التي قد تحتوي على نترونات أطلقها اليورانيوم أو أي مادة أخرى مشعة. والمواد الأكثر تأثراً بهذه الإشعاعات هي البوليميرات polymers مثل المركبات العضوية كاللدائن والمطاط التركيبي التي لها سلاسل طويلة مؤلفة من تكرار وحدة كيمياوية واحدة.

تجري اختبارات الإشعاع بتعريض المواد لمنبع مشع معروف مدة زمنية محددة ويمكن استخدام الروبوت لتعريض مواد الاختبار للوقود النووي في حجرة بعيدة ثم اختبارها بالطرائق

التقليدية للتحقق من تغير خصائصها وفقاً لطول زمن تعرضها للإشعاع. ويمكن أن تعرّض عينات من الطلاء لإشعاع كهرمغنطيسي كأشعة الشمس لمدد طويلة ثم تفحص لمعرفة مدى تغير لونها أو تشققها.

التلف البيولوجي: هنالك اختبارات للتحقق من مقاومة المواد العضوية للفطريات والحراثيم والطحالب والطلاءات والمغلّفات ومواد طلي خطوط الأنابيب وهياكل الأبنية، وكلها مواد معرضة للتلف البيولوجي.

عندما يكون التركيب البيولوجي للتربة في منطقة ما مجهولاً تعزل مستعمرات لفطورها أو جراثيمها أو طحالبها المختلفة وتحضن باستخدام تقانات مخبرية معيارية. ثم تستخدم في اختبار المواد لمعرفة التلف البيولوجي الناتج منها أو لاختبار فعالية مبيد فطري أو جرثومي. فعند اختبار مقاومة الطحالب، على سبيل المثال، تؤخذ شرائح من المادة المراد اختبارها ويطلى بعضها بطبقة رقيقة من الفينيل vinyle ويترك بعضها الآخر من دون طلاء ثم تغمر في أحواض إنبات إلى جانب مستنبتات بذور الطحالب فيظهر في غضون أيام ثلاثة نمو طحلبي خصب على النماذج غير المطلية بالفينيل.

الاختبارات غير المخرِّبة

جميع الاختبارات السابقة هي اختبارات مخرِّبة destractive إذ تتلف العينة في أثناء عملية جمع المعلومات الاختبارية، ولهذا تكون مثل هذه الاختبارات مقبولة فقط في حالات وجود مصدر لكثير من العينات، وتفضل الاختبارات غير المخربة عندما تكون العينة مرتفعة النفقة اقتصادياً أو عندما يكون تصنيعها مرتفع النفقة ومجهداً، ويذكر فيما يلي بعض الاختبارات غير المخربة:

الاختبارات بالترددات فوق الصوتية: استخدمت الترددات فوق الصوتية لكشف عيوب المعادن الداخلية منذ عام ١٩٢٨، ويمتاز أسلوب الكشف بهذه الطريقة بخصائص كثيرة منها الحساسية العالية للموجات فوق الصوتية التي تمكّن من كشف العيوب كشفاً سريعاً، وتحديد أبعادها ومكان وجودها في المعدن وفي الوصلات ومنها قدرة هذه الموجات الكبيرة على النفاذ في المعدن إضافة إلى انخفاض نفقة الرقابة في هذا الاختبار.

خواص الفحص بالترددات فوق الصوتية: يتجاوز تردد الموجات فوق الصوتية ٢٠٠٠٠ هرتز ولا تستطيع أذن الإنسان الإحساس بها، وهي تنتشر في المواد المتجانسة في خطوط مستقيمة نسبياً، وتنعكس عند حدود الفصل بين مادتين مختلفتين، أو عند مصادفة بنيات غير متجانسة في المادة.

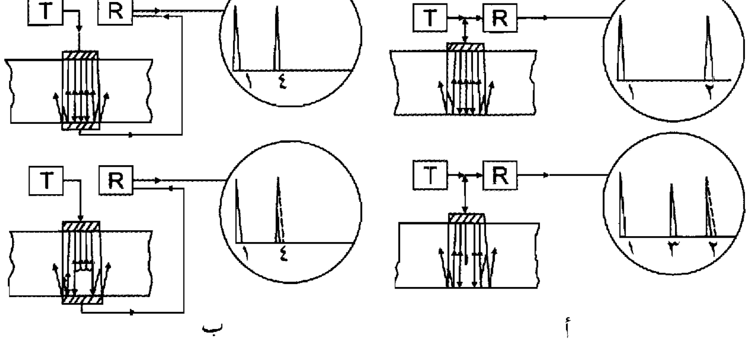
ويتم بث الموجات فوق الصوتية، وتسجيلها بأجهزة تحويل كهربائية صوتية. وأساس هذه الأجهزة مادة خزفية ذات مواصفات خاصة تتمتع بظاهرة الضغط الإجهادي التي تتلخص في أن الصفيحة المصنوعة من تيتانات الباريوم أو زركونات وتيتانات الرصاص تبدأ بالاهتزاز الميكانيكي تحت تأثير الجهد الكهربائي المتناوب الموصول بها، وتبث حزمة من الذبذبات بثاً عمودياً على سطح الصفيحة. ومن جهة أخرى تنشأ على السطوح المتقابلة للصفيحة الكهربائية، تحت تأثير التشوه الميكانيكي، شحنات كهربائية على شكل تيار كهربائي متناوب، ينتقل إلى أجهزة التسجيل، وعلى هذا المنوال فإن الصفيحة الكهربائية، تحول الطاقة الكهربائية إلى طاقة ميكانيكية (بشكل ترددات فوق صوتية) وبالعكس، وتتوغل هذه الترددات في داخل المعدن المراد فحصه شريطة أن يزال الهواء بين سطحي تماس جهاز البث والقطعة المختبرة، ويوفر التماس الصوتي بينهما بتغطية سطح القطعة بطبقة من الزيت المعدني أو الغليسرين الصناعي.

اختبار المواد بالصدى النبضي وبطريقة الظل: يتم فحص المواد بالترددات فوق الصوتية غالباً بطريقة الصدى النبضي، ونادراً ما تستخدم طريقة الظل. ففي الطريقة الأولى يتحدد العيب في القطعة المعدنية الخاضعة للفحص، بالشعاع المنعكس عن ذلك العيب ويتم تبيّنه على شاشة الجهاز الكاشف. أما في الطريقة الثانية، فيدل نقصان سعة الإشارة فوق الصوتية على العيب ومكانه.

وتنحصر طريقة الاختبار بالصدى النبضي (الشكل ٣) في تعريض القطعة المختبرة لنبضات فوق صوتية قصيرة (١) من جهاز البث (T) ثم تسجيل إشارات الصدى (٢) المنعكسة عن العيب عند المستقبل (R)، ويدل على وجود العيب ظهور النبضة (٣) على شاشة الكاشف.

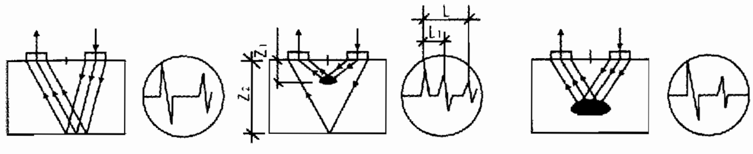
وعند تبني طريقة الظل يكون دليل وجود العيب هو نقصان سعة الإشارة (٤) المارة من جهاز البث إلى المستقبل، وتمكّن هذه الطريقة من استخدام البث المتواصل لا البث النبضي، ويبين الشكل ٤ مخططات النبضات على الأنبوب المهبطي، وتبدو على شاشة الجهاز من يسار الشكل إشارة السبر أو النبضة عند مخرج جهاز البث، ومن يمين الشكل وإلى طرف خط المسح النبضة المنعكسة عن الجدار المقابل للقطعة.

وفي حال وجود عيب في القطعة فإن إشارة الصدى المنعكسة عنه تقع في المجال الكائن بين الإشارة السابرة والإشارة المنعكسة، وعندئذ يكون وضع إشارة الصدى على الشاشة موافقاً



الشكل/٣/: مخططات الاختبار بالصدى النبضي وبطريقة الظل

أ: الاختبار بطريقة الظل   ب: الاختبار النبضي



ج ب أ

الشكل/٤/: مخطط النبضات في الأنبوب الإلكتروني

أ: نبضة سابرة وقعرية   ب، ج: نبضتان سابرتان منعكستان عن العيب

لعمق موقع العيب في المعدن وذلك وفق النسبة التالية: $\frac{t_1}{t} = \frac{z_1}{z_2}$

على أساس

t_1- الزمن اللازم بين الإشارة السابرة والمنعكسة عن العيب.

t - الزمن اللازم بين الإشارة السابرة والمنعكسة.

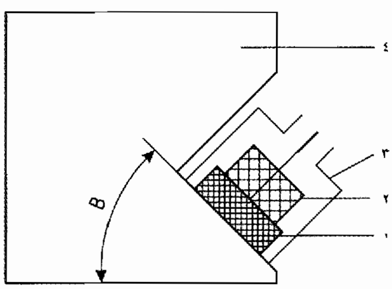
z_1 - مسافة العيب عن سطح المعدن.

z_2 - سماكة المعدن من السطح إلى القعر.

ومع ازدياد أبعاد العيب تزداد إشارة الصدى المنعكسة عنه، وتتناقص سعة الإشارة المنعكسة عن الجدار المقابل، ويمكن أن تختفي تماماً إذا كان للعيب مسافة عاكسة كبيرة.

وإضافة إلى الأنبوب المهبطي، فإن أجهزة الكشف الحديثة تزود بتقنيات تنبيه آلي ذات مؤشر ضوئي أو صوتي تنبه إلى العيب، كما ظهرت مؤخراً أجهزة كاشفة مجهزة بحواسيب رقمية.

أجهزة الاختبار بالترددات فوق الصوتية: تستخدم في اختبار المواد أجهزة نبضية لكشف عيوب المعادن تتألف من نماذج معيارية وتجهيزات مساعدة. ويزود جهاز الاختبار بالترددات فوق الصوتية بطائفة من الحسّاسات sensors المائلة تكون فيها الصفيحة الكهربائية



الشكل/د/: حساس مائل

١-محول كهربائي. ٢-مخمد. ٣-هيكل حماية.

٤-جهاز إسقاط. B زاوية الميل.

مائلة عن مستوى القطعة المراد فحصها (الشكل ٥).

وإضافة إلى الحساسات المائلة توجد حساسات مستقيمة وحساسات منفصلة، وتعمل الحساسات المستقيمة والمائلة على النحو الآتي:

توصل الصفيحة الكهربائية بمولد الترددات الكهربائية وتوصل الصفيحة الأخرى بالمستقبل، ويتم تحريك الحساس، مهما كان تصميمه، بمحاذاة سطح القطعة على طبقة من سائل التماس، وقد يكون التماس مباشراً عندما تكون سماكة طبقة التماس أقل من طول الموجة، أو من بعد عندما تكون سماكة طبقة التماس ١-٣ مم، أو بالغمر عندما تكون طبقة التماس كبيرة (الاختبار في الماء).

ويتعلق اختيار طبقة سائل التماس بخشونة سطح التماس للقطعة المراد فحصها، وبلدونة مادة الوقاية.

وتعد قيمة تردد الذبذبات فوق الصوتية، وكذلك زاوية ميل المحور البصري، وزاوية الموشور، وغيرها من محددات (بارامترات) الحساس. وكذلك تتعلق نتائج الفحص بقدرة الكاشف على تحليل مكان توضع العيب إذ كلما كانت أبعاد العيب (فجوة، أو تشقق) قليلة كانت قدرة التحليل لدى الكاشف أعلى وبالعكس. وتحدد سماكةُ الطبقة السطحية للقطعة المنطقة الميتة التي لا يكتشف العيب فيها، وتوجد المنطقة الميتة فقط عند الفحص بالصدى النبضي، وهذه إحدى نقائص هذه الطريقة، وتتحدد قدرة التحليل بأقل مسافة بين عيبين متجاورين يظهران منفصلين، ويمكن بوساطة الفحص بالصدى قياس المسافة التي يبعدها العيب عن السطح وكذلك ارتفاعه، ويمكن الكشف عن عيبين متراكبين جزئياً. وباستخدام كاشف لا يتجاوز وزنه ٣ كغ فحص ألواح من الفولاذ والألمنيوم والتيتانيوم وغيرها تراوح سماكتها بين٦ و٥٠ مم.

الأسس التقنية للفحص بالصدى النبضي: تحضر القطع للفحص على نحو يكون معه السطح الذي سيتحرك عليه الحساس خالياً من الحفر والتعاريج كما يجب أن ينظف السطح من آثار شظايا المعدن والصدأ وتفرغ الخزانات والأنابيب من السوائل قبل فحصها، ويتم اختيار زاوية إدخال الشعاع وحدود حركة الحساس، لكي يمكن تعريض مساحة القطعة كلها للأشعة المباشرة والمنعكسة، وتحدد مدة المسح لدى الجهاز الكاشف، لكي يطابق القسم الأكبر من المسح مسار النبضة فوق الصوتية في المعدن المراد فحصه.

قبل الشروع في اختبار القطعة بالصدى النبضي، يجب التحقق، بموجب النماذج القياسية، من المحددات (البارامترات) الآتية: تردد الذبذبات فوق الصوتية والحساسية الحدية وزاوية إدخال الشعاع فوق الصوتي في المعدن وخطأ قياس العمق والمنطقة الميتة وقدرة التحليل باتجاه التعرض للأشعة ومدة النبضة السابرة والبعد الأدنى للعيب الذي يجري إظهاره بسرعة الفحص المعتمدة.

وأهم نتائج البحوث في مجال الاختبارات غير المخربة (١٩٩٥-١٩٩٦) تطوير المجهر الصوتي القادر على اختبار الأجزاء المعدنية المعرضة للإشعاع في المحطات النووية سواء في تقدير أمان التجهيزات أو مدة العمل المتبقية لهذه العناصر تقديراً عالي الدقة، ويشمل ذلك مراقبة تجاويف التقلصات والتحري عن العيوب الحجمية الموجودة على أعماق قليلة من السطوح الداخلية، وكذلك التشققات المجهرية التي لاتزيد على المكرومتر وتحليل الإشارات الصادرة.

ويتألف المجهر الصوتي من جزءين رئيسين: جزء فاحص يعمل في المناطق الحساسةالتي تكون معرضة للإشعاع في المحطات النووية، وجزء يكون في غرفة المراقبة ويستقبل الإشارات الصادرة عن الجزء الفاحص.

ويعمل المجهر الصوتي بتردد يراوح بين ١٥و٢٠ ميغاهرتز. وسيعمل التصميم النهائي له بتردد يراوح بين ٥ ,٠ و١ غيغاهرتز. وهذا يعبّر عن دقة عظيمة في القياس لكشف أي تشققات لا تزيد على المكرومتر.

الاختبار بأشعة رونتجن وأشعة غاما :

يعتمد في كشف العيوب الداخلية في المعادن وفي الوصلات اللحامية على خاصة أشعة رونتجن (أشعة X) وأشعة غاما وقدرتهما العالية على النفوذ في مختلف الأجسام الصلبة والمعدنية. وتنقص شدة الأشعة عادة عند مرورها في المادة، إذ يضعف الإشعاع بحسب قانون معين تبعاً للتركيب الكيمياوي للمعدن المفحوص وسماكته وطاقة الإشعاع. ويجري تسجيل الشدة المتغيرة للإشعاع المار في الجسم المفحوص، من السطح المقابل للسطح المفحوص بوساطة صفيحة تصوير إشعاعي كاشف، أو بوساطة منظومة بصرية إلكترونية أو بعداد إلكترونات. ويضعف الإشعاع عند مروره في المعدن الحاوي على عيوب جيب غازي أو مادة خبثية أو شقوق أو غيرها. لكنه أقل مما في المعدن المصمت. وعند تسجيل العيب بوساطة صفيحة التصوير الإشعاعي فإن الإشعاع يترك على مادة الصفيحة تأثيراً كيمياوياً يظهر اسوداداً في الصفيحة يدل على أماكن وجود العيوب، وتتصف هذه الأماكن بأكبر شدة للإشعاع، وتظهر العيوب على هيئة بقع وخطوط سوداء على الخلفية الفاتحة للقطعة المعدنية.

الأجهزة المستعملة: تنتج الصناعة أجهزة رونتجن على هيئة نظم متكاملة مدمجة مؤلفة من أنبوب رونتجن مع محول التوتر العالي أو أنبوب رونتجن منفصلة توصل كاملة بمنبع تغذيتها وهي نوعان: متنقل «للورش» أو ثابت للمخابر، وأكثرها يعمل بتوتر ١٢٠ ك.ف، وبأقصى تيار للمصعد anode (٥ ـ ١٠ أمبير)، تستعمل أجهزة رونتجن النبضية بصورة رئيسة في الأعمال الإنشائية.

أما أجهزة غاما فتتألف من رأس فاحص، يحتوي على نظير مشع، ويضم أيضاً جهاز تحريك المنبع، وناقل العبوة ولوحة تحكم، ويعد السيزيوم ١٣٧ والكوبلت ٦٠ والإيريديوم ١٩٢ والثوليوم ١٧٠ المنابع الأساسية لإشعاعات غاما، وهي خطرة جداً على الإنسان. ويبين الشكل ٦ مخططاً لجهاز أشعة غاما.

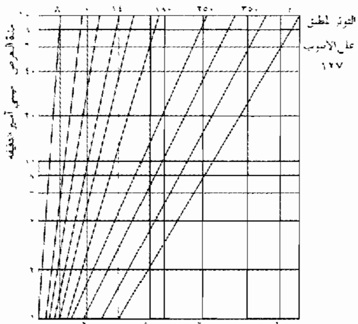
ويمكن حمل أجهزة غاما أو نقلها على عجلات، ويوصل المشع إلى منطقة الفحص عن طريق ناقل العبوة على مسافة ٥ ـ ١٢م، ومن الضروري استخدام هذه الأجهزة لفحص المعادن ووصلات اللحام في الأماكن التي يصعب الوصول إليها، وكذلك في فحص خطوط أنابيب النفط والغاز والخزانات.

وعندما يستلزم الأمر فحص الفولاذ الذي تزيد سماكته على ٧٠مم، فيجب الحصول على أشعة X باستطاعة كبيرة من المسرِّعات الخطية ومن الميكروترونات والبيتاترونات، وهذه الأجهزة تولد أشعة X بكثافة وحساسية أكبر للفحص ويكون زمن الفحص أقل.

وتستخدم الصفائح التصويرية الإشعاعية بحواجز أو من دون حواجز، وتخصص مختلف مستويات الحساسية للصفائح لأهداف محددة، فمثلاً تستخدم الصفيحة رقم ٥ لكشف العيوب ذات البعد الأصغر، وغيرها لكشف العيوب العميقة، وغيرها.

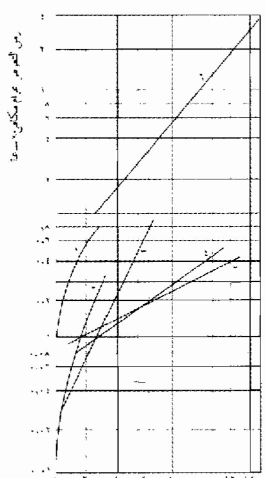
ومن المميزات الأساسية للصفيحة التصويرية حساسيتها للإشعاعات المتباينة الشدة، وقدرتها على كشف العيوب المتقاربة.

تقنية الفحص الإشعاعي: يتم اختيار نوع الإشعاع تبعاً لسماكة المعدن المراد فحصه، وأهمية المنتجات ذات العلاقة، والأنواع المتوافرة من مصادر الإشعاع. فمثلاً عند فحص المنتجات التي يمكن أن تكون فيها عيوب ذات أبعاد كبيرة، يفضل استخدام النظائر المشعة (أشعة غاما) وتكون الحساسية النسبية للنظائر المشعة ٤٪ ويعني ذلك أنه يمكن إظهار عيب ارتفاعه ٤ مم في لوح سماكته ١٠٠مم، وتتمتع الأنواع المختلفة من النظائر المشعة بحساسية نسبية مختلفة ويتم التحضير للتصوير باختيار صفيحة التصوير بأشعة X بموجب جداول ومخططات بيانية (الشكل ٧).

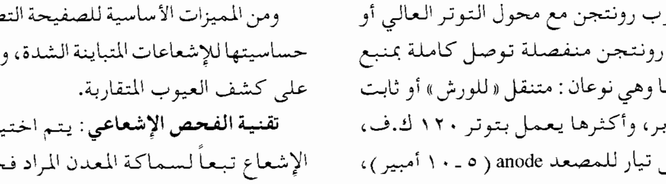


(الشكل ٧) بياني يحدد مدة تعريض صفائح فولاذية حتى سماكة ٧٥ مم لأشعة إكس

أما في الاختبار المعتمد على أشعة غاما فيستعان بمخططات بيانية معيارية لتحديد زمن التعرض للإشعاع والمسافة بين مصدر الإشعاع والصفيحة المعدة للفحص وطاقة الإشعاع، ونوعية الصفيحة التصويرية الحساسة (الشكل ٨).



(الشكل ٨) بياني يحدد مدة تعريض صفائح الفولاذ لأشعة غاما لأنواع مختلفة من المواد المشعة :
١ ـ توليوم ١٧٠ ، ٢ ـ سترونسيوم ٨٥ ،
٣ ـ إريديوم ١٩٢ ، ٤ ـ سيزيوم ١٣٧ ،
٥ ـ بوروبيوم ١٥٢ ، ٦ ـ كوبالت ٦٠ .



الشكل/٦/: مخطط جهاز أشعة غاما

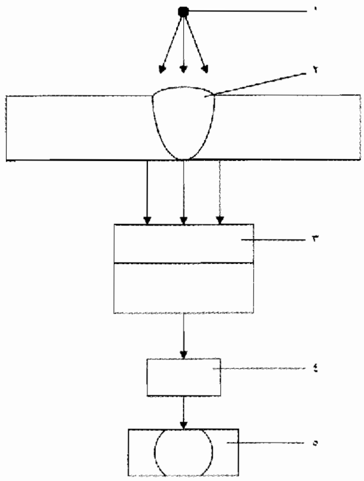
١ جهاز تحريك للتحكم. ٢ـ سلك التغذية. ٣ـ خرطوم التوصيل.
٤ـ حامل منبع الإشعاع. ٥ـ الرأس المشع. ٦ـ ناقل العبوة.
٧ـ مسدد الأشعة.

الطرائق الحديثة لكشف العيوب بالإشعاع: تعد طريقة التصوير الجاف بأشعة رونتجن، والكشف الداخلي التلفزيوني من الطرائق الحديثة لكشف العيوب في المعادن بوساطة الإشعاع.

وينحصر مبدأ التصوير الجاف بأشعة X بكشف العيوب باستعمال رقائق من الفولاذ أو خلائط الألمنيوم تطلى سطوحها بطبقة من مادة جيدة الناقلية (السيلينيوم)، وتشحن الرقائق مسبقاً. وتحت تأثير أشعة X أو غاما، تفقد الرقائق الشحنات الكهربائية، وتصبح الشحنة المتبقية ضعيفة كلما ازدادت شدة الإشعاعات. وتكون شدة الإشعاعات أعلى في أماكن توضُّع العيوب، ولذا فإن الشحنة المتبقية في أماكن العيوب تصبح ضعيفة، وينتج من هذه المؤثرات توزع إلكتروستاتي جديد على الرقائق يمكن تحويله إلى صورة مرئية عند إظهاره. وتنحصر عملية الإظهار برش الرقائق الحاوية على العيوب بمسحوق مشحون مسبقاً شحناً كهربائياً ويحتاج ذلك عادة إلى ١٠ـ٤٠ ثانية، ويتم تنفيذ عملية شحن الرقائق ومسحوق الإظهار بوساطة تفريغ كهربائي بتوتر يراوح بين ٧ و١٢ ك.ف، وتعادل مدة الشحن ١٠ـ١٢ ثانية وتحافظ الصفيحة على الشحنة مدة لا تزيد على ٣٠ دقيقة ويقارب عمر الرقائق ٧٠٠ دورة من دورات الشحن والتفريغ، وتنفذ عملية سحب النسخ من الصفيحة بتماسها مع ورقة عادية تثبت عليها الصورة الحاصلة للقطعة المفحوصة. تقترب الحساسية النسبية لطريقة التصوير الجاف من حساسية طريقة التصوير الإشعاعي، وتنحصر أفضلية التصوير الجاف على التصوير الإشعاعي في سهولة الإظهار وسرعة الحصول على الصورة.

أما طريقة الكشف الداخلي التلفزيوني فتعتمد على إظهار الأجسام المعدة للاختبار والمعرضة للأشعة على شاشة التلفزيون، وتظهر عندئذ أبعاد العيوب وأشكالها، وتستخدم عادة أشعة X وتقوم الأنابيب المهبطية والمحولات الإلكترونية والبصرية وغيرها بتحويل الإشعاعات، بعد عبورها القطعة المراد فحصها، إلى أشعة مرئية، وبعض هذه التجهيزات قادر على كشف العيوب في سطوح معدنية حتى سماكة ٧٠مم وبحساسية ٣ـ٤٪ وبسرعة مسح مقدارها ١,٥ م/دقيقة ويستخدم صمام التصوير التلفزيوني vidicon بأشعة X لفحص الفولاذ مثلاً، إلى جانب أجهزة الكشف الداخلي بأشعة X ومن هذه الأجهزة المنظومة التلفزيونية المتضمنة صماماً رونتجنياً، وتُحوَّل الصورة الرونتجنية مباشرة إلى إشارة مرئية يمكن نقلها في وحدة الاتصال إلى أنبوب الاستقبال التلفزيوني، وتتحول الصورة الإلكترونية إلى صورة ضوئية (الشكل ٩).

تتصف الوحدات التلفزيونية الصناعية



الشكل/٩/. منظومة تلفزيونية لفحص عيوب المعادن مزودة بفيديكون رونتجني.

١ منبع الإشعاع ٢ المعدن المفحوص ٣ فيديكون رونتجني
٤ـوحدة اتصال ٥ـجهاز تلفزيوني

بحساسية نسبية مرتفعة للتصوير على شاشات أجهزة الكشف الداخلي بأشعة رونتجن، يمكن بوساطتها فحص المعادن أو وصلات اللحام التي تصل سماكتها إلى ١٥ مم بدقة عالية جداً. وبفضل تطور طرائق جديدة مبنية على استخدام الحاسوب، أصبح ممكناً اليوم التصوير الرونتجني التلفزيوني لمنتجات معدنية وللحامٍ أكثر سماكة.

اختبار المعادن بالفحص المغنطيسي: يعتمد فحص المعدن مغنطيسياً على إظهار مجالات التشتت عند مرور خطوط القوة المغنطيسية في أماكن وجود العيوب، فإذا وضع مسحوق حديدي مغنطيسي على سطح المعدن، يتجمع المسحوق فوق مكان العيب على هيئة طيف موجه بانتظام (الشكل ١٠).

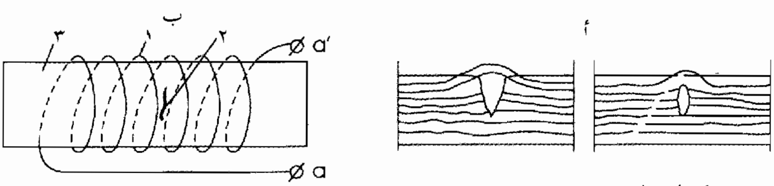
ينفذ التمغنط بإمرار التيار في القطعة المراد فحصها وبتوليد مجال مغنطيسي حول القطعة تحت تأثير مغنطيس طبيعي أو مغنطيس كهربائي، ويتحدد عدم انتظام المجال المغنطيسي بالحساس الذي يتمثل هنا بالمسحوق المغنطيسي، وهو الذي يبين موقع العيب وامتداده بالقطعة. والطريق الملائمة لإحداث تدفق مغنطيسي هي إمرار تيار مستمر كثافته ١٥ـ٢٠ أمبير/مم٢ في لفات السلك الملفوف من ثلاث إلى ست لفات على القطعة المراد فحصها، ويمكن بمساعدة المسحوق المغنطيسي إظهار أي عيوب داخلية مهما كانت، ويستخدم هذا النوع من الاختبار لكشف الشقوق التي لا ترى بالعين المجردة، والشقوق الداخلية، وانفصال المعدن إلى طبقات وكذلك كشف التجاويف الغازية الكبيرة، والمسامية والتكونات الخبثية الداخلية.

وهناك طريقتان للفحص بمساعدة المسحوق المغنطيسي: الطريقة الجافة والطريقة الرطبة.

ففي الطريقة الأولى، يكون المسحوق (برادة الحديد) جافاً، وفي الطريقة الثانية، يكون المسحوق المغنطيسي معلقاً في السائل (كيروسين، محلول الصابون، ماء).

ويمكن، بالطريقة الجافة، كشف العيوب السطحية والداخلية في حين يفضل كشف العيوب السطحية بالطريقة الرطبة.

وتستخدم أيضاً طريقة تسجيل التغيرات



الشكل/١٠/: اختبار المعادن بالفحص المغنطيسي

أ: يبين مرور الفيض المغنطيسي على قطعة معدنية معدة لإختبار وجود عيوب فيها.

ب: مغنطة قطعة معدنية بمرور تيار كهربائي في الملف (a a').

١ـلفات السلك ٢ ـتشقق في المعدن ٣ـالقطعة المعدة للإختبار

المغنطيسية على شريط مغنطيسي، لفحص المعادن وخلائطها، ومناطق اللحام، وتعتمد هذه الطريقة على تسجيل مجالات التشتت التي تتولد فوق العيوب، على شريط مغنطيسي ثم استعادتها بكاشف مغنطيسي، وتُتبع هذه الطريقة، في فحص الأنابيب ووصلاتها، والهياكل المصنوعة من ألواح معدنية سماكتها تراوح بين ٤ و١٦ مم.

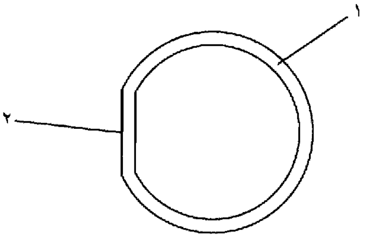
اختبار المواد بتحليل طيف القوس الكهربائية للمادة: تستخدم في معامل الصلب وفي المخابر المتخصصة طريقة القوس الكهربائية المسلطة على المادة لمعرفة النسب المئوية لمكونات الفولاذ أو الخلائط المعدنية الأخرى.

ويعتمد على مبدأ تحليل إضاءة قوس كهربائية تسلط على الخليطة المعدنية، وبوساطة جهازٍ محللٍ طيفي، مرتبط بحاسوب رقمي، تحدد بسرعة وبدقة نسبة المكونات في الفولاذ (من كروم ونيكل وفحم وغيرها) ويعتمد على هذه الطريقة لبساطتها ودقتها في مراقبة إنتاج معامل الصلب، وذلك بإجراء عدة قياسات على نماذج من الحديد والفولاذ على مدار ساعات الإنتاج اليومي، إضافة إلى استعمالها في تحديد النسب المئوية للخلائط الخاصة (فولاذ، تنغستين، مولبدين وغيرها).

اختبار المواد في النفق الهوائي فوق الصوتي تحت شروط البرودة القصوى: وهي تجارب حديثة ومرتفعة النفقة، هدفها فحص مقاومة بعض الخلائط المعدنية من فولاذ ـ تيتانيوم وغيرها في تحمل التقلص والتمدد السريعين في سرعات أكبر من سرعة الصوت، وتستعمل بوجه خاص لاختبار مقاومة هياكل الصواريخ وهياكل الطائرات فوق الصوتية التي تحلق على ارتفاعات عالية (من ٢ ـ ٨ ماك). وكما هو معلوم فإن السرعات العالية تسبب ارتفاعاً شديداً في درجة حرارة هيكل الطائرة أو الصاروخ أو المكوك الفضائي التي تصل إلى ١٠٠٠ ـ ١٨٠٠ درجة مئوية وذلك ناتج من احتكاك ذرات الهواء مع المعدن.

ومن المعلوم أن درجة حرارة الجو على ارتفاعات شاهقة تراوح بين ٤٠ و٦٠ درجة مئوية تحت الصفر. وهذا التباين الكبير في درجات الحرارة يضاف إليه سرعة الطائرة إلى أضعاف سرعة الصوت، يعرض هيكل الطائرة ومسامير التثبيت إلى إجهادات ميكانيكية هائلة يصعب التنبؤ بها، لذا يتم فحص نماذج مصغرة ضمن نفق هوائي صنعي، يضمن تدفق تيار هواء بسرعة مقدارها عدة مرات سرعة الصوت، توفرها عنفات خاصة متسلسلة ويجهز النفق أيضاً بضواغط، لتبريد الهواء حتى درجات متدنية تراوح بين ٥٠ و٦٠ درجة مئوية تحت الصفر.

تدور الكتلة الهوائية السريعة جداً والباردة في نفق مغلق دائري أحد أجزائه مستقيم يخصص لوضع النماذج المصغرة للطائرات المعدة



الشكل/١١/: تمثيل النفق الدائري المغلق

١ – نفق دائري مغلق ٢ – جزء مستقيم

للاختبار (الشكل ١١) وبهذا الجهاز يمكن اختبار عدد كبير من الخلائط المعدنية لدراسة المعادن في شروط قاسية من السرعة والبرودة القصوى.

اختبار المواد تحت شروط مركبة (حرارة وضغط وإشعاع ذري): لاحظ الخبراء في المدة الأخيرة حدوث تشققات خطرة في الجسم الفولاذي لقلب المفاعل الذري المستخدم في المحطات النووية لتوليد الطاقة الكهربائية. وتتوضع تلك التشققات حول فتحات أنابيب التبريد وكذلك أنابيب قضبان التحكم في المفاعل كما وجد أن تلك التشققات حصلت بسبب الإجهادات المطبقة على المعدن من قذف نيوتروني وحرارة عالية وضغط مرتفع. وهي تسبب خطراً كبيراً على تشغيل المفاعلات مما يترتب عليه إيقاف عدد كبير منها لتبديل تلك الوصلات الفولاذية، مما يسبب خسارات مادية كبيرة لم تكن في مجال تقديرات الخبراء من قبل.

لذلك بدأت سلسلة من الأبحاث هدفها وضع الأسس القياسية لاختبار مجموعة من نماذج الخلائط المعدنية، ووضع طرائق حديثة في لحم المعادن، وتعريضها لإشعاع ذري، وضغط عالٍ وحرارة مرتفعة لمدد طويلة زمنياً لاختبار الخلائط المقاومة لشروط عمل مركبة.

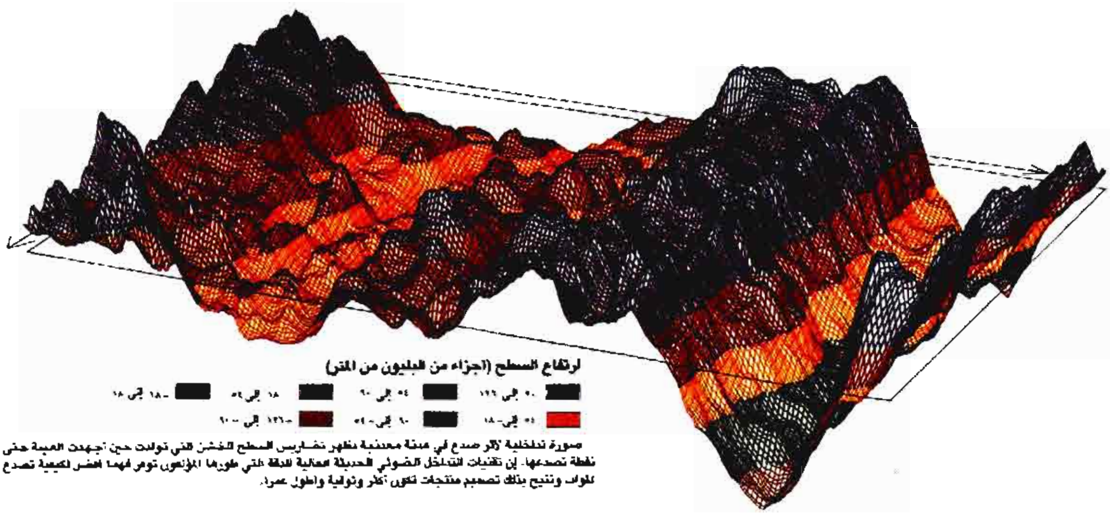
اختبار السطوح بقياس التداخل الضوئي: إن المبدأ الأساسي في التداخل الضوئي هو أنه عندما تلتقي موجتان ضوئيتان فإنهما تتداخلان إحداهما مع الأخرى فإذا انطبقت ذروة إحدى الموجتين على قاع الموجة الأخرى (كانتا متعاكستين في الطور) كان التداخل هداماً وأبطلت إحداهما الأخرى. أما إذا تطابقت ذروتا الموجتين وتطابق قاعاهما (كانتا متفقتين في الطور) فإن الموجتين تقوّي إحداهما الأخرى. وتستعمل التداخلات الضوئية لقياس تنقلات ضعيفة جداً أو تشوهات صغيرة.

وإن تقنيات التداخل الضوئي الحديثة العالية الدقة توفر فهماً أفضل لكيفية تصدع المواد، وتتيح بذلك تصميم منتجات تكون أكثر ثقة وأطول عمراً. والشكل ـ ١٢ يبين صورة تداخلية لأثر صدع في عينة معدنية تظهر تضاريس السطح الخشن التي تولدت حين أجهدت العينة حتى نقطة تصدعها.

وقد قامت تقنية التداخل الضوئي أيضاً بدور مهم في تحسين شرائط التسجيل المغنطيسية وصنعها، فالاختبار يبين جودة أداء شريط الفيديو أو شرائط التسجيل المغنطيسية وصنعها، أو شرائط تسجيل الحاسوب إذ إن كفاية التسجيل تتعلق مباشرة بخشونة السطح. ولما كانت هذه الطريقة سريعة في اختبار السطوح من دون تماس مع السطح ومن دون أي تخريب، فإن هذه الطريقة أسهمت في إنقاص نفقة صنع شرائط التسجيل المغنطيسية وأقراص الحاسوب وسطوح الرقاقات الميكروية micro chips كما تحسن كذلك أداء هذه المواد وجودتها تحسناً كبيراً.

وكذلك يُعتمد على طريقة قياس التداخل الضوئي لدراسة كيف تبلى منتجات مثل أقراص الحاسوب أو مدارج الكريات بغية تحسين نوعيتها.

وقد تبين عند اختبار سطوح أفلام التصوير أن تضاريسها السطحية تتبع في الغالب الكثافة الضوئية للصورة أي نقاط التعتيم فيها وقد ساعد قياس التداخل الضوئي في تحسين التباين في الصورة الفوتوغرافية بقياس انحدار تضاريسها السطحية، ومعلومات من هذا النوع هي مهمة جداً وتفيد في تحسين صناعة الأفلام.



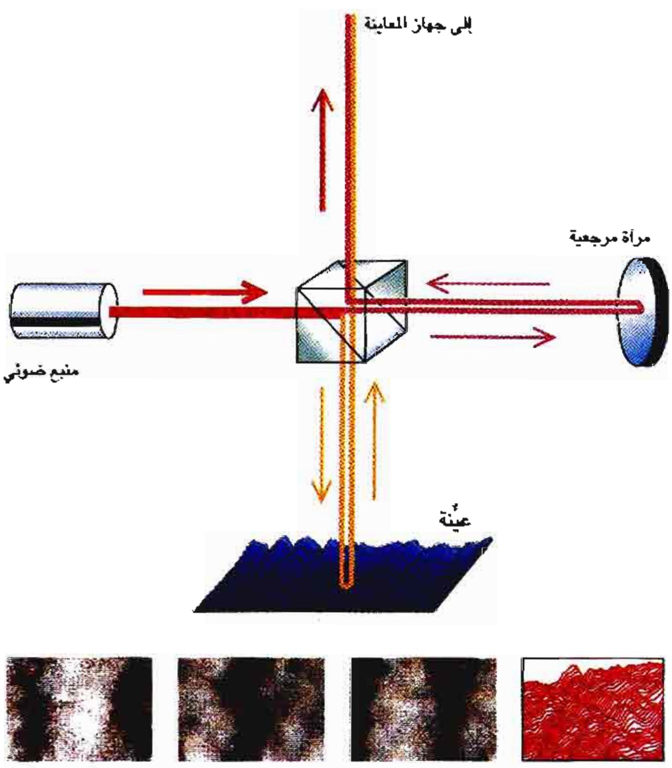
صورة تداخلية لأثر صدع في عينة معدنية تظهر تضاريس السطح الخشن التي تولدت حين أجهدت العينة حتى نقطة تصدعها. إن تقنيات التداخل الضوئي الحديثة العالية الدقة التي طورها المؤلفون توفر فهماً أفضل لكيفية تصدع المواد وتتيح بذلك تصميم منتجات تكون أكثر وثوقية وأطول عمراً.

وتعتمد طريقة اختبار السطوح بقياس التداخل الضوئي على طبيعة الضوء الموجية لإجراء قياسات بالغة الدقة لتضاريس السطوح. إذ إن التداخل يتيح تحليلاً مثالياً ولا يتضمن تماساً فيزيائياً مع السطح الذي يراد دراسته ولكن تفسير صور التداخل وتحويلها إلى قياسات مفيدة لبنية سطح المادة صعب جداً، لأن مخططات التداخل تتألف من أنماط سريعة التواتر لشرائط مضيئة ومظلمة إلى درجة يصعب معها استنتاج صورة واضحة ودقيقة لسطح المادة المختبرة.

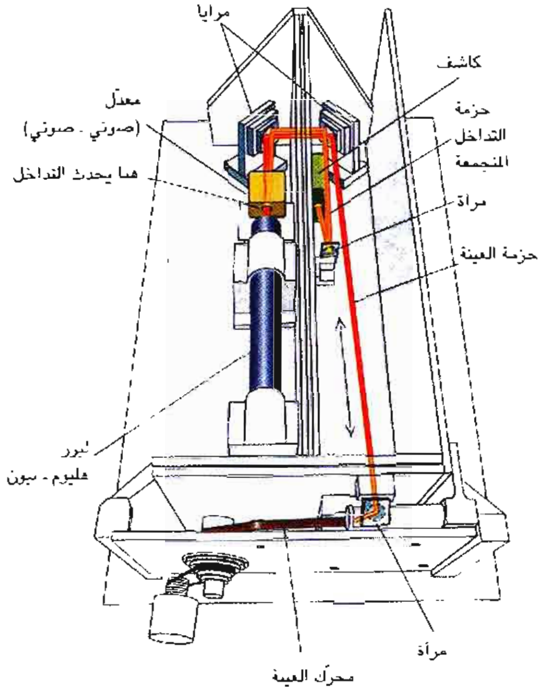
بيد أن تطور البرامج الحاسوبية، لإظهار صور ثلاثية الأبعاد يولدها الحاسوب، سهل توفير مقدار كبير جداً من المعلومات عن مخطط التداخل بطريقة واضحة، وهكذا تم الجمع بين مقياس التداخل والحواسيب الحديثة التي تتصف بقدرتها العالية على رسم المخططات البيانية المعقدة.

وطريقة اختبار السطوح بقياس التداخل الضوئي تنافس مباشرة طريقة فحص السطوح بوساطة المجاهر الضوئية والإلكترونية لأن هذه المجاهر تميّز تفاصيل دقيقة جداً إلا أنها تعجز بوجه عام عن قياس ارتفاع النتوءات والعيوب التي تكثر على السطح.

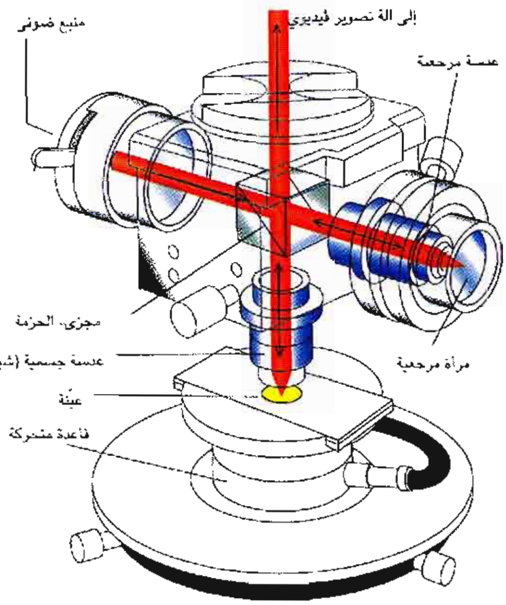
والطريقة القياسية التقليدية المعروفة باسم القياس الإبري للتضاريس stylus profilometry تتضمن إبرة تسجيل تتحرك عمودياً ملامسة لسطح العينة المراد فحصها، فيسجل صعود الإبرة وهبوطها تضاريس سطح العينة على شريط رقيق، ويكمن عيب هذه الطريقة في أن ضغط رأس الإبرة على السطح ضغطاً شديداً يمكن أن يخرب سطح الأفلام والشرائط وأقراص الحاسوب، لذلك كان للتداخل الضوئي ميزات مهمة في دراسة بنية السطوح. والأداة السابرة الوحيدة المستخدمة هي حزمة ضوئية ضعيفة الشدة، حتى لا تكون متلفة لسطح المادة. ويمكن للتداخل - من حيث المبدأ - أن يحلل تضاريس



(الشكل ١٣) أسلوب قياس التداخل الضوئي على مقياس ميكلسون



(الشكل ١٤) مقياس التداخل الليزري



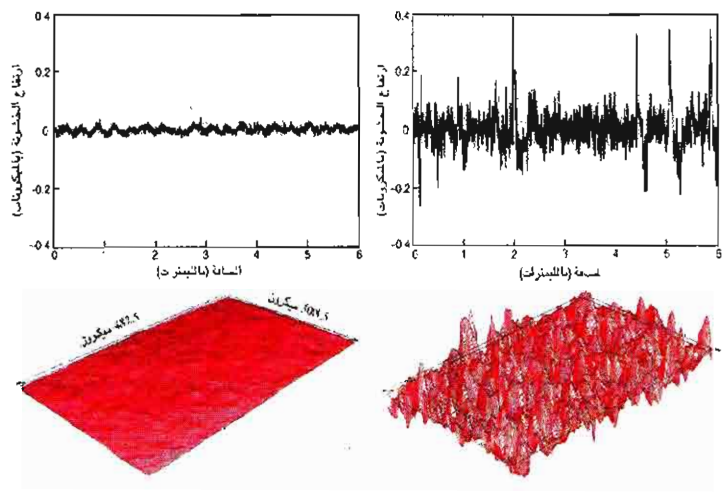
(الشكل ١٥) مقياس التداخل المجهري

السطح التي تبلغ ارتفاعاتها بضعة أنغسترومات.

ويستخدم مبدأ التداخل في عدة مقاييس للتداخل. وأول هذه المقاييس هو مقياس ميكلسون للتداخل الضوئي الذي يبين (الشكل ١٣) طريقة عمله.

يحدث التداخل الضوئي عندما تتلاقى موجتان أو مجموعة من الموجات، ففي الطراز الحديث من مقياس ميكلسون للتداخل، تسقط حزمة ليزر على مرآة نصف عاكسة تجزئ الحزمة إلى حزمتين في مسارين متعامدين فتنعكس إحدى الحزمتين عن العينة وتنعكس الأخرى عن المرآة المرجعية. وحين تلتقي الموجتان بعد انعكاسهما تتولد من تراكبهما موجة تكون شدة ضيائها عظمى إذا كانت الموجتان متفقتين في الطور وتكون شدتها صغرى إذا كانت الموجتان متعاكستين في الطور.

وتتناوب المناطق المظلمة والمضيئة، التي تسمى أهداب التداخل، في الصورة التداخلية أو مخطط التداخل المبين في الصف السفلي، وتغير نتوءات سطح العينة وأغواره طول المسار الذي تقطعه الحزمة الأولى فتتغير بذلك العلاقة المكانية بين الحزمتين وشكل الأهداب التي تُظهر تضاريس سطح العينة مثلما تفعل خطوط المناسيب (الارتفاعات) على مصور جغرافي.



(الشكل ١٦) تضاريس سطح نموذجي لشريط مغنطيسي

وتقتضي إحدى طرائق تحليل قياس التداخل بالحاسوب تكوين ثلاث صور تداخلية للعينة، وهي في هذه الحالة شريط فيديو خشن جداً. يغير تحريك العينة المسافة التي تقطعها الحزمة الأولى ويغيّر الأطوار في الموجة المتجمعة. وبتحليل تغيّر الضياء في كل نقطة من الصورة التداخلية يمكن الكشف عن طور الموجة ومن ثم ارتفاع السطح في النقطة المقابلة من سطح العينة ثم تُرسم هذه المعلومات صورةً ثلاثية الأبعاد (أقصى اليمين في الأسفل).

والمقياس الثاني هو مقياس التداخل الليزري الموضح في الشكل - ١٤ إذ يوجه مقياس التداخل الليزري الماسح حزمة ليزرية مركزة نحو عينة متحركة ويقوم معدّل بتغيير تواتر (تردد) حزمة العينة فيجعلها تولد نسقاً منتظماً من التداخل عندما تمتزج مع الحزمة الأصلية. إذ تغير

النتوءات والأغوار التي على سطح العينة طول المسار فيتغير النسق وتظهر بذلك تضاريس العينة.

أما المقياس الثالث فهو مقياس التداخل المجهري المبين في الشكل ١٥ ويتألف من مقياس ميكلسون الذي يتضمن عدسات مكبرة وصينية متحركة للعينة.

تسجل آلة تصوير فيديوي أنماطاً تداخلية لثلاثة أوضاع للعينة وتحولها إلى معلومات رقمية تكوّن منها برامج الحاسوب صورة ثلاثية الأبعاد لسطح العينة.

ويبين الشكلان ١٦ و١٧ أمثلة عن نتائج استعمال هذه المقاييس لاختبار نعومة سطح شريط مغنطيسي.



(الشكل ١٧) صورة ضوئية (فوتوغرافية) لخريطة اختبار بمقياس التداخل المجهري

ويتطلب تسجيل مخططات التداخل الضرورية باستعمال مقياس التداخل المجهري ثانيتين تقريباً، وهو الزمن اللازم لقياس مخطط معالم السطح باستعمال مقياس التداخل الليزري الماسح، أما الحاسوب فيتطلب نحو دقيقتين لتحليل المعلومات الواردة من مقياس التداخل ويمكن للحاسوب، بالاعتماد على المعالجة الرقمية، إجراء تعديلات كثيرة من تضخيم للتضاريس الرأسية للصورة، وإضافة الألوان إلى التفاصيل، أو إظهار مناظر جانبية.

ويمكن للحاسوب، بمعالجات رياضية، تحديد ارتفاع معالم السطح التي يكشفها مقياس التداخل أو عمقها أو حجمها، وتحليل طبوغرافية السطح الإجمالية ضمن المساحة المدروسة.

إن الاعتماد على هذه الطرائق الحديثة ساعد في إنقاص نفقة إنتاج المواد وقدم طريقة مثالية لدراسة حزوز التآكل وعرّف بآلية تآكل المواد المصنعة.

فيصل العاس، مقداد مهنا

■ الاختراع (براءة-)

يقصد ببراءة الاختراع brevet d'invention الشهادة التي تمنحها الدولة للمخترع. وهي تتضمن وصفاً للاختراع مع تخويل صاحبه حق استثماره والإفادة منه مدة معينة. وتعد الحماية القانونية المقررة للمخترعين واختراعاتهم أهم صور حماية المبتكرات الجديدة لما لهذه المخترعات من فضل كبير في تقدم الصناعة بوجه خاص والمدنية بوجه عام. فالعدالة تقضي بألا يحرم المخترع ما بذله من مال وجهد في سبيل الوصول إلى اختراعه، ولذلك فقد اعترف معظم تشريعات الدول للمخترع بحق الاستئثار باستغلال اختراعه مدة معينة تراوح بين عشر سنوات وعشرين سنة ليصبح بعدها الاختراع مالاً شائعاً يحق للجميع الانتفاع به، واستقرت أحكامها على هذا الأساس. ففي سورية مثلاً صدر المرسوم التشريعي رقم ٤٧ لعام ١٩٤٦ متضمناً تنظيم حماية الملكية الصناعية والتجارية التي من أهم عناصرها براءة الاختراع.

الشروط الموضوعية لمنح البراءة

أشارت المادة الأولى من المرسوم التشريعي رقم ٤٧ لعام ١٩٤٦ إلى أنه «يعتبر اختراعاً صناعياً ابتكار أي إنتاج صناعي جديد أو اكتشاف طريقة جديدة للحصول على إنتاج صناعي قائم أو نتيجة صناعية موجودة، أو الوصول إلى تطبيق جديد بطريقة صناعية معروفة..» ونصت المادة السادسة من المرسوم نفسه على أنه «لا تعطى شهادة الاختراع للأسباب المالية والاختراعات المخالفة بصراحة للنظام العام أو للآداب والدساتير والتراكيب الصيدلية». وما يستخلص من هذه النصوص أنه يلزم لمنح البراءة ضرورة توافر أربعة شروط هي التالية:

وجود ابتكار أو اختراع: لكي تمنح البراءة ويتمتع صاحبها بحق الاستئثار باستغلالها من دون غيره من الأشخاص، يجب أن يكون المخترع قد قدّم أو ابتكر شيئاً جديداً للمجتمع، لم يكن معروفاً من قبل. ولا أهمية لكون الاختراع قد جاء نتيجة جهد خاص أو دراسات أو أبحاث طويلة بل العبرة، وفق أحكام القانون للنتيجة، ولو جاءت من دون أية مشقة أو حتى بمجرد المصادفة.

أما موضوع الابتكار، فإما أن يكون إنتاجاً صناعياً جديداً، أو طريقة صناعية جديدة، أو تطبيقاً جديداً لطريقة صناعية معروفة. فالاختراع يتعلق بإنتاج صناعي جديد عندما يسفر عن إنتاج شيء جديد له خصائص معينة تميزه من غيره من الأشياء وتكون له قيمة ذاتية كاختراع آلة موسيقية جديدة أو مادة عازلة جديدة. وتسمى البراءة التي تمنح في هذه الحالة براءة الناتج وهي أقوى البراءات وأوسعها نطاقاً. وقد يكون الاختراع متعلقاً بطريقة أو وسيلة جديدة تسمح بالوصول إلى إنتاج موجود ومعروف قبلاً، والجديد هو فقط كيفية إنتاجه مثل اختراع جهاز جديد للتبريد أو التدفئة. وتسمى البراءة هنا ببراءة الوسيلة أو الطريقة.

من غير أن يحول ذلك دون حق الآخرين في صنع الشيء ذاته بأي وسيلة أخرى.

كما قد يتعلق الاختراع بتطبيق جديد لطريقة معروفة. فالابتكار لا ينصب على اختراع طريقة جديدة أو اختراع ناتج جديد، وإنما يكون باستخدام الوسيلة المعروفة للوصول إلى نتيجة معروفة كذلك. والجدة في هذه الحالة هي الربط بين تلك الوسيلة وهذه النتيجة. ومثال ذلك استخدام الكهرباء في عمليات التبريد. فالكهرباء وسيلة معروفة والتبريد نتيجة معروفة كذلك، لكن الجديد هو هذا الاستخدام الجديد للكهرباء في إحداث التبريد.

جدة الاختراع: نصت المادة الرابعة من المرسوم المذكور أنه «لكي يعتبر الاختراع جديداً يجب أن لا يكون قد نشر عنه في سورية ولا في البلاد الأجنبية شيء يمكن من تطبيقه واستعماله..». إن الشرط الموضوعي الثاني لمنح البراءة هو أن يكون الاختراع جديداً غير معروف أو مسبوق إليه، ويعد شرط الجدة أهم ركن لقيام الاختراع. فالشيء المدّعى باختراعه يجب ألا يكون قد ذاع وانتشر استعماله قبل تسجيل الاختراع، إذ بذيوعه وانتشاره يصبح ملكاً للجميع وليس لأحد حق احتكاره. ويزول شرط الجدة ولا تمنح البراءة حتى لو كان من أفشى سرية الاختراع هو المخترع نفسه.

قابلية الاختراع للاستغلال الصناعي: يشترط في الاختراع الذي تمنح له البراءة أن يكون قابلاً للتطبيق في الإنتاج الصناعي، ذلك أن البراءة تمنح صاحبها حق الاستئثار بالاستغلال مما يستتبع أن يكون الاختراع قابلاً للاستثمار الصناعي وذا صلة بمادة أو بشيء محسوس.

وينصرف اصطلاح الصناعة إلى معناها الواسع فيشمل كل نشاط إنساني كالصناعات الاستخراجية والزراعة والصيد. فمن يخترع آلة لاستخراج المعادن أو للحرث أو للري أو يخترع طريقة جديدة تكفل تحسين المحصول أو رفع مستوى جردته يمنح عنها براءة اختراع، أما مجرد كشف نوع جديد من البذور فلا يعد اختراعاً. وكذلك لا يعد من قبيل الاختراعات الأفكار والنظريات العلمية البحتة التي لا تتجسم في تطبيقات عملية. وإلى هذا أشارت المادة التالية من المرسوم التشريعي رقم ٤٧ بقولها: «تعتبر باطلة وعارية عن أي مفعول الشهادات الممنوحة إذا كان الاختراع يتعلق بأساليب أو طرائق نظرية محضة أو علمية محضة دون أن يكون لها تطبيق صناعي معين».

مشروعية الاختراع: إن الشرط الأخير لجواز منح البراءة هو ألا ينشأ عن استغلال الاختراع إخلال بالآداب أو بالنظام العام كاختراع آلة لكسر الخزائن أو لعب القمار أو غليون مخصص لتدخين الأفيون مثلاً. كما لا يجوز منح البراءة لاختراعات تتعلق بالعقاقير الطبية أو المركبات الصيدلانية كي لا تكون ضرورات الحياة الأساسية في الصحة العامة محل احتكار أو مساومة من جانب المخترع.

الشروط الشكلية لمنح البراءة في سورية

تبدأ إجراءات صدور البراءة بالطلب الذي يتقدم به المخترع ولكل شخص أن يطلب منحه شهادة الاختراع، وإذا كان أجنبياً وجب عليه أن يختار ممثلاً له مقيماً في سورية. ويقدم الطلب من المخترع أو وكيله القانوني إلى مدير مكتب الحماية لدى وزارة التموين والتجارة الداخلية بدمشق. ويجب أن يرافق طلب البراءة صك الوكالة إذا قدم بوساطة وكيل، ويوضع في مغلف مختوم يتضمن نسختين من وصف الاختراع مكتوبتين باللغة العربية وبإحدى اللغتين الفرنسية أو الإنكليزية، ويحتوي المغلف أيضاً الرسوم والمخططات اللازمة لفهم الاختراع وقائمة بالوثائق المودعة والموقعة من المخترع أو وكيله.

ينظم مدير مكتب الحماية محضراً موقعاً منه يحدد فيه تاريخ وساعة تسلم الوثائق أو وصولها ودفع الرسوم، ويجوز إعطاء مقدم الطلب نسخة من هذا المحضر أو إرسالها إليه. وإذا لم تتوافر في الطلب الشروط القانونية فإنه يعاد إلى صاحبه لاستكمال الوثائق الناقصة وإلا رفض الطلب. أما إذا كان الطلب مستوفياً للشروط المطلوبة، فيصدر قرار من وزير التموين بمنح البراءة. ويعطي مكتب الحماية مهلة ثمانية أيام من تاريخ إيداع الطلب لتنظيم شهادة الاختراع وتسليم صكها إلى صاحبها. ولا يكون لتسجيل الاختراع وتسليم المخترع صكاً بذلك أية ضمانة من أي نوع سواء من حيث حقيقة الاختراع أو جدته أو من حيث أمانة الوصف أو دقته. ولذلك فإنه يحق لكل شخص ذي مصلحة أن يقيم دعوى إبطال البراءة أمام محكمة البداية لمدينة دمشق.

آثار منح البراءة

لمالك البراءة وحده حق احتكار استثمار الاختراع بجميع الطرق التي يراها مناسبة. وهذا الحق هو حق حصري للمخترع يمتنع سائر الناس من الاعتداء عليه في هذا الشأن. وتمتد مدة الحماية التي تكفلها شهادة الاختراع خمس عشرة سنة تبدأ من تاريخ محضر إيداع طلب البراءة. وبالمقابل يلتزم صاحب البراءة أن يقوم فعلاً باستغلال اختراعه كي تتحقق مصلحة المجتمع في ذلك. فمنح المخترع الحماية القانونية لم يقصد منه سوى الحفز على زيادة التقدم الصناعي وتسهيل سبل الحياة للإنسان. ولذلك يسقط حق صاحب البراءة إذا لم يضع في مدة سنتين اختراعه موضع الاستعمال، مالم يبرهن أنه عرض اختراعه مباشرة على الصناعيين القادرين على تحقيق اختراعه، وأنه لم يرفض بلا سبب طلبات الإذن باستعمال اختراعه وفق شروط معقولة. كما يلتزم صاحب البراءة أن يدفع رسماً سنوياً تصاعدياً طوال مدة الحماية ويتم التسديد قبل مطلع كل سنة وإلا سقطت حقوق صاحب البراءة.

التنازل عن البراءة ورهنها وحجزها

إن حق المخترع في اختراعه من الحقوق المالية التي تدخل في نطاق الذمة. ولهذا فإن لصاحب البراءة أن يتنازل عنها كلياً أو جزئياً، مجاناً أو لقاء ثمن، وسواء كان التنازل يقتصر على حق رقبتها أو يشمل أيضاً حق استغلالها، أو المساهمة بها في شركة إلى غير ذلك من طرق التنازل. ويشترط في التنازل عن البراءة أن يتم خطياً وإلا كان باطلاً، كما لا ينفذ في حق الغير إذا لم يسجل في مكتب الحماية بطلب من المتنازل وذلك في غضون ثلاثة أشهر تبدأ من يوم التنازل. ويذكر في هذا التسجيل اسم كل من المتنازل والمتنازل له وعنوانهما ورقم البراءة وتاريخها. وتنشر جميع قيود التنازل عن البراءة في الجريدة الرسمية.

ويحق لصاحب البراءة أن يقترض بضمانتها عن طريق رهنها رهناً حيازياً. ويجب أن يكون الرهن عن طريق الكتابة وإلا عُدّ باطلاً. ولا ينفذ إزاء الغير إذا لم يسجل في مكتب الحماية. ويتم شطب تسجيل الرهن في سجل مكتب الحماية بحكم نهائي أو بإبراز صك رسمي يتضمن قبول الشطب صادر عن الدائن أو عمن انتقل إليه الحق منه.

ولما كانت البراءة تعد مالاً يمكن تقويمه ومن ضمن عناصر ذمة صاحبها فهي تدخل في الضمان العام لدائني المذكور. ومن ثم يستطيعون إيقاع الحجز عليها وبيعها جبراً واستيفاء حقوقهم من ثمنها إذا امتنع مدينهم المالك عن وفائها اختياراً. ويجب على صاحب البراءة الجديد الذي انتقلت إليه بالمزاد أو بالشراء أن يسجل المزايدة أو التنازل في سجل مكتب الحماية في غضون ثلاثة أشهر ابتداءً من يوم نقل ملكية البراءة وإلا كان الانتقال باطلاً.

حماية ملكية البراءة: تتمتع براءة الاختراع بحماية وطنية وحماية دولية

الحماية الوطنية: حمايةً لحق مالك البراءة في الانفراد باستثمار اختراعه، أقر القانون تطبيق نوعين من المؤيدات إزاء من يعتدي على هذا الحق. فمن جهة أولى عدّ القانون كل اعتداء مقصود على حقوق صاحب شهادة الاختراع جنحة تقليد ويعاقب المعتدي بغرامة مالية يحددها القانون كما أنه يحكم بضعف الحد الأقصى للغرامة حين التكرار إضافة إلى جواز الحكم بالسجن من شهرين إلى سنتين. ومن جهة ثانية لمالك البراءة أن يرفع دعوى المنافسة غير المشروعة على الشخص الذي اعتدى على اختراعه للمطالبة بتعويض مالحقه من ضرر طبقاً لأحكام القواعد العامة.

وأما ما يتصل بالحماية الدولية فإنه لما كانت المنتجات الصناعية المبتكرة يتم تداولها بسرعة بين حدود الدول المختلفة، فقد وجد من الضروري عدم الاكتفاء بالحماية الوطنية للمبتكرات والعمل على إيجاد قواعد موحدة تنظم هذه الحماية دولياً. وتحقيقاً لهذا الغرض أبرمت اتفاقية باريس الخاصة بحماية الملكية الصناعية بتاريخ ٢٠/٣/١٨٨٣ والمعدلة في بروكسل عام ١٩٠٠ وفي واشنطن عام ١٩١١ وفي لاهاي عام ١٩٢٥ وفي لندن عام ١٩٣٤.

وقد انضمت سورية إلى اتفاقية باريس وتعديلاتها بموجب قرار المفوض السامي رقم ١٥٢/ل.ر عام ١٩٣٩. ونشأ بموجب اتفاقية باريس المذكورة اتحاد بين الدول المنضمة إليها مركزه مدينة برن في سويسرة وهو يسهر على تطبيق أحكام الاتفاقية ويعمل على تبادل المعلومات عن تسجيل براءات الاختراع الذي يتم بمعرفته. وتتمثل الحماية التي تمنحها اتفاقية باريس لرعايا الدول المنضمة إليها بالميزات التالية:

- تمتع رعايا كل دولة من دول الاتحاد بالمزايا المقررة لمواطني الدول الأخرى في كل ما يتعلق بحماية حقوق أصحاب البراءات والتظلم من كل مساس بحقوقهم.
- حق الأولوية الذي يتمتع به كل من سجل في إحدى دول الاتحاد براءة اختراع بإيداع طلب آخر لدى أي دولة أخرى في غضون سنة من دون معارضة الغير الذي سبق له إيداع طلب براءة مماثلة في هذه الدولة بعد تاريخ التسجيل الأول.
- استقلال البراءات الممنوحة في دول الاتحاد لأي من رعايا هذه الدول بعضها عن بعض من حيث صحتها وبطلانها ومدة الحماية المقررة لها.

إلياس حداد

الموضوعات ذات الصلة:

المتجر.

مراجع للاستزادة:

- جاك الحكيم، الحقوق التجارية، الجزء الأول.

■ الاختزال

الاختزال shorthand أسلوب كتابة سريعة يعتمد الرموز أو المختصرات بدلاً من الحروف أو الكلمات أو الجمل، وتكون كتابته من اليسار إلى اليمين ولو باللغة العربية. وقد عُرف الاختزال بأسماء كثيرة منها: الكتابة المختزلة (كتابة متلاصقة أو ضيقة) والكتابة الناعمة والكتابة القصيرة، ويستطيع الكاتب تدوين ما يريد واستدراك كل ما يقال للسرعة التي توفرها الكتابة المختزلة. واستعمل الاختزال وسيلة ثقافية، إذ استعمله بعض الأدباء في كتابة مؤلفاتهم، ومن هؤلاء جورج برناردشو [ر] وصموئيل بيبس [ر] Samuel Pepys. ويستعمل اليوم، ولاسيما في الدول الصناعية، في مجال المعاملات التجارية والصناعية وفي الإعلان.

الأساس والتطور

كان الاختزال، لقرون خلت، يعتمد النظام الإملائي والصوتي ورموزاً اعتباطية مثل دائرة صغيرة تحيط بها دائرة كبيرة للتعبير عن عبارة «حول العالم». وقد ذكر معظم المؤرخين أن بداية نشأة الاختزال كانت مع المؤرخ الإغريقي زينوفون Xenophon الذي استخدم نظاماً إغريقياً قديماً في تدوين سيرة سقراط، ثم استخدم الاختزال على نحو واسع في الامبراطورية الرومانية. وكان تيرو Tiro (العبد المعتق وأحد أهل بيت شيشرون Cicero) قد وضع أول نظام لاتيني للاختزال في عام ٦٣ ق.م عُرف باسم «إشارات تيرو»، وبقي هذا النظام قيد الاستعمال نحو ألف سنة، كما وضع تيرو معجماً للاختزال. ومن الذين استعملوا الاختزال أسلوب كتابة الامبراطور تيتوس Titus ويوليوس قيصر Julius Caesar وعدد من الأساقفة.

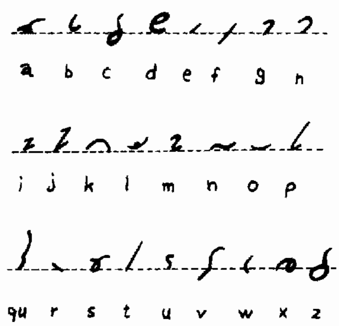
بيد أن الاختزال صار، مع بداية العصور الوسطى، مقترناً بالسحر والعرافة وفقد أهميته، ولم يتجدد الاهتمام به إلا مع بداية القرن الخامس عشر حين عُثر على معجم إشارات شيشرون وسفر المزامير المكتوبين بأسلوب «إشارات تيرو». وقد تأثر تيموثي برايت Timothy Bright بهذا الأسلوب بعض الشيء فوضع نظاماً إنكليزياً عام ١٥٨٨ تتألف إشاراته من خطوط مستقيمة ودوائر وأنصاف دوائر عُرفت برموز برايت.

وفي القرن السابع عشر اتسع استعمال الاختزال لتدوين الخطب التي لم يكن بالإمكان حفظها بطريقة أخرى فبرز أربعة مبتكرين لأنظمة الاختزال هم: جون ويلز John Willis الذي يعد أبا الاختزال الحديث؛ وتوماس شلتون Thomas Shelton الذي ظهر نظامه في مذكرات صموئيل بيبس؛ وجريميا ريخ Jeremiah Rich الذي عمم هذا الفن وأعطاه شهرة عن طريق نشر المزامير والعهد القديم مستخدماً أسلوبه الاختزالي؛ ووليام ميسون William Mason الذي استخدم أسلوبه لتدوين الأناشيد الدينية ولترجمة الكتاب المقدس في السنين التي تلت عصر النهضة.

ثم ابتكرت في العقود التالية أنظمة أخرى إلا أن معظمها كان قصير الأمد، وكان النظام الذي ابتكره صموئيل تايلر Samuel Taylor عام ١٧٨٦ أكثرها نجاحاً. وقد اعتمد أسلوب تايلر في كل من اللغات الفرنسية والإسبانية والبرتغالية والإيطالية والسويدية والألمانية والهنغارية وغيرها.

وفي أثناء الثورة الصناعية برزت الحاجة إلى الاختزال وكتّابه في الأعمال التجارية وغيرها.

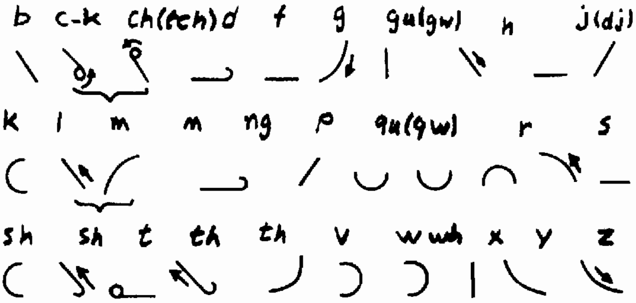
وبما أن أنظمة الاختزال الهندسية المستخدمة حينذاك كانت تحتاج إلى درجة عالية من الثقافة فضلاً عن التدريب الطويل كان لا بد من ابتكار نظام بديل أسهل لمن يريد تعلمه واستخدامه، لذلك تخلى الألماني غابلسبرغر Gablesberger (١٧٨٩ - ١٨٤٩) عن الأساليب الهندسية وطوّر نظاماً بسيطاً بخطوط متصلة. وقد اعتمد نظامه المسمى «فن الإشارة الكلامية» speech-sign art على الحروف اللاتينية، واتسم بالدقة والإتقان وجمال الخطوط، كما لاقى نجاحاً واسعاً، وانتشر في سويسرة والنمسة واسكنديناڤية وفنلندة وروسية، وكان لبساطته أثرها في سهولة ترجمته إلى اللغات الأخرى (الشكل ١).



(الشكل ١)

أنظمة الرموز الحديثة

وضع إسحق بيتمن Isaac Pitman (١٨١٣ - ١٨٩٧) نظاماً خاصاً للاختزال يدمج الكتابة بالصوت، كما تبنى المبدأ ذاته في رسم الأصوات الكلامية، ونشر نظامه عام ١٨٣٧ وأطلق عليه «الكتابة الصوتية الاختزالية» stenographic sound-hand. ويشمل هذا النظام ٢٥ صامتاً أحادياً و٢٤ صامتاً ثنائياً و١٦ صائتاً، وقد رُمز إلى الأصوات المتصلة بإشارات متشابهة كما استخدم التظليل لحذف العلامات، واستخدمت الإشارات القصيرة للدلالة على الأصوات القصيرة والعلامات المفردة للدلالة على الصوامت. وفي عام ١٨٥٢ أدخل بن بيتمن Benn Pitman، شقيق إسحق، هذا النظام إلى أمريكة وأجريت عليه تعديلات طفيفة فأصبح الأسلوب المستخدم على نحو واسع في الولايات المتحدة وكندا. إضافة إلى ذلك دخل اختزال بيتمن إلى كل من اللغات العربية والإفريقية والأرمنية والهولندية والفرنسية والألمانية والعبرية والهندية والإيطالية واليابانية



(الشكل ٢)

والفارسية والإسبانية ولغات أخرى (الشكل ٢).

درس جون روبرت غرغ John Robert Gregg (١٨٦٧ - ١٩٤٨)، الذي فُتن بالاختزال، أسلوب بيتمن بالاعتماد على نفسه، بيد أنه لم يُعجب بمظهره وظلاله ومبدأ تحديد الموقع للتعبير عن الحروف الصوتية المحذوفة أي كتابة كلمة فوق سطر الكتابة أو عليه أو تحته. ثم قرأ تاريخ الاختزال كما كتبه توماس أندرسون Thomas Anderson الذي صنّف في كتابه أساسيات نظام الاختزال الجيد مؤكداً أنها غير موجودة في أي أسلوب اختزالي مستعمل، وهذه الأساسيات التي تركت انطباعاً قوياً في نفس غرغ تتضمن: رموزاً مستقلة للصوائت vowels لصوامت consonants، وكتابة جميع الرموز بسماكة واحدة، وكتابة الرموز كلها على سطر واحد، وقواعد مختصرات قليلة وثابتة.

وكان غرغ في الثامنة عشرة حين ابتكر نظامه الخاص، وفي الحادية والعشرين حين نشره في كراس بعنوان «الاختزال الصوتي ذو الرسم الخفيف» light-line phonography (١٨٨٨). واتسم نظام اختزال غرغ بالإشارات المنحنية والدوائر والعقفات والحلقات، وبالاعتماد على علامات الحذف وعلى ميلان الكتابة العادية، واتسمت إشاراته بالخطوط المنحنية، كما أُزيلت الزوايا المنفرجة بوساطة الدمج الطبيعي للسطور، وضُمّت الحروف الصوتية، وأُلغي التظليل وأصبحت خطوط الكتابة مستقيمة. وهذا النظام يُدرّس اليوم في نحو ٩٠٪ من مدارس الولايات المتحدة التي تدرّس الاختزال، وينتشر أيضاً في كندا والجزر البريطانية. وقد طُبع اختزال غرغ باللغات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية إضافة إلى اللغات العبرية والروسية والإيطالية واليابانية والصينية والبولندية ولغات أخرى.

أما النظام الألماني البارز فهو أسلوب شتولز - شري Stolze - Schery الذي يجمع بين أسلوبي فيلهلم شتولز Wilhelm Stolze وفردناند شري Ferdinand Schery. وقد دخل هذا النظام لغات أخرى بما فيها الدنمركية والهولندية والإنكليزية والفرنسية والإيطالية والنروجية والبولندية والروسية والإسبانية.

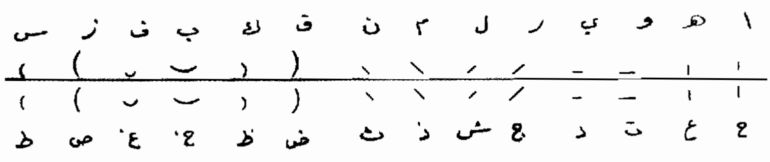
أنظمة الكتابة العادية المختصرة الحديثة

ابتكرت إيما ديربون Emma Dearbon المدرِّسة في جامعة كولومبية نظام اختزال الكتابة السريعة نحو عام ١٩٢٤، وهو أسلوب يعتمد على استعمال حروف الهجاء وعلامات الترقيم المعروفة في تمثيل الأصوات. وفي أسلوب الكتابة السريعة يمكن كتابة أكثر من ٢٠٠٠٠ كلمة باستعمال ٦٠ قاعدة وقرابة ١٠٠ شكل موجز ومختصرات قياسية.

أما اختزال هجائية فوركنر Forkner فقد ظهر في سنة ١٩٥٢ في الولايات المتحدة. وقد أمضى مؤلف هذا الأسلوب، هامدن فوركنر Hamden Forkner، عشر سنوات في البحث قبل إصدار الطبعة الجديدة للنظام الجديد الذي يؤلف بين الحروف التقليدية وعدة رموز للحروف والأصوات التي تصعب كتابتها. ويُدرّس أسلوب فوركنر اليوم في المدارس الثانوية وكليات الأعمال التجارية في الولايات المتحدة.

وثمة أسلوب أمريكي آخر يسمى «الكتابة بسرعة فائقة» hy-speed longhand ظهر في عام ١٩٣٢، ومن مبادىء هذا الأسلوب حذف الصوامت ومعظم الصوائت واستعمال حروف أو أرقام أو علامات وحروف مركبة بدلاً منها.

أما أسلوب اختزال «الكتابة الضيقة» stenoscript المسمى «ABC» فهو نظام صوتي يستخدم، فقط، الكتابة العادية وعلامات الترقيم الشائعة. وقد ظهر في لندن عام ١٦٠٧ ثم راجعه مانويل كلود أفانسينا M.C. Avancena الذي أصدر طبعة جديدة في عام ١٩٥٠. وهذا الأسلوب يحوي ٢٤ شكلاً مختصراً يجب



(الشكل ٣)

حفظها في الذاكرة مثل «ak» لدلالة على «acknowledge» و«bz» للدلالة على كلمة «business».

اختزال الآلة

أصبح أسلوب تسجيل الكلام بوساطة الآلات أسلوباً عملياً على المستوى التجاري نحو عام ١٩٠٦ حين ابتكر كاتب الاختزال الأمريكي وُرد ستون إيرلاند Ward S. Ireland آلة الاختزال الطابعة stenotype machine. تستعمل آلات الاختزال اليوم في المكاتب إلى حد ما، بيد أنها أساسية في المؤتمرات والمحاكم.

الاختزال عند العرب

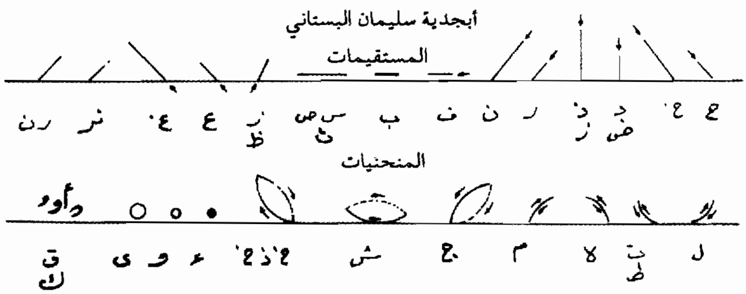
لم يذكر المؤرخون شيئاً عن معرفة العرب بالاختزال باستثناء ما ذكره ابن النديم في كتابه «الفهرست» الذي صنّفه سنة ٣٧٧هـ، في معرض حديثه عن أقلام اليونانيين: «ولهم قلم يعرف بالساميا ولا نظير له عندنا فإن الحرف الواحد منه يحيط بالمعاني الكثيرة ويجمع عدة كلمات... وهذا القلم يتعلمه الملوك وجلّة الكتاب ويمنع منه سائر الناس لجلالته... جاءنا من بعلبك في سنة ثمان وأربعين رجل متطبّب زعم أنه يكتب بالساميا فجربنا عليه ما قاله فأصبناه، إذا تكلمنا بعشر كلمات أصغى إليها ثم كتب كلمة، فاستعدناها فأعادها بألفاظنا».

وقبل أن تعرف طرق الاختزال الحديثة حاول العرب اختصار بعض الكلمات العربية الشائعة بالاستعاضة عن الكلمة بحرف أو حرفين مثال ذلك :

«اه» انتهى، «الخ» إلى آخره، «ن» انظر، «يق» يقال، «ل» أول، «ج» جمع، «جج» جمع الجمع، «ش» شرح، «صلعم» صلى الله عليه وسلم، «ض» رضي الله عنه، «ر» رحمه الله.

ولعل أقدم طرائق الاختزال العربي المعروفة في العصر الحديث طريقة سليمان البستاني التي وضعها عام ١٨٨٧، وقد اعتمد فيها على مخارج الحروف فجعل لكل حرفين اتحدا في المخرج شكلاً واحداً إلا الصاد والطاء، كما اعتمد الرسم السهل للحروف الأكثر دوراناً في العربية، وكان الخط والهلال الركنين الأساسيين في بنية هذه الطريقة يُفرّق بينهما اتجاههما وحجمهما ووصلهما وقطعهما (الشكل ٣).

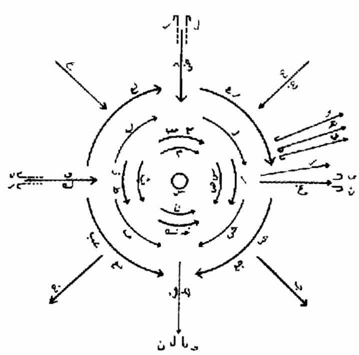
وبعد أن مست الحاجة إلى الاختزال أخذت تتوالى محاولات في أساليب الاختزال العربي مأخوذة في أكثرها من الأساليب الغربية، فظهر أسلوبا مصطفى عبده والسيد والي عام ١٩٢٣ ثم طريقة محمد محمد سالم عام ١٩٤١ فطريقة فؤاد واكد عام ١٩٤٧ (الشكل٤)،



(الشكل ٤)

والطريقتان الأخيرتان أكثر انتشاراً من غيرهما.

أما اسكندر لوقا فقد عرض في كتابه عن الاختزال طريقة مبسطة لتعلم الاختزال، اعتمد فيها على المقدمات التمهيدية الثلاث التي جاءت في كتب الاختزال لإسحق بيتمن ومحمد محمد سالم وفؤاد واكد. وتشتمل طريقته على ١٨ صوتاً رئيسياً أو حرفاً أبجدياً، وفرّق فيها بين ثلاثة أنواع من الأصوات المستقيمة والمستديرة والمنحنية (الشكل٥).



(الشكل ٥)

ج.ت

■ الاختلاج

الاختلاج convulsion تقلص عضلي فجائي لا إرادي. وهو ظاهرة شائعة تحدث في الكثير من الأمراض العصبية وعلى رأسها الصرع. والاختلاجات إما توترية وهي تشنجات تنجم عن تقلص متواقت مستمر في مجموعة عضلات، وإما رمعية clonic يتناوب فيها التقلص والارتخاء.

الآلية الإمراضية

رأى هولينغ جاكسون في أواخر القرن التاسع عشر أن الاختلاج انفراغ فجائي شديد غير منتظم في عصبونات neurons قشر الدماغ ولم تغير المعطيات الفيزيولوجية الحديثة هذا الرأي إلى اليوم. وهذا الانفراغ هو انفراغ كهربائي عالي الجهد (الفولتاج) لمجموعة عصبونات قشرية معتلة يحدث إذا توافرت لها شروط ملائمة في قشر الدماغ. تبدأ هذه الشروط بوجود آفة بؤرية قد تكون بنيوية، مرئية أو غامضة. وقد استأثرت الآفات البنيوية المرئية بمعظم البحوث، وتشمل الدُباق gliosis والتليف والندبات الدماغية والسحائية، وأمراضاً دماغية أخرى، كالنزف والاحتشاء والأورام والتنكس degeneration.

ومن هذه الآفات ما يبدأ في الحياة داخل الرحم بسبب إصابة الأم ببعض الأخماج ولاسيما الحمَوية (الفيروسية) منها، كالحصبة الألمانية مثلاً، أو بسبب تعرضها لبعض التسممات ولاسيما الدوائية منها.

تسبب بعض الآفات الدماغية القشرية في وقت من الأوقات اختلاجاً وذلك عندما تنقطع اشتباكاتها مع العصبونات القشرية الأخرى، فتصبح مفرطة الحساسية ببقائها بحالةلاستقطاب جزئي مزمن، ولازدياد نفوذية أغشيتها الهيولية مما يجعلها مستعدة للاستثارة بالتغيرات الفيزيائية والكيمياوية الحيوية. ويشارك في إثارة الاختلاج زيادة التحسس للأستيل كولين المنبه ونقص حمض الغامابوتريك (الغابا) المثبط للنقل بسبب تخرب بعض جمل هذه العصبونات المثبطة. ينتشر الاختلاج في عصبونات السبيل القشري النخاعي والسبيل الشبكي النخاعي، ويبدأ باختلاج توتري ثم يبدأ تثبُّط من الدماغ البيني diencephalon إلى القشر فيقطع على نحو متناوب الانفراغ البؤري والمتعمم فيغيره من الانفراع المستمر إلى نفضات متقطعة هي الاختلاج الرمعي، ثم يخف تواتر هذه النفضات تدريجياً حتى تتوقف توقفاً كاملاً. ويمكن تسجيل هذا الانفراغ الكهربائي على الورق في تخطيط كهربائية الدماغ.

الأمراض المحدثة للاختلاج

هناك أمراض تسبب الاختلاج في الأطفال خاصة، لأن دماغ الطفل لم يستكمل نضجه بعد، فهو أكثر حساسية من دماغ الكهل للاضطرابات الفيزيائية والكيمياوية الحيوية. فاختلاجات الحرارة خاصة بالأطفال كما أن نقص الأكسجين ونقص الكلسمية (كلس الدم) وعوز البيريدوكسين ونقص الصوديوم تكاد تقتصر عليهم أيضاً.

تُعلِن أمراض الدماغ الأولية عن نفسها عادة بالاختلاجات، كما في التهابات الدماغ المختلفة، وفي التهاب الدماغ المصلِّب تحت الحاد ومرض جاكوب كرتزفيلد (وهو اعتلال دماغي فيروسي نادر ومميت عادة، يصيب الأفراد في منتصف أعمارهم ويحدث تنكساً جزئياً في الجملتين الهرمية وخارج الهرمية) وأمراض الاختزان الشحمي كذلك. ويميل التهاب السحايا الجرثومي إلى إحداث الاختلاج ولاسيما في الأطفال، وينجم الاختلاج أيضاً عن اعتلال الدماغ بنقص الأكسجة بسبب توقف القلب أو الاختناق أو القصور التنفسي أو التسمم بأول أكسيد الكربون. وتحدث اليوريمية في القصور الكلوي، وفي الارتعاج eclampsia تقلصات ونفضات عضلية رمعية واختلاجات متعممة. ويُحدث نقص الكلسمية بالعوز أو بقصور جارات الدرق تكززاً واختلاجات، كما أن نقص سكر الدم يؤدي إلى الاختلاج سواء حدث بجرعة زائدة من الأنسولين أو بإصابة جزر لنغرهنز في المعثكلة (البنكرياس) بورم.

وتؤدي متلازمة الانقطاع عن الكحول أو المخدرات أو البربيتورات أو غيرها من المركبات إلى الاختلاج بزوال تثبيطها للدماغ.

ويعد البكروتوكسين والميترازول أشد الأدوية إحداثاً للاختلاج، كما أن الزرنيخ والرصاص من أكثر السموم المعدنية إحداثاً له.

يستوجب تشخيص الاختلاج قصة مرضية مفصلة وفحصاً سريرياً دقيقاً وتخطيطاً لكهربائية الدماغ، وقد يتطلب تصويراً دماغياً كالتصوير الطبقي المُحَسَّب cat scan، والتصوير بالرنين المغنطيسي MRI. كما يتطلب معايرة لسكر الدم والكلسمية واليوريمية والصوديوم والبوتاسيوم.

أما المعالجة فتكون بحسب السبب. وأفضل الأدوية العرضية للاختلاج البربيتورات والفنتوئين والكاربامزين.

فيصل الصباغ

الموضوعات ذات الصلة:

الأستيل كولين - الإغماء - الصرع - الكلب.

■ الاختلاس ← الجرائم (أنواع -)

■ الاختناق

الاختناقasphyxia حالة نقص حاد في مدد الأكسجين مترافق بتراكم ثاني أكسيد الكربون. والاختناق هو الاصطلاح الذي يعرب عن مضمون التسمية الأجنبية «اسفكسيا» التي هي من أصل إغريقي، لا عن معناها اللغوي. ذلك أنها تتألف من مقطعين «a» وتعني «لا» و«sphuxis» وتعني «النبض» وبذلك يصبح معنى هذا التعبير لغة «حالة اللانبض». وقد يكون السبب في ذلك هو أن هذه التسمية وضعت أصلاً لحالات موت الجنين أو الوليد لانقطاع مدد الأكسجين عنه، واتخذ غياب النبض العلامة المميزة للتشخيص.

ويتميز الاختناق من نقص الأكسجة بأنه يترافق بتراكم ثاني أكسيد الكربون أو، في بعض الأحوال الخاصة، أحد مشتقاته كغاز أول أكسيد الكربون، في حين أن نقص الأكسجة لا يشترط فيه أن يكون مترافقاً بذلك الغاز، كنقص الأكسجة بسبب انخفاض ضغط الأكسجين في أعالي الجبال أو نتيجة انخفاض صارخ في خضاب الدم. أما الغُشي syncope فهو حالة انعدام الصحو لمدة وجيزة. وينجم حصراً عن انخفاض حاد وشامل في حجم الدم المتدفق إلى المخ كاف لحرمان العصبونات المخية - الشبكية من راتب الطاقة لديها. ويتميز الاختناق من الغشي في أن فقدان الوعي فيه يتأخر نسبياً، وتسبقه علامات واضحة ومحاولات صارخة وتخبطات يائسة. والإنذار فيه على الغالب سيئ. أما الغشي فغياب الوعي فيه هو العلامة الأولى، وقد تكون العلامات والأعراض التي تسبقه طفيفة تصعب ملاحظتها كالقلق والذعر والشعور بالتعب وتسارع النبض وارتفاع ضغط الدم النسبي أو انخفاضه المفاجئ. وإنذار الغشي القريب جيد، باستثناء الغشي الناجم عن إصابة قلبية متقدمة، أو الذي يصيب المسنين.

الاختناق اضطراب وظيفي حاد يصيب التنفس والدوران والجملة العصبية، وعلى كل معالجة أن تستهدف هذه الأجهزة الثلاثة في الوقت المناسب ليكتب لها النجاح.

ولكل نوع من الاختناق أعراضه وعلاماته الوصفية إلا أن ثمة أعراضاً وعلامات شاملة يذكر منها: الشعور بالقلق والذعر واقتراب الأجل في البالغين، وتشنجات عضلية وحركات تشنجية عفوية واستحالة في اللون كالزرقة في معظم الحالات (الاختناق الأزرق) أو الابيضاض في بعضها (الاختناق الشحوبي)، وتسارع النبض بادئ الأمر يعقبه تباطؤ واضطراب شديد في مرحلة متأخرة لينتهي برجفان عضلة القلب أو بتوقف الانقباض القلبي asystole، وارتفاع في الضغط الشرياني يعقبه هبوط شديد، ولوثة في الوعي تنتهي بفقده التام وبالسبات.

والإنذار في حالات الاختناق سيئ، وينتهي بالموت على الغالب إذا لم تتخذ تدابير المعالجة والإنعاش في حينها أو إذا استحال تطبيقها.

الحالات التي تسبب الاختناق

يمكن وضع الحالات التي تسبب الاختناق من الناحية الفيزيولوجية ـ المرضية في ثلاث مجموعات هي التنفس في مكان مغلق، وانسداد طرق الهواء، والقصور التنفسي الحاد.

التنفس في مكان مغلق: هو التنفس في مكان منعزل عن الجو انعزالاً تاماً أو غير تام، حيث التهوية منعدمة أو رديئة. ومن اللازم تجنب مثل هذه الأماكن، أو اختبار مدى صلاح تهويتها أو تزويدها بمصدر إمدادات كافية من الهواء أو الأكسجين قبل ارتيادها، وأيّ إهمال لذلك يؤدي إلى تناقص الأكسجين فيهاتناقصاً مطرداً وتزايد كميات ثاني أكسيد الكربون. وسرعان مايصاب كل من يكون فيها بأعراض الاختناق ففقدان الوعي فالموت.

ويحتمل حدوث ذلك في الأماكن العامة المزدحمة والمغلقة، وفي الآبار العميقة والكهوف القديمة، وفي الأماكن التي تندلع فيهاالنيران وتحاصرها إذ تأتي النار على معظم الأكسجين المتوافر فيها، وتنطلق منها غازات مشابهة في تأثيرها لثاني أكسيد الكربون يتألف معظمها من أول أكسيد الكربون الذي يعجل باختناق كل من يكون في المكان أو يدخله دونما تدابير حيطة كافية. كما يحتمل حدوث ذلك نتيجة لانطلاق غازات ملوثة للجو في مكان مغلق مثل أول أكسيد الكربون أو غاز البوتان butane، أو لاستعمال غير سليم للأكياس الكتيمة المصنوعة من اللدائن والتي سببت اختناق كثير من الأطفال.

ويحتمل حدوث الاختناق في الطائرات النفاثة وفي مركبات الفضاء وفي مراكب الغوص في الماء، فجميع هذه الوسائل يجب أن تكون مزودة بما يمدها بالهواء بضغط كاف وبنسبة كافية من الأكسجين وبوسائل للتخلص من غاز الكربون وبخار الماء.

فالطائرات النفاثة تحلّق على ارتفاع يصل أحياناً إلى نحو عشرة آلاف متر (وهو ارتفاع تتعذر فيه الحياة مع انخفاض ضغط الأكسجين فيه) ولذلك فهي تزود بضاغط يضمن الحفاظ على الضغط المناسب فيها وعلى التهوية الدائمة للتخلص من غاز الكربون وتكييف حرارة جو الطائرة ورطوبته.

وتزود هذه الطائرات كذلك بخزانات احتياطية من الأكسجين يلجأ إليها عند اضطراب أداء الضواغط، وتتدلى للمسافرين من سقف الطائرة أقنعةٌ يتنفسون منها الأكسجين ريثما يتم إصلاح الخلل.

أما مركبات الفضاء فتُضمن التهوية داخلها إما بتوفير مقادير من الهواء السائل تكفي لضعفي مدة الرحلة المقررة، تحول بضاغط إلى هواء يعادل ضغطه الضغط الجوي العادي وتكون نسبة الأكسجين فيه نحو ٢١٪، وإما بتوفير مقادير من الهواء السائل الممزوج بالأكسجين بنسبة تراوح بين ٤٠ ـ ٦٠٪، يحوَّل بالضاغط إلى غاز بضغط مناسب. وفي الحالتين كلتيهما لا بد من وجود مادة لامتصاص ثاني أكسيد الكربون، ولا بد من إزالة الفائض من بخار الماء وتكييف حرارة جو المركبة.

وأما الغوص في البحار فيتطلب ذخيرة من مزيج من الأكسجين بنسبة ٢٪ والهليوم بنسبة ٩٨٪ تقريباً مع مقادير ضئيلة من النتروجين والنيون.

والمشكلة الرئيسة هنا هي احتمال تراكم غاز ثاني أكسيد الكربون في الرئتين والدم والخوف من احتمال حدوث الاختناق. ويجب تجنب ذلك بفرط التهوية التي تضمن زفير غاز الكربون، وبوجود مادة تمتص الفائض منه.

أما العودة إلى سطح البحر فيجب أن تكون بالتدريج للحيلولة دون تشكل فقاقيع من غاز الهليوم في الدم تحدث انسداداً في الأوعية الدموية الصغيرة وقد تسبب الموت أحياناً.

انسداد طرق الهواء: إنه أشد أنواع الاختناق خطراً، ويتوقف القلب في غضون مدة وجيزة تراوح بين ثلاث وخمس دقائق. وأكثر عوامل الانسداد حدوثاً انسداد البلعوم بقاعدة اللسان في مريض فاقد الوعي أو بالأجسام الغريبة وخاصة السدادات والبالونات وبعض الأطعمة كالحبوب والمكسرات والفواكه (ويذهب ضحية هذاالنوع الكثير من الأطفال)، وبالقيء أو الدم أو المفرزات في مريض في حالة سبات، أو بقطع شاش تركت سهواً عقب جراحة داخل الفم، أو جراء تشنج الحنجرة وتشنج القصبات وتوذم الغشاء المخاطي وانسداد الشجرة القصبية بطوفان من المفرزات أو الماء نتيجة انفجار كيس مائي في الرئة أو خراج كبير أو نزف غزير أو نتيجة تخريش وفرط إفرازات ناجمين عن غازات سامة أو أسلحة كيمياوية أو بنتيجة محاولة للانتحار بمركبات الفوسفات العضوية أو تناولها قضاءً وقدراً. ومن هذه العوامل الاختناق غرقاً بماء البحر (المالح) الذي يسبب تشنجاً شديداً في طرق الهواء، أو بالماء العذب الذي يندفع بسرعة من الرئتين إلى الدوران ويسبب انحلال الدم انحلالاً شاملاً.

أما طرائق الإنعاش في حالات الانسداد الحاد بالأجسام الغريبة فكثيرة منها طريقة رهز (دسر) البطن abdominal thrust بأمل قذف الجسم الأجنبي إلى الخارج (الشكلان ١ و٢)، أو خزع الرغامى أو تنظير القصبات في حال وجود الجسم الغريب في الحنجرة أو في أعلى الرغامى أو في إحدى القصبات.

وتبدأ طريقة رهز البطن بضربة قوية على منتصف أعلى الظهر، يعقبها ضغط قوي متقطع على شكل رهز، يطبق على أعلى بطن المصاب. والهدف من ذلك زيادة الضغط داخل طرق الهواء أسفل مكان الانسداد زيادة حادة انفجارية بأمل أن يقذف ذلك الجسم الغريب إلى الخارج، ويمكن تطبيق ذلك والمريض واقف أو متمدد على الأرض مهما تكن وضعيته (الشكل ١).

أما الأطفال فيجب حملهم في وضعية الاستلقاء الوجهي وثنيهم عند الورك، بحيث يصبح رأس الطفل وصدره أقرب إلى الأرض لتساعد الجاذبية الأرضية على اندفاع الجسم الأجنبي إلى الخارج بتأثير ضربات متقطعة على أعلى الظهر لفصل الجسم الغريب ودفعه إلى الخارج في حين تضغط اليد الثانية على أعلى



(الشكل ١)



(الشكل ٢)

البطن ضغطاً متقطعاً (الشكل ٢).

وقد يندفع الجسم الغريب في بعض الحالات إلى إحدى القصبتين الرئيسيتين ومنها إلى قصبة فرعية، وحينئذ يمكن انتزاعه بتنظير القصبات بالتخدير العام أو الموضعي، أما إذا بقي الجسم مستقراً في الحنجرة أو في أعلى الرغامى فلا مناص من خزع الرغامى عاجلاً أسفل الحنجرة بآلة حادة محاولةً يائسة لإنقاذ حياة المصاب.

فإن توافر الصمام نفاث الأكسجين jet injector أمكن تطبيقه من ثقب في الرغامى لطرد الجسم الغريب خارجاً بقوة.

ومن تدابير الإنعاش تحرير مجرى الهواء بإزالة المفرزات أو أية مواد أخرى داخل الفم ومنها إعطاء الأكسجين عن طريق القناع إذا استرد المريض تنفسه العفوي أو إجراء التنفس الاصطناعي على طريقة «الفم - للفم» (الشكل٤) أو باستعمال جهاز أمبو Ambu Resuscitator، وهو قناع وكيس يعملان بآلية المنفاخ (الشكل ٣)، أو بالاستعانة بجهاز تهوية آلية يتصل بأنبوب الرغامى بالأكسجين أولاً ثم بمزيج من الهواء والأكسجين فيما بعد. ومنها تمسيد القلب في حال توقفه الثابت وغياب ضرباته بعد إخفاق المحاولات السالفة الذكر. ومنها طلب فريق الإنعاش المتطور المجهز بمختلف المعدات الآلية والإلكترونية ليقوم بإجراءات دعم الحياة.

القصور التنفسي الحاد: تقسم حالات القصور التنفسي الحاد إلى قسمين: حالات ناجمة عن أسباب مركزية، أي نتيجة إصابة الجملة العصبية المركزية، وحالات ناجمة عن أسباب محيطية، أو نتيجة إصابة القفص الصدري أو الرئتين.



(الشكل٣)

أما الحالات الناجمة عن أسباب مركزية فمنها التسمم الحاد بالمواد المخدرة ولا سيما مركبات الأفيون، وإصابة أوعية المخ الرضية الشديدة، وانقطاع النخاع الشوكي الرقبي، والتهاب سنجابية النخاع: البصلي والبصلي الشوكي، ونوبات الكزاز الحادة الطويلة الأمد.

وأكثر هذه الأنواع خطورة وأسرعها تطوراً التسمم بالمواد المخدرة، وأكثرها استعمالاً مركبات الأفيون وخاصة الهروئين والمورفين وأشباهها الاصطناعية مثل البتيدين pethidine إضافة إلى البربيتورات [ر] ومركبات البنزوديازبين benzodiazepine المبذولة كثيراً.

ويحدث التسمم بها عقب تناولها عمداً بقصد الانتحار أو خطأً بتناول المدمنين جرعة فائضة أو في أثناء دورة علاجية. وأعراض التسمم الحاد بالمواد المخدرة بيغ flushing في الوجه والفم والقسم العلوي من الجسم مشوب بزرقة ودوار وغثيان وقيء وحكة في الجلد ونعاس يعقبه سبات، وتباطؤ التنفس تباطؤاً شديداً وتباطؤ النبض وارتفاع ضغط الدم الانقباضي يعقبه انخفاض حاد، وتوسع الحدقتين، وانخفاض توتر الأكسجين في الدم وارتفاع مقدار ثاني أكسيد الكربون فيه.

إلا أن فعالية القلب تستمر مدة إذا قدر فيها إنعاش المصاب وأمكن إنقاذه. والانشغال بغسل المعدة مضيعة للوقت ولا يخلو من مضاعفات تزيد الوضع سوءاً والأفضل اتخاذ التدابير التالية وهي إزالة المفرزات، وإعطاء الأكسجين بالتناوب، وتأمين طريق سالك للهواء، وتأمين التهوية بمزيج من الأكسجين والهواء لمدة طويلة، وإعطاء الستيروئيدات [ر] والصادات (مضادات حيوية)، وإعطاء الترياق المضاد للمادة المخدرة إن وجد.

وأما الحالات الناجمة عن أسباب محيطية فيذكر منها إصابات الصدر الرضية الشديدة والريح الصدرية الانضغاطية، وحالات الربو القصبي، والأزمة الحادة لحالات انتفاخ الرئتين المرافق لالتهاب القصبات المزمن، والمرحلة النهائية للضمور العضلي الولادي المتقدم.

والصفة الشاملة لجميع هذه الحالات هي انخفاض التهوية انخفاضاً شديداً ينجم عنه نقص الأكسجين ويرافقه تراكم ثاني أكسيد الكربون. والأعراض هي كما تقدم في حالات الاختناق قلق ونعاس وسبات. والعلامات مزيج من تنبيه ودي مركزي وتوسع وعائي سطحي بتأثير مباشر من غاز الكربون، مع زرقة مشوبة بحمرة وتعرق.

ولكل من تلك الحالات معالجته النوعية إلا أن تدابير الإنعاش واحدة وهي إيجاد طريق للهواء سالك ومستقر إما عن طريق تنبيب الرغامى أو خزعها، وتنبيب الرغامى هو المرجع ولو استمرت المعالجة ثلاثة أسابيع، والتنفس الاصطناعي الآلي بمزيج من الهواء والأكسجين

على أن تراوح نسبة الأكسجين فيه بين أربعين وستين بالمئة. وتؤدي زيادة النسبة على هذا الحد إلى ظاهرة التسمم بالأكسجين.

وقد تتطلب بعض الحالات التي تقدم ذكرها دعماً آلياً للتنفس مستمراً أو متقطعاً، لمدة طويلة قد تستمر بقية حياة المصاب أو المريض. وعندها لا مناص من تزويد المريض بجهاز للتنفس الاصطناعي صغير الحجم يستخدمه في منزله.

اختناق الجنين والوليد

هو أول اختناق جرى وصفه وبحثه، والتسمية في الأصل إنما وضعت له وإن لم تعد تقتصر عليه.

ولاختناق الجنين والوليد مكان متميز في مجموعة الاختناق التنفسي، والعجز في التبادل الغازي قد يكون بسببٍ مركزيٍ ناجم عن إصابة مركز التنفس في الدماغ، أو بسبب العضو الذي يتولى مهمة هذا التبادل في الرحم أي المشيمة لدى الجنين، أو بسبب يتعلق بالرئة لدى الوليد.

ويحدث الاختناق داخل الرحم نتيجة سبب أو أكثر من الأسباب التالية:

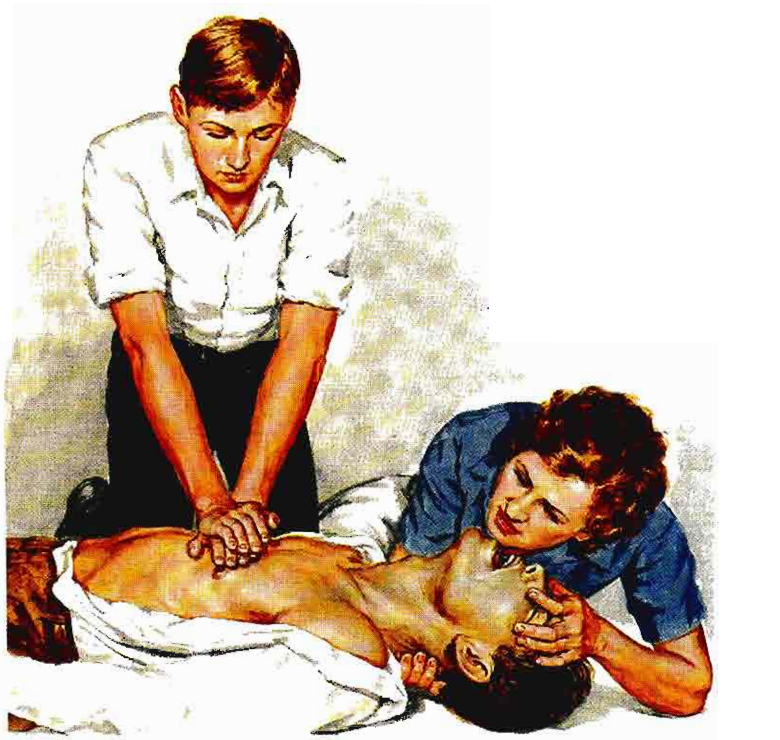
- **أسباب تتعلق بالأم**: مثل تثبيط المخ لدى الجنين بسبب مواد تخديرية أعطيت للأم في أثناء المخاض، وطول مدة المخاض، وعسر الولادة، ونقص الأكسجة لدى الأم كما في أمراض القلب وقصور القلب الاحتقاني والقصور التنفسي.
- **أسباب تتعلق بانخفاض تدفق الدم عبر السرة من المشيمة**: مثل انخفاض ضغط الدم لدى الأم وفرط إفراز مركبات الكاتكول أمين، وانفصال المشيمة الباكر، وأمراض المشيمة، من تليفٍ وتكلس واحتشاء وخمج.
- **أسباب تتعلق بالخداج ونقص التغذية لدى الجنين أو سوء التشكل**: وأهمها عدم استكمال تشكل المادة المبطنة للأسناخ الرئوية التي تسهل عملية التهوية وتحول دون تمزق الأسناخ في أثناء توسعها وانخماصها في أثناء انكماشها. وتتشكل هذه المادة (بروتينية - لبيدية - فسفورية) في الشهر الأخير من الحمل ولا تتوافر توافراً كاملاً في الخدج والأجنة المصابة بسوء التغذية، كما أنها تتعرض للتلف إذا لم ينحسر السائل الذي يملأ رئتي الجنين في حال استنشاق الوليد كميات إضافية منه في أثناء شهيق مبكر.

ومنذ بدء ظاهرة الاختناق تحدث تغيرات فيزيولوجية متلاحقة على النحو التالي:

ينخفض ضغط الأكسجين الشرياني لدى الوليد عن سويته الطبيعية، ويزداد ضغط ثاني أكسيد الكربون في الدم بسرعة، وينخفض دليل الحموضة (الباهاء) pH [ر] نتيجة للاستقلاب اللاهوائي الذي ينشط نتيجة لنقص الأكسجين، ولتراكم غاز الكربون. وفي نهاية خمس دقائق ينحفض ضغط الأكسجين في الدم الشرياني إلى درجة يتعذر قياسها.

ويوضع تشخيص اختناق الجنين داخل الرحم على أسس سريرية ومخبرية بالإصغاء إلى ضربات القلب من جدار بطن الأم إما مباشرة بالسماعة التقليدية أو بجهاز إلكتروني تثبت مساريه على جدار بطن الأم، ويراقب نبض الجنين في أثناء تقلصات الرحم أو بين هذه التقلصات. وانخفاض ضربات قلب الجنين عن المئة وتباطؤه باستمرار علامة وصفية.

ويستند التشخيص أيضاً إلى قياس الباهاء pH في دم الجنين عن طريق نموذج يؤخذ من جلدة رأسه. وأحدث الطرائق في ذلك هي الطريقة التي وصفها هك Huck ورفاقه عام ١٩٧٧ إذ تمكنوا من تسجيل ضغط الأكسجين في دم جلدة رأس الجنين مستخدمين مسرى حرارياً. وإن انخفاض الباهاء عن (٧) باستمرار وهبوط ضغط الأكسجين إلى ٧,٥-١٥ مم زئبقي هما من علامات الاختناق المؤكدة.



(الشكل ٤)

أما تشخيص بوادر الاختناق في الوليد وتقدير مدى حاجته إلى الإنعاش واستفادته منه فما يزال يستند إلى علامات أبغار الخمس Apgar score التي تجب مراقبتها بعد دقيقة من الولادة أولاً ثم بعد خمس دقائق طبقاً للوحة معروفة باسم: معيار علامات أبغار (الدكتورة فرجينيا أبغار، طبيبة تخدير أمريكية ١٩٠٩-١٩٧٤).

يفحص هنا النشاط العضلي (Activity = A) والنبض (ضربات القلب) (Pules = P) والاستجابة الانعكاسية للتنبيه (Grimace = G) واللون (Appearance = A) ومحاولات التنفس (Respiratory Effort = R) وفقاً للجدول التالي:

العلامة APGAR

صفر

١

٢

:

:

١٠

وتسجل العلامات في نطاق هذه الحروف

التي يتكون منها اسم أبغار (APGAR) وتدل العلامات على حال الوليد في كل من هذه الحقول، من الوليد السوي (العلامة ٨ ـ ١٠) إلى الاختناق المعتدل (٥ـ ٧)، إلى الاختناق المتوسط الشدة (٣ ـ ٤)، إلى الاختناق الشديد (صفر ـ ٢) وتعالج كل حالة بما يناسبها.

ويشار إلى أن المعدات المستخدمة لإنعاش الوليد يجب أن تكون لها بعض الصفات الخاصة منها خلوها من الصمامات وخفة الورن وأن تكون عقيمة تستعمل مرة واحدة.

طه الجاسر

مراجع للاستزادة:

- R.M HOSLER, A Manual on Cardiac Resuscitation (Springfield, Illinois, 1954: nouv. éd. 1958).
- P.MALLARET, Reanimation et Choc. Mesure des grandeurs physiques en réanimation (Arnette 1, 1968).
- M.CHASSAIGNE, C.DEBRAS, et Y. LOUVILLE, Pratique de la spécialisation en réanimation (Paris 1970).

■ الآخر

يُعَد وجود الآخر أو « العقول الأخرى » other minds من أهم المشكلات الفلسفية عموماً ومشكلات نظرية المعرفة على وجه الخصوص. وقد عالجها عدد كبير من الفلاسفة ووضعوا حلولاً لها.

والحل التقليدي هو مايسمى بالقياس أو ببرهان المماثلة. فما ذلك البرهان؟ تعتمد الصورة العامة للبرهان على المبدأ التالي: إذا وجد أن ظاهرة (أ) رافقت ظاهرة (ب) فيمكن الاستنتاج استنتاجاً ترجيحياً أن أية ظاهرة مشابهة للظاهرة (أ) سترافق ظاهرة مشابهة للظاهرة (ب). أما ما يتعلق بمشكلة وجود الآخر فيمكن القول: إنه لـمّا كنت ألاحظ وجود ترافق بين حالاتي العقلية من جهة وسلوكي والحالة الفيزيائية لجسدي من جهة أخرى، ولـمّا كنت ألاحظ وجود أجساد أخرى مشابهة لجسدي وأن لها سلوكاً مشابهاً لسلوكي، فإني حالتئذ سأكون محقاً في الاستنتاج، عن طريق المماثلة، أنه توجد حالات عقلية مشابهة لحالاتي العقلية مرتبطة بتلك الأجساد وبالطريقة نفسها التي ترتبط بها حالاتي العقلية بجسدي. ذلك هو برهان المماثلة الذي اعتمده الفلاسفة التقليديون للقول بوجود الآخر.

أما الفلاسفة المعاصرون من فلاسفة التحليل اللغوي وفلاسفة الوجودية فقد رفضوا برهان المماثلة. لقد وجّه إليه فلاسفة التحليل اللغوي انتقاداً شديداً. وانتهى فتغنشتاين Wittgenstein وبعده شتراوسون Strawson إلى رفضه بعدّه غير صحيح مع تأكيدهما أن سلوك الآخرين وحالاتهم العقلية ليست علاقة جواز contingent بل هي علاقة منطقية. أما الآخرون، أي الوجوديون فقد أثبتوا وجود الآخر إثباتاً وجودياً ديالكتيكياً. وفيما يلي أهم الاعتراضات على برهان المماثلة:

يقال من الوجهة الإحصائية إن البرهان ضعيف، لأنه يقوم على أساس واحد هو تجربتي أنا، أي تجربة شخص واحد، ومن الوجهة النفسية يقال إن هناك فروقاً فردية مهمة بين خصائص الأجساد الأخرى وسلوكها، وسلوك جسدي أغفلها أصحاب برهان المماثلة، فقد يقابل تلك الفروق وجود حالات عقلية عندي وغيابها عند الآخرين. ومن الوجهة المنطقية يقال إن من المستحيل امتحان نتيجة البرهان امتحاناً منطقياً.

لقد أكد الوجوديون وجود الآخر وجوداً أنطولوجياً ـ ديالكتيكياً. فالآخر متناقض مع الأنا منطقياً ومتعارض معها أنطولوجياً. ويذهب سارتر إلى حدٍّ يقول فيه: « الآخر هو الجحيم » ويقصد بذلك، أن الآخر عقبة في طريق حريته، أي حرية الأنا، وتضييق لمجال احتياراته.

أما هَيْديغر Heidegger فقد قدم أهم معالجة أنطولوجية لمشكلة الآخر، ويقول في كتابه « الوجود والزمان » إن وجود الإنسانية هو « الآنية » أي « الوجود هناك » أي الوجود في العالم بالمعنيين المكاني والأنطولوجي، والآخرون هم دائماً معي وأنا أشاركهم في العالم. العالم هو « عالم مع » والإنسان الموجود يعيش في وضع منفتح دائماً يدخل فيه الآخرون. فوجود الآخرين هو بالنسبة إلى « الأنا » وجود أصيل. « الأنا » هي « وجود مع... » بصورة دائمة، حتى في حالة العزلة يظل « الأنا » وجوداً مع الآخرين. يقول الشاعر إيليا أبو ماضي:

خلْتُ أني أصبحت في القفر وحدي
فإذا الناس كلُّهم في ثيابي

حيدر حاج إسماعيل

الموضوعات ذات الصلة:

الفلسفة ـ الوجودية ـ سارتر.

مراجع للاستزادة:

– P. F. STRAWSON, Individuals (London1959).
- NORMAN MALCOLM, "Knowledge of Other Minds", Journal of Philosophy, Vol. 55 (1958).

■ الإخراج الصحفي

الإخراج الصحفي layout علم وفن. وهو يختص بتحويل المادة المكتوبة إلى مادة مطبوعة قابلة للقراءة تؤدي الغاية التي توخاها المخرج، أو بمعنى آخر يختص الإخراج بتوزيع الوحدات الطباعية typographic units (الحروف والعناوين والنصوص والأشكال والصور والخرائط) وترتيبها في حيز الصفحة واختيار ألوانها بأسلوب يغري القارىء بقراءتها ويلفت انتباهه إلى ما فيها. ويكون انتقاء الوحدات الطباعية وإبرازها وفق خطة وإرشادات مدروسة تستند إلى سياسة الصحيفة أو المجلة. فالطباعة تعنى بإعطاء الصفحة شكلها المادي المجرد من حيث المساحة المطبوعة وعدد الأعمدة ونوع الحرف وتسلسل الوحدات ووضوحها وتناسقها طولاً وعرضاً. أما الإخراج فهو فن تحريك الوحدات الطباعية وترتيبها وتوزيعها في عملية محددة لتحقيق غاية معينة. فالإخراج، على هذا النحو، يشتمل على ناحيتين أساسيتين أولاهما عملية إبداعية تستند إلى مبادىء نفسية وجمالية هدفها إعطاء الصحيفة (المجلة) مظهرها الخارجي المناسب، وثانيتهما توافر المعارف

والمهارات والوسائل والتقنيات الضرورية لبناء ذلك المظهر وإلباسه الصورة المناسبة. ويقوم الإخراج نظرياً على أساس العلاقة الجدلية بين الشكل والمضمون، وتتيح مثل هذه العلاقة إبراز ما هو عام وخاص بين الشكل والمضمون، على أن يكون للمضمون المحل الرئيس والمحدد. فكل تبدل في المضمون يفرض تبدلاً في الشكل، إلا أن الشكل لا يتبع المضمون آلياً، لأن للشكل دوره الخاص الذي تقيده قواعد داخلية تحدد أثره في المضمون كما تحدد تنوعه. وعليه فإن للإخراج الصحفي قواعده الناظمة التي يؤثر تطبيقها على مضمون الصحيفة سلباً أو إيجاباً، وهي تصنف عادة في قواعد عامة تصلح لكل زمان ومكان، كشرط توافر صحة القراءة مثلاً، وقواعد خاصة ترتبط بمدرسة معينة من مدارس الإخراج.

كذلك فإن الإخراج الصحفي يقوم على مجموعة أسس يمكن تصنيفها في أربع فئات هي: الأسس الصحفية، وهي التي تتصل بتقويم الأخبار والموضوعات ومواد النشر واختيار ما يهم الجمهور منها. والأسس النفسية، وتتصل بمعرفة اتجاهات الرأي العام وعقلية الجماهير وأذواق القراء وعادات القراءة، وتأثير الألوان فيهم. والأسس الفيزيولوجية، وهي تتصل بقوانين الرؤية وحركات العين ومدى استيعابها وظروف التعرض للضوء. والأسس الفنية، وهي التي تسعى إلى تحقيق التوازن والإيقاع والوضوح وسهولة القراءة وتوفير الحيوية والجاذبية والجمال.

وقد فرض تطور الصحافة أن يكون للإخراج الصحفي أسس علمية تعتمد مبادىء نظرية تتعلق بشكل الصحيفة ومكوناتها. إلا أن البحوث النظرية في هذا المجال ما زالت في بداياتها ولا يمكن عدها علماً مستقلاً. أما التطبيق العملي فقطع أشواطاً كبيرة يمكن معها استخلاص قواعد ثابتة للإخراج الصحفي. ومن تلك القواعد تطبيق المبادىء النظرية العامة التي توجه المخرج الصحفي اجتماعياً وعقيدة وجمالياً، ومنها معرفة مبادىء الفنون التطبيقية، ولاسيما الرسم والتصوير، وعلاقتها بالشكل والمضمون، والإلمام بالمبادىء العامة لتقنيات تكوين الصحيفة وتشكيلها، وهذه المبادىء هي الأساس الذي تقوم عليه مبادىء الإخراج الأخرى.

والإخراج الصحفي كذلك قريب الشبه من الإخراج الموسيقي، فهو يستعير من الفن التعبيري أشياء كثيرة، وله طرائقه التي يؤثر بها في القارىء عاطفياً وجمالياً. ويتوقف اختيار الطريقة المناسبة في الإخراج على مقدرة المخرج الفنية وإتقانه إخراج الصحيفة وبناءها، وعلى مهارته في انتقاء العناصر وتحديد بنيتها وتحقيق الانسجام والتوازن والإيقاع فيما بينها، وكذلك اختيار الخطوط والألوان. فعملية الإخراج ليست تقنية صرفة ولا هي فن صرف، وهذا ما يؤكد اعتماد الإخراج على الظروف التقنية السائدة في زمن معين وعلى الأسلوب أو الأساليب الفنية السائدة في ذلك الزمن. وقد عرف الإخراج الصحفي نزعات واتجاهات فنية مختلفة في تاريخه القصير، فسادت المراحل الأولى من عمر الإخراج النزعة التقنية التي كانت تسعى إلى إبراز إمكانات الطباعة تقنياً. ومع ازدهار الطباعة والصحافة، وبروز شخصية المخرج الصحفي ودوره في العمل الصحفي سادت النزعة الجمالية التي سعت إلى إضفاء مسحة جمالية متميزة على النتاج الطباعي والصحفي، وهنالك أيضاً النزعة «التنميقية» التي تهدف إلى إعطاء الصحيفة - ولاسيما الصحيفة القومية - طابعاً مميزاً، وهنالك أيضاً النزعة «الوظيفية» التي تهدف إلى توظيف عناصر الإخراج كلها نوعاً وكماً وحجماً لتحقيق الغاية من المادة موضوع النشر مع الاستعانة بالنزعات السابقة.

ومع أن الصحافة وجدت منذ ما يزيد على أربعة قرون، فإن الإخراج الصحفي لم يدخل التاريخ إلا منذ قرن واحد فقط. فقد كانت الصحف بادىء ذي بدء مجرد نشرات تجارية موجهة إلى جمهور خاص جداً، وكانت إمكاناتها التقنية محدودة تماماً. وكان يتولى الإخراج طباعيون لا يعنيهم إدراك مضمون المادة موضوع النشر ولا الهدف منها، ويقتصر عملهم على توزيع المواد المراد نشرها على الصفحة بحيث تستوعبها تماماً من دون خطة أو هدف. وفي أواخر القرن السابع عشر حدثت تطورات مهمة وتحسينات كبيرة في صناعة الصحافة. فقد تقدمت صناعة مكائن الطباعة وصناعة الحبر والورق تقدماً كبيراً، وأدخلت أساليب حديثة في مجالي التنضيد والتصوير وطورت وسائل النقل والاتصال، وأدى ذلك إلى ازدياد سرعة تواتر الأنباء وحجومها، وأدت الثورة الصناعية واكتشاف الكهرباء وتطور الصناعات الالكترونية فيما بعد، وكذلك انتشار التعليم إلى تبدل نوعية الجمهور وازدياد عدد القراء وتوزعهم على مساحات شاسعة وفي مناطق متباعدة، كما طرأ تغير على اهتمامات القراء أدى إلى تنوع مواد الصحف ومضاعفة حجم المواد المطلوب نشرها. وكان لظهور الإعلان [ر] وعظم دوره ومكانته وتنوع حاجات المعلنين ونفوذهم أثره الكبير في ازدياد انتشار الصحف وتنوعها وزيادة عددها واحترام المنافسة فيما بينها. ومال أصحاب الصحف والصحفيون إلى تقديم صحف مقروءة على نحو سريع ومريح تتجاوب مع متطلبات القارىء المعاصر المتعب المتعجل. وقد أثّر ذلك كله في مضمون الصحف وأسلوب إخراجها، وغدت الصحيفة وسيلة الإعلام الوحيدة التي تعتمد تأثير الكلمة المطبوعة والصورة الملونة في القارىء. وتطور الإخراج الصحفي مع تطور وظيفة الصحيفة في المجتمع، وفرضت على كاهل الإخراج الصحفي مهام متعددة أبرزها إسباغ شخصية متميزة على الصحيفة والتعبير عنها والمحافظة عليها، والإسهام في تحقيق سياسة الصحيفة وإبراز توجهاتها وتقويمها للأحداث والموضوعات وموقفها منها، ويكون ذلك بتبني هيكل طباعي متماسك والإفادة من المساحة المتاحة في الصحيفة أقصى إفادة ممكنة لكثرة المواد وزيادة أهمية الإعلان اقتصادياً، إضافة إلى إعطاء الصحيفة مظهراً جمالياً يجتذب القارىء، وإيجاد علاقة مناسبة بين الشكل والمضمون، والمحافظة على وحدة الأسلوب مع التنوع في الشكل وسهولة القراءة وإبراز ما يشد انتباه القارىء ويعرّفه الموضوع ويربطه بالصحيفة.

وقد استدعى تنوع مهام الإخراج وجود مخرج صحفي متخصص يملك ثقافة فنية عالية وحساً جمالياً يمكنانه من تلبية الشروط المطلوبة منه وتطبيق أسس الإخراج تطبيقاً صحيحاً. كما اقتضت تلك المهام أن يكون لدى المخرج الصحفي ثقافة صحفية جيدة تمكنه من تقويم الأخبار والمواد وإدراك كنهها والغاية منها في ضوء سياسة الصحيفة. والمخرج الصحفي أقرب ما يكون إلى المصمم الفني، وهو يجمع بين الفن والصحافة، ويجب أن تتوافر لديه القدرة على الإبداع في وقت قصير يتناسب مع ظروف عمل الصحافة اليومية.

فالمخرج الصحفي هو المهندس الذي يصمم

الصفحات ويشرف على تنفيذها، وهو حلقة الوصل بين قسم التحرير والإعلان من جهة والأقسام الفنية والمطبعة من جهة أخرى، وهو يتوخى في عمله وحدة الأسلوب وتنوع الشكل في كل عدد من أعداد الصحيفة بما يتفق مع سياسة الصحيفة والمواد المعدة للنشر والأنباء المطلوب نشرها.

تعطى الصفحة الأولى من الصحيفة المكانة الأولى في الإخراج. فهي الواجهة التي تعبّر عن شخصية الصحيفة وتبين سياستها وتوجهاتها. وثمة مدارس ثلاث رئيسة لإخراج الصفحة الأولى من الصحف اليومية: أولها المدرسة التقليدية التي تقوم على أساس التوازن الطباعي في الشكل. وتتصف هذه المدرسة بالرتوب والبعد عن الإثارة، وفيها مذاهب كثيرة تختلف فيما بينها حول مفهوم التوازن، ومن أبرز هذه المذاهب مذهب التوازن الدقيق ومذهب التوازن النسبي. أما المدرسة الثانية فهي المدرسة المعتدلة التي تقوم على نبذ فكرة التوازن المفتعل والجامد وتطبيق المبادىء الفنية في التعبير مع تحقيق الانسجام بين أجزاء العمل لتخرج الصحيفة وحدة متناسقة متتامة، ومن مذاهب هذه المدرسة مذهب التوازن اللاشكلي الذي يتجنب قيود الشكل الهندسي، ومذهب التربيع الذي يقوم على أساس تقسيم الصفحة أربعة أقسام متساوية، ومذهب الإخراج المركز الذي يقوم على تطبيق نظرية البؤر لإبراز الموضوع الأكثر أهمية من بين سائر موضوعات الصفحة. أما المدرسة الثالثة فهي المدرسة المحدثة، وهي امتداد لحركة التجديد في الفن وفي الطباعة، وتسعى إلى أن تكون الصفحة معبرة عن مضمونها تعبيراً حياً طبيعياً من دون تقيد بأي شكل أو تقليد طباعي. ومن مذاهب هذه المدرسة مذهب التجديد الوظيفي الذي يرى أن الوظيفة هي التي تحدد شكل الصفحة وبنيتها، ومذهب الإخراج الأفقي الذي يعد تطويراً لفكرة حركة العين أفقياً وليس عمودياً في أثناء القراءة، ومذهب الإخراج المختلط وهو مذهب متطرف يتعمد فيه المخرج تحطيم كل قيود الشكل، ولايرى في الصفحة وحدة متكاملة بل يعالج كل موضوع من موضوعاتها معالجة مستقلة.

تتميز الصفحات الداخلية في الصحيفة من الصفحة الأولى بأنها تجمع بين مواد التحرير والإعلان. ويجب عند إخراج هذه الصفحات تحقيق التوازن والانسجام في عرض موادها وشد انتباه القارىء إلى ما تحويه. ويسهم قسم الإعلان إسهاماً كبيراً في تصميم هذه الصفحات وحجز أماكن الإعلان فيها، وله في ذلك أساليب منوعة، أما المخرج فيختص بتوزيع مواد التحرير على المساحات المتبقية منها.

تزداد أهمية المخرج ودوره في إخراج المجلات لأسباب كثيرة. ومن هذه الأسباب تنوع المجلات من حيث أدوار صدورها وحجمها وطرائق طباعتها ونوعية الورق المستعمل والألوان. وجمهور المجلات أشد خصوصية في الغالب من قراء الصحف فقد يكون أكثر جدية وأعلى ثقافة وأشد تعلقاً بالمجلة التي يفضلها، كما أن المجلة توفر للمخرج إمكانات أكبر لتطبيق أسس الإخراج الفنية والتصرف بحرية مع إعطاء المجلة شخصية مميزة وإسباغ نكهة خاصة عليها ومساعدتها على مزاحمة التلفزيون والمجلات الأخرى. وتتميز المجلة من الصحيفة في أن لها غلافاً وجسماً، ولكل منهما خصائصه وأسلوب إخراجه. ويبدأ إخراج المجلة بالتخطيط للعدد المقرر منها، واختيار المواد والعناصر التي يتضمنها كل موضوع سينشر في ذلك العدد، ثم توزيع المواد على الصفحات ووضع نماذج العرض والتصميمات المناسبة لها. ويعد تصميم الغلاف أهم أعمال المخرج، إذ يفترض فيه أن يعبر عن رأي المجلة وأن ينسجم مع شخصيتها وأن يجتذب القارىء إليها ويحقق انتشارها. وقد يكون الغلاف موضوعاً مستقلاً بذاته، أو إيضاحاً لموضوع حوته صفحاتها الداخلية، أو مجرد لوحة جمالية، أو رمزاً لا غير. أما جسم المجلة فيجب أن يحقق تماسك مواد المجلة وتعاقب موضوعاتها بأسلوب يدفع القارىء إلى مطالعتها من دون كلل من الغلاف إلى الغلاف.

أديب خضور

الموضوعات ذات الصلة :

الإعلان ـ الصحافة.

■ الإخراج الفني

الإخراج الفني direction هو رواية قصة ما عن طريق أداء حركات تمثيلية في المسرح أو السينما أو التلفزيون في أسلوب فني وتقني معبّر، توضح حوادث القصة بغرض المشاهدة، واستخدام المؤثرات السمعية والبصرية، وتدريب الممثلين على التنفيذ.

الإخراج المسرحي

تعد وظيفة المخرج المسرحي إدارة جميع مراحل العمل الإبداعي لمسرحية ما. ويرادف مصطلح «المخرج» في اللغة الإنكليزية كلمة «المدير» director، لأن المخرج يتحمل مسؤولية إدارة العمل وتنظيم جميع أفراده الفنيين من ممثلين وتقنيين، من أجل تحقيق التصور الجمالي الذي يعبر عن تفسير المخرج لنص المؤلف. أما المصطلح الفرنسي mise en scène فإنه يشير إلى رسم حركة المشاهد.

وكان الإخراج أيام الإغريق جزءاً من مهمة الكاتب المسرحي، ثم أصبح في أيام شكسبير وموليير مهمة تناط بالممثل النجم، إلى أن استقلت مهنة المخرج في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ويعزى إلى دوق ساكس-ماييننغن Saxe- Meiningen (١٨٢٦-١٩١٤) الألماني، جورج الثاني، المحب لفن المسرح، أنه أول من رسّخ المفهوم المعاصر لمهنة المخرج، وتلاه كل من أندريه أنطوان A Antoine (الفرنسي)، وكونستانتين ستانيسلافسكي C. Stanislavski (الروسي)، وغوردن كريغ G Craig (البريطاني)، وماكس راينهارت M Reinhardt (النمسوي)، وبرتولد برشت B Brescht (الألماني). ولكن بريطانية ظلت تجمع بين المخرج والممثل معاً مثل لورنس أوليفييه [ر] L Olivier، وجون غيلغود J Gielgud واليوم، أصبح بدهياً قيام مخرج / مؤلف بإخراج مسرحية لغيره، أو مخرج / ممثل بإخراج مسرحية لا يؤدي فيها.

وقد ازداد عدد المخرجين في العالم منذ ثلاثينات القرن العشرين مع نمو فن الإخراج في الولايات المتحدة التي أخذت منهج ستانيسلافسكي وطورته في اتجاهات متباينة. ومن أهم من أرسوا قاعدة قوية لفن الإخراج المسرحي: إيليا كازان E Kazan، ولي ستراسبرغ L Strasberg، وهارولد كلورمان H.Clurman،

وجوزيف تشيكن J.Chaikin (المجري) . وقد نما الإخراج في أوربة عامة، واحتل مكانة بارزة في الفن المسرحي، وخاصة في أعمال بيتر بروك P.Brook ، وبيتر شتاين P.Stein ، ويوري ليوبيموف Y.Lyubimov وأمثالهم.

ومنذ أواسط القرن العشرين وجدت نظريتان رئيستان للإخراج المسرحي، بغض النظر عن الأساليب، الأولى تنطلق من عملية تخطيط منظم ومسبق لجميع تفاصيل العرض، بما فيها حركة الممثلين. أما الثانية، فتعتمد على استكشاف النص من التجارب العامة التي تسبق العرض وتتخللها ارتجالات في الأداء المسرحي. ولكن نجاح المخرج في الحالتين يظل مقروناً بقدرته على استخلاص أفضل مالدى الممثلين والفنيين من طاقات إبداعية، وتوظيفها بعدالة ودقة وإيجابية، لتخدم جميعاً تفسيره للمعنى وتصوره للشكل الذي يجب أن تكون عليهما المسرحية في مكان وزمان معينين.

الإخراج السينمائي

يمكن أن يعرف الإخراج السينمائي بأنه « رواية قصة بالصور والمؤثرات الصوتية والبصرية والحركية »، ويعد المخرج عماد العمل السينمائي. وقد استطاع بعض المخرجين جلب أشخاص عاديين اكتشفوا فيهم الموهبة الفنية وجعلوا منهم نجوماً، وقلل البعض الآخر من الحوار في أفلامه بقدر كبير مستعيضاً عنه بالمؤثرات من حركة وصوت ولون وإيحاء. لكن أهمية المخرج السينمائي تعود إلى ما قبل ذلك، أي إلى عهد السينما الصامتة، في الولايات المتحدة أو في ألمانية أو روسية أو فرنسة. ومن الرواد الذين خلدتهم أعمالهم: غريفيث Griffith، وتشارلي تشابلن Ch. Chaplin، وآبيل غانس A. Gance وآيزنشتاين [ر] Eisenstein . ومع دخول الصوت إلى صناعة السينما عام ١٩٢٦، وتطور تقنيات التصوير والمونتاج والمزج الفني (المكساج)، ثم ولوج صناعة التلوين على الأفلام، وابتكار « الشاشة الموسعة » (السينماسكوب) cinèmascope، تزايدت أعباء المخرج كثيراً، لأنه فضلاً عن موهبته الإبداعية، عليه أن يتولى إدارة أعداد كثيرة من الفنيين ويشارك في تصميم الأزياء والإضاءة و(المكياج) ليحمل الفيلم توقيع مخرجه. والفارق مهم بين الإخراج المسرحي والإخراج السينمائي. ففي المسرح، يقدم المخرج للمشاهد عرضاً حياً يستطيع المشاهد أن ينظر من خلاله إلى أية زاوية من المسرح بمحض اختياره. أما في السينما، فإن المخرج هو الذي يختار اللقطات والزوايا المحددة من قبله. لذلك كان قول الممثل والمخرج البريطاني أورسون ويلز O. Welles مهماً حول ضرورة أن تكون « الكاميرا عين الشاعر ».

والإخراج السينمائي ليس إدارة ممثلين فحسب، بل هو تصور تعبيري متكامل لكيفية رواية موضوع معين بالأسلوب الأمثل لإحراز التأثير المطلوب. لذلك فإن التعاون بين المخرج ومدير التصوير وفني الجمع والتركيب (المونتاج)، له أثر حاسم في إنجاح الفيلم أو إخفاقه. وقد أصبحت صناعة السينما معقدة، خاصة في « هوليود » التي غزت بقية أرجاء العالم بتياراتها السينمائية المختلفة مثل أفلام المنوعات الموسيقية، ورعاة البقر (الكاوبوي)، والجريمة (المافيا)، والملهاة، والفروسية، والحروب، إذ أصبح لكل منها مخرج في مجاله الاختصاصي المحدد، وفي الحرب العالمية الثانية نزح رواد السينما الألمان إلى الولايات المتحدة، ومنهم فريتز لانغ F. Lang، ووليم فيلر W. Wyler، وبيلي فيلدر B. Wilder. ثم مالبث الإخراج السينمائي أن أصبح مهنة اختصاصية، وبرزت أسماء لكبار المخرجين العالميين مثل: كوروساوا Kurosawa، وفيتوريو دي سيكا V. de.Sica، ولوي بونيويل L. Buñuel، وألفريد هتشكوك A. Hitchcock، وسيرغي بوندارتشوك S. Bondarchuk، وأنغمار برغمان I. Bergman، وفيدريكو فليني F.Fellini، وإيليا كازان E.Kazan ، وروبرتو روسليني R. Rossellini.

ومن أبرز المخرجين العرب للسينما العربية: صلاح أبو سيف [ر]، ويوسف شاهين، وعاطف الطيب، ومحمد خان (من مصر)، ومحمد الأخضر حامينا، وأحمد الراشدي (من الجزائر)، ومحمد ملص، وعبد اللطيف عبد الحميد (من سورية)، وفريد بوغدير، ونوري بوزيد (من تونس)، وخالد الصديق (من الكويت)، وجميل شكري (من العراق).

ومع أن صناعة السينما أصبحت بالألوان، إلا أن بعض المخرجين المعاصرين ما زال يقوم بتصوير أفلامه بالأسود والأبيض، متحرياً الإحساس بمصداقية تسجيلية تمتد بأثرها إلى المشاهد، ومنهم مارتن سكورسيزه M. Scorcese في فيلم « الثور الهائج ». كذلك فعل المخرج العربي المصري محمد فاضل عندما صور فيلم « ناصر ٥٦ »، كما أن التصوير بالأسود والأبيض، والألوان معاً يستخدم للدلالة على الخيال والأحلام والأفكار المجردة.

واعتمدت صناعة السينما، منذ أفلام تشارلي تشابلن، على الخدع السينمائية وتطورت تقنياتها على نحو ملحوظ في الربع الأخير من القرن العشرين مثل فيلم « حرب النجوم ». واشتهر المخرج ستيفن سبيلبرغ S Spielberg باستخدامه تقنيات الخدع السينمائية المتطورة في أفلامه مثل فيلم « الحديقة الجوراسية » كما أنشأ شركة سينمائية لإنتاج أفلام بالحاسوب، ومن دون استخدام ممثلين أو محترفات للتصوير.

أما عن أفلام الكرتون الطويلة التي أطلقها المخرج السينمائي الفنان والت ديزني W. Disney منذ أفلام « سنووايت والأقزام السبعة » مروراً بأفلام الحيوانات، التي تتكلم بلسان الممثلين، الملائمة للأطفال والكبار معاً، فقد تطورت هذه الأفلام تطوراً كبيراً وأصبح الإخراج فيها، وزوايا تصوير رسومها ينافسان السينما العادية. ووصل الأمر بديزني في فيلمه « فانتازيا » إلى استخدام « الفن التجريدي » مع الموسيقى بصورة تجريبية جريئة، وإلى إدخال شخصيات كرتونية مع ممثلين أحياء. واستخدمت هذه التقنية بصورة أوسع مع الفيلم « ماري بوبنز » M. Poppins من بطولة جولي أندروز J. Andrews، وديك فان دايك D. Van Dyke الذي يرقص مع شخصيات كرتونية.

ولكن هذه الأفلام وصلت إلى ذروتها مع شخصية « روجر رابيت » R.Rabbit أو « روجر الأرنب » التي ابتدعتها شركة « وارنر » السينمائية في الفيلم المسمى « من أوقع روجر الأرنب؟ ». وإذا كانت السينما قادرة على خلق شخصيات غريبة مقنعة من الحيوانات، كما في فيلم « غريملنز » أو فيلم « إي تي » E.T. فإنها أصبحت تستطيع إنتاج فيلم طويل كامل بشخصيات مجسمة غير بشرية، كما في فيلم « قصة دمى »، وكذلك بالإقدام على إنتاج فيلم من بطولة شخصية حيوانية طريفة، كما في فيلم « بايب » Pipe، وهو من بطولة خنزير، أو فيلم « ملك الغابة » The Lion King. لكنه مهما بلغ التقدم التقني في السينما لتوفير الميزانيات

وتسهيل الإنتاج، تبقى حصيلة الجهود البشرية في المقام الأول. وقد تفيد التقنيات الفنية في إخراج أفلام تاريخية ضخمة بعض الشيء. كما أفادت أفلام المغامرة الحركية بعض نجوم السينما مثل شوارزينغر Schwarzenegger، وستالونه Stallone، وويليس B.Willis، لكن هذه الأفلام لا تعتمد التقنية كلياً إذ إن تقاليد السينما الضخمة منذ المخرجين كوروساوا الياباني، ووايلر وكوبريك Kubrick الأمريكيين، هي نفسها تقريباً في أفلام خالدة أكثر حداثة مثل: «الامبراطور الأخير» للمخرج برتولوتشي Bertolucci، و«هنري الخامس» للمخرج كينيث براناغ K.Branagh، و«الملكة مارغو» للمخرج باتريس شيرو P.Chéreau، و«قلب شجاع» للمخرج ميل غيبسون M.Gibson. وسيكون تطور الإخراج إجمالاً تابعاً لعوامل اقتصادية تحدد حسبان الكلفة لكل تقنية ولكل فيلم منتج، وفي ضوء تقدير الكلفة يجري إخراج الأفلام المناسبة والاقتصادية.

الإخراج التلفزيوني

حاول التلفزيون في بداية انطلاقته أن يقتدي بكل من المسرح والسينما في مقاربته فن الدراما، إلا أن «المونتاج» لم يكن متاحاً من الناحية التقنية، لذا كانت الأعمال الدرامية تصور دفعة واحدة، فإذا حدث خطأ ما، يعاد العمل من بدايته. أما التشبه بالسينما فنجم عن كون أداة الإيصال في التصوير بعدة أجهزة تصوير عوضاً عن آلة واحدة. وفي مرحلة نضج الدراما التلفزيونية، صار الإخراج التلفزيوني يستخدم المونتاج كثيراً ليقترب من السينما في ذلك، ولكن ظل العمل الإخراجي التلفزيوني محصوراً ضمن جدار المحترف وسط تزيينات المشاهد (الديكورات) المصطنعة، وتحت إضاءة باهرة لابد منها للحصول على صورة جيدة باستخدام أجهزة التصوير الحساسة. وبقدر ماظن المسرحيون من جهة، والسينمائيون من جهة أخرى أن الإخراج التلفزيوني سهل اكتشفوا أنهم في حاجة إلى ممارسة ومران قبل أن يسيطروا على إدارة المشاهد كاملة، والقيام بمونتاج فوري عبر التقطيع الفني، أي إخراج كل جزء من العمل بعدة آلات تصوير. لذلك، فإن الإخراج التلفزيوني يعتمد بالضرورة على تحضير مسبق دقيق جداً، في حين قد يتاح نوع ما من حرية الإبداع والارتجال النسبي في المسرح والسينما. لكن الأمر عاد فاختلف مقترباً من اللغة السينمائية أكثر مع اختراع آلة التصوير الصغيرة المحمولة وعربات النقل الخارجي التي أمكنت المخرج من الخروج من إسار المحترف، وتصوير مشاهده في المواقع الطبيعية. وقد أتاح ذلك حرية أكثر وارتجالاً وتصويراً للمشاهد لقطة فلقطة في بعض الأحيان من زوايا لم تكن متاحة من قبل. لكن لقطات الإخراج التلفزيوني عموماً تختلف بعض الشيء عن لقطات السينما، نظراً لاعتماد التلفزيون على حوارات طويلة أشبه بالمسرح، وكون مواضيع مسلسلاته غالباً ماتدور حول قضايا اجتماعية حميمة، مما يستدعي إيضاح الشخصيات للمشاهد بلقطات أقرب. هذا فضلاً عن التنوع بين التصوير الخارجي والداخلي، ومحاولة المطابقة بينهما من حيث «الديكور» والإضاءة. والإخراج التلفزيوني حرفة أقرب إلى العلم، إذ إنها تكون فنية ومعبرة عندما تبتعد عن النزعة الاستعراضية فتحقق غاية المشاهدة الجذابة واللافتة للانتباه، وتقدم رواية القصة صراع الشخصيات إلى المشاهد أكثر إيضاحاً وإثارة للاهتمام.

وتعرض الإخراج التلفزيوني والسينمائي إلى تدخل التقنيات الحاسوبية (الإلكترونية) التي جعلته أكثر فاعلية وأقل كلفة.

رياض عصمت

الموضوعات ذات الصلة:

السينما ـ المسرح.

مراجع للاستزادة:

- روبير لافون جراموف، السينما المعاصرة.
- EDWARD MUSSAY, The Film Classics A-Re- Viewing.
- J.W.KIRK & R.A.BELLAS, The Art of Directing.

■ الإخشيديون
(٣٢٣-٣٥٨هـ/ ٩٣٥-٩٦٩م)

حكام الدولة التي عرفت في التاريخ باسم الدولة الإخشيدية، وقد تأسست في مصر والشام، وامتدت إلى الحجاز واليمن وحكامها من الترك. مؤسسها محمد بن طُغج، الملقب بالإخشيد. وقد نال هذا اللقب سنة ٣٢٦ أو ٣٢٧هـ/ ٩٣٧ أو ٩٣٨م بناء على التماس منه للخليفة الراضي بالله. وهو لقب من ألقاب ملوك فرغانة القدماء، الذين يزعم الإخشيديون أنهم من نسلهم. وقد أعطى المؤرخون لهذا اللقب معاني عدة.

أول من عرف من أفراد هذه الأسرة جفّ بن يلتكين، الذي يقال إنه صاحب سرير الذهب. قدم جفّ إلى العراق إثر توجيه المعتصم إليه من أحضره لكثرة ماوصف به من الشجاعة والإقدام في الحروب، في الوقت الذي بدأ فيه المعتصم يعتمد على الأتراك في جيشه.

انضم جف لجيش المعتصم في سامراء، وأقطع بها قطائع، واستمر كذلك في عهد كل من الواثق والمتوكل، وتوفي سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م.

كان لجف عدد من الأبناء على رأسهم طغج ومعناه عبد الرحمن وأخوه بدر. وقد التحقا بالدولة الطولونية، فأصبح بدر من القادة، على حين تقلد طغج عدة أعمال إدارية، ونال مكانة عند خمارويه، فقلده حكم دمشق وطبرية.

تمرد طغج على سيده خمارويه، ولم ينفذ ماكلفه إياه من قتل راغب الخادم والي الثغور، وأخذ يتلمس المعاذير لنفسه. إلا أن خمارويه عزم على الفتك به، غير أن خمارويه قتل قبل تحقيق ذلك.

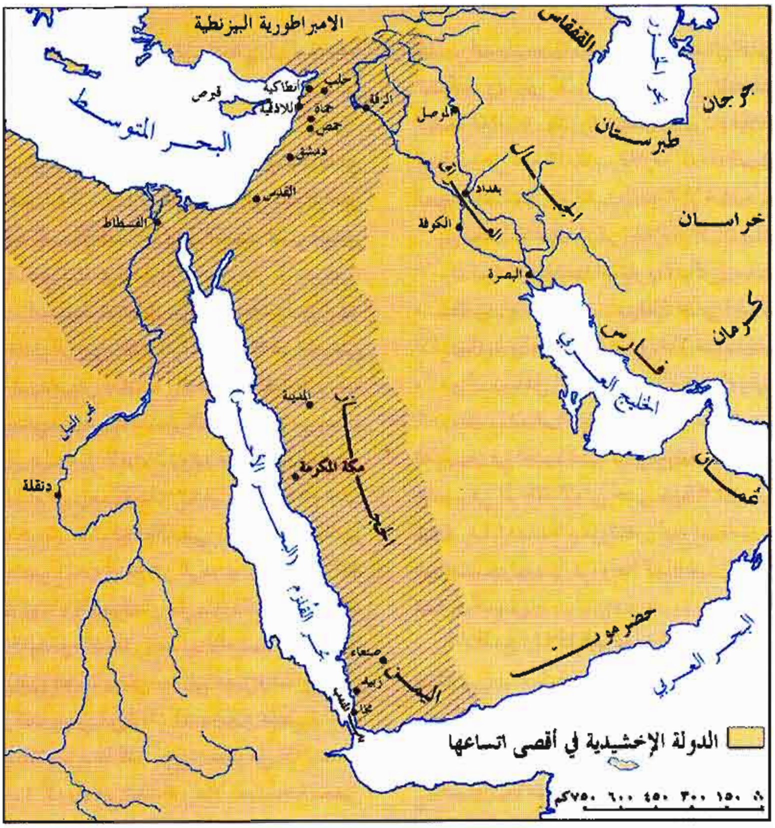
ظل طغج بن جف والياً على دمشق وطبرية في عهد جيش بن خمارويه الطولوني. وما لبث أن شق مع أخيه بدر عصا الطاعة على جيش، وقتلاه، ووليا هارون بن خمارويه مكانه.

حكم طغج بلاد الشام في عهد هارون بن خمارويه حكماً مستقلاً إلى حد كبير. وكان له شأن بارز في أحداث المنطقة، وأثر كبير في تحريض بعض قواد الطولونيين على أمرائهم. وكان لهؤلاء القواد الذين انضموا للجيش العباسي أثر كبير في القضاء على الدولة الطولونية.

تولى طغج بن جف بعد القضاء على الطولونيين ولاية قنسرين ثم تركها، وذهب إلى بغداد حيث سجن مع ولديه محمد وعبيد الله.

تأسيس الدولة الإخشيدية

خرج محمد بن طغج الإخشيد من السجن، فتوجه إلى الشام، وتقلب في المناصب، وبرز



اسمه في مجالات عدة قيادية وإدارية قبل تأسيس الدولة، فتولى طبرية ثم الرملة ثم دمشق. وعلى الرغم مما حققه لنفسه في الشام، فقد كان يطمح بولاية مصر، وعمل جاهداً للحصول عليها. ودعي له لأول مرة على منابرها سنة ٣٢١هـ /٩٣٣م مدة شهر ويومين من دون أن يدخلها. ثم مالبثت الخطبة أن توقفت وسنحت له الفرصة ثانية في عهد الخليفة العباسي الراضي بالله، الذي منحه ولاية مصر، فدخلها في ٢٣ رمضان سنة ٣٢٣هـ/ ٢٧آب ٩٣٥م.

اتخذ ابن طغج الإخشيد من مصر مركزاً لحكمه، وعين نواباً في المناطق الأخرى التابعة له، وتعرض في أثناء حكمه للمنافسة من الأمراء المحيطين والطامعين. وكان على رأسهم بدر الخرشني، والحسين بن أبي العلاء بن حمدان، وعبد الله بن حمدان، وعلي بن حمدان، وتكين الخادم، وابن رائق، ويانس المؤنسي، فثبت لهم جميعاً.

أمراء الدولة بعد الإخشيد

توفي الإخشيد في ذي الحجة سنة ٣٣٤هـ / تموز ٩٤٦م وهو في دمشق، ودفن في بيت المقدس. وقد خلف تركة كبيرة جمعها من المصادرات. وتولى حكم الإمارة بعده أبو القاسم أونوجور، وكان عمره حينئذ لايتجاوز الخامسة عشرة. وتولى كافور الوصاية عليه، وترك أونوجور في القصر بعد أن حدد له مخصصات تكفيه للإنفاق، وقدرها أربعمئة ألف دينار في العام.

حكم كافور البلاد في أثناء وصايته بقوة، وتعرض في مطلع وصايته إلى ثورة أهالي دمشق، فقد استغلوا موت الإخشيد، وأشعلوا نيران ثورة عارمة، وقام العامة بنهب خزائن الإخشيد، والظاهر أن قسطاً وافراً من أموال الإخشيد لم تصل إلى أيدي العامة، لأن الإخشيد كان يوصي بألا توضع هذه الأموال في صناديق ينشدها الثوار واللصوص، بل في أكياس من الأمتعة لاينتبه إليها أحد. وأفادت هذه الفكرة في حفظ أمواله عند وفاته، إذ أمر كافور حين قامت الفتنة بإلقاء هذه الأكياس في بركة الماء، وظلت فيها حتى سكنت الفتنة.

استمر كافور مسيطراً على الحكم، ولما بلغ أونوجور السن القانونية، أراد أن يحكم البلاد بنفسه فلم يستطع. وظل الأمر كذلك حتى وفاته في ذي القعدة سنة ٣٤٩هـ/ كانون الثاني ٩٦١م. ويقال إنه مات مسموماً، ونقل جثمانه إلى بيت المقدس.

خلف أونوجور في الإمارة أخوه أبو الحسن علي بن محمد الإخشيد. وكان عمره حين تولاها ثلاثة وعشرين عاماً. وعلى الرغم من ذلك، فإنه كان تحت وصاية كافور الذي ترك له كأخيه مخصصات ينفقها. وحجره في القصر، ولم يدع له فرصة للظهور أمام الجمهور.

حاول علي بن الإخشيد كأخيه، إبعاد كافور عن الحكم، والتفرد به، فلم يستطع لأسباب كثيرة. وأدت المحاولة إلى تضييق كافور عليه، حتى مات في المحرم ٣٥٥هـ / كانون الأول ٩٦٥م. واتهم كافور بدس السم له، وحمل جثمانه إلى بيت المقدس، حيث دفن هناك مع أبيه وأخيه.

بقيت البلاد من دون أمير أياماً إثر وفاة علي، ودعي للخليفة العباسي المطيع فقط. ثم أظهر كافور وثيقة تظهر توليه الإمارة من قبل الخلافة، فدعي له على المنابر باسم الخليفة، ولكن الأمر لم يطل، فقد توفي في جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ / ٢٣ نيسان ٩٦٨م.

عقدت الولاية بعد كافور لأحمد بن علي ابن محمد الإخشيد، وكان صبياً لايستطيع الحكم بمفرده. وخرج عليه في الشام قريبه الحسن بن عبيد الله بن طغج طامعاً في الإمارة. واستولى على الأموال فيها. ومالبثت الأمور أن سويت، على أن يدعى لأحمد بن علي الإخشيد على منابر مصر والشام والحرمين، ثم من بعده للحسن بن عبيد الله بن طغج. إلا أن الأمر لم يطل بعدئذ فقد تعرضت مصر لهجمات الفاطميين، وسقطت الإمارة الإخشيدية في مصر سنة ٣٥٨هـ /٩٦٩م، وفي الشام سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م.

علاقة الدولة الإخشيدية مع القوى المجاورة

العلاقة مع الخلافة العباسية: نال محمد بن طغج الإخشيد ولايته برضا الخلافة العباسية. فقد منحه الخليفة العباسي الراضي بالله تقليداً بولاية مصر والشام والثغور. واستمرت علاقات أفراد الأسرة الإخشيدية حسنة بوجه عام مع الخلافة العباسية. وكانت لهذه العلاقات الحسنة أسباب دعت إليها من أهمها:

أ ـ نجاح الإخشيد في التصدي لحملات الفاطميين: فقد أرسل إليهم جيشاً هزمهم،

وأرغمهم على العودة إلى شمالي إفريقية، بعد أن كانوا قد دخلوا الإسكندرية فيما بين سنتي ٣٢١-٣٢٤ هـ / ٩٣٣-٩٣٦م.

ب - أخلاق الإخشيد الحسنة، ومقدرته في تصريف الأمور: وقد أدى ذلك إلى منح الراضي إياه لقب الإخشيد. وهو اللقب الذي اشتهر به، وعرفت به الإمارة.

استمرت علاقات الإخشيد حسنة في عهد خلفاء الراضي. فقد أقره الخليفة المتقي لله على مابيده من أملاك، وأرسل له الخلع. كما استنجد به من دون سائر الأمراء حين فر من بغداد من ظلم أمير الأمراء توزون. فسار الإخشيد إلى الشام في رجب سنة ٣٣٢هـ/ آذار ٩٤٤م حتى بلغ مدينة الرقة، والتقى الخليفة، وأظهر الخضوع له، وامتنع عن الركوب بين يديه، وقدم له الهدايا والأموال، وفعل مثل ذلك مع أصحاب الخليفة وحاشيته. وطلب الإخشيد من الخليفة المتقي لله أن يسير معه إلى مصر والشام فأبى. وكان يبغي من ذلك أن يجعل مصر قاعدة للخلافة. فلما لم ينجح، فكر في أن يتسلم إمرة الأمراء في بغداد، لولا نصيحة بعض المخلصين.

لم يطرأ أي تغيير على علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية في بغداد في عهد كل من المستكفي والمطيع. وشغل الإخشيد في هذه الحقبة بنزاعه مع سيف الدولة الحمداني. وتوضح السكة المسكوكة في عهد الإخشيد العلاقات بينه وبين خلفاء العباسيين. ففي الحقبة الأولى من إمارته، حتى سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠-٩٤١م، كان الإخشيد يدين بالطاعة التامة للخليفة الراضي بالله، ثم للخليفة المتقي لله. وكان ينقش على السكة أسماءهم فقط. ثم ضرب ديناراً في العام نفسه نقش عليه اسمه فقط، ثم عاد بعد ذلك لينقش اسم الخليفة، ثم اسمه بعده كغيره من أمراء الولايات الكثيرة.

عمل خلفاء الإخشيد على أن تبقى علاقاتهم جيدة مع العباسيين، وكان لأمراء هذه الدولة وكلاء في بغداد يعملون على السهر على شؤون الإمارة، ويراقبون مايجري في دار الخلافة. وقد ذكرت كتب التاريخ بهذا الخصوص، اسم مولى لمحمد بن طغج الإخشيد، وآخر لمولاه كافور من بعده.

ويمكن القول أخيراً إنه كان يربط بين الخلافة العباسية والإمارة الإخشيدية روابط قوية. فقد كانت أسماء خلفاء العباسيين تنقش على السكة، ويدعى لهم على المنابر في المناطق التابعة للإمارة. وشارك الإخشيديون الخلافة العباسية في دفع النفقات اللازمة لفداء أسرى العرب المسلمين. وكانت الدولة الإخشيدية ترسل بعض الأموال لمركز الخلافة، إلا أن هذه الأموال لم تكن محددة المقدار ولم يكن إرسالها منتظماً. وكان ذلك يتوقف على الحالة الاقتصادية والعسكرية للدولة الإخشيدية. ويبدو أن تساهل الخلافة العباسية في الأموال، كان بسبب تسلم الإخشيديين أمر الدفاع عن العباسيين في الجبهة الشمالية والغربية. فقد كان عليهم في المرحلة الأولى حتى سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤-٩٤٥م، الدفاع عن الثغور أمام البيزنطيين، إلى جانب وقوفهم في وجه الفاطميين طوال مدة حكمهم.

العلاقة مع الخلافة الفاطمية: بدأ الإخشيد عمله في إمارته بقتال الفاطميين في الإسكندرية وإخراجهم منها. ولما رأى الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله بلاء الإخشيد وقوته، أراد أن يستميله إليه، عسى أن يحقق بالسياسة ماعجز عن تحقيقه بالقوة. فكتب إلى الإخشيد كتاباً أرسله مع رسوله يستميله إليه، ويطلب منه الخروج عن طاعة العباسيين، والدخول في طاعته.

استخدم الإخشيد السياسة والحنكة في الإجابة عن الرسالة مشافهة، ووعد أن يكتب إليه فيما بعد، وأن يسلك من حسن الموالاة مالم يكن غيره يسلكه. وفكر الإخشيد بعدئذ في الانحياز للفاطميين إثر خلافه مع ابن رائق، وظهور الخليفة العباسي بمظهر العاجز عن حمايته في أملاكه. ومن المرجح أنه لم ينفذ مافكر به، إلا أنه عمل على كسب ود الفاطميين، فعرض زواج ابنته من ولي عهد الخليفة الفاطمي. وكان الإخشيد يطمح من وراء هذا الزواج إلى تمتين صلته بالفاطميين وعدم التعرض لهجماتهم، إضافة إلى مكاسب أخرى. إلا أن الخليفة الفاطمي كتب إليه يعلمه بأنه وافق على عرضه، وطلب منه أن يدع ابنته وديعة عنده، وأن يمهرها من واردات مصر والشام مئة ألف دينار. وهذا يشير إلى أن الخليفة الفاطمي أراد أن يفهم الإخشيد أنه أصبح تابعاً له في ولايته.

عمل كافور بعد سيده الإخشيد على استخدام السياسة في علاقاته مع الفاطميين، فقد كان يهادي المعز صاحب المغرب، ويظهر ميله إليه، ويذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخادع هؤلاء وأولئك حفاظاً على الإمارة. وقد قام الفاطميون نتيجة لذلك باتباع أساليب كثيرة. فتارة يكتفون بمراقبة أوضاع مصر ونشر الدعوة لأنفسهم فيها، وأخرى يسفرون عن عدائهم فيرسلون جموعاً من جنودهم يعيثون في أراضيها.

وحقيقة الأمر أن الفاطميين استطاعوا في العهد الإخشيدي نتيجة للدعاية المنظمة، واستغلال الأوضاع أن يجعلوا عدداً كبيراً من سكان مصر يدينون بمذهبهم، ويبايعون الخليفة الفاطمي. ويبدو أن الجو في مصر أصبح مهيأً لدخول الفاطميين إليها عقب وفاة كافور الذي كان يُعَدّ العقبة الوحيدة في طريقهم. حتى إن دعاة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في مصر كانوا يقولون: «إذا زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها» ويقصدون كافوراً الإخشيدي. وكان أن قام الفاطميون بالقضاء على الدولة الإخشيدية بعد وفاة كافور بمدة لاتزيد على السنة إلا قليلاً.

العلاقة مع ابن رائق: محمد بن رائق هو أول أمراء الأمراء. وقد دفعته ظروف التنافس على هذا المنصب إلى ترك بغداد، والتوجه نحو بلاد الشام بعد أن حصل على تقليد من الخليفة بحكم طريق الفرات وديار مضر وجند قنسرين والعواصم.

بدأت الاصطدامات بين ابن رائق والإخشيد، منذ أن استولى ابن رائق على حلب سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٩م، ومطالبة الإخشيد بدفع مقدار من المال على ممتلكاته في الشام. حاول الإخشيد في البداية استرضاء ابن رائق بالمال، ولكنه لم يفلح، وأخذ الأخير يستولي على الثغور والرقة وحمص ودمشق وغيرها وأتبعها بالرملة في آخر ذي الحجة سنة ٣٢٧هـ/ أيلول ٩٣٩م.

لم يجد الإخشيد بداً من إعداد العدة لقتال ابن رائق، والتحم الجيشان عند العريش في منتصف شهر رمضان ٣٢٨هـ/ ٢٥ حزيران ٩٤٠م، وكاد جيش ابن رائق أن ينتصر لولا خروج كمين الإخشيد عليه، فانهزم ابن رائق وتراجع إلى دمشق، فبعث إليه الإخشيد أخاه أبا نصر في جيش كثيف، فلما سمع بهم ابن

رائق سار إليهم من دمشق فالتقوا باللجون، وانهزم جيش أبي نصر وقتل هو، فأرسل ابن رائق جثمانه مع ابنه مزاحم وكتب إليه بالعزاء والاعتذار وأن مزاحماً فداؤه، فخلع عليه الإخشيد ورده إلى أبيه. وتم الصلح بينهما على أن يحكم ابن رائق الولايات الشامية إلى الشمال من الرملة وعلى أن يدفع الإخشيد إليه مئة وأربعين ألف دينار كل سنة عن الرملة.

ومالبثت ظروف الخلافة العباسية، والنزاع على منصب إمرة الأمراء أن ساعدت في عودة بلاد الشام إلى الإخشيد. فقد سار ابن رائق في رمضان سنة ٣٢٩ هـ/ حزيران ٩٤١ م إلى بغداد ليتولى منصب إمرة الأمراء واستخلف ابنه على أعماله في الشام، ولكنه قتل على يد الحمدانيين.

العلاقة مع الحمدانيين: كانت حلب تابعة للإخشيديين، فطمع الحمدانيون بها، ودخلها سيف الدولة سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٥م، وبدأ بعدئذ التنافس جلياً بين الطرفين، وتوالت الحملات العسكرية. فقد كان سيف الدولة يحلم بحكم بلاد الشام كلها، وبدأ يعمل على ضم دمشق إليه، فأرسل له الإخشيد جيشاً التقاه في الرستن، وكان النصر لسيف الدولة، وتقهقهر جيش الإخشيد إلى دمشق، وخرج منها قاصداً الرملة، ودخل سيف الدولة دمشق.

عزم الإخشيد على لقاء سيف الدولة بنفسه واستعادة دمشق، وقد تمكن من تحقيق ماعزم عليه بمساعدة بعض العوامل منها: أن أهالي دمشق لم يكونوا يميلون إلى سيف الدولة، ووجود سيف الدولة خارج دمشق في ذلك الوقت لتأديب الأعراب الخارجين عليه، ووجود أنصار للإخشيد داخل دمشق وقدرته على الاستفادة منهم.

وسار الإخشيد من دمشق إلى حمص ثم إلى قنسرين، والتقى سيف الدولة فيها في شوال سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٥م، وعلى الرغم من انتصار سيف الدولة في الجولة الأولى، فإنه مالبث أن انهزم ودخل الإخشيد حلب حاضرة الحمدانيين. ثم جرت مفاوضات للصلح بينهما أسفرت عن أن يكون لسيف الدولة حلب ومايليها من بلاد الشام بدءاً من جوسية وحمص. وعقدت مصاهرة بين الطرفين، وتزوج سيف الدولة ابنة أخي الإخشيد. أما الأسباب التي دعت الإخشيد لعقد الصلح فهي:

- أن الخطر كان يحدق بمصر من جهة الفاطميين الذين تزايدت قوتهم في المغرب. وأخذوا يرسلون الحملات المتتالية لاحتلال مصر.
- أن الدولة الحمدانية يجب أن تبقى حصناً منيعاً بينه وبين البيزنطيين، فلا يستطيع هؤلاء التعرض لأملاكه من وقت إلى آخر.
- أن هذا الإقليم يعد المجال الحيوي لاتساع سلطان الحمدانيين الذين أسسوا دولتهم في الموصل.
- أن انتصار الإخشيد لم يكن حاسماً، والحرب ستظل قائمة بينه وبين الحمدانيين إن لم يعقد المعاهدة.

استغل سيف الدولة فراغ دمشق من حامية إخشيدية قوية إثر وفاة الإخشيد، فنقض الصلح، واتجه بجيشه إليها ودخلها في صفر سنة ٣٣٥هـ/ أيلول ٩٤٦م، وأتبعها بالرملة.

لم يرغب أهالي دمشق بحكم سيف الدولة، ولاسيما بعد أن علموا طمعه بالاستيلاء على غوطة دمشق، فاستدعوا كافوراً، فجاء مسرعاً والتقى سيف الدولة في منطقة أكسال بنواحي الأردن في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٣٥هـ/ ٢٢ كانون الأول ٩٤٧م، وكان النصر حليف الإخشيديين، كما أحرزوا نصراً آخر في مرج عذراء. وتابع كافور تقدمه حتى دخل حلب في ذي الحجة سنة ٣٣٥هـ/٩٤٧م.

ترددت الرسل بين الطرفين، وانتهت المفاوضات بعقد معاهدة الصلح بالشروط نفسها التي كانت بين الإخشيد وسيف الدولة، ماعدا الجزية فإن كافوراً لم يقبل بدفعها. وانتهت الحروب بين الطرفين على إثر هذا الصلح، وساد الصفاء بينهما.

العلاقة مع القرامطة: تعرضت سيادة الإخشيديين على بلاد الشام للخطر من جانب قرامطة البحرين. الذين أغاروا على بلاد الشام منذ سنة ٣١٦هـ/ ٩٢٨-٩٢٩م. وهاجموها سنة ٣٥٣ هـ/ ٩٦٤م وانتصروا على الإخشيديين في حملة طبرية، وفرضوا عليهم مبلغاً من المال. وأغاروافي سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٧-٩٦٨م ثانية، وعجز الحسن بن عبيد الله الإخشيدي حاكم الشام عن صدهم، فسقطت الرملة في أيديهم، وتعهد لهم الحسن بن عبيد الله بإتاوة سنوية قدرها ثلاثمئة ألف دينار. وبذلك امتد نفوذ القرامطة إلى بلاد الشام في أواخر حكم الإخشيديين.

العلاقات مع البيزنطيين: كان لأفراد الأسرة الإخشيدية خبرة في قتال البيزنطيين، إذ تولى عدد من أمرائهم قتال البيزنطيين قبل قيام الإمارة. ففي سنة ٢٨١ هـ/ ٨٩٤-٨٩٥ م قام طغج بن جف بغزو البيزنطيين، وتابع ابنه محمد الاهتمام بأمر الحدود مع البيزنطيين منذ أن عمل على إنشاء الإمارة الإخشيدية. واتسمت سياسة هذه الدولة عامة مع البيزنطيين بالمهادنة. فقد وافق الإخشيد على هدنة مع البيزنطيين، بناء على كتاب من الامبراطور البيزنطي في سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦-٩٣٧م. واشترك الإخشيديون مع الخلافة العباسية في دفع النفقات اللازمة لفداء الأسرى، وأول فداء اشترك فيه الإخشيد كان في سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧-٩٣٨م. وعمل الإخشيد على تنظيم فداء آخر، ولكنه ما لبث أن توفي، فعمل كافور على إتمامه، ودفع إلى القائمين به ثلاثين ألف دينار، وتوجه هؤلاء إلى طرسوس، إلا أنهم وجدوا والي الثغور يدعو لسيف الدولة الحمداني، فأتم الفداء ونسب إليه.

سقوط الإمارة الإخشيدية

من الممكن تلخيص أسباب سقوط الإمارة الإخشيدية بما يلي:

١-الخلافات بين أفراد الأسرة الإخشيدية، وتنافسهم فيما بينهم على الوصول إلى عرش الإمارة، إلى جانب اختلاف القواد على تولي أمر الجند، وترقب بعضهم الإيقاع ببعض. وقد أدى ذلك إلى فرار قسم كبير من الجنود من مصر واللحاق بالحسن بن عبيد الله في الشام.

٢-ارتفاع الأسعار واضطرابها، وندرة السلع وانتشار الأوبئة، واستمرار ذلك مدة حددها الأنطاكي من سنة ٣٥٣-٣٥٧ هـ/ ٩٦٤-٩٦٨م. في حين ذكر المقريزي أنها دامت تسع سنين متتابعة، ابتداء من سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م.

٣-عانت الدولة الإخشيدية من كثرة الحروب التي اضطرت إلى خوضها. وحين جاء الفاطميون وجدوا البلاد في حالة شديدة من الضعف، فسهل عليهم تحقيق هدفهم في القضاء على الدولة الإخشيدية وضمها إلى أملاكهم.

أهم مظاهر الحضارة في العصر الإخشيدي

انقسم الناس في العهد الإخشيدي بحسب الثروة إلى فئتين، فئة غنية وفئة فقيرة. وتضم

الفئة الأولى أفراد الأسرة الإخشيدية، وبعض التجار الأغنياء والمُلاك، وطبقة الأشراف من العباسيين والطالبيين والعلويين، الذين كان لهم نصيب في المدن الكبرى. وقد عاشت هذه الفئة عيشة كلها إسراف في الطعام والشراب واللباس، يرتدون الفراء الفاخرة. ويتطيبون بالعنبر. وكانت مجالسهم حافلة بالمغنين والمغنيات، والجواري الحسان. وكانوا يبالغون في الإسراف في حفلاتهم، فينثرون النقود على الحاضرين، وكانوا يقومون برياضة الصيد وسباق الخيل، ويجمعون الخيول الأصيلة المدربة.

وكان يحيط بأفراد هذه الفئة عدد كبير من المماليك والغلمان والأتباع، كما كان لهم حجاب يحجبونهم عن الناس، وحراس لحمايتهم. وأكثر مايشير إلى ترف هذه الطبقة مواكبهم التي كانوا يسيرون فيها. فقد كان الإخشيد يسير وبين يديه خمسمئة غلام بالدبابيس، وبين يديه الشمع والمشاعل.

اما فئة العامة، فلا يكاد يسمع عنها شيء. ويبدو أنها كانت تعيش على هامش الحياة، تقبل بما يصل إليها. وكانت هناك صلة بين الفئتين تتمثل فيما يصل من إنعام الفئة الغنية إلى الفئة الأحرى. فقد كانت كثرة منهم تغدق الخير والإحسان على الفقراء والمحتاجين. وكان لمحمد بن علي الماذرائي ديوان كبير يشرف على نحو ستين ألف محتاج تجري عليهم الأرزاق.

عاش أهل الذمة عيشة حيدة، وسيطروا على الشؤون المالية في البلاد. فاغتنوا، ووصل بعضهم إلى أرقى درجات السلم الاجتماعي.

زخر العصر الإخشيدي بطائفة من الأدباء والعلماء والفقهاء، وكان هؤلاء يلتقون علية القوم في مجلس الأمراء، كما كانوا يلتقون في المساجد للمناظرة وبحث المسائل الفقهية والأدبية، ولاسيما في مسجد عمرو بن العاص وغيره، كما كانوا يلتقون في قصر الإخشيد.

تصدر الأدباء الكاتب إبراهيم بن عبد الله بن محمد البجيرمي الذي أنشأ الكتاب المرسل إلى الامبراطور البيزنطي رومانوس، وسيبويه المصري المتوفى سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، وقد كان إلى جانب مكانته الأدبية نديماً فكهاً، فقد جالس أونوجور بن الإخشيد، والحسين بن محمد الماذرائي.

أما الشعراء فقد كان على رأسهم أحمد بن الحسين المتنبي الذي كان له موقف مع كافور. وأبو القاسم أحمد الرسي بن طباطبا، وولداه القاسم بن أحمد، وإبراهيم بن أحمد، وابنه الحسين بن إبراهيم، وكذلك عبد الله بن محمد ابن أبي الجوع، وصالح بن مؤنس.

ومما يؤسف له ضياع معظم الشعر في العصر الإخشيدي، وماوصل منه يدل على إقبال الناس في هذا العصر على اللهو والمجون، ووصف الطبيعة وجمالها.

واشتهر من النحويين أحمد بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢هـ/ ٩٤٤م صاحب كتاب «الانتصار لسيبويه»، وكتاب «المقصور والممدود» وأبو جعفر النحاس الذي ألف في علوم اللغة والأدب وتفسير القرآن، وتوفي سنة ٣٣٨هـ/ ٩٥٠م.

أما المحدثون فكان منهم أحمد بن عمرو الطحان المتوفى سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٥م، وحمزة ابن محمد بن علي العباسي الكناني، المتوفى سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م، وسعيد بن عثمان المتوفى ٣٥٣هـ/ ٩٦٤م، ومحمد بن علي بن حسن المصري المتوفى ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م.

أما الفقهاء فمنهم ابن الحداد أبو بكر محمد ابن أحمد (ت٣٤٤هـ/ ٩٥٥م) وأبو عبد الله الحسين بن أبي زرعة الدمشقي (ت٣٢٧هـ/ ٩٣٨م) ومحمد بن إبراهيم المعروف بابن سكرة (ت ٣٤٢هـ/٩٥٣م) ومحمد بن يحيى بن مهدي الأسواني (ت٣٤٠هـ/ ٩٥١م) وأبو إسحق محمد بن القاسم بن شعبان (ت٣٥٥هـ/ ٩٦٥م).

واشتهر من المؤرخين عبد الرحمن بن أحمد ابن يونس الصدفي (ت٣٤٧هـ/٩٥٨م) وأبو عمرمحمد بن يوسف الكندي (ت٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، وابنه عمر بن محمد الكندي، والحسن بن إبراهيم بن زولاق (ت٣٨٧هـ/ ٩٩٧م).

امتاز العصر الإخشيدي بآثار عمرانية مدنية ودينية، على رأسها قصر المختار وقصر البستان من تشييد الإخشيد. والبستان الكافوري ودار الفيل من تشييد كافور.

أنفق الإخشيديون بسخاء على المساجد من أجل فرشها وإنارتها، فبنى أبو الحسن علي بن الإخشيد مسجداً في الجيزة، وبنى كافور مسجد الفقاعي في سفح جبل المقطم، وبنى الوزير ابن الفرات مسجد موسى في المنطقة نفسها.

اهتم الإخشيديون بالأبنية العامة، فقد أنشأ محمد بن طغج الإخشيد قيساريات كثيرة، أشهرها قيسارية لبيع المنسوجات، كان دخلها يحبس على البيمارستان الأسفل. وبنى كافور بيمارستاناً سنة ٣٤٦هـ /٩٥٧م وأنشأ الوزير جعفر بن الفرات سبع سقايات لسكان الفسطاط لجلب الماء من منطقة جزيرة الروضة.

استمرت الصناعات النسيجية القطنية والكتانية بالازدهار، وكانت المراكز الرئيسة لهذه الصناعة في تنيس وشطا ودبيق ودمياط فضلاً عن الفرما والإسكندرية والبهنسا والأشمونين وأخميم وأسيوط. واستمر تزيين المنسوجات في هذا العصر بالزخارف التي استعملها النساجون في الأزمنة السابقة. وقد حملت قطع النسيج التي وصلت من العصر الإخشيدي أسماء الخلفاء العباسيين ووزرائهم، وأصحاب الطراز، وتاريخ النسيج أحياناً، إلى جانب عبارات مختلفة، تتضمن تمنيات ودعوات. وازدهرت في هذا العصر صناعة الخزف، وصناعة الحفر في الخشب، على حين تدهورت صناعة ورق البردي.

لم يطرأ جديد على الزراعة، فالمزروعات استمرت كما كانت في العصور السابقة، والري بطريق الحياض. واستمرت التجارة الإخشيدية في تقدمها، وكانت أسواق مصر والشام عامرة بالبضائع.

أمينة بيطار

الموضوعات ذات الصلة:

الحمدانيون - الفاطميون - محمد بن رائق - محمد بن طغج

مراجع للاستزادة:

- أمينة بيطار، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (١٣٢-٣٥٨هـ) (دمشق).
- سيدة كاشف، مصر في عهد الإخشيديين (مطبعة جامعة فؤاد الأول، الطبعة الأولى، مصر ١٩٥٠).

■ الأخطبوط ← رأسيات الأرجل

■ الأخطل
(نحو ٢٠-٩٢هـ/ ٦٤٠-٧١٠م)

أبو مالك غياث بن غوث بن الصلت، شاعر أموي فحل، وأحد شعراء النقائض البارزين، ينتمي إلى قبيلة تغلب، وهي قبيلة كثيرة العدد، منيعة الجانب كانت تنزل أراضي الجزيرة بين دجلة والفرات، ويدين أكثر أبنائها، ومنهم الأخطل، بالمسيحية. وقد غلب على الشاعر لقب «الأخطل» لسفاهته وسلاطة لسانه. ويقال إن أمه لقبته في صغره بدَوبل، وهو الخنزير الصغير، وقد عيره جرير بهذا اللقب.

ولد الأخطل في ديار قومه بالجزيرة، ونشأ فيها نشأة بدوية خالصة، وظهر ميله إلى قول الشعر، ولا سيما الهجاء. ثم اتصل ببعض أشراف قبيلة ربيعة في العراق ومدحهم. غير أن صيته لم يذع إلا بعد اتصاله بالبيت الأموي في دمشق. وقد استعان به يزيد بن معاوية في هجاء الأنصار، ليرد على تشبيب عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت الأنصاري برملة بنت معاوية، أخت يزيد، فهجاهم بأبيات هجاء موجعاً ومنها قوله:

ذهبت قريش بالمكارم والعلا
واللؤم تحت عمائم الأنصار

وثار الأنصار لهجاء الأخطل إياهم وشكاه سيدهم النعمان بن بشير إلى معاوية، فوعدهم بقطع لسانه، ولكن يزيد حال دون ذلك. وأصبح الأخطل بعدئذ نديماً ليزيد، يحضر مجالس لهوه وشرابه وينشده أماديحه. ولما مات يزيد رثاه الأخطل بقصيدة هي المرثية الوحيدة في ديوانه. وبعد وفاة يزيد واعتزال ابنه معاوية الثاني الحكم اضطرب أمر الأمويين، ونازعهم عبدالله بن الزبير الأمر، ووقفت قبيلة قيس إلى جانبه، في حين ناصرت اليمانية وأهل الشام بني أمية وبايعوا مروان بن الحكم. ونشبت بين الفريقين موقعة «مرج راهط» التي انتصر فيها بنو أمية واليمانية، فلجأت قيس مع زعيمها زفر بن الحارث إلى الشمال واستقرت قرب الخابور مجاورة لبني تغلب. وقد استقبل التغالبة القيسيين استقبالاً حسناً في بادئ الأمر، ولكن لما تحرش القيسية ببني تغلب، وكثرت غاراتهم عليهم ناصبتهم تغلب العداوة ووقعت بين القبيلتين وقائع كثيرة، تركت صداها في شعر شعراء القبيلتين.

وقد اشترك الأخطل في إحدى هذه الوقائع، وقتل أبوه، أو ابنه فيها، كما أسر الأخطل نفسه، ثم أطلق سراحه لأنهم ظنوه عبداً. وقد استطاع عبد الملك، آخر الأمر، أن يصلح ما بينهما، واحتمل ديات القتلى. وقد وقف جرير في جانب القيسية بعد أن وقعت العداوة بينه وبين الأخطل.

قرّب عبد الملك الأخطل، وأفاض عليه عطاياه لجودة مدائحه فيه وفي بني أمية. وانقطع الأخطل إلى بني أمية، وقال فيهم أجود مدائحه، وهجا أعداءهم، فمدح من خلفائهم، غير يزيد ابن معاوية، عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك، ومدح من ولاتهم وأشرافهم بشر ابن مروان وعبدالله بن معاوية الثاني، وخالد ابن عبدالله بن أسيد، وكان مديحه لبني أمية من أجود ما قيل من الشعر السياسي في العصر الأموي. ومن أجود مدائحه فيهم رائيته «خفّ القطين» التي يقول فيها:

حُشْدٌ على الحق عيّافو الخنى أُنُفٌ
إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
شُمْس العداوة حتى يستقاد لهم
وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

ولم يكتف الأخطل بمدح بني أمية، بل هجا أعداءهم حتى قويت دالّته على الخليفة، وكان يستغل مدائحه في نصرة قومه بني تغلب، وتحريض بني أمية على القيسية أعداء قومه، وقال في ذلك شعراً كثيراً، منه قوله:

بني أمية إني ناصح لكم
فلا يبتنّ فيكم آمناً زفرُ

وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بقي الأخطل مناصراً للأمويين مادحاً للخليفة، ولكن خصوم الشاعر استطاعوا أن ينالوا منه لدى الخليفة الذي كان أكثر تديّناً من أبيه واتصافاً بالتقوى وأقل رغبة في الشعر والأدب، وغدا نفوذ الأخطل ضئيلاً وكلامه غير مسموع مما اضطره إلى الابتعاد عن البلاط خوفاً من دسائس الوشاة.

توفي الأخطل في السنة الخامسة من خلافة الوليد بن عبد الملك، وقد بلغ السبعين، ولا تتوافر معلومات موثوقة عن مكان وفاته، والأرجح أنه مات بين قومه في الجزيرة. وقد مات على دينه، ويظهر أن عبد الملك حاول ترغيب الشاعر في اعتناق الإسلام، إلا أن الأخطل كان يعتذر ويتخلص بلباقة. وظلّ وفياً لدينه، وتحمّل في آخر حياته - من خشية الموت - رياضات الزهد والتوبة والندم. ولا يوجد لعقيدته الدينية في ديوانه إلا أثر ضئيل.

كان الأخطل مسرفاً في الشراب، وكان مرحاً، بارعاً في التهكم والهجاء، ولكنه كان عفيفاً يبتعد عن التبذل في القول، ويحافظ على عفة اللسان مع سلاطته.

وكان يتخلق بأخلاق البدو ويلبس أزياءهم، حتى في البلاط الأموي، وينفر من المدينة ويحنّ إلى الصحراء. وكان متعلقاً بأسرته، والراجح أنه تزوج في الجزيرة بامرأة من قومه هي أم مالك رُزق منها أبناء كثيرين، ثم طلقها بعد أن اختلف معها وتزوج أخرى، ثم حنّ إليها، وكانت بعض الاجتهادات المسيحية تجيز الطلاق.

جمع الأخطل في شخصه صفات متفاوتة، فقد قرن الإقدام والجرأة إلى الدهاء والاطلاع الواسع، وكان قومه يأخذون برأيه، وكثيراً ما شفع لأفراد منهم لدى الخليفة، وكان إلى هذا يخضع للرؤساء الروحيين لدينه خضوع الطفل، كما خضع للأمويين، ولم يكن يعبأ بما يلقاه من سخط الناقمين عليهم.

تناول الأخطل جميع الأغراض الشعرية المعروفة، وكان ينظم شعره في الإطار التقليدي للشعر العربي الخالص المتوارث عن الجاهليين. وقد تفوق في المديح، وارتقى به من المديح الفردي الذي عرف في الجاهلية، إلى الشعر السياسي الذي سخّره لخدمة الخلافة الأموية وتأييدها والتنديد بخصومها.

وقد ساقه موقفه من بني أمية إلى هجاء خصومهم، وكان هجاؤه مزدوج الغاية يرمي به إلى الدفاع عن بني أمية، كما يرمي به إلى الدفاع عن نفسه وقومه.

وكان الأخطل قد دخل معركة النقائض بعد أن بلغ قمة شهرته، وانحاز إلى الفرزدق، فاتصل الهجاء بينه وبين جرير، ونكاية بالأخطل أخذ جرير يمدح قيس عيلان، فيردّ عليه الأخطل بهجائه وهجاء قيس. وكان هجاء الأخطل هجومياً وموجعاً من غير فحش، يطعن بالقبيلة أكثر مما يطعن بالفرد المهجوّ.

وقد تفوق الأخطل بالموضوعات الخمرية، كما برع في وصف الطبيعة التي أحبها فوصف الفرات والفلوات والحمر الوحشية والأراقم. أما الفن الذي قصر فيه فهو الرثاء.

امتاز شعر الأخطل بالجزالة وطول النفس وسلامة التعبير وحسن السبك، وكان يحرص على تهذيب شعره وتنقيحه، ويروى أنه أقام سنة في نظم قصيدته «خفّ القطين»، وقد أجمع القدامى على أنه أحد الثلاثة المتفوقين في فنون الشعر في العصر الأموي، أما الآخران فهما جرير والفرزدق، وكان يجري في شعره على سنن الشعراء الجاهليين.

للأخطل منزلة تاريخية إضافة إلى منزلته الأدبية، فقد كان، بسبب اتصاله بالبلاط الأموي وانقطاعه إلى الأمراء والخلفاء واشتراكه الفعلي في الأيام والمعارك التي خاضتها قبيلته، يمثّل الواقع السياسي للحكم الأموي وتناحر الأحزاب واشتداد العصبية القبلية، حتى عُدّ شعره سجلاً حياً للعصر الأموي. ترك الأخطل كثيراً من القصائد، جمعها قديماً أبو سعيد السكري وضبطها ودونها في ديوان. وطبع الديوان في العصر الحديث عدة طبعات.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

بشر بن مروان - جرير - الفرزدق.

مراجع للاستزادة:

- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج٨ (طبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٣٥).
- سيد غاري، الأخطل (القاهرة ١٩٧٩).
- فخر الدين قباوة، الأخطل (دار الأصمعي بحلب ١٩٧١)

■ الأخطل الصغير
(١٣٠٢-١٣٨٨هـ/ ١٨٨٥-١٩٦٨م)

بشارة الخوري (الأخطل الصغير)

من أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. ولد في بيروت، وأصل أسرته من قرية أهمج (قضاء جبيل)، وكان بشارة أصغر أخوته السبعة. والده عبد الله كان يمارس الطب على الطريقة العربية، وأمه حلا نعيم تنتمي إلى أسرة بيروتية عريقة.

تلقى بشارة علومه بادئ الأمر في المدرسة الإكليركية الأرثوذكسية ثم انتقل بعد أربع سنوات إلى مدرسة الحكمة فدرس فيها ثلاث سنوات، وفيها بدأت موهبته تتفتح فكان من المتفوقين. وتعرّف في هذه الحقبة جبران خليل جبران، ثم انتقل إلى مدرسة المزار في غزير فمدرسة الأخوة (الفرير) في بيروت. فأتقن اللغة الفرنسية إضافة إلى لغته العربية، وبعدئذ توقف عن الدراسة.

آنس بشارة في نفسه ميلاً إلى الصحافة، فأخذ يتردد على جريدة «المصباح» الأسبوعية، ومنذ عام ١٩٠٦ أخذ ينشر فيها باكورة أشعاره.

في سنة ١٩٠٨م أعلن الدستور العثماني الذي توسّم الناس فيه الخير، فأصدر الشاعر جريدة سمّاها «البرق». وتحولت إدارة الجريدة إلى منتدى يضم كبار الأدباء والشعراء ورجال الفكر، وانطلقت الجريدة تناصر حركات التحرر وقضايا الشعوب. ولما طغى الاستبداد التركي في بلاد الشام في عهد جمال السفاح انبرى الشاعر يناهض في جريدته الحكام المستبدّين ويندد بسياستهم الجائرة وظلمهم وإدارتهم السيئة. فعرّض نفسه بذلك لسخط الحكام ومضايقتهم حتى لقد تعرض سنة ١٩١٠ إلى محاولة لاغتياله.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ عمدت الدولة التركية إلى كمّ الأفواه وفرضت الرقابة على الصحف، فاضطر بشارة أواخر عام ١٩١٤ إلى إغلاق جريدته ولكنه تابع نشاطه السياسي خفية، حتى إن اسمه ورد في لائحة المغضوب عليهم من قبل الحكومة التركية، فاضطُر إلى التواري في منزل صديقه خليل فاضل حيث تعرّف ابنته أديل التي أصبحت زوجته فيما بعد.

وفي عام ١٩١٦ حينما أشاع الحلفاء أنهم سيعملون لنيل الأمة العربية استقلالها واستعادة مكانتها تحركت عواطف الشاعر الوطنية. ولكن خوفه من بطش الحكام الأتراك حمله على اتخاذ لقب «الأخطل الصغير»، وأخذ ينشر مقالاته بهذا التوقيع. ويحدّثنا الشاعر عن سبب اتخاذه هذا اللقب فيقول: «كانت الحرب العالمية الأولى، ثم كان عهد «جمال» في سورية ولبنان، وهو عهد النفي والمشنقة، بل عهد الإرهاب بجميع أسبابه وأنواعه. وانطوت الأعوام بعد الشهور على حالات شتى من البؤس، ومفاجآت مفعمة بالمخاوف، حتى كان تموز من عام ١٩١٦، فإذا أنا مطمئن قليلاً إلى نفسي، آنس كثيراً بكتبي بعد طويل وحشة وأليم غربة، ولقد كنت وسائر الناس خلال ذلك نتنسّم الأخبار من البادية حيناً ومن البحر حيناً آخر ولا ندري أيدركنا السلم وفينا رمق من الحياة.

وكانت الفكرة السائدة أن الحلفاء سيبعثون الامبراطورية العربية، وكانت الحاجة ماسّة إلى إثارة الخواطر في البلاد تعجيلاً ليوم الخلاص، وهو كل أمنية البلاد العربية في ذلك العهد.

ولم يكن ليجرؤ واحدنا ولو في الحلم أن يرسل كلمة في سبيل النهضة، ولو همساً، فكيف به إذا هو شاء أن يرسل في ذلك السبيل قصيدة يترجّع صداها.

وكان يعجبني من الأخطل خفّة روحه وإبداعه في اصطياد المعاني يقودها ذليلة إلى فصيح مبانيه. وفوق ذلك فقد كان الشاعر المسيحي الفذّ تتفتح له أبواب الخلائف، يملؤها لذة وطرباً وإدلالاً، بل يملؤها ذلك الشرف الذي لا يبلى، والمجد الذي لا يفنى.

فرأيت وأنا أدعو للدولة العربية، وموقفي منها موقف الأخطل من دولة بني مروان، أن أدلّ على حقيقة الشاعر المتنكّر، فلم أر «كالأخطل الصغير» أوقّع به ماكانت تقطره القريحة المتألّمة من شعر لم يبق لي منه إلا كبقية الوشم في ظاهرة اليد».

ولّما وضعت الحرب أوزارها عام ١٩١٨ عاود الشاعر إصدار جريدته ولكنه جعلها أسبوعية. وفي هذه المرحلة يحسّ بالاطمئنان والاستقرار النفسي فيتزوج سنة ١٩٢٠ من أديل فاضل.

وإبّان الانتداب الفرنسي أخذ الشاعر ينظم قصائد يبث فيها عواطفه الوطنية، وعلى أنه اضطُر إلى مهادنة المستعمر الفرنسي.

وفي تموز عام ١٩٢٥ رشّح نفسه للانتخابات النيابية ولكنه خسر المعركة. وفي العام نفسه انتخب نقيباً للصحفيين اللبنانيين.

وفي عام ١٩٣٠ عُيّن رئيساً لبلدية برج حمّود، ثم تعرّضت جريدته للإغلاق سنة ١٩٣٢. وفي العام نفسه انتخب عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق. وفي عام

١٩٤٦ عُين مستشاراً فنياً للغة العربية في وزارة التربية الوطنية ببيروت.

وفي عام ١٩٥٣ صدر ديوانه «الهوى والشباب». وفي سنة ١٩٦١ أقام أصدقاؤه والمعجبون به حفلاً تكريمياً له في قصر الأونيسكو ببيروت ونودي بلقب «أمير الشعراء». توفي بشارة في بيروت في منزله بالدورة.

الشاعر

صدر للشاعر في حياته ديوانان، أولهما «الوتر الجريح» وقد ضم أشعاره الأولى، والثاني «الهوى والشباب» وقد صدر عام ١٩٥٣ وقدّم له الاستاذ عادل الغضبان بمقدمة أنيقة العبارة تحدث فيها عن فنون الشاعر وطريقته الشعرية وجوانب إبداعه.

وفي ديوانه هذا يتجلّى إبداع الشاعر، وتجديده في المعاني والأسلوب، وقد حمل في شعره لواء القومية والشعور الوطني الأصيل إلى جانب لواء الغزل الرقيق الذي تنبعث منه أصداء العاطفة الصادقة والافتتان بالحسان، فغنّى للجمال كأحسن مايغنّي العاشقون وأجاد التغزل بالمرأة ووصف مفاتنها حتى عدّ إمام شعراء الغزل في عصره، وغنّى المغنون كثيراً منها، وقد حمل في غزله تبعات الهوى على كتفيه وصوّر أشجان المحبين وخفقات قلوبهم. وكان فؤاده يخفق لكل حسناء يلقاها، وهو القائل:

كفاني يا قلبُ ما أحملُ
أفي كلّ يوم هوىً أوّلُ
أيخلق منك جديدُ الهوى
فؤاداً من السُّكر لا يغفلُ
أفي كلّ وجه لنا مرتعٌ
وفي كلّ ثَغرٍ لنا محفلُ

ومن رائع شعره الغزلي الذي تغنّى به المغنوّن قصيدته التي يقول فيها:

الصِبا والجمالُ ملك يديك
أيُّ تاجٍ أعزُّ من تاجيكِ
سكر الروض سَكرةً صرعتْه
عند مجرى العبير من نهديك
قتل الوردُ نفسه حسداً منـ
ـك وألقى دماه في وجنتيك

والشاعركان شديد التعلق بوطنه لبنان وله فيه قصائد رائعة منها قصيدته التي يقول فيها:

لبنانُ يا ولَه البيان أذاكرٌ
أم لست تذكر نجدتي وكفاحي
قبّلتُ باسمك كلَّ جُرحٍ سائلٍ
وركزتُ بندَكَ عالياً في السّاح

وفي شعره القومي والسياسي يتجلّى التعلق بمبادئ الحق والعدالة والحريّة والكراهية للاستبداد والظلم والغيرة على مصير الأمة العربية فينهض:

أي بني العُرب كدت أخشى عليكم
خطَل الرأي وانهيارَ العقيدة
قد ملأتم أذنَ الليالي غناءً
والليالي ينسُجن كلَّ مكيدة

ويتصل بشعره الغزلي خمرياته، فهو شأن مثله الأعلى الشاعر الأموي الأخطل، متعلّق بابنة الحان، وقف جانباً من شعره على وصفها وبيان مدى شغفه بها، يقول:

حِكمةُ الدهر أن نعيش سُكارى
فاجمعا لي الكؤوسَ والأوتارا
واجلواها دنيا ممتعة الحسـن
كما تجلوان إحدى العَذارى

وعاطفة الشاعر المرهفة حملته على تصوير آلام المعذّبين ومعاناة المرضى، ومن رائع ماقاله في هذا الجانب قصيدته «المسلول» التي صوّر فيها ما فعله الداء الوبيل بأحد الفتيان، يقول منها:

هذا الفتى بالأمس صار إلى
رجلٍ هزيل الجسم مُنجَرِدِ
عيناه عالقتان في نفَق
كسراج كوخٍ نصف متّقد
يمشي بعلته على مهلٍ
فكأنه يمشي على قصَد
ويمجّ أحياناً دماً فعلى
منديله قطعٌ من الكبد

وفي الجملة عبّر الأخطل الصغير في شعره عن رؤيته الذاتية لكل ما أحاط به من أحداث ومشاهد وأبدع في صوره إبداعاً كان فيه المجلّي بين معاصريه من الشعراء، وهذا كله بوّأه منزلة الصدارة بين شعراء عصره.

مدحة عكاش

مراجع للاستزادة:

- أحمد فؤاد نعمان، شاعر الهوى والشباب (مصر ١٩٥٤)
- محمد مندور، الأخطل الصغير (مصر ١٩٧٠)

■ الأخفش

الأخفش: لقب جماعة من العلماء، ذكر السيوطي أحد عشر منهم ـ والخفش صغر العين وضعف البصر حلقةً ـ وأشهر الأخافش ثلاثة من النحاة واللغويين هم:

الأخفش الأكبر
(ت١٧٧هـ/ ٧٩٣م)

أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد، ولد بهَجَر بالبحرين، وكان مولى قيس بن ثعلبة، سكن البصرة ودرس على أبي عمرو بن العلاء كما لقي الأعراب وأخذ عنهم.

يظن أنه أول من فسر الشعر تحت كل بيت، وكان الناس قبله إذا فرغوا من القصيدة فسروها، وله ألفاظ لغوية انفرد بنقلها عن العرب.

أخذ عنه جماعة من العلماء، منهم: عيسى ابن عمر وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو زيد الأنصاري، والأصمعي، كما أخذ عنه سيبويه فكان ذلك من أسباب شهرته.

الأخفش الأوسط
(ت نحو ٢١٥هـ/ ٨٣٠م)

أبو الحسن سعيد بن مسْعَدة البصري، أصله من بلخ، كان مولى لبني مجاشع بن دارم من تميم، أقام في البصرة، وكانت تزخر في تلك الحقبة بالعلماء والأعلام من النحويين واللغويين، فأخذ عن طائفة من علمائها منهم سيبويه [ر] وهو أعلم من أخذ عنه، وحمّاد بن الزبرقان، وأبو مالك النُميري، كما صحب الخليل بن أحمد واطلع على مؤلفات أبي عبيدة معْمَر بن المثنى والحسن البصري والأعمش وغيرهم.

عدّ أحد أئمة النحاة البصريين، ولقي من لقيه سيبويه من العلماء لأنه كان أسنّ منه، وقد أصبح الأخفش الطريق إلى كتاب سيبويه بعد وفاته، وكان قد خالفه في كثير من آرائه في حياته، ولكنه بعد رحيل سيبويه إلى الأهواز

إثر المناظرة التي جرت بينه وبين الكسائي [ر] توجه الأخفش إلى بغداد وانتصر لشيخه فسأل الأخفش الكسائي عن مئة مسألة نحوية فأجابه الكسائي إجابات خطّأه فيها الأخفش، فاعترف له الكسائي بعدها بالفضل وأحب أن يتأدب أولاده على يديه، وقرأ على الأخفش كتاب سيبويه سراً فأعطاه الكسائي سبعين ديناراً.

كان الأخفش قدرياً من دون غلو، وكان من علماء الكلام المبرزين في الجدل، وقد عدّه العلماء ثقة صادقاً فيما يرويه، ولم يكن يقول ما لا يعلم، ولا يأنف أن يقول: لا أدري، واتصف بالتواضع مع شيوخه.

صنف كتباً كثيرة في اللغة والنحو والعروض والقوافي منها: «معاني القرآن» و «الأوسط في النحو» وقد رجع في مسائله إلى مذهب سيبويه. و«المقاييس في النحو» و«كتاب المسائل الكبير» وكان تأليفه جواباً عن مسائل سأله عنها هشام الضرير النحوي. وقد اعتمد على هذا الكتاب بعض الكوفيين. وله كتاب «وقف التمام» وكتاب «الأصوات» وكتاب «صفات الغنم وألوانها وعلاجها وأسبابها» وكتاب «القوافي» وكتاب «الاشتقاق» وكتاب «العروض» وكانت له مشاركة في علم العروض، وهو الذي أضاف البحر المتدارك إلى الخمسة عشر بحراً التي أحصاها الخليل.

أما أبرز كتبه فهو كتاب «معاني القرآن» وفيه يفسر الأخفش معاني كلام الله لغوياً، وقد سبقه إلى تفسير القرآن لغوياً معمر بن المثنى وقطرب. تناول الأخفش السور القرآنية كما وردت مرتبة في المصحف، واستعان بالآيات القرآنية في تفسير آيات أخرى، كما تناول القراءات المختلفة وأقام حولها الدراسات الصرفية أو النحوية أو الدلالية أو الصوتية، وبيّن أثر اختلاف القراءات في المعنى، مفضلاً منها ما كان أجود في العربية.

وتقوم دراسة الأخفش على السماع، وقد عرف لهذا «بالأخفش الراوية»، وقد اتبع فيه منهج المدرسة البصرية، وفي الكتاب اهتمام ظاهر بالشعر الذي يستشهد به على صحة مايذهب إليه، وقد وضع تفسير غريب كل بيت شعر تحته. واستفاد من أقوال العرب في القياسات اللغوية والدراسات الصوتية، وذهب في تفسيره معاني القرآن مذهب المعتزلة، وابتعد عن الاستشهاد بالأحاديث النبوية لجواز نقلها بمعانيها، كما ابتعد عن الاستعانة بالأخبار والقصص والإسرائيليات في عمله التفسيري.

ويبدو في كتابه واضح المنهج والعبارة، منطقياً في التنسيق، متمكناً مما يعرضه من علوم قادراً على نقل العلم وتقريب علوم العربية إلى أذهان تلاميذه، بحيث يمكن أن يعدّ كتاب «معاني القرآن» كتاباً تعليمياً واضحاً في بسط القضايا اللغوية في القرآن الكريم.

أخذ عن الأخفش عدد كبير من الرجال الذين تمتعوا بشهرة واسعة في ميادين اللغة والنحو، من هؤلاء: أبو عثمان بكر بن محمد المازني البصري وأبو عمر صالح بن إسحق الجرمي وسهل بن محمد السجستاني والعباس بن فرج الرياشي وآخرون، وأفاد منه عدد من شيوخ مدرسة الكوفة يمكن أن يعد الكسائي على رأسهم.

استفاد كثير من العلماء من كتبه، كالثعالبي الذي استفاد من كتابه «غريب القرآن» كما أخذ عبد القادر البغدادي من كتابه «أبيات المعاني» وعدت الأشعار التي أوردها من الشواهد التي يستشهد بها.

طعن فيه معاصره الجاحظ واتهمه بالجشع والبخل، كما وصف كتبه بالاستغلاق والصعوبة.

الأخفش الأصغر
(ت٣١٥/ ٩٢٧م)

أبو الحسن (أو المحاسن) علي بن سليمان ابن الفضل، ولد في بغداد، ثم أقام بمصر مابين (٢٨٧-٣٠٥هـ/ ٩٠٠-٩١٨م) ثم رجع ماراً بحلب في طريق عودته إلى بغداد.

درس على المبرد وروى كتابه الكامل، كما أخذ العلم عن ثعلب وغيره من علماء البصرة والكوفة، وشرح نوادر أبي زيد الأنصاري، وكان في النحو يمثل المدرسة البغدادية التي جمعت ما بين مدرستي البصرة والكوفة. وروى عنه أبو عبيد الله المرزباني والمعافى بن زكريا الجريري.

كان ثقة، إماماً في اللغة والأدب، ذكر المؤرخون له مصنفات منها: كتاب «الأنواء» وكتاب «التثنية والجمع» و«شرح كتاب سيبويه» وكتاب «المهذب» وكتاب «الاختيارين» جمع فيه مفضّليات الضبي والأصمعيات، وعلق عليها شرحاً يفسر بعض الغريب ويوضح بعض المعاني البعيدة. أولع بمداعبة ابن الرومي الذي هجاه هجاء قبيحاً ثم مدحه بعد ذلك. مات فجأة في بغداد عن عمر يناهز الثمانين.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

سيبويه - الكسائي - المعتزلة

مراجع للاستزادة:

- ابن خلكان، وفيات الأعيان (بيروت، دار صادر ١٩٧٠).
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء (بيروت، دار إحياء التراث العربي).
- السيوطي، بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٦٤)
- القفطي، إنباه الرواة على أنباه النحاة (القاهرة، دار الكتب ١٩٥٢).

■ إخلاء السبيل

إخلاء السبيل mise en liberté هو الإفراج عن مدعى عليه موقوف بملاحقة جزائية وإنه من قبيل إعادة الحال إلى ما كانت عليه قبل التوقيف أو من قبيل إرجاع الأمور إلى طبيعتها، أي إعادة الحق بالحرية إلى صاحبه.

والحرية حق طبيعي أكدته الدساتير الحديثة ومن بينها الدستور السوري الذي ينص أن: «الحرية حق مقدس وتكفل الدولة للمواطنين حريتهم الشخصية وتحافظ على كرامتهم وأمنهم» (المادة ٢٥ الفقرة آ). لذا لا يجوز حجب هذا الحق ما لم تثبت إساءة استعماله في المجتمع بارتكاب فعل جرمي يعاقب عليه القانون بإحدى العقوبات المانعة للحرية كالأشغال الشاقة أو الاعتقال أو الحبس، أو بعقوبة مقيدة للحرية، أصلية كانت أو فرعية، كالإقامة الجبرية أو المنع من الإقامة، أو بإحدى التدابير الاحترازية كالحجز أو العزل أو الحرية المراقبة.

والأصل أن «كل متَّهم بريء حتى يدان بحكم قضائي مبرم» وتلك قاعدة أساس دستورية نصت عليها الفقرة ١ من المادة ٢٨

من الدستور السوري، ولذا لا يجوز الحرمان من الحرية أو تقييدها إلاّ بعقوبة، ثم لا تجوز العقوبة إلاّ من بعد المحاكمة وصدور حكم مبرم يقضي بها. وأما قبل ذلك، أي في المرحلة الفاصلة بين وقوع جريمة وصدور حكم مبرم بحق مرتكبها، فالمفروض أن يبقى المدّعى عليه حراً طليقاً. غير أن لكل قاعدة شذوذاً تفرضه مقتضيات مصلحة يغلب شأنها على المصلحة التي أملت القاعدة.

ففي المرحلة الفاصلة بين وقوع جريمة وصدور الحكم المبرم بحق مرتكبها، كثيراً ما تلوح اعتبارات تتصل بالمصلحة العامة التي تتقدم بطبيعة الحال على المصالح أو الحقوق الفردية، ويكون من شأنها أن تستدعي توقيف المدعى عليه استثناء من القاعدة، ولعل من أهم تلك الاعتبارات الاحتراز من فرار المدعى عليه أو الاحتراز من تأثيره في سلامة التحقيق إذا بقي طليقاً. وقد أقر الدستور نفسه هذا الاستثناء عندما قضى بأنه: «لا يجوز تحري أحد أو توقيفه إلا وفقاً للقانون» (المادة ٢٨، الفقرة ٢) ومؤداه أن التوقيف جائز عندما يأتي موافقاً للقانون، وقد جاء قانون أصول المحاكمات الجزائية ينص على التوقيف ويبين أحكامه، وكذلك النصوص الواردة في القوانين الخاصة حول الموضوع نفسه. فالتوقيف غير العقوبة. والتوقيف يقع قبل العقوبة أو قبل الحكم، وهو تدبير احتياطي، فهو لذلك تدبير مؤقت، ولابد من انقضائه عاجلاً أو آجلاً على أحد الأشكال التالية:

ـ استرداد مذكرة التوقيف وهو أمر يملكه قاضي التحقيق أيّاً كان نوع الجريمة بشرط موافقة النيابة العامة، ويختلف عن إخلاء السبيل ولا يخضع لأي طريق من طرق المراجعة.

ـ أو إطلاق سراح الموقوف سواء مع القرار بمنع محاكمته من قبل قاضي التحقيق أو من قبل قاضي الإحالة، أو مع الحكم ببراءته من قبل المحكمة.

ـ أو إخلاء سبيله في مرحلة التحقيق، أو في مرحلة المحاكمة، أو أمام محكمة النقض.

ولكن إخلاء السبيل في أثناء التحقيق أو المحاكمة يختلف عن إطلاق السراح بعد قرار منع المحاكمة وبعد الحكم بالبراءة أو بعدم المسؤولية. فهذا نهائي، في حين يظلّ المدعى عليه المخلى السبيل تحت احتمال التوقيف مجدداً.

وفي الأصل، يجوز إخلاء السبيل أيّاً كان نوع الجريمة، وفي جميع أدوار التحقيق أو المحاكمة.

وتظل هذه القاعدة هي المعمول بها وهي السائدة ما لم يعترضها نص خاص يمنع من إخلاء السبيل لاعتبارات من خطورة الجريمة بنظر المشرع أو من سبق فرار المدعى عليه، مثال ذلك عدم جواز إخلاء السبيل في المحاكمة الجنائية إذا كان المتهم محكوماً غيابياً من السابق وقد قبض عليه أو سلّم نفسه، ومثله المتهم المحال بجناية من قانون العقوبات الاقتصادية. وكذلك أيضاً يمتنع إخلاء السبيل بصورة مطلقة وفي كلا مرحلتي التحقيق والمحاكمة في جرائم التهريب.

حالات إخلاء السبيل

يكون إخلاء السبيل واجباً أو جائزاً. فإخلاء السبيل الواجب هو ما يسمى: إخلاء السبيل بحق. وقد أوجبه القانون بالشروط التالية: أن تكون الجريمة محل الملاحقة من نوع الجنحة فإن كانت مخالفة كان ذلك من باب الأوْلى. وأن يكون الحدّ الأقصى للعقوبة التي تستوجبها الحبس سنة. وأن يكون قد مضى خمسة أيام على التوقيف. وأن يكون للمدعى عليه موطن في سورية. وأن لا يكون قد حكم عليه قبلاً بجناية ولا بالحبس أكثر من ثلاثة أشهر من دون وقف التنفيذ.

أما إخلاء السبيل الجائز فيطلب باستدعاء إلى المرجع واضع اليد على الدعوى وهو قاضي التحقيق، أو قاضي الإحالة، أو محكمة الموضوع، أو محكمة النقض تبعاً لتحول الدعوى من مرجع إلى آخر، إلا عند تخلي قاضي التحقيق أو قاضي الإحالة بقرار عدم اختصاص، فيبقى لهما النظر وبت تخلية السبيل إلى أن تفصل مسألة الاختصاص.

وينظر في الطلب ويبت في غرفة المذاكرة، بعد استطلاع رأي النيابة العامة. ويقبل طلب إخلاء السبيل أو يرفض، وليس الرفض مانعاً من معاودة الكرة بتقديم طلبات جديدة مرة بعد مرة. ويكون إخلاء السبيل المقبول بكفالة أو بغير كفالة. وتكون الكفالة نقداً، أو أسناداً على الدولة أو مضمونة من الدولة، أو ضمانة مصرفية أو عقارية أو تجارية، باستثناء الكفالة أمام محكمتي الجنايات أو النقض، فيشترط فيها أن تكون نقدية أو مصرفية.

وتضمن الكفالة حضور المدعى عليه إجراءات التحقيق والمحاكمة ومثوله لتنفيذ الحكم إذا صدر بحقه، كما تضمن تأدية الرسوم والنفقات للمدعي الشخصي أو المتوجبة للدولة، والغرامات.

الطعن بالقرارات المتعلقة بطلبات إخلاء السبيل

يختلف الأمر في هذه الحال باختلاف المرجع مصدر القرار:

فالقرار الذي يصدر عن قاضي التحقيق، يقبل الطعن بطريق الاستئناف، ومرجع النظر في هذا الاستئناف هو قاضي الإحالة، فإن كان قراراً بالرفض فمن حق المدعى عليه الموقوف استئنافه، وإن كان قراراً بإخلاء السبيل، فاستئنافه عائد إلى النيابة العامة وإلى المدعي الشخصي، ولا ينفذ إلا بعد انقضاء مهلة الاستئناف والتصديق عليه من لدن قاضي الإحالة. ويحق للمدعى عليه أن يستأنف قراراً كهذا فيما يخص بدل الكفالة.

ومهلة الاستئناف ٢٤ ساعة تبدأ، بحق النائب العام، من وصول الأوراق إلى قلمه للمشاهدة. وتبدأ، بحق المدعى عليه والمدعي الشخصي، من وقوع التبليغ.

ويملك قاضي الإحالة حق الفسخ أو التصديق، ويملك بالتالي تقرير إخلاء السبيل أو رفضه، كما يملك التصرف بالكفالة رفعاً أو تخفيضاً أو إلغاء كلياً.

والقرار الذي يصدره قاضي الإحالة ببت الاستئناف المرفوع إليه لا يقبل الطعن بأي طريق من طرق المراجعة. ولذا فإنه ينفذ من فوره. وكذا الحال عندما يقدم طلب إخلاء السبيل إلى قاضي الإحالة حين تكون الدعوى تحت يده، فإن قراره بالرفض أو بالقبول هو قرار قطعي إذ ليس هو من القرارات القابلة للطعن بطريق النقض.

أما القرارات التي تصدر عن قاضي التحقيق العسكري والمتعلقة بتخلية السبيل، فإن مرجع الطعن فيها هو محكمة النقض، ومهلة هذا الطعن خمسة أيام، ثم إن حق الطعن يقتصر على النيابة العامة وعلى المدعى عليه من دون المدعي الشخصي.

وتقبل قرارات المحاكم الجنحية صلحية كانت أو بدائية، الطعن بطريق الاستئناف أمام محكمة استئناف الجزاء، إما من جانب المدعى عليه الموقوف إن كان قراراً بالرفض، أو من جانب كل

من النيابة العامة والمدعي الشخصي إن كان قراراً بإخلاء السبيل، وذلك بالمهلة نفسها التي سبق ذكرها وفصلت أحكامها عند البحث باستئناف قرارات قاضي التحقيق.

وكما أن قرارات قاضي الإحالة ببت طلب إخلاء سبيل مقدم إليه، أو ببت استئناف قرار صادر عن قاضي التحقيق مرفوع إليه، كلها قطعية، كذلك تصدر قطعيةً قرارات محكمة الاستئناف ببت طلبات إخلاء السبيل التي تقدم إليها عندما تكون الدعوى مستأنفة وتحت يدها، أو ببت استئناف قرار صادر عن محكمة الصلح أو عن محكمة البداية يرفع إليها. ذلك أن مثل هذه القرارات التي تصدرها محكمة الاستئناف بشأن إخلاء السبيل ليست من الأحكام القابلة للطعن بطريق النقض.

أما القرارات التي يصدرها القاضي الفرد العسكري بشأن طلبات إخلاء السبيل فهي قطعية ولا تقبل الطعن، مع أن محكمته جنحية من جهة، وليست مرجعاً استئنافياً من جهة أخرى.

تبقى قرارات محاكم الجنايات (ومنها المحاكم العسكرية) الخاصة برفض طلبات إخلاء سبيل المتهمين الذين يحاكمون أمامها أو بقبولها، قرارات قطعيةً، لأنها كذلك ليست من الأحكام الصادرة بالدرجة الأخيرة والقابلة للطعن.

ومثلها أخيراً وبطبيعة الحال قرارات محكمة النقض، إذ إن هذه الأخيرة هي أعلى مرجع قضائي ولا مرجع فوقها، وهي تنظر في طلبات إخلاء السبيل التي تقدم إليها في أثناء وضع يدها على الدعوى وبتها، إما بصدد الطعن بقرار اتهام صادر عن قاضي الإحالة أو بصدد الطعن بحكم محكمة.

معاودة التوقيف بعد إخلاء السبيل

إن إخلاء سبيل المدعى عليه ليس نهائياً بل إن هذا الأخير يظل معرضاً لمعاودة توقيفه في الحالات التالية:

-إذا تبينت قبل إقفال التحقيق أسباب طارئة ومهمة تستلزم تجديد التوقيف، فإن قاضي التحقيق يصدر مذكرة بذلك حتى لو كان إخلاء السبيل قد صدر عن قاضي الإحالة. على أنه يجب في هذه الحالة رفع الأوراق بلا إبطاء إلى قاضي الإحالة لتثبيت مذكرة التوقيف أو لإلغائها.

-إذا صدر قرار اتهام جنائي بحق المدعى عليه فيحال المتهم على محكمة الحنايات موقوفاً بموجب مذكرة قبض ولو كان مخلى السبيل بالكفالة.

-إذا تخلف عن تلبية دعوة للحضور، فلقاضي التحقيق أو للمحكمة إصدار مذكرة توقيف جديدة بحقه، والحق نفسه يعود لقاضي الإحالة عندما يقرر التوسع بالتحقيق ويتولاه بنفسه.

وليس في القانون ما يمنع في هذه الحالات من معاودة إخلاء سبيل الموقوف مرة أخرى.

هاني بيطار

الموضوعات ذات الصلة:

التوقيف ـ قانون العقوبات ـ قانون أصول المحاكمات الجزائية.

مراجع للاستزادة:

-عبد الوهاب حومد، أصول المحاكمات الجزائية (دمشق ١٩٨٧).

-حسني عبد الملك، الإجراءات الجنائية.

■ الأخلاق

الأخلاق morale طراز سلوك إنساني نوعي لا تخلو منه حياة بشرية في أي مجتمع غابر أو حاضر، بل وقادم كذلك في أرجح احتمال. والخُلُق هو واقع نفسي متصل بالفعل، وعنه تصدر أفعال حسنة وأخرى سيئة. وهاتان السمتان، سمة الحسن وسمة السوء، تتميزان بجدل موقفين قيميين يعربان عن مفهومين متلازمين ومتقابلين، وهما مفهوما الخير والشر.

الوجود الأخلاقي

البحث في الأخلاق بحث إنساني حصراً. وهو يدخل في الاهتمامات الفلسفية الرئيسة، ويُعرف باسم الفلسفة العملية، أو الحكمة. فإذا خُصص لفظ الفلسفة النظرية، أو الفلسفة، بمعنى معرفة الوجود بما هو موجود، كانت الحكمة جزءها العملي أو السلوكي. وهي حصيلة إعمال الإنسان عقله في ماينهض به من فعال تلقى مدحاً، فتنتسب إلى الخير، أو ذماً فتُنسب إلى الشر. إن المدح والقدح، أو الاستحسان والاستهجان، هما أمارتا تحبيذ ما ينبغي فعله، ونبذ ما يجب تحاشيه. وهما كاشفا الخير والشر من الناحية الاجتماعية التي يتردد صداها داخل الذات الفردية في ما يسمى الضمير أو الوجدان أو الشعور الأخلاقي، وهو يواكب ضروباً أخرى من الشعور، ويتفاعل معها، مثل الشعور الديني، والشعور الجمالي، والشعور المعرفي.

والإنسان من بين الموجودات كلها ينفرد بأنه الذي يُلتمس له الخلق المحمود، والأفعال المرضية. فإذا اتجه النظر إلى أفعاله التي يشارك فيها سائر الموجودات، كان ذلك من حق علم الطبيعة. ولكن أفعاله وقواه وقدراته التي يختص بها من حيث هو إنسان، وبها تتم إنسانيته وفضائله، هي الأمور الإرادية التي تتعلق بها قوة التفكير والتمييز، وإن النظر فيها يسمى «الفلسفة العملية».

إن الفلسفة العملية هي فلسفة الأمور الإرادية التي تنتسب إلى الإنسان بوصفه فاعلاً متميزاً ومسؤولاً. وهي تمتد من التصور والرغبة إلى النية فالقصد، وإلى التحقق والإنجاز، والأخلاق إضافة إلى الوجود الإنساني أشبه بطبيعة مكتسبة، طبيعة ثانية، لا طبيعية، لأنها ترفض، في جلّ الأحوال، معطيات الطبيعة العفوية، أي الغريزية، بما في ذلك أخلاط المزاج أو الطبع أو السجية. فهي تنطلق من هذه المعطيات، وتسعى إلى تكييفها مع المثل الأعلى الأخلاقي، أي الخير، وذلك بتحويرها أو كبتها، أو منعها، أو تصعيدها تسامياً بدوافعها وحوافزها، فتستعيض عن الواقع الراهن بواقع مراد مرموق يتوخى تحقيق مايطمح البشر إلى تحقيقه لنيل سعادتهم في الحياة. ويؤكد مسكويه [ر] أن فعل الإنسان الخاص هو مايصدر عن قوته المميزة. «فكل من كان تمييزه أصدق، واختياره أفضل، كان أكمل في إنسانيته». والحق أن الأخلاق سباق في هذا المضمار، مضمار الفكر والحرية والإرادة. والأخلاق تحدد للفاعل الأخلاقي، فرداً أو جماعةً، أنماط الحياة الأفضل، وأغراض الوجود الأسمى، وتحضّه على المضي شطر المثل الأعلى المرموق، أي الخير الذي تقره جُمَاعةُ جماعةٍ في عصر أو ثقافة تختلف عن عصر آخر، أو

ثقافة مباينة. ولذا يصح القول بتفاوت الأخلاق البدائية أو الصينية أو اليونانية أو الرومانية أو العربية. وقد قيل: «لكل شعب أخلاقه التي تحددها شروط حياته»، بل إن الأخلاق لتختلف داخل المجتمع الواحد تبع الأوساط الاجتماعية: الأخلاق الريفية، والأخلاق الشعبية، والأخلاق البرجوازية، أو تختلف باختلاف المهن أحياناً، أو الجنس بين أخلاق الرجال في هذه الجماعة مثلاً وأخلاق النساء.

بيد أن وراء هذا التفاوت والتنوع والاختلاف جامعاً إنسانياً ثابتاً وموصولاً، به يلتقي النوع البشري ويبذّ العجماوات حين لا يكتفي بالحفاظ على كيانه العضوي، ووجوده الحيوي، ولا يرضى بغريزة حفظ البقاء وحسب، بل ينشد البقاء الأفضل، والمصير الذي لا تفرضه الطبيعة عليه. وقد فطن كَنت [ر] إلى أن الغريزة لو كانت تكفي البشر هادياً في السلوك لكان من أنواعها «غريزة أخلاقية» تغنيهم عن مؤونة الجهد العقلي والإرادي، وتجعل سلوكهم واحداً متماثلاً آلياً أشبه بسلوك النباتات والعجماوات، ويتجه السلوك الأخلاقي الصحيح بأسره شطر المستقبل، ويستهدف في جميع الحالات تنفيذاً لاحقاً لتصور راهن، عقلي، إرادي، لدى الأفراد والجماعات. إن السلوك الغريزي سلوك تكرار كسول وممل، وليس فيه بوجه التقريب أية فرصة لتخيل مبدع، ولا لحرص على تطلع إلى مايُعدّ هو الأفضل، والأحسن، والأسعد، والأكمل.

ذلك أن الوجود الأخلاقي نشاط متميز بإحكام ارتباط الوسائل بالغايات، يستوي في ذلك العمل في مجالات الحياة الشخصية الخاصة، أو الحياة الاجتماعية العامة في شتى ميادينها الثقافية والعلمية والاقتصادية والسياسية حتى الأسرية والمجتمعية. وهذا الارتباط «الغائي» اللازب ينشد اضطلاع الفاعلين الأخلاقيين بما «يجب أن يكون»، وما «ينبغي أن يراد وأن يفعل»، وهذا هو سلوك «التقدير» أو «التقويم».

المعرفة الأخلاقية

إن المعرفة الأخلاقية، والبحث الأخلاقي، بل دراسة علم الأخلاق، ضرورة ملحّة توجبها مقتضيات الوقائع الإنسانية، فضلاً عن نفعها الموصول. ذلك أن لا ندحة للإنسان «العارف» من تعمق تجربة سلوكه الشخصي والاجتماعي، و«فهم» سلوكه وسلوك الآخرين أفراداً وجماعات، ثم «تفسير» هذا السلوك، في الأنفس والآفاق، حتى تتبين دقائق الخير والشر، ويصار إلى تمييز الفاضل والأفضل، أو السيئ والأسوأ، وتنجلي أحكام الوجوب أو أحكام القيمة، مع العلم أن القيمة على الدوام مطلب ذهني يدعو إلى التحقق والإنجاز.

الخير هو «مايجب صنعه». ومعرفة الخير تبدأ على صعيد الفكر بتمييز فارق أساسي بين الأخلاق المعاشة، وهي جملة الأعمال التي ينهض بها الفاعل تقليداً أو اتباعاً، إن لم يكن رضوخاً وخضوعاً لمشيئة خارجة عن إرادته واختياره، وبين الأخلاق «الانتقادية» أي الواعية، وهي أخلاق المذاهب ذات المنازع الثلاثة الكبرى وهي: الديني والعلمي والفلسفي. وكل منزع منها يمثل وجهة نظر تحظى بتأييد رواد وأنصار.

المنزع الأول، وهو المنزع الديني، أو الاعتقادي، وقوامه الإيمان بأن الخير والشر يحددان بأوامر المعبود ونواهيه، تستوي فيه في الدعوة إلى التخلق الديانات اللاسماوية والديانات السماوية. ومن شأن الأديان كافة أن تنشد خلاص الإنسان ونجاته، وفوزه الأكبر في الدارين. إن الله خالق الكون والناس. ومشيئته مصدر ما يجب أن يفعل العباد في سلوكهم الأخلاقي على جميع الصعد، ومنذ عهد التكليف حتى الممات. وإنما بطاعة التعاليم «المنزلة» يحظى المؤمن الخلوق بسعادة الدارين.

ويشترك المنزعان الثاني والثالث في أنهما «إنسانيان» ينطلقان من أن الخير والشر مفهومان «وضعيان» أبدعهما الإنسان في حياته الأرضية ليحظى بمزيد من كمال إنسانيته، ويحقق مايريد، بل مايجب، من المثل المقررة العليا. وهذان المنزعان يعملان، من جهة أخرى، على فحص المشاهد من الأخلاق الراهنة بحثاً عما يسوّغ السلوك الأخلاقي بالاستناد إلى معيار أو مبدأ محدد قابل للتعميم الكلي.

إن المنزع الثاني هو المنزع «العلمي»، وهو يمعن في استجلاء الأصل اللغوي الذي تشتق منه الكلمات الدالة في الثقافات الغربية على معنى الأخلاق. وقد اتضح أن الأصل اللاتيني لكلمة «مورال» morale يعني العرف والاستعمال الذائع. وقد آل جهد الباحثين المتمسكين بمعرفة الأخلاق معرفة علمية موضوعية إلى مماثلة دراسات العلوم الرياضية (رنوفيه) أو العلوم الاجتماعية (دوركهايم) أو العلوم الطبيعية (ليفي - برول)، وانتهوا إلى ادعاء إمكان استخلاص مايجب أن يكون مما هو كائن موجود، ولو كره العالم الرياضي المعروف هنري بوانكاريه، ومثال هذا المنزع مانجده في محاولة ألبير بايّه إقامة «علم الحوادث الأخلاقية» و«الفن الأخلاقي العقلي»، ومانجده من محاولات في علمية النظريات الاشتراكية الماركسية وعلمانيتها، أو في مساعي التحليل النفسي للسلوك الأخلاقي (المدرسة الفرويدية) أو المدارس اللاقمعية (مركيوز، رَيْخ).

أما المنزع الثالث، وهو المنزع الفلسفي، فإنه غني بمذاهبه النامية نمو الفكر الإنساني وتنوعه وغناه. وهو يرى أن من الممتنع استخلاص ما يجب بما هو موجود، وأن العقل الإنساني وحده هو مصدر الحقيقة في مجالي النظر والسلوك. ولهذا المنزع منحيان أساسيان: أولهما المنحى الوجودي (ontologie = أنطولوجية) والآخر المنحى القيمي (axiologie = أكسيولوجية).

إن الفلسفة الأخلاقية «المدرسية» تندرج كلها في كنف فلسفات الوجود. وكل مذهب أخلاقي من مذاهبها يعتمد مبدأ يفسر بالتسويغ الحقيقة الأخلاقية في نظره. ويعرف هذا الضرب من النظر باسم فلسفة الأخلاق، ويدل عليه بكلمة ethique أو ethics ذات الأصل الإغريقي. ومن أمثلة هذا المنزع أخلاق الحكمة في الفكر اليوناني القديم (سقراط، أفلاطون، أرسطو) وأخلاق اللذة (ارستيب، أبيقور) وأخلاق الفضيلة (الرواقيون)، ثم أخلاق العقل (ديكارت، سبينوزا، ليبنز) والعقل الانتقادي (كَنت) وأخلاق العاطفة (هوبز، شفسبوري، فولتير، روسو، آدم سميث، شوبنهور، رينان)، فأخلاق المنفعة (بنتام، ستورت مل) وأخلاق الجدل (هيغل، ماركس، انغلز، لينين) وأخلاق الحياة (سبنسر، غويو، نيتشه) وأخلاق التجربة (روه، برغسون) وأخلاق الذرائعية (وليم جمس، ديوي).

أما المنحى الآخر في الفلسفة الأخلاقية فهو المنحى القيمي وقد عرّفه لالاند على أنه «علم يتناول حكم التقدير من حيث معالجته تمييز الخير والشر في الأفعال الموصوفة بأنها جيدة أو سيئة». ويتسم هذا المنحى بعزوف مفكرين معاصرين عن اعتماد فلسفة الوجود، وانصرافهم

إلى العناية بمسألة العمل والسلوك (براكسيس) واهتمامهم بتحديد القيم المنشودة لدى كل تصرف واعٍ هادف معاً. ومن أشهرهم، بعد نيتشه والذرائعية، الفنومنولوجيون (شلر، هارتمان) والوجوديون الروحانيون (لافيل، لوسين) والوجوديون المؤمنون (غابريل مارسيل) واللامؤمنون (سارتر، كامو) وغيرهم.

أقسام الأخلاق

المشكلة الأخلاقية، بإيجاز، هي مطلب التحديدات المثالية، والقواعد، والغايات الإنسانية، في مجال العمل الصالح، أو الخير. وبحثها يستلزم وعياً جلياً بمعايير عامة أو بمبادئ تنهض على أساسها مثل تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، أو إقرار أن حياة الفكر أسمى من حياة الجسد، أو اعتقاد أن الأدوم خير من الزائل. فهذه المشكلة إشكالية قيمية، ومطلبها يتميز بأن قيم الأخلاق تجتذب المرء وتلزمه، من دون أن ترغمه وتجبره. فهي لا تنفي الحرية، وإنما تفترضها. وبهذا المطلب يتطلع النشاط العملي لتحقيق النمط الإنساني الأمثل، وإحقاق المدينة الفاضلة، بل شروط وجودها على الأقل.

ومن المألوف إطلاق اسم الأخلاق العامة على بحث المشكلة الأخلاقية عندما يتوخى استشفاف المبدأ الأساسي العام الذي تصدر عنه الإلزامات أو الواجبات. وهذه الأخلاق العامة نظرية، بمعنى أنها تفسيرية ومنهجية، وأنها تهدف إلى إيضاح انبثاق القواعد والواجبات من منظومة متسقة ذات مبدأ جلي جهد المستطاع. وهي تختلف عن الأخلاق الخاصة أو العملية التي تعرف أحياناً باسم الأخلاق الجزئية أو التطبيقية، ومجالها بالدرجة الأولى تحديد الوسائل التي بها تتحقق الغاية المنشودة فتجلو بذلك الواجبات المشخصة على أنها تطبيقات مبدأ كلي هو مبدأ الواجب الأساسي الملقى على كاهل الفاعل الأخلاقي بوجه عام. وعندما تهبط هذه الأخلاق الخاصة إلى تطبيقات عملية في مجال سلوك الأفراد تسمى الأخلاق الفردية، وهي نهاية الدرب المنحدر من سماء فكر الأخلاق النظرية أو الكلية الشاملة، إلى واقع الإنجاز المتجسد في دنيا الناس.

المفهومات الرئيسة

حسب أفلاطون في مثاليته أن الخير ذروة ثالوث أقانيم تشغل كلها منزلة الألوهية أو المطلق. وهذا الخير الذروة هو الخير الأسمى الذي يترجمه أرسطو في واقعيته بمطلب السعادة. وسعادة الناس عنده تتفاوت بتفاوت صنوف عيشهم. فثمة أولاً الطبائع العامية الغليظة، وسعادتهم هي اللذة والاستمتاع المادي. ثم أهل العيشة السياسية أو العمومية، وسعادتهم هي المجد. وأخيراً أولو العيشة التأملية والعقلية، وسعادتهم معرفة الحقيقة بالتأمل الفلسفي ليصبح أحدهم ندّ الإله، إن لم يكن إلهاً، وسعادتهم هي الإسهام في حياة الخلود.

لقد ظلت السعادة مطلباً غائياً في السلوك الأخلاقي في الغرب والشرق، وما تزال مضمرة في كل فاعلية، وإن انحدرت قيمتها بوصفها فضيلة إلى رتبة المطلب الشخصي والأسري ماثلاً في الرفاه وفي التحرر الجنسي وفي «البيت ذي الألف آلة كهربائية» (كزنوف). أما الرتبة أو الفضيلة الأسمى التي يهدف إليها البشر في هذا العصر (إن لم يكن في المستقبل المنظور)، فهي مطلب الكرامة الإنسانية الموصلة إلى جعل الحضارة والتقدم التقني الرائع سبيلاً للمدنية الإنسانية حتى تتحقق للإنسان إنسانية أكمل فأكمل.

أما السبيل إلى بلوغ هذه الغاية السامية أو الأهداف فإنه، من الناحية العملية، سبيل مفهومات رئيسة مثل الفضيلة، وهي التي تتحقق بحسب قواعد معينة، فتغدو استعداداً ثابتاً لممارسة الخير، والرذيلة عكسها. ثم الواجب وهو اللفظ الأكثر شيوعاً في أحاديث الناس كلما فطنوا إلى النشاط الأخلاقي، والواجب ينطوي جدلياً على إمكان سلوك آخر مرفوض لأنه سيئ، أو خبيث، أو ضار، أو شرير. وبذا يكون الواجب نقيض أو «طباق الخطيئة»، أو هو كل حكم وجوب ينطوي على نفي ضمني لعمل مقيت. وليس بخافٍ أن الواجب يفرض اختيار سلوك مرموق يؤلف مضمونه مفهوم الحق. والحق هو ما يكون من الواجب عدم الحيلولة دون فعله، وضرورة إزالة أي عائق قد يعترض سبيل القيام به. ومن التقاء الحق بالواجب التقاءً متبادلاً ينشأ مفهوم العدل وهو الاستقامة وتقويم الشيء بالشيء من جنسه، والإنصاف والنزاهة، التي هي البعد عن السوء، والعفاف أو العفة، وأضدادها الظلم والجور والعتو والعسف والخبث والشره وغيرها.

وبقول وجيز: الفضيلة استعداد، والواجب فعل، والتخلق إنجاز، وهذا الإنجاز حده الأدنى هو الواجب، والتطلع إلى المثل الأعلى هو النهاية، والنهاية، كالبدء، هي الخير.

النجوع الأخلاقي

ثابت أن تصور الخير لم يبق تصوراً فردياً، ولا أسرياً، ولا مفهوماً محلياً، أو قطرياً، بل هو تصور إنساني كلي شامل. والسؤال الدائم في مجال الأخلاق هو: كيف، وإلى أي مدى، يمكن، أو يجب، أن يتحقق الخير في الدنيا؟ وما السبيل، على الأقل، إلى الدنو من إنجاز المثل الأعلى؟ وهنا تطرح إشكالية النجوع الأخلاقي: أترى هل للأخلاق نفوذ به يتحول الواقع الراهن إلى الواقع المبتغى؟ إن الإجابة تتبع فلسفة القيمة الأخلاقية التي تتميز بأنها تمسك بطرفي الوجود والوجوب. فهي تنطلق من المعطيات البيولوجية والطبيعية (كالبيئة الجغرافية والاجتماعية) من جهة، ومن المعطيات الثقافية والحضارية من جهة أخرى، وترى أن نجوع تحققها وقف على التنشئة الاجتماعية والسياسية. وذلك يشتمل على الأهداف والوسائل: الأهداف تنال بالفكر الانتقادي للقيم المطروحة قبولاً أو تحويراً أو رفضاً أو استبدالاً. ولم يبق في وسع الأخلاقي أن يعيش في برج عاجي إذ لابد له من طرح قيم مبتكرة، أو تبديل تسلسل قيم راهنة، إذا شاء أن يكون مذهبه أقرب إلى الأفضل والأكمل. أما الوسائل فإنها تعتمد التربية الأخلاقية، وقوامها التدرب على تحرير الإنسان من أسر غرائزه وأهوائه الدنيا ورغباته الجامحة، وتحسين الكيان الإنساني فيه وفي الآخرين، وحثه على الخلاص من مساوئ الأثرة، والحقد، والعمل على زيادة التفاهم والتعاون ليلتقي البشر بسلوكهم الأخلاقي المبتكر لقاء قيمهم الفكرية والجمالية والأخلاقية في ذروة التقدم الأصيل، والتكافل اللانهائي.

ومن عوامل النجوع الأخلاقي محاكاة الأبطال والعظماء، والمضي من «تقويم» أنماط السلوك الذائع الفاسد إلى ابتكار الأحسن والأليق في معراج التقدم. وربما ارتدى الجهد الأخلاقي حلة اجتماعية مشتركة وغدا مطلباً عقائدياً نضالياً في مجتمعات معينة. ومن شأن كل عقائدية أن تمتح شعارها دوماً من أهداف تضمر، أو تعلن، قيماً أخلاقية، سافرة أو كامنة، وتعمل على إنفاذها في الحياة الراهنة مؤيدة

عملها بأساليب الإعلام والإقناع تارة، أو القسر والإكراه تارات. غير أن النجوع المرموق يظل سطحياً في أية حالة ما لم ينبثق من أعماق الذات، أو ينفذ إليها إيماناً قيمياً خلوقاً، كيما يتجسد، من ثم، في سلوك الأفراد والجماعات.

عادل العوا

الموضوعات ذات الصلة:

الاجتماع (علم ـ) ـ الفلسفة ـ كَنت.

مراجع للاستزادة:

ـ عادل العوا، المذاهب الأخلاقية، جزءان (مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩)

ـ عادل العوا، الأخلاق والحضارة (دمشق ١٩٨٩)

-A.LE SENNE. Traité de morale générale (Paris 1947).

■ أخماتوفا (آنا ـ) (١٨٨٩ ـ ١٩٦٦)

آنا أندريفنا غورنكو أخماتوفا Anna Andreievna Gorenko Akhmatova شاعرة روسية ـ سوفييتية مُجيدة، ولدت في بلدة بلشوي فونتان إحدى ضواحي مدينة أوديسة على البحر الأسود في أسرة لضابط بحار في الأسطول الحربي الروسي، وأمضت طفولتها وبعض شبابها في بلدة تسارسكوية سيلو بالقرب من بطرسبرغ، والتحقت بعد إتمامها الدراسة الثانوية بالدورات النسائية العليا في مدينة كييف ثم بمعهد الحقوق التابع لجامعة كييف، وانتقلت في العام ١٩١٠ للسكن في بطرسبرغ، وتزوجت بصديق طفولتها الشاعر نيقولاي غوميليوف N. Goumilev ورافقته في جولة إلى فرنسة وإيطالية بين العامين ١٩١٠ و١٩١١ وانفصلت عنه سنة ١٩١٨. أخليت إلى طشقند مع من أخلي من النساء والأطفال في بداية الحرب الوطنية العظمى (١٩٤١)، ثم عادت بعدها إلى لينينغراد مدة، إلى أن استقر بها المقام في موسكو حتى وفاتها. وعُدت بعد موتها أعظم شاعرة أنجبها الأدب الروسي.

بدأت آنا أخماتوفا تقرض الشعر طفلة ولم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها، وتعززت مكانتها حين ألقت أشعاراً من نظمها في ندوة أقيمت تكريماً للشاعر الرمزي فياتشيسلاف إيفانوف [ر] Ivanov، ومنذ شتاء ١٩١١ بدأت أخماتوفا تشارك في «مُحترف الشعراء» Tsikl Poetov الذي ضم شعراء الحركة «الأوجية» Acmeisme، التي تزعمت تياراً أدبياً في الشعر الروسي ظهر سنة ١٩١٠ يناهض الرمزية ويدعو إلى الموضوعية وتحري الدقة في انتقاء معاني الكلمات والاهتمام بالعالم المحسوس، وكانت هذه الحركة تضم إضافة إلى منظرَيها الرئيسين نيقولاي غوميليوف وسيرغي غروديتسكي S. Gorodetski عدداً من الشعراء الشباب منهم: أوسيب ماندلشتام O. Mandelstam وميخائيل كوزمين M. Kouzmin وبوريس سادوفسكي B. Sadovski وغيرهم.

صدرت لأخماتوفا أول مجموعة شعرية سنة ١٩١٢ بعنوان «المساء» Vecher وتبعتها مجموعة أخرى بعنوان «السبحة» Chetki (١٩١٤) و«السرب الأبيض» Belaya Staya (١٩١٧) ثم «عابر السبيل» Podorozhnik (١٩٢١) و«آنو دوميني ـ ١٩٢١» Anno Domini MCMXXI (١٩٢٢)، وتعكس المجموعتان الأخيرتان موقف أخماتوفا من الثورة البلشفية والحرب الأهلية. وبعد إعدام زوجها السابق غوميليوف سنة ١٩٢١ بتهمة الاشتراك في مؤامرة معادية للسوفييت غدا وضع آنا أخماتوفا حرجاً للغاية، ودخلت منذ العام ١٩٢٣ في صمت مطبق عن قول الشعر، ولم ينشر لها أي كتاب في العهد السوفييتي حتى العام ١٩٤٠، حين بدأت مجلة «النجم» Zvezda الشهرية تنشر لها قصائد مختارة، ثم صدر لها مجلد ضم مختارات من شعرها القديم عنوانه «مختارات من ستة كتب» Iz shesti King ولكنه سحب من المكتبات قبل انصرام بضعة أشهر على صدوره.

ومع بداية الحرب الوطنية العظمى والغزو الألماني للاتحاد السوفييتي سمح لأخماتوفا ببث رسائل مشجعة في الإذاعة إلى نساء لينينغراد وقراءة مختارات من قصائدها على الجرحى من نزلاء المستشفيات، كما سمح لها بنشر عدد من القصائد الوطنية والحماسية في مجموعة صدرت سنة ١٩٤٣ في طشقند، وبعد عودتها إلى لينينغراد بدأت تستعد لإصدار ديوان ضخم يضم أشعارها، إلا أنها تعرضت للتشهير في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في العام ١٩٤٦ وجرى طردها من اتحاد الكتاب السوفييت، وأتلف ديوانها الجديد وهو قيد الطبع. وفي عام ١٩٥٠ نشرت لأخماتوفا قصائد في مدح ستالين والشيوعية السوفييتية وأعيد نشرها أكثر من مرة تملقاً من أجل إطلاق سراح



ابنها ليف غوميليوف الذي اعتقل سنة ١٩٣٧ ونفي إلى سيبرية سنة ١٩٤٩. وبعد موت ستالين وحدوث الانفراج الثقافي بدأت أخماتوفا تسترد مكانتها في عالم الأدب تدريجياً، ونشرت لها مجموعات شعرية وترجمات لأشعارها، ومقالات أدبية رائعة لعل أشهرها دراسة أدبية عن بوشكين [ر]. أما أطول قصائدها وأشهرها فهي «قصيدة من غير بطل» Poema Bez Geroya (١٩٤٠ ـ ١٩٦٠) لم تنشر في الاتحاد السوفييتي (سابقاً) إلا في العام ١٩٧٦، وهي تشتمل على فلسفة أخماتوفا وآرائها في الحياة والشعر، وتعد من أعظم القصائد التي تم نظمها في القرن العشرين وتجمع بين الرمزية والمجاز والسيرة الذاتية.

تميزت أشعار أخماتوفا بالواقعية والبعد عن الشكل والتجريد، وبالجرأة في اختيار بعض الجزئيات التي تبدو ثانوية في ظاهرها، وكانت تستوحي نظمها من الجماليات الاتباعية التي يعد بوشكين وباتيوشكوف خير نموذجين لها. وتظهر هذه الاتباعية عند أخماتوفا مغايرة لما هي عليه عند ماياكوفسكي وباسترناك. ويتصف

شعرها عموماً بالبساطة والوضوح ودقة التعبير وكمال النظم. وهي لاتسعى وراء القوافي المميزة والاستعارات المتعمدة خلا الصور المطروحة في الشعر التقليدي، وفي شعرها صور من الشعر الشعبي وقبسات من اللغة المحكية ممزوجة بالمفردات التي تحمل طابع القدم، وهذا ماجعلها تسهم مع أكثر معاصريها في تجديد الإيقاع الشعري الروسي ومقاطعه ونبره مع استخدام الوقف Pause الذي يزيد من القوة التعبيرية للإيقاع.

ترعرعت أخماتوفا على تربة الحياة الحقيقية ترضع من حوافزها حب الأرض والوطن، ومع ما لحقها من اضطهاد ومعاناة فقد رفضت مغادرة موطنها، وأدانت بشدة الهجرة والانفصال عن الوطن: «لست مع من يهجر وطنه». أما موضوعها الرئيسي فهو الحب المأساوي الأنثوي الذي يمزج العاطفة بالأسى والحزن بالبهجة والأمل، واشتمل نظمها على بعض التناقض في سنوات المعاناة، وتعززت عندها أصداء حب الوطن ووحدة الأرض في الثلاثينات وفي سنوات الحرب، ولم يمنع ذلك نقادها في العهد الستاليني من نعتها بالأرستقراطية البرجوازية وبأنها صوفية وراهبة بغي، وأنها من المنشقين سياسياً، وشعرها «منفر للشعب السوفييتي».

أشرفت أخماتوفا على ترجمة أعمال شعراء أجانب مثل فكتور هوغو و طاغور وليوباردي وبعض الشعراء الأرمن و الكوريين، وأعدت دراسة عن ألكسندر بلوك كما تُرجمت أعمالها إلى لغات كثيرة، ومنحت عام ١٩٦٤ جائزة إتنا تورمينا العالمية لمسابقات الشعر التي تنظمها إيطالية، وكرمتها جامعة اكسفورد بمنحها لقب الدكتوراه الفخرية عام ١٩٦٥.

توفيت آنا أخماتوفا ودفنت بالقرب من موسكو.

محمد وليد الجلاد

مراجع للاستزادة:

- A.PAVLOVSKI , Anna Akhmatova (Leningrad 1966).
- J.RUDE , Anna Akhmatova ,Seghers (Coll. Poétes d'Aujourd' hui 1968).

■ الأخمينيون

الأخمينيون Les Acheménides أسرة حاكمة قديمة يرجع أصلها إلى الغرب والجنوب الغربي من إيران، وتُنسب إلى مؤسسها أحمينيس Achéménès (أخامانيش). وبعد أن حكمت هذه الأسرة، في القرن السابع ق.م، إمارة صغيرة، هي إمارة أنْشان، في ذلك الجزء من إيران الذي كان يدعى قديماً بارسا (فارس)، وهو الاسم الذي أطلق على البلاد الإيرانية كلها قبل أن تُعرف به رسمياً في العقد الثالث من القرن العشرين في أيام الشاه رضا بهلوي. استطاع أشهر الملوك الأخمينيين قوروش الثاني في أقل من ثلاثة عقود من السنين (٥٥٦ ـ ٥٢٩ ق.م) أن يتخلص من التبعية للميديين [ر] الذين كانوا يحكمون امبراطورية واسعة الأرجاء قاعدتها في شمالي إيران، وأن يوحّد العالم الإيراني القديم، ويؤسس مملكة كبرى بسطت سيطرتها على أوسع امبراطورية عرفها التاريخ حتى ذلك العصر، امتدت من أطراف الهند والصين إلى البحر المتوسط. واستمر حكم هذه الأسرة حتى سقوطها بعد الاجتياح المقدوني للشرق في أواخر القرن الرابع ق.م.

تأسيس المملكة الأخمينية

تنتمي الأسرة الأخمينية إلى الفرس، أحد الشعوب الإيرانية القديمة، الذي كان الموجة الأخيرة من موجات الشعوب الهندية ـ الأوربية (الآرية) التي اجتاحت أراضي إيران في مطلع الألف الأول ق.م. ظهرت الأسرة الأخمينية، التي لا تعرف أصولها، في مطلع القرن السابع ق.م. وبدأ نفوذ الأسرة يقوى بعد أن تخلصت تدريجياً من تبعيتها للعيلاميين [ر] واستقلت بإمارة أنشان التي كُشفت آثارها في تل مليان والممتدة إلى الجنوب الشرقي من سوسة، ثم استولى أمير أنشان المدعو تشاهبيش (٦٧٥ـ٦٤٥ ق.م) على بلاد بارسا في إقليم شيراز اليوم، وانقسمت الأسرة على نفسها بعد ذلك فكان لفرع منها حكم فارس ولفرع ثان حكم أنشان. وكانت الغلبة لهذا الفرع بعد أن تزوج قمبيز الأول (٦٠٠ـ٥٥٦ ق.م) الأميرة ماندان ابنة أستياج ملك الميديين، وكان من ثمار هذا الزواج قوروش (الثاني) الذي كان حكمه انعطافاً وتحولاً حاسماً في دور الأسرة الأخمينية في تاريخ إيران القديم.

التوسع شرقاً وغرباً

استطاع قوروش إعادة وحدة الأسرة الأخمينية وتطلّع إلى السيطرة على ميدية وتمكن بذلك من توحيد البلاد الإيرانية ثم انتقل إلى بسط سيطرته المطلقة على عواصم الشرق مستفيداً من الأوضاع الدولية واضطراب الأحوال الداخلية في الدول القديمة. وفي ٥٣٨ ق.م دخل قوروش بابل فكان ذلك مؤشراً على تغير كبير في «عالم بلغ الشيخوخة، والأهم من ذلك أن العالم القديم كان مدركاً لشيخوخته» كما قال أُولمستد. وكان يُظن لفداحة الأحداث والتغيرات المتلاحقة، بعد اجتياح الفرس مملكة ليدية [ر] في غربي آسيا الصغرى على بحر إيجه وبعد توغلهم في بلاد الشرق، أن تاريخ الشرق القديم كان يتجه إلى نهايته، لكن المفارقة كانت في تجدّد العالم القديم ضمن وحدة سياسية ـ اقتصادية امتدت من بلاد الهند إلى ليبية وحوض بحر إيجة. وهكذا قامت امبراطورية جديدة في المشرق على أنقاض الامبراطوريات والممالك القديمة، اجتمعت فيها شعوب وتلاقت ثقافات ولغات وصنائع وعقائد وعادات. ولكن قوروش سقط في ميدان القتال بعد أن توغل في أعماق السهوب الشمالية الشرقية من آسيا الوسطى. ثم خلفه بعد مرحلة انتقالية مضطربة ابنه قمبيز الثاني (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م) الذي قاد حملة على مصر (٥٢٥ ق.م) وأسقط عرش الفراعنة ولكنه أثار المصريين بتصرفاته وبفرض ضرائب مرهقة وبالتعرض للتقاليد الدينية. ثم عمل داريوس الأول (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق.م) على التوسع باتجاه الشرق إلى حوض نهر السند وغرباً إلى ضفاف نهر الدانوب. وتمكّن من وضع حد للمنازعات الداخلية التي أثارها الأرستقراطيون والكّهان المجوس. أمّا أكبر منجزاته فهو استكمال بناء الجهاز الإداري للدولة.

لكن المبالغة في فرض الضرائب والتدابير القاسية على السكان الإغريق المقيمين على الساحل الإيوني، في غربي آسيا الصغرى، أدّت إلى اندلاع ثورة لاهبة بين ٤٩٩ ـ ٤٩٣ ق.م كانت الشرارة التي أوقدت نار الحروب الميدية التي اجتاحت العالم الهلّيني بين الفرس من جهة والمدن الإغريقية من جهة أخرى.

كانت هذه الحرب عند الهلّينيين مسألة حياة أو موت، فقد سجل المؤرخون (هيرودوت وتوقيديدس وكزينوفون) دفاعهم عن بلادهم وانتصاراتهم على جيوش الامبراطورية الفارسية عند ماراثون (٤٩٠ ق.م) ثم في معركة سلاميس البحرية (٤٨٠ ق.م). وبعدها بعام واحد في معركة بلاتيا (٤٧٩ ق.م). وفيما استطاع الهلّينيون أن يقيموا بينهم بزعامة أثينة تحالفاً قاد الحرب إلى الساحل الإيوني الآسيوي اشتدَّ أوار الأزمات الطاحنة في داخل الامبراطورية الفارسية. فاندلعت الثورات في مصر (٤٨٦ - ٤٨٥ ق.م) وفي بابل (٤٨٢ - ٤٧٩ ق.م) وتوالت تحركات الأمراء الإقطاعيين الساعين إلى الانفصال والاستقلال والمؤامرات والاغتيالات في داخل القصر الامبراطوري.

نُظُم الدولة الأخمينية

كان قيام الامبراطورية الفارسية حدثاً مثيراً، فهي من صنع شعب لم يكن له ماض عريق كالعيلاميين، ولم تكن له حتى ذلك الحين ثقافة مميزة كالثقافات البابلية والمصرية والإغريقية والسورية. ولكن هذه الامبراطورية ورثت تراث كل الدول القديمة التي قامت على أرض إيران، فقد قامت إمارة أنشان على أرض مملكة عيلام. وورثت أيضاً تقاليد دول الرافدين في الاستراتيجية وفي الإدارة ومنها فكرة الدولة العالمية. وحلّت المملكة الفارسية محل المملكة الميدية وورثت منها مطامعها التوسعية في بلاد الشرق القديم. وكان نظام الحكم ملكياً مطلقاً، ويستند الملك، لفرض سلطانه، إلى حاشية مميزة. وقد أعفي الفرس في هذه الدولة من دفع الضرائب لقاء الخدمة العسكرية. وكان لهم المقام الأول ويأتي بعدهم الميديون. ويساعد الملك حكّام إقطاعيون كانوا يملكون الأراضي ويجندون الجيوش ويؤلفون طبقة أرستقراطية شغل كبارها الوظائف في قيادة الجيوش والوزارة والقضاء والإدارة والولاية. وحصل زعماء القبائل الرئيسية على امتيازات أضحت لها مع مرور الزمن صفة وراثية. وقد تلقى أبناء الأرستقراطيين تعليماً ممتازاً تضمّن الرماية والفروسية وقول الحق وهي المؤهلات اللازمة للعمل في خدمة الملك.

أما الجيش فكان يُؤلف من مجنّدين من الشعوب المغلوبة. وأما القادة والفرسان فكانوا يُختارون من بين الفرس أو الإيرانيين. وأهم الفرق العسكرية «الخالدون»، وهم عشرة آلاف من حملة الأقواس والقنّاصين في الحرس الملكي الذين لا ينقص عددهم. وفي كل ولاية يعيّن والٍ، ساتراب، وكان مكلفاً قيادة الجيش في ولايته والمحافظة على النظام والأمن وجمع الضرائب والهبات والغنائم. ولمّا كان الفرس غير قادرين على إدارة الامبراطورية الأخمينية الواسعة الأرجاء إدارة مباشرة فإنهم اكتفوا بالقضاء على الدول الكبرى وتُركت الممالك الصغيرة التابعة مثل قبرص وكيليكية وممالك المدن الفينيقية على الساحل السوري وتُرك الزعماء المحليون الدينيون وأمراء القبائل كالعرب والسكيذيين. ولم يكن ثمة حرج في تأسيس دول داخل الامبراطورية كمملكة بيتينيا في الأناضول إذا ما ارتضت التبعية لملك الملوك.

وقد عُني ملوك الفرس بتنظيم جهاز الأمن، الذي كان يتولاه موظفون عرفوا باسم عيون الملك وآذانه، وكانت مهمته المراقبة والتفتيش في الولايات وإطلاع الملك على أحوالها. ولتنظيم الاتصال بين العواصم والولايات شُقت الطرق وطُوّر البريد وأُصلحت الطرق القديمة المعروفة قبل قرون. ونفذت مشروعات كبيرة لتشجيع المواصلات البحرية فشُقت قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر عند خليج السويس. ونظمت الرحلات البحرية الاستكشافية لتعرف خطوط جديدة للاتصال بين مصب نهر السند في الهند ودلتا النيل في مصر عن طريق محطات على الساحل الإيراني وعلى السواحل العربية. وتراكمت، نتيجة لذلك النشاط، ثروات كبيرة بلغت أطناناً كبيرة من الفضة والذهب. وقد ضُربت النقود، وأرفعها الدنانير الذهبية وعليها صورة رامي القوس المتوّج، وكانت هذه الدنانير تنفق في تجنيد الجنود المرتزقة وشراء ضمائر العملاء قبل تحرك الجيوش. ولقلة النقد من المعادن الثمينة لجأ ملوك فارس إلى الاستقراض والاستدانة بالفائدة. وفي القرن الرابع ق.م لجأت الدولة إلى فرض تصنيع ما كانت تحتاج إليه من الفخار والزيت والخمور على الولايات الغربية في آسيا الصغرى وسورية ومصر. ولكن فرض الضرائب كان يؤدي إلى انتفاضات محلية وإقليمية، كما وقع في مصر التي قاومت الاحتلال الفارسي واستردت استقلالها مرتين (٤٦٠ - ٤٥٦ ق.م) و (٤٠٥ - ٣٤٣ق.م). أما العالم الهليني فقد قاوم الغزو الفارسي منذ بدايته في مطلع القرن الخامس ق.م حتى النهاية في أواخر القرن الرابع ق.م. وقدّم المؤرخون اليونانيون المعاصرون صورة أسطورية عن الامبراطورية الفارسية بعد احتكاكهم بها في بلاد الشرق ومقابلتها وجهاً لوجه.

الحضارة الفارسية في العصر الأخميني وموقعها في التاريخ القديم

لم تتوقف الأسرة الأخمينية في مرحلة تأسيسها وفي أوج قوتها عند توحيد العالم الإيراني بل إنها عملت عندما سنحت لها الظروف المناسبة من أجل التوسع في بلاد الشرق القديم للسيطرة على طرق مواصلاته وأسواقه. وهكذا ورث قوروش وخلفاؤه عروش بابل وساردیس ومنفيس المتداعية التي سرعان ماانهارت أمام القوة الناشئة الجديدة.

ولكن الدولة الأخمينية لم تتردد، للمحافظة على كيانها السياسي، في نقل السكان وفي نزع ملكية بعضهم لإقامة جاليات فارسية على الأراضي المصادرة أو المستملكة في آسيا الصغرى أو في بابل. أما التعذيب والبطش بالثائرين فكانا من الأمور الشائعة والمعروفة وابتدعت لها أساليب فاقت في فظاعتها ما عُرف عند السابقين. أما التسامح الديني الذي عُزي إلى قوروش وبعض الملوك الأخمينيين فلم يكن سياسة فريدة في بابها في دول الشرق القديم، فقد عرفت حضارات الشرق القديم غالباً التعايش بين العقائد الدينية المحلية فلم يكن للعامل الديني الدور الأول في توسع الدول وفي إنشاء الامبراطوريات عند الفراعنة أو ملوك الرافدين والأناضول. ولكن الحكام كانوا يتخلون عن تسامحهم الظاهري كلما تطلّبت مصلحة الحكم ذلك للقضاء على الثائرين.

ومما لا شك فيه أن الإنجاز الذي حققه قوروش الثاني، ملك أنشان، ملك الفرس، ملك الملوك، كان كبيراً في عصره. ولكن ملوك الفرس الأخمينيين لم يكن باستطاعتهم أن يقبضوا بسهولة على زمام الأمور في دولة امتدت على نحو خمسة ملايين كم^2. وكان الإخفاق واضحاً في قدرة الفرس على الاندماج سريعاً في المجتمعات الشرقية التي اختلطوا بها بعد انحدارهم من جبالهم إلى السهول التي استقرت فيها المجتمعات الريفية في القرى والحضرية في المدن، كما أنهم لم ينجحوا في تأسيس مجتمعات مدنية مميزة كما فعل الهلّينيون

بعدهم عند نزولهم في بلاد الشرق.

ومع هذا فلقد مثّلت الامبراطورية الفارسية الأخمينية بالفعل «مملكة عالمية» ورثت المثل الأعلى القديم للمملكة التي كانت تضم «جهات العالم الأربع»، وهو المثل الأعلى الذي كان يتطلع إليه ملك سومر وأكد وبابل وآشور. وقد جعله الملوك الأخمينيون واقعاً ملموساً بتوحيد معظم الشرق القديم تحت سلطانهم، إلا أن الغرب الناشئ على أطراف المتوسط بقي خارج هذه المحصِّلة، بل إنه قاوم الدخول فيها، كما حدث في الحروب الميدية التي نشبت بين الفرس والهلّينيين، وهو ما ترتب عليه صراع حاسم حمل نتائج خطيرة للعالم القديم كلّه.

ولم يأت توحيد الشرق القديم على أيدي الأخمينيين فجأة إذ كان الكيان السياسي لدول الشرق القديم قد تضخم واتسع حتى بلغ مرحلة المملكة المركزية الكبرى، وعندما وصل إلى درجة عجز فيها عن المحافظة على ما بلغه من تماسك تغلّبت الأطراف على المركز. فالدول القديمة التي كانت لها الغلبة والسيادة في السابق أصابها الضعف والوهن على مر السنين نتيجة للحروب والصراعات والأزمات المتلاحقة والعنف والكوارث مما أدّى إلى تقويض أسس النظم التي كانت قائمة وإلى إتاحة الفرصة لدخول عوامل تاريخية فعّالة حملتها دائماً شعوب الجبال والسهوب والبوادي المحيطة بالسهول وأحواض الأنهار حيث كانت تقوم دول الشرق القديم وترتفع مدنه وتشمخ حضاراته الأولى.

ولقد نجم عن انتقال مركز الثقل السياسي من العواصم التاريخية المعروفة على الفرات ودجلة إلى سوسة ومدن أخرى وراء جبال زاغروس، توسيعُ حدود المشرق القديم لتتصل بالعالم الهندي من جهة وبالغرب الأوربي عند المضايق الواصلة بين البحرين الأسود وإيجة من جهة أخرى. وأطال قيام الامبراطورية الأخمينية عمر الشرق قرنين آخرين في وحدة سياسية - اقتصادية هشّة تفككت أجزاؤهاالمكونة بعد ذلك تباعاً قبل أن يقع الصدام العسكري الذي قاد الهلّينيين إلى بلاد الشرق الضعيف والمنهار.

لقد بدأ تضعضع أسس الحضارات الشرقية القديمة ونظمها فكرياً وروحياً قبل هزيمتها الحاسمة عسكرياً. فقد اهتزّت العقائد الدينية القديمة مع تنامي فكرة التوحيد في المجتمعات الشرقية القديمة كما في تراتيل أخناتون في مصر ونابونيد في بابل ثم مع ارتفاع هذه الفكرة إلى مستوى التوحيد التجريدي كما في بعض أسفار التوراة التي أُعيدت كتابتها أو كتبت في العصر الأخميني كسفر عزرا الذي يتحدث عن رب السماوات والأرض (عزرا: ١٩ - ٢٠)، وهكذا أخذت تتطور الفكرة التي تتحدث عن الإله المنزّه الذي يمكن أن يكون منفصلاً عن مظاهر الطبيعة التي قدستها العقائد القديمة وعن الإنسان، كما تتحدث عن الإلهي الذي يمكن أن يمثل قوة روحية مستقلة تتجاوز المناحرات السياسية.

وفي سياق هذا التطور الروحي - الفكري ظهرت تجربة روحية أخرى في إيران تختلف في بنيتها عما سبقها من تجارب دينية، وهي تؤكد الطبيعة الأخلاقية للإلهي وتجعله يتجاوز الحدود السياسية للدولة وكذلك الحدود الإثنية. فالديانة الزرادشتية تبدّت بصورة مستقلة تماماً عن الصورة التي تبدّت فيها الدولة. وإذا كانت محاولة التوفيق بين الدولة والعقيدة الزرادشتية مصدراً لمشكلات خطيرة في تاريخ الفرس القديم فإن خطورة هذه التجربة نفسها تكمن في أن هذه النظرية الكونية قد ظهرت في الشرق أيضاً ولم تكن صادرة عن الدولة ولا مرتبطة، بالضرورة، بشعب بعينه. ويُعدُّ هذا الإنجاز، على حد قول س. موسكاتي، «أعظم منجزات حضارات الشرق القديم، إنه الانتصار على الذات، لكنه في الوقت نفسه نقطة النهاية في تاريخ هذا الشرق، لأنه كان بداية لعصر جديد».

على أن أهم مظاهر الضعف في كيان الامبراطورية الأخمينية عجزها عن احتواء الثورة الإيونية ومقاومة المدن اليونانية. فبعد حشويرش الأول (٤٨٥ / ٤٨٦ - ٤٦٥ق.م) تسارع التدهور ولم يكن لعواهل فارس من هدف سوى مقاومة الدول الصغيرة في العالم الهلّيني، التي أرادت أن تفيد من الصراع الداخلي في الامبراطورية، كما في مصر، للحد من وطأة ضغط الجيوش الفارسية الكثيفة عليها. وقد رد الفرس بنثر الدنانير لزرع الشقاق في صفوف الهلّينيين وإيقاف هجماتهم على الحدود الغربية للامبراطورية ثم أخذوا بمصالحة بعض المدن على حساب مدن أخرى، ومهما يكن فإنه كان من المستحيل على أية دولة من دول المدن الإغريقية أن تتوسع في أراضي الامبراطورية الفارسية القوية المترامية الأطراف والتي امتدت حياتها بعد ذلك قرناً ونصف القرن.

وكان موت حشويرش مأساة كبيرة في داخل القصر، وربما تم على أيدي الحريم، وهو ما صار من المألوف تكراره بعد ذلك عند كل تبديل للحاكم عندما لا يكون بفعل الحاشية. وخلف الملك الصريع ابنه أرتا حشويرش (٤٦٥ - ٤٢٤ق.م) الذي كان له ضلع في الجريمة بوساطة قائد حرسه الذي قتل أيضاً. وقبل هذا الملك آخر الأمر بالتخلي عن الساحل الغربي لآسيا الصغرى ومجموعة من الجزر على أن تتعهد أثينة بألا تمضي في مساعدة ثورة مصر. ثم جاءت الحروب البلوبونيزية [ر] (٤٣١ - ٤٠٤ ق.م) التي عمّقت انقسام العالم الهلّيني فتمكن حاكم الأناضول الفارسي من استرداد مواقعه على الساحل الغربي الذي اندلعت فيه الثورة على الأثينيين.

تدهور الامبراطورية ونهاية الأسرة المالكة الأخمينية

يتألف تاريخ الأسرة المالكة الأخمينية من سلسلة من الصراعات الدامية التي عجلت بتدهور الامبراطورية وحفرت طريق نهايتها. فعندما مات أرتا حشويرش الأول (٤٢٤ ق.م) خلّف ثمانية عشر ولداً، وورث العرش حشويرش الثاني لمدة خمسة وأربعين يوماً وانتهت حياته مسموماً على يد مغتصب لم يحتفظ بالعرش أكثر من ستة أشهر إذ قتل على يدي داريوس الثاني (٤٢٣ - ٤٠٤ ق.م) الذي ضمن العرش لنفسه بعد أن تخلّص من إخوته وجعل أخته تحكم معه وتزوج باريزاتيس التي كانت امرأة شرسة صعبة المراس. وكان التنافس شديداً في القصر الامبراطوري على قيادة الجيوش وعلى طريقة إدارة الصراع مع الهلّينيين.

وعندما مات داريوس الثاني ورثه ابنه البكر أرتا حشويرش الثاني (٤٠٤ -٣٥٨ ق.م) وكان لا يملك إلا مؤهلات ضعيفة. وقد وَفر حياة أخيه قوروش الذي تآمر عليه مع زوجة أبيه باريزاتيس، ولكن الأمير الفتي حشد جيشاً في آسيا الصغرى وعاد للإطاحة بأخيه ولكنه قتل في عام ٤٠١ق.م في معركة قرب بابل. وقد تبددت قواته ولكن عشرة آلاف من المرتزقة اليونانيين الذين كانوا مهددين بالإبادة و الفناء استطاعوا الانسحاب في ظروف صعبة ووصلوا

إلى شاطئ البحر الأسود بعد مسيرة سبعة أشهر. وقد وصف المؤرخ كزينوفون (٤٣٠ - ٣٥٥ ق.م) هذا الانسحاب الملحمي في كتابه « الهلّينيات »، ولقد تسبب هذا الإنجاز الذي حققه الهلّينييون في تبديد رصيد الامبراطورية الفارسية لدى حلفائها وشجّع الإغريق وحلفاءهم على المضي في تحدّيها. فهاجمت اسبرطة ممتلكات فارس في آسيا الصغرى، ووجد الملك الفارسي صعوبات في إخماد الاضطرابات العنيفة في مصر وقبرص.

ومن الأمثلة الفاضحة على التدهور في آخر الامبراطوريات الشرقية القديمة أنه كان لأرتا حشويرش مئة وخمسة عشر ولداً من ثلاثمئة وستين جارية. وقد حاول بعض أفراد أسرته اقتناص الحكم واختصار مدة ملكه، فحصلت فواجع من جرّاء ذلك فقتل ابنه البكر، وتمكّن ولد آخر من اعتلاء العرش بعد قتل اثنين من إخوته ودعي باسم أرتا حشويرش الثالث (٣٥٨ - ٣٣٨ ق.م). واشتهر هذا الملك بقسوته وفظاظته ولكنه نجح لأمد في ترميم كيان المملكة فضرب على يد الأمراء والولاة المتطلعين إلى الاستقلال وقمع ثورة أخرى قامت في مصر (٣٤٦ - ٣٤٣ ق.م). ولكنه كان قلقاً من صعود مقدونية وتقدم نفوذها في العالم الهلّيني فأخذ يساعد خصوم الملك فيليب الثاني سراً وعلانية. ولكنه مات آخر الأمر مسموماً على أيدي أحد رجال القصر الخصي باجواس الذي قتل خلفه أوراسيس (أرسيس) بالسم أيضاً بعد أن حكم مدة قصيرة (٣٣٨ - ٣٣٦ق.م) وساعد باجواس على اختيار داريوس الثالث من أحفاد داريوس الثاني لوراثة العرش (٣٣٦ - ٣٣٠ق.م). واستطاع داريوس (دارا) أن يجعل الخصي المتآمر يتجرع السم الذي أعده لقتل ملكه. وتحرك فيليب الثاني المقدوني بإرسال جيش لتخليص آسيا الصغرى من حكم الفرس ولكن الجيش أوقف تقدمه بعد اغتيال العاهل المقدوني (٣٣٦ ق.م). إلاّ أن وراثة الاسكندر عرش أبيه القتيل دفع الأحداث إلى منعطف جديد فاستؤنفت الحرب باندفاع جديد لم يسبق له مثيل لتحقيق أهداف استراتيجية لم يعلن عنها من قبل هي إيقاع هزيمة حاسمة بالامبراطورية الفارسية. وهكذا توالت المجابهات بين الملك المقدوني الشاب وجيوش الامبراطورية الفارسية الأخمينية وتوالت الهزائم في كيليكية وفي خليج اسكندرونة عند أبواب سورية وفي أربيل في بلاد آشور. وبعد أن دخل الاسكندر بابل وسوسة وبرسبوليس انسحب آخر الملوك الأخمنيين شرقاً إلى هركانية حيث قُتل (٣٣٠ ق.م) على يد أحد الولاة المحليين الذي كان يأمل في مكافأة الاسكندر له لكنه لقي ما يستحق من جزاء على غدره وفعلته الشنعاء. وهكذا انهارت الامبراطورية الشرقية الشاملة لتحل محلها الامبراطورية العالمية التي جمعت لأول مرة بلاداً من الشرق والغرب.

محمد حرب فرزات

الموضوعات ذات الصلة:

الآشوريون - إيران - بابل عيلام - فارس - مصر - اليونان.

مراجع للاستزادة:

- محمد حرب فرزات، تاريخ فارس القديم (جامعة دمشق ١٩٩٠).

-A. OLMSTEAD, History of the Persian Empire (Chicago 1948).

■ آخن

آخن Aachen مدينة في ألمانية تقع على الحدود البلجيكية تبعد ٦٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة كولون (كولن)، وهي نقطة رئيسة لدخول ألمانية من ناحية الغرب. يطلق عليها الفرنسيون اسم إكس لا شابل Aix-La Chapelle قدر عدد سكانها عام ١٩٩٦ بنحو ٢٤٧٩٢٣ نسمة. وتقع آخن في منطقة لتعدين الفحم وهذا ما جعل منها مركزاً مهماً لصناعة الصلب والفولاذ بالإضافة إلى مصانع كبيرة للصناعات النسيجية والتجهيزات الكهربائية والزجاج والأثاث والمكائن وصناعة الإبر.

تشتهر آخن بأنها منتجع صحي، وتجتذب ينابيعها المعدنية الكثير من السياح، وقد عمل الرومان على بناء الحمّامات فيها في القرن الأول للميلاد. وازدادت أهمية هذه المدينة في عهد شارلمان فقد جعل منها عاصمته في شمال الألب وأصبحت مركزاً تعليمياً وثقافياً وتجارياً.

كانت آخن المدينة التي يتم فيها تتويج أباطرة ألمانية منذ سنة ٨١٤م حتى سنة ١٥٣١م. وكانت في القرون الوسطى تتبع مباشرة امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مما منحها مزايا تجارية وسياسية لم تتمتع بها إلا قلة من المدن الأوربية الأخرى. وكانت مقراً لانعقاد المجالس التشريعية الامبراطورية والمجالس الكنسية المهمة ومن بينها مجلس عام ٨٣٦م الذي وضع النظام الكنسي، ومجلس عام ١١٦٦م وهو المجلس المنشق الذي دعا إليه باسكال الثالث المناهض للبابا وقد تم فيه تمجيد شارلمان. ووقّعت في هذه المدينة معاهدة عام ١٦٦٨م التي أنهت حرب الوراثة الإسبانية ومعاهدة عام ١٧٤٨م التي أنهت حرب الوراثة النمسوية.

احتل الفرنسيون هذه المدينة منذ عام ١٧٩٤م حتى عام ١٨١٥م ثم سلموها لبروسية بعد مؤتمر فيينة. وكانت قاعدة عسكرية لبروسية إبان الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠-١٨٧١) وقاعدة للقوات الجوية الألمانية في الحرب العالمية الأولى. وبعد هزيمة الألمان احتل الحلفاء المدينة من عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٣٠.

قصفت المدينة في الحرب العالمية الثانية قصفاً كثيفاً لأنها كانت مركزاً صناعياً مهماً، وكانت أولى المدن الألمانية الرئيسة التي سقطت في أيدي الحلفاء في ٢٠ تشرين الأول عام ١٩٤٤ بعد معركة دامت عشرة أيام دمر فيها عدد كبير من المباني الأثرية. ومع أن ٨٥٪ من المدينة قد دمر على نحو خطير مع نهاية الحرب فقد أعيد بناؤها بسرعة في سنوات ما بعد الحرب.

وتعد كاتدرائية آخن التي أمر ببنائها شارلمان سنة ٧٩٦م أحد معالمها المعمارية البارزة؛ وكان النورمان الشماليون قد دمروها عام ٨٨١م وأعيد ترميمها عام ٩٨١م وأضيفت إليها الأجنحة القوطية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وفيها ضريح يعتقد أنه لشارلمان، وقد لحقت بهذه الكاتدرائية أضرار طفيفة في أثناء الحرب العالمية الثانية. ومن معالمها البارزة الأخرى بركة يعلوها نصب شارلمان في الساحة الرئيسة، ومتحف آخن للصحافة الدولية. وثمة مؤسسات ثقافية عدة في طليعتها جامعة راين فستفالن للتقنيات (تأسست عام ١٨٧٠)، أما أهم حمّاماتها فهو منتجع بورتشايد ذو المياه الكبريتية الحارة (٧٦درجة مئوية). ج.ت

■ أخناتون

(القرن الرابع عشر ق.م)

أخناتون Akhnaton هو ملك مصر الفرعون أمنحوتب الرابع أي «آمون يرضى»، ويُدعى في المصادر الكلاسيكية أمنوفيس. والده أمنحوتب الثالث (١٤١٧-١٣٧٩ ق.م)، ووالدته تيي التي تحدّرت من بيئة شعبية، على خلاف ما عُرف عن زوجات الفراعنة اللواتي تحدّرن من سلالات مميزة. أما مرضعته فهي تي، وزوجها قائد المركبات أيي، وخالته شقيقة الملكة الأم هي «موت نجمة» Moutnejmet.

وتتحدث المصادر عن زواجه من الأميرة نفرتيتي (الجميلة أتت) التي وصفتها المصادر بالجمال الرائع، وبأنها أميرة ميتانية من دون أن يقوم على ذلك دليل، فلا يُعرف شيء عن أصلها، ويحوم كثير من الغموض حول الروابط الأسرية للعائلة المالكة وحول أفراد الحاشية التي كانت تعيش في كنفها. ولكن من الحقائق المعروفة أن الزوجين الملكيين رُزقا بست بنات، منهن مريت آتون زوجة سمنخ كارع وأخنسن باآتون زوجة توت عنخ آتون (توت عنخ آمون).

وقد تلقى الملك الشاب اسمه الملكي الذي حمله بعد تتويجه «نفرخبرورع» ولكنه بعد ست سنوات من اعتلائه العرش دعا نفسه «أخناتون» وهو الاسم الذي اشتهر به.

حكم أخناتون ما يقرب من عقدين (١٣٧٩-١٣٦٢ق.م)، ولكن بداية حكمه اختلطت بنهاية حكم أبيه الذي بلغت مصر في عهده ذروة مجدها في تاريخها القديم، وامتد نفوذها من الجزيرة الفراتية والأناضول وكريت وحوض بحر إيجه إلى النوبة.

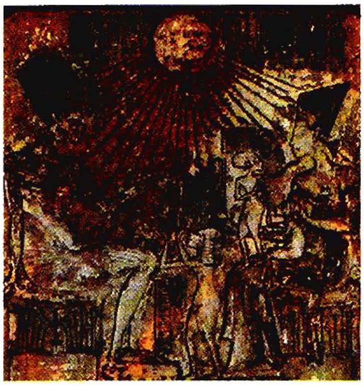
التعاليم الدينية

في ظل هذه الظروف بدأ أمنحوتب الرابع وهو ولي للعهد، وفي حياة أبيه، ممارسة العبادة والشعائر الدينية المتوارثة عن آبائه، ولاسيما ما تعلّق منها بآمون-رع الإله الرسمي للدولة. وأخذ في الوقت نفسه يعلن عن أفكار دينية جديدة تطورت حتى تحولت إلى الهرطقة (البدْعة) لخروجها على التعاليم التقليدية السائدة. ولكن توجهاته الدينية المجددة ازدادت وضوحاً بعد أن خلف أباه على العرش. وفي السنة السادسة من حكمه (١٣٧٤ ق.م) أعلن الملك مبادىء ديانة جديدة تدعو إلى عبادة إله واحد هو «آتون»، وقد مثّله بقرص الشمس المجنّح. ومن دون أن يقطع الملك صلاته بالتقاليد الموروثة عمل على إبراز بعض المظاهر التي رآها أكثر واقعية في التعبير عن الإله الذي أراده أن يكون أكثر قرباً من الناس جميعاً، وعالمياً، موجوداً في كل مكان، في ذلك العصر الذي فتحت فيه مصر أبوابها للالتقاء بمن حولها من جيرانها، وكان عليها من جرّاء ذلك أن تعيد النظر في أسس حياتها الداخلية والروحية.

لا تتضمن شعائر العبادة في ديانة أخناتون الجديدة أية إجراءات سرية، ولم تعرض على الناس شعائر معينة، ولكن لا يعرف كيف تم التحول عن العبادات القديمة إلى العبادة الجديدة. وتدل الشواهد الأثرية على أن أخناتون أقام عدداً من المنشآت العمرانية، أبرزها معبد الكرنك الشهير (قرب مدينة الأقصر اليوم)، ومدينة أخيت آتون، عاصمته الجديدة، التي يقوم تل العمارنة في صعيد مصر فوق أنقاضها القديمة. ففي الموقع المعروف اليوم باسم الكرنك يقوم مجمّع أثري يضم عدداً من المعابد التي كان أهمها بيت آمون المعبود المفضّل لدى الطبقة الحاكمة من الأسرة الثامنة عشرة، وتحيط به بيوت كبار الكهنة. في هذا المكان، وإلى الشرق من حرم آمون أقام أخناتون معبداً لآتون، للشمس المشرقة. وكان الهدف من ذلك واضحاً وهو تأسيس ديانة جديدة لتحل محل العبادة القديمة. وتوجه في تراتيل شعرية مؤثرة إلى ربه آتون، الذي رمز إليه بقرص الشمس، وأعلن أن لا حياة لشيء من دونه.

وفي دعوته المجدّدة يعلن الملك الكاهن أن بركات آتون ليست وقفاً على مصر وأهلها، وإنما هي للمخلوقات الموجودة في كل مكان من البشر والحيوان، فيمنح آتون عند شروقه القوة للكائنات ويحييها حتى تستمر نعمة الحياة وعند غروبه تفتر الحياة في كل شيء. وعندما يفقد العالم نسمة الحياة، يدخل هذا العالم في خمود، في الوقت الذي تشحن فيه الشمس بطاقة جديدة حيث كانت تختفي عن الأنظار. وقد وجد عدد من الباحثين تشابهاً بين مضمون هذه الترانيم الأخناتونية وسفر المزامير الذي يعزى إلى داود (القرن العاشر ق.م) ولاسيما المزمور ١٠٤.

وفي الديانة الأخناتونية أُدخلت تعديلات على النظريات المتعلقة بالموت والشعائر الجنائزية، وتقاليد الدفن، وقدّمت تفسيرات



أخناتون مع نفرتيتي وأولادهما
(مسلة كلسية من تل العمارنة)

نشورية جديدة للتقاليد الأوزيرية القديمة المتعلقة بالعالم الآخر. أما آمون وهو القوة الخفية كما يدل على ذلك اسمه، فلم يعد يمثل عند الملك شيئاً سوى ما هو عجيب. فالملك الذي اختار للإله اسماً قديماً معروفاً في نصوص الأهرام، من الألف الثالث ق.م. هو آتون أي كوكب عين الشمس مصدر كل شيء، صار يدعى عند رعيته أخناتون أي «عبد آتون». وآتون هذا الذي كان في عصر الدولة الوسطى يتلقى الصورة الهوائية للملك عند رحيله إلى عالم الأموات فإن هذه الصورة تعود عند تحولها إلى لحم مقدّس، إلى الجسد الذي خرجت منه.

واستخدم أخناتون الفنون التشكيلية لنشر تعاليمه، فعمل بنفسه على تعليم الفنانين وتوجيههم في عصره لأنه كان يرى من الضروري ترجمة أفكاره الدينية الجديدة في أشكال واقعية. ففي المعبد الذي أقامه في شرقي الكرنك لآتون عولجت صورة الملك وصور أسرته بواقعية مدهشة. وأبرزت في صورة أخناتون تشويهات مقصودة للجسم، ورسمت على الوجه علامات دالّةٌ على الاستبطان عند الفنان الذي كان يهتم بأن يعكس في عمله تجربة ذاتية عميقة في معاينة ما يجري في الفكر في تلك المرحلة من تاريخ مصر، والتعبير عنه بجهد يهدف إلى التعبير عن العواطف الداخلية للكائن لتصوير الشكل الحقيقي للجسم. فأخناتون يوصي بأن كل شيء يجب أن يضحّى به من أجل الحقيقة التي هي مصدر التوازن والعدالة والحياة وهي عناصر صورة القداسة كما تعكسها مرآة الإيمان.

العاصمة الجديدة

مرّت السنوات الأولى من حكم أمنحوتب الرابع، أخناتون، بوصفه مشاركاً للسلطة مع

أبيه في العاصمة طيبة. ولكنه كان مصمماً على تحقيق إصلاح ديني جذري، فترك العاصمة طيبة برضى أبيه الملك، وأسس على مسافة تقرب من ثلاثمئة وخمسة وسبعين كيلو متراً إلى الشمال من طيبة، بعيداً عن أرض آمون، مدينة جديدة سرعان ما أضحت عاصمة زاهرة هي أخيت آتون (تل العمارنة).

ونقل أخناتون بعدئذ مقره إلى هذه المدينة الجديدة ليعيش فيها مع زوجه وجواريه وأفراد حاشيته من كبار الموظفين وبناته الست اللواتي أنجبتهن نفرتيتي. ويبدو أن العائلة المالكة عاشت حياة سعيدة في أخيت آتون حتى انقسام الأسرة في أواخر سنوات حكمه.

ولم يقتصر التغيير في أسلوب حياة الفرعون على علاقته بأسرته ورعيته، بل ثمة تغيير في أسلوب الملك المصري تبرزه دراسة الرسائل الدبلوماسية في أرشيف تل العمارنة وهي تكشف عن أسلوب التخاطب والتراسل بين ملوك وأمراء كنعان وأمورو (فلسطين وسورية) من جهة والفرعون المصري من جهة أخرى. وتدل دراسة عصر العمارنة برمته على تدهور النفوذ الفرعوني في المناطق التابعة بعد التراخي في فرض هيبة الملك التي تراجعت كثيراً عما كانت في عصر تحوتمس الثالث. فمبالغ الجزية المفروضة على البلاد لم تعد تصل إلى خزانة فرعون. ولم يتحرك القصر الفرعوني كما يقتضي الأمر لمواجهة الوضع الدولي الناجم عن تراجع مصر أمام تقدم النفوذ الحثي. ويبدو أن مؤامرة كبيرة أطرافها من الداخل: كهنة آمون في طيبة وقائد الجيش حورمحب من جهة، وأمراء كنعان وأمورو من جهة أخرى، قد تم تدبيرها للإطاحة بحكم العاهل الذي كان منصرفاً إلى الإصلاح الديني، من دون أن يكون محيطاً بما كان يجري حوله.

ومرّ زمن كان فيه الملك قابضاً بيد قوية على زمام الأمور في طيبة وفي القصر. وكان باستطاعته أن يأمر بتشييد معابد ضخمة لآتون في طيبة بجوار معابد آمون. ولكن بعد السنة الثانية عشرة من حكمه أخذ الضعف يدبُّ في بنية السلطة. ووقع الانشقاق في الأسرة الملكية نفسها. فتركت الملكة نفرتيتي القصر الملكي في وسط مدينة أخيت آتون مع المربية تي وزوجها الكاهن إيي وأربع من بناتها والأمير الصغير توت عنخ آتون واتخذت لنفسها مقراً في شمالي المدينة، في حين استقر الملك في قصر آخر في جنوبي العاصمة. ووثق صلته بأخيه الأصغر «سمنخ كارع» ليجعله صهره وزوجاً لابنته وشريكاً له في إدارة المُلك، وبذلك دخل عصر العمارنة مرحلة جديدة. في هذه المرحلة تفاقمت حالة الملك النفسية، وازدادت تصرفاته اضطراباً، فغدت شبه عشوائية ووسع جبهة المناهضين لحركته الدينية عندما أمر بتحطيم تماثيل آمون وبمحو اسمه من النقوش، وألغى ألقابه وكل ما كان يطلق عليه من صفات تعبر عن الاعتقاد بحماية عرشه الملكي. واتسع نطاق هذا التغيير في الحياة الدينية في مصر القديمة حتى شمل صورة الصقر التي يرمز بها إلى الربّة نخبت، وشُوِّه اسم مدينة آمون (طيبة) المكتوب بالهيروغليفية، وأصدر الملك أوامره بإزالة تلك الصور الممقوتة حتى حدود النوبة، وإحلال عبادة آتون محلها في كل أنحاء البلاد.

وقد اصطدمت هذه السياسة الدينية التي قادها الملك بمعارضة قوية تزعمها كهنة المعابد الذين كانوا أكثر المتضررين من توحيد العبادة، وكذلك النبلاء الذين هدّدت الإصلاحات امتيازاتهم، والضباط والقادة العسكريون الذين تقلص نفوذهم في الدولة لقلة اهتمام الملك بالجيش ولعزوفه عن متابعة سياسة أسلافه التوسعية، فأصاب الوهن القدرات العسكرية للدولة وتدهورت هيبتها المعهودة داخلياً وخارجياً، وتوغلت دول الأناضول القوية في سورية. وقد أشارت وثائق العمارنة ولا سيما الرسائل الدبلوماسية منها إلى حقيقة الوضع في فلسطين وسورية في مواجهة التوسع الحثي. وكان لانصراف أخناتون عن قيادة جيوشه أو تحريكها بطريقة فعالة من أجل المحافظة على مواقع مصر في آسيا الغربية، والاكتفاء بالعمل على نشر عقيدته الجديدة عواقب وخيمة كلّفت البلاد ثمناً باهظاً، إضافة إلى انهيار العلاقات التجارية لانعدام الأمن والاستقرار، وانتهت أيام الملك في خضم أزمة مأساوية، وآلت الأمور بادىء الأمر إلى وريثه سمنخ كارع الذي عمل على إعادة الاتصال بمنفيس وطيبة، وأعاد مصر إلى التعددية الدينية. ودفن أخناتون في عاصمته أخيت آتون. وقد تعرّف علماء الآثار على قبره، ولكنهم لم يعثروا إلا على حطام ناووسه الملكي الذي رمم ونقل إلى متحف القاهرة. أما مومياؤه التي لم يعثر عليها فلا يعرف أحد ماذا حلّ بها. وقد يكون أصابها ما أصاب أخيت آتون (تل العمارنة) من التدمير على يدي القائد حورمحب الذي كان في مقدمة من عمل على إنهاء عصر العمارنة وعلى الإطاحة بحكم أخناتون. وقد عثر في وادي الملوك على مومياء يظن أنها مومياؤه ولكن لا توجد دلائل قاطعة على ذلك. وبعد سمنخ كارع الذي حكم مدة قصيرة اعتلى العرش توت عنخ آتون الذي اضطر إلى تبديل اسمه إلى توت عنخ آمون مؤذناً بإعادة الاحترام لآمون ولكهنة طيبة الأقوياء. وهكذا انهارت هذه المحاولة المبكرة لقلب الوجدان الديني التقليدي في مصر القديمة ولإحلال وحدانية الإله محل التعددية.

عبد الله محمود حسين. محمد حرب فرزات

الموضوعات ذات الصلة:

طيبة ـ العمارنة (تل ـ) ـ مصر.

مراجع للاستزادة:

- ALDRED CYRIL, Akhenaton Pharao of Egypt (1958).
- NOBLECOURT C. DESROCHES, L'extraordinaire aventure Amarnienne (Paris 1959).

■ إخوان الصفا

ليس من الغلو أن يعدّ البحث في موضوع إخوان الصفا بحثاً عن لغز، بل عن كنز ثقافي عربي إنساني النزعة، تود فئات من المفكرين والعقائديين الاعتزاء له، إن لم يسعفها ادّعاء انتمائه إليها، كما حاول أنصار فرق إسلامية شتى، وما يزالون.

فإذا اتجه النظر إلى البيئتين التاريخية والجغرافية التي يُفترض ظهور حركة إخوان الصفا فيهما، وهما القرن الرابع الهجري في ظل الدولة العباسية، بدءاً من البصرة، وفي حدود سنة ٣٧٣هـ، ظهر أن السيادة الدينية غالبة في التقويم السياسي والثقافي والاجتماعي. وقد عزف العباسيون عن العصبية العربية، واستعانوا بالفرس ثم بالترك. وما عتم أولو النفوذ من هذه الأقوام غير العربية أن أخذوا يستبدون بشؤون

الملك، وباتت الخلافة البغدادية متهافتة يدب فيها الفساد والانحلال، ولا سيما عندما دخل أحمد بن بويه بغداد غازياً فاتحاً سنة ٣٣٤هـ فقابله الخليفة المستكفي بالله، واحتفى به، وبايعه أحمد، وحلف كل منهما لصاحبه، هذا بالخلافة، وذاك بالسلطنة. وفي ذلك اليوم شرّف الخليفة بني بويه بالألقاب. وأضفى على أحمد لقب صاحب العمران، معز الدولة، وهو من الشيعة الزيدية فأضمر أن يزيل الخلافة لتولية خليفة من الشيعة العلوية.

وقد كثرت في تلك الحقبة الثورات الانفصالية، وأسس العبيديون الدولة الفاطمية في مصر سنة ٣٥٩هـ وازداد عبث القرمطية، وبلغت الحياة الاقتصادية والاجتماعية مبلغاً من السوء في العراق خاصة حتى أكل أهل بغداد الميتة والسنانير والكلاب. واشتد التفاوت الطبقي بين فئات الخاصة والعامة. وتميزت في صفوف الخاصة مراتب الخليفة وأهل الدولة وأرباب النفوذ من الأعيان وأتباع الخاصة من جند وأعوانٍ وخدمٍ وطوائف العبيد والجواري والخصيان. كما تميزت من العامة فئات الأدباء والمثقفين الذين طمحوا إلى اللحاق بالخاصة وكذلك أرباب التجارات الثمينة والصناعات الراقية، وبقي بمعزل عن ذلك سواد سكان الريف وأهل المدن يعانون من الشطّار والعيارين.

وقد واكب هذه الأوضاع صراع صريح اضطرم بين العرب المعتزين بمنزلتهم التليدة والشعوبية الداعية خاصة إلى المساواة الإسلامية. ولقيت حياة اللهو، بل المجون، مرتعاً خصباً إلى جانب ارتكاسات جد وتقشف، وزهد وتصوف. وانعكس ذلك كله في ازدهار خصومة «عقائدية» بين ملاحدة ومؤمنين، وزنادقة ومتكلمين، وامتزجت في هذه المعارك ثقافات يونان وفارس والهند بالإبداع العربي الأصيل وبأطلال الثقافات الغابرة: زرادشتية وآشورية وثنوية ومجوسية.

وبقول وجيز: «لم يعرف المسلمون عصراً كالقرن الرابع للهجرة تناقضت فيه حياتهم العامة أشد التناقض» كما يقول طه حسين. وما لبث جدل هذا التناقض أن تمخض عن حركة تعكس معطياته وترمي إلى تجاوزها نحو ما هو أليق بالحياة الإنسانية بوجه عام. وتلكم هي - بوجه من أوجه الاعتبار الأساسي - حركة إخوان الصفاء.

إن نظرة أولى إلى أقدم إشارة علنية صحيحة وصلت عن هذه الحركة السرية، بل المكتومة، تُشعر بالظرف الذي نشأت فيه، كما تُنبئ - بشيء كافٍ من الدقة - بالارتكاس الشديد الذي اكتنف ظهورها، وقابل دعوتها وإنتاجها الثقافي، وكان علامة تسويغ سريتها وكتمانها.

نعت أبو حيان التوحيدي [ر] في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» حياة الناس في زمنه بأنهم في «ظلمات البر والبحر، أعني الجهل وقلة الحياء». وأجاب في وصف زيد بن رفاعة بقوله: «هناك ذكاء غالب، وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، وسوانح متناصرة، ومتسع في فنون النظم والنثر... وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن... وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم، وأنواع الصناعة: منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوفي، وغيرهم، فصحبهم وخدمهم». وأضاف قائلاً: «وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، والمصير إلى جنته. وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة. وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية، فقد حصل الكمال».

ولما جهر أبو حيان بهذا التعريف «المعاصر العليم»، ثارت حفيظة سيد تلك الندوة الثقافية «المتحررة» نفسه، فأنكر محمد بن بهرام وهو أبو سليمان المنطقي السجستاني مسعى الإخوان قائلاً كما يذكر صاحب «الإمتاع والمؤانسة»: «إنهم ظنوا ما لا يكون، وما لا يمكن، ولا يستطاع. ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة - التي هي علم النجوم والأفلاك والمجسطي والمقادير وآثار الطبيعة والموسيقى والمنطق... - في الشريعة، وأن يضموا الشريعة للفلسفة، وهذا مرام دونه حَدَد.. والله تعالى تمم الدين بنبيه، ولم يحوجه بعد البيان الوارد بالوحي إلى بيان موضوع بالرأي... وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل، من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل.

وبالجملة: النبي فوق الفيلسوف. والفيلسوف دون النبي..». وعندما أهاج الحريري غلام بن طرارة يوماً في الوراقين (المقدسي)، وهو من إخوان الصفاء، اندفع مفصحاً عن بعض رأيه قائلاً: «الشريعة طب المرضى، والفلسفة طب الأصحاء. والأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم، وحتى يزول المرض بالعافية فقط. أما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلاً... وإنما جمعنا بين الفلسفة والشريعة لأن الفلسفة معترفة بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدة بها، وإنما جمعنا أيضاً بينهما لأن الشريعة عامة، والفلسفة خاصة، والعامة قوامها بالخاصة».

فحركة إخوان الصفاء تود جمع الفلسفة والشريعة، ولكنها ترجح - كما سيأتي - جانب العقل الانتقادي على الإيمان الاتباعي. وقد ضمّ تنظيمها نخبة من «الجادين»، كما يقول ستانلي لين - بول، الذين أخذوا يجتمعون في أماكن خاصة، ومواعيد دورية معينة، على اختلاف رتبهم. وأطلقوا على أنفسهم اسم: «إخوان الصفاء، وخلاّن الوفاء، أهل العدل، وأبناء الحمد». وقد أصبحت العبارة الأولى كافية للدلالة عليهم، يضاف إليها في الغالب العبارة الثانية. ولكن جلّ الباحثين، على الأقل، لم يفطنوا إلى دلالة العبارتين الأخيرتين. وسنبين مقصدهما في نظر الإخوان.

كتم إخوان الصفاء أسماءهم، وأسرّوا عددهم، وامتنعوا عن البوح بأسرار جماعتهم، ولم يصل من آثارهم المباشرة إلا نوعان من رسائل تنسب إليهم. النوع الأول يضم خمسين بل إحدى وخمسين رسالة وهبوها للناس عامة، وبثّوها في الوراقين، ولا تكاد تجتمع كلها لدى شخص واحد - وقد نشرت في بومباي سنة ١٣٠٥هـ ونشرها الشيخ علي يوسف في القاهرة سنة ١٣٠٦هـ، ثم أعيدت طباعتها في القاهرة سنة ١٩٢٨م بتصحيح خير الدين الزركلي.

والنوع الآخر هو «الرسالة الجامعة» - وقد طبعت بدمشق بتحقيق الدكتور جميل صليبا سنة ١٩٤٨م - ويرى عارف تامر أنه نشر ما يسميه «جامعة الجامعة» في بيروت سنة ١٩٥٩م.

مؤلفو الرسائل

كثرت النظريات التي تحاول فك لغز إخوان الصفاء، وتعارضت وتناقضت. وبعضها يذكر

أسماء أعلام وضعوا الرسائل، فرادى أو مجتمعين، وبعضها الآخر يعزوها إلى فرق أو تيارات معروفة، معاصرة أو سابقة، وربما لاحقة.

فمن قائل إن الرسائل من وضع مسلمة المجريطي، أو تلميذه أبي الحكم الكرماني. ولدى الرجوع إلى المخطوطة المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس برقم ٢٣٠٣، وهي أساس هذه النظرية، وُجد اسم المجريطي مكتوباً على حرفها جرياً على العادة القديمة بكتابة اسم مالك النسخة على جملة أوراقها فيقرأ الاسم عند جمع جوانب صفحات النسخة بإغلاقها. وبذا تبدد وهم القول بأن المجريطي مؤلف الرسائل، أو الرسالة الجامعة، وصح عدّه، أو تلميذه، أول من حمل الرسائل إلى بلاد الأندلس.

والنظرية الثانية تنسب الرسائل إلى بعض أئمة الإسماعيلية، وهو تارة الإمام جعفر الصادق، وأخرى الإمام أحمد بن عبدالله، ثاني أئمة دور الستر. ولكن النسبتين غير صحيحتين، يرفضهما باحثون كثر، ويدحضهما النظر الانتقادي. وفي هذا المنحى يرى عبد اللطيف الطيباوي أن هناك من ينسب الرسائل إلى صحابي، أو إلى علي بن أبي طالب أو إلى معتزلي لم يذكر اسمه، أو إلى جابر بن حيان، أو إلى الحلاج، أو إلى الغزالي، على الرغم من تناقض فحوى الرسائل مع مذاهب جلّ هؤلاء الأعلام.

والنظرية الثالثة تأخذ بما دار في ندوة أبي سليمان السجستاني وترى أن الرسائل من وضع خمسة من الأعلام المذكورين فيها. ويؤكد مصطفى غالب أنه عثر بعد محاولات كثيرة على أسماء بعض مؤلفي الرسائل من بعض المخطوطات الإسماعيلية السرية، وهم: ١ـ أبو سليمان محمد بن معشر البستي، ويعرف بالمقدسي، ٢ـ أبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، ٣ـ أبو أحمد المهرجاني، ٤ـ أبو الحسن العوفي، ٥ـ أبو حيان التوحيدي، ٦ـ زيد بن رفاعة، ٧ـ محمد أبو الفرج، ٨ـ أبو سليمان محمد بن طاهر السجستاني، ٩ـ أبو زكريا العامري، ١٠ـ عبد السلام بن الحسن البصري، ١١ـ أبو سفيان، ١٢ـ الحلواني، وقد أشير إلى إنكار السجستاني وغيره من أعضاء الندوة آراء الإخوان.

أما الذين يعزون تأليف الرسائل إلى فرق معينة فإنهم ينسبون جماعة الإخوان إلى القرمطية أو النصيرية أو الدرزية أو الإسماعيلية. من ذلك أن ماسينيون يعد إخوان الصفاء من القرامطة. ولكن نص الرسائل ينكر فعال القرامطة واقتلاعهم الحجر الأسود، ويتهم مزدك الخرَّمي الذي ترتبط به القرمطية بالتمويه والتزوير على قلوب العامة والجهال.

وإذ يكتفي الغزالي [ر] في «المنقذ» بفضح إخوان الصفاء لاستدراجهم قلوب الحمقى إلى باطلهم، يقرر ابن تيمية في «فتاويه» تماثل مذهب الإخوان والعقيدة النصيرية. ولكن نصوص الرسائل لا تنمّ عن هذا الالتقاء إلا إذا قصد ابن تيمية تأثر النصيرية بالرسائل لقوله: إن أصحاب الرسائل من أئمتهم. وفي الرسائل ذكر لمحمد ﷺ على أنه مدينة العلم، وأن علياً بابها، لكن لا يذكر اسم سلمان الفارسي إلا مرة واحدة، وعلى أنه من الصحابة وحسب.

وفي مجال آخر يرى مكدونالد أن انتقائية الإخوان هي المذهب الحقيقي للفاطميين والحشاشين والقرامطة والدروز. ولكن من الثابت أن الرسائل سبقت ظهور المذهب الدرزي المتصل باختفاء الحاكم بأمر الله سنة ٤١١هـ ويؤكد عمر فروخ صلة الرسائل بالمذهب الدرزي، ولكن على أساس تأثره بها، ولا عكس.

وتبقى النظرية الإسماعيلية الشهيرة التي قال بها كثيرون من الإسماعيليين خاصة، وقد أفادوا ـ عقائدياً وسياسياً ـ من غموض أسلوب الرسائل فنسبوها كما فعل الداعي إدريس عماد الدين إلى الإمام المستور أحمد بن عبدالله أو نسبوها إلى الدعوة الطيبية اليمنية كما فعل حسين همداني. والأرجح أن أول ذكر للرسائل في المؤلفات الإسماعيلية يرجع إلى سنة ٥٥٧هـ، وهذا يعني أن صلة الإسماعيلية بالرسائل هي صلة استفادة جرت في اتجاه واحد لاحق بالزمن المرجح لوضع الرسائل. وقد حكم برنارد لويس بأن الرسائل ليست إسماعيلية، بل قريبة منها. والثابت أن هذا القرب هو متح الإسماعيلية (وفرقها الفرعية، ومنها ما في قلعة ألموت) من الرسائل، وذيوعها بينهم، وإجلالهم إياها. ويكفي أن نلمع إلى أن مذهب الإخوان، وهو إنساني عقلي انتقادي، ينكر الاتباع والطاعة العمياء، ويرى أن الديانات كلها ـ وليس الإسلام وحده ـ تقع على صعيد واحد، يبذّه صعيد الفلسفات وما يكتشفه الباحثون في الكون وفي أنفسهم، أما الإسماعيلية فهي موقف ديني، وهي تُلزم «بآداب اتباع الأئمة» وإطاعتهم دوماً، بالدرجة الأولى.

وفي إثر هذه النظريات المتنوعة «المرفوضة» يعتقد أن معطيات الرسائل تبرهن على استقلال حركة إخوان الصفاء عن جميع الحركات المذكورة وتثبت مباينة غرضهم لأغراضها كافة. ومن الراجح القول بأن جماعة إخوان الصفا يمثلون مرحلة متقدمة من مراحل تطور الفكر الاعتزالي المتأخر، وأن مذهبهم مذهب أخلاقي إنساني وتعاوني اشتراكي مثالي. فاسم جماعة إخوان الصفاء الكامل يشير هو ذاته في عبارتيه الأخيرتين إلى أنهم «أهل العدل، وأبناء الحمد». ولا يخفى أن «أهل العدل» من تسميات المعتزلة، وأن مبدأ العدل ركن أساسي من أركان الاعتزال، وأهله العقلانيون هم المحمودون في نظر الإخوان، لأن الناظم العقلي هو الرباط الإنساني الوحيد الذي يجعل إخوان الصفاء يتجاوزون كلامية المعتزلة السابقين إلى الشمولية الإنسانية للمعتزلة العقلانيين.

مضمون الرسائل

تصدت نصوص الرسائل والرسالة الجامعة لجميع فروع المعرفة والعمل، وألمت بالمعطيات العلمية والفلسفية والدينية الذائعة في عصر أصحابها، فبدت جملتها في إهاب موسوعة شاملة تضم فنون الأدب وغرائب العلوم وطرائف الحكم وقد جعلها المؤلفون في أربعة أقسام:

القسم الأول يشتمل على الرسائل الرياضية التعليمية. وهي تتناول موضوعات العدد، والهندسة، والنجوم، والجغرافية، والموسيقى، والنسب العددية، والصنائع العلمية النظرية، والصنائع العملية، والأخلاق، كما تبحث موضوعات منطقية مثل ايساغوجي، والمقولات، والعبارة، والقياس والبرهان.

والقسم الثاني يشتمل على الرسائل الجسمانية الطبيعية. ويعالج موضوعات الهيولى والمادة، والسماء والعالم، والكون والفساد، والآثار العلوية، وتكوين المعادن، وأجناس النبات، وتكوين الحيوانات وأصنافها، وماهية الطبيعة، وتركيب الجسد، والحاس والمحسوس، ومسقط النطفة، وأن الإنسان عالم صغير، ونشوء الأنفس الجزئية، وطاقة الإنسان في المعارف، وحكمة الموت والحياة، وخاصية اللذات، وعلل اختلاف اللغات، ورسوم الخطوط

والعبارات.

والقسم الثالث يشتمل على الرسائل النفسانية العقلية. ويبحث في المبادىء العقلية على رأي الفيثاغوريين، والمبادىء العقلية على رأي إخوان الصفاء، ومعنى قول الحكماء أن العالم إنسان كبير، والعقل والمعقول، والأكوار والأدوار، وماهية العشق، وماهية البعث، وكمية أجناس الحركات، والعلل والمعلولات، والحدود والرسوم.

والقسم الرابع يشتمل على الرسائل الناموسية الإلهية. وهي تتناول الآراء والمذاهب، وماهية الطريق إلى الله، وبيان اعتقاد إخوان الصفاء، وكيفية عشرتهم، وماهية الإيمان وخصال المؤمنين المحققين، وماهية الناموس الإلهي والوضع الشرعي، وكيفية الدعوة إلى الله، وكيفية أفعال الروحانيين، وكمية أنواع السياسات، وكيفية نضد العالم بأسره، وماهية السحر والعزائم.

ولعل من أبرز ما ينبغي التنبه له هو أن ضروب المعارف المصوغة في الرسائل لا تقرر عرْضاً موضوعياً لحقائق يؤمن بها الإخوان، بل هي سلاح دعاوة تحث القارىء، والسامع، على الانضمام إلى الجماعة «ليرى كل واحد منهم، ويعلم، أنه لا يتم له ما يريد من صلاح معيشة الدنيا، ونيل الفوز والنجاة في الآخرة، إلا بمعاونة كل واحد منهم لصاحبه. وأما السبب الذي يحفظهم على تلك الحال فهو المحبة، والرحمة، والشفقة، والرفق من كل واحد منهم، والمساواة فيما يريد ويحب ويبغض ويكره لنفسه. وهذه الشرائط تتم وتدوم إذا علم كل واحد منهم أن أنفسهم نفس واحدة، وإن كانت أجسادهم متفرقة». ولذا توجد في كل منعطف رسالة، أو فصل، أو فقرة أحياناً، دعوة حارة لتلبية النداء، وحسن اختيار الأخ الجديد، ولاسيما من «الشباب السالمي الصدور، الراغبين في الآداب، المبتدئين بالنظر في العلوم، المريدين طريق الحق والدار الآخرة، التاركين الهوى والجدل، غير المتعصبين على المذاهب».

وهذا النداء يخاطب الناس كافة لأن للجماعة «إخواناً وأصدقاء من كرام الناس وفضلائهم، متفرقين في البلاد: فمنهم طائفة من أولاد الملوك والأمراء والوزراء والعمال والكتّاب، ومنهم طائفة من أولاد الأشراف والدهاقين والتجار والتُّنّاء. ومنهم طائفة من أولاد العلماء والأدباء والفقهاء وحملة الدين. ومنهم طائفة من أولاد الصناع والمتصرفين وأمناء الناس».

وطبيعي أن يوجب هذا التنوع في النداء تنوعاً في أسلوب الرسائل من حيث استخدام الرمز والتأويل، والتبسيط والتعقيد، والاقتباس والتضمين، والإيجاز والإسهاب، أي مختلف سبل الترغيب خاصة، كل ذلك ينوس بين وضوح المعطيات العلمية والتعمية الهادفة في النصوص المذهبية، وبذا تختلف مخاطبة المتفلسفين الشاكين في أمر الشريعة، الغافلين عن أسرار الكتب النبوية، عن خطاب الشاكين في أمر النفس، المتحيرين في اختلاف أقاويل العلماء فيها، اختلافها عن مخاطبة العمال والكتّاب، ومخاطبة الملوك والسلاطين، ومخاطبة أهل العلم الغافلين عن أمر النفس، والمعرضين عن معرفة جوهرها، وكذلك عن مخاطبة المتشيعين. وإلى هؤلاء يقول مؤلفو الرسائل: «ومما يجمعنا وإياك أيها الأخ البار الرحيم محبة نبينا عليه السلام وأهل بيت نبيه [كذا] الطاهرين، وولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.. وحرمة الأدب والخروج من جملة العوام.. وقد أنفذنا إليك أخاً من إخواننا قد ارتضيناه في بصيرته.. فإذا سمعت أقاويلنا وفهمت معانيها.. أجبتنا بصدق القول..».

وعلى هذا المنوال يتجه إخوان الصفاء إلى أصحاب العقائد والآراء، حتى إلى الشيعة، وهم ليسوا منهم، لحثهم على اعتناق مذهبهم الذي يجاوز سائر الآراء السائدة، ويتخطى الانحياز «الانعزالي» فيبرأ من التعصب لأي مذهب آخر علمي أو فلسفي أو ديني، فمذهبهم يضم المذاهب كلها، والحقيقة حقيقتهم. يقولون: «إن الحق هو ما اجتمعنا عليه الآن». ولذا فإن حقيقتهم لا تصدر عن سواهم، ولا تؤخذ تعليماً عن غيرهم، ولو كان إماماً. وإنما مصدرها رباعي، وطريقة نوالها عقلية. فهم يذكرون أن علومهم مأخوذة من كتب أربعة: أحدها الكتب المصنفة على ألسنة الحكماء والفلاسفة من الرياضيات والطبيعيات، والآخر الكتب المنزلة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام مثل التوراة والإنجيل والفرقان وغيرها، والثالث الكتب الطبيعية، وهي صور أشكال الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك وأقسام البروج... وفنون الكائنات من المعادن والحيوان والنبات وأصناف المصنوعات على أيدي البشر، والرابع الكتب الإلهية التي لا يمسها إلا المطهرون الملائكة التي هي بأيدي سفرة كرام بررة، وهي جواهر النفوس وأجناسها وأنواعها.

وبقول آخر، يجمع مفكرو الإخوان إلى معطيات الثقافة العلمية والفلسفية والدينية المتنوعة معاناة التجربة الكونية والنفسية ليصنعوا من ذلك كله، بأنفسهم، حقيقتهم الإنسانية التي تجعل مذهبهم يستغرق كل المذاهب، وأداتهم الوحيدة هي العقل السليم المعافى البريء من الآفات العارضة كالهوى الغالب نحو شيء ما، والعجب المفرط من المرء برأي نفسه، والكبر المانع عن قبول الحق، والحسد الدائم للأقران وأبناء الجنس، والحرص الشديد على طلب الشهوات، والعجلة وقلة التثبت في الأمور، والبغض والعداوة عند الحكومة والخصومات، وحب الرياسة من غير استحقاق.

وبهذه الأداة «النوعية» المتميزة يعالج إخوان الصفاء كل ما تتناوله بحوثهم فيحكمون بصواب الآراء أو خلطها، ولا يحجمون عن كشف النقاب عن مساوئها وأضرارها وفساد منتحلها. وهذا هو الجانب الانتقادي الذي حمل إخوان الصفاء على اعتماد التنظيم السري، وتمويه عرض ما يعرضون من جوانب مذهبهم كما فعلوا في كلامهم عن خصومة العجماوات وثورتها على البشر، إذ نجد المؤلفين يعبرون، بما لا يحبون الإفصاح عنه، بكلم صريح، ونقد مباشر يفضح آراء معاصريهم وسلوكهم سواء بسواء.

فمن الآراء الفاسدة المؤلمة لنفوس أصحابها، مثلاً، اعتقاد من يرى أن روح القدس الذي قتلته اليهود، وصلبت ناسوته، ذهب لاهوته لما رأى ما نزل بناسوته من العذاب فتركه مخذولاً. ومنها من يعتقد أن الإمام الفاضل المنتظر الهادي مختف لا يظهر من خوف المخالفين.. فيبقى طوال عمره منتظراً لخروج إمامه، ثم يمضي عمره ويموت حسرة وغصة، لا يعرف إمامه، ولا يعرف شخصه. وإنما مسألة الإمامة من أمهات مسائل الخلاف التي كثر فيها القيل والقال، وبدت بين الخائضين فيها العداوة والبغضاء، وجرت بين طالبيها الحروب والقتال.. وهي باقية إلى يومنا هذا.

إن نفوس الجهال كلها موتى بالقياس إلى نفوس العلماء... وإن حياة النفوس ويقظتها هي

المعارف والعلوم . فانظر يا أخي بعقلك، وميز ببصيرتك، واختر لنفسك، فالسبيل إلى الشفاء من الجهل والخطأ ماثل في أن «الله جعل في جبلّة الإنسان وطبيعته ألا يأتمر أحد من العقلاء لغيره، ولا يطيعه إلا رغبة أو رهبة». وإن أسوأ الناس مذهباً، وأشنعهم رأياً من يعتقد أمراً ويكون عقله منكراً عليه، ونفسه مرتابة.

ومما ذهب إليه إخوان الصفاء مما لا يقره الفكر الديني المعاصر لهم عامة، وما يسوّغ لجوء الإخوان إلى الرمز والحكاية على ألسن العجماوات قول (زعيم الطيور) منتقداً: «إعلم أيها الإنسي أن الأنبياء عليهم السلام هم أطباء النفوس ومنجموها. ولا يحتاج إلى الطبيب إلا المرضى وصاحب العلة المزمنة، ولا يحتاج إلى المنجّم إلا المنحوسون الأشقياء والضالون عن نجم الهدى... ثم اعلم أن الغسل والطهارة إنما فُرضت عليكم من أجل ما يعرض لكم عند النكاح وشدة الشبق وشهوة الزنا.. وأما الصوم والصلاة فإنما فرضت عليكم ليكفر عنكم سيئاتكم من الغيبة والنميمة والقبح من الكلام واللعب واللهو والهذيان.. وأما الصدقات والزكاة فإنما فرضت عليكم من أجل أنكم تجمعون من فضول الأموال الحلال والحرام والغصب والسرقة واللصوصية، من البخس في الكيل والموازين وكثرة الجمع والذخائر والإمساك عن النفقة في الواجبات فضلاً عن المسنونات، والبخل والشح والاحتكار ومنع الحقوق». وأما (الببغاء) فيقول: «خذ الآن أيها الإنسي إزاء كل ما ذكرت وافتخرت به بقولك قولاً آخر معكوساً، وبدل كل حسن نسبت أصنافاً أخر قبيحة: وذلك أن عندكم الفراعنة، والنماردة، والجبابرة، والفسقة، والمشركين، والمنافقين، والملحدين، والمارقين، والناكثين، والخوارج، وقطاع الطرق، واللصوص، والعيارين، والطرارين. ومنكم أيضاً الدجالون، والباغون، والطاغون، والمرتابون. ومنكم أيضاً القوادون، والمخانيث، والمؤاجرون، واللواطة، والسحاقات، والبغايا. ومنكم أيضاً الغمازون، والكذابون، والنباشون. ومنكم أيضاً السفهاء، والجهال، والأغبياء، والناقصون، وما شاكل هذه الأوصاف والأصناف والطبقات المذمومة أخلاق أهلها، الردية طباعهم، القبيحة سيرتهم وأفعالهم، السيئة سيرهم وأعمالهم»... يستوي في هذا النقد الشعراء، والخطباء، والمتكلمون، والمنجمون، والراقون، والأطباء، والمهندسون، والتجار، والرؤساء، والدهاقين، والكتّاب، والعمال، والقرّاء، والعبّاد، والفقهاء، والعلماء، والقضاة، والعدول، حتى الخلفاء «الذين تزعمون أنهم ورثة الأنبياء... الذين يسمون باسم الخلافة، ويسيرون بسيرة الجبابرة، وينهون عن منكرات الأمور، ويرتكبون هم منها كل محظور... اتخذوا عباد الله خولاً، وأيامهم دولاً، وأموالهم مغنماً، فبدّلوا نعمة الله كفراً، واستطالوا على الناس افتخاراً... إذا ولي أحد منهم ابتدأ أولاً بالقبض على من تقدمت له حرمة لآبائه وأسلافه وأزال نعمته، وربما قتل أعمامه وإخوانه وأبناء عمه وأقرباءه وربما كحلهم، أو حبسهم، ونفاهم، وتبرأ منهم..».

أما مذهب إخوان الصفاء فإنه «ملذ لنفوس معتقديه، مفرح لقلوبهم، مبشر لأرواحهم. فهو سفينة النجاة، الموصلة للمدينة الفاضلة الروحانية» وهي مأوى الأرواح، وينبغي بعد الاجتماع على الشرائط من صفوة الإخوان التعاون لبنائها في مملكة صاحب الناموس الأكبر، فإذا دخلت أيها الأخ «مدينتنا الروحانية، وسرت بسيرتنا المَلَكية، وعملت بسنتنا الزكية، وتفقهت في شريعتنا العقلية فلعلك تؤيد بروح الحياة لتنظر إلى الملأ الأعلى، وتعيش عيش السعداء، فرحاناً مسروراً، ملتذاً مخلداً أبداً بنفسك الباقية الشريفة النيرة الخفية الشفافة لا بجثتك الدنية المظلمة الثقيلة المتغيرة المستحيلة الفاسدة الهالكة».

وأصحاب هذا المذهب، أولياء الله، يتطلعون في الدنيا إلى تعاونية اشتراكية إنسانية متآخية. أفلا يتفاوت الناس في العلم والمال؟ إذن ينبغي على من رزق المال والعلم جميعاً أن يؤدي شكر ما أنعم الله عليه به بأن يضم إليه أخاً من إخوانه ممن قد حرمهما جميعاً، ويواسيه من فضل ما آتاه الله تعالى من المال ليقيم به حياة جسده في دار الدنيا، ويرفده ويعلمه من علمه لتحيا به نفسه للبقاء في دار الآخرة... ولا يمنّ عليه بما ينفق عليه من المال، ولا يستحقره، ويعلم أن الذي حرم أخاه هو الذي أعطاه.

ولكن المعاونة «بقوة الأجسام على أمور الدنيا من أبلغ ما يكون لأبناء الدنيا فيما يريدون، وأسهلها عليهم فيما يقصدون». أما المعاونة بين الإخوان بالعلوم والمعارف فهي أبلغ ما يقصدون؛ لأن أحداً لا يمكن أن يدخل مدينتهم متى لم يكن علمه مساوياً لعلمهم. ولقوة نفوس الإخوان في هذا الأمر أربع مراتب: أولها: صفاء جواهر نفوسهم، وجودة القبول، وسرعة التصور، وهي مرتبة أرباب الصنائع في مدينتهم. ويسمون في الرسائل: الإخوان الأبرار الرحماء. وفوق هذه المرتبة مرتبة الرؤساء ذوي السياسة وهي مراعاة الإخوان، وسخاء النفس، وإعطاء الفيض بالشفقة والرحمة والتحنن على الإخوان.. ويسمون في الرسائل: الإخوان الأخيار الفضلاء. والمرتبة الثالثة فوق هذه وهي مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي، والنصر والقيام بدفع العناد والخلاف، ويسمون في الرسائل: الإخوان الفضلاء الكرام. والرابعة فوق هذه وهي التي يدعى إليها الإخوان كافة في أي مرتبة كانوا، وهي مرتبة التسليم، وقبول التأييد، ومشاهدة الحق عياناً، وعليها ترد قوة المعراج، وبها تصعد إلى ملكوت السماء، وإلى هذه المرتبة أشار الله تعالى بقوله: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضيةمرضية﴾. وإليها أشار إبراهيم ويوسف والمسيح ومحمد وسقراط وفيثاغورس وبلوهر. وإليها يدعو الإخوان إخوانهم جميعاً، ويطلبون إليهم الإقرار باللسان، والتصور لهذا الأمر بضروب الأمثال للوضوح والبيان، والتصديق له بالضمير والاعتقاد، والتحقيق له بالاجتهاد في الأعمال.

ويعلن الإخوان أنهم بذلوا مجهودهم في هداية الضالين، وإرشاد التائهين، وتنبيه الغافلين، وخاطبوا كل قوم وصنف منهم بما هو أصلح أن يخاطبوهم به في رسائلهم. وفي الرسالة الخمسين فصل جامع يقولون فيه: «ونحن نأمرك أيها الأخ السعيد أن تتبع ما أمرناك به فإنك تنال السعادة العظمى ديناً ودنيا إن شاء الله تعالى، وإنما سميناه الفصل الجامع لأنه جمع أصل سعادات المنافع. واعلم أن منفعة الإنسان تكون من وجهتين لا ثالث لهما: دنيوية وأخروية، جسمانية ونفسانية. وإذا كملت للإنسان هاتان السياستان استحق اسم الإنسانية، وتهيأت نفسه لقبول الصور الملكية، والانتقال إلى الرتبة السماوية عند مفارقة الجسد بالحال التي تسمى الموت النازل عليه، والاضمحلال الواصل إليه».

السياسة الجسمانية مطلب عافية ودفع سقم

وأذى. «إنك إذا لم تحمل على جسمك من المآكل والمشارب والباءة والحركة إلا معتدلاً لازمتك العافية، وعدمت الأسقام». والسياسة النفسانية أن تكون «أخلاقك رضية، وعاداتك جميلة، وأفعالك مستقيمة، تؤدي الأمانة إلى أهلها، كائناً من كان، من ولي وعدو،.. وأن تعوّد نفسك عمل الخير لأنه خير، لا تريد بفعلك عوضاً، ولا يحملك على فعله خوف. فمتى فعلت لطلب المكافأة لم يكن خيراً، وإن لم تطلب المكافأة، وإن أردت الذكر والاسم كنت أيضاً منافقاً، والمنافق لا يستأهل أن يكون في جوار الروحانيين. وأما سياسة الأصحاب فلا تكون إلا بعد المعرفة بهم، والاطلاع عليهم، ومعرفة أحوالهم: أن لا يخفى عليك من أمرهم صغيرة ولا كبيرة لتسوس كل واحد منهم السياسة التي تليق به دنيا وديناً.. فيجب أن تظهر لهم القرب بالبعد، واللين بالغلظة، والأنس بالوحشة والكرم بالشح، والموعظة بإلقاء العلم إليهم بمقدار ما يحتملونه، وبحسب ما يستوجبونه.. ولا تخص أصحاب النسب الجسداني بما لا تبديه لأهل النسب الروحاني».

«إن كل صداقة تكون لسبب ما. فإذا انقطع ذلك السبب بطلت تلك الصداقة إلا صداقة إخوان الصفاء، فإن صداقتهم قرابة رحم، ورحمهم أن يعيش بعضهم لبعض، ويرث بعضهم بعضاً، وذلك أنهم يرون ويعتقدون أنهم نفس واحدة في أجساد متفرقة» ويلحق بهذه القرابة قرابة الولادة الروحانية بطريق التعليم. «اعلم أن المعلم والأستاذ أب لنفسك وسبب لنشوئها، وعلة حياتها، كما أن والدك أب لجسدك وكان سبباً لوجوده. وذلك أن المعلم يغذي نفسك بالعلوم، ويربيها بالمعارف، ويهديها طريق النعيم، واللذة، والسرور، والأبدية، والراحة السرمدية».

وقوام هذه العلوم والمعارف في نظر الإخوان بناؤها على أصل واحد، وقياس واحد، وهو صورة الإنسان، «لأن صورة الإنسان أكبر حجة لله على خلقه، ولأنها أقرب إليهم، ودلائلها أوضح، وبراهينها أصح. وهي الكتاب الذي كتبه بيده، وهي الهيكل الذي بناه بحكمته، وهي الميزان الذي وضعه بين خلقه، وهي المكيال الذي يكيل لهم به يوم الدين ما يستحقونه من الثواب والجزاء، وهي المجموع فيها صور العالمين جميعاً». وقد لخص إخوان الصفاء بأنفسهم المثل الأعلى لمذهبهم الذي يستغرق المذاهب كافة، وهو يعكس في الوقت ذاته حال المعارف والعلوم في زمنهم وبيئتهم، ويمثل مفهومهم عن الإنسان بقولهم إنه «العالم، الخبير، الفاضل، الذكي، المستبصر: الفارسي النسبة، العربي الدين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السيرة، الملكي الأخلاق، الرباني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني».

تأثير إخوان الصفاء

لا يخفى أن حركة إخوان الصفاء، وقد كانت تشكو دولة الشر، لم تحقق سياسياً وتاريخياً دولة الخير، بالمعنى المادي. ولكن تأثيرها الفكري والثقافي ظل نامياً باطراد لدى أفراد وجماعات. فقد ذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون» أن رجلاً من الخراسانيين انتخب كتاباً أسماه «مجمل الحكمة» ألفه بالفارسية، بحذف الحشو وإيضاح الرموز من رسائل إخوان الصفاء. وذهب آ. برييه A.Périer إلى أن الفيلسوف يحيى بن عدي كان على علاقة بإخوان الصفاء. ومن المتفق عليه كما يؤكد طه حسين في «ذكرى أبو العلاء» أن المعري قد لقي إخوان الصفاء في بغداد، أو فرعاً من فروع منظمتهم. وقد أشير إلى نقد الغزالي منهجية الإخوان على الرغم من أنه لم يلصق بهم سمة الباطنية. وأشار ابن سبعين إلى تأثر الغزالي برسائل الإخوان. وصرح ابن الهيثم كما ذكر ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء» بأنه قرأ عدداً من الرسائل أطلعه عليها أحد سكان البصرة. وألمع المحبي في «خلاصة الأثر» إلى تساؤل المفكرين عن تحريم قراءة الرسائل. وعني ابن بشكوال وابن حجر المكي بموضوع الرسائل. واقتبس السيد محمد العيناتي وهو من أعلام القرن الحادي عشر الهجري فصولاً كثيرة من رسائل إخوان الصفاء ضمنها كتابه «آداب النفس» المنشور في طهران (١٣٨٠هـ). ولم تخل «لُمع» الطوسي قديماً من إيراد صفحات من الرسائل.

أما في الأندلس، فقد عنيت مدرسة المجريطي الكرماني بالرسائل كما ذكرنا. ويرى جرجي زيدان أن ذلك كان منطلق الحركة الفلسفية الإسلامية في بلاد المغرب. وقد اقتبس ابن عربي عبارة الإخوان الشهيرة: «أيدنا الله وإياك بروح منه»، ولاسيما في «الفتوحات المكية». وبرهن آسين بالاسيوس A. Palacios على تأثير الرسائل في القسيس انسلمو تورمادا A. Turmeda الذي أسلم في تونس وعمل للسلطان عبد العباس أحمد الحفصي وابنه عبد العزيز. ويذكر عبد اللطيف الطيباوي أن يوسف بن صادق نقل إلى العبرية كتاباً باسم: إخوان الصفاء. وترجم كالونيموس بن كالونيموس Kalonymos fils De Kalonymos إحدى الرسائل في القرن الثالث عشر للميلاد. وأثبت دي ساسي De Sacy تأثير الرسائل في اليهودي باهيا بن باكودا Bahya Iben Bakuda الذي عاش في القرن الحادي عشر.

وقد سبقت الإشارة إلى تأثير حركة الإخوان ورسائلهم في فرق إسلامية كثيرة، ولكنه كان بوجه الدقة تأثيراً باتجاه واحد، ولاسيما في الإسماعيلية، وفي ما تفرع عنها، وخاصة الدرزية، وهذا التأثير يعكس آراء إخوان الصفاء المصبوغة بالأفلاطونية ـ الجديدة. ويحكم كازانوفا P.Casanova بأن «مذهب الإخوان الشديد النقاء والسمو قد غدا بين يدي متعصبي الحشاشين الطموحين ينبوع فعال شنيعة». أما اهتمام العلماء الدارسين بموضوع إخوان الصفاء ورسائلهم فما برح في الغرب ثم في الشرق آخذاً بالاطراد منذ قرنين تقريباً. ولعل هذا الاهتمام الموصول يسوّغ قول مصطفى غالب في كتاب «فلاسفة من الشرق والغرب» إن هذا الموضوع «ملأ الدنيا، وشغل العلماء والمؤرخين، ولا يزال حتى الآن مثاراً للجدل والتخمين».

عادل العوا

الموضوعات ذات الصلة:

أبو حيان التوحيدي ـ الفلسفة ـ الفلسفة العربية ـ المعتزلة.

مراجع للاستزادة:

ـ إخوان الصفاء: الرسائل (بومباي ١٨٨٨، القاهرة ١٩٢٨، بيروت ١٩٥٧)

ـ ظهير الدين البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق محمد كرد علي (دمشق ١٩٤٦).

ـ عارف تامر، حقيقة إخوان الصفاء (بيروت ١٩٥٧).

- YVES MARQUET, La philosophie des Ikhwan al-Safa (Alger 1975).

■ الأخوية

الأخوية franternity جماعة من الناس يتحدون ويرتبطون معاً ضمن نظام معين لأغراض خيرية. ويطلق الاسم على مثل هذه الجماعة أو المجموعة لأن أعضاءها إخوة في الروح ويشعرون بأنهم في أسرة واحدة تهدف إلى التعاون الاجتماعي، في إطار المسيحية خاصة.

تاريخ الأخويات

انتشرت الأخويات في أوربة في العصر الوسيط، وكان بينها أخويات زمنية تضم فئات من التجار أو أصحاب المهن تجمعهم المشاعر الإنسانية وحماية النفس وحماية الضعفاء ومساعدتهم. وكان بينها أخويات دينية تجمع فئات من المؤمنين المسيحيين ليسوا بالضرورة من رجال الدين. وقد وجدت أخويات دينية لعدة قرون قبل العصر الوسيط، وكانت لها سلطتها ومكانتها. وظلت الأخويات الدينية هي السائدة في أواخر العصر الوسيط وما بعده. لذا يتجه الحديث عن الأخويات على الغالب، نحو الدينية.

ولكل أخوية قدّيس شفيع تحتفل بعيده في كل سنة بحفاوة كبيرة، وعلى رأسها إدارة يجدد انتخابها كل سنة. ولا تقوم أخوية إلا باعتراف السلطة الكنسية بها شخصية معنوية. وفي العصر الوسيط كان للأخويات أثر مهم في الحياة المهنية، إذ كان أعضاء الكثير منها ينتمون إلى المهنة نفسها. وكان لها أثر في الحياة العامة وكانت دعماً للسلطات الكنسية إبان الأزمات.

واتخذت الأخويات في مستهل العصور الحديثة منحى روحياً بحتاً، وأشهرها الأخويات المريمية Congrégations Mariales تأسست الأخوية المريمية الأولى عام ١٥٦٤ على يد كاهن يسوعي بلجيكي مقيم في رومة هو الأب جان لاون، وكان تحت حماية سيدة البشارة. اعترف بها رسمياً البابا غريغوريوس الثالث عشر، وأقرّ لها الحق بأن تضم إليها أخويات مماثلة عام ١٥٨٤. وقد تأسست أخويات عدة في رومة وفي مختلف المدن الغربية وانتسبت إلى الأخوية المريمية الأولى التي تعد الأخوية الأم.

ولما قدم اليسوعيون إلى الشرق في مطلع القرن السابع عشر عرّفوا بالأخويات التي استحدثت في الغرب وعملوا على إنشاء فروع لها لدى مختلف الطوائف الكاثوليكية. ومن أقدم الأخويات التي ما تزال قائمة حتى اليوم في سورية، أخوية سيدة البشارة التي تأسست في كنيسة الروم الكاثوليك في حلب عام ١٧٣٧.

ونشأت على غرار الأخويات المريمية التي تتخذ العذراء مريم شفيعة لها وتتلقّب بأحد ألقابها أخويات قلب يسوع أو القربان التي تتجه على نحو خاص إلى السيد المسيح، وأخوية القديسة تيريزيا والقديسة ريتا. وقامت أخويات ذات أهداف خاصة كأخوية الميتة الصالحة التي توجّه أعضاءها إلى التفكير بالآخرة، وأخوية الرحمة وأخوية المحبة التي تجمع بين الصلاة وعمل الإحسان وأخوية الشبان العمال التي تسهر على شؤون الناشئين من الطبقة العاملة.

تنظيم الأخويات

يشرف على كل أخوية كاهن مرشد يرأس المراسيم الدينية ويعمل على تثقيف الأعضاء وتوجيههم. ويدير شؤونها إدارة منتخبة مكوّنة من الأخ المتقدم، ونائبه، وأمين للسر يضبط محاضر الجلسات الإدارية وسجل الأعضاء، وأمين للصندوق، وخازن، وبضعة أخوة مستشارين.

وللأخويات أنظمة متشابهة تهدف كلها إلى مساعدة أعضائها على الترقي في معالم الفضيلة والتقرب إلى الله، والعمل على إصلاح المجتمع بالموعظة الحسنة والمثل الصالح.

وفي رومة أمانة سر عامة للأخويات المريمية ولها في بعض الأقطار أمانات سر وطنية تجمع بين مختلف الأخويات على الصعيد القطري.

وتصدر رابطة الأخويات في بعض الأقطار مجلات شهرية منها ما هو لتثقيف الأعضاء ومنها ما هو لتوجيه المسؤولين.

إشعاعها الروحي

كان للأخويات المريمية دور كبير في تعميق الحياة المسيحية. فهي لا تهدف فقط إلى تكريم العذراء مريم بل تسعى إلى التشبه بفضائلها واكتساب النفوس لمحبة ابنها. ففي الاجتماع الأسبوعي تقترن الصلاة بالإرشاد الروحي. ويلتزم الأخ عندما ينتسب رسمياً إلى الأخوية بعد مدة اختبار أن يعيش حياة الخير والبر والفضيلة. وقدّمت الأخويات للكنيسة عدداً من القديسين وخرج من صفوفها عدد من مؤسسي الرهبنات الحديثة. وقد قامت بدور كبير في إنعاش النهضة الروحية في فرنسة عقب الثورة الفرنسية الكبرى وفي عهد إعادة الملكية. وقد شوّه خصوم الكنيسة آنذاك دورها.

وفي البلاد الشرقية ثقّفت الأخويات المريمية المؤمنين المسيحيين وأنعشت فيهم التقوى والروح الاجتماعية والرسولية، في عصر لم تكن قد عمّت فيه المدارس، فكان لها دور كبير في إذكاء النهضة الروحية التي أنعشت الكنائس الشرقية الكاثوليكية في القرون الأخيرة.

وضعف إشعاع الأخويات المريمية وإقبال الشبان عليها منذ الثلث الثاني من القرن العشرين، لما قامت مؤسسات خاصة بالشبان أدق تنظيماً كالمؤسسات الكشفية ومؤسسة الشبان العاملين المسيحيين والشبان الطلاب المسيحيين. وفي بعض البلدان العربية أطلق اسم أخوية على الأخويات المريمية التقليدية وعلى هذه المؤسسات المستحدثة التي تهدف كلها إلى تثقيف المؤمنين وترويض أنفسهم، وحملهم على الالتزام بمسؤولياتهم الدينية والقومية في أسرتهم وبيئتهم ووطنهم من دون الخوض في العمل السياسي.

أغناطيوس ديك

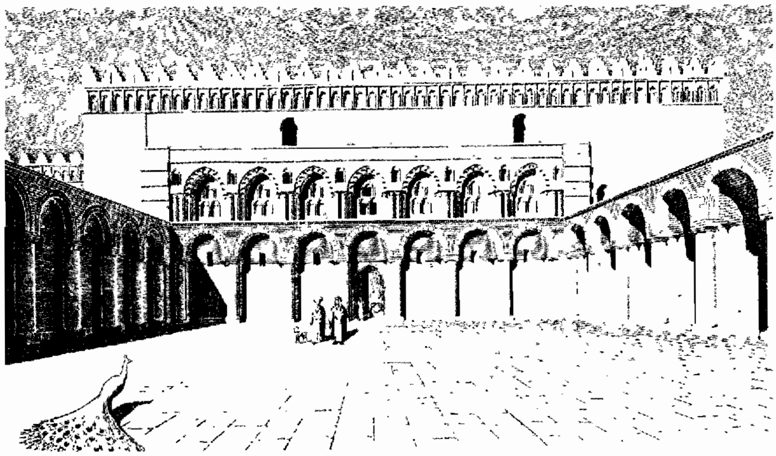
الموضوعات ذات الصلة :
الرهبانية.

■ الأخيضر

قصر أثري في صحراء العراق، لم يبق منه إلا أطلال شاخصة للعيان جذبت أنظار الرحالة وأهل الأسفار، ثم قصدها طلبة العلم والمختصون في علوم التاريخ والآثار فتصدرت مؤلفات تاريخ الفن والعمارة والعمران.

تقع أطلال قصر الأخيضر بجوار هور «أبودبس» على الضفة اليمنى لوادي الأبيض، وتشاهد من مسافات بعيدة، وهي على بعد ١٢٥ كم إلى الجنوب الغربي من بغداد، و٤٠ كم إلى الجنوب الغربي من كربلاء، وعلى مسافة متوسطة بين الكوفة والبصرة.

لم يرد ذكر اسم الأخيضر في أسفار المؤرخين


الأحيضر، باحة الشرف، الواجهة الشمالية: نقلاً عن كريسويل ورويتر.

والجغرافيين العرب، ولكنه متداول على ألسنة الأعراب والرعاة ويلفظونه «الأحيزر» كما يعرف كذلك باسم «حصن ضيفر» و«قصر الخفاجي». ويبدو أن اسم الأخيضر مستمد من طبيعة المكان إذ تقع أطلال القصر وسط رقعة رطبة تلامس مياهها وجه الأرض أو تنبجس إلى السطح فتكون مستنقعات في فصل الربيع، وتنبت الحشائش والمروج الخضر فيها. وينسبه بعضهم إلى إسماعيل بن يوسف بن الأخيضر الذي ولي الكوفة للقرامطة سنة ٣١٥هـ/ ٩٢٧م، على أنه إذا ثبتت العلاقة الاسمية بين ابن الأخيضر هذا والحصن، فلا يمكن أن يكون الحصن من بناء العامل المذكور، فهو أقدم من عهده بكثير، أما تسمية قصر الخفاجي فترجع إلى حكاية يرويها عرب البادية وتزعم أن من بناه هو عامر الخفاجي سيد بني خفاجة، وكانت هذه القبيلة هي المسيطرة في تلك المنطقة، ولها السراية فيها قبل الإسلام، وأن عامراً المذكور غادر قصره ليلحق بمحبوبته وهي فتاة من عشائر بني هلال هام بها حباً وهاجرت مع قومها غرباً طلباً للكلأ، ويستدلون على قولهم هذا بأشعار يروونها عن أم عامر الخفاجي قالتها عند نزوحه عن الأخيضر.

أما أول من كشف المكان في العصر الحديث فهو الرحالة الإيطالي بيترو ديلافاله Pietro Della Vallé الذي مر به في طريقه من حلب إلى البصرة عام ١٦٢٥، ثم جاز به عدد من الرحالة الفرنسيين والإنكليز أمثال تافيرنييه Tavernier في عام ١٦٣٨ وبيويس Beawes في عام ١٧٤٥ وروبرتس Roberts في عام ١٧٧٨ وتايلور Taylor في عام ١٧٩٠. ثم استكشفه ووثقه أول مرة المستشرق الفرنسي ماسينيون Massignon سنة ١٩٠٨، ووضع أول مخطط هندسي لأطلال القصر. إلا أن رسومه جاءت مملوءة بالأخطاء، وتولت المستشرقة الإنكليزية جرترود بل Gertrud Bell في عام ١٩١٤، وضع مخطط شامل ودقيق لجميع تفاصيل القصر والمسجد.

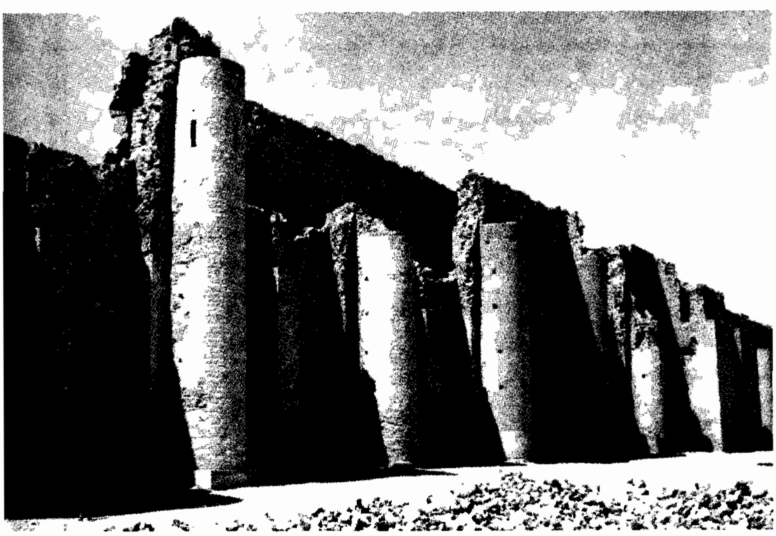
حظي الموقع بعد ذلك بدراسة مفصلة وشاملة على يد عالم الآثار الألماني أوسكار رويتر O. Reuther، وأخيراً هيأ عالم الآثار البريطاني كرسويل Creswel دراسة حديدة للقصر بعد أن قصده عدة مرات في السنوات ١٩٣٠ و١٩٣٣ و١٩٣٥ و١٩٣٦.

شيد القصر من الحجارة الكلسية والجص الأبيض. والمادتان متوافرتان في المنطقة المحيطة بالقصر، أما القباب والعقود فإنها مشيدة من الآجر المشوي.

يقع القصر داخل حرم مطوق بسور مربع عال ارتفاعه ٢١م وطول ضلعه الواحدة ١٧٠م وسمكه ٤م والسور محصن بأربعة أبراج مدورة في الزوايا، قطر البرج منها ١٠,٥م. وفي كل ضلع من أضلاعه عشرة أبراج مدورة قطر كل منها ١٠,٣م، وتلتصق بالوجهين الداخلي والخارجي للسور سلسلة من العقود العالية المحمولة على أعمدة بارزة، وفي الجزء العلوي من السور ممر دفاعي يطيف به وتخترقه مرام للسهام، وثمة درج في كل زاوية من زوايا السور الداخلية تؤدي جميعها إلى الممرات الدفاعية وإلى سطح السور.

وفي منتصف كل ضلع من السور بوابة حصينة خلفها دهليز مزود بشبك حديدي منزلق، ورحبة مغطاة بقبوة، وتخترقها مرام للسهام. والبوابة الشمالية هي الرئيسة، وتبرز على هيئة مستطيل عمقه ١٢,٥م وواجهته ١٥,٩٠م، ويخترقه دهليز أبعاده ٣ × ٥,٨٠م. وفي كل جانب من الدهليز مدخل يؤدي إلى غرفتين مربعتين. وفي داخل السور قصر ضخم من طبقتين فيهما قاعات ومقاصير وخزائن ومطامير. تمتد الضلع الشمالية للقصر بمحاذاة الضلع الشمالية للسور الخارجي، وبينهما ممر فاصل، وتعد البوابة الشمالية للسور البوابة الرئيسة للقصر أيضاً. وثمة مجموعة عمرانية مستقلة محصورة بين الضلع الشرقية للقصر والضلع الشرقية للسور الخارجي.

يأخذ القصر شكلاً مستطيلاً يمتد من الشمال إلى الجنوب بطول ١١٢م، ومن الشرق


قصر الأخيضر المحصن في العراق

إلى الغرب بعرض ٨٢م، وهو معزز بأبراج في الزوايا والأضلاع باستثناء الضلع الشمالية التي فيها المدخل.

يشغل القسم الأوسط من القصر جملة عمرانية مستطيلة مؤلفة من باحة شمالية (٢٧×٣٢,٧٠م) تزين وجوهها سلسلة من العقود المحمولة على أعمدة محاريب تزيينية باستثناء الواجهة الجنوبية التي يخترقها طاق إيوان (٦ × ١٠,٧٤م). وفي كل جانب من جانبي الإيوان مدخلان يؤديان إلى غرفتين مستطيلتين. وفي الضلع الخلفية (الجنوبية) مدخل يؤدي إلى غرفة مربعة. وفي جداريها الجانبيين مدخلان يؤديان إلى رُدهتين تحتوي كل منهما على صفين من الأعمدة. ويخترق الضلع الخلفية للغرفة المربعة نفسها مدخل يؤدي إلى قاعة ثلاثية المداخل (أربعة أعمدة) وفي كل جانب من جانبيها غرفتان مستطيلتان. يبدو أن هذا القسم من القصر هو قسم الاستقبال الملكي، فله باحة شرف فخمة وإيوان كبير وغرف وقاعات مميزة.

ويحيط مجموعة القسم الأوسط من جهاتها الأربع ممر يفصلها عن بقية أقسام القصر الملاصقة لأضلاعه الأربع.

وتشغل الضلع الشمالية، حيث يقع المدخل الرئيس، مجموعة عمرانية مؤلفة من قاعة المدخل في الوسط (٧ × ١٥,٥٠م)، وإلى يمينها غرف مظلمة، لعلها كانت مستودعات، ويليها مسجد القصر. وإلى يسار قاعة المدخل باحة تكتنفها الغرف من كل جانب.

ثمة وحدتان سكنيتان في كل من الضلع الغربية والضلع الشرقية، تتألف كل وحدة منهما من باحة سماوية، وثلاث غرف جنوبية، وثلاث غرف شمالية متصلة فيما بينها وتطل على الباحة. وكل وحدة سكنية مستقلة عن الأخرى، ولها باب رئيس يصلها بالممر المحيط بالقسم الأوسط (الرسمي) من القصر.

أما الضلع الجنوبية فتشغله باحتان سماويتان ومجموعة الغرف والقاعات المختلفة.

تتمتع المجموعة العمرانية المحصورة بين الضلع الشرقية للقصر والضلع الشرقية للسور الخارجي بتصميم معماري مشابه لتصميم القسم الرسمي المطل على باحة الشرف.

أما مسجد القصر فمستطيل (١٥,٦٥ × ٢٤,٢٠م) يتألف صحنه من باحة (١٦,٢٠ × ١٠,٣٠م) متصلة بمدخلين في الضلع الشمالية. يكتنف الباحة رواق من الغرب ورواق من الشرق (٣×١٠م) ورواق من الجنوب هو رواق القبلة وفيه المحراب.

كشفت التحريات التي أجريت في القصر عن لقى من الفخار والخزف كلها من العصر الإسلامي. كما عثر على نقود إسلامية تعود إلى العصر العباسي الأول.

إن وجود المسجد داخل القصر ونسقه المعماري يستبعدان نسبته إلى ما قبل الإسلام. غير أن صمت المصادر التاريخية العربية، والخصائص الفنية والمعمارية النادرة التي يتمتع بها قصر الأخيضر تجعل من الصعب جداً تحديد تاريخ بناء الأخيضر تحديداً دقيقاً، ومعرفة صاحبه أو الآمر ببنائه. فمن الباحثين من ينسبه إلى الفن المعماري الإيراني لما فيه من تناسق بناء ودقة زخرف، وقد يكون من بناء معمار فارسي لبعض أمراء الحيرة العرب، أو أنه من منازل أمراء المناذرة. وتنسبه جرترود بل إلى العصر الأموي، ويشاركها في هذا الرأي خبراء مديرية الآثار العراقية استناداً إلى أدلة تحصر تاريخ البناء بين نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة ويتفق آخرون على نسبة القصر إلى العصر العباسي الأول (أواخر القرن الثاني للهجرة / الثامن الميلادي)، ويرى كرسويل أن صاحبه هو عيسى بن موسى ابن عم الخليفة المنصور، ويذهب موسل إلى ما بعد ذلك العهد فيرجع تاريخ بناء القصر إلى عام ٢٧٧هـ / ٨٩٠م ليسوغ القول بأن القصر كان «دار الهجرة» التي بناها القرامطة. وكلها حجج غير دامغة. وقد يكون القرامطة قد رمموا القصر وحولوه إلى حصن، أما أن يكونوا قد بنوه من أساسه فأمر لايخلو من الشك.

قاسم طوير

الموضوعات ذات الصلة :

العراق - القرامطة.

مراجع للاستزادة :

- K.A.C CRESWELL, Early Muslim Architecture, Vol. I,Part 2 (Oxford 1940).
- GERTRUD BELL, A Palace in The Syrian Desert, Quarterly Review Vol. 202.
- OSKAR REUTER, Ocheider (Leipzig 1912).

■ الآخيُّون

الآخيون Achaens شعب هليني أقام في شبه جزيرة البلوبونيز Peloponnese بين القرنين الرابع عشر والحادي عشر قبل الميلاد.

تنسب روايات الإخباريين الإغريق الآخيين إلى جدهم الأسطوري آخَيُوس Acheus، وهم من مجموعة الأقوام الهلّنية التي تنسب إلى هلّن Hellen بن دُوْقاليون. ويتجلى شعور الهلّنيين بوحدتهم القومية في أسطورة دُوْقاليُون بن بروميثيوس Prometheus . تقول الأسطورة إن زيوس رئيس البانثيون (مجمع الأرباب) غضب على برُومثيُوس لتعليمه البشر كيفية استخدام النار، فحكم عليه أن يُرْبَطَ إلى صخرةٍ في جبال القفقاس، وأن يأتيه نسر عظيم يفترس كبده كل يوم إلى الأبد. وتجلّت نقمة زيُوس على البشر بإرساله الطوفان فقضى عليهم جميعاً باستثناء دوْقاليُون الذي نجا مع زوجته بُورَّا Pyrrha، في سفينةٍ رست بهما على جبل بارناسوس، وبعد انحسار المياه، قام دوقاليون بإتمام رسالة والده في عمران الأرض. وهكذا يكون دُوقاليُون هو «نوح» عند الهلّنيين الذين تتألف منهم القبائل الهلّنية الأربع: الدوريون والإيُوليّون والإيونيون والآخيُّون. وقد استقر غالب الإيونيين في سواحل آسيا الصغرى وبعض جزر بحر إيجة، وأقاموا علاقات وثيقة مع الساحل الكنعاني فأُطلق عليهم فيما بعد اسمُ «يونان» الذي شمل مختلف الأقوام الهلّنيّة، في حين تعرّف الغرب الهلنيين عن طريق إيطالية الجنوبية وجزيرة صقلية، التي اشتهرت باسم اليونان الكبرى Magna Graecia في كتابات المؤرخين والإخباريين اللاتين، فدعاهم الإغريق Greek نسبةً إلى ملك هليني أسطوري اسمه غرايكوس Graecus وشاعت التسمية في الغرب حتى شملت مختلف الأقوام الهلينية. ومن الغريب، أن تذكر «الإلياذة»، اسم الآخيين فقط عند الإشارة إلى جميع الهلّنيين الذين اشتركوا في حرب طروادة [ر]، وقد فسّر بعضهم ذلك

بأنهم كانوا وقتئذ، أقوى القبائل الهلّنية.

سكن الآخيّون شبه جزيرة البلوبونيز التي توجد في شمالها مقاطعة آخَيَة Achaea وتوجد مقاطعة أخرى بالاسم نفسه، في جنوب تسّالية، سكنها الآخيون كذلك، قبل انتقالهم النهائي إلى شبه الجزيرة. وجاء في الكتابات والوثائق اليونانية أن الآخيين مثلهم مثل البلاَسغيّين Pélasges ، من سكان البلاد الأصليين، الذين أقاموا في أواسط بلاد اليونان القارية، قبل أن ينتقلوا، بعد تكاثرهم، إلى أجزاء أخرى منها، ولاسيما شبه جزيرة البلوبونيز. علماً، أن من يشاهد آثار البلاسغيين ويقرأ أساطيرهم، لايجد عرقاً صافياً، فقد كان هؤلاء خليطاً من قبائل قديمة امتزجت بأقوام أخرى، ولاسيما الموكنيين (الآخيين).

حضارة الآخيين

يعد المؤرخون الإلياذة والأوديسة مرجعين رئيسيين في دراسة حضارة الآخيين، ويعطي هوميروس في الإلياذة انطباعاً بأن مدينة مُوْكِنَاي (أو ميسينة Mycenae) كان لها نوع من السيطرة على بقية المدن الهلّنية، حين يعرض استجابة هذه المدن جميعاً لنداء آغامِمْنُون، ملك مُوْكِنَاي، عندما أهاب بالهلّنيين، ولا سيما الآخيين، أن يجمعوا قواهم ويخفّوا لحرب طروادة، رداً على العار الذي ألحقه باريس، ابن ملك طروادة، بأخيه مينيلاووس ملك اسبرطة، بخطفه زوجته هلّينا. وتؤكد هذا الانطباع التسمية التي يطلقها هوميروس على آغاممنون حين يصفه بأنه «ملك البشر» أو «سيد الآخيين»، في أكثر من موضعٍ من سطور الملحمة. وإذا كانت الآثار تشير إلى هذه السيطرة، في المدة التي سبقت حرب طروادة، فإنها لاتلبث أن تشير إلى انحدار مركز مُوْكِنَاي وتخلخل قوة المدن الأخرى التي خضعت لها وتأثرت بحضارتها. وهذا ما يفسّر سبب ضعف سيطرة آغاممنون على الملوك الآخيين، الذين كانوا تحت قيادته في حرب طروادة، على نحو ما يظهر من أشعار الإلياذة.

وبالاستناد إلى أشعار الإلياذة والأوديسة، وإلى أدلة مختلف الدراسات الأثرية والتاريخية المقارنة يمكن استنتاج بعض الصور عن حضارة الآخيّين، في عهد الأبطال (ق١٣ - ١١ ق.م).

فقد كانت الزراعة والرعي الموردين الرئيسين لاقتصاد الآخيين. وكانت المحصولات الرئيسة هي الحبوب والكروم، وكانت أعمال الزراعة شاقة، لأن أكثر الأراضي جبلية، والمناخ يميل إلى الجفاف، فلا يتبقى من الأماكن التي تصلح للزراعة إلا نحو ربع مساحة الجبال، أو خمس مساحة البلاد، وكان الأغنياء يملكون قُطعاناً كبيرة من البقر والماعز والغنم، ويكتفي الفقراء بأكل السمك والحبوب، أو بما يصطادونه من الحيوانات البرية والطيور فقد كان الصيد آنئذ ضرورة من ضرورات الحياة.

أما الأرض، فكانت ملكاً للعشيرة أو الأسرة، ويشرف رئيس الأسرة على إدارتها، ولكنه لايستطيع بيعها. وتذكر أشعار الإلياذة أراضي واسعة «عامة» كان يتصرف بها الملك، ولكنها مُلْكٌ مشترك للجماعة، ويحق لكل فردٍ أن يرعى فيها ماشيته.

ولم يكن الآخيون يستخرجون المعادن من الأرض. بل كانوا يستوردون ما يلزمهم من النحاس والقصدير والفضة والذهب من البلاد الأخرى. وكان الحديد من المواد النادرة الثمينة، وتصنع أكثر الأسلحة من البرونز.

وتتحدث الإلياذة والأوديسة عن البنّائين والنجارين والسّراجين الذين كانوا يشتغلون في بيوت من يطلب ذلك.ولم تكن الحرف متطورة، إذ كان أفراد الأسرة يصنعون في الغالب ما يحتاجون إليه بأنفسهم.

بدأ الآخيّون في عهد الأبطال يتعرفون التجارة. ولم يقتصر نشاطهم على التجارة الداخلية بين مدن اليونان ومناطقها. فقد جاء في الإلياذة والأوديسة ذكر المنسوجات الشفافة المُوشَّاة الآتية من صَيْدُوْن (صيدا)، والأدوات المصنوعة من الذهب الآتية من فينيقية، ومجموعة من المصنوعات الأخرى كالسلال والمزهريات المجدولة من أسلاك الفضة والأدوات المصنوعة من العاج والبرونز والصفيح. وكان الآخيون من جانبهم يقايضون على هذه الواردات بالماشية والمعادن. وليس في الإلياذة أو غيرها ذكرٌ للنقود. وكانوا يعدّون البقر وحدة قياسية للتبادل التجاري ويستخدمون كذلك سبائك الحديد أو البرونز أو الذهب، وصنعوا سبيكة ذهبية فيما بعد بمقياس معين يدعى «تالَنْتُون».

وفي العمارة، تبرز الإلياذة والأوديسة فخامة الصنع ودقة الزخرفة عند الحديث عن قصور الملوك والزعماء. ويلمس القارىء في الكتابات المنسوبة إلى هوميروس، أنَّ المجتمع الآخيّ كان أقل تطوراً مما كان عليه في مُوْكِنَاي وأبعد عن النظام والقانون والقيود الأخلاقية التي كانت سائدة في حضارة كريت [ر] (إقريطش). وأن الآخيين رجعوا بالحضارة خطوات إلى الوراء بالموازنة مع ما كانت قد بلغته في بلاد بحر إيجة في عصري البرونز الثاني والثالث (١٤٥٠ - ١١٠٠ ق.م). وتبدو حياة الآخيين، فقيرة بالفنون الأخرى بعيدة عن القيم الفكرية، مقتصرة غالباً على الانصراف إلى الحروب والغارات.

انتشار الآخيين وتحركاتهم

تشير الكتابات الحثّية إلى ازدياد قوة الآخيين في منتصف القرن الثالث عشر ق.م. وهي تذكر أن الملك الحثي توداليا الرابع (١٢٥٠ - ١٢٢٠ ق.م) اضطر إلى محاربتهم مدةً طويلة، وأنهم كانوا خصوماً أقوياء بقيادة ملكهم آتاريسياس أي أتريوس - والد آغامِمْنُون - ويزاحمون الحثيين، ويسعون إلى التوسع والاستيلاء على بعض جزر بحر إيجه.

وقد وجد الآخيون أنفسهم مضطرين إلى البحث عن مصادر الرزق خارج بلادهم لضيق وسائله في بلادهم فمالوا إلى الهجرة، حيثما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. ولم تتجه هجراتهم نحو داخل القارة الأوربية لأسباب اقتصادية وبشرية وعسكرية بل توجهوا بأنظارهم إلى البحر. وشجعهم على الملاحة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط تقارب سواحله في أكثر من موضعٍ، وكثرة الجزر في أرجائه، والمراكز الحضارية على شواطئه. وقد أدت الهجرات المتتالية التي انطلقت من بلاد اليونان منذ وقت مبكرٍ، إلى انتشار سكانها على شواطىء البحر المتوسط الشرقية أولاً ثم الغربية فيما بعد، ومنها هجرات الآخيين في نهاية عصر البرونز الحديث ومطلع عصر الحديد (١٢٠٠ - ١٠٠٠ ق.م).

وليست حرب طروادة، التي تتحدث عنها الإلياذة، إلا إحدى المحاولات المنظمة لتوسع الآخيين واستيطانهم شواطىء آسيا الصغرى وجزر بحر إيجة.

وساعد ضغط الدوريين على انتشار الآخيين كما جاء في روايات الإخباريين والكتاب اليونانيين. فقد كان «الاجتياح الدُّوري»، أو عودة «آل هرقل» كما يقولون، الحادث الأكبر الذي أدى إلى انهيار الآخيين وفقدهم السيطرة

على شبه جزيرة البلوبونيز بعد ثمانين عاماً من حرب طروادة (في نهاية القرن ١٢ ق.م)، فتشتّتوا في جزر بحر إيجة وشواطىء آسيا الصغرى، ولم يبق لهم ذكر في مجرى تاريخ بلاد اليونان.

ذكرهم في الوثائق والآثار

إن آثار الآخيين في بلاد اليونان القارية، ولاسيما في شبه جزيرة البلوبونيز وفي جزر بحر إيجه، والشواهد التاريخية والأثرية التي عثر عليها في آسيا الصغرى ومصر تلقي بعض الضوء على تاريخ هذا الشعب وحضارته. فقد عثر على مجموعة من وثائق الامبراطورية الحثية في موقع مدينة حاتوشا الأثرية عاصمة الحثيين الكبرى (بلدة بوغازكوي اليوم في وسط الأناضول)، يرجع تاريخها إلى زمن بين أواسط القرن الرابع عشر ونهاية القرن الثالث عشر ق.م. وتشير هذه الوثائق أكثر من مرة إلى مملكة الآخياوَة Achiyyawa وعلاقاتها بالامبراطورية الحثيّة. ومن المتفق عليه اليوم أن هذا الاسم يعني الآخيين المذكورين في الإلياذة. كما يظهر من تلك الوثائق أن مملكة الآخياوة كانت توجد في البحر، وهو بحر إيجة في نظر الحثيين، وأن المنطقة التي تسيطر عليها المملكة كانت تضم عدداً من جزر هذا البحر. وتشير الوثائق الحثيّة أيضاً إلى استيلاء آخياوة على جزيرة قبرس (قبرص)، في أواخر عهد الامبراطورية الحثيّة، نحو ١٢٠٠ ق.م. فإذا عُدَّ سقوط قبرس في يد الآخيين مؤشراً على اتجاه الهجرات الآخية نحو الشاطىء الغربي لآسيا الصغرى، فإن من المنطق تحديد تاريخ حرب طروادة، التي تمثل محاولةً في هذا الاتجاه، في العقود الأولى من القرن الثاني عشر ق.م.

كذلك تتحدث الوثائق المصرية عن تحركات الآخيين (من بين أقوامٍ أخرى) نحو شواطىء القسم الشرقي للبحر المتوسط، إذ تروي النقوش المصرية أن مجموعة من الشعوب هاجمت مصر عن طريق البحر مرتين: كانت إحداهما في عام ١٢٢١ ق.م، أي قبل سقوط الامبراطورية الحثية. والأخرى في عام ١١٩٠ ق.م، أي عام سقوط الدولة الحثية أو بعده بقليل. وفي المرة الأولى، كان بين المجموعة التي حاولت أن تغزو الشواطىء المصرية قوم أسماهم المصريون «آحياواشة»، أي الآخيين. وفي القائمة التي خلد بها الفرعون منفتاح (١٢٣٣-١٢٢٣ ق.م) انتصاره على جدران معبد الكرنك ذكر للأسرى الذين وقعوا في يد جنوده، ومن بينهم أسرى الآخياواشة. وفي المرة الثانية، حاول المهاجمون اجتياح مصر من جهة الشمال الشرقي، وكان من بينهم مجموعة تدعى «دانونا»، وهم الدانائيُّون Dananoi، وهو اسم متفق عليه مرةً أخرى على أنه مرادف لفرع من الآخيين المذكورين في الإلياذة.

محمد محفل

مراجع للاستزادة:

- الإلياذة والأوديسة. (في الإلياذة النشيدان الأول والثاني).
- محمد كامل عيّاد، تاريخ اليونان.

■ الإدّا

«الإدّا» Edda، نوع من الأغاني والقصائد أو الأناشيد الشعبية شاع في البلاد الاسكندنافية كافة. وهي ذات قالب شعري كان يميل إليه الاسكندنافيون في أشعارهم، وقد اشتهر منها خاصة مؤلفان اثنان أولهما شعريٌّ وثانيهما نثريّ. فالإدّا الشعرية Edda poétique، أو القديمة Edda ancienne، أو «إدّا سوموند Edda de Soemond». كشف مخطوطها المسمّى «كوديكس ريجيوس ٢٣٦٥»، الأسقف الأيسلندي برنيولف سفينسّون Brynjolf Sveinsson في عام ١٦٤٢. والمخطوط موجود في مكتبة كوبنهاغن الملكية. ولهذا المخطوط نسخ متعددة.

أما «الإدّا» النثرية Edda prosaïque، أو «الإدّا» الحديثة Edda nouvelle، أو «إدّا ستورلسّون» Edda sturlusson. فقد كتبها الكاتب الأيسلندي سنورّي ستورلسّون Snorri Sturlusson (١١٧٨-١٢٤٣) نحو عام ١٢٢٠ وتقع في ثلاثة أجزاء:

فالجزء الأول معروف باسم غلفاغيننغ Gulfaginning، وهو ملخص نثري في الأسطورة الاسكندنافية، كتبه ستورلسّون ليعرف الشعراء الأيسلنديين الشباب بأساطير أجدادهم ومعتقداتهم حتى يفهموا كل ما يرد عنها في الأشعار الاسكندنافية.

والثاني يعرف باسم سكالدسكابارمال Skaldskaparmal، درس فيه الاستعارة، وهي مطروقة في الشعر الأيسلندي، وعلى جانب كبير من التعقيد. وقد ساق ستورلسّون في هذا الجزء من مؤلفه أمثلة كثيرة لها فضل كبير في بقاء جزء غير قليل من الشعر الأيسلندي الذي ربما ضاع أثره واندثر لو لم يأت ستورلسّون على ذكره في دراسته هذه.

أما الجزء الثالث فهو هاتاتال Hattatal ويضم قصيدة نظمها ستورلسون في الملك «هاكون» Haakon ولاءً له. وتعد مثالاً يحتذى في تقنية نظم الشعر الأيسلندي آنذاك وتتألف من مئة مقطع ومقطعين اثنين strophes منظومة وفق قواعد وأوزان مختلفة. وتعد هذه القصيدة تمريناً أكثر منها عملاً شعرياً صرفاً في تقنية نظم الشعر.

لاحظ الأسقف سفينسّون Sveinsson وجه شبه بين المخطوط الذي كشفه وبين «إدّا ستورلسّون» فعزا المخطوط الذي كشفه إلى سوموند Soemond وسماه باسمه لأنه كان معلم ستورلسّون الروحي وملهمه.

انتقلت أناشيد «الإدّا» سماعاً. وقد جرت العادة في البلدان الاسكندنافية بعد وضع نشيد من الأناشيد أن يدفع به إلى أفضل مغن يلقنه مغنين آخرين. وتتناول هذه الأناشيد بطولات الآلهة والأبطال. وأناشيد الإدّا مقتضبة عموماً، مؤلفة من بضع عشرات من المقاطع الشعرية يضم المقطع منها ستة أبيات إلى ثمانية وكل بيت مؤلف من أربعة مقاطع لفظية أو خمسة Syllabes.

وأناشيد «الإدّا» سرديّة في معظمها وما تبقى منها تعليمي وتربوي. والسردية منها أقدمها وأجملها. وبمقارنة الإدّا الشعرية بالإدّا النثرية تظهر فروق في الأسلوب بيّنة واضحة، فالقديمة أعظم أثراً وأبلغ من الثانية بلا منازع، لكن الثانية أوسع تفصيلاً وأكثر تأثيراً من الناحية النفسية.

تتقيّد الإدّا الشعرية تقيّداً كبيراً بالأسطورة

البطولية البدائية وقيمتها في تفردها وقوة إيحاءاتها وتعبيرها المأساوي. أما الإدّا النثرية فهي في تأليفها ونظمها أكثر أناقة، وأشد حساسية، ورقة وشفافية من الشعرية.

تصوّر الأناشيد في حزئها الأخير كيف تصارع الآلهة الوحوش وكيف تنطفئ الشمس وتهوي النجوم وتبتلع اللُّجة اليابسة وكيف يولد عالم حديد ويبدأ عصر ذهبي تجد فيه الآلهة مكاناً في حقول «الإدّا» Champs d'Edda. وهذا الجزء هو أجمل أجزاء الأناشيد وقد سمّيت المجموعة باسمه.

نبيل اللو

■ الأداء الموسيقي

الأداء الموسيقي interpretation musicale عمل تنفيذي خاص لمؤلَّفة موسيقية يقوم بأدائها العازف أو المغني أو قائد الفرقة الموسيقية (أوركسترا)، ينْفذ فيها إلى أعماق الأثر الفني الذي أعدّه المؤلف الموسيقي. ويعني الأداء عزف أو غناء العلامات والإشارات الموسيقية الخاصة التي كتبها المؤلف، كما يعني سعي المؤدي إلى إبراز الشعور والتعبير والإحساسات التي عناها ذلك المؤلف في عمله الموسيقي. ثم إن الأداء نوع من عملية ابتكار شخصية يضيفها المؤدي إلى العمل الموسيقي ترجمةً لأفكار المؤلف الكامنة في سطور مؤلفته. ولما كانت الأذن البشرية المرهفة تحس أقل الاختلافات بين الطبقات الصوتية، كما تدرك أقل الفوارق الإيقاعية والزمنية، فإنها قادرة على التفريق بين الأداء العادي والأداء الفذ. وقديماً كان الأداء، كما في كثير من أنواع الموسيقى الشرقية ومنها العربية، عفوياً يعتمد تناقل الألحان بين الأجيال تناقلاً سماعياً. فكان المؤدي غالباً ما يرتجل الألحان ويؤلفها. وفي العصور الوسطى، ابتكرت علامات موسيقية ساعدت المؤدي في الحفاظ على الطبقة الصوتية بصورة عامة من دون تفصيلات أخرى محددة. ولم تكن هذه الحالة تُؤلّف أية صعوبات، حسب مفهومنا الحالي، إذ كان معظم الألحان غنائياً. ومنذ القرن السابع عشر أخذ التدوين الموسيقي، في أوربة، ينحو نحو الدقة أكثر فأكثر، فتوضحت الإشارات والمصطلحات في تحديد الحركة والزمن ودرجات ارتفاع الأصوات وشدتها وأسلوب الأداء والتعبير وغيرها. وبرز دور المؤدي، ولاسيما العازف، وأصبح في استطاعته أداء ما توخاه المؤلف في عمله الموسيقي بالدقة المطلوبة. ومع أن التدوين الموسيقي أصبح أكثر دقة من ذي قبل، فإنه مازال في وسع المؤدي أن يبتدع إحساسات موسيقية مرتجلة يُطعّم بها اللحن الأصلي. ومع تحسّن صناعة الآلات الموسيقية، حظي العازف بمجالات واسعة في المهارة والإبداع، وأفسح كثير من المؤلفين الموسيقيين مجالاً للعازف المنفرد solist لأن يرتجل لحناً أو مقطعاً صغيراً في أدائه اللحن الأصلي، ولاسيما في قطع الحوارية[ر] (الكونشرتو) concerto، يبرر فيها مهارته في الأداء. وسميت هذه المقاطع المرتجلة بـ«القفلة» cadence [ر. الموسيقى]. وقد كتب بعض المؤلفين الموسيقيين قطعاً موسيقية خاصة لعازف مبدع شهير كالمؤلف وولتن W. Walton الذي كتب حوارية للكمان عام ١٩٣٨ خاصةً بعازف الكمان العالمي هايفتس J. Heifetz وقد أصبح كثير من كبار الموسيقيين عازفين مهرة ومبدعين في مجال الارتجال ومؤلفين أيضاً. إلا أن بعض المؤلفين لم يتركوا مجالاً حراً للعازفين المنفردين المبدعين الآخرين للتصرف بمؤلفاتهم كأن يضيفوا عليها أو ينقصوا منها أو يبدلوا شيئاً من الزخارف اللحنية فيها، وحرصوا على تسجيل كل مشاعرهم الفنية والتعبيرية بكل دقة في مدونتهم الموسيقية ومن هؤلاء شوبان F.Chopin، وليست F.Liszt. وقد اتجه كل من العازف والمؤلف، شيئاً فشيئاً، نحو التخصص وإتقان دوره في مجال عمله، وبرز المؤلف الموسيقي الذي يكتب قطعة موسيقية خاصة بعازف منفرد ماهر. وظهر نوع من المغنين المنفردين من أشخاص نالوا شهرة واسعة في أداء الأعمال الغنائية ولاسيما في مجال الأوبرا opera، لصفاء أصواتهم وصداحها، مثل كاروزو E. Caruso

وفي القرن التاسع عشر، ظهر نوع جديد من الأداء لفت انتباه الجماهير وقام بدور كبير في تطور السمفونية symphony وتزايد عدد أفراد الفرقة الموسيقية، ونعني بهذا الأداء قائد الفرقة الموسيقية الملقب بالإيطالية بالمايسترو maestro. وتنحصر مهمة القائد الأساسية في ترجمة لغة المؤلف الموسيقي وأفكاره ونقلها بكل دقة وإخلاص إلى الجمهور عبر العازفين، والمحافظة على تضامن جميع الآلات في الفرقة الموسيقية وإبراز مكانتها في مختلف أجزاء العمل الموسيقي مع الحفاظ على التوازن الإيقاعي والتناسق النغمي فيه. وقد برز كثيرون في قيادة الفرق الموسيقية في القرن العشرين، منهم توسكانيني Toscanini ، وفورتفنغلر Furtwangler، وكارايان Karajan.

حسني الحريري

الموضوعات ذات الصلة:

الأغنية ـ الآلات الموسيقية ـ الموسيقى.

مراجع للاستزادة:

- Larousse de la Musique, Ed. Larousse Paris 1987.
- CH. AMMER, Harpers Dict. of Music, (Barnes, London 1973).
- J. CHAILLEY, La musique et le signe (Lausanne 1967).

■ أداب (بسماية)

أداب Adab اسم موقع أثري في جنوبي بلاد الرافدين يعرف اليوم باسم «بسماية» على بعد نحو ٢٠ كم شمال شرقي مدينة فارا الأثرية (١٥٠ كم جنوب شرقي بغداد). وكان يكتب الاسم القديم بالخط المسماري المقطعي على النحو التالي A ـ da ـ ab.

بدأت أعمال التنقيب في الموقع عام ١٨٨٥. وعملت فيه عدة بعثات أثرية في السنوات ١٨٩١ و١٨٩٧ و١٩٠٣ و١٩٠٤ و١٩١٢.

وفي ضوء نتائج التنقيبات وضعت جمعية الاستشراق الألمانية مخططاً تفصيلياً للموقع. وتبين من نتائج الحفريات ودراسة الوثائق المدونة بالخط المسماري أن أداب كانت مدينة مهمة جداً من الناحية السياسية في أقدم عصورها وهو عصر فجر السلالات السومرية (٢٧٠٠-٢٣٥٠ق.م) إذ يرد اسم لوغال أنيموندو Lugal Annımundu في الوثائق الملكية بوصفه ملكاً على بلاد الرافدين. وقد دام حكمه زمناً يقال إنه تجاوز ٩٠ عاماً.

وكانت أداب في عصور ماضية تخضع لسلطة ملك كيش المعروف باسم ميزيليم Mesilim الذي كان يقدم القرابين لمعبد المدينة.

حكم فيما بعد في أداب ملك يدعى لوغال دالو Lugal- Dalu وقد عثر على تمثال له في المدينة نفسها، وهو موجود اليوم في متحف اصطنبول، كما أمكن التعرف على أميرين آخرين من أمراء المدينة من الوثائق المسمارية هما «إي-إجينمبة» و«مه-أر» اللذين تركا كثيراً من الكؤوس والهبات والقرابين مصنوعة من النحاس.

سقط أمير أداب المسمى دبكي-غلا Dubkı-Galla تحت سيطرة الملك الأكدي نارام سن Naram Sin حفيد صرغون Sargon. وعثر على تماثيل نارام سن نفسه بالإضافة إلى ختم أمير يدعى «أور-دومو» Ur- Dumu يعود إلى العصر الأكدي.

كانت أداب تدار سياسياً من قبل حكام أسرة أور الأولى، وفي عصر النهضة السومرية حرص ملوك أسرة أور الثالثة أورنامو وشولغي وأمارسن على تجديد معبدها. كما أعاد حمورابي بناء المعبد في عصره.

وكان المعبد يعرف من قبل باسم إيسار Esar ويحتصر بكلمة «سارة» Sare، ثم أطلق عليه فيما بعد اسم إيماخ Emah. وكانت إلهة أداب زوجة للإله إنليل ويطلق عليها اسم نينخورساغ Ninhursag ونينماخ Nın-Mah.

لم تكشف التنقيبات الأثرية للباحثين إلا عن لقى أهمها تمثال الأمير الملتحي الموجود في متحف شيكاغو، وتماثيل نارام-سن وندور من الأواني الحاسية، إضافة إلى كتابات تعود إلى عصر السلالات السومرية، وهي صعبة القراءة، وكتابات تعود إلى عصر غوديا Gudıa تتحدث عن بناء معابد في كل من أور ونيبور وأداب. وتشير التماثيل المذكورة على قلتها إلى نشوء مدرسة واقعية في نحت التماثيل بخلاف أسلوب بداية عصر السلالات السومرية البعيد عن الواقع.

محمد وحيد حياطة

مراجع للاستزادة:

- E.J. Banks, Bismaya, or the Lost City of Adab (London 1912).

■ الآداب العامة

ترد عبارة الآداب العامة Les bonnes moeurs جنباً إلى جنب في لغة القانون مع عبارة النظام العام [ر]، وما هذا إلا لأنها من المجالات التي تتعلق بالمصلحة العامة للمجتمع، والتي يقوم عليها مفهوم النظام العام.

وإذا كان النظام العام هو مجموعة المبادىء الأساسية: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية التي يقوم عليها مجتمع ما في وقت من الأوقات، فإن الآداب العامة في لغة القانون هي مجموعة المبادىء النابعة من المعتقدات الدينية والأخلاقية المتوارثة اجتماعياً والعادات والتقاليد والأعراف المتأصلة في مجتمع ما، في زمان معين والتي يعد الخروج عليها انحرافاً لايسمح به المجتمع.

وإذا كانت قواعد الآداب العامة تتصل بقواعد النظام العام الذي يرد في نصوص القانون وقواعد الأخلاق، فإنها تختلف عنهما. إنها تختلف عن النظام العام في نطاقها: فالآداب العامة تتعلق على وجه الخصوص بتلك المبادىء والأسس المتصلة بالأمور الجنسية، ولكنها تشمل كذلك بعض المسائل الأخرى كالمقامرة والرهان وكسب المال بطريق غير شريف. أما النظام العام فيتسع ليضم، بالإضافة إلى الآداب العامة، المبادىء السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجوهرية التي يقوم عليها المجتمع.

وتختلف الآداب العامة عن قواعد الأخلاق، فمن المعلوم أن الفقه القانوني يفرق بين قواعد الآداب العامة وقواعد الأخلاق منساقاً وراء التفرقة بين قواعد القانون عامة وقواعد الأخلاق. ومن الممكن تلخيص هذه الفروق في النقاط التالية:

من حيث النطاق: فدائرة قواعد الأخلاق هي أوسع من دائرة قواعد الآداب العامة لأن قواعد الآداب تهتم بواجب الفرد نحو المجتمع، في حين تهتم قواعد الأخلاق إضافة إلى ذلك بواجب الفرد نحو نفسه، وهي تهتم بالبواعث والنوايا إضافة إلى السلوك المادي الخارجي. وبمعنى آخر يقال إن قواعد الآداب تصدر عن قواعد الأخلاق كما يصدر النهر من الينبوع.

من حيث الغاية: إن غاية الأخلاق هي الوصول بالإنسان إلى الكمال والسمو النفسي، أما غاية الآداب فهي حماية المجتمع من بعض أنواع السلوك التي يمكن أن تؤدي إلى انحلاله وتفسخه والانحدار به.

من حيث الجزاء: لا يترتب من حيث الأصل على الخروج على قواعد الأخلاق أي جزاء دنيوي إلا ما ينص عليه القانون، في حين يترتب على الخروج على قواعد الآداب جزاء مدني، وقد يكون هناك عقاب جزائي.

والآداب العامة بحكم كونها جزءاً من النظام العام تستمد بعض خصائصها من هذا النظام. فقواعد الآداب العامة قواعد نسبية متغيرة تختلف باختلاف المكان والزمان من مجتمع إلى آخر ومن جيل إلى جيل في المجتمع الواحد. فما يعد مخالفاً للآداب في مجتمع ما، قد لايكون مخالفاً لها في مجتمع آخر. وما يعدّ غير مقبول في المجتمع في حقبة زمنية قد يغدو مقبولاً في حقبة لاحقة.

وإن هذه الخصائص التي تُرى في الآداب العامة لايمكن الوصول إلى معيار محدد لها سوى الناموس الأدبي للجماعة. ويتم عملياً إعمال هذا المعيار وضبطه من قبل القاضي الذي يتمتع بسلطة واسعة، إلا أن سلطته هذه ليست مطلقة. فيجب عليه، وهو يقوم بتحديدها، أن ينطلق من أنه يمثل الجماعة في التعبير عن ناموسها الأدبي والأخلاقي، أي يجب أن يكون تفكيره موضوعياً ويستند إلى الشعور العام السائد في المجتمع والروح العامة للنظام القانوني القائم فيه. وعلى هذا فإنه يمتنع عليه أن ينطلق

في تحديد ما يعدّ من الآداب العامة من معتقداته الشخصية، وانطباعاته الخاصة، وميوله وآرائه الأخلاقية والفلسفية، أو من آراء بعض الأفراد، أو بعض الفئات في المجتمع، وإنما يجب عليه أن يضع نفسه في ضمير الجماعة التي ينتمي إليها وينطلق من ذلك في تحديد الناموس الأدبي السائد فيها في زمن معين.

بيد أن سلطة القاضي في تحديد مضمون الآداب العامة تخضع لرقابة محكمة النقض وذلك للحيلولة دون الشطط والانحراف في التقدير.

وفي مقدمة المسائل التي يُجمع الفقه العربي على اعتبارها مخالفة للآداب العامة ما يلي:

الاتفاقات المتعلقة بالجنس: إن الحقل الخصب لأعمال قواعد الآداب العامة هو العلاقات الجنسية، إذ يعدّ كل اتفاق غير شرعي على قيام علاقة جنسية بين طرفين مخالفاً للآداب العامة، ويدخل في ذلك كل الالتزامات التي يكون محلها، أو سببها الجنس، أو التعهد بتقديمه للآخرين.

الاتفاقات المتعلقة بدور البغاء: إن كل اتفاق يتضمن البيع، أو الإيجار أو الاستغلال، لأي عقار من أجل تخصيصه للدعارة، يعدّ مخالفاً للآداب العامة، ولو كان ذلك برخصة إدارية.

الاتفاقات المتعلقة بالمقامرة: إن كل التزام يكون محله أو سببه المقامرة، أو الرهان، وكل بيع أو إيجار لهذه الغاية، يكون مخالفاً للآداب العامة.

وقد عدّ الاجتهاد القضائي التواطؤ عن طريق الاتفاق بين أصحاب العروض في التعهدات العامة، الذي يقوم على الغش والتزوير، مخالفاً للآداب العامة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتعهد القائم على أساس الامتناع عن الإخبار بجريمة.

ويترتب على مخالفة الآداب العامة عملياً نتائج مهمة. فمن المعلوم أن القواعد المتعلقة بالآداب العامة هي قواعد آمرة، لايجوز الاتفاق على مخالفتها، وهي تعدّ قيداً على مبدأ سلطان الإرادة في إجراء التصرفات القانونية، بمعنى أنه يجب على الأفراد احترامها حتماً، وعدم الخروج عليها.

وعلى هذا فإنه لايجوز إبرام أي اتفاق بشأن علاقات جنسية غير شرعية، أو أي اتفاق يتعلق بمقامرة أو رهان، ويمتنع إنشاء النوادي التي من شأنها إباحة التعري، ولايجوز إنشاء مسابح تسمح بظهور الأشخاص بوضع منافٍ للحشمة. وبوجه عام فإن كل اتفاق يكون محله أو سببه مخالفاً للآداب العامة، يكون باطلاً بطلاناً مطلقاً. ولا يترتب عليه أي أثر، ولايمكن أن يزول هذا البطلان بإجازة، أو بمرور الزمن، ويستطيع كل ذي مصلحة أن يتمسك به، ويجب على القاضي أن يحكم من تلقاء نفسه، ولو لم يطلب منه ذلك. ويترتب على البطلان من الناحية القضائية إعادة الحال إلى ما كانت عليه قبل الاتفاق، إذا كان ذلك ممكناً، أو الحكم بالتعويض على أساس المسؤولية التقصيرية.

محمد واصل

الموضوعات ذات الصلة:

النظام العام.

مراجع للاستزادة:

- حسن كيرة، المدخل إلى القانون، ط٥ (منشأة المعارف، الاسكندرية ١٩٨٤).
- علي حسين نجيدة، المدخل لدراسة القانون (دار الفكر العربي، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٥).

■ الأدارسة

(١٧٣-٣٧٥هـ/ ٧٨٩-٩٨٥م)

أسرة حكمت المغرب الأقصى وحملت اسم مؤسسها إدريس الأول، من ولد عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب من زوجته المخزومية، وينعت بإدريس الأصغر تمييزاً له من أخ له أكبر منه من أم مطلبيّة يحمل الاسم نفسه.

قام أبناء عبد الله بن الحسن بثورات متعددة على العباسيين في المشرق؛ فقد ثار منهم على المنصور العباسي سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢م: محمد ابن عبد الله في المدينة، وإبراهيم في البصرة. وفي زمن الهادي العباسي شارك إدريس بن عبد الله بالثورة التي قام بها ابن أخته الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وقد قتل الكثير من الطالبيين في الموقعة الفاصلة لهذه الثورة في «فخ» بجوار مكة عام ١٦٩هـ/ ٧٨٦م، ونجا بعضهم بالاختلاط بالحجاج. ومن هؤلاء إدريس بن عبد الله والمولى راشد اللذان اختلطا بحجاج مصر وسارا برفقتهم إلى بلدهم. وكان على بريد مصر يومئذ واضح مولى صالح بن المنصور المتشيع للطالبيين، فكتم أمر إدريس عندما تعرّفه وساعده في الوصول إلى برقة، حيث تولى مولاه راشد أمر تسييره من هناك ضمن قافلة تجار إلى أن حلاّ بتلمسان ثم طنجة، ثم «وَليلَى» التي نزلاها في غرة ربيع الأول ١٧٢هـ/ ١٩ آب ٧٨٨م، واستضافهما فيها إسحاق بن عبد الحميد الأوربي المعتزلي شيخ قبيلة أوربة. بقي أمر إدريس طي الكتمان ستة شهور قضاها في تدبير أمر دعوته وجمع الأتباع لمواجهة الوالي العباسي المقيم في المدينة آنذاك، بدلالة ما ضربه من نقود في ذلك التاريخ. وعندما حانت الفرصة المناسبة عرض إسحاق بن عبد الحميد ضيفه على وجوه قبيلته «أوربة» فبايعوه على الإمارة والقيام بأمرهم وصلاتهم وغزوهم وأحكامهم وتبع ذلك بيعة القبائل الأخرى في وَليلَى وما حولها.

شرع إدريس بعد ذلك في توسيع دائرة سلطانه فسار غازياً بين رمضان وآخر ذي الحجة من العام ١٧٢هـ/ أيار ٧٨٩م باتجاه الغرب والجنوب انطلاقاً من قاعدته، فسيطر على مدينة شالة (مدينة قديمة تقع في ضواحي الرباط اليوم، حي المطار) وبلاد تامسنة (المنطقة الممتدة بين نهري بورقراق وأم الربيع). ثم انعطف شرقاً ليغزو بلاد تادلة (على وادي أم الربيع وعلى بعد ٢٠٠ كم جنوب شرق الدار البيضاء اليوم).

ويبدو أن ما استقر في سلطانه آنذاك لم يتجاوز مدينة شالة، في حين عادت السيطرة على تامسنة لبرغواطة المارقة ولعدة قرون بعد هذه الغزوة.

وفي العام التالي ١٧٣هـ قام إدريس بغزوة أخرى باتجاه الجنوب الشرقي أخضع فيها قبائل فندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة النازلة قرب موقع فاس من ناحية وليلى، وبلاد فازاز الواقعة إلى الجنوب من ذلك الموقع. وفي السنة نفسها توجه إدريس نحو الشمال من قاعدته وليلى

فهاجم سبتة. أما غزو إدريس باتجاه الشرق فتم على الأرجح في سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م. وكان منطلقه هذه المرة من قاعدة بناها عند مدخل ممر تازة بجوار موقع فاس، ونزل على تلمسان قاعدة المغرب الأوسط، حيث أقر أميرها محمد ابن خزر بن صولات المغراوي بالطاعة له، وتنسب المصادر بناء مسجد المدينة إلى إدريس بن عبد الله.

توفي إدريس الأول في نهاية ربيع الأول ١٧٧هـ/ ١٥ تموز ٧٩٣م مسموماً بتدبير من الخليفة هارون الرشيد. وكان الرشيد يخشى من اتساع نفوذ إدريس إثر سيطرته على تلمسان باب إفريقية، فاستعان بشخصية معروفة بولائها لآل البيت لدس السم له بإجماع من أرّخوا لهذا الحدث.

توطد الدولة في عهد إدريس الثاني

توفي إدريس الأول وليس له ولد إلا ما كان من حمل جاريته البربرية كنزة في الشهر السابع. وقبل أتباعُه عَرْضَ مولاه راشد بالتريث ريثما تضع الجارية، فإن كان الوليد ذكراً قدموه مكان أبيه تبركاً بآل البيت، كما قبلوا تكليف المولى تدبير شؤونهم ريثما ينجلي الوضع. وعندما جاء الوليد ذكراً كما كان مأمولاً أعطوه اسم أبيه، وتولى راشد تربيته، وعندما بلغ إدريس الثاني الحادية عشرة من عمره قُتل المولى راشد على يد بعض خدمه من البربر بتدبير من إبراهيم ابن الأغلب أمير إفريقية للعباسيين، في أول ربيع الأول سنة ١٨٨هـ/ ١٦ شباط ٨٠٤م، بعد أن أغراهم بمال وفير. فقام بتدبير شؤون إدريس الثاني أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي وبويع إدريس بالإمارة.

كان في مقدمة اهتمامات إدريس الثاني مواجهة مساعي إبراهيم بن الأغلب الرامية إلى تدمير دولته، التي نجحت، إضافة إلى اغتيال المولى راشد، في تحويل ولاء بهلول بن عبد الواحد رئيس مدغرة، التي تنتشر منازلها في طرف الدولة الشرقي، من جانب إدريس إلى جانب العباسيين، وأدى ذلك إلى استيحاش إدريس الثاني من البربر. ولما وفد عليه بعد مدة وجيزة في سنة ١٨٩هـ/ ٨٠٤م خمسمئة فارس عربي من إفريقية والأندلس اعتز بهم وبدا له الاعتماد عليهم، وأضاف لذلك بناء حاضرة بديلة عن وليلى هي مدينة فاس على ضفتي الوادي الذي يحمل اسمها. لكن الأدلة التي قدمها ليفي بروفنسال في عام ١٩٣٨م جعلت من والده شريكاً له في بناء المدينة، فقد أقام أبوه قبله على الضفة اليمنى للوادي قاعدة كانت ضرورية لعملياته في المغرب الأوسط، ويشرف موقعها على المنفذ الوحيد المؤدي إلى تلك الناحية وهو ممر تازة. أما ما بناه إدريس الثاني فالجزء الواقع على الضفة اليسرى للوادي مقابل القاعدة التي شيدها أبوه. وقد اختار الموقع عمير ابن مصعب الأزدي من العرب القادمين عليه، وجلهم من القيروان. وتمت عملية البناء عام ١٩٣هـ/ ٨٠٩م، وأنزل إدريس العرب بخطط (أحياء) خاصة بكل قبيلة، وكذلك فعل لبعض قبائل البربر والجماعة من الفرس وردت عليه من العراق في ذلك الوقت، ومع ذلك طغى على الموقع الجديد اسم عدوة القرويين، نسبة للقيروان، موطن الجماعة العربية، وتمييزاً له من القسم المقابل الذي ازداد عمرانه بعد سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٨م عندما نزل به بعض أهل ربض قرطبة، الذين أجلوا عنها إثر ثورتهم المعروفة وما تلاها من تخريب الربض، ودعي الموقع بعدوة الأندلسيين.

وفي أثناء عملية البناء تخلص إدريس الثاني من إسحاق الأوربي فقتله متهماً إياه بالاتصال بابن الأغلب، وأعلى من شأن الوافدين في إدارة شؤون دولته، فاتخذ من عمير بن مصعب وزيراً ومن عامر محمد بن سعيد القيسي قاضياً، وربما كان لتدابير إدريس الثاني هذه أثر في جعل مستشاري ابن الأغلب ينصحونه بالكف عن أعماله العدائية حياله.

وبعد زوال خطر الأغالبة تفرغ إدريس الثاني لتوسيع حدود دولته في الجنوب على حساب المصامدة فانتزع منهم مدينة نفيس على الوادي الذي يحمل الاسم نفسه، ويرفد نهر تنسيفت، وكذلك مدينة أغمات الواقعة على مسيرة يوم من المدينة الأولى. ثم توجه عام ١٩٩هـ/ ٨١٤م نحو المغرب الأوسط فأخضع قبيلة نفزة (نفزاوة) واحتل تلمسان، وجعل حكمها لأسرته وخص بها ابن عمه محمد بن سليمان بن عبد الله، كما خاض الكثير من المعارك في المغرب الأقصى مع فئتين مارقتين عن الجماعة: وهما الخوارج وبرغواطة. وأدركه أجله ليلة ١٢ جمادى الآخرة سنة ٢١٣هـ/ ٢٩ آب ٨٢٨م.

تجزؤ السلطة في دولة الأدارسة

توفي إدريس عن اثني عشر ولداً، خلفه منهم ابنه الأكبر محمد الذي وزع حكم مملكة أبيه على الكبار من إخوته. وبقي هو في العاصمة فاس، فأعطى أخاه القاسم حكم طنجة وملحقاتها بما فيها البصرة، أي القسم الغربي من منطقة المضيق، وأعطى أخاه عمر حكم بلاد صنهاجة وغُمارة في الريف، أي القسم الشرقي من المنطقة نفسها، وأعطى عيسى حكم أُزُمّور وشمال تامسنة حيث مدينة شالة، وأعطى حمزة حكم الأودية وبلاد وَليلى، وأعطى عبيد الله حكم بلاد الجنوب مع بلاد لمطة في أقصاه. وبقيت تلمسان إقطاعاً لمحمد بن سليمان ابن عم والده. وبقي الأخوة الصغار تحت وصاية أخيهم الأكبر وجدتهم كنزة.

تذكر روايات تلك الحقبة أن التقسيم جرى عملاً بنصيحة الجدة كنزة، ويبدو أنه جاء تلبية للمطامح المحلية القبلية التي تنزع نحو الاستقلالية، وهو أمر تعرفه كنزة بحكم الانتماء والبيئة. وقد تحولت السلطة بذلك من سلطة مركزية إلى سلطة اتحاد أسري يقوم فيه الأخ الأكبر من الحاضرة بدور السيد الأعلى بين إخوته الذين يحكمون مناطقهم حكماً مباشراً، ويورثونها لأبنائهم. وسرعان ما أسفر هذا الوضع عن انتقاض بعض الإخوة على حكم أخيهم الأكبر من الجيل الأول، كما أسفر عن تفتت الدولة بحكم تجزئة منطقة كل حكم بين الوارثين في الأجيال التالية.

وقد احتدم النزاع على حكم فاس الحاضرة الكبرى. فسرعان ما تمرد عيسى، صاحب أزمور وشمال تامسنة، على سيادة أخيه الأكبر. فطلب محمد من أخيه القاسم حاكم طنجة والمجاور للمتمرد من جهة الشمال تأديبه، ولما رفض القاسم القيام بهذه المهمة عهد محمد بها إلى أخيه عمر حاكم الريف وأمده بألف فارس، ثم ولاه عمل أخيه المتمرد بعد أن أخضعه. وأتبع ذلك بتكليفه تأديب الأخ الآخر العاصي القاسم ابن إدريس، فنجح عمر في مهمته هذه أيضاً وأوقع الهزيمة بالأخ العاصي في معركة بجوار طنجة واضطره إلى الهرب إلى مدينة أصيلة، حيث بنى لنفسه مسجداً بخارجها وأقام فيه متعبداً زاهداً، إلى أن أعاده بعض أعوانه من البربر لحكم معاقل الداخل، وحاز أخوه عمر جل ممتلكاته، وأقام يحكمها حتى حان أجله في شوال عام ٢٢٠هـ/ ٨٣٥م. وبعد وفاته وافق السيد الأعلى محمد بن إدريس صاحب فاس

على تقسيم المناطق التي حكمها أخوه عمر بين أبنائه، فأقام ابنه الأكبر علي في طنجة، وحكم أخوه عبيد الله بلاد غمارة، وأعطيت قلعة صدينه إلى ثالث أبنائه محمد. وفي العام ٢٢١هـ/ ٨٣٦م توفي الأمير محمد بن إدريس صاحب فاس ورأس الأدارسة واستمر الاستقرار الذي ساد فاس في عهده إلى منتصف القرن في ظل ولديه. فقد أوصى محمد بن إدريس بأن يخلفه ابنه علي من زوجته رقية بنت إسماعيل ابن عمير الأزدي، وله من العمر تسع سنين، فبايعه رؤساء القبائل وقاموا بأمر قبائلهم وكلاء عنه إلى أن بلغ الحلم وتولى إدارة شؤون دولته بكفاية، ولما توفي في رجب ٢٣٤ هـ/ كانون الثاني ٨٤٩م تولى الحكم بعده وبعهد منه أخوه يحيى بن محمد. وفي عهد يحيى هذا الذي امتد حتى سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م، استبحر العمران في مدينة فاس وكثر سكانها وازدهرت تجارتها، لكن عهد ابنه وسميه يحيى كان فاتحة فتنة متطاولة أنهكت حكم الأدارسة. فقد كان يحيى الثاني أضعف من أن يسيطر على حكم فاس وتوابعها. فولّى أعمامه وأخواله ماحول فاس، وتبعتهم قبائلها تبعية كلية، في حين انهمك هو في حياة الخلاعة والمجون، فثار به الناس بفاس تحت قيادة عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي، واضطر يحيى إلى الهرب من مقره في عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين حيث توفي سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م. ولكن زوجته عاتكة بنت علي بن عمر رفضت الفرار معه، واستدعت أباها صاحب طنجة، فقدم إلى فاس ونال بيعة أهلها، ثم خُطب له على منابر المغرب كلها، وبهذا انتقلت السيادة العليا على أمراء الأدارسة إلى فرع عمر بن إدريس. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً، إذ خرج عليه عبد الرزاق الفهري الخارجي الصُفري بجبال بويبلان على بعد يوم ونصف اليوم نحو ٦٠كم إلى الجنوب الشرقي من فاس واتبعه خلق من سكانها، وازداد قوة وجرأة بعد دخوله مدينة صفرو، وخاض عدة معارك مع علي بن عمر قتَل فيها عدداً كبيراً من جنده وألجأه إلى بلاد أوربة، ودخل الخارجي مدينة فاس فبايعته عدوة الأندلسيين، وامتنعت عليه عدوة القرويين التي استدعى أهلها يحيى ابن القاسم بن إدريس المعروف بالعدام فحماها، وطرد الخارجي من عدوة الأندلسيين، وولى عليها ثعلبة بن محارب من أسرة المهلب بن أبي صفرة الشهيرة. وقد بقي حكمها متوارثاً في أسرة بني صفرة أمداً، كما نشط يحيى العدام في مطاردة الخوارج وإبعادهم عن حاضرته، لكنه لم يوفق في قتال أبناء عمه عمر، إذ قتل في معركة خاضها مع ربيع بن سليمان قائد يحيى بن إدريس بن عمر سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٥م. ودخل يحيى بن إدريس فاس فخُطب له بها وفي سائر نواحي المغرب. وظل أميراً عليها إلى عهد الفاطميين بعد ذلك التاريخ بعشر سنوات.

الأدارسة بين الفاطميين والأمويين

بينما كانت أملاك الأدارسة تزداد تجزؤاً وأمراؤهم يمعنون في التناحر مع قدوم القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، زحف على المغرب الأقصى خطران كبيران : الفاطميون من الشرق، والأندلسيون الأمويون من الشمال.

وتساقطت بين القوتين أملاك الأدارسة الواحد تلو الآخر، وتمكن بعض الأمراء الأدارسة من البقاء بعدد من معاقلهم بالمسالمة وتقديم الطاعة تارة وبالمقاومة حيناً آخر حتى نهاية الربع الثالث من ذلك القرن، إلى أن زالت سيادتهم نهائياً عن المغرب الأقصى.

وكانت بداية النهاية وصول جيش فاطمي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي عام ٣٠٥هـ/ ٩١٧م إلى جهات فاس، انهزم أمامه يحيى بن إدريس بن عمر ولجأ إلى المدينة فحاصره بها مصالة حتى أعلن طاعته للخليفة الفاطمي كتابة، وتعهد بدفع إتاوة له. بعدها غادر مصالة المغرب الأقصى تاركاً يحيى بن إدريس بفاس وعملها فقط وعقد لابن عمه موسى بن أبي العافية كبير مكناسة على ما سوى ذلك من بلاد المغرب واندرجت دولة الأدارسة في ملك الفاطميين.

ولما قدم مصالة بن حبوس إلى المغرب في حملة ثانية سنة ٣٠٩ هـ/ ٩٢٠م سعى موسى ابن أبي العافية عنده إلى الإيقاع بيحيى غيرة وحسداً، وأوغر صدره عليه. فلما قرب مصالة من فاس خرج يحيى للقائه فقبض عليه مصالة وقيده واستصفى أمواله ثم نفاه إلى أصيلة، حيث يحكم بنو عمه القاسم بن إدريس. غير أنه أنف من العيش على إحسانهم فغادرهم قاصداً المهدية، فوقع في يد ابن أبي العافية الذي سجنه نحو عشرين عاماً ثم أطلقه ليموت في فقر وغربة بإفريقية (تونس) عام ٣٣٢هـ/ ٩٤٣م. أما فاس فاستعمل عليها مصالة حاكماً من قبيلته هو ريحان الكتامي فأقام فيها ثلاثة أشهر فقط ٣١٠هـ/ ٩٢٢م. إذ ثار عليه فيها الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بالحجام وقتله، وفاز ببيعة أهلها ثم وسع سلطانه وفرضه على قبائل البربر من لواتة وصفرونة ومديونة ومدائن مكناسة، بالإضافة إلى البصرة قاعدة الأدارسة في الشمال.

ثم خاض معركة في فحص الزاد (على مقربة من وادي المطاحن بين فاس وتازة) مع موسى ابن أبي العافية سنة ٣١١هـ وقد رجحت فيها كفة الحسن أول الأمر. وخسر خصمه ثلاثة أضعاف خسائره وكان ابنه منهل بن موسى في جملة القتلى، ومع ذلك، لم يستطع الحسن الحجام استثمار فوزه فكانت العاقبة عليه وانهزم جيشه. ولجأ حسن إلى فاس منفرداً وجيشه خارجها فقبض عليه عامله عليها حامد بن حمدان الهمداني وقيده وأغلق أبواب المدينة في وجه عسكره، وأرسل دعوة إلى موسى بن أبي العافية ليسلمه المدينة، ولما أراد موسى قتل الحسن الحجام لم يمكنه حامد بن حيان منه وأطلقه ودلاّه من السور فوقع وأدركه أجله بعد أيام قليلة.

خلا المغرب لموسى بن أبي العافية منذ سنة ٣١٣هـ فبسط سلطانه على البلاد واستخلص من الأدارسة ما بقي لهم من معاقل على الساحل مثل شالة وأصيلة، وطاردهم فلجؤوا جميعاً سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م إلى حصن لهم يعرف باسم حجر النسر، وهو معقل يقع في قلب أوعار جبلية يصعب اجتيازها، بناه محمد بن إبراهيم ابن محمد بن القاسم بن إدريس في أرض قبيلة سوماترا إلى الشمال الشرقي من مدينة القصر الكبير، وحصرهم موسى هناك، لكنه عجز عن اقتحام الحصن، ولامه أصحابُه لمحاولة استئصال شأفتهم، فانصرف عنهم وترك على حصارهم ألف فارس بقيادة أبي الفتح التْسولي لتقييد حركة الأدارسة. وحول موسى اهتمامه للتمكين لنفسه في فاس وللتوسع في المغرب الأوسط حيث الأسرة الحسنية الثانية من نسل سليمان ابن عبد الله أخي إدريس الأول. وتخلى في هذه المرحلة عن طاعة العبيديين الفاطميين فخطَب لعبد الرحمن الناصر، خليفة الأمويين في الأندلس، وكاتبه وكان قد اتصل به منذ عام ٣١٧هـ/ ٩٢٩م. رد الفاطميون على خيانة ابن

أبي العافية بتوجيه حملة جديدة إلى المغرب الأقصى قادها حميد بن يصلتن سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م، ألحقت الهزيمة بموسى بن أبي العافية بفحص مسون في منطقة تازة واستعادت فاس، فانقض الأدارسة المحتجزون في حجر النسر على قوات ابن أبي العافية المحاصرة لهم فطردوها ونهبوا معسكرها. ثم انضموا إلى الجيش الفاطمي الجديد الذي قاده ميسور الفتى عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م واستعادوا بمعونته، وفي ظل الطاعة للفاطميين، أكثر ما كان لهم في المغرب الأقصى باستثناء فاس. وتزعم هؤلاء الأدارسة فرع أبناء محمد بن القاسم بن إدريس الشقيقان إبراهيم والقاسم الملقب بكنون. وانفرد كنّون بالزعامة واتخذ من حجر النسر مقراً وقاعدة. وبذلك تميز هؤلاء من الفرع الإدريسي الآخر من أبناء عمر بن إدريس المقيم في جهات غمارة في الريف وسبتة، الذين وجدوا من مصلحتهم أن يخضعوا لأمويي الأندلس، بعد أن احتلوا سبتة وجعلوها قاعدة لهم، وقدموا الطاعة للأمويين في مقابل تعهد الأمويين لهم بالامتناع عن التدخل في شؤونهم الداخلية. واستمر فرع أبناء القاسم على عدائه للأمويين أمداً بسبب تضارب المصالح، وقد تجلى ذلك بوضوح في النزاع على أصيلة التي طلبت عون عبد الرحمن الناصر الأموي لمساعدتها على الأدارسة، فأمر واليه على سبتة بإرسال قوة أموية لمساعدتها، لكن هذه القوة لم تفلح في منع الأدارسة من احتلالها سنة ٣٢٦ هـ/ ٩٣٨م. واستمر هذا العداء طول حكم كنّون الذي توفي عام ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م. وخلفه ابنه أبو العيش أحمد بن القاسم كنون الملقب بأحمد الفضل لأخلاقه وعلمه، وقد حوّل ولاءه إلى خليفة الأندلس القوي آنذاك، ويبدو أن الأمويين كانوا زاهدين في هذا الولاء بدليل عدم قبول طاعة أحمد الفضل مالم يتنازل لهم الأدارسة عن طنجة. ولما قبل هؤلاء بما طُلب منهم استهان الأمويون بهم إلى حد تعيين أمير عليها من بني يفرن الزناتيين أعداء الأدارسة. وأدرك أبو العيش أحمد ضعف موقفه في هذه الدولة التي انكمشت واقتصر سلطانها على البصرة وأصيلة فتخلى عن عرشه سنة ٣٤٣هـ وطلب من الناصر السماح له بالجواز إلى الأندلس للجهاد، فأذن له وهيأ له سبل الإكرام من لحظة نزوله أرض الأندلس حتى وصوله الثغر. وبقي أبو العيش مجاهداً هناك حتى استشهد سنة ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م. واستمر أخوه الحسن بن القاسم كنون الذي تولى الحكم بعده في طاعة الأمويين ما داموا أقوياء، وعندما ضعف سلطانهم مؤقتاً نتيجة لحملة فاطمية كاسحة قادها جوهر الصقلي عام ٣٤٧هـ حوّل طاعته للفاطميين، وعندما انصرف جوهر عائداً إلى المهدية سنة ٣٤٩هـ رجع الحسن إلى طاعة الأمويين وظل لائذاً بهم إحدى عشرة سنة أخرى. وعندما قدم بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي إلى المغرب الأقصى على رأس حملة جديدة ليثأر من زناته الذين قتلوا أباه ٣٦١هـ، كان الحسن بن كنون أول من سارع إلى بيعته وخلع طاعة الأمويين، وقاتلهم واستعاد منهم طنجة. فلما انصرف بلكين إلى إفريقية (تونس) بعث الخليفة الحكم المستنصر قائده محمد بن القاسم في جيش كثيف وأسطول يقوده عبد الرحمن بن رماحس لقتال الحسن بن كنون، أواخر سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م. وقد أفلح الأسطول في استرداد طنجة والاستيلاء على دُلُول وأصيلة، لكن التقدم في البرّ كان عسيراً، فاستطاع الحسن بن كنون هزيمة الجيش الأموي بفحص بني مصرخ في أحواز طنجة وقتل قائده في ربيع الأول ٣٦٢هـ/ كانون أول ٩٧٢م، ولجأ من بقي من الجيش إلى سبتة. فأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة مولاه غالب قائد الثغر الأعلى وحمّله بالأموال لشراء الأتباع، فاشتبك معه الحسن بن كنون في قصر مصمودة ودار القتال أياماً، واستمال غالب الناس بالأموال فانفضوا عن ابن كنون ولم يبق معه إلا القليل من خاصته ورجاله فسار بهم إلى حجر النسر معقل الأسرة وتحصن به، وطارده غالب وأقام على حصاره حتى أوائل المحرم سنة ٣٦٣هـ، واشتد الحصار على الحسن فطلب الأمان على نفسه وأهله وأجيب إلى طلبه وحمل مع سبعمئة من رجاله إلى قرطبة في آخر رمضان سنة ٣٦٣هـ/ ٢٤ حزيران ٩٧٤م، وأقام الحسن وأصحابه نحو عام في أحسن حال، ثم صودرت أمواله وأخرج من الأندلس فتوجه إلى إفريقية ومنها إلى مصر حيث نزل ضيفاً على الخليفة الفاطمي نزار بن معد فأكرم وفادته ووعده بالمساعدة على الثأر. ولم يتم الوفاء بالوعد إلا في عام ٣٧٣هـ/ ٩٨٤م عندما كتب الإمام الفاطمي للحسن بن كنون بعهده على المغرب الأقصى وأمر عامله على إفريقية بأن يمده بالجند، فأمده هذا الأخير بثلاثة آلاف فارس دخل بهم المغرب، وانضمت إليه قبائل عدّة. واضطر المنصور العامري حاجب الخليفة الأموي الأندلسي هشام المؤيد إلى توجيه جيش لمواجهة حملة الحسن بن كنون الإدريسي وأمّر عليه ابن عمه عمر بن عبد الله بن أبي عامر، وأتبعه بقوة أخرى يقودها ابنه عبد الملك المظفر. أحاطت القوتان بالحسن بن كنون خارج سبتة فاستسلم مقابل الأمان وأن يعود لحاله الأولى في قرطبة، لكن المنصور لم يمض أمان ابن عمه وأرسل إلى الحسن من قتله في الطريق، وانتهى بموته سلطان الأدارسة في المغرب الأقصى، إلا ما كان من ظهور الحموديين [ر] من نسل عمر بن إدريس الذين أقاموا دولة لهم من دول الطوائف في الأندلس عاشت النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر للميلاد، وامتدت سيطرتها من جنوب الأندلس إلى سبتة.

المنجزات الحضارية للأدارسة

على الرغم من الاضطراب الداخلي والغزو الخارجي فقد تحقق للمغرب الأقصى في ظل الأدارسة تقدم حضاري ملموس. ففي المجال الاقتصادي استخرج الذهب والفضة من منطقة تامدلت في الجنوب، ويظهر أن الأدارسة استعملوا الفضة لضرب دراهم عثر على بقايا منها مضروبة في أكثر من عشرين موضعاً. كما دخل المغرب واحد من أكثر نباتات الشرق أهمية صناعية وهو القطن، وإن تمركز زراعته في البصرة قاعدة الأدارسة وما حولها مثل كرت وماسيتة يدل على فضلهم في إدخال زراعته.

وقد مكنت الموارد الاقتصادية الأدارسة من تنفيذ مشاريع عمرانية كبيرة تحقيقاً لأغراضهم السياسية والعسكرية. فأقاموا مدناً كثيرة، شأنهم في ذلك شأن أبناء عمهم سليمان بن عبد الله في المغرب الأوسط. ويذكر ابن حوقل من تلك المدن غير فاس، مدينة زُلُول أو دُلُول إلى الشرق من أصيلة التي أسسها الحسن بن كنون، ومدينة الأقلام التي استحدثها يحيى بن إدريس على بعد أقل من مرحلة من البصرة، إضافة إلى حصن حجر النسر الشهير. كما بنوا بجانب طنجة القديمة مدينة حديثة على ظهر جبل يبعد ميلاً عنها بعد أن احتل الأمويون سبتة، كما حصّنوا تلمسان وجددوا بناء جامعها، وكان من الطبيعي أن يعنى الأدارسة ببناء المساجد في كل المدن القديمة منها

كتلمسان، والحديدة كفاس، وينسب إليهم بناء مسجد الشرفاء.

وقد ظهرت في هذه المدينة التي استبحر فيها العمران طبقة من الموسرين سلكوا مسلك الأمراء في هذا المضمار. ومنهم مريم بنت محمد الفهري التي أقامت مسجد الأندلسيين، كما شرعت أختها أم البنين فاطمة في أول رمضان ٢٤٥هـ/ ١ كانون أول ٨٥٩م ببناء مسجد القرويين الذي حاز شهرة واسعة مع الزمن، وغدا جامعة وأكبر مركز للعلوم الإسلامية والأدبية والتاريخية في المغرب، يفد الطلبة إليه من أقطار شمال إفريقية وإسبانية والسودان. وإليه يرجع الفضل في حمل مشعل الثقافة والعلوم في تلك المنطقة طول أحد عشر قرناً. كذلك اهتم أمراء الأدارسة ببناء الحمامات والفنادق وشق الطرق. وعلى الصعيد الثقافي خطا الأدارسة خطوات واسعة في نشر الثقافة العربية الإسلامية في المغرب.

أدارسة المغرب

(١) إدريس الأول بن عبد الله ١٧٢ ـ ١٧٧ هـ/ ٧٨٨ ـ ٧٩٣م.

(٢) إدريس الثاني بن إدريس الأول ١٧٧ ـ ٢١٣هـ/ ٧٩٣ ـ ٨٢٨م.

(٣) محمد بن إدريس الثاني ٢١٣ ـ ٢٢١هـ/ ٨٢٨ ـ ٨٣٦م.

(٤) علي الأول بن محمد ٢٢١ ـ ٢٣٤هـ/ ٨٣٦ ـ ٨٤٩م.

(٥) يحيى الأول بن محمد ٢٣٤ ـ ؟/ ٨٤٩ ـ ؟

(٦) يحيى الثاني بن يحيى الأول.

(٧) علي الثاني بن عمر بن إدريس.

(٨) يحيى الثالث بن القاسم.

(٩) يحيى الرابع بن إدريس بن عمر ٢٩٢ ـ ٣١٠هـ/ ٩٠٤ ـ ٩٢٢م.

(١٠) الحسن الحجام بن محمد ٣١٠ـ٣١٣/ ٩٢٢ـ٩٢٥ اغتصب السلطة في فاس موسى بن أبي العافية ٣١٣هـ/ ٩٢٥م.

(١١) القاسم كنون ؟ ـ ٣٣٧هـ/ ؟ ـ ٩٤٨م.

(١٢) أبو العيش أحمد ٣٣٧ ـ ٣٤٣/ ٩٤٨ ـ ٩٥٤م.

(١٣) الحسن بن كنون ٣٤٣ ـ ٣٦٤/ ٩٥٤ ـ ٩٧٤م.

أحمد بدر

الموضوعات ذات الصلة:

الأمويون في الأندلس ـ فاس ـ الفاطميون.

- B. ROSENBERGER, Histoire du Maroc Hatier, Casablanca 1967.

■ إدارة الأعمال

إدارة الأعمال management علم وفن استخدام الموارد المتاحة في مشروع أو مؤسسة أو تنظيم على أفضل الوجوه الممكنة كماً وكيفاً وتكلفة وزمناً، لبلوغ أغراض مقررة. أو بعبارة أخرى هي علم وفن تنسيق عوامل (عناصر) الإنتاج سعياً وراء تحقيق أغراض مقررة لمؤسسة أو تنظيم. وذلك بالإفادة من جهد الإنسان والموارد المتاحة ووسائل الإنتاج على أكمل وجه. وعوامل الإنتاج، بحسب التصنيف الكلاسيكي، هي الأرض واليد العاملة ورأس المال وعمليات التنسيق بينها. والإدارة [ر] administration هي القطاع الرئيسي في عمليات التنسيق.

فمنذ أن أدرك الإنسان ضرورة العمل وأهمية تنسيق الجهود لبلوغ أهداف العمل المشترك برزت ضرورة وجود هيئة، في أي مشروع أو مؤسسة أو تنظيم، تتولى الإشراف على سير العمل وتنسيق جهود العاملين فيه، أي إدارته، فالإدارة تعني عملية صنع القرارات ومتابعة تنفيذها في التنظيم من جهة، كما تعني مجموعة الأفراد والمسؤولين الذين يصنعون هذه القرارات ويتابعون تنفيذها من جهة أخرى. ومن هذا المنطلق ثمة مفهومان لمصطلح « الإدارة » باللغة العربية يقابلهما في اللغات الأجنبية كلمة administration وكلمة management وهذان المفهومان ليسا شيئاً واحداً مع احتمال الخلط بينهما. فالإدارة في المفهوم الأول هي عملية تحديد أهداف مشروع ما وسياساته وتتبّع إنجازاته سواء كان ذلك التنظيم خاصاً أم عاماً، عسكرياً أم مدنياً، إنتاجياً أم خدمياً أم غير منتج، وكذلك مجموعة الأشخاص المسؤولين عن سير العمل في ذلك المشروع. ومن أهداف هذه الإدارة في مجال الأعمال business، بحسب مفهومها الأول (وتسمى اصطلاحاً الإدارة العليا) تحقيق إنتاج اقتصادي للمشروع، وبيع هذا الإنتاج مع الربح، وتنمية الاستثمارات الداخلة في المشروع حتى النقطة التي تبدأ فيها عوائده بالتقلص. وإن العمل التنفيذي الذي يتولى متابعة تحقيق هذه الأهداف والسياسات يدخل في اختصاص الإدارة بمفهومها الثاني management ولذلك فقد اصطلح على أن يطلق عليها اسم « الإدارة التنفيذية » administrative management وقد يحدث الخلط هنا بين الإدارتين لأن رجال الإدارة التنفيذية يؤثّرون في الغالب في سياسة المشروع وأهدافه. ولكي تقوم « الإدارة العليا » والإدارة التنفيذية بمهامهما على أكمل وجه ممكن لابد من وجود بنية هيكلية خاصة بالمشروع، أي وجود تنظيم له في صيغة محددة. وهذا التنظيم هو حجر الأساس الذي يقوم عليه بناء أي مشروع أو مؤسسة. وتكون مهمة الإدارة التنفيذية فيه تنفيذ سياسات الإدارة العليا ضمن إطار ذلك التنظيم. وتتحدد صيغة التنظيم بطبيعة المعضلات التي سيواجهها، وبالظروف التي ستُحل فيها تلك المعضلات، وبطبيعة الأفراد القائمين على التنظيم. وبسبب ازدياد التخصص في وظائف الإدارة التنفيذية فقد تصطدم (الإدارة العليا) للمشاريع بمشكلة التنسيق بين تلك الوظائف وتخصصها. وقد أدى ذلك إلى ظهور نظريات وحلول متباينة لتلك المشكلة، وإلى محاولات تحديد اختصاصات إدارة الأعمال أو الإدارة التنفيذية، ومهماتها ومجالات نشاطها. لذلك برز علم إدارة الأعمال لدراسة المشكلات الإدارية وإيجاد الحلول لها وعليه فإن إدارة الأعمال علم فرضه الواقع وأكده خضوع الكثير من تقنيات إدارة الأعمال للقياس

والتحكم والتحديد. وقد حلت هذه التقنيات جزئياً محل الاعتماد على الأحكام الفردية والرأي الشخصي. ولكن التنسيق بين تقنيات الإدارة التنفيذية وتحديد درجات تعاون العاملين فيها يجعل من إدارة الأعمال علماً وفناً قائماً بذاته. ومع أن إدارة الأعمال طورت، بادىء ذي بدء، في ميدان الأعمال (التجارة والصناعة) فإن المبادىء الأساسية التي تقوم عليها قابلة للتطبيق في مختلف أنواع التنظيمات، وهذا ما يفتح الباب واسعاً أمام مستقبل «إدارة الأعمال» على أساس كونها علماً له أسسه وقواعده.

نشأة علم إدارة الأعمال وتطوره وأهميته

يعد علم إدارة الأعمال من العلوم الحديثة النشأة في مجال الإدارة والاقتصاد. ولكن مفهوم الإدارة قديم تاريخياً، فهو يستند أساساً إلى سلطة الرؤساء وخضوع المرؤوسين لهم. وقد طَبَّقت مؤسسات ضخمة عريقة الأصول مفهوم الإدارة في تنظيماتها من أجل تنسيق العمل في دوائرها. ويأتي تنظيم الدولة والقوات المسلحة والتنظيم الكنسي في مقدمة هذه المؤسسات. وكان النظام الإقطاعي منذ العصور القديمة يقوم على التنظيم المتسلسل (الخطي)، ويمكن القول إن تنظيم أكثر المشاريع الصناعية التي قامت قبل القرن العشرين كان من هذا القبيل. فمالك العمل هو مديره ومدبره، وقد تبلغ سلطاته مبلغ حق الملوك المقدس، وهو صاحب الأمر والنهي في مشروعه، وقد يتخطى بأوامره مراتب جميع موظفيه سواء كانت أوامره صحيحة أم غير صحيحة. وقد يستعين هذا المالك ببعض أفراد أسرته أو أقاربه في إدارة منشآته إذا تجاوزت في حجمها حدود طاقته. وكانت كل القرارات الإدارية وتنظيمات العمل تقوم على أساس الخبرة الشخصية والتجربة والحدس. وقد أدت الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر إلى نمو حجم الاستثمارات الصناعية الفردية والشركات الصغيرة وإلى مضاعفة رأس المال الضروري لتمويلها، وفرضت مكننة الصناعة ازدياد الطلب على الأموال إلى درجة لم يعد في وسع المصادر المالية للأفراد والأسر توفيرها بالغاً ما بلغ ثراؤها فكان أن عمدت المؤسسات الصناعية إلى بيع أنصبة من مشروعاتها إلى الجمهور في صورة أسهم. وأقرب الأمثلة إلى الذهن في هذا المجال تلك الامبراطوريات الصناعية التي أقامها رجال من مثل هنري فورد أو أندرو كارنيجي أو جون روكفلر. إلا أنه في سياق التطور التاريخي للنظام الرأسمالي، ومع اتساع الملكية العامة للمؤسسات والمشاريع الصناعية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تحولت هذه المؤسسات من الملكية الفردية إلى ملكية جماعية يستحيل - عملياً - إدارتها من مالكيها، وصار التقليد المتبع هو إدارتها عن طريق مجلس إدارة ينتخبه أصحاب الأسهم.

وهكذا غدت الإدارة مهنة مستقلة، وصارت الحاجة ماسة إلى وجود مديرين متفرغين يسيّرون العمل ويوجهونه، كما ظهرت الحاجة إلى وجود بنية هيكلية يعتمد عليها المديرون في عملهم الإداري. ويؤلف المديرون التنفيذيون والموظفون الكبار في المؤسسات الضخمة ما يعرف اليوم باسم «الإدارة العليا» ويليهم في المرتبة جماعة الموظفين والإداريين التنفيذيين التي تؤلف ما يمكن أن يطلق عليه اسم «الإدارة المتوسطة» وهي التي تقع عليها مهمة تنفيذ سياسة الإدارة العليا وقراراتها وتوجيهاتها، ويأتي في المرتبة الثالثة فئة هي أقرب إلى الإنتاج الفعلي من سابقتيها، وتضم المشرفين supervisers، ورؤساء المشاغل (الورشات) foremen ورؤساء وحدات العمل، وهم الذين يتولون الإشراف المباشر على سير العمل وتنفيذ جدول الأعمال اليومي المقرر. ولما كانت الإدارة في المؤسسات الكبيرة تضم أفراداً كثيرين ومن مستويات مسؤولية مختلفة فقد وجب على المدير أن يثبت جدارته وكفايته في عمله، وكان ذلك من دواعي الاهتمام بالطرائق العلمية التي يمكن أن تبيّن مدى نجاح المدير أو إخفاقه. وقد تمخضت جهود الكثير من المديرين المبدعين ورواد حركة الإدارة العلمية عن ولادة علم جديد هو علم إدارة الأعمال وتعود بدايات هذا العلم إلى أواخر القرن التاسع عشر، وهو يعد علماً أمريكي النشأة، لأن أكثر مدارسه ومذاهبه وبحوثه التطبيقية ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية، وطورت على يد علماء ورجال أعمال أمريكيين. ولم يكن فريدريك وينسلو تايلور [ر] Frederic Winslow Taylor أول من دعا إلى تطبيق الطرائق العلمية في الإدارة، إلا أنه، لاشك، ترك أعظم الأثر في هذا الميدان.

كذلك أسهم فرانك جيلبرت Frank Gilbert في ميدان الإدارة العلمية في دراساته حول الزمن والحافز time - and - motion التي سعى فيها إلى بيان الطرائق المثلى لبلوغ الفاعلية القصوى في كل عمل صناعي. ومع أن الخبراء والمهندسين الصناعيين يستطيعون تحسين الإنتاج في أية شركة أو مؤسسة، إلا أن المدراء هم أفضل من يحدد الطرائق الناجعة لتنسيق العمل في المؤسسات الضخمة.

يرتكز علم إدارة الأعمال اليوم على قواعد ونظريات ومبادىء خاصة به. وما زال بعض هذه القواعد والنظريات موضع جدل بين عدة اتجاهات لم تتوصل بعد إلى رأي واحد حول مفهوم الإدارة بالمعنى العلمي - التقني الموائم للتطور المعاصر. ويسعى علم الإدارة في الوقت الراهن إلى التوفيق بين القيم الإنسانية ومتطلبات التطور التقني، وتحليل سلوك العوامل المؤثرة في الإنتاج والبيئة الداخلية للتنظيم، والتحكم بذلك السلوك في إطار العلاقة التي تربط تلك البيئة بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتقنية في العالم الخارجي.

ومع ضخامة الإنجازات العلمية والنفسية والاجتماعية والمعلوماتية التي حققتها مدارس الفكر الإداري من أجل تهيئة السبل لممارسة التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة على مستوى المشروع أو التنظيم، فإن علم إدارة الأعمال ما زال يسعى إلى طرح نظرية يمكن أن تطبق على كل الوظائف الإدارية في مختلف مستوياتها وفي جميع أنواع المشروعات والتنظيمات.

ورجال الإدارة من أكثر أفراد المجتمع دخلاً، فهم يتلقون أجوراً مرتفعة نسبياً وقد يمنحون حصصاً أو أسهماً في الشركات التي يديرونها. وقد يحتل الموهوبون منهم مكانة مرموقة خارج عالم الأعمال، وربما اختيروا لشغل مناصب مهمة في الحكومة، وهذا ما يدفعهم إلى اكتساب مهارات سياسية ودبلوماسية كي يظلوا فاعلين في مناصبهم، والإدارة ليست قاصرة على مجتمع الاستثمارات الرأسمالي أو البرجوازي، فهي ضرورية كذلك في المجتمعات الاشتراكية والشيوعية. لأن من يدير معملاً في دولة اشتراكية سيواجه مشكلات كثيرة لاتختلف عن تلك التي يصادفها مدير في دولة رأسمالية، ومع أنه قد لايحقق أرباحاً بالمفهوم الرأسمالي ليحتفظ بوظيفته فإن من واجبه أن ينسق بين

مصادره المختلفة ليقدم إنتاجاً أو خدمة مقررة، ويتم تقويم عمله ومدى نجاحه فيه على أساس الزمن والوسائل والمواد التي يحتاج إليها للوصول إلى النتيجة المرجوة. ولما كان عمله ضرورياً على هذا النحو فهو يحصل على مكافأة عن هذا العمل في صورة أجر أو ميزات اجتماعية.

تنظيم الإدارة

يمكن أن تفوِّض إدارة الشركة صلاحياتها بالتسلسل الخطي أو الشاقولي من الأعلى إلى الأدنى على غرار التنظيم العسكري. فتتسلسل صلاحيات المديرين من رئيس الشركة إلى كبار الإداريين التنفيذيين فرؤساء المصانع فرؤساء الأقسام فرؤساء المشاغل فالعمال. وهذا الأسلوب الخطي في التنظيم مباشر ومرن في المؤسسات الصغيرة، ولكنه قد يغدو صلباً جامداً في المؤسسات والشركات الكبيرة الضخمة. فإما أن تتركز الصلاحيات في القمة، أو أن تفوّض صلاحيات كثيرة إلى المنفذين الأدنى رتبة، فتصبح سلطة المنفذ غير منازع فيها، وقد يتدخل في كل واقعة عمل، وفي ذلك خطر كبير على سير الإنتاج في الشركة. وقد دل التنظيم الخطي على ضعفه في الأعمال العصرية الحديثة المعقدة تقنياً.

وثمة أسلوب آخر في الإدارة يقوم على مبدأ التخصص الوظيفي. في هذا النوع من التنظيم يُلزم كل مدير تنفيذي إدارة عمل محدد يكون قد مهر فيه. فيختص أحد المديرين بتدريب العمال، ويختص آخر بالإشراف على الإنتاج، وثالث بالتفتيش أو بصيانة الآلات والمكنات إلى آخر ما هنالك. وقد وجدت بعض الشركات أن هذا التخصص الوظيفي في الإدارة يُحسِّن سير كل عملية صناعية منفصلة، ولكن قد ينتج عنه تفاقم خلط الصلاحيات، فبدلاً من أن يقسم مئة عامل إلى عشر مجموعات يشرف على كل منها مشرف واحد، يكون للمئة عشرة مشرفين، وقد تضيع حدود المسؤولية هنا وتتشابك خطوط الاتصال إلى درجة خطيرة.

أما الأسلوب الثالث في الإدارة فمختلط يجمع بين التسلسل الخطي والتخصص الوظيفي، وهو الصيغة الأكثر مرونة لأي تنظيم حتى في القوات المسلحة، ويجمع بين محسنات الأسلوبين السابقين. ففي هذه الحالة ثمة رئيس واحد يعطي الأوامر لمجموعة عمال، وهو الذي يحدد عمل كل فرد منهم، ويتحمل مسؤولية أعمالهم أما بقية الرؤساء والمديرين التنفيذيين فليس لهم علاقة مباشرة مع العمال ويكون اتصالهم بهم عن طريق رئيسهم.

إن تطبيق هذا الأسلوب في الإدارة واضح في المخطط التنظيمي لمعمل بسيط. حيث توجد مختلف الوظائف والمهمات التي تعنى بها الإدارة. إذ من المتفق عليه أن للمعمل وظيفة تصنيعية -إنتاجية، ووظيفة بيع، ووظيفة شراء، وهي كلها وظائف أساسية لكي يكون المعمل منتجاً ويبيع إنتاجه. ولكن الصناعة الحديثة لايمكن أن تقوم لها قائمة إذا لم تعترف بوظائف أخرى مساعدة وضرورية كالتصميم والدراسات وحفظ الوثائق وإدارة الأفراد. فلا بد من أن يصمم الإنتاج على نحو يلبي حاجة المستهلك. ولابد أن يتبنى المعمل كل الوسائل الفعالة لإنتاج سلعته، وهذا ما يفرض وجود سجلات تبين التكاليف واتجاهات البيع والإيرادات والنفقات وغيرها، كما يفترض وجود إدارة تتولى حل قضايا العاملين وتعاملهم مع نقابات العمل، وتمسك سجلاتهم وتخطط لتقاعدهم وتأميناتهم. وهذه الوظائف جميعها تدخل في نطاق الوظائف المساعدة، ويمكن للإدارة أن تُنْظِم هذه الوظائف في مخططها في فروع أو مكاتب أو أقسام أو مديريات، وقد يغدو ذلك المخطط كثير التعقيد في الشركات الكبيرة الكثيرة الفروع في طول البلاد وعرضها أو في الشركات الدولية المتعددة الجنسيات، والتي قد تضم مجموعة شركات لكل منها خطها وأطرها cadre.

وإضافة إلى الفروع والمديريات النظامية قد تؤلف في المؤسسة لجان خاصة للقيام بأعباء محددة، وقد تكون هذه اللجان دائمة أو مؤقتة تنتهي مهمتها بانقضاء عملها، ويرى بعض رجال الإدارة ومنظريها أن مثل هذه اللجان، ولاسيما الدائمة منها، قد تشغل المنفذين عن أعمالهم الجارية، وينصحون بالاستغناء عنها، وحجتهم في ذلك أنه إذا كان تنظيم المؤسسة جيداً وإدارتها فاعلة، فإنها تستطيع معالجة كل المشكلات الطارئة بأسلوب مدروس. وقد رافق نمو المؤسسات وتضخمها تفاقم مشكلة المركزية في الإدارة أو لا مركزيتها، فإن كانت الإدارة شديدة المركزية يتجه الميل إلى حصر كل القرارات بالإدارة العليا، ويجب على كل منفذ أن يمرر المشكلة الطارئة إلى المستوى الأعلى، بدلاً من أن يسعى إلى حلها. حتى تبلغ النقطة التي تقف عندها. ويجب، في هذه الحالة، على المستوى الأعلى أن يطلع على أمور هو خالي الذهن منها، وقد يعمد إلى جمع مجموعة من المستشارين والخبراء حوله يساعدونه في عمل كان يمكن أن ينفذ في مستواه الأصلي على أفضل وجه ممكن، كما أن العبء الذي يلقى على عاتق الإدارة العليا يغدو في هذه الحالة ثقيلاً جداً ولو بمساعدة الحاسوب والدارة التلفزيونية المغلقة وغيرها من وسائل الاتصال الداخلي. وتجنباً لمثل هذه المواقف قد تلجأ بعض المؤسسات الضخمة إلى تجزئة أنشطتها اختيارياً إلى وحدات عمل صغيرة نسبياً لتتيح لمديريها أكبر قدر من الفاعلية في صنع القرارات، ولكي توجد جواً من التنافس داخل فريق الإدارة ليكون لكل منهم نصيبه من المسؤولية وحصته من الأرباح والخسائر، ويدرك كل واحد منهم ما هي حقوقه وواجباته. ولكن قد يكون لهذه اللامركزية مثالبها أيضاً، وهي على كل حال ليست الأسلوب الأمثل، وإن مصطلحي المركزية واللامركزية ليسا مطلقين، فلا توجد مؤسسة أو تنظيم ذو شأن فيه مركزية تامة أو لامركزية تامة.

أدوات الإدارة

إن اختيار العاملين في الإدارة من أكثر الأمور حيوية لأية مؤسسة أو تنظيم، وتحدد كل وظيفة في المؤسسات الحديثة بشروط المهام المنوطة بها وعلاقتها بالتنظيم كله. ويتم اختيار الأفراد لشغل هذه الوظيفة أو تلك على أساس المؤهل والخبرة. ولكن ذلك غير كاف لشغل الوظائف المهمة، إذ لابد من تحري بعض العوامل الأخرى التي تساعد المدير التنفيذي على حسن العمل كاستعداده للتعاون مع الآخرين وسرعة تواؤمه مع العمل ومقدرته وحسن قيادته وتعامله مع الوسط الخارجي. ويواجه المرشحون لشغل مناصب الإدارة جملة من الاختبارات النفسية والعقلية، ولكن التوظيف على هذا الأساس قد يأتي بنتائج مخيبة في كثير من الأحيان، ويرى رجال الإدارة أن تستخدم هذه الاختبارات بحكمة وترو، ولايمكن الحكم على نجاح الموظف الإداري الجديد في عمله إلا بمضي بعض الوقت، وبعد أن يجتاز بنجاح سلسلة من المواقف التي تعترض سبيله.

وثمة كثير من المديرين يستندون في صنع القرار إلى إحساسهم الشخصي من دون الرجوع

إلى ما يعرف بالطرائق العلمية، ومع ما في ذلك من خطر وخطأ، فإن الواقع يدل على ما للخبرة من أهمية في نجاح كل عمل، ومن أولى مهمات الإدارة إتاحة السبل أمام مديريها التنفيذيين المستقلين لاكتساب أكبر قدر من الخبرة كلما صعدوا سلم الإدارة.

وقد يدخل في نطاق الخبرة الإدارية استخدام الحاسوب أو بعض الأجهزة المكتبية المؤتمتة، ويمكن أن يخضع العمل في بعض مجالات الإدارة للقياس والمنطق العلمي. كأن يتم جمع المعطيات وتغذية الحاسوب بها بتطبيق تقنيات البرمجة الخطية أو البحث العلمي أو باستخدام الطرائق الرياضية والإحصاء من أجل تحقيق أحسن النتائج في أقصر وقت، ولاسيما في مجال حساب التكلفة أو التخطيط أو إعداد جدول الإنتاج وتتبّع نتائجه واستخدام وسائل النقل وغيرها.

وقد تفيد برامج التدريب المخططة في تحسين أساليب الإدارة وإكساب المديرين الخبرة اللازمة، وتطبق في المؤسسات والشركات الكبيرة أساليب تدريب تكاد تقارب ما هو متبع في المستويات العليا من القوات المسلحة، كالمشاريع ولُعب الحرب، فيقسم رجال الإدارة إلى مجموعات يتولى كل فريق منهم تمثيل شؤون إحدى الشركات المزاحمة في السوق، ويتبارى الجميع في مدى يوم أو يومي عمل لتحقيق أفضل النتائج المحتملة للشركة التي يمثلها عن طريق اتخاذ القرارات وتحديد الأسعار ووضع خطط التسويق والإنتاج والتطوير المحتملة بناء على حاجة السوق وردود فعل الفرق الأخرى مع الاستعانة بالحاسوب والتقنيات المتوافرة.

ومهما توافر لصانع القرار من أدوات علمية ورياضية فإن القرار الصحيح الذي يتخذه مرهون بقدرته على المحاكمة الصحيحة، ولاسيما ما يتعلق بالأعمال الصناعية المستقرة والقائمة على أسس ثابتة والتي تتطلب زمناً كي تعطي مردودها كاملاً. وقد يكون هذا الزمن نصف سنة أو سنة أو خمس سنوات أو أكثر، ولاسيما المشروعات الكبيرة القائمة على أدوات باهظة التكاليف. فهنا تغدو المحاكمة والإحساس الداخلي مطلوبين لمناقشة المعطيات التي يقدمها الحساب العلمي، كحساب التكلفة مثلاً. لأن هذا الحساب لايمكن أن يكون مقيداً بضوابط ثابتة، وإذا كان الأمر كذلك فإن كل الحسابات التي تتعلق به تبقى قابلة للمناقشة. ولايمكن في الواقع تقديم معطيات قريبة من الدقة إلا في ضوء المحاكمة المنطقية للحالة المطلوبة، وتزداد المعطيات غير المؤكدة بسبب نقص المعلومات المتوافرة عن اختيارات المستقبل. وهي تؤثر في قرارات المديرين في المؤسسة وفي المؤسسات المنافسة. والإدارة الناجحة هي التي تستفيد من أكثر الأساليب الرياضية ومن الخبرة ومن حسن محاكمة رجال الإدارة فيها.

الإدارة في البلدان الاشتراكية

كان الاتحاد السوفييتي قبل زواله يدعو إلى تبني النظام الاشتراكي في العالم منذ عام ١٩١٧، وقد طبق الاتحاد مبدأ تسييس الإدارة في المؤسسات الاشتراكية ضماناً لولاء جهاز الإدارة وتوجيهه نحو تحقيق أهداف الدولة في مجال الدفاع والتنمية. وسارت على منهج الاتحاد السوفييتي، مع بعض الاختلاف في التطبيق، دول كثيرة تبنت النظام الاشتراكي أساساً لبناء مؤسساتها واقتصادها. واستند هذا النظام عموماً إلى مبدأ مركزية التخطيط والرقابة على تنفيذ الخطة العامة المقررة لكل مؤسسة، ومبدأ نظام الأجور والحوافز على أساس القاعدة «من كل بحسب طاقته ولكل بحسب عمله» وقد أدخلت تعديلات كثيرة على خطط العمل المبنية على المبادىء السابقة في كل دولة من دول المنظومة الاشتراكية بحسب الظروف التي أحاطت بها. فتبنى الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٦٥ ـ على سبيل المثال ـ تعديلاً في أسلوب إعداد الخطة العامة للدولة، يبدأ بموجبه التخطيط من القاعدة ومن مستوى الوحدة الاقتصادية، في إطار علاقة مباشرة بين الأهداف المحددة للمؤسسة وأولويات الخطة «القطاعية» وأهداف التنمية الشاملة للاقتصاد الوطني. وأعطيت الإدارة التنفيذية في المؤسسات الاشتراكية حرية أكبر، كذلك دار حوار مكثف في الاتحاد السوفييتي، قبل انهياره، لتعزيز مسؤولية الإدارة والمؤسسة كلها عن نتائج تنفيذ الخطة المقررة لها على أساس تعزيز ديمقراطية الإدارة وزيادة استقلالها الإداري والمالي. واتخذت إجراءات واسعة في إطار سياسة إعادة البناء (البيريسترويكا) من أجل التحول إلى اقتصاد السوق، وأدى ذلك إلى إحداث تبدل كبير في أساليب إدارة المؤسسات الاقتصادية في جمهورية روسية الاتحادية التي ورثت الاتحاد السوفييتي.

الإدارة في الجمهورية العربية السورية

ظلت الإدارة العامة في الجمهورية العربية السورية، حتى عام ١٩٦٣ ترتكز في مفهومها وفلسفتها الحقوقية والإدارية على المنطلقات الفرنسية التي كانت غالبة زمن الانتداب الفرنسي على سورية. ومنذ العام ١٩٦٣ أخضعت الإدارة العامة في سورية للقيم والأهداف التي تبناها حزب البعث العربي الاشتراكي. وبعد أن أممت شركات كثيرة كان يملكها القطاع الخاص في عامي ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ أدخل تعديل على الهيكل التنظيمي للقطاع العام، وأحدثت الهيئة العامة للقطاع الصناعي التي كلفت الإشراف على الشركات الصناعية المؤممة، وقد افترض أن يطبق في هذه الشركات مفهوم التسيير الذاتي [ر]، ولاسيما ما يتعلق بإحداث مجلس عمالي يمارس مهمات السلطة العليا في المؤسسة المؤممة. وفي عام ١٩٦٧ صدر مرسوم جمهوري قضى بإنشاء اتحادات صناعية نوعية تحل محل الهيئة العامة للقطاع الصناعي، وتقرر إحداث لجان إدارية تتولى السلطة العليا في إدارة الشركات التي يملكها القطاع العام. وصدرت بعد ذلك مراسيم تشريعية تنظم عمل المؤسسات والشركات العامة والمنشآت الاقتصادية وتحدد سلطات الإدارة العليا والإدارة التنفيذية ومسؤولياتها ومهمات مجالس الإدارة واللجان الإدارية، ومهمات المدير العام وصلاحياته، وهو الذي يحتل قمة الهرم في الإدارة التنفيذية. كما راعت هذه المراسيم تعميق جذور الديمقراطية في إدارة القطاع العام بتحديد صلاحيات أعضاء المجالس الإنتاجية في المؤسسات والشركات العامة، وتطبيق نظام الحوافز من أجل تحسين الأحوال المعيشية للعاملين في القطاع العام. ومع كل ما بذل من أجل رفع مستوى الإدارة في القطاع العام في الجمهورية العربية السورية ما تزال الحاجة ماسة إلى تطوير الأساليب العلمية وتقنيات الإدارة في هذا القطاع.

محمد وليد الجلاد

الموضوعات ذات الصلة:

إدارة الأفراد ـ الإدارة العامة ـ إدارة المشروع ـ تايلور فريدريك (ونسلو ـ) ـ اللامركزية.

■ إدارة الأفراد

تعد إدارة الأفراد gestion du personnel بوصفها أحد ميادين إدارة الأعمال [ر] الرئيسة، علماً حديث العهد نسبياً. ويكاد نشوء هذا العلم يقترن بنشوء حركة الإدارة العلمية التي تزعمها فريدريك تايلور في مطلع القرن العشرين في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان للنتائج التي توصل إليها تايلور حول استخدام مقاييس الحركة والزمن أداةً رئيسة في زيادة الإنتاج وأسلوباً يحقق العدالة في احتساب أجور العاملين، أهمية كبرى في اعتمادها من رجال الأعمال عامة، والإدارة الصناعية بوجه خاص، لتحسين مستوى الأداء وتخفيض تكاليف الإنتاج وزيادة ريعية المشروعات. إلا أن حركة الإدارة العلمية لم تستطع أن تقرن نتائج دراساتها بالاهتمام اللازم بالجانب الإنساني بوصفه أحد العوامل الأساسية لزيادة مستوى الإنتاج وتحسين نوعيته لأنها ارتكزت على ركائز مادية بحتة.

ومع ذلك، فقد كان للإدارة العلمية فضل كبير في إيقاظ دوافع الشعور بأهمية الإنسان، ودراسة أحاسيسه، وتعرف محددات سلوكه في الأداء، والعناية به بوصفه أساس أي نهوض أو تقدم. وفي الوقت نفسه، بدأ الاهتمام بالبحوث العلمية المتعلقة بالنشاط الإنساني يتزايد ولا سيما في مجال علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والعلاقات الإنسانية وقواعد السلوك البشري، في الوقت الذي اشتد فيه ساعد النقابات العمالية في أمريكة وأوربة مطالبة بتحديد علاقات العمل وتحسين ظروف أدائه، مما أدى إلى تطور مفهوم إدارة الأعمال بصفة عامة، وتطور الجانب الذي يعنى بشؤون الأفراد العاملين منها بصفة خاصة، وكذلك زيادة المهام والمسؤوليات الملقاة على عاتق إدارة الأفراد كي تتمكن من تكوين قوة عمل قادرة على الأداء بفاعلية أكبر وراغبة في هذا الأداء. ولقد عد ذلك إطاراً عاما وشاملاً للأهداف المتوخاة من إدارة الأفراد بقصد تحسين الإنتاجية بمؤشراتها الكمية والنوعية معاً.

ومن جهة أخرى، تعزز دور إدارة الأفراد وأهميتها بعد صدور التشريعات الحكومية الناظمة لعلاقات العمل والعاملين، وفرض استخدام بعض من مهماتها على مشروعات الأعمال، كتحديد نظم دفع الأجور وأساليبها، وأسس إجراءات التعيين والترفيع والتوصيف والتدريب، التي تعد بحق من أهم مسؤوليات إدارة الأفراد ومهامها.

وعلى هذا الأساس، فإن نشاط إدارة الأفراد يتجه نحو تحقيق الاستخدام الأمثل للقوى البشرية العاملة في المؤسسة وتنمية قدراتها ومهاراتها وحفزها في أداء أعمالها طواعية، كي يتسنى للطاقات الكامنة فيها الانطلاق من عقالها وتفجير مواهبها. وإذا كان بعضهم يحاول أن يعبر عن إدارة الأفراد بعبارات أخرى كإدارة القوى العاملة أو إدارة العلاقات الإنسانية أو الهندسة البشرية تمييزاً لها من أي نشاط إداري آخر يعنى بالشؤون المادية في المؤسسة، فيمكن تعريف إدارة الأفراد بأنها الجهاز التنظيمي الذي يمارس نشاطاً منظماً وهادفاً فيما يختص بشؤون الأفراد العاملين في المؤسسات ـ سواء أكانت اقتصادية أم غير اقتصادية، ويتجلى هذا النشاط المنظم في وضع البرامج والسياسات التي تحكم علاقات الأفراد فيما بينهم من ناحية أولى، وبينهم وبين الإدارة من ناحية ثانية، وفي تنفيذ هذه البرامج والخطط التي تهدف إلى استخدام الأفراد الاستخدام الأمثل والمحافظة عليهم قوة عمل قادرة على الأداء الجيد وراغبة في الاستمرار فيه.

وعلى أساس ذلك الهدف المتوخى من إدارة الأفراد والوسائل اللازمة لتحقيقه، يمكن القول إن مسؤوليات إدارة الأفراد لا تنحصر في جهاز تنظيمي معين، وإنما تتعداه لتصبح من مهام كل من تناط به المسؤولية عن عمل الآخرين سواء أكان مشرفاً على فئة صغيرة من العاملين أم رئيساً لقسم أم مديراً. وبهذا المعنى فإن نطاق إدارة الأفراد يتسع ليشمل وظيفة كل شخص ـ مهما كانت مرتبته ـ يشرف على عمل أفراد آخرين في المؤسسة بما يضمن توجيه أدائهم نحو زيادة الإنتاجية والوصول إلى علاقات عمل يغلب عليها الانسجام والتعاون بين قطبي المؤسسة: الإدارة والعاملين من دون أي تنافر أو تنازع. وفي ضوء هذا التصور ليس هناك حدود أو نطاق محدد يمكن للمرء أن يفصل فيه مهام إدارة الأفراد ومسؤولياتها عن بقية أنشطة الإدارة وفعالياتها. بل تعد مسؤولية كل من يقوم بالإشراف على عمل آخرين جزءاً في عملية إدارة الأفراد.

وإذا كان تحقيق الأهداف يتطلب وجود خطط وبرامج وسياسات محددة، فليس من الضروري أن يضمن وجود مثل هذه الخطط والبرامج الوصول إلى أهداف المؤسسة على النحو المرغوب فيه، بل لا بد من اتخاذ الإجراءات المناسبة لتنظيم عملية تنفيذ تلك الخطط والبرامج. وتتوقف عملية التنفيذ هذه على حصر أنواع الأعمال والوظائف المطلوب أداؤها وتحديدها وتصنيفها في مجموعات أو فئات متجانسة، ومن ثم توزيع الأفراد العاملين في المؤسسة عليها. أو بعبارة أخرى، يتوقف تحقق أهداف المؤسسة على مدى وجود تنظيم جيد يحدد موقع كل فئة أو مكانتها في أعمال المؤسسة (إدارة، قسم، شعبة وما شابه ذلك). ومن بين هذه الأعمال الوظائف الخاصة بشؤون الأفراد أو مايسمى «إدارة الأفراد».

ولتحديد مكانة إدارة الأفراد أو موقعها في تنظيم المؤسسة لا بد من تحديد أشكال البنية التنظيمية للمؤسسة ـ مهما كان حجم هذه المؤسسة ـ أي مايسمى بهيكلها التنظيمي. فمن المعروف، أن هناك مجموعة من المرتكزات يبنى على أساسها الهيكل التنظيمي للمؤسسة وتعد في الوقت نفسه محددات لخصائص ذلك الهيكل وسماته وهناك خمسة أشكال رئيسة للهيكل التنظيمي، هي:

ـ الهيكل التنظيمي المبني على أساس الأنشطة الرئيسة والثانوية والفرعية في المؤسسة.

ـ الهيكل التنظيمي المبني على أساس أنواع منتجات المؤسسة من السلع والخدمات المنتجة وأصنافها.

ـ الهيكل التنظيمي المبني على أساس مراحل العمل والإنتاج.

ـ الهيكل التنظيمي المبني على أساس الأقاليم الجغرافية (المركز والفروع).

ـ الهيكل التنظيمي المبني على أساس الفئات التي تتعامل معها المؤسسة أو المشروع.

وفي جميع الأحوال، تتوقف مكانة إدارة الأفراد وموقعها في البنية التنظيمية، على حجم المؤسسة وطبيعة أنشطتها ومدى تجهيزها الفني ومستوى التقانة المستخدمة فيها. فإذا كان شكل التنظيم مبنياً على أساس الأنشطة، فإن إدارة الأفراد تعد نشاطاً رئيساً، ويكون لها كيان مستقل، شأنها في ذلك شأن الإدارات الرئيسة الأخرى كإدارة الإنتاج وإدارة التسويق والمبيعات والإدارة المالية وغيرها. وإذا كانت المؤسسة موضوع البحث تملك فروعاً في مناطق وأقاليم

جغرافية متعددة، فإن «إدارة الأفراد» التي توجد في المركز تكون هي المسؤولة عن وضع البرامج ورسم السياسات الخاصة بشؤون العاملين في المركز وفي الفروع على حد سواء.

وفي حال بناء التنظيم العام للمؤسسة على أساس أنواع المنتجات وأصنافها يكون لإدارة الأفراد مكانة رئيسة وتتبع لها وحدات فرعية تختص كل واحدة منها بتنفيذ سياسات إدارة الأفراد الرئيسة وبرامجها فيما يتصل بنوع المنتج أو صنفه. ويحكم بين هذه الوحدات أو بينها وبين الإدارة الرئيسة نظام من علاقات التعاون وقواعد التنسيق. كذلك يطبق هذا النوع من التنظيم في حال كون الهيكل التنظيمي للمؤسسة مبنياً على أساس مراحل الإنتاج، أو على أساس فئات المتعاملين مع المؤسسة، إذ يكون لكل فئة من هؤلاء المتعاملين (أو مجموعة فئات متماثلة) وحدة إدارية (قسم أو شعبة..) تتبع الإدارة المركزية التي تعنى بشؤون الأفراد عامة. كما هو الحال - على سبيل المثال - في شركات التأمين الكبيرة، حيث توجد وحدة إدارية لشؤون العاملين في كل إدارة متخصصة بفئة من المتعاملين معها كإدارة التأمين على الحياة أو على النقل والتأمين من الأخطار أو الحريق أو إعادة التأمين وسواها.

وبذلك فإن مكانة إدارة الأفراد تظهر مع ظهور البنية التنظيمية للمؤسسة، وتتطور وتتسع في أداء مهامها ووظائفها تبعاً لتطور النشاط فيها، ولكن مما يميز إدارة الأفراد من غيرها من الإدارات الأخرى انتشار مهامها ومسؤولياتها لتشمل الإدارات الأخرى في المؤسسة مادامت تختص في تعاملها مع الإنسان. فإذا كانت مهام إدارة التسويق مثلاً تقتصر على دراسة الأسواق وحجم الطلب المستقبلي وسبر حاجات المستهلكين وأذواقهم، أو إذا كانت إدارة الإنتاج مسؤولة عن هندسة المنتجات وإنتاج الكميات اللازمة بالمواصفات المحددة وفقاً لحاجات المستهلكين وأذواقهم، فإن مهام إدارة الأفراد واختصاصاتها تتسع لتشمل كل الإدارات الأخرى وليس الإدارتين المذكورتين في المثال فحسب.

وبغض النظر عن فلسفة الإدارة في اختيارها النموذج التنظيمي الذي تراه أكثر ملاءمة لأداء فعالياتها، فإن الشيء الذي يجب أن يؤخذ في الحسبان هو بناء تنظيم يحقق لها الوصول إلى أهدافها على أفضل وجه ممكن، أي الوصول إلى أفضل النتائج بأقل مايمكن من الجهد والتكلفة، إن الوصول إلى مثل هذا المستوى من التنظيم يتطلب توافر شروط أربعة هي:

- ضمان وجود نوع من التنسيق في اتخاذ القرارات بين إدارة الأفراد من جهة وإدارات المؤسسة الأخرى من جهة ثانية، على نحو يحقق مبدأ المواءمة والانسجام والكفاية في أداء الأعمال من دون أية حساسية أو ازدواجية في الأداء.

فالتنظيم الجيد هو ذلك الذي يؤدي إلى إقامة صلات تعاون بين جميع وحدات الهيكل التنظيمي في المؤسسة على نحو يقضي على جميع أسباب التنازع في أداء الاختصاصات ويبين بوضوح حدود المسؤوليات بين جميع المشرفين والرؤساء في الإدارات المختلفة وبين العاملين في إدارة الأفراد.

- التوافق بين المبادئ التنظيمية المعتمدة في المؤسسة وقدرات العاملين في إدارة الأفراد ذاتها وخبراتهم.

- التوافق بين النفقات المترتبة على أداء أية وظيفة في إدارة الأفراد ومقدار المنفعة التي تعطيها تلك الوظيفة أو المتوقع الحصول عليها مستقبلاً.

- القدرة على التكيف والمرونة في بنية إدارة الأفراد في التعامل مع المتغيرات الفنية والاقتصادية والاجتماعية في المؤسسة نفسها وفي البيئة التي تعمل في نطاقها.

وبصفة عامة إما أن يأخذ شكل التنظيم في إدارة الأفراد طابع المركزية أو اللامركزية.

ويقصد بمركزية التنظيم في هذا المجال ممارسة إدارة الأفراد لوظائف الإدارة التقليدية من تخطيط وتنظيم ورقابة وذلك في المجالات المتعلقة بشؤون الأفراد وتوجيه جميع وحدات إدارة الأفراد سواء في المركز أم في الفروع لتنفيذ البرامج والسياسات المعتمدة من قبلها ولا سيما بالاختيار والتعيين والتدريب والأجور والتوصيف وتقويم الأداء، والتحقق من تنفيذ تلك السياسات والبرامج من قبل الوحدات الأخرى.

أما اللامركزية في التنظيم فتعني إعطاء وحدات (أو فروع) إدارة الأفراد الصلاحيات اللازمة في وضع البرامج والسياسات بما يتفق مع ما تراه مناسباً في نطاق عملها، شرط أن يخدم ذلك الهدف العام لإدارة الأفراد وهو إيجاد قوة عمل قادرة على أداء عملها. كما تكون تلك الوحدات مسؤولة عن نتائج تنفيذ سياساتها.

والتنظيم الأكثر فاعلية هو ذلك الذي يجمع بين مزايا المركزية واللامركزية في أداء مهام إدارة الأفراد على أفضل نحو ممكن.

مهام إدارة الأفراد

تسهم إدارة الأفراد بدور أساسي في تحقيق أهداف المؤسسة عن طريق توفير احتياجاتها من القوى العاملة وضمان استخدام هذه القوى الاستخدام الأمثل، والمحافظة على استمرارها في العمل مدفوعة برغبة ذاتية. وعلى هذا الأساس تبذل إدارة الأفراد جهداً منظماً وواعياً وموجهاً نحو تحقيق الأهداف العامة للمؤسسة وأهدافها الخاصة بها باستخدام مواردها البشرية المتاحة. وبعبارة أخرى، يتجه نشاط إدارة الأفراد نحو تكوين قوة عمل قادرة على الأداء وراغبة فيه، وغايتها رفع مستوى الكفاية الإنتاجية للمؤسسة بحسن استخدامها للعنصر البشري فيها.

تُعنى إدارة الأفراد، قبل كل شيء بالإنسان بوصفه الوسيلة والغاية معاً. فهو وسيلة لأنه يمتلك طاقات وقدرات عضلية وعقلية عظيمة الفائدة إذا أمكن ضبطها وتوجيه استخدامها نحو الاتجاه المطلوب طواعية واختياراً، وهو غاية لأنه لا يمكن أن يعد مصدر قوة عمل مجردة، وإنما ينظر إليه على أنه مخلوق بشري له مشاعره وأحاسيسه وآماله ويبذل جهداً مبدعاً من أجل طموحاته وإشباع حاجاته الآنية والمستقبلية الظاهرة منها والمستترة.

وبذلك يمكن القول إن مهام إدارة الأفراد كلها تنضوي في مجموعتين أساسيتين من الوظائف. تتعلق المجموعة الأولى بتكوين قوة عمل قادرة على الأداء بأعلى فاعلية، وتسمى هذه المجموعة من الوظائف بوظائف زيادة المقدرة على العمل. أما المجموعة الثانية من الوظائف فتتجه بنشاطها نحو تحقيق عنصر الرضا والرغبة في الأداء أو مايسمى بوظائف الرغبة في العمل.

ومن المعروف أن زيادة المقدرة على العمل لأي إنسان تتوقف على عدة عوامل منها ما هو وراثي كالقدرات الطبيعية، ومنها مايكتسب اكتساباً عن طريق التعلم والتدريب والمران. وبصفة عامة يمكن القول إن مهام اختيار العاملين

وتعيينهم وتدريبهم وتوصيف الوظائف وتقويمها وتهيئة ظروف العمل المناسبة هي من عداد وظائف زيادة المقدرة على العمل.

أما وظائف الرغبة في العمل فهي تلك الوظائف التي تكون مبنية على أساس دوافع الفرد والعوامل المؤثرة في هذه الدوافع والتي منها على سبيل المثال الوسائل الخاصة بإشباع الحاجات المادية والمعنوية. ومن هذه الوظائف سياسات الأجور والحوافز والأنماط المتبعة في القيادة والإشراف والاتصالات.

وفي الحقيقة من الصعب الفصل بين وظائف المجموعتين المذكورتين، ذلك لأن المجموعتين متداخلتان تؤثر كل منهما في الأخرى، فسياسات الأجور والحوافز وتهيئة ظروف العمل مثلاً عناصر أساسية في تحقيق درجة عالية من الرغبة والرضا، كما أنها في الوقت نفسه عوامل مساعدة في زيادة مقدرة الأفراد على العمل.

أما أهم المهام الملقاة على عاتق إدارة الأفراد فهي:

التخطيط للاحتياجات: وهو يشتمل على ثلاث مهمات رئيسية. ترتكز المهمة الأولى على جمع المعلومات والبيانات عن الوظائف والأعمال الحالية في المؤسسة وقوة العمل المتاحة فيها وتجهيزها لحصر الوظائف وتحديد اختصاصاتها وطبيعة مسؤولياتها والعلاقات القائمة فيما بينها وعدد شاغليها وصفاتهم من حيث قدراتهم ومؤهلاتهم ومستوى خبراتهم ومهاراتهم، ومدى توافق تلك الصفات مع متطلبات الوظائف والأعمال التي يؤدونها وشروطها، كما تهدف هذه العملية إلى تحديد اتجاهات حركة العاملين في السنوات الماضية ورصد حالات الفائض والعجز في العمالة وتتبعها واحتساب نسبة دوران العمل على أساسها.

وأما المهمة الثانية فهي توصيف الأعمال والوظائف في المؤسسة، ويعد هذا التوصيف من أهم مسؤوليات إدارة الأفراد. ويتلخص في جمع الحقائق والمعلومات اللازمة عن المهام والواجبات التي يجب أن تؤديها كل وظيفة (عمل)، وتحديد سلطتها ومسؤوليتها، والطريقة التي يجب أن تؤدى بها، وموقعها في الهيكل التنظيمي، وعلاقتها بالوظائف الأخرى، والظروف التي تؤدى فيها، ووسائل الأداء المستخدمة، والمواصفات والخصائص التي يجب أن تتوافر في شاغلها أو شاغليها إذا كان أداؤها يتطلب استخدام أكثر من شخص واحد، ثم صوغ هذه الحقائق في نموذج معين يمكن منه تحديد معالم الوظيفة على النحو الذي يمكن إدارة الأفراد من الاستفادة منه في جميع المجالات المتعلقة بشؤون الأفراد.

وأما المهمة الثالثة فهي تحديد احتياجات المؤسسة من الوظائف والأفراد وعددها ويتم إجراء هذه العملية في ضوء النتائج التي يتم التوصل إليها من جراء القيام بالمهمتين السابقتين، وعلى أساس التغيرات الحاصلة أو المتوقعة في حجم النشاط والمستوى الفني والتقني في المؤسسة، والظروف القانونية والسياسية والاجتماعية في البيئة التي تعمل فيها، ولاسيما الظروف المؤثرة تأثيراً مباشراً أو غير مباشر في عبء العمل وقوته.

وعلى هذا النحو يتم تحديد الوظائف والأعمال اللازمة لأداء أنشطة المؤسسة وتحديد مضمونها وعدد الأفراد اللازمين للقيام بها استناداً إلى الخطط والبرامج المستقبلية.

الاختيار والتعين: تهدف هذه المهمة إلى توفير نوع من التوافق والانسجام بين متطلبات العمل وشروطه من جهة، وبين مواصفات الفرد وخصائصه بما يمتلك من قدرات ومهارات ومؤهلات وما شابه ذلك من جهة أخرى. وإذا كان الاختيار يحقق مثل هذا الأمر فإن التعيين يأتي ليتمم عملية الاختيار في توفير التوافق بين متطلبات الوظيفة والخصائص الشخصية للفرد، ومن ثم توجيه هذا الفرد - بعد تسلمه العمل - وفقاً للأنظمة والقواعد المعمول بها في المؤسسة والقوانين النافذة فيها.

التدريب والتنمية الإدارية: ينحصر دور إدارة الأفراد في مجال التدريب والتنمية الإدارية بتحديد الاحتياجات التدريبية لجميع الأفراد العاملين في المؤسسة ومن ثم وضع البرامج اللازمة من أجل تلبية هذه الاحتياجات وتقويم النتائج النهائية لتلك البرامج. إذ لا يمكن أن يعد اختيار الأفراد وتعيينهم نهاية المطاف لإدارة الأفراد. وإنما يجب متابعة إعداد هؤلاء الأفراد وتوجيه قدراتهم ومهاراتهم وتنميتها بصورة مستمرة ومبرمجة بما ينسجم مع أية تطورات فنية وتقنية. وتشمل عملية التدريب والتنمية تعريف العاملين القوانين والأنظمة والتعليمات، وتزويدهم بالمعارف اللازمة وأساليب العمل الجديدة، وكذلك تطوير مهاراتهم الإدارية لتمكين الأفراد المشرفين على وظائف الإدارة الأساسية من اتخاذ القرارات المناسبة في الأوقات المناسبة.

تقويم الوظائف والأعمال: ويقصد بهذه المهمة تحديد قيمة كل عمل أو وظيفة قياساً إلى قيم الوظائف الأخرى في المؤسسة الواحدة. والتقويم عملية منظمة تقوم بها إدارة الأفراد وتختص بموضوع الوظيفة، وذلك بوضعها في مستوى مادي معين من دون التعرض لشاغلها. أو بعبارة أخرى يهدف التقويم إلى تقدير قيمة الوظيفة في ضوء أوصافها ومتطلباتها وظروف تأديتها مقارنة بالوظائف الأخرى، ومن ثم ترتيب الوظائف من أجل وضعها في مكانها المناسب في سلم الوظائف الذي يحدد أولويات وظائف المؤسسة من حيث توافر عوامل التقويم الرئيسة فيها ودرجتها ومداها. ولا يرتبط التقويم مباشرة بأجر الوظيفة بل يعد وسيلة لوضع نظام عادل للأجور يزيل كل أسباب الشكوى والتذمر وعدم الرضا.

وتقوم إدارة الأفراد اعتماداً على عوامل التقويم المذكورة سابقاً وعلى أجزائها الفرعية أيضاً بإجراءات التقويم بإحدى الطرائق الوصفية كطريقة الترتيب وطريقة الدرجات أو بإحدى الطرائق الكمية كطريقة مقارنة العوامل أو طريقة النقط.

تخطيط سياسات الأجور والحوافز: يحتل موضوع الأجور والحوافز جانباً كبيراً من اهتمامات إدارة الأفراد. فقد تجذب سياسات الأجور والحوافز الأفراد المهرة للعمل في مؤسسة ما وتدفعهم لأداء العمل بكفاية عالية مع الإحساس بشعور الرضا والاعتزاز والرغبة في الاستمرار، أو قد تؤدي إلى العكس من ذلك تماماً.

ولكي تعطي الأجور والحوافز ثمارها في أداء منتظم وفعال تقوم إدارة الأفراد بتقديم اقتراحاتها للإدارة العليا فيما يتعلق بسياسات الأجور والحوافز التي تراها مناسبة أكثر من غيرها.

ولدى التخطيط لسياسات الأجور والحوافز لابد من أن يؤخذ في الحساب أمور ثلاثة هي: معايير الإنتاجية ونتائج تقويم الأداء، ونتائج تقويم الوظائف والأعمال، والتشريعات والنظم الحكومية المتعلقة بالأجور ولا سيما سياسات الحد الأدنى لها.

وتقوم إدارة الأفراد لدى دراسة سياسة الأجور بمهمتين أساسيتين: الأولى ـ تحديد هيكل الأجور الذي على أساسه تقدم اقتراحاتها المتعلقة بطرائق دفع الأجور المناسبة. ولما كان تقويم الوظائف لا يتجه إلى تحديد الأجر مباشرة، فإن إدارة الأفراد تقوم في أثناء تحديدها لهيكل الأجور بحصر مجموعات وظائف المؤسسة بعدد محدود من الدرجات، ثم تقوم بتحديد معدلات أو فئات الأجر المقابلة لكل درجة من الدرجات الوظيفية. أما المهمة الثانية فهي وضع نظام للحوافز والمكافآت تستطيع إدارة المؤسسة بوساطته توجيه سلوك الأفراد باتجاه الأداء المرغوب فيه.

القيادة والإشراف: تعد القيادة والإشراف ممارستان موجهتان للتأثير في سلوك العاملين وضبطه وتوجيهه على نحو يحقق الأهداف المرسومة للمؤسسة، وتقوم إدارة الأفراد، في هذا المجال، بتحديد القواعد العامة لنمط القيادة الذي يمكن الإدارة من كسب رضا العاملين وترسيخ قناعاتهم بأن مصالحهم الفردية لا تتعارض بأي وجه من الوجوه مع مصالح المؤسسة.

ولتحقيق ذلك، تعد إدارة الأفراد مسؤولة عن إرساء مبادئ القيادة الديمقراطية وأسسها، التي تنمي المهارات الفنية والفكرية والإنسانية لدى العاملين. ولقد أثبتت نتائج الأبحاث التي أجريت على أنماط القيادة المتبعة ومستوى إنتاجية المؤسسة، أن اختيار المشرفين القديرين على قيادة مرؤوسيهم بأسلوب يدفع نحو تنمية مواهبهم وقدراتهم العلمية والعملية ويعزز فيهم روح المسؤولية والمشاركة، يحقق زيادة كبيرة في إنتاجية المؤسسة.

تصميم نظام الاتصالات: إن مهمة إدارة الأفراد في مجال الاتصالات ينحصر في تصميم نظام فعال للاتصالات يعمل على تحقيق المشاركة والتفاهم بين العاملين والإدارة. ويتطلب تصميم نظام اتصالات فعال اختيار الأدوات والوسائل التي تضمن تحقيق السرعة في إيصال المعلومات إلى جميع الاتجاهات اللازمة، والدقة والوضوح في إيصال المعلومات من دون تأويل أو تحريف، وسهولة استخدام النظام، واستجابة المرسل إليهم لإجراء المطلوب، بمعنى توفير القدرة على التأثير في سلوك الآخرين على النحو المطلوب.

تقويم الأداء: يقصد بتقويم الأداء قياس مستوى الأداء الفعلي لكل فرد أو مجموعة أفراد ومقارنته بالمستوى المطلوب وتشخيص أسباب انحرافات الأداء إن وجدت. ويعد تقويم الأداء أحد الأسس التي تستخدمها الإدارة لرسم سياسات الأجور والحوافز والترقية ووضع كل شخص في المكان الذي يتناسب مع قدراته ويتوافق مع مؤهلاته.

والمهمة الأساسية لإدارة الأفراد في هذا المجال لا تنحصر في قياس الأداء وإنما في اختيار المقاييس التي تضمن تحقيق الموضوعية في التقويم، أي المقدرة على قياس الأداء الفعلي من دون التأثر بأية مؤثرات خارجية، والثبات في التقويم، أي أن تكون النتيجة واحدة في جميع الحالات مهما كان عدد المقومين، وأخيراً الوضوح في القياس والسهولة في استخدام نتائج التقويم.

تهيئة ظروف العمل المناسبة: تقوم إدارة الأفراد بجميع الدراسات والإجراءات التي تمكنها من توفير الظروف الملائمة التي قد تسهم في زيادة المقدرة على العمل وتحسين مستوى الإنتاجية وترغيب العاملين في الاستمرار بالعمل، وتعمل على التقليل من وقوع الحوادث ومن حالات ترك العمل والتأخر والغياب.

وتشمل ظروف العمل مجموعتين من الشروط هي: الشروط المادية كالإضاءة والتهوية والرطوبة وأوقات الراحة وماشابه ذلك. والشروط الاجتماعية، أو ظروف العمل الاجتماعية، التي تساعد على إيجاد نوع من العلاقات والصلات بين الأفراد خارج جو العمل كالتنظيمات غير الرسمية (الأحزاب والجمعيات والنوادي وغيرها) أو إقامة علاقات الصداقة مع الآخرين.

تؤدي إدارة الأفراد دوراً مهماً إذا استطاعت تهيئة ظروف العمل الاجتماعية التي لا تتعارض مع أهداف المؤسسة وسياساتها وتسهم في الوقت نفسه في إشباع بعض حاجات العاملين النفسية والاجتماعية.

سياسة العاملين والعلاقات العامة

تتوقف فاعلية تنفيذ وظائف إدارة الأفراد ومهامها على السياسة التي تزمع إدارة المؤسسة أو الشركة تطبيقها والسير على هديها ويتجه موضوع هذه السياسات لدى ممارستها باتجاهين: الأول داخلي نحو الأفراد العاملين لدى المؤسسة، والثاني خارجي نحو البيئة التي تعمل فيها.

ويقصد بسياسة العاملين أو السياسة الداخلية مجموعة القواعد والمبادئ والأحكام الرئيسة والتي سيلتزمها جميع الأفراد العاملين في المؤسسة لدى ممارستهم الأعمال والأنشطة اللازمة لتحقيق أهدافها المنشودة، وتوضح سياسة العاملين الحدود العامة لكل وظيفة من وظائف إدارة الأفراد حتى لا يحدث أي احتكاك بين الإدارة والعاملين بشأنها.

وتسعى المؤسسات (الشركات) من وراء تطبيق السياسات الخاصة بالعاملين إلى تحقيق أهداف عدة منها إيجاد مفهوم موحد للقواعد والمبادئ وأساليب العمل يلتزمها جميع العاملين، وتحقيق نوع من العدالة النسبية في تعامل المؤسسة أو الشركة مع عامليها بتطبيق قواعد ومبادئ تشمل جميع العاملين وتشيع جواً من الثقة بين العاملين والإدارة، وكذلك إيجاد نوع من علاقات التعاون والتنسيق بين مختلف إدارات المؤسسة بقصد تنفيذ البرامج والخطط على أفضل نحو ممكن، وزيادة كفاية الإدارة في اتخاذ القرارات.

ويمكن تقسيم سياسات العاملين بحسب الهيكل التنظيمي للمؤسسة، أو بحسب مهام إدارة الأفراد ووظائفها. وتؤدي السياسات التي توضع وفقاً للهيكل التنظيمي دوراً كبيراً في توجيه جميع أنشطة المؤسسة باتجاه تحقيق أهدافها العامة. وهناك أربعة أنواع من السياسات المبنية على أساس الهيكل التنظيمي هي:

السياسات العامة: وهي الإطار العام لمجموعة القواعد والأحكام والأنظمة التي تتناول السياسات المختلفة، والتي تعد موجهاً عاماً للإدارة العليا.

السياسات التنظيمية: وهي توجيهات عامة للمديرين في المؤسسة لمعالجة مشكلة ما أو أمور معينة.

السياسات التشغيلية: هي مجموعة مؤشرات يتقيد بها جميع المشرفين (الإدارة الدنيا) في أثناء تنفيذ الخطط والبرامج التشغيلية.

السياسات الإجرائية: ويخضع لأحكامها نشاط جميع الأفراد العاملين في المؤسسة.

أما السياسات الوظيفية فهي تلك السياسات المتعلقة بشؤون الأفراد الوظيفية كالاختيار والتعيين والتدريب والتوصيف والأجور والتقويم وما إلى ذلك من الفعاليات التي مر ذكرها بصدد مهام إدارة الأفراد.

إن نجاح سياسات العاملين في تحقيق

الأهداف المتوخاة منها يتوقف على الخصائص التي يجب أن تتسم بها هذه السياسات. ومن أهم السمات التي يجب أن تتحلى بها سياسات العاملين: أن تكون القواعد والأحكام والمبادئ محددة بوضوح ولا تقبل التفسير أو التأويل. وأن تكون السياسات مفهومة من العاملين أنفسهم، ومن الفئات الخارجية ذات العلاقة كالموردين والمستوردين وسواهم. وأن تكون مرنة تستطيع مواكبة التغيرات والمستجدات داخل المؤسسة وخارجها. وأن توفر إمكانية متابعة تطبيقها واحترام الجميع لها.

أما السياسات الخارجية الموجهة نحو البيئة المحيطة أو إزاء المجتمع الذي تعمل في نطاقه المؤسسة فتهدف إلى إقامة العلاقات المتوازنة وتحقيق الصلات الطيبة بين المؤسسة ومختلف الفئات التي تتعامل معها أو ذات العلاقة غير المباشرة بنشاط المؤسسة وتدعى مثل هذه العلاقات «العلاقات العامة».

ومما يزيد من أهمية العلاقات العامة في الإدارة المفهوم الحديث لواجبات المؤسسات وجميع مشروعات الأعمال إزاء المجتمع. فبعد أن انفصلت الإدارة عن ملكية رأس المال وظهرت الشركات المساهمة التي يمتلك رأس مالها آلاف الناس الذين يعيشون في مناطق مختلفة ومتباعدة، وبعد أن تعزز دور الشركات والمؤسسات الحكومية في قيادة الاقتصاد الوطني في بعض الدول، أصبح للمؤسسات وظائف اجتماعية لها دورها في تحقيق أهداف عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية. فقد تستخدم بعض المؤسسات عدة آلاف من العاملين كما قد يكون لها علاقات مع عدد كبير من الموردين والمستوردين، إذ قد يصل عدد الزبائن الذين يستهلكون منتجات إحدى الشركات إلى الملايين، مما يحتم على الإدارة التخطيط لعلاقات منظمة مع كثير من الهيئات الاجتماعية وإقامة صلات ودية ودائمة معها. وبصفة عامة تعرف العلاقات العامة بأنها عملية اتصال مستمرة بين الإدارة وجمهور العاملين والمتعاملين وكسب ثقتهم وضمان قيام تفاهم متبادل بينهم بقصد تحقيق التوافق بين مصلحة المؤسسة ومصلحة المجتمع وتحسين الروح المعنوية للعاملين والإقلال من اضطرابات العمل. وبهذا المعنى فإن أعمال العلاقات العامة متصلة اتصالاً وثيقاً بالسياسات الداخلية للمؤسسة، ومن هنا تأتي أهمية التنسيق بين الوحدة الإدارية (إدارة أو قسم) المسؤولة عن العلاقات العامة من جهة وبين إدارة الأفراد من جهة أخرى.

وتختلف مهام العلاقات العامة وواجباتها من مؤسسة لأخرى بحسب الظروف المحيطة بها، كحجم الفئات ذات العلاقة بالمؤسسة وعددها والمركز المالي لهذه المؤسسة. وموقف الجمهور منها، والنظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي للمجتمع الذي توجد فيه المؤسسة.

ويمكن حصر أعمال العلاقات العامة بالمهمات الخمس التالية: الاتصال بالهيئات والأفراد ذوي العلاقة بالمؤسسة كالعاملين والمساهمين والمستهلكين والموردين والهيئات الحكومية والمنظمات الاجتماعية وغيرها.

وتحديد وسائل الاتصال بالأفراد والهيئات وتصميمها كالمطبوعات، والإعلانات، والخدمات الاجتماعية، والبرامج والمحاضرات، وحفلات الاستقبال، والرسائل والأفلام وما شابه ذلك. والقيام بالبحوث والدراسات المتعلقة بفئات الجمهور المختلفة لمعرفة رغباتهم وآرائهم، وإجراء الدراسات الخاصة بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ورسم سياسات العلاقات العامة وتنسيقها وتحديد أهدافها وأساليب تنفيذها وتحديد نظم الاتصال مع الإدارة العليا والإدارات والأقسام المختلفة في المؤسسة لتنسيق العمل بين الجميع طبقاً للسياسات الموضوعة. وإدارة الأعمال في قسم العلاقات العامة بالكفاية المطلوبة والإشراف على جميع العاملين داخل القسم نفسه.

سليمان فارس

الموضوعات ذات الصلة:

إدارة الأعمال - إدارة الإنتاج - الإدارة المالية - إدارة المشروع.

مراجع للاستزادة:

- سليمان فارس، إدارة الأفراد (جامعة دمشق ١٩٨٢).
- عادل حسن، العلاقات الإنسانية وإدارة الأفراد (بيروت ١٩٧٦).
- أحمد صقر عاشور، إدارة القوى العاملة (بيروت ١٩٧٩).
- علي السلمي، إدارة الأفراد لرفع الكفاءة الإنتاجية (القاهرة ١٩٧٠).

■ إدارة الإنتاج

الإنتاج هو أية عملية أو إجراء مصمم لتحويل مجموعة من عناصر المدخلات إلى مجموعة محددة من عناصر المخرجات. وإدارة هذه العملية المتعددة الأطراف هي المقصود من مصطلح إدارة الإنتاج production management وإذا كانت أنظمة الإنتاج تيسر للمستهلك يومياً السلع والخدمات في حدود واسعة، فإن إدارة هذه الأنظمة هي من أكثر الفعاليات أهمية في الوصول إلى إخراج أفضل لهذا الإنتاج، وفي تحسين التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

إن المقولة المقبولة في العالم، بوجه عام، هي أن الموارد في كل مجتمع محدودة أما الحاجات فغير محدودة. والإدارة القادرة هي التي تعمل على إشباع أكثر مايمكن من الحاجات عن طريق هذه الموارد المحدودة، أي إن كفاية الإدارة تتحقق عندما تنجز الإدارة ما هو مطلوب منها باستعمال أقل ما يمكن من عناصر الإنتاج، أو حين تنجز أقصى ما يمكن من الإنتاج باستعمال عناصر إنتاج محدودة. ومن هذه الزاوية يمكن القول إن الإدارة هي المسؤولة عن إنتاج الهدف المحدد كماً ونوعاً وتوقيتاً عن طريق استعمال عناصر الإنتاج (المدخلات) بنسب محددة تجعل تكلفة الإنتاج أقل ما يمكن.

ويعبر ما كتب عن إدارة الإنتاج عن مفهومين يتصلان بالإنتاج. يذكر المفهوم الأول أن الإنتاج يعني تصنيع شيء مادي ما باستعمال العمال والمواد والتجهيزات. وهذا المفهوم يقتصر على إنتاج السلع المادية فقط، مثل: الملابس والغذاء والمنازل، والأبنية على اختلاف أنواعها، والسيارات، والطائرات، وأجهزة التلفزيون، والأجهزة المنزلية الأخرى، وما شابه ذلك.

ولا يدخل في هذا المفهوم الفعاليات التي لا تتضمن إنتاجاً مادياً والتي يشملها مصطلح الخدمات، مثل: التعليم، والخدمة الطبية، والترفيه، والأمن الداخلي.

أما المفهوم الثاني فيذهب إلى أن الإنتاج

لا يعني تصنيع الأشياء المادية فحسب، وإنما يعني كذلك الخدمات، وأن الإنتاج في مجال الخدمات هو إنجاز وظيفة لها منفعة.

والمفهوم الأول يعدّ المفهوم التقليدي الشائع الاستعمال حتى الآن. والذين يأخذون به ما يزالون يستعملون في شرح إدارة هذه الفعالية تعبير «إدارة الإنتاج». أما المفهوم الثاني فمفهوم جديد وموسع يروجه القائلون به على أساس أن المبادىء الأساسية التي تحكم الإنتاج المادي هي مبادىء صالحة لحكم الإنتاج الخدمي. ويستعمل هؤلاء في شرح إدارة هذه الفعالية تعبير إدارة العمليات operations management بدلاً من إدارة الإنتاج وذلك من أجل تمييز هذا المفهوم الجديد من المفهوم الأول.

المنظور التاريخي لتطور إدارة الإنتاج

كان أول من لفت النظر إلى اقتصاديات الإنتاج الاسكتلندي آدم سميث Adam Smith عندما ظهر نظام المعمل. فقد كتب في عام ١٧٧٦ كتاب «ثروة الأمم» ولاحظ فيه ثلاث مزايا اقتصادية أساسية لتقسيم العمل وهي: تطوير مهارة العامل الذي ينجز عملاً واحداً بصورة متكررة، وتوفير الزمن الذي يضيع عادة في انتقال العامل من فعالية إلى فعالية تالية مختلفة، واختراع الآلات أو الأدوات نتيجة لتخصيص العمال جهودهم لأعمال ذات بعد محدد.

ولكن سميث لم يستنتج هذه الأفكار عن طريق نظري. ففي نظام المعمل كان تقسيم العمل متطوراً كطريقة للإنتاج ذات معنى عام عندما يتم توظيف مجموعة كبيرة من العمال للإنتاج بكمية كبيرة. وفي مثل هذه الظروف تعدّ الطريقة التعاونية للإنتاج ذات معنى. وقد لاحظ سميث هذه الممارسة، كما لاحظ المزايا الثلاث. وكتب عنها في كتابه، وكان الكتاب حجر الزاوية في تطوير اقتصاديات الإنتاج، لا لأن ملاحظات سميث ساعدت على السرعة في تقسيم العمل، بل لأن سميث قد أقر بوجود ترشيد للإنتاج. أما التطوير الفعلي فقد استغرق وقتاً طويلاً إلى أن وصل أخيراً إلى مرحلة التطور السريع الحقيقي ومن ثم انبعثت إدارة الإنتاج نظاماً من مرحلة وصفية نظرية لتأخذ خصائص علم تطبيقي.

وبعد آدم سميث أضاف الإنكليزي تشارلز باباج Charles Babbage ملاحظات إلى ما ذكره سميث، وأثار عدداً من الأسئلة حول اقتصاد الإنتاج وتنظيمه. كان باباج عالماً بالرياضيات ثم أصبح مهتماً بالتصنيع. وقد قاده استقصاؤه للعقل والتوجه العلمي إلى التساؤل عن عدة ممارسات موجودة، ووردت أفكاره في كتابه «اقتصاد الآلات والمصانع».

ووافق باباج في عام ١٨٣٢ على آراء سميث المتعلقة بالمزايا الاقتصادية الناتجة عن تقسيم العمل وأخذ مثالاً لذلك صناعة الدبوس، فنتج لديه عن تحليل هذه الصناعة سبع عمليات تخصصية أساسية هي:

تصغير قطر السلك إلى القياس المرغوب فيه، تسوية السلك، عمل نهاية الدبوس الحادة، ليّ السلك وقطع الرأس، جعل رأس الدبوس دقيقاً، تبييض الدبوس لمنع الصدأ، وضع الدبابيس المنتهية الصنع في أوراق أو ظروف أي تعبئة الدبابيس.

لقد لاحظ باباج مقدار الأجر المستحق لهذه الاختصاصات المختلفة، ثم أشار إلى أن جماعة العمل، إذا انتظمت بحيث ينجز كل عامل التتالي الكامل للعمليات، فإن الأجر المدفوع لهؤلاء العمال سيحدد بأجر المهارة المطلوبة للاستمرار في التتالي الكامل للعمليات وهي أكثر صعوبة أو أكثر ندرة. وبتقسيم العمل تظهر مزية جديدة لم يتطرق لها سميث هي مبدأ تحديد المهارات أساساً لتحديد الأجر. وبعد ملاحظات سميث وباباج بسنوات، استمر تقسيم العمل وتسارع في النصف الأول من القرن العشرين. لأن خطوط الإنتاج الكبرى اليوم تمثل مبدأ تقسيم العمل المنفذ إلى أقصى درجات أقسامه. وبالحقيقة فقد انتشر هذا المبدأ واتسع، وما يزال مزيد من تقسيم العمل يحظى بالاهتمام والدراسة.

كان فريدريك تايلور الأمريكي Frederick W. Taylor (١٨٥٦ـ١٩١٥) بلا شك الشخصية التاريخية المتميزة في تطوير حقل إدارة الإنتاج، وذلك أن آدم سميث وتشارلز باباج كانا ملاحظين وكاتبين، في حين كان فريدريك تايلور مفكراً ومنفذاً معاً، وكان كذلك ذا سلطة وإرادة قوية، وإذا كانت سلطته قد جعلته موضع نقد في عدد من الحالات، فإن هذه الصفة كانت مصدراً لإسهاماته العظيمة في تطوير إدارة الإنتاج.

إن الممارسات السابقة كانت تسمح للعاملين بأن يقرروا بأنفسهم الوسيلة التي سينجز بها الإنتاج، وهكذا فإنهم صمموا كيف ينتجون جزءاً ما، في ضوء مهارتهم وتجربتهم السابقة، وكان الزمن وتكلفة الإنتاج موجهين بالطرائق التقليدية.

وكان تايلور عارفاً بهذه الممارسات لأنه دخل المجال الصناعي عاملاً، ولكنه طور قدراته ورفض أن يستمر بهذا الطريق مع العمال الآخرين، وبدلاً من ذلك أنتج أكثر ما استطاع. لقد تقدم بسرعة ووصل أخيراً إلى مركز يسمح بإجراء التجارب على بعض أفكاره. وللإحاطة بمدى إنجازات تايلور، يجب أن نفهم أنه كان مبدعاً في بيئة إدارية كانت تسيطر عليها التقاليد القديمة وبينها مايمنح العمال حرية تحديد طرائق التصنيع وحق الاحتفاظ بمعرفتهم أسرارَ مهنة في هذه البيئة الراكدة. وقد أدت أفكار تايلور إلى موجة تغيير في الفلسفة الإدارية هزّت بعض المنظمات من القمة إلى القاعدة.

بيّنت الفلسفة الجديدة لتايلور أن الطريقة العلمية يمكن ويجب أن تطبق على مختلف الجوانب الإدارية، وأن الطرائق التي يُنجز بها العمل، يجب أن تحددها الإدارة عن طريق التحقيق العلمي. لقد عدّد تايلور أربعة واجبات أساسية للإدارة يمكن تلخيصها فيما يلي:

- تطوير علم لكل عنصر من عمل العامل ليحل محل الطرائق القديمة.
- الاختيار العلمي للعمال وتدريبهم وتطويرهم وذلك بدلاً من الممارسة السابقة التي تميزت بالسماح للعامل باختيار مهماته الخاصة وتدريب نفسه على أفضل ما يستطيع من الأعمال.
- تطوير روح التعاون الصادق بين العامل والإدارة لضمان تنفيذ العمل وفقاً للإجراءات المقررة علمياً.
- تقسيم العمل بين العمال والإدارة في حدود مسؤوليات كل طرف، بحيث تأخذ كل جماعة العمل الذي يناسبها، وذلك، بدلاً من الحالة الأولى السابقة التي كان العمال فيها يتحملون القسط الأكبر من العمل والمسؤولية. وقد أدت هذه الأفكار الأربع إلى كثير من الفكر الجديد حول التنظيم الإداري، وهي، إلى حدّ كبير، جزءٌ من الممارسة التنظيمية لإدارة الإنتاج في الوقت الحاضر.

لقد تطور عمل تايلور في الفكرة الأولى إلى

حقل هندسة الطرائق وقياس العمل. وفي السنوات التي هي أكثر حداثة توسع هذا الحقل توسعاً كبيراً بمساعدة الأبحاث النفسية التجريبية وأصبح يدعى الآن بحقل الهندسة الإنسانية وله تطبيقات عامة في إدارة الإنتاج، ومن الفكرتين الثانية والثالثة تطور حقل الأفراد بطرائقه الفنية لاختيار الأفراد وتعيينهم بالإضافة إلى الوظيفة التنظيمية للعلاقات الصناعية. وكان للفكرة الرابعة التي تتضمن تقسيم العمل بين العامل والإدارة استدلالات بعيدة المدى: فالوظائف الإدارية الأساسية للتخطيط والرقابة تناط الآن بالإدارة، أما المشرفون المباشرون والعمال فيتركون أحراراً للتركيز على تنفيذ الخطط الموضوعة بعناية.

إن الموقف الصلب غير القابل للمساومة لفريدريك تايلور في تطوير أفكاره وتنفيذها سبَّب كثيراً من الجدل، وقد عورض بقوة في عدة محافل.

إن إدارة الإنتاج في العصر الحاضر قد سبقها تطوران في العقد الرابع من القرن العشرين ساعدا على وضع العمل الأساسي ودلاّ على الطريق إلى المستقبل.

شمل التطوير الأول رقابة الجودة وتقديمها إحصائياً إلى الصناعة من قبل الأمريكي وولتر شي وارت Walter SheWart في عام ١٩٣١. أما التطوير الثاني فكان في بروز نظرية اختيار عينة العمل في عام ١٩٣٤ لدى تيبت Tippett، وتتناول إجراء لاختيار العينة اللازمة لتحديد زمن العمل ومعايير الإبطاء وغير ذلك مما يتصل بالعمل.

بقي تنفيذ نظرية العينة التي قال بها تيبت نائماً قرابة عشرين سنة، ثم وضعت موضع التطبيق في العقد السادس من القرن العشرين. ولايزال هذا الإجراء يستعمل استعمالاً واسعاً، ويحتمل أن يستمر في النمو لفوائده العملية الكثيرة.

لقد ابتدأ التطور الأخير في المفهوم والنظرية والطرائق الفنية لإدارة الإنتاج بعد الحرب العالمية الثانية بقليل وساعدت الأبحاث المتصلة بالعمليات الحربية التي مرت بها القوات المسلحة الأمريكية على الوصول إلى طرائق فنية رياضية جديدة وأسهمت بتكوين معرفة غنية حول كيفية تطبيق الطرائق الفنية في مواجهة مشاكل العمليات الحربية. وقد تبين أن هذه المشاكل توازي مشاكل عمليات الإنتاج، وأن من الممكن لطرائق معالجتها أن تطبق في الإنتاج الصناعي. وكان من أشكال التطور المتميز اعتماد البرمجة الخطية linear programming. إلا أن الإنجاز الذي فاق هذه التطورات في أهمية موضوع البرمجة ودعمه... كان تطوير الحاسوب ذي السرعة العالية الذي جعل من الممكن حل مشاكل البرمجة الخطية للحجوم الكبرى. ولولا الحواسيب لكان الاحتمال الغالب أن يبقى مجال البرمجة الخطية في التطبيق مجالاً صغيراً.

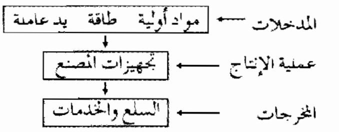
وقد أقرت العمليات الحربية إنجازاً آخر في إدارة الإنتاج هو الاهتمام الذي يتوجه إلى العوامل الإنسانية. فقد وظف علماء النفس والفيزيولوجية الباحثون في أثناء الحرب وما بعدها للمساعدة في تصميم أنظمة تناظر القدرات الإنسانية في النظر والسمع والشم والحركة والاحتمال الإنساني وغير ذلك مع عوامل بيئية: كالحرارة والضوء والإشعاع والضوضاء. ومع أن عوامل الضغط لدى الإنسان في الصناعة هي غالباً أقل قساوة من عدد من العوامل التي وجدت في الحرب، فإن المشاكل من حيث المفهوم، هي نفسها، أي إنه يجب أن تصمم أنظمة ومهام إنتاج تقرّ بحدود العنصر الإنساني في تشغيل الأجهزة وتأخذ مزايا القدرات الإنسانية، بمعنى أن هذا الحقل الذي يدعى الآن الهندسة الإنسانية أو العوامل الإنسانية يقدم المعلومات الأساسية لتصميم العمل. وأخيراً يمكن القول إنه في الماضي كان الأفضل في نظرية إدارة الإنتاج الممارسة الفعلية في الصناعة والأعمال، وكان التعليم في الجامعات مستنداً إلى هذه الممارسة، أما اليوم، فإن النظرية ابتدأت تقود إلى أفضل ممارسة، ومن المحتمل أن تستمر في المستقبل.

نظام الإنتاج

تتألف الفعالية الإنتاجية من عدة عناصر متداخلة، وبعض هذه العناصر ينجز بالتتالي، في حين ينجز بعضها الآخر معاً وبآن واحد. ومع ذلك، فإن الشيء المهم هو أن الشكل الذي ينجز به أحد عناصر فعالية الإنتاج، يحتمل كثيراً أن يؤثر في واحد أو أكثر من العناصر الأخرى. إن هذا الوضع الذي يكون عليه الإنتاج يسمح بالقول إن الإنتاج نظام متكامل. وسوف يغدو الأمر أكثر وضوحاً لدى البحث في مسؤوليات إدارة الإنتاج.

ومن الممكن أن يقسم أي نظام للإنتاج إلى ثلاثة أجزاء رئيسة هي:

المدخلات والعملية والمخرجات. والمخطط التالي يبين طريق جلب العناصر المختلفة وتحويلها لإنجاز الهدف الذي صمم النظام من أجله.



مخطط عملية المدخلات والمخرجات

ويمكن أن تكون العملية معقدة تتطلب عدة أنواع من المدخلات، ويمكن أن تتضمن تنوعاً من المخرجات. إن فكرة تحويل مجموعة من المدخلات لتنتج مجموعة من المخرجات ليست معقدة، ولكن الصعب والمعقد هو تصميم عملية مدخلات ومخرجات فعلية لإنجاز أهداف محددة. وفيما يلي شرح لأجزاء نظام الإنتاج.

المدخلات: يمكن تعريف المدخلات بأنها عناصر الإنتاج التي تمثل التكاليف المتغيرة، وهي بصورة أولية التكاليف التي تدفع قيمتها على أساس الحجم بالوحدات مثل: تكاليف اليد العاملة وتكاليف المواد المباشرة. ويمكن تحميل هذه التكاليف مباشرة لكل وحدة من وحدات المخرجات (الإنتاج). والتكاليف المتغيرة، كنظام لتصنيف المدخلات، تخلق أيضاً إرباكات معينة. وعلى سبيل المثال، توجد تكاليف يد عاملة غير مباشرة تصاحب العمل المكتبي، ومن الصعب أن تُعزى لأية وحدة معينة من الإنتاج على أساس التكاليف بالقطعة. وهذه التكاليف تعدّ تكاليف غير مباشرة تحمّل الإنتاج كله. وبالمشابهة، فإن الرواتب التي تدفع للمشرفين تقع خارج التعريف المحدد الذي استعمل سابقاً فيما يتعلق بالتكاليف المتغيرة. ولذلك فإن الاستثناءات في التكاليف من التكاليف المتغيرة، تعامل، على وجه العموم، كتكاليف ثابتة.

ومن حيث الأساس، فإن المواد الأولية واليد العاملة والطاقة، تؤلف المدخلات، والمصنع والتجهيزات يجريان العملية. وبالتفكير في هذه التعابير يكون واضحاً نسبياً أن إدارة الإنتاج تمارس أكثر رقابتها اليومية على الإنتاج عن طريق التحكم في عناصر المدخلات إلى عملية الإنتاج. وفي المدى القصير الأجل يكون من الصعب، إلى حد ما، على الإدارة إجراء تعديلات في العملية، على أساس أن تكاليف

العملية (المصنع والتجهيزات) تعد تكاليف ثابتة في المدى القصير ويجب على المنظمة الصناعية تحملها بصرف النظر عن حجم الإنتاج (ضمن الطاقة الإنتاجية المتاحة). وفي المدى الطويل تصبح هذه التكاليف تكاليف متغيرة عندما يتوافر الإمكان للإدارة بإجراء التعديلات المرغوبة في حجم المصنع والتجهيزات.

العملية: يصمم الإنتاج في العادة لتكون له قيمة أكبر من القيم المشتركة لعناصر المدخلات والاستثمار في العملية، عندما يكون الاستثمار مستهلكاً بوجه صحيح. ويكون هذا الأمر مختلفاً كلياً عن التوقعات الهندسية للأنظمة المادية حيث يمكن نظرياً: أن يساوي الإنتاج المدخلات. وبسبب الاحتكاك وخسارات الاحتراق، فإن الإنتاج القابل للاستعمال في العالم المادي هو أقل من كمية طاقات المدخلات. وهكذا فإن الكفاية لعملية ما، في تعابير هندسية، هي: $\text{الكفاية} = \frac{\text{الإنتاج القابل للاستعمال}}{\text{المدخلات}} \leq 1$

هذا الوضع في اعتبار كفاية عملية ما، سينتج إفلاساً في العالم الاقتصادي إذا كان صحيحاً. فالإنتاج والهندسة يتصل أحدهما بالآخر اتصالاً أساسياً في عدة وجوه. وكفاية عملية ما للإنتاج، من وجهة نظر النظام المادي، يمكن قياسها في التعابير التي وردت. وفي الوقت نفسه، تكون إدارة الإنتاج ملتزمة بالمعايير الاقتصادية. وفي الأنظمة الاقتصادية، يجب أن تكون الكفاية مساوية واحداً أو أكبر من واحد وليست أصغر من واحد كما في المعادلة السابقة من أجل الاستمرار في عملية الإنتاج.

وأكثر من ذلك، يكون حقيقياً على نحو جزئي فقط أنه كلما ازدادت الكفاية الهندسية ازدادت الكفاية الاقتصادية. ومديرو الإنتاج يجب أن يكونوا قادرين على فهم وجهات النظر الهندسية والاقتصادية وتوحيدها.

والعملية، كما عرفت، تتألف من عناصر الإنتاج التي تمثل بصورة أولية تكاليف ثابتة. وهذه التكاليف لا تتغير مع تغير معدلات الإنتاج، مثل مخصصات الاستهلاك للمصنع والتجهيزات، ورواتب الإدارة العليا، وغيرها من التكاليف التي يجب على المنظمة تحملها بصرف النظر عن حجم الإنتاج.

المخرجات: يعد تحديد الإنتاج المرغوب فيه أو المخرجات المطلوبة من حيث الكم والنوع والتوقيت، نقطة البداية غالباً في أي عمل إنتاجي.

مسؤوليات إدارة الإنتاج

يمكن أن يقال إن إدارة الإنتاج تحمل أربع مسؤوليات أساسية. وهذه المسؤوليات هي أن تُنتج السلع أو الخدمات المطلوبة إنتاجاً تتحقق فيه الأمور التالية:

- متطلبات الكميات (الكميات الواجب إنتاجها من السلع أو الخدمات).
- متطلبات النوعية (نوعية الإنتاج المادي أو الخدمي المحددة).
- إنجاز الإنتاج في الأوقات المحددة لذلك أي التوقيت.
- اختيار أفضل طريق اقتصادي لإنجاز المسؤوليات السابقة وتطبيقه.

ولاريب، أن متطلبات الكميات والنوعية وتواريخ الإنجاز، تعكس طلبات المستفيدين أي المستهلكين المشترين لهذه السلع أو الخدمات. ولتوفير هذه الطلبات يجب على إدارة الإنتاج أن تأخذ بقاعدة تخطيط فعالية الإنتاج قبل التاريخ الذي ستظهر فيه الطلبات فعلياً.

وهذا القول صحيح لعدة أسباب في مقدمتها اثنان: الأول هو أنه إذا لم تتوافر العناصر اللازمة للإنتاج (مستلزمات الإنتاج) لدى إدارة الإنتاج في الوقت الذي يُسلَّم فيه الطلب لكميات معينة من الإنتاج، فمن غير المحتمل أن يكون المطلوب جاهزاً في وقت التسلّم الذي يرغب فيه الزبون، لأن الوقت المطلوب للحصول على اليد العاملة، والمواد، والتجهيزات، والأبنية، غالباً ما يتجاوز تجاوزاً كبيراً ما هو مقبول عادة كزمن تسليم معقول (مسوّغ).

أما السبب الثاني فهو أن الحالة، حتى وإن لم تكن كما ذكر في السبب الأول، فإن إدارة الإنتاج التي تحصل على عناصر الإنتاج وتستعملها فقط في الزمن الذي تكون فيه العناصر مطلوبة لإنجاز طلبات المستهلك المشتري ستجد نفسها غالباً أنها تنتج وتشتري في حجوم كميات غير اقتصادية وتمارس تموجات واسعة في الطاقة الإنتاجية اللازمة في أية لحظة زمنية. وهذا الأمر لاريب سيؤدي إلى توليد تكاليف زائدة.

لذلك، فإن كل إدارة إنتاج يجب أن تمارس تخطيط الإنتاج وهذا التخطيط يتضمن تحويل تنبؤ الطلب على السلع أو الخدمات الذي تقوم به الإدارة التسويقية إلى متطلبات إنتاج متساوية في حال عدم وجود تبديل بين مخزون أول المدة ومخزون آخر المدة، وإلى مستلزمات هذه المتطلبات الإنتاجية من عناصر الإنتاج المختلفة. والبرامج (الجداول) الناتجة لمتطلبات عناصر الإنتاج يمكن أن ترتب على نحو تحذف فيه التموجات الواسعة، أو يسمح فيه بالإنتاج والشراء في حجوم كميات اقتصادية. ومع ذلك فإن هذه البرامج في شكلها النهائي، تزود مدير الإنتاج بالمعلومات اللازمة عن نوع المواد وكميتها واليد العاملة، والتجهيزات الإنتاجية اللازمة في نقاط زمنية مختلفة في المستقبل. ويمكن أن تتخذ حينئذ الترتيبات للحصول على عناصر الإنتاج هذه قبل الأزمنة التي ستكون فيها هذه العناصر لازمة فعلاً. وهذا العمل يسهل قدرة إدارة الإنتاج على تحقيق الإنجاز (التسليم) في التاريخ المحدد في الطلبات التي تُسلَّم بتاريخ لاحق.

ومع ذلك، لو أن عناصر الإنتاج اللازمة توافرت في الوقت الذي تُسلَّم فيه الطلبات الفعلية، فإن متطلبات الكمية وتواريخ التسليم المتعلقة بها يمكن الوصول إليها فقط إذا اتخذت الخطوات لاستعمال هذه العناصر على نحو فعال. وهذا الأمر يدعو إلى مايلي:

- برمجة (جدولة) العمل المطلوب، ويدعى هذا الإجراء تخطيط الإنتاج.
- تنظيم الأقسام العاملة في مديرية الإنتاج وتزويدها بالتعليمات الضرورية وهذا ما يدعى تنظيم مديرية الإنتاج.
- متابعة تقدم الإنتاج، واتخاذ الإجراءات التصحيحية عندما يتطلب الأمر ذلك وهذا ما يدعى الرقابة على الإنتاج.

ولكن إضافة إلى كون إدارة الإنتاج مسؤولة عن إنتاج الكميات المطلوبة في المواعيد المحددة للتسليم، فإنها مسؤولة أيضاً عن نوعية الإنتاج، ولايمكن الحفاظ على نوعية السلع أو الخدمات إلا إذا استخدمت المقاييس التي تؤكد أن الإنتاج مطابق للمواصفات المحددة. وهذه المقاييس يشار إليها غالباً بالطرائق الفنية للرقابة النوعية على الإنتاج أي رقابة النوعية.

وأخيراً، لقد لوحظ أن المتوقع من إدارة الإنتاج أن تنتج السلع أو الخدمات المحددة لا في الكميات المطلوبة، وفي الأزمنة المحددة، وبالنوعية المطلوبة، فقط، بل وكذلك في أفضل

طريق اقتصادي أي بأقل تكلفة ممكنة. ونتيجة لذلك يجب أن يجري تحليل للطرائق البديلة التي يمكن أن تنتج بها السلع أو الخدمات بتحديد الطريق التي هي أقل تكلفة بين طرائق العمل البديلة. والمعلومات التي ستساعد في هذا الخصوص، توجد في الموضوعات التالية:

- نظرية الإنتاج التي تساعد في تحديد مزيج الإنتاج ذي التكلفة التي هي أقل عن طريق استعمال مبادىء الإنتاج.
- تكاليف الإنتاج التي تساعد في تحديد المعدل الأمثل للإنتاج والحجم الأمثل للمصنع.
- تحسين الإنتاجية الذي يساعد في رفع إنتاجية اليد العاملة وخفض التكاليف عن طريق عوامل تحسين الإنتاجية.
- دراسة الحركة التي تساعد في التخلص من أكبر عدد ممكن من الحركات الإنسانية، وفي الإقلال من الحركات التي لايمكن التخلص منها، وفي جعل الحركات الضرورية أقل تعباً. وهذا كله يؤدي إلى تحسين الإنتاجية.

وثمة حاجة أيضاً لتحليل الترتيب الداخلي للمصنع ومناولة المواد والأتمتة من أجل توفير مجرى يسير لمرور المواد والآلات والعمال، وتطوير نظام مناولة أفضل، ودرجة أتمتة مناسبة بغية انخفاض التكاليف المصاحبة لحركة العمال والمواد من مكان إلى آخر إلى أدنى حد ممكن، ويدخل هذا كله تحت عنوان «الترتيب الداخلي ومناولة المواد والأتمتة». وهناك حاجة لعمل هيكل تنظيمي للعاملين في مديرية الإنتاج يتضمن تجميع العمليات المتشابهة بحسب السلعة أو العملية أو الزبون، وتقسيم هذا التجميع إلى مجموعات بحسب قدرات الأشخاص إداريين كانوا أم عمالاً وتحديد المسؤولية والسلطة لكل من الرؤساء في التنظيم. وبطبيعة الحال، يتأثر الهيكل التنظيمي لمديرية الإنتاج بالترتيب الداخلي للمصنع. والأمور المتعلقة بالتنظيم تدخل في بحث التنظيم الإداري لمديرية الإنتاج وهناك أيضاً الطرائق الفنية لتحديد معايير الإنتاج بدراسة الزمن الواجب لإنجاز عمل ما أي الزمن المعياري، ولحفز العمال على الإنتاج عن طريق ربط الأجر بالإنتاج كماً ونوعاً. وبذلك يمكن تحديد مستلزمات الإنتاج من اليد العاملة والتجهيزات، وبرمجة الإنتاج، وتحديد تكاليف اليد العاملة المصاحبة للإنتاج ومراقبتها. ويدخل هذا في بحث دراسة الزمن.

وأخيراً، للحفاظ على استمرار المؤسسة في الوجود، لابد من أن يهتم مدير الإنتاج بتطوير الإنتاج ويُقصد بذلك إجراء الأبحاث من أجل تقديم سلع جديدة مبتكرة وإجراء تحسينات في السلع الحالية أو الخدمات. ويدخل هذا الإجراء تحت عنوان «تطوير الإنتاج».

ولعل من اللازم القول، في النهاية، إن على مديري الإنتاج أن يهتموا بعدد من المجالات المتداخلة بعضها ببعضها الآخر. والمجالات المذكورة سابقاً لاتعني أن مديري الإنتاج لا يهتمون بمجالات أخرى لاتخاذ القرار في المؤسسة. إنهم يهتمون واقعياً بالمشاركة في اتخاذ القرار بمجالات أخرى مثل تحديد موقع البناء وتصميمه. وبالنظر لتأثير القرارات المتخذة في مجالات التسويق والأفراد والمالية وفعاليات الإنتاج، وتأثير القرارات المتخذة في مجال الإنتاج على فعاليات التسويق والأفراد والمالية، فإن من واجب مديري الإنتاج أن يسهموا في حل مشكلات التسويق والأفراد والمالية، ولكن هذه المجالات الأخرى غير الإنتاجية ومشاكلها ليست من مسؤوليتهم الأولى.

أكرم شقرة

الموضوعات ذات الصلة:

الابتكار (في الاقتصاد) - إدارة الأعمال - إدارة الأفراد
- الإدارة المالية - إدارة المشروع.

مراجع للاستزادة:

- أكرم شقرة، إدارة الإنتاج (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٨٤ - ١٩٨٥).
- RAYMOND R.MAYER, Production and Operations Management 3rd Ed.(Mc Graw Hill Book Company, New York 1975).

■ الإدارة العامة

يقصد بالإدارة العامة public administration جميع العمليات أو النشاطات الحكومية التي تهدف إلى تنفيذ السياسة العامة للدولة. فهي موضوع متخصص من الموضوع الأكثر شمولاً وهو «الإدارة»، والإدارة هي تنفيذ الأعمال باستخدام الجهود البشرية والوسائل المادية استخداماً يعتمد التخطيط والتنظيم والتوجيه، وفق منظومة موحدة تستخدم الرقابة والتغذية الراجعة في تصحيح مساراتها، وترمي إلى تحقيق الأهداف بكفاية وفعالية عاليتين. وتفيد في ذلك من العلوم النظرية والتطبيقية، وحين تتعلق هذه الأعمال بتنفيذ السياسة العامة للدولة تسمى الإدارة «إدارة عامة».

فالإدارة العامة تشمل كل هيئة عامة، مركزية أو محلية أوكلت إليها السلطة السياسية وظيفة تلبية الحاجات العامة، على اختلاف صورها، وزودتها بالوسائل اللازمة لذلك، وتشمل أيضاً أسلوب عمل هذه الهيئات وطابع علاقاتها فيما بينها وعلاقاتها بالأفراد.

ولقد تطور مفهوم الإدارة العامة بتطور المجتمعات وتقدمها وبتطور وظيفة الدولة الحديثة وتحقق هذا التطور بتأثير عوامل متعددة منها: متطلبات التقدم الاقتصادي، والأزمات الاقتصادية وانتشار الأفكار الاشتراكية وظهور النظم السياسية الاشتراكية، مما جعل الدولة محركاً أساسياً للتطور الاقتصادي والاجتماعي ومسؤولة عن تحقيق العدالة الاجتماعية واستمتاع الجماهير بثمرات هذا التطور والتقدم.

وتجلى هذا التطور، على الصعيد الإداري، بإضافة أعباء جديدة تنهض بها الدولة، فضلاً عن الأعباء التقليدية السابقة، مما دعا إلى إحداث أجهزة إدارة جديدة أو تطوير الإدارات القائمة والوسائل التي تستخدمها وانعكس ذلك على نطاق تدخل الإدارة العامة، فلم يعد دورها يقتصر على تنفيذ السياسة العامة للدولة وتحقيق أهدافها بل اتسع نطاق تدخلها أيضاً ليشمل المجال التشريعي. وذلك عن طريق إشراكها في رسم السياسة العامة للدولة في كثير من المجالات والنشاطات العامة والخاصة ولا سيما الاقتصادية منها.

حظيت الإدارة العامة باهتمام الباحثين والعلماء في جميع أنحاء العالم وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية فنشأ علم جديد اسمه علم الإدارة العامة. غير أن هذا العلم، بوصفه واحداً من العلوم الاجتماعية التي تعنى «بالواقعة الإدارية» بصفتها ظاهرة اجتماعية، مازال ناشئاً لم تستقر قواعده بعد ولم يتحدد إطاره ومضمونه بدقة.

فهو يتصل بسائر العلوم الاجتماعية مثل علم السياسة وعلم الاقتصاد والقانون العام والمالية العامة وغيرها. كما يقترب كثيراً من علم إدارة

الأعمال [ر] وذلك على أساس الوحدة والتقارب في التنظيم إلا أنه يختلف عنه كثيراً في الأهداف والوسائل. فالهدف الذي يسعى إليه المشروع الخاص وتهتم به إدارة الأعمال هو الربح، في حين تسعى الإدارة العامة إلى تلبية حاجات المجتمع وتحقيق المصلحة العامة. والإكراه مستبعد في مجال القطاع الخاص ولا تعتمده إدارة الأعمال وسيلة لها ولكنه يؤدي دوراً بارزاً في الإدارة العامة.

وإذا كانت أهمية الإدارة العامة في تزايد مستمر في حياة المجتمعات البشرية، فإن هذه الأهمية هي موضع جدل بين فقهاء القانون وذلك بحسب معتقداتهم ومذاهبهم الفكرية.

ـ ففي الدولة الرأسمالية التي تلتزم المذهب الفردي، يعد فقهاء القانون، من أنصار هذا المذهب تدخل الدولة عن طريق أجهزتها الإدارية العامة، قيداً على حرية الأفراد. ويضيفون أن كل الخير في عدم التدخل في الحقل الاقتصادي. لكنهم، إثر نتائج الحروب، والثورة الصناعية، وشيوع المذهب الاشتراكي، والأزمات الاقتصادية، وجدوا أن تدخل الدولة شر لا بد منه ويجب أن يحصر في نطاق ضيق جداً.

أما الماركسيون فيقولون بتدخل الدولة إلى أقصى مدى، وذلك من أجل إلغاء الملكية الفردية وجميع قيم المجتمع الرأسمالي وتقاليده، ولن يكون هذا إلا عن طريق إيجاد الأجهزة الإدارية العامة التي تؤدي في النهاية إلى قلب المجتمع التقليدي رأساً على عقب بتغيير الواقع تغييراً جذرياً وشاملاً.

وفي الدولة التي تعتنق المذهب الاشتراكي ولا تقول بإلغاء الطبقات ولا تأخذ بالمذهب الفردي بصورة نهائية، يرى الفقهاء أن وجود الإدارة العامة ضرورة لا بد منها إلى جانب النشاط الفردي؛ وذلك من أجل إلغاء استغلال الإنسان للإنسان وإشباع الحاجات العامة التي يعجز الأفراد عن إشباعها، عن طريق الأجهزة الإدارية العامة؛ وهذه هي وظيفة المرفق العام.

لقد أصبح للإدارة العامة في الوقت الراهن، أهمية قصوى فمن غيرها لا يمكن تنظيم شؤون المجتمع أو تحقيق النمو الاقتصادي، ومن ثم فوجود الإدارة العامة، والمذهب التدخلي عن طريق الأجهزة الإدارية العامة أصبح مسلماً به من قبل جميع المجتمعات رأسمالية كانت أم اشتراكية وذلك لوجود ضرورات ملحة أجبرت جميع الدول على تبني المذهب التدخلي.

مهام الإدارة العامة

للإدارة العامة مهام تنظيمية وتخطيطية وأخرى فنية، تتعلق الأولى بتحديد ما هو ممكن من مُثل أو أهداف منشودة، وقيادة العمل الإداري. ويدخل في وظيفة التصور عملية التنبؤ وما يتبعها من إعلام وتنظيم وإحداث وترتيب للمصالح الإدارية المتخصصة أما الوظائف القيادية فهي مهام توجيه وتحضير أعمال قيادة الأعمال وإصدار الأوامر وتنفيذها ومراقبة استخدام الوسائل اللازمة لذلك.

والمهام الفنية، وهي مهام ذات طابع قومي، تتعلق بتمثيل المصالح القومية داخلياً وخارجياً وحمايتها، أو ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي، تتعلق بالتنفيذ والتسيير بقصد تلبية الحاجات العامة للمجتمع مباشرة. ويمكن تلخيص الوظائف أو المهام الرئيسة للإدارة العامة بما يلي:

التخطيط: يعرَّف التخطيط بأنه «التدبير الذي يرمي إلى مواجهة المستقبل بخطط منظمة سلفاً لتحقيق أهداف محددة»، ويعد التخطيط من أهم وظائف الإدارة العامة، وهو الفكرة التمهيدية السابقة لتنفيذ أي عمل من الأعمال. ومن خلال التخطيط يستطيع القائد الإداري تحديد الهدف المنشود والوسائل الكفيلة بتحقيقه بأقل تكلفة ممكنة وفي الوقت المناسب ولا سيما أن الأعباء التي ألقيت على عاتق الدولة جسيمة حداً، ولا يمكن تحقيقها بصورة عشوائية وعفوية.

التنظيم الإداري: هو من الوظائف المهمة التي تلقى على عاتق الإدارة العامة وذلك لكثرة الحاجات المستجدة للمواطن ولندرة المواد الأولية التي تخدم إشباع هذه الحاجات. ويعد التنظيم من أهم المصادر التي تؤدي إلى تحقيق الوفر عن طريق استغلال الطاقات البشرية ومنع تبعثر الجهود وتعارضها. لذلك يجب على الإدارة دراسة الأعمال التي تهمها وتحليلها من أجل تحقيق أهدافها واستبعاد جميع الأعمال والإجراءات غير المفيدة، ومن ثم يجب توزيع هذه الأعمال على الأشخاص الذين عليهم القيام بها وتحديد المسؤوليات التي تقع على عاتقهم والعلاقات القائمة فيما بينهم.

القيادة الإدارية: إن القيادة هي العصب الحساس في كل مفصل من مفاصل الإدارة العامة، والقائد الإداري يقوم بدور بارز في نجاح الأجهزة الإدارية أو إخفاقها في الوصول إلى أهدافها، فبكفاية القائد ودرايته يمكن الوصول بالمرفق العام إلى بر الأمان وبإهماله وعدم الاهتمام به يكون دماره. لذلك يجب على الحكومات العناية باختيار القادة الإداريين ومتابعة تدريبهم وزيادة خبراتهم وقدراتهم من أجل ضمان استمرار المرفق العام في أداء مهمته.

التنسيق: يقع على عاتق القائد الإداري مهمة التنسيق بين عناصر الإدارة الواحدة عن طريق إشراك المرؤوسين في وضع الخطط أو في اتخاذ القرارات... ويمكن أن يكون التنسيق بين الإدارة والسلطة السياسية والهيئات المحلية والجماعات ذات المصلحة.

الاتصال: تتم عملية الاتصال من قبل الرئيس الإداري عن طريق إعلام المرؤوسين بما تم تنفيذه من خطط المشاريع التي يعطيها الأولوية والتعديلات التي تفرضها المستجدات والصعوبات التي تعترض تنفيذ مشروع من المشاريع. وكذلك يمكن للمرؤوسين أن يُعلموا رئيسهم بكل أمر يرون أنه ذو نفع، أو يلحق ضرراً بالمرفق، ولكن يجب أن يحدث الاتصال عن طريق القنوات التي تحافظ على تدرج السلم الإداري أي إنه يجب ألا يتخطى المرؤوسون رؤساءهم المباشرين إلا في حالات الضرورة والاستعجال.

الرقابة: إن الرقابة هي الوظيفة الاستراتيجية الحساسة داخل الكيان الإداري لأنها تتعلق بالتخطيط والتنظيم وتحديد المسؤولية وتنقل للقائد الإداري جميع المعلومات التي تتعلق بتنفيذ الخطط وبلوغ الأهداف المنشودة. وللرقابة ثلاثة أنواع، إدارية، وقضائية، وسياسية. وكل واحدة منها تمارسها جهة متخصصة مختلفة ومستقلة عن غيرها.

محمد الحسين

الموضوعات ذات الصلة:

القانون الإداري

مراجع للاستزادة:

ـ كمال غالي. الإدارة العامة (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٧٥ـ١٩٧٦).

ـ سليمان محمد الطماوي، مبادئ علم الإدارة العامة، الطبعة الرابعة (القاهرة ١٩٦٩).

- JEAN- MARIE AUBY, Droit public, 2 ed.(Economica, Paris 1989).

■ إدارة قضايا الدولة (في سورية)

إدارة قضايا الدولة administration du contentieux de l'etat هي الجهة التي تنوب عن الدولة، وعن الجهات المشمولة باختصاصها، فيما يُرفع منها أو عليها من دعاوى لدى المحاكم على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وكذلك لدى الجهات الأخرى التي خولها القانون اختصاصاً قضائياً.

نشأتها

كانت وزارة المالية في سورية، قبل عام ١٩٥٩، تقوم بهذه المهمة عن طريق التعاقد مع المحامين الخاصين. كما كانت هناك هيئة قانونية في مصر تقوم بهذه المهمة تسمى إدارة قضايا الحكومة. وبعد قيام الوحدة بين سورية ومصر صدر القانون رقم ٥٨ تاريخ ٢١/٢/١٩٥٨ بإحداث إدارة قضايا الحكومة التي يشمل اختصاصها القطرين الشمالي والجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة.

وبعد ثورة الثامن من آذار لعام ١٩٦٣ ازدادت وظائف الدولة في الجمهورية العربية السورية، واتسع نشاطها في القطاع الاقتصادي، مما استتبع تشعب علاقات الدولة، ونتج عن ذلك منازعات كثيرة انتقلت إلى ساحة القضاء، فازدادت مسؤولية إدارة قضايا الحكومة مما اقتضى تغييراً في هيكلها، فصدر القانون رقم ٥٥ تاريخ ١٧/١٢/١٩٧٧ بإحداث إدارة قضايا الدولة في وزارة العدل تلبية لهذه الحاجات المتزايدة.

وتختلف مهام إدارة قضايا الدولة عن كل من مجلس الدولة [ر] والنيابة العامة [ر]. فمجلس الدولة هو مجموعة المحاكم المختصة بالفصل في المنازعات الإدارية بين الدولة والأشخاص في حالات محددة في قانونه على سبيل الحصر. والنيابة العامة هي صاحبة دعوى الحق العام في الدعاوى الجزائية، وهي تنوب عن المجتمع. أما إدارة قضايا الدولة فهي محامي الدولة فيما يُرفع منها أو عليها من دعاوى.

اختصاصها

تستمد إدارة قضايا الدولة اختصاصاتها من قانون إحداثها، فهي تقوم بالمهام التالية:

- تتولى مهمة الوكيل بالخصومة عن الدولة، فهي محامي الدولة، لها كل الاختصاصات والصلاحيات التي يتمتع بها المحامي الخاص الوكيل عن الأشخاص بموجب أحكام قانون المحاماة، إلا أنه ليس للجهة العامة تحديد سلطة الإدارة أو الحد منها، أما سلطة المحامي الخاص فمصدرها الوكالة الممنوحة له من قبل الموكل وفي حدود هذه الوكالة [ر].

- تقترح على الجهة العامة التي تنوب عنها، الصلح أو التحكيم إذا رأت أن المصلحة العامة تقضي بذلك، وللجهة العامة الموافقة على الاقتراح أو رفضه مع بيان الأسباب. على أنه لا يجوز للجهة العامة إجراء أي صلح أو تحكيم أو تسوية في موضوع دعوى تباشرها إدارة قضايا الدولة إلا بعد استطلاع رأيها.

- تمارس حق الطعن في جميع درجات التقاضي في أي حكم ترى أنه مخالف للقانون ولا يضمن حقوق الدولة. أما إذا ارتأت أنه لا جدوى من الطعن في بعض الأحكام الصادرة على الدولة، فيجوز بقرار من رئيس الإدارة أو من يفوض إليه ذلك من نوابه، عدم الطعن في هذه الأحكام شرط موافقة الوزير الذي تتبعه الجهة العامة المختصة بالدعوى.

- تتولى تبلّغ استدعاءات الدعوى المرفوعة على الدولة، وكذلك الأحكام الصادرة في الدعاوى التي تكون الدولة طرفاً فيها. وقد حجب قانون الإدارة عن الجهات العامة تبلغ الأحكام، خلافاً لقانون أصول المحاكمات الذي ينص على جواز التبليغ للمدعي أو المدعى عليه أومحامي كل منهما، وهذا يزيد من مسؤولية إدارة قضايا الدولة إذ تعد هي صاحبة الدعوى.

- تتعاقد، عن طريق رئيس الإدارة أو من يفوض إليه ذلك من نوابه، مع محامين خاصين للترافع في الدعاوى التي تقام من الدولة أو عليها خارج القطر أمام المحاكم الأجنبية أو هيئات التحكيم الدولي. وتراقب الإدارة سير هذه الدعاوى وتشرف على أعمال المحامين المتعاقدين. ويشمل اختصاص الإدارة الجهات التالية:

- الوزارات والإدارات العامة والبلديات والوحدات الإدارية.

- الجهات العامة الأخرى والمؤسسات العامة والشركات والمنشآت العامة وباقي جهات القطاع العام أو المشترك التي تحدد بقرار من رئيس مجلس الوزراء.

تنظيمها

تتألف إدارة قضايا الدولة من رئيس وأربعة نواب للرئيس، ومن عدد من محامي الدولة يكون شأنهم، فيما يتعلق بشروط التعيين والمرتب والتعويضات شأن من يساويهم في المرتبة والدرجة من القضاة، ويؤازر محامي الدولة في أداء مهامهم عدد من المساعدين القضائيين ومن المحضرين والمستخدمين، ويكون لهذه الإدارة موازنة خاصة يتولى مهمة آمر الصرف فيها رئيس الإدارة أو من يفوض إليه ذلك.

ويلتزم محامو الدولة ما نص عليه قانون المحاماة من التزام الوكيل تجاه موكله فيما يتعلق بأداء واجبات مهنته، وذلك فيما لا يتعارض وأحكام قانون إدارة قضايا الدولة. ولا يجوز الجمع بين عمل محامي الدولة وأي عمل أو مهنة أخرى باستثناء التدريس في الجامعات.

وتتكون إدارة قضايا الدولة من إدارة مركزية وفروع في مراكز المحافظات وشعب في مراكز المناطق. تتألف الإدارة المركزية من أقسام النقض والقضاء الإداري والدراسات القانونية، وتتبع هذه الأقسام مباشرة رئيس الإدارة. ويتألف فرع الإدارة في مركز المحافظة من أقسام الاستئناف، والبداية، والصلح واللجان، والتنفيذ، وشعب المناطق. وتتبع هذه الأقسام والشعب رئيس الفرع الذي له الإشراف والتوجيه، وترتبط الفروع مباشرة برئيس إدارة قضايا الدولة.

سير العمل فيها

يختلف عمل محامي الدولة عن عمل المحامي الخاص، فهذا الأخير يتولى الدعوى في درجات التقاضي كافة بداية واستئنافاً وأمام محكمة النقض، ويباشر الدعاوى أمام المحاكم كافة مدنية وجزائية وإدارية. أما محامي الدولة فيتولى دعاوى الدولة أمام محكمتين أو ثلاث محاكم فقط ومن درجة واحدة. ولهذا مزية تخصصية، وهو بذلك يتيح لزملائه الأكثر خبرة وكفاية التقاضي في المحاكم ذات الدرجات الأعلى. وبذلك يكون عمل محامي الدولة تعاونياً وجماعياً إذ يشترك في دراسة الدعوى ومتابعتها أكثر من محام واحد.

تبلّغ استدعاءات الدعاوى المرفوعة على الدولة إلى ديوان إدارة قضايا الدولة في الفرع، ويحيلها هذا فوراً على المحامي المختص بمباشرة الدعاوى أمام المحكمة المرفوعة أمامها الدعوى. فيقوم محامي الدولة بدراسة استدعاء الدعوى، ويرسل صورة عنها إلى الجهة العامة المختصة مرافقة بكتاب يطلب فيه بيانات ومستندات يحددها، وبعد ورود جواب الجهة العامة يعد

محامي الدولة مذكرة خطية بالرد على استدعاء الدعوى يضمنها وجهة نظر الجهة العامة مدعمة بالمستندات الرسمية وبالنصوص القانونية والاجتهادات القضائية، ثم يقدم دفاعه إلى المحكمة ويتابع سير الدعوى أمامها حتى يصدر حكم في الدعوى فيرفع الحكم مع ملف الدعوى مبيناً رأيه فيه إلى رئيس القسم الذي يرفعه إلى رئيس قسم الاستئناف مع مطالعته حول هذا الحكم، فإذا وجد هذا الأخير أن الحكم لا يتفق ومصلحة الدولة ومخالف للقانون يحيله على محامي الدولة المختص لاستئنافه، أما إذا رأى أن الحكم لمصلحة الدولة أو أنه متفق وحكم القانون فيرفعه إلى رئيس الفرع مع اقتراح بعدم استئنافه. هذا فيما يتصل بالأحكام الصادرة عن محاكم الدرجة الأولى، أما الأحكام الصادرة عن محاكم الاستئناف فترسل إلى رئيس قسم النقض في الإدارة المركزية للطعن فيها أمام محكمة النقض.

وإذا أرادت إحدى الجهات العامة رفع دعوى على شخص ما، أرسلت إلى فرع إدارة قضايا الدولة في المحافظة مذكرة بموضوع الدعوى وأسباب النزاع وطلبات الجهة العامة، وترافق المذكرة بالبيانات والمستندات المؤيدة لهذه الطلبات. وتحال هذه المذكرة على محامي الدولة المختص برفع الدعاوى. ثم تسير الدعوى بالطريق نفسه الذي تسير فيه الدعوى المرفوعة على الدولة.

وفي حال صدور حكم مبرم على الدولة يبلغه الخصم عن طريق دائرة التنفيذ إلى إدارة قضايا الدولة، وهذه تحيله على الجهة العامة المختصة لتنفيذه. أما إذا كان الحكم لمصلحة الدولة فتقوم الإدارة بتبليغه للخصم. ثم تعمد الجهة العامة الصادر الحكم لمصلحتها إلى تنفيذه.

ويكون هذا التنفيذ إما عن طريق وزارة المالية وفقاً لأحكام قانون جباية الأموال العامة، أو عن طريق دائرة التنفيذ للتنفيذ على أموال المحكوم عليه وفق الإجراءات المنصوص عليها في قانون أصول المحاكمات المدنية.

محمود التل

الموضوعات ذات الصلة:

قانون أصول المحاكمات المدنية - القضائي (تنظيم -) - المحامي.

■ الإدارة المالية

تعد إدارة الشؤون المالية من أهم الوظائف الرئيسة في المشروعات الاقتصادية إذ لا تمكن ممارسة النشاطات المختلفة في المشروع إنتاجاً أو تسويقاً من دون توافر الأموال اللازمة للإنفاق على هذه النشاطات.

وتتركز الوظيفة المالية في المشروع حول إدارة الأموال التي تتمثل في الحصول على الأموال اللازمة للمشروع من جهة، ثم استخدام هذه الأموال استخداماً اقتصادياً رشيداً من جهة أخرى. وهكذا يمكن تعريف الإدارة المالية la gestion financière بأنها الوظيفة التي تهدف إلى تحديد حاجات المشروع الاقتصادي من الأموال اللازمة لتوفير احتياجاته من التجهيزات ووسائل الإنتاج من جهة، ولتمويل عملياته الجارية من جهة أخرى. ولكي تتحقق الأهداف المتوخاة من توفير الأموال اللازمة للمشروع لا بد من أن يتم ذلك في الوقت المناسب، وبأقل كلفة ممكنة، وألا يؤدي ذلك إلى التأثير في استقلال المشروع، أي إن على الإدارة المالية اختيار أفضل البدائل فيما يتعلق بتوقيت التمويل، ونوعه ومصادره المتاحة. ولا يقتصر دور الإدارة المالية على توفير الأموال، بل يتجاوز ذلك إلى السهر على سلامة استخدام هذه الأموال استخداماً اقتصادياً رشيداً فعالاً، وهذا يعني ممارسة دور الرقابة على استعمال الأموال.

ولما كان نشاط المشروع لا يتناول الحاضر فقط بل يمتد إلى المستقبل، فإن دور الإدارة المالية لا يقتصر على حل المشاكل المالية الآنية فحسب، بل يسهم في تحديد الخيارات الأساسية في حياة المشروع، وآفاق تطوره في المستقبل.

وهكذا فإن الإدارة المالية تشمل مهام متعددة تتناول أساساً التخطيط المالي لتحديد حاجة المشروع الآنية والمستقبلية إلى الأموال وتوفيرها في الوقت المناسب ومن المصدر المناسب. ثم الرقابة على استخدام هذه الأموال وتقويم النتائج التي تتحقق باللجوء إلى وسائل التحليل المالي المختلفة.

التحليل المالي

يُعد التحليل المالي إحدى الأدوات الأساسية للإدارة المالية في المشروع الاقتصادي. ولما كانت أهم أهداف الإدارة المالية تتمثل في البحث المستمر عن تحقيق التوازن المالي في المشروع، وتأمين تمويله، ومراقبة سير أعماله والنتائج التي يحققها، فإن مهام التحليل المالي تتركز في البحث عن الشروط اللازمة لتحقيق التوازن المالي في المشروع وتحليل نتائج أعماله. من أجل تنفيذ هذه المهام يعتمد التحليل المالي على دراسة البيانات المالية والمحاسبية وتحليلها وتفسيرها، وكشف العلاقات القائمة بينها، وذلك بهدف كشف مواطن الضعف وأسبابها وسبل معالجتها، وتعرُّف مواطن القوة، والعمل على تعزيزها ودعمها.

وتختلف الغاية من التحليل المالي والوسائل التي يستخدمها والبيانات التي يحتاج إليها باختلاف الجهات التي تقوم بهذا التحليل. ويسعى كل طرف من الأطراف المعنية بالتحليل المالي إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات التي تمس مصالحه. والأطراف الأساسية التي تهتم بتحليل الوضع المالي للمشروع هي التالية:

إدارة المشروع: المشروع الاقتصادي، فيما يتصل بالإدارة، كل متكامل تتضافر فيه كل الجهود، وفي مختلف أوجه النشاط، لتحقيق هدف محدد. ولذلك فإن اهتمام الإدارة ينصرف إلى تعرف الجوانب الإيجابية والسلبية في نشاط المشروع وتقويم نتائج أعماله. فالتحليل المالي فيما يتعلق بالإدارة أداة تحليل واستقصاء وتفسير ورقابة وتقويم أداء. وتساعد نتائج التحليل المالي وتحليل النتائج التي يحققها وتفسيرها في وضع الخطط المستقبلية للمشروع. فالتخطيط السليم للمستقبل يجب أن يأخذ تجربة الماضي والدروس المستفادة منها في الحسبان.

الدائنون: يتألف دائنو المشروع عادة من فئتين هما: أصحاب الديون طويلة الأجل ومتوسطته، وأصحاب الديون قصيرة الأجل. إن جُلّ اهتمام دائني المشروع ينصرف إلى دراسة وضعه من زاوية قدرته على الوفاء بالتزاماته وتوفية ديونه، ومن ذلك تسديد الفوائد المترتبة على هذه الديون، في مواعيد استحقاقها.

أصحاب المشروع: أصحاب المشروع هم المساهمون في شركات الأموال أو الشركاء في

شركات الأشخاص أو الدولة في الشركات العامة. إن ارتباط هؤلاء الوثيق بمصير المشروع ونجاحه، يجعل اهتمامهم يتركز على سلامة الهيكل المالي العام للمشروع من جهة، ومعرفة قدرته على تحقيق الربح وما سينتج عن ذلك من عائد على الأموال المستثمرة فيه من جهة أخرى.

جهات أخرى: وهي مجموعة الأطراف الأخرى التي ليس لها ارتباط مباشر بالمشروع، مثل أجهزة التخطيط، والمراكز الإحصائية ومصالح الضرائب، وغيرها من الجهات التي تهتم بتحليل الوضع المالي للمشروع ودراسته من أجل الحصول على بيانات محددة تتعلق بالنشاطات التي تمارسها هذه الجهات.

الخطة المالية

تقوم إدارة المشروع الاقتصادي على مجموعة من القرارات. وفي الوقت الذي تتميز فيه هذه القرارات بالبساطة وقلة العدد في المشروعات الصغيرة، فإن طبيعة المشروعات الكبيرة واتساع نشاطاتها تجعل هذه القرارات أكبر عدداً وأكثر تعقيداً. وكلما كبر حجم المشروع وازدادت متطلبات نموه احتاج إلى مزيد من الاستثمارات، ثم إلى مزيد من الإنفاق، مع ما يرافق ذلك من زيادة في حجم المخاطرة.

إن تسارع الأحداث والتطورات الاقتصادية، والوتائر العالية للتقدم التقني، تفرض على المشروع الاقتصادي محيطاً دائم الحركة يقتضي منه التكيف المستمر والتفاعل مع المتغيرات، واتخاذ القرارات المناسبة في الأوقات المناسبة. لذلك فإن المشروع الاقتصادي يجد نفسه على الدوام أمام عدد من الخيارات التي تقتضي اتخاذ قرارات متعددة الاتجاهات، منها ما يتعلق بالحاضر ومنها مايتعلق بالمستقبل.

إن التخطيط لنشاطات المشروع المستقبلية يتناول نوعين رئيسين من النشاط: الأول يتناول الإنتاج والمبيعات في الدورة المالية القادمة، أي ما يُدعى بالنشاط الجاري أو بالعمليات الجارية في الأجل القصير، والثاني يتعلق بالنشاط الاستثماري الذي يتناول الحصول على أصول ثابتة جديدة، ويمتد في أغلب الأحيان على مدى عدد من السنوات القادمة.

وفي كلتا الحالتين يجب على المشروع أن يخطط لنشاطاته المستقبلية في صورة خطة قصيرة الأجل (موازنة تقديرية) لعملياته الجارية، وفي صورة خطة طويلة الأمد تتناول عملياته الاستثمارية. ولا بد للمشروع من أن يقدر النفقات والإيرادات المتوقعة من جهة ومصادر التمويل من جهة أخرى، إضافة إلى ضرورة المحافظة على التوازن المالي للمشروع وتحقيق ربح مناسب. وهذا يستدعي أن يكون لدى المشروع خطة مالية قصيرة الأجل من أجل عملياته الجارية تتناول تقدير النفقات والإيرادات والحاجة المتوقعة إلى التمويل قصير الأجل ومصادره، وخطة مالية طويلة الأجل فيما يتعلق بعملياته الاستثمارية، ومبالغ التمويل اللازمة، والجدول الزمني لها ومصادر هذا التمويل. وباختصار يمكن القول إن الخطة المالية هي التعبير المالي المدروس والمتوازن لخطة المشروع بشقيها الجاري والاستثماري.

وسائل التمويل

يحتاج المشروع إلى الأموال من بداية إنشائه، للحصول على وسائل الإنتاج والتجهيزات اللازمة لمباشرة العمل، ثم إلى تمويل عملياته الجارية ونشاطه اليومي، وبعد ذلك، وللتوسع والتطور في مراحل لاحقة.

إن اختيار وسيلة التمويل الملائمة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة العملية المطلوب تمويلها من حيث كونها من العمليات الجارية أو من العمليات الاستثمارية من جهة، وبالمدة المناسبة للتمويل، تمويل طويل الأجل أو تمويل قصير الأجل من جهة أخرى. فالمبدأ الأساسي المعروف لاختيار وسيلة التمويل الملائمة يقوم على أساس أن العمليات طويلة الأجل تحتاج إلى تمويل طويل الأجل، أما العمليات الجارية قصيرة الأجل فيمكن تمويلها من مصادر تمويل قصيرة الأجل. وبمعنى آخر تجب المحافظة على القاعدة التي تقول بضرورة تحقيق الانسجام بين درجة استحقاق التمويل، ودرجة سيولة العناصر أو العمليات المطلوب تمويلها.

تمويل الأصول الثابتة: لما كانت درجة سيولة الأصول الثابتة ضعيفة جداً، فإن تمويلها يجب أن يتم بوساطة مصادر تمويل طويلة الأجل:

بوساطة الأموال الخاصة: أي من رأس المال المخصص للمشروع عند إنشائه، وفي مراحل زيادة رأس المال اللاحقة، أو من الأموال المقتطعة فيما بعد من أرباحه على شكل احتياطات، أو من الاهتلاكات amortissements عند استبدال الأصول الجديدة بالأصول الثابتة القديمة.

بوساطة القروض طويلة الأجل ومتوسطته: وذلك إما عن طريق طرح القروض للاكتتاب في الأسواق المالية، أو عن طريق الاقتراض من المصارف ومؤسسات الإقراض المتخصصة، أو من بعض الجهات الحكومية المختصة فيما يتصل بمشروعات القطاع العام.

تمويل الأصول المتداولة: تتميز الأصول المتداولة بالدوران والتغير من شكل إلى آخر، إلى أن تتحول في نهاية الدورة الإنتاجية إلى سيولة نقدية. ولما كانت درجة سيولة هذا النوع من الأصول أكبر من درجة سيولة الأصول الثابتة، وهي تتحول في مدة يختلف طولها بحسب طبيعة المشروعات إلى سيولة نقدية، فإنه ليس من الضروري تمويلها من مصادر تمويل طويلة الأجل، وإنما يمكن أن يتم ذلك من مصادر تمويل قصيرة الأجل.

غير أن ضرورة الاحتياط لمخاطر تباطؤ دورات بعض هذه العناصر، أو التقلبات الموسمية التي قد تواجهها بعض المشروعات، تقتضي أن يكون جزء من الأصول ممولاً من مصادر تمويل طويلة الأجل لتؤلف هامش أمان للمشروع يتمثل في شكل رأس مال عامل صاف fonds de roulement net.

ويتناول التمويل قصير الأجل توفير المواد الأولية، ودفع أجور اليد العاملة، والمصاريف الأخرى، أي تمويل الدورة الإنتاجية، ويمكن أن يخصص جزء منه لتمويل المبيعات الآجلة فيسهم بذلك في تمويل الدورة التجارية. ومن الناحية العملية يمكن أن يتم التمويل قصير الأجل عن طريق الاقتراض من المصارف بأشكال متعددة مثل حسم الأسناد التجارية، والحسابات المدينة على المكشوف، وقروض التمويل.. أو بالحصول على تسهيلات دفع من قبل الموردين.

تمويل المشروعات في الجمهورية العربية السورية

يمكن تقسيم المشروعات الاقتصادية في الجمهورية العربية السورية إلى ثلاثة أنواع: مشروعات القطاع العام، ومشروعات القطاع المشترك، ومشروعات القطاع الخاص.

ولا تختلف طرق تمويل النوعين الأخيرين - مشروعات القطاع المشترك ومشروعات القطاع الخاص - عن الشكل العام للتمويل المذكور سابقاً، أي من رأس المال في البداية وزياداته اللاحقة، ومن التمويل الذاتي من الاحتياطات

والاهتلاكات، أو باللجوء إلى الاقتراض لآجال طويلة من المصارف فيما يتعلق بالتمويل الاستثماري، وبالاقتراض لآجال قصيرة من المصارف، أو بالحصول على تسهيلات بالدفع من الموردين فيما يتعلق بتمويل العمليات الجارية.

وفيما يتصل بمشروعات القطاع العام، تقوم الدولة ممثلة بصندوق الدين العام بتوفية رأس المال للمشروعات الجديدة أو زيادات رأس المال اللاحقة عند الاقتضاء. وتقضي الأنظمة النافذة في الجمهورية العربية السورية أن تحول شركات القطاع العام ومؤسساته أرباحها واحتياطاتها واهتلاكات أصولها الثابتة إلى صندوق الدين العام، الذي يقوم بالمقابل بتمويل العمليات الاستثمارية المخططة لهذه الشركات والموافق عليها من المجلس الأعلى للتخطيط تمويلاً ذاتياً عن طريق التقاص بين المبالغ اللازمة لهذه الاستثمارات ومبالغ الأرباح والاحتياطات والاهتلاكات المحولة إليه من قبل هذه الشركات. ويمكن أن يقوم صندوق الدين العام بتمويل العمليات الاستثمارية المخططة للشركات أو المؤسسات التي ليس لها تمويل ذاتي عن طريق الإقراض طويل الأجل.

أما فيما يتعلق بتمويل العمليات الجارية فيمكن أن تلجأ شركات القطاع العام إلى المصارف المتخصصة لتغطية حاجات التمويل قصير الأجل. ويجدر بالذكر أن تنظيم القطاع المصرفي الحالي في الجمهورية العربية السورية قد راعى إمكانية تلبية الحاجات التمويلية لكل الأنشطة من قبل المصارف الموجودة وبحسب اختصاص كل منها [ر. المصارف].

صافي فلوح

الموضوعات ذات الصلة:

إدارة الأعمال - إدارة الأفراد - إدارة الإنتاج - إدارة المشروع.

■ الإدارة المحلية

تخضع السلطة الإدارية في تنظيمها إما إلى أسلوب المركزية الإدارية، إذ تتركز الوظيفة الإدارية في يد هيئة واحدة تتولى دواوينها في العاصمة وفروعها في الأقاليم إدارة جميع الشؤون والمرافق العامة من قومية ومحلية، أو إلى أسلوب اللامركزية الإدارية، إذ يتم توزيع الوظائف الإدارية في الدولة بين السلطة المركزية وهيئات محلية أو مرفقية مستقلة تباشر نشاطها تحت إشراف السلطة المركزية ورقابتها. وهذا الأسلوب الثاني هو مايعرف بأنه نظام الإدارة المحلية local administration.

ويرتكز هذا النظام على عدد من الأسس أهمها التالية:

- الاعتراف بوجود مصالح محلية مستقلة عن المصالح القومية يقتضي الاعتراف لها بالشخصية المعنوية المستقلة.

- تولي هيئات منتخبة الإشراف على هذه المصالح المحلية: فانتخاب أعضاء المجالس المحلية يعدّ أحد الأركان الأساسية لضمان استقلال هذه المجالس عن السلطات المركزية ولإرساخ مفهوم الديمقراطية الذي يمثل روح العصر الحديث ولاختيار أعضاء المجالس المحلية من الأشخاص الذين يرتبطون ارتباطاً مباشراً بالمصالح المحلية. وتنجم عن ذلك ممارسة السيادة الشعبية ومزاولة الشعب بنفسه مسؤولياته العامة.

- وجود الرقابة الإدارية: إذ يستتبع وضع النظام اللامركزي في حيز التنفيذ الفعلي إيجاد عدد من رجال القانون العام المستقلين عن الدولة سواء من حيث أهليتها القانونية أو من حيث ذمتها المالية وموظفوها ومسؤوليتها. غير أن هذا الاستقلال يجب ألا يكون مطلقاً، وإلا أصبحت الهيئات المحلية دولاً داخل دولة. وتمارس الهيئات المحلية الاختصاصات المنوطة بها تحت إشراف الإدارة المركزية وضمن إطار رقابة فعالة من قبل هذه الأخيرة، حرصاً على حماية الوحدة القانونية والسياسية للدولة.

إلا أن الرقابة التي تمارسها الحكومة المركزية على أعمال الهيئات اللامركزية ليست مطلقة كذلك، وإنما هي رقابة مقيدة ومحصورة في نطاق معين لا يصح أن تتجاوزه وإلا كانت محلاً للطعن من الهيئة اللامركزية، وتبعاً لذلك فإن الهيئات المركزية لا تملك سلطة التوجيه أو إصدار الأوامر والتعليمات الملزمة للوحدات الإدارية المستقلة. في حين أنها لدى ممارستها سلطة التعقيب على أعمال هذه الوحدات لا تملك، في مواجهة هذه الأعمال، إلا أحد طريقين: فهي إما أن تصدق عليها جملة أو ترفضها جملة، ومفاد ذلك أنها لا تملك أن تلغي هذه الأعمال أو تسحبها أو تعدلها أو تعدل آثارها كلها أو بعضها، وذلك لأن الوحدات الإدارية المحلية تستطيع التمسك بقراراتها على الرغم من اعتراض الهيئة المركزية عليها، بل تستطيع هذه الهيئات المركزية أن تخاصم هذه القرارات أمام القضاء الإداري عند مخالفتها لمبدأ الشرعية.

الأسباب الداعية لتبني نظام الإدارة المحلية

نشأ مفهوم اللامركزية الإدارية، المتمثل في نطاق نظام الإدارة المحلية الذي تبنته غالبية الدول المعاصرة التي تأصلت فيها النظم الديمقراطية، نتيجة للأسباب التالية:

- أضحت مهام الدول المعاصرة عظيمة الاتساع، لذا أصبح من المتعذر أن تنهض بها السلطة المركزية في العاصمة، ويكون الأخذ بنظام الإدارة المحلية مما يخفف كثيراً عن عاتق السلطة المركزية التي يجب أن تنصرف للقضايا ذات الطابع القومي.

- يعد نظام الإدارة المحلية تطويراً في التنظيمات الإدارية، وبوجه خاص في الوقت الحاضر الذي تعقدت فيه الوظيفة الإدارية، وتنوعت فيه المرافق العامة تحت تأثير السياسات التي تتبعها الدول المعاصرة، وتبعاً لذلك فقد أصبح من الأصلح للأجهزة الإدارية أن تتعدد، وأن تتنوع أساليب نشاطها بقدر تعدد الحاجات العامة وتنوعها، كما أصبحت ضرورات الإصلاح الإداري تقضي بأن تكون هذه الأجهزة قريبة من مصدر الحاجات العامة التي تقوم بإشباعها، وأن تكون متصلة قدر الإمكان، اتصالاً مباشراً ودائماً بهذه الحاجات، حتى تفهم مقتضياتها وحتى تستطيع أن تحدد سلوكها وأعمالها في ضوء المقتضيات نفسها.

ـ يؤدي النظام اللامركزي المتمثل بنظام الإدارة المحلية إلى منح الوحدات المحلية الاستقلال في إدارة المشروعات والمرافق المحلية المتصلة اتصالاً مباشراً بالحاجات العامة. وهذا الاستقلال للوحدات المحلية يسهم من دون شك في تبسيط الإجراءات، وتجنب النظام الرتيب (الروتين) والبطء في صدور القرارات المتعلقة بالمصالح المحلية.

ـ يكفل نظام الإدارة المحلية قدراً من العدالة في توزيع الضرائب العامة، لأن كل إقليم سيحصل على ما يحتاج إليه من موارد مالية لمواجهة المصالح المحلية، فلا تطغى مرافق العاصمة والمدن الكبرى على مرافق الأقاليم كما هي الحال لو أخذ بنظام المركزية الإدارية.

ـ يسهم نظام الإدارة المحلية في تقوية البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للدولة بتوزيع القوى المنتجة بدل تركيزها في العاصمة، والعمل على ترابط الدعائم التي يقوم عليها هذا البناء لمواجهة الأزمات الداخلية والأخطار الخارجية التي تتعرض لها الدولة. وليس صحيحاً ما تردده بعض الاتجاهات الغربية من أن الدول السائرة في طريق النمو لا يصلح شأنها أو يدفع بها نحو التقدم والازدهار إلا تركيز السلطة في قمة أجهزتها، ذلك لأن التقدم إنما يستلزم العمل على الاستفادة الكاملة من كل طاقة يمكن الاعتماد عليها في أي مستوى من المستويات. ومن شأن توزيع السلطة في الوحدات المحلية شحذ الهمم وتشجيع الإسهام في العمل العام من دون أن يضر ذلك بالمصالح القومية. إذ يمكن أن تحتفظ السلطة المركزية في جميع الأحوال بالقضايا الجوهرية وتوجه السفينة نحو الاتجاه المنشود.

ـ تعد اللامركزية الإدارية المدرسة الرئيسة لتعليم الديمقراطية وتحمل المسؤوليات، لأن أعضاء المجالس المحلية الذين يقع عليهم هذا العبء يجب أن يحوزوا ثقة سكان الوحدة المحلية، وهم مسؤولون أمامهم. ويمكن أن ينتقل الأشخاص الذين حازوا ثقة سكان الوحدة المحلية بعد ذلك إلى مواقع العمل القومي.

نشأة نظام الإدارة المحلية وتطوره

حين نشأت الوحدات المحلية في إنكلترة نشأة طبيعية، لم تكن السلطة المركزية فيها في أي وقت تجمع في يدها كل الاختصاصات الإدارية، وإنما كانت الوحدات المحلية، منذ عدة قرون تباشر شؤونها الإدارية بنفسها مستقلة عن السلطة المركزية. ولهذا يقول فقهاء الإنكليز إن نظام الحكم المحلي عندهم أقدم عهداً من النظام البرلماني، وإنه وجد قبل أن يوجد مجلس اللوردات ومجلس العموم بمئات السنين وإن الأشخاص الإداريين ينشؤون، عادة، بقانون في كل الدول عدا إنكلترة، فإن الأشخاص الإداريين فيها أقدم في تاريخ نشأتهم من الدولة ومن القانون، وإنهم نشؤوا في تلك البلاد بقوة التطور التاريخي وبفعل الظروف والأحوال الطبيعية. وكما نشأت الوحدات المحلية في إنكلترة نشأة طبيعية فقد كانت هذه الوحدات تتمتع منذ نشأتها بحريتها واستقلالها في إدارة شؤونها من دون أن يكون هناك نص يقرر حقها في ذلك الاستقلال أو تلك الحرية، وظلت محتفظة بهذه الحرية كاملة إلى أواخر القرن الثامن عشر. فلم تكن السلطة المركزية طول هذه الحقبة من الزمن تتدخل في شؤون الإدارة المحلية إلا في بعض الحالات الاستثنائية. ويبدو ذلك من دراسة بعض أنواع الحكومات المحلية وما تتمتع به من حكم ذاتي في بعض المقاطعات والمدن حتى في العصور الأولى من التاريخ البريطاني. فالنظم المحلية في كولشستر ولنكولن ويورك تقوم على أنقاض النظم البدائية التي كانت سائدة في عهد الرومان. إن نظام الإدارة المحلية الإنكليزي يتمثل بكامله في إطار الحكومة المحلية local government الذي يتميز بصفتين رئيستين: الأولى هي أن تكون عضوية مجالس السلطات المحلية نتيجة لانتخابات مباشرة تجري في صفوف مواطني الوحدة، فلا توجد مبدئياً أية سلطة محلية معينة من قبل الحكومة المركزية، والثانية هي تمتع السلطات المحلية المنتخبة بكل الاختصاصات المحلية، فلا يوجد مبدئياً أي اختصاص محلي يتبع الحكومة المركزية.

ويبدو أن نظام اللجان الذي تبنته الوحدات المحلية يعد عصب الحكومة المحلية في إنكلترة. كما أن من مزايا نظام الحكم المحلي الإنكليزي اطلاع أعضاء المجلس اطلاعاً حقيقياً على شؤون الإدارة وحقائقها، مما يجعلهم ذوي خبرة كبيرة في الشؤون التنفيذية. وكذلك يخضع الموظف لرغبات المجلس ولجانه، لأن تعيينه وفصله يدخل في اختصاص المجالس المحلية، كما يدخل في اختصاصها الإشراف على أعمال الشرط (باستثناء شرط لندن) وتعيينهم ودفع أجورهم.

إن نظام الحكومة المحلية الإنكليزي الذي كان يجهل تماماً مفهوم الوصاية الإدارية المطبق في باقي الدول الأوربية بدأ يتبنى مفهوم الرقابة تدريجياً، نتيجة للهبات والمساعدات المالية التي تقدمها الحكومة المركزية إلى السلطات المحلية. وتمكنت السلطة المركزية، عن هذا الطريق من تفتيش الأعمال والمنافع التي تتولاها السلطات المحلية ونقدها وتقديم الاقتراحات لها ومحاسبتها وتنظيمها. واستطاع وزير الصحة في البداية أن يمارس مثل هذه الرقابة حتى صدر قانون الحكومة المحلية عام ١٩٤٨ الذي حاول أن يلائم بين إدارة الوحدات المحلية والتطور الواجب إحداثه في ميدان تنظيم أراضي الأقاليم وتجميلها وتطوير المقاطعات. واستتبع هذا القانون إيجاد وزير للإسكان وللحكومة المحلية أصبح المشرف على الوحدات المحلية حتى عام ١٩٧٠. وفي هذه المرحلة استبدلت حكومة السيد هيث، لأسباب داخلية وفنية، بهذا الوزير وزيراً لشؤون البيئة أصبح يشرف على الوحدات المحلية.

أما في فرنسة فقد تطور نظام الإدارة المحلية باتجاه معاكس لما جرى في إنكلترة، ففرنسة حين تم تكوينها دولة موحدة بزوال عهد الإقطاع كانت السلطة المركزية فيها تجمع في يدها كل الاختصاصات، ولم يكن للهيئات المحلية المستقلة وجود. غير أن السلطة المركزية أخذت مع الزمن تتنازل عن بعض اختصاصاتها للسلطات المحلية مع الاحتفاظ بحق الرقابة عليها. وهكذا نشأت الوحدات الإدارية المحلية المستقلة في فرنسة، وكانت منذ نشأتها خاضعة لرقابة السلطة المركزية. وتبدو الخصائص الرئيسة للتنظيم الإداري المحلي القائم في فرنسة على النحو التالي:

ـ لا يعد دستور الجمهورية الخامسة الوحدات الإدارية مثل الدوائر المحلية arrondissements والوحدات الإدارية الصغيرة المسماة الكانتونات Cantons، التي هي بين المحافظة والكومون، وحدات محلية لها الشخصية الاعتبارية، فهي ليست في الحقيقة سوى إطار عمل إداري أو دوائر انتخابية. وقد أنشئ منذ عام ١٩٥٨ بقوانين عدد من الوحدات المحلية الجديدة. وهذه الوحدات هي مايطلق عليها التجمعات الحضرية communités urbaines في نطاق تجمع عمراني

كبير. وفي فرنسة مستوى آخر فوق مستوى المحافظات، وهو الوحدة الإدارية التي تسمى «الإقليم الاقتصادي». وهذه الأقاليم الاقتصادية والتخطيطية لا ترتبط بالحدود الإدارية للوحدات المحلية، ولكنها تستند في تعيين حدودها إلى أساس اقتصادي واجتماعي.

- يقوم التنظيم الإداري الفرنسي على أساس مبدأ الوحدة أي عدم تعدد أنماط الكومونات والمحافظات. ولكن تعترض هذا المبدأ بعض الاستثناءات الطفيفة. فعلى سبيل المثال، تتمتع الوحدات المحلية بمنطقة باريس بوضع خاص، وكذلك فإن الشروط والقواعد التي تحكم اعتماد الميزانيات البلدية تختلف باختلاف عدد سكان كل بلدية إذا كانت أقل أو أكثر من ٩٠ ألف نسمة.

يبدو أول وهلة أن دستور الجمهورية الخامسة قد أقر مبدأ الحكم الذاتي للوحدات المحلية «تدير الوحدات المحلية شؤونها بنفسها بوساطة مجالس منتخبة»، ولكن الواقع أن هذا الحق مقيد بالقواعد والشروط التي يحددها القانون.

- يتصف نظام الإدارة المحلية في فرنسة بأنه معقد، ذلك لأن إدارة الخدمات التي تقدمها المحافظات إنما تخضع لرقابة موظف يعدّ ممثلاً للحكومة المركزية في كل محافظة. والوحدات المحلية من محافظة أو بلدية لا يقتصر اختصاصها فقط على أداء المهام ذات الطابع المحلي التي عهدت بها القوانين المحلية إليها، بل إنها مسؤولة أيضاً عن أداء المهام والوظائف المركزية التي تؤدى في نطاق كل منها.

الصعوبات التي تجابه أنظمة الإدارة المحلية المعاصرة

بقيت قضايا الإدارة المحلية مدة طويلة من الزمن ثانوية، إلا أن هذه القضايا في الوقت الحالي تجد اهتماماً بالغاً لدى المواطنين أصحاب العلاقة الحقيقيين، وأصبحت تؤلف موضوعات للبحث العلمي في ميدان العلوم الإدارية على الصعيد الجامعي وفي معاهد الإدارة العامة. ويبدو أن هذا الاهتمام المفاجئ بقضايا الإدارة المحلية يعود لارتباطها حالياً بمشكلات سياسية، كما هي الحال في الحركات الإقليمية التي تجتاح العالم سواء في بعض البلاد الإفريقية أو في إيرلندة ويوغوسلافية وإيطالية وفرنسة. وإن الجمود الذي صحب قضايا الإدارة المحلية سنين طويلة أدى إلى إسباغ صبغة الشيخوخة على بناء التنظيمات الإدارية المحلية بما لا ينسجم والواقع الاقتصادي والاجتماعي الذي عرفته المجتمعات المعاصرة. وأخيراً يبدو أن هنالك سبباً ثالثاً يعطي مزيداً من الأهمية لموضوع الإدارة المحلية، ويتمثل في مفهوم بدأ يفرض وجوده على غالبية دول العالم المعاصر منذ سنوات قليلة ألا وهو مفهوم مشاركة المواطنين في تسيير الشؤون العامة للدولة وإدارتها.

وتواجه فرنسة صعوبات ومشكلات في نظام الإدارة المحلية، فهناك التضخم الهائل في أعداد الكومونات، وانعدام التوازن والانسجام بين الكومونات ذات الطابع الريفي والمدن المتوسطة والكبيرة، وتطبيق نظام قانوني واحد على كل الكومونات. وإن نظام المحافظات الصادر عام ١٧٨٩ أصبح غير صالح لفرنسة في نهاية القرن العشرين، إضافة إلى أن بنيان هذه المحافظات لم يكن طبيعياً بل مصطنعاً لأن تشكيلها سبق الثورة الصناعية، فلم يراع فيه ما أحدثته هذه الثورة من تطورات اقتصادية واجتماعية.

ويبدو أن هناك اتجاهاً جدياً لمعالجة هذه الصعوبات يتجلى في الإقلال من عدد الكومونات عن طريق الاتحاد أو الدمج، وبإلغاء المحافظات الحالية وأن يستبدل بها أربعون محافظة كبيرة ذات طابع إقليمي أو الإبقاء عليها مع ضرورة التنسيق فيما بينها على مستوى الإقليم وبوجه خاص في الميدان الاقتصادي.

وأما في إنكلترة فإن الوضع المتقدم لنظام الحكومة المحلية الإنكليزية يظل عاجزاً عن مسايرة التطورات التي يعيشها المجتمع البريطاني في يومنا هذا. ويقدم الساسة البريطانيون عدداً كبيراً من الانتقادات في هذا المجال: فهنالك عدم توازن اقتصادي وسكاني فيما بين الكومونات، واضطراب في العلاقات القائمة بين الوحدات المحلية والحكومة المركزية بنتيجة الأزمات المالية للوحدات المحلية، وتأخير في تنفيذ سياسة تنظيم الأراضي.

وقد قدمت اللجنة الملكية برئاسة اللورد مود، المكلفة من الحكومة البريطانية عام ١٩٦٩، بعض الحلول لمشاكل الإدارة المحلية، وقد انتقد تقرير مود التعارض القائم بين الإدارة الخاصة بالريف والإدارة الخاصة بالمدن، واقترح التقرير تقسيم إنكلترة، باستثناء لندن، إلى ٦١ منطقة موحدة. وهذه المناطق الموحدة لا تميز بين المدينة والريف، وقد احتفظ تقرير مود بعدد من الوحدات المحلية بشكل انتقالي، كما حافظ على نظام الأقاليم ذات التخطيط الاقتصادي، وقد أقر مبدأ الانتخاب لكل هيئات الوحدات المحلية مع إعطاء سلطة تقديرية لمجالس الأقاليم ذات الطابع الاقتصادي.

نظام الإدارة المحلية في سورية

تطور التنظيم الإداري المحلي في سورية تطوراً جذرياً، فبعد أن خضعت سورية للحكم العثماني الذي أيّد مفهوم السلطة التي تأخذ كل شيء ولا تعطي شيئاً، طبق على سورية قانون إدارة الولايات العامةالذي قسم الولاية إلى ألوية، والألوية إلى أقضية، والأقضية إلى نواح، والنواحي إلى قرى. وقد عاشت سورية في ظل ذلك الاحتلال بعيداً عن أي مظهر من مظاهر الإدارة الحديثة في سائر المجالات. ثم جاء عهد الانتداب الفرنسي، فلم يكن أقل سوءاً في المضمون والجوهر، ومع أن القرار ٥/ل.ر الصادر عن المفوض السامي في ١١/١/١٩٣٦ بالاستناد إلى المادة ١٠٩ من الدستور السوري آنذاك، قسم سورية إلى محافظات وأقضية ونواح، ونص على إنشاء مجالس محلية ومنحها صلاحية إبداء الرأي وبيان أماني سكان المناطق المحلية وحاجاتها العمرانية والثقافية والاجتماعية، فإن هذا التنظيم لم يوضع في حيز التنفيذ الفعلي لرغبة الفرنسيين في استمرار الاحتلال عن طريق إثارة الفتن الطائفية والعشائرية.

وبعد زوال الانتداب الفرنسي واستقلال سورية عام ١٩٤٦ بدأ العمل الوطني المتواصل لتعديل عدد من القوانين. وفي عام ١٩٥٧ صدر قانون التنظيمات الإدارية ذو الرقم ٤٩٦ الذي أحدث تغييراً نسبياً في مجرى الحياة الإدارية السورية عن طريق تنظيم شؤون الإدارة في الدولة بنصوص واضحة. واستهدف القانون تحقيق اللامركزية عن طريق تشكيل مجالس محلية على أساس الانتخاب من سكان المناطق المحلية ولا سيما ماتعلق منها بالمجالس البلدية، غير أن السلطة المركزية لم تلجأ إلى إجراء انتخابات فعلية لمجالس الوحدات المحلية على الإطلاق متذرعة على الدوام بالظروف السياسية التي لا تسمح بذلك. وفي ظل ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣، وبعد قيام الحركة التصحيحية في ١٦/١٠/١٩٧٠ صدر قانون الإدارة المحلية بالمرسوم التشريعي ذي الرقم ١٥ عام ١٩٧١،

وصدرت لائحته التنفيذية وجميع التشريعات والأنظمة اللازمة لوضع هذا النظام موضع التطبيق.

وقد أرسى هذا القانون الجديد أهدافاً تتيح للبلاد إدارة متطورة وأكثر فاعلية، وتحقق فوائد كثيرة أهمها مايأتي:

- تفرغ رجال السلطة المركزية للمهام الرئيسة المتعلقة بشؤون التخطيط والتشريع والتنظيم والتنسيق والمراقبة والتدريب والتأهيل.

- توسيع اختصاصات هيئات الإدارة المحلية في شتى المجالات، ولا سيما الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والخدمات والمرافق.

- إناطة السلطات المحلية بالهيئات المنبثقة عن إرادة المواطنين المعبّر عنها بطريق الانتخاب السري المباشر لهذه الهيئات، ووضع كل الإمكانات تحت تصرفها.

وتجلت أهم المنطلقات الأساسية لهذا القانون في النواحي التالية:

- تقسيم أراضي سورية بمقتضى هذا القانون إلى وحدات تتمتع بالشخصية الاعتبارية (المحافظة، والمدينة، والبلدة، والوحدة الريفية، والقرية التي يزيد عدد سكانها على خمسة آلاف نسمة)، ووحدات لا تتمتع بالشخصية المعنوية (المنطقة، والناحية، والحي، والمزرعة والقرية التي يقل عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة).

وقد راعى المشرع في هذا التقسيم نوع العوامل الاقتصادية والاجتماعية والإدارية ودرجتها ومدى قوة الروابط التي تصل بين المواطن ومجتمعه المحلي.

- توحيد التنظيم الإداري المحلي، فبعد أن كان النظام السابق يعتمد ازدواجية التنظيم الإداري المحلي، إذ كان ثمة تنظيم إداري تمثله مجالس المحافظات والمناطق، وتنظيم بلدي تمثله المجالس البلدية، فقد تلافى القانون الجديد مثالب الازدواجية في التنظيم ومآخذها.

- اعتماد مبدأ المركزية الديمقراطية، وهذا المنطلق يمكن استخلاصه من أن المجالس المحلية ومكاتبها التنفيذية تعد جزءاً لا يتجزأ من الجهاز الإداري العام للدولة، ومن حق المجالس المحلية التي هي أعلى في الإشراف على المجالس التي هي أدنى، ومن تبعية المجالس التي هي أدنى للمجالس التي هي أعلى، ومن تطبيق مبدأ التسلسل القيادي، ومن أن قرارات المجالس المحلية تعد نافذة، ما دامت ضمن إطار اختصاصات هذه المجالس وفي نطاق السياسة العامة للدولة.

- توسيع اختصاصات المجالس المحلية بحيث جعلت الوحدات الإدارية في كل المستويات، مسؤولة عن الاقتصاد والثقافة والخدمات وكل الشؤون التي تهم المواطنين في هذه الوحدات مباشرة.

- وضع القانون وسائل تمويلية كافية في أيدي سلطات الإدارة المحلية من أجل قيامها بالمهام المنوطة بها، مع مراعاة شرط أساسي مفاده عدم إرهاق المواطنين. وفي سبيل ذلك حرص المشرع على أن يكون فرض الضرائب والرسوم المحلية بقانون، وأتاح الفرصة أمام مجالس المحافظات لفرض رسوم محلية، وإضافة نسبة على ضرائب ورسوم الدولة لصالح الوحدات الإدارية، وللاستفادة من القروض والسلف والتسهيلات الائتمانية فضلاً عن إعانة الدولة المقررة في الموازنة العامة.

- تنظيم القانون علاقة الإدارة المحلية بالمنظمات الشعبية عن طريق تمثيل هذه المنظمات في المجالس المحلية بنسبة لا تقل عن ٦٠٪، ومنحه الحق لقيادة أي من المنظمات الشعبية في مراقبة المجالس المحلية ومكاتبها التنفيذية وأجهزتها ونقدها عن طريق توجيه مذكرات تتضمن ملاحظاتها وآراءها.

- حرص القانون ولائحته التنفيذية على تحقيق مبدأ جماعية القيادة المحلية ومبدأ تقسيم العمل بين الأجهزة بما يضمن عدم تركيز المهام والصلاحيات في جهة واحدة، وبما يكفل توزيع المسؤوليات وتحديدها تجنباً لازدواجية العمل وتشابك الاختصاصات، فقد أعطيت المجالس المحلية سلطة إصدار القرارات في كل مايتعلق بالشؤون المحلية، وأنيط تنفيذ هذه القرارات بمكاتبها التنفيذية مجتمعة ومنحت هذه الأخيرة صلاحيات واسعة، وسمح لها بتفريغ عدد من أعضائها على أساس تكليف كل منهم الإشراف على قطاع تعمل في نطاقه بعض الأجهزة المحلية.

- تبنى القانون تبنياً واضحاً أسلوب الديمقراطية الشعبية في تكوين هيئات الإدارة المحلية، بدلاً من أسلوب الديمقراطية البرلمانية التقليدية، وذلك عن طريق تمثيل المنظمات الشعبية فيها، وإمكان أن تضم المكاتب التنفيذية في عضويتها عدداً لا يزيد على الثلث من خارج المجلس المحلي، والسماح بتأليف لجان دائمة ومؤقتة من بين أعضاء المجالس المحلية أو من غيرهم من أصحاب الخبرة والاختصاص، وإمكان تأليف لجان شعبية في المناطق والقرى والأحياء، مما يؤدي إلى توسيع قاعدة التمثيل الشعبي في أعمال المجالس، ويجعل أسهام المواطنين في هذه الأعمال أكثر واقعية وأبعد أثراً.

- تضمن القانون الرقابة الشعبية سواء جاءت من قيادات المنظمات الشعبية أو الصحافة ووسائل الإعلام أو من المواطنين مباشرة. ويمكن أن تؤدي هذه الرقابة إلى إلغاء عضوية ممثلهم في المجلس المحلي نتيجة قيام المجلس بالتحقيق في الاتهامات الموجهة إليه.

لقد جابه نظام الإدارة المحلية في بداية تطبيقه الفعلي بعض الصعوبات والثغرات، وحالت هذه الصعوبات دون تحقيق جميع الأهداف المبتغاة منه، الأمر الذي تؤكده القرارات التي صدرت عن مجالس المحافظات ومكاتبها التنفيذية، وبوجه خاص في نطاق التنظيم والتخطيط والبرمجة التي لم تعالج معالجة كافية مشاكل المواطنين واحتياجاتهم من حيث الوقوف عليها وإيجاد الحلول اللازمة لها.

ولا شك في أن تجربة القطر العربي السوري مازالت في بداية الطريق، وأنها، كأية تجربة في العالم، لا بد أن تواجه في البداية مشاكل ومعوقات كثيرة. إلا أن المهم هو أن يصار إلى معالجتها تدريجياً في ضوء التطبيق والممارسة، وعلى هدي واقع كل بيئة ومنطقة تبعاً للظروف والأوضاع الخاصة بها.

عبد الله طلبة

الموضوعات ذات الصلة:

اللامركزية.

مراجع للاستزادة:

- عبد الله طلبة، الإدارة المحلية (مطبعة جامعة دمشق ١٩٨٤).
- ماجد راغب الحلو، القانون الإداري (دار المطبوعات الجامعية، الاسكندرية ١٩٨٢).

■ إدارة المشروع

الإدارة مصدر أدار، وأدار الشيء جعله يدور وتعاطاه وأحاط به. وقد اكتسب هذا الفعل في العصر الحديث معنى فيه بعض التوسع في المعنى الأول، وغدا القول «أدار شؤون الدائرة أو الوحدة الإنتاجية» يعني ساسها وتولى تصريف أمورها فهو مدير. فإذا تولت شؤون المؤسسة أو الوحدة الإنتاجية هيئة وقامت بإدارتها كان الحديث عنها على أنها الهيئة التي تتولى شؤون مشروع متكامل صناعي أو تجاري أو إنتاجي أو غير ذلك. ومن هنا يكون الحديث عن إدارة المشروع enterprise management للدلالة على من يتولى شؤون المشروع من حيث التوجيه والإشراف على العاملين والعمليات الإنتاجية المتكاملة.

والإدارة عمل إنتاجي قائم بذاته، ولها دور أساسي في العمليات الإنتاجية ولها خصائصها. ولما كانت عناصر الإنتاج لا تستطيع أن تأخذ وضعاً إنتاجياً إلا عندما تكوّن على هيئة «وحدة إنتاجية»، أو ما يُسمى بالمشروع، كانت العمليات الإنتاجية لا تستطيع أن تأخذ مجراها إلا بإمرة مركز قيادي واحد هو قيادته الإدارية، وهكذا يكون دور الإدارة في الوحدة الإنتاجية مماثلاً دور الدماغ في جسم الإنسان، وتكون مهمة الإداري هي تنظيم أوضاع المشروع والإشراف على سير العمل فيه واتخاذ القرارات الكفيلة بتجميع عناصر الإنتاج داخل المشروع باستخدام أفضل التقنيات المناسبة لعمليات الإنتاج وتوفير أفضل الشروط لمجمل العلاقات الإنتاجية داخل المشروع وعلاقات المشروع مع المحيط الخارجي. إن كل هذه العمليات يجب أن تتم على أساس هو تحقيق أكبر مردود ممكن بأقل مقدار من التكاليف، أو بتعبير أكثر شيوعاً هو الحصول على الربح، والإدارة هي إذن، من حيث الإجراء، العملية أو الطريقة المستخدمة لتسيير المشروع بحسب تقنيات مناسبة، يمكن تسميتها تقنيات الإدارة، من أجل الحصول على الربح أو تحقيق منفعة عامة. وإدارة المشروع يمكن أن يقوم بها شخص واحد هو رئيس المشروع، ويمكن أن تقوم بها مجموعة صغيرة من الأفراد يسمون المديرين، وذلك بحسب حجم المشروع.

المنظور التاريخي

تطورت إدارة المشروع تاريخياً مع تطور طبيعة المشاريع ذاتها سواء أكانت تجاريةً أم صناعيةً. فقد مرّ المشروع بمرحلة الصانع البسيط الذي كان يستخدم أدواته البسيطة ويعمل لتدارك حاجاته الضرورية، إلى مرحلة الصانع المتنقل الذي كان يقوم بتحويل بعض المواد ويقدمها لغيره (للمستهلك) مقابل سلعة أخرى، وإلى مرحلة الصانع المحترف الذي كان يشتري المواد الأولية لحسابه ويصنعها بأدواته اليدوية ثم يبيعها مصنوعة للتاجر الوسيط. ثم جاء دور آخر فقد فيه الصانع استقلاله وأصبح يعتمد على صاحب العمل الذي يقدم له المواد الأولية فيصنعها هو في منزله ثم يسلمها إلى صاحب العمل، وبذلك تحرر الصانع من عبء الشراء والبيع والتمويل ومن مخاطر ملكية المواد والبضائع المصنوعة. وظل كذلك إلى أن ظهرت الآلات الحديثة وتم استخدامها فطغت على الآلات اليدوية وأصبح في غير مقدور الصانع أن يملك الآلة الحديثة للإنتاج، فراح يؤجر عمله لأصحاب المصانع.

وهكذا حل المصنع محل المنزل مكاناً للإنتاج وأصبح الإنتاج لمد الأسواق بدلاً من الإنتاج لتلبية طلبات، وبدأت المشروعات الكبرى وشركات الأموال في الظهور والانتشار، وبدأت المنافسة تحتدم بين المنتجين على اكتساب الأسواق والفوز برضى أكبر عدد من المستهلكين فازدادت أهمية الإدارة لتغدو عاملاً رئيساً من عوامل النجاح في الإنتاج والتسويق وتحسينهما وفي زيادة الأرباح، وبدأ الطلب على فئة المديرين الذين تتوافر لديهم القدرة والخبرة يزداد يوماً بعد يوم، في حين لم يكن هنالك في الماضي من يفكر بهذه المهنة الإدارية على أنها عمل مستقل بل كانت من ضمن الأعمال التي يقوم بها المنتج ذاته.

وتتخذ المشروعات أشكالاً قانونية مختلفة بحسب طبيعة تكوينها والغاية التي تُنشأ من أجلها. فقد تكون مشروعات فردية أو مشروعات عامة تمتلكها الدولة، وقد تكون شركات تضامن أو شركات توصية بسيطة أو شركات محاصّة. وقد تكون أيضاً شركات أموال مساهمة أو شركات ذات مسؤولية محدودة. وهناك أيضاً المشروعات المختلطة وكذلك الشركات ذات الجنسيات المتعددة.

ويتأثر اختيار الشكل القانوني للمشروع بعدة عوامل يكون في مقدمتها: مدة المشروع المتوقعة، ودرجة المخاطر والمميزات المختلفة التي تمنحها الدولة لبعض الأشكال القانونية من دون غيرها، ونظرة المجتمع إلى كل شكل من الأشكال القانونية المختلفة للمشروعات.

الوظائف في المشروع

تتوقف الوظائف الرئيسة للمشروع على طبيعة النشاط الذي يقوم به. فإذا كان المشروع صناعياً كانت أهم الوظائف الرئيسة فيه الوظائف الآتية:

وظيفة الإنتاج: وتعد من أهم الوظائف في المنشآت الصناعية، وهي تتعلق بإيجاد المنافع الشكلية للمواد والخامات، وذلك بتحويلها إلى سلع يمكن أن تشبع حاجات المستهلكين ورغباتهم. ولكن هذه الوظيفة الأساسية تنطوي على الكثير من الوظائف الفرعية مثل اختيار موقع المصنع، وترتيب الآلات، وتحديد درجة الآلية، والتصميم الهندسي للسلعة والتنظيم الداخلي للتسهيلات الإنتاجية والعمليات الإنتاجية داخل المصنع، والحصول على المواد، وتخطيط الإنتاج، ورقابة الإنتاج والجودة.

الوظيفة المالية: تعد هذه الوظيفة حيوية لكل مشروع، لأن جميع مشروعات الأعمال تحتاج إلى الأموال حتى تستطيع القيام بنشاطاتها. وكل وظائف المشروع الأخرى تقريباً لا يمكن النهوض بها من دون توافر الأموال اللازمة، فمهمة هذه الوظيفة هي تزويد المشروع بالمال اللازم من مصادر متعددة قد تكون دائمة أو مؤقتة وقد تكون ملكية أو اقتراضاً. ولا يقتصر النشاط المالي على الحصول على الأموال بل يمتد لكي يشمل الرقابة على الاستخدام الفعال لهذه الأموال. ومن أهم أهداف هذه الوظيفة العمل على احتفاظ المشروع بسيولة نقدية كافية تجعله قادراً على مقابلة التزاماته عند حلول مواعيدها. ويدخل ضمن هذه الوظيفة النشاط المحاسبي للمشروع.

وظيفة الأفراد: تتعلق هذه الوظيفة بالحصول على القوة العاملة وجعلها راضية ومتعاونة في تنفيذ الأعمال. ويستلزم هذا القيام بنشاطات مختلفة مثل حصر الوظائف اللازمة وتحديد مواصفاتها، والمحافظة على اتصال وثيق مع سوق العمل، والحصول على الأفراد المناسبين وتأهيلهم للعمل. وتهتم بوضع سياسات الأجور والمكافآت والترقيات، وتنظيم علاقات العمل، وتقديم الخدمات للعاملين ومراقبتهم للتأكد من أن العاملين يعملون على تحقيق أهداف المشروع.

وظيفة التسويق (أو الإدارة التجارية): تهتم هذه الإدارة بكل النشاطات الضرورية التي تبذل ليبقى طلب السلع التي ينتجها المشروع قائماً. وهي توجه نشاطاتها، بوجه خاص نحو انسياب السلع والخدمات من مراكز الإنتاج إلى مراكز الاستعمال أو الاستهلاك. إن هذه الوظيفة الحيوية التي تعد المحور الرئيس في منشآت الأعمال تشمل وظائف أخرى مهمة مثل عملية البيع والتخزين والنقل. فوظيفة البيع تهتم بتحويل ملكية السلع والخدمات من المنتج إلى الوسطاء أو المستهلكين مما يستدعي اختيار طرائق التوزيع المناسبة وتحديد أسعار البيع، والقيام بالحملات الإعلانية والترويجية لكسب «زبائن» المشروعات المنافسة، وكذلك اختيار العاملين في البيع وتدريبهم.

أما وظيفة النقل فتعمل على خلق المنفعة المكانية للسلع، في حين تعمل وظيفة التخزين على خلق المنفعة الزمنية.

بحوث العمليات ودراسة السوق: تهدف بحوث العمليات إلى حل مشاكل الإدارة التي تنشأ في المؤسسات الصناعية والتجارية وغيرها. وتُستخدم من أجل ذلك طرائق علمية تطبق بها الأساليب الكمية لحل هذه المشاكل سواء أكانت تسويقية أم إنتاجية أم لأغراض عسكرية أم غير ذلك.

أما أبحاث السوق فقد عرّفتها جمعية التسويق الأمريكية بأنها تلك المعلومات التي يتم تجميعها وتسجيلها وتحليلها بشأن كل ما يتعلق بمشاكل تسويق السلع والخدمات. لذا فإن هذه المعلومات تختص بالنشاطات التسويقية سواء أكان ذلك متصلاً بالمنتج أم بالبائع أم بالمستهلك. ويجب أن تأتي هذه المعلومات من مصادر موثوق بها، ويجب أن تكون مطابقة لواقع السوق. ويتركز نشاط أبحاث السوق بوجه خاص على النشاطات التي تتضمن جمع المعلومات وتحليلها واتخاذ القرارات المناسبة لحل مشكلات التسويق. وتطورت أبحاث السوق مع تطور المشروعات وتنوع منتجاتها. أما عملية أبحاث السوق فإن في مقدمة ماتشمله، تحديد المشكلة واقتراح الحلول أو البدائل المناسبة لمعالجتها، ووضع تصاميم تفصيلية لكل من البدائل المقترحة، وجمع المعلومات المتعلقة بكل منها.

وقد أسهمت التقنية الحديثة، وخاصة الحاسوب، في حل مشاكل أبحاث السوق واعتمدت الطرائق الكمية مثل بحوث العمليات ونظرية المباراة للوصول إلى الحل الأمثل لمشاكل المخزون، وتخصيص الموارد ودراسة مشكلة الوقت فيما يتعلق بمراحل الإنتاج أو بخدمة ما، وكذلك المنافسة بين المشروعات. وقد قدمت هذه التقنيات إلى المسؤولين عن التسويق نتائج مهمة أسهمت إلى حد كبير في اتخاذ القرارات المتعلقة بهذه المشاكل.

وظائف الإدارة

يجب التفريق بين وظائف المشروع التي ذكرت آنفاً ووظائف الإدارة التي هي من مهام المدير الإداري أو الجهاز الإداري. وقد اتفق المفكرون الإداريون على أن النشاط الإداري يتألف من مجموعة من الوظائف الإدارية التي يمارسها المديرون. إلا أن هؤلاء المفكرين أنفسهم اختلفوا في تعداد هذه الوظائف تبعاً لاختلاف فلسفة الباحث المهتم بهذه الوظائف وطريقة تصنيفها. ويذهب بعض الباحثين إلى أن وظائف الإدارة هي التنبؤ والتخطيط والتنظيم والقيادة والتنسيق والرقابة. ويحدد آخرون هذه الوظائف قائلين إنها التخطيط والتنظيم والتوظيف والتوجيه والرقابة. وثمة باحثون آخرون يرون أن مهمة المدير هي وضع الأهداف والتنظيم والتنشيط.

إن عملية وضع الأهداف هي نقطة البداية لكل مشروع، ثم تأتي عملية التخطيط لتنفيذ هذه الأهداف. ومن هنا أتت التسمية وهي التخطيط بالأهداف، ويعني ذلك توجيه النشاطات من أجل تحقيق أهداف المشروع بوساطة خطط منسجمة ومنسقة فيما بينها. أما التنظيم فيؤلف البنية التحتية لنظام الإدارة وذلك بإنشاء أقسام إدارية مكونة من عناصر إنسانية حددت لها أهداف ومهمات وجهزت بالمصادر اللازمة من أجل القيام بواجباتها، لذا عرفت الأوضاع والأدوار التي تقوم بها هذه الأقسام في المشروع ووضعت لها الطرائق والسبل اللازمة من أجل معرفة سير عملها. وأدرج كل ذلك ضمن الهيكل التنظيمي للمشروع الذي يحدد العلاقات الضرورية بين مختلف الأقسام من أجل تنسيق نشاطات العاملين في المشروع، ومراقبتها وتقويمها. ويلجأ المدير عند تنظيم مختلف النشاطات وجمعها في وحدات إدارية إلى أسس تحقق مزايا التنظيم الجديد. وهذه الأسس هي: تجميع النشاطات بحسب وظائف المشروع والتجميع على أساس المناطق الجغرافية أو مواقع هذه الوحدات والتجميع على أساس السلع والتجميع على أساس العملاء والتجميع على أساس العمليات والتجميع على أساس الوقت (بحسب الورديات).

أما التنشيط فهو العملية التي تعنى بتوحيد الكفايات الفردية وحفزها عن طريق التأثير في قدرات العاملين وإمكاناتهم، وذلك بتأهيلهم وتكوينهم من أجل تحسين كفاية المشروع وتحقيق أهدافه.

ومن أجل ذلك لا بد من أن تلتقي دوافع العاملين في المشروع مع دوافع المشروع نفسه. لذا تقوم الإدارة بعملية الرقابة الاجتماعية التي تتضمن طرائق السلطة، وتقويم النتائج، والعقوبات، والمكافآت، وتكوين الأفراد وكيفية قيادتهم. وحتى يحقق المشروع أهدافه لا بد من أن تتوحد جهود جميع أقسامه مع جهود الأفراد في جو يسوده التعاون والانسجام. ومن هنا جاء حرص الإدارة على رفع معنويات العاملين بالمشروع والاهتمام بجو العمل. وهذا ما دعا أصحاب مدرسة «علم نفس اجتماع المنظمة» إلى أن يهتموا بفكرة التنشيط في العمل ودراسة سلوك العاملين واتجاهاتهم وذلك من أجل أن تلتقي مصالح العاملين مع مصالح المشروع.

الأبعاد الاجتماعية للمشروع

إن إحدى الخصائص البارزة للمشروع هي أنه نوع خاص من تجمع الأفراد. وبفضل إسهام هؤلاء الأفراد في العمل الجماعي يستطيع المشروع أن يحقق الأهداف التي أنشئ من أجلها. إلا أن هؤلاء الأفراد ينتمون إلى طبقات اجتماعية وفئات مهنية، يأتي كل منهم إلى المشروع ومعه قيمه ومعتقداته، وله أهدافه التي يريد تحقيقها انطلاقاً من العمل الذي يقوم به، وبذلك يبرز الصراع بين الفرد والمشروع لأن لكل منهما هدفه الخاص ولأن كلاً منهما يبحث عن منفعته الخاصة.

ثم يتطور هذا الصراع ليأخذ شكلاً آخر وبُعداً جديداً هو البحث عن امتلاك وسائل الإنتاج، وإن لم يتحقق ذلك فيصبح الصراع من أجل الحصول على سلطة القرار في المشروع أو المشاركة فيه على الأقل. وهو مايلحظ غالباً في المشروعات التي توجد في النظم الرأسمالية.

أما في حال المشروعات التي تعمل في ظل نظام اشتراكي أو سائر على طريق الاشتراكية فغالباً ما تتجه إدارة المشروع نحو منحى آخر هو الأخذ بمبدأ ديمقراطية الإدارة، ويعني ذلك أخذ المنتجين زمام المبادرة في إدارة المشروع مباشرة أو تمثيلهم في مجالس الإدارة أو اللجان الإدارية. وبذلك يستطيع العاملون في الإنتاج أن يرعوا مصالحهم مباشرة عن طريق وضع الأهداف والخطط أو المشاركة في وضعها، وبذلك يزول الصراع وتتوافق مصالح العاملين مع مصالح المشروع والمجتمع على السواء.

إدارة المؤسسات والشركات في سورية

إن البلدان السائرة في طريق النمو مثل القطر العربي السوري، لا بد لها من أن تمتلك الأداة الحقيقية التي تسهم في دفع عملية التحول الاشتراكي قدماً نحو الأمام ألا وهي ملكية وسائل الإنتاج وإيجاد قطاع عام يلبي الحاجات والأهداف التي يتطلع إليها المجتمع. ووجود القطاع العام أمر تفرضه أسباب اقتصادية وسياسية واجتماعية ومالية، ومن أهمها:

- الأخذ بمبدأ التخطيط الشامل والتوجيه الاقتصادي الذي يجعل من الضروري وجود قطاع عام قوي قادر على قيادة خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتوجيهها بما يحقق الأهداف المطلوبة.
- عزوف القطاع الخاص عن الاستثمار في بعض القطاعات وذلك إما لضخامة رأس المال الذي تتطلبه، أو لطول فترة الانتظار التي لا بد أن تنقضي حتى تعطي هذه الاستثمارات عوائدها، أو للمخاطر الكبيرة التي قد يتعرض لها القطاع الخاص نتيجة لعدم وضوح ربحها.
- الرغبة في تحقيق انسياب السلع التموينية الأساسية وبعض الخدمات العامة لأفراد الشعب باستمرار.
- السرية المتوخاة في بعض الصناعات الاستراتيجية والعسكرية.
- الحيلولة دون الاستغلال والاحتكار وتمليك المشروعات لمن يعمل بها.

إلا أن إنشاء هذا القطاع العام وتأميم المؤسسات الإنتاجية الكبيرة اللازمة للصالح العام في القطر يفرضان بالضرورة تطبيق مفهوم الإدارة الديمقراطية لوسائل الإنتاج في الوحدات الاقتصادية ومؤسسات الدولة. وهذا المفهوم ملازم للوضع العام الذي اقتضاه النمو الاقتصادي للقطر والمنحى الذي يأخذ به، وهو الشكل التنفيذي لأسلوب تسيير العمليات الإنتاجية في نظام اجتماعي متكامل متجاوب مع تطلعات الشعب وترعاه القيادة السياسية في الدولة. وثمة حقيقة ثابتة هي أن الإدارة الديمقراطية لوسائل الإنتاج بوجهها الأمثل هي في الواقع ديمقراطية العاملين المنتجين؛ لأن الإدارة، وهي عمل إنتاجي، لا تجري ممارستها إلا في نطاق الوحدات الإنتاجية، ومسؤولية الإدارة تقع بكاملها على عاتق مجموع الأفراد العاملين بها.

وثمة حقيقة أخرى هي قضية الالتزام التي يجب على إدارة الوحدة الإنتاجية مراعاتها تجاه مختلف الأطراف ذات المصلحة في سلامة سير الفعاليات المختلفة وهذه الأطراف هي الشعب بمجموع أفراده. والدولة مسؤولة عن رعاية مصالح الشعب لأنها تتوخى المصلحة العامة، ومجموع الأفراد العاملين في الوحدة الإنتاجية نفسها. أما في حال العاملين فهناك شروط عامة تجب مراعاتها عند تطبيق الإدارة الديمقراطية لوسائل الإنتاج وهي:

- أن يتمتع العاملون بالوعي الإداري في ميدان الشؤون الإنتاجية الخاصة بتسيير الأعمال وتنظيم العلاقات الإنتاجية الداخلية والخارجية، وهذا يعني كيفية تنظيم الممارسة الديمقراطية في ميدان اختيار العناصر الإدارية أو انتخابهم من بين العاملين أنفسهم. وممارسة أساليب توجيه الإدارة والإشراف عليها ومحاسبتها بطرائق ديمقراطية جماعية.
- أن يتوافر لدى العاملين مستوى كاف من الوعي المهني الجماعي والمعرفة الجيدة بشروط الممارسة الجماعية وأساليبها في إدارة وسائل الإنتاج، والمقصود من ذلك هو الإشارة إلى ضرورة تصرف العاملين على أنهم فريق متكامل يحسن توزيع المسؤوليات وتنظيم العلاقات وإعطاء الكفاية وحسن الأداء أهميتهما المناسبة، وممارسة المحاسبة حول الالتزامات بصورة جماعية ديمقراطية بعيدة عن التكتلات المصلحية، سواء أكانت أسرية أم قبلية أم إقليمية أم سواها من الأمراض الاجتماعية.
- أن يتمتع العاملون بالخبرة والقدرة على مراعاة مسؤولياتهم الاجتماعية تجاه الشعب والاقتصاد الوطني فلا يغلّبون مصالحهم الذاتية على مصالح الأطراف الأخرى، وهذا الشرط يتطلب درجة عالية من الوعي والإدراك والشعور العميق بالمسؤولية تجاه المجتمع وتجاه مصلحة الاقتصاد الوطني.

وللإدارة الديمقراطية لوسائل الإنتاج أهدافها الإنسانية وأهدافها الإنتاجية: فعلى الصعيد الإنساني تهدف الإدارة الديمقراطية لوسائل الإنتاج إلى ما يلي:

- منح الفرد العامل حق التمتع بحريته في تأكيد ذاته عن طريق المشاركة في تحمل المسؤوليات واتخاذ القرارات، وممارسة حق المحاسبة وحق التصويت ضمن شروط العمل الجماعي والعلاقات الإنتاجية الموضوعية.
- إحلال مبدأ الالتزام الطوعي وإزالة مظاهر الإلزام القسري من العلاقات الإنتاجية، وبذلك يُتاح للفرد أن ينمّي شعوره بقيمته الذاتية وكرامته بين زملائه العاملين.
- تنمية الشعور بالتضامن والتعاون والحس بالمسؤولية مما يعزز الانتماء الاجتماعي ويخلق الشعور بالاطمئنان النفسي لدى العاملين.

وعلى صعيد الأهداف الإنتاجية تعمل الإدارة الديمقراطية على مايلي:

- أن تتيح للعامل فرص الإبداع والابتكار وذلك بحكم شعور العاملين بمسؤوليتهم في سلامة سير العمليات الإنتاجية، مما يؤدي إلى زيادة الإنتاج وتحسين نوعيته ونقص تكاليفه.
- أن تثير حماسة العاملين لتطوير كفاياتهم المهنية في مختلف الأعمال الإنتاجية، ممايؤدي إلى رفع مستوى القدرة على العمل وتطوير المهارات الإنتاجية وحسن الأداء لدى العاملين.
- أن تشيع نوعاً من الرقابة الذاتية لدى العاملين، فيصبح التلكؤ في الإنجاز أمراً معيباً ومعرضاً للنقد، ويصبح حسن الأداء موضع تقدير من قبل العاملين أنفسهم.

هذه الأهداف، سواء أكانت إنتاجية أم إنسانية، تصب كلها في بوتقة تحسين الإنتاج وزيادته، وهي تخدم أهداف المجتمع وتطلعات جماهير العمال.

وقد حرصت الثورة والحكومة على تنفيذ الإدارة الديمقراطية لوسائل الإنتاج. فسنّت القوانين والمراسيم التشريعية التي تقضي بتمثيل العاملين والفلاحين في كل المؤسسات والشركات الاقتصادية وقد بدأ التنظيم العملي لإدارة مشروعات القطاع العام الاقتصادي في سورية بإنشاء المؤسسة الاقتصادية وتوالت بعد

ذلك النصوص التشريعية الناظمة لهذا القطاع ومنها المرسوم التشريعي ذو الرقم ١٢ لعام ١٩٦٧ المتضمن تنظيم الشركات والمنشآت الصناعية في اتحادات صناعية مهنية، ونتيجة للنمو المتزايد لهذا القطاع ظهرت الحاجة إلى تنظيم آخر جديد يحدد القواعد والأطر العامة التي تحكم المؤسسات والشركات العامة وتم ذلك بإصدار المرسوم التشريعي ذي الرقم ١٨ لعام ١٩٧٤ المتضمن تنظيم المؤسسات العامة والشركات والمنشآت العامة وقد عرّف هذا المرسوم، وكذلك التعديلات التي صدرت بالمرسوم التشريعي ذي الرقم ١ الصادر بتاريخ ٥ / ١ / ١٩٨١، المؤسسة العامة بأنها شخص اعتباري عام يتمتع بالاستقلال المالي والإداري ويشارك في تنمية الاقتصاد القومي ويمارس عملاً ذا طابع اقتصادي بنشاطه المباشر أو بالإشراف على عدد من الشركات العامة والمنشآت ذات الأغراض المتماثلة أو المتكاملة والتنسيق فيما بينها، وتمارس إدارة المؤسسة الوظائف نفسها التي حُددت سابقاً وهي التخطيط والتنظيم والحفز، أما نشاطاتها فتختلف باختلاف طبيعة نشاط المشروع وإدارتها تأتي منسجمة مع هذا النشاط (إدارة الإنتاج، وإدارة التسويق، والإدارة المالية والمحاسبية) أما الإدارة المالية فقد خصها المرسوم ١٨ وحددها بمادته ذات الرقم ٨ قائلاً: «إن الأنظمة المالية والمحاسبية وأنظمة العقود والمبايعات والتكاليف وأنظمة الحوافز المادية وأنظمة المصالحات والتسويات تصدر بمرسوم خاص. أما فيما يتعلق بتكوين رأس مال المؤسسة فإنه يتألف من أنصبة الدولة في رؤوس أموال الشركات العامة وكذلك الأموال التي تخصصها الدولة لهذه المؤسسات وكذلك قيمة الموجودات الثابتة والاستثمارات الخاصة بها والعناصر التي يحددها المرسوم الذي أحدثت بموجبه شركات الدولة ومؤسساتها». ولم يقتصر هذا المرسوم على تكوين رأس المال بل حدد موارد الشركة العامة أو المؤسسة وأوجه استخدامها وإقرار الميزانية الختامية السنوية والحسابات الختامية أيضاً وحساب الأرباح والخسائر.

أما الهيكل الإداري للمؤسسة العامة فيصدر بقرار من الوزير المختص تتحدد فيه اختصاصات الإدارات المعنية، ويتولى إدارة المؤسسة العامة مجلس إدارة ومدير عام حُدِّدت صلاحيات كل منهما بموجب المرسوم التشريعي ذي الرقم ١٨ لعام ١٩٧٤. يتمتع مجلس الإدارة بأوسع الصلاحيات في إدارة المؤسسة بما يحقق أهدافها الاقتصادية وتحسين أداء العمل فيها، في حين يتولى المدير العام تنفيذ السياسات والإجراءات والتوصيات التي يقرها مجلس الإدارة، ويمثل المؤسسة تجاه الغير ويمارس دور صاحب العمل إزاء العاملين في المؤسسة من حيث التعيين والتكليف بالمهمات أو النقل باستثناء أمر واحد هو تسمية المديرين التنفيذيين فقد أنيط بالوزير مما يؤلف ضمانة لممارسة مجلس الإدارة مهامه بحرية تامة من دون ارتباط بتوجهات المدير العام وبحيث يكون المدير العام منفذاً لقرارات مجلس الإدارة.

وقد يتبع المؤسسة شركات ومنشآت ووحدات اقتصادية. وعرّف المرسوم التشريعي ١٨ لعام ١٩٧٤ الشركة العامة أو المنشأة بأنها شخص اعتباري عام يتمتع بالاستقلال المالي والإداري ويشارك في تنمية الاقتصاد القومي ويتكون من وحدة أو مجموعة وحدات اقتصادية تمارس عملاً زراعياً أو صناعياً أو تجارياً أو مالياً، ويتولى إدارة الشركة أو المنشأة العامة مدير ولجنة إدارية يتوليان المهام نفسها التي يتولاها المدير العام للمؤسسة ومجلس إدارتها ولكن على مستوى الشركة أو المنشأة وتكون الشركة أو المنشأة وهيئاتها الإدارية مسؤولة عن وضع الخطط التنفيذية لتحقيق السياسات وأهداف الإنتاج والتسويق والتصدير والاستثمار والعمالة والريعية والأسعار الموضوعة من قبل المؤسسة العامة. وفي هذا الإطار تُعد المؤسسة جهة وصائية على الشركات والمنشآت التابعة تقوم بمراقبتها وتوجيه أعمالها من خلال رسم السياسات والإشراف على تنفيذها.

تعدّ المؤسسات والشركات والمنشآت الخاضعة لأحكام المرسوم التشريعي ذي الرقم ١٨ لعام ١٩٧٤ تاجراً في علاقتها مع الآخرين وتخضع هذه العلاقة لأحكام القانون التجاري ممايؤكد الطابع الاقتصادي التجاري لها على الرغم من كونها قطاعاً عاماً مملوكاً من قبل الدولة ولهذا فهي تطبق محاسبة التكاليف وتلتزم تحقيق أرباح وفوائض اقتصادية توردها إلى الخزينة العامة. وتأكيداً للدور الاجتماعي والاقتصادي الذي تقوم به المؤسسات والشركات والمنشآت العامة في سورية يشارك الحزب والاتحاد العام للعمال في إدارتها ومراقبة أعمالها.

المؤسسة الحزبية ودورها في إدارة الشركة:

تُعد المنظمة الحزبية في نطاق أي مؤسسة الطليعة السياسية لمجموع العاملين في هذه المؤسسة. وتؤلف في كل وحدة إنتاجية (شركة أو مؤسسة) فرقة مهنية يتبع لها الأعضاء العاملون والأنصار في الحزب في مجال عملها. ومهمة الفرقة الحزبية ممارسة النشاط الحزبي في مجال التنظيم والإسهام في الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية للعاملين في الشركة. ويتجه هذا النشاط نحو نشر الوعي السياسي بين العمال، ومناقشة العاملين في أسلوب العمل وتقويمه، والقيادة السياسية للعاملين وتقويم إسهامهم، وحشد الطاقات من أجل تنفيذ خطة العمل وتأهيل الموظفين. ويكون أمين الفرقة عضواً في لجنة القانون ذي الرقم ٢ الخاص بنقل العاملين في الشركة.

اللجنة النقابية ودورها في إدارة المشروع:

قضى المرسوم التشريعي ذو الرقم ٨٤ لعام ١٩٦٨ أنه عندما يوجد تجمع عمالي في المصنع أو المعمل أو المؤسسة أو الشركة أو الإدارة أو المصلحة الواحدة أو البلدية، يزيد على الخمسين عاملاً، يحدث تنظيم نقابي ينتخب من بين أعضائه بالاقتراع السري لجنة إدارية مؤلفة من خمسة أعضاء تنتخب من بينها رئيساً وتوزع الوظائف النقابية فيما بينها وَيبلّغ هذا التوزيع إلى مكتب النقابة الذي يبلغه إلى اتحاد عمال المحافظة. وتتمتع اللجنة النقابية بالشخصية الاعتبارية ضمن حدود اختصاصاتها، أما أهليتها لإبرام العقود بسائر أنواعها فتتحدد بصك تفويض من مكتب النقابة ممهور بتوقيع رئيس النقابة وخاتمها على نسختين. وللجنة النقابية الحق بالحصول على غرفة مؤثثة تلتزم إدارة التجمع تقديمها في مركز التجمع ولها لوحة إعلانات من أجل نشاطاتها النقابية والإعلانية. وقد خصص المرسوم ٨٤ وتعديلاته الصادرة بالمرسوم ذي الرقم ٣٠ لعام ١٩٨٢ اللجنة النقابية بالصلاحيات التالية:

- إمداد النقابة بالمعلومات اللازمة عن وضع أداء العاملين ومستويات الأجور والإنتاج وشروط العمل في التجمع وعن نشاطها ونشاط المندوبين ومدى تنفيذهم لخطط العمل ونتائج مشاركتهم في تأدية المهام والاختصاصات النقابية وملاحظاتها على تصرف الجهة المشرفة

على إدارة العمل، وتقديم المقترحات لتحسين ظروف العمل والعاملين وزيادة الإنتاج والإنتاجية وتطوير العمل النقابي.

ـ تمثيل العمال في عضوية اللجان والمكاتب التي تؤلف في تجمعها، أما تمثيل العمال في المجلس الإنتاجي ومجلس الإدارة واللجنة الإدارية فيخضع للأنظمة النافذة في هذا الشأن.

ـ الإسهام في حماية الملكية العامة وتنظيم المباريات الإنتاجية والاشتراكية وتثقيف العمال ورعاية مبادراتهم ودعوتهم إلى زيادة الإنتاج والحد من الهدر والوقت الضائع والاستغلال الأمثل للطاقة والمواد والموارد والأدوات.

ـ رعاية العمال ومراقبة اهتماماتهم وتقيدهم بتنفيذ المهام والواجبات وتنمية مواهبهم وتنظيم أوقات فراغهم وإعطاء أهمية خاصة لدور الشباب والنساء.

ـ مراقبة قضايا الصحة والسلامة المهنية والأمن الصناعي وبيئة العمل ومدى تقيد صاحب العمل بشروط عقد العمل وبالالتزامات التأمينية للعاملين وتوفير وسائل الوقاية والمعالجة والإسعاف والكشف الطبي الدوري.

ـ إشراك المندوبين الإضافيين المنتخبين في التجمع لمؤتمر النقابة في النشاطات التي يحددها مكتب النقابة.

عبد اللطيف عبد اللطيف

الموضوعات ذات الصلة:

إدارة الأعمال ـ إدارة الأفراد ـ إدارة الإنتاج ـ الإدارة المالية.

مراجع للاستزادة:

ـ عبد السلام بدوي، إدارة القطاع العام في المجتمع الاشتراكي (مكتبة الانجلو ـ المصرية، القاهرة ١٩٧٠).

ـ هيثم هاشم، مبادئ الإدارة (جامعة دمشق، دمشق ١٩٧٥).

ـ P. TABATONI et P.JARNIOU, Les systèmes de gestion: politiques et structures (P.U.F, Paris 1975).

■ الأدب

«ما الأدب؟» سؤال أطلقه جان بول سارتر عام ١٩٤٧، وأجاب عنه في مؤلف حمل العنوان نفسه، وتبوأ مكانة بارزة ضمن روائع النقد الحديث، وبياناته المهمة. ومع ذلك فإن أحداً لم يزعم أن سارتر، أو سواه، قد نجح في تقديم إجابة شافية لسؤال يغدو يوماً بعد يوم أكثر إلحاحاً، ليس على المعنيين بالأدب ودراسته من الأدباء والنقاد والباحثين وحسب، وإنما على دارسي الأدب الشعبي [ر] والانتروبولوجية [ر] وعلم النفس وعلم الجمال أيضاً.

ويبدو أن أفضل مايعتمده المرء لتعريف «الأدب» هو مقاربة مفهومه من جوانب مختلفة، تتكامل فيما بينها لتصل إلى فهم يرجى له أن يكون أكثر تماسكاً وعمقاً وتوضيحاً لجوانب هذه الظاهرة الإنسانية البالغة التعقيد.

منظور تاريخي لدلالة الكلمة

١ـ لدى العرب: لا يكاد الباحث يجد أي نص في العصر الجاهلي يستخدم كلمة «أدب»، وكل مايجده هو لفظة «آدب» بمعنى الداعي إلى الطعام، قال طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى

لا ترى الآدب فينا يَنْتَقِرْ

وفي العصر الإسلامي يرد فعل «أدّب» بمعنى «هذَّب»، في حديث النبي صلى اللّه عليه وسلم «أدّبني ربي فأحسن تأديبي»، ويرى بعضهم أن معنىً تهذيبياً خلقياً كهذا ربما كان شائعاً في العصر الجاهلي، ولكن ليس ثمة نصوص تؤيد هذا الرأي. ويبدو أن المجاز قد ساعد في انتقال دلالة الكلمة من المعنى الحسي وهو الدعوة إلى الطعام إلى المعنى الذهني وهو الدعوة إلى المكارم. ويُداخل الكلمة في العصر الأموي، معنى جديد، إلى جانب معناها التهذيبي الخلقي، هو المعنى التعليمي، فتستخدم في الإشارة إلى «المؤدّبين» وهم نفر من المعلمين كانوا يلقنون أولاد الخلفاء الشعر والخُطب واللغة وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام. وقد استمر الجمع بين معنيي التهذيب والتعليم في العصر العباسي كما يلاحظ في كتاب «الأدب الكبير والأدب الصغير» لابن المقفع [ر]. و«باب الأدب» من «ديوان الحماسة» لأبي تمام [ر]، و«كتاب الأدب» لابن المعتز [ر]. وبوجه عام يمكن القول إن الكلمة كانت تطلق في القرنين الثاني والثالث الهجريين وما تلاهما من قرون على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، وكان المؤلفون العرب يصنفون كتباً ينعتونها بأنها كتب أدب مثل «البيان والتبيين» للجاحظ [ر] (ت٢٥٥هـ)، و«عيون الأخبار» لابن قتيبة [ر] (ت٢٧٦هـ)، و«الكامل في اللغة والأدب» للمبرِّد [ر] (ت٢٨٥هـ)، و«العقد الفريد» لابن عبد ربه [ر] (ت٣٢٨هـ)، و«زهر الآداب» للحصري [ر] (ت٤٥٣هـ).

والواقع أنه «لم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمي الخاص بصناعتي النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التي ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعي والثقافي».

وبهذا المعنى الواسع يجدها الباحث لدى إخوان الصفا [ر] في القرن الرابع الهجري عندما استخدموها في رسائلهم للدلالة على علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارة فضلاً عن علوم القرآن والبيان والتاريخ والأخبار. ويبدو أن هذا المعنى الواسع كان الأساس الذي استند إليه ابن خلدون [ر] (ت٨٠٨هـ) في إطلاق لفظة الأدب على جميع المعارف سواء أكانت دينية أم دنيوية، فالأدب فيما يراه «لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها، وإنما المقصود به عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجادة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم. ثم إنهم إذا أراد أحد هذا الفن قالوا الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف».

ومما يجدر ذكره أن الكلمة استخدمت منذ القرن الثالث الهجري، إلى جانب دلالتها على المعاني التي تقدمت الإشارة إليها، للدلالة على السنن التي يجب أن تراعى عند فئة اجتماعية معينة كالكتّاب أو الندماء أو الوزراء أو القضاة وغير ذلك، ويمكن للمرء أن يشير في هذا الموضع إلى كتاب «أدب الكاتب» لابن قتيبة و«أدب النديم» لكشاجم [ر] (ت نحو عام ٣٥٠هـ)، وسواهما من الكتب التي تناولت أدب القاضي وأدب الوزير وأدب الحديث وأدب الطعام وآداب السفر وغيرها.

ومنذ بداية المواجهة العربية ـ الأوربية الشاملة

بُعيد الحملة الفرنسية على مصر، أصبحت الكلمة تُستخدم في العربية الحديثة للدلالة على ما يقابل كلمة « literature » الإنكليزية، و« littérature » الفرنسية، وذلك نتيجة التفاعل الثقافي الذي عاشه الوطن العربي في القرنين الأخيرين. وهي تشير اليوم إلى « الأدب » بوصفه واحداً من الفنون الجميلة الستة أو السبعة، على اختلاف التعريفات ووجهات النظر والتوكيدات التي يلاحظها المرء لدى النقاد العرب ومؤرخي الأدب ودارسيه من العرب المحدثين.

٢ـ لدى الأمم الأخرى: استخدمت كلمة « litteratura » « ليتراتورا » اللاتينية المشتقة من كلمة « littera » « الحرف » أول ما استخدمت ترجمة لكلمة « grammatiké » « غراماتيكي » اليونانية، وهي معرفة القراءة والكتابة. وما لبثت أن استخدمت بعدها للدلالة على التبحر والثقافة الأدبية. فشيشرون [ر] Cicero ينعت قيصر بهما عندما يذكر أن لديه أدباً وحساً جيداً وذاكرة وتأملاً ودأباً. وفي القرن الثاني للميلاد استخدمت الكلمة للدلالة على « مجموع من الكتابة »، إذ يجد المرء كلاً من تيرتوليان Tertullian وكاسيان Cassian يقابل بين الكتابة الزمنية الوثنية litteratura والكتاب المقدس Scriptura. ويبدو أن الكلمة في العصور القديمة كانت تستخدم عامة للدلالة على مجموع الأدب اليوناني [ر] وتاريخ الأدب ودراسته ومايتصل بذلك من معارف.

وتختفي الكلمة بهذا المعنى في العصور الوسطى ليقتصر استخدام كلمة « ليتراتوس » « litteratus » على من يعرف القراءة والكتابة. ويلحق الشعر بالنحو والبلاغة بوصفهما يؤلفان ـ مع المنطق ـ مايعرف بالفنون الحرة الثلاثة. ولكن الكلمة لا تلبث أن تعود مع عصر النهضة [ر] إلى الظهور. يلاحظ استخدام كلمة « لتراي ـ litterae » « آداب » مقترنة غالباً بالصفة « humanae » تمييزاً لها من الكتابات المقدسة، أو بالصفة « bonac » نعت مديح لها. وترد بهذا المعنى في جميع كتابات إراسموس [ر] Erasmus، ورابليه [ر] Rabelais، ودي بيليه [ر] Du Bellay، ومونتني [ر] Montaigne، وآخرين، في حين يستخدم درايدن [ر] Dryden الكلمة للحديث عن « الآداب الجيدة » good letters.

وفي القرن السابع عشر ينبثق مصطلح « Belles Lettres » « الأدب بوصفه فناً جميلاً »، فيقترح شارل بيرو Charles Perrault على كولبير Colbert إنشاء أكاديمية تضم قسماً خاصاً لـ« Belles Lettres » يشمل النحو والفصاحة والشعر. ويبدو أن هذا المصطلح كان مطابقاً في دلالته لمصطلح « الآداب الإنسانية » lettres humanies كما يرد في معجم تريفو Dictionnaire de Trevoux الذي يعود إلى عام ١٧٠٤م، ولا ينطوي على أي من الدلالات غير المستحبة التي تتضمنها صفة « belletistic » التي تستخدم اليوم للدلالة على المغالاة في تذوق الأدب لذاته استناداً إلى ذاتية المتلقي من دون أخذ المعايير النقدية أو الأغراض الأخلاقية أو القيم الجمالية والفنية بالحسبان. وسرعان ما انتشر المصطلح الفرنسي خارج فرنسة، إذ استخدمه توماس رايمر Thomas Rymer في إنكلترة عام ١٦٩٢، ويغدو هيوبلير Hugh Blair عام ١٧٦٢ أول أستاذ للبلاغة والأدب بوصفه فناً جميلاً Belles Lettres في جامعة أدنبره.

ويطالع المرء في الحقيقة مصطلح « الأدب » بمعنى الثقافة الأدبية أو التبحر أو ببساطة معرفة اللغات الكلاسيكية منذ العقود الأولى للقرن الثامن عشر. فعلى سبيل المثال يعرف الأدب في طبعة عام ١٧٢١ لمعجم تريفو بأنه « مذهب، معرفة معمقة للآداب »، وثمة في « الموسوعة العظيمة » مقالة بتوقيع J. D أي Le chevalier Jaucourt تعرف الأدب بأنه مصطلح « يعني التبحر ومعرفة الـ Belles Lettres » أو الأدب بوصفه فناً جميلاً.

وقد استخدمت الإنكليزية المصطلح بالطريقة نفسها فجون سيلدن John Selden عالم الآثار يوصف بأنه « شخص ذو أدب لا حدود له »، وبوزويل [ر] Boswell يصف الإيطالي جوسيبي باريتي Giuseppe Baretti بأنه « إيطالي ذو أدب مرموق ». وظل هذا الاستعمال سائداً حتى القرن التاسع عشر. فجون بثرام John Pethram يؤلف عام ١٨٤٠م كتاباً بعنوان « تخطيط لتقدم الأدب الأنكلو ـ سكسوني في وضعه الحاضر في إنكلترة » يستخدم فيه كلمة الأدب بمعنى دراسة الأدب أو معرفته.

وهكذا يتبين للمرء أن مصطلح « الأدب » قد استخدم منذ مطلع القرن الثامن عشر في أوربة للدلالة على « مجموع من الكتابة » body of writing، على الرغم من أنه يصعب أحياناً إيجاد تفريق واضح في الاستخدام المتزامن بين كل من « الثقافة الأدبية » و« التبحر ». وقد شاع هذا الاستخدام في كل من اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنكليزية، وثمة أمثلة عديدة في كل منها لمؤلفات تستخدم المصطلح بهذا المعنى، وجميعها يشير إلى « أنواع الكتابة كلها بما فيها تلك الأنواع المتسمة بطبيعة التبحر كالتاريخ، واللاهوت، والفلسفة، وحتى العلوم الطبيعية ». ولم تُضَيّقْ دلالة المصطلح لتشير إلى ما ندعوه اليوم بالأدب الخيالي imaginative literature (القصيدة، الحكاية، المسرحية) بوجه خاص، إلا ببطء شديد.

وباختصار يمكن القول إن مصطلح « الأدب » « literature » أو « الآداب » « letters » قد فهم في العصور القديمة وفي عصر النهضة على أنه يشمل جميع الكتابات النوعية التي يمكن أن تدعي الخلود. ولم ينبثق، إلا ببطء شديد أيضاً في القرن الثامن عشر، الرأي القائل بأن هناك فناً للأدب يضم الشعر والنثر بمقدار كونه « تلفيقاً خيالياً » imaginative fiction، ويستبعد المعلومات أو حتى الإقناع البلاغي، والمحاجة التعليمية، أو السرد التاريخي.

وقد عززت هذا المفهوم المناقشات المتصلة بفكرة الذوق ودور المتذوق، واختراع بومغارتن Baumgarten لمصطلح علم الجمال aesthetics، وجهوده مع « كنت » [ر] ولا سيما في كتابه الأخير « نقد الحكم »، في التمييز ما بين الجميل، والجيد، والحقيقي، والمفيد فضلاً عن النهوض البطيء لمكانة الرواية في المجتمع الأوربي، وقاد كل ذلك في نهاية المطاف إلى ظهور مفهوم للأدب مواز لمفهومي الفنون التشكيلية والموسيقى وغيرهما من الفنون الجميلة المعروفة، وغدا الأدب واحداً منها يتبوأ بين أقرانه الستة مكانة بارزة.

نحو تحديد للمصطلح

١ـ الأدب كل شيء مطبوع: يعرف بعضهم الأدب بأنه « كل شيء مطبوع » everything in print وتعريف كهذا، الذي يدعو إليه إدوين غرينلو Edwin Greenlaw، يقود إلى تماهي الدراسة الأدبية مع تاريخ الحضارة، وفي هذا إنكار للحقل النوعي والمناهج النوعية الخاصة بالدراسة الأدبية.

٢ـ الأدب هو الكتب العظيمة: ويعرف بعضهم الآخر الأدب بأنه « الكتب العظيمة » great books أي الكتب الجديرة بالملاحظة

بسبب من شكلها الأدبي أو التعبيري، فضلاً عن امتيازها الفكري العام أحياناً، والحقيقة أن معظم تواريخ الأدب تشمل بعنايتها كتابات الفلاسفة والمؤرخين وعلماء اللاهوت وأصحاب المذاهب الأخلاقية والسياسيين، بل بعض العلماء أيضاً. ولكن المرء يلاحظ أن عنايتها هذه لا تتعدى العروض الخاطفة وربما غير الخبيرة والبعيدة عن السياق المناسب الخاص بكل حقل معرفي تنتمي إليه كتابات هؤلاء. ولا شك في أن قراءة الكتب العظيمة ودراستها أمران مرغوب فيهما. ولكن ذلك لا يغني في موضوعات تراكمية كالعلوم والتاريخ. وفضلاً عن ذلك فإن الاقتصار على الكتب العظيمة في تاريخ الأدب الخيالي يحول بين المرء وبين فهم استمرار التقليد الأدبي، وتطور الأجناس الأدبية، وطبيعة العملية الأدبية نفسها، وينزع ظاهرة محكومة بمختلف الشروط والظروف الخارجية ـ كالأدب ـ من سياقها الذي لا غنى عنه في فهم طبيعتها، ووظيفتها، وحدودها.

٣ـ الأدب إنشاء تخييلي تسود فيه الوظيفة الجمالية: الأدب أساساً فن جميل يتخذ من اللغة أداة له، ويتبدى لذلك في هيئة إنشاء discourse. ومما يميز أداة الأدب هذه أنها أداة إنسانية، ابتدعها الإنسان لتكون أداة لتفكيره وتعبيره وتواصله مع أفراد مجتمعه. وأهم من هذا كله أنها أداة الثقافة الموروثة في تجليها لمستخدم هذه اللغة، وأنها، لذلك، أداة التواصل المثلى مع هذه الثقافة. فالفرد إذ يكتسب لغته الأم ويستوعب نظامها بعوامل مختلفة، يستوعب جوانب كثيرة من ثقافته المدونة بهذه اللغة، ومن الثقافات المترجمة إليها، لأنه من الناحية العملية يكتسبها ممارسة، ويواجهها نصوصاً أدبية وغير أدبية من مختلف العصور، يطلع عليها في مختلف مراحل تكوينه اللغوي والفكري الثقافي. وهي لذلك أداة «حافلة بالتراث الثقافي» للمجموعة اللغوية التي تنتمي إليها، وما دوّن فيها أو ترجم إليها من المواريث الثقافية الأخرى، هو حصيلة التراث الثقافي الذي تنطوي عليه.

فالأديب العربي الحديث، مستخدم العربية في إنشائه لنصه، يتواصل مع موروثه الثقافي المشتمل على نصوص القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والشعر العربي من العصر الجاهلي حتى العصر الراهن، ونصوص التاريخ العربي، والقصص، والفكر في مختلف تجلياته، وذلك بالإفادة من اللغة العربية التي تسرب إليه هذا الموروث من حيث يدري ولا يدري. وعندما ينتج نصه الأدبي فإنه ينشئه بهذه اللغة وقد تشبعت بكل هذا الموروث فضلاً عن المواريث الثقافية الأخرى المترجمة إلى العربية في مختلف العصور.

واللغة في النص الأدبي تؤدي عدة وظائف متفاوتة في أهميتها، والوظيفة الأكثر أهمية والتي تسود عادة غيرها من الوظائف الأخرى وتحكمها في النظام الهرمي الذي تقيمه بينها هي الوظيفة الجمالية aesthetic function وهذه الوظيفة اجتماعية في جوهرها يسندها المجتمع إلى اللغة الأدبية من خلال مؤسساته المختلفة ذات الصلة (المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية).

وربما كان من المهم في هذا السياق ذكر التفريق بين الأساليب في استخدام اللغة في الأدب، والعلم، والحياة اليومية، الذي بات اليوم موضع تساؤل من جانب منظري الأدب المعاصرين. ومما يلاحظه المرء هنا أن اللغة العلمية المثالية لغة «دلالية» denotative محضة، تهدف إلى التطابق التام والمحكم بين العلامة sign أو الدال، والمشار إليه أو المدلول signified ، وأن العلامة في هذه اللغة شفافة أيضاً توجه قارئها من دون التباس إلى ما تشير إليه، كما هو الشأن في الرياضيات أو المنطق الرمزي.

وبمقارنة اللغة العلمية مع اللغة الأدبية تبدو هذه الأخيرة قاصرة لأنها «مفعمة بالالتباسات، وهي، مثلها في ذلك مثل أية لغة تاريخية أخرى، ملأى بالجناس، والزمر الاعتباطية أو اللاعقلانية ومشبعة بالأحداث التاريخية والذكريات والتداعيات. وباختصار إنها شديدة الإيحاء connotative» وهي لذلك في منأى عن أن تكون «إشارية» referntial فقط. إن لها جانبها التعبيري expressive فهي تنقل لهجة المتحدث أو الكاتب وموقفه، وتسعى كذلك إلى التأثير في القارئ. وثمة تفريق مهم آخر بين اللغة العلمية واللغة الأدبية يتمثل في تشديد الأخيرة منهما على العلامة نفسها، على رمزية الصوت في الكلمة. وجميع أنواع التقنيات الفنية كالوزن والجناس الاستهلالي وأنساق الصوت إنما اخترعت أساساً لتلفت الانتباه إلى الجانب الصوتي في هذه العلامة.

وأخيراً فإن اللغة الأدبية أكثر حميمية من اللغة العلمية في صلتها بالبنية التاريخية للغة.

وإذا ما مضى المرء من اللغة العلمية إلى لغة الحياة اليومية فإنه يجد صعوبة أكبر في تمييزها من اللغة الأدبية لأن كل ما قيل عن هذه الأخيرة يمكن قوله عن اللغة اليومية وإن كان ذلك بدرجة أقل. ومع ذلك فلا بد من الإشارة إلى ما للغة الأدبية من تسام في وعي العلامة، وقصد وتنظيم محكمين في استغلالها لمصادر اللغة، قد يبلغان درجة يستحيل معها تغيير كلمة أو إضافة كلمة من دون إفساد واضح لتأثير الإنشاء الأدبي ولا سيما في الشعر بأنواعه المختلفة.

ويبدو أن من الأفضل للمرء أن يعد أدباً فقط الإنشاء الذي تكون فيه الوظيفة الجمالية في وضع السائد أو المهيمن والناظم لجميع الوظائف الأخرى التي يمكن للغة أن تؤديها في هذا الإنشاء. وفضلاً عن الاستخدام القصدي الواعي المنظم المحكم للغة في الإنشاء الأدبي ـ هذا الاستخدام الذي يسمح للوظيفة الجمالية بالسيادة والهيمنة في ذاك الإنشاء ـ فإن هناك سمة أخرى للأدب لا يمكن إغفالها وهي أنه «تخييل» fiction. إن كل شيء في الأدب متخيل ومصنوع بما في ذلك «أنا» الشاعر والشخصيات التاريخية التي تعمر حياة رواية ما، والتي تحيل قارئها على عالم متخيل لا يمكن النظر إليه على أنه واقع تاريخي فعلي.

والإقرار بـ« التخييل» صفة أساسية من الصفات المميزة للأدب يُحيل المرء على آثار من مثل ـ آثار هوميروس [ر] وامرئ القيس [ر] ودانتي [ر] وشكسبير [ر] أكثر مما يحيله على آثار شيشرون ومونتني وإمرسون [ر]. وتبقى بعض الآثار بين بين. ولكن المفهوم الذي تم تقديمه للأدب في الصفحات السابقة ليس مفهوماً «تقويمياً» بمقدار ما هو مفهوم «وصفي». إنه تصنيف للإنشاءات الفردية التي تسود فيها الوظيفة الجمالية للغة باقي الوظائف الأخرى وتحكمها وتنظم مواقعها في الهرم الذي تشكله في أي من هذه الإنشاءات.

وكل ما قيل وما يمكن قوله عن «الأدب» يؤكد شيئاً أساسياً وهو «أن العمل الأدبي الفني ليس شيئاً بسيطاً، ولكنه بالأحرى تنظيم على درجة عالية من التعقيد، وذو سمة طبقية من معان وصلات متعددة». وأن تحليلاً حديثاً للعمل الفني ينبغي أن يبدأ بأسئلة أكثر تعقيداً

من مثل نمط وجوده، ونظام طبقاته. ذلك أنه نتاج الإنسان، سر الأسرار الذي ما زال ينتظر من يحل لغزه.

تمييزات

غالباً ما يستخدم مصطلح «الأدب» مقترناً بوصف محدد له كالأدب القومي والأدب العام، والأدب العالمي، والأدب المقارن، ومن الأهمية بمكان إقامة التمييزات الواضحة بين هذه المصطلحات حتى يتم استخدامها استخداماً متسقاً ودقيقاً ومجدياً في آن معاً في أي بحث عن الأدب.

ـ **الأدب القومي** أو national literature وهو الأدب الخاص بقوم أو شعب من الشعوب. ويستند الباحثون في تحديده إلى الأسس المستخدمة في إقامة الحدود القومية وهي أسس متنوعة وعديدة غالباً ما تتبوأ فيها اللغة القومية مكانة بارزة.

ـ **الأدب العام** أو general literature ويقصد به «فن الشعر» poetics أو «الشعرية»، أو «نظرية الأدب الداخلية» أو بعبارة أخرى الأعراف conventions والنظم systems، والقوانين canons، والقواعد rules، والمعايير criteria، والقيم values، والمقاييس standards، المستمدة من داخل الأدب، وتكوّن في مجموعها نظاماً متكاملاً يحكم إنتاج الأدب واستهلاكه في جنس أدبي معين، أو مجموعة من الأجناس الأدبية في عدد من التقاليد الأدبية القومية.

ـ **الأدب العـــــالمـــــي** world literature أو weltliterature وهو مصطلح تعود حقوقه إلى غوته الذي استخدمه أول مرة عام ١٨٢٧ ليشير به إلى زمن تغدو فيه الآداب كلها أدباً واحداً. إنه مثال توحيد الآداب جميعها في تركيب واحد عظيم، تؤدي فيه كل أمة دورها في اتساق عظيم.

ـ **الأدب المقارن** comparative literature وهو مصطلح يعني فيما يعنيه «دراسة الأدب الشفوي» أو «دراسة الصلة بين أدبين قوميين أو أكثر»، أو ما يعرف عادة بالمفهوم الفرنسي للأدب المقارن، أو «دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى» أو مايعرف اليوم بالمفهوم الأمريكي الذي كان ردة فعل على انشغال الفرنسيين وأتباعهم بمسائل التأثر والتأثير واستبعادهم للنقد الأدبي والقضايا الجمالية واستغراقهم في إيمانهم العميق بالمركزية الأوربية.

ويبدو للمرء أن المجاز وحده يستطيع أن يوضح الفروق بين مصطلحات مثل «الأدب القـومـي»، و«الأدب المقـارن»، و«الأدب العالمي»، و«الأدب العام» بسبب التداخل النظري والعملي في استخدامها من جانب الباحثين. وهكذا فإنه يمكن القول إن الأدب القومي دراسة للأدب ـ بوصفه فناً جميلاً ـ ضمن الحدود القومية لذلك الأدب؛ والأدب المقارن دراسة للمناطق الحدودية أو لتخوم الأدب القومي ـ تخومه النوعية بوصفه أدباً، أو صلاته مع مناطق أخرى من التعبير الإنساني، وتخومه اللغويه بوصفه خاصاً بأمة معينة، أو صلاته بالآداب الأخرى، والأدب العالمي هو دراسة للقمم الشامخة التي تستوقف عين الناقد إذ يحلق في السماء الرحبة للأدب، والأدب العام هو دراسة للتضاريس الطبيعية التي يكوّنها مجموع الآداب القومية بصرف النظر عن حدودها اللغوية أو السياسية أو العرقية. وينبغي للدارس، على أي حال، ألا ينسى أن الأدب في النهاية واحد، «كما أن الفن واحد، والإنسانية واحدة، وفي هذا التصور يكمن مستقبل الدراسات الأدبية التاريخية»، ومستقبل دراسة الأدب بوجه عام.

الأجناس الأدبية

الأدب فيض مستمر تنتجه الأمم الحية ما عاشت، ولأنه كذلك فإنه يستعان على دراسته بتقسيمه إلى وحدات تبعاً لمعايير خارجة عنه كالزمان والمكان، أو وفقاً لمعايير داخلية تمليها الأعمال الأدبية نفسها.

وتصنيف الأدب تبعاً لمعايير من التنظيم أو البنية الداخليين قديم قدم أفلاطون، ومستمر استمرار هذه الظاهرة الإنسانية في مختلف التقاليد الأدبية القومية، وأرسطو، وهوراس، وكوينتيليان، ورجال عصر النهضة من أمثال دانتي وسواه ومن تلاه من مفسري النظرية الكلاسيكية في الأجناس الأدبية، وأعلام الكلاسيكية الجديدة والثائرين بها من نقاد الإبداعية (الرومنتية)، ونقاد القرن العشرين من الشكليين الروس، والأرسطيين الجدد من نقاد شيكاغو، ونورثروب فراي وسواه يؤلفون صوى بارزة في محاولة النظر في هذا التصنيف عبر العصور.

والواقع أن كل جنس أدبي رئيسي أو فرعي، عريق أو حديث، مستمر أو منسي، غدا في واقع الأمر مؤسسة تعني الكثير للمهتمين بالأدب أدباء ونقاداً وقراء. وهم يتعاملون مع هذه المؤسسة مثلما يتعاملون مع أية مؤسسة أقامها المجتمع الإنساني، يعبرون عن أنفسهم ويعملون من خلالها أحياناً، ويعيدون تكوينها من داخلها أحياناً أخرى، ويثورون بها ويسعون إلى خلق مؤسسات بديلة عنها في أحيان ثالثة، يستجيبون في ذلك كله لحاجاتهم الفنية من جانب، وللحوافز التي يقدمها النقاد والقراء من جانب ثان، وللشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة في مجتمعهم من جانب ثالث. وفي تتبع المرء لمسيرة مؤسسة الأجناس الأدبية يمكنه أن يميز الأجناس التالية:

الشعر الغنائي lyrical poetry: وهو جنس أدبي رئيسي قوامه القصيدة والمقطعة. ويعتقد أنه أقدم الأجناس الأدبية، اتصلت نشأته بالغناء في معظم التقاليد الأدبية. وعلى الرغم من أنه كان في بداية نشأته يتوجه، في جزء غير يسير منه، إلى الجمهور ويسعى إلى الاستجابة لذوقه واهتماماته، فقد بات يغلب عليه انصراف الشاعر للتعبير عن ذاته، وهو لهذا جنس أدبي ذاتي، وجل الشعر العربي شعر غنائي يعبر فيه الشاعر عن ذاته، ويفصح فيه عن كوامنها. ولكنه بسبب نشأته الغنائية وغلبة طابع الإنشاد عليه، ظل يأخذ اهتمامات جمهوره وذوقه بالحسبان وذلك بعد تبنيها والإفصاح عنها من خلال «أنا» الشاعر التي قد تتسع لتشمل الجماعة كما في الشعر الجاهلي أو شعر المناسبات.

الملحمة epic: وهي جنس أدبي شعري موضوعي قديم يقوم على القصيدة القصصية الطويلة التي تسجل حقبة مهمة من تاريخ الأمة التي ينتمي إليها الشاعر أو الأمم التي اتصلت بها، ويمثل أبطالها قيم الأمة ومثلها العليا، أو تدور حول البطولة والمغامرات لشخصية أسطورية من شخصيات الأمة تستهوي الأفئدة، أو تتناول المصير الإنساني ولا سيما في بعده الروحي. ويغلب على الملحمة الأسلوب القوي والسامي عادة، ولكن بعضها، كما في الملاحم الشعبية العربية، يمكن أن تكتب نثراً مرصعاً بالشعر وربما بلغة أقل سمواً نتيجة غلبة الطابع الجمعي التراكمي على تأليفها.

المسرحية drama: وهي جنس أدبي موضوعي أكثر حداثة نسبياً من الجنسين المتقدمين كانت أداته الغالبة هي الشعر حتى القرن التاسع عشر، وله أنواعه المختلفة التي ربما كان من أهمها المأساة tragedy، والملهاة comedy، والمأساة ـ الملهاة tragi-comedy، والفارس أو المسرحية الهزلية farce، والمسلاة entertainment play (وهي مسرحية قصيرة يغلب عليها الرقص والغناء لشغل الجمهور في أثناء العروض الرئيسية أو قبلها)، ومسرحية المعجزات miracle play (التي تمثل مشاهد من حياة الأولياء والقديسين ومآثرهم)، ومسرحية آلام المسيح passion play (التي تصور الأيام الأخيرة من حياة المسيح)، ومسرحية الأسرار المقدسة mystery play، (التي يصدر مؤلفوها فيها عن قصص الكتاب المقدس)، وغيرها.

وثمة فضلاً عن هذه الأنواع المتصلة أساساً بالشكل اليوناني والتي تعدّ تطويراً له، أنواع أخرى كمسرح النو، والكابوكي اليابانيين، ومسرح خيال الظل التركي والعربي، وشعر التعزية الفارسي وغيرها. وعلى الرغم من وجود ظواهر مسرحية عديدة في الأدب العربي القديم فإن المسرحية في الأدب العربي الحديث مستلهمة أساساً من التجربة الأوربية بعيد المواجهة العربية ـ الأوربية في منعطف القرن التاسع عشر أكثر مما هي تطوير لهذه الظواهر القديمة.

القصة fiction: وهي جنس أدبي نثري موضوعي له أنواع متفاوتة في طولها وأسلوبها، ومن بينها:

١ـ الرواية the novel وهي سرد تخييلي طويل عادة يجتمع فيه الحديث والتحليل النفسي للشخصيات وتصوير المجتمعات والعالم الخارجي، والأفكار، والمسحة الشاعرية، على تفاوت في أهمية هذه العناصر تبعاً لنوع الرواية، وللرواية أنواع عديدة منها الرواية البوليسية detective novel والرواية التاريخية historical novel ورواية تكون الشخصية bildungsroman، ورواية راعي البقر western، والرواية العاطفية sentimental novel، والرواية النفسية psychological novel والرواية المثيرة thriller، وغيرها.

٢ـ القصة القصيرة short story وهي سرد قصصي حديث نسبياً ظهر في أواخر القرن التاسع عشر تكاد تكون لقطة تصويرية موضوعها في الغالب تلك اللحظات العابرة القصيرة في الحياة الإنسانية. وهي جنس صعب جداً بسبب دقة مقوماته وحساسية لغته وتركيزها الشديد.

٣ـ الرواية القصيرة (النوفيلا) novella وهي جنس أدبي فرعي طوره أساساً الكاتب الإيطالي بوكاتشو، في مجموعته الموسومة بـ «الأيام العشرة» Decamerone، التي استلهم فيها «ألف ليلة وليلة»، واستهوى نمطها بعضاً من أبرز كتاب النثر الأمريكيين مثل هرمن ملفل H.Melville، وهنري جيمس H. James، والعرب مثل غسان كنفاني، وعبد السلام العجيلي، ويحيى حقي وغيرهم.

٤ـ الرومانس romance وهي سرد طويل يغلب عليه التغني بالحب والبطولة. وثمة الحكاية tale وهي سرد خيالي بسيط، والحكاية الرمزية fable والخرافة وغيرها.

السيرة biography: والسيرة الذاتية autobiography، والأولى منهما ترجمة لحياة شخص ما أدى دوراً مهماً في مجتمعه، والثانية ترجمة لحياة مؤلفها.

المقالة essay: وهي جنس أدبي نثري حديث نسبياً أدت الصحافة دوراً كبيراً في تطويره بأنماطه المختلفة، ويطلق المصطلح في الأدب الإنكليزي على المعالجات الجادة لموضوع ما بأسلوب رفيع محكم وتصل المقالة حجم الكتاب المستقل أحياناً.

وفضلاً عن الأجناس الأدبية المتقدم ذكرها والتي تكاد تكون قاسماً مشتركاً بين الآداب القومية المختلفة بما فيها الأدب العربي، هناك أجناس أدبية تكاد تكون مقتصرة عليه منها المقامة وهي قصة قصيرة مسجوعة تتضمن عظة أو ملحة أو نادرة تتخذ معرضاً للبراعة اللغوية والأدبية، وأصل معناها «المجلس» و«الجماعة من الناس» وأشهر كتابها بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٣هـ)، والحريري (ت ٥١٠هـ)، والموشح وسمي كذلك تشبيهاً له بالوشاح أو القلادة التي تنظم حباتها من الأحجار الكريمة، وهو جنس أدبي شعري نشأ في الأندلس نتيجة عوامل عديدة يختلف دارسوه في تقدير أهميتها من بينها انتشار الغناء والموسيقى في الأندلس، والبيئة الأندلسية، والاحتكاك بالآخر وسواها من العوامل. وما لبث أن انتقل إلى المشرق ليغدو واحداً من الفنون السبعة في الأدب العربي التي تضم إلى جانبه المواليا، وكان ما كان، والقوما، والدوبيت، والسلسلة، والزجل، وهي أجناس شعرية مختلفة ظهرت في عصور مختلفة نتيجة لمؤثرات داخلية وخارجية متنوعة، ويظهر بعضها تحللاً ملحوظاً من اللغة والعروض السائدين، وهي على وجه الإجمال أجناس فرعية عاشت، خلا الموشح والزجل، على هامش الأجناس الأدبية العربية الرئيسية.

نظرية الأدب

يستند الكاتب في ممارسته للأدب إلى أعراف ومعايير ومقاييس ونظم وقواعد وقوانين تؤلف في مجموعها الفكر الأدبي السائد في عصرها. وعلى الرغم من أنه نادراً ما يفصح عنها فإن طبيعة ممارسته ذاتها تعكس إيمانه الضمني بها على نحو أو آخر. والناقد الناظر في حصيلة ممارسة الكاتب، أو في النص الأدبي ـ يختاره ويشرحه ويحلله ويوازن بينه وبين غيره ويحكم عليه ـ يستند كذلك إلى مجموعة مماثلة (أو مغايرة في وجه من الوجوه أو كلياً) من هذه الأعراف والمعايير والمقاييس والنظم والقواعد والقوانين، تيسر له التمييز مابين المخالف، والمرفوض، والمقبول والمتميز، والمتألق في ممارسة الكاتب، ومع أن الناقد يكون عادة أكثر ميلاً من الكاتب، إلى الإفصاح عن الفكر الأدبي الذي يشكله مجموعها فإن منظّر الأدب، أو الباحث في نظرية الأدب، وحده الذي يعنى بالكشف عن هذا الفكر على نحو صريح وبيّن ومنظم بسعيه إلى إقامة الإطار المرجعي frame of reference النظري الذي يحكم الممارستين الأدبية والنقدية ويفسرهما في آن معاً. وتتناول نظرية الأدب أو ما يعرف بالإنكليزية «theory of literature»، وبالفرنسية بـ «théorie de la littérature» جانبين اثنين مهمين في فن الأدب هما طبيعته ووظيفته.

وواقع الحال أن جميع نظريات الأدب، بما فيها النظريات العربية والإسلامية، التي تفتق عنها الذهن البشري عبر العصور شغلت بهذين الجانبين على تفاوت في توزيع اهتمامها فيما بينهما. ففي حين ركزت النظرية الشكلية اهتمامها على طبيعة الأدب، انصرفت النظريات الأخلاقية إلى الحفاوة بوظيفته، مع إقرارها جميعاً بالصلة المتبادلة بين طبيعة الأدب

ووظيفته. وهذا الإقرار الضمني والصريح أمر متوقع. فطبيعة أي شيء مرتبطة على نحو عضوي بالوظيفة التي يراد له أن يؤديها.

لقد تبين مما تقدم أن الأدب إنشاء تخييلي تتسنم فيه الوظيفة الجمالية موقع السيادة، والناظر في وظيفة هذا الإنشاء في مختلف العصور والتقاليد النقدية يتبين له أنها راوحت بين قطبي مقولة هوراس في أن الشعر «متعة وفائدة». ففي حين استبعد أفلاطون الشعراء وملهمتهم لأنهم لم يستطيعوا أن يدللوا على أن الشعر مفيد بمقدار ما هو ممتع، أعاد أرسطو إلى الشعراء مكانتهم عندما بين أن الشعر المسرحي، خاصة، يحقق، بإثارته عاطفتي الخوف والشفقة، تطهيراً للنفس البشرية يماثل المناعة التي يوفرها اللقاح الطبي للشخص السليم، وجاء هوراس من بعدهما ليؤكد أن أفضل الشعر ما جمع بين المتعة والفائدة.

أما في العصور الوسطى عندما هيمنت الكنيسة هيمنة شاملة في أوربة كان من الطبيعي أن تؤكد المؤسسة الدينية أن الأدب فائدة أكثر منه متعة، وأن يثور عصر النهضة، بالمقابل بهذا التصرف الأخلاقي. وما لبث نقاد الاتباعية الجديدة، بعد قرون من العودة إلى المصادر الاتباعية، أن عادوا للاحتفاء بالجانب الشكلي، ليضيق الإبداعيون بهذه الحفاوة ويؤكدوا الدور الاجتماعي للأدب، إذ الشاعر نبي ومصلح في نظرهم. ولكن تغليب الجانب الفردي والعاطفي في الإبداعية تعرض لهجوم نقاد الواقعية الذين حفزتهم الماركسية وغيرها من الفلسفات الاجتماعية على ربط الأدب بالبنية الكلية للمجتمع الإنساني، وعلى تثمين الأدب بمقدار ما يقدمه من إسهام في عملية التحول الاجتماعي الصاعد. وهكذا يجد المرء في القرن العشرين هذا الإلحاح الكبير للنقد الماركسي على ضرورة قيام الأدب بتصوير عملية الصراع في المجتمع الرأسمالي والوقوف مع القوى النامية في هذا المجتمع لتحل محل القوى السائدة التي استنفدت أغراض وجودها بهدف قيام مجتمع اللاطبقات، مثلما يجد الانتشار الواسع بعيد الحرب العالمية الثانية لمفهوم الالتزام الوجودي بوصفه خياراً حراً للكاتب لممارسة دوره المنشود في المجتمع الحديث. ومع التحولات الجديدة التي يشهدها العالم اليوم تغدو وظيفة الأدب أكثر تعقيداً، ولكنها تبقى جزءاً من وظيفة الفن عامة وهي القيام الأمين على المثل الرفيعة والقيم الإنسانية السامية التي لا تكون المجتمعات البشرية إنسانية بحق من دونها.

أما العرب فقد مالوا إلى تأكيد وظيفة الشاعر في العصر الجاهلي في الدفاع عن قبيلته وإعلاء شأنها بين القبائل، ولكن الإسلام قلل كثيراً من أهمية هذا الدور ونزّه القرآن عن الشعر، مثلما نفى صفة الشاعر عن محمد ﷺ. ولم يدم هذا الارتباط الوثيق بين الأدب والأخلاق طويلاً إذ سرعان ما أعيد تأكيد أن «الشعر نكد بابه الشر إذا دخل في باب الخير لان»، كما يقول الأصمعي، وأنه لذلك لا يؤخذ بميزان الأخلاق. واقترن هذا الفصل بين الأدب والأخلاق بموقف دفاعي عن الشعر (الصولي [ر] والقاضي الجرجاني [ر] وغيرهما) من دون الشعر الذي ربما حوكم بمقاييس أخلاقية (الباقلاني [ر] وابن بسام [ر])، أو هوجم، بوحي من أفلاطون وسوء فهم لأرسطو، من جانب النقاد الذين استلهموا الثقافة اليونانية (مسكويه [ر] وابن رشد [ر]) وغيرها (ابن حزم [ر])، لأسباب تربوية. واستمر هذا الإلحاح على الجوانب الشكلية سائداً في الفكر الأدبي العربي حتى العصر الحديث، ولكن المواجهة الشاملة مع أوربة في القرنين الأخيرين وحرص الأدباء العرب المحدثين على أن يؤدوا دورهم كاملاً في بناء الحياة العربية الجديدة أسندا إلى الأدب العربي الحديث وظيفة الإسهام في عملية التحديث والتحرر الوطني والاجتماعي من جانب، وبناء الإنسان العربي الحديث بالقيم العربية الأصيلة والمفاهيم المعاصرة من جانب آخر.

حدود الأدب

الأدب إنشاء أداته اللغة، ينتجه إنسان من أحد الجنسين، له عمر محدد، وتكوين ثقافي محدد، وحياة نفسية خاصة به. وهو كائن اجتماعي يعيش في محيط اجتماعي يكون وسطاً لنشاطاته المختلفة، ولهذا المنتج ميوله وأهواؤه وتوجهاته السياسية والفكرية كما أن له ظروفه الاقتصادية ومكانته الاجتماعية، والأدب الذي ينتجه ليس إلا جزءاً من كل في نشاطاته المختلفة، وهو لذلك يتبادل التأثير وهذه النشاطات، ولا سيما تلك التي تنتهي بإنتاج معرفي أو فني كالفكر والفلسفة والتاريخ والأسطورة والفنون الجميلة والعلوم وغيرها. وأي معنيّ بالأدب ودرسه مضطر إلى النظر في صلات الأدب بهذه الفعاليات وحصيلتها بغرض الوصول إلى فهم أفضل لهذه الظاهرة المعقدة.

الأدب والفكر: يشترك الأدب والفكر (والفلسفة ضمناً) في أنهما نتاجان إنسانيان، (فمنتجهما إنسان)، وأن أداتهما أداة إنسانية هي اللغة الطبيعية (مع اختلاف وظيفتها في كل منهما) وأن كلاً منهما يحمل وجهة نظر منتجه في الإنسان والحياة والكون على نحو مباشر أو غير مباشر وأنهما يتبادلان التأثير فيما بينهما على نحو شامل وعميق.

فأما عن كون منتجهما إنساناً فأمر بين. وكثيراً ما يجمع بين الأدب والفكر في إنتاجه، والأدباء ـ المفكرون، والمفكرون ـ الأدباء ظاهرة شائعة في مختلف الأزمنة شيوعها في مختلف التقاليد الثقافية (التوحيدي [ر] والمعري [ر] وابن حزم [ر] وأفلاطون [ر] ودانتي [ر] وكولريدج [ر] وروسو [ر] وماركس [ر] وإليوت [ر] وسارتر [ر] وماوتسي تونغ [ر] وغيرهم كثير).

والحقيقة أن المتتبع لتاريخ الآداب المختلفة، والأوربية منها على نحو خاص، يرى أن الارتباط بين الأدب والفكر والفلسفة «آخذ بالازدياد والتعمّق، بل إنه يأخذ اليوم طابعاً منظماً، لم يعرفه التاريخ الأدبي من قبل، والصراع الأدبي في العالم اليوم تابع ـ ولو جزئياً ـ للصراع الفكري، وأن أي تاريخ أدبي لأوربة (على سبيل المثال)، لا بد أن يكون شديد الالتصاق بتاريخ الأفكار».

وأما أن أداتهما واحدة، فإن كليهما يستخدمان اللغة الطبيعية، وإن كان توظيفهما لها متبايناً. ففي حين تسود الوظيفة الجمالية الوظائف الأخرى في لغة الأدب، تسود لغة الفكر أي وظيفة أخرى. ذلك أن اللغة الطبيعية في الفكر أداة للتفكير وللتعبير عن هذا التفكير في آن معاً. فهي أداة يفكر بها مثلما هي أداة يوصف بها هذا التفكير، إنها من جانب ما لغة، ومن جانب آخر اصطلاح لغة عن اللغة أو meta-language.

وأما أن كلاً منهما يحمل وجهة نظر منتجه فذلك أمر في غاية الوضوح. فالأدب وجهة نظر في الحياة والإنسان والكون تتخذ لنفسها لبوس الفن، والفكر وجهة نظر في الحياة والإنسان والكون تقدم نفسها مباشرة على الرغم من

تألقها فنياً في بعض الأحيان. وعلى هذا فإن الأدب، وإن انطوى على فكر عميق، يغلب عليه التضمين والإيحاء وعدم المباشرة، في حين تطغى على الفكر الصراحة والمباشرة اللتان قد تقتلان الفن، وعلى الرغم من أن الفكر قد يعزز بعض القيم الفنية كالتعقيد والتماسك، فإنه يمكن أن يكون عبئاً غير مرغوب فيه في العمل الأدبي، وخاصة إذا لم يكن متمثلاً. وعلى نحو مماثل فإن الأدب يمكن أن يسهل سبل انتشار الفكر في كثير من الأحيان (كما هو الشأن في كثير من المؤلفات التي كانت تبشر بالوجودية مثلاً)، إلا أنه يمكن أن يدفع الثمن غالياً فيعرض عنه القراء بوصفه أدباً وفكراً معاً، عندما يعرضون عنه بصفته فكراً تجاوزته الشروط التاريخية.

الأدب والمجتمع: كل ما في الأدب يكاد يكون اجتماعياً. فالأدب بداية ظاهرة اجتماعية لا تنهض إلا في مجتمع. وهو ممارسة اجتماعية يتخذ من اللغة أداة له، واللغة مؤسسة اجتماعية. وهذه الممارسة تستند إلى أعراف وقيم ومقاييس ومعايير وقوانين فنية وجمالية لا تنبثق إلا في مجتمع، أي إنها اجتماعية في جوهرها، وهي كذلك لاتتم إلا ضمن مؤسسات اجتماعية. والأديب فضلاً عن ذلك «عضو في مجتمع، وذو وضع اجتماعي معين، إنه يتلقى مقداراً ما من الاعتراف والمكافأة الاجتماعيين، وهو يخاطب جمهوراً مهما كان هذا الجمهور افتراضياً» وكذلك «فإن للأدب وظيفة اجتماعية، أو فائدة لا يمكن أن تكون فردية صرفاً. ولذا فإن الكثرة الكاثرة من المسائل التي تثيرها الدراسة الأدبية مسائل اجتماعية على الأقل في النهاية أو ضمناً: مسائل التراث والعرف، المعايير والأجناس، الرموز والأساطير».

ولذا فإن من الطبيعي أن يتبادل الأدب التأثير مع المجتمع الذي ينتج فيه، وأقل مسوغ لهذا التأثير المتبادل كون الأدب جزءاً لا يتجزأ من الممارسات الاجتماعية للفرد التي تكون مجموع صلاته بالمجتمع الذي يعيش فيه، ولعل هذا كان وراء نشوء حقل معرفي خاص بهذه الصلة الوثيقة هو علم اجتماع الأدب sociology of literature الذي يدرس مسائل مختلفة مثل الأصول الاجتماعية للكاتب، وعلاقات الإنتاج والاستهلاك في الأدب، والمضامين الاجتماعية للأدب، وتأثير الأدب في المجتمع وغيرها. وعلى الرغم من إقرار المرء بهذه الصلة بين الأدب والمجتمع فإن عليه أن يذكر دوماً «أنّ للأدب مسوغه وغرضه الخاصين به»، ولا يمكن أن يكون بديلاً من علم الاجتماع، كما يظن من يحاول أن يستخدمه بوصفه وثيقة اجتماعية، أو علم السياسة، فإن له منطقه الخاص حتى في أكثر وجوهه اجتماعية.

الأدب وعلم النفس: من الطبيعي أن تكون علاقة الأدب بعلم النفس وثيقة جداً، وأن يكون التأثير المتبادل بينهما واسعاً وجوهرياً في آن معاً. وعندما حيي فرويد [ر]، بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده السبعين، بأنه مكتشف اللاوعي، أنكر هذا اللقب وصحح الكلام بقوله: «إن الشعراء والفلاسفة قبلي اكتشفوا اللاوعي، وما اكتشفته هو المنهج العلمي لدراسة اللاوعي». والحقيقة أنه بمقدار إفادة علم النفس (الفرويدي بوجه خاص) من الآثار الأدبية المختلفة في تصوراته عن النفس الإنسانية ومناطقها وآليات عملياتها المختلفة بما فيها عملية الخلق الفني، وعن عقدها وغير ذلك، فإن استبصارات علم النفس قد عززت الكثير من جوانب الممارسة الأدبية، ولا سيما في الشعر، والرواية، والسيرة، والمسرحية، والكتاب اليوم يمارسون عملهم مستندين إلى أرضية أكثر رسوخاً في دراستهم النفس الإنسانية التي هي المحور الذي يدور حوله الأدب. وأكثر من هذا فإن كون منتج الأدب ومتلقيه إنساناً عزز الصلة الوثيقة بين الأدب وعلم النفس الذي انصرف في جانبه الأدبي أو مايسمى بعلم نفس الأدب psychology of literature، إلى العناية بعملية الخلق الفني لدى الكاتب من جهة، وآليات الاستقبال لدى المتلقي من جهة ثانية، ولعل ذلك يتضح أكثر ما يتضح في الاتجاه النقدي الموسوم بالنقد الاستقبالي receptionist criticism، أو نقد استجابات القارئ reader- response criticism الذي غدا واحداً من أبرز اتجاهات النقد المعاصر على جانبي الأطلسي. وفضلاً عما تقدم فإن عالم الأدب ولا سيما في جانبه النفسي أصبح، مع استخدام معطيات علم النفس في مقاربته، أكثر إثارة وغنى ومتعة وفائدة، وهذا ما عزز تفهم الإنسان لنفسه ولغيره وساعده في تواصله معه.

الأدب والتاريخ: «الشعر ديوان العرب» الذين اتخذوا من شعرهم سجلاً لهم: لأنسابهم من جهة، ووقائعهم وأيامهم من جهة ثانية، ومواجهاتهم مع ما يحيط بهم من أمم من جهة ثالثة. والحقيقة أن الصلة بين الأدب والتاريخ قديمة قدم الأدب نفسه، وكثير من نصوص الأدب القديم: المصري، والآشوري، والبابلي، والسومري، والآرامي، واليوناني هي مصادر في التاريخ السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي مثلما هي مصادر في التاريخ الأدبي، والملاحم القديمة (غلغامش، والإلياذة، والأوديسة، والإنيادة وغيرها) أمثلة بينة على ذلك.

والشأن نفسه في الملاحم الشعبية وفي الكثير من نصوص الأدب الشعبي وشعر الفتوح الإسلامية بصفة خاصة. ففضلاً عن القيمة الأدبية لهذه النصوص ثمة قيمة فوق - أدبية extra- literary تتمثل أساساً في تلك الإشارات الكثيرة إلى حوادث وتواريخ ووقائع في حياة الأمة في مختلف العصور.

وإذا تجاوز المرء غنى المصادر الأدبية بالإشارات التاريخية، وهو أمر ملحوظ في مختلف التقاليد الأدبية من جهة، وعلى امتداد العصور من جهة أخرى، فإنه يجد أن هذه الصلة تطرح نفسها على نحو صارخ في جنسين أدبيين مهمين في العصور المتأخرة لمختلف الآداب وهما الرواية والسيرة، كما طرحت نفسها من قبل على نقاد الاتباعية الجديدة في قضية المسرحية التاريخية. فطبيعة كل من هذين الجنسين المهمين تثير مسألة صلة الأدب بالتاريخ ولا سيما في الرواية التاريخية والسيرة الذاتية. ودارس الرواية التاريخية على سبيل المثال لا يسعه إلا أن يقارن بين الوقائع التاريخية المستلهمة كما تعرضها كتب التاريخ، والوقائع التاريخية نفسها كما تقدمها الرواية. وهذا التوازي المفترض أو المزعوم أو الواقع فعلاً ليس كل شيء فثمة مسائل أخرى جديرة بالتوقف عندها من مثل مشروعية استخدام التاريخ في الرواية، ومقدار حرية الروائي في تطويع هذا التاريخ على النحو الذي يخدم رؤيته للعالم، ودرجة معقولية التفسيرات التي ينطوي عليها استلهامه للوقائع التاريخية ومقدار اتساقها الداخلي، وغير ذلك.

أما السيرة فإن وقائع حياة موضوعها تؤلف المادة الأساسية لمحتواها، وكاتبها لا يسعه تجاهل البعد التاريخي لما يقوم به، مثلما لا يستطيع تجاهل التداخل الذي يواجهه في عمله بين ممارسة الأديب وممارسة المؤرخ. فالسيرة «جنس

أدبي قديم. فهي أولاً ـ من ناحية التسلسل الزمني ومن الناحية المنطقية ـ جزء من علم التاريخ». و«مشكلات كاتب السيرة هي ببساطة مشكلات المؤرخ. إن عليه أن يفسر وثائقه، ووسائله، وتقارير شهود العيان، والذكريات، وبيانات السير الذاتية، وأن يقرر في مسائل تتصل بما هو أصلي أو غير ذلك، وبوثوقية شهود العيان وما شابهها. وفي الكتابة الفعلية للسيرة، يواجه مشكلات العرض الزمني، والانتقاء، والتكتم أو التصريح. والعمل الواسع بالأحرى الذي تم في السيرة بوصفها جنساً يتناول مسائل كهذه، ليست بأي حال أدبية من الناحية النوعية» على حد تعبير مؤلفي نظرية الأدب.

وإشكاليات هذا التداخل المعقد والمثير بين ممارسة الكتابة الأدبية وممارسة الكتابة التاريخية، ربما تغدو أكثر تعقيداً وصعوبة في كتابة السيرة الذاتية التي يكون موضوعها ومؤلفها واحداً، نتيجة صعوبة انسلاخ المؤلف عن موضوعه، واستحالة ترك فسحة بينهما تتيح مقداراً كافياً من التأمل الموضوعي في العمل المؤدى، وهي مسائل تظفر باهتمام متزايد من قبل الباحثين المعاصرين في نظرية الأدب والنقد من مختلف الاتجاهات.

الأدب والأسطورة: عندما يذكر الأدب اليوناني تذكر الأساطير اليونانية على أنها العنصر الذي يكاد يتحدى الفناء والنسيان. إذ لا تزال الأساطير اليونانية تعيش في ذاكرة الأمم الأوربية وغيرها تستلهم ويعاد صوغها وتحور وتطور وتسقط على الواقع في مختلف العصور ولا سيما العصر الحديث. وحال الأساطير اليونانية ليس فريداً، وإن كان مميزاً. ذلك أن الأسطورة في جوهرها أدب إنساني تنتجه الأمم في مراحل نموها الأولى، وهي بالمعنى الواسع للكلمة قصة مجهولة المؤلف «تتحدث عن المصائر والأصول». والواقع أن الأسطورة أدب الإنسان القديم، وعنصر مكون في نسيج أدبه عبر العصور، ولا سبيل إلى فهم أدبه الفهم الحق من دون العودة إلى ينابيعه الأولى من جهة، وتتبع مكوناته الأساسية من جهة أخرى. إن الصلة بين الأدب والأسطورة صلة عضوية وجوهرية، عززتها الاهتمامات المتزايدة بعلم الأساطير [ر] والأنتروبولوجية والفولكلور [ر]، وبالأنماط المختلفة لاستلهامات الأسطورة من جانب مختلف الفنون الجميلة وبعض المعارف الإنسانية كعلم النفس، بل إن هذه كانت وراء ظهور ما يسمى بالنقد الأسطوري أو نقد النماذج الأولى archetypal criticism، الذي أقام دعائمه نورثروب فراي Northrop Frye في كتابه «تشريح النقد» Anatomy of Criticism» (١٩٥٧).

الأدب والفنون الجميلة: قد يختلف الناس في تعريفهم للأدب أو فهمهم لطبيعته أو في تحديدهم لوظيفته أو بيان حدوده، ولكنهم سيجمعون على أنه واحد من الفنون الجميلة الستة أو السبعة إن أضيفت إليها السينما. وربما كان هذا الإجماع أقدم مما يبدو للوهلة الأولى، فهو يعود لأفلاطون وتلميذه أرسطو، اللذين نظرا إلى الفنون عامة على أنها محاكاة، بل إن أرسطو رأى أن الاختلاف بين الفنون إنما يرجع إلى اختلافها في أداة المحاكاة أو في موضوعها أو في نمطها. ولذا فإن توثيق الصلة بين الأدب والفنون الجميلة أمر مفروغ منه، إذ الأدب مجرد عضو في أسرة، وإن ما يجمع بين أفرادها أكثر مما يفرق.

فالفنون الجميلة، وبينها الأدب، تتبادل الاستلهام فيما بينها، وكثيراً ما تستنزل الموسيقى وحيها من الشعر، وتستلهم الفنون التشكيلية الأدب، ويستوحي الأدب من العمارة والتصوير والموسيقى وغيرها. وكثيراً ما يؤدي فنان واحد عدداً من هذه الفنون معاً. فشاعر العصور القديمة كان العازف على الآلة الموسيقية، والمؤلف الموسيقي، والمنشد في آن معاً، والشعر في مختلف التقاليد الأدبية نشأ نشأة غنائية، وصلته بالفنون الجميلة الأخرى كالموسيقى والغناء والرقص كانت باستمرار قوية، وحسب المرء أن يشير في هذا السياق إلى المسرحيات الغنائية والأوبرا وسواها في التقاليد الغربية، وإلى الموشحات ورقص السماح في الثقافة العربية الاتباعية، والمسرحية الغنائية في الثقافة العربية الحديثة. وأكثر من هذا فإن الشعر العربي على مر العصور حافظ على كونه فناً سمعياً بمعنى أنه كان باستمرار ينظم ليلقى وينشد أكثر مما كان ينظم ليقرأ، كما هو شأن الشعر العربي الحديث. والشعر، حتى الحر منه free verse والمرسل لا يكاد يستغني عن عنصر الموسيقى فيه. فوزنه يقوم على العروض الذي يحكم جانب الإيقاع فيه، وجمله وبناه الصرفية وحروفه وأصواته توفر له عنصر اللحن مما يدرس عادة تحت عنوان الموسيقى الداخلية. بل إن ثمة من يحاول اليوم أن يدرس عنصر الإيقاع في أجناس أدبية غير الشعر الغنائي من مثل الرواية والمسرحية وغيرهما، ويحاول أن يقنع ليس بوجوده وحسب بل وبوضوحه أيضاً. ولا ينسى المرء بالطبع أن الشعر قد سعى في بعض أطواره إلى أن يقترب من الموسيقى كما هو شأن الشعر الرمزي، وأن الكثير منه كان يؤلف في مختلف العصور والثقافات ليلحن ويغنى، وهو أمر شائع شيوعاً أكبر من أن يحتمل أي تمثيل. ومع «أن تضافر الشعر والموسيقى موجود على نحو أكيد» فإن «أسمى الشعر لا يميل إلى الموسيقى وأعظم الموسيقى تقف من دون حاجة إلى كلمات».

وكما سعى الشعر إلى أن يكون له تأثير الموسيقى، فإنه سعى إلى أن يكون رسماً بالكلمات، بل إن الكثير من الصور التي يحفل بها أحياناً تتسامى لتبلغ في تأثيرها الرسم وربما تفوقه، ولعل هذا ما حفز الكثير من الرسامين والفنانين التشكيليين على استلهام الشعر، وخاصة صوره. وتسعى الرواية باستمرار إلى أن ترسم بالكلمات صورة حية وغنية بالتفاصيل الدقيقة عن الواقع الاجتماعي والطبيعي الذي تصوره في فصولها، مثلما تسعى إلى رسم صور دقيقة لشخصياتها حتى ليكاد بعضها يصبح أنموذجاً وجزءاً من حياة الناس (دون كيشوت، وآنا كارنينا، والسيد أحمد عبد الجواد وغيرها).

وإذا ما تجاوز المرء الموسيقى والرقص والتصوير فإنه يلاحظ بسهولة أن الفن المسرحي يقوم أساساً على نص أدبي، وكذا الشأن في الفن السابع والفنون المستحدثة الأخرى كالمسرحية الإذاعية والتلفزيونية، والمسلسلات التمثيلية في كل من الإذاعة والتلفزيون فإنها جميعاً تقوم في كثير من الأحيان على تطوير نصوص من أجناس أدبية مختلفة كالقصة القصيرة والرواية وتطويعها وإعدادها للتقديم في وسائل الإعلام الجماهيرية الحديثة، بل إن هذه الفنون قد حفزت الكثير من الكتاب على الكتابة لهذه الوسائل مما أدخل تغيرات نوعية مهمة في كتابة الأجناس الأدبية التقليدية ذاتها.

وفضلاً عما تقدم فإن تطور الاهتمام بعلم نفس الفن psychology of art، وبعلم اجتماع الفن sociology of art، عزز من وحدة الفنون الجميلة بما فيها الأدب. وكذا الشأن في

الاتجاهات الفنية والفكرية والثقافية التي لم تكتف بتجاوز الحدود الجغرافية واللغوية، فتجاوزت حدود الفنون الجميلة فيما بينها، كما هو الحال في الاتباعية الجديدة والإبداعية [ر] والباروك [ر] والسريالية [ر] ونزعة الحداثة [ر]، ونزعة ما بعد الحداثة post- modernism وغيرها. وربما كان هذا وراء اهتمام الدارسين بمقارنة الفنون الجميلة على أساس من تأثيرها في المتلقي، أو خلفيتها الاجتماعية والثقافية، والقيام بالدراسات البنيوية والمقارنة التي تتخطى الحدود بين هذه الفنون.

ومع ذلك فإن على المرء أن يؤكد أن لكل فن جميل أداته الخاصة به «فالفنان لا يتصور على نحو عقلي عام. وإنما من خلال المادة الملموسة، وللأداة الملموسة تاريخها الخاص بها، والذي يختلف غالباً عن تاريخ أية أداة أخرى». وكذلك فإن «لكل فن من الفنون الجميلة ـ الفنون التشكيلية والأدب والموسيقى تطوره الفردي، مع سرعة مختلفة، وبنية داخلية مختلفة العناصر. ولا شك أن الفنون الجميلة على صلة مستمرة فيما بينها، ولكن هذه الصلات ليست تأثيرات تبدأ من نقطة معينة وتحدد تطور الفنون الأخرى. إنها ينبغي أن تتصور بالأحرى على أنها مخطط معقد من الصلات الجدلية التي تعمل في كلا الاتجاهين، من فن إلى آخر وبالعكس، وربما تتحول تماماً ضمن الفن الذي دخلت فيه».

الأدب والعلوم: ليست المقابلة بين الأدب والعلم، وبين لغة الأدب ولغة العلم، هي كل مابين الأدب والعلوم من صلة، وليس العلم مجرد نقيض للأدب. فالعلوم جزء لا يتجزأ من التكوين الثقافي للكاتب الذي يصدر عنه في إنتاجه للأدب وبالتالي فهي مكون من مكونات نسيج إنشائه الأدبي وهي كذلك جزء من المجال المهيمن في مرحلة من مراحل التاريخ الإنساني (بالمعنى الذي يذهب إليه توماس كون في كتابه بنية الثورات العلمية The Structure of Scientific Revolutions)، أو مما يعرف أحياناً بروح العصر geistegeschichte أو المناخ العام السائد في حقبة إنسانية معينة، وهي اليوم موضوع أساسي ومهم من موضوعات الأدب (قصص الخيال العلمي science fiction).

أما عن كون العلوم جزءاً لا يتجزأ من التكوين الثقافي للكاتب فذلك أمر بين تشهد عليه الأمثلة الكثيرة من الكتاب الذين تعكس آثارهم حجم المكوّن العلمي في ثقافتهم مثلما تدلل عليه آثار الكتاب الذين جمعوا بين العلم والأدب ولا سيما في العصر الحديث (سومرست موم [ر] وعبد السلام العجيلي وشكيب الجابري ويوسف إدريس ونوال السعداوي وعبد الرحمن منيف وغيرهم).

وأما عن كونها جزءاً مهماً من المناخ العام السائد فأمر يلاحظه المرء من هيمنة أفكار معينة، علمية في غالبها، على الشخصيات الروائية وعلى أنماط تفكيرها وسلوكها تعكس روح عصر إنتاج الآثار الأدبية (أعمال الطبيعيين الفرنسيين مثلاً) التي تتضمنها من مثل نظرية النشوء والارتقاء، والعوامل الوراثية، وغيرها.

وأما عن كون العلوم قد أصبحت موضوعاً أساسياً من موضوعات الأدب فأمر يتضح من الانتشار الواسع لقصص الخيال العلمي [ر] الذي يتخذ من عالم الفضاء والمحيطات والطبيعة والخلية والمورثات والهندسة الوراثية وغيرها موضوعاً له، ويطلق العنان فيها للخيال لتصور أشياء جلها يقع في دائرة الطموح الإنساني، والفضول الإنساني، أكثر مما يقع في دائرة الواقع الإنساني، ولذلك غدا حافزاً مهماً من حوافز التقدم العلمي والتقني الذي يشهده العالم اليوم.

نقد الأدب

نقد الأدب أو النقد الأدبي تفكير منظم واضح ومحدد عن الأدب يتخذ لنفسه صيغة الإنشاء اللغوي discourse، وهو لذلك إنشاء لغوي عن إنشاء لغوي آخر هو الأدب. وأهم ما يميز النقد الأدبي من غيره من أنواع النقد الأخرى أنه يستخدم الأداة نفسها التي يستخدمها موضوعه وهي اللغة الطبيعية natural language (تمييزاً لها من اللغات الاصطناعية الأخرى كلغة إشارات المرور، ولغة الثياب، ولغة الرتب العسكرية، وغيرها). ذلك أن أنواع النقد الأخرى كالنقد الموسيقي، والنقد الفني، والنقد التشكيلي، لا تستخدم العلامات الموسيقية، أو الألوان، أو المواد الأخرى التي يستخدمها موضوعها في حين يشارك النقد الأدبي موضوعه ـ الأدب ـ في الأداة التي يستخدمها وبالتالي في مكوناته الأساسية مما يعزز الصلة العضوية بين النقد الأدبي والأدب على الدوام.

ولكن اشتراك الإنشاءين، النقدي والأدبي في الأداة والمكونات الأساسية لا يعني محو كل تفريق بينهما، وتبقى لكل منهما هويته الخاصة به التي يعرف بها. والحقيقة أن الإنشاء النقدي critical discourse يستخدم اللغة الطبيعية استخداماً مختلفاً عن استخدام الإنشاء الأدبي literary discourse لها. فإذا كان لكل إنشاء لغوي عدة وظائف يؤديها في آن معاً فإن مما لا شك فيه أن الوظيفة السائدة والناظمة لغيرها من الوظائف في الإنشاء الأدبي هي الوظيفة الجمالية aesthetic function في حين تستخدم اللغة في الإنشاء النقدي لتسهيل عملية التفكير في الإنشاء الأدبي موضوع النقد، ولذلك فإنها تكاد تكون في مجملها مصطلحات terms ومفاهيم concepts توظف بوعي وقصد لدلالاتها المحددة تحديداً دقيقاً ضمن إطار الإشارة الناظم للعملية النقدية.

ومع هذا الفارق الأساسي في توظيف كل من النقد الأدبي والأدب للغة الطبيعية، فإن الصلة بينهما وثيقة. فالنقد الأدبي تتحدد هويته وطبيعته بموضوعه. ويتأتى هذا التحديد من حضور الأدب في النص النقدي الذي يراوح بين الحضور الصريح (كما في النقد التطبيقي) والحضور الضمني (كما في النقد النظري) والحضور بالفعل (كما هو الشأن في مختلف ضروب النقد الأدبي النظري والتطبيقي) أو الحضور بالقوة (في النقد النظري الطليعي الذي يحاول توجيه عملية الإنتاج الأدبي في مجتمعه وجهة جديدة).

وهناك على أية حال نوعان رئيسان من النقد الأدبي هما:

النقد التطبيقي أو العملي: أو ما يسمى عادة في النظرية النقدية المعاصرة بالتفسير interpretation وليس بالمعنى الذي ذهب إليه ريتشاردز Ritchards وهو مواجهة للنصوص الأدبية من جانب الناقد الذي يحاول بجملة من العمليات العقلية أن يضع يده على الآلية الداخلية للإنتاج الأدبي، متوخياً من ذلك توجيه الأديب إلى تطوير عمله، وتيسير استيعاب النص المنقود وتذوقه والحكم عليه من جانب القارئ.

وربما كان من أبرز هذه العمليات:

الشرح الذي يسعى إلى إيضاح كل ما غمض في النص من علامات لغوية وإشارات ثقافية أو غيرها بغرض تأسيس العمليات التالية على

أرضية من الفهم السليم لهذا النص:

ـ التحليل الذي يفكك بنية النص المعقدة إلى وحداتها المكونة على مختلف المستويات بهدف الكشف عن آليات الإنتاج الأدبي، وبيان مختلف جوانب الجهد الفني الذي بذله الكاتب في إنتاجه لنصه.

ـ التفسير الذي يحاول أن يبين دلالة النص الكلية من خلال إعادة بناء، قد تكون جذرية، لمكوناته المختلفة وتوجيهها الوجهة التي تتسق مع هذه البنية الدالة signifying structure التي ندعوها بالنص.

ـ الموازنة التي تهدف إلى توضيح جوانب من أداء الكاتب في مستوياته المختلفة بمقارنة هذا الأداء مع صور أخرى من أداء الكتاب الآخرين في المستويات ذاتها، وبالطبع فإن المشابهات والاختلافات التي يخرج بها الناقد الأدبي من موازناته تيسر عليه، وعلى القارئ فيما بعد، معرفة منزلة الكاتب بالقياس إلى الكتّاب الآخرين وتكشف عما يميزه منهم.

الحكم وهو العملية الأخيرة التي تؤدي إليها كل العمليات المتقدمة، وتكاد تكون النتيجة النهائية التي تقود إليها المقدمات السابقة. وعلى الرغم من أن بعضاً من أبرز النقاد المعاصرين يفضلون أن يدعوا الحكم على الآثار الأدبية للزمن، فإن كثيرين غيرهم يلحون على ضرورة هذه العملية، لأن النقد يقوم أساساً على التميّز ومجرد اختيار نص ما لمواجهته ثم شرحه وتحليله وتفسيره وموازنته ينطوي على حكم ضمني بجدارته بهذه العملية جميعها، وبالتالي فإنه ليس ثمة ضرورة للنفور من الحكم على الأثر الأدبي ما دام يستند إلى معرفة خبيرة وعميقة ومتدرجة تسوّغ للناقد الذي يقدمها بين يدي حكمه ـ هذا الحكم الذي يعني الكثيرين من القراء ممن لا يتيسر لهم الوقت أو الخبرة النوعية فيستندون إلى هذا الحكم في قراءتهم للنصوص المتاحة لهم.

النقد النظري theoritical criticism: أو الشعرية poetics كما يفضل بعض نقاد العرب المعاصرين نعته، أو نظرية الأدب الداخلية. وهو حقل معرفي قديم ـ جديد، ظفر منذ مطلع النصف الثاني من القرن العشرين باهتمام متزايد، وغدا اليوم تخصصاً محترماً تؤلف فيه الكتب، وتعقد له المؤتمرات، وتنظم من أجله الأقسام، وتحدث له الكراسي في الجامعات، وتصدر في جوانبه المتشعبة الدوريات في مختلف اللغات. والهدف الأساسي من هذا الحقل المضي إلى ما وراء النقد التطبيقي أو العملي practical criticism أو ما يسمى بالتفسير beyond interpretation الذي تقدم الحديث عنه، لأنه، أي التفسير، لا يعدو أن يكون مواجهة لأمثلة مختلفة من الإنشاءات الأدبية الفردية، ونظرية الأدب المعاصرة تريد للنقد أن يخرج من مواجهته لهذه الإنشاءات بالكشف عن النظام الداخلي الذي يحكمها إنتاجاً واستهلاكاً في مستوياتها المختلفة، إنها تريد أن تستنبط النظام الأدبي الذي جعل الأدب أمراً ممكناً متأسية في ذلك بصنيع علماء اللغة المعاصرين الذين يعنون بالنظام اللغوي langue مما يجعل اللغة أمراً ممكناً.

ويستند هذا التأسي إلى حقيقة واضحة وضوحاً صارخاً هي أن الأدب إنشاء لغوي من نوع ما، فهو لذلك شكل من أشكال الممارسة اللغوية، «نشاط لغوي يتم ضمن بنية اجتماعية مثل أشكال الإنشاء الأخرى. وهو قابل للدراسة قابلية الإنشاءات الأخرى» ولذا فإن من الطبيعي أن يتطلع المرء إلى النظام اللغوي، ويرى فيه للوهلة الأولى حاكماً لإنتاج هذا الإنشاء اللغوي الفردي الموسوم بالأدب. ولكن لو كان الأمر على هذا النحو لاستوى الناس جميعاً في كتابة الأدب وفي تذوقه عند قراءته. ولكنهم لا يستوون حتى في الأداء اللغوي linguistic performance بمختلف أشكاله وضروبه على الرغم من اشتراكهم فيما يسمى بالقدرة اللغوية linguistic competence. ومعنى هذا أن الدارس مضطر للبحث عن شيء آخر، غير هذا النظام اللغوي، يحكم إنتاج الإنشاء الأدبي literary discourse المتميز أساساً بسيادة الوظيفة الجمالية فيه.

ولذا فقد رأت فئة واسعة من نقاد الأدب، بعد أن تبينت أن النظام اللغوي لا يمكن أن يفسر أدبية الأدب، أن تستلهم الأنموذج اللغوي languistic model في سعيها لاستخلاص نظام يحكم إنتاج الإنشاء الأدبي يمكن أن يدعى بالنظام الأدبي literary system. وما دام البحث عن النظام اللغوي الخاص بلغة ما la langue يبدأ من تفحص الإنشاءات اللغوية الفردية parole بجميع أشكالها آنياً (تزامنياً) synchronically وتاريخياً diachronically ودراستها دراسة متمعنة بغرض وضع اليد على ما يجعل اللغة أمراً ممكناً، أي بغرض تحديد الأعراف، والقوانين، والأنظمة، والقواعد التي تيسر الأداء اللغوي وتجعله ممكناً، فإنه يمكن لناقد الأدب في بحثه عن النظام الأدبي الخاص بأدب أمة أن يبدأ من دراسة الإنشاءات الأدبية الفردية، أو النصوص التي ينتجها الأدباء في مختلف الأجناس الأدبية، وبعد أن يستغرق جملة وافية منها يستطيع أن يخرج بالنظام الذي يحكمها إنتاجاً واستهلاكاً. وبالطبع فإن مستويات استغراق النظام الأدبي يمكن أن تتدرج من إنتاج كاتب ما، إلى إنتاج جنس أدبي ما بلغة ما، في زمن ما، في مكان ما، إلى إنتاج جنس أدبي ما، بلغة ما، لأمة برمتها، إلى الإنتاج الأدبي كله في مختلف الأجناس الأدبية لأمة من الأمم في الزمان والمكان. والمهم في ذلك كله أن يمضي الباحث في نظرية الأدب الداخلية من النصوص إلى ما وراءها حتى يقوّم من ذلك كله النظام الأدبي الذي تستند إليه، والذي يجعل إنتاجها واستهلاكها أمراً ممكناً بالدرجة الأولى. وبهذا يغدو النقد الأدبي النظري معرفة فكرية صحيحة كما يقول نورثروب فراي بعد أن يكون قد عاد إلى المهمة التي تولاها أول ما تولاها أرسطو في كتابه «فن الشعر». إن على نقاد الأدب كما يذكر فراي بحق أن يفترضوا «أن هناك بنية كلية من المعرفة، قابلة للفهم، وممكنة، عن الشعر، وأنها ليست الشعر نفسه، ولا تجربته، بل فن الشعر بالمعنى الأرسطي للكلمة» أي «فن الأدب» الذي كان يتخذ من الشعر أداة له في مختلف الأجناس الأدبية التي عرفها عصر أرسطو وهي: الشعر الملحمي، والشعر المسرحي، والشعر الغنائي، أو الملحمة والمسرحية والشعر الغنائي. وهكذا يمكن القول إن هناك أيضاً بنية كلية من المعرفة، قابلة للفهم، وممكنة التصوّر عن الأدب، وأنها ليست الأدب نفسه، ولا تجربته، بل نظرية الأدب الداخلية، أو النظام الأدبي الذي يجعل الأدب ممكناً في الأساس، وهذه البنية الكلية من المعرفة هي النقد النظري أو الشعري أو نظرية الأدب الداخلية poetics، تعددت الأسماء والمسمى واحد.

عبد النبي اصطيف

مراجع للاستزادة:

ـ تمام حسان وآخرون، قراءة جديدة لتراثنا النقدي، مجلدان (النادي الأدبي الثقافي، جدة ١٩٩٠).

ـ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ٩ أجزاء، عدة طبعات (دار المعارف بمصر، القاهرة).

ـ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب (دار الأمانة ومؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧١).

-HAZARD ADAMS, Critical Theory Since Plato (Harcourt Barce Jovanovich, New York 1971).

-HAZARD ADAMS & LEORY SEARLE, Critical Theory Since 1965 (Florida State University Press, Thallahassee 1986).

-M.C. BEARDSLY, «The Concept of Literature», in F.Brady et al. (eds), Literary Theory and Structure (Yale University Press, New Haven and London 1973).

-S.A.BONEBAKKER, «Adab and the Concept of Belles- Lettres», in Julia Ashtiany et al. (eds), The Cambridge History of Arabic Literature: Abbasid Belles- Lettres (Cambridge University Press, Cambridge 1990).

-BENNISON GRAY, The Phenomenon of Literature (Mouton, the Hague 1975).

-SALIM KEMAL, The Poetics of Alfarabi and Avicenna (Brill, Leiden 1991).

-G.J.H. VAN GELDER. Beyond the Line; Classical Arabic Literary Critics on the Coherence and Unity of the Poem (Brill, Leiden 1982).

-REN. WELLEK & AUSTIN WARREN, Theory of Literature, 3rd ed. (Harcourt, Brace and World, Inc., New York 1970).

-R. WELLEK, :«What is Literature?», in Paul Hernadi (ed), What is Literature? (Indiana University Press, Bloomigton and London 1978).

■ الأدب الإسباني الأمريكي

تطلق تسمية الأدب الإسباني ـ الأمريكي Literatura Hispanoamericana على الكتابات الأدبية النثرية والشعرية المكتوبة باللغة الإسبانية في بلدان العالم الجديد التي خضعت للفتح الإسباني بعد اكتشاف القارة الأمريكية عام١٤٩٢، وقد استقرت هذه البلدان اليوم في تسع عشرة دولة مستقلة ناطقة بالإسبانية هي: أورغواي، بارغواي، الأرجنتين، تشيلي، بوليفية، البيرو، الأكوادور، كولومبية، فنزويلة، بنمة، كوستاريكة، نيكاراغوة، هندوراس، السلفادور، غواتيمالة، المكسيك، كوبة، سانتو دومنغو (جمهورية الدومينيكان)، تضاف إليها جزيرة بورتوريكو التي مازالت تستخدم اللغة الإسبانية مع أنها تدار من جانب الولايات المتحدة الأمريكية. وهو ماينطبق كذلك على الأجزاء الجنوبية من الولايات المتحدة، وخاصةً ولاية نيومكسيكو وأجزاء كبيرة من ولايات كولورادو و أريزونة و أوكلاهومة، حيث ما زالت الإسبانية شائعة جنباً إلى جنب مع الإنكليزية.

ويمكن تقسيم الأدب الإسباني ـ الأمريكي إلى ثلاث مراحل رئيسة، تمتد الأولى منذ وصول الإسبان في أواخر القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر. في حين تمتد المرحلة الثانية من استقلال بلدان القارة عن السيطرة الاستعمارية الإسبانية حتى أوائل القرن العشرين. أما المرحلة الثالثة فتتناول ازدهار آداب أمريكة الإسبانية وتبلور شخصيتها، وانتشارها عالمياً في العصر الحديث.

الأدب في المرحلة الاستعمارية: لعل أول مايلفت النظر لدى رصد تطور الكتابة النثرية في العالم الجديد إبان القرون الأولى للغزو الإسباني هو الغياب الشامل تقريباً للإنتاج الروائي. وهناك تفسيرات كثيرة لهذا الغياب،أبرزها التشريعات التي سنها الملك كارلوس الخامس منذ عام١٥٣٢ بحظر نسخ أعمال الأدب المتخيل ونشرها وتوزيعها وتداولها وخاصةً روايات الفروسية، خوفاً من أن يعتقد السكان الأصليون (الهنود) بصحة تلك التخيلات الروائية التي قد تصرفهم عن الإيمان، لأن إيمانهم كان حديث العهد بالمسيحية ومايزال ضعيفاً.

أما أول الكتابات النثرية التي ظهرت حول أمريكة الإسبانية فهي يوميات كريستوف كولومبس عن رحلته الأولى، وكذلك رسائل فاتح المكسيك هيرنان كورتيس إلى الملك كارلوس الخامس يخبره فيها بفتح مملكة إسبانية الجديدة (المكسيك) ويطلعه على أحوال تلك البلاد.

وبعدها تأتي كتابات المؤرخين الذين رافقوا الإسبان أوكانوا جنوداً في الحملات مثلما هو حال بيرنال دياث دل كاستييو Bernal Díaz del Castillo صاحب كتاب «القصة الحقيقية لفتح إسبانية الجديدة» Verdadera historia de la conquista de la Nueva España، وفيرنانديث دي أوبييدو Fernandez de Oviedo في كتابه «التاريخ العام والطبيعي لبلاد الهند» (وبلاد الهند أو las Indias هي التسمية التي شاعت للقارة الأمريكية نتيجة الخطأ التاريخي الذي وقع فيه كولومبس منذ البداية باعتقاده أنه قد وصل إلى شواطىء الهند).

ولابد من ذكر الراهب بارتولومي دي لاس كاساس Fray Bartolomé de las Casas الذي دافع بحرارة عن سكان القارة الأصليين وأدان بشدة وحشية الإسبان وقسوتهم في استعباد أهل البلاد الهنود في كتابه الشهير «القصة الموجزة لتدمير بلاد الهند» حتى استحق لقب رسول بلاد الهند.

وقد انتشرت هذه الكتابات على نطاق واسع في إسبانية وأوربة في القرن السادس عشر، وكانت مصدر إلهام في ظهور أساطير جديدة، مثل أسطورة مملكة الذهب أو إلدورادو، ومملكة الأمازونيات، وأسطورة البلاد الرائعة التي يقطنها متوحشون طيبون، كما كان لها أثر كبير من دون ريب في ولادة الأفكار اليوتوبية Utopian المثالية، التي دعا إليها توماس مور[ر] وباكون وغيرهما.

والملاحظ أن جميع هؤلاء الكتاب هم من الإسبان الذين استقروا في العالم الجديد. أما أول كاتب كبير من أصل أمريكي كتب بالإسبانية فهو الإنكا غارثيلاسو دي لا بيغا[ر] Inca Garcilaso de la Vega (١٥٣٩-١٦١٦)

الذي ولد في البيرو لأب إسباني هو القائد سيباستيان دي لابيغا وأم هندية هي الأميرة ايسابيل تشيمبو أوكلو ابنة عم امبراطور الإنكا الأخير آتاهوالبا. وقد أدهشت كتاباته الناس في أوربة وأثار استغرابهم حديثه عن وجود حضارة متطورة في البيرو قبل الغزو الإسباني، ووصفه لمعاناة أبناء شعبه على يد الإسبان في كتابه «الشروحات الملكية للإنكا» و«التاريخ العام للبيرو» حتى عدّه بعضهم أبا التاريخ الأمريكي اللاتيني. ورأى فيه الكاتب الغواتيمالي ميغيل أنخل استورياس [ر] Migel Ángel Asturias (١٨٩٩-١٩٧٤) السابقة الأولى لأدب الاحتجاج والمعارضة، وذهب الروائي البيروي المعاصر ماريو بارغاس يوسا إلى أبعد من ذلك عندما رأى أن أصول الواقعية تعود إلى كتابات الإنكا غارثيلاسو، وخصوصاً عرضه لمأساة شعب الإنكا في أيامه الأخيرة ، مع مجيء الإسبان.

أما الأشعار التي توالى ظهورها منذ وصول المستوطنين الإسبان إلى القارة الأمريكية حتى القرن التاسع عشر فقد ازدهرت في مركزين ثقافيين أساسيين في العالم الجديد : المكسيك والبيرو.

ولكنها لم تكن إلا تكراراً للأساليب والأنماط الشعرية السائدة في الوطن الأم على الجانب الآخر من المحيط. والمثال البارز على ذلك الشاعرة المكسيكية الراهبة خوانا إنيس دي لاكروث Sor Juana Inés de la Cruz (١٦٥١- ١٦٩٢) التي أبدعت في محاكاة أساليب الشعراء الإسبان، و خاصةً كيفيدو [ر] Quevedo وغونغورا [ر] Góngora .

ويرى مؤرخو الأدب أن نقطة انطلاق الشعر الإسباني - الأمريكي تبدأ سنة ١٦٠٤ بديوان أشعار «العظمة المكسيكية» La grandeza mexicana التي نظمها الراهب بيرناردو دي بالبوينا Bernardo de Balbuena (١٥٦٨ - ١٦٢٧) ويتغنى فيها بجمال مدينة مكسيكو وبعاداتها ونمط حياتها الاجتماعي.

ولم يقتصر الشعر في تلك المرحلة على القصائد الغنائية، وإنما تعداها إلى الشعر الملحمي، وهو ما يُلمس في القرن السادس عشر لدى الشاعر التشيلي ألونسو دي إرثيا أي ثونييغا Alonso de Ercilla y Zuniga (١٥٣٣ - ١٥٩٤) مؤلف ملحمة «الأراوكانية» la Araucana . ومع أن الشاعر إسباني المولد، فإن ملحمته جزء لا يتجزأ من الأدب الإسباني - الأمريكي، لأنها تنبع من الواقع الأمريكي وتنصبغ بصبغته في تغنيها ببطولات شعب أراوكو (في تشيلي اليوم) ونضالهم بقيادة لاوتارو ضد الغزو الإسباني.

وقد نشطت كذلك في المرحلة الأولى التي تلت الغزو الإسباني أشكال بدائية من المسرح، ولكنه كان مسرحاً تبشيرياً وتعليمياً نظمه رجال الدين والبعثات التبشيرية لتلقين السكان الهنود مبادىء الديانة الكاثوليكية، وغالباً ما كانت العروض المسرحية تقام في الكنائس والأديرة وتنتهي بتعميد الهنود الحاضرين. أما المسرح بمعناه الفني والجمالي و الاجتماعي، فلم يزدهر في أمريكة الإسبانية إلا في وقت متأخر.

مرحلة الاستقلال : واجه الأدب الأمريكي اللاتيني في القرن التاسع عشر، وعلى أثر حركة الاستقلال التي شملت القارة بأسرها، مسألة جديدة شديدة الخصوصية، ألا وهي تعلم ممارسة الحرية التي تم الحصول عليها، وتحديد الهوية الثقافية الذاتية المستقلة.

وهكذا بدأ سعي بلدان القارة التي استقلت حديثاً لتحقيق الانعتاق الفكري والاستقلال الروحي في محاولة إيجاد ثقافة وطنية أصيلة. ولهذا يلاحظ أن آداب القارة في الثلث الأول من القرن التاسع عشر مشحونة بزخم أيديولوجي مبثوث في المقالات الصحفية والرواية والشعر على السواء، للإسهام في تكوين شخصية ثقافية متميزة. ولكن هذه المساعي لم تقلل من شأن التبعية الثقافية، بل اقتصر الأمر على استبدال المنابع التي تنهل منها. فالنخبة المحلية التي أسهمت كثيراً في الثورة على الهيمنة الإسبانية، بدأت ترسل أبناءها للدراسة في إنكلترة وفرنسة آخذة بالحسبان الأهمية المتزايدة للولايات المتحدة بعد استقلالها عام١٧٧٦، إذ كانت المرآة التي ترى فيها الأمم الأمريكية الجنوبية نفسها. وهكذا أصبح الأدب الإنكليزي والفرنسي، جنباً إلى جنب مع الأدب الإسباني، الدليل والمثال الذي يقتدي به الكتاب في أمريكة الناطقة بالإسبانية.

فعودة استيبان ايتشيبريّا Esteban Echeverría إلى بوينس آيرس عام ١٨٣٠، بعد أن أمضى أربع سنوات من الدراسة في السوربون، كانت بداية حركة جديدة ذات أهمية بالغة في تطور الأدب الأمريكي -الإسباني وهي الحركة الإبداعية (الرومنسية).

إلا أن أفضل النثر في تلك المرحلة الأولى التي تلت الاستقلال ليس في الكتابات الأدبية الصرفة، وإنما في التأملات الاجتماعية حول بنية المجتمعات الجديدة الناشئة، والكتابات التاريخية، والمجادلات النظرية التي كانت تظهر على صفحات الصحف.

وأبرز مثال على ذلك المناظرة التي نشأت سنة ١٨٤٢ في الصحافة التشيلية بين أندرس بيو [ر] Andrés Bello ودومنغو سارمينتو Domingo Sarmiento حول نقاء اللغة وحرية التعبير التي سبقت الموجة الإبداعية. وبرز من كتاب المقالات في تلك المرحلة أيضاً الإكوادوري خوان مونتالبو Juan Montalvo (١٨٣٢ - ١٨٨٩) والبيروي مانويل غونثالث برادا Manuel González Prada (١٨٤٨-١٩١٨) والمكسيكي خوستو سييرا Justo Sierra (١٨٤٨ - ١٩١٢) والكوبي خوسيه مارتي [ر] José Martí (١٨٥٣ - ١٨٩٥)، ولابد في هذا الصدد من ذكر بطل تحرير أمريكة اللاتينية، الفنزويلي سيمون بوليفار (١٨٣٠ - ١٨٨٣) القائد العسكري لحروب الاستقلال الذي عبر عن أفكاره السياسية والاجتماعية ورؤيته لبنية المجتمعات الجديدة في أكثر من ثلاثة آلاف رسالة ومئتي خطاب وبيان كان يكتبها بأسلوب فريد في تألقه وجماله.

أما الكتابة الروائية فتبدأ مع المكسيكي خواكين فيرنانديث دي ليثاردي Joaquín Fernández de Lizardi الذي يحتل مكانة مرموقة في تاريخ الأدب الإسباني - الأمريكي بوصفه صاحب أول رواية كتبت في أمريكة اللاتينية سنة١٨١٦ بعنوان «بيريكيو سارنينتو» El Periquillo Sarniento وهي بعث أمريكي لنمط الرواية البيكارية (رواية المتشردين) Picaresca القديم في إسبانية.

والحقيقة أن قيمة الرواية لا تنبع من أهميتها الأدبية، وإنما من ريادتها من جهة، ولأنها تعكس من جهة أخرى واقع المجتمع المكسيكي قبل الاستقلال مباشرة.

ومع انتشار الحركة الإبداعية (الرومنسية)، ظهرت في مجال الرواية ثلاثة تيارات لابد من

الإشارة إليها؛ أولها هو تيار الحضارة والبربرية ونموذجه البارز الذي استقى منه اسمه هو رواية دومنغو فاوستينو سارمينتو (١٨١١-١٨٨٨) المشهورة باسم «فاكوندو» Facundo وهو اسم الشخصية الرئيسة فيها، مع أن عنوانها الكامل أطول من ذلك بكثير: «الحضارة والبربرية. حياة خوان فاكوندو كيروغا، والمظهر الطبيعي لجمهورية الأرجنتين وعاداتها وتقاليدها» وهي رواية احتجاجية على خوان مانويل روسا، حاكم الأرجنتين الطاغية منذ ١٨٣٥ حتى ١٨٥٢. وروسا في الرواية هو ممثل البربرية التي وصلت إلى قمة السلطة المطلقة، وفي مواجهته تقف الحضارة مجسدة في جماعة من المثقفين المتصلين مباشرة بالثقافة الأوروبية ممن دفعهم تعسف الدكتاتور إلى المنفى أو الهامشية. وهناك في السياق نفسه رواية «آماليا» Amalia من تأليف خوسيه مارمول [ر] José Mármol (١٨١٧-١٨٧١) وهي قصة حب رومنسية في ظل دكتاتورية روسا. يتهم بطلاها بالتآمر على النظام وتجري مطاردتهما إلى أن يصرعهما زبانية الدكتاتور.

أما التيار الثاني في الحركة الإبداعية فهو اتجاه الرواية العاطفية، وهي قصص حب متأثرة بالكتاب الإبداعيين الفرنسيين، ومن أوسعها انتشاراً رواية «ثيسيليا بالديس» Cecilia Valdés للكوبي ثيريلّو بيبابيردي Cirilo Villaverde (١٨١٢-١٨٩٤)، وأهمها على الإطلاق رواية «ماريا» María للكولومبي خورخي إساكس Jorgi Issacs (١٨٣٧-١٨٩٥)، التي يمكن عدّها اقتباساً من نوعية عالية جداً لقصة الكاتب الفرنسي برناردان بيير «بول و فيرجيني» مع تأثر كبير بقصة «أتالا» لشاتوبريان.

وأخيراً هناك تيار الرواية التاريخية والموضوع الغالب عليه هو نضال الهنود في مواجهة الغزاة الإسبان الذي يأتي في الغالب ضمن إطار قصة غرامية مأسوية، وأشهر روايات هذا الاتجاه هي «إنريكيو» Enriquillo للدومينيكاني مانويل دي خيسوس غالبان Manuel de Jesús Galván (١٨٣٤-١٩١١). أما أبرز من اهتموا بالماضي التاريخي فهو البيروي ريكاردو بالما Ricardo Palma (١٨٣٣-١٩١٩) الذي أبدع نوعاً أدبياً جديداً دعاه «التقاليد» هو حالة وسطى ما بين الأسطورة التاريخية والحكاية الشعبية.

وقد كتب بالما أربعمئة وثلاثاً وخمسين قصة من هذا النوع، جمعها في كتاب من عدة أجزاء بعنوان «تقاليد بيرويّة» Tradiciones Peruanas.

أما في ميدان الشعر فقد رأى الشعراء بعد الاستقلال أن الواجب يفرض عليهم أن يكونوا أدلاء أممهم الجديدة للتخلص من التقاليد الثقافية الاستعمارية، والتغني بانتصارات الشعوب الأمريكية اللاتينية لتعزيز روحها القومية، وهو ما يلمس في القصيدة البطولية الطويلة التي نظمها خوسيه خواكين أولميدو [ر] José Joaquín Olmedo (١٧٨٠-١٨٤٧) في تمجيد انتصارات بطل التحرير سيمون بوليفار بعنوان: «انتصار خونين أو نشيد إلى بوليفار».

ومنذ عام ١٨٣٠ بدأت الحركة الإبداعية بالانتشار في أمريكة اللاتينية مع عودة ايتشبيريا من باريس ونشره في بوينس آيرس قصيدته الطويلة «إلفيرا، أو عروس البلاتا» عام ١٨٣٢.

وقد اتسع نطاق الحركة الإبداعية، وكان لها دور فاعل في إذكاء الحماسة القومية، وهو ما يظهر بجلاء في العمل الشعري الطويل الذي نظمه خوسيه هيرنانديث José Hernández (١٨٣٤-١٨٨٦) بعنوان «مارتين فييرو» Martín Fierro، ومازال هذا العمل حتى اليوم بمنزلة القصيدة الوطنية الأولى في الأرجنتين، والتعبير الأرقى عن الأدب الغاوتشي Literatura gauchesca الذي يعالج بأسلوب إبداعي أحوال حياة الغاوتشو، أي رعاة المواشي في سهول البامبا الأرجنتينية.

ولكن نضج الشعر الأمريكي - الإسباني لم يتبلور إلا مع تيار الحداثة Modernismo الذي كان من أبرز رواده الكوبي خوسيه مارتي هذا الشاعر «الذي يكتب أجمل نثر في العالم» كما قال عنه حامل لواء الحداثة النيكاراغوي روبين داريو [ر] Rubén Darío (١٨٦٧-١٩١٦). وقد مثلت حركة الحداثة نقطة تحول في الأدب الأمريكي اللاتيني، فمعها انتهى عهد التبعية الثقافية، وانتقل التأثير أول مرة من الجانب الآخر للمحيط الأطلسي باتجاه أوربة. فكانت الحداثة الأمريكية اللاتينية هي القدوة التي سيحذو حذوها شعراء إسبانية، حتى إن وصول روبين داريو عام ١٨٩٨ إلى إسبانية للعمل مراسلاً صحفياً، صار يعَد نقطة انطلاق حركة الحداثة في شبه الجزيرة الإيبرية.

وهكذا أصبح الأدب الأمريكي اللاتيني يستند إلى تقاليد خاصة به، وانفتح الطريق واسعاً أمام الكتاب المشبعين بذلك الواقع ليقدموا الشخصية الأمريكية اللاتينية المتميزة، فظهرت مع بدايات القرن العشرين أسماء لامعة ما لبثت أن عرفت في العالم بأسره، مثل هوراسيو كيروغا، وروبيرتو آرلت، وغبرييلا ميسترال، وبابلو نيرودا [ر] وغيرهم.

تطور الأدب في القرن العشرين: بدأت حركة الحداثة بالتفكك في الواقع منذ سنة ١٩١٠، وظهرت فيها انشقاقات كثيرة، منها معارضة الشاعر المكسيكي إنريكي غونثالث مارتينث [ر] Enrique González Martínez لأرستقراطية روبين داريو في قصيدته الشهيرة «إلوِ عنق البجعة». ومما يستدعي الاهتمام وجود شاعرات بارزات خرجن على الحداثة وأثبتن حضورهن في النصف الأول من القرن العشرين، مثل ماريا أوخينية باث فيريرا María Eugenia Vaz Ferreira (١٨٧٥-١٩٢٤) في الأرغواي، وألفونسينا ستورني Alfonsina Storne (١٨٩٢-١٩٣٨) في الأرجنتين، فضلاً عن الشاعرة التشيلية اللامعة غابرييلا ميسترال[ر] Gabriela Mistral (١٨٩٩-١٩٥٧) التي تلقت على أشعارها المفعمة بالمعاني النبيلة والرقة جائزة نوبل لعام ١٩٤٥، فكانت أول من يحصل على هذا التكريم الأدبي العالمي في أمريكة اللاتينية.

ومنذ عام ١٩٢٠ بدأت تظهر حركة تجديد في الشعر تحت تسميات مختلفة: الإبداعية Creacionismo، والتطرفية (مذهب المغالاة) Ultraismo، والطليعية Vanguadismo. وكان من أبرز وجوهها التشيلي بيثنتي هويدوبرو Vicente Huidobro (١٨٩٣-١٩٤٨)، والأرجنتيني خورخي لويس بورخيس[ر] Jorge Luis Borges (١٨٩٩-١٩٨٥).

ويرى بعضهم أن عام ١٩٢٢ هو بداية القرن العشرين فيما يتصل بالشعر الإسباني - الأمريكي. ففي تلك السنة نشر البيروي ثيسر باييخو[ر] César Vallejo ديوانه Trilce، وبعده بمدة قصيرة صدر ديوان بابلو نيرودا «عشرون قصيدة حب وأغنية يائسة»، ويبدو واضحاً نزوع الشاعرين إلى التخلص من الصيغ التقليدية واختصار المسافة ما بين الشاعر و القارىء عن

طريق إبداع لغة جديدة وصور مبتكرة تسخر من التقاليد الشعرية السابقة. وقد التقت هذه الحركة التجديدية في الشعر الأمريكي اللاتيني بحركة موازية في إسبانية كان من أبرز رموزها فيدريكو غارسيا لوركا[ر] وخورخي غيين ورفائيل ألبيرتي[ر] وغيرهم من شعراء «جيل ٢٧» الإسباني.

لقد كان منح الشاعر التشيلي بابلو نيرودا Pablo Neruda (١٩٠٤ ـ ١٩٧٣) جائزة نوبل عام ١٩٧١ اعترافاً أكاديمياً عالمياً بشاعر لقي التقبل والرواج في كل أرجاء العالم وأثر تأثيراً عميقاً في مجمل الشعر الأمريكي الإسباني في القرن العشرين.

ومن الأصوات الشعرية المتميزة في هذه المرحلة الأخيرة الشاعر الكوبي نيكولاس غيين (١٩٠٢ ـ ١٩٨٨) صاحب الأشعار الإفريقية ـ الكوبية التي تستوحي الإيقاعات الإفريقية في مضامين اجتماعية وإنسانية تراوح بين الاحتجاج العنيف والمرارة العميقة حيال العنف والجور.

وكذلك الشاعر الغواتيمالي المشهور عالمياً بكتاباته الروائية ميغيل أنخل أستورياس الذي نال جائزة نوبل عام ١٩٦٧. والشاعر المكسيكي أوكتافيو باث[ر] Octavio Paz صاحب جائزة نوبل لعام ١٩٩٠.

أما الرواية الأمريكية اللاتينية التي بدأت بالظهور بعد الاستقلال في أوائل القرن التاسع عشر، فقد حققت في النصف الثاني من القرن العشرين قفزة هائلة أوصلتها إلى الصدارة على المستوى العالمي. والحقيقة أن بروز الرواية الأمريكية اللاتينية لم يأت من فراغ، وإنما استند إلى تقاليد أكسبت الرواية الأصالة وصقلت نضجها الفني منذ بدايات القرن، حين انتشرت اتجاهات وتيارات كثيرة أغنت اللغة والأساليب الروائية، وكان أبرز تلك الاتجاهات: الرواية الغاوتشية La novel gauchesca ، وهو اتجاه ظهر في الأرجنتين عامة، وفي منطقة لابلاتا خاصة، وبلغ أقصى مداه في رواية «دون سيغوندو سومبرا» (١٩٢٦) للكاتب الأرجنتيني ريكاردو غويراليديس Ricardo Guiraldes (١٨٨٦ ـ ١٩٢٧). و الرواية الإقليمية La novela regional التي حققت نجاحاً كبيراً في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين، وكان من أبرز ممثليها الكاتب الكولومبي خوسيه إوستاسيو ريفيرا [ر] José Eustasio Rivera (١٨٨٩ ـ ١٩٢٨) في روايته «الدوامة» La voràgine، والفنزويلي رومولو غاييغوس Romulo Gallegos (١٨٨٤ ـ ١٩٦٩) في رواية «دونيا بربارة». وهناك تيار رواية الثورة المكسيكية، وهي حركة روائية واكبت الثورة المكسيكية(١٩١٠ ـ ١٩٢٠) ومازالت مستمرة بطريقة ما حتى اليوم، ويعد الروائي مارينو اثويلا Marino Azuela (١٨٧٣ ـ ١٩٥٢) أبرز مؤرخي تلك المأساة التي تمثل أشد جراح القارة إيلاماً في العصر الحديث.

والرواية الهندية التي تبنت اتجاهاً احتجاجياً على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، وازدهرت ازدهاراً خاصاً في البلدان الإنديزية ـ بوليفية والأكوادور والبيرو ـ حيث يكثر وجود الهنود الحمر. ومن أبرز ممثلي هذا التيار الإكوادوري المبدع خورخي ايكاثا Jorge Icaza (١٩٠٦ ـ ١٩٧٣) وخاصة في روايته «هواسيبونغو» Huasipungo ، والبيروي ثيرو أليغريا Ciro Alegría (١٩٠٩ ـ ١٩٦٧) صاحب رواية «العالم فسيح وغريب» El mundo es ancho y ajeno.

وكان عام ١٩٤٩ منعطفاً مهماً في تاريخ الرواية الأمريكية ـ الإسبانية، ففي ذلك العام ظهرت روايتان كان لهما شأن كبير في تطور الأدب الروائي في القارة، الأولى هي رواية الكاتب الغواتيمالي ميغيل أنخل أستورياس التي تحمل عنوان «رجال من ذُرَة» Hombres de maíz التي عُدّت بداية نشيد العالم السعيد المفقود (عالم السكان الأصليين)، حيث ينفتح أمام القارىء عالم سحري غامض قوامه النضال اليومي من أجل الحياة بالاستناد إلى استعادة الروح استعادة سرية مستمرة عبر طقوس شديدة الغنى. أما الرواية الثانية فهي «ملكوت هذا العالم» El reino de este mundo للكوبي أليخو كاربينتير [ر] Alejo Carpentier (١٩٠٤ ـ ١٩٨٠) وتدور أحداث هذه الرواية في هايتي إبان الأحداث الاستثنائية التي عصفت بالجزيرة في أوائل القرن التاسع عشر (ثورة العبيد على الاستعمار الفرنسي)، فيعمد الكاتب إلى رصد تفاصيل الواقع بدقة ميكروسكوبية، ويمزجها بالأسطورة والفولكلور والسحر ليظهر البعد الغرائبي للأرض الهايتية وروحها الخرافية. ومع هذين الكاتبين بدأت الموجة التي ستجتاح العالم بعد عدة سنوات تحت اسم «الواقعية السحرية» El realismo magico إذ يكون الانطلاق على الدوام من أحداث تاريخية وواقعية، لاتلبث أن تطغى عليها أبعاد خرافية غير معهودة يستوحيها الكتاب من ميراث السحر والأساطير والشاعرية، ومن التباين العرقي الشديد والغني في أراضي أمريكة العذراء.

ومن أبرز روائيي الموجة الجديدة التي شهدت انتشاراً عالمياً منقطع النظير، المكسيكي خوان رولفو Juan Rulfo (١٩١٨ ـ ١٩٨٨) صاحب الرواية التجديدية الباهرة «بيدرو باروما» Pedro Pároma. والكولومبي غابرييل غارثيا ماركيث Gabriel García Márquez، (جائزة نوبل١٩٨٢) مؤلف رواية «مئة عام من العزلة» Cien anos de solidad التي أصبحت معلماً في تاريخ الرواية العالمية.

والأرجنتيني خوليو كورتاثار [ر] Julio Cortázar (١٩١٦ ـ ١٩٨٤) في روايته «الحجلة» Rayuela التي هي نوع من التجميع (الكولاج Collage) يتكامل في فصول وقصاصات يمكن فهمها بألف طريقة مختلفة، ويعمد المؤلف فيها إلى تفتيت الحدث وتحطيم السياق الزمني، داعياً بذلك القارىء إلى «مشاركة جديّة وفعالة في حل معضلات العمل وتعقيداته مثلما تفعل شخصيات الرواية تماماً». وهناك المكسيكي كارلوس فويتنس Carlos Fuentes (١٩٢٨)، والبيروي ماريو فارغاس ليوسا Mario Vargas Liosa (١٩٣٦) اللذان يعدان من أبرز وجوه الرواية الأمريكية اللاتينية المعاصرة.

مع أنه لايمكن مقارنة تاريخ المسرح في أمريكة اللاتينية بغيره من النشاطات الأدبية الأخرى، فإن الكتابة المسرحية أخذت تترسخ في العقود الأخيرة بأصالة وثقل جديرين بالتنويه. ومع أن المسرح اقتصر في المرحلة الاستعمارية على بعض العروض الدينية التعليمية، وعلى نصوص قليلة للشاعرة الراهبة خوانا إنيس دي لا كروث وغيرها، فإنه لم يظهر في الواقع كتاب مسرحيون حقيقيون باستثناء الكاتب البارز الوحيد في أواخر القرن التاسع عشر فلورينثيو سانتشيس [ر] Florencio Sánches الكاتب البارز الوحيد في الأورغواي. ثم ما لبث أن ظهر في المكسيك عدد من كتاب المسرح الذين لفتوا الانتباه عالمياً مثل خابيير

بيياوروتيا Xavier Villaurrutia (١٩٠٣ - ١٩٥٠) ورودلفو اوسيغلي Rodolfo Usigli (١٩٠٥ - ١٩٨٠).

ثم تصاعدت حركة التأليف المسرحي منذ منتصف القرن العشرين، ورافقها تأسيس عدد كبير من الفرق المسرحية التجريبية، وظهرت أسماء لامعة مثل الغواتيمالي مانويل غاليتش Manuel Galich، والأرجنتيني اوزبالدو دارغون Osvaldo Dargún، ولم يبق هناك اليوم بلد أمريكي لاتيني إلا لديه مؤلف مسرحي لامع. ولكن معظم هؤلاء المؤلفين هم أبطال يواجهون العزلة في مجتمعهم نفسه، ذلك أن المسرح يتطلب حداً من الوعي والثقافة ويحتاج إلى ممثلين وأماكن عرض لا تتوافر في عدد كبير من بلدان القارة.

ومع ذلك، فإن عدداً غير قليل من أعمال المسرحيين الأمريكيين اللاتينيين قد ترجم إلى لغات أخرى، وقدم في مسارح أجنبية ونال جوائز عالمية في العقود الأخيرة.

ولابد أخيراً من التنويه بالازدهار الذي يشهده النقد الأدبي. فالاهتمام العالمي بمشاكل القارة وبآدابها دفع الباحثين الأمريكيين اللاتين إلى معالجة مشاكل بلدانهم معالجة أشد عمقاً، وإلى دراسة إنتاجهم الأدبي والفني دراسة نقدية جدية، ولعل كتاب المكسيكي أوكتافيو باث «متاهة العزلة» هو علامة بارزة في هذا التوجه.

صالح علماني

مراجع للاستزادة:

- Universidad Complutense de Madrid, Literatura Hispanoamerican, tres tomos(Madrid, 1978).
- Universidad Complutense de Madrid, Anales de Literatura Hispanoamericana, (Madrid 1975).
- Raimundo Lazo, Historia de la Literatura Hispanoamericana, La Habana 1967.
- Guillermo Diaz-Plaja, Literatura Hispanoamericana, Madrid 1979.
- Luis Alberto Sanchez, Proceso y Contenido de la Novela Hispanoamericana, Madrid 1976.
- Macelino Menendez Pelayo, Historia de la Poesia Hispanoamericana,(dos tomos), Madrid 1948.
- Raul Silva Castro, Panorama Literario de Chile, Santiago de Chile 1961.
- Enrique Williams Alzaga, Pampa en la novela argentina, Buenos Aires 1955.
- Marta Portal, Proceso Naratívo de la Revolucion Mexicana, Madrid 1977.

■ أدب الأطفال

برز أدب الأطفال children`s literature إلى الوجود، وفرض نفسه، في السنوات الأخيرة. فقد زاد عدد الأولاد الذين كانوا يبحثون عن الكتاب مع انتشار التعليم، ففكر بعض الناشرين باقتباس الأساطير والحكايات الشعبية والدينية وتبسيطها اعتقاداً منهم أنها سوف تكون ملائمة للأطفال. وفي القرن التاسع عشر عرف مفهوم «أدب الأطفال». وازدهر في القرن العشرين، فبرزت مجلات الأطفال، وانتشرت كتبهم، وراجت برامجهم في الإذاعة والشاشة الصغيرة.

وبذلك استقل «أدب الأطفال» وبات ميداناً خاصاً يستمد أصوله من معرفة الطفل نفسه معرفة عميقة، ومن معرفة البيئة التي يعيش فيها هذا الطفل، ومن ماضي الطفل، ومن القدرة على التنبؤ، ومن الإيمان بمستقبل الأمة التي ينتمي إليها، ومن دراسة الطبيعة والإنسان والعلوم.

والطفولة مرحلة من الحياة تمتد من الولادة إلى سن المراهقة. ولها خصائصها التي تنمو مع نموّ الطفل نفسه وهو النمو الذي يشمل النواحي الجسمية والنفسية والخلقية والانفعالية والاجتماعية والإبداعية.

وقد ظلّت المعارف عن الطفولة ضعيفة قروناً عدة. وبقي الطفل، حتى القرن الثامن عشر تقريباً، «راشداً مصغّراً» في نظر الكبار. وقد شهد القرن الثامن عشر اللحظات التي اعتُرف فيها للأولاد بحقهم في التسلية وفي التعلم معاً. وعرفت خصائص الطفولة الفردية، وأخذت قابليات الطفل واهتماماته بالحسبان. ولقي كتاب «إميل» الذي كتبه الفرنسي جان جاك روسو Rousseau عن تربية الطفل وطبيعته اهتماماً واسعاً. وجاءت بعده عدة كتب أخرى.

ثم بدأ الكتّاب يؤلفون قصصاً خاصة بالأطفال والفتيان ذات أهداف محددة مثل اكتساب المعارف وتعلم شؤون الحياة والمعيشة وتبني السلوك الحسن.

واعترف بحق الطفل بالمطالعة الترويحية. وبذلك أصبح الأدب تربوياً وتعليمياً خلقياً وتعليمياً مدنياً. واختلط الأدب بالمطالعة الموجّهة نحو اكتساب المعارف والمعلومات ونحو إعداد المواطن الصالح.

وقد انعكس ذلك كله على موقف الراشد من الطفل. فولّدت المواقف الجديدة، في العالم كله، ازدهاراً في المؤلفات الموجهة للصغار يكشف عن وجود النية التربوية والبنائية.

وخضع الكتّاب لقواعد الكتابة للصغار فتجنبوا الألفاظ الغريبة والأساليب المجازية، وجعلوا جملهم قصيرة، واختاروا العبارات التي تثير المعاني الحسية من غير مبالغة في الزركشة والتفصيل. وبذلك أصبح القارىء الصغير يقوم برحلات ممتازة سعيدة في الأساطير والروايات والآراء التي لاتهدف إلى التسلية فقط بل تستجيب كذلك لحاجات الطفولة العميقة فتلبيها، وتساعدها على النموّ السعيد.

ولقد استطاع أدب الأطفال أن يضع الخيالي بمقابل التعليمي، أي أن يجمّل حياة الصغار ويجعلها سعيدة.

تطوّر أدب الأطفال

طبع أول كتاب للصغار في عام ١٤٨٤ على يد وليم كاكستون Caxton وكان ذلك الكتاب «خرافات إيسوب». ثم تلته كتيبات أخرى في الأغاني أو في وصف الألعاب التي تجري في الحفلات أو في «الألواح» التي تضمّ الأبجدية

والأرقام والصلوات. ولكن ذلك كله لم يكن في نطاق أدب الأطفال: لا من حيث الغرض ولا من حيث البنية.

ثم جاء أشهر الكتب المخصصة للأطفال، في أوربة في القرن السابع عشر، وهو أورتيس بيكتوس Ortis Pictus أو «العالم المصور» الذي وضعه جان آموس كومنيوس Jean Amos Comenius المربي التشيكوسلوفاكي الإنساني، في عام ١٦٥٧. ولكن الكتاب كان تعليمياً.

وظهرت في القرن السابع عشر نفسه بعض الكتب الموجّهة للصغار، إلا أنها كانت تلحّ على التربية الخلقية والدينية.

أما بدء العصر الذهبي لأدب الأطفال فكان في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر حين دخل الميدان كبار المؤلفين في فرنسة وإنكلترة وألمانية وإيطالية والولايات المتحدة الأمريكية.

وما إن حلّ القرن العشرون حتى كان في وسع الصغار أن يطوفوا العالم، ويجوبوا البحار، ويحلّقوا في الفضاء، بفضل وسائل الإعلام الحديثة وما تخصهم به.

شواهد من العناية بأدب الأطفال

المجتمعات التي اهتمت بأدب الأطفال كثيرة، وفيما يلي بعض الشواهد من مجتمعات اتسع فيها هذا الاهتمام.

أدب الأطفال في إنكلترة: تكثر في أدب الأطفال الإنكليزي القصص التي تتصل بأولاد يضيعون في الغابة، أو أولاد منبوذين، أو الحسناوات التعيسات، أو القصص التي تتصل بالأهازيج والألعاب والشعر المبسّط الذي يظهر الكثير من الأقوال والأمثلة المتداولة. ويتصف أدب الطفولة الإنكليزي بأنه أدب مغلق يقتصر على عالم الطفولة وحده، ويختصر كل شيء ضمن أبعاد هذا العالم وأنه أدب ساكن في علاقته مع المكان والفراغ، وقد أدار ظهره للتقاليد الواسعة عن الحركة والانتقال، وظلّ في مكانه جامداً قد يترك فيه أولاد القصص غرفهم ليبحثوا ويكشفوا، لكنهم يكتفون بالتنقيب في أماكن ترضيهم وحدهم، وفي نهاية المغامرة يعودون إلى غرفهم.

ثم إنه أدب يجمع بين الواقع والوهم ويجري التفاعل فيه بين الطفل وشخصية خفية، ويجعل غير الموجود أكثر حقيقة من الموجود، مع شيء من البساطة تنساب من خلال سحر الرواية: المساكن الإنكليزية القديمة المأهولة بالأشباح، وكشف الماضي، والحوار مع مرافق خفي لا يُرى.

وتميل كتب الأطفال، في إنكلترة، إلى النزعة المثالية عند ريديارد كبلنغ[ر] Rudyard Kipling أو النزعة الإصلاحية العاطفية عند فريدريك فارار Frederick William Farrar، أو أنها تؤيد الانفجار التحرري الذي يعدّ ردّ فعل على حياة القسوة التي كان يعاني منها الأطفال الصغار في إنكلترة.

إن المؤلفين الذين يمكن أن يسمّوا «الكتّاب الحقيقيين للأطفال» هم أولئك الذين يتقنون معرفة الأطفال، ويعرفون كيف يفاجئونهم في لعبهم، ويصغون إليهم، ويراقبونهم عن كثب، من غير تدخّل أو طرح أسئلة. ويأتي الكتّاب الإنكليز في المقدمة بين «الكتاب الحقيقيين».

وقد زاد إقبال الصغار الإنكليز على المطالعة فاتسعت حركة الترجمة وحركة التأليف. فقد ترجمت من الفرنسية «ساندريلا»، والجمال الناعس» Sleeping Beauty و«ذو اللحية الزرقاء» Blue Beard، ومن العربية «ألف ليلة وليلة». ثم صدرت رواية «روبنسون كروزو» للكاتب دانييل ديفو[ر] (١٧١٩)، وتبعتها «رحلات غليفر» Gulliver's Travels للكاتب جوناثان سويفت [ر] (١٧٢٦) كما ظهرت محاولات عدة لنشر مختارات من الحكايات الشعبية.

ومنذ عام ١٨٦٥ انفصل أدب الأطفال الإنكليزي عن الناحية التعليمية. وانتصر الخيال والإبداع والاهتمام بالموروث الشعبي وبالخرافة وبالحكايات الشرقية.

أدب الأطفال في فرنسة: كان السادة وحدهم، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، في فرنسة يتغذون بقراءة النصوص التي تدور حول الإحسان والفروسية والتربية في قصورهم. أما الأوساط الفلاحية والشعبية فقد كانت تكتفي بالاستماع إلى الرواة الأصيلين في أكواخها، وتستمتع في سهراتها بحكاياتهم وقصصهم. وكان لها تقاليدها في الأغاني والأهازيج والحكايات التي كانت تدور حول الترويح والتسلية. ثم ما لبثت هذه الحكايات والأغاني والأهازيج أن جمعت، فألفت ما يُعرف باسم «الأدب الجوال» [ر. الأدب الفرنسي] الذي كان ينقله الباعة الجوالون من مكان إلى آخر، وهو الذي ألّف، فيما بعد، نواة المكتبة الزرقاء للأطفال. ومن أهم الأسماء التي كان لها دورٌ بارزٌ في نشر أدب الأطفال في فرنسة: لافونتين [ر] La Fontaine وفينيلون [ر] Fénelon وشارل بيرو [ر] Charles Perrault والكونتيسة صوفي دي سيغور Comtesse de Ségur وجول فيرن [ر] Jules Verne وسواهم.

أدب الأطفال في الولايات المتحدة الأمريكية: المعروف أن الولايات المتحدة الأمريكية كشفت في أواخر القرن الخامس عشر، لذا يمكن الزعم بأنها خالية من التقاليد الأدبية وليس لها تاريخ أدبي حافل كما هي الحال في الوطن العربي أو في أوربة أو حتى في إفريقية.

بل إنها كانت تستمد دائماً من الدول الأخرى التي سبقتها في هذا المضمار. وقد انتعش أدب الأطفال فيها، في السنوات الأخيرة، لأنه حصيلة آداب الأمم الأخرى، تضاف إليها الاستعانة بأحدث وسائل الاتصال. وقد برعت الولايات المتحدة الأمريكية في استغلال رؤوس الأموال، وتطوير الوسائل السمعية البصرية، والاستعانة بأحدث منجزات التربية وعلم النفس والفن الصناعي، لذا يجد المرء فيها تقدماً جلياً في إنتاج الأشرطة المسموعة والمرئية التي تبث في داخل البلاد نفسها، وفي خارجها، وإخراجاً متقناً للمجموعات المصورة (الألبومات) وللمسلسلات المرئية، واهتماماً كبيراً بالصورة (على حساب النص أحياناً) إلى درجة جعلت الصورة والحركة تسموان على النص وتسيطران عليه، مما يثير الفرح والدهشة عند الصغار، ويبرز لذة الكشف، ويروي الخيال.

وبسبب وفرة رؤوس الأموال قامت حركة اقتباس واسعة من اللغات الأخرى وتوظيف الرسامين والفنانين والكتاب والفنيين.

أراد الأمريكيون التركيز على المكتوب والشفهي على نطاق واسع في مجال أدب الأطفال وحاولوا الجمع بين نشاطهم في هذا المجال والحوافز التربوية، فأوجدوا ما يعرف باسم «ساعة القصة» أو «درس القصة»، بتحريض من الكاتبة القصصية المعروفة سارا كون برايانت Sara Cone Bryant. وقد أصبحت «ساعة القصة» هذه جزءاً من العمل الرسمي في المدارس والمكتبات الخاصة بالأطفال، يتحلق الصغار فيها حول المعلمة ليستمعوا منها إلى حكاية ويناقشوها فيها. وقد تبيّن من ذلك أن متعة الاستماع لا تقل عن متعة القراءة.

وظهرت عندهم فكرة «المكتبة الملونة» التي تضم تخصصات عدة في رسوم كتب الأطفال

وخبراء في الإخراج والتنفيذ وصناعة الغُلُف.

وعلى هذا يمكن القول إن الولايات المتحدة الأمريكية لا تتمتع بتقاليد عريقة في أدب الطفولة وفي إنتاج الكتب المخصصة للطفولة، وإن إنتاج هذا الأدب مال حديثاً إلى ما تم الحصول عليه من الحضارات الأخرى وأن ثمة تطوراً واسعاً نال عمليات الإخراج ثم عملية الإبداع ولحق بذلك تصدير الكثير من أدب الأطفال الذي تم إنتاجه وإخراجه ليكون في متناول دول أخرى.

ومن الكتّاب الأمريكيين المعروفين الذين اهتموا بأدب الأطفال في الولايات المتحدة الأمريكية لويزا ميّ ألكوت [ر] Louisa May Alcott وفرنك توم Frank L. Tom وايلنور بورتر Eleanor Porter ومارغريت وايز براون Margaret Wise Brown وراندال جاريل Randall Jarrell وسواهم.

أدب الأطفال في السويد والنروج والدنمارك: اعتمدت البلدان الاسكندنافية على الترجمة والاقتباس من ألمانية على نحو أساسي. وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر وعي لدى الناس بأن جمهوراً واسعاً من صغار القراء كان ينتظر أدباً وطنياً موجهاً له. يضاف إلى ذلك أن قاعات المطالعة استمرت في التطور وأصبحت هذه البلدان الشمالية تملك شبكة جيدة من مكتبات الأطفال.

ظل أدب الأطفال مغموراً في هذه البلدان حتى ظهر هانس كريستيان أندرسن [ر] Hans Christian Andersen في الدنمارك (١٨٠٥ - ١٨٧٥).

كان هذا الكاتب ابن إسكافي فقير، عاش طفولة سعيدة حتى وفاة والده وزواج أمه مرة ثانية. سحره المسرح فذهب إلى كوبنهاغن. وتمكن من الحصول على منحة دراسية ساعدته على الالتحاق بالمدرسة. وكان عمره آنذاك ستة عشر عاماً. وسرعان ما أصبح هذا الفتى معروفاً في الوسط الفني والاجتماعي في كوبنهاغن. وشرع يكتب قصائد وأشعاراً منثورة تحت عنوان «نزوات وخطوط».

رحل أندرسن إلى فرنسة وإسبانية وإيطالية وكانت له علاقات صداقة عدة مع فتيات صغيرات، من أهمها علاقته مع المغنية السويدية جيني ليند وقد تجلّت عبقريته في فن الحكايات، وظهر أول كتاب له «حكايات للأطفال» في عام ١٨٣٥. ثم تبعه في كل عام تقريباً كتاب آخر كان يصدر في عيد الميلاد تماماً. وقد ألّف بعض الروايات أيضاً وبعض الحكايات والرحلات والسيرة الذاتية (وهي حكاية حياتي ١٨٥٠)، ومات في قمة مجده.

نشرت قصصه كاملة تحت عنوان «حكايات» وترجمت إلى معظم لغات العالم. وفي حكاياته خصوبة الخيال وفيها كذلك نزعة حزن عميق.

ويلاحظ أن معظم كتاب البلدان الاسكندينافية ينهلون من تراثهم الشعبي. حتى إن هانس كريستيان أندرسن نفسه كان مديناً للتراث الشعبي في الكثير مما كتب. كما كان يتقن فن سرد الحكايات. ويبدو لدى هؤلاء الكتاب أنهم يستمرون على ارتباطهم بماضيهم حتى وإن اتجهوا في قصصهم الخاصة بعيداً عن التراث الشعبي.

أدب الأطفال في روسية: كان للكاتب المعروف مكسيم غوركي [ر] دور بارز في الحركة الأدبية في روسية، وفي توجيه الأدب، بصورة عامة، وأدب الأطفال، على وجه الخصوص. لقد كتب غوركي للأطفال، وعمل على تأسيس أكبر دار للنشر، تهتم بنشر أدب الأطفال وتوزيعه. وأجرى مسابقات أدبية وشعرية للأطفال وكان الفائزون فيها يكرّمون في بيت هذا الأديب الكبير يستمع إليهم وينصحهم ويوجّههم.

يرى غوركي أن مسألة محتوى كتب الأطفال ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالخط الذي يجب أن يتبع في تربية الجيل الجديد تربية اجتماعية. والتربية الاجتماعية تعني عنده القيام بالعمل الثوري وتحرير دماغ الطفل من أساليب المحاكمة القديمة وتخليصه من الأوهام السابقة وإنقاذه من الأعراف والتقاليد التي كان يحددها الصراع بين الطبقات. وبكلمة أخرى فإن التربية الاجتماعية يجب أن تعمل على تحرير الطفل من النزعة الفردية ومن التركيز على الذات ومن ترسيخ الأنانية والتعصب.

ويلح غوركي على تربية الأطفال تربية منظمة تساعد على جعلهم ينظرون إلى المستقبل لا إلى الماضي، وإن كان لا يحاول اقتلاعهم اقتلاعاً جذرياً من ماضي أمتهم، بل إنه يؤكد ضرورة شرح أحداث الماضي لهم شرحاً واضحاً صادقاً، ويبين أنه، لكي يبلغ الإنسان هذا الغرض، لا يكفي أن يعرض على الأطفال الوقائع والآراء والنظريات الغابرة عرضاً جافاً بل لا بد من وصف تطور العمل وأثره في تحديد الوقائع والمفاهيم والآراء والنظريات. ويجب على الإنسان أن يفسر لهم، بلغة معقولة، أن حرية الفكر لا يمكن أن تنتعش إلا على أساس الحرية العامة للعمل الإنساني.

ويذكِّر غوركي بأهمية الاعتماد على العلم والعمل في المجتمع الحديث وبأن المهمة تنحصر «في وضع العلم في خدمة خيال الطفل وفي تعويد الصغار التفكير في المستقبل» ويقول: «في وسعنا التحدث إلى الصغار عن الأمور الجدية بلغة جذابة ومقبولة وبعيدة عن الأسلوب التقريري التعليمي». ولا ينسى غوركي ضرورة استخدام الخبرة العملية الفنية التي يقدمها الناس العاديون الذين يجابهون الحياة عملياً في مختلف الميادين كالصيادين والبحارة والمهندسين والطيارين والفلكيين وعمال محطات الآليات والجرارات وغيرهم.

ويركز غوركي على أهمية الحكايات الشعبية القديمة في نموّ الفكر والمخيلة وفي إدراك أهمية الإبداع في الفن وفي إغناء اللغة.

ولم يكتف غوركي بذلك بل إنه التفت إلى الأطفال أنفسهم يسألهم رأيهم فيما يجب أن يُكتب. وكان أهم موضوع اقترح قد حدّد بكلمتين اثنتين: «كل شيء». لهذا نصح غوركي المسؤولين عن دار النشر الخاصة بأدب الأطفال أن يرضوا رغائب الصغار وأن يطبعوا سلسلة من الكتب الأدبية والعلمية والجغرافية والشعرية التي تساعدهم على التعلم في أوقات الفراغ وعلى نشر الفرح والسعادة حولهم.

أدب الأطفال عند العرب: عرف العرب حكاية الحيوان في الجاهلية وفي العصور الإسلامية المتعاقبة، إذ كانت لهم حكايات كثيرة على لسان البهائم (بل النبات والجماد والأفلاك أيضاً). وكانت موجهة للراشدين الكبار بالدرجة الأولى. وفي الأمثال العربية مادة ثرّة لهذه الحكايات ومعين فياض. وربما كان بعض تلك الحكايات مأخوذاً من الأمم الأخرى، وربما كان بعضها عربياً صميماً. ومنها ما قيل نثراً، ومنها ما نظم شعراً، وكلها مما يسهل حفظه.

وبين غايات العرب الأقدمين من تأليف تلك الحكايات وتداولها: معرفة العالم المحيط بهم، ومعرفة تراث السلف، والوقوف على ما كان

عند الأجداد من حكم وأمثال، والتسلية والتمكن من اللغة، والموعظة والتعليم، والتربية الخلقية، وأخذ العبرة.

ومن الممكن أن يزعم المرء أن قصة الأطفال لم تكن من جوهر الأدب العربي، كالشعر أو الخطابة أو الرسائل، بل كانت ميدان الوعّاظ وكتّاب السير والسُمّار يوردونها شواهد قصيرة على وصاياهم وحكمهم ونصائحهم، أي إنها كانت موجهة للكبار في الأصل.

وإذا انتقل المرء إلى بداية القرن العشرين وجد نهضة شاملة عمت الوطن العربي كله، ووجد الأدب ينمو نمواً ملحوظاً وتتعدّد فنونه ومدارسه. ولقد كان من حسن حظ الأطفال أن برز أدباء عرب اهتموا بالكتابة لهم كان من أبرزهم في مصر كامل الكيلاني (١٨٩٧ - ١٩٥٩). ثم ظهر في المرحلة نفسها، عبد الفتاح شلبي، ومحمد قدري لطفي، وأحمد العجان، ويوسف الحمادي، ومحمد أحمد برانق، ومحمد شفيق عطا، ومحمد سعيد العريان، وأمين دويدار، ومحمود زهران، وعطية الأبراشي، أمّا في سورية فقد ظهر رضا صافي ونصرت سعيد، وعبد الكريم الحيدري. وبرز في الأقطار العربية الأخرى كتّاب آخرون كان معظمهم من المعلمين ورجال التربية، وقد استفاد هؤلاء الكتاب والشعراء من التراث العربي القديم ومن التراث الإنساني ومن الدراسات التربوية والنفسية التي كانت في بداياتها.

تميزت بداية القرن العشرين بما وضع فيها من كتب مبسطة للأطفال ومن أقاصيص متنوعة استخدمت بهدف تربية الصغار وتسليتهم وحثّهم على المطالعة واكتساب اللغة. وقد سخّرت الحيوانات فيها، معظم الأحيان، لأن الحيوان مصدر للتفكّه عند الصغار.

ولعل خير مثال يساق في هذا المضمار الشاعر أحمد شوقي [ر]. فقد كان شوقي من أبرز من تبنى هذا الاتجاه. فأساطيره مفعمة بالنقد والسخرية اللطيفة كان يوردها على لسان الحيوانات. وربما أشرك فيها الإنسان. كانت حكايات كتّاب الأطفال العرب تزيّن الاتحاد والتعاون وتقبّح الكسل والطيش والخيانة والخداع، وتدعو إلى حسن التربية، وتظهر مغبة تعجل الأمور وضعف النظر في العواقب والإهمال والغفلة، لكنها كانت تمجّد الفردية في بعض الأحيان، ولا تنظر إلى المستقبل نظرتها إلى الماضي، وتكتفي بالنصح والإرشاد.

اختيار كتب الأطفال

ومهما يكن من أمر أدب الأطفال فإن الطفل أخذ يقرأ، في السنوات الأخيرة، قصصاً مترجمة وأخرى موضوعة، وإن كتب الأطفال بدأت تنتشر انتشاراً واسعاً في العالم. وهذه ظاهرة تلفت النظر، ولا سيما إذا أضيفت إلى كتب أدب الأطفال: المجلات الجميلة الخاصة بالصغار، والزوايا التي تخصصها لهم صحافة الكبار، وركن الأطفال في الإذاعة والشاشة الصغيرة والأفلام السينمائية الكثيرة التي توجّه إليهم، ومسرح الأطفال، ومسرح العرائس والدمى المتحركة، والألعاب الكثيرة التي تصنع لهم، والأغاني والأناشيد التي تنظم وتلحن لهم. وتبقى المشكلة محصورة في اختيار الأفضل.

ويمكن اغتنام هذه الفرصة لذكر بعض المعايير التي تصلح في انتقاء كتب الصغار، وفي مقدمة هذه المعايير ما يلي:

- الكتاب السهل: وهذا يعني تقديم الكتب السهلة بشرط عدم احتقار الطفل، وإدراك أن كلمة «سهل» لا تعني التكليف المصطنع في التسهيل والتبسيط.
- الكتاب المناسب: وهذا يتعلق باستجابة الطفل العفوية والمباشرة لدى لقائه الأول بالكتاب وإعجابه به أو عدم إعجابه، والالتفات إلى الخصائص الكامنة في السخرية والفكاهة والضحك والتلاعب بالكلمات.
- الكتب المستجيبة لمراكز الاهتمام وفق شرائح الأعمار: فالطفل يمرّ في: عمر التخيل الذي يتصوّر فيه الحيوانات أناساً تتحدث والأشياء ذوات أرواح تتحرك، وعمر التذوق الصريح للحكاية المعبّر عنه بالكلمات، وعمر تذوق المغامرة وهو العمر الذي يهتم فيه القارىء الصغير بالعالم الإنساني المعاصر ويطرح فيه على نفسه أسئلة أكثر حدّة تتصل بالراشدين والمجتمع ومعنى الحياة الإنسانية.

ولكن يجب أن يكون الكتاب الجيد الذي يتحدث إلى الصغار هو، في الوقت ذاته، كتاباً ليس له عمر وليست له حدود.

- الكتاب الذي يواجه الموضوع مواجهة تميل إلى الشمول: إذ قد يفتن الطفل بكتاب يناقش عدة موضوعات وفيها معضلاته ومراكز اهتمامه الشخصي ككرة القدم، والدراجة النارية، وغير ذلك. وقد يميل إلى قراءة الكتب التي تتجاوز قدراته وتكون بعيدة عن الراشدين.
- الكتاب الذي ينطوي على العقدة والشخصيات الساحرة، والبطل المرموق والتغيرات اللاهثة.
- والكتابة نفسها في الكتاب هي معيار أساسي: والمقصود هنا الكتابة التي تخلق عند الطفل القارىء الرغبة بقلب الصفحة والاستمرار بالقراءة والجري لاهثاً حتى النهاية بدلاً من التثاؤب والنعاس. والكتابة يجب أن تكون كتابة هذا الزمن وبلغته، مع احترام لغة الطفل.

ثم إن الكتاب الجيد هو الذي يستطيع الراشد أن يأخذ منه المتعة كالطفل تماماً. وللراشد أن يختار الكتب للأطفال على أن يستعين بآراء نقاد أدب الأطفال وأن ينتقي الكتب التي تسمو بالإنسان وترفع من خلقه، وتزيد معلوماته، وتجعله يفكر بالآخرين قبل أن يفكر بنفسه.

القصة والشعر والمسرحية في أدب الأطفال

القصة: تبدو القصة، في نظر الطفل، لوناً من ألوان اللّهو لا يملّ تكرارها. إنها تبعث في نفسه الهدوء والسكينة، وتصبح متنفساً لطاقاته المتفتحة أو تدريباً لخياله وذهنه وعواطفه وانفعالاته. وهي تدربه على تكوين بعض الصلات الاجتماعية، فتكون جسراً بينه وبين الآخرين. يضاف إلى ذلك أن القصة تلقن الطفل كثيراً من الكلمات والعبارات تلقيناً سهلاً غير مباشر، مما قد لا يتاح له في حياته العملية. وينبغي تذكّر أن الكبار يُدخلون للصغار، فيما يسردونه عليهم من قصص وأساطير وخرافات، بعض العظات والنصائح الأخلاقية، بأسلوب مباشر وغير مباشر، لكي يُغروهم بالسلوك الذي يريدون أن يتبناه الأطفال.

والمعروف أن للقصة فكرة ومغزى وأسلوباً وخيالاً ولغة، وأن لكل هذه العوامل أثراً في تكوين الطفل. ومن هنا نشأت ضرورة الاستفادة من القصة في البيت وفي المدرسة، وضرورة انتقاء الصالح منها ومعرفة كيفية عرضه على الطفل.

ولما كان الطفل، في السنوات الأولى من عمره وفي روضة الأطفال، غير قادر بعد على القراءة، فإن من واجب الأم والمربية - المعلمة سردها عليه. ففي سرد القصة جمال آخر هو

جمال التعبير الذي يسمو بها ويزيد من قيمتها الفنية، ويبعث فيها حياة جديدة، ويشد إليها الطفل. كذلك يمكن طبع بعض الصور على ورق من المقوى الثخين، تمثل الحيوانات والمشاهد المألوفة المسلسلة التي يعبث بها الطفل ويقلّبها، وعن طريق اللعب والسؤال يتعلم منها المفردات والجمل المفيدة.

ويرى علماء النفس والتربية أن لكل عمر قصصاً تلائمه، وأن لكل نوع من هذه القصص سماته المميزة. وقد جعل هؤلاء حياة الطفل والمراهق في أطوار ومراحل ولاحظوا أن كل طور يهتم بنوع من القصص: فهناك الطور الواقعي المحدود بالبيئة وفيه أشكال من النماذج المألوفة من الحيوان والنبات والأشخاص، وهو بين الثالثة والخامسة. وهناك طور الخيال الحرّ ما بين الخامسة والثامنة (أو التاسعة)، وطور المغامرة والبطولة، من الثامنة (أو التاسعة) حتى الثانية عشرة، وطور العاطفة والغرام، من الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة، وطور المثل العليا يأتي بعد الثامنة عشرة أو السادسة عشرة. والأطوار هذه متداخلة والأعمار المذكورة ليست إلا أعماراً تقريبية ولكنها تعبر عن التمايز.

لهذا كله كان من الضروري جداً أن تتصف قصص الأطفال ببعض السمات النوعية.

فيجب أن تروق للأذن وللعين (وللحواس الأخرى إن أمكن)، ويجب أن تؤثر في العاطفة، فتسحر نفوس الصغار، لكي تكون فائدتها أكيدة ويكفي أن نلاحظ الصغار وهم يلاحقون لاهثين قصة ناجحة حتى ندرك تأثيرها القوي. إنهم يتابعون مشاهد القصة بعيونهم وبآذانهم وبأنفاسهم، ويشاركون أشخاصها وجدانياً، بل إنهم كثيراً ما يشاركون الأبطال في تمثيل الحوادث. ولا شك في أن قارىء القصة أو سامعها لا يملك أن يقف موقفاً سلبياً من شخوصها وأحداثها. بل إنه يغرق نفسه في مسرح الأحداث ويتفحص ما يجري ويتخيل إنه كان في هذا الموقف أو ذاك، ويوازن بين نفسه وبين أبطال القصة فيوافق أو يستنكر أو يُعجب.

ويُستحسن أن تكون شخصيات القصة قابلة للتصديق مألوفة لدى الصغار. وهذه السمة تشمل كل أنواع القصة: التاريخية والواقعية والتمثيلية وكل قصة أخرى تعرض نموذجاً لحال بشرية يمكن أن تقع في الحياة المحيطة. لكن هذا لا يمنع من سرد قصص الجن والعفاريت التي تحتوي قيماً ومثلاً رفيعة لأنها تسهم في تنمية الخيال ومعرفة القيم النبيلة ومحاربة الشر والفساد.

ويجب أن تراعي القصة الدقة، ومعنى ذلك أن يتقيد كاتب الصغار بالصدق، وألا يناقض نفسه أو يخالف قوانين العلم واللغة. كما يجب أن تنطوي على الصلة بما هو إنساني وأن تتصف بالأصالة ويعني ذلك أن تستمد القصص من التراث القومي والإنساني وأن تتقيد بالقيم الإنسانية والقومية وأن تحترم التقاليد والأعراف السائدة النافعة، وأن تنهل من الماضي لكي تبني المستقبل. وهذا لا يمنع أن تهتم هذه القصص بالبساطة واللغة الحية الواضحة التي تختلف عن لغة الكتب المدرسية ولغة الشارع.

الشعر: يبعث الشعر المتعة في نفوس الأطفال، لكن كبار الشعراء العرب لم يهتموا بالنظم للصغار. وفي الأدب الغربي قصائد كثيرة في «الترقيص» والهدهدة والتنويم ورثاء الأبناء. لكن المرء نادراً ما يرى قصائد موجّهة للأطفال. وكان عليه أن ينتظر بداية القرن العشرين حتى يرى بعض القصائد توضع في الكتب المدرسية. وكان هدف تلك القصائد تعليمياً وتربوياً وخلقياً. وعندما ظهر أحمد شوقي نظم عدداً كبيراً من القصائد القصيرة الجميلة الموجهة للأطفال. وكان في ذلك متأثراً بالشعراء الفرنسيين ولاسيما لافونتين. ومنذ ذلك الحين زاد عدد الشعراء الذين ينظمون للصغار، ولكن ليس بينهم واحد اختص بشعر الأطفال وحده.

وفي صفوف الحضانة ورياض الأطفال والصفوف الأولى من المدرسة الابتدائية يحتاج الصغار إلى المعلمة تقرأ لهم وتختار النصوص، وتعرضها، وتكررها، وتنوعها حتى تساعدهم على تنمية الذوق والإبداع. ويمكن أن تستعين ببعض التسجيلات لقصائد بسيطة وقصيرة وجميلة يلقيها ممثلون محترفون. وتستطيع استخدام تسجيلات ترافقها الموسيقى أو أن تغنى هذه القصائد من قبل مغنين أو مغنيات لأن الطفل يحب الغناء كثيراً.

وثمة أساليب عديدة تستطيع المعلمة اللجوء إليها لتجعل الشعر محبباً للأطفال ولإظهار موهبتهم الشعرية.

وعندما يعرف الأطفال القراءة تصبح المعضلة أكثر تعقيداً وتبرز القيمة الحقيقية للشعر، إذ يكون على المعلمين أن يجعلوا الأطفال يُصغون إلى النصوص مع حثّهم على التعبير عما يجول في نفوسهم إزاء الموضوع المطروح. ويشترط أن تكون النصوص بسيطة خفيفة ذات جرس موسيقي راقص. ومن المستحسن ربط الشعر بفعاليات فنية أخرى كالرسم والرقص والخط والتمثيل.

المسرحية: للمسرح في العصر الحاضر، دور تتعاظم أهميته في تربية الصغار وتثقيفهم. فقد تساعد بعض المسرحيات الجيدة الطفل على تبني أحسن العادات في المدرسة والبيت والشارع. وإن المسرحيات العلمية نافعة في توجيه الطفل نحو اختيار المهنة في المستقبل. وللمسرح المناسب المثمر في حياة الطفل شروطه: فيشترط فيه البساطة والدقة والمرح وإمتاع العين والأذن والعاطفة، وهي الشروط اللازمة في الفنون الأدبية الأخرى، وبين هذه الشروط كذلك أن يتناسب مع عمر الطفل ونمو ذكائه. ولكن المسرحية تتطلب انتباهاً عميقاً ومستمراً، مما يجعل العلاقات مع المسرح أكثر تعقيداً من العلاقات مع السينما أو الشاشة الصغيرة. ويجب لذلك أن تراعي مسرحيات الأطفال هذا الجانب مراعاة خاصة.

ثم إن ارتياد المسرح يتطلب أمسية كاملة، لذا يجب أن يكون هذا الارتياد حدثاً مهماً في حياة الطفل، وعلى الآباء أن يجعلوا هذا الحدث مفيداً وأن يوظف التوظيف المجدي في تربية الطفل. ومن المناسب في هذا التوظيف أن تلي المسرحية مناقشات وتبادل في الآراء في داخل الأسرة بين الكبار والصغار.

وثمة ملاحظات لابد من ذكرها في نهاية هذا الحديث عن أدب الأطفال. فقد كان يتجه في الماضي إلى الذكور أكثر من اتجاهه إلى الإناث، وكان يتجه إلى أبناء الطبقات الثرية أكثر من اتجاهه إلى أبناء الطبقات الفقيرة. ومع انتشار التعليم، وتطور الدراسات في علم النفس والتربية، وانتشار الديمقراطية، اتجهت الفروق بين الذكور والإناث نحو الزوال، وتقلصت الفروق الاجتماعية، وأصبح أدب الصغار يخاطب الجنسين على حد سواء من أبناء الشعب كافة، وإن كانت بعض الرواسب القديمة لا تزال تؤثر في الكتّاب وفي الآباء. ولكن هذه الحقيقة أمر يجب الانتباه إليه لدى دراسة أدب الأطفال أو التأليف فيه. ومما يجب الانتباه إليه في التأليف، على وجه الخصوص، عدد من

الأمور إضافة إلى رسالة أدب الأطفال، وفي مقدمة هذه الأمور: درجة وعي المجتمع بهوية الطفل، والتقدم في ميدان الكتابة للصغار، والاستفادة من كتابات القدماء مع مراعاة ظروف العصر، وإبداع أشكال وأنواع وأساليب جديدة لكي يتقبلها الجيل الناشيء، والاعتماد على الترجمة عن الآداب العالمية الأخرى لأن أدب الأطفال إنساني.

عبد الرزاق جعفر

مراجع للاستزادة:

- هادي نعمان الهيتي، أدب الأطفال: فلسفته، فنونه، وسائطه (بغداد، وزارة الإعلام ١٩٧٧).
- F.ERISMAN, Childrens Literature (Ed. J. Fraser 1976).

■ الأدب الجوال ◄ فرنسة (الأدب الفرنسي)

■ أدب الخيال العلمي

الخيال العلمي: هو الانتقال في آفاق الزمن، على أجنحة الحلم المطعم بالمكتسبات العلمية، وغالباً ما يطرق مؤلفو قصص الخيال العلمي science fiction أبواب المستقبل بتنبؤاتهم من دون زمن محدد. وفي قصص الخيال العلمي نظرة واسعة إلى العالم يدخل فيها العلم فيمتزج بحقائقه مع خيال الكاتب، وتُرسم أحداث تنقل القارىء إلى المستقبل، أو الماضي السحيق، فتثيره وتذهله.

والرابطة بين العلم والخيال رابطة مؤطّرة متماسكة، ومن يكتب في هذا النوع من الأدب لا ينجح إلا بثقافة علمية ممتازة يستخدمها في أحداث قصصه ورواياته.

رواد الأدب العلمي

يعد الكاتب الفرنسي جول فيرن Jules Verne [ر] الأب المؤسس لقصة الخيال العلمي، وقد كتب أول أعماله «خمسة أسابيع في منطاد» في فرنسة (١٨٦٣)، ثم أتبعها بروايته «رحلة إلى جوف الأرض» A Journey to the Center of the Earth (١٨٦٤) وبعدها كتب رائعته «من الأرض إلى القمر» (١٨٦٥) التي تخيل فيها رحلة إلى القمر. ولكن هذا الخيال من الرواية تحقق بعد قرن وبالتحديد في ٢٠ تموز ١٩٦٩ إذ هبط أول إنسان على القمر.

كتب فيرن كثيراً من الأعمال في الخيال العلمي إضافة إلى ما ذكر، ومن بين ما كتب «عشرون ألف فرسخ تحت الماء» Twenty Thousand Leagues under the Sea (١٨٧٠) حكى فيها عن غواصة تنتقل تحت الماء. وفي عام ١٨٧٧ كتب روايته «هكتور سيرفاداك» التي تتحدث عن مذنب يقتطع قطعة من كوكب الأرض، وترافق هذه القطعة المذنب في رحلته حول الشمس. وكتب فيرن أيضاً قبل عام واحد من وفاته روايته «سيد العالم» (١٩٠٤)، وفي روايات فيرن خيال مجنح غلب عليه المنطق العلمي، وهذا ما جعله أشبه بنبوءة علمية. فقد تخيل في روايته «من الأرض إلى القمر» انطلاق محطة فضاء من الأرض إلى القمر بوساطة مدفع هائل الطول هبطت على القمر. ووصف الرواد سطحه والمناظر من فوقه وعادوا إلى الأرض حيث هبطوا بمظلة في البحر، بطريقة شبيهة بما فعله رواد المركبة الفضائية أبولو ـ ١١ . كما كتب جول فيرن عن الغواصة ووضع وصفاً لها، وكتب عن الطائرات النفاثة والصواريخ بعيدة المدى والغوص في أعماق المحيطات، وكلها تنبؤات تحولت إلى حقيقة في العصر الحالي. إلى جانب فيرن الفرنسي يعد الكاتب الإنكليزي هربرت جورج ولز [ر] H.G.Wells شكسبير الخيال العلمي، كما وصفه النقاد. وقد ولد ولز في بروملي وهي ضاحية من ضواحي لندن عام ١٨٦٦ وكتب أول رواياته العلمية الخيالية «آلة الزمن» The Time Machine عام ١٨٩٥ وتعد أعظم روايات الخيال العلمي على الإطلاق، وفيها يتخيل أن بطله صنع آلة حين يدير عجلتها يستطيع أن يقفز فوق الزمن، يعود إلى الماضي أو يخترق المستقبل لسنين بعيدة، بحسب الجهة التي يدير بها العجلة. تخيل ولز في آلة الزمن أن مصير الإنسانية التي انغمست في الدعة والسلام وقنعت بالعافية من الهموم، سيكون قاسياً، فحين ينتقل بطل الرواية إلى المستقبل بعد أن يدير عجلة آلته، فإنه يرى البشر وقد تحولوا إلى قبائل بدائية ضعيفة حركتهم خابية، وجمالهم كاذب، جندوا لخدمة قبائل «المرلوك» المتوحشة، التي تستوطن الكهوف والسراديب وشقوق الأرض، بعيداً عن الضوء. ويبلغ به الحزن حد الفجيعة وهو يرى فناء الذكاء البشري، وكيف آل أمره إلى الانتحار على يد الإنسان الذي خلد إلى حياة المذلة والنعيم.

وفي عام ١٩٠١ كتب روايته «رجال القمر الأوائل» The First Men in the Moon وكان قد كتب قبلها روايته المشهورة أيضاً «حرب العوالم» The War of the World (١٨٩٨)، و«طعام الآلهة» The Food of the Gods (١٩٠٤) وبعدها بعام «اليوتوبية الجديدة» Modern Utopia تلتها أعماله الكثيرة المنوعة في قصص الخيال العلمي.

واتسع انتشار أدب الخيال العلمي في العالم، وأصبح يفرض نفسه على النماذج الأدبية الجديدة، وكثر النتاج الغث لبعض الكتّاب الذين أخذوا يكتبون من دون ثقافة علمية كتباً غلبت عليها الخرافة وشطحات المبالغة البعيدة عن المنطق العلمي، وأصبح أدب الخيال العلمي أحياناً صرعة لدى بعض الكتاب الذين رأوا فيه منفذاً إلى عوالم الجنس والحبكات البوليسية والخرافية.

ولكن تلك الكتب التجارية اصطدمت بنقاد كانوا أقسى من نقاد الفنون الأدبية الأخرى، لأنهم وجدوا فيها خطورة على الأجيال الناشئة. ومع ذلك فإن الأدب الحقيقي يظل فاعلاً وله استمراريته. ففي عشرينات القرن العشرين كتب تولستوي [ر] Tolstoy عن رحلة إلى المريخ في «آيليتا» كما كتب عن آلة جبارة تثقب الأرض وتستخرج الذهب من باطنها «هيروبوليد المهندس غارين» وكتب عن الطبقات الداخلية للأرض والنفوذ إليها وعن المفاعل النووي بوجه قريب للحقيقة.

ويحتل إسحق عظيموف [ر] Isaac Asimov مكانة وثيقة بين كتاب الخيال العلمي لخياله الواسع ومعرفته العلمية الممتازة. وقد ولد في روسية عام ١٩٢٠ وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث حصل على الجنسية الأمريكية مع أهله عام ١٩٢٨ . وهو أحد علماء الكيمياء

الحيوية اليوم إذ حصل على درجات البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في العلوم من جامعة كولومبية بمدينة نيويورك، وعمل كيمياوياً في البحرية الأمريكية في الحرب العالمية الثانية. وغدا عام ١٩٤٩ عضواً في هيئة التدريس بكلية الطب بجامعة بوسطن. ومن المشهور عنه أنه كتب قصصاً كغيره عن كائنات العوالم الأخرى، وفي إحدى محاضراته، وكان يتحدث عن الحياة في العوالم الأخرى، سألته إحدى الطالبات عن رأيه بالأطباق الطائرة وهل يعتقد أنها موجودة فأجاب: «لا يا آنسة، وأعتقد أن كل من يؤمن بوجودها هو إنسان خيالي» ويردف قائلاً: «صحيح أنني أكتب عنها ولا أنفي بكتاباتي وجودها ولكن كتاباتي، مجرد خيال، خيال محض».

الخيال العلمي في السينما والتلفزة والصحافة

لعل أول أفلام الخيال العلمي التي ظهرت في السينما الفلم الذي أخرجه جورج ميليس عام ١٩٠٢، وهو فلم صامت بطول ست عشرة دقيقة، وقد استوحى قصته من رواية فيرن «من الأرض إلى القمر» وقصة ولز «رجال القمر الأوائل». وقد أظهر الفلم المعارك بين القادمين من الأرض وسكان القمر وكانت أجواء القمر التي ظهرت شبيهة بالصور المنقولة حالياً عن طريق مركبات الفضاء الدائرة حول هذا الجرم القريب من الأرض.

وتتابعت سلسلة أفلام الفضاء والخيال العلمي فظهر فلم «الشيء» عام ١٩٣٦ وفلم «٢٠ مليون ميل عن الأرض» عام ١٩٥٧ ثم فلم «آلة الزمن» اعتماداً على رواية ولز الشهيرة وقد أخرجه جورج بال عام ١٩٦١. وفي عام ١٩٦٨ أخرج ستانلي كوبريك فلمه الشهير «٢٠٠١ أدوية الفضاء» الذي تميز بوصفه أفضل فلم علمي خيالي أُنتج في الستينات.

وتتابعت الأفلام فظهر «حرب النجوم» Star Warsلجورج لوكاس الذي تحدث عن احتمال حدوث حرب فضائية، بين الكائنات التي تسكن الكواكب، نتيجة للتطور السريع للعلوم والتكنولوجية، كما ظهر فلم «لقاء من النوع الثالث» الذي يتحدث عن طبق طائر هبط في منطقة من الأرض وأجرى لقاء مباشراً مع سكانها، كما تحدث فلم «سولاريس» لأندريه تاركوفسكي عن المشاكل البيولوجية والنفسية التي يمكن أن تحدث لرواد الفضاء.

أما فلم «أصداء من الفضاء» لريتشارد فيكتوريف، وهو من جزأين، فيتحدث عن رحلة فضائية كبرى يقوم بها رواد فضاء شبان صغار مدربون، يتعرضون لمشاكل في اختراقهم الفضاء، وهم يتجهون نحو كوكب في مجموعة «ذات الكرسي» ليساعدوا سكانه في حل المشاكل الخطرة التي يعانون منها.

أما فلم «E.T.» لسبيلبرغ فيتحدث عن مخلوق هبط من الفضاء إلى الأرض يعلم الناس الحب والتسامح والسلام، على الرغم من منظره البشع.

وتتابعت أفلام الخيال العلمي حتى أصبحت توجهاً جديداً في الإنتاج، بعد أن كانت محدودة، قبل أن يغزو الإنسان الفضاء ويهبط على القمر عام ١٩٦٩.

انتقلت العدوى إلى التلفزيون، إذ تنافست شركات الإنتاج في إنتاج مسلسلات تتحدث عن رحلات فضائية إلى عوالم بعيدة، مثل «الغزاة» و«الفضاء عام ١٩٩٩» و«مركبة النجوم» Star Trek وأغلبها من إنتاج أمريكي بسبب تنافس شركات الإنتاج الأمريكية ضمن هذا التوجه الجديد في رحلات خيالية تشد الناس إلى المستقبل، فينتقلون بأحلامهم إلى عوالم غامضة مجهولة في حكايات قد تبدو خرافية.

وقد نشطت فعاليات الخيال العلمي حتى في الصحافة إذ تنافس الكتاب في نشر القصص والروايات المسلسلة في مجلات متخصصة حتى أن بعض المجلات العلمية اختصت بالخيال العلمي مثل المجلة الأمريكية «مجلة الخيال وقصص الخيال العلمي» Magazine of Fantasy and Science Fiction.

أدب الخيال العلمي عند العرب

هل عرف العرب الخيال العلمي من قبل؟ قد لا يخطر هذا السؤال على بال الكثيرين من الناس، ربما للمسافة الزمنية التي تفصلنا عن الحضارة العربية التي بلغت أوجها في القرن العاشر الميلادي.

والجواب عن السؤال يبدو صعباً لأن الخيال العلمي لم يكن معروفاً عند الناس بهذه التسمية المحدودة. ولو تمت العودة للتاريخ في محاولة سبر الإبداعات في الأدب على اختلاف توجهاته لتبين أن أسطورة «حي بن يقظان» لابن طفيل قريبة من الأدب الذي عُرف منذ أواخر القرن التاسع عشر باسم أدب الخيال العلمي. لأن هذه القصة الأسطورة تحوي مقومات الخيال العلمي بصورة واضحة وتتحدث عن عملية التكوين الإنساني والخلق والمؤثرات الطبيعية، وترسم شكلاً واضحاً لحياة نشأت مع الطبيعة من دون مؤثرات بشرية بصورة غنية بالخيال العلمي.

ولم يعرف العرب حديثاً أدب الخيال العلمي إلا في الستينات حينما نشر مصطفى محمود روايته «العنكبوت» ثم روايته «رجل تحت الصفر» وقد غلب على الأولى الأسلوب الغيبي إذ مزج الكاتب فيها بين القضايا العلمية وقضية تقمص الأرواح. أما الثانية «رجل تحت الصفر» فتمثل عالم القرن الحادي والعشرين عندما تصبح وسيلة النقل فيه صاروخاً يضيّق الفوارق بين البلدان والمدن والأقاليم، وتسهم كل أمة بقسطها في إغناء الحضارة الإنسانية ويكون الحب هوائياً يكافح القوى المجهولة من حقد وحسد وبغضاء.

وظهرت في السبعينات محاولات أخرى لنهاد شريف في «قاهر الزمن» وهي رواية تتحدث عن فكرة السُّبات عند الإنسان بتجميد جسده لسنوات ثم إحيائه، وقد تحولت إلى فلم سينمائي من إخراج كمال الشيخ، ثم مجموعة قصص بعنوان «رقم ٤ يأمركم» وهي تلفت النظر بسعة خيال كاتبها ومدى فهمه الدقيق لتطور العلوم، مع أنه يحمل إجازة في التاريخ. يتحدث نهاد شريف في قصصه عن الإنسان الآلي وإمكانية سيطرته في المستقبل إلى أن يطرد البشر ليستقل بنفسه في إدارة المصانع والآلات، ويتخيل الكاتب أن بوادر الانقراض بدأت تهدد الإنسان الآلي إذ بدأت العاطفة بالتحكم فيه. ويتحدث عن كائنات المريخ العاقلة التي تحذر البشر من خطر تكديس السلاح النووي ومن تمكن العلماء العرب من الوصول إلى كوكب المشتري حيث يقع الرواد في أسر كائنات هلامية، كما يرصد في تلك المجموعة عالم المستقبل الحافل بالمفاجآت العلمية.

وقد ظهرت لنهاد شريف رواية «مردة المجال الثاني» وظهرت محاولات في قصة الخيال العلمي للكاتب رؤوف وصفي. ولطالب عمران عدة قصص من الخيال العلمي، بينها ما هو للأطفال مثل «كوكب الأحلام» (١٩٧٨) و«محطة الفضاء»، وبينها ما هو للكبار مثل «العابرون خلف الشمس» (١٩٧٩) و«ليس

في القمر فقراء» (١٩٨٣) و«خلف حاجز الزمن» (١٩٨٥).

وكما في العالم، نشط المتطفلون على هذا النوع من الأدب في الوطن العربي أيضاً، وقد رأوا فيه مرتعاً لخيالاتهم التي لاتستند إلى أسس علمية، وأخذ بعضهم يدعي انفراده بكتابة مثل هذا النوع من الأدب (مع افتقاره إلى الثقافة العلمية). وكتب بعضهم عن رحلة لمحطة تنجح في الهبوط على كوكب المشتري، وهو كوكب سائل غازي، كما تهبط فوق حلقات كوكب زحل وهي حلقات شفافة تتكون من جسيمات متباعدة وأتربة وحبات برد. وأطلق بعضهم مصعداً خرج من الطابق العاشر في بناية بعشرة طوابق وهبط فوق القمر، كما حلقت فقاعة صابون في داخلها طفلة، فوق الأرض لمسافات كبيرة.

مستقبل أدب الخيال العلمي

لقد اتسع انتشار أدب الخيال العلمي في العالم، وأصبح يفرض نفسه على النماذج الأدبية الجديدة، وهو يعتمد العلم محوراً فاعلاً في أحداثه وأبطاله، ويلجأ بعض الكتاب المتميزين في فن القصة والرواية إلى الاستعانة بالعلماء لكتابة رواية أو قصة من الأدب العلمي، حتى لا يساء إلى هذا الأدب وحتى يتميز العمل الأدبي بمنطقيته العلمية الضرورية.

كما توجه الخيال العلمي مؤخراً إلى الأطفال إذ تخصص بعض الكتاب بكتابة أدب الخيال العلمي الموجه للطفل. وقصة الخيال العلمي قد تكون البديل الحقيقي لكل هذا الركام المطروح على الطفل بطريقة فجة لإدخال العلم بقوالب جامدة إلى رأسه الذي لايتقبل حشر المعلومات العلمية مما قد يؤدي إلى انصرافه عن العلم أو إلى عدم الاهتمام به. والعلم، كما هو معروف، هو لغة العصر، والدور الحضاري لأية أمة من الأمم لا يكون إلا بالعلم وإبداعاته في مختلف جوانب الحياة.

طالب عمران

الموضوعات ذات الصلة:

الاجناس الادبية ـ الرواية ـ القصة القصيرة ـ القصص الخيالية.

مراجع للاستزادة:

ـ جان غاتينيو، أدب الخيال العلمي، ترجمة ميشيل خوري (دار طلاس، دمشق ١٩٩٠).
ـ طالب عمران، في العلم والخيال العلمي (دمشق، منشورات وزارة الثقافة ١٩٨٩).
ـ طالب عمران، العالم من حولنا (دمشق، منشورات وزارة الثقافة ١٩٧٦).

■ الأدب الشعبي

الأدب الشعبي folk literature، أو التراث الشعبي، فرع مهم من فروع المعرفة الإنسانية ولد في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ليعنى بمظاهر الحضارة لشعب من الشعوب. وبسبب تعدد المعايير التي يُنطلق منها في النظر إلى طبيعته ووظيفته ومجالاته، فإن تعريفاته التي يقع عليها المرء يلفها نوع من الغموض والاضطراب. وإلى جانب المعايير الثقافية cultural criteria التي تؤكد أن الفولكلور هو التراث الشفوي oral tradition ليس غير؛ ثمة معايير اجتماعية sociological criteria تُدخل ضمن هذا الحقل المعرفي كل ما ينتمي إلى حياة الطبقات الريفية وثقافتها؛ ومعايير نفسية ـ اجتماعية psycho-sociological criteria تنطلق في تعريف مصطلح «شعبي» من معطيات نفسية ـ اجتماعية، فالحياة الشعبية والثقافة الشعبية، تبعاً لهذه المعايير، توجد دائماً حيث يخضع الإنسان، بوصفه حاملاً للثقافة، في تفكيره أو شعوره أو تصرفاته لسلطة المجتمع والتراث؛ والمعايير الإثنولوجية ethnological criteria التي ترى أن الفولكلور هو المعرفة التي تنتقل اجتماعياً من الأب إلى الابن، ومن الجار إلى جاره، وتستبعد المعرفة المكتسبة عقلياً، سواء أكانت محصَّلَة بالجهود الفردي، أم بالمعرفة المنظمة والموثقة والتي تكتسب داخل المؤسسات الرسمية كالمدارس، والمعاهد، والجامعات، والأكاديميات وما إليها.

وميادين دراسة الفولكلور عديدة أهمها العادات والمعتقدات والمعارف والفنون الشعبية فضلاً عن الثقافة المادية والأدب الشعبي الذي يقع في مكان القلب من هذه الدراسة. فالأدب الشعبي ليس واحداً من أبرز موضوعات الفولكلور، وأكثرها عراقة وحسب، وليس الأكثر حظاً في استقطابه للبحوث والدراسات من غيره من الميادين فقط، بل إن علم الفولكلور كان في مرحلة من مراحل تطوره يقوم أولاً وأخيراً على دراسة الأدب الشعبي كذلك، وكثيراً ما يستخدم مصطلح «فولكلور» للإشارة إليه، ويستعمل مرادفاً له. ذلك أن كلمة «lore» تعني المعرفة والمعتقدات التقليدية، والأدب الشعبي بهذا المعنى هو المعرفة والمعتقدات التقليدية للحضارات التي ليس لها لغة مدونة، والتي تتناقل من جيل إلى جيل بالطريقة الشفوية. وهذه المعرفة، مثلها مثل الأدب المدون، تتألف من أنواع السرد النثري والشعري، والقصائد، والأغاني، والأساطير، والمسرحيات، والطقوس، والألغاز وغيرها. وقد عرفتها الشعوب كلها تقريباً، وهذا أمر طبيعي إذا ما تذكر المرء أن الآداب جميعها كانت شفوية حتى الألف الرابع قبل الميلاد تقريباً، عندما طُوّرت الكتابة في مملكتي مصر وسومر واستخدمت لتسجيل الآداب والمسائل العملية المتصلة بالقانون والتجارة وغيرهما. ومع ذلك فقد وجد إلى جانب هذا السجل المدوّن، نشاط واسع ومهم، قام به أناس غير متعلمين، أو لم يألفوا كثيراً القراءة والكتابة، كانت حصيلته مادة غنية واسعة تُنوقلت شفاهاً، واستجابت لحاجات إنسانية مختلفة تباينت بتباين العصور والشعوب، هي ما يسمى اليوم بالأدب الشعبي.

أصول الأدب الشعبي وتطوره

قد يكون من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الحديث حديثاً متماسكاً عن أصول الأدب الشعبي، أو تطوره، لأن كل مجموعة بشرية، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، تناولت أدبها الشعبي بطريقتها الخاصة. والأدب الشعبي عامة يمثل تاريخاً من التغير الدائم لأنه يقوم على الرواية الشفوية، وبالتالي فإن درجة براعة الراوية، فضلاً عن المؤثرات المادية والاجتماعية، تمارس دوراً مهماً في تطور هذا التقليد الشفوي. وهناك بعد ذلك المتلقي لهذا التقليد الشفوي الذي تكون له عادة اهتماماته وحاجاته وظروفه التي تحفز بوجه أو بآخر عملية إنتاج الأدب الشعبي في أي مجتمع من المجتمعات.

وإضافة إلى تأثير الراوية والمتلقي والظروف الاجتماعية والمادية في الأدب الشعبي، هناك

التفاعل المستمر بين الأدبين الشفوي والمدون. فمؤلفو الأدب المدون غالباً ما كانوا يستعيرون منذ العصور الكلاسيكية حكايات ومُتَخَلَّلات motifs وموضوعات themes وتقنيات من الأدب الشعبي الذي تنامى تأثيره في الأدب المدون بدءاً من عصر النهضة، وبلغ الذروة في الحقبة الرومنسية. ولكن الأدب المدوّن للطبقة العليا أثر بدوره في الأدب الشفوي، بل إن بعضه قد دُمج في التراث الشعبي كما هو الشأن في الرواية الفروسية وقصائد التروبادور الغنائية. وفضلاً عما تقدم فإن البلادات Ballads الشعبية، وقصص الحوريات، والأساطير، ذات أصل متأخر ومستمدة في الغالب من أدب الطبقة العليا، على الرغم من أن رأياً كهذا ربما لا يروق الرومنسيين المؤمنين بعراقة الأدب الشعبي على حد تعبير رينيه ويليك.

ومع أن أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة، فضلاً عن الكتاب، قد حلّت محل الأدب الشعبي في تلبيتها كثيراً من الحاجات الاجتماعية والثقافية والنفسية والتربوية التي كان يلبيها، فإن من المؤكد أن السينما والتلفزيون في العصر الحديث قد أسهما في تقديم الأدب الشعبي لمختلف طبقات المجتمع وفي نشره بينها. ولكن ليس بوسع المرء أن يُغفل في هذا السياق ما يمكن أن يكون قد خضع له الأدب الشعبي من الأعراف والقوانين والمقاييس والمعايير السائدة في الأدب المدون. ومع ذلك فما زال للأدب الشعبي مكانته لدى المسنين في مختلف المجتمعات، ولدى المهاجرين، وأفراد الأقليات التي تستخدمه للحفاظ على هويتها الثقافية المميزة، ينقله الأجداد والآباء للأبناء الذين يقومون بنقله وحفظه كما يفعل القصاصون تماماً. وسيبقى الأدب الشعبي، فيما يبدو، وسيلة التعبير الأدبية الأكثر أُلفةً وقرباً من النفس لغير المتعلمين في مختلف الأماكن والعصور.

خصائص الأدب الشعبي

ربما كان من أهم خصائص الأدب الشعبي أنه أدب شفوي، فهو معني بالحديث والغناء والسماع، ويعتمد على ثقافة حية تعنى به وتقوم بحمله ونقله من جيل إلى جيل، وعندما يضيع من الذاكرة يفقد تماماً، على نقيض الأدب المدون الذي يسهل حفظه ونقله وتذوق كل جوانبه فيما بعد على اختلاف العصور والأمكنة.

والمتحدث أو المغني أو الراوي شخص يحمل تراثاً تعلّمه من آخرين، وينقله إلى جمهور حي ربما سمعه من غيره أكثر من مرة، ولذلك فإنه مقيد بهذا الجمهور، وملتزم توقعاته إلى حد بعيد، وهو لذلك يكرر مادته ما دامت تروق الجمهور على الرغم من اختلاف الزمان والمكان. ومع أن أي شخص يمكن أن يقوم بهذا الدور، فإن بعض المجتمعات تسنده إلى فئة خاصة منها تنقله بمهارة عالية وتُجزى على نقلها هذا بصور شتى. ولربما يفخر بعض أفراد هذه الفئة من النَقَلَة أو رواة الأدب الشعبي بدقتهم الشديدة في النقل، ولربما يملك بعضهم ذاكرة قوية حقاً، كما أن هناك من يتعامل مع مادته تعامل المحترف، ولكن تقليد الأدب الشعبي يبقى تقليداً يعتمد على الذاكرة، وهذه نقطة ضعف بيّنة فيه بسبب النسيان أو الإضافات أو الاستبدالات المقصودة وغير المقصودة التي يتعرض لها، مما يجعل مادته دائماً في طور التشكل الذي لا يكاد ينتهي، فهي لا تستقر على شكل محدد، ولاسيما أن الرواة أنفسهم ربما يفكرون في إدخال ما يعتقدون أنه تحسينات على المادة المنقولة. وما دامت هذه التحسينات تظفر باستحسان المتلقي فليس ثمة ما يمنع من قبولها وانتشارها ومن ثمَّ نقلها إلى الأجيال الأخرى في أشكالها المعدَّلة. ولكن المرء من ناحية أخرى ينبغي أن يشير إلى أن بعض المغنين، أو الشعراء الجوالين، قد يطورون تقنيات خاصة في أدائهم لمادتهم الملحمية أو حكاياتهم البطولية، وربما يصاحبها عزف خاص على آلات معينة، مما يساعد على خلق أشكال فنية تُقَدِّم حوافز فعالةً على حفظها ونقلها من جيل إلى آخر بأمانة ودقة تسموان نحو الكمال باستمرار. وثمة كذلك تقاليد شفوية تؤدى على نحو شعائري بدقة فائقة يحرص عليها الراوي أو الناقل والمتلقي لاعتقادهما بأن تأثيرها منوط بهذه الدقة، وإيمانهما بها إيماناً غيبياً.

ولكن شفوية الأدب الشعبي التي تميزه من الأدب المدون لا تعني انقطاعه التام عن غيره من النشاطات الإنسانية الأخرى بما فيها الأدب المدون نفسه الذي يشترك معه في كثير من الأجناس والتقنيات والأشكال الإنشائية فضلاً عن الموضوعات. ومع ذلك فإن صلته الأقوى هي صلته بالتراث الشعبي، فهو جزء لا يتجزأ من هذا التراث الذي يشمل فيما يشمله العادات والمعتقدات ومظاهر السلوك الشعائري، وأنواع الرقص والموسيقى الشعبية [ر]، ومظاهر أخرى من الثقافة الشفوية. وهذه جميعاً تدرس ضمن حقل معرفي محدد بات يشار إليه اليوم بالإثنولوجية ethnology (علم دراسة الإنسان بوصفه كائناً ثقافياً، أو الدراسة المقارنة للثقافة، أو ذلك القسم من الأنثربولوجية المختص بتحليل المادة الثقافية وتفسيرها تفسيراً منهجياً) ولكنها تظل من شأن دارس التراث الشعبي أو المتخصص بالفولكلور folklorist.

وفضلاً عن صلة الأدب الشعبي بالتراث الشعبي هناك علاقته بالأساطير، وهو أمر تؤكده دلائل وفيرة في مختلف الثقافات القديمة كاليونانية والهندية، وثقافة وادي الرافدين ووادي النيل، والثقافة الهندية ـ الأمريكية، والإيرلندية. وأكثر من هذا فإن الأساطير غالباً ما ينظر إليها على أنها جزء من الأدب الشعبي. ولاشك أن نَقَلَة هذا الأدب يمارسون تأثيراً مهماً في التحولات التي تطرأ عليها من خلال عملية النقل والرواية ذاتها.

تقنيات الأدب الشعبي

الأدب الشعبي أدب شفوي يعتمد بقاؤه على استمراره حياً في أذهان الناس، وهو لذلك معنيّ دائماً بمساعدة الذاكرة الإنسانية على حفظه بتقنيات مختلفة من أهمها ما يلي:

التكرار: وهو لا يقتصر على الأغنية الشعبية، بل يشمل الخرافة والحكاية اللتين كثيراً ما يتكرر المشهد فيهما من دون تغيير، أو ربما مع تغيير طفيف. فعلى سبيل المثال كثيراً ما توصف مواجهات البطل المتتابعة لأعدائه وخصومه على نحو متشابه يتنامى إلى ذروة تُحل في تغلب البطل عليهم وانتصار ما يمثله عند شعبه من قيم ومثل ومبادىء. وغالباً ما تساعد هذه المقاطع منشد الخرافة أو الراوي أو المغني على التوسع في عرضه وفق ما يرغب.

استخدام الصيغ التعبيرية الجاهزة: من أمثال «كان يا ماكان» أو «عاشوا في سبات ونبات وخلفوا الصبيان والبنات» وغيرهما، لأنها تشكل مرتكزات للتواصل ما بين الراوي والمتلقي.

الارتجال مع الاحتفاظ بالبنى العامة للمادة المنقولة: إذ يجتمع، على سبيل المثال، نمط سردي أساسي وحرية للمادة المسرودة ضمن

حدود التقاليد المرعية. وربما كان هذا وراء التشابه في البنية العامة لكثير من الحكايات الشعبية في عدد كبير من التقاليد الشفوية.

استخدام التفاصيل الواقعية المستمدة من البيئة الخاصة بالراوي أو المتلقي: مما يساعد خيال هذا الأخير على استيعاب عالم الخرافة أو الحكاية الشعبية، ويضفي على هذا العالم مصداقية مرغوباً فيها. وربما يسهم في تعليق الحدث أو السمو به على الرغم من كونه عادياً. ولكن ذلك لايلغي بالطبع حقيقة أن جلّ الأدب الشعبي تخييل fiction وأن معظم ما يضمه من حوادث غير واقعي.

الحفز: والحفز motivation هو ربط الحوادث المسرودة بعُقد محكمة البناء تسوغ تتابعها على نحو معين، وهو شرط مهم لشعور التوحد مع شخصيات الحكاية الشعبية أو الخرافة الذي يراد له أن يغرس في نفس المتلقي، إلا أنه أحياناً يُتَجاوز من دون كبير تأثير في بعض الأشكال التعبيرية كالخرافة في بعض التقاليد الشفوية.

تجليات إقليمية وعرقية

الأدب الشعبي أدب لصيق بالمجموعة البشرية التي تتخذه سجلاً شفوياً لها، وهو لذلك متنوع تنوعاً هائلاً في السمات التي تتصل بشكله ومادته لاختلاف اهتمامات الناس بين ثقافة وأخرى. ففي حين تفضل بعض الشعوب الأغاني الشعبية تروق لبعضها الآخر الحكايات الشعبية والخرافات. وهذا الاختلاف مَرَدُّه إلى الاختلاف الجغرافي الذي يترك بصماته واضحة على المجموعة البشرية ولا سيما عندما ترتبط بمكان ما لحقبة طويلة من الزمن. ولاشك أن للظروف الطبيعية المحيطة التي تعيش فيها هذه المجموعة (سواء أكانت جزيرة، أم غابة، أم سهلاً، أم جبلاً، أم صحراء، أم أرضاً خصبة)، وللمفاهيم الدينية، ولرؤية العالم الخاصة بها، ولاستقرارها وانتقالها، تأثيرات مهمة تتجلى بوجه خاص في أدبها الشعبي مشيرة إلى أبعاد إقليمية وعرقية في حياتها، وتكون سبباً في تنوّع غني وخلاّق ومثير في شكل هذا الأدب ومضمونه وتقنياته وموضوعاته.

أشكال الأدب الشعبي الرئيسية

الأغنية الشعبية folk song: وهي شكل تعبيري شائع في معظم الثقافات، يستخدم الكلمة والموسيقى في آن معاً، على الرغم من أن أهمية الكلمة قد تكون محدودة في بعض المناطق، وعندها تستخدم لدعم الموسيقى فقط. ولربما كانت في بعض الأحيان مجرد مقاطع أحادية لا معنى لها ترافق الصوت أو الآلة الموسيقية، وتعاد مراراً.

ويستخدم الطبل غالباً، أو التصفيق، أو الضرب بالقدم، أو القيثارة، لتوفير الإيقاع اللازم لها، في حين يستخدم الناي أو آلات النفخ الأخرى لتوفير اللحن.

وتوظف الأغنية الشعبية عادة للإثارة في الحرب، أو الحب، أو الشعائر الدينية أو المواسم الدنيوية، لأنها تعبر عن العواطف المشتركة للجماعة، أو تعمل على تخفيف عبء العمل الجماعي. وقد تستخدم لأغراض تتصل بالسحر، أو ذات طابع سحري، كمحاولة هزيمة الأعداء، أو جذب الأحباب، أو طلب العون من قوى فوق طبيعية. كذلك فإنها تستخدم للمتعة غناءً أو سماعاً ولكنها مع ذلك تبقى للتعبير عن عواطف وأفكار مشتركة.

وثمة نوع خاص منها سردي يقتصر وجوده على بعض الثقافات في أوربة الغربية وآسيا، وهو يشمل أغنيات الحرب والمغامرة والحياة اليومية.

البلادا ballad: وهو شكل تعبيري نشأ في أوربة في العصور الوسطى واستمر حتى العصر الراهن، ويكاد يكون مقصوراً على الأوربيين الذين حملوه حيثما رحلوا. ولهذا التقليد الخاص بالحكايات التي تروى غناءً أشكال عروضية، وأنماط موسيقية خاصة. أما موضوعاته فتدور حول الصراعات الحربية، والكوارث، والجريمة والعقاب، والأبطال والخارجين عن القانون، والفكاهة أحياناً.

المسرحية الشعبية folk drama: وهي شكل تعبيري يتصل بالأدب الشعبي من بعيد. ذلك أن المسرحية الشعبية غالباً ما تقوم على رقصات، بعضها بدائي بسيط، وبعضها الآخر متطور جداً، وتُرتدى فيها الأقنعة التي تمثل حيوانات معينة، أو شخصيات بشرية، وتتضمن أحاديث أو أغنيات. وعلى الرغم من أن العمل والمحاكاة الدرامية من أبرز عناصر المسرحية الشعبية، فإنها قد تشتمل على قراءات أو غناء لنصوص مقدسة، وربما تكون جزءاً من شعائر دينية أو تقاليد دنيوية.

الحكاية الرمزية fable: وهي شكل تعبيري ذو أصل أدبي وله تأثير واسع في الأدب الشعبي. وتتخذ الحكاية الرمزية عادة شكل حكاية خيالية ترمي إلى إبراز مغزى خلقي في الغالب. يوضع على ألسنة الحيوانات التي تتصرف فيها على طبيعتها الحقيقية (حكايات إيسوب Aesop) أو على شاكلة الناس (حكايات كليلة ودمنة). وعلى الرغم من أنها تُتَناقل في بعض الأماكن شفوياً في معظم الأحيان، فإن أصلها الأدبي يجعل من الصعب تمييزها من أشكال الأدب المدون الأخرى.

الحكاية الشعبية folktale: وهي شكل تعبيري شائع شيوعاً واسعاً في كل الأزمنة والأمكنة، يكون بعضها بسيطاً، وبعضها الآخر معقداًجداً، إلا أن ثمة نسقاً واحداً مشتركاً فيما بينها يتمثل في وجود الراوي والجمهور دائماً.

وعلى خلاف الخرافة legend، تمنح الحكاية الشعبية راويها حرية مطلقة تقريباً فيما يتصل بمصداقيتها مادام يتحرك ضمن حدود المحرمات الخاصة بجمهوره ويمتعه في آن معاً. وتنتقل عادة بيسر وسهولة من راو إلى آخر، لأنها لا تتميز بشكلها اللفظي بمقدار ما تتميز بنسقها الأساسي ومُتخلَّلاتها السردية، ولذلك فإنها تتخطى في كثير من الأحيان الحدود اللغوية والثقافية ولا سيما عندما تسهل الحركة ويتيسر التنقل أمام رواتها وجمهورهم كما في العصر الراهن.

وربما كان من أهم ما يميز موضوعات الحكاية الشعبية، التي لا تختلف كثيراً عن الأساطير myths في المجتمعات التي لا تعرف القراءة والكتابة، أنها تفترض خلفية معينة من المعتقدات والأفكار المتصلة بالأصول القبلية وصلات الناس بالآلهة. وتوضع غالباً على ألسنة الحيوانات وتدور عادة حول المغامرات والعجائب والرحلات إلى العالم الآخر، وعلاقات الزواج والصلات الجنسية بالحيوانات أحياناً.

والحكاية الشعبية مجهولة المؤلف الذي نُسي منذ زمن بعيد، ولها روايات كثيرة كلها صالحة ومقبولة لدى الجمهور، أي إنها في حالة تغير مستمر. ومع ذلك فإن لها بنية أساسية للعقدة يمكن تمييزها بسهولة، وتمكّن دراستها وتتبع رواياتها المختلفة، ورحلاتها في الزمان والمكان.

الخرافة: وهي شكل تعبيري يختلف عن سابقه التخييلي البحت بأنه قابل التصديق ومقبول اعتقاداً من دون كبير تفكير فيه. وهو يتناول عادة مخلوقات شبه إلهية تظهر على شكل حيوانات أو طيور، مثلما تتخذ مظهر

البشر. وعلى الرغم من كونها عجيبة في مظهرها وسلوكها إلا أن ثمة اعتقاداً واسعاً بوجودها، ولربما وجدت بعض الروايات التي تتحدث عن الالتقاء بها، وعما يتعرض له من يلتقيها من مغامرات سعيدة أو عصيبة. وغالباً ما تصور هذه المخلوقات شبه الإلهية على أنها تحرس كنوزاً هائلة، يتم استخلاصها بعد التغلب عليها.

وإلى جانب هذه المخلوقات، هناك مخلوقات فوق طبيعية كالخيول الطائرة، والحيوانات الناطقة والحوريات والساحرات اللواتي يتخذن مظاهر مختلفة، ويتفاوتن في سلوكهن بين إسداء العون لمن يلتقي بهن، وإلحاق الأذى به، والمخلوقات الأخرى التي يصعب تصنيفها أو تعريفها، مثلما يصعب تصور هيئاتها.

وتدور بعض الخرافات حول الأشباح والمبعوثين من قبورهم، وذلك استناداً إلى الاعتقاد الشعبي بعودة الأموات الذي ربما تعززه بعض الأفكار الدينية. وقد يكون من المفارقة حقاً أن هذا الاعتقاد ظل حيّاً أكثر من غيره بين الأوساط الشعبية. كما يدور بعضها الآخر حول الشخصيات التاريخية كالملك آرثر، أو عنترة.

الأمثال، والألغاز، وعبارات السحر: وهي أشكال تعبيرية تتميز بالقصر قياساً إلى الأشكال السابقة، وبعضها مدون منذ عهد بعيد. فأما الأمثال فهي عبارات محكمة تختصر قصة يكون المثل قفلاً تختتم به القصة أحياناً. وتتناول طبيعة الحياة الإنسانية، ومظاهر السلوك الإنساني الإيجابية والسلبية. وتستخدم في المجتمعات القديمة في الغالب مقاييس للحكم على كثير من مواقف الحياة.

وأما الألغاز فهي أوصاف تُقدّم ويُطلب تحديد ما تشير إليه كما هو الشأن في لغز أبي الهول وسواه. وللأطفال دور مهم في إحيائها. وأما عبارات السحر فهي شائعة في معظم الآداب الشعبية وغالباً ما تستهدف الحصول على تأثيرات سحرية مرغوب فيها، أو التأثير في المستقبل سلباً أو إيجاباً.

دراسة الأدب الشعبي، وجمعه، وحفظه

الأدب الشعبي أدب شفوي، وهو لذلك عرضة لعوامل التغيير المختلفة، البشرية والطبيعية والمادية. ولأنه يُختزن في الذاكرة فهو مهدد بالضياع دوماً. ومادة مثل مادته التي تظل في حالة تغير مستمر لا يمكن أن تدرس من دون أن يحيط به سجل مدون يكون ملاذ الدارسين في تفحصها وتحليلها ومناقشتها والوصول إلى نتائج متماسكة حول طبيعتها ووظيفتها وتطورها وصلاتها بغيرها من ألوان الإنتاج الثقافي الإنساني.

والواقع أنه على الرغم من قدم الأدب الشعبي، فإنه لم يُبدأ بجمعه وتدوينه إلا منذ ما يقرب من ثلاثة قرون. وقد تطور هذا الجمع شكلاً ومضموناً ليبلغ ذروته في الحقبة الرومنسية التي ظفر فيها كل ما اتسم بصفة الشعبي باهتمام كبير سواء أكان موسيقى أم أدباً أم فناً أم غير ذلك. كما استطاعت التقنيات الحديثة المطورة في العقود الأخيرة من القرن العشرين أن تقدم خدمات جُلى في مجالات جمعه وتدوينه وتسجيله وتصنيفه وتحليله وتطبيق أحدث المناهج المتداخلة المعارف interdisciplinary في دراسته، فضلاً عن الدراسة البنيوية structural والسيميائية semiotic له. وكذلك فإن سجلات الأنثروبولوجيين والإثنولوجيين قدمت خدمات جليلة في هذا المجال وساعدت كثيراً على فهم الكثير مما يتصل بالأدب الشعبي من أطر ومسائل وقضايا. وكان للدراسات المتصلة بأسفار العهدين القديم والجديد، والملاحم القديمة، دور مهم في تقديم المشابهات والظروف والأطر العامة ـ الاجتماعية والثقافية والدينية وسواها ـ لدراسة هذا الأدب الذي كان حتى عهد قريب، خير مؤنس في رحلات البحر الطويلة، وفي معسكرات الجنود، وفي العمل الجماعي، وفي ليالي الشتاء الطويلة، وأثناء المسيرات الجماعية. وهو اليوم معين لا ينضب لأدب الأطفال والناشئين، ومصدر إلهام للكتاب والفنانين الذين تضيق أرواحهم ونفوسهم بمادية الحضارة المعاصرة وتقنياتها الدقيقة، وواحةٌ يفيء إليها الإنسان المعاصر يتلمس فيها خطى أجداده التي قادته إلى حيث هو اليوم، ومنحته هويته التي يهددها عالم اليوم الذي غدا قرية كونية.

عبد النبي اصطيف

الموضوعات ذات الصلة:

الأسطورة وعلم الأساطير ـ الفن الشعبي ـ الموسيقى الشعبية.

مراجع للاستزادة:

ـ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط٢ مزيدة ومنقحة (دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٤).

ـ محمد الجوهري، علم الفولكلور، الجزء الثاني ـ دراسة المعتقدات الشعبية (دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ١٩٨٨).

ـ نبيل جورج سلامة، التراث الشفوي في الشرق الأدنى ومنهجية حمايته (وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٦).

ـ أحمد رشدي صالح، فنون الأدب الشعبي، جزآن (دار الفكر، القاهرة ١٩٥٦).

■ الأدب العربي

الأدب العربي فن من الفنون الجميلة أداته الألفاظ، ولم يعرف لفظ الأدب بدلالته الفنية في العصر الجاهلي، وإنما كان له دلالتان: الأولى الدعوة إلى الطعام، وهي مبنية على الأصل اللغوي للفظ «الأدب»، وقد ورد في الشعر الجاهلي بهذه الدلالة، من ذلك قول الشاعر:

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى
لاترى الآدبَ فينا ينتقر

فالآدب هنا هو الذي يدعو القوم إلى طعامه، والدلالة الثانية: المعنى التهذيبي الخلقي، وهو رياضة النفس على الأخلاق الحميدة والسجايا الفاضلة، وقد جاء في حديث زواج أبي سفيان من هند بنت عتبة بن ربيعة قول عتبة في وصف أبي سفيان: «يؤدّب أهله ولا يؤدّبونه»، فأجابته بقولها: سآخذه بأدب البعل مع لزوم قبّتي وقلة تلفّتي».

فلما جاء الإسلام احتفظ لفظ «أدب» بهاتين الدلالتين، على أنه لم يرد في القرآن الكريم، وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وورد بهذه الدلالة في نصوص شعرية كثيرة منها قول أحد الشعراء:

كذاك أدبت حتى صار من خلقي
إني وجدت ملاك الشيمة الأدب

منذ العصر الأموي ظهرت طائفة من العلماء تعنى بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء والأشراف أطلق عليهم لفظ «المؤدبين» وبذلك أضيفت

دلالة ثالثة إلى لفظ الأدب وهي التعليم والتثقيف إضافة إلى التهذيب الخلقي.

ثم اتسعت دلالة هذا اللفظ فيما بعد لتعني «الأخذ من كل شيء بطرف» فلفظ الأدب صار يطلق على من يجيد طائفة من المعارف والثقافات، ولفظ «الأدب» يعني كل المعارف التي ينبغي أن يجيدها الأديب، وقد ألفت طائفة من الكتب تتناول الأدب بهذه الدلالة، مثل كتاب «أدب الكتاب »لابن درستويه، و«أدب الكاتب »لابن قتيبة ، وحسن بن سهل يعدد الآداب العشرة جامعاً فيها بين الرياضة والعلوم والفنون والآدب . على أنه ما لبث لفظ «أدب» أن استخدم بدلالته الفنية وأريد به «المأثور من النظم والنثر».

وتاريخ الأدب هو استقراء حياة هذا الفن القولي منذ نشأته، وبيان ما طرأ عليه من تطور في معانيه وخصائصه الفنية ورصد المؤثرات المختلفة في حياة هذا الفن، السياسية منها والاجتماعية والفكرية وغيرها.

وقد تأثر مؤرخو الأدب المحدثون بما جرى عليه مؤرخو الأدب في الغرب من تقسيم تاريخ الأدب إلى عصور، فقسموا تاريخ الأدب العربي إلى عصور، آخذين في حسبانهم الناحية الزمنية والعصور السياسية، ولم يراعوا الظواهر الفنية في هذا التقسيم ، فقسموا تاريخ الأدب العربي على النحو الآتي:

١ـ العصر الجاهلي، أو عصر ما قبل الإسلام، وهو يمتد على وجه التقريب من مطلع القرن الخامس الميلادي وينتهي بظهور الإسلام.

٢ـ عصر صدر الإسلام، ويبتدئ بظهور الإسلام وينتهي بمقتل علي بن أبي طالب سنة ٤٠ للهجرة.

٣ـ العصر الأموي، ويبتدئ بقيام الدولة الأموية سنة ٤٠هـ وينتهي بسقوطها سنة ١٣٢هـ.

٤ـ العصر العباسي، ويمتد من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى سقوط بغداد على يدي هولاكو التتري سنة ٦٥٦هـ.

وقد قسم مؤرخو الأدب العربي العصر العباسي أربعة أطوار تساير الأحداث السياسية على النحو الآتي:

الطور الأول، من سنة ١٣٢هـ حتى ٢٣٢هـ وهي السنة التي ولي فيها المتوكل.

الطور الثاني، من سنة ٢٣٢هـ حتى ٣٣٤هـ وهي السنة التي دخل فيها الديلم من بني بويه بغداد في أول خلافة المطيع.

الطور الثالث، من سنة ٣٣٤ هـ حتى ٤٤٧ هـ وهي السنة التي استولى فيها السلاجقة على بغداد.

الطور الرابع، من سنة ٤٤٧ هـ حتى ٦٥٦هـ.

٥ـ العصر الأندلسي ، ويمتد من سنة ١٣٨ هـ حتى سنة ٨٩٧ هـ وهي السنة التي انهار فيها حكم بني الأحمر في غرناطة.

وهو ينقسم إلى طورين:

الأول ـ طور الدولة الأموية (١٣٨ ـ ٤٢٨هـ)

الثاني ـ طور ملوك الطوائف ودولة المرابطين في الأندلس (٤٢٨ ـ ٨٩٧هـ)

٦ـ عصر الدول المتتابعة ، ويمتد من سنة ٦٥٦هـ حتى ١٢٢٠ هـ وهي السنة التي قامت فيها الأسرة العلوية في مصر.

٧ـ عصر النهضة الحديثة ، ويمتد من سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٥ م حتى العصر الحاضر.

وفي إمكان مؤرخي الأدب العربي تجزئة هذه العصور إلى حقب يتصل كل منها بحكم إحدى الدول ، فعصر الدول المتتابعة مثلاً يمكن أن يجزأ إلى عصر الأيوبيين ، وعصر المماليك وعصر العثمانيين.

وبديهي أن الظواهر الأدبية والخصائص الفنية لا ترتبط بالأحداث السياسية وحدها، لأن السياسة ليست المؤثر الوحيد في حياة الفن الأدبي.

وقد آثرنا الجري على هذا التقسيم في دراسة تاريخ الأدب العربي مجاراة لصنيع مؤرخي الأدب العربي المحدثين.

إحسان النص

■ الأدب في العصر الجاهلي

العصر الجاهلي أقدم العصور الأدبية ويسميه بعض الدارسين عصر ما قبل الإسلام. وهو عصر موغل في القِدَم، بَعيد العهد في الزمن والامتداد.

وموطن هذا الأدب العربي القديم هو الجزيرة العربية، أو شبه جزيرة العرب، ذات الصحارى الواسعة، والبِطاح الممتدّة، التي تحيط بها ـ أو تتخلّلها ـ جبال وهضاب مختلفة، منها ما يحاذي البحر الأحمر غرباً، ومنها ما يقع في اليمن جَنوباً. فضلاً عن هضبة نجد التي ترتفع ممتدةً في وسط الشمال، لتضمّ سلسلةً أخرى من الجبال.

وهذه المناطق جميعاً كانت في العصر الجاهلي ميادين لحروب وغزوات، ولأحداث سياسية، وظواهر اجتماعية وتجارية واقتصادية، أثّرت في الأدب الجاهلي، شعره ونثره.

وكلمة الجاهليّة يُراد بها الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام، وقد استُحدثت هذه الكلمة بنزول القرآن وأُطلقت على الزمن الذي كان قبل البعثة حتى فتح مكّة وإرساء قواعد الدولة الجديدة.

والمَلْحَظ في التسمية الحماسة بتحكيم العصبية والقوة، والجهل الذي يناقض الحلم والأناة ويفيد التسرّع إلى الشرّ، ومنه قول عمرو ابن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا
فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقد ارتدى هذا اللفظ لبوساً إسلامياً يفيد الانغماس في الضلال والبعد عن طريق الهداية إضافة إلى الدلالة السابقة.

وقد تطلق الكلمة مجازاً على جماعة الجاهلية وأنصارها، كما جاء في آية التنزيل ﴿ يظنّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظَنّ الجاهلية ﴾ (آل عمران ١٥٤).

فالكلمة قرآنية الاشتقاق. ومن أقوال ابن عباس: «سمعتُ أبي في الجاهلية يقول....» ومن ثم نَسبوا إليها فقالوا: «جاهلي»، في الشعراء والخطباء والحكماء.

الشعر الجاهلي

ومهما يكن من أمر، فقد ورثنا عن تلك الحقبة الجاهلية أدباً ناضجاً في لُغته وشعره ونثره، ولكن هذا الأدب الذي وصل إلينا لا يشْمل الحقبة كلها، قبل الإسلام، ذلك أننا لانملك نصوصاً مدونة عن مبدأ الشعر عند العرب، وعن تطوره حتى بلوغه المرحلة التي كان عليها عند ظهور الإسلام. والمعروف أن أقدم ما وصل إليه عِلْمنا من ذلك الشعر لا يرقى عهده إلى أكثر من قرنين عن الهجرة. وقد أشار الجاحظ إلى قضية قدم الشعر العربي فقال: وأما الشعر فحديثُ الميلادِ، صغير السنّ.. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له ـ إلى أن جاء الإسلام ـ خمسين ومئة عام. وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام.

ومن أقدم الشعراء الذين عرفنا أخبارهم ووصلتنا أشعارهم امرؤ القيس بن حجر الكندي، الذي يقال إنه أول من وقف بالديار

واستوقف، وبكى واستبكى. ولكنه هو نفسه يذكر شاعراً آخر أقدم منه، بكى الأطلال قبله، وهو ابن خذام، فيقول:

عُوجا على الطَّلل المُحيل، لعلنا
نبكي الديارَ كما بكى ابنُ خذامِ

ولم يكن بنو كلب بدْعاً في القبائل، فكل قبيلة ادّعت لشاعرها أنه الأول أو الأقدم: فامرؤ القيس في اليمانية، وعَبيد بن الأبرص في بني أسد، ومُهَلْهِل بن ربيعة في تغلب، وعَمرو بن قَميئة والمرقِّش الأكبر في بكر، وأبو دُواد في بني إياد. وهؤلاء جميعاً متقاربون في الزمن. ولم يعثر العلماء على شعرٍ قديم مدوّن بقلم جاهلي، وكل ما يُعرف من هذا الشعر مستمدّ من أفواه الرواة الذين كانوا يتناقلون الأشعار الجاهلية عن طريق الرواية والحفظ. وتعود أسباب ذلك إلى انتشار الأمية عند العرب، وقلّة وسائل التدوين والكتابة لديهم، إذ اقتصرت على الحجارة الرقيقة، والجلود، والعظام، وسعف النخيل، وما إليها. ومن ثَمّ كان المتعلّمون قلّةً بينهم.

وفي بعض الأشعار الجاهلية إشارات إلى وجود الكتابة ونقوشها، وهي تَرِدُ في مطاوي وصف الشعراء للأطلال والرسوم الدّارسة، كقول الأَخْنس بن شهاب التغلبيّ، مشبّهاً أطلال المحبوبة بالكتابة على الجِلْد الرقيق:

لابْنة حِطّانَ بنِ عوفٍ منازلٌ
كما رقّشَ العنوانَ في الرَّقِّ كاتبُهْ

على أن استعمال الكتابة يقتصر على شؤون من الحياة الاجتماعية والتجارية وما إليها، مما يكون ميدانه النثر، من دون الاتّكاء عليها في كتابة الشعر؛ لأن العرب كانوا يعتمدون في حفظ الأشعار على الرواية الشفوية، حتى في خطبهم ووصاياهم وأمثالهم، يُسعفهم في هذا الحفظ ذاكرة قوية تأنس بموسيقى الشعر وأوزانه، خاصةً، واعتادت ذلك حتى صارت سجيةً من سجاياهم، وطبيعة متأصلة فيهم، فضلاً عن حبّهم للشعر وعنايتهم الفائقة بروايته وتناقُله، لأنه ديوان مناقبهم، وسجلّ حياتهم وانتصاراتهم. ولم يكن لهم - كما يقول ابن رشيق - علْم أصحّ منه. فلا غَرْوَ أن يكون دعامَة السّامر عندهم، ومدارَ حلقات القوم لديهم، في مواسمهم وندواتهم. وقد أدى ذلك أيضاً إلى ظهور حلقات من الشعراء الرواة، الذين يأخذ بعضهم عن بعض، مما يمكن أن يسمى اليوم بالمدارس الشعرية، وأشهرها تلك التي تبدأ بأوس بن حجر، وعنه أخذ الشعرَ ورواه زهيرُ ابن أبي سُلمى. ولزهير راويتان: ابنه كعب، والحُطيئة. وكان هُدْبة بن الخَشْرم راوية الحُطيئة، وعن هُدْبة تلقّن الشعرَ ورواه جميلُ بن مَعْمَر، صاحبُ بُثينة، وراويةُ جميل هو كثيّر عَزّة، الذي يُعدّ آخر من اجتمع له الشعر والرواية.

و«لما جاء الإسلام شُغل العرب والمسلمون عن الشعر بالغزو والفتوح. ولما اطمأنّوا بالأمصار، واستقرّت دولتهم، راجعوا رواية الشعر - كما يقول ابن سلاّم - فلم يؤولوا إلى ديوانٍ مدوَّن، ولا كتابٍ مكتوب. وألْفَوْا ذلك وقد هَلَك من العرب مَن هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، وذهب عليهم منه كثير».

ومع ذلك، فقد نشطت رواية الشعر في القرن الهجري الأول، لأسباب مختلفة، ولازمها بعد قليلٍ نشاطُ حركة التدوين عامةً، ونشأت طبقة من الرواة الذين يتخذون رواية الشعر القديم عملاً لهم، إلى جانب رواية الأخبار عن الجاهلية وأيامها. وكان من نتائج ذلك وجود شعر مفتعل صنعه الرواة الوضّاعون، ونسبوه إلى شعراء جاهليين، سنداً لعصبيّة قبليّة، أو رَفْداً للقصص والأخبار، أو إذاعةً لنزعة شعوبية، أو إرهاصاً للبعثة النبوية.

وقد عُرف بالوضع من رواة الكوفة: خلف الأحمر، وحمّاد الراوية، كما اشتهر - إلى جانبهم - رواة ثقات من أهل البصرة والكوفة: كالمفضّل الضّبّي، والخليل بن أحمد الفَراهيدي، وأبي عَمرو بن العَلاء، والفرّاء، وابن سَلاّم، وغيرهم، ميّزوا الشعر الصحيح من الشعر الزائف، وكان في مقدمة هؤلاء ابن سلاّم الجُمَحيّ الذي عالج هذا الموضوع مفصَّلاً في طبقاته، ومما قاله: وليس يُشكل على أهل العلم زيادة الرواة، ولا ما وضَعوا، ولا ما وضَع المولَّدون. كما أن في كتاب «الأغاني» إشارات كثيرة إلى أشعار منحولة، وأخبار موضوعة، نصّ عليها أبو الفرج بعد أن تفحّص رواياتها، ورجع إلى دواوين الشعراء أنفسهم.

ومع كل هذه الجهود، وغيرها، التي حرص أصحابها على تنقية الشعر القديم من الشوائب الزائفة، وإيصاله إلينا صحيحاً موثّقاً، قام في العصر الحديث لفيف من المستشرقين والدارسين العرب يثيرون قضية النحل والانتحال في الشعر الجاهلي، ويشكّكون في صحة هذا الشعر، على تفاوت فيما بينهم، شططاً وتحاملاً، أو اعتدالاً وحياداً. وبلغ الأمر ذروته عند المستشرق الإنكليزي مرغليوث Margoliouth الذي نشر سنة ١٩٢٥م مقالةً له بعنوان «أصول الشعر العربي» أنكر فيها صحة الشعر الجاهلي جملةً، وأقام مذهبه هذا على مزاعم وتصورات متناقضة، جعلت بعض المستشرقين أنفسهم يردّون عليه ويفنّدون آراءه، ومنهم جيمس لايل Lyalle ناشر المفضليات.

وفي مصر قام طه حسين يحذو حذْو مرغليوث، حين نشر سنة ١٩٢٦ كتابه «في الشعر الجاهلي» وضمّنه آراء جريئة جعلت بعض العلماء والنقاد يردّون عليه: كالرافعي، ومحمد فريد وجدي، ومحمد الخضري، ومحمد لطفي جمعة، ومحمد الخضر حسين.

وأدّى ذلك إلى أن يعيد طه حسين النظر في كتابه، تعديلاً وحذفاً وزيادة، ويصدره في العام التالي ١٩٢٧ بعنوان آخر: «في الأدب الجاهلي» بعد أن ضمّ إليه بحث النثر الجاهلي، وأفاض في شرح نظريته وتطبيقاتها، ووقف عند أسباب الوضع والنحل في الشعر العربي، كما أوضح أسباب الشك في الشعر الجاهلي، ودوافعه، ولخّص ذلك بقوله: «إن الكثرة المطلقة - مما نسميه أدباً جاهلياً - ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم، أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين».

ولم يسلم - مع ذلك - كتاب طه حسين الثاني من النقد والتّفنيد. ومرّت السنوات بعد ذلك، ولم يُكتب لنظرية طه حسين وأمثاله القبول التام، وإن أيقظت الأذهان، ولفَتت الأنظار إلى ضرورة التثبت من صحة الشعر الجاهلي، بل صحة كل شعر، قبل روايته أو الاستشهاد به.

يضاف إلى ذلك ظهور كتب ودراسات جديدة زادت من توثيق الشعر الجاهلي، وتصحيح ما صحّ منه، ونوّهت بكثير من مصادره الأصيلة. وفي مقدمة هذه الكتب كتاب «مصادر الشعر الجاهلي» لناصر الدين الأسد. وقد وجد الباحثون المعاصرون بين أيديهم عدداً من مصادر الشعر الجاهلي التي جاءت عن طريق الرواة الأمناء الصادقين، الذين وقفوا جهودهم على التحري والتثبّت، ولم يخفَ عليهم وجود شعر جاهلي منحول كشفوا جانباً منه.

ولقد حازت آثار أولئك الرواة القبول والتقدير، وعُدّت مصادر أساسيةً للشعر الجاهلي. وأهم هذه الآثار:

- دواوين الشعراء القدماء، التي جُمعت في عصر التدوين: كزهير، والنابغة، وامرىء القيس.

- دواوين القبائل العربية: كديوان الهذليين، الذي لم يصل إلينا كاملاً.

- المجموعات الشعرية الموثوق بها: كالمعلقات وشروحها، والمفضليات، والأصمعيات، والنقائض وشروحها، والحماسات.

- كتب الأدب، واللغة، والنحو: كالبيان والتبيين، والحيوان، ومجالس ثعلب، وعيون الأخبار، والكامل، والأمالي. وكذلك بعض كتب المتأخرين التي احتفظت بكثير من الأشعار الجاهلية التي ضاعت أصولها: كخزانة الأدب، وشرح أبيات مغني اللبيب، وكلاهما للبغدادي، وشرح شواهد المغني للسيوطي.

- **الكتب النقدية البلاغية**: كالموشح، والصناعتين، والموازنة، والوساطة.

- كتب التراجم والطبقات: كمعجم الشعراء، والمؤتلف والمختلف، وطبقات ابن سلاّم، والشعر والشعراء، والأغاني.

فهذه المصادر وأمثالها، تجعل بين أيدينا مادةً وافرة للشعر الجاهلي، وهذه المادة غنيّة وكافية، لكي تهيئ للدارسين مجالاً واسعاً للبحث والتحليل والموازنة، في رحاب أغراض ذلك الشعر وفنونه المختلفة.

فنون الشعر الجاهلي وأغراضه: هذا الشعر، الذي قيل فيه إنه ديوان العرب، يُعدّ صورةً للبيئة التي نشأ فيها أصحابُه قبل الإسلام في كثير من جوانبها الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والمعرفيّة، والدينية، كما يعكس ذلك الشعر طائفةً من الجوانب النفسية، والمُثل الأخلاقية للعرب، من شجاعة وفروسية وفتوّة، ومن إكرام للضيف وإغاثة للصَّريخ وغير ذلك.

ومن ثَمّ تعدّدت أغراض الشعر الجاهلي وفنونه، فكان فيه غزل، ومدح، كما كان فيه فخر، ورثاء، وهجاء، فضلاً عن الحكمة والوصف.

ووجود هذه الفنون والأغراض في الشعر الجاهلي، لا يعني أن القصيدة منه كانت خالصةً دائماً لموضوع واحد، أو غرضٍ لا تحيد عنه، فقد تضمّ غرضين أو أكثر، ولكنها تُنسب إلى ما نُظمت من أجله، هجاءً، أو مدحاً، أو فخراً، وإن تخلّلتها موضوعات جانبية أخرى.

وأما أشهر الأغراض والفنون في الشعر الجاهلي فهي:

الغزل: يكاد الغزل يفوز بالنصيب الأوفى بين سائر الأغراض الأخرى، على تفاوت حظوظ الشعراء الجاهليين منه، ذلك أنه أعلق الفنون الشعرية بالأفئدة، وأقربها إلى النفوس، لما للمرأة من آثارٍ عميقة في حياة الرجل، وتغذية عواطفه وأحاسيسه، ومرافقته في حلّه وترحاله، وفي حربه وسلْمه، وزيارته لأحبّته وذوي قرباه، ووقوفه على أطلالهم بعد الرحيل والفراق.

وفي موضوع الغزل، تتردد عند النقّاد والدارسين، من قدماء ومعاصرين، أربعة ألفاظ تتقارب في مفهومها، وتتشابك في دلالاتها، وهي: الغزل، والتغزّل، والنسيب، والتشبيب.

وقد حاول بعضهم أن يبيّن الفروق المعنوية بينها، ولكنهم لم يصلوا إلى القول الفَصل في ذلك.

ومن أبرز سمات الغزل عند الجاهليين، ظاهرة التعلق بالمرأة، والسعي إلى مودتها، ووصف مفاتنها الجسدية. وإمام الشعراء في ذلك هو امرؤ القيس، الذي قضى شبابه في اللهو والشراب، وأصاب من الغزل والمرأة ما جعله السابق المجلّي في هذا المضمار. وأشعاره، ولاسيما معلقته، صُوَرٌ وحكايات لما كان بينه وبين النساء.

وكذلك ثمة جانب من هذا المذهب الحسي، في الحديث إلى المرأة وفي وصفها عند شعراء آخرين كالأعشى والنابغة الذبياني. ويمكن الخروج من قراءة أشعارهم الغزلية إلى جملةٍ من المقاييس التي كانوا يعتدّون بها في تقويم الجمال، والمفاتن الجسدية: فالمرأة تشبَّه بالدرّة الصدفيّة حيناً، والدّمية المرمرية حيناً آخر. وأصابعها لينة كالعَنَم، ولونها المفضّل هو البياض، وخَصْرها ضامر نحيل، بخلاف رِدْفها الذي يُستحسن أن يكون ثقيلاً مكتنزاً وساقيها اللتين يُستحبّ أن تكونا ممتلئتين، والشَّعر طويل فاحم، والأسنان بيضاء نقية، والمشية هيّنة مترسّلة.

وقد ينصرف الشاعر في غزله إلى التغني بفضائل المرأة وذكْر مناقبها وكريم سجاياها، وعفّتها، ولاسيما عند وقوفه على الأطلال، توخياً لتهيئة الأذهان وشدّ الأسماع قبل الوصول إلى غرضه الأساسي.

أما تصوير الشاعر الغَزِل لما يقاسيه من تباريح الصبابة، وما يعانيه من عذاب مقيم، وآلام مبرّحة، وهُيام طاغٍ، فهذا كلّه منبثّ في أشعار المتيّمين من الجاهليين الذين قضوا حياتهم يعانون ألم النوى، ويقضون الليل ساهرين أَرِقين ويشكون من تجنّي المحبوبة، حتى تنحدر دموعهم، وتتقرّح أكبادهم.

والشعراء، الذين سلكوا هذا المذهب، معظمهم من العشّاق الذين عُرفوا بالعفّة والبعد عن الأوصاف الحسية للجسد، ومعاناة الأشواق اللاذعة. ويمكن أن يُعدّ غزلهم النواة الأولى للغزل العذري الذي عُرف في العصر الأموي. ذلك أن كل واحدٍ منهم اقترن اسمه بصاحبته التي اشتهر بها. ومنهم عنترة صاحب عبلة، ومثلُه المخبَّل السَّعدي ومَيْلاء، وعبدالله بن العَجْلان وهند، وغيرهم.

المديح: كانت للناس في العصر الجاهلي مُثُل عليا، ومعايير خُلقية تعارفوا عليها، وورثوها عن أجدادهم، كالشجاعة والكرم، وحماية الجار، وإغاثة الملهوف وعراقة النسب. وجاء شعر المديح ليشيد بهذه السجايا وما هو منها بسبب: كالعقل، والعفّة، والعدل، والرأي السديد. وقد يستدعي المقام والمناسبة ذكْر مناقب أخرى تأتي في ساعتها: من جميلٍ يؤْثَر، وصنيع يقدَّم، وأسير يُطلق سراحه، فيكون الاعترافُ بذلك الجميل، والشكرُ لذاك الصنيع.

وهكذا قام المديح مقام السجل الشعري في رسمه لنواحٍ كثيرة من حياة الأعلام، ملوكاً، وسادةً، وأجواداً، وبذلك أغنى التاريخَ وكان رديفاً له ومتمماً، وإن كان يمتزج غالباً بالإسراف والمبالغة، ويختلط فيه الواقع بالخيال، والعقل بالعاطفة، والحق بالباطل. ولذلك ينبغي أن يقف الباحث من شعر المدح موقف الحذر والنقد والتمحيص، وألاّ يأخذه على أنه صدق لا كذب فيه، أو حقيقة لا يشوبها الشك.

وقد سلك الشعراء المدّاحون في العصر الجاهلي طريقين، أحدَهما أو كليهما، الأول هو طريق التكسب والاحتراف، وميدانه قصور الملوك، ومجالس الأمراء، وأفنية الأشراف والأعيان. وقد انحرف الشعر إلى هذا الميدان على يد النابغة الذبياني، الذي سنّ للشعراء سُنّة المديح الرسمي - في تنقّله بين قصور المناذرة والغساسنة - ومَدَحَ ملوكهم، كما سخّر شعره لكل من يجود عليه أو يرعاه في كنفه، وكان

هذا أول الاحتراف في المديح، والتكسب به. وقد حظي النعمان بن المنذر بنصيب وافر من ذلك.

وجاء الأعشى ليسير على سَنَن النابغة في المديح، بل إنه أسرف في المسألة والتكسب، فأصبح يمدح كل من أعطى، ويشكر بشعره كلّ من أكرم. حتى يخرج عن حدود التصديق، كما في مديحه للأسود بن المنذر اللَّخمي - شقيق ملك الحيرة - ولِهَوْذة الحنفي.

ومن هؤلاء الشعراء المتكسبين أيضاً: حسان ابن ثابت، والمسيَّب بن عَلَس، والمنخَّل اليشكُري، والممزَّق العبدي، والحارث بن ظالم، وعِلْباء بن أرقم.

أما الطريق الثاني: فهو طريق الإعجاب والشعور الصادق. والشعر هنا يصدر - فيما يقول - عن حب عميق، وإحساس نقيّ، لا تملّق فيهما ولا تزلّف. وحامل لواء هذا الشعر هو زهير ابن أبي سُلمى، الذي سخّر شعره لكل من قام بإصلاح ذات البَين، أو صنَع مأثرةً كريمة، نائياً بأشعاره المدحية عن المبالغة والشطط.

ومن ممدوحيه: هَرِم بن سنان، والحارث بن عوف، اللذان أصلحا بين عبس وذُبيان، في حرب داحس والغبراء، وبذلا من أموالهما ديات القتلى حقناً للدماء، ونشراً للسّلام بين المتحاربين.

الفَخر: وهذا فن شعري تربطه بالمدح صلات وشيجة، فالمعاني التي تتردد في المدح، هي نفسها مما يتغنى به الشعراء مفتخرين. ذلك أن الحياة العربية في العصر الجاهلي قامت على مواجهة المخاطر، والمزاحمة على الماء والكلأ، والشجاعة في القتال، وما يتصل من ذلك كله بسبب: كالتغني بالبطولات وشن الغارات، وتمجيد الانتصارات، وكثرة العدد والعُدّة، ومنازلة الأقران، ونجدة الصريخ، والحفاظ على الشرف والجار، وهذه الأمور جميعاً أذكت قرائح الشعراء، ووفّرت لهم أسباب التفاخر والتباهي، منفردين ومجتمعين، فانطلقت ألسنتهم بأشعار زاخرة بالعاطفة القوية، والانفعال العميق، تبرز فيها الحقائق التاريخية مجلْببةً بجلباب الخيال والمغالاة.

وهذا الفخر يكون قبلياً تارة تسيطر عليه روح حماسية جارفة، وهذا شأنه دائماً في مواطن الكرّ والفرّ، والأخذ بالثأر، وتضييق الخناق على الأعداء، واستطابة الموت عند الحرب، إذ ينطوي شعر الفخر على دفقات قوية من الحماسة، ويكون من ذلك مزيج متلازم. ومن خير ما يمثل هذا الفخر القبليّ الحماسيّ معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي، التي سجّل فيها انتصارات قبيلته، ومنعَتها، وما يتحلى به أفرادها من شجاعة وإقدام، وسطوة وهيبة وأنفةٍ وإباء.

وهذه الحماسة المزهوّة لا تحول دون إنصاف الشاعر لأعدائه، والإقرار بقوّتهم وشجاعتهم، وعُرفت في الشعر الجاهلي قصائد من هذا القبيل سميت «المُنْصِفات» ومن أصحابها: العباس ابن مِرداس، وعَوْف بن الأحوص، وخِداش بن زهير.

ويكون الفخر تارة أخرى ذاتياً ينبعث من نفوسٍ تهوى العزة والمجد، وتحرص على بناء المكارم، والتباهي بمآثرها الفردية، ويبدو هذا الفخر الذاتي لدى طائفة من الشعراء الفرسان والأجواد، كعنترة، وحاتم الطائي، وعمرو بن الإطْنابة، والشعراء الصعاليك كالشَّنفرى، وتأبَّط شراً. وهنا يحلو للشاعر أن يتحدث عن نفسه وخصاله، وعراقة أصله، وطيب منبَته، وما يتحلى به من كرم ومروءة وحمايةٍ للجار، وغير ذلك من الفضائل الخلقية. وفي معلّقات طَرَفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، صور كثيرة من هذا الفخر الفردي، تتلاقى على صعيد واحد، وقد وشّحها أولئك الشعراء بذكر القصف واللهو، والفخر بشرب الخمرة في معرض الحديث عن الكرم والإكرام.

الرِثاء: يلتقي الرثاء والمديح في أنهما كليهما إشادةٌ بالمرء وإعلاء لشأنه، لكن الأول إشادة بالميت وخصاله، والثاني إشادة بالحيّ وتمجيد لمآثره وسجاياه. ويمتاز الرثاء أيضاً بأنه فن شعري ثابت المعاني والهدف، لأنه يعبر في معظم أحواله عن انفعال وجداني، وشعورٍ عميق بالحزن والألم، حين تفقد الأسرة أو القبيلة، عزيزاً فيغمرهم الحزن وتتحرك الشاعرية لتعبر عن الأسى المشترك، والخسارة الفادحة، والمجد الذي انهدّ ركنه، والشمائل التي حكم بها الموت للقبر والتراب. وقد يصحب تعدادَ شمائلِ الميت، والبكاءَ عليه، أخْذٌ بأسباب العزاء فيه، ودعوةٌ إلى الصبر على حدثان الدهر، والتأسّي بمن طوَتْهم المنون من قبل، لأن الدنيا دار فراق وزوال، لا دار خلودٍ وبقاء، وليس أمام الإنسان سوى الاستسلام للأقدار، والقبول بالقضاء.

هذه المعاني والأفكار، في جملتها تتردد في أشعار الرثاء عند الجاهليين، وقد يطغى جانب منها في القصيدة على آخر، أو تتفرع عنها معانٍ جزئية، ولكن تظلّ المناحي الأساسية بارزةً في تلك الأشعار.

وإذا كان المرثي ذا منزلة رفيعة لجأ الشاعر إلى المبالغة وتهويل الخطب وإشراك الطبيعة في استعظام المصاب.

وقد اشتهر عدد من الشعراء أجادوا الرثاء في العصر الجاهلي، منهم: المُهَلْهِل بن ربيعة، ودُريد بن الصِّمّة، وأعشى باهلة، ولَبيد، وطُفيل الغنوي، وأوس بن حَجَر، وأبو دُواد الإيادي. كما عُرف كثير من النساء بإجادة هذا الفن الشعري والنبوغ فيه، كالخنساء، وجَليلة زوجة كُليب، وسُعدى بنت الشَّمَرْدَل.

والرثاء عند هؤلاء الشعراء والشواعر، منه ما يكون في الأقرباء الأدنَيْن: كما في رثاء المهلهل لأخيه كُليب، والخنساء لأخويها صخرٍ ومعاوية، ولَبيد لأخيه أرْبَد. ومنه ما يكون في أناسٍ آخرين، من ذوي المكانة والشأن في قبيلة الشاعر، أو في غيرها من القبائل، ممن تقرّبهم إلى الشاعر صلات وثيقة. ومن ذلك قصيدة أوس بن حَجَر، التي رثى فيها فَضالةَ الأسديّ، وتعدّ من عيون المراثي في العصر الجاهلي: ومطلعها:

أيّتها النفسُ أجملي جزَعا
إن الذي تحذَرين قد وقعا

وقصيدة أبي دُواد الإيادي، التي رثى فيها مَن طواهم الردى من شباب قبيلته وكهولها، وذكر ما لهم من صفاتٍ ومفاخر ومجد، وأشاد بما كان لهم من بأسٍ وسخاء في أوقات الشدة والجدب، وما تحلّوا به من عقول راجحة وآراء سديدة. وأول هذه القصيدة:

منَع النومَ، ماوي، التَّهْمامُ
وجديرٌ بالهمّ مَن لا ينامُ

والرثاء عند الجاهليين يكثر فيه ترداد ألفاظٍ معيّنة، كالجملة الدعائية: «لا تَبْعَد» أو «لا تَبْعَدن» كما يكثر الدعاء بالسقيا لقبر الميت: «سَقْياً لقبرك» «سَقاك الغيث» وذلك ليبقى ما حول القبر خصباً ممرعاً.

الهجاء: حظ هذا الفنّ في الشعر الجاهلي قليل؛ إذا قيس إلى الفخر أو الغزل مثلاً؛ ولكن أثره كبير في النفوس، ووقعه أليم في الأفئدة، لأنه يقوم على إذلال المهجوّ، وتجريده من

الفضائل والمُثل التي يفتخر بها القوم، أو التي بها يُمدحون. ومن ثم فإنّ الفخر، والمدح، والهجاء، تجمع ثلاثتُها جملةً من الفضائل وأضدادها، فالكرم، مثلاً، فضيلة لديهم، وفي مقابله تكون نقيضةُ البخل والشحّ، والشجاعة ضدُّها الجُبن. وهكذا.

وعلى هذا، فإن الهجاء في الشعر الجاهلي هو انتقاص للخصم، وتعيير له بجملةٍ من المخازي والمساوىء التي يستهجنها مجتمعه، فمنها ما هو في مجال الحروب والغزوات التي حفلت بها حياتهم: كالجبن، والفرار عند اللقاء، والوقوع في الأسر، ودفع الفدية، ومنها ما هو في حيّز العلاقات الاجتماعية، والنقائص النفسية: كالبخل، والاعتداء على الجار، واللؤم، والغدر، والقعود عن المكارم، وما يتفرع عن ذلك كله من المعايب والسقطات التي يعدّها العربيّ عاراً يبرأ منه، أو يحذر الوقوع فيه، لئلا يصيب منه الشاعر مقتلاً. فضلاً عما تحرص عليه القبيلة في أفرادها كافةً من كرم الأحساب، ونقاء الأنساب، لئلا تتحطم سُمعتهم، أو ينْهار بناء أحسابهم وأنسابهم، فيكونوا نصباً للهجاء.

والهجاء عندهم على ضربين: هجاء فردي، وآخر جماعي يتجه إلى القبيلة نفسها وقد يجمع الشاعر بينهما.

وهجاء الجاهليين عامةً يسلك مسلك الجِدّ. ولا يدخله الإفحاش ولا الشتيمة الصريحة، ولكن ربّما داخله شيء من السخرية والتعريض والتلميح الموجع، بدلاً من الهجاء المباشر.

الحكمة: الحكمة قديمة في أشعار الجاهليين، لأننا نعثر عليها عند أوائلهم، كامرىء القيس وعبيد بن الأبرص، كما حفلت بها قصائد الشعراء الآخرين على مرّ السنين. وحِكمهم مستمدة من بيئتهم التي عاشوا في كنفها، حرباً وسلْماً، وعلاقاتٍ وعادات، وأخلاقاً وسجايا.. وهذه الحكم صدى لصفاء الفطرة، ودقة الإحساس، وغنى التجارب، والقدرة على استخلاص العبرة من الحوادث، ولا تخلو، في الوقت نفسه، من قيمةٍ تاريخية، ودلالةٍ اجتماعية، ونواحٍ أخلاقية، وفلسفةٍ عملية تختلف من زمن إلى زمن، ومن إنسان إلى آخر، لأنها تعبّر عن آراء أصحابها، ومواقفهم من الحياة والناس، وتفكيرهم في تقلبات الأيام. وتحمل في طيّاتها نظرات ثاقبة، وبصيرةً واعية، إزاء قضايا الناس والحياة، ويسوقها الشاعر في مطاوي القصيدة أو في نهايتها.

وتعدّ المعلقات أوضح الأمثلة للقصائد التي تحفل بالحِكم، على تنوع موضوعاتها وأغراضها، كمعلقة زهير، التي أرسل فيها نحو العشرين بيتاً، وبدا في سردها هادىء النفس، رصين التأمل، واقعيّ التناول لقضايا الحرب والسلْم، والحياة والموت، وخفايا النفس الإنسانية.

وأما طرَفة، الشاعر الشاب، فإن حِكمه في معلقته تنبع من شخصيته العابثة، التي تريد أن تستبق اللذات قبل أن يفاجئها الموت، لأن الحياة أشبه بكنزٍ يتناقص شيئاً فشيئاً، والموت سيأتي على كل حيّ، ولا رادّ لما يأخذ.

وتنبثّ الحكم في قصائد الشعراء الآخرين: كلَبيد، وعَبيد بن الأبرص، وحاتم الطائي، وأوس ابن حَجَر، وعَلْقمة بن عَبَدة، والأفْوه الأودي. وانفرد منهم أمية بن أبي الصلت بالإكثار من الحكم التي تعتمد على أخبار الأديان والأمم الغابرة، وقراءة الكتب، ولذلك اجتمعت فيها روافد التجربة والثقافة معاً. وكان طابعها دينياً ممزوجاً بالكلام على زوال الحياة وتحكّم حوادث الدهر في الناس.

الوصف: الوصف يغلب على أبواب الشعر جميعاً، فهو باب واسع، يشمل كل ما يقع تحت الحواس من ظواهر طبيعية، حيّة وصامتة. وهكذا كان عند شعراء العصر الجاهلي الذين عايشوا الصحراء في حلّهم وترحالهم، وألفوا القفار الموحشة، وما فيها من جبالٍ ووديان ومياه، وحيوانات أليفة وغير أليفة. فوصفوا ذلك كله لأنه وثيق الصلة بحياتهم وتقلباتهم.

وكانت الناقةُ صاحبةَ الشاعر في جَوْبه لتلك الفيافي والمفاوز، وعليها اعتماده في كثير من أحواله، لذلك أكثر فيها القول، وافتنّ في وصف أجزاء جسمها، وصوّر كل أحوالها في سيرها وسرعتها، وصبرها على مشاقّ السفر، حتى كادت الناقة تستأثر بنصيب وافر في طوال القصائد التي نظمها أصحاب المعلقات وغيرهم، كبَشامة بن الغَدير، والمُثقّب العبدي، والمسيّب بن علَس، وأوس بن حَجَر، وغيرهم.

والفرس هو الحيوان الثاني الذي يرافق الشاعر الجاهلي، ويقاسمه العيش، ويتحمل معه التعب والعناء، والسير والسُّرى، ولاسيما في خروجه إلى الصيد، وخوضه الحروب. وقد عُني العرب بالخيول الأصيلة، واتخذوا لها أسماء خاصة، وحفظوا أنسابها أيضاً، فلا غرابة أن يصفها شعراؤهم في قصائدهم، ولكل واحدٍ من هؤلاء الشعراء طريقته الخاصة في وصف فرسه، سواء أكان ذلك في مجال الصيد واللهو، كامرىء القيس، أم كان في ميادين الحرب والقتال: كعنترة والمزرِّد، أم كان وصفاً عاماً للفرس، على أنه مجلى النظر وموضع الفخر، كما هو الشأن عند طُفيل الغنوي وأبي دواد.

ولم يكتف الشعراء بوصف الناقة والفرس، وإنما وصفوا ضروب الحيوان الأخرى في بيئتهم ولاسيما الثور الوحشي، والبقرة الوحشية، وجعلوا وصفهم لهذين الحيوانين ذريعةً إلى وصف الناقة بالسرعة والخفة عن طريق تشبيهها بأحدهما، وتخيّل معركةٍ ضارية بين الثور، أو البقرة من جهة، وكلاب الصيد من جهة أخرى. وتنتهي هذه المعركة غالباً بنجاة الحيوان الوحشي، وتغلّبه على الكلاب، أو طعنه أحدها بقرنه.

كما يَردُ في قصائد الشعراء أوصاف لحيوانات أخرى: كالهرّ، والديك، والحية، والذئب، والنعامة، والغراب. وهذه الأوصاف كلها تأتي في ثنايا القصائد الطويلة، أما مطالع تلك القصائد فقد استأثر بها وصف الأطلال والرسوم الدارسة، التي تؤلف ركناً قوياً ثابتاً في أول القصيدة الطويلة، كالمعلقات وغيرها، إذ يقف الشاعر على تلك الأطلال ويصفها ويناجيها، ويذكر ما فعلته فيها الرياح والأمطار مشبهاً إياها بآثار الكتابة أو الوشْم.

وكذلك وصف الشعراء الجاهليون مظاهر الطبيعة حولهم كالليل، والسّحاب، والرعد، والبرق، ووصفوا كذلك الخمر ومجالس الشرب واللهو والحرب وأسلحتها المختلفة. وهذا كلّه يدل على عناية أولئك الشعراء وغيرهم بوصف كل ما يحيط بهم وصفاً دقيقاً، في بساطةٍ وجمال، وصدقٍ في التعبير عن المشاعر والإحساسات، وتعاطفٍ مع الحيوان عامةً، بوساوسه وحذره وجرأته. معتمدين على القالب القصصي في كثير من الأحيان، وعلى التشبيه وسيلةً للأداء والتصوير.

خصائص الشعر الجاهلي: هذا الشعر الذي وُسم بأنه «ديوان العرب» وسجلّ حياتهم وعاداتهم، قد صوّر البيئة التي نشأ فيها أصحابه أصدق تصوير، في واقعية وبساطةٍ ووضوح، لا غلوّ فيها ولا تعقيد، إلا بما يتفق ومهمة الشعر، من حيث كونه فناً جمالياً لا يلتزم الحقيقة

والواقع التزاماً علمياً دقيقاً، وإنما يهدف إلى الإمتاع والإثارة والتشويق. ومن شأنه في هذه الحالة أن يتجاوز الواقع أحياناً، أو يعتمد على الخيال والتصوير الحسي المستمدّ في الوقت نفسه من البادية ومعطياتها، متنقلاً بين الحقيقة والمجاز، في نقل الصور والمشاهد، أو التعبير عن الأفكار والمشاعر، في إيجازٍ حيناً، وإطالةٍ حيناً آخر بحسب المقام والغرض.

ويلاحظ في الشعر الجاهلي كثرة ذكر الأماكن والمياه والوديان، ولاسيما في مطالع القصائد، وصفاً أو مناجاة، لأنها تحفل بالذكريات الحية: فهي مواطن الأحبّة ومسارح الصبا وميادين الحروب والانتصارات.

والطابع القصصي يَغلُب على الكثير من المواقف، في جاذبية وجمال، ولكنه يميل إلى السرعة والإيجاز، كما في وصفهم للحيوان الوحشي، ووصف الصعاليك لمغامراتهم وغزواتهم الفردية، وغزل بعض الشعراء كالمنخَّل اليشكري، والمرقِّشَيْن: الأصغر الأكبر. ويبدو ذلك أيضاً في أبيات أوس بن حَجَر التي وصف فيها قصة القوس وحفْظ الراعي لها في رأس جبلٍ عالٍ، حتى حظي بها امرؤٌ استخدمها في الرمي، بعد أن أعدّها صانعها وتأنق فيها.

وقد يتشابه الشعراء الجاهليون، في بعض المعاني، والصور حتى في الألفاظ أيضاً، وهذا ظاهر في أوصافهم للناقة والفرس، والمرأة، وأدوات الحرب، والوقوف بالديار، حتى ضاق عنترة ذرعاً بذلك فقال: هل غادر الشعراء من متردَّم؟، ومثله زهير في قوله:

ما أرانا نقول إلاّ مُعاراً
أو مُعاداً من قولنا مكرورا

وسبب ذلك ضيق الحياة في ذلك العصر، واقتصار البيئة على معطيات واحدة، وشدّة تطبُّع العربي بتلك البيئة التي ترعرع فيها، ونشأ على أعرافها وتقاليدها. واقتفاء الشاعر خطا من سبقوه من الشعراء وتأثره بهم. ولكن هذه الظاهرة لم تَحُل دون بروز شخصية الشاعر الفنيّة، وأدواته الخاصة في التعبير والتصوير، والابتكار والتوليد، والنفوذ إلى دقائق كثيرة، يجلوها أتمّ جلاء، ويكشف عنها ببراعةٍ ومهارة.

ومما يلفت النظر، في طِوال القصائد الجاهليات، فقدان وحدة الموضوع، وتعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة منها. ويخضع ذلك لما دعاه النقاد بمنهج القصيدة، أو هيكلها. وقد استمر ذلك إلى العصر العباسي، وتمسك به كثير من الشعراء والنقاد المحافظين، وتحدث عنه ابن قتيبة في مقدمة «الشعر والشعراء» وعلَّل مراحل الانتقال من موضوع إلى آخر ضمن القصيدة المدحية، راوياً عن بعض أهل الأدب: «أن مقصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرَّبْع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدّة الوجد، وألم الفراق، وفرْط الصبابة والشوق، ليُميل نحوه القلوب، ويصرفَ إليه الوجوه.. فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له عقَّب بإيجاب الحقوق، فرحلَ في شعره، وشكا النصَب والسّهر، وسُرى الليل.. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقَّ الرجاء... بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزّه للسّماح، وفضّله على الأشباه، وصغَّر في قدْرِه الجزيل».

ويعقِّب ابن قتيبة على ذلك قائلاً: «فالشاعر المُجيد مَن سلك هذه الأساليب، وعدّل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلبَ على الشعر، ولم يُطل فيُملَّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأٌ إلى المزيد».

ويمكن تعليل تعدد الموضوعات في طوال القصائد بأن الشاعر كان يخضع لأصول فنية متوارثة تأصلت على مرور الزمن والتزمها الشعراء فغدا الهيكل العام للقصيدة يؤلف وحدة فنية داخلية بديلة عن الوحدة الموضوعية.

ومن خصائص الشعر الجاهلي أيضاً أن هذا الشعر قد وصل إلينا باللغة التي غلبت في العصر الجاهلي قُبيل الإسلام، وهي اللغة الأدبية المشتركة بين الشعراء والكتّاب والخطباء، وإن كان هؤلاء ينتمون إلى قبائل مختلفة. وقد وصل إلينا هذا الشعر كامل الصياغة، ناضج اللغة، موحد القوالب، ذا قوةٍ وجزالة، ومتانةٍ في العبارة، وإذا وجد قارئه شيئاً من الألفاظ الغريبة فيه، فإنما هي كذلك بحسب ما نعرفه نحن اليوم من تلك الألفاظ التي بعد العهدُ بها، وندر استعمالها بين الشعراء والكتاب، لكنها لدى الجاهليين أنفسهم كانت مألوفة ومعروفة.

النَّثر الجاهليّ

بنى العرب مجدهم الأدبي، في العصر الجاهلي، على الشعر. ومع أن الكتابة كانت معروفة لهم ـ فإن ما وصل إلينا من نثرهم قليل جداً. وكانت الكتابة تقتصر على جوانب تتصل بحياتهم السياسية والاجتماعية والتجارية، من رسائل، وعقود ووصايا ومواثيق. وفي القرآن الكريم إشارات إلى كتابة الديون، وحديث عن رحلتي قريش.. ومثل هذه الرحلات التجارية تستدعي الكتابة والتسجيل.

وليس المراد بالنثر الجاهلي هنا ذلك النثر العادي الذي يتخاطب به الناس، وإنما المراد به النثر الأدبي أو الفني الذي يُعنى صاحبه بتجويده، وإتقانه لينال إعجاب القارىء، من حكمة تقال، أو قصةٍ تُروى، أو مثلٍ يُضرب، أو خطبةٍ تُلقى، أو رسالةٍ تُدبّج، أو وصية بليغة تُنقل.

مثل هذا النثر الفني قليل الوجود بين أيدينا بلفظه الأصلي الذي صدر عن أصحابه لأن حفظ النثر أصعب من حفظ الشعر، لكن الذاكرة الأدبية للرواة اكتسبت على مرّ العصور أصالةً ومراناً، مما أتاح لهم أن يحتفظوا بنصوصٍ من ذلك النثر، في صورتها الأصلية، وبأخرى ليست موافقة لأصلها كل الموافقة، ولكنها صورة قريبة منه، يمكن من خلالها تحديد خصائصه الفكرية والفنية. وهذه النصوص النثرية الجاهلية، الأصلية والقريبة من الأصل، وردت في طائفة من المصادر الأدبية والتاريخية القديمة. وكان في تلك النصوص فنون أدبية نثرية، تأتي في مقدمتها: الخطابة ـ ويلحق بها المنافرات، وسجع الكهان ـ ثم الحكم والأمثال ـ ويلحق بها الوصايا والنصائح ـ ثم القصص، فالرسائل.

فنون النثر الجاهلي وأغراضه

الخطابة: ازدهرت الخطابة عند العرب متأخرةً في الزمن، لأن الشعر كان متفوقاً عليها، فلما أصبح الشعر مطيةً للتكسب صارت منزلة الخطيب هي المقدَّمة. واشتهر في العصر الجاهلي خطباء كثيرون، مثل: قُسّ بن ساعدة الإيادي، وهانىء بن قبيصة الشيباني، وعامر بن الظَّرب العَدْواني، وعَمرو بن كلثوم التغلبيّ، وأكثَم بن صَيْفي وعَمرو بن الأهتم التميميان، وهاشم بن عبد مناف القُرَشي.

وقد تعددت أغراض الخطابة وأنواعها، إزاء هذا الازدهار، فكانت وسيلةً للتحريض على القتال، أو للأخذ بالثأر، وربما كانت في الوقت نفسه سبيلاً إلى إصلاح ذات البين أو إرساء قواعد السلْم. وقد تكون في إشاعة المفاخر،

والإشادة بالأنساب أمام الملوك وزعماء القبائل، والأمراء.

وقد تُلقى الخطب في مناسبات الزواج، والمصاهرات بين ذوي الأحساب والأنساب، فيتكلم خطيب من كل جانب. قال الجاحظ: «كانت خطبة قريش في الجاهلية، يعني خُطبة النساء: باسمك اللهمّ ذُكرتْ فلانة، وفلانٌ بها مشغوف. باسمك اللهمّ، لك ما سألت، ولنا ما أعطَيت».

وكانت للخطباء سنن وتقاليد يتبعونها عند إلقاء خطبهم، كأن يقف الخطيب على مرتفع من الأرض، معتمداً على قوسه، أو ممسكاً بعَصا يشيرُ بها، وقد يخطب راكباً على ناقته، وبيده الرمح، وقد لاث العمامة على رأسه.

ومما يُمدح في الخطيب عندهم: حضور البديهة، وقلّة التلفّت، وقوة الجَنان، وظهور الحجة، مع جهارة الصوت. وفي مقابل ذلك كانوا يعيبون على الخطيب التنحنح، والانقطاع، والاضطراب، والتعثر في الكلام. وقد استقرت للخطابة في العصر الجاهلي مجموعة من الخصائص الفنية، كان الخطباء يحرصون عليها في خُطبهم، منها مراعاة السجع في مقامات الفخر خاصةً. أما في خطب المحافل وإصلاح ذات البين، مثلاً، فكانوا يستخدمون الأسلوب المرسل الذي لا يُغفل صاحبه ـ في الوقت نفسه ـ تجويده وتنقيحه، والتروّي فيه، سعياً إلى إثارة السامعين واستمالتهم. وهذا ما جعلهم يؤثرون قِصَر العبارة في خُطبهم، وتوشيحها ببعض الحكم والأمثال، أما الخطبة نفسها فقد تطول، وقد تَقصُر، ولكل منهما مقام وموضع وقدر من العناية.

المنافرات: وهي مفاخرات كانت تحدث بين اثنين أو أكثر من سادة العرب وأشرافهم، وفيها يشيد كل من المتفاخرين بحسبه ونسبه ومجده وسجاياه، أمام حَكَمٍ من أشراف العرب أو كهّانهم، ليكون له القول الفصل في تفضيل أحد الطرفين على الآخر. ولكن الحكَم يسعى في كثير من الأحيان إلى الصلح بين المتنافرين، تفادياً للشرّ، ويتحاشى الحكم لأحدهما على الآخر، ويلقي عليهما كلاماً بليغاً يدعوهما فيه إلى السلام والصفاء. ومن ذلك ماكان من هَرِم ابن قُطبة الفَزاري، حين تنافر إليه عامر بن الطُّفيل وعلقمة بن عُلاثة بعد أن اشتد النزاع بينهما، فجعل هَرِم يُطاولهما، ويمهّد للصلح بينهما، حتى قال لهما أخيراً: «أنتما كركبتي البعير، تقعان إلى الأرض معاً، وتقومان معاً». فرضيا بقوله وانصرف كل منهما إلى قومه. واشتهر من هؤلاء الحكّام أيضاً: ربيعة بن حُذار، والأقرع ابن حابس، ونفيل بن عبد العُزى، وهاشم بن عبد مناف.

وربما جرت المنافرة بين قبيلتين: كربيعة ومضر، أو قيس وتميم. وهذا ما يحيل المنافرة إلى صورة من صور الخطابة، إذ يقف كل سيّد ليعدد مآثر قومه أمام الحكَم، بحضور سادة القبائل وأشرافها ويحاول التأثير في السامعين ليحوز الإعجاب والحكم له بالغلبة على خصمه.

وإذا فصل الحكَم بين المتنافرين، سجع في كلامه حيناً، وأرسله حيناً آخر. وهو يحرص على السجع والقسم ولاسيما إذا كان من الكهّان.

سجع الكهّان: والكهّان عند العرب طائفة ذات قداسة دينية، وسلطان كبير لدى القبائل، شأنهم شأنُ الحكّام في المنافرات. وكانوا يزعمون الاطلاع على الغيب، وأن لكلٍ منهم رَئِيّاً ـ أي صاحباً من الجنّ ـ يعرف الكاهنُ عن طريقه ما سيكون من أمور. وكان الناس يتوافدون على هؤلاء الكُهّان من مختلف الجهات فيحكّمونهم في منازعاتهم، ويستشيرونهم في أمورهم الخاصة وما يزمعونه من أعمال، أو ما يرونه في منامهم من أحلام. وكانوا يستخدمون في أحكامهم وأقوالهم ضرباً من النثر المسجوع عرفوا به.

وقد ظهر في العرب عدد من هؤلاء الكهّان، وفيهم من كانوا حكّاماً في المنافرات أيضاً. ومنهم: سَطيح الذئبي، وشقّ الأنماري، وسَلِمة ابن أبي حيّة، المشهور باسم عُزّى سَلِمة، وعَوف الأسدي،... بل كان فيهم نساء كاهنات أيضاً، من أمثال: فاطمة الخثعمية، وطريفة اليمنية، وزبْراء.

ويلاحظ في نصوص الكهّان أنها تحمل طابع التكلف الشديد في سجعها ولهذا لا يطمأنّ إليها كلّها، فربما شاب بعضَها الوضعُ والنَّحْل، وربما كان بعضها محفوظاً صحيحاً، لقصره وإيجازه.

ومن خصائص أسجاع الكهّان أنها ـ في جملتها ـ كلام عام، لا يُرشد السامع إلى حقائق جليّة، وإنما يضعه في الغموض والإبهام، باصطناع السجع، والإيماء، وقِصر الجمل، لإلهاء السامع عن تتبّع ما يلقى إليه من الأخبار الغريبة، وجَعْله في حالة نفسية مضطربة تساعد الكاهن على الوصول إلى ما يريد، بكل سهولة ويُسر، ويكون المخاطب، بتلك الإشارات الغامضة، والألفاظ المبهمة، والأقسام المؤكّدة، والأسجاع المنمّقة، مستعداً لقبول كل ما يقال له، بلا جدال أو اعتراض، وتأويل ما يسمعه بحسب حالته ومدى فهمه.

الحِكَم والأمثال: وربما كانت وحدها التي وصلت إلينا كلها كما نطق بها أصحابها، بلا تغيير أو تحريف، ولا زيادة أو نقص، لما تمتاز به من تركيز بالغ، وإيجاز شديد، وقبول للحفظ والشيوع على الألسنة في كل مناسبة، وبذلك تكون أصحّ ما بقي من النصوص الجاهلية، وأقربها إلى أصولها الأولى، وإن كانت لا تقدّم صورة كاملةً عن النثر الجاهلي.

والحكم والأمثال جمل قصيرة بليغة، خالية من الحشو، أوحت بها تجارب الحكماء والمعمَّرين في الحياة والعلاقات بين الناس، وهي ثمار ناضجة من ثمرات الاختبار الطويل، والرأي المحكم. وقد اشتهر عند العرب في العصر الجاهلي طائفة من أولئك الحكماء، مثل: لقمان عاد وهو غير لقمان الحكيم، المذكور في القرآن الكريم. وأكثم بن صَيْفي، وعامر بن الظَّرِب، وأكثَم بن عامر، وهَرِم بن قُطبة، ولَبيد بن ربيعة. وبعض هؤلاء يعدّون في الخطباء، وحكّام المنافرات أيضاً. ولا يكاد يوجد في العصر الجاهلي سيد، أو شريف، أو خطيب مشهور إلا أضيفت إليه جملة من الحكم والأمثال.

والفرق بين الحكمة والمثل، أن الحكمة قول موجز جميل، يتضمن حُكْماً صحيحاً مسلَّماً به؛ لأنه نابع من الواقع ومعاناة التجارب في الحياة، مثل: «آخر الدواء الكيّ، أوّل الشجرة النواة، إنك لا تَجني من الشوك العنب، إنّ العَوانَ لا تُعلَّم الخِمْرة.....».

وأما المثل فهو ـ في أصله ـ قول يقترن بقصةٍ أدّت إليه، ويجري به اللسان أول مرة، ثم يدخل في نطاق الأمثال حين يُستشهد به في مقامات مماثلة، وفي حالات مشابهة للحالة الأولى التي ورد ذلك القول فيها. ولذلك تُحكى الأمثال بألفاظها الأصلية، بلا تغيير ولا تصرف، مهما كان وضع المخاطب أو نسق الكلام.

وقد دوّن العرب حكمهم وأمثالهم منذ أوائل العصر الأموي، وهذا مما ساعد على

حفظها وتواترها على الألسنة.

وأكثر تلك الحكم والأمثال لا يُعرف أصحابها أو قائلوها، وقد سيقت بأسلوب سهل، لا أثر للصنعة الإنشائية فيه، وبعضها، بل أكثرها، يعدّ من الإنشاء الرفيع، والسبك الجيد. وكثير منها أشطار موزونة، ربما كانت مقتطعة من أبيات كاملة، مثل: «رضيتُ من الغنيمة بالإياب» وهو عجز بيت لامرىء القيس، و«خلا لك الجوّ فبيضي واصْفري» وهو أيضاً عجز بيت لطرفة. و«الْبَس لكل حالة لبوسها» وهو رجز قديم، لا تُعرف تتمّته ولا صاحبه.

ولا تخلو صياغة بعض الحكم والأمثال، أحياناً، من خروج على النظام اللغوي. كقولهم: «مُكره أخاك، لا بطَل» و«أعط القوسَ باريْها» و«أجناؤها أبناؤها» والقياس: «جُناتُها بناتُها» لأن «فاعلا» لا يُجمع على «أفعال».

وهذه الحكم أو الأمثال هي ـ على كل حال ـ صورة لحياة العرب في الجاهلية، ولأساليبهم ولهجاتهم، وجانب من نثرهم، فيها البساطة والسهولة التي لا تخلو أحياناً من السجع والاحتفال بتوازن الكلمات وجمال الصنعة والتصوير.

الوصايا: يمكن إلحاق الوصايا بالحكم والأمثال لتضمّنها كثيراً من تلك الأقوال الموجزة النابعة من التجربة، حتى لكأن الوصية أحياناً قائمة على جملة من الحكم والأقوال المأثورة.

وتُروى هذه الوصايا عادة على ألسنة طوائف من الحكماء والمعمَّرين، الذين عُرفوا بكثرة تجاربهم وخبرتهم في الحياة، من أمثال: ذي الإصبع العَدْواني، وزهير بن جَناب الكلبي، وعامر بن الظَّرِب العَدْواني، وحِصْن بن حُذَيفة الفَزاري. ومن النساء: أُمامة بنت الحارث. ويغلب على الظن أن هذه الوصايا جميعاً رويت بالمعنى، ولكنها لا تخلو من بعض العبارات الأصلية المحفوظة، ولا سيما في الوصايا القصيرة. وهي ـ مع ذلك ـ تقدّم صورةً عن هذا الفن النثري، لأن من رووها أو حفظوها قد راعوا أصوله وتقاليده.

وما وصل إلينا من تلك الوصايا: بعضه موجّه إلى الأبناء والبنات، وبعضه الآخر موجّه إلى أفرادٍ من القبيلة. أما من حيث الموضوع والمضمون؛ فيمكن تقسيم الوصايا إلى نوعين:

وصايا اجتماعية: كالوصايا المتعلقة بالزواج، والمال، والصداقة، والعناية بالخيل وإكرامها، ومكارم الأخلاق كتهذيب اللسان، وتربية النفس، والحث على الصدق، والبذل والجود.... ومن شواهدها وصية ذي الإصبع العَدْواني ـ لمّا احتُضر ـ لابنه أُسيد.

ووصايا سياسية: تكون بين الراعي والرعيّة، والدعوة إلى الحرب، والدعوة إلى السلْم والتحذير من التنازع. والطابع العام للوصايا هو الأسلوب المرسل، الذي يترك فيه الموصي نفسه على سجيتها، من دون تنميق أو زخرفة، مؤثراً وضوح العبارات، ورشاقة التراكيب، وقصر الجمل بما يحقّق المناسبة بين المعنى واللفظ وطبيعة المقام الذي تقال فيه الوصية.

القصص: ومن فنون النثر الجاهلي القصَص وما يتصل منها بسبب، كالأسمار، والحكايات، والأساطير، التي تتناثر في كتب الأدب والتاريخ والأمثال، والتفسير، وكتب الشواهد النحوية والبلاغية، ومؤلفات الشرّاح، مما يؤلف ذخيرةً قصصية غزيرة، تمثل في مضمونها جوانب من المجتمع العربي في العصر الجاهلي، أو ما هو قريب منه، إذا صحّت نسبتها إلى ذلك العصر.

وقد بقي الناس يتداولون هذه القصص عن طريق الرواية الشفوية، حتى بدأ تدوين بعضها في العصر الأموي، ولكن لم يصل إلينا شيء منه، بل وصل ما دُوّن في أوائل العصر العباسي، وما بعد ذلك، بعد أن تنقلت روايته في المجالس، وزيد فيه، ونُقص منه، ولا يعرف مدوّنه ولا راويه، وإن حُمل بعضه على الأصمعي وغيره، سواء في ذلك ما كان فيه إطالة وتفصيل، أو قصر وإيجاز. وقد كانت هذه القصص الجاهلية المتداولة نواةً للقَصَص الشعبي الذي ازدهر في العصرين: العباسي والمملوكي.

ولهذا كله، يقع الشك في صحة نصوص القصص التي تُرفع إلى العصر الجاهلي، من حيث الصياغة على الأقلّ. ذلك أنها لم تدوّن في ذلك العصر قطّ، ولا فيما هو قريب منه، بل صيغت بأساليب العباسيين، ومَن بَعدهم، الذين تصرفوا فيها صيغةً ومضموناً، ولاسيما الطويلة منها. وتكفي الإشارة إلى أن أيام العرب وملاحمهم الحربية تؤلف ينبوعاً قوياً لتلك القصص، وقد دوّنها أبو عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق. ومن هذا التراث القصصي أيضاً ما يتصل بملوك المناذرة والغساسنة وملوك الدولة الحمْيرية، وغيرهم ممن سبقوهم أو عاصروهم، كالزبّاء أو زنوبية. ومنه أيضاً قصص العشاق وأخبارهم، وبعض الأساطير عن الحيوانات كقصة الحيّة والفأس في خبر المثل: «كيف أُعاوِدُكَ وهذا أثر فأسك؟».

هذا، إلى قصص أخرى متناثرة في كتاب الأغاني وغيره عن عمرو بن كلثوم ورَبيعة بن مُكَدَّم، وعبد الله بن جُدْعان، وغيرهم. وكل ذلك من موروثنا النثري، ولكنه لايمثل أسلوب الجاهليين ولا صياغتهم.

الرسائل: وآخر أنماط النثر الجاهلي وفنونه الرّسَائل، التي تعدّ أقلّ فنون النثر شيوعاً، ولكنها أكثرها حاجةً إلى التدوين لاستخدام الجاهليين إياها في الأمور التجارية والسياسية والقبلية، وفي السفارة بينهم وبين الأكاسرة وملوك المناذرة والغساسنة. ومما يُثبت ذلك أن لَقيط بن يَعْمَر الإيادي، مثلاً، كان يُحسن الفارسية، وكان من مقدَّمي تراجمة كسرى سابور، وكذلك كان عدي بن زيد العِبادي، وإخوته من كتّاب الأكاسرة والمترجمين عندهم.

وما وصل إلينا من نصوص الرسائل الجاهلية قليل جداً، منها ما هو ذو طابع سياسي كرسالة النعمان بن المنذر إلى كسرى، حين جهّز إليه وفداً ضمَّ وجوه العرب من قبائل مختلفة، ليتكلم كل منهم أمام كسرى بما يحضره عن مآثر العرب ومفاخرهم إذا صح هذا الخبر.

ومن تلك الرسائل ما يكون في القبائل، من عهود ومحالفات تقتصر على أغراض ضيقة جداً، ويمكن أن تعدّ وثائق تاريخية. ومثالها كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم، وقبيلة خزاعة على التناصر والتعاون مدى الأيام في جملٍ مرسَلة معبّرة، تطول وتقصر، مع قوةٍ وإحكام.

خصائص النثر الجاهلي: هذا العرض السريع لفنون النثر الجاهلي، والأعلام الذين اشتهروا في كل فنّ، يمكن أن يُخرج منه بجملةٍ من خصائص النثر الجاهلي، الذي تناول ـ في مضمونه ـ قضايا تهمّ الفرد والجماعة معاً، في تلك المجتمعات القبلية التي تتحكم فيها عادات وأعراف موروثة، وتَنْشُد أخلاقاً وشمائل وغايات لا تكاد تحيد عنها. فكان ذلك النثر، بفنونه كلها متمماً للشعر الجاهلي أيضاً في تصوير جوانب أخرى من الحياة العربية، تصويراً أقرب إلى الحقيقة والواقع، بما في تلك الحياة من مفارقات ومتناقضات. فبينما تلاحظ توجُّه

القوم إلى نواحٍ خلقية تهذيبية، ومَيْلَهم إلى الخير والإصلاح في وصاياهم، وبعض خُطبهم وحكَمهم، إذ بك تُؤْنسُ منهم ارتداداً إلى الغضب والتهور، وإشادةً بالأحساب والأنساب، وإشاعةً للعصبيات والمفاخر القبلية، والمصالح الخاصة، في المنافرات وبعض الخطب والحكَم الأخرى، ولو أدّى ذلك إلى إشعال نار الحرب.

إن تصوير النثر الجاهلي لذلك كله هو تصوير أقرب إلى الحقيقة والواقع، لأن واضعي بعض تلك النصوص، أو صائغيها، قد حاولوا، بقوة ملاحظتهم ومزيد عنايتهم أن يجعلوها محاكيةً لأصولها الأولى، مستهدين في ذلك بقرائن مختلفة. ولهذا فإن تلك النصوص النثرية ـ مع ما اعترى معظمها من تغيير أو زيادة أو نقص ـ هي في روحها وبنائها مقاربة لأصولها الجاهلية، حتى يمكن أن يكون الحديث عن خصائص النثر الجاهلي مقارباً للحقيقة.

فهذا النثر، بفنونه المختلفة تغلب عليه العناية والتجويد، والبعد، ما أمكن، عن الهلهلة والضعف. فيأتي مرسلاً طبيعياً تارةً، ومتكلفاً محلًّى بالسّجع والتصوير البياني تارةً أخرى، بحسب الفن النثري من جهة، وبحسب الحال والمقام من جهة ثانية، رغبةً في تحقيق الإمتاع، أو التأثير والإقناع لدى السامع، والنفوذ إلى مكامن نفسه. ومعنى ذلك أنهم كانوا يتخيّرون الكلام ويحرصون على القوة والجزالة، والتنغيم الموسيقي بين الجمل إذا احتاجوا إلى ذلك، كما في سجع الكهان والمنافرات.

ومن مراعاتهم للمقام، أن نصوصهم تترجّح بين الطول والقصر، ولكلّ منهما موضع يَحسن فيه. فالخطبة نفسها قد تطول وقد تقصر، وكذلك الوصية، أما الحكم والأمثال وأسجاع الكهان فلا تخرج عن القصر والإيجاز.

ويغلب على ذلك النثر الوضوح والسهولة في ألفاظه وتراكيبه، إلا ما نجده في سجع الكهان من غرابةٍ في الأداء، وغموضٍ في التعبير، إمعاناً منهم في الإيهام والإبهام، وكذلك ما قد نجده من ألفاظ تبدو لنا اليوم غريبة، في طائفة من وصاياهم ومنافراتهم وبعض خُطبهم، وما هي بغريبة عندهم.

محمود فاخوري

■ الأدب في صدر الإسلام والعصر الأموي

١ـ عصر صدر الإسلام

أثر الإسلام في الحياة الأدبية

أحدث ظهور الإسلام تحولاً جذرياً في حياة الأمة العربية ونقلها من طور التجزئة القبلية إلى طور التوحّد في إطار دولة عربية تدين بالإسلام وتتخذ القرآن الكريم مثلاً أعلى. وكان لا بد لهذا الحدث العظيم من أن ينعكس صداه القوي في الحياة الأدبية لهذه الأمة. شعراً ونثراً. ومن الطبيعي أن النتاج الأدبي للأمة يتفاعل مع البيئة التي تظلّه ويخضع لمؤثراتها.

وحين ترصد الظواهر الأدبية في صدر الإسلام يتبين بجلاء ما تركه الإسلام من بصمات واضحة في مسيرة الأدب عصرئذ وفي سماته وخصائصه. ومن أبرز آثاره ضمور فنون أدبية كانت مزدهرة في العصر الجاهلي وظهور فنون جديدة أو تطور فنون قديمة. فقد قضى الإسلام على سجع الكهّان الذي كان مرتبطاً بالوثنية الجاهلية ونُهي الخطباء عن محاكاة ذلك السجع في خطبهم، وظهر لون من الخطابة يستقي من ينابيع الإسلام. وأخذ الشعراء يعزفون عن النظم في الأغراض التي كانت حياة العرب في الجاهلية تدعو إليها. واتجهوا إلى أغراض دعت إليها البيئة الإسلامية كشعر الجهاد والفتوح والشعر الديني، وأصبح شعرهم يدور حول معانٍ تتصل بالقيم والمثل الإسلامية. وقد أوجد الإسلام مبادئ خُلقية تلائم تعاليمه وروحه فانعكست هذه المبادئ في النتاج الأدبي عصرئذ.

وقد راجت مقولة تذهب إلى أن الإسلام وقف من الشعر والشعراء موقفاً مناهضاً مثبّطاً، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ في كُلِ وَادٍ يَهيمُونَ، وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لايَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٤ـ ٢٢٦). وتصحيحاً لهذه المقولة ينبغي التوضيح أن الشعراء الذين تناولتهم الآيات القرآنية إنما هم الشعراء الذين كانوا يحرضون على الفتنة، ويخوضون في الإفك والباطل، والذين كانوا يتصدون لهجاء الرسول عليه السلام والمسلمين، وليس المقصود الشعراء كافة، ولهذا استثنى تعالى الشعراء الذين لا تصدق عليهم الآيات السابقة بقوله بعدها: ﴿إلا الذينَ آمَنُوا وعَمِلوا الصّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللّه كَثيراً وانتصَرُوا من بعدمَا ظُلِمُوا وَسَيعْلَمُ الذينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُون﴾ (الشعراء: ٢٢٧). وكان الرسول عليه السلام يميل إلى سماع الشعر الجيّد، وكان يشجّع حسّان بن ثابت وشعراء الأنصار على مهاجاة شعراء المشركين، وكان يقول لحسان: «اهجهم ورُوح القُدس معك»، فهو إذاً لم يدعُ إلى التخلي عن الشعر وإنما كان يقف موقفاً مناهضاً من الشعر الذي ينافي المبادئ والقيم الإسلامية، وقد أثر عنه حديث في إطراء الشعر وهو قوله عليه السلام: «إن من الشعر حكمةً» (صحيح مسلم).

وكان للإسلام يد لا تنكر في ازدهار النثر الأدبي، ولا سيما الخطابة والترسّل، فقد أصبحت الخطابة وسيلة لنشر الدين والوعظ وبيان مبادئ الإسلام والحض على الجهاد والدعوة إلى مكارم الأخلاق وبيان خطة الحكم، وكان الرسول عليه السلام وخلفاؤه خطباء مفوّهين، وكذلك كان جل عمالهم وقوادهم. وقد دعا قيام الدولة الإسلامية واتساع سلطانها إلى الاستعانة بالكتابة والكتاب، وكانت الكتابة محدودة الانتشار في العصر الجاهلي فاتسع لها المجال في صدر الإسلام وأقبلت الناشئة على تعلم الكتابة.

الفنون الأدبية في صدر الإسلام

ظل الشعر يتبوأ المنزلة الأولى في صدر الإسلام، شأنه في العصر الجاهلي، ولكن تطوراً جاداً ألمّ به من حيث الأغراض والمعاني. فقد أوجد الإسلام أغراضاً جديدة كشعر الجهاد والفتوح والزهد والوعظ والشعر السياسي. وتضاءل شأن طائفة من أغراض الشعر التي كانت سائدة في الجاهلية كالشعر القبلي القائم على العصبية القبلية والمتصل بالأيام والوقائع والمفاخرات والشعر المتصل بالغزو والغارات. فقد ألغى الإسلام دواعي الشعر القبلي حين وحد القبائل العربية في أمة واحدة، تسوس أمورها دولة واحدة، وانصرف شعراء الحواضر إلى أغراض تلائم بيئتهم المترفة فاتجهت طائفة منهم إلى الشعر الغزلي الذي بلغ الغاية من التألق والازدهار في عصر بني أمية، واتجهت طائفة أخرى إلى الشعر الديني والوعظي.

وإلى جانب الشعر أخذت الخطابة تثبت أقدامها لحاجة المسلمين إليها عصرئذ، وبدأت تسير في طريق النماء والنضج بشتى أنواعها.

وفي حين توارى سجع الكهان ظهرت مكانة الخطابة الدينية، فكان الرسول ﷺ يخطب في المسلمين موضحاً لهم شؤون عقيدتهم. وجاء الخلفاء الراشدون بعده فساروا على نهجه، وكانوا يعظون المسلمين في خطبهم ويحضونهم على مكارم الأخلاق. وقد احتلت الخطابة الدينية المنابر وحلقات المساجد منذ ذلك العصر، وكثر الوعاظ والقصاص.

وفي الوقت عينه ظهرت الخطابة السياسية التي تدور حول شؤون الحكم وسياسة الرعية، واستخدمت أول الأمر فيما نشب من خلاف بين المسلمين حول الخلافة إثر وفاة الرسول ﷺ، فكانت الخطب التي ألقيت في سقيفة بني ساعدة باكورة الخطب السياسية. وبعد مقتل عثمان وافتراق المسلمين إلى شيعتين إحداهما تناصر علياً والثانية تناصر معاوية بن أبي سفيان عظم شأن الخطابة السياسية، على أن هذه الخطابة لم تتألق وتزدهر إلا في العصر الأموي.

وإلى جانب هذين اللونين من ألوان الخطابة ظلت للخطابة الحفلية مكانتها، ولا سيما خطب الوفود، فإذا وفد قوم على الرسول ﷺ أو على خلفائه من بعده أحضروا معهم خطباءهم ليتحدثوا بلسانهم ويفاخروا بهم.

وفن ثالث بدأ يحبو في عصر صدر الإسلام ويخطو خطواته الأولى في طريق النضج هو فن الترسل، فإن قيام الدولة الإسلامية استدعى وجود كتّاب يوجهون الرسائل إلى العمال والقبائل في مختلف أقطار الدولة، فكان للرسول كتّابه كما كان لخلفائه وولاتهم من بعده كتّابهم. ومن الكتّاب الذين استعان بهم الرسول ﷺ لكتابة الوحي وكتابة الرسائل علي ابن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وأبان ابن سعيد، وخالد بن سعيد، والعلاء بن الحضرمي، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت.

ومن الرسائل المهمة في تلك الحقبة رسالة عمر بن الخطاب التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري في بيان أحكام القضاء بين المسلمين.

خصائص الأدب في صدر الإسلام

لم يطرأ على الشعر كبير تغير في صدر الإسلام من حيث أساليبه وطرائقه الفنية لأن الشعر فن يقوم على المحاكاة، فالشاعر يحتذي خطا أسلافه. وفي الغالب كان الشاعر يتتلمذ لشاعر مشهور فيكون راوية له ويأخذ عنه طريقته ويحاكيه في أسلوبه. فنجد مثلاً الحطيئة[ر] يقر بسيره على نهج زهير بن أبي سلمى[ر] والشعراء الذين كانوا يأخذون شعرهم بالتنقيح والتحكيك.

يضاف إلى ذلك أن الكثرة من شعراء صدر الإسلام كانوا من مخضرمي الجاهلية والإسلام، ومن هؤلاء الحطيئة وكعب بن زهير [ر] والخنساء [ر] وحسّان بن ثابت [ر] وكعب بن مالك [ر] والعباس بن مرداس [ر] وأبو ذؤيب الهذلي [ر] وحميد بن ثور [ر] والشمّاخ بن ضرار [ر]. وهؤلاء الشعراء كان لهم أسلوبهم وطرائقهم المميزة منذ العصر الجاهلي، ولم يكن من اليسير أن يغيروا في ظل الإسلام هذه الأساليب، ومن هنا لا يجد الباحث فارقاً ذا شأن في الناحية الفنية بين شعرهم في الجاهلية وشعرهم في الإسلام.

والتطور الذي طرأ على شعرهم منذ الإسلام إنما يتجلى في المعاني والأغراض. فقد استحدثت أغراض جديدة وضمرت أغراض قديمة وأمد الإسلام هؤلاء الشعراء بزاد ثر من المعاني والأفكار. على أن أثر العقيدة الإسلامية لم يكن واحداً لدى هؤلاء، فمنهم من نفذت العقيدة الجديدة إلى أعماقهم فانعكست في معانيهم وأغراضهم، شأن حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد اللّه بن رواحة [ر] والعباس بن مرداس مثلاً ومنهم من كان أثرها ضئيلاً في نفوسهم ونتاجهم الشعري، شأن الحطيئة مثلاً. ومهما يكن من أمر فإن المعاني الإسلامية أثرت بدرجات متفاوتة في شعر صدر الإسلام.

أما النثر الأدبي في هذه الحقبة فكان أمره مختلفاً عن الشعر. فالنثر أكثر استجابة لدواعي التطور من الشعر، ومن هنا كان النثر الإسلامي أفضل تصويراً للحياة الإسلامية من الشعر، فضلاً عن أن القرآن الكريم كان معجزة بلاغية ألقت ظلالها على نتاج الخطباء والمترسلين فطبع بطابع إسلامي واضح القسمات، فكان النثر في هذه الحقبة إسلامياً، سواء في سماته الفنية أو في أغراضه ومعانيه. ومن أظهر الآثار الإسلامية في نثر تلك الحقبة حرص الخطباء على استهلال خطبهم بذكر اسم اللّه وحمده والصلاة على نبيه، وتضمين خطبهم بعضاً من آي القرآن، حتى لقد سموا الخطبة بتراء إن لم تبدأ بذكر اسم اللّه وحمده، وسموها شوهاء إن هي خلت من آي التنزيل. هذا إلى جانب الاستمداد من المعاني الإسلامية والقرآنية، ومحاكاة الأسلوب القرآني والاستعانة بالصور والأمثال القرآنية. وما وجد في الخطابة يصدق كذلك على الرسائل والنثر عامة إبان تلك الحقبة.

وقد حاول الخطباء وكتاب الرسائل تجنب بعض السمات التي عرفها النثر الجاهلي، والسجع خاصة، كراهة محاكاة سجع الكهان.

على أن النثر الأدبي ظل بوجه عام وفياً للأعراف المستمدة من الطريقة العربية المتوارثة من حيث إيثار الإيجاز في العبارة وتجنب التكلف والزهد في الزخرف والحلية اللفظية ووضوح المعاني وتوخي الجزالة والرصانة في الأسلوب.

أعلام الشعراء والخطباء في صدر الإسلام

حفل عصر صدر الإسلام بعدد وفر من الشعراء، جلّهم من المخضرمين، ومن أشهرهم: الحطيئة العبسيّ الذي أجاد فني المديح والهجاء، وحسّان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام والمنافح عنه، وهو أول من تناول الشعر السياسي بمعناه الدقيق، والخنساء السُلَمية التي ظلت تبكي أخويها صخراً ومعاوية في الإسلام، صنيعها في الجاهلية، وأبو ذُؤَيب الهذلي الذي اشتهر بقصيدته العينية في رثاء بنيه، والشمّاخ ابن ضرار، وكان أوصف الشعراء للقوس وحمار الوحش، وكعب بن زهير صاحب قصيدة «بانت سُعاد» في مديح الرسول ﷺ، وكعب بن مالك الأنصاري الذي وقف إلى جانب رسول اللّه وناضل عنه بشعره، وعبد اللّه ابن رواحة وكان كذلك من شعراء الأنصار الذين هاجَوْا شعراء المشركين وقد استشهد في وقعة مؤتة، وحميد بن ثور العامري، وكان من الشعراء الذين أجادوا الغزل، ومعن بن أوس المزني، وله أبيات جياد في صلة الرحم، والنابغة الجعدي، وقد ذكروا أنه عمر طويلاً وكان ممن جانب الخمرة وهجر الأوثان في الجاهلية، وعبدة ابن الطبيب التميمي الذي شارك في قتال الفرس أيام عمر بن الخطاب وله مرثية غاية في الجودة قالها في قيس بن عاصم المنقري، وعباس بن مرداس السلمي، وكان من فرسان بني سليم وشعرائهم المشهورين في الجاهلية والإسلام، والمخبّل السعدي [ر] وقد عمر طويلاً وكان من شعراء الهجاء المبرزين، وأبو محجن الثقفي، وكان من المستهترين بشرب الخمرة المجيدين في

وصفها، والحارث بن الطفيل الدوسي الأزدي وكان من فرسان قومه المشهورين، وأبو الطمحان القيني، وكان في الجاهلية فارساً صعلوكاً فلما أسلم لم تتشرب نفسه الإسلام.

وفي ميدان الخطابة كان الرسول ﷺ أول خطباء هذه الحقبة وكذلك كان خلفاؤه من الخطباء المفوهين، ولا سيما علي بن أبي طالب الذي جُمعت خطبه في كتاب «نهج البلاغة» وكذلك كان جلّ الولاة والقواد يجيدون الخطابة.

٢ـ العصر الأموي

الحياة الأدبية في العصر الأموي والعوامل المؤثرة فيها

أدى قيام الدولة الإسلامية إلى ظهور أدب إسلامي يغاير في كثير من خصائصه الأدب الجاهلي، بيد أن قصر حقبة صدر الإسلام (١هـ ـ ٤٠هـ) لم يتح لهذا الأدب أن يمد جذوره وأن تنضج سماته الجديدة. فلما كان العصر الأموي أتيح لهذا الأدب الجديد أن يزدهر وأن تتضح قسماته، وساعدت على هذا التطور عوامل كثيرة سياسية واجتماعية ودينية.

وأبرز المؤثرات في الحياة الأدبية عصرئذ كانت المؤثرات السياسية. فقد نقل الأمويون حاضرة ملكهم إلى بيئة جديدة تغاير بيئة الحجاز هي الشام. وأسسوا ملكاً وراثياً يتداول فيه بنو أمية الحكم من دون سواهم ويقمعون كل معارضة تنزع إلى سلبهم ملكهم، وكان لجلّ خلفاء بني أمية مقدرة سياسية تجعلهم مهيئين لتولي مقاليد الحكم. وقد قوبل نزوع بني أمية إلى الاستئثار بالأمر بمعارضة عنيفة من طوائف من رعيتهم، منهم الخوارج [ر] الذين كانوا يريدون الخلافة شورية لاتكون وقفاً على قريش وحدها بل يتولاها كل من تتوافر فيه المؤهلات المطلوبة ولو كان عبداً حبشياً. ومنهم الشيعة [ر] الذين كانوا يرون آل البيت أحق بتولي الأمر من جميع بطون قريش ومن جميع المسلمين ويجعلون الإمامة أمراً إلهياً، فالله اختار نبيه والنبي ﷺ اختار وصيه علياً، وكل إمام يوصي لمن يليه، وقد اتهموا بني أمية بأنهم افتأتوا عليهم وغصبوهم حقهم الشرعي. على أن حزبي الخوارج والشيعة ما لبثا أن انقسما إلى فرق تختلف فيما بينها في طائفة من المعتقدات، فانقسم الخوارج إلى أزارقة ـ وهم أشدهم تطرفاً ـ وإباضية، ونجدات، وصفرية، وفرق أخرى أقل شأناً. وانقسم الشيعة إلى إمامية اثني عشرية، وإمامية سبعية (إسماعيلية)، وكيسانية، وزيدية. وقد قام كل من الخوارج والشيعة بثورات متصلة طوال العصر الأموي ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق نصر حاسم لتفرق كلمتهم وقلة عددهم، ولكن ثوراتهم أدت إلى زعزعة أركان الحكم الأموي. ومن هذه الطوائف كذلك جماعة عبد الله بن الزبير الذي كان يرى أنه أحق بالخلافة من يزيد بن معاوية، وقام بينه وبين بني أمية نزاع دموي استمر عشر سنوات وانتهى بمقتله والقضاء على أصحابه سنة ٧٣هـ. ومن هذه الطوائف من ثار على بني أمية لعدم رضاهم عن سياسة أميرهم، فثار عبد الرحمن ابن الأشعث على الحجاج ثورة كادت تزلزل أركان الحكم الأموي ولكنه أخفق في تحقيق النصر وانتهى الأمر بموته منتحراً، وثار يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك وانتهى أمره بالقتل.

ومن أهم ثورات الخوارج التي تمخض عنها عصر بني أمية ثورات الأزارقة الذين كانوا أشد الخوارج تطرفاً وتشدداً، وقد قتل زعيمهم نافع ابن الأزرق في موقعة دولاب مع أهل البصرة. وتوالت ثوراتهم بعد ذلك واستطاع القائد المحنك المهلب ابن أبي صفرة أن يبعد خطرهم ويصد حملاتهم وأن يقضي عليهم آخر الأمر. وفي الوقت عينه كان الخوارج الصفرية يشنون حملات عنيفة على مدينة الكوفة يقودهم الخارجي شبيب بن يزيد. وقد استطاع هذا الخارجي أن يهزم جيوشاً كثيرة أرسلها إليه الحجاج. بل لقد استطاع دخول الكوفة ومعه زوجه غزالة الحرورية، واضطر الحجاج أن يستنجد بعبد الملك الذي وجه لنجدته جيشاً من أهل الشام، وأخيراً هلك شبيب وزوجه وأخوه في موقعة على مشارف الكوفة. وفي أواخر العصر الأموي قام الخارجي الضحّاك بن قيس الشيباني بحملة على الكوفة في جمع غفير من الخوارج واستطاع الاستيلاء عليها ولكنه هزم بعدئذ في موقعة مع جيش وجهه إليه مروان بن محمد وانتهى الأمر بمصرعه. ولم تكد ثورته تنطفئ حتى انطلق الخوارج الإباضية من بلاد اليمن إلى الحجاز واستطاع قائدهم أبو حمزة الخارجي أن يستولي على مكة والمدينة ولكنه لم يستطع أن يصد الجيش الذي وجهه إليه مروان بن محمد من الشام فقتل في موقعة بوادي القرى.

وعلى الرغم من إخفاق ثورات الخوارج فإن ثوراتهم المتصلة كانت من أقوى الأسباب في إضعاف الحكم الأموي وجعله عاجزاً عن الوقوف في وجه أنصار الدعوة العباسية.

وكانت ثورات الشيعة أقل خطراً من ثورات الخوارج، فقد أعلن الحسين بن علي خلافه على يزيد بن معاوية ولما قدم بآل بيته إلى الكوفة تخلت عنه شيعته فانتهى أمره بالقتل ومعه جل آل بيته. وكذلك أخفقت ثورة التوابين في إحراز نصر حاسم على بني أمية. واستطاع المختار الثقفي أن يستولي على الكوفة وأن يهزم جيش أهل الشام ولكنه لم يستطع التغلب على جيش مصعب بن الزبير وقُتل. وكذلك أخفقت ثورة زيد بن علي بالكوفة لخذلان أهل الكوفة إياه فقتل وصلب كما قتل ابنه يحيى بعد ذلك.

ويتصل بالمؤثرات السياسية حركة الفتح الإسلامي التي بلغت أوجها في ذلك العصر، وقد استطاع الفاتحون المسلمون أن يمدوا حدود الدولة الإسلامية في حقبة قصيرة إلى أقصى المغرب وإلى بلاد الأندلس ومشارف بلاد الروم، وامتدت فتوحهم شرقاً إلى بلاد فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر وبلاد السند، فكان الفتح الإسلامي أسرع فتح عرفه التاريخ. وكان العرب الفاتحون حين يبسطون سلطانهم السياسي ينشرون معه عقيدتهم ولغتهم وأدبهم، كما كانوا يتأثرون بحضارة الأمم التي بسطوا سلطانهم عليها وبأدبها وعاداتها الاجتماعية. وقد أدت الفتوح إلى امتلاء أيدي الفاتحين بالفيء والأموال وأدى هذا إلى اختلاف نمط حياتهم اختلافاً بيناً عما كانت عليه يوم كانوا يعيشون حياة التقشف والضيق في جزيرتهم.

فكذلك وجد للأدب العربي في عصر بني أمية بيئات جديدة غير بيئة الجزيرة العربية، مهده الأول، فتلون الأدب بألوان هذه البيئات وتأثر بها، فكان لبيئات الشام والعراق وخراسان ومصر والمغرب والأندلس أثرها القوي في الحياة الاجتماعية والفكرية والأدبية.

ومن المؤثرات الاجتماعية في الحياة الأدبية كذلك ظهور طبقة الموالي التي كانت في تكاثر مستمر سواء من طريق الفتوح أو الشراء، وكان لا مفر من أن يكون لوجودها أثر واضح في المجتمع العربي كما كان لها أثرها في الحياة الأدبية. فقد حذقت طوائف من الموالي اللغة

العربية لنشأتهم بين ظهراني مواليهم العرب، ووقفوا على التراث الأدبي وما لبثوا أن شاركوا في الحياة الأدبية فظهر منهم الكتاب والشعراء. على أن بني أمية كانوا يقمعون أية محاولة يقوم بها الموالي لإبراز هويتهم القومية أو لرفع أصواتهم بنائرة العصبية المعادية للجنس العربي، فظلت الكلمة الأولى للعرب طوال ذلك العصر، على نقيض ماحدث في العصر العباسي.

ولئن أفلح بنو أمية في قمع العصبية القومية فإنهم لم يفلحوا في إخماد جذوة العصبية القبلية التي استعرت في ذلك العصر وبرزت على نحو أعنف وأبعد أثراً مما كانت عليه في العصر الجاهلي، وكان استعارها بفعل عوامل شتى اجتماعية وسياسية واقتصادية. وقد ظهرت في ذلك العصر التكتلات القبلية الواسعة فاحتدم الصراع بين العدنانية والقحطانية، كما نشب الصراع في إطار كل من هاتين الكتلتين. وقد تركت هذه الفتن القبلية صداها القوي في الحياة الأدبية، وفي الشعر خاصة، فنشط فن المناقضات وكثرت المفاخرات القبلية. ووقف الشعراء والخطباء وراء احتدام هذه العصبيات فكان الشعراء يلتقون في المربد والمحافل فيتفاخرون ويتهاجون والناس حلق حولهم وكل فئة تتعصب لشاعرها فتزداد نار العصبية بذلك اتقاداً.

وثمة عامل آخر كان له أقوى الأثر في الحياة الأدبية عصرئذ هو البلاط الأموي، وموقفه من الشعراء والخطباء. وكذلك موقف ولاة بني أمية منهم. فقد دأب خلفاء بني أمية وولاتهم على إكرام الشعراء الذين ينتجعونهم فأغدقوا عليهم الأموال بسخاء، فلا غرو أن يتجه الشعراء إلى فن المديح ويجعلوه فنهم الأول، وأن يتزاحم فحول الشعراء على أبواب الخلفاء والولاة يمدحونهم ويبالغون في إطرائهم ليظفروا بالعطايا والصلات، فإذا بفن المديح ـ الذي كان الجاهليون ينظرون إليه على أنه فن يزري بقائله ـ يغدو الفن الأول في الشعر العربي، وإذا بالشعراء المداحين يتنافسون في التقرب إلى أولي الأمر ليحظوا بالمال والشهرة فيخرج الشعر بذلك عن مساره الحق ويسلك مساراً آخر يبعد عن الصدق والأصالة.

وفي الميدان الفكري تظهر مؤثرات تتجه بالفكر العربي وجهات لا عهد له بها وتثير قضايا لم تخطر له من قبل، فيثور الجدل بين المسلمين في شؤون عقدية كالقضاء والقدر وحرية الإرادة والثواب والعقاب والكبائر ونحوها وتظهر الفرق الكلامية كالقدرية والمعتزلة والجهمية والمرجئة وغيرها ويشغل المسلمون بالجدل في هذه الأمور ويتلون الأدب الأموي من جراء ذلك بألوان فكرية تخصبه وتوسع آفاقه.

الفنون الأدبية في العصر الأموي

بلغت الفنون الأدبية التي سبق الحديث عنها في صدر الإسلام مستوى رفيعاً من النضج والنماء في العصر الأموي وهي: الشعر والخطابة والكتابة، وذلك لتضافر الكثير من العوامل.

الشعر

اتجاهات الشعر في العصر الأموي: بظهور الأحزاب السياسية في العصر الأموي ظهر لون جديد من الشعر لا عهد للعرب به من قبل هو الشعر السياسي، فكانت الأحزاب المصطرعة على الحكم تستعين بشعرائها لتأييد دعوتها ومبادئها ومنافحة خصومها، فكان لكل من الأمويين والخوارج والشيعة والزبيرية ومعارضي الحكم الأموي عامة شعراؤهم الناطقون بلسانهم، الذائدون عنهم. وقد بلغ الشعر السياسي من جراء هذا الصراع غايته من الارتقاء والانتشار حتى كاد الطابع السياسي يغلب على جل الشعر المقول عصرئذ، وكان الشعر أمضى الأسلحة في مناهضة الأعداء والذود عن مبادئ الجماعة السياسية في ذلك العصر، ومن هنا كان بنو أمية حُرَّاصاً على اصطناع الشعراء المجيدين وإغداق الأموال عليهم.

وكان شعراء الحزب الأموي أكثر شعراء العصر الأموي احتفالاً بتنقيح شعرهم وتهذيبه والعناية بالبناء الفني لقصائدهم ليأتي شعرهم في الصورة المكتملة فنياً إرضاء لممدوحيهم، ولكن شعرهم كان في جله يخلو من الصدق لأن الدافع إلى قوله كان الرغبة في العطاء، ولهذا لا يدهش الباحث أن يرى بعض شعرائهم ينقلبون على ممدوحيهم إذا قلب لهم الدهر ظهر المجن أو أصابهم غضب السلطان، صنيع الفرزدق مثلاً بالحجاج وقتيبة بن مسلم، فقد هجا الحجاج بعد موته وهجا قتيبة بن مسلم بعد مصرعه إرضاء لسليمان بن عبد الملك، وكان قد مدحهما قبل ذلك.

وكان شعراء هذا الحزب يستعينون بطائفة من الحجج لدعم سلطان بني أمية، فهم الذين اختارهم اللّه لتولي أمور المسلمين ولا راد لمشيئته، وهم أفضل من يتولى الخلافة لما اتصفوا به من عدل وسماحة وحزم وتقوى، وهم ورثة عثمان وأولياؤه، إلى غير ذلك من الحجج.

أما شعراء الخوارج فكان شعرهم يمثل الالتزام العقدي خير تمثيل، فهم إنما وقفوا إلى جانب هذا الحزب بدافع إيمانهم بمبادئه وتشربهم عقائده، لارغبة في عطاء أو مغنم، ومن هنا اتسم شعرهم بالصدق وتوقد العاطفة. وكانوا يقولون شعرهم عفو البديهة، ولا يجنحون إلى تكلف أو تهذيب، لأنهم ماكانوا يتوخون إرضاء ممدوح أو اجتلاب مغنم، وقد جعلوا شعرهم مجتلى مشاعرهم ومعرضاً لمبادئهم، وعلى أن النثر أقدر على بيان المعتقدات والاحتجاج لها من الشعر نجد أنهم استطاعوا عرض طائفة من معتقداتهم في شعرهم كقولهم بالتساوي بين المسلمين جميعاً في حق تولي الخلافة، لا فضل لقبيلة على أخرى، وكذهابهم إلى إنكار التحكيم بين علي ومعاوية وتكفير علي لقبوله إياه، وغير ذلك من معتقداتهم.

وقد نحا الشيعة نحو شعراء الخوارج في التزامهم بيان معتقداتهم والاحتجاج لها في أشعارهم وعزوفهم عن التكسب بشعرهم ـ إلا قلة منهم ـ. وكانت أقوى حججهم قولهم بأن قريشاً أولى بتولي الخلافة من جميع القبائل وأن آل البيت هم أولى أسر قريش بهذا الأمر لقرابتهم من رسول الله ﷺ، وكانوا يأخذون على بني أمية اغتصابهم حق بني هاشم وعدم أخذهم بالكتاب والسنة في سياستهم أمور المسلمين.

وقد شهد العصر الأموي ازدهار فن آخر من فنون الشعر هو الشعر الغزلي الذي تفتحت براعمه في صدر الإسلام، وقد توافرت جملة من الدواعي لازدهار هذا الفن بأنواعه الثلاثة: الحضري والبدوي والنسيب. ازدهر الغزل في حواضر الحجاز، مكة والمدينة والطائف، وكان شعراء الغزل الحجازيون منصرفين في كثرتهم إلى اللهو وسماع الغناء والتعرض للنساء، وقد وجدوا بين أيديهم وفرة من المال أفاءته الفتوح على قومهم فلم يحتاجوا إلى الكد في سبيل كسبه، كما وجدوا أنفسهم بعيدين عن مواطن الصراع السياسي في الشام والعراق وخراسان. فانصرفوا إلى الشعر الغزلي وافتنوا فيه افتناناً ارتقى به إلى مرتبة رفيعة لم يبلغها الشعر العربي في أي عصر من عصوره. وكان رائد هذا اللون من الغزل الشاعر القرشي عمر بن أبي ربيعة [ر].

والضرب الثاني هو الشعر الغزلي البدوي الذي ازدهر في بوادي نجد والحجاز خاصة. وقد عرف هؤلاء بصدق عاطفتهم وعفتهم، ومنهم من قاده عشقه إلى الهلاك، وزعيم هذه الطائفة جميل بن معمر [ر] الذي اشتهر بحبه لبثينة. وقد وقف هؤلاء وأولئك جل شعرهم على الغزل ونهضوا بهذا الفن وأخصبوه بمعان جديدة وصور مبتكرة لم يعرفها الشعراء قبلهم.

والضرب الثالث من الغزل هو النسيب الذي كان الشعراء يأتون به في مطالع قصائدهم، وقصائد المديح خاصة. وقد ارتقى النسيب كذلك والتزمه الشعراء في مطالع جل قصائدهم، وأطاله بعضهم إطالة تلفت النظر كجرير بن عطية.

وقد أدى احتدام العصبيات القبلية عصرئذ إلى وفرة الشعر المقول بدافع العصبية وهو الشعر القبلي. وإلى ظهور ضرب من الشعر متصل بهذه العصبية هو المناقضات. وكان الجاهليون قد عرفوا طرفاً من هذه المناقضات ولكن لم يتح لها أن تذيع وتكثر في ذلك العصر. فلما كان العصر الأموي أقبل الشعراء على المناقضات وأكثروا منها إكثاراً يلفت النظر، وكان النصيب الأوفى منها لشعراء الثالوث الفحول: جرير والفرزدق والأخطل، حتى لقد اجتمع لهم منها دواوين ضخمة.

ولهذا الضرب من الشعر أصول التزمها الشعراء المتناقضون، ومنها اتفاق القصيدتين في الوزن والقافية، ونقض كل شاعر معاني خصمه. وقد نهض هذا الفن على أيدي شعراء العصر الأموي وبلغ غاية لم يبلغها في العصور الأدبية الأخرى. على أن مما يشين النقائض ما احتوته من بذاءة لفظية وفحش وهتك للعورات.

وكانت المناقضات تدور في إطارين: إطار العصبية الواسعة بين الجذمين: العدناني والقحطاني، أو بين فرعي عدنان: مضر وربيعة. والإطار الثاني هو إطار العصبية الضيقة بين قبائل تمت كلها إلى أصل واحد، كالمناقضات بين بني يربوع وبني دارم، وكلاهما من تميم، وشعراء هذه المناقضات هم جرير والفرزدق والبعيث، وكالمناقضات بين ابن ميادة المري والحكم الخضري، وكلاهما من قيس عيلان.

وثمة لون آخر من الشعر عرفه العصر الأموي هو الشعر الزهدي، وهو شعر أوجدته حركة الزهد التي شهدها العصر الأموي وإن لم تبلغ فيه غايتها.

وقد شهد العصر الأموي كذلك ازدهار فن الرجز وظهرت فيه طبقة من الرجاز نهضوا بهذا الفن ونحوا به نحو القصيدة وأطالوه إطالة مسرفة.

خصائص الشعر في العصر الأموي: حين يحاول الباحث تقصي خصائص الشعر في عصر بني أمية لا بد له أن يقف عند كل ضرب من ضروب الشعر التي ظهرت عصرئذ لئلا يقع في تعميم يبعده عن الدقة وأول الفنون الشعرية فن المديح. فقد ظهر في العصر الأموي شعراء اتخذوا الشعر حرفة يتكسبون بها وأكبوا على العناية بشعرهم وتجويده وهم الشعراء المداحون، وقد نفقت سوق الشعر عصرئذ لتقريب الخلفاء والولاة الشعراء وإغداق الهبات عليهم، فراح الشعراء يتنافسون في تجويد شعرهم وتنقيحه بغية إرضاء الممدوحين والنقاد، وكان لهؤلاء الشعراء الفضل في الاتجاه بالقصيدة العربية نحو النموذج الفني المكتمل، سواء من حيث بناؤها الفني أو من حيث إتقان الصياغة ومتانة الأسلوب واستنباط المعاني الجديدة.

وقد التزم هؤلاء الشعراء بناء القصيدة في صورته النموذجية، فهم يحرصون على استهلال قصائدهم بالوقوف على الأطلال والتخلص من وصف الأطلال إلى النسيب، يطيلون فيه تارة ويوجزون تارة أخرى، ثم ينتقلون إلى وصف الرحلة إلى الممدوح فيصفون الطريق وما لقوه فيه من أنواع الحيوان وما كابدوه من مشقات السفر، حتى ينتهوا إلى المديح فيفيضون في تعداد مناقب الممدوح ومآثره من كرم وشجاعة ونبل محتد وغير ذلك، مع جنوح إلى المبالغة والتزيد. فإذا فرغوا من المديح هزوا أريحية الممدوح إلى العطاء حتى يبسط كفه لهم، وربما جنح بعضهم إلى شيء من الضراعة والإلحاح في الاستعطاء.

إن جنوح شعراء العصر الأموي إلى التكسب بشعرهم لم يكن ظاهرة جديدة في الشعر العربي، فقد بدأ الاتجاه إلى التكسب بالمديح منذ أواخر العصر الجاهلي، ولكن هذا الاتجاه لم يلق قبولاً لدى الكثيرين، فلما جاء العصر الأموي استشرت هذه الظاهرة وغلب المديح على فنون الشعر الأخرى وتبوأ المنزلة الأولى بينها، وظلت للمديح هذه المنزلة طوال العصر العباسي بعد ذلك.

وحين تصدى الباحثون لتقويم هذا الشعر من الناحية الفنية اختلفت آراؤهم، فمنهم من رأى أن هذا الاتجاه أضر بالشعر العربي وانحرف به عن مساره القويم وحط من منزلة الشعراء، لأن الشعر عندهم ينبغي أن يكون صدى الشعور الصادق وتصويراً للعواطف الذاتية، بعيداً عن النفاق والكذب والزيف، ورأى آخرون أن المعول على إجادة الصياغة وابتكار المعاني وليس على صدق العاطفة أو كذبها.

وعلى نحو ما لوحظ في شعر المديح من إتقان الصنعة يلاحظ هذا الاتقان كذلك في فن الغزل الذي أصاب في عصر بني أمية ارتقاء لا نظير له، فقد افتن الشعراء ـ حضريهم وبدويهم ـ في ابتكار المعاني الغزلية التي لم تخطر في بال أسلافهم. ولو رجع الباحث إلى شعر ابن أبي ربيعة وحده لوجد فيه فيضاً من المعاني المبتكرة التي لم يسبق إليها، مع اتباع أسلوب جديد يلائم هذا الغزل. وشتان ما شعر شعراء الغزل الجاهليين وشعر الإسلاميين، سواء من حيث ابتكار المعاني أو الافتنان الأسلوبي أو التعبير عن العواطف وتصويرها.

ومن الفنون الأخرى التي طرأ عليها التجديد فن الخمريات. وقد نهض خاصة على يد الأخطل والوليد بن يزيد.

وفن آخر أصاب حظاً وفيراً من التطور والارتقاء في العصر الأموي هو فن الهجاء والمناقضات، فقد نقل شعراء الهجاء في ذلك العصر الهجاء من صورته البسيطة الساذجة عند شعراء الجاهلية إلى صورته المتقنة المعقدة، واستعانوا بألوان الثقافة التي انتشرت عصرئذ العقلية والدينية والأدبية لإسباغ ثوب جديد على هذا الهجاء. فظهرت فيه أساليب جديدة، وافتن الشعراء في ابتكار المعاني والصور الهجائية، وجنحت طائفة من الشعراء الهجائين إلى البذاءة اللفظية والصور الفاحشة ونهش الأعراض وذكر العورات. وقد تطور فن المناقضة بنوع خاص وأصبح للنقائض شروطها وأساليبها وطالت طولاً مسرفاً، فكان العصر الأموي بحق عصر نهوض فن النقائض وارتقائه.

وتتجلى في بعض أغراض الشعر الأموي روح إسلامية قوية مؤثرة تترك صداها العميق في النفس. ومن المحقق أن القرآن الكريم كان له أثره البين في الشعر الأموي، سواء من حيث الأغراض أو المعاني أو الأسلوب.

أعلام الشعراء في العصر الأموي: كان لكل حزب من الأحزاب السياسية شعراؤه الناطقون بلسانه، وكان من أبرز شعراء الحزب الأموي جرير والفرزدق والأخطل، وهؤلاء الثلاثة كانوا في الوقت عينه أشهر شعراء المناقضات في ذلك العصر. وقد اتصل جرير أول الأمر بالحجاج والي العراق ثم وفد على عبد الملك بن مروان واتصلت بعد ذلك مدائحه له ولمن جاء بعده من الخلفاء. أما الفرزدق فلم يكن هواه في بني أمية ولكنه مدحهم طمعاً في العطاء. واتصل الأخطل ببني أمية منذ زمن يزيد بن معاوية واجترأ على هجاء الأنصار وكاد معاوية أن يقطع لسانه إرضاء لهم لولا تدخل يزيد، ثم أصبح بعدئذ شاعر بني أمية الأول.

ومن شعراء الحزب الأموي عبد الله بن همام السلولي، وعبد الله بن الزبير الأسدي، وعدي ابن الرقاع العاملي، والنابغة الشيباني، والبعيث المجاشعي، وأبو صخر الهذلي، وأبو العباس الأعمى الذي ظل على وفائه لبني أمية حتى بعد انقضاء دولتهم.

أما الحزب الخارجي فأشهر شعرائه الطرماح ابن حكيم الطائي [ر] وقد كانت بينه وبين الفرزدق مناقضات كثيرة، وعمران بن حطان الذهلي [ر] رئيس القعدة من الصفرية وشاعرهم، وقطري بن الفجاءة [ر]، وقد بايعه الأزارقة أميراً للمؤمنين ثم انتهى أمره بالقتل، ومن شعرائهم كذلك عمرو بن الحصين، ومعاذ ابن جوين، ويزيد بن حبناء.

ومن الشعراء الذين ناصروا الحزب الشيعي الكميت الأسدي [ر]، وكان من الزيدية، وقد قال في مديح بني هاشم قصائد مطولة سماها «الهاشميات»، ومنهم كثير بن عبد الرحمن [ر]، وكان من الكيسانية، ولكنه لم ينقطع إلى مديحهم بل قال أيضاً مديحاً في بني أمية فضلاً عن شعره الغزلي. ومنهم كذلك أبو الطفيل عامر بن واثلة، وسليمان بن قتة، وعوف بن عبد الله بن الأحمر.

ولم يقف في صف الحزب الزبيري إلا شاعر واحد هو عبيد الله بن قيس الرقيات [ر] وكان بينه وبين مصعب بن الزبير صداقة وطيدة وقال جلّ شعره في مدحه.

وثمة شعراء أيدوا الثورات والفتن التي نشبت في العصر الأموي ومنهم أعشى همدان[ر] الذي ناصر عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته وحرضه على قتال الحجاج، وقد ظفر به الحجاج بعد إخماد الثورة وقتله، ومنهم أبو جلدة اليشكري الذي ظاهر كذلك ابن الأشعث، وانتهى الأمر بمقتله.

وكان ثمة شعراء يرافقون المسلمين في فتوحهم، ويحرضون المقاتلين أو يقولون الشعر في مديح قادة الجند والفاتحين، وأشهر هؤلاء كعب الأشقري الأزدي الشاعر الفارس، وقد شارك في قتال الأزارقة مع المهلب بن أبي صفرة، وله شعر مقول في فتوح ما وراء النهر ومديح قتيبة بن مسلم.

وفي ميدان الشعر الغزلي ثمة شعراء أصابوا شهرة بعيدة، وجلهم ينتمون إلى الحجاز ونجد، وشاعر الغزل الحضري غير المدافع هو عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، وكان يعيش في بحبوحة ورغد فلم يجد مايشغله فالتفت إلى التغزل بالنساء وأجاد هذا الفن وكانت له فيه منزلة الريادة.

وممن أجاد هذا اللون من الغزل أيضاً عبد الله بن عمر العرجي [ر] الذي ينتهي نسبه إلى عثمان بن عفان، وقد سبب له تعرضه لنساء الأشراف الأذى والسجن ومات في سجنه. ومنهم الحارث بن خالد المخزومي، وقد ولاه عبد الملك على مكة حقبة من الزمن. ومنهم أبو دهبل الجمحي، وجل شعره مقول في امرأة اسمها عمرة. وبرز من الأنصار شاعر غزلي مشهور هو الأحوص عبد الله بن محمد الأوسي[ر]. وكان يتعرض لنساء المدينة ذوات الشأن فنفاه عاملها إلى جزيرة دهلك.

أما الغزل البدوي فكان رائده الأول جميل ابن معمر الذي تعشق بثينة وقال جل شعره في التغزل بها فنسب إليها. وقد تتلمذ له شاعر مشهور هو كثير بن عبد الرحمن الذي تغزل بعزة ونسب إليها. ويبدو أنه لم يكن صادق الصبابة، على نقيض أستاذه، وقد سبق القول آنفاً أنه كان من شعراء الشيعة، وكان إلى ذلك كله مداحاً لعبد الملك وبني أمية.

ومن شعراء الغزل أيضاً قيس بن الملوح الذي عرف بمجنون ليلى [ر]. وقد أصبحت قصته نموذجاً للحب العذري الصادق الذي يقود صاحبه إلى التلف والهلاك.

وممن لقي مصير المجنون كذلك عروة بن حزام الذي تعشق ابنة عمه عفراء فلما أخفق في الزواج منها استطير عقله وظل يهذي بحبها حتى مات.

ومن هؤلاء الشعراء كذلك قيس بن ذريح [ر] الذي أحب لبنى الخزاعية وناله الإخفاق في حبه.

إن قصص العشاق العذريين تتشابه في أنها تدور كلها حول إخفاق الشاعر في الزواج ممن أحب وانتهاء أمره بالموت أو الجنون أو الجلاء عن الديار.

وثمة شاعر غزلي عفيف كان في الوقت عينه فقيهاً محدثاً هو عروة بن أذينة الكناني [ر]، وشعره يمثل الشعر الغزلي الحضري العفيف.

ومن أعلام الشعراء الغزليين من أهل البادية ذو الرمة غيلان بن عقبة [ر]، وكان يتغزل بفتاة اسمها مية، وهو أبرع من وصف الأطلال والديار، وغزله عفيف بعيد عن الفحش، وقد شهد له بالتقدم في الغزل فحول الشعراء عصرئذ.

واتجهت طائفة من شعراء العصر الأموي إلى وصف الخمرة، وممن برزوا في هذا الفن الأخطل التغلبي والوليد بن يزيد.

ومن أعلام الشعراء الذين تناولوا الشعر الزهدي والوعظي عروة بن أذينة الذي جمع بين الغزل العفيف والزهد، وأبو الأسود الدؤلي [ر]، وسابق البربري، ورابعة العدوية [ر].

وفي مقدمة الرجاز الأغلب بن عمرو العجلي، وأبو النجم المفضل بن قدامة العجلي[ر]، والعجاج بن عبد الله التميمي [ر]، وابنه رؤبة[ر] الذي أدرك العصر العباسي.

ومن الشعراء الذين نافحوا عن قبائلهم القطامي عمير بن شييم التغلبي [ر]، وقد وقف إلى جانب بني تغلب ونافح عنهم حين ثارت الحرب بينهم وبين قيس عيلان، ومنهم أيضاً عبيد بن حصين النميري المشهور بلقب الراعي[ر] وكان من فحول شعراء العصر الأموي، ويعد من الشعراء الذين نصروا الحزب الأموي وله قصائد في مديح بعض خلفاء بني أمية.

الخطابة والمناظرات

ضروب الخطابة في العصر الأموي: عرف العصر الأموي أنواع الخطابة التي كانت شائعة في صدر الإسلام، إضافة إلى أنواع جديدة أوجدها تطور الحياة الفكرية والأحداث السياسية والاجتماعية وظهور الفرق الدينية والكلامية.

وفي مقدمة الأنواع الخطابية التي ازدهرت

عصرئذ الخطابة السياسية. وقد توافرت جملة من العوامل لازدهارها من ذلك الصراع على الحكم، فإن استئثار بني أمية بالحكم وجعله وراثياً بعد أن كان شورياً أثارا معارضة عنيفة من قبل فئات سياسية مناوئة للحكم الأموي وأبرزها: الحزب الخارجي، الحزب الشيعي، والحزب الزبيري، فضلاً عن نشوب ثورات تتوخى القضاء على الحكم الأموي كثورة ابن الأشعث وثورة ابن المهلب.

أدت وفرة الأحداث والصراع بين الأحزاب السياسية إلى ازدهار الخطابة السياسية ازدهاراً لم تشهد نظيره في أي من العصور، إذ كان لها الشأن الأول في استمالة الأنصار ومقارعة الخصوم وإرهاب الثائرين وتشجيع المناضلين وعرض حجج كل من الأحزاب المصطرعة ومناظرة أعدائهم.

ويتصل بالخطابة السياسية الخطب الحربية، فقد استدعت حركة الفتح الإسلامي التي بلغت مداها الأقصى في عصر بني أمية وجود خطباء يذكون وقد الحماسة في نفوس المقاتلة ويحضونهم على مجاهدة أعدائهم. وكان قادة الجيوش في الغالب ممن يجيدون الخطابة، ومن هذا القبيل خطبة طارق بن زياد يوم فتح الأندلس، وخطب ولاة خراسان في تحريضهم الجند على القتال إبان الفتوح فيما وراء النهر كخطب قتيبة بن مسلم ويزيد بن المهلب وأسد ابن عبد الله القسري وغيرهم.

وثمة ضرب من هذه الخطب تختلط فيه المعاني السياسية بالمعاني الدينية هو القصص، فكان القصاص يرافقون الجيوش الغازية ويثيرون الحمية في النفوس عن طريق التمثل بالآيات القرآنية التي تحث على الجهاد وتذكير المجاهدين بما ينتظرهم عند الله من الثواب العظيم وربما استعانوا بأخبار فرسان العرب القدامى لتحقيق هذه الغاية

والضرب الثاني من الخطابة هو الخطابة الدينية، وقد نالت هذه الخطابة حظاً وفراً من الازدهار والنماء في عصر بني أمية وإن لم تضارع الخطابة السياسية. ومرد ازدهارها إلى دواع شتى منها ظهور الفرق الدينية، وقد اكتسى حزبا الخوارج والشيعة مع الزمن ثوباً دينياً بعد أن كانا حزبين سياسيين. وهذه الفرق كانت تستعين بخطبائها في الدعوة إلى مبادئها والرد على خصومها، وكثيراً ما كانت المناظرات تقوم بين الفريقين المتنازعين.

ومما ساعد على نمو الخطابة الدينية كذلك حركة الزهد التي شهدها العصر الأموي، فقد ظهر في ذلك العصر جماعة من الزهاد وجهوا همهم إلى وعظ الناس وصدهم عن التهالك على ملاذ الدنيا، وكان ظهور حركة الزهد رداً على انغماس عامة الناس في الشهوات، ولا سيما أولئك الذين أفاءت عليهم الفتوح أو التجارة المال الكثير. وكان في مقدمة الوعاظ الحسن البصري الذي نذر نفسه لهداية القوم وتزهيدهم في الدنيا الفانية بمواعظ بلغت الغاية في بلاغتها وقوة أثرها.

وإلى جانب القصاص الذين كانوا يرافقون الحملات الغازية لحث الجند على الاستبسال في القتال وجدت جماعة أخرى من القصاص تلازم المساجد وتقوم بسرد القصص الديني وتفسير القرآن الكريم تفسيراً ممزوجاً بقصص الأنبياء وأخبار الأمم القديمة، وكان بعضهم يجنح إلى المبالغة والتزيد كي يستميلوا الناس إلى قصصهم.

ويضاف إلى هذه الأنواع من الخطابة الدينية تلك الخطب التي كانت تلقى في المساجد أيام الجمع وفي الأعياد، وكان الوعظ غالباً على هذه الخطب إلا أنها لم تكن تخلو أحياناً من التعرض للجوانب السياسية.

وثمة خطب كان يلقيها الزهاد بين أيدي الخلفاء والولاة لتزهيدهم في الدنيا وقد أطلق عليها لفظ «المقامات».

ومن ألوان الخطابة الدينية أخيراً الخطب المتصلة بعقائد المتكلمين. وقد شهد العصر الأموي ظهور أوائل الفرق الكلامية كالمرجئة والقدرية والمعتزلة والجبرية، وكان لكل من هذه الفرق دعاتها الذين يروجون لعقائدها ويجادلون خصومها، وكثيراً ماكانت المناظرات تقوم بين هؤلاء، كل يدلي بحجته وأدلته، فارتقى بذلك فن المناظرة، وهو فن لم يعرفه العرب قبل، وفي حين كانت ضروب الخطابة الأخرى قوامها العناصر العاطفية كان قوام المناظرات العناصر العقلية المنطقية، وقد بلغ هذا الفن غايته في العصر العباسي.

والضرب الثالث من الخطابة هو الخطابة الحفلية. والمراد بالخطابة الحفلية الخطب التي كانت تلقى في المحافل والمجالس والأسواق لغرض من الأغراض المتصلة بالحياة الاجتماعية كالمفاخرة والتهنئة والتعزية والتكريم والشكوى وعقد النكاح وإصلاح ذات البين ونحو ذلك.

وقد حظيت هذه الخطب بقسط وفر من النماء والارتقاء في العصر الأموي لتوافر دواعيها، فكانت الوفود تقدم على الولاة والخلفاء ويقوم خطباؤها فيلقون الخطب بين يدي الوالي والخليفة في الغرض الذي قدموا من أجله. وربما اجتمع في مجلس واحد خطباء من قبائل شتى فيجري بينهم التفاخر بقبائلهم والإشادة بمآثرها. وقد شهد العصر الأموي استعار نار العصبية القبلية على نحو لم تعرفه العصور السابقة وأدى استعارها إلى نمو الشعر القبلي واتساع نطاقه من جانب وإلى كثرة المفاخرات القبلية من جانب آخر، ولا سيما بين خطباء العدنانية والقحطانية.

ومما يلفت النظر في ذلك انتقال مراكز النشاط الأدبي من البوادي إلى الحواضر والأمصار المحدثة التي ازدحمت بأفواج المهاجرين إليها من شتى قبائل العرب، فأدى ذلك إلى وقوع المفاخرات بين خطباء تلك القبائل في تلك الحواضر فضلاً عما قام بين شعرائها من مناقضات.

وقد ظلت الخطابة الحفلية التي كانت معروفة من قبل قائمة في العصر الأموي كخطب الإملاك وخطب إصلاح ذات البين وخطب التعزية وغيرها.

خصائص الخطابة في العصر الأموي: كان الخطباء الأمويون يعنون بتجويد خطبهم وتحبيرها وتنميقها حتى تأتي في الصورة التي يرتضونها ولم يكونوا يرسلون الكلام عفواً على البديهة - صنيع الجاهليين - وقد أثر عن البعيث الخطيب الشاعر قوله: «إنّي والله ما أرسل الكلام قضيباً خشيباً وما أريد أن أخطب يوم الحفل إلا بالبائت المحكك».

وكان من ثمرة هذا التنقيح أن جاءت خطب العصر الأموي منسقة الأفكار، مرتبة الأقسام، محكمة التسلسل. وتظهر هذه السمات على نحو جلي في خطبة زياد التي قالها يوم قدم البصرة.

وكان من خطباء العصر الأموي من تعمد محاكاة أهل البادية في جزالة أسلوبهم وبداوة ألفاظهم. ويظهر الطابع البدوي في خطب الحجاج خاصة. على أن أسلوب الخطابة الأموية كان يتفاوت بتفاوت أغراضها وموضوعاتها.

وقد ظلت خصائص الخطابة التي وجدت في خطب صدر الإسلام قائمة في الخطب الأموية، ومن ذلك استهلال الخطبة بذكر اسم الله وحمده وإلا كانت بتراء وتوشيحها بآي من القرآن الكريم وإلا كانت شوهاء، وقد يتمثل الخطيب بشيء من الشعر أو الرجز.

وربما وقع السجع في طائفة من الخطب الأموية ولكن الخطباء ماكانوا يسرفون في الإتيان به كراهة محاكاة سجع الكهان، وكان النبي ﷺ وخلفاؤه يوصون الخطباء بتحامي هذا السجع.

وحين ظهرت الفرق الكلامية برزت الحاجة إلى تعليم أتباع كل فرقة أصول الخطابة ووسائل الإقناع وتدريبهم على محاجة خصومهم بالبراهين والأدلة العقلية، وظهر صدى ذلك في خطبهم ومناظراتهم من حيث خصب الأفكار وتنسيقها وعمقها واستنادها إلى المنطق وأصول الجدل.

وفي الوسع القول إن فن الخطابة لم يبلغ في أي عصر من العصور مابلغه في العصر الأموي من النماء والنضج.

أعلام الخطباء في العصر الأموي: ظهر في العصر الأموي عدد وفر من الخطباء في شتى ضروب الخطابة، ومن اللافت للنظر في ذلك العصر ظهور جماعات من الخطباء تنتمي كل منها إلى أسرة واحدة. ومن هؤلاء آل رقبة الذين ينتمون إلى قبيلة عبد القيس الربعية، ومن الخطباء المشهورين في هذه الأسرة كرب بن رقبة وابنه مصقلة بن كرب، وهو أشهر خطباء هذه الأسرة، وكان أيام الحجاج. وقد ذكر الطبري أن الحجاج لما دخل الكوفة بعد هزيمة ابن الأشعث أجلس مصقلة بن كرب إلى جانبه وأمره أن يخطب فيشتم كل امرئ بما فيه. وكان ابنه كرب بن مصقلة خطيباً مفوهاً كذلك، وكان له خطبة يقال لها «العجوز» كان آل رقبة يفاخرون بها.

ومن الأسر التي اشتهرت بالخطابة كذلك آل الأهتم من قبيلة تميم، وهي أعرق الأسر العربية في الفن الخطابي، وعرف منها في العصر الجاهلي والإسلامي عمرو بن الأهتم [ر]، وأخوه عبد الله بن الأهتم. وكان لعبد الله ولدان اشتهرا بالخطابة في عصر بني أمية هما صفوان ابن عبد الله بن الأهتم، وعبد الله بن عبد الله ابن الأهتم. وقد ذكر أن عبد الله هذا دخل على عمر بن عبد العزيز فألقى بين يديه خطبة بليغة عرض فيها بأسلاف عمر من بني أمية.

وفي أواخر العصر الأموي ظهر من هذه الأسرة خطيبان أصابا شهرة بعيدة هما خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم، وشبيب بن شيبة ابن عبد الله بن عبد الله بن الأهتم، وكان لهذين الخطيبين شأن كبير في العصر العباسي كذلك.

ومن الأسر القرشية التي كان لها حظ واف من الشهرة الخطابية عصرئذ آل العاص، وهم من بني أمية. ومن مشهوري خطباء هذه الأسرة سعيد بن العاص [ر]، وابنه عمرو بن سعيد الملقب بالأشدق [ر]، وهو أشهر خطبائها. ومنها كذلك عمرو بن سعيد بن عمرو بن العاص المعروف بعمرو بن خولة - نسبة إلى أمه - وهو من الخطباء الذين فاخر بهم بنو أمية بني هاشم.

ومن الأسر التي اشتهرت بالخطابة الدينية في ذلك العصر أسرة فارسية الأصل تنتمي بالولاء إلى قبيلة رقاش البكرية، ومن هذه الأسرة يزيد بن أبان الرقاشي، وكان من القصاص المجيدين، وابن أخيه الفضل بن عيسى بن أبان القاص. وكان عمرو بن عبيد يحضر مجلسه، ثم اشتهر بعدئذ ابنه عبد الصمد بن الفضل الرقاشي.

إلى جانب هذه الأسر الخطابية ظهر عدد جمّ من الخطباء المجيدين، وقد تقدم القول إن كل حزب من الأحزاب السياسية كان يستظهر بطائفة من الخطباء للمنافحة عنه. وقد برز من الحزب الأموي خطباء من الأسرة الأموية أشهرهم معاوية بن أبي سفيان، وابنه يزيد، وعبد الملك ابن مروان، وسليمان بن عبد الملك، وعتبة بن أبي سفيان، وعمرو بن سعيد الأشدق.

وأشهر خطباء الحزب الأموي زيادة بن أبي سفيان [ر]، والحجاج بن يوسف [ر]، وكلاهما من قبيلة ثقيف التي كانت تستوطن الطائف. وقد تجلى نبوغ زياد الخطابي منذ أيام عمر بن الخطاب، ودعاه عمر بالخطيب المصقع. وقد مهدت له براعته البيانية والحسابية وثقافته الطريق لتولي الإمارة أيام علي ومعاوية، فولاه علي فارس وكرمان، وبعد مقتل علي استماله معاوية إلى صفه واستلحقه بنسبه وولاه البصرة، وهي يومئذ تموج بالفتن والاضطراب، فاستطاع بحنكته السياسية وحزمه القضاء على الفتنة وحمل أهل البصرة على طاعة بني أمية وأشاع الأمن والاستقرار فيها. وما لبث معاوية أن ضم إليه الكوفة بعد وفاة واليها المغيرة بن شعبة [ر]، فكان أول من جمع له العراقان. ولما توفي سنة ٥٣هـ كان الأمن والهدوء يعمان أرجاء العراق.

وقد سار الحجاج بن يوسف على خطا سلفه زياد ولكنه كان أكثر ميلاً إلى البطش وسفك الدماء. وكان يضارعه في البراعة الخطابية، وشهد له معاصروه بذلك فقال مالك بن دينار: «ما رأيت أحداً أبين من الحجاج، إن كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم إليه حتى أقول في نفسي: لأحسبه صادقاً وإني لأظنهم ظالمين له».

ومن ولاة بني أمية الذين اشتهروا بالخطابة خالد بن عبد الله القسري [ر] وأخوه أسد، وروح بن زنباع، وعبد الله بن عامر، وبلال بن أبي بردة الأشعري، والمهلب بن أبي صفرة، وابنه يزيد، وقتيبة بن مسلم، ونصر بن سيار.

وظهر من الخوارج كثرة من الخطباء المجيدين منهم قطري بن الفجاءة [ر]، وعبيدة بن هلال اليشكري، والمستورد بن علفة، وزيد بن جندب الإيادي، وقد أشاد الجاحظ بفصاحته وبراعته الخطابية، وعمران بن حطان شاعر الصفرية وخطيبهم، وصالح بن مسرح وقد اشتهر بقصصه ووعظه لأصحابه، والضحاك بن قيس الشيباني. وأشهر خطباء الخوارج في ذلك العصر هو أبو حمزة الخارجي الإباضي [ر]، وقد انتهت إلينا طائفة من خطبه تنبئ بمهارته البيانية المتفوقة.

وبرز من رجال الحزب الشيعي عصرئذ الحسن والحسين ابنا علي رضي الله عنهم، وقد ورثا عن أبيهما البلاغة والمقدرة الخطابية. ومن خطباء الشيعة كذلك زيد بن علي، رأس الزيدية، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، وحفيده عبد الله بن معاوية بن عبدالله. ومنهم كذلك صعصعة بن صوحان، والمختار الثقفي، وسليمان بن صرد زعيم التوابين، وعبيد الله بن عبد الله المري.

ومن خطباء الحزب الزبيري المبرزين عبد الله ابن الزبير، وأخوه مصعب، وعثمان بن عروة بن الزبير، وأخوه عبد الله بن عروة، وكان هذا أبرع الزبيرية وكانوا يشبهونه في بلاغته بخالد بن صفوان.

وأشهر الخطباء الدينيين عصرئذ هو الحسن البصري [ر]، ولم يحظ أحد من رجال الدين

بمثل المنزلة التي حظي بها الحسن في ذلك العصر، وعلى أنه كان من أصل غير عربي فقد أجاد الخطابة إجادة العرب الخلص، وذلك لأنه نشأ نشأة عربية بين مواليه الأنصار، حتى كانوا يشبهونه برؤبة بن العجاج، وشهد له أبو عمرو ابن العلاء بالفصاحة فقال: «لم أر قرويين أفصح من الحسن والحجاج». وكان الحسن يعظ فيأسر القلوب ويسيل الدموع. وكانت حلقة «صاحب العمامة السوداء» أكثر حلقات المسجد ازدحاماً بالوافدين، وكانوا يشبهون كلامه بكلام الأنبياء، ولما توفي سنة ١١٠ هـ كانت وفاته حدثاً عظيماً في تاريخ البصرة، وقد مشى أهلها جميعاً في جنازته واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر في الجامع.

ومن فصحاء أهل الكلام وخطبائهم واصل ابن عطاء [ر]، شيخ المعتزلة، وقد بلغ من مقدرته الخطابية أنه خطب خطبة كاملة تجنب فيها حرف الراء لئلا تظهر لثغته. ومن خطباء الوعظ سحبان بن زفر الوائلي [ر] الذي ضرب المثل ببلاغته، وقد رووا أنه خطب عند معاوية ذات يوم من صلاة الظهر حتى صلاة العصر. ومنهم كذلك عمر بن عبد العزيز الذي كان يكثر من وعظ الرعية، ومنهم الأوزاعي [ر]، وإياس بن معاوية [ر]، وجامع المحاربي، وصالح المري القاص.

ومن أشهر خطباء المحافل في ذلك العصر الأحنف بن قيس [ر] سيد بني تميم، والبعيث المجاشعي، والنخار بن أوس العذري، وصعصعة ابن صوحان.

الكتابة: عرف العرب الكتابة منذ العصر الجاهلي لتوافر الحاجة إليها، إذ كانوا يحتاجون إليها في كتابة العهود ومواثيق الأحلاف وصكوك التعامل والتبادل التجاري، وفي كتابة الرسائل، وغير ذلك. وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى القلم والكتابة نحو قوله تعالى: ﴿ن، وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (سورة القلم، الآية ١). وكذلك نجد في الشعر الجاهلي مايدل على معرفة الجاهليين بالكتابة.

إلا أن الكتابة لم تكن شائعة عصرئذ، إذ كان جل العرب على الأمية، وكانت الكتابة منتشرة في البيئات الحضرية أكثر من انتشارها في البيئات البدوية. وبقيام الدولة الإسلامية ازدادت الحاجة إلى الكتابة لتلبية متطلبات الدين الجديد، وانصرفت طائفة من كتاب الرسول ﷺ إلى كتابة الوحي، في حين عني آخرون بكتابة الرسائل. وقد ذكرنا أن الكتابة في تلك الحقبة كانت بسيطة موجزة بعيدة عن التعقيد والزخرف.

فلما جاء العصر الأموي تعقدت الحياة وتطور المجتمع الإسلامي واتسعت رقعة الدولة فوجدت الحاجة إلى إنشاء الدواوين. وكان إنشاؤها قد بدأ في عهد عمر بن الخطاب الذي أنشأ ديوان العطاء، فلما جاء الأمويون أوجدوا دواوين أخرى كديوان الرسائل وديوان الجيش وديوان الخاتم.

ورافق إنشاء الدواوين بدء حركة التدوين، فجمعت طائفة من الأخبار والسير والأشعار، وكتبت رسائل في موضوعات شتى.

وقد ظهر في عصر بني أمية كتّاب احترفوا صنعة الكتابة، وكان لكل خليفة ولكل وال كتّابه. وكان ديوان الخراج يكتب أول الأمر بلغة الدولة التي كانت قائمة قبل الفتح، فكان يكتب بالعراق بالفارسية، وبالشام بالرومية، وكان يتولاه الموالي من الفرس والروم وغيرهم، وفي عهد عبد الملك بن مروان عرب هذا الديوان.

أما ديوان الرسائل فكانت لغته العربية منذ إنشائه، وكان يقوم عليه كتاب من العرب أو من الموالي الذين أجادوا العربية. ومن الكتاب المبرزين في ذلك العصر عمرو بن نافع كاتب عبيد اللّه بن زياد، وجناح كاتب الوليد بن عبد الملك، وعبد الحميد الأصغر كاتب سليمان بن عبد الملك، والليث بن رقية كاتب عمر بن عبد العزيز، وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وعبد الحميد الكاتب [ر] كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وهو أشهرهم.

كانت الكتابة تجري أول الأمر على السنن الذي كانت عليه في صدر الإسلام من حيث توخي البساطة والإيجاز ومجانبة التنميق والزخرف، ولكن تطور الحياة الاجتماعية والعقلية من جانب، وتولي الموالي ـ من الفرس خاصة ـ مقاليد الكتابة من جانب آخر، كل ذلك أدى إلى تطور فن الترسل وتعقد أدواته.

وقد تأثر الكتاب الموالي بمناهج الكتابة وأساليب التعبير في لغاتهم الأصلية، فظهرت في طرائقهم الكتابية سمات لم تعرفها الكتابة العربية من قبل، ومن ذلك إطالة الرسائل والتكرار والترادف والإسراف في التنميق والصنعة. وأول من عرف بإطالة الرسائل عمرو بن نافع كاتب عبيد اللّه بن زياد، ولم يكن ابن زياد راضياً عن طريقته الكتابية التي تغاير ما ألفه العرب.

ثم جاء سالم كاتب هشام بن عبد الملك فنهض بفن الكتابة الديوانية، ويقال إنه كان ملماً باللغة اليونانية وإن ما أوجده من سمات جديدة في الكتابة العربية مرده إلى تأثره بتلك اللغة، وهو قول يفتقر إلى ما يؤيده، ولم يصلنا من رسائل سالم إلا رسالة كتبها على لسان هشام إلى خالد القسري عامله على العراق.

وعلى يد سالم هذا تخرج عبد الحميد الكاتب، وهو يمت إليه بصلة القربى. كان عبد الحميد مولى العلاء بن وهب القرشي، وهو فارسي الأصل، وكان في أول أمره ينتقل في البلدان ويعلم الصبيان في الكتاتيب، ثم التحق بديوان الرسائل بدمشق في عهد هشام بن عبد الملك وتخرج على يد زوج أخته سالم في فن الترسل. وقد اتصل بمروان بن محمد منذ عهد هشام وكتب له، فلما صارت الخلافة إليه اتخذه كاتباً لرسائله، ولازمه عبد الحميد حتى آخر أيامه وأبى أن يتخلى عنه يوم أحيط به فقتل معه، وتذهب رواية أخرى إلى أنه توارى عند صديقه ابن المقفع ثم عثر عليه فقتل.

وعلى يد عبد الحميد تطور فن الترسل وبلغ غاية بعيدة من النضج، وجمهور الباحثين على أن الكتابة الفنية إنما وجدت على يده، ولهذا قيل: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد» وقد انتهت إلينا طائفة من رسائله القصيرة والمطولة وتوقيعاته.

وأبرز ما تتسم به كتابة عبد الحميد إطالة التحميدات في صدور الرسائل، والإكثار من الترادف، والعناية بالتصوير الفني وبالجانب الموسيقي، وذلك من طريق اختيار الألفاظ والتوازن بين الجمل، والإتيان بالسجع أحياناً. وهو يسرف في استعمال صيغة الحال. وكتابته بعيدة عن البساطة والعفوية اللتين عهدتا في الكتابة العربية من قبل وأثر الجهد والتكلف فيها واضح، وهو يسرف في تنميق رسائله وزخرفتها بألوان الصنعة.

إحسان النص

■ الأدب في العصر العبّاسي

لم يكن هيناً على الأمويين أن يحتفظوا بملكهم طويلاً بعد عصر الراشدين، بسبب الثورات المتلاحقة التي كانت تنشب في وجههم وتنازعهم الحكم، ولاسيما ثورات الخوارج والشيعة والزبيريين... ثم كانت ثورة العباسيين سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م آخر حلقة في سلسلة تلك الثورات، التي أنهكت دولة بني أمية وآلت إلى القضاء عليها.

كان في مقدمة ما تطلّع إليه بنو العباس التمركز في حاضرة جديدة بعيداً عن دمشق موطن الأمويين، وفي منأى عن الكوفة معقل الشيعة، وقد آثر الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور لذلك موقع قرية على دجلة تدعى بغداد على مقربة من مدينة بابل القديمة، واتخذها عاصمة لملكه وأطلق عليها لقب دار السلام مقتبساً ذلك من القرآن الكريم. وانصرف المنصور إلى إعمار حاضرته على خير وجه، فابتنى فيها القلاع والجسور، وأقام حولها الأرباض والسدود، ونشر في ربوعها الشوارع والأسواق. ثم مالبثت المدينة أن عمِّرت بمئات المساجد والمكتبات، والأسواق والمتنزهات، فأمها العلماء والأدباء، والمهندسون والصناع. ثم تعاظم شأن بغداد حتى بلغت في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، أوج ازدهارها، وغدت أهم مركز حضاري في العالم، وأصبحت موئل الحركة الفكرية والعلمية والأدبية بلا منازع.

وقد ظلت البادية حتى ضحى هذا العهد ترفد المدن والحواضر بمواد اللغة والأخبار، والخطب والأشعار، بوصفها موطن الأصالة ومنبع الإبداع. ثم أخذ الرواة واللغويون ينتشرون في حواضر العراق ويتجمعون في مدنها، حتى اكتظت بهم الكوفة والبصرة فضلاً عن بغداد. وفي هذه المراكز العلمية والأوساط الأدبية قامت حركة تدوين رائدة لم يكن لمثلها نظير. فنشط الرواة وكثر المؤلفون وراجت سوق الوراقين. وقد واكب ذلك على صعيد الأدب نبوغ عدد من الشعراء والكتّاب الذين احتضنتهم هذه المدن، واتسم نتاجهم المنظوم والمنثور بكثير من ملامح الجدة والطرافة.

وما من ريب في أن الاستقرار السياسي، ولاسيما بعد انقضاء طور الفتوح والقضاء على الفتن، قد ساعد على الالتفات إلى شؤون الأدب والعلم وقضايا الفلسفة والفكر، وجعل الظروف ملائمة لتدفق العطاء وتفجّر الإبداع. وكان من المعهود أن يولي الخلفاء كل ذلك اهتمامهم ويحرصوا على تشجيع ذوي المواهب، يعينهم على ذلك ثراء كبير تجمَّع في خزائنهم من موارد البلاد الواسعة. بل إن من الخلفاء أنفسهم من كان معروفاً بميله إلى الأدب وحبه للعلم مثل المهدي والرشيد، والأمين والمأمون، والمعتصم والمتوكل. كذلك سار أمراء بني العباس وولاتهم ووزراؤهم على غرار خلفائهم، فكان لكل منهم بلاط يقارب بلاط الخليفة أو يضارعه، من مثل ما كان لآل برمك، وطاهر بن الحسين، وعبدالله ابن طاهر، ثم الصاحب بن عبّاد وابن العميد وعضد الدولة والمهلبي وسيف الدولة الحمداني.

ويُعد العصر العباسي أزهى العصور العربية حضارة ورقياً، كما أنه أطولها زمناً، إذ امتد حتى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، حين تمكن هولاكو المغولي بجحافله اللجبة من اجتياح بلاد العراق والشام والقضاء على الدولة العباسية في بغداد التي دامت مايزيد على خمسة قرون.

وبوسع الباحث أن يتبين عهدين كبيرين في هذه الحقبة العباسية المديدة: عهد قوة ومنعة عاش فيه الخليفة عزيز السلطان مهيب الجانب، ويعرف بالعهد الذهبي الذي يصادف القرن الثاني وبعض القرن الثالث الهجري (القرنين الثامن والتاسع للميلاد)، وعهد انحلال سياسي، تخاذل فيه الخلفاء وضعفت في أيامهم هيبة الحكم. فما أطل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حتى غدت بلاد فارس في حوزة بني بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر في أيدي بني حمدان، ومصر والشام في قبضة محمد بن طغج ثم الفاطميين.

على أن التفكك السياسي لم يصحبه بالضرورة تقهقر حضاري ولا تخلف علمي. بل إن الفكر العربي الإسلامي، بما أوتي من قوة دافعة أكسبته إياها القرون الأولى الوطيدة، استطاع أن يمضي في طريق النضج والازدهار ويغمر الأرض بنور المعرفة وألق الإبداع. فقد تعددت مراكز الإشعاع الحضاري، إضافة إلى مدن العراق، فكانت مكة والمدينة في الحجاز، والفسطاط والقاهرة في مصر، وحلب ودمشق في الشام، والري وهمذان في فارس ثم بخارى وسمرقند في ما وراء النهر، وغزنة في أفغانستان وجرجان في خرسان.

وكان طبيعياً في غمار هذا الوضع السياسي والاجتماعي أن ينطوي ذلك المجتمع الجديد على تمازج في العادات والثقافات، وأن يفرز هذا العصر أصنافاً من العلوم وألواناً من الآداب، وأن ينعكس ذلك على كل صعيد في الحياة العامة وفي جملتها الحياة الأدبية.

الشعر

شهدت بواكير العصر العباسي نبوغ عدد وفير من الشعراء المبدعين الذين اتسمت أشعارهم بملامح الجدة وانطوت على رواء الحداثة، وبدا جلياً أن الغلبة لم تعد لمنازع القديم ونماذجه الموروثة، وهكذا أخذت الأنظار تتجه إلى بشار بن برد [ر] وأبي نواس [ر] وأبي العتاهية [ر] ومسلم بن الوليد [ر] والحسين ابن الضحاك [ر] وعلي بن الجهم [ر] وأمثالهم ممن فاضت قرائحهم بشعر جديد بات مهوى أفئدة الجيل. وقد تجلى هذ الانعطاف على لسان أبي عمرو بن العلاء(ت ١٥٤هـ/ ٧٧٠م) وطبقته المحافظة من الرواة واللغويين الذين كانوا قيمين على حركة النقد والتأليف حين قال: «قد حسن هذا الشعر وكثر، حتى لقد هممت بروايته».

ثم توالى ظهور الشعراء النوابغ في العصر العباسي المديد، ومنهم أبو تمام [ر] والبحتري [ر] وابن الرومي [ر] وابن المعتز [ر] ودعبل [ر]... ومن بعدهم أبو الطيب المتنبي[ر] وأبو فراس الحمداني [ر] والشريف الرضي [ر] وأبو العلاء المعري [ر]، وسواهم. وكان أن اتسع مجال القول، وارتقت أساليب التعبير وعرف الشعر العربي أزهى عهوده.

أغراض الشعر: حرص شعراء العصر العباسي ونقاده بوجه عام على أن يدور شعرهم في فلك الأغراض الموروثة، وأن تنتسج أغراضه على منوال الفحول المتقدمين. فحافظ المديح على منزلته السالفة تبعاً لارتباطه الوثيق ببلاط الخلفاء والملوك، ومجالس الأمراء والولاة، ولكونه السبيل الأول للحظوة عند أولي الأمر، والطريق الأقصر لبلوغ الشهرة المنشودة.

المديح: وكما اقترن شعر المديح بالموقف السياسي في العصر الأموي، حين كان للخليفة شعراؤه الذين يمدحونه وينالون عطاياه، بقي الحال على هذا الغرار في ظل الحكم العباسي، فاصطنع خلفاؤه شعراء موالين لهم لزموهم في حلهم وترحالهم، وخصوهم بمدائحهم وذادوا

عن حقهم في حكم المسلمين. وقد ظهر في عهد الخلفاء الأوائل عدد وفير من هؤلاء الشعراء مثل بشار وأبي العتاهية والسيد الحميري وأبي نواس والفضل الرقاشي وسلم الخاسر وأبي دلامة ومروان بن أبي حفصة ومطيع بن إياس وأشجع السلمي ومنصور النمري. وقد فاق الخليفة المهدي سلفيه في تقريب الشعراء وإكرامهم، فأكثروا فيه القول وغالوا في الثناء.

ومضى الخليفة هارون الرشيد بعد ذلك إلى مدى أبعد في رعاية الشعر وتقريب الشعراء طوال حكم قوي زاهر دام اثنتين وعشرين سنة. ويقول الرواة إنه لم يجتمع بباب أحد ما اجتمع ببابه من الشعراء، ومن مداحه ابن مناذر وأبو الشيص ومروان بن أبي حفصة والعماني ومسلم ابن الوليد وربيعة الرقي... فضلاً عن أبي العتاهية وأبي نواس وسلم الخاسر، وأصبح لإطراء الممدوح حيز أكبر لدى شعراء هذا العصر.

وقد غاص عدد من الشعراء عهدئذ في حمأة السياسة وخاضوا بشعرهم معركة ولاية العهد بين الأمين والمأمون، فانتصر بعضهم لهذا وبعضهم لذاك في قصائد تداخلت فيها المعاني المدحية والآراء السياسية.

كذلك ظل الشاعر في العصر العباسي حريصاً على رسم الخصال الرفيعة والقيم المثلى في شخصية الممدوح، إذ ما زالت سجايا الكرم والشجاعة، والحلم والحزم، والنجدة والمروءة، والعفة والشهامة، موضع إجلال المجتمع العربي الإسلامي. ومضى الشعراء يبدون أضرب البراعة والفن ضمن هذا الإطار الرحيب من الصفات الأصيلة المثلى. وكان ما قام به خلفاء بني العباس وقادتهم وولاتهم من جلائل الأعمال، وتصديهم لخصوم الدولة والمتمردين عليها في الداخل، ولأعدائها المتربصين بها في الخارج، خير مأثار قرائح الشعراء وأذكى مدائحهم بعناصر البطولة والبأس. وقد تجلى ذلك لدى الشاعر أبي تمام (ت ٢٣١هـ / ٨٤٦م) الذي ارتفع ببعض قصائده إلى مستوى يقارب الملاحم، وآخى فيها بين شعر المديح وشعر الحرب، مقدماً بذلك للأدب العربي نموذجاً جديداً متطوراً من الشعر الحماسي الأصيل.

وعلى هذا الغرار مضى أبو الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م) بعد قرن من الزمان، مشيداً بانتصارات سيف الدولة الحاسمة ومعاركه المظفرة في قتال دولة الروم المتاخمة.

غير أن موضوع المديح لم يبرأ من بعض العيوب التي شابته في هذا العصر، وفي مقدمتها المبالغة والتهويل، فلم يعد ما قاله الأوائل مثلاً في صدد شعر زهير بن أبي سلمى من أنه «لم يكن يمدح الرجل إلا بما فيه» منحى مطلقاً، بل أسرف الشعراء على أنفسهم في ذلك، وغالوا أحياناً في إسباغ الصفات الخارقة على ممدوحيهم.

ومن هذا القبيل قول أبي نواس في الخليفة الأمين:

وأخفتَ أهل الشرك حتى إنه
لتخافك النطفُ التي لم تخلقِ

الهجاء: أما الهجاء، وهو الغرض الذي يقابل عادة غرض المديح، فقد انعطف في مساره عما كان عليه في العصر الأموي، فخفتت فيه نزعة تحقير الخصم بسبب وضاعة أصله ونسبه، أو خمول مكانة أبيه وجده، أو ضآلة شأن عشيرته وقبيلته. إذ لم تعد للأنساب تلك الأهمية البالغة التي كانت لها في سالف العهد، بعد همود حدة العصبيات القبلية وانصهار أكثر القبائل في بوتقة المجتمع المتحضر الحديث. فتركز الهجاء أو كاد، في إبراز المعايب الشخصية اللاصقة بذات المهجو وما تنطوي عليه نفسه من مثالب. وهذا المنحى أدخل في رحاب التصوير والفن، وأبعد عن مجال القذف والشتم.

وكثيراً ما كانت المهاجاة تستعر بين الشعراء أنفسهم فيكثر في قصائدهم ذكر المثالب والمعايب، وقد يتجاوزون الحدود إلى التحقير والتسفيه. وقد عرف بذلك بشار بن برد وأبو نواس وأبو عيينة المهلبي وابن الرومي ودعبل الخزاعي وعبد الصمد بن المعذل، حتى إن الأمر بلغ ببعضهم حد التعرّض للخلفاء أنفسهم، شأن الشاعر الهجّاء دعبل (ت ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م) الذي لم يتورع عن هجاء الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق. وقد قرن الخليفتين الأخيرين معاً في قوله:

خليفة مات لم يحزن له أحد
وآخر قام لم يفرح به أحد

كذلك تنوعت أنماط الهجاء تبعاً لتعدد أوجه الحياة في هذا المجتمع العباسي المتحضر. فابن الرومي (ت ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م) الذي عاش في عصر اكتظ بالجواري والقيان مثل جلنار وبستاق وبدعة وشاجي ودريرة وغنّاء وظلوم ووحيد وغيرهن من مطربات مجالس الولاة والوزراء، تعرّض في شعره لهؤلاء وغيرهن كما تعرّض معاصره البحتري وسواه، وكان طبيعياً أن يقرظ بعضهن إعجاباً بأصواتهن وأن يهجو أخريات لم يجد في غنائهن ما يروقه.

الرثاء: أما غرض الرثاء فمن الطبيعي أن تظل له منزلته السامية في النفوس لانبثاقه من عاطفة الحزن الواري في كل زمان ومكان. غير أن فن الرثاء ارتقى في هذا العصر، واكتسب غنى وعمقاً، بفضل شعراء كبار أبدعوا فيه وفي سائر أغراض الشعر، وفي طليعة شعراء الرثاء أبو تمام الذي قيل عنه «مداحة نواحة»، ومن بعده ابن الرومي الذي عرف برثاء أولاده.

كذلك افتن الشعراء في هذا الغرض تبعاً لتشابك العلاقات الاجتماعية في ذلك العصر، وتوطد صلاتهم مع أولي الأمر. إذ لم يمت خليفة ولا وزير، ولا قائد ولا عظيم، إلا رثوه رثاء حاراً وأبّنوه تأبيناً رائعاً، مبرزين في قصائدهم كل ما كان يتحلى به الفقيد في حياته من مناقب وما كان له من فضل.

وكم ألمت بهذا العصر العباسي المديد أحداث جائحة وفتن طاغية وجدت لها في النفوس صدى أليماً وتجلّت على ألسنة الشعراء مراثي دامعة. وحدث أن اجتاح الزنج البصرة في فتنة هوجاء حين زحفوا إليها من ظاهر المدينة، فاستباحوها وأعملوا فيها يد التخريب والتنكيل. وراع هذا النبأ الفاجع ابن الرومي فقال في رثاء المدينة المنكوبة قصيدة تعد من أروع الشعر مطلعها:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام
شغلها عنه بالدموع السجام

ولم يكن هذا النمط من رثاء المدن معهوداً في الشعر العربي، ولكن أحوال ذلك العصر المتفجر اقتضت مواكبة الشعر لها. ولعل هذه القصيدة باكورة رثاء الممالك الذي أخذ في الظهور فيما بعد ولاسيما إثر سقوط بغداد بيد التتار القساة، وإثر تساقط دويلات المسلمين في الأندلس بيد الفرنجة.

وقد تستدعي حقيقة الموت من الشاعر أن يتأمل في طبيعة الحياة وحال الدنيا، فيكون له من ذلك نظرات وآراء، ولاسيما بعد أن تشبّع الشعراء بأفكار ثقافات أغنت معارفهم وعقولهم، ومن هذا القبيل كثير من شعر أبي العتاهية في الوجود والعدم، والحياة والموت، والبقاء والفناء.

ولأبي العلاء المعري (ت٤٤٩هـ / ١٠٥٨م) فلسفة أعمق في هذا الصدد تبعاً لغنى فكره زنئاذ بصيرته، حين عمد إلى رثاء صديقه الأثير أبي حمزة الفقيه في قصيدته المشهورة التي مطلعها:

غير مُجدٍ في ملّتي واعتقادي
نوحُ باكٍ ولا ترنم شادي

فقد استطاع أبو العلاء أن يحلق في أجواء علوية سامية وينظر من خلالها إلى الكون والحياة نظرة كلية شاملة وبذلك ارتفع في رثائه من نطاق الحادثة الفردية المحدودة إلى رحاب الإنسانية الشاملة.

كل ذلك يعني أن هذه المراثي تغاير في كثير من ملامحها معهود شعر الرثاء الذي يغلب عليه النواح وتبلل قوافيه الدموع.

الغزل: وقد اكتسب الغزل في العصر العباسي غنى ومضاء لارتباطه بعاطفة الحب الغلابة في النفس الإنسانية. وأقبل الشعراء إقبالاً كبيراً على النظم فيه، فكثر كثرة بالغة وازدهر ازدهاراً واسعاً. غير أن الاتجاهين اللذين غلبا في العصر الأموي وهما الغزل العفيف والغزل الصريح لم يسيرا في العصر العباسي على ذلك النحو المتوازن. فقد أخذ الغزل العفيف في التضاؤل، في عصر تكاثرت فيه النحل والآراء، واحتدمت المنازع والأهواء، وقلّما عرف المجتمع العباسي طائفة من شعراء الحب النقي الطاهر كالذين عرفتهم من قبل بوادي الجزيرة وربوع الحجاز، مثل قيس بن ذريح وجميل بن معمر وعروة بن أذينة. ولعل العباس بن الأحنف وقلة من أمثاله الشعراء الذين تعذبوا في عشقهم يمثلون بقية ذلك المنحى، وإن لم يبلغوا فيه شأو العذريين قبلهم. فالعباس بن الأحنف (ت١٩٢هـ /٨٠٨م) قصر شعره، أو كاد، على التغني بعاطفته ومشاعره.

ولعلي بن الجهم غزل كثير أجاد فيه تصوير لواعج حبه. وقد برع في مقدماته الغزلية الرقيقة ولاسيما ما كان يستهل به مدائحه للخلفاء. ومن ذائع غزله في صدد مديحه للمتوكل:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

واشتهر البحتري بالغزل، لما اتسمت به ألفاظه من سهولة ورقة وعباراته من عذوبة وسلاسة، وقد أحب علوة الحلبية، وقال فيها جلّ غزله.

وغزل الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ/ ١٠١٦م) على تأخر عهده من أبرز الشواهد على نبل الشعور وعفة اللسان، فضلاً عن سمو مكانة ورفعة نسب، وقصائده الجميلة التي اشتهرت بالحجازيات نفثات شجية أثارت كوامن نفسه المضطرمة.

أغراض أخرى: ولعل أبرز انعطاف طرأ على الشعر العربي في العصر العباسي هو انبثاق غرضين آخرين أضيفا إلى سائر الأغراض المعهودة في الشعر العربي، وهما غرض المجون والزندقة، وغرض الزهد والتصوّف. ومع أن لهذين الغرضين جذوراً في الشعر العربي القديم، إلا أنهما بلغا في هذا العصر المدى من التطرّف.

لقد انطوى المجتمع الإسلامي في العصر العباسي على كثير من التعقيد، وعرض له كثير من الاختلال. وكان ذلك كله بسبب التبدل الشديد الذي أصاب الحياة الاجتماعية والفكرية والدينية. إذ التفت الناس إلى حياة الدعة واللهو نتيجة انقضاء مرحلة الجهاد والفتح، فازدهرت التجارة وحركة القوافل، وتكاثر المتمولون وتركزت الثروة في جيوب فئة من الأغنياء. ونشطت تبعاً لذلك حركة المتاجرة بالرقيق، وانتشرت أسواق النخاسة، وشاع اقتناء الجواري والغلمان، بعد أن انصبت عناصر أعجمية كثيرة على الحياة العربية من فرس وروم وترك، حاملة معها نزعاتها ونزواتها، وعاداتها وأهواءها، فكثرت عناصر الموالي، وتزعزعت القيم، وضعفت الأعراف والتقاليد. وهكذا برزت الزندقة لتغدو مظهراً من مظاهر المروق من الدين وفساد العقيدة، كما برز المجون مظهراً آخر من مظاهر التحلل في الأخلاق والسلوك، والاستهتار بالقيم والأعراف. وقد تطرف الشعراء في ذلك، من أمثال بشار وأبي نواس ومطيع بن إياس، حين أطلقوا لأنفسهم عنان القول، وخرجوا عن نطاق الحشمة والوقار. ولم يفتقد الأدب ذلك الحب العذري أو العفيف، وما اتسم به من ملامح الطهر والنقاء، بل ابتلي بنمط شاذ مستحدث من الشعر الهابط في مضمونه لم يعهده العرب من قبل، وهو التغزل بالمذكَّر. كما لم يعد الكثيرون يجدون حرجاً في شرب الخمرة وارتكاب المعاصي متحللين من كل خلق ودين.

وثمة نزوات كثيرة اشتهر بها أبو نواس وتجلت في أقواله وأفعاله، إنه يخاطب ساقية في الحانة بكلمات طافحة بالاستهتار والتحدي:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

حتى إن بعضهم جهر بالزندقة ومنهم بشار ابن برد وحماد عجرد والحسين بن الضحاك وصالح بن عبد القدوس وسواهم، وقد عرف أكثرهم بالمجون والتهتك. والملاحظ أن هذه النزعات المتطرفة قد برزت في مدن العراق كالبصرة والكوفة وبغداد نتيجة انصباب فئات كبيرة من الأعاجم على سكان تلك الحواضر، حاملة معها نحلها الغريبة، من بوذية وزرادشتية ومانوية وغير ذلك.

وطبيعي داخل ذلك المجتمع الحافل الذي كان يضطرب بتيارات شتى أن تتعدد النزعات، وتتعارض الاتجاهات. ولم يكن بوسع مجتمع عميق الجذور ورث القيم العربية وتشبع بالروح الإسلامية أن يتقبل الزيغ والانحراف، ويرتضي الطيش والمروق. لقد هال الأتقياء وذوي الغيرة على الدين والأخلاق ما تعرّض له ذلك الجيل من غزو لأفكاره ومعتقداته، وفساد في قيمه وسجاياه. ورأوا أن خير سبيل إلى النجاة من تلك الشرور العودة إلى جوهر الدين والتمسك بحبل الله. وهكذا اشتد تيار الزهد والتقشف في مقابل نزوع الآخرين إلى المجون والتحلل. وقد غلا بعض هؤلاء في التضييق على أنفسهم غلو أولئك في تحللهم واستهتارهم. فدأبوا على الوعظ والتعبّد، وحضوا على حياة النسك ونبذ حطام الدنيا.

ويعد الشاعر أبو العتاهية الذي عاش في صدر العصر العباسي ممثل تيار الزهد في الشعر العربي، حين أكثر من نظم قصائده الزهديات وبرع فيها، حتى إنه جعل من ذلك الشعر غرضاً جديداً انضم إلى سائر الأغراض المعهودة.

وقد نظم في غرض الزهد شعراء كثيرون، منهم سفيان بن عيينة وعبد الله بن المبارك ومحمود الوراق ومالك بن دينار، إضافة إلى أبي نواس في أواخر حياته.

ثم أخذ تيار الزهد يخرج عن بساطته ويزداد اتساعاً وتعقيداً، فلم يعد أعلامه يكتفون بالوعظ والتذكير بالموت، والإكثار من ذكر القيامة والنار، بل راحوا يرتكزون إلى أصول فكرية وفلسفية، انبثق منها في نهاية الأمر مذهب التصوّف. وقد تجلى مفهوم الحب الإلهي في عصر مبكر لدى رابعة العدوية (ت١٣٥هـ

أو ١٨٥هـ) الزاهدة العابدة، التي يقال إنها استعملت لأول مرة لفظة الحب للتعبير عن إقبالها على الله، وإعراضها عن كل ما سواه.

وهذا الحب الإلهي هو المحور الذي دار حوله اهتمام المتصوفة لأنه الحب الأمثل الذي يفنون فيه فناء يحقق لهم السعادة والاطمئنان.

ثم أخذ الفكر الصوفي ينطوي على كثير من التعقيد بفعل مؤثرات دخيلة على الإسلام، من بوذية وإغريقية ومسيحية. وكان أن ظهر في السنين العباسية المتأخرة عدد من الشعراء الأعلام في التصوف مثل الحسين بن منصور الحلاج (ت٣٠٩هـ / ٩٢١م) الذي تم فيه تنفيذ حكم القتل، وكان يعتقد باتحاد الناسوت، أي الروح الإنساني، باللاهوت، أي الروح الإلهي.

كما ظهر في أواخر العصر العباسي عدد من كبار المتصوفة الذين نظموا أشعاراً كثيرة عرضوا فيها مذهبهم بأسلوب رامز يعتمد تعابير العشاق وألفاظ المحبين، مثل ابن الفارض (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) الذي يقول في إحدى قصائد ديوانه الصغير الشهير متغنياً فيها بخمرة الوحدة الإلهية:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقد أفاض في عرض مذهبه في المجاهدة ونظرته في وحدة الوجود ضمن مطولة شعرية بلغت سبعمئة وستين بيتاً، وتعرف بنظم السلوك.

خصائص الشعر: اتسع مجال القول على صعيد الشعر والنثر في أدب العصر العباسي، تبعاً لاتساع مناحي الحياة وتشعبها في هذا الطور المتألق من حضارة العرب. فتكاثرت الموضوعات التي تناولها الشعراء، فضلاً عن الأغراض الشعرية التي نظموا فيها. من ذلك توسعهم في وصف مشاهد الطبيعة المختلفة، مثل وصف الربيع لأبي تمام وللبحتري وكذلك ما وصف به أبو الطيب المتنبي شعب بوان في بلاد الفرس.

وأوغل شعراء هذا العصر في وصف الأيك والحمائم، والرياض والحياض، والأزهار والثمار، حتى حفلت دواوين البحتري وابن الرومي وأبي بكر الصنوبري وأمثالهم بهذه الأوصاف الجميلة التي انطوت على التشبيهات الطريفة والألوان البهيجة.

وقد عني أبو بكر الصنوبري (ت٣٣٤هـ / ٩٤٥م) بوصف الحدائق والبساتين، والورود والرياحين، حتى اشتهر بأشعاره (الروضيات)، وهو يشير إلى هذا المنحى الأثير لديه في قوله:

وصف الرياض كفاني أن أقيم على
وصف الطلول، فهل في ذاك من باس

وكان لوصف المدن والمنشآت العمرانية حيز آخر في قصائد الشعراء الذين عاش معظمهم في الحواضر، وعرفوا حياة البلاط ومجالس الأمراء، فوصفوا القصور والرياض وكثيراً من مظاهر الحضارة الجديدة ومناحي الحياة المستحدثة. فوصف البحتري قصر الجعفري المرد، كما وصف بركة المتوكل التي كانت آية في الحسن بفضل إبداع هندستها.

وفي الوقت نفسه التفت شعراء العصر العباسي في أحوال قليلة إلى شؤون تتصل بحياة عامة الناس بعيداً عن بلاط الخلفاء وقصور الأمراء.

ومن الموضوعات الجديدة على هذا الصعيد الشعبي وصف ابن الرومي لبسطاء الناس وكادحيهم وما كان يمتاز به بعضهم من براعة في مهنتهم، كوصفه للخباز وللحمّال وقالي الزلابية... في مقطعات شعرية حافلة بالصور الطريفة.

ولعل في طليعة ما طرأ على معاني الشعر العباسي من تطوّر، على صعيد آخر، أنها جنحت للرقة والعذوبة، بفضل غلبة الحضارة وانصقال الأذواق، كما اتسمت في جانب منها بالابتكار والعمق، تبعاً لنضج العقل العربي وتوسع آفاقه. كذلك امتازت معاني الشعر بالجدة والطرافة بعد أن قيض لها شعراء أفذاذ عرفوا بقوة فنهم وشدة براعتهم وسعة ثقافتهم. وكان لشعر الغزل وشعر الوصف نصيب واف من ملامح الحداثة التي أغنت الشعر العربي وزادته رونقاً وبهاءً.

وتجلى الإبداع الشعري في هذا العصر من خلال اختراع المعاني وابتكار الصور ونفاذ الرؤية.

وغلب على جانب من الشعر فكر الفلاسفة وعلماء الكلام، واقتحمته ألفاظهم واصطلاحاتهم، كالجوهر والعرض والشك واليقين، مثل شعر أبي العتاهية الذي ينم على آثار المانوية الفارسية وعقيدتها الثنائية:

لكل إنسان طبيعتان
خير وشر وهما ضدان

وكل شيء لاحق بجوهره
أصغره متصل بأكبره

أو مثل شعر بشار الذي تظهر فيه أصداء مذاهب العصر وأفكاره مثل قضية الجبر والاختيار:

طبعت على ما فيّ غير مخيّر
هواي ولو خيّرت كنت المهذّبا
أريد فلا أعطى، وأعطى ولم أرد
وقصّر علمي أن أنال المغيّبا

على أن هذا المنحى في التحديث لم يرق المحافظين الذين تمسكوا بعمود الشعر التقليدي، ونهج القصيدة الموروث، إذ الشعر في رأيهم لايحتمل وطأة الحقائق الذهنية المجردة، والاصطلاحات الفلسفية المعقدة، والمنطق الذهني الصارم. ورأى البحتري في مثل ذلك بدعة في الأدب لم يعرفها فحول المتقدمين، ولم يجنح إليها امرؤ القيس إمام الشعراء:

كلفتمونا حدود منطقكم
والشعر يغني عن صدقه كذبه.

أما المبنى الشعري فقد تعرّض لتغيّر ملموس في بعض نماذجه، سواء على صعيد الأوزان أو صعيد الأسلوب. فقد مالت القصائد إلى القصر وسارت المقطعات على الألسنة ولاسيما في مجال الغزل والهجاء والزهد والحكم... كذلك آثر الشعراء البحور القصيرة مثل بحر الهزج والمجتث والمقتضب، كما جنحوا للأوزان المجزوءة في بحور الوافر والكامل والبسيط والخفيف.

كذلك جددوا في القوافي تخففاً من وطأة القافية الواحدة الغالبة، فأحدثوا نوعاً من النظم سموه «المزدوج»، وهو في الغالب من بحر الرجز يختص فيه كل شطرين في البيت بقافية واحدة، وتليها قافية مغايرة في البيت التالي وهكذا. وقد استعاره الفرس وسموه «المثنوي». وشاع المزدوج لدى أبي العتاهية الذي نظم مطولة بالغة الطول عرفت بذات الأمثال، وقد ضاع معظمها.

وقد ساغ هذا النمط العروضي الميسر للنحاة والفقهاء وسائر العلماء، فأكثروا فيه المنظومات التعليمية، كما آثره أبان اللاحقي فيما نظمه من أقاصيص كليلة ودمنة، وسواه ممن نظموا في شؤون العلم والدين والتاريخ. ولاريب في أن شيوع الغناء والرغبة في تلحين الأشعار في المحافل والأسمار من أهم ما أسهم في رواج هذه الأنماط الجديدة التي تعد من خفائف النظم.

واستتبع هذا المنحى إيثار الألفاظ السهلة

المأنوسة، حتى كادت تنحصر الغرابة اللفظية لدى فئة الرجاز البداة أول الأمر ثم آل أمرهم إلى الانزواء.

ومن جهة أخرى على هذا الصعيد الأسلوبي غلبت الصنعة على مبنى الشعر، وأوغلت فيه أضرب التزويق والتزيين، فكثرت فيه الزخارف اللفظية والمحسنات البديعية. ويعد أبو تمام وابن المعتز في طليعة أصحاب هذا المذهب الفني، إذ جدّا في طلبه وأكثرا منه حتى عرفا به.

وازداد الشعراء إيغالاً في الصنعة مع مضي الزمن، وغدا الشعر لديهم معرضاً للتزيين والتلوين كقول الوأواء الدمشقي (٣٨٥هـ/ ٩٩٤م):

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
ورداً، وعضت على العُنّاب بالبرد

كذلك اكتسب الخيال غنى ومضاء، فغدت الصور الشعرية متسمة بالتلوين والتعقيد، وخرج التشبيه عن بساطته المعهودة وأطرافه الواضحة المحددة.

فحين يود أبو تمام وصف الطبيعة يستخدم نوافر الأضداد، وعندما يتعاورها الصحو والمطر يكون لذلك في مرأى الشاعر منظر معجب:

مطر يذوب الصحو منه وبعده
صحو يكاد من النضارة يمطر

وبالإجمال اكتسب الشعر العباسي تبعاً لمواكبته هذا العصر الحضاري كثيراً من ملامح الجدة والطرافة. حتى ليمكن القول إنه بفضل ما انطوى عليه من جمال التعبير، وطرافة التصوير، وسمو الخيال، وجدة المعنى، وسعة الثقافة وغنى الفكر...، غدا فناً مزدهراً وعاش عصره الذهبي.

ملامح البيئة: من الطبيعي أن تكون شخصية الأديب جماع عوامل ومؤثرات تسهم في تكوينه وتتجلى في نتاجه، في طليعتها جملة معارفه وموروثه الأدبي ومعطيات بيئته وعصره. إن انتشار العرب في الأمصار من بلاد خراسان والسند إلى أقصى المغرب والأندلس، نتيجة للفتوح الإسلامية، أدى إلى ظهور بعض الملامح القطرية في الشعر العربي، كما أن اختلاف البيئات المحلية أدى إلى خلق بعض الألوان والطعوم المتمايزة لدى بعض الشعراء. غير أن هذه الملامح لم تبلغ المدى الذي يفضي إلى إبداع أدب إقليمي. فقد ظلت عناصر التوحيد أقوى من عناصر التباين، وذلك لأسباب كثيرة، لعل أهمها طبيعة العرب المحافظة التي تتجلى في نزعتها السلفية وحرصها على سماتها القبلية وموروثها الشعري، ومنها سلطان اللغة العربية الذي ينطوي على معطيات ركينة من التفكير وأنماط خاصة من مناحي التصوير وأساليب التعبير، فضلاً عن الافتتان بالقرآن الكريم وهالته المقدّسة في نفوس العرب على اختلاف جموعهم وتباعد بلدانهم، ثم ما يتصل بذلك من تعلق روحي بالحجاز، معقل الفصحى ومهبط الوحي وموئل الرسول . وهذا مايفسر تحدث الشاعر العربي وهو في أقصى الأندلس عن الجمل والسراب وذكره البان والعلم... وكثير من شعراء العصر العباسي كانت حياتهم قسمة بين دمشق وبغداد وحلب، أو بين الشام والعراق ومصر، أو بين أقطار المشرق وبلاد المغرب. وإن من أرّخوا للأدب العربي على أساس من التقسيم الإقليمي، وأسبقهم أبو منصور الثعالبي في كتابه المشهور «يتيمة الدهر»، ثم العماد الأصفهاني الذي مضى على غراره في كتابه «خريدة القصر» لم يلزموا أنفسهم بهذا الفصل الجغرافي بين هذه البلدان والأقاليم، فبدت لدى شعرائهم ملامح التشابه أوضح من ملامح التباين. وأكثر ماوصفت به أقاليم العرب لايتعدى الافتتان بمواطن الحسن والجمال في كل منها ونحو ذلك مما يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين كثير من البلدان.

كما آثر الأندلسيون بلادهم الجميلة بحبهم ومحضوها إعجابهم، بل إن بعضهم كابن خفاجة وجد في ربوعها جنة أخرى:

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو تخيرت هذي كنت أختار

ومن هذا القبيل شعر يبرز جمال ضفاف بردى ودجلة والنيل، ومفاتن غوطة دمشق وشعب بوان، ومحاسن قرطبة والزهراء... إذ قلّما يتعدى الأمر هذه الرؤى الجمالية لتلك الأقاليم. وذلك يفضي إلى القول إنه قلما يلمس لدى شعراء العصر العباسي ـ على اختلاف أقاليمهم وتباعدها ـ سمات فنية تلفهم وتميزهم على صعيد الصنعة والمعاني والصور وسائر العناصر الأسلوبية، إلا ما كان لديهم من مقومات شخصية ومعطيات ذاتية، أو من ملامح حضرية أو بدوية. وهكذا كان أبو تمام، الشامي المنبت، هو رائد الصنعة البديعية في الشعر العربي، ويشاركه في هذه الريادة أيضاً ابن المعتز العراقي أحد رؤوس مذهب البديع.. كما أن البحتري صوّر الطبيعة في المشرق أو صنوه الصنوبري يقابله ابن خفاجة في الأندلس، ومثل هذا التشارك نجده أيضاً على صعيد سائر أغراض الشعر من مديح وغزل ورثاء، وعلى صعيد الأساليب وسائر الظواهر الفنية لدى شعراء كل إقليم من الأقاليم العربية.

أعلام الشعر: حفل العصر العباسي بعدد وفر من الشعراء الأعلام لم يحظ بمثلهم أي عصر آخر ومنهم:

بشار بن برد، وأبو نواس، وأبو العتاهية، ومسلم بن الوليد، وأبو تمام، ودعبل الخزاعي، والبحتري، وابن الرومي، وابن المعتز، وأبو فراس الحمداني، والمتنبي، والشريف الرضي، وأبو العلاء المعرّي، وابن الفارض.

النثر

ضروب النثر:

الخطابة: نشطت الخطابة السياسية في مطلع هذا العصر، إذ اتخذتها الثورة العباسية أداتها في بيان حق بني العباس في الخلافة. وكان من خطباء هذا العصر خلفاؤه الأوائل مثل أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور والمهدي والرشيد، وآل بيتهم ومنهم داوود بن علي وأخوته عبد الله وسليمان وصالح وأبناؤهم. وقد وصفهم الجاحظ بأنهم «لم يكن لهم نظراء في أصالة الرأي وفي الكمال والجلالة... مع البيان العجيب والغور البعيد. وكانوا فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار».

وخطبهم، لاتكاد تختلف من حيث شكلها ومضمونها عن الخطابة في صدر الإسلام والعصر الأموي، إذ غدا من مقتضيات الحياة السياسية العربية أن يشهر اللسان في مثل هذه الأحوال إلى جانب السلاح.

ولما تم الأمر لبني العباس وقضوا على أعدائهم الأمويين، ثم على شركائهم الشيعة، خفتت حدة القول، ولم يعد ثمة ما يحفز الخطباء على التصدي للناس، واصطناع الترهيب والترغيب.

كذلك ضؤلت الخطابة في الجيوش بعد أن انقضى عهد الفتوح. وصار الكثير من الجنود في الجيش الإسلامي نفسه من الأعاجم، فرساً أو تركاً، لايفقهون العربية ولا يتأثرون ببلاغتها. ولم يعد للخطابة في النفوس بوجه عام ماكان

لها من منزلة في عصر الراشدين والأمويين، حين كانت الفن العربي الأصيل الذي كان قوامه البديهة والارتجال. وهكذا انحسرت الخطابة في ضحى العصر العباسي، وكاد شأنها يقتصر على فئة الوعاظ وأئمة المساجد، ولم تعد تتجاوز في غالب الأحوال نمط الخطابة الدينية.

الكتابة: وكان من الطبيعي تبعاً لذلك، ولاسيما في هذا الطور المتحضر، أن تحل الكتابة، مع توالي الأيام محل الخطابة، وأن يقوم كتاب الدواوين ومدبجو الرسائل بتحبير القراطيس وإعداد التقارير. ثم تشعبت أشكال التعبير، لتغدو أقدر على استيعاب مناحي الفكر المتعددة ومنازع الحياة المتجددة.

كانت الترجمة إحدى ضرورات الحركة العلمية التي نشطت بفضل فئة نابهة من الأعاجم يتألف معظمها من السريان والفرس. وبذلك انصبت في بحيرة الثقافة العربية جداول شتى، مختلفة المذاق من تلك الثقافات الوافدة. وعادت حركة النقل بالخير على لغة العرب الأصيلة وأدت إلى ازدهار أنماط من النثر، كالنثر الفني الأدبي، والنثر العلمي، والنثر الفلسفي. وغدت الكتابة وعاء لعلوم العصر الكثيرة ومعارفة الغزيرة، بعد أن دخل العرب عوالم التدوين والتأليف والترجمة من أوسع الأبواب. وليس الغرض هنا التوقف عند الكتابة الديوانية التي شاع أمرها في الأوساط الرسمية والإدارية، مما يتصل بشؤون البلاغات والبيانات، والمواثيق والصكوك، والتولية والعزل.

غير أن ما يعني الباحث منها هو نمط معين لعله أدخل في فن الأدب، وهو المعروف بالتوقيعات، أي العبارات الوجيزة التي كان يعلق بها خلفاء بني العباس الأوائل على موضوع رفع إليهم، أو قضية بين أيديهم، فيذيلون ذلك بقلمهم ويمهرونه بتوقيعهم. وكان طبيعياً في هذا الصدد أن تقصر الجملة وتختصر العبارة، تبعاً لضيق وقت الخليفة وغزارة المعروض عليه. من هذا القبيل ما وقّع به الخليفة أبو جعفر لأهل الكوفة في ذيل رسالة تظلم تجاه واليهم: «كما تكونوا يولّ عليكم». وما وقّع به هارون الرشيد إلى عامله في خراسان وقد شكا إليه سوء الأحوال: «داو جرحك لايتسع»، وما وقع به المأمون لوال فاسد: «قد كثر شاكوك، وقل شاكروك. فإما اعتدلت، وإما اعتزلت...».

ومثل هذه العبارات المقتضبة أشبه ما تكون بجوامع الكلم التي امتاز بها فصحاء العرب الأوائل الذين اتسموا بالحرص على الإيجاز، وهي على أية حال منسوجة على منوال أنقى عبارات البلغاء.

أما النثر الأدبي الحقيقي فلم يتوطد إلا بفضل الكاتب المنشيء عبدالله بن المقفع (ت١٤٢هـ/٧٥٩م) بعد أن تسلّم شعلة هذا الفن من صديقه الناثر الرائد عبد الحميد الكاتب، الذي لقي مصرعه في إثر الثورة العباسية، ولم يقيض له المضي إلى شوط أبعد في هذا المضمار. فقد تجلى فن النثر في أدب الرسائل أول الأمر في نهايات العصر الأموي وبدايات العصر العباسي، فكتب ابن المقفع رسائله على غرار رسائل عبد الحميد، وهي مقالات طوال تتناول موضوعاً معيناً، لعل أشهرها «رسالة الصحابة» أي في آداب الصحبة والمعاشرة والسلوك، ولاسيما مصاحبة السلطان والولاة، والحكام والقادة، والأعوان والبطانة...ثم ما للرعية والجند من حقوق يجب عطاؤها، وما عليهم من واجبات ينبغي أداؤها. فرسالة الصحابة، وهي بمنزلة خطاب مفتوح إلى الخليفة، ذات صبغة سياسية -إدارية، تهتم بشؤون الحكم وسياسة الدولة.

إن فن الرسالة لايختلف في جوهره عن فن الخطابة إلا من حيث الحجم، فللخطبة حيز محدود من الزمان على حين قد تطول الرسالة لتقرأ بأناة وتمعن. فهما نمطان أو لونان من النثر الأدبي، فقد درج العرب على أن يكتبوا الرسالة في المقصد الكبير، ويلقوا الخطبة في الحدث الجليل. ويمكن القول مع ذلك إن الكتابة انتسجت على منوال الخطابة، وإنه على طريق الخطباء مشى الكتاب، حتى غدت الكتابة آخر الأمر الوريث الشرعي للخطابة.

وما لبث ابن المقفع أن خطا خطوة أخرى في مضمار النثر الأدبي الوليد حين دبّج كتابيه الصغيرين «الأدب الصغير»، و«الأدب الكبير»، وهما في واقع الأمر أشبه برسالتين مطولتين، أو هما بتعبير آخر بمنزلة جسر بين الرسالة المحدودة والكتاب النثري الشامل.

أما كتاب «كليلة ودمنة» الذي نقله ابن المقفع إلى العربية من لغة قومه البهلوية، فيعد لبنة أساسية وكبيرة في صرح النثر العربي الزاهر. وهو مثال بارز على ظاهرة تمازج الثقافات ولاسيما بين الآداب الهندية والفارسية والعربية. ومع أن الكتاب أعجمي الأصول وليس من إبداع العرب في معظمه، فقد انتزع إعجاب الأدباء والنقاد، برغم انتمائه إلى وثنية الهنود ومانوية الفرس. فأقاصيص كليلة ودمنة تضع قارئها في جو محبب، تتعانق فيه الحقيقة والخيال، في تآلف معجب شائق، وحافل بالطرافة والغرابة، حيث الحيوانات الناطقة تملأ ربوعه وجنباته، بالحركة والحياة. ومن خلال الحديث بين كليلة وأخيه دمنة ينعقد الحوار المعهود، وتتوالى الأقاصيص واحدة في إثر واحدة، آخذاً بعضها برقاب بعض: فالحيوانات هي وحدها الشخصيات التي تدور من حولها الأحداث، ولكن هذه الحيوانات في الوقت نفسه كائنات تمثل البشر، وهي نماذج من الناس تحس وتفكر، وتحب وتبغض، وتنجح وتخفق... إنها في حقيقة الأمر رموز للناس في خيرهم وشرهم، وقوتهم وضعفهم، وفطنتهم وغبائهم، وسعادتهم وشقائهم.

وإزاء فيض العلوم وازدهار المعارف في ضحى العصر العباسي حفل المجتمع الإسلامي بأعداد وفيرة من العلماء والكتاب والقصاصين والوعاظ والمؤرخين والفقهاء وعلماء الكلام والفلاسفة والمفسرين والمشرّعين وأعلام الفكر وأنباه التأليف... واتسعت لذلك كله مناحي القول، ونشط الحوار، وحمي الجدال.

وكان الجاحظ (ت٢٥٥هـ/٨٦٨م) أبرز ممثل لهذا الخضم الزاخر على صعيد الفكر الأدبي، وفي مجال الترسل والتأليف. وكتابه «البيان والتبيين» مرآة جلية وأمينة للحياة الأدبية الحافلة عند العرب، بما انطوت عليه من روائع الشعر وبدائع النثر وطرائف الأخبار. وكتابه البخلاء صورة متألقة لنماذج بشرية انطوت نفوسها على سمات وملامح برع الجاحظ في سبر أغوارها ورسم معالمها، وتصوير منازعها. وكتابه «الحيوان» نمط طريف بين موضوعات لم تكن معهودة لدى المؤلفين، فعالم الحيوان عالم واسع فسيح الأرجاء اقتحمه الجاحظ مزوداً بثقافة موسوعية عريضة، ونظر فاحص ثاقب، وفكر نقدي ناضج.

وغدا طبيعياً في هذا العصر أن تكون الطوابع الذهنية غالبة في أكثر أنماط الكتابة ومضامينها، لأن النثر أصلاً وعاء العقل، والشعر ترجمان الشعور. فنشطت كتابات العلماء والفلاسفة والفقهاء وكذلك رؤوس الفرق من معتزلة ومرجئة وشيعة، وأيضاً المجوس والزنادقة

والملاحدة. وفي غمار هذه الحياة الفكرية الموارة والبيئة الحضارية الحافلة، اشتد الحوار وحمي التناظر واحتدم الجدال، ولاسيما مادار بصدد قضايا مهمة كالشعوبية والزندقة ومسائل خلق القرآن والجبر والاختيار... وقد اكتسب بعض هذه المناظرات شهرة واسعة وطابعاً حاسماً، كالذي احتدم في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بين الخوارزمي وبديع الزمان.

كذلك امتد هذا المنحى إلى الأدباء والنقاد فظهرت كتب جمة اتخذت من الموازنة بين الشعراء محوراً لها، ككتاب الحسن بن بشر الآمدي (ت٣٧١هـ/ ٩٨١م) في «الموازنة بين الطائيين»: أبي تمام والبحتري، وكتاب القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ/ ١٠٠١م) في «الوساطة بين المتنبي وخصومه».

واتخذت ظاهرة الموازنة بين أمرين أشكالاً كثيرة وتناولت موضوعات متنوعة، ومنها اهتمام المتكلمين بالموازنة بين مساوىء الديك ومحاسنه، وبين منافع الكلب ومضاره، أو المفاضلة بين الديك والطاووس. وفي خضم هذه الحياة الفكرية بدا أن الحقيقة غدت نسبية وأنه يمكن أن يكون لكل قضية وجهان، وفي كل مسألة قولان، وشاع لدى بعضهم أن يؤيد موضوعاً ويثبته، وأن يدحضه في الوقت نفسه وينقضه، وذلك فيما يشبه المنحى السفسطائي. من ذلك ما ترويه بعض كتب الأدب من أن الخليفة في مجلسه طلب مرة من أحدهم أن يصف له كأساً كانت في يده، فما كان منه إلا أن قال: «أبمدح أم بذم؟»، فقال الخليفة: «صفها بمدح» قال: «تريك القذى وتقيك الأذى» ومضى على هذا الغرار من ذكر محاسنها، وحين طلب إليه أن يصفها بذم، وصفها بقوله: «سريع كسرها، بطيء جبرها» مصوّراً على التو معايبها.

وكان لمثقفي الولاة والوزراء تأثيرهم في إذكاء هذه الروح من تشجيع التباري والتنافس، فالوزير أبو عبد الله العارض يقول للكاتب أبي حيان التوحيدي (ت٤١٠هـ/ ١٠١٩م): «أحب أن أسمع كلاماً في مراتب النظم والنثر، وإلى أي حد ينتهيان، وعلى أي شكل يتفقان. وأيهما أجمع للفائدة، وأرجع بالعائدة، وأدخل في الصناعة، وأولى بالبراعة». وقد أورد أبو حيان في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» صورة من هذه المفاضلة المسهبة. ولاريب في أن هذه الحركة الفكرية الدائبة التي اتخذت عهدئذ من النثر وعاء رحيباً لها كانت مبعث اهتمام المناطقة والمتكلمين ومهوى أفئدة الناشئة والمتأدبين.

على أن ارتقاء أساليب النثر في ظل ازدهار الحياة العقلية استتبع تكاثر المصطلحات المستحدثة كالهيولى والصورة والجوهر والعرض والحد والعنصر، والألفاظ الدخيلة مثل الترياق والآيين والاسطقس... وكان متوقعاً إزاء فيض الأفكار الجديدة والألفاظ الدخيلة والأسماء الغريبة ألا تنطوي بعض النصوص والكتابات على اليسر المعهود، وأن يستغلق فهمها أحياناً على مدارك الكثيرين من أوساط الناس، حين كانت تصدمهم مظاهر التعقيد وملامح الغموض فيما يسمعون ويقرؤون. وكما ضاق البحتري ذرعاً في هذا العصر بزج حدود المنطق وقضايا الذهن في فن الشعر، استنكر أحد الأعراب ما سمعه في مجلس بعض النحاة فقال ساخراً متعجباً: «أراكم تتكلمون بكلامنا، في كلامنا، بما ليس في كلامنا».

وفي الوقت نفسه إبّان القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي انبثق في الحياة الأدبية نمط نثري مستحدث عرف بالمقامات، وهو نثر قصصي يغلب عليه التأنق اللفظي والتزيين البديعي ويجنح أحياناً في مضمونه إلى السخرية والدعابة، ويمكن القول إن هذا الفن ولد كاملاً بفضل موهبة الناثر القدير بديع الزمان الهمذاني (ت٣٩٨ / ١٠٠٧م)، فهو في مقامته المسماة «البغدادية» يسوق الحكاية على لسان الراوية الموهوم الذي اخترع شخصيته وأطلق عليه اسم عيسى بن هشام وقد يسند إليه أحياناً دور البطل بالإضافة إلى ذلك كما في مقامته البغدادية: «اشتهيت الازاذ وأنا ببغداذ، وليس معي عقد على نقد. فخرجت أنتهز محاله، حتى أحلني الكرخ. فإذا أنا بسوادي يسوق بالجهد حماره، ويطرز بالعقد إزاره. فقلت: ظفرنا والله بصيد. وحياك الله أبا زيد...».

ومثل هذا النمط الشائق من فنون القول استهوى شباب ذلك الجيل، إذ وجدوا فيه مذاقاً طريفاً ينطوي على المرح والهزل، ويبتعد عن الرصانة والجد. كما وجدوا في أسلوبه صياغة جميلة ترضي نزوعهم إلى التأنق اللفظي والزخرفة الأسلوبية. وهذا ما حفز ناثراً بارزاً آخر بعد ذلك على المضي قدماً في ممارسة هذا الفن النثري وهو القاسم بن علي الحريري (ت٥١٦هـ/ ١١٢٢م) ولكنه تمادى في اصطياد السجع وسائر المحسنات البديعية إلى حد التصنّع والتكلّف. كما أن مقاماته قصرت عن المقامات السالفة، لأن منشئها لم يكن يضارع بديع الزمان في موهبته، فأتت مقاماته قليلة الرونق أشبه بمتون لغوية مسجوعة.

خصائص النثر الفنية: وعلى صعيد الأسلوب في نثر العصر العباسي فقد اغتنت ملامحه وتنوعت أنماطه. فقوام التعبير عند ابن المقفع مشاكلة اللفظ للمعنى، مع توخي الاقتصاد في الألفاظ والوضوح في المعاني، إذ البلاغة عنده «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها»، فكان همه جلاء الفكرة وإيصال المعنى، ولهذا لم يكن يلوي على صنعة أو تنميق ولا وشي أو تزيين. غير أن السنين التي أعقبت ذلك حملت مع التعقيد الحضاري ما يوازيه من التعقيد الأسلوبي، على غرار ماكان أيضاً من حال الشعر، فطالت العبارة لتكون أقدر على استيعاب الفكرة، وحل الإطناب في القول محل الإيجاز المعهود. وحرص الكتاب على أن تتسربل جملهم فيما بينها بإيقاع الازدواج أو التوازن، من مثل ما جنح إليه سهل بن هارون (ت٢١٥هـ/ ٨٣٠م) والجاحظ، أول الأمر، ثم ما زاد فيه أبو حيان التوحيدي، وما استكثر منه ابن العميد (ت٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)، والصاحب ابن عباد (ت٣٨٥هـ/ ٩٩٥م).

ثم مضى الناثرون على هذا الصعيد من تدبيج كتاباتهم والتأنق في عباراتهم إلى المدى الأقصى، وذلك في أواخر القرن الرابع الهجري، وما تلاه من قرون. فجدّوا في طلب الزخرفة والتنميق. ولم يقتصر طلب السجع والزخرف على أصحاب المقامات بل كاد يشمل ذلك معظم الأدباء والناثرين. وقلّما نأى كاتب منشيء في العهود العباسية المتأخرة عن هذه المظاهر التزيينية في النثر العربي. فأبو العلاء المعري في كتابه «الفصول والغايات» الذي كاد يقصره على مناجاة الخالق وتمجيده، دأب على صوغ أفكاره ومعانيه بعبارات طافحة بالغرابة اللفظية ومثقلة بالسجع الممجوج: «أقسم بخالق الخيل، والعيس الواجفة بالرحيل، تطلب بموطن جليل، والريح لهابة بليل، بين السوط ومطامع سهيل، إن الكافر لطويل الويل، وإن القمر لمكفوف الذيل، شعر النابغة وهذيل، وغناء الطير على الغيل...».

ولم يحلّ القرن السادس الهجري حتى غلب التصنّع على النثر العربي وبسط طابعه على معظم النتاج الأدبي في ذلك العصر. ولعل ما يبعث على الرضى أن بعض أنماط الكتابة النثرية لم تنجرف مع هذا المد التعبيري المتكلف، بل ظلت بريئة إلى حد بعيد من معظم هذه القيود اللفظية والزخارف البديعية، إلا قليلاً من السجع بين الألفاظ وبعضاً من التوازن بين الجمل. فحافظت كتب المؤلفين ومصنفات العلماء بالإجمال على الأسلوب المرسل ولاسيما مؤلفات النقد الأدبي والتراجم والتاريخ وتقويم البلدان ونحوها. وخير مثال على هذا الترسل ما كتبه أبو الفرج الأصفهاني وعبد القاهر الجرجاني... وامتد هذا المنحى النثري المطلق إلى ما بعد العصر العباسي، وتجلى في نثر ابن خلدون وأمثاله من أصحاب الأسلوب المرسل.

أعلام النثر: ظهر في هذا العصر عدد جم من الكتاب والمؤلفين منهم ابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة وأبو الفرج الأصفهاني وابن العميد وأبو حيان التوحيدي وبديع الزمان الهمذاني والحريري.

عمر الدقاق

■ الأدب العربي في العصر الأندلسي

[الأندلس والمغرب وشمالي إفريقية وصقلية]

الأندلس والمغرب جزءان مترابطان من عالم واحد كان يعرف في القديم عند المشارقة بالمغرب الإسلامي، وقد ظلا يتمثّلان طوال العصور الوسطى حضارة واحدة مشتبكة العلاقات في السياسة والفكر والاجتماع، وفي العلاقات البشرية المستمرّة من هجرة واختلاط وتزاوج.

وقد كوّنت صقلية مع بلاد المغرب وشمالي إفريقية والأندلس وحدة ثقافية ذات طابع خاص جوهره التراث الثقافي العربي الإسلامي، وساعد في حفظه كثرة الانتقال والاتصال.

وقد أدت الأندلس وصقلية دوراً بارزاً في النهضة الأوربية عن طريق نقل هذا التراث كما يشهد بذلك الباحثون، مما يجعل الحديث عن فضل الحضارة العربية الإسلامية من الوقائع التاريخية الثابتة.

الأندلس

الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس

أطلق العرب لفظ الأندلس Al-Andalus على القسم الذي سيطروا عليه من شبه جزيرة إيبرية (إسبانية والبرتغال) واستقروا فيه زهاء ثمانية قرون (منذ فتحها عام ٩٢هـ/ ٧١١م بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، وآخرين، حتى سقوط غرناطة عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م) فجاؤوا بلغة حيّة تأثرت بها اللغتان الإسبانية والبرتغالية، وبمدٍّ حضاري حمل عبارة تتصدّر معاهد العلم وهي: «العالم يقوم على أربعة أركان: معرفة الحكيم، وعدالة العظيم، وصلاة التقي، وبسالة الشجاع».

حكم الأندلس مدة ست وأربعين سنة (٩٢-١٣٨هـ/ ٧١١-٧٥٥م) ولاة كان يعيّنهم الخليفة في دمشق، أو عامله على إفريقية، ولما قوّض العباسيون صرح الدولة الأموية، فرّ عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن مروان من الشام في مغامرة طويلة حتى وصل إلى الأندلس سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٥م، واستطاع بحذقه السياسي أن يؤسس إمارة حاضرتها قرطبة Cordoba استمرّت من عام ١٣٨ حتى عام ٣٠٠هـ/ ٧٥٦-٩١٢م، ولقب «بالداخل» و«بصقر قريش».

وفي عهد عبد الرحمن الثالث الذي لُقّب «الناصر» وحكم من سنة ٣٠٠ حتى ٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م، تحوّلت الإمارة إلى خلافة، وفي هذا الدور بلغت الأندلس أوج مجدها السياسي والأدبي ونافست قرطبة بغداد.

ثم انتثر عقد البلاد، فاستبدّ رؤساء الطوائف بالولايات، وقامت دويلات بلغت العشرين عداً عُرف حكامها بملوك الطوائف (٤٠٣-٥٣٦هـ/ ١٠١٢-١١٤١م) منها الدولة العبّادية في إشبيلية، ودولة بني الأفطس في بَطَلْيَوس، والدولة الجَهْورية في قرطبة.

ومع انشغال الحكام بشؤونهم عن تدبير الملك، وازدياد ضغط الإسبان الشماليين على هذه الدويلات، فزع الأندلسيون إلى يوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) أمير المُلَثَّمين (المُرابطين) في المغرب، فأنجدهم سنة ٤٧٩هـ بعد انتصاره في معركة الزلاقة، ثم استقل بحكم الأندلس التي تحوّلت إلى ولاية تابعة للمغرب في زمن المرابطين والموحدين.

وبعد هزيمة الموحدين سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م في موقعة العقاب Las Navas de Tolosa التي جرت مع الإسبان، استطاع الإفرنجة أن يستولوا على الحصون والمدائن ومنها قرطبة التي سقطت سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٣٥م، بعد أن لبثت خمسمئة وعشرين سنة عاصمة المُلك. وحُصرت الدولة في مملكة غرناطة التي حكمها بنونصر (بنو الأحمر)، وشيدوا فيها قصور الحمراء Al-Hambra، وحافظوا على السلطان العربي في الأندلس زهاء قرنين ونصف القرن (٦٣٥-٨٩٧هـ/ ١٢١٨-١٤٩٢م). ثم اتحدت مملكتا قشتالة Castilla، وأرغون Aragon في مواجهة بني نصر، وسقطت غرناطة، وسلّم أبو عبد الله الصغير مفاتيح الحمراء إلى المنتصرين.

كان قوام المجتمع الأندلسي في بداية الأمر من الفاتحين العرب والبربر، وقد وحّدت بينهم راية الحرب، والدعوة إلى الجهاد.

ودخل قسم كبير من أهل البلاد في الإسلام، وتمتّع باقي السكان من النصارى واليهود بحياة مطمئنة، ومارسوا شعائرهم الدينية بكل حرية.

وكان للأندلسيين عناية خاصة باللغة وعلومها وآدابها، إضافة إلى الفقه وعلوم الشريعة، وقد استقدم الخلفاء العلماء من المشرق لينقلوا معهم كنوزهم الأدبية فيتأدّب بها الكثيرون. وكان للفقهاء في الأندلس سلطان عظيم لدى الدولة، ولدى عامة الناس.

واحتلت المرأة في الأندلس منزلة عظيمة، ونالت حظاً وافراً من التعليم، ونبغت في العلوم والآداب والفنون كثيرات: قيل إن مئة وسبعين إمرأة بضاحية قرطبة الشرقية كنّ يعملن يومياً في نقل نسخ من القرآن الكريم بالخط الكوفي، وإن «إشراق العروضية» (القرن الخامس الهجري) كانت تحفظ «الكامل» للمبرّد، و«النوادر» للقالي. وكان يُعهد إلى النساء بتربية أبناء الأمراء والأغنياء وتأديبهم، فابن حزم تلقّى ثقافته الأولى على يد نساء قصر أبيه، وهنّ علّمنه القرآن، وروينه الأحاديث الشريفة، ودرّبنه على الخط.

وكانت الشواعر ملمحاً بارزاً من ملامح الشعر الأندلسي لوفرتهنّ ونبوغهنّ، وقد ارتبط سحر شعر النساء باسم ولادة (ت٤٨٤هـ) بنت الخليفة المستكفي (ت٤١٦هـ) فقد غشي منتداها فرسان النظم والنثر، ومنهم ابن زيدون (ت٤٦٣هـ) الذي نَعِم بوصلها، وشقي بهجرها، فقال فيها أجمل الغزل وأرقه.

الأدب العربي في الأندلس

الشعر

فنون الشعر الأندلسي: نظم الأندلسيون الشعر في الأغراض التقليدية كالغزل والمجون والزهد والتصوف والمدح والهجاء والرثاء، وقد طوّروا موضوع الرثاء فأوجدوا «رثاء المدن والممالك الزائلة» وتأثّروا بأحداث العصر السياسية فنظموا «شعر الاستغاثة»، وتوسعوا في وصف البيئة الأندلسية، واستحدثوا فن الموشحات والأزجال.

وكان الغزل من أبرز الفنون التقليدية، يستهل به الشعراء قصائدهم، أو يأتون به مستقلاً، وبحكم الجوار أولاً، ولكثرة السبايا ثانياً، شاع التغزل بالنصرانيات، وكثر ذكر الصلبان والرهبان والنُسّاك. كذلك شاع التشبيب بالشعر الأشقر بدلاً من الشعر الفاحم، كما أن الشعراء جعلوا المرأة صورة من محاسن الطبيعة. قال المقّري: «إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن النرجس عيوناً، ومن الآس أصداغاً، ومن السفرجل نهوداً، ومن قصب السكر قدوداً، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم، ومن ابنة العنب رضاباً».

ولم يظهر المجون الذي يُخلط فيه الجد بالهزل في عهد الدولة الأموية في الأندلس لانشغال الناس بالفتوح، من جهة، ولأن الوازع الديني كان قوياً في النفوس، من جهة ثانية. لكن، منذ عصر ملوك الطوائف حتى نهاية حكم العرب في الأندلس، اتّخذ بعضهم المجون مادة شعرهم، وأفرطوا فيه إلى حد الاستهتار بالفرائض، مع أنه ظهر في القرن الخامس الهجري في ظل دول الطوائف عدد غير قليل من الشعراء الذين نظموا في الزهد، كأبي إسحق الإلبيري (ت٤٦٠هـ)، وعلي بن إسماعيل القرشي الملقب بالطليطل، والذي كان أهل زمانه (المئة السادسة) يشبّهونه بأبي العتاهية.

ولئن كان الزهد دعوة إلى الانصراف عن ترف الحياة، فإن التصوّف شظف وخشونة وانعزال عن الخلق في الخلوة إلى العبادة. ويتخذ الشعر الصوفي الرمز أداة للتعبير عن مضمونه وحقائقه. ومن متصوفة الأندلس ابن عربي (ت٦٣٨هـ) وقد لُقّب «بمحيي الدين» و«بالشيخ الأكبر» وابن سبعين (ت٦٦٩هـ) وكان يُلقّب «بقطب الدين».

وفي المدح حافظ الشعراء على الأسلوب القديم، فاعتنوا بالاستهلال وحسن التخلّص، وربما بدؤوا قصائدهم بوصف الخمر أو الطبيعة، أو بلوم الزوجة زوجها لسفره للقاء الممدوح كما في شعر ابن درّاج القسطلي (ت٤٢١هـ)، وهم لم يُغرقوا في استعمال الغريب ما عدا ابن هانئ (ت٣٦٢هـ) الذي حاول تقليد المتنبي.

ولم يختلف رثاء الأندلسيين عن رثاء المشارقة، فكانوا يتفجّعون على الميت، ويعظّمون المصيبة، وكثيراً ما كانوا يبدؤون بالحكمة صنيع ابن عبد ربه (ت٣٢٨م).

فنون الشعر الأندلسي المتطورة

الشعر التعليمي: ويُراد به الأراجيز والمنظومات التاريخية والعلمية، وهو لا يلتقي مع الشعر الفني الذي يغلب عليه عنصرا الخيال والعاطفة إلا في صفة النظم، ويستقل في الرجز كل شطر بقافية. من الأراجيز التاريخية أرجوزة يحيى ابن حكَم الغزال (ت٢٥٠هـ) شاعر عبد الرحمن الثاني (الأوسط) وهي في فتح الأندلس، وأرجوزة تمام بن عامر بن علقمة (ت٢٨٣هـ) في فتح الأندلس وتسمية ولاتها والخلفاء فيها ووصف حروبها، وأرجوزة ابن عبد ربه في مغازي عبد الرحمن الثالث، وأرجوزة أبي طالب عبد الجبّار (القرن الخامس الهجري) وكان مواطنوه يلقبونه بالمتنبي وقد قصر شعره على الوصف والحرب والتاريخ، وأرجوزة لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) «رقم الحلل في نظم الدول» وهو تاريخ شعري للدول الإسلامية في المشرق والأندلس. ويلي كل قصيدة شرحها.

ومن الأراجيز العلمية أرجوزة ابن عبد ربه في (العروض) وأرجوزة الشاطبي، القاسم بن فيّرة (ت٥٩٠هـ) في القراءات وعنوانها «حرز الأماني». وألفية ابن مالك (ت بدمشق سنة ٦٧٢هـ) في النحو، وأرجوزة لسان الدين بن الخطيب المسماة «المعتمدة» في الأغذية المفردة، وأرجوزة أبي بكر بن محمد بن عاصم (ت٨٢٩هـ) في القضاء وعنوانها «تحفة الحكام في نكت العقود والأحكام»، وتذكر في نطاق الشعر التعليمي منظومة حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) وهي منظومة ميمية في النحو عدد أبياتها سبعة عشر ومئتان، وبديعية ابن جابر الضرير (ت ٧٨٠هـ) التي نظمها في مدح الرسول الأعظم ﷺ، وضمّنها نحو ستين فناً بديعياً، وسمّاها «الحلّة السِّيرا في مدح خير الورى».

وصف الطبيعة: ألهبت طبيعة الأندلس الجميلة قرائح الشعراء، فرسموا لوحات شعرية متنوعة أودعوها أخيلتهم وعواطفهم.

رأى عبد الرحمن الداخل نخلة بالرصافة (شمالي قرطبة)، فلم يصفها في طولها ولا في التفافها ولا في ثمرها، وإنما عقد بينه وبينها شبهاً في النوى والبعد عن الأهل. ووصف ابن عبد ربه الطبيعة بمعناها العام المتمثّل في الرياض وأزهارها فخلع على صياغته من نفسه ومهارته ماجعلها مصوّرة البيئة الأندلسية أدقّ تصوير وأحلاه. وقد ردد ابن حمديس (ت٥٢٧هـ) أصوات القدماء في الطبيعة كما ردد أصوات المحدثين، ووصف الخيل والإبل والغيث والبرق، وأقحم عبارات امرئ القيس، ثم حاكى أبا نواس في الدعوة إلى نبذ الوقوف على الأطلال، ودعا إلى الشراب، وكثيراً ما وصف ترحاله وتغرّبه عن صقلية التي أُبعِدَ عنها وهو حَدَث (٤٧١هـ) لما غزاها النورمان.

تغنّى الشعراء الأندلسيون بجمال الطبيعة الأندلسية، فابن سفر المريني يتعلق بالأندلس فيراها روضة الدنيا وما سواها صحراء، وابن خفاجة الذي لقب «بالجنّان» و«بصنوبري الأندلس» يشبهها بالجنة فهو يقول:

يا أهل أندلس للّه دركم
ماء وظل وأنهار وأشجارُ
ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو تخيّرت هذي كنت أختارُ

ووصف شعراء الأندلس أقاليم الأندلس وربوعها وصفاً دقيقاً، فحمدة بنت زياد (من شواعر القرن الخامس الهجري) تصف وادي آش Guadix القريب من غرناطة فترسم أكثر من صورة متحركة.

وبدافع من التطور الحضاري أدخل الأندلسيون إلى قصورهم المنيعة الماء ليملأ البرك في باحاتها، ولينتثر من أفواه التماثيل كما في وصف ابن حمديس بركة في قصر المتوكل بن أعلى الناس بإفريقية.

أما وصف مجالس الأنس فقد بدأ ظاهرة اجتماعية في أخريات الدولة الأموية في الأندلس، ثم أخذت المجالس بالانتشار والشيوع في عهد ملوك الطوائف، وما تلاه من عصور، ويغلب على هذا الشعر الارتجال، وفيه وصف للساقي والخمر.

كذلك رأى الشعراء الأندلسيون في المرأة صورة من محاسن الطبيعة، وقد ألح ابن زيدون في ديوانه على ثنائية ولادة والطبيعة.

وفي بعض أشعارهم ميل إلى النزعة القصصية، ومن ذلك قول جعفر بن عثمان المصحفي (ت٣٧٢هـ) في سفرجلة تتبّع وصفها مذ كانت تختال على شجرتها إلى أن ذبلت في كف الشاعر.

ويغلب على الوصف في الشعر الأندلسي التشبيهات والاستعارات ويمثّل لها بشعر ابن سهل (ت٦٤٩هـ)، فقد صور الشاعر الطبيعة فأحسن المزج بين الألوان، وجمع بين الحسّ المرهف، والملاحظة الدقيقة.

رثاء الممالك الزائلة: وهو تجربة إنسانية قلّ نظيرها في الأدب العربي لما اتّصف به من حدة وحماسة، وجرأة في نقد المجتمع، ودعوة لاسترجاع ما ذهب.

لقد رثى المشارقة المدن التي استبيح حماها، كما صنع ابن الرومي حين رثى مدينة البصرة عندما أغار عليها الزنج سنة ٢٥٥هـ، لكن هذا اللون لم يظهر في الأدب المشرقي كما ظهر في الأدب الأندلسي فناً قائماً بذاته يسير في ثلاثة اتجاهات: الأول هو رثاء المدن التي كانت عامرة فخربت أو ضاعت، ويمثّل له بشعر أبي إسحق الإلبيري يصف إلبيرة Elvira وما أصابها من دمار وخراب. أما الثاني فرثاء الدويلات التي زالت في أثناء الحكم العربي في الأندلس وفيه يعدّد الشعراء ما حلّ بأرباب نعمتهم من أسر أو قتل أو تشريد كما في رثاء ابن اللبّانة (ت٥٠٧هـ) دولة بني عبّاد، ورثاء ابن عبدون (ت٥٢٧هـ) دولة بني الأفطس في قصيدته الرائية «البسّامة» وأما الاتجاه الثالث فهو الشعر الذي نظمه أصحابه في رثاء المدن الضائعة مما سقط في يد العدو كما في قصيدة أبي البقاء الرُّندي (ت ٦٨٤هـ) التي تتوزّعها ثلاث فكر هي الاعتبار بزوال الدول، وتصوير سقوط المدن، ثم دعوة المسلمين إلى الجهاد.

شعر الاستغاثة: ويقوم على استنهاض عزائم ملوك المغرب والمسلمين لنجدة إخوانهم في الأندلس أو التصدّي للاجتياح الإسباني.

وقد أورد المقّري في نفح الطيب قصيدة ابن الأبّار (ت٦٥٨هـ) التي استغاث فيها بسلطان تونس أبي زكريا الحفصي سنة ٦٣٦هـ ومطلعها:

أدْرِك بخيلك خيل اللّه أندلسا
إنّ السبيل إلى منجاتها دَرَسَا

فاستوعبت معظم الاتجاهات والمعاني التي أتى بها شعراء الاستغاثة.

الموشحات والأزجال: أحدث الأندلسيون فناً جديداً يتجاوب مع البيئة التي شاع فيها الغزل والشراب والغناء وهو الموشّح الذي يعتمد أكثر من وزن وأكثر من قافية، فيعمد الوشّاح فيه إلى ضرب من التنويع والافتنان العروضي.

نشأ هذا الفن في القرن الثالث الهجري على يد رجلين من قرية قبرة Cabra بالأندلس هما: محمد بن حمّود الضرير، ومُقَدَّم بن معافى، كما قال ابن بسّام وابن خلدون. وإن كان بعض الدارسين، ومنهم المستشرقان الإسبانيان خوليان ريبيرا J. Ribera وغارثيا غومث Garcia Gomez، يرون أن الموشّح تقليد لشعر رومانسي كان الإسبان يتغنّون به، وقد أبقوا منه الخرجة الأعجمية، فالموشح يتألف من مطلع ومجموعة أدوار وخرجة، فالمطلع هو القفل الأول، أما الدور فيتألف من مجموع القفل والغصن. ويأتي القفل على سمط أو اثنين أو أكثر، وكذلك الغصن، أما الخرجة فهي القفل الأخير من الموشحة.

نُظم الموشح في الأغراض المختلفة، وظهرت أسماء لامعة لوشاحين كان أغلبهم شعراء من أمثال أبي بكر عبادة بن ماء السماء (ت٤٢٢هـ)، وعبادة القزّاز (ت٤٨٤ هـ)، وابن اللّبانة (ت٥٠٧هـ)، والأعمى التُّطيلي (ت٥٢٠هـ)، وابن بَقي (ت٥٤٠هـ)، وابن زُهر الحفيد (ت٥٩٥هـ)، وابن عربي محيي الدين (ت٦٣٨هـ)، وابن سهل الإشبيلي (ت ٦٥٩هـ)، وأبي الحسن الشُّشْتَري (ت٦٦٨هـ)، وأبي حيّان الغرناطي (ت٧٤٥هـ)، وابن خاتمة الأنصاري (ت٧٧٠هـ)، ولسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) وابن زمرك (ت٧٩٧هـ)، وابن عاصم الغرناطي.

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، نسجت العامة على منواله بلغة غير معربة قريبة إلى اللغة التي يتكلم بها الناس في مخاطباتهم اليومية ما سموه بالزجل.

وقد مرت الأزجال بأدوار متلاحقة أولها دور الأغنية الشعبية، ثم دور القصيدة الزجلية، واتسعت الأزجال لأغراض كثيرة كالمديح والغزل والتصوف والوصف.

ومن أشهر الزجّالين ابن قُزمان (ت٥٥٤هـ)، وله ديوان أزجال كبير ويخلف بن راشد، وكان إمام الزجل قبل ابن قزمان، ومدغلّيس (أحمد ابن الحاج) الذي كان شاعراً وشّاحاً، والشُّشْتَري وقد برع في القصيد والموشّح، وهو أول من استخدم الزجل في التصوف كما استخدم محيي الدين بن عربي التوشيح فيه.

خصائص الشعر الأندلسي: مرّ الشعر الأندلسي بأطوار ثلاثة: فكان منذ الفتح حتى أوائل القرن الخامس الهجري يمثّل شعر التقليد لأدب المشرق، ولم يكن التقليد عجزاً عن الابتكار، وإنما لشعور الانتماء إلى الأصل كشعر ابن عبد ربه، وابن هانئ وابن شهيد، وابن دراج القسطلي.

وفي القرن الخامس الهجري جمع الشعراء بين التجديد والأخذ بشيء من التقليد، ويمثل هذا التطور شعر ابن زيدون، وابن عمار، والمعتمد بن عبّاد، وابن الحدّاد، والأعمى التُّطيلي.

أما في القرن السادس الهجري وما بعده، فقد صوّر الشعراء بيئتهم، وبرزت العوامل الأندلسية الذاتية كما في شعر ابن حمديس، وابن عبدون، وابن خفاجة، وابن سهل، وأبي البقاء الرُّندي، وابن خاتمة الأنصاري، ولسان الدين بن الخطيب، وابن زمرك، ويوسف الثالث ملك غرناطة، وابن فركون، وعبد الكريم القيسي البسطي.

لقد أولع الأندلسيون بكل ماهو شرقي، وفي هذا يقول ابن بسّام (ت٥٤٢هـ): «إن أهل هذا الأفق - يعني الأندلس - أبَوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنّ بأقصى الشام أو العراق ذباب. لجثوا على هذا صنماً، وتَلَوا ذلك كتاباً مُحْكَماً».

وبسبب هذه المحاكاة للمشارقة في أساليبهم ومعانيهم قيل للرصافي ابن رومي الأندلس، ولابن درّاج متنبي المغرب، ولابن هانئ متنبي الأندلس، ولابن زيدون بحتري المغرب والأندلس.

وكانت ظاهرة الانتقاء من التراث من خصائص الأدب الأندلسي، فكانوا يضمّنون قصائدهم أقوال السابقين وأشعارهم وأمثالهم وما صادف هوى في نفوسهم.

كما لقي حب الجديد صدى مستحبّاً في نفوس الأندلسيين، فلم يتقيّد أغلبهم بأساليب الأعراب ومعانيهم وأوصافهم، ولم تكن لغتهم محكمة كلغة المشارقة والأقدمين لبعد صقعهم عن البادية، ولوجود جيل لم يكن عربياً صرفاً، وقد نفروا من الألفاظ الوحشية إلى الألفاظ المأنوسة الرقيقة، وكانت القافية الواحدة، وأوزان العروض الستة عشر ومثلها أكثر المعاني والأساليب المتوارثة قوام الشعر التقليدي في الأندلس.

أعلام الشعراء: لم يهتم الناس في عصر الولاة بصناعة الأدب لانشغالهم بالفتوح وإن لم يخل العصر ممن نظموا الشعر في بعض المناسبات. فقد حفظت المصادر اسم أبي الأجرب جَعْوَنة ابن الصِّمة، وأبي الخطّار حسام بن ضرار الذي وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢م.

وفي عصر الإمارة نشط الشعر، وكان العدد الأكبر من الأمراء الأمويين في الأندلس شعراء منهم عبد الرحمن الداخل (١١٣-١٧٢هـ) وتبدو في شعره رقة الشعر الأموي وجزالته، وقد طرق موضوعات عدة لكنه تعمّق في الفخر والحنين.

كما اشتهر من العامة يحيى بن حَكَم الغزال، وقد ترك شعراً يُصنّف في ثلاث مراحل: الأولى مرحلة الشباب، وتغلب عليها موضوعات الغزل وما يتصل بذلك من دعابة ومجون، وقد سافر إلى بلاد النورمان أيام عبد الرحمن الأوسط فأُعجب بملكتهم «تيودورا» وابنها فوصفهما في شعره، والثانية هي مرحلة التعقّل والأناة، وتغلب عليها موضوعات النقد الاجتماعي، ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الزهد التي يذكّر فيها بالموت والفناء.

وفي عصر الخلافة ظهر ابن عبد ربه الذي طرق الأغراض الشعرية المعروفة، ولما تناهت به السن نظم «الممحصات» وهي قصائد نقض فيها ما قاله في الصبا، فجاء بأشعار تغص بالمواعظ والزهد.

أما جعفر بن عثمان المصحفي، وقد استخدمه الحكم المستنصر في الكتابة، فهو الحاجب الشاعر الذي فتن بالطبيعة فوصفها، وله أشعار يشكو فيها الزمان. وأما ابن فرج الجيّاني فقد اشتهر بالكتابة والتأليف، وله أشعار غزلية تمثّل الغزل العذري العفيف.

وأما ابن هانئ، ويُقال له الأندلسي تمييزاً له من ابن هانئ الحكمي (أبي نواس)، فقد نشأ بإشبيلية ثم غادرها إلى المغرب لتألب الناس عليه بسبب أفكاره الفلسفية، فلقي جوهراً قائد المعز لدين اللّه الفاطمي ومدحه، ثم اتصل بالمعزّ، وغادر معه إلى مصر بعد أن بنى جوهر القاهرة، ثم استأذن بالعودة إلى المغرب لاصطحاب أسرته، لكنه قُتل في الطريق فقال المعزّ لما علم بنبأ قتله: «هذا الرجل كنّا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يُقَدَّر لنا».

وفي مرحلة الحجابة عرفت طائفة من الشعراء عاصر بعضهم المرحلة السابقة كالمصحفي، ولمع آخرون منهم المرواني الطليق (ت ٤٠٠هـ) وكان شاعراً مكثراً. قال عنه ابن حزم «إنه في بني أمية كابن المعتز في بني العباس».

ومنهم يوسف بن هرون الرمادي (ت٤٠٣هـ) اشتهر عند الأندلسيين بلقب (متنبي المغرب) لغوصه على المعاني، وفنون شعره هي المدح والوصف والغزل.

ومنهم ابن درّاج القسطلّي (نسبة إلى قسطلّة درّاج من أعمال مدينة جيّان) وهو يُعدّ من أوفر الأندلسيين نتاجاً، وقد تقلّب في ظلال نعمة المنصور بن أبي عامر، وخلّد الكثير من غزواته.

وفي عصر الفتنة كان الشعراء أقل عدداً من شعراء المراحل السابقة، وقد مزج بعضهم الشعر بكثير من النثر لأنهم عملوا في الدواوين، وكان بعض الخلفاء شعراء كالخليفة المستعين.

من شعراء هذه المرحلة ابن شهيد، وابن حزم.

شهد ابن شهيد (ت٤٠٦هـ) عصر الفتنة الذي كان فاصلاً بين توحد الأندلس تحت ظل العامريين (حجّاب دولة بني أمية) وبين ظهور دول الطوائف، وقد ترك آثاراً نثرية وشعرية.

أما ابن حزم (ت٤٥٦هـ) فقد ولد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ ونهل من معين الثقافة مُبكراً، وكان عالماً بالشعر، وصاحب مذهب حر في النقد، وكان في عصره صوتاً يغاير ما كان عليه جمهرة فقهاء الأندلس (كان المذهب السائد هو مذهب مالك) فقد تمذهب أول حياته بمذهب الشافعي، ثم مال إلى المذهب الظاهري، فاحتج له، وألّف فيه، فأمر المعتمد بن عبّاد بحرق كتبه بتحريض الفقهاء.

واجتهد ملوك الطوائف في ردّ قرطبة الغربية إلى المشرق فتشبّهوا بخلفاء المشرق، وتباروا في اجتذاب العلماء والأدباء والشعراء.

من شعراء هذه المرحلة أبو إسحاق الإلبيري وكان فقيهاً زاهداً له قصيدة حرّض فيها صنهاجة (قبيلة باديس بن حبّوس) على الوزير المتنفّذ في غرناطة ابن النغريلة اليهودي، فكانت السبب في قتله. ومنهم ابن زيدون وكان متقدّماً في علوم العربية وفي رواية الشعر. أدرك أواخر عهد الدولة المروانية، وخدم دولتي بني جهور في قرطبة، وبني عبّاد في إشبيلية. أحبّ ولادة ابنة المستكفي، وتغنى بحبها. ومن فنونه الشعرية الوصف والمدح والاستعطاف والشكوى، ومنهم ابن عمّار (ت٤٧٧هـ) الذي صحب المعتمد بن عبّاد منذ صباه ثم ساءت العلاقة بينهما، فلقي حتفه على يد المعتمد. له شعر في الوصف والغزل والمدح والشكوى والاستعطاف.

ومنهم ابن الحدّاد الوادي آشي (ت٤٨٠هـ)، وقد دار معظم شعره حول مدح بني صمادح، وله غزل بفتاة نصرانية ذكرها باسم مستعار هو نويرة.

ومنهم المعتمد بن عبّاد (ت٤٨٨هـ) صاحب إشبيلية، نفاه يوسف بن تاشفين إلى أغمات في المغرب بعد تغلّبه على الأندلس. من فنونه الشعرية الغزل والوصف والشكوى. ومنهم ابن اللبانة (نسبة إلى أمه التي كانت تبيع اللبن) اختص بمدح عدد من ملوك الطوائف ومنهم المعتمد.

من شعراء عصر المرابطين الأعمى التُّطيلي، وابن خفاجة، وابن الزقّاق. نبغ الأعمى التُّطيلي في الشعر والموشحات، إلا أن شهرته في الموشحات أكثر منها في القصائد.

أما ابن خفاجة (ت٥٣٢هـ) فهو شاعر الوصف الأول في الأندلس، وقد لقب بالجنّان، وبصنوبري الأندلس. وقد مدح شخصيات معاصرة له.

وأما ابن الزقّاق (ت٥٢٩هـ) فقد نزع منزع خاله ابن خفاجة في الغزل ووصف الطبيعة، وله مدح ورثاء وهجاء.

وفي عصر الموحدين سيطر على الناس حب الأدب، وقرض الشعر. فالرصافي البلنسي (ت٥٧٢هـ) ولد في رصافة بلنسية، وبها قضى شطراً من حياته، ثم تحوّل إلى مالقة وترسّم خطوات أستاذه ابن خفاجة في الوصف والمدح، وله شعر في الحنين.

وابن مرج الكحل (ت٦٣٤هـ) كان شاعراً

مطبوعاً يغلب على شعره الوصف والغزل. وابن عربي، محيي الدين كان شاعراً ووشاحاً. من آثاره الشعرية ديوانه وترجمان الأشواق.

وابن سهل الإشبيلي، إبراهيم كان والده يهودياً، وقد أسلم إبراهيم وحسن إسلامه. اشتهر بقوة الحافظة والقدرة على نظم الشعر، وقد ضمّ ديوانه قصائد في الغزل والوصف والزهد، واشتهر بموشحاته.

وابن الأبّار عُرفت أشعاره في موضوعات الوصف والغزل والرثاء، وشعر الاستغاثة.

ومنهم حازم القرطاجني الذي كان شاعراً ونحوياً وناقداً، وفنون شعره المدح والغزل والوصف. ومن شعراء بني الأحمر: أبو البقاء الرُّندي، واسمه صالح بن يزيد، اشتهر برثاء الأندلس، وله شعر في المدح والغزل. وابن جُزَيّ (ت٧٥٨هـ) أبو عبد الله محمد بن محمد، وكان كاتباً بارعاً وشاعراً مشهوراً يغلب على شعره المدح، وهو الذي دوّن رحلة ابن بطوطة وصاغها بقلمه بأمر من أبي عنان المريني سلطان المغرب.

وابن خاتمة الأنصاري اشتهر مؤلِّفاً مصنّفاً، وشاعراً، وأبرز أغراضه الشعرية التأمل والنسيب والغزل والإخوانيات ووصف الطبيعة، وقد أكثر من التورية في شعره، جمعها ابن زرقاله تلميذه في مصنف سمّاه «رائق التحلية في فائق التورية».

ومنهم لسان الدين بن الخطيب، أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه، ولسان الدين لقب عُرف به، كما عُرف بذي العمرين، وذي الميتتين، وذي الوزارتين. وقد ولد في لوشة Loja على مقربة من غرناطة ـ ترك أكثر من ستين مؤلفاً في الأدب والتاريخ والتصوف والطب والرحلات وديوان شعر عنوانه «الصَيِّب والجَهام والماضي والكَهام». وابن زمرك، وقد شارك في فنون أدبية مختلفة كالكتابة والشعر والموشحات، ويعرف بشاعر الحمراء لأن مقر الحمراء في غرناطة مزدان بشعره.

ويوسف الثالث (ت٨٢٠هـ) اشتهر أميراً ثم ملكاً شجاعاً، وشاعراً أصيلاً تبدو في أشعاره الحماسة العارمة والروح الدينية الوثّابة. وابن فركون القيسي، وقد أدرك شطراً من القرن الثامن الهجري، وقدراً من القرن التاسع. ومن ممدوحيه يوسف الثالث، وجمع ماقيل فيه في كتاب سمّاه «مظهر النور الباصر في أمداح الملك الناصر». ترك ديوان شعر فيه المدح والغزل والوصف والإخوانيات والعتاب.

وعبد الكريم القيسي البسطي من شعراء القرن التاسع الهجري، وكانت ثقافته شرعية وأدبية، ويصور شعره جوانب العصر (أيام الأندلس الأخيرة) التاريخية والاجتماعية.

النثر

فنون النثر الأندلسي: تعددت فنون النثر العربي في الأندلس، فتناول الأندلسيون ما كان معروفاً في المشرق من خطب ورسائل ومناظرات ومقامات، وزادوا عليها بعض ما أملته ظروف حياتهم وبيئاتهم، وقد شاع فيهم تصنيف كتب برامج العلماء، التي تضمّنت ذكر شيوخهم ومروياتهم وإجازاتهم. وكان للكتّاب مزية الجمع بين الشعر والنثر والإجادة فيهما.

الخطابة: كانت الخطابة وليدة الفتح، فقد استدعت الغزوات التي قام بها العرب المسلمون قيام الخطباء باستنهاض الهمم، وإذكاء روح الحماسة للجهاد في سبيل الله.

ولما تمزّقت البلاد، واستحالت إلى دويلات كثيرة، واستعان بعض أصحابها بالأعداء، كان الخطباء يقفون في المحافل العامة للدعوة إلى لمّ الشمل وترك التناحر.

ومنذ عصر المرابطين، حتى آخر أيام المسلمين في الأندلس، ظهرت الخطب المنمّقة، ومنها التي تتضمن التورية بأسماء القرآن الكريم كما في خطبة للقاضي عياض (٥٤٤هـ) التي يقول فيها: «الحمد الله الذي افتتح بالحمد كلامه، وبيّن في سورة البقرة أحكامه، ومدّ في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه...».

الرسالة: كانت الرسالة في القرن الأول من الفتح ذات أغراض محددة أملتها ظروف العصر، وكان لا يُلتزم فيها سجع ولا توشية. ثم حظيت كتابة الرسائل بكتّاب معظمهم من فرسان الشعر استطاعوا بما أوتوا من موهبة شعرية وذوق أدبي أن يرتقوا بأساليب التعبير وأن يعالجوا شتى الموضوعات، فظهرت الرسائل المتنوّعة ومنها الديوانية والإخوانية.

فمن الرسائل الديوانية رسالة أبي حفص أحمد بن برد (ت٤٢٨هـ) (المعروف بالأصغر تمييزاً له من جده الأكبر) من كتّاب ديوان الإنشاء في دولة العامريين، وقد وجهها لقوم طلبوا الأمان من مولاه، واستخدم فيها الأسلوب الذي يُخيف بالكلمة المشبعة بالوعيد.

ومن الرسائل الإخوانية رسالتا ابن زيدون الهزلية والجدية، ورسالة لسان الدين بن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون في الشوق إليه.

وقد شاع استعمال لفظ «كتاب» عوضاً عن الرسالة، كما ورد في رسالة جوابية كتبها ابن عبد البر (ت٤٥٨هـ) إلى أحد إخوانه يعبّر فيها عن مدى إعجابه بأدبه.

المناظرة: وهي فن يهدف الكاتب فيه إلى إظهار مقدرته البيانية وبراعته الأسلوبية، وهي نوعان خيالية وغير خيالية.

فمن المناظرات الخيالية مناظرة بين السيف والقلم لابن برد الأصغر، وقد رمز بالسيف لرجال الجيش، وبالقلم لأرباب الفكر، ثم أجرى الحوار بينهما، وانتهى فيه إلى ضرورة العدل في المعاملة بين الطائفتين.

ومن المناظرات غير الخيالية ماتجري فيه المناظرة بين مدن الأندلس ومدن المغرب كمفاخرات مالقة وسلا للسان الدين بن الخطيب، وكانت مالقة أيام الدولة الإسلامية من أعظم الثغور الأندلسية، أما سلا فهي مدينة رومانية قديمة في أقصى المغرب، وقد فضّل الكاتب مالقة.

المقامة: وهي نوع من النثر الفني نشأ في المشرق على يد بديع الزمان الهمذاني، ثم حذا حذوه الحريري. وفي الأندلس عارض أبو طاهر محمد التميمي السرقسطي (توفي بقرطبة سنة ٥٣٨هـ) مقامات الحريري الخمسين بكتاب الخمسين مقامة اللزومية، وهي المعروفة بالمقامات السرقسطية، ولزم في نثرها المسجوع ما لا يلزم. وكتب أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي (ت٧٥٠هـ) «مقامة العيد» التي استكدى فيها أضحية العيد من حاكم مالقة الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر.

كما ألّف لسان الدين بن الخطيب مقامات كثيرة منها مقامته في السياسة، وقد بناها على حوار بين بطلين هما الخليفة هارون الرشيد وحكيم فارسي الأصل عربي اللسان، وقد تضمّنت آراءه وتجاربه الشخصية فيما ينبغي أن تكون عليه سياسة الحكم.

كتب برامج العلماء: وتضم شيوخ مؤلفيها، وما أخذوه عنهم من الروايات، وما قرؤوه عليهم من الكتب، وما حصلوا عليه من الإجازات.

واختلفت تسمية البرنامج بحسب المؤلِّفين، فيُقال له المعجم، والمشيخة، والفهرس، والثبت،

والسند، والتقييد.

من هذه الكتب فهرس ابن خير الإشبيلي (ت٥٧٥هـ)، وبرنامج المجاري (ت٨٦٢هـ)، وثبت البلوي الوادي آشي (ت٩٣٨هـ).

تطور النثر في مختلف أطوار العصر الأندلسي: عرفت في الصدر الأول من الفتح نماذج قليلة من النثر اقتضتها ظروف الفتح، كالخطابة التي تطلبتها مناسبات سياسية ودينية، والكتابة التي اقتضتها ظروف الحكم، وكتابة العهود والرسائل والتوقيعات. وهو نثر تغلب عليه المسحة المشرقية من حيث الميل إلى الجزالة وقوة العبارة وعدم اللجوء إلى المحسنات، ما عدا خطبة طارق بن زياد التي يدور الشك حول نسبتها إليه.

وفي عهدي بني أمية والطوائف ظهر نوع من النثر المتأثر بنثر الجاحظ، وكان للحكام دور في تشجيع الأدباء على التأليف، وإسناد الوزارة إلى أصحاب الحذق والمهارة، فقد ألف ابن فرج الجيّاني كتاب «الحدائق» وقدمه للحكم المستنصر، وقد انتدب المعتضد العبّادي الأديب الشاعر ابن زيدون لرئاسة الوزارة وإمارة الجيش فسُمي بذي الوزارتين: وزارة السيف، ووزارة القلم.

وفي عهدي المرابطين والموحدين ظهرت طائفة من الكتّاب عُنيت بالكتابة الإنشائية والتأليف في مختلف الأغراض، كما انتشرت في عهد الموحدين المكتبات التي تضم الكتب النفيسة. وعكفت طائفة من الكتّاب على تأليف كتب جديدة منها «المطرب من أشعار أهل المغرب» لابن دحية (ت ٦٣٣هـ)، أو اختصار القديمة منها «اختصار الأغاني» للأمير أبي الربيع الموحدي (ت٦٠٤هـ)، أو تدوين رسائل تُشيد بما وصلت إليه الأندلس من تقدّم ثقافي وازدهار علمي منها «رسالة في فضل الأندلس» للشقندي (ت٦٢٩هـ).

وفي عهد بني الأحمر اتسعت النماذج النثرية فصدر عن الكتّاب النثر الديواني الذي يضم الرسائل، والكتابات على شواهد القبور، والعلامة السلطانية والنثر الإخواني بين الكتّاب وذوي السلطة، أو بين الكتّاب أنفسهم، والنثر الوصفي الذي يتناول وصف الشخصيات والأعلام، ووصف المدن والرحلات مثل رحلة البلوي خالد بن عيسى (ت٧٦٨هـ) وعنوانها «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»، ورحلة القلصادي علي بن محمد (ت٨٩١هـ).

وكثر التأليف في المقامات التي عُنيت بتسجيل هموم الحياة، وخرجت عن الكُدية والاستجداء إلا في القليل ومنها «مقامة العيد» التي استكدى فيها الأزدي خروف العيد ليرضي زوجته.

خصائص النثر الأندلسي: على الرغم من تأثّر الكتّاب الأندلسيين بأساليب المشارقة، وطرائقهم الفنية، فقد كانت هناك خصائص امتاز بها نثرهم ولا سيما الترسل، فقد اتخذت رسائلهم في بنائها شكلاً فنياً يختلف في بعض جزئياته عن الرسائل المشرقية التي تبدأ في الغالب بالبسملة والتحميد والصلاة على الرسول الكريم، فصارت تخلو من الاستفتاح المعروف وتبدأ بالدعاء للمرسل إليه، وتعظيمه، أو بالمنظوم، أو بالدخول في الموضوع مباشرة.

وتنوعت أساليب الإنشاء بتنوّع الموضوعات، إلا أنّ الكتاب حرصوا على الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وأكثروا من استعمال الجمل الدعائية والمعترضة، وبالغوا في إبراز الصور البيانية، واهتموا باستعمال المحسنات البديعية، وارتقوا بأسلوب التعبير حتى لتبدو بعض رسائلهم وكأنها شعر منثور كما في رسائل ابن زيدون.

وفي العصور الأخيرة تنوعت أساليب الأداء الفني فاتخذت مستويين: أولهما مستوى الكاتب نفسه كما في نثر ابن الخطيب المُرْسَل، والمُسَجَّع، والثاني الاختلاف على مستوى الكتّاب، وقد سار في اتجاهين يغلب على الأول الإفراط في الزخرفة اللفظية ورائده إسماعيل بن الأحمر (ت٨٠٧هـ) في كتبه «نثير الجُمان» و«نثير فرائد الجُمان» و«مستودع العلامة». ويغلب على الثاني الميل إلى الأسلوب المرسل، ويبدو في رسالة القاضي أبي الحسن النباهي التي يعدّد فيها معايب لسان الدين بن الخطيب، وفي كتاب «الخيل» لعبد اللّه بن محمد بن جُزَيّ، وقد صدّر الكتاب بنبذة عن تاريخ ثمانية من ملوك بني الأحمر، ثم تحدّث عن صفات الخيل وأحوالها.

أعلام الكتّاب في الأندلس: من أبرز أعلام الكتّاب في الأندلس:

ابن عبد ربه (ت٣٢٨هـ): وكان شاعراً وكاتباً، وله في النثر كتاب «العقد الفريد» الذي قسمه إلى خمسة وعشرين باباً، وجعل لكل بابين منها اسم جوهرة لتقابلهما في العقد. وهو يجمع بين المختارات الشعرية والنثرية. ولأن أكثر مواده تتصل بالمشرق، فقد قال الصاحب بن عبّاد لما اطّلع عليه: بضاعتنا رُدّت إلينا.

ابن شُهَيْد (ت٤٢٦هـ): كان شاعراً وكاتباً. من آثاره النثرية «رسالته في الحلواء» ورسالته المسماة «حانوت عطار» و«رسالة التوابع والزوابع» وهي قصة خيالية يحكي فيها رحلته إلى عالم الجن واتصاله بشياطين الشعراء والكتّاب، وقد عرض من خلالها آراءه في اللغة والأدب.

ابن حزم (ت٤٣٨هـ): اشتهر شاعراً وكاتباً، ومؤلفاته النثرية كثيرة تتناول شتى الموضوعات في الفقه والأدب والأنساب والتاريخ

ابن سِيْدَه (ت٤٥٨هـ): وكان أعلم الناس بغريب اللغة من أشهر مؤلفاته كتابي «المخصص»، و«شرح مشكل أبيات المتنبي». وابن عبد البر وكان من أهل قرطبة، واشتهر برسائله التي يغلب عليها الاتجاه السياسي والحديث عن الصداقة والمودة، وقد وصف الشطرنج.

ابن زيدون (٤٦٣هـ): وقد افتنّ برسائله، فكتب الهزلية على لسان ولادة إلى ابن عبدوس يسخر منه كما سخر الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير من الكاتب أحمد بن عبد الوهاب وقد ساق ابن زيدون تهكمه في سيول من الأشعار والأمثال وأسماء الرجال، وحرص على تناسق الإيقاع، فكان السجع نائباً عن الأوزان والقوافي. كما كتب الرسالة الجدية يستعطف فيها قلب ابن جهور فيخرجه من السجن، وقد بدأها بالنثر وختمها بالشعر، وهي من حيث القيمة الفنية لا تقل عن الهزلية.

تمام بن غالب بن عمر (ت٤٣٦هـ): وهو من أعلام النحويين واللغويين ويُعرف بابن التيّاني نسبة إلى التين وبيعه. من كتبه «الموعب في اللغة» و«تلقيح العين» وقد وجّه صاحب دانية Denia، والجزائر الشرقية (جزائر البليار) الأمير أبو الجيش مجاهد العامري (ت٤٣٦هـ)، وكان من أهل الأدب، إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية، وأبو غالب ساكن بها، ألف دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة كتاب ألفه تمام لأبي الجيش مجاهد فلم يفعل وردّ الدنانير وقال: «واللّه لو بذل لي ملء الدنيا ما فعلت ولا استجزت الكذب، لأني لم أجمعه له خاصة

لكن لكل طالب».

ومنهم أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى (ت٤٧٦هـ): المعروف بالأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا، والشنتمري نسبة إلى شنتمرية من بلاد الأندلس وله شروح على الكتب المشرقية، وعلى دواوين بعض الشعراء الجاهليين.

ومن كتّاب القرن الخامس الهجري ابن الدبّاغ الذي: نشأ في سرقسطة وترعرع فيها، وقد أعلى المقتدر بن هود منزلته لفصاحته وبلاغته. له رسائل يغلب عليها الاتجاه الاجتماعي، وقد جاءت معظم رسائله مملوءة بالشكوى من الزمان.

ومنهم ابن طاهر (ت٥٠٧هـ): وقد تناول كثيراً من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه بحكم إمارته لمرسية، فكتب في الجهاد والصراع مع الصليبيين وفي موضوعات الرسائل الإخوانية، وفي الفكاهة والهزل.

ومنهم ابن أبي الخصال الغافقي (استشهد سنة ٥٤٠هـ): وقد شغل مناصب إدارية في دولة المرابطين، وألّف في المقامات، وشارك في نمط من الرسائل عرفت بالزرزوريات.

ومنهم ابن بسّام صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»، وضمّنه محاسن أدباء الأندلس من بُعَيْد الدولة المروانية إلى عصره.

ومنهم محمد بن عبد الغفور الكلاعي (ت ٥٤٥هـ) وقد ألف كتاب «إحكام صنعة الكلام» في النثر وفنونه.

ومنهم ابن طفيل (ت٥٨١هـ) وكان طبيباً وأديباً وفيلسوفاً اشتهر بقصته «حي بن يقظان» التي تعدّ من أعظم الأعمال القصصية الفكرية في العصور الوسطى، والهدف منها الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان به.

ومنهم أبو الحجّاج بن محمد البَلَوي (ت٦٠٤هـ) ويعرف بابن الشيخ، وكان موفور الحظ من علم اللغة والأدب، مشاركاً في النقد والأصول. من مؤلفاته كتاب «ألف باء» وهو أشبه بموسوعة جامعة لفنون الثقافة العامة صنّفه ليتأدب به ابنه عبد الرحيم (ت٦٣٨هـ).

ومنهم ابن جبير (ت٦١٤هـ) أبو الحسين محمد، وكان شاعراً وكاتباً له الرحلة المشهورة وقد دونها بأسلوب رصين جزل الألفاظ سهل التراكيب وهي من رحلاته المشرقية الثلاث.

ومنهم محيي الدين بن عربي صاحب المؤلفات الصوفية ومنها «الفتوحات المكيّة» و«فصوص الحكم». وله «الوصايا».

وابن الأبّار: ومؤلفاته تربو على خمسة وأربعين كتاباً وصلنا منها «تحفة القادم» و«التكملة» لصلة ابن بشكوال، و«المعجم»، و«درر السمط في خبر السبط».

ومنهم حازم القرطاجيّ: وكان شاعراً ونحوياً وناقداً. أشهر كتبه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» الذي يمثل قمة من قمم النقد الأدبي.

ومنهم أبو الطيب (أبو البقاء) الرُّندي: وكان أديباً شاعراً ناقداً. من كتبه «الوافي في نظم القوافي» وهو من كتب النقد والبلاغة.

وابن سعيد (ت٦٨٥هـ): الذي نظم الشعر وارتحل ودوّن مذكراته، وترك آثاراً أدبية تدل على ثراء في الموهبة، واستقامة في التعبير. ومن كتبه المطبوعة «المُغرب في حُلى المَغرب» و«القدح المُعَلَّى» و«رايات المبرّزين وغايات المميّزين»، و«عنوان المُرقصات والمُطربات»، و«الغصون اليانعة في محاسن شعراء المئة السابعة»، وله «رسالة في فضل الأندلس».

ومنهم ابن الجيّاب (ت٧٤٩هـ) وقد تدرّج في الخدمة في دواوين بني الأحمر حتى صار رئيس كتّاب الأندلس، وتخرّج على يديه عدد من أهل العلم والأدب.

ومنهم لسان الدين بن الخطيب: من آثاره «الإحاطة في أخبار غرناطة» و«اللمحة البدرية في الدولة النصرية» و«نفاضة الجراب في علالة الاغتراب» و«خطرة الطيف ورحلة الشتاء والصيف» و«معيار الاختيار في أحوال المعاهد والديار»، وله رسائل كثيرة جمع قسماً منها في كتابه «ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب».

أثر الأدب الأندلسي في آداب الغرب

إن صنوف التأثير الأدبية هي بذور فنية تُستنبت في آداب غير آدابها متى تهيأت لها الظروف والأسباب، وهذا ما حصل في اللقاح الفكري بين الأدبين العربي والإسباني الذي وصل إلى مدن فرنسة الجنوبية، ومدن اللورين الكائنة في الشرق عند حدود ألمانية، فوجد فيها تربة خصبة جرى نُسغُها إلى ألمانية وإنكلترة لتكون ركائز النهضة الأوربية.

وقد كتب نائب الأسقف في هيتا El Arcipreste de Hita واسمه خوان رويث Juan Ruiz (ق١٤) «كتاب الحب الشريف» Libro de Buen Amor متأثراً بكتاب ابن حزم «طوق الحمامة في الألفة والألآف» في المضمون، وفي طريقة التعبير والسرد، وفي تنويع الشخصيات.

وفي سنة ١٩١٩ نشر المستشرق الإسباني ميجيل أسين بالاثيوس Miguel Asin Palacios في مدريد نظرية في كتابه «أصول إسلامية في الكوميديا الإلهية» La Escatalogea Musulmana en la Divina Comedia تقول إن الأديب الإيطالي دانتي Dante (١٢٦٥-١٣٣١م) استوحى في ملهاته الأدب العربي، وحادثة الإسراء والمعراج، وكان ملك قشتالة ألفونسو العاشر Alfonso X الملقّب بالعالم El Sabio (١٢٥٣-١٢٨٤م) قد أمر بنقل كتب العرب إلى القشتالية، فتُرجم معراج الرسول.

كذلك غزت المقامات العربية قصص الشطّار أو القصة الأوربية الساخرة Bicaresque بنواحيها الفنية وعناصرها الواقعية، وكان لقصة ابن طفيل «حي بن يقظان» أكبر الأثر في قصة «النقّادة» للكاتب الإسباني بلْتسار غراثيان Baltasar Gracian (١٦٠١-١٦٥٨م).

وكان للموشحات والأزجال الأثر الأكبر في شعر «التروبادور»، وهم شعراء العصور الوسطى الأوربية ظهروا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي في جنوبي فرنسة ووسطها، وعاشوا في بلاط الملوك والأمراء يتغنون بالحب، وقد يكون بين شعراء التروبادور ملك أو أمير.

لقد استقى التروبادور من الشعر الأندلسي نبعاً من الحقائق النفسية عملوا بها وطوّروها. فقد صوّر ابن حزم حبّه الذي لم يكن وليد الساعة، وإنما سرى على مهل واستقرّ عماده، وبالمقابل فإن دوق أكيتانية غيوم التاسع (ت١١٢٧م) وصف شعوره في حبه وطول انتظاره بقوله: «ليس على الأرض شيء يوازي هذا الطرب، ومن شاء أن يتغنّى به كما يستأهل فلا بد أن تنقضي سنة كاملة قبل أن يحقق مايريد».

كذلك وجد التروبادور في الشعر العربي رقياً ونضجاً من حيث التنوّع في الوزن والصقل والتعبير اللغوي، فحاولوا السير على منواله، ومن ذلك أن متوسط المقطوعات التي تتألف منها قصيدة التروبادور سبع وهو العدد الغالب على الموشح أو الزجل، وأن مجموع الغصن والقفل يسمى عند التروبادور بيتاً، وهو الاسم ذاته في الموشحات والأزجال.

إن هذا التشابه من حيث البساطة في المعنى،

والأوزان والقوافي في الأسلوب، يدلّ على تأثّر التروبادور بالنماذج العروضية والعاطفية في الشعر العربي، وقد انتقل هذا التأثير إلى أوربة فكان للعرب اليد الطولى في إغناء الشعر الأوربي وإترافه برائع الصور والأساليب.

المغرب والشمال الإفريقي العربي

الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب وشمالي إفريقية

قبل أن يظهر العرب المسلمون على مسرح التاريخ، كان البحر المتوسط يسمى بحر الروم، وكان البربر في المغرب قوماً وثنيين ظلمهم الروم فثاروا عليهم، واتصل زعماؤهم بالعرب وفاوضوهم في مقاتلة الروم معهم، وقد استغرق الفتح الإسلامي للمغرب نحو سبعين عاماً بدأ ببعث استطلاعي قام به عقبة بن نافع الفهري (٢١هـ/ ٦٤٢م) وانتهى بحملة موسى بن نصير التي أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨م، وصارت بلاد المغرب تابعة للدولة الأموية، بل ولاية من ولايات الدولة إلى أن قوّض بنو العباس صرح الدول الأموية سنة ١٣٢هـ، فآل المغرب إلى ولاية عباسية.

ثم قامت دويلات في المغرب الأقصى والأوسط والأدنى. ففي المغرب الأقصى قامت دولة الأدارسة واستمرت حتى القرن الرابع، ثم ظهر المرابطون في القرن الخامس، وبعدها سيطر الموحدون (المصامدة) على بلاد المغرب، ثم انقسمت إلى ثلاث دول: دولة بني مرين في المغرب الأقصى، ودولة بني عبد الوادي (بني زيّان) في المغرب الأوسط، ودولة بني حفص في المغرب الأدنى.

وصارت القيروان، التي أسسها عقبة بن نافع معسكراً لجنوده، العاصمة الإسلامية الأولى للمغرب العربي، فيها ازدهرت الحضارة التي وضع أسسها وأحكم دعائمها أمراء الدولة الأغلبية. وقد آتت هذه الحضارة أكلها زمن الصنهاجيين في منتصف القرن الخامس الهجري زمن المعز بن باديس بن يوسف (ت٤٥٣هـ)، وكان أديباً مثقفاً غصّ بلاطه بالأدباء والعلماء منهم ابن أبي الرجال الذي ألّف كتاب «البارع في أحكام النجوم» وقد أمر ألفونسو العاشر ملك قشتالة بنقله إلى اللغة القشتالية.

بعد أن خرّب الأعراب القيروان، لجأ المعز إلى المهدية، واتّخذها عاصمة له، ثم ازدهرت مدن أخرى منها تلمسان وبجاية وصفاقس وفاس التي اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس، وكانت القيروان حاضرة المغرب، فلما اضطرب أمر القيروان بعبث الأعراب فيها، واضطربت قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت المنصور محمد بن أبي عامر وابنه، رحل عن هذه وهذه مَنْ كان فيهما من العلماء والفضلاء فنزلوا فاس وتلمسان، كما رحل بعضهم إلى مصر وأقطار أخرى.

وقد اتّخذ المرابطون والموحّدون مدينة مراكش دار مملكة لقربها من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، لا لأنها خير من فاس. ثم بنى الموحدون مدينة رباط الفتح، وبنوا فيها مسجداً عملوا له مئذنة على هيئة منارة الاسكندرية. وقد كانت مدن المغرب مراكز ثقافية وجسراً عبرت عليه تيارات الثقافة في طريقها من المشرق إلى إسبانية.

الشعر

فنونه وخصائصه: الحديث عن الشعر المغربي في عصوره وأقطاره يستنفد صفحات طوالاً، ذلك أنه من الناحية الزمنية يساير الأدب الأندلسي، ثم يستمر بعد سقوط الأندلس إلى العصور الحديثة، وهو من حيث أقطاره يستوعب النتاج الأدبي في المغرب الأدنى والأوسط والأقصى إلى مناطق أخرى مثل شنقيط (موريتانية) وغيرها.

أصاب الكساد عالم الشعر والأدب في العصور الأولى وفي ظل المرابطين، لأن العصر كان عصر جهاد وكفاح وحرب، وليس عصر ترف ورفاهية، وفي عصر الموحدين كثر الشعراء تحت رعاية الخلفاء والأمراء، وتعددت أغراضهم وفنونهم، واتسعت مجالاتهم، وامتزج المديح بالشعر السياسي. فقد واكب الشعر التطورات العقائدية والاجتماعية التي طرأت على المجتمع في عهد الموحدين، وعبّر الشعر عن دعوتهم وما يتعلّق بها من مهدوية أو عصمة، وإمامة. وكان الخلفاء يطلبون إلى الشعراء أن ينظموا الشعر في مواضيع تخدم دعوتهم، فتخلّصت قصيدة المدح من المقدمات التقليدية، وافتتحت بالحديث عن سيرة المهدي بن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن علي. وقد تُستهل القصيدة بطريقة الكتابة الديوانية فيُذكر فيها التحميد والتصلية على الرسول والترضية عن المعصوم المهدي كما في قصيدة أبي عمر بن حربون في الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بعد انتصاره على المخالفين المرتدين بالمغرب سنة ٥٦٣هـ.

وتنوع الغزل في شعر المغاربة، فكان فيه العفيف والماجن، كما نشط شعر وصف الطبيعة. ولم يكتف الشعراء بجعله مطية لغرض آخر، ومتكأً له، وإنما أفردوا للطبيعة قصائد لوصفها، فصوروا مفاتنها، ووقفوا عند كل جزئية من جزئياتها. ووصفوا الخمر، وافتنّوا في وصف مجالس الشراب والندمان والسقاة، وعبّروا عن تعلّقهم الشديد بها.

كما لقي فن الرثاء رواجاً لديهم ولا سيما رثاء المدن الأندلسية التي سقطت في أيدي النصارى، وفي رثاء مدنهم التي خُرّبت (القيروان). وازدهر شعر الزهد والتصوّف وشعر المدائح النبوية، وممن اشتُهر به أبو العباس محمد ابن العزفي السبتي المغربي (ت٦٣٣هـ).

ونظم الشاعر المغربي الموشّح، فابن غرله الذي اشتهر بعشقه رميلة أخت الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي نظم الموشح والزجل والمُزَنَّم (الزجل الذي يدخله الإعراب)، ومن موشحاته الطنّانة الموسومة بالعروس. كما عرف المغاربة «عروض البلد»، وقد ذكر ابن خلدون أن أول من استحدثه رجل من الأندلس نزل بفاس هو أبو بكر بن عمير، فنظم قطعة على طريقة الموشح، ولم يخرج فيها عن مذهب الإعراب إلا قليلاً، فاستحسنه أهل فاس، وولعوا به، ونظموا على طريقته.

لقد شارك أدباء المغرب في فنون القول شعراً ونثراً، وحُكم على التراث الأدبي في المغرب بأنه مطبوع بالطابع الأندلسي في شكله وموضوعه وكان لانتشار المذهب الفاطمي في المغرب أثر في وجود بعض المعاني الفلسفية والجدلية في الشعر كالذي ظهر في شعر ابن هانئ الأندلسي وكان من شعراء المعزّ لدين اللّه الفاطمي.

وقد تخلّف شعراء المغرب عن اللحاق بشعراء المشرق ثم الأندلس في قوة الأفكار وعمق المعاني (باستثناء شعراء العصر الفاطمي) لكن شعرهم لم يخل من جمال الصيغ اللفظية وأناقتها، وقد برعوا في الملاءمة بين مواضيع القصائد وأوزانها كما في قصيدة الحصري «ياليل الصب»، وأكثروا من رثاء المدن المنكوبة، وفي هذا الباب تظهر قوة خاصة في الشعر المغربي وهي قوة التأثير العميق الصادق.

أعلام الشعراء: من أبرز الشعراء المغرب

بكر بن حمّاد (٢٠٠-٢٩٦هـ): التاهرتي (نسبة إلى تاهرت بالجزائر)، فنون شعره المديح والهجاء والزهد والغزل والوصف، وقد رحل إلى المشرق وكان من العلماء والرواة.

تميم بن المعزّ (٣٣٧-٣٧٤هـ): شاعر الدولة الفاطمية، ولد في المهدية بتونس، وتوفي بمصر. أبرز أغراضه الشعرية المديح والغزل والطَرَد، والرثاء والإخوانيات.

ابن رشيق القيرواني (٣٩٠-٤٥٦هـ): ولد بالمسيلة (الجزائر) ورحل إلى القيروان، وأتمّ بقية حياته في صقلية، وتوفي بمازر. تعددت جوانبه العلمية والأدبية. له ديوان شعر، ومن مؤلفاته «أنموذج الزمان في شعراء القيروان».

ابن شرف القيرواني (٣٩٠-٤٦٠هـ): الناقد الكاتب الشاعر، له ديوان شعر.

علي بن عبد الغني الحصري (٤٢٤-٤٨٨هـ): يكنى أبا الحسن. برز في علوم القرآن، له الرائية المشهورة في القراءات، وله المعشّرات وهي قصائد منظومة على حروف المعجم، كل قصيدة بها عشرة أبيات مبتدأة، ومقفّاة بحرف من حروف الهجاء، وله ديوان شعر عنوانه «اقتراح القريح، واجتراح الجريح» وأغلبه في رثاء ابنه عبد الغني. ومن أشهر قصائده «ياليل الصب متى غده؟» وهي طويلة تقع في تسعة وتسعين بيتاً، وقد عارضها كثيرون لإشراق معانيها وعذوبة ألفاظها.

تميم بن المعز الصنهاجي (٤٢٢-٥٠١هـ): كان رجل سياسة وعلم. كشفت أشعاره عن مقدرته الشعرية وغزارة إنتاجه الذي يدور أغلبه حول الغزل والوصف والزهد والحماسة.

الأمير أبو الربيع الموحّدي (٥٥٢-٦٠٤هـ): أحد أمراء الدولة الموحدية جمع بين السياسة والأدب. ترك ديوان شعر عنوانه «نظم العقود ورقم البرود».

مالك بن المرحّل (٦٠٤-٦٩٩هـ): ولد بمالقة واكتسب شهرة في الأدب والشعر وبرع في علوم كثيرة. له منظومات في القراءات، والفرائض، والعروض، ومخمسات في مدح الرسول الكريم، وشعر في الاستنجاد. توفي في فاس.

ابن خميس التلمْساني (٦٢٥-٧٠٨هـ): شاعر عالم رحل إلى سبتة ثم إلى الأندلس، وفي غرناطة التحق بخدمة الوزير أبي عبد الله بن حكيم ثم قُتل مع مخدومه.

الشريف الغرناطي (٦٩٧-٧٦٠هـ): ولد بسبتة ونال فيها علماً كثيراً، وقدم إلى غرناطة واستقرّ بها، ولهذا اشتهر بالغرناطي، وله ديوان شعر.

ابن زاكور (١٠٧٥-١١٢٠هـ): كان كاتباً وشاعراً ولغوياً ـ من كتبه «شرح على لامية العرب» وله ديوان شعر مرتّب على الأغراض، ونظم موشحات ذكر بعضها في «المنتخب من شعر ابن زاكور».

ومن شعراء شنقيط أحمد بن محمد بن المختار اليعقوبي المعروف بأحمد بن الطلب، ينتهي نسبه إلى جعفر بن أبي طالب. لقّب بيته بالطلب لأنهم أعلم أهل ناحيتهم، فكانت الناس ترحل إليهم في طلب العلم، وكان جيّد الشعر.

النثر

فنونه وخصائصه

الكتابة الرسمية: وهي تلك الكتابات الصادرة عن الخلفاء والأمراء والولاة والقادة، وعمودها الكتابة الديوانية التي تختص بالعلامة السلطانية التي يصدرها الخليفة إلى عماله وولاته وقضاته ورعيته، وموضوعاتها متنوعة تكاد تشمل مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية والتاريخية. فمن الموضوعات الاجتماعية والسياسية محاربة الآفات الاجتماعية ومكافحة الظلم والدعوة إلى وحدة الصف وإطاعة أولي الأمر. ومن الموضوعات الدينية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، فقد كتب الفقيه المتصوف ابن عبّاد الرُّندي (٧٩٢هـ) إمام جامع القرويين إلى أبي فارس عبد العزيز المريني مستنكراً تصرفات عمّاله مع المسلمين.

ومن الموضوعات التاريخية سجلت الرسائل الرسمية الغزوات والفتوح والحملات العسكرية. وقد كتب المغاربة الرسالة الديوانية بإحكام وروّية، واعتنوا بالعبارة واتكأت الرسالة في كثير من ملامحها على الرسالة الديوانية المشرقية، ثم بدأت في العصور المتأخرة تحاول أن ترسم لنفسها ملامح جديدة، فهي تفتتح بالمقام، ثم وصف عظمته، ثم يذكر المتن أو مضمون الرسالة، وقد غلب السجع عليها لتناسب فخامة المقام.

الكتابة الوصفية: ويقصد بهاالكتابات التي كانت تدور حول المناظرات والمفاخرات بين المدن، وبين الأزهار، وبين الأطيار، كما شملت أدب الرحلات (رحلة ابن بطوطة، ورحلة ابن رشيد، ورحلة ابن خلدون).

واعتمد أغلب الكتّاب أسلوب المقامة من حيث التوشية والزخرفة البديعية ومنها السجع، فقد أكد محمد بن عبد الغفور الكلاعي في كتاب «إحكام صنعة الكلام» ضرورة السجع للنثر، واستحسان الإتيان به مع مراعاة الابتعاد عن التكلّف فيه حتى لا يثقل على الأذن، وينبو عنه الذوق السليم، كما كتب آخرون بالأسلوب المرسل: صنيع ابن خلدون.

الكتابة الذاتية: ويدخل ضمنها الكتابة الإخوانية، ومنها الرسائل المتبادلة بين الكاتب وذوي السلطان، وبين الكاتب وإخوانه، كما تندرج فيها المدائح النبوية، والخواطر التأملية، ولا سيما في الرسائل النبوية. فابن خلدون يحدثنا عن سفر أبي القاسم البرجي إلى التربة المقدسة حاملاً رسالة من أبي عنان المريني إلى الضريح الكريم كتبها أبو عنان بخط يده.

وحرص أغلب الكتّاب على العناية بظاهرة الزينة اللفظية، وإن كان بعضهم قد تصدّوا لظاهرة سيطرة البديع على النثر، أو استقبحوا الإكثار منه كما فعل ابن خلدون، فحين تولى ديوان الإنشاء أيام أبي سالم المريني (ت٧٦٢هـ) فضّل الكلام المرسل على انتحال الأسجاع في الكتابات الرسمية.

أعلام الكتّاب: جمع المغاربة والأندلسيون بين مزيتي الشعر والنثر، وكان للتأليف شأن عظيم لديهم في شتى العلوم والآداب، ومن أعلام الكتاب.

إبراهيم بن علي الحصري (ت٤٥٣هـ): ويكنى بأبي إسحاق، شُهر بالحصري نسبة إلى صناعة الحصر أو بيعها، أو نسبة إلى «الحصر» وهي قرية كانت قرب القيروان. نشأ في القيروان في أواخر عهد الفاطميين بإفريقية، وكان له ناد يقصده الأدباء والمتأدبون. من مؤلفاته «جمع الجواهر في الملَح والنوادر» و«زهر الآداب» وهو كتاب ذو قيمة أدبية وتاريخية، يشبه «البيان والتبيين» للجاحظ في طريقته.

علي بن عبد الغني الحصري (ت٤٨٨هـ): وكان شاعراً وكاتباً وله رسائل أثبتها ابن بسّام في «ذخيرته» كنماذج من نثره يخاطب بها أصدقاءه وأعداءه، وهي لا تخرج عن طريق عصره في أسلوب التحرير المسجوع المرصّع بألوان التورية والجناس.

الشريف الإدريسي: ولد في سنة ٤٩٣هـ، ودرس في قرطبة، ثم طوّف في البلاد، وانتهى به التجوال إلى صقلية، ونزل على صاحبها روجار الثاني وألف له كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وفيه شرح لكرة الفضة التي أمر الملك بصنعها، توفي في صقلية سنة ٥٦٠هـ.

ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ): كان شاعراً وكاتباً. اتصل ببلاط المعزّ في القيروان وتعرّف كاتبه أبا الحسن علي بن أبي الرجال فألحقه بديوان الإنشاء الذي كان رئيسه، وقد رفع إليه كتاب «العمدة في صناعة الشعر ونقده».

ابن شرف القيرواني (ت٤٦٠هـ): كان كاتباً وشاعراً. ألحقه المعز بديوان المراسلات وجعله من خاصته فانقطع إليه، ونافس ابن رشيق في الحظوة عنده، من مؤلفاته النثرية: رسائل الانتقاد، ورسائل المهاجاة، وأبكار الأفكار.

أبو الفضل التيجاني (ت٧١٨هـ): صاحب الرحلة المشهورة، وكان أعلى الكتبة مرتبة وأسلمهم قافية. له رسالة مشهورة كتبها إلى ابن رشيد الفهري (ت٧٢١هـ) صديقه حين نزل بتونس في أثناء رحلته إلى الحج وعودته منه يقول فيها: «أقول والله المسعف المنان: اللهم بلّغ صاحبنا وجميع المسلمين إلى أوطانهم وأماكنهم سالمين في النفس والأهل والمال. اللهم كن لهم في حلّهم وترحالهم، وسلّمهم ولاتُسلمهم..» والرسالة تسجيل لمخاطر الطرق إلى الحج والرحلة في ذلك الزمن.

الشريف الغرناطي: تولى في الدولة النصرية عدة مناصب مثل كتابة الإنشاء وخطة القضاء والخطابة. ومن تآليفه المشهورة: «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة» وهو شرح على مقصورة حازم القرطاجنّي التي مدح فيها المستنصر الحفصي، وقد جاء الشرح بأسلوب مسجّع تحسّ معه جلال الفكرة وتوقّد الذهن.

ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن: ولد بتونس سنة ٧٣٠هـ، وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨هـ، كان ينظم الشعر، لكن ملكته تخدّشت من حفظ المتون المنظومة في الفقه والقراءات. اعتمد في نثره الأسلوب المرسل مخالفاً أسلوب العصر في الميل إلى السجع من آثاره «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر». ويقع في مقدمة وثلاثة كتب، وقد ارتقى بالتاريخ من السرد والقصص الساذج إلى درجة العلم المفلسف، وسجل سيرة حياته بقلمه في آخر جزء من العبر وطبع بعنوان: «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً».

الأدب العربي في صقلية

الحياة السياسية والاجتماعية

صقلية Sicilia جزيرة مقابل ساحل تونس، تبعد عن البر الإيطالي ثلاثة كيلومترات. ضبطها ياقوت في معجمه بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء، ولكنه ذكر أن أكثر أهلها يفتحون الصاد، وضبطها ابن دحية بفتح الصاد والقاف، وقال النحوي ابن البرّ التميمي الصقلي: اسمها باللسان الرومي سَكّة كلّية وتفسيرها: تين وزيتون، وإلى هذا المعنى أشار ابن رشيق حين مدحها فقال:

أخت المدينة في اسم لا يشاركها
فيه سواها من البلدان والتمس
وعظّم الله معنى لفظها قسماً
قلّد إذا شئت أهل العلم أو فقس

يريد قوله تعالى: «والتين والزيتون».

فتح المسلمون صقلية سنة ٢١٢هـ/ ٧٢٨م بقيادة الفقيه أسد بن الفرات (ت٢١٣هـ) الذي تولّى قضاء إفريقية في عهد الأغالبة، وكانت القيروان (تونس اليوم) تابعة للخلافة العباسية في بغداد.

ولما قامت الدولة المهدية في ظل الفاطميين، تأسست دولة الكلبيين في صقلية فبلغت الجزيرة عهدها الذهبي.

احتلها النورمان بقيادة ملكهم روجار الأول، فهجرها أغلب سكانها إلى مصر والقيروان والأندلس، وكانت عادة الانتقال والارتحال بين الأقطار الإسلامية معروفة أيام المحن، فقد شتّتت نكبة القيروان، بعد الخلاف بين الفاطميين والمعزّ ابن باديس، أهل القيروان وخرج الأدباء والعلماء منها إلى صقلية والأندلس ومصر، وها هنا التاريخ يعيد نفسه بخروج العرب من صقلية بعد انتهاء الحكم العربي فيها الذي استمر لغاية ٤٥٠هـ.

تعايش مَنْ بقي من المسلمين في صقلية مع النورمان مدة ثلاث وتسعين ومئة سنة، وظلت اللغة العربية إحدى اللغات التي أقرتها الدولة في سجلاتها إلى جانب اللاتينية واليونانية.

وفي سنة ٦٤٣هـ احتل الجرمان الجزيرة بقيادة فردريك الثاني الذي نكل بالمسلمين ليدفعهم إلى الجلاء سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، ثم قضى عليهم بتحريض الملك شارل دانجو عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، لكن اللغة العربية لم تُمْحَ آثارها، فثمة أسماء كثيرة في صقلية لها أصول عربية.

الشعر

اعتمد الشعر الصقلي محاكاة المشارقة والمدرسة الإفريقية في القيروان، وكان تأثره بالأندلس أقل من تأثّره بإفريقية والمشرق، وقد غُذّي بالدراسات الإسلامية، ولا سيما الفقه، واللغة، وامتلأ بالألغاز والتلاعب اللفظي بالأسماء، وكان هناك أخذ بأسباب الدين والزهد والتصوّف إلى جانب التيار المعاكس، المتمثل بالحديث عن الخمر، وبائعها، وشاربها، والتغني بذكر الصليب والزنار.

وقد شارك بعض الأمراء الكلبيين في النشاط الأدبي ولا سيما الشعري.

فنونه وخصائصه: في العصر الإسلامي، وصف الشعراء القصور، والمتنزهات، والخمر، وكثر التغزل بأسماء تقليدية مثل سلمى، وسعاد، وبثينة، كما كثرت الرسائل الشعرية نتيجة هجرة الناس من صقلية وإليها.

أما في العصر النورماني، أو مرحلة التعايش بين العرب والصقليين، فالشعر الباقي يمثّل اتجاهين: أما الاتجاه الأول فهو الشعر الذي يتصل بالملك النورماني وبلاطه وأبنائه وحاشيته، ومنه قصيدة أبي الضوء سراج في رثاء ولد روجار.

ويصوّر الاتجاه الثاني الشعر الذي يمثل حياة المسلمين وعلاقاتهم فيما بينهم، وقد انفرد محمد بن عيسى بذكر العيد وحال السرور والتحدث عن الملائكة. وكثيراً ما نفر الناس من الشعر ذي الاتجاه الأول، فقد كان ابن بشرون شاعراً فحلاً أحبه الناس، فأراد الملك روجار الأول أن يضفي على اغتصابه الجزيرة أسمال الشرعية موهماً الناس بقبوله من وجهائهم، فاستدعى ابن بشرون وطلب إليه أن ينشده مديحاً فلما ارتجل الشاعر أبياته ابتعد عنه الناس.

ولما اطّلع العماد الأصفهاني على كتاب ابن بشرون الذي خصّص فيه فصلاً لشعراء صقلية قال بعد أن حذف الشعر الذي وجده في مديح الكفار: «واقتصرتُ من القصيدتين على ما أوردته لأنهما في مدح الكفار، فما أثبتُّه».

أعلام الشعراء: من شعراء القرنين الرابع والخامس:

ابن الخياط الصقلي: أبو الحسن علي بن محمد، كان شاعراً نابهاً أيام حكم الكلبيين في صقلية. يكثر في شعره المدح والغزل ووصف الطبيعة.

أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي: ولد في صقلية سنة ٤٢٣هـ ثم غادرها إلى الأندلس سنة ٤٦٣هـ مع مَنْ هاجر منها إثر الاحتلال النورماني، فلحق بالمعتمد بن عباد، ثم بناصر الدولة صاحب جزيرة ميورقة بعد أن دالت دولة العباديين، وبقي هناك إلى وفاته سنة ٥٠٦هـ. أهم أغراضه الشعرية المدح وجلّه في المعتمد كما دعا إلى التمتع بمباهج الحياة فقال:

متّع شبابك واستمتع بجدّته
فهو الحبيب إذا ما بان لم يَؤُبِ

ابن القطّاع، أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي: ولد سنة ٤٣٣هـ بصقلية، ثم هاجر إلى مصر بعد اشتداد ضغط النورمان. كان شاعراً عالماً باللغة والأدب والتاريخ. من مؤلفاته «تاريخ صقلية» و«أبنية الأسماء والأفعال» و«البارع في العروض والقوافي» و«الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة» وقد اشتمل على مئة وسبعين شاعراً، وعشرين ألف بيت من الشعر. عالج في شعره مجالس الخمر بالوصف والإثارة، وأبدع في الغزل.

ومن شعراء القرن السادس:

البَلَّنوبي، أبو الحسن علي بن عبد الرحمن ابن أبي البشر: ينسب إلى بَلَّنوبة وهي بليدة بجزيرة صقلية ذكرها ياقوت تسمى اليوم فيلانوفا Villa Nova كان والده مؤدباً لأبي الطاهر التُجيبي (ت٤٤٥هـ).

أقام أبو الحسن مدة في صقلية ثم غادرها إلى مصر مع جملة من المهاجرين، وهناك اتصل بعدد من رجال الدولة ومدحهم منهم بنو الموقفي، وابن المدبّر واليازوري (نسبة إلى يازور من قرى فلسطين). فنون شعره كثيرة.

عبد الجبار بن أبي بكر بن حمديس: ولد في سرقوسة على الساحل الشرقي من صقلية وفيها قضى شطراً من حياته، ثم انتقل إلى تونس في طريقه إلى الأندلس بعد هجرة العلماء من بلده. قصد المعتمد بن عبّاد واستمرّ في رعايته إلى أن دالت دولة العباديين، فارتحل إلى إفريقية، وبقي في رعاية بني حمّاد في بجاية إلى أن توفي سنة ٥٢٧هـ. اشتهر بشعر الحنين، ووصف الطبيعة.

النثـر

فنونه وخصائصه: أنتجت صقلية نثراً خصباً يوازي نشاطها في الشعر، فقد نبغ فيها كتّاب، وسّعوا أغراض النثر وفنونه، ووضع بعضهم مقامات كانت ذائعة مشهورة منها مقامات «الطوبي» التي بلغ فيها الغاية في الفصاحة.

كما ألف بعضهم كتباً في تاريخ صقلية وأرّخوا لرجال الفكر والعلم والأدب.

وظهر عدد من اللغويين والنحويين حاولوا الحفاظ على الفصحى، وتخليصها مما لحقها من تصحيف، ولا سيما في مرحلة التعايش بين العرب المسلمين والصقليين، فقد استمرّت السيادة للغة العربية والثقافة العربية الإسلامية بعد أفول نجم السيادة العسكرية والسياسية نحو قرنين من الزمن.

أعلام الكتّاب: أبو عبد الله محمد بن الحسن الطوبي كاتب الإنشاء: كان له شعر في الغزل والزهد، لكن النثر غلب عليه. وصفه العماد الأصبهاني بقوله: «إمام البلغاء في زمانه».

أبو حفص عمر بن حسن النحوي: كان إماماً من أئمة النحو، استشهد به وبآرائه ابن منظور (ت٧١١هـ) صاحب معجم لسان العرب.

ابن البر، محمد بن علي بن الحسن التميمي: من أعلام القرن الخامس، ولد في صقلية، وارتحل في طلب العلم إلى المشرق فنزل مصر وأفاد من الهَرَوي (ت٤٣٣هـ) وابن بابشاذ النحوي (ت٤٥٤هـ) وصار إماماً في علوم اللغة والآداب. لما عاد إلى صقلية، استَقَرَّ بمازر، ثم في بالرمو.

أبو حفص عمر بن خلف، ابن مكي الصقلي المتوفى سنة ٥٠١هـ: ولد في صقلية، ثم هاجر إلى تونس فولي القضاء بها سنة ٤٦٠هـ. كان شاعراً مجوّداً نظم في أدب المجالس والصداقة، وتغلب على أشعاره معاني الوعظ والإرشاد والحكمة. وكان كاتباً بليغاً اشتهر بتبحره في اللغة. صنّف «تثقيف اللسان وتلقيح الجنان»، وجعله في خمسين باباً، جمع فيه ما يصحف الناس من ألفاظهم وما يغلط فيه أهل الفقه والحديث، وأضاف أبواباً مستطرفة، ونتفاً مستملحة، وقد نقد المغنين لأنهم كانوا يحرصون على أداء النغم ويحرّفون النص. ومقصد الكتاب في أعماقه رد اللغة العربية إلى الفصحى. وعدم إقرار المحليّة، وقد كانت صقلية ملتقى شعوب، وليست وطناً لشعب.

هناء دويدري

■ الأدب في عصر الدول المتتابعة

من العسير تحديد أطوار الأدب في عصر الدول المتتابعة بسنوات معينة، لتداخل بعضها ببعض. ويمكن تحديد إطار هذا الموضوع بالحكم الذي ساد في كل حقبة من حقب ذلك العصر، وهي:

أ-العهد الزنكي ٥٢١-٥٧٩هـ/ ١١٢٦-١١٨٣م.

ب-العهد الأيوبي ٥٧٩-٦٤٨هـ/ ١١٨٣-١٢٥٠م.

ج-العهد المملوكي ٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م.

د-العهد العثماني ٩٢٢-١٢١٣هـ/ ١٥١٧-١٧٩٨م.

ذلك هو الإطار الزماني، أما الإطار المكاني، فهو موطن حكم هذه الدول، وهو بلاد الشام ومصر، في المقام الأول، وبعض أرجاء الجزيرة العربية كالحجاز واليمن. أما ما كان خارج هذه البلاد في العصر العثماني فلا يدخل في إطار البحث، لأن المراكز الثقافية والفكرية والأدبية الكبرى كانت في أرض الشام ومصر في الدرجة الأولى.

المعالم الثقافية الكبرى للعصر

بين دول هذا العصر المختلفة معالم مشتركة وأخرى متباينة.

ولعل معالم العهد الزنكي والعهد الأيوبي والعهد المملوكي متقارب بعضها من بعض أكثر من قربها من معالم العهد العثماني.

ومن هذه المعالم أنّ اللغة العربية ظلت لغة رسمية للزنكيين والأيوبيين والمماليك، مع أن أصولهم غير عربية، ولغاتهم الأصلية غير عربية. أما في العهد العثماني، فقد غدت التركية لغة الدولة الرسمية، وبها تكتب المراسلات والمعاهدات والمعاملات، ثم تأتي بعدها في المقام الثاني اللغة الفارسية، وتدرّس في المدارس، ويتحدث بها كثير من المثقفين والحكّام، ثم تأتي العربية في المقام الثالث، والدولة العثمانية لا تحاربها، ولا تقف عقبة في وجه من يسعى إلى تعلمها، لأنها لغة القرآن والإسلام، ولهما في النفوس أرفع مقام. يضاف إلى ذلك أن السلاطين العثمانيين استولوا من مصر والشام على خير ما في خزائن كتبهما كما أخذوا إلى العاصمة اصطنبول خيرة علماء العربية ومهرة الصناع والحرفيين . وكان ذلك سبباً

في تراجع الاهتمام بالأدب وتدهور اللغة وتفشي اللحن والعامية والجهل والأمية إذ خلا البلدان ممن يرفع من شأن العربية.

اهتم الزنكيون والأيوبيون والمماليك بإنشاء المدارس، وحثّ الطلبة على العلم، ورصد المكافآت المغرية للمبرزين، وتكريم العلماء، وتوفير المناخ الطيب لإنتاجهم. وكان بناء المساجد يساير حركة بناء المدارس. والمساجد في عهدهم مواطن للعلم والدرس إلى جانب كونها للعبادة. وقد عُرف الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي[ر] بولعه بإنشاء المدارس المنظّمة، وعمارة المساجد، حتى إنه استقدم من سنجار أحد المهندسين المهرة ليبني له المدارس الفائقة في حلب وحماة وحمص وبعلبك ويشرف على صيانتها. كما عُرف بحبه للحديث الشريف، فأنشأ له مدارس خاصة، وأوقف عليها أوقافاً كبيرة، وولّى مشيختها أكابرَ المحدثين في زمانه، كالحافظ أبي القاسم علي بن عساكر [ر].

وبذّ صلاح الدين الأيوبي [ر] سَلَفه نور الدين في الإنفاق على التعليم وإنشاء المدارس الكثيرة في مصر والشام، وقد حملت جميعاً اسم «المدرسة الصلاحية»، واشتهر صلاح الدين بأنه أعظم مشيّد لدور العلم في العالم الإسلامي بعد نظام الملك السلجوقي، وأصبحت دمشق في عهده تدعى «مدينة المدارس». وقد وصف ابن جبير [ر]، في رحلته، هذه المدارس، ووجدها قصوراً أنيقة، ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً.

وسار خلفاء صلاح الدين على سنّته، فابتنوا مدارس كانت كلّ منها تنسب إلى بانيها، مثل: الظاهرية والصاحبية والعادلية والأشرفية والناصرية، وحتى نساء بني أيوب شدْن عدداً من المدارس، كان منها «الشامية» و«الخاتونية»، وكذلك فعل كبار تجار العصر.

وجاء عصر المماليك، وراح الحكام يتنافسون في إنشاء المدارس، حتى إنّ ابن بطوطة [ر] عجب من كثرتها، وذكر أنه لا يحيط بحصرها لكثرتها. وذكر من هذه المدارس: الظاهرية والمنصورية ومدرسة السلطان حسن، والسلطان برقوق، والمؤيد شيخ، وسواها.

أما في العصر العثماني فقد انقطع إنفاق الدولة على هذه المدارس كلها، ولم يبنِ الحكام مدارس جديدة، وإنما تركوا الحبل على الغارب، فذوت تلك المدارس وأخذ عددها يتناقص يوماً بعد يوم. وحلّ محلها كتاتيب صغيرة تعلّم مبادئ القراءة والكتابة والحساب. كما تعلّم القرآن الكريم وتجويده. حتى إذا أوغل الحكم العثماني في الزمن، ران الجهل على البلاد العربية المحكومة، وصار من النادر وجود من يحسن القراءة والكتابة فيها.

وفي عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك، ازداد عدد العلماء والشعراء والكتاب والمؤلفين زيادة كبيرة لأسباب، منها: هروب العلماء والأدباء من شرقي العالم الإسلامي إلى مصر والشام إثر اجتياح التتار، وهروب العلماء والأدباء من غرب العالم الإسلامي (الأندلس) إلى مصر والشام، بعد اجتياح الإسبان للدولة الأندلسية المسلمة، ومن تلك الأسباب الاستقرار الأمني الذي تمتعت به بلاد مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ورعاية حكّامها للعلماء والأدباء، وتوفير المناخ العلمي والحياة الكريمة لهم مع الإجلال والاحترام.

وكان من نتيجة هذه العوامل أن استطاع العلماء تعويض المكتبة العربية الإسلامية بعض ما ضاع منها حرقاً أو إتلافاً أو سرقة، وكانوا في تأليفهم يعتمدون على ما وصل إليهم من العصور السابقة فيقومون بتصنيفه وترتيبه وتدوينه في كتب جامعة تقرب من الموسوعات. وكثرت في هذا العصر الشروح والذيول والحواشي، حتى سمي بعصر التحشية.

لكن هذه الحقبة الخصبة نسبياً لم تستمر في عهد العثمانيين، وإنما اتخذ الشعر والتأليف مساراً آخر، فيه من العقم أكثر مما فيه من الخصب. وكان لديوان الإنشاء، في عهد الأيوبيين والمماليك، أثر بالغ في النهضة العلمية، وازدهار الثقافة، لما كان فيه من إغراءات، وحوافز. وحين أبطله العثمانيون وأحلّوا التزكية في الدواوين محلّه، تدهورت الثقافة، وانعدمت الحوافز، وساءت الكتابة بوجه عام.

الشعر

كثر عدد الشعراء في هذا العصر كثرة تلفت النظر، ولكن هذه الكثرة العددية لم تكن تواكبها إجادة شعرية متميزة. فكان الشعراء المجيدون قلة، ولم يتوقف موكب الشعر أو ينقطع في الأعصر الأدبية كافة على تباين الظروف، واختلاف الحكام، بل ظل يحتفظ بمكانته التقليدية من الرعاية والعناية، وظل الناس يكرّمون الشاعر ويقدرّونه، مع أن هذه الظاهرة تبدو جليّة في عصر الأيوبيين والمماليك، وتغيب في العصر العثماني، ولاسيما في بلاطات الحاكمين.

صحيح أن نور الدين الزنكي كان يميل إلى تقريب رجال الحديث والعلماء أكثر مما كان يميل إلى الشعراء أو يغدق عليهم الأموال، لكن صلاح الدين كان أكثر تذوقاً للأدب من نور الدين، وألين حجاباً، وقد روي عنه أنه كان يحفظ «الحماسة» لأبي تمام، ويتمثل بالشعر، ويجيز الشعراء، حتى تقاطروا إلى بلاطه، ونظموا فيه القصائد الكثيرة، واتّبع خلفاؤه سنته. وسار المماليك على النهج عينه.

فنون الشعر: لم تختلف موضوعات الشعر في هذا العصر عن موضوعات العصور السابقة، من مدح وهجاء وفخر وغزل ورثاء ووصف وشكوى وما إلى ذلك، كما وجدت في هذا العصر موضوعات جديدة.

الموضوعات التقليدية: أخذ شعراء هذه الحقبة معاني القدماء وصاغوها صياغة جديدة، وسبكوها في القوالب التقليدية المتداولة. فإذا وصف الشاعر القديم ممدوحه بأنه بحر أو غيث أو أسد أو شمس أو قمر أو متوج بتيجان الملوك أو تقي أو سليل أكارم وأماجد أو حامٍ للدين وأهله، أو مذلّ للشرك وقومه... جاء الشاعر اللاحق فاتّبع سنن الشاعر السابق من دون أن يحيد عمّا جاء به قيد أنملة، كأنه يضع نصب عينيه مقولة: «ما ترك الأول للآخر شيئاً».

وكان أمام الشاعر المتأخر، اللاحق، رصيد من المعاني والصور خلّفها القدماء، في المديح والفخر والغزل والهجاء.. وتقتصر مهمّة هذا الشاعر المتأخر أن يتطفّل على هذا الرصيد فيأخذ منه ما يحتاج، ويزعم بعد ذلك أنه جاء بقصيدة.

كان السابق (الشاعر الأصيل) يتمثل الصورة الكلية لموضوعه، ويحيطها بدفء عواطفه وحرارة مشاعره، فتبدو حيّة نابضة متلألئة. أمّا اللاحق فهو أشبه مايكون بالجزّار يقطع من هذه الكتلة أو تلك، ويضم بعضها إلى بعض بعيداً عن خلجات قلبه وحرارة أنفاسه. مَثَلُ السابق قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ومديح المعتصم، أو قصيدة أبي الطيّب المتنبي في وصف معركة الحدث ومديح سيف

الدولة، ومَثَلُ اللاحق قصيدة ابن منير الطرابلسي (ت٥٤٨هـ) في مدح نور الدين وانتصاره على الصليبين، وقصيدة ابن الساعاتي (ت٦٠٤هـ) في فتح صلاح الدين بيت المقدس. وقد كان التفاوت كبيراً في جودة قصائد السابقين وقصائد اللاحقين وابتكار المعاني ومتانة الأسلوب.

وقد تهافت شعر المديح في العصر العثماني، وانحطّ إلى دركة مزرية، ولم يعد الشاعر يجد من يتوجّه إليه بقصائده.

ولم يكن فن المديح في هذه العصور إلا كالفنون الأخرى من الشعر اتّباعاً وتقليداً ووَهْناً، وإذا كان ثمة من فرق فهو في بعض مقدمات القصائد، إذ انحرفت إلى الغزل بالمذكر، أو قد يكون فخراً بمقتنيات كالدور والملابس والخدم والحشم، كفخريات منجك (ت١٠٨٠هـ) أو قد يكون هجاء للبعوض والفئران والصراصير، كقصيدة جعفر البيتي (ت١٠٥٢هـ) وقد أكثر هؤلاء الشعراء من وصف الأفيون وأثره في العقل والجسم.

الموضوعات المستحدثة: إلى جانب هذه الموضوعات التقليدية ظهرت موضوعات أخرى، تتصل بسبب أو بآخر بما سبق من موضوعات وتتخذ لنفسها، في الوقت ذاته، مساراً مختلفاً له حدوده وقيوده، مما جعل المتأمل فيها يصفها بالجديدة المستحدثة. من هذه الموضوعات مايلي:

ـ المدائح النبوية والاستغفار: جاء الغزاة الأوربيون إلى الشرق محتلّين باسم الصليب، وجاء المغول ودمّروا معظم معالم الحضارة العربية والإسلامية، وعمّت الأوبئة والطواعين مصر والشام مراراً، وعمّ خلاف سلاطين بني أيوب والمماليك بعضهم مع بعض، وكان استبداد الحاكمين في رقاب الناس بالغاً، والحياة الاقتصادية في انهيار واضطراب. كلّ ذلك شجع على انطواء كثير من الناس على أنفسهم، وانعزالهم عن مجتمعاتهم، ولجوئهم إلى الله داعين مستغفرين، ومتقربين إليه بمديح الرسول وآله وصحبه. وانتشرت القصائد الكثيرة في مدح الرسول والتشفع به، وكذلك القصائد الطوال في الابتهال والاستغفار، ومن قصائد مدح الرسول ما سمي بالبديعيات، ويعد صفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠هـ) أول من نظمها وأول من أضاف إلى كل بيت لوناً من ألوان البديع وذلك في بديعيته التي استوحاها من قصيدة البوصيري (ت ٦٩٦هـ) [ر] المشهورة بالبردة ومطلعها:

أمن تذكُّر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

فاستهل الحلّي قصيدته بقوله:

إن جئتَ سَلْعاً فسل عن جيرة العلم
وأقر السلام على عزب بذي سلم

ولما كانت قصيدة البوصيري «البردة» قد اقترنت برؤيا الرسول الكريم ﷺ في المنام، وبأنه ألقى عليه بردته ونهض الشاعر بعدها معافى من فالج ألمّ به، استدل الناس والشعراء على رضا الرسول ﷺ عن القصيدة. ومن هذا الباب راح الشعراء ينظمون القصائد على منوال «البردة» تقرباً من الرسول وطمعاً في شفاعته وتدفق السيل، فإذا مئات القصائد على توالي العصور تظهر متقيدة بمعاني بردة البوصيري وبحرها العروضي وميم رويها المكسورة. حتى إن كثيراً من المسلمين كانوا يوصون أن تكتب بعض أبيات البردة أو إحدى البديعيات على شواهد قبورهم تقرباً إلى الله وزلفى. ولم يكن مدح الرسول بدعاً في الشعر في هذا العصر ولا مستحدثاً، ولكن الجديد في الأمر هو الإفراط، فقد فاق ما قيل في هذا الموضوع جميع ما قيل في الموضوعات الأخرى في العصر كله.

ولقد اعتاد المداحون أن يستهلّوا قصائدهم بالغزل وما يتصل بالشكوى من الفراق والهجر ونحو ذلك. أما في هذه المدائح فلهم استهلال آخر أوضحه ابن حجة في الخزانة فقال: «يتعيّن على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب، ويتضاءل ويتشبّب مطرباً بذكر سَلْع ورَامَة وسفح العقيق والغدير ولعلع وأكناف حاجر، ويطرح ذكر محاسن المُرد والتغزل في ثقل الردف ورقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العذار وما أشبه».

هذا اللون من الشعر أكثر عافية، وأقوم أسلوباً، وأكثر صدقاً، وأجزل لغة من شعر العصر في الأغراض الأخرى. وكان من أعلام هذا الفن الإمام الصَّرصَري (ت ٦٥٦هـ) والبوصيري وابن معتوق (ت ٧٠٧هـ) والشهاب محمود الحلبي (ت ٧٢٥هـ) وابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) والإمام البُرَعي (ت٨٠٣هـ) ومجد الدين الوتري (ت ٩٨٠هـ).

ـ الشعر الصوفي: هو ضرب من الشعر الديني، بينه وبين المديح النبوي والبديعيات وشائج وصلات، لكنه يتخذ مساراً يختلف عن مساريهما معنىً ومبنى. أما المعنى فيقوم على الحب الإلهي، وهذا الحب عماده وجوهره وغايته وثمرته. والحب، في عرف أصحابه، حالة ذوقية تفيض على قلوب المحبين، مالها سوى الذوق إفشاء، ولا يمكن أن يعبَّر عنها إلا من ذاقها، ومن ذاقها ذاهل عن كنهها، كمثل من هو طافح سكراً، إذا سُئل عن حقيقة السُكر الذي هو فيه لم يمكنه التعبير لأنه سكران. والفرق بين سكر المحبة وسكر الخمرة أن سكر الخمرة يمكن زواله، ويعبّر عنه في حين الصحو، وسكر المحبة ذاتي لازم، لا يمكن لصاحبه أن يصحو منه حتى يخبر فيه عن حقيقته.

أما المبنى فيقوم على ثلاث دعائم، هي الغزل العذري والخمريات والرمز وقد عرفت هذه العصور شعراء كباراً متصوفين، منهم السهروردي (ت٥٨٧هـ) وابن الفارض (ت٦٣٢هـ) وابن عربي (ت ٦٣٨هـ) وأبو العباس المرسي (ت ٦٨٦هـ) والعفيف التلمساني (ت ٦٩٠هـ) وابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩هـ) وعائشة الباعونية (ت ٩٢٢هـ) وغيرهم.

ـ التأريخ الشعري: ويقوم على «حساب الجمّل» في ضبط تاريخ واقعة بحروف تتألف منها كلمة أو جملة أو شطر، يكون مجموع جُمّلها يساوي تاريخ تلك الواقعة، ويأتي الشاعر بهذه الكلمة أو الجملة بعد كلمة «أرِّخْ» أو مشتقاتها.

وترتّب الحروف ترتيباً أبجدياً، أي: أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ. وكلّ من هذه الحروف له قيمته العددية. والجديد في هذا اللون أن العصر العثماني فاض به، حتى نظم به كلّ من كان ذا قدرة على النظم، وأن بعض الشعراء أتوا بالعجب العجاب. وفي كتاب «سُلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر» لابن معصوم قصيدتان في التأريخ الشعري كل منهما آية في بابها.

ـ الشعر التعليمي (نظم العلوم): شاع في العصر المملوكي والعثماني (نظم العلوم)، فعلم النحو يُسبك في ألفية، والفقه كذلك، والفرائض والمنطق وسواها، وغالباً ما تكون هذه المنظومات من بحر الرجز ليسهل حفظها. وقد يأتي بعض العلماء إلى واحدة من هذه الأراجيز

فينشيء عليها شرحاً، ويأتي آخر ويضع حاشية، وثالث يكتب حاشية على الحاشية، وخير مثال على ذلك ألفية ابن مالك.

ـ الأحاجي والألغاز: لم يسلم منها شاعر، ولم يخل منها ديوان، وكانت عنواناً على قدرة الشاعر على اختراع صور لفظية تتوارى المعاني وراءها، وهي وسيلة من وسائل التسلية في المجالس، وربما عمد صاحبها إلى مكاتبة إخوانه بها، وطلب منهم أن يحلّوها. وتذهب الرسالة الحاملة للقصيدة اللغزية من بلد إلى بلد، وغالباً ما يعود الجواب بحلّ اللغز في قالب شعري، ويكون مُتبعاً بلغز جديد آخر يطالب صاحبه بحلّه، وهكذا. كان من أعلام هذا اللون صفي الدين الحلّي والشَّرف الأنصاري وابن عُنَيْن (ت ٦٣٠هـ) ومحيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ) وإبراهيم بن عبد الله القيراطي (ت ٧٨١هـ) وابن حجّة الحموي (ت ٨٣٧هـ).

ـ شعر الحشيشة: وقد أصبح هذا الغرض الجديد كالخمرة من أغراض الشعر، وأحد الموضوعات التي قالوا فيها القصيد.

ـ النقد الاجتماعي: اتخذ هذا اللون في الغالب، صورة الشعر الضاحك تارة والساخر أخرى والمُرّ في ثالثة. فالوضع السيئ الذي كان يعيش فيه الناس، والشعراء منهم، من فقر وبؤس ومصادرات واستبداد وقطع طرق وانتشار لصوص، واستيلاء أعاجم على حكم الأرض العربية، وفساد في الدوائر، وانتشار رشوة، وما أشبه ذلك، دفع الشعراء إلى التعبير عن هذه المآسي بشيء من التّقيّة حيناً، والصراحة حيناً آخر، بهذه القوالب المنظومة.

ومن الشعراء الذين اشتهروا بالنقد ابن قلاقس (ت ٥٦٧هـ)، وابن عنين، وأبو الحسين الجزّار (ت ٦٧٩هـ)، والبوصيري، وابن دانيال (ت ٧١٠هـ) والحلّي، وابن سودون اليشبغاوي (ت ٨٦٨هـ)، وعامر الأنبوطي.

الخصائص العامة لشعر العصر: ضعفت ثقافة الشعراء في ذلك العصر، وضحلت محفوظاتهم ومعلوماتهم، وانصرف الشاعر عن امتهان الشعر، واتخذه هواية وتسلية: فقد يكون قاضياً أو معلماً أو كحّالاً أو ورّاقاً أو جزّاراً، فهو ينصرف إلى مزاولة مهنته أولاً، ثم يعاني نظم الشعر. وقد انفصل الشاعر عن مجتمعه وحكّام زمانه، وكان هذا الانفصال نتيجة وليس سبباً، فقد كان ينظم بلغة، ويتحدث هو وأبناء عصره بلغة أخرى. وكان بين لغته ولغة الناس بون شاسع، حتى لتوشك لغة النظم أن تصبح لغة أجنبية لدى الناس. كذلك طغت الركاكة والتعبيرات العامية على الشعر. والركاكة غير العامية، فهي تنشأ عن عدم تمكّن الشاعر من اللغة التي يكتب بها لافتقاره إلى معرفة أصولها وأسرارها ودقائق الفروق بين مفرداتها: إنها ـ أي الركاكة ـ العجز عن استعمال اللغة بدقة ومهارة، والاستعاضة عنها بالعامية والعبارات السوقية.

وقد ارتبط شاعر العصر بالتراث والماضي، وكان يضع نصب عينيه مقولة: «ما ترك الأول للآخر شيئاً». ولذلك كان ينهج نهج السلف تفكيراً وتعبيراً. وافتقد العصر النقاد الفنيين الذين يقوّمون لكل شاعر إنتاجه. وكان علماء البلاغة أقدر من سواهم على أداء هذه المهمة، لكنهم انصرفوا إلى المنطق، وإلى جزئيات لا تسمن ولا تغني، فأضاعوا الغاية من البلاغة، كما أضاعوا البلاغة ذاتها. واستعاض شاعر العصر عن الابتكار والتجديد بالمبالغات الكبيرة التي تصل إلى حدّ الإغراق والغلو الذي يرفضه العقل وتأباه العادة، وينكره الذوق.

واتكأ الشاعر على ألوان المحسنات البديعية بدلاً من أن يبدع فكرة، أو يجود في تعبير. ووصل اقتران البديع إلى أقصاه في البديعيات، وهي قصائد مطوّلة، تزيد على خمسين بيتاً، منظومة على البحر البسيط، تكون الميم المكسورة فيها روّياً ويحمل كل بيت لوناً من ألوان البديع، مذكوراً صراحة أو ضمناً، ومعانيها تدور حول السيرة النبوية. وقد أوجدت هذه البديعيات حركة أدبية نشطة في اللغة والأدب وحركة التأليف فكثر شارحوها والمعلّقون عليها، كما كثرت في الدراسات التاريخية إذ أظهر المؤرخون ما تضمنته من إشارات دينية وتاريخية. وأثرت في الحركة الأدبية، فكثر تشطيرُها وتضمينها وتخميسها وتسبيعها، وتعشيرها ومعارضتها. وانتقلت البديعيات إلى لغات العالم الإسلامي فنظم الأتراك والفرس والهنود بديعيات بلغاتهم، ونظم النصارى بديعيات في عيسى عليه السلام. وزادت الصنعة ذلك عند بعض الشعراء فغدا كثير من الشعر ألاعيب لفظية من جناس وتورية وشعر محبوك وشعر منظوم من حروف مهملة أو حروف معجمة، أو موصولة أو مفصولة، أو تحتوي كل كلمة على حرف معيّن، أو تحمل الكلمة معنيين، معنىً ظاهراً وآخر باطناً، هو اسم كتاب، أو لغز، أو واقعة، أو يُقرأ البيت طرداً، وعكساً فإذا هو شيء واحد، أو تكون قراءة الطرد مدحاً وقراءة العكس ذماً، أو يكون فيه تشجير أو اقتباس أو تضمين أو ردّ أعجاز على صدور، أو غير ذلك من الألاعيب والشكليات. كذلك خرج عدد من شعراء العصر إلى أوزان جديدة، دفع إليها التعبير العامي والركاكة، ومن الأوزان: المَوَاليا والزجل والقُوما والكان كان ونحوها.

أعلام الشعر في هذا العصر: يعثر الباحث في هذه الحقبة من التاريخ العربي على أسماء للشعراء لا حصر لها. فقد ظهر إبان الحكم الأيوبي ابن قسيم الحموي، مسلم بن الخضر التنوخي (ت ٥٤٢هـ). ابن القيسراني، محمد ابن نصر (ت ٥٤٨هـ). ابن منير الطرابلسي، أحمد (ت ٥٤٨هـ). عرقلة الدمشقي، حسان ابن نمير الكلبي (ت ٥٦٧هـ). ابن قلاقس، نصر الله بن عبد الله (ت ٥٦٧هـ). سبط بن التعاويذي (ت ٥٨٣هـ). ابن المعلم، محمد ابن عبيد الله (ت ٥٩٢هـ). ابن الساعاتي، علي ابن محمد بن رستم (ت ٦٠٤هـ). ابن سناء الملك، هبة الله بن جعفر (ت٦٠٨هـ). ابن النّبيه، علي بن محمد بن يوسف (ت ٦١٩هـ). ابن عنين، محمد بن نصر بن الحسين(ت ٦٣٠هـ). ابن الفارض عمر بن علي (ت ٦٣٢هـ)الحاجري، عيسى بن سنجر(ت ٦٣٢هـ)، ابن عربي، محيي الدين(ت ٦٣٨هـ). ابن مطروح، يحيى بن عيسى(ت ٦٥٠هـ). البهاء زهير بن محمد المهلبي (ت ٦٥٦هـ).

وتطالعنا في عصر المماليك أسماء كثيرة من أشهرها: شرف الدين الأنصاري، عبد العزيز ابن محمد (ت ٦٦٢هـ). الصرصري، يحيى ابن يوسف (ت ٦٥٦هـ). التلعفري، محمد ابن يوسف (ت ٦٧٢هـ). الجزار، يحيى بن عبد العظيم (ت ٦٧٩هـ). الشاب الظريف، محمد ابن سليمان (ت ٦٨٨هـ). الوراق، عمر بن محمد (ت ٦٩٥هـ). البوصيري، محمد بن سعيد (ت ٦٩٦هـ). ابن دانيال، محمد (ت ٧١٠هـ). ابن الوردي، عمر بن مظفر (ت ٧٤٩هـ). صفي الدين الحلي، عبد العزيز بن سرايا (ت ٧٥٠هـ). ابن نباتة، محمد بن محمد (ت ٧٦٨هـ). البُرْعي، عبد الرحيم بن أحمد

(ت ٨٠٣هـ). ابن سودون، علي (ت ٨٦٨هـ). ابن مليك الحموي، علي بن محمد (ت ٩١٧هـ). الباعونية، عائشة بنت يوسف (ت ٩٢٢هـ).

أما أشهر شعراء العصر العثماني فهم: عبد الله بن أحمد باكثير (ت ٩٢٥هـ). شهاب الدين العناياتي (ت ١٠١٤هـ). فتح الله النحاس الحلبي المدني (ت ١٠٥٢هـ). ابن معتوق، شهاب الدين الموسوي (ت ١٠٨٧هـ). منجك اليوسفي الدمشقي (ت ١٠٨٠هـ). ابن النقيب الحسيني (ت ١٠٨١هـ). مصطفى البابي الحلبي (ت ١٠٩١هـ). عبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣هـ). عبد الله الشبراوي (ت ١١٧١هـ). أحمد المنيني الطرابلسي (ت ١١٧٢هـ). عامر الأنبوطي (ت ١١٧٣هـ). جعفر البيتي المدني (ت ١١٨٢هـ). عبد اللّه الأدكاوي المصري (ت ١١٨٤هـ).

النثر

كان الشعر في العصر العباسي في أزهى أيامه. ثم راح ينحدر قليلاً في العصور التالية، حتى إذا كان العصر العثماني كاد يلفظ أنفاسه.

أما النثر الفني، والكتابة الأدبية، فقد بدأ انحدارهما منذ أيام ابن العميد (ت ٣٦٠هـ) والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥هـ) الذي كان يتساهل بضياع دولة ولا يتساهل بهروب سجعة من أسلوبه، والحريري (٥١٦هـ)الذي أشاع في مقاماته حبّ مطاردة السجع والجناس والزخارف في شتى صورها ليوقعها في شباك كتابته، حتى لا تندّ منه سانحة أو بارحة. ويقتفي الخطيب الحَصْكَفيّ (ت ٥٥١هـ) خطا أرباب التعقيد والتصنع واصطياد المحسنات اللفظية أو المعنوية من الذين سبقوه زماناً، فإذا هو يبذّهم ويخرج إلى الناس برسائل وخطب ليس فيها إلا هذه القشور، أما اللباب والمعاني المبتكرة والأفكار المبدعة فلا وجود لها ولا أثر.

فنون النثر: مجالات النثر كثيرة، ولعلها أرحب مما هي في الشعر وأوسع دائرة وأكثر حريّة، وبالنثر يستطيع الإنسان التعبير عمّا يريد بيسر وسهولة أكثر من الشعر المنظوم الموزون.

وحصراً لمجالات النثر يمكن القول: إنها تدور في: رسائل وكتابات ديوانية رسمية، ورسائل ومكاتبات إخوانية، ومقامات أدبية، وخطب منبرية، ومؤلفات علمية. ويمكن القول كذلك: إن معظم الكتابات الديوانية، والرسائل الإخوانية، والمقامات الأدبية، والخطب المنبرية، طبعت بطابع العصر الذي كتبت فيه، وحملت سماته وصفاته، من كلفة وتصنّع مقبول، إلى كلفة وتصنّع ومبالغة في اصطياد المحسنّات البديعيّة على حساب المعنى، سواء أكتبت تلك الآثار في العصر الأيوبي أم المملوكي أم العثماني. وإن في تقليب آثار هذه العهود شاهداً على هذا الحكم.

أما المؤلفات العلمية، فإن أكثرها ما كان يعبأ بتلك المحسّنات، لأنها تبعد القارىء عن فهم المراد من المعنى، وعن الوقوف على دقائق الأمور التي يتحدث الكاتب المؤلف عنها.

وأنه لمن العسير في هذا المقام استعراض أسلوب كل مؤلفات هذه الحقبة وقد تجاوزت الآلاف عدداً، والمئات علوماً وفروعاً. وقد عوّض مؤلفوها المكتبة العربية التي نهب الصليبيون كثيراً منها، ثم أحرق المغول ما تبقى فيها، وضاع منها ما ضاع بفعل الكوارث والخلافات الفكرية والمذهبية، كما أنّ هذه الحقبة تعدّ أغنى حقبة في الحركة التأليفية في العصور العربية.

لقد ضاع أكثر الأصول التي نقلوا منها واعتمدوا عليها، ولم يبق إلا ما تركه أبناء هذه العصور، وخير مثل على ذلك تلك الأصول التي اعتمد عليها ابن منظور (ت ٧١١هـ) أو جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، أو مؤلفو الموسوعات كالقلقشندي (ت ٨٢١هـ) في مؤلفه: «صبح الأعشى» أو العمري (ت ٧٤٨هـ) في «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، أو النويري (ت ٧٣٢هـ) في «نهاية الأرب في فنون الأدب»، وغير ذلك كثير. ويكفي القول إن كتاب حاجي خليفة «كشف الظنون» وحده، ذكر أسماء ثلاثمئة علم، في خمسة عشر ألف كتاب، ألّفها عشرة آلاف عالم، معظمهم كان من أبناء هذه العصور.

خصائص النثر وأعلامه: كان من أشهر العلماء والكتاب الذين عاشوا في العصر الأيوبي والمملوكي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني (ت ٥٩٦هـ) والعماد الأصبهاني (ت ٥٩٧هـ)وكلاهما كتب للأيوبيين، وإن كان القاضي الفاضل قبل ذلك قد كتب للفاطميين بمصر في ديوان الإنشاء. وقد تآلف هذان الرجلان في حياتهما وعقدت الصداقة بينهما أواصر من المحبة، وقد تآلفا كذلك في أسلوبهما الأدبي، حتى لكأن هذا ذاك، وكتابة ذاك هي كتابة هذا. وربما جاز القول: إن القاضي والعماد طبعا العصر الأيوبي والمملوكي بطابعيهما، وكانا المثل الأعلى لكل كتّاب عصرهما والعصر الذي تلا. لقد ورثا من العصور السابقة، ولاسيما العصر العباسي، ما تواضع عليه أكابر الكتّاب كابن العميد والصاحب والحريري والمعرّي (ت ٤٤٩هـ) والتبريزي(ت ٥٠٢هـ) والحَصْكَفي من تكلّف وتصنّع وتعقيد واصطياد للسجع أو الجناس أو غير ذلك من هذه الألوان البديعية، ثم زادا على ما ورثا ما أبدعته قريحة كلّ منهما: فبلغ الجناس المعكوس، على أيديهما، ذروته، ومالا يستحيل بالانعكاس يكثر ويتعاظم، والتلاعب اللفظي يعمّ ويطغى. إلى جانب ذلك كلّه كانت تُرى بعض التعابير الرشيقة، والصور اللطيفة، وبعض الكتابات الخفيفة الظلّ، مما يشهد لهما بحسن الذوق ودقة الصناعة والقدرة على اجتذاب القارىء. وظلت مدرسة الرجلين في الأسلوب قائمة في عصر المماليك، وكان ديوان الإنشاء أكبر حافز لشداة الجاه والرزق والشهرة والوزارة والقرب من السلطان، وكان القلقشندي المعين الأكبر لهؤلاء الطلبة على معرفة ما يوجبه الانتساب إلى ديوان الإنشاء من علوم ومعارف وأساليب. وكان كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» خير دليل على هذه المواصفات.

وقد برز في هذا العصر صوت شاذ يحارب طريقة القاضي الفاضل والعماد الكاتب وينعَى على المتكلفين طريقتهم، ويقف في وجه هذه الأساليب، ذلك هو صوت ضياء الدين بن الأثير الجزري (ت ٦٣٧هـ) ولاسيما في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، وقد امتازت كتابته هو ممن ذكروا بالتجديد، وكانت أفكاره في كتابه المذكور ثورة في الإنشاء الأدبي في عصره، إذ خالف الأساليب المتبعة وحمل على أصحابها. ولدى التدقيق في أسلوب ابن الأثير يتضح اعتماده في شتى كتاباته العامة والخاصة والإخوانية والديوانية الرسمية أو التأليفية على أسلوبين اثنين: أسلوب مسجّع، وأسلوب مطلق. أما المسجع فغلب على نثره الديواني، وهو كاتب في الديوان، وعلى نثره الإخواني. وأما المطلق فقد استخدمه في تصانيفه، ولاسيما في «المثل السائر»، وفيه ابتعد عن السجع واللعب بالعبارات والإكثار من المحسنات اللفظية. لقد وظّف ابن الأثير الألفاظ في خدمة

المعاني، وأتى بآراء جديدة، تكاد تكون اليوم معتمدة وأساسية لدى معظم النقاد المعاصرين، منها: أن السجع يكون مقبولاً إذا كان طبيعياً ومعتدلاً، وأن يكون فيه اللفظ تابعاً للمعنى، وأن غرائب الألفاظ تشين الكتابة الأدبية وينبغي تحاشيها، وأن الكلفة والتصنّع في تأليف العبارة يوديان بقيمتها وأثرها. وفي الحق، إن ابن الأثير حاول أن يعدل بتلك الأساليب المنتشرة في ذلك العصر نحو الاتجاه السليم، لكن طغيان التقليد والتصنع جعل محاولته زوبعة في فنجان.

أما في العصر العثماني، فقد سبق القول إن اللغة العربية انزوت في كتاتيب ومدارس صغيرة، وغدت اللغة الثالثة بعد التركية والفارسية، إضافة إلى إلغاء ديوان الإنشاء أصلاً، وإحلال اللغة التركية محل العربية، وعدم تشجيع السلاطين على العلم والأدب والإجادة في التعبير. وعمّ الفقر والجهل مختلف الربوع، مما أدى إلى تدهور الكتابة، بل تدهور العلم في شتى ألوانه وضروبه، اللهم إلا بعض قبسات مضيئة في هذا العصر القاتم.

بكري الشيخ أمين، محمود سالم

■ الأدب العربي في العصر الحديث

تقديم

حتى مستهل القرن التاسع عشر كانت الحياة العربية بمجملها تخضع لركود شامل في ظل سيطرة الدولة العثمانية على أقطار الوطن العربي، سواء أكانت تلك السيطرة قوية مباشرة كما في بلاد الشام والعراق ومصر، أم ضعيفة أو اسمية كما في أقطار المغرب العربي وبلدان شبه الجزيرة العربية.

وكان الأدب العربي، بصفته أحد أنماط تعبيرات تلك الحياة الراكدة عن ذاتها، خامد الجذوة ويكاد يقتصر على ترديد ما تخلف عما اصطُلح على تسميته في تاريخ الأدب العربي باسم: أدب عصر الانحطاط، أو أدب الدول المتتابعة.

وقبيل ابتداء القرن التاسع عشر أخذ الاصطدام العنيف بالغرب يهز ذلك الركود المتوارث هزاً شديداً. فقد جاء ذلك الاصطدام غزوات عسكريةً تواصلت حتى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وأسفرت عن استعمار مباشر لسائر أجزاء الوطن العربي باستثناء شمالي اليمن وأواسط شبه الجزيرة العربية. واستمر هذا الاحتلال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية على وجه التقريب، كما تواصل في بعض الأقطار - كالجزائر - حتى منتصف عقد الستينات من القرن العشرين. أما في فلسطين فقد أقيمت دولة استيطانية ليهود العالم (دولة إسرائيل) الأمر الذي ترك نتائج مأساوية كبيرة ومباشرة على عرب فلسطين، ونتائج شبه مباشرة على بقية العرب في مختلف أقطارهم كانت شدتها متفاوتة بهذا القدر أو ذاك، بحسب قرب كل قطر أو بعده عن حدود تلك الدولة الاستيطانية.

ومع انتهاء الاحتلالات، وحصول الاستقلالات، كان نمط جديد من الاستعمار الاقتصادي العالمي يتولد من طبيعة عمل الرأسمالية العالمية وتطوراتها، ويترك آثاراً سلبية عميقة في نمو سائر المستعمرات السابقة، وخاصةً في نمو أقطار الوطن العربي الغنية بمصادر الطاقة والفريدة في موقعها الاستراتيجي في قلب العالم الذي أخذت تتكاثر فيه القوى الكبرى المتصارعة اقتصادياً وايديولوجياً.. وكل ذلك قد ترك - ولايزال يترك - آثاره في سيرورات الحياة في المجتمعات العربية، فتنعكس في الأدب شكلاً ومضموناً.

إن ابتداء اصطدام العرب بالغرب، وما أحدثه من ارتجاج قوي على سطح الحياة العربية الراكدة وفي أعماقها، لم يسفر عن شعور عربي عام بالعجز وعن استثارة لمقاومة النتائج العسكرية للغزو المتوالي وحسب، بل هو أيضاً قد طرح على العرب مشكلة خمود طاقات الإبداع وتجلياته لديهم، كما طرح عليهم إشكالية اللحاق بركب التقدم العالمي تأسيساً على موروثهم الحضاري من جهة، وفي ظل الاستعمار ذاته من جهة أخرى. فالغزو لم يكن وقع آلة عسكرية وحسب بل كان يحمل معه أيضاً مفهومات النظام الحضاري الذي أنجز الآلة، والقيم البراغماتية لذلك النظام والمتضاربة جذرياً مع القيم العربية الإسلامية السائدة آنذاك، مثلما كان يحمل معه أدوات عمل، وأساليب تصرف، ونهج سلوك، ووسائل ترفيه فني، وكلها غير مألوفة...

واختصاراً كان وراء آلة الحرب الغازية ومعها كل ما تمخض عنه التكوين البنيوي الحضاري الغربي من معطيات غير مألوفة ولا معروفة، وحتى غير مقبولة، لدى العرب في حينها.

وإذا كانت غزوة نابليون لمصر في نهاية القرن الثامن عشر تعدّ افتتاحاً ومدخلاً لعصر اصطدام العرب بالغرب اصطداماً قوياً فعالاً فإنه من المفيد ذكر أنه كانت هناك احتكاكات غير صدامية تمثلت في قدوم إرساليات دينية (كاثوليكية - بروتستنتية - أرثوذكسية) إلى لبنان بوجه خاص، قبل غزو نابليون لمصر بأوقات متفاوتة، ولكنها لن تبرز على أنها قوى مؤثرة في تطورات الوضع العربي: الأدبي منه والفكري على وجه الخصوص، إلا في القرن التاسع عشر.

ولابد هنا من عرض صورة إجمالية للوضع العربي في ظل الحكم التركي للإحاطة بأجزاء صورته المتكاملة وتبين حقيقة الفواعل التي ستؤثر في التاريخ الأدبي المعاصر في القرنين التاسع عشر و العشرين كما ستؤثر في تطورات أشكاله الفنية ومضموناته.

لقد أُشير قبلاً إلى التفاوت في علاقة الأقطار العربية بالسلطنة العثمانية تبعاً لقربها أو بعدها عن اصطنبول (عاصمة السلطنة) ففي حين كانت أقطار المغرب العربي وكثير من أقطار شبه الجزيرة العربية لا تخضع إلا لسلطة اسمية للعثمانيين، إذ كان لكل من هذه الأقطار حاكم شبه مستقل ينتقل الحكم في ذريته بالوراثة، فإن مصر والسودان (وادي النيل) عرفتا تقاسماً للسلطة بين الولاة الأتراك (الباشاوات) وبين المماليك (البكوات) وغالباً ما كانت كفة ميزان النفوذ تميل لصالح هؤلاء إزاء كفة أولئك.

أما في بلاد الشام والعراق حيث كانت قبضة السلطة محكمة ومرهقة، فقد اعتُمد نظام التقسيم إلى ولايات، ونظراً إلى ما كانت تعانيه السلطة من انحطاط عام، وإداري خاصة، فقد عمدت دائماً إلى تعيين ولاة همهم جباية المال إضافة إلى كونهم متنافسين متنابذين، وهو الأمر الذي جر الكوارث على الرعية، إذ عمت الفوضى، وانتشر الفساد، واختل الأمن اختلالاً مفزعاً، وكثرت المجاعات والأوبئة، وأثيرت الفتن الطائفية والحروب الأهلية.. فتدهورت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية تدهوراً مفجعاً، وخاصة بعد أن تحولت خطوط التجارة بين أوربة والشرق عن المنطقة لتسلك طريق رأس الرجاء الصالح.

وبسبب من هذه الأوضاع المختلة إجمالاً تمكنت الدول الأوربية العظمى آنذاك (إنكلترة - فرنسة - روسية) من إيفاد إرسالياتها الدينية التي عمدت إلى إنشاء مدارسها الخاصة

أولاً بأول.

وفي لبنان تمكن الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير (أواخر القرن السادس عشر) من أن يشيع، لوقت قصير، جواً من التحرر. وقد أسهم ذلك في تقبل نشاط الإرساليات الذي هيأ للتفاعل لاحقاً مع ما سوف يفد من فكر غربي مع الغزوات الاستعمارية المقبلة.

وفي فلسطين أثّر ظهور الوالي الشيخ ضاهر العمر في ازدهار الحياة الاقتصادية ازدهاراً نسبياً.

وكان أحد الزعماء المحليين في اليمن (مستهل القرن السابع عشر) قد تمكن من طرد الوالي التركي وإقامة حكم وطني دام وقتاً غير قصير. وإذا كان العثمانيون قد تمكنوا من استعادة شيء من نفوذهم على اليمن بعد ذلك فقد كان نفوذاً قلقاً ومكلفاً وغير مستقر.

وفي أواسط القرن الثامن عشر ظهرت في قلب الجزيرة العربية (نجد خصوصاً) حركة إصلاح ديني قادها محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢م)، ورمت إلى تطهير العقيدة مما لحق بها من بدع وعرفت باسم الحركة الوهابية. وبتحالف أتباعها مع أمراء نجد من آل سعود تمكنت هذه الحركة من توسيع نفوذها بعيداً.

وكان الإنكليز والبرتغاليون - والهولنديون إلى حد ما - يتنازعون السيادة على الشواطىء الجنوبية والشرقية لشبه الجزيرة، فتمكن الإنكليز من الفوز أخيراً بهذه السيادة.

تلك هي السمات الإجمالية لصورة الوضع العربي في ظل السلطنة العثمانية حتى مستهل القرن التاسع عشر. ولا ينتظر، في مثل هذه الأوضاع، أن تزدهر حركة فكرية أو نشاط أدبي، وعليه فقد كان النتاج الثقافي مقتصراً على التحشية والتلخيص والتفسير والجمع، وطغت الشكلية واللفظية طغياناً صارماً على الأدب خاصة.

غير أنه، تحت سطح هذه الصورة التي تبدو في غاية الخمود، كان هناك تململ واضح ورغبة في الإصلاح تذكيها مقارنة الواقع بالماضي، وتحرضها -إلى هذه الدرجة أو تلك- مجموعة التفاعلات المتقطعة مع طوالع الفكر الغربي التي حملتها مؤسساته التجارية والدينية، وقواها كون الوطن العربي معبراً لخطوط المواصلات والتبادل التجاري بين الشرق والغرب، قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح.

وقد كان لمجموع ما ترافق مع غزوة نابليون لمصر -أو حملته عليها- آثار لا تنكر في إذكاء نزعة الاستقلال وروح النهضة. غير أنه لا يمكن للمرء أن يقر بالمبالغات التي نسبت إلى تلك الحملة والتي يجعلها كثير من المؤرخين سبباً وحيداً أساسياً لجملة التحولات التي ستحدث في الواقع العربي لاحقاً، بل لابد من رؤية ما ترتب على تلك الحملة في حدوده الموضوعية، بصفتها «رجة» كبرى في سياق تاريخي محلي وعالمي معقد ومتشابك ومركب.

لقد حمل نابليون معه مطبعة عربية كان قد استولى عليها من الفاتيكان، ولكنه خصصها في المدة القصيرة التي استغرقتها الغزوة (سنتين وبضعة أشهر) لطبع ما كان يهمه من منشورات دعائية. وقد أنشأ ما أسماه مجمعاً علمياً، ومكتبة للمطالعة، ومسرحاً للترفيه عن جنوده، كما شق بعض الطرق.. وهو ما يظهر مفصّلاً في تاريخ الجبرتي، إلا أن الحملة واجهت عداء داخلياً وخارجياً قوياً، وشبت في وجهها ثلاث ثورات، وذلك ما منع استقرارها فانتهى بها الأمر إلى الجلاء عن مصر بعد هزيمة جيش نابليون أمام أسوار عكا، وتحطم أسطوله في أبي قير.

إن عرب مصر قد اطلعوا -بوساطة تلك الحملة- على المسرح والمطبعة والصحافة، وتعرفوا شيئاً من أهميتها وضرورتها، فتحرض الاهتمام بها، وهو ما ساعد لاحقاً على سرعة نشوئها في مصر، غير أنه ما كان لتلك «البذور النهضوية» أن تنمو إلا بوجود التربة الصالحة، فالحملة إذاً أسهمت في بزوغ النهضة، لكنها لم تكن إلا واحداً من أسبابها الرئيسة ليس أكثر.

وفي تلك الغزوة أو الحملة تم اكتشاف حجر رشيد، ثم استطاع مكتشفه العالم جان فرانسوا شامبليون Champollion حل رموز الخط الهيروغليفي فانكشفت حقائق تاريخية حضارية عريقة كانت مجهولة، وتعمق إحساس الناس بعظمة مصر القديمة، الأمر الذي أوجد دافعاً إضافياً للعرب المصريين كي يتعجلوا ابتداء النهضة والخروج من حال الخمود السابق. كما أن العلماء المرافقين للحملة -وعددهم يزيد على أربعين- قاموا بتأليف كتاب من عشرة مجلدات، بالفرنسية، سموه: «وصف مصر» Description de l'Egypte صار فيما بعد عوناً للباحثين في تحري أوضاع ذلك القطر العربي من جوانبها المختلفة زمن الحملة.

ولعل أهم ما انجلت عنه الحملة هو أنها كانت سبباً في ظهور محمد علي، ذلك الضابط الألباني الطموح الذي قدم ليشارك في إخراج الفرنسيين من مصر، فلمع نجمه وانتهى به الأمر إلى أن ولاه الباب العالي (السلطان العثماني) عليها. ومع أنه لم يكن متعلماً فقد ظهر أنه كان يدرك جيداً فضل العلم في نهضات الأمم. فشجع العلماء وأرسل البعوث إلى فرنسة فكان من رجالها أوائل بناة النهضة الفكرية والثقافية في مصر. واستعان كذلك بضباط من فرنسة وغيرها لتدريب الجيش الحديث الذي أنشأه ولتنظيم مؤسساته. وفي الوقت ذاته أنشأ المدارس التي تعلم العلوم الحديثة وتعنى بترجمة كتبها، وأسس أول جريدة في الوطن العربي صدر بعضها باللغة العربية.

ولعل أهم خلفائه هو الخديوي إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) الذي أنشأ مدارس للبنات، وأسس المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية اليوم)، وقامت في عهده بعض الكليات الأمريكية في القاهرة والصعيد مثلما انتهى حفر قناة السويس (١٨٥٩-١٨٦٩) وتم افتتاحها، فاستعاد الوطن العربي مركزه ممراً لطرق التجارة العالمية بين آسيا وأوربة، بما لذلك من منعكسات مهمة على سيرورات التفاعل الثقافي العربي مع ثقافات القارتين المذكورتين.

أما الحملتان المصريتان على بلاد الشام (١٨٣١-١٨٣٣ و ١٨٣٩-١٨٤٠) فقد أشاعتا فيها جواً شجع عمل الإرساليات فزاد بذلك من تفاعل أبنائها مع الفكر والثقافة الغربيين، إذ أسست تلك الإرساليات عدداً من المدارس واستجلبت مطابع لا يزال بعضها يعمل حتى الآن.

وقد سبقت هاتين الحملتين حملة أخرى على شبه الجزيرة العربية (١٨١٢-١٨١٩) منيت بالإخفاق لكنها تركت شعوراً -ولو غائماً- بأهمية وحدة العرب كما نبهت الأذهان إلى ما كانت تظهر بوادره من نهضة ثقافية في مصر.

وقد ضم محمد علي السودان إلى مصر محققاً وحدة وادي النيل، وذلك بين عامي ١٨٢١-١٨٢٣. لكن الإنكليز قاموا باحتلال السودان بعد ذلك فواجهتهم ثورات أهمها ثورة المهدي (١٨٨١-١٨٨٥)، وانتهى أمر السودان إلى ما سمي «السودان المصري الإنكليزي» في ١٨٩٨ وكانت السلطة الفعلية فيه للإنكليز،

ثم أصبحت مصر نفسها تحت الحماية البريطانية. وعلى أي حال فإن محاولات محمد علي لضم الأقطار العربية في دولة واحدة قد أيقظت حساً قومياً عربياً شعبياً، وهو ما سيظهر أثره بقوة.

ومع أن ليبية ضُمت إلى السلطة العثمانية عام ١٥٥٦، فقد ظلت تتمتع باستقلال ذاتي، وخاصةً في عهد الأسرة القرمنلية (١٧٢٤-١٨٥٣)، أما أقطار المغرب العربي الأخرى فلم تتبع السلطنة إلا اسمياً، واستقلت تونس عنها عام ١٧٩٠ استقلالاً تاماً، وظلت الجزائر على تبعيتها الاسمية لاصطنبول منذ أن احتلتها عام ١٥١٨، أما سلطنة مراكش (المملكة المغربية اليوم) فلم تخضع للسيادة العثمانية مطلقاً. وفي عام ١٨٣٠ احتلت فرنسة الجزائر، ثم تونس عام ١٨٨١، واحتلت اسبانية أجزاء من مراكش (سبتة ومليلة ومنطقة الريف) ثم احتلت فرنسة مراكش بأكملها بين العامين ١٩٠١-١٩٠٤ وتخلت عن بعض أجزائها لاسبانية عام ١٩١٢.

وإذا كان الخمود الثقافي في أقطار الشمال الإفريقي موازياً لنظيره في بقية أرجاء الوطن العربي فإن الاحتلال الفرنسي لأقطار المغرب قد خلق وضعاً ثقافياً متناقضاً ولاسيما في الجزائر التي ضمتها فرنسة إليها وأعلنت أنها جزء منها وفرضت عليها لغتها حتى الاستقلال عام ١٩٦٢، فذلك الاحتلال قد ولد اعتصاماً أشد بالثقافة الإسلامية التقليدية السائدة من جهة، ومن جهة أخرى فتّح الأذهان هناك على ثقافة الغرب وفكره. لكن آثار ذلك سوف تتأخر في الظهور، وهذا ما جعل بواكير النهضة وتطوراتها خلال القرن التاسع عشر وقسم غير قليل من القرن العشرين تكاد تنحصر في مصر وبلاد الشام ثم العراق إلى حدّ ما.

وما يمكن أن يُخلص إليه في هذا التقديم هو أن تلك النهضة يجب أن ينظر إليها في سياق فعالية النمط الحضاري الغربي وحركته الاستعمارية، وعدّ هذه النهضة محاولة للرد على تحديات حركة هذا النظام لوجود الأمة العربية من موقع الصراع معه من أجل البقاء والتقدم. إن ثمة منظومتين ثقافيتين تتفاعلان في إطار تناقضاتهما المفهومية والقيمية: الثقافة العربية الإسلامية، والثقافة الغربية الرأسمالية الاستعمارية. وفي الظروف السائدة حتى اليوم فإن الثانية هي المهيمنة، أما الأولى فمتعثرة الخطا وتابعة من منظور علاقات أصحابها بالغرب.

وهناك أخيراً أمر لا بد من الإشارة إليه لأنه يتضمن في النهاية إشكالية ذات صلة بالمصطلح الذي تندرج تحته مادة هذا البحث. فمصطلح «العصر الحديث» هنا يوحي بإشارة ضمنية إلى فكرة «الحداثة» Modernisme من حيث كونها تملأ هذا العصر بمعطياتها على سائر الصُّعُد.

وتعد «الحداثة» في منظور الفكر الأوربي - وهو مصدر هذا المصطلح - حالاً من القطيعة المعرفية الشاملة: فلسفياً وعلمياً واعتقادياً .. وحالاً من القطيعة الشاملة في التقنية والاقتصاد والبنى والعلاقات الاجتماعية .. بين ما أنجزته أوربة منذ ابتداء نهضتها حتى اليوم وما سبق ذلك في العصر الأوسط وفق تقسيمات التاريخ الغربي حسبما صنفها الفيلسوف الألماني هيغل Hegel.

ولما كان «العصر العربي الحديث» - أي القرنان التاسع عشر والعشرون - لا يتضمن شيئاً من تلك القطيعة الأوربية المركبة، ولما كانت التبعية هي سمته الكلية، ولما كان الأدب العربي فيه متأثراً بالضرورة بهذا الوضع التاريخي الحضاري الإجمالي التابع: سواء من حيث تاريخية إنتاجه أو من حيث أنماطه الفنية، ودلالاته الفكرية والنفسية، وأساليب إنشائه «خطاب» محملاً بروح هذا العصر ... فإن معنى «الحداثة» هنا لا يشير إلى تعبيرات فنية مؤصلة على تغيرات نهضوية جذرية متواصلة في الواقع المعاش، بل هي تشير إلى «تزامنات فنية عارضة» - إذا صح التعبير - لواقع يضطرب ويتماوج فيه خليط من موروثات مراحل الحضارة العربية إبان ازدهارها، لكنه خليط مأخوذ بصورة انتقائية، وخليط آخر من نثارات ما يصل من علوم الغرب وفلسفاته وفكره وأدبه ... فيصطدم الخليطان ويتقاطعان عند حدين من رغبات العرب المتناقضة: رغبات تمسكهم بمواريثهم، ورغبات لحاقهم بالغرب المهيمن عموماً.

إن هذه الإشكالية قد تركت ولاتزال تترك آثارها بقوة في الأدب العربي المعاصر. وهي إشكالية يجب أخذها دائماً بالحسبان عندما يوصف هذا الأدب وزمنه «بالحداثة». إذ بها - بوصفها تعبيراً عن انعدام القطيعة وعن التبعية السابقتي الذكر - ترتبط مختلف المصطلحات ذات الصلة بما هو معالج في هذه المادة.

وبمراعاة هذه الإشكالية يمكن القول: إن ثمة يقظة عربية عامة قد ابتدأت، نشطة، في مصر في زمن حكم محمد علي باشا، فلقيت تجاوباً سريعاً نسبياً في بلاد الشام. وأخذت القوى الكامنة في الأمة تتيقظ بفعل مختلف البواعث التي سبق ذكرها. فتسارع إنشاء المدارس الوطنية، وتوالى صدور المجلات والصحف وتأسيس المطابع، وتزايدت ترجمات الكتب العلمية والأدبية الأجنبية إلى اللغة العربية، ونُشر كثير من كتب التراث، وتألفت الجمعيات والنوادي الأدبية، وأنشئت المكتبات العامة والمسارح ومجامع اللغة العربية .. كما تزايد إنشاء الجامعات ومعاهد البحث ومؤسساته المختلفة إضافة إلى المراكز الثقافية وسائر مؤسسات «وسائل الاتصال الجماهيري» من إذاعات ومحطات بث تلفزيوني. ولا يكاد قطر عربي يخلو اليوم من وزارة للثقافة .. وكل ذلك يساعد بصورة مباشرة أو غير مباشرة في ارتقاء الإنتاج الأدبي العربي المعاصر وتعميم إيصاله إلى جماهير المثقفين والمتعلمين بمختلف السبل والوسائل المعتمدة في بقية أنحاء العالم.

بواعث النهضة الأدبية في العصر الحديث

يمكن إجمال بواعث هذه النهضة في مايلي:

البعثات العلمية: يأتي هذا الباعث في المقدمة. وقد بدأت فاعليته بعد انتشار الثقافتين الفرنسية والإنكليزية في المدارس والمعاهد التي أنشئت في الشام ومصر وتخرج فيها المعلمون الذين بعث بعضهم إلى فرنسة لإتمام تحصيلهم في مختلف العلوم. وكانت أولى البعثات عام ١٨٢٦ في عهد محمد علي باشا، إذ اختير أربعة وأربعون طالباً من طلبة الأزهر، رأسهم رجل النهضة الكبير رفاعة الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م). وقد عمل هؤلاء المبعوثون بعد عودتهم، وكل في نطاق اختصاصه، في ميداني الترجمة والتعليم.

ثم توالت البعثات فيما بعد، فشملت عدداً من البلدان الأمريكية والأوربية.

الترجمة: كان لترجمة الكتب الفرنسية والإنكليزية إلى العربية أثر كبير في النهضة الأدبية. وقد بدأت حركة الترجمة في بلاد الشام على يد بعض رجال البعثات الدينية، إذ ترجم هؤلاء بعض الكتب التي احتاجوا إليها في التدريس. لكن حركة الترجمة لم تقوَ وتتنوع

إلا بعد عودة رجال البعثة المصرية الأولى الذين بدؤوا بترجمة بعض الكتب العلمية. ويعود الفضل الأكبر في تنشيط هذه الحركة إلى الطهطاوي الذي أنشأ «مدرسة الألسن» عام ١٨٣٥. وقد عنيت هذه المدرسة بتعليم اللغات الأجنبية المختلفة، وترجم خريجوها مئات الكتب والقصص والمسرحيات. وشارك السوريون واللبنانيون بقوة في تلك الحركة، ولاسيما بعد أن هاجر بعضهم إلى مصر، مثل: نجيب الحداد، وبشارة شديد، وطانيوس عبده ... حتى بلغ عدد الكتب المترجمة نحواً من ألفي رسالة وكتاب. ثم اتسع نطاق الترجمة بازدياد مطرد ومازال يتسع حتى اليوم إذ تشمل المترجمات أهم روائع الأدب العالمي في سائر اللغات الأجنبية الحية.

الطباعة: أنشئت أول مطبعة بحروف عربية في إيطالية عام ١٥١٤م ،وطبع فيها بعض الكتب الدينية كسفر الزبور، ثم طبع القرآن في البندقية.

أما في البلاد العربية فأول مطبعة أنشئت فيها كانت في حلب سنة ١٧٠٦م، ثم تلتها مطبعة الشوير بلبنان سنة ١٧٣٤م ثم أنشئت مطبعة في بيروت سنة ١٧٥١م.

ولما قام نابليون بحملته على مصر سنة ١٧٩٨م أحضر معه مطبعة مزودة بحروف عربية ولاتينية، وقد استخدمها لطبع المنشورات والصحف الخاصة بالحملة. وبعد انتهاء الغزو جعل محمد علي تلك المطبعة نواة للمطبعة الأهلية التي أسسها عام ١٨٢١م والتي عرفت فيما بعد باسم «مطبعة بولاق»، وطبعت فيها الكتب الدراسية والكتب المؤلفة والمترجمة. وبعد أربعين سنة بُدِئ بإنشاء مطابع أهلية كان أقدمها مطبعة «وادي النيل» ومطبعة «جمعية المعارف».

كذلك تأسست في بيروت «المطبعة الأمريكية» عام ١٨٣٤، ثم تلتها «مطبعة الآباء اليسوعيين» عام ١٨٤٨، ثم مطبعة «الجوائب» التي أنشأها أحمد فارس شدياق [ر] في الآستانة عام ١٨٦١. وقد نشرت كتب كثيرة في هذه المطابع، وبينها عدد من المعاجم العربية القديمة وطائفة من كتب الأدب وداووين الشعر القديم إلى جانب أمهات كَتب التاريخ.

وقد تزايد عدد المطابع منذ مطلع القرن العشرين وتطور نوعها وأصبح أكثرها آلياً حتى لم يخلُ بلد عربي من مطبعة رافقت تكاثر عدد الصحف والمجلات.

حركة إحياء التراث: كان من أثر الاتصال بالغرب، وابتداء الاستقاء من ثقافاته، وما رافق ذلك من استشراق أو استغراب، أن تنبهت العقول إلى ضرورة إحياء التراث العربي ونشره. وقد أنشأ علي مبارك [ر] جمعية لنشر المخطوطات العربية القديمة برئاسة الطهطاوي. وفي عام ١٨٩٨ تألفت جمعية أخرى للعناية بنشر كتب التراث، وكان من أعضائها أحمد تيمور [ر] وحسن عاصم وعلي بهجت. وقد أفادت حركة إحياء التراث مما سبقها إليه المستشرقون في مانشروه من كتب التراث العربي، إذ عرف عن هؤلاء منهجهم العلمي في تحقيق المخطوطات، ومراجعة أصولها، وموازنة بعضها ببعضها الآخر، كما إنهم أخرجوا ما نشروه في طبعات أنيقة مزودة بالتعليقات المفيدة والفهارس الدقيقة.

ولا يزال نشاط حركة إحياء التراث في تصاعد مستمر بفضل ازدياد الوعي بضرورة معرفة التراث معرفة صحيحة وشاملة، وتمثل خير ما فيه تمثيلاً موضوعياً مفيداً.

الصحافة: كان لإنشاء المطابع، وانتشار الطباعة أثر واضح في ظهور الصحافة. ومن المتفق عليه أن الصحافة العربية ظهرت في مصر قبل غيرها من البلاد العربية، وكان ذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فقد أنشأ نابليون عام ١٨٠٠م جريدة «التنبيه» وأصدرت البعثة العلمية الفرنسية سلسلة تاريخية قام بتحريرها إسماعيل الخشاب. فلما جاء محمد علي أصدر أول صحيفة عربية سنة ١٨٢٢م هي «جرنال الخديوي» بالعربية والتركية ثم أصدر جريدة «الوقائع المصرية» سنة ١٨٢٨م، باللغتين العربية والتركية ثم اقتصرت على اللغة العربية. وقد تداول رئاسة تحريرها بعض كبار الأدباء منهم الطهطاوي وحسن العطار والشدياق ومحمد عبده [ر] وعبد الكريم سلمان. وتلتها «المبشر» التي أصدرها الفرنسيون في الجزائر عام ١٨٤٧م وكانت تصدر مرتين في الشهر، وكان حجمها كبيراً وعبارتها ضعيفة. ثم توقفت الصحافة في مصر وظهرت في سورية، أولاً على يد الإرساليين الأمريكيين إذ أصدروا نشرة دينية عام ١٨٥١م كانت تخرج مرة في السنة، ثم مرة كل أربعة أشهر، ثم احتجبت عام ١٨٥٥م، وفي هذه السنة أنشأ رزق الله حسون في اصطنبول «مرآة الأحوال» وهي أول جريدة عربية سياسية خاصة، لكنها لم تستمر بعد السنة إلا قليلاً، وأنشئت بعدها جريدة «السلطنة» في الآستانة لجورج شلهوب عام ١٨٥٧م، ثم «حديقة الأخبار» في بيروت عام ١٨٥٨م لخليل خوري، وظلت تصدر بعد وفاته حتى عام ١٩٠٩م. وقد ازدهرت الصحافة العربية بظهور «الجوائب» للشدياق في اصطنبول عام ١٨٦٠م واستمرت حتى عام ١٨٨٤م. وفي عام ١٨٦١م صدرت في تونس صحيفة «الرائد التونسي» وهي جريدة رسمية، ثم أنشأ المعلم بطرس البستاني [ر] «نفير سورية»، وابنه سليم «الجنة» ثم «الجنينة» عام ١٨٧١م. وفي عام ١٨٦٦م أنشأ عبد الله أبو السعود في القاهرة الصحيفة السياسية «وادي النيل». وفي بغداد أنشئت «الزّوراء» عام ١٨٦٨م، ثم ظهرت عام ١٨٧٠م في بيروت صحيفة «البشير» على أيدي الآباء اليسوعيين.

وقد ساعدت هجرة بعض السوريين إلى مصر على ازدهار الصحافة فظهرت بعض الجرائد منها «الكوكب الشرقي» لسليم حموي عام ١٨٧٣م، و«الأهرام» للأخوين سليم وبشارة تقلا [ر] عام ١٨٧٦م في الاسكندرية، ثم نقلت إلى القاهرة ولاتزال تصدر حتى اليوم، ثم «الوطن» لميخائيل عبد المسيح عام ١٨٧٧م، وفي السنة نفسها صدرت «لسان الحال» في سورية لخليل السكاكيني، وفي عام ١٨٨٠م صدرت «المصباح» لنقولا نقاش ثم عُطّلت عام ١٩٠٨م، و«المحروسة» لأديب إسحق [ر] وسليم النقاش [ر]، وفي عام ١٨٨٥م صدرت جريدة «الموصل» في العراق، وفي هذه السنة نفسها أصدرت جمعية الفنون الإسلامية في بيروت «ثمرات الفنون» برئاسة الحاج سعد الدين حمادة، وإدارة صاحب امتيازها عبد القادر القباني، وظلت تصدر حتى ١٩٠٨م، ثم «المقطم» عام ١٨٨٨م لفارس نمر [ر] ويعقوب صرّوف [ر] وفي هذه السنة صدرت كذلك «المؤيد» لعلي يوسف وأحمد ماضي، ثم «اللواء» عام ١٩٠٠ لمصطفى كامل [ر]، ثم توالت الجرائد بعد ذلك في شتى البلاد العربية.

أما في المهاجر الأمريكية فأول جريدتين عربيتين ظهرتا هناك هما «كوكب أميركا»

لنجيب عربيلي وأخيه عام ١٨٨٨م في نيويورك، ثم «الفيحاء» لسليم ودعيبس بالش عام ١٨٩٤م في سان باولو ـ البرازيل ـ وتوالت بعدهما جرائد كثيرة منها في أمريكة الشمالية «مرآة الغرب ـ المهاجر ـ الدليل السائح» ومنها في أمريكة الجنوبية «الميزان ـ الأصمعي ـ الزمان ـ الشرق ـ الإصلاح» وغيرها.

أما المجلات فأقدمها «اليعسوب» التي أصدرها محمد علي الحكيم وإبراهيم الدسوقي، في القاهرة عام ١٨٦٥م، وهي أول مجلة طبية، ثم «الجنان» لبطرس البستاني في بيروت ١٨٧٠م، وهي علمية أدبية سياسية كانت تصدر في الشهر مرتين، وفي السنة نفسها صدرت «النحلة» للويس الصابونجي في بيروت، وهي أدبية علمية انتقادية، ثم «روضة المدارس» في القاهرة أنشأها نخبة من العلماء والأدباء منهم عبد الله فكري [ر] وإسماعيل الفلكي وبدر الحكيم بإيحاء من علي مبارك وبإشراف الطهطاوي، وهي مجلة علمية تاريخية طبية، ثم أصدر يعقوب صروف وفارس نمر «المقتطف» في بيروت ١٨٧٦م ثم نقلت إلى القاهرة عام ١٨٨٦م. وهناك مجلات أخرى كثيرة أشهرها في مصر «الهلال» لجرجي زيدان [ر] وقد أنشئت عام ١٨٩٢م، وطبع في مؤسستها كتب كثيرة تاريخية وأدبية أشهرها روايات مؤسسها عن تاريخ الإسلام. وتلتها «التنكيت والتبكيت» و«الأستاذ» عام ١٨٩٢م وكلتاهما لعبد الله نديم[ر] وتوالى بعد ذلك ظهور مجلات كثيرة كمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢١م، ثم «الأديب والكاتب والثقافة والآداب» وغيرها، وبعضها خاص بالمرأة مثل «العروس» لماري عجمي[ر] وقد ظهرت عام ١٩١٠م، و«المرأة» لنديمة المنقاري في سورية عام ١٩٣٤م وغيرها كثير.

وفي المهجرين الشمالي والجنوبي صدرت مجلات كثيرة أشهرها في نيويورك «الفنون» لنسيب عريضة عام ١٩١٣م و«السمير» لإيليا أبي ماضي عام ١٩٢٩م. وفي سان باولو ـ البرازيل ـ صدرت عام ١٩٣٠م «الأندلس الجديدة» لشكر الله الجر، ثم «العصبة» لجمعية العصبة الأندلسية عام ١٩٣٥م.

ومن الملاحظ أن الصحف العربية كانت في أوائلها ركيكة العبارة، يطغى على أسلوبها المحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق، ثم لان أسلوبها، وابتعد كتّابها عن الزخرف والحشو، وتوخوا تأدية المعاني بدقة وبساطة ووضوح فأضحت لغتهم وسطاً بين الفصحى والعامية.

المدارس والجامعات: سبق تأسيس المدارس والجامعات في مصر وبلاد الشام نظيره في الأقطار العربية الأخرى. وكان التعليم في مصر قبل محمد علي باشا مقصوراً على الكتاتيب وعلى الجامع الأزهر الذي أصبح في عام ١٩٣٦ جامعة تضم كليتي «الشريعة وأصول الدين» و«اللغة العربية». وبعد عام ١٩٦١ أضيفت إليه كليات العلوم الحديثة المتنوعة. ومن الأزهر اختيرت أولى البعثات إلى فرنسة أيام محمد علي، وفي عهده أنشئت المدرسة الحربية ومدرسة الطب. وفي عهد الخديوي إسماعيل أنشئت مدارس الحقوق والمعلمين والعلوم والفنون والصناعات ودار العلوم العالية. وهكذا تدرج التعليم من الابتدائي إلى الثانوي، ولا سيما بعد عودة رجال البعثة الأولى من فرنسة، ثم عني المسؤولون بالتعليم العالي فأنشئت «الجامعة المصرية» في القاهرة عام ١٩٠٨، وتوالى بعد ذلك إنشاء الجامعات الأخرى في القاهرة والاسكندرية وأسيوط وغيرها.

أما في بلاد الشام فكانت مدارس البعثات الدينية أسبق من غيرها، ثم كثرت المدارس وتنوعت بين أهلية وأجنبية، فكان منها في لبنان مدرسة «عينطورة» التي أسسها الآباء العازاريون سنة ١٨٣٤، ومدرسة «عبيّة» العالية التي أسست عام ١٨٤٧ وأدارها المستعرب الأمريكي كرنيليوس فان دايك Cornelius Van Dyk ومدرسة «غزير» التي أنشأها اليسوعيون في العام ذاته. وفي عام ١٨٦٠ أنشئت «المدرسة الإنكليزية» وهي أول مدرسة للبنات، ثم «الكلية الإنجيلية الأمريكانية» للبنات عام ١٨٦١. وتوالت بعد ذلك مدارس البنات للراهبات العازاريات وراهبات المحبة و«زهرة الإحسان» للروم الأرثوذكس .. وسواها.

أما أولى المدارس الوطنية الخاصة فقد أنشأها المعلم بطرس البستاني عام ١٨٦٣ تحت اسم «المدرسة الوطنية» كما أنشأ المطران يوسف الدبس «مدرسة الحكمة» عام ١٨٦٥.

وفي عام ١٨٦٦ أنشأت الإرسالية الأمريكية في بيروت كلية تخرج فيها طائفة من العلماء والمتعلمين ثم أصبحت هي ذاتها «الجامعة الأمريكية» الحالية. وكانت تدرّس أولاً باللغة العربية ثم عدلت عنها إلى الإنكليزية.

وفي عام ١٨٧٤ نقل اليسوعيون مدرستهم من غزير إلى بيروت وأصبحت «الكلية اليسوعية» وكانت هي أيضاً تدرس بالعربية ثم عدلت عنها إلى الفرنسية.

وفي سورية كان التعليم أول الأمر دينياً يتم في الزوايا والمساجد، وكان الجامع الأموي أكبر المدارس الإسلامية وأقدمها. ومنذ أواخر القرن التاسع عشر أخذت المدارس الابتدائية تنتشر في دمشق وحمص وحماه وحلب وسواها. ثم أنشئت في عام ١٩٠١ مدرسة للحقوق أضحت فيما بعد «كلية الحقوق»، وأنشىء «المعهد الطبي العربي» فكان منهما نواة الجامعة السورية بعد الحرب العالمية الأولى (جامعة دمشق اليوم).

الجمعيات الأدبية: أسست في العصر الحديث جمعيات كثيرة كان لها دور بارز في إذكاء روح النهضة. ومن هذه الجمعيات ما هو أدبي، وما هو علمي، وما هو سياسي. والمعول عليه هنا الأدبية، وإن أسهمت الجمعيات الأخرى إسهاماً غير مباشر في النهضة الأدبية.

وسبقت بلاد الشام مصر وغيرها في هذا المضمار، إذ تأسست «الجمعية السورية» في بيروت عام ١٨٤٧ على يد الإرساليين الأمريكيين، وكان هدفها نشر العلوم وترقية الآداب والفنون. وقد أربى أعضاؤها على الخمسين منهم بطرس البستاني وناصيف اليازجي، وقد زودت هذه الجمعية بمكتبة. ثم تأسست «الجمعية العلمية السورية» في بيروت وبلغ عدد أعضائها مئة وخمسين من مختلف مدن الشام إضافة إلى بعض المصريين، وظلت هذه الجمعية تعمل حتى عام ١٨٦٨. ثم أنشئت في بيروت «جمعية زهرة الآداب» عام ١٨٧٣ وكان من أعضائها نفر من الأعلام بينهم: سليمان البستاني، وأديب إسحاق، ويعقوب صروف، وفارس نمر، وإبراهيم اليازجي. وكان هدفها التمرس بالخطابة والبحث وكتابة الروايات والمسرحيات التي كان يمثلها الأعضاء أنفسهم. وقد توقفت في عهد السلطان عبد الحميد. ويضاف إلى هذه الجمعيات أندية وجمعيات أخرى تأسست في أشهر حواضر بلاد الشام. أما في الآستانة ـ عاصمة السلطنة ـ فقد تأسس «المنتدى الأدبي» الذي اتخذ أعضاؤه

من النشاط الأدبي واجهة للعمل السياسي القومي العربي.

وأشهر الجمعيات في مصر «جمعية المعارف»، أنشأها محمد عارف عام ١٨٦٨ لنشر الثقافة وإحياء التراث. وقد نشرت كثيراً من كتب التاريخ والفقه والأدب وبلغ عدد أعضائها ستين وستمئة منهم: إبراهيم المويلحي والشدياق ومحمد شافعي ومصطفى رياض باشا وسواهم. وتلتها جمعيات ومنتديات كثيرة، منها «جمعية مصر الفتاة». وكان من أعضائها جمال الدين الأفغاني [ر] وأديب إسحاق وعبد الله النديم. وكان لتعلم المرأة أثر في ظهور بعض الجمعيات والنوادي النسائية التي عنيت بقضايا المرأة إضافة إلى اشتغالها بالنشاط الأدبي المرتبط بتلك القضايا.

وفي المهجرين الأمريكيين: الشمالي والجنوبي أنشأ المهاجرون العرب أعداداً من الجمعيات والنوادي الأدبية، أشهرها في المهجر الشمالي «الرابطة القلمية» التي تأسست في نيويورك عام ١٩٢٠، ورأسها جبران خليل جبران [ر] وكان ميخائيل نعيمة [ر] أميناً للسر فيها.

أما في المهجر الجنوبي فقد تأسست «العصبة الأندلسية» في البرازيل عام ١٩٣٣ ورأسها ميشال المعلوف أولاً ثم رشيد سليم الخوري الشاعر القروي ثم شفيق معلوف. ثم تأسست «الرابطة الأدبية» في الأرجنتين عام ١٩٤٩ برئاسة جورج صيدح، لكنها لم تعمر إلا عامين إذ حلت بعودة رئيسها إلى وطنه سورية.

المجامع اللغوية: ساعدت هذه المجامع على خدمة اللغة والأدب والتراث العربي مساعدة طيبة. وأقدمها هو «المجمع العلمي العربي» الذي تأسس في دمشق عام ١٩١٩ بجهود محمد كردعلي ورئاسته. وقد عني هذا المجمع بوضع المصطلحات العلمية الحديثة، وتصحيح الأخطاء اللغوية الشائعة، ونشر كتب التراث. وضم أعضاءً دائمين من سورية وأعضاء مراسلين من البلاد العربية الأخرى ومن المستعربين ومنذ عام ١٩٥٨ غدا اسمه «مجمع اللغة العربية».

وفي القاهرة تأسس «مجمع فؤاد الأول للغة العربية» عام ١٩٣٢، وصار اسمه فيما بعد «مجمع اللغة العربية» وبعد ذلك تأسست مجامع أخرى مشابهة في عددٍ من الأقطار العربية كالعراق والأردن والسودان والمغرب وسواها.

المكتبات: من المكتبات المهمة ما هو عام وما هو خاص. وأشهر هذه المكتبات وأقدمها «دار الكتب الخديوية» التي أنشأها علي مبارك في القاهرة عام ١٨٧٠، ثم «المكتبة الظاهرية» التي تأسست في دمشق عام ١٨٧٨ أيام حكم الوالي مدحت باشا وأشرف على جمع كتبها ومخطوطاتها النفيسة الشيخ طاهر الجزائري [ر]، ثم «المكتبة الأزهرية» التابعة للجامع الأزهر في القاهرة، وقد تأسست عام ١٨٧٩ بعد أن ازدادت ثروة الجامع الأزهر من الكتب.

ومن أشهر المكتبات الخاصة «الخزانة التيمورية» لأحمد تيمور، و«الخزانة الزكية» لأحمد زكي. وتمتاز هذه الأخيرة من سواها باحتوائها الكتب الأجنبية التي ألفها المستشرقون بالفرنسية والإنكليزية والألمانية وغيرها من اللغات. وأخيراً هناك «المكتبة الآصفية» لمحمد آصف ابن أخت أحمد تيمور.

وفي بيروت تأسست «المكتبة الشرقية» للآباء اليسوعيين، ومكتبة «الجامعة الأمريكية». وفي العراق مكتبات «الكاظمية» و«كربلاء» و«النجف» و«الحلة» و«الساوة» و«بغداد». وفي المدينة المنورة مكتبة «عارف حكمت». وفي تونس «المكتبة الصادقية» وفي الجزائر «مكتبة الجزائر الأهلية» وفي الرباط «الخزانة العامة». وفي عام ١٩٧٨ أُنشئت مكتبة الأسد الوطنية في دمشق لتصبح أحدث وأهم مكتبة في الوطن العربي بما تحويه من نفائس الكتب، وما تستخدمه من تقنيات حديثة في الأرشفة والحفظ والإعارة. كما تهتم بجمع كل ما يصدر من النتاج الأدبي والفكري العربي وما يتعلق بالثقافة العربية على وجه الإجمال.

المسرح والتمثيل: تعد المسارح والتمثيل من العوامل المهمة المساعدة في تنشيط الأدب ونهضته. وقد عرف العرب منذ قرون كثيرة فن «خيال الظل». لكن الباحثين يجمعون على أن المسرح العربي بمعناه الفني قد ولد في لبنان في منتصف القرن التاسع عشر حين نقل مارون النقاش [ر] مسرحية «البخيل» لموليير إلى العربية ومثّلها في بيته عام ١٨٤٨ بعد أن كان قد اطلع على المسرح والتمثيل في أوربة. ثم أخذ بعدها بتأليف المسرحيات وتمثيلها، وقد جمعت مسرحياته في كتاب «أرزة لبنان»، وكانت لغته فيها أقرب إلى العامية.

وقد نظم خليل اليازجي [ر] مسرحية «المروءة والوفاء» ومثلت عام ١٨٧٨.

أما في سورية فقد تأثر أحمد أبو خليل القباني [ر] بمارون النقاش فألف ومثّل أكثر من ستين مسرحية استوحاها من التاريخ العربي الإسلامي وقصص ألف ليلة وليلة، وأدخل فيها الشعر والموسيقى ولاسيما الموشح ورقص السماح. ومن تلك المسرحيات «هارون الرشيد» و«أنيس الجليس» و«ناكر الجميل» و«مجنون ليلى» و«الأمير علي». وانتقل إلى مصر ومعه جَوقة من الممثلين والمنشدين، فلقي ترحيباً هناك وعلت شهرته وكثر الآخذون عنه. واقتبس قصصاً عن الأدب الغربي .. وكان أسلوبه في أعماله مسجّعاً وأقرب إلى الفصحى.

وألف سليمان النقاش - ابن أخي مارون - فرقة تمثيلية هو الآخر وانتقل بها إلى الاسكندرية عام ١٨٧٦ وترجم «أوبرا عايدة» واقتبس من بعض مسرحيات كورني وراسين، واشترك مع أديب إسحاق في تأليف المسرحيات التي شاركهما يوسف الخياط في تمثيل بعضها. ثم انتقل الخياط إلى القاهرة فمثل على مسرح دار الأوبرا مسرحية «الظلوم» التي حضرها الخديوي إسماعيل فأغضبته ظناً منه أن صاحبها يعرض به، فأمر بإخراجه من مصر.

وكان المسرح قد بدأ في مصر عام ١٨٦٩ على يدي يعقوب صنوع المعروف بأبي نظارة. وقد مثل اثنتين وثلاثين مسرحية من اقتباسه أو تأليفه عالج فيها بعض المشكلات الاجتماعية بأسلوب انتقادي تقرب لغته من العامية، منها تمثيلية «الوطن والحرية» التي أثارت غضب الخديوي إسماعيل فأمر بإغلاق مسرحه عام ١٨٧١، وأُلفت فرقة سليمان قرداحي ومعه سلامة حجازي [ر] عام ١٨٨٢. وقد عمل حجازي مع أبي خليل القباني عند انتقاله إلى القاهرة عام ١٨٨٤ كما عمل معه اسكندر فرح. وعلى أيدي هؤلاء ازدهر التمثيل الذي يجمع بين الجد والهزل والشعر والغناء وظل مسرحهم يعمل حتى عام ١٩٠٠.

ثم ألف جورج أبيض فرقته بعد أن عاد متخصصاً بهذا الفن من باريس عام ١٩١٠ فمثل مسرحية فرح أنطون «مصر الجديدة ومصر القديمة» التي كانت نقلة واسعة للمسرح باتجاه «المسرح الاجتماعي». وقد اتسم مسرح جورج أبيض بالجدية المأسوية واستمر حتى

الحرب العالمية الأولى. وتابع المسرح في مصر تقدمه على يد يوسف وهبي[ر] الذي افتتح عام ١٩٢٣ «مسرح رمسيس» ومثلت فرقته ما يقارب مئتي مسرحية كان بعضها مترجماً وبعضها الآخر من تأليفه أو تأليف غيره.

ومن الملاحظ أن التمثيليات العربية آنذاك - معربة أو مؤلفة - كانت إما مأساة tragédie وإما ملهاة comédie، أما التمثيليات الهزلية الضاحكة farce فقد عرفت تقدماً واضحاً مع نجيب الريحاني [ر] الذي تقمص شخصية «كشكش بك عمدة كفر البلاص» الذي يهرب من زوجه ويركض وراء النساء. وقد تعاون الريحاني مع بديع خيري في تأليف مسرحيات هزلية شعبية، أو ترجمتها، كما تعاون معه في تمثيلها وإخراجها. وقد أربت تلك المسرحيات على الأربعين وكانت ذات طابع تهكمي ساخر.

وأنشأ علي الكسار المعروف باسم «بربري مصر» مسرحاً هزلياً إلى جانب مسرح الريحاني، وانضم إلى فرقته الممثل إسماعيل ياسين الذي استمر بعد أن أخفق الكسار وأغلق مسرحه. وجاء بعده ممثلون هزليون آخرون، لكن عددهم ظل - ولايزال - أقل بكثير من أعداد الممثلين الجادين.

أما المسرح الغنائي فقد بدأه الشيخ سلامة حجازي، وجاء بعده سيد درويش [ر] فطور هذا المسرح ولحن له وشارك في تمثيليات عدة منها «فيروز شاه» و«العشَرَة الطيبة» و«شهرزاد» و«الباروكة». ثم توقف المسرح الغنائي مدة طويلة حتى ظهرت في بيروت «الفرقة الشعبية اللبنانية» التي أسسها وألف لها عاصي ومنصور الرحباني مشتركين مع عدد من كبار الفنانين ومؤلفي الزجل وعلى رأسهم فيلمون وهبي. وقد قدمت الفرقة مغنّيات مسرحيات غنائية كثيرة أشهرها ما أخذت أدوار البطولة فيه المطربة الكبيرة فيروز (نهاد حداد) مثل: مسرحية «الشخص» و«فخر الدين» و«المحطة» و«بياع الخواتم». وهذه المسرحيات الغنائية - مع أنها تستخدم العامية لغة لها - ترقى إلى مصاف أرقى مائنتجه المسرح العربي من حيث المشكلات المطروحة فيها وأساليب المعالجة وجمال الأداء وتفوق الموسيقى. ويمكن عدّ مسرح الرحابنة امتداداً متطوراً لمسرح سيد درويش.

النثر

فنون النثر وتطوره في القرن العشرين

بعد الذي تقدم ذكره، يمكن القول: إن القرن التاسع عشر لم يكن إلا مرحلة الإرهاص بالتطورات الحقيقية الكبيرة التي سيشهدها الأدب العربي في القرن العشرين، ولم يتجاوز ما تم إنجازه فيه حدود «تمهيد الأرض» لزروع التجديد التي ستؤتي أكلها ناضجة - أو شبه ناضجة - في القرن العشرين لسائر أنواع الأدب أو أجناسه حسبما هو معروف في الآداب العالمية.

ومن حيثُ الأسلوب كان النثر في القرن التاسع عشر مثقلاً بالمحسنات البديعية وبالسجع، بل إن محاولات لإحياء فن المقامة قد جرت على يد الشيخ ناصيف اليازجي. ومن جهة المضمون كان النثر يعنى بالقضايا الاجتماعية والسياسية ولكن بطرائق الوعظ الأخلاقي وبالنقد التهكمي الساخر الذي يتناول المظاهر أكثر مما يتناول الجواهر، ويرى الباحث في أدب العرب في القرن العشرين أن ذلك كله قد تم تجاوزه. فالاتصال بالغرب حرض على إدخال التطوير على الأنواع الأدبية القديمة، كما حرض على ظهور فنون نثرية جديدة بقوالب تعبيرية جديدة.

وفي ما يلي عرض موجز لأهم هذه الفنون والتطورات الحاصلة عليها:

المقالة: من المعلوم أن المقالة نشأت في أحضان الصحافة. ولعل أول من استعمل مصطلح «مقالة» هو أحمد فارس الشدياق حين كتب في مجلة الجوائب «مقالة في أصل النيل». وكانت الصحف عند نشأتها تعنى بالمقالة الافتتاحية وتنشرها في صدر صفحتها الأولى، وتعالج فيها موضوعاً رئيساً، غالباً ما يكون سياسياً. ووسع ظهور المجلات من ميادين المقالة وأثر في تطورها وتنوع موضوعاتها التي تمس الحياة العامة، وصارت مقالات معظم الكتاب تجمع في كتب لحفظها من الضياع وتيسير سبل الاطلاع عليها من قبل الأجيال اللاحقة.

وقد درج النقاد على تقسيم المقالة بحسب مضامينها إلى عدة أنواع: سياسية واجتماعية وأدبية. ثم توسعت هذه المضامين تبعاً لاتساع فروع المعرفة فأضيفت إليها المقالات: الفكرية والفلسفية والإنسانية والنفسية والدينية والنقدية.

ومن جهة أخرى قسمت المقالات إلى نوعين: المقالة الذاتية، والمقالة الموضوعية.

فالمقالة الذاتية يعالج فيها الكاتب موضوعاً محدداً يعكس انطباعه عنه، إذ تتحكم في الكتابة هنا عواطف الكاتب وانفعالاته الذاتية ويغلب تصوير وجهة نظره الشخصية بأسلوب عفوي. ومن الطبيعي أن تتفاوت المقالات هنا بتفاوت موضوعاتها، واختلاف شخصية كل كاتب، من حيث وضوح الأداء وعمقه وجماله.

أما المقالة الموضوعية فتختلف في أن الكاتب يعالج فيها موضوعاً يرجع فيه إلى المنطق والعقل ومنهجية الأداء، فيكون للمقالة مقدمة ثم عرض فمناقشة فاستنتاجات ثم خاتمة. ويدور الموضوع حول قضية علمية أو فلسفية أو اجتماعية أو سياسية أو نقدية.

ومن أبرز من كتب المقالة الذاتية بعواطف رقيقة، وسعة خيال، وتصوير فني شفيف، وجمل موسيقية قصيرة، مصطفى لطفي المنفلوطي في كتابيه «النظرات» و«العبرات»، وجبران خليل جبران في كتبه «دمعة وابتسامة» و«العواصف» و«البدائع والطرائف» وماري مي زيادة في «سوانح فتاة» و«ظلمات وأشعة». وقد بدأ هذا اللون من المقالة الذاتية يتناقص بعد الخمسينات من القرن العشرين، وإن كان هذا لاينفي وجود كتّاب له في كثير من أقطار الوطن العربي.

وفي لون آخر من المقالة الذاتية اعتمد كثير من الكتاب أسلوباً فكاهياً يقوم على التصوير الساخر الذي يداخله القص وتميزه حيوية الأداء، وأبرز من كتب المقالة من هذا اللون في القرن التاسع عشر هو أحمد فارس الشدياق في كتابيه «الساق على الساق في ما هو الفارياق» و«كشف المخبا عن فنون أوربة». أما في القرن العشرين فأبرز هؤلاء الكتاب هو إبراهيم عبد القادر المازني في كتبه «قبض الريح» و«من النافذة» و«حصاد الهشيم»، ومع أن هذا الكتاب الأخير هو مجموع مقالات نقدية إلا أن السخرية التهكمية في نبرته واضحة كما أن ذاتية الكاتب هي إحدى سماته البارزة. وهذا مؤشر على التداخل ما بين نمطي المقالة: الذاتي والموضوعي.

وثمة لون ثالث يتميز بعمق الأفكار والتأنق في الألفاظ والتصوير البياني، والخيال الشاعري وأبرز كتابه في القرن العشرين مصطفى صادق

الرافعي في «وحي القلم» وفي «حديث القمر» إذ يجد القارئ هنا بعض الغموض والتعقيد في الصور وأسلوب الأداء.

ومع ازدهار الصحافة العربية وارتقاء التعليم وتطور الأدب في القرن العشرين تزايد كثيراً عدد الأدباء الذين يكتبون المقالة الذاتية التي تلامس قضايا موضوعية ومشكلات اجتماعية أوسياسية أو اقتصادية أو معاشية... حتى لا يكاد المرء يجد أديباً عربياً في سائر البلاد العربية لم يمارس كتابة هذا اللون من المقالات في صحيفة ما أو مجلة ما، وهو أمر يطول حصره واستقصاؤه.

ومن مشاهير كتاب المقالة الموضوعية ـ وهي لا تخلو بطبيعتها من ملامح ذاتية ـ أحمد أمين في كتابه «فيض الخاطر»، وطه حسين في كثير من كتبه منها «حديث الأربعاء» و«تجديد ذكرى أبي العلاء»، ومحمد كرد علي، ومحمد حسين هيكل، وميخائيل نعيمة في «البيادر» و«النور والديجور» و«الغربال»، وعباس محمود العقاد، والمازني في كتاب «الديوان»... وغيرهم كثير.

ومع التطورات المعقدة في الحياة والأدب العربيين بعد الخمسينات على وجه التخصيص كثر عدد كتاب المقالة الموضوعية إذ تقوم حياة الصحف والمجلات بأنواعها عموماً على هذا اللون من المقالة التي يشارك في كتابتها الصحفيون والأدباء على حد سواء. وقد نشطت المحاضرات وبرامج الإذاعات والتلفزة المعنية بالأدب، وهذه كلها في الأصل مقالات مطورة لتلائم هذه الصيغة أو تلك من وسائل إيصال الأدب إلى الجمهور. وربما أمكن أيضاً إدخال الندوات في هذا الباب.

ولايزال الكتاب المعاصرون يجمعون مقالاتهم في كتب جرياً على ما كان قد سبقهم إليه جيل الرواد في القرنين التاسع عشر والعشرين ممن سبق ذكر أسماء مشاهيرهم. وإذا كان المقام هنا لا يتسع لذكر الأعداد الجمة من الأدباء الذين يكتبون المقالة الموضوعية اليوم في مختلف البلاد العربية إذ توجد مئات من الأسماء، فإنه مما يجدر ذكره أن المقالات قد يطول بعضها وتتسع أفكاره ولاسيما في المجلات المتخصصة فتصبح المقالة أقرب إلى البحث الأدبي القصير الذي يتضمن أجزاء كثيرة، كل جزء منها يعالج جانباً من ذلك البحث أو فكرة من أفكاره.

الخطابة: اتسع مجال الخطابة في العصر الحديث وتنوعت موضوعاتها وأساليبها إثر قيام الحركات الوطنية وتأسيس الجمعيات والنوادي الأدبية والمنابر الأخرى. وممن برزوا في هذا المجال في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عبد الله النديم وأديب إسحاق ومصطفى كامل وأمين الريحاني ومي زيادة. ثم ازداد انتشارها في المناسبات القومية والحزبية والسياسية، والمؤتمرات المحلية والدولية. وقد أعان على انتشارها المذياع والتلفاز.

وفضلاً عن الخطب الدينية في الجمع والأعياد، هناك من أشكال الخطبة: المحاضرة التي سبق ذكر أنها تقارب المقالة، فهي في واقع الأمر تجمع بين شكلي هذين الفنين من فنون النثر. وهناك خطب المناسبات المختلفة والأحاديث الإذاعية والمتلفزة، كما أن للندوات مدخلاً في هذا الباب.

والخطابة بمدلولها الأصلي أصبحت في هذه الأيام مقصورة على السياسة إذ يوجه السياسيون خطبهم إلى الشعب في كل قطر في مناسبات معينة ويتم نقلها للناس الذين لم يحضروا وقائع المناسبة عبر الأجهزة المسموعة والمرئية. ويكاد الجانب الأدبي يختفي من هذه الخطب إذ ينصب همّ الخطيب الذي غالباً ما يكون رجل دولة على شرح الأوضاع السياسية المحلية والعربية والدولية للناس في المجتمع المحلي وفي مختلف الأقطار العربية الأخرى.

وقد برز في العصر الحديث طائفة من الخطباء المفوهين جلهم من الزعماء السياسيين والقادة منهم عبد الرحمن الشهبندر والرئيس جمال عبد الناصر والرئيس حافظ الأسد.

القصة والرواية: عرفت القصة على نحو ما في الأدب العربي القديم على غرار ما عرفته مختلف الشعوب من حكاية وخرافة وأسطورة. وفي القرآن الكريم قصص كثيرة عن الأنبياء والمرسلين والأقوام البائدة. وأولى بوادر القص النثري الفني كانت في ما نقله إلى العربية وأضافه ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) في كتاب «كليلة ودمنة» ثم جاء الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) فألف كتاب «البخلاء» في شكل نوادر فكهة عن البخل وأصحابه من أهل مرو خصوصاً. وابتكر بديع الزمان الهمذاني (ت ٣٩٨هـ) شكلاً من أشكال القصة القصيرة سماه المقامات، وبطل مجموعة المقامات واحد، ثم تابعه الحريري (٥١٦هـ) وآخرون لم يحظوا بشهرة الهمذاني والحريري.

وتكاد السير الشعبية أن تكون خليطاً من الروايات والملاحم التي تداخلها الخرافة كما يداخلها الشعر الذي يفتقر إلى الفنية الجيدة.

على أن أهم كتاب عربي قديم في هذا الباب هو «ألف ليلة وليلة» وهو مجموع من التراث ذي القَصّ (الحكائي) للشعوب غير العربية ممن دخل منهم في الإسلام أو احتك المسلمون بهم كالهنود، وقد عرب هذا المجموع وأضيفت إليه حكايات جديدة حتى صار نسيجه العام عربياً إسلامياً خالصاً. وترك هذا الكتاب أثراً قوياً في الآداب الأوربية حتى إن رجلاً كفولتير يصرح بأنه لم يكتب القصة إلا بعد أن قرأ «ألف ليلة وليلة» أربع عشرة مرة.

على أن القصة بمفهومها الفني الحديث إنما ظهرت في الأدب العربي في القرن التاسع عشر، وبعد الاطلاع على الآداب الغربية.

وقد ابتدأ الكتاب العرب بترجمة القصص القصيرة عن تلك الآداب ونشرها في المجلات كالجنان والضياء والمقتطف والهلال، وكان المترجمون يتصرفون بالقصة لتتلاءم مع العقلية العربية. وهذا أيضاً ما فعله المنفلوطي في ترجمته لرواية «ماجدولين» للكاتب الفرنسي ألفونس كار A.Karr ، وحافظ إبراهيم [ر] في «البؤساء» لفيكتور هوغو V.Hugo. وقد قام نفر من الكتاب في مصر وبلاد الشام بتأليف الرواية في القرن التاسع عشر إلى مطالع القرن العشرين مثل ناصيف اليازجي وسليم البستاني وفرح أنطون وجرجي زيدان ومحمد المويلحي. وإذا أفردنا من هؤلاء جرجي زيدان الذي كتب مجموعة كبيرة من الروايات عن تاريخ الإسلام فإن محاولات الآخرين كانت غير مكتملة فنياً وتميل إلى الوعظ والتعليم الأخلاقي كما تأثرت بأساليب الحكاية والمحسنات البديعية في المقامات. ويجمع مؤرخو الأدب العربي على أن أولى الروايات المكتملة فنياً كتبها محمد حسين هيكل تحت عنوان «زينب» وكان ذلك نحو عام ١٩٢٠.

وإذا كان الغربيون يقسمون فن القص عندهم إلى الأقصوصة le conte والقصة la nouvelle والرواية le roman فإن فن القص العربي الحديث يمكن تقسيمه إلى «قصة قصيرة» و«رواية».

وتعتمد القصة القصيرة على التقاط الكاتب للحظة من الحياة يعنى فيها بتحليل الحدث أو الشخصية أو البيئة أو مجموع هذه العناصر معاً ليصل إلى هدف دلالي أعلى، ويكون أسلوبه في ذلك على نحو مركز ودقيق. أما الرواية - وهي هنا تضم القصة الطويلة إليها - فتهتم بإقامة بنيان فني واسع تشغل حيزاً واسعاً من الزمان والمكان وتدور حول شخصية واحدة أو شخصيات كثيرة وتتشابك فيها الأحداث وعلاقات الشخصيات بعضها ببعض من جهة، وبعضها أو كلها مع معطيات الزمان والمكان أي البيئة الفنية من جهة أخرى. والكاتب هنا يتعمق في تحليل ما يدور في نفوس أبطال روايته وفي ربط الأحداث بتواريخ أو توقعات مستقبلية بوساطة تقنيات تختلف باختلاف كل كاتب عن الآخر وكل رواية عن الأخرى، ولهدف تقديم روايات متراكبة المستويات للبشر والحياة والعالم عبر سياق تخييلي ينطوي على جملة من الإيحاءات الدلالية.

ويمكن القول إنه منذ عشرينات القرن العشرين بدأ الازدهار في القصة والرواية العربيتين.

ففي مصر اشتهر من كتاب القصة القصيرة الأخوان محمود ومحمد تيمور، ويحيى حقي، ثم أمين يوسف غراب، ويوسف الشاروني، وكثير غيرهم. على أن أكثر كتاب القصة القصيرة شهرة في مصر - وربما في مختلف البلدان العربية - هو يوسف إدريس.

ومن سورية برز عبد السلام العجيلي وزكريا تامر وخليل الهنداوي وجورج سالم وحيدر حيدر ووليد إخلاصي وغادة السمان وغيرهم كثير ممن كتبوا في السبعينيات وما بعدها من هذا القرن. وتشهد القصة اليوم في سورية ومصر ازدهاراً ملحوظاً كما تشهد مثل ذلك الازدهار في كثير من الأقطار العربية.

ومن لبنان اشتهر كتاب القصة القصيرة توفيق يوسف عواد الذي يعدّ رائداً لهذا الفن في كل بلاد الشام كما كتب القصة سهيل إدريس وزوجه عائدة مطرجي إدريس وكتبها كذلك كرم ملحم كرم ومارون عبود وسواهم.

وفي الأردن كان أول من كتب القصة القصيرة محمد صبحي أبو غنيمة في مجموعته «أغاني الليل» وهي مجموعة قصص اجتماعية ذات طابع وعظي أخلاقي تضم أيضاً خواطر متقدمة عن فن الأدب قياساً إلى ما كان قد تم إنجازه أدبياً في الإمارة الأردنية آنذاك. ويُعدّ عيسى الناعوري أكثر كتاب القصة شهرة في الأردن. على أنه قد سبقته أسماء معروفة في كتابة هذا الفن أبرزهم سيف الدين الإيراني وأمين فارس ملحس ومحمد أديب العامري. كما أن أسماء جديدة مهمة قد جاءت بعده ومن أهم هؤلاء فخري قعوار ومحمود الريماوي وبدر عبد الحق.

وظهرت القصة الحديثة في ليبية على يد خالد زغبية في مجموعته «السور الكبير» عام ١٩٦٤ وهناك أسماء أخرى مثل كامل حسن المقهور ومصطفى المصراني وزعيمة الباروني.

وفي تونس أسماء غير قليلة في إطار حركة ثقافية ناشطة. ومن هذه الأسماء التي تكتب القصة القصيرة الميداني بن صلاح وحسن نصر ومحمد صالح الجابري وسمير العيادي وغيرهم.

أما الجزائر فقد ازدهر فيها ماسمي أدب المعركة قبل الاستقلال. وكانت مجموعة مالك حداد «البؤس في خطر» عام ١٩٥٦ هي أولى المجموعات القصصية المعبرة عن ذلك الأدب. وهناك أسماء أخرى في تلك المرحلة كتبت القصة القصيرة مثل مفدي زكريا وجان سيناك وحسين بوزاهر وجمال عمراني. وبعد الاستقلال شهد فن القصة القصيرة ازدهاراً واسعاً وبرزت أسماء كثيرة مثل رضا حوحو وعبد المجيد شافعي وأحمد عاشور وزهرة وينّسي.. وهؤلاء كتبوا بالعربية خلافاً لسابقيهم ممن كتبوا بالفرنسية قصص مرحلة «أدب المعركة» وثمة أسماء جديدة كثيرة تشير إلى الاهتمام الواسع للأجيال الجديدة من كتّاب الجزائر بفن القصة القصيرة.

وفي المغرب، كما في الجزائر وتونس، كتب الأدباء القصة القصيرة بالفرنسية أولاً ثم بالعربية.

ويرى بعض الباحثين أن هذا النوع من الأدب يتبع الأمة التي كتب بلغتها بصرف النظر عن الجنس.

وشهدت القصة في السودان ولادتها على يد عثمان النور، وقدم جمال عبد المالك مجموعته «الحصان الأسود»، ويوسف العطا مجموعته «نزرع النخيل». وكتب الروائي السوداني المعروف الطيب صالح عدداً من القصص القصيرة جداً ثم توقف عن ذلك.

وفي شبه الجزيرة العربية بدأ فن القصة الناضج على يدي أحمد السباعي (١٩٠٥ - ١٩٨٣). وفي الربع الأخير من القرن العشرين شهدت كتابة القصة ازدهاراً جيداً ففي اليمن مهد محمد عبد المولى (١٩٤٠ - ١٩٧٣) للقصة الواقعية، ويصور زيد مطيع دماج (١٩٤٣-...) الزمان والمكان اليمنيين قبل الثورة وبعدها. أما القاص الكويتي إسماعيل فهد إسماعيل فيعتمد تكنيك القصة الحداثية ليصور وحدة الإنسان وسط عالم معاد أو لا مبال مستخدماً تيار الوعي أساساً مع لمحات وصفية سريعة أشبه بإشارات ضوئية. وبعد هؤلاء الرواد لفن القصة في شبه الجزيرة يأتي رعيل جديد يبرز من بينهم سليمان الشطي وليلى العثمان من الكويت، ومحمد عبد الملك، وأمين صالح من البحرين، ومحمد علوان وحسين علي حسين وسباعي عثمان من السعودية، وسعيد العولقي وميفع عبد الرحمن من اليمن، ومحمد المر من إمارة دبي وقد أصدر سبع مجموعات قصصية حتى اليوم بلغت أعداد قصصها زهاء المئة.

وفي العراق أسماء مهمة في هذا الفن مثل محمود السيد أحمد وعبد المجيد لطفي وأنور شاؤول وعبد الرحمن الربيعي... إضافة إلى أسماء كثيرة من الأجيال الجديدة.

وقد تناولت القصة في الوطن العربي مجموع المشكلات المحلية والشخصية والقومية بالمعالجة، وفق أساليب مختلفة، وبما ينسجم مع المعاناة التي يحسها الكاتب تبعاً لظروف هذا القطر أو ذاك، إذ تطرح المسائل والمشاكل الاجتماعية من منظوراتها المختلفة، وتعالج مطالب الحرية والديمقراطية، وقضايا تأثير الفواعل العالمية في الوضع الوطني الخاص والقومي العام وانعكاسات ذلك كله على شخصية الإنسان العربي من جوانبها المختلفة.

هذا في ما يخص القصة القصيرة. أما الرواية التي اكتملت فنياً على يد محمد حسين هيكل من مصر حسبما ذُكر قبلاً فإن أكثر كتابها شهرة هو نجيب محفوظ. وقد كتبها في مصر أيضاً كل من توفيق الحكيم «يوميات نائب في الأرياف» وطه حسين «دعاء الكروان» و«الأيام»، كما لمع من أسماء كتابها أيضاً كل من يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد الرحمن

الشرقاوي... ثم جمال الغيطاني ومحمد يوسف القعيد وأحمد محمد عطية وإدوار الخراط وغيرهم.

وفي لبنان كتب جبران خليل جبران رواية «الأجنحة المتكسرة» كما كتب ميخائيل نعيمة عدداً من الروايات التي يغلب عليها الطابع الفلسفي، وهذان كتبا أعمالهما الروائية في المهجر الشمالي. ومن مشاهير كتاب الرواية في لبنان كرم ملحم كرم وتوفيق يوسف عواد الذي كان أبرع كتابها وخصوصاً في روايته «طواحين بيروت» وكتبها أيضاً سهيل ادريس، ومارون عبود «فارس آغا»، كما كتب إلياس خوري «الجبل الصغير» وكتب إلياس الديري «عودة الذئب إلى العرتوق».

وفي سورية كان شكيب الجابري رائد كتابة الرواية المكتملة فنياً حين أصدر روايته «قوس قزح» في أربعينات القرن العشرين ومن أبرز الروائيين في سورية حنا مينه الذي كتب عدداً كبيراً من الروايات من أهمها «الياطر» و«بقايا صور» و«المستنقع» و«الشراع والعاصفة»... وكتبت وداد سكاكيني «المانوليا في دمشق»، كما كتب فارس زرزور روايات كثيرة بعضها أقرب إلى التوثيقي مثل «حسن جبل» و«آن له أن ينصاع». ومن كتاب الرواية الذين برزت أسماؤهم في سورية: صدقي إسماعيل في «العصاة» وغيرها، وأديب نحوي في «عرس فلسطيني» و«تاج اللؤلؤ» و«آخر من شبه لهم»... ووليد إخلاصي في عدد غير قليل من الروايات منها «باب الجمر» و«دار المتعه» و«ملحمة القتل الصغرى»... وألفة أدلبي وحيدر حيدر في «الزمن الموحش» و«وليمة لأعشاب البحر» وخيري الذهبي في «ملكوت البسطاء» و«ليال عربية» و«حسيبة» و«فياض»... وهاني الراهب في «ألف ليلة وليلتان» و«الوباء» و«بلد واحد هو العالم»... وأحمد يوسف داود في «الخيول» و«الأوباش» و«فردوس الجنون» وناديا خوست في «حب في بلاد الشام»، ونبيل سليمان في «ثلج الصيف» و«جرماتي» و«مدارات الشرق»... وعبد الكريم ناصيف في «الحلقة المفرغة» و«تشريقة آل المر» ... إضافة إلى أسماء كثيرة أخرى.

وفي العراق برزت أسماء مثل محمود السيد وأحمد عبد المجيد لطفي وعبد الرحمن الربيعي. واشتهر اسم فاضل العزاوي في «القلعة الخامسة» وسواها. ومن الأسماء الجديدة عادل عبد الجبار في «عرزال حمد السالم» وناجي التكريتي في «مزمار نوار» ... إضافة إلى أعداد من الكتاب الآخرين.

وأشهر كتاب الرواية في الأردن غالب هلسا الذي كتب «الخماسين» و«الضحك» و«سلطانة» وغيرها. وهناك أسماء جديدة معروفة مثل مؤنس الرزاز وسالم النحاس وجمال ناجي وسواهم. وأهم كتاب الرواية في فلسطين غسان كنفاني ومن أعماله «رجال تحت الشمس» و«عائد إلى حيفا»..ثم جبرا إبراهيم جبرا الذي كتب أعمالاً روائية عدة من أشهرها «صيادون في شارع ضيق» و«السفينة» و«البحث عن وليد مسعود»، ثم إميل حبيبي الذي كتب «الوقائع الغريبة في اختفاء أبي النحس المتشائل» و«لكع ابن لكع» وهي أهجية تجمع بين ملامح الرواية وملامح المسرحية.

وبرز من السودان اسم الطيب صالح قاصاً من الروائيين العرب المتميزين وله روايات عدة منها «موسم الهجرة إلى الشمال» وهي أشهرها، و«دومة ودحامد» و«بندر شاه ضو البيت» وسواها.

ومؤخراً نضج فن الرواية في ليبية على يد أحمد إبراهيم الفقيه الذي كتب ثلاثية نالت جائزة معرض الكتاب في بيروت عام ١٩٩٢.

أما في أقطار المغرب العربي فإن كتابة الرواية قد أجبرت - شأنها شأن القصة القصيرة - على أن يكون بعضها بالفرنسية وبعضها الآخر بالعربية بحكم ما فرضه المستعمر الفرنسي من ثنائية اللغة على تلك الأقطار. وهناك رواية ما قبل الاستقلال في هذه الأقطار وهي عموماً تفتقر إلى هذا القدر أو ذاك من النضج الفني، ورواية ما بعد الاستقلال التي تزدهر وتبلغ حداً جيداً من ذلك النضج.

ففي المغرب كتب عبد المجيد بن جلون الرواية منذ الحرب العالمية الثانية، وكذلك فعل عبد الكريم غلاب. وطبيعي أن ابتداء الرواية آنذاك كان يعكس صور الصراع من أجل الحرية والاستقلال. وفي الستينيات والسبعينيات يكثر كتاب الرواية المكتملة فنياً، والتي تتناول هموم الناس وقضاياهم الاجتماعية والمعاشية ومشاكلهم الإنسانية المختلفة. ومن ذلك أعمال مثل «أمطار الرحمة» لعبد الرحمن المريني، و«غداً تتبدل الأرض» لفاطمة الراوي، و«دفنا الماضي» لعبد الكريم غلاب، و«الطيبون» لربيع مبارك، و«الغربة» لعبد الله العروي، و«حاجز ثلج» لسعيد علوش، و«أرصفة وجدران» لمحمد زفزاف، و«زمن بين الولادة والحلم» لأحمد المديني، إلى غير ذلك من أسماء وأعمال. وفي الجزائر يبرز عدد من الكتاب الذين كتبوا الرواية بالعربية واهتموا بالقضايا المعاصرة والمشكلات والمصائب التي اعترضت المجتمع والإنسان العربي هناك بعد الاستقلال. ومن هؤلاء عبد الحميد بن هدوقة وواسيني الأعرج... لكن أكثر هذه الأسماء شهرة وعطاء روائياً هو الطاهر وطار الذي يعد واحداً من كبار كتاب الرواية الواقعية العربية، ومن أشهر أعماله «الحب والموت في الزمن الحراشي» و«عرس بغل» و«الحوات والقصر» و«تجربة في العشق».

أما في تونس فقد تزعم البشير خريف تيار الواقعية في الرواية، وتابعه محمد العروسي كما في روايته «النضوج المر» في حين زاوج رشيد حمزاوي بين الجمالي والاجتماعي في «مات بودوا» ورسم محمد صالح الجابري لوحات تاريخية لصراع الطبقات الاجتماعية في رواية «يوم في زمرا» ورواية «البحر يلفظ فضلاته».

أما الرواية المكتوبة بالفرنسية في أقطار المغرب العربي، فقد توازت مع تلك المكتوبة بالعربية تحت تأثير الشروط الخاصة بأوضاع تلك الأقطار. ولم تبرز هذه الرواية في المملكة المغربية والجزائر بروزاً حقيقياً من الوجهة الفنية إلا في سنوات الخمسينات من القرن العشرين.

والجدير بالملاحظة أن الرواية المكتوبة بالفرنسية في أقطار المغرب العربي ليست الفرنسية فيها سوى وعاء لمحتوى عربي السمات كلياً، مع ما هو معروف من أن اللغة هي «حامل ثقافي» أساسي. وربما مر وقت غير قصير قبل أن يتحرر الأدب في تلك الأقطار من الثنائية اللغوية بسبب ما سبق أن أشير إليه من شروط خاصة تتعلق بالاستعمار الطويل وآثاره في عرب تلك الأقطار.

أما في شبه الجزيرة العربية فإن الرواية لا تزال ضعيفة جداً هذا إذا استثني الكاتب عبد الرحمن منيف السعودي الذي لم يعش في السعودية بل تنقل بين الشام ومصر، وأصبح واحداً من مشاهير كتاب الرواية العربية. ومن أعماله «الأشجار واغتيال مرزوق» و«شرق

المتوسط» وخماسيته الكبيرة «مدن الملح» التي يؤرخ فيها ـ فنياً ـ لشبه الجزيرة في العصر الحديث.

وهناك كاتب جديد من البحرين هو عبد الله خليفة وقد أصدر عدة أعمال منها «امرأة» في أوائل التسعينات ورواياته ناضجة فنياً وشيقة ومعبرة عن واقع بيئته ومشكلاتها.

إن ماتقدم ذكره حتى الآن من روايات عربية قد اهتم بالرواية التي تتناول القضايا الاجتماعية والنفسية، والمشكلات الاقتصادية أو السياسية والمسائل العاطفية وغيرها مما يشغل عرب هذا القرن من مشاغل مختلفة. على أن هناك نمطاً من الرواية لم يُعرّض له هو «الرواية التاريخية» ومن أعلامها جرجي زيدان الذي كتب سلسلة كبيرة من الروايات عن تاريخ الإسلام ومن هذه الروايات: «فتاة غسان» و«أرمانوسة» و«عذراء قريش» و«شجرة الدر» وغيرها. ومنهم معروف الأرناؤوط الذي كتب في الاتجاه السابق ذكره، ومن رواياته «سيد قريش» و«فاطمة البتول» و«طارق بن زياد».. وهناك علي الطنطاوي في «قصص من التاريخ» وعبد الحميد جودة السحار في «بلال مؤذن الرسول» و«أميرة قرطبة» و«سعد بن أبي وقاص»، كما كتب محمد فريد أبو حديد روايات عن «عنترة» وغيره.

ولقد ركز بعض كتاب الرواية على تنسيق الأحداث وعرض جزئياتها وتنميتها وتعقيدها وإدخال عنصر التشويق فيها، كما ركز بعضهم على تصوير الشخصية المحلية أو الإنسانية ورسم أبعادها الجسمية والاجتماعية والنفسية. وتطورت كل من القصة والرواية في الأدب العربي الحديث من الإبداعية إلى الواقعية فالنفسية، ومن السرد إلى البناء الفني المتكامل . وبرزت في القص مشكلات اللغة في السرد والحوار، أتكون عامية أم فصحى؟.. على أن معظم القصص والروايات الناجحة تطورت لغتها ولانت فأضحى حوارها فصيحاً مبسطاً، يهتم الكاتب فيه بما يجب أن يؤديه من رسم الشخصية، وكشف أبعاد الصراع، وتطوير الأحداث وتصوير البيئة في آن واحد.

المسرحية: ارتقى الأدب المسرحي العربي منذ أوائل القرن العشرين ارتقاء نوعياً عما كان عليه في القرن التاسع عشر فقد مر بمرحلة الترجمة عن الأدب الغربي، ثم مرحلة كتابة الهواة الذين كانوا يمثلون ما يكتبونه في الوقت ذاته. وقد تم الارتقاء المذكور على أيدي كتاب كثيرين من مصر وبلاد الشام بصورة أساسية.

ويعد توفيق الحكيم أكثر المسرحيين العرب شهرة وغزارة وتنوع إنتاج. فقد فاق غيره في تقنيات هذا الفن ولاسيما الحوار. وتنوعت الاتجاهات لديه فكتب المسرح الاجتماعي كما في مجموعتيه «مسرح المجتمع» و«المسرح المنوع» كما كتب في المسرح الذهني مثل «أهل الكهف» و«شهرزاد» و«بغماليون» و«الملك أوديب» وكتب مسرح اللامعقول في مسرحية «ياطالع الشجرة» واستلهم بعضاً من التراث العربي مثل «هارون الرشيد» و«سليمان الحكيم» وجرب مزاوجة العامية بالفصحى كما في مسرحية «الصفقة».

ومن كتاب المسرح الأوائل في مصر محمود تيمور الذي استوحى بعض مسرحياته من التاريخ العربي مثل «صقر قريش» و«اليوم خمر»، واستوحى بعضها الآخر من المجتمع مثل «كذب في كذب» و«أبو شوشة». وامتاز علي أحمد باكثير [ر] بمسرحياته التاريخية كما في «أبو دلامة» و«سلامة القس» وكتب بعض المسرحيات عن مصر القديمة مثل «أوزوريس» كما كتب المسرحيات الفكاهية مثل «قطط وفئران».

ومن أعلام المسرح المصري في النصف الثاني من القرن العشرين سعد الدين وهبة ومن مسرحياته «بير السلم» وألفريد فرج ومن مسرحياته «علي جناح التبريزي وتابعه قفة» ومحمود دياب ويوسف إدريس وعلي سالم وآخرون.

وأشهر كتاب المسرح في سورية سعد الله ونوس [ر] ومن مسرحياته «حفلة سمر من أجل ٥حزيران» و«الفيل يا ملك الزمان» و«الملك هو الملك» و«سهرة مع أبي خليل القباني» وغيرها. ومن الكتاب المشهورين في المسرح السوري علي عقلة عرسان ومن أعماله «السجين رقم ٩٥» و«رضا قيصر». ومنهم مصطفى الحلاج، ومن أعماله «القتل والندم» و«الغضب»، وممدوح عدوان ومن أعماله «ليل العبيد» و«كيف تركت السيف»، وأحمد يوسف داود ومن أعماله «الخطا التي تنحدر» و«الغراب»، وفرحان بلبل ومن أعماله «الممثلون يتراشقون الحجارة» و«العشاق لا يفشلون»، ورياض عصمت ومن أعماله «لعبة الحب والثورة» و«الحداد يليق بأنتيغون». ومنهم الأب إلياس زحلاوي ومن أعماله «المدنية المصلوبة» و«الطريق إلى كوجو»، وعبد الفتاح قلعه جي وله «ثلاث صرخات» و«السيد» وغيرها.

وأشهر كتاب المسرح في العراق هو يوسف العاني ومن أعماله «أنا أمك يا شاكر» و«المفتاح والخزانة» ومنهم نور الدين فارس وعادل كاظم وآخرون.

ومن لبنان اشتهر ميخائيل نعيمة في كتابة المسرح بمسرحيته الوحيدة «الآباء والبنون» وقد كتبها في المهجر. ومن الأجيال الجديدة روجيه عساف وآخرون. وقد ازدهر المسرح الغنائي في لبنان على حساب الأدب المسرحي العادي وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. ومن كتاب المسرح في ليبية عبد الله القويري، ومن أعماله «الجانب الوضيء» و«الصوت والصدى»... ومنهم المهدي أبو قرين وله «ذريعة الشياطين» أما أكثرهم نشاطاً فهو عبد الكريم خليفة الدّنّاع وله «دوائر الرفض والسقوط» و«سعدون» و«المحنة» وغيرها.

ومن كتاب المسرحية في تونس: خليفة السطنبولي وقد كتب بعض أعماله بالفصحى وبعضها الآخر بالعامية، ومنها «المعز لدين الله الصنهاجي» و«سقوط غرناطة» و«أنا الجاني». ومنهم عز الدين المدني وله «ديوان الزنج» و«رحلة الحلاج» و«الغفران» وغيرها.

وفي الجزائر اشتهر كاتب ياسين وقد ألف بالفرنسية وبالعربية ومن أعماله «محمد يأخذ حقيبتك» و«حرب الألفي سنة». وكتب هنري كريا «الزلزال» كما كتب محمد بوضيا «ولادات». ومن الأسماء التي برزت بعد الاستقلال: ولد عبد الرحمن بن كاكي وعبد القادر علولة وسليمان بن عيسى وآخرون.

وفي المغرب برز اسم أحمد الطيب العلج. ومن أعماله «الوزير والفنان» و«بين نارين» وغيرهما. وهناك أسماء أخرى معروفة مثل عبد القادر البدوي، مصطفى القومي، وعبد الهادي بوزوبع، والطيب الصديقي، وعبد الكريم برشيد وغيرهم.

وفي شبه الجزيرة العربية تأصلت الحركة المسرحية في الكويت بفضل إنشاء معهد الفنون المسرحية الذي كان أول عميد له أحد رواد المسرح العربي وهو زكي طليمات. وقد وجد

المسرح في الكويت كاتباً موهوباً هو صقر الرشود ١٩٤٤-١٩٧٨ الذي استطاع على الرغم من رحيله المبكر، أن يترك للمسرح العربي تراثاً من الأعمال الجيدة مثل مسرحية «الطين» وسواها. وقد ترجمت المسرحية المذكورة إلى الإنكليزية ضمن مجموعة مختارة من أدب شبه الجزيرة العربية، صدرت عن مؤسسة بروتا برعاية جامعة الملك سعود. ومن الشارقة في الإمارات العربية المتحدة برز اسم عبد الرحمن المناعي الذي كتب مسرحية «هالشكل يا زعفران» و«مقامات ابن بحر» و«يا ليل يا ليل».

وفي كتابة المسرحية - كما في القصة والرواية - تبرز مشكلة ذات أهمية بالغة تتعلق بلغة الحوار: أتكون فصحى أم عامية؟ أم يجمع فيها بين الاثنتين؟!

لقد ربط بعض الكتاب والنقاد الحوار بالواقع وقالوا بوجوب أن يكون مشاكلاً له، مناسباً للشخصية التي تنطق به. لذلك حاول توفيق الحكيم - كما سبقت الإشارة - أن يزاوج بين الفصحى والعامية في مسرحية الصفقة مجرباً أن يصل إلى «لغة موحدة» تقرأ بالفصحى وبالعامية في آن واحد، لكن التجربة أخفقت إذ استحالت لغة تلك المسرحية عامية خالصة في أثناء التمثيل. وتردد محمود تيمور في مسرحياته بين استعمال الفصحى والعامية فكتب بعضاً بهذه وبعضاً بتلك، ثم عاد فنقل مسرحيته «أبو علي عامل ارتيست» من العامية إلى الفصحى وسماها «أبو علي الفنان». وجرب ميخائيل نعيمة أن ينطق شخصيات مسرحيته «الآباء والبنون»: المتعلمين بالفصحى، والأميين بالعامية فوقع في ازدواجية أنكرها هو ذاته إذ عاد فطبع مسرحيته كلها بالفصحى.

والواقع أن المشكلة ما تزال قائمة. فالمسرح التجاري في سورية يستعمل العامية المبتذلة، ومسرح ما بعد الحرب في لبنان يستعمل العامية على الرغم من أهمية الموضوعات المطروحة في كثير من الأعمال الجديدة. والمسرح الفكاهي في مصر يستخدم العامية المصرية كما في المسرحيتين المعروفتين «مدرسة المشاغبين» و«شاهد ما شافش حاجة». ولعل الحل يكمن في استخدام فصحى مبسطة يفهمها أبناء العروبة في مختلف أقطارهم لأن في ذلك حفاظاً على الروابط القومية وعلى اللغة العربية ذاتها.

السيرة: ظهرت السيرة la biographie بمفهومها الفني في الأدب العربي الحديث، سواء منها: الموضوعي سير الآخرين biographie أم السيرة الذاتية autobiographie. وتم ذلك بعد الاتصال بالأدب الغربي وإن كانت في الأدب العربي القديم مذكرات وسِيَراً غلب عليها الجانب التقريري مثل: «التعريف بابن خلدون» و«كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ، و«المنقذ من الضلال» للغزالي، و«سيرة صلاح الدين» لابن شداد وغيرها. والسير هي غير تراجم الشخصيات التي كثرت وتعددت بعد الحرب العالمية الأولى في الأدب العربي الحديث مثل «تراجم شخصيات شرقية وغربية» لمحمد حسين هيكل، و«في المرآة» لعبد العزيز البشري[ر]، و«سلسلة العبقريات» لعباس محمود العقاد، و« الجاحظ» لشفيق جبري، و«صقر الجزيرة» لعبد الغفور العطار وسواها الكثير، فهذه وسط بين السيرة وما عرف قديماً في كتب التراجم مثل معجم الأدباء لياقوت الحموي وغيره من الكتب المشابهة. وهي في أسلوبها دراسة للشخصيات وعرض لوقائع حياتها، لا تصوير فني للنزعات والخلجات التي تعتمل في نفوسها، وتمثُّلٌ لها وإعادة لعرضها مع تتبع نموها وتطورها وتكاملها.

وأول سيرة فنية موضوعية في الأدب العربي الحديث هي سيرة «جبران خليل جبران» وقد نشرت عام ١٩٣٤ وقص فيها ميخائيل نعيمة سيرة حياة صديقه في مراحل ثلاث: «الشفق - الغسق - الفجر» واستوفى تلك الحياة محللاً ناقداً ومراعياً تقنيات السيرة الفنية. وقد مضى على هذه السيرة زمن طويل من دون أن تكتب سيرة أخرى مماثلة لها. ولعل أقرب ما يكون إليها: «حياة الرافعي» لسعيد العريان، ثم «منصور الأندلس» لعلي أدهم.

وقد جرب العقاد أن يكتب سيرة ابن الرومي مستخدماً معطيات علم النفس والتحليل النفسي في ذلك.

أما ما يتصل بالسيرة الذاتية فمنها ما يقارب السيرة الفنية، وتجلى في تناول جوانب من حياة بعض الكتاب الذين تحدثوا عن تجاربهم في الحياة كما فعل أحمد فارس الشدياق في كتابه «الساق على الساق» وتوفيق الحكيم في «عصفور من الشرق» و«زهرة العمر»، وعباس العقاد في «سارة»، وإبراهيم عبد القادر المازني في «إبراهيم الكاتب». وامتازت هذه كلها بأسلوب القص. لكن بعض السير الأخرى كتبت بأسلوب تقريري فكانت أقرب إلى التراجم كما في «حياتي» لأحمد أمين، و«أنا» للعقاد.

وكُتب أيضاً ما يشبه السيرة الذاتية بقالب مذكرات أو يوميات، كما في مذكرات كل من محمد كرد علي، ومحمد حسين هيكل، وخليل السكاكيني، و«مذكرات سجين مكافح» لإبراهيم الكتاني المغربي.

ولعل «الأيام» لطه حسين التي صدرت في القاهرة منذ عام ١٩٢٧ هي أول سيرة ذاتية فنية، مع أنها يمكن أن تدرج في إطار الرواية. وقد قص الكاتب فيها - مستخدماً ضمير الغائب - نشأته في صعيد مصر وتدرجه في تحصيل العلم: من كُتّاب الريف إلى الأزهر فالجامعة في القاهرة. ثم تابع طه حسين قص المراحل التي تلت ذلك في باريس وبعد عودته منها في جملة مقالات نشرت من بعد في كتاب حمل اسم «مذكرات طه حسين».

ومن السير الذاتية التي قاربت أن تكون فنية «سبعون» لميخائيل نعيمة، وتقع في ثلاثة أجزاء قص فيها سيرته الذاتية في ثلاث مراحل ضمت: مرحلة الطفولة والصبا حتى نهاية دراسته في روسية - مرحلة الشباب والهجرة إلى أمريكة حتى عودته إلى لبنان - مرحلة الكهولة والشيخوخة بعد العودة حتى بلغ السبعين. ونعيمة، وإن أغفل كثيراً من وقائع حياته قبل السبعين، امتاز هنا بأسلوبه التصويري، وصدقه في التعبير. ومع هذا فقد جاءت سيرته فصولاً متتابعة تفتقر إلى الترابط في كثير من أجزائها، كما ينقصها بعض تقنيات السيرة الفنية المتوافرة في ما كتبه عن جبران.

النقد الأدبي: حاول بعض رجال الأدب منذ أواخر القرن التاسع عشر تجديد النقد الأدبي وتطبيق القواعد التي كانت سائدة في العصر العباسي على الشعر خاصة. وأول هؤلاء هو حسين المرصفي الذي ألف كتاب «الوسيلة الأدبية» - طبع الجزء الأول منه عام ١٢٨٩هـ والثاني عام ١٢٩٢هـ - وشرح فيه بعض النصوص الشعرية القديمة لطلابه شرحاً لغوياً واتخذ من النحو والبلاغة وسيلة لإيضاح الصور والإرشاد إلى أسرار بلاغة النص موازناً بينه وبين بعض قصائد البارودي التي عارض فيها الشعراء القدامى، معتمداً في ذلك كله على ذوقه الفني المرهف. وهكذا مهد السبيل لمن جاء بعده

لتجديد النقد.

وتلا كتاب المرصفي هذا كتابان نقديان الأول هو «علم الأدب عند الإفرنج والعرب» طبع عام ١٩٠٤ لمحمد روحي الخالدي، والثاني هو «منهل الورّاد في علم الانتقاد» لقسطاكي الحمصي وطبع عام ١٩٠٧. وكان لهذين الكتابين أثر مهم في التمهيد للحركة النقدية، وإن اقتصرا على إطلاع الأدباء العرب على بعض المذاهب والقضايا الأدبية الغربية.

ثم ظهرت كتب نقدية كان أسبقها كتاب «في الشعر الجاهلي» لطه حسين اعتمد فيه نظرية ديكارت Descartes «الشك حتى يتضح اليقين» فلقي معارضة شديدة اضطرته إلى حذف بعض فقراته وتعديله، وقد نشر تحت عنوان «في الأدب الجاهلي» عام ١٩٢٦. وقد شك طه حسين في ما روي عن الجاهليين وشعرهم. وبعد البحث والمناقشة توصل إلى نتيجة مفادها أن معظم الشعر الجاهلي منتحل وموضوع بعد الإسلام.

وقد رد عليه كثير من النقاد وخاصة مصطفى صادق الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن، أو المعركة بين القديم والجديد» ونشره عام ١٩٢٦. ومن كتب طه حسين النقدية «حديث الأربعاء» و«من حديث الشعروالنثر» و«فصول في الأدب والنقد» وغيرها.

وقد نشرت إلى جانب ذلك كتب ومقالات مترجمة عن النقد الغربي وقواعده وأصوله ومذاهبه، ومن أبرزها ما كتبه نجيب الحداد وغيره في الموازنة بين الشعر الغربي والشعر العربي في اللفظ والقافية والمعنى، وكان هذا كله دافعاً لبعض الشعراء للخروج على تقاليد الشعر القديم. وكذلك نشرت مقالات وكتب كثيرة بعد أن قرأ النقاد العرب ماقرؤوه بالفرنسية والإنكليزية وتأثروا به. وقد نشأ عن ذلك تيار النقد الاتباعي، أي الكلاسيكي الجديد، وخاصة في مفهومه للشعر الذي يجمع بين آراء الغربيين، ويتفق ـ في الوقت ذاته ـ مع رسالة الشعر وجوهره وحسبما هو معروف عند العرب.

وظهر كتاب «الديوان» لعباس العقاد والمازني، وكتاب «الغربال» لميخائيل نعيمة، وصدرا في سنة واحدة ١٩٢١ واتفقت وجهات النظر فيهما على ضرورة تجديد الأدب بالهدم ثم البناء، كما اتفقت على معظم القيم النقدية الجديدة، ولا سيما صدق التعبير عن حقيقة النفس، والدعوة إلى وحدة القصيدة، وإن اختلف نعيمة مع صاحبي «الديوان» في اللغة ـ وسيلة الأداء ـ لكن كلا الطرفين ينتميان في النهاية إلى المنهج التأثري الذاتي.

وفي الأربعينات نشطت الحركة النقدية فصدرت كتب كثيرة كان أبرزها كتاب «في الميزان الجديد» لمحمد مندور، استهدف فيه تصحيح مناهج النقد، واتبع ذلك بتفسير نصوص تطبيقية تناول فيها نقد بعض الكتب وهي «بغماليون» و«زهرة العمر» لتوفيق الحكيم، و«دعاء الكروان» لطه حسين، و«نداء المجهول» لمحمود تيمور، و«سوء تفاهم» لبشر فارس وديوان «أرواح وأشباح» لعلي محمود طه. وكذلك قام محمد مندور بنقد أدب المهجر وسماه «الأدب المهموس» وعرض لبعض مناهج النقد العربي القديم، ولدراسة أوزان الشعر الأوربي والشعر العربي وقد سمى منهجه في هذا الكتاب «المنهج الأيديولوجي» وهو يعنى فيه بقيمة الأدب الجمالية إلى جانب اهتمامه بالمضمون، ويوضح منهجه في تطبيقه على أبي العلاء المعري، المعرفة والنقد، وهو منهج ذوقي تأثري يقوم على نوعين من المعرفة: معرفة أثناء النقد وهي المعرفة الأدبية اللغوية، ومعرفة تسبق النقد وهي نوعان: معرفة بأصول النشر ـ فيما يتعلق بالمخطوطات، ومعرفة بأوزان الشعر.

والواقع أن الكتب الثلاثة السابقة، أي «الديوان» و«الغربال» و«في الميزان الجديد» تعد أبرز معالم النقد العربي الحديث في النصف الأول من القرن العشرين. ويتفق أصحابها في المنهج التأثري المعتمد على الذوق الشخصي، وترجع في أصولها إلى منابع الثقافة الغربية الإبداعية الرومنسية التي نهل منها هؤلاء وإن كان العقاد والمازني ونعيمة قد تأثروا بالثقافة الإنكليزية في حين تأثر مندور بالثقافة الفرنسية. إلى جانب الكتب السابقة التي تناولت الشعر والنثر والمقاييس النقدية ظهر في مصر عام ١٩٤٨ كتاب خاص بنقد الشعر هو «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» لمصطفى السحرتي عرض فيه لمذاهب النقد الفني والواقعي والفقهي، ولمقاييس النقد الفني للتجربة الشعرية، فتناول الصياغة، والأخيلة، والموسيقى، والأسلوب، والألفاظ، والوحدة الشعرية، والانفعالات، والفكر في الشعر... ثم تطرق إلى الشعر الرمزي، وتحدث عن بعض الكتب النقدية مثل «الديوان» للعقاد والمازني، و«على السفود» للرافعي و«حديث الأربعاء» لطه حسين و«في الميزان الجديد» لمندور، كما تعرض لبعض الشعراء المعاصرين في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية والاتباعية والإبداعية والواقعية مستهدفاً نهوض الأدب المعاصر وإنصاف الموهوبين لا انتقاصهم، وشمولية النظرة إلى العمل الأدبي والعناية بالتيارات الجديدة مثل الرمزيـــة symbolisme والسريالية surréalisme والواقعية réalisme.

أما سائر الكتب النقدية التي يصعب إحصاؤها فيمكن ردها إلى التأثر ببعض المناهج والاتجاهات السابقة وإن تنوعت ميادينها وآفاقها.

وقد دفعت حركة الشعر الجديد شعر التفعيلة إلى إنشاء نقد يسوغها ويتابع جديدها ويبيّن ما في صورها ولغتها من حداثة يعاد تأصيلها في ماضي الشعر العربي ومن أبرز الكتب التي ظهرت في مصر حول هذه الحركة كتاب محمد النويهي «قضية الشعر الجديد». وقد لقيت هذه الحركة متابعات واسعة في مختلف أقطار الوطن العربي.

ومن جهة أخرى فإن ازدهار الرواية أنشأ هو الآخر حركة نقدية حولها أخذت تتسع منذ الستينات. وكان للترجمة وللاطلاع الواسعين على المناهج النقدية الجديدة في الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين آثار كبيرة في استخدام تلك المناهج واقعية اشتراكية ـ بنيوية ـ تفكيكية... إلى آخره في نقد النتاج العربي الجديد فكثرت الكتب الموضوعة حول ذلك إذ طبقت المناهج المذكورة على هذا النتاج الجديد بنجاح أو إخفاق، كما وضعت الكتب التي تعرف بهذه المناهج مستنسخة إياها من مصادرها الأوربية بتعديل أو من دون تعديل. وبالمقابل ظهرت حركة تحتفي بإحياء نظريات النقد العربي القديم ومناهجه وخصوصاً منهج الجرجاني، وكتبت في ذلك كتب تؤرخ لتلك المناهج وتقارن بينها وبين المناهج الغربية.

ومن أهم أسماء النقاد الذين ظهروا في النصف الثاني من القرن العشرين: لويس عوض وغالي شكري ومحمود أمين العالم ومحمد أحمد عطية من مصر، ومحمد برادة ومحمد بنيس من المغرب، وإحسان عباس من فلسطين، وناصر الدين الأسد من الأردن، ومحمد كامل

الخطيب ومحي الدين صبحي وجمال باروت وغيرهم من سورية، وحسين مروة وغيره من لبنان.

ولا يخلو قطر عربي من نقاد متابعين - في الصحف والمجلات أو الكتب - لأغلب ما يصدر من أعمال متنوعة على كثرتها، وتشكل نتاجات أساتذة الجامعات وأطروحات الماجستير والدكتوراه كتباً نقدية لايمكن إغفالها كما لا يمكن حصرها وحصر أسماء أصحابها لكثرتهم وكثرة نتاجهم على أهميته.

على أن الحركة النقدية العربية إجمالاً لا تزال بعيدة عن استنباط مناهج جديدة تلائم ما للغة العربية وأساليبها التعبيرية من خصوصية، وما للثقافة العربية الموروثة من سمات تتجلى - ضرورة - في النتاج الجديد معبرة عن استمرار روحية هذه الثقافة وفعلها الحي في الأدب العربي المعاصر.

تطور النثر العربي الحديث وأساليبه: يتضح مما تقدم أن أنواعاً نثرية جديدة ظهرت في الأدب العربي الحديث لم تكن معروفة على هذا النحو من قبل، وهي: المقالة - القصة - الرواية - المسرحية - السيرة، وأن الكتاب تناولوا في هذه الفنون موضوعات جديدة اقتضاها العصر الحديث منها: الموضوعات الاجتماعية والسياسية والقومية خاصة، وأن أساليب الكتاب في كل منها ظل متسماً بالطابع الأدبي الصرف على الرغم من التأثر بأسلوب الصحافة من حيث المرونة والبعد عن التكلف والمحسنات البديعية مما كان شائعاً قبل القرن التاسع عشر.

وفي إطار الحديث عن النثر تذكر الأبحاث الفكرية التي تتناول قضايا التراث وإعادة قراءته وقضايا العصر العالمية والقومية والمحلية، إضافة إلى قضايا العلوم المعاصرة ...وما إلى ذلك.

وقد كان للاستعمار ثم للتبعية الاقتصادية في الوطن العربي آثار مهمة في دفع الكتاب جميعاً للإسهام بأعمالهم الأدبية والفكرية - في الدعوة إلى التحرر والوحدة القومية ومحاربة الظلم ودفع الاستبداد في المراحل المختلفة من القرنين التاسع عشر والعشرين.

لقد عالج الكتاب مشكلات مجتمعاتهم العربية وأمتهم على اختلافها وتنوعها ونبهوا على المفاسد العامة الناجمة عنها ودعوا إلى الإصلاح أو الثورة، كل بحسب اتجاهه ورأيه. وفي مقدمة المشكلات التي تطرق إليها الكتاب هنا: الفقر والجهل وتحرر المرأة الذي لقي عناية خاصة هدفت إلى إطلاق طاقات «نصف المجتمع» وزجها في المعركة القومية التحررية الحضارية.

وطبيعي أن تكون أساليبهم طيعة لينة يستطيع جميع المتعلمين أن يتلقوا ما فيها بيسر ووضوح. وكانت الصحافة هي الميدان الأكثر رحابة لعرض المشكلات وإبداء الرأي فيها، وكان لذلك أهم الأثر في الليونة والتطويع المذكورين.

أما الأبحاث الفكرية على اختلافها فهي - ضرورة - موجهة لذوي الثقافة العالية وللمهتمين أو المختصين. ولذلك فهي تلتزم حدوداً من أساليب التعبير لا يمكنها النزول دونها.

وفي الموضوعات الأدبية الصرف اتسعت تجارب الكتاب الإنسانية فتنوعت المضامين تبعاً لها. فإلى جانب الأغراض القديمة كثرت العناية بالوصف، وبوصف الطبيعة خاصة، والإعراب عن المشاعر النفسية المختلفة تجاهها من حزن وفرح وتشاؤم وتفاؤل مع مزج ذلك كله بوصف الطبيعة أحياناً كما يفعل الإبداعيون. وقد عني كثير من الأدباء بالتعبير عن موضوعات إنسانية وفلسفية عامة متأثرين بما اطلعوا عليه من ثقافات وآداب غربية، وبرز ذلك عند أدباء المهجر أكثر من سواهم.

ولئن كانت الموضوعات الاجتماعية والسياسية والقومية تقتضي العناية بالمعنى أكثر من الأسلوب فإن تلك الموضوعات الأدبية تمتاز بعنايتها بالأسلوب إلى جانب المعنى، فالألفاظ فيها أنيقة مختارة، والعبارات موشحة بالأخيلة والصور ومحلاة بالتوازن أحياناً أو ببعض السجعات العرضية، مع شيء من الاقتباس والتضمين أحياناً أخرى.

وإلى جانب ذلك برز عنصر اللغة العصرية الغنية بمفرداتها، وبمرونة استجابتها للصياغة والقوالب الفنية الجديدة التي اقتضاها تطور العصر ومستحدثات الحضارة. ودارت حول اللغة مناقشات نقدية كثيرة اختلفت فيها وجهات النظر بين الجديد والقديم، وتبعاً لهذا الاختلاف تنوعت طرائق تعبير الكتاب تنوعاً واسعاً حتى كاد يكون لكل كاتب «لغته» ومفرداته، ومن ثم أسلوبه الخاص المتميز به من غيره. وهكذا ارتقى النثر الأدبي العربي الجديد وأضحى عالمياً وترجم كثير منه إلى لغات العالم الحية المختلفة.

الشعر

فنونه وتطوره:

ظل الشعر في أوائل القرن التاسع عشر مثلما كان عليه عند أكثر شعراء عصور الدول المتتابعة من صنعة وتكلف، وظلت أغراضه هي جملة الأغراض التقليدية من مديح وهجاء وغزل ورثاء ووصف بالإضافة إلى الإخوانيات. وظلت الشكلية اللفظية هي السائدة إضافة إلى ماعرف في «عصر الانحطاط» من كثرة الاقتباس والتضمين، أو التخميس والتشطير لقصائد معروفة.

وتبدأ بوادر نهضة الشعر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثم تتسع في أوائل القرن العشرين.

وعرفت هذه المرحلة باسم «مرحلة الإحياء» حين أعيد للشعر العمودي إشراقه ورونقه، وللصياغة قوتها وإحكامها، وبعثت فيه الروح من جديد على أيدي بعض الشعراء كان في مقدمتهم محمود سامي البارودي الذي كان تجديده مرتبطاً بالأسس الشعرية القديمة.

وتلا البارودي نفر من الشعراء البناة، في مصر والشام والعراق خاصة، كان منهم: إسماعيل صبري وأحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، ومعروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي، وتابع خطا هؤلاء نفر آخر من الشعراء البارزين أمثال: محمد البزم، وخليل مردم، وشفيق جبري، ومحمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل)، وخير الدين الزركلي، وسواهم. وقد أعقبت مرحلة البناء هذه مرحلتان من التجديد تمتد الأولى ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى وأوائل الخمسينات، وتمتد الثانية منذ الخمسينات حتى اليوم. وسيرد التفصيل فيهما لاحقاً.

وظهرت في الشعر العربي في العصر الحديث بعض الفنون الشعرية التي لم تكن معروفة قديماً وهي:

الشعر المسرحي: نظم الشعراء الشعر المسرحي poésie dramatique بعد اطلاعهم على مسرحيات فرنسية وإنكليزية مثل مسرحيات شكسبير وموليير وكورني وراسين. ويكاد الباحثون يجمعون على أن أقدم مسرحية شعرية عربية هي «المروءة والوفاء» لخليل اليازجي، ظهرت عام ١٨٧٦ . وأشهر شعراء المسرحية وأولهم أحمد شوقي. وقد نظم مسرحية «علي

بك الكبير» عام١٨٩٣ حين كان في باريس لكنه لم يرض عنها فلم ينشرها. ثم نظم مسرحية «دل ويتمان» عام ١٨٩٩، وبعدها «ورقة الآس» التي نشرها في جريدة الأهرام عام ١٩٠٤. ثم انقطع بعدها عن نظم المسرحيات حتى عام١٩٢٧ ـ عام منحه لقب أمير الشعراء ـ فنظم فصلاً من «مصرع كليوباترا» وأتمها عام ١٩٢٩ وتابع بعدها نشر عدة مسرحيات حتى وفاته سنة ١٩٣٢هي:

«قمبيز» و«مجنون ليلى» و«علي بك الكبير» و«عنترة» و«الست هدى» وكلها مآس مستوحاة من التاريخ عموماً ما عدا الأخيرة، فهي ملهاة اجتماعية.

ويلي شوقي عزيز أباظة [ر] الذي نظم على غراره مسرحيات كثيرة منها «العباسة أخت الرشيد» و«عبد الرحمن الناصر» و«شهريار» و«شجرة الدر» و«غروب الأندلس». وجرب علي أحمد باكثير أن ينظم بعض المسرحيات بالشعر المرسل ـ كما فعل شكسبير ـ مثل «أخناتون» و«نفرتيتي» لكنها لم تلق نجاحاً فعدل عنها ونظم مسرحية «قصر الهودج» على طريقة شوقي وأباظة. وتابع هؤلاء عدنان مردم في سورية فنظم بين عامي ١٩٦٧و١٩٨٦ بضع عشرة مسرحية كلها مأساوية، عدا «المغفل» و«القزم» فهما ملهاتان. وقد استوحى بعض مسرحياته أو بعض شخصياتها من التاريخ العربي القديم ومنها «الملكة زنوبيا» و«الحلاج» و«رابعة العدوية» و«مصرع غرناطة»، وبعضها الآخر من الأحداث القومية المعاصرة مثل «فلسطين الثائرة» و«دير ياسين». وربما كانت مسرحية «مأساة الحلاج» للشاعر صلاح عبد الصبور واحدة من أجمل المسرحيات المكتوبة شعراً وأرقاها وقد كتبها صاحبها بالشعر الحر.

ومما لا ريب فيه أن المسرحية الشعرية لم يعد لها مكان في العصر الحاضر لأن التمثيل عامة يحاول التعبير عن مشكلات الحياة العادية، أي محاكاة الواقع، والأمر الذي يقتضي أن تكون لغته وطريقة كتابته وأدائه مشاكلتين لتلك المشكلات الواقعية.

الشعر القصصي: كثر إقبال الشعراء على نظم الشعر القصصي poésie narrative في العصر الحديث، وتنوعت موضوعاته، فكان منها التاريخي والديني والأدبي، من ذلك ما نظمه خالد الجرنوسي لبعض قصص القرآن في ديوانه «اليواقيت»، وعبد الرحمن شكري في قصة «النعمان ويوم بؤسه»، وأحمد عبد المعطي حجازي في «مذبحة القلعة»، وعمر أبو ريشة في «كأس» عن ديك الجن الحمصي. ونظم بعض الشعراء القصص الوعظية التعليمية على لسان الحيوان، أو الحيوان والإنسان، وتستهدف هذه مغزى سياسياً أو خلقياً أو إنسانياً كما فعل شوقي في الجزء الرابع من ديوانه «الشوقيات». ونظم بعضهم قصصاً تناولت بعض القضايا الاجتماعية مثل «الريال المزيف» لكل من طانيوس عبده وبشارة الخوري (الأخطل الصغير). واتجه بعضهم إلى نظم موضوعات وطنية في قصص شعرية مثل خليل مطران في «فتاة الجبل الأسود» و«مقتل بزرجمهر». ومن هؤلاء خير الدين الزركلي في «العذراء» عن قصة دخول المستعمر الفرنسي إلى سورية واستشهاد يوسف العظمة. ومنهم صلاح عبد الصبور في «شنق زهران» عن حادثة دنشواي. إلى غير هذا من غزارة شعرية قصصية. وكانت لغة هؤلاء الشعراء مرنة طيعة في القص إذ استطاعوا أن يوفقوا بين فني القصة والشعر. على أن ما نظم من القصص بالشعر الحر أكثر طواعية لتصوير المواقف والأحداث ورسم الشخصيات، لما يتمتع به من حرية في توزيع التفعيلات مما يمكن من تحقيق الوحدة العضوية المناسبة للقصة.

الشعر الملحمي: لم ينظم الشعراء العرب الشعر الملحمي poésie épique بالمعنى الدقيق المعروف عند الغربيين، ولا سيما عند اليونانيين مثل «الإلياذة» و«الأوديسة» لهوميروس أو «الإنيادة» لفيرجيليوس بل نظموا ما هو أشبه بالملاحم. وهي مطولات توافرت فيها بعض شروط الملحمة كعنصر القص والتاريخ والأسطورة أحياناً من دون سائر الشروط الملحمية من تصوير الوقائع البطولية الخارقة في سيرة شخص أو تاريخ أمة. ومن هذه المطولات التي سميت ملاحم: ملحمة «عيد الغدير» للشاعر اللبناني بولس سلامة، و«الملحمة الإسلامية» لأحمد محرم. وقد سميت مطولة الشاعر المهجري الجنوبي فوزي المعلوف [ر] «على بساط الريح» ملحمة، وماهي سوى رحلة خيالية إلى العالم العلوي، وكذا مطولة «عبقر» لأخيه شفيق المعلوف التي هي رحلة خيالية إلى وادي عبقر بصحبة شيطانه دليلاً يطوف به في ذلك الوادي الذي هو رمز لمصدرية الإلهام الشعري في الذهن العربي القديم. وهذه المطولة يرمز فيها صاحبها إلى الحياة الدنيوية المملوءة بالشرور والآثام جاعلاً من الحب ـ في النهاية ـ علاجاً لها كلها.

وقد طور شعراء التفعيلة الشعر الحر مفهوماً جديداً لما سمي الشعر الملحمي. وهذا المفهوم يعني بدوره مطولات تصور أوضاعاً عامة يعيشها الشعب أو الأمة منظوراً إليها من الأفق الخاص للشاعر إذ تمتزج تجاربه الذاتية بالبيئة وأحداثها وبالأساطير وحكايات البطولات الفردية والعامة والأسطورية، مستخدمة كلها في إلماحات خاصة يستند فيها الشاعر على ذاكرته الثقافية والحكائية مع نقل ذلك كله دلالياً من الخاص إلى العام فيتم الإفصاح عن حقائق مجتمعية وإنسانية وكونية في وقت واحد، وفي برهة من برهات علاقات الشاعر بأوضاع مجتمعه وعصره.

ولعل أول من كتب مثل هذا النوع من الشعر الملحمي وأكثر شعرائه شهرة هو بدر شاكر السياب من العراق في قصائد عدة منها «أنشودة المطر» و«المومس العمياء». أما خليل حاوي من لبنان فقد أبدع عدداً من قصائده الشهيرة المنتمية إلى هذا النمط مثل «قيامة إليعازر» و«رحلة السندباد الثامنة». ويعد أدونيس من أكثر شعراء الشعر الملحمي شهرة وهو الذي قدم الرؤية النظرية لهذا النمط في كتابه «زمن الشعر»، ومن قصائده «تحولات الصقر» و«إسماعيل» و«أحوال ثمود» وسواها الكثير. ولايقل محمود درويش شهرة عن أدونيس في كتابة هذا النمط من القصيدة إذ تمتزج الغنائية لديه بما سبق ذكره من سمات سابقة. ومعظم مجموعاته التالية لمجموعة «أحبك أو لاأحبك» حافلة بهذا النوع من القصائد. ويعد الشاعر محمد عمران واحداً من أبرز من كتبوا هذا الشعر الملحمي في سورية، ومن أهم أعماله «مراثي بني هلال» وديوانه «كتاب الملاجة» وقصيدته «شاهين» التي تحكي قصة أحد الفلاحين المتمردين على الإقطاع وعلى الاستعمار الفرنسي معاً.

الشعر الغنائي أو الوجداني: يدخل ضمن الشعر الغنائي poésie lyrique معظم ما أثر عن الشعراء العرب القدامى والمعاصرين، لأن بواعثه تتصل بوجدان الشاعر، وهو المحرض الرئيس

لعملية الإبداع الشعري. وإذا كانت حركة الإحياء وأعلامها في مختلف الأقطار العربية تنتمي إلى الاتباعية (الكلاسيكية)، فإن كثيرين من رواد الإحياء حاولوا التجديد بعد الاطلاع على الشعر الغربي فكانت هناك اتباعية جديدة تختلط بنفحات إبدعية (رومانسية)، حتى إن هذه النفحات لتتغلب على الجوانب الاتباعية.

وقد بدأ الشعراء تطوير الشعر الغنائي العربي وتجديده منذ محمود سامي البارودي - كما تقدم - لكن جهودهم في ذلك اتجهت إلى الموضوعات أكثر من اتجاهها إلى النواحي الفنية فكانوا يولون اهتماماً كبيراً للصياغة القديمة في معالجة الموضوعات الجديدة مثل القضايا القومية، والاجتماعية، والتأملية. ومن أبرز شعراء الإحياء وأكثرهم شهرة أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم الذي اشتهر بأشعاره الرثائية وبأنه «شاعر الشعب» لمنافسته أحمد شوقي على شهرته، ولارتباط شوقي بالقصر الملكي مقابل ارتباط حافظ بالشعب وقضاياه، وكلاهما من القطر المصري.

وفي ليبية اشتهر من شعراء الإحياء سليمان الباروني وإبراهيم الأسطة عمر. وفي تونس برز اسم محمود بيرم التونسي، كما برز في الجزائر اسم ابن باديس ومحمد العيد خليفة ومفدي زكريا وغيرهم. أما في المغرب فتبرز أسماء مصطفى المعداوي ومحمد الحبيب الفرقاني وغيرهما. وفي السودان برز اسم الشاعر التيجاني بشير. وقد تميزت قصائد هؤلاء الشعراء على اختلاف أقطارهم، بالتزامها الشكل القديم للقصيدة، وبكونها صرخات احتجاج على الاستعمار الإيطالي والفرنسي والإنكليزي، وصرخات احتجاج على واقع الحياة المعيشية للشعب وما يعانيه من ظلم وقسوة ومرارة في ظل سيطرة المستعمرين وأعوانهم في الداخل.

وفي العراق يبرز اسم الشاعر عبد الغفار الأخرس بصفته أهم الشعراء الإحيائيين هناك. أما في السعودية فيبرز اسم محمد بن عبد الله العثيمين، وفي الكويت اسم الشاعر فهد العسكر، وفي شمال اليمن أسماء: محمد محمود الزبيري، وإبراهيم الحضراني، وأحمد الشامي، ويناظرهم في الجنوب اليمني محمد سعيد جرادة.

ومن أهم شعراء البحرين الشاعر إبراهيم العريض الذي امتزج عنده الإحياء بتجديد يحتفي كثيراً بالنفحات الرومانسية.

ولعل أكثر المجددين شهرة في إطار القصيدة الكلاسيكية على امتداد الوطن العربي: خليل مطران، وبشارة الخوري (الأخطل الصغير) من لبنان وعمر أبو ريشة ومحمد سليمان الأحمد (بدوي الجبل) ونديم محمد من سورية، وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل، وأسماء أخرى سترد لاحقاً، من مصر، وأبو القاسم الشابي من تونس، إضافة إلى كثير من الشعراء المهجريين. ويقع هذا التجديد في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى حتى ابتداء الخمسينات. وكان التجديد عموماً يتم بمبادرة ذاتية، لكن بعض الشعراء أخذوا يتكاتفون ويؤلفون التجمعات الأدبية للإسهام في دفع حركة الشعر العربي وتطويره. ومن هذه التجمعات أربعة:

١- مدرسة الديوان التي قامت في مصر عام ١٩٢١ على أيدي عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، وعبد الرحمن شكري. وهؤلاء تأثروا بالشعر الإنكليزي وخاصة بمجموعة «الكنز الذهبي» التي تضم بعض قصائد الشعر الغنائي منذ عصر شكسبير حتى نهاية القرن التاسع عشر. وقد انفصل شكري عن زميليه لخلاف نشب بينهم. وبقي الأولان اللذان أعربا في كتاب «الديوان» عن ضرورة تطوير الشعر العربي وتجديده. وامتاز مذهبهما - كما قالا - بأنه إنساني مصري عربي، وأنه ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة. وقد فصل العقاد أسس هذا التجديد فأراد للشاعر أن يعبر بصدق عن مزاجه وشخصيته ونظرته إلى الحياة وتفسيره لها، وأن تكون القصيدة مترابطة عضوياً «كما يكمل التمثال بأعضائه، والصورة بأجزائها، واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث لو اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها». وقال أيضاً: «القصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته» وعلى الشاعر أن «يكتنه حقائق الحياة ويلتزمها في غير شطط ولا إحالة وأن يغوص على جوهرها» وأن «تؤلف الصورة البيانية لنقل الأثر النفسي للمشبه به من وجدان الشاعر إلى وجدان القارئ، لا أن تقف عند حدود الحواس الخارجية». وقد طبق العقاد هذه المبادئ على شعر شوقي ونقده نقداً لاذعاً، واتهمه بالإحالة - وهي المبالغة لدرجة إفساد المعنى - ومخالفة الحقائق والولوع بالعرض دون الجوهر. واضطلع المازني بنقد حافظ إبراهيم ووسم شعره بأنه «سياسي أو صحفي» إذ هو شعر مناسبات يومية طارئة، وأنه بعيد عن الصدق.

وانطلاقاً من هذه الأسس حاول العقاد أن يجدد في ديوانيه «هدية الكروان» المطبوع عام ١٩٣٣ و«لا عابر سبيل» المطبوع عام ١٩٣٧. لكن تجديده عموماً كان في محاولته مراعاة الوحدة العضوية في القصيدة إلى جانب وحدة الموضوع، وإلى حد ما: التجديد في شكل القصيدة لا في اكتناه حقائق الحياة والغوص على جوهرها - كما أراد هو لشوقي - وإن كان مفهومه للوحدة العضوية يختلف عما سيكون لاحقاً عند أصحاب الشعر الحر.

والواقع أن هذه الحركة التجديدية لم تبلغ مدى واسعاً يصح معه أن تسمى مدرسة بالمعنى الصحيح المعروف للكلمة في المدارس الغربية، كما لم يكن لها اتباع يسيرون على هديها فهي لا تعدو أن تكون تجمعاً أدبياً محدوداً انفرط عقده بعد مدة وجيزة.

٢- أما التجمع الثاني فهو «الرابطة القلمية»، ففي الوقت الذي ظهر فيه «الديوان» كانت فئة من المهجريين الشماليين تنادي بتجديد الشعر. وكان هذا في كتاب «الغربال» الذي ضمنه ميخائيل نعيمة مبادئ جمعية «الرابطة القلمية» المتأسسة في نيويورك عام ١٩٢٠، ومقاييسها الأدبية، وغايتها التي هي الصدق في التعبير و«بث روح نشيطة في جسم الأدب العربي، والخروج بآدابنا من دور الجمود والتقليد إلى دور الابتكار في جميل الأساليب والمعاني».

وقد تأثر أعضاء هذه الرابطة كذلك بالأدب الإنكليزي والأمريكي، وخاصة بما جاء به الشاعر والت ويتمان W.Whitman وخطا هؤلاء خطوة واسعة في تجديد موضوعات الشعر وشكله في آن واحد، واستعاروا بعض الأطر من الشعر الغربي، واستعملوا الموشحات والمخمسات والشعر المرسل vers blancs والشعر المنثور. ويبدو التجديد عند نعيمة في ديوانه «همس الجفون» وعند إيليا أبو ماضي في «الأعمال الكاملة» وعند نسيب عريضة في ديوانه «الأرواح الحائرة» وعند رشيد أيوب في ديوانيه «أغاني الدرويش» و«هي الدنيا» وعند جبران في «المواكب» وغيرهم. ومع ذلك فقد ظل

تجديدهم في الأوزان - إلا ما ندر - ضمن حدود العروض والبحور الخليلية المعروفة، وإن كان من الجائز أن يعد نسيب عريضة واضع أول بذرة من بذور الشعر الحر في قصيدته «النهاية». أما تجديدهم في المضمون، فإنه قد كان لهم الفضل في نظم الشعر التأملي والشعر الإنساني، وأكثروا من نظم شعر الحنين إلى الوطن لشعورهم بالغربتين: الوطنية والنفسية. وفضلاً عن ذلك تساهلوا في اللغة الشعرية، واستعملوا بعض الألفاظ العامية أحياناً، وجددوا - وخاصة أبو ماضي - في الكلمة الشعرية، وجعلوها تتسع لمضامين الحياة الاجتماعية والفكرية، وللمشاكل النفسية، من دون أن تخرج من إطار البساطة والوضوح. ونادوا كذلك بوحدة القصيدة لكنهم عنوا بها تجنب الخلخلة في أبياتها، والتعدد في أغراضها. وكتب بعضهم الشعر المنثور وهو المتحرر من قيود الأبحر العروضية كما في بعض ما ورد عند جبران في كتابه «رمل وزبد»، وإن سبقه إلى ذلك أمين الريحاني الذي يعد من شعراء المهجر الشمالي - لكنه لم ينتم إلى الرابطة القلمية - وقد بدا تجديده في أطر استعارها من الشعر الغربي وبث شعره المنثور في كتابه «الريحانيات» ثم جمعه أخوه ألبرت مستقلاً في كتاب «هتاف الأودية».

٣- وأما التجمع الثالث فهو «جمعية أبولو» التي أسست عام ١٩٣٢ بجهود أمين سرها أحمد زكي أبي شادي، ورُئِّس عليها أستاذه خليل مطران، وكان من أبرز أعضائها أحمد محرم وحسن كامل الصيرفي وعلي محمود طه[ر] وإبراهيم ناجي [ر] وأبو القاسم الشابي وغيرهم.

وتتلخص أهدافها في السمو بالشعر العربي، ومناصرة نهضاته الفنية، ولكن من دون الالتزام باتجاه معين، فلكل عضو الحرية في التعبير عن الموضوع الذي يريد بالأسلوب الذي يرتضيه. وقد تأثر أعضاؤها - كمن سبقهم - بالشعر الغربي: الفرنسي والإنكليزي، ولاسيما الإبداعي منه، لكنهم كانوا كذلك همزة وصل بين الشعر العربي والمذاهب الغربية من واقعية وإبداعية ورمزية، إذ يرجع الفضل إليهم في إطلاع العرب عليها في مجلتهم «أبولو». وقد تجلى تجديدهم في الشكل والمضمون كما عند أبي شادي في دواوينه «أنداء الفجر» و«أطياف الربيع» و«الشفق الباكي» التي اشتمل بعضها على الشعر المرسل. وعند إبراهيم ناجي في ديوانيه «ليالي القاهرة» و«وراء الغمام»، وعند علي محمود طه في دواوينه «الملاح التائه» و«زهر وخمر» و«ليالي الملاح التائه» و«أرواح شاردة»، وكما عند أبي القاسم الشابي في ديوانه «أغاني الحياة»، وحسن كامل الصيرفي في ديوانه «صدى ونور ودموع».

وقد توخى معظم شعراء «أبولو» جعل الصلة محكمة بين أجزاء القصيدة لتحقيق وحدة الموضوع ووحدة الفكر ووحدة المشاعر في آن واحد. ولعل رئيسهم مطران هو أول من نبه على هذه الوحدة في مقدمة ديوانه الذي طبع عام ١٨٩٠.

٤- وأما التجمع الرابع فهو «العصبة الأندلسية». والواقع هو أن هذا التجمع كان واحداً من عدة تجمعات أدبية في المهجر الجنوبي، وكان أشهرها وأهمها. ففي البرازيل أسس قيصر المعلوف «رواق المعري» وفي الأرجنتين تأسست «الرابطة الأدبية» عام ١٩٤٩ وتولى أعمالها جورج صيدح. أما «العصبة الأندلسية» فقد أسسها أدباء عدة عام ١٩٣٣ ورأسها ميشيل المعلوف.

وأهداف هذه الجمعيات كلها متفقة على ضرورة تجديد الشعر، ولكن أذومها وأنشطها «العصبة الأندلسية» وكان من أعضائها حبيب مسعود، ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وأخوه قيصر، وشفيق المعلوف وإلياس فرحات ونصر وسمعان ورياض المعلوف. وكانت مجلتهم «العصبة» مسرحاً لنشاطهم الأدبي وأوجدوا الصلات القلمية بينهم وبين سائر أندية الأدب العربي، ولكنهم أجمعوا على ترسم أساليب الفصحى فلم يضحوا بها في سبيل التجديد - كما فعل أكثر أعضاء الرابطة القلمية - وقد وقفوا معظم شعرهم على القضايا القومية وخاصة قضية فلسطين كما في شعر القروي وفرحات وأبدعوا في الحنين إلى الوطن، إلى جانب الشعر الإنساني والتأملي، ودعا بعضهم دعوة شبه عقائدية إلى التمسك بحقوق الإنسان واحترامه بصرف النظر عن جنسه ولونه ووطنه، وكان تجديدهم في الأوزان والقوافي محدوداً.

إن هذه التجمعات تعكس صورة لمستويات من التأثر بالشعر الغربي عموماً، والإبداعي منه خصوصاً، وفي مجريات تطور الشعر العربي بعد مرحلة الإحياء الأولى أو المرحلة الاتباعية، مثلما تبين بقاء هذا التأثر ضمن إطار الأشكال الفنية الشعرية المتوارثة إلا ما ندر. وبهذا المعنى سبق الحديث عن اتباعية جديدة، مطعمة بنفحات إبداعية بهذه الدرجة أو تلك اصطبغت بصبغتها حركة الشعر العربي منذ مستهل العشرينات حتى مستهل الخمسينات.

وإذا كان هذا التطور قد مهد للنقلة الواسعة التي حدثت في الشعر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين أي لولادة الشعر الحر، فإن كثيرين من الشعراء العرب لا يزالون يكتبون القصيدة الاتباعية الجديدة، وبعضهم يكتب إلى جانبها قصيدة «الشعرالحر» أو «شعر التفعيلة». ومن أشهر هؤلاء الشعراء: عبد الله البردوني من اليمن، ونزار قباني وسليمان العيسى وحامد حسن من سورية، ونجيب جمال الدين وغسان مطر من لبنان، ويوسف الخطيب من فلسطين، ومصطفى جمال الدين من العراق، والشاعر المهجري اللبناني زكي قنصل، ومانع سعيد العتيبة من الإمارات العربية المتحدة وغيرهم كثيرون.

الشعر الحر أو شعر التفعيلة: من المؤكد أن أهم نقلة تطورية للقصيدة العربية في العصر الحديث قد حدثت مع ولادة قصيدة «الشعر الحر» أو «قصيدة التفعيلة» بحسب أكثر التسميات شيوعاً. وهاتان التسميتان يرتبط منطوقهما بالتجديد على مستوى الشكل، ولكن الواقع أن التجديد قد شمل المجموع البنائي للقصيدة العربية: شكلاً ومضموناً، ولغة، وأسلوب تصوير وترميز، ومحتوى دلالياً، ووحدة بنيان فني إجمالي.

وهذا النمط من القصيدة العربية يعتمد صيغاً من الإيقاع إذ يختلف عدد التفعيلات بين بيت وآخر بحسب احتياج الدفقات الشعورية واللاشعورية، والانفعالية والوجدانية، وبحسب مقتضيات التعبير عن حال عاطفية داخلية أو بعض منها، وبالتالي لم يعد الشاعر ملتزماً قافية واحدة أو روياً واحداً يتكرر أو يتنوع بحسب نظام معين، بل عوض عن ذلك بالإيقاع الداخلي وبرنين القافية التي تراعى في بعض الأبيات. ومن جهة أخرى لم يعد الشاعر يقصر التصوير البياني على أشكاله القديمة التي تظهر فيها كل صورة مستقلة بذاتها ومعبرة عن فكرة محددة، بل تدرّج في اعتماد نمط من التصوير المتداخل المتشابك المتدفق الذي يقود

إلى صوغ «مشهد حركي» ـ كما في التصوير السينمائي، على سبيل التقريب ـ يعبر عن «حال شعرية» تُستشف منها دلالات متنوعة لا أفكار ثابتة، وتترابط المشاهد المتوالية في بنيان شعري متكامل يشكل المجموع الكلي للقصيدة التي تعكس «تجربة» ذاتية للشاعر في تمثله الفكري والانفعالي والوجداني لبرهة من سياق الحياة في مكان وزمان معينين، ولكن في إطار من التضافر الدلالي بين الخاص والعام وبين الجزئي والكلي، وبين الذاتي والموضوعي، وبين الآني والمطلق.

وقد عرف هذا النمط من القصيدة، أول الأمر، باسم «الشعر الحر» ثم عرف باسم «شعر التفعيلة»، كما دعي باسم «الشعر الحديث» ولكن هذه التسمية تبدو فضفاضة ومطاطة.

ولقد اختلف الباحثون في تاريخ باكورة هذا الشعر وفي رواده، فأرجعه بعضهم إلى الموشحات التي حاول ابن خلدون أن يحصي أوزانها فلم يستطيع لخروجها عن الحصر. وأرجعه بعضهم إلى العقد الثاني من القرن العشرين، وتحديداً إلى قصيدة «النهاية» لنسيب عريضة التي نظمها في الحرب العالمية الأولى متأثراً بما نجم عنها لشعبه من كوارث وضحايا. لكن نازك الملائكة تذكر في كتابها «قضايا الشعر المعاصر» أنها هي أول من نظم بهذا الشعر قصيدتها «الكوليرا» في ٢٧/١٠/١٩٤٧ ونشرتها لها مجلة «العروبة» اللبنانية في بيروت يوم ١/١٢/١٩٤٧، وقد عبرت فيها عن حزنها لضحايا مصر حين اجتاحها وباء الكوليرا، كما تذكر أن قصيدتها أسبق من قصيدة بدر شاكر السياب «هل كان حباً» الذي يعده كثير من الباحثين الرائد الأول. وقد أثبتت في كتابها المذكور أنها سبقته إلى نشر قصيدتها بنحو شهر وعشرين يوماً مع أن قصيدة السياب أرخت في ديوانه في ٢٩/١١/١٩٤٦.

والواقع أنه لا يمكن التثبت من الأسبق إلى نظم هذا الشعر على وجه الدقة والتحديد، فضلاً عن أن هذا لا يقدم شيئاً ولا يؤخر. لكن من المحقق أن هؤلاء الشعراء جميعاً، ومن جاء بعدهم، تأثروا بالشعر الغربي الحديث على نحو مباشر أو غير مباشر، وقد صرح بهذا كل من نازك والسياب، وأعادا بعض قصائدهما إلى تأثرهما بقصائد معينة لشعراء إنكليز مثل شيلي Chelley (١٧٩٢ ـ ١٨٢١) وكيتس Kaets (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) وإليوت Elliot (١٨٨٨ ـ ١٩٦٥) وسيتويل Sitwell (١٨٨٧ ـ ١٩٦٤)، وتأثر آخرون بشعراء أمريكيين وخاصةً إزرا بوند E. Pound، وآخرون بشعراء فرنسيين مثل جاك بريفير J.Prevert.

ويجمع هؤلاء الشعراء الإنكليز والأمريكيون والفرنسيون على أن مشكلات العصر الإنسانية الحديثة تتطلب أطراً جديدة، وأوزاناً جديدة للتعبير عنها، فضلاً عن السعي إلى وحدة القصيدة لا إلى وحدة البيت، وهذا ما نادى به رواد الشعر العربي الحر. والملاحظ أن أكثر الشعراء العرب الذين نظموا هذا الشعر الجديد ونجحوا فيه هم ممن تمرسوا بنظم الشعر الخليلي، ومن أبرزهم نزار قباني، وعلي أحمد سعيد (أدونيس)، ومحمد عمران، وفايز خضور وأسماء أخرى كثيرة في سورية، وخليل حاوي وغسان مطر وإلياس لحود وغيرهم في لبنان، ومحمود درويش ومعين بسيسو وسميح القاسم وغيرهم من فلسطين، وتيسير سبول من الأردن، وعبد الوهاب البياتي وآخرون إضافة إلى السياب ونازك الملائكة في العراق، وصلاح عبد الصبور وأمل دنقل، أحمد عبد المعطي حجازي وغيرهم في مصر، ومحمد الفيتوري في السودان، وقاسم حداد في البحرين، وأسماء كثيرة أخرى في مختلف أقطار الوطن العربي.

وإذا كان كثير من هؤلاء الشعراء قد تأثروا بالشعر الغربي، أو تأثروا بمن تأثر به بصورة مباشرة، فإنهم جميعاً قد ألحوا على تحقيق الوحدة العضوية في القصيدة بدلاً من وحدة البيت سابقاً. وقد تجددت لديهم لغة الشعر تجدداً عميقاً واعتمد كثير منهم على تضمين قصائدهم بعض الرموز الأسطورية والدينية والفولكلورية مثل: السندباد وشهريار وأيوب وأليعازر ويهوذا وعشتروت وأوديب وسيزيف وتموز وغيرها ليستعينوا بدلالاتها الموروثة على التعبير عن مشاعرهم بعمق ورحابة. وأسرف بعضهم قليلاً أو كثيراً في التأثر ببعض المذاهب الغربية كالرمزية والسريالية فوقع في الغموض حيناً وفي الإبهام أحياناً، ولكن ذلك لا يشكل ظاهرة طاغية الأثر على حركة التجديد هذه في مجملها.

قصيدة النثر: يعتمد هذا النمط من الكتابة على التعويض عن الإيقاع الموسيقي للشعر بموسيقى الكلام الداخلية وهذا ما يجعل من نصوص هذا النمط قريبة مما كان ينادي به أصحاب الدعوة إلى «الشعر الصافي». وقد سبق ذكر ما كان لكل من جبران خليل جبران وأمين الريحاني من سبق في كتابة الشعر المنثور.

على أن «قصيدة النثر» ـ حسبما درجت التسمية ـ قد تزامنت تقريباً مع قصيدة الشعر الحر أو شعر التفعيلة. وقد كتبت نصوصها، بداية، تحت تأثير ترجمات قصائد الشعراء الغربيين، وكانت بيروت منطلق هذا النمط من الكتابة منذ الخمسينات ومن أشهر كتابها: محمد الماغوط من سورية وشوقي أبو شقرا وأنسي الحاج من لبنان ولا يزال هذا النمط يزاول بوفرة من قبل الكثيرين في الأجيال التالية لجيل الستينات في مختلف أقطار الوطن العربي.

خلاصة في أطوار الشعر العربي الحديث: سبقت الإشارة العرضية إلى هذه الأطوار في الفقرات السابقة، ويمكن العودة إلى ذلك هنا بقسط أكبر من التوضيح والتفصيل إذ تلاحظ الأطوار التالية:

١ـ طور الإحياء: وذلك برجوع الشعراء إلى تقليد ما كان عليه الشعر العربي في عصوره الذهبية المزدهرة، ولاسيما العصر العباسي، وتمثلهم لأساليبه وأخيلته، واقتفاؤهم آثاره في صياغة الصور البيانية والموسيقى الجزلة واللغة الفخمة.... وكان هذا يعني التخلي السريع عن المحسنات الشكلية في عصر الانحطاط. وهكذا كان شعراء الإحياء يعارضون القصائد المشهورة في الشعر القديم حيناً وينطلقون إلى التجديد في المعاني والمضامين أحياناً أخرى ولكن ضمن أطر الأوزان الشعرية القديمة. وقد سبق ذكر أبرز شعراء الإحياء الذين يوصفون عموماً بأنهم أصحاب «المدرسة التقليدية».

٢ـ طور التأثر بشعر الحداثة الغربية: وضح مما تقدم أن الشعراء بعد الحرب العالمية الأولى أخذوا يتأثرون بالشعر الغربي ـ الفرنسي والإنكليزي، الرومانسي خاصة ـ إما مباشرة، وإما عن طريق من تأثر به أو ترجم عنه. وقد أسفر هذا التأثر، بصورة أساسية، عن اتجاه شعري

جديد يمزج بين خصائص الكلاسيكية في الصياغة الشكلية وبين كثير من خصائص الإبداعية في المضمونات وأساليب التعبير ومفردات اللغة الشعرية والنبرة الانفعالية الوجدانية... وبوجه عام يعرف هذا الاتجاه الجديد، تمييزاً له من سابقه، باسم «الاتباعية الجديدة» وأحياناً باسم «المرحلة الإبداعية»، مع الكثير من التجاوز في هذه التسمية بالطبع. وفي هذه المرحلة ظهرت بوادر تجديد تتضمن نظم الشعر المرسل والشعر المنثور كما فعل الريحاني وجبران وأحمد زكي أبو شادي.

٣ـ طور تجاوز الشكل القديم ومرحلة الشعر الحر: فقد تحرر الشعراء من الأوزان الخليلية القديمة واعتمدوا التفعيلة الواحدة ـ وأحياناً الجملة الموسيقية الشعرية الواحدة التي تتضمن تفعيلتين ـ أساساً لمدى طول البيت الواحد، وتخلوا عن وحدة البيت لصالح وحدة «المقطع الشعري» إذ تؤلف الصور المتشابكة «مشهداً» حركياً يعكس حالاً انفعالية عاطفية أو جزءاً من حالة تتكامل في القصيدة كلها محققة وحدتها الموضوعية، فيترابط الشكل والمضمون ترابطاً صميمياً. وقد سلف تبيان معنى «الملحمية» في النماذج المميزة لقصيدة التفعيلة هذه.

٤ـ قصيدة النثر: تمثل هذه «القصيدة» ـ إن صحت تسميتها كذلك ـ طوراً من أطوار الشعر العربي الحديث، ولكنها تمثل اتجاهاً محدوداً على هامش الطور السابق. وهذه القصيدة تتحرر من الوزن والموسيقى كلياً وتبقي على الموسيقى الداخلية للعبارات، وتكتفي بإنشاء «الحال الشعرية» في أحسن الأحوال، مما قد يوجد في كثير من أشكال التعبير النثرية، الأمر الذي يجعل كثيرين من النقاد لا يصنفون النصوص المكتوبة بهذه الطريقة مع الشعر.

نتيجة لما تقدم يمكن القول إن الشعر العربي الحديث تأثر ببعض المذاهب الشعرية الغربية في الأطوار الثلاثة الأخيرة السابق ذكرها، ولكن لا يصح القول ـ على القطع ـ بأنه ظهرت فيه مدارس أو مذاهب أدبية كتلك التي عرفتها الآداب الغربية. وما سبق إيراده من «تسميات مدارس» إنما جاء من باب التجاوز لغرض التقريب والإيضاح. فحقيقة الأمر هي أنه توجد اتجاهات في الأدب العربي الحديث، وما ينقصها كي تسمى «مدارس» هو الأساس الفلسفي الذي تفتقده، والذي يعبر عن تغير في طبيعة النمو المجتمعي العام نمواً موازناً أو مكافئاً لما عرفه الغرب وكان منطلقاً ودافعاً لولادة مدارس الأدب عنده.

وهذا الأمر يقود من جديد إلى التذكير بالإشكالية التي سبق ذكرها في الكلام على مفهوم الحداثة في بدايات هذا البحث.

عزيزة مريدن، شكري محمد عياد، وائل بركات،
شكري الماضي. أحمد يوسف داود

مراجع للاستزادة:

- الجاحظ، البيان والتبيين (القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨).
- شوقي ضيف، العصر الجاهلي (القاهرة، دار المعارف ١٩٦٠).
- طه حسين، في الأدب الجاهلي (القاهرة، دار المعارف ١٩٥٨).
- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (دار المعارف، مصر ١٩٦٢)
- يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي: خصائصه وفنونه (بيروت، مؤسسة الرسالة ١٩٧٩).
- محمد النويهي، الشعر الجاهلي، جزآن (القاهرة).
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (دار الكتب والهيئة المصرية، مصر ١٩٢٧ وما بعدها).
- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر (القاهرة ١٩٦٦).
- ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف بمصر ١٩٦٠).
- أحمد الشايب، تاريخ الشعر السياسي في العصر الأموي (مصر ١٩٤٥).
- شوقي ضيف، التطور والتجديد في الشعر الأموي (دار المعارف بمصر ١٩٥٩).
- أنيس المقدسي، تطور الأساليب النثرية (بيروت ١٩٣٥).
- إحسان النص، الخطابة في العصر الأموي (دار المعارف بمصر ١٩٦٣).
- طه حسين، حديث الأربعاء، ج١ (مصر ١٩٥٣)
- شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، العصر العباسي الثاني (دار المعارف ـ القاهرة).
- زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع (بيروت ١٩٧٥).
- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزآن (٢، ٣).
- نجيب محمد البهبيتي، تاريخ الشعر العربي (القاهرة ١٩٦١).
- ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٥٦).
- محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي (القاهرة، دار المعارف ١٩٧١).
- بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي (بيروت، دار العلم للملايين ١٩٨٤).
- أسامة عانوتي، الحركة الأدبية في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر (بيروت، المطبعة الشرقية).
- محمود فاخوري، محاضرات في الأدب العثماني (حلب، مطبعة جامعة حلب ١٩٨١).
- زكي مبارك، المدائح النبوية (القاهرة، دار الكاتب العربي ١٩٦٧).
- ابن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين (المطبعة الملكية، الرباط ١٩٦٢).
- ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (لجنة التأليف والترجمة والنشر، جامعة القاهرة ١٩٣٩).
- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٦ـ ١٩٦١).
- ابن عذاري المراكشي، البيان المُغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال (دار الثقافة، بيروت ١٩٨٣).
- آنخل جونثالث بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، نقله إلى العربية حسين مؤنس (مكتبة النهضة، القاهرة ١٩٥٥)
- أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، ط٢ (مكتبة الخانجي بمصر ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م).
- إحسان عباس، العرب في صقلية (دار المعارف بمصر ١٩٥٩).
- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (ط محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ١٩٤٩، نشر دار الكتاب العربي، بيروت).

■ الأدب المقارن

يُعدُّ مصطلح «الأدب المقارن» comparative literature مصطلحاً خلافياً لأنه ضعيف الدلالة على المقصود منه. وقد نقده كثير من الباحثين ولكنهم في النهاية آثروا الاستمرار في استعماله نظراً لشيوعه. فمثلاً عدّه بول فان تييغم Paul Van Tieghem [ر] مصطلحاً غير دقيق، واقترح مصطلحات أخرى أقرب دلالة إلى موضوعه مثل: «تاريخ الأدب المقارن»، و«التاريخ الأدبي المقارن»، و«تاريخ المقارنة». واقترح ماريوس فرانسوا غويار M.F.Guyard مصطلحاً بديلاً هو «تاريخ العلاقات الأدبية الدولية». والملاحظ أن كلمة «تاريخ» هي المضافة في مختلف الاقتراحات البديلة، ذلك أن الأدب المقارن هو في الأصل تاريخ للعلاقات المتبادلة بين الآداب وللصلات والمشابهات المتجاوزة للحدود اللغوية والجغرافية، وفيما بعد أضيفت الحدود المعرفية.

وعلى أية حال، يبدو أن افتقار المصطلح إلى الدقة كان له بعض فضل في الإبقاء على وحدة هذا النسق المعرفي وفي مقدرته على استيعاب مناطق معرفية جديدة، أخذت تدخل نطاقه بعد منتصف القرن العشرين.

وترجع نشأة الأدب المقارن إلى العقد الثالث من القرن التاسع عشر، وربما إلى سنة ١٨٢٧ حين بدأ الفرنسي أبل فيلمان Abel Villemain يلقي محاضرات في السوربون بباريس حول علاقات الأدب الفرنسي [ر] بالآداب الأوربية الأخرى. والجدير بالذكر أنه استعمل فيها مصطلح «الأدب المقارن» وإليه يعود الفضل في وضع الأسس الأولى لمنطقه ومنطقته، في وقت بدأ يشهد تصاعد اهتمام العلوم الإنسانية في أوربة بالبعد المقارني في المعرفة، إذ نشأ «القانون المقارن» و«فقه اللغة المقارن» و«علم الاجتماع المقارن» وغيرها. وتعدُّ فرنسة المهد الأول للأدب المقارن، إذ استمرت تطوراته بعد فيلمان، وكان لذلك عوامل لغوية وسياسية واجتماعية وثقافية متداخلة أدّت إلى أن يكون الفرنسيون أول من تنبه إلى قيمة التراث المشترك بينهم وبين المناطق الأوربية الأخرى، مما خلق الأساس الأول للتفكير المقارني.

وفي البدء كان التطور بطيئاً، فبعد فيلمان ظهر جان جاك أمبير Ampère وألقى في مرسيلية سنة ١٨٣٠ محاضرات في الأدب المقارن لفتت إليه الأنظار وأتاحت له أن ينتقل بعد ذلك بسنتين إلى باريس ليلقي محاضرات حول علاقات الأدب الفرنسي بالآداب الأجنبية. وفي سنة ١٨٣٥ ظهرت مقالات فيلاريت شال Chales على صفحات مجلة باريس مؤكدة العلاقات المتينة بين الآداب الأوربية.

وعند نهاية القرن التاسع عشر أخذت تتلاحق التطورات وظهر جوزيف تكست Texte في ليون (١٨٩٦) وحاضر في الأدب الأوربي، وخلفه على منبر ليون فرنان بالدنسبرجر F.Baldensperger [ر] الذي ألف كتابه «غوتة في فرنسة» سنة ١٩٠٤، ثم سُمي أستاذاً في السوربون حينما أحدث فيها كرسي للأدب المقارن سنة ١٩١٠ وظهرت بعد ذلك مجلات وفهارس، وعرف الأدب المقارن طريقه إلى التطور النسقي منذ مطلع القرن العشرين. وإلى جانب فرنسة سجلت بعض البلدان الأوربية إسهاماً نسبياً في نشأة الأدب المقارن، وكانت إسهاماتها تتزايد مع تزايد نزعة «العالمية» في المعرفة ومع تزايد قوة الاتصالات والمواصلات في العالم. وقد ظهر أول كتاب في بريطانية عن الأدب في أوربة بين عامي ١٨٣٧ - ١٨٣٩، لهنري هالام H.Hallam، غير أن التطورات بعده كانت شديدة البطء. وفي ألمانية تأخر ظهور الأدب المقارن حتى ثمانينات القرن التاسع عشر، واشتُهر من مؤسسيه كاسبر دانيال مورهوف K.D.Morhof وشميدت Schmidt وموريتنر كاريير M.Carrière، ولم يدخل الأدب المقارن نطاق الدراسة المنظمة إلا بعد سنة ١٨٨٧ بفضل ماكس كوخ Max Koch الذي أصدر مجلة «الأدب المقارن». ولكن دخول الأدب المقارن إلى مناهج الجامعة لقي معارضة شديدة وتأخر حتى مطلع القرن العشرين.

وتعرقل ظهور الأدب المقارن في إيطالية بسبب حدة النزعة القومية. وفي عام ١٨٦١ أمكن إنشاء كرسي له في جامعة نابولي. ولكن بينيديتو كروتشه B. Croce [ر] تصدى للأدب المقارن وشنّ على أنصاره حملة قوية وحاول تسفيه منطقه، وبذلك كان له أثر في تاريخ تطور الدراسة المقارنة في إيطالية بسبب ما كان يتمتع به من نفوذ فكري.

وإذا كانت نهاية القرن التاسع عشر قد شهدت تطور الأبحاث التطبيقية في الأدب المقارن وبدء الاعتراف به في الجامعات فإن بداءة القرن العشرين شهدت تأسيس الوعي النظري لمنهج الأدب المقارن. وقد تابعت فرنسة تطورها السباق فنشأت فيها كراسٍ جديدة للأدب المقارن في الجامعات. ومنذ سنة ١٩١١ أخذ فان تييغم ينشر مقالات نظرية في المنهج المقارني. وفي عقد واحد تبلورت نظرته إلى الأدب المقارن في مقالاته في مجلة «الأدب المقارن» ورصيفتها مجلة «مكتبة الأدب المقارن».

وفي عام ١٩٣١ أصدر فان تييغم أول كتاب نظري عرفه العالم بعنوان «الأدب المقارن»، وظل هذا الكتاب مرجعاً أساسياً في بابه حتى اليوم، وترجم إلى عدد كبير من اللغات، ومنها اللغة العربية في منتصف القرن العشرين. وتتابعت بعد ذلك المؤلفات الفرنسية في الأدب المقارن نظرية وتطبيقاً، ومن أشهرها كتاب غويار «الأدب المقارن» عام ١٩٥١ وترجم كذلك إلى العربية عام ١٩٥٦. وبدءاً من هذا التاريخ أخذت تظهر في فرنسة تحديات لما يمكن تسميته بالنظرية الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن، وكان أبرزها الهجوم الحاد الذي شنّه رنيه إيتيامبل R. Etiemble على فان تييغم وغويار، وظهر بعد ذلك في كتابه «الأزمة في الأدب المقارن».

وقد تعثر الأدب المقارن في الدول الأوربية الأخرى ولم يصب تطوراً في بريطانية ربما حتى تسعينات القرن العشرين وكذلك كان شأن ألمانية وإيطالية والاتحاد السوفييتي. وإن كان ملاحظاً أنه ابتداء من الستينات انتعش الأدب المقارن في القارة الأوربية والعالم كله، وذلك مع ازدياد نشاط الرابطة الدولية للأدب المقارن AILC. وزاد من قوة هذا التطور النشاط الأمريكي المتسارع في مجال البحث المقارني وفي المؤتمرات الدولية، والحق أنه في سنوات معدودات حقق المقارنون الأمريكيون حضوراً مرموقاً في مختلف أوجه البحث المقارني مع أن الولايات المتحدة دخلت متأخرة نسبياً في حقل الأدب المقارن. ومن أجل استكمال الخريطة العامة لنشأة الأدب المقارن تحسن الإشارة إلى التواريخ الرئيسية التالية:

١٨٨٩ تولى تشارلز جيلي C.M.Geyley تقديم مادة النقد الأدبي المقارن في جامعة ميشيغن، ثم انتقل إلى جامعة كاليفورنية وأنشأ عام ١٩٠٢ قسماً للأدب المقارن.

١٨٩٠ - ١٨٩١ أنشأت جامعة هارفرد أول كرسي للأدب المقارن في أمريكة، تحول عام

١٩٠٤ إلى قسم كامل. وفي سنة ١٩٤٦ تولى رئاسته هاري ليفن Harry Levin وأعاد النظر في برامجه، وخلفه ولتر كايزر W. Kaiser.

١٩٠٢ جرى إحياء كرسي قديم للأدب العام يعود إلى سنة ١٨٨٦ في جامعة كورنيل Cornell على يد كوبر الذي أصبح فيما بعد رئيساً لقسم كامل للأدب المقارن فيها من ١٩٢٧ ـ ١٩٤٣.

على أن دراسة الأدب المقارن في أمريكة ظلت حتى العشرينات مختلطة بـ «الأدب العام» و«أدب العالم» و«الروائع» و«الإنسانيات». وفي الأربعينات بدأ يظهر تميزه في الجامعات وصاحب ذلك ظهور مجلات للأدب المقارن في عدة جامعات مثل أوريغون Oregon عام ١٩٤٩. ومن أهم التطورات في هذا المجال صدور المجلد الأول من «الكتاب السنوي للأدب العام والمقارن» Yearbook of General and Comparative Literature وذلك عن جامعة (شمال كارولينة) عام ١٩٥٢.

وفي عام ١٩٦١ انتقلت إدارة الكتاب إلى جامعة إنديانة Indiana، وما زال يصدر عنها حتى اليوم.

ومنذ الخمسينات بدأت تتوالى الكتب الجامعية في الأدب المقارن، وتسود فيها طريقة التأليف الجماعي أو الدراسات المجموعة، وتتنوع مادة هذه الكتب بين النظرية والتطبيق كما تتنوع وجهات النظر. ومن أبرز التطورات في تاريخ الأدب المقارن تأسيس الرابطة الدولية للأدب المقارن عام ١٩٥٥. وتعقد هذه الرابطة مؤتمراتها العامة كل ثلاث سنوات ولها نشاطات متنوعة، وقد عقد مؤتمرها الأول في البندقية بإيطالية. ومنذ ذلك الحين انحصرت مؤتمراتها واجتماعاتها في العواصم الغربية، حتى عام ١٩٩١ عندما عقد مؤتمرها الثالث عشر في طوكيو، وفي ذلك إيذان بتزايد إسهام اليابان في الأدب المقارن، وبخروج الرابطة جغرافياً من بوتقة الغرب. على أن الأدب المقارن بقي حتى اليوم علماً غربياً، وبقي إسهام المنظومة الاشتراكية فيه محدوداً، وأقل منه إسهام البلدان النامية.

ومنذ البدء اختلط مفهوم «الأدب المقارن» بمفهومي «الأدب العام» و«الأدب العالمي». والملاحظ أنه حتى نهاية الثمانينات وبعد كل ذلك التطور المهم الذي حققه الأدب المقارن، ما زالت هذه المفهومات مختلطة حتى في بعض الجامعات العريقة. ومن هنا كان الربط الدائم بين الأدب المقارن والأدب العام في تسميات الأقسام الجامعية في دول أوربية كثيرة. كذلك يلاحظ أن الكتاب السنوي الأمريكي ما زال يحمل تسمية الأدب العام إلى جانب الأدب المقارن، مع أن اهتماماته منصبة على الأدب المقارن. وقد آن أوان التفريق بين هذه الحقول المعرفية الثلاثة.

فالأدب العالمي world literature مصطلح من وضع غوته [ر]، وكان ينطوي على حلم بزمان تصبح فيه كل الآداب أدباً واحداً. ولكنه تحول بالتدريج إلى الدلالة على تلك السلسلة الذهبية من الأعمال الأدبية التي قدمتها قرائح من مختلف شعوب العالم، وترجمت إلى اللغات المختلفة، واكتسبت صفة الخلود، وارتفعت إلى مصاف الروائع classics المعترف بقيمتها الفنية والفكرية في كل أنحاء العالم، وبالطبع تنضوي هذه الروائع تحت تخصصات الأدب المقارن. والملاحظ أن سلسلة الروائع العالمية ظلت حتى ستينات القرن العشرين تحت تأثير المركزية الأوربية Euro - centralism، ولكنها أخذت تتسع بالتدريج لبعض الأعمال خارج نطاق الغرب، ربما بتأثير نمو التبادل الثقافي والتوسع في مفهوم الجوائز الأدبية العالمية.

أما الأدب العام general literature فمصطلح استعمل غالباً لوسم تلك الكتابات التي يصعب أن تُصنَّف تحت أي من الدراسات الأدبية والتي تبدو ذات أهمية متجاوزة لنطاق الأدب القومي. وهي أحياناً تشير إلى الاتجاهات الأدبية أو المشكلات أو النظريات العامة في الأدب، أو الجماليات. كما صُنِّفت تحت هذا العنوان مجموعات النصوص والدراسات النقدية والتعليقات التي تتناول مجموعة من الآداب ولا تقتصر على أدب واحد. وهكذا يتطابق الأدب العام أحياناً مع مبادىء النقد ونظرية الأدب، أي مع كل دراسة أدبية تركز على التنظير ولا تقتصر أمثلتها على أدب واحد. ويقل استعمال مصطلح «الأدب العام» اليوم ويكاد ينحصر في الدلالة على أنواع متفرقة من الدراسات الأدبية التي يصعب أن تُصنف في نطاق الأدب القومي أو العالمي أو المقارن.

ولم تزل الخلافات بشأن منطق الأدب المقارن ومنطقته قائمة حتى اليوم وإن كانت تضيق تدريجياً لتفسح في المجال لمفهوم مشترك سيجري تحديد عناصره هنا بعد استعراض تاريخيّة اتجاهات الأدب المقارن.

إن المفهوم الأصلي للأدب المقارن هو مفهوم ما يسمّى جوازاً «المدرسة الفرنسية التقليدية»، إذ حدد مؤسسها الفعلي بول فان تييغم الأدب المقارن «بأنه دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض» كما أكد جان ماري كاريه أن الأدب المقارن يعتمد على مفهوم التأثر والتأثير من خلال الصلات بين الآداب أو الأدباء من بلدان مختلفة، واستبعد المقارنات غير القائمة على الصلات من منهجية الأدب المقارن. كما رفض كل من كاريه وغويار فكرة التطابق بين الأدب العام والأدب المقارن. وعدّ غويار الأدب العام والأدب العالمي «مطمعين غَيْبيّين» وآثر أن يسمي الأدب المقارن، تاريخ العلاقات الأدبية الدولية. وقد تمسكت هذه المدرسة بالمنهجية التاريخية الصارمة، وحاولت تمييز منهجية الأدب المقارن ومنطقه ومنطقته من سائر الدراسات الأدبية واقتربت من العلمية والحياد، وتناولت أحياناً بمهارة، وأحياناً بآلية جامدة، مسائل مثل الشهرة الأدبية والنفوذ مثل غوته في فرنسة، وطوّرتْ منهجاً يذهب إلى أبعد من جمع المعلومات التي تتعلق بالمراجعات والترجمات والتأثيرات ليتفحص الصورة الفنية ومفهوم كاتب معيّن في وقت معيّن إلى جانب عوامل النقل المتعددة كالحوليات والمترجمين والصالونات والمسافرين، وكذلك وجّهت انتباهها إلى عوامل التلقي والجو الخاص والوضع الأدبي الذي أدخل فيه الكاتب الأجنبي، وبالإجمال: «فقد تم جمع كثير من الشواهد عن الوحدة الصميمة بين الآداب الأوربية خاصة، كما ازدادت معرفتنا بالتجارة الخارجية للأدب».

غير أن هذه المدرسة ما كادت تستوي على قدميها وتحقق وجوداً أكاديمياً معترفاً به حتى انبثقت من أحشائها أصوات معترضة تنكرها أشد إنكار، وقام رنيه إيتيامبل في الخمسينات، على رأس مجموعة من الكتاب اليساريين، بمهاجمة هذه المدرسة على أساس أنها تمثل المركزية الأوربية الاستعمارية وأنها قدمت آداب العالم جميعاً كما لو كانت منبثقة من بحر الآداب الأوربية أو منصبةً فيه، ولم تُعط آداب آسيا وإفريقية وأمريكة اللاتينية حقها من البحث والاستقصاء. وقد هاجم إيتيامبل زميله

غويار واتهمه بالتعصب الإقليمي والقومي وتركيز كل أضواء التأثير على الأدب الفرنسي، وطالب المقارنين أن ينحوا جانباً «كل شكل من أشكال الشوفينية والإقليمية وأن يعترفوا أخيراً أن حضارة الإنسانية التي جرى في سياقها تبادل القيم على مدى آلاف السنين لايمكن أن تُفهم أو تتذوق من دون إشارات متواصلة إلى هذه التبادلات التي تقتضي تركيبتها منا ألاّ نركّز نظام بحثنا حول لغة واحدة معينة أو بلد واحد معيّن».

وابتداء من الستينات بدأت الأفكار الأمريكية ذات الطابع العملي والانفتاحي تسيطر على ساحة الأدب المقارن. وقدم رينيه ولك نظرات تركيبية شمولية وفي الوقت نفسه انبرى هنري رماك H. Remak بتقديم اتجاه جاد للخروج من المعضلة، وذلك في مقالة له مشهورة نشرها عام ١٩٦١، ثم أعاد نشرها منقحة ومزيدة ومفصلة عام ١٩٧١، وفيها راجع مفهومات الأدب المقارن واتجاهاته بنفسٍ علمي جريء ومسؤول وانتهى إلى توسيع منطقه ومنطقته على النحو التالي:

«الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معيّن، ودراسة العلاقات بين الأدب ومجالات أخرى من المعرفة والاعتقاد مثل الفنون كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى، والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية كالسياسة والاقتصاد والاجتماع، والعلوم، والديانة، وغير ذلك. وباختصار هو مقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني».

ويلاحظ على هذا التعريف: أنه ينطلق من فكرة التأثر والتأثير ليتجاوزها إلى المشابهة أي أنه يركز على العلاقات ولايجعلها شرطاً لازباً، وأنه يضيف بعداً جديداً إلى منطقة الأدب المقارن بدفعه إلى دراسة العلاقات بين الأدب وحقول المعرفة الأخرى ولاسيما الفنون. وبذلك يسجل نقطة إضافية شديدة الأهمية. وقد بدا رماك متساهلاً في موضوع صلة الأدب المقارن بالتذوق الأدبي، ولكنه بالنتيجة احتفظ بجوهر منطق الأدب المقارن وهو دراسة الأدب خارج حدوده الجغرافية واللغوية والمعرفية. وتبدو نظرية رماك أكثر قبولاً اليوم في العالم.

ومن الملاحظ أن بلدان أوربة الشرقية لم توجه عناية خاصة للأدب المقارن، وكانت منطلقاتها بوجه عام مستوحاة من ثورة إيتيامبل.

وتُعدُّ هنغارية ويوغسلافية أكثرها احتفاءً بالأدب المقارن.

والملاحظ أنه جرى دائماً تساؤل حول وظيفة الأدب المقارن وامتحان لها. ومثل هذا التساؤل لايتم عادة إلا على الحقول المعرفية المستجدة، ذلك أن العلوم لاتقدم نفسها تقديماً نفعياً مباشراً. ومع ذلك يمكن القول إن الأدب المقارن:

- يقدم فهماً للأدب أفضل وأكثر شمولاً وأقدر على تجاوز جزئية أدبية منفصلة أو عدة جزئيات معزولة،

- ويميز ما هو محلي وما هو إنساني مشترك،

- ويحدد الصلات والمشابهات بين الآداب المختلفة وبين الأدب وحقول المعرفة الأخرى،

- ويسهم في تخليص الأقوام من النزعة الشوفينية والنرجسية المسيطرة في مجال الآداب القومية المختلفة.

- ويقدم للنقد الأدبي ودارسي الأدب فرصة ممتازة لتوسيع آفاق معرفتهم وتوثيق أحكامهم حتى الجمالية منها، لأن المقارنة تبقى أقوى أسلحة الناقد إقناعاً،

- ويقدم فرصة ممتازة لتطور نظرية أدبية قائمة على فهم طبيعة امتدادات الأدب خارج حدوده.

وقد جرت الإشارة في ثنايا البحث إلى أعلام الأدب المقارن البارزين وإلى أبرز المؤسسات والمنظمات والمجلات التي تُعنى به وتضع نفسها في خدمة مجالاته.

وإذا انتقل الدارس إلى الأدب العربي وجد أن الأدب المقارن حقل معرفي فتي لاتكاد تبين له أصول في التراث الأدبي القديم، ذلك أنه كان لدى العرب في الماضي اعتداد خاص باللغة والشعر وإشاحة نسبية عن آداب الأمم الأخرى، مما أدّى إلى أن يكون نشاطهم في حقل التبادل الأدبي أقل من نشاطهم في الحقول المعرفية الأخرى كالعلوم والفلسفة على أن غير العرب تأثروا تأثراً واضحاً بالأدب العربي فدرسوه وألّفوا على غراره. وفي عصرنا الحاضر ما زال هذا التيار من الاعتداد بالأدب واللغة فاعلاً بحيث يخلق رأياً عاماً لايستريح إلى المقارنات مع الآداب الأخرى ويجهد في تأكيد الأصول العربية للفنون الأدبية الوافدة كالقصة والمسرح. ومن الملاحظ أن معظم الأدباء البارزين في عصر النهضة كانوا أكثر انفتاحاً في مجال التفاعلات الأدبية، ووضعوا أساساً لنهضة الأدب المقارن

في عصرنا. وكان لرواد النهضة الأدبية في الشام أثر كبير في الاستنارة الأدبية، وهكذا لمعت، إلى جانب بناة النهضة من أبناء الكنانة مثل رفاعة الطهطاوي [ر] وعلي مبارك [ر] والشيخ حسن المرصفي، أسماء شامية مبكرة في مجال المقارنة مثل أديب إسحاق [ر] وأحمد فارس الشدياق [ر] ونجيب الحداد، وتميز من بينهم علمان بارزان، هما سليمان البستاني [ر] وروحي الخالدي [ر]، وضعا حجر الأساس للبحث التطبيقي في الأدب المقارن على الرغم من أنهما لم يشيرا إلى المصطلح بكلمة واحدة.

وتتلخص جهود البستاني في هذا الحقل بتعريب «الإلياذة» الذي استغرق منه ثماني سنوات (١٨٨٧-١٨٩٥) وبمقدمتها المقارنية التي استغرقت منه ثماني سنوات أخرى، وقد أنجز شروح الإلياذة ومقدماتها في ٢٠٠ صفحة أواخر سنة ١٩٠٣. وأجرى البستاني مقارنات جريئة بين الملحمة اليونانية والشعر القصصي العربي وأكد وجود ملاحم عربية قصيرة تختلف عن الملاحم الإفرنجية الطويلة، وانطلق من هذه المقارنة للتوصل إلى أحكام شاملة تتعلق بالشعر الجاهلي والشعر اليوناني القديم، وحكم لصالح الشعر الجاهلي، وأشار بعد ذلك إلى التشابه بين عبقرية ابن الرومي [ر] وعبقرية هوميروس [ر]. وكذلك كتب البستاني مقالاً حوى شيئاً من تاريخ الشعر عند العرب والإفرنج. وهكذا يكون البستاني صاحب سبق لاينكر في مجال الدراسة المقارنة، وإن كانت مقارناته تدل على أن ثقافته الأصلية كانت عربية تقليدية وأن ما قرأه من أفكار أدبية غربية ليس أكثر من نوافذ صغيرة للمقارنة.

وعند انثناءة القرن التاسع عشر، على أية حال، ساد مناخ عام للمقارنة، أسهم فيه الشاعر أحمد شوقي [ر]، وكتاب مثل خليل ثابت وأسعد داغر ونقولا فياض [ر] ويعقوب صروف[ر]، وحملت مجلة «المقتطف» آنذاك رسالة الوعي المتفتح.

وإذا ترك الدارس الأشخاص وانتقل إلى الأعمال المفردة فإنه يجد أن الكتاب العربي الأول المكرس للأدب المقارن التطبيقي هو كتاب «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفكتور هوغو» للكاتب المقدسي روحي بن ياسين الخالدي. وقد نُشر الكتاب مقالات متسلسلة في مجلة «الهلال» بين سنتي ١٩٠٢-١٩٠٣،

ثم طبعته دار الهلال سنة ١٩٠٤ وطبع ثانية سنة ١٩١٢، وأعيد طبعه سنة ١٩٨٥.

وهذا الكتاب مؤلف نوعيً في الأدب المقارن التطبيقي لا تنقصه سوى التسمية المقارنية، وتتصدره على الغلاف الفقرة المقارنية التالية:

«وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية في علم الأدب عند الإفرنج وما يقابله من ذلك عند العرب إبان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى، وما اقتبسه الإفرنج عنهم من الأدب والشعر في نهضتهم الأخيرة وخصوصاً على يد فكتور هوغو. ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته ومنظوماته وغير ذلك».

وكتب الخالدي مقدمة للكتاب بالفرنسية تنبيء عن حسه المقارني. وأورد في كتابه مقارنات ومقابلات ودراسات للتبادلات الأدبية بين العرب والفرنجة، وترجمات وتعليقات، تدل كلها على أنه كان شديد الالتصاق بالمنهج المقارني.

وتوالى بعد الخالدي الاهتمام بالدراسات التطبيقية ذات الطابع المقارني، ومن أقدمها سلسلة مقالات نشرها فخري أبو السعود على صفحات «الرسالة» في الأعوام١٩٣٥ - ١٩٣٧ وقابل فيها بين الأدب العربي والأدب الإنكليزي من دون اعساء بناحية التأثر والتبادل. وفي عام ١٩٣٥ كذلك ظهر الجزء الثالث من كتاب الأديب الحلبي قسطاكي الحمصي [ر] المعنون «منهل الورّاد في علم الانتقاد» وتضمن بحثاً مطولاً عن «الموازنة بين الكوميدية الإلهية ورسالة الغفران»، وفي الثلاثينات أيضاً نشر عبد الوهاب عزام دراسات في مجلة «الرسالة» حول العلاقات بين الأدب العربي والأدب الفارسي.

وفي الأربعينات ظهر كتاب لإلياس أبو شبكة بعنوان «روابط الفكر بين العرب والفرنجة» ظهرت الطبعة الثانية من الكتاب عن دار المكشوف في بيروت عام ١٩٤٥، وهو ذو موضوع مقارني واضح. وبالتدريج انتعش هذا النوع من الدراسات واغتنى وتعددت وجهاته.

ومن الملاحظ أن اسم فخري أبو السعود ورد آنفاً في باب الدراسات التطبيقية خلافاً لما درجت عليه المصادر العربية حتى الآن من نسبة الريادة النظرية إليه. ويبدو أن فخري أبو السعود لم يستخدم مصطلح الأدب المقارن ولم يكشف عن معرفة به، على الرغم من سبقه في مجال الدراسة التقابلية أي غير القائمة على التأثر والتأثير، وأن مصطلح الأدب المقارن ظهر في «الرسالة» أول ما ظهر على يد الكاتب الشامي خليل هنداوي في سلسلة مقالات بعنوان:

ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي، اشتغال العرب بالأدب المقارن أو ما يسميه الفرنجة Littérature Comparée، في كتاب «تلخيص كتاب أرسطو في الشعر» لفيلسوف العرب الأول ابن رشد.

وقد ظهر هذا العنوان في «الرسالة» (الأعداد من ١٥٤ - ١٥٦ من المجلة) بتاريخ ٨/٦/١٩٣٦، وتكرر في أعداد ثلاثة تالية. وحملت المقالة الأولى مقدمة نظرية عن الأدب المقارن ومنهجه ومزاياه تُعد الأولى من نوعها في الأدب العربي.

والجدير بالذكر أن مقرر الأدب المقارن ظهر أولاً في أدبيات دار العلوم بالقاهرة سنة ١٩٣٨، ولكن المصطلح احتفى بعد ذلك ليظهر في أواخر الأربعينات في سلسلة من الكتب الجامعية تعاقبت بمعدل كتاب كل سنتين تقريباً، وصدر أولها سنة ١٩٤٨ في القاهرة بعنوان «من الأدب المقارن» لنجيب العقيقي، وتضمّن شذرات من الأدب العام والنقد النظري غير ذات صلة مباشرة بالعنوان. وفي عام ١٩٤٩ ظهر كتاب عبد الرزاق حميدة «في الأدب المقارن» كما ظهر عام ١٩٥١ كتاب مقارني لإبراهيم سلامة. وكان أهم تطور تأليفي في الموضوع ظهور كتاب الدكتور محمد غنيمي هلال بعنوان «الأدب المقارن» في القاهرة عام ١٩٥٣. ويُعد هلال بحق مؤسس الأدب العربي المقارن، وكان كتابه أول محاولة عربية ذات وزن أكاديمي في منهجية الأدب المقارن، وبدا شديد التمسك بمبادىء المدرسة الفرنسية التقليدية. وفيما بعد طبع الكتاب عدة طبعات وخرّج جيلاً كاملاً من المهتمين بالأدب المقارن.

وبعد الخمسينات تطور تدريس الأدب المقارن في الجامعات العربية بخطوات غير حثيثة. وألفت كتب جامعية متفرقة اعتمدت كثيراً على كتاب غنيمي هلال. ولكن بدأت تبرز في الثمانينات اتجاهات جديدة على يد الجيل التالي، مؤذنة بحلول مرحلة نهوض جديدة أكثر وعياً للتطورات العالمية الحية.

ومن أهم تطورات الأدب المقارن العربي قيام «الرابطة العربية للأدب المقارن» التي عقدت الملتقى التحضيري في جامعة عنابة بالجزائر عام ١٩٨٣، والملتقى الأول في عنابة أيضاً عام ١٩٨٤، ثم المؤتمر الثاني في جامعة دمشق ١٩٨٦، والثالث في مراكش ١٩٨٩. ويشير وضع الثقافة العربية المعاصرة إلى أن الأدب المقارن يبشر بمستقبل ذي شأن في رحاب الجامعات العربية وخارجها.

حسام الخطيب

مراجع للاستزادة:

- حسام الخطيب، الأدب المقارن (١، ٢)، (دمشق ١٩٨١ - ١٩٨٢).
- م. ف. غويار، الأدب المقارن، ترجمة محمد غلاب (سلسلة الألف كتاب، القاهرة ١٩٥٦)
- بول فان تييغم، الأدب المقارن (القاهرة ١٩٤٨).
- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن (القاهرة ١٩٥٣).

- R. ETIEMBLE, The Crisis in Comparative Literature (Michigan State University Press 1966).
- N. B. STALKNECHT & H. FRENZ, Comparative Literature . Method and Perspective, Revised Edition (South Illinois University press, London & Amsterdam 1973).

■ الادخار

الادخار L'epargne ظاهرة اقتصادية أساسية في حياة الأفراد والمجتمعات، وهو فائض الدخل عن الاستهلاك، أي إنه الفرق بين الدخل وما ينفق على سلع الاستهلاك والخدمات الاستهلاكية. لذلك يطلق بعضهم أيضاً على الادخار لفظ «الفائض».

ويكمن الادخار في اقتطاع يستهدف تكوين احتياطي، علماً أن هذا الاحتياطي يمكنه أن يفيد بالتناوب للاستثمار أو لاستهلاك آجل.

المنظور التاريخي

تبلور مفهوم الادخار منذ بدء الفكر الاقتصادي المنظم بالعلاقة مع مفهوم الفائض الاقتصادي. فهو من الدلالات العميقة التي تكمن خلف اهتمام الفكر الاقتصادي للتجاريين «المركنتيليين» بميزان

تجاري إيجابي وزيادة الاحتياطي من الذهب والفضة بوصفهما الثروة الرئيسة المرغوب فيها. وقد أبرز التجاريون أهمية المعادن الثمينة لأنهم عاشوا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، إذ سادت فيهما الحروب بين الدول وقل الإنتاج وزاد الخوف من قلة الأغذية والمواد الأولية فكان تملك احتياطي ذهبي يعني تملك مزية الشراء نقداً إضافة إلى المزايا الاقتصادية والسياسية الأخرى. وهذا يعني أيضاً أن على الدولة أن تتدخل لتوجيه الاقتصاد الوطني. فالفكر الاقتصادي للتجاريين كان مرتبطاً بمرحلة البرجوازية النامية في حضن الإقطاع، وكان على هذه البرجوازية الناهضة آنذاك أن تدعم نفسها بقوة الدولة.

ويعد الادخار كذلك من المعاني التي يوحي بها الفكر الفيزيوقراطي الخاص بإنتاجية العمل الزراعي. فمن المعروف أن ما يميز الإنتاجية لدى أصحاب هذا الفكر هو أن العمل الزراعي يوفر فائضاً في حين أن غيره من الأعمال لا يضمن ذلك.

ويظهر مع التقليديّيْن الكبيرين سميث وريكاردو، وهما من أصحاب مذهب الحرية الاقتصادية، الاهتمام الواضح بالادخار واستخدامه المثمر. إن سميث يقدم نموذجاً لزيادة الثروة والازدهار يقوم على قاعدة التراكم الرأسمالي. فكل ازدهار اقتصادي مشروط بتكوين رأسمالي سابق، ولكي يتحقق هذا التكوين لا بد أن يسبقه الادخار. يقول سميث في كتاب «ثروة الأمم»: «إن رأس المال يزداد بالادخار ويتناقص بالهدر وسوء الإدارة ... والصناعة التي غدت تحقق المزيد من الادخار، ماذا كان بإمكانها أن تعطي من دون الادخار»، وعلى هذا الأساس «فإن زيادة الادخار تؤدي إلى زيادة رأس المال الثابت، أي زيادة توسع الصناعات الحقيقية ثم زيادة كمية العمل المنتج المستخدم، مما يتيح تقسيماً أكبر للعمل الاجتماعي ورفعاً لمستوى الإنتاجية مما يؤدي إلى زيادة كمية الإنتاج الإجمالي وقيمته وذلك باتجاه تحقيق رفاهية السكان». ومشهور هجوم سميث على ما كان يعده تبديداً للفائض على يد الدولة الإقطاعية،والملكية وانتقاده نفقات النبلاء وأثرياء التجار لأنهم يستخدمون الفائض الاقتصادي بطريقة غير منتجة.

وكان لريكاردو الاهتمامات نفسها، فهو يعتقد أن من الضروري للتقدم الاقتصادي أن يزيد الإنتاج إلى أقصى حد ممكن، وأن يؤلف الجزء الأكبر من هذا الحد الأقصى فائضاً يمتلكه المنظِّم الذي يعيد استثماره. وهذا هو ما يجعل ريكاردو ينادي بأن تكون الأجور في أقل مستوى ممكن، وكذلك دخول الملاك العقاريين.

ويُرى في مؤلفات الاقتصاديين التقليديين كلهم الاهتمام نفسه بتحديد الطبقات الاجتماعية التي يؤول إليها الفائض الاقتصادي وكيف تستخدم ذلك الفائض، وبأثر هذا الاستخدام في الادخار والنمو الاقتصادي.

كان الكتاب التقليديون لا يفرقون التفريق الكافي بين عملية الادخار وعملية الاستثمار، وكانوا يرون أن الأموال المدخرة لا بد أن تتجه إلى نواحي الاستثمار المختلفة بصورة تلقائية، وهو ما يسمى أحياناً بالاستثمار التلقائي. إن هذا التحليل يلخصه الاقتصادي الفرنسي التقليدي ساي بقوله إن العرض يولد الطلب ويعني ذلك أن الدخل لا بد أن ينفق كله، إما في الاستهلاك وإما في الاستثمار، على أساس أن جميع الادخارات لا بد أن تستثمر.

وقد بدأ ماركس من تحليل الاقتصاديين التقليديين بعد وضع النظام الرأسمالي في إطار التطور التاريخي، وأكد أن الشكل المحدَّد للفائض الاقتصادي وحجمه وأسلوب تملكه وطريقة استخدامه تُعبر كلها عن مرحلة معينة من تطور العمل وتطور إنتاجيته. وعند صوغ هذه الملاحظة ألح ماركس على عرض الأشكال التاريخية المختلفة التي اتخذها الفائض الاقتصادي والدور الذي قامت به تلك الأشكال المختلفة في التاريخ، محدداً بذلك جوهر الادخار ومصادره الأساسية في الأنظمة الاجتماعية المختلفة.

ويختفي مفهوم الفائض الاقتصادي من مؤلفات معظم الاقتصاديين غير الماركسيين الذين كتبوا بعد مرحلة ١٨٥٠ ـ ١٨٧٠. فهناك أولاً التحولات الاقتصادية والاجتماعية نفسها في البلاد التي كان هؤلاء الاقتصاديون يعيشون فيها. ففي ذلك العصر كانت تلك البلاد قد بلغت مرحلة الرأسمالية المتطورة، فلم تبقَ هناك جدوى في النضال ضد التبديد الإقطاعي لأن هذا التبديد كان قد اختفى عملياً، وفي مثل هذه الظروف كان المقدار الاقتصادي الأكثر دلالة فيما يتعلق بالنمو هو الاستثمار لا الفائض.

إضافة إلى أن تحليلهم كان على مستوى المشروع والمستهلك. وفي هذا المستوى لا يبدو الاستثمار نابعاً من فائض اجتماعي، وإنما يبدو صادراً عن قرار فردي.

ولم تدرك الدولة الرأسمالية في مرحلة سابقة أهمية تعليل الدلائل الاقتصادية الأساسية، ومنها الادخار على مستوى الاقتصاد القومي، هذا الادخار الذي لا بد منه لكي يكون الحجم الكلي للاستثمار كافياً، فقد أصبحت هذه المهمة من أبرز المهمات الاقتصادية للدولة بعد الحرب العالمية الأولى لمعالجة إفرازات الدورة الاقتصادية وكوارثها ولا سيما بعد صدور كتاب جون مينارد كينز «النظرية العامة» ونظريته في أسلوب معالجة الأزمات الاقتصادية.

لقد استنتج الاقتصاديون المحدثون أن عملية الادخار غير عملية الاستثمار وأن المدخر غير المستثمر، وأن الحوافز على الادخار غير الحوافز على الاستثمار، وبينوا أن الأموال المدخرة تتعادل مع الأموال المستثمرة، لا عن طريق سعر الفائدة، ولكن عن طريق الدخل القومي. ويحدث ذلك عند أي مستوى من الدخل القومي.

الادخار في الفكر العربي

لا يجد الباحث في المصادر المتوافرة عن الحضارة العربية الإسلامية مدارس اقتصادية بالمعنى الحديث للكلمة، ولكنه يجد الكثير من الأفكار والقواعد الاقتصادية التي تستمد من القرآن الكريم أو السنة الشريفة أو فقه الصحابة والفقهاء المسلمين الذين جاؤوا بعدهم،كما يجد الكثير من الشروح في كتابات العلماء والفلاسفة العرب. ففي مجال الادخار يقر الإسلام الوظيفة الاجتماعية المهمة للمال المدخر ويبدو ذلك في تحديده للالتزامات الواقعة على مالك المال في استثمار ماله فيما يفيد والتزام الزكاة والإنفاق في سبيل الله، وعدم استعمال المال على نحو يلحق الضرر أو الأذى بالآخرين أو بمصلحة الجماعة، وعدم الإبقاء على المال عاطلاً وعدم جواز اكتنازه وعدم الإسراف في إنفاقه.

وكان لابن خلدون أهمية كبيرة في الفكر الاقتصادي،ويذكر في دراساته أن العمل يوجد القيمة، ويبين أهمية تقسيم العمل في زيادة إنتاجية العامل وفي زيادة الدخل، وقد أشار إلى دور المعادن النفيسة في الجهاز الاقتصادي

من حيث إمكان استخدام الذهب والفضة نقوداً ووسيطاً في المبادلات، وبيّن كيف تؤدي زيادة الطلب على السلع إلى ارتفاع أسعارها، وأشار إلى سوء توزيع أعباء الضرائب وأوصى بالتخفيف من الضرائب لآثارها الاقتصادية. ففي واقع الأمر اهتم ابن خلدون بالظواهر الاقتصادية الجزئية، كما اهتم بالاقتصاديات الكلية، فهو يقرر مثلاً أن الطلب يزيد بزيادة الدخل، ويقرر أن الدخل يتوقف على الإنتاج وأن إنفاق شخص أو قطاع، هو دخل لشخص آخر، أو قطاع آخر. وزيادة الطلب، عند ابن خلدون، تزيد الإنتاج من الصناعات القائمة، كما تولد صناعات جديدة.

ولقد أبرز ابن خلدون أهمية الادخار في التنمية إذ يقول: «ومتى زاد العمران زادت الأعمال ثانية، ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته، واستنبطت الصنائع لتحصيلها، فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول.

وكذا في الزيادة الثانية والثالثة، لأن الأعمال الزائدة تختص بالترف والغنى بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش. فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه .. حتى تنتهي إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضروراتها، ولا تعد من الأمصار، إذ هي من قبيل القرى والدساكر، فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة، كما أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم، ولا يفضل ما يتأثلونه كسباً، ولا تنمو مكاسبهم، وهم لذلك مساكين محاويج إلا الأقل النادر».

الادخار الاختياري والادخار الإجباري

يمكن تقسيم الادخار في الاقتصاد الحديث إلى قسمين: الادخار الاختياري والادخار الإجباري.

الادخار الاختياري: وهو الادخار الحر الذي يقوم به الفرد طوعاً واستجابة لإرادته ورغبته نتيجة لموازنته بين وضعين: وضع إقدامه على إنفاق دخله ووضع إمساكه عن هذا الإنفاق. وتسهم جملة من الإجراءات والسياسات في زيادة حجم الادخار الحر عن طريق إيجاد الوعي الادخاري لدى المواطنين وتنميته، ودعم الضمانة والثقة بالادخار، وتطوير المؤسسات الادخارية وتوسيعها وتحسين خدماتها.

ولا تزال المؤسسات الادخارية في البلدان النامية محدودة العدد وقاصرة على تقديم الخدمات الضرورية للمدخر نتيجة لأسباب إدارية وفنية، إضافة إلى أن الادخارات الفردية مقصورة في الغالب على المدخرين في المدن، ويكاد الادخار أن يكون معدوماً في المناطق الريفية لعدم وجود فروع للمؤسسات الادخارية كالمصارف وصناديق توفير البريد.

الادخار الإجباري: وهو ادخار يجبر عليه الأفراد نتيجة لمقتضيات قانونية أو لقرارات حكومية أو قرارات الشركات. وقد انتشر الادخار الإجباري في الاقتصاد الحديث وفي مقدمة مجالاته المجالات الخمسة التالية:

- **نطاق الادخار التقاعدي لدى صناديق المعاشات والتأمينات الاجتماعية**: وهذا النوع من المدخرات له أهمية خاصة لاتساع مجاله ولتمتعه بصفة الاستمرار والثبوت.

- **نطاق ادخار الشركات**: وهذا النوع من المدخرات يتكون عندما تقرر الهيئة العامة لإحدى الشركات دعم احتياطياتها أو عدم توزيع قسط من أرباحها قصد القيام بتمويل ذاتي، فيترتب على ذلك تناقص في الأرباح الموزعة على المساهمين.

- **نطاق الادخارات عن طريق الضرائب**: إذ تُحصّل الدولة الكثير من الأموال مما يوفر لها إمكانات أكبر للاستثمار في المشروعات الإنمائية من جهة، وتقليص الاستهلاك من جهة أخرى، ولا سيما الاستهلاك الخاص المرتبط بالتبذير والإنفاقات غير المسوَّغة.

وللضرائب في الاقتصاديات الرأسمالية المتقدمة أثر مهم في معالجة المشاكل الناجمة عن الدورة الاقتصادية وإفرازاتها وإعادة توزيع الدخل الوطني وتغذية خزانة الدولة، ولا سيما في المراحل التي تزيد فيها النفقات زيادة كبيرة إثر الاندفاع نحو التسلح.

أما في الدول النامية، فإن للضرائب أثراً كبيراً في خدمة تمويل التنمية، وهي تسوَّغ بالدرجة الأولى بضعف إمكانات الادخار الحر وضرورة تحقيق الأهداف التالية: ضغط الاستهلاك وكبح جماحه وتحويل الموارد منه إلى الاستثمار، وتحويل موارد مبعثرة من أيدي الأفراد إلى يد الدولة لتمويل الاستثمار العام، وتوفير الحوافز لزيادة الاستثمار وتوجيهه، وتقليل الفوارق الاقتصادية.

- **القروض**: ويمكن تقسيمها إلى قسمين: القروض الداخلية والقروض الخارجية.

إن القروض العامة الداخلية هي الأداة التي يُلجأ إليها بسبب شح الادخار الحر وقصور الادخار الإجباري ممثلاً في الضرائب. ويسوَّغ الاقتراض الداخلي في الدول النامية غالباً بتفشي ظاهرة الاكتناز وانتشار ظاهرة الإنفاق الكمالي والمظهري والتفاخري وتدفق الاستثمارات إلى الميادين غير المنتجة، إذ يساعد الحصول على القروض وتوجيهها وفقاً لأهداف الخطة العامة للدولة وعلى أساس معايير الاستثمار مساعدة كبيرة في دعم جهود التنمية الاقتصادية. وتعترض سبيل الاقتراض الداخلي في الدول النامية مصاعب منها عدم توافر سوق نقدية منتظمة لتداول القروض القصيرة الأجل، وعدم نضج سوق رأس المال للتعامل في السندات الحكومية وسندات الشركات التجارية والصناعية، وعدم نماء العادة الادخارية المصرفية وضعف كفاية أجهزة تعبئة المدخرات وصغر حجم القطاع الصناعي.

أما القروض الخارجية فهي الأداة التي تلجأ إليها الدولة بسبب قصور التمويل المحلي ورغبتها في تجنب بعض المخاطر الاقتصادية الداخلية كالتدهور النقدي أو عدم الرغبة في تحمل ضرائب أعلى.

وتساعد القروض الخارجية، إذا أحسن استخدامها، على زيادة الناتج وتنمية الصادرات وبدائل المستوردات، مما يسهم في زيادة الدخل الوطني والمدخرات الوطنية وتحسين الميزان التجاري، كما تعاون على منع التضخم وتجنب تدهور العملة الوطنية.

- **التمويل التضخمي**: إذا لم يتيسر استدراك الفائض الاقتصادي من قطاعات الاقتصاد القومي طواعية بفضل الادخار الحر أو كرهاً بوساطة الضرائب أو عن طريق القروض، فإنه يمكن أن يُستَحْدث ادخارٌ بزيادة وسائل الدفع والائتمان ثم الاستحواذ عليها واستخدامها في تمويل التنمية باسم التمويل التضخمي.

والتمويل التضخمي أو التمويل بالعجز وسيلة لتحويل الموارد من الاستهلاك الجاري إلى التكوين الرأسمالي بإصدار نقود أو ائتمان لسد الفجوة التي تحدث في تمويل خطة التنمية

الاقتصادية.

وتختلف الحال فيما يتصل بوسيلتي التمويل بالعجز أي الائتمان المصرفي وإصدار النقود. يجب في الحالة الأولى توفية السلف المصرفية بعد انتهاء أجلها فتتحقق وسيلة للسحب التلقائي للقوة الشرائية الإضافية التي ألقي بها في التداول، الأمر الذي لا يحدث في حالة إصدار النقود مما يحتاج إلى عملية بطيئة وصعبة.

ويتحقق التمويل بالعجز غالباً في الدول المتقدمة اقتصادياً بالحصول على الائتمان من الجهاز المصرفي، في حين يكون في الدول النامية غالباً عن طريق إصدار النقود.

الادخار بين الاستثمار والاكتناز

كان التقليديون يخلطون بين الادخار والاستثمار لأنهم يرون أن الادخار هو قرار بعدم استهلاك قسط من الدخل واستعماله في استثمارٍ أي في شراء رؤوس أموال، فكانوا يتصورون وضع المنظم الأوربي التقليدي الذي يستغلّ رأس ماله بنفسه ويمسك عن نفقات الاستهلاك قصد الزيادة من الاستثمارات. أما اليوم فقد استقلت عملية الادخار عن عملية الاستثمار لأن الأشخاص الذين يقومون بالعملية الأولى يختلفون في الغالب عن الأشخاص الذين يقومون بالعملية الثانية. فالادخار هو تنازل عن استهلاك قسم من الدخل، وقد تتعلق عملية الادخار هذه بالأفراد والأُسر أو بالمشروعات أو بالدولة.

وتتوجه الادخارات بمعظمها في الاقتصاد الحديث إلى المؤسسات المصرفية والمالية في شكل ودائع أو بمقابل شراء أسهم، وتقوم هذه المؤسسات بتوجيه هذه الادخارات إلى قطاع الإنتاج لتستثمرها، وهناك قسط من الادخار يبقى جامداً خارج الدورة النقدية وهو الذي يكوّن الاكتناز ويشمل الأموال التي تبقى بيد أصحابها في شكل سيولة أو في شكل بعض المواد التي يضمن عدم تغير قيمتها مثل الذهب والصوف. وليس لهذه الأموال أي دور اقتصادي نافع لأنها لا تدخل في مجال الاستثمار.

دوافع الادخار

تقوم عملية الادخار على دعامتين أساسيتين هما: القدرة الادخارية والرغبة الادخارية.

فالقدرة الادخارية هي قدرة الفرد على تخصيص جزء من دخله من أجل المستقبل، وهي تُحدَّد بالفرق بين حجم الدخل وحجم الإنفاق، ويتوقف هذا الأخير على نظام معيشة الفرد وسلوكه وتصرفاته، ومن ثم فإن القدرة الادخارية ليست متوقفة على حجم الدخل المطلق، بل هي مسألة نسبية تختلف من فرد إلى آخر وتتغير بتغير الظروف.

أما الرغبة الادخارية فهي مسألة نفسية تربوية تقوى وتضعف تبعاً للدوافع التي تدعو للادخار ومقدار تأثر الفرد والطبقات الاجتماعية بهذه الدوافع.

وأهم الدوافع النفسية للادخار هي عطالة معينة في الاستهلاك عندما يرتفع الدخل، والرغبة في تنظيم النفقات تبعاً للتغيرات المتوقعة أو غير المتوقعة في المُركَّب «دخل ـ حاجة»، والرغبة في الإثراء.

أما الظروف التي تحدد درجة نشاط الدوافع الموضوعية فهي بالدرجة الأولى: الدخل، ومعدل الفائدة، والنظام المالي، ودرجة الاستقرار الاجتماعي والدولي، والنظام الاقتصادي ـ الاجتماعي.

الدخل: يُعدّ الدخل عاملاً أساسياً في زيادة الادخار أو انخفاضه، فإذا زاد الدخل بنسبة معينة فإن الاستهلاك سيزداد، ولكن الادخار سيزداد بنسبة أكبر من نسبة الاستهلاك. وهذا يعدّ بنظر كينز قانوناً نفسياً أساسياً.

معدل الفائدة: يختلف الاقتصاديون فيما بينهم حول تأثير معدل الفائدة على تكوّن الادخار في الاقتصاد الوطني. ففريق منهم يرى أن انخفاض معدل الفائدة يُسهم في ارتفاع حجم الادخار نتيجة للزيادة التي يحدثها الانخفاض في حجم الاستثمار وفي الدخل القومي، وعلى النقيض من ذلك يرى هذا الفريق أن ارتفاع معدل الفائدة يقود إلى انخفاض حجم الادخار نتيجة للنقص الذي يحدثه ذلك الارتفاع في حجم الاستثمار وفي الدخل القومي إذ الدخل في نهاية المطاف هو مصدر كل ادخار.

ويرى فريق آخر أن انخفاض معدل الفائدة يؤثر سلباً على الادخار إذ يثبط من عزيمة أصحاب الدخول في تأجيل استهلاكاتهم وتكوين الادخار.

والأمر لا يتعدى الاحتمال لأن سلوك أصحاب الدخول والمستثمرين لا يتعلق فقط بمعدل الفائدة بل يخضع لمؤثرات أخرى مختلفة، وقد تكون متضاربة التأثير في الادخار.

النظام المالي: إذا عمدت الدولة إلى زيادة الضرائب على الدخول انخفض حجم مدخرات الأفراد، وعلى العكس إذا عمدت الدولة إلى تخفيض الضرائب فقد يؤدي ذلك إلى زيادة القدرة على الادخار.

درجة الاستقرار الاجتماعي والدولي: تؤثر التوقعات التي تحدث في أوقات الأزمات الاقتصادية والحروب في حجم الادخار: فتوقع الأفراد حدوث نقص في إنتاج سلعة استهلاكية معينة يؤدي إلى تهافتهم على شرائها بكميات وافرة تكفي لاحتياجاتهم مستقبلاً مما يؤدي إلى نقص المدخرات.

النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي: النظام الاقتصادي ـ الاجتماعي هو الذي يحدد في نهاية المطاف توزيع الدخل على طبقات المجتمع. فهناك فارق كبير في مصدر المدخرات بين بلدان المجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي.

ففي ظل الرأسمالية تتكون المدخرات من ادخار أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة بالدرجة الأولى. أما في ظل الاشتراكية حيث يعاد توزيع الثروة والدخل توزيعاً عادلاً بما يحقق تقليل الفوارق بين الطبقات إلى أدنى حد ممكن، فإن القاعدة الشعبية يرتفع نصيبها تدريجياً في الدخل القومي فتزداد قدرتها على الادخار.

نظرية الادخار

تعدّ نظرية كينز في الادخار من أوسع النظريات انتشاراً في الاقتصاد الرأسمالي الحديث. وخلاصة هذه النظرية أن الادخار تابع للاستثمار ويليه. فالاستثمار يؤدي إلى توفير الدخل الذي يؤدي إلى الادخار.

إن نظرة كينز للتوازن الاقتصادي العام تقوم على ثلاث قواعد أساسية هي:

ـ هدم مبدأ التوازن الاقتصادي العام وفق وجهة نظر التقليديين والتقليديين الجدد من أمثال الاقتصادي الفرنسي ليون فالراس.

ـ عرض نظرية جديدة للتوازن الاقتصادي العام.

ـ عرض سياسة جديدة تقضي بتدخل نشيط وفعال للدولة في الحياة الاقتصادية لتجديد الإنتاج الرأسمالي من وجهة نظر مصالح طبقة الرأسماليين قاطبة، في حين كانت النظريات

السابقة تركز اهتمامها على المشروعات الفردية متجاهلة أهمية الدخل الاقتصادي الكلي في معالجة مسائل التوازن الاقتصادي العام.

إن منطلق كينز في هدمه لنظرية التوازن التقليدية هو محاولته القضاء على قانون ساي وذيوله. ففي رأي ساي ومؤيديه أن العرض يؤدي إلى الطلب أي طلب ما يعرض. فليس هناك إذن أية مشكلة في تقسيم الإنتاج إلى سلع استهلاكية وسلع إنتاجية.

أما من حيث رأس المال فإن الفائدة، التي هي سعر رأس المال، قادرة على أن تنظم استعمال الدخل بين الاستهلاك والادخار مما يؤدي إلى حصول التوافق بين عرض رؤوس الأموال الناتجة عن الادخار وطلب رؤوس الأموال هذه بقصد الاستثمار.

فإذا زادت حاجة المستحدثين إلى رأس المال يكفي أن يرفعوا معدل الفائدة حتى يقبل المستهلكون أن يخفضوا استهلاكهم ويزيدوا ادخارهم مدفوعين بارتفاع الفائدة. وبالعكس إذا قلت حاجة المستحدثين إلى رأس المال انخفضت الفائدة فزاد الاستهلاك ونقص الادخار. ومن ثم فإن هذه الآلية العفوية تضمن بقاء الاستثمار مساوياً دائماً للادخار.

لكن كينز يناهض هذه النظرية بشدة إذ يرى أن القضية ليست بهذه السهولة. ذلك أن قرارات المستهلكين، وقرارات المستحدثين، وقرارات المدخرين كل منها مستقل عن الآخر لأنها تخضع لدوافع مختلفة.

أما من ناحية المستحدثين: فإن حجم الإنتاج الذي يقرره المستحدثون يتعلق بالطلب المنتظر الذي يتوخونه، آخذين في الحسبان كلف الإنتاج التي عليهم أن يتحملوها في عمليات إنتاجهم، وهذا يعني عملياً أن حجم الإنتاج متعلق بالربح المأمول الذي سيعود للمستحدثين من جراء عمليات الإنتاج.ولكن كيف يحدد هذا الربح؟ يجيب كينز: إن الربح هو الفرق بين المردود الهامشي لرأس المال (أي العلاقة بين المردود المرتقب لوحدة إضافية من رأس المال وبين كلفة إنتاج هذه الوحدة الإضافية) المستخدم في عملية الإنتاج، والفائدة التي يدفعها المستحدث لرأس المال الذي حصل عليه من المقرضين. فإذا كانت الفائدة ٥٪ مثلاً والمردود المنتظر ١٥٪، فإن عامل «الحض على الاستثمار» يكون كبيراً، وبالعكس، إذا كانت الفائدة من شأنها امتصاص الربح المنتظر كله أو قسم كبير منه فإن الحض على الاستثمار يختفي.

وأما من ناحية المستهلك: فيكون السؤال: بماذا يتعلق الطلب الحقيقي (أي الطلب المنتظر) الذي سيأتي من ناحية المستهلكين وهم الذين يملكون الدخل الذي بفضله يشترون الإنتاج ويدخرون، وما الذي سيخصصونه للادخار؟

يجيب كينز: إن هذا الأمر يعود إلى الوضع النفسي للأفراد فهذا الوضع هو الذي يحدد «الميل إلى الاستهلاك» كما يحدد الميل إلى الادخار. ويختلف هذان الميلان بحسب أهمية الدخل. والمهم لدى كينز هو الدخل وليس السعر، وهكذا يحل مفهوم الدخل الذي تستند إليه النظرية الكينزية محل مفهوم السعر الذي بنى عليه التقليديون نظريتهم.

وأما من ناحية المدخرين: فالسؤال هو: ماذا يحدث عندما يزداد الدخل؟ لا شك أن المدخرين سيميلون إلى زيادة ادخارهم أكثر مما سيزيدون استهلاكهم. فإذا زاد الدخل بنسبة ٥٪ مثلاً فإن الاستهلاك سيزداد ٢٪ أو ٣٪ ولكن الادخار يزداد ٧٪ أو ٨٪ فهو يزداد بنسبة أكبر من زيادة الدخل. وهكذا فإن:

$$\frac{\text{زيادة الادخار}}{\text{زيادة الدخل}} > ١ \quad \text{و} \quad \frac{\text{زيادة الاستهلاك}}{\text{زيادة الدخل}} < ١$$

$$\text{أو} \quad \frac{\Delta\ \text{د}}{\Delta\ \text{خ}} > ١ \qquad \frac{\Delta\ \text{س}}{\Delta\ \text{خ}} < ١$$

حيث: د ادخار، س استهلاك، خ دخل.

وهذا يعدّ بنظر كينز «قانوناً نفسياً أساسياً»، وهو يلاحظ لهذا أن الأغنياء يدخرون أكثر مما يوفر الفقراء.

والخلاصة أن كينز يرى أن النظام الاقتصادي يجد نفسه أمام عدد من المتغيرات المستقلة هي:

ـ أن العرض يخضع لعامل «الميل إلى الاستثمار» وهذا يُحدد بالفرق بين المردود الهامشي لرأس المال ومعدل الفائدة.

ـ وأن الطلب يتنازعه الاستهلاك والادخار، وهما يخضعان للوضع النفسي لدى الأفراد بين «الميل إلى الاستهلاك» و «الميل إلى الادخار» من دون أن يكون لذلك علاقة بقرار المنتجين.

ـ وأن معدل الفائدة يخضع هو أيضاً لعوامل اجتماعية نفسية (تفضيل السيولة النقدية، وكتلة النقد المتداولة) من دون علاقة مباشرة بعرض رأس المال أو الطلب عليه.

وكل هذا يجعل من الصعب التصور أن خطة المنتجين ستتفق منذ البدء مع خطة المستهلكين والمدخرين، لذلك يرفض كينز فكرة قيام توازن عام عفوي منذ البداية، ولكنه يقر بضرورة وجود توازن عام في النهاية. فكيف يتحقق ذلك التوازن في مرحلة زمنية ما؟ وعلى أي مستوى؟

الاستثمار والادخار

توضح النقاط الأربع التالية وجهة نظر كينز في الاستثمار والادخار.

تعادل الاستثمار والادخار: يرى كينز أنه في مستوى معين ما هناك تعادل بالضرورة بين الادخار وهو الفائض من الدخل بعد الاستهلاك، والاستثمار وهو زيادة في التجهيزات تعادل الجزء من الدخل الذي لا يمتص بالاستهلاك، فالادخار والاستثمار يتساويان إذن لأن كلاً منهما يساوي ذلك الجزء من الدخل الذي لم يستهلك في نهاية المرحلة، وهكذا فإن تساويهما يتم في النهاية لا في البداية.

وهذه الآلية للتعادل بين الاستثمار والادخار ليست أبداً آلية الأسعار كما كان يعتقد التقليديون. إن آلية الأسعار تصلح، كما يرى كينز، على الصعيد الفردي أو على مستوى مشروع منعزل: فانخفاض الأسعار يمكن أن يعطي الفرد أو المشروع مزايا خاصة، وارتفاع الأسعار يُحدث العكس.

هذا الانخفاض أو الارتفاع في الأسعار يؤدي إلى نتيجة لم يفهمها التقليديون: فهو يغير الدخل الموزع، يزيده أو ينقصه. والمعلوم أن الدخل هو الذي تتم بفضله إعادة شراء الإنتاج المتحقق. ويرى كينز أن تغيرات الدخل، وهي التي يرتكز عليها التوازن النهائي، تتوقف على قرار المستحدثين، وبوجه أدق تتوقف على الاستثمارات التي يقررون القيام بها، هذه الاستثمارات لها دور حاسم في الدخل القومي، فهي توجده وهي تكثّره.

الاستثمار يوجد الدخل وهو يؤدي إلى الادخار: عندما ينميّ المستحدثون، ومنهم الدولة، استثماراتهم بتمويلها سواء بالادخار السابق، أو بطريقة الإصدار الورقي، أي طريقة التضخم النقدي، فإنهم يوزعون الأموال المتوافرة لديهم بمقابل شرائهم ما يحتاج إليه الاستثمار من مواد أولية ويد عاملة وغيرها. وهم بهذا إنما يزيدون

دخل من يتلقى هذه الأموال كالتجار، والصناعيين، والزراعيين، والعمال، وبزيادة هذا الدخل يزيدون إمكان الادخار لدى هؤلاء، فزيادة إضافية في الاستثمار تؤدي - ما دامت البلاد لم تبلغ مستوى الاستخدام الكامل - إلى وجود الادخار إضافة إلى تشغيل كمية من اليد العاملة التي كانت ستبقى عاطلة عن العمل.

الاستثمار يوجد الإنفاق (المضارب أو المضاعف): إن الدخل الذي أوجده الاستثمار لن يقتصر على إيجاد الادخار وإنما سيؤدي إلى زيادة الإنفاق، لأن من تلقوه ،ومنهم عمال عاطلون عن العمل، سوف يشترون به كميات إضافية من الأرزاق والألبسةوغيرها، مما يؤدي إلى زيادة دخل منتجي هذه السلع الذين سيقومون بزيادة إنفاقهم وزيادة توفيرهم موجدين بذلك لدى آخرين دخلاً إضافياً يؤدي إلى زيادة الإنفاق والادخار، وهكذا تتوسع الأمواج كما تتوسع الدوائر في بركة ماء بعد إلقاء حجر فيها.

إن للاستثمار إذن أثراً محدثاً للدخل، وله كذلك أثر في تكاثر الدخل، وهو ما يطلق عليه «المضارِب» أو «المضاعف». والمضاعف هو المعامل الذي يربط بين زيادة الإنفاق والدخل. فهو يُفيد أنه عندما يحصل تغيير في مجموع الاستثمار، فإن الدخل يتغير في الاستثمار بمقدار (م) مرة.

جوهر السياسة الكينزية في الاقتصاد: إن السياسة الاقتصادية التي يقترحها كينز تقلب رأساً على عقب الأوضاع التي جاءت بها السياسات التقليدية. فالتقليديون مالوا في سياستهم إلى تصنيف الأولويات كما يلي:

أ - النقد والتمويل أولاً: فالاستقرار النقدي، وتحقيق التوازن في موارد الدولة وإنفاقها، هما الشرطان الأساسيان للازدهار الاقتصادي.

ب - الاقتصاد ثانياً: فالتطور الاقتصادي يجب أن يسير حراً وعفوياً بحيث تحقق آلية الأسعار التوازن فيه.

ج - المسائل الاجتماعية أخيراً: فالتوزيع الأكبر يتطلب إنتاجاً كبيراً.

أما كينز فيحدد هذه الأولويات كما يلي:

أ - المسائل الاجتماعية أولاً: فيجب تحقيق الاستخدام الكامل فهو برهان للصحة الاقتصادية وسبب لها.

ب - الاقتصاد ثانياً: فمتى تحقق الاستخدام الكامل يتحقق الازدهار لتحقيق الارتفاع في الدخل القومي.

ج - النقد والتمويل أخيراً: فلا خوف من التضحية بعد كل هذا بالاستقرار النقدي وموازنة الدولة.

النقد الأساسي الموجه إلى نظرية الادخار الكينزية: ينطلق النقد الموجه إلى نظرية الادخار الكينزية من أن هذه النظرية وُضعت لمعالجة الأزمات الاقتصادية التي تنتاب الاقتصاد الرأسمالي دورياً، ونبهت إلى أهمية إجراءات الدولة الاقتصادية في هذا المجال بهدف تسريع الانتقال من مرحلة الكساد إلى مرحلة الانتعاش والنهوض. فنمو الإنتاج، يؤثر في مضاعفة الدخل القومي، وهذا له مفعول مضاعف: زيادة الاستثمار والتوسيع المطرد للإنتاج وزيادة العمالة.

إلا أن هذه النظرية، على أهميتها في التخفيف من حدة تناقضات الاقتصاد الرأسمالي، فإنها تبقي الجوهر الاجتماعي للرأسمالية خارج نطاقها، فهي تنظر إلى المفهومات الاقتصادية على أنها مقادير رياضية ولا تكشف عن القوانين الاقتصادية الفعلية التي تكمن في أساسها، موضحة إياها بمفهومات نفسية (ميول الناس)، فلا يمكن تفسير تناسب الاستهلاك والدخل باختلاف الميول نحو الادخار، ففي الظروف الواقعية، إذا كان المقصود الشغيلة، فإن الادخار محدود بمستوى الأجر وفي الظروف الراهنة بالتضخم، أي ارتفاع الأسعار.وهنا تصطدم قدرة الرأسمالية على المضاعفة اللامحدودة للإنتاج بمحدودية الإمكان الاستهلاكي للمجتمع. أما فيما يتصل بادخار الرأسماليين، فإن مقداره يتعلق بالإمكان الفعلي للحصول على الربح من رأس المال المستثمر الذي يتحدد بظروف عملية الإنتاج الموسع. ويمكن أن تكون ظاهرة المضاعف حقيقية إلى حد ما فقط عندما تطبق على مرحلة من مراحل الدورة الرأسمالية هي مرحلة النهوض. ولكن كل توسيع لاحق على الطلب يسببه المضاعف إنما يشدد من الإخلال في التناسب بين مختلف جوانب عملية إعادة الإنتاج: بين النزوع نحو التوسيع اللامحدود للإنتاج ومحدودية قدرة السكان على الطلب، بين الادخار والاستهلاك، بين مختلف فروع الإنتاج، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى الركود ثم الأزمة.

إن تطبيق الحل الكينزي في البلدان المتخلفة معناه أن إحداث زيادة في الإنفاق الحكومي يجب أن يؤدي إلى استخدام عوامل الإنتاج العاطلة استخداماً يحد تدريجياً من بطالتها ويحقق في النهاية استخداماً كاملاً لها، تماماً كما يجب أن يتم في البلدان المتقدمة، ويؤدي - وهذا شيء ملازم للعملية - إلى زيادة الدخل العام في نهاية المطاف.

بيد أنه تساق الملاحظات التالية في هذا المجال:

- إن القطاع الزراعي في البلدان المتخلفة لا يستطيع أن يزيد حجم إنتاجه بسهولة نتيجة ضعف مرونة إنتاجه في الزمن القصير.

- والقطاع الصناعي الذي يضم على العموم صناعات استهلاكية معروفة (نسيج، أحذية، مواد بناء ...) يتصف بعدم وجود طاقة استخدام فائضة، حتى إن أكثر البلدان المتخلفة تشكو من وجود إشباع في مثل هذه الصناعات. وهذا يعني صعوبة زيادة العمالة وزيادة الإنتاج في هذه الصناعات.

- الزيادة التالية تتجه إلى القطاعات الأخرى، أي إلى القطاعات الخدمية بالدرجة الأولى. وهكذا تؤلف هذه القطاعات الخدمية النشاطات الديناميكية الوحيدة التي ينفتح بها غالباً هيكل الإنتاج على العالم الخارجي المتقدم، ليتم عن طريقه نزفه (بتصدير المواد الأولية) واستنزافه (باستيراد فائض الإنتاج الصناعي الخارجي).

إن هذا الاتجاه قد تأكد في تجارب كثيرة في البلدان المتخلفة التي استخدمت أسلوب التمويل التضخمي أو أسلوب التمويل بالعجز على نطاق واسع، إذ وقعت اقتصادياتها في مزالق كبيرة وتعرضت للتضخم وعدم الاستقرار النقدي.

القنوات الادخارية

تقسم مصادر الادخار الداخلي إلى مدخرات القطاع الحكومي، ومدخرات قطاع الأعمال، ومدخرات القطاع الأُسري، كما يمكن أن تُقسم مصادر الادخار إلى الادخار العام والادخار الخاص.

ويتألف الادخار العام من الادخار الحكومي، وهو الفرق بين الإيرادات الجارية والنفقات الجارية للحكومة،وادخار القطاع العام وهو الادخار المتكوّن في المشروعات التي تتبع الحكومة.

وتعدّ المصادر التالية من أهم مصادر الادخار

العام: فائض المشروعات العامة، وأموال التأمين والمعاشات واشتراكات الضمان والتأمينات الاجتماعية، والمدخرات الخاصة لدى مؤسسات الادخار كصندوق توفير البريد وشهادات الاستثمار التي يصدرها مصرف التسليف الشعبي في سورية، والضرائب المباشرة وغير المباشرة بمختلف أنواعها، والقروض الداخلية والخارجية والتمويل التضخمي أو التمويل بالعجز بإصدار نقد جديد من جانب الحكومة.

ويتألف الادخار الخاص من الادخار في القطاع الأُسري والادخار في قطاع الأعمال.

ويتحدد الادخار في القطاع الأُسري وفقاً للعوامل الرئيسية التالية:

- حجم الدخل، إذ من البديهي أن يكون صاحب الدخل الأكبر أكثر قدرة على ادخار قسم أكبر من دخله.

- الاستهلاك الذي تحدده العوامل الموضوعية كالأسعار والسياسات والعوامل الذاتية كحب الظهور والتمتع بالقوة والجاه.

- العادات والوعي والتقاليد.

- الضرائب والأعباء الاجتماعية.

وفي قطاع الأعمال يختلف تكوين الادخار بحسب نوع المنشآت، ففي المنشآت غير المساهمة كالمزارع ومحلات البيع بالمفرق والحرفيين العاملين لحسابهم الخاص، يتوقف تحديد الادخار على الصفات التنظيمية ونوع الحسابات التي تمسكها هذه المنشآت. أما في بقية المنشآت (الشركات) فيتألف الادخار من: احتياطيات الاهتلاكات، والاحتياطيات الإجبارية، والاحتياطيات الاختيارية.

ولا شك في أن لمستوى النشاط الاقتصادي العام وإمكانات التوسع والسياسة الضريبية، بما فيها من إعفاءات وميزات، أثراً كبيراً في تحديد حجم ادخارات قطاع الأعمال.

دور الادخار في النشاط الاقتصادي

لقد لمست معظم الدول أهمية المدخرات في دفع عجلة التنمية الاقتصادية واستمرارها ومن ثم استمرار التقدم والنشاط الاقتصادي وضمان الاستقرار، إذ تعد المدخرات الوطنية الدعامة الأساسية للاستثمار، لذا عملت هذه الدول بمختلف مذاهبها السياسية على تنمية الوعي الادخاري بين أفرادها بشتى الطرق وجذب هذه المدخرات وتجميعها لاستخدامها في تمويل التنمية الاقتصادية بما يتفق وأهداف الدولة وبما يعود على المجتمع بالنفع العام.

ولقد أظهر التطور الاقتصادي أن لصغار المدخرين أهمية كبيرة فيما يمكن أن يُحصل عليه من تجميع مدخراتهم التي تفوق في حالات كثيرة المدخرات التي تُجمع من القلة من ذوي الدخول الكبيرة ولا سيما بعد أن نمت الطبقة العاملة والفئات المتوسطة، من ناحية، وبعد أن ضغطت المطالب والنفقات المتزايدة للدولة، من ناحية أخرى. وإذا كانت أهمية الادخار أساساً للاستثمار، سواء للفرد أو الدولة أوضح ما تكون في الأحوال العادية، فإنها أشد وضوحاً وأكثر إلحاحاً في مراحل التنمية والتطور، إذ تؤدي المدخرات خدمات جليلة للفرد وللدولة.

ففيما يتصل بالفرد تهيئ هذه المدخرات عوامل الأمان للمستقبل، ذلك أنه بإيداعها أو باستثمارها في أي من الأوعية الادخارية أو الاستثمارية يحصل منها على عائد مجز إما أن ينفقه في مواجهة مطالبه المتزايدة وإما أن يزيد به مدخراته واستثماراته. وتوجه الدولة هذه المدخرات إلى الإنفاق على مشروعات جديدة تزيد من دخول الأفراد وتفتح لهم آفاقاً جديدة وفرصاً أكبر للعمل والخدمة. وتؤدي المشروعات الجديدة إلى توفير المزيد من السلع والخدمات للفرد وتتيح له الحصول عليها بأسعار أفضل.

وفيما يتصل بالدولة فإن المدخرات تخدمها في تحقيق ما يلي:

- توفير التمويل المحلي المطلوب لمشروعات التنمية من دون اضطرار الدولة إلى اللجوء لزيادة الضرائب ولوسائل التمويل التوسعية التي تؤدي إلى زيادة حدة التضخم الذي يصاحب عادة الإنفاق على برامج التنمية والذي تنعكس آثاره في الارتفاع المطرد للأسعار.

- الحدّ من الضغوط التضخمية التي تصاحب الإنفاق على خطط التنمية وذلك بامتصاص الزيادة في الدخول المترتبة على الزيادة في الإنفاق في تكوين مدخرات جديدة.

- الحدّ من الإنفاق الاستهلاكي للأفراد بما يسمح بتوجيه المزيد من السلع للتصدير الأمر الذي يساعد الدولة في الحصول على القطع الأجنبي اللازم لمشروعات التنمية وتحقيق المزيد من الاستثمار الذي يعود على جميع أفراد المجتمع بالنفع العام من جهة، وتقليص الطلب على السلع المستوردة من جهة ثانية.

- خفض النفقات التي تواجهها الدولة في توفير المزيد من السلع الاستهلاكية نتيجة زيادة الطلب عليها لزيادة دخول الأفراد وزيادة إنفاقهم،ويساعد خفض هذه النفقات على توجيه الوفر المحقق إلى إنتاج المزيد من السلع والخدمات بدلاً من استيرادها.

الادخار والتنمية الاقتصادية

التنمية الاقتصادية، وسيلة لزيادة رفاهية الأفراد وتثبيت دعائم النهضة الاجتماعية والاستقلال السياسي، ترتكز على عملية تكوين رأس المال أو بناء الطاقات الإنتاجية الجديدة ووضعها موضع الإنتاج. ومن نافلة القول الحديث عن الحلقة المفرغة في عملية التنمية التي تعزو نقص التكوين الإنتاجي إلى قلة الادخار، وقلة الادخار إلى انخفاض الدخل الفردي، وانخفاض الدخل الفردي إلى انخفاض الدخل القومي وزيادة الضغط السكاني، وانخفاض الدخل القومي إلى انخفاض الإنتاجية وعدم استغلال الموارد الطبيعية الذي يعود إلى نقص التكوين الإنتاجي وقصوره عن تحقيق هذه الأغراض.

وللقيام بعملية تكوين الطاقات الإنتاجية الجديدة لا بد للمجتمع من تخصيص جزء من موارده المتمثلة في السلع والخدمات المنتجة لتحقيق هذه الغاية، وهذا في الواقع هو كنه عملية التكوين الإنتاجي أو ما يسمى الوجه المادي لعملية تمويل التنمية.

أما الوجه الآخر لعملية تمويل التنمية فهو وجهها النقدي الذي يتمثل في توفير الأموال النقدية اللازمة للحصول على السلع والخدمات الضرورية لعملية التكوين الإنتاجي. وهذا يبين بوضوح أن النقد في عملية التكوين هذه إنما يستمد دوره من كونه يمثل قوة شرائية تستطيع حيازة جزء من عوامل الإنتاج لتوجيهها نحو تكوين الطاقات الإنتاجية. ثم إن المصدر الحقيقي للتكوين الإنتاجي هو الادخار بوصفه امتناعاً عن استهلاك جزء من الناتج القومي بهدف تهيئته وتوجيهه لأغراض التكوين الإنتاجي.

الادخار في سورية

أكدت سياسة القطر العربي السوري في المجال الاقتصادي ضرورة إقامة تنمية سريعة ومتوازنة لتحقيق معدلات نمو مرتفعة ومتواترة تسهم في رفع مستوى معيشة الشعب عن طريق تعبئة الموارد المحلية إلى أبعد الحدود الممكنة.

وعلى الرغم من هذا التأكيد وأهميته ما تزال الطاقة الادخارية الخاصة والعامة محدودة ولا تمثل إلا جزءاً من الدخل الفردي التصرفي ومن الناتج المحلي الإجمالي، مما يزيد الاعتماد على القروض والمساعدات الخارجية لتحقيق معدلات عالية للاستثمار في إطار خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

وتكتسب النقاط الرئيسية التالية أهمية خاصة في تحديد أسباب ضعف الطاقة الادخارية وقوتها في مجالات الادخار الأربعة في سورية.

- ففي مجال الادخار الاختياري أو الخاص تكمن الأسباب الرئيسة في النواحي التالية: ضعف الوعي الادخاري، وانتشار ظاهرة الاكتناز لدى فئة واسعة من الشعب، وضعف المؤسسات الادخارية وحداثة عهدها، ذلك أن مؤسسات الادخار الجديدة، كصندوق توفير البريد وإصدار شهادات الاستثمار من قبل مصرف التسليف الشعبي، قد نشأت وأخذت تتطور في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين.

- وفي مجال مدخرات المؤسسات والشركات العامة: يشار في البداية هنا إلى أنه نتيجة للتحولات الاجتماعية والاقتصادية التي مر بها القطر العربي السوري منذ قيام ثورة الثامن من آذار عام ١٩٦٣، حتى اليوم أصبح للقطاع العام الدور الرئيس في تنفيذ السياسات الاقتصادية والمالية والاجتماعية للدولة، وهو يؤلف العصب الحساس لمشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ويعدّ مصدراً مهماً من المصادر التي تعتمد عليها الدولة في تمويل مشروعات التنمية.

- وفي نطاق الادخار التقاعدي: يتألف هذا النوع من المدخرات من حصيلة الاقتطاعات النسبية لرواتب العاملين والموظفين في الدولة لدى صناديق التأمين والمعاشات والتأمينات الاجتماعية. ولهذا النوع من التأمين أهمية واضحة لاتساع مجاله.

- وفي نطاق الادخار التأميني: ما يزال حجم هذا النوع من المدخرات متواضعاً في القطر العربي السوري، وذلك لحداثته النسبية بالمقارنة مع الدول الصناعية، ولكن له مكانته، مع ذلك، في الحديث عن الادخار.

- وفي نطاق الادخار التعاوني: يلاحظ أن هذا النوع من الادخار قد بدأ في التوسع في القطر العربي السوري في مجال التعاون السكني.

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى التقدم الملموس الذي حققته بعض المؤسسات الادخارية في القطر العربي السوري في السنوات الأخيرة، فقد بلغت الحسابات الجديدة المفتوحة في صندوق توفير البريد في عام ١٩٨٨ نحو ٣٥٤٨ حساباً وبلغ عدد عمليات الإيداع ٢٧٢٢٩٢ عملية، إذ بلغت حصيلة هذه العمليات ٣٧٣٠ مليون ليرة سورية في حين بلغ صافي قيمة الودائع ٧٧٦,٥ مليون ليرة سورية.

وقد ازدادت حصيلة شهادات الاستثمار التي يصدرها مصرف التسليف الشعبي بمبلغ ٤٤٥٢ مليون ليرة سورية في عام ١٩٨٨.

ولكن الحقيقة هي أن الإجراءات المتخذة في سورية من أجل تشجيع المدخرات الفردية لم تستطع بعد أن تحد من الاستهلاك الكلي. ويفسر هذا الوضع لجوء الدولة إلى الموارد الاستثنائية وعجز الموازنة العامة للدولة وما إلى ذلك. ويؤكد هذا كله ضرورة دعم الادخار العام بالدرجة الأولى مع استمرار السعي لتشجيع المدخرات الخاصة قدر الإمكان.

مفيد حلمي

الموضوعات ذات الصلة:

الاستثمار، الاكتناز.

مراجع للاستزادة:

- ماري براديل بيار، الادخار والاستثمار، ترجمة نهاد رضا.
- ت.س. خاتشادوروف، فعالية توظيف رؤوس الأموال، ترجمة عبد الكريم أبا زيد ويونس الضالح.

■ آدر (كليمان -) (١٨٤١ - ١٩٢٥)

مهندس ومخترع فرنسي ورائد من رواد الطيران، كان أول من حقق إقلاعاً بجهاز طائر له محرك وأثقل من الهواء صممه وصنعه بنفسه.

ولد كليمان آدر Clément Ader في موريه Muret وتوفي في طولوز. وكان منذ صغره شغوفاً بالطيران ومتابعة الطيور في تحليقها، وتمكن وهو تلميذ في المدرسة الثانوية من صنع طائرة ورقية cerfy-volant كبيرة الأبعاد قادرة على حمل شخص واحد. وأتبع ذلك صنع دراجة من الصفيح زودها بدواس وعجلات غلفت بالمطاط، فكانت ابتكاراً لفت إليه الأنظار. التحق بعدها بإدارة الجسور والطرق في بلده، وفي الحرب الفرنسية الألمانية المعروفة بحرب السبعين (١٨٧٠) صنع كليمان على نفقته الخاصة منطاداً للمراقبة أهداه إلى مدينة طولوز بعد التوقيع على اتفاق السلام. وفي عام ١٨٧٦ استقال من عمله



طائرة كليمان آدر الثالثة
(المتحف الوطني للفنون والصنائع في باريس)

واستقر في باريس ساعياً للحصول على أموال تكفيه لإشباع هواياته، فأقام في باريس سنة ١٨٨٠ أول شبكة هاتفية خاصة. وشملت أوائل اختراعاته في مجال الاتصالات الكهربائية مذياعاً ومجهاراً لمخاطبة الجمهور صنعهما سنة ١٨٧٨. وفي معرض الكهرباء سنة ١٨٨١ كشف النقاب عن هاتفه المسرحي (تياتروفون) théatrophone، الذي يتيح الاستماع إلى عروض الأوبرا في المنزل عن طريق مقسم هاتفي خاص، فلاقى الابتكار نجاحاً كبيراً جداً.

وبعد أن توافرت لكليمان آدر الموارد الكافية وقف نفسه كلياً على تحقيق الهدف الذي جعله نصب عينيه، وهو حل مشكلة الطيران بأجهزة أثقل من الهواء، فأنشأ في منزله مكاناً خاصاً لتربية الطيور جمع فيه كل الطيور التي استطاع الحصول عليها من العصفور حتى الجوارح والوطاويط ومكث يرقب حركاتها ويدرس طيرانها وبنية أجنحتها. وقادته ملاحظاته وحساباته إلى صنع جهاز طائر مزود بمحرك بخاري يدير مروحتين، وجناحين قابلين للطي والثني يشبهان جناحي الخفاش، اتساعهما أربعة عشر متراً، وللجهاز عجلتان اماميتان لحمله وثالثة في الخلف لتوجيهه على الأرض. وقد أطلق كليمان على جهازه هذا اسم إيول Eole، نسبة الى إله الريح عند الإغريق أيولوس Aeolus، وجاء ترديداً أميناً للوطواط الهندي الكبير المعروف باسم الشُّقاحة Roussette

(جنس من فصيلة الوطواطيات). وقد استغرق صنع هذا الجهاز ثلاث سنوات (١٨٨٦-١٨٨٩) وحصل آدر على شهادة تسجيله. وفي التاسع من شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٠ قام كليمان آدر بتجربة جهازه تحت ستار من الكتمان المطلق في حديقة قصر أرمنفيلييه Armainvilliers الذي يملكه أحد أصدقائه قرب باريس. ونجح في الارتفاع عن الأرض عشرين سنتمتراً ولمسافة خمسين متراً مسجلاً بذلك خطوة مهمة للغاية في تاريخ الطيران إذ كان ذلك أول جهاز طيران يمتطيه إنسان ويطير على ارتفاع منخفض بقوة محركه. إلا أن الحدث لم يسجل في محضر رسمي. وبعد أن أجرى آدر بعض التعديلات على جهازه قام بتجربة جديدة على النموذج المعدل إيول - ٢ في شهر أيلول سنة ١٨٩١ في ميدان ساتوري الذي وضعه بتصرفه وزير الحربية الفرنسية آنذاك شارل دي فريسينه Charles de Freycinet غير أن محاولات النهوض بالطائرة عن سطح الأرض توقفت بسبب حادث أضرَّ بها عندما اصطدمت ببعض العربات المتوقفة هناك. وبعد أن أصلحت الأضرار عرض الجهاز في جناح مدينة باريس. ومنذ ذلك الحين خضعت بحوث كليمان آدر وتجاربه لإشراف وزارة الحربية التي عرضت عليه مساعدات مالية طالبة صنع جهاز قادر على الارتفاع بضع مئات من الأمتار ولمدة ست ساعات على الأقل.

وبعد ست سنوات من العمل المستمر أنجز آدر صنع النموذج الثالث لطائرته إيول ٣ وتقرر إجراء تجربة رسمية لها في الرابع عشر من تشرين الأول ١٨٩٧ في ميدان ساتوري أمام لجنة فنية برئاسة الجنرال مَنْسييه Mensier عيَّنها وزير الحربية آنذاك الجنرال بيُّو Billot.

ولقد اختار آدر إجراء التجربة على مَدْرَج دائري ليستطيع الإقلاع والهبوط وفقاً لإرادته من دون أن يخشى بلوغ نهاية المدرج، وليبرهن على فاعلية مقود الطائرة، وكان الجو في ذلك اليوم رديئاً فلم يجرؤ آدر على طلب التأجيل، واتخذ الحضور لأنفسهم ملاذاً من الريح والمطر بعيدين عن متابعة حركة الطائرة التي انطلقت بمصممها في حركة متسارعة على عجلاتها نحو ستين متراً، ثم أخذت تقفز قفزات متتابعة الى أن ارتفعت عن الأرض تماماً بعد درجان مسافة مئة متر. ولكن زوبعة عصفت بها واضطر قائدها إلى الهبوط بها بعد مئتي متر وقد أصيبت بأضرار بالغة، وتأكد لأعضاء اللجنة وجود قوة حاملة مكنت الطائرة من الارتفاع لانقطاع آثار العجلة الخلفية في التربة المبللة، وأعطت اللجنة رأياً مناسباً في مصلحة متابعة البحوث. ولكن وزير الحربية رأى في هذه التجربة إخفاقاً، وعلق مساعداته المالية على الرغم من توسلات كليمان آدر وتأكيداته أنه نجح في تحقيق طيران متصل مسافة ٣٠٠ متر.

طفق آدر يفتش عن مصادر تمويل جديدة من دون طائل، وعندما أفلس تماماً أحرق مخططاته وأجهزته في سورة غضب ولم يوفر منها سوى الطائرة إيول ٣ وأقام في عزلة في منزله في ريبونه Ribonnet قرب طولوز. وأمام التقدم السريع في عالم الطيران الناشىء وادعاءات الأسبقية في الطيران شرع آدر في كتابة مؤلف يبرز دوره ويذكر فيه تجاربه التاريخية الثلاث. ومهما يكن الجدل الكبير الذي أثير حول تجارب آدر كليمان واختلاف الآراء فيه فهو يعد بحق أبا الطيران في العالم.

وقد وضعت سجلات معمل آدر ووثائقه في عهدة المعهد الوطني للفنون والمهن في باريس وعهد إلى متحف الطيران والفضاء في عام ١٩٧٨ إحياء الجهاز إيول ٣ الذي صممه كليمان آدر، وتمكن هذا المتحف بإشراف الجنرال ليساراغ Lissarague عضو أكاديمية الطيران والفضاء من حل رموز الوثائق وإعادة رسم المسار الذي اتبعه هذا الرائد وتقويم الإمكانات الحقيقية للطائرة إيول ٣ التي كشفت عن مخترع عبقري، إن لم يكن السابق المبشر بعالم الطيران. وقد أكدت التجارب التي أجريت في مركز تجارب المحركات الدافعة في سكلي Saclay عام ١٩٨٦ قيمة المحركين البخاريين - واستطاعتهما عشرون حصاناً - اللذين اختارهما آدر لجهازه الطائر - ووزنه نحو ٥٠٠ كغ - والمروحتين اللتين تشبهان الى حد بعيد مراوح الطائرتين ذات المداوس الحاليتين من طراز القطرس Albatross والنسر الخفيف Light Eagle.

ح.ت

■ الإدراك

الإدراك perception هو اختبار المحيط مباشرة عن طريق الحواس، أي إنه العملية التي يختبر بها المرء محيطه المباشر. وتكون نتيجة هذه العملية تمييز ألوان مثلاً أو روائح أو أصوات أو أشكال ثابتة في المكان أو متحركة. ومن الممكن القول إن الإدراك يشير إلى العملية التي تُترجَم بها الإثارة الحسية التي تتعرض لها الحواس إلى خبرة منظمة، أو هو، كما يرد في تعابير علم النفس التجريبي، استجابة الفرد لإثارة خارجية. وقد عُدت الاستجابة الإدراكية مقدمة ضرورية لتلك الأفعال اللاحقة، أي للأنماط السلوكية التي تكيف بها العضوية ذاتها أو محيطها بحيث تزيد من فرصها في البقاء على قيد الحياة. وهكذا يكون الإدراك تكيفاً في جوهره، أي إنه الخطوة الأولى في السلوك الضابط الذي يوفق بين الفرد والعالم الخارجي، ويدخل فيه جسم الفرد المدرك، وحاجات الفرد البيولوجية والاجتماعية.

الإدراك والعالم الفيزيائي

يثير المنظَّر العام في الإدراك والعالم الفيزيائي عدة موضوعات تعدّ مقدمة في دراسة الإدراك وهي الموضوعات الآتية:

الخلفية التاريخية للإدراك: كان الفكر المنظم حول الإدراك ينتمي، تاريخياً، إلى قطاع الفلسفة. وقد ظلت بعض المسائل التي بحثها الفلاسفة في موضوع الإدراك من الهموم الشائعة في الفكر المعاصر. ومع أن الإدراك بدأ شاغلاً فلسفياً، فإن البحث فيه نما نمواً خاصاً في علم النفس.

وقد نشأ انشغال الفلسفة بالإدراك عن الاهتمامات المتصلة بنظرية المعرفة. فتساءل منظرو المعرفة عن حقيقة وجود عالم فيزيائي مستقل عن خبرة الإنسان وعن سبل الوصول إلى معرفة خصائصه إذا ثبت وجوده المستقل، وتساءلوا كذلك: أهناك أفكار فطرية أم إن كل خبرة تتكون بالضرورة من اتصال بالعالم الخارجي تتوسطه الحواس؟ وقد تجاوز علم النفس مثل هذه الأسئلة ليركز على مسائل يستطيع معالجتها بمناهجه الخاصة، إلا أنه ما زالت هناك رواسب لهذه المشاغل الفلسفية، وما زال هناك باحثون يعنون، مثلاً، بالإسهامات النسبية للعوامل الفطرية والعوامل المتعلمة في

العملية الإدراكية.

إن معظم الباحثين العلميين في الإدراك يسلّمون اليوم بحقيقة وجود العالم الفيزيائي الظاهر كما هو موصوف في فروع الفيزياء المعنية بالطاقة، وتكون المسائل التي يتأملونها هي تلك المتصلة بعملية تشكل المدركات من التفاعل بين الطاقة الفيزيائية، كالضوء مثلاً، والعضوية التي تدرك، وبمدى التطابق بين المدركات والأشياء الفيزيائية التي تقابلها.

صدق المدركات: إن العبارة الأخيرة السابقة المتصلة بالتطابق بين المدركات والأشياء تطرح مسألة صدق المدركات، أي مدى توافق محتواها مع العالم الخارجي. لقد جرت العادة، فيما يتصل بالإدراك البصري، على اعتبار المدركات واقعة على خط متصل تقع الصورة الإيهامية في إحدى نهايتيه، والصورة الواقعية المماثلة للواقع في نهايته الأخرى. وبذلك تكون الهلوسات والأحلام والأوهام والإدراكات الخاطئة والناقصة درجات من الإدراك على هذا الخط. ومن طبيعة الاستجابة الإدراكية هذه أن تكون المدركات الواقعة في النهاية الثانية لهذا الخط المستمر في ندرة تلك الواقعة في النهاية الأولى (الصورة الإيهامية) إن لم تكن أندر منها. فالإدراك غير معني بتصور مضبوط وكامل في الوعي لما هو خارج الفرد بقدر ما هو معني بتقديم عالم بصري أو سمعي أو ولمسي أو شمي أو ذوقي يسهل عملية التكيف في برهة الإدراك. إنه ليس تصوراً سلبياً لما هو في العالم الخارجي، بل هو جهد فيه اصطفاء من درجة عالية يسعى نحو معنى يحمل فيه الفرد إلى المعلومات التي توفرها له حواسه بنية معرفية توجهها وتحددها حاجاته واتجاهاته وخبراته السابقة وتكوينه البيولوجي.

الإحساس والإدراك: قبل الكثير من الفلاسفة وعلماء النفس التفريق بين الإدراك والإحساس انطلاقاً من أسس عقلانية. ولكن البرهان الخبري على كون الإدراك مختلفاً عن الإحساس حقاً مسألة أخرى. فغالباً ما قيل، مثلاً: «إن الإحساسات بسيطة والمدركات معقدة. ولكن هل تستطيع الإجراءات التجريبية أن تبرهن على كون البنود أو العناصر في فئة منها «أبسط» مما هي في الأخرى؟ إن الأساس القبلي لهذا التقسيم الأولي غير قابل للبرهان الخبري.

وهناك أساس آخر للتمييز هو المدلول القائل إن الإدراك، خلافاً للإحساس، خاضع لتأثير التعلم. فيمكن أن يقال إن الإحساسات التي يولدها مثير خاص ستكون هي نفسها، المرة بعد الأخرى، إذا استبعدنا التعب والمرض أو أي تغيرات عارضة أخرى في الحساسية، في حين تتوقف المدركات الناجمة عن المثير نفسه، إلى حد بعيد، على ماجرى تعلمه بين المرة والمرة.

وقد اعتمد بعض علماء النفس أساساً آخر في التمييز حين وصفوا المدركات بأنها متصلة نموذجياً بالأشياء الخارجية، في حين عدوا الإحساسات خبرات ذاتية محددة داخلياً. وهكذا، فإن ألماً بسيطاً في الإصبع يسمى إحساساً. أما إذا كانت السمة البارزة للخبرة هي خبرة شيء مدبب حاد حدة مؤلمة فإن هذه الخبرة ستسمى إدراكاً.

الإدراك بوصفه تركيباً: نسب بعض العلماء التنظيم الظاهر في المدركات إلى التعلم بوصفه مبنياً من ترابطات عارضة بين عناصر تواقتت تكراراً في خبرة الشخص المدرك. وألح آخرون، ولا سيما الغشتالتيون Gestalts (علماء نفس «الشكل أو البنية»)، على كون التنظيم الإدراكي متضمناً في الوجوه الفطرية لعمل الدماغ بدلاً من كونه متوقفاً على تركيب العناصر الأبسط في كليات متكاملة عن طريق التعلم.

وقد تبين للباحثين أن حل النزاع يقتضي حرمان العضوية المدركة من كل خبرة حسية، ومن ثم من كل تعلم حسي، والقيام بتقصي ما يبقى سليماً من الوظائف الإدراكية بعد عودة الوظائف الحسية إلى العمل السوي. وتحقق ذلك واقعياً في حالة أشخاص ولدوا عمياناً ثم استعادوا الرؤية إثر عملية جراحية. وقد تبين أن هؤلاء يتمتعون بحساسية سوية للتغيرات في حدة الإضاءة واللون وتبين وجود شيء ما أو غيابه. ولكن ظهر أن هؤلاء الأشخاص لا يملكون القدرة المناسبة على تمييز حجم شيء ما من حجم شيء آخر أو على تذكر حجم شيء كان معروضاً منذ قليل. ومس النقص لديهم مثيرات بصرية مهمة اجتماعياً كالوجوه والأشخاص، وقد احتاجوا إلى مدة من الخبرة لتمييز مربع من مثلث، في حين كان عليهم، قبل ذلك، أن يعدوا الزوايا لإجراء هذا التمييز.

وقد شملت الدراسات على الحيوان نوعين من التجارب: حرمان بعض الحيوانات من الخبرة البصرية منذ الولادة أو ما يقرب منها، وإغناء المحيط ببعض الخبرات أو إفقاره من بعضها. وتبين من هذه التجارب، بنوعيها، أن الخبرات الإدراكية المبكرة تقوم بدور مهم في النمو الإدراكي، كما يمكن أن تحدث تغيرات في وزن الدماغ. وكانت هذه التجارب أساساً للمعالجات القائمة على إغناء محيط الأطفال المعوقين اجتماعياً وثقافياً.

ومن جهة أخرى، بينت الدراسات الجارية على حديثي الولادة من الأطفال أن خبراتهم الإدراكية المبكرة ليست مجرد نقاط لامعة وطنين كما ذكر وليم جيمس W James، وأن ابن اليوم أو اليومين يبدو قادراً على تمييزات بصرية دقيقة. فقد أثبت تسجيل التثبيت البصري في أثناء تحرك العينين وجود تفضيل لمثير على آخر، وهو دليل على التمييز. إن هذه المكتشفات تبدو معاكسة لتلك الناجمة عن دراسات المصابين بإعتام العين الولادي الذين استردوا بصرهم، وهي الدراسات التي تذهب إلى أن التمييز البصري ليس فطرياً. والتفسير الممكن لهذا التناقض هو أن المصابين بإعتام العين الولادي يعانون ما هو أكثر من نقص الخبرة البصرية. ويمكن أن لا تكون الخبرة البصرية المبكرة ضرورية لتوليد النماذج الإدراكية بل للمحافظة عليها وتوطيدها بحيث يمكن لقدرات الطفل الإدراكية الفطرية أن تهبط بتأثير الاضطراب المرضي.

وإذا أضيف إلى هذه الدراسات ماتبين من وجود إدراك العمق لدى عضويات لم تتح لها أي خبرة، يمكن استنتاج وجود وظائف بصرية أساسية فطرية تشمل نماذج إدراكية تعمل الخبرة الحسية على توطيدها وإنضاجها.

إدراك الشكل

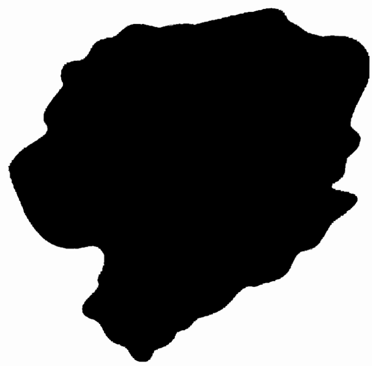
المدخلات الحسية التي يتلقاها الإنسان تدخل وعيه بوصفها حجوماً وأنماطاً وأشكالاً. إنه لا يدرك العالم المحيط بقاعاً ملونة، أو تنوعات في البريق، أو أصواتاً مختلفة الارتفاع، بل يرى منازل وجدراناً وأشجاراً، ويسمع بوق سيارة ووقع أقدام وكلمات. فنحن ندرك إذن أشياء ونتكيف معها.

وإدراك الأشياء يطرح مسألة معقدة في علم النفس. فالإدراك البصري يفترض صورة ضوئية للمدرك على الشبكية التي يمثل الشيء عليها

بنمط من الإثارات المتغيرة باستمرار، وسعة الإثارة تتغير من جزء إلى آخر في الشبكية، ومختلف الأشياء الموجودة في المجال البصري تصدر مستويات مختلفة من الإثارة. فكيف تؤدي هذه المركبات المعقدة من الإثارة الواقعة على الشبكية إلى إدراك محيط من الأشياء والموضوعات ثابت نسبياً وغني في تنوعه؟ تلك هي المسألة التي تنصب عليها دراسة إدراك الشكل.

الصورة والخلفية في إدراك الشكل: التعرف على صورة فوق خلفية ما، هو العملية الأساسية في إدراك الشكل. إننا نرى الأشياء والأشكال، في خبرتنا اليومية، بارزة فوق خلفية. فاللوحات معلقة على جدران، والكلمات مرئية على الصفحة، وفي هاتين الحالتين ندرك اللوحة أو الكلمات صورةً، في حين يكون كل من الجدار والصفحة خلفية ما. والقدرة على تمييز شيء من خلفيته العامة عملية أساسية في كل إدراك للشكل.

وإذا ألقى الإنسان نظرة على الشكل (١) فسوف يرى، مباشرة المنطقة الداكنة شكلاً، وقد لا تشبه هذه المنطقة أي شكل سبقت له رؤيته، ولكنه يدركها، مع ذلك، وحدة مستقلة عن خلفيتها، فالصورة تملك شكلاً ما وتتخذ

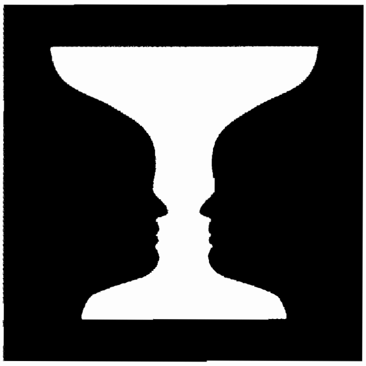


(الشكل ١) الشكل والخلفية

صفة شيء، في حين تنزع الخلفية إلى أن تكون عديمة الشكل. والخلفية تبدو ذات امتداد مستمر وراء الصورة، أي إن هذه الأخيرة تبدو، بعبارة أخرى، أقرب إلينا من الخلفية.

يقدم الشكل (٢) للناظر علاقة بين الصورة والخلفية قابلة للقلب، فقد يرى الصورة مزهرية كما قد يراها وجهين أنثويين جانبيين. وعندما يرى المزهرية فإنه يدرك المنطقة الفاتحة اللون صورةً فوق خلفية داكنة. ويندر أن تكون رؤية المزهرية والوجهين الجانبيين معاً، أمراً ممكناً.

والعلاقة بين الصورة والخلفية موجودة في أنواع الإدراك الأخرى مثل وجودها في الإدراك البصري. فالمرء يدرك الكلمات الموجهة إليه



(الشكل ٢) احتمالان في إدراك العلاقة بين الصورة والخلفية

صورة فوق خلفية من الأصوات والضجات الأخرى، كما يدرك رائحة عطر، مثلاً، صورة فوق خلفية من الجو العديم الرائحة أو المحمل بروائح أخرى.

التنظيم الإدراكي: عندما تقع عدة أشياء في المجال البصري، فإن المرء ينزع إلى إدراكها في أنماط أو تجمعات منظمة. وقد درس هذا التنظيم من جانب علماء النفس الغشتالتيين في بدايات القرن العشرين. وقد ألحوا على أن للخبرة الإدراكية صفات لا يمكن استخراجها من مجرد تحليل لمركباتها. وعبارتهم «الكل أكبر من مجموع أجزائه» التي غدت شهيرة في تاريخ علم النفس تعني أن للإدراك صفاته الجديدة الخاصة بعد حلول التنظيم.

والتنظيم الإدراكي يفسر، جزئياً، إدراكنا لأنماط معقدة بوصفها أشكالاً موحدة أو أشياء. فالفرد لا يرى الأشياء أشياء إلا لحدوث عمليات تجميع في الإدراك. ومن دون هذا التجميع، لا تترابط الأشياء والأنماط المتنوعة التي يدركها (وجه على شاشة التلفاز، سيارة، شجرة، كتاب، وغيرها) أشياءً وأنماطاً، بل سوف تبدو نقاطاً أو خطوطاً أو بقاعاً محاطة بكفاف أو إطار. ويخضع التنظيم الإدراكي لمبادئ أهمها مايلي:

ـ مبدأ التجاور أو التقارب: فالبنود أو الأشياء المتجاورة مكاناً أو زماناً تنزع إلى أن تُدرَك مكوّنة جمعاً منظماً.

ـ مبدأ التشابه: إذا وجدت في المجال الإدراكي أشكال مختلفة (أشخاص، أشجار، عربات، وغيرها)، فإن الأشكال المتشابهة تجنح إلى تأليف مجموعة إدراكية واحدة.

ـ مبدأ التنافر أو الشكل القوي: يشير هذا المبدأ إلى نزوع نحو تنظيم الأشياء لتؤلف شكلاً متوازناً أو متناظراً يضم كل الأجزاء. وهكذا تميل الأشياء الموجودة في المجال الإدراكي إلى التجمع بحيث تؤلف شكلاً قوياً متناظراً.

ـ مبدأ الاستمرار: ويشير إلى نزوع نحو إدراك شكل يبدأ بصورة معينة على أنه مستمر بالصورة نفسها. فالخط الذي يبدأ منحنياً يرى مستمراً في مجراه المنحني ولو تقاطع مع مستقيمات وشكّل نقاطاً مشتركةً معها.

ـ مبدأ المصير المشترك: ويعني أن العناصر التي تُدرك متحركة معاً تؤلف جمعاً منظماً: فالسيارة المموهة مثلاً، لا ترى وهي متوقفة، فإذا تحركت أصبحت شكلاً منظماً مرئياً.

ـ مبدأ الغلق: هذا المبدأ يجعل المدرك أكثر كمالاً من الإثارة الحسية المماثلة. وهو يشير إلى العمليات الإدراكية التي تنظم العالم المدرك بملء الثغرات في الإثارة. وبتأثير هذه العمليات ندرك شكلاً كاملاً لا أجزاء مفككة.

ومع أن الأمثلة التي تمت الإشارة إليها بصرية، فإن مبادئ التنظيم نفسها تلاحظ في الحواس الأخرى. فالإيقاع الذي نسمعه في الموسيقى يتوقف أيضاً على التجميع وفقاً لتجاور النغمات زماناً وتشابهها. والأمر نفسه يلاحظ في كل المجالات الحسية.

إن المبدأ الغشتالتي القائل: «إن الكل أكبر من مجموع أجزائه» عامل في كل قوانين التنظيم الإدراكي. وبعبارة أخرى، فإن للتنظيم المدرك صفاته الخاصة التي لا تكون مجرد محصلة لتجميع ذرات المدخلات الحسية الفردية.

الشروط البصرية الأساسية: ما كان الإدراك ممكناً لولا بعض الصفات الوظيفية للأفاعيل البصرية التي توفر شروط ثبات عالمنا ونجاح تكيفاتنا. وأهم هذه الصفات مايلي:

ـ التقابل بين الصورة الشبكية والشيء الفيزيائي: إن الرؤية لا تقف عند الصورة الشبكية لأنها مجرد حلقة واحدة من سلسلة الأحداث الضرورية لإدراك شيء ما. ومع ذلك، فلو لم تكن هذه الصورة تمثل، بانتظام، بعض سمات الشيء الفيزيائي لكان وجود عالم بصري

ثابت مستحيلاً. فالصورة الشبكية تحافظ على العلاقات المكانية للشيء الفيزيائي. وحوافه الخارجية ممثلة في الحواف الخارجية للصورة الشبكية، والعلاقات بين أجزاء الشيء، تبقى على حالها في تمثيلها على الشبكية. وكون الصورة الشبكية مقلوبة بالنسبة للشيء الفيزيائي لا يؤلف مسألة خاصة في تحليل الإدراك [ر. الاسقاط].

ـ قانون المسافة البصرية: ينص هذا القانون على أن حجم الصورة الشبكية يتناسب عكساً مع المسافة بين الشيء والعين. وهذا لا يعني أننا نرى الأشياء بتوافق مضبوط مع هذا القانون. فقد يحدث، كما سنرى في مكان آخر، تغير ملحوظ في مسافة شيء ما عن العين من دون تغيرات مقابلة في الحجم المدرك.

ـ قدرة المنظومة البصرية على التحليل: عندما تركز العين على شيئين في المحيط، تتكون صورتان شبكيتان. والمنظومة البصرية تحافظ على هذا التحليل، ولولا ذلك لما أمكن إدراك شيئين ولا إدراك أية علاقة بينهما، ولكان عالمنا البصري خليطاً مبهماً من الصور.

ثبات الإدراك: العالم الذي ندركه ثابت. فإذا وقف المرء تجاه نافذة، مثلاً، فإن الصورة التي ترتسم لها في شبكيته مستطيلة. وإذا تحرك إلى هذا الجانب أو ذاك، فإن الصورة الشبكية تأخذ شكلاً قريباً من شبه المنحرف. إن هذا مجرد هندسة. فنحن، على الرغم من التغيرات في الصورة الشبكية، نستمر في إدراك النافذة باسقاط عمودي: فقوامها لم يتغير إدراكياً على الرغم من تغير صورتها الشبكية.

إن عالمنا الإدراكي يتمتع بدرجة عالية من الثبات. فلا تتغير قامة الرجل حين يقترب منا أو يبتعد عنا. وطبق الطعام لا يبدو دائرة حين نراه من زاوية ما وإهليليجي الشكل حين نراه من زاوية أخرى. وموقع الصوت لا يتغير حين نحرك رؤوسنا.

إن ثبات الإدراك يساعد في التكيف مع المحيط. فمن المستحيل التحرك في عالم تتغير فيه مواقع الأصوات حين نحرك رؤوسنا، وتتغير فيه الأشياء قوامها وحجمها حين نراها من مواقع ومسافات مختلفة. ومن حسن الحظ أن القوام والحجم واللون والبريق تتمتع بقدر مناسب من الثبات.

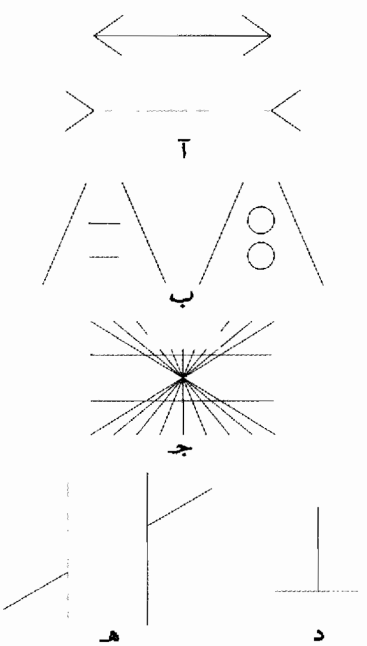
ـ ثبات الحجم: مر في فقرة سابقة أن حجم الصورة الشبكية يتوقف على المسافة التي تفصل الشيء المرئي عن العين. ومع ذلك فإن الشخص الذي يجتاز الشارع ليلتقي صديقاً لا يدرك أن حجم الصديق يزيد كلما اقترب منه. إن مما يفسر هذا الثبات في إدراك الحجم وجود قدر كبير من المعلومات التي تضاف إلى المدخلات الحسية لدى الشخص: إنه يعرف شيئاً عن المسافة التي تفصل صديقه عنه، وهو يدرك التغيرات التي تطرأ على الأشياء الأخرى حين يقترب منه، ثم إنه يعرف من قبل حجمه المفترض.

ولكن كيف يحدث كل هذا؟ هناك جواب يقول إن المرء يستخدم، تلقائياً، المعلومات المتوافرة لديه حول المسافة والخلفية من أجل أن «يصحح» حجم الصورة الشبكية محتفظاً، عن هذا السبيل، بالإدراك ثابتاً نسبياً. وثمة تفسير آخر يقول إنه لا ضرورة لأي تصحيح وإن ثبات الحجم يحدث لأن الشيء وخلفيته يتغيران معاً عندما تتغير مسافة الشيء عن العين. ويقول هذا التفسير الغشتالتي إنه لا ينبغي توقع التطابق بين الإثارة الموضعية والاستجابة الموضعية لأن كليهما جزءان من مجال كلي واحد يجب أن نتوقع أن يغير تأثيره من طبيعة الاستجابة لكل إثارة موضعية حالية. فيجب أن نتوقع بقاء الشخص الذي ندركه على طول قامته بوصفه جزءاً من مجال يحتفظ بالكثير من علاقاته في أثناء التغير. ويذهب الغشتالتيون إلى أن الإحساسات موجودة للحصول على معلومات وأنها نمت أنظمة للقيام بهذه الوظيفة. وإحدى الصفات المرغوب فيها في نظام لجمع المعلومات هي أن تستخلص سمات ثابتة من تيار الخبرة الجاري. ومن اللازم أن يتذكر الباحث، قبل كل شيء، أن المتحولات الإعلامية ذات البنية الضوئية ثابتة في ظروف التغيرات اللاحقة بالإثارة وبموقع الملاحظ. فإذا تأمل الباحث في التغيرات اللامتناهية في الإثارة والموقع في حياة كائن بشري، فمن الواضح أنه يكتشف أن نظاماً يحتفظ بنتائج مثل هذه التغيرات سرعان ما يجد نفسه مغموراً بها، عاجزاً عن استيعابها. وهكذا يرى الغشتالتيون أن ثبات الإدراك لا يحتاج إلى تفسير وأنه موجود ظاهرة واقعية غير قابلة للرد إلى أي نوع من الإحساسات الأبسط. وقد استخدم الغشتالتيون التفسير نفسه من أجل ظاهرة أخرى محيرة هي «الحركة الظاهرة» المسماة ظاهرة فاي phi.

ـ ثبات البريق: تبدو الأشياء البصرية ثابتة في درجة بياضها أو سوادها أو زرقتها.. وذلك مع وجود اختلاف في مقادير الطاقة المنعكسة عنها باختلاف الظروف. والكائن البشري إذن ليس كجهاز التصوير الكهربائي يسجل، بكل بساطة، مقدار الضوء المنعكس عن سطح ما: فخبراته المتصلة بالبريق ثابتة نسبياً على الرغم من التغيرات الكبرى في مقادير الطاقة التي تبلغ العين. وما يبدو أبيض في الضوء الساطع يبقى أبيض في الإضاءة الباهتة. وما يبدو أسود في الإضاءة الباهتة يبقى أسود في الضوء الساطع: فالفحم أسود تحت أشعة الشمس المبهرة، والثلج أبيض حتى في الليل.

ويرجع ثبات البريق إلى كون التغير في الإضاءة يعم، حين يحدث، المجال الكلي: فالتناسب الفيزيائي في الطاقة بين شيء ما ومحيطه يبقى ثابتاً. ومع أن بعض الباحثين لا يكتفون بهذا التفسير، فإنهم يعدونه الخطوة الأولى على درب فهم هذه الظاهرة.

الأوهام الضوئية الهندسية: سادت، خلال مدة طويلة، نظرة تقول إن الصورة الشبكية هي انعكاس موثوق به للمثير الفيزيائي وإن الإدراك،



(الشكل ٣) أوهام المدى وأوهام الاتجاه

نسخة مضبوطة عن الصورة الشبكية، وبذلك يفسر، في رأي أصحاب هذه النظرة، ضبط الإدراك، ولكن الأوهام الضوئية الهندسية تواجه هؤلاء بمسألة خاصة. فهي خبرات تخفق إخفاقاً واضحاً في التمثيل المضبوط للشيء الفيزيائي وصورته الشبكية.

والأوهام الضوئية الهندسية نوعان: أوهام المدى وأوهام الاتجاه. وفي الشكل (٣) أمثلة على النوعين: فالقسم (آ) يمثل الوهم المعروف باسم مولر - لايير Muller- Lyer، وفيه يبدو المستقيمان المتماثلان، واقعاً، غير متساويين بسبب الصورة التي يتخذها رأس السهم. ويمثل القسم (ب) شكلين للوهم المعروف باسم وهم بونزو Ponzo تبدو فيهما الدائرة العليا أكبر من السفلى والخط الأعلى أكبر من الأسفل، في حين أن هناك في الواقع، دائرتين متساويتين وخطين متساويين أيضاً. ويمثل القسم (د) الوهم المعروف باسم وهم «الأفقي - العمودي» وفيه يبدو العمود أطول من الخط الأفقي في حين أن المستقيمين متساويان واقعاً. والأقسام الثلاثة أمثلة على أوهام المدى، وهي أوهام يحكم فيها على مثيرين متعادلين بأنهما مختلفان.

أما أوهام الاتجاه، فتحدث عندما ينحرف شكل هندسي ما عما هو متوقع على أساس اتجاهه الفيزيائي، كما في القسمين (جـ) (هـ) من الشكل (٣). فالقسم (جـ) يمثل الوهم المعروف باسم وهم هيرنغ Heiring، وفيه يبدو الخطان الأفقيان منحنيين مع أنهما مستقيمان ومتوازيان. أما القسم (هـ)، فيمثل وهم بوغندورف Poggendorf إذ يقع القطر على مستوى واحد فعلاً، ولكن القطعة اليمنى منه تبدو أعلى من القطعة اليسرى.

وقد تعددت النظريات التي تفسر الأوهام الضوئية الهندسية، وعالجتها بعض الاتجاهات على أنها استثناءات عجيبة من القوانين العامة للإدراك وبحثت عن مبادئ خاصة لتفسيرها.

إن النظرة الحديثة إلى الإدراك ترفض هذه النظرة المبسطة إلى الأوهام. فهناك شيء يبرز بوضوح مما نعرفه عن العمليات الإدراكية: هذا الشيء هو أن الإدراك البصري ليس نسخة عن الصورة الشبكية. فهذه الأخيرة ليست سوى الخطوة الأولى في الأفاعيل الإدراكية، أي إنها، إذا صح التعبير، المادة الخام التي تصاغ الخبرة الإدراكية منها. فإدراك الشيء لا يتوقف على الصورة الشبكية وحدها، بل يتوقف، أيضاً، على إثارة السطح الكلي للجوابذ البصرية. وعندئذ، لا يكون الوهم مسألة أكثر أو أقل مما يكون الإدراك المضبوط المزعوم أنه كذلك. ففي الحالتين صورة شبكية تطلق سلسلة من الأفاعيل التي تنتج الإدراك النهائي المعبر عنه. وهكذا يكون الوهم تعبيراً عن نوع من التنظيم الإدراكي، ويكون كل إدراك من حيث هو إدراك، متوقفاً على عوامل ذاتية كما هو متوقف على المثير، ولكنه يكون وهمياً بقدر ما يقصر في أن يعكس المثير بدقة.

إدراك المكان

الأشياء التي نراها ونسمعها ونلمسها واقعة في مكان: فهي تحتل موقعاً محدداً بالنسبة إلى أجسادنا. ونحن نعد توضع الأشياء في مكان ما أمراً مؤكداً ونجد صعوبة في تخيل عالم غير العالم المكاني. وعندما نتوقف لنتأمل كيف تعمل العضويات الحية على التصرف تصرفاً مناسباً في المكان، والتحرك ضمن ثلاثة أبعاد، وتحديد مواقع الأشياء بدقة مدهشة، فسرعان ما نكتشف التعقيد البالغ لإدراك المكان واقتضاءه أعلى الفعاليات البنائية والتركيبية لدى المدرك.

المنظومات الحسية في إدراك المكان: إن اعتماد الإنسان الكبير على عينيه في تكيفاته المكانية يحمل على المعادلة بين العالم المكاني والبصري. والمنظومة البصرية هي الأساسية في توجه الإنسان مكانياً، ولكنها ليست الوحيدة: ذلك أن الإنسان يسمع ويلمس وتساعده المنظومة الحركية لديه في تحديد مواقع الأشياء في المكان.

الإطار المكاني: إن عالمنا المكاني مثلث الأبعاد. والإطار المكاني المثلث الأبعاد محدد باتجاهين رئيسيين، العمودي والأفقي، وهما ثابتان ثباتاً عالياً ويساعدان على تحديد مواقع الأشياء. فما هي شروط قيام هذا الإطار؟ وكيف يتكون هذان الاتجاهان الثابتان؟ إننا نلاحظ، أولاً، عدم وجود تطابق مضبوط بين خطوط الصورة الشبكية والاتجاه المدرك لهذه الخطوط. فالقلم المنتصب في اليد يرى عمودياً مهما كانت الزاوية التي ينظر إليه منها، والكتاب المنتصب على رف المكتبة يدرك عمودياً، كما يدرك الكتاب الملقى على الطاولة أفقياً حتى لو اتخذ الإنسان وضعاً تكون معه خطوطهما المرسومة على شبكية العين متماثلة.

إن ما يرى عمودياً ومايرى أفقياً يتوقفان على العلاقات بين أجزاء المجال البصري. وفي كل مجال بصري، عادة، خطوط تنظيم رئيسية. ونوافذ الغرفة وجدرانها وسقفها وأرضيتها أمثلة على خطوط التنظيم الرئيسية، أي على الخطوط التي تستخدم أطراً لأشياء متنوعة. وهذه الخطوط هي التي تتخذ الاتجاهين الأفقي والعمودي واتجاهات الخطوط الأخرى المدركة في المجال البصري تتوقف على العلاقة بينها وبين خطوط التنظيم الرئيسية.

إن الإنسان يتعلم أن يتحرك ويعالج الأشياء داخل هذا الإطار المكاني المحدد بالاتجاهين الأفقي والعمودي. وتسهم المنظومات الحسية المختلفة في تكيفاته المكانية، وهذا التعاون بين الحواس قابل للتعديل ضمن بعض الحدود. فقد قلب ستراتون Straton، عام ١٨٩٠، مجاله البصري بوضعه عدستين خاصتين بقلب الصورة على عينيه، وكانت النتيجة أن ما يرى يميناً، عادة، بدا له يساراً، وما يدرك في الأعلى بدا له في الأسفل.

إن هذا القلب للمجال البصري خلق ضروباً خطيرة من التباين بين الحواس. فقد رأى ستراتون ساعة جدارية في مكان وسمع دقاتها واردة من مكان آخر، وأحس بقدميه تحته في حين رآهما في الأعلى. واستطاع التكيف ببعض النجاح مع هذا الوضع المضطرب وذلك بتجاهل الإشارات البصرية. وما هو أبعث على الدهشة هو حدوث إعادة تربية للعلاقات بين الحواس: فبقدر ما استمر الباحث في حمل عدستيه، تضاءلت التباينات بالتدريج ورأى الأشياء حيث سمعها ولمسها. وعلى كل حال، فقد استمر في وصف الأشياء بأنها فوق حين تكون في الأسفل، وبأنها إلى اليمين حين تكون إلى اليسار. وبكلمة موجزة، لم تتغير تسمية الاتجاهات بل تغير معناها السلوكي بموجب مقتضيات التحرك والمعالجات الناجحة.

إدراك العمق والمسافة: الصورة الشبكية ثنائية البعد وهي تحافظ على العلاقات المكانية الصحيحة بين أجزاء المجال البصري. إلا أن الإنسان يرى الأشياء قريبة أو بعيدة، عميقة أو مسطحة. وقد كان إدراك العمق لغزاً أمام العلماء والفلاسفة مئات من السنين: فكيف يمكن إدراك عالم مثلث الأبعاد بوساطة صورة شبكية ثنائية البعد؟ ومن المعروف اليوم أن

إدراك العمق لا يبعث على الدهشة أكثر من أي إنجاز إدراكي آخر. فالإنسان قادر على استخدام المعلومات أو المفاتيح التي توفرها المدخلات الحسية. ولكن كيف تم ذلك وما هي مفاتيح إدراك العمق والمسافة؟ الجواب عن هذا السؤال هو أن لدى الإنسان مفاتيح توفرها الرؤية بعين واحدة وأخرى توفرها الرؤية المزدوجة (بعينين).

مفاتيح الرؤية بعين واحدة: إن هذه المفاتيح هي تلك التي تتوافر عندما تجري الرؤية بعين واحدة، وهي مفاتيح يستخدمها الرسامون ليعطونا انطباع العمق في لوحة مسطحة. وأهم هذه المفاتيح مايلي:

- المنظور الخطي: فكلما ابتعدت الأشياء عن المرء صغرت صورها والمسافات التي تفصل بينها. وهذا المفتاح فعال في حال الأشياء المألوفة فقط.

- وضوح التفاصيل: تتضاءل تفاصيل الأشياء كلما ابتعدنا عن الشخص. إنه يدرك كل قرميدة في جدار قريب منه، فإذا ابتعد تضاءل تمييزه للقرميدات الفردية إلى أن ينتهي بإدراك الجدار وحدة لا يميز فيها هذه القرميدات.

- تداخل الأشياء: إذا حَجَب شيء ما عن رؤية الإنسان شيئاً آخر، فإن الشيء الذي حجب جزء منه يبدو الأبعد.

- الأضواء والظلال: إذا عرف الإنسان اتجاه الإضاءة، فإن الظل يبدو على علاقة مكانية محددة مع الشيء الذي يرسمه. فإذا كان ينظر في اتجاه الشمس، فإن الظل المرتسم على الجانب البعيد، لعدم انتظام الأرض يريه هبوطاً، في حين يرى ارتفاعاً في الحالة المعاكسة.

- تباين الحركة: عندما يحرك المرء رأسه، مركزاً بصره على نقطة ما، فسوف يرى الأشياء الأقرب من نقطة التثبيت تتحرك في اتجاه معاكس لاتجاه حركة رأسه، وهكذا يكون اتجاه حركة الأشياء حين يحرك رأسه مفتاحاً للمسافة النسبية، ولا شك في أن الإنسان لا يعالج هذه المعلومات فكرياً بل يستعملها استعمالاً عفوياً.

- المطابقة: إن كل المحددات السابقة بصرية في طبيعتها، أي إنها من خصائص المجال البصري. إلا أنه يمكن للإثارات الداخلية أن تقدم مفاتيح مساعدة في إدراك مسافات الأشياء القريبة، وتأتي هذه الإثارات من العضلات التي تضبط مطابقة العدستين للمسافات المتنوعة. ومن هذه المطابقة تتم الرؤية الواضحة في مختلف المسافات.

مفاتيح الرؤية المزدوجة: يرى معظم الناس بالعينين معاً، وبذلك يكونون قادرين على إضافة مفاتيح الرؤية المزدوجة في إدراك العمق والمسافة إلى مفاتيح الرؤية بعين واحدة. ويتوقف أهم مفاتيح الرؤية المزدوجة على كون كل عين، تتلقى منظراً عن العالم الخارجي يختلف عن المنظر الذي تتلقاه العين الأخرى. وبذلك يكون أهم مفاتيح الرؤية المزدوجة في إدراك المسافة: التباين الشبكي والتوارد أو المطابقة.

- التباين الشبكي: هو الفرق بين الصورتين المسقطتين على شبكتي العينين. فبين العين والأخرى ما يقرب من ستة سنتيمترات. وبذلك، فإن كل عين تتلقى منظراً عن الشيء مختلفاً اختلافاً بسيطاً عن المنظر الذي تتلقاه العين الأخرى، ويزيد تباين الصورتين مع اقتراب الشيء من المرء. وهذه العلاقة بين المسافة ومقدار التباين توفر مفتاحاً لإدراك العمق.

- التوارد: إن هذا المحدد، كما هو الأمر في الرؤية بعين واحدة، ليس بصرياً بل يتصل بالجوابذ الحسية في العضلات التي تضبط توارد العينين. فكلما اقترب الشيء من الشخص زاد توارد العينين أي اقتراب كل منهما من الأخرى. وكلما زاد التوارد كبر توتر العضلات التي تضبطه. وهكذا فإن هناك علاقة بين توتر العضلات ومسافة الشيء.

إدراك الحركة

اقتصرت حتى الآن مناقشة إدراك المكان على الأشياء الثابتة. ولكن المجال الإدراكي يشمل، في معظم الأحيان، موضوعات متحركة: الناس السائرين في الشوارع، السيارات الجارية في الطرقات، الطيور الطائرة في السماء، وما شابه ذلك. فإدراك الحركة، إذن هو جزء من إدراك الأشياء في المكان، وهذا مايجعل مناقشته أمراً ضرورياً.

الحركة الفيزيائية والحركة المدركة: يجب التفريق بين الحركة الفيزيائية والحركة المدركة. فليس هناك تقابل بسيط بين حدوث الحركة الفيزيائية وإدراكها، إذ يمكن أن تحدث هذه الحركة وتبقى غير مدركة، كما في حركة عقارب الساعة. كما يمكن، ضمن بعض الشروط، إدراك حركة حين تكون الأشياء ثابتة فيزيائياً: فالمرء يرى أعمدة الهاتف الثابتة متحركة حين يكون في قطار (أو سيارة) يجري بسرعة. والصور المتحركة، كما هو معروف، لا تتحرك حقاً، بل إن هناك تعاقباً سريعاً للصور الثابتة يعطي انطباعاً بحدوث الحركة.

عتبات الحركة المدركة: يجب أن تبلغ الحركة الفيزيائية سرعة دنيا من أجل ان تكتشف وتدرك، وليست هناك عتبة وحيدة يمكن أن تعد عتبة الحركة المدركة. فهذه القيمة تتغير مع حجم الشيء المتحرك ودرجة وضوحه، وحدة الإنارة، والقسم الذي يستثار من الشبكية، والحالة التكيفية، والمسافة التي تفصل الشيء المرئي عن العين. وضمن أفضل شروط الرؤية، أي مع استثارة المنطقة الحساسة بالضوء في الشبكية، من جانب شيء جيد الإنارة يبعد مترين عن العينين، تؤدي سرعة قدرها (٢٠) مليمتراً في الثانية إلى حركة قابلة للتمييز. وهذه القيمة تعطي فكرة عن مدى بطء رؤية حركة شيء متحرك. ولا يقتصر الأمر على سرعة دنيا، فهناك حد أعلى من السرعة لا تدرك الحركة بعده. فإذا تجاوزت سرعة شيء متحرك يقع على مسافة مترين من العينين (١٨) متراً في الثانية، فإننا نرى بقعة مضيئة أو بريقاً بدلاً من رؤية حركة.

المفاتيح البصرية في إدراك الحركة: العين أكفأ عضو للإحساس بالحركة. والعين، لدى بعض الحيوانات، حساسة حساسية خاصة للمثيرات البصرية التي تتحرك بطرائق محددة، فالأنماط الكهربائية في عين الضفدع، مثلاً، تبين أن بعض عناصر هذا العضو لا تستجيب إلا حين تقارب سرعة المثير سرعة الذبابة. وقد ظهر، بصورة عامة، أن الحيوانات الدنيا تستجيب اصطفائياً لما هو مهم من أجل بقائها. والشبكية، لدى هذه الحيوانات تقوم بمعظم الإدراك البصري. وهذا الترتيب تشريحي على اعتبار أن الحيوانات تنزع إلى الاستجابة للمثيرات الأساسية فقط. ولا عمل للدماغ، في هذا المستوى، إلا في ربط الإشارات بالجملة الحركية. أما الحيوانات العليا، فهي تعالج المعلومات بطرائق أكثر نضجاً بحيث تشمل العملية عمل الدماغ. وهكذا تستجيب بعض خلايا الدماغ للمثيرات المتحركة فقط. وتعمل مجموعات من الخلايا الحساسة بالحركة، كل منها باتجاه في مجال الرؤية. وتوحي سمات الخبرة البصرية البشرية أيضاً، بأن هناك كاشفات للحركة في الدماغ البشري. وقد تبين في تحليل الشبكية البشرية أن الأقسام المحيطية حساسة

حساسية فائقة خاصة ببعض المثيرات (إشارات الخطر مثلاً) التي تؤدي إلى تحويل انعكاسين للعينين من أجل إسقاط الصورة على المنطقة الحساسة بالضوء في الشبكية والسماح بتعرف الشيء المتحرك.

أثر المسافة: كلما ابتعد شيء عن العين تباطأت حركة صورته في الشبكية، وإذا افترضنا سرعة فيزيائية ثابتة، فإن القوس الذي تتحرك الصورة الشبكية فيه في وحدة زمنية ما (في الثانية مثلاً) يدل على الحركة. وهكذا يجب أن نتوقع أن تبدو حركة الشيء أبطأ كلما ابتعد عن العين. إلا أن هناك تبايناً بين مقدار التغير الفيزيائي ومقدار التغير المدرك. فالتناقص في السرعة المدركة ليس متطابقاً مع تناقص القوى التي تتحرك في الصورة الشبكية: فهناك مقدار معين من ثبات الحركة مواز لثبات الحجم.

الحركة الظاهرة: يقصد بالحركة الظاهرة إدراك المرء لوجود حركة حين لا تكون هناك حركة فيزيائية فعلاً. ليكن هناك قضيبان متوازيان وعموديان طول كل منهما (٢٠) سنتيمتراً وسماكته سنتيمتر واحد. يرسم القضيبان على بطاقتين ويعرضان بالتناوب بوساطة جهاز العرض السريع بحيث يظهر أحدهما حين يكون الآخر قد زال موضوعياً. فإذا كانت سرعة التناوب ضعيفة، رأى المرء خطين متميزين ومتعاقبين. وحين تبلغ سرعة التناوب حداً معيناً، يدرك المرء خطاً واحداً ينتقل من موقع إلى آخر، وتلك هي الحركة الظاهرة. أما إذا زادت السرعة إلى حد معين، فإن المرء يرى خطين ساكنين.

وللحركة الظاهرة تطبيق شهير هو الصور المتحركة (السينما والتلفاز والحاسوب). وفضلاً عن ذلك كانت لها أهمية خاصة في تاريخ علم النفس، فقد كانت ظاهرة حيرت علماء النفس أمداً طويلاً، وكانت المسألة هي التالية: كيف نفسر إدراك حركة تنجم عن سلسلة من المثيرات لا يتحرك واحد منها؟ وقد رغب ماكس فرتهايمر Wertheimer أحد مؤسسي مدرسة الغشتالت، في أن يطلق على هذه الحركة اسماً يبرز طابعها المستقل، فأسماها: الحركة «فاي» Phi. وقد رأى أن الحركة الظاهرة لا يمكن أن تنجم عن مجموع الإثارات الفردية لأن جمع موقف ثابت مع موقف آخر لا يمكن أن ينتج إحساساً بالحركة. وانتهى فرتهايمر إلى إعطاء الحركة الظاهرة تفسيراً على درجة كبيرة من البساطة، وعلى الرغم من براعته، بحيث كان أساساً لمدرسة الغشتالت. وخلاصة هذا التأويل أن الحركة الظاهرة لا تحتاج إلى تفسير. فهي موجودة، ببساطة، ظاهرة واقعية غير قابلة للرد إلى أي نوع من الإحساسات الأبسط وقال: «ما من سبب داخلي يوجب الاستنتاج القبلي لشيء ديناميكي نفسياً من شيء سكوني».

وقد فسر بياجيه، فيما بعد، الحركة الظاهرة بفعالية النقل الإدراكية. فالعين تستطيع، في سرعة معينة لتعاقب القضيبين، متابعة حركتهما فترى قضيبين متعاقبين. وتتجاوز سرعة التعاقب، في مرحلة ثانية، سرعة العين في المتابعة، فلا يعود القضيبان قابلين للتمييز، فترى قضيباً ينتقل من موقع إلى آخر. ثم تأتي مرحلة تعجز فيها العين عن متابعة التعاقب لسرعته الكبيرة وتتوقف توقفاً تاماً، باستثناء بعض السير الموضعي، فيرى المرء قضيبين متواقتين.

الفروق الفردية في الإدراك: غالباً ماترد التقريرات النظرية في الإدراك كما لو كانت تنطبق من دون تمييز على كل العضويات أو على كل الناس. إلا أن من البديهي أن هناك فروقاً واضحة في العمل الإدراكي بين الجماعات، وبين الأفراد، وفي الفرد الواحد من وقت إلى آخر. وأكثر ما درس من المتحولات في الإدراك العمر والجنس والثقافة.

العمر: إن تغير العمل الإدراكي مع عمر المدرك أمر متوقع لما هو معروف من أن النمو النفسي ينشأ عن النضج كما ينشأ عن التعلم. وهناك أدلة كثيرة على التغيرات الإدراكية المتصلة بالعمر. ومن هذه الأدلة تعزز الثبات الإدراكي وزيادة بعض الأوهام الهندسية وتناقص بعضها الآخر مع العمر. وتعكس الأوهام التي تتزايد مع العمر، على وجه الاحتمال، عمل التوقعات. أما تناقص بعض هذه الأوهام، فربما كان ناشئاً عن زيادة قدرة الفرد على تفحص المجال الإدراكي وعلى تحليل الكل المدرك إلى أجزائه. وقد تكون التغيرات التشريحية مسؤولة عن بعض التغيرات الإدراكية المتصلة بالعمر.

الجنس: يصعب تمييز النصيب الذي يعود إلى التركيب البيولوجي لكل من الذكر والأنثى، في الفروق الإدراكية المتصلة بالجنس، من النصيب الذي يعود إلى الفروق التقليدية في الدور الاجتماعي لكل منهما، وهو دور من نتاج الحضارة السائدة. فقد اختلط الجنس البيولوجي بالدور الجنسي (الجنسوي) اختلاطاً كبيراً في معظم التجارب النفسية. ومهما يكن من أمر، فإن الفروق الجنسية في الإدراك ظاهرة في البحوث الجارية حول الأسلوب الذي يدرك به المرء. ويتضح الفرق في الأسلوب في الاستجابات لتأثيرات السياق. فإذا أدرك شخص ما العالم بوصفه متميزاً تميزاً عالياً، فإنه ينزع إلى مقاومة تأثيرات السياق، ويوصف بأنه «مستقل المجال». أما الذي يدرك العالم بأسلوب مبثوث ويوصف بأنه «تابع المجال»، فيبدو قابلاً قبولاً عالياً لتلك التأثيرات. وهكذا فإن «مستقل المجال» متفوق في تعيين موقع شكل بصري بسيط (مثلث مثلاً) ضمن كل معقد.

أما تابع المجال، فهو أقدر، مثلاً، على تكييف قضيب واقع في إطار مائل مع الاتجاه العمودي حين لا توجد هناك مفاتيح بصرية أخرى لتحديد صفة التعامد.

وقد ذكرت معظم الدراسات في هذا الموضوع أن الإناث ميالات إلى الاتصاف بتبعية المجال، ولا سيما بعد البلوغ. وربما كانت هذه الصفة مميزة للإناث في حضارات تدربهن على أن يكن منفعلات وسلبيات إدراكياً، في حين تشجع الذكور على اتخاذ موقف فعال وتحليلي في الإدراك.

الثقافة: ركزت الدراسات الأنتروبولوجية على تأثير البيئة الطبيعية في الأسلوب الإدراكي. ومن هذا القبيل ما رواه كولن ثورنبول C. Thornpall عن رجل من أقزام البامبوطي الذين يعيشون في إفريقية اصطحبه في رحلة إلى المدينة عام ١٩٦١. وذكر ثورنبول أن هؤلاء الأقزام يعيشون في غابات كثيفة إلى حد لا يرى المرء معه ما هو أبعد من بضعة أمتار في كل اتجاه. وضمن هذه الشروط اضطروا إلى استخدام الإشارات الصوتية، في صيدهم. وندر لديهم أن يضطروا إلى إجراء محاكمات إدراكية مبنية على الإشارات البصرية لتمييز العمق. لقد اضطربت الأمور عند هذا القزم الذي يحكي قصته حين وصلت السيارة إلى سهل فسيح لا عوائق فيه للرؤية البعيدة. ورأى قطيعاً من الجواميس، فتساءل أي نوع من الحشرات هي. ولم يصدق أنها جواميس. وعندما اقترب منها، خيل إليه أن روحاً شريرة غيرت من حجمها لتخدعه.

التوقعات والدوافع والصراعات: يحدث الصراع لدى الأفراد بين الكثير من الإثارات الحسية ومع استجابتهم بفرض نظام ومعنى على خبراتهم. وهذا مايسمح بالتنبؤ بأن إدراك الفرد سوف يتأثر بعوامل من نوع التوقعات والحاجات والقيم والصراعات. وتلح نظرية التحليل النفسي، صراحة، على التأثيرات الدوافعية في وظائف معرفية كثيرة أهمها التذكر والتفكير والإدراك. وهي معنية عناية خاصة بالدوافع والصراعات اللاشعورية وآليات الدفاع اللاشعورية أيضاً، كالكبت مثلاً، المستخدمة في ضبط هذه الصراعات. ووفقاً لهذه النظرية، يجب أن تكون هناك اختلافات إدراكية واسعة بين الأفراد في استجاباتهم لمثيرات ذات دلالة دوافعية. وقد جرت تجارب كثيرة لبيان ما إذا كان الإدراك يخضع حقاً لمثل هذه التأثيرات اللاشعورية. وقد بينت بعض الدراسات مثلاً، أن الكلمات التي يعدها المفحوصون «فاحشة» يجب أن تعرض على الشاشة مدة أطول مما هو الأمر مع الكلمات الحيادية (مثيرات ضابطة) من أجل أن يستطيع المفحوصون إدراك معناها. وبينت دراسات أخرى أن أطفال الأسر المعسرة يبالغون في تقدير حجوم القطع النقدية بالمقارنة مع أحكام أطفال الأسر الموسرة.

الإدراك والتعلم: هل يمكن تعديل العمليات الإدراكية بالتعلم والخبرات الخاصة الأخرى التي تعانيها العضوية؟ هل تتوقف الصورة التي يبدو عليها العالم، بأشكاله وأصواته وروائحه ومذاقاته، على التعلم والخبرات الخاصة إلى حد ما؟ وبعبارة وجيزة: هل الإدراك مرن وقابل للتعديل؟ الجواب هو نعم.

ذكرت إليانور جبسون E. Gibson أكثر من مرة أن التعلم الإدراكي هو القدرة على استخلاص المعلومات من المحيط نتيجة لاختبار الإثارات الواردة منه أو ممارستها. وقد سبقت الإشارة في فقرة سابقة إلى نوع من التعلم الإدراكي وذلك لدى الحديث عن مرونة الإطار المكاني وإعادة تربية العلاقات بين الحواس. والمهم الآن هو التركيز على دلالة التعلم الإدراكي من حيث مرونة الإدراك وقابليته للتعديل. وتعطي جبسون عدداً من الأمثلة التي تبين كيف يعدل التعلم الإدراك، فهي تذكر كفاية أشخاص تدربوا في مشاغل متنوعة على إجراء تمييزات إدراكية يعجز عنها غير المدربين. والمهارة في عدد من المهن مبنية على إجراء مثل هذه التمييزات الدقيقة. والخبرة هي أفضل معلم لهذه المهارات التي لا يمكن تعلمها من الكتب. وتضرب جبسون مثالاً على هذه المهارة قدرة بعض علماء الطيور على تمييز الطيور من أصواتها. ويمكن أن تضاف إلى هذا المثال مهن معروفة تقوم على هذه التمييزات الدقيقة مثل مهنة خبراء العطور الذين يميزون بالشم وخبراء الخمور الذين يميزونها بدقة بالذوق، وتقاس الدقة في التمييز في مختلف الاختصاصات

إن التعلم الإدراكي يؤدي إلى تعديلات في الوجوه الإدراكية للمثيرات الفيزيائية تتبدى في حفض العتبات بحيث ترتفع حساسية المرء للمثيرات وللفروق بينها، وفي إدراك تفاصيل أو وجوه جديدة في مجال إدراكي معقد، وفي خفض الأوهام الإدراكية وزيادة القدرة على استخلاص معلومات من المحيط. وتشير جبسون، في هذا الصدد، إلى مهارات المكفوفين المدهشة وتعدها مثالاً على التعلم الإدراكي. وليس الأمر أن حساسيتهم للعالم اللابصري أكبر من حساسية المبصرين، بل إن الحقيقة هي أن المكفوفين يتعلمون طرائق استخلاص معلومات من المحيط لا يستخدمها المبصرون عادة.

ماهي العوامل التي تنجم عنها هذه التعديلات؟ إن بعضها ناجم عن تغيرات في آليات الاستقبال التي تشمل، في معناها الواسع، الموقف الإدراكي على صورة التثبيت وتركيز الانتباه والانتقال من موقف إجمالي إلى موقف تحليلي. وينجم بعضها الآخر عن تأثير الخبرة السابقة، وهو تأثير يؤدي إلى تعديل بعض وجوه منظومة الإثارة. ويتحقق هذا التأثير في صور كثيرة: فقد تكون الخبرة خبرة إثارات سابقة شبيهة بالحالية (تدريب على أشكال إدراكية معينة)، كما قد تكون تصورات أو فرضيات ناجمة عن معارف سابقة (توقعات)، وقد تتدخل الخبرة السابقة على صورة إيحاءات ومعلومات تعطى للفرد في العروض المتكررة لمنظومة واحدة من الإثارات أو على صورة أعمال منفذة من جانب الفرد في العروض التالية للعروض الأولية. وبذلك تتنوع التأثيرات التي تؤدي إلى التعلم الإدراكي تنوعاً عظيماً.

أنطون الحمصي

الموضوعات ذات الصلة:

التعلم - الحواس والإحساسات - الذاكرة - الذكاء - الشخصية - علم النفس - الوهم - الاسقاط

مراجع للاستزادة:

- أنطون الحمصي، علم النفس العام، ج٢ (منشورات جامعة دمشق ١٩٨٧)

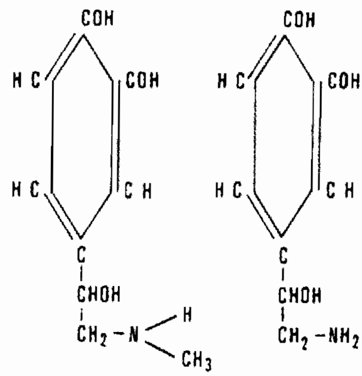
- J.PIAGET et P.ROISSE, Traité de psychologie experiméntale, Tom VII(P.U.F. Paris 1963).

■ الأدرينالين

الأدرينالين adrenaline هرمون يفرزه لب غدة الكظر في الدم، وناقل عصبي تطلقه النهايات العصبية التابعة للجملة الودية، واصلاً بين تنبيهات هذه الحملة وأعضاء الجسم. تمّ اكتشافه في نهاية القرن التاسع عشر في خلاصة غدة الكظر وأطلق عليه أيضاً اسم الابينفرين epinephrine.

أمكن تركيبه صنعياً في المختبر واستعمل في الكثير من التجارب العلمية والتطبيقات الطبية. وقد لاحظ الباحثون التشابه الكبير بين التأثير الناجم عن حقن خلاصة الكظر والتأثير التالي لتنبيه الأعصاب الودية sympathic وافتُرض لذلك أن الأعصاب الودية تحرّر عند تنبيهها مادة شبيهة بالأدرينالين. وتتابعت الاكتشافات على يد الكثير من العلماء وعرف أن للأدرينالين نظيراً يسمى النورادرينالين noradrenaline أو الأدرينالين العصبي أو النورابينفرين norepinephrine يختلف عنه قليلاً في البنية الكيمياوية ويشابهه في معظم تأثيراته. يكوّن الأدرينالين ٨٠٪ من الهرمون المفرز من لب الكظرين. في حين يكوّن النورادرينالين النسبة الباقية. وبالعكس فإن المادة المحررة من النهايات العصبية للجملة الودية تتكون من النورادرينالين بوجه رئيس ولا يكوّن الأدرينالين فيها أي نسبة مهمة. ينشأ الأدرينالين والنورادرينالين في البدن من الحمض الأميني المسمى التيروزين الذي يستقلب في الكظر والحملة العصبية في تسلسل معين ليولد مجموعة العوامل الكيمياوية المسماة بالكاتيكولامينات catecholamines ومن عناصر هذه المجموعة مادة

النورادرينالين التي ينشأ منها الأدرينالين بإضافة زمرة كيميائية واحدة.



نورادرينالين   آدرنالين

يكون مستوى كل من الأدرينالين والنورادرينالين منخفضاً في الدم في الظروف العادية، ولكنهما يزدادان في البدن بسرعة استجابةً للحالات التي تستدعي رفع استعداد الجسم للقيام بمهام إضافية أو استثنائية كالاستعداد لمباراة رياضية أو مواجهة خطر محدق، أو في حالات هبوط الضغط الشرياني أو النزف أو نقص الأكسجين أو تدني سكر الدم أو التعرض للبرد الشديد وذلك بهدف حماية البدن من هذه الاختلالات الخطيرة التي تؤثر في سلامته. ويطلق أحياناً على دور الأدرينالين وتأثيراته اسم منعكس الدفاع «قاتلْ أو اهرب» flight or fight لأنه يرمي إلى زيادة قدرة الجسم على مواجهة الطوارىء أو تمكينه من الابتعاد عنها. يؤدي الأدرينالين والنورادرينالين دورهما هذا عن طريق تأثيرات تقود في محصلتها إلى رفع الضغط الشرياني وزيادة التروية الدموية للدماغ والقلب والعضلات الإرادية المخططة وزيادة توفر الوقود الجاهز المكوّن من الغلوكوز والحموض الدسمة الحرة لاستعمال هذه الأعضاء خاصة، كما يزيدان من درجة الوعي والتيقظ في الدماغ.

يوجد للأدرينالين والنورادرينالين مستقبلات نوعية على أغشية خلايا البدن يطلق عليها اسم المستقبلات الأدرينالية adrenoceptors وهي من نوعين رئيسيين هما: المستقبلة ألفا والمستقبلة بيتا. وسواء وصل الأدرينالين أو النورادرينالين إلى خلايا الجسم من لب الكظر عن طريق الدم أو من المادة المحررة عند النهايات العصبية للجملة الودية فهما يرتبطان أولا بهذه المستقبلات لتنبيهها لتقوم بدورها بتفعيل الآليات الخلوية المرتبطة بها. يختلف عدد نوعي المستقبلات ونسبتها في أعضاء الجسم ومناطقه المختلفة، وهذا ما يحدد نوع الأثر الناشىء عن تزايد نسبة الأدرينالين والنورادرينالين في الدم أو تنبيه الأعصاب الودية. وبوجه عام فإن تنبيه المستقبلات ألفا، وهي الغالبة في الأوردة وشرايين الجلد والأمعاء، يؤدي إلى تقبّض جدران هذه الأوعية وتضيّق فتحتها، في حين يؤدي تنبيه المستقبلات بيتا الموجودة بكثرة في القصبات الهوائية والشرايين المغذية للعضلات المخططة إلى استرخاء جدرانها وتوسع فتحتها. أما تنبيه المستقبلات الأدرينالية القلبية، وهي من النوع بيتا، فيؤدي إلى زيادة النتاج القلبي عن طريق تسريع القلب وزيادة قوة تقلص العضلة القلبية. وتوجد المستقبلات بيتا في الكبد والنسيج الدهني ويؤدي تفعيلها إلى زيادة تفكك الغليكوجين والدسم إلى مكوناتهما البنائية وبالتالي رفع مستوى الغلوكوز والحموض الدسمة الحرة في الدم. وتؤدي هذه التأثيرات مجتمعة إلى ارتفاع الضغط الشرياني (بسبب زيادة النتاج القلبي والعود الوريدي وتقبّض الأوعية المحيطية) وتسهيل التهوية الرئوية وزيادة التروية الدموية للأعضاء الرئيسة في الجسم وتوفير الوقود اللازم لها لتقوم بمهامها العادية والاستثنائية.

يستعمل الأدرينالين المستحصل من الكظر والمنقى مخبرياً أو مشتقاته الصنعية استعمالاً سريرياً واسعاً. يحقن الأدرينالين إسعافياً في الوريد في بعض حالات الصدمة لرفع ضغط الدم وتحسين تروية الدماغ والقلب بتحويل الدم عن الجلد والأمعاء وكذلك لرفع سكر الدم، وقد يحقن الأدرينالين مباشرة في القلب في حالات الموت الظاهر كحل أخير قد يعيد للمصاب حياته. يستعمل الأدرينالين أيضاً مرقئاً موضعياً ومخففاً للاحتقان الأنفي في الحالات الأرجية. تتصف مشتقات الأدرينالين الصنعية الحديثة بتأثيرها في أحد نوعي المستقبلات الأدرينالية فقط أو بوجودها في تركيبات دوائية تسمح بحصر تأثيرها تقريباً في المستقبلات الموجودة في جهاز معين، وأفضل مثال على ذلك المستحضرات النوعية المنبهة للمستقبلات بيتا المستعملة في معالجة الربو القصبي لتوسيع القصبات الهوائية، وتعطى هذه الأدوية بالإرذاذ في الفم لتصل إلى هدفها في حدران القصبات بسرعة وبتركيز كاف من دون أن يزيد مستواها كثيراً في الدم وتحقق الراحة للمريض من دون أن تجهد قلبه.

عصام مارديني

الموضوعات ذات الصلة:

الاستقلاب - الأستيل كولين - الأعصاب.

مراجع للاستزادة:

- A.C.GUITDN, Text Book of Medical Physiology (Saunders, Philadelphia 1991).
- G.E.WOLSTENHOLME, Adrenegic Mecanism (Ciba Foundation, London 1985).

■ الأدرياتي (البحر -)

البحر الأدرياتي Adriatic Sea بحر هامشي على الساحل الأوربي من البحر المتوسط [ر]. أخذ اسمه من بلدة أدريا الحالية الواقعة جنوب غرب البندقية [ر]، عندما كانت مرفأً مزدهراً ثم فقد أهميته نتيجة ردمه بطمي نهر البو ودلتاه.

يشكل الأدرياتي ذراعاً خارجة من الحوض الأوسط للبحر المتوسط، تندس بين شبه جزيرة إيطالية [ر] في الغرب والبلقان في الشرق، وتمتد من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي مسافة ٨٠٠كم بعرض متوسط قدره ١٦٠كم ومساحة قدرها ١٣٢٠٠٠كم². والبحر مغلق في الشمال عند خليج البندقية ومفتوح في الجنوب الشرقي على البحر الإيوني أحد أقسام البحر المتوسط، عن طريق ممر اوترنتو Otranto البالغ عرضه ٧٦كم.

تحف بحوض البحر على جانبيه الشرقي والغربي سواحل مختلفة، فهي منخفضة وسهلية منبسطة كثيرة السبخات والأخوار في الشمال الغربي وسهل البو الأدنى ودلتاه، وتستمر سهلية وعديمة التعاريج على طول



الساحل الإيطالي باستثناء رأس مونت غارغانو وخليج مانفريدونية وخمس جزر صغيرة لإيطالية وأربع أخرى ليوغسلافية [ر]. أما السواحل الشرقية فتبدأ بشبه جزيرة إيسترية في الشمال، لتصبح بعدها، على امتداد الساحل اليوغسلافي، صخرية عالية وغنية بالجزر والقنوات والخلجان المسايرة لخط الساحل، مكونة نموذجاً فريداً من السواحل الدلماسية (سلاسل جبلية التوائية مسايرة للساحل غمرتها مياه البحر). أما على الساحل الألباني فتعود السهول الساحلية الكثيرة الأخوار والتعرج والمستنقعات. وتتفق الأعماق مع نماذج السواحل، فهي قليلة العمق قبالة السواحل السهلية المنخفضة، وأكثر عمقاً على امتداد سواها. وتظهر في قاع البحر عتبة، عمق المياه فوقها ١٨٠م، تقسم البحر إلى حوض شمالي شبه منبسط، وقليل العمق عامة، وآخر عميق مضرس يشغل الثلث الجنوبي من الأدرياتي، وفيه أعمق نقطة، (١٢٥٢م أو ٦٨٥قامة). ومع أن معظم حوض البحر رصيف قاري عمق مياهه أقل من ٢٠٠م، فإن العمق المتوسط العام هو ٤٤٤م. وتغطي قاع البحر ترسبات متنوعة كالوحول الصفراء والرمال وفتات الأصداف والمرجانيات وبقايا هياكل الكائنات البحرية، وكذلك ماتحمله إليه مياه الأنهار والسيول من طمي ومواد صلبة أخرى، وأهمها أنهار البو Po ورينو Reno وأوفانتو Ofanto الإيطالية، ونهر نرتفا Neretva وغيره من أنهار يوغسلافية وألبانية.

وتتأثر كتلة المياه السطحية بالرياح التي تهب على حوض الأدرياتي فتسبب الأمواج وتقوي حركات التيارات، وأهمها رياح البورا القادمة من يوغسلافية، والسيروكو القادمة من الجنوب الشرقي. وعلى الرغم من تناوب هبوب هذه الرياح طوال أشهر الشتاء، فإن المحصلة السائدة للتيارات البحرية السطحية هي الانسياب شبه الدائم للتيار الداخل إلى الأدرياتي من البحر المتوسط مسايراً لسواحل ألبانية [ر] ويوغسلافية من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي، ثم التفافه عائداً بالاتجاه المعاكس نحو الجنوب الشرقي على طول السواحل الإيطالية ليخرج إلى البحر المتوسط. أما حركة المد فمحسوسة في الأدرياتي أكثر منها في البحر المتوسط، حيث يصل مداها عند مدخله إلى ٤٠سم، يزداد حتى يصل إلى ٩٠سم في شماليه علماً بأن مدى المد في البحر الأم، المتوسط، يقع بين ٢٥ و٣٠سم.

وتختلف ملوحة المياه السطحية بين الجنوب، ٣٩ بالألف عند مدخل البحر، والشمال حيث تنخفض إلى ٢٥ بالألف من جراء ارتفاع كمية المياه العذبة الصابة في البحر، وانخفاض مقادير التبخر، مقابل انخفاض كمية المياه العذبة وارتفاع مقادير التبخر في الجنوب.

أما مناخ الحوض فمتوسطي معتدل، صيفه قليل الأمطار دافئ مشمس، متوسط حرارته ٢٢-٢٦ درجة مئوية. في حين يكون شتاؤه مطيراً لطيفاً قليل التغيم وحرارته المتوسطة ٧-١٣ درجة مئوية. وتقع حرارات المياه السطحية ضمن حدود هذه الحرارات إذ تراوح بين ٢٠-٢٤ درجة مئوية في الصيف و٧-١٤ درجة مئوية في الشتاء، فتتركز الحرارات المرتفعة لكل من الهواء والماء في الجنوب والمنخفضة في الشمال. وتصبح مياه البحر مع مياه الأنهار عند مصباتها باردة في أقصى الشمال، لما تجلبه من مياه ذوبان الثلوج. أما في الأعماق الواقعة بين ٢٥٠ و٣٠٠م، فتقل الفروق الحرارية فلا يزيد الحد الأقصى على ١٤، ولا يقل الحد الأدنى لدرجات الحرارة عن ١١ درجة مئوية. ولقد أسهمت هذه الأوضاع المناخية والمائية في تصنيف سواحل البحر الأدرياتي ضمن المنتجعات البحرية العالمية المطروقة من سكان أوربة [ر] وخارجها. لكن مياه البحر من جهة أخرى فقيرة نسبياً بالثروات والحياة البحرية، ولاسيما في حوضيه الأوسط والجنوبي.

كان البحر الأدرياتي يتمتع بأهمية تجارية وإستراتيجية عالمية، كان لها دورها في تطور أوربة في القرون الوسطى وفي زمن الحروب الصليبية والنشاط التجاري للبنادقة والجنويين. فقد كان طريقاً تصل سواحله بسواحل البحر المتوسط، وشرياناً للتجارة بين أوربة والمشرق العربي انتقلت معه منجزات الحضارة العربية-الإسلامية إلى إيطالية فأوربة. ولقد استعاد البحر بعض أهميته في أثناء الحرب العالمية الثانية وازدادت هذه الأهمية اليوم بازدهار السياحة والاصطياف واتساع حركة موانئه وأهمها البندقية ورافنا وانكونا وباري وبرنديزي وتريستة (إيطالية) وريكا وسبلت ودوبروفنيك (يوغوسلافية) ودورس (ألبانية).

عادل عبد السلام

■ إدريس ← الأنبياء

■ إدريس بن إدريس ← الأدارسة

■ إدريس بن عبد الله العلوي ← الأدارسة

■ إدريس السنوسي
(١٨٩٠-١٩٨٣)

إدريس بن محمد المهدي بن محمد بن علي السنوسي الإدريسي، ملك ليبية سابقاً وزعيم الحركة السنوسية، ولد في جغبوب جنوب برقة، من أسرة لها مكانتها الدينية، فقد أسس جده محمد بن علي السنوسي (١٧٨٧-١٨٥٩) الذي ولد في مستغانم في الجزائر الطريقة السنوسية عندما انتقل إلى مكة ولبث فيها ما بين ١٨٣٠ و١٨٤٣، وأقام فيها أول زاوية من زوايا طريقته. فلما أُخرج من الحجاز قصد ليبية واتخذ من جغبوب، وهي واحة في جنوبي الصحراء الليبية، مركزاً لدعوته، ثم أقام الزوايا التي غدت مراكز فكرية وسياسية ومعيشية لأنصار دعوته الذين انتشروا في بلاد الشمال الإفريقي.

وقد خلفه ابنه محمد المهدي (١٨٤٤-١٩٠١) الذي انتشرت زوايا السنوسية في أيامه من المغرب إلى الهند، وقد انتقل إلى ودّاي في تشاد وفيها توفي. ثم خلفه بعد وفاته ابن أخيه سيدي أحمد شريف الذي بقي شيخاً للطريقة حتى سنة ١٩١٥ ثم خلفه إدريس بن محمد المهدي.

وقد أدت السنوسية دوراً دينياً وسياسياً، امتزج فيه التصوف بالدعوة إلى الاجتهاد في الفقه والتشريع، وقامت بدور مهم في نشر الإسلام في إفريقية وجنوب الصحراء. ووقفت موقف الحذر من الحكم العثماني في برقة وطرابلس الغرب وفزّان، وشغلت موقعاً ملحوظاً في ساحة مقاومة الاحتلال الإيطالي لليبية والاحتلال الفرنسي لبلاد الشمال الإفريقي بوجه عام.

تلقى إدريس السنوسي تعليماً دينياً في الزوايا السنوسية في جغبوب، وفي سنة ١٩١٥ تولى الزعامة السنوسية وكانت ليبية تمر بزمن عصيب إثر اعتداء إيطالية على بلاده، وفي عام ١٩٢٠ اعترفت به إيطالية أميراً، وعندما تولى موسوليني الحكم في إيطالية لم يعترف بالمعاهدات المعقودة مع الزعماء الليبيين فوضع البلاد كلها تحت الحكم الإيطالي عام ١٩٢٣.

وقد قاوم إدريس السنوسي مع أعوانه الاستعمار الإيطالي مقاومة شديدة، ثم اضطر إلى مغادرة وطنه إلى مصر.

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية واحتلت فرنسة فزّان ساعد الأمير إدريس السنوسي الإنكليز بنفوذه ورجاله إلى أن تم جلاء الإيطاليين عن ليبية. وتقديراً لجهوده اعترفت به بريطانية أميراً على برقة عام ١٩٤٩، وبقيت ليبية تحت الإدارة العسكرية البريطانية حتى عام ١٩٥٠ حينما وافقت الأمم المتحدة على استقلالها في ٢٤ كانون أول ١٩٥١ دولةً اتحاديةً تحت حكم الملك إدريس السنوسي الأول، وبدأت الدولة في عهده نهضتها الحديثة، فاهتمت بالتعليم، وا فتتحت المدارس بمختلف أنواعها، وأسست الجامعة الليبية عام ١٩٥٨ في بنغازي التي اقتصرت آنئذ على كليتي الآداب والتجارة، ثم افتتحت جامعة أخرى في طرابلس عام ١٩٦٤ ضمت كلية للعلوم.

وفي سنة ١٩٦٣ أقام الملك إدريس حكومة دستورية، وأقر مجلس النواب الليبي توحيد ليبية وإلغاء نظام الاتحاد الفدرالي، ونصَ الدستور على أن ليبية جزء من الوطن العربي وقسم من القارة الإفريقية.

غير أن الملك إدريس كان ينتهج سياسة خارجية موالية للغرب، إذ سمح بإنشاء قواعد عسكرية بريطانية وأمريكية في ليبية، استخدمت لاحقاً في العدوان على مصر.

وفي أعقاب استغلال النفط في البلاد، شاع الفساد بين الفئة الحاكمة، وبدا أن التطور الفكري والسياسي قد تجاوز الطريقة السنوسية التي بدت قاصرة عن مواكبة فكر العصر وقضاياه. وفي سنة ١٩٦٩ في أول أيلول أطاحت ثورة الفاتح من أيلول بقيادة العقيد معمر القذافي الحكم الملكي، ولجأ الملك إدريس إلى مصر في عهد الرئيس أنور السادات[ر] الذي رحب به، وأقام في القاهرة حتى وفاته.

ج.ت

■ الإدريسي (الشريف -)
(٤٩٣ - ٥٦٠هـ/ ١١٠٠ - ١١٦٥م)

محمد بن محمد بن عبدالله، جغرافي ورحّالة عربي، ولد في مدينة سبتة بالمغرب الأقصى وينتسب إلى شجرة الشرفاء الإدريسية من بني حمود [ر] الأندلسيين الذين طالبوا بحقهم بالخلافة، ويمت بنسبه هذا إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، لذلك اشتهر باسم الشريف الإدريسي. والمعروف أن جده الأكبر إدريس بن عبد الله بن الحسن هرب من الحجاز إلى المغرب الأقصى حيث أسس دولة الأدارسة[ر] هناك عام ١٧٢هـ/ ٧٨٩م ولم يستطع بنو حمود أجداده الحفاظ على سلطانهم في مالقة فعادوا إلى سبتة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وفيها ولد الإدريسي وتلقى علومه الأولى. غير أن الصلات ظلت قائمة بين أسرة الإدريسي والأندلس فانتقل محمد الإدريسي إلى قُرطُبة صغيراً ونشأ فيها، ودرس في جامعتها العلوم والرياضيات وبرز في التاريخ والجغرافية ولمع اسمه في قرطبة حتى دعي بالقرطبي.

أولع الإدريسي بالأسفار منذ أن شب عن الطوق فقام بسلسلة من الرحلات إلى بلدان عدة وطوف بالأندلس ولشبونة وسواحل فرنسة والجزر البريطانية وزار المغرب ومصر والشام والأناضول واليونان، فاكتسب في رحلاته تلك الخبرة والمعرفة وتعرّف مراكز الطرق التجارية باستماعه أخبار التجار من عرب وروم وغيرهم. وشجعه أقرباؤه من آل حمود على زيارة صقلية عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م وقدموه إلى ملكها النورمندي روجار الثاني (٥٠٥-٥٤٩هـ/ ١١١١-١١٥٤م) فحظي عنده بالإكرام ونشأت بين الاثنين مودة، وطلب الملك منه وضع كتاب وخريطة للعالم يعرف بهما موقعه منه. فمكث الإدريسي في صقلية نحو عشرين عاماً صنع للملك في أثنائها كرة أرضية من صفائح الفضة وألف كتابه المشهور «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» وكتباً أخرى ثم عاد إلى سبتة مسقط رأسه وأقام فيها إلى وفاته.

كان الإدريسي جغرافياً رائداً دقيق الملاحظة واسع المعرفة، ويتصف منهجه بمحاولة التقريب بين الجغرافية الوصفية والفلكية، والوصف غالب على مؤلفاته ويبدو ذلك جلياً عندما وصف

الأرض بأنها معلّقة في الفضاء «كالمحّ في البيضة» وتصورها على هيئة كرة محيطها اثنان وعشرون ألفاً وتسعمئة ميل. واتبع الإدريسي منحى بطلميوس بتقسيمه الأرض إلى سبعة أقاليم، وهي أحزمة عريضة فوق خط الاستواء، غير أن الجديد عند الإدريسي أنه قسّم الأقاليم السبعة إلى أجزاء رأسية عددها سبعون جزءاً، وجعل لكل جزء خريطة مسطحة وضعها الواحدة إلى جانب الأخرى مبتدئاً من الغرب إلى الشرق وربط الأجزاء كلها بعضها إلى بعض، فإذا جمعت الخرائط السبعون تكوّنت خريطة عامة لكل العالم. وقد أفاد الإدريسي من ملاحظات من سبقه وعاصره مثل بطلميوس واليعقوبي وابن حوقل، وأفاد منه كثيرون: كابن سعيد المغربي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر (كان حياً عام ٦٧٠هـ) ونقل عن الإدريسي ماكتبه عن أوربة والبلاد الأخرى، وكذلك أبو الفداء (ت ٧٣٢هـ) الذي عاش في بداية القرن الرابع عشر، وتولى ميلر طبع القسم الأكبر من خرائط الإدريسي فاستخرج منها خريطته الشهيرة عام ١٩٣١. وقد مرّ وقت كان الإدريسي فيه سفير الأدب الجغرافي العربي في أوربة ومؤسساتها العلمية حتى أطلق عليه اسم «استرابون العرب».

أما أهم آثار الإدريسي فهو كتابه الشهير «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي أنجزه عام ٥٤٨هـ/١١٥٤م في بلاط ملك صقلية روجار الثاني وألحق به بخرائط توضيحية للأقاليم السبعة المعروفة آنذاك إضافة إلى خريطة مسطحة للعالم رسمها على هيئة دائرة في مطلع الكتاب وقسمها طولاً إلى عشرة أجزاء متساوية تبدأ من القطب الأعلى (الجنوبي في علوم ذلك العصر) وتنتهي عند القطب الأسفل، وتقطعها خطوط عرضية فتؤلف مايشبه المستطيلات (على نحوماهو متبع اليوم في المرتسمات الحديثة). وقد أهدى الإدريسي كتابه إلى ملك صقلية فعرف بالكتاب الروجاري أو كتاب روجار ويعدُّ الكتاب أفضل رسالة في الجغرافية كتبت في العصور الوسطى، وهو من أوسع الكتب الجغرافية باللغة العربية شهرة في أوربة وقد ترجم إلى الإيطالية واللاتينية والفرنسية والألمانية وغيرها وطبع طبعات متعددة أقدمها الطبعة العربية التي صدرت في مطبعة آل مديتشي في رومة سنة ١٥٩٢م باسم «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق» وصدرت طبعته الإيطالية سنة ١٦٠٠م والطبعة اللاتينية في باريس سنة ١٦١٩م ومدريد سنة ١٧٩٩م و١٨٨١م وطبع في لايبزغ سنة ١٨٢٨م وليون سنة ١٨٦٤م ورومة سنة ١٨٨٥م أما آخر طبعات الكتاب فهي التي صدرت في رومة على أيدي متخصصين من المعهد الإيطالي للشرقين الأدنى والأقصى في تسعة أجزاء فيما بين سنتي ١٩٧٠ و١٩٨٤م واشتملت المجلدات الثمانية الأولى على نص الكتاب وخصص المجلد التاسع للفهارس، وطبع الكتاب في بيروت باللغة العربية بمجلدين سنة ١٩٨٩م. كذلك ألف الإدريسي وهو في بلاط النورمنديين كتاب «روض الأنس ونزهة النفس» الذي أخذ عنه أبو الفداء في تقويم البلدان وذكره باسم «كتاب الشريف الإدريسي في الممالك والمسالك» ويقول الشاعر ابن بشرون الصقلي المعاصر للشريف الإدريسي: إن هذا المؤلف الثاني وضعه الإدريسي بناء على طلب وليم الأول خليفة روجار الثاني. وقد عثر المستشرق هورو فيتشرز في اصطنبول على مخطوط يمثل جزءاً من الكتاب ويحمل عنوان «روض الفرج ونزهة المهج» ويقول كرستيان سيبولد C. Seybold (١٨٥٩-١٩٢١) إن هذا المخطوط مختصر كتاب الإدريسي الثاني، أما كرامرس J.H.Kramers (١٨٩١-١٩٥١) فيرى أنه اقتباس عن كتاب الإدريسي الكبير (أنجز عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م وأعيد نسخه بعد قرن وضُمّن الإقليم الثامن جنوب خط الاستواء مع الإشارة إلى ابن سعيد الذي أخذ عنه). أما الكرة الأرضية فقد صنعها الإدريسي من صفائح الفضة بطلب من روجار الثاني وتمويل منه وبلغ وزنها ٤٠٠ رطل رومي (١٤٤ أقة) وتعدُّ عملاً مبدعاً في فن الخرائط إلى اليوم فهي تمثل تجسيماً لصورة الأرض بأقاليمها السبعة رسمها أولاً على الورق ثم نقشها نقشاً غائراً على صفائح الفضة وزينها بالذهب ثم سطّحها قليلاً فجاءت خطوط العرض متباعدة، والمقياس على خط الطول يتزايد بنسبة تزايده على خطوط العرض، ويحصل تشويه في المساحة كلما ابتعدت نقاطها عن خط الاستواء وقد فقدت هذه الكرة منذ قرون ولايعرف مصيرها.

لم يقتصر اهتمام الإدريسي على علمي الفلك والجغرافية بل تعداهما إلى مجالات أخرى كالطب والصيدلة وعلم النبات. وقد عثر في النصف الثاني من القرن العشرين في إحدى مكتبات اصطنبول على مخطوط يضم قسمه الأول رسالة في تحضير الأدوية للإدريسي. ومن تصانيفه المهمة الأخرى كتاب «الجامع لصفات أشتات النبات» ويقول الإدريسي في مقدمة كتابه هذا إنه نظر في كتب من سبقه فوجدها مملوءة بالأغلاط، وإن بعض المؤلفين أطال وجمع بين الأقوال، وبعضهم أوجز وذكر المعلوم وترك المجهول. لذلك رأى أن يرجع إلى البحر الذي منه اغترفوا والكنز الذي منه استسلفوا، وهو كتاب دياسقوريدس الذي وضعه في الأدوية المفردة، ولكنه وجده قد ترك أدوية كثيرة لم يذكرها، إما أنه لم يبلغه علمها ولاسمع عنها، أو لأن أكثرها ليست من بلاده، أو ضنّاً منه وتعمداً. وقد ألف الإدريسي كتابه على شكل معجم يضم أسماء الأدوية المفردة، مرتبة على حروف الهجاء، وفسّر أسماءها باللغات السريانية واليونانية والفارسية واللاتينية والبربرية والقبطية أحياناً، وذكر منافع كل مفرد منها، وما يستخرج منه من صموغ وزيوت، ويتخذ منه من أصول وأوراق وقشور وبراعم وأزهار وبذور. ويوجد في خزانة كتب الفاتح باصطنبول مخطوط يضم الجزأين الأول والثاني من كتاب «الجامع لأشتات النبات». يبتدىء الجزء الأول بحرف الألف إلى حرف الزاي ويشتمل على ٣٦٠ دواءً مفرداً. ويبتدىء الجزء الثاني بحرف الحاء إلى حرف النون، ويضم ٢٥٠ دواءً، والغالب أن تكون الحروف الباقية ١٤ حرفاً في جزأين آخرين. وذكر الإدريسي أسماء أحد عشر مرجعاً، هي أشهر ماكتب في مفردات الطب في مشرق العالم العربي وغربه. كما استفاد من كتاب الإدريسي «الجامع لأشتات النبات» كثير من المؤلفين بعده ولاسيما ابن البيطار[ر] في كتابه «الجامع لمفردات الأغذية والأدوية».

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الجغرافية - صقلية - الفلك (علم -).

مراجع للاستزادة:

- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب (دار الفكر، دمشق ١٩٨٠).

■ الإدريسي (محمد بن علي -) (١٢٩٣-١٣٤١هـ/ ١٨٧٦-١٩٢٣م)

محمد بن علي بن محمد بن الإمام أحمد ابن إدريس، مؤسس دولة الأدارسة في صَبْيَا وعسير باليمن. يرجع في أصله إلى مدينة فاس في المغرب، وكان جده السيد أحمد مؤسس الطريقة الأحمدية في هذا البلد قد هاجر منه إلى الحجاز، فأقام بمكة المكرمة، ثم توجه إلى تهامة عسير واستقر في بلدة صَبْيَا عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م.

ولد محمد الثاني بن علي الإدريسي في صَبْيَا ونشأ فيها. وفي عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م توجه إلى مكة المكرمة ثم غادرها إلى القاهرة، والتحق بالأزهر، وبعد أن أنهى تحصيله العلمي انتقل إلى واحة الكفرة في المغرب، مركز الدعوة السنوسية التي يتزعمها الأدارسة، فقرأ على السيد السنوسي، ثم انصرف عنها إلى دُنْقُلَة في السودان عند أخواله وبني عمه، وتزوج ابنة هارون الطويل شيخ الطريقة الأحمدية، ثم غادر دُنْقُلة إلى عسير مسقط رأسه والفوضى آنئذ تعم البلاد، فنهض بالإمامة بعد وفاة أبيه علي ابن محمد الأول سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م. وكان أول طريق محمد الثاني الإدريسي إلى السلطة هجومه على ممثل السلطة التركية الباشا الشريف أحمد الخواجي من زعماء أبي العريش وأشرافهم، فأسره واستولى على صَبْيا سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م مستعيناً بنشاطه الديني وبما كان يبذله من الأموال ومايعطيه من السلاح لرجال القبائل لبلوغ أهدافه. وقد بادرت الحكومة العثمانية إلى توجيه جيش لقتاله بقيادة سعيد باشا حاكم ولاية لَحْج، لكن الإدريسي تظاهر بالولاء للدولة العثمانية، وحصل على تعيينه مفوضاً عاماً ثم قائم مقام لصَبْيَا وجيزان وأبي عريش، فاتسع نطاق سلطانه إلى بلاد عسير وانتشرت طريقته في أرجاء تهامة.

وفي عام ١٣٢٨هـ جمع حوله القبائل لمحاربة القائد العثماني سليمان باشا في أبها، وفرض الحصار على المدينة ولكنه لم يستطع فتحها بسبب تتابع النجدات العسكرية التي وصلت إليها بقيادة أمير مكة الشريف حسين بن علي، فاضطر إلى فك الحصار والهروب إلى جبال فيفا. غير أن نشوب الخلاف بين الشريف حسين وحاكم عسير التركي سليمان باشا حمل الشريف على العودة إلى مكة، وانحسر الخطر عن الإدريسي لانشغال الدولة التركية بالحرب العالمية الأولى التي كانت طرفاً فيها، فعاد إلى مقره وعمد إلى ضم قبائل تهامة إليه.

كان الإدريسي ثابتاً في عدائه للترك ومن والاهم من أمراء العرب، محالفاً خصومهم أياً كانت جنسياتهم، فأقام الصلات مع الإيطاليين على الجانب الآخر من البحر الأحمر واعتمد على إمدادات السلاح منهم، وظل محافظاً على علاقات حسنة معهم على الرغم من تحوّله إلى محالفة الإنكليز في معاهدة ١٩١٥ ثم في معاهدة ١٩١٧. وقد اعترفت إنكلترة للإدريسي في المعاهدة الثانية بالسيادة على تهامة من ميناء اللحيّة جنوباً إلى القُنفذة شمالاً، وتعهدت بحمايته من أي عدوان خارجي كما تعهد هو بعدم عقد أي معاهدة سياسية أو تجارية مع دول أخرى دونما علم منها.

وبعد انسحاب الأتراك من مقاطعة عسير السراة، قام حسن بن عايض بإدارتها في المدة التي قوي سلطان الإدريسي فيها مما ساعد على وقوع نزاع مسلح بينه وبين ابن عايض الذي هزم جنود الإدريسي في عدة مواقع. ولما أخفق الإدريسي في ضم الأراضي العليا من تهامة عقد معاهدة صداقة مع الملك عبد العزيز آل سعود تعاهدا فيها على حماية مصالحهما المتبادلة. وتوسط الملك السعودي بين المتخاصمين، لكن آل عايض رفضوا الوساطة، فقام السعوديون باحتلال أبها والقضاء على حكم آل عايض، وأُدخلت الأراضي المرتفعة من تهامة في الدولة السعودية، وحافظت إمارة الأدارسة على استقلالها مدة حياة الإدريسي. وبعد وفاته تولى ابنه علي الإمارة لكنه عجز عن ضبط الوضع ووقف الانهيار، فتولى عمه حسن الإمارة ولكنه لم يستطع أيضاً ضبط الأمور فيها، مما أدى إلى بسط الحماية السعودية على الإمارة.

اتصف الإدريسي بالذكاء والحزم والكرم والدهاء. وكان خبيراً بالمناورات السياسية، يبدل تحالفاته وخصوماته كلما اقتضت سياسته الراسخة في مقارعة الترك وفي التغلب على خصومه من الحكام المحليين المجاورين.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- عبدالله بن علي بن مسفر، السراج المنير في سيرة أمراء عسير (مؤسسة الرسالة).
- أمين الريحاني، ملوك العرب، ط٨ (دار الجيل، بيروت ١٩٨٧).

■ الإدريسية ← التصوف

■ إدريمي

إدريميّ Idrimi ملك كنعاني حكم منطقة في شمال غربي سورية تدعى «موكيش» وعاصمتها مدينة ألالاخ [ر] (تل العطشانة اليوم) التي تقع عند مجرى نهر العاصي الأسفل قرب مدينة أنطاكية [ر]. بعد أن حكم هذا الملك ثلاثين عاماً تقريباً (نحو سنة ١٥٠٠ق.م) أمر بتدوين سيرة حياته الذاتية على تمثاله الذي عثر عليه محطماً عام ١٩٣٩ في معبد مدينة ألالاخ داخل حفرة في أرضية غرفة قرب المعبد في الطبقة الأولى. وكان التمثال منصوباً في الأصل داخل المعبد، وهو من الحجر الأبيض طوله متر واحد. ويبدو الملك فيه رجلاً طاعناً في السن متربعاً على عرشه والتمثال موجود اليوم في المتحف البريطاني. وتعود أهمية تمثال إدريمي إلى الكتابة الأكدية التي تشغل معظم واجهة التمثال الأمامية وتتألف من ١٠٤ أسطر. وهي أول سيرة ذاتية لملك في تاريخ الشرق القديم يتحدث فيها عن حياته بالتفصيل. ويستخلص منها أنه حكم بلاد موكيش وكان معاصراً للملك الخوري - الميتاني باراتارنا Parattarna وللملك بيليا Pillya ملك دولة كيزواتنا Kizzuwatna الواقعة في جنوب غربي الأناضول. وفي هذه المدة كان الصراع على أشده بين الدولتين المتنافستين الميتانية والحثية.

عندما أطيح بالملك والد إدريمي إثر ثورة قامت عليه هرب إدريمي مع الأسرة المالكة إلى أخواله في إيمار (مسكنة)، ومن هناك اتجه بمفرده إلى الساحل السوري، ونزل لاجئاً عند قبائل الخابيرو، وبقي هناك سبع سنوات. بعد ذلك عاد إلى شمال غربي سورية، واستقر في

مقاطعة موكيش بالقرب من جبل الأقرع.

وفي ذلك الحين أخضع إدريمي لسيطرته عدة ممالك مدن، ثم أصبح ملكاً تابعاً للدولة الميتانية في ألالاخ بموجب عقد وقعه مع الملك الميتاني باراتارنا. ووقع عقداً آخر مع ملك دولة كيزواتنا يتم بموجبه تبادل اللاجئين بين الطرفين.

ومن عاصمته ألالاخ استطاع إدريمي أن يبسط نفوذه على منطقة واسعة تمتد من الساحل السوري إلى حلب، ومن كيزواتنا إلى أغاريت، إضافة إلى سهل الغاب. وتمكن إدريمي من القضاء على مؤامرات داخلية كانت تحاك له. وبعد الانتهاء منها قام بحملة غزو وسلب في المناطق المتاخمة لحدوده من الشمال جنوب شرقي آسيا الصغرى. ثم يتحدث إدريمي في سيرته الذاتية عن إنجازاته بعد الحملة، وهي تجديد القصر الملكي وتنظيم العلاقات بين البدو وإصلاح الحصون الدفاعية ووضع ترتيبات جديدة تخص الأعياد والشعائر الدينية التي كلف ابنه أددنيراري Adad-Nirari مهمة تنفيذها. والغريب في الموضوع أن وثائق الطبقة الرابعة من ألالاخ لا تذكر أددنيراري خلفاً لوالده وإنما تذكر اسم ابن آخر يدعى نيقمبا Niqmepa الذي استعمل خاتم والده إلى جانب خاتم الأسرة المالكة، كما تشير إلى ذلك الوثائق المكتشفة في الطبقة الرابعة من ألالاخ.

محمد وحيد خياطة

مراجع للاستزادة:

- S. SMITH, The Statue of Idrimi (London 1949).

■ أدزيليو (ماسيمو تاباريلي -) (١٧٨٩ - ١٨٦٦م)

ماسيمو تاباريلي أدزيليو Massimo Taparelli Azeglio رجل دولة ومؤلف ومصور إيطالي من أصل أرستقراطي، مارس فن التصوير في شبابه (١٨٢٠ - ١٨٣٠) فحقق بعض النجاح. واشتهر قائداً سياسياً معتدلاً بين رواد حركة إحياء النهضة القومية في إيطالية [ر] Risorgimento.

نشر روايته الأولى «ايتوري فييراموسكا» Ettore Fieramosca سنة ١٨٣٣ التي تتحدث عن بطولة عدد من الأفراد الإيطاليين في الجنوب في مواجهة عدد مماثل لهم من الفرنسيين، أما روايته الثانية «نيكولودي لابي» Niccolo de Lapi فقد نشرت عام ١٨٤١ وهي تتحدث عن حصار فلورنسة عام ١٥٣٠، وكلتاهما محاولة لبث روح القومية في نفوس الإيطاليين. تزوج من ابنة اليساندرو مانزوني زعيم حركة النهضة القومية وتأثر به، ثم أصبح زعيماً لتلك الحركة في عام ١٨٤٥.

تعد كتابات أدزيليو السياسية الرئيسة «القضايا الأخيرة لرومانية» Gli ultimi casi di Romagna، و«نضال لمباردية» I lutti di Lombardia تعبيراً واضحاً عن فكره السياسي، فهي تتضمن نقداً لاذعاً لسلطة البابوات الدنيوية وللحكومة البابوية في منطقة رومانية الإيطالية ودعوة للجماهير إلى تأييد ملك سردينية البيمونتي تشارلز ألبرت (١٧٩٨ - ١٨٤٩) الذي تزعم حركة تحرير إيطالية من النمسويين. وشارك أدزيليو في الثورة على النمسويين وجرح في معركة فيتشنزا Vicenza (١٨٤٨). وبعد أن نزل تشارلز عن العرش، إثر هزيمته في معركة نوفارا (١٨٤٩)، لابنه فيكتور إمانويل الثاني، اختير أدزيليو رئيساً للوزراء، وأصدر في عام ١٨٥١ تشريعات عرفت باسم «قوانين سيكاردي» Siccardi كان الهدف منها إحداث عدد من الإصلاحات. غير أن خلافه المستمر مع وزير المالية الكونت كافور دفعه إلى الاستقالة في أواخر عام ١٨٥٢، فاعتزل الحياة العامة واكتفى ببعض المناصب السياسية الثانوية متابعاً كتابة المقالات الهادفة إلى زيادة الوعي القومي لدى الأمة الإيطالية. وفي أواخر حياته عمد إلى كتابة مذكراته التي نشرت عام ١٨٦٧ بعد وفاته.

ج.ت

■ إدفو

بلدة مصرية تقع على الضفة الغربية (اليسرى) لنهر النيل، على بعد ١١٠كم شمال مدينة أسوان [ر]. تعرف بإدفو قبلي، يعمل سكانها بالزراعة وتربية الحيوان، وإلى الشمال الشرقي منها تقع آثار إدفو القديمة.

كانت إدفو Edfou (Idfu) مدينة في جنوبي صعيد مصر دعاها المصريون القدماء جب وسماها الإغريق والرومان أبولينوبوليس ماغنا Apollinopolis Magna أي مدينة أبولو الكبرى. وفي أيام الفراعنة كانت إدفو عاصمة الإقليم الثاني في مصر العليا. وقد كشفت التنقيبات الأثرية منذ أواخر القرن التاسع عشر عن أهميتها في العصور الباكرة من تاريخ مصر القديم، ولاسيما المقبرة التي تعود إلى عصر الدولة القديمة في الألف الثالثة ق.م وعثر فيها على مقابر - مصاطب بُنيت باللبن. وقرأ اللغويون المتخصصون اسم أحد ملوك الأسرة الأولى اواجيب Ouadjib منقوشاً على صخرة في مكان قريب من المدينة.

جُعلت إدفو تحت حماية الإله الصقر حوروس ملك المدينة التي كانت تدعى هديث أيضاً. وقد تحقق للباحثين أن هذا الإله يرجع في أصله إلى هذه المنطقة، وجعله البطالمة الذين حكموا مصر بعد الاسكندر موازياً لأبولو.

وكشفت التنقيبات عن بقايا سور كان يحمي المدينة من الغارات في فجر تاريخها. وظلت إدفو محتفظة بأهميتها قروناً بوصفها إحدى المدن المهمة في مصر العليا ودخلت في صراع مع إمارات المدن المجاورة وأبرزها طيبة وكوبتوس (قفط) في المرحلة الانتقالية الأولى بعد انهيار الدولة القديمة. واحتفظت بأهميتها زمناً طويلاً إلى عهد الدولة الحديثة عندما بني فيها، في أواسط الألف الثاني ق.م، معبد كبير للإله حوروس حامي المدينة مما رفع مكانتها الدينية والتجارية. عثر المنقبون في آثار إدفو على كِسَرات من الفخار الموكيني (المسيني)، مما يثبت قيام علاقات مع العالم الإيجي. ومع ذلك فإن التنقيبات التي أُجريت في أواخر القرن التاسع عشر بإدارة ماريبت الفرنسي الذي كان يدير مصلحة الآثار المصرية والتنقيبات التي قامت بها بعد ذلك، بعثة فرنسية بين عامي ١٩٢١ و ١٩٣٩، ثم بعثة فرنسية - بولونية

مشتركة، أدت إلى كشف كثير من أسرار العصور الإغريقية ـ الرومانية ـ البيزنطية في هذا الموقع . وإلى هذه العصور يعود معبد إدفو الكبير، وهو أهم آبدة أثرية في إدفو وأهم آثار حضارة مصر القديمة مقاومة للزمن . بُدىء بتشييد هذا المعبد نحو عام ٢٣٧ق. م، في أيام الملك بطلميوس الثالث على أنقاض المعبد القديم الذي بُني في زمن الدولة الحديثة، وأنجز بناؤه في نحو قرنين في أيام الملك بطلميوس الثالث عشر نحو ٥٧ق. م . يبلغ طول المعبد ١٣٧م وعرضه ٧٩م، وفيه أعمدة يرتفع كل منها حتى ٣٦م وهو أكبر معبد قديم في وادي النيل كله بعد معبد الكرنك. وتعد الكتابات والنقوش والنحوت التي تغطي جدرانه سجلاً مصوراً موجزاً للديانة المصرية القديمة . وتمثل هذه الشواهد قصة الصراع الملحمي بين الأنصار المسلحين الأشداء لحوروس وهو أوزيريس في التقاليد الشعبية وبين أنصار ست، وترمز القصة إلى مطاردة التمساح في النيل . وترى في اللوحات الجدارية مشاهد لشعائر يومية واحتفالات سنوية في المواسم الفصلية. ومنها قصة ولادة حوروس المباركة ونقوش مكتوبة بخطوط جميلة لتراتيل دينية. ومن أهم الكتابات المنقوشة قوائم بأسماء الأقاليم والوحدات الإدارية في البلاد، وقوائم أخرى بأسماء المنتجات الزراعية والمعدنية للبلاد المجاورة، ودساتير لتركيب بعض الدهون الدوائية والعطور التي وجدت فيما يدعى بالمخبر، وهو من أقسام المعبد، كان يتم فيه صنع هذه الأدوية والعطور. وقد جعلت التقاليد لمعبد إدفو مكانة خاصة، ففيه كما في دندرة وفيلة (وهي جزيرة الفيل) أماكن مخصصة للولادة المباركة Mammisi .

إن في تنوع تيجان الأعمدة، وغنى النقش ودقته ما يشهد على تداخل الثقافتين المصرية والهلينية في الفن المصري الهليني في عصر البطالمة [ر].

كانت إدفو واحدة من أغنى مدن الصعيد فهي بموقعها على النيل حارسة لبوابة حصن فيلة وتتصل بكوبتوس (قفط) وطيبة اللتين تقعان على طريق القوافل التي كانت تقطع الصحراء العربية شرق وادي النيل وهي متجهة إلى الموقع الذي بني عنده ميناء برنيقة Berenice في القرن الثالث ق. م على البحر الأحمر عند رأس باناس زمن الملك بطلميوس الثاني. وتعود هذه الطريق التجارية التقليدية إلى الألف الثالث قبل الميلاد عندما كانت قوافل مصر تتوجه منها إلى بلاد بونت الغنية الواقعة على باب المندب ومنها إلى الشواطئ الجنوبية لشبه جزيرة العرب وإلى الصومال والقرن الإفريقي.

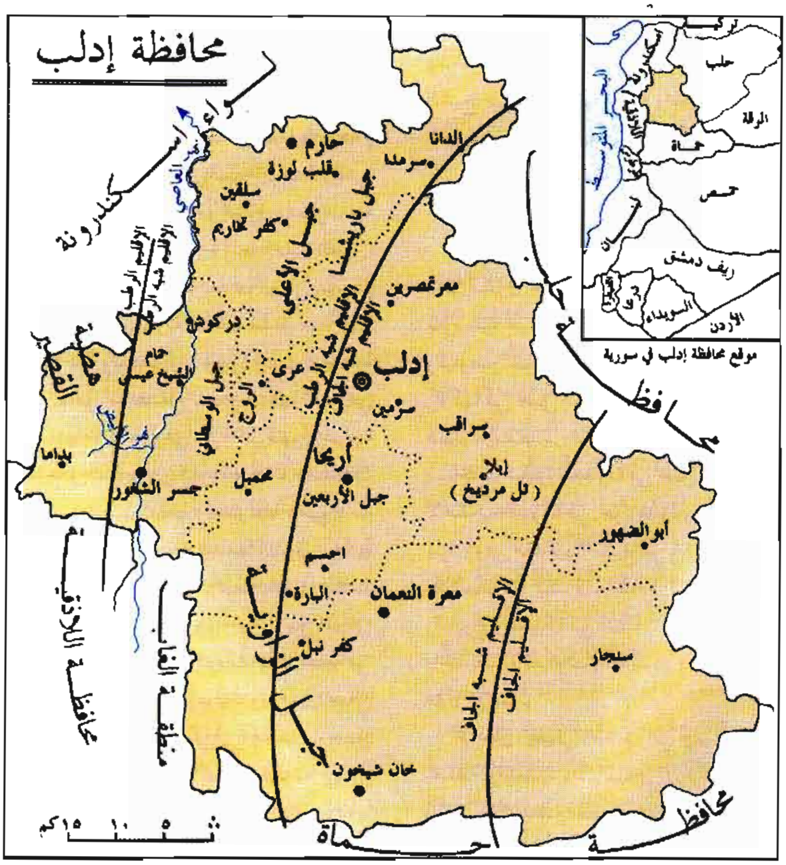
محمد حرب فرزات

الموضوعات ذات الصلة :
البطالمة ـ مصر.

مراجع للاستزادة :
- Michalowski et all, Tell Edfou, 4 volumes Le Caire (1937-1950).

■ إدلب (محافظة ـ)

محافظة في شمالي الجمهورية العربية السورية بين خطي الطول ٣٦ درجة و١٠ دقائق و٣٧ درجة و١٥ دقيقة شرقاً، وخطي العرض ٣٥ درجة و١٠ دقائق و٣٦درجة و ١٥ دقيقة شمالاً، تتوسط محافظات حلب وحماة واللاذقية ولواء اسكندرونة، كانت تحتل موقعاً مهماً على طريق الحرير، وتعدّ معبراً للجيوش الغازية، وجسراً يصل مناطق الإنتاج في الجزيرة السورية بمناطق التصدير (اللاذقية). مساحتها نحو ٦٠٠٠كم^2 تقريباً وتقسم إلى خمس مناطق هي: منطقة إدلب ومساحتها ١٥٠٤,٦كم^2 ومنطقة أريحا ومساحتها ٥٨١,٩كم^2 ومنطقة جسر الشغور ومساحتها ١٠٧٧,٧كم^2 ومنطقة المعرة (معرة النعمان) ومساحتها ٢٠٢١,٩٧كم^2 ومنطقة حارم ومساحتها ٨١١,٥٥كم^2.



الجغرافية الطبيعية

تعود معظم صخور المحافظة إلى الحقب الجيولوجي الثالث، نشأت تضاريسها الغربية النجدية الناهضة ضمن بنية سنامية عريضة، يسايرها من الشرق أشرطة سنامية أقل تقبباً واتساعاً خرّبتها البراكين والهزات الأرضية في

مناطق التخلعات أشهرها زلزال عام ١٧٩٦ وزلزال عام ١٨٢٢. أما المنطقة الشرقية من المحافظة فتعدُّ جزءاً من عتبة حلب المائلة نحو الشرق حتى منخفضي المطخ (المتخ) والجبول. ويميز في المحافظة الوحدات الجيولوجية التضاريسية التالية:

هضبة القصير: وهي في شمال غربي المحافظة، وتتألف من الحجر الكلسي، ويشطرها صدع كبير وتؤلف تلالاً وجبالاً منخفضة. ارتفاعها المتوسط ٨٠٠م ينحدر منها عدد كبير من الأودية المنتهية إلى نهر العاصي.

جبال حارم: وهي في شمالي المحافظة، وتتألف من نجود كاملة متتالية طولانية تساير الحافة الشرقية لوادي العاصي، ويسايرها غورا سردين والروج. وأول تلك الجبال جبل باريشا ارتفاعه الوسطي ٥٥٠ ـ ٦٠٠م وأعلى قمة فيه ٦٥٧م. وثانيها جبل الأعلى وأعلى قمة فيه ٨١٩م، وثالثها جبل الوسطاني غرب منخفض الروج وطوله ٤٠كم وعرضه ٣ ـ ٤كم وأعلى قمة فيه تسمى جبل الحنش (٨٤٧م).

جبل الزاوية: وهو نجد ناقص وحيد الميل، يشرف بحافة صدعية مستقيمة شبه قائمة على سهل الغاب وتكثر فيه الفوهات البركانية. يبدأ بجبل الأربعين في الشمال وينتهي بجبل شحشبو في الجنوب. ارتفاعه المتوسط ٧٥٠م وأعلى قمة فيه قمة جبل النبي أيوب البركاني ٩٤٠م وينحدر بلطف نحو الشرق وتتناوب فيه القمم والحفر الكارستية والأودية القليلة العمق.

السهول: وهي تؤلف الطرف الغربي لنهوض حلب، بين جبل الزاوية وهضبة حماة، مساحتها ٢٨٨٥كم^2 وتقسم إلى: سهول إدلب الشمالية التي يحتل مستنقع المطخ طرفها الشرقي وارتفاعها ٣٠٠م. وهي من أكثر سهول سورية اتساعاً وخصوبة، وأكثرها سكاناً وأنشطها زراعة. وسهول إدلب الجنوبية وهي ذات تضاريس لطيفة التموج قسمها الشرقي تغطيه صخور بركانية وسطحها رتيب يتصل ببادية الشام. وسهل الروج، وهو خسف في الأرض متسع ومغلق محاط بالمرتفعات يطلق عليه في اصطلاح الجغرافيين اسم بولييه ويقع بين جبلي الزاوية والوسطاني، يتصل في الجنوب مع سهل الغاب، مساحته ٨٢٥كم^2 وارتفاعه ٢٢٠م وسطحه منبسط في الوسط، كان يؤلف مستنقعات تعرف بأرض الغرق. وقد تمّ تصريف مياهه بنفق صنعي يتصل بنهر العاصي.

المناخ: تتميز المحافظة بصيفها الحار (٢٩ ـ ٣٧ درجة مئوية) وشتائها الدافئ (٥ ـ ٨ درجة مئوية) ومعدل حرارتها السنوي (١٦-١٨ درجة مئوية). والرياح السائدة فيها غربية وجنوبية غربية سرعتها ١ ـ ٣م/ثا. وتبقى الرطوبة مرتفعة شمالي المحافظة وغربيها ٦٠ ـ٦٥٪ معظم أيام السنة وتهبط في شرقيها إلى ٣٥٪ ومعظم الأمطار شتوية، تتناقص نحو الشرق (جسر الشغور ٧٠٠مم ـإدلب ٥٠٠مم ـ سراقب ٣٥٠مم ـأبو الضهور ٢٥٠مم).

وفي المحافظة عدد من الأقاليم المناخية فالمناخ رطب في هضبة القصير، وشبه رطب في جسر الشغور، وشبه جاف في معظم مناطق المحافظة الأخرى من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وجاف في الشرق.

المياه: يخترق المحافظة نهر العاصي ورافده نهر الأبيض، لكن الإفادة منهما محدودة لضيق واديهما وعمقهما. وتنتمي المياه الجوفية في المحافظة إلى حوضي العاصي وحلب. وتكثر الينابيع غربي جبل الزاوية وتغذي سهلي الغاب والروج، ومنها ينابيع عين الطاقة والحويز واللج وشاغوريت وعرّى. وفي وادي العاصي حمامات الشيخ عيسى المعدنية الحارة وعين الزرقا وشق العجوز. ومخزون سهول إدلب من المياه الجوفية كبير، ويقل عمقه كلما اتجهنا شرقاً (٣٥٠ ـ ٧٠م).

النبيت: تقل الأشجار في المحافظة تدريجياً نحو الشرق حتى تنقلب إلى أنواع حراجية متوسطية غنية بالأشواك، وأهم أشجارها البطم والبلوط والقَطْلَب والزعرور، وقد خربها الإنسان وأزالها في جبل الوسطاني. ولا يوجد خارج هضبة القصير غطاء حراجي خلا بعض مساحات مبعثرة محدودة في جبل الزاوية تنمو الأعشاب المتنوعة في جوارها وتتزايد أهميتها شرقاً، وفي مقدمتها الشيح في الغرب والحرمل والشنان في الشرق، إضافة إلى الشوكران والبابونج والمسيكة من النباتات الطبية، والخبيزة والحميضة والعكوب (السلبين) وهي تصلح غذاء للإنسان.

الوحيش: يعيش الضبع وابن آوى في جبال المحافظة،والثعلب والأرانب في مزارع البطيخ، والغريراء والقنفذ والخنزير البري في حراج هضبة القصير. وتكثر في المحافظة الطيور المستوطنة كالعصافير والحجل، والطيور المهاجرة كالقطا والترغلّة (الأطرغلة) والزرزور والبط ولا سيما عند أطراف المستنقعات، ويضاف إليها أبو الحن والبليقي والدرّج والسنونو والخطاف واللقلق، وكذلك الجوارح كالحدأة والصقر والنسر والبوم، وكلها تتعرض للصيد الجائر فتتناقص يوماً بعد يوم.

المحافظة في التاريخ

محافظة إدلب غنية بالآثار قديمها وحديثها، ويرجع تاريخ بعضها إلى ما قبل الألف الرابع قبل الميلاد، ويوجد على حدودها الجنوبية موقع اللطامنة العائد إلى العصر الحجري القديم. وقد شهدت المنطقة منذ الألف الرابع قبل الميلاد موجات من الهجرة الكلدانية والآرامية أسست فيها الكثير من القرى التي تسمى كفراً مثل كفرلاته وكفرزيبا وكفركيلا وكفرتخاريم وغيرها، أو يبدأ اسمها بكلمة معر (مغر) كمعراته ومعرزاف ومعرتارح وغيرها.

وتضم محافظة إدلب الكثير من المناطق التاريخية والأوابد الأثرية، وتاريخها حافل بالحوادث والعمران لأن أراضيها كانت ممراً للغزاة على مر العصور ومن أشهر مدنها الأثرية:

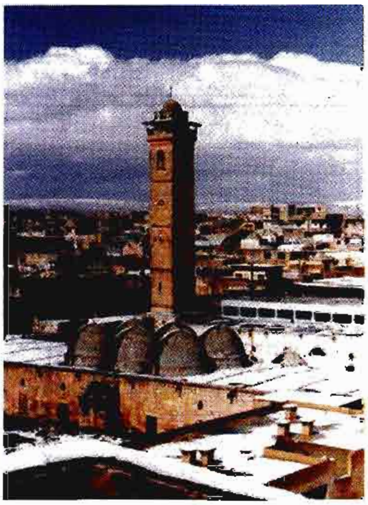
ـ مدينة إبلا [ر] التاريخية في تل مرديخ قرب سراقب وهي حاضرة أقدم مملكة ازدهرت في سورية بين عامي ٢٤٠٠ و ٢٢٥٠ق.م، ودمرها نارام سين الأكدي.

ـومدينة أريحا [ر] وهي مدينة قديمة ترجع إلى أصول آرامية منذ الألف الثالث ق.م، وفيها آثار تعود إلى عصور مختلفة.

ـومعرة النعمان وهي واحدة من أقدم المواقع وأكثرها شهرة وأحفلها تاريخاً، تسميتها آرامية معرتا أي المغاور، وقد نسبت إلى النعمان بن بشير الأنصاري وتعاقبت عليها أصناف الكوارث والحروب منذ غزو الفراعنة حتى الاحتلال الفرنسي. أهم أوابدها الأثرية المسجد الجامع والمدرسة الشافعية ومسجد يوشع بن نون وخان مراد باشا (التكية المرادية) وخان أسعد باشا العظم ومسجد ابن الوردي وقبر أبي العلاء المعري والقلعة التي شيدها المظفر محمد بن المنصور سنة ١٢٣٣م. وهي من أهم مدن المحافظة بعد إدلب.

ـوبلدة سرمين بين إدلب وسراقب التي فتحها أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٧هـ/ ٦٣٧م ومرت بأزمنة عصيبة في أثناء الحروب الصليبية

وغزو المغول. واشتهرت بصناعة الصابون والنسيج كما اشتهرت بنبوغ أبنائها في الفقه والتصوف والشعر والطب، لم يبق من آثارها إلا المسجد الجامع.



معرة النعمان (المسجد الجامع)

-وجسر الشغور التي كانت ملتقى الطرق الرئيسية وموقعاً استراتيجياً عسكرياً لتحركات الجيوش وممراً للقوافل التجارية منذ القدم. استوطنها الإنسان منذ الألف الثالثة قبل الميلاد وتراجعت مكانتها في العصر اليوناني، ثم عادت إليها أهميتها منذ القرن السابع عشر الميلادي وهي اليوم مركز منطقة.

-وروبحة وهي بقعة أثرية، تحوي أروع المباني الأثرية لمدينة قديمة وآثاراً عمرانية رومانية - بيزنطية (قبل القرن الرابع الميلادي) وتحيط بها سوق تجارية وفيها كنيستان، وما تزال بعض أسوارها وأكثر بواباتها قائمة إلى اليوم.

-والبارة وتضم مجموعة من الخرائب الأثرية الرومانية-البيزنطية في شمالي سورية وهي تقع بين أنطاكية وأفامية. احتلها الصليبيون عام ١٠٩٨م، وجعلها الكونت ريموند مطرانية، ثم غدت بطريركية، واستعادها الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي عام ١١٥١م. تتوزع معالمها الأثرية في سبعة مواقع مكتظة بالعمران ما بين القصور الفخمة والأبراج والحمامات والأديرة والكاتدرائيات والكنائس وقلعة أبي سفيان ومعاصر الزيتون والعنب ومستودعات الخمور.

-وقلعتا الشغر وبكاس وهما موقعان أثريان شمال غربي جسر الشغور يفصل الواحد عن الآخر واد عميق كالخندق، وكانت القلعتان تتصلان بجسر فوقه.

-وقلعة حارم وهي قلعة حصينة على مرتفع يتوسط مدينة حارم، ذات منحدرات مرصوفة بالحجارة، كان حولها خندق وسور. ويرتبط تاريخها بتاريخ الحروب الصليبية.



منطقة حارم - كفرلوسين (برج مراقبة)

-وتل السلطان وهو ينسب إلى السلطان ملكشاه السلجوقي الذي حل فيه سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، ويحتل التل موقعاً استراتيجياً على طريق سراقب - أبو الضهور وكان مسرحاً لمواقع حربية عدة.

-وتل الطوقان الواقع إلى الشمال الغربي من تل السلطان وينسب إلى قبيلة طوقان وفيه خرائب أثرية مسورة ومحصنة بأبراج ولها ثلاثة أبواب.

-وقلب لوزة وهي كنيسة أثرية غنية بزخارفها المنوعة فوق نهد من جبل باريشا، تعود إلى القرن الخامس الميلادي.

-وسرمدا وهي مدينة مندثرة شمال معرة مصرين ذكرت في نصوص تحوتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م) وإلى الشرق منها يوجد معبد - مدفن أثري يعود تاريخه إلى النصف الأول من القرن الثاني للميلاد.

-وقصر البنات وهو كنيسة كبيرة على الحدود بين المحافظة ولواء اسكندرونة.

-ودير الشرقي وهو قرية في الجنوب الشرقي من معرة النعمان على بعد ١٤كم كانت تسمى دير سمعان أو دير نقيرة وبجانبها تل الخصن الذي يتوسط مدينة رومانية العهد طبقاته الدنيا من الألف الثالث ق.م. وقد توفي فيها الخليفة الجليل عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١هـ/ ٧٢٠م.

وهناك مناطق أثرية أخرى أهمها جرادة وكفرنبل وكفرلوسين وحاس وكفرعون والطولي وكفرطاب وعامر ومعرسلم والخريبة ونُصَب وكفردادين وأم جرن وتل خان شيخون وعاس وترعى وجعفر وتركي وغيرها.

السكان

بلغ عدد سكان محافظة إدلب ٥٧٩٥٨١ نسمة في تعداد ١٩٨١ وقد ارتفع هذا العدد إلى نحو ٩٩٥٧٥٧ في عام ١٩٩٧ وتبلغ نسبتهم إلى عدد سكان سورية ٦,٤٪ أما معدل النمو السكاني في المحافظة فهو ٣٨,٤ بالألف، ويعدُّ من أعلى معدلات النمو في سورية، مع العلم بأن هذا المعدل أعلى في الريف (٣٩,٨ بالألف) منه في المدن (٣٣,٢ بالألف). وأما الكثافة السكانية فتقدر بنحو ١٦٥,٩ نسمة/كم² وهي كثافة مرتفعة بسبب ملاءمة ظروف المعيشة والنشاط الاقتصادي. وتزداد الكثافة في السهول الشمالية وجبل الزاوية وهضبة القصير في الشرق.

يتألف سكان المحافظة من أصول عربية وتدين غالبيتهم بالإسلام ويؤلف سكان الريف ٦٩٪ من السكان يعيشون في ٨٨٨ تجمعاً سكنياً، ضمن بيئة زراعية نشيطة وتنتشر القرى فوق التلال والمرتفعات وبالقرب من الطرق العامة والينابيع، وبيوتها من الحجر والإسمنت المسلّح أو من الحجر والطين في الشرق.

ويؤلف سكان المدن ٣١٪ من السكان، يتزايدون بسبب الهجرة من الريف. ومدينة إدلب[ر] هي كبرى مدن المحافظة وحاضرتها، وهناك ست مدن أخرى هي أريحا، وجسر الشغور، ومعرة النعمان، وخان شيخون، وسراقب، وحارم وهي أقلها سكاناً. ويتركز في هذه المدن جلّ النشاط الصناعي والتجاري في المحافظة وتزداد فيها مظاهر المدنية الحديثة.

وفي المحافظة عدد قليل من البدو نصف الرحل (٣٪) يعيشون على تربية الأغنام شرقي المحافظة وينتجعون أطراف البادية وسهل الغاب، وجلهم من قبائل الموالي والحديديين.

تقسم المحافظة إلى خمس مناطق إدارية هي: إدلب وأريحا وجسر الشغور وحارم ومعرة النعمان (الجدول رقم١) ويلحق بهذه المناطق ثماني عشرة ناحية و ٤٠٥ قرية و ٤٨٣ مزرعة فيكون مجموع ما في المحافظة ٨٩٥ تجمعاً بشرياً مع المدن وعددها سبع.

المنطقة	عدد سكان المركز	مجموع سكان المنطقة	الكثافة ن / كم٢
إدلب	٨٦٧٦٥	٣١٠٨٠٠	٢٠٦,٥
أريحا	٢٩٩٣٩	١٤٠٧٤٥	٢٤١,٨
جسر الشغور	٣٣٠١٠	١٢٧١٩٨	١١٨
حارم	٨٦٢٤	١٣٦٥١٢	١٦٨,٢
معرة النعمان	٤٤٥٩٢	٢٨٠٥٠٣	١٨٣,٧
المجموع	٢٠٢٩٣٠	٩٩٥٧٥٨	١٦٥,٩

الجدول (١) توزع السكان والتجمعات السكنية في محافظة إدلب عام ١٩٩٧

ولقد تطورت الحالة التعليمية في المحافظة في مدى خمسين عاماً تطوراً كبيراً فبلغ عدد التلاميذ فيها ١٩٩٩٦٠ عام ١٩٨٦ ـ ١٩٨٧ أي نحو ٢٨,٦٦٪ من السكان وازداد حتى بلغ ٢٣٢٦٩٢ تلميذاً عام ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧ (الجدول ٢).

	ابتدائي	إعدادي وثانوي عام	ثانوي صناعي	ثانوي تجاري	ثانوي نسوي	معهد متوسط صناعي	معهد أعداد مدرسين	دور معلمين	معهد فنون نسوية	المجموع
عدد المنشآت	٧٤٩	١٩٤	١٤	٢	١٧	١	١	١	٧	٩٨٦
عدد الطلاب	١٨٦٨٤٧	٤١٧٨٦	١٨٠١	٣٣٢	٣٥٨	٢٣١	٢٣٤	١٧٣	٩٣٠	٢٣٢٦٩٢
النسبة إلى طلاب القطر	٦,٨٤٪	٥,٧١٪	٦,١٢٪	١,٥٨٪	٤,٣٪	٣,٣٪	٤,٤٪	١٠,٢٧٪		٦,٢٧٪

الجدول (٢) عدد الطلاب والمنشآت التعليمية في محافظة إدلب للعام الدراسي ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧

الوضع الاقتصادي

تعدّ محافظة إدلب محافظة زراعية حتى غلب عليها اسم المحافظة الخضراء أو أرض الزيتون وتأتي الصناعة والتجارة فيها بالدرجة الثانية.

الزراعة: تمتاز المحافظة بكثرة محصولاتها وتنوعها واتساع أراضيها المزروعة التي تبلغ ٣٣٢٢كم٢ (الجداول ٣ و٤ و٥) وهي بمعظمها بعلية تؤلف ٩٦,٤٪ من مجمل الأراضي الزراعية، وتنتشر الأراضي المروية في سهل الروج وأطراف العاصي وبعض أراضي سهول إدلب الشمالية، وهي تُروى بالراحة أو بالضخ من أقنية الري أو من الآبار المنتشرة فيها.

	الأراضي غير المزروعة، بعضها صالح للزراعة	المروج	الأحراج	الأراضي الزراعية
المساحة كم٢	١٤٥٦	٥٠١	٧٥٤	٣٣٢٢
النسبة المئوية إلى مساحة المحافظة	٢٣,٩٪	٨,٣٪	١٢,٥٪	٥٥,٣٪

الجدول (٣) توزع أراضي المحافظة على مساحتها البالغة ٦٠٩٦كم٢ (المجموعة الإحصائية الزراعية السنوية لعام ١٩٩٦)

نوع الشجرة	العدد ألف شجرة	النسبة إلى أشجار القطر	الإنتاج بالطن	النسبة إلى إنتاج القطر
زيتون	١٢٠٩٢,٩	٢١,٢٥٪	١٥٦٧٤٧	٢٤,٢٪
كرز	١٢٦٦,٥	٢٦,٥٪	١٥٢٥٧	٣٨,١٪
تفاح	٦٤٣,٨	٤,٢٩٪	٥٢٣٩	١,٧٪
فستق حلبي	١١٢٧,٦	١١,٨٪	٥٩٨٤	٢٤,٦٪
تين	٩٦٧,٤	٣٣,٨٪	١٥٤٨١,٥	٣٣,٢٪

الجدول (٤) الأشجار المثمرة في محافظة إدلب (المجموعة الإحصائية الزراعية السنوية لعام ١٩٩٦)

المحصول	المساحة بالهكتار	الإنتاج بالطن	النسبة إلى إنتاج القطر
قمح	٧٢٩٥٤	٢٣٩٤٥٢	٥,٨٪
شعير	١٢٤٢	١٥٢٥	١٪
حمص	٩٠٨٣	٩١٠٠	١٩٪
بطاطا	٢٣٢٧	٥٧٤٢٥	٢٥,٤٪
بندورة	٣٧٣٩	١٩٤٧٠	٤,٧٪
بطيخ أحمر	٣٤٨٥	٣٥٣١	٦,٨٪
بطيخ أصفر	٩٢٦	٢٦٣٤٨	١٣٪
قطن	٤٦٠١	١٨٨٤٧	٢,٤٪
تبغ	١٨٠٩	٢٠١٦	٩,١٪
شوندر سكري	٧٥٠	٤٥١٧٤	٥٪
عباد الشمس	١٤٧١	١٩٥٠	٣٤٪

الجدول (٥) المحاصيل الزراعية في محافظة إدلب (المجموعة الإحصائية الزراعية السنوية لعام ١٩٩٦)

تربية الحيوان: في المحافظة ٤١ جمعية لتربية الحيوان، تتزايد أهميتها بسبب تزايد السكان السريع، ولهذا السبب كان الاهتمام بالمراعي الطبيعية ومعظمها في منطقة معرة النعمان، ويتألف قطيع الحيوانات من أكثر من ٢٩١٣٩ رأس بقر وقرابة ٤٩٤٨٣٠ رأس غنم و٦٩٠٩٠٠ رأس ماعز. كما تربى الطيور الداجنة في كل القرى والمداجن، وتربى الأسماك في أحواض سهل الروج. وتحتل المحافظة المرتبة الثالثة في سورية في تربية النحل وإنتاج العسل (١٧٩٠٠٠كغ عام ١٩٩٦). وتصدر المحافظة محصولاتها الزراعية وخضرها الصيفية إلى جميع مناطق سورية وإلى الخارج وهي تسيطر على تجارة الزيتون وزيت الزيتون والكرز والبطيخ وتنافس حلب في تجارة الفستق الحلبي وتحديد أسعاره.

الصناعة: ذاعت شهرة محافظة إدلب قديماً بصناعة الخمور وعصر الزيتون، كما حصرت بها صناعة الصابون، وما زالت معاصر الزيتون تشغل مكانة مهمة فيها وتليها معاصر السمسم، وكذلك الصناعات الغذائية الحديثة، كمطاحن الحبوب في إدلب ومعمل السكر في جسر الشغور ومعامل المحفوظات الغذائية (الكونسروة) وتجفيف التين وكبسه في إدلب وأريحا، وتعبئة المياه الغازية وإنتاج العلف. ومن الصناعات الأخرى في المحافظة صناعة الزجاج، والسلال، والحصر، والأواني الفخارية، والبسط والسجاد والخيام، وصناعة الأحذية، ودبغ الجلود في أريحا، وحلج القطن، والغزل الرفيع في إدلب، والنسيج الآلي، والألبسة الجاهزة، والتريكو، وورشات تصنيع الآلات الزراعية، وحفارات المياه، والشاحنات الصغيرة، وسكب المعادن وصناعة البراغي في إدلب، وصناعة البرادات في أريحا، والغسالات في معرة النعمان، ومن صناعاتها الكيمياوية البلاستيك والصابون في أريحا، وزيت العرجون (العرجوم) والمنظفات والاسفنج الصناعي وتحضير الجلود. كما تنشط في المحافظة صناعة مواد البناء كالبلوك (اللبن الإسمنتي) والقرميد في أريحا، والمنتجات الإسمنتية واستخراج حجر البناء والجص من مقالعها الكثيرة.

المواصلات تخترق المحافظة سكتا حديد حلب ـ اللاذقية وحلب ـ دمشق وفيها شبكة كثيفة من طرق السيارات يزيد طولها على ٢٣٠٠كم تربط بلدات المحافظة ومدنها مع المحافظات والأقطار المجاورة، أهمها طريق السيارات الدولي المزدوج الممتد بين حماة والمعرة وإدلب وباب الهوا وأنطاكية، وطريق أريحا ـ حلب.

وأريحا هي أهم عقدة ارتباط بين مدن المحافظة. وتعدُّ محافظة إدلب من أغنى المحافظات السورية بمعالمها السياحية وآثارها، لتوافر الغابات والجبال والمناخ المعتدل والمياه العذبة الجارية والأنهار والشلالات والحمامات. وأهم ينابيعها عيون حارم والعدوسية واشتبرق وشاغوريت واللّج ومَرْتين وغيرها. ولعل أهم المعالم السياحية في المحافظة جبل الأربعين الذي يحتضن مدينة أريحا.

حالد نجوم

الموضوعات ذات الصلة: سورية.

■ إدلب (مدينة -)

إدلب مدينة تقع في شمال غربي سورية عند تقاطع خط الطول ٣٦ درجة و٣٨ دقيقة و٣٠ ثانية شرقاً مع خط العرض ٣٥ درجة و٥٦ دقيقة شمالاً وسط سهول فسيحة تسمى باسمها، وتشكل الجناح الغربي من هضبة حلب. وتعلو إدلب ٤٤٦م عن سطح البحر.

تمتاز إدلب بموقعها ضمن غابة من الزيتون وعلى الطريق الممتد من أنطاكية إلى معرة النعمان فحماة ودمشق، والطريق الواصل بين حلب واللاذقية.

النشأة وا لتاريخ

كانت إدلب قرية صغيرة تدعى على

الأرجح (وادي لب) وتتألف من قسمين: إدلب الكبرى الواقعة شمال طريق معرة مصرين الحالي وهي قرية «دارسة»، وإدلب الصغرى إلى الجنوب من الأولى على بعد يزيد قليلاً على ثلاثة كيلومترات وهي العامرة اليوم.

كانت قرية إدلب تتبع سرمين فيما مضى. وبدأت أهمية إدلب الحالية بالظهور بعد أن اهتم بها الصدر الأعظم محمد باشا الكوبرلي (١٥٨٣-١٦٦١)، فجعل مواردها وقفاً على الحرمين الشريفين وأعفاها من الرسوم والضرائب وأقام فيها مباني ما زالت قائمة إلى اليوم فقصدها الناس من جسر الشغور وسرمين والقرى المجاورة، فاتسعت وازدهرت على حساب إدلب الكبرى التي طوي ذكرها. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر غدت إدلب تتبع جسر الشغور ثم أتبعت بأريحا [ر] ثم صارت مركز قضاء عام ١٨١٢م، ثم مركز محافظة في عام ١٩٦٠م. عانت إدلب ما عانته بقية المدن السورية في أوائل القرن العشرين من المجاعة بسبب الحرب العالمية الأولى وأصابها الدمار وسيق رجالها إلى الجندية الإجبارية وصودرت أرزاقها وغلاّتها باسم الإعانة والإعاشة، كما عانت مرة أخرى من الاحتلال الفرنسي عندما اتخذها إبراهيم هنانو معقلاً لثورته على فرنسة فقصفتها قوات الاحتلال بالمدفعية في ٢٠/١/١٩٢٠ واعتقلت معظم أهلها فتشرد الكثيرون في البراري، ثم عادوا إليها ثائرين فاحتلوا دار الحكومة، وظلت المدينة على مناهضتها للاحتلال حتى رحيل القوات الفرنسية عنها في ١٨/١/١٩٤٥. وفي عام ١٩٦٠ غدت المدينة مركز المحافظة.

مخطط المدينة

نظم محمد باشا الكوبرلي مدينة إدلب وفق مخطط عمراني اختاره بنفسه فبنى فيها الخانات كخان الشحادين وحان الرز ونظم أسواقها فكان لكل حرفة فيها سوق خاصة بها ورصف شوارعها بالحجر فاتسعت إدلب الصغرى وزحفت شمالاً حتى احتوت إدلب الكبرى. وازدادت أهميتها في النصف الثاني من القرن العشرين عندما أصبحت مركز محافظة فأخذت تتوسع غرباً (حي الضبيط) وجنوباً (حي القصور). ويتألف المخطط العام للمدينة من نواة بيضوية قديمة مكتظة بالسكان، وأحياء جديدة تنتشر حلقات حول النواة وتخترقها شوارع عريضة مستقيمة ومنتظمة.

استخدم سكان المدينة الأحجار الكلسية في البناء قديماً وحديثاً ومنازلهم نوعان: يتألف الأول من فسحة واسعة في الوسط يحيط بها عدد من الغرف وتزينها الأعمدة المزخرفة والأقواس. وهذا النمط عالي التكلفة ويحتاج إلى مساحات واسعة للبناء ولا يستوعب كثافات سكانية كبيرة، وقد مال السكان في المدة الأخيرة إلى نمط البناء الثاني وهوالنمط الأوربي لأنه أقل مساحة وكلفة وأكثر استيعاباً.

السكان

بلغ عدد سكان إدلب ٥١٦٨٢ نسمة في تعداد عام ١٩٨١ نسمة وبلغ معدل النموالسكاني ٣٣٫٢ بالألف بسبب الزيادة الكبيرة في نسبة الولادات وانخفاض معدل الوفيات ولاسيما بعد القضاء على الأمراض المستوطنة كالملاريا وغيرها. ويقدر عدد السكان عام ١٩٩٧ بنحو٨٦٧٦٥ نسمة.

وظائف المدينة

تشتهر إدلب وظهيرها بمنتوجها من الزيتون حتى إن الأخوان رسل سمّياها عام ١٧٧٢ بلد الزيتون وهومحصولها الأول، وتحتل محافظة إدلب مركز الصدارة بين محافظات سورية في إنتاج الزيتون ومشتقاته (٢٢٪من إنتاج سورية) وتأتي بعده الخضر الصيفية والحبوب والقطن والأشجار المثمرة ولا سيما التين.

وفي إدلب صناعات قديمة مختلفة، كعصر الزيتون (كان في المدينة زمن العثمانيين ٢٠٠ معصرة زيتون تحت الأرض اندثرت كلها)، وصناعة الصابون (حصرت هذه الصناعة بها في عهد محمد باشا الكوبرلي، فكان فيها ست وثلاثون مصبنة)، وصناعة الدبس والطحينة والحلاوة والأحذية. وفيها صناعات آلية حديثة ومنها معاصر الزيتون ومحالج القطن ومعامل الغزل ومواد البناء كالبلوك (اللبن الإسمنتي) والبلاط.

وتعدّ مدينة إدلب سوقاً تجارية كبيرة للسهول المحيطة بها ومستودعاً للمواد الزراعية، وقاعدة تجارية تسيطر على الصادرات والواردات في القسم الأكبر من ظهيرها الاقتصادي المؤلف من مجموعة قرى وبلدات مناطق إدلب وحارم وسلقين وسهل الروج، أما القرى والبلدات في مناطق معرة النعمان وأريحا وجسر الشغور فيرتبط معظمها بحلب وترتبط خان شيخون بحماة.

وتسيطر إدلب كذلك على تجارة الزيتون وزيته في سورية عامة تساعدها شبكة طرق المواصلات الجيدة التي تربطها بحلب في الشرق (٧٠كم) وبحماة وحمص ودمشق (١١١ و١٥٨ و٣٢٠كم على التوالي) في الجنوب وباللاذقية (١٣٠كم) في الجنوب الغربي. وتبعد المدينة ١٥كم عن أريحا و٤٨كم عن معرة النعمان و٧٣كم عن خان شيخون و٥٠كم عن جسر الشغور. ويمر بها الطريق الدولي دمشق - باب الهوا - لواء اسكندرونة.

يحيط بمدينة إدلب عدد كبير من المناطق الأثرية كالبارة ورويحة وقلب لوزة وقصر البنات وغيرها. وهي لا تبعد أكثر من ١٠كم عن جبل الأربعين أفضل مصايف الشمال وتضم المدينة عدداً من المشافي والفنادق والمطاعم والحدائق ومركزاً ثقافياً حديثاً وداراً للسينما.

خالد نجوم

الموضوعات ذات الصلة: سورية.

■ أدلر (ألفرد -)
(١٨٧٠-١٩٣٧)

ألفرد أدلر Alfred Adler طبيب وعالم نفس نمسوي، ولد قرب فيينة، وعمل طبيباً فيها بعد تخرّجه في جامعتها عام ١٨٩٥م. وقد ظهر هتمامه بحالات العصاب neurosis في وقت مبكر بعد ممارسته الطب، وكان أن دعاه فرويد [ر] Freud إلى حلقته، وبقي أدلر في الحلقة حتى انسحابه منها عام ١٩١١م لاتساع الخلاف بينه وبين فرويد. وقد أنشأ، بعد ذلك، الاتجاه في علم النفس المعروف باسم علم النفس الفردي، وأظهر اهتماماً خاصاً بالتلميذ في المدرسة وتربية الأطفال، وحصل على شهادة معهد التربية في فيينة عام ١٩٢٤م. ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عُيّن أستاذاً لعلم النفس الطبي في جامعة كرلومبية بنيويورك عام ١٩٢٧م ثم بمدرسة الطب في لونغ

آيلند Long Island بولاية نيويورك عام ١٩٣٢م. وقد كثرت جولاته العلمية في الولايات المتحدة وأوربة لإلقاء المحاضرات وتوفي في أبردين Aberdeen باسكتلندة في أثناء جولته الأخيرة.

ألّف أدلر وحاضر في موضوعات كثيرة بينها علم النفس الفردي، والبنية العصابية، وتفسير الأحلام، والطبيعة الإنسانية، وخلّف عدداً غير قليل من الكتب والمقالات بالألمانية والإنكليزية. وقد نشأت بتأثير من تفكيره العلمي عدة جمعيات لعلم النفس الفردي في الولايات المتحدة والكثير من أقطار أوربة، وظهرت عدة معاهد خاصة بالتدريب على أسلوبه في المعالجة النفسية، وأخذ عددٌ من المدارس بأفكاره التربوية.

يرى أدلر أن جسد الإنسان يعمل باستمرار ليتلاءم مع مطالب العالم الخارجي، وأنه يحافظ على توازنه بإجراءات دفاعية وتعويضية، وأن العمل النفسي يأخذ مجراه بترابط وتفاعل مع الجسد ويكون موجهاً بالنزوع إلى الأمن والتكامل والتفوق. لذلك لا يجوز النظر إلى الإنسان من منطلق ثنائية الجسد والنفس بل من وحدة الفرد.

والطفل، كما يراه أدلر، فرد يحاول أن يتحكم بمحيطه، وهو يتعلم من ذلك أموراً كثيرة بشأن ما يستطيع وما لا يستطيع فعله. ويكون في جملة ما تقوده إليه ملاحظاته وتقديره للأشياء ومقارنة نفسه بالآخرين، وفيها جميعها الكثير من الخطأ، تكوّن الشعور بالنقص أوالدونيّة، وذلك لكثرة ما يناله من مشاعر الإحباط، ويتطلب هذا الشعور منه تعويضاً، ويكون هذا الحال أساساً فيما يحصل لدى الفرد من توتر، ولدى بعضهم من أعراض عصابية.

ثم إن الطفل يولد في بيئة اجتماعية ويتفاعل معها، ويكون بين ما ينتج عن ذلك شعور الفرد بالانتماء. ويعمل التفاعل بين الطفل وبيئته، ومعه آثار التربية والاستعدادات الوراثية، على أن يكوّن الطفل ما يسميه أدلر أسلوب الحياة ويمثل «أسلوب الحياة» نظام الفرد الإدراكي، وقناعاته، والتفسير الذي يكوّنه عن نفسه وعالمه. ومن هذه الزاوية، يقول أدلر، تبدو كل أشكال تعبير الفرد «موسومة» بأثر أسلوب حياته.

والحياة تواجه الإنسان بعدد من المسائل تتصل بالعمل، والعلاقات مع الآخرين، والحب والجنس، والكون، وتكيّف الإنسان مع نفسه. وحين تكون شروط طفولة الفرد غير مناسبة، وتكون مشاعر الإحباط متراكمة لديه، فإنه قد يتجه نحو الهروب من حل المشكلات، ويكون السلوك العصابي، مثل القلق والوساوس والمخاوف، شكلاً من أشكال هذا الهروب. ومن هنا يمكن القول إن أثر مشاعر الإحباط لدى فرد ما، وعجزه عن حل مشكلاته، وأسلوب الحياة لديه، وتدخل اللاشعور عنده - تتفاعل هذه كلها لتؤدي إلى تكوّن عصاب لديه يجنبه استمرار الشعور بالأذى أوالخطر الناجم عن حالة الإحباط.

إن مثل هذا الفرد في حاجة إلى معالجة. إنه ليس مريضاً، ولكنه إنسان مضطرب نفسياً. وأسلوب المعالجة الذي يأخذ به أدلر ينطلق من مشروع متكامل يستهدف إعادة تربية ذلك الفرد ويعتمد على كشف الغطاء عن الأخطاء في أسلوب الحياة لديه، وعلى الدخول إلى اللاشعور، كما يعتمد على التشجيع وإنماء الاهتمامات الاجتماعية وتعديل الإدراكات والقيم والدوافع بحيث يغدو ذلك الفرد في النهاية بعيداً عن وطأة الشعور بأنه دون الآخرين، وقادراً على إدراك أن الأخطار التي كانت تبدو له كبيرة هي في الواقع صغيرة ومعقولة.

نعيم الرفاعي

الموضوعات ذات الصلة :

التحليل النفسي - العلاج النفسي - فرويد.

مراجع للاستزادة :

- RAYMOND CORSINI (ed.), Current Psychotherapies (F.E.Peacock Publishers, Inc.. Itasca, Illinios, 9th Pr. 1978).
- ALFRED ADLER, The Practice and Theory of Individual Psychology, Littlefield (Adams,Paterson, N.J. 1963).

■ آدم

آدم: أول الأنبياء [ر]، الإنسان الأوّل، ويلقب بأبي البشر، وإليه ينسبون، فيقال لواحدهم: آدمي، وسمي آدم لأنه مخلوقٌ من أديم الأرض، وذلك أن ابتداء خلقه كان من ترابها، جاء في القرآن الكريم: ﴿وَمِنْ آياته أنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ (الروم: ٢٠)، وينقل القصص الديني عن أهل الكتاب والقصص الإسرائيلية تفصيلات عن كيفية خلق آدم يكتنفها الإغراق الخيالي. في حين اقتصر القرآن الكريم على ذكر خلاصة مراحل التكوين والخلق، فذكر أنّه كان في المرحلة الأولى طيناً لازباً: ﴿إنّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طينٍ لازبٍ﴾ (الصافات: ١١) وهو الطين الملتصق بعضه ببعض، ثمّ أصبح صلصالاً كالفخار، وهو الطين المحروق الذي تحجّر وصوّت، ثمّ كان كالحمأ المسنون، وهو الطين الأسود المتغيّر، ثم سُوّي شكله، حتى إذا تمّ خلقه في أحسن قوام وأجمل شكل نُفخت فيه الرُّوح وأصبح بشراً سويّاً: ﴿وإذْ قالَ ربُّك للْملائكة إنّي خالقٌ بَشراً منْ صَلْصَالٍ منْ حمأٍ مسْنُونٍ، فإذَا سوَّيْتُهُ ونفخْتُ فيه منْ رُوحي فقَعُوا لهُ ساجدينَ﴾ (الحجر: ٢٨-٢٩) وجاء في سفر التكوين من العهد القديم: «وجبلَ الرَّبُّ الإلهُ آدمَ تراباً منَ الأرض ونفخ في أنفه نسمة الحياة فصار آدمُ نفساً حيّة» (الإصحاح الثاني: ٧).

وعلّمَ اللهُ آدم أسماء الأشياء كلّها: ﴿وعلّمَ آدمَ الأسْماءَ كلَّها ثمَّ عرَضهُمْ على الملائكَة فَقالَ أنْبئوني بأسْماء هؤلاء إنْ كنْتُمْ صَادقين﴾ (البقرة: ٣١) وفي سفر التكوين: «وجبَلَ الرَّبُّ الإلهُ منَ الأرض كلَّ حيوانات البرّيَّة وكلَّ طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدمُ ذا نفس حيَّة فهو اسمُها، فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرّيَّة» (الإصحاح الثاني: ٢٠-٢١) فظهر بذلك فضل آدم على بقية المخلوقات، وأُمرت الملائكة ومنهم إبليس [ر] بالسجود لآدم تحية وتكريماً، فسجد الجميع إلا إبليس أبى لأنه مخلوقٌ من النار وهي في نظره أفضل من التُّراب، قال تعالى: ﴿ولَقدْ خلقْناكُم ثمّ صوّرْناكمْ ثمّ قُلْنا للملائكَة اسجُدُوا لآدم فسجدُوا إلا إبْليسَ لمْ يكُنْ منَ السّاجدينَ، قال ما منعكَ ألا تسْجُد إذْ أمرْتُكَ قالَ أنا خيْرٌ منْهُ خَلَقْتني منْ نارٍ وخلَقْتهُ منْ طينٍ﴾ (الأعراف: ١١-١٢)، فكان ذلك سبباً لطرد إبليس من الجنّة، فتوعّد آدمَ الغواية، أمّا آدم فأُسكن الجنّة

وحيداً، وقد اختلف المفسرون في الجنّة التي أُسكن فيها، فذهب الجمهور إلى أنها جنة المأوى، أخذاً بظاهر النُّصوص ومنها حديث: «يجمع الله النّاس فيقوم المؤمنون حين تزدلف لهم الجنَّة فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتحْ لنا الجنَّة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنَّة إلا خطيئةُ أبيكم..» (مسلم، ح: ١٩٥) وذهب المعتزلة وبعض الماتريدية إلى أنها جنّة من جنّات الدنيا لوقوع التكليف ووقوع العصيان من آدم فيها وهذا لا يقع في جنة المأوى، وورد في الكتاب المقدس مايفيد أنها في منطقة قريبة من العراق ففي سفر التكوين: «وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله» (الإصحاح الثاني: ٨) وفيه أيضاً: «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها» (الإصحاح الثاني: ١٥). وبقي آدم في الجنة وحيداً مدة حتى خلقت منه حواء: ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمُ الّذي خلقكُمْ منْ نفْسٍ واحدَة وخلَق منْها زوْجها وبثَّ منْهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾ (النساء: ١) وفي سفر التكوين أنها خلقت من ضلعه: «فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحماً، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم، فقال آدم: هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تدعى امرأة لأنها من امرئ أخذت» (الإصحاح الثاني: ٢١-٢٣) وسميت حواء بهذا الإسم لأنها خلقت من شيء حي، ففي سفر التكوين: «ودعا آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي» (الإصحاح الثاني: ٢٠).

عاش آدم وحواء في جنتهما وأباح الله لهما خيراتها إلا شجرة واحدة، فأغراهما الشيطان بالأكل منها مدعياً أنها شجرة الخلد: ﴿ ويا آدمُ اسْكُنْ أنْت وزوجُك الجنَّة فكُلا منْ حيثُ شئْتُما ولا تقْربا هذه الشجرَة فتكُونا من الظّالمين، فوَسْوس لهُما الشَّيْطَانُ ليُبْدي لهُما ماوُري عنْهُما منْ سوءاتهما، وقال: ما نهَاكُما ربُّكُما عنْ هذه الشجرة إلا أنْ تكُونا ملَكيْن أو تكُونا من الخالدين ﴾ (الأعراف: ١٩ـ ٢٠).

وفي سفر التكوين أن الذي أغراهما بالأكل من الشجرة هي الحية فقد جاء فيه: «وكانت الحية أحيل حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة، فقالت المرأة للحية: من ثمر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة: لن تموتا..» (الإصحاح الثالث: ١-٦). فأكلا من تلك الشجرة فاستحقا الخروج من الجنة وأهبطا إلى الأرض فكان ذلك بداية وجود النوع الإنساني عليها، وتذكر القصص والروايات التاريخية أن آدم هبط على جزيرة سرنديب ـ سيلان أو سريلانكة ـ وأن حواء هبطت في مكان آخر، وأنهما لم يلتقيا إلا بعد مئتي عام، وتذكر القصص أنهما تعلما الزراعة وعملا في كسب قوتهما منها، وعلى الأرض تزوجا وكانت حواء تلد في كل بطن ذكراً وأنثى.

وآدم هو أول نبي على الأرض باتفاق العلماء، واختلفوا في رسالته فجمهورهم أنه كان نبياً ورسولاً لأن الله خاطبه بلا وساطة وشرع له في ذلك الخطاب فأمره ونهاه وأحل له وحرم عليه، وقال آخرون: ليس بمرسل لماورد في حديث الشفاعة: «أن الناس يذهبون إلى نوح ويقولون: أنت أول رسل الله إلى الأرض» (مسلم، ح: ١٩٥) فلو كان آدم رسولاً لما ساغ أن يقولوا لنوح: أنت أول رسل الله.

وكان في شريعة آدم أن يزوج كل ذكر من بطن من الأنثى من بطن آخر، وقد أمره الله أن يرسي قواعد البيت الحرام في مكة المكرمة على ماتذكر بعض الروايات التاريخية، وفي المرويات التاريخية أن آدم توفي بعد نحو ألف سنة من مكثه على الأرض، وتتضارب الروايات في تحديد مكان قبره فقيل: دفن بالهند، وقيل: دفن بمكة في غار أبي قبيس، وأنه نقل أخيراً إلى بيت المقدس.

وأما حواء فماتت بعد آدم بنحو سنة ولا تتعرض كتب التاريخ وغيرها إلى تحديد مكان موتها أو دفنها.

بديع السيد اللحام

الموضوعات ذات الصلة:

إبليس ـ الأنبياء.

مراجع للاستزادة:

ـ محمود شلبي، حياة آدم (بيروت، دار الجيل).

ـ عبد الله العماري، قصص الأنبياء «آدم» (بيروت، عالم الكتب ١٩٨٥م)

ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الأول (القاهرة، دار المعارف).

ـ ابن كثير، قصص الأنبياء، تحقيق ومراجعة لجنة العلماء بإشراف الناشر (بيروت، دار القلم ١٩٨٨م)

■ آدم (الأخوان ـ)

يعدّ الأخوان آدم Adam Brothers روبيرت Robert (١٧٢٨ ـ ١٧٩٢) وجيمس James (١٧٣٠ ـ ١٧٩٤) من أشهر أبناء المعمار الاسكتلندي وليم آدم William Adam، وقد ولدا في اسكتلندة.

بدأ روبرت آدم نشاطه عام ١٧٥٤ عندما رحل إلى إيطالية. وقد أقام فيها أربع سنوات ودرس عمارة رومة القديمة، ولا سيما الحمامات الامبراطورية وقصر ديوكليسيانوس في سبالاتو Spalato بمقاطعة دالماسية. سُمي لدى عودته إلى إنكلترة معماري الملك (١٧٦١)، وشغل ذلك المنصب حتى عام ١٧٦٨، وفي عام ١٧٦٤ نشر مجموعة رسومه «أطلال قصر الامبراطور ديوكليسيانوس» التي قام بحفرها وطباعتها الإيطالي بارتولوتزي Bartolozzi ولم يكن روبرت أكثر إخوته إنتاجاً وإبداعاً فحسب، وإنما كان له دور مهم في تزعم نزعة الاتباعية المحدثة ونشرها في نهاية القرن الثامن عشر في بلاده، وقد تبوأ منزلة اجتماعية مرموقة بين رجالات إنكلترة.

من بين أعماله المعمارية المتميزة صفوف من الأبنية ترتبط بفسحات مكشوفة، وتتآلف فيما بينها بواجهة موحدة. كانت أولى هذه الأعمال «شرفة أديلفي» The Adelphi Terrace بلندن (١٧٦٨ ـ ١٧٧٢)، المبنية على أقواس تضم مخازن للبضائع وتخدم الشارع والمنازل التي تعلوها في آن واحد، وقد هدمت عام ١٩٣٦.

عمل روبرت وأخوه جيمس في تصميم الكثير من المنازل في الريف الإنكليزي وتأثيثها.

ويعد بناء «كيدلستن هول» Kedelston Hall، قرب ديربي Derby قمة أعمالهما في هذا المجال.

بدأ الأخوان آدم، منذ عام ١٧٧٣، بنشر سلسلة من الرسوم والتصاميم للمنازل والأثاث، والأدوات المنزلية، إضافة إلى بناء جامعة إدنبرغ Edinburg (١٧٧٨) كما قام روبرت بتصوير الكثير من اللوحات المائية لمناظر الطبيعة والمشاهد المعمارية، وكان يكلف أنطونيو زوكّي A.Zucchi إضافة رسوم الأشخاص عليها.

استفاد روبرت آدم في اتباعيته المحدثة من تراث عصر النهضة، والأشكال الباروكية وعناصر زخرفية من العمارة الرومانية المتأخرة، وسيطرت على تصاميمه في العمارة الداخلية والأثاث أشكال من الفن القديم، عالجها بمنتهى الدقة والجدية.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- A.BOLTON, The Architecture of Robert & James Adam (London 1922).
- D. STILMAN, The Decorative Works of Robert Adam (New York 1967).

■ آدم (أدولف شارل) (١٨٠٣-١٨٥٦)

ولد أدولف آدم Adolphe Adam في باريس وتوفي فيها. وهو مؤلف موسيقي فرنسي درس التأليف الموسيقي على يدي بويلديو F.Boëldieu في المعهد الموسيقي في باريس.

كانت أوبرا «بيير وكاترين» Pierre et Catherine أول عمل موسيقي ظهر له، وكان ذلك عام ١٨٢٩ في دار «أوبرا كوميك باريس». ومنذ عام ١٨٤٨ أصبح أستاذاً في معهد الموسيقى في مجالي التأليف والبيانو خلفاً لوالده لويس. وآدم هو من أكبر مؤلفي «الأوبرا كوميك الفرنسية»، واشتهرت موسيقاه بألحانها الجذلة والسهلة التي كان الجمهور يتقبلها بسرعة واستحسان. وعاش بعض الوقت في لندن وقدم فيها بعض مؤلفاته وقد نالت إعجاباً كبيراً.

كان آدم رجلاً مثالياً في حقل الفن، وكان قد أسس مسرحاً شجع المؤلفين المغمورين على إظهار أعمالهم الموسيقية فيه. وقد ثابر على هذا العمل الخيّر مع ضغط ضائقته المالية.

من أعماله الموسيقية الشهيرة التي ماتزال تحظى بشعبية مستمرة:

الأوبرا. «القصر» Le Chalet (١٨٣٤)، و«حوذي لونجومو» Le postillon de Longjumeau (١٨٣٦)، و«لو كنت ملكاً» Si J étais roi (١٨٥٢).

الباليه: «جيزيل» Giselle (١٨٤١) التي لاتزال تعرض في معظم المسارح العالمية.

من الأعمال الغنائية: «عيد الميلاد في منتصف الليل» Noel minuit (١٨٥٠).

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- Larousse de la musique (Librairie Larousse, Paris 1982).

■ (آدم أسرة -)

أسرة آدم Les Adam أسرة نحاتين فرنسيين، تضم الأب جاكوب سيجيسبير J.Sigisbert (نانسي ١٦٧٠ - باريس١٧٤٧)، وثلاثة من أولاده. عمل الأب في خدمة دوق اللورين، وكانت الدوقية آنذاك متأثرة بالفن الباروكي وكان المعلم لأولاده الثلاثة الذين غادروا فيما بعد منطقة اللورين بحثاً عن مجالات جديدة لنشاطهم.

كان لامبير سيجيسبير Lambert Sigisbert (نانسي ١٧٠٠ - باريس١٧٥٩) أكبر أولاد جاكوب وقد حصل على جائزة النحت الأولى من الأكاديمية الملكية عام ١٧٢٣، مما أتاح له الإقامة مدة طويلة في أكاديمية فرنسة برومة. وفي عام ١٧٥٣ سمي عضواً في أكاديمية الفنون الجميلة في باريس وساعدته كل من قوة احتماله مشاق العمل والسهولة التي كان يجدها في الإنتاج المستمر، على أن يكون أكثر الفنانين حظوة في الأبنية الملكية. وأظهر منذ بدايات إنتاجه ميلاً إلى الأشكال الحرة المستوحاة من برنيني Bernini [ر]، ويتجلى هذا التأثر، في حقبة خدمته للبابوية برومة، في المنحوتة البارزة، التي تمثل القديس حنا اللاثراني مشيراً إلى رؤية العذراء أمام القديس أندريا كورسيني، والتي تُلاحظ فيها متانة التركيب والمقدرة الفائقة على التنفيذ. ويظهر الاتجاه ذاته لديه في المجموعة النحتية الضخمة، من الرصاص، التي أنجزها عام ١٧٤٠، لبركة نبتون Neptune «نبتون يهدىء الأمواج» في قصر فرساي. وبين أفضل أعماله المنحوتة البرونزية البارزة التي تزين مذبحاً صغيراً في مصلّى فرساي «القديسة أديلايد تهجر القديس أوديلون»، والمجموعتان الرخاميتان «الصيد في اليابسة» و«الصيد في الماء» اللتان أهداهما الملك لويس الخامس عشر إلى فريدريك ملك بروسية، وتمثال «الصبي الذي قرصه السرطان» (١٧٥٠)، وتمثال «الشعر الغنائي».

أما الأخ الثاني نيكولا سيباستيان Nicolas Sébastien (نانسي ١٧٠٥ - باريس١٧٧٨)، فكان ذا مزاج مختلف، وموهبة أكثر حيوية. قمة أعماله ضريح الملكة كاترين أويالينسكا الذي أنجز بتكليف من الملك ستانيسلاس، ويظهر فيه شكل ملاك في وضع الانطلاق يشير للملكة إلى طريق السماء. وقد أمضى قرابة ربع قرن في إنجاز عمل مهم آخر هو تمثال بروميثيوس Prométhée الذي أهله لعضوية الأكاديمية.

والأخ الثالث هو فرانسوا غاسبار François Gaspard (نانسي ١٧١٠ - باريس ١٧٦١). اكتسب فرانسوا معرفة عميقة في أكاديمية فرنسة برومة، بعد أن حصل، هو الآخر، على جائزة الأكاديمية الملكية عام ١٧٤١. وكان إنتاجه بالجملة على غرار أخيه الأكبر. أقام مدة طويلة في برلين، وشغل منصب النحات الأول لدى ملك بروسية، وترك العديد من التماثيل الأسطورية في الحدائق الملكية. ويتصف إنتاجه بصفات فن أخويه: أناقة في الأتكال، وأسلوب يتميز بالحركة والتموج، وذوق في الزخرفة، وصنعة دقيقة في استعمال الرخام.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- H.THIRION, Les Adam et Clodion Quantin 1884).

■ إدمان السموم

عرفت السموم النباتية في الشرق واستعملت منذ القدم، كنبات الخشخاش الذي استخلص منه الأفيون ونبات القنب الهندي cannabis indica الذي استخلص منه الحشيش، ثم انتشرت هذه النباتات في جميع أنحاء العالم. وبعد تطور الصناعة الكيمياوية والدوائية ظهرت مركبات وعقاقير كثيرة تتمتع بخواص السموم ولها فوائد علاجية ويؤدي سرف استعمالها إلى الإدمان.

أصبح إدمان السموم toxicomania وسوء استعمال العقاقير جائحة تعم العالم، وانتشر في البلدان الغنية والفقيرة، بين اليفعان والشباب والكهول إناثاً وذكوراً، وزادت في انتشاره الأرباح الطائلة التي يجنيها مهربو المخدرات ومروجوها بين الناس فأصبح مشكلة اجتماعية ذات آثار سيئة في صحة الفرد وسلامة الأسرة والمجتمع، مما دفع بالمؤسسات ذات العلاقة إلى اتخاذ وسائل وتدابير شتى لمكافحتها، فلا يكاد يمر يوم من دون أن يُسمع عن ضبط كميات كبيرة من هذه المخدرات أو إلقاء القبض على عدد من مهربيها أو مروجيها.

وعدد هذه السموم كبير جداً، وتأثيراتها في نفسية المدمن وعضويته متنوعة، ويزداد عددها يوماً بعد يوم، فمنها المخدرات والمنبهات والمهلسات ومنها المنومات والمهدئات وغيرها. وقد انتشر تعاطي بعض هذه السموم في كثير من المجتمعات لرخص ثمنها وسهولة الحصول عليها من دون مؤاخذة أو عقاب كالكحول والتبغ والقات وبعض المنبهات، في حين تخضع سموم أخرى كالأفيونات والحشيش والكوكائين لرقابة شديدة فيروج بيعها في الخفاء.

بعض المصطلحات والتعريفات

لابد قبل التطرق للسموم المحدثة للإدمان من تعرف بعض المصطلحات الخاصة بالبحث. فما المادة السمية؟ وما التحمل؟ وما إدمان السموم أو سرفها وسوء استعمالها؟ وما أسباب الإدمان؟ وما آلية حدوثه الفيزيولوجية؟ وما الاعتياد النفسي والاعتياد العضوي الفيزيائي؟ وما الامتناع أو الانقطاع أو السحب؟.

فالمادة السمية هي العقار سواء أكان نباتياً أو تركيباً كيمياوياً يساء استعماله للحصول على النشوة و المتعة والانشراح أو التنبه أو السكينة والاسترخاء. ومن هذه السموم ما يستعمل لأغراض طبية علاجية لتفريج الألم والتهدئة بمقادير محددة ولمدة معلومة، إلا أنها تعد سموماً إدمانية إذا أسرف في استعمالها بمقادير ليس لها حدود أو أوقات مع زيادة جرعاتها لهذه الغاية مهما غلا ثمنها وصعب الحصول عليها.

أما التحمل tolerance فهو اعتياد المدمن تأثيرات العقار السمية وحاجته إلى زيادة كمية العقار يوماً بعد يوم للوصول إلى التأثيرات المطلوبة. وقد يتعاطى المدمن كميات من العقار تفوق الحد المميت عند الأسوياء، إلا أن العقار يفقد من سميته عند المدمنين المتحملين له.

أما الاعتياد النفسي فهو ظاهرة نفسية يعتاد فيها المرء العقار من دون أن يعتمد عليه على نحو عضوي خطر ومن دون أن يحدث لديه تبدلات عضوية. ومن هذه المركبات المهدئات والمنومات وبعض المسكنات، ويمكن إيقاف هذه المواد من دون أن تحدث أعراض الامتناع المعروفة.

أما الاعتياد العضوي الفيزيائي فيعبر عن حدوث اضطرابات في وظائف أجهزة البدن بسبب تعاطي العقار المؤهب للإدمان لمدة طويلة ويتجلى ذلك بوجوب بقاء كميات كافية من العقار في البدن للمحافظة على توازن الجسم سوياً فيتحول تعاطي العقار إلى إدمان ويصبح الشخص مدمناً، ويؤدي إيقاف تعاطي العقار إلى «متلازمة الامتناع»، ومثال ذلك الأفيون.

أما الإدمان addiction أو سرف العقاقير abuse وسوء استعمالها فهو الحالة النفسية والعضوية الناتجة عن تفاعل متبادل بين الإنسان والعقار يؤدي إلى اضطرابات سلوكية تلح على المدمن في تناول العقار تناولاً مستمراً أو دورياً والحصول عليه بأي وسيلة، وزيادة جرعته لتحقيق التأثيرات المنشودة ولتجنب ظهور الأعراض النفسية والعضوية عند الامتناع المفاجىء عن تناوله.

وأما أسباب الإدمان فتتعلق إما بالعقار نفسه كتركيبه الكيمياوي وخواصه وطريقة استعماله وتوافره وسهولة الحصول عليه، أو تتعلق بالمدمن من حيث شخصيته ووجود اضطراب نفسي أو مرض عضوي لديه، أو تتعلق ببيئة المدمن ونشأته في أسرته ومجتمعه وحالته المادية والمهنية.

أما الآلية الفيزيولوجية لحدوث الإدمان فيمكن إيضاحها بأن للعقار المسبب للإدمان مستقبلات receptors تتوضع في البدن ولاسيما في الجملة العصبية، ويؤخذ الأفيون مثالاً على ذلك. يفرز البدن مواد طبيعية شبيهة بالأفيون تدعى الأندروفينات والأنكفالينات والدينورفينات يخفف الجسم بوساطتها من شدة الألم، فإذا تعاطى المدمن مركبات الأفيون فإنها تنافس المواد الطبيعية المشابهة على مستقبلاتها فيزداد تركيز هذه المواد في الدم مما يثبط اصطناعها، فإذا توقف المدمن عن تعاطي الأفيون عانى البدن من نقص الأندروفينات والأنكفالينات المرتبطة بالمستقبلات فيشعر المدمن بأعراض الامتناع مما يلح عليه في طلب المزيد من الأفيون الخارجي. وكذلك الأمر مع بعض مدخني التبغ إذ إن انخفاض تركيز النيكوتين في الدم يعزز الحاجة لمزيد من التدخين.

وإدمان السموم قد يكون طبياً علاجياً، إذ إن بعض المصابين بآلام مزمنة مبرحة كآلام الظهر، والمفصل، والصداع، وغيرها، قد يسرفون في استعمال الأدوية الموصوفة لهم مما قد يسبب اعتياداً نفسياً أو عضوياً على الدواء فإذا أوقف استعماله زادت شدة الألم مما يؤدي إلى استمرار تناوله.

وقد يكون الإدمان من النمط الشائع الذي يصيب مضطربي الشخصية فيبدؤون بتعاطي التبغ ثم الكحول ثم الحشيش وقد يصلون إلى الأفيون إلى أن يرسخ الإدمان فيهم.



أطفال من شرق آسيا يتناولون المخدر

أما متلازمة الامتناع أو الانقطاع أو السحب withdrawal فهي الأعراض والعلامات المرافقة لإيقاف تعاطي العقار فجأة. ويتعلق زمن حدوث هذه المتلازمة ومدتها وشدتها بعدد من العوامل، منها نصف عمر الدواء وجرعته واستمرار تعاطيه. وتعاكس أعراض الامتناع تقريباً تأثيرات العقار الإدمانية، إذ تتضمن الغثيان والإسهال والسعال والدُماع والتعرق ونفضان العضل وارتفاع الحرارة الخفيف وتسرع التنفس وارتفاع الضغط والشعور بألم منتشر في البدن مع أرق ورغبة ملحة في تناول العقار من جديد.

تؤخذ السموم الإدمانية إما حقناً بالعضل والوريد وتحت الجلد كالمورفينات أو بطريق الفم أو استنشاقاً بطريق الأنف أو تدخيناً على شكل لفافات خاصة (التبغ، الحشيش).

أما الأذيات المرضية التي قد يتعرض لها المدمنون فمتنوعة، إذ قد يؤدي إدمان السموم إلى أذيات في مختلف الأعضاء والأجهزة فتحدث ندبات في مواضع حقن الإبر الوريدية مع تصلب جدر الأوردة المحقونة (المورفينات)، وقد تخرب الحاجز الأنفي (استنشاق الكوكائين)، وقد تسبب التهاباً في شغاف القلب وأذى في صماماته باستعمال المحاقن الملوثة، وقد يضطرب نظم القلب وتصاب الرئة بالأخماج وقد يحدث استرخاء قلب حاد مميت (وذمة رئة حادة)، وقد يصاب الرجل بالعقم والمرأة بنقص الشهوة الجنسية. تنتشر بعض الأمراض بين المدمنين كالتهاب الكبد المصلي البائي B وداء عوز المناعة المكتسب (الإيدز)، ويؤلف المدمنون ما يقرب من ٢٠٪ من المصابين بمرض الإيدز وهو مرض خطير ليس له علاج شاف ولا لقاح واق حتى اليوم.

السموم والعقاقير التي تحدث الإدمان

إن بعض السموم والعقاقير المعروفة التي تحدث الإدمان هي باختصار الآتية:

الأفيون ومشتقاته: عرف الأفيون في الشرق منذ القدم واستخلص من نبات الخشخاش وكان يستعمل بطريق الفم وهو فعال جداً في تفريج الألم. ثم انتشر الأفيون نحو الغرب واستخلص منه المورفين الذي استعمل حقناً. يستخلص من الأفيون الخام ما يزيد على ٢٥ مركباً منها المورفين morphine والكودئين codeine والبابافيرين papaverine والنارسئين narceine والنركوتين narcotine ثم صنعت منه مادة الهيروئين heroine، واستخدمت مستحضرات صيدلانية شبيهة بالمورفين كالدولوزال والبيتيدين وغيرها من العقاقير ذات الأهمية في مداواة بعض الأمراض كتخفيف الألم الحاد.

يؤخذ الأفيون بعدة طرق، حقناً وتدخيناً وبطريق الطعام والشراب على شكل إكسير خاص. يؤدي تعاطي الأفيون إلى الغثيان ونقص الشعور بالألم والشَّمَق (الجذل) euphoria والتركين ويؤثر بجرعاته العالية في جهاز التنفس فيؤدي إلى تثبيط التنفس مركزياً، وهو يقبض الحدقة ويبطىء القلب ويخفض حرارة البدن، وإذا لم يُسعف المصاب تتطور الأعراض إلى الزراق والاختناق فالموت.

كان تعاطي المورفين أهم أنماط الإدمان على السموم وقد انتشر بكثرة في جميع أنحاء العالم، إذ يحقن المدمن نفسه في أي موضع من جسمه بالعضل أو بالوريد أو تحت الجلد فيشعر بنشاط فاعلياته وقواه العقلية مع هدوء البدن وسكينته، تلي ذلك حالة من الكآبة والحاجة الملحة إلى مزيد من العقار، ولايهدأ هذا الشعور إلا بجرعة أخرى منه.

أما الكودئين فله بمقاديره الضئيلة بعض الفوائد العلاجية في الالتهابات الرئوية والقصبية، وقد ذكرت بعض الحالات من الإدمان على الكودئين.

أما الهيروئين فهو مشتق مورفيني يتمتع بخاصية سرعة الذوبان، وقد انتشر استعماله فأصبح على رأس قائمة العقاقير المسببة للإدمان. يستعمل الهيروئين استنشاقاً وحقناً وعن طريق الفم، وهو أشد سمية من المورفين إلا أن قدرته المنومة ضعيفة. يتصف متعاطو الهروئين بالهيجان والشراسة، والهيروئين سريع التأثير ويزول تأثيره بسرعة مما يتطلب تناوله كل ٢-٣ ساعات.

يعالج سرف الأفيون (مورفين، هيروئين...) بدعم التنفس عند اضطرابه (قد يضطر إلى استعمال المنفسة الاصطناعية) وإعاضة السوائل بالوريد ورفع الضغط وتحسين تروية الأنسجة. ويعطى الترياق النوعي للأفيون وهو النالكسون naloxon بمقدار ٠,٠١ مغ/كغ بالوريد فيتحسن المريض وينتظم تنفسه في دقائق من حقنه وتتسع الحدقة بعد أن كانت منقبضة، وتعطى مضادات الالتهاب عند وجود تجرثم دموي أو التهاب شغاف بسبب الحقن الملوثة.

المُهْلسات hallucinogens: وأهمها مركبات القنب الهندي وحمض الليزرجيك. أما مركبات القنب الهندي، الحشيش والماريغوانا فتستخلص من نبات القنب الهندي الذي نشأ في آسيا وانتشر في أرجاء العالم وأطلقت عليه تسميات كثيرة حشيش، وكيف، وماريغوانا.... يحتوي هذا النبات ما ينوف على ٤٠٠ مركب إضافة إلى مادة منشطة نفسياً هي دلتا ـ ٩ تتراهيدروكنابينول THC. ويتفاوت تركيز هذه المادة في اللفافات المدخنة منه، فهي في الحشيش ٨ ـ ١٢ بالمئة وفي الماريغوانا ٥ ـ ٢٠ بالمئة، وفي خلاصة زيت الحشيش ٢٥ ـ ٦٠ بالمئة.

والطريقة الشائعة لتعاطي الحشيش هي تدخين لفافاته حيث يدخل الـTHC من الرئة إلى الدم بسرعة ليتوزع في أنسجة البدن فيؤدي إلى احتقان الملتحمة وتسرع القلب وذبحة الصدر عند مرضى القلب وتنقص السعة الحيوية الرئوية ويؤثر في جهاز البدن المناعي. وتتعلق شدة الانسمام بالحشيش بتركيز مادة الـTHC فيه وطريقة تعاطيه، فهذه المادة أسرع امتصاصاً بطريق التدخين بالمقارنة مع طريق الفم. يتظاهر الانسمام الحاد بالارتخاء والشَّمَق وتنتاب المرء التخيلات والإهلاسات والأوهام والأحلام مع اضطراب في التفكير والتركيز والوظائف الحركية النفسية والإدراك الحسي. ويؤدي سرف الحشيش المزمن إلى عدم اهتمام المدمن بنفسه ومجتمعه. ومع أن تأثيرات الماريغوانا سليمة نسبياً في الأصحاء فإنها قد تؤدي إلى اضطرابات شديدة عند المصابين باضطرابات عصبية أو نفسية وتمهد السبيل لتعاطي عقاقير أخرى أشد سمية. يتحمل متعاطو الماريغوانا تأثيراتها المنشطة فيدخنون المزيد منها ويتراجع هذا التحمل عند إيقاف العقار. وقد ذكر حدوث أعراض متلازمة الامتناع عند مدمني تعاطي الحشيش كالرجفان والتعرق والغثيان والقيء والهَيوجيّة واضطراب النوم وهي خفيفة نسبياً وغير خطرة بالمقارنة مع أعراض الامتناع عن الأفيون ونادراً ماتتطلب معالجة خاصة.

وأما حمض الليزرجيك دي ايتلاميد LSD فيستخلص من فطر مهماز الشيلم ergot الذي انتشر تعاطيه بين الشبان الأمريكيين. يؤخذ هذا العقار بطريق الفم أو حقناً، ويؤدي إلى

الهذيانات والإهلاسات البصرية والسمعية والتخيلات الممتعة والشعور بتشوه الأشياء وتفككها.

وإن أبرز مظاهر إفراط الجرعة من حمض الليزرجيك دي إيتلاميد هي حالة الهلع التي تنتاب المدمن وتستمر مدة ٢٤ ساعة، وإن أفضل تدبير لها طمأنة المدمن وإعطاء جرعات قليلة من الأدوية المضادة للقلق.

المنبهات: وهي الكوكائين والأمفيتامين والقات.

أما الكوكائين cocaine فهو المادة الفعالة في نبات الكوكا الذي ينبت في أمريكة الجنوبية. وكان هذا النبات يستعمل مضغاً بالفم فيزيل الإحساس بالجوع مع نشاط الجهاز العصبي. يؤخذ الكوكائين نشوقاً من الأنف وهو باهظ الثمن، يؤثر منبهاً للخلايا العصبية ثم شالاً لها ويؤدي إلى تهيج نفسي واضطرابات قلبية تنفسية ويؤثر في الجملة العصبية المستقلة يوسع الحدقة ويقبض الأوعية الدموية. مدة تأثير هذا العقار قصيرة جداً لذا يكرر المدمن أخذه ٢ - ٣ مرات في الساعة. يشعر مدمن الكوكائين بدرجة عالية من القوة والنشاط تستمر ساعة أو ساعتين ثم تبدأ أعراض الكآبة والتعب بالظهور فيتولد شعور بالحاجة إلى تكرار الجرعة.

إن معالجة إفراط الجرعة الحاد من الكوكائين حالة إسعافية، إذ يوضع المريض في العناية المشددة وتعطى المهدئات والأدوية القلبية الخاصة.

أما فرط الجرعة المزمن فتتطلب معالجته جهداً متآزراً من الطبيب والأسرة والطبيب النفسي والرعاية الاجتماعية لتخليص المدمن من هذا العقار.

وأما الأمفيتامين amphetamine فهو عقار تركيبي ينبه الدماغ ولاسيما المنطقة المحركة النفسية والحواسية فيزداد نشاط المدمن وحركته وينطلق لسانه ويزول الشعور بالتعب؛ لذا يتعاطاه أصحاب الأعمال الفكرية والطلاب والسائقون، وتستعمله النساء البدينات لإنقاص أوزانهن فيسبب هزالاً واعتياداً نفسياً وإدماناً، إذ يؤدي زوال تأثير العقار إلى الأرق والضجر والنزق ثم التعب والكآبة فتكرر جرعة الدواء.

يعالج إدمان الأمفيتامين بإعطاء المنعشات النفسية كالكلوربرومازين والهالوبيريدول وبالمعالجة النفسية الاجتماعية الداعمة.

وأما القات khat (cathaedulis) فهو شجيرة تنمو في اليمن وشرقي إفريقية. تحتوي قلوانيات القاتين cathine والقاتينين والقاتيدين. ويعد القاتين مسؤولاً عن الخواص الفيزيولوجية لهذا النبات. تمضغ أوراق القات الطازجة وتحزن في الفم وقد يدخن في لفافات فيؤدي في البدء إلى النشوة ونشاط الحركات وحدة الحواس وتسرع القلب ثم تعقبها مرحلة الوهن وضعف التركيز والتعب والنوم.

يسبب القات مشكلة اجتماعية اقتصادية إذ يكلف الكثير من المال والوقت والجهد، حيث تقطع النباتات النافعة ليزرع مكانها القات.

المنومات والمهدئات: توافرت بعد تطور الصناعة الدوائية مجموعات كثيرة من المنومات hypnotics والمهدئات tranqulizers وازداد استعمالها في المداواة للتغلب على بعض مصاعب الحياة من أرق وقلق.

تُعدّ البربيتورات barbiturates أهم المنومات المعروفة ويختلف تأثيرها باختلاف أمدها (قصيرة الأمد، ومتوسطة الأمد، وطويلة الأمد) والمقدار المستعمل منها ودرجة التحمل المكتسبة. وموضع تأثير هذه المواد قشر الدماغ إذ تؤدي إلى التركين والتهدئة أو النوم أو التخدير أو معاكسة الاختلاج. تعد البربيتورات بمقاديرها الدوائية سليمة العواقب في الأصحاء إلا أن استعمالها بمقادير تفوق الحد الدوائي الأعظمي يؤدي إلى الانسمام الحاد بها خطأً أو بقصد الانتحار.

يشكو مدمن البربيتورات من شعور بالضعف والشلل وضعف الذاكرة وبطء التفكير، ويؤدي التوقف المفاجئ عن تناول المقادير الكبيرة منها إلى متلازمة الامتناع (أعراض عصبية ورجفان واختلاج أحياناً).

أما المهدئات فتستعمل في معالجة حالات القلق، ويعد البنزوديازبين أكثرها رواجاً. تصنف هذه العقاقير في زمرة مخمدات فاعلية الجملة العصبية فهي مضادة للكرب stress ومهدئة ومزيلة للاضطرابات الانفعالية ومنومة خفيفة ولها قدرة مرخية للعضلات، إلا أن سرف تعاطيها يؤدي إلى الوسن والنوم والدوار وهبوط الضغط والتعب وفرط الارتخاء العضلي.

التبغ: نبات من الفصيلة الباذنجانية يقال إن أصله من أمريكة ثم انتشر بعد ذلك في أنحاء العالم. يحتوي التبغ tobacco مادة فعالة هي النيكوتين nicotine وهي مادة سامة يبلغ المقدار المميت منها ٢ - ١٦ سنتغرام، ويدخل البدن من تدخين لفافة واحدة من التبغ ١,٥ - ٢ مغ. يؤثر التبغ في المراكز العصبية المستقلة الودية ونظيرة الودية إذ يؤثر في القلب والأوعية الدموية (الذبحة الصدرية، واحتشاء القلب، وارتفاع الضغط الشرياني، وانسداد الشرايين المحيطية) وفي جهاز الهضم (التهاب البلعوم المزمن، وعسر الهضم، واشتداد القرحة الهضمية) وفي جهاز التنفس (التهاب القصبات المزمن وسرطان الرئة) ويؤثر التبغ أيضاً في نمو الجنين عند الحامل المدخنة.

يحدث التبغ لدى مدخنيه درجة من التحمل والاعتياد النفسي والعضوي، إذ يؤدي توقف المدمن عن التدخين إلى انخفاض تركيز النيكوتين في دمه فيشعر باضطراب النوم والخمول والعصبية وسرعة الاستثارة والصداع، وتزول هذه الأعراض بتدخين التبغ من جديد، أو تتناقص تدريجياً خلال أسبوع إذا أقلع المدخن عن التدخين.

تدبير إدمان السموم والوقاية منه

تتضمن أسس تدبير إدمان السموم إقناع المدمن بإمكان شفائه وسحب العقار المسبب للإدمان وإعطائه دواء شبيهاً بتركيب العقار لا يسبب الإدمان وإعطاء السوائل مع المعالجة النفسية الداعمة ودراسة دوافع الإدمان لديه ثم متابعته بعد ذلك كي لا يعود إلى العقار ثانية.

أما الوقاية من حدوث الإدمان فتتضمن استخدام الوسائل والبرامج التربوية والتثقيفية في المدرسة ووسائل الإعلام لبيان أضرار إدمان السموم كالكحول والمخدرات والتبغ والقات وآثارها السيئة على صحة المدمن وسلامة الأسرة والمجتمع، ومراقبة زراعة السموم وملاحقة المهربين والمروجين وإيقاع العقوبات الرادعة لهم وإحكام الرقابة على بيع الأدوية المخدرة والمنومة والمهدئة والمنبهة وإنشاء مراكز طبية خاصة بمعالجة المدمنين.

محمد خير حلبي

الموضوعات ذات الصلة:

التبغ - القات - الكحولية.

مراجع للاستزادة:

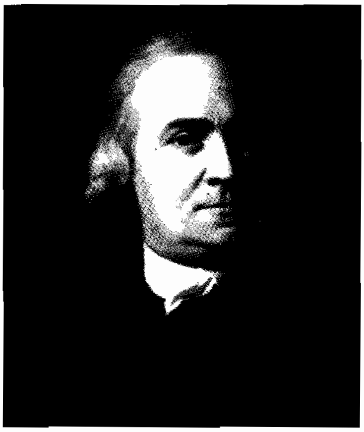
- أكرم المهايني، كتاب علم الأدوية (دمشق ١٩٩٠).
- Oxford Textbook of Medicine (1986).

■ الأدَماوا الشرقية ← إفريقية

■ آدمز (صموئيل -)
(١٧٢٢-١٨٠٣م)

سياسي أمريكي من زعماء الثورة وزعيم الراديكاليين في ولاية مساشوستس وممثلها في المؤتمر القاري (١٧٧٤-١٧٨١) وأحد الموقعين على إعلان الاستقلال، وهو ابن عم جون آدمز ثاني رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية.

ولد صموئيل آدمز Samuel Adams الابن في مدينة بوسطن من ولاية مساشوستس ودرس القانون في جامعة هارفرد وتخرج فيها عام ١٧٤٠. وكان والده صموئيل آدمز الأب من رجال الأعمال الناجحين، إلا أن الابن لم يلق نجاحاً في أعماله التجارية كما لم ترق له وظيفة جابي ضرائب التي استهل بها حياته العملية فتركها وانصرف إلى السياسة، وكان من أشد معارضي الحكم البريطاني للمستعمرات، وعندما قرر البرلمان البريطاني فرض ضرائب جديدة على المستعمرات لزيادة عائداتها ومنها ضريبة السكر (١٧٦٤) كان صموئيل آدمز قد أصبح شخصية قوية بين المتشددين في المعارضة ومن أوائل المناوئين للتشريعات الضريبية في المستعمرات من دون موافقة ممثليها، كما أسهم إسهاماً كبيراً في الاحتجاج على قانون الدمغة (الطابع) الذي فرضته السلطة البريطانية عام ١٧٦٥ وألزمت سكان المستعمرات استعمال استمارات مدموغة بالطابع في جميع معاملاتهم القانونية والتجارية والصحف وحتى الشهادات الجامعية. وقد كان لبراعته في الكتابة ومقالاته الصحفية أثر كبير في إثارة الجماهير، حتى إنه احتل المرتبة الثانية بعد جيمس أوتيس James Otis المحامي والسياسي اللامع الذي تزعم حركة المعارضة. وهكذا احتل صموئيل آدمز مقعده في المجلس التشريعي لمقاطعة مساشوستس ممثلاً لمدينة بوسطن عام ١٧٦٤ وحتى عام ١٧٧٤، واحتل في عام ١٧٦٩ مركز الزعامة بين الراديكاليين محل أوتيس ووطّن نفسه على العمل من أجل الاستقلال منذ ذلك



الحين. ومع أنه أخفق في إقناع زعماء مستعمرة مساشوستس باتخاذ خطوات متطرفة في أزمة الضرائب الجمركية التي أثارها الوزير البريطاني تشارلز تاونشند Charles Townshend (١٧٦٧-١٧٧٠) فقد نجح في إقناع الحاكم البريطاني بإخراج الجنود البريطانيين من بوسطن بعد مذبحة ذهب ضحيتها خمسة أمريكيين، وفي السنوات الثلاث التي تلت (١٧٧٠-١٧٧٣) جدد آدمز نشاطه الصحفي ونشر مقالات كثيرة وسعى إلى تأليف لجنة التنسيق في بوسطن سنة ١٧٧٢ التي كان عليها الاتصال باللجان المماثلة في المدن الأخرى. وقد أصبحت هذه اللجان فيما بعد أداة فعالة في الصراع مع البريطانيين.

كان قانون الشاي الذي أقره البرلمان عام ١٧٧٣ ومنح فيه شركة الهند الشرقية امتياز بيع الشاي في المستعمرات، الشعرة التي قصمت ظهر البعير. وقد وجد فيه صموئيل آدمز فرصة سانحة لإبراز مواهبه في التنظيم و قيادة الجماهير. ومع أنه لم يشترك عملياً في «حفلة شاي بوسطن» فقد كان، ولاشك، أحد من خططوا لها، فقد رست في ميناء بوسطن ثلاث سفن تحمل شاياً للمستعمرات، وكان حاكم المستعمرة قد رفض ردها إلى إنكلترة بحمولتها كما طلب آدمز وأتباعه، فرد آدمز بتنظيم اجتماع في المدينة احتجاجاً (١٦ كانون الأول ١٧٧٣) وبعد أن ألقى خطابه توجه نحو مئة من أنصاره إلى السفن في زي الهنود الحمر وألقوا حمولتها في البحر. ورد البريطانيون على هذا العمل بإغلاق الميناء وإرسال قوات إلى بوسطن ونقل العاصمة إلى مدينة سالم. وأغلق آدمز مكاتب المجلس ليمنع الحاكم من حلّه قبل أن ينتخب ممثليه إلى المؤتمر القاري الأول. وكان صموئيل آدمز من بين الذين انتخبوا وأدلى بدلوه في القرارات التي اتخذها المؤتمر، وأعيد انتخابه إلى المؤتمر الثاني فأصدر الجنرال توماس غيج أمراً بالقبض عليه سنة ١٧٧٥ إلا أنه نجح في التخفي وعاد إلى فيلادلفية، وكان واحداً ممن وقعوا وثيقة إعلان الاستقلال (١٧٧٦) وتحقق بذلك هدفه الأول. وظل آدمز عضواً في المؤتمر إلى عام ١٧٨١ عندما عاد إلى بوسطن ليحتل مقعده في مجلس الولاية. ومع أنه دأب على نشاطه السياسي لسنوات بعد ذلك فقد أخذ نفوذه يتضاءل وهزم في انتخابات المؤتمر (الكونغرس) عام ١٧٨٨ فانحاز إلى جانب المعارضة، بيد أنه لم يتلكأ في الدعوة إلى إقرار الدستور الفدرالي وبذل الدعم له. وعاد إلى العمل السياسي سنة ١٧٨٩ مساعداً لجون هانكوك حاكم ولاية مساشوستس ونائباً له، ثم حاكماً للولاية بعد وفاة هانكوك سنة ١٧٩٣، وظل في منصبه هذا حتى عام ١٧٩٧. وحين تأسست الأحزاب الوطنية في الولايات المتحدة انحاز آدمز إلى الجمهوريين الديمقراطيين الذين غدوا فيما بعد الحزب الديمقراطي. وأيأسه إخفاقه في انتخابات مرشح الرئاسة أمام توماس جيفرسون سنة ١٧٩٦ فتقاعد وانصرف إلى حياته الخاصة حتى وفاته في بوسطن سنة ١٨٠٣.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- JOHN C. MILLER, Samuel Adames , Pioneer in Propaganda (Boston 1936).
- STEWART BEACH, Samuel Adams . The Fateful Years 1764 _ 1776 (New York 1965).
- WILLIAM V.WELLS,The Life and Public Services of Samuel Adams, 3 vols.(Boston 1865).

■ أدموف (آرثر -)
(١٩٠٨-١٩٧٠)

آرثر أدموف Arthur Adamov قاص وكاتب مسرحي فرنسي، أرمني الأصل، روسي المنشأ. ولد في كلوسفودسك بالقوقاز. وهاجر طفلاً مع أسرته إلى فرنسة. وإبان الحرب العالمية الأولى عاش مع ذويه في ألمانية وانتقل بعدئذ إلى سويسرة ثم عاد إلى باريس سنة ١٩٢٨ ليستقر فيها نهائياً، أي في مرحلة السريالية [ر]. وكان عمره آنذاك ستة عشر عاماً. فكان صديقاً لأرتو [ر] ومعجباً بستريندبرغ [ر] وكافكا [ر]. واستمد غذاءه الفكري من بحوث فرويد [ر]، والتعبيرية الألمانية، كما جمعته صداقة حميمة مع الشاعر بول إيلوار[ر].

يعد كتابه المرعب الاعتراف L'aveu الذي بدأ بتأليفه عام ١٩٣٨ ونشر عام ١٩٤٦ وقدم على خشبة المسرح، حلقة وصل بين الأدب الوجودي وأدب اللامعقول. وفيه يعبر أدموف عن ضيقه بالوجود واصفاً العصاب وصفاً يكاد يكون سريرياً، إذ يعزل المصاب عن العالم عزلاً مؤلماً يجعله أشد إدراكاً وأوضح رؤية وأرهف إحساساً من الرجل السليم.

بعد أن نشر أدموف مسرحيتيه «المحاكاة الساخرة» La parodie و«الغزو» L' invasion (١٩٥٠)، قام بنشر مسرحية ثالثة هي «المؤامرة الكبرى والصغرى» La grand et la petite manoeuvre التي يعرض فيها متعة تعذيب الذات ويكشف عن استحالة الحب. وفي هذه المسرحية يمزج الكاتب، متابعاً في ذلك النزعة التعبيرية الألمانية، الشواغل السياسية بتصوير عالمه الداخلي. ومثلما اتصفت شخوصه التي لم يطلق عليها أسماء خاصة، بصفة النماذج العامة، كانت الوقائع السياسية مجردة أيضاً وطبعت على نحو مقصود بطابع ميتافيزيقي. وللمشاهد ملء الحرية في تأويل النزعات الثورية التي تستحث «المناضل» على نضاله وفي تعرف الجلادين الذين ساموه أنواع العذاب. والذين أشار المؤلف إليهم بالضمير المستتر «هم».

وفي مسرحية «الغزو» يبين أدموف الفكرة الأساسية التي تعرض لها في «المحاكاة الساخرة» ألا وهي استحالة التفاهم بين الناس. ويقر بأنه كان يسعى إلى إيجاد لون من الحوار غير المباشر بين شخوصه، وذلك باعتماده التلميح الذي تطفو من خلاله أحياناً على السطح حقيقة فاجعة لا تجابه أبداً مجابهة مباشرة.

أما مسرحية «الأستاذ تاران» Le professeur Taranne (١٩٥٣)، التي هزت الأوساط الأدبية والفنية، فتمتاز بجو غريب من الأحلام يراوح بين العالم المرئي والعالم غير المرئي وفيها شخوص جديدة تبدو في مواقف متناقضة من غير أن تفقد شيئاً من معالم شخصيتها الأصيلة. وقد استخدم المؤلف في هذه المسرحية أول مرة الأشياء التي تبدو عادة في الأحلام، وبدا العبث [ر. مسرح العبث] فيها شبيهاً جداً بعبث الأحلام.

وفي «كرة الطاولة» Ping - Pong (١٩٥٥) تتكشف أسباب الإخفاق الإنساني ودوافعه. إذ يكون القارئ حيال إخفاق من نوع خاص يمنى به شابان كان كل منهما ضحية أوهامه الخاصة، أو كان فريسة الإغراء الذي يلوح لهما في بيئة اجتماعية غايتها الإثراء السريع.

تأثر أدموف بمسرح بريخت [ر] واقتفى مناهجه وطرائقه وظهر ذلك في مسرحية «باولو باولي» Paolo - Paoli (١٩٥٧). أما مسرحية «الربيع ٧١» Le printemps 71 (١٩٦٣)، فقد استغرقت كتابتها ثلاثة أعوام واقتضت دراسة عدد من الوثائق التاريخية. وفيها يعرض أدموف الأحداث التاريخية الصغيرة ويشدها إلى الأحداث الخطيرة بفضل الفواصل الترفيهية التي يظهر فيها عملاء فرساي. ويظهر أدموف في هذه المسرحية عامة الثوار وعمال باريس على مقدار غير يسير من المرح والنشاط والشغب والبطولة. وفي جانب الأعداء يبدو العملاء كالمهرجين. وصفوة القول إن الكتابة عند أدموف كانت نوعاً من الخلاص الذاتي وإجابة عن عدد من التساؤلات المحيرة والمؤلمة.

إن أدموف وجماعة «المسرح الحديث» [ر. المسرح والمسرحية] وقفوا في وجه ميتا فيزيائية اللغة والخطابات الإيديولوجية وطالبوا «بفيزيائية المسرح» لأنه «مكان فيزيائي وملموس يقتضي أن تملأه وأن تجعله يتكلم لغته المحسوسة».

قاسم المقداد

الموضوعات ذات الصلة :

مسرح العبث.

مراجع للاستزادة :

- ثروة يوسف عبد المسيح، مسرح اللامعقول وقضايا أخرى (دار الفارابي، بيروت ١٩٧٥).
- جنفييف سيرو، تاريخ المسرح الحديث، ترجمة د. بدر الدين القاسم (دمشق ١٩٧٤).

■ أدنبره (مدينة -)

أدنبره Edinburgh عاصمة اسكتلندة التاريخية، تقع في الجنوب الشرقي منها، متوسطة سهول لوثيان الساحلية فوق أرض بركانية حتتها الجموديات.

تمر فيها درجة العرض ٥٥ والدقيقة ٥٧ شمالاً ودرجة الطول ٣ والدقيقة ١٣ غرباً.

أخذت المدينة شكلها الحالي، نحو عام ١٩٢٠، إذ اتسعت لتضم عدة مدن ساحلية صغيرة، ولتصبح ثانية كبرى مدن اسكتلندة بعد غلاسكو.

يحتل وسط المدينة منخفض متطاول غرباً - شرقاً شغلته في الماضي بحيرة الشمال التي جففت عام ١٨١٦، وتشغله حالياً حدائق شارع برنس التي تتصل عن طريقه بالمدينة. وتحتل محطة القطار الواسعة (ويفرلي) القسم الشرقي من المنخفض، وفي أقصى الجنوب الغربي منه تقوم قلعة روك فوق جروف بازلتية ترتفع نحو ٨١م عن أرض المنخفض، ويعود أقدم جزء فيها (كنيسة سانت مارغريت) إلى بداية القرن الثاني عشر.

وتمتد أمامها، باتجاه الشرق نواة أدنبره العصور الوسطى، بشوارعها الضيقة المتعرجة المغلقة وبيوتها العالية المتراصة، على طول طريقين متوازيين ينتهيان إلى دير هولي رود (١١٢٨م) وقصر هولي رود هاوس وحدائقه (القرن الخامس عشر). ويتألف الطريق الأول من شوارع تشتمل على أهم المواقع التاريخية والمتاحف وأقدمها، ويضم الطريق الثاني مكتبة المدينة والمكتبة الوطنية الاسكتلندية (١٦٨٢م). وإلى الجنوب تظهر بقايا سور جدار فلورين (١٥١٣م)، تليه امتدادات حديثة تعود إلى القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين، تنتهي إلى مرج بحيرة الجنوب الجافة، وتشتمل على جامعتي أدنبره القديمة والحديثة وجامعة هاريوت التقنية والمتحف الملكي الاسكتلندي.

وعلى طول الحافة الشمالية للمنخفض

وحدائق شارع برنس، تظهر أدنبره الحديثة، مدينة القرن الثامن عشر، وتتألف من شبكة واسعة من الشوارع العريضة تتخللها ساحات فسيحة، وتشتمل المدينة الحديثة على بناء مكتب السجل الاسكتلندي وقاعتي الموسيقى والرسم الوطنيتين ومتحف العاديات القديمة.

كان للقلعة دور رئيس في تاريخ اسكتلندة حتى القرن الثامن عشر. ففيها وضعت الملكة ماري الملك جيمس السادس (١٥٦٦م). وما زال يحفظ فيها شعار البلاد وتاج الملك وصولجانه وسيفه. وقد عرفت المدينة في اللغة الاسكتلندية القديمة باسم دن ايدين Duneidean أي حصن تل ايدين. وعرفها البريطانيون القدماء في القرن السادس الميلادي بالاسم نفسه Din Eidyn ثم ترجمها الساكسون فيما بعد إلى بوره Burgh ليصبح اسم المدينة أدنبره Edinburgh.

لقد عانت المدينة والقلعة كثيراً إبان حرب الاستقلال الطويلة الضارية وتبادل الإنكليز والاسكتلنديون السيطرة عليها عدة مرات حتى عام ١٧٤٥ عندما احتل المدينة من دون القلعة جيش الأمير بوني شارلي اليعقوبي. وفي منتصف القرن الخامس عشر كانت قد أصبحت عاصمة اسكتلندة. لكنها فقدت أهميتها السياسية تدريجياً منذ عام ١٦٠٣م عندما نقل جيمس السادس بلاطه إلى لندن، ومن ثم وحد التاجين الاسكتلندي والإنكليزي عام ١٧٠٥م لكن توحيد البرلمانين عام ١٧٠٧م جعل من مدينة أدنبره مدينة من مدن بريطانية العظمى، على أنها لم تفقد مع ذلك مكانتها الثقافية والحضارية.

وقد أعيد لها شيء من أهميتها السياسية عندما اتخذت عام ١٨٨٥ مقراً لوزير اسكتلندة ومن ثم مقراً للحكومة المحلية عام ١٩٧٥م.

قدر عدد سكان أدنبره بنحو ٨٠٠٠ نسمة في منتصف القرن السابع عشر، وقفز عددهم بعد الثورة الصناعية إلى ٢٢٨٤٠٠ نسمة عام ١٨٨١م. وبلغ عام ١٩٩٥م نحو ٤٤٧٦٠٠ نسمة.

أدنبره مدينة متعددة الوظائف فهي عاصمة اسكتلندة ومركز ثقافي اشتهرت بكلياتها الجامعية ومشافيها الطبية ومدارسها العليا، وهي مدينة منجمية ناشطة.

وتعد من أشهر أسواق الخضر الطازجة العالمية بفضل ظهيرها الزراعي. وتزدهر فيها الصناعات الغذائية والتحويلية والإلكترونية والمعدنية والهندسية المتنوعة وبناء السفن، وتعد، لموقعها على خليج فورث، مركزاً تجارياً بحرياً فعالاً على بحر الشمال، وهذا ما جعلها تعج بالمصارف وشركات النقل والتأمين. وأهم صادراتها الفحم والحديد والفولاذ والخضر والمشروبات الروحية، وتستورد الحبوب والأغذية والأخشاب. وفي أدنبره حديقة حيوانات واسعة تجذب مع آثارها القديمة آلاف السائحين سنوياً.

نادر صيام

■ الأدوات البصرية

الأدوات البصرية Instruments d'optique جمل ضوئية محورية في أغلبها، أو تكافئ المحورية، تتألف من سطوح كاسرة (هي غالبا كروية) يُضم إليها أحياناً سطوح عاكسة، وتمر بها الأشعة الضوئية سطحاً بعد سطح وعبْر مواد شفافة.

تستعمل هذه الأدوات للتصوير أو لفحص الأجسام الصغيرة، كالمجهر أو لفحص الأجرام البعيدة كالنظارات الفلكية. وهي تشكل للجسم المدروس خيالاً حقيقياً أو وهمياً تُتخذ جميع الاحتياطات لتخليصه من الزيوغ aberrations اللونية والهندسية ليكون محاكيا للجسم بقدر الإمكان.

وتنتمي الأدوات البصرية إلى صنفين رئيسيين هما:

ـ أدوات الإبصار وتهدف إلى مساعدة العين البشرية في فحص الأشياء، فتعطي للجسم المدروس خيالاً وهمياً تكوِّن له العين خيالاً حقيقياً يرتسم على شبكيتها؛ وعلى هذا الأساس، تتوقف مزايا هذه الأدوات على خواص العين الفاحصة. وينتمي إلى هذا الصنف المكبرة والمجهر والنظارات الأرضية وأجهزة الرصد الفلكي [ر].

ـ أدوات الإسقاط وتعطي للجسم المدروس خيالاً حقيقياً يُستقبل على لوح تصوير (فلْم film) كما في آلة التصوير الشائعة، أو على شاشة كما في أدوات السينما، أو على كاشف آخر حساس بالضوء المرئي.

وتختلف مزايا الأدوات البصرية، في ظروف استخدامٍ واحدة، من أداة لأخرى، وتتم مقارنتها فيما بينها على صعيد المفاهيم الأربعة الآتية:

١ ـ التكبير grandissement والتجسيم grossissement والاستطاعة، وتفيد كلها في تعيين أبعاد الجسم الهندسية من قياس أبعاد خياله.

٢ ـ الحقل champ وهو المنطقة الفراغية التي تشكل لها الأداة خيالاً حسناً.

٣ ـ الضياء clarté وهو يعبِّر عن مدى إنارة الخيال بدلالة إنارة الجسم.

٤ ـ مقدرة الفصل pouvoir de resolution وتفيد في معرفة مدى دقة التفاصيل التي تشعر بها الأداة.

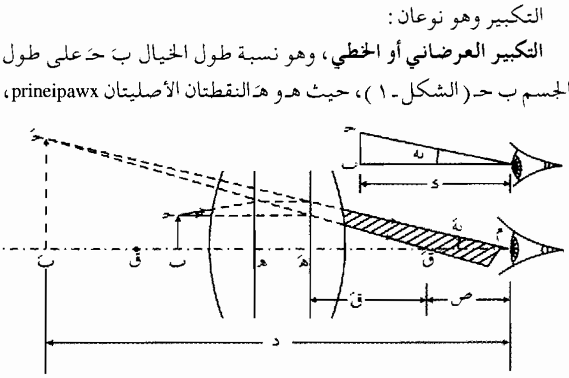
وفيما يلي تفصيل الكلام في كلٍ منها:

التكبير والاستطاعة والتجسيم

يُفترض أن تعمل الأداة دوماً في شروط غوص Gauss من النقطية stigmatisme التقريبية ليكون الخيال محاكياً للجسم.

التكبير وهو نوعان:

التكبير العرضاني أو الخطي، وهو نسبة طول الخيال بَ حَ على طول الجسم ب حـ (الشكل ـ ١)، حيث هـ و هَ النقطتان الأصليتان prineipawx،



(الشكل ١) تتعلق قيمتا الإستطاعة والتجسيم بمكاني العين والخيال بالنسبة للأداة

وهو يساوي: $\text{تك}_{\text{ع}} = \frac{\text{بَ حَ}}{\text{ب حـ}} = \frac{\text{ن}}{\text{نَ}} = \frac{\text{هـَ بَ}}{\text{هـ ب}}$

حيث ن: قرينة انكسار وسط الجسم، نَ: قرينة انكسار وسط الخيال.

التكبير الطولاني أو المحوري axial، وهو نسبة انتقال تفاضلي تفا طَ للخيال على الانتقال التفاضلي تفا ط للجسم وفق محور الأداة، وهو يساوي:

$$\text{تك}_{\text{ط}} = \frac{\text{تفا طَ}}{\text{تفا ط}} = \frac{\text{نَ}}{\text{ن}}\,\text{تك}_{\text{ع}}^{2}$$

وليس لهذا المفهوم فائدة ذات شأن في أدوات الإسقاط.

الاستطاعة: إن لهذا المفهوم أهمية خاصة في أدوات الإبصار، التي تُفحص بها أجسام صغيرة قريبة، كالمجهر. وهي تُعرف بالقيمة المطلقة للنسبة $\text{عه} = \frac{\text{يهَ}}{\text{ب حـ}}$ حيث تمثل يهَ الزاوية التي ترى العينُ ضمنها الجسم من خلال الآلة، وعلى هذا الأساس، تتوقف عموماً قيمة الاستطاعة على مكان العين من الآلـة (وهي في وسط الخيال طبعاً)، ويُلاحظ أيضاً في الشكل - ١ أن يهَ متناسبة مع طول الخيال المرتسم على شبكية العين؛ فإذا كان $\overline{\text{م قَ}}$=ص (حيث م مكان العين، وقَ محرق الآلة الخيالي، و $\overline{\text{بَ م}}$=د)، كان:

$$\text{عه} = \frac{\text{يهَ}}{\text{ب حـ}} = \frac{\text{بَ حَ}}{\text{ب حـ}} \times \frac{1}{\text{د}} = \frac{\text{تك}_{\text{ع}}}{\text{د}} = \frac{\text{د}-\text{ص}}{\text{قَ د}}$$

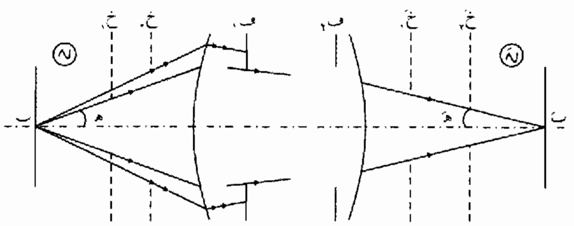
حيث هـَ قَ=قَ: البعد المحرقي الخيالي،

$$\text{ومنه عه} = \frac{1}{\text{قَ}}\left(1 - \frac{\text{ص}}{\text{د}}\right)$$

ويطلق عادة على النسبة $\text{عه}_{\text{د}} = \frac{1}{\text{قَ}}$ اسم الاستطاعة الذاتية intrinseque للأداة، وهي تساوي تقريب الأداة convergence عندما يكون الهواءُ هو وسط الخيال (نَ=١) كما هو الحال عادة. وتعمل الآلة باستطاعتها الذاتية هذه عندما تكون العين في المحرق الخيالي (أي ص معدوم)، أو عندما يكون الجسم في محرق الأداة الجسمي، فيكون خياله في اللانهاية (د كبير جداً)، وهذه الحالة الأخيرة لها الأفضلية الشائعة بغريزة العين، لأنها تجنِّب العين تعب المطابقة لدى استعمال الأداة.

وتقاس الاستطاعة بالكسيرة dioptre عندما تقاس الأطوال بالمتر والزوايا بالراديان.

التجسيم: لهذا المفهوم أهمية خاصة في الأدوات التي تُفحص بها أجسام بعيدة لا يُقاس منها سوى قطرها الظاهري يه، أي الزاوية التي يُرى ضمنها الجسم بالعين المجردة؛ فإذا كانت يهَ القطر الظاهري للجسم كما يُرى من خلال الأداة، فإن التجسيم، وهو عدد محض، هو النسبة $\text{تج} = \frac{\text{يهَ}}{\text{يه}}$؛ أما إذا كان الجسم قريباً فإن يه تمثل عندئذ قطره الظاهري وهو في نقطة كثب العين المجردة، أي على مسافة د منها، فيكون $\text{يه} = \frac{\text{ب حـ}}{\text{د}}$، وعندئذ يكون: تج = عه.د



(الشكل ٢) الكوى في الأدوات البصرية.

ويُحصل على التجسيم الذاتي عندما تعمل الأداة باستطاعتها الذاتية، فيكون: $\text{تج}_{\text{د}} = \text{عه}_{\text{د}}\,.\,\text{د} = \frac{\text{د}}{\text{قَ}}$

ولمقارنة الأدوات المنتمية لاستخدامٍ معيّن يصطلح تجارياً على اعتماد د=٠,٢٥ متر، فيكون التجسيم التجاري $\text{تج}_{\text{ت}}$ مساوياً ربع الاستطاعة مقدرةً بالكسيرة، أي: $\text{تج}_{\text{ت}} = \frac{\text{عه}}{4}$

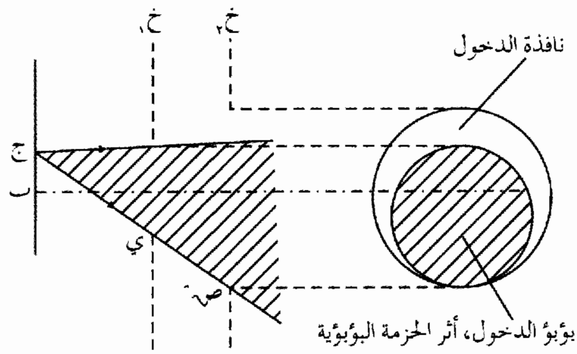
الحقل

هو مجموعة النقاط التي تشكل لها الأداة أخيلة مقبولة، ويمكن أن يُطلق على هذه المجموعة اسم الحقل الجسمي؛ وبالمقابل تُسمى مجموعة خيالات هذه النقاط الحقل الخيالي، ويُدرس على التوالي الحقل عرْضاً، أي عمودياً على محور الأداة، وعُمقاً، أي على طول هذا المحور.

دراسة الحقل عرضاً: إن الكُوى diaphragmes المستعملة لتحقيق شروط غوْص ولتحاشي الزيوغ، تكون دائرية متمركزة على المحور، وعلى هذا فإن حقل الأداة يكون ذا تناظر دوراني حول محور الأداة، ولذلك تُدرس أبعاده العرضية في مستوى الورقة (الشكل - ٢)

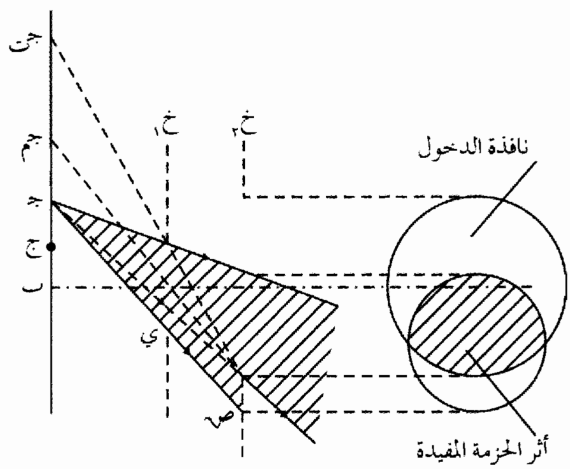
كوة الفتحة ouverture: لكي يتشكل للجسم العمودي على المحور خيال في الأداة يجب أن يصل قسم من الأشعة المنطلقة من كل نقطة حـ إلى خيالها حَ، لكن الحزمة المنطلقة من حـ ينحجب قسم منها بالإطارات الحاملة للعدسات أو بجدران الكوى المستعملة لتحاشي الزيوغ. لتكن ف_1، ف_2، ف_3، ... الفتحات التي يمر منها الضوء عبْر الأداة، وخ_1، خ_2، خ_3، ... خيالات هذه الفتحات في منطقة الجسم (أي فقط في القسم الذي يقع على يسار الكوة المعتبرة). يُطلق اسم بؤبؤ الدخول pupille على الخيال الذي يُرى من النقطة الجسمية ب، الواقعة على المحور، ضمن أصغر زاوية ويرمز لها فيما يلي بـ هـ.

ليكن خ_1 مثلاً بؤبؤ الدخول، يُطلق عندئذ على الكوة ف_1 المتعلقة به



(الشكل ٣) حقل الضوء التام دائرة نصف قطرها ب ج
كل الحزمة البؤبؤية المنطلقة من نقطة من هذه الدائرة هي حزمة مفيدة.

اسم كوة الفتحة، كما يطلق اسم بؤبؤ الخروج على خَ خيال ف ضمن أصغر زاوية هـَ بين الخيالات خَ١، خَ٢، خَ٣، . . . وتصح عندئذ علاقة

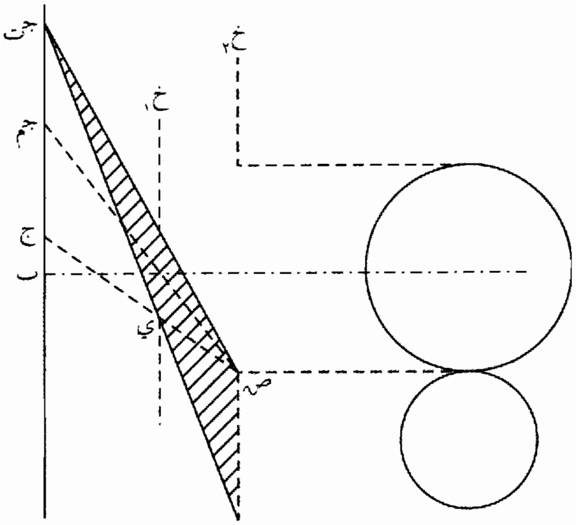


(الشكل ٤) الحقل الكلي دائرة نصف قطرها (ب جـ)
الحزمة المنطلقة من نقطة بين ج جـ ليست كلها مفيدة.

لاغرانج ـ هلمهولتز التالية: ن هـ = نَ هـَ تك ع لأن خَ وخَ مترافقان حتماً في الأداة كلها، كما تصح علاقة آبه Abbe ن جب هـ = ن جب هـَ تك ع إذا كانت هـ كبيرة كما في المجهر.

وواضح أن كل شعاع، يرد على الأداة من ب ماراً من نقطة من حافة البؤبؤ خ، يمر، لدى اختراقه الأداة، من النقطة المرافقة لها من حافة الكوة ف، ويبرز ماراً من نقطة من حافة البؤبؤ خَ. وينتج من ذلك أن الأشعة المنطلقة من ب لا تسهم في الخيال بَ إلا إذا مرت داخل بؤبؤ الدخول، أما الأشعة التي لا تحقق هذا الشرط فتنحجب وضوحاً، خلال الآلة، بجدار كوة الفتحة ف، ولا تصل إلى بَ. ويطلق اسم الحزمة المفيدة على مجموعة الأشعة التي تسهم، بعد انطلاقها من ب في تشكيل الخيال بَ، ويطلق اسم الحزمة البؤبؤية على الحزمة التي تمر من بؤبؤ الدخول.

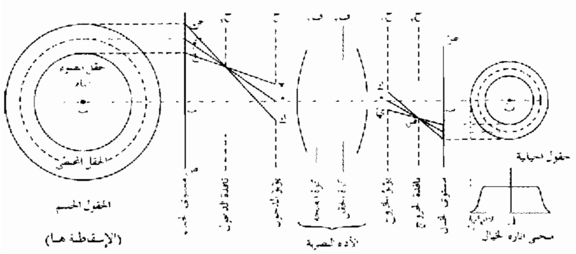
كوة الحقل: إذا كانت الأداة البصرية لاتحوي أكثر من كوة واحدة ف بالإضافة إلى كوة الفتحة ف، فإنه يُطلق عندئذ على ف اسم كوة الحقل، وعلى خيالها خ في منطقة الجسم اسم نافذة الدخول lucarne وعلى خيالها



(الشكل ٥) عندما تكون النقطة الجسم
أبعد عن / ب / من / جـ / لاتوجد حزمة مفيدة.

خَ٢ في منطقة الخيال اسم نافذة الخروج.

لتكن في الشكل ـ٣ ي نقطة من حافة بؤبؤ الدخول و ص نقطة من

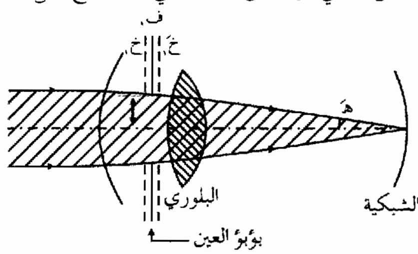


(الشكل ٦) موجز خواص الحقل العرضانية في الأدوات البصرية.

حافة نافذة الدخول، و ج نقطة تقاطع المستقيم ي ص مع مستوي الجسم. واضح أن جميع الحزم البؤبؤية المنطلقة من نقاط واقعة بين ب و ج (ومن النقاط المناظرة لها بالنسبة إلى ب) هي حزم مفيدة لأنها تمر كلها من نافذة الدخول فلا تصطدم، لدى اختراقها الآلة، لا بجدار كوة الفتحة ولا بجدار كوة الحقل؛ وعلى هذا الأساس يُطلق على الدائرة الموجودة في مستوي الجسم والتي مركزها ب ونصف قطرها ب ج اسم حقل الضوء التام.

وإذا كانت النقطة الجسمية حـ أبعد عن ب من ج (الشكل ـ٤)، فإن قسماً من الحزمة البؤبؤية الواردة منها يصطدم، لدى اختراقه الأداة، بجدار نافذة الدخول فينحجب بجدار كوة الحقل، أما القسم الباقي فهو الحزمة المفيدة التي تشكل خيال حـ. وتتصاغر الحزمة المفيدة تدريجياً كلما ابتعدت حـ عن ب حتى تصل إلى مكانٍ حـ (الشكل ـ٥)، تصطدم فيه الحزمة البؤبؤية كلها بجدار نافذة الدخول، أي أن جميع الحزم الضوئية الواردة من نقاطٍ أبعد عن ب من حـ، يحجبها، لدى اختراقها الأداة الضوئية، جدار كوة الحقل فلا تبرز من الآلة. وعلى هذا الأساس

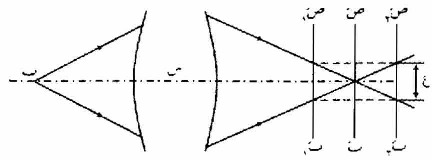
تسمى الدائرة الموجودة في مستوي الجسم التي مركزها ب ونصف قطرها ب حـن الحقل الكلي، وتسمى الحلقة التي عرضها ج حـن الحقل المحيطي،



(الشكل ٧) بؤبؤ العين فـ هو كوة الفتحة فيها وتنطبق على بؤبؤي الدخول والخروج

وتسمى الدائرة التي نصف قطرها ب حـم الحقل الوسطي، حيث حـم هي منتصف القطعة ج حـن.

ولكل حقل من الحقول المذكورة مرافق يقع في مستوي الخيال صَ

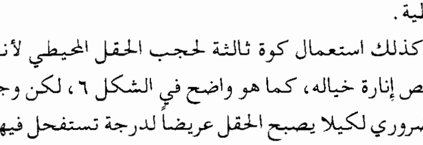


(الشكل ٨) يتمثل عمق الحقل الخيالي في أدوات الإسقاط بمدى الإحكام بَ١ بَ٢

الذي تشكله الأداة لمستوى الجسم ص، ومجموع هذه الحقول يشكل الحقل الخيالي. إن الحقولَ الخيالية حقيقيةٌ في أدوات الإسقاط، كما في الشكل (٦)، لكنها وهمية في آلات الإبصار فتقع في منطقة الجسم على مسافة كبيرة عموماً، وعندئذ يتعين اتساعها بالزوايا التي تُرى ضمنها عبْر الآلة من نقطة وجود العين بصورة مشابهة لما سبق ذكره، كما أن الجسم نفسه قد يقع في اللانهاية فتتعين حقوله بالزوايا الظاهرية أيضاً بدلاً من الأبعاد الخطية.

ويمكن كذلك استعمال كوة ثالثة لحجب الحقل المحيطي لأنه مزعج بسبب تناقص إنارة خياله، كما هو واضح في الشكل ٦، لكن وجود كوة الحقل أمر ضروري لكيلا يصبح الحقل عريضاً لدرجة تستفحل فيها الزيوغ الهندسية فتَفسد جودة الخيال.

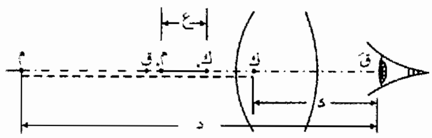
وأخيراً يمكن في آلات الإبصار اعتبار الأداة والعين جهازاً واحداً إسقاطياً شاشته الشبكية، ومن المفيد عندئذ أن يكون بؤبؤ العين في مستوى بؤبؤ خروج الأداة (الشكل ـ٧) لكي يستقبل أكبر كمية ممكنة من الضوء الذي سيشكل الخيال الشبكي؛ ولهذا السبب يطلق على بؤبؤ الخروج في



(الشكل ٩) يتمثل عمق الحقل الجسم في أدوات الإسقاط بعمق الوضوح ب١ ب٢

أدوات الإبصار اسم القرص العيني، فإذا كان القرص العيني أوسع من بؤبؤ العين فإن هذا البؤبؤ يؤدي دور بؤبؤ الخروج الفعلي لأنه هو الذي يحدّد باتساعه فتحة الحزمة البارزة، وبالتالي فتحة الحزمة الواردة المفيدة، ولا حاجة عندئذ لكوة حقل خاصة ضمن الأداة.

دراسة الحقل عمقاً: إن امتداد حقل الأدوات البصرية على المحور يتعلق أساساً بخواص اللاقط الذي يستقبل الخيال، وعلى هذا الأساس يُميَّز بين صنْفيْ الأدوات: أدوات الإسقاط وأدوات الإبصار.



(الشكل ١٠) يتمثل عمق الحقل الخيالي في أدوات الإبصار بمجال الرؤية الواضحة ك م ويتمثل عمق الحقل الجسم بعمق المطابقة كَ مَ = ع (ك م = خيال كَ مَ في الآلة س)

أدوات الإسقاط: يستعمل أكثرُها ألواح التصوير كلاقط للخيال، فإذا رمزنا بـ ص لمستوي الجسم (الشكل ـ٨) فإن عملية الإحكام mise aupoint على ص تتلخص بوضع لوح التصوير (الفلم) في مستوي الخيال الحقيقي صَ الذي يسمى مستوي الإحكام. إن حبات الفلم الحساسة بالضوء هي بلورات من بروم الفضة Br Ag شبه كروية قطرها من مرتبة ٣٠ مكروناً، فخيال أي نقطة له على الأقل حجم حبة اللاقط إذا أهملنا إصابة الحبات المجاورة بما ينتشر من الضوء عن الحبة المصابة مباشرة. فإذا رمزنا بالحرف ε لقطر أصغر خيال يحصل في اللاقط (ويسمى قطر الحبة) فإن كل خيال قطره أصغر من ε يبدو كخيال قطره ε، فأداة الإسقاط س تشكل للنقطة ب خيالاً في بَ. ومن أجل جميع المستويات المجاورة لمستوي الإحكام صَ نحصل على خيال قطره يساوي ε وإذا تحرك الفلم بين المستويين صَ١ وصَ٢ اللذين يقطعان الحزمة البارزة وفق دائرتين قطراهما ε، فإن قطر الخيال لا يتغير وعلى هذا يتمثل عمق الحقل الخيالي بالقطعة بَ١ بَ٢ بين هذين المستويين وتسمى مدى الإحكام؛ وتسمى هذه القطعة عمق المحرق عندما تكون ب في اللانهاية.

يبين الشكل (٩) أن النقطتين ب١ وب٢ المرافقتين للنقطتين بَ١ وبَ٢ ترسلان على الآلة حزمتين بؤبؤيتين تقتطعان على مستوي الإحكام المتعلق بالنقطة ب قرصاً قطره يساوي ε؛ فإذا تحركت ب بين ب١ وب٢ فإن خيالها يبقى موجوداً على الفلم صَ ولا يتعدى قطره القيمة ε، وبذلك يتمثل عمق حقل الجسم بالقطعةّ ب١ ب٢ التي تسمى عمق الوضوح nettete من أجل مستوي الإحكام صَ والحبة ε.

أدوات الإبصار: اللاقط الفعلي فيها هو العين البشرية، ولكي ترى العين الجسم بوضوح من خلال الأداة يجب أن يقع خياله الوهمي بين نقطة كثبها ك ونقطة مداها م(الشكل ـ١٠)؛ فلو رمز بالحرفين كَ ومَ للنقطتين اللتين خيالاهما الوهميان في الأداة هما ك وم لوجب أن يقع الجسم على القطعة كَ مَ التي تمثل إذن عمق حقل الجسم، ويسمى هنا عمق المطابقة accommodation (أو مدى الإحكام أيضاً). أما عمق حقل الخيال فهو مجال الرؤية الواضحة ك م للعين التي تستخدم الأداة؛ فإذا كان

$\text{سع} = \overline{\text{قَ م}} - \overline{\text{قَ ك}}$ سعة مطابقة العين المفروض أنها في المحرق الخيالي قَ للأداة، فإن دستور نيوتن في الجمل الضوئية يعطي: $\overline{\text{ق ك}_{\text{ب}}} \times \overline{\text{قَ ك}} = \text{ق}_{\text{ب}}\text{قَ} = \overline{\text{ق م}_{\text{ب}}} \times \overline{\text{قَ م}}$ ، حيث ق وقَ البعدان المحرقيان للأداة وحيث ق وقَ محرقاها. وعندئذ يكون عمق حقل الجسم على الشكل: $\text{ع} = \overline{\text{م}_{\text{ب}}\text{ك}_{\text{ب}}} = \overline{\text{ق ك}_{\text{ب}}} - \overline{\text{ق م}_{\text{ب}}} = \text{سع ق قَ}$

وعندما تكون الآلة محاطة من طرفيها بوسط واحد (الهواء عموماً) يكون: $|\text{قَ}| = |\text{ق}|$ وينتج أن: $\text{ع} = \frac{\text{سع}}{\text{عه}_{\text{د}}^{2}}$ ، فمدى الإحكام في آلات الإبصار يتناسب عكسياً مع مربع الاستطاعة الذاتية $\text{عه}_{\text{د}}$ للأداة، وهذا مايفسر صغره في المجاهر القوية.

ضياء الأدوات البصرية

يُميّز بخصوص هذا الضياء أيضاً بين صنفيْ الأدوات: أدوات الإسقاط وأدوات الإبصار.

أدوات الإسقاط: يطلق اسم ضياء الأداة (س) على حاصل قسمة إنارة الخيال ن eclairement على لمعان الجسم (لم) luminance:

$$\text{س} = \frac{\text{ن}}{\text{لم}} = \pi\,\text{ف}\,\frac{\text{نَ}^{2}}{\text{ن}^{2}}\,\text{جب}^{2}\text{هَ}$$

حيث هَ: فتحة الحزمة البؤبؤية البارزة من الأداة، و ف: معامل نفوذ عدسات الآلة coefficient de transmission (وهو يتعلق بنسبة ماتمتصه الأداة من التدفق الضوئي flux الوارد عليها). فمن أجل العين البشرية كأداة إسقاط على شبكيتها تكون هَصغيرة (الشكل-٧). ليكن ن قرينة انكسار الخلط الزجاجي وف معامل نفوذ العين، و ن إنارة الخيال على الشبكية، و ر نصف قطر بؤبؤ العين، ول البعد بينه وبين الشبكية؛

فحيث أن $\text{نَ} = ١$ و $\text{جب هَ} = \frac{\text{ر}}{\text{ل}}$ يكون: ،

$$\text{ن} = \text{ن}^{2}\,\pi\,\text{ف لم}\,\frac{\text{ر}^{2}}{\text{ل}^{2}} = \text{ك لم ر}^{2}$$

حيث $\text{ك} = \frac{\text{ن}^{2}\,\pi\,\text{ف}}{\text{ل}^{2}}$ ثابتٌ تتوقف قيمته فقط على مميزات العين التي تستخدم الأداة؛ فإنارة الخيال على شبكية العين وكذلك ضياء العين كأداة إسقاط يتناسب مع مربع نصف قطر بؤبئها.

أدوات الإبصار: يُعرف الضياء في هذه الأدوات بحاصل قسمة إنارة الخيال الشبكي نَ للجسم كما يُرى من خلال الأداة على إنارة الخيال الشبكي ن للجسم كما يُرى بالعين المجردة، أي: $\text{س} = \frac{\text{نَ}}{\text{ن}} = \frac{\text{نَ}}{\text{ك لم ر}^{2}}$

- فإذا كان القرص العيني للآلة أوسع من بؤبؤ العين فإن هذا الأخير يقوم بوظيفة بؤبؤ الخروج لجملة العين والأداة معاً، ويكون عندئذ $\text{ن} = \text{ك لم ر}^{2}$

وبالتالي: $\text{س} = \frac{\text{لمَ}}{\text{لم}} = \text{ف}\,\frac{\text{نَ}^{2}}{\text{ن}^{2}}$. وإذا كانت الأداة محاطة من طرفيها ب وسط واحد (الهواء عموماً) يكون س= ف، وإذا كان ف قريباً من الواحد يقال عن الأداة إنها وضيئة أو جليَّة clair.

- وإذا كان القرص العيني للأداة أصغر من بؤبؤ العين فإن هذا القرص يقوم بوظيفة البؤبؤ الفعلي؛ فإذا كان نقَ نصف قطره، كان $\text{ن} = \text{ك لم نقَ}^{2}$

ويكون: $\text{س} = \frac{\text{لمَ}}{\text{لم}}\left(\frac{\text{نقَ}}{\text{ر}}\right)^{2} = \text{ف}\left(\frac{\text{نَ نقَ}}{\text{ن ر}}\right)^{2}$.

وإذا كانت الأداة محاطة من طرفيْها بوسط واحد فإنه يكون: $\text{س} = \text{ف}\left(\frac{\text{نقَ}}{\text{ر}}\right)^{2} < ١$ وجدير بالذكر أخيراً أنه إذا كان الجسم نقطياً فإن الضياء يُعرَّف بحاصل قسمة التدفق الضوئي تدَ الذي يدخل العين المزوَّدة بالأداة على التدفق تد الذي يدخل العين المجردة.

مقدرة الفصل

يعبِّر هذا المقدار عن مقدرة الأداة على تمييز التفاصيل المتجاورة خطياً أو زاوياً في الجسم المدروس، وهو أصغر بعد خطي أو زاوي بين نقطتين يمكن أن تُريا منفصلتين من خلال الأداة، وكلما كان هذا الحد صغيراً كانت الأداة أحسن.

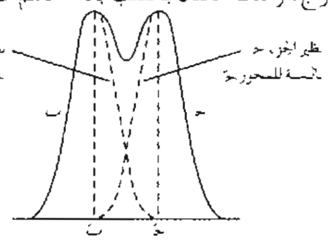
ويقال عن الأداة البصرية إنها مثالية إذا كانت تعطي خيالات خالية من الزيوغ، فيتحقق عندئذ شرط الاستوائية من أجل أزواج النقاط المترافقة وخصوصاً من أجل بؤبؤي الدخول والخروج. وفي هذه الظروف تتحدد مقدرة الفصل بحوادث الانعراج التي تتدخل بسبب الكوى المستعملة لتصغير فتحة الحزم المفيدة.

لكن استعمال اللاقط اللازم للآلة يجعل مقدرة فصل جملة اللاقط والأداة معاً متعلقة عملياً ببنية اللاقط، إما لأن هذا اللاقط يحوي كوى ضيقةأو يتسبب في حدوث الزيوغ (كالعين البشرية) أو لأن بنيته ليست ذات استمرار كافٍ (كالعين وأفلام التصوير).

أما مقدرة الفصل المثالية للأداة البصرية فتتعين كما يلي:

لتكن أداة مثالية تعطي للنقطتين المتجاورتين ب و حـ بقعتي انعراج

مركزاهما الخيالان الهندسيان بَ وحَ، فيكون منحني توزع الإنارة الكلية ناتجاً من مجموع المنحنيين المتعلقين بالبقعتين (الشكل-١١). ومن المعقول عندئذ أن يُعدّ الخيالان مفصولين إذا كان هذان المنحنيان يظهران مفصولَيْن، أي إذا كانت المسافة بَ حَ لا تقل عن نصف قطر الحلقة المظلمة الأولى من بقعة الانعراج. وهناك حالتان بحسب بعد الجسم عن الأداة:



(الشكل ١١)

الجسم في اللانهاية: يجب عندئذ أن يكون البعد الزاوي بين بَ وحَ أكبر من نصف القطر الزاوي يهَ لبقعة الانعراج مرئيةً من خلال الأداة، وهو يتوقف على λ طول موجة الضوء الداخل في الأداة، وعلى نقَ نصف قطر بؤبؤ الخروج، وذلك وفق العلاقة: يهَ = ٠,٦١ λ / نَ نقَ

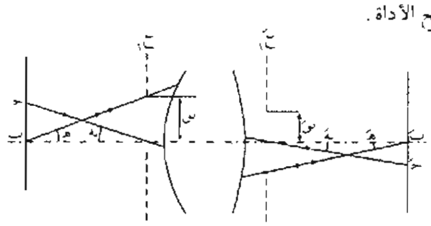
ويتم الانتقال من الخيال إلى الجسم بوساطة دستور لاغرانج-هلمهولتز وهو: ن نق يه = نَ نقَ يهَ الذي يعطي عندئذ حد الفصل الزاوي المثالي للأداة: يه = ٠,٦١ λ / ن نق ويسمى مقلوبه ١/يه مقدرة الفصل الزاوي المثالية pouvoir separateur.

الجسم على بعد محدود: يبلغ عندئذ نصف قطر بقعة الانعراج في مستوي الخيال القيمة: بَ حَ = ٠,٦١ λ / نَ جب هَ، حيث هَ: فتحة الحزمة البؤبؤية البارزة (الشكل-١٢)؛ وباستخدام شرط الاستوائية:

ن . ب حـ . جب هـ = نَ . بَ حَ . جب هَ

يتعين حد الفصل الخطي المثالي للأداة بدلالة هـ فتحة الحزمة البؤبؤية الواردة، كمايلي: ب حـ = ٠,٦١ λ / ن جب هـ، ويسمى المقلوب ١/ب حـ مقدرة الفصل الخطي المثالية للأداة. وهكذا يتضح أن الإشعاع لا يحمل عن تفاصيل بنية الجسم معلوماتٍ أدق من نصف طول موجته.

وتجدر الإشارة إلى أن مقدرة الفصل المحسوبة هنا هي قيمة مثالية يصعب الحصول عليها لأن مقدرة الفصل العملية تتوقف على دقة بنية اللاقط، فلو كان الضوء المستخدم لإنارة الجسم ضوء مصباح الصوديوم الأصفر (λ # ٠,٦ مكرون)، وكان اللاقط فلماً تصويرياً لما تمت الإفادة من هذا الفصل المثالي إلا إذا كان قطر حبة بروم الفضة في الفلم أقل من ٠,٦١×٠,٦ # ٠,٣٦ مكرون؛ أما العين البشرية التي لا تقل المسافة بين خليتين عصبيتين متجاورتين من شبكيتها عن خمس مكرونات فلا تستطيع الإفادة من هذا الفصل المثالي، ويبقى أن يذكر شيء عن معامل نفوذ الأداة وعن تصحيح الأداة.



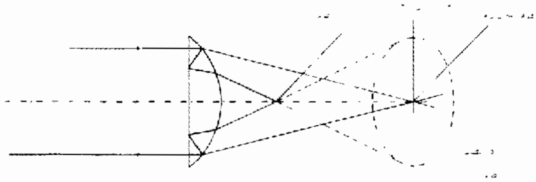
(الشكل ١٢)

معامل نفوذ الأداة: تتألف الأداة في كل الأحوال من عددٍ من العدسات والمرايا. ويعرَّف معامل الانعكاس ع، بنسبة التدفق المنعكس تدَ، إلى التدفق الوارد تد: ع = تدَ / تد وتحسب قيمته، من أجل زجاج حديث الصقل قرينة انكساره ن، بدستور فرينل Fresnel الصالح من أجل زاوية ورود في الهواء أقل من نحو ٤٠ درجة: ع = ((ن − ١) / (ن + ١))^{2} فهو يساوي ٠,٠٤ عندما ن = ١,٥ وعندما يُراد الحصول على قيمة عظمى لهذا المعامل يُلجأ لتغطية المرآة بطريقة التبخير في الخلاء، بقشرة معدنية رقيقة (ألمنيوم أو كروم أو فضة... أو أي مادة أخرى تُختار بما يلائم طيف الضوء المستخدم). ففي مجال الضوء المرئي شاع استخدام الألمنيوم حيث ع = ٠,٩ تقريباً، وللحصول على عامل أكبر تُستخدم طبقات منضَّدة من مواد عازلة [انظر التداخل (مقاييس)] يمكن الوصول فيها إلى ع = ٠,٩٩ أي بامتصاص مهمل.

وتصنع العدسات والمواشير من مادة شفافة، وفيها تتصرف السطوح الفاصلة بين الزجاج والهواء بمعامل انعكاس من رتبة ٠,٠٤ فإذا كان عدد السطوح الفاصلة كبيراً فإن قسماً كبيراً من الضوء الساقط على الأداة لا يصل إلى اللاقط. فلو وُجدت مثلاً خمس عدسات بين الجسم واللاقط (١٠ سطوح فاصلة بين الزجاج والهواء) فإن عامل النفوذ يصبح مساوياً: ف = (١ − ع)^{10} ≈ ٠,٦ ويكون القسم الضائع من الضوء كبيراً.

لكن الأخطر من هذا هو أن هذه الطاقة الضوئية تلتقطها سطوح العدسات السابقة فتجمّعها من جديد مشكّلة خيالات طفيلية، كما هو واضح في الشكل ١٣، مما يولّد في مستوى الخيال إنارة إضافية طفيلية تنتقص من تباين الخيال contraste. ولتحسين جودة الخيال كثيراً يُسعى إلى أكبر خفض ممكن لقيمة ع عند السطوح الفاصلة بين الزجاج والهواء،

وهذا يتم عادة بتبخير (في الخلاء) قشرة رقيقة من مادة كاسرة للضوء قرينة انكسارها ن، فتزول بسبب التداخل الطاقة المنعكسة عندما يكون نَ = √ن (ن قرينة انكسار الزجاج) . ومعالجة السطوح بهذه الطريقة اصبحت عملية صناعية شائعة وأدت إلى الحصول على نتائج جيدة .



(الشكل -١٣)

على أن للضوء الطفيلي في الأدوات البصرية مصدراً آخر هو انعكاس الأشعة عن أطر العدسات وعن جدران الأنابيب الحاملة لها . ويُلجأ إلى تحاشي عاكسيتها باستخدام سواتر غير لماعة أو محزوزة ميكانيكياً بكثافة . وقد تُستخدم أيضاً كوى إضافية تمنع وصول الأشعة الطفيلية إلى اللاقط .

تصحيح الأداة : تتلخص وظيفة الأداة البصرية عموماً بتركيز تدفق ضوئي على لاقط إشعاعات يفيد في عمليات القياس بتحويل الطاقة الكهرمغنطيسية إلى شكل آخر من أشكال الطاقة قابل للقياس : (تيار كهربائي في الخلايا الكهرضوئية، اسوداد في أفلام التصوير، سيالة عصبية في العين) . وقد تُستخدم الأداة لتشكيل صورة فراغية يفسّرها اللاقط مباشرة وفي كلتا الحالتين يجب استخدام أداة تأتلف مع مميزات اللاقط وتتيح الإفادة المرتقبة من جودة الأداة واللاقط معاً . وهذه المسألة تشبه مسألة إعادة توليد الأصوات المسجلة . فخواص الأذن معروفة، وعلى أساسها يجب أن تدرس خصائص المضخمات والسماعات والأدوات القارئة للتسجيل كي لا يضيع سوى كمية أصغرية من المعلومات لدى انتقالها من القرص (الأسطوانة) إلى الأذن . وعمل اللاقط يتعين بما يلي :

١- البنية الحبيبية (المنفصلة) للطبقة الحساسة من اللاقط (تحبحُب مستحلب التصوير emulsion) .

٢- الانتثار diffusion ضمن الطبقة الحساسة (الوسط العكر لمستحلب التصوير)، وتتجمع مميزاته من معرفة الجواب المتقطع للأقط أو من معرفة منحني نقله لعمليات التعديل modulation .

ولا بد من إجراء موازنة بين مزايا الجهاز ومزايا اللاقط، ومن تثبيت مايمكن احتماله من الزيوع في الأداة : وعندها يمكن الاضطلاع بإجراء الحسابات (انظر الزيْغ) .

وأخيراً يجب أن لا يغيب عن البال أن الأدوات البصرية تعمل في جو واقعي، وأن طبقة الهواء التي تقع غالباً بين الجسم والأداة تؤلف بحد ذاتها أداة بصرية تحد كثيراً من مزايا المجموعة . ففي أجهزة الرصد الفلكي [ر] مثلاً، قد يبدو أن ازدياد قطر الراصدة Telescope النقْطية يكفي لتحسين مقدرة الفصل النظري، وهذا غير صحيح . فجو الأرض، وهو وسط مضطرب تتغير فيه قرينة الانكسار بشكل فوضوي زمنياً ومكانياً، يشوّه الموجة التي تنتشر فيه .

فالأبعاد الأصغرية لخيال أحد النجوم لا تتعين، في الراصدات الكبيرة، بقطر النحم بل بجودة الحو التي تتعلق هي الأخرى بالمناخ وبالموقع الذي تُقام فيه الراصدة .

أدهم السمان

الموضوعات ذات الصلة :

أجهزة الرصد الفلكي - الزيغ - الضوء الهندسي

مراجع للاستزادة :

- أدهم السمان، الضوء الهندسي (منشورات جامعة دمشق ١٩٨٢)

-DEVORE et ANNEQUIN. Optique. Tomes I&II (Librairie Vuibert, Paris 1962).

-JENKINS & WHITE. Fundamentals of Optics (Mc Graw- Hill 1957).

■ أدوات القياس الكهربائية

مقدمة في علم القياس

القياس عملية فيزيائية تعتمد على التجربة العلمية التي تقارن بين مقادير يُراد قياسها وأخرى مرجعية من جنسها فيزيائياً تُسمى واحدات القياس .

ويؤدي علم القياس metrology دوراً رئيساً في تطور العلوم النظرية والتقنية . ومن أهدافه الأساسية استنتاج النظريات التي تكشف عن القوانين المعبرة كمياً عن القيم المختلفة .

وتجرى عملية القياس بتقنيات متنوعة إلكترونية أو كهربائية أو ميكانيكية أو كيمياوية أو غيرها . وتعد التقنيات الكهربائية والإلكترونية أكثرها انتشاراً في جميع المجالات العلمية بسبب تميزها بالدقة والحساسية العاليتين وسرعة إعطاء النتيجة وإمكان تنظيم المعلومات وتنسيقها وتحليلها إضافة إلى إمكان القياس عن بعد .

وأدى التطور الكبير في تقنيات الهندسة الكهربائية والإلكترونية إلى ظهور أجهزة قياس مركبة يمكنها أن تقيس مقادير كهربائية وغير كهربائية من ميكانيكية وحرارية وحيوية وغيرها وأن تحلل نتائجها وتنسق بين مؤثراتها وتنظِّم معلوماتها . فأجهزة القياس « الذكية » مثلاً مكونة من عدة وسائل تُربط بحسب نظام معين وتؤلف منظومة القياس .

وهناك حتى اليوم طريقتان أساسيتان في القياس : الطريقة المباشرة والطريقة غير المباشرة .

أما الطريقة المباشرة فتتميز بخاصة القياس التي يُحصل فيها على النتيجة فوراً عند تأثير المقدار المجهول في دخل الجهاز أو المنظومة، وهي تنقسم، بحسب التقنية المستخدمة في إظهار النتيجة، إلى الطريقة التمثيلية

analogue method والطريقة الرقمية digital method .

أما الطريقة التمثيلية فتتميز بعلاقة معروفة بين مقداري دخل الجهاز وخرجه فيكون هذان المقداران ممثَّلين توابع زمنيةً مستمرةً (غير منقطعة) أي أنهما متماثلان .

وأما الطريقة الرقمية فتتميز بعلاقة ربط معروفة بين قيمتي دخل الجهاز وخرجه إلا أن مقدار الخرج تابع زمني منقطع أي إن إشارة الخرج منقطعة زمنياً وتعطي النتائج أرقاماً على لوحة إظهارها .

وأما في الطريقة غير المباشرة، فعند تأثير المقدار الفيزيائي المراد قياسه فإن الجهاز لا يعطي النتيجة فوراً وإنما يقارنه مع القيم المعيارية، ويجري حساب المقدار المجهول بوساطة علاقة تربط بين القيم ربطاً غير مباشر، ومن أهمها طريقة المقارنة التي تقوم على أسلوب التبديل substitution method أي بمبادلة المقدار المجهول بآخر معلوم بعد مقارنة كل منهما إفرادياً بالمعيار، أو على الأسلوب الصفري null method الذي يعتمد على المقارنة بالمقدار المجهول والمعايير في آن واحد حتى الحصول على صفر جهاز المقارنة أي مساواة الأول والثاني ويسمى عادة بحالة التوازن، ويسمى جهاز المقارنة هذا عادة بالكاشف الصفري null detector . ولكن لا يمكن في بعض الحالات التوصل إلى التوازن الكامل، لذلك يقاس الفرق الأصغري بينهما وتسمى بالطريقة التفاضلية، أما جهاز الكاشف فيسمى في هذه الحالة بكاشف الخطأ error detector .

وتتأثر عملية القياس بالشروط المحيطة من درجات الحرارة والرطوبة والمؤثرات الفيزيائية الخارجية . ويراعى، لتوفير الدقة في عملية القياس، أن تتم هذه العملية في الشروط النظامية التي تحددها الأنظمة المعتمدة في الدولة أو النظم الدولية .

وأجهزة القياس الكهربائية وسائل تقنية إشارة دخلها كهربائية . وهي تقارن بين القيم المجهولة المراد قياسها والقيم المعيارية المعتبرة بعلاقة ربط معروفة بين إشارتي الدخل والخرج، وتتعين اعتماداً على النظرية الديناميكية الكهربائية أي بتأثير الطاقة الكهربائية، وأبسط أشكالها تسمى المقاييس الكهربائية، وقد تتألف من عدة تجهيزات قياس، ومنها وسائل التحسس وغيرها، لتكوّن منظومة قياس مستقلة قادرة على التحكم في عملية القياس وتنظيمها ومراقبة القيم المختلفة .

ومن أجهزة القياس الكهربائية : أجهزة القياس المقارنة، وأجهزة القياس الرقمية، وأجهزة القياس التمثيلية، وفي الأخيرة يكون مقدار الدخل الكهربائي تابعاً زمنياً مستمراً مماثلاً لتابع الخرج المتواصل زمنياً . وهي تصنف، بحسب طريقة إظهار النتيجة، في أجهزة القياس التمثيلية ذات المؤشر وأجهزة القياس التمثيلية لرسم الاهتزاز . وتضم الأولى جميع أجهزة القياس التي تدل على النتيجة الواحدة بوساطة مؤشر ميكانيكي أو شعاع ضوئي، وأغلبها كهربائية ميكانيكية، لذلك تسمى أجهزة القياس الكهرميكانيكية ذات المؤشر . وهذه الأخيرة تنقسم إلى مجموعات بحسب النظرية الكهرمغنطيسية المعتمدة في مبدأ عملها، أي تحويل الطاقة الكهربائية إلى ميكانيكية مكافئة ومعيرة بزاوية انحراف المؤشر على لوحة «إظهار النتيجة» . ومن هذه المجموعات : أجهزة القياس ذات الوشيعة المتحركة وأجهزة القياس ذات النواة المتحركة وأجهزة القياس الكهرديناميكية وأجهزة القياس التحريضية وأجهزة القياس الكهرساكنة وأجهزة القياس الكهرحرارية .

أما أجهزة القياس التمثيلية لرسم الاهتزاز فيسمى واحدها اختصاراً «راسم الاهتزاز» (راسم الإشارة) oscillograph وهو جهاز تمثيلي يظهر على شاشته المنحني الزمني الممثل للتابع الرياضي المستمر للمقدار الكهربائي المراد دراسته والمؤثر في دخله .

ويصنف راسم الاهتزاز بحسب التقنية المعتمدة في إظهار منحني الإشارة إما في راسم الاهتزاز الضوئي الذي يعمل وفق مبدأ الشعاع الضوئي أو في راسم الإشارة المهبطي الذي يعمل بوساطة شعاع إلكتروني مولد من مدفع إلكتروني أو بوساطة صمام أشعة مهبطية .

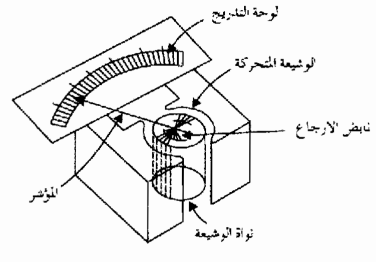
وتقسم أجهزة القياس الكهربائية، بحسب المقدار الكهربائي الذي تقيسه، إلى : مقياس الأمبير am meter ومقياس الفولط voltmeter ومقياس الاستطاعة wattmeter ومقياس التردد frequency meter ومقياس الأوم ohm meter ومقياس الطاقة energy meter ومقياس عامل الاستطاعة power factor meter ومقياس التحريض المغنطيسي (تسلامتر) Tessla meter ومقياس التدفق المغنطيسي (السيالة المغنطيسية) flux meter وغيرها .

ومن المقاييس مايقيس النسبة بين قيم مجهولة وأخرى عيارية معلومة فتسمى المقاييس التناسبية logometer . ومنها مايقيس القيم الكهربائية الدقيقة (الصغيرة جداً) فيسمى المقاييس الغلفانية galvanometer . وجميع أجهزة القياس يمكن أن تقيس قيماً آنية أو حسابية أو قيماً وسطى أو فعالة، كما يمكن أن تقيس تكامل القيم في زمن معين مثل الشحنة الكهربائية والطاقة الكهربائية وتسمى أحياناً المقاييس التكاملية integrating instruments .

أجهزة القياس ذات الوشيعة المتحركة

هي مقاييس كهرميكانيكية تمثيلية ذات مؤشر ميكانيكي أو بقعة ضوئية تؤخذ نتائجها من لوحة مدرجة ومقسمة بحسب نظام وحدة القياس الدولية .

وتعتمد المقاييس ذات الوشيعة (الملف) المتحركة في مبدأ عملها على التأثير المتبادل بين الحقل المغنطيسي لمغنطيس دائم والحقل المغنطيسي لتيار مستمر يمر في وشيعة ملفوفة حول نواة حديدية ذات نفوذية مغنطيسية عالية (الشكل ١) .



(الشكل ١) مقياس كهربائي ذو وشيعة متحركة

ومن نتائج التأثير المتبادل بين المغنطيس الدائم والوشيعة حدوث مزدوجة من القوى المغنطيسية تؤدي إلى نشوء عزم يؤثر في الوشيعة المرتكزة على محور الدوران مما يؤدي إلى انحراف مؤشر الجهاز على اللوحة المدرجة . ويتعين عزم الفتل torque moment أو عزم القياس في الوشيعة المتحركة من العلاقة : $Ms = 2rl.N.B.I$ حيث r نصف قطر الوشيعة وl طولها و N عدد لفاتها و B التحريض المغنطيسي في فجوة المغنطيس الدائم و I التيار

الكهربائي المار في الوشيعة.

ويتم التوازن الستاتيكي في الجهاز عندما يتساوى عزم الفتل مع عزم نابض الإرجاع أو خيط الفتل في الجهاز، ويتحدد هذا التوازن من جداء زاوية الانحراف في ثابت نابض الإرجاع، وعند توازنهما يستنتج أن زاوية الانحراف تتناسب طرداً وخطياً مع التيار الكهربائي المار في الوشيعة باعتبار أن بقية المعاملات المشاركة تمثل ثوابت تصميمية داخل الجهاز.

ويتميز هذا المقياس بأنه يقيس التيارات الصغيرة بدقة عالية، وتتناسب زاوية القياس فيه مع شدة التيار، إلا أن هذا المقياس غير قادر على قياس التيار المتناوب قياساً مباشراً لأن القيمة الوسطى الحسابية لعزم الفتل فيه تساوي الصفر.

ولمقاييس الوشيعة المتحركة صفةٌ إيجابيةٌ أخرى مهمة هي التخامد الطبيعي المعتمد على نظام عملها، أي عندما تدور الوشيعة داخل الحقل المغنطيسي فإنه، بحسب معادلة مكسويل، ستتحرض قوة محركة كهربائية في وشيعة الجهاز. ولما كانت الدارة الكهربائية مغلقة عند عملية القياس، فإن تياراً كهربائياً معاكساً للتيار المراد قياسه سيمر في الدارة بحسب قاعدة لنز مما يؤدي إلى نشوء عزم مشابه لعزم الفتل يؤدي إلى تخامد الحركة الاهتزازية داخل الجهاز. وتنتمي غالبية المقاييس الغلفانية ومقاييس الأمبير والفولط الكهرميكانيكية إلى المجموعة ذات الوشيعة المتحركة بسبب ميزاتها المذكورة آنفاً حتى في مجال قياس القيم الحسابية الوسطى والعظمى والفعالة للتيار المتناوب الذي يُقوَّم أولاً ثم يقاس بوساطة جهاز الوشيعة المتحركة.

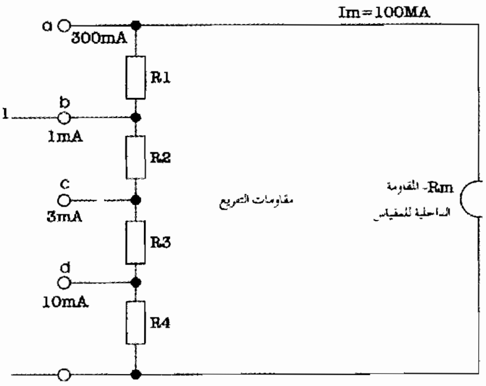
وإن أجهزة القياس ذات الوشيعة المتحركة تأخذ بالحسبان تأثيرات جميع العزوم ومنها عزم العطالة للأجزاء المتحركة وعزم التخامد الذي أشير إليه وكذلك عزم الاحتكاك، إلا أن هذا الأخير يهمل عادةً بسبب صعوبة حساباته لعدم تقيده بعلاقات معروفة.

وعند استخدام أجهزة الوشيعة المتحركة لقياس التيارات والتوترات العالية نسبياً يُستفاد من المخمدات الاصطناعية الميكانيكية أو المغنطيسية. وتتأثر المقاييس ذات الوشيعة المتحركة جميعها بالحقول المغنطيسية وبتغيرات درجة الحرارة والرطوبة والصدمات الميكانيكية.

مقياس الأمبير: إن إشارة الدخل الكهربائية في جميع المقاييس ذات الوشيعة المتحركة هي التيار الكهربائي، كما في علاقة عزم القياس. وتعمل مقاييس الأمبير بمقاومة داخلية تتعين من مقاومة ناقل الوشيعة والمقاومة الإضافية لتحقيق استقرار درجة الحرارة في أثناء عملها. والمقاومة الداخلية هي بوجه عام مقاومة صغيرة مما يزيد من أفضليات هذه الأجهزة في قياس التيارات الكهربائية، وإن درجة دقتها يمكن أن تصل إلى ٠,١ وهي أعلى درجة دقة للأجهزة الكهرميكانيكية، ويدخل في هذه المجموعة من المقاييس مقاييس الأمبير والملّي أمبير والمكرو أمبير وهي مقاييس تربط على التسلسل مع الأحمال المراد قياس تياراتها وذلك واضح من مبدأ عمل الجهاز.

وإن مقاييس الأمبير ذات الوشيعة المتحركة يمكن تغيير مجال قياسها بسهولة بوساطة مقاومات أومية (مفرِّعات shunts) تربط على التفرع مع المقاييس كما في الشكل ٢ لأن المقاومة الكهربائية التفرعية ذات القيمة القياسية المعروفة تَقْصر الجهاز، وعندئذ، إذا أشار الجهاز إلى التيار i كان التيار الذي يجتاز الدارة مساوياً I، وهو أكبر من i بـn مرة (عامل الضرب):

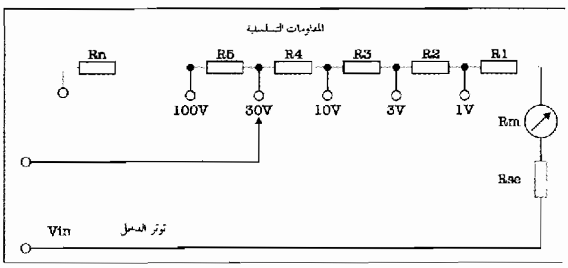
$n = \frac{I}{i}$ وإذا كانت g هي المقاومة الداخلية للجهاز، وR المقاومة الموصولة على التسلسل مع g (تفادياً لتخامد الوشيعة الشديد) وs مقاومة المُفرِّعة، فإنه من السهل التوصل إلى أن $n = \frac{g+R+s}{s}$. ومن الواضح أنه يمكن تغيير قيمة n بسهولة وذلك بتغيير قيمة s.



(الشكل ٢) تغيير مجال القياس لمقياس الأمبير باستعمال مقاومات على التفرع

مقياس الفولط: يحوَّل مقياس الأمبير، ذو المقاومة الداخلية r، إلى مقياس الفولط بوَصْله على التسلسل مع مقاومة كبيرة R. ويوصل مقياس الفولط دائماً على التفرع بين مربطي قطعة الدارة (الحِمْل) المراد قياس الفولطية voltage (التوتر) بينهما. ولجعل خطإ القياس صغيراً يجب أن تكون مقاومة مقياس الفولط الداخلية (أي r+R) أكبر بكثير من مقاومة الحمل.

ويُوسَّع مجال مقياس الفولط بوساطة مقاومات تسلسلية تربط مع الجهاز كما في الشكل ٣ ويمكن بسهولة استنتاج قيم المقاومات التي توفر مجالات القياس المطلوبة اعتماداً على نظريات الدارات الكهربائية المعروفة.



(الشكل ٣) المقاومات التسلسلية

المقياس الغلفاني: تسمى أدوات القياس التي تقيس قيماً دقيقة بالمقاييس الغلفانية، ولقد أثبتت التجربة الهندسية والقياسية أن المقاييس ذات الوشيعة المتحركة تعد أكثر ملاءمة لتصميم نماذج المقاييس الغلفانية.

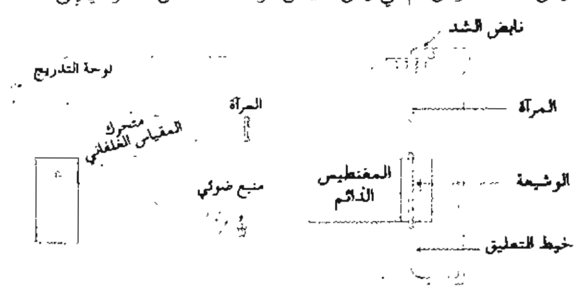
وتصنف المقاييس الغلفانية في أصناف عدة بحسب القيم التي تقيسها، فمثلاً مقاييس المكرو أمبير، التي تقيس تيارات من مرتبة 10^{-6}A أمبير وأقل، تمثل مقاييس غلفانية عادية، في حين أن المقياس الغلفاني المخصص لقياس تيارات من مرتبة 10^{-9}A أمبير وأقل، ومن ثم يقيس النبضة الكهربائية، يسمى المقياس الغلفاني القذاف البالستي، وهو مقياس تكاملي أي يقيس تكامل نبضة التيار الكهربائي في زمن مروره في

وشيعة المقياس، أي يقيس الشحنة الكهربائية التي اجتازته.

ويُسمى المقياس الغلفاني المخصص لدراسة الاهتزازات بالمقياس الغلفاني الهزاز الذي يستخدم في اتجاهين أساسيين في القياسات الكهربائية، ففي الاتجاه الأول يستخدم مقياساً كاشفاً في الدارات القياسية، ويعتمد على ظاهرة التجاوب (الطنين) بين ترددات التيار المتناوب والاهتزازات الحرة لذلك كثيراً مايسمى المقياس الغلفاني المتجاوب أو التجاوبي.

أما الاتجاه الآخر فيعتمد على استخدام النظرية الاهتزازية للمقاييس ذات الوشيعة المتحركة الغلفانية في رسم الاهتزازات عندما يكون تردد التيار أصغر من تردد الاهتزاز الحر للوشيعة. وتتصف المقاييس الغلفانية بميزة مهمة هي الحساسية العالية وقياس القيم الدقيقة، لذلك فإن جميع محدداتها ومعاملاتها التصميمية والاستثمارية تخضع لعملية اختيار تصميمي بحيث تحقق الخصائص المذكورة آنفاً ومن أهمها العطالة المنخفضة وعزم الإرجاع الصغير. ويمكن أن يتحقق ذلك باستخدام خيط ذي عزم فتل صغير جداً والاعتماد على الأشعة الضوئية التي تؤدي إلى إظهار بقعة ضوئية على لوحة تدريج المقياس (الشكل ٤).

ولقد أثبتت التجربة الهندسية أن المقاييس الغلفانية العادية تتميز بحساسية ثابتة غير تابعة للحركة الاهتزازية ولكنها تؤثر تأثيراً مباشراً في زمن التخامد ومن ثم في زمن القياس. وكذلك يمكن أن تؤدي إلى أخطاء



(الشكل ٤) مخطط المقياس الغلفاني.

فادحة بحسب نوع الحركة، ويتوقف ذلك على العلاقة بين المقاومة الداخلية للجهاز والمقاومة المكافئة الخارجية لدارة القياس المغلقة، وعند مراعاة أن معامل درجة التخامد في داخل هذه الأجهزة يجب أن يساوي تقريباً الواحد للحصول على أصغر زمن للتخامد واستقرار زاوية الانحراف استقراراً مضموناً فإن المقاومة الخارجية يجب أن تساوي مقداراً يسمى المقاومة الخارجية الحرجة، وهو محدد أساسي للجهاز مكتوب على لوحته المرافقة، ولهذه الأسباب تستخدم مع المقاييس الغلفانية مقاومات على التفرع كما في الشكل ٢ لتبقى المقاومة المكافئة الخارجية عند القياس ثابتة.

وإن المعامل الأساسي للمقياس الغلفاني هو حساسيته S بالنسبة للتيار أو التوتر: $SI = \frac{\alpha}{I_g}, dN/\mu A$، $Su = \frac{\alpha}{V_g} = \frac{\alpha}{I_g . R_g} = \frac{SI}{R_g} . dN/\mu V$

حيث: α زاوية انحراف الجهاز، R_g مقاومة وشيعة المقياس، V_g وI_g التيار المار في الوشيعة والتوتر المطبق على مربطيه.

وإذا فرض أن المقاومة الكهربائية للدارة خارج مربطي المقياس الغلفاني هي R_D، وأن المقاومة التي تحقق معامل درجة التخامد تساوي الواحد $\beta=1$ هي R_{DK} فإن معامل درجة التخامد لهذه الأخيرة يتعين من العلاقة:

$\beta = \frac{R_g + R_{DK}}{R_g + R_D}$ وهي علاقة مختصرة ومهمة في دراسات الحركات الاهتزازية وعملية القياس في المقاييس الغلفانية، وعادة عند استثمار هذا النوع من المقاييس الغلفانية فإن معامل درجة التخامد يجب أن يكون مساوياً الواحد تقريباً، أو أن تكون المقاومة الخارجية تقريباً مساوية للقيمة الحرجة.

ويتضح مما سبق أنه عند اختيار مقياس غلفاني للتيار يُنطلق من الأساسين العمليين التاليين:

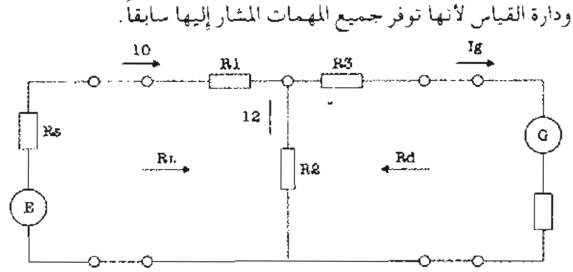
- إذا كانت المقاومة المكافئة للدارة الخارجية R_D عالية يُختار مقياس غلفاني بمقاومة R_{DK} أعلى مايمكن، ويجب أن تكون هذه المقاومة قريبة من المقدار R_D لتوفير أعلى حساسية للمقياس فيما يخص التيار.

- إذا كانت المقاومة المكافئة للدارة الخارجية R_D صغيرة يُختار مقياس غلفاني بحساسية عالية بالنسبة للتوتر ومقاومة إخماد حرجة صغيرة تساوي تقريباً المقاومة الخارجية.

ويعتمد المقياس الغلفاني القذاف (البالستي) في مبدأ عمله على الحركة القذفية لوشيعته عند مرور نبضة تيار صغير جداً، ويتناسب الانحراف القذفي طرداً مع شحنة التيار الكهربائية. وتتصف هذه المقاييس بدور period كبير للحركة الاهتزازية الحرة بالمقارنة بزمن نبضة مرور التيار، ويتم التوصل إلى ذلك بزيادة ثابت عطالة الجهاز، ويتميز المقياس الغلفاني القذاف بحساسيته العالية، إذ يتوقف مقدار هذه الحساسية على نمط الحركة الاهتزازية التي تؤديها الوشيعة أو البقعة الضوئية عند الانحراف. لذلك فإن عدم الالتزام بالمقاومة الحرجة لا يسبب مشاكل في عملية التخامد فقط وإنما في قيمة القياس أيضاً. وبتعبير آخر فإن المقياس الغلفاني القذاف يدرج لكل دارة قياس بحسب مقاومته المكافئة أو يعاير بحسب محددات الدارة الخارجية.

وتتميز مقاومات التفريع في المقاييس الغلفانية بوظائف عدة بحسب الهدف التصميمي للمقياس، فمن المقاييس الغلفانية مايستعمل كاشفاً صفرياً في جسور التيار المستمر وفي مجزئات التوتر المستمر، ومنها مايستعمل مقياساً مباشراً للشحنة الكهربائية، ومنها كذلك مايستعمل لقياس المقادير المغنطيسية وغيرها.

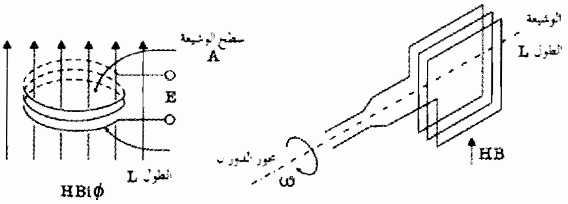
وإن مهام مقاومات التفريع كثيرة منها تأثيرها في العلاقة بين المقاومة الداخلية والخارجية ومن ثم في سير العملية القياسية مباشرة، ومنها حماية المقاييس الغلفانية من التيارات والتوترات الزائدة، إذ تربط معها على التفرع أو التسلسل، كما أن مقاومة التفريع تستخدم لمعايرة المقاييس الغلفانية أي تعيين حساسيتها وثابت قياسها (مقلوب الحساسية)، وبقية معاملات الجهاز. ولقد تبين بالتجربة أن المقاومات الكهربائية (R_1,R_2,R_3) التي تربط مع المقياس (الشكل ٥) هي أفضل الاحتمالات الملائمة لخصائص الجهاز ودارة القياس لأنها توفر جميع المهمات المشار إليها سابقاً.



(الشكل ٥) المقياس الغلفاني القذاف ودارة الربط التابعة له.

وتشكل هذه المقاومات دارة تخامد الإشارة في المقياس وتتعين قيمها من المبادئ الأساسية التي يعتمد عليها المقياس الغلفاني القذاف وهي أن تقوم بتفريغ التيار بنسبة محددة بدقة لتساوي المقاومة المكافئة الخارجية R_d المقاومة الحرجة R_{dc}، وكذلك فإن المقاومة المكافئة للمفرعة وللمقياس الغلفاني يجب أن تكون معروفة تماماً وتمثل المقاومة المكافئة على خرج منبع القوة المحركة الكهربائية R_L وهي تتعين من استطاعة الإشارة الكهربائية، فإذا كانت هذه الاستطاعة عالية نسبياً فيجب أن تكون المقاومة المكافئة الأخيرة مساوية للمقاومة الداخلية في المقياس R_g وذلك لخفض استهلاك دارة القياس من الاستطاعة، ولزيادة الدقة، في حين إذا كانت حساسية المقياس غير كافية فيجب أن تساوي مقاومته المكافئة المقاومة الداخلية لمنبع القوة المحركة الكهربائية R_s بغية توفير الاستطاعة الكهربائية والحصول على أعظم حساسية عند القياس، ويتم الاعتماد على المبدأ نفسه عند قياس المقادير اللاكهربائية باستخدام تجهيزات القياس الكهربائية.

وتستخدم المقاييس الغلفانية أيضاً لقياس التدفق المغنطيسي (السيالة المغنطيسية) وذلك بحذف عزم الإرجاع (النابض الميكانيكي) من تصميم الجهاز ورفده بوشيعة عيارية عدد لفاتها وسطح مقطعها محددان وتسمى عادة وشيعة الكاشف المغنطيسي (الشكل ٦).



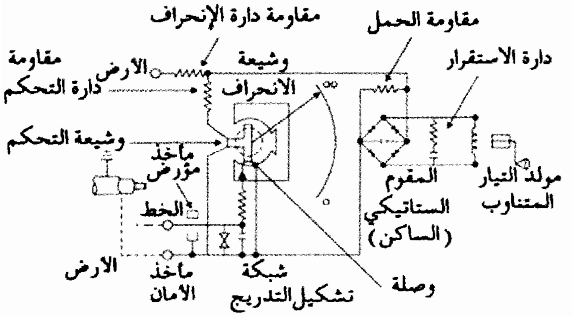
(الشكل ٦) مخطط مقياس التدفق المغنطيسي.

عند وضع الوشيعة الكاشفة داخل الحقل المغنطيسي ينحرف مؤشر الجهاز بزاوية معينة بالنسبة للزاوية الابتدائية (صفر أو غير الصفر) وبمقدار متناسب طرداً مع التدفق المغنطيسي المجهول (السيالة المغنطيسية). وإن مقاييس التدفق المغنطيسي تعمل من دون آلية إرجاع المؤشر إلى الصفر، ويجري الإرجاع في العادة يدوياً بوساطة ذراع خاص، أو تحقق عملية القياس بتقدير قيمة الانحراف عن الوضع الابتدائي ويكون الفرق بين زاوية الانحراف قبل تأثير الحقل المغنطيسي وبعده هو القياس المطلوب.

وإن استخدام مقاومة التفريع مع مقاييس التدفق كما هي الحال في المقاييس الغلفانية يزيد من إمكانيات القياس ولكنه يسبب خفض حساسية الجهاز للتدفقات الصغيرة.

المقاييس التناسبية ذات الوشيعة المتحركة: تصمم المقاييس التناسبية بوجه عام من جميع أنواع المقاييس الكهرميكانيكية، وتقيس النسبة بين قيم مجهولة وأخرى عيارية معروفة داخل الجهاز لذلك تسمى بهذا الاسم. وتعتمد المقاييس التناسبية في مبدأ عملها على التجاوب بين تأثيرات المقادير الكهربائية في دخل الجهاز وعزمين قياسيين داخل الجهاز حيث تكون محصلة التأثير نتيجة تناسبية بين القيم الكهربائية المشاركة في العزمين. وفي أكثر الأحيان يعكس أحد العزمين التحسس بوجه مباشر في حين يعبر الآخر عن مقدار كهربائي عياري، وذلك لتسهيل إعداد الجهاز وتقليل أخطائه عند القياس. وتتكون المقاييس التناسبية عادة من وشيعتين متقاطعتين متحركتين على محور دوران مشترك، تولد الأولى عزم القياس وتولد الثانية عزماً معاكساً للأول يمثل عزم الإرجاع أي التوازن مع الأول. وتستعمل المقاييس التناسبية ذات الوشيعة المتحركة لقياس المقاومات (مقاييس الأوم التناسبية) وهي منتشرة بكثرة في الحياة العملية.

وعند مرور التيار الكهربائي في الوشيعة الأولى (الشكل ٧) يتولد عزم القياس كما ذكر، ولكن عندما تكون وشيعتا الجهاز بلا نواة من الحديد المطاوع فإن الحقل المغنطيسي بين قطبي المغنطيس الدائم يكون



(الشكل ٧) مخطط المقياس التناسبي.

منتظماً تقريباً، ولما كان التدفق المغنطيسي المخترق لسطح الوشيعة يتغير تغيراً جيبياً وكان عزم القياس هو عزم التوازن للوشيعة المتحركة الثانية فإن التدفق المغنطيسي فيه سيتغير كتابع جيب التمام.

وعندما تكون الزاوية بين الوشيعتين قائمة فإن معادلة التوازن تتعين من العلاقة:

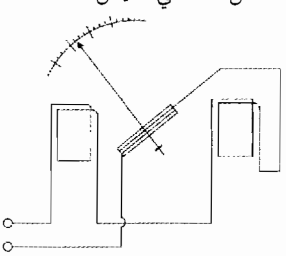
$$Ni\phi . I_1 . \sin\theta = \phi N_2 . I_2 . \cos\theta$$

$$\tan\theta = K\frac{I_1}{I_2}$$

$$\theta \approx K\frac{I_1}{I_2}$$

حيث θ زاوية انحراف الجهاز، I_1 و I_2 التياران المار ان في الوشيعتين الأولى والثانية، ϕ التدفق المغنطيسي.

ويتضح من العلاقة الأخيرة أن ظل زاوية الانحراف يتناسب طرداً مع النسبة بين تياري الوشيعتين الأولى والثانية. فإذا كانت الزاوية (مقيسة بالراديان) صغيرة فإن ظلها يساويها تقريباً، وبهذه الطريقة يمكن قياس التناسب بين التيارات الكهربائية، وعندما يساوي تيار الوشيعة الثانية التيار الأسمى فيمكن قياس تيار الوشيعة الأولى، ولكن هذه الأجهزة لاتستخدم في قياس التيارات الكهربائية على الصعيد العملي لانعكاس جميع تغيرات منبع القوة المحركة الكهربائية أو التوتر على قيم التيارات المذكورة. وكذلك فإن نظام عمل الجهاز يعتمد على وشائع بلا نواة من الحديد المطاوع مما يؤدي إلى زيادة أبعاد الفجوة الهوائية للمغنطيس الدائم مما يسبب عدم انتظام الحقل المغنطيسي ومن ثم انخفاض الدقة في القياس.



(الشكل ٨) مخطط المقياس المغنطيسي التناسبي

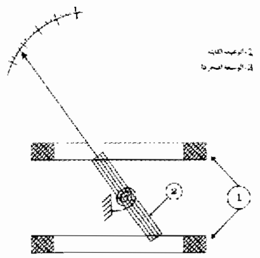
وتستخدم المقاييس المغنطيسية التناسبية بوجه رئيسي بوصفها مقاييس أوم، أي عند ربط مقاومة عيارية مع الوشيعة الأولى ومقاومة مجهولة مع الوشيعة الثانية، فبحسب قانون أوم تتناسب التيارات ذات العلاقة مع قيم المقاومات ومن ثم يمكن تخفيف تأثير تغيرات التوتر المباشرة في عملية القياس، كما تحل مشكلة انتظام الحقل بوساطة نواة من الحديد المطاوع غير متناظرة لتوفير عزم القياس وعزم الإرجاع (الشكل ٧).

وبهذه الطريقة يمكن إنقاص طول الفجوة الهوائية واستخدام مولد يدوي للتيار المستمر لتأثيره الطفيف في سير عملية القياس.

وإذا وضعت المقاومة على التسلسل في هذه المقاييس (الشكل ٨) فيمكن قياس المقاومات الكبيرة ويسمى المقياس عندئذ مقياس الميغا أوم. ومن صفات هذا المقياس لوحته المعكوسة أي إن بدايته لانهائية، ونهايته تقابل الصفر. وإذا ربطت المقاومة على التفرع بوشيعتي المقياس فإن اللوحة تكون طبيعية أي أن زاوية الانحراف تتناسب طرداً مع المقاومة المجهولة ويسمى الجهاز عندئذ بمقياس الأوم للمقاومات الصغيرة.

أجهزة القياس الكهرديناميكية

تعتمد المقاييس الكهرديناميكية على التأثير المتبادل بين الحقلين المغنطيسيين لوشيعتين إحداهما ثابتة والثانية قابلة للحركة الدائرية في داخل الأولى، أي إن نشوء قوى كهرديناميكية داخل الجهاز يتبع تغيرات



(الشكل ٩) مخطط المقياس الكهرديناميكي

الطاقة المغنطيسية نتيجة التحريض المتبادل بين الوشيعتين، وإن المقاييس الكهرديناميكية متنوعة ومن أعمها المقياس ذو الوشيعة المتحركة الصغيرة الأبعاد التي توجد داخل وشيعة ثابتة مؤلفة من نصفين متساويين للحصول على حقل مغنطيسي منتظم (الشكل ٩) ولتوفير انحراف المؤشر الميكانيكي على لوحة التدريج، والوشيعتان في هذا المقياس بلا نواة مغنطيسية لينة أي من الحديد المطاوع.

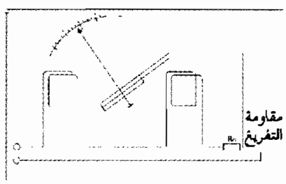
وهناك نماذج أخرى ذات نواة مغنطيسية لينة إلا أنها قليلة الاستخدام في الحياة العملية. وفي المقاييس الكهرديناميكية يتناسب عزم القياس طرداً مع جداء التيار الكهربائي المار في الوشيعة الأولى والتيار المار في الوشيعة الثانية وجيب التمام لزاوية فرق الطور بينهما، ويرتبط بتغيرات التحريض المتبادل بينهما الذي يمكن أن يأخذ مقداراً ثابتاً تقريباً عند اختيار أبعاد الوشيعتين الأولى والثانية اختياراً هندسياً دقيقاً.

ويتم التوازن داخل هذه الأجهزة بوساطة عزم نابض إرجاع ميكانيكي، ويمكن لهذه الأجهزة قياس المقادير الكهربائية المستمرة والمتناوبة.

ومن أهم أنواع هذه المجموعة مقاييس الأمبير والفولط والاستطاعة والمقاييس التناسبية ومقاييس التردد.

مقياس الأمبير الكهرديناميكي: يُراعى في هذا المقياس تحقيق بعض القيم النسبية بين أبعاد الوشيعتين الأولى والثانية، ومن أهمها أن تكون الوشيعة المتحركة ذات أبعاد صغيرة أي أن نصف قطر ناقلها دقيق أي أن تيارات تحميلها صغيرة.

ولقياس التيار يجب أن تساوي زاوية فرق الطور بين التيار الأول والثاني الصفر وأن يتحقق التناسب الطردي بينهما وبين تيار الحمل. وعند قياس التيارات الصغيرة أي من مرتبة الملّي أمبير يمكن ربط الوشيعتين على التسلسل (الشكل٨) سواء أكان التيار مستمراً أم متناوباً لأن فرق الطور بين تياري الوشيعتين في هذه الحال يساوي الصفر، ولكن عند قياس تيارات من مرتبة أعلى تُستعمل الدارة المبينة في الشكل ١٠، أي باستخدام مقاومة أومية للتفريع بسبب عدم قدرة ناقل الوشيعة الداخلية على التحمل الحراري والديناميكي. وإذا كان التيار مستمراً فمن البدهي أن يكون متناسباً طرداً مع التيار المار في دخل المقياس. أما إذا كان متناوباً فيجب أن تكون زاوية فرق الطور بين التيارين الأول والثاني صفراً، ويتم ذلك أيضاً باختيار هندسي دقيق لمقاومة التفريع بالمقارنة بالممانعة التحريضية للوشيعة المتحركة. وفي حال تعذر ذلك تضاف ممانعة تحريضية صغيرة حتى يتم التوصل إلى

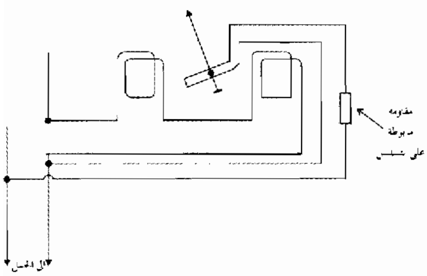


(الشكل ١٠) مخطط مقياس الأمبير الكهرديناميكي

المطلوب، أو تربط الوشيعة الأولى على التسلسل مع مقاومة التفريع، وتربط الاثنتان معاً على التفرع مع ممانعة الوشيعة الثانية المتحركة.

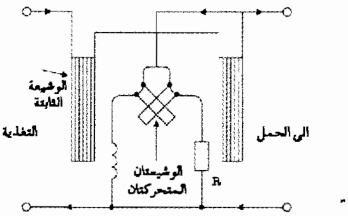
مقياس الفولط الكهرديناميكي: وهو مقياس ملي كهرديناميكي تربط مقاومة أومية عالية أو عدة مقاومات (بحسب مجال قياس لوحة تدريجه) على التسلسل مع وشيعتيه.

وفي هذه الحالة، كما ذُكر سابقاً تتناسب زاوية انحراف الجهاز طرداً مع مقدار التوتر المطبق بين مربطيه، وتتميز المقاييس الكهرديناميكية لقياس التيار والتوتر بدقتها العالية وسهولة تصميمها وقلة استهلاكها من الاستطاعة.



(الشكل ١١) مخطط مقياس الاستطاعة الكهرديناميكي

مقياس الواط الكهرديناميكي: إن أكثر المقاييس انتشاراً في الحياة العملية هو مقياس الواط الكهرديناميكي الذي تتناسب زاوية انحرافه مع الاستطاعة الحقيقية للحمل، ولكي يتحقق ذلك فإن زاوية فرق الطور بين التيار في الوشيعة الثابتة والوشيعة المتحركة يجب أن تتناسب مع زاوية فرق الطور بين تيار الحمل وتوتره، إضافة إلى أن الوشيعة المتحركة يجب أن تمثل وشيعة توتر أومي، ولذلك تضاف مقاومة أومية عالية على التسلسل إلى الوشيعة المتحركة (الشكل ١١) يكون مقدارها أكبر بكثير من مقدار ممانعة الوشيعة الثانية. ولهذا فإن عزم القياس يتناسب مع الاستطاعة



(الشكل ١٢) مخطط مقياس عامل الاستطاعة

الحقيقية، ومن ناحية أخرى يتناسب التيار المار في الوشيعة الثانية مع توتر الحمل ويطابقه بطوره.

ويربط مقياس الواط في دارة قياس الاستطاعة الحقيقية بطريقتين. فإما أن يقاس التيار أولاً من جهة التغذية ومن ثم يقاس التوتر وإما العكس. وفي الحالتين كلتيهما يرتكب خطأ في القياس، ففي الحالة الأولى يتوقف الخطأ على المقاومة الأومية لوشيعة التوتر، وفي الحالة الثانية ينتج الخطأ من المقاومة الأومية لوشيعة التيار (الوشيعة الأولى). ويتوقف اختيار الطريقة المناسبة على الاستطاعة الكهربائية للحمل.

المقياس الكهرديناميكي التناسبي: تتكون المقاييس الكهرديناميكية التناسبية من ثلاث وشائع: وشيعة ثابتة كما في المقاييس الكهرديناميكية العادية، ووشيعتين متحركتين إحداهما لتوليد عزم القياس كهربائياً والأخرى لتوليد عزم الإرجاع لتحقيق التوازن وبينهما زاوية معينة هي في أكثر الأحيان قائمة. وتستخدم المقاييس الكهرديناميكية التناسبية لقياس فرق الطور بين التيار والتوتر وتسمى مقياس الطور phase- meter. ولكن في أكثر الأحيان تدرج اللوحة بقيم جيب التمام لزاوية الطور لذلك تسمى مقاييس عامل الاستطاعة، ويبين الشكل ١٢ مقياساً من هذا النوع. وفي هذا المقياس تربط الوشيعة الثابتة على التسلسل مع الحمل المراد قياس عامل استطاعته ويربط على التفرع مع الحمل الوشيعتان المتقاطعتان وتكون إحداهما مربوطة على التسلسل مع مقاومة أومية عالية في حين تكون الوشيعة الأخرى مربوطة مع مفاعلة تحريضية مقاومتها الأومية صغيرة، لهذا فإن التوتر المطبق على الحمل (توتر التغذية) يكوّن مع التيار المار في المقاومة الأومية فرقاً في الطور يساوي الصفر، على حين تكون زاوية تيار المفاعلة قريبة جداً من القائمة.

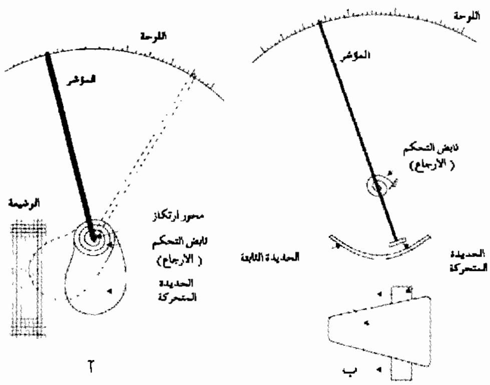
ويُصمم مقياس التردد الكهرديناميكي اعتماداً على نظرية المقاييس التناسبية من النوع المذكور، ولكن يربط مع الوشيعة المتحركة مفاعلة تحريضية ومع الوشيعة الأخرى المتقاطعة معها مفاعلة سَعَوِيَّة، ويعمل هذا المقياس اعتماداً على ظاهرة التجاوب بين المفاعلتين التحريضية والسعوية، أي إن الزاوية بين التيارين المارين في المفاعلتين هي قائمة ومن ثم فإن مربع التيار المار في الوشيعة الثابتة داخل المقياس يساوي مجموع مربعيهما، وتتوقف قيمته على قيمة المقاومة الأومية المكافئة داخل الجهاز (للوشائع الثلاث) باعتبار أن الممانعة التحريضية للوشيعة الثابتة صغيرة نسبياً.

ويساوي ظل زاوية الانحراف نسبة ظل زاوية فرق الطور بين التيار الكلي وتيار الوشيعة المتحركة الأولى إلى ظل زاوية فرق الطور بين التيار الكلي والتيار في الوشيعة المتحركة الثانية.

ولما كان ظل زاوية فرق الطور يتناسب مع المفاعلتين التحريضية والسعوية المتناسبتين مع التردد فإن الجهاز يمكن أن يستعمل لقياس التردد.

أجهزة القياس ذات النواة المتحركة

تعتمد أجهزة القياس ذات النواة المتحركة في مبدأ عملها على التأثير المتبادل بين الحقل المغنطيسي المتولد من تيار كهربائي مار في وشيعة ثابتة



(الشكل ١٣) مخطط المقياس ذي الحديدة المتحركة

وبين الحقل المغنطيسي لنواة من الحديد المطاوع مثبتة على محور دوران الجهاز. وهناك نموذجان أساسيان معروفان لهذه الأجهزة: يسمى الأول بالنموذج التجاذبي (الشكل ١٣-أ) ويتألف من وشيعة يمر فيها التيار المراد قياسه ومن حديدة منبسطة مثبتة لا مركزياً على محور عليه نابض الإرجاع والمؤشر، وعند مرور التيار يمغنط الحقل المغنطيسي الناتج الحديدة ويؤثر بقوى تجاذبية باتجاه التدفق المغنطيسي. أما النموذج الثاني فيسمى بالنموذج التنافري (الشكل ١٣-ب) وهو وشيعة يثبت على جدارها الداخلي قطعة من الحديد المطاوع وقطعة أخرى مشابهة مثبتة على محور الدوران. وعند مرور التيار في الوشيعة الثابتة ينشأ حقل مغنطيسي باتجاه واحد ممايؤدي إلى مغنطة القطعتين الحديديتين الأولى والثانية بالقطبية المغنطيسية نفسها ويؤدي ذلك إلى ظهور قوى تنافرية تحدث عزم قياس يتوازن مع عزم نابض الإرجاع.

وتمتاز المقاييس الكهربائية ذات الحديدة المتحركة بسهولة تصميمها وبمتانتها الميكانيكية العالية، ولكن استهلاكها للاستطاعة الكهربائية كبير لكبر أبعاد وشائعها. وإضافة إلى ذلك فإن عزمها يتناسب مع مربع التيار أي يمكن أن تقاس قيم التيارات المستمرة كماتقاس القيم الفعالة للتيارات المتناوبة.

وهذه الأجهزة أقل دقة من المقاييس ذات الوشيعة المتحركة وأقل حساسية منها، لذلك تستخدم لقياس القيم الكبيرة للتيارات الكهربائية والقيم المتوسطة للتوترات. ولكن أبرز سلبياتها هو تأثرها الشديد بترددات التيارات المقيسة التي تسبب زيادة الممانعة التحريضية الداخلية لذلك تعمل ضمن مجال ترددي ضيق لايمكن توسيعه إلا بالطرائق الكهربائية وضمن حدود كيلو هرتز فقط.

أجهزة القياس الرقمية

تتميز أجهزة القياس الرقمية بالمقارنة بالمقاييس التمثيلية، بعدة إيجابيات مهمة هي: الدقة العالية، والسرعة الكبيرة في القياس، وإعطاء النتيجة على شكل أرقام جاهزة، وإمكانية تنظيم عملها مع الذاكرة والحواسيب، وتحقيق القياس عن بعد بسهولة. لذلك انتشرت هذه الأجهزة بسرعة كبيرة في الحياة العملية القياسية.

وتعتمد أجهزة القياس الرقمية في مبدأ عملها على تقطيع الإشارة المراد قياسها زمنياً لأخذ العينات التي يجب أن تتميز بالخصائص الثلاث التالية: أن تعبّر تكاملياً عن المقدار المراد قياسه، وأن تتضمن مواصفاته كافة، وأن تكون صالحة تقنياً للتطبيق على مدخل الجهاز. وبعد أخذ

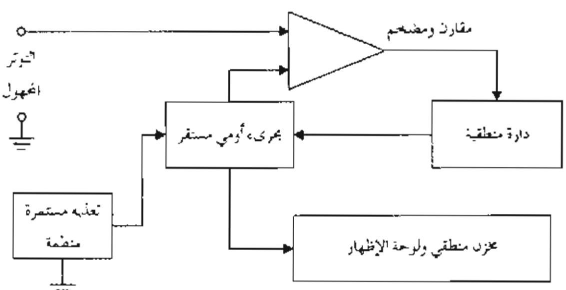
العينة القياسية يقوم الجهاز الرقمي بتحقيق عملية التَكْمِيَة quantization (مضاعفات لكَمٍّ معين في زمن محدد) ومن ثم تحقيق القياس بوساطة عداد ثنائي - عشري بعد عملية التَّرميز coding وإظهار النتيجة رقمياً عن طريق شاشة مضيئة.

وإن أبسط مقدار يقاس رقمياً هو الزمن بوساطة هزاز oscillator دور اهتزازاته ثابت، وشكلها جيبي أو نبضي، وعددها يمثل الزمن أو التردد. ولهذا السبب فإن أبسط طرائق قياس المقادير الكهربائية رقمياً هي التي تعتمد على التبديل الترددي أو الزمني للمقدار نفسه. ويمكن استخدام طرائق المقارنة بقيم مشابهة ولكنها أكثر تعقيداً ولها سلبياتها ولا سيما فيما يتعلق بأخطاء القياس.

ويستخدم أكثر مقاييس الفولط الرقمية لقياس التوترات المستمرة بسبب سهولة أخذ العينة ومعالجتها. ولكي تقاس التوترات رقمياً يجب تقطيعها إلى عينات بوساطة المبدل التمثيلي - الرقمي وتبعاً لمبدأ عمل هذا المبدّل تصنف مقاييس الفولط الرقمية في الأنواع التالية.

مقاييس الفولط الرقمية ذات التقريب المتتابع: تعتمد مقاييس الفولط الرقمية ذات التقريب المتتابع في مبدأ عملها على استعمال مبدلات تمثيلية - رقمية من نوع ذات التقريب المتتالي. أما طريقة التقريب المتتالي فتماثل عملية القسمة العشرية والثنائية إذ تتم مقارنة التوتر المراد قياسه بتوتر مرجعي معروف أولاً ثم مقارنة الباقي بأجزاء من هذا التوتر المرجعي مثل ١/٢، ١/٤، ١/٨...

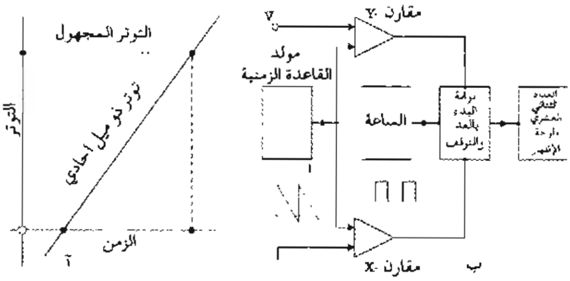
وبهذه الطريقة يتم إعطاء القيمة الرقمية المناسبة للتوتر المقيس. أما بنية هذه المقاييس فهي كما في الشكل ١٤.



(الشكل ١٤) مخطط مقياس الفولط الرقمي

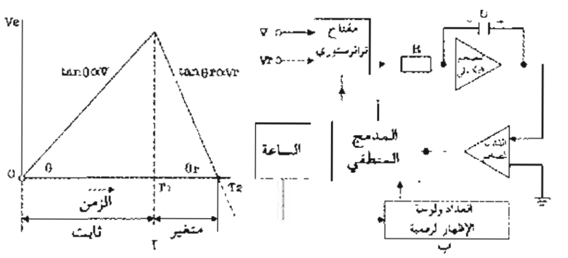
مقاييس الفولط الرقمية ذات الميل الأحادي: تعتمد مقاييس الفولط الرقمية ذات الميل الأحادي في مبدأ عملها على تقنية تبديل التوتر بالزمن. أما عملها فيمكن إيجازه على الوجه الآتي.

يطبق التوتر الثابت المراد قياسه على عنصر تكاملي فيكون خرجه تابعاً خطياً للزمن ramp function. وبعد ذلك تجري مقارنة التابع الخطي بتوتر مرجعي معروف. ويبقى خرج هذا المقارن مساوياً للواحد إلى أن يتساوى التوتران المرجعي والمقيس. بعد ذلك يعود الخرج للصفر. أي أن خرج المقارن هو نبضة ذات عرض محدد. وبقياس هذا الزمن، أي عرض النبضة، يمكن معرفة قيمة التوتر المراد قياسه (الشكل ١٥).



(الشكل ١٥) مخطط مقياس الفولط الرقمي ذي الميل الأحادي.

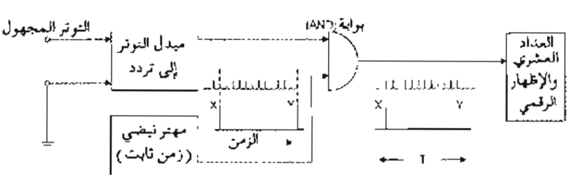
مقاييس الفولط الرقمية ذات الميل المضاعف: تعتمد هذه الأجهزة على مبدأ المقاييس ذات الميل الأحادي نفسه ألا وهو تبديل التوتر بالزمن ومن ثم قياس هذا الزمن رقمياً. وتمتاز بأنها أكثر دقة من المقاييس ذات الميل الاحادي لأنها تحقق القياس على الميلين (الشكل ١٦).



(الشكل ١٦) مخطط مقياس الفولط الرقمي ذي الميلين.

مقاييس الفولط الرقمية ذات تبديل التوتر بالتردد: تعتمد مقاييس الفولط الرقمية ذات تبديل التوتر بالتردد في عملها على استخدام مبدلات تمثيلية - رقمية تحول التوتر المراد قياسه إلى تردد وذلك بوساطة هزاز نبضي ذي دور ثابت ويتحكم هذا الهزاز في بوابة منطقية AND gate تعمل صمَام فتح وإغلاق. وعندما تفتح البوابة بتأثير الهزاز تشحن مكثفة بالإشارة المرجعية. وبعد أن تزول نبضة الهزاز تغلق البوابة مؤدية إلى تفريغ شحنة المكثفة أو شحنها بالاتجاه المعاكس بتأثير التوتر المقيس. وينتج من عملية الشحن والتفريغ هذه إشارة ذات تردد تابع لقيمة التوتر المقيس.

وتمكّن معرفة تردد هذه الإشارة، بوساطة عدّ النبضات المعيارية للهزاز خلال الدور من معرفة قيمة التوتر المقيس (الشكل ١٧).



(الشكل ١٧) مخطط مقياس الفولط الرقمي
الذي يستبدل التردد بالتوتر المراد قياسه

محمد موسى

مراجع للاستزادة:

-NEWNES BUTTERWORTHS, Electrical Engineers Reference Book (Co. Ltd. 1979).

-A.K. SAWHNEY., Electrical and Electronic Measurements and Instrumentation (Delhi, Dhanpat Rai & Sons 1986).

■ إدوارد الأول
(١٢٣٩-١٣٠٧)

هو إدوارد الأول Edward I ملك إنكلترة (١٢٧٤ - ١٣٠٧)، كان يعرف بجستنيان الإنكليزي لدوره التشريعي. ولد في وستمنستر، وهو الابن الأكبر لهنري الثالث الذي منحه إقطاعيات شاسعة من الأراضي في ويلز وغربي إنكلترة وغسقونية. وحين أصبح في الخامسة عشرة تزوج من إلينور الأخت غير الشقيقة لألفونس العاشر القشتالي.

وبعد عام ١٢٥٥ اجتمعت حول إدوارد قوى المقاومة الملكية لتناهض جماعة البارونات التي كان يقودها سيمون دي مونفور Simon de Montfort، والتي حاولت إبعاد مستشاري أبيه الملك هنري وتسلم مقاليد الحكم في إنكلترة. وبعد صراع طويل هزم إدوارد في لويس Lewes بتاريخ ١٤ أيار من عام ١٢٦٤، واقتيد أسيراً إلى دوفر Dover، لكنه سرعان ما لاذ بالفرار وأعاد تنظيم قواته وهزم البارونات نهائياً نحو عام ١٢٦٦ واستقر الأمر للملك هنري الثالث.

وبعد عودة الهدوء الى إنكلترة التحق إدوارد بالحملة الصليبية التاسعة (١٢٧١ - ١٢٧٢)، لكن وفاة الملك لويس في تونس جعلته يتوجه إلى صقلية حيث أمضى فصل الشتاء. وإبان الحروب الصليبية أبحر إلى عكا ومكث فيها قرابة سبعة عشر شهراً وعاد من الأراضي المقدسة عند سماعه نبأ وفاة والده، ولم يصل إلى البلاد إلا بعد سنتين حيث توّج ملكاً في لندن في ١٩ آب عام ١٢٧٤.

برز إدوارد في السنوات الست عشرة التالية في الدبلوماسية والقضاء والإدارة. وكانت العلاقات بينه وبين ملك فرنسة قد ساءت نتيجة التعقيدات التي نشأت عن التسوية بين لويس التاسع وهنري الثالث، فاجتمع سنة ١٢٧٩م بالملك فيليب الثالث ملك فرنسة لتسوية الخلافات بينهما حول منطقة النورماندي، ونجح بين عامي ١٢٨٦ و١٢٨٩ في تهدئة الأوضاع في القارة الأوربية. وأخمد ثورة إمارة ويلز في إنكلترة نحو عام ١٢٨٣، وأعدم آخر أمرائها المستقلين بتهمة الخيانة، وأتم عمله هناك ببناء القلاع القوية، وإدخال نظام القضاء وقانون العموم الإنكليزي Unwritten Common Law. وأصبح لقب «أمير ويلز» تقليداً يمنح لورثة التاج الإنكليزي الشرعيين.

كان إدوارد قد عقد العزم على إيجاد حكومة مركزية قوية بتعديل قانون العموم الإنكليزي، وأعطى صفة مميزة لقوانين الأملاك غير المنقولة، وعمل على اجتذاب التجار الأجانب بوضع تسوية عاجلة وحازمة لمنازعات الديون، وعلى استعادة الحقوق الملكية الضائعة من النبلاء المغتصبين، كما عمل على تحديد اختصاص المحاكم الملكية المختلفة، والإجراءات الأولية في مجموعة قوانين العدالة بديلاً عن المحاكمة بموجب أعراف قانون العموم التقييدية. ولم تكن قوانين إدوارد موجهة ضد الإقطاع إلا أنها بمجملها وضعت حداً لسيطرة الإقطاع السياسية.

كان إدوارد قادراً على الانفراد بالحكم، ولكنه اعتمد على مبدأ القانون الروماني القائل إن كل ما يهم الجميع يجب أن يتم بموافقة الجميع، واكتسب العبرة من الحوادث السابقة في عهد والده، فشجع تطور البرلمان ليكون منبراً للمناقشة يهدف إلى تقويم المظالم، وضمان الموافقة على جمع الضرائب، واختبار طباع شعبه. ومع أن البرلمان النموذجي Model Parliament سنة ١٢٩٥ لم يكن الأول في تاريخ إنكلترة، فإنه يعد النقطة البارزة التي أصبحت عندها هذه المؤسسة جزءاً دائماً من آلية الحكومة الإنكليزية.

اتسمت السنوات الأخيرة من عهد إدوارد بالكوارث داخل البلاد وخارجها. ففي سنة ١٢٩٤ ثارت بلاد ويلز مجدداً فأخضعها قبل نهاية الصيف التالي، وفي الوقت نفسه أقامت فرنسة واسكتلندة تحالفاً في وجه إنكلترة. وقبل انقضاء السنة المذكورة اتسعت دائرة الحرب مع فرنسة لتشمل اسكتلندة أيضاً. وأدى الإجهاد المالي المفرط الذي حل بالمملكة الى انبعاث معارضة البارونات من جديد.

ومع حلول عام ١٣٠٦ كان الملك العجوز قد نجح في عقد صلح مع فرنسة والانتصار على اسكتلندة، وكبح جماح ثورة نبلائه. لكن ثورة الاسكتلنديين الوطنيين من جديد، اضطرت إدوارد إلى التحرك ثانية لإخمادها. ففاجأه المرض في الطريق ومات في بورغ - أُن - سَندس Burgh-on-Sands قرب الحدود، وبموته انتهى عهد متألق من تاريخ إنكلترة.

ج.ت

■ إدوارد الثاني
(١٢٨٤-١٣٢٧)

إدوارد الثاني Edward II ملك إنكلترة (١٣٠٧-١٣٢٧). ولد في كيرنارفون Caernarvon بويلز، وهو أصغر أبناء إدوارد الأول الأربعة الذكور، والوحيد الذي بقي منهم على قيد الحياة فغدا ولي العهد بعد بضعة أشهر من ولادته، إلا أنه شب مخيباً لآمال والده المحارب. فمع كونه رياضياً قوي الجسم فقد أقبل على الملاهي وعشرة السوء منذ صباه، ومع ميله للصنائع والرياضة والصيد وركوب الخيل فقد كان جاهلاً يعرض عن الثقافة ضعيف الإرادة، يكره الحرب، وغير قادر على تسيير دفة الحكم بمفرده. وهكذا أصبحت السلطة الملكية ونفوذ الأتباع طول حكمه مثار أزمات سياسية مستمرة، إضافة إلى الإرث الثقيل الذي ورثه عن أبيه بنتيجة حروبه المديدة مع اسكتلندة وديونه الضخمة واستياء النبلاء منه.

ناقض إدوارد الثاني سياسة والده من لحظة ارتقائه العرش في ٨ تموز عام ١٣٠٧، فأعرض عن متابعة الحرب مع اسكتلندة، وسجن كبير وزراء أبيه، واستدعى صديقه الحميم بيرز غافستون إلى إنكلترة بعد أن كان والده قد نفاه خشية تأثيره الفاسد على ولده. ولم يكتف بذلك بل رقاه إلى مرتبة الأعيان وسماه كونت دي كورنواي، وزوجه ابنة أخيه، وأقامه نائباً عنه في غيابه في فرنسة. وقد سبب رجوع غافستون أولى الأزمات الرئيسية التي واجهت إدوارد الثاني إذ أجمع خصوم إدوارد الأول القدامى والمعتدلون من النبلاء أنصار إدوارد الثاني على التخلص من غافستون، ونجح تحالفهم في فرض مجلس وصاية من اللوردات (١٣١٠)، وقد اتخذ هذا المجلس قراراً في عام ١٣١١م يقضي بإبعاد غافستون وعدد آخر من أنصار الملك عن البلاد، كما حد من سلطة الملك نفسه. واضطر إدوارد إلى الخضوع وسيَّر صديقه إلى الفلاندر. ثم لم يلبث أن سمح له بالعودة من جديد، فطارده النبلاء وقتلوه في حزيران عام ١٣١٢. وأثار عملهم هذا

سخط الملك عليهم ولكن إلى حين. فقد تفاقمت الأمور في اسكتلندة واتسع نطاق الثورة واضطر الملك إلى التوجه بنفسه إلى هناك في جيوش جرارة، إلا أنه مني بهزيمة شنيعة في معركة بنّوكبورن سنة ١٣١٤ وضعته ثانية تحت رحمة المعارضة التي قويت سلطتها بزعامة إرل لانكستر، وفرضت على الملك مايشبه الوصاية، إلا أن حكومة لانكستر لم توفق في ضبط شؤون المملكة أو فرض الأمن، فاكتسح الثوار الاسكتلنديون شمالي إنكلترة وغزوا إيرلندة، كما انتشرت المجاعة سنة ١٣١٦ انتشاراً لم تعرف له إنكلترة مثيلاً في القرون الوسطى. وعندئذ استرد الملك سلطاته بالقوة وأعاد المقربين منه إلى سدة الحكم، ولا سيما لورد هوغ سبنسر، وشن حرباً سافرة على النبلاء المعارضين له فأعدم بعضهم ونفى آخرين أو هربوا إلى فرنسة، وألغى مجلس الوصاية، وقرر حملة جديدة على اسكتلندة انتهت بعقد هدنة لثلاث عشرة سنة. وقضى إدوارد الثاني نحو أربع سنوات من الحكم مطمئناً إلى عرشه تحت سلاح الإرهاب وبمساعدة آل سبنسر (١٣٢١-١٣٢٥). بيد أن إيزابيلا زوجة إدوارد الثاني - التي كانت على علاقة حميمة مع أحد المعارضين الفارين وتنقم على آل سبنسر - اغتنمت فرصة وجودها في بلاد شقيقها شارل الرابع ملك فرنسة فاستقطبت حولها وجوه المعارضة اللاجئين إلى هناك بزعامة روجرمورتيمر والكونت هينو، واتفق الجميع على خلع الملك عن العرش. وفي ٢٤ أيلول ١٣٢٦ نزلت الملكة وأنصارها مع ثلاثة آلاف مقاتل في ميناء هاروتيش في إنكلترة فلم تلق مقاومة تذكر، واندفع المؤيدون إلى مخيمها من كل أنحاء البلاد، كما انحازت لندن إلى صفها، وتخلى معظم أنصار الملك عنه. فلما رأى الملك نفسه مخذولاً فر إلى ويلز موطن أصدقائه من آل سبنسر، ولم يلبث أن وقع في الأسر في ١٦ تشرين الثاني سنة ١٣٢٦ في غالمورغان شمالي بلاد ويلز، وأجبر على التنازل عن العرش لولي عهده إدوارد الثالث (٢٥ كانون الثاني ١٣٢٧). وسجن الملك المخلوع في إحدى القلاع، وجرت محاولات لإنقاذه أكثر من مرة إلا أن آسريه راحوا ينقلونه من سجن إلى آخر حتى كان آخر محابسه قصر بركلي الذي حاولوا قتله فيه جوعاً وبرداً، إلا أنه صمد لهذه المحنة، ودُفع حراسه إلى قتله أخيراً بطريقة الخازوق في ٢١ أيلول ١٣٢٧، فكان أول ملك لإنكلترة يخلع ويقتل بموافقة ولي عهده. وقد أضعفت عملية خلع إدوارد الثاني وقتله بوحشية سلطة الملكية الإنكليزية، وأدت إلى عدم استقرار الملكية في إنكلترة حتى نهاية القرن الخامس عشر.

ج.ت

■ إدوارد الثالث
(١٣١٢-١٣٧٧)

ملك إنكلترة (١٣٢٧-١٣٧٧) والابن البكر لإدوارد الثاني [ر] من إيزابيلا ابنة فيليب الرابع ملك فرنسة. تسبب بإصراره على وراثة العرش الفرنسي في سلسلة حروب طويلة عرفت باسم «حرب المئة عام»، وكان عهده زمن إنجازات عسكرية رائعة.

ولد إدوارد الثالث في ويندسور. وتلقى علومه على يد مدرس خاص، إلا أن ثقافته ظلت محدودة، حتى قيل إنه كان يلم بالقراءة والكتابة. منحه أبوه وهو في سن الرابعة عشرة (١٣٢٥) ألقاب إيرل شستر وكونت بونتيو ودوق أكيتانية، ولم يمنحه لقب أمير ويلز الذي يعني ولاية العهد، إلا أنه أوكل إليه مسؤولية الحكم في غيابه خارج البلاد. وأقحمته والدته في السنة التالية (١٣٢٦) في مكيدتها التي أدت إلى خلع إدوارد الثاني ومقتله.

نصب إدوارد الثالث على العرش في حزيران (١٣٢٧)، وظل لثلاث سنوات تلت ألعوبة في يد أمه وعشيقها روجر مورتيمر. تزوج فيليبا هينو التي ولدت له سبعة أبناء وخمس بنات، وفي سنة ١٣٣٠ تزعم إدوارد انقلاباً في القصر فاجأ فيه مورتيمر وقبض عليه وأعدمه، وأكره أمه الملكة على الاعتزال، وتسلم زمام السلطة كاملة. وتفرغ منذئذ لمناهضة فرنسة. وفي سنة ١٣٣٧ أعلن الحرب عليها إلا أنه لم يباشر الأعمال الحربية إلا بعد عامين، وفي ٢٦ حزيران سنة ١٣٤٠ أعلن إدوارد نفسه ملكاً على فرنسة في مدينة غنت بعد معارك قصيرة غير حاسمة خاضها في الأراضي المنخفضة، وتوالت انتصاراته عاماً بعد عام في مدى عشرين عاماً: في سْلويْس (١٣٤٠)، وكريسي (١٣٤٦)، وبواتييه (١٣٥٦) التي أُسر فيها جون الثاني ملك فرنسة. واحتفاء بنصره الأخير في بواتييه أحدث إدوارد نظام ربطة الساق يحاكي به نظام فرسان المائدة المستديرة الذي ابتكره الملك آرثر. وعقد مع الملك الأسير معاهدة لندن ١٣٥٩ أجبره فيها على التخلي عن قسم كبير من الأراضي الفرنسية لإنكلترة. إلا أن المعاهدة رُفضت في فرنسة. واضطر إدوارد إلى القيام بحملة جديدة لإكراه الفرنسيين على الخضوع، فنزل في كاليه في ٢٨ تشرين الأول ١٣٥٩ وضرب الحصار على ريمس التي صمم أن يتوج فيها ملكاً على فرنسة. إلا أن المقاومة الضارية والمديدة التي أبداها مواطنو المدينة أحبطت خططه، فتوجه إدوارد إلى بورغندي ثم ارتد إلى باريس، ومال إلى عقد معاهدة سلام جديدة مع فرنسة اتفق على بنودها الأخيرة في كاليه سنة ١٣٦٠، وتخلى فيها إدوارد عن المطالبة بعرش فرنسة في مقابل منحه أكيتانية بكاملها، وكانت من أغنى مقاطعات جنوبي غربي فرنسة.

كان للأزمات الداخلية في إنكلترة، واضطراب الحكم، وخلاف الملك مع أسقف كانتربُري، وإفلاس البيوتات المالية التي كان يعتمد عليها إدوارد في تمويل حملاته، ولانتشار الطاعون الذي أودى بحياة ٢٠٪ من السكان في عام ١٣٤٨، شأن كبير في تراجع الملك عن مشاريعه. وقد بدأت مرحلة الانهيار في حياته منذ بداية الستينات واستمرت إلى آخر عهده، فقد تخلى عنه حلفاؤه في البر الأوربي من البريتانيين والفلمنك، وعاد الوباء شديداً (١٣٦٠-١٣٦١) وخلت الخزينة من أموالها، وماتت الملكة فيليبا سنة ١٣٦٩، وأصيب إدوارد بالخرف، وتسلطت عليه عشيقته أليس بيرر، وتحالفت اسكتلندة مع فرنسة على حرب إنكلترة (١٣٧١)، فانحسرت أملاك إدوارد الثالث في البر الأوربي ولم يبق له في عام ١٣٧٥ سوى مرفأ كاليه وخط الساحل بين بوردو وبايون، وفي عام ١٣٧٦ مات ابنه الأكبر إدوارد الأمير الأسود مخلفاً طفلاً في العاشرة من عمره ليرث العرش الملك ريتشارد الثاني، ومات إدوارد الثالث في ٢١ حزيران في مدينة شين (ريتشموند اليوم) منبوذاً وحيداً ليس برفقته سوى عشيقته وكاهن واحد، وخلف أربعة صبية أسس اثنان منهم أسرتي لانكَستر ويورك اللتين اشتهرتا في حرب الوردتين.

■ إدوارد الرابع
(١٤٤٢-١٤٨٣)

ملك إنكلترة (١٤٦١-١٤٨٣)، وأول من اعتلى العرش من أسرة يورك بعد خلع الملك هنري السادس [ر] من أسرة لانكَستر.

هو إدوارد بلانتاجنت الابن الأكبر لريتشارد دوق يورك من زوجته سيسلي نفيل. ولد في مدينة روان الفرنسية في ٢٨ نيسان وكان يحمل في حياة أبيه لقب «إيرل مارش» وكان حدثاً عندما حاول اليوركيون السيطرة على المجلس في عهد هنري السادس، وأدت محاولاتهم هذه إلى نشوب معركة سانت ألبانس (١٤٥٥م) التي كانت فاتحة حرب الوردتين. وعندما هزم ريتشارد دوق يورك في معركة لودلو سنة ١٤٥٩ ولجأ إلى أيرلندة، فرإدوارد بصحبة إيرل سالزبري وإيرل ورويك إلى مدينة كاليه على الساحل الفرنسي، ثم عادوا إلى إنكلترة بعد عام وجهزوا جيشاً هزموا به القوات الملكية، ووقع الملك هنري أسيراً في أيديهم في نورثامبتون. وجرى الاتفاق على أن يبقى هنري ملكاً مدى الحياة ويخلفه دوق يورك بعد وفاته، ولكن الملكة مرغريت زوجة هنري السادس رفضت الاتفاق لأنه يحرم ابنها من ولاية العهد، واستطاع جيشها أن يهزم ريتشارد ويقتله في معركة ويكفيلد (١٤٦٠م) وثابر حتى أنقذ الملك هنري من الأسر في معركة سانت ألبانس الثانية (١٤٦١م). وكان إدوارد في تلك الأثناء قد هزم مؤيدي الملك هنري في غربي إنكلترة فسارع إلى نجدة ورويك ومن معه، وحقق انتصاراً ساحقاً في «تاوتون» بيورك شير في ٢٩ آذار عام ١٤٦١، وتوج على إنكلترة في ٢٨ حزيران من العام نفسه. لم يكن إدوارد الرابع مستقلاً في حكمه في بداية عهده، لحداثة سنه، إذ شاركه ورويك السلطة فانفرد في إدارة الشؤون السياسية للبلاد وخص أفراد أسرته بالمناصب الحيوية. بيد أن إدوارد، بعد زواجه سراً من إليزابيت وودفيل تنبه إلى ما هو فيه، فبدأ يسعى إلى تثبيت سلطانه فأحس ورويك بالأمر وخشي على نفوذه فبادر إلى سجن إدوارد عام ١٤٦٩م. لكن الملك استطاع التخلص من سجنه وأمر بنفي ورويك من البلاد فغادرها إلى فرنسة وانقاد للويس الحادي عشر الذي أقنعه بالتحالف مع مرغريت زوجة هنري السادس لغزو إنكلترة. ولم يكن إدوارد مهيأً لمواجهة ورويك وقواته، وزاد في محنته خيانة أخيه جورج الذي انضم إلى ورويك، فلجأ إلى هولندة في حين عمل ورويك على إطلاق سراح الملك هنري وأعاده إلى العرش في ٣ تشرين الأول ١٤٧٠م.

ولم يلبث إدوارد أن عاد إلى إنكلترة بمساعدة صهره تشارلز دوق بورغندي، فنزل في يورك شير وجمع جيشاً على جناح السرعة والتقى جيش ورويك في معركة برنت (٢٤ نيسان ١٤٧١م) التي انتهت بهزيمة ورويك ومقتله، واستعاد إدوارد زمام الأمور في البلاد، كما هزمت القوات القادمة من فرنسة بقيادة مرغريت في معركة توكسبري (٤ أيار ١٤٧١م) التي انتهت بأسر مرغريت ومقتل ابنها. وبعد أسبوعين من تلك المعركة قُتل الملك هنري السادس، وتوطد الأمر لإدوارد الذي خضع له الجميع وفيهم أقرب المقربين إلى الملكة مرغريت.

أبدى إدوارد الرابع حنكة وموهبة في إدارة دفة الحكم وشهدت إنكلترة في عهده مرحلة رخاء وازدهار في جميع المجالات ولاسيما في مجال الإدارة والتجارة. كما نزع إلى السلم في سياسته الخارجية فلم يطل به المقام في حملته على فرنسة عام ١٤٧٥ وأنهى تلك الحملة بإبرام معاهدة «بكيني» التي اختتمت حرب المئة عام بين فرنسة وإنكلترة، وقد تعهد لويس الحادي عشر في تلك المعاهدة بدفع قطيعة سنوية لإنكترة مقدارها ٥٠ ألف كرون ذهبي. كذلك فإن هجومه على اسكتلندة في عام ١٤٨٢ ضمن له استعادة مدينة برويك على نهر تويد Berwick - on - Tweed.

رُزق إدوارد الرابع عشرة أولاد من زوجته إليزابيت وودفيل بقي منهم سبعة أحياء بعد وفاته: خمس بنات منهن إليزابيت زوج هنري السابع [ر] وإثنان من الذكور هما إدوارد الخامس [ر] وريتشارد التعس دوق يورك الذي يعتقد أنه قتل مع أخيه في برج لندن عام ١٤٨٣.

ج.ت

■ إدوارد الخامس
(١٤٧٠-١٤٨٣م)

إدوارد الخامس Edward V ملك إنكلترة في المدة الواقعة بين شهري نيسان وحزيران من عام ١٤٨٣م، وهوالابن الأكبر للملك إدوارد الرابع والملكة إليزابيت وودفيل. خلعه الملك ريتشارد الثالث [ر] وأمر بقتله في برج لندن.

ولد إدوارد الخامس في دير وستمنستر حين كان والده في المنفى بهولندة. وعندما تمكن إدوارد الرابع من سحق أعدائه واستعادة عرشه في حزيران عام ١٤٧١ منح ولده إدوارد الصغير لقب أمير ويلز وأرسله مع والدته في عام ١٤٧٣ إلى قلعة لودلو Ludlow في منطقة شرُبشير بين إنكلترة وويلز، فأقام فيها طول عهد والده. وحين توفي إدوارد الرابع في ٩ نيسان عام ١٤٨٣م ارتقى إدوارد البالغ من العمر اثني عشر عاماً عرش إنكلترة خلفاً لوالده، وعُيّن عمه ريتشارد دوق غلوسستر وصياً على العرش. بيد أن النزاع الذي استفحل بين نبلاء وودفيل أخوال إدوارد الخامس المسيطرين عليه ودوق غلوسستر، دفع هذا الأخير إلى اعتقال قادة حزب وودفيل والاستيلاء على ممتلكات إدوارد وأخيه الصغير ريتشارد دوق يورك، وحجز الأميرين في برج لندن الذي كان مقراً للإقامة الملكية وسجنا في آن واحد.

انتهى عهد إدوارد الخامس القصير في ٢٦ حزيران عام ١٤٨٣ م حين أعلن مجلس اللوردات والعموم دوق غلوسستر ملكاً على إنكلترة باسم ريتشارد الثالث Richard III [ر] بعد إقرار صحة ادعائه بأن زواج أخيه إدوارد الرابع من إليزابيت وودفيل باطل وأن ولديه إدوارد وريتشارد غير شرعيين. وبعد ذلك بمدة وجيزة، اختفى هذان الاثنان من برج لندن وإلى الأبد، ويعتقد أنهما قُتلا على أيدي أعوان الملك ريتشارد الثالث في آب عام ١٤٨٣ م، كما نُسبت الجريمة إلى هنري ستافورد دوق بكنغهام Buckingham وإلى خلف ريتشارد الثالث الملك هنري السابع [ر]. وهكذا انقضى عهد إدوارد الخامس قبل أن يبدأ.

ج.ت

■ إدوارد السادس
(١٥٣٧-١٥٥٣م)

إدوارد السادس Edward VI ملك إنكلترة وإيرلندة منذ عام ١٥٤٧ حتى عام ١٥٥٣. وهو الابن الشرعي الوحيد للملك هنري الثامن Henry VIII [ر]. توفيت والدته جين سيمور زوج هنري الثالثة بعد ولادته باثني عشر يوماً. ومع أن إدوارد كان طفلاً هزيلاً متدهور الصحة فقد ذكر بعض المؤلفين المعاصرين أنه كان قوي الشخصية ورياضياً حتى سنوات قليلة قبل موته. وكان ذا نبوغ مبكر وموهبة نادرة في اتقان العلوم الفلسفية واللاهوتية، كما أتقن اللغات الإغريقية واللاتينية والفرنسية. وعند وفاة هنري الثامن في ٢٨حزيران عام ١٥٤٧ ارتقى إدوارد العرش خلفاً لوالده وهو في التاسعة من عمره.

وكان هنري الثامن، قبل وفاته، قد عيّن مجلس وصاية يتولى الحكم مادام ابنه قاصراً. واستغل إدوارد سيمور Edward Seymor خال إدوارد السادس ودوق سومرست نفوذه في الوصاية على الملك القاصر ففرض سيطرته على الحكومة إلى أن أطاحه جون دَدلي John Dudley (إيرل ورويك) الذي صار فيما بعد دوق نورثمبرلاند، وتولى مقاليد الأمور من بعده. اتخذ نورثمبرلاند الملك إدوارد قناعاً سيطر من ورائه على الحكومة، فعزز سلطته وسحق معارضيه. وقد انسجمت التدابير التي اتخذها كل من سومرست ونورثمبرلاند في تعزيز حركة الإصلاح الإنكليزية مع ميل الملك الشديد إلى البروتستنتية.

ظهرت بوادر مرض السل على الملك إدوارد السادس في كانون الثاني عام ١٥٥٣ وأصبح جلياً في أيار من العام نفسه أن المرض تمكن منه ولا سبيل إلى مقاومته، فعمل الملك بمشورة نورثمبرلاند على استبعاد شقيقتيه ماري واليزابيث عن وراثة العرش ومنح ولاية العهد لجين غراي Jane Gray زوج ابن نورثمبرلاند ولورثتها الذكور. ونتيجة لذلك احتدم الصراع على العرش بعد موت إدوارد السادس، فحكمت جين غراي مدة تسعة أيام قبل أن تطيحها الملكة ماري الأولى تيودور [ر] ابنة هنري الثامن، التي حكمت من عام ١٥٥٣ وحتى عام ١٥٥٨.

كان إدوارد السادس طوال سنوات ملكه ألعوبة بين أيدي الأوصياء على عرشه، بيد أن مذكراته تظهر أنه كان على دراية تامة بالفساد المتفشي في حكومته والشقاء الذي تعيشه رعيته.

ج.ت

■ إدوارد السابع
(١٨٤١-١٩١٠)

ملك بريطانية العظمى وإيرلندة بين عامي ١٩٠١م و١٩١٠م وهوأكبر الأبناء الذكور للملكة فيكتورية [ر] وزوجها الأمير آلبرت، لُقّب بأمير ويلز وإيرل شستر بعد شهر من ولادته.

أصبح إدوارد السابع Edward VII في عام ١٨٥٩ أول أمير لويلز ينتسب إلى جامعتي أكسفورد وكمبريدج.وكان شاباً عاطفياً مرهف الحس تأثر بالتربية القاسية التي فرضتها والدته عليه، فانصرف إلى حياة اللهو والأسفار بعد أن أبعدته والدته عن كل مايتعلق بسياسة القصر الملكي وشؤونه، واكتفى بملء مكانها في مجتمعات لندن عندما اعتزلت الحياة الاجتماعية بعد وفاة زوجها عام ١٨٦١، وفي عام ١٨٦٣ تزوج إدوارد من الأميرة الكساندرة ابنة ملك الدنمرك كريستيان التاسع.

ارتقى إدوارد السابع سدة العرش بعد وفاة والدته عام ١٩٠١ وكان في التاسعة والخمسين من العمر، بيد أن خبرته السياسية كانت قليلة فلم يستطع تدارك الأزمات السياسية التي حدثت في عهده (مثل الأزمة بين مجلسي اللوردات والعموم، وأزمة العلاقات البريطانية - الألمانية).

وكان إدوارد السابع ملكاً دستورياً مثالياً ذا شخصية محببة تحمل أفكاراً تحررية. وكان تواقاً إلى إرساء السلام داخل البلاد وخارجها، واستطاع تحقيق بعض ذلك بفضل شعبيته داخل البلاد وجولاته في العواصم الأوربية، فعزز العلاقات الإنكليزية الفرنسية باتفاق عام ١٩٠٤المعروف بالوفاق الودّي وتوصل إلى اتفاقية بحرية مع ألمانية، وأخرى مع روسية بشأن المستعمرات. توفي في لندن وخلفه ابنه جورج الخامس.

ج.ت

■ أدورنو (ثيودور فيزنغرند -)
(١٩٠٣-١٩٦٩)

ثيودور فيزنغرند أدورنو Theodor Weisengrund Adorno فيلسوف ألماني كان أحد أبرز أعضاء مدرسة فرانكفورت الاجتماعية التي كان مديرها هوركهايمر وشارك فيها هربرت ماركيوزه. وقد اعتمد منهجاً جديداً عرف باسم «النظرية النقدية» جوهره التحليل الماركسي - الفرويدي للمجتمع الرأسمالي عموماً وثقافته على وجه الخصوص.

هاجر ثيودور إلى إنكلترة فدرّس في جامعة أكسفورد، ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية فعمل في جامعة بيركلي في كاليفورنية حتى ١٩٤٧. وفي العام نفسه عاد إلى فرانكفورت للمشاركة في إعادة بناء «مؤسسة البحث الاجتماعي».

وإضافة إلى اختصاصه في نقد فلسفة هوسرل كان دارساً للموسيقى وللتأليف الموسيقي. وقد أثّرت ثقافته الموسيقية في خلفيّته الماركسية تأثيراً بدا في فلسفته التي، مع احتفاظها بالفكرة الماركسية، جرّدتها من العلاقة بالعمل السياسي حتى ليمكن أن يقال إن ماركسيته افتقرت إلى البروليتارية.

تأثر ثيودور أيضاً بكَنت ولوكاتش. وإذا وصف لوكاتش بأنه فسّر ماركس تفسيراً هيغلياً فإن أدورنو فسّر لوكاتش تفسيرًا كَنتياً.

ومن الأفكار التي افترق بها عن الماركسية حسبانه الكُتّاب والفنانين عمالاً منتجين أشبه ما يكونون بالبروليتارية.

كانت أفكاره موضع مناقشات في أوساط حركات الطلاب الجامعيين في ألمانية الغربية. ومن أشهر مؤلفاته: «فلسفة الموسيقى الحديدة» و«المجتمع ونقد الثقافة» و«الديالكتيك السالب» و«النظرية الجمالية».

حيدر إسماعيل

مراجع للاستزادة:

- SUSAN BUCK-MORSS. The Origin of Negative Dialectics (The Free Press, New York 1977).

■ الإدوميون

الإدوميون Edomites هم سكان منطقة جنوب وجنوب شرقي البحر الميت القدماء (جنوب شرقي الأردن وجنوب وادي الحسا) قطنوها منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد وتنسبهم المصادر القديمة إلى «إدوم» وهو عيسى ابن إسحاق بن إبراهيم. ومعنى إدوم: الأحمر. وتاريخ الإدوميين السياسي والحضاري غامض بسبب قلة الآثار والمصادر الأصلية الموثوقة التي تتحدث عنهم، فقد ورد ذكرهم في النصوص المصرية منذ القرن الثالث عشر ق.م، ولكن أغلب المعلومات عنهم تستقى من العهد القديم ومن الإشارات الواردة في النصوص الآشورية والكلدانية والكلاسيكية: فالعهد القديم يشير إلى صراعات طويلة بينهم وبين العبرانيين ويعطي معلومات عن رفضهم محاولة موسى عبور أراضيهم إلى فلسطين مما اضطره إلى الالتفاف عليها. علماً بأن الواقع الجغرافي الصحراوي لا يتفق والرواية التوراتية وليس هناك أي دليل أثري لهذا العبور. وهناك إشارات إلى صراع بينهم وبين المؤابيين. كما يذكر ثمانية من ملوكهم الذين حكموا قبل أن يوجد أي كيان سياسي للعبرانيين.

وعندما تقدم الآشوريون [ر] في سورية وفلسطين في عهد دولتهم الحديثة اضطر الإدوميون إلى دفع الجزية لهم أسوة بدول هذه المنطقة. كما استخدمهم الملوك الآشوريون في إخماد الثورات المناوئة لهم في بعض مناطق فلسطين. وعندما استولى الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥-٥٦٢ق.م) على أورشليم عام ٥٨٦ق.م وقضى على مملكة يهودا قطن الإدوميون أجزاء من أراضيها، وبدءاً من القرن الرابع ق.م خضعوا للأنباط، القوة الصاعدة في ذلك العصر. أما عن مخلفات الإدوميين الحضارية فهي قليلة جداً إذ لم يعثر على مكتشفات أثرية كافية عنهم. ويمكن القول إنه كانت لهم بعض المدن لعل أهمها: البصرة أو باصر وكانت عاصمة للقسم الشرقي من بلادهم ومكانها اليوم بصيرة الحديثة على بعد ٣٢ كم إلى الجنوب الشرقي من البحر الميت، ومدينة سلع أو سالع التي كانت عاصمة للقسم الجنوبي قبل أن يستولي الأنباط عليها وتصبح عاصمة لهم باسم البتراء، ومدينة عصيون جابر في موقع تل الخليفة اليوم على الطرف الشمالي لخليج حبرونة (العقبة اليوم) الواقعة على بعد ٢٤٤ كم جنوب القدس وكانت عاصمة لهم. كما كانت أسدود ومرأو مريشة من مراكزهم المهمة. وبسبب وجودهم على شواطئ البحر الأحمر الشمالية فقد كانت للإدوميين تجارة بحرية ناشطة في بعض الأوقات. أما لغتهم فهي قريبة من اللهجات العربية والعبرية والعمونية والمؤابية.

جباع قابلو

الموضوعات ذات الصلة:

الأنباط - الميت (البحر -)

مراجع للاستزادة:

- أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ط١ (العربي للإعلان والنشر والطباعة والتوزيع، دمشق ١٩٧٥).
- فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين (بيروت ١٩٥٨)
- أ.هـ.م جونز، مدن بلاد الشام حين كانت ولاية رومانية، ترجمة إحسان عباس (دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان ١٩٨٧).

■ أدونيس

كان لفظ «تموز» هو الاسم الحقيقي للرب أدونيس Adonis، وهو مشتق من اللفظ السامي «آدون» الذي يفيد معنى «السيد» أو «الرب»، فجعل الإغريق من هذا اللفظ اسماً له اشتهر به. وقد عرف الاسم في بلاد كنعان قبل أن يشتهر في الأساطير اليونانية الكلاسيكية والهلينية. وهو «تموز» في حضارة الرافدين.

الأسطورة والدورة النباتية

لاحظ الإنسان القديم بذكائه تعاقب فصول السنة، واختفاء المعالم النباتية في فصل الشتاء وعودتها إلى الحياة من جديد في فصل الربيع، مما أوحى له بفكرة الموت الذي يثير الحزن والكآبة، و فكرة الفرح بالولادة وتجدد الحياة. ورأى في ذلك صراعاً لا ينقطع بين قوة الحياة المتجددة والموت الذي يهددها بالفناء. فجسَّد خياله ذلك في أساطير توارثتها الأجيال المتعاقبة منها أسطورة «أدونيس/ تموز». ويهتم علماء



سرير أدونيس من حجر الحير التدمري

الأساطير بالأسطورة ويرون فيها تفسيراً للدورة النباتية في حضارة زراعية هي حضارة سورية القديمة. ومع غموض النصوص الرافدية والكنعانية حول الأسطورة فإن الصيغة الإغريقية هي التي انتشرت.

شعائر موت أدونيس وعودته إلى الحياة: أصول الأسطورة

تأثر قدماء البابليين والكنعانيين بهذه الأسطورة المثيرة، ووجدوا فيها تفسيراً لتساؤلاتهم المتعلقة بتجدد الحياة، وتوارثت

الأجيال المتعاقبة عادة إقامة الشعائر التي تمثل موت أدونيس وعودته إلى الحياة. فكانت نساء مدينة بيبلوس (جبيل) يبكين موته سنوياً في موكب حاشد تسوده رقصات الحزن وأغانيه ودموع الباكيات ونوح النادبات وصيحاتهن المدوية و لطمهن الصدور. وفي اليوم التالي يحتفلن بعودة أدونيس إلى الحياة وارتقائه منها إلى عالم السماء بحضور أتباعه.

أما في جبيل فلم يظهر أدونيس في السجلات الملكية الفينيقية التي دونت بين ١٠٠٠ و ٨٠٠ ق.م. وكان الكاتب السوري لوقيانوس (في العصر الروماني) هو الذي تحدث بوضوح، لأول مرة، عن أدونيس في كتابه «الآلهة السورية». ويقع في جبيل معبد عشتار (أفروديت) رفيقة أدونيس، ويقع المعبد الآخر في أفقا حيث ينبع نهر أدونيس (نهر إبراهيم) الذي تتلوّن مياهه كل عام بلون الدم الذي تتجدد به ذكرى الجرح المميت الذي أوقعه الخنزير البري في جسم أدونيس في هذا الموقع.

وتقام الاحتفالات لتخليد ذكرى أدونيس في مدتين أساسيتين: ففي الأولى منهما يسيطر الحزن وتنشد المراثي ويرافق ذلك قربان مأتمي. أما في الثانية فيقوم الناس بالطواف وهم يرافقون رجلا يمثل أدونيس الحي. وفي هذه الاحتفالات لا توجد أية إشارة إلى الحدائق أو إلى العمل الزراعي. ولكن يظهر فيها تصرف جنسي. ففي أثناء مدة الحزن يكون على النساء اللواتي ترفضن قص شعورهن أن تتعهّرن لمدة يوم واحد، مع غرباء، ويجب عليهن أن يقدّمن إلى معبد أفروديت ثمن هذه التجارة. إن صفات أدونيس الفينيقية ليست واضحة تماماً مما دفع سكان بيبلوس إلى إحالة تأويلاتهم على أوزيريس المصري. وهكذا يغدو أدونيس عندهم مظهراً من مظاهر أوزيريس.

أما في قبرص فليس لأدونيس أي وجود على صعيد الشعائر إلا في عيد أفروديت كما هو الحال في جبيل.

انتشرت «طقوس أدونيس» في الإسكندرية وقبرص وانتقلت منها إلى رودس وساموس وبلاد اليونان ثم إيطالية. وسادت عادة حمل تماثيل أدونيس، وصنع حدائقه من سلال وأحواض نباتات وتنظيم مواكب من النساء لما يتمتعن به من قوة العاطفة والإثارة.

أسطورة أدونيس في الميثولوجية الإغريقية

كانت الأميرة ميرها Myrrha (أو سميرنا Smyrna) فتاة ممتلئة أنوثة وعاطفة وجمالاً، معجبة بأبيها ثياس Theias. وفي لحظة كانت فيها أفروديت (عشتار) في حالة غضب وانفعال، جعلتها ملتهبة العاطفة والمشاعر، وأحست الفتاة ميرها بأنها حملت سفاحاً، فشعرت بالندم الشديد يعصف بها، فعانت من وطأة خطيئتها اللاإرادية، وهامت على وجهها تعسة حزينة مبتهلة إلى الآلهة أن تخفيها عن الأنظار. فأشفق الأرباب عليها، واستجابوا لندائها وطلبها، فحولوها إلى شجرة عرفت منذئذٍ باسمها «شجرة المر» التي لم يمض عشرة أشهر حتى انشقت فخرج من باطنها المولود الجميل أدونيس فتلقفته أفروديت بعاطفة وحنان معجبة بجماله المتميز، وأخذت ربات المياه Nymphes يرعين طفولته وتربيته، ثم حفظته أفروديت في صندوق عهدت به إلى بيرسيفون (بروسيربين) التي دفعها الفضول إلى معرفة سر هذا الصندوق وما يحويه وما كادت تفتحه حتى فوجئت بجمال الطفل أدونيس فتمسكت به، ورفضت إعادته إلى أفروديت مما أثار النزاع بين الربتين اللتين رفعتا أمرهما إلى الرب جوبيتر الذي استمع إلى كل منهما، ورغب في إرضائهما، فقضى أن يمضي أدونيس سنوياً أربعة أشهر عند أفروديت وأربعة أشهر عند بيرسيفون، وأربعة أشهر بحسب مشيئته. ولكن ميل أدونيس إلى أفروديت جعله يمضي سنوياً ثمانية أشهر إلى جانبها، مما أثار غيرة كل من ديانا وأبولون ومارس.

تأثير أسطورة أدونيس في الآداب والفنون

تحدث عن أسطورة أدونيس كل من هزيود و الشاعرة سافو Sapho وبانياسيس Panyasis وثوكيديدس Thucydids وماريني Marini. كما تأثر الفنانون بجمال هذه الأسطورة المثيرة فجعلوها موضوعاً فنياً زينوا به السطح الخلفي للمرايا البرونزية الأتروسكية، وتفننوا في تصوير نزاع الربتين وحكم جوبيتر، وسرير أدونيس حوله النباتات. كما أبدع الفنان التدمري صنع سرير من حجر الجير، وهو سرير كبير الحجم، محفوظ في حديقة المتحف الوطني بدمشق.

بشير زهدي

مراجع للاستزادة:

- E. SAGLIO, Dictionnaire des antiquités Grecques et Romaines (Paris 1877).

■ الأدوية (علم-)

يبحث علم الأدوية pharmacology في التفاعلات المتبادلة بين كل مادة غريبة عن البدن وأجهزته الحيوية. وإذا كان البحث في هذه التفاعلات طبياً، دعيت المادة دواء.

ولقد عرّفت منظمة الصحة العالمية الدواء بأنه «وسيلة هدفها، إما تأمين شفاء أو تحقيق حماية ووقاية أو تأكيد تشخيص، وإما إدخال تعديلات على وظيفة جهاز حيوي لدراسته، وإما إصلاح حالة مرضية».

أقسام علم الأدوية

يتألف علم الأدوية من مباحث دوائية فرعية كثيرة هي:

مبحث المادة الطبية أو مفردات الطب: ويدرس الدواء فيزيائياً وكيمياوياً وحيوياً، ويحدد مصدره واسمه الفني وأشكاله الصيدلانية.

ومبحث تأثير الأدوية والقدرة الدوائية: ويتعمق في دراسة تأثيرات الدواء في مستويات التنظيم الحيوي كافة وبصفة خاصة في جزيئاتها الخلوية، ويكشف عن آليات حدوث هذه التأثيرات.

ومبحث الحركية الدوائية: ويبحث في العلاقات الكمية المتبادلة بين الدواء والعضو الهدف إزاء عامل الزمن، وذلك في جولة الدواء داخل الجسم الحي.

ومبحث علم الأدوية التجريبي أو المقارن: ويرمي إلى اختبار الدواء في الحيوان المناسب، للكشف عن تأثيراته الدوائية والضارة، تمهيداً لبحث تأثيره في الإنسان.

ومبحث علم الأدوية السريري أو البشري: ويؤلف المرحلة الأخيرة من مراحل اختبار الدواء، وتتم الدراسة الدوائية عادة في الإنسان السليم المتطوع والمريض، لتثبيت نتائج الاختبار على الحيوان.

ومبحث التداخل أو التآثر الدوائي: ويوضح النتائج المفيدة والضارة الناتجة من أخذ المريض أكثر من دواء في وقت واحد.

ومبحث علم السموم الدوائية: ويهتم بتحديد تأثيرات الدواء الضارة (السمية)، وآليات حدوثها.

ومبحث علم الأدوية التطبيقي أو المعالجة الدوائية أو المداواة: وهو فن يضع أسس التدبير العلاجي الدوائي ويرسم خططه المثلى، معتمداً على حقيقة التأثيرات الدوائية المفيدة والضارة، الخاصة بأدوية هذا التدبير. ويعتمد في ذلك، على سرّ حدوث هذه التأثيرات، وعلى واقع حركية هذه الأدوية ونتائج تداخلاتها. فالطبيب، بفضل هذه المعلومات الحقة، يستطيع أن يختار لمريضه أفضل خطة علاجية تناسبه، فهو لا يعالج مرضاً بل يعالج مريضاً.

ولم يبق علم الأدوية الحديث مقتصراً على أقسامه المدرسية السابقة، بل أخذ يضم بين جناحيه بحوثاً دوائية جديدة مستقلة مرتبطة بالفيزيولوجية وبالكيمياء وبالفيزياء وبالنسج وبالإمراض (باتولوجية) وبالأحياء الدقيقة وبالنظائر المشعة.

إن البحث عن الدواء أسبق ما سعى الإنسان الأول إلى معرفته في سبيل المحافظة على صحته، معتمداً على ما في الطبيعة من مواد نباتية وحيوانية ومعدنية، علمته التجربة فوائدها. ثم أخذ عدد الأدوية البدائية يزداد مع مرور الزمن، ولاسيما في عهد ما قبل التاريخ - من قبل الصينيين والهنود والفرس وقدامى المصريين والإغريق والرومان. وقد تناقل هذه الأدوية بعدئذ كل جيل عن أسلافه. ويعد بابيروس Papyrus (١٥٥٠ ق. م)، من أوائل المخطوطات الدوائية. وبعد قرون من الركود، بدأت عطفات تاريخ الدوائيات تظهر في مطلع العهد الميلادي، إذ سطع نجم عدد من العلماء ولا سيما غالين Galien (١٣٠-٢٠٠ م).

وقد حمل العرب في العصر الوسيط مشعل الدواء، أخذوا المعلومات الدوائية عن أسلافهم ولا سيما عن اليونانيين والإغريق، ونقدوها، وأضافوا إليها، فعرفوا وجود القلوانيات واستعملوا العطريات في معالجة أمراض الصدر، والزئبق في الإفرنجي والراوند والسنى في الإسهال وأمراض الكبد، والأفيون في الأرق والألم. وتعد بحوث الأدوية في مخطوطاتهم وأسفارهم الطبية، ثروة ضخمة. وامتاز أسلوبهم بالوضوح في وصف الدواء، وذكر مصدره وماهيته، وفوائده في مختلف الأمراض، ومقداره، وسميته ومضاد الانسمام به.

وقد بقيت هذه المؤلفات العربية الدوائية، مصدراً مدرسياً نفيساً، ومعقد آمال الأطباء ومحط رجائهم في سائر كليات الطب في العالم طوال خمسة قرون.

وقد ترجم معظمها إلى اللاتينية لغة الطب آنذاك، ثم إلى لغات متعددة. ولذا اهتم تاريخ الطب، بالأسماء النابهة من أطباء العرب الذين كان لهم الأثر المباشر في تقدم دراسة الطب إجمالاً والدواء خاصة، وفي الافتنان في طرق المعالجة، أمثال: صابر بن سهل واضع أول دستور للأدوية باسم «قرابادن» اشتقاقاً من كلمة أقرباذين الفارسية، والرازي [ر] الذي خصص أجزاء عدة من سفره المشهور «الحاوي»، وابن سينا [ر] الذي خصص كثيراً من مؤلفاته للبحث في الدوائيات وأشهرها «القانون»، وابن زهر [ر] الذي أخذ بالمنهج التجريبي عوضاً عن التقليدي في دراسة الدواء في كتابه «التيسير»، وابن البيطار [ر] وهو أعظم نباتي في عصره وقد صنف الأدوية النباتية في كتابه «جامع المفردات»، وغيرهم كثيرون.

وفي عهد النهضة الأوربية ١٥٠٠ م، بدأت تجربة الدواء على الحيوانات وكان للفيزيولوجيين ولاسيما ماجندي وكلود برنار، الفضل الأوفر في تطوير علم الأدوية ليصبح بعدئذ علماً مستقلاً. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان أوزوالد شميدبرغ Oswald Schmiedeberg (١٨٣٨-١٩٢١) أول أستاذ لعلم الأدوية الحديث، وعُدّ مؤسس هذا العلم.

وفي بداية القرن العشرين، أدخل إرليخ البحث العلمي التجريبي للتحكم في الأخماج الجرثومية بوساطة الدواء، فكان اكتشاف الصادّات. ومع تطور الكيمياء في هذا القرن، بدأ العلماء رحلة بحث شاقة مع المادة الكيمياوية، للكشف عن أغوارها وصولاً إلى جوهرها وقياس وزنها الجزيئي، انتهت بعدئذ بتحضير أدوية إنشائية.

علم الأدوية والفيزيولوجية

يقف علم الأدوية اليوم جنباً إلى جنب مع باقي العلوم الطبية الأساسية والسريرية. فهو يعتمد اعتماداً أساسياً على المعلومات الفيزيولوجية والكيمياوية الحيوية، عند الحيوان والإنسان في حالتي الصحة والمرض، وذلك في جميع مراحل تجربة الدواء والبحث عن تأثيراته في أجهزة الجسم وعن تأثيرها فيه لمعرفة الأسس الجذرية لاستعماله. وعلم الأدوية، إلى جانب استفادته من الفيزيولوجية، فإنه يساعد هذا العلم في أبحاثه، فلقد وضع بين أيدي اختصاصي الفيزيولوجية وسائل دوائية قيّمة، تسهل عليه الكشف عن خفايا الحياة وأسرارها، وشرح بعض الآليات الفيزيولوجية، وتحديد إمراضية بعض الأمراض.

علم الأدوية السريري

المراد من علم الأدوية السريري، دراسة الدواء عند الإنسان السليم والمريض. والغاية من هذه الدراسة مزدوجة، فهي ترمي أولاً إلى تقويم كل دواء جديد للتأكد من نتائج تجربته على الحيوان، وكل دواء متداول لإعادة اختباره، ولمراقبة تأثيراته المفيدة والضارة.

ويعود السبب الداعي لهذه الدراسة، إلى أن المعلومات المتوافرة من دراسة الدواء على الحيوان، لا تنطبق كلياً على الإنسان، بسبب الاختلافات الفيزيولوجية بينه وبين معظم الحيوانات، ولتعذر إحداث الاعتلالات البشرية نفسها في الحيوانات أحياناً. أما الهدف الثاني من دراسة الدواء سريرياً فهو وضع أسس ومبادئ دوائية سريرية مطمئنة للطبيب متعلقة بفعالية الدواء لدى الإنسان، ودرجة تحمله، ونسبة أذياته العاجلة والآجلة وأنواعها المختلفة وإنذارها، ونتائج مشاركته أدوية أخرى. فالطبيب، من معرفته الحقة لهذه المعلومات اليقينية، يستطيع أن يختار لمريضه الدواء الأمثل، وأن يركن إلى نتائج المعالجة، معتمداً على أسس علمية سليمة مطمئنة.

التداخل أو التآثر الدوائي

إن أخذ عدة أدوية في آن واحد أو بتتابع مباشر، قد يغيّر شدة فعالية الدواء ومدتها أو هاتين الثابتتين معاً، وبالتالي يعطل الهدف العلاجي. وعلل هذا التغير في التأثير بحدوث تفاعلات حيوية بين أدوية المشاركة في جزيئات خلايا الأعضاء ولا سيما الأعضاء والأجهزة المرتبطة بمراحل الحركية الدوائية، مسببة نقصاً أو زيادة في توصيل الدواء لمكان تأثيره، أو المرتبطة بآليات التأثير الدوائي محدثة تغيراً في

استجابة العضو الهدف لفعل الدواء. فالبحث في هذه التفاعلات المتبادلة، وفي آلية حدوثها، وفي تظاهراتها السريرية ومنافعها وأضرارها، يؤلف مبحث التداخل أو التآثر الدوائي وتبدو حوادث هذا التداخل الدوائي بشكل تآزر،أو تقوية،أو تضاد:

فالتآزر، يتطلب بصورة عامة أن تكون جميع أدوية المشاركة ذات تأثير واحد متماثل ومشترك بينها جميعاً. ويعد الفعل الناتج مساوياً لمحصلة إضافة جبرية للتأثير المتماثل، سواء أكان هذا التأثير نافعاً في الأصل كأخذ دواءين معاً من مقلدات الودي، فهما يتفاعلان سوية بمجموعهما الجبري مع المستقبلات الموسكارينية أي المستقبلات التي تتأثر بفعل مادة الموسكارين، أم كان ضاراً كتناول دواءين سامين للأذن كأخذ حمض الاتكرين وهو دواء مدر مع الجانتاميسين وهو دواء صادّ، فمن الممكن أن يسبب تآزرهما نقصاً شديداً في السمع أو صمماً. وقد يحدث التآزر أيضاً على الرغم من وجود اختلاف في آلية حدوث التأثير المتماثل كتآزر الأسبرين مع مضادات الفيتامين k في منع التخثر، فالأسبرين يؤثر بمنعه تجمع الصفيحات الدموية، في حين تؤثر مضادات الفيتامين k بتثبيط إنشاء عوامل التخثر المرتبطة بالفيتامين k.

والتقوية، تتظاهر باشتداد تأثير تابع في الأصل لأحد أدوية المشاركة من دون غيره، فمثلاً قد يزيد الكلوفبرات وهو دواء خافض لكولسترول الدم، قدرة مضادات الفيتامين k في منع التخثر إذا أخذ مع أحدها، مؤهباً لحدوث نزف على الرغم من أنه لا يبدي هذه القدرة لدى استعماله منفرداً.

أما تضاد التأثير، فتتجلى أفعاله بحدوث نقص في تأثير أقوى أدوية المشاركة فعالية، سواء أكانت متعاكسة التأثير كأخذ دواء حال للودي مع دواء مقلد له، فبتنافسهما على المستقبلات الأدرنرجية «التي تتحسس بفعل الأدرنالين» يضعف التأثير، أم كانت متماثلة بالتأثير كتناول البنسلين مع التراسيكلين، وهو أمر غير مرغوب فيه، فكل منهما صاد،غير أن التراسيكلين بإبطائه انقسام الخلية الجرثومية يجعل البنسلين عاجزاً عن تثبيط إنشاء غشائها وهي في طور الانقسام.

ومجمل القول، إن حوادث التداخل الدوائي كثيرة ومعقدة، يرتبط حدوثها بمختلف مراحل الحركية الدوائية أو بآليات التأثير الدوائي، بعضها ثابت بالتجربة، وبعضها محتمل الحدوث، ويتعذر أحياناً على الطبيب اليقظ المنتبه استيعابها، لذا، عليه الاعتماد في أثناء ممارسته على الجداول اليقينية الخاصة بالتداخل الدوائي.

الحركية الدوائية

ينفرد تحت اسم الحركية الدوائية، البحث في العلاقات الكمية المتبادلة بين الدواء والعضو الهدف تجاه عامل الزمن في مراحل جولته داخل الجسم. وليس هذا البحث دراسة نظرية مثيرة للاهتمام فحسب، بل هو السبيل إلى أنظمة إعطاء الدواء الأكثر جذرية والتي تختلف بحسب السيطرة الوراثية والمناعية.

وتتطلب استجابة الأعضاء والأجهزة لفعالية الدواء إيصاله إلى خلاياها بتركيزات مناسبة باستثناء الدواء الموضعي التأثير. فالدواء، بعد اجتيازه الحواجز الحيوية بحادث الامتصاص، ينتقل إلى حيز المصورة الدموية فيرتبط قسم منه ببروتينها، ويتوزع القسم الحر المتبقي سريعاً خارج الأوعية، ثم تقوم بعض الأعضاء والأجهزة التي انتشر الدواء فيها ولا سيما الكبد، بتحويل كامل جزيئات الدواء أو بعضها، في مرحلة الاستقلاب، إلى مركبات جديدة هي المستقلبات.

وبعدئذ، يضخ الدواء ومستقلباته إلى باطن خلايا الأعضاء الهدف ليجول في بحر من الهيولى لا نهاية له. وتتعاضد ضمن هذه الخلايا وفي مدة كافية من الزمن، سلسلة من الأحداث الداخلية المتوازنة التي تقوم عليها سنة الحياة، لحل «شفرة» هذه المواد الغريبة، مستفيدة من بعض خصائصها. وفي نهاية رحلة الدواء هذه، يقذف الدواء خارج الجسم بدافع التنقية الذاتية، عن طريق أعضاء الإفراغ، بحادث الإطراح.

وتجدر الإشارة إلى أن البحث في جولة الدواء هذه داخل الجسم الحي يؤلف مبحثاً دوائياً مهماً تحرر حديثاً من مبدأ الاكتفاء بالملاحظات إلى تحقيق ذاتية مستقلة، وذلك بفضل ما طرأ على علوم الرياضيات من تطور وتبسيط ساعدا الباحث الدوائي الفيزيولوجي في استخدام وسائل حديثة في مجال الاختبار الحيوي، وفي طليعة هذه الوسائل،النظائر المشعة والدواء الموسوم. ولذا فإن الحركية الدوائية تتميز حالياً بأن البحث فيها يعتمد على الرياضيات الحديثة لمعرفة مصير الدواء منذ أخذه حتى اطراحه من أجل هذا، لابد، في فرقة العمل من اشتراك عالم بالرياضيات ومحلل كيمياوي إلى جانب الاختصاصي الدوائي والاختصاصي السريري، حين تقويم الحركية الدوائية عند الإنسان. وإن الدراسة المبسطة في الممارسة الطبية لحركية الدواء، تكتفي عادة بتحديد تركيزاته في المصورة الدموية وفي البول، وبتطبيق هذه المعلومات على معادلات رياضية مخصصة لهذا الهدف، يستطيع الطبيب تعيين مستويات الدواء في النسج المختلفة (حجم التوزيع) نسبة لما ينطرح منه يومياً، وتقدير الطرق الملائمة لأخذ الدواء ولا سيما معرفة تركيزه في مكان تأثيره عند المستقبلات، وأخيراً تحديد الجرعة الملائمة لحالة المريض.

التأثير الدوائي

يراد بالتأثير الدوائي استجابة بعض الأعضاء والأجهزة لما أحدثه الدواء من تبدل في فيزيولوجيتها إثر وصوله إلى خلاياها الهدف بتركيز مناسب وفي مدة زمنية محددة.

فالبحث في التأثير الدوائي يتطلب إذن أن تتاح للباحث معلومات كافية عن خصائص الدواء الكيمياوية الفيزيائية، وعن فيزيولوجية أعضاء الجسم وأجهزته كافة وعن تبدلاتها الفيزيولوجية الإمراضية، لدى حيوانات التجربة والإنسان على السواء.

أما آلية التأثير الدوائي، فتعود إلى القدرة الكامنة في كل من الدواء والخلايا الهدف. فالدواء، لا يحدث تأثيراً إلا إذا تفاعل مع خلايا الأعضاء الموكول إليها تأمين مختلف مراحل حركيته، وكل تبدل يطرأ على النظام السوي لإحدى هذه المراحل يسبب تغيراً في نوعية تأثيره وشدته ومدته. أما الخلايا الهدف، فتختلف درجة تفاعلها مع الدواء بحسب ما تكون ذات فيزيولوجية متماثلة فيقال بوجود تأثير نوعي، أو ذات فيزيولوجية مختلفة فالتأثير غير نوعي. وأصبح من المتفق عليه، وجود اختيار اصطفائي خاص بكل دواء وبكل نوع خلوي، وعزي هذا الانتقاء المتبادل إلى وجود جزيئات متميزة في هذه الخلايا، مؤلفة من البروتينات أو الأنظيمات أو الحموض النووية أو الشوارد، هي المستقبلات. فالتأثير الدوائي إذن، هو نتاج

تفاعل الدواء ومستقلباته مع هذه المستقبلات.

التأثيرات الجانبية (الضارة)

يعد الدواء سلاحاً ذا حدين، فهو باعث صحة ومرض، يحمل السعادة للمريض بتأمينه الشفاء، وقد يحدث اضطرابات غير مرغوب فيها، عاجلة أو آجلة، بسيطة أو خطيرة، عابرة أو دائمة، تتناول الأعضاء والأجهزة، تدعى التأثيرات الجانبية. وقد عرَّفت منظمة الصحة العالمية هذه التأثيرات أنها «..... تفاعلات ضارة، تحدث عرضاً بالمقادير القانونية المخصصة للاستعمال عند الإنسان بهدف الوقاية أو التشخيص أو المعالجة» وهناك نمطان رئيسان لحدوث التأثيرات الجانبية. أولهما يرتبط بآلية الدواء، سواء أكان هذا التأثير أولياً كحدوث تقرحات هضمية بفعل أدوية الأورام التي يتناول فعلها المضاد للانقسام الخلوي الخلايا السليمة والمريضة من دون تمييز بينها، أم كان تأثيراً ثانوياً لم يؤخذ الدواء للتأثير فيه كظهور ارتفاع في توتر باطن العين لدى مصاب بالزرق عولج بدواء مضاد للكولين تدبيراً لفرط التعرق. وثانيهما، يرتبط بعوامل تابعة للشخص مباشرة: داخلية (العمر و الجنس و الوراثة والمناعة)، أو خارجية (الغذاء والمناخ والتداخل الدوائي)، أو مرضية (قصور كلوي أو كبدي أو قلبي أو اضطراب نفسي سابق لأخذ الدواء).

ومن المستحسن القول إنه لا وجود لدواء بريء، فإلى جانب التأثيرات الجانبية، قد يسبب الدواء أذيات مختلفة، تعود إلى خطأ في إعطائه (مضاد الاستعمال)، أو لأخذه بجرعة كبيرة (تسمم حاد)، أو لعدم احترام المريض قواعد استعماله كالاستمرار على تناول بعض الأدوية، التي تميل إلى التراكم أو إلى إحداث حالة من الاعتياد أو الإدمان. وتعد الأدوية، جملةً، مواد غريبة، قد تحدث استجابات مناعية، وأحياناً حوادث أرجية أو تحسسية، كما يحدث بعضها سرطاناً، وقد يؤذي بعضها الكروموزومات والجنين (التأثير الماسخ).

ولابد أخيراً من الإشارة إلى أنه، للحد من أضرار الدواء بأنواعها المختلفة، أحدث مؤخراً مبحث دوائي جديد باسم «علم الأدوية اليقظ»، غايته تعريف أضرار الدواء (مرض الدواء) ليتلافى صانعه وواضعه ومسلمه ومستعمله، كل منهم ضمن مجال اختصاصه، الأسباب المؤهبة لظهور تلك الأضرار. كما أنه يرمي إلى رسم خطة لمعالجة كل ظاهرة ضارة دوائية المنشأ، وتم تأسيس مستوصفات ومستشفيات خاصة لإسعاف حوادث الطوارئ الدوائية.

الأشكال الصيدلانية

يراد من الأشكال الصيدلانية مستحضرات تحتوي العنصر الدوائي الفعال، تهيئها معامل الأدوية أو الصيدلي، ليصبح الدواء قابلاً للاستعمال بطريق الإدخال المناسب، وليكون أخذه متلائماً مع نفسية المريض ومع حالته المرضية.

وتكون الأشكال الصيدلانية صلبة أو لينة أو سائلة. فالأشكال الصلبة، تجهز للاستعمال، إما بطريق الفم بلعاً أو قضماً (مضغوطات ومحافظ وملبسات وكريات ولآلئ، ومحببات ومساحيق ضمن رزم وبرشان) أو مصاً (لسينات)، وإما دفناً تحت الجلد (مضغوطات صغيرة معقمة وحبابات تحتوي دواء مشعاً)، وإما زرقاً خلالياً بعد حلها بالمذيب المناسب، وإما بطريق المهبل (بيوض ومضغوطات مهبلية)، وإما بطريق الشرج (لبوسات أي تحاميل) و إما تطبيقاً موضعياً على الجلد (مساحيق رذ أو قماش لاصق مشرب بالدواء للتأثير الموضعي أو العام).والأشكال اللينة (مرهم وهلام)، تهيأ للتأثير الموضعي (تطبيقاً على الجلد والمخاطيات)، أو للتأثير العام كاستعمال مرهم النتروغليسرين في معالجة خناق الصدر، أو هلام مركبات الألومين في معالجة قرحة المعدة. و أخيراً تجهز الأشكال السائلة للاستعمال شرباً (شراب وجروع وإكسير ومستحلب وقطرات)، أو تقطيراً في الأنف والأذن والعين (قطور)، أو طلاء على المخاطيات ولاسيما البلعوم (طلاء)، أو إرذاذاً (حلالات هوائية)، أو زرقاً خلالياً وتشريباً ناحياً ومفصلياً وتسريباً وعائياً «وريدياً أو شريانياً» (سائل معقم ضمن زجاجات مختلفة السعة، وأكياس من اللدائن).

التجارب الدوائية ومراحلها وطرقها

الغاية من التجارب الدوائية دراسة كل دواء، سواء أكان جديداً لم يسمح باستعماله في المعالجة بعد، أم كان متداولاً لمراقبته دورياً ولمقارنته بأدوية تماثله في التأثير.

يمر الدواء في هذه التجارب بطريق طويل، منذ تعرفه مخبرياً عنصراً فعالاً دوائياً حتى السماح بصرفه من الصيدليات و ستعمه في المعالجة. فهو يخضع في أثناء ذلك لسلسلة من البحوث التي تتم عادة على أربع مراحل. هي: مرحلة صيدلانية كيمياوية فيزيائية، ومرحلة تجريبية في الحيوانات، ومرحلة سريرية في الإنسان، ومرحلة إحصائية.

ففي المرحلة الصيدلانية الكيمياوية الفيزيائية، يحرر العنصر الفعال من مصدره العضوي (النباتي أو الحيواني أو الجرثومي.....) أو المعدني نقياً، أو يحضر الدواء إنشائياً. وبعدئذ، يخضع هذا الدواء، لدراسة كيمياوية فيزيائية، لتبيان هيكله ونقاوته وثباته وقابلية انحلاله ووزنه الجزيئي.

وفي المرحلة التجريبية في الحيوان، يدرس الدواء، في الزجاج، على عضو معزول عن الحيوان وفي الخلايا المعزولة عنه والمزروعة، وفي الحي حيث يبقى الحيوان محافظاً على وعيه أو بعد تخديره. ويشترط في التجارب على الحيوان، أن تتلاءم فيزيولوجيته مع نوعية التأثيرات الدوائية المرتقبة. والغاية من تجربة الدواء على الحيوانات البحث عن خصائصه الدوائية وسميته، لترابط هذين المجالين معاً، إذ إن نتائج دراسة أحدهما قد تدعو لتعديل منهج دراسة المجال الآخر أو إلى تبديله كلياً. فدراسة الخصائص الدوائية، هدفها البحث في الحركية الدوائية للوصول إلى أفضل سبيل في إعطاء الدواء منفرداً أو مشتركاً مع غيره، وذلك اعتماداً على المعلومات المستقاة من التجارب المخصصة لمعرفة امتصاصه وتوزعه وتحوله الحيوي (استقلابه) وإطراحه وتداخلاته الدوائية. وتتطلب هذه الدراسة، اتباع طرق معايرات كيمياوية حيوية في منتهى الدقة، واستخدام المركبات الموسومة أحياناً. وتشمل دراسة خصائص الدواء: البحث في تأثيراته، المفيدة والضارة، والكشف عن آليات حدوثها إن أمكن ذلك. أما الدراسة السمية، العاجلة الحادة والآجلة المزمنة، فتجرى على نوعين من الحيوانات أو أكثر (قاضمة وغير قاضمة). وأصبح البحث عن التأثير المشوه للجنين وعن التأثير المسرطن والمطفر أمراً مدرسياً. وتعد نتائج التجارب على الحيوانات، حجر الزاوية ونقطة الانطلاق لمتابعة دراسة الدواء لأنها تمهد للبحث فيه عند الإنسان.

وفي مرحلة اختبار الدواء على الإنسان،

يجرب الدواء على الإنسان السليم المتطوع، وعلى المريض، وفي حالات خاصة ونادرة جداً على عضو معزول عنه. والدواء المراد درسه في الإنسان، يجب أن يكون سهل التحمل، ذا تأثير دوائي (ثابت بالتجربة الحيوانية) مبرر للبحث فيه. وإن تجربة الدواء على الحيوان لاتعطي في الحقيقة انعكاساً صادقاً لصلاحيته، إلا إذا كان الاختبار مبنياً على دراسة سريرية بشرية يقينية. وتعتمد الطرق المتبعة في هذه المرحلة، إما على طريقة التعمية البسيطة باستخدام الدواء الغفل تارة والدواء الحقيقي تارة أخرى، ولكليهما شكل صيدلاني واحد، وذلك من دون معرفة المجرب عليه. وإما بطريقة التعمية المزدوجة التي يبقى فيها المجرب عليه والطبيب بعيدين عن معرفة المادة الصيدلانية المستعملة في الاختبار.

وتتطلب طرق الاختبار عند الإنسان تصرفات أدبية من قبل الباحث وأعوانه، لأن دراسة الدواء وسميته عند الإنسان تماثل ما يتم إجراؤه عند الحيوان الحي. أما في المرحلة الإحصائية، فتجمع المعلومات الناتجة من الدراسة في كل من المراحل الثلاث السابقة والمستفادة من قبل جميع المراكز التي اشتركت بدراسة الدواء، وغالباً ما تكون تابعة لدول متعددة. ثم تجرى دراسة إحصائية كاملة لهذه المعلومات، وبذلك يكون ملف الدواء مجال البحث جاهزاً لدراسته من قبل لجان رسمية مخصصة لهذا الهدف، وهذه اللجان، إما أن ترفض الدواء بعد اختباره من قبلها، وإما أن تسمح بتصنيعه ليصبح قابلاً لصرفه من الصيدليات. وتختلف مدة السماح هذه وفقاً للأنظمة المتبعة في بلد التصنيع، وهي غالباً من ٣ إلى ٥ سنوات، على أن تعاد دراسة الدواء دورياً بعد مضي هذه المدة الزمنية.

التنظيمات الخاصة والدولية

بعد أن كثرت الأدوية الكيمياوية الإنشائية وظهرت لبعضها تأثيرات سمية خطرة، سنت معظم الحكومات المصنعة للدواء قوانين خاصة بها، بغية تنظيم صناعة الدواء واختباره ومراقبته. ففي الولايات المتحدة الأمريكية (مؤسسة الغذاء والدواء F.D.A) والنمسة والسويد وسويسرة (اللجنة الدوائية التابعة لكل منها)، تفرض التنظيمات المتبعة حالياً من قبل كل منها على مصنع الدواء تقديم دراسة وافية وكاملة عن البحوث التجريبية المجراة على الدواء في مراحل البحث الدوائي الأربع (الصيدلانية الكيمياوية الفيزيائية والتجربة عند الحيوان والاختبار على الإنسان والإحصائية)، وعندئذ تقوم هذه المؤسسات الدوائية الخاصة بالدولة بإعادة الدراسة لديها. ولا يقتصر هذا الأمر على الدواء الجديد، وإنما تعاد هذه الدراسة على كل دواء متداول مرة كل خمس سنوات. أما في إنكلترة (لجنة سلامة الدواء، لجنة دونلوب)، وفي فرنسة (لجنة الترخيص بتسويق الدواء)، فالتنظيمات الخاصة بكل منهما أكثر اعتدالاً، إذ لا يوجد شرط يفرض إعادة دراسة الدواء المتداول، ويقتصر في الدواء الجديد على دراسة تجريبية حيوانية مع مراقبته عند الإنسان. وهنالك تنظيمات حكومية (البرتغال مثلاً) أكثر تساهلاً مع الدواء لأنها تكتفي بتقديم مصنِّع الدواء تقريراً موجزاً عن نتائج تجربته الحيوانية واختباره البشري وربط بعض المنشورات الإعلامية بهذا التقرير.

من أجل هذه الاختلافات، أصدرت منظمة الصحة العالمية في عام ١٩٧٥ نشرة باسم «دليل تقويم الأدوية الطبية»، جاء فيه وصف مفصل للمراحل الواجب اتباعها، منذ تجهيز الدواء كيمياوياً حتى اختباره على الإنسان. كما أن مجموعة الدول الأوربية نسقت التنظيمات الدوائية الخاصة بدولها، فوضعت عام ١٩٧٥ توصيات في «دليل توجيهي للمراقبة الدوائية»، اشترطت فيه صراحة، ضرورة إجراء مراقبة اختبارية من دون أن تكون علاجية، عند الإنسان السليم، بهدف تقويم نتائج الدراسة التجريبية على الحيوان. وشملت توجيهات هذا الدليل ضرورة إجراء تدقيق تحليلي انتقادي لملخص الإحصاء الحيوي.

وتنشر معظم الحكومات في بلادها، في أزمنة معينة، دليلاً قانونياً يدعى قانون أو دستور الأدوية يتضمن وصفاً لخصائص الدواء الفيزيائية والكيمياوية والدوائية، مع ذكر طرق تحضير الدواء فنياً، وتحديد مقداره العلاجي بحديه الأعظمي والأصغري، وبيان تداخله حين أخذه مع غيره، وعوارض تأثيراته السيئة.

أكرم المهايني

مراجع للاستزادة:

- أكرم المهايني، علم الأدوية (دمشق ١٩٩٠).

- F.H. MEYERS, E. JAWETZ, & A. GOLDFIEN, Review of Medical Pharmacology (Lange Medical Publications, Los Altos, California).
- FABRE, Théraputique médicale (1983).
- DIPALMA, Drill's Pharmacology in Medicine (1986).

■ آدي (آندره -)
(١٨٧٧ - ١٩١٩)

آندره آدي Endré Ady شاعر هنغاري ولد في مدينة أرميند زينت Ermindszent لأسرة بروتستنتية تنتمي إلى طبقة نبلاء الريف. بدأ حياته الأدبية الفنية عندما أنهى دراسة الحقوق فعمل في صحيفة ناغي فاراد Nagyvárad إذ حظيت أشعاره الانتقادية والهجائية التي كان ينشرها في الصحيفة بنجاح كبير. وقد عبرآندره آدي في شعره عن غضبه العارم على الظلم والحرمان والعبودية التي عاش في ظلها سواء في حبه لفتاة تدعى ليدا Léda وللوطن أو في مرضه. وألهمه حب ليدا والقطيعة معها أول دواوينه الشعرية وأكبرها «قصائد جديدة» Poèmes neufs (١٩٠٦م).

لم يكن حب ليدا الحب الأكبر في حياة آدي لأنه منح وطنه حبه الكبير وربط مصيره الشخصي بقدره، إذ أحس بأن الخطر يداهمه من كل حدب وصوب. وهكذا تصدى آدي لمسؤولياته الوطنية وغدا شعره صوت هنغارية الحديثة.

ومما يجدر ذكره أن حبه الكبير لوطنه وقلقه على مستقبله لم ينتهيا به إلى شوفينية تعصبية ضيقة بل اتخذا في دواوينه صيغة حب أفلاطوني ولاسيما في أعماله «دم وذهب» Sang et Or (١٩٠٧) و«فوق عربة إيلي» Sur le char d'Elie (١٩٠٩) و«في مقدمة الأموات» En tête des Morts (١٩١٨).

وكذلك فقد عبر آدي في شعره عن حقيقة

داخلية خاصة به احتاجته على إثر المرض الذي ألمّ به، والذي دفعه ذات مرة إلى التفكير في الانتحار، وأدى به إلى الإدمان على المشروبات والمهدئات التي أجبرته على دخول مصحات ومشافٍ كان يغادرها باستمرار قبل انتهاء مدة علاجه. لقد شعر آدي بأنه منبوذ ومرفوض من كل من حوله وهذا ما يبدو في «بلا قبلة في عالم القبلات» Sans baisers parmi les baisers و«إنسان في عالم اللا إنسانية» Homme dans l'inhumanité و«نسيب الموت» Parent de la mort.

أما فيما يتعلق بالصبغة الدينية في شعره فيمكن أن يعزوها المرء إلى أسرته التي أورثته تعلقاً واضحاً بالتوراة التي تركت آثاراً جليّة في شعره الديني ولا سيّما في السنوات الأخيرة من حياته وراوح موقف آدي من الله بين الثورة عليه، حيناً، والتوسل إليه طالباً رحمته وغفرانه، حيناً آخر.

تبوأ آدي زعامة الشعر الحديث في هنغارية عام ١٩٠٨ وكان وراء فكرة إصدار مجلة «الغرب» Nyugat وتميز شعره بتماسك الرموز وغناها وكذلك بالرجوع المستمر إلى موضوعات تتعلق بوساوسه الخاصة: فالربط بين الدم والذهب له علاقة بالصعوبات المادية التي مر بها الشاعر، وموضوع الجواد الذي ما برح يطوف بلاد الموت حاملاً على ظهره فارساً تائهاً يفسر حنينه إلى هنغارية القديمة، هذا الحنين الذي كان وراء رؤية القيامة في شعره، إذ تنبأ بنشوب الحرب، وشعر بخطرها على هنغارية ورأى فيها نهاية للعالم. وربما كان من المفارقات أن تتزامن وفاة هذا الشاعر العظيم مع بداية اجتياح الحمى الثورية لمدينة بودابست التي توفي فيها.

منصور حديفي

■ أديس أبابا (أبا)

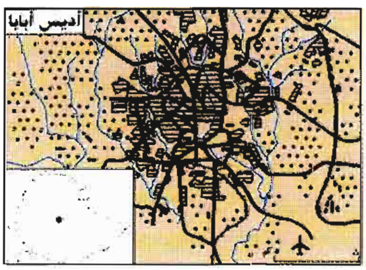
أديس أبابا Addis Abeba حاضرة إثيوبية. وتقع في وسط البلاد على خط عرض ٩ درجات شمالاً وخط طول ٣٨ درجة و٥٠ دقيقة شرقاً، على جبل أبيسنك ٢٤٢٠م فوق سطح البحر. حيث تحميها السلاسل الجبلية العالية من التيارات الهوائية الشمالية والغربية، ولذلك تتمتع بمناخ معتدل.

لمحة تاريخية

أسسها الامبراطور الإثيوبي مينيليك الثاني في عام ١٨٨٥، وأصبحت عاصمة البلاد منذ ١٨٩٣م، وأطلق عليها اسم فينفين (الوردة الجديدة). وجعلها الامبراطور هيلاسيلاسي الأول مركزاً لحكومته منذ عام ١٩٣١م. وخضعت للاحتلال الإيطالي منذ عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٤١. ولأهميتها الإقليمية أقامت الأمم المتحدة فيها مركزاً اقتصادياً واجتماعياً في عام ١٩٥٨ لدراسة الظروف الاقتصادية والسكانية في القارة الإفريقية. وأصبحت أديس أبابا تتمتع بأهمية سياسية دولية منذ عام ١٩٦٣، حيث جرى فيها أول لقاء لرؤساء حكومات الدول الإفريقية الذي تمخض عن تشكيل منظمة الوحدة الإفريقية ومركزها الدائم في العاصمة الإثيوبية. ومنذ عام ١٩٧٤ تطورت أديس أبابا تطوراً سريعاً في المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

النمو السكاني والعمراني

أديس أبابا كبرى المدن في إثيوبية وفي شرقي القارة الإفريقية، يعيش فيها أكثر من مليون ونصف المليون نسمة (١٩٨٤) أو ٤,٥٪ من سكان البلاد، وتضم أكثر من ثلث سكان المدن



الإثيوبية، وتتفوق على المدينة الثانية حينذاك أسمرة بأربع مرات، وقد زاد عدد سكانها بين عامي ١٩٦٥ و١٩٨٤ من نصف مليون إلى مليون ونصف المليون نسمة وإلى ٢,٢٠٩,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٩٥، نتيجة الهجرة الريفية والزيادة الطبيعية التي بلغت ٢٥ بالألف (بلغت نسبة الولادات ٥٠ بالألف والوفيات ٢٥ بالألف). وترتفع الكثافة العامة إلى أكثر من ٥٠٠٠ نسمة/كم² وتنخفض في ضواحيها إلى ما دون ١٠٠ نسمة/كم².

ترتفع نسبة الأطفال (أقل من ١٤ سنة) في العاصمة إلى أكثر من ٤٠٪ بينما تبلغ نسبة الذين سنهم بين ١٥ و٦٤ سنة نحو ٥٦٪.

وتتفوق نسبة الإناث على الذكور في العاصمة وفي معظم المدن الإثيوبية بسبب عمل معظم الذكور في الأقاليم والمناطق الزراعية والرعوية وتنقلهم بحسب المواسم الزراعية.

ينتمي معظم سكان العاصمة إلى القومية الأمهرية (أكثر من ٥٠٪)، إلى جانب أقليات من العرب والهنود وغيرهم من الأجانب من إفريقيين وآسيويين وأوربيين. ويدين نحو نصف السكان بالديانة الإسلامية ونحو ٤٠٪ بالديانة المسيحية.

تجمع أديس أبابا ما بين وجهي العمران الإفريقي التقليدي القديم والأوربي الحديث. وقد زالت معظم المباني الأثرية القديمة في أثناء الاحتلال الإيطالي، وحافظت الدولة على بعضها الآخر. وتنتشر الأبنية القديمة انتشاراً عشوائياً مبعثراً على مساحة ٢٥٠كم²، ويتألف معظمها من طوابق أرضية مبنية من الطين والحجارة ويغلب عليها اللون الأبيض. وبدأ العمران من النمط الأوربي المتعدد الطوابق والمبني من الإسمنت المسلح والحجارة منذ نهاية الخمسينات، منها مبنى اللجنة الاقتصادية للقارة الإفريقية.

وتشتهر العاصمة بساحاتها الواسعة وبحدائقها الخضر الجميلة. منها ساحة أدوا (ساحة النصر: وكانت تسمى ساحة هيلاسيلاسي) التي تقع على أطرافها مباني المتاحف الوطنية والبنوك المحلية والأجنبية وقصر الامبراطور التاريخي والبرلمان الإثيوبي. ومن أهم شوارعها الحديثة شارع الملك كيركي، حيث توحد المنشآت العمرانية الحديثة لوزارة الخارجية والمالية وكليات الجامعة، ومن أجمل تماثيلها المشهورة تمثال مارتيس (لشهداء الاستقلال) الذي أقيم في ساحة أكاتيت عام ١٩٣٩.

وظائف المدينة

تتمتع المدينة بأهمية سياسية واقتصادية وعلمية وثقافية وإدارية للقارة الإفريقية عامة ولإثيوبية خاصة ولا سيما لإقليم شوا. فهي مركز للمنظمات الإقليمية والدولية وللبعثات الدبلوماسية وللحكومة الإثيوبية. كما تعد

أديس أبابا أهم مركز اقتصادي وصناعي في البلاد، إذ تضم أكثر من نصف الصناعات التحويلية والغذائية والخفيفة، كما أقامت الحكومة فيها أهم الصناعات الحديثة كصناعة الحديد والصلب في أكاكي إحدى ضواحي العاصمة، وصناعة الإسمنت، ومعملين لتجميع صناعة الجرارات الزراعية والسيارات ومعملاً لصنع إطارات السيارات.

ولقد تطورت فيها صناعة الجلود والأحذية في السنوات الأخيرة، فبلغ إنتاجها أكثر من ٣٠٠ ألف زوج من الأحذية منذ عام ١٩٨٤، ونمت صناعة الكونسروة وتعليب اللحوم وصناعة عصر الزيوت ومطاحن الحبوب والمشروبات الروحية. وتشتهر العاصمة بالصناعات اليدوية التقليدية النسيجية والخشبية والجلدية والمعدنية والفخارية.

وتضم أديس أبابا أكبر المراكز العلمية والثقافية في البلاد. فقد أُسس فيها أول معهد للدراسات العليا في عام ١٩٥٥ تحول فيما بعد إلى الجامعة الإثيوبية (١٢ ألف طالب في عام ١٩٨٥)، وتضم مختلف الكليات العلمية والإنسانية. وفيها معاهد للأبحاث العلمية والتاريخية والاقتصادية والسياسية، كما تضم أكثر من خمسة عشر معهداً ومشفى طبياً، إضافة إلى المراكز الصحية الدولية والمراكز الصحية للأمراض المختلفة المنتشرة في المناطق المدارية. وكذلك تضم العاصمة أكبر مكتبات إثيوبية وفيها خمس دور للسينما والمسرح.

يصدر في العاصمة عدد من الجرائد والمجلات باللغتين الأمهرية والإنكليزية، وفيها محطتان للإذاعة والتلفزيون.

وتُعد أديس أبابا عقدة مواصلات برية تنطلق منها طرق معبدة باتجاه المدن الرئيسية والدول المجاورة، منها طريق أسمرة ـ أديس أبابا، وطريق عصب ـ أديس أبابا حتى الحدود الكينية جنوباً. ويعد الخط الحديدي جيبوتي ـ أديس أبابا أهم الخطوط الحديدية في البلاد وأطولها وهو يصل المراكز الزراعية والصناعية والإنتاجية بميناء التصدير جيبوتي على خليج عدن. كما ترتبط العاصمة بخطوط جوية دولية وداخلية تصلها بأربعين مركزاً داخلياً ومع ٢٨ مدينة دولية.

أما الخدمات العامة فما زالت ضعيفة وخاصة في مجال توفير المياه النقية والكهرباء والصرف الصحي وغيرها من الخدمات.

أسامة قدور

الموضوعات ذات الصلة:

إثيوبية.

■ إديسة ← الرها

■ إديسون (توماس ألفا ـ) (١٨٤٧ ـ ١٩٣٠)

توماس ألفا إديسون Thomas Alva Edison مخترع أمريكـي، يُعد من العباقرة البارزين في تاريخ الصناعة والتقانة ومن أكثر المخترعين إنتاجاً في كل العصور إذ مُنح أكثر من ألف براءة اختراع أمريكية هي من عمله هو أو من عمل فريق تحت إشرافه. وقد ساعدت ثلاثة من اختراعاته، هي الحاكي (الفونوغراف) ونظم الإنارة بالمصباح الكهربائي وآلة التصوير السينمائي، في إنشاء صناعات ضخمة غيرت حياة العالم وزادت من رفاهيته. وكان إديسون، إضافة إلى كونه مخترعاً ورجل أعمال ناجحاً، من الشخصيات المرموقة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ولد إديسون في ميلان أوهايو، وكان والده صموئيل إديسون تاجر أخشاب وذا ثقافة قليلة، وهو من أصل إنكليزي وأجداد هولنديين، أما والدته نانسي إليوت فكانت مدرسة أطفال وهي من أصل اسكتلندي. وعندما بلغ إديسون السابعة اضطرت الأسرة، بسبب ضعف مواردها المالية، إلى أن تهاجر إلى بورت هيورن في ميشيغان حيث عاشت في ظروف أشد فقراً.

وكان إديسون منذ طفولته يتعلم بطرح الأسئلة والبحث عن علة الأشياء واكتشاف ذلك بنفسه، وقد أدخله والده المدرسة ولكن لم يستمر فيها سوى ثلاثة أشهر لأن الطريقة المتبعة في التدريس كانت ضرب التلاميذ وإرهابهم والسخرية منهم، فتولت أمه بنفسها تعليمه وتنشئته وتفرغت له إذ تركت تدريس الأطفال بعد زواجها. وأكمل إديسون تعلمه في البيت لمدة ٣ سنوات، وعندما بلغ العاشرة أعطته أمه كتاباً مبسطاً في الفيزياء التجريبية فقرأه بنهم واختبر كل ما جاء فيه بنفسه. وأقام في العام التالي مختبراً كيمياوياً صغيراً في سقيفة البيت.

وبسبب حاجته المادية إلى مزيد من المال لشراء الأجهزة والأدوات والمواد الكيمياوية امتهن، حين بلغ الثانية عشرة، بيع الصحف في القطار بين مدينتي بورت هيورن وديترويْت ونقل مختبره الكيمياوي من السقيفة إلى عربة البضائع في القطار كسباً للوقت، وكان ينتهز فرصة انتظاره عودة القطار إلى بورت هيورن ليقرأ ما يشاء من الكتب في مكتبة ديترويْت العامة. وعندما بلغ الخامسة عشرة اشترى آلة طباعة صغيرة وأصدر صحيفة بصفحة واحدة سماها «الهيرالد الأسبوعية» كان يطبعها وينشرها ويبيعها في القطار.

وفي عام ١٨٦٣، وكان إديسون في السادسة عشرة، تعلم مبادئ البرق السلكي (التلغرافية) وشغل وظيفة عامل تلغراف طوال السنوات الأربع التالية، وبدأ في أثنائها يحلم بأن يكون مخترعاً، وتحقق طموحه هذا في عام ١٨٦٨ عندما عمل في شركة الغرب المتحدة للبرق السلكي في بوسطن، وفيها اشترى نسخة مستعملة من كتاب فارادي «بحوث تجريبية في الكهرباء» فقرأه كله وكان ذلك نقطة تحول مهمة في حياته.

كان أول اختراعاته جهازٌ كهربائيٌ يسجل تلقائياً أصوات الناخبين لكن لم يجد من يشتري هذا الجهاز، ثم أدخل تحسينات على جهاز البرق الكاتب الذي بيع بأقل من كلفته، وقد حصر إديسون تفكيره منذ ذلك الوقت في اختراع ما يقبل الناس على شرائه.

وفي عام ١٨٦٩ سافر إديسون إلى نيويورك وفيها اكتُشفت براعته في إصلاح أعطال أصابت جهاز الإرسال المركزي فعُين في وظيفة ذات مرتب عال نسبياً، غير أنه فقد هذه الوظيفة بسبب اندماج مؤسسته في شركة أخرى. ومالبث أن أجرى تحسينات مهمة على جهاز البرق الكاتب العائد للشركة التي كافأته بمبلغ

كبير (٤٠ألف دولار) وكان ذلك في عام ١٨٧٠. وقد استطاع إديسون أن يُنشئ بهذا المال مصنعاً في نيويورك لصنع أجهزة البرق الكاتبة وذاع صيته بأنه الشاب العجيب الذي يستطيع أن يصلح كل عطب يصيب أي جهاز، واكتسب من عمله مالاً كثيراً ساعده على تحسين الجهاز فصمم في عام ١٨٧٣ البرق السلكي diplex الثنائي الإشارة، أي يمكن به إرسال إشارتين في آن واحد وفي سلك واحد في الاتجاه نفسه. وفي عام ١٨٧٤صمم الجهاز quadruplex (رباعي الإشارة) الذي يستطيع نقل أربع إشارات في آن واحد في سلك واحد، وأتبعه بعد ذلك بالجهاز sixtuplex (سداسي الإشارة) وانتقل إديسون في عام ١٨٧٦إلى منلو بارك Menlo Park، حيث أنشأ أول مصنع عالمي للاختراعات زوَّد مختبره بأحسن التجهيزات ومساعدين قادرين، وقد أُعدّ هذا المصنع لإجراء الاختبارات والتصليحات واختراع منتجات مرغوبة. وكان أول ماأنتجه المصنع جهاز الإرسال الهاتفي الكربوني ثم الحاكي الذي يعد أكمل اختراع لإديسون والذي كان السبب في أن الصحف الشعبية بدأت تكيل المديح لإديسون وتصفه بالساحر العجيب. كذلك أدخل إديسون تحسينات مهمة على المصابيح الكهربائية وأنشأ شبكة كهربائية للإنارة نافست شبكة الإنارة بالغاز التي شاعت آنئذ، فازدهرت بذلك صناعة الشبكات الكهربائية للإنارة.

وفي عام ١٨٨٣ كان إديسون يختبر مصباحاً كهربائياً وضع في الفجوة بين ذراعي سلكه المتوهج سلكاً آخر، فلاحظ مرور تيار كهربائي ضعيف بين السلكين حين يوصل السلك الدخيل بالتوتر الموجب للدارة وينقطع مروره حين يوصل بالتوتر السالب، ولم ير إديسون فائدة عملية لهذه الظاهرة فلم يعرها أية أهمية، وقد سميت فيما بعد «أثر إديسون» وفسرّها ج. ج. تومسُن في عام ١٨٩٧بأنها ناجمة عن انتقال الإلكترونات من السلك المتوهج إلى السلك الآخر، كما استخدمها ج. أ. فليمنغ في صنع أول أنبوب إلكتروني لكشف الأمواج الراديوية.

وانتقل إديسون في عام ١٨٨٧ من منلوبارك إلى وست أورانج حيث بنى مختبراً أكبر وأحدث ضم مجموعة اختراعاته وفيه صنعت أحدث أجهزة الحاكي والأسطوانات records والآلات الكاتبة وأجهزة الإنارة الفلورية وآلة التصوير السينمائي وآلة العرض والبطارية القلوية التي مسرياها النيكل والحديد.

وقد استمر إديسون في عمله حتى وهو في الثمانين من عمره، وقضى معظم وقته حينئذ محاولاً استخلاص عصارة المطاط من نباتات محلية.

لقي إديسون كثيراًمن آيات التكريم: ففي عام ١٩٢٨قرر الكونغرس الأمريكي بإجماع الآراء منحه ميدالية ذهبية لإسهاماته العديدة فيما يعود على الأمة من خير وفوائد، وقلده الملوك والرؤساء الغربيون أوسمة وميداليات مختلفة. وفي عام ١٩٢٩رمم هنري فورد مختبر إديسون في منلوبارك، وفي عام ١٩٦٢جُعل مختبره في وست أورانج وبيته القريب منه متحفين تاريخيين وطنيين يؤمهما جمهور الناس. وفي ١٩٦٠انتخب إديسون في جامعة نيويورك ليكون في رواق المشهورين من عظماء الأمريكيين.

طاهر تربدار

مراجع للاستزادة:

- F.L.DYER, T.C.MARTIN,& W.H.HEADOCROFT, Edison : His Life and Inventions, 2vols. (1929).

■ أديسون (جوزيف-) (١٦٧٢-١٧١٩)

جوزيف أديسون Joseph Addison صحفي وكاتب وشاعر ومسرحي ورجل سياسة إنكليزي، ربما كان من أهم كتاب المقالة في النصف الأول من القرن الثامن عشر. يرتبط اسمه بالدرجة الأولى بصحيفتين ظهرتا في تلك الحقبة هما «التاتلر» The Tattler أي الثرثار (١٧٠٩-١٧١١) و«السْبكتيتَر» The Spectator أي المراقب (١٧١١-١٧١٢) وباسم صديق له هو رتشارد ستيل Richard Steele (١٦٧٢-١٧٢٩) كان يشاركه في كتابة المقالات حتى صار الاسمان متلازمين في تاريخ الأدب الإنكليزي.

ومن المعروف أن زيادة أهمية النشر وظهور الصحافة علامتان من علائم استقرار المجتمع والتقدم الحضاري. وقد بدأ المجتمع الإنكليزي في النصف الأول من القرن الثامن عشر يسير بهذا الاتجاه بعد أن هزّته في القرن السابع عشر حرب أهليّة انتهت بسيطرة البيوريتانيين (المتطهرين) puritans وبظهور نزعة التزمّت



المعادية للفكر الحر والحياة المنفتحة والفنون. غير أن هذه الحقبة سرعان ما انتهت بعودة المَلَكية عام ١٦٦٠ فانقلبت الموازين. وأخذ المجتمع الإنكليزي في عهد تشارلز الثاني على وجه الخصوص يتجه الاتجاه المعاكس، وتطرّف في التحلُّل من قيود الحقبة السابقة. ولكن المجتمع أخذ يتجه نحو الاعتدال بعد حدوث ما يدعى بالثورة المجيدة التي أطاحت الملك الكاثوليكي جيمس الثاني (١٦٨٨) من دون إراقة للدماء (ومن هنا جاءت تسميتها بالمجيدة). وأخذت تزداد فيه قوّة الطبقة الوسطى مع ما تمثّله من قيم. وقد عبر جوزيف أديسون عن روح الاعتدال هذه تمشياً مع ما كان يؤمن به من وسطيّة أرسطيّة تسعى إلى التوفيق بين المبادئ الأخلاقية والإقبال على الحياة. وقد جمع أديسون إلى ذلك قدرة على بثّ الثقافة الرفيعة بين قرّائه فجعله ذلك لسان حال الطبقة الوسطى في العالم الناطق بالإنكليزية على جانبي المحيط الأطلسي.

كان أديسون قد لفت الانتباه بشعره قبل أن يلفته بنثره. فقد أثارت قصائده باللاتينية اهتمام الشاعر دْرايْدن [ر]. وكان قد نظم قصيدة عنوانها «الحَمْلَة» The Campaign (١٧٠٤) عبّر فيها عن فرح الشعب الإنكليزي بانتصار مارلْبَرَه في معركة بلنهايْم ضدّ الفرنسيين و البافاريين. ومع أنها لا تعدّ الآن من خيرة الشعر فإنها نجحت في التعبير عن مشاعر الناس آنذاك. وكتب مسرحية شعرية عنوانها «كيتو» Cato (١٧١٣) حافظ فيها على ما كان

يسمّى آنذاك الوحدات الثلاث (وحدة الحَدَث والمكان والزمان). ومع أنها تعدّ الآن مسرحية لا حياة فيها فقد نالت شهرة واسعة في عصرها ربما بسبب ما قرأه النّاسُ فيها من معانٍ سياسية، فقد كان أديسون وثيق الصلة بالحياة السياسية، إذ عيّن وزيراً في وزارة الخارجية (١٧٠٦) وفاز بعضوية البرلمان بين سنة ١٧٠٨ وسنة ١٧١٩، إلى غير ذلك من المناصب السياسية.

كانت صحيفة «التاتلر» تصدر ثلاث مرّات في الأسبوع وتضمّ نُتَفاً من الأخبار وبعض المقالات الساخرة. أما «السبكتيتر» التي أصدرها أديسون مع صديقه سْتيل فكانت تصدر يومياً باستثناء يوم الأحد. وكانت هذه الصحيفة ورقة واحدة تَمْلَؤُها المقالة الرئيسة بالدرجة الأولى. وكانت المقالات تؤلف أحياناً سلسلة مما جرت عليه الصحف الحديثة يكون موضوعها تعليقاً مستمراً على عادات الناس وحماقاتهم وأخلاقهم وفلسفتهم وأدبهم. وكان «المراقب» (وهو شخصية وهمية تكتسب صفة المراقب للمجتمع) فيلسوفاً عركته الحياة يشترك هو وأربعة من أصدقائه في نادٍ واحد، ويمثّلون معاً أنماطاً بشرية مختلفة المشارب. وكان أشْهَرَ هذه الشخصيات المُخْتَلِفَة عَيْنٌ من أعيان الرّيف اسمُه السير روجر دي كفرلي يراقب ما يجري في مجتمع المدينة بقدْرٍ من بَراءةٍ ريفيةٍ هي وسيلةٌ للنَّقْد ومصدرٌ للمتعة في الوقت نفسه.

لقد أوجد أديسون هو وصديقه ستيل أسلوباً طيّعاً سائغاً يبتعد عن الحذلقة مثلما يبتعد عن الإسفاف، و يتّصف بالدِّقّة التي لايشوبها الإملال، وبالسلاسة التي لايعيبُها الابتذال.

وقد نصح الدكتور صموئيل جونسون [ر] كلَّ مَنْ يودّ الارتقاء بأسلوبه بصرف الليالي في دراسة المجلّدات التي خلّفها أديسون. وقد أيّد الخَلَفُ صوابَ نُصْحِ هذا السَّلَف.

محمد عصفور

مراجع للاستزادة:

- C. S. LEWIS, Addison, Eighteenth-Century English Literature : Modern Essays in Criticism, ed. James L. Clifford (New York 1959).
- G. S. MARR, Periodical Essayists of the Eighteenth Century (London 1925).

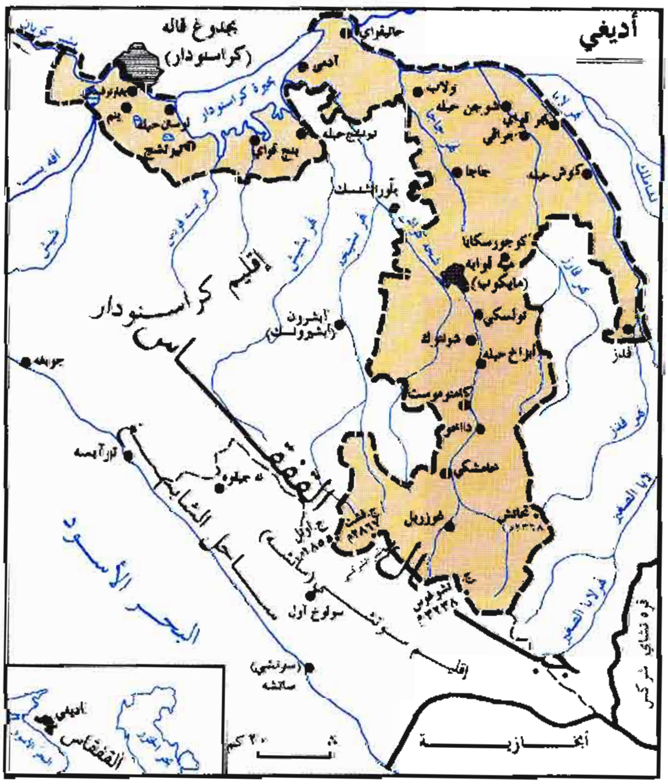
■ أديغة ← الشركس

■ أديغيي

أديغيي أو أديغية Adigheya جمهورية اتحادية من جمهوريات القفقاس الشمالي نشأت عن انهيار الاتحاد السوفييتي [ر]، وتنسب إلى الأديغة Adighe الاسم القومي للشركس [ر].

تقع شمال غربي القفقاس يحدها نهر بْشيز (الكوبان) شمالاً وقمم جبال القفقاس جنوباً ومجرى نهر لابا شرقاً ومناطق من إقليم كراسنودار غرباً. مساحتها ٧٦٠٠كم² وتؤلف رقعة متقلصة من أديغية (شركسية) التاريخية التي كانت تربو مساحتها على ٢٥٠٠٠٠كم² من القفقاس الأوسط والغربي حتى بحر آروف والبحر الأسود ونهري الدون ومانيتش في الغرب والشمال.

تتألف أديغيي من شريطين أرضيين: شريط شمالي سهلي ممتد من الشرق نحو الغرب ويساير نهر بشيز الأوسط ومصاطبه، يعلو حتى ٢٠٠م فوق سطح البحر وعليه عشرات التلال الأثرية؛ وتغطيه التربة السوداء الخصبة وتربة الأودية اللحقية، إضافة إلى التربة الغدقة في المنخفضات. أما الشريط الثاني فيتجه من الشمال إلى الجنوب ويحتل معظم حوض نهر شْخه غواشة (بيلايا)، ويسايره في الشرق لسان أرضي يحتل حوض نهر فَذز. يرتفع الشريط الجنوبي هذا من ٢٠٠م إلى ٥٠٠م في الشمال حتى يصل إلى قمم جبال تحاتْش (٢٣٦٨م) وأتاماحي (٢٦٦٩م) وفِشْت (٢٨٦٧م) وقمة تْشوغوش (٣٢٣٨م) أعلى جبل في البلاد في



الجنوب. يخترق المناطق الجبلية الكثير من الأودية السحيقة والخوانق التي حفرتها الأنهار وروافدها، كما تنتشر فيها التضاريس الكارستية وأبرزها مغارة أزبش. وتظهر في القمم العالية جليديات صغيرة وما يرافقها من تضاريس. أما المناخ فدافئ معتدل ورطب ومتوسط الحرارة يراوح في الصيف بين ١٥ و٢٣ درجة مئوية وفي الشتاء بين ٥ و-٧,٥ درجة مئوية. وتصل الفروق الحرارية القصوى إلى ٦٠ درجة مئوية (+٣٧ درجة و-٢٣درجة

مئوية) في الشمال، وإلى ٦١ درجة مئوية (+٣٦ درجة و-٢٥ درجة مئوية) في ميه قوابه (مايكوب) وإلى أكثر من ذلك في الجبال. ومتوسط الأمطار نحو ٧٠٠ مم سنوياً وتزيد على ٢٥٠٠مم في الجنوب حيث يسقط أغلبها ثلجاً، ونموذج التهطال صيفي وخريفي (معظمه بين نيسان وتشرين الثاني).

الجمهورية غنية بالمياه. عيونها كثيرة ودائمة، بعضها معدني أو له خواص علاجية أنهارها كثيرة أبرزها أنهار: لابا وقدْز وفارْز وجاجا وشْحَه غُواشه ورافده كورجْبْس وبشيخة وبشش وبسَه قوبس وأفِبْس وعشرات غيرها، كلها ترفد نهر بشيز مباشرة أو بصورة غير مباشرة. أما نهر بشيز (كوبان) فينبثق من قمم القفقاس ويصب في بحر أزوف، طوله ٩٨٤كم ويرسم مجراه الأوسط الحدود الشمالية للجمهورية وقد نظمت فيضانات الأنهار المهمة واستغلت للري ولتوليد الكهرباء بسدود أهمها سد كراسنودار وبحيرته التي غمرت آلاف الهكتارات وتسببت في خسائر وأضرار اجتماعية ومشكلات لا تناسب ما بني السد من أجله. وقد تم ترحيل آلاف الأسر من سهول الغمر إلى مدينة أديغة قالة في عهد السوفييت.

تغطي الغابات ٣٩,٣٪ من أراضي أديغيي وتتألف من أشجار ذات قيمة اقتصادية عالية تغلب عليها الصنوبريات وتكثر فيها الأشجار البرية المثمرة كالتفاح والكمثرى والتوت بأنواعه كذلك تنتشر بينها المروج، وتعيش فيها شتى أنواع الحيوانات والطيور، وفي أنهارها أكثر من ١٣٠ نوعاً من السمك.

سكان الجمهورية هم من الأديغة وهم من المواطنين الأصليين، ويؤلفون نحو ٢٨٪ من السكان البالغ عددهم نحو ٤٥٢٠٠٠ نسمة (١٩٩٥)، وينتمون إلى قبائل البْجَدوغ والكَمغُوي والشابسُغ والأبزاخ وقلة من قبائل أخرى.

أما الباقون فمن المستوطنين الوافدين من الروس والقوزاق والأرمن وغيرهم. ويدين الأديغة بالإسلام وغيرهم بالمسيحية وفيهم ملحدون مع قلة من اليهود. ويتكلم السكان اللغتين الرسميتين الأديغية والروسية. وقد تطور عدد السكان من ٣٠٠,٠٠٠ نسمة (١٩٣٦) إلى العدد المذكور أعلاه نتيجة سياسة التوطين الروسية في الجمهورية وفي القفقاس عامة.

وتتركز أعلى الكثافات في الوسط وحول العاصمة وفي الشمال، ويعيش نحو ٥٢٪ من السكان في الريف و٤٨٪ في المدن. وأشهر هذه المدن العاصمة مَيَه قوابَه (مايكوب) وفيها نحو ١٦٣,٠٠٠ نسمة ثم مدينة تيوتشوج وأديغة قالة (أديغيسك) ولوستان حابلة ويَنَم وغيرها.

وجمهورية أديغيي غنية بمواردها الاقتصادية وثرواتها الطبيعية من تربة وماء وشروط مناخية نموذجية وثروات غابية ونباتية وحيوانية، وأخرى باطنية كالغاز والنفط ومواد البناء والمياه المعدنية وبعض المعادن كالحديد والفضة. وتعد هي والقفقاس مصدرًا مهماً للمواد الغذائية والمواد الأولية لكثير من المصنوعات التي كانت تنتج في الاتحاد السوفييتي سابقاً وفي روسية الاتحادية اليوم. فهي تنتج الحبوب كالقمح والأرز وغيرهما وتنتج الذرة الصفراء والشوندر السكري وعباد الشمس وأغلب أصناف الخضر وشتى أنواع الثمار والفاكهة وتنتشر فيها مزارع التبغ والشاي والورد لاستخراج العطور في مصنع كوشَه حابله للعطور والأدوية.

وتقدم غاباتها الكثير من الأخشاب التي تقوم عليها صناعة خشبية وورقية مهمة، كما تقدم مروجها وثمارها مواد غذائية أولية وأعلافاً وأعشاباً طبية.

ويعد مردود المحاصيل الزراعية في أديغيي من أعلى الأرقام في الجمهوريات الأوربية الشرقية. ويتركز معظم النشاط الزراعي في الشمال والوسط وفي أودية الأنهار. وتربى في البلاد الأبقار والأغنام والدواجن بكثرة. ومازالت تربية الخيول تحظى باهتمام ملحوظ. وللصناعة فيها مكانة مرموقة، إذ تشتهر أديغيي بصناعة المواد الغذائية وإنتاج اللحوم والمعلبات بأنواعها (نحو ١٥٠,٢٠٠,٠٠٠ علبة سنوياً) وإنتاج الجبن الشركسي ومنتجات الألبان، والمشروبات، وتعبئة المياه المعدنية (معمل أديغيي) والسكاكر، ومواد البناء، وصناعة الآلات والمكنات والمنتجات البتروكيمياوية، والغاز الطبيعي، والورق المقوى والسللوز والأثاث الخشبي والمنتجات الخشبية الأخرى، ويبلغ ماتنتجه من كهرباء من أنهارها وحدها ٥٠٠ مليون كيلوواط ساعي.

وإنتاجها من الغاز الطبيعي يزيد على ١٦,٥ مليار م³ سنوياً. وتعد صناعة السياحة والاستجمام مصدراً جيداً للدخل القومي. وفي البلاد شبكة مواصلات جيدة. وبين مدنها وقراها طرق لرحلات يومية منتظمة للحافلات والمركبات، كما ترتبط عاصمتها بسكة حديد الجنوب التي تربط بين موسكو والبحر الأسود. وبسكة حديد أخرى تتجه إلى الجبال. وقرب ميَه قوابَه مطار للرحلات الداخلية كما يصلح نهر بشيز للملاحة النهرية. أما تجارتها فنشيطة مع جمهوريات روسية الاتحادية، وتقوم الحكومة الجديدة برسم خططها الاقتصادية على نحو يحفظ مصالحها ضمن الاتحاد الروسي الجديد، منذ أصبحت جمهورية مستقلة ذاتياً في الخامس من تشرين الأول عام ١٩٩٠.

تاريخ السكان الأصليين من الأديغيين موغل في القدم، كشفت بداياته من العصر الحجري القديم في أبزاخ حابله ووادي شْحَه غواشه. وتعد أديغيي من أقدم مواطن الإنسان في جنوب شرقي أوربة، وهي مهد حضارة الكوبان وميه قوابه التي عثر في تلالها ومدافنها الملكية على آثار ازدهار حضاري امتد من سنة ٣٠٠٠ ق.م حتى القرن ١٥ للميلاد، وشمل القفقاس الشمالي من البحر الأسود حتى جبال داغستان. وفيها الكثير من التلال الأثرية والديناميس (المكامن) التي كشف فيها عن آثار ومصنوعات معدنية وغير معدنية دقيقة الصنع وأدوات وحلي ذهبية وفضية بديعة من المدفن الملكي في ميه قوابه (الألف الثالث ق.م) ومدفن الأخوة السبعة (القرن ٦ - ٤ق.م) وموقع ولاب Ulap الذي حوى أثراً فنياً نادراً، وهو كوب فضي له هيئة حصان مجنح ملبّس بالفضة وعليه مشاهد صراع بين العمالقة والآلهة (القرن الخامس ق.م)، ومثله الإناء الفضي الذي يحمل أقدم خريطة في العالم.

وتعد قبائل الميئوت Meot والسند والكَركت والزيخ والهينوخ أجداد الأديغة الحاليين. والميئوت هم حملة حضارة البرونز، ويقودون تحالفاً يضم السند وقبائل أصغر مثل الدانداري والتوريات والأغرة وغيرهم. ولقد جذب غنى أديغيي الغزاة، فغزتها أقوام شمالية وشرقية منهم السارمات والهون والخزر والروس. لكنها لم تخضع للمحتلين إلا اسمياً ولأمد قصير، حتى احتلها الروس بعد حروب دامت نحو ١١٠ سنوات انتهت في ٢١ أيار عام ١٨٦٤ واستشهد فيها أو تعرض للمذابح والإبادة الجماعية على يد الروس قرابة المليون

من الأديغة المسلمين. وفي أثنائها جرى تهجير قرابة المليون ونصف المليون إلى أراضي الامبراطورية العثمانية. ولم يبق في أديغية التاريخية سوى نصف مليون من سكانها الأصليين تقريباً. ودفع الروس بمئات الآلاف من أقوامهم ومن القوزاق والأوكرانيين واليهود وغيرهم لاستيطان أديغية، وفرضوا اللغة الروسية لتغيير هوية البلاد و«ترويس» السكان. واستمرت هذه السياسة في العهد السوفييتي، فقسمت أديغية التاريخية إلى كيانات ذات حكم ذاتي شكلي خاضع لموسكو، ويضم كل كيان قبيلة أديغية أو مجموعة قبائل، هي جمهورية القبرتاي ـ البلقار، ومقاطعتا القرشاي ـ الشركس، وأديغيي، ومنطقة شابسغ البحر الأسود، وقد تأسست مقاطعة الأديغيي ذات الحكم الذاتي في ٢٧ تموز ١٩٢٢ في جمهورية روسية السوفييتية الاتحادية. ثم أصبحت أديغيي جمهورية، في إطار روسية الاتحادية منذ عام ١٩٩٠ وتعمل على بناء ذاتها. وبرلمانها مؤلف من ١٠٠ نائب وهي عضو في اتحاد شعوب القفقاس الجبلية الذي يضم جمهوريات القفقاس الشمالي، ويسعى إلى إحياء جمهورية (اتحاد شعوب القفقاس الشمالي) التي ظلت قائمة حتى قضى عليها الجيش الأحمر والنظام السوفييتي عام ١٩٢١.

ولسكان أديغيي علاقات وثيقة وصلات قربى مع بلدان الوطن العربي ولا سيما سورية والأردن إذ يعيش فيهما أكثر من ١٢٥,٠٠٠ نسمة من أحفاد الأديغة. وقد تمتنت هذه العلاقات بعد زوال الاتحاد السوفييتي، وبعد الانفتاح الذي أدى إلى تبادل الزيارات وتسيير حافلات الركاب بين دمشق والقفقاس في رحلات غير منتظمة.

وتؤلف اللغة الأديغية الفرع الشمالي الغربي من مجموعة اللغات القفقاسية وهي تكتب بالحروف الكيريلية منذ ١٩٣٨. وكانت قبلها تكتب بالعربية، وظهر أول كتاب مدرسي أديغي بحروف عربية عام ١٨٥٣. ألفه عمر بَرْسَي. وتعد الأديغية واحدة من أقدم اللغات المحكية حتى اليوم.

إن أقدم الآداب الأديغية هي المرويات من أناشيد الصيادين والترانيم الدينية الوثنية والأشعار البطولية والأمثال والحكم والقصص والأغاني التاريخية والفولكلورية. وأغناها وأقدمها الملاحم والأساطير البطولية المعروفة باسم «النارت» التي تكاملت أركانها قبيل القرن السابع ق.م وصدرت كاملة بالأديغية في سبعة مجلدات (١٩٦٨ ـ ١٩٧٠) وبجهود أَسْكَر حاداغاثل. وترجع بداية الآداب الحديثة إلى منتصف القرن الماضي ومطلع القرن الحالي فبرزت أسماء عدد من المشاهير أمثال سلطان خانغري، وعمر برسي، وتس توتشوج، وإبراهيم تْسَه ي، وتمبوت كَراشَه، وأحمد حاتْقوه، ومُرات برنَقوه وغيرهم. ونمت الآداب والفنون والفولكلور ومظاهر الثقافة الأخرى من رسم ونحت وعمران وعمارة كما ازدهرت الموسيقى والرقص والغناء الأديغيي، وتطور التعليم ووسائل الإعلام والسياحة والصحة والخدمات وغيرها في العقود الأخيرة. وأخذت هذه المظاهر تتجه نحو التحرر من التبعية الأجنبية. ومن أعلام الأدب والثقافة اليوم إسحق مَشْباشَه، وأسْكَر حاداغاثل، وحميد بَرَتار، وجانه قُرمُزْه وغيرهم.

وتصدر في الجمهورية صحف ومجلات ونشرات ثقافية وسياحية وفيها أندية ومسارح إلى جانب المدارس والمعاهد وجامعة الجمهورية.

عادل عبد السلام

الموضوعات ذات الصلة:

الأسود (البحر ـ) ـ روسيه الاتحادية ـ الشركس ـ القفقاس

مراجع للاستزادة:

ـ رمضان، براحو. الشركس (موبيح ١٩٥٦) «بالروسية»
ـ قاسموف، الإبادة الجماعية للأديغية (نالشيك ١٩٩٢) «بالروسية»
- A.M. LESKOV & V.L. LAPUSHIAN, Art Treasures of Ancient Kuban (Moscow 1987).

■ الأديغية ـ الأبخازية (اللغة ـ) ◄ القفقاسية (اللغات ـ)

■ أديلارد الباثي

(أوائل القرن الثاني عشر)

أديلارد الباثي Adelard of Bath من مفكري الإنكليز الذين عرفوا في القرن الثاني عشر في نطاق الفلسفة المدرسية. درس في فرنسة وعلم فيها وزار عدداً من البلدان منها سورية وفلسطين وقضى بقية حياته في باث بإنكلترة حيث علّم وليّ العهد هنري الثاني.

ويعدّ من رواد ترجمة المؤلفات العلمية العربية إلى اللاتينية ونشرها في بلاده وأوربة الغربية.

ومن ترجماته: كتاب «المجسطي» المختص بعلم الفلك لبطليموس وكتاب «الجداول الفلكية» للخوارزمي وكتاب «المبادئ» Elements لمؤسس علم الهندسة إقليدس.

ألف في الاسطرلاب (نسخة بحثه الخطية في المتحف البريطاني) وكتب في المعداد وفي علم الهيئة عن ثابت بن قرّة.

أشهر مؤلفاته كتاب «مسائل الطبيعة» الذي اشتمل على ستة وسبعين محاورة هي مناقشات لكثير من العلوم مثل علم الفلك وعلم الحيوان والنبات والمناخ والطبيعة الإنسانية كان فيها متأثراً تأثراً بالغاً بالعلوم العربية. ومن أهم أفكاره العلمية فكرة قابلية الأشياء للتعيين وخضوعها لقوانين مما يتعارض بوضوح مع التصور الصوفي.

وعلى صعيد فلسفته المدرسية امتاز من الآخرين بأفكاره التوفيقية التي ضمّنها كتابه «حول التشابه والتنوع» On Sameness and Diversity وهي أفكار جمعت عناصر أرسطالية وأفلاطونية. ومن الناحية الأرسطالية أكد فكرة الجزئي ولكنه من الناحية الأفلاطونية قال: إن المعرفة اليقينية هي المعرفة بالمثل الإلهية عن طريق التذكر.

حيدر إسماعيل

■ أديلايد

أديلايد Adelaide عاصمة مقاطعة جنوبي أسترالية، تقع على قاعدة سلسلة جبال لوفتي Lofty التي تبعد ١٤٤كم عن مركز الشاطئ الشرقي لخليج سان فنسنت St. Vincent، تتمتع أديلايد بمناخ البحر المتوسط للنصف الجنوبي من الكرة الأرضية، حيث الصيف الحار، إذ يبلغ متوسط درجة الحرارة في شهر شباط ٢٣٫٣ درجة مئوية وفي الشتاء البارد يكون متوسط درجة الحرارة في حزيران ١٢٫٢ درجة مئوية. أما المعدل السنوي لكمية الأمطار فيبلغ نحو ٥٢٥ مم. وقد بلغ عدد سكانها ١٠٥٠٠٠٠ في عام ١٩٩٠م.

تمّ اختيار موقع أديلايد عام ١٨٣٦ من قبل وليم لايت، على مرتفع خفيف الانحدار يمتد على طول نهر تورنس Torrens الذي يقسمها إلى منطقتين: منطقة جنوبية هي منطقة الأعمال وتكثر فيها المكاتب والمؤسسات المختلفة والصناعات، ومنطقة شمالية ذات وظيفة سكنية.

تفصل المدينة عن ضواحيها مساحات شاسعة مخصصة للمتنزهات أو للمنشآت العسكرية. سميت أديلايد بهذا الاسم نسبة إلى الملكة أديلايد زوجة الملك البريطاني وليم الرابع. وتوحدت الأجزاء المختلفة للمدينة عام ١٨٤٠ وعُرفت بأنها أول بلدية أسترالية مستقلة منذ ذلك الحين، وأصبحت مدينة عام ١٩١٩ عندما سميت مركز محافظة.

إن الشروط المتوافرة في محيط أديلايد الجغرافي من خصوبة السهول وسهولة الوصول إلى أراضي ميوري Murray المنخفضة في الشرق والجنوب الشرقي، ووجود الكثير من مناجم المعادن، أسهمت في ازدهار المدينة ورخائها، ولما كانت مركز تمويل زراعي قديماً فهي تتاجر بالقمح والصوف والفواكه والمشروبات الروحية. وبحكم موقعها المهم في وسط البلاد وتزويدها الكافي من المواد الخام أصبحت منطقة صناعية كثرت فيها المصانع المنتجة لأجهزة السيارات والآليات ومصانع النسيج والمصانع الكيمياوية. ولقد أُنجزت مصفاة الزيت عام ١٩٦٦ في هاليت كوف Hallet Cove الواقعة جنوبي أديلايد بجانب مرفأ نوارلونغا Noar Lunga، وتم كذلك إنجاز مصفاة أخرى لتصفية النفط.

وصل إلى أديلايد خط أنابيب للغاز الطبيعي من حقول غيدغالبة Gidgealpa في حوض كوبر Copper Basin الواقع شمال أديلايد وشمال شرق مقاطعة جنوبي أسترالية. ولما كانت مركزاً للنقل الجوي والبحري والبري والحديدي فهي تتلقى بضائع ومنتجات أراضي وادي نهر ميوري المنخفضة حيث لا يوجد هناك أي ميناء لنقل البضائع.

تعتمد أديلايد في نقلها البحري على مرفأ خاص بها يقدم لها الكثير من التسهيلات ويقع على بعد ١١٫٢ كم من الجهة الشمالية الغربية.

وفي أديلايد الكثير من المعالم الأثرية والحضارية البارزة مثل: الجامعة التي أُنشئت عام ١٨٧٤، والبرلمان والدوائر الحكومية ومتحف التاريخ الطبيعي وكاتدرائيتين الأولى باسم القديس بيتر الأنغليكاني Peter Anglican وهي كاتدرائية أنغليكانية والثانية باسم القديس فرانسيس كسافيار Francis Xavier's وهي كاتدرائية للروم الكاثوليك.

أما مهرجان أديلايد للفنون الذي بدأ عام ١٩٦٠ والذي يقام كل سنتين فهو أول احتفال دولي تشهده أسترالية.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

أسترالية - أوقيانوسية.

■ أديناور (كونراد -) (١٨٧٦-١٩٦٧)

كونراد أديناور Konrad Adenauer سياسي وأول مستشار لجمهورية ألمانية الاتحادية [ر] وأحد كبار رجالاتها. تسلّم إدارة مقدّرات بلاده بعد أن خرجت ألمانية النازية من الحرب العالمية الثانية مدمّرة. فقد استسلمت الدولة الألمانية لدول الحلفاء في ٨ أيار ١٩٤٥، ووقعت ألمانية الممزقة في قبضة الدول الحليفة التي بدأت بتنفيذ خطة للانتقال من وضع الحرب والانتقام إلى مرحلة جديدة من تنظيم ألمانية لتحويلها من دولة معادية محاربة إلى بلاد محتلة بمساعدة حكومة حليفة. وكان أديناور هو الرجل الذي وقع عليه الاختيار لإدارة دفة السياسة الألمانية فيما بعد الحرب، فاستطاع أن ينتقل من الدور التنفيذي الذي كلفه القيام به قادة الحلفاء المنتصرين إلى دور رجل الدولة الذي استطاع ما بين ١٩٤٥-١٩٦٧ أن ينهض ببلاده المحتلة والمقسمة، وأن يعيد لها كثيراً من الاعتبار والاحترام في مختلف الميادين: الاقتصادية والسياسية والعلمية.

بعد أن اختير لمنصب المستشار أي رئيس الحكومة في جمهورية ألمانية الاتحادية تمكّن وسط عواصف سياسية أحياناً من الاحتفاظ بهذا المنصب حتى عام ١٩٦٣ في حين احتفظ برئاسة الحزب الديمقراطي المسيحي الذي أضحى أكبر تجمع سياسي في ألمانية الاتحادية، حتى ١٩٦٦، وظل محتفظاً بمقعده في المجلس النيابي الاتحادي في بون حتى وفاته وهو في الحادية والتسعين من عمره.

تمكن أديناور من أن يصبح في مرحلة ما بعد الحرب رمزاً لألمانية الجديدة حليفة الغرب، ومؤسساً للنظام الديمقراطي الليبرالي في جمهورية ألمانية الاتحادية التي تألفت من مناطق الاحتلال الغربية: الأمريكية والبريطانية والفرنسية، في حين أقيمت جمهورية ألمانية الديمقراطية في منطقة الاحتلال الشرقية من الأراضي الألمانية بتأييد الاتحاد السوفييتي.



أديناور عمدة كولونية

ولد كونراد أديناور في مدينة كولونية (كولن) في ٥ كانون الثاني ١٨٧٦. وكان أبوه موظفاً صغيراً لدى الحكومة. وبعد أن عمل موظفاً في أحد المصارف في سن مبكرة، تابع دراسته الجامعية ونال إجازة في القانون، والتحق

بمكتب المحامي كوزن الذي كان رئيساً لكتلة الوسط (حزب الوسط الكاثوليكي) في المجلس البلدي في المدينة. عُيّن مساعداً للعمدة عام ١٩٠٦، ثم انتخب لمنصب العمدة عام ١٩١٧ وظل في منصبه هذا حتى عام ١٩٣٣ بعد أن خاض معارك انتخابية حادة عام ١٩٢٩. وكان عمدة المدينة الكبرى المنتخب لمدة اثني عشر عاماً، كان يتمتع بمركز مرموق في الدولة والمجتمع. وقد اكتسب أديناور في موقعه الذي شغله سنوات طويلة خبرة عميقة في الإدارة، وأحاط به أنصار كثيرون من الموظفين الذين يدينون له بالولاء والاحترام. وكانت شخصية أديناور أكثر تأثراً بمنطقة الراين وتقاليدها الثقافية والاجتماعية. وتكونت لديه قناعة تولدت من التجارب المريرة لمرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، بضرورة وضع حد للنزاع والحروب بين ألمانية وجيرانها. ومن هذا المنطلق، كان كونراد أديناور في مقدمة رجال السياسة الأوربيين لما بعد الحرب، إلى جانب روبير شومان وزير خارجية فرنسة، وألسيد دوغاسبيري وزير خارجية إيطالية، في العمل المشترك من أجل تشييد أسس التعاون الأوربي. ولم تكن لتجمع هؤلاء الرجال الثلاثة فكرة أخرى أقوى من انتمائهم إلى مناطق حدودية يمكن أن تكون ميداناً للقتال عند اندلاع أول نزاع دولي.

بدأ أديناور نشاطه على الصعيد القومي بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة. فقد عُيّن رئيساً لمجلس الدولة في بروسية واختير عضواً في اللجنة الإدارية لحزب الوسط. وقد عمل من موقعه الرسمي هذا على مقاومة تقدم الحركة النازية. وعندما وصل أدولف هتلر إلى السلطة طرده من منصب عمدة كولن.

عاش أديناور بين عامي ١٩٣٣ و ١٩٤٥ بعيداً عن الأضواء، وتعرض للتهديد مرات عدة، واعتقل مرتين عدة أيام، مرة بعد «ليلة المدى الطويلة» التي وقعت في ٣٠ حزيران ١٩٣٤، ومرة أخرى بعد محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ على الرغم من أنه لم يقم بدور فعال في المؤامرة.

وفي آذار ١٩٤٥ وكان عندئذ في التاسعة والستين من عمره دعته السلطات العسكرية الأمريكية للعودة إلى منصبه لمدينة كولن. لكن القائد البريطاني المسؤول عن الإدارة العسكرية والمدنية عزله في تشرين الأول من العام نفسه لعدم أهليته الإدارية وطرده من المدينة وحرمه من ممارسة أي نشاط سياسي، لكن الحظر رُفع عنه بعدئذ. ومنذ ذلك الوقت ارتبط تطور السياسة الداخلية والخارجية لألمانية ما بعد الحرب باسم كونراد أديناور. فتولى زعامة أكبر تجمع سياسي في البلاد (الحزب الديمقراطي المسيحي). وانتخب رئيساً للمجلس النيابي التأسيسي لوضع دستور جديد للبلاد. وتسلّم دفة الحكم عندما ترأس أول حكومة لجمهورية ألمانية الاتحادية التي أسست بتأييد الحلفاء الغربيين على أراضي مناطق الاحتلال الأمريكية والبريطانية والفرنسية عام ١٩٤٩. واحتفظ بمنصب المستشار أربعة عشر عاماً متواصلة حتى ١٩٦٣.

سياسة المستشار أديناور

كان من أهم ما عُرف به أديناور الفطنة التي مكنته من اتخاذ القرارات المهمة يستبق بها الأحداث ويؤثر في توجيهها وفي تكوين الرأي العام حولها. وكان نجاحه الكبير هو في استرداد مكانة خاصة لبلاده المقسمة وهو يدير حكومتها في ظل قوات الاحتلال.

لكن كونراد أديناور يبقى في التاريخ الألماني رجل السياسة الغربية بعد الحرب. فقد تلقى التأييد والثناء من زعماء الغرب لمقاومته الشيوعية في ألمانية. واسترضى زعماء الصهيونية بتوقيع معاهدة مع الإسرائيليين نصت على دفع تعويضات لهم بلغت مليارات الماركات الألمانية وكانت من العوامل المهمة في توطيد أركان الاغتصاب الصهيوني للأراضي العربية في فلسطين.

استطاع أديناور في أثناء قيادته للحكومة الألمانية الاتحادية وبهيمنته على وزارة الخارجية حتى عام ١٩٥٥ وما بعده أن يرسي قواعد علاقات وثيقة بينه وبين كبار رجال الدولة في الغرب. وكان أهم إنجازاته الدبلوماسية إرساء قواعد المصالحة بين ألمانية وفرنسة باتصالاته مع رئيسي الحكومة الفرنسية بيير منديس فرانس وغي موليه، ولكن هذه السياسة بلغت ذروتها عام ١٩٥٧ بتوقيع معاهدة رومة مع دول الحلفاء، ثم باللقاء مع الرئيس الفرنسي الجنرال شارل ديغول في ١٤ أيلول ١٩٥٨ وفتح صفحة جديدة في العلاقات بين البلدين الأوربيين اللذين كان تنافسهما ونزاعهما سبباً في اندلاع حربين عالميتين في القرن العشرين، ووضعت خطوط السياسة الجديدة بين البلدين في المعاهدة الفرنسية - الألمانية التي وُقعت عام ١٩٦٣.

إلا أن موقع أديناور أخذ يهتز في عام ١٩٥٩ بمواجهة بعض الأحداث وأمام بعض المواقف، منها إخفاقه في الوصول إلى رئاسة جمهورية ألمانية الاتحادية خلفاً لأول رئيس لها، تيودور هويس. ومع أنه استطاع كسب تأييد الرئيس الأمريكي د. أيزينهاور ووزير خارجيته جون فوستر دلاس فإن علاقاته مع الرئيس الأمريكي الديمقراطي جون كنيدي لم تكن حسنة.

وتمسك أديناور بالسلطة على الرغم من تقدمه في السن ولم يفسح في المجال لنائبه وخلفه لودفيغ أيرهارد أن يتسلّم منصبه إلا بعد أزمة سياسية داخلية. ولكن انتقال السلطة في ألمانية الاتحادية في حياة أديناور بالطرق الدستورية وفي إطار التنافس السياسي أدى إلى تعزيز الديمقراطية في ألمانية وأرسى فيها قواعد الاستقرار بعد الحرب.

لقد نجحت سياسة المستشار كونراد أديناور في إعادة تأسيس الدولة الألمانية على جزء كبير من الأراضي الألمانية على قواعد مختلفة عما كانت عليه من قبل. وعمل بمساعدة وزير الاقتصاد إيرهارد على إعادة بناء اقتصاد الدولة وصناعتها. وتصدت حكومة أديناور ضمن الحلف الغربي وفي إطار الحرب الباردة، للدولة الألمانية الديمقراطية ولكتلة الدول الشرقية بزعامة الاتحاد السوفييتي آنذاك. ولكنه على الرغم من القيود التي فرضت على السياسة الخارجية الألمانية بعد الحرب فإن أديناور تمكن من أن يجعل لألمانية الاتحادية موقعاً مميزاً في بناء الأسرة الأوربية وفي الحلف الغربي. ونجح في اتخاذ مبادرات غيرت بوضوح وجه السياسة الأوربية عندما قام بزيارة للاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٥، وبتعاونه الوثيق مع الجنرال ديغول لبناء السوق الأوربية المشتركة والوحدة الأوربية.

محمد حرب فرزات

مراجع للاستزادة:

- KONRAD ADENAUER, Memories,2Vols. (Paris1965-1967).

■ أدّينسل (ريتشارد ـ)
(١٩٠٤ - ١٩٧٧م)

ريتشارد أدينسل Richard Addinsell مؤلف موسيقى إنكليزي درس الحقوق إضافة إلى الموسيقى وتوسع في دراسة التأليف الموسيقي في كل من برلين وفيينة، واهتم بالموسيقى المسرحية وموسيقى الأفلام. وفي عام ١٩٣٣، زار الولايات المتحدة الأمريكية وكتب موسيقى لأحد الأفلام في هوليود.

من أشهر أعماله الموسيقية: «أوبرا آدم»، وموسيقى لكل من الفلمين «وداعاً سيد شيبس»، و«ضوء القمر الخطر» وضمّن موسيقى هذا الأخير حوارية (كونشرتو) وارسو الشهيرة للبيانو والأوركسترا، كما ألف موسيقى مسرحية مختلفة وعدداً غير قليل من ألحان الأغاني.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- Larousse de la musique (Librairie Larousse, Paris 1982).
- PERCY A.SCHOLES, The Oxford Companion to Music (London 1986).

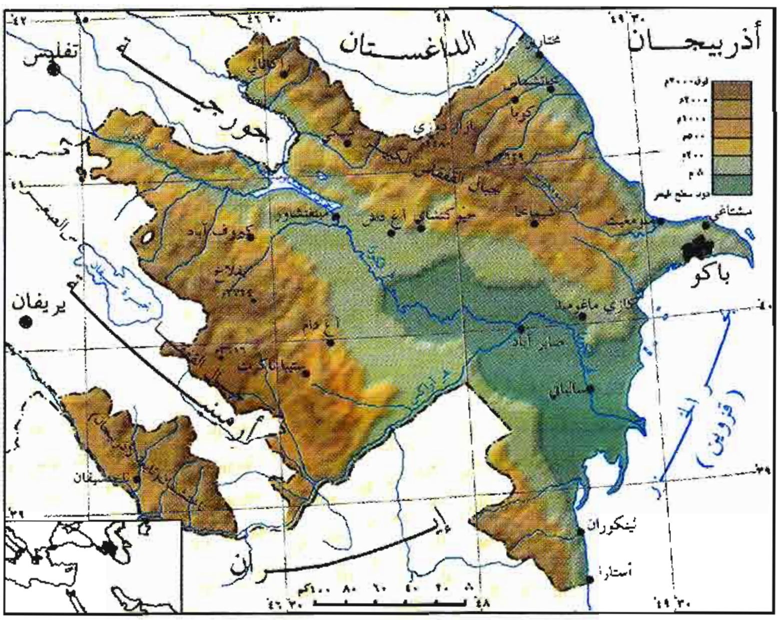
■ الإذاعة ← البث الإذاعي

■ أذْرَبيجان (جمهورية ـ)

تقع جمهورية أذْرَبيجان Azerbaijan على الساحل الغربي لبحر الخزر [ر] (قزوين) في القسم الجنوبي الشرقي من القفقاس [ر]، يحدها من الشمال جمهورية الداغستان، التابعة لجمهورية روسية الاتحادية. ومن الشمال الغربي جمهورية جورجية، ومن الجنوب الغربي جمهورية أرمينية وتركية، ومن الجنوب إيران، وتطل شرقاً على بحر الخزر بامتداد يصل إلى ٨٠٠كم.

وتعُد أذربيجان كبرى جمهوريات ما وراء القفقاس مساحة، إذ تبلغ مساحتها ٨٦٦٠٠كم² مع الجزر التابعة لها والمنتشرة في بحر الخزر، وقد زادت مساحتها اليوم ٣٥٠٠كم² بسبب انخفاض مستوى مياه بحر الخزر. وتضم أذْرَبيجان إقليم ناغورني كاراباخ (قره باغ) وإقليم ناختشيفان اللذين يتمتعان بالحكم الذاتي. الأول إقليم جبلي تبلغ مساحته ٤٤٠٠كم² ويقطنه نحو ١٨٨٠٠٠نسمة (١٩٨٩) (٣٪ من عدد سكان أذْرَبيجان) معظمهم من الأرمن (أكثر من ٧٥٪ من سكانه) ومركزه ستيباناكرت، ويعتمد اقتصاده أساساً على الزراعة وتربية الحيوان، وكان هذا الإقليم موضوع نزاع مسلح بين جمهوريتي أرمينية وأذْرَبيجان منذ شهر شباط من عام ١٩٩٢، ولا تزال الجمهوريتان تتنازعانه إلى اليوم.

أما إقليم ناختشيفان فهو جيب أذري مندس بين أراضي جمهورية أرمينية شرقاً وشمالاً وجمهورية إيران الإسلامية وتركية جنوباً وغرباً أي إن أراضي هذا الإقليم مفصولة عن أراضي جمهورية أذْرَبيجان بلسان من أراضي جمهورية أرمينية، تبلغ مساحة الإقليم ٥٥٠٠كم²



ويقطنه نحو ٣٠٠٠٠٠نسمة (١٩٩٠)، وعاصمته مدينة ناختشيفان.

ويتصف هذا الإقليم بتضاريسه الجبلية، فنحو ٣٠٪ من مساحته تقع على ارتفاع يراوح بين ٦٠٠ و ١١٠٠م فوق سطح البحر. كما يتصف بأهميته الزراعية إلى جانب أهميته في تربية الحيوانات ويعتمد نحو ٦٠٪ من مجمل إنتاجه الصناعي على الصناعات الغذائية.

الأوضاع الجغرافية الطبيعية

التضاريس: تتألف أراضي جمهورية أذْرَبيجان من مناطق طبيعية شديدة التباين والاختلاف، حيث السلاسل الجبلية العالية إلى جانب المناطق السهلية، وتراوح ارتفاعاتها بين ٢٨ و ٤٤٨٠م فوق سطح البحر.

والقسم الرئيس من الجمهورية منخفض كبير، وهو سهل كورا ـ أراكس، الذي يشغل ربع مساحة الجمهورية بامتداد يصل إلى ٢٥٠كم، وبعرض متوسط يبلغ ١٥٠كم، ويطل مباشرة على بحر الخزر، ويتصف القسم الأكبر منه بانخفاض أراضيه، الذي يصل إلى ٢٨م قرب بحر الخزر، لذا تكثر عند مصب نهر كورا الممالح والسباخ والمستنقعات، ويمتد هذا السهل عرضياً بين القسم الجنوبي الشرقي لسلسلة جبال القفقاس الرئيسة ـ القفقاس الكبير ـ وسلاسل جبال القفقاس الصغرى وجبال تاليش. وهو منخفض انهدامي تكوّن نتيجة لحركة خسف مهمة تعود إلى مطلع الحقب الجيولوجي الثالث، ثم تراكمت فيه رواسب ومجروفات تعود إلى

النيوجين، تعلوها أحياناً تلال متطاولة ولحقيات نهرية رباعية تزيد سماكتها عند ملتقى أراكس وكورا.

تؤلف الجبال نحو نصف أراضي الجمهورية، إذ تتغلغل جبال القفقاس الكبير في الجزء الشمالي منها وترتفع في قمة بازار دوزي إلى ٤٤٨٠م، وهي عموماً جبال متوسطة الارتفاع، حديثة التكوّن، تنتمي إلى نموذج جبال الهيمالايا ـ الألب. وقد رافقت ظهور الأقواس الجبلية اندفاعات بركانية شديدة كوّن بعضها قمماً في القفقاس منها نجد ألبروز أو شحه مافه وكازبك، ولا تزال حركات نهوض الجبال في القفقاس مستمرة، تؤكدها هزات أرضية شديدة مُدَمرة في بعض الأحيان.

تتوغل في بحر قزوين، على امتداد القفقاس الكبير، شبه جزيرة أبشيرون السهلية الغنية بالسباخ والسهول التي لا تزيد ارتفاعاتها عادة على ٢٠٠م. ويتألف ساحلها من سلسلة من المحدبات تعود إلى الحقب الجيولوجي الثالث. وترتفع في جنوب شرقي الجمهورية جبال تاليش التي تتألف من ثلاث سلاسل رئيسة يصل أعلاها حتى ٢٤٩٢م، وتعد صلة الوصل بين جبال ما وراء القفقاس الصغرى وجبال ألبروز في إيران، وعند قاعدة جبال تاليش يمتد منخفض لينكوران، في أقصى الجنوب، على هيئة شريط ضيق. وتمتد قرب الحدود الأذْرَبيجانية الأرمنية سلاسل جبال ما وراء القفقاس الصغرى التي كثيراً ما تربو ارتفاعاتها على ٢٥٠٠م وتصل إلى ٣٧٢٤م في جبل مورف داغ. وتحتل الجليديات أعالي جبال القفقاس.

وتتنوع صخور أذْرَبيجان ولا سيما في الجبال، وترجع غالباً إلى صخور الحقب الجيولوجي الثاني كالترياسي والجوراسي والكريتاسي، وتتألف من التشكلات الصخرية الكلسية والحوارية والغضارية.

المناخ: المناخ في أذْرَبيجان قاري جاف تصد جبالها الرياح الغربية الرطبة التي تهب من البحر الأسود، وتتنوع نماذجها المناخية بتنوع تضاريسها وتأثرها بكتلة بحر الخزر، وحركة الرياح في إقليم القفقاس، لذا توجد فيها مناطق ذات مناخات شبه صحراوية، وسهبية جافة وشبه مدارية معتدلة البرودة وباردة جداً. وتتعرض البلاد في فصل الصيف للرياح المدارية الجنوبية والجنوبية الغربية، وفي فصل الشتاء تهب عليها الرياح الباردة القادمة من الشرق، وتهب عليها أحياناً رياح قطبية شمالية شديدة البرودة. ومتوسط درجات الحرارة السنوية يراوح بين ١٥ درجة مئوية في المنخفضات والسهول وصفر أو أدنى من ذلك في القمم الجبلية التي يزيد ارتفاعها على ٣٠٠٠م، ولا يقل وسطي حرارة كانون الثاني عن ٤ درجات في المنخفضات والسهول، لكنه يتدنى إلى الصفر في مقدمات الجبال ثم إلى −٤ على ارتفاع ١٠٠٠ـ٢٠٠٠م وإلى أقل من −١٠ في القمم التي يزيد ارتفاعها على ٣٠٠٠م. وترتفع الحرارة صيفاً في المناطق السهلية والمنخفضات إذ يصل وسطي حرارة تموز إلى ٢٧ درجة، لكنها تنخفض في المرتفعات التي تقل عن ٢٠٠٠م إلى ٢٠ درجة وإلى ١٥ درجة في المناطق الجبلية التي يزيد ارتفاعها على ٢٥٠٠م.

أما التهطال فيتأثر بعامل الارتفاع، وبالبعد والقرب من بحري الخزر والأسود، وتعد الرياح الغربية المصدر الرئيسي للرطوبة في البلاد، وتزيد كمية الأمطار في سهل كورا ـ أراكس على ٣٠٠مم سنوياً، ويبلغ التهطال حده الأعظم في فصل الربيع أما في الصيف فتتعرض تلك المناطق للجفاف، وتزيد كميات الأمطار في جبال القفقاس الصغرى فتصل إلى ٨٠٠مم سنوياً. وتزيد على ١٢٠٠ـ١٣٠٠مم في جنوب القفقاس الكبير على ارتفاع ٢٠٠٠ـ٣٠٠٠م. أما في جبال تاليش فتراوح بين ١١٠٠ و ١٧٠٠مم سنوياً ويكون التهطال ثلجياً في فصل الشتاء بدءاً من ارتفاع ١٥٠٠م، ويدوم من ٥٠ـ١٠٠ يوم في العام، وأقل من ذلك في المناطق الأقل ارتفاعاً.

الموارد المائية: إن كثرة الجبال المتوسطة الارتفاع والعالية في أذْرَبيجان جعلتها غنية بمجاريها المائية، إذ يوجد فيها ما لا يقل عن ١٢٥٠ نهراً ونهيراً منها ٢٩ نهراً يزيد طول الواحد منها على ١٠٠كم، ومعظمها غير صالح للملاحة، عدا المجرى الأسفل من نهر كورا الذي يصلح للسفن الصغيرة، ويعدّ نهرا كورا وأراكس أهم أنهار أذْرَبيجان لما لهما من أهمية في الري وفي توليد الطاقة الكهربائية، ولأنهما أكثر الأنهار غزارة وطولاً. وينبع نهر أراكس من تركية وترفده مياه تنبع من إيران لذا فإن مجراه الأعلى جبلي خانقي، يصل طوله إلى ١٠٧٢كم ومساحة حوضه ١٠٢٠٠٠كم² وغزارته المتوسطة ٢١٨م³/ ثا. يصب هذا النهر في نهر كورا الذي يبدأ مجراه من تركية ويعد من أهم الأنهار في أذْربيجان، فهو يدخل أراضيها من الجهة الشمالية الغربية باتجاه الجنوب الشرقي ليصب في بحر قزوين، ويصل طوله إلى ١٥١٥كم، منها ٩٠٠كم ضمن حدود الجمهورية، ومساحة حوضه ١٨٨٠٠٠كم²، وتبلغ كمية المياه التي يحملها النهر سنوياً إلى بحر قزوين ١٨كم³ وتصل غزارته عند المصب إلى ٥٨٠م³/ ثا. وقد بنيت عليه محطة مينغتشاور الكهربائية الضخمة التي تبلغ قدرتها ٣٥٧ ألف كيلو واط ساعي. وفي أذْربيجان ٢٥ بحيرة، معظمها في سهل كورا ـ أراكس. وأكبرها بحيرة كادجيكابول التي تبلغ مساحتها ١٥,٥كم²، وتليها بحيرة بيوكشور (١٠,٣كم²) في شبه جزيرة أبشيرون وتنتشر بعض البحيرات من أصل جليدي في جبال القفقاس الكبير والقفقاس الصغير.

التربة والنبيت: يخضع توزعهما لقوانين المناطق الجبلية. ففي المناطق السهلية حتى ارتفاع ٢٠٠م تغلب الأتربة السيرازيومية (الرمادية) والأتربة الصحراوية والملحية، وتنتشر اللحقيات النهرية الرباعية والأتربة الغرينية في منخفض كورا ـ أراكس، كما أن النباتات شبه صحراوية كالشيح والأعشاب والحميض. تليها ما بين ارتفاعي ٢٠٠ و ٥٠٠م الأتربة الكستنائية والبنية، وتنمو عليها النباتات السهبية الجافة وشبه الصحراوية والحشائش المعمرة والحولية. وعلى الارتفاعات التي تراوح بين ٥٠٠م و٢٠٠٠م و٢٢٠٠م تظهر الغابة العريضة الأوراق من البلوط والكستناء، وعلى المنحدرات تنمو غابات من أشجار الزان والشوح، حيث الأتربة الجبلية البنية والسمراء الداكنة. أما في المناطق الأعلى فتنتشر المروج العشبية الجبلية الباردة والمراعي الصيفية. وتحتل الغابة نحو ١١٤٦ ألف هكتار تنتشر بوجه خاص على السفوح الجنوبية لجبال القفقاس الكبير، وبعض أجزاء القفقاس الصغير وجبال تاليش.

الوحيش: يقدر عدد الأنواع الحيوانية الموجودة في أذْرَبيجان بنحو ١٢ ألف نوع، ويكثر في مناطق السهول والمنخفضات نوع من الظباء يدعى «جيران» كما تكثر الثعالب وبنات آوى والذئاب والقطط البرية والماعز البري. وفي المناطق الجبلية تعيش الدببة والخنازير البرية

والفهود والوعول والماعز الجبلي والأيائل، أما الطيور فكثيرة ومتنوعة، منها الحباري والدرج والبط والإوز، بعضها محلي والآخر مهاجر.

الجغرافية البشرية والسكان

السكان وتطورهم: تزايدت أعداد السكان في جمهورية أذْرَبيجان بصورة ملحوظة منذ مطلع القرن العشرين، ففي عام ١٩١٣ كان عددهم نحو ٢٣٣٩٠٠٠ نسمة وبلغ عام ١٩٩١ نحو ٧٢١٩٠٠٠ نسمة، كما تطورت نسبة سكان المدن في المدة ذاتها من ٢٤,٤٪ من السكان عام ١٩١٣ إلى ٥٤٪ عام ١٩٩٠، أما المعدل الطبيعي للتزايد السكاني السنوي فيبلغ ٣٪ فالشعب الأذْرَي شعب فتي يمتاز بارتفاع نسبة الولادات. ففي المدة الواقعة بين ١٩١٣ و١٩٦٩ تضاعف عدد السكان أكثر من مرتين. وتبلغ الكثافة السكانية اليوم نحو ٨٦ نسمة / كم²، وقد أثرت العوامل الطبيعية والتحولات الاقتصادية في توزعهم فزادت تبعاً لذلك الهجرة من الريف إلى المدن وتضاعف سكان الكثير منها ٦ مرات تقريباً بين عامي ١٩١٣ و١٩٩٠، وتعدّ شبه جزيرة أبشيرون ومنطقة باكو من أعلى المناطق كثافة سكان في الجمهورية (١٥٠-٣٠٠نسمة/ كم²) يليهما السهل المنخفض لنهر كورا، وإقليم لينكوران، وتصل كثافة السكان في سفوح القفقاس الكبير والصغير إلى نحو ١٦٦نسمة/ كم² وتقل في المناطق الجبلية العالية، والمناطق الجافة غير المروية في منخفض كورا ـ أراكس وبعض المناطق الأخرى.

وأهم المدن: باكو [ر] العاصمة، وتعني مدينة الرياح، وتقع على الشاطئ الجنوبي لشبه جزيرة أبشيرون عند خليج محمي لا يتجمد، وصل عدد سكانها إلى ١٧٠٠٠٠٠نسمة (١٩٩١)، وهو ما يعادل ربع سكان الجمهورية ونحو نصف سكان مدنها، وتعد من أهم المراكز الحضارية والثقافية والاقتصادية في الجمهورية.

ومن المدن المهمة مدينة كيروف أباد (غانجا سابقاً)، وهي المدينة الثانية بعد باكو، ويقطنها ٢٧٠٠٠٠نسمة، وتعد من المراكز المهمة لصناعة النسيج والصناعة الغذائية، تليها مدينة سومغيت ويقطنها نحو ٢٣٠٠٠٠نسمة، ومدينة مينغتشاور وسكانها ٩٠٠٠٠نسمة، ومدينة ستيباناكرت (٨٠٠٠٠نسمة) وعلي بيرملي (٥٧٠٠٠نسمة) وداشكيسان (٤١٠٠٠نسمة) وهي مركز مهم لاستخراج خام الحديد، وميناءا أستارا ولينكوران الواقعان على بحر الخزر والمتخصصان بالصيد البحري.

البنية الإثنية: يؤلف الأذريون نحو ٨٥,٤٪ من إجمالي سكان الجمهورية، والروس نحو ٤٪، وتستقر هذه العناصر في المدن الصناعية الكبرى وفي مناطق استثمار الموارد والثروات المعدنية، كمدينة باكو وسومغيت ومينغتشاور وغيرها. كما يؤلف الأرمن نسبة ٢٪ من مجموع السكان، وهم يتركزون في مقاطعة ناغورني كاراباخ ومقاطعة ناختشيفان ذات الحكم الذاتي وفي مدينة باكو. أما بقية السكان فمن أقليات أخرى من الداغستان والتتار والجورجيين في الغرب، والتاليش في منخفض لينكوران، والأكراد في الجزء الجنوبي الغربي من البلاد، والأكرانيين واليهود، وعناصر أخرى تركية وفارسية الأصل إضافة إلى مجموعات بشرية قادمة من بقية جمهوريات آسيا الوسطى المجاورة.

يدين معظم السكان بالديانة الإسلامية ٧٠٪ منهم شيعة، وقد انتشر الإسلام من القرن ٧ـ١٠ الميلادي، مع الفتح العربي الإسلامي، ولا تزال هناك أقلية مسيحية.

الأوضاع الاقتصادية

الثروات الباطنية والصناعة: بقيت أذْرَبيجان لسنوات طويلة تعتمد على فرع اقتصادي وحيد هو النفط والصناعات المرتبطة به كالصناعات الكيمياوية والبتروكيمياوية، ثم ظهرت إلى جانبه، فروع أخرى للاقتصاد على درجة من الأهمية كالصناعات الثقيلة التي تقوم على صناعة الآلات والمعدات الصناعية والميكانيكية والمعدنية، وتتركز في باكو وغانجا وسومغيت إضافة إلى الصناعات التحويلية والخفيفة، كالصناعات النسيجية وصناعة الزجاج والإسمنت والورق والصناعات الخشبية المتركزة في كل من باكو وشيكي ومينغتشاور وإيقلاخ خاصة، كما أنها تشتهر بالصناعات الغذائية التي تعتمد على القاعدة الزراعية الغنية في الجمهورية، وتتركز الصناعة في المدن الرئيسية.

والنفط والغاز من أهم الثروات الباطنية في الجمهورية ويصل معدل إنتاجها السنوي من النفط الخام إلى نحو ١٥ مليون طن، و ٤ مليارات م³ من الغاز الطبيعي. يستخرج النفط من شبه جزيرة أبشيرون ومنطقة باكو ونافتالان وبحر الخزر. ومنها يرسل النفط ومشتقاته بطريق مائية في بحر الخزر واستراخان ونهر الفولغا إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقاً، أو يضخ في الأنابيب نحو الغرب حيث يتم إيصاله إلى ميناء باطوم على البحر الأسود لتصديره إلى جمهورية أوكرانية وبعض الدول الأخرى. وينقل الغاز الطبيعي المرافق للنفط من باكو إلى عواصم جمهوريات القفقاس المجاورة: تفليس ويريفان في أنبوب الغاز الذي كان يسمى بخط غاز الصداقة بين الشعوب. وتعد أذْرَبيجان بحق أورال بلاد ما وراء القفقاس وذلك لغناها بالطاقة والثروات المعدنية، إذ تنتج نحو ٢١ مليار كيلو واط ساعي من الكهرباء فتسد حاجتها وتمد جمهوريات القفقاس المجاورة بما لا يقل عن ٢٠٪ من احتياجاتها من الطاقة، ومن أهم محطاتها الكهرمائية محطة مينغتشاور الضخمة ومحطة شامخور في وادي نهر كورا، ومحطة ناختشيفان على نهر أراكس، ومحطات أخرى حرارية تنتشر في معظم أنحاء البلاد.

أما ثرواتها المعدنية فتتمثل بالفلزات من مكامن منطقة كيروف أباد وجبال ما وراء القفقاس وعلى رأسها يأتي الحديد الخام ونسبته ٤٠ـ٧٠٪ والاحتياطي أكثر من ٣٠٠ مليون طن، والنحاس والألمنيوم والرصاص والكوبالت والكبريت والباريت والموليبدن والكاولينيت النقي وملح الطعام البحري والصخري.

الزراعة وتربية الحيوان: يؤلف القطاع الزراعي، الذي يعمل فيه أكثر من ٥١٪ من السكان، المورد الرئيسي للسكان وعماد الاقتصاد الأذْرَي، ولقد شهد هذا القطاع تطوراً في تطبيق الأساليب العلمية الحديثة والاعتماد على الري ولا سيما شق قناتين مائيتين لجر مياه نهر كورا وإرواء مناطق كانت قاحلة، وهكذا تضاعفت المساحة المزروعة بالقطن من ١٠٠٠٠٠ هكتار عام ١٩١٣ إلى نحو ٢٥٠٠٠٠ هكتار عام ١٩٦٨ منها ١٠٠٠٠ هكتار مخصصة لزراعة القطن ذي الألياف الملونة الذي تنفرد بإنتاجه مناطق ما وراء القفقاس. وتتركز زراعة القطن في سهول كورا ـ أراكس والأقاليم الغربية من البلاد. وتحتل زراعة الحبوب مساحة تزيد على ٦٨٠٠٠٠ هكتار للمحاصيل وللمزروعات الصناعية ومثلها للغلال العلفية المختلفة ونحو ٦٠٠٠٠ هكتار للخضراوات ومثلها للحمضيات والكرمة والنباتات العطرية والبستنة والتبغ والشاي.

كما تطورت تربية الحيوان التي تسهم بنحو ٣٠٪ من موارد الدخل الوطني في الجمهورية، مستغلة وفرة المراعي الطبيعية والتوسع الكبير في زراعة الغلال العلفية، وتستغل الأراضي غير المروية في منخفض كورا مراعي شتوية، تغادرها الماشية صيفاً إلى المراعي الجبلية في القفقاس. والجدول التالي يبين حجم الثروة الحيوانية المقدرة في أذْرَبيجان قبل استقلالها عن الاتحاد السوفييتي.

البقر	١٨٥٢٣٠٠	رأس
الجواميس	٦٩٧٦٠٠	رأس
الغنم والماعز	٥٤٤٩٦٠٠	رأس
الخنازير	١٨٣٨٠٠	رأس

إلى جانب حيوانات أخرى كالخيول والحمير والإبل. ويتجه الاهتمام بتربية دودة القز لإنتاج الحرير الطبيعي، الذي يصل إلى ٥٠٠٠ طن سنوياً، ويجري صيد الأسماك من المجرى الأسفل لنهر كورا وعلى طول ساحل بحر الخزر.

التجارة والمواصلات: النفط والمنتجات النفطية من أهم صادرات أذْرَبيجان، إلى جانب القطن، والرز، والفواكه، والخمور، والحرير الطبيعي، والسمك.

ترتبط أذْرَبيجان تجارياً مع الجمهوريات المجاورة، وبعض الجمهوريات الأخرى التي كانت تؤلف ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي. وبعد استقلالها عنه، أخذت تسعى إلى تعزيز علاقاتها الاقتصادية والتجارية مع دول أخرى في العالم،في سبيل تقوية اقتصادها الوطني.

تعتمد أذْرَبيجان على النقل بالسكك الحديدية إذ بوساطتها يتم نقل نحو ٧٠٪ من البضائع والمواد، ويصل طول شبكة الخطوط الحديدية إلى نحو ٢٠٠٠كم (١٩٨٦) وهي تربط مختلف أقاليم الجمهورية مع الجمهوريات والعواصم والبلاد المجاورة. وأهم خطوط هذه الشبكة الخط الحديدي الذي يتجه غرباً مسايراً الحدود الإيرانية فالتركية ليعود إلى تفليس عاصمة جورجية، ومنها يتجه نحو ساحل البحر الأسود ويستمر شمالاً حتى أقصى بقاع جمهورية روسية الاتحادية. وخط آخر يتجه من ميناء أستارا في أقصى الجنوب إلى ميناء «ماخاتش قلعة» الداغستاني شمالاً ومنها إلى روستوف فبقية أنحاء ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي.

وفي البلاد شبكة من طرق السيارات المعبدة والممهدة تربط مختلف أجزاء الجمهورية يصل طولها إلى ٣٠٠٠٠كم (١٩٨٦)، والسيارات هي الوسيلة الأساسية لنقل الركاب داخل حدود الجمهورية.

ويربط بحر الخزر أذْرَبيجان بالجمهوريات الأخرى، ولا سيما جمهوريات آسيا الوسطى، فقد تم في عام ١٩٦٢ ربط ميناءي باكو وكرسنافودسك في جمهورية تركمانية بوساطة العبّارات المائية التي تقوم بنقل القطارات المحملة بينهما.

وتجري عملية النقل النهري على نطاق محدود في بعض الأجزاء الصالحة للملاحة من المجرى الأسفل لنهر كورا.

وترتبط العاصمة باكو بخطوط جوية منتظمة بكثير من المدن والمراكز الصناعية والإدارية الكبرى داخل الجمهورية، كمدينة كيروف أباد ومدينة ناخيتشفان، وببعض المدن والعواصم الأخرى.

هيثم ناعس

أذْرَبيجان تاريخياً

يطلق اسم أذْرَبيجان في الوقت الحاضر على المنطقة التي تضم جمهورية أذْرَبيجان (السوفييتية سابقاً) وأذْرَبيجان الإيرانية. وقد اختلف في سبب تسمية هذه المنطقة باسم أذْرَبيجان، فالمؤرخون القدامى يذكرون أنها سميت نسبة إلى القائد أتروباتس Atropates (الذي تحميه النار) الذي أعلن استقلاله عن الأخمينيين [ر] في الوقت الذي اجتاح فيه الاسكندر المقدوني [ر] منطقة الشرق سنة ٣٢٨ق.م، في حين يرى كثير من الباحثين أن صورة الاسم القديمة في الفارسية هي «أذر باذكان» ومعناها خازن النار أو بيت النار، فصحفه اليونان إلى أتروباتينه Atropatene .

كانت أذْرَبيجان تدعى «البرزخ الميدي» لأنه عبر طرقها التي يسهل اجتيازها من الشمال الشرقي والشمال الغربي يمكن اختراق الهضبة الإيرانية من الجبهة الشمالية المنيعة، وقد جلبت هذه المنطقة التي تكوّن أحد منفذين طبيعيين اثنين (أذْرَبيجان وخراسان) إلى قلب إيران شعوباً كثيرة جاءت واستقرت حول بحيرة أُرْميَة ذات المياه المالحة والتي هي أهم معلم طبيعي في أذْرَبيجان، وفي هذه البقعة ولدت ونشأت الأسر المالكة في ميدية وفارس، وعند بوابات أذْرَبيجان كان على الجيوش الامبراطورية الفارسية الأخمينية (٥٥٩ـ٣٣١ق.م) أن تقف حارساً يقظاً في وجه الشعوب الطامعة القادمة من جبال القفقاس ومن السهوب الروسية الجنوبية، ويمكن القول إن أذْرَبيجان بقيت منذ تأسيس الامبراطورية الأخمينية سنة ٥٥٩ق.م حتى انهيار الدولة الساسانية على يد العرب إما تحت سيطرة أُسر فارسية أو أنها كانت تؤلف جزءاً من الامبراطورية الفارسية كما حدث في عهد الأرشاقيين Arshakids (الفرثيين) والساسانيين [ر].

دخلت أذْرَبيجان ضمن نطاق الدولة العربية الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب (١٣ـ٢٣هـ/ ٦٣٤ـ٦٤٣م) وترجح الروايات المتعلقة بتاريخ الفتح سنتي ٢٠ و ٢٢هـ حينما توجه حذيفة بن اليمان من نهاوند إلى أذْرَبيجان، كما وجهت إليها حملات أخرى من شهرزور. وصالحَ المرزبان حاكم أذْرَبيجان حذيفة بن اليمان عن جميع أهل أذْرَبيجان على ٨٠٠ ألف درهم على أن لا يقتل منهم أحداً ولا يسبيه ولا يهدم بيت نار، وأن لا يعرض لأكراد البلاسجان Balasagân والسبلان Sabalan وساترودان Shatrudan .

بدأ انتشار الإسلام في أذْرَبيجان في خلافة عثمان بن عفان (٢٣ـ٣٥هـ) عندما أسكن الوالي الأشعث بن قيس جماعة من العرب من أهل العطاء والديوان في أذْرَبيجان وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام،فلما وليها ثانية في خلافة علي بن أبي طالب وجد أكثرهم قد أسلموا وقرؤوا القرآن، كما أخذت العشائر العربية، من البصرة والكوفة والشام تستقر في مختلف مناطقها. ولأن أذْرَبيجان كانت من فتوح الكوفة فقد بقيت تابعة إدارياً لوالي الكوفة حتى سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م عندما جعلها عبد الملك بن مروان (٦٥ـ٨٦هـ/ ٦٨٤ـ٧٠٥م) ولاية تابعة إدارياً لوالي الجزيرة، وكانت أَرْدَبيل أكبر مدينة في أذْرَبيجان وعاصمة لها قبل الفتح، فلما ولي محمد بن مروان الجزيرة وأرمينية وأذْرَبيجان سنة ١١٤هـ، اتخذ المراغة معسكراً له، وبنى فيها دار الإمارة، واتبع العباسيون أسلوب الأمويين في جمع أرمينية وأذْرَبيجان لوال واحد، كما بقي للمراغة أهميتها، ففي خلافة هارون الرشيد (١٧٠ـ١٩٣هـ/ ٧٨٦ـ٨٠٨م) عين خُزَيْمة بن خازم بن خزيمة والياً على أرمينية وأذْرَبيجان، فبنى سور المراغة وأنزلها جنداً كثيفاً. ولما أعلن

بابك الخرمي [ر] ثورته على الخلافة العباسية سنة ٢٠١هـ، متخذاً من جبال أَذْرَبيجان مركزاً لحركته، لجأ الناس إلى المراغة فنزلوها وتحصنوا فيها. وعلى الرغم من الجهود التي بذلها المأمون للقضاء على هذه الحركة، فإنها استمرت بعد وفاته، لانهماك قواته بحرب البيزنطيين، وحصانة المنطقة الجبلية التي اعتصم بها بابك وجماعته. وسخَّر الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤١م) كل إمكاناته وقواته حتى قضى عليها سنة ٢٢٢هـ، ولكن هذه الحركة لم تنته إلا بعد أن أفنت عدداً كبيراً من جند الخلافة، وكلفت الدولة الكثير من الأموال وأضعفت سلطة الخلافة في أَذْرَبيجان، وكان آخر الحكام الأقوياء فيها الساجيون (٢٧٦-٣١٨هـ/ ٨٨٩-٩٣٠م) وبدأت تظهر بعد سقوط هذه الأسرة أُسر محلية (٣٧٣-٤٦٣هـ/ ٩٨٣-١٠٧٠م) فبعد سيطرة ديسم بن إبراهيم الكردي، سيطر بنو سافر المعروفون ببني السلار من الديلم، ثم بنو الرَّواد الأكراد.

وفي بدايات القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بدأت جحافل الغُزِّ بالوصول إلى أَذْرَبيجان،فلما دخلوا المراغة سنة ٤٢٩هـ وقتلوا أهلها وأحرقوا مساجدها، اتفقت كلمة صاحبي أَذْرَبيجان، ابن ربيب الدولة من الأكراد الهذبانية ووهوذان من بني الرَّواد على الوقوف في وجه الغُز واجتمع معهما أهل همذان فنجحوا في الانتصاف منهم سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م واضطروهم إلى مغادرة أَذْرَبيجان، إلا أن أَذْرَبيجان دخلت ضمن نطاق دولة سلاجقة العراق، عندما توجه طُغْرُلْبك إليها سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، وأعلن صاحب تَبْريز أبو منصور وهوذان بن محمد الروادي الطاعة لطغرلبك وخطب له وحمل إليه ما أرضاه، وأعطاه ولده رهينة، كما أرسل إليه سائر حكام تلك النواحي يبذلون له الطاعة والخطبة، وانقاد العساكر إليه، فأبقى بلادهم عليهم وأخذ رهائنهم، فلما نزل الضعف بالسلاجقة انقسمت دولتهم إلى عدة فروع وأخذ المماليك الذين يحملون لقب أتابك ينوبون في الحكم عن الأمراء الفتيان، ثم لم يمض زمن قصير حتى انتقلت مهمة الحكم إليهم وأصبحوا حكاماً، ونشأ أتابكة أَذْرَبيجان [ر] من أسرة إيلدكز القبجاقي مملوك السلطان مسعود من سلاجقة العراق، ونعمت أَذْرَبيجان بحقبة من الهدوء والسلام في عهد شمس الدين إيلدكز (٥٤١-٥٦٨هـ/ ١١٤٦-١١٧٢م) وابنه محمد بهلوان (٥٦٨-٥٨٧هـ/ ١١٧٢-١١٩١م) فلما كان حكم أبي بكر بن محمد البهلوان (٥٨٧-٦٠٧هـ/ ١١٩١-١٢١٠م) ساءت حالها لسوء سيرته، كما كثرت عليها الغارات من الكرج، وكثر النهب والقتل والسبي في أهلها ومالها، وأنهى الشاه جلال الدين منكبرتي الخوارزمي [ر] شاه خوارزم حكم أسرة إيلدكز، عندما توجه سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م إلى المراغة فملكها وأقام بها وأخذ في عمارتها وتحصينها، ثم قصد تبريز فملكها في رجب سنة ٦٢٢هـ وهزم الكرج ونجح بمساعدة وزيره شرف الملك في أن يسترجع القلاع والمدن التي كان نائب خلاط قد استولى عليها، كما هزم الأمراء البهلوانية الذين انتقضوا عليه وفتح مدناً كثيرة وتسلم أكثر قلاعها ثم سار قاصداً الران.

لم ينعم جلال الدين طويلاً بانتصاراته، إذ جاء المغول في أعقابه، وبوصول هولاكو سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م أصبحت أَذْرَبيجان مركز امبراطورية ضخمة، واتخذ المغول المراغة عاصمة لهم في بادئ الأمر ثم تبريز التي ازدهرت في أيام غازان أو قازان خان وأصبحت مركزاً تجارياً وثقافياً مهماً في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي إذ شرع قازان خان ببناء أرباض كبيرة فيما يلي سورها القديم الذي بني بعد زلزال سنة ٤٣٤هـ/ ١٠٤٣م وزاد خلفاؤه على أبنيته كثيراً من المساجد الكبيرة وغيرها من الأبنية داخل المدينة.

بعد المغول وخلفائهم الجلائريين احتل التركمان أَذْرَبيجان فحكمها القرة قيونلو Kara Koyunlu (٧٨٢-٨٧٤هـ/ ١٣٨٠-١٤٦٩م) والآق قيونلو Ak Koyunlu [ر] (٨٠٦-٩١٤هـ/ ١٤٠٣-١٥٠٨م) ثم صارت بيد الصفويين [ر] الذين ينتمون إلى الشيخ صفي الدين الأردبيلي، عندما نجح إسماعيل بن حيدر في الاستيلاء على تبريز من الآق قيونلو، وتوج شاهاً لأَذْرَبيجان في تموز ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م ثم بادر إلى الاستيلاء على إيران كلها، وأصبحت أردبيل عاصمة في أيام الدولة الصفوية، قبل أن ينقلوا قاعدة ملكهم إلى تبريز أولاً ثم إلى أصفهان. وبين سنتي ٩٢٠ و١٠١٢هـ/ ١٥١٤ و١٦٠٣م احتل العثمانيون تبريز مراراً ومناطق أخرى، غير أن الشاه عباس (٩٨٦-١٠٣٨هـ/ ١٥٧٨-١٦٢٨م) استطاع أن يستعيد هذه المناطق، ثم عاد العثمانيون فاستولوا على أَذْرَبيجان وولايات أخرى غربي إيران في أثناء الغزو الأفغاني (١١٣٢-١١٤١هـ/ ١٧٢٢-١٧٢٨م) حتى طردهم منها نادر شاه من أسرة إفشار (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م).

شهد القرن الثامن عشر كذلك نهوض روسية عسكرياً وتوسعها على حساب تركية وإيران واستطاعت نتيجة حروب طويلة أن تستولي على دربند وباكو وشيروان وشيكي وغانجا وناختشيفان والقسم الجنوبي من تاليش Talishبموجب معاهدة كلستان (غلستان) Gulistan (١٢٢٩هـ/ ١٨١٣م) ومعاهدة تركمنشاي Turkmanchai (١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م) وتعينت منذ ذلك الوقت الحدود بين أَذْرَبيجان الروسية وأَذْرَبيجان الإيرانية.

كان معظم سكان جمهورية أَذْرَبيجان من أصول إيرانية، إلا أن سيطرة السلاجقة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أدى إلى تتريكها واستمر هذا التتريك حتى بعد الغزو المغولي لها، إذ أجبرت أعداد كبيرة من العائلات من آسيا الوسطى، وآسيا الصغرى على الاستقرار فيها، ولذلك فإنه عندما احتلت القوات التركية باكو في ١٥ أيلول سنة ١٩١٨م أعاد نوري باشا قائد القوات التركية تنظيم هذه المنطقة، وأطلق عليها اسم أَذْرَبيجان، لأن معظم سكان أَذْرَبيجان الإيرانية وسكان هذه المنطقة من أصول واحدة تقريباً، ويتكلمون التركية، وعندما عاد الحلفاء، فاحتلوا باكو إثر معاهدة مودرُس Mudros في ١٧ تشرين الأول ١٩١٨م اعترف الجنرال ثومسون Thomson بحكومة حزب المساواة في أَذْرَبيجان. وبعد جلاء الحلفاء عنها، أُعلن النظام الشيوعي في باكو في ٢٨ نيسان ١٩٢٠م من دون مقاومة تذكر، وأصبحت أَذْرَبيجان واحدة من جمهوريات ثلاث في الاتحاد الفدرالي الذي ضم أَذْرَبيجان وجورجية وأرمينية ولكن العداوات العرقية والدينية أدت إلى إخفاق هذه المحاولة وأصبحت أَذْرَبيجان ابتداءً من الخامس من كانون الأول ١٩٣٦م جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفييتي، وقد استقلت عن الجمهوريات التي كانت تؤلف الاتحاد السوفييتي في أواخر عام ١٩٩١م وغدت جمهورية مستقلة ذات سيادة.

أما أذْربيجان الإيرانية، فهي التي تقع إلى الجنوب من جمهورية أذْربيجان المستقلة، وفي الزاوية الشمالية الغربية من إقليم فارس.

ولصعوبة تحديد كل من أذْرَبيجان والرّان وأرمينية، عدها الجغرافيون العرب إقليماً واحداً سماه المقدسي إقليم الرحاب تمييزاً له من إقليم الجبال Media وإقليم آقور (الأرض المطمئنة وهي الجزيرة).

استولى الأتراك على أذْربيجان الإيرانية في أثناء الحرب العالمية الأولى، كما استولى الروس عليها في الحرب العالمية الثانية، وأعلن الاتحاد السوفييتي تأسيس جمهورية أذْرَبيجان وعاصمتها تبريز ولكن القوات الإيرانية استعادت المنطقة الإيرانية من أذْرَبيجان سنة ١٩٤٧م.

تنقسم أذْرَبيجان الإيرانية اليوم إلى قسمين: أذْربيجان الغربية ومساحتها ٣٩٢١٦كم² وعاصمتها أرْمية وسكانها ١٦٨٨٠٠٠ نسمة (إحصاء ١٩٨٣) ومعظمهم من الأتراك إضافة إلى أقليات من الأكراد والأرمن، ويسكن الأكراد في المنطقة الممتدة من نهر أراكس Araxes في الشمال إلى قرب خُوي Khüy في الجنوب. أما الأرمن فهم قلة منتشرة في الشمال الغربي. وتُعدّ الزراعة التي تتوضع في حوض أُرْمية عماد اقتصادها.

أما أذْربيجان الشرقية [ر .إيران] فمساحتها ٦٧١٠٢كم² وعاصمتها تبريز، وهي جبلية تخترقها سلسلة جبال زاغروس الشرقية من الشمال إلى الجنوب، كما أن فيها مرتفعات بركانية شاهقة أبرزها جبل سبلان ويقدر عدد سكانها بنحو ٣٦٧٩٠٠٠ نسمة (عام ١٩٨٣). ومعظمهم من الأتراك إلى جانب الأرمن وقلة من الأكراد، والأتراك مسلمون شيعة، والزراعة عماد حياتهم، وتصل شبكة من الطرق والسكك الحديدية بين مدنها المهمة، تبريز والمراغة وأردبيل وأهار Ahar وميانة Mianeh ومرند وسَرَب، كما أن هناك خط أنابيب نفط يمتد من تبريز إلى طهران.

نجدة خماش

الموضوعات ذات الصلة:

الأحمديليون - الأخمينيون - الاسكندر - آق قوينلو - الأمويون - البيزنطيون - الخوارزميون - الساسانيون - السلاجقة - الصفويون - العباسيون - القاجاريون - الكرد.

مراجع للاستزادة:

- البلاذري، فتوح البلدان (دار الكتب العلمية، بيروت١٩٧٨).
- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (مشورات الأعلمي، بيروت١٩٧١).
- LES STRANGE, The Lands of the Eastern Caliphate (Cambridge1930).

■ أذرعات ◄ درعا

■ الأذرّة المعدنية (تعدين -)

تُطلق عبارة تعدين الأذرّة المعدنية powder metallurgy على مجمل العمليات التقنية التي يتم بموجبها الحصول على أذرة أو مساحيق معدنية، ثم الاستفادة من هذه الأذرة أو خلائطها، أو خلائط لأذرة معدنية مع أذرة أو مواد غير معدنية، أو شبه معدنية، وذلك بتشكيلها ومعالجتها للحصول منها مباشرة على قطع جاهزة أو نصف جاهزة للاستعمال من دون اللجوء إلى تقنيات التعدين المألوفة مثل الصهر والسكب وما يعقبها من عمليات التشكيل والتشغيل.

يعود تاريخ تعدين الأذرة أو المساحيق إلى نحو ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، عندما ابتكر قدماء المصريين طرائق من هذا القبيل لتصنيع بعض الأدوات والأسلحة التي كانوا يستعملونها. غير أن التطور الفعلي في هذا المجال لم يتحقق إلاّ في مطلع القرن التاسع عشر، عندما أدت تجارب وليم هايد وُلاستون William Hyde Wollaston إلى الحصول على البلاتين الصلب، فكان ذلك بداية استخدام طرائق جديدة للحصول على قطع معدنية صلبة من الأذرة المعدنية، تطورت مع الزمن، وازدادت سرعة تطورها في منتصف القرن العشرين مع زيادة متطلبات الصناعة الحديثة، حتى غدت الآن من التقنيات المهمة في صناعة الكثير من القطع التي يستحيل أحياناً، أو يكون من الصعب وغير الاقتصادي أحياناً أخرى، الحصول عليها بطرائق التعدين المعروفة، كالحصول على قطع ذات مسامية عالية ومتجانسة التوزيع في جسم القطعة، أو صناعة خليطة من معدنين أو أكثر من المعادن غير القابلة للامتزاج وتشكيل محاليل سائلة أو صلبة، مثل الفضة والتنغستن اللذين تصنع منهما خليطة تستخدم في صناعة قطع التماس في القاطعات الكهربائية المعرضة لأحمال كبيرة، أو لصنع خليطة من مواد معدنية مع مواد غير معدنية، مثل الأمينت asbestos والميكا وبعض الأكاسيد، لصنع مواد احتكاكية ذات عوامل احتكاك كبيرة لاستعمالها في صنع أقراص الفصل والوصل في أجهزة نقل الحركة cluch- discs ونعال شكائم الكبح brake shoes المستعملة في وسائط النقل، كما استطاعت التقنيات الحديثة حل مشكلة تصنيع القطع والمواد الكبيرة المقاومة للحرارة من معادن أو خلائط أو مركبات معدنية عالية درجات الانصهار تزيد على ٢٠٠٠ درجة مئوية، ولا غنى عنها في تصنيع بعض القطع اللازمة في صناعة العنفات وبعض تجهيزات المفاعلات الذرية وغيرها.

طرائق الحصول على الأذرة المعدنية

تختلف الطرائق المتبعة في الحصول على الأذرة أو المساحيق باختلاف طبيعة المعدن وكيفية وجوده وطبيعة الأذرة المراد تحضيرها والخواص التي يجب أن تتوافر فيها، إضافة إلى خواص القطع التي ستنتج من هذه الأذرة. فالطرائق المتبعة قد تكون ميكانيكية أو فيزيائية أو كيمياوية.

الطرائق الميكانيكية: وتتبع للحصول على مساحيق المعادن الهشة مثل بعض الخلائط الحديدية والحديد الصب الأبيض وأكاسيد المعادن وبعض الخلائط الخاصة، وتستعمل في هذا المجال الطواحين ذوات الكرات أو الطواحين الهزازة أو الطواحين الدوامية التي تحدث فيها دوامات هوائية تؤدي إلى اصطدام حبيبات المادة بعضها ببعض وتطحن أو تسحق ذاتياً. ومن الطرائق الميكانيكية تلك التي يلجأ إليها لتذرير المعدن المصهور أو تقطيعه على شكل قطرات في أثناء صبه في أحواض مائية ليتجمد على شكل حبيبات معدنية.

الطرائق الفيزيائية: إن أكثر الطرائق الفيزيائية شيوعاً للحصول على الأذرة المعدنية هي طريقة التحليل الكهربائي الذي يمكن أن يتم باستعمال المحاليل المائية لأملاح المعادن أو الأملاح المعدنية

المصهورة لبعض المعادن النادرة. ويتم التحليل في حوض يحتوي محلولاً مائياً لأحد أملاح المعدن المراد تذريره، ويكون المصعد مصنوعاً من هذا المعدن. وبإمرار التيار المناسب تبدأ ذرات المصعد بالتشرد في المحلول لتنتقل وتترسب على المهبط على شكل صفائح هشة سهلة التفتيت، أو على شكل حبيبات ناعمة يختلف حجمها باختلاف كثافة التيار الكهربائي المستخدم. ويمكن بالتحليل الكهربائي الحصول تقريباً على أذرة المعادن كافة. غير أن هذه الطريقة تقتصر على الحصول على الأذرة الضرورية في صنع بعض القطع التي تحتاج في تصنيعها إلى أذرة نقية خالية من الشوائب لبعض المعادن كالنحاس والفضة والنيكل، أو في الحصول على أذرة بعض المعادن النادرة مثل الزركونيوم والثوريوم والتيتانيوم.

ويمكن الحصول على أذرة المعادن ذات درجات الانصهار المنخفضة بطريقة التكثيف، وذلك بصهر المعدن وتبخيره، ثم تمرير أبخرته على سطوح مبرَّدة، فتتكاثف على شكل حبيبات كروية ناعمة، ذات قابلية جيدة للتشكيل والتلبيد sintering.

الطرائق الكيمياوية: وتضم مجموعة من الطرائق، منها ما هي كيمياوية فيزيائية أو كيمياوية ميكانيكية، ومنها ما هي كيمياوية صرف وأهمها:

١ـ الطريقة الكربونيلية: تعتمد هذه الطريقة على كون الكثير من المعادن، وضمن شروط معينة، يمكن أن تتحد مع أول أكسيد الكربون مكونة مركباً كيمياوياً يسمى بالكربونيل carbonyl.

$$Me + nCO \rightleftharpoons Me(CO)_n$$

وهو مركب غير ثابت يمكن أن يتفكك بسهولة إلى أول أكسيد الفحم والمعدن الصافي الذي يترسب على شكل حبيبات نقية، يمكن التحكم في حجومها عن طريق التحكم في شروط التفكك.

٢ـ طريقة الهدرجة: إن أكثر المعادن إذا ما سخنت إلى درجة حرارة واقعة ما بين ٣٠٠ و ٨٠٠درجة مئوية، تصبح ذات قابلية كبيرة للاتحاد مع الهدروجين لتكوّن مركباً يسمى هدريد المعدن، وهذا المركب هش، سهل التفتيت. وتتم العملية بتسخين المعدن (الذي يكون على شكل قطع صغيرة) إلى درجة الحرارة اللازمة، ضمن جو من غاز الهدروجين ليتشكل هدريد المعدن، الذي يجرش ويطحن، ثم يعاد تسخينه من جديد في جو مفرغ من الهواء لتخليصه من الهدروجين. فيُحصل على حبيبات ناعمة من المعدن النقي، ذات قابلية للكبس والتلبيد.

٣ـ طريقة الإرجاع (الاختزال): وهي أكثر طرائق الحصول على الأذرة شيوعاً لغزارة إنتاجها وقلة تكاليفها إذ يمكن بوساطتها الحصول على أذرة المعادن من أكاسيدها مباشرة، كما يمكن الاستفادة من مخلفات بعض العمليات التقنية، مثل قشور الصدأ الناتجة من تطريق المنتجات الحديدية وسحبها. ويتم الاختزال بوساطة مواد اختزال ذات قابلية كبيرة للتفاعل مع الأكسجين من المعدن المراد اختزاله، ويمكن أن تكون صلبة مثل الفحم والصوديوم والكلسيوم والمغنزيوم، أو غازية مثل الهدروجين وأول أكسيد الكربون وغاز النشادر.

٤ـ طريقة الكربدة: أي إضافة الفحم إلى أذرة المعدن عندما تكون الغاية هي الحصول على أذرة كربيد هذا المعدن بدلاً من أذرة المعدن الصافي، وتتم العملية في درجات حرارة مرتفعة وضمن جو خاص يقي الفحم من الاحتراق والمعدن من التأكسد. وكثيراً ما تدمج عمليتا الاختزال والكربدة في عملية واحدة ليتم الحصول على أذرة كربيد المعدن من أكاسيده مباشرة.

خواص الأذرة

يضاف إلى الخواص الفيزيائية والكيمياوية لأذرة المعادن بعض الخواص التكنولوجية التي تُعد مهمة، لتأثيرها الكبير في العمليات التكنولوجية اللاحقة التي يتم بموجبها تصنيع القطع الجاهزة من هذه الأذرة، وأهم هذه الخواص ما يلي:

الوزن النوعي: يحدد الوزن النوعي كثافة الأذرة، وحجم ما تشغله أذرة المعدن فعلاً من الحجم الكلي الذي تحتله، وثم حجم الفراغات المتكونة بين حبيبات المعدن، وتتعلق هذه الخاصة بخواص أخرى أهمها: حجم حبيبات الأذرة وتركيبها الحبيبي، وانتظام شكلها، ونعومة سطحها.

الانسيابية: وهي قابلية حبيبات الأذرة لملء أجزاء القالب، ولهذه الخاصة أثر كبير في سرعة الكبس، ولا سيما عند التشكيل الآلي، وهي خاصة معقدة تتعلق بعدة عوامل منها: الوزن النوعي، والنسب المنخلية لحجوم الحبيبات (البنية الحبيبية)، وأشكال الحبيبات ونعومةسطحها.

قابلية الكبس: أي قابلية الأذرة للتشكل والاحتفاظ بالشكل والأبعاد الداخلية للقالب عندما تتعرض لقوة كبس ضاغطة خارجية. وتتعلق هذه الخاصة بالكثير من العوامل منها: شكل الحبيبات وحجمها وقساوتها وقابليتها للتشكيل اللدن وغيرها.

شكل حبيبات الأذرة: تختلف أشكال الحبيبات باختلاف طبيعة المعدن وطريقة الحصول على أذرته، فيمكن للحبيبات أن تكون كروية أو بيضية أو متعددة السطوح أو قرصية أو إبرية أو غصنية.

البنية الحبيبية للأذرة: أي نسب الحجوم المختلفة للحبيبات، إذ غالباً ما تكون حبيبات المسحوق الواحد غير متجانسة في حجومها. ويتم تحديد البنية الحبيبية بأخذ عينة (وزن محدد) من المسحوق وتحليلها منخلياً، بنخلها على سلسلة نظامية من المناخل المتدرجة في صغر فتحاتها، ثم حساب النسب المئوية للكميات المتقاربة في حجومها والمتبقية فوق كل من المناخل والمترسبة تحت المنخل الأخير، ويمكن أن يراوح حجم حبيبات الأذرة بين أقل من ٠,٥ مكرون و ٥٠٠ مكرون.

السطح النوعي للحبيبات: وهو مجموع مساحات سطوح الحبيبات في واحدة الحجم أو واحدة الوزن ويتعلق هذا السطح بشكل الحبيبات وبنيتها الحبيبية.

تركيب الأذرة: إن الخليط الواحد من الأذرة المعدة للتصنيع، قد يكون أذرة لمعدن واحد، أو حاوياً بعض الشوائب، وقد يكون مؤلفاً من معدنين أو أكثر، أو من معدن مع مركبات معدنية أو مواد غير معدنية وذلك بحسب نوعية القطع المراد تصنيعها من هذه الأذرة.

العمليات التكنولوجية في صناعة منتجات الأذرة المعدنية

بعد الحصول على أذرة المعادن أو مساحيقها، تجرى عليها سلسلة من العمليات التقنية يتم بنتيجتها الحصول على قطع جاهزة أو نصف جاهزة للاستعمال في الصناعة، والتي غالباً ما تسمى بمنتجات الخزف المعدني. وأهم هذه العمليات ما يلي:

تحضير الخليط: وهي العملية الأساس في

صناعة منتجات الأذرة المعدنية، ولها الأثر الكبير في منح المنتج خواصه النهائية وتختلف طرائق التحضير باختلاف طبيعة الأذرة ونوعية الشوائب الموجودة فيها والطرائق المتبعة في الحصول على الأذرة، ومدى التباين في الوزن بين مكونات الخليط عندما يُراد أن يكون الخليط مؤلفاً من مواد مختلفة، وغير ذلك من العوامل التي، بالإضافة إلى علاقتها بالخواص المطلوب توافرها في المنتج، تحدد نوع العمليات الأولية التي يجب إجراؤها وأهمها:

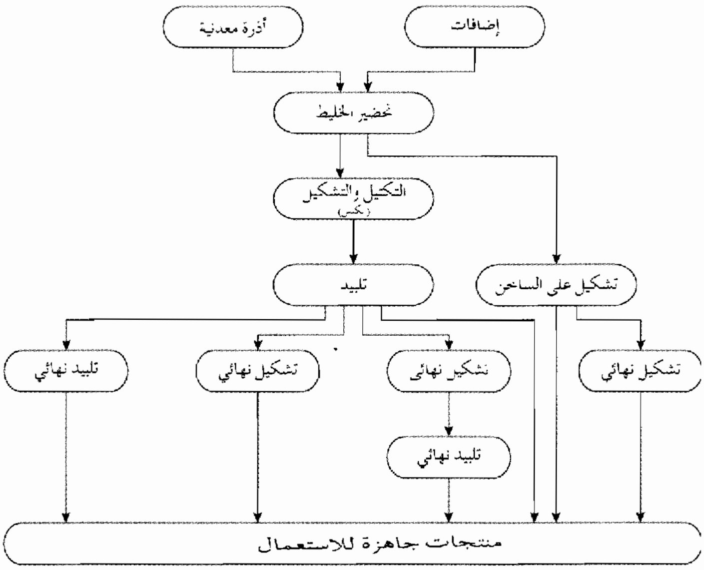
١- تنظيف الأذرة من الشوائب غير المرغوب فيها: ويتم ذلك بطرائق تختلف باختلاف طبيعة هذه الشوائب وطبيعة المعدن الأساس، فقد تكون طرائق كيمياوية أو هدروميكانيكية أو مغنطيسية.

٢- المعالجة الحرارية: تجري في بعض الأحيان عملية تطرية أو تلدين لتخليص الأذرة من القساوة التي اكتسبتها من عمليات الطحن أو غيرها وذلك لتحسين قابلية الأذرة للكبس والتشكل اللدن.

٣- التنسيق أو التصنيف الحبيبي: أي فصل الحبيبات الخشنة عن الناعمة، أو بالأحرى فصل الحبيبات إلى مجموعات بحسب حجومها، ثم إعادة خلطها بتركيب حبيبي معين.

٤- مزج الخليط: وتستعمل لهذه الغاية خلاطات ذات أشكال مختلفة، الغاية من استعمالها توزيع الحبيبات توزيعاً منتظماً فيما بينها، ويكون الخلط جافاً أو رطباً، وتستعمل طريقة الخلط الرطب على نحو خاص في خلط الأذرة المركبة والحاوية أكثر من مكون واحد، ولا سيما عندما يكون التفاوت في الوزن النوعي بين مكونات الخليط كبيراً، ويستخدم للخلط الرطب كل من الغول (الكحول) والبنزين والماء المقطر والغليسرين وغيرها.

التحبيب: من أجل الحفاظ على تجانس الخليط وزيادة انسيابيته وقابليته للتشكل، يُلجأ إلى تحبيب granulation الأذرة، وذلك بتكوين تجميعات وقتية الثبات مكونة من عدد كبير من الأذرة المتناهية في الصغر، ويستعان لهذه الغاية بمواد رابطة تساعد في الوقت نفسه على انزلاق الحبيبات بعضها على بعض عند عملية الكبس، ويمكن التخلص منها بسهولة عند عملية التلبيد من دون أن تترك أثراً ضاراً في المنتج. وأهم هذه المواد: البرافين والشمع والمطاط الصناعي والكافور وغيرها من بعض السوائل العضوية.



الطرائق التكنولوجية المتّبعة في تصنيع المنتجات من الأذرة المعدنية

التكتيل: تطلق كلمة التكتيل compacting على عمليات ضغط الحبيبات بعضها مع بعض لتكوين كتل صلبة متماسكة، وغالباً ما تتواكب هذه العملية مع إعطاء الكتلة الصلبة الشكل النهائي للقطعة التي ستكون فيما بعد جاهزة للاستعمال، فتكون عملية التكتيل هذه أيضاً عملية تشكيل. وأكثر الطرائق اتباعاً لتحقيق الغايتين معاً، هي طرائق الكبس ضمن قوالب يتفق شكل الفراغ الداخلي فيها مع شكل القطعة المراد إنتاجها، ويمكن أن يتم كبس الخليط من جهة واحدة أو من عدة جهات، وعندها يكون في المكبس أكثر من جزء واحد متحرك، كما يتوافر فيه إمكان تطبيق ضغوط مختلفة على الأجزاء المختلفة للقطعة، ولا سيما في القطع ذات الأشكال المعقدة أو السماكات المتباينة. ويتم تماسك حبيبات الأذرة بالكبس من جرّاء تضييق الفراغات بين الحبيبات، وزيادة أسطح التلامس بينها وتداخلها الذي يسببه التشوه اللدن للحبيبات. والتشكيل بالكبس يمكن أن يكون كبساً حتى ضغط محدد أو كبساً حتى حجم محدد، وفي كلتا الحالتين يجب أن يتم تقدير كمية الخليط بدقة وإلاّ فسوف يحصل تباين في المقاييس بين قطعة وأخرى في الحالة الأولى، وتباين في الكثافة في الحالة الثانية.

١- التكتيل بالكبس الهدروستاتي: تستعمل هذه الطريقة للحصول على قطع نصف جاهزة، بسيطة الشكل وغير دقيقة الأبعاد، وذلك بوضع الكمية اللازمة من الأذرة ضمن غلاف مرن، ثم وضعها ضمن سائل يطبق عليه ضغط معين، فيكون تأثير هذا الضغط موزعاً على الغلاف الحاوي الأذرة من جوانبه كافة، ومن ميزات القطع المصنعة بهذه الطريقة، التجانس في الكثافة بين أجزاء القطعة.

٢- التكتيل بالتطريق والسحب على البارد: تتبع هذه الطريقة لإنتاج القضبان والشرائط والصفائح، وذلك بتقديم الأذرة باستمرار بين أسطوانتين متوازيتين أفقياً، تحتويان أثلاماً تعطي المنتج شكله المطلوب.

٣- التكتيل بالتطريق والسحب على الساخن: وتتبع هذه الطرائق عندما يراد الحصول على قطع نصف جاهزة ذات كثافة عالية. ويتم ذلك بوضع الخليط من المساحيق أو الأذرة في وعاء مرن محكم الإغلاق، وتسخينه إلى درجة حرارة أعلى من درجة حرارة التلبيد، ثم تعريضه للتطريق والسحب مع الوعاء المحتوي عليه.

٤- الصب الانزلاقي: وهي طريقة حديثة تتبع في تشكيل بعض القطع ذات الأشكال المعقدة ومن أذرة فائقة النعومة، إذ تضاف الأذرة إلى سائل ما لتشكيل محلول معلّق suspension،

ثم يصب المحلول في قالب مساميّ من الفخار أو الجبس فيتسرب السائل من خلال المسام وتتكاثف الأذرة ويتداخل بعضها مع بعض لتكون قطعة متماسكة، تجفف ثم تلبّد.

٥ـ الكبس على الساخن: إن عمليات التكتيل والتشكيل والتلبيد يمكن اختصارها بعملية واحدة، وهي كبس الأذرة في قوالب التشكيل بعد تسخين هذه القوالب إلى درجة حرارة عالية قد تزيد في بعض الأحيان على ١٠٠٠ درجة مئوية، وذلك بحسب نوع الأذرة المستعملة. ومن حسنات هذه الطريقة، التوفير في الطاقة المستهلكة في الكبس لأن الأذرة، في درجات الحرارة المرتفعة هذه، تكون ذات لدونة كبيرة وقابلية جيدة للتشكيل. وتكون القطع المنتجة ذات كثافة عالية وخواص ميكانيكية جيدة، إلا أن استخدام هذه الطريقة بقي محدوداً، لصعوبة تصنيع قوالب التشكيل، التي يجب أن تتحمل درجات الحرارة العالية من دون أن تتآكل أو تفقد خواصها الميكانيكية.

التلبيد: بعد الانتهاء من التكتيل والتشكيل بالكبس تكون القطعة هشة، غير صالحة للاستخدام، تتفتت عند تعرضها لأي جهد خارجي. لذلك تجرى لها عملية التلبيد لإكسابها المتانة الكافية، والخواص الفيزيائية والكيمياوية اللازمة للاستخدام. والتلبيد تسخين القطعة أو المنتج إلى درجة حرارة مرتفعة، تصل أحياناً إلى ٠,٩ من درجة الانصهار المطلقة لمعدن الأذرة أو للمعدن الرئيسي في حال كون الأذرة مزيجاً من عدة مكونات.

وتعد عملية التلبيد من أكثر العمليات التكنولوجية أهمية، لتأثيرها المباشر في خواص القطعة المنتجة ومواصفاتها كافة ومدى صلاحها للاستعمال، وذلك لما تحدثه من تغيرات في بنية الأذرة. ومن أهم هذه التغيرات:

أ ـ تغير كمي وكيفي في سطوح الحبيبات وكيفية تلامسها وتداخل بعضها في بعض.

ب ـ التخلص من الإجهادات الناجمة عن عملية التشكيل.

ج ـ إعادة التبلور في حبيبات الأذرة ونمو البلورات، واختلاف النسبة بين حجم الفراغات المسامية والحجم الكلي للقطعة.

د ـ قد ينصهر واحد أو أكثر من مكونات المزيج المؤلَّف من أذرة أكثر من معدن واحد، والطور السائل الناتج قد يكون قابلاً للاندماج في بعض المكونات الصلبة على شكل محاليل صلبة، أو إذابة بعضها في محلول سائل يتبلور فيما بعد إلى محلول صلب أو إلى عدة أطوار صلبة، وقد يقضي وجود الطور السائل على الفراغات المسامية كلياً أو جزئياً. وهكذا فإن البنية الصلبة للمزيج قد تتغير كلياً، وتتغير تبعاً لذلك الخواص كافة. لهذا فإن الحصول على البنية المطلوبة والخواص اللازمة، يتم عن طريق التحكم في العوامل الرئيسية المؤثرة في عملية التلبيد وهي درجة الحرارة التي يتم فيها التلبيد، وزمن إبقاء المزيج في هذه الدرجة، والتركيب الغازي لجو الفرن.

منتجات تعدين الأذرة: إن المنتجات المصنوعة بطريقة تعدين الأذرة (منتجات الخزف المعدني)، كثيرة ومتنوعة، ولا يتسع المجال لحصرها، غير أنه يمكن تصنيف أهمها وأكثرها استعمالاً في مجموعات، بحسب مواصفاتها الأساسية ومجالات استعمالها وذلك على النحو التالي:

١ـ القطع ذات المسامية العالية: وتشمل الكثير من أنواع الحدبات cams وكراسي المحاور، في المحركات والمكنات التي تمتاز بعامل احتكاك صغير ومقاومة جيدة للتآكل، كما أن مساميتها العالية تسمح بتشريبها بالزيوت لتكون ذاتية التزليق أو بتسريب الغازات والسوائل إليها لتستعمل في تصفية بعض السوائل من الشوائب العالقة بها. وأكثر المعادن والعناصر استعمالاً في هذا المجال مزيج الحديد والغرافيت، وخلائط البرونز المختلفة التي كثيراً ما يضاف إليها الغرافيت أيضاً.

٢ـ قطع الآلات وعناصرها: إن الكثير من عناصر الآلات يكون من الصعب تصنيعها بالطرائق العادية، أو إن كثرة العمليات التكنولوجية التي يجب أن تخضع لها تجعلها باهظة التكاليف، فيكون تصنيعها بطرائق تعدين المساحيق أو الأذرة أيسر وأقل تكلفة، ومن هذه القطع بعض أقراص نقل الحركة ومسنناتها وموانع تسرب الزيوت في محركات الاحتراق الداخلي وغيرها.

٣ـ المواد والقطع الاحتكاكية: وهي مواد ذات عامل احتكاك كبير وتستطيع المحافظة عليه في درجات الحرارة المختلفة، قليلة التآكل وجيدة الناقلية للحرارة، وتصنع غالباً من أذرة معدنية تضاف إليها مواد غير معدنية مثل الأمينت، وتستعمل في صناعة أقراص الفصل والوصل وشكائم كوابح وسائط النقل وغيرها.

٤ـ أدوات القَطْع: مثل بعض أدوات قطع المعادن المصنوعة من الكربيدات القاسية لبعض المعادن، وأحجار الجلخ المستعمل في تصنيعها مسحوق الألماس.

٥ـ مواد الصناعات الكهربائية: وهي كثيرة ومتنوعة، منها: القواطع، وفراشي تجميع التيار في المحركات والمولدات، والأسلاك المتوهجة في المصابيح والصمامات، ووشائع التسخين، والمواد المغنطيسية (العازلة والقاسية واللينة مغنطيسياً).

٦ـ المواد الحرارية: وهي التي تتحمل درجات الحرارة العالية، وتختلف باختلاف درجات الحرارة التي تستعمل عندها. وتصنع هذه المواد من المعادن المقاومة للصهر مثل التنغستن والموليبدينيوم والتيتانيوم والزركونيوم، أو من بعض المركبات المعدنية، وتستخدم في المحركات النفاثة وتبطين الأفران والمفاعلات وغيرها.

٧ـ المواد والسبائك ذات الاستعمالات الخاصة: وهي كثيرة ومتنوعة، منها: عناصر الوقود في المفاعلات الذرية التي أساسها أكسيد الأورانيوم، وسبائك الباريليوم المستخدمة في الصناعات الفضائية، وخلائط بعض المواد المستخدمة في طب الأسنان، وغيرها.

جميل أبو حهجاه

الموضوعات ذات الصلة:

التعدين ـ تلبيد الأذرة المعدنية ـ المعادن والسبائك الخليطة (إعداد ـ).

مراجع للاستزادة:

ـ فيازنيكوف برماكوف، استعمال منتجات ميتالورجيا المساحيق في الصناعة (موسكو ١٩٦٨).

- J.J.BURKE & V.WEISS, Powder Metallurgy for High-Performance Applications (1973).
- H.H.HAUSNER, Handbook of Powder Metallurgy (1973).

■ الإذعان (عقد ـ)

عقد الإذعان contract of adhesion، عقد وضع شروطه الجوهرية مسبقاً أحد طرفيه، ليتقيد بها كل من يرغب في التعامل معه. وقد أفرد المشرع في القانون المدني السوري نصوصاً خاصة بعقود الإذعان بين النصوص المتعلقة بآثار العقد أي بتفسيرها أو تنفيذها فقد نصت المادة ١٥٠ منه: «إذا تم العقد بطريق الإذعان وكان قد تضمن شروطاً تعسفية جاز للقاضي أن يعدل هذه الشروط أو أن يعفي الطرف المذعن منها، وذلك وفقاً لما تقضي به العدالة، ويقع باطلاً كل اتفاق على خلاف ذلك». ونصت المادة ١٥٢: «١ـ يفسر الشك في مصلحة المدين. ٢ـ ومع ذلك لايجوز أن يكون تفسير العبارات الغامضة في عقود الإذعان ضاراً بمصلحة الطرف المذعن».

وإذا كان القبول عادة في دائرة العقود [ر]، وهو في ذلك كالإيجاب لايقع إلا بعد مفاوضة وأخذ ورد، وذلك حتى يُقدّر القابل أن له مصلحة في عقد العقد، فقد ظهر في العصر الحديث، نتيجة للتطور الاقتصادي في هذا النوع من العقود، اتجاه يستبعد كل مناقشة بين الطرفين، إذ يتقدم أحدهما، وهو الجانب القوي، بمشروع عقد يوجهه إلى الطرف الآخر وهو الجانب الضعيف ولايسمح لهذا إلا بالقبول الذي قد يكون مجرد إذعان لما يمليه الموجب، فالقابل للعقد لم يصدر قبوله بعد مناقشة ومفاوضة بل هو في موقفه من الموجب لايملك إلا أن يأخذ أو أن يدع. إنه حر، لكن حريته تنحصر في قبول التعاقد كما هو أو رفضه، ولما كان في أغلب الحالات في حاجة إلى التعاقد على شيء لاغنى له عنه فهو مضطر إلى القبول، فرضاؤه موجود ولكنه مفروض عليه ومن ثم سميت هذه العقود بعقود الإذعان.

خصائص عقود الإذعان

مادامت هذه العقود محصورة في دائرة معينة وتتصل بسلع أو مرافق ضرورية لايستطاع الاستغناء عنها، فهي تحدد بالخصائص التالية:

ـ إنها تتعلق بسلع أو مرافق تعد من الضروريات للمستهلكين والمنتفعين أمثال التعاقد مع شركات أو مؤسسات الكهرباء والغاز ومصالح البريد والهاتف والفاكس وعقد النقل بوسائطه المختلفة من سكك حديد وطائرات وسيارات وبواخر، والتعاقد مع شركات التأمين بأنواعه، وعقد العمل [ر] في الصناعات الكبرى وغيرها.

ـ صدور الإيجاب من محتكر هذه السلع أو المرافق احتكاراً قانونياً أو فعلياً، أو على الأقل مسيطر عليها سيطرة تجعل المنافسة فيها محدودة النطاق.

ـ توجيه الإيجاب إلى الناس كافة على نمط واحد وبشروط واحدة وعلى نحو مستمر أي لمدة غير محددة ويغلب أن يكون في صيغة مطبوعة تحتوي على شروط مفصلة لاتجوز فيها المناقشة وأكثرها لمصلحة الموجب، فهي تخفف تارة من مسؤوليته التعاقدية وأخرى تشدد في مسؤولية الطرف الآخر، وهي على درجة من التعقيد تجعل فهمها صعباً.

ففي كل هذه العقود يعرض الموجب إيجابه في صيغة نهائية لا تقبل المناقشة فيه ولا يسع الطرف الآخر إلا أن يقبل، إذ لا غنى له عن التعاقد. ولكن هذا الإذعان للتعاقد ليس إكراهاً يعيب الرضاء، بل هو نوع من الإكراه الاقتصادي الذي لا أثر له في صحة التراضي.

طبيعة عقود الإذعان

اختلف الفقهاء في طبيعة عقود الإذعان فانقسموا فريقين رئيسين: ويدور اختلافهم في الواقع حول الجواب عن السؤال التالي: هل يعد القبول في عقد الإذعان قبولاً على المعنى الذي بصدوره ينعقد العقد، أو إنه لا يعد كذلك، وإذن فلن يكون هناك عقد.

وقد ذهب فريق أول، أكثرهم من فقهاء القانون العام، إلى إنكار صفة العقد على عقد الإذعان ولم يعدوه مركزاً قانونياً منظماً institution، فهذا الذي يوصف بوصف العقد ليس إلا تصرفاً قانونياً من جانب واحد، ذلك أن إرادة واحدة هي التي استقلت بوضع شروط التعاقد ثم فرضته فرضاً على الجانب الضعيف الذي كان قبوله مجرد إذعان وانصياع، فهي من ثم قريبة الشبه بالقاعدة القانونية وينبغي أن تفسر كما تفسر هذه القاعدة أي وفق مقتضيات الصالح العام والعدالة وحسن النية وينظر فيه إلى ماتستلزمه الروابط الاقتصادية التي وضع لتنظيمها، لا كما يفسر العقد، أي طبقاً لما قصده الطرفان. أي يجب أن يعنى في تطبيقه بمصلحة العمل أولاً، ثم بما يستحق الحماية من مصالح كل من طرفي العقد.

ويرى فريق ثان، وهم غالبية فقهاء القانون المدني، أن عقد الإذعان عقد حقيقي يتم بتوافق إرادتين ويخضع للقواعد التي تخضع لها سائر العقود، إذ ليس من المحتم أن تسبق القبول في العقود مفاوضات ومناقشات ولا أن يكون نصيب الطرفين في إنشاء العقد متساوياً، وكل مايتطلبه القانون هو اتفاق الطرفين على إحداث أثر قانوني معين. فإذا قيل إن أحد المتعاقدين ضعيف أمام الآخر، فإن هذه ظاهرة اقتصادية لا ظاهرة قانونية، ولايكون علاج الأمر بإنكار صفة العقد على عقد حقيقي، ينضوي تحت تعريف العقد بأنه تبادل تعبير عن إرادتين متطابقتين بقصد إنشاء التزام أو أكثر، بل إن هذه العقود تفضل العقود المعتادة لأنها واحدة للجميع فيقل فيها خطر الغلط والتدليس، ولأنها تمكن السلطات العامة من مراقبة شروطها. وعلى هذا لايتمكن القاضي من تفسير هذا العقد كما يشاء بدعوى حماية الضعيف فتضطرب المعاملات وتفقد استقرارها وهذا الرأي هو الذي ساد في فقه القانون المدني، وهو الذي ارتضاه نص القانون المدني السوري المواد (١٥٠ ـ ١٥٢).

نظام عقود الإذعان في التشريع السوري والمقارن

كان القضاء يعد عقود الإذعان عقوداً حقيقية واجبة الاحترام، وكان يطبق شروط العقد المطبوعة والمكتوبة على السواء إلا أنه كان يُغلِّب عند الاختلاف الشرط المكتوب على الشرط المطبوع. كما أنه كان يتساهل أحياناً في الاعتراف بوجود عيب في الإرادة حتى يهيِّئ طريق الخلاص من العقد، كما أنه لم يكن يتبع القاعدة العامة في تفسير العقود التي تقول إن الشك يفسر لمصلحة المدين، بل كان يفسر الشك دائماً لمصلحة الطرف المذعن، دائناً كان أم مديناً، وذلك حتى تتحقق الحكمة التي توخاها الشارع من وضعه لتلك القاعدة.

وقد انقلبت هذه الحماية القضائية بعد إقرار القانون المدني السوري إلى حماية تشريعية ونظَّم بنصوص خاصة عقد التزام المرافق العامة [ر] وعقد العمل [ر] وعقد التأمين [ر] وأتى القانون بنصوص عامة لتنظيم عقود الإذعان كافة وبذلك جعل للقضاء سنداً تشريعياً ومهد أمامه الطريق ليخطو خطوات أوسع في حماية الجانب المذعن.

وبغض النظر عن النصوص الخاصة التي تعالج هذه الموضوعات المتنوعة، فإن النصوص العامة

في القانون المدني السوري التي سارت على غرار القانون المدني المصري واتبعتها في ذلك تشريعات عربية أخرى، قد نصت على هذه الحماية ومن ذلك مثلاً ما نصت عليه المادة ١٥٠ من القانون المدني السوري الآنفة الذكر والمقابلة للمادة ١١٩ من القانون المدني المصري والمادة ١٤٩ من القانون الليبي والمادة ١٦٧ من القانون العراقي.

فهذا النص قد جعل للقاضي سلطة تقديرية ليس لمحكمة النقض حق في التعقيب عليها فمتى ارتأى شرطاً تعسفياً في عقد من عقود الإذعان جاز له أن يعدله ليزيل ما في العقد من تعسف، بل وله أن يلغي الشرط كلياً ولم يجز للمتعاقدين أن يسلبا القاضي هذه السلطة باتفاقهما.

كما جاء نص المادة ١٥٢ من القانون المدني السوري مطابقاً للمادة ١٥١ من القانون المدني المصري والمادة ١٥٣ من القانون الليبي والمادة ١٦٧ /٣ من القانون المدني العراقي. ليؤكد تفسير الشك في مصلحة المدين ولايجوز أن يكون تفسير العبارات الغامضة في عقود الإذعان ضاراً بمصلحة الطرف المذعن. وقد جاء في المذكرة الإيضاحية للمشروع التمهيدي في هذا الصدد « ويراعى من ناحية أخرى أن الأصل أن يفسر الشك في مصلحة المدين عند غموض عبارة المتعاقد غموضاً لايتيح زواله. وقد استثنى المشروع من حكم هذا الأصل عقود الإذعان فقضى أن يفسر الشك فيها لمصلحة العاقد المذعن، دائناً كان أو مديناً. فالمفروض أن العاقد الآخر وهو أقوى العاقدين، يتوافر له من الوسائل مايمكنه من أن يفرض على المذعن عند التعاقد شروطاً واضحة بينة فإن لم يفعل ذلك أخذ بخطئه أو تقصيره وحمل تبعته لأنه يعد متسبباً في هذا الغموض » وتتفق التشريعات العربية، إجمالاً، في الأحكام السالفة عن عقد الإذعان.

عبد الهادي عباس

الموضوعات ذات الصلة:

الإرادة المنفردة - التأمين - العقود.

مراجع للاستزادة:

- حشمت ابو ستيت، نظرية الالتزام في القانون المدني الجديد (مصر ١٩٥٤).
- السنهوري، الوسيط في شرح القانون المدني «جزء١ - نظرية الالتزام بوجه عام (دار النهضة، مصر ١٩٦٤).

■ الأذن في الإنسان

الأذن ear عضو السمع وتسهم أيضاً في حفظ توازن الجسم.

بنية الأذن

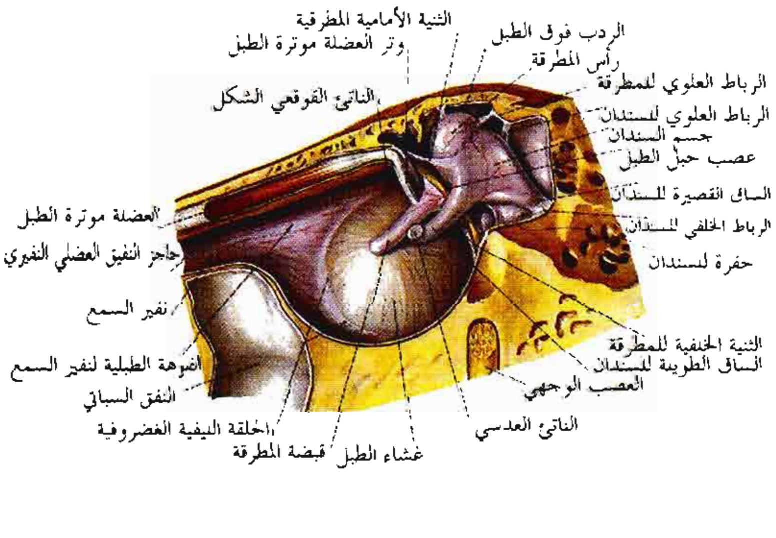
تتألف من أذن ظاهرة وأذن وسطى وأذن باطنة. تشمل الأذن الظاهرة الصيوان ومجرى السمع الظاهر. يتألف الصيوان في معظمه من غضروف مجعد يستره جلد رقيق خال من طبقة شحمية واقية ويتشكل متأخراً في الحياة الجنينية.

أما مجرى السمع الظاهر فيمتد من الصيوان إلى الأذن الوسطى طوله وسطياً ٣٠-٣٥مم وفيه تضيّق على بعد ٧مم من نهايته العميقة، قسمه الخارجي غضروفي وقسمه الداخلي عظمي، يستره جلدٌ سميك يحمل أشعاراً في الخارج، وجلدٌ رقيق خالٍ من الأشعار في الداخل حيث ينتهي بغشاء الطبل الذي يفصله عن الأذن الوسطى.

وغشاء الطبل يقع في النهاية العميقة لمجرى السمع الظاهر ويشكل جزءاً من الجدار الخارجي للأذن الوسطى، مساحته نحو ٩٠مم٢ يميل إلى الأسفل والداخل، ثلثه العلوي رقيق ورخو نسبياً وقسمه السفلي متين ومشدود لاحتوائه طبقة ليفية. يتألف محيطه من حلقة ليفية تثبت في ميزابة عظمية، وتلتصق على وجهه الداخلي قبضة المطرقة إحدى عظيمات الأذن الوسطى.

والأذن الوسطى جوف له ستة وجوه: الوجه الخارجي يتألف معظمه من غشاء الطبل. والوجه الأمامي يمتد منه أنبوب طويل إلى البلعوم الأنفي يسمى نفير أوستاش، والوجه الداخلي يحوي في منتصفه بروزاً يسمى الطنف، تقع النافذة البيضية خلفه من الأعلى والنافذة المدورة خلفه من الأسفل، وتصل هاتان النافذتان الأذن الوسطى بالأذن الداخلية. ويسير العصب الوجهي (القحفي السابع) في أعلى هذا الوجه فوق النافذة البيضية في أنبوب عظمي يسمى قناة فالوب، والوجه الخلفي يحوي فتحة تصل الأذن الوسطى بخلايا النتوء الخشائي.

تحوي الأذن الوسطى ثلاث عظيمات: المطرقة ولها قبضة تنطمر في غشاء الطبل وتهتز معه وتنتهي القبضة في الأعلى بعنق يتلوه رأس يقع في القسم العلوي من جوف الأذن الوسطى، والسندان وله جسم يتمفصل مع رأس المطرقة مشكلاً معه كتلة واحدة، ونتوءاً قصيراً يمتد إلى الخلف ويشكل محوراً للحركة، ونتوءاً



(الشكل ١) الأذن الوسطى

طويلاً يمتد إلى الأسفل ليتمفصل مع رأس العظم الثالث الذي يسمى الركاب لأنه يشبه ركاب الخيل، له رأس يتمفصل مع النتوء الطويل للسندان وسويقتان أمامية وخلفية تحصران بينهما فراغاً وقاعدة بيضوية الشكل تنطبق انطباقاً تاماً على النافذة البيضية وتغلقها ويصل بينهما رباط يسمح بحركة القاعدة ضمن النافذة البيضية لتنقل الاهتزازات إلى الأذن الداخلية.

وفي الأذن الوسطى عضلتان: عضلة المطرقة أو موترة غشاء الطبل عملها توتير هذا الغشاء بجذب قبضة المطرقة إلى الداخل، وعضلة الركاب وهي أصغر عضلة في الجسم عملها جذب الركاب إلى الخلف لتخفف اهتزازه عند التعرض للأصوات الشديدة فتحمي بذلك الأذن الداخلية.

ونفير أوستاش الذي ذكر سابقاً أنبوب يمتد من الوجه الأمامي للأذن الوسطى إلى الجدار الجانبي للبلعوم الأنفي طوله نحو ٣سم، ثلثه القريب من الأذن عظمي وثلثاه الباقيان غضروفيان، وهو مغلق دوماً إلا عند القيام ببعض الحركات كالبلع فيفتح مدة وجيزة جداً كافية لتوازن الضغط في الأذن الوسطى مع الضغط الخارجي على نحو يصبح معه الضغط متعادلاً على وجهي غشاء الطبل.

أما الأذن الباطنة وتسمى التيه لتركيبها المعقد فتتوضع في صخرة العظم الصدغي، وتتألف من تيه عظمي وتيه غشائي.

يتألف التيه العظمي من تجاويف في عظم الصخرة مملوءة بسائل يسمى اللمف المحيطي ويتألف من الأقنية نصف الدائرية الثلاث والدهليز والحلزون. يدور الحلزون دورتين ونصف حول عمود مركزي ترتكز عليه صفيحة عظمية حلزونية تمتد إلى الخارج ويتصل بنهايتها غشاء يصل إلى الجدار الخارجي يسمى الغشاء القاعدي فيقسم الحلزون بذلك قسمين منفصلين: قسم علوي يسمى المنحدر الدهليزي يتصل بالنافذةالبيضية وقسم سفلي يسمى المنحدر الطبلي يتصل بالنافذة المدورة. يتصل المنحدران بمجرى ضيق عند ذروة الحلزون. ويتصل التيه العظمي بالمسافة تحت العنكبوتية في الدماغ بقناة تسمى القناة المائية الحلزونية يتصل بوساطتها اللمف المحيطي بالسائل الدماغي الشوكي.

أما التيه الغشائي فيقع ضمن التيه العظمي وهو أصغر منه بكثير ويتألف من الأقنية نصف الدائرية الثلاث ومن القُريبة والكييس وتتوضع في الدهليز، ومن الحلزون. يملأ التيه الغشائي سائل يسمى اللمف الداخلي الذي يختلف تركيبه عن تركيب اللمف المحيطي.

تتوضع كل من الأقنية نصف الدائرية الثلاث بشكل عمودي على القناتين الأخريين وتسمى إحداها القناة الأفقية والثانية القناة الخلفية والثالثة القناة العلوية، تنفتح كلها على القُريبة حيث تتسع كل منها قرب القُريبة محدثة ما يسمى المجل أو الأنبورة ampulla وفي المجل يقع القسم الوظيفي حيث توجد تشكيلة تسمى القنزعة المجلية فيها خلايا مهدبة تقع أهدابها بتماس كتلة هلامية خفيفة معلقة في اللمف الداخلي تسمى القديح تتحرك بتحرك اللمف الداخلي.

يحوي كل من القُريبة والكييس لطخة فيها العناصر الحساسة وهي خلايا مهدبة تقع أهدابها بتماس لوحة من مادة هلامية تحوي ذرات ثقيلة من أملاح الكلس تسمى الرمال الأذنية وهي بثقلها تجعل الطبقة الهلامية تطبق ضغطاً على أهداب الخلايا المهدبة يختلف باختلاف وضعية الرأس.

والحلزون الغشائي يحده الغشاء القاعدي الذي يفصله عن المنحدر الطبلي من جهة وعن المنحدر الدهليزي - غشاء رقيق يسمى غشاء رايسز- من الجهة الأخرى. تتوضع على الغشاء القاعدي العناصر الحساسة في تشكيلة تسمى عضو كورتي ويتألف من نفق تتوضع في منتصفه وعلى الجانبين الخلايا المهدبة الحساسة تدعمها خلايا داعمة. وتقع أهداب الخلايا المهدبة بتماس غشاء رقيق يسمى «الغشاء الماس».

تمتد من كل من القُريبة والكييس قناة تلتقي بالقناة الأخرى وتشكلان قناة واحدة تسمى قناة اللمف الداخلي تسير في عظم الصخرة وتتسع في نهايتها لتشكل انتفاخاً يسمى كيس اللمف الداخلي الذي يتوضع على الوجه الخلفي العلوي للصخرة تحت السحايا مما يجعله تحت ضغط السائل الدماغي الشوكي ويتعادل بذلك ضغط اللمف الداخلي وضغط اللمف المحيطي.

وظيفة الأذن

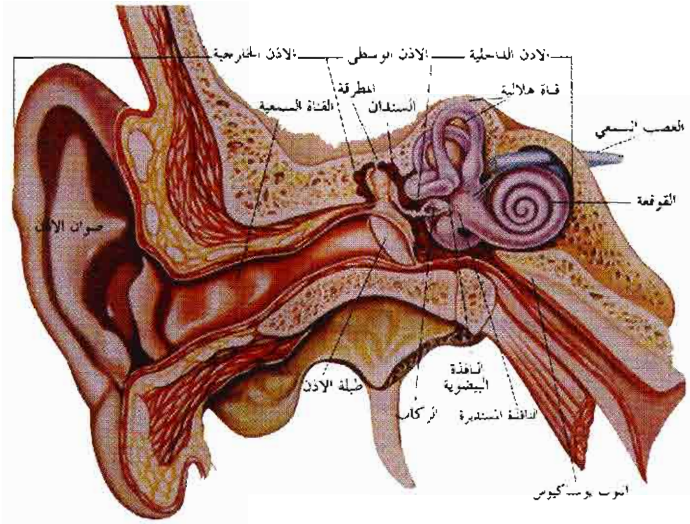
للأذن وظيفتان: السمع والإسهام في حفظ التوازن.

السمع: يفيد الصيوان لتعيين مصدر الصوت من الأمام أو من الخلف. وتدخل الأمواج الصوتية التي يحملها الهواء مجرى السمع الخارجي وتصطدم بغشاء الطبل فتهزه، وتهتز باهتزازه قبضة المطرقة المنطمرة فيه وينتقل الاهتزاز إلى عظم السندان فعظم الركاب، الذي يؤدي اهتزاز قاعدته المنطبقة على النافذة البيضية إلى اهتزاز اللمف المحيطي الموجود على جدارها الداخلي في الأذن الباطنة، وبذلك تنتقل الاهتزازات الصوتية من اهتزازات هوائية إلى اهتزازات سائلة في اللمف المحيطي بوساطة غشاء الطبل وعظيمات السمع الثلاث. ويؤدي هذا الانتقال إلى فقدها قسماً كبيراً من قوتها كما هو معروف في الفيزياء. وتُعوَّض هذه الخسارة بآليتين: آلية الرافعة وهي الفرق بين طول قبضة المطرقة والنتوء الطويل للسندان، وآلية المدحم وهي الفرق بين مساحة غشاء الطبل ومساحة النافذة البيضية، وهكذا تنقل الأذن الوسطى الاهتزازات إلى الأذن الداخلية وتضخمها. وفي الأذن الداخلية يهتز اللمف المحيطي باهتزاز قاعدة الركاب فيهتز الغشاء القاعدي وتحتك أهداب الخلايا المهدبة بالغشاء الماس. وينقلب الصوت عند الخلايا المشعرَّة من حركة آلية إلى تنبيه عصبي ينتقل بالعصب السمعي إلى الدماغ.

ويختلف نقص السمع بشدته من نقص بسيط إلى فقد السمع كاملاً. ويقسم إلى قسمين كبيرين: نقص السمع التوصيلي ونقص السمع الاستقبالي. ينتج الأول من إصابة الجهاز الموصل للاهتزازات الصوتية أي الأذن الظاهرة والأذن الوسطى، وينتج الثاني من إصابة الجهاز المستقبل للاهتزازات الصوتية أي الأذن الباطنة والعصب السمعي والجملة العصبية المركزية. ويتمكن الطبيب الاختصاصي من تمييز هذين النوعين بسهولة بفحوص بسيطة. وهذا التمييز مهم جداً لأن معظم الأسباب المؤدية إلى نقص السمع التوصيلي يمكن شفاؤها بالعلاج أو إصلاحها بالجراحة في حين يصعب شفاء معظم الأسباب المؤدية إلى نقص السمع الاستقبالي.

من أهم أسباب نقص السمع التوصيلي:

- انسداد مجرى السمع الظاهر خلقياً أو بسبب سدادة صملاخية أو من التهاب جلد المجرى وتوذمه أو من جسم أجنبي ولج فيه.
- وانثقاب غشاء الطبل من صفعة أو انفجار



شديد أو بعد التهاب الأذن الوسطى.

- وانسداد نفير أوستاش بسبب الناميات الضخمة في الأطفال، أو التحسس الأنفي أو انشقاق شراع الحنك أو سرطان البلعوم الأنفي.

- والتهاب الأذن الوسطى الحاد أو المزمن.

- والاستحالة الاسفنجية في الأذن الوسطى وهو مرض وراثي يصيب الإناث أكثر من الذكور يبدأ نحو سن العشرين بنقص سمع خفيف يزداد ببطء حتى يبلغ درجة شديدة، يحدث فيه تصلب قاعدة عظم الركاب المنطبق على النافذة البيضية فيصعب اهتزازه. ويعالج جراحياً بالاستعاضة عن عظم الركاب بقطعة صناعية ونتائج هذه المعالجة جيدة.

ومن أهم أسباب نقص السمع الاستقبالي:

- الولادية، فيولد الطفل فاقداً السمع أو يفقد السمع بعد الولادة بقليل ويبقى الطفل في هذه الحالة أبكم إذ لا بد من السمع لتعلم الكلام. وينجم نقص السمع الولادي عن الوراثة ولاسيما الزواج من الأقارب، أو عن إصابة الأم بمرض في أثناء الحمل ولا سيما الحصبة الألمانية أو تناولها أدوية مؤذية للسمع أو محاولة الإسقاط، أو عن الولادة العسيرة وما يرافقها من إصابة الوليد بنقص الأكسجين، أو عن انحلال دم الوليد باختلاف الزمر الدموية، أو عن بعض أمراض الطفولة الباكرة كالتهاب السحايا والحصبة والنكاف.

- الانسمامية وفي طليعة سموم السمع بعض الأدوية كالستربتومیسین والديهدروستربتوميسين والنيوميسين والغاراميسين. والساليسيلات والكينين، والكحول والتبغ وغيرها.

- رضوض الجمجمة إذا أدت إلى ارتجاج دماغي أو كسر في الصخرة.

- الفجائية تحدث في إحدى الأذنين بسبب وعائي (انفجار أو انسداد) أو التهاب بفيروس.

- مرض منيير Ménière ونقص السمع فيه ناشئ من إصابة الأذن الباطنة بزيادة ضغط اللمف الداخلي بأسباب مجهولة. ويرافق نقص السمع دوار نوبي شديد يستمر دقائق أو ساعات يترافق بغثيان أو إقياء ثم يزول تماماً.

- ورم العصب الثامن وهو ورم سليم، يرافق نقص السمع فيه طنين ودوار يعالج بالجراحة.

- نقص السمع النفسي وهو فجائي ثنائي الجانب يشاهد في الحروب.

- نقص السمع الشيخي ينجم عن تنكس الخلايا المشعرة في عضو كورتي أو تنكس خلايا العصب السمعي أو الجملة العصبية المركزية.

- الرض الصوتي: بالتعرض لصوت شديد مرة واحدة كالانفجارات أو التعرض المتجدد بضجيج شديد كما في المعامل والمطارات.

الإسهام في حفظ التوازن: يتم توازن الجسم بأفعال انعكاسية تجعل البدن في الوضع الصحيح الذي يمنع السقوط فإذا مال الرأس إلى إحدى الجهتين أخذت الأطراف والجذع وضعية مناسبة تمنع سقوط الشخص. ويتم ذلك بمراقبة مركز التوازن في الدماغ. ترد المعلومات إلى هذا المركز عن كل وضعية جديدة يأخذها الجسم ليصدر الأوامر المناسبة لهذه الوضعية. وتصل هذه المعلومات إلى المركز بثلاث طرق: العين والحس العميق والأذن. ووظيفة الأذن إعطاء معلومات عن وضعية الرأس في الحركة والسكون ويقوم بهذه الوظيفة الأقنية نصف الدائرية والقريبة والكييس.

تتنبه الأقنية نصف الدائرية بالتسارع الزاوي الإيجابي أو السلبي أي عند بدء الدوران أو في نهايته وذلك بسبب تحرك اللمف الداخلي وتحريكه للقديع الذي يحتك بأهداب الخلايا المهدبة في المجل. أما القريبة والكييس فتتنبهان بالتسارع الخطي وبتغيير وضعية الرأس لتأثرها بالثقالة. وهكذا تنقل الأذن إلى مركز التوازن المعلومات عن كل حركات الرأس زاوية كانت أم خطية.

والدوار شعور خاطئ بوجود حركة نسبية بين الشخص والمحيط، ينتج من خلل الآليات التي تثبت خيال الأشياء على شبكية العين.

يتم توازن الجسم بفعل مركز في الدماغ تصله المعلومات عن طريق العين أو الحس العميق أو الأذن ويكون الدوار نتيجة خلل في إحدى هذه الطرق الموصلة أو في الجملة العصبية المركزية. وللدوار أسباب كثيرة فالداء السكري والتابس يؤثران في الحس العميق، والأورام والالتهابات والتصلب المتعدد ونقص التروية تصيب الجملة العصبية المركزية، أما الأذن فمن أمراضها المسببة للدوار مرض منيير والتهاب التيه وما يسمى بدوار الوضعة.

يتصف الدوار الأذني بشدته فيرى الشخص الأشياء تدور من حوله ويرافقه غثيان أو إقياء وتعرق وبطء النبض وهبوط الضغط، وهو قصير المدة يأتي على نوبات. ويجب تفريق الدوار عن الأعراض المشابهة كما يحدث في نقص الضغط الشرياني الانتصابي وما قد يرافقه من إغماء، وفي النوبات الصرعية أو الشعور بثقل الرأس فكل هذه الأمور ليست من الدوار لعدم شعور المصاب بها بحركة في المحيط.

عبد الحي عباس

الموضوعات ذات الصلة:

الأنف والشم - السمع - الصوت والحنجرة.

مراجع للاستزادة:

- M. AUBRY et P.PIALOUX, Maladies de l'oreille interne et oto- neurologie (Masson, Paris 1985).
- G.F.GREINER, C.CONRAIX, et M.COLLARD, Vestibulométrie Clinique (Doin, Paris 1969).

■ أذناب الخيل (رتبة -)

أذناب الخيل Equisetales رتبة نباتية من خفيات الإلقاح الوعائية تنسب إلى صف أذناب الخيل، تكونت في العصر الفحمي من الحقب الجيولوجي القديم، وعاصرت نباتات أخرى من خفيات الإلقاح الوعائية أمثال الأجْرد «بسيلوتوم» Psilotum ، ورجل الذئب Lycopodium والسرخس fern ، التي قامت جميعها بدور مهم في بناء أُخضورات vegetation الكرة الأرضية في الأزمنة الغابرة.

وتسمى رتبة أذناب الخيل أيضاً بالمفصليات Articulata لانقسام سوقها إلى مفاصل أو عقد أو سلاميات، كما تسمى أيضاً بسفينيات الأوراق Sphenophyllales منسوبة إلى صف السفينيات Sphenopsida نسبة إلى الشكل السفيني (الإسفيني)، الذي تأخذه أوراقها. ومن المصنفين من يرفع رتبة أذناب الخيل إلى مستوى الشعبة ويضمنها آنذاك رتبتين هما رتبة سفينيات الأوراق التي انقرضت جميع أجناسها، ورتبة أذناب الخيل التي تمثلت في العصر الطباشيري (الكريتاسي) بثلاث فصائل لم يصل منها إلى عصرنا سوى جنس واحد هو ذنب الخيل Equisetum .

ذنب الخيل

سمي بذلك نسبة إلى مظهر نباتاته الذي يشبه أذناب الخيل. وهي تسمية مأخوذة من اللاتينية equi بمعنى الخيل وsetum بمعنى ذنب.

يضم جنس ذنب الخيل قرابة ٣٥ نوعاً، تنبت تلقائياً في جميع أقطار العالم ما عدا أسترالية ونيوزلندة. وهي نباتات عشبية معمرة، مؤلفة من سوق ترابية تدعى جذامير rhizomes . تتفرع الجذامير مولدة جذوراً دقيقة ترابية وسوقاً هوائية منتصبة، بعضها خضري متفرع (الشكل ١)، والآخر توالدي غير متفرع (الشكل ٢)، وتنقسم السوق الهوائية إلى قطع، وتتألف كل قطعة من عقدة قاعدية مكتنزة وسلامى مثلَّمة جوفاء، ونهاية غمدية مسننة محيطة بالعقدة مكوِّنة الحلقة الورقية التي تتألف من مجموعة من الأوراق الحرشفية الملتحمة القاعدة والمنفصلة النهاية. وتنطلق السوق الثانوية على شكل دوارات تصدر عن منطقة العقدة مؤلِّفة حلقة من فروع جانبية مقسمة بدورها إلى قطع مكونة من عقد وسلاميات وأغماد ثانوية. تنتقل عملية التركيب الضوئي في أذناب الخيل من الأوراق الضامرة إلى



(الشكل ١) ساق حضرية عقيمة متفرعة
تحمل فروعاً ثانوية حاسية

السلاميات الساقيّة المزودة بالنسيج اليخضوري الرئيسي في النبات.

وتتميز سوق أذناب الخيل ببنية خاصة ممثلة بالصفات التشريحية التالية: البشرة مُرَصّعة بالسيليس وبالمعادن الأخرى التي تُكسب السوق صلابة مميزة، والبرنشيم الداخلي مزود بفضوات هوائية، والأوعية الناقلة قليلة، وليس لها بنية ثانوية.

تكاثر أذناب الخيل

تتكاثر أذناب الخيل بالأبواغ spores التي تتكون داخل مغلفات بوغية تدعى مباوغ (سبورانج)، متطاولة ومتوضعة دائرياً داخل ورقة بوغية ترسية الشكل سداسية الأضلاع. وتتثبت الأوراق تثبتاً عمودياً على امتداد ساق هوائية غير متفرعة مكوّنة سنبلة الأوراق البوغية. ويُراوح طول سنابل الأوراق البوغية الفتية من ١ - ٢ سم، وتتألف كل ورقة منها من ترس خارجي قاتم اللون ومغلف داخلي حافظ للأبواغ. وتتطاول سنابل الأوراق البوغية الكهلة، مباعدة المسافة بين الوريقات البوغية، مُسهلة تفتح المباوغ الناثرة الأبواغ بعد اكتمال نضجها.

والأبواغ متشابهات الشكل يحاط كل منها بثلاثة أغلفة: غلاف داخلي وغلاف متوسط وغلاف خارجي، وينفصل الغلاف الخارجي إلى شريطين متطاولين مشدودين من وسطهما بالبوغة، ومنتفخين في نهايتيهما بشكل ملعقي، وهكذا تبدو البوغة كرة مجهزة بأربع أذرع مقاود elateria، تلتف حول البوغة في الرطوبة وتبتعد عنها في الجفاف ناقلة البوغة من مكان إلى آخر. ويمكن مشاهدة حركات المقاود البوغية متأثرة بالرطوبة والجفاف بالتجربة التالية: توضع بعض الأبواغ على صفيحة تحت مكبرة أو مجهر، ثم ينفخ عليها بلطف هواء الزفير المشبع بالرطوبة فيُلاحظ التفاف أذرع المقاود حول البوغة، ولا تلبث هذه الأذرع أن تنتشر بعد قليل بجفاف الهواء الخارجي ناقلة الأبواغ من مكان إلى آخر. وتخرج الأبواغ من المباوغ كتلة واحدة حفيفة الوزن، تنتشر بالهواء الجاف وتهبط على الأرض إذا ما توافرت الرطوبة، حيث تبدأ بالإنتاش.

تتمتع الأبواغ بحيوية قصيرة الأجل، وتنتش إذا ما لامست تربة رطبة، مولدة خلية أولية صغيرة شبه جذرية، وخلية ثانوية كبيرة يخضورية مولدة طليعة مشرية (بروتال). وتتألف طليعة المشرة من صفيحة خضراء مسطحة ومقسمة إلى عدد من الأشرطة غير المستقطبة النمو والمتفرعة في جميع الاتجاهات وهي، وحيدة الطبقة الخلوية، لا تتجاور أبعادها عشرة مليمترات. وتمثل طليعة المشرة هذه نباتاً عرسياً أي مولداً للأعراس، وهو عادة ثنائي المسكن أي يحمل إما مناطف أو أرحاماً، وقد يكون في حالات خاصة أحادي المسكن يحمل مناطف وأرحاماً في آن واحد. ويتعلق تكوّن الخنثوية الممثلة بوحدانية المسكن بعمر طليعة المشرة وحالتها الفيزيولوجية. وتتمايز الأعضاء التوالدية من مناطف وأرحام في ٢٠ - ٣٠ يوماً بعد الإنتاش. وقد عُرفت في بعض الأنواع المستحاثية أبواغ متباينة الشكل، منها أبواغ ذكرية صغيرة مولِّدة لطلائع مشرات ذكرية، ومنها أبواغ أنثوية كبيرة مولِّدة لطلائع مشرات أنثوية.

يتكوّن الجنين بإلقاح البيضة الكروية الموجودة في بطن الرحم بإحدى النطاف. ويبدأ النبات البوغي أي المولد للأبواغ بالتكوّن مؤلَّفاً من جذير وسويقة ثم يتحول بعد ذلك إلى جذامير ترابية وسوق هوائية مؤذناً ببداية تكوّن فرد جديد ونهاية حلقة حياة نبات قديم.

أنوع أذناب الخيل

تأخذ أغلب أنواع أذناب الخيل شكل نباتات عشبية دقيقة، نادراً ما يزيد ارتفاعها على المتر الواحد في المناطق الباردة أو المعتدلة. ومن أذناب الخيل نوع استوائي متسلق يدعى ذنب الخيل العملاق E. giganteum نتشر في أمريكة الجنوبية

ويصل طوله إلى ١٢ متراً ويبلغ قطر ساقه ٣ سنتيمترات. وهنالك نوع أصغر منتشر في المكسيك يدعى ذنب الخيل الشفنيري E.scheffneri يصل ارتفاعه إلى المترين، كما يبلغ قطره ١ سم.

يتصف ذنب الخيل الحقلي E.arvense بانتشاره العالمي، وبوجود نمطين من السوق الهوائية: يتمثل النمط الأول بالسوق المُخصبة السمراء غير المتفرعة، الربيعية النمو، في حين يتمثل النمط الثاني بالسوق الخضرية المتفرعة بوساطة دوارات ثانوية جانبية، وهذه السوق صيفية النمو وقادرة على التركيب الضوئي الذي انتقل إليها نتيجة ضمور الأوراق.

عقاقير أذناب الخيل

تدل دراسات الكيمياء التحليلية لأذناب الخيل على احتوائها مركبات كيمياوية حيوية مهمة أبرزها السابونين، والنيكوتين، وثلاثي ميتوكسي بيريدين، ودي فينيل سُولْفون، والإكوستيرين، والفيتامين C ، والكاروتين، وبعض الحموض العضوية، إضافة إلى البروتينات والمواد الدسمة والمواد العفصية الدباغية وعدد من المركبات المعدنية وغيرها.

وتدخل مستحضرات ذنب الخيل الحقلي في عداد مُدرّات البول، وفي علاج بعض التهابات المثانة والطرق البولية، كما تستعمل في إيقاف النزف الدموي الباسوري والرحمي. وتدخل بعض أنواع أذناب الخيل في المكونات العلفية اللازمة للحيوانات الأهلية أو البرية كالدواجن والأرانب البرية والحجل وغيرها، ومن أبرزها



(الشكل ٢) سوق توالدية محصبة
وفي نهاية كل منها سنبلة أوراق بوغية

استعمالاً في هذا المجال ذنب الخيل الأفرع E.ramosissimum . كما يستعمل ذنب الخيل الهيمالي E.hyemale في صقل المعادن وتلميعها لاحتوائه الصوان أو السيليس.

أذناب الخيل في الوطن العربي

تتمثل رتبة أذناب الخيل في الوطن العربي بالأنواع التالية:

- **ذنب الخيل الأفرع**: عالمي الانتشار، يراوح ارتفاعه بين ٢٠ و ١٠٠ سم، يتصف بسوقه البيضاء وأغصانه الخضرية الكثيرة الفروع، وأغصانه التوالدية المستقيمة غير المتفرعة.
- **ذنب الخيل الأقصى** E.maximum : يصل ارتفاعه إلى متر أو أكثر، وهو يتصف بسطحية أثلام سلامياته، وينتشر في المناطق الساحلية السورية اللبنانية وفي تركية وشمالي إفريقية وأوربة.
- **ذنب الخيل المستنقعي** E.palustre : يراوح ارتفاعه بين ٢٠ و ٦٠ سم، يتصف بعمق أثلام سلامياته، وينتشر في لبنان وأوربة وقبرص، ويعد من الأنواع السامة لبعض الحيوانات.

أذناب الخيل المنقرضة

من أبرز الأجناس المستحاثة في رتبة أذناب الخيل يُذكر:

- **هيينية** Hyenia : وهو أقدم أجناس الرتبة، ازدهر منذ نحو ٣٠٠ مليون سنة، نباتاته صغيرة الأبعاد، متفرعة السوق، رخوة سنابل الأوراق البوغية.
- **سفيني الورق**: ازدهر منذ نحو ٢٧٠ مليون سنة وانقرض منذ نحو ١٨٠ مليون سنة، يتصف بأوراقه العريضة المتوضعة توضعاً دائرياً حول العقد الساقية.
- **كالاميتس** Calamites : هو جنس يضم أشجاراً كبيرة متميزة بوجود بنية ثانوية، ازدهر في العصر الفحمي منذ نحو ٢٦٥ مليون سنة وانقرض في العصر البرمي Permian .
- **مشقوق العصيبات** Schizoneura : وهو من أقرب الأجناس لأذناب الخيل المعاصرة، يرجع تاريخ ازدهاره إلى نحو ١٥٠ مليون سنة.
- **ورقي الغمد** Phyllotheea : هو كالجنس السابق قريب من أذناب الخيل المعاصرة.

غسان عياش

مراجع للاستزادة:

- أنور الخطيب، التكاثر النباتي في الزمر النباتية (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٧١).
- غسان عياش، الرحميات: التصنيف والتعضي والتكاثر (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٨٣).

■ أُذَيْنَة

هو أُذَيْنَة Udhayna بن حيران بن وهب اللات بن نصُّور أو ناصر أو نَصْر ملك تدمر. ينسبه الطبري والمسعودي إلى هوبر العمليقي من بني السميدع من قضاعة. وأذينة تصغير أذن (وكان يضرب المثل بجمال الأذن التدمرية).

ونصُّور أو ناصر أقدم الرجال المعروفين من هذه الأسرة التي حكمت تدمر. اشترك والده حيران مع قواته في حروب الامبراطور سبتيميوس سفيروس Septimius Severus (وهو أول أباطرة الأسرة السورية التي حكمت رومة ما بين ١٩٣ و٢٣٦م وزوجته الامبراطورة الحمصية جوليا دُومنة)، الذي منحه صفة المواطن الروماني وعضوية مجلس الشيوخ، فأضاف حيران إلى اسمه كلمة سبتيميوس.

وتذكر الكتابات التدمرية حيران وتلقبه «رأس تدمر».

وقد خلفه ابنه أُذَيْنَة عام ٢٥٨م ولقب بامير تدمر وبلقب مرنْ (أي سيدنا). حارب أُذَيْنَة سابور ملك الفرس عام ٢٥٩م وهزمه إلى ما وراء الفرات وأصبح حاكماً لولاية سورية الفينيقية وبيده السلطتان المدنية والعسكرية في عهد الامبراطور فاليريان، ومنحه الامبراطور غاليان لقب «مصلح الشرق كله» (بالتدمرية: متقنا دي مرنحا كله).

ويعد عام ٢٦٠م عام تأسيس الملكية في تدمر. كما حارب أُذَيْنَة الفرس عامي ٢٦٢ و٢٦٧م وهزمهم وحاصر عاصمتهم طيسفون (المدائن) وأصبح يلقب بملك ملوك الشرق (بالتدمرية: مَلْكا دي مَلْكا) ومنحه الامبراطور

غاليان لقب امبراطور Imperator ورتبة القائد العام للجيوش الرومانية في سورية Dux Romanorum . وسك نقوداً عليها صورته ووراءه بعض أسرى الفرس، ولعله اتخذ لقب اوغسطس Augustus وهو لقب امبراطور رومة.

قتل أُذَيْنَة مع ابنه هيرود في حمص غيلة سنة ٢٦٨م في أثناء احتفالاتهما بالنصر على الفرس، قتلهما معن ابن أخي أُذَيْنَة في مؤامرة للاستيلاء على العرش. ولم يعرف مدبرو المؤامرة، وعلى كل حال فقد كان للكثيرين مصلحة في قتله ومنهم الرومان أنفسهم الذين أخافتهم انتصاراته. وتولت السلطة بعده زوجته زنوبية وصية على ابنها القاصر وهب اللات.

وقد أنصفه المؤرخ الروماني تريبليوس بوليو في « تاريخ الأباطرة » Historia Augusta حين قال: « كان أُذَيْنَة فارساً شجاعاً مهيب الجانب وصياداً حاذقاً ومقاتلاً باسلاً. كان يصطاد الأسود والنمور والحيوانات المفترسة على حداثة سنه. عاش في البادية فعرف أسرارها، واعتاد شظفها ومتاعبها وأحب السلم ولم يرهب الحرب. تزوج من الأميرة العربية زنوبية، التي كانت أكثر منه شجاعة وكانت تعد بحق أجمل امرأة في الشرق ».

خالد الأسعد، محمد الرين

الموضوعات ذات الصلة:

تدمر ـ زنوبية.

مراجع للاستزادة:

ـ سيريغ، أسرة الملك أذينة، الحوليات الأثرية السورية، مجلد٣.

ـ خالد الأسعد وعدنان البني، تدمر: تاريخياً وأثرياً وسياحياً (١٩٨٤).

■ الأرابيسك ← الزخرفة العربية

■ الإرادة المنفردة

الإرادة المنفردة la volonté unilatérale عمل قانوني صادر من جانب واحد ينتج آثاراً قانونية معينة، فهو على هذا الأساس، يتم بإرادة واحدة، ولا يمثل إلا مصلحة طرف واحد. فأما كونه يتم بإرادة واحدة، فهذا يعني أنه يتم بتعبير واحد عن الإرادة، ولا يتوقف في إنتاج آثاره إلا على إرادة من صدر منه التعبير. وأما كونه يمثل مصلحة طرف واحد، فهذا يعني أن المتصرف بالإرادة المنفردة لا يستهدف من تصرفه إلا مصلحته هو من دون أن تدخل مصلحة الغير في حسبانه.

وقد عدّت معظم القوانين العربية الإرادة المنفردة مصدراً للالتزام في حالات محددة، أي إنها مصدر استثنائي له، إلى جانب العقد [ر] الذي يعدّ هو المصدر العام للالتزام.

وإذا كان التصرف بالإرادة المنفردة ينشأ بإرادة المتصرف وحده، فإنه ينقضي أيضاً بإرادته، أما مصلحة الغير الذي كان مقصوداً بآثار التصرف بالإرادة المنفردة، فيحميها القانون حين يجعل هذا التصرف نهائياً لا يجوز الرجوع عنه إلا من المتصرف نفسه وفي شروط معينة.

وقد وردت في القوانين الوضعية العربية صور تطبيقية متفرقة للإرادة المنفردة بوصفها مصدراً للالتزام، ومن هذه الصور، الوقف [ر] والوصية [ر] والإقرار [ر] والوعد بجائزة.

تسري على تصرف الإرادة المنفردة الأحكام الخاصة بالعقد عدا ما تعلق منها بوجود إرادتين والذي تأباه طبيعة التصرف الآحادي. وعلى هذا الأساس، يجب أن تتوافر في التصرف الذي تنشئه الإرادة المنفردة الشرائط التالية:

ـ أن يصدر تصرف الإرادة المنفردة عن إرادة جدية ترمي إلى إنشاء الالتزام.

ـ أن يكون لالتزام المتصرف سبب، وأن يكون الدافع إلى التصرف مشروعاً، كما يجب أن يكون له محل.

ـ أن يكون المتصرف بإرادته المنفردة، متمتعاً بالأهلية اللازمة لذلك، فلا تُعَدُّ تصرفات المجنون جنوناً مطبقاً صحيحة لفقدانه أهلية التصرف. كما يجب أن تكون إرادته خالية من أي عيب من العيوب التي تعتورها أحياناً، كالإكراه والغلط والتدليس والغبن الاستغلالي، فلا يعدّ صحيحاً تصرف الإرادة المنفردة الصادر تحت وطأة الإكراه مثلاً.

وللإرادة المنفردة بوصفها مصدراً استثنائياً للالتزام، حالات تطبيقية مختلفة في القانون، ذكرت على سبيل الحصر كالإيجاب الملزم والوصية والوقف، إذ ليس للإرادة المنفردة أي سلطان في خلق تصرفات وحيدة الطرف لم يذكرها القانون، بل يقتصر دورها على تحديد مضمون التصرف القانوني الأحادي الذي أجازه القانون، ولعل أهم تطبيق لنظرية الإرادة المنفردة في القانون المدني السوري والقوانين العربية الأخرى، هو الوعد بجائزة.

الوعد بجائزة هو تخصيص أجر لشخص لن يتعين إلا بتنفيذ الأداء الذي حدده الواعد. كأن يعلن شخص عن جائزة لمن يصنع دواء لمعالجة مرض مستعص، أو لمن يعثر على أشياء مفقودة أو لمن يخترع آلة لغرض معين. فمن قام بكشف الدواء أو من عثر على الأشياء المفقودة أو من نجح في اختراع الآلة، استحق الجائزة التي أعلن عنها الواعد. والوعد بالجائزة معروف في الفقه الإسلامي، وقد عالجه الفقهاء تحت عنوان الجعالة. والجعالة، هي أن يجعل أحد شيئاً معلوماً لمن يعمل له عملاً كما لو قال صاحب حاجة فقدت منه، من ردها إليّ فله جائزة قدرها كذا.

ولكي يكون الوعد بجائزة منشئاً للالتزام، يجب أن تتوافر فيه الشروط الآتية:

ـ أن يكون الوعد بجائزة وعداً جاداً صادراً عن شخص ذي أهلية وعن إرادة خالية من العيوب.

ـ أن يكون الوعد موجهاً إلى الجمهور لا إلى شخص معين، فإذا وجه إلى شخص معين أو فئة معينة خرج عن كونه وعداً وأصبح إيجاباً لا ينشئ التزاماً إلا إذا اقترن بقبول، فيكون مصدر الالتزام هو العقد لا الإرادة المنفردة.

ـ أن يوجه الوعد إلى الجمهور بصورة علنية، كالإعلان في الصحف أو في إحدى طرق النشر المعروفة كالإذاعة والتلفاز أو بتوزيع النشرات وتثبيت الملصقات على ألواح الإعلان المخصصة لذلك في الطرق العامة والشوارع.

ـ أن تكون ثمة جائزة مادية أو أدبية يلتزمها الواعد، أي أن يتضمن الإعلان المنشور تحديداً بيناً للجائزة التي يلتزم الواعد إعطاءها من جهة، والعمل المطلوب القيام به لاستحقاق الجائزة من جهة أخرى.

ـ وللواعد إضافة إلى ذلك أن يشترط ما يشاء من الشروط لاستحقاق الجائزة، كأن يحدد أوصاف الآلة التي يجب اختراعها، أو الدواء الذي يجب صنعه، وله ألاّ يشترط أية شروط.

أما آثار الالتزام الناشئ عن الوعد بجائزة فهي:

١ـ إذا حدد الواعد مدة لإنجاز العمل فإنه لا يجوز له أن يرجع عن وعده في المدة التي حددها، وإذا قام أحد بالعمل في المدة المحددة، يصبح دائناً للواعد بالجائزة ولو لم يكن يعلم بالوعد. أما إذا انقضت المدة المحددة ولم يقم أحد بالعمل المطلوب، فإن التزام الواعد ينقضي. وإذا قام شخص بعد ذلك بالعمل، فلا يلتزم الواعد أداء الجائزة ولا يسأل عنها.

٢ـ أما إذا لم يحدد الواعد مدة لإنجاز العمل، فله أن يرجع عن وعده قبل أن يتم أحد العمل المطلوب، ويتحلل بذلك من التزامه، على أن يتم رجوعه بالوسائل نفسها التي تم بوساطتها الإعلان عن الوعد للجمهور. ولكن إذا كان هناك من بدأ العمل قبل أن يعلن الواعد الرجوع عن وعده ولم يتمه بعد، أو أتمه بعد الرجوع، فإنه لا يستحق الجائزة ولكن على الواعد أن يرد عليه ما أنفقه بتعويض مناسب.

وعندما ينجز المستفيد العمل المطلوب القيام به، يستحق الجائزة من الواعد وتدخل في ذمته المالية، كما تؤول إلى ورثته بوفاته حتى لو كانت الوفاة قبل علمه بالوعد.

وتتقادم دعوى المطالبة بالجائزة بانقضاء خمس عشرة سنة من يوم إنجاز العمل سواء أكان الواعد قد حدد مدة لذلك أم لم يحدد. أما إذا رجع الواعد عن وعده، وكان المستفيد قد أتم العمل قبل إعلان الرجوع، فإن للمستفيد أن يطالب بالجائزة في غضون ستة أشهر من تاريخ إعلان الرجوع على الجمهور. وهذه المدة مدة سقوط لا مدة تقادم، أراد بها الشارع أن يمنع كل محاولة مصطنعة يراد بها استغلال الوعد بالجائزة بعد إعلان العدول.

محمود جلال حمزة

الموضوعات ذات الصلة:

الإقرار ـ الالتزام ـ العقد ـ الوصية ـ الوقف.

مراجع للاستزادة:

ـ عبد المنعم فرج الصدة، مصادر الالتزام (دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧١).

ـ وحيد الدين سوار، النظرية العامة للالتزام، ج ١ (دمشق ١٩٧٨).

■ إرار (أسرة ـ)

أسرة إرار Famille Érard أسرة فرنسية عرفت منذ القرن الثامن عشر بصناعة آلات موسيقية، مثل البيانو والهارب والأرغن. ومن أشهر أفراد هذه الأسرة اثنان: سباستيان Sébastien وبيير Pierre.

كان والد سباستيان نجاراً عرف بمهارته. أما سباستيان (١٧٥٢ ـ ١٨٣١) فقد بدأ عاملاً في مصنع لآلة الكلافسان clavecin [ر. البيانو]، وبدأت تظهر مواهبه في دقة الصناعة والابتكار. وقد صنع عام ١٧٧٧ أول بيانو piano forte حين كان يعيش في كنف دوقة فيلّروا La Duchesse de Villeroy وكان ذلك أول بيانو يصنع في فرنسة. وقد أنشأ مع أخيه جان باتيست (١٧٤٥ ـ ١٨٢٦) معملاً لصناعة الآلات الموسيقية التي شهرت بها الأسرة واستمرا في إدخال التعديلات عليها.

أما بيير (١٧٩٤ ـ ١٨٥٦) فكان ابناً لجان باتيست، وقد تابع صناعة أبيه وعمه بمهارة فائقة وأدخل عدة تحسينات على صناعة آلتي البيانو والهارب.

استمر المصنع الذي عرف باسم إرار في أعماله حتى ١٩٥٩، ثم انضم إلى مصنع غافو Gaveau ليؤلفا معاً شركة واحدة بالاسمين.

ج.ت

■ أرّاس

أرّاس Arras بلدة في شمالي فرنسة على نهر سكارب، على مسافة ٤٠كم جنوب غربي مدينة ليل، وهي المركز الإداري لمقاطعة «بادوكاليه» الفرنسية والعاصمة السابقة لمقاطعة أرتوا، وعقدة طرق ومركز تجاري وصناعي مهم للمنطقة. ومن صناعاتها التعدين وتخمير البيرة وصناعة الآلات والعدد والنسيج والنفط، وفيها سوق زراعية نشطة ومدرسة زراعية، سكانها نحو ٥٠٠٠٠ نسمة. تتوسط المدينة ساحتان تحيط بهما أبنية ذات أروقة على عُمد مزينة وأهم أبنيتها دار البلدية (القرن السادس عشر) والكاتدرائية (القرن الثامن عشر) ودير القديس فاست Vaast (القرن الثامن) وقد لحقت بها جميعاً أضرار بالغة في أثناء الثورة الفرنسية وفي الحربين العالميتين الأولى والثانية وأعيد ترميمها كما كانت.

تُعد أرّاس مدينة غاليّة رومانية، وحاضرة قبائل أتريبات الغاليّة التي كانت آخر من خضع ليوليوس قيصر، وكانت تدعى أتريباتُم Atrebatum، وسماها الرومان نيمتوسينا Nemetocenna. وقد اشتهرت بصناعة الصوف والأغطية منذ القرن الرابع، وأصابها الدمار بالغزو الجرماني سنة ٤٠٦م كما نهبها أتيلا ملك الهون سنة ٤٥١م وفقدت مكانتها مقراً للأسقفية، ثم أُعيد إعمارها في أواخر القرن الخامس وبدأت تسترد موقعها الديني منذ القرن السادس على يد القديس فاست. وفي سنة ٨٦٣م أصبحت أرّاس تابعة لحكم بلدوين الأول كونت الفلاندر وتطورت المدينة بفضل اتخاذها مقر أسقفية وإنشاء دير سان فاست فيها فتحولت إلى مركز تبشير مسيحي، وزاد في إقبال الناس على سكناها إقامة دار للسكة فيها وتعزيز تحصيناتها بعد أن أحرقها النُرمان سنة ٨٨٣م. وزاد في ثرائها نمو صناعة السجاد فيها حتى صار اسمها يعني بالإنكليزية «السجاد المعلق» (الجداري). وكان نصيب المدينة في العصور الوسطى، على غناها، أن تتأثر بالاضطرابات التي شهدتها مقاطعة أرتوا فانتقلت تبعيتها من يد إلى يد، فقد كانت جزءاً من بائنة (مهر) إيزابيل هينو عند زواجها من الملك فيليب أغسطس ملك فرنسة سنة ١١٨٠م، ثم غدت عاصمة كونتية «أرتوا» التي أُحدثت بعد ذلك، وصار لها امتياز المدينة وحق المواطنة، وازدهرت صناعتها وتجارتها وارتفع عدد سكانها إلى عشرين ألفاً واتسعت أسواقها وأنشئ فيها «مصرف شمالي فرنسة والفلاندر»، ونمت فيها حركة التعليم فقصدها رجال العلم والمفكرون واهتم أبناؤها بعلوم الهندسة والفلك، وشجعت الطبقة البرجوازية النشاط الأدبي والمسرح. وفي القرن الرابع عشر أصبحت أرّاس من أملاك بُرغندي، وعقدت فيها معاهدة سلام سنة ١٤٣٥م بين بُرغندي وفرنسة بعد حرب المئة عام، وفيها اعترف شارل السابع ملك فرنسة (١٤٠٣ـ ١٤٦١م) بفيليب الطيب (ت ١٤٦٧م) دوقاً

على بُرغندي. وبعد مقتل شارل الجسور ابن فيليب سنة ١٤٧٧م اجتاح لويس الحادي عشر مقاطعة أرتوا، وأمر بهدم أسوار أرّاس ونفي سكانها لتحرشهم بحامية المدينة وأحل محلهم مواطنين فرنسيين وبدل اسم المدينة إلى فرانشيس Franchis. وفي معاهدة أرّاس الثانية سنة ١٤٨٢م تملك لويس الحادي عشر معظم أملاك شارل الجسور على حساب الامبراطور مكسيمليان الأول من آل هبسبورغ الذي قدمها بائنة ابنته ماري التي خطبها لويس لابنه شارل الثامن.

ومع أن المدينة استعادت اسمها وحقوق مواطنيها في عهد شارل الثامن (١٤٧٠-١٤٩٨م) واستردها مكسيمليان مع بقية أملاك شارل المذكور في معاهدة سنليس Senlis (١٤٩٣م) التي نسخت معاهدة أرّاس السابقة، فإنها لم تنهض من كبوتها وظلت في يد آل هبسبورغ حتى سقوطها بيد الفرنسيين سنة ١٦٤٠م. وفي معاهدة البيرينية سنة ١٦٥٩م أصبحت أرّاس جزءاً من ممتلكات التاج الفرنسي وقطعة من فرنسة.

محمد حرب فرات

■ إرّاسموس (ديزيديريوس-)
(نحو ١٤٦٦-١٥٣٦)

ديزيديريوس إراسموس Desiderius Erasmus (ويسمى بالفرنسية Didier Erasme) عالم إنسانيات، واعظ وقسيس كاثوليكي هولندي. ولد في روتردام بهولندة لقسيس، وتوفي والداه وهو صغير. وقد دخل سلك الكهنوت، وهو غير راغب فيه، في دير شتاين Steyen الأوغسطيني. وفي عام ١٤٩٢ رسّم قسيساً، ثم عينه هنري برغن Henry Bergen، أميناً لمكتبه، فساعده هذا التعيين على التخلص من عزلة الدير. وبعد سنوات طلب إعفاءه من رتبة الكهنوت، واستجاب البابا إلى طلبه ونزع عنه ثوب الرهبانية في ٩ نيسان ١٥١٧.

ترك إراسموس مكتب الأسقف عام ١٤٩٦ وذهب إلى باريس طلباً للعلم، والتحق بجامعة السوربون. لكن الفكر الفلسفي السائد هناك لم يرق له، ولقيت أفكاره معارضة شديدة فترك باريس عام ١٤٩٩ وقصد لندن. واتصل بأشهر العلماء هناك، ومن بينهم توماس مور Thomas More (١٤٧٨-١٥٣٥)، وهو محام وكاتب ووزير، وجون كوليت John Colet مؤسس مدرسة القديس بولص في لندن التي كانت مركز انبعاث الحركة الإنسانية في المدارس الثانوية الإنكليزية، وجيمس فيشر James Fisher وغيرهم. وشجعه هؤلاء على دراسة الكتب المقدسة، فعمد إلى دراسة اللغة اليونانية ليتسنى له فهم الكتاب المقدس بلغته الأصلية. وتعلم اللغة العبرية. وكان أول معلم لليونانية في جامعة كمبريدج، كما حاضر في جامعة أكسفورد.

قاد إراسموس الحركة الإنسانية في شمالي أوربة، وكان له تلاميذه في إنكلترة، ثم زار إيطالية حيث نشر مبادئه الإنسانية وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة تورينو في ٤ أيلول عام ١٥٠٦ فذاع صيته، وأصبح يتمتع بمكانة



عالية في أوساط المؤسسات العلمية، ولدى الطبقات الحاكمة. ومنحته الكنيسة لقب «علاّمة»، وعدّه بعض المفكرين أمير الإنسانيين وأعظم مفكريهم وأوسعهم علماً وخيالاً.

كان قصير القامة، ضعيف البنية، على غاية من اللطف ودماثة الأخلاق، محبوباً، شديد الإعجاب بنفسه، مبالغاً في الحرص على صحته وسمعته. تناولت كتاباته مجالات واسعة من المعلومات، وأُحيط بهالة من الاحترام. ومن أهم أعماله كتابه «الأمثال أو الأقوال المأثورة» Adagia (عام ١٥٠٠) وكتابه «مدح الحماقة» The Praise of Folly الذي انتقد فيه رجال الدين الذين أخفقوا في تربية الشعب، وسخر من أصحاب القلوب الطيبة الذين ظنوا أن العبادات الطقسية وممارسة بعض أعمال التقوى أو التقدمات كافية لأن ترسلهم إلى السماء. لكنه لم يهاجم الكنيسة أو يحاول الانفصال عنها، لإيمانه بوحدة المسيحية، وعارض المناهج الصارمة في المدارس البابوية والأديرة، وقسوة القيود والفرائض التي أُلزم بها الناس. وقد أفاد من روحه الإنسانية المرحة وطريقته التهكمية اللاذعة التي وجدت صدىً محبباً لدى الشعب عامة، ومن قدرته على التلميح الدقيق والغمز المقنَّع. وساعده في إخراج الكتاب الرسام الهولندي هولبين Holbine الذي زود الكتاب برسوم ساخرة تعبّر عن تلك الانتقادات أصدق تعبير، وتثير الضحك فكان لها أثر كبير في إثارة مشاعر الناس واتساع شهرة الكتاب.

وفي عام ١٥٠٦ طبع بالتعاون مع توماس مور ترجمة لاتينية لبعض دراسات الناقد الساخر لوقيانوس Lucian، الذي كتب باليونانية في عصر الامبراطورية الرومانية، وهي دراسات انتقادية ساخرة، كوَّنت فيما بعد جوهر التعاليم الإنسانية في النهضة. وقد سميت هذه الشروح «النبي المزيف». وله محاورات عدة كتبها ما بين العامين ١٥١٨ و١٥٣٣.

أما عمله العظيم فكان نشره للإنجيل باللغة اليونانية لأول مرة في أوربة عام ١٥١٦ وقد أراد من ذلك تزويد الكهنة بمادة صحيحة للوعظ والإرشاد مستقاة من الكتاب المقدس، فقام بدراسته باللغة اليونانية ومراجعة عدة مصادر وتدقيقها، واقتنع بأن الترجمة اللاتينية البسيطة التي كانت الكنيسة تستعملها آنذاك تتضمن كثيراً من الأخطاء. وأخرج نسخة جديدة بترجمة صحيحة اطمأن إليها اللاهوتيون. وقد أخذ مارتن لوثر [ر] هذه الترجمة ونقلها إلى اللغة الألمانية الشعبية. فكان تعاون المصلحين بنّاءً من هذه الناحية، لأن إراسموس قدم الكتاب المقدس إلى العلماء والخاصة، ووضعه لوثر بين أيدي العامة من الشعب الألماني.

آمن إراسموس بقدرة التربية على تغيير العالم وأعرب عن رغبته في أن يعرف كل ولد فلاح سفر المزامير، وينشده، ويردده، معرفته لحراثة الأرض. واعترف أن عمل التربية بطيء الخطا، قليل التقدم، ولكنه قادر على إذكاء روح النهضة، والثورة على التسلط والاستبداد. وفضّل الثورة الفكرية والثقافية المسيَّرة بعقلٍ واتزان على إخضاع إيمان الجماهير للرغبة أو الرهبة. وله في مجال

التربية كتاب «تربية الأولاد تربية حرة»، وكتاب «طريقة التدريس». وقد ألحّ في الكتابين على أهمية دراسة طبيعة الطفل دراسة علمية واعية، وأوصى بمتابعة الاهتمام بشخصيته على أنه فرد في المجتمع، وتوجيه الدروس على أساس مواهب الطفل وإمكاناته، وشدد على أهمية اللعب والرياضة في التربية، وفائدة ربط التربية بالحاجات اليومية، الاجتماعية والحياتية. وانتقد بقوة طرائق الضبط الجائر، والقسوة في العقاب. وأوصى بالاعتدال واستعمال المدح والمكافآت المادية. وحث المعلم على مساعدة التلاميذ وفق قابلياتهم، وعلى أن يُدرك جوانب الضعف والجهل عندهم، وأن يمد يده لانتشالهم ويشجعهم على النمو والتقدم.

أجاد نظم الشعر وله قصيدة نظمها على لسان السيد المسيح يخاطب فيها الجنس البشري الهالك ويدعوه إلى معرفة الحق وطريق الخلاص، وأنه وحده «أي المسيح» مصدر كل صلاح وبرّ وسلام. وانقياداً لنزعة إنسانية شاملة متأثراً بأفلاطون، حاول صوغ مذهب فلسفي إنساني ديني، ينأى عن الخلافات الدينية ويلحّ على إيجاد مبادئ عامة مشتركة. ويؤكد أن المسيحي الإنساني يدافع عن الحقيقة والحرية وسمو الشخص الإنساني الذي ينير عقله بالروح وهو يتقصى السر الخفي الذي هو المسيح.

انتسب إلى «أخوية الحياة المشتركة» وهي أخوية علمية أسسها جيرار غروت Gerard Groot عام ١٣٧٦ في هولندة. وكان لهذه الأخوية أثر بالغ في انتشار دعوة «حركة النهضة» في شمالي أوربة التي سادت فيها روح التقوى الإنسانية والاجتماعية والتي يقضي نظامها بأن يعيش أعضاؤها من شغلهم اليومي، ومن نسخ الكتب. وكان إراسموس عالمها المشهور وشارح مبادئها بكتاباته التي اتسمت بالروح الأدبية العالية التي زانت النهضة الإيطالية آنذاك.

وعندما أعلن مارتن لوثر احتجاجه، ونشر قضاياه مطالباً بإصلاح الكنيسة، حملها إراسموس معه إلى لندن بُعيد إعلانها ـ أي عام ١٥١٧ ـ وتساءل الناس هل سيتفق مع لوثر، وهو معروف بدعوته إلى الإصلاح الديني، وبانتقاده بعض معاهد الكنيسة. بيد أن إراسموس كان يرغب في إصلاح الكنيسة من الداخل، ولم يشأ دعم الإصلاح، ووقف من بعيد محايداً يراقب تطور الدعوة اللوثرية. ولما طُلب منه الرد على لوثر تردد وامتنع وآثر عدم الاصطدام مع حركة الإصلاح قائلاً: «إن في الرد على لوثر لخطراً عظيماً» وعندما علم لوثر بتردُّده كتب له: «إذا كنت لا تملك الشجاعة وتعلن رأيك في تأييدنا وتنبري لمؤازرتنا فلا تذرَّ الملح على جراحنا، ولا تدخل في صراع معنا». إلا أنه عندما طلب منه الملك هنري الثامن وأشراف مملكته وبعض رجال الدين أن يسهم في مقاومة الإصلاح، تهيَّب الموقف وتردد، لكنه انفعل واضطرب عندما قال الناس: «إن إراسموس يخاف لوثر وهو عاجز عن الرد عليه» وقرر أن يجيبهم إلى طلبهم فاختار قضية يختلط فيها مذهب الكنيسة والمذاهب الفلسفية وهي قضية «حرية الاختيار» ونشر كتابه «رسائل في حرية الإرادة» عام ١٥٢٤ يعارض فيه آراء لوثر، إذ كان في جملة ما يقوله لوثر «إن كل صلاح في الإنسان هو هبة من الله»، أما إراسموس فقال: «إن صلاح الإنسان يصدر عن الإنسان نفسه، وهو معيار ذاته ويملك حرية الإرادة وحق الاختيار». ولكن وجه الخلاف هذا كان ظاهرياً، لأن لوثر يقيّد خلاص الإنسان بأن يقبل هبة الخلاص والإيمان من الله. ويحيا بموجبها. لذلك كان رد لوثر على كتاب «حرية الإرادة» غير ما توقع إراسموس فقد كتب إليه يقول: «عليّ أن اعترف بأنك في هذه القضية الرجل الوحيد الذي بلغ جوهر المادة وأنا أشكرك شكراً قلبياً». ولما اطلع إراسموس على رأي لوثر في كتابه «حرية الإرادة» أمسك عن الطعن بحركة الإصلاح فغضب مقاومو الإصلاح ونقموا على إراسموس وأثاروا جمعية اللاهوت في باريس عليه.

بذل إراسموس جهده في دعوة الناس إلى استعمال عقولهم في أمر خلاصهم والإفادة من المعارف الإنسانية: الموروثة والمكتسبة، في سبيل إنهاء النزاعات الدينية، داخل الكنيسة وخارجها. وشجعهم على اتباع وسائل الحكمة والتعقل في حل مشاكلهم. وأن يحيوا مسيحيين حقيقيين وفق مقاييس الإنجيل ومفاهيمه.

وقد منحه عقله الصافي وفكره النير شهرة واسعة، وقاده علمه الموسوعي إلى الإيمان بقدرة الإنسان على التفكير العقلي الصحيح الذي يمكن أن يحرره من الأوهام والخرافات.

ألح في حياته على محاربة الجهل والحماقة ورفع صوته ضدَّ كل النظم الكنسية المتعلقة بالملابس والصوم والأعياد والنذور وغيرها. وتمرد على الأوضاع الكنسية القائمة آنذاك ولكن تمرده كان ضعيفاً مشوباً بالخوف فبدت شخصيته وسيرة حياته صورة مكررة لكل من حركتي النهضة والإصلاح. ومع أنه وضع منهجاً دعاه «فلسفة الأخلاق المسيحية» مسترشداً بالإنجيل وبتعاليم سقراط العقلية، ودعا الناس إلى اتباع ذلك المنهج، إذا ما أرادوا أن يحيوا في وفاق وسلام، فإنه لم يستطع إقناع العامة بصحة دعوته، وبقي ناقداً لاذعاً ساخراً من الأجيال الإنسانية، قليل الإيمان بجدوى قيادة الناس في منهج الإصلاح، ولم يبد اهتماماً واضحاً بالكشوف العلمية التي أخذت في النمو تلك الأيام. ولم يكن عديم الاكتراث بالعلوم الطبيعية فحسب بل سخر من فلاسفة تلك العلوم، وأعلن ذلك في مقطع مشهور من كتابه «مدح الحماقة».

صرف إراسموس قسماً كبيراً من وقته في دراسة كتب الآباء الأولين وتحقيقها ونشرها بمساعدة أسرة فروبينوس Frobinuse.

ويبدو أن الهالة التكريمية التي أُحيط بها والإعجاب الذي حظي به من رجالات الطبقات العالية الدينية والسياسية، جعلاه يشعر بالسمو، ولكنه كان يسخر من المظاهر التي كانت تنطوي على التعالي.

مات إراسموس في ١٢ تموز في بازل بسويسرة وترك ثروة كبيرة من الكتب والرسائل.

توفيق حرجور

الموضوعات ذات الصلة:

لوثر (مارتن ـ) ـ مور (توماس ـ).

مراجع للاستزادة:

ـ كرين برنتون، «تشكيل العقل الحديث»، عالم المعرفة رقم ٨٢ (الكويت).

■ أراغو (فرانسوا ـ)
(١٧٨٦ ـ ١٨٥٣)

فرانسوا أراغو François Arago فيزيائي وسياسي فرنسي استهوته الحياة العسكرية وهو شاب وهيأ نفسه للانتساب إلى مدرسة

«البوليتكنيك»، فاجتاز الامتحان بتفوق، وانتسب إليها وله من العمر سبعة عشر عاماً، وعند تخرجه أصبح أمين سر مكتب الأطوال Bureau des longitudes. أوفد إلى إسبانية عام ١٨٠٦، معاوناً لبيو Biot، لإنجاز قياس خط الزوال الأرضي. وفي آب ١٨٠٧، عاد بيو إلى باريس بعد أن أتم المراحل الأساسية من العمل حتى جزر الباليار Baléares، وترك فرانسوا لإنجاز ما بقي من أعمال. لكن الحرب فاجأت فرانسوا، الذي تعرض لمخاطر عدة، وفرَّ إلى الجزائر مرتين، وتمكن أخيراً من العودة إلى فرنسة عام ١٨٠٩.

أصبح فرانسوا أراغو عضواً في أكاديمية العلوم وله من العمر ثلاثة وعشرون عاماً، وعيّنه الامبراطور أستاذاً للتحليل الرياضي وعلم المساحة (الجيوديزية) في مدرسة البوليتكنيك، ثم أصبح مديراً لمرصد باريس، وأعطى دروساً في علم الفلك اجتذبت عدداً كبيراً من المستمعين.

انتُخب في عام ١٨٣٠ نائباً لليسار المتطرف في البيرينه الشرقية، وأصبح في عام ١٨٤٨ وزيراً للحرب والبحرية في الحكومة المؤقتة، فألغى الرق في المستعمرات الفرنسية، ورفض عام ١٨٥٢ الولاء للحكومة الجديدة.

اشتهر أراغو بأعماله في الفيزياء. ففي عام ١٨٠٦، قام بالاشتراك مع بيو بقياس دقيق لكثافة الهواء والغازات بأنواعها. وفي البصريات تبنى النظرية الموجية Théorie ondulatoire وعممها، وقاس مع بيو قرائن (معاملات) انكسار الهواء والغازات الأخرى، كما اكتشف في عام ١٨١١ الاستقطاب الدوراني في بلورات الكوارتز، وكذلك الاستقطاب اللوني الذي وضع فرينل [ر] Fresnel نظريته فيما بعد، واستطاع فرانسوا أراغو تفسير تلألؤ النجوم وحدد أقطار الكواكب بدقة بعد تعديل تأثير إشعاعها. وفي عام ١٨٢٠ طبّق تجربة أورستد[ر] Oersted في أكاديمية العلوم، وأسهم في تطور الكهرمغنطيسية، واكتشف تمغنط الحديد حين يوضع قرب تيار كهربائي.

وفي عام ١٨٢٢ قام بعملية نظمها مكتب الأطوال لقياس سرعة الصوت، كما اكتشف في عام ١٨٢٤ أن قرصاً من النحاس يمكن أن يجذب بدورانه إبرة ممغنطة،إلا أن هذه الظاهرة لم تُفسر إلا على يد فوكو[ر] Foucault بعد اكتشاف ظاهرة التحريض induction. وفي السنة التالية كلفته أكاديمية العلوم قياس ضغط بخار الماء حتى ما يزيد على ٣٠ ضغطاً جوياً، ومما يجدر ذكره أخيراً، اكتشافه، في عام ١٨٤٠، الغلاف اللوني chromosphère في جو الشمس.

ج.ت

■ أراغون

تقع أراغون Aragon اليوم في قلب الشمال الشرقي لإسبانية يخترقها نهر أبرو وعدد من روافده من الشمال والجنوب. وتتألف إدارياً من ولايات وَشْقَة وسَرَقُسْطة وتيرويل بمساحة ٤٨٠٠٠ كم^2 و١١٥٣٠٠٠ من السكان بتفاوت في الكثافة بين منطقة وأخرى.

أما أراغون الأصلية فهي بقعة صغيرة من أراغون القائمة الآن وتقع في سفوح البيرينة الجنوبية بين نهري أراغون الكبير والصغير ومنه اسمها على الأرجح. ويبدو أن تطرفها وكونها جبلية وعرة جعلها عصية على الدول الإسبانية عبر العصور التاريخية. لم تخضع لاستعمار روماني واكتفى الجرمن البرابرة بالسيطرة على المدن الواقعة إلى الجنوب منها على روافد الإبرو، وقام الويزيغوط بتحصين المدن خشية غارات الجبليين، وحذا العرب المسلمون حذوهم بعد فتح الأندلس[ر] فاتخذوا من سَرَقُسْطة قاعدة ومنها انتشروا بشرياً ودينياً حتى اقتربوا من سفوح البيرينة، وقاومهم سكانها كما قاوموا الكارولنجيين في القرن ٢هـ/ ٨م. وفي هذا الصراع تبلور تدريجياً كيان سياسي خاص بين نهري أراغون ليمر بمراحل مختلفة.

كونتية أراغون

كانت البداية ببسط شارلمان الكارولنجي سيادته على أراغون وجعلها أحد ثغور مملكته، ثم بتسمية حاكمها لقب كونت وقد توفي أوريولوس Aureolus أول الكونتات (١٩٣هـ/ ٨٠٩م). فتسلم أثنار غاليندس الأول Aznar Galindez المنصب وبعدما اغتصب صهره غرسية الرديء عرشه عاد الحكم للأسرة نفسها عام ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م بشخص غاليندو بن أثنار، وفي عهده على الأرجح تم التحرر أيضاً من السيادة الكارولنجية. وتقوى خليفتاه أثنار الثاني وغاليندو الثاني بتوثيق علاقاتهما بجيرانهما. وظهر ذلك في مصاهرتهما لبني الطويل المسلمين في الجنوب وملوك بنبلونه البشكنش في الغرب، ولو أن زواج ابنة ثانيهما بغرسية الأول بن شانجة Garcia Sanchez (٣١٣ - ٣٥٩هـ/ ٩٢٥ - ٩٧٠م) أدى إلى دمج كونتية أراغون بمملكة نبارة حتى وفاة ملكها شانجه الكبير سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م، الذي خص ابنه رُذْمير (راميرو الأول) Ramiro بها،مما أتاح لها الظهور مستقلة مرة أخرى.

مملكة أراغون

وسع رُذْمير ما ورثه بضم منطقتين جبليتين مجاورتين هما سوبرابي Sobrarbe (بربطانية عند العرب) وريباغورثا Ribagorza بعد موت مالكهما (٤٣١ هـ/ ١٠٣٩م) واتخذ لقب ملك، وأتيحت له فرصة التوسع في الجنوب الغني على حساب العرب المسلمين بعد ضعفهم بانقسامهم إلى طوائف والانقسام داخل طائفة الثغر الأعلى سَرَقُسْطة المجاورة لبلاده. وعلى الرغم من إحرازه بعض المكاسب في هذا الاتجاه إلا أنه قتل في المعركة مع المقتدر بن هود (٤٣٨-٤٧٤هـ/ ١٠٤٦-١٠٨١م). تابع ابنه سانشوراميريث (ابن رُذْمير عند العرب) السياسة التوسعية إثر وضع شخصه وتاجه بين يدي الله والقديس بطرس، وماديا بكسب تأييد ملك قشْتالة، مقابل العون الذي قدمه لهذا الأخير في مواجهة المرابطين]ر[. وكان توسعه غرباً على حساب البشكنش حيث ضم الجزء الأكبر من دولتهم دولة نبّارة بما فيها العاصمة بنبلونة ٤٧٣هـ/ ١٠٧٩م، وفي الجنوب ابتز كلاً من الأخوين المتنازعين من بني هود[ر] وهما أحمد بن سليمان المقتدر صاحب سَرَقُسْطة ويوسف المظفر صاحب لارِدَة وتطيلة فقبض المال من كل منهما لقاء عونه الذي خص به من دفع أكثر، كما كسب منهما بعض الأراضي ومات في حصار وَشْقَة (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م). وقد شهد عهد ولديه بيدرو الأول (٤٨٧-٤٩٧هـ/ ١٠٩٤-١١٠٤م)، والفونسو الأول المحارب (الفُنش عند العرب) (٤٩٧-٥٢٨هـ/ ١١٠٤-١١٣٤م) نهاية دولة بني هود وخضوع أغلب أراضيها للمرابطين منذ عام ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م، على الرغم من دخول دولتهم آنذاك مرحلة

ضعفها. وربما ساعد هذا على التوسع الأراغوني فاحتل بيدرو الأول وَشْقَة (٤٨٩هـ/ ١٠٩٦م) وبَرْبُشْتَر (٤٩٣هـ/ ١١٠٠م). أما أخوه الفونسو الأول فطمع باحتلال القواعد الإسلامية الكبرى فنازل لارِدَة. لكن المعونات التي تدفقت على تميم بن يوسف بن تاشفين أمير شرق الأندلس المرابطي أجبرته على رفع الحصار عنها، إثر معركة فقد فيها عدداً كبيراً من فرسانه.

فاضطر لطلب مدد من القوى المجاورة استعان بها لمنازلة سَرَقُسْطة (٥١٢هـ/ ١١١٨م) حتى استسلمت، وتبعتها تطيلة وطرزونة في العام التالي. ثم احتل قلعة أيوب أمنع حصون شرقي الأندلس ودروقة (٥١٤هـ/ ١١٢١م). غيّر هذا التوسع من طبيعة دولة أراغون إذ أدى إلى ضم أراض لها أوسع من أراضيها وأغنى وعامرة بسكان مسلمين ومستعربين مهرة في الفلاحة والصناعة ولم تلبث سَرَقُسْطة أن أصبحت حاضرة الدولة، ولم يخل احتلال الفونسو الأول لهذه الأراضي من مضاعفات ناجمة عن رد فعل الامبراطور القشتالي الفونسو السابع الذي رأى نفسه أحق بقسم من هذه الأراضي، وكانت له غزواته سابقاً فيها، وتوصل ملك أراغون التالي وهو راميرو الثاني لحل المعضلة عن طريق إعلان نفسه تابعاً للامبراطور في حكم الأراضي المفتوحة الجديدة. وفي المجال الداخلي اضطرته المشاكل للنزول عن الحكم لابنته باترونيلا Patronila (٥٣١هـ/ ١١٣٧م). بعدما زوجها لرامون بيرنغوير Ramon Berenguer كونت قطلونية وحاضرتها برشلونة، فاحتفظت الزوجة باللقب في حين مارس الزوج الحكم في أراغون (٥٣١-٥٥٧هـ/ ١١٣٧-١١٦٢م) بالتزاماته نفسها في التبعية للامبراطور القشتالي في بعض أجزائها. وكان من ثمرات هذا الزواج والاتحاد غزو الأراضي الإسلامية التي أصبحت بين شطري الدولة، فاحتلت مدينة طَرْطوشَة (٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) ثم مدينتي لارِدَة وإفراغة في العام التالي. كما كان لهذا الاتحاد تأثيره المتباين على قطلونية بوجه خاص، إذ تدعمت سلطة الملك في نزاعه القانوني مع النبلاء، كما استفادت قطلونية من قيام أراغون بتحمل التبعات المالية والعسكرية المترتبة على الدفاع عن الدولة الجديدة من ناحية قشتالة براً، مما أفسح لها في المجال لتوجيه اهتمامها نحو التوسع البحري والتجاري وأدى إلى قيام عرش أراغون الامبراطوري.

امبراطورية أراغون

بدأت ملامح هذه المرحلة التي أصبح فيها عرش أراغون يسود ممالك عدة، في زمن الفونسو الثاني الملقب بالعادل (٥٥٧-٥٩٢هـ/ ١١٦٢-١١٩٦م)، الذي وحد في شخصه أولاً تاج المملكة بوراثته كونتية قطلونية عن أبيه وملكية أراغون عن أمه. كما آلت لأسرته عن طريق الزواج والوراثة ممتلكات في البروفانس واللانغدوك جنوب فرنسة مما ورطه في منازعات بها وأحرز مكاسب في إسبانية فقد ساعد الفونسو الثامن القشتالي في غزو قونقة، ونال مقابل ذلك الإعفاء من التبعية له في جزء من أراضي دولته الموروثة، كما اتفق الطرفان سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م في كاثورلا Cazorla على اقتسام المناطق التي سيحتلونها، فنالت أراغون حق فتح شرق الأندلس حتى ميناء لقنت، ومرسية لقشتالة. وقد استطاع خايمي الأول الملقب بالفاتح (جاقة أوجاقمة عند العرب) (٦١٠-٦٧٤هـ/ ١٢١٣-١٢٧٦م) احتلال المنطقة التي كونت مملكة خاصة باسم مملكة بَلَنْسيَة أعوام ٦٢١-٦٥١هـ/ ١٢٣٣-١٢٥٣م، واستغرق حصار قاعدتها مدينة بَلَنْسيَة قرابة سنة ونصف قبل أن تسقط في ١٧ صفر ٦٣٦هـ/ ٣٠ أيلول ١٢٣٨م. ثم عقد معاهدة مع القديس لويس (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) تخلى الفرنسيون بموجبها عن أي حق لهم في روسيلون وبرشلونه مقابل تخلي خايمي عن أي حق له في البروفانس واللانغدوك. وبدأ بالتوجه نحو التوسع البحري، وحقق خلفاؤه الكثير فقد توج بيدرو الثالث في ٦٧٤-٦٨٤هـ/ ١٢٧٦-١٢٨٥م ملكاً على صقلية، وغزا خايمي الثاني (٦٩٠-٧٢٧هـ/ ١٢٩١-١٣٢٧م) سردينية وفرض سيادته على كورسيكة، ثم توسع سلطانه أبعد نحو الشرق بتأسيس دوقية في أثينة عندما قدم مساعدة للبيزنطيين ضد الأتراك. بعد هذا التوسع أدت أوضاع ملوك أراغون الداخلية وتشابكها مع أوضاع إسبانية إلى انخراط بيدرو الرابع (٧٣٦-٧٨٩هـ/ ١٣٣٦-١٣٨٧م) في حرب مدمرة مع قشتالة تكشفت عن ظهور النبلاء الإقطاعيين بمظهر المتعاطفين مع زعماء قشتالة. وجاءتهم الفرصة المواتية عند وفاة مارتين الإنساني (٨١٣هـ/ ١٤١٠م) من دون وريث من الأسرة القطلونيه الحاكمة فاستولى على العرش الأمير القشتالي فرناندو دي انتقيرة لأن أمه ليونار ابنة لبيدرو الجميل ملك أراغون (٧٣٦-٧٨٩هـ/ ١٣٣٦-١٣٨٧م)، وتلقى في سَرَقُسْطة طاعة نبلاء ممالك عرش أراغون (٨١٥هـ/ ١٤١٢م) فأخمد ثورة جزيرة سردينية كما أنه أعاد الاستقرار إلى صقلية، ممهداً بذلك الطريق نحو بلوغ التوسع الأراغوني في المتوسط ذروته على يد خلفه الفونسو الخامس (٨١٩-٨٦٢هـ/ ١٤١٦-١٤٥٨م) الملقب بالهمام Magnanimo الذي نجح في السيطرة على نابولي وقضى أكثر أيام حكمه فيها متمتعاً بإشباع ميوله في العلم والأدب. أما من الناحية السياسية فقد ارتقت مكانة الفونسو الخامس في وسط أوربة والشرق وحمل إضافة لألقابه لقب دوق أثينة واللقبين الشرفيين لملك هنغارية والقدس.

نشطت التجارة في دولة أراغون نتيجة التوسع البحري، وفتحت أسواقاً للصوف الأراغوني ومنسوجاته في قطلونية وكذلك لمنتجاتها الزراعية، كما تحققت أرباح طائلة من عمليات استيراد الحبوب من صقلية وسردينية وللتوابل والأصبغة والقطن من الشرق. وأسهمت هذه المنافع كلها في الازدهار الذي ساد أراغون في القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر للميلاد، ثم بدأ بعد ذلك التدهور الاقتصادي الذي رافقه اضطراب داخلي قام فيه نبلاء قطلونية بدور مهم لنقمتهم على حكم السلالة ذات الأصل القشتالي. فوجد خوان الثاني (٨٦٢-٨٦٣هـ/ ١٤٥٨-١٤٥٩م) حلاً للمشكلتين بتزويج ابنه فرناندو بايزابيلا أخت هنري الرابع ملك قشتالة ووريثته، وحكمت هي وزوجها كلاً من قشتالة وأراغون معاً على أن تبقى لكل من المملكتين قوانينها الخاصة وعاداتها العرفية وتقاليدها، وكانت هذه الخطوة الأولى في إقرار وحدة إسبانية القومية وتم في عهدهما القضاء على دولة غرناطة سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م. روعيت في هذه الدولة المصالح المتمايزة للكيانات السياسية، فظلت دولة أراغون القديمة تحكم كوحدة من قبل نائب الملك، وبقيت المؤسسات السياسية والتشريعية والجمارك على تمايزها القديم. كما أنشئ في مدريد العاصمة مجلس يهتم بالمسائل الخاصة بمملكة أراغون القديمة بما فيها مملكة صقلية

وسردينية وكان لجزر البحر المتوسط دور مهم في أعمال إسبانية في هذا البحر، ولذلك، فإن هذه الدولة خصت إيطالية بمجلس لمعالجة قضاياها. ولعل المؤسسة الوحيدة التي سادت لدى جميع هذه الكيانات كانت محكمة التفتيش التي أنشأها فرناندو الملقب بالكاثوليكي، ومع ذلك لم تخلص هذه الوسائل كلها منطقة دولة أراغون السابقة من المشاكل الخطيرة في القرن السادس عشر الميلادي، فقد تحرك الأتباع أو الأفصال ضد السادة الاقطاعيين أو النبلاء كما اضطربت فئة المدجنين والموريسكوس [ر.الأندلس] الذين ظلوا شريحة اجتماعية عصية على التمثل في المجتمع الإسباني أو الأراغوني.

أحمد بدر

الموضوعات ذات الصلة:

إسبانية ـ الأمويون في الأندلس ـ الأندلس ـ إيبرية ـ

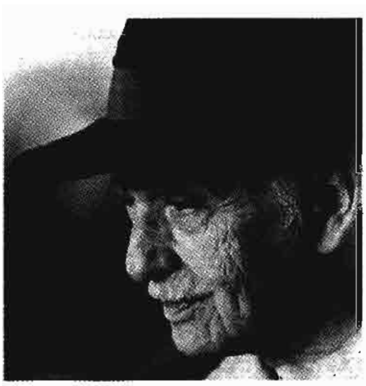
دول الطوائف (بنو الأفطس ـ بنو ذي النون ـ بنو زهري ـ بنو عباد).

مراجع للاستزادة:

- L.CARDAILL, Moriscos Y Cristianos,1492–1640 (Madrid 1979).
- DOMINGUEZ ORTIZ, ANTONIO, Y BERNARD VINCENT, Historia de los Moriscs (Madrid 1978).
- JOSE MARIA LACARRA, Diccionario Historico Español (Madrid 1968).

■ أراغون (لوي ـ)
(١٨٩٧ ـ ١٩٨٢)

لوي أراغون Louis Aragon شاعر وروائي فرنسي ولد في باريس من أسرة بورجوازية، وتابع بعد حصوله على الشهادة الثانوية، دراسة الفلسفة فالطب. أدى خدمته العسكرية عام ١٩١٧، وأبلى بلاءً حسناً في معارك الحرب العالمية الأولى، ولما وضعت الحرب أوزارها تألقت موهبته الشعرية وأنشأ صحيفة «الأدب» littérature (١٩١٩) مسهماً في الحركات الأدبية في عصره. شارك، في البدء، في حركة الدادية [ر] dadaïsme في الشعر والفن، ثم جنح منها إلى السريالية[ر]surréalisme المتلائمة مع مزاجه، وأضحى مع أندريه بروتون[ر] André Breton أبرز نجومها الساطعة، وفي عام ١٩٢٧ انتسب إلى الحزب الشيوعي الفرنسي، والتقى عام ١٩٢٨ الشاعر الروسي ماياكوفسكي [ر] V.V. Maiakovski الذي وطّأ له التعرّف إلى إيلسا تريوليه شقيقة زوجته، وقد شاركته إيلسا في النشاط الأدبي والسياسي فتزوّج منها وأضحت منبعَ إلهامه والزوجة الوفية المحبة التي جُنَّ وجداً بها وعشقاً لها، والتي ألهمته أحلى قصائد الغزل. ولم يلبث أن أعلن عن تخليه عن السريالية، منهجاً في الأدب، مستبدلاً به نهج الواقعية الاشتراكية، ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية، قام بأداء واجبه الوطني ووقع أسيراً، وأُفرج عنه لينتظم في حركة المقاومة ضد الاحتلال النازي لبلاده، متابعاً نضاله العقائدي في الدفاع عن الطبقة العاملة في أثناء الحرب وبعد انتهائها، وعيّن عام ١٩٥٧ مديراً لصحيفة «الآداب الفرنسية» التي كانت مجلىً للأدب الماركسي بفرنسة، ونال في السنة نفسها جائزة لينين للسلام. ولما توفيت زوجته إيلسا عام



١٩٧٠ شعر أراغون بحزن مبرّح يعتصر قلبه فرثاها أجمل رثاء، وتوفي في باريس، مخلّفاً آثاراً شعرية وروائية بوأته مكان الصدارة بين أدباء عصره.

وافى أراغون حركة السريالية، بعد أن انتسخ أمله في الدادية التي كانت، في الواقع، ممهدة لها ومفضية إليها. فقد ألفى في السريالية، بصورها الجريئة، مايلبي تشوّفه إلى التخلص من الواقع الرتيب، واستشراف آفاق جديدة من الإبداع. وكانت الوسيلة التي فزع إليها رواد السريالية الاعتماد على الكلمات المتحدّرة، على نحو عفوي «أوتوماتيكي» إلى الخاطر والغوص في غيابات الحلم ومتاهات اللاشعور واقتناص أوابده السانحة، ففي تدفّق الكلمات المنسابة، من دون تمحيص، تخطف شراراتٌ متوامضةٌ تشقُّ حلكَ الظلام، فاسحة أمام الشاعر مصيراً متحرّراً من أي قيد، مما يحمله على رهن كيانه كله بالسريالية المنقذة، وفي ظل هذه الحركة تتابعت دواوينه: «نار الفرح» و«الحركة المستديمة» وغيرهما، مترعةً بالصور الخلابة الساحرة. وكان من الطبيعي أن يتحوّل أراغون من السريالية التي كانت تستبد بمصيره الفردي، إلى الواقعية الاشتراكية الملتزمة، التي توجه مصير المجتمع كلّه، ولعل زوجته أعانته على هذه النقلة، لينبتّ ماكان موصولاً بينه وبين السريالية، وينوط قلبَه بحب إيلسا وعينيها، ويربط هذا الحبَّ بعشق وطنه ومجتمعه الماركسي الذي كان ينشده. ولئن تخلّى عن السريالية وسرابها لقد اذّخر شعره، فيما بعد، كثيراً من إشراقاتها تلتئم في قصائد ذات بنية سلفية تماثل بنية القصيدة لدى فكتور هوغو [ر]، في حفاظها على الوزن والقافية من نحوٍ، وفي انسياب كلماتها وعفويتها وموسيقاها من نحوآخر. وكذلك ترافدت دواوينه الرائعة: «غصّـة» Le crève coeur و«عيون إيلسا» Les yeux d'Elsa و«العيون والذاكرة» Les yeux et la mémoire و«مجنون إيلسا» Le fou d'Elsa .

ولئن عرف أراغون بأنه أحد أعلام الشعر الفرنسي المعاصر، لقد تأتّى له أن يكون، إلى ذلك، روائياً من طراز رفيع، في نهج الواقعية الاشتراكية الذي التزمه، وكذلك ترادفت رواياته، تحمل في ثناياها، كلّ ماكان يمور في عطفيه من أهواء: «أجراس بال» Les cloches de Bale و«أورليان» Aurelien و«الشيوعيون» Communistes وغيرها، تنهض كلها شوامخ في الأدب الفرنسي المعاصر. وقد مزج في جلّها، مابين شخصيات تاريخية ومتخيَّلة، مبتعداً، ما أمكنه ذلك، عن منزلق الروايات الملتزمة، مصوراً بدقة، مساوئ المجتمع البرجوازي، ولعل حساسيته الشعرية أعانته على أن يصل كلماته

بنبضات قلبه، وكذلك يكتشف المرء بين الحرائق التي تشعلها كلماته واحات نضرة، ويجد، كما يقول الناقد جيلبر سيغور، أن كلَّ شخصية في رواياته تأتلف مع غيرها من الشخصيات في مصير منسجم واحد. وكان الأسلوب الذي اتّكأ عليه، في سرده الروائي سهلاً بسيطاً من نحوٍ، ورفيعاً أرستقراطياً من نحوآخرٍ، فكأن هذا الأسلوب الذي يجعل منه أميراً من أمراء البيان في فرنسة ـ كما يقول الناقد غايتان بيكون ـ لايتلاءم مع العواطف الجماهيرية الجياشة، كأن ثمة تناقضاً ما بين الأهواء التي تعصف بالشاعر وأسلوب الإفصاح عنها. وكذلك تأتّى لأراغون ـ ولاسيما في أعوامه الأخيرة ـ أن تتم مصالحته مع كل هذه المتناقضات، فهذه آلة الشعر تتناغم مع نداء الثورة وهذا جسد إيلسا الحبيبة يندغم مع جسد الوطن ويتّحد به.

كان أراغون، كلاسيكياً، في حرصه على نقاء الجملة وصفائها، ولكنه كان إلى ذلك، كاتباً جياش العاطفة، تنهمر من ريشة إلهامه ألف صورة وصورة، مشيداً بها قصراً من ألف ليلة وليلة، كان كمخرج فيلمٍ سينمائي، يلعب بالصور، أوكمهندس يبني فيما هو يلهو، ولا يني يشدنا إليه، ببساطة ساذجة، ليتراءى لنا، بأن كل ماوهبه لنا من صورٍ، لم يكن يكلفه أيَّ شيءٍ من العناء.

ذلك هو سر عبقريته، في كل ماخلّفه من شعر ورواية ونقد.

بديع حقي

الموضوعات ذات الصلة:

السريالية ـ فرنسة ـ الواقعية.

مراجع للاستزادة:

- J. NATHAN, Histoire de la littérature Française Contemporaine (éd F. Nathan 1954).
- G.PICON, Panorama de la nouvelle littérature Française (ed N.R.F 1960).

■ آرال (بحر ـ)

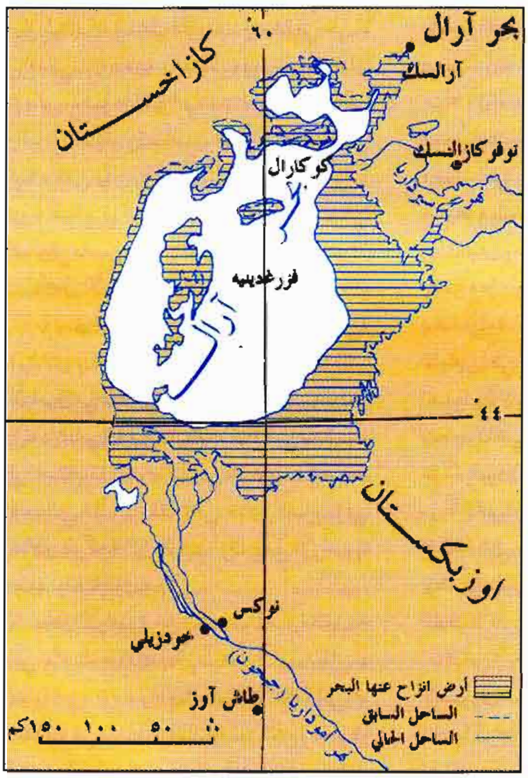
آرال Aral Sea بحر داخلي، أوبحيرة مَلِحة، مياهه محصورة لا منفذ لها إلى البحار المفتوحة، يقع في الجهة الجنوبية الغربية من القسم الآسيوي مما كان يُعرف بالاتحاد السوفييتي سابقاً [ر] وعلى حدود أوزبكستان وكازاخستان، ويحتل أخفض أجزاء حوض طوران الواسع.

تبلغ مساحة هذا البحر الكلية ٦٦٤٥٨كم²، طوله من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ٤٢٨كم، وعرضه الموازي لخط العرض الشمالي ٤٥ درجة يبلغ ٢٨٤كم. وآرال رابع أكبر بحر داخلي في العالم ومساحته آخذة بالانكماش.

ذكر الجغرافي العربي ابن رسته (ت بعد ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م) بحر آرال وكتب عنه، وقد أطلق عليه العرب بعد ابن رسته اسم بحر خوارزم. وورد ذكره في الروض المعطار للحميري (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م) في معرض حديثه عن نهر جيحون: «فأما نهر بلخ الذي يسمى جيحون... فيمر ببلاد الترمذ واسفرايين من بلاد خراسان حتى يأتي بحيرة خوارزم. وليس في العمران بحيرة أعظم منها، لأن طولها مسيرة شهر في نحوذلك من العرض ودورها أربعمئة فرسخ وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش... والسفن تجري في هذه البحيرة». أطلق عليه الروس في القرن السابع عشر اسم «البحر الأزرق» ورسم بوتوكوف A.L.Boutokov مصوّراً جغرافياً لبحر آرال سنة ١٨٤٨ـ١٨٤٩.

يحتوي بحر آرال على عدد من الجزر تقدر مساحتها الكلية بـ ٢٣٤٥كم² من أصل مساحته الكلية ومن أهمها جزيرة كوكارال البالغة مساحتها ٢٧٣كم² وجزيرة فزرغدينية (أي النهضة) وكانت تعرف من قبل باسم «نقولا الأول» ومساحتها ٢١٦كم² وجزيرة بارسا كِلْمز وغيرها.

يصب فيه نهران كبيران هما آموداريا (جيحون)، وسيرداريا (سيحون). وتتفاوت ارتفاعات شطآنه من ١٥٠م فوق سطح البحر من جهة الشمال حيث يبدو وعراً، ويصل إلى ١٩٠م من جهة الجنوب وتنخفض من جهة الشرق. يبلغ معدل الأمطار السنوية الهاطلة على بحر آرال ١٠٠م ويصل التبخر إلى ١٠٠٠م. معدل عمقه ٢٠ـ٢٥م ويصل في أقصاه إلى نحو٦٨م. ملوحة المياه قليلة، فالكيلوغرام من الماء يحوي ١٠ـ١١ غراماً من الملح وتزداد باتجاه العمق. تراوح درجة حرارة سطح الماء



صيفاً بين ٢٦ و٢٧ درجة مئوية، وتنخفض في الأعماق حتى ثلاث درجات وأحياناً إلى درجة واحدة، ويتجلد شماليه عادة في معظم الشتاء. ويقع مستوى سطح مياهه على ارتفاع ٤٠م فوق سطح البحر.

يعد بحر آرال مركزاً مهماً لاستخراج الملح، فهو المورد الرئيس لسكان حوضه. وتعيش فيه مجموعة من الحيوانات هي من النماذج المعروفة في منطقة القفقاس والتي تستطيع أن تتكيف مع نوعية ملوحة المياه فيه مثل الأسماك وهي ٢٠ نوعاً أهمها الحفش والشبوط والسلّور وبعض السلمون، والرخويات ذوات الصدفتين،

وتوجد في الأعماق الديدان والهلاميات والحشرات ويرقات البعوض.

سكان حوض بحر آرال قليلون، وهم يعيشون على شواطئه، وتعدُّ مدينة آرالسك في الجهة الشمالية الشرقية منه المركز الرئيس ومحطة على الخط الحديدي المار بالشاطئ.

ويؤلف نهر آموداريا خط مواصلات آخر في الجنوب وهونهر صالح للملاحة مدة سبعة أشهر من السنة.

ويتعرض بحر آرال منذ عام ١٩٥٩-١٩٦٠ لظروف بيئية مدمرة للوسط الجغرافي نتيجة تنفيذ مشروعات الري في حوضي نهري آموداريا وسيرداريا، وتراجع الصبيب المائي ومن ثم تقلص رقعة مياه البحر وانكشاف قاعه تدريجياً إذ أصبحت مساحته نحو ٣٦٥٧٠كم². ويتوقع له أن يجف تماماً إذا بقيت الأوضاع الحالية قائمة، مما سيؤثر سلبياً في حوضه وما يحيط به.

ج.ت

موضوعات ذات الصلة:

أوزبكستان - كازاخستان

■ الآراميون

الآراميون Arameans اسم عام يطلق على مجموعات كبيرة من القبائل الرحل القديمة كانت تقطن في شمالي بلاد العرب، وتتكلم اللغة الآرامية بلهجات متعددة. وقد استطاعت هذه القبائل ما بين القرنين الثاني عشر والثامن قبل الميلاد أن تسيطر على بلاد واسعة في جزيرة الرافدين بين دجلة والفرات وفي سورية، وأن تؤسس مجموعات زراعية مستقرة ودولاً وممالك وأسر حاكمة. وقد أُطلق اسم الآراميين على البلاد التي سكنوها فدُعيت باسم «بلاد آرام» قروناً عدة قبل أن تعرف منذ العصر الهلنستي السلوقي باسم سورية (القرن الرابع قبل الميلاد).

أصل الآراميين ومراحل تاريخهم

ما يزال التاريخ الآرامي الباكر غامضاً لقلة الوثائق والمصادر المعاصرة. ويختلط ذكر الآراميين في المراحل الأولى من تاريخهم (أواخر الألف الثاني ق.م) بتاريخ الأقوام التي سبقتهم إلى استيطان المشرق العربي القديم، ولاسيما الأموريين الذين استقروا في حوض الفرات وفي المناطق الواقعة إلى غربيه، وقد حلّ الآراميون بينهم واختلطوا بهم.

ويعد الآراميون من الشعوب العربية القديمة التي عاشت حياة بدوية زمناً طويلاً. ويبدو أنهم تجولوا قروناً في البوادي الغربية الشمالية إلى أن استقروا في المناطق الواقعة بين تدمر وجبل البشري قبل أن يتبسطوا، في أواخر الألف الثاني ق.م، في أنحاء «الهلال الخصيب» شرق الفرات وغربه، وذلك بعد انهيار التوازن في بلاد المشرق القديم بتزايد حدة غارات شعوب البحر وتحركاتهم، وحدوث فراغ جيوسياسي في المنطقة بسبب انهيار الامبراطورية الحثية في الأناضول وسورية الشمالية، وانحسار النفوذ المصري عن بلاد كنعان في سورية وفلسطين وضعف بابل الكاشية. ويرتبط اسم الآراميين في هذا العصر المبكر بجماعات من البدو الرحل كان يُطلق عليهم اسم «الأخلامو» الذين ينتمي إليهم «الخانيون» و«السوتو» من قبائل مناطق الفرات الأوسط. ويمكن تتبع تحركات هذه القبائل منذ القرن الرابع عشر ق.م من المصادر الحثية (حوليات حاتوشيلي الثالث) والآشورية (حوليات الملك أدد نيراري الأول ١٣٠٧-١٢٧٥ق.م)، ومن الوثائق المعروفة برسائل تل العمارنة (أخيت-أتون) التي عثر عليها في مصر، وهي رسائل مكتوبة بالأكدية البابلية وبخط مسماري تبادلها بعض أمراء سورية وفلسطين وغيرهما، من بلاد المشرق القديم، والفراعنة المصريين من الأسرة الثامنة عشرة (القرن ١٤ق.م). وقد ورد ذكر الأخلامو الآراميين في بعض رسائل تل العمارنة من عهد إخناتون (نحو١٣٧٥ق.م) عندما كانوا يتجولون على ضفاف الفرات. وبعد أن تمكن هؤلاء من الاستيطان والاستقرار على ضفاف نهر الخابور وعند مجرى الفرات الأوسط في المنطقة التي عرفت باسم «آرام النهرين» بدؤوا يؤسسون إمارات ودويلات سرعان ماتصدى لها الملوك الآشوريون.

ذكر الآراميون لأول مرة في وثائق الملك الآشوري تكلات بلاصّر الأول (١١١٦-١٠٧٦ق.م) للدلالة على قوم من البدو الأعراب وعلى منازلهم من دون أن يقرن اسمهم بالأخلامو. ويتباهى هذا الملك بأنه شن عليهم وعلى الأخلامو أيضاً ثمانية وعشرين حملة على جبهة امتدت من جبل باسار (البشري) وتدمر إلى عانة ورابيقو على ضفاف الفرات. وفي نهاية القرن الحادي عشر ق.م أسس الآراميون مملكة «بيت عديني» على ضفتي الفرات في المنطقة الواقعة جنوبي كركميش (جرابلس) وأسسوا في وادي الخابور إمارات لاقي وبيت بخياني (تل حلف)، وبيت خالوبة. واستقرت قبيلة «تمناي» في نصيبينا (نصيبين)، وحزيرانا وحيدادا جنوب غربي ماردين في الجزيرة العليا. أما الحد الأقصى للتوسع الآرامي في الشمال فهو «صورو» (أي الجبل)، والمقصود هنا هضاب طور عابدين. أمّا في غربي الفرات، فقد تبسط الآراميون بالتدريج غرباً حتى جبال الأمانوس واستوطنوا في سمال (زنجرلي في تركية). وكثر عددهم حول «أرفاد» قرب «أعزاز» حيث تأسست مملكة بيت أجوشي التي امتدت على منطقة حلب كلّها. كما انتشروا في حوض العاصي، وصارت حماة في أيدي حكام آراميين. ويلفت النظر أن الاستيطان الآرامي كان يزداد كثافة باتجاه الجنوب. ففي سهول البقاع وعلى سفوح جبال لبنان الشرقية قامت مملكة «صوبة» التي ضمّت أراضي البقاع الجنوبي وجزءاً من وادي بردى وعنجر (عين جر)، ويمكن أن تكون قد أقامت اتحاداً مع مملكة «بيت رحوب» على نهر الليطاني، و«بيت معكة» على سفوح حرمون، و«جشور» شرق بحيرة طبريا ومملكة دمشق في حوضي بردى والأعوج وسفوح قاسيون والغوطة.

وعند منعطف الألف الثاني إلى الألف الأول ق.م انتقل مركز الثقل إلى دمشق التي أضحت أهم موقع سياسي في سورية، وعلى هذا النحو تمكن الآراميون من الاستقرار في كل أنحاء الجزيرة وأرض النهرين وسورية.

وفي نحو ١٠٣٠ق.م تصدى تحالف من هذه الدول الآرامية بقيادة هدد عزر ملك صوبة مع العمونيين في شرق الأردن والأدوميين في منطقة البحر الميت والنقب ومع آراميي بلاد آرام النهرين لتحالف قبلي تتحدث عنه المصادر الإخبارية التوراتية وحدها تألف من بني إسرائيل ويهوذا

في أرض كنعان (بلاد فلسطين القديمة) بقيادة الملك داود (مطلع القرن العاشر ق.م). وتروي هذه المصادر نفسها أخباراً عن انتصارات ملحمية على شعوب المنطقة المحيطة ببلاد كنعان ودولها وممالكها، ولكن لم يعثر على ما يؤيد هذه الأخبار في مصادر أخرى، وهذا ما يثير الشكوك في دقتها ومبلغ صحتها. أما سليمان ابن داود (٩٧٣ ـ ٩٣٦ق.م) فقد أعلن امتداد دائرة نفوذه إلى كل هذه المناطق الآرامية ما عدا بيت عديني على الفرات، بعد مقاومة عنيفة من الممالك الآرامية المتحالفة: صوبة (في البقاع) وحماة ودمشق. لكن مملكة آرام دمشق بزعامة رصين الأول (نحو ٩٥٠ق.م) هي التي استطاعت أن تنهض بسرعة وأن تؤلف تحالفاً تصدّى لمطامع مملكة إسرائيل التي انقسمت على نفسها لأسباب قبلية ـ اجتماعية ـ دينية بعد موت الملك سليمان. ولا توجد مصادر تاريخية مقابلة لهذه المرويات الإخبارية في أسفار العهد القديم.

أما خلفاء رصين فقد دعي كل منهم بلقب برهدد (أي ابن هدد) ويرد ذكر الملك الآرامي في الوثائق الآشورية باسم أدد ـ إدري (هدد عزر). وقد تصدى هؤلاء الملوك لمطامع ملوك آشور التوسعية ولغارات ملوك إسرائيل من بيت عمري التي تتحدث عنها أسفار التوراة، ولاسيما في أيام الملك آخاب بن عمري (٨٧٥ ـ ٨٥٢ق.م). واضطر آخاب إلى الانسحاب والتراجع من بعض المواقع في حوض الأردن عندما بدأ الآشوريون يتوسعون غربي الفرات منذ أيام آشور ناصر بال الثاني (٨٨٤ ـ ٨٥٩ق.م) ثم في زمن ابنه شلما نصر الثالث الذي نجح في ضم مملكة بيت عديني الآرامية على الفرات (٨٥٦ق.م) إلى مملكته، وتقدم بعدئذ غرباً إلى حوض نهر العاصي ليواجه عند قرقر شمال حماة تحالفاً كبيراً بزعامة برهدد ملك آرام دمشق ضمّ اثني عشر ملكاً وأميراً في سورية وفلسطين الساحلية والداخلية وذلك سنة ٨٥٣ق.م. واستطاع الجيش الآرامي الذي قيل إن عدده زاد على ستين ألف جندي، وجهز بالمركبات الحربية والفرسان والمشاة المدججين بالسلاح، أن يتصدى لحملة شلما نصر الثالث واضطره إلى التراجع أمام المقاومة العنيفة، ولعوامل داخلية في العاصمة الآشورية اضطر الملك الآشوري إلى التعجيل في العودة إلى عاصمة ملكه من دون تحقيق نتيجة حاسمة. ومع أن البيانات الرسمية الآشورية المعاصرة تتحدث عن انتصارات مبالغ فيها، ومغايرة للحقائق التاريخية التي تلت المعركة، إلا أن الآشوريين تمكنوا بالمقابل من فرض نفوذهم على القبائل الآرامية في حوض الفرات.

وبعد إبعاد الخطر الآشوري عن العالم الآرامي في غرب الفرات أحرزت مملكة آرام دمشق مكانة مهمة في النصف الثاني من القرن التاسع ق.م عندما تولى الحكم فيها حزائيل ويعني اسمه «ايل يرى» (٨٤١ ـ ٨٠٥ق.م) الذي أنهى حكم أسرة بر هدد وأصبح أعظم محارب في التاريخ الآرامي. وقد دب الذعر في مملكة إسرائيل، كما يتضح من مواعظ النبي اليشع المنذرة بخطر داهم. وكان من نتائج الانتصارات التي حققها ملك دمشق على جبهة اليرموك بذر الخلاف في إسرائيل عندما نادى اليشع بالقائد «ياهو» ملكاً، وكان أول ما أقدم عليه ياهو هذا أن قتل سلفه يورام (الملوك الثاني، ٩ و١٠) ثم ارتمى على أقدام شلما نصر الآشوري عدو حزائيل، ويثبت ذلك نحت على المسلة السوداء يبدو فيه ياهو ملك إسرائيل وهو يقبل الأرض عند أقدام العاهل الآشوري. ومع ذلك فقد بقي ملك آرام دمشق سيد الموقف في معظم أصقاع العالم الآرامي فبسط سلطانه على شرق الأردن، ومدّ نفوذه من وادي اليرموك إلى أرنون (نهر الموجب)، ثم دخل أراضي فلسطين ووصل إلى بلدة جات الفلسطينية شرق عسقلان. ويبدو أنه اجتاح معظم أراضي فلسطين. ولاتتوافر مصادر آرامية تفصل ماحدث في هذه الحقبة، كما تصمت المصادر العبرية التوراتية عن ذكر الوقائع: إلا أن سفر الملوك الثاني يعترف بالحصار الذي ضربه حزائيل على أورشليم (بيت المقدس) ولم يرفع عنها إلا بعد أن قدم أهلها الذهب إلى عاهل آرام. ثم تجددت هجمات مملكة إسرائيل وغاراتها التوسعية بعد ذلك على أراضي آرام في مناطق حوض الأردن الأعلى، وتتابعت الحروب المتقطعة التي امتدت نحو قرن حتى الثلث الأخير من القرن الثامن ق.م. تتخللها أوقات هدوء وتوقف، ولكن حزائيل نجح في فرض سيادة آرام على معظم أرض كنعان، وشهدت إسرائيل في أيام يوأحاز، الذي خلف ياهو أوضاعاً شديدة وعصيبة (أواخر القرن التاسع قبل الميلاد) بعد أن فرض عليها حزائيل تقييد تسلحها. وجاء وصف ذلك في سفر الملوك الثاني، (الإصحاح ١٣ : ٧) كما يلي : «لم يكن لجيش إسرائيل إلا خمسون فارساً و١٠عربات وعشرة آلاف من المشاة لأن ملك دمشق أباد بني إسرائيل وجعلهم كالغبار الذي تطؤه الأقدام».

ظلت آرام دمشق منيعة على أعدائها معظم القرن الثامن ق.م وهي ترد الهجمات الآشورية من الشرق وتحمي جبهتها الجنوبية الغربية في حوض الأردن. ولكن سلطة الملك الآرامي بعد حزائيل تضعضعت بسبب قوة الهجمات الآشورية، ولاسيما في حملة أدد نيراري الثالث (٨١٠ ـ ٧٨٣ق.م) فلم يتمكن برهدد الثاني (٨٠٦ق.م) من المحافظة على إنجازات حزائيل على الجبهة الجنوبية، وعادت مملكة إسرائيل إلى مواقعها السابقة بعد أن تولى يربعام الثاني العرش في السامرة (٧٨٣ ـ ٧٤٣ق.م). وراح يهاجم أهم الممالك الآرامية في دمشق وحماة.

بلغ الصراع الآرامي ـ الآشوري ذروته في أواسط القرن الثامن ق.م عندما تولى تكلات بلاصر الثالث عرش آشور (٧٤٥ ـ ٧٢٩ق.م) فقاد سلسلة من الحملات نحو الغرب انتهت إلى القضاء على تحالف آرامي كبير بزعامة «متع إل» ملك أرفاد وحليفه «برجاية» ملك «كتك» (لم يحدد موقعها وأسماء ملوكها إلى اليوم)، وضم هذا الحلف «آرام كلها» كما ورد في نصوص سفيرة. وهو تعبير له دلالته، ولا يرد في أي نص آخر ويشمل كل العالم الآرامي القديم في سورية وحوض الفرات. إلا أن الآراميين لم يتمكنوا عملياً من توحيد صفوفهم، واستطاعت القوات الآشورية الزاحفة القضاء على دولهم تباعاً. فبعد احتلالها أرفاد والقضاء على حكم بيت أجوشي(٧٤٠ق.م)، مركز المقاومة في سورية الشمالية، سنحت الفرصة للتحرك جنوباً، عندما طلب ملك يهوذا «فقح» نجدة الملك الآشوري لحمايته من مملكة آرام دمشق وغيرها (٧٣٤ق.م) واستجاب تكلات بلاصر الثالث للطلب فاجتاح المقاطعات الست عشرة التابعة لدمشق مع مئات القرى والمدن وأعمل الخراب فيها. وقتل بنامو الثاني ملك شمأل (سمأل)، الذي انضم إلى قوات آشور، أمام أسوار دمشق وحوصر رصين الثاني آخر ملوك آرام دمشق (٧٤٠ ـ ٧٣٢ق.م) إلى أن

سقطت المدينة بعد مقاومة ضارية امتدت إلى الغوطة. ولاقت السامرة في شمالي فلسطين مصير دمشق في سنة ٧٢٢ق.م. ثم حماة في سنة ٧٢٠ق.م. وبعدها عسقلان الفلسطينية في سنة ٧١١ق.م. وهكذا انتهى دور الآراميين السياسي في التاريخ القديم وأعيد تنظيم البلاد إدارياً بتقسيمها إلى ولايات تابعة للسلطة المركزية في نينوى عاصمة آشور.

ولكن الآراميين وحلفاءهم من الكلدانيين تمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم مدة أطول في حوض دجلة الأدنى، إذ استولى أمراء آراميون على عرش بابل ووقفوا في وجه الهجمات الآشورية مدة ربع قرن ومنهم نابو مكين زيري (٧٣١ ـ ٧٢٩ق.م) ومردك أبلا إدينا (٧٢١ ـ ٧٠٥/٧٠٣ق.م). وفي خضم هذا الصراع المرير سبى الآشوريون عشرات الألوف من السكان الآراميين الذين نقلوا معهم لغتهم وعقائدهم كما تعرضت بابل للتدمير والتخريب وقضت الحرائق على أهم معالمها القديمة وقصورها ولاسيما على يدي سنحريب ملك آشور، ثم إبان النزاع بين الأخوين آشور بانيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٧ق.م)، وشمش شوم أوكين (٦٦٨ ـ ٦٤٨ق.م). ومع ذلك فإن الآراميين لم يقروا بالهزيمة، فأعيد بناء بابل التي سرعان ما استأنفت تصدّيها لمطامع ملوك آشور، واستطاع الأمير الكلداني نابو بلاصّر أو نابو أبلا أصّر (٦٢٥ ـ ٦٠٥ق.م) أن يعلن نفسه ملكاً على بابل وأن يشن على آشور حرباً لا هوادة فيها متحالفاً مع أعدائها المحيطين بها من الشرق والشمال (الميديون والسكيثيون). وانتهت هذه الحرب بالقضاء على مملكة آشور قضاءً مبرماً (٦٠٩ق.م). وقامت على أنقاضها الدولة البابلية الثانية الكلدانية (٦٠٥ ـ ٥٣٩ق.م) التي كان من العسير التفريق فيها بين الكلدانيين والآراميين والعرب إضافة إلى البابليين، فقد اختلط الجميع وتمازجوا بقوة وعمق في إطار ثقافة مزدوجة بابلية ـ آرامية كانت اللغة الآرامية أهم عناصرها، وظل الأمر على هذا النحو إلى أن انتقلت السيادة السياسية إلى ملوك الأسرة الفارسية الأخمينية (٥٣٩ ـ ٣٣٢ق.م) الذين عرف المشرق القديم في أيامهم وحدة ثقافية لغوية ـ اقتصادية قامت على أكتاف الآراميين لم يشهد لها مثيل بهذا الاتساع من قبل. وبعد سقوط الأخمينيين على يد الاسكندر المقدوني وقيام الممالك الهلنستية (السلوقيون والبطالمة) طغت الثقافة الهلينية على بلاد المشرق. إلا أن اللغة الآرامية ظلت على الرغم من هذه المؤثرات أهم عامل في وحدة المشرق العربي القديم حتى الفتح العربي الإسلامي (القرن السابع الميلادي).

اللغة الآرامية وانتشارها

تنتمي الآرامية إلى أسرة لغوية كبيرة عرفت في أوساط الباحثين باسم «اللغات السامية» وأقرب اللغات القديمة إليها الكنعانية، وبينها وبين العربية عناصر مشتركة كثيرة في النطق والمفردات والتصريف.

وقد أظهرت الدراسات اللغوية المقارنة التي قام بها الباحثون الأوربيون تشابهاً في الأصوات والمفردات والتركيب والقواعد بين اللغات الآشورية والبابلية والكنعانية والآرامية والعبرية والعربية وغيرها من اللغات. وأول من استخدم اصطلاح «اللغات السامية» في ميدان علم اللغات المقارن في الغرب، هو عالم اللغات الألماني النمسوي شلوتزر (١٧٨١م) وعنى به اللغات التي كانت معروفة آنذاك، وتتكلمها شعوب الشرق العربي في بلاد الشام والجزيرة وبلاد العرب، وهي العربية والعبرية والسريانية والكلدانية والحبشية، وتستند هذه التسمية إلى اسم سام بن نوح الذي نسبت إليه الشعوب التي بقيت بعد الطوفان بحسب رواية أسفار العهد القديم، الا أن هذا التقسيم العرقي للشعوب ولغاتها واجه نقداً حاداً من باحثين كثيرين ولاسيما نولدكه ودياكونوف لأنه غير دقيق، ولا يتطابق مع الحقائق التاريخية، ولأن توزع اللغات وتفرعها يخضع لعوامل سياسية ـ ثقافية ـ جغرافية وليس لعوامل عرقية، ولأنه لا يمكن تجاهل ما بين مجموعة «اللغات السامية» ومجموعة «اللغات الحامية» من صلات، حتى إن بعض الباحثين يفضل اسماً مشتركاً هو اللغات الحامية ـ السامية ومن هؤلاء مارسيل كوهين، ودياكونوف.

ومع توسع الدراسات اللغوية المتعلقة بلغات المشرق العربي القديم وثقافاته اتسع مدلول مصطلح «السامية» ليشمل لغات أخرى، من المجموعة اللغوية نفسها، اكتشفت مع التقدم في التنقيبات والبحوث الأثرية، وبدىء بدراستها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر في المجامع العلمية والجامعات في بلاد الغرب (إنكلترة وفرنسة وألمانية وايرلندة والدنمارك والسويد) قبل أن تنتقل هذه الدراسات إلى الجامعات العربية، ومن هذه اللغات المصرية القديمة والأكدية والكنعانية ـ الآرامية والعربية الجنوبية وأخيراً الأغاريتية والإبلوية. وقد أظهرت نتائج هذه الدراسات المقارنة بين هذه اللغات بلهجاتها المختلفة عناصر التشابه والتقارب الوثيق في بنيتها وفي كثير من مظاهر تطورها في المراحل المختلفة التي مرت بها في تاريخها الطويل وهذه العوامل جميعاً تدعو إلى الاعتقاد، من دون إغفال عاملي الزمان والمكان، بوجود أصل أوليّ يتمثل في لغة أم وُجدت في مكان ما من بلاد العرب ثم تفرعت عنها تلك اللغات.

ويمكن تبين موقع اللغة الآرامية وفروعها بين اللغات السامية، كما في النتائج التي توصلت اليها أحدث الدراسات المقارنة، التي صنفتها في أربع فئات هي السامية الشمالية والسامية الشرقية والسامية الغربية والسامية الجنوبية. وتضم السامية الشمالية لهجات سورية والفرات القديمة ومنها كيش وماري وإبلا (٢٥٠٠ق.م) وبعض شواهد الأغاريتية واليأدية (الشمأل)، أما السامية الشرقية فتضم الأكدية: البابلية ـ الآشورية، وأما السامية الغربية فتضم الكنعانية والآرامية، وأما السامية الجنوبية فتضم العربية والعربية الشمالية القديمة والعربية الجنوبية (لغات اليمن) والحبشية.

وقد تأثرت اللغة الآرامية، باللغات السابقة التي انتشرت في البلاد قبل دخول الآراميين وانتشارهم بقرون، كالسومرية ـ الأكدية والكنعانية، وسعى الأمراء الآراميون بادىء الأمر إلى اتخاذ هذه اللغات لغة كتابة في دواوينهم وقصورهم، حينما تبنوا ثقافة البلد الذي استقروا فيه، ففي سمأل مثلاً (القرن التاسع ق.م) صارت الآرامية لغة الديوان الملكي عندما كانت الكنعانية ما تزال لغة الحديث اليومي. ويدل على ذلك وجود كلمات كنعانية في النصوص الآرامية الرسمية.

وبعد استقرار الآراميين وتأسيس دولهم في سورية وبلاد الجزيرة والفرات على أنقاض الممالك والإمارات الأمورية والحثية في القرنين الحادي عشر والعاشر ق.م. استخدم الكتّاب الآراميون الأبجدية الكنعانية، واستخدموا أربعة من الحروف الصوتية وهي الألف والهاء والواو

والياء لكتابة الحركات. وانتقلت هذه الأبجدية الآرامية المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً بعد ذلك إلى الشعوب الأخرى المعاصرة، وتم تبنيها في كتابة اللغات واللهجات السورية ـ الفلسطينية القديمة مثل العبرية والمؤابية والأدومية والفلسطيّة (عسقلان وأسدود وغزّة) والعمونية. كما اقتحمت الآرامية مواقع اللغات واللهجات التي كانت سائدة في آشور وبابل وتداخلت باللغات المعاصرة كالأكدية، وكان الآراميون قادرين على نطق عدة حروف ساكنة كما يستخلص من النقوش، ولم يكن بعض هذه الحروف موجوداً في الكنعانية الفينيقية. وبقي الكتّاب الآراميون يستخدمون الحروف المستعارة بالتدريج وعلى نحو يتوافق مع مقتضيات النطق في اللغة الآرامية.

وتعود أقدم نماذج اللغة الآرامية المكتوبة إلى القرنين العاشر والتاسع ق.م. وهي التي وجدت في تل حلف في الجزيرة. ولكن أقدم النصوص الملكية الآرامية المعروفة يعود إلى النصف الثاني من القرن التاسع وإلى القرن الثامن ق.م. وقد كتب أحد هذه النصوص وهو نقش كيلاموا ملك سمأل بالحروف الكنعانية الفينيقية، أما النص الآخر، وهو نقش «هدد يسعى» ملك غوزانا (تل حلف) وسيكان وأرزان فهو مزدوج اللغة والخط، فقد كتب بالخط الآشوري المسماري والآرامي الأبجدي، واكتشف في تل الفخيرية عند ينابيع الخابور، ويمكن إرجاعه تقريباً إلى ما بين عامي ٨٥٠ـ٨٢٥ق.م. وهكذا تطور الحرف الآرامي الأبجدي مستقلاً عن الحرف الكنعاني كما ظهر الخط الآرامي المربع الذي انتشر فيما بعد على نطاق واسع، ولاسيما في العصر الفارسي، من آسيا الصغرى إلى أفغانستان والسند.

وإذا لم يتمتع الآراميون باستقلال سياسي حقيقي إلا نادراً لقوة الدول الطامعة المجاورة لهم، فإنهم لم يتوانوا في بذل الجهد من أجل تطوير ثقافة قوية خاصة بهم طبعت الشرق القديم كله بطابعها. وأخذت لغة المغلوبين تحل بالتدريج محل لغة الظافرين. فبعد التوسع الآشوري في آرام النهرين (الجزيرة)، وبعد سقوط مملكة بيت عديني أمام جيوش شلما نصر الثالث ٨٥٥ق.م أضحت اللغة الآرامية بكتابتها الأبجدية اللغة الثانية في الامبراطورية الآشورية.

وبدءاً من النصف الأول من القرن الثامن ق.م، أخذت النصوص والنقوش الآرامية موقعها إلى جانب النصوص الآشورية المسمارية لتبرهن على وجود كتّاب آراميين إلى جانب الكتّاب الآشوريين في دواوين الدولة، حتى ليمكن القول إن الامبراطورية الآشورية غدت امبراطورية آشورية ـ آرامية. وانتشرت اللغة الآرامية انتشاراً واسعاً بسبب سهولة نظام الكتابة الأبجدية، في حين أخذت اللغات الأكدية والآشورية البابلية، تميل إلى التراجع بسبب صعوبة تعليم الكتابة المسمارية وتعلمها. وفي القرن الثامن ق.م، أخذت تتولد لهجات آرامية بتأثيرات محلّية. ولكن كانت توجد لغة آرامية عامة متداولة ومفهومة في أوساط الكتّاب والمتعلمين، ويدل عدد من النقوش الآرامية القديمة على أهمية اللغة الآرامية في القرن الثامن ق.م في عدد من الممالك الآرامية السورية مثل دمشق وحماة (نقش زكر ملك حماة ولعش) وسمأل، وأرفاد (نقوش سفيرة) وكان هذا العصر هو العصر الذهبي الأول للغة الآرامية القديمة. ولكن كل هذه الممالك أخضعت تباعاً لسيطرة آشور حتى سنة ٦١٢ ـ ٦١٠ق.م، وأدمجت في إدارتها، وظل الأمر كذلك إلى أن ورثت بابل تركة آشور التي انهارت أمام الاجتياح الميدي. واستخدمت الآرامية في الدولة البابلية الكلدانية لغة للدواوين والمراسلات الدبلوماسية والمعاملات التجارية، حتى أضحت في النصف الأول من القرن السادس ق.م لغة دارجة في كل بلاد الرافدين إضافة إلى انتشارها في سورية وفي بعض المدن المصرية من ممفيس إلى أسوان. وغدت الآرامية في العصر الفارسي الأخميني (٥٣٩ ـ ٣٣١ق.م) اللغة الرسمية المعمول بها من وادي النيل في مصر إلى حوض السند في شمال الهند وأفغانستان، فكانت هذه الآرامية ـ الامبراطورية هي اللغة العامة لآرام كلها، أي لكل سورية وفلسطين والجزيرة وحوض الفرات، واللغة الرسمية الإدارية الأولى في آخر امبراطوريات الشرق القديم قبل الاسكندر المقدوني. وإلى هذا العصر تعود مئات لفائف البردي المكتوبة بالآرامية والتي عثر عليها في مصر (أسوان وهرموبوليس وممفيس). وبعد أن اجتاح الاسكندر أراضي الامبراطورية الفارسية وقضى عليها، واجه العالم الآرامي غزواً آخر تمثل بقدوم الهلينيين المستعمرين المستوطنين الذين أنشؤوا المدن ـ المستعمرات وجعلوها مراكز لنشر الحضارة الهلّينية في بلاد الشرق. وهكذا أخذت اللغة الآرامية منذ القرن الرابع ق.م تفقد تفوقها في ديارها، بعد أن غدت اللغة اليونانية الوافدة لغة رسمية في الدول الهلينية. إلا أن الدول والمجتمعات المحلية التي كان يغلب عليها الطابع الآرامي في العالم الهليني أخذت تطور لهجاتها الآرامية المحلية في هذه الأوضاع السياسية ـ الثقافية الجديدة، مما أدى إلى تفرع اللهجات الآرامية عن اللغة الآرامية الأم القديمة. وإلى هذه المرحلة تعود أهم الآثار المكتوبة بالنبطية والآرامية الفلسطينية (التي حلت محل العبرية في التداول منذ القرن الثاني ق.م) والتدمرية والحضرية (لهجة مملكة الحضر «حطرا» في غربي الموصل)، والسامرية التي كتبت بها أسفار موسى الخمسة، والسريانية. وقد تعدد تكون هذه اللهجات في العصر الروماني المتأخر. وفي حقبة لاحقة، أي في العصر البيزنطي، تطور الأدب الآرامي وقدم إنتاجاً غزيراً بالآرامية ـ البابلية، وبالسامرية والمندعية (لغة الصابئة)، ولاسيما بالسريانية وهي اللغة الآرامية التي تضم أقدم تراث مسيحي محلي، وهو تراث ثقافي ديني وعلماني بقي حياً ومتداولاً إلى اليوم.

ومن الصعب أن يتفق الباحثون على تصنيف لفروع الآرامية وعلى الأسماء التي تطلق على هذه الفروع ولهجاتها لتعددها وتداخلها. ومن أهم اللهجات الآرامية تلك التي تكونت في فلسطين، فقد انتشرت الآرامية على نطاق واسع في مناطق الجليل وشمالي فلسطين منذ أواخر القرن الثامن ق.م عندما نقل الملوك الآشوريون سكاناً آراميين إلى المدن الفلسطينية الشمالية، وتقدمت الآرامية على حساب اللغتين الكنعانية والعبرية لتصبح لغة دارجة في منطقة بيت المقدس، واقتصر استخدام العبرية على أحبار اليهود. ويشتمل العهد القديم على أجزاء كتبت بالآرامية في تلك المرحلة، منها: سفر إرميا، الإصحاح ١٠: ١١ وسفر التكوين (الإصحاح ٣١: ٤٧) وسفر عزرا، (الإصحاحات ٤: ٨ و٦: ١٨ و٧: ١٢ و٢٦) وتتضمن الأجزاء التي كتبت بالآرامية من سفر عزرا وثائق مهمة عن وضع الطائفة اليهودية في العصر الفارسي الأخميني. أما الأجزاء الآرامية من سفر دانيال فهي الإصحاح ٢: ٤ والإصحاح ٧: ٢٨، وبما أن الآرامية التي وضعت بها أجزاء سفر دانيال المذكورة كتبت على لسان

الكلدانيين فإنها صارت تسمى خطأً كلدانية، إذ إن اللغة التي تكلمها الكلدانيون أو البابليون بعد القرن السادس ق.م كانت لهجة من الأكدية وأصبحت الآرامية بعد العبرية اللغة التي استخدمت للتعبير عن الفكر الديني عند اليهود. ويعدّ التلمود (يعني كتاب التعليم أو التعاليم) أهم المؤلفات اليهودية المهمة بعد أسفار التوراة. ويضم التلمود الشرائع التقليدية المتواترة التي كانت متداولة بالروايات الشفهية، وهو يشرح ما ورد في أسفار العهد القديم من تشريع. وقد وضع النص بالعبرية وهو المشنة، أما الشرح (الجمارة) وهو التكملة فقد وضع بالآرامية. ويتفوق التلمود البابلي على التلمود الأورشليمي الذي وضع لاحقاً (القرن الرابع الميلادي). وإلى جانب التوراة العبرية ظهرت ترجمة للأسفار بالآرامية (الترجوم الفلسطيني) والمدراش. وكان السيد المسيح يتكلم بالآرامية ويعظ الناس بها، وهي كذلك لغة الحواريين وتلاميذهم.

وقد أدى الفتح العربي في القرن السابع إلى انتشار العربية على نطاق واسع في المناطق التي كان الناس فيها يتحدثون بالآرامية، فانحسرت اللهجات الآرامية الغربية في سورية وفلسطين. وبقي استعمال اللغة الآرامية للحديث في بعض قرى منطقة القلمون القريبة من دمشق (معلولا، جبعدين، بخعة «الصرخة»). ويعتز أبناء هذه المناطق بأنهم مايزالون يتكلمون اللغة الآرامية التي تبقى، مهما دخل عليها من تأثيرات، لغة الناس على عهد السيد المسيح عليه السلام. وأضحت اللغة الآرامية السريانية أهم اللهجات المتفرعة عن الآرامية الأم بعد انتشار المسيحية. ومنذ ذلك العهد أخذت الآرامية الشرقية تفرض نفسها وتؤكد وجودها لغةً للآداب والدين بلهجات ثلاث هي: البابلية أو اليهودية البابلية وهي لغة التلمود، والمندعية وهي لغة الصابئة والسريانية التي انتشرت من مدينة الرّها (إديسا) وكتب بها الأدب السرياني المسيحي [ر. السريان] وقد كان للغة السريانية دور ثقافي كبير إلى جانب اليونانية والفارسية قبل أن تتفوق عليها اللغة العربية منذ القرن السابع الميلادي، لكنها لم تمت بل بقيت حية حتى القرن الثالث عشر لغة أدب وثقافة دينية للكنيسة السريانية. وهي تستعمل اليوم في شعائر كثير من الكنائس الشرقية. وما تزال لغة الحديث والحياة اليومية للألوف من السوريين وفي منطقة الموصل في شمالي العراق وفي شرقي الأناضول وطور عابدين وعند بحيرة أورمية، كما أنها انتشرت مع انتشار السريان إلى ساحل الملابار في الهند وإلى أسترالية وبلاد المهجر في العالم الجديد.

الأدب الآرامي

لم تؤد التنقيبات الأثرية التي أجريت حتى اليوم إلى العثور على آثار من الأدب الآرامي القديم إلا في فلسطين ومصر، وليس في سورية أو الجزيرة العليا وهما قلب العالم الآرامي القديم. ولعل مرد ذلك إلى عوامل مناخية لم تبق على شيء كثير من هذه الآداب القديمة لأن أكثرها كتب على لفائف من البردي أو على الجلد، وهي مواد لاتصمد لعوادي الزمن كالحجر. أما أهم ما بقي من التراث الأدبي الآرامي القديم، فيمكن تعرّفه من المواقع التالية:

نص دير علا (وادي الأردن): أو نبوءة الكاهن بلعم بن بئور. مع ما يعتري النقوش على بعض جدران دير علا من شكوك في ارتباطها بالآرامية لغوياً، فهي على الأرجح نصوص بلهجة آرامية قديمة كتبت بالحبر الأحمر والأسود على الجدران المكسوة بالكلس. وإن وضع النص المؤطر ومحتواه يدعوان إلى التفكير بأنه نسخة عن نص أدبي كتب مبدئياً على ورقة أو ملف من البردي أو من الجلد. ويذكر استخدام الحبر الأحمر من أجل كتابة العنوان أو بعض مقاطع العرافة بأسلوب مشابه مألوف في النقوش المصرية القديمة. ولما كان هذا النقش قد أصيب بتلف شديد، فإن محتواه يبقى عصياً على الإيضاح، ويمكن أن يثير تفسيرات مختلفة. ومع ذلك فإن البداية تتضمن حديثاً عن رؤيا تلقاها في الليل كاهن متنبىء يدعى بلعم بن بئور وفيها خبر سيء. وفي اليوم التالي نقل الكاهن متأثراً هذه الرؤيا إلى الناس الذين يحيطون به ... ولا يعرف شيء آخر من مضمون هذه الرؤيا.

نصوص فيلة في الصعيد: أوسيرة الحكيم أحيقار.

بين المخطوطات الكثيرة التي عثر عليها في جزيرة فيلة (وهي إلفنتين) مقابل أسوان (سيين) يمكن تعرف عدد من النصوص الآرامية من عصر آرامية الامبراطورية. ومنها نصوص في الحكمة يتضح فيها الطابع المصري. أما أهم هذه النصوص فهي أمثال الحكيم أحيقار وقصته، وكانت هذه النصوص متداولة زمناً طويلاً في المدارس الآرامية في العصر الفارسي، وقد بقيت سيرة أحيقار أثراً شعبياً معروفاً في الشرق الأدنى القديم كله كما يتضح من الترجمات المأثورة في عدد من الآداب الشرقية، ولاسيما في الأدب السرياني. أما النواة الأساس في كتاب أحيقار فتتألف من مجموعة أمثال باللغة الآرامية الغربية من مصدر سوري قديم. وقد انتظمت هذه الأمثال في قصة تروي ما أصاب أحيقار من سعد ومن نحس، وهو «الحكيم البارع مستشار آشور كلها، وحامل أختام سنحريب ملك آشور». وبقي اسم أحيقار مشهوراً في عصور لاحقة، لأنه يرد في لوح مسماري من العصر الهلنستي أدرجت فيه قائمة بأسماء عدد من المشهورين وفيهم أخوقار وهو أحيقار المذكور هنا على الأرجح. وقد عاش في مطلع القرن السابع ق.م. في البلاط الآشوري. أما النسخة الأخرى لسيرة هذا الحكيم الآرامي فكتبت بلغة آرامية وبلهجة شرقية رافدية، وكان هدفها ترسيخ قيم الشرف والأمانة والإخلاص لتربية أجيال من الكتّاب والموظفين الذين كانوا يعدّون للعمل في خدمة الدولة في آشور وبابل وفارس.

نقش بهيستون بالآرامية: أو تعاليم الملك داريوس.

ويتضمن هذا النقش نصاً تعليمياً لتأهيل الموظفين، وهو في الأصل نقش ملكي حُوّل إلى نص مدرسي. وهذه وسيلة من الوسائل التي كانت تتبع لترسيخ الفكرة الملكية والإخلاص في رؤوس أولئك الذين يعدّون للعمل في الدواوين في أنحاء الامبراطورية. يعود هذا الأثر إلى الأيام الأولى من حكم العاهل الفارسي داريوس الأول (٥٢٢ / ٥٢١ق.م). وهو النسخة الآرامية من نقش تاريخي أعدّ بالخط المسماري وبلغات مختلفة كانت معروفة في بلاد الامبراطورية، هي الفارسية والعيلامية والبابلية، ليعمم ويعلن في مختلف الأصقاع.

ويمكن تأريخ النص الآرامي لنقش بهيستون في الربع الأخير من القرن الخامس ق.م أي بعد قرن تقريباً من اعتلاء داريوس الأول العرش، وهو يؤكد إضافة إلى ملاحظات أخرى، استخدام النص الآرامي في تعليم سيرة الملك ومآثره في مدارس الامبراطورية الفارسية وفي تربية أتباعه على الولاء له.

وقد كتب النص الآرامي لنقش بهيستون على ملف بردي طوله نحو ثلاثة أمتار، ويتألف من ١٩٠ سطراً، وفيه رواية لأخبار الحملات الأولى التي قام بها داريوس الأول لتوطيد أركان عرشه وقمع عدد من الثورات. وتتضمن الخاتمة وصايا وتعاليم أخلاقية موجهة إلى من يتولى الحكم بعده، وفيها تحذير من الكذب والكذابين ودعوة إلى الصدق وقول الحق، وتبشير بمباركة الإله أهورا مزدا للصادقين ولأبنائهم من بعدهم.

نصوص قمران: أومخطوطات البحر الميت الآرامية.

وهي مخطوطات كتبت بالآرامية والعبرية عثر على عدد كبير منها في مغاور قريبة من البحر الميت في فلسطين (١٩٤٧) وقد أدى العثور عليها إلى كشف النقاب عن نصوص آرامية مهمة يمكن تعرف مضمونها بمقارنتها بنصوص موازية في لغات شرقية أخرى معاصرة. ويبدو لأول وهلة أن معظم هذه النصوص الآرامية كتب ما بين القرنين الثالث والثاني ق.م. ومن أهم هذه النصوص أربع مخطوطات من سفر طوبيا. وليس من شك لدى الباحثين اليوم في أن هذا السفر كان قد كتب، أول الأمر باللغة الآرامية، ومن المحتمل أن ذلك كان مابين القرنين الرابع والثالث ق.م بتأثير قصة أحيقار التي يفترض أن كاتب السفر قد عرفها. وهناك أيضاً سفر أخنوخ، الذي يضم الكتاب السماوي وكتاب الحرّاس وكتاب الأمثال وكتاب الحكماء ورسالة أخنوخ ويمكن أن يضاف إليها كتاب العمالقة. وقبل كشف مخطوطات البحر الميت كان سفر أخنوخ معروفاً بفضل الترجمة الحبشية، ولكن بعد العثور على إحدى عشرة نسخة مخطوطة بالآرامية من هذا السفر في المغارة رقم ٤ في موقع قمران، غدا من الواضح أن الآرامية كانت اللغة الأصلية للنص.

وإضافة إلى هذه النصوص الكبيرة، عثر على نصوص أدبية متنوعة من مصادر مختلفة مثل نص صلاة نابونيد، ونص مزيّف عن التكوين من الممكن أن يعود إلى القرن الثاني أو الأول ق.م. وكذلك ترجوم سفر أيوب. واستخدمت اللغة الآرامية إلى جانب اللغة المصرية الديموطيقية في كتابة بعض النصوص. ويوجد نص سحري مزدوج اللغة كتب بالمسمارية البابلية وبالآرامية ويعرف بنص أوروك (الوركاء)، وكان أول من قرأه وترجمه فرانسوا ثورو ـ دانجان، ثم نشره أندره دوبون ـ سومر.

وينبغي القول أن يوسيفوس، المؤرخ اليهودي الروماني، كتب كتابه في التاريخ أولاً بالآرامية في سنة ٧٥م، ولكن النص اليوناني هوالذي وصل إلى أيدي الباحثين. وهكذا يتضح كيف تطورت اللغة الآرامية من لغة جماعات بدوية إلى لغة للإدارة والتجارة والآداب، وغدت في مرحلة من التاريخ لغة عالمية.

الحضارة الآرامية

الدين: يضم مجمع الأرباب عند الآراميين آلهة من كنعان وبابل وآشور، إضافة إلى آلهتهم الخاصة بهم. وللإله عند الآراميين اسم عام هو بعْل بمعنى سيّد، ويدعونه أحياناً بعل شميين (رب السموات) كما في نص «زكر» ملك حماة ولعش، الذي توجه إلى الإله في نصب تذكاري شاكراً له ما أولاه إياه من الحماية والتأييد بالظفر والنصر. وعبدت إلى جانب بعل الربة الأنثى «بعلت» التي كانت تدعى ملكة شميين (ملكة السموات) ولبعض المناطق والمدن بعلها الخاص بها كبعل حمون (بعل الأمانوس) وبعل البقاع (بعلبك). واتخذ الآراميون هدد إلهاً للطقس، يرسل الأمطار فيخصب الأرض وينبت الزرع ويسبب الكوارث عندما تنحدر السيول من الجبال إلى الوديان. وكان مقر بعل حمون في الجبل الأقرع (كاسيوس) الذي كان له في حضارة سورية القديمة ما الجبل الأولمب عند اليونان في تاريخهم القديم. وكانوا يعتقدون أن الزوابع والرعود والبرق من الظواهر التي تدل على هدد الذي كان يطلق عليه في بعض اللهجات اسم أدد أو أدّو ويدعى أيضاً رمّون: الراعد، وفي سفر الملوك الثاني (٥: ١٨) يدعى ملك دمشق بهذا اللقب. وبتأثير الحوريين أدمج هدد برب العاصفة عند الحوريين تيشوب ورشف عند الحثيين. وكما تدل الشواهد الفنية يبدو هدد في نحت بارز من سمأل الواقعة في أعالي الأمانوس، في صورة رجل محارب حاملاً الشوكة الثلاثية والمطرقة رمز البرق والرعد. وفي ملاطية يبدو واقفاً على ظهر ثور.

وأهم معابد هدد هي في دمشق وحلب ومنبج (هيرابوليس) وبعلبك (هليوبوليس). وفي العصر الروماني عبد هدد في بعض المعابد بتأثير الثقافة الكلاسيكية اليونانية ـ الرومانية باسم جوبيتر، وعرف في دمشق باسم جوبيتير الدمشقي. وفي منبج عبدت الربة السورية «أثارغاتيس» إلى جانب هدد، وكانت هذه الربة صورة مطبوعة بالهلينية لعشتارت وعنات، وكانت تدعى أيضاً «بنيت» أي ربة الذرية والنبوة وقد حمل الآراميون عبادتها من جبل سمعان وجبل بركات إلى وادي النيل في مصر، ووصف الكاتب السوري لوقيانوس السميساطي (١٢٥ ـ ١٩٢م)، الذي كتب باليونانية، معبدها في منبج في كتابه عن الآلهة السورية.

واختلطت عبادات الآراميين بعبادة آلهة أخرى عند جيرانهم، مثل «إل» الكنعاني الذي كان يعد أباً لكل الآلهة، وأقاموا لهم بيوت العبادة حيثما حلوا، و«سن» إله القمر عند الرافديين ويدعى بالآرامية «شهر»، و«نابو» رب الحكمة في بابل الذي حملوا عبادته حتى أسوان، و«شمش» إله الحق والعدل في آشور وبابل. وعلى الرغم من قلة المصادر عن شعائر العبادة فإنه من المؤكد أن الحياة الدينية لم تشغل الآراميين كما شغلت المصريين القدماء، إلا أنهم كانوا يرغبون في كسب مرضاة الآلهة من دون أن يكون لديهم تصور واضح عن العالم الآخر. لكن نصوص باناموا (من شمأل) تذكر الطعام والشراب مع هدد بعد الموت، وكان للسحرة مكان بارز بين الكهنة كما تشير نصوص سفيرة.

الفن: لم يعثر إلا على عدد قليل من الآثار التي تصلح شواهد على الفن الآرامي. فقد شجع أمراء بيت بخياني في الجزيرة وسمأل في كيليكية والأمانوس فناً تشكيلياً سورياً متأثراً بالفن الحوري ـ الحثي. ومن المؤكد أن السوريين في هذه المنطقة الشمالية من البلاد كانوا يرتدون ملابس كملابس الحوريين الميتانيين والحثيين، وقد انعكس ذلك على الفن التشكيلي، ومع ذلك فإن الفنانين الآشوريين الذين زينوا القصر الآشوري في تل برسيب (تل أحمر) صوروا الآراميين على شاكلة البدو. كما صوروا آراميي بابل ملتحين ويرتدون مآزر قصيرة ويضعون عمائم على رؤوسهم، أما النساء فكنّ يرتدين أثواباً طويلة. وهكذا فإن الفن التشكيلي، التصوير والنحت، عكس البيئات المختلفة للمجتمعات الآرامية.

وتبدو الخصوصية في الفن الآرامي في العمارة، فالقصور تتصف بالغرف الواسعة،

وتؤدي إليها أبهاء تحمل أسقفها أعمدة منقوشة ومزينة بالنحت الجميل ولها شرفات واسعة من نموذج حيلاني، كما في تل حلف وعين دارة. ويبرز تطور فن العمارة في الأبواب وإكساء الجدران. وفي بناء العتبات بالحجر البازلتي. أما التماثيل الكاملة المكتشفة فقليلة، وأهم المنحوتات عثر عليها في القبور الملكية في تل حلف وسمأل. أما التصوير فإن الرسوم الجدارية تمثل مشاهد من الحروب والصيد والرحلات النهرية والبحرية وموضوعات ميثولوجية. وفي رسوم عن الطبيعة تختلط صورة الإنسان بمخلوقات أخرى كما في الإنسان ـ العقرب (من تل حلف). وتبدو التأثيرات المصرية في أسلوب مسلّة برهدد التي نذرها للإله ملقرت (من القرن التاسع ق.م).

وبرع الآراميون كالكنعانيين في الفنون الصغيرة كصناعة الملابس الصوفية والكتانية والقطنية الجميلة، والأثاث الخشبي والجلود، وأدوات الكتابة، وفي صناعة الحليّ من الفضة والذهب والحفر على المعادن والعاج، وقد عثر على نماذج من العاج في أرسلان طاش (حداتو في شمالي سورية)، هي موجودة اليوم في متحف اللوفر. واشتهرت بعض المدن السورية القديمة منذ عصر أغاريت وإبلا وحماة وكركميش بالحفر على عاج الفيل الذي كانت قطعانه تعيش في سورية الشمالية في غاب العاصي حتى أواخر الألف الأول ق.م وقد صنع منه الحرفيون المهرة الأختام التي نقش عليها صور من الحياة اليومية والدينية والتماثيل والعلب والأمشاط واللوحات التزيينية واستخدموه لتطعيم الخشب كالموزاييك.

التجارة والتجار: للتجارة في سورية القديمة ماض عريق يرقى إلى إبلا وأغاريت وماري. ولكن التجارة بلغت ذروة مجدها في العصر الآرامي. وكان التجار الآراميون يبعثون قوافلهم إلى جميع بلاد المشرق القديم لتصل إلى منابع دجلة والفرات شمالاً وإلى مصر والحجاز جنوباً. واكتشف في العاصمة الآشورية نينوى بعض الأوزان البرونزية التي خلّفوها. واحتكر الآراميون التجارة الداخلية في البلاد، كما سيطر الكنعانيون على التجارة البحرية في المتوسط والبحر الأحمر. ومن دمشق حاضرة البلاد السورية كانت تنطلق قوافل كبيرة باتجاهات مختلفة. وعمل ملوك آرام ولاسيما حزائيل على فتح طرق التجارة مع مدن فلسطين ومصر وشبه الجزيرة العربية.

واحتل التجار الآراميون مكاناً مهماً في البنية الاقتصادية للامبراطورية الفارسية الأخمينية فيما بين القرنين السادس والرابع ق.م فحملوا الأرجوان من مدن الساحل الكنعاني (الفينيقي) وتاجروا بالأقمشة المطرزة والكتان والحجر الكريم واليشب، وجلبوا النحاس من قبرص، وخشب الأبنوس من إفريقية واللؤلؤ من الخليج، ونقلوا العطور والعقاقير والزيوت والتمور والثمار المجففة، واتصلوا في رحلاتهم ببلاد بعيدة استوردوا منها التوابل والبخور. وكان يرافق التجار في رحلاتهم المسافرون والمغامرون. وهكذا تحركت في عالم الشرق العربي أسر وتنقلت جاليات حاملة معها معتقداتها وثقافاتها وعاداتها ولغاتها وهو ما أدى إلى تفاعل بين أقطار المشرق العربي القديم وثقافاته.

محمد حرب فرزات

الموضوعات ذات الصلة:

الأخمينيون ـ الآشوريون ـ أكد ـ بابل ـ الساميون ـ السريان.

مراجع للاستزادة:

ـ علي أبو عساف، الآراميون (١٩٨٩).

ـ محمد محفل، اللغة الآرامية (جامعة دمشق ١٩٩١).

_A. DUPONT _ SOMMER, Les Araméens (Paris 1949).

_P. GRELOT, Documents Araméens d'Égypt (1972).

■ آراني (يانوش-)
(١٨١٧ - ١٨٨٢)

يانوش آراني János Arany هو أحد أشهر أعلام الأدب الهنغاري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويعد أباً للمدرسة الكلاسيكية القومية في الأدب، وقد برع، في الوقت نفسه، في الأدب الملحمي والأدب الوجداني الغنائي. وكان ملتزماً ووفياً للتيار السياسي المسيطر آنذاك على النتاج الأدبي الهنغاري، وكان لا يكتب إلا ضمن الإطار الذي يدعو إلى يقظة المشاعر الوطنية والقومية والنهوض بها، مما دفعه إلى أن يغمض عينيه عن المشاعر والأحاسيس الشخصية. وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يستطع إخفاء هذه المشاعر، فبرزت في أشعاره الملحمية.

كان لنشأة آراني تأثير في كتاباته الأولى. كانت أسرته من طبقة نبلاء الريف، ولكن أحوالها ساءت في أيام طفولته وأدى ذلك إلى أن تصبح حياته ريفية بسيطة تأثر فيها بالطبقات الشعبية التي غدا يعيش بينها. وبعد محاولات عدة قام بها في مطلع شبابه لشق طريقه اختار الأدب. وفي عام ١٨٤٥ ألف قصيدته الساخرة «الدستور الضائع» Elveszett Alkotmany. ومن أهم مؤلفاته في هذه الحقبة قصيدة «تولدي» Toldi (١٨٤٧) التي أظهرته شاعراً قومياً وكشفت عن إرادته في إبراز مدرسة وطنية في الشعر غدت آنذاك قاعدة للمدرسة الكلاسيكية وأتاحت له فرصة التعرف بالنخبة المثقفة. وكان من أشهر أصدقائه في ذلك الحين بيتوفي [ر] Petöfi.

و«تولدي» هي الشخصية الرئيسة للقصيدة التي تحكي قصة بطل أسطوري يضع كل قواه الخارقة في خدمة الزعيم الهنغاري لويس داجو. وقد اقتبس آراني الحبكة في «تولدي» من أحدوثة Ilosvai في العصور الوسطى، تحكي قصة جريمة يرتكبها أحد النبلاء بدافع من فقد الأمل أو اليأس نتيجة للظروف الريفية ولكن هذا النبيل استطاع، بعد ترحال طويل، أن ينقذ شرف الفروسية في نزال مع أحد الأبطال التشيكيين الذين لايقهرون فنال بذلك عفواً من الملك، إلا أن آراني حاول أن يعطي قصيدته إسقاطاً معاصراً: فتولدي عنده هو ابن الشعب الذي وقع ضحية سذاجته ولم يجد مكاناً يناسبه في هذا العالم إلا بعد أن اجتاز الكثير من المحن.

وفي هذه الحقبة كتب آراني عدة أشعار ثورية منها «حصار موراني» و«مساء تولدي» Toldı estéje (١٨٤٨) إذ لا يستطيع هذا البطل العجوز أن يتقبل أفكار البلاط الحديدة فلا يجد الطمأنينة إلا في الموت.

وبعد مدة من الزمن قادت آراني شهرته النامية إلى أن ينسلخ من وحدته لكي يشغل مركز الأمين العام للأكاديمية الهنغارية، وفي هذه الحقبة أحسّ الشاعر أنه في مفترق طرق عصره فوقف شعره على التغني بذكرى بطولات الماضي التي حاول أن يحييها في ملحمته المسماة «بوهيميو نجييدا» A Nagyidai Cigànyok (١٨٥٢) وفيها يحاول أن يدين شعبه نفسه من خلال الأحلام البطولية للبوهيميين. وحتى يهرب من واقعه دخل يانوش في رومنسية الماضي وتأثر بالشاعر الإنكليزي بايرون [ر] Byron فألف عدة قصائد أسطورية استقت موضوعاتها من العصور الوسطى وبقيت معظمها من دون خاتمة باستثناء واحدة منها هي «كتلان» Katalin (١٨٥٠). ثم كتب قصيدة غنائية مطولة كانت بمنزلة السيرة الذاتية وقد طغى عليها أسلوب السخرية. ونشر بعدها قصيدة «موت بودا» La mort de Buda (١٨٦٤) التي كانت سرداً لتاريخ الهون وهم أجداد الهنغار. واحتوت القصيدة أمثولة موجهة للشعب غير المنظم كالملك أتّيلا الذي كان غير قادر على السيطرة على غضب صراع الإخوة، على الرغم من شجاعته.

ثم انغمس يانوش آراني في وحدة دامت اثني عشر عاماً، ولم يعد للكتابة إلا في عام ١٨٧٧، فنشر قصيدة «حب تولدي». إلا أن قصائده الجديدة لم تجد لدى الجيل الجديد إقبال الأمس. ولكن ذلك لم يمنعه من بلوغ القمة في ديوانه الغنائي «أزهار الخريف» Fleurs d'automne الذي اشتمل على أشعار مملوءة بالمرارة كشف فيها الشاعر العجوز عن غربته في هذا العالم الجديد.

تكمن أصالة آراني في الدراسة النفسية والهدف الوطني الملازمين لشعره، وهو يلح على أن كل فرد يجب أن يحقق مثله الأعلى ضمن إطار قومي ريفي، وأن الفن تعبير عن الحياة القومية. وفي ضوء هذا الإلحاح ونظرية علم النفس الواقعية تكونت لدى آراني الخطوط العريضة لفنه الشعري الذي أراده أن يكون ملتزماً المدرسة الكلاسيكية.

وقد ارتكزت أصالته كذلك على نظام أخلاقي التزمه في قصائده فكان يجعل من ضميره حكماً يصدر أحكامه على أبطال ملاحمه وينزل بهم القصاص حتى على أخطاء ارتكبت بغير إرادتهم لأن عيب تلك النفوس الصافية يكمن خلف ضعفهم في السيطرة على أهواء النفس، «وعلى أتيلا قاتل أخيه أن يتحمل وشعبه عاقبة جريمته».

لقد حاول الشاعر أن يسيطر على صراعاته الداخلية عن طريق إلباسها لشخوص تاريخية وفلكلورية، فكانت مؤلفاته تستقي وحيها من الأوساط الشعبية.

إلا أنه كان ينهج فيها نهجاً كلاسيكياً وكان له دور كبير في التهيئة الروحية والفكرية لحرب الاستقلال (١٨٤٨ ـ ١٨٤٩).

وعلى الرغم من مظاهر التجديد التي تتبدى في آثار يانوش، فإن نفوذه الأدبي كان عاملاً وراء تأخير حركة تطور الأدب الهنغاري، إذ تسترت خلفه الكثير من محاولات قمع الجديد، وادعت بعض المدارس أنها خليفته. ومع ذلك يبقى يانوش فريداً وغير قابل للوراثة.

حامد فرزات

مراجع للاستزادة:

- J. BARTA, Arany János, (Budapest 1953).
- F. RIEDEL, Arany János (Budapest 1920).

■ الأراوكان (لغات ـ) ← الهندية الأمريكية (اللغات ـ)

الأراوكان (لغات ـ) ← الهندية الأمريكية (اللغات ـ)

■ آرب (هانس ـ)
(١٨٨٦ ـ ١٩٦٦)

هانس آرب Hans Arp مصور فرنسي ونحات وشاعر، يعدّ أحد كبار باعثي الأفكار الجديدة الغربية في مسيرة الفن المعاصر.

ولد آرب في ستراسبورغ، ودرس في أكاديمية فايمار Weimar ثم انتقل عام ١٩٠٨ إلى أكاديمية جوليان Julian في باريس، وسافر بعد ذلك إلى سويسرة. وفي عام ١٩١٢ اتصل بكاندينسكي [ر] Kandinsky في ميونيخ وتهيأت له فرصة المشاركة في المعرض المهم لجماعة الفارس الأزرق Blaue Reiter. وفي العام التالي قام بعرض أعماله إلى جانب التعبيريين الرئيسيين في معرض «الخريف الأول» بإشراف فالدن Walden الذي كان قد نشر في مجلته رسوماً غريبة لآرب هي أشكال إنسانية مؤلفة من خطوط متموجة. وفي عام ١٩١٤ اجتمع في باريس بعدد من كبار الفنانين، ولكن الحرب أعادته إلى سويسرة حيث عرض أول أعماله التجريدية المبنية عموماً على خطوط مستقيمة. ولكنه سرعان ما تحول إلى إنتاج الأشياء التي يتبناها عن طريق المصادفة ويخرجها أشكالاً غريبة لامعقولة محطمة أو ممزقة، وبذلك كان مبشراً بحركة الدادية [ر] dadaisme التي أسسها فعلاً في أوائل عام ١٩١٦ بالاشتراك مع آخرين. وفي هذه الأثناء تعرف إلى الفنانة السويسرية صوفي توبير Sophie Taeuber وأصبحا فيما بعد زوجين، وقد تأثر بفنها، وأنتجا سوية الأعمال «الملصقة» collages الهندسية التشكيل. وفي عام ١٩١٩ عرض أعمالاً دادية مع ماكس ارنست Max Ernst في مدينة كولن. وقد تعاون فيما بعد مع إل ليسيتسكي El Lissitsky في نشر كتاب «النزعات في الفن» Les ismes dans l'art، وانضم إلى جماعة السريالية surréalisme ثم إلى جماعة «الدائرة والمربع» Cercle et Carré ثم جماعة «التجريد ـ الإبداع». وكان يقوم في الوقت ذاته بنشر قصائده. وقد أنتج أعمالاً نفذها بالحبال، والأوراق الممزقة، وأخرج منحوتاته الأولى «المجسّمة» ronde bosse التي اكتمل فيها أسلوبه اللين الصريح الذي وفر له شهرته العالمية. وفي عام ١٩٤٣ فقد زوجته. وبعد نهاية الحرب أقيمت له عدة معارض في نيويورك ونشرت له مجموعات شعرية بالفرنسية والإنكليزية والألمانية. وفي عام ١٩٥٣ كلف القيام بمنحوتة جدارية ضخمة من البرونز في المدينة الجامعية في كاراكاس عاصمة فنزويلة سماها «الراعي والغيوم» Berger et nuage.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- C. GIEDION-WELCKER, H. Arp (New York 1957).

■ أرباب العمل

رب العمل patron بالمفهوم الحقوقي هو كل شخص طبيعي أو اعتباري يستخدم عاملاً أو أكثر ليعمل لحسابه وتحت رقابته وإشرافه بمقابل أجر.

وبالمفهوم الاقتصادي، رب العمل، هو صاحب المشروع الذي يستحصل على مساهمة الآخرين في مشروعه بأداء عمل تحت رقابته.

أما المُسْتَحْدِث فهو من يجمع عدة عوامل إنتاج كرأس المالِ والعمل والإدارة بصورة ثابتة لبلوغ هدف اقتصادي سعياً للربح.

يتضح من التعاريف المتقدمة أن رب العمل بالمفهوم الحقوقي قد لايكون صاحب مشروع معين كاستخدام رب الأسرة خادماً للخدمة المنزلية. فرب الأسرة هنا هو صاحب عمل بالمفهوم الحقوقي لكنه ليس صاحب عمل بالمفهوم الاقتصادي. كما أنه لايشترط بالمستحدث أن يكون هو نفسه رب العمل بالمفهوم الاقتصادي، أي لايشترط به أن يكون مالكاً لوسائل الإنتاج.

التنظيم المهني لأرباب العمل بصفة عامة

مر التنظيم المهني لأرباب العمل، في العالم بصفة عامة، وفي أوربة بصفة خاصة بثلاثة أطوار: منظمات الحرف، ونظام الحرية الفردية والتعاقدية، وتدخل الدولة.

الطور الأول: مرحلة منظمات الحرف نظام الطوائف

كانت الحرف حتى قيام الثورة الصناعية في أوربة تخضع لنظام دقيق، فلكل مهنة رابطة أو منظمة إجبارية ينتمي إليها جميع أعضاء الحرفة ولها تنظيمات خاصة بها تحدد للأعضاء مراتب ودرجات، كما تحدد أصول الانتساب إليها وكل ما يتعلق بممارستها. ولم تكن ممارسة المهنة مباحة للجميع بل كان لابد لمن يريد أن يمارسها من أن يكون عضواً في المنظمة أو الرابطة الحرفية التي تجمع أبناء الحرفة. ولم يكن الانتساب إلى الرابطة حراً بل يخضع لشروط معينة من حيث الكفاية والسلوك والأخلاق، فلا يقبل المرء في المنظمة إلا بعد أن يقضي مدة من التدرج يتعلم فيها صنعته، فإذا ما أتقنها وأثبت جدارته، وكان حسن السلوك والأخلاق أمكن قبوله في منظمة حرفته برتبة «صانع» يشتغل في المهنة أجيراً لدى صاحب العمل الذي يسمى المعلم.

ويمكن للأجير أن يرقى فيما بعد إلى درجة المعلم بعد أن يجتاز امتحاناً معيناً يعقد أمام «شيخ الحرفة». ومن المعلمين يتكون عصب الطائفة، فهم الذين يسهمون في وضع نظام الطائفة وفي قبول الأعضاء الجدد أو رفضهم، ولهم وحدهم الحق في انتخاب شيخ الطائفة أو الحرفة الذي كان ينتخب لمدة سنة قابلة للتجديد.

وقد كان شيخ الحرفة يتمتع بسلطات واسعة في إدارة شؤون المهنة. فهو زعيم الحرفة ويمثلها أمام الرأي العام، وهو الذي يدافع عن مصالحها ويراقب تطبيق اللوائح والتعليمات والقرارات وينذر المخالفين ويعاقبهم، وإليه ترفع الشكاوى على أفراد المهنة من قبل زبائنهم أو زملائهم فيقضي بها وفقاً لما يوجبه عرف المهنة. وكان لمشايخ الحرف رئيس أعلى تخضع له سائر المنظمات الحرفية هو «شيخ مشايخ الحرف»، وظيفته وراثية، وله سلطة فرض العقوبات على مشايخ الحرف وأعضائها التي قد تصل إلى السجن والجلد.

ومع أن ظهور المنظمات الحرفية في فرنسة عدّ إصلاحاً قوبل بالاستحسان إذ بلغت هذه المنظمات معظم أهدافها في القرن الثالث عشر فاعتنت بالأرامل والأيتام والشيوخ ومارست رقابة انضباطية صارمة على أعضائها، فإن مساوىء نظامها بدأت تظهر ابتداء من القرن الخامس عشر.

فمن جهة أولى أخذت درجة «المعلم» تميل إلى الانغلاق إذ بدأ معلمو الحرفة يضعون العراقيل الكثيرة في وجه ترقي الأجير (الرفيق) إلى درجة المعلم فتشددوا في موضوع الكفاية المطلوبة منه وفرضوا عليه أعباء مالية مرهقة، وعملوا على إعفاء أبنائهم من تلك القيود والشروط فأصبحت درجة المعلم شبه وراثية، الأمر الذي جعل من هذا التقييد، مع نمو الصناعات وتوسع التجارة مشكلة العصر.

ومن جهة ثانية، أخذ ملوك فرنسة، بدءاً من لويس الحادي عشر، يتدخلون في شؤون المنظمات الحرفية، وراحوا يصدرون براءات تمنح حامليها حق ممارسة المهنة مخترقين بذلك الحصارات التي كان المعلمون قد أحاطوا بها الانتساب إلى المهنة. وقد وجدت السلطة في بيع هذه البراءات مصدر دخل كبير لها فأصدرت أعداداً هائلة منها، الأمر الذي اضطر الجمعيات الحرفية إلى شراء ما يقرر الملك إصداره منها دفعة واحدة، وبذلك تضمن عدم وصولها إلى الغرباء عن الحرفة وتبقى بذلك مغلقة لصالح أعضائها وأبنائهم.

وأمام هذا الجمود من منظمات الحرف، والقيود الشديدة التي كانت تضعها بشأن الأساليب المتبعة في الإنتاج، أصبح ذلك يؤلف عائقاً كبيراً في وجه التقدم وعمل على اشتداد النقمة عليها فأخذت تفقد الكثير من أهميتها أمام أنماط النشاط الاقتصادي الجديد. وما أن قامت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ حتى تم القضاء على هذه المنظمات.

الطور الثاني: مرحلة نظام الحرية الفردية والتعاقدية

أصبح العقد، في هذه المرحلة، يؤلف المصدر الطبيعي وشبه الوحيد لتقرير الحقوق والالتزامات وتحديدها لكل عامل في ظل النظام الحقوقي الحر المنبثق عن مبادئ الثورة الفرنسية وتشريعاتها. فالقانون الفرنسي الصادر في ١٧ آذار ١٧٩١ أرسى المبدأ الجديد لحرية العمل وأدان العقبات التي وضعتها الجمعيات الحرفية (منظمات الحرف) في عهد ما قبل الثورة، فقد تضمن في مادته السابعة العبارة التالية «ابتداءً من ١ نيسان القادم يصبح كل شخص حراً في القيام بأية تجارة وفي ممارسة أية صناعة أو فن أو مهنة يريدها ...».

وكذلك فإن القانون الفرنسي الصادر بتاريخ ١٧حزيران ١٧٩١ والمعروف بقانون لوشابوليه Le Chapellier ، عندما قضى في مادته الأولى بإلغاء جميع أشكال منظمات المواطنين الذين ينتمون إلى طبقة واحدة أو جهة واحدة، عدّ ذلك إحدى القواعد الأساسية للدستور الفرنسي. وعندما منع في هذه المادة تأليف هذه المنظمات مهما كانت الحجة ومهما كان السبب فإنه منع كل تجمع للعمال أو لأرباب العمل لكي يترك السيادة للإرادة التعاقدية لدى طرفي عقد العمل لتحديد حقوق كل منهما وواجباته وقطع بذلك كل رابطة تضامن بين العمال أو بين أرباب العمل لأن كلاً من العامل ورب العمل يجب أن يكون حراً في تحديد شروط عقد العمل الذي يرغب فيه ويقبل أن يرتبط به، ولأن كل تكتل من أحد الطرفين هو وسيلة ضغط وإكراه على الطرف الآخر في العقد واعتداء على هذه الحرية التي لايمكن أن تكون مصونة إلا إذا ترك الطرفان يتساومان على شروط عقد العمل ويتفقان عليها من دون أي تدخل

أو عمل جماعي لدعم أحدهما تجاه الآخر.

الطور الثالث: مرحلة تدخل الدولة في علاقات العمل.

صحيح أن مبادىء الحرية التي أعلنتها الثورة الفرنسية قد استفاد منها العامل وصاحب العمل، لكن تجدر الملاحظة إلى أن أرباب العمل، أصحاب القوة الاقتصادية الكبيرة بمواجهة العمال ذوي القوة الاقتصادية الضعيفة، قد استفادوا كثيراً من مبدأ الحرية التعاقدية وأصبح بإمكانهم السيطرة على علاقات العمل بإملاء ما يشاؤون من شروط مجحفة على العمال من دون أن يتمكن الأخيرون من مناقشتها وإلا يصبحون عاطلين بلا عمل. كما يلاحظ أن الظروف الاقتصادية قد تطورت في ظل نظام الحرية فظهرت الأزمات الاقتصادية وما نتج عنها من بطالة. كما أخذ نظام الاحتكار يحل محل نظام المنافسة الحرة في النشاط الاقتصادي، وقد أدى ذلك إلى ضعف مركز الطبقة العاملة. وقد أدت هذه المساوىء التي ترتبت على نظام حرية العمل إلى توسع الهوة الساحقة التي تفصل بين العمال وأرباب العمل، الأمر الذي ساعد على انتشار روح التذمر والسخط في نفوس العمال وجعلهم يتجمعون في حركات وتنظيمات نقابية بصورة سرية تارة وعلنية تارة أخرى بمواجهة تنظيمات مماثلة لأرباب العمل. وهكذا لم يعد بوسع السلطة السياسية أن تبقى بعيدة عن حلبة الصراع ومجرى الأحداث التي باتت تهدد الأمن الاجتماعي في المجتمع، وكان لابد من تدخلها لإرساء الأمن والاستقرار. وقد سجل القانون الفرنسي الصادر بتاريخ ٢١ آذار ١٨٨٤ انعطافاً حاسماً في هذا المجال إذ اعترف لكل من أصحاب العمل والعمال على قدم المساواة بحقهم في تكوين منظماتهم النقابية التي ترعى مصالحهم بعد أن تدخلت الدولة في علاقات العمل مقيدة إلى حد كبير مبدأ حرية التعاقد في تحديد شروط العمل.

المنظمات الحرفية في المشرق العربي

ترجع الروايات التاريخية بداية التنظيم الحرفي إلى القرن التاسع الميلادي. وقد ظهرت المنظمات الحرفية أول ما ظهرت على ما يبدو في المشرق العربي مع حركة القرامطة، إذ بدأ أصحاب هذه الحركة وأتباعهم حملاتهم ودعاياتهم في الأوساط التجارية وبين أصحاب الصناعات وأخذوا يؤلفون بين أتباع حركتهم من أبناء كل مهنة جمعية سرية تضم العمال والحرفيين لتكوِّن منهم قوة فعالة تدعم السلطة وتكوِّن الخلايا السياسية لحركتهم. ويؤكد الباحثون أن المنظمات الحرفية العربية التي كانت موجودة قبل ظهور القرامطة قد تطورت بفضل الحركة القرمطية واتخذت طابعاً جديداً من حيث التنظيم والنشاط، فبعد أن كانت تقتصر على رؤساء الحرف فقط أصبحت تضم العمال إلى جانبهم.

وقد مرت المنظمات الحرفية في البلاد العربية لجهة المراتب ومراحل التدرج بالدور نفسه الذي قامت به المنظمات الحرفية في أوربة.

ففي الأراضي السورية عرفت منظمات الحرف عهد ازدهار في حياتها الأولى وأصبح لها من القوة والامتيازات ما جعلها تؤسس محاكم خاصة بها لحل الخلافات بين أبناء الحرف واستطاعت أن تكوِّن لها قوى مسلحة وقفت إلى جانب جيوش الأمراء في الحروب الصليبية،وعندما أعاد السلطان صلاح الدين الأيوبي وظيفة المحتسب ليراقب أصحاب الحرف في أعمالهم وممارستهم مهنهم عامل المحتسبون منظمات الحرف بكثير من الشدة والقسوة وأضعفوا من امتيازاتها فأخذت مكانتها تتضاءل حتى إن وظيفة شيخ مشايخ الحرف لم تبق في نهاية القرن التاسع عشر أكثر من وظيفة فخرية لايتمتع صاحبها بأية سلطة فعلية، أما مشايخ الحرف وهم رؤساء للمهنة ومنظمتها فقد بقي لهم دورهم.

وقبل استقلال سورية عن الدولة العثمانية صدر في ٢٧ نيسان ١٩١٢ قانون عثماني رقمه ٨ في محاولة لإعادة تنظيم المنظمات الحرفية على أسس جديدة. وهذا القانون ألغى وظيفة شيخ الحرفة من المهن وأوجد في كل مهنة جمعية عمومية لجميع العاملين فيهاومجلس إدارة وحدد لهذا المجلس اختصاصاته وسلطاته. إلا أن قوة الأعراف والتقاليد جعلت رئيس مجلس الإدارة يتصرف تصرف شيخ الحرفة ويستأثر بسائر سلطات مجلس الإدارة ويستمد سلطته واختصاصاته لا من نصوص القانون المذكور بل من أعراف المهنة التي تضمن احترام أبنائها له وخضوعهم لقراراته.

وفي عهد الانتداب الفرنسي كرر المشرع في سورية هذه المحاولة ثانية في المرسوم التشريعي ذي الرقم ١٥٢المؤرخ في ٣٠/ ١٠/ ١٩٣٥، فأعطى الحق لكل حرفة بتأسيس «نقابة» واحدة اختيارية تضم من شاء من أبناء المهنة من معلمين وعمال وحدّد لهذه النقابة اختصاصاتها وسلطاتها. إلا أن هذه النقابات اصطدمت بعزوف أصحاب العمل عنها عندما وجدوا أنفسهم الأقلية في الاجتماعات التي تعقدها هيئاتها العامة ثم بمقاطعتها من العمال أنفسهم الذين أخذوا يطالبون بالترخيص لهم بتأليف نقابات خاصة بهم لا يشترك معهم في عضويتها أرباب عملهم.

وتم إلغاء فكرة النقابة المشتركة بين العمال وأرباب الأعمال عام ١٩٣٩ حين صدر قرار عن السلطة في ١٨ كانون الثاني يبيح تأليف نقابات عمالية مستقلة. وعندما صدر قانون العمل السوري ذو الرقم ٢٧٩ لعام ١٩٤٦ أعطى الحق لأرباب العمل وللعمال وللصناع في كل فرقة من فرق المهن أن تجتمع كل فئة منهم على حدة لتؤلف نقابات خاصة بها، وبذلك ألغي مبدأ التمثيل الحرفي الذي يضم العمال وأرباب العمل في كل مهنة، وتكوّنت بدلاً عن ذلك منظمات نقابية لأرباب الأعمال مستقلة عن المنظمات النقابية العمالية.

أما قانون تنظيم العلاقات الزراعية ذو الرقم ١٣٤ لعام ١٩٥٨ فقد أقر لأصحاب العمل الزراعي حق تأليف نقابات لهم في مراكز النواحي والمناطق والمحافظات للدفاع عن مصالح المهنة والعمل على تقدمها، وخولت هذه النقابات حق تأليف اتحادات للغاية نفسها استناداً إلى مبدأ الحرية النقابية مع الإشارة إلى أن غرف الزراعة في سورية تمثل أصحاب العمل الزراعي أيضاً في حدود النصوص الناظمة لها.

وبعد قيام الوحدة بين سورية ومصر صدر قانون العمل ذو الرقم ٩١ لعام ١٩٥٩ الذي أفرد فصلاً خاصاً منه لنقابات العمال من دون أن يتعرض إلى تنظيم نقابات أصحاب العمل. ولكنه أبقى صراحة على هذه النقابات وعلى اختصاصاتها وفق الأحكام الخاصة بها التي جاءت في قانون العمل لعام ١٩٤٦ .

وفي عام ١٩٧٠ صدر المرسوم التشريعي ذو الرقم ٣١ وقضى بحل نقابات أرباب العمل والصناع واتحاداتها في المحافظات واتحادها العام ابتداءً من تاريخ صدور هذا المرسوم التشريعي، أي في ١٧ / ٣ / ١٩٧٠ . وقضى هذا المرسوم بأن

تؤول أموال هذه المنظمات إلى الجمعيات الحرفية واتحاداتها في المحافظات واتحادها العام التي أصبحت بموجب أحكام هذا المرسوم التشريعي تمثل أرباب العمل في القطاع الخاص في الجمهورية العربية السورية إلى جانب غرف الصناعة وغرف التجارة، كل في حدود الأحكام القانونية الناظمة له.

عبد الستار ياسين قصاب

الموضوعات ذات الصلة:

الاتحاد العام للجمعيات الحرفية ـ العامل ـ المستحدث ـ النقابة.

■ أربثنوت (جون ـ) (١٦٦٧ ـ ١٧٣٥)

جون أربثنوت John Arbuthnot طبيب ورياضي وكاتب اسكتلندي، نشر أعمالاً في الرياضيات والطب.

ولد في مدينة أربثنوت باسكتلندة ودرّس الرياضيات مدة من الزمن في لندن قبل دخوله جامعة أكسفورد عام ١٦٩٢. وحاز درجة دكتوراه في الطب من جامعة سانت آندروز St.Andrews في اسكتلندة عام ١٦٩٦، وانتخب زميلاً للجمعية الملكية في عام ١٧٠٤ وزميلاً لكلية الأطباء الملكية عام ١٧١٠. وعمل طبيباً للملكة آن Anne منذ عام ١٧٠٥ حتى وفاتها عام ١٧١٤. ولم يتقلد أي منصب حكومي في عهد جورج الأول، لكنه عين، بعد تبوّء جورج الثاني العرش في عام ١٧٢٧، طبيباً للملكة كارولين Caroline. وتوفي في لندن.

نشر أربثنوت أعمالاً تعالج موضوعات كثيرة، وكتب قصيدة عنوانها «اعرف نفسك» Know Thyself (١٧٣٤) لكن شهرته ترجع إلى الكراريس الخمس التي صدرت عام ١٧١٢ وجمعت في كتاب عنوانه «تاريخ جون بُل» The History of John Bull وتهدف هذه السلسلة إلى مساندة جهود حكومة المحافظين في إنهاء حرب وراثة العرش الإسبانية، ونشرت أول مرة تحت عنوان «القانون هو حفرة بلا قرار» Law is a Bottomless Pit وكانت نقداً لاذعاً للحرب أخذ هيئة دعوى أقامها جون بُلّ من إنكلترة ونيكولاس فروغ من هولندة على لويس بابون (لويس الرابع عشر) من فرنسة بشأن ممتلكات الراحل لورد سترات من إسبانية، وقدمت الكراريس جون بُلّ على أنه شخص صريح وفيّ ساذج، خدعه رفاقه وأرهقه عناد خصمه. وكانت لشخصية جون بُلّ التي تمثل نموذجاً للرجل الإنكليزي مكانة شعبية واسعة.

أنشأ أربثنوت بالتعاون مع جوناثان سويفت[ر] وألكسندر بوب[ر] وجون غراي وتوماس باونيل نحو عام ١٧١٣، نادياً غير سياسي أطلق عليه «نادي المخربش» هدفه نشر مقالات تسخر من أشباه المثقفين. وقد نشر بوب المقالات في كتاب عنوانه «مذكرات مارتن المخربش: حياته وأعماله واكتشافاته الخارقة» Memoirs of The Extraordinary Life, Works, and Discoveries of Martinus Scriblerus وضم هذا الكتاب مقالات أربثنوت ومقالة واحدة لبوب عنوانها «فن الانغماس في الشعر» The Art of Sinking in Poetry.

كان أربثنوت، كما وصفه لورد تشيسترفيلد Chesterfield، عبقرياً واسع الاطلاع، حاذقاً، حسن المخالقة، حلو الحديث، لاذع النقد أحياناً. وقد سخر ذكاءه كله لخدمة أصدقائه من دون الاهتمام بسمعته الشخصية. وكان يقدر الصداقة حق قدرها وهذا ماجعله موضع ثقة المتغطرس سويفت ومحبته والنَّزِق بوب على حد سواء.

ج.ت

■ الأربجية

الأربجية Arpachiyah تل أثري صغير في العراق شمال الموصل من العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت Chalcolithic نحو ٥٥٠٠ ـ ٤٥٠٠ سنة ق.م)، نقب فيه لأول مرة ماكس مالوان M.E.L. Mallown في عام ١٩٣٣، ثم الباحث العراقي إسماعيل حجارة في عام ١٩٧٦. يمكن تقسيم الطبقات الأثرية في الموقع إلى ثلاث مراحل أساسية تمثل تطور ما أصبح يسمى بالحضارة «الحَلَفيّة»، (نسبة إلى موقع تل حَلَف في سورية)، والمراحل هي من الأقدم إلى الأحدث:

ـ المرحلة الأولى: وهي السوية الأقدم، وتعود إلى منتصف الألف السادس ق.م. ظهرت فيها بيوت مستطيلة الشكل ضمت مواقد دائرية الأشكال، وفي هذه السوية وجدت الأواني الفخارية «الحَلَفيّة» الأولى وكانت من النوع العادي غير المزخرف، ويحمل بعضها زخارف بأشكال طبيعية.

ـ المرحلة الثانية: وهي السوية الوسطى، وتعود إلى نهاية الألف السادس ق.م. ظهرت فيها أبنية خاصة بمخطط متميز هو غرف دائرية يوصل إليها عبر مدخل مستطيل الشكل، أطلق عليها اسم «ثولوي» Tholoi وتعني بيوت النحل، تحيط بها أحياناً جدران تليها غرف عادية مستطيلة، تشكل جميعها مجمعاً دينياً مؤلفاً من معبد تحيط به المشاغل والمحلات.

كما عثر في سوية هذه المرحلة على طمائر جنائزية هي جماجم بشرية وضعت في جرار، حمل بعضها أشكالاً بشرية مؤنثة ومذكرة وأشكالاً حيوانية (أشكال أفاع وفهود وثيران) وزخارف هندسية وإشارات غامضة. وهناك التماثيل البشرية والحيوانية، والأواني الحجرية والقلادات من الأحجار النادرة.

ـ المرحلة الثالثة: وهي السوية الحديثة وتعود إلى النصف الأول للألف الخامس ق.م وفيها استمرت الأبنية الدينية الدائرية (الثولوي) ولكن أصبحت جدرانها أقوى وأسمك وأساساتها حجرية. ومورست عمليات الدفن خارج المنازل إذ وضعت الجثث مثنية أحياناً، وكان الدفن فردياً أو جماعياً وزود الموتى بالأدوات والأواني الحجرية. وفي هذه السوية ازدادت الأدوات الحجرية الصوانية والأدوات المصنوعة من السبج (الحجر الزجاجي البركاني الأسود obsidian) أوالعظم كما وجد الخرز والقلادات والأختام المسطحة التي صنعت

من الأحجار النادرة عموماً. وتحسنت نوعية الفخار الذي حمل زخارف طبيعية وهندسية جميلة ومنوعة بألوان حمراء وسوداء وسكّرية اللون.

وهذه المرحلة الحديثة هي الأكثر تطوراً، وقد دلت على ذلك مشاغل الفخار والكميات الكبيرة والمنوعة من الأواني الفخارية التي بلغت القمة في التصنيع. يضاف إلى ذلك البقايا السكنية لمنازل محروقة، وهناك آثار بئر وآثار طريق مرصوفة، بالإضافة إلى اللقى الصغيرة النادرة كالفؤوس المصقولة وأجزاء من معدن الرصاص، وكل ذلك يدل على مجتمع بلغ مرحلة مهمة في التطور.

بعد مرحلة انقطاع قصير تلت انتهاء الحضارة الحَلَفيّة، تكرر سكن الأربجية في العصر اللاحق، عصر العبيد، إذ نشأ نمط بناء جديد هو منازل تحيط بساحة مكشوفة فيها مواقد ومشاغل الفخار، وأقيمت مقبرة خاصة خارج المستوطنة، واستمر تصنيع الأواني الفخارية التي أصبحت نوعيتها عادية وزخارفها بسيطة وهي عموماً أقل جودة منها في العصر السابق. كما تطورت صناعة الأختام المسطحة وظهرت أوائل الأدوات المعدنية (إبر وفأس من النحاس).

يعد موقع الأربجية من المواقع المهمة التي تمثل مرحلة انتقالية بين نهاية مجتمعات العصر الحجري الحديث في منتصف الألف السادس ق.م والمجتمعات المدنية المتطورة في منتصف الألف الرابع ق.م وهو يمثل المرحلة التي مهدت، فيما بعد، لنشوء الدول الأولى في الألف الثالث ق.م.

سلطان محيسن

الموضوعات ذات الصلة:

حضارة حَلَف ـ الحجري النحاسي ـ عصور ماقبل التاريخ.

مراجع للاستزادة:

ـ Charles L. Redman, The Rise of Civilization, From Early Farmers to Urban Society in the Ancient Near East (San Francisco 1978).

ـ James Mellaart, The Neolithic of the Near East (New York1975).

■ إربد

مدينة في الأردن تقع في الشمال الغربي منه، وهي مركز محافظة تحمل اسمها. وترتبط مع عَمّان بطريقين رئيسين: الأول عن طريق جرش، والثاني عن طريق المفرق والزرقاء. كما أنها ترتبط مع دمشق بطريق الرمثا، ومع بغداد بطريق المفرق ـ الرويشد.

وتتوسط إربد منطقة الهضبة الشمالية من الأردن التي تصل بين البادية شرقاً والأغوار غرباً، مما جعلها مركزاً مهماً لتبادل المنتجات بين الريف والبادية والحضر. وهي عقدة مواصلات مهمة تربط المحافظة ببقية محافظات الأردن.

ترتفع مدينة إربد نحو ٦٠٠م عن سطح البحر. وتعد منطقة التل، التي تتوسط إربد وتعلو ٦٠م عما حولها، الموضع الأول الذي نشأت عليه نواة المدينة، ولا شك في أن عامل الدفاع والحماية هو الذي أسهم في اختيار هذا الموضع المرتفع نسبياً. ومنذ العشرينات من القرن العشرين أخذت المدينة تمتد خارج النواة الأولى على أرض منبسطة نسبياً، وعلى بعض الأراضي المنحدرة غربي المدينة، والأراضي المتموجة والتلية في الجزء الجنوبي الغربي. وتجري بعض الأودية الجافة حول مدينة إربد مثل أودية الغفر، والبارحة، وزبدة، والحَمام، ودلهام، والقبلي، والروية.

وتبين الظروف المناخية أن شهر كانون الثاني أكثر برودة وأمطاراً، فمتوسط درجة الحرارة فيه ٧,٩ درجة مئوية، ومعدل أمطاره ١٠٧مم. ويعد كل من شهري تموز وآب أكثر الشهور حرارة (٢٢,٥ درجة مئوية)، ولا تهطل الأمطار فيهما مطلقاً. ويبلغ معدل الأمطار السنوية ٤٦٢مم.

النشأة والتاريخ

تدل الآثار التاريخية على أن محافظة إربد كانت عامرة بالسكان منذ العصر البرونزي الأول، نحو ٢٥٠٠ق.م. وقد كانت إربد، واسمها باليونانية بيت أربل Beth Arbel وذكرها العرب بفتح ألفها وسكون الراء «أرْبَد» من المدن الرئيسة في حلف المدن العشر (الديكابولس) الذي تأسس بعد زوال الحكم اليوناني من المنطقة.

وقد تحررت إربد من الحكم البيزنطي نتيجة للفتح الإسلامي، وأطلق على إربد اسم نيابة عجلون التي كانت لها أهمية استراتيجية وتجارية، ولاسيما إبان الحروب الصليبية.

وفي عام ١٨٥١ تكوَّنت قائمقامية (قضاء) باسم سنجق جبل عجلون مركزه مدينة إربد. وفي عام ١٩٢٧ أصبحت إربد مركزاً لمتصرفية لواء عجلون، وفي أوائل الستينات أصبح اسم المتصرفية «لواء إربد» حتى عام ١٩٦٦، حين سميت محافظة إربد ومركزها مدينة إربد.

التطور السكاني والعمراني

قُدّر عدد سكان إربد في آواخر القرن التاسع عشر بنحو ألف نسمة وبلغوا ٦٧٠٠ نسمة في عام ١٩٤٦، ولم تتجاوز مساحة المدينة في العهد العثماني ١٠ هكتارات، وأخذت تزدهر تدريجياً منذ العشرينات من القرن العشرين عندما أصبحت مركز لواء عجلون، ومركزاً تجارياً مهماً، إذ بلغ عدد محالها التجارية نحو ٥٠٠ متجر آنذاك. وفي الثلاثينات أصبحت مساحة إربد نحو ٣٠ هكتاراً. وفي الخمسينات نمت إربد نمواً ملحوظاً بوصول اللاجئين الفلسطينيين. وبلغ عدد السكان عام ١٩٥٢ نحو ٢٢ ألف نسمة، ووصلت مساحة المدينة إلى ١٣١ هكتاراً. وفي تعداد عام ١٩٦١، بلغ عدد السكان ٤٤ ألف نسمة. وقد ازداد عدد سكان إربد على نحو ملموس بعد حرب عام ١٩٦٧ بوصول النازحين الفلسطينيين إليها.

بلغ عدد السكان عام ١٩٧٩ نحو ١١٣ ألف نسمة ثم قدر بنحو ٣٨٥٠٠٠ نسمة في عام ١٩٩٥، وقدرت مساحة المدينة مع الضواحي بنحو ٣٣٠٠ هكتار.

يتخذ المخطط التنظيمي لمدينة إربد شكلاً سداسياً. ويمتد العمران فيها على شكل محاور بمحاذاة الطرق التي تربط إربد بإقليمها. ففي اتجاه الغرب امتد العمران على طول شارع فلسطين والتحم في الجانب الشمالي مع منطقة البارحة. وفي اتجاه الجنوب امتد العمران على طول شارعي ايدون والجيش، والتحم بحرم جامعة اليرموك. وفي اتجاه الشرق امتد العمران على طول شارع بغداد. وفي اتجاه الشمال كان لإنشاء المدينة الصناعية أثر في جذب السكان والعمران نحوها، الأمر الذي أدى إلى وصول العمران حدود بعض القرى الصغيرة الواقعة إلى الشمال من إربد. وقد امتد هذا العمران على طول شارعي حكما وعبد القادر الحسيني فغطى

المساحات الشمالية التي كانت مردومة والمسلخ القديم.

تشغل المناطق السكنية ٧٤٫٣٪ من مساحة إربد، وتأتي مناطق الخدمات في المرتبة الثانية وتشغل ٩٫٥٪، يتلوها مناطق خالية ٧٫٧٪، ثم المناطق التجارية ٤٫٢٪، فالمناطق الصناعية ٣٫٣٪، والمناطق الخضراء ١٪. وتتوزع المساكن في مختلف أحياء المدينة، وتتميز الأبنية بخصائص معينة تفرضها عملية تنظيم المباني.

تقوم الإدارات الحكومية والمحلية في المناطق التجارية المركزية، وتتوزع بين ثلاث مناطق رئيسية هي: المنطقة التجارية المركزية، ومنطقة التل، ومجمع الدوائر الحكومية عند جامعة اليرموك. وتضم المنطقة الأولى أكبر عدد من المراكز الإدارية وهي تتداحل مع محال التجارة والخدمات في شارعي بغداد والجيش.

وتبلغ مساحة المنطقة التجارية المركزية نحو كيلو متر مربع، وتشتمل على ٧٣٪ من محال التجارة والخدمات في المدينة، وفيها بعض الأسواق المتخصصة كسوق البخارية، وسوق الأوقاف، وسوق الصاغة، وسوق البالات، وسوق الحسبة القديمة.

وتتركز الصناعات الخفيفة في كل من قلب مدينة إربد وأطرافها. وأهم الصناعات في وسط المدينة الملابس والمطابع والحياكة والجلود. أما الصناعات الغذائية ومواد البناء والأثاث والبلاط والرخام والطوب والصابون، فتنتشر في أطراف المدينة. وتتوافر الخدمات في أرجاء إربد كافة: ففيها ٨ مدارس ثانوية و ٩٠ مدرسة ابتدائية وإعدادية، إلى جانب ٤ كليات جامعية متوسطة وجامعة اليرموك. وفي إربد ثلاثة مستشفيات سعتها ٢٥٥ سريراً بالإضافة إلى العيادات الصحية (٣ عيادات) والصيدليات. وتشتمل إربد على ٢٠ مسجداً موزعة على أحياء المدينة كافة. وتقدم مدينة إربد الخدمات الإدارية والتجارية والصحية والتعليمية لأبناء المحافظة بوصفها مركز المحافظة.

حسن عبد القادر صالح

■ آربري (آرثر جون-) (١٩٠٥-١٩٦٩)

آرثر جون آربري Arthur John Arberry مستشرق إنكليزي ولد في مدينة بورتسموث جنوبي إنكلترة وبرز في دراسة التصوف الإسلامي والأدب الفارسي. أمضى آربري دراسته الثانوية في بورتسموث ولتفوقه حصل على منحة دراسية لدراسة الآداب الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) في كلية بمبروك Pembroke من جامعة كمبردج عام ١٩٢٤ بوصفه الطالب الأول في السنة. وحصل على المرتبة الأولى مرتين في الآداب الكلاسيكية المؤهلة للحصول على بكالوريوس الآداب. وانكب على دراسة العربية والفارسية فدرس العربية على يد الأستاذ رينولد ألن نيكلسون سنة ١٩٢٧ وتأثر به كثيراً وتوثقت بينهما مودة حتى وفاة هذا الأستاذ.

حصل على المرتبة الأولى مرتين في مواد الدراسات الشرقية (١٩٢٩). ولتفوقه هذا منح مدالية وليم براون، كما نال عدة منح أخرى واختير في عام ١٩٣١ زميلاً باحثاً في كلية بمبروك التي تخرج فيها.

آثر آربري أن يمضي السنة الأولى من زمالته في القاهرة. فجاء إليها عام ١٩٣١. وبعد زواجه عام ١٩٣٢ عاد إلى مصر وعُيِّن في كلية الآداب بالجامعة المصرية (جامعة القاهرة اليوم) رئيساً لقسم الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية)، وبقي في هذه الوظيفة من تشرين الأول ١٩٣٢ حتى تموز ١٩٣٤. ونشر في مجلتها كتاب «النبات» المنسوب إلى أرسطو، وهو في الحقيقة لنقولاوس، وزوده بتعليقات وفيرة. وإبان إقامته في مصر زار فلسطين ولبنان وسورية ليجمع مواد لأبحاثه المقبلة. وفي مصر أيضاً ترجم إلى الإنكليزية مسرحية «مجنون ليلى» للشاعر أحمد شوقي، ونشرها عام ١٩٣٣، كما نشر تحقيقاً لكتاب «التعرف إلى أهل التصوف» للكلاباذي، وهو من أقدم الكتب في التصوف (القاهرة ١٩٣٤)، وترجمه إلى الإنكليزية بعنوان The Doctrine of the Sufis (كمبردج ١٩٣٥). وفي صيف عام ١٩٣٤، عُيّن مساعد محافظ مكتبة في «مكتبة الديوان الهندي» Indian Office في لندن.

وفي عام ١٩٣٥ نشر كتاباً في التصوف هو كتاب «المواقف والمخاطبات» للنفّري وترجمه إلى الإنكليزية.

منحته جامعة كمبردج درجة الدكتوراه في الآداب عام ١٩٣٦. وفي هذه السنة أيضاً أصدر «فهرس المخطوطات العربية في مكتبة الديوان الهندي». وأتبعه في عام ١٩٣٧ بكتاب «فهرست الكتب الفارسية» في المكتبة نفسها. وتتابعت بعد ذلك أعماله في فهرسة المخطوطات العربية والفارسية. وفي عام ١٩٤٤ عين آربري أستاذاً للغة الفارسية في «مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية» في إنكلترة وبعد عامين انتخب رئيساً لقسم الشرق الأوسط في تلك المدرسة.

وابتداء من عام ١٩٤٧ صار أستاذاً في جامعة كمبردج. وفي هذه السنة أصدر آربري عدة كتب. وفي أوائل الخمسينات أخذ آربري على عاتقه القيام بترجمة جديدة للقرآن الكريم فأصدر في عام ١٩٥٦ ترجمته المفسّرة في مجلدين.

ومنذ ١٩٥٦ تكاثرت الأمراض والآلام على آربري وظل يعانيها معاناة شديدة حتى توفي في ٢ تشرين الأول ١٩٦٩ في بيته بكمبردج.

كان آربري هادىء الطبع، صفي الضمير، يحبه كل من يعرفه، وكان مرهف الإحساس الشعري، رشيق الأسلوب، واسع الاطلاع على كل ما يتصل باهتماماته من أبحاث. وهو أشبه ما يكون بأستاذه نيكلسون: إنتاجاً وأخلاقاً وذوقاً أدبياً وجمال أسلوب.

عمار صندوق

مراجع للاستزادة:

- عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين (دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٤).
- نجيب العقيقي، المستشرقون دار المعارف، (مصر ١٩٨٠).

الأربطة الطبية

الأربطة أو العصائب bandages قطع من ■يج رقيق يراوح طولها بين بضعة عشر سنتمتراً وعدة أمتار وعرضها بين ٢ سم و١٢ سم أو أكثر، تشد على منطقة ما من الجسم أو حولها لتثبيتها أو تغطيتها، وقد تكون الأربطة بشكل المقلاع أو المثلث أو المربع أو المستطيل، تؤدي عمل الرباط العادي في بعض الحالات.

تعمل الأربطة من الشاش (الغزي) العادي gauze أو الغزي المشرَّب بالنشا الذي يبل ثم يستعمل فيصبح قليل الصلابة متى جف. أو من نسيج مطاطي مرن. وميزته إحداث التثبيت الجيد والضغط المقبول. أو من النسيج المشرب بالجبس وميزته تثبيت العضو المربوط تثبيتاً صلباً، ويستعمل هذا النوع من الأربطة على الخصوص في معالجة الكسور.

العمل الدوائي

يختلف عمل الرباط بحسب نوعه وبحسب المكان الذي يطبق فيه فيكون:

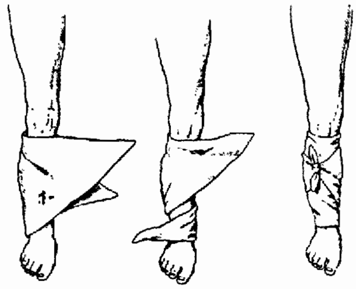
- للضغط: ويستعمل ضد النزف (الضغط المرقئ) أو ضد الانتفاخ (الضغط ضد الوذمة). ويكون الضغط المرقئ بالضماد العادي للجروح، والرباط هنا من نسيج مطاطي يشد فوق قطعة من القطن تؤدي إلى ضغط يمنع نزف الأوعية الصغيرة.

أما الضغط ضد الوذمة فيكون برباط مطاطي يلف على الطرفين السفليين خاصة لمنع حدوث الوذمة أو لارتشافها.

- أو للحماية وهذا هو الرباط المستعمل بعد المداخلات الجراحية، والغاية منه حماية جرح الجلد الحديث من الخمج الخارجي.
- أو للتثبيت وهو مايجري مباشرة بعد خلع أو وثي أي في الزمن المؤلم الأول.
- أو للدعم كما في استعمال رباط الركبة أو القدم المطاطي، وله ميزتان: الوقاية من الوذمة بعد الرض ودعم التثبيت دعماً إضافياً يفيد الأربطة المفصلية في دور التندب.
- أو لإغلاق فتحة كما في رباط الفتق الذي يمنع خروج أحد الأحشاء من جوف البطن.

طريقة استعمال الأربطة

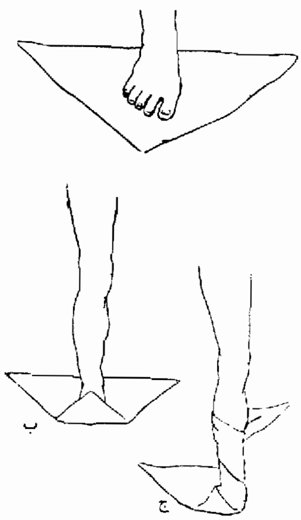
لا يشترط أن تكون الأربطة معقمة لأنها لاتكون بتماس الجرح مباشرة ويكفي أن تكون نظيفة، وبعض الأربطة يستعمل مرة واحدة وبعضها يستعمل عدة مرات بعد غسلها وكيها.



مثلث الساق

الأربطة العادية: ينتخب الرباط المناسب للعضو من حيث الطول والعرض، وتكون الأربطة ملفوفة يسهل استعمالها مباشرة، فإن لم يكن الرباط ملفوفاً يلف أولاً بحيث تنطبق لفاته بعضها على بعض انطباقاً تاماً.

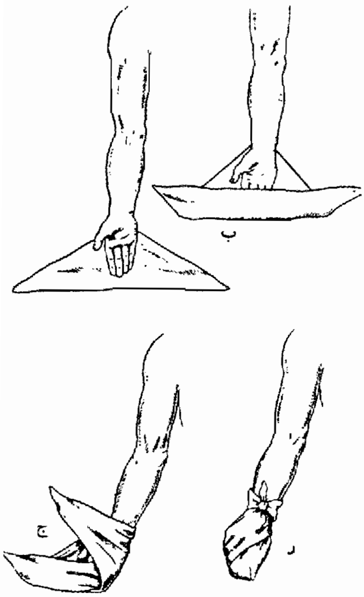
ومتى أصبح الرباط جاهزاً يلف على العضو المطلوب من اليسار إلى اليمين. وتختلف طريقة الربط بحسب النواحي فهناك من أجل الأطراف والأصابع الرباط الدائري والرباط المائل والرباط الحلزوني والرباط المتقاطع، وتدل هذه الأسماء على طريقة عمل كل منها. ويجب دائماً تثبيت



مثلث القدم ٢ ب جـ

الرباط تثبيتاً يمنع زحزحته عن موضعه ولفه على نحو ينطبق معه على العضو انطباقاً جيداً.

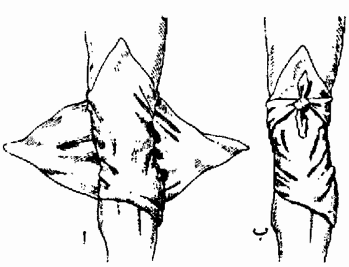
وتتحقق الغاية الأولى بلف الرباط حول منطقة أعلى من المنطقة المراد ربطها كمعصم اليد ورسغ القدم من أجل أربطة أصابع اليد والقدم، ثم يلف على الإصبع أو الأصابع المطلوبة بشكل حلزوني تغطي كل دورة منه نصف الدورة



مثلث اليد ٢ ب جـ د

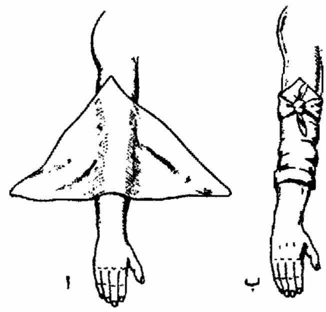
السابقة أو ثلثيها ثم يعاد فيلف ثانية حول المعصم أو الرسغ.

وتتحقق الغاية الثانية بإجراء العكسات كما في ربط العضد أو ربِلَة الساق لأن أقطار هذين العضوين غير متساوية على طولهما، ويكون ذلك بوضع الإبهام الأيسر على القسم الآخر الذي حُلَّ من الرباط ثم تحل منه بضعة سنتمترات ويثنى بإدارة راحة اليد نحو الناحية المضمدة حتى تصبح الحافة السفلية للرباط علوية والعلوية سفلية ويكمل اللف حتى يعود الرباط لمحاذاة المكان الذي ثني فيه فيثنى مرة ثانية كالأولى وهكذا يتم ربط الناحية.



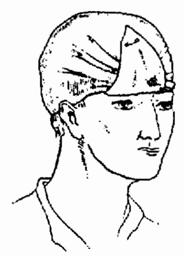
مثلث الركبة ٢ ب

ويمكن تحقيق هاتين الغايتين أيضاً باستعمال الرباط المتقاطع وهو لف الرباط بشكل رقم ثمانية الأجنبي (8) فوق المنطقة التي تراد تغطيتها.



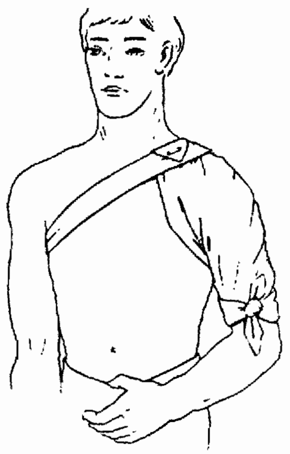
مثلث المرفق أ ب

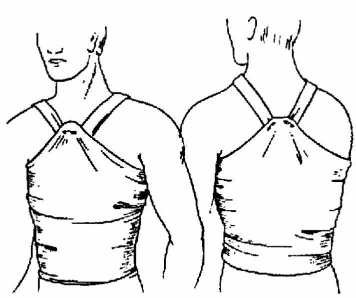
أما الرأس فيربط بطريقة تسمى «الكُمَّة» (القلنسوة المدورة) وذلك بأن يلف الرباط المناسب عدة دورات حول الجبهة والناحيتين الصدغيتين والنقرة ثم يقلب من الأمام إلى الوراء من قاعدة الأنف حتى النقرة ماراً بقمة الرأس ويثبت هذا القسم بدورة دائرية كالأولى ثم يقلب من الوراء إلى الأمام سائراً إلى جانب المرة الأولى وساتراً قسماً منها، ثم يكرر هذا عدة مرات حتى يستر أحد نصفي الرأس، وفي كل مرة تجري دورة دائرية لتثبت القسم السائر من الأمام إلى الخلف أو العكس. ويثبت الرباط أخيراً بدبوس إنكليزي. ويُكتفى بهذا القدر إذا كان المراد تضميد نصف الرأس أو يعاد العمل نفسه في نصف الرأس الثاني إذا كان المراد تضميده كله. ويكون منظر الكمة في النهاية كمنظر القلنسوة إذا أتقن صنعها.


مثلث الرأس

ويمكن عمل الكمة برباط فتجرى عدة دورات أفقية حول الرأس بأحد الرباطين في حين يسير الرباط الثاني من الأمام إلى الخلف ومن الخلف إلى الأمام بحيث يغطي في كل مرة جزءاً من المرة السابقة، وفي كل مرة يلتقي فيها الرباطان في الأمام أو في الخلف يلف الرباط الأول فوق الرباط الثاني لتثبيته.

وهكذا تربط كل ناحية بالشكل الذي يناسبها كربط الكتف أو المنطقة الأربية بطريقة السنبلة spica ففي الكتف مثلاً يبدأ بدورتين دائريتين حول العضد ثم يسير الرباط على جذمور الكتف نازلاً إلى فجوة الإبط ثم يعاد من الجهة الثانية إلى أعلى الكتف، ثم يسير بعدئذ إلى تحت الكتف الثانية ماراً فوق الصدر، ثم يساق من موضعه تحت الكتف الثانية صاعداً إلى الكتف المصابة بإمراره من الناحية الظهرية. تجرى سلسلة من العدد ثمانية (8) بين الكتف المصابة والإبط الثاني. وينهى الرباط بإجراء دورتين دائريتين حول العضد.

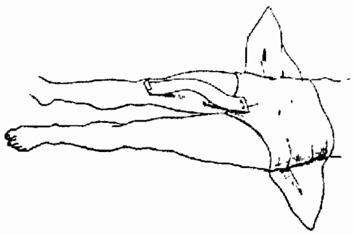

مثلث الكتف


مثلث الصدر والظهر

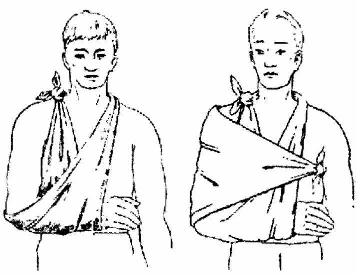
المقاليع: المقلاع رباط من الكتان مشقوق من طرفيه شقاً طولياً مع بقاء قسمه المتوسط من دون شطر (وهو المقلاع ذو الطرفين) أو مشقوق من طرفيه شقين طوليين مع بقاء قسمة المتوسط من دون شطر (وهو المقلاع ذو الأطراف الثلاثة).

تستعمل المقاليع ذات الطرفين لتضميد الأنف والذقن والعين والأذن والمفاصل. وتستعمل المقاليع ذات الأطراف الثلاثة لتضميد الرأس وجذمور الكتف والورك..

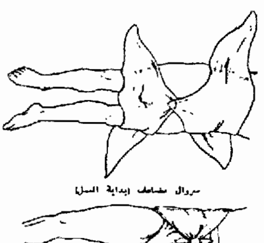
فلتضميد الذقن بالمقلاع مثلاً يطبق القسم المتوسط غير المشقوق من المقلاع ذي الطرفين أفقياً على الذقن وتساق النهايتان السفليتان فوق قمة الرأس. وتسير النهايتان العلويتان حول العنق وتثبت إحداهما بالأخرى في النقرة.

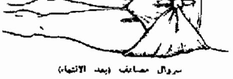

سروال بسيط

ولتضميد الرأس يستعمل المقلاع ذو الأطراف الثلاثة فيوضع جسم المقلاع على قمة الرأس ويسير الطرف المركزي المتوسط شاقولياً أمام الأذنين ويربط تحت الذقن، ويسير الطرف الخلفي بالاتجاه السابق نفسه إنما يساق خلف الطرف الأمامي من الأمام إلى الخلف فوق الأذنين فيستر في أثناء سيره الطرفين المركزي والخلفي ويربط في قفا الرأس.


وشاح معاكس وشاح بسيط

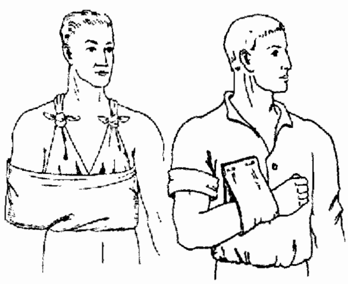
المثلثات: تصنع من الكتان بشكل مثلث قائم الزاوية متساوي الساقين يراوح طول قاعدته بين ٨٠ و١٢٠ سم. وتستعمل لربط الأطراف المختلفة والرأس.


سروال مضاعف (بداية العمل)


سروال مضاعف (بعد الانتهاء)

ـ فلربط القدم مثلاً توضع القدم في منتصف المثلث ورأسه إلى الأمام ثم يثنى هذا الرأس فوق أصابع القدم، وتلف إحدى نهايتي القاعدة على المنطقة التي تقع فوق القدم ثم تلف النهاية الأخرى بالاتجاه المعاكس وتربطان معاً حول الكاحل.

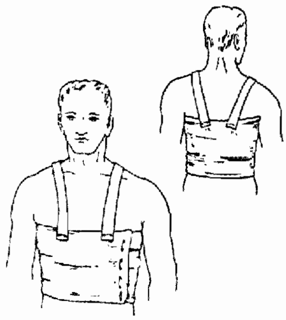
ـ ولربط الرأس تحيط قاعدة المثلث بالنقرة وتساق نهايتاه نحو الجبهة، وتربط هاتان النهايتان معاً، والأفضل أن تثبتا بدبوس على رأس المثلث الذي كان قد ثني إلى الأعلى والتقى



وشاح بديل   وشاح مايور

معهما من الناحية الأمامية.

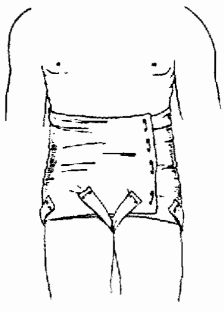
ـ ولتثبيت الطرف العلوي المصاب بكسر أو خلع وتسمى عندئذ الوشاحات ومنها الوشاح



رباط الجسم (الصدر)

البسيط والوشاح المائل ووشاح مايور Mayor. ووشاح مايور هو قطعة بين الصدر والساعد وتعقد النهايتان خلف العنق أو توصلان ـ وهو الأفضل ـ بوثائق يمر فوق الكتفين والنقرة (حمالة) وتثنى قاعدة الوشاح على المرفق والساعد ثم تثبت في ناحية الظهر.

أربطة الجسم: تطبق أربطة الجسم على الصدر أو البطن، ويبلغ طولها ١٢٠سم وعرضها ٢٠سم. ويثبت الرباط بدبابيس ومن الضروري إضافة وثاقين دوماً يساقان إلى الأعلى فوق الصدر ومن ثم فوق الظهر، أو يسيّران إلى الأسفل حوالي الفخذين. وليكون رباط الجسم ثابتاً لا بد من تعاون شخصين يشدانه شداً جيداً قبل تثبيته، ولا بد من وضع حشوة تملأ الفراغات التي تحته.



رباط الجسم (البطن)

إبراهيم حقي

الموضوعات ذات الصلة:

الضماد.

مراجع للاستزادة:

- American National Red Cross, First Aid Textbook, (Washington 2957).

■ إربـل

إربل مدينة عراقية تلفظ أربيل حالياً تقع على بعد ٨٠ كم إلى الجنوب الشرقي من الموصل في سهل بين الزاب الكبير شمالاً والزاب الصغير جنوباً. عند الدرجة٣٦ والدقيقة ١١ من خط العرض الشمالي والدرجة٤٤ والدقيقة٢ من خط الطول الشرقي. ينتهي إليها خط حديد بغداد إربل (٤٢٥ كم). وتربط بين العراق وإيران بطريق اسفلتي.

اسمها بالآشورية أربا ـ إيلو وكانت من مدن أشور المعروفة بعبادتها للإلهة عشتار، واسمها باليونانية أربيلا، وأربيل، وأربالس.

ذكرها ياقوت الحموي (في معجم البلدان) فقال: «قلعة حصينة، ومدينة كبيرة، في فضاء من الأرض واسع بسيط. ولقلعتها خندق عميق، وهي في طرف من المدينة. وسور المدينة ينقطع في نصفها. وهي على تلٍ عالٍ من التراب عظيم، واسع الرأس. وفي هذه القلعة أسواق ومنازل للرعية، وجامع للصلاة، وهي شبيهة بقلعة حلب، إلا أنها أكبر وأوسع رقعة.. وهي بين الزابين، تعدُّ من أعمال الموصل، وبينهما مسيرة يومين. وفي ربض هذه القلعة في عصرنا هذا (القرن الثالث عشر) مدينة كبيرة عريضة طويلة. قام بعمارتها، وبناء سورها، وعمارة أسواقها، وقيسارياتها الأمير مظفر الدين كوكبري (كوكبوري) بن زين الدين كوجك علي. فأقام بها. وقامت لها، بمقامه بها، سوق، وصار له هيبة. وقاوم الملوك ونابذهم بشهامته، وكثرة تجربته حتى هابوه فانحفظ بذلك أطرافه. وقصدها الغرباء، وقطنها كثير منهم حتى صارت مصراً كبيراً من الأمصار..» ويضيف ياقوت عن المدينة وبنيانها وأهلها وطبيعتها «ومع سعة هذه المدينة، فبنيانها وطباعها بالقرى أشبه منها بالمدن. وأكثر أهلها أكراد قد استعربوا. وجميع رساتيقها وفلاحيها وما ينضاف إليها أكراد. وينضم إلى ولايتها عدة قلاع. وبينها وبين بغداد مسيرة سبعة أيام للقوافل. وليس حولها بستان، ولافيها نهر جار على وجه الأرض. وأكثر زروعها على القني المستنبطة تحت الأرض. وشربهم من آبارها العذبة الطيبة المريئة التي لا فرق بين مائها وماء دجلة في العذوبة والخفة. وفواكهها تُجلب من جبال تجاورها».

ومما يذكر عن حوليات إربل التاريخية أنها اشتهرت بالواقعة التي جرت بين الاسكندر الأكبر وداريوس الثالث ملك الفرس سنة ٣٣١ق.م في سهل غوغاميل فتحت على إثرها بلاد إيران أمام الاسكندر فوضع بذلك يده على كنوز الأخمينيين في إربل، وقد عرفت تلك الواقعة بمعركة إربل. وفي بداية القرن الخامس الميلادي صارت إربل بطريركية ترجع إليها أشور الحقيقية. وفي عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م تعرضت إربل لهجوم من قبل هولاكو وقد دافع الأكراد عن حصنها أكثر من عام. وكانت إربل في القرن التاسع عشر مركزاً حربياً ومقراً لحامية انكشارية

في ولاية بغداد، غير أنها ضمت إلى الموصل بعد انفصالها عن بغداد.

تعدُّ إربل اليوم ناحية وقضاء ولواء وهي مدينة حديثة رئيسة، بلغ عدد سكانها عام ١٩٨٩نحو ١٣٤٢٠٠ نسمة ونسبة الأكراد فيهم كبيرة، وهي مركزتجاري مهم للمنتجات الزراعية كالحبوب والتبغ والقطن والسمسم والمنتجات الحيوانية كالغنم، وفيها صناعة الجلود. وهي كذلك ذات أهمية تاريخية بقلعتها القديمة الباقية الواقعة خارج المدينة الحديثة وبمنارتها المظفرية.

ينسب إليها جماعة من أهل العلم والحديث منهم أبو أحمد القاسم بن المظفر الشهرزوري الشيباني الإربلي وغيره.

ج.ت

■ الإربيوم ← الأتربة النادرة

■ الارتباط

الارتباط correlation هو العلاقة القائمة بين متغيرين قابلين للقياس يلاحظان في آن واحد على كل مفردة أو وحدةٍ من وحدات المجموعة الإحصائية، ويمكن توسيع هذا المفهوم ليشمل العلائق الرابطة بين الخصائص الكيفية للظواهر.

لمحة تاريخية

يعود الفضل الأول في دراسة مفهوم الارتباط للسير فرانسيس غالْتون Sir Francis Galton (١٨٢٢-١٩١١) مؤسس المدرسة البيولوحية الإنكليزية، التي عُرفت بهذا الاسم في عام ١٨٨١ من بحوثها في الصفات الوراثية. وتوطدت بعد ذلك نظرية الارتباط بفضل أبحاث الرياضيين والمناطقة حتى كارل بيرسون Karl Pearson (١٨٥٧-١٩٣٦) وأدني يول Udny Yule (١٨٧١-١٩٥١) وجون مينارْد كينْز John Maynard Keynes (١٨٨٣-١٩١٦) ولا سيما ألكساندر ألكْساندروفيتش تْشوبْروف Alexander Alexandrovitch Tchoprov (١٨٧٤-١٩٢٦) الذي أطلق في عام ١٩٢٥ على الارتباط اسم الصلات العشوائية بين المتغيرات التصادفية liaison stochastic of variables aleatary.

ومنذ تلك الحقبة ظهرت أعمال كثيرة أغنت الدراسة النظرية للارتباط قام بها علماء فرنسيون منهم جورج دارْموا Georges Darmois (١٨٨٨-١٩٦٠) ورينيه ريسر René Risser (١٨٦٩-١٩٥٨) وموريس فريشيه Maurice Frechet (١٨٧٨-١٩٧٣).

دراسة الارتباط

إن الهدف الأساسي من تحليل الارتباط هو إيجاد صيغة ملائمة لتعيين قوة العلاقة بين متغيرين عشوائيين **س** و **ع**. ويدرس الارتباط ابتداءً من توزيع هذين المتغيرين، أي من جدول ذي مأخذين يمثِّل كلٌ زوج مرتَّب من القيم (س،ع) عدد الوحدات الإحصائية التي يأخذها المتغيران **س** و **ع**، أي التي يكون من أجلها **س** =س و **ع** =ع في آن واحد. ويمكن القيام بتمثيل بياني يقابل فيه كلُّ زوج مرتب (س،ع) بنقطةٍ في مستوي المحورين م س و م ع فتتشكل غمامة من النقط ذات الإحداثيين (س،ع) تتكون منها فكرة عامة عن طبيعة العلاقة القائمة بين المتغيرين **س** و **ع**. وعندما تكون المتغيرات مستمرة يتمّ تجزئة مجالاتها إلى فئات صغيرة إن أمكن، ثم تُمثَّل كل فئةٍ بقيمتها المركزية.

وتبرز من الوجهة النظرية حالتان حديتان:

أماالحالة الأولى فهي وجود علاقة دالِّية تامة بين المتغيرين (والعلاقة الدالِّية التامة هي العلاقة الممثلة بدقة بمعادلة جبرية كعلاقة محيط الدائرة بنصف قطرها).

تقابل فيها كل قيمة لـ(**س**=س) قيمة وحيدة لـ(**ع**=ع) مهما تكن الوحدات الإحصائية الملاحظة، وهذه العلاقة الدالِّية هي علاقة تبادلية، وهذا يعني أن كل قيمة لـ(**ع**=ع) يقابلها قيمة وحيدة لـ(**س**=س).

وأما الحالة الثانية فهي وجود استقلال بين المتغيرات، ويُقبل في هذه الحالة أن جميع التوزيعات الشرطية [والتوزيع الشرطي لمتغير ما مثل **س** هو مجموعة قيم **ع** الموافقة لقيمةٍ ما لـ(**س**=س)] الخاصة بأحد المتغيرين، من أجل قيمة ما للآخر، تكون متطابقة ومطابقة للتوزيع الهامشي الموافق. وهذا يعني أن لهذه التوزيعات متوسطاً واحداً، وانحرافاً معيارياً واحداً. وفي هذه الحالة لاتقدم معرفة أحد المتغيرين **س** (أو **ع**) أية معلومات إضافية تتعلق بـ **ع** (أو **س**). وإضافة إلى هاتين الحالتين الحديتين، العلاقات التامة والاستقلال المطلق، هناك عدد غير منته من الحالات الوسطية بينهما يُطلق عليها اسم الارتباط أو العلاقات العشوائية وهذا مايُلحظ في الجدول التالي الممثِّل لتوزيع عددٍ من الأفراد بحسب ظاهرتي الطول مقدراً بالسنتمتر والوزن مقدراً بالكيلو غرام.

يشير هذا الجدول إلى وجود ارتباطٍ مابين الطول والوزن، ففي الخط المنقط تتوضع قيم **ع** في مراكز الفئات المقابلة لها. وفي الخط المتصل تقابل قيم **س** مراكز الفئات الموافقة لها.

	١٤٦	١٥٢	١٥٨	١٦٤	١٧٠
٥٠-	٢	١			
٦٠-	٧	٨	٤	٢	
٧٠-	٥	١٥	٢٢	٧	١
٨٠-	٢	١٢	٣٠	١٩	٥
٩٠-		٧	٢٨	٣٢	١٢
١٠٠-		٢	١٠	٢١	٧
١١٠-			١	٤	٢

قياس الارتباط

تقاس درجة ارتباط متغيرين بسعة انتشار نقط العيِّنة حول مستقيم الانكفاء [ر] فالشكل (أ) يمثل ارتباطاً تاماً، أما الشكل (ب) فيمثل ارتباطاً ضعيفاً. وفي حالة فقدان الارتباط بين **س** و **ع** يكون مستقيم الانكفاء أفقياً، وهذا يشير إلى أن قيم **ع** مستقلةٌ عن قيم **س** الشكل (جـ). ويمكن أن تُطرح في هذا السياق المسألتان التاليتان:

الأولى: كيف يُدَلّ عددياً على وجود ارتباط بين متغيرين باستخدام مؤشر أو مُعامل يقيس أهمية العلاقة القائمة بينهما.

الثانية: في حالة وجود مثل هذه العلاقة، يطلب البحث عن معادلة تسمح بتقدير قيمة أحد المتغيرين بدلالة الآخر (وهذه هي مسألة الانكفاء). وقد استوحى كارْل بيرسون Karl Pearson في عام ١٨٩٦ من أعمال أوغست برافي August Bravais (١٨١١-١٨٦٣)، التي أنجزها عام ١٨٤٦ في موضوع



نظرية الأخطاء، تعريفاً لمعامل الارتباط يُعطى بالعلاقة التالية:

$$\text{ر} = \frac{\sum (\text{س}_{\text{ك}} - \bar{\text{س}})(\text{ع}_{\text{ك}} - \bar{\text{ع}})}{\sqrt{\sum (\text{س}_{\text{ك}} - \bar{\text{س}})^{2} \sum (\text{ع}_{\text{ك}} - \bar{\text{ع}})^{2}}} = \frac{1}{\text{ن}} \sum \frac{(\text{س}_{\text{ك}} - \bar{\text{س}})(\text{ع}_{\text{ك}} - \bar{\text{ع}})}{\text{نع}_{\text{س}} . \text{نع}_{\text{ع}}}$$

إذ يمتد المجموع على جميع الثنائيات ($\text{س}_{\text{ك}}$، $\text{ع}_{\text{ك}}$) الملاحظة، أما $\bar{\text{س}}$ و $\bar{\text{ع}}$ فترمزان إلى المتوسطين الحسابيين للتوزعين الهامشيين و $\text{نع}_{\text{س}}$، $\text{نع}_{\text{ع}}$ للانحرافين المعياريين لهما. ويعرف هذا المُعامل باسم مُعامل الارتباط correlation coefficient لـبرافي ـبيرسون (Bravais- Person) أو مُعامل الارتباط الخطي، وهو ينتمي للمجال [-١، ١] ويأخذ القيمتين ±١ عندما تقوم بين المتغيرين علاقة تامة. أما الإشارة ± فتدل على اتجاه تحول أحد المتغيرين مع تغير الآخر، إن الحالة ر=٠ لاتعني فقدان الارتباط بالمعنى الذي ذُكر آنفاً إنما تفيد أن مستقيمات الانكفاء المنشأة بطريقة المربعات الأصغرية (من أجل القيم س≠ع) توازي المحاور الإحداثية. إن مُعامل الارتباط الخطي ليس له أهمية تذكر إلا في الحالة التي تصادف فيها علاقات خطية على وجه التقريب بين متوسطات التوزيعات الشرطية بأحد المتغيرات والقيم المقابلة للمتغير المرتبط به.

في عام ١٩٠١ اقترح بيرسون (Pearson) أيضاً تعريفاً لنسبة الارتباط correlation ratio يتوقف، من أجل كل متغير، على تباين المتوسطات الشرطية لهذا المتغير حول متوسطه العام.

وهكذا يمكن أن يدلل على ارتباط ع بـ **س** وفق العلاقة

$$\text{هـ}^{2}_{\text{ع/س}} = \frac{\sum\sum \text{ن}_{\text{كل}} (\bar{\text{ع}}_{\text{ك}} - \bar{\text{ع}})^{2}}{\sum\sum \text{ن}_{\text{كل}} (\text{ع}_{\text{ل}} - \bar{\text{ع}})^{2}} = 1 - \frac{\sum\sum \text{ن}_{\text{كل}} (\text{ع}_{\text{ل}} - \bar{\text{ع}}_{\text{ك}})^{2}}{\sum\sum \text{ن}_{\text{كل}} (\text{ع}_{\text{ل}} - \bar{\text{ع}})^{2}}$$

$\text{ن}_{\text{كل}}$ هو عدد المشاهدات التي يكون من أجلها **س**= $\text{س}_{\text{ك}}$ و **ع**= $\text{ع}_{\text{ك}}$ في آن واحد $\bar{\text{ع}}_{\text{ك}}$. متوسط التوزيع الشرطي لـ ع من أجل **س**= $\text{س}_{\text{ك}}$،

وتنعدم نسبة الارتباط $\text{هـ}^{2}_{\text{ع/س}}$ إذا ساوت جميعُ المتوسطات الشرطية $\bar{\text{ع}}_{\text{ك}}$ لـ ع من أجل **س**= $\text{س}_{\text{ك}}$ المتوسط العام $\bar{\text{ع}}$ ، وفي هذه الحالة لا تتوقف هذه المتوسطات على **س**. كما أن نسبة الارتباط تساوي الواحد إذا كانت جميع قيم ع، من أجل كل توزيع شرطي يقابل **س**= $\text{س}_{\text{ك}}$، مساوية للمتوسط الشرطي $\text{ع} = \bar{\text{ع}}_{\text{ك}}$ (العلاقة تامة بين المتوسطات).

التعميم

يمكن حساب مُعامل الارتباط في الحالة التي تفترض وجود أكثر من متغيرين آنيين. فإذا قبلنا بوجود علاقات خطية تقريبية بين أي من المتغيرات والمتغيرات الأخرى، أمكن انطلاقاً من العلاقات المتبادلة بين المجموعات المختلفة لهذين المتغيرين، حساب مُعامل الارتباط الجزئي، أي دراسة الارتباط بين متغيرين بحذف تأثير المتغيرات الأخرى، أو حساب مُعامل الارتباط المتعدد، أي دراسة الارتباط لمتغيرٍ ما بدلالة مجموعة المتغيرات الأخرى.

الارتباط والسببية

إن ارتباط ع بـ **س** لا يعني بالضرورة أن الظاهرة الممثَّلة بالمتغير ع تُفسَّر بالظاهرة **س**. إذ إن العلاقة بينهما، التي تصفها معادلة الانكفاء ليست سوى علاقة إحصائية. فمن الممكن إيجاد علاقة بين الإنفاق الأسري، أي المتغير المرتبط، ومقدار الدخل، أي المتغير المستقل، على الرغم من أن توافر المال لايعني بالضرورة إنفاقه، فالإنفاق هو قرار ذاتي يمكن أن يُتخذ في حال توافر المال، وإن كان لا يحدث بالضرورة.

إن الطبيعة العميقة لمسائل السببية لا تُستوحى من حساب معامل الارتباط الذي يوفر فقط دليلاً لتوجيه الدراسة

يؤدي تحليل الارتباط خدمات كبيرة في مجالات عدة تستحيل فيها الطريقة التجريبية، كما في الدراسات الحيوية والنفسية والعلوم الاقتصادية التطبيقية، كما تسمح بإيضاح الأوضاع التي تبدو مبهمة بسبب العدد الكبير من العوامل المؤثرة.

إن التحليل العواملي الذي يبحث في تفسير الصلات القائمة بين الكثير من المتغيرات الملاحظة على الوحدة الإحصائية نفسها، بمساعدة عدد منه من العوامل المستقلة، يبنى على تحليل الارتباطات $\text{ر}_{\text{كل}}$ (ك≠ل=١، ٢، ٣،...،ن) المحسوبة من أجل هذه المتغيرات على كل مفردةٍ من مفردات المجموعة.

وقد نتجت هذه الدراسة من أعمال شارل إدوارد سبيرْمان Charles Edward Spearman (١٨٦٣ـ١٩٤٥) الذي قدم في بداية هذا القرن توصيفاً لظاهرة الذكاء لفردٍ ما ذي دلالة عالية المستوى باستخدام أقل عدد ممكن من المفردات. وشاع استخدام هذا التحليل اليوم في علم النفس التطبيقي (نظرية الروائز) كما أصبح يستخدم على نطاق واسع في مجالات متنوعة كما في الكيمياء الفيزيائية، وعلم الاجتماع وتحليل أسباب بعض التأثيرات الدوائية.

محمد شفيق ياسين

الموضوعات ذات الصلة:

الانكفاء.

مراجع للاستزادة:

ـأنيس كنجو، الإحصاء وطرق تطبيقه في ميادين البحث العلمي (مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٧).

■ الارتجال الموسيقي

الارتجال الموسيقي musical improvisation هو إنجاز عفوي مباشر لفكرة موسيقية من غير تصميم أو تدوين موسيقي سابقين. ويؤديه المغني غناءً والموسيقي في أثناء العزف على آلته الموسيقية.

وقد اعتمدت الموسيقى العربية منذ القديم على الارتجال في الأداء، إذ إن الارتجال، عموماً، هو من أصول الموسيقى الشعبية. وكان أكثر المغنين العرب يرتجلون الشعر مع لحنه في أثناء الغناء. وبقيت هذه الظاهرة واضحة في كثير من أنواع الغناء الشعبي، ويكون الارتجال فيه إما كلاماً أو لحناً أو كليهما معاً. ولعل ترتيل القرآن الكريم والأذان [ر. الإنشاد الديني] ما هما إلا نوع من الارتجال

النغمي، وهما أقرب إلى الإلقاء الملحون غير المدوّن بعلامات موسيقية محددة وإنما مرسوم بمقام موسيقي معين.

وما الزجل الشعبي إلا حوار شعري مرتجل باللهجة العامية المحلية. ويقول ابن خلدون [ر] في مقدمته: ولما شاع فن التوشيح في الأندلس وأخذ به الناس لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فناً سمّوه «الزجل».

وقد شهر الزجل في سورية ولبنان، وهو فن يقوم به فريقان من الشعراء الزجّالين يتبارون فيما بينهم فيرتجلون أشطراً شعرية ذات أوزان بسيطة وألحان قصيرة سهلة ورتيبة ترافقها إيقاعات موسيقية معينة حرة بأدوات القرع كالدفوف أو الدرابكات [ر.الآلات الموسيقية]. ويرأس كل فريق زجّال ماهر. وفي بعض أقسام «الدّوْر» المعروف في الأغنية العربية [ر.الأغنية] نوع من أنواع الزجل، وكذلك فإن الجزء الأول من «القدّ الحلبي» [ر. .الأغنية] فيه نوع من الارتجال. وقد شهر الزجالون في غناء «المونولوغ» monologue وهو نوع من الغناء المنفرد الوجداني والعاطفي والانتقادي والسياسي أحياناً ويؤديه زجال واحد ارتجالاً أو بعد إعداد. ومن أشهر زجّالي المونولوغ الحديث: سلامة الأغواني [ر] من سورية، وعمر الزعنّي من لبنان، ومحمود شكوكو من مصر، وفي المغرب العربي، يطلق على الزجل كلمة «الملحون» ويقصد به اللحن في الكلام وليس في الموسيقى، وكان يسمى من قبل «القريحة» (الكَريحة) وكان يختلف عن الموشح في البداية، بعدم التزام ناظميه قواعد الإعراب. والملحون (المغربي) يختلف قليلاً عن الزجل (المشرقي) فهو أكثر غناءً وتطريباً. ويعتقد أن الشاعر الأندلسي ابن قزمان (المتوفى عام ١١٦٠م) هو مَنْ أحدث الملحون بدافع فطري للغناء والطرب على الطريقة الشعبية، وقد شهر بأنه «إمام الزجالين». وشهر أيضاً أبو الحسن الشِشتري الأندلسي (المتوفى في مصر عام ١٢٦٦م) والذي أقام في المغرب، وشاعت أزجاله وقصائده الدينية فيه، ومنها إحدى مقطوعاته التي ماتزال تردد في الأذكار الصوفية المغربية في مدح الله وهي «ألفٌ قبل لامين، وهاءٌ قرة العين». وكان الششتري من أشهر المرتجلين في الغناء.

وفي الحقيقة، فإن جميع المغنين الجادين يجيدون الارتجال في الغناء، ومنهم مطربو وموسيقيو المغرب العربي مثل الشيخ أحمد الوافي التونسي وكان يأخذ بعض الموشحات أو الأزجال المعروفة (الملقبة بالبطايحية) فيرتجل عليها لحناً جديداً لم يُسمع من قبل.

وهناك نوع آخر من الارتجال الغنائي العربي وهو «المواليا» أو «الموّال» [ر.الأغنية]، وهو عبارة عن أشطر أربعة، في الأصل، من شعر خفيف تنظم على بحر البسيط غالباً، ويكون لحنها مرتجلاً مع التقيد بالمقامات الموسيقية [ر.الموسيقى العربية] من دون الإيقاع. وكان أول ظهور هذا النوع من الغناء في بغداد أيام العباسيين، ويعزو البعض ظهوره إلى أقدم من ذلك. ويقال إن أول من أنشده جارية جعفر البرمكي التي ندبته بالمواليا، ومن ثم انتقل هذا الغناء إلى سائر الجزيرة العربية ومصر والمغرب العربي.

ومن أشهر أنواع المواليا: «الموال المصري» الذي ينظم باللهجة المصرية وهو مؤلف من خمسة أشطر وعُرف بالأعرج ومنه المواويل الخضر والمواويل الحمر وجميعها شائع في مصر، والموال «البغدادي» أو «الزهيري» وهو شائع في الخليج العربي وفي بلاد الشام، ويقابله «النعماني» أو «البلدي» في مصر، وهو يتألف من سبعة أشطر تنظم بالفصحى وبالجناس في القافية وذلك في الأشطر الثلاثة الأولى منه. والموّال في الموسيقى المغربية الأندلسية فإنه ينشد في شطرين أو ثلاثة أو أربعة أشطر في الشعر الفصيح، ويغنيه المنشد منفرداً على طبع (مقام) «النوبة» وعلى لحن موسيقي حر غير مقيد بالإيقاع. أما المواويل العامية فلا تتقيد بعدد الأشطر. وقد أدى الموال السوري دوراً مهماً في تطوير الغناء السوري. ويعد إيليا بيضا من لبنان، وصالح عبد الحي ومحمد عبد المطلب من مصر من أوائل المغنين الذين برزوا في هذا النوع من الغناء.

والغناء بكلمة «ياليل» هو من فنون الغناء العربي المرتجل أيضاً، وقد شهر في جميع أنحاء الوطن العربي. وهو نداء الليل بألحان شجية من حلال المقامات الموسيقية يؤديها المطرب بأساليب مختلفة إبرازاً لمقدرته الفنية. ويؤدى هذا الغناء موزوناً أحياناً في إيقاعات موسيقية مختلفة. وقد تُستهل بعض أنواع الأغاني بغناء ياليل، أو بالتقاسيم، وذلك توكيداً للمقام الموسيقي الذي ترتكز عليه الأغنية وهو مايسمى، في لغة الموسيقيين، بـ«السلْطنة».

وأما «التقاسيم» فهي كالغناء بـ«ياليل» قالباً إلا أنها تؤدى عزفاً على إحدى الآلات الموسيقية، العربية ـ خاصة ـ بأسلوب حر لتدل على مهارة العازف في الأداء وحذقه بعلم المقامات الموسيقية العربية. كما يشهر أيضاً ضابط الإيقاع، في الفرقة الموسيقية، بالارتجال في كثير من الأحيان.

كانت الموسيقى في العهود القديمة مرتجلة في غالب الأحيان، وكان الشعراء الجوّالون [ر] troubadours الأوربيون، في العصر الوسيط (من القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر)، يجوبون البلاد غناءً وعزفاً على آلاتهم الموسيقية ارتجالاً. وقد حوفظ على حالة الارتجال أيضاً في الموسيقى الكنسية حقبة طويلة وأصبحت تقليداً مميزاً لها. وكان كبار الموسيقيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر يرتجلون ألحانهم الموسيقية عزفاً على الأرغن أو الكلافسان clavecin [ر.البيانو]. وكان باخ[ر] J.S.Bach مرتجلاً بارعاً خصب الخيال، كما كان شوبان[ر] Chopin ، في القرن التاسع عشر، من المبدعين في الارتجال على آلة البيانو. وما المصطلح الموسيقي الفرنسي «أمبرومبتو» (المرتجل) impromtu [ر.الصيغ الموسيقية]سوى قطعة موسيقية مدوّنة كتبها مؤلفها بعد الارتجال بخياله الموسيقي المبدع. ومن أمثلة هذا النوع من المؤلفات «المرتجلات الأربع» لشوبان.

وهناك نوع آخر من الارتجال في الموسيقى الأجنبية (العالمية) يسمى «كادانْس» (أي قفْلة) cadence ، وهي مقطع موسيقي تتضمنه إحدى حركات «الحوارية» (كونشرتو) concerto أو أغنية في الأوبرا أو غيرهما، ويرتجله العازف أو المغني المنفرد solist ليبرر مهارته في الأداء. وهذا شبيه إلى حد ما بالتقاسيم في الموسيقى العربية. وكان المغنون البارعون قد استخدموا «الكادانس» في القرن الثامن عشر، ثم بدأ المؤلفون الموسيقيون، منذ عهد موتسارت [ر] Mozart، يحدّدون كتابته عزفاً أو غناءً للمؤدين المنفردين ليكون مقطعاً منسجماً مع سير مجموعة الألحان في القطعة الموسيقية الواحدة.

وقد انبعثت ظاهرة الارتجال من جديد، عزفاً على الآلات الموسيقية الحديثة، في القرن العشرين في موسيقى الجاز والروك rock [ر.الموسيقى].

حسني الحريري

مراجع للاستزادة:

- يوسف عيد، رحلة الطرب في أقطار العرب (دار الفكر اللبناني، بيروت١٩٩٣).

- Larousse de la musique (Librairie Larousse, Paris1982).

■ ارتداد التمايز وتحلل النسج

ارتداد التمايز dedifferentiation هو عودة بعض الخلايا المتمايزة إلى حالة جنينية شاملة ذات إمكانات كاملة، أو هو فقدان خلية أو نسيج للصفات الخاصة التي تميزها فقداناً كاملاً أوجزئياً، وذلك بتتالي حوادث كيمياوية وفيزيولوجية تطرأ على خلايا المنطقة ونسجها. أما التحلل النسيجي histolysis فهو فقدان عضو متمايز وزواله نتيجة تفكك خلايا ذلك العضو وتخربه.

ففي بداية حياة المتعضيات تكون أغلب خلاياها واسعة الإمكانيات، ثم تفقد غالباً قدراتها، على الأقل قدرتها على الانقسام، فتصبح خلايا متمايزة. إلا أن هذه الخلايا قد تحتفظ أحياناً بقدرتها على الرجوع عن تمايزها فتصبح ذات قدرات شاملة وتحقق نظرياً طرائق التمايز الخلوي كافة، ويصبح تكاثرها ممكناً. وقد يكون الرجوع إلى الوراء عودة حقيقية، فيصل بالخلايا أحياناً إلى مرحلة جنينية أو قريبة جداً من الحالة الجنينية. ويشاهد ذلك في خدر يرقات الحشرات ذات التحول الشكلي الكامل (الشكل ١) وخلايا تَكَيُّس النباتات البَرْيونية Bryophyta بتأثير الجفاف. ويمكن إحداث العودة إلى الحالة الجنينية صنعياً، كما في ديدان النيمِرْت Nemertii.

ويطلق على هذه المظاهر اسم ارتداد التمايز الخلوي، الذي يترافق بالتمايز الجزئي. فالبرعمة لدى الحيوانات البريوية[ر] تدل على تنشيط قدرة الخلايا على التكاثر، وزراعة خلايا قلب الدجاج تعطي النتيجة نفسها، والتئام جروح الإنسان يتضمن أيضاً ارتداداً وتمايزاً خلوياً موضعيا مؤقتاً ترافقه حوادث التشكل لخلايا نسج المنطقة. وقد ثبت في الفقاريات أن تشكل خلايا قادرة على تجديد الأقسام المخرَّبة يكون بارتداد التمايز، إذ تأخذ هذه الخلايا الصفات الجنينية وتصبح قادرة على الانقسام. وتثبت التجارب تشكُّل مواد منبِّهة لخلايا الجرح مع تنظيم نشيط يحرض الخلايا ويبدل نسج المنطقة الملامسة، ثم يسيطر على الأجزاء المجاورة كما في اللافقاريات.

ارتداد التمايز الخلوي في النباتات

من المعروف أن الافتسال في النباتات بغرس جزء من ورقة كهلة أو شدفة ساق فيها عقلة (وهي أجزاء مجردة تماماً من أي خلية منشئة) يتمم الأجزاء الأخرى ليعطي نباتاً كامل الأجزاء، أي يحدث تشكل، بدءاً من متعضية تخرَّب جزء منها أو عدة أجزاء، بالتجديد التشكلي الذي يعد إحدى طرائق تكاثر النبات، ويكون ذلك مصحوباً بارتداد التمايز الخلوي الذي درسه بوفا Bufat.

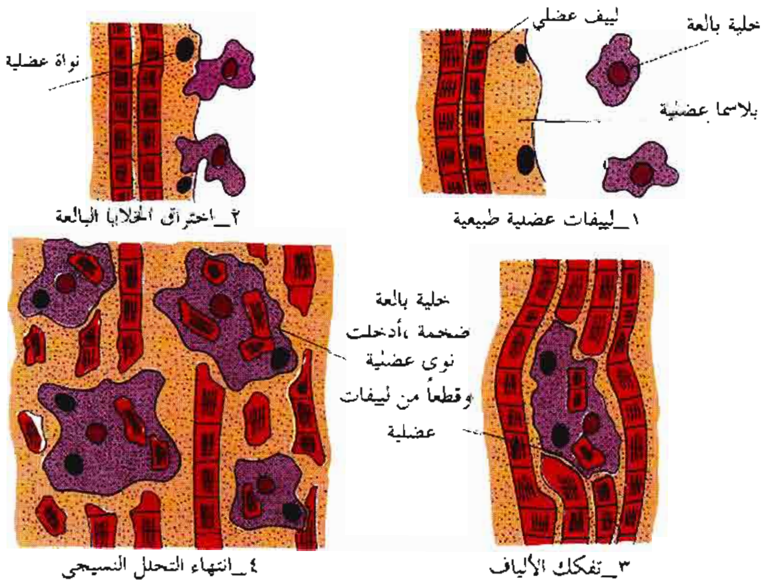
ويمكن تقسيم التطور الراجع الارتدادي إلى:

مرحلة تكوين الأنسجة الحية (التشكل النسيجي): الذي يُتَرْجَم بالعودة إلى بنية خلوية مُنشئة ثانوية تتمثل بالخلايا القُلبية cambial. وتتناول هذه المرحلة النواة التي تدخل بالانقسام نتيجة اكتسابها إمكانية إحداث تراكيب جديدة لحمض الدنا DNA ، كما تتناول المتقدِّرات mitochondria التي تتجزأ بعد نسخ شريط الدنا فيها، والجسيمات الصانعة التي تتراجع.

مرحلة التشكل العضوي: وفيها تصبح النواة مركزية وتزداد كثافة السيتوبلاسما، وتتطور البنى الغشائية التي تتضاعف وتزداد، ويتجزأ الجسم الفجوي إلى فجوات صغيرة متعددة. وهكذا تصبح هذه الخلايا مماثلة للخلايا المُنشئة الأولية. وتحدث هذه المظاهر كلها في مرحلة التشكل الطبيعي للأعضاء النباتية. فعند تشكل جذر جانبي، وفي التجديد أيضاً، تحدث عودة للنشاط والفتوة بالتدريج إلى خلية أوعدة خلايا من المنطقة حول القُلْبية. وهذا يفسر نشاط القدرة التكاثرية للنباتات الدنيا. فجزء بسيط من نُميمتة protonema نبات بَرْيَوني يشتمل على خلية واحدة يعطي في بضعة أيام نباتاً كامل الأعضاء المتمايزة، إذا كانت شروط الوسط ملائمة. وكذلك فإن قطعة صغيرة من مشيجة فطر أو كِسْرة من مَشَرَة طحلب Algue، تعيد بناء الفطر الكامل أو الطحلب كاملاً. فالتجديد والتكاثر اللذان يحدثان بكثرة في النباتات يفرضان إمكانية حدوث ارتداد تمايزي خلوي فيها.

ارتداد التمايز الخلوي في العالم الحيواني

إن ارتداد التمايز في العالم الحيواني قليل جداً مقارنة بعالم النبات. ولكن لايجوز إهمال الحادثة الارتدادية لديه. ففي الحيوانات البسيطة، يُرى لدى البلاناريا مثلاً، إلى جانب الخلايا غير المتمايزة المحتفظة بإمكانياتها الجنينية، خلايا أخرى قد ارتدت عن تمايزها لتسهم في بناء نسج وأعضاء جديدة. وغالباً ماتحافظ هذه الخلايا على التخصص الإجمالي الذي كانت تشتمل عليه في البدء. فالخلايا المتشكلة في الجنين من الأدمة الخارجية الأصلية ectoblastoderm ترتد إلى الوراء وتعطي، بعد ارتداد تمايزها وبعد تمايزها مجدداً، نسجاً تنتسب للأدمة الخارجية مثل البشرة. والبرعمة في الحيوانات نموذج لذلك. ففي الكأسيات (القِرْبيات) المركبة تشكل السلائل polyps تشعبات تنتفخ وتنفصل عن المتعضية الأم. ويسهم في تكوين الانتفاخات



التحلل النسيجي لعضلة في يرقة حشرة

خلايا ظهارية وخلايا متوسطية mesodermic ، ومن هذه المجموعة الخلوية يبنى الفرد الجديد. وإن تجديد عضو ما في بعض الفقاريات لا يتم، كما في عديمات الفقار، بوجود خلايا احتفظت بصفاتها الجنينية وقدراتها الكاملة، وإنما يتم موضعياً بارتداد التمايز لخلايا نسج المنطقة. وقد دلت دراسة التئام الجروح بأن الجرح هو الذي ينبه فعالية الحادثات الخلوية النسيجية، وأن حركة الخلايا المتحولية هي التي تعمل على امتداد البشرة بين النسيج الضام والطبقة المتخثرة لا التكاثر الخلوي، وأن ارتداد التمايز للخلايا المجاورة للسطح يحدث بتحلل المادة الخلالية لنسج المنطقة مع تحلل الخلايا العضلية مما يجعل خلايا النسيج الضام مماثلة لخلايا النسج الأخرى وتصبح العلاقة النووية السيتوبلاسمية كبيرة. وهكذا تصبح الخلايا مماثلة للخلايا الجنينية لكنها لا تستطيع أن تقوم مثلها بالتجديد فيما لو عُزلت عن بقية الجزء المجروح، ثم تتكتل الخلايا التي ارتد التمايز فيها وتحللت تحت البشرة لتشكيل البرعم التجديدي. وقد دلت الدراسات الإلكترونية واستخدام النظائر المشعة على أن خلايا النسيج التي يرتد التماير فيها يمكنها تشكيل براعم تجديدية، وأن الجرح هو الذي ينبه خلايا المنطقة التي تعمل على إحداث تراكيب جديدة لحمض الدنا والمواد البروتينية. لذلك تأخذ هذه الخلايا بالانقسام السريع المتتالي الذي يرافقه الفقدان الوظيفي والبنيوي المعقد، مما يجعل هذه الخلايا صغيرة، ثم تتباطأ هذه الحوادث ويبدأ التمايز الخلوي الذي يأخذ بالتزايد.

وتكون هذه التبدلات الفيزيولوجية في البدء نتيجة نشاط الأفعال الاستقلابية المؤدية إلى تحلل النسج بسبب نشاط الإنظيمات التي تحلل المواد البروتينية وفعاليتها، فيحدث تبدل في تركيبها. وفي نهاية التشكل تهيمن عمليات الابتناء anabolism ، فينشط تشكل حمض الرنا RNA في الخلايا كلها، ثم تأخذ بالتناقص عند بدء التمايز.

إن هذه المظاهر الارتدادية تماثل المظاهر الخلوية للتحولات الشكلية، كالانحلال النسيجي للأعضاء التي تتخرب خلاياها وتُرتشف وتشكل جزءاً من التحول الشكلي الطبيعي مثل ذنب الشراغيف وتراجع التيموس وفقدان الأسنان اللبنية وغيرها، وكذلك التحول الشكلي للحشرات الذي تتفكك فيه خلايا اليرقة تفككاً كاملاً وتموت، ثم تلتهم البالعات النسيج المتحلل الذي فقدت أغشيته الخلوية ارتباطاتها وتهضمه. ثم تُنقل عناصر النسيج المتحلل باللمف أو الدم، فتسهم هذه العناصر بعد ذلك في بناء الفرد الآخذ في التشكل، وذلك بعبور البالعات غشاء الخلايا العضلية اليرقية المتعددة النوى، فتفكك النوى واللييفات العضلية. وإن الانتقال النشيط لهذه العناصر يسهم في بناء العضلات، فتتمايز عضلات يرقية تأخذ، وهي في مكانها، البنية العضلية المميّزة للكهل مثل القلب، وأنابيب مالبيكي،وغيرها. ومن المؤكد أنه في هذه التطورات التدريجية تترأس العمل غدد تفرز مواد يعتقد أنها تُحدث تبدلات للفعاليات الإرثية على الصعيد الكيمياوي النسيجي.

الشيخوخة الخلوية وارتداد التمايز

إن فقدان الإمكانيات الخلوية الشاملة بالتمايز له أهمية كبيرة؛ وهو يتخذ، في الكائنات الحية، مظاهر مهمة. فبقاء مجموعة الخلايا الأرومة يسمح بإنتاج مستمر لخلايا متمايزة تصبح غزيرة وتتجدد. ويُفسر ما يحدث في النسج المجردة من الخلايا الأرومة اعتماداً على عوامل ثلاثة مهمة جداً هي:

١ـوجود خلايا كثيرة متمايزة تحتفظ بقدرات كافية تسمح لها بالانقسام الذي يعطي خلايا بنات مماثلة للخلايا الأصلية كزراعة ألياف قلب الدجاج. وإن دوام سلالات خلوية متعددة بالزراعات يكون إما بالاصطفاء الخلوي وإما بأن تكون هذه السلالات هي الخلايا الأرومية وقد بقيت من دون أن يطرأ عليها أي اصطفاء وهذا غير مؤكد.

٢ـيكون زوال قدرات الخلايا المتمايزة أحياناً مؤقتاً أو جزئياً، ممايجعل ارتداد التمايز فيها ممكناً، فكثير من النسج المتمايزة تفقد عند زراعتها بعض صفاتها المتميزة.

٣ـاستحالة ارتداد التمايز في الخلايا الواسعة الاختصاص بعكس خلايا المتعضيات البسيطة كالهدرا. فالخلايا العصبية تفقد كل قدرة على الانقسام، لذلك تفقد الكائنات، تدريجياً وباستمرار، خلايا عصبية، في حين يمكن لبعض الفقاريات البدائية تجديد أطراف كاملة.

إلا أن فقدان الخلايا الأرومة يجعل المتعضية تعتمد على الخلايا المتمايزة، وهذا قد ينتج عنه نتائج حيوية خطيرة. فالفضلات التي لايمكن طرحها قد تتجمع في الخلايا وتسبب انقسامات جسمية شاذة قد تسبب خللاً تدريجياً للوظيفة الحياتية الخاصة لهذا النسيج.

وإن الفكرة القائلة بأن ارتداد التمايز هو ظاهرة معاكسة للتمايز فقط يمكن أن تتعرض هي نفسها لصعوبات ومشاكل عدة. فالموت الخلوي الذي يؤلف مرحلة لارتداد التمايز يستخدم في الأجنة وبعد النضج وسيلة لتوليد أعضاء مهمة. فكثير من الخلايا الإفرازية يموت عند طرح المفرزات. وإن عدم موت بعض الخلايا يؤلف صعوبات تعترض التطورالعضوي، لذلك فإن التمايز الخلوي يسهم مباشرة في شيخوخة الخلايا وموتها وهرم الفرد. هكذا تنتج الشيخوخة عن زوال مُوَجّه لمخطط عالي البرمجة في المتعضيات. وإن ذلك الفقدان الموجه للمخطط الذي يضمن الارتداد السريع للأفراد وتجديدها يترافق بمستوى عال من التبدل الوراثي. وبهذا يمكن تفسير ارتداد التمايز بفقدان عوامل النهي المقنّعة للمورثات (الجينات)، وتتوضح آثار ذلك بالزراعات، فالخلايا العصبية التي لاتنقسم أبداً في المتعضية تكتسب القدرة على الانقسام. وإن الخلايا التي تركِّب بروتيناً نوعياً يميز النسيج الأصلي تفقد تلك الخاصة (تركيب البروتين). فالخلايا العصبية المتميزة بتركيبها للكولينيستراز تفقد فعاليتها في الأسبوع الثاني للزرع. فالعوامل الحقيقية التي تؤثر في ذلك معقدة ويصعب تفسيرها. ويعتقد بأن هذه المظاهر قد تكون ظاهرية لا إرثية نتيجة خلل في إمكان توصيل ركيزة الصفات المميزة لتبدل يطرأ على صفات الأغشية لا نتيجة فقدان تركيب بروتين نوعي أو نتيجة منع إرثي يكون عكوساً نظرياً. فالعوامل الحقيقية لارتداد التمايز كثيرة لا يمكن تجزئتها، ولكنها ترتبط كلها بالتركيب الجزيئي الفائق التخطيط الذي يعد مفتاح ارتداد التمايز.

نجاح بيرقدار

الموضوعات ذات الصلة:

الخلية (الخلية-).

مراجع للاستزادة:

- J.M.ASHWORTH, Cell Differenciation (Edward Arnold, London 1977).
- N.McLEAN, The Differenciation of Cell (Chapman & Hall, London 1975).

■ آرتشر (وليم -) (١٨٥٦-١٩٢٤)

وليم آرتشر William Archer كاتب وناقد ومترجم بريطاني، ولد في اسكتلندة، وتوفي في لندن ودرس القانون في جامعة أدنبره، إلا أنه لم يمارس مهنة المحاماة. استقر في لندن منذ عام ١٨٧٨ ليصبح ناقداً مسرحياً في صحيفة «الفيغارو» Figara ثم في «العالم» The World و«الأمة» The Nation و«التريبيون» The Tribune و«مانشستر غارديان» Manchester Gardian وصحف أخرى. وكانت مراجعاته المسرحية التي قدمها في العالم تجمع وتطبع سنوياً تحت عنوان «العالم المسرحي» The Theatrical World (١٨٩٣-١٨٩٧).

أثر وليم آرتشر في مسار المسرحية الإنكليزية والأمريكية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان لنقده اللاذع أثره الكبير في تحسين أداء المسرح الإنكليزي. وقد شهر بوجه خاص مترجماً وداعياً لأعمال المسرحي النروجي هنرك إبسن [ر] Henrik Ibsen إذ ترجم مسرحية «دعائم المجتمع» The Pillars of Society التي قدمت بفضل جهوده في لندن في عام ١٨٨٠. كما ترجم مسرحيات أخرى لإبسن. وفي المدة مابين ١٩٠٦-١٩٠٨ نشر مجموعة أعمال إبسن المسرحية.

ناصر آرتشر المدرسة الواقعية الجديدة، وكان لأعماله النقدية مثل «الدراما القديمة والجديدة» The Old and the New Drama (١٩٢٣) أثر كبير في توجيه المسرحية الإنكليزية على خطا إبسن وجورج برنارد شو [ر]، إلا أن الغريب في أمر آرتشر هو أن مسرحيته الوحيدة الناجحة وهي «الإلهة الخضراء» The Green Goddess (١٩٢١) كانت ميلودراما شعبية على النهج التقليدي القديم.

من أهم كتابات آرتشر عن المسرح «أقنعة أم وجوه؟» Masks or Faces? (١٨٨٨) و«صناعة المسرحية» Play Making (١٩١٢) ومن بين أعماله الأخرى «أمريكة اليوم» America Today (١٩٠٠) و«محادثات حقيقية» Real Conversations (١٩٠٤). وله عدة مسرحيات إضافة إلى «الإلهة الخضراء» منها «بياتريس جوانا» Beatriz Jnana و«ليديا» Lidia، وقد نشرتا في عام ١٩٢٧ بعد وفاته.

هالة نابلسي

■ أرتشيمبولدو (جوزيبه -) (١٥٢٧-١٥٩٣)

جوزيبه أرتشيمبولدو Giuseppe Areimboldo مصوّر إيطالي ولد وتوفي في مدينة ميلانو، ولا تتوافر معلومات كثيرة عن نشأته ودراسته.

يُذكر عن بدء حياة جوزيبه أرتشيمبولدو الفنية أنه تعاون مع والده بياجو، حرفي الزجاج، ووضع الدراسات اللازمة لحياة القديسة كاترينة لتنفّذ بالزجاج المعشّق في كاتدرائية ميلانو عام ١٥٤٩. وتدل بعض الوثائق على تكليفه القيام بعدد من الأعمال الفنية البسيطة نحو عام ١٥٥٨ وعلى أنه قام بوضع رسوم للسجاد الجداري بتكليف من إركوله ديستِه Ercole D'Este أمير منطقة فرّارة Ferrara.

سافر جوزيبه عام ١٥٦٢ إلى براغ، وفي عام ١٥٦٥ سُمي المصور الرسمي للامبراطور مكسيميليان الثاني في بلاط أسرة هابسبورغ، وبقي هناك حتى عام ١٥٨٧ تاريخ عودته إلى ميلانو. وقد منحه امبراطور النمسة رودولف الثاني لقب كونت.

أما نشاطه الفني في بلاط هابسبورغ فكان متنوع الجوانب. فقد أنجز عدداً من الصور الشخصية وقام بوضع التصاميم للحفلات التنكرية والمهرجانات الضخمة السائدة في ذلك العصر، كما قام بمساعدة الأباطرة على جمع اللوحات والقطع الغريبة لمجموعتهم «الفن وغرفة العجائب» Kunst Und Wunderkammer، وهي مجموعة من اللوحات الفنية والأعمال الطريفة النادرة.

وفي هذا المناخ طور جوزيبه أرتشيمبولدو نزعته الخاصة في تصويره الوجوه فكان يشكلها من أشياء واقعية مختلفة، مثل الفواكه والأزهار والكتب والخضار والأدوات، جامعاً بعضها إلى بعضها الآخر لتعطي هيئة إنسان. ففي كل من لوحتيه «الصيف» و«الشتاء» مثلاً تُرى صورة جانبية لرجل مؤلفة من أنواع الفاكهة والخضار والحبوب التي تنمو في الفصول من السنة. وإضافة إلى هذه الموضوعات التي تعبر عن الفصول وعناصرها تم تكليف أرتشيمبولدو، على سبيل الطرافة والدعابة، القيام بإنجاز صور شخصية، بالطريقة ذاتها، لرجال البلاط الملكي. وكثيراً ما قيل لدى الحديث عن هذه الطريقة إن أهداف الفنان منها كانت السخرية الخفية من مجتمعه المعاصر وأوهام ذلك المجتمع وسطحيته.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

F.C.LEGRAND Et F. SLUYS, Arcimboldo et les Arcimboldesques (Bruxelles- Paris 1955).

■ الارتفاق (حق -)

الارتفاق لغةً: الاتكاء على مرفق اليد. والانتفاع. والاستعانة. ومرافق الدار: مصابُّ الماء ونحوها. وحق الارتفاق Servitude أو Easment في الاصطلاح الشرعي والقانوني منفعة مقررة لعقار مملوك لشخص على عقار آخر مملوك لغير الأول. كالشرب، والمسيل، والمرور، وغير ذلك.

وحق الارتفاق من قبيل ملك المنفعة. وهي منفعة بين عقارين، تابعة لهما على الدوام مهما انتقلت ملكيتهما. ومالك هذه المنفعة هو مالك العقار المنتفع. ومن هنا تتجلى عينية هذا الحق.

وهو في الوقت ذاته منفعة منتقصة من ملكية العقار المُرْتَفَق به (الخادم) لمصلحة العقار المُرْتَفِق (المخدوم) على الدوام.

ولو اجتمعت ملكية العقارين (الخادم والمخدوم) في شخص واحد، فإنهما يصبحان بحكم العقار الواحد. وعندها يختفي حق الارتفاق هذا. على أنه يمكن أن يعود إلى الظهور والاعتبار مجدداً إذا تنازل هذا المالك عن أحد هذين العقارين لمالك جديد، أو إذا تنازل عن كل منهما إلى شخصين مختلفين.

أنواع حقوق الارتفاق

اختلفت الآراء في تعداد حقوق الارتفاق بين مضيّق وموسّع سواء في الشريعة أو القوانين الوضعية. فذهب الحنفية إلى أنها ستة فقط هي:

ـ الشرب: وهو النصيب المستحق من ماء الأنهار والسواقي العامة، لسقي الأرض والزرع.

ـ **الطريق**: وهو حق صاحب عقار داخلي بالوصول إلى عقاره من طريق يمرّ عبر عقار مملوك للغير.

ـ **المجرى**: وهو حق صاحب الأرض البعيدة عن مجرى الماء في إجرائه عبر ملك جاره إلى أرضه ليسقيها.

ـ **المسيل**: وهو مجرى على سطح الأرض، أو أنابيب تنشأ في جوف الأرض أو على سطحها، لتصريف المياه الزائدة عن الحاجة عبر عقارات الجوار حتى تصل إلى مصرف عام. والفرق بين المسيل والمجرى أن المجرى لجلب المياه الصالحة للأرض، والمسيل لصرف المياه الزائدة وغير الصالحة عن الأرض أو الدار.

ـ **التعلي**: وهو حق صاحب العقار الأعلى في القرار على العقار الأسفل كما هوالحال في الأبنية الطابقية.

ـ **الجوار**: وهو الحق الثابت لكل من الجارين على الآخر.

ويرى الحنفية أنه لا يجوز إنشاء أي حقوق ارتفاق أخرى غير هذه الحقوق الستة. لأن في إنشائها تقييداً للملكية التامة. والأصل فيها أنها لا تقبل التقييد. وما قيدت بتلك الحقوق الستة إلا استثناءً وبحكم الضرورة. ولا يُتوسع في الاستثناء، لأن الضرورة تقدّر بقدرها.

وذهب آخرون ـ وفيهم المالكية ـ إلى أنها غير محصورة في الأنواع المذكورة آنفاً، فيجوز إنشاء حقوق ارتفاق أخرى بالإرادة والالتزام. كأن يقرر شخص على أرض يملكها ألا يقيم على ناحية منها ملاصقة لأرض أخرى أي بناء، أو ألا يرتفع ببنائه أكثر من حد معين.

وبهذا الرأي الأخير أخذت معظم القوانين المدنية المعاصرة كالقانون الفرنسي، واللبناني، والسوري، وغيرها.

وقد اشترطت هذه القوانين أن تكون حقوق الارتفاق المنشأة اتفاقاً، للعقار أو عليه، لا للشخص المالك أو عليه. كما اشترطت ألا تكون هذه الحقوق مخالفة للنظام العام.

أسباب نشوء حقوق الارتفاق

تنشأ حقوق الارتفاق بأسباب ثلاثة هي:

ـ **الوضعية الطبيعية**: وحقوق الارتفاق الطبيعية هي المتولدة عن وضعية الأماكن الطبيعية. كحق مسيل مياه الأمطار المترتب للأراضي العالية على الأراضي المنخفضة. وهذه الحقوق تثبت بالوضع الطبيعي. ولا تحتاج إلى تسجيل في السجل العقاري.

ـ **الالتزامات المفروضة قانوناً**: وهي حقوق الارتفاق القانونية التي تنشأ بحكم القانون. سواء أكان محلّها منفعة عامة كتسهيل إعداد المسالك والمنشآت العامة، أو منفعة خاصة كتسييل مياه الأمطار في الطريق العمومية مع مراعاة الأنظمة الخاصة المتعلقة بالطرقات. وهذه الحقوق لا تحتاج إلى تسجيل في السجل العقاري.

ـ **التصرفات الإرادية**: وهي حقوق الارتفاق المنشأة بإرادة الإنسان فهي تكون وليدة الاتفاقات المعقودة بين ملاّك العقارات، أو تكتسب عن طريق التقادم [ر]. وهذه تحتاج في ثبوتها تجاه الآخرين إلى التسجيل في السجل العقاري.

ومما تجدر ملاحظته أن استعمال حقوق الارتفاق، مهما كان منشؤها، وفقاً للأوضاع الطبيعية لا تترتب عليه أي التزامات على صاحب الحق (مالك العقار المخدوم). أما إذا جرى استعماله بما يُعدّ زيادة على الوضع الطبيعي، ونتج عن ذلك بعض الأضرار التي أصابت مالك العقار الخادم. فإن مالك العقار المخدوم يلتزم تعويض صاحب العقار الخادم عما أصابه من ضرر.

محمد وفا ريشي

الموضوعات ذات الصلة:

الامتياز (حق ـ) ـ الانتفاع (حق ـ) ـ الحق ـ العقار ـ السجل العقاري.

مراجع للاستزادة:

ـ محمد وحيد الدين سوار، شرح القانون المدني (الحقوق العينية) (مطبعة الداودي، دمشق ١٩٨٠).
ـ عبد السلام الترمانيني وعبد الجواد السرميني، الحقوق العينية (منشورات جامعة حلب ١٩٩٠).
ـ محمد صياح النشواتي، القيود على الملكية العقارية وإشاراتها في السجل العقاري، الطبعة الأولى (دمشق ١٩٩٣).

■ الأُرْتُقيون

(٤٩٥ ـ ٨١٢هـ/ ١١٠١ ـ ١٤٠٩م)

تنتسب الأسرة الأُرْتُقية إلى مؤسسها أُرْتُق ابن أكْسَك أو أكسب الملقب بظهير الدين، وهو من قبيلة الدُقُر Doger إحدى العشائر الكبيرة التي تنتمي إلى الغز التركمان، وقد شاركت هذه القبيلة في بناء كيان الدولة السلجوقية، ثم أتيح لها أن تؤسس دولة في جهات ديار بكر وماردين وحصن كَيْفا وخَرْتَبِرت (وهو حصن زياد) وميّافارقين، ومنبج، وامتد سلطانها في بعض الأزمنة إلى حلب. وقد عمرت هذه الدولة طويلاً فامتد حكمها من أواخر القرن الخامس إلى أوائل القرن التاسع الهجريين/ الحادي عشر ـ الخامس عشر الميلاديين. وانقسمت إلى ثلاث دول: أراتقة كَيْفا وآمد، وأراتقة ماردين، وأراتقة خرتبرت. وكانت هذه الدويلات تستقل تارة وتخضع للدول الكبرى المجاورة تارة أخرى كالسلاجقة والأيوبيين والمماليك والمغول، كما كانت تسالم الفرنجة الصليبيين حيناً وتحاربهم أحياناً.

تأسيس الدولة

عمل السلاجقة على استمالة قبيلة الدقر بمنحها الإقطاعات، وفوضوا إلى أفراد منها قيادة بعض الحملات العسكرية، فبرز منهم أُرْتُق الذي كان من الأبطال المغامرين، ثم أصبح من مماليك السلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان، وقدم له خدمات عسكرية كبيرة في جهات عدة فقاتل البيزنطيين في آسيا الصغرى سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، وقاتل قرامطة البحرين سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، وأخضع المنطقة للسلاجقة، واستولى على حُلْوان والجبُل وماجاورهما شرقي العراق، فولاه ملك شاه على حلوان وماوليها من العراق حتى سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م. وشارك في حملة السلاجقة الثانية على بلاد الشام وديار بكر، وكان له دور مهم في الاستيلاء على الموصل. ثم نقل خدماته إلى الشام ودخل في طاعة تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان وساعده في قتاله مع سليمان بن

قتلمش. ونظراً لما اتصف به أُرْتُق من الشجاعة والإقدام وحسن التوفيق في الحروب فقد أقطعه تُتُش القدس سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، لما لها من أهمية دينية من جهة، ولوقوعها على الخطوط الأمامية في الصراع بين السلاجقة والفاطميين من جهة أخرى، وتوفي أُرْتُق فيها سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، تاركاً حكمها لولديه سُقمان (سكمان) وإيلغازي.

يعد أُرْتُق واضع الكيان السياسي للأُراتقة، لأن القدس أصبحت مركز تجمعهم وحجر الزاوية في نشاطهم السياسي والعسكري. وبقي أبناؤه فيها حتى سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، وكان لهم شأن مهم في الصراع الذي شهدته بلاد الشام والمناطق التابعة للسلاجقة، فقد ظلوا على موالاتهم لتتش حتى مقتله سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وأسهم سُقمان وإيلغازي بعد تُتُش في أحداث الصراع الذي نشب بين ولديه رضوان ودُقاق.

وقد حاول رضوان ضم الأراتقة إلى صفه في صراعه مع أخيه دُقاق، فأقطع سُقمان معرة النعمان وأعمالها سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م، وكان تُتُش قد أقطعه سروج قبل ذلك. ونتيجة انتصار سُقمان في معركة القويق سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م على دقاق وحليفه يغي سيان (ياغي سيان) صاحب إنطاكية، أصبح له نفوذ كبير على رضوان. وبعد سقوط القدس بأيدي الفاطميين سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، (استولى الصليبيون على القدس بعد أحد عشر شهراً من ذلك الحين) سمح الأفضل بن بدر الجمالي لسُقمان وإيلغازي بالخروج آمنين إلى دمشق ومعهما ابن أخيهما ياقوتي، وابن عمهما سونج، فمضى سُقمان إلى ديار بكر وانفرد بالسلطة فيها لكثرة التركمان في المنطقة، ومكنته الظروف من الاستيلاء على حصن كَيْفا سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م، فاتخذه قاعدة لتوسيع ممتلكاته هناك فاستولى على حصن دارا القريب، وسيطر على بعض المقاطعات في أقصى الشمال، ثم استولى في السنة التالية على ماردين وأتبعها برأس العين وهكذا استطاع سُقمان في غضون سنتين فقط أن يضم إليه عدداً من المراكز العسكرية والاقتصادية المهمة في ديار بكر واتبع سياسة ودية مع الحكام المحيطين بإمارته ليثبت أقدامه في المنطقة فاعترف باستيلاء قليج أرسلان على ميّافارقين سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٥م، إلا أن حكم سُقمان لديار بكر لم يدم طويلاً فقد توفي في السنة نفسها.

أما إيلغازي ففارق أخاه بعد لجوئهما إلى دمشق وسار إلى بغداد وحصل على حلوان، التي كانت لأبيه، إقطاعاً له، وتسلم «شحنة» بغداد فلم يحسن السيرة فيها وتسببت فتنة سنة٤٩٦هـ/ ١١٠٢م في خروجه منها، فارتد إلى حلوان، وما إن علم بوفاة أخيه سُقمان حتى سار إلى ديار بكر واستولى على ماردين وبعض الحصون الأُرْتُقية الأخرى. على حين أخذ ابن أخيه إبراهيم بن سُقمان حصن كَيْفا، فانقسمت إمارة الأراتقة في ديار بكر إلى قسمين فكانت ماردين قاعدة إيلغازي بن أُرْتُق وأبنائه، وكان حصن كَيْفا قاعدة أبناء سُقمان بن أُرْتُق، وكان يتبع كلاً من هاتين الإمارتين عدد من الحصون والقرى، التي كانت تتسع أو تتقلص بحسب قوة الأراتقة وضعفهم من جهة، وبحسب الظروف العامة التي كانت تعيشها المنطقة من جهة أخرى. ولم يحاول أي من الطرفين في البداية توحيد الإمارتين لمجابهة الأخطار المحدقة بهما، بل كثيراً ماكانت العلاقات تسوء بين الإمارتين إلى درجة الحرب والغزو.

أما علاقة الأراتقة الرسمية بالخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية منذ تأسيسها حتى سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م، فقد كانت ودية فيما عدا مرات قليلة، وكانوا يخطبون للخلفاء العباسيين، وللسلاطين السلاجقة معاً ويضربون السكة باسمهم، ويقدمون لهم الطاعة والخضوع الاسمي، فضلاً عن وضع قواتهم، ولو اسمياً بتصرف السلاجقة. وربما أدوا إليهم قطيعة (إتاوة) سنوية بحسب ما هو مقرر في النظام الإقطاعي السلجوقي.

توسع دولة الأُرْتُقيين

سار إيلغازي أمير ماردين على سياسة أخيه سُقمان في استغلال الأحداث السياسية والعسكرية في ديار بكر، وفي الانضمام إلى بعض الأمراء على البعض الآخر، وتشكيل الأحلاف والتكتلات من أجل توسيع ممتلكاته في المنطقة. فقد استغل وفاة صاحب الموصل سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م ومانجم عنها من خلافات بين ورثته فضم نصيبين إلى أملاكه. ولما تولى الموصل مودود بن التونتكين سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م أخذها منه مقابل إقطاعه حرَّان، ثم ضم إليه الضياع التي كانت حول ميّافارقين. وساعدته الظروف سنة٥١١هـ/ ١١١٧م على ضم حلب ومايحيط بها بدعوة من أهلها لعجز أمرائها من أحفاد رضوان بن تُتُش وأوصيائهم عن حمايتها من الصليبيين، وبعد أن تم له الأمر عوض بعض أمرائها عدداً من المواقع والحصون المجاورة كبالس والقُلَيعة. وبهذا بلغت إمارة ماردين أقصى اتساعها.

لم يستطع إيلغازي الاستقرار في حلب فكان يتردد بينها وبين ماردين وأناب عنه على حلب ابنه حسام الدين تَمُرتاش، من دون أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بتعزيز دفاعها أمام الصليبيين، كما أن أبناءه لم يحسنوا الإدارة فيها، وكانت لهم فيها مظالم ومصادرات، إضافة إلى اختلافهم فيما بينهم. فقد خلع سليمان بن إيلغازي طاعة أبيه في حلب، فاضطر أبوه إلى التوجه إليها على جناح السرعة سنة ٥١٥هـ/ ١١٢٢م، ودخل حلب وسط مظاهر الحفاوة، فأخسن إلى أهلها، ورفع عنهم بعض الضرائب، ثم ارتد إلى ماردين في المحرم من سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م لخطر أحاق بها. ولم يلبث أن توفي في السنة نفسها ودفن في ميّافارقين، فانقسمت إمارة ماردين إلى إقطاعات في كل من حلب وميّافارقين وماردين وخَرْتَبرت، وسارعت القوى المحيطة إلى اقتطاع أجزاء منها إلا أن حسام الدين تمُرتاش بن إيلغازي تمكن سنة٥١٨هـ/ ١١٢٤م من إعادة توحيد إمارة أبيه واستعاد بالتدريج، ماسلخ منها.

لم تتضح في هذه المرحلة طبيعة العلاقات بين إمارة ماردين، وإمارة حصن كَيْفا. ويبدو أن إمارة كَيْفا كانت تتبنى سياسة انعزالية، فلم تسهم في الأحداث العامة سواء في ديار بكر أم في شمالي الشام.

علاقة الأُرْتُقيين مع القوى المجاورة

علاقتهم مع الزنكيين: تسلم عماد الدين زنكي سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م إمارة الموصل، فتغير ميزان القوى في الموصل وديار بكر والشام، ودخل الأراتقة مرحلة جديدة من حياتهم السياسية وعلاقاتهم الخارجية ونشاطهم العسكري.

فقد حل زنكي محل الأراتقة في حلب، وكان عليه أن يوجد جسراً بينها وبين الموصل، وكانت إمارات الأراتقة في ديار بكر قلب ذلك الجسر. فبدأ سنة ٥٢٣هـ/ ١١٢٩م بالاستيلاء على نصيبين، وأدرك الأراتقة مدى الخطر الذي

يحيق بممتلكاتهم من صاحب الموصل، فوحدوا جهودهم وتحالفوا سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م مع التركمان في المنطقة فقاتلهم زنكي بالقرب من دارا وهزمهم، واستولى على دارا وغيرها. ومع ذلك فضل عماد الدين زنكي اللجوء إلى الأساليب السياسية، وعمل على بث الفرقة في صفوف الأراتقة لتحقيق أغراضه، فتحالف مع تمُرتاش صاحب ماردين على ابن عمه داود بن سُقمان صاحب حصن كَيْفا الذي تولى الحكم بعد وفاة أخيه إبراهيم سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م. وتعاون زنكي وتمُرتاش على حصار آمد سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م كما استوليا معاً على قلعة الصور في السنة نفسها، وتخلى عنها زنكي لحسام الدين تمُرتاش تقديراً لمساعداته وتأكيداً لتحالفهما. وأدى هذا التعاون إلى ازدياد حدة الصراع بين فرعي الأراتقة. كذلك ساعد زنكي تمُرتاش على الاستيلاء على جبل جور والسيوان، وسلم له حصن دارا، في حين استولى تمُرتاش بنفسه على قلعة الهتّاخ من الدولة المروانية سنة ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م. أما زنكي فقد استولى على قلعة بهمرد سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م. ولما أدرك الأُرْتُقيون أن الخلاف الناشب بينهم لم يكن إلا في مصلحة زنكي سعوا في بداية سنة ٥٣٦هـ/ ١١٤١م، إلى تبادل الرسل، ودارت مفاوضات آلت إلى إقرار الصلح بينهم. وبادر زنكي الذي أدرك ما يحاك من ورائه إلى العمل السياسي مرة أخرى فتقرب من عدوه بالأمس صاحب حصن كَيْفا الأُرْتُقي وصالحه، وأقر له الأُرْتُقي بالطاعة، وخطب له بعد أن كان من أشد أعدائه في المنطقة، ونُبذ صاحب حصن ماردين فانعزل عنهما. وقد أدت هذه الخطوات إلى زيادة نفوذ عماد الدين زنكي في ديار بكر، فاستولى على عدد من القلاع والحصون في أقصى شمالي ديار بكر، ورتب أوضاعها، وأقام حامية عسكرية في كل منها، ثم صب جهوده لتصفية الإمارات الأُرْتُقية، وتهيأت له الظروف بوفاة صاحب حصن كَيْفا داود بن سُقمان سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م، فاستولى على مناطق مهمة من إمارة كَيْفا الأُرْتُقية واسترد بعض الحصون التي كان قد وهبها لحسام الدين تمُرتاش مثل جور وسيوان، وسيطر على أهم المناطق الاستراتيجية في ديار بكر واستقر له الأمر فيها. ولكن انشغال زنكي سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م بتحرير إمارة الرها من الصليبيين أتاح الفرصة لتمُرتاش الأُرْتُقي صاحب ماردين، كي يوثق علاقاته بالإمارات المحلية المجاورة له بسلسلة من المصاهرات بين أفراد الأسرة الأُرْتُقية، وخلا الجو لتمُرتاش وابن عمه قره أرسلان بن داود بمقتل زنكي سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م وهو يحاصر قلعة جعبر. فسعيا إلى استرداد المواقع التي استولى عليها زنكي في ديار بكر، وحققا في مسعاهما نجاحاً مؤقتاً، إذ تصدى لهما سيف الدين غازي ابن زنكي (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) من الموصل واسترد معظم ما استولى عليه صاحبا حصن كَيْفا وماردين. وتابع أخوه نور الدين محمود ابن زنكي المهمة من عاصمته في حلب فتحالف مع صاحب حصن كَيْفا، وأفسح له في المجال لتصفية بعض إمارات المناطق المحيطة به. توفي حسام الدين تمُرتاش سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، وتولى الإمارة من بعده ابنه نجم الدين ألبي، فسيطر على جميع أملاك أبيه، ولم يختلف عليه أحد، ولم يعص عليه موضع. وظلت علاقات نور الدين محمود مع صاحب حصن كَيْفا قره أرسلان بن داود جيدة حتى وفاة قرة أرسلان سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م واستمرت هذه العلاقة على حالها مع صاحب كَيْفا الأُرْتُقي الجديد محمد بن قره أرسلان، الذي ساعد نور الدين محمود على بسط سيطرته على الموصل. وبعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م تعرضت المواقع القريبة من ماردين لهجمات أمير الموصل، إلا أنه لم يتعرض لماردين نفسها.

وهكذا يبدو أن إمارتي ماردين وحصن كَيْفا دخلتا في طاعة نور الدين من الناحية الرسمية (الخطبة والسكة) على اختلاف مواقفهما منه وقد تأكد ذلك في صورته النهائية سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، عندما أرسل نور الدين محمود إلى الخليفة العباسي في بغداد رسالة يطلب منه فيها تقليداً بما في يده من البلاد وما في طاعته كديار بكر، فأجابه الخليفة إلى طلبه. كذلك ظل الأراتقة يخطبون لسلاطين السلاجقة، ويضربون السكة باسمهم، طول مدة حكم زنكي ونور الدين ولم تعد العلاقات بين الأراتقة والزنكيين بعد وفاة نور الدين على جانب من الأهمية لانشغال الزنكيين في الموصل بالنزاع مع الأيوبيين.

علاقات الأرتقين مع الأيوبيين: عمل صلاح الدين الأيوبي على توحيد مصر وبلاد الشام وفيها الجزيرة والموصل تحت قيادته ليتسنى له جهاد الصليبيين، وقد وقف الأراتقة في بداية حكمه إلى جانب الأمراء المحليين في المنطقة، إلا أن ما أحرزه صلاح الدين من انتصارات على هؤلاء الأمراء وفي مقدمتهم صاحب الموصل اضطر معظم الأراتقة إلى التخلي عن موقفهم العدائي لصلاح الدين فدخلوا في طاعته وتوجه وفد مشترك من الموصل وماردين وكَيْفا إلى دمشق سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م لتقديم فروض الطاعة.

وقد توثقت علاقات صلاح الدين مع الأُرْتُقيين بعد ذلك حتى إنهم كانوا في بعض الحالات يطلبون معونته على أعدائهم من سلاجقة الروم. وكان صلاح الدين يقدم لهم المعونة ليضمن بقاء المنطقة على خضوعها. وقد توصل صلاح الدين في سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م إلى عقد صلح شامل شارك فيه أمراء الموصل وديار بكر والأُرْتُقيون وسلاجقة الروم. ويتمتع الأُرْتُقيون بموجبه بحماية صلاح الدين الكاملة، وقد اضطره هذا الأمر إلى استخدام القوة أكثر من مرة لفض المشاكل بين الأراتقة وجيرانهم.

ولم يستمر هذا الاستقرار طويلاً، إذ أدى الشقاق بين الأمارات الأُرْتُقية بسبب تضارب المصالح والأهداف إلى سياسة متعارضة، فاستمر أمير حصن كَيْفا على ولائه لصلاح الدين، وحصل من جراء ذلك على مكاسب مهمة في حين حاول صاحب ماردين الانضمام إلى الأحلاف المعادية لصلاح الدين. وكان من نتائج ذلك أن توجه صلاح الدين سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م إلى الجزيرة الفراتية فاستولى على عدد من مدنها، ثم تقدم إلى الموصل وحاصرها، وكان لأمير كَيْفا دور مهم في حصارها، وحصل لقاء موقفه هذا على عدد من الحصون المهمة في ديار بكر، كقلعة الهيثم، وقلعة الجديدة القريبة من نصيبين، كما حصل سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م على آمد التي غدت لمناعتها مركزاً آخر لأُرْتُقيي كَيْفا. وقد شجعت المكاسب التي حصل عليها الأُرْتُقي من صلاح الدين صاحب ماردين على الدخول في طاعة صلاح الدين وطلب حمايته. فأقر الأراتقة على ما بأيديهم، وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه، ويصدروا عن أمره ونهيه. ورتب معهم من يراقب مدى تنفيذ التزاماتهم تجاهه، وخُطب له في الولايات الأُرْتُقية، وضربت النقود باسمه.

واستمر الهدوء حتى عين صلاح الدين ابن أخيه المظفر تقي الدين عمر على كل المناطق الواقعة شرقي الفرات، بعد أن اشترط عليه المحافظة على أميري كَيْفا وماردين فلم يفعل، ولما توفي المظفر وضع ابنه ناصر الدين يده على بلاد الجزيرة، فأخرجه صلاح الدين منها، وبرزت إلى الوجود في هذه الأثناء إمارة أُرْتُقية جديدة أسسها عماد الدين بن قره أرسلان في خَرْتَبِرت. وكان عماد الدين هذا قد ناب عن أخيه نور الدين صاحب كَيْفا وآمد في حصار الموصل إلى جانب صلاح الدين سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، ولما توفي نور الدين في السنة نفسها استتب الأمر في حصن كَيْفا لأكبر أبنائه قطب الدين سُقمان، فانتقل عماد الدين قره أرسلان إلى خَرْتَبِرت، وهي من أملاك الإمارة، فاستولى عليها وجعلها إمارة له استمرت حتى عام ٦٣١هـ/ ١٢٣٣م، وكانت تلوذ بسلاجقة الروم كلما حاق بها خطر، وكان سقوطها على أيديهم أيضاً، ولم يكن لها شأن يذكر في أحداث المنطقة سوى كونها إمارة حاجزة في أقصى شمالي ديار بكر.

وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م حاول صاحب ماردين الخروج عن طاعة الأيوبيين مع غيره من أمراء المنطقة لكنه أخفق وعقد مع الملك العادل صلحاً على جميع شروط صلاح الدين. إلا أن محاولات صاحب ماردين للخروج عن طاعة الأيوبيين لم تلبث أن تجددت في عهد حسام الدين يولق سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧م، فأرسل العادل قوات من الشام استولت على بعض مدن الإمارة وألقت الحصار على ماردين، ولكن وفاة الملك العزيز بن صلاح الدين في السنة التالية، وانشغال العادل في أحداث مصر والشام، اضطراه إلى رفع الحصار عن ماردين، في حين ظل أمير كَيْفا الأُرْتُقي على الحياد، وبعد سنتين من رفع الحصار عاد أمير ماردين إلى إثارة المشاكل في وجه الأيوبيين مستغلاً الخلافات المستحكمة بينهم وجعل من حاضرته ملجأ للخارجين على العادل من أمرائهم، فقرر الملك العادل تصفية هذه الإمارة نهائياً وسير في عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م جيشاً بقيادة ابنه الملك الأشرف موسى وكلفه الاستيلاء على ماردين، ولم ينجح الحصار مرة أخرى لمناعة أسوار المدينة، وقبل العادل عقد صلح مع صاحبها على أن يحمل إليه ١٥٠ ألف دينار كل سنة، وأن يخطب له في بلاده، ويضرب اسمه على السكه، وأن تكون قواته في خدمة الملك العادل في أي وقت يطلبها. في حين ظل صاحب كَيْفا وآمد ملتزماً سياسته الودية التقليدية مع الأيوبيين.

وبعد وفاة الملك العادل اجتمع الأُرْتُقيون والخورازمية على الخروج على طاعة الملك الأشرف الأيوبي سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م، ولكن دخول سلاجقة الروم في النزاع أدى إلى عودة الأراتقة إلى طاعة السلطان الكامل بن العادل الذي غدت الجزيرة من ممتلكاته. ولم يكتف الكامل بهذه الطاعة فتوجه إلى آمد على رأس جيش ضم أمراء الأيوبيين سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م، فاستولى عليها وعلى كل الحصون التي كانت تتبع إمارة كَيْفا وآمد من دون مقاومة تذكر، ثم حاصر حصن كيفا الذي سقط في يده سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م منهياً بذلك إمارة كَيْفا وآمد الأُرْتُقية التي عاشت نحو قرن ونصف (٤٩٥-٦٣٠هـ/ ١١٠١-١٢٣٢م) وتبعها في السقوط إمارة خَرْتَبِرت بعد سنة، في حين استمر بقاء إمارة ماردين مايقرب من القرنين بعد ذلك. إذ أتاح سقوط كَيْفا وآمد في المجال لماردين لتوسيع نفوذها ولاسيما أن الملك الصالح أيوب - حاكم المنطقة زمن سقوط إمارتي كَيْفا وخَرْتَبِرت - كان مايزال صبياً، ولم تكن لديه القوة والدرايه بعد. فوقف منه صاحب ماردين ناصر الدين أُرْتُق أرسلان المنصور موقف العداء ساعياً إلى زيادة أملاكه على حساب الأملاك الأيوبية بمفرده تارة أو بالتحالف مع جيرانه تارة أخرى، وزاد في تماديه بعد وفاة الكامل سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م، فهاجم المواقع الأيوبية مستعيناً بالمرتزقة الخوارزمية فعمت الاضطرابات المنطقة من جديد، وانحصر الصراع مايقرب العقد والنصف على نصيبين بين صاحب ماردين الأُرْتُقي وصاحب الموصل الأيوبي، ولم يتوقف الصراع بينهما، إلا بتدخل صاحب حلب الأيوبي ورسل الخليفة العباسي لتوحيد الصفوف أمام هجمات المغول المتكررة. وكان ذلك في عهد نجم الدين غازي الأول السعيد. وقد أدى هذا الصراع إلى إضعاف إمارات المنطقة وساعد المغول على تثبيت أقدامهم في الجزيرة الفراتية.

علاقات الأُرْتُقيين مع المغول والمماليك: أسهم الأُرْتُقيون في تفتيت وحدة المنطقة بالأحلاف والتكتلات التي أقاموها في وجه الأيوبيين وللحصول على أسلاب جديدة. وكان صاحب ماردين يعتقد أنه قادر على توسيع سلطانه على حساب أبناء عمومته. وفي هذه المرحلة، ظهر الخوارزميون الفارون من وجه المغول ويقودهم سلطانهم جلال الدين منكبرتي قوة جديدة في تيار أحداث الجزيرة وأرمينية، وكان الأُرْتُقيون وجيرانهم من الأمراء المحليين ينضمون إلى جلال الدين الخوارزمي على الأيوبيين وأنصارهم تارة أو ينضمون إلى الأيوبيين على الخورازميين تارة أخرى. وقد فتت هذا الصراع قوى هذه الإمارات الصغيرة، فمكن للمغول في المنطقة. وبعد أن نجح هؤلاء بالقضاء على جلال الدين منكبرتي، انفتح الطريق أمامهم إلى ديار بكر، فدخل الأُرْتُقيون سنة ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م في طاعة المغول وحمايتهم، وأسرع الملك السعيد صاحب ماردين إلى تقديم فروض الطاعة لخان المغول، ولكن هولاكو لم يثق به وقرر احتلال ماردين، فحاصرها في جمادى الأولى سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م وتمكن من دخولها بعد أيام، وظل القتال دائراً في شوارع المدينة ثلاثة وستين يوماً، واستعصت القلعة فلم تسقط إلا في رمضان سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م، وكان الملك السعيد قد توفي في أثناء الحصار، وخلفه ابنه المظفر قرة أرسلان، فسلمه هولاكو حكم ماردين وضم إليه بعض مدن ديار بكر، وأبقى فيها قوة لحفظ المعابر، فغدت إمارة ماردين الأُرْتُقية ولاية مغولية، تلتزم ما يطلبه منها سلاطين المغول ونوابهم في ديار بكر، وتقدم لهم المال والإمدادات العسكرية، وتضرب السكة باسمهم وتخطب لهم. وتحولت الإمارة إلى مركز من مراكز تجمع المغول وقاعدة خلفية تحمي مؤخراتهم في توغلهم في بلاد الشام وفي صراعهم مع المماليك. وقدم الأُرْتُقيون خدمات جليلة للمغول في حصار الموصل سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م. كما قاتل صاحب ماردين إلى جانب المغول حين قدمت قوات المماليك إلى ديار بكر لقتال المغول في السنوات ٦٧٣-٦٧٤-٦٧٥هـ/ ١٢٧٤-١٢٧٥-١٢٧٦م. وأسهم كذلك في الهجمات التي قام بها المغول على الشام سنة ٦٧٩-٦٨٠هـ/ ١٢٨٠-١٢٨١م، وفي سنة ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م حدث تحول في مجرى العلاقات السياسية والعسكرية بين المغول والمماليك إثر إعلان بكدار بن هولاكو إسلامه، فتسمى باسم أحمد. وتغيرت تبعاً لذلك

علاقات إمارة ماردين مع المماليك فدخل المغول والمماليك في مفاوضات في زمن السلطان قلاوون، وكان وزير الأُرْتُقيين في ماردين بين أعضاء الوفد المفاوض، ولكن مقتل أحمد بن هولاكو في أثناء تلك المفاوضات أدى إلى إنهائها، وبقي وزير صاحب ماردين معتقلاً. ولجأ أصحاب ماردين في هذه المرحلة إلى اتباع سياسة مزدوجة بسبب تحول ديار بكر إلى منطقة احتكاك دائم بين المماليك والمغول، فكانوا يقاتلون إلى جانب المغول ثم يخذلونهم في آن واحد، وهذا ماحدث عندما حاصر المغول قلعة الرحبة (قرب الميادين في سورية اليوم) سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، وأمدهم صاحب ماردين محمود بن غازي بقواته ومعداته ثم انسحب خوفاً من بطش المماليك، بعد أن أوهم المغول بضخامة إمكانات المماليك ليضطرهم إلى التخلي عن الحصار من دون قتال، كذلك صاهر محمود بن غازي المغول وذهب بنفسه سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م إلى حاضرتهم في بلاد فارس حاملاً معه المبالغ النقدية والعينية المقررة بين الطرفين، فأكرم خان المغول وفادته، ولما عاد إلى ماردين أرسل رسوله إلى القاهرة في العام نفسه، حاملاً رسالة شخصية إلى السلطان الملك الناصر. وقد قبل المماليك هذا الولاء المزدوج من صاحب ماردين في البداية، ولكنهم رفضوه بعد أن أصبحوا قوة لايستهان بها، في حين أخذت عوامل الضعف تعمل في دولة المغول، وانتهى الأمر بصاحب ماردين إلى الخضوع للمماليك سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م والخطبة لهم وضرب السكة باسمهم إثر وفاة أبي سعيد خان المغول في فارس والعراق وظلوا على ولائهم هذا حتى سقوط دولة الأُرْتُقيين في ماردين.

وقد نعم الأُرْتُقيون في هذه المدة ببعض الهدوء والاستقرار باستثناء حالات قليلة، وتعرض الأُرْتُقيون في أثناء ذلك إلى ضغط بعض فروع المغول في بغداد والمشرق، فهاجم حسن الجلائري سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م إمارة ماردين، واستولى على عدد من ضياعها، كما استحكم العداء بين الأُرْتُقيين وحكام الموصل وسنجار في سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م.

موقف الأُرْتُقيين من تيمورلنك وسقوط إمارة ماردين: أثر ظهور تيمورلنك تأثيراً مباشراً في سير الأحداث في منطقة ديار بكر، وفي علاقات الأُرْتُقيين مع الدول الأخرى. فقد غدت ماردين مركزاً لاستخبارات المماليك واستطلاعاتهم عن تحركات تيمورلنك، وسعى تيمورلنك من جانبه إلى فرض سيطرته على ماردين فبدأ بمراسلة صاحبها وإغرائه بالطاعة له، ولكنه اعتذر لارتباطه بالمماليك. إلا أن الأوضاع سرعان ماتبدلت عندما هاجم تيمورلنك بغداد سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٣م ودخلها، ثم تقدم إلى تكريت فالموصل، واستولى على عدد كبير من مدن ديار بكر وحصونها، وخرب مناطق كثيرة منها، وأطاعه عدد من حكام المنطقة. ولما لم يحرك المماليك ساكناً، وجد صاحب ماردين الملك الظاهر عيسى الأُرْتُقي نفسه مضطراً إلى تقديم فروض الطاعة إلى تيمورلنك وطلب الأمان منه، إلا أنه لم يقبل بتسليم ماردين وقلعتها على الرغم من تهديده بالقتل فأبقاه تيمورلنك أسيراً لديه.

هاجم تيمورلنك ماردين سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م. فاستعصت القلعة عليه واضطر إلى فك الحصار عنها، ثم لجأ إلى الحيلة للسيطرة على ديار بكر، فأخرج الملك الظاهر عيسى من سجنه سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م وأعطاه حكم مناطق عدة في ديار بكر، واشترط عليه أن يكون في حمايته وأن يساعده عسكرياً، وأن يلبي دعوته بالقدوم إليه كلما طلب منه ذلك، وأن يضرب السكة باسمه، وأن يخرج عن طاعة المماليك ويقبض على أمير ماردين الذي ناب عنه في أثناء سجنه علاء الدين الطنبغا. فحلف له الظاهر على ذلك. وهكذا خضع الأُرْتُقيون لتيمورلنك اسمياً، ولكنهم تمتعوا بنوع من الاستقلال بسبب انشغال تيمورلنك عنهم بمشاكل كثيرة. بل إن الظاهر عيسى أعاد الخطبة للسلطان المملوكي برقوق سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م. وأبى تلبية دعوة تيمورلنك للحضور بين يديه سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م. فحاصر تيمورلنك ماردين ثانية، ولكنه أخفق من جديد في الاستيلاء عليها، وأثبتت ماردين مرة أخرى قدرتها على مقاومة أقوى دولة في الشرق آنذاك، ولكن الحصار ألحق أضراراً بالغة بالإمارة وأحالها إلى خراب، فغادرها عدد كبير من سكانها ولم تنهض من كبوتها أو تستعيد ازدهارها وعمرانها بعد ذلك، فلجأ أصحابها إلى اتباع سياسة الحياد، وعدم استفزاز تيمورلنك أو المماليك. وكثر الطامعون بالإمارة التي كانت تتعرض باستمرار لهجمات القبائل التركمانية في المنطقة، ولاسيما الآق قوينلو، فزاد ذلك في ضعفها، وعم الخراب ربوعها، وفقدت كل مقوماتها الدفاعية، وتمكن قره يوسف أمير دولة القره قوينلو من إسقاطها سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، فقتل عدداً كبيراً من أبناء البيت الأُرْتُقي، ودس السم لآخر أمرائها.

علاقة الأُرْتُقيين بالصليبيين: كان الأراتقة في غالب الأحيان ينضوون تحت لواء حلف مسلم لمجابهة خطر الصليبيين، أو يتزعمون في أحيان أخرى حركة الجهاد ضدهم. إلا أن ظروفاً معينة كانت تدفعهم إلى الانحياز إلى جانب الصليبيين مدة قصيرة أو التحالف معهم على القوى العربية الإسلامية، ثم يرتدون بعد ذلك إلى حظيرة المسلمين في ظل شخصية عربية إسلامية قوية تجاهد الصليبيين. ففي المرحلة الأولى من الاحتلال الصليبي لسواحل بلاد الشام استجاب الأُرْتُقيون إلى نداءات الأمراء المسلمين وتحالفوا معهم لمجابهة ذلك الخطر. وأرسلوا قوة سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م لمنع احتلال الصليبيين لأنطاكية لكنها انهزمت عند حارم. كذلك انضم الأُرْتُقيون إلى حلف كربوقا أمير الموصل وظلوا يقاتلون الصليبيين إلى جانبه إلى أن فقدوا الأمل في النصر فآثروا الانسحاب. وخسر الأُرْتُقيون في موجة التوسع الصليبي الأولى مدينة سروج، وتبادلوا الهجمات، بينهم وبين الصليبيين الذين استولوا على الرها.

كذلك قاتل الأُرْتُقيون الصليبيين إلى جانب حاكم الموصل جكرمش سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م في معركة عرفت باسم معركة البليخ أو حران، فهزموا الصليبيين وأسروا كلاً من بلدوين وجوسلين، وحرر سُقمان الأُرْتُقي عدداً من حصون المنطقة، وقد قضت هذه المعركة على آمال الصليبيين في التوسع شرقاً باتجاه العراق. واستطاع سُقمان في السنة نفسها أن يسحق قوة صليبية خرجت من الرها تريد الرقة. كما انضم بعد سنة إلى قوة قدمت لنجدة فخر الملك ابن عمار وردت الصليبيين عن طرابلس.

وعند وفاة سُقمان سنة ٤٩٨هـ/ ١١٠٤م، تسلم أخوه إيلغازي مهمة قتال الصليبيين، فتحالف مع بقية الأمراء المسلمين على الصليبيين، وتولى بنفسه قيادة هذا الحلف أكثر من مرة. كما انضم سنة ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م إلى حلف حاكم الموصل مودود بن التونتكين لقتال الصليبيين، وحاصر معه الرها، وأرسل ابنه على

رأس قوة للانضمام إلى جيوش المسلمين التي حاصرت الرها وتل باشر أواخر سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م، وأعاد الكرة سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م. وبعد هذا التاريخ مال إيلغازي إلى مهادنة الصليبيين، بسبب العداء بينه وبين البُرْسُقي الذي قاد حركة الجهاد. وقد أدى موقفه هذا إلى انتصار الصليبيين في معركة تل دانث، وأدرك إيلغازي خطأه، فأخذ في السنوات التالية يكيل لهم أقسى الضربات بالاشتراك مع حليفه طغتكين أتابك دمشق ثم تسلم مركز الزعامة في قتالهم بعد توليه حكم حلب سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م وقاد بنفسه القتال في معركة ساحة الدم الشهيرة (قرب عفرين) سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م والتي قتل فيها روجر أمير أنطاكية ومعظم رجاله وفرسانه. وأعقب ذلك سلسلة من الانتصارات أبعدت الصليبيين عن حلب. وتابع بَلَك بن بهرام ابن أخي إيلغازي سياسة عمه. فانتصر على جوسلين أمير الرها وأسره، كما أسر بلدوين الثاني سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م في قلعة خَرْتَبرت، وكان بلدوين هذا ملك بيت المقدس، ووصياً على إمارتي الرها وأنطاكية، واستمر بَلَك على قتال الصليبيين إلى أن قتل بسهم أصابه عند حصن منبج سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وانتهت بمقتله مرحلة قيادة الأُرْتُقيين لحركة الجهاد، وانشغلوا بمسائل إمارتهم الداخلية.

وعلى الرغم من عزلة الأُرْتُقيين في هذه المرحلة، فإنهم عملوا على مساعدة عماد الدين زنكي والإفادة من الانتصارات التي حققها على الصليبيين في إمارة الرها، ومن الاضطراب الذي عم الإمارة.

ولما قضى عماد الدين زنكي على إمارة الرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م استولى الأُرْتُقيون على البيرة، وكركر، وحصن منصور وسميساط. وبعد وفاة عماد الدين انضم الأُرْتُقيون إلى نور الدين محمود بن زنكي في قتاله للصليبيين وأخلصوا له، وغدت القوة الأُرْتُقية جزءاً مهماً من جيشه المقاتل للصليبيين، وكذلك فعلوا في أثناء سلطنة صلاح الدين الأيوبي. وقد استطاع الأُرْتُقيون في هذه المرحلة انتزاع بعض المواقع الصليبية القريبة من إمارتهم ولاسيما تلك التي بقيت بأيدي الصليبيين من إمارة الرها.

وعلى ذلك فقد كان للأُرْتُقيين دور مهم في قتال الصليبيين في عهد الزنكيين والأيوبيين، إذ مكنوا صلاح الدين من تعزيز قواته وتحقيق سلسلة من الانتصارات على خصومه. وقدمت إمارة كَيْفا في هذه المرحلة أكثر مما قدمته إمارة ماردين، وكان الدافع الرئيسي لذلك تعرض إمارة ماردين لضغط صلاح الدين في تحركاته في منطقة الجزيرة، وانتزاعه بعض ممتلكاتها ومنحها أمراء حصن كَيْفا.

استمرت مواقف الأُرْتُقيين من الصليبيين تترجح بين مناهض ومهادن بعد وفاة صلاح الدين، كما حدث في الأعوام ٥٨٩ -٥٩٣ - ٦٠٤-٦٠٨-٦١٨هـ/ ١١٩٣-١١٩٦-١٢٠٧ - ١٢١١ - ١٢٢١م..

أهم مظاهر الحضارة في زمن الأُرْتُقيين

تنوع سكان البلاد التي دانت للأُرْتُقيين ما بين التركمان والعرب والأكراد من مسلمين ومسيحيين على اختلاف طوائفهم، وبعض اليهود والصابئة. وقد عامل الأُرْتُقيون رعاياهم على اختلاف مذاهبهم معاملة طيبة وعرف عنهم تسامحهم في هذا المجال.

وكان نظام الحكم في الإمارات الأُرْتُقية وراثياً، ولم يُشذ عن هذه القاعدة إلا في عهد قطب الدين سُقمان أمير آمد وحصن كَيْفا، إذ عهد بولاية العهد إلى مملوك له يدعى إياز. وتسمى الأُرْتُقيون في البدء بالأمراء ثم بالملوك، وأول من حمل منهم لقب ملك هو أُرْتُق أرسلان سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م فتسمى بالملك المنصور ثم اتخذوا بعد ذلك لقب السلطنة، وأول من تسلطن منهم نجم الدين المنصور غازي (ت٧١٢هـ/ ١٣١٢م). واستمر خلفاؤه يحملون هذا اللقب حتى سقوط إمارة ماردين. وكانوا يضيفون نعتين إلى أسمائهم.

كانت السلطة بيد الأمير أو الملك، ويساعده جهاز إداري على رأسه الوزير الذي تمتع بصلاحيات واسعة في العهود الأولى من حكم الأُرْتُقيين، وهو الذي يعين بعض كبار الموظفين كالشحنة والمشرف على الوقف وغيرهما، وكان الأُرْتُقيون يتوخون في وزرائهم العلم والثقافة، وقد أحدث منصب نائب السلطنة في ماردين في زمن متأخر. أما الولاة على المدن والقلاع فكانوا يكلفون حفظها وصيانتها وتفقد أسوارها وفتح أبوابها وإغلاقها، ولم يكن بقاؤهم في مناصبهم يدوم طويلاً، ومن كبار موظفي الدولة ناظر الديوان، ويساعده في تسيير شؤون ديوانه عدد من الموظفين كالوكيل ومستوفي الدولة والناصح، ومنهم كذلك الحاجب وكاتب الإنشاء والمحتسب. وقد حظي القضاء وبعض المناصب المرتبطة به كالخطابة والإفتاء بعناية كبيرة. وكان للقضاة دور مهم في السفارات السياسية، واشتهر عدد كبير منهم.

كانت الزراعة أهم المجالات الاقتصادية لخصب المناطق التابعة للأُرْتُقيين، وكانت المنطقة كثيرة البساتين والضياع والقرى والرساتيق الزراعية، فقد كان لميّافارقين وحدها في مطلع القرن السادس الهجري مئتان وخمس وستون قرية وضيعة زراعية. وكان الإنتاج الزراعي متنوعاً وأهم المحاصيل الفواكه المتنوعة والبقول والخضروات والقطن. وساعد على ازدهار المنطقة زراعياً ما كان فيها من ثروة مائية واسعة، وسهول فسيحة، إلا أن الأحداث السياسية والعسكرية كانت تلقي بظلالها على الزراعة إضافة إلى العوامل الطبيعية.

وكانت حركة التجارة عند الأُرْتُقيين نشطة، وساعد في نشاطها الاتفاقيات التجارية مع الإمارات المجاورة ووقوع عدد من أهم مدن ديار بكر، كدنيسر ونصيبين وغيرهما، على الطرق التجارية الرئيسية بين العراق والجزيرة وأرمينية والشام وفارس. وقد شملت التجارة المنتجات الزراعية والمواد الخام، والمصنوعات.

اهتم الأُرْتُقيون ببناء المدارس في مختلف مدنهم وأنفقوا عليها مبالغ كبيرة، ورتبوا لها الأرزاق والوظائف والأوقاف ولاسيما في ماردين وحلب وغيرهما. كذلك اهتموا ببناء المساجد وتجديدها. وببناء القصور الفخمة كقصر ماردين. وكان بلاط الأُرْتُقيين قبلة لكبار الشعراء مثل صفي الدين الحلي الذي مدح نجم الدين غازي الثاني المنصور بتسع وعشرين قصيدة بعدد حروف المعجم، وقد عد «لا» حرفاً منها بين الواو والياء وسماها «درر النحور في مدائح الملك المنصور» وعرفت بالأُرْتُقيات، كما سميت «الروضة» وكذلك قصد بلاط الأُرْتُقيين الأمير أسامة بن منقذ [ر]، والحسن بن خالد ابن محضر النصراني الماردِيني الملقب بالوحيد، والديار بكري المشهور يحيى بن سلامة الحصفكي، الذي برع في فنون عدة ولاسيما الشعر، كما برز مار يوحنا في علوم الهندسة والمساحة، وأسهمت المؤسسات الكنسية بنصيب وافر في الحركة الثقافية التي ازدهرت في ديار بكر، فألف رجال الدين الكتب

واستنسخوها وجمعوها، وأنشؤوا المكتبات والمعاهد الدينية في العلوم المختلفة العقلية والنقلية. كما كانت الندوات الأدبية تعقد في مجالس الملوك، وتمنح الجوائز للمبرزين. وخرجت ديار بكر عدداً من الأدباء والعلماء، عم نشاطهم العلمي والأدبي مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وأسهموا في تنشيط الحركة الثقافية، وتحفل كتب التاريخ بأسماء عدد كبير منهم. وكان بعض ملوك الأُرْتُقيين من العلماء كحسام الدين تمرتاش الذي برع في الحكمة والفلسفة، ووقف على المشهد الذي بناه كتباً حكمية. وظهر في ديار بكر عدد من المتصوفة الذين لقوا تشجيعاً كبيراً في المنطقة وبنيت لهم الربط والخانقاوات وذاعت طرقهم الصوفية في بقية البلاد، كذلك اتخذ الأُرْتُقيون المغنين والموسيقيين والجواري ومالوا إلى حفلات السمر واللهو، وكانت لهم جولات للصيد والقنص واحتفالات في المناسبات والأعياد.

أمراء الأُرْتُقيين وسني ملكهم في كل إمارة

أُرْتُقيو كَيْفا وآمد

١ ـ سُقمان بن أُرْتُق معين الدولة

٤٩٥ ـ ٤٩٨هـ/ ١١٠١ ـ ١١٠٤م

٢ ـ إبراهيم بن سُقمان

٤٩٨ ـ ٥٠٢هـ/ ١١٠٤ ـ ١١٠٨م

٣ ـ داود بن سُقمان ركن الدولة

٥٠٢ ـ ٥٤٣هـ/ ١١٠٨ ـ ١١٤٨م

٤ ـ قره أرسلان بن داود فخر الدين

٥٤٣ ـ ٥٧٠هـ/ ١١٤٨ ـ ١١٧٤م

٥ ـ محمد بن قره أرسلان نور الدين

٥٧٠ ـ ٥٨١هـ/ ١١٧٤ ـ ١١٨٥م

٦ ـ سُقمان بن محمد قطب الدين

٥٨١ ـ ٥٩٧هـ/ ١١٨٥ ـ ١٢٠٠م

٧ ـ محمود بن محمد ناصر الدين

٥٩٧ ـ ٦١٩هـ/ ١٢٠٠ ـ ١٢٢٢م

٨ ـ مودود بن محمود المسعود ركن الدين

٦١٩ ـ ٦٣٠هـ/ ١٢٢٢ ـ ١٢٣٢م

أُرْتُقيو مارِدين

١ ـ إيلغازي بن أُرْتُق نجم الدين

٥٠٢ ـ ٥١٦هـ/ ١١٠٨ ـ ١١٢٢م

٢ ـ تمُرتاش بن إيلغازي حسام الدين

٥١٦ ـ ٥٤٧هـ/ ١١٢٢ ـ ١١٥٢م

٣ ـ ألبي بن تمُرتاش نجم الدين

٥٤٧ ـ ٥٧٢هـ/ ١١٥٢ ـ ١١٧٦م

٤ ـ إيلغازي بن ألبي قطب الدين

٥٧٢ ـ ٥٨٠هـ/ ١١٧٦ ـ ١١٨٤م

٥ ـ يولق أرسلان بن إيلغازي حسام الدين

٥٨٠ ـ ٥٩٧هـ/ ١١٨٤ ـ ١٢٠٠م

٦ ـ أُرْتُق أرسلان بن إيلغازي ناصر الدين المنصور ٥٩٧ ـ ٦٣٧هـ/ ١٢٠٠ ـ ١٢٣٩م

٧ ـ غازي بن أُرْتُق نجم الدين السعيد

٦٣٧ ـ ٦٥٨هـ/ ١٢٣٩ ـ ١٢٦٠م

٨ ـ قره أرسلان بن غازي المظفر

٦٥٨ ـ ٦٩١هـ/ ١٢٦٠ ـ ١٢٩٢م

٩ ـ داود بن قرة أرسلان شمس الدين

٦٩١ ـ ٦٩٣هـ/ ١٢٩٢ ـ ١٢٩٤م

١٠ ـ غازي بن قره أرسلان نجم الدين

٦٩٣ ـ ٧١٢هـ/ ١٢٩٤ ـ ١٣١٢م

١١ ـ علي ألبي بن غازي عماد الدين العادل

٧١٢هـ/ ١٣١٢م

١٢ ـ محمود بن غازي شمس الدين الصالح

٧١٢ ـ ٧٦٥هـ/ ١٣١٢ ـ ١٣٦٣م

١٣ ـ أحمد بن محمود المنصور

٧٦٥ ـ ٧٦٩هـ/ ١٣٦٣ ـ ١٣٦٧م

١٤ ـ محمود بن أحمد الصالح

٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م

١٥ ـ داود بن محمود المظفر

٧٦٩ ـ ٧٧٨هـ/ ١٣٦٧ ـ ١٣٧٦م

١٦ ـ عيسى بن داود مجد الدين الظاهر

٧٧٨ ـ ٨٠٩هـ/ ١٣٧٦ ـ ١٤٠٦م

١٧ ـ أحمد بن السعيد اسكندر الصالح شهاب الدين ٨٠٩ ـ ٨١٢هـ/ ١٤٠٦ ـ ١٤٠٩م

أُرْتُقيو خرْتبِرت

١ ـ بلك بن قره أرسلان أبو بكر عماد الدولة

٥٨١ ـ ٦٠٠هـ/ ١١٨٥ ـ ١٢٠٣م

٢ ـ إبراهيم بن أبو بكر نظام الدين

٦٠٠ ـ ٦٢٠هـ/ ١٢٠٣ ـ ١٢٢٣م

٣ ـ الخضر بن إبراهيم عز الدين

٦٢٠ ـ ٦٣١هـ/ ١٢٢٣ ـ ١٢٣٣م

٤ ـ أُرْتُق شاه بن الخضر نور الدين المعز

٦٣١ توفي ٦٦٠هـ

أمينة بيطار

الموضوعات ذات الصلة:

الأيوبيون ـ التركمان ـ تيمورلنك ـ الحروب الصليبية ـ الزنكيون ـ السلاجقة ـ عماد الدين زنكي ـ الفاطميون ـ ملك شاه ـ نور الدين محمود ـ هولاكو.

مراجع للاستزادة:

ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ (دار صادر، بيروت ١٩٦٥م).

ـ ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب (المعهد الفرنسي، دمشق ١٩٥٤).

ـ أبو شامة، تاريخ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ١٩٥٦م).

■ أرتو (أنطونان ـ)
(١٨٩٦ ـ ١٩٤٨)

أنطونان أرتو Antonin Artaud شاعر وكاتب مسرحي فرنسي، ولد في مرسيلية، وتوفي في إيفري ـ سور ـ سين Ivery-sur-seine. ترك أثراً كبيراً في الأدب الفرنسي المعاصر لطريقته في التعبير عن حياته الداخلية، من جهة، ولمفهومه للمسرح «مسرح القسوة» Téâtre de la eruauté من جهة ثانية.

ظهرت على أرتو، منذ من المراهقة، أعراض مرض عصبيّ غير معروف، وقد تنقَّل بين عدد من مشافي الأمراض العقلية، ثم تفرغ للرسم بعد شفائه.

انتقل إلى باريس عام ١٩٢٠ وهو يحلم بمستقبل كبير في عالم الأدب. فعمل موظفاً في مجلة «الغَد» Demain ثم تسلَّم إدارة العدد الثالث من «الثورة السريالية» La Révolution Surréaliste وكان على أرتو أن يعمل من أجل كسب عيشه، فالتقى لوني ـ بو Lugné - Poe وعمل معه في التمثيل، كما عمل في السينما.

أرسل أرتو بعض قصائده إلى المجلة الفرنسية الجديدة Nouvelle Revue Française لكن المجلة لم تنشرها. وأخذ يراسل جاك ريفيير Jacques Rivière مدير المجلة بغية إقناعه بأن هذه القصائد لها الحق في الوجود، لأنها تشكل مزَقاً استطاع أن ينتزعها من العدم. أصر مدير المجلة على عدم نشر القصائد، ولكنه عرَض نشر المراسلات المتبادلة حولها. ذلك أن هذه

المراسلات كانت تنم في رأيه عن صفاء ذهني مدهش ومثير. وقد تم نشر القصائد أيضاً فيما بعد بعنوان «نَرْد السماء» Tric Trac du ciel.

عاش أرتو تجربة تمزق الذات والفراغ الذهني والمادي التي يقول عنها: «هذا التشتت في قصائدي، هذه العيوب في الشكل، هذا التراخي المستمر في فكرتي، ذلك كله لايعود إلى قصور في التمرين أو إلى قلة معرفة بالأداة التي أستعملها، أو إلى ضعف في النمو العقلي، وإنما يعود إلى انهيار في النفس، إلى نوع من التفتت في الفكر: تفتت أساسي وهارب في الوقت نفسه».

هذا التمزق الذي عاشه أرتو في أعماقه، أوحى إلى الشاعر بـ«مركز اليمبوس» L'ombilic des limbs و«مقياس الأعصاب» Le pèse-nerfs عام ١٩٢٥، وهو التمزق نفسه الذي أدى به إلى الحكم على السريالية [ر] بالسلبية لاحقاً: «ماذا تعني بالنسبة إليّ ثورة العالم، إذا كنت سوف أستمر وأنا أعيش حياة الآلام والبؤس ضمن دائرتي، إن مايبعدني عن السريالية والسرياليين هو أنهم يحبون الحياة بقدر ما أحتقرها... ولكن هل يختلف التقشف عن السحر الحقيقي: مهما كان السحر قذراً، مهما كان شيطانياً». والسحر عند أرتو هو مايجذبه نحو علوم التنجيم، نحو الكيمياء القديمة (السيمياء)، نحو أسرار الديانات الشرقية، نحو الوصول إلى ما لا يُدرك بالعقل، ويتم ذلك عن طريق التصوُّر والأفيون والإثارة الجنسية «هيليوغابال أو الفوضوي المتوَّج» Héliogabale ou l'anarchiste couronné (١٩٣٤). التقشف هو في رأيه التجربة الداخلية للكلمة: «إن ما أسّميه شعراً اليوم، هو معرفة المصير الداخلي والديناميكي للفكرة» هذه التجربة يحاول أرتو أن يعكسها في مجموعة صور مادية. إن أرتو الذي لم يدرس شيئاً ولكنه عاش كل شيء، يقرر أن الكلام الحقيقي يظل غامضاً، وأن اللغة تظل بعيدة عن الواقع. من هنا تنشأ ضرورة اللجوء إلى الحيلة، إلى التعبير عن طريق إيمائية لم ينل منها الفساد.

إن «مسرح القسوة» يجب أن يكون اختلاجياً فيقوم على جمال سحري للصوت، على روعة التعبير، إنه سوف يعرّف الإنسان ليس على أحد وجهي الفكرة فقط، ولكن على الوجه الآخر أيضاً. هذه الصيحة الانفعالية، أطلقها أرتو عند تأسيس مسرح ألفريد جاري Alfred Jarry الذي شارك فيه عام ١٩٣٥، وكررها في مسرحيته «عائلة سنسي» Les Cenci، حتى تحولت إلى صرخة قوية في كتابه «المسرح وبديله» Le théâtre et son double عام ١٩٣٨ ثم انطلقت دفعة واحدة كاللهب في محاضرة استغلها الكاتب للقيام بتمثيل مأساته الذاتية.

وقبل ذلك، على أية حال، كان أرتو قد هرب تماماً من عالم يعده زائفاً. فكان السفر إلى المكسيك عام ١٩٣٦ بغية تعرف هنود «التاراهومارا» Tarahumaras الذين تدور حياتهم حول طقوس البيتول (بديل الأفيون).

ثم إلى إيرلندة عام ١٩٣٧ حاملاً ما قيل له إنه عصا القديس باتريك، شفيع الإيرلنديين، السحرية. ولكن سرعان ما تمّ طرده من إيرلندة وتمّ إدخاله مشفى الأمراض العقلية في مرفأ «الهافر» Le Havre الفرنسي عند نزوله من الباخرة، وبذلك تبدأ طريق الآلام من جديد، فيقضي الكاتب تسع سنوات متنقلاً من مشفى إلى آخر إلى أن يستقر في مشفى «روديز» حيث تمت معالجته بالصدمات الكهربائية وكتب «رسائل روديز» Lettres de Rodez.

غادر أرتو المشفى فيما بعد، ولكنه كان قد أصيب بالسرطان فعدّ نفسه ضحية المجتمع وتراءت له صورة إنسان منطوٍ على نفسه، يقاسي آلاماً شديدة تشبه لوحة فان غوغ [ر] Van Gogh «ذلك الذي نحره المجتمع» Le suicidé de la société (١٩٤٧). وفي هذا الكتاب تبرز أفكاره في حديثه عن فان غوغ: «إنه لم ينتحر في لحظة جنون تملكته فيها خشية عدم الوصول إلى هدفه ولكنه على العكس كان قد توصل إلى غايته واكتشف حقيقة كيانه، عندما عاقبه المجتمع على خروجه عليه، فنحره...».

وفي السنوات التي قضاها أرتو في مشافي الأمراض العقلية، وفي مراحل صفاء ذهني متقطعة، كتب أرتو أعمالاً مدهشة في جرأتها تختلط فيها روح الدعابة بالمكر وبالتفكير السليم. وعبَّر الكاتب عن ذلك كله بأسلوب متميز قلّ نظيره في الأدب الفرنسي [ر].

جهاد هواش

مراجع الاستزادة

- A. ARTAUD, Oeuvres complètes (Paris 1956 - 1959).
- G.DUROZOI, Artaud: L'aliénation et la folie (Larousse 1972).
- H.GOUHIER, Artaud et l'essence du théâtre (Vrin 1974).

■ الإرث ← التركة

■ الإرث ← التركة

■ الأرثوذكسية (الكنيسة ـ)

الأرثوذكسية Orthodoxy كلمة مركبة من لفظتين يونانيتين «أرثوس»، وهي صفة لما هو قويم وسليم و«ذكسا» وهي اسم يدل على الرأي والمعتقد والفكر. فيكون معنى الكلمة اليونانية المركبة «أرثوذكسية» هو المعتقد القويم أو الرأي القويم.

وتطلق كلمة أرثوذكسية، لغةً، على ما يوافق كل تراث، دينياً كان أم غير ديني وتطلق اصطلاحاً على جماعة كبيرة من المسيحيين الذين يقولون إنهم حافظوا على المعتقد الصحيح كما حددته المجامع المسكونية (المجمع المسكوني مؤتمر يُدعى إليه أساقفة العالم كله للتداول في شؤون الكنيسة)، تمييزاً لهم من الذين عُدّوا هراطقة. وفي معظم الأحيان يُطلق الأرثوذكسيون على كنيستهم أسماء «الكنيسة الأرثوذكسية الكاثوليكية الشرقية» أو«الكنيسة الأرثوذكسية الكاثوليكية في الشرق» أو«الكنيسة الأرثوذكسية الجامعة» ذلك أن كلمة الكاثوليكية تعني «الجامعة» أو العامة، على أنه من الضروري أن لا تؤدي هذه التسميات إلى اللبس. فالكنيسة التي تعد نفسها الكنيسة الجامعة الحقيقية، ليست جزءاً من الكنيسة الكاثوليكية «الرومانية»، ومع أنها تسمى «شرقية» فهي لاتقتصر على العالم

الشرقي. ويطلق عليها إيجازاً «الكنيسة الأرثوذكسية».

ويشمل مصطلح الأرثوذكسية اليوم أسرتين من الكنائس:

ـ الكنائس الشرقية غير الخلقيدونية (التي رفضت قرارات مجمع خلقيدونية الذي انعقد في العام ٤٥١م) وتضم الكنيسة الأرمنية والكنيسة السريانية (كنيسة اليعاقبة) في سورية والهند، والكنيسة القبطية في مصر وإثيوبية.

ـ الكنائس الشرقية الخلقيدونية وتضم الكنائس الأربع القديمة في القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية والقدس، والكنائس الحديثة في روسية ورومانية وبلغارية وصربية وجورجية فضلاً عن الكنائس المستقلة في قبرص واليونان وألبانية وبولندة وتشيكوسلوفاكية وأمريكة.

تنظيم الكنيسة الأرثوذكسية وبنيتها

الكنيسة الأرثوذكسية أسرة من الكنائس التي تحكم نفسها بنفسها في كنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية (دستور الإيمان). وهي تستمد وحدتها من الوحدة في العقيدة والمشاركة في الأسرار، فنظامها «مجمعي» لامركزي يتمتع بقدر فائق من المرونة والتكيف مع الظروف، إذ يتيح إحداث كنائس محلية ثم إلغاءها من دون أن يؤثر ذلك في حياة الكنيسة.

وفي هذا النظام المجمعي تشغل الكنيسة المحلية موقعاً ذا أهمية بالغة. فكل كنيسة أرثوذكسية محلية هي كنيسة الله برعيتها، وكل راع فيها هو راع في كنيسة اللّه الواحدة. والشعب المؤمن في رقعة جغرافية معينة (الرعية أصلاً والأبرشية فيما بعد) يجب أن يؤلف وحدة تتجلى في عشاء الرب الواحد. ويؤم هذا الاجتماع الشيخ المسمى اليوم كاهناً، وهو حارس إيمان الجماعة ومركز وحدتها وحياتها المقدسة، من دون أن يؤثر ذلك في وحدة الكنيسة الجامعة أو يتعارض معها. ولذلك يجب ألا يوجد أكثر من أسقف واحد في كل مدينة أو أبرشية، وللأسقف المنصب الأسمى بين المناصب الكهنوتية، ولاتعلو سلطته سلطةٌ أخرى في أبرشيته أوجماعته. ولايجوز رسم أسقف أو توليته مالم يكن عضواً في مجمع رسولي أو مجمع كنسي (سنودس). ولكل كنيسة أرثوذكسية سنودس خاص بها يضم المطارنة والأساقفة كافة ويرسم الأساقفة الجدد، ويرأسه البطريرك الذي هو رئيس رؤساء الأساقفة، ويتمتع بصلاحيات واسعة في الأمور الدينية والدنيوية ضمن حدود التقليد الرسولي والقوانين الكنسية.

والكنيسة الأرثوذكسية هي كنيسة المجامع. وكانت المجامع المحلية التي يحضرها أساقفة مقاطعة ما من مقاطعات الامبراطورية تعقد، عموماً، في عاصمة تلك المقاطعة برئاسة أسقفها الذي يحمل رتبة مطران (متروبوليت) لمعالجة القضايا المحلية ووضع الأنظمة بحسب مقتضى الحال. ولما اتسع مدى المجامع في القرن الثالث الميلادي ازدادت أهمية أساقفة المدن الكبرى (العواصم) ونشأت فيها «كراسيُّ أسقفية» تميز من بينها ثلاثة، هي كراسي أنطاكية ورومة والاسكندرية. وعندما تأسست مدينة القسطنطينية وغدت عاصمة الامبراطورية جعل مركزها الأسقفي كرسياً رابعاً. وكان لكل من هذه الكراسي سلطته على أقطار معلومة، وتسودها جميعها عقيدة واحدة، وتعالج قضاياها الكبرى التي تخص العقيدة أو تهم جميع الكنائس مجامع عامة يحضرها أساقفة الكراسي أو ممثلوهم.

وقد منح المجمع المسكوني الرابع (مجمع خلقيدونية) أساقفة هذه الكراسي لقب بطريرك، الذي كان قد اختص به بطريرك أنطاكية قبل غيره، وأحدث أسقفية القدس وجعل أسقفها بطريركاً فسمي البطريرك الخامس وبذلك نشأ نظام الرئاسة الخماسية في الكنيسة الأرثوذكسية. ومنذ النصف الأول من القرن الثالث أطلق على أسقف الكرسي الاسكندري لقب بابا، وسمي أسقف الكرسي الروماني بابا في الربع الأول من القرن السادس، وفي الربع الأخير من القرن نفسه أطلق أساقفة اليونان على أسقف كرسي القسطنطينية لقب البطريرك المسكوني. وفيما بعد صار لقب البطريرك يطلق على رؤساء الكنائس المستقلة الكبرى لأسباب دينية واجتماعية وسياسية ـ دولية.

العقيدة

تؤكد الكنيسة الأرثوذكسية محافظتها على إيمان الكنيسة الأولى، كما حددته وفسرته المجامع المسكونية وكتابات آباء الكنيسة، وبقاءها أمينة الماضي باستمرارية تقوم على مبدأ تسلم الإيمان ونقله. والمرجع الرئيس في إيمانها هو الكتاب المقدس، مع أنه جزء من «التقليد الشريف» الذي سلمه المسيح للرسل. و«التقليد الشريف» يعني أسفار الكتاب المقدس ودستور الإيمان وكتابات آباء الكنيسة وقرارات المجامع المسكونية، فضلاً عن القوانين الكنسية وكتب الليترُجيا (الطقوس والعبادات) والأيقونات أي كل ماعبرت عنه الكنيسة الأرثوذكسية في تاريخها من عقيدة وتنظيم كنسي وعبادة وفن، وهي تعد نفسها حارسة لهذا الإرث الكبير ومن واجبها نقله إلى الأجيال القادمة.

ومع أن الموروث الديني يبقى دوماً موضع الاحترام، إلاأن عناصر «التقليد الشريف» غير متساوية القيمة، فثمة عناصر تعد مطلقة مسلماً بها لايجوز تغييرها أو إعادة النظر فيها، وفي مقدمتها الكتاب المقدس الذي يشغل المركز الرئيس في التقليد، ودستور الإيمان، والتحديدات العقدية الصادرة عن المجامع المسكونية. أما العناصر الأخرى فلا تتمتع بالقيمة ذاتها، مع الأخذ بالحسبان الفروق بين ما يدخل في «التقليد الشريف» وما يعد من التقاليد المتوارثة التي تتغير وتتبدل بتغير الزمان والمكان.

والكنيسة الأرثوذكسية هي كنيسة المجامع، وإن كان «دستور الإيمان» الذي وضعه المجمعان الأولان (نيقية ٣٢٥ والقسطنطينية ٣٨١) هو الدستور الذي تلتزمه نصاً وروحاً.

العبادة والأسرار المقدسة

إن العبادة في الكنيسة الأرثوذكسية، تمثل واحداً من أهم العوامل في استمرارية هذه الكنيسة والمحافظة على هويتها. والمفهوم القائل بأن الكنيسة قوية بجماهيرها المؤمنة حين تجتمع متحدةً في العبادة هو الصيغة الأساسية للتجربة المسيحية الشرقية، ومن دون هذا المفهوم لايمكن إدراك الأسس الرئيسة لبنية الكنيسة في الأرثوذكسية ولا عمل الأسقف معلماً وكاهناً أعلى في الطقوس الدينية. وتعد الطقوس الدينية الشرقية تجربة كاملة تستثير ملكات الإنسان العاطفية والعقلية والجمالية، وتستخدم تعابير لاهوتية اصطلاحية وملاحظات وإيماءات مادية وفنوناً مرئية، يقصد منها نقل الإيمان المسيحي للمتعلمين وغير المتعلمين على حد سواء.

وتؤكد جميع التعاليم الأرثوذكسية الشفوية والكتابية المعاصرة أن الكنيسة تعترف بسبعة

أسرار مقدسة هي: العماد، والمَيْرون، والقربان المقدس، ورسم الكهنة، والتكفير، ومسحة المرض، والزواج. بيد أنها لم تحدد عدد الأسرار رسمياً لا في «كتاب الصلاة» الذي يتضمن نصوص هذه الأسرار ولا في تعاليم آباء الكنيسة. وفي الواقع لم يعمل أي مجمع كنسي اعترفت به الكنيسة الأرثوذكسية على تحديد عدد الأسرار، وقد قُبل العدد سبعة فقط في «الاعترافات الأرثوذكسية» التي صدرت في القرن السابع عشر رداً على حركة الإصلاح. ولاهوت الأسرار الأساسي للكنيسة الأرثوذكسية يرتكز على الفكرة القائلة بالجماعة الإكليريكية سراً وحيداً تؤلف الأسرار الأخرى تعبيراً طبيعياً عنه.

لمحة تاريخية

الكنيسة البيزنطية: يقف قسطنطين الأول عند مفترق تاريخ الكنيسة، فعهد الشهداء والاضطهاد انتهى باعتناقه المسيحية، حين أصدر في عام ٣١٣م إعلان براءة ميلانو التي منحت حرية العبادة للمسيحيين. وبعد أن انفرد قسطنطين الأول بحكم الامبراطورية الرومانية بشقيها قرر في عام ٣٢٤ نقل عاصمتها من إيطالية إلى ضفاف البوسفور. وفي موقع مدينة يونانية قديمة هي بيزنطة شيد العاصمة الجديدة وأطلق عليها اسم القسطنطينية (دشنت رسمياً في ٣٣٠م).

نشأت القسطنطينية مدينة مسيحية الطابع، تقاطر إليها المسيحيون من كل صوب. وكان نقل العاصمة إليها من رومة، التي كانت تسود فيها الوثنية، إيذاناً بتحول الامبراطورية الرومانية الوثنية إلى امبراطورية مسيحية، ونقطة تحول مهمة في تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية. فقد أصبحت الكنيسة تعايش الامبراطورية وكأنهما كيان واحد من دون أن تذوب الواحدة في الأخرى. ورأت الكنيسة في القيصر الابن الروحي الأعلى لها فأعطته امتيازات في داخلها تسليماً بأنه يسوس الامبراطورية باسم المسيح. واقتضى ذلك أن تقبل الدولة الإنجيل وتتخذه دستوراً، وأن ينفذ القيصر قرارات مجامع الكنيسة.

بلغت كنيسة القسطنطينية في مطلع الألف الثاني للتاريخ المسيحي أوج نفوذها وقوتها في العالم المسيحي إذ أصبحت بيزنطة مركز الحضارة المسيحية من دون منازع بعد أن وسّع أباطرتها من الأسرة المقدونية حدود امبراطوريتهم من بلاد الرافدين حتى نابولي ومن نهر الدانوب حتى فلسطين. ولم تكتف كنيسة القسطنطينية بهذا التوسع بل تعدته إلى توسيع رقعة تبشيرها وراء حدود الامبراطورية السياسية وتخطتها حتى بلغت روسية والقفقاس.

العلاقات بين الكنيسة والدولة: منذ عهد قسطنطين الأول (القرن الرابع) سادت بيزنطة نظرية تفترض وجود مجتمع مسيحي عالمي واحد تقوده الكنيسة والامبراطورية معاً. وكانت سلطة بطريرك القسطنطينية مستمدة اسمياً من واقع كونه أسقف «رومة الجديدة» وكان يحمل لقب «البطريرك المسكوني» الذي يشير إلى شأنه السياسي في الامبراطورية. إلا أنه من الناحية الوظيفية كان يحتل المرتبة الثانية، بعد أسقف رومة، في السلسلة الهرمية لكبار الأساقفة الخمسة الأسْمَيْن التي تضم كذلك بطاركة كل من الاسكندرية وأنطاكية والقدس. بيد أن سلطة الثلاثة الأخيرين تقلصت بعد الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع، ولم يبق من منافس لكنيسة القسطنطينية سوى الكنائس السلافية التي نشأت فيما بعد والتي كانت تحاول من حين إلى آخر الاعتراض على مكانة القسطنطينية مركزاً وحيداً للعالم المسيحي الشرقي.

أما العلاقات بين الدولة والكنيسة في بيزنطة فوصفت مراراً بأنها «قيصرية ـ باباوية» وهذا يدل ضمناً على أن الامبراطور كان يشغل عملياً منصب رئيس الكنيسة. بيد أن النصوص الرسمية تصف الامبراطور والبطريرك بالحكومة الثنائية وتقارن وظيفتهما بوظيفة كل من الروح والجسد في الجسم الواحد، وكان للامبراطور عملياً اليد العليا في كثير من شؤون الكنيسة الإدارية كما استطاع بعض البطاركة المتنفذين القيام بأدوار سياسية بالغة الأهمية. ولم تكن فكرة القيصرية ـ الباباوية تُوائم البيزنطيين ولاسيما في ميدان الديانة والعقيدة إذ لم يستطع الأباطرة البيزنطيون فرض إراداتهم حين كانت تتناقض وضمير الكنيسة، وقد ظهرت هذه الحقيقة جليةً في المحاولات الكثيرة للاتحاد مع رومة في أواخر القرون الوسطى.

الحركات الرهبانية: استمر تطور الحركات الرهبانية في عاصمة بيزنطة وغيرها من المراكز على النحو الذي اتخذته في العصور المسيحية الأولى. وكان دير ستوديون Studion في القسطنطينية يضم نحو ألف راهب وقفوا أنفسهم على الصلاة والطاعة والنسك. واتصف هؤلاء الرهبان بمعارضتهم للحكومة وللرسميات الكنسية (الإكليريكية) مدافعين عن المبادئ المسيحية الأساسية في مواجهة التسويات السياسية. وقد تبنت أديرة البنات قوانين دير ستوديون (مناهج حياة الأديرة) ولاسيما دير كافس Caves الشهير في مدينة كييف. وفي عام ٩٦٣ منح الامبراطور البيزنطي نقفور الثاني فوكاس حمايته للقديس إثناسيوس الأتوسي الذي لايزال ديره مركز جمهورية أديرة جبل أتوس المستقلة (تحت حماية اليونان). وكتابات القديس سيمون (٩٤٩ ـ ١٠٢٢) رئيس دير القديس ماماس في القسطنطينية أبرز مثال على تصوف المسيحية الشرقية، وكان لها تأثير فاعل في التطورات اللاحقة للكنيسة الأرثوذكسية.

البعثات التبشيرية: انتشرت البعثات التبشيرية المسيحية البيزنطية في شرقي أوربة فأصبحت بلغارية في القرن التاسع أرثوذكسية وأُسست بطريركيتها المستقلة إدارياً في عهد القيصر سيمون (٨٩٣ ـ ٩٢٧)، وهكذا فإن كنيسة جديدة، وليدة الكنيسة البيزنطية تتكلم اللغة السلافية، بسطت نفوذها على شبه جزيرة البلقان، بيد أنها سرعان ما فقدت استقلالها السياسي والكنسي بعد استيلاء الامبراطور البيزنطي باسيل الثاني عليها. إلا أن بذرة الأرثوذكسية السلافية كانت قد زُرعت وتأصلت فيها. وفي عام ٩٨٨ اعتنق أمير كييف فلاديمير الأرثوذكسية البيزنطية وأصبحت روسية بعد هذا التاريخ مقاطعة كنسية يرأسها مطران يوناني تعينه القسطنطينية. وقد تبنت روسية في تلك المرحلة تراث الحضارة البيزنطية الديني والفني والاجتماعي وطورته.

العلاقات مع الغرب والانشقاق الكبير: كانت العلاقات مع الغرب اللاتيني في تلك الآونة تزداد غموضاً. فمن جهة عدّ البيزنطيون العالم الغربي بكامله جزءاً من امبراطوريتهم التي يرأسها امبراطور بيزنطة ويشغل الأسقف الروماني منصب الشرف فيها، ومن جهة ثانية اعترض أباطرة الفرنجة والألمان على هذه التسمية وتحدّوها. واتّسعت الهوة بين الشرق والغرب بسبب المنافسات السياسية في إيطالية بين البيزنطيين والألمان وبسبب التغيرات المبدئية التي

فرضتها الحركة الإصلاحية التي بدأها رهبان كلوني في فرنسة، ولم تسفر الجهود التوفيقية التي بذلت عن شيء، وتبادل الطرفان الاتهامات حول نقاط المذهب والطقوس الدينية وسرعان ما أصدر كل منهما صك الحرمان الكنسي بحق الآخر في عام ١٠٥٤ ويُعدّ هذا العام تاريخ الانشقاق (مع أن الانشقاق حصل تدريجياً بعد عملية طويلة ومعقدة، بدأت قبل ذلك بكثير وأسهمت فيها التباعدات الثقافية والسياسية والدينية).

وكان ثمة أمل في البدء لرأب الصدع وإصلاح ذات البين إلا أن الانفصال تمّ منذ ذلك التاريخ وفقدت جسور الاتصال ولاسيما في زمن الحروب الصليبية، إذ عمل الصليبيون على إقامة إمارات لاتينية على الأراضي التي كانت تعد ضمن دائرة نفوذ كنيسة القسطنطينية ووضعوا أساقفة من اللاتين مكان الأساقفة الشرقيين في أنطاكية والقدس بعد احتلالهم هاتين المدينتين القديمتين (١٠٩٨ ـ ١٠٩٩)، وبلغت الأزمة ذروتها حين استولى الصليبيون على القسطنطينية ونهبوها في عام ١٢٠٤ وأقاموا امبراطوراً من اللاتين على العرش فيها ونصّبوا بطريركاً من اللاتين على كرسيها الرسولي. وهكذا اجتمع الجدل اللاهوتي والكراهية الوطنية معاً ليزيدا في هوة الانشقاق أكثر فأكثر.

وفي غمرة تلك الأحداث سعت الكنيستان البلغارية والصربية نحو استقلالهما الكنسي، فنالت الكنيسة البلغارية حق الاستقلال الكنسي وإقامة بطريركيتها ثانيةً في ترنوفو (١٢٣٥)، وأسس الصرب كنيستهم المحلية ونصبوا أسقفاً مستقلاً لها في عام ١٢١٩. أما الكنيسة الروسية فحافظت، على الرغم من الغزو المغولي لروسية (١٢٣٧ ـ ١٤٤٨)، على بقائها منظمةً اجتماعية متحدة وحيدة في البلاد من جهة، وحاملة لواء التراث البيزنطي من جهة ثانية، وظل رئيس الكنيسة الروسية (مطران كييف الذي عينه مجمع نيقية) يحظى باحترام الخانات المغول وخُوِّل سلطة الاتصال برئيسه الأعلى (البطريرك المسكوني) واكتسب مكانة رفيعة واحتفظ بسلطة كنسية على مناطق واسعة تمتد من جبال الكربات حتى نهر الفولغا.

وبعد ذلك استعادت أسرة باليولوغس بيزنطية القسطنطينية من اللاتين وحكمتها بين عامي ١٢٦١و١٤٥٣، بيد أنها ما استطاعت إعادة الامبراطورية إلى ما كانت عليه من قوة ونفوذ إذ كانت المعارك تجري على امتداد حدودها والحروب الأهلية تمزقها ورقعة أراضيها تتقلص حتى وقفت عند ضواحي العاصمة نفسها. ومع ذلك حافظت بطريركية القسطنطينية في تلك الآونة على نفوذها القديم فمارست سلطاتها الشرعية على رقعة أوسع ضمت روسية والقفقاس، وخاصة الجنوبي، وأجزاء من الأراضي البلقانية، إلا أنها لم تتمكن ـ من دون الدعم العسكري للامبراطورية القوية ـ من إعادة فرض نفوذها على كنائس بلغارية وصربية. وفي عام ١٣٤٦ أعلنت الكنيسة الصربية نفسها بطريركية، واحتجت القسطنطينية على ذلك، بيد أنها عادت واعترفت بها في عام ١٣٧٥. أما في روسية فتورطت الدبلوماسية الإكليريكية البيزنطية في نزاع أهلي عنيف بين كبار أمراء موسكو وليتوانية للظفر بقيادة الدولة الروسية المحررة من المغول، وكان لتأييد السلك الإكليريكي أثر بارز في انتصار أمراء موسكو مما ترك أثراً واضحاً في تاريخ روسية اللاحق.

الأرثوذكسية بين عامي ١٤٥٣و١٨٢١: استولى العثمانيون على القسطنطينية سنة ١٤٥٣، وتركوا للمسيحيين حرية العبادة وقد سمح السلطان العثماني في عام ١٤٥٤ بانتخاب بطريرك جديد للقسطنطينية سمي «ملة باشي» رئيساً للمسيحيين جميعاً يحق له الاضطلاع بالإدارة وجباية الرسوم وممارسة السلطة القضائية على المسيحيين في الامبراطورية العثمانية، وهكذا استعاد بطريرك القسطنطينية في ظل الحكم الجديد حقوقه السابقة وامتدت سلطته الشرعية واتسعت أكثر فأكثر حتى بات بوسعه، بعد أن منحه السلطان العثماني امتيازات كثيرة، أن يبسط نفوذه على نظرائه من الأساقفة الأرثوذكس الآخرين. كما اتسعت سلطاته لتشمل السلطات السياسية إلى جانب السلطات الكنسية والروحية.

وكان للنظام العثماني الجديد آثار ملحوظة في الكنائس القديمة في حوض البحر المتوسط والبلقان، فالدعم الذي منحه العثمانيون لأسقف القسطنطينية، الشخصية الإدارية الرسمية «لملة الروم»، زاد من سيطرة اليونانيين على هيئة الكهنوت فشغل الأساقفة اليونانيون مراتبها المتسلسلة كافة، وأصبحت البطريركيات القديمة في الشرق الأوسط تخضع لسلطة الفنار (حي في اصطنبول أقيمت فيه البطريركية الأرثوذكسية)، كما أن الكنيستين البلغارية والصربية انتهتا إلى المصير نفسه إذ فقدتا، رسمياً، آخر مزايا استقلالهما على يد بطريرك القسطنطينية صموئل هانتشرلي.

وعلى النقيض من ذلك فقد بدأت روسية تنهض بعزم حتى غدت في خاتمة المطاف من الدول العظمى وحملت لقب «رومة الجديدة» وغدت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، تبعاً لذلك، بطريركية جديدة في عام ١٥٨٩ بموافقة القسطنطينية واعتراف البطريركيات الشرقية الأخرى فحصلت على المرتبة الخامسة ضمن الترتيب الفخري لكراسي الأسقفيات الشرقية بعد بطريركيات القسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية والقدس. وكان القياصرة الروس بعد القرن السادس عشر يعدّون أنفسهم خلفاء الأباطرة البيزنطيين والحماة السياسيين والممولين للأرثوذكسية في البلقان والشرق الأوسط وبذلوا جهوداً كثيرة للحفاظ على تقاليد المسيحية البيزنطية التي سادت العصور الوسطى. بيد أن روسية القيصرية كانت تختلف تماماً عن الامبراطورية البيزنطية في نظامها السياسي والمعرفة الثقافية الذاتية: فالوفاق البيزنطي بين القيصر والبطريرك لم يحصل أبداً في روسية، والأهداف الدنيوية لدولة روسية كانت تحل على الدوام محل المصالح الكنسية والدينية، ولم يستطع أساقفة موسكو مجاراة أسلافهم الأقوياء من البيزنطيين فلم يكن لهم حول ولاطول إزاء تجاوز القياصرة للعقائد والتشريعات الكنسية. وقد شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر سلسلة من الأزمات الحادة بين الكنيسة والقيصرية انتهت إلى انتصار الأخيرة حين أطاح بطرس الأكبر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) نهائياً بالبطريركية في عام ١٧١٢ وحوّل إدارة الكنيسة إلى دائرة حكومية عرفت باسم المجمع الحاكم المقدس وأصدر قانوناً روحياً حدد النظم الداخلية لكل النشاطات الدينية في روسية، وبدأت الكنيسة بذلك عهداً جديداً في تاريخها استمر حتى عام ١٩١٧.

الأرثوذكسية في القرن التاسع عشر: بعد تحرر البلقان من السيطرة التركية ظهرت فيه دول قومية لها كنائس مستقلة تحكم نفسها بنفسها،

إذ رافق ضعف الحكم العثماني تقلص السلطة الفعلية التي كانت تمارسها بطريركية القسطنطينية. فاليونانيون، الذين كانوا يرون في البطريركية أمل المستقبل، كانوا أول من أقاموا كنيسة قومية لهم في دولتهم الجديدة (١٨٣٣) وصاغوا نظاماً كنسياً على غرار النظام الروسي يتألف من مجمع كنسي مقدس يحكم الكنيسة بإشراف حكومي، وقد اعترفت البطريركية بالاستقلال الذاتي للكنيسة الجديدة في اليونان عام ١٨٥٠.

وفي صربية نال رجال السلك الكهنوتي الصربي استقلالهم الذاتي بعد استقلال صربية عام ١٨٣٢، وفي عام ١٨٧٩ اعترفت القسطنطينية بالكنيسة الصربية كنيسة تحكم نفسها بنفسها، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهرت في الامبراطورية النمسوية المجرية كنيستان تمارسان السلطات الشرعية على صربية ورومانية والبلاد السلافية الأخرى هما بطريركية كارلوفتز ومطرانية زرنوفتز (شيرنوفستي اليوم). أما الأبرشيات الصربية في البوسنة والهرسك التي كانت تحت الإشراف النمسوي عام ١٨٧٨ فحافظت على استقلالها الذاتي؛ إلا أنها لم تتمكن مطلقاً من الاستقلال الكامل عن القسطنطينية.

وقيام رومانية دولةً مستقلةً بعد قرون من الاحتلال الأجنبي لها حفز الكنيسة الرومانية في عام ١٨٦٥ على التصريح بأنها كنيسة تحكم نفسها بنفسها، بيد أن القسطنطينية لم تعترف بها إلا في عام ١٨٨٥.

أما في بلغارية فلم تخل عملية إعادة تأسيس الكنيسة البلغارية من المآسي والانقسامات إذ إنها جاءت في الوقت الذي كان يعيش فيه البلغار واليونانيون جنباً إلى جنب في كل من مقدونية وتراقية و القسطنطينية التي كانت ماتزال خاضعة للحكم العثماني الداعم لليونانيين على حساب البلغار. وفي القرن التاسع عشر تفاقم الخلاف بين الطرفين فكان فرمان السلطان العثماني عام ١٨٧٠ الذي قضى بإقامة كنيسة بلغارية وطنية يرأسها نائب بطريرك بلغاري يقيم في القسطنطينية ويحكم جميع البلغار الذين يعترفون به.

وفي روسية استمر القانون الروحي الذي وضعه بطرس الأكبر ساري المفعول حتى سقوط القيصرية الروسية عام ١٩١٧، بيد أن كثيراً من رجال الكنيسة عارضوا خضوع الكنيسة للدولة من دون أن يستطيعوا شيئاً. ومع أن بطرس الأكبر وخلفاءه من بعده نزعوا إلى معالجة شؤون الكنيسة مباشرة، فقد فوض القياصرة في القرن التاسع عشر السلطة إلى ممثلين عنهم في الكنيسة، اختاروهم من بين المتنفذين فيها بعد منحهم مناصب وزارية في الحكومة. وكانت الكنيسة الروسية أكثر غنى واتساعاً من شقيقاتها في البلقان والمشرق فأسست المعاهد اللاهوتية والحلقات الدراسية ومدت يد المساعدة إلى آلاف المدارس والبعثات التبشيرية.

الكنيسة الأرثوذكسية بعد الحرب العالمية الأولى: كان لانحسار المسيحية من آسيا الوسطى ولإعادة تجمع الكنائس الأرثوذكسية في البلقان، ولمأساة الكنيسة على يد الثورة البلشفية وللشتات الأرثوذكسي في الغرب، آثارها البالغة في إحداث تغيرات جذرية في بنية العالم الأرثوذكسي.

الكنيسة الأرثوذكسية في المشرق: إثر الحرب اليونانية التركية رُحِّل جميع السكان المنحدرين من أصل يوناني من تركية إلى اليونان واقتصرت سلطة بطريركية القسطنطينية المسكونية على ما تبقى من الأرثوذكس في اصطنبول وضواحيها، إلا أنها بقيت تمسك بالزعامة الفخرية بين الكنائس الأرثوذكسية الأخرى وتمارس سلطاتها على عدد من أبرشيات المهاجرين الأرثوذكس وعلى الجزر اليونانية بموافقة حكوماتها.

وتؤلف بطريركيات أنطاكية والاسكندرية والقدس إلى جانب البطريركية المسكونية بقايا الامبراطورية البيزنطية الغابرة، بيد أنها ما تزال تمتلك في أوضاعها الراهنة فرصاً للتطور: فبطريركية الاسكندرية مركز للطوائف الإفريقية المتنامية، وبطريركية أنطاكية ومقرها دمشق تؤلف أكبر مركز للتجمع المسيحي العربي بأبرشياتها المنتشرة في سورية ولبنان والعراق، وبطريركية القدس خير حارس للأماكن المقدسة في مدينة القدس.

والكنيستان القديمتان، كنيسة قبرص وكنيسة جورجية، ما تزالان ذاتي شأن بين شقيقاتهما: فالكنيسة القبرصية التي استقلت منذ عام ٤٣١ حافظت على بقائها، واستطاع أساقفتها ممارسة حرياتهم الدينية، ولاسيما في زمن سيطرة المسلمين على الجزيرة، والكنيسة الجورجية شاهد على تقاليد الكنيسة القديمة وقد استقلت عن أمها كنيسة أنطاكية في مطلع القرن السادس وطورت حضارة أدبية وفنية بلغتها الخاصة.

الكنيسة الروسية: عانت الكنيسة الروسية سلسلة من الأزمات وتعرضت لكثير من الهزات بعد سقوط القيصرية، ولاسيما بعد عام ١٩٢٢، إذ صادرت الحكومة السوفييتية ممتلكات الكنيسة ووضعت البطريرك تحت الإقامة الجبرية وأسهمت في تفتيت وحدة الكنيسة وأضعفت مقاومتها. وفي عهد جوزيف ستالين في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين تعرضت الكنيسة لاضطهادات ذهب ضحيتها الآلاف من رجال الدين. وفي عهد البطريرك ألكسيس (١٩٤٥-١٩٧٠) استعادت الكنيسة بعض حيويتها وتمكنت من افتتاح عدد كبير من الكنائس، بيد أن الحكومة شنت حملة جديدة عليها وخفضت عدد الكنائس المفتوحة. ومع مرور عشرات الأعوام على الدعاية المناهضة للدين فقد ظل ملايين الأتباع يحتفظون بولائهم للكنيسة، كما وجب على زعماء الكنيسة في الوقت ذاته إظهار ولائهم المطلق للحكومة السوفييتية للحفاظ على الكنيسة من الضياع.

البلقان وشرقي أوربة: بعد أن سقطت الدولة العثمانية والامبراطوريتان النمسوية والروسية في أعقاب الحرب العالمية الأولى طرأت تغيرات مهمة على بنى الكنيسة الأرثوذكسية. ففي الجمهوريات المستقلة حديثاً (فنلندة ولاتفية وإستونية وليتوانية) أعلنت الأقليات الأرثوذكسية استقلال كنائسها، كما قامت في بولونية كنيسة تحكم نفسها بنفسها. أما التغيرات في البلقان فكانت ذات أهمية خاصة، فقد اتحدت المجموعات الخمس لأبرشيات صربية تحت لواء بطريرك واحد مقره بلغراد عاصمة الاتحاد اليوغسلافي (سابقاً)، كما أن أبرشيات رومانية ألّفت بطريركية رومانية الجديدة في عام ١٩٢٥ وهي أكبر الكنائس البلقانية التي تحكم نفسها بنفسها. وفي عام ١٩٣٧ اعترفت كنيسة القسطنطينية باستقلال كنيسة ألبانية. أما الكنيسة اليونانية فحافظت على مكانتها الشرعية التي اكتسبتها منذ القرن التاسع عشر وحظيت بتأييد جميع الأنظمة التي توالت على اليونان.

الأرثوذكسية في الولايات المتحدة: ظهرت الكنيسة الأرثوذكسية أول الأمر في القارة الأمريكية في صورة بعثة تبشيرية لمواطني ألاسكة وجزر أليوت التي كانت أراضي روسية حتى عام ١٨٦٧ . ووصل أول المبشرين هناك في أواخر القرن الثامن عشر وأُحدثت أبرشية مستقلة على جزر أليوت وألاسكة في عام ١٨٧١ ، ثم انتقل كرسي هذه الأبرشية إلى سان فرانسيسكو وسميت «أبرشية جزر أليوت وشمالي أمريكة» (١٩٠٠) . وأخذت هذه الكنيسة تطبق تشريعاتها الكنسية في معظم الجزء الشمالي من القارة الأمريكية، وكانت تقوم بخدمة المهاجرين من اليونان وصربية وسورية وألبانية وغيرها. إلا أن بعض الطوائف اليونانية والرومانية استدعت قساوسة من بلادها الأصلية. وفي عام ١٩٢١ أقامت كل جماعة قومية كنيسة خاصة بها ترتبط بالكنائس التي تنتمي إليها تلك القوميات في العالم القديم: أسقفية يونانية وأسقفية سورية ومطرانية صربية ومطرانية رومانية وغيرها.

الشتات الأرثوذكسي والبعثات التبشيرية: منذ الحرب العالمية الأولى توزع الملايين من سكان أوربة الشرقية في مناطق مختلفة لم يسكنها الأرثوذكس من قبل. فالثورة الشيوعية تسببت بهجرات واسعة إلى أوربة الغربية ولاسيما فرنسة، وحاولت بطريركية موسكو أن تفرض وصايتها على الكنائس الأرثوذكسية في الشتات (١٩٢٥) بيد أنها لاقت معارضة كبيرة من الأساقفة الذين غادروا أبرشياتهم وفروا من روسية وحلّوا ضيوفاً على الكنيسة الصربية، فحولوا مركز قيادتهم إلى نيويورك باسم «الكنيسة الروسية الأرثوذكسية خارج روسية» ولم يقيموا أي علاقات كنسية رسمية مع البطريركيات والكنائس الأرثوذكسية، كما وجدت «الكنيسة الأرثوذكسية الأوكرانية في الشتات» نفسها في الوضع الكنسي ذاته، وانضمت مجموعات أرثوذكسية أخرى في الشتات إلى البطريركية المسكونية.

وبعد الحرب العالمية الثانية هاجر كثير من اليونانيين إلى أوربة الغربية وأسترالية ونيوزلندة وإفريقية. وفي إفريقية استطاع المهاجرون اليونان اجتذاب عدد لابأس به من الأفارقة إلى الأرثوذكسية، وتنتشر اليوم الطوائف الأرثوذكسية في أوغندة وكينية وتنزانية.

الحركات المسكونية الأرثوذكسية: في المرحلة الفاصلة بين الحربين العالميتين شارك كثير من رجال الكنيسة التابعين للبطريركية المسكونية في القسطنطينية ولكنائس اليونان والبلقان ومن المهاجرين الروس في حركات مسكونية أرثوذكسية. وبعد الحرب العالمية الثانية لم توفق الكنائس الأرثوذكسية في البلدان الشيوعية بالانضمام إلى المجلس العالمي للكنائس في عام ١٩٤٨ . وفي عام ١٩٦١ تغير الوضع فجأة حين تقدمت بطريركية موسكو بطلب العضوية وتبعتها كنائس أخرى. وأعلن الأرثوذكسيون نحو عام ١٩٦١ أنهم عازمون على البحث في أفضل السبل لإعادة الوحدة المسيحية وعلى دراسة مسائل العمل المسيحي المشترك في العالم المعاصر.

وحين نشطت الكنيسة الرومانية في الحركة المسكونية بادرت الكنيسة الأرثوذكسية، بعد تردد، إلى المشاركة بجهودها في الجو الجديد. وكانت الاجتماعات الأخيرة التي عقدت بين البطريرك والبابا في اصطنبول ورومة ورفع الحُرُم الكنسي القديم وغير ذلك مؤشرات تدل على التقارب بين الكنيستين وتُفسَّر في بعض الأحيان كما لو أنها أنهت الانشقاق نفسه.

الكنائس الأرثوذكسية اليوم

الكنائس الخلقيدونية (البيزنطية): وتضم البطريركيات الأربع القديمة، ونحو خمس عشرة كنيسة يتمتع أكثرها باستقلال ذاتي.

- بطريركية القسطنطينية المسكونية، ومقرها اصطنبول ، وتتمتع بالسيادة الفخرية على الكنائس الأرثوذكسية ويحمل بطريركها لقب البطريرك المسكوني. ومع أنه من اليونانيين بسبب سيطرة هؤلاء على الكنيسة في العهد العثماني، فإن الحكومة التركية تفرض على من ينتخب لهذا المنصب أن يحمل الجنسية التركية. وقد تقلصت رقعة نفوذ هذه البطريركية بعد فتح القسطنطينية، ويتبع لها اليوم تركية وبعض جزر بحر إيجة، وبعض أبرشيات اليونانيين والأوكرانيين والبولونيين والألبان في المهجر، وجبل أتوس (عشرون ديراً رهبانياً منها سبعة عشر ديراً يونانياً، ودير للصرب وآخر للبلغار وثالث للروس). ويبلغ عدد رعاياها مجتمعة نحو ثلاثة ملايين.

- بطريركية الاسكندرية وسائر إفريقية، ويحمل بطريركها لقب بابا و بطريرك، وهو من اليونانيين، وتتبع لها كل إفريقية ويقدر عدد رعيتها بنحو ثلاثمئة ألف.

- بطريركية أنطاكية وسائر المشرق، ومقرها دمشق، وتشمل ست عشرة أبرشية وثماني معتمديات بطريركية. ويتوزع رعاياها (نحو٢ ١مليوناً) في سورية ولبنان والعراق وأوربة الغربية وأمريكة وأسترالية.

- بطريركية أورشليم القدس وسائر فلسطين، وهي الرابعة في ترتيب الكنائس الأرثوذكسية، وتشغل مركزاً بارزاً، لكونها من أقدم الكنائس في أقدس المدن المسيحية، وتتولى حماية الأماكن المقدسة. وبطريركها ومجمعها من اليونانيين مع كون رعيتها في فلسطين والأردن عربية، بسبب سيطرة اليونانيين على الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية في العهد العثماني. وعدد رعية هذه البطريركية قليل لايتجاوز ثلاثين ألفاً.

- كنيسة قبرص، وهي أولى الكنائس المستقلة ويرأسها رئيس أساقفة. وكانت تضم خمس أبرشيات أثنتان منها في القسم التركي من الجزيرة.

- كنيسة سيناء، وتتكون من دير واحد هو دير القديسة كاترينا عند سفح طور سيناء، يرأسها رئيس أساقفة ينتخبه الرهبان (١٠٠راهب) ويقيمه بطريرك القدس.

- بطريركية موسكو وكل روسية، ومقرها موسكو وقد أقيمت فيها البطريركية بعد فتح القسطنطينية. وعدد رعيتها نحو مئة وخمسين مليوناً.

- بطريركية صربية، ومقرها بلغراد وكانت تشمل يوغسلافية السابقة عدا جمهورية الجبل الأسود التي فصلها النظام الشيوعي السابق عن البطريركية. عدد رعيتها نحو عشرة ملايين.

- بطريركية بلغارية، وهي أقدم الكنائس السلافية (القرن العاشر للميلاد) وتبلغ رعيتها ثمانية ملايين.

- بطريركية رومانية، ومركزها بوخارست، وعدد رعيتها اثنا عشر مليوناً.

وثمة إحدى عشرة كنيسة مستقلة هي:

- كنيسة اليونان، ويرأسها رئيس أساقفة، وعدد رعيتها نحو عشرة ملايين.

- بطريركية جورجية والبلاد الكرجية، انتشرت المسيحية في جورجية منذ القرن الرابع وارتبطت ببطريركية أنطاكية حتى القرن الثامن

ثم تبعت الكنيسة الروسية إلى أن استقلت في عام ١٩١٧ . عدد رعيتها نحو أربعة ملايين.

ـ كنيسة ألبانية، وكانت ترتبط بالقسطنطينية حتى عام ١٩٣٧، مقرها تيرانة وفيها رئاسة أساقفة. وعدد رعيتها نحو ثلاثمئة ألف.

ـ كنيسة بولونية، وهي رئاسة أساقفة، ومقرها وارسو.

ـ كنيسة تشيكوسلوفاكية (سابقاً)، ومقرها براغ، وفيها رئاسة أساقفة.

ـ كنيسة هنغارية، ومقرها بودابست، وفيها دير بيزنطي.

ـ ثلاث كنائس مستقلة ذاتياً في فنلندة واليابان والصين لم تحصل على استقلالها التام إلى اليوم. فضلاً عن عدد من الأبرشيات الأرثوذكسية في أوربة الغربية والأمريكيتين، وفي آسيا وأسترالية وإفريقية، وتتبع كل أبرشية منها لكنيسة أو لأخرى، ويتمتع بعضها باستقلال ذاتي.

الكنائس الأرثوذكسية اللاخلقيدونية: وتضم ست بطريركيات وكنيستين مستقلتين.

ـ بطريركية الاسكندرية وسائر الكرازة المرقصية للأقباط الأرثوذكس، ومقرها القاهرة، وتقدر رعيتها بنحو ثمانية ملايين (والكرازة تعني الوعظ بالحقائق المسيحية).

ـ بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس، ومقرها دمشق، وتقدر رعيتها بنحو مليوني سرياني في سورية ولبنان والدول الاسكندنافية فضلاً عن وجود نحو مليون سرياني في الهند. ولذلك يدعى بطريركها الرئيس الأعلى للكنيسة السريانية الأرثوذكسية في العالم.

ـ أربع بطريركيات أرمنية للأرمن الأرثوذكس هي: بطريركية اتشميازين في يريفان عاصمة أرمينية، وبطريركية كيليكية في أنطلياس (لبنان) وتتبع لها أبرشيات سورية ولبنان وقبرص وكريت وإيران والولايات المتحدة، وبطريركية القدس وهي تاريخية وتشمل فلسطين والأردن ولها ربع كنيسة القيامة ونصف كنيسة ميلاد المسيح، وبطريركية القسطنطينية وهي مركز تاريخي كذلك وعدد رعيتها قليل وتشمل تركية وأجزاء من أوربة.

ـ كنيسة الحبشة، وكانت مرتبطة ببطريركية الأقباط الأرثوذكس في القاهرة ثم استقلت، ورعيتها نحو ثلاثين مليوناً.

ـ الكنيسة الآشورية الأرثوذكسية، ومقرها بغداد. ولرعيتها وجود في الولايات المتحدة (الكنيسة الرسولية الآشورية الأمريكية في شيكاغو) وفي سورية ولبنان والهند وإيران وأسترالية وإيطالية، ويصل عدد أفراد رعيتها إلى نحو نصف مليون.

الأرثوذكسية واتحاد المسيحيين

المبدأ الأساسي الذي يأخذ به الأرثوذكسيون في جميع علاقاتهم المسكونية هو وحدة الإيمان وليس وحدة التنظيم. فالكنيسة الأرثوذكسية أسرة من الكنائس الشقيقة، الأمر الذي يسمح للمسيحيين الآخرين بالانضمام إلى الأرثوذكسية من دون أن يؤثر ذلك في استقلالهم الذاتي. والأرثوذكسية تطالب الطوائف المسيحية الأخرى بتقبّل التقليد الشريف بمجمله، والتقليد الشريف يتميز من التقاليد (العادات) إذ إن كثيراً من الأمور التي يؤمن بها الأرثوذكسيون لا تؤلف جزءاً من التقليد الشريف بل هي آراء لاهوتية لايجوز فرضها على الآخرين. فمن الممكن أن يكون الناس على وحدة كاملة في الإيمان، وفي الوقت نفسه تختلف آراؤهم اللاهوتية في بعض الميادين.

والمبدأ الأساسي القائل إنه ما من لقاء من دون وحدة في الإيمان يفضي إلى أنه لايمكن أن يكون ثمة مشاركة في الأسرار بين المسيحيين المنتمين إلى طوائف مختلفة مالم تصبح وحدة الإيمان أمراً محققاً.

ناظم كلاس

الموضوعات ذات الصلة:

الإصلاح الديني ـ الإيمان ـ البروتستنتية ـ الكاثوليكية ـ الكنيسة ـ المسيحية ـ الانشقاق الكبير.

■ الأرجنتين

الأرجنتين Argentina هي إحدى جمهوريات أمريكة الجنوبية وثانية دولها اتساعاً، بعد البرازيل. عاصمتها بونس آيرس.

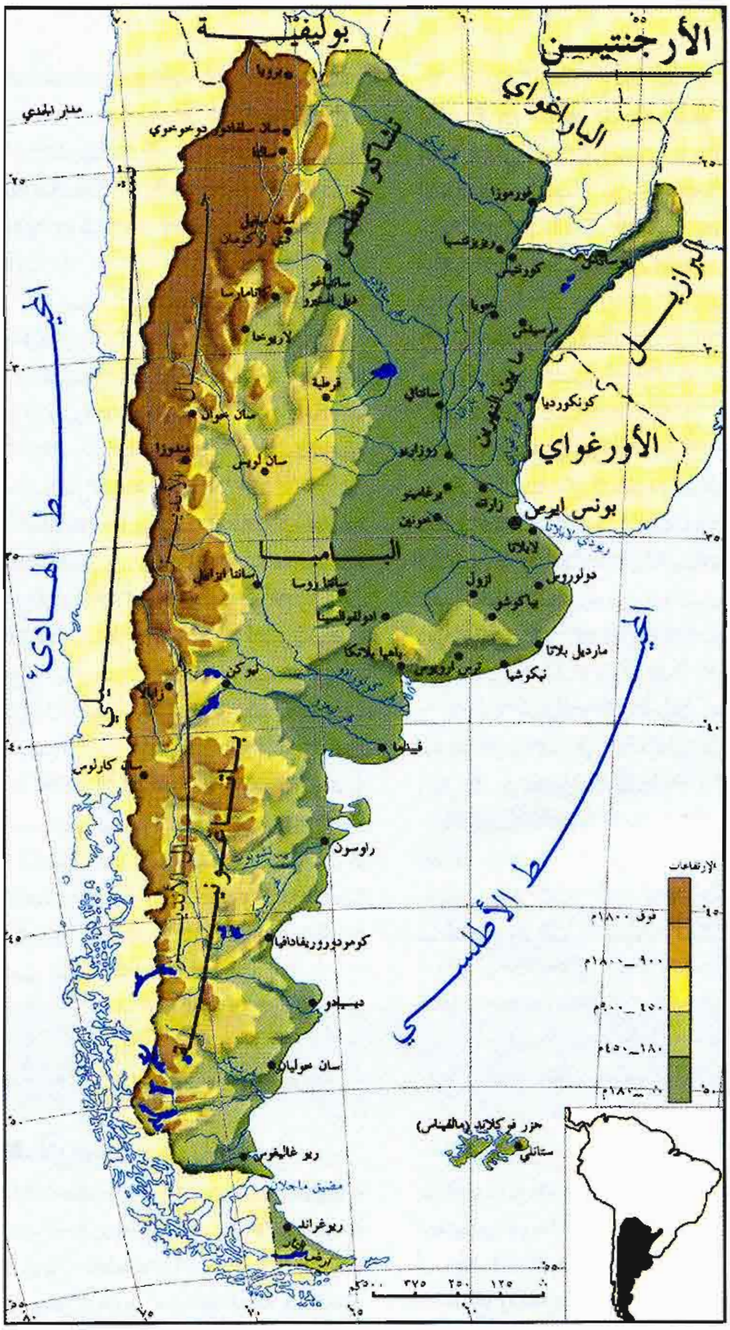
وعلى الرغم من بعد تلك الدولة عن الأقطار العربية، فقد بلغها العرب، وجعلوا منها أحد مغترباتهم في العصر الحديث.

أطلق على الدولة اسم الأرجنتين أي «البلاد الفضية»، اشتقاقاً من اللاتينية «أرجنتوم» أي الفضة. أما اسمها الرسمي فهو الجمهورية الأرخنتينية، أو «أرخنتينة». واللغة الرسمية للدولة هي الإسبانية، علماً بأن اسم «ريو دي لابلاتا»، الذي سبق أن أُطلق على مصب نهر بارانا ـ أورغواي، شمل الأرجنتين أيضاً، وظل يطلق على أراضي الأرجنتين عامة، ردحاً طويلاً من الزمن، قبل الاستقلال، وقبل أن تأخذ الدولة اسمها الرسمي الحالي.

الجغرافية الطبيعية

الموقع والحدود: تبدو الأرجنتين بموقعها المتطرف كأنها منعزلة عن باقي العالم. فهي أقرب إلى القارة القطبية المتجمدة الجنوبية من أية أرض مأهولة أخرى. وقد أدى هذا الموقع النائي إلى تأخير اتجاه الهجرة إلى الأرجنتين أكثر من قرنين من الزمن. ومما يزيد في أهمية موقعها محاذاتها لعدد من دول أمريكة الجنوبية المختلفة في أقاليمها الطبيعية (المدارية وشبه المدارية والمعتدلة) وإشرافها مع تشيلي على مضيق ماجلان، وكونها قاعدة متقدمة في اتجاه قارة القطب الجنوبي. وتتمتع الأرجنتين بحدود طبيعية واضحة المعالم، ففي الشمال لها حدود مشتركة مع بوليفية وباراغواي والبرازيل، وفي الشرق مع البرازيل وأورغواي وريو دي لابلاتا والمحيط الأطلسي. وتؤلف مجاري الأنهار القسم الأكبر من حدود الأرجنتين، مع الدول المذكورة. وفي الغرب تؤلف جبال الأنديز [ر] الحاجز الطبيعي الفاصل بين الأرجنتين وتشيلي. أما الحدود الجنوبية فهي ملتقى مياه المحيطين الأطلسي والهادئ، حيث ممر دريك، أو هوثيس، الواقع بين جزيرة أرض النار وقارة القطب الجنوبي.

تقع الأرجنتين في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية وتمتد من خط عرض ٢١ درجة و٤٥ دقيقة و٥٠ ثانية إلى خط عرض ٥٥ درجة و ٣



دقائق و ٣٠ ثانية جنوباً (عند رأس سان بيو في جزيرة أرض النار) أي على امتداد قدره ٣٦٩٤ كم ومن خط طول ٥٣ درجة و ٣٨ دقيقة و ٥٢ ثانية إلى ٧٣ درجة و ٢٩ دقيقة و ٣٠ ثانية غرباً. ويختلف عرضها بين الشمال والجنوب، فهو ١٤٢٣كم في الشمال، ونحو ٤٠٠كم في الجنوب، ثم يضيق تدريجياً حتى ينعدم في طرف جزيرة أرض النار.

وهكذا، فللأرجنتين شكل مثلثي قاعدته في الشمال ورأسه في الجنوب، وكذلك القطاع التابع لها من القارة القطبية الجنوبية. وتبلغ مساحتها مع جزر مالفيناس (فوكلند) ٢٧٩١٠٠٠كم² مساحة الجزر نحو ١٢ ألف كم٢، أما القطاع القطبي، المدعى لها، فتبلغ مساحته، مع جزره نحو ٩٦٩٠٠٠كم²، وهذا القطاع يمتد بين خطي طول ٢٥ درجة و٧٤ درجة غرباً، وبين خط عرض ٦٠ درجة جنوباً ونقطة القطب الجنوبي.

وللأرجنتين بعض مشكلات الحدود مع جارتيها تشيلي وأورغواي، لكنها خلافات ضيقة، وخاضعة للأمر الواقع والتحكيم.

وخلافها الرئيس هو مع المملكة المتحدة، ويتمثل في عدة مشكلات حول السيادة على جزر مالفيناس، التي يدعوها البريطانيون «فوكلند» (على بعد ٧٠٠كم إلى الشرق من باتاغونية [ر])، وعلى جزر أخرى نائية في المحيط الأطلسي والمتجمد الجنوبي إلى الشرق والجنوب الشرقي من مالفيناس، إضافة إلى القطاع الذي تدعيه الأرجنتين من القارة القطبية الجنوبية حيث توجد لها فيه حالياً ثماني قواعد تابعة للجيش والبحرية والطيران، ومحطة مدنية للاستقصاء والبحث العلمي. وقد استقرت بعض الأسر بجانب إحدى قواعد الجيش، لتأكيد السيادة الأرجنتينية عليها.

وتعود مشكلة مالفيناس إلى عام ١٨٣٣م عندما انتزعتها بريطانية من إسبانية بمباركة من الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٨٢، قام النظام العسكري الحاكم آنئذ في الأرجنتين باحتلال مفاجئ للجزر، غير أن بريطانية لم تلبث أن استعادتها بالقوة بمعونة من الولايات المتحدة أيضاً.

التضاريس: تقسم الأرض الأرجنتينية، بنيوياً ومورفولوجياً، إلى ثلاثة أقسام على الوجه التالي:

كورديلييرا الأنديز: وتشكل تركيباً جبلياً معقداً، بدأ يتكّون في الحقب الجيولوجي الأول. تعود التواءاته الرئيسية إلى النيوجين، وفي الحقب الرابع تخلعت بالصدوع والانهدامات وتعرضت إلى نشاط بركاني كبير زاد في ارتفاعاتها القصوى، حتى إن هناك نحو ٣٠ قمة يزيد علوها على ٥٠٠٠م. مما يفسر الحركات الزلزالية الكثيرة.

وهناك عقد من جبال أقدم مسايرة للأنديز، مثل سييرا قرطبة (دون ٢٠٠٠م) وسييرا فينتانا (١٢٤٣م) وسييرا تنديل. وتنقسم الأنديز الأرجنتينية إلى ثلاثة أقسام: الشمالي والأوسط والجنوبي.

يؤلف القسم الشمالي مظاهر كتلية ومائدية هي كتلة لابونا دي أتاكاما، وتوصف بأنها صحراء عالية الارتفاع (٤٠٠٠م)، تقطعها سلسلة يزيد علوها على ٥٠٠٠م. وتشرف عليها من الغرب براكين شاهقة أكبرها ليوليا

يبلاكو (٦٧٥٠م). أما من الشرق فتحدها سلاسل خوخوي وسالتا وتوكومان، التي تنخفض إلى ما دون ٣٠٠٠م. وهناك أودية حتية ضيقة تدعى كيبراداس تعمقت في هذه الجبال.

وفي القسم الأوسط تتقطع لابونا إلى سليسلات قصيرة متكتلة تحيط بمنخفضات قاحلة. وفي هذا القسم يقع بركان آكونكاغوا الشاهق المشرف عليها من ارتفاع ٦٩٥٩م، وهو أعلى قمة في القارة الأمريكية كلها، وتنحدر منه جليديات كبيرة.

وأما القسم الجنوبي فيقع إلى الجنوب من خط عرض ٣٦ درجة، وفيه تضيق السلسلة وتنخفض (معظمها بين ٢٠٠٠ و٣٠٠٠م) وتتجزأ عرضياً، وكان للعصر الجليدي أثره في تشكيل أودية مستعرضة وبحيرات مثل ناهوال ـ هوابي، وبونس آيرس، وأرخنتينو وسواها، تتغذى من الجليدات الجبلية.

السهول: وهي تغطي القسم الأكبر من الأرجنتين إلى الشرق من الأنديز وتتألف من ثلاثة أقسام هي: تشاكو العظمى وبلاد ما بين النهرين والبامبا.

تقع تشاكو العظمى في أقصى الشمال بين سفوح الأنديز ونهر باراغواي ويقل ارتفاعها عن ٢٠٠م، وفي شمالها يقع خط تقسيم المياه بين حوضي الأمازون ولابلاتا، اللذين كان يغطيهما نطاق بحري متصل قبل أن تملأهما الرسوبيات.

وتقع بلاد ما بين النهرين (انتري ريوس) بين نهري بارانا وأورغواي وتتألف من رقعة دلتاوية قديمة كثيراً ما تتعرض للغرق بالفيضانات، وهي أدنى أراضي الأرجنتين ارتفاعاً (دون ١٠٠م).

وأما البامبا فتمثل الجزء الأوسط المنبسط من سهول الأرجنتين وتعني السهل المستوي العديم الشجر والحجارة، وهي ترتفع غرباً حتى مستوى ١٠٠٠م عند سفوح الأنديز، على بعد ١٠٠٠كم أي بمعدل صعود متر واحد في الكيلومتر. وتتألف البامبا من تربة ناعمة سهلة النقل ومن طمي ولوْس Loess وتكثر فيها المنخفضات حيث تتشكل البرك والمناقع.

هضبة باتاغونية: وتقع إلى الجنوب من نهر كولورادو، وهي تماثل البامبا من حيث الآفاق المستوية إلا أنها ذات أشكال مائدية أعلى ارتفاعاً وأقل اتساعاً تتألف من رسوبيات الحقبين الثاني والثالث مع أغشية بازلتية. وترتفع ١٥٠٠ ـ ٢٠٠٠م في الغرب وتشرف بجرف عال ٥٠ ـ ١٥٠م على المحيط الأطلسي. أما شواطئ الأرجنتين فطولها ٤٧٢٥كم وتفتقر إلى الموانئ الطبيعية.

المناخ والمياه: يتأثر مناخ الأرجنتين بامتداد البلاد على درجات عرض كثيرة، وبمرور مدار الجدي قرب حدودها الشمالية مما يجعل التفاوت الحراري كبيراً بين الشمال والجنوب (الوسطي السنوي ٢٥ْ ـ ٦ْ مئوية على التوالي).

ويتأثر كذلك بوقوعها في ظل مطر كورديليرا الأنديز إذ يحرمها هذا الموقع من المؤثرات الرطبة والمعدلة للمحيط الهادئ باستثناء القسم الجنوبي (جنوب عرض ٤٠ْ) حيث تنخفض الجبال وتضيق فعندها يظهر تأثير المحيط الهادئ على غربي باتاغونية ولا سيما في فصل الشتاء. ثم إنها تتأثر تأثراً بارزاً بالمحيط الأطلسي: فهو معدل ومصدر رئيس للمطر ولاسيما في فصل الصيف.

وعلى هذا توجد في الأرجنتين ثلاثة أنظمة مناخية مطرية هيدروغرافية هي النظام الأطلسي والنظام الهادئ والنظام الجاف.

ففي النظام الأطلسي تتناقص الأمطار في اتجاه الجنوب الغربي (بوساداس في ميسيونيس ١٦٣٠م ـ روساريو على بارانا ٩٤٤م ـ كامبوغاليو ٦٢١م)، ويظهر في هذا الاتجاه الشتاء الجاف، يعود ويرتفع في جبال مقدمة الأنديز في غرب البامبا إلى ١٥٠٠م، وتكون هذه الجبال منشأ عدد من أنهار السهول الداخلية. أما القسم الساحلي فهو غزير المطر ومعتدل (بونس آيرس ١٢٠٠م ووسطي الحرارة ١٦٫٥ْ مئوية). لكن الشبكة المائية الغنية لهذا النظام هي في الشمال الشرقي حيث الأعداد الهائلة من النهيرات التي تتجمع وتكوّن نهري بارانا (٤٠٠٠كم) وأورغواي اللذين يجتمعان ويكونان ما يسمى نهر لابلاتا. وقبل ذلك بنحو ١٢٠٠كم يكون البارانا قد التقى نهر باراغواي. وتعد هذه الشبكة ثالث مجموعة نهرية في العالم بغزارتها (بعد الأمازون والكونغو). ويصلح نهر بارانا للملاحة النهرية حتى مدينة سانتافي، لذا تتوغل فيه السفن البحرية أكثر من أي نهر في العالم.

وفي النظام الهادئ (الباسفيكي) يكون الهطل شتوياً، وبالدرجة الأولى على شكل ثلوج، تأتي بها الرياح الغربية التي تكثفها الأنديز، لا تلبث كمياتها أن تتناقص فجأة في اتجاه الشرق، بعد عبورها الجبال (بحيرة كيليين ٤٤٧٠م سنوياً في حين أن لاس لاخاس ٢٣٢م). وفي أقصى الجنوب يصبح الهطل أكثر انتظاماً في السنة كلها، ولايمكن للثلج المتراكم في الشتاء أن يذوب بكامله في الصيف فتنتشر الجليديات على نطاق واسع، وأشهرها جليدية بيرتيو مورينو في أقصى الجنوب وهي الجليدية الوحيدة في العالم التي لاتتراجع. وهناك بحيرات أخرى تتغذى من مياه الجليديات إلى الشمال منها وهي فييدما وبونس آيرس وناهوال ـ هوابي وغيرها.

أما النظام الجاف، فهو قاري يمتد محورياً بين المنطقتين الرطبتين السابقتين، لذا يتأثر في بعض أجزائه بهذه أو بتلك منهما. ويمتد نطاقه عامة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي من لابونا دي أتاكاما حتى ساحل باتاغونية وأمطاره دون ٣٠٠م (مندوزا ١٩٣م، سان غوان ٩٠م) وفروقه الحرارية أشد ما عرفته الأرجنتين كما في سامبينتو (ـ٣٣ و٣٧)أي سبعون درجة مئوية. وأنظمته عدة، فهو جبلي ثلجي في الشمال، وعاصفي يسقط فيه البَرَد صيفاً في الوسط حول مندوزا. في هذا القسم تكون الشبكة المائية ضعيفة ويستنفد أغزرها في الري (مثل بيرميخو وديساغوادير وسالادو وغيرها).

النبيت والوحيش: إن الأرجنتين بلد الأعشاب والحشائش والشجيرات أكثر منها بلاد الأشجار والغابات، ومع ذلك فإن لكل منطقة طبيعية نباتها المميز، وحيوانها، وتقسم إلى الأقاليم التالية:

البامبا أو الإقليم العشبي المعتدل: وتعد المنطقة النباتية الرئيسة التي أدخل إليها الإنسان زراعة الأعشاب الرعوية، أما حيواناتها فيغلب عليها الثعلب والضبع والوعل والحيوان المسمى أرماديلو(التاتو أو المدرَّع).

الإقليم شبه المداري: وهو إقليم غابات ومروج وأهم أنواع الأشجار فيه الأروكاريا أو صنوبر بارانا، وإيبيرا، وجاكاراندا، ويضاف إليها اليرباماتي (المتة) أو شاي باراغواي. أما في تشاكو فتغلب أشجار الكبراتشو أو البلوط الأحمر ذات الخشب الصلب الذي لايفسد، والقشرة الغنية بالمادة الدباغية، وهي هناك

الوحيدة في العالم. كذلك توجد أشجار النخيل والخيزران. وتشمل حيوانات تلك المناطق شبه المدارية القردة وحيوانات الفصيلة السنورية: مثل البوما والفهد، إضافة إلى آكل النمل.

إقليم الغابات المعتدلة: وهو يقتصر في الجنوب الغربي على سفوح الأنديز الوافرة المطر والثلج، فهناك غابة من الصنوبر والأرز والشربين وأشجار الزان. وهناك أيضاً الحيوانات ذات الفراء.

الإقليم شبه الجاف: ويشمل سفوح الأنديز الوسطى وجبال البامبياناس أو مقدمة الأنديز (ايلمونتي) ويتضمن تشكيلات نباتية غير كثيفة قوامها الشجيرات ذات الأوراق القليلة والشوكية مثل الأكاسيا.

أما في أقصى الشمال الغربي في لابونا دي أتاكاما فيصبح الإقليم سهباً فقيراً، وتعيش فيه الحيوانات المجترة اللبونة المفيدة للإنسان كاللاما والفيكونيا والألباكا.

إقليم ما بين النهرين: وهو إقليم المروج والنخيل، والنباتات المائية.

وتنتشر طيور متنوعة في أقاليم الأرجنتين، والغالب منها النسر والعقاب واللقلق والببغاء. أما في الأطراف الجنوبية القريبة من القطبية فيعيش البطريق. وسواحل الأرجنتين غنية بأسماك متنوعة، وكذلك بحيراتها، وتأوي إلى شبه جزيرة فالدس أعداد كبيرة من فيلة البحر، ومن سباعه ذوات الفراء.

الحياة البشرية

مع أن منطقة الريو دي لا بلاتا اكتشفت في أوائل القرن السادس عشر فإن السكن في الأرجنتين بدأ من جهتها الغربية على مقربة من سفوح الأنديز حين جاءها الإسبان المنحدرون من الهضاب والسهول العليا، قادمين من مناطق التعدين في بوليفية وتشيلي، ومع ذلك فإن الإسبان الذين قدموا غزاةً ومكتشفين لم يستطيعوا أن يكوّنوا غطاء بشرياً كافياً لتلك الأرض الشاسعة، ولم يكونوا راغبين في استقدام عناصر غير إسبانية، حتى إن الأرجنتين كلها لم يكن يقطنها غداة الاستقلال أكثر من ٤٠٠٠٠٠ نسمة. ولذا فإن أفواج المهاجرين بعد الاستقلال هي التي جعلت من الأرجنتين أمة راسخة بعد أن أعلنت هذه الدولة المستقلة مجموعة من المبادئ بينها إلغاء الرّق وفتح باب الهجرة إليها.

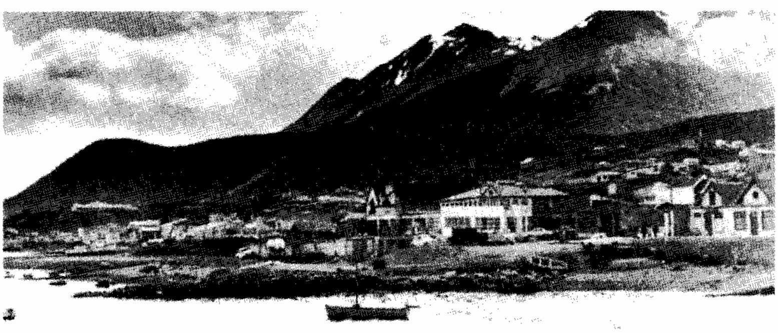
الهجرة: ظل تيار الهجرة ضعيفاً، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، غير أن الأمر بدأ يتغير في النصف الثاني من القرن نفسه فوصل مربو المواشي من سويسرة عام ١٨٥٦، وبين عامي ١٨٦٠ و١٨٧٠ وصل مزارعون من إيطالية، ثم بدأ الإسبان يفدون مهاجرين. وفي تلك الحقبة بدأت أيضاً الهجرة العربية الحديثة إلى تلك البلاد، ثم جاء الجرمان والسلافيون من أوربة الوسطى والشرقية، ومن ضمنهم اليهود. كما قدم فرنسيون وإنكليز وإيرلنديون وولزيون وغيرهم. فدخل البلاد بين عامي ١٨٥٧ و١٩٣٩ نحو ٦٫٦٣ مليون مهاجر، منهم ٤٤ بالمئة إيطاليون و٣١ بالمئة إسبان ونحو ٥ بالمئة من عرب بلاد الشام، و٦٫٣ بالمئة من الفرنسيين ثم يأتي بعدهم من حيث النسبة الألمان والإنكليز وغيرهم. وقد أثرت الحرب العالمية الثانية في إضعاف الهجرة، لكنها استعادت بعض نشاطها في السنوات التي تلت تلك الحرب، فبين عامي ١٩٤٨ و١٩٥١ دخل البلاد نحو ٧٠٠٠٠٠ نسمة، كثير منهم من المهجّرين أو من اللاجئين السياسيين. وكان من أواخر المهاجرين الوافدون من جنوب شرقي آسيا، في أعقاب حرب فييتنام.

السكان وتوزعهم: إن أكثر من ٨٥ بالمئة من سكان البلاد الحاليين مولودون على الأرض الأرجنتينية، يضاف إليهم ١٠ بالمئة من المولودين خارجها، وجميع هؤلاء هم من أصول قفقاسية (أوربية أو متوسطية بالدرجة الأولى)، أما ما تبقى فمن سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر، ومن عناصر أخرى زنجية ومغولية وسواها، وقد اختلط جميعهم بالتزاوج. وقد بلغ عدد سكان الأرجنتين عام ١٩٩٥ أكثر من ٣٤٦٦٥٠٠٠ نسمة (أقل من ١٢٫٦ نسمة/كم²) وقد بلغت نسبة الزيادة الطبيعية نحو ١٣ بالألف (المواليد ٢٠ بالألف والوفيات ٨ بالألف) ويزيد فيها عدد الإناث على عدد الذكور بنسبة قليلة، أما توقعات العمر فيها فهي ٦٦٫٤٣ للذكور، و٧٣٫١٢ للإناث.

ويتوزع السكان توزعاً متفاوتاً جداً، ففي حين تزيد الكثافة على ٤٠ نسمة/كم² في توكومان في الشمال، فإنها دون ١نسمة/كم² في باتاغونية وجبال الأنديز. وتشتد الكثافة، بوجه عام، على السواحل وضفاف الأنهار وسفوح الأنديز، حيث المدن والموانئ والمصانع ومنشآت الري. وقد تناقصت نسبة سكان الريف وازدادت نسبة سكان المدن حتى بلغت هذه الأخيرة ٨٨ بالمئة.

يعيش سكان الريف في الأرجنتين مبعثرين تنتشر بيوتهم في أرض مترامية الأطراف تتوسطها المزرعة. غير أن الألمان شذوا عن القاعدة وبنوا قرى مجمَّعة المساكن. ولمحطة السكة الحديدية أثر المركز الجاذب المكثف لسكان الريف، عندما يتوسع النشاط يبنى الفندق عندها ويستقر الحرفيون، ويفتتح ممثلو بيوتات التصدير مراكزهم، وهكذا يتطور محيط المحطة إلى مدينة ريفية.

أما سكان المدن، فيتوزعون في مجموعتين رئيسيتين هما: مجموعة سفوح الأنديز ومجموعة مدن لابامبا. فالمجموعة الأولى كانت في الأصل مراكز عبور إلى الأنديز وظهيراً تموينياً لمناطقها التعدينية مثل مندوزا المحطة الرئيسية للعبور، وملتقى عدة طرق بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. وقد تحولت في مرحلة الاستقلال إلى مدن تتوسط مناطق زراعية مروية غنية بالأشجار المثمرة، ولا سيما الكروم، حول مندوزا، والحمضيات وقصب السكر حول توكومان. أما قرطبة فاحتفظت بقدر من طابع



أوشووايا آخر مدينة مأهولة في العالم جنوباً (جزيرة أرض النار)

المدينة الإسبانية القديمة مع كونها مقر أقدم جامعة أرجنتينية.

أما مدن لابامبا فهي مدن تجارية، وفيها أضخم المدن وعلى رأسها بونس آيرس (٥ ملايين للمدينة و١١ مليوناً مع ضواحيها أي ثلث سكان الأرجنتين) وهي كبرى مدن أمريكة الجنوبية وهي ميناء ومركز تجاري وصناعي للأصواف والجلود والقمح والدقيق، وصناعة التبريد والأجهزة الكهربائية وغيرها. إلا أن للنشاط التجاري والمصرفي الأولوية. وتلي بونس آيرس روساريو، المرفأ النهري الذي تتركز فيه تجارة الذرة الصفراء وفول الصويا وتليها نحو الشمال على البارانا أيضاً سانتافي، وفي أقصى جنوب البامبا وعلى الشاطىء ميناء باهيا بلانكا، أكبر موانىء تصدير القمح.

أما مدن باتاغونية فهي ساحلية لتصدير منتجات الداخل وللصيد البحري.

الحياة الاجتماعية: لاشك في أن طراز المعيشة في الأرجنتين طراز أوربي، بحكم غلبة المهاجرين القادمين من أوربة، كما أن مستوى المعيشة قريب من المستوى الأوربي العادي، إذ يبلغ معدل دخل الفرد السنوي ٨٠٣٠ دولاراً. ومن دلائل نوعية الحياة، أن الفرد يستهلك سنوياً ٨٥ إلى ٩٠ كغ من اللحم، وأن لكل ثمانية أشخاص سيارة، وأن نسبة الأطباء مرتفعة (طبيب لكل ٥٣٠ نسمة).

وفي البلاد نظام متقدم للتأمين الاجتماعي، والمؤسسات ذات النفع الاجتماعي متصلة بالدولة أو مختلطة مع اتحاد العمال أو مع الشركات المستخدمة.

وعلى الرغم من كل الإصلاحات الاجتماعية فما يزال هناك تفاوت طبقي كبير، بين طبقة ملاك الأراضي الواسعة أو الذين يجنون فوائد استثماراتهم الأجنبية البالغة عدة مليارات دولار سنوياً وبين طبقة العمال والموظفين التي تعاني من آثار التضخم، وضعف القوة الشرائية لأجورهم.

أما من الناحية الثقافية، فيغلب على الأرجنتين الطابع الأوربي المسيحي الكاثوليكي الإسباني، أما الدولة فعلمانية تضمن حرية المعتقدات لجميع الأديان.

ولقد ظل الأوربيون، على الرغم من نشوء أجيال جديدة على الأرض الأرجنتينية، يرفدون الحياة الحديثة في الأرجنتين في المجالات العمرانية والفكرية والفنية، وهنا يبرز تأثير بعض الشعوب كالفرنسيين في الأدب والتصوير والنحت والبناء، كما يبرز الطراز الإيطالي إضافة إلى الإسباني والطراز الأنكلوسكسوني في الاقتصاد، أما الطراز الأمريكي الشمالي (الولايات المتحدة) فقد تأخر ظهوره نسبياً إذ إن العالم الخارجي ظل مدة طويلة يعني للأرجنتين أوربة لاغيرها.

ولقد كان للتعليم الأثر الأول في التوحيد الفكري لسكان الأرجنتين، إذ أعطي أولوية منذ الاستقلال، وعد رمزاً لسيادة الإنسان، لذا فإن نسبة الأمية في الأرجنتين لا تزيد على ٤ بالمئة وهي في هبوط مستمر.

وفي الأرجنتين أربعة مستويات للتعليم هي: ماقبل الابتدائي، والابتدائي، والثانوي بأنواعه، والعالي. ويؤم مؤسسات التعليم نحو ٦,٧ مليون تلميذ وطالب في ٤٢٠٠٠ مؤسسة، وفي الأرجنتين ٢٥ جامعة وطنية، وواحدة تابعة لولاية، و٢٢ جامعة خاصة، إضافة إلى معاهد المعلمين، وأكبر الجامعات جامعة بونُس آيرس التي يؤمها ١٧٠٠٠٠ طالب.

الوجود العربي في الأرجنتين: كان المعتقد أن الوجود العربي في الأرجنتين، يقوم على أولئك العرب المهاجرين من بلاد الشام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، لكن تبين أن المكتشفين الإسبان قد عمروا سفنهم بعناصر كثيرة عربية الأصل من الأندلس قدموا على مراكب سيباستيان كابوتو، وبيدور دي مندوزا، اللذين كانا السابقين إلى إنشاء مستوطنات على ضفاف ريو دي لا بلاتا. وإن تلك العناصر هي التي كونت بالاختلاط مع السكان الأصليين والوافدين، الأجيال التي دعيت «كريوليوس» أو المهجنين، وقد استدلوا على ذلك بسحنهم العربية الأمازيغية (البربرية) الأندلسية، ومن نمط البناء ومادته (دهليز يقود إلى داخل المنزل المبني من اللبن والمسقوف بالقصب والطين) أو الأسواق الريفية التي يعقدونها لمبادلة الحاجات، ومن أسماء الأسر أو الكنى التي لاتمت إلا إلى عرب الأندلس، ومن المجالس «كابيلدو» التي كانوا يجتمعون فيها، ومن الزعامات المحلية التي قامت متمردة على السلطة المركزية مدة طويلة، وهي التي كونت مادة التمرد على نائب الملك الإسباني في بونس آيرس وما حولها، ومهدت السبيل إلى الاستقلال، إذ إن الإسبان الحقيقيين لم يكونوا مسرورين من التمرد على حكومة الوطن الأم الإسبانية.

لقد كتب سارميينتو (١٨١١-١٨٨٨م) وهو من أكبر المفكرين الاجتماعيين والمربين في الأرجنتين والذي أصبح رئيساً لجمهوريتها، أن والدته التي كان لها أكبر الأثر في تربيته هي من أسرة أندلسية عربية الأصل.

أما الهجرة العربية الحديثة للأرجنتين، فقد انقضى عليها أكثر من قرن وربع القرن، وكانت



تمثال الجنرال دون خوزيه دو سان مارتين

أشدها، حتى الحرب العالمية الأولى، مما دعا الحكومة العثمانية إلى افتتاح قنصلية لها في عاصمة الأرجنتين وعينت سورياً لها هو أمين أرسلان. وكان المهاجرون السوريون يدعون في الأرجنتين أتراكاً «توركوس» بحكم تبعيتهم للدولة العثمانية آنذاك، وكانت تشمل تلك التسمية اللبنانيين أيضاً، ولكن بعد تطبيق الانتداب الفرنسي وإنشاء دولة لبنان، أصبحت فرنسة ترعى المصالح السورية هناك، وغدت التسمية تشير إلى الجالية السورية والجالية اللبنانية.

وقد ضُيّق على الهجرة إلى الأرجنتين بين الحربين لغير الأوربيين، وكان المقصود بذلك السوريين لأنهم هم الذين يمثلون أغلبية غير الأوربيين المهاجرين، مما دعا إلى تأليف منظمة لحماية المهاجرين، إذ إن بعضهم كان يحاول الدخول إلى الأرجنتين في الخفاء متسرباً من أورغواي أو من البرازيل، معرضين أنفسهم بذلك لأخطار كثيرة.

ولا توجد إحصاءات رسمية عن عدد العرب في الأرجنتين فالأرقام التقديرية متفاوتة ولا تدل على اطراد، ففي كلمة لأحد أعضاء مجلس الشيوخ الأرجنتيني عام ١٩١١ ألقيت في المجلس نفسه، تقديرٌ بأنهم ١٠٠٠٠٠ نسمة، وقدرهم مدير البنك السوري اللبناني في بونس آيرس عام ١٩٣١ بنحو ٤٠٠,٠٠٠ نسمة مع أبنائهم وأحفادهم وقُدروا في عام ١٩٦٠ بنصف مليون إلى ستمئة ألف نسمة، والتفاوت ناجم عن عدم التفريق بين من اندمجوا في المجتمع الأرجنتيني، وحازوا الجنسية الأرجنتينية ويصرحون بأنهم أرجنتينيون، ومن ظلوا محتفظين بجنسيتهم الأصلية. ويدخل في إحصاءات العرب في الأرجنتين أعداد قليلة من المصريين والمغاربة والجزائريين.

وينتشر العرب المغتربون في شتى أنحاء الأرجنتين مدناً وريفاً بلا استثناء من تشوبوت شمالاً إلى جزيرة أرض النار جنوباً. غير أن أكثر من نصفهم يتجمع في العاصمة بونس آيرس ثم تليها عددياً ولايات سانتافي وقرطبة وتوكومان ومندوزا وسانتياغو ديل استيرو. وعمل العرب في جميع المجالات الاقتصادية من تجارية وزراعية وصناعية وتربية المواشي، وفي المهن الحرفية والمهن الحرة، وفي عدد من المناطق توصلوا إلى درجات مرموقة من المكانة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وكانوا في المرتبة الأولى بمجالات صناعة نسج الحرير والأصواف للسيدات وسواها.

وعمل العرب على نشر عدد من المجلات والصحف بالعربية والإسبانية ونشر قسم من التراث وترجمة معاني القرآن الكريم إلى الإسبانية ونقل بعض الآثار الأدبية الأرجنتينية إلى العربية وكان منهم شعراء مبرزون باللغتين الإسبانية والعربية وفنانون تشكيليون وموسيقيون وسواهم.

ويتوزع المغتربون العرب في جمعيات تدل على المناطق السورية التي جاؤوا منها. وقد اختاروا لاستقرارهم في المغترب مناطق لا تختلف كثيراً عن بيئتهم الاجتماعية والطبيعية التي ألفوها في الوطن الأم، فالقادمون من المناطق الوسطى اختاروا العاصمة بالدرجة الأولى لتمرسهم في التجارة والصناعة. والقادمون من المنطقة الساحلية والغربية سكنوا توكومان وسانتياغو ديل استيرو حيث تكثر الحمضيات وقصب السكر، أما القادمون من القلمون والمناطق الجبلية فقد اختاروا مندوزا وما حولها ذات المناخ الجاف الملائم للأشجار المثمرة. وبعضهم استقر على مقربة من الحدود التي تسرب منها، من أورغواي والبرازيل.

التقسيمات السياسية الإدارية

تتألف الأرجنتين من مقاطعة اتحادية واحدة و٢٢ ولاية وأرض وطنية واحدة، أما المقاطعة الاتحادية فعاصمتها بونس آيرس. وأما الولايات والأرض الوطنية فتصنف في مناطق على النحو التالي:

الولاية	عاصمة الولاية
المنطقة الساحلية	
بونس آيرس	لا بلاتا
انتري ريوس	بارانا
سانتافي	سانتافي
ميسونيس	بوساداس
كورينيتس	ريزيستينثيا
فورموزا	فورموزا
المنطقة الشمالية	
خوخوي	سان سلفادور دي خوخوي
سالتا	سالتا
سانتياغو ديل استيرو	سانتياغوديل استيرو
توكومان	سان ميغيل دي توكومان
المنطقة الأنديزية (الغربية)	
كاتاماركا	كاتاماركا
لاريوخا	لاريوخا
سان خوان	سان خوان
مندوزا	مندوزا
نيوْكين	نيوْكين
المنطقة الوسطى	
قرطبة (كوردوبا)	قرطبة
سان لويس	سان لويس
لايامبا	سانتا روسا
المنطقة الباتاغونية	
ريونيغرو	فييدما
تشوبوت	راوسون
سانتا كروز	ريوغاليغوس

غير أن الأرجنتين لم تنهض أمةً موحدة، إلا ابتداء من عام ١٨٦٢، بعد تولي أول رئيس دستوري الحكم في البلاد هو بارتولومي متري.

وتوقفت نهضة البلاد مؤقتاً، بسبب أزمات مصرفية وسياسية وحزبية، إلى أن جاءت الحرب العالمية الأولى، وفيها بقيت الأرجنتين على الحياد، مما أكسبها فوائد اقتصادية كثيرة. ومع حدوث الأزمة الاقتصادية العالمية بعد الحرب، وتقصير الأوساط السياسية، قام انقلاب عسكري عام ١٩٣٠، ثم خلفته حكومة من حزب محافظ عام ١٩٣٢، لكن نفوذ الجيش في الحكم ظل قائماً. وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية ظلت الأرجنتين على الحياد، بعد أن خبرت فوائده في الحرب الأولى.

وفي حزيران من عام ١٩٤٣ قام مايسمى بانقلاب العقداء (الكولونيلات) الذين ألفوا حكومة عسكرية استطاع من بينهم خوان بيرون أن يصل إلى رئاسة الجمهورية في شباط ١٩٤٦، بعد تأليفه حزباً جديداً تحت اسم حزب العمل. وازدهرت البلاد في عهده. ووضع عام ١٩٤٩م مايسمى دستور العدالة «خوستسياليستا»، عدّل بموجبه الدستور الأرجنتيني المعمول به منذ عام ١٨٥٣م.

وعلى المستوى الخارجي أبدى بيرون استقلاله عن سياسة الولايات المتحدة الأمريكية التي كانت تتهمه بالتواطؤ مع المحور، إبان الحرب العالمية الثانية. وتقرَّب من الاتحاد السوفييتي

السابق، وحاول إقامة كتلة لاتينية ومحور بين بونس آيرس ومدريد.

غير أن نظام بيرون لقي مقاومة من أطراف خارجية وداخلية. وقام تمرد للأسطول في «ريو دي لا بلاتا» صيف عام ١٩٥٥، نحي على أثره بيرون عن رئاسة الجمهورية.

وعاشت البلاد مرحلة انقلابات عسكرية حتى عام ١٩٧٣ حين عاد بيرون إلى الحكم وظل حتى عام ١٩٧٦ وسقوط البلاد في يد العسكريين من جديد. وتميز حكمهم هذه المرة بالقسوة، والتصفية الجسدية للكثيرين، وبإثارة حرب فوكلند، التي أدت إلى انهيار الحكم العسكري عام ١٩٨٣، وتمت الدعوة إلى الانتخابات، التي نجح فيها رئيس للجمهورية من الحزب الراديكالي هو راؤول ألفونسين، مع بروز قوة الحزب البيروني المؤيد له. وقد حاول الرئيس الجديد معالجة الأوضاع الاقتصادية المتردية من جراء الحكم العسكري والتضخم والديون الخارجية الكبيرة، وظهرت بوادر تحسّن في الميزان التجاري، والحد من جماح التضخم وارتفاع الأسعار، والحد من ارتفاع الأجور. وأعقبه انتخاب كارلوس منعم رئيساً للبلاد منذ عام ١٩٨٩، وهو سوري الأصل.

النظام السياسي

يحكم النظام السياسي الإداري في الأرجنتين دستور يعود أصلاً إلى عام ١٨٥٣م، وكان وَضْعُه على نسق دستور الولايات المتحدة الأمريكية: جمهوري، رئاسي فدرالي، نيابي، وقد طرأت عليه مراراً تعديلات، لكنها غير كبيرة.

تدير شؤون البلاد حكومة اتحادية تنقسم سلطاتها إلى تنفيذية وتشريعية وقضائية، ومقرها مدينة بونس آيرس التي لها صفة مقاطعة اتحادية. يرأس السلطة التنفيذية رئيس للجمهورية ينتخب بالتصويت غير المباشر، مع نائبه لمدة ٦ سنوات، وهو يعين الوزراء، ويقيلهم.

أما نائب الرئيس المجرد من السلطة بوجود الرئيس، فيرأس مجلس الشيوخ، وعند غياب الرئيس أو وفاته أو تنحيته، يتولى كامل سلطاته. أما السلطة التشريعية فيتولاها «الكونغرس» المؤلف من مجلس للنواب يُنتخبون بالتصويت المباشر في كل ولاية وفي المقاطعة الاتحادية، ومجلس الشيوخ تنتخبه السلطة التشريعية للولاية وبالتصويت العام في العاصمة.

وللولايات دساتيرها الخاصة المتوافقة مع مبادئ الدستور الاتحادي وحقوقه وضماناته فهي تنتخب سلطاتها التنفيذية والتشريعية انتخاباً مباشراً، كما تنتخب حكامها لمدة ست سنوات، وهم يعدون الممثلين الطبيعيين للسلطة الاتحادية في الإشراف على تنفيذ الدستور والقوانين المرعية.

ولكن لايدخل في نطاق اختصاص الولايات: الدفاع، وإصدار النقد، والملاحة الداخلية والخارجية، وإصدار القوانين التجارية والجزائية، ولايدخل في اختصاصها كذلك تسمية ممثلين ودبلوماسيين.

مصطفى الحاج إبراهيم

المظاهر الحضارية

اللغة: اللغة الرسمية في الأرجنتين هي اللغة الإسبانية [ر. إسبانية].

الأدب الأرجنتيني: [ر. الأدب الإسباني الأمريكي].

الفنون: شغل الفن بين أوائل القرن السادس عشر وأوخر القرن الثامن عشر مكانة ضعيفة الأهمية في الأرجنتين ولا يكاد الباحث يجد أثراً لفن التصوير، ويبدو أن فن النحت اقتصر على بعض التماثيل في الكنائس.

أما أقدم الأعمال المعمارية فقد بنيت في القرن الثامن عشر، وجلها دينية، مثل كاتدرائية بونس آيرس، وكنيسة سانتو دومينغو، وكلتاهما من عمل أنطونيو مازيلا A.Masella الإيطالي، وكنيسة سان إيناسيو للراهب الجزويتي الألماني يوهان كراوس Johan Kraus، وكنيسة بيلار للراهب الجزويتي الإيطالي أندريا بيانكي Andre Bianchi الذي بنى كذلك كنائس سان فرانسيسكو ولاميرسيد وسان تيلمو، وجميعها في بونس آيرس. وفي مدينة كوردوبا تقوم كنيسة الجزويت لاكامبانيا، للراهب البلجيكي فيليب لومير Philippe Lemer. وقد تميزت العمارة في القرن السادس عشر بنوع من العفوية، مع تأثيرات للعمارة الأندلسية. واستمر هذا الوضع حتى منتصف القرن، عندما وفد إلى الأرجنتين بنّاؤون أوربيون، أكثرهم من الإيطاليين. أضافوا إلى الطراز السائد عناصر الاتباعية المحدثة [ر. الاتباعية]. وفي أواخر القرن درج أثرياء القوم على التوجه إلى أوربة في رحلات للمتعة، يعودون منها بتصاميم جاهزة لبناء منازلهم التي كانوا يؤثثونها بمفروشات مستوردة.

كذلك كان شأن فن التصوير، الذي بدأ مع قدوم أعداد من المصورين الأوربيين الذين انتشروا في أمريكة الجنوبية، وتركوا أعمالاً تمثل طبيعة البلاد وعاداتها. وكان أن نشأ إثر ذلك جيل من المصورين الأرجنتينيين مثل كارلوس موريل Carlos Morel (١٨١٣-١٨٩٤)، الذي برع في الصور الشخصية، وبريليديانو بويريدون Prilidiano Puerredon (١٨٢٣ - ١٨٧٠) الذي صور مناظر منطقة الپامبا.

وفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، سافر عدد من المصورين إلى فرنسة وإيطالية للدراسة، منهم إدواردو سيفوري Eduardo Sivori (١٨٤٧-١٩١٧)، ولوشيو كورّيا مورالس Lucio Correa Morales (١٨٥٢-١٩٢٣)، ومارتين مالارّو Martin Malharro (١٨٦٥-١٩١١)، وارنستو دلاّ كاركوفا Ernesto dell Carcova (١٨٦٧-١٩٢٧). وقد انعكست في أعمالهم تأثيرات الانطباعية الفرنسية والواقعية الإيطالية.

ومن أعمالهم التي تعود إلى أوائل القرن العشرين قصر المؤتمرات ومسرح كولون Colon، من تصميم الإيطالي فيتّوريو ميانو Vittorio Meano (١٨٦٦-١٩٢٧). وقد قامت بين عامي ١٩٢٠و١٩٣٠ دعوة لإحياء الأسلوب الأجنبي في فن البناء، إلا أن المحدثين قاوموها بشدة، ولكنهم أخفقوا في إقامة أسلوب معماري جديد واضح المعالم.

وفي التصوير أسهم أميليو بيتّوروتي Emilio Pitturoti في الحركة المستقبلية Futurism في إيطالية، وعاد إلى الأرجنتين عام ١٩٢٤ ليترك أثراً في الوسط الفني الحديث. وكذلك ميغيل فكتوريا Miguel Victoria (١٨٨٤-١٩٥٥) الذي تأثر بالمدرسة الوحشية [ر]. وهناك مصورون آخرون درسوا في أوربة منهم: أكويلس بادي Aquiles Badi وهكتور باسالدوا Hector Basaldua، ولينو سبيليمبرغو Lino Spilimbergo، وهوراسيو بوتلر Horatio Botler، وراول سولدي Raul Soldi وأنطونيو بيرني Antonio Berni. وقد شكل هؤلاء صلة الوصل بين الأجيال التي تلتهم ومختلف التيارات الفنية المعاصرة في العالم.

أما في النحت فهناك فنانان تبنيّا اتجاهاً تقليدياً هما: روجيليو إيروتيا Rogelio Yrutia

(١٨٧٩-١٩٥٠) وأنطونيو سيبلّينو Antonio Sibellino (١٨٩١-١٩٦٠). كما ظهر نحاتون آخرون بين عامي ١٩٣٠-١٩٥٠ منهم: بابلو كوارتيلاّ مانس B. C. Manes وسيزوستريس فيتولو Sesostris Vitullo وقد عاشا في باريس ودرسا على بورديل Bourdelle وأليثيا بنيالبا Alicia Penalba، وخوليو لوبارك Julio le Parc.

محمود حماد

الموسيقى: كان لوصول المهاجرين الأوربيين إلى الأرجنتين، ولا سيما الإسبان، تأثير واضح في الموسيقى الأرجنتينية، وفي موسيقى مناطق أمريكة الجنوبية الأخرى (ما عدا البرازيل). فقد حمل هؤلاء المهاجرون معهم عاداتهم وتقاليدهم الشعبية وموسيقاهم، بألوانها واتجاهاتها كافة، فامتزجت مع موسيقى الهنود الحمر، سكان البلاد الأصليين. كما أن شعائر الكنيسة اللاتينية، بما يصاحبها من تراتيل وأناشيد، واعتناق السكان المحليين للديانة المسيحية، أثرت في إضفاء شكل جديد على الموسيقى والغناء في الأرجنتين، ابتعد بهما عن طابعهما البدائي الرتيب. وبعد أن كانت الآلات الموسيقية مقتصرة على القليل من آلات النفخ والإيقاع، أدخل الإسبان آلات وترية أهمها الغيتار guitar [ر. قيثارة]. ثم ظهرت آلات وترية أخرى، كأنواع الهارب harp الصغيرة والبسيطة، والتشارانغو charango وهذه الآلة تشبه الماندولين mandoline وهي ذات خمسة أوتار مزدوجة يصنع هيكلها المصوّت من الدرع العظمي لحيوان من أكلة النمل يدعى تاتو tatou. واقترنت الباندونيون bandoneon وهي آلة تشبه الأكورديون accordeon برقصة التانغو tango الأرجنتينية، وأصبحت الآلة الرئيسية في الفرقة الخاصة بهذه الرقصة.

وقد ظهر في القرن العشرين مؤلفون موسيقيون لهم شأن، تمكنوا من إيجاد فن موسيقي يساير الاتجاهات الأوربية، وتمكن بعضهم من المحافظة على الشخصية الأرجنتينية في مؤلفاتهم ومن هؤلاء ألبرتو وليامس Alberto Williams (١٨٦٢ - ١٩٥٢)، مؤلف وعازف بيانو وقائد أوركسترا، وشاعر، أتم دراسته في وطنه، وتابعها في باريس على يد فرانك Franck، وعاد إلى بلاده عام ١٨٨٩، وقد ترك أعمالاً سمفونية وآلية وغنائية كثيرة. ومنهم إرنستو درانغوث Ernesto Drangosch (١٨٨٢ - ١٩٢٥)، الذي درس التأليف الموسيقي في وطنه ثم في برلين على يد بروخ Bruch وله أعمال غنائية وآلية مختلفة، وبينهم كذلك خوزية ماريا كاسترو Jose Maria Castro وأخوه خوان خوزيه كاسترو Juan José Castro (١٨٩٥-١٩٦٨)، وهما مؤلفان وقائدا أوركسترا، وكان خوزيه ماريا أحد مؤسسي جمعية المؤلفين المجددين في بونس آيرس. وللأخوين أعمال موسيقية في الباليه والحوارية (الكونشرتو concerto) والأوبرا وموسيقى الحجرة.

وللموريثيو كاخيل Mauricio Kagel أعمال في الموسيقى المسرحية، ومؤلفات في الموسيقى الإلكترونية، وقد أقام في ألمانية الاتحادية (سابقاً) منذ عام ١٩٥٧.

حسني الحريري

الموضوعات ذات الصلة:

الأدب الإسباني الأمريكي - إسبانية - أمريكة الجنوبية - بونس آيرس.

مراجع للاستزادة:

- حسن حدة، تاريخ المغتربين العرب في العالم (العربي ودار دمشق، دمشق ١٩٧٤).

■ الأرجية وفرط التحسس

ترجع دراسة تاريخ ظاهرتي الأرجية allergie وفرط التحسس hypersensibilité إلى عام ١٨٣٧ حين سجل ماجندي Magendie الملاحظات الأولى حول هاتين الظاهرتين من دون أن يوثقهما تجريبياً. كما أن الدراسات الرائدة التي أجراها ريشه وبورتييه Richet et Portier في مطلع القرن العشرين جعلت من هاتين الظاهرتين لغزاً محيراً، ذلك أن الأمر كان يتعلق برد فعل يناقض الحماية المألوفة التي توفرها عادة الاستجابة المناعية. وعلى الرغم من أن دور الأضداد في إحداث ظاهرتي الأرجية وفرط التحسس قد اتضح بالدراسات التي أجراها براوسنيتز Prausnitz عام ١٩٢١ على مساعده كوستنر Kustner، إذ اكتشف هذا الباحث تفاعل التأق المنفعل anaphylaxie passive، أو تفاعل براوسنيتز-كوستنر المعروف. على الرغم من ذلك، فإن الأساس المناعي الواضح لظاهرتي الأرجية وفرط التحسس لم يثبت إلا في عام ١٩٦٦، عندما اكتشف إيشيزاكا Ishizaka وزوجته في دنفر بالولايات المتحدة الأمريكية الغلوبلين المناعي IgE(E)، وبيّنا دور الخلايا البدينة mastocytes والخلايا الأسسة (الأَسِسات basophiles) في حدوث هاتين الظاهرتين. ولقد سمح اكتشاف المستأرجات allergènes التي تثير التفاعلات المؤدية إلى حدوث الأرجية - لأول مرة في أواخر الستينات بوضع تعريف علمي محدد للأرجية وفرط التحسس العاجل يمكن تلخيصه على النحو التالي: تنجم هاتان الظاهرتان عن التأثير المتبادل بين المستأرج والغلوبلين المناعي IgE(E)، الذي يتثبت على سطح الخلية البدينة أو الخلية الأسسه، مسبباً زوال الحبيبات الموجودة داخل هذه الخلايا، وتحرر محتوياتها من المواد الوسيطة médiateurs (الهيستامين histamine في الإنسان) المسؤولة عن التأثيرات الموضعية والعامة. أما أنماط فرط التحسس الأخرى غير فرط التحسس العاجل، فإنها تبدأ، هي الأخرى، بتفاعل الضد والمستضد، ولا تتطلب بالضرورة وجود IgE ولا تحرر الهيستامين. وكما يتضح مما سبق، فإن التفاعلات التي تنتهي بحدوث الأرجية وفرط التحسس تبدأ بتفاعل المستضد antigène مع الضد anticorps.

وعلى ذلك فإن إيضاح الأساس المناعي لهاتين الظاهرتين يقتضي تلخيص الأفكار الأساسية عن الجهاز المناعي وعن الاستجابة المناعية، وذلك قبل عرض المعطيات المتوافرة عن الأرجية وفرط التحسس.

خلايا الجهاز المناعي

إذا كانت خاصة التعرف وخاصة اختزان المعلومات (الذاكرة) معيارين لدرجة تطور أجهزة جسم الإنسان، فإن الجهاز المناعي يأتي في المقدمة. إن خلايا الجهاز المناعي تستطيع أن تميز مكونات الجسم (الذات self أو soi)، من المواد الغريبة (اللاذات nonself أو nonsoi)، كما تستطيع الخلية الواحدة أن تتعرف جزيئات بروتينية معينة توجد على سطح خلية أخرى، فتستجيب بردود فعل محددة. كما يمكن لخلايا هذا الجهاز أن تختزن المعلومات الناجمة عن هذه الاستجابات، لتسترجعها عندما تقتضي الحالة ذلك. ومع أن معظم الكريات

البيض تدخل في بنية الجهاز المناعي، فإن هذا البحث سيقتصر على الخلايا الرئيسة في هذا الجهاز، أي البلاعم macrophages والبائيات cellules B والتائيات cellules T. كما أننا لن نتعرض للجزيئات البيولوجية التي تفرزها هذه الخلايا (الانترلوكينات interleukines واللمفوكينات lymphokines مثلاً)، والتي تؤثر في مستوى الاستجابة المناعية.

البلاعم: تتشكل البلاعم، شأنها شأن خلايا الدم الأخرى، في نقي العظم، وتتجول في الدم واللمف. كما تصادف بين خلايا النسج الضامة لجميع الأعضاء تقريباً، وخاصة أسناخ الرئتين، والكبد، والطحال، والصفاق، إذ تصل إلى هذه الأعضاء من الشعريات الدموية بالانسلال diapédèse. وتتصف البلعميات بشكلها المتغير وأرجلها الكاذبة، وغنى سيتوبلاسماها بالجسيمات الحالة المشحونة بعدد من الأنظيمات، وخاصة الأنظيمات الحالة للبروتين. وتزداد كمية هذه الأنظيمات عند تفعيل البلعميات.

تقوم البلعميات بوظيفة تخليص الدوران والنسج من الأجسام الغريبة، فتدخل هذه الأجسام، بغض النظر عن طبيعتها، إلى سيتوبلاسماها بعملية الالتقام الخلوي endocytose، وتقوم عندئذ بحلمهة مكوناتها بوساطة أنظيمات الحلمهة. إن البلعميات تنجز إذن وظيفة دفاعية غريزية وغير نوعية. وإضافة إلى هذه الوظيفة المناعية البدائية، فإن البلعميات تقوم في الفقاريات العليا، وخاصة الثدييات والإنسان، بوظيفة مناعية على درجة كبيرة من الأهمية، فهي لا تحلمه الأجسام الغريبة، وخاصة المستضدات، بغية التخلص منها فحسب، إنما تعرض على سطحها قطعاً من جزيء المستضد، يعرف باسم المحددة المستضدية déterminant antigénique، مربوطة إلى بروتين آخر موجود أصلاً على سطح البلعمية، وتعرف بمستضد الكريات البيض البشرية human leukocyte antigen (أو HLA-D، أصل الاسم بالإنكليزية)، وتشكل جزءاً من بروتينات معقد التوافق النسيجي الرئيسي complexe majeur أو d'histocompatibilité (أو CMH). فالجسم الغريب لا يصبح استضدادياً إلا إذا عرض على سطح البلعمية مرتبطاً بمستضد الكريات البيض البشرية HLA-D، حيث تستطيع الخلية التائيه تعرّفه. إن البلعمية إذن تقوم بدور خلية مقدِّمة للمستضد (CPA) cellule presentant L'antigene. إن الاستجابة المناعية لا تحدث من دون هذا التقديم.

البائيات: اكتشفت هذه الخلايا أول مرة عند الطيور في جراب فبريسيوس bourse de Fabricius (ومن هنا أتى الحرف B اسماً لهذه الخلايا). وتتشكل هذه الخلايا عند الإنسان والثدييات في نقي العظم (bone marrow - بالإنكليزية - ولهذا استبقي الاسم نفسه)، وتتمايز فيه، أي إن كل خلية بائية تصطنع نوعاً معيناً من الغلوبلين المناعي M و D (IgM و IgD) تضعه على سطحها، فيعمل مستقبلاً نوعياً للمستضد. وتختلف نوعية كل مستقبل في كل خلية بائية عن نوعية أي مستقبل آخر في أية خلية أخرى. ويقدر عدد أنواع البائيات الوظيفية في الإنسان بنحو ١×١٠^٧ نوع أو نسيلة clone، في حين يبلغ عدد البائيات الكلي نحو ١×١٠^١٠ خلية. وهكذا، فإن عدد خلايا النسيلة الواحدة يبلغ ١×١٠^٣ خلية تقريباً. وكما سيأتي، فإن تفعيل الخلية البائية من قبل الخلية التائية يؤدي إلى نضجها. ويتضمن النضج انقسام الخلية البائية عدداً من المرات، حيث تعطي في النهاية نمطين من الخلايا، يبلغ مجموعها نحو ألف خلية، وهي: الخلايا المصوَّرية plasmocyte، التي تفرز أضداداً نوعية ضد المستضد الذي استهل الاستجابة المناعية، وخلايا الذاكرة cellules à mémoire، التي تبقى هاجعة مدة طويلة نسبياً (أحياناً بضع سنوات)، فإذا ما دخل المستضد من جديد، فإنها تتعرفه وتبدأ بإفراز الضد النوعي. وكما هو معروف فإن الضد يرتبط بمستضده في الدوران، ويتشكل معقد يسهل على الجسم التخلص منه. وكما يتضح من هذا العرض فإن البائيات مسؤولة عن المناعة الخلطية immunité humorale. وتجدر الإشارة هنا إلى أن عدد أنواع الأضداد التي تصطنعها البائيات يساوي عدد نسائلها (أي نحو ١×١٠^٧ نوع)، ويتجاوز هذا العدد نظرياً الرقم ١×١٠^٩ نوع).

التائيات: لقد تم تعرف هذه الخلايا لأول مرة في التيموس thymus، ومن هنا أتى الحرف T اسماً لهذه الخلايا. تتشكل التائيات في نقي العظم، وتنتقل بالدوران إلى التيموس، حيث تتمايز فيها وتنضج (تخضع لعملية تربية). أي تصطنع بروتينات تضعها على سطحها تعرف بمستقبلات الخلية التائية، وهي أداة المعرفة الأولى لهذه الخلايا. وتختلف هذه المستقبلات بين خلية وأخرى. وتتساوى التائيات تقريباً مع البائيات من حيث العدد الكلي ومن حيث عدد النسائل (أي ١×١٠^١٠ خلية، و ١×١٠^٧ نسيلة). إن تمايز التائيات ونضجها في التيموس يؤدي إلى تربية ثلاثة أنماط من التائيات: التائيات المؤازرة T helpers، والتائيات الكابتة T suppressives والتائيات السامة للخلايا T cytotoxiques. وتتفعل الخلية التائية عندما تلتقي بالمستضد معروضاً على سطح البلعمية، أو على سطح الخلية البائية (التي تدخله بالالتقام الخلوي، تماماً كما تفعل البلعمية)، فتصبح هذه الخلية التائية خلية تائية مساعدة نوعية، وتقوم عندئذ بتفعيل الخلية البائية التي تحمل على سطحها نوع المحددة المستضدية نفسه، التي عرضتها البلعمية، مرتبطة أيضاً ببروتين HLA-D. أما الخلية التائية الكابتة فتثبط فاعلية الخلية التائية المساعدة والخلية البائية المفَعَّلة عندما يرتفع تركيز الضد في الدم فوق مستوى معين. وتتعرف الخلية التائية القاتلة للخلايا الخلية المخموجة بالحمة (بالفيروس)، والخلية الطافرة، وخلية الطعم (في حالة النسج والأعضاء المزروعة)، وتعمل على حلها.

ويتضح من هذا العرض أن المناعة الخلوية immunité cellulaire ترتبط ارتباطاً أساسياً بوظائف نمط من أنماط الخلية التائية (التائيات القاتلة للخلايا). ولا بد من التنويه هنا بنوع خلوي ذي أصل مجهول حالياً، يرجح أنه ينتمي إلى التائيات، ويعرف باسم القاتلة الطبيعية -NK natural killer (أصل الاسم بالإنكليزية)، وتقوم هذه الخلايا، هي الأخرى، بقتل الخلايا الغريبة، أو الطافرة، عن طريق إطلاق جذور كيمياوية غنية بفوق الأكاسيد، تحرق الخلية الهدف.

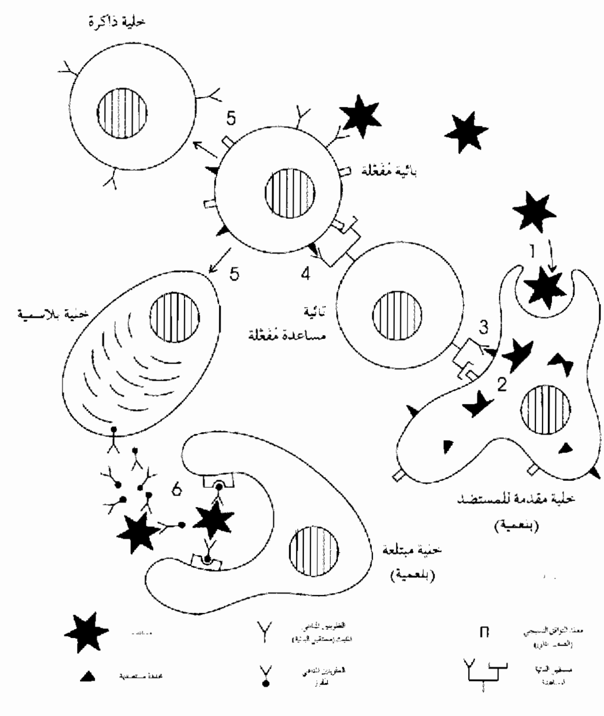
الاستجابة المناعية

تتلخص الوظيفة النهائية للاستجابة المناعية بحماية الجسم من المواد الغريبة (البروتينات، والجراثيم، والفيروسات، والفطور، والطفيليات وغيرها). وتنجز المناعة الخلطية وظيفة التخلص من الأجسام الغريبة الموجودة بالدوران، إذ تعمل هذه الأجسام، أو مكوناتها، مستضدات، فيشكل لها الجسم أضداداً تتحد بها، فينشأ عندئذ معقد يسهل على الجسم التخلص منه

بوساطة البلاعم macrophages والبلعميات phagocytes عامة. أما المناعة الخلوية، فتحمي الجسم من الحمات (الفيروسات)، والطفيليات، والخلايا الطافرة، كما تقوم بدور في رفض الطعم، ذلك أن عملية نقل الأعضاء لا تحدث في الطبيعة، وهي عمل صنعي استحدثه الإنسان. يتضح من التعريف السابق أن الاستجابة المناعية تشتمل على جانبين اثنين: ١ـ التأثيرات المتبادلة بين الخلايا، أو مراحل حدوث الاستجابة المناعية. ٢ـ خصائص الأضداد. وفيما يلي لمحة عن هاتين الناحيتين.

مراحل حدوث الاستجابة المناعية: تحدث الاستجابة المناعية وفقاً للخطوات التالية (الشكل ١):

ـ دخول المستضد إلى الجسم، ويشترط في هذا المستضد أن يكون مستمنعاً immunogènique.



الشكل-١- تمثيل مراحل حدوث الاستجابة المناعية

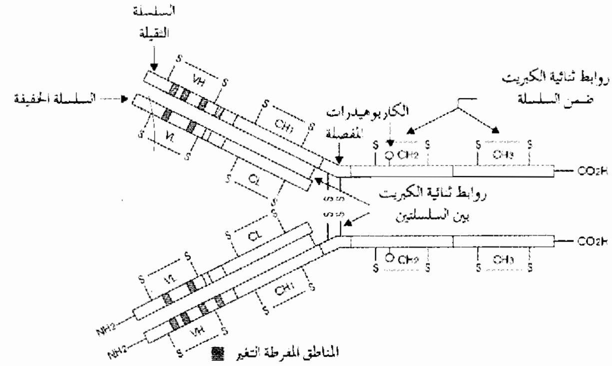
ـ يؤخذ المستضد من قبل إحدى البلعميات أو بعضها، ومن قبل خلية بائية محددة تحمل على سطحها مستقبلاً (IgM, IgD) تتطابق منطقته المتغيرة فراغياً région variable بالتتامية complémentarité مع المحددة المستضدية، أو الموضع المستضدي épitope.

ـ تتعرف خلية تائية معينة المحددة المستضدية المرتبطة مع بروتين HLA-D والمعروضة على سطح البلعمية، فتتفعل الخلية التائية عندئذ، وتتحول إلى خلية تائية مساعدة.

ـ تقوم الخلية التائية المساعدة بتفعيل الخلية البائية التي تعرض على سطحها نوع المحددة المستضدية نفسه. فتنقسم عدداً من المرات (نحو عشرة انقسامات) وتعطي ١٠٠٠ خلية تقريباً (تشكل نسيلة واحدة)، معظمها يتحول إلى خلايا مصوّرية، تصطنع ضداً نوعياً، تفرزه في الدوران، في حين يتحول بعضها إلى خلايا ذاكرة، محتفظة على سطحها بالغلوبلين المناعي D ، تتحول إلى خلايا مصورية (بلاسمية) مفرزة للضد عند دخول المستضد الجسم مرة ثانية. فإذا كان المستضد موجوداً في الدوران، فإن الضد الذي تفرزه الخلايا المصورية ينتسب إلى أحد صفيفات صف الغلوبلين المناعي G (IgG_2 و IgG_1 مثلاً). أما إذا كان المستضد موجوداً في أحد السوائل الإفرازية (اللعاب، والدموع، والعصارة الهضمية وغيرها)، فإن الغلوبلين المناعي المفرز هو IgA)A). وإذا كان المستضد مادة مستأرجة allèrgene (حبات الطلع أو الغبار المنزلي مثلاً)، فإن الغلوبلين المناعي المفرز هو IgE. وعندما يكون المستضد خلية مخموجة بالحمة (فيروس) أو خلية طافرة، أو طفيلياً (دودة البلهارسيا مثلاً)، أو خلايا من طعم أو عضو مزروع، فإن الخلية التائية التي تكتشف هذه الأجسام الغريبة تتفعل، وتصبح خليةً قاتلة للخلايا.

خصائص الأضداد: توجد في الثدييات ومنها الإنسان خمسة صفوف classes من الغلوبلين المناعي (Ig) immunoglobulines، هي: IgM، وIgD، وIgG، وIgA، وIgE. وتتألف الصفوف IgM، وIgG، وIgA من صفيفات sous- classes. وتحمل كل خلية بائية عذراء على سطحها نوعاً محدداً من IgM و IgD. وعندما تُفعل وتنضج، فإنها تفرز في الدوران IgM خماسي الجزيء.

يتألف جزيء الضد، بصورة عامة، من نوعين من السلاسل المتعددة الببتيد: سلسلتين ثقيلتين، يرمز لكل منهما بالحرف H (من heavy)، وسلسلتين خفيفتين، يرمز لكل منهما بالحرف L (من light) هما السلسلة لامدا والسلسلة كابا. أما السلسلة الثقيلة فلها خمسة أنواع، يحدد كل نوع صفاً من صفوف الغلوبلين المناعي، أي أن هنالك السلاسل الثقيلة التالية: ميو، ودلتا، وغاما، والفا، وابسيلون (أعطيت السلاسل أحرفاً يونانية تماثل الأحرف اللاتينية للصفوف). وتتألف كل سلسلة من قسمين، ثابت C (من constant)، ومتغير V (من variable). وتشكل المنطقة الثابتة في السلسلة الثقيلة ربع السلسلة أو خمسها، وتتقاسم المنطقتان الثابتة والمتغيرة السلسلة الخفيفة مناصفة تقريباً. وهنالك روابط ثنائية الكبريت تربط السلاسل بعضها ببعض (روابط ضمن نوع السلسلة الواحدة، وروابط بين السلسلتين الثقيلة والخفيفة). ويأخذ الجزيء (الشكل ٢) شكل حرف Y منفلق الأطراف، يتألف جذعه من نصفي السلسلتين الثقيلتين، في حين يتألف كل ذراع من نصف السلسلة الثقيلة تقريباً وكامل



الشكل-٢- تمثيل جزيء الغلوبلين المناعي IgG_1 (IgG_1) . يرمز الحرف L الى السلسلة الخفيفة، و H الى السلسلة الثقيلة، و V الى المنطقة المتغيرة، و C الى المنطقة الثابتة، كما ترمز الزمرة NH_2 الى النهاية الأمينية لسلسلة الببتيدية و CO_2H الى النهاية الكاربوكسيلية و S-S الى الرابطة الثنائية الكبريت (M. Z. Atassi et al., 1984)

السلسلة الخفيفة. وتأخذ نهاية كل ذراع من الذراعين (نهاية المنطقتين المتغيرتين للسلسلتين الثقيلة والخفيفة) شكلاً فراغياً محدداً، يبدو على شكل جيب سطحي، يطلق عليه اسم الموضع الضدي site d'anticorps (أو paratope) . ويختلف نوع الغلوبلين المناعي باختلاف الشكل الفراغي لهذا الجيب. فهنالك إذن نحو ١٠X١ ^٧ نوع من الأشكال الفراغية، الذي يمثل كل واحد منها نسيلة من النسائل الخلوية البائية.

ويلخص الجدول (١) بعض خصائص صفوف وصفيفات الغلوبلينات المناعية.

ولا تخرج ظاهرتا الأرجية وفرط التحسس عن كونهما نمطين خاصين من أنماط الاستجابة المناعية المتطرفة.

الأرجية

تنجم ظاهرة الأرجية وفرط التحسس العاجل hypersensibilité immediate كما أشير في البدء عن التأثير المتبادل بين المستضد (المستأرج) وبين أحد صفوف الغلوبلين المناعي، وخاصة IgE الذي يتثبت على سطح الخلايا البدينة أو الأسسة، مسبباً تحرر الهيستامين الذي كان يوجد داخل هذه الخلايا. وقد قدمت الظاهرتان في تعريف واحد لأن الأرجية تدرس الآن على أنها شكل خاص من أشكال فرط التحسس العاجل. ولا بد من التأكيد أن تحرر الهيستامين والمواد الوسيطة الأخرى في الاستجابة المناعية السوية المتوازنة هو عمل

الجدول ١ـ الغلوبولينات المناعية وخصائصها.

الغلوبلين المناعي	IgG_1	IgG_2	IgG_3	IgG_4	IgM	IgA_1	IgA_2	*SIgA	IgD	IgE
السلسلة الثقيلة	غاما١	غاما٢	غاما٣	غاما٤	ميو	الفا١	الفا٢	الفا١ أو الفا٢	دلتا	ابسيلون
متوسط التركيز في المصل (ميكرو غرام / ميلي لتر)	٩	٣	١	٠,٥	١,٥	٣,٠	٠,٥	٠,٠٥	٠,٠٣	٠,٠٠٠٥
ثابت التثفل (مقدراً بالوحدة S)	٧	٧	٧	٧	١٩	٧	٧	١١	٧	٨
الوزن الجزيئي (كيلو دالتون)	١٤٦	١٤٦	١٧٠	١٤٦	٩٧٠	٦٠	١٦٠	٣٨٥	١٨٤	١٨٨
الوزن الجزيئي للسلسلة الثقيلة	٥١	٥١	٦٠	٦١	٦٥	٥٦	٥٢	٥٦-٢٥	٦٩,٧	٧٢,٥
السكريات (٪)	٣-٢	٣-٢	٣-٢	٣-٢	١٢	١١-٧	١١-٧	١١-٧	١٤-٩	١٢

*ترمز SIgA إلى الغلوبلين المناعي A المفرز (S من sécrétoire).

دفاعي يسهم في التخلص من المستضد ومن تأثيراته الممرضة (في حالة الخمج بالجراثيم مثلاً). أما في الأرجية وفرط التحسس العاجل فإن الاستجابة المناعية تكون عنيفة، وتُحرر، بالتالي، كمية كبيرة من الهيستامين والأمينات الأخرى الفاعلة وعائياً.

توجد الأرجية في نحو ١٠ بالمئة من السكان، وتنجم إما عن غبار الطلع لعدد من النباتات، وإما عن الغبار المنزلي (الذي يحوي مفصليات أرجل دقيقة جداً تدخل الجسم عن طريق التنفس)، وإما عن وبر الثدييات أو رياش الطيور. كما يمكن أن تكون الأغذية مصدراً للأرجية لدى بعض الأفراد. ويتطلب حدوث الاستجابة المناعية الأرجية دخول المستأرج الجسم في المرة الأولى، مما يسبب تحسيس الفرد نحو هذا المستأرج، أي إن الخلايا البائية تصطنع الغلوبلين المناعي IgE(E). الذي يصبح في الدم، فيرتبط عندئذ بسطح الخلايا البدينة أو الأسسة. ولدى دخول المستأرج الجسم في المرة الثانية يحدث التفاعل الأرجي.

ولأن التماس الأول مع المستأرج يسبب تشكل الغلوبلين المناعي E (التحسيس) فلقد صُمم اختبار من قبل الباحث أوفاري Ovary عام ١٩٦٤ للكشف في ثدييات المختبر عن وجود IgE فعال نحو مستأرج معين. وتؤخذ، في هذا الاختبار، كمية معينة من مصل أحد الثدييات (الفأر مثلاً) الذي يحتوي على IgE نوعي نحو مستضد معين، وتحقن تحت جلد الجرذ. ويتم في اليوم التالي حقن الجرذ عن طريق الوريد (بعيداً عن مكان الحقن الأول) بمحلول المستضد نفسه والذي أضيف إليه صباغ أزرق ايفان bleu d'Evans. وحيثما يلتقي المستضد بالغلوبلين المناعي E، الذي يكون عادة مثبتاً على سطح الخلايا البدينة للجلد، وخاصة في منطقة الحقن الأولى، يتم تحرر السيروتونين sérotonine والمواد الوسيطة الأخرى. وتسبب هذه المواد توسع الأوعية الدموية وزيادة نفوذيتها، مما يؤدي إلى تسرب جزيئات الصباغ من الشعريات الدموية في منطقة الحقن الأولى إلى النسج المحيطة، فتظهر عندئذ بقعة زرقاء. ويتناسب قطر البقعة الزرقاء مع كمية IgE التي حُقنت تحت الجلد. ولقد أطلق على هذا الاختبار تفاعل التأق الجلدي المنفعل réaction d'anaphylaxie cutanée passive (لأن الأضداد أتت من خارج الجسم). إن هذا التفاعل على درجة عالية من الحساسية، ويمكن الكشف بوساطته عن نانوغرام واحد فقط (1×10^{-9} غرام) من IgE.

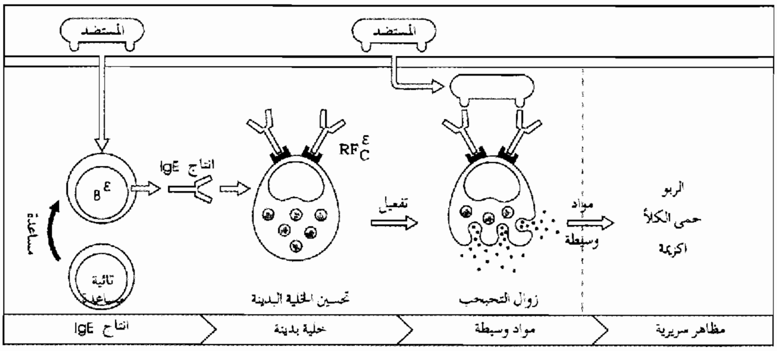
أما في الإنسان، فيستخدم تفاعل بروسنيتز ـ كوستنر الذي يماثل أساساً تفاعل التأق الجلدي المنفعل. تُؤخذ، في هذا الاختبار، كمية محددة من مصل فرد أرجي نحو مستأرج معين، وتُحقن تحت الجلد في فرد متطوع لا أرجي. وإثر انقضاء يوم أو يومين، يحقن المستضد في منطقة الحقن الأولى. فإذا كان الضد IgE موجوداً في المصل الذي حقن أولاً، فإن الموقع الجلدي ينتفخ محمراً، ويأخذ شكل دولاب. وهذا مايعرف أيضاً بتفاعل الدولاب والحُمامى réaction de roue et d'érythème، ويعبّر قطر الدولاب كما هي الحال في تفاعل أوفاري، تعبيراً دقيقاً عن تركيز الضد IgE الذي حقن في المرة الأولى.

أما فيما يتعلق بآلية حدوث الاستجابة المناعية الأرجية، فتمر في طورين اثنين: طور التحسيس، وطور فرط التحسس. ويمكن تلخيص الآلية الجزيئية للأرجية على النحو التالي:

ينتهي وصول المستأرج إلى الدم إلى ارتباطه بمستقبل نوعي على سطح إحدى الخلايا البائية. كما تأخذ هذا المستأرج إحدى البلعميات بالالتقام الخلوي، وتحلمهه، وتعرض مكونه الاستضدادي الاستمناعي على سطحها، مقروناً إلى بروتين الصف الثاني لمعقد التوافق النسيجي CMH، أي بروتين HLA-D. تتعرف عندئذ إحدى الخلايا التائية هذا المعقد، وتتحول إلى خلية تائية مساعدة، تُفَعّل الخلية البائية التي صادفت المستأرج. تنقسم هذه الخلية عدداً من المرات، وتفرز الخلايا المصورية (البلاسمية) المشتقة منها الضد IgE النوعي للمستأرج. إن جزيء الضد هذا يرتبط بمنطقته الثابتة بمستقبلات خاصة على سطح الخلية البدينة أو الأسسة، وهذا هو طور التحسيس.

وعندما يدخل المستأرج الجسم من جديد، فإن كل جزيء منه يرتبط بجزيئين من IgE مثبتين على سطح الخلية البدينة أو الأسسة. ويثير هذا الارتباط سلسلة من التفاعلات، تنتهي بتمزق الحويصلات الموجودة داخل هذه الخلايا، وتحرر محتوياتها من الهيستامين والمواد الوسيطة الأخرى. وتعرف هذه الظاهرة بزوال تحبب dégranulation الخلايا البدينة. وهذا هو طور فرط التحسس. ويمثل الشكل ٣ آلية حدوث الاستجابة المناعية الأرجية.

ولا بد من الإشارة إلى أن الدراسات الوبائية قد أظهرت وجود استعداد وراثي للإصابة بالأرجية. فلقد اتضح أن احتمال إصابة الأبناء المنحدرين من أبوين أرجيين هو قرابة ضعف الاحتمال الموجود لدى أبناء منحدرين من أبوين أحدهما أرجي، وإن هذا الاحتمال الأخير هو ضعف الاحتمال الموجود لدى أفراد منحدرين من أبوين كلاهما غير أرجي.



الشكل-٣- تمثيل عام للنمط الأول من فرط التحسس. ان المستضد يُنشّط، بمساعدة الخلية التائية المساعدة اصطناع غلوبلين مناعي IgE)E) نوعي من قبل الخلية البائية (B^{ε}). ان IgE النوعي يرتبط بوساطة الكسرة القابلة للتبلور RF_C^{ε} الى مستقبل موجود على سطح الخلية البدينة، فتصبح خلية محسسة. وعندما يدخل المستضد مرة ثانية يعمل كجسر يربط بين جزيئين من IgE، فيؤدي هذا الى زوال تحبحب الخلية البدينة، وتحرر المواد الوسيطة الفاعلة وعائيا، التي تسبب ظهور الأعراض المميزة لفرط التحسس العاجل، كالربو، أو حمى الكلأ، أو الأكزيمة.

فرط التحسس

ينجم فرط التحسس عن استجابة مناعية متطرفة. فعندما يتعرض المرء لمستضد كان قد تعرض له مسبقاً تحدث استجابة مناعية، تكون عادة سوية متوازنة، وظيفتها الدفاع عن الجسم. ولكن يحدث في بعض الأحيان أن يكون التفاعل المناعي عنيفاً، فيؤدي عندئذ إلى تلف نسيجي، تتوافق أهميته ومدى إفراط الاستجابة المناعية. وهذا مايحدث عندما يكون تركيز المستضد مرتفعاً، أو عندما يكون مستوى الحالة المناعية الخلطية والخلوية عالياً. ووفقاً للدراسات التي قام بها كومبس Coombs وغيل Gell عام ١٩٧٥ يمكن تصنيف حالات فرط التحسس في الأنماط الأربعة التالية (الشكل ٤):

النمط الأول: فرط التحسس العاجل hypersensibilité immediate، وتشكل الأرجية الظاهرة الرئيسة في هذا النمط.

النمط الثاني: فرط التحسس السام للخلايا المنوط بالضد hypersensibilité cytotoxique dépendant d'anticorps

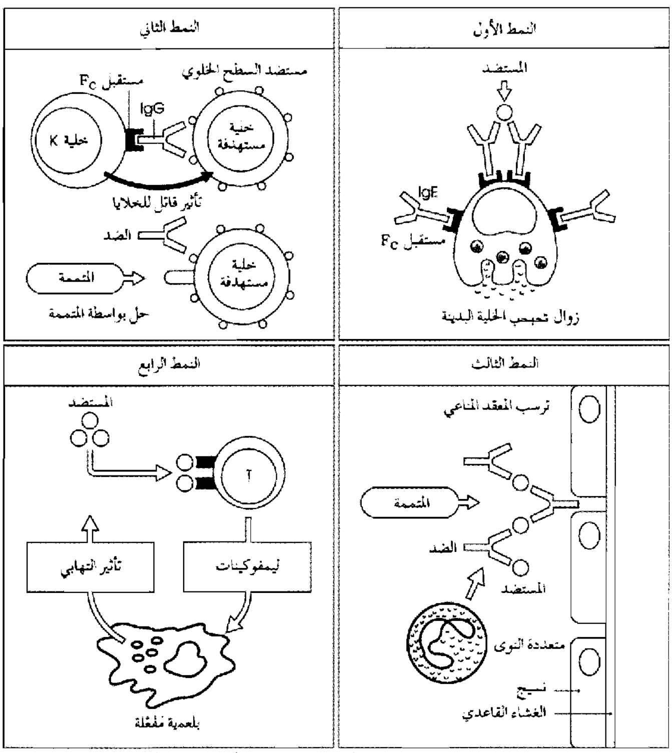
النمط الثالث: فرط التحسس ذو المعقد المناعي hypersensibilité à le complexe immun.

النمط الرابع: فرط التحسس الآجل hypersensibilité retardée، وفيما يلي الملامح الأساسية لكل نمط من هذه الأنماط.

١ـ فرط التحسس العاجل: تمثل ظاهرة الأرجية الجانب الأساسي في فرط التحسس العاجل. والتأثير الضار للاستجابة المناعية المتطرفة غالباً مايكون محدوداً، بيد أن هناك فرط تحسس عاجل، يتناول الجسم بكامله، وينتهي بالمصاب إلى الموت. ولقد لوحظت ظاهرة فرط التحسس العاجل الشامل هذه، أول ما لوحظت، في خنزير الهند (القبيعة) cobaye. فإذا حُقن هذا الحيوان بمقدار ميلي غرام واحد من مستضد بروتيني ما، كألبومين البيض مثلاً، فإن الحيوان لا يبدي أية ردود فعل مناعية ظاهرية، أما إذا كُرر الحقن بعد انقضاء أسبوعين أو ثلاثة على الحقن الأول، فإن القبيعة الذي تم تحسيسها بالحقن الأول (طور التحسيس، يرجع إلى الأرجية) ترد رداً عنيفاً، ويحدث فيها تأق شامل، فتعاني من أزيز ربوي wheezing حاد، وتموت بعد بضع دقائق اختناقاً نتيجة التضيق الشديد في المجاري التنفسية، وينجم هذا التضيق عن التقلص العنيف للعضلات الملس. ويرافق ذلك توسع واضح في الأوعية الشعرية الدموية (طور فرط التحسس). وتحدث هذه الأعراض نتيجة زوال تحبب الخلايا البدينة والأسسة، وتحرر كميات كبيرة من الهيستامين، والأمينات الأخرى الفاعلة وعائياً amines vasoactives ويمكن القول إن فرط التحسس العاجل هو تفاعل أرجي شامل ومبالغ فيه.

٢ـ فرط التحسس السام للخلايا المنوط بالضد: يمكن تعريفه بأنه استجابة مناعية يستهلها تفاعل ضد نوعي مع مستضد خلوي أو نسيجي. وتنتهي هذه الاستجابة بتدمير الخلايا الهدف والنسج المحيطة بها. إن الاستجابة المناعية تحدث إذن بسبب وجود خلايا أو نسج غريبة، تعمل بروتينات أغشيتها مستضدات. كما أن تدمير هذه العناصر اللاذاتية يتطلب إسهام المتممة complément، أو خلايا مستفعلة cellules effectrices، كالقاتلات الطبيعية NK والعدلات neutrophiles، والبلاعم، والوحيدات monocytes، ويبدو إسهام هذه العناصر اللاخلوية (المتممة) والخلوية أمراً بديهياً إذا عرف أن الاستجابة المناعية موجهة نحو خلايا ونسج (كالخلايا الطافرة والطفيليات ـ دودة البلهارسيا مثلاً ـ والأعضاء المزروعة)، وليس ضد جزيئات بروتينية منحلة.

إن القطاعين الثابتين الثاني والثالث من السلسلة الثقيلة للجزيء، واللذين يعرفان



الشكل ـ ٤ ـ تمثيل يلخص الخصائص المميزة لأنماط فرط التحسس الأربعة. النمط الأول: تثبت الخلية البدينة IgE بواسطة الكسرة القابلة للتبلور Fc، فعندما يدخل المستضد في المرة التالية يتشكل جسر بين جزيئي IgE فيؤدي ذلك الى زوال التحبب. النمط الثاني: تتشكل أضداد موجهة ضد مستضد يتوضع على سطح الخلية (خلية مستهدفة)، فيحدث عندئذ تفعيل لخلية قاتلة للخلايا K، أو يحدث حل للخلية المستهدفة بواسطة المتممة. النمط الثالث: يترسب معقد مناعي في النسيج فتفعّل المتممة، وتنجذب متعددات النوى الى الموقع، مسببة آفة نسيجية. النمط الرابع: لدى التماس الثاني مع المستضد، تحرر خلية تائية كانت قد تحسست بالمستضد، تحرر ليمفوكينات تحدث تفاعلا التهابيا، مما يفعّل البلعميات ويوجهها نحو الموقع.

بالرمزين CH_2 و CH_3، ويشكلان جذع حرف Y . إن هذين القطاعين يحملان مستقبلاً نوعياً للمتممة، ومستقبلاً نوعياً آخر للوحيدات، وربما للقاتلات الطبيعية والعدلات أيضاً . وتحدث عملية تدمير الخلايا الغريبة عندما يتم تفعيل المتممة أو الخلايا المستفعلة المشار إليها آنفاً بارتباطها بالمستقبل النوعي في جزيء الضد المقترن بالمستضد، يؤدي هذا التفعيل إلى حل lysis غشاء الخلية الهدف، أو حرقها بالجذور الغنية بفوق الأكاسيد . ويلخص الشكل ٥ آلية تأثير المتممة في ظاهرة فرط التحسس القاتل للخلايا المنوط بالضد (النمط الثاني) .

والمتممة هي جملة أنظيمات بروتينية تشاهد في مصل الدم السوي، وتتحد مع المعقد المستضدي ـ الضدي antigen- antibody .

تتألف المتممة من تسعة مركبات يرمز إلى كل واحد منها بالحرف C وتعطى أرقاماً متسلسلة من C_1 حتى C_9 . وتقسم C_1 إلى ثلاثة أقسام هي : C_1s و C_1r و C_1q .

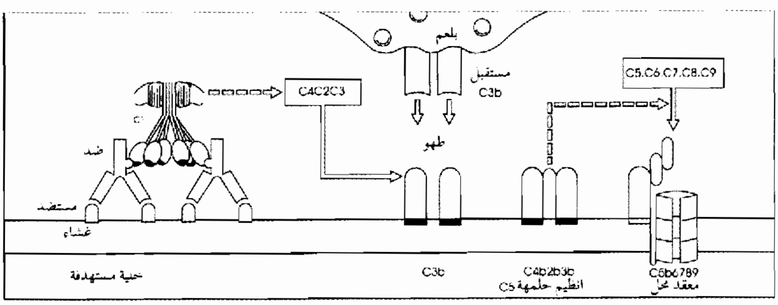
تحل جملة المتممة الخلايا التي تم تحسيسها بالضد النوعي فتسبب حل الجراثيم والكريات الحمر، كما أنها تقوي تأثير التفاعل بين المستضد والضد . إن أي ضد من صنف IgG أو IgM قادر على تفعيل activation العامل الأول C_1 وهذا بدوره يفعّل C_4 وC_2 وهما يفعلان C_3 وهو العامل الموجود بمقادير أوفر من سواه في مصل الدم . ثم تتفعل العوامل التالية واحداً بعد آخر بالترتيب الرقمي ليتم تفعيل الجملة بكاملها .

تنشطر جزيئات C_3 المفعلة إلى C_3a الذي ينطلق وC_3b الذي يبقى متصلاً بالمستضد . يقوم C_3a بعمل ذيفان متئق anaphylatoxine فيسبب انطلاق الهيستامين وسائر الكينينات kinins فيحدث توسعاً وعائياً وازدياداً في نفوذية الأوعية وتقبضاً في القصبات . كما أنه يجتذب كثيرات النوى وسائر الخلايا الالتهابية إلى مكان التفاعل الالتهابي بآلية كيمياوية .

أما الجزيء C_3b فيتحد مع C_1 و C_4 وC_2، على سطح الخلية المستهدفة target ويحرض على التصاق البلاعم وكثيرات النوى بها، ومن ثم بلعمة المعقدات المناعية .

ويكون عمل C_5 و C_6 و C_7 اجتذاب كثيرات النوى وسائر الخلايا الالتهابية إلى مكان التفاعل الالتهابي . ويحدث تفعيل C_8 و C_9 تخرب الغشاء الخلوي إذا جرى التفاعل على جرثومة أو كرية حمراء .

٣ـ فرط التحسس ذو المعقد المناعي : من المعروف أن يتم في كل مرة يلتقي فيها ضد بمستضده تشكل معقد مناعي يتخلص الجسم منه عادة بخلايا الجهاز البطاني الشبكي . ولكن يحدث في بعض الحالات أن يثير تشكل هذا المعقد تفاعل فرط التحسس . وهذا هو فرط التحسس ذو المعقد المناعي . ويمكن تصنيف الحالات المرضية التي تنجم عن فرط التحسس هذا في مجموعات ثلاث :



الشكل ٥ تمثيل آلية تأثير المتممة في فرط التحسس من النمط الثاني (فرط التحسس القاتل للخلايا المنوط بالضد). يتثبت الضد على المستضد المحمول على غشاء الخلية المستهدفة فيفعّل المكونة الأولى للمتممة C1 : مما يفسح المجال أمام المسلك المدرسي للمتممة. وتتوضع في المرحلة التالية C3 و C4b2b3b على سطح الخلية المستهدفة. وتقوم C3b بدور الطاهية opsonisant بالنسبة لخلية تحمل مستقبلا ملائما . ويتفعل المسلك الانتهائي المحل للخلية المستهدفة بوساطة الأنظيم المحلمهة للمكونة C5(C5 convertase) مؤديا الى آفة في غشاء الخلية المستهدفة تنجم عن تأثير المعقد المحل 9 - C5

ففي المجموعة الأولى عندما يكون هناك خمج مزمن، كالتهاب الشغاف الذي تسببه المكورات العقدية من النمط الفا الحالّة للدم أو المكورات العنقودية، أو كالبرداء paludisme، التي تسببها المتصورة النشيطة plasmodium vivax، أو كالتهاب الكبد الحُمَوي (الفيروسي) المنشأ hépatite virale، فإن استمرار وجود العامل الخمجي المترافق مع استجابة مناعية ضعيفة، يؤدي إلى تشكل معقدات مناعية تترسب تدريجياً في النسج المصابة .

وفي المجموعة الثانية، تنجم عن بعض الأمراض ذات المعقدات المناعية مضاعفات تزيد من حدة عدد من أمراض المناعة الذاتية maladies auto- immunes . ذلك أن التشكل المستمر لأضداد موجهة ضد مستضدات الذات antigenes du soi يؤدي باستمرار إلى تكوّن معقدات مناعية . ولأن البلاعم والبلعميات الأخرى المسؤولة عن التقام الأجسام الغريبة، تكون مثقلة بهذه المعقدات . فإن هذه الجزيئات تترسب في النسج المعنية . وهذه هي حالة الذَّأَب الحُمامي المنتشر lupus érythémateux disséminé (LED) .

وفي المجموعة الثالثة، يمكن أن تتشكل المعقدات المناعية بوجود مستضدات « خارجية المنشأ »، وهذا مايحدث في الرئتين مثلاً نتيجة الاستنشاق المتكرر لمستضدات نباتية أو فطرية أو حيوانية المنشأ . ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة في الأسناخ الرئوية الأرجة بمستأرج خارجي المنشأ، وذلك كما هي الحال في رئتي مفرطي التدخين، أو الفلاحين الذين يتعرضون باستمرار للكلأ الرطب إذ تتشكل في دمائهم أضداد مضادة لعدد من الفطور، أو مربي الطيور الذين يستنشقون باستمرار حُمات (فيروسات) طيرية . إن الأضداد التي تتشكل ضد هذه المستضدات ليست IgE الذي يسبب عادة فرط التحسس العاجل (النمط الأول)، إنما هي IgG بصورة أساسية .

وبديهي، وفقاً لما سبق، أن يسبب فرط التحسس ذو المعقد المناعي التهاب النسج التي تصبح مكاناً لترسب هذا المعقد، وغالباً ماينجم هذا الالتهاب عن تفعيل بروتيني المتممة C_3 و C_5 (يرجع إلى النمط الثاني من فرط التحسس) . ويتضمن هذا التفعيل شطر كل من المركبتين C_3 و C_5 إلى قطعة كبيرة هي C_3b أو C_5b، وقطعة

صغيرة هي C_3a، أو C_5a. وتتمتع القطعتان C_3a و C_5a بخاصتين أساسيتين: فهما ذيفان مُتئق، وجاذب كيمياوي chimiotactique. إن وجود هذين البروتينين في نسيج ما يسبب تحرر الأمينات الفاعلة وعائياً amines vasoactives من الخلايا البدينة ومن الأسسات، مما يؤدي إلى ازدياد النفوذ الوعائي وتوارد عدد كبير من متعددات النوى. إن توضع المعقد المناعي في النسيج المعني يجعل التقامها من قبل متعددات النوى التي انجذبت إلى ذلك الموضع أمراً صعباً. ويدفع هذا الوضع بمتعددات النوى لتحرر أنظيمات جسيماتها الحالّة في النسيج المصاب، مما يؤدي في نهاية الأمر إلى تكوّن آفة نسيجية تنكسية.

ويمكن دراسة تفاعل أرتوس reaction d'Arthus طرازاً تجريبياً لفرط التحسس ذي المعقد المناعي، الذي يُعد ارتكاساً موضعياً ينجم عن وجود مستضد خارجي المنشأ.

ويعمد عملياً إلى إيضاح تفاعل أرتوس في منطقة محددة من الجسم تحتل جدار وعاء دموي وجزءاً من المنطقة المحيطة بهذا الجدار، وغالباً ما يبرهن على حدوث هذا التفاعل في الجلد. ويتم عادة تحسيس حيوان التجربة بإعطائه جرعات منتظمة من المستضد حتى يرتفع تركيز الضد القابل للترسب، وخاصة الغلوبلين المناعي G(IgG) ارتفاعاً واضحاً، وحينما يحقن المستضد تحت الجلد يحدث تفاعل التهابي، يبلغ ذروته في ٤ إلى ١٠ ساعات (وسطياً ٥ إلى ٦ ساعات). وتتشكل في منطقة الحقن وذمة يتناسب حجمها وكمية المستضد المحقونة. وغالباً مايترافق هذا التشكل مع حدوث نزف داخلي. ويتراجع التفاعل تدريجياً، ولا تبقى منه إلا آثار محدودة بعد ٢٤ ساعة.

لقد بينت الدراسات التي استخدمت فيها تقنية التألق المناعي immunofluorescence أن المستضد، والضد، والمتممة تترسب كلها على جدار الوعاء الدموي المعني، ويعقب هذا الترسب اجتياح متعددات النوى تلك المنطقة، مما يؤدي إلى تكدس الصفيحات، التي قد تسبب، في الحالات المتطرفة، انسداد الوعاء، وحدوث نخر خلوي. ويتم بعد مضي مدة تراوح بين ٢٤ و٤٨ ساعة على عملية الحقن، الاستعاضة عن عديدات النوى بعدد مماثل من وحيدات النوى، ترافقها أحيانا بعض الخلايا المصورية (البلاسمية). ولقد أوضحت هذه الدراسات أيضاً أن تفعيل المتممة شرط أساسي لحدوث تفاعل أرتوس، وأن غياب عديدات النوى يجعل التفاعل مقتصراً على وذمة متوسطة الحجم غير مترافقة مع نزف داخلي. إن شدة التفاعل، كما هو متوقع، ترتبط بنسبة الضد إلى المستضد، إذ إن كمية المعقدات المتشكلة في حال تعادل تركيز عنصري التفاعل تكون أعلى مما لو كانت هنالك زيادة في الضد، أو زيادة في المستضد. ويكون التفاعل في الحالتين الأخيرتين كلتيهما أقل حدة.

٤ـ فرط التحسس الآجل: بناء على التصنيف الذي وضعه كومبس وغيل فإن ظاهرة فرط التحسس الآجل (فرط التحسس ذي الوساطة الخلوية hypersensibilité à médiation cellulaire) تضم كل حالات فرط التحسس التي يتطلب ظهور الأعراض فيها أكثر من اثنتي عشرة ساعة، خلافاً لأنماط فرط التحسس الثلاثة السابقة، فإن فرط التحسس الآجل لا يمكن نقله من حيوان إلى آخر بوساطة المصل إنما يمكن نقله بالخلايا التائية، التي تؤدي، على مايبدو، دوراً بارزاً في فرط التحسس الآجل.

ويجمع المؤلفون على أنه يمكن وضع حالات فرط التحسس الآجل كافة في أربع مجموعات، تضم الثلاث الأولى منها حالات فرط التحسس التي يحتاج ظهور الأعراض فيها إلى مدة تراوح بين ١٢ و ٧٢ ساعة بعد دخول المستضد الجسم. أما في المجموعة الرابعة فإن ظهور الأعراض يتطلب أسابيع. ولكن على الرغم من هذا التصنيف، الذي اتُخذ فيه زمن ظهور الأعراض معياراً أساسياً، فإن فرط التحسس الذي يصيب الأفراد غالباً ماتدخل أعراضه في أكثر من مجموعة، كما يمكن للمستضد الواحد أن يثير فرط تحسس يمكن تصنيف مراحله في مجموعتين مختلفتين، تتعاقبان الواحدة إثر الأخرى.

المجموعة الأولى: فرط تحسس جونس موت: تظهر أعراض هذه المجموعة إثر انقضاء مدة ٢٤ ساعة حداً أقصى على التعرض للمستضد. ويمكن إحداث فرط تحسس جونس موت بالقبيعة بحقن مستضد بروتيني، كألبومين البيض ovalbumine مثلاً مع مساعد فروند غير التام adjuvant incomplet de Freund (الذي هو زيت معدني خاص) في الجلد. وتظهر أول أعراض فرط التحسس عندئذ إثر انقضاء نحو ١٠ ساعات، وتبلغ ذروتها بعد ١٤ ساعة. ويتميز فرط تحسس جونس موت باجتياح الأسسات لأدمة منطقة الحقن. أما إذا حقنت القبيعة بالمستضد ذاته إنما مع مساعد فروند التام adjuvant complet de Freund (الذي هو خلاصة الجراثيم المتطفرة ممزوجة بالزيت المعدني) فتظهر عندئذ أعراض التفاعل السليني (المجموعة الثالثة)، وتجتاح المنطقة كريات بيض، لا تشكل الأسسات إلا جزءاً بسيطاً من مجموعها (خلافاً لفرط تحسس جونس موت). كما يمكن إحداث فرط تحسس من نمط آخر يشبه كثيراً التفاعل السليني، وتظهر أعراضه متأخرة نسبياً، إذا ماحقنت القبيعة بألبومين البيض ممزوجاً مع مساعد فروند غير التام، ومن ثم عولج الحيوان بمادة السيكلوفوسفاميد cyclophosphamide.

يتضح مما سبق أن مستضداً محدداً يمكن، إذا ماحقن بشروط مختلفة، أن يسبب ظهور أعراض مجموعتين على الأقل من المجموعات الأربع لحالات فرط التحسس الآجل.

المجموعة الثانية: فرط تحسس التماس: يُتفق عامة على أن الحد الأدنى للزمن اللازم لظهور الأعراض الناجمة عن فرط تحسس التماس هو ٤٨ ساعة، وتصل الأعراض ذروتها إثر انقضاء ٧٢ ساعة على التعرض للمستضد، وتتميز هذه المجموعة سريرياً بحدوث إكزيمة (نملة eczéma) في منطقة التماس. ويشكل معدن النيكل ومادة الأكريليك، وكلاهما يدخلان في بنية الكاوتشوك، المحسس الأساس في أوربة، في حين تشكل أشجار السماق والسنديان السامة المصدر الرئيس للمستأرج في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولأن جزيئات هذه المواد لا تثير بمفردها استجابة مناعية بسبب صغر وزنها الجزيئي، فقد أمكن البرهان على أن هذه المواد، وبعد دخولها الجسم عن طريق الجلد، ترتبط بأحد بروتينات الذات (الجسم)، بروابط تكافئية أو لا تكافئية. وغالباً مايحدث هذا الارتباط بالزمرة الأمينية (NH_2) للحمض الأميني الليزين الموجود في البروتين. عندئذ فقط يصبح المستأرج مستمنعاً، وتستطيع عندئذ التائيات أن تميز هذا المعقد المقترن والمؤلَّف من المستأرج والبروتين الحامل له، تميزه ككل تمييزاً نوعياً. وعلى

مايبدو، فإن ارتباط المستأرج بالبروتين الحامل يغير من الشكل الفراغي لهذا البروتين، إذ تستطيع التائيات تمييز بروتين الذات بعد أن اقترن بالمستأرج. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه أمكن التوصل إلى هذه المعلومات عن طريق استخدام المستأرج الثنائي نيترو الكلوروبنزين dinitrochlorobenzène.

المجموعة الثالثة: فرط التحسس السليني: كان كوخ Koch (مكتشف العصية السلية) أول من وصف فرط التحسس السليني، فقد لاحظ أن حقن مادة السلين tuberculine، وهي بروتين شحمي يستخلص من العصيات السلية، تحت الجلد يثير، لدى المرضى بالسل، تفاعلاً حمياً وتوعكاً عاماً. ويرافق هذا التفاعل تشكل جسوء induration وورم في نقطة الحقن وقد وجد فيما بعد أن مستضدات عدة قابلة للانحلال بالماء، استخلصت من المتفطرة السلية Mycobacterium tuberculosis، والمتفطرة الجذامية Mycobacterium leprae، والليشمانية الاستوائية Leishmania tropica، تستطيع أن تثير تفاعلاً مماثلاً لدى أفراد محسسين نحو هذه المستضدات (أي تعرضوا مسبقاً للخمج بهذه العوامل الممرضة). وغالباً مايستخدم هذا التفاعل الجلدي اختباراً لمعرفة احتمال أن يكون الفرد قد سبق وتعرض للخمج بجرثوم معين. كما اتضح من الدراسات التي أجريت في هذا النطاق أن مستضدات غير جرثومية تستطيع إحداث التفاعل السليني. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن السل والجذام يعدان مرضين من أمراض فرط التحسس ذي الورم الحبيبي.

أما التغيرات الخلوية ـ النسيجية التي ترافق حدوث هذا التفاعل، فإن منطقة الحقن تصبح، بعد انقضاء مدة ٢٤ ساعة، مشحونة بالخلايا الوحيدة النواة، التي يكون نصفها تقريباً من اللمفيات، والنصف الآخر من البلاعم. ويلاحظ في منطقة التفاعل لدى الإنسان ندرة متعددات النوى. ويزداد عدد اللمفيات بعد انقضاء ٤٨ ساعة، إذ تتوضع بغزارة بين الألياف الضامة. أما نسبة البلاعم فتتناقص تدريجياً. وعلى الرغم من أن التفاعل يصل في هذه المرحلة ذروته، فإن تحوله من النمط السليني إلى النمط الحبيبي أمر غير بعيد الاحتمال، ذلك أن هذا التحول يعتمد على استمرار وجود المستضد. وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن التفاعل السليني لا يتميز بوجود عدد كبير من الأسسات في منطقة الحقن.

المجموعة الرابعة: فرط التحسس ذو الورم الحبيبي: لأن فرط التحسس ذا الورم الحبيبي مسؤول عن معظم التأثيرات المرضية التي تشمل على استجابة مناعية خلوية (وساطة التائيات à médiation cellulaire T)، فإن هذا النمط من فرط التحسس يعد، من الناحية السريرية، أهم أنماط فرط التحسس الآجل. وينجم فرط التحسس ذو الورم الحبيبي عن استمرار وجود مستضد ما ـ غالباً مايكون أحد الأحياء المجهرية ـ في البلاعم التي لاتستطيع تدميره (أي حلمهة مكوناته). وقد ينجم فرط التحسس ذو الورم الحبيبي هذا عن استمرار وجود المعقد المناعي، كما هي الحال في الأسناخ الرئوية الأرجية. وتؤدي الظاهرة إلى تشكل ورم حبيبي

الجدول ٢ خصائص مجموعات فرط التحسس الآجل

المجموعة	جونس ـ موت	التماس	السليني	الورم الحبيبي
زمن التفاعل	٢٤ ساعة	٤٨ ساعة	٤٨ ساعة	٤ أسابيع
المظاهر السريرية	تورم الجلد	إكزيمة	جسوء موضعي وورم قد يترافق مع حمى	جسوء جلدي
المظاهر النسيجية	الأسسات واللمفيات ووحيدات النوى	وحيدات النوى، تشكل وذمة، احتقان الأدمة	وحيدات النوى واللمفيات والوحيدات، ندرة متعددات النوى	خلايا ظهرانية ورمية، خلايا عملاقة، بلاعم نخر خلوي، تليف
المستضد	المستضدات المحقونة في الجلد، كالبومين البيض	تماس جلدي مع النيكل والمطاط مثلاً أشجار السماق والسنديان السامة	حقن السلين في الجلد. مستضد المتفطرات السلية والجذامية والليشمانيات	استمرار وجود المستضد أو المعقد المناعي ضمن البلاعم، أو المادة اللاستضدادية كالطلق مثلاً

granulome، يتألف من خلايا ظهارانية épithelioide. وعلى الرغم من أن المظهر النسيجي لفرط التحسس ذي الورم الحبيبي يختلف اختلافاً واضحاً عما يحدث في التفاعل السليني، فإن كليهما يمكن أن يحدثا نتيجة تحسيس الجسم بمستضد واحد، كالمتفطرة السلية أو المتفطرة الجذامية مثلاً. وتجدر الإشارة إلى أنه يمكن لأرجية الزركونيوم أن تؤدي إلى تشكل ورم حبيبي مناعي المنشأ يشبه الورم ذا الأصل الجرثومي. كما يمكن تحريض تشكل الورم الحبيبي بمواد ليست استضدادية، كالطلق talc مثلاً، ذلك أن البلعميات لا تستطيع تفكيك هذه المادة. ويمكن تمييز هذا الورم الحبيبي اللامناعي بغياب اللمفيات من منطقة الآفة. وعلى الرغم من أن جميع حالات فرط التحسس ذي الورم الحبيبي تتميز بوجود الخلايا الظهارانية فإن أصل هذه الخلايا لا يزال مجهولاً، ويرجح البعض أنها مشتقة من البلعميات المفعّلة. ويلاحظ أيضاً في فرط التحسس ذي الورم الحبيبي وجود خلايا عملاقة متعددة النوى، يطلق عليها اسم خلايا لانغرهانس Langerhans.

وتشتمل هذه الخلايا العملاقة على عدة نوى محيطية التوضع، وعلى حويصلات تحتل المنطقة الموجودة تحت الغشاء الخلوي مباشرة، وعلى عدد من المتضمنات inclusions، كما تحوي هذه الخلايا شبكة هيولية داخلية reticulum endoplasmique ضامرة، وتبدو المصورات الحيوية (الكوندريوم) فيها، وكذلك الجسيمات الحالة، كأنها تعاني من التنكس. ويمكن لهذا التنكس أن يزداد، مؤدياً إلى تخرب البنية الخلوية بأكملها، وحدوث النخر الخلوي المترافق مع التليف.

ويلخص (الجدول ٢) الخصائص الأساسية لمجموعات فرط التحسس الآجل الأربع.

هاني رزق

الموضوعات ذات الصلة:

الأرجية والتحسس (أمراض-).

مراجع للاستزادة:

-JEAN FRANÇOIS BACH, Immunologie (Flamarion Médicine Sciences, Paris 1985).

-I.RIOTT, Essential Immunology (Black- well Scientific Publication, London 1985).

■ الأرجية وفرط التحسس (أمراض-)

عرّف فون بيركي الأرجية allergie أنها «تفاعل شاذ لجسم فرد تجاه دخول مستضد». وتستعمل هذه الكلمة اليوم مرادفة لفرط التحسس. ويراد بفرط التحسس hypersensibilité: حالة العضوية التي تبدو عليها تظاهرات مرضية عنيفة حين التقاء الضد مع المستضد. وقد تم تصنيف حالات فرط التحسس في البدء استناداً إلى الزمن المنقضي بين تماس البدن مع المستضد وظهور تفاعلات العضوية، فقيل بفرط الحساسية المباشر وفرط الحساسية المتأخر.

أما اليوم فتصنف الأعراض التي تظهر إلى أربعة أنماط متميزة هي: النمط الأول ويسمى فرط التحسس العاجل أو التأق، والنمط الثاني ويسمى فرط التحسس السام للخلايا h.cytotoxique، والنمط الثالث أو فرط التحسس نصف المتأخر، والنمط الرابع أو فرط التحسس الآجل.

وستعبر كلمة «الأرجية» في هذا البحث عن حالات الأرجية وحالات فرط التحسس وهناك حالة تتصل بالأرجية وهي الأتوبية atopy، وهو مصطلح يستعمل للدلالة على استعداد المرء لإظهار عدد من الأعراض السريرية، كحمى الكلأ والتهاب الأنف الأرجي والربو والإكزيمة حين تماسه مع مستأرج عادي، كغبار الطلع وغبار المنازل وغيرها. وقد يكون منشأ الاستعداد هذا وراثياً أو بنيوياً، فحمى الكلأ والربو والإكزيمة يزداد ترددها في الأقرباء المباشرين للمصاب، كما ترتفع عنده الحمضات eosinophiles في الدم والمفرزات النسيجية، واستعداده لإنشاء الضد IgE عند تعرضه لبعض المواد الموجودة في البيئة. كما أن السبل الهوائية تزداد فعاليتها في الربويين عند تعرضهم لمختلف العوامل الفيزيائية، كالهواء البارد والروائح المخرشة، أو لبعض المواد الكيمياوية الداخلية المنشأ في البدن مثل الأستيل كولين [ر]. ويفترض وجود اضطراب في استقلاب ٣، ٥ مونوفوسفو أدينوزين الحلقي في الربويين.

وتقسم الأمراض الأرجية إلى أمراض مجموعية مثل التأق ومرض المصل، التي تصيب عدة أعضاء أو أجهزة، وإلى أمراض تتظاهر في أجهزة وأعضاء معينة، وهي أمراض الأرجية التنفسية والأرجية الهضمية والأرجية الجلدية والأرجية العينية.

الأمراض المجموعية

التأق: تفاعل أرجي يشكل خطراً على الحياة، ينجم في معظم الأحيان عن تحسس متواسط الـ IgE تجاه مادة أجنبية هي من الدواء على الغالب، وأكثره شيوعاً تكوّن أضداد IgE في البدن عند زرق المادة (البنسلين مثلاً) للمرة الأولى، فإذا ما زرق هذا الدواء في وقت لاحق عانى المريض من ارتكاس مجموعي عاجل، تظهر فيه أعراض الشرى المتعمم وانسداد السبيل الهوائي العلوي بسبب وذمة الحنجرة وانسداد السبل الهوائية السفلية ووهط collapsus محيطي دوراني، أو فقد الوعي وقد يحدث الموت. وبمقدور أية مادة أجنبية إجمالاً إحداث التأق في الأفراد المستعدين.

يعزى ظهور أعراض التأق إلى التفاعل الضدي المستضدي العنيف الذي يؤدي إلى إطلاق كميات كبيرة من مواد تعرف بالمواد الوسيطة الكيمياوية مثل الهيستامين، والمادة بطيئة التفاعل آ «SRA-A» تؤثر في مستقبلات نسيجية مختلفة في جميع أنحاء البدن.

تستلزم خطورة التأق استعداد الطبيب لمعالجته عند حدوثه في أثناء زرق الأدوية - وخاصة البنسلين - وذلك بتهيئة محلول الأدرينالين الألفي ومضادات الهيستامين والقشرانيات، وتهيئته الوسائل الأخرى بحسب مقتضى الحال.

داء المصل أو مرض المصل: هو اضطراب مناعي مجموعي وصفي، يظهر على أثر زرق مادة بروتينية مستضدية غريبة في البدن. يحدث مرض المصل من ارتكاس ضار لبروتينات المصل الحيوانية أو البشرية عند زرقها، كزرق

المصل المضاد للكزاز والمصول المضادة لسموم الأفاعي. يعد مرض المصل النموذج الوصفي لمرض المعقد المناعي. ففي النموذج الحيواني (الأرنب) تحدث الأعراض في الوقت الذي يظهر فيه الضد المتشكل ضد المستضد المزروق، أي والمستضد لايزال في الدوران. وتتميز المعقدات المستضدية الضدية التي تتشكل إثر زرق المستضدات بعدد من الصفات تجعلها مؤذية للنسج، فهي تتوضع في الأوعية الصغيرة وترتشح في مختلف أعضاء البدن فتسبب بعض الأذيات كالتهاب الكبد والكلية، وتقوم بتثبيت المتممة، وتجذب الكريات البيض متعددة النوى إلى موضع ترسبها، فتقوم هذه الكريات عندئذ بإفراز مواد سمية تؤذي النسيج. ويتم الشفاء في هذا النموذج بعد التخلص من وجود هذه المعقدات. أما مرض المصل في الإنسان فهو يشبه مرض المصل في الحيوان (الأرنب) فيما عدا ندرة حدوث التهاب الكبد والكلية، وعدم هبوط تركيز المتممة فيه. تظهر الأعراض في مرض المصل عند تشكل أضداد مختلفة الفعالية البيولوجية على الرغم من أن هذه الأضداد تنجم عن المستضد نفسه. فتفاعل المستضد مع IgE يؤدي إلى ظهور الشرى في حين يسبب تفاعل المستضد ذاته مع IgM وIgG إصابة مفصلية.

تظهر أعراض مرض المصل بعد ٧ إلى ١٢ يوماً من زرق المادة البروتينية الغريبة وأبرز الأعراض فيه الشرى المتعمم الذي يتصف بحكة مزعجة عادة، وقد تحدث الحمى والألم العضلي والاعتلال اللمفي والإصابات المفصلية. يصبح مكان الزرق منتبجاً محمراً قبل ظهور الأعراض بيوم إلى ثلاثة أيام. وقد تأتي الأعراض متسارعة في الذين سبق تعرضهم لارتكاس أرجي للمستضد الغريب نفسه، فتظهر بعد يوم إلى ثلاثة أيام فحسب، أو تأخذ مظهراً تأقياً. أما سير المرض فمحدود عادة، ويشفى المصاب في مدة أسبوع الى عشرة أيام، ويندر حدوث التهاب القلب والتهاب الكبد والكلية فيه، وأكثر مضاعفاته خطورة متلازمة غيلان باري. والتهاب الأعصاب المحيطي.

الأمراض التي تصيب أجهزة معينة

متلازمات الأرجية التنفسية: وهي مزيج من النمطين الأول والرابع لفرط التحسس.

١- أرجية الطرق التنفسية العلوية: تختلف استجابة كل من الأنف والأذن والحنجرة للأذيات الأرجية. فمخاطية البلعوم غنية بالنسيج اللمفاوي الذي يشكل مناطق ذات أهمية كبيرة للدفاع المناعي عن العضوية، لذا تكثر الحالات الالتهابية في البلعوم، وتندر فيه الحالات الأرجية الصرفة. وكذلك الحال في الأذن الباطنة، سواء أكانت دهليزية أم حلزونية. أما في الأنف فالأمر مختلف تماماً، فالغشاء المخاطي المبطن للحفرتين الأنفيتين والجيوب هو مكان ملائم لنشوء التظاهرات الأرجية؛ لاحتوائه على مخاطية مهدبة سطحية فيها بناء غدي، تسهم بوجه فعّال في التظاهرات المناعية النوعية واللانوعية، كما أن تعصيب الغشاء المخاطي وتوعيته يُسهمان في التفاعلات الإفرازية والتوسعات الوعائية الشديدة والفجائية. ومن الناحية العملية فإن الأرجية في الطرق التنفسية العلوية تُعدّ أرجية أنفية - جيبية.

٢- الأرجية الأنفية الجيبية: وهي أرجية تنفسية أسبابها وسيرها السريري يشبه أسباب وسير التظاهرات القصبية. فمن الناحية التشريحية، يوجد في الحفرتين الأنفيتين القرينات التي يزداد تضخمها، وبذلك تزيد الوذمة في المخاطية وتؤدي لانسداد الأنف. كما يحصل ذلك في الجيوب الوجهية التي لها دور غير محدد من الناحية الصوتية، ولكن دورها المرضي كبير. ويضاف إلى ذلك الوذمة التي تظهر حول فتحات النزح drainage للجيوب، مما يؤدي إلى احتباس المفرزات وتقيحها، يضاف إلى ذلك أن هذه الوذمات تزداد وتتطور لتكون السليلات polypes، ولذلك يلاحظ تفاعل التهابي تحدثه مختلف المواد الوسيطة الكيمياوية وغيرها التي تنطلق بتأثير التفاعلات الأرجية. تكون هذه التأثيرات عابرة حين التعرض لغبار الطلع والتفاعلات الأرجية الخفيفة الحدة وغير المستمرة، وتتجلى بوذمة في المشيماء (الكوريون) وتوسع وعائي ونتح وارتشاح خلوي مهم، فيه كمية كبيرة من الحمضات. وتتغير هذه الصورة التشريحية المرضية في الحالات الأكثر حدة، كما هي الحال في بعض التهابات الأنف. ويكون ذلك بحسب شدة تأثير المؤرجات والظواهر الالتهابية المرافقة لها ومدة بقائها، وخاصة إذا أضيفت إليها عوامل أخرى ذات تأثير التهابي كالأخماج. حينئذ تتوسع الأوعية وتتنبه النهايات العصبية، وتؤدي إلى تكاثر الأرومات الليفية fibroblastes والركود اللمفاوي. وتتعلق أهمية الآفات المحدثة بشدة الأذية واستمرارها أكثر من تعلقها بطبيعتها، وفي هذه الإصابة تتبدل البشرة ويزول الجهاز الهدبي ولا تترافق هذه الأذية دائماً بفرط الإفراز، بل هو قليل في معظم الحالات كما تتسمك فيها الطبقة القاعدية وتصبح ليفية ومتوذمة، وتتضخم الأوعية الدقيقة وتحتقن ويتليف جدارها. أما الخلايا الغالبة في الرشاحة فهي اللمفاويات والمصوريات وقد تشاهد فيها الحمضات.

إن الأعراض الوظيفية الملاحظة هنا ليست نوعية للاعتلالات الأنفية الجيبية الأرجية فهي تشير إلى وجود تفاعلات في الأغشية المخاطية تجاه أذيات لا نوعية، فالأعراض الرئيسة هي: انسداد الأنف وسيلانه ووذمته. وتدل الظروف المحيطة بظهور هذه الآفات ونمط تطورها على منشئها الأرجي، فسيلان الأنف المصلي يكون غزيراً وصافياً في حالة الأرجية لغبار الطلع، ثم يجف فيصبح أقل غزارة، وقد يكون مخاطياً أو مخاطيا قيحياً. أما توذم الأنف فهو متفاوت الشدة ومعاود قد يترافق بحكة وخاصة لأرجية غبار الطلع. ويلاحظ السعال إذا أصيب المريض بتخريش حنجري أو أصيبت جيوبه، وإصابة الجيوب كثيرة الشيوع في الأطفال. وقد تنتشر الأرجية فتصيب الرغامى والقصبات. ويترافق التهاب الأنف الأرجي بغبار الطلع بإصابة عينية تتظاهر بحكة الملتحمة والأجفان وإصابتهما بوذمة، كما تتظاهر برُهاب الضوء والدُّماع. ويلاحظ حين تنظير الأنف في أثناء النوبات الحادة ضخامة الغشاء المخاطي الأنفي وتوذمه.

ولا بد في هذه الإصابة من التفتيش عن الحمضات في السائل الأنفي، وإن كانت علامة غير ثابتة وغير نوعية لالتهاب الأنف الأرجي إذ تلاحظ في آفات أخرى. لكن التصوير الشعاعي ضروري، كما أن تصوير الجيوب واجب، إذ قد تكون إصابتها بالتهاب مزمن صامتة سريرياً، وهذا الأمر غير نادر في التهاب الأنف الأرجي من منشأ طلعي خاصة.

تشاهد أكثر الإصابات في الجيوب الفكية، تليها الجيوب الوتدية ثم الجيوب الجبهية أو الغربالية، ويمكن إجراء اختبارات التحريض التي تعتمد على دراسة تبدلات المقاومة الأنفية لمرور الهواء قبل ملامسة المؤرج وبعده، وتختلف

التفاعلات الملاحظة باختلاف نوع المؤرج المسبب، فهي سريعة وثنائية الجانب تزول بعد ٣٠ دقيقة في الأرجية لغبار الطلع، ولا تظهر إلا بعد ١٠-١٥ دقيقة وتستمر عدة ساعات في المؤرجات الجرثومية. والمؤرجات المسببة عادة هي المؤرجات الرئوية نفسها. وأكثرها شيوعاً هي غبار المنازل ثم الريش والأشعار ووسوف الحيوانات تليها المؤرجات البيئية كالطحين وغبار الحبوب وبذور الخروع، وغيرها. ثم هناك الأرجية لفطر المُبْيَضَّات البيض Candida albicans والتي تشاهد بنسبة ١٠-١٥٪ من الحالات، وتكثر مشاركتها لأرجيات أخرى تصيب الجلد والأغشية المخاطية.

أما الأرجية الناجمة عن الجراثيم وحدها فتحتل مكانة أقل من السابقة ونسبتها ١٠٪ من مجموع الحالات وتتصف بأن تطورها قصير الأمد، ولا علاقة لها بالفصل أو البيئة. ولكنها على عكس الأرجية الناجمة عن غبار المنازل لا تتحسن أعراضها حين السكنى في المناطق المرتفعة، بل على نقيض ذلك تزيدها شدة. وتكون نتائج الاختبارات الجلدية فيها تجاه جميع المؤرجات الشائعة سلبية دائماً.

ويسبب عدد من الأدوية التهاب الأنف الأرجي، ويأتي الأسبرين في طليعتها. وهنالك مواد دوائية أخرى تسبب الآفة نفسها، وهي الرزربين وعدد كبير من المسكنات ومضادات الالتهاب والكودئين وغيرها. تختلف اللوحة السريرية التي يصاب بها المريض باختلاف العمر ونوع المؤرجات المسببة وتطور الداء ووجود المضاعفات المحتملة.

ويلاحظ من الناحية العملية إحدى حالتين: الأرجية الصرفة والأرجية المشاركة لخَمَج.

تستمر الأرجية الصرفة زمناً طويلاً، ويجب تفريقها عن التهابات الأنف الوعائية اللاأرجية ذات الأعراض السريرية المشابهة (سيلان مصلي وانسداد في الأنف).

أما الأشكال المختلطة (الأرجية مع الخَمَج) فهي وجود عامل خَمَجيّ مزمن إضافة إلى الآفة الأرجية. وتكثر فيها إصابة الجيوب والرغامى والقصبات، كما أن انسداد الأنف دائم في معظم الحالات، ويندر فيها سيلان الأنف باستثناء حالات الهجمات الحادة التي تكون فيها مفرزات الأنف مخاطية قيحية أو قيحية صرفة، كما يصاب المريض بسعال في هذه المرحلة مما يدل على إصابة الرغامى والقصبات. إن المؤرجات المشاهدة في الأشكال المختلطة هي المؤرجات نفسها التي تسبب الأرجية الصرفة وتستطيع الاختبارات الجلدية كشفها، لكن الحكم على الدور الجرثومي في إحداث الآفة المرضية يبقى صعباً.

٣- أرجية البلعوم والبلعوم الأنفي: وهي فرط تحسس من النمط الأول، تحدث الأعراض السريرية - في الأطفال خاصة - لوجود التشكيلات اللمفاوية الملحقة بالغشاء المخاطي البلعومي. ولهذه التشكيلات شأن مهم في نشوء الدفاع المناعي للجسم، وتعد من المراكز المهمة لتكوين الغلوبلينات المناعية، مما يفسر تواتر حدوث الضخامات فيها عند الأطفال، وسيطرة الظواهر الخمجية والالتهابية في هذا المستوى، وللأسباب الأرجية شأن كبير في نشوء التهاب الأنف والبلعوم الناكس.

٤- الربو القصبي: وهو فرط تحسس من النمط الأول ويتميز بتضيق في القصبات، وتتبدل شدته بسرعة سواء بوجه تلقائي أو عقب المعالجة بموسعات القصبات. وتشترك في أمراض الربو آليات عصبية وخلطية وهرمونية ومناعية مختلفة تؤثر في ظاهرتين، هما الظاهرة الحركية القصبية، والظاهرة الأرجية، وهما وثيقتا الترابط: فاللاودي parasympathique ينظم تقبض القصبات وتوسعها، وينشط تكون حمض الغوانوزين أحادي الفسفات GMP الحلقي في الخلية، مما ينقص الأدينوزين أحادي الفسفات AMP الحلقي في الخلية ويؤدي بذلك إلى انطلاق المواد الوسيطة في الخلية البدينة والأسسات.

أما العوامل الموسعة للقصبات فهي بوجه عام مولدة للأدينوزين أحادي الفسفات AMP الحلقي الموجود داخل الخلايا، ومثبطة لانطلاق المواد الوسيطة. كمايقوم البروستاغلاندين ترومبوكسان prostaglandine thromboxane بدور أساسي في هذا الأمر. وتعد الرئة المنتج الكبير للبروستاغلاندين ترومبوكسان بدءاً من حمض الأراكيدونيك.

تتلف البروستاغلاندينات بسرعة حين مرورها في النسيج الرئوي فيتلف ٩٠ إلى ٩٥٪ منها حين مرورها في الرئة للمرة الأولى. إن دور هذه البروستاغلاندينات غير معروف تمام المعرفة، ولكن يبدو أنها تقوم بدور في تعديل تقبض العضلات الملس القصبية وانبساطها [ر. البروستاغلاندين].

أما المواد الوسيطة التي تنطلق من حبيبات الأسسات الدموية والبدينات القصبية الرئوية فلها دور أساسي في الظاهرة الأرجية السريعة. ينطلق الهيستامين من الحبيبات مباشرة ويؤثر في المستقبلات القصبية، وفعله مؤكد في الظاهرة الأرجية كما أن تأثيره سريع وكذلك تقوضه بفعل الهيستاميناز النسيجية. وللمادة البطيئة التفاعل آ slow reacting substance of anaphylaxis (SRS-A) دور مهم في إطالة مدة التقبض في القصبات المحيطية. كما أن القينين kinine، المتشكلة بدءاً من الكاليكرئين kallicreine، تقبض القصبات وتخرشها. يضاف إلى ماسبق تأثير العامل الجاذب الكيمياوي التأقي للحمضات في جذب الحمضات، ويبدو أنه يعدل أثر المواد الوسيطة في نهاية التفاعل، كما ينطلق العامل الجاذب للعدلات والمنشط للصفيحات الذي يسبب تلازن الصفيحات ويحرر محتواها، ولا سيما السيروتونين مع كميات قليلة من البروستاغلاندين والهيستامين.

تنطلق هذه المواد الوسيطة إما بظاهرة أرجية بوساطة IgE أو IgG أو بأذية مناعية بالذيفان المتئق anaphylatoxines C_3A, C_4A أو عن طريق أذيات غير مناعية. وهناك عوامل تطلق الهيستامين تؤثر بعيداً عن الآليات المناعية. فبعض الأشخاص يتحسسون بها كما هو الأمر في الحوادث التأقية للكورار curares. ويضاف إلى التضيق القصبي الوذمة وزيادة المفرزات، ودورها كبير في الربو القصبي.

تحدث الأزمة الربوية غالباً في المساء أو في أثناء الليل. وكثرة حدوث النوبات ليلاً يعود إلى انخفاض مستوى ١٧ أوكسي هيدروستروئيد إذ يبلغ أقصى ارتفاعه في الثامنة صباحاً ثم ينخفض تدريجياً حتى يصل إلى أدنى مستوى له في منتصف الليل، أما عدد الحمضات في الدم فيتبع منحنى عكسياً. والأسباب المحدثة لهذه الأزمة والتي يذكرها المريض تشمل التعرض للتبدل الحراري أو استنشاق مؤرج خطير، أو مخرش لا أرجي (دخان، أو غبار، أو SO_2 . . .). قد يسبق الأزمة الربوية بعض الأعراض المخبرة كالصداع، وحس ثقل شُرْسُوفي، وحكة جلدية موضَّعة تحت

الذقن أو في منطقة القص، ثم يظهر بعد عدة نوبات من السعال الجاف الأزيز الذي يستطيع أن يسمعه من هم حول المريض. يكون المصاب شاحباً مزرقاً بعض الشيء وكثير التعرق في حالة الأزمات الشديدة، ويتخذ وضعية خاصة في سريره تسمح له باستعمال العضلات التنفسية الإضافية، ليتمكن من التغلب على صعوبة التنفس وخاصة الزفير.

تخف الأزمة تدريجياً في غضون ١٠ دقائق وسطياً، فيأخذ المريض بالسعال المنتج ليتقشع مفرزات مخاطية كثيفة لزجة. وتظهر، بفحص القشع، بلورات شاركو لايدن وارتفاع عدد الحمضات، وبانتهاء الأزمة يشعر المريض بالتعب والإنهاك ويشكو من آلام صدرية.

تبدأ الإصابة بالربو في الطفولة قبل السنة الخامسة من العمر ونادراً بين سن ٢٠ إلى ٣٠ وتتجلى البداية بالتهاب قصبي أو التهاب بلعومي أنفي، أو خناق معاود يصيب الطفل، ولا سيما في فصلي الخريف والشتاء، وتحدث النوبة الأولى عقب خَمَجٍ حادّ، وقد يكون دور المؤرج (غبار، ريش) واضحاً منذ ذلك الوقت، ولكن قد تظهر النوبة أيضاً عقب استئصال اللوزتين غير الضروري، ومن المعروف أن الربو الطفلي قد يهدأ في سن البلوغ ولكن ربما عاود المريض في سن اليفع، وفي مثل هذه الحالة، قد يختفي تماماً بعد عدة سنوات من التطور أو يدوم مدى الحياة، ولا سيما إذا ترافق بظواهر خمجية قصبية.

هناك دلائل سريرية ومخبرية تُظهر الأرجية في الربو. فمن السريرية فجائية النوبة وشدتها وترافقها مع ضيق التنفس، ومصاحبتها في أحوال نادرة إصابة الملتحمة، (وإصابة الملتحمة دليل على أن الربو تحسسي) وحدوثها في مكان وزمان معينين وبدؤها في الأعمار الباكرة، إذ نادراً مايصاب المرء بهذا الداء بعد سن الخمسين. ومن الدلائل المخبرية: ـ ارتفاع الحمضات في الدم، وشأنها كبير في حال غياب الإصابة بالديدان، ولا سيما إذا بلغت ٤٠٠ حمضة في الملم[٣] وأكثر عند الكهل، كما أن ارتفاعها في المفرزات الأنفية أو القصبية له أثَرُه؛ ومن الدلائل المخبرية أيضاً تثبيت الهيستامين، ويقوم على مبدأ وجود الغاماغلوبلين الذي يثبت الهيستامين إذا كان المرء طبيعياً، وافتقاره لهذا الغلوبلين إذا كان مصاباً بالأرجية. فالإنسان السوي يعدل الهيستامين، والمصاب بالربو لايعدله. وإن نتائج الاختبارات الجلدية تكون إيجابية فتؤكد وجود الراجنات reagines في الدم، يضاف إلى كل العلامات السابقة أن عيار الـIgE العام في الدم يرتفع.

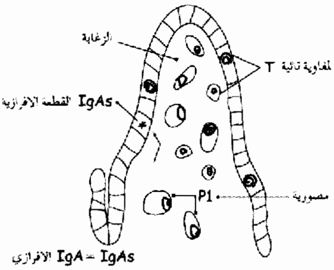
متلازمات الأرجية الهضمية

تشمل الأرجية الهضمية مجموعة الأعراض والعلامات الهضمية الحادة والمزمنة التي لها علاقة بحالة فرط تحسس الشخص لمستضد معين. يكون المستضد هذا غذائياً في معظم الأحيان وقد يكون خَمَجياً أو دوائياً، وربما حدثت المتلازمة الأرجية الهضمية بحسب آلية من نمط واحد فقط، أو وفق عدة أنماط تتداخل فيما بينها. وفيما يلي لمحة عن الجهاز المناعي للأنبوب الهضمي واستجاباته المناعية:

للأنبوب الهضمي غشاء مخاطي يبلغ سطحه ٢٠٠م[٢] يشكل حاجزاً بين الوسط الداخلي ومحتوى الأمعاء الغني بالمستضدات (جرثومية، أو فيروسية أو طفيلية، أو غذائية). وتساند الظهارة (الابيتليوم) الهضمية الهشة جملة مناعية داعمة، تتألف من امتداد لمفاوي يملأ المخاطية الهضمية، ومن جزيرات لمفاوية معزولة (الجريبات) تقع في المعدة والعفج والصائم والقولون، أو مجتمعة بشكل تكدسات تقع في اللوزتين، والزائدة الدودية، ولويحات بيير في الدقاق ileon. تتألف المخاطية الهضمية من طبقة ظهارية وطبقة تحت المخاطية تدعى بالصفيحة المخصوصة lamina propria وهي غطاء لمفاوي يحوي نسبة مرتفعة من الخلايا المصورية واللمفاويات والخلايا المُنْسِجة وبعض البدينات والحمضات.

لقد ثبت أن أغلب المصوريات هي التي تصنع الـIgA عند الإنسان ويحتوي كل مليمتر مكعب واحد من الصائم على ٤٥٠٠٠ مصورية، وقد تبين أن ٨٠٪ منها تصنع الـIgA و١٢٪ منها تصنع الـIgM و٥٪ تصنع الـIgG، و٢٪ تصنع الـIgE و١٪ تصنع الـIgD. كما ظهر أيضاً أن الخلايا المثبتة للأضداد IgE هي بدينات مفعّلة قد تثبت الـIgE عليها بقطعته Fe. وكثافة المصوريات قليلة في المعدة والمستقيم، وهناك بجانب المصوريات واللمفاويات البائية لمفاويات تائية أيضاً.

تُفرز المصوريات الـIgA الإفرازية الثنائية التكوثر الجزيئي، بينما تكون القطعة الإفرازية



الشكل-١- العناصر المناوية للمخاطية المعوية والافراز الخارجي لـ IgA

الواصلة بين الجزيئين من صنع الخلايا الظهارية التي لها دور ناقل للغلوبلين من خلال الظهارة ودور مانع لهضمها من قبل العصارات الهاضمة. وللـIgA دور في تعديل الفيروسات ومنع امتصاص الجراثيم من قبل مخاطية الأمعاء، فهي تشكل الطلاء المانع لدخول الجراثيم، كما أنها تمنع الامتصاص الهضمي للمستضدات الغذائية وتنظم الاستجابات المناعية. تنشأ المصوريات التي تفرز الـIgA من الأرومات المناعية البائية، وتشاهد في الصفيحة المخصوصة وهي خلايا ناضجة تفرز الأضداد ولا تظهر بُعيد الولادة بل تتكون تدريجياً بعد التماس مع المستضدات، وتوجد أرومات هذه الخلايا في لويحات بيير والعقد المساريقية.

تفكك المفرزات الهضمية الأنظيمية قسماً كبيراً من الجزيئات الكبيرة macromolecules، لذا تصل إلى الظهارة بتركيز ضعيف، وتمنع الخلايا الكأسية التصاق هذه الجزيئات على الخلايا المعوية لأن لها جملة جسيمات حالّة قوية قادرة على هضم هذه الجزيئات. أما وظيفة بلعميات النسيج تحت المخاطي (المشيماء) chorion فهي بلعمة الجزيئات التي قد تعبر الغشاء المخاطي، وأخيراً تتدخل الغلوبلينات المناعية الإفرازية بوجه نوعي لامتصاص الجزيئات الكبيرة.

إن قدرة النفوذية الهضمية في المولودين حديثاً تسمح بإعطاء اللقاحات عن هذا الطريق كلقاح شلل الأطفال، فالطفل يكوّن أضداداً لهذا المرض وبالتالي مناعة تجاهه، كما أن النفوذية الهضمية هذه تعد الطريق الملائم للتمنيع المنفعل بين الأم ووليدها عن طريق اللبأ

والحليب، لكنها تتناقص تدريجياً بتقدم عمر الطفل.

يمكن لبعض الجزيئات الكبرية أن تفلت من الجسيمات الحالّة والبلعميات، وتدخل المسافة داخل الخلوية، ولا سيما إذا وردت عن الطريق الهضمي كميات كبيرة من المستضدات تفوق قدرة الجسيمات الحالة على هضمها وإتلافها، كما أن وجود آفة في المخاطية الهضمية يساعد على نفوذية المستضدات مثلما هو الحال في المرض الجراحي والآفات المعدية المعوية، كالتهاب المعدة والأمعاء عند الأطفال، والتهاب القولون والمستقيم النزفي، وكذلك تناول الكحول المعروف بتأثيره السام في الغشاء المخاطي، وتشعيع الأمعاء، والأدوية الكيمياوية المضادة للنمو الخلوي، والرحضات المخرشة وغير ذلك.

يرافق عوز الـIgA الإفرازي ازدياد نفوذية الجزيئات الكبرية عن طريق الهضم، والمصابون بهذا العوز يملكون أضداداً للبروتينات الغذائية أكثر من غيرهم من الأشخاص الأسوياء.

تصل الجزيئات الكبرية الممتصة إلى الدوران اللمفاوي أو الدموي الوريدي عن طريق وريد الباب، وعندئذ إما أن تتعدل نهائياً في خلايا كوبفر بالكبد أو بالأوعية اللمفاوية، أو تؤدي لفرط تحسس (أرجية). والأرجية إما أن تكون عامة أو موضعية. تقوم الكبد بدور مهم في تعديل المؤرجات الواردة إليها عن طريق وريد الباب، يخفق هذا التعديل حينما تكون الكبد مصابةً بالتشمع. وأعراض الأرجية الموضعية هي زيادة الحركات الحوية المعوية، وتوذم معوي ومعدي، وتشنج البواب، والتهاب القولونات والمستقيم مع ضياع البروتين، وظهور إسهالات دموية. إن المستضدات المسؤولة عن هذه الأرجية غذائية، ويستند التشخيص السريري إلى نفي الأرجية أو إثباتها بحذف الأغذية المشبوهة أو إدخالها بحسب طريقة معينة. وقد تعني نتيجة الاختبار الإيجابي لمادة غذائية عدم تحمل هذه المادة إما بآلية مناعية أرجية أو بسبب قصور خمائري أو بسبب تلوث جرثومي، وتفيد في مثل هذه الحالة معايرة الـIgE النوعي للمؤرج الغذائي.

تلاحظ الأرجية الهضمية عند الرضيع خاصة، مما يدل على أهمية نفوذية الجدار الهضمي في الرضع، والمستضدات المسببة هي من المواد البروتينية التي يتناولها الإنسان عادة، أي بروتينات حليب البقر، والغلوتين وأحياناً الصويا، وتندر هذه الأرجية الهضمية عند الطفل واليافع، ومن بين البروتينات المسببة أيضاً البيض، وبعض أنواع السمك، واللحم، والبازلاء، وغيرها... وقد يكون هناك بعض مسببات للأرجية الهضمية ذات منشأ لاهضمي كالأخماج والأدوية.

يقوم تشخيص الأرجية الهضمية على نفي الأسباب الأخرى المحدثة للأعراض الهضمية، ولا يمكن التحقق من التشخيص إلا بعد إجراء استقصاء هضمي كامل لنفي وجود آفة عضوية، ويكون هذا الاستقصاء سريرياً أولاً ثم مناعياً بتحري IgE النوعية للمستضد ودراسة خزعات من الصائم قبل إعطاء المستضد وبعده.

متلازمات الأرجية الجلدية: هي التهاب الجلد الأرجي بالتماس، والأرجية الجلدية الدوائية والشرى.

١- التهاب الجلد الأرجي بالتماس: هو تحسس مفرط من النمط الثالث. يشكل الجلد خط الدفاع الأول في البدن تجاه أذيات البيئة المحيطة به ولقد ارتفعت حالياً نسبة الأذيات الكيمياوية فازداد تواتر التهاب الجلد بالتماس، وتبين أن نسبة الإصابات في النساء تساوي ضعف نسبتها في الرجال.

تنجم الأذيات الكيمياوية الكبرى عن الكاويات والحموض القوية وتؤذي جميع الأشخاص فتسبب التهاب الجلد المتهيج وهو تفاعل لا أرجي. أما الأذيات الصغرى فتنجم عن متأرجات متنوعة، وقد تكون من طبيعة غير بروتينية، كالأصباغ والمواد الكيمياوية المستعملة في الصناعة ومواد التجميل. تسبب هذه المواد تغيرات في الجلد عندما تطبق أول مرة، ثم تحدث تغيرات نوعية عند التعرض لها مرة ثانية. وهذا هو التهاب الجلد الأرجي.

تظهر على منطقة التحسس اندفاعات حمامية حَطاطية أو حويصلية، وتتميز نسيجياً بوجود وشاحة بالخلايا اللمفاوية يضاف إليها أحياناً البدينات ويلاحظ في الحالات الحادة وجود العدلات والحمضات.

إن عدد المؤرجات كبير جداً ومتنوع. وأهمها مواد التجميل والمراهم الدوائية والمواد المهنية. ويدرج في عداد المؤرجات عنصر الكروم الموجود في الإسمنت، والفورمول في المواد الراتنجية، وثاني كرومات البوتاسيوم الذي يدخل في المنظفات والمطهرات، والنيكل، الذي يدخل في صناعة الحلي والمداليات والأطواق والعملة المعدنية وأدوات الخياطة، وهو مؤرج مهم لأنه يتحرر بتأثير التعرق ويُحدث إكزيمة التماس، كما تؤلف التهابات الجلد بمواد التجميل جزءاً مهماً من التهابات الجلد الأرجية بالتماس، وسببها صباغات الشعر وأحمر الشفاه والعطور وطلاء الأظافر. تظهر الأرجية بالتماس بعد عدة ساعات إلى ٤٨ ساعة من التماس مع المادة المؤرجة فتحدث في مكان تطبيق المادة المسببة حكة باكرة وقد تكون شديدة تسبق ظهور الحمامى ذات اللون الأحمر الداكن والتي تترافق مع حرارة موضعية ووذمة. ثم تغطي المنطقة حويصلات تنفجر ويخرج منها سائل مصلي، يتخثر ويتحول لقشيرة مميزة لالتهاب الجلد الأرجي بالتماس. فإذا كان التماس مع المؤرج عابراً انتهت الحالة إلى الشفاء من دون عقابيل في مدة أسبوع إلى أسبوعين. أما إذا كان وجود المؤرج مستمراً فإن الآفات الجلدية تصاب بالخمج ويصبح السائل المصلي أصفر ثخيناً كما يصبح الجلد جافاً وسميكاً.

٢- الأرجية الجلدية الدوائية: هذه الأرجية شائعة في الجنسين وفي كل الأعمار، ويمكن أن تتظاهر في أية منطقة من مناطق الجسم على شكل صفيحات موضعة أو إكزيمة محددة في جزء من البدن وأكثر ماتسببها مراهم السلفا والبنسلين، ومن أكثر المراهم إحداثاً للأرجية الجلدية المراهم التي يضاف إليها بلسم بيرو وزيت الغار وقد يكون المؤرج أحياناً السِّواغ excipient وليس الدواء نفسه.

٣- الشرى: مرض جلدي شائع يعاني منه ٢٠٪ من الناس في وقت من أوقات حياتهم، يتصف بظهور آفات جلدية «انتبارات» حاكة مختلفة الحجم تحيط بها هالة حمراء، وقد تكون الحكة فيها خفيفة أو شديدة. قد تزول الآفات بعد ٤٨ ساعة وقد تظهر آفات مفردة أو مجتمعة مرة ثانية، وهناك حالات تستمر فيهامدة ٦ أسابيع إلى ١٨ أسبوعاً.

يعزى الشرى فيزيولوجياً إلى وذمة تصيب الأدمة العلوية سببها توسع الأوعية الشعرية وازدياد قابلية نفوذها. وهناك شكل من الشرى الموضع يعرف بالوذمة العصبية العِرَقية تصيب الوذمة فيه النسج الرخوة القابلة للتمدد، مثل الأجفان والشفتين والأذن والأعضاء التناسلية

الظاهرة «مثل القلفة» والغشاء المخاطي للفم واللسان والحنجرة.

إن الشرى هو التعبير الجلدي عن تفاعل المستضد مع الضد IgE المتوضع على الخلية البدينة. ويتهم الهيستامين بأنه عامل فعال وعائي أكثر من غيره في إحداث الآفات الشروية، كما أن للقينين خاصة تأثيراً فعالاً على توسيع الأوعية الشعرية وقابلية نفوذها.

متلازمات الأرجية العينية: تحدث الارتكاسات الأرجية التي تصيب الجفنين عند الأطفال أكثر من الكهول. وقد تصاب العين في سياق ارتكاس أرجي متعمم مثل الشرى. وتحدث هذه التفاعلات إما متواسطة بالـIgE مثلما هو الحال في التهاب الملتحمة الأرجي المشاهد في حمى الكلأ بالراجنات، وإما بفرط التحسس المتأخر (الآجل)، المتواسط بالخلايا مثلما هو الحال في إصابة الجفنين في التهاب الجلد التماسي.

تنتبج الأجفان في التهاب الجلد التماسي الذي ينجم عن مجموعة من المواد الموجودة في البيئة والتي تحملها اليدان إلى الأجفان، وقد ينجم التهاب جلد الأجفان عن التحسس لمادة دوائية تطبق عليها.

أما التهاب الملتحمة الأرجي فيغلب أن يرافق التهاب الأنف الأرجي «حمى الكلأ» حينما يكون سببه غبار الطلع خاصة. ويتظاهر هذا الالتهاب الأرجي بحكة في العينين وتورمهما واحمرارهما، وقد تسيل الدموع منهما بغزارة، وتشتد هذه الأعراض بدلك العينين. ويتميز التهاب الملتحمة الأرجي بالمفرزات المائية التي قد تتقيح عند استمرارها ومع ذلك فإن وجود الحمضات في هذه المفرزات، ولو أصبحت قيحية، يفرقها عن التهاب الملتحمة الخمجي الذي تمتلئ مفرزاته بالكريات البيض متعددة النوى والجراثيم. والرمد الربيعي: يصيب الأطفال أكثر من الكهول ويحدث في الربيع نتيجة فرط تنشؤ الملتحمة وتكثفها.

وديعة ريحاوي

الموضوعات ذات الصلة:

الأرجية وفرط التحسس.

مراجع للاستزادة:

-JAQUES CHARPIN, Allergologie (Flammarion, Paris 1987).
-I.GORDELIER, Immunologie (Crouan et Roques, Lille, France 1986).

■ أرخميدس
(نحو ٢٨٧-٢١٢ق.م)

أرخميدس Archimedes عالم رياضي ومخترع إغريقي، وُلد في مدينة سرقوسة Syracuse بجزيرة صقلية وتوفي فيها. كان ابناً لعالم فلكي اسمه فيدياس Phidias. درس أرخميدس في مدرسة الرياضيات الشهيرة في الاسكندرية، وكان تلميذاً للعالم الرياضي المشهور في ذلك العصر زينون Zenon، وهو أحد أتباع إقليدس[ر] الشهير.

قضى أرخميدس حياته في الدراسات الفلسفية والرياضية، واكتسب شعبية واسعة في عصره بسبب اختراعاته واكتشافاته، فقد ابتكر طريقة لرفع الماء بآلة تدعى «لولب أرخميدس» وهي لاتزال قيد الاستعمال لري الحقول. وتتكون هذه الآلة الرافعة من لولب حلزوني واسع مركَّب بإحكام في داخل صندوق أسطواني تغمر نهايته السفلى في الماء وتجعل نهايته العليا حيث يُراد تجميع الماء كحوض أو مجرى. فحين يدور اللولبُ يدفع الماء معه إلى الحوض، وقد وضع أرخميدس كذلك القوانين الرياضية للرافعة، وبرهن على صحتها، وأصبح بوسع الإنسان مضاعفة القوة المتاحة له لتحريك الأثقال الكبيرة. وقد قام أرخميدس بأبحاث تضمنتها كتب وكتيبات له منها:

الكرة والأسطوانة: وهو كتاب يبحث في أبعاد الكرة والأسطوانة ويبين أن حجم الكرة يساوي ثلثي حجم الأسطوانة المحيطة بها، وأن مساحة الكرة تساوي أربع مرات مساحة دائرتها الكبرى.

الدائرة وقياساتها: وهو كتيب يرمي إلى إظهار أن نسبة محيط الدائرة إلى قطرها وهو ما يعرف اليوم بالحرف اليوناني π، يقع بين

$$٣\frac{١}{٧} \quad و \quad ٣\frac{١٠}{٧١}$$

أي بين ٣,١٤٠٨ و ٣,١٤٢٩ والمعروف أن π = ٣,١٤١٥٩ تقريباً.

الأجسام الطافية: وهو بحث يقع في كتابين يدرس أرخميدس في أحدهما مراكز الثقل والاستقرار للقطع الدائرية والقطوع المكافئة الدورانية، ويعرض في الثاني مبادىء توازن السوائل التي قادت إلى مبدأ أرخميدس الذي ينص على أن «الجسم الغاطس في سائل يُدفع إلى الأعلى بقوة تساوي وزن السائل المزاح». وتروي القصة المشهورة كيف أنه توصل إلى فكرة هذا المبدأ حين كان يغوص في حوض الاستحمام.

توازن السطوح أومراكز الثقل: ويتألف من كتابين يتضمنان أسس الميكانيك النظري، وفيهما يبرهن أرخميدس على الطرائق المتبعة في تعيين مراكز ثقل الأشكال الهندسية المختلفة.

وقد وجه أرخميدس مواهبه إلى الآلات الحربية، فاستُخدمت معلوماته عن الرافعات والعتلات في بناء المنجنيقات التي أعاقت القوات الرومانية حين كانت تسعى إلى الاستيلاء على سرقوسة التي سقطت نحو ٢١٢ق.م وكان القائد الروماني قد أصدر أوامره بالحفاظ على حياة أرخميدس، وعدم الاعتداء على بيته، ولكن أرخميدس قُتل خطأً بسيف جندي روماني. وقد دفنه الرومان وسط مظاهر الإجلال والتكريم ونقشوا على قبره بحسب وصيته الشكلين الأثيرين عنده: كرة ضمن أسطوانة.

ج.ت

■ أردشير ← الساسانيون

■ الأردن

قطر عربي اسمه الرسمي المملكة الأردنية الهاشمية، عاصمته عمان. يقع في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا في بلاد الشام، وتحده فلسطين من الغرب وسورية من الشمال، والعراق من الشمال الشرقي، والمملكة العربية السعودية من الشرق والجنوب، وخليج العقبة في أقصى الجنوب الغربي، ويغطي الأردن مساحة ٩١٨٤٠كم² مع مساحة حصته من البحر الميت. ويمتد الأردن ما بين خطي طول ٣٤ درجة و٥٢ دقيقة و٣٩ درجة و١٢ دقيقة شرقاً، وبين خطي عرض ٢٩ درجة و١٧ دقيقة و٣٣ درجة و٢٣ دقيقة شمالاً، ولولا ساحله القصير ٣٧كم على خليج العقبة لكان دولة برية حبيسة. ويبلغ طول حدوده الغربية مع فلسطين نحو ٣٦٠كم. وتعد الحدود الأردنية طويلة نسبةً إلى مساحته (١٠٠٠كم² مقابل ٢٠كم)، وتأخذ البلاد الشكل الطولي من الشمال إلى الجنوب إضافةً إلى لسان من الأرض الأردنية يمتد متوغلاً في أقصى الطرف الشمالي الشرقي داخل بادية الشام.

ويرتبط الأردن براً مع البلدان العربية المجاورة لتوسط موقعه الجغرافي من جهة وجواره مع هذه البلدان وسهولة اتصاله بها من جهة ثانية. فالأردن قلب الشرق العربي، وكل الطرق تؤدي إليه سواء أكانت قادمة من شبه الجزيرة العربية والخليج العربي، أم من فلسطين ولبنان وسورية والعراق. ولموقع الأردن أثر كبير في دعم الروابط الاقتصادية بينه وبين البلدان العربية، وإضافة إلى استيعاب الأردن لجزء من صادرات المناطق العربية المحتلة عام ١٩٦٧، فإنه يؤلف جسر عبور لصادرات هذه المناطق إلى البلدان العربية المجاورة. كما أن ميناء العقبة [ر] يخدم تجارة الأردن الخارجية إضافة إلى جزء كبير من تجارة العراق الخارجية وبعض تجارة سورية ولبنان وشمالي المملكة العربية السعودية.

ومنذ افتتاح خط العقبة ـ نويبع البحري أصبح الأردن يؤلف البوابة الشرقية للجناح العربي الإفريقي، مثلما تؤلف مصر البوابة الغربية للجناح العربي الآسيوي وتنعكس أهمية الموقع الجغرافي على تزايد حركة النقل الجوي عبر الأجواء الأردنية.

الأوضاع الجغرافية الطبيعية

التكوينات الجيولوجية: تظهر في الأردن التكوينات الجيولوجية العائدة للحقب التالية:

١ـ حقب ما قبل الكامبري: يطلق على تكوينات هذا الحقب اسم الدرع العربي ـ النوبي وتتألف من صخور معقدة وصلبة، إذ يمكن تمييز الصخور المتحولة مثل الميكا والشيست والكلوريت شيست والكوارتزيت والرخام والغنايس والأردواز، من الصخور النارية مثل صخور الغرانيت والغابرو والانديزيت والبازلت، والصخور الرسوبية غير كاملة التحول.

تنكشف تكوينات ما قبل الكامبري في أقصى جنوبي الأردن في مساحة محدودة جداً تحيط بالعقبة وتمتد على طول الحافة الشرقية لوادي عربة، كما تمتد إلى الشرق والشمال الشرقي من العقبة حتى منطقة القويرة ووادي رم.

٢ـ حقب الحياة القديمة (الباليوزويك الأول): تنتشر صخور هذا الحقب في جنوبي الأردن، في منطقة رأس النقب، وعلى الجانب الشرقي لوادي عربة، وتغطي صخور البريكامبري النارية والمتحولة. وآخر نقطة تظهر فيها شمالاً هي شمال مصب نهر زرقاء ماعين في شمال شرقي البحر الميت. وتغلب عليها الصخور الرملية في معظم الأحيان ولاسيما في جنوبي الأردن. غير أن الصخور الطينية تصبح أكثر أهمية في الجزء الشمالي الشرقي للبحر الميت.

وأهم تكوينات هذا الحقب: تكوين سالب إلى الشمال من رم، وتكوين عشرين في منطقة القويرة، وتكوين الديسي الذي يمتد من رأس النقب إلى قاع الديسي إلى جبل أم سهم على الحدود السعودية، وتكوين سهم الممتد من رأس النقب على شكل حزام إلى الجنوب الشرقي حتى جبال أم سهم على الحدود السعودية، وتكوين خريم، وتكوين المدورة، وكذلك تكوينات العصر البرمي مابين ماعين وحسبان.

٣ـ حقب الحياة المتوسطة (الميزوزويك الثاني): يقسم هذا الحقب إلى ثلاثة عصور هي من الأقدم إلى الأحدث: الترياسي والجوراسي والكريتاسي. وتنتشر هذه التكوينات فوق مساحات واسعة من الأردن ولا سيما الأجزاء المحاذية لانهدام وادي الأردن. وتنكشف تكوينات الترياسي في المنطقة الواقعة بين وادي زرقاء ماعين ووادي الكفرين. ويظهر الجزء العلوي من الترياسي إلى الغرب من سد الملك طلال. أما تكوينات الجوراسي فإنها تظهر في منطقة نهر الزرقاء ما بين جسر جرش القديم ووادي الأردن. وتغطي تكوينات الكريتاسي أكثر من ٦٠٪ من مساحة الأردن، وتشمل جميع المناطق الواقعة إلى الشمال والشرق من رأس النقب. وتبرز الأهمية الاقتصادية لتكوينات هذا الحقب عامة وتكوينات الكريتاسي خاصة في وجود كميات هائلة من الصخر الزيتي والفوسفات وحجارة البناء والرخام.

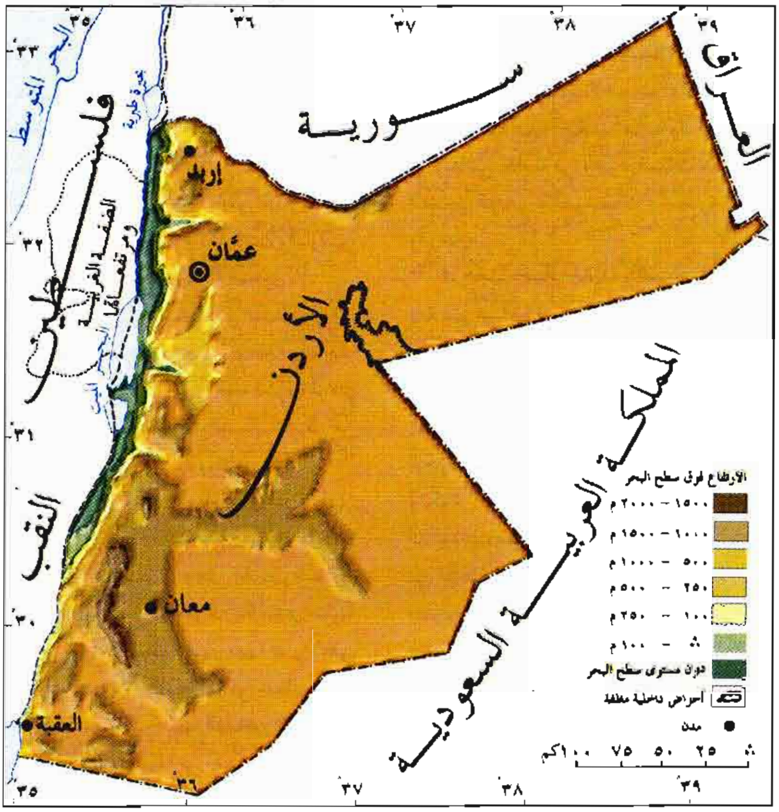
٤ـ حقب الحياة الحديثة (السينوزويك): ينقسم هذا الحقب إلى حقبين هما الثلاثي والرباعي. ويشتمل الحقب الثلاثي على تكوينات الصوان والحجر الكلسي المعروفة باسم تكوين الرجام، كما يشتمل أيضاً على تكوين الكونغلوميرات السفلي، وتكوين أصدوم، وتكوين الكونغلوميرات العليا. وتغطي هذه التكوينات مساحات متفرقة في الأردن ولا سيما في الأجزاء الجنوبية. أما الحقب الرباعي فإن رسوبياته تنحصر في غور الأردن ووادي عربة مشتملة على تكوينات الشاغور وغور الكتار، وكونغلوميرات أبو هابيل الكلسية وحصى كفرنجة، وتكوين السمرة، وتكوين اللسان، والرسوبيات الحديثة.

التضاريس: يضم الأردن عدداً من الأقاليم الطبيعية ذات الامتداد الشمالي ـ الجنوبي وهي:

١ـ المنخفض الأخدودي لوادي الأردن: يمتد هذا المنخفض بأراضي الأردن مسافة ٣٧٠كم من مصب اليرموك حتى رأس خليج العقبة. ويتفاوت اتساعه ما بين ٥كم شمال العقبة و٣٥كم على خط عرض أريحا [ر] كما يراوح في مستوى قاعه ما بين منسوب (-٧٩٧م) دون مستوى سطح البحر وهي أعمق نقطة لقاع البحر الميت إلى منسوب (+٢٤٠) وهو الفاصل المائي بالعجرم نحو أواسط وادي عربة.

ويجري نهر الأردن في جزء من هذا المنخفض الأخدودي المسمى بالغور ليصب في البحر الميت. وقد كوّن النهر لنفسه سهلاً فيضياً يعرف باسم الزور. ويفصل ما بين مستوى الزور وأرض الغور حافة من الأراضي الرديئة تعرف باسم الكتار. أما أراضي الغور فإنها تمتد من الشمال إلى الجنوب محصورة بين الحواف الجبلية لوادي الأردن والكتار. وتجري مجموعة من الأودية الجانبية التي ترفد نهر الأردن من خلال أراضي وادي الأردن مكوِّنة دالات مروحية تتفاوت في حجومها وأهميتها.

ويطلق على نهر الأردن [ر] اسم النهر



المقدس كما سماه بعضهم عروس الأردن لأن سهله الفيضي كان يشكل شريطاً أخضر من النباتات الطبيعية والأدغال الكثيفة من البوص والأثل والقصيب والدفلى والحلفا والسدر في وسط إقليم شبه صحراوي. ولكن السكان منذ ثلث قرن قاموا باجتثاث هذه النباتات وزراعة الأزوار ببساتين الخضر. ويشتمل وادي الأردن على أكبر المساحات المروية في الأردن، ويرجع الفضل في ممارسة الزراعة الكثيفة إلى تنفيذ مشروع ري الغور الشرقي، القائم على الاستفادة من مياه قناة الغور الشرقية.

٢ـ المرتفعات الشرقية: يتكون هذا الإقليم من هضبة تطل على وادي الأردن في الغرب، وتمتد ما بين نهر اليرموك شمالاً والحدود الأردنية ـ السعودية جنوباً. وقد تعرضت هذه الهضبة لحركات بنائية (تكتونية) اتصفت بالعنف على مدى تاريخها الجيولوجي، الأمر الذي جعلها ترتفع لأعلى من منسوب الهضبة الفلسطينية المقابلة لها في الغرب، إذ يبلغ متوسط ارتفاعها نحو ١٢٠٠م، في حين أن متوسط ارتفاع الأخيرة يقل عن ١٠٠٠م. وتنحدر الهضبة تدريجياً نحو الشرق لتتصل بالهضبة الصحراوية، في حين أن الجزء الأعظم منها ينحدر بشدة نحو الغرب، وهو الجزء الشرقي من حوض نهر الأردن.

نجحت المجاري المائية في تقطيع الهضبة وحفر أودية لها في أعماق تكوينات الحجر الكلسي. وتدل الأودية الخانقية المتعددة على تعاظم نشاط عمليات الحت النهري والتعميق في عصر البلايستوسين. وتبلغ الخوانق أوج عظمتها مقابل البحر الميت، حيث شق كل من وادي الموجب والحسا خانقين مدرجين خلال أكثر من ١٧٠٠م من تكوينات صخرية رسوبية. ويشبه وادي الموجب إلى حد بعيد وادي كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية في تكوينه وتشكيله. وكما هو الحال في الهضبة الفلسطينية المقابلة، فإن تقطيع الأودية النهرية لهذه الهضبة جعلها تتخذ مظهراً جبلياً أكثر منه هضبياً. وساعد على تقسيمها إلى وحدات طبيعية وإدارية. وتشتمل المرتفعات الشرقية على وحدات إقليمية من الشمال إلى الجنوب كما يلي:

ـ منطقة عجلون: تمتد ما بين نهر اليرموك شمالاً ونهر الزرقاء جنوباً، وتنحصر بين حافة الوادي الأخدودي غرباً والصحراء الأردنية شرقاً. ويتخذ جزؤها الجنوبي شكل القباب، حيناً، كقبة عجلون، في حين يتخذ الجزء الشمالي شكل السهول احياناً كما هو الحال في منطقة إربد. ويبلغ متوسط ارتفاعها ٨٥٠م فوق سطح البحر. ومن قممها جبل عوف الذي بنيت عليه قلعة الربض. وتنمو الغابات فوق القمم والمنحدرات الجبلية، ولا سيما غابات البلوط، وتكثر فيها الينابيع المتفجرة. وتشتهر منطقة إربد بزراعة المحصولات الحقلية والأشجار المثمرة.

ـ منطقة البلقاء: تقع هذ المنطقة بين نهر الزرقاء شمالاً ووادي حسبان جنوباً وهي هضبة ترتفع في المتوسط إلى ٩٢٥م فوق سطح البحر، وتتخذ شكل القبة في الجزء الشمالي، حيث قبة السلط، وشكل السهول في الجزء الجنوبي، حيث تمتد سهول مأدبا. وتنمو الغابات في مرتفعات السلط التي تتفجر منها بعض الينابيع، ويخترقها وادي شعيب منحدراً نحو نهر الأردن. وتشتهر سهول مأدبا بزراعة المحصولات الحقلية.

ـ منطقة الكرك: هي هضبة تقع بين وادي حسبان شمالاً ووادي الحسا جنوباً، بمتوسط ارتفاع يبلغ نحو ١١٥٠م فوق سطح البحر. والهضبة في جزئها الجنوبي أكثر ارتفاعاً منها في الجزء الشمالي، يصل أقصى ارتفاع لها عند جبل الضباب ١٣٠٠م على الجانب الشمالي لوادي الحسا، ويبلغ ارتفاع الجزء الشمالي نحو ٨٥٠م. وينبسط سطح الهضبة في الوسط ما بين وادي الموجب شمالاً والمزار جنوباً، لذا يستأثر هذا الجزء الأوسط بالأراضي الزراعية وبعض القرى والمدن. وتزرع فيه أنواع الحبوب المختلفة والأشجار المثمرة كاللوزيات والزيتون، فضلاً عن نمو الأعشاب التي تصلح أن تكون مراعي طبيعية، وقد كانت هذه المنطقة تعرف قديماً باسم جبال موآب نسبة إلى الموآبيين الذين نزلوها من الجزيرة العربية منذ أكثر من ٣٥٠٠ عام.

ـ منطقة معان: تمتد هذه المنطقة من وادي الحسا شمالاً حتى الحدود الجنوبية. وتشتمل المنطقة على جبال الطفيلة وجبال الشراه في الشمال والغرب، وعلى هضبة حسمى في الجنوب. ويبلغ متوسط ارتفاعها ١٣٠٠م فوق سطح البحر، وتنحدر بشدة نحو وادي عربة

في الغرب، كما تنحدر نحو الشرق إلى منخفض الجفر، ونحو الجنوب إلى خليج العقبة. وأشهر قمم جبال الشراة جبل مبرك (١٧٢٧م) وجبل هارون (١٣٣٦م) في الجنوب الغربي من البتراء. وتوجد قمة جبل رم في هضبة حسمى، إذ تعلو (١٧٥٤م) فوق سطح البحر. وقمة جبل أم عشرين (١٧٥٣م) إلى الشرق من جبل رم وبالقرب منه.

وتعد مرتفعات الشراة أطول سلسلة جبلية متصلة في الأردن وأعلاها، إذ تمتد من جروف رأس النقب حتى الطفيلة مسافة ١٠٥كم وتنحدر هذه الجبال الوعرة انحداراً شديداً نحو وادي عربة، وتكثر فيها ينابيع المياه والأودية العميقة التي تزرع فيها الأشجار المثمرة.

٣ـ الهضبة الصحراوية: هي الامتداد الشرقي لإقليم المرتفعات الشرقية الجبلية، إلى الشرق من خط سكة حديد الحجاز، وهي الامتداد الشمالي للهضبة العربية الأركية التي تتكون قاعدتها من صخور بلورية قديمة صلبة. وقد تعرضت هذه الهضبة للتصدع في بعض أجزائها نتيجة الضغوط الجانبية، كما تعرضت لتدفق الطفوح البازلتية على أجزائها الشمالية الشرقية.

والهضبة بصفة عامة ذات أرض متموجة، ومع ذلك فإنها لا تخلو من وجود بعض السلاسل الجبلية في الأجزاء الجنوبية الغربية ولاسيما في جنوب معان. وفيها بعض المنخفضات والقيعان والأودية الطولية مثل منخفض الجفر وقاع الديسي ووادي السرحان. وتسود صحراء الحماد في مساحات واسعة من الهضبة، في حين تنتشر الأراضي الرملية في هضبة حسمى بالجنوب والحرات البازلتية في الركن الشمالي الشرقي.

ونتيجة لقلة الأمطار التي تهطل على هذه الهضبة فإنها لا تصلح لقيام الزراعة إلا حول مصادر المياه الجوفية في الأودية والمنخفضات. ويمكن أن تستعمل الأجزاء الغربية من الهضبة مناطق للرعي على النباتات الطبيعية. لذا فإن تطوير المراعي وتحسينها ينتجان بيئة رعوية صالحة لتربية أعداد كبيرة من الأغنام والماعز.

الخصائص المناخية: يقع الأردن على الطرف الشمالي للإقليم الصحراوي والطرف الجنوبي الشرقي لإقليم البحر المتوسط، وعليه فإن مناخ الأردن يتصف بأنه حار وجاف صيفاً، ومعتدل رطب شتاء. وأن الامتداد الطولي للمظاهر التضاريسية من الشمال إلى الجنوب يجعل أثر البحر المتوسط لا يتوغل كثيراً نحو الداخل. ومن ناحية أخرى فإن الأردن يحاذي صحاري واسعة من الشرق والجنوب مما كان له آثار واضحة في مناخه ولا سيما فيما يتعلق بظروف الجفاف في فصل الربيع وأوائل الصيف عندما تمر منخفضات جوية قادمة من الغرب إلى الشرق، فتسود الأحوال الصحراوية إذ ترتفع درجات الحرارة وتهب الزوابع الترابية.

١ـ درجة الحرارة: يبلغ المتوسط السنوي لكمية الإشعاع الشمسي اليومي نحو ٥ ملايين سعرات على كل متر مربع. ويرتفع هذا المتوسط إلى ٧,٥ مليون سعرات/م٢ صيفاً، وينخفض إلى ٣ ملايين سعرات/م٢ شتاء.

ونتيجة للإشعاع الشمسي القوي ترتفع درجات الحرارة في الأردن. غير أنها تتفاوت من مكان إلى آخر بحسب الموقع الفلكي للمكان، ومقدار تعرضه للمؤثرات الصحراوية والبحرية، ومقدار ارتفاعه أو انخفاضه عن سطح البحر. ويبلغ المتوسط السنوي لدرجات الحرارة في وادي الأردن ٢٣,٥ درجة مئوية، وهو أعلى متوسط لها في الأردن. وينخفض هذا المتوسط إلى ١٧,٥ درجة مئوية في الإقليم الصحراوي، و١٦درجة مئوية في إقليم المرتفعات الجبلية. ويبلغ المتوسط السنوي لدرجات الحرارة في الأردن ١٩درجة مئوية.

وعموماً فإن درجات الحرارة في جميع أجزاء الأردن تهبط بسرعة ابتداء من شهر تشرين الثاني وإن أبرد أيام السنة تحدث في كانون الثاني أو شباط. ومن جهة ثانية فإن درجات الحرارة تأخذ في الارتفاع ابتداء من شهر آذار، ولكن يحل الدفء تدريجياً وبصورة بطيئة في شهري نيسان وأيار. ويصبح الجو حاراً في شهر تموز، ويشهد الأردن في شهر آب أكثر أيام السنة حرارة.

يتفاوت معدل المدى الحراري اليومي طوال أيام السنة من إقليم إلى آخر بحسب درجة المؤثرات البحرية أو الصحراوية. ففي المرتفعات الجبلية يراوح المعدل ما بين ١٠-١٢درجة مئوية، وفي وادي الأردن يصل إلى ١٥درجة مئوية في حين يتجاوز ١٦درجة مئوية في جنوب شرقي البلاد الصحراوي.

٢ـ الضغط الجوي والرياح: يدخل الأردن صيفاً تحت تأثير الضغط الجوي المرتفع الذي يمتد تأثيره حتى البحر المتوسط، ويصبح الأردن معرضاً لهبوب الرياح الشمالية والشمالية الشرقية الجافة. أما في فصل الشتاء فإن الضغوط الجوية المنخفضة تسود منطقة البحر المتوسط، وتحمل معها الأمطار. وترتبط المنخفضات الجوية بالكتل الهوائية التي تسود جنوب غربي آسيا وتتحرك مندفعة نحو مراكز المنخفضات في أثناء مرورها مجتازة البحر المتوسط. وتصل المنخفضات الجوية في فصل الشتاء إلى الأردن قادمة من الغرب مجتازة البحر المتوسط. وتمر بعض المنخفضات الجوية المحلية أحياناً على طول البحر الأحمر متجهة نحو الشمال، ويصحبها في العادة هطول أمطار وحدوث فيضانات سيلية في المناطق الجنوبية والشرقية من الأردن.

وتسود الرياح الغربية في إقليمي المرتفعات الجبلية والبادية الصحراوية. وأقل الرياح تكراراً هي الرياح الشرقية والشمالية الشرقية والجنوبية الشرقية. وتسود الرياح الشمالية والشمالية الغربية في الجزء الشمالي من وادي الأردن، في حين تسود الرياح الشمالية في جنوبي وادي الأردن. ويراوح معدل سرعة الرياح اليومي في الأردن ما بين ٤,٢ عقدة/ساعة في وادي اليابس، و١١,٢ عقدة/ساعة في مطار العقبة.

٣ـ الرطوبة النسبية والتبخر: يراوح المعدل السنوي للرطوبة النسبية ما بين ٣٩٪ كما هو الحال في الرويشد و٦٠٪ كما هو الحال في إربد وتتفاوت المعدلات السنوية للرطوبة النسبية من إقليم إلى آخر، فهي في وادي الأردن ٥٢٪، وفي المرتفعات الجبلية ٥٥٪، وفي البادية الصحراوية ٤٩٪. ويعدّ كانون الثاني من أكثر أشهر السنة رطوبة، إذ تراوح فيه معدلات الرطوبة النسبية ما بين ٥٢٪ في العقبة و٧٥٪ في الجبيهة. أما شهر أيار فيعد من الأشهر التي تقل فيها الرطوبة، إذ تراوح فيه الرطوبة النسبية ما بين ٢٧٪ في الرويشد و٤٩٪ في إربد.

ويعد شهر كانون الثاني أقل أشهر السنة من حيث معدل التبخر. وعلى الرغم من ذلك فإن معدل التبخر يزيد فيه على ١٠٠م في وادي الأردن والبادية، ويقل معدل التبخر عن ١٠٠م في المرتفعات. وعلى النقيض من ذلك فإن شهر تموز تحدث فيه أعلى معدلات التبخر، ولا سيما في البادية الصحراوية التي تراوح فيها معدلات التبخر ما بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠م. ويقل التبخر في المرتفعات عن ٤٠٠م في الشهر نفسه. وتراوح

معدلات التبخر السنوي في المرتفعات الجبلية ما بين ٢٩٠٠ ـ ٣٠٠٠مم. ويزداد معدل التبخر السنوي في البادية إلى أكثر من ٤٠٠٠مم. ويراوح هذا المعدل ما بين ٣٠٠٠ ـ ٣٢٠٠مم في وادي الأردن.

٤ـ الأمطار: تهطل معظم الأمطار على الأردن بفعل مرور المنخفضات الجوية التي تجذب إليها الرياح الغربية والجنوبية الغربية القادمة من البحر المتوسط والمحملة بالأبخرة. ولا يتوزع هطول الأمطار على الأردن توزيعاً عادلاً من حيث الزمان والمكان. إذ إن هطولها يحدث بصورة غير منتظمة من سنة إلى أخرى ومن فصل إلى آخر. كما يميل إلى التركز، بمعنى أنه يحدث في مدة قصيرة وبكميات كبيرة.

ويمكن أن يقسم فصل الأمطار إلى ثلاثة مواسم هي: الأمطار المبكرة (الخريفية)، والأمطار الفصلية (الشتوية)، والأمطار المتأخرة (الربيعية). ولا بد من هطول الأمطار في هذه المواسم جميعها، وبكميات مناسبة لتكون السنة ذات أمطار عادية، ولضمان نجاح الزراعة الشتوية. وإذا كانت الأمطار المبكرة قليلة أو إذا تأخرت أو انحبست فإن البذور لا تتمكن من الإنبات، وتعجز المحصولات الزراعية الشتوية عن النمو. وتقرر الأمطار المبكرة مدى نجاح الموسم الزراعي، إذ إن انحباسها يؤدي إلى إخفاقه.

يتفاوت توزع الأمطار داخل الأردن من إقليم إلى آخر. ففي وادي الأردن بلغ معدل كميات الأمطار نحو ١٤١مم في السنة. وازداد هذا المعدل إلى ٤٢٢٫٥مم في المرتفعات الجبلية، في حين انخفض المعدل إلى ٦٠مم في البادية الصحراوية. وثمة تفاوت أيضاً بين أكبر كمية للأمطار السنوية وأقلها، ويبلغ هذا التفاوت أشده في البادية الصحراوية، وهو كبير في وادي الأردن، وقليل في المرتفعات الجبلية. ويزداد الوضع سوءاً إذا تعاقبت السنوات الجافة، إذ تتعرض البلاد إلى فترة جفاف تؤثر في مختلف أوجه الحياة. وتراوح نسبة معامل التغير المطري ما بين ٢٠ ـ ٣٠٪ فوق المرتفعات الجبلية، وخاصة الأجزاء الشمالية الغربية منها، في حين ترتفع النسبة في المناطق الجنوبية الشرقية من البلاد لتتجاوز ٤٠٪.

وباستعراض التوزع الشهري للأمطار في محطات مختارة داخل الأردن، يبدو أن هطولها يبدأ تدريجياً في شهر تشرين الأول، ويصل إلى الذروة في شهري كانون الثاني وشباط، ثم يأخذ في التناقص التدريجي حتى شهر أيار. أما أشهر الصيف من حزيران حتى أيلول فهي جافة. وفي السنوات العادية تهطل الأمطار في أشهر فصل الأمطار بنسب متفاوتة، إذ يبلغ نصيب شهر تشرين الأول من الأمطار السنوية ما نسبته ٢,٦٪، في حين يبلغ نصيب شهر تشرين الثاني ٧,٧٪، ونصيب شهر كانون الأول ٢٠,٧٪، ونصيب شهر كانون الثاني ٢٣,٥٪، ونصيب شهر شباط ١٩,٧٪، ونصيب شهر آذار ١٧,٦٪، ونصيب شهر نيسان ٦,٤٪، ونصيب شهر أيار ١,٨٪. وهكذا نجد أن كمية الأمطار تتناقص بحدة بدءاً من نيسان، ولا تهطل الأمطار إلا كميات محدودة جداً في النصف الأول من أيار، كما هو الحال في النصف الثاني من تشرين الأول. غير أن كمية الأمطار التي تهطل في أثناء فصل الربيع تتفوق بوجه عام على تلك التي تهطل في أثناء فصل الخريف، ولا سيما في المنطقة الشرقية من البلاد.

ويبين التوزع المكاني للأمطار أن نسبة ضئيلة من جبال عجلون والبلقاء (لا تتجاوز ١٪ من مساحة الأردن) يصيبها أكثر من ٥٠٠مم من الأمطار سنوياً. وهناك نسبة صغيرة تقدر بنحو ٢٫٣٪ من مساحة البلاد يصيبها من الأمطار كميات تراوح بين ٣٠٠ ـ ٥٠٠مم وتشمل هذه النسبة وادي الأردن الشمالي والمرتفعات الجبلية. أما وادي الأردن الأوسط، وكذلك أقدام المرتفعات الجبلية، وهي تشغل ٤٫٣٪ من مساحة الأردن، فإن نصيبها من الأمطار يراوح بين ٢٠٠ ـ ٣٠٠مم سنوياً. وتشغل الجهات الصحراوية نحو ٩١٫٥٪ من مساحة البلاد، وعلى الرغم من ذلك فإن حظها من الأمطار قليل، إذ إنه يقل عن ٢٠٠مم سنوياً، ومعظم هذه المساحات الصحراوية يقل مطرها عن ١٠٠مم سنوياً.

وينعكس العامل التضاريسي على توزيع الأمطار، فكميات الأمطار التي تهطل على المرتفعات الجبلية أكثر من تلك التي تهطل على وادي الأردن. وحتى في الإقليم الواحد يحدث التفاوت في توزيع الأمطار، فالباقورة مثلاً أكثر ارتفاعاً وأمطاراً من دير علاّ في وادي الأردن. والسلط في المرتفعات الجبلية أكثر ارتفاعاً وأمطاراً من إربد.

وعلى العموم فإن كميات الأمطار السنوية تقل من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق. فمعدل أمطار عجلون (٦٥٣مم) أكثر من معدل أمطار السلط (٦٣٦مم)، ومعدل أمطار الأخيرة أكثر من معدل أمطار الكرك (٣٦١مم) الواقعة في الجنوب. ومن جهة ثانية فإن معدل أمطار إربد في الشمال الغربي (٤٧٨مم) أكثر من معدل أمطار الرويشد في الشمال الشرقي (٧٥مم)، ومعدل أمطار غور الصافي في الجنوب الغربي (٦٨مم) أكثر من معدل أمطار الجفر في الجنوب الشرقي (٣٧مم).

ويمكن تفسير تناقص الأمطار من الشمال إلى الجنوب بعدة أسباب منها أن الأجزاء الشمالية أكثر تعرضاً لمرور المنخفضات الجوية، وبالتالي تتكون جبهات هوائية تتلاقى فيها كتل هوائية باردة مع كتل أخرى دفيئة، الأمر الذي يسبب هطول أمطار غزيرة. إضافة إلى ذلك فإن الرياح الجنوبية الغربية المطيرة تحتاج إلى أن تقطع مسافة كبيرة في مرورها على سطح البحر المتوسط لكي تصل إلى المرتفعات الشمالية، في حين تكون المسافة أقصر لكي تصل إلى الأجزاء الجنوبية من فلسطين، مما يسبب تحملها بمقدار من الرطوبة في الحالة الأولى أكبر بكثير من المقدار الذي تحمله في الحالة الثانية. وتكون الرياح شبه عمودية على الأجزاء الشمالية، في حين تكون شبه موازية للأجزاء الجنوبية، الأمر الذي يهيء الفرصة لهطول أمطار على الأجزاء الشمالية بكميات أكبر من الأجزاء الجنوبية.

أما تناقص كميات الأمطار من الغرب إلى الشرق فإنه يمكن أن يفسر بعامل القرب والبعد عن البحر، إضافة إلى عامل مواجهة الرياح المطيرة أو الوقوع في ظلها. فالمنحدرات الغربية المواجهة للرياح المطيرة أكثر أمطاراً من المنحدرات الشرقية الواقعة في ظل المطر. وعلى سبيل المثال، فإن معدل الأمطار التي تهطل على وادي السير أكثر من معدل أمطار عمان، ومعدل الأخيرة أكثر من معدل أمطار الزرقاء، ومعدل أمطار المفرق أقل من معدل أمطار الزرقاء، وأكثر من معدل أمطار الرويشد.

ويراوح معدل الأيام المطيرة ما بين ٢٠ يوماً في البادية الصحراوية، و٢٥ يوماً في وادي الأردن، و٤٥ يوماً في المرتفعات الجبلية. ويدل العدد المحدود نسبياً لأيام المطر على أن توزيع أمطار الأردن غير منتظم، ويتركز في أيام قليلة، وهي صفة عامة لأمطار إقليميّ البحر المتوسط

والصحراء.

الموارد المائية: تقسم الموارد المائية إلى قسمين رئيسين هما: المياه الجوفية والمياه السطحية.

١ـ المياه الجوفية: تؤلف المياه الجوفية في الأردن مورداً مهماً للأغراض البلدية والصناعية والزراعية. وتشغل الآبار مكانة خاصة بوصفها مصدراً مهماً من مصادر المياه الجوفية، ومما يؤكد أهميتها وتنوع استعمالاتها ذلك الإقبال الكبير على الصعيدين العام والخاص نحو حفر أعداد كبيرة منها، فقد ازداد حفر الآبار على نحو مستمر حتى بلغت نسبتها حداً عالياً متقدماً في المنطقة كلها.

بلغ معدل الأمطار التي هطلت على الأردن سنوياً في ٣٠ عاماً نحو ٨٨٨٥ مليون م٣ / سنة منها ١٢٢٠ مليون متر مكعب قابلة للاستغلال. وتنصرف ما نسبته ٧٠٪ من مياه الأمطار القابلة للاستغلال نحو الغرب إلى نهر الأردن والبحر الميت [ر]، وتتسرب النسبة الباقية إلى جوف الأرض لتغذي خزانات المياه الجوفية. غير أن تقديرات سلطة المصادر الطبيعية لمتوسط الحجم السنوي لموارد المياه القابلة للاستغلال تقل عن التقديرات السابقة قليلاً، إذ تقدر كمية الموارد المائية السنوية بنحو ١١٠٠مليون متر مكعب، منها ٢٢٠ مليون متر مكعب موارد مائية جوفية.

٢ـ المياه السطحية: تعد المياه السطحية أهم مصادر الري في الأردن، إذ تؤلف المساحات المروية بالمياه السطحية غالبية الأراضي المروية في البلاد. وهناك مجموعة من الأنهار والأودية التي تسهم في ري مساحات مهمة من الأراضي الزراعية داخل أحواضها. ويقدر المعدل السنوي لتصريف هذه الأنهار والأودية بنحو ٤٤٧ مليون متر مكعب، منها ٢١٨ مليون متر مكعب من نهر اليرموك.

فمعدل التصريف السنوي للأنهار والأودية في المملكة الأردنية هو نحو ٧٨٨,٤ مليون متر مكعب، منها ٤٤٨ مليون متر مكعب تصريف أساس، و٣٣٨,٤ مليون متر مكعب تصريف فيضاني. غير أن تذبذب التصريف النهري الملموس جعل من السدود على الأنهار ضرورة ملحة لتنظيم عملية استغلال المياه والاستفادة منها في الأوقات الحرجة التي يتدنى فيها تصريف الأنهار. لذلك قامت الحكومة الأردنية ببناء ١٣ سداً تخزينياً على الأنهار والأودية. وكان الهدف من بناء هذه السدود، إضافة إلى تخزين المياه، درء أخطار الفيضانات وتغذية الخزانات المائية الجوفية. وتقدر الطاقة التخزينية لهذه السدود بنحو ٩٠ مليون متر مكعب. ويعد سد الملك طلال من أكثر السدود أهمية ٥٦ مليون متر مكعب، يتلوه في ذلك سد وادي العرب ٢٠ مليون متر مكعب، وسد الكفرين ٤,٨ مليون متر مكعب، وسد زقلاب أو شرحبيل بن حسنة ٤,٣ مليون متر مكعب، وسد القطرانة ٤,٢ مليون متر مكعب. وتخطط الحكومة لبناء المزيد من السدود بحيث ترتفع الطاقة التخزينية لها إلى ٣٢٠ مليون متر مكعب. والجدير بالذكر أنه تم التوقيع بين الحكومتين السورية والأردنية على اتفاقية لبناء سد المقارن (الوحدة) على نهر اليرموك بطاقة تخزينية تقدر بنحو ٤٨٦ مليون متر مكعب.

الحـــــــوض	معدل التصريف السنوي (مليون م٣)		
	أساس	فيضان	المجموع
حوض اليرموك	٢١٨	١٨٢	٤٠٠
حوض الزرقاء	٤٧	٤٨	٩٥
حوض الأزرق	١٠	١٢	٢٢
وادي الأردن والأودية الجانبية	٧٠	١٤	٨٤
حوض البحر الميت	٦٠	٤٠	١٠٠
الأغوار الجنوبية ووادي عربة	٣٧	٨	٤٥
مرتفعات وادي عربة	-	-	٣
الديسي ـ المدورة ـ وادي يتم	-	١,٤	١,٤
الجفر ـ الشيدية	٥	١٠	١٥
الحماد ـ السرحان	١	٢٣	٢٣
المجموع	٤٤٨	٣٣٨,٤	٧٨٨,٤

الجدول ١: موارد المياه السطحية في الأردن (الضفة الشرقية)

٣ـ استعمالات المياه: بلغت كمية المياه التي تم تطويرها من مصادر المياه الجوفية والسطحية حتى عام ١٩٨٥ نحو ٥٢٠ مليون متر مكعب للاستعمالات المنزلية والصناعية والزراعية. وإذا عُلم أن كميات المياه المتجددة سنوياً للضفة الشرقية تقدر بنحو ١٢٢٠ مليون متر مكعب، يتضح مدى كمية الاحتياطي أو الفائض من المياه، التي قدرت حتى عام ١٩٨٥ بنحو ٧٠٠ مليون متر مكعب.

النبيت والتربة: يؤثر المناخ وأشكال سطح الأرض والأحياء في كل من النبيت والتربة. ولكل إقليم نباتي تربته الخاصة به، بل إن أقاليم النبيت والتربة تتطابق مع الأقاليم المناخية. ووفقاً للتوزيع العام للأقاليم النباتية يمكن تقسيم المملكة الأردنية إلى الأقاليم النباتية التالية:

١ـ نباتات إقليم البحر المتوسط: تشتمل هذه النباتات على غابات البحر المتوسط وأشجاره التي تنمو فوق المرتفعات الجبلية، ولا سيما على المنحدرات الغربية المواجهة للبحر المتوسط. ويمكن تمييز الأصناف التالية في هذا الإقليم.

ـ مجموعة السنديانيات: وهي أشجار عريضة الأوراق دائمة الخضرة، وتنمو فوق المرتفعات الجبلية الشمالية والجنوبية. وأهم أنواعها البطم والسرو والزعرور والخروب. وتمتد في المنطقة الشمالية ما بين وادي السير جنوباً وإربد شمالاً، إذ يراوح ارتفاع هذه المنطقة ما بين ٧٠٠ ـ ١٢٥٠م فوق سطح البحر. وتراوح كميات الأمطار السنوية التي تهطل عليها ما بين ٣٥٠ ـ ٧٠٠مم، وتسود فيها تربة البحر المتوسط الحمراء التي تتميز بغناها بأكاسيد الحديد والألمنيوم. أما في المنطقة الجنوبية فتنتشر أشجار هذه المجموعة على السفوح الغربية لجبال الطفيلة، وعلى ارتفاع يراوح ما بين ١٠٠٠ ـ ١٦٥٠م فوق سطح البحر.

نوع استعمالات المياه	١٩٨٥	١٩٩٠	١٩٩٥	٢٠٠٠
للأغراض المنزلية والصناعية	١١١	١٥٢	١٩٦	٢٤٧
الزراعة المروية في الأغوار ووادي عربة	٣٠٩	٤٥٣	٥٢٤	٥٨٧
الزراعة المروية خارج الأغوار	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
المجمـــوع	٥٢٠	٧٠٥	٨٢٠	٩٣٤

الجدول ٢ : كميات الأمطار المتوقع تطويرها حتى عام ٢٠٠٠ م (مليون م^3)

ـ مجموعة الأشجار النفضية العريضة الأوراق: تنمو فوق المنحدرات الجبلية ذات الارتفاعات التي هي أقل علواً من منطقة السنديانيات، حيث يراوح الارتفاع هنا ما بين ٣٠٠ ـ ٧٠٠م فوق سطح البحر. وتراوح كمية الأمطار السنوية ما بين ٢٥٠ ـ ٥٠٠مم. وتنتشر تربة البحر المتوسط الحمراء والصفراء. وأهم أشجار هذه المجموعة الفش والملول والبطم الأطلسي والسوّيد والعبهر والخروب. وتنتشر هذه الغابات في مرتفعات عجلون وجرش والشوبك والطفيلة.

ـ المجموعة الصنوبرية: تشمل الصنوبر الحلبي أو القريش البلدي منفرداً، وأحياناً يختلط مع العرعر والسنديان دائم الخضرة كما هو الحال في منطقتي السلط والصبيحي. وتتصف أوراق الصنوبر بأنها إبرية، وتبدو الأشجار مخروطية الشكل. وتنمو الأشجار في المرتفعات الجبلية التي يتجاوز ارتفاعها ٧٠٠م. وتراوح كميات أمطارها السنوية ما بين ٥٠٠ و٧٥٠ مم، كما هو الحال في منطقة دبين. وتنمو الأشجار في تربة البحر المتوسط الحمراء المشتقة من الصخور الكلسية. وتتميز هذه التربة بثخنها الكبير باستثناء الجهات التي تعرضت فيها للانجراف، كما تتميز بلونها البني الأحمر بفعل أكاسيد الحديد والألمنيوم وباحتفاظها بالرطوبة.

ـ مجموعة الزيتون البري: تنمو أشجار الزيتون البري في المناطق المتوسطة الارتفاع إذ يراوح ارتفاعها ما بين ٢٠٠ ـ ٧٠٠م فوق سطح البحر، وتراوح كميات الأمطار السنوية التي تهطل عليها ما بين ٢٠٠ ـ ٤٠٠مم. ويتركز الزيتون البري في حوض الزرقاء، في حين يختلط مع أشجار الملول والسنديان في بقية المناطق حيث تسود أنواع فقيرة من تربة البحر المتوسط الحمراء والصفراء.

وتستأثر المرتفعات الجبلية الشمالية بنحو ٦٠٪ من مجمل مساحة الغابات في الأردن، إذ تتركز الغابات في مناطق عجلون وجرش والسلط. أما المرتفعات الجبلية الجنوبية مثل مناطق الشوبك والطفيلة والكرك، فإنها تشمل ٤٠٪ من مساحة الغابات. وعلى الرغم مما أسهم فيه الرعي الجائر من إتلاف لغابات البحر المتوسط في الأردن، فإن بعض الأشجار سلمت، وظلت بقاياها قائمة حتى اليوم شاهدةً على وجود هذه الغابات. ولما كان للتحريج أهمية كبيرة، عمل المسؤولون في الأردن ضمن خطط التنمية المتتابعة على تحريج مساحات من الأراضي الجبلية. وتعطى الأولوية لتحريج الأراضي التي هي أكثر تعرضاً لانجراف التربة.

٢ـ نباتات الإقليم الإيراني ـ الطوراني (إقليم السهوب): تشتمل هذه النباتات على الأعشاب والشجيرات القصيرة، فمنها الحولية كالحنون أو الدحنون، ونباتات مستديمة كقرن الغزال والشقيق، ونباتات متسلقة كالعبهر والكليماتس، وشجيرات صغيرة كاللباد والقنديل. أما النباتات العلفية، وهي الأعشاب المرغوبة للأغنام، فهي الفصيلة النجيلية كالسنيسلة والقرام، أو حشيش الفلارس، ونباتات الفصيلة البقولية، مثل الحندقوق. وأفضل الأعشاب للرعي هي البيكا وكريشة الجدي والمهيبلة (القراط).

وتتوزع الأعشاب والشجيرات القصيرة داخل الأردن، بحيث يتوافق توزعها مع إقليمي السهوب وشبه الصحراء أو مع المنطقتين شبه الجافة والهامشية. وبعبارة أخرى فإن نباتات هذا الإقليم تنتشر انتشاراً واسعاً فوق الهضبة الأردنية إلى الغرب من خط سكة حديد الحجاز، حيث تسود تربة البحر المتوسط الصفراء، والتربة الصفراء، وتربة الليتوسول. وتفتقر هذه الترب للمواد العضوية، وتقل مادة الدبال في آفاقها السطحية، وتوجد طبقة متصلبة تحت سطح التربة، حيث تحتوي التربة على كمية عالية نسبياً من فحمات الكلسيوم، غير أن قابلية حفظ الماء لهذه الترب جيدة.

٣ـ نباتات إقليم الصحراء ـ السند (الإقليم الصحراوي): تتألف نباتات هذا الإقليم من شجيرات قزمية وأعشاب شوكية تحورت أوراقها إلى أشواك للتكيف مع طبيعة المناخ الصحراوي. وفي الأماكن التي تسود فيها التربة الملحية تنمو بعض الأعشاب الأليفة للملح كما هو الحال في منطقة البحر الميت ومنخفض الأزرق.

وتنتشر النباتات الصحراوية في الأجزاء الجنوبية من الأغوار الوسطى، وفي أطراف البحر الميت، وفي وادي عربة، وفي البادية الأردنية. وأهم أنواعها السيال (السنط)، وهو نوع من الأكاسيا، وشجيرات الطلح والغضا واللصف والعرعر والطرفاء والأثل والغرقد. وتنمو بين هذه الشجيرات أعشاب شوكية مثل الخزامى والينبوت والقرذة والرتم والسّلوة ولسان الثور.

تراوح كميات الأمطار السنوية في المناطق الصحراوية ما بين ٥٠ ـ ٢٠٠مم وتنتشر فيها الترب الصحراوية الرمادية والملحة وتربة اللسان المارنية واللوس. وأبرز هذه الترب هي التربة الصحراوية الرمادية التي تنتشر في مساحة كبيرة تزيد على نصف مساحة البلاد. ويغطى سطح هذه التربة بالمفتتات الصخرية والحصى والحجر الصواني. وتفتقر هذه التربة إلى المواد العضوية مع أنها غنية بمركبات الحديد والمغنيسيوم.

٤ـ نباتات إقليم السودان ـ الدكَن (إقليم السافانا): تشتمل هذه النباتات على الأعشاب الطويلة والأدغال والنباتات المائية. وتنتشر على شكل أشرطة (قطاعات) طولية بمحاذاة المسيلات المائية ولا سيما مجرى نهر الأردن،

وعلى شكل تجمعات نباتية كثيفة حول مصادر المياه في المنخفضات والواحات. وتتميز هذه النباتات بأنها طويلة وكثيفة لارتفاع درجة الحرارة ولنموها بالقرب من المياه، حيث تتوافر الرطوبة الكافية.

وأهم أنواع هذه النباتات الحلفاء والبردي والقصب والقصيب والعبل والدفلى والزيزفون والأكاسيا والصفصاف والبوص والكافور والحور والزنابق والغار والزقوم والدوم والحناء الحمراء واللوتس والغاسول والكالي وسويد البحر الميت والملّوحة والميموسا ونبات الزيت والكابر والمسواك وغيرها.

وتنتشر في هذا الإقليم تربة وادي الأردن الغرينية والتربة الطميية والتربة الملحية. وتتميز تربة وادي الأردن باحتفاظها بالرطوبة، وبثخنها الكبير، وبغناها بالمواد العضوية.

السـكان

التركيب الاثنوغرافي للسكان: يتألف معظم سكان الأردن من العرب، وتعيش معهم أقليات صغيرة غير عربية في حالة وئام وانسجام. وتؤلف هذه الأقليات في مجموعها ما يعادل ٦,١٪ تقريباً من السكان. وأكبر الأقليات في الأردن هي الأقلية الشركسية وتضم قبائل الشركس (الأديغة) [ر] التي قدر أفرادها بنحو ٥٠ ألف نسمة في عام ١٩٩٥. وقد هُجّرت هذه الأقلية الإسلامية من بلادها الأصلية في القفقاس [ر] بين عامي ١٨٦٢ - ١٨٦٤ ووصلت الأردن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر إثر احتلال الروس لبلادهم. واستقرت في مدينة عمان وبعض المدن والقرى الأخرى مثل الزرقاء وجرش وناعور ووادي السير والرصيفة. كذلك هاجرت مع القبائل الشركسية أقلية إسلامية قفقاسية شمالية أخرى تتمثل في قبائل الشاشان (التشتشان) التي يقدر عدد أفرادها في الأردن بنحو ٧ آلاف نسمة. ويستقر الشاشان في صويلح والزرقاء والأزرق والسخنة.

وفي الأردن أقلية أرمنية في عمان (٥٠٠ نسمة) وفيه إيرانيون بهائيون في قرية العدسية على اليرموك (٥٠٠ نسمة) ويدين السكان بالإسلام مع وجود أقلية مسيحية تتبع عدة مذاهب وكذلك قرابة ٦٠٠ نسمة من الدروز في قرية الأزرق وخارجها.

ويعود عرب الأردن في أصولهم إلى الهجرات التي جاءت منذ القديم من شبه جزيرة العرب، وقامت بتعمير بلاد الشام والعراق. وقبل عام ٢٥٠٠ق.م اتخذت الموجة الآمورية - الكنعانية طريقها إلى بلاد الشام فنزل الآموريون الأردن وسورية، ونزل الكنعانيون فلسطين. ونحو عام ١٥٠٠ق.م تعرضت بلاد الشام لموجة أخرى، وهي الهجرة الآرامية، وفيها القبائل المؤابية والآدومية والعمونية، فحلّ الآراميون في شمالي الأردن، وحلّ العمونيون في وسطها، وأقام المؤابيون والآدوميون في جنوبيها. ومن تلك الموجات الموجة التي أتت بالأنباط إلى جنوبي بلاد الشام نحو عام ٥٠٠ق.م، ثم هجرة الغساسنة إلى الأردن وسورية. وكانت آخر الموجات الكبرى موجة العرب المسلمين في القرن السابع الميلادي.

ويمكن القول إن معظم قبائل الأردن مستقرة في الوقت الحاضر، إذ يسكن كثير من أفرادها في المدن والقرى المنتشرة فوق المرتفعات الجبلية وفي وادي الأردن. وقد ظلت نسبة صغيرة من القبائل البدوية تحافظ على حياتها البدوية المألوفة، وإن كان بعضها يجمع بين حياة البداوة والاستقرار. ومن القبائل العربية التي كانت تعيش في البادية قبل ثلث قرن، واستقر معظم أفرادها في الوقت الحاضر قبائل بني خالد، وبني صخر، وبني حسن، وبني عطية، والحويطات، والسرحان، والعيسى.

تطور نمو السكان: قدر عدد سكان إمارة شرقي الأردن في عام ١٩٢٣ بنحو ٣٠٠,٠٠٠ نسمة. وقدر عدد سكان المملكة الأردنية في عام ١٩٤٨ بنحو ٤٠٠,٠٠٠ نسمة. ووفقاً لتعداد المساكن الذي أجري عام ١٩٥٢ في المملكة الأردنية بضفتيها الشرقية والغربية، بلغ عدد السكان ١,٣ مليون نسمة. ويمكن أن تفسر هذه الزيادة الكبيرة في عدد السكان بضم الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية من جهة، وبهجرة ما يقارب ٤٥٠,٠٠٠ نسمة من اللاجئين الفلسطينيين إلى الأردن من جهة ثانية.

ومما يسترعي الانتباه أن عدد سكان الأردن ازداد أكثر من ثلاث مرات أو بنسبة ٢٢٣٪ في المدة بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٠، في حين لم تصحب هذه الزيادة الكبيرة في السكان زيادة متكافئة في المساحة، إلا ما يساوي ٦٪، وهي مساحة الضفة الغربية التي أضيفت إلى مساحة الضفة الشرقية. بلغ عدد سكان الضفة الشرقية في عام ١٩٥٢ نحو ٥٨٧٠٠٠ نسمة، أو ما نسبته ٤٥٪ من سكان المملكة الأردنية. ووفقاً لتعداد السكان عام ١٩٦١، بلغ عدد سكان المملكة الأردنية نحو ١,٧ مليون نسمة، منهم ٩٠١٠٠٠ نسمة كانوا يعيشون في الضفة الشرقية، أو ما نسبته ٥٣٪ من سكان المملكة الأردنية، ويمكن أن يفسر تفوق نسبة سكان الضفة الشرقية على مثيلتها في الضفة الغربية بهجرة السكان الداخلية من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية في الخمسينات من القرن العشرين. وقد أدى نزوح ما يزيد على ربع مليون نسمة من الضفة الغربية وقطاع غزة إلى الضفة الشرقية في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧، إلى ازدياد عدد سكان الضفة الشرقية بصورة ملموسة. ففي تعداد السكان لعام ١٩٧٩ بلغ عدد سكان الضفة الشرقية نحو ٢,١ مليون نسمة، وازداد عددهم في عام ١٩٩٥ إلى نحو ٤,٢١٢,٠٠٠ نسمة.

وإضافة إلى عامل الهجرة، فإن الزيادة الطبيعية تسهم في نمو سكان الأردن إذ بلغ معدلها ٢٥ في الألف في الخمسينات من القرن العشرين، وازداد هذا المعدل إلى ٣٢ في الألف في الستينات، وإلى ٣٤ في الألف في السبعينات، وإلى ٣٨ في الألف في التسعينات. ومن المتوقع، في ضوء معدلات النمو السكاني المرتفعة، أن يتضاعف عدد سكان الضفة الشرقية في نهاية القرن العشرين، بحيث يتجاوز ٤,٥ مليون نسمة، مع أعداد اللاجئين على اختلاف مصادرهم من الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطين المحتلة.

كثافة السكان وتوزعهم الجغرافي: بلغت كثافة السكان اليوم نحو ٤٧ نسمة/كم٢، وتتفاوت هذه الكثافة من محافظة إلى أخرى بحسب مساحة كل محافظة وعدد سكانها. ويمكن القول إن السكان يتركزون في مناطق معينة داخل الأردن، ففي عام ١٩٩٣ استحوذت محافظات عمان وإربد والزرقاء على نحو ٨٤٪ من سكان الضفة الشرقية.

والجدير بالذكر أن محافظتي عمان والزرقاء تشتملان على ٥٥,٩٪ من سكان الأردن، و٢٧٪ من مساحة الأراضي الزراعية في البلاد. غير أن محافظتي إربد والمفرق تشتملان على ٢٧,٩٪ من السكان، و٥٠٪ من الأراضي الزراعية في المملكة (عام ١٩٩٣). أما محافظة الكرك فإنها تضم ٤,٣٪ من السكان، و١٤,٥٪

من الأراضي الزراعية في حين تضم محافظة البلقاء ٦,٩٪ من السكان و٣,٤٪ من الأراضي الزراعية. وتشتمل محافظتا معان والطفيلة على ٣,٥٪ من سكان البلاد، و١,٥٪ من الأراضي الزراعية فيها. وتُبين أماكن انتشار السكان أنهم ينتشرون في محور طولي يمتد من الشمال إلى الجنوب. ويقع هذا المحور على الهوامش الغربية للبادية الصحراوية ابتداء من إربد شمالاً، وانتهاء بالعقبة جنوباً. ويقل انتشار السكان من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق بصورة عامة، وذلك باستثناء منطقة عمّان ـ الزرقاء. وتبدأ الكثافة عالية في القطاع الشمالي حتى تصل إلى قمتها في القطاع الأوسط المتمثل في منطقة عمّان ـ الزرقاء، وهي منطقة القلب أو النواة الرئيسة للأردن ثم تأخذ الكثافة في التناقص باتجاه الجنوب حيث يتخلخل السكان في منطقة معان. تسهم الهجرة السكانية الداخلية في حركة السكان وتوزيعهم من محافظة إلى أخرى داخل الأردن. ولا شك أن متغيرات متنوعة ومتعددة يمكن أن تكون وراء هذه الحركة السكانية التي تمثل عملية الطرد من محافظات، وعملية الجذب إلى محافظات أخرى. وبعبارة أخرى فإن الهجرة الداخلية تتحرك من المحافظات ذات الضغط السكاني المرتفع على الموارد نحو المحافظات ذات الضغط السكاني المنخفض. وتفسر الهجرة الداخلية أسباب تغير التوزع النسبي للسكان بين المحافظات بين تعدادي عام ١٩٦١ وعام ١٩٧٩. وباستثناء محافظة عمان التي ازدادت نسبة سكانها بين التعدادين سالفي الذكر من ٤٨,١٪ إلى ٥٥٪ من إجمالي السكان فإن بقية المحافظات شهدت تناقص نسبها بين التعدادين، الأمر الذي يؤكد أن الهجرة الداخلية للأردنيين المقيمين داخل المملكة هي هجرة موجهة إلى محافظة واحدة، وهي محافظة عمان، وذلك لأسباب من أهمها توافر فرص العمل فيها، وتركز الخدمات المختلفة كذلك. في حين لاتكاد الهجرة بين المحافظات الأخرى تكوّن مؤشراً ذا دلالة إحصائية مهمة. ومن هنا فلا بد أن يكون الأساس في محاولة إعادة التوازن في التوزيع السكاني وتقليل الضغط على محافظة عمان، والعاصمة بوجه خاص، هو توافر فرص عمل وخدمات في المحافظات الأخرى متقاربة مع ما يقدم في محافظة عمان.

العمالة (القوى البشرية العاملة): يبلغ حجم القوى البشرية العاملة في الضفة الشرقية ٢١٨٠٠٠ عامل عام ١٩٦١ مقابل ٤٠٥٠٠٠ عامل في عام ١٩٧٩، وقدر بنحو ٥٠٢٠٠٠ عامل في عام ١٩٨٥ ونحو ٦٥٠٠٠٠ عام ١٩٩٥، وبذلك يكون معدل نمو قوة العمل الأردنية ٣,٥٪ سنوياً. ويعد الأردن من الدول العربية المصدرة والمستوردة للعمالة في آن واحد. فهو يصدر العمالة إلى الدول العربية المنتجة للنفط إذ ازداد عدد الأردنيين العاملين في هذه الدول من ٤١٠٠٠ عامل في عام ١٩٦١ إلى ٣٠٥٠٠٠ عامل في عام ١٩٨٠، بمعدل نمو سنوي قدره ١٠,٦٪ ما بين عامي ١٩٦١ و١٩٨٠. وارتفع عددهم في عام ١٩٨٥ إلى ٣٣٩٠٠٠ عامل. ومن جهة ثانية ازداد عدد قوة العمل الوافدة إلى الأردن من ٤١٠٠٠ عامل في عام ١٩٧٩ إلى ١٤٣٠٠٠ عامل في عام ١٩٨٥. ومن المتوقع أن ينخفض عدد العمال الوافدين إلى الأردن في عقد التسعينات بسبب توافر العمالة الأردنية بأعداد متزايدة في السوق المحلية. ومما يؤكد هذا الاحتمال ازدياد نسبة البطالة بين العمالة الأردنية من ٢٪ في عام ١٩٧٦ إلى ٨٪ في عام ١٩٨٥. ويعزى ارتفاع نسبة البطالة إلى الركود الاقتصادي المحلي والإقليمي الذي بدأ في عام ١٩٨٢ وبعد حرب الخليج.

ويرتبط موضوع العمالة بموضوع التركيب العمري للسكان، ذلك التركيب الذي أوضح في عام ١٩٩٥ أن نصف سكان البلاد هم من فئة الأطفال الذين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة، وأن نحو ٤٦٪ من السكان هم ممن تراوح أعمارهم بين ١٥ ـ ٥٩ سنة، وأن نحو ٤٪ من

النشاط الاقتصادي	١٩٦١		١٩٧٩		١٩٨٥	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
الزراعة	٧٢٩٧٧	٣٣,٥	٤٦٧٢٨	١١,٥	٣٩٢٣٧	٧,٨
التعدين والصناعة التحويلية	٢٢٢٧٨	١٠,٢	٣٤٩٣٥	٨,٦	٥٣٠٥٣	١٠,٦
الكهرباء والماء	٩٢٥	٠,٤	٢٤٧٢	٠,٦	٥٥٢٦	١,١
الإنشاءات	٢٢١٨٧	١٠,٢	٥٢٦٤٥	١٣	٥٥٢٦٣	١١
التجارة	١٧٤٥٢	٨	٤٥١٥٤١	١٠,٣	٥٠٢٣٩	١٠
النقل والمواصلات	٧٦٢٤	٣,٥	٢٨٩٧٧	٧,٢	٤٧٢٢٥	٩,٤
الخدمات المالية	-	-	٨٦٧٣	٢,١	١٧١٣٢	٣,٤
الخدمات الاجتماعية والإدارة العامة والدفاع	٧٤٣٩٨	٣٤,٢	١٨٩٣٠٣	٤٦,٧	٢٣٤٧١٨	٤٦,٧
المجموع	٢١٧٨٤١	١٠٠	٤٠٥٢٧٤	١٠٠	٥٠٢٣٩٣	١٠٠

الجدول ٣: القوى العاملة الأردنية بحسب النشاط الاقتصادي

السكان هم ممن تزيد أعمارهم على ٥٩ سنة.

انخفضت نسبة إسهام السكان في قوة العمل من ٢٤٪ في عام ١٩٦١ إلى ٢٢٪ في عام ١٩٧٩، وإلى ٢١٪ في عام ١٩٨٥. وقد ازدادت مشاركة المرأة بقوة العمل من ١٫٣٪ في عام ١٩٦١ إلى ٧٫٧٪ في عام ١٩٧٩، وإلى نحو ١٢٫٥٪ في عام ١٩٨٥، وإلى نحو ١٦٪ في عام ١٩٩٥.

يُستنتج من الجدول ٣ أن قطاعات الخدمات، وهي القطاعات غير الإنتاجية، تستحوذ على نسبة كبيرة من القوى العاملة، في حين أن قطاعي الزراعة والصناعة، وهما القطاعان الإنتاجيان في البلاد، يمتصان أقل من ٢٨٪ من إجمالي القوى العاملة عام ١٩٩٥. وقد تناقصت نسبة العاملين في قطاع الزراعة من ٣٣٫٥٪ عام ١٩٦١ إلى ٥٪ عام ١٩٩٥، في حين بقيت نسبة العاملين في قطاع الصناعة مستقرة حول ٢٣٪ من إجمالي القوى العاملة. ومن جهة ثانية ازدادت نسبة العاملين في قطاعات الكهرباء والماء والإنشاءات والتجارة والنقل والمواصلات والخدمات ما بين عامي ١٩٦١ و١٩٩٥. ويؤلف عدد القوى العاملة الأردنية في الخارج نحو ٤٠٪ من حجم القوى العاملة الأردنية. في حين يؤلف عدد العمال الأجانب ما نسبته ٢٥٪ من حجم السوق المحلية في الأردن. لكن المشكلة هي أن الأردن يصدر الأيدي العاملة الماهرة وأصحاب الكفايات العالية من أطباء ومهندسين وفنيين، ويستورد العمالة غير المدربة كالعمال الزراعيين وعمال الخدمات. وقد أدت هجرة القوى العاملة الأردنية للعمال في الخارج، إلى إحداث بعض التغيرات الهيكلية في الأوضاع الاقتصادية، إذ أصبحت دخول العمال الأردنيين في البلاد العربية النفطية من أهم المكونات الرئيسة للدخل القومي القابل للتصرف في الأردن. وأخذت حصيلتها تتصاعد منذ عام ١٩٧٣ حتى أصبحت تفوق حصيلة الصادرات من السلع التصديرية، وأصبحت مصدراً مهماً لتغذية دخل الأردن من النقد الأجنبي، إذ بلغت قيمة التحويلات في نهاية عام ١٩٨٥ نحو ٤٠٣ ملايين دينار أردني.

العمران: شهد الأردن في السنوات الأخيرة حركة عمرانية شاملة بفضل ازدياد عدد السكان وتحسن مستويات دخلهم. وتتفاوت أنماط العمران ومناطقه ما بين مضارب البدو في الصحراء وبيوت المستقرين من البدو في أطراف البادية إلى بيوت القرى والمدن.

وتؤلف مراكز العمران الرئيسة في الأردن عدداً من مدن الحافة بين الصحراء والمعمورة. وكان عامل الحماية أساس نشأتها الأولى، إذ استطاعت أن تصمد أمام اعتداءات البدو المستمرة على المناطق الحضرية. ويمكن تتبع سلسلة من المدن الأردنية من الشمال إلى الجنوب مثل الرمثا وإربد والمفرق وجرش والسلط وعمان والزرقاء ومأدبا والكرك والطفيلة ومعان والعقبة.

ولقد شهد القطاع الاجتماعي الحضري تطوراً ملموساً في الكم والكيف، إذ أسهمت عملية الهجرة من البادية والريف إلى المدن في ازدياد عدد المدن. وفي كبر حجومها وتنوع وظائفها. ورافق التغير في نمو السكان وحركاتهم تغيراً مماثلاً في توزيع السكان بين المناطق الريفية والحضرية. ففي عام ١٩٥٢ كان السكان الحضر (سكان المدن) يؤلفون ٣٨٪ من مجموع السكان في الضفة الشرقية، وارتفعت النسبة إلى ٥١٪ عام ١٩٦١، ثم إلى ٦٠٪ عام ١٩٧٩، ثم إلى ٧٢٪ منذ عام ١٩٩٥، أي بزيادة قدرها ٣٤٪ بين عامي ١٩٥٢ و١٩٩٥. ولقد ارتفع عدد المجالس البلدية من ١٠٤ في نهاية عام ١٩٨٠ إلى ١٥٢ مجلساً في نهاية عام ١٩٩٥.

وارتفع عدد المجالس القروية من ٢٤٣ إلى ٣٤٠ مجلساً في المدة نفسها. ومنذ عام ١٩٨٥ بلغ عدد السكان الذين يعيشون في تجمعات سكانية فيها مجالس بلدية ٢٫١ مليون نسمة أو ما نسبته ٧٩٪ من مجموع السكان، وبلغ عدد السكان الذين يعيشون في تجمعات سكانية فيها مجالس قروية ٢٩٧٠٠٠ نسمة أو ما نسبته ١١٪ من مجموع السكان. وبذلك فإن نحو ٩٠٪ من السكان يعيشون في تجمعات سكانية فيها مجالس بلدية وقروية. أما باقي السكان فيعيشون في تجمعات سكانية فيها هيئات اختيارية، أو لا يوجد فيها تنظيم محلي.

التطورات الاجتماعية: شهد الأردن تطورات اجتماعية ملموسة في العقود الثلاثة الأخيرة نتيجة الاهتمام بتنمية الموارد البشرية. وقد اهتمت خطط التنمية المتعاقبة بتوفير خدمات التعليم والصحة والسكن والغذاء والحاجات الأساسية الأخرى. وكان التقدم في حقل التربية والتعليم أبرز مظاهر التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وقد بلغ معدل الزيادة السنوية في عدد الطلبة نحو ٧٪، ومعدل الزيادة السنوية في عدد المعلمين نحو ٢٣٪. وهناك ٢٥ طالباً لكل معلم، وهي نسبة حسنة تساعد على تحقيق مستوى أداء جيد في عملية التعليم. وفي الأردن أربع جامعات و٤٥ كلية جامعية متوسطة. وكانت إحدى النتائج الرئيسة للنظام التعليمي تناقص نسبة الأمية من ٦٧٪ عام ١٩٦١ إلى ١٣٪ عام ١٩٩٥.

أما في مجال الصحة فلقد ازدادت المراكز الصحية والعيادات القروية من ٤٦ مرفقاً عام ١٩٥٢ إلى ١٩٠ مركزاً صحياً و٢٣٠ عيادة قروية عام ١٩٨٥. وازداد عدد المستشفيات من ٢٩ عام ١٩٥٢ إلى ٥٣ مستشفى عام ١٩٨٥. وازداد عدد الأطباء من ١٨٠ طبيباً عام ١٩٥٢ إلى ٣٠٠٧ أطباء عام ١٩٨٥، وبهذا ارتفعت نسبة الأطباء لكل ١٠ آلاف نسمة من ١٫٥ طبيب إلى ١١٫٣ طبيب على التوالي.

وانعكس ذلك على انخفاض نسبة وفيات الأطفال الرضع من ١٥١ بالألف عام ١٩٦١ إلى ٢١ بالألف عام ١٩٩٥. وارتفع العمر المتوقع عند الولادة من ٤٦ سنة إلى ٦٩ سنة للذكور، ومن ٤٧ سنة إلى ٧١ سنة للإناث في المدة بين عامي ١٩٦١ و ١٩٩٥.

وفي مجال الخدمات العامة شهد الأردن تطوراً ملحوظاً انعكس على الخدمات التي تقدم للمواطنين من حيث المياه والكهرباء والطرق والنقل والاتصالات والإسكان وغيرها.

وعلى الرغم من توصيل مياه الشرب إلى أغلب التجمعات السكانية وازدياد استهلاك الفرد من المياه من ٦٢ لتراً في اليوم عام ١٩٧٥ إلى ٨٨ لتراً في اليوم عام ١٩٨٥ في منطقتي الشمال والجنوب، و ١١٠ لترات في عمان والبلقاء، فإن مشكلة النقص في المياه لم تحل نهائياً بعد.

ارتفع عدد المشتركين في خدمات الكهرباء من نحو ١٢٤٠٠٠ مشترك عام ١٩٧٤ إلى ٣٩٩٠٠٠ مشترك عام ١٩٨٥. وارتفع عدد السكان المزودين بالكهرباء من ٨١٧٠٠٠ نسمة إلى ٢٤٧١٠٠٠ نسمة في المدة نفسها، أي أن نسبة السكان المزودين بالكهرباء ازدادت من ٤٢٪ إلى ٩٣٪ من مجموع السكان. وفي نهاية عام ١٩٨٥ بلغ عدد القرى المزودة بالكهرباء

٥٧٤ قرية يقدر عدد سكانها بنحو ٩٠٠٠٠٠ نسمة، أي نحو ٩١٪ من مجموع سكان الريف. وقد ازداد استهلاك الفرد من الكهرباء، إذ ارتفع من ٧٣ كيلواط/ساعة عام ١٩٦٦ إلى ٩٣٢ كيلواط/ساعة عام ١٩٨٥، أي بمعدل نمو سنوي يزيد على ١٤٪.

وتطورت خدمات الاتصالات من شبكة سلكية بسيطة ومحدودة جداً قبل ثلاثين عاماً إلى شبكة متطورة تستخدم أنظمة وتقنيات عالية ومتقدمة كالمقاسم الرقمية، وأنظمة الميكروويف، والأقمار الصنعية. فعلى صعيد خدمة الهاتف ازداد عدد المشتركين في هذه الخدمة من نحو ٤٠٠ مشترك في بداية الخمسينات إلى ١٤٤٩٧٢ مشترك في عام ١٩٨٥. وبهذا أصبحت هذه الخدمة متوافرة في نحو ٢٧٠ مدينة وقرية تضم ٨٨٪ من مجموع السكان. كما ازداد عدد المشتركين في خدمة التلكس من ٥٣ مشتركاً عام ١٩٧٢ إلى ٢٧٥٧ مشترك عام ١٩٨٥. وازداد عدد مراكز الخدمات البريدية من ٤٠٠ مركز في عام ١٩٧٣ إلى ٦١٨ مركزاً في عام ١٩٨٠ وإلى ٧٧٣ مركزاً في عام ١٩٨٥.

وشهد الوضع الإسكاني في الأردن تطورات كبيرة في السنوات الأخيرة، إذ ازداد عدد الوحدات السكنية من ٣٧٢٦٤ وحدة عام ١٩٥١ إلى ٤٥٦٢٥٣ وحدة عام ١٩٨٥، أي بمعدل نمو سنوي ٦٫٧٪ ويشير تعداد السكان والمساكن لعامي ١٩٦١ و ١٩٧٩ إلى تحول كبير في نوعية مواد بناء المساكن، إذ ارتفعت نسبة المساكن من الإسمنت المسلح من ٦٫١٥٪ إلى ١٫٤٥٪، يليها طوب (لبن) الإسمنت الذي ارتفع من ٨٫٥٪ إلى ٣٠٫٩٪، وانخفض معدل شاغلي الغرفة من ٢٫٨ شخص عام ١٩٦١ إلى ٢٫٧ شخص عام ١٩٧٩، وذلك على الرغم من ارتفاع معدل حجم الأسرة من ٥٫٤ إلى ٦٫٦. إن التطورات المذكورة وإن كانت سريعة وكبيرة، فلقد رافقها ارتفاع متزايد في الأسعار مما لا يتفق والموارد الاقتصادية والثروات الطبيعية للبلاد ويهدد بزيادة نسبة التضخم ويزيد الاعتماد على التحويلات والمعونات.

نظام الحكم والإدارة

المملكة الأردنية الهاشمية دولة عربية دستورية، نظام الحكم فيها ملكي وراثي، ينتقل فيها العرش من الملك إلى ابنه، ولكن الملك يستطيع أن يسمي أحد إخوته ولياً للعهد. ويشترط الدستور أن يكون الملك حفيداً مباشراً للملك عبدالله بن الحسين.

وبمقتضى أحكام الدستور، يبلغ الملك السن القانونية عندما يتم السنة الثامنة عشرة (قمرية). والملك هو رأس الدولة، وهو رأس السلطة التنفيذية. وهو الذي يعلن الحرب ويعقد الصلح ويبرم المعاهدات، وهو الذي يعين رئيس الوزراء والوزراء ورئيس مجلس الأعيان وأعضاءه. وهو القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية والجوية. وينظم الدستور الأردني السلطات الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويتولى مجلس الأمة السلطة التشريعية في الأردن، وهو يتألف من مجلسي الأعيان والنواب.

آ ـ مجلس الأعيان: ويتألف من أربعين عضواً يعينهم الملك لخدماتهم الجديرة بالتقدير أو لمؤهلات خاصة أخرى، والحد الأدنى لعمر عضو مجلس الأعيان هو أربعون عاماً.

ب ـ مجلس النواب: ويتألف من ثمانين نائباً ينتخبون انتخاباً حراً بطريقة التصويت.

يعقد المجلسان، في كل سنة من ولايتهما وهي أربع سنوات، دورة عادية واحدة من أربعة أشهر، وعدداً من الدورات الاستثنائية يدعيان إليها بأمر ملكي (تعديلات عام ١٩٩٢).

وتعد الحكومة الهيئة التنفيذية والإدارية العليا للدولة الأردنية، ويقوم مجلس الوزراء بتنفيذ العمل الحكومي والإداري.

والسلطة التنفيذية هي مجموعة من القوانين والأنظمة والقرارات والتعليمات التي تنفذ طبقاً لهذه القوانين.

وتتألف الحكومة أو بعبارة أخرى مجلس الوزراء في الأردن من رئيس الوزراء رئيساً ومن ٢٢ وزيراً. وترتبط برئيس الوزراء الأجهزة المركزية التالية: ديوان الموظفين ودائرة المخابرات العامة، ودائرة قاضي القضاة وديوان التشريع. يتولى السلطة القضائية في المملكة جهاز قضائي، ويعين القضاة بإرادة ملكية بقرار من المجلس القضائي الأعلى. والقضاة مستقلون عن السلطتين التنفيذية والتشريعية. أما المحاكم فتضم محاكم الصلح، والمحاكم البدائية، ومحكمة الجنايات الكبرى، ومحكمتي استئناف عاديتين، ومحكمتي استئناف لقضايا ضريبة الدخل، ومحكمة التمييز العليا، والمحاكم الدينية، والمحاكم الخاصة وهي تنشأ لغايات خاصة محددة، ومنها المجالس العسكرية ومحكمة الشرطة، وتختص بمحاكمة أفراد القوات المسلحة وأفراد الأمن العام.

وتقسم المملكة إدارياً إلى محافظات وألوية وأقضية ونواح، وتشمل المملكة الأردنية محافظات منها عمان والزرقاء وإربد والمفرق والكرك، وترتبط بوزارة الداخلية في كل الشؤون المالية والانضباطية، أما الوحدات الإدارية الصغرى فإنها ترتبط بالمحافظة، ويتم إنشاء الوحدات الإدارية بناء على نظام لاعلى قانون، وذلك بخلاف المجالس البلدية أو القروية.

أما الوحدات الإدارية المحلية فتتألف من المجالس البلدية والقروية. ومما يسترعي الانتباه أن المشرع عمد إلى إعطاء الوحدات الإدارية المركزية سلطات واسعة من حيث علاقاتها بالوحدات المحلية (بلدية أو قروية).

الاقتصاد

يتأثر النظام الاقتصادي في الأردن بعوامل تتصل مباشرة بتوافر الموارد الاقتصادية، وبطبيعة التنمية ومراحلها، وبعدد السكان وارتفاع مستوياتهم المعيشية، وبقيمة الصادرات المنظورة وغير المنظورة. ويعد وضع ميزان المدفوعات الأردني المؤشر الحقيقي لواقع الاقتصاد الوطني.

يتفاوت إسهام القطاعات المختلفة في الإنتاج المحلي الإجمالي. ففي عام ١٩٩٤ كان إجمالي إسهام قطاعات الخدمات ٧٢٪ من قيمة الناتج المحلي الإجمالي (بسعر الكلفة)، في حين كان إجمالي إسهام قطاعات الإنتاج السلعي ٧٢٪ فقط. علماً بأن قيمة الناتج المحلي الإجمالي بلغت في ذلك العام ٤٣٣٤٫٥ مليون دينار أردني.

يُستنتج من الجدول (٤) أن القطاعات تتفاوت في مقدار إسهاماتها في الإنتاج المحلي الإجمالي. وقد أسهمت قطاعات الخدمات بما قيمته ٨٦٤ مليون دينار، أو ما نسبته ٦٣٫٦٪ من قيمة الإنتاج المحلي الإجمالي. في حين أسهمت قطاعات الإنتاج السلعي بما قيمته ٤٩٥ مليون دينار، أو ما نسبته ٣٦٫٤٪.

الموارد الغذائية: تقدر مساحة الأراضي الصالحة للزراعة بنحو ١٤٪ من مساحة الأردن وهذا يعادل نحو ١٣ مليون دونم، يزرع منها فعلياً ٣٫٥ مليون دونم سنوياً، والباقي يترك بوراً. منها ٤٠٠٠٠٠ دونم مروية، أو ما نسبته ٧٫٥٪

القطـــــــــاع	قيمة الإسهام (بالمليون دينار)	النسبة المئوية (٪)
الزراعة	١١٢	٨,٢
التعدين	٥٧	٤,٢
الصناعة التحويلية	١٦٧	١٢,٣
الماء والكهرباء	٣٥	٢,٦
الإنشاءات	١٢٤	٩,١
مجموع قطاعات الإنتاج السلعي	**٤٩٥**	**٣٦,٤**
التجارة	٢٥٦	١٨,٨
النقل والمواصلات	١٥٢	١١,٢
الخدمات الحكومية	٢٥٧	١٨,٩
الخدمات الأخرى	١٩٩	١٤,٧
مجموع قطاعات الخدمات	**٨٦٤**	**٦٣,٦**
الناتج المحلي الإجمالي بسعر الكلفة	١٣٥٩	١٠٠
صافي الضرائب غير المباشرة	٢٢٢	
الناتج المحلي الإجمالي بسعر السوق	١٥٨١	
صافي عوائد عوامل الإنتاج	٢٧٥	
الناتج القومي الإجمالي بسعر السوق	١٨٥٦	
مجموع السكان (بالألف)	٢٦٧٠	
متوسط دخل الفرد من الناتج المحلي الإجمالي بسعر الكلفة (بالدينار)	٥٠٩	
متوسط دخل الفرد من الناتج القومي الإجمالي بسعر الكلفة (بالدينار)	٦٩٥	

الجدول ٤ : قيمة إسهام القطاعات في الإنتاج المحلي الإجمالي (بالمليون دينار) عام ١٩٨٥ والنسبة المئوية لها

من مساحة الأراضي المزروعة. أما بقية مساحة الأرض المزروعة، فإنها تزرع معتمدة على الأمطار، ونسبتها تبلغ ٩٢,٥٪.

تنتج الأراضي الزراعية المروية أكثر من ثلث إجمالي الإنتاج الزراعي. وفي السنوات الرطبة يزيد الإنتاج الزراعي على المعدل العام للإنتاج. وعلى الرغم من ذلك، فإن الأردن لا يكاد ينتج نصف ما يستهلك. أما في السنوات العجاف فإن الإنتاج لا يكاد يذكر، ولا يعطي دونم الأرض أكثر من نصف إنتاج الدونم عالمياً. ويعزى انخفاض إنتاج القمح دائماً إلى نقص الأمطار، ولكنه حتى مع هطول الأمطار الغزيرة في بعض المواسم، يصعب إنتاج جميع ما يحتاج إليه الأردن من القمح للاستهلاك المحلي.

تتبوأ الخضر بما فيها البطيخ والشمام مكانة بارزة في الإنتاج الزراعي والغذائي، ويتلوها في الأهمية إنتاج الحبوب والمحصولات الحقلية ثم إنتاج الأشجار المثمرة. وباستثناء الحبوب التي تناقص إنتاجها في المعدل للمدة ١٩٨١-١٩٨٥ عما كان عليه في المدة ١٩٧٦-١٩٨٠ بنسبة ٩,٥٪ و١٠,٩٪ على التوالي مثلاً، فإن بقية سلع الإنتاج الزراعي والغذائي ازدادت بنسب متفاوتة بين المدتين نفسيهما. وتشير الأرقام إلى أن معدل إنتاج الخضر ازداد بنسبة ١٢٤٪، في حين ازداد معدل إنتاج الزيتون بنسبة ٨٧,٥٪، وازداد معدل إنتاج الحمضيات بنسبة ٦٥٪. وكانت معدلات زيادة الإنتاج الحيواني أقل من معدلات زيادة الإنتاج الزراعي، إذ ازدادت منتجات الألبان بنسبة ٢٠٪ تقريباً، في حين ازداد إنتاج اللحوم الحمراء واللحوم البيضاء والبيض بنسب ٢٧٪ و٤٨٪ و٤٣,٥٪ على التوالي.

ولإلقاء الضوء على العوامل المؤثرة في إنتاج الغذاء في الأردن تم اختيار عدد من المتغيرات المستقلة، وتم استخدام أسلوب معامل الانحدار التدريجي. وتدل نتائج الدراسة على أن متغير إنتاجية الحبوب يفسر ٥٧٪ من قيمة المتغير التابع، وهو الإنتاج الغذائي، في حين يفسر متغير قيمة مستوردات الأسمدة ٣١٪ من تباين إنتاج الغذاء. ويفسر كل من متغيري الجرارات الزراعية العاملة، ونسبة العاملين في الزراعة نحو ٣٪ من التباين في إنتاج الغذاء. ويفسر متغير المساحة المزروعة بالحبوب نحو ٢٪ من التباين، وتسهم بقية المتغيرات في تفسير التباين بنسب ضئيلة جداً. وتدل النتائج على أن معظم المتغيرات المستقلة المختارة كانت ذات دلالة معنوية أو دلالة إحصائية على مستوى ٩٩٪ من الثقة.

يعاني الأردن من عجز في الاكتفاء الذاتي من إنتاج الحبوب والمحصولات الحقلية، والفواكه، والزيتون، واللحوم، ومنتجات الألبان، والأسماك. ويتفاوت هذا العجز ما بين عجز كبير كما هو الحال في الحبوب واللحوم، وعجز متوسط كما هو الحال في الفواكه، وعجز محدود كما هو الحال في الحليب. ومن جهة ثانية فإن الأردن ينتج من الخضر والبيض ما يكفي حاجة سكانه الاستهلاكية ويفيض عنها.

ويحتم ضعف الأمن الغذائي على الأردن أن يستورد حاجة سكانه من المواد الغذائية من الخارج. ففي عام ١٩٨٢ استورد الأردن من المواد الغذائية والحيوانات الحية ما قيمته ١٩٢ مليون دينار أردني، وانخفض هذا الرقم إلى ١٨٠ مليون دينار في عام ١٩٨٣ . وقدر العجز في الميزان التجاري من المواد الغذائية والحيوانات الحية بمبلغ ١٤٤ مليون دينار في عام ١٩٨٣ . وفي العام نفسه ألّفت مستوردات الأردن من المواد الغذائية ما نسبته ١٦٪ من إجمالي قيمة المستوردات الأردنية، أي ما يعادل ١١٢٪ من

السلعة	معدل الإنتاج للمدة (١٩٧٦-١٩٨٠)	معدل الإنتاج للمدة (١٩٨١-١٩٨٥)	التغير (٪)
الحبوب والمحصولات الحقلية	١٠٩	٩٩	-٩,٥
الخضر والبطيخ والشمام	٢٧٦	٦٢٨	١٢٤
الفواكه باستثناء الحمضيات	٤٦	٤١	-١٠,٩
الحمضيات	٢٠	٣٣	٦٥
الزيتون	٢٤	٤٥	٨٧,٥
منتجات الألبان	٣٩	٤٩	٢٠,٤
اللحوم الحمراء	٧	٩,٥	٢٧,٤
لحوم الدواجن	٢٥	٣٧	٤٨
البيض (مليون)	٢٨٠	٤٠٢	٤٣,٥

الجدول (٥) :معدلات إنتاج الغذاء للمدتين (١٩٧٦-١٩٨٠) و(١٩٨١-١٩٨٥) بألاف الأطنان.

	الحبوب	الخضر	الفواكه (باستثناء الحمضيات)	اللحوم الحمراء	الحليب	البيض
الإنتاج (بالألف طن)	١٣٠	٥٢٥	١١٠	١٢	٦٣	٢٦
الاستهلاك (ألف طن)	٧٧٩,١	٤٠٠	١٦٢	٣٥	٧٧,٦	٢٠,١
نسبة الاكتفاء ٪	١٦,٧	١٣١	٦٨	٣٤,٢	٨٢,٢	١٢٩,٣

الجدول (٦) : درجة الاكتفاء الذاتي من إنتاج مجموعات غذائية مختارة عام ١٩٨٥

إجمالي قيمة الصادرات الأردنية، وهذا يعني أن الأردن أنفق على استيراد المواد الغذائية ما نسبته ١٧٪ من إنتاجه المحلي الإجمالي.

الموارد الصناعية: حقق قطاع الصناعة والتعدين نمواً كبيراً في الأربعين سنة الأخيرة بفضل إسهامات كل من القطاع العام والقطاع الخاص في دفع عجلة المسيرة الصناعية إلى الأمام. وقد ارتفع الدخل المتأتي من قطاع الصناعة والتعدين من ١٦٧,١ مليون دينار عام ١٩٨٠ إلى ٢١١,٨ مليون دينار عام ١٩٨٥، أي بزيادة إجمالية قدرها ٢٦,٨٪. وقدر إسهام هذا القطاع في الناتج المحلي الإجمالي بنحو ٢٣٪ في عام ١٩٩٣.

ازداد إنتاج السلع الصناعية بوجه عام على الرغم من تفاوت الزيادة بين هذه السلع. وقد تبوأت صناعة تصفية النفط المكانة الأولى من حيث زيادة الإنتاج السنوي (١٦,٩٪)، يتلوها في ذلك صناعة الفوسفات الاستخراجية (١٦,٧٪)، ثم الصناعات الكيمياوية (١٠٪)، فصناعة الورق والكرتون (٩,٢٪)، ثم صناعة لفائف التبغ والثقاب (٨,٣٪)، وصناعة الأحذية والجلود (٦,١٪)، وصناعة المنسوجات والملابس (٥,٦٪).

وقد انعكس نمو الإنتاج الصناعي على أداء قطاع الصناعة والتعدين في مجال التصدير، إذ ارتفعت قيمة الصادرات الصناعية والتعدينية بالأسعار الجارية من ٩٦,٦ مليون دينار في عام ١٩٨٠ إلى ٢١٣,٧ مليون دينار في عام ١٩٨٥، أي بنسبة نمو سنوي مقدارها ١٧,٢٪، مقابل نسبة نمو مقدارها ٢١,٤٪ لإجمالي الصادرات السلعية. أما قيمة صادرات الصناعات التحويلية فارتفعت من ٤٩,٤ مليون دينار في عام ١٩٨٠ إلى ١١٥,٢ مليون دينار في عام ١٩٨٥، أي بنسبة نمو سنوي مقدارها ١٨,٥٪. ومن جهة ثانية ارتفعت قيمة صادرات الصناعات الاستخراجية من ٢٧,٢ مليون دينار عام ١٩٨٠ إلى ٩٨,٥ مليون دينار عام ١٩٨٥، أي بنسبة نمو سنوي مقدارها ١٥,٩٪.

ويأتي الفوسفات والبوتاس على رأس الصناعات الاستخراجية في الأردن، وقد أنتج الأردن في عام ١٩٨٦ نحو ٦,٢ مليون طن من الفوسفات، في حين أنتج في العام نفسه نحو ١,١ مليون طن من البوتاس. ويستخرج الفوسفات من مناجم الرصيفة والحسا والشيدية والوادي الأبيض، ويستخدم جزء منه في صناعة الأسمدة إذ أقيم مصنع كبير في العقبة لهذه الغاية، ويصدر الباقي من ميناء العقبة. أما البوتاس فإنه يستخرج من مياه البحر الميت، حيث أقيم مصنع في منطقة غور الصافي لإنتاج البوتاس والأملاح المرافقة، ويصدر إلى الخارج عن طريق ميناء العقبة.

وتتنوع المصنوعات التحويلية التي ينتجها الأردن. وقد أنتج الأردن في عام ١٩٨٦ من الأجواخ أكثر من ٢ مليون متر، ومن الغزل نحو مليون طن، ومن الجلود نحو ٢٢٣ ألف متر مربع، ومن الأسمدة نحو نصف مليون طن، ومن الحموض الكيمياوية نحو مليون طن، ومن الإسمنت نحو ١,٨ مليون طن، ومن الحديد نحو ربع مليون طن، ومن المنتجات النفطية نحو ٢,٣ مليون طن، ومن الكهرباء نحو ٢,٦ مليون

المـــــادة	١٩٨٠	١٩٨٥	معدل التغير السنوي (٪) ١٩٨٠-١٩٨٥
المواد الغذائية والمشروبات والأعلاف	١٠٠	٩٨,٤	٠,٣
لفائف التبغ والثقاب	١٠٠	١٤٨,٧	٨,٣١
المنسوجات والملابس	١٠٠	١٣١,٦	٥,٦
الصناعة الكيمياوية	١٠٠	١٦١	١٠
مواد البناء	١٠٠	١٠٨,٨	١,٧
الأحذية والجلود	١٠٠	١٣٤,٥	٦,١
تصفية النفط	١٠٠	٢١٨,٣	١٦,٩
الورق والكرتون	١٠٠	١٥٥,٢	٩,٢
الفوسفات	١٠٠	٢١٦,٢	١٦,٧
الكهرباء	١٠٠	١٤٥,٣	٧,٨

الجدول (٧): الرقم القياسي للإنتاج الصناعي (١٩٨٠=١٠٠).

كيلواط / ساعة.

تحظى الصناعات الاستخراجية (المقالع والتعدين) بأعلى مُعامِل أهمية صناعية داخل قطاع التعدين والصناعة في الأردن لعام ١٩٨٤. ومن الصناعات التي تحظى بمعامل أهمية صناعية مرتفع، صناعة المنتجات غير المعدنية، وصناعة تكرير النفط، وصناعة الطاقة الكهربائية، والصناعات الكيمياوية، والصناعات الغذائية، وصناعة المنتجات غير الكهربائية، وصناعة الخدمات الصناعية.

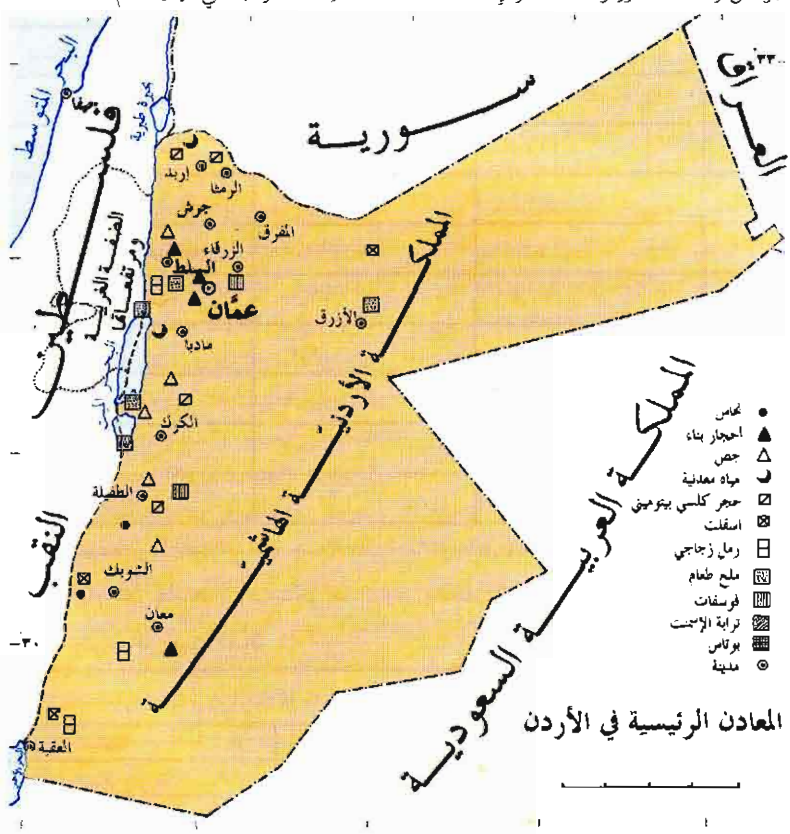
تستحوذ محافظتا عمان والزرقاء على أعلى معامل أهمية صناعية بسبب تركز معظم المؤسسات الصناعية الصغيرة والكبيرة فيهما. وتأتي محافظة الكرك في المرتبة الثانية بسبب وجود مصنع البوتاس فيها، تليها محافظة البلقاء التي تضم أكبر مصنعين للإسمنت والأدوية في البلاد، ثم محافظة إربد ومحافظة معان.

التجارة: الميزان التجاري الأردني خاسر، وصلت فيه قيمة الواردات إلى ٣,٦٩ مليار دولار وقيمة الصادرات إلى ١,٤٧ مليون دولار لعام ١٩٩٥، كما بلغت ديونه ٧٩٤٤ مليون دولار أمريكي للعام نفسه.

ويستورد الأردن عدداً كبيراً من المواد كالمنسوجات والنفط والزيوت المعدنية والآلات ووسائط النقل والتجهيزات والمواد الغذائية وغيرها. علماً بأن الاستيراد ينمو بسرعة كبيرة، أما صادرات الأردن فتتمثل بالفوسفات والبوتاس والنفط المكرر ومنتجاته والإسمنت وبعض المواد الغذائية. ويتعامل الأردن مع الولايات المتحدة الأمريكية واليابان والمملكة العربية السعودية والعراق وألمانية الاتحادية وسورية ولبنان والكويت ودول أخرى.

النقل: للنقل شأن مهم في تنشيط الفعاليات الاقتصادية المختلفة كالزراعة والتعدين والصناعة والتجارة والسياحة وغيرها. ولقد ارتفع الدخل المتأتي من قطاع النقل من ٨٠ مليون دينار في عام ١٩٨٠ إلى ١٥٢ مليون في عام ١٩٨٥، أي بزيادة سنوية معدلها ١٣,٧٪ بالأسعار الجارية، وبلغت مساهمة القطاع في الناتج المحلي الإجمالي نحو ١١,٢٪. وأسهم هذا القطاع في تشغيل نحو ٤٧٠٠٠ عامل؛ أي نحو ٧,٣٪ من مجموع القوى العاملة.

ولقد بلغت أطوال شبكة الطرق نحو ٨٠٠٣ كيلومترات، منها ٥٤٠٣ كيلومترات معبدة بالإسفلت. وازداد عدد المركبات المرخصة من ١٣٤,٥٥١ مركبة في نهاية عام ١٩٨٠ إلى ٢٣٤,٩٩٢ مركبة في نهاية عام ١٩٨٥. أما



المعادن الرئيسية في الأردن

نوع الصناعة	معامل العمالة	معامل الأجور	معامل القيمة المضافة	معامل الأهمية الصناعية
المقالع والتعدين	٢٢٣,٩	٤٣١,٤	٤٠٩,٢	٣٥٤,٨
المواد الغذائية	٢٢٤,٣	١٥٤,٢	١٣٥,٣	١٧١,٣
المشروبات	٣٥	٤٠	٧٠	٤٨,٣
التبغ ولفائف التبغ	٢٩,٥	٦٠	٢٦١,٢	١١٦,٩
الغزل والنسيج	٤٧	٤٠	٣٩,٦	٤٢,٢
الملبوسات الجاهزة	١٠٩,٣	٥٧	٣٤,١	٦٦,٨
الدباغة والجلود	١٠	٨,٦	٤,٦	٧,٧
الأحذية	٢٨,٣	٢٥,٧	١٨,٤	٢٤,١
منتجات الاخشاب والأثاث	١٨٣,٤	١١٦	٤٦,٩	١١٥,٤
الورق ومنتجاته	٣٦,٤	٤٢	٢٨,٦	٢٢,٣
الطباعة والنشر	٦٧,٣	٨٤	٤٢,٢	٦٤,٥
الصناعات الكيمياوية	١٣٧,٦	٢٠٧,٤	١٧٥,٤	١٧٣,٥
تكرير النفط	١٠٥,٨	٢١٧,٤	٢٣٤,٥	١٨٥,٩
منتجات المطاط	٠,٤	٠,٠٥	٠,١	٠,٢
منتجات البلاستيك	٥٩,٣	٥٣,٨	٤٧,٥	٥٣,٥
المنتجات غير المعدنية	٢٥٧,٦	٢٢٧,٨	٣٧١,٦	٢٨٥,٧
المنتجات المعدنية الأساسية	٤١,٧	٤٦,٦	٤٥,١	٤٤,٥
المنتجات غير الكهربائية	٢٢٦,٥	١٤٦,٩	٨٩	١٥٤,١
المنتجات الكهربائية	١١,٩	١٠,٣	٦,٦	٩,٦
معدات النقل	٣,٢	٣	١,٦	٢,٦
صناعات متفرقة	٠,٦	٠,٢	٠,٢	٠,٣
إنتاج الطاقة الكهربائية	١٥٢	٢١٨,١	١٦١,٦	١٧٧,٢
خدمات صناعية	٣٠٨,٧	٩٥,٣	٧٩,٢	١٦١,١

تم حساب معامل الأهمية الصناعية بجمع معامل العمالة ومعامل الأجور ومعامل القيمة المضافة، باعتمادأرقام التعداد الصناعي، وتم تقسيم حاصل جمعها على (٣) بناء على معادلة تومبسون حيث (ص) تعني معامل الأهمية الصناعية،(ع) معامل العمالة، (ر) معامل الرواتب والأجور، (ق) تعني معامل القيمة المضافة $ص = \frac{ع+ر+ق}{٣}$

الجدول (٨): معامل الأهمية الصناعية لأنواع الصناعات الأردنية وفقاً لتعداد عام ١٩٨٤.

المحافظة	معامل العمالة	معامل الأجور	معامل القيمة المضافة	معامل الأهمية الصناعية
عمان والزرقاء	٢٤٨,٢	٣٢٢,٦	٣١٤,٥	٣٢٨,٣
إربد	٤١,٦	٢٤,٥	٢١,٧	٢٩
البلقاء	٢٨,٥	٣٤	٦٤,٨	٤٢,٣
الكرك	٥٦,١	٨٨,٩	٨٨,٧	٧٨
معان	٢٥,٦	٣٢,٥	١٠,٥	٢٣

الجدول (٩): توزيع معامل الأهمية الصناعية بحسب المحافظات لعام ١٩٨٤.

دور سكة حديد الحجاز المنتهية عند معان ورأس النقب فمحدود. وتزداد أهمية المواصلات البحرية نتيجة توسيع منشآت ميناء العقبة وتحسينها ونشاط عملية التصدير والاستيراد عن طريقه. وتسهم المواصلات الجوية عن طريق مطار عالية الدولي في ربط البلاد بأنحاء العالم برحلات منتظمة لشركة الطيران الوطنية والشركات العالمية الأخرى.

حسن عبد القادر صالح

التاريخ

تظهر جغرافية الأردن تنوعاً كبيراً في المظاهر الطبيعية التي تراوح بين البحر الميت الذي يقع على عمق ٣٩٤م تحت سطح البحر مروراً بوادي عربة وخليج العقبة، وبين المرتفعات الشرقية التي يراوح ارتفاعها بين ٦٠٠ - ١٥٠٠م فوق سطح البحر مؤلفة حد الهضبة الأردنية. إن الأردن بوصفه تكويناً جغرافياً متنوعاً فيه السهل والجبل والوادي والنهر ومسايل المياه وسوى ذلك من مظاهر، كان منذ العصور القديمة مستقراً للإنسان ومعبراً لما قبله وما يليه من مستوطنات بشرية أقامها الإنسان القديم. ففي الجنوب، عبر وادي رم، وفي الشرق حيث وادي السرحان وجد المسافر طريقه إلى الجزيرة العربية، وفي الشمال ساعد الانخفاض بين جبل العرب من جهة وجبل الشيخ، وسلسلة جبال لبنان الغربية من جهة ثانية، على تسهيل المرور إلى سورية، فجعل كل ذلك من الأردن نقطة وصل مهمة بين أقاليم المنطقة.

الأردن حتى القرن السادس عشر

منذ العصر الحجري الممتد بين الأعوام ٥٠٠ ألف إلى ١٤ ألف قبل الميلاد سكن الإنسان الأردن، ووجد المنقبون مخلفات تعود إلى الحقبة المتأخرة من هذا العصر في مواقع الحرّانة والصحراء الشرقية وسواها. والعلماء متفقون أن الطقس في الأردن في هذا العصر كان مطيراً وأكثر رطوبة بوجه عام. وأن الإنسان كان يعيش على الصيد وجمع النباتات البرية وأنه كشف النار ورسم على الصخور صوراً للحيوانات ومنها الغزال، وما تزال هناك مواقع كثيرة تعود لهذا العصر لم تمتد إليها يد المنقبين بعد.

وفي الأردن عدد من المواقع التي تعود إلى العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠-٤٥٠٠ق.م) وهذه المواقع تمتد من جنوبه إلى شماله. وقد حدثت في هذا العصر تغيرات مناخية مهمة منها ارتفاع الحرارة ونقص الأمطار عما كانت عليه في السابق ولا سيما في نهاية الألف السادس قبل الميلاد، الأمر الذي أدى إلى هجرة الناس من الصحراء الشرقية وتوجههم جنوباً وغرباً. وأهم آثار هذا العصر موجودة في تلال البيضا في الجنوب وفي عين الغزال في مدينة عمان الحالية، فقد وجدت آثار قرية كانت مأهولة وفيها أنواع من الحيوانات المؤهلة (الأغنام والماعز والكلاب وغيرها) والمزروعات (القمح والشعير وغيرها).

واستمر الإنسان يعيش في الأردن، يبني ويعمر ويزرع ويترك آثاره للعصور التالية: العصر الكالكوليتي (٤٥٠٠ - ٣٣٠٠ق.م) والعصر البرونزي (٣٣٠٠ - ١٢٠٠ق.م) والعصر الحديدي (١٢٠٠ - ٣٣٢ق.م) وما يسمى بالعصر الحديدي الثاني - العصر الفارسي (٩١٨ - ٣٣٢ق.م) وأهم المراكز الحضرية في هذه الحقبة كانت عمّون (العاصمة عمّان الحالية وكانت تعرف باسم ربة عمّون وأهم الكشوف العائدة لهذه الحقبة وجدت فيما يعرف اليوم باسم قلعة عمّان)، ومؤاب في وسط الأردن، وإدوم في جنوب البحر الميت. وكانت عاصمة الإدوميين تعرف باسم بصيرة، بُصرى القديمة، وقد امتدت أرض الإدوميين حتى البتراء والعقبة الحاليتين (كما تكشف الحفريات التي جرت في هذا الموقع). ولا بد من القول إن ما هو معروف عن المرحلة الفارسية (٥٣٩ - ٣٣٢ق.م) قليل ويكتنفه الغموض. ويبدو أن دول عمّون ومؤاب وإدوم زالت وفقدت سيادتها في القرن السادس قبل الميلاد في أثناء الاجتياح البابلي بين سنتي ٥٨٧ - ٥٨٢ق.م.

وفي المرحلة الهلنستية (٣٣٣ -٦٣ق.م) حاول الأنباط في جنوبي الأردن أن يتجنبوا الصدام مع الجيوش اليونانية وظلوا محتفظين باستقلالهم. وفي الأردن مواقع كثيرة تعود إلى المرحلة الهلنستية منها حسبان وجرش وأم قيس وسواها. ولعل أجمل الشواهد المعمارية التي تعود لهذه المرحلة هي القصر الكبير في عراق الأمير، فضلاً عن اللقى الزجاجية والفخارية وسواها.

وقع الأردن، كما وقع سواه من مناطق المشرق العربي، تحت السيادة الرومانية (٦٣ق.م - ٣٢٤م) وقد حاول الأنباط الاحتفاظ باستقلالهم ونجحوا في ذلك حتى عام ١٠٦م حين ضمهم الامبراطور الروماني تراجان إلى حكمه، وبذلك غدا الأردن بكامله جزءاً من المقاطعة العربية التابعة لروما. والشواهد الأثرية على ذلك كثيرة جداً. وقد غلب عليه التأثير الفني والمعماري والحضاري الروماني، إلا في بعض مناطق الجنوب إذ استطاع الأنباط أن يضفوا خصائص حضارتهم في حاضرتهم البتراء، إلى جانب مواقع أخرى منها مأدبا وذيبان وخربة التنور وسوى ذلك.

وحين آل الأمر إلى الامبراطورية الرومانية الشرقية أو ما يعرف باسم الامبراطورية البيزنطية (٣٢٤ - ٦٤٠م)، وما رافقه من انتصار المسيحية على الوثنية وإعلانها ديناً رسمياً للدولة، وقع الأردن تحت تأثير هذا التغير وتحول كثير من معابده الوثنية إلى كنائس، كما عدت أرضه جزءاً من الأرض المتنازع عليها بين فارس وبيزنطة وجرت عليها عدة معارك بين الطرفين. واستمر ازدهار مدنه الرئيسة جرش وأم قيس وفيلادلفية (عمّان) وأم الجمال وسواها في ظل الإمارات العربية في بلاد الشام وأهمها إمارة الغساسنة، وأقيمت عليها المنشآت الحضارية الكثيرة التي ما تزال شواهدها ماثلة حتى اليوم.

وحين انطلقت جيوش الفتح العربية ترفع راية الإسلام عالية لتنشرها على بقاع الأرض، كانت أرض الأردن أول أرض على تخوم الجزيرة تصل إليها جيوش الرسول صلى الله عليه وسلم وسراياه، ولعل حديث مؤتة وشهدائها وبعث (غزوة) أسامة بن زيد ليس بالغريب على أحد. وقد توالى على الأردن عهود الراشدين وبني أمية وبني العباس والفاطميين والسلاجقة والزنكيين والصليبيين والأيوبيين والمماليك وسواهم ممن حكم في بلاد الشام. وفي جميع هذه الأدوار عومل الأردن بوصفه جزءاً من مجموعة إقليمية كبيرة هي مجموعة بلاد الشام، على الرغم من تسميته في بعض الأحيان: جند الأردن، أو كورة الأردن، أو إقليم الأردن، أو ولاية الأردن، أو ما شابه، والسبب في ذلك واضح، وهو ارتباطه العضوي بالبلدان التي تؤلف بلاد الشام.

الأردن في ظل الحكم العثماني

اتسمت مرحلة حكم المماليك بوجه عام بالفوضى وكثرت فيها الفتن والقلاقل بسبب التنازع بين أمرائهم على السلطان. ولما دانت البلاد العربية للعثمانيين بعد تغلبهم على

المماليك في عام ١٥١٦، دخل الأردن في طاعتهم وغدا واحداً من مقاطعات امبراطوريتهم.

تكمن أهمية الأردن في موقعه على طريق الحج الشامي الواصل بين دمشق والمدينة المنورة، وكان السلطان العثماني مسؤولاً عن سلامة الحجيج وعن الأمن في الأماكن التي تمر بها قوافلهم. وفي سبيل ذلك بنيت في عهد السلطان سليم سلسلة من القلاع على امتداد طريق الحج، وأنشئت برك ماء قرب هذه القلاع لينزل الحجيج قربها للراحة والتزود بالماء. كما قامت الدولة بعقد اتفاقات مع البدو الذين تقع مضاربهم على الطريق لضمان أمن الحجاج وسلامتهم، لقاء أموال تدفع لهم، وكثيراً ما نقض البدو هذه الاتفاقات، ونهبوا قوافل الحجاج وسلبوها، لعدم وفاء الدولة بالتزاماتها المالية تجاههم. كما أنهم كانوا يفرضون الأتاوى على الناس وينهبون محاصيلهم الزراعية من دون أن تحرك الدولة ساكناً، فضلاً عن الفتن الداخلية، والاقتتال بين طوائف الأجناد، وعلاوة على الغزوات الخارجية التي كانت تقع على بلاد الشام (حملة نابليون بونابرت)، والتحركات الإقليمية في المنطقة أيام الدولة العثمانية (علي بك الكبير وإبراهيم باشا المصري وغزوات السعوديين) وسوى ذلك من أحداث كانت تنيخ بكلكلها على الأردن كسواه من مقاطعات الشام. ولم يهتم العثمانيون بنشر التعليم، وطبقوا على البلاد نظاماً أوتوقراطياً فاسداً وظل الناس بعيدين عن معطيات حضارة العصر آنذاك. ومن جملة ما عاناه الأردن زمن العثمانيين خراب العمران وتراجعه ونقص السكان، فتقلص عدد القرى كما تقلص عدد ساكنيها وأصبح الدفاع عنها أكثر صعوبة، في زمن لم تول الدولة فيه أمن المواطن اهتماماً كبيراً. ومما يؤيد هذا الرأي أن الأردن كان قبيل زوال سلطان العثمانيين مقسماً إلى: سنجق عجلون، وقضاء البلقاء، ومتصرفية الكرك. أما العقبة فكانت تتبع الحجاز تارة، وسورية تارة أخرى، كما أنها تبعت مصر إبان حملة إبراهيم باشا، وظلت كذلك حتى العام ١٨٩٢، حين انسحب منها جيش إبراهيم باشا وألحقت بالحجاز. وحين قام الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ وجرت انتخابات مجلس «المبعوثان» انتخب ممثل عن الأردن في هذا المجلس. ولم يسع الانقلاب إلى إجراء أي تغييرات نحو الأفضل، بل ظل التعليم على حاله من التدني، كما استمر الجور في جباية الضرائب والسوء في الإدراة وقمع كل تحرك. فقامت الثورات ومنها ثورة الكرك وثورة الشوبك وغيرهما. ويمكن القول إن الإدارة العثمانية بلغت حداً من السوء، ولم تتورع عن البطش والتنكيل بكل من عاداها، فاتسعت الهوة بينها وبين رعاياها العرب بوجه عام، وكان لا بد أن يقود كل ذلك إلى ثورة عارمة تؤدي إلى انفصال الوطن العربي عن سلطان بني عثمان.

الحرب العالمية الأولى والثورة العربية

أُعلنت الحرب العالمية الأولى في تموز عام ١٩١٤، وفي تشرين الثاني من العام نفسه دخلتها الدولة العثمانية رسمياً إلى جانب ألمانية، فقامت دول الحلفاء بضرب الحصار على سواحلها ومنعت البضائع من دخول موانئها، ولم يمض وقت طويل حتى أخذ المخزون الغذائي بالنفاد واختفت الحاجات الضرورية الأخرى من الأسواق. وأخذت الدولة تصادر الموجود منها لمصلحة الجيش، وغزا الجراد سورية الطبيعية فأتى على أغلب المحاصيل الزراعية فيها، وزاد الأمر سوءاً تدفق عشرات الآلاف من المهاجرين الأرمن. وكان قانون الخدمة العسكرية يشمل جميع المناطق التابعة للسلطنة، فسيق الشبان إلى ميادين القتال في ظروف سيئة للغاية أدت إلى وفاة الكثيرين منهم لأسباب كثيرة، لم تكن الحرب إلا واحدة منها، فقد كان الجنود يموتون جوعاً ومرضاً وبرداً وإرهاقاً. كما خسر الأردن كثيراً من ثروته الحرجية، إذ قطعت الأشجار ليستعمل خشبها وقوداً للقطارات.

ومنذ الأيام الأولى لقيام الحرب العالمية الأولى، عانى الناس في بلاد الشام والأردن أقسى درجات المعاناة وشعروا أن القتال والمصاعب التي فرضت عليهم لا تمت إلى أمانيهم القومية بأية صلة، ولهذا كانت نفوس الناس مهيأة لاستقبال فرسان الثورة العربية والترحيب بهم حين انطلقوا من مكة متجهين إلى الشام، من دون أن يكون لعامة الناس معرفة بالدور الذي قامت به دمشق وسواها من المدن السورية ودور رجالات الشام في التهيئة لهذه الثورة والحشد لها لتضع حداً لحكم العثمانيين الذي لم يلب شيئاً من تطلعاتهم. ولا يسمح الإطار الذي ينتظم هذه الدراسة بالحديث عن نشوء الفكر القومي في ظل الحكم العثماني وقيام الجمعيات والمنتديات القومية، وعن مطامع الحلفاء في تركة السلطنة العثمانية، أو عن مساوئ الحكم العثماني في عهد جماعة الاتحاد والترقي، وتركية الفتاة، ومحاولات التتريك، والتهيئة للثورة العربية وسوى ذلك من أمور تكوّن الخلفية الضرورية لقيام هذه الثورة، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن إشارة بدء الثورة انطلقت من دمشق حين أرسل فيصل من هذه المنطقة برقيته المشهورة إلى والده الشريف حسين، التي قال فيها: «أرسلوا الفرس الشقراء»، وهو الرمز المتفق عليه لإعلان بدء الثورة، وقال قولته الشهيرة: «طاب الموت يا عرب». وهكذا سار الثائرون من مكة ليلتقوا بإخوة لهم ينتظرونهم على طول الطريق من الحجاز إلى الشام، وكانت قبيلة الحويطات في جنوبي الأردن أول من لبى نداء الثورة من الأردنيين، إذ اتصل شيخها عودة أبو تايه بالأمير فيصل، قائد الجيش العربي الشمالي، وأعلن انضمام قبيلته إلى الثورة. وفي ٩ أيار عام ١٩١٧ توجه عودة والشريف ناصر بن علي في مجموعة قليلة من الفرسان نحو العقبة، فقطعوا مواصلات العدو، وحرضوا أبناء القبائل النازلة هناك، فانضموا إلى الثورة، وتمكنت هذه الفئة القليلة من القيام بمهمتها بنجاح وسهلت للجيش العربي الشمالي احتلال العقبة في ٦ تموز عام ١٩١٧. وباحتلال العقبة تم الاتصال بين الجيش العربي وجيش الحلفاء الذي كان يقوده الجنرال اللنبي Allenby، وبين الجيش العربي والقيادة البريطانية في القاهرة. وبينما كانت القوات البريطانية تتقدم في جنوبي فلسطين فتحتل بئر السبع وغزة ويافا والخليل وبيت لحم، وتستولي على القدس في أواخر تشرين الأول عام ١٩١٧، أخذت القوات العربية في مناوشة القوات التركية في معان والمناطق المجاورة لها. وفي منتصف كانون الثاني عام ١٩١٨ استولت على الطفيلة والشوبك. وبعد مناوشات بين الإنكليز والأتراك حول مدينتي السلط وعمان، أعد الأمير فيصل حملة لاحتلال الأزرق، وقد تمكنت هذه الحملة من إنجاز مهمتها، ثم انطلقت لمهاجمة محطة خربة غزالة قرب درعا، ومن ثم احتلت درعا في ٢٨ أيلول عام ١٩١٨. وبنتيجة ذلك اضطر الجيش التركي إلى الانسحاب من عمان، وتوجه إلى دمشق، ولكنه بسبب ضغط جيش الثورة ما لبث أن غادرها، ودخلتها قوات الأمير فيصل في اليوم الأول من

تشرين الأول عام ١٩١٨. وقد أسهم الأردنيون إسهاماً فعالاً مع جيش الثورة العربية في العمليات العسكرية التي انتهت بتحرير بلادهم من النير العثماني. وهكذا ارتبط مصير الأردن في تلك المرحلة من العهد الفيصلي بما كان يجري من أحداث في بلاد الشام والشرق العربي كله.

ففي اليوم الثالث من دخول فيصل إلى دمشق، طلب الجنرال اللنبي، القائد العام لقوات الحلفاء في البلاد، من فيصل أن يقيم إدارة عسكرية عربية في المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن والممتدة من العقبة إلى دمشق، على أن يكون حكامها العسكريون وموظفوها المدنيون من العرب وأن يكون ارتباطهم بالأمير، الذي يكون مسؤولاً أمام اللنبي طوال مدة الحرب، وطبيعي أن ذلك سبب خيبة أمل كبيرة للأمير ومن شايعه من الزعماء العرب الذين صدقوا الوعود والتصريحات التي أصدرها الحلفاء إبان الحرب والتي كانت تؤكد بأنهم سيحظون بالاستقلال بعد أن يحتلوا دمشق. وهكذا، وبعد لقاء فيصل ـ اللنبي بيومين ألّف فيصل أول حكومة عربية بدمشق برئاسة الفريق علي رضا الركابي، الذي منح لقب «الحاكم العسكري العام».

وقبل المضي قدماً في الحديث عن الأردن في هذه المرحلة التي تلت انتهاء الحرب العالمية الأولى، لا بد من العودة إلى الوراء قليلاً للتذكير ببعض ما اتفق عليه الإنكليز والفرنسيون في الاتفاق المعروف باسم: اتفاقية سايكس ـ بيكو، التي ضربت عرض الحائط بكل الوعود بالاستقلال التي منحت للشريف حسين وبكل ما جاء في مراسلاته مع مكماهون. وبحسب هذه الاتفاقية فقد اقتسمت مناطق النفوذ بين الدولتين على أن تكون هناك:

١ـ منطقة نفوذ فرنسية تشمل ولايات دمشق وحلب والموصل.

٢ـ منطقة نفوذ بريطانية تشمل الأراضي الممتدة من فلسطين إلى العراق، على أن تنشأ دولة أو دول عربية مستقلة، أو اتحاد فدرالي لدول عربية، يكون لفرنسة وإنكلترة حق تزويدها بالمستشارين والموظفين، وحق الأولوية الاقتصادية والمالية. ومن دون الدخول في تفصيلات اتفاقية «سايكس ـ بيكو» الأخرى، وكتمانها عن العرب حتى فضحها وزير الخارجية البولشفي سازانوف في عام ١٩١٧، ورد الإنكليز المخادع على سؤال فيصل عن مدى صحتها، وموقفهم المماثل في مؤتمر الصلح في باريس في عام ١٩١٩، لا بد من التأكيد على حقيقة أساسية في هذا المجال وهي رفض فرنسة وبريطانية المشاركة في اللجنة الدولية التي أقرت عصبة الأمم تأليفها وإرسالها إلى فلسطين وسورية والعراق لمعرفة رغبة أهل هذه البلاد، الأمر الذي أدى إلى تعطيل تأليف هذه اللجنة، وتفرُّد أمريكة بإرسال لجنة كينغ King وكرين Crane التي زارت فلسطين وسورية في حزيران وتموز (١٩١٩)، واجتمعت بالسكان واستطلعت آراء هم وتلقت عرائض مكتوبة بمطالبهم، وعادت لتقدم تقريرها في ٢٨ آب ١٩١٩ الذي نص على المطالبة بالاستقلال، وإلا فالانتداب تحت وصاية عصبة الأمم، مع المحافظة على وحدة بلاد الشام وترشيح الأمير فيصل رئيساً للدولة السورية. ولكن فرنسة وبريطانية لم تقيما وزناً لتقرير اللجنة، واستمرتا في خططهما، وعقد أهل البلاد مؤتمراً وطنياً يمثل أقطار سورية الكبرى، وقرر هذا المؤتمر الذي عقد أولاً في ٢ تموز ١٩١٩، ومن ثم في ٨ آذار ١٩٢٠، إعلان استقلال سورية بما فيها كل فلسطين والمناداة بفيصل ملكاً دستورياً عليها.

ولكن كل ذلك وسواه لم يجد فتيلاً، ولم تعترف بريطانية وفرنسة بالدولة السورية المستقلة، وما لبث أن اجتمع المجلس الأعلى لعصبة الأمم في مدينة سان ريمو، في إيطالية، في ١٨ـ٢٦ نيسان ١٩٢٠ وقرر وضع البلاد العربية الواقعة ضمن المستطيل الممتد من شاطئ البحر المتوسط إلى الحدود الإيرانية تحت الانتداب، وتجزئة البلاد السورية إلى ثلاثة كيانات منفصلة هي: فلسطين، ولبنان، وبقية الأرض السورية. كما أقر المجلس أن توضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور، وأن توضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي. وكان بعد ذلك أن قدم غورو إنذاره الشهير للملك فيصل، وكانت معركة ميسلون الحاسمة على أبواب دمشق في ٢٤ تموز ١٩٢٠، وغادر فيصل، الذي نحي عن عرش سورية، دمشق بعدها. وكان شرق الأردن قد قسم في عهد فيصل إلى ثلاثة ألوية هي: لواء الكرك ومركزه بلدة الكرك وتتبعه أقضية الطفيلة ومعان والعقبة ونواحي الشوبك وذيبان وتبوك، ولواء البلقاء ومركزه السلط ويتبعه قضاء الجيزة وعمان وناحية مأدبا، ولواء حوران ومركزه درعا وتتبعه أقضية أزرع والمسمية وبصرى الشام وعجلون وجرش.

وعند انسحاب فيصل من دمشق ودخول القوات الفرنسية إليها، حرص الفرنسيون على ألا تتوغل قواتهم في أراضي شرق الأردن، وهكذا غدا الأردن في هذه المرحلة بلا حكومة ولا جيش ولا قوى لحفظ الأمن، واستغل البريطانيون هذا الوضع وهيؤوا لقاء بين المندوب السامي البريطاني في فلسطين، هربرت صموئيل، وأعيان شرق الأردن، في السلط، أعلن فيه هربرت صموئيل أن الحكومة البريطانية لا تقصد إلحاق شرق الأردن بإدارة فلسطين، بل تريد تأسيس إدارة منفصلة، يتولى الأمر فيها معتمدون سياسيون بريطانيون وتكون مهمتهم تنظيم الإدارة والقضاء والأمن والضرائب، ويتعاونون مع عناصر محلية من أهل البلاد، ويعملون على مساعدة الأهالي من دون أن يفرضوا عليهم الخدمة العسكرية الإجبارية. وفي أعقاب هذا الاجتماع عين هربرت صموئيل عدداً من الضباط الإنكليز لتأسيس الإدارة الجديدة. وتألفت حكومة محلية في إربد برئاسة القائم مقام علي خلقي الشرايري، وحكومات محلية أخرى في عجلون والرمثا وجرش والكرك وسواها. ولم تستطع هذه الحكومات المحلية أن تواجه المشكلات العامة، أو أن تحسن الأوضاع المتدهورة في البلاد، الأمر الذي نجم عنه شيوع الفوضى والاضطراب، في أثناء هذه المرحلة التي امتدت من أيلول ١٩٢٠ حتى نيسان ١٩٢١.

تأسيس الإمارة الأردنية

كانت ردة فعل الشريف حسين في الحجاز، وابنه الأمير عبدالله [ر]، على إخراج الملك فيصل من سورية في آب ١٩٢٠، ردة غاضبة، كما اتصل كثير من رجالات السياسة وشيوخ القبائل بالشريف حسين طالبين منه التحرك لتحرير الشام مما ألم بها. وكان ابنه ووزير خارجيته الأمير عبدالله المرشح الأمثل لقيادة حملة التحرير. وفعلاً كلفه والده القيام بهذه المهمة، فألّف قوة قوامها ألفا شخص وتحرك باتجاه معان التي كانت ما تزال تحت سلطة والده ملك الحجاز. بلغ عبدالله معان في ٢١ تشرين الثاني ١٩٢٠ فأقام فيها، وبدأ اتصالاته بأعيان بلاد الشام لحشد الناس وتهيئتهم للقيام بثورة على

المحتلين. وصادف وجود عبدالله في معان اندلاع ثورة في العراق على الاحتلال البريطاني. وقد أجبرت هذه الثورة البريطانيين على فتح باب المفاوضات مجدداً مع الملك فيصل الذي سافر إلى لندن واتفق مع تشرشل (وزير المستعمرات آنذاك) على منح العراق وشرق الأردن الحق في الحكم الذاتي، ورشح فيصل لعرش العراق. كما أن أوضاع الأردن جعلت هربرت صموئيل يوجه الدعوة إلى عبدالله لمقابلة تشرشل في القدس للتباحث معه (آذار ١٩٢١). وقد انتهت هذه المباحثات بالاتفاق على إقامة حكومة وطنية في شرق الأردن برئاسة الأمير عبدالله تكون مستقلة استقلالاً إدارياً وتساعدها بريطانية في توطيد الأمن، كما تسترشد برأي مندوب بريطاني يقيم في عمان. كما تنص على إنشاء قاعدتين للطيران على ألا تستخدما للهجوم على سورية أو فلسطين. وقد وقعت هذه الاتفاقية في ٢٦ آذار ١٩٢١، وعاد الأمير عبدالله بعدها إلى عمان التي اختيرت عاصمة لموقعها ولوجود محطة للسكة الحديدية فيها، وشرع في تنظيم شؤون البلاد وتأليف حكومة لإدارة أمورها. وكان غالبية أعضاء الحكومة من قادة حزب الاستقلال (وريث جمعية العربية الفتاة) من العرب السوريين والحجازيين والفلسطينيين. وبعد مرور بضعة أشهر على هذه التجربة وقيام اضطرابات في سورية ضد الفرنسيين ومحاولة اغتيال غورو ولجوء بعض الزعماء الوطنيين إلى شرق الأردن، رأت الحكومة البريطانية أنه لا بد من تنظيم علاقتها مع شرق الأردن فأوفدت لورنس لدراسة الوضع عن كثب. وقد اقترح لورنس استمرار الأمير عبدالله في إدارة شرق الأردن، واستثناءه من وعد بلفور. كما أوصى بإخراج الموظفين السوريين من أعضاء حزب الاستقلال من البلاد والضغط على الأمير لتسليم المتهمين بالاعتداء على غورو. وفي أعقاب ذلك، وفي ضوء مقترحات لورنس ومحادثات تشرشل ـ عبدالله، أعدت الحكومة البريطانية صك الانتداب على شرق الأردن. وهو كصك الانتداب على فلسطين مع بعض الاستثناءات، وأهمها استثناؤه من وعد بلفور ومن نصوص صك الانتداب على فلسطين، وطالب الأمير في زيارة قام بها إلى لندن في تشرين الأول ١٩٢٢ باستقلال شرق الأردن استقلالاً تاماً، واستمرت المفاوضات مدة طويلة استقالت في أثنائها الحكومة برئاسة علي رضا الركابي، وتألفت حكومة جديدة برئاسة مظهر رسلان في شباط ١٩٢٣. وقد حاولت الوزارة الجديدة استئناف المفاوضات مع بريطانية من أجل الاستقلال، ولكن بلا طائل. وفي ٢٥ أيار ١٩٢٣ قام هربرت صموئيل، المندوب السامي البريطاني في فلسطين، بناء على أوامر حكومته، بزيارة عمان وألقى البيان التالي: «شريطة موافقة عصبة الأمم، فإن حكومة جلالته البريطانية سوف تعترف بوجود حكومة مستقلة في شرق الأردن تحت حكم سمو الأمير عبدالله بن الحسين، شريطة أن تكون تلك الحكومة دستورية، وأن تمكن حكومة جلالته البريطانية من إيفاء التزاماتها الدولية المتعلقة بتلك البلاد». وهكذا عدّ الأردن هذا البيان اعترافاً من جانب بريطانية باستقلاله، وألّف مجلس نظّار (وزراء) لإدارة شؤون البلاد. وأخذت بريطانية تفرض شروطها على الأمير فطلبت منه إبعاد الموظفين والنظّار السوريين، وأن يستعين بدلاً منهم بموظفين فلسطينيين وبريطانيين، حتى إن بعض البريطانيين شغلوا منصب ناظر في حكومة حسن خالد أبو الهدى التي ألفت في عام ١٩٢٥ وعدلت في عام ١٩٢٦. واستمرت إعارة الموظفين من الإدارة الفلسطينية إلى الإدارة الأردنية حتى عام ١٩٣٩، إذ اكتفي بإعارة الموظفين البريطانيين. وكان المعتمد البريطاني في عمان هو المشرف الفعلي على تصريف الشؤون الإدارية. وقد قسمت إمارة شرق الأردن إلى أربعة ألوية هي:

- لواء عجلون ومركزه مدينة إربد.
- لواء البلقاء ومركزه مدينة السلط.
- لواء الكرك ومركزه مدينة الكرك.
- لواء معان ومركزه مدينة معان، وفيه ميناء العقبة وبعض المناطق الجنوبية التي ألحقت بالأردن في حزيران ١٩٢٥، وكانت قبلاً جزءاً من مملكة الحجاز.

أما في المجال المالي، فالأردن، كما هو معروف، بلد تعوزه الموارد الطبيعية، لذا كان لا بد، بعد تأليف الإدارة المركزية الأولى، من الاعتماد على المعونة الخارجية. وقد تم الاتفاق بين الأمير عبدالله ووزير المستعمرات البريطاني في آذار ١٩٢١ على أن تقدم بريطانية للأردن معونة مالية سنوية قدرها ١٨٠ ألف جنيه استرليني سنوياً، ونتيجة لذلك كان للمستشار المالي البريطاني حق الإشراف على جميع الشؤون المالية والتدقيق فيها، وقد اختلف مقدار المعونة، زيادة أو نقصاً، بحسب السنين، كما أنشأت وزارة المستعمرات البريطانية ديواناً لمراجعة الحسابات الرسمية وتدقيقها.

وفي مجال الجيش، لم تكن قوات الأمن التي كانت متواجدة في شرق الأردن في العهد الفيصلي كافية، ولا قادرة على فرض النظام والأمن. لذا، وبعد أن غدا شرق الأردن إمارة تتبع المندوب السامي البريطاني في فلسطين، قامت السلطة المنتدبة بإنشاء قوتين صغيرتين قوامهما ١٥٠ رجلاً تحت قيادة بريطانية للقيام بالمهام الأمنية على الطرق وفي المدن. ولما دخل الأمير عبدالله عمان في آذار ١٩٢١، كانت عنايته منصرفة إلى نشر الأمن في إمارته، لذا تفاوض مع الإنكليز في هذا الشأن، واستطاع أن ينشئ قوة عسكرية قوامها بضع مئات من الأفراد تعد النواة التي انبثق عنها فيما بعد الجيش العربي، وكان معظم أفرادها من العرب: الحضر والبدو. وقد كان لاندلاع الثورة العربية عام ١٩٢٥ في جبل العرب في سورية، أثره في حفز الإنكليز على دعم قوات الجيش العربي حتى بلغ أفراده ما يقارب ١٥٠٠ فرد في ١٩٢٥-١٩٢٦.

أما في المجال الداخلي فقد استقبل بعض شيوخ العشائر والزعماء التقليديين إنشاء حكومة مركزية في عمان بشئ من الفتور خوفاً على ما كان لهم من زعامات وامتيازات. وجرت في أول الأمر صدامات بين السلطة المركزية من جهة وبعض الزعماء التقليديين ومشايخ البدو من جهة أخرى، وكانت في صورة ثورات وعصيانات، وقد تمكنت السلطة المركزية في النهاية من القضاء عليها، على الرغم من النكسات التي أصيبت بها القوات الحكومية في الكثير من المناسبات. واستتب الأمن تدريجياً، وأخذت سيادة الدولة تغدو حقيقة واقعة.

أما من ناحية علاقات الدولة الخارجية، فبعد توقيع معاهدة لوزان لعام ١٩٢٣، عُد شرق الأردن دولة منفصلة عن الدولة العثمانية ولكن المشكلة التي لم تُحل، حتى بعد اعتراف بريطانية باستقلاله، كانت مشكلة الحدود، لأنه لم تكن للإمارة آنذاك حدود ثابتة، وظلت الحال كذلك عدة سنوات إذ كانت هناك أطراف كثيرة

ذات صلة بالموضوع الحدودي ولا سيما بريطانية وفرنسة والعراق ونجد والحجاز. وكانت العلاقات الأردنية الفلسطينية علاقات وثيقة، وظلت بريطانية تعين مندوباً سامياً واحداً لفلسطين والأردن حتى عام ١٩٢٦ حين أوكل إلى المندوب السامي في فلسطين حق تعيين مندوب سامي على الأردن فقط.

أما في مجال العلاقات مع سورية ، فعلى الرغم من اتفاق سلطتي الانتداب: الفرنسية والبريطانية، على تعيين الحدود بين منطقتي انتدابهما، فإن قسماً من هذه الحدود، ولا سيما تلك التي تقع بين جبل العرب والأردن، ظل بلا تعيين. كما أن شرق الأردن كان مفتوحاً أمام بعض الثوار السوريين الذين كانوا يتصدون للانتداب الفرنسي على بلادهم. وقد أدى ذلك إلى سوء العلاقة بين سلطة الانتداب في سورية وحكومة شرق الأردن. وقد تدخلت بريطانية لصالح فرنسة وأجبرت السلطات الأردنية على طرد السوريين الوطنيين الموجودين على أرضها وإغلاق حدودها مع سورية. وتابع الأمير عبدالله ولجنة الانتدابات الدائمة التابعة لعصبة الأمم، ضغطهما على السلطات البريطانية من أجل تنفيذ الوعد الذي قطعته هذه السلطات بتوقيع معاهدة مع الأردن تنظم العلاقات بينهما، ونتيجة هذه المساعي، وقع رئيس المجلس التنفيذي (رئيس الحكومة) الأردني والمندوب السامي البريطاني، في القدس بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٨ معاهدة نصت على: وضع دستور للبلاد، وتنازل بريطانية عن السلطتين التشريعية والتنفيذية إلى الأمير، وتقديم معونة مالية له، مقابل منح بريطانية حق الاحتفاظ بقوات مسلحة في شرق الأردن، وإشرافها على الامتيازات واستثمار الموارد الطبيعية وإنشاء السكك الحديدية وسوى ذلك. وكان توقيع هذه المعاهدة نهاية مرحلة من حياة الإمارة الفتية اتصفت بالاضطرابات الداخلية والمتاعب المالية والصراع بين السلطة المنتدبة والوطنيين المناهضين لها. واتصفت المرحلة التالية لتوقيع المعاهدة بوضع القانون الأساسي (الدستور) الذي منح الأمير عبدالله بن الحسين وورثته السلطات التشريعية والإدارية وحق التصرف بالأراضي العامة. كما نص هذا القانون على تأليف مجلس لمساعدة الأمير، وعلى إقامة مجلس تنفيذي ومجلس تشريعي ومؤسسات قضائية وسوى ذلك من أمور.

وقد لقيت المعاهدة أو الاتفاقية معارضة شديدة من بعض الزعماء المحليين، وقامت إضرابات واحتجاجات، وانتهى الأمر، بعد جدل طويل، إلى القبول بها مع (تعديلات ١٩٣٩) وجرت انتخابات لمجلس تشريعي على أساسها في شهر شباط عام ١٩٢٩، وانعقد المجلس التشريعي الأول في نيسان من العام نفسه، وقد تعاقبت خمسة مجالس تشريعية حتى العام ١٩٤٦. وفي عهد المجلس السادس حصلت البلاد على الاستقلال التام ونودي بعبدالله ملكاً وألغيت المعاهدة الأردنية لعام ١٩٢٨ ووقعت معاهدة جديدة مع بريطانية في ٢٢ آذار ١٩٤٦ سبقها توقيع إمارة شرق الأردن على ميثاق جامعة الدول العربية (آذار ١٩٤٥). أما عن السلطة التنفيذية في المدة من ١٩٢٩-١٩٤٦ فقد تعاقبت على سدة الحكم ست وزارات كان آخرها وزارة إبراهيم هاشم التي تم في عهدها إعلان الاستقلال وإعلان المملكة الأردنية الهاشمية. وقد نشأت في هذه المرحلة أحزاب سياسية عدة وعقدت مؤتمرات شعبية، ومورس العمل السياسي من خلال هذه الأحزاب والتجمعات. وفي أثناء الحرب العالمية الثانية توثقت الصلة بين بريطانية والأردن وعدته حليفاً موثوقاً فعملت على تعزيز الجيش العربي وعلى جعله قوة محاربة ذات تدريب عسكري جيد، وقد تجاوز عدد أفراده ٨٠٠٠ رجل.

ويمكن القول إن الاستقلال الذي أعلن يوم ٢٥ أيار ١٩٤٦ كان خطوة أولى، تلتها خطوات أهمها: إلغاء معاهدة ١٩٤٦ والتوصل إلى معاهدة بشروط أفضل سنة ١٩٤٨، ومرت تطورات عدة بلغت ذروتها في وضع دستور ١٩٤٧، الذي ينص على إقامة مجلسين أحدهما للنواب ينتخب أعضاؤه من الشعب، والآخر للأعيان يعيّن الملكُ أعضاءه.

وكان عدد سكان الأردن في عهد الإمارة بين ٢٠٠-٤٠٠ ألف نسمة ينقسمون من حيث أنماط معيشتهم إلى ثلاث فئات: الفلاحون، وسكان المدن، والبدو الرعاة. وكان الفلاحون يؤلفون ما نسبته ٨٥٪ من مجموع السكان ويقيمون في القرى ويمارسون الزراعة. أما عن المدن، فيمكن القول إنه لم يكن في الأردن عند تأسيس الإمارة مدينة بالمعنى المعروف للمدن العربية، إنما كانت هناك تجمعات سكنية في إربد والسلط وعمان والكرك، وهي أقرب إلى القرى الكبيرة منها إلى المدن. أما البدو، فكانوا ينقسمون من حيث أنماط معيشتهم إلى فئتين هما: رعاة الإبل، ورعاة الأغنام. وكان أفراد الفئة الأولى يعيشون في قلب البادية، بينما ينتقل أفراد الفئة الثانية بين المناطق المأهولة بالسكان، ويزاول بعضهم الزراعة الموسمية. ويطلق اسم «البدو» على رعاة الإبل من سكان البادية، أما رعاة الأغنام فيسمون «الشوايا» ورعاة الماعز «معّازة» ورعاة الأبقار «بقّارة». وكان لكل قبيلة مراعيها التي ترتادها في مواعيد معينة. أما أشهر القبائل التي كانت تزاول تربية الإبل في البادية الأردنية فهي: الرولة، وبنو صخر، والحويطات، والسرحان. وقد أولت السلطة اهتماماً خاصاً للبدو، وأحدثت لهم «نيابة العشائر» عند تأليف أول حكومة أردنية. وقد وجدت في الأردن أقليات عرقية أهمها الشركس. كما اهتمت الدولة بالتعليم، بعد أن كان مهملاً في ظل الحكم العثماني، وأسست المدارس حتى بلغ عدد المدارس الحكومية في عام ١٩٢٢ أربعاً وأربعين مدرسة. ونظمت إدارة المعارف، وغدا هناك مدارس خصوصية إلى جانب المدارس الحكومية. وتفيد بعض الإحصائيات أنه في العام ١٩٢٥-١٩٢٦ كان عدد المدارس في الأردن ٧٢ مدرسة منها ٤٩ مدرسة حكومية و٢٣ مدرسة خاصة. أما في العام ١٩٤٦ الذي انتهى فيه عهد الإمارة وبدأ عهد المملكة فكان هناك ٧٧ مدرسة حكومية و١٠٠ مدرسة خاصة.

وفي مجال الخدمات الطبية يمكن القول إن عدد الأطباء في الأردن في عهد الملك فيصل في سورية، لم يكن يزيد على عدد أصابع اليد الواحدة. وفي العام ١٩٢٢ أنشأت الحكومة مستشفى في عمان بالتعاون مع مجلس البلدية، وأنشئت لأول مرة دائرة للصحة في العام ١٩٢٦، وازداد عدد المستشفيات فبلغ عدد الأطباء في ذاك العام في شرق الأردن ٢٨ طبيباً وطبيبة. وأخذت أعداد الأطباء والمستشفيات والأسرّة الطبية تزداد مع توالي السنوات حتى بلغ عدد الأطباء في الأردن ٥٠ طبيباً و١٣ صيدلانياً في العام ١٩٤٦، إضافة إلى الأطباء والصيادلة الذين كانوا يعملون في خدمة الجيش العربي وشركة بترول العراق.

أما في المجال الاقتصادي فقد ظلت المحصولات الزراعية والثروة الحيوانية تؤلف

العمود الفقري لحياة السكان الاقتصادية في شرق الأردن، وكانت نسبة الاكتفاء الذاتي في المجال المعيشي بوجه عام تتجاوز ٨٠٪ حتى إن الأردن كان في بعض السنوات يصدر فائض إنتاجه من الصوف والجلود والزبيب إلى فلسطين والحجاز وسورية. وكان الإنتاج الحيواني والزراعي يفيض في سنوات الخصب عن حاجة السكان ويصدر إلى البلاد المجاورة، واستمرت الحال كذلك: بين سنوات خصب فيها فائض عن الحاجة، وسنوات جدب لا يكاد الناتج يكفي الاستهلاك المحلي، طوال عهد الإمارة.

أما التجارة فكانت تتم مع البلدان المجاورة، فما كان قريباً من سورية تاجر معها، وما قرُب إلى فلسطين تاجر معها، وعموماً كانت التجارة تصديراً واستيراداً تتم مع سورية وفلسطين والحجاز ومصر.

وفي مجال الحديث عن مرحلة الإمارة يمكن القول إن هذه المرحلة شهدت كذلك مولد الصحافة الأردنية، إذ كانت تصلها قبلاً بعض الصحف من سورية ومصر وفلسطين. وكانت أولى هذه الصحف صحيفة تكتب بخط اليد وتصدر عن مخيم الأمير عبدالله في معان في العام ١٩٢٠ وهي صحيفة «الحق يعلو»، أما أول صحيفة مطبوعة فكانت صحيفة «الشرق العربي» التي ظهرت في العام ١٩٢٢. وتوالى بعد ذلك صدور الصحف، كما صدرت بعض المجلات، كان أولها مجلة «الحكمة» التي صدرت في العام ١٩٣٣.

وفي مجال الحديث عن دور الأردن في القضية الفلسطينية قبل الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، لا بد من الإشارة إلى أن هذه القضية كانت من بين أهم اهتمامات الأردن في زمن الإمارة، وكان للأردن حكومة وشعباً دور في أحداث عامي ١٩٣٣ و١٩٣٦ من حيث تأييد المطالب الفلسطينية ودعمها، كما كان لها دور مهم في الحرب العربية الإسرائيلية الأولى سالفة الذكر، ولا سيما في معركتي القدس وباب الواد، ومرحلتي القتال الأولى والثانية والهدنتين اللتين تبعتاهما. وقد بحثت الجامعة العربية بعد الهدنة الثانية أمر إنشاء حكومة فلسطينية، فعارضت ذلك الحكومة الأردنية معارضة شديدة. وفي كانون الأول ١٩٤٩ عقد مؤتمر كبير في أريحا ضم بعضاً من رجالات القدس والخليل وبيت لحم ورام الله، وقرر المجتمعون إقامة وحدة فلسطينية-أردنية وبايعوا الملك عبدالله ملكاً على فلسطين. وأبرق المجتمعون بقراراتهم إلى الحكومات العربية والجامعة العربية. ووافق الملك عبدالله على هذه القرارات، كما وافق عليها مجلس النواب الأردني. وأدى ذلك كله إلى مواقف عربية متباينة بعضها يؤيد هذه الوحدة وبعضها يعارضها ويسعى لإسقاطها. وقام الأردن بسلسلة من الإجراءات لتنفيذ وحدة الضفتين، فاستقالت الوزارة في ٣ أيار ١٩٤٩. وأعيد تأليفها في ٧ منه لتضم ثلاثة وزراء من الضفة الغربية. كما حل المجلس النيابي من أجل إجراء انتخابات جديدة لمجلس يضم ممثلين عن الضفتين وعُدّل قانون الانتخابات ليستوعب كل هذه التغييرات. وانتخب المجلس الجديد في ٢٠ نيسان ١٩٥٠، وفيه ممثلون عن فلسطين، واجتمع بعد ذلك بأيام قليلة ليصدر قرار وحدة الضفتين. وقد انتهت هذه المرحلة الجديدة من حياة الأردن باغتيال الملك عبدالله في القدس يوم الجمعة في ٢٠ تموز ١٩٥١ وبذلك طويت صفحة حافلة بالأحداث من تاريخ الأردن. وصادف أن كان ولي عهده الأمير طلال بن عبدالله، يعالج خارج البلاد، ولهذا اتخذ مجلس الوزراء قراراً بأن يكون الأمير نايف (الأخ غير الشقيق لطلال) وصياً على العرش. وبعد شهر ونصف عاد الأمير طلال إلى البلاد، وبايعه مجلس الأمة بالملك يوم ٦ أيلول ١٩٥١، كما بايع أبنه الحسين ولياً لعهد ابيه. وفي المدة القصيرة التي حكم فيها الملك طلال، أظهر أنه حاكم ذو عقلية ليبرالية، فقد وضع دستوراً للبلاد في أوائل العام ١٩٥٢، قلّص فيه سلطاته، وجعل الوزارة مسؤولة أمام البرلمان. وقد أثار هذا الأمر ردود فعل كثيرة، بعضها يوافق تلك التعديلات، وبعضها يخالفها ولا يقبل فكرة زيادة صلاحيات البرلمان. كما أن انضمام الملك طلال إلى اتفاقية الدفاع العربي المشترك، كان من الأمور التي لم تلق قبولاً عاماً. واستمرت صحة الملك بالتدهور واتضح للمقربين منه أن أعباء الحكم تسهم في زيادة وطأة المرض عليه. وقررت الحكومة عرضه على لجنة صحية محلية وأجنبية، فجاء قرار اللجنة أن حالته الصحية لا تساعده على الاستمرار في الحكم. وبعد نقاش طويل في المجلس، اتخذ قرار بضرورة الالتماس من الملك طلال بأن يتنازل عن العرش لولي عهده الحسين، ووافق الملك على هذا الالتماس وتنازل عن العرش لابنه الحسين وسافر للإقامة في اصطنبول، حيث بقي فيها إلى أن توفي عام ١٩٧٢.

وفي شهر آب عام ١٩٥٢ دعي الحسين للعودة من سويسرة، حيث كان يصطاف، إلى عمان. وطبيعي أن الحسين لم يكن يستطيع أن يمارس صلاحياته الملكية إلا بعد أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره، أي بعد أكثر من عام (ولد الحسين في ١٤ تشرين الثاني ١٩٣٥). لذا عقد مجلس الوزراء اجتماعاً وقرر تعيين مجلس وصاية على العرش حتى يبلغ الحسين سن الرشد الدستوري. وتألف مجلس الوصاية من: إبراهيم هاشم، وسليمان طوقان، وعبد الرحمن الرشيدات. وظلت الحالة كذلك حتى الثاني من أيار ١٩٥٣ حين تسلم الحسين سلطاته الدستورية.

نبيه عاقل

الأردن منذ العام ١٩٥٣

يرتبط تاريخ الأردن منذ ١٩٥٣ بعهد الملك حسين بن طلال، الذي عمل منذ تسلمه مقاليد الحكم على قيادة الدولة باتجاه التحديث، وذلك بضبط الإدارة ونشر التعليم العام وتأسيس التعليم العالي والجامعات ومراكز البحث العلمي، وبتطوير الزراعة وتنشيط المؤسسات التجارية والمصرفية والمواصلات وإدخال التصنيع. أما على الصعيد الخارجي فقد عززت الدولة استقلالها بالانضمام إلى عضوية منظمة الأمم المتحدة (١٤ كانون الأول ١٩٥٥).

وقد واجهت البلاد في المرحلة الأولى من حكم الملك حسين (١٩٥٣-١٩٥٦) مسألة تعريب الجيش الأردني بعد إنهاء خدمة القائد البريطاني غلوب، الذي كان من أعمدة نفوذ بريطانية قبل الاستقلال، كما أنهيت خدمات مساعديه الإنكليز. ثم كان على الأردن مواجهة ظروف متقلبة وسريعة في المنطقة، واتخاذ قرارات في مواقف صعبة. فقد عقدت الحكومة الأردنية اتفاقاً عسكرياً مع مصر في عام ١٩٥٦، وقت احتدام أزمة السويس. ثم تمّ إلغاء المعاهدة الأردنية-البريطانية في ١٣ آذار ١٩٥٧، واستتبع ذلك جلاء القوات البريطانية عن قاعدتي المفرق والعقبة، فغادر آخر جندي بريطاني ميناء العقبة في ٧ تموز ١٩٥٧. وعند قيام الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسورية

عام ١٩٥٨ سارع الأردن إلى الاشتراك مع حكومة العراق الملكية الهاشمية في تأسيس دولة الاتحاد العربي من البلدين في ١٤ تموز من السنة نفسها. ولكن في تلك الظروف المضطربة التي كان يمر بها الشرق العربي عادت القوات البريطانية إلى الأردن ومكثت في البلاد بعضاً من الوقت.

وبعد تزايد حدة المجابهات على خطوط الهدنة العربية - الإسرائيلية عام ١٩٦٦ اندلعت الحرب عام ١٩٦٧، وأدت إلى احتلال إسرائيل ما كان قد تبقى من فلسطين والقدس، إضافة إلى سيناء في مصر والجولان في سورية. وفُرضت الإدارة العسكرية لقوات الاحتلال على الضفة الغربية الفلسطينية، وتقدمت القوات الإسرائيلية وانتشرت على طول الضفة اليمنى لنهر الأردن وعلى امتداد خطوط الهدنة الجديدة، مما سبب تهديداً خطيراً للمملكة الأردنية الهاشمية. وما يزال هذا الوضع قائماً حتى اليوم.

وإضافة إلى التهديد الخارجي ازداد الوضع الداخلي خطورة عندما وقعت اصطدامات مسلحة مع بعض القوات الفلسطينية في بعض مناطق الأردن (١٩٦٩-١٩٧١) انتهت إلى تشديد قبضة الدولة في داخل البلاد وإلى فرض ترتيبات أمنية مشددة على امتداد خطوط الهدنة الأردنية - الإسرائيلية، ولا سيما بعد إحباط محاولة إسرائيلية لاجتياز خط الهدنة واحتلال موطئ قدم على الضفة الشرقية للنهر (معركة الكرامة). وعندما قامت الحرب العربية - الإسرائيلية (١٩٧٣) انضمت قوات أردنية إلى الجيوش العربية المحاربة من مصر وسورية وقامت بدور المساندة. ولكن جهود الدولة انصرفت بعد ذلك إلى تقوية الجبهة الداخلية لمواجهة انقسام الموقف العربي بعد أحداث جسام في المنطقة: اتفاقيات كامب ديفيد والصلح بين مصر وإسرائيل (١٩٧٨-١٩٧٩) وحرب الخليج الأولى بين العراق وإيران (١٩٨٠-١٩٨٩) ثم احتلال العراق دولة الكويت وحرب الخليج الثانية (١٩٩٠-١٩٩١).

ج. ت

الأدب

على المتصدي لدراسة الأدب في الأردن أن يكون معنياً بمعرفة الحدود الزمانيّة والمكانيّة لهذا الأدب، وتحديد مفهوم سياسي جغرافي، يعتمدُ عليه في دراسته، لمعرفة كيف نشأ هذا الأدب، وكيف ترعرع؟ وما المؤثرات التي أسهمت في نموه ونضجه؟ فالدراسات التاريخية وأحداث القرن العشرين تُشير إلى أن الأردن قبل إنشاء الإمارة سنة ١٩٢١ كان جزءاً من سورية الطبيعية، وكان يشمل شمالي فلسطين والأردن اليوم، وكان مسرحاً للتخلف وانتشار الأميّة والغزو القبلي، وسياسة التتريك. فلم تُشر الدراسات إلى مدارس تعلم العربية والأدب الفصيح، وإنما تناقل الأجداد ألواناً من الشعر العامي والزجل والأدب الشعبي، ولم يشر الدارسون إلى أجناس أدبية منشورة أو مأثورة عن أدباء أردنيين في أثناء الحكم التركي.

إن المتابع للحركة الأدبية في الأردن يمكن أن يرصد مسارها من خلال مراحل ثلاث هي: الأدب زمن الإمارة (١٩٢١-١٩٤٦)، والأدب ما بين النكبة والنكسة (١٩٤٧-١٩٦٧) أو زمن وحدة الضفتين، والأدب ما بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ حتى اليوم. وهذا عرض سريع لهذه الاتجاهات الثلاثة.

الأدب الأردني زمن الإمارة الأردنية: لا بدّ من الإشارة إلى طبيعة ارتباط الأردن ببلاد الشام حتى أواخر الحكم العثماني وإلى هيمنة الغزوات القبلية على العلاقات بين القبائل وسكان الريف، وندرة التعليم وغياب الصحف والمجلات والمدارس التي تعلم العربية، وكان التعليم ينحصر في الكتاتيب ومدارس الشيوخ التي لاتعدو ثقافتها ومناهجها القليل من مبادئ الحساب، والتركيز على حفظ القرآن وكتابة الخط العربي، فقد أنشئت أول مدرسة ثانوية أردنية عام ١٩٢٣م، بعد مجيء الأمير عبدالله بسنتين اثنتين، وتخرّج الفوج الأول فيها عام ١٩٢٨م.

كان للإمارة دور قومي ووطني وثقافي وأدبي، واعتمد الأمير عبدالله بن الحسين على المثقفين والأدباء من أبناء سورية ولبنان والحجاز والعراق والمستنيرين من العرب ممن وفدوا إليه بعد سقوط الحكومة العربية إثر معركة ميسلون عام ١٩٢٠م، وأدى ذلك إلى تجاوب الإمارة مع المجتمع العربي الجديد، فهو مجتمع مركب من حملة الأفكار القومية والوطنية، واستقطب الكتّاب والمربين المعبئين بالشعور الوطني المقاوم للاستعمار والتخلف والتجزئة، وأقام بعضهم بضع سنين، ومنهم خيرالدين الزركلي من سورية وفؤاد الخطيب من لبنان، وبعضهم الآخر أقام في الأردن واستقر فيه وحصل على الجنسية الأردنية، مثل نديم الملاح الشاعر اللبناني وحمد الشريقي الشاعر الصحفي الذي أنشأ جريدة «الشرق العربي» أول جريدة أردنية تصدر في عمان بعد إنشاء الإمارة، وتيسير ظبيان الصحفي السوري الذي نقل جريدته «الجزيرة» من دمشق إلى عمان عام ١٩٣٩، وفتح صفحاتها لحركة أدبية مزدهرة، تلاقى فيها الكتّاب العرب والشعراء على اختلاف مذاهبهم ومناهج حياتهم، وكانت صوتاً داعياً للوحدة العربية، تناوئ الاستعمار الفرنسي والبريطاني، وتعرّضت للإغلاق مرّات، وأسهمت في رعاية الأدباء الأردنيين الشباب، وشجعت الحركة النقدية، وأسهم الأمير عبدالله بنفسه في الكتابة فيها، وكان أديباً فصيحاً يجمع في بلاطه الأدباء والشعراء ويحاورهم ويساجلهم في الشعر وتاريخ الأدب، ويقصدُه الشعراء العرب، وله ديوان شعر وأعمال أدبية كاملة منشورة.

وصدرت عشرات المجلات والجرائد زمن الإمارة، وعلى صفحاتها نشرت المئات من القصائد والمقالات الأدبية والقصص القصيرة، وهذا مهد لإنشاء حركة أدبية أردنية من حدود نقطة الصفر، فالأدب مرتبط بالاستقرار ورعاية الدولة له، ولا ينسى أثر المثقفين العرب الذين تجمعوا في الأردن بعد سقوط الحكم الفيصلي في دمشق وإسهامهم في إرساء قواعد الحركة الأدبية الأردنية.

ففي زمن الإمارة ازدهر الشعر والنثر ونهض الأدب على أيدي رواد من أبناء الأردن الأصليين، فقد كان (عرار مصطفى وهبي التل) شاعر الأردن الأول يمثل هذه المرحلة خير تمثيل، قال شعراً فصيحاً منظوماً أقرب إلى روح الشعب، وكان صوتاً جريئاً ناطقاً باسم فقراء الأمة ومظلوميها، وتناول في شعره الخمرة وعني بحياة الغجر الفئة المسحوقة التي تنتمي إلى أصول غير عربية، وتعيش في الأردن، وتمتهن العزف على الآلات الموسيقية والتسوّل، وتعيش متنقلة من قرية أردنية إلى أخرى، وظل حب الوطن هاجس الشاعر الأول.

وفي حقل النثر، كان محمد صبحي أبو غنيمة أول من كتب «أغاني الليل»، وهي مجموعة قصص اجتماعية وأخلاقية وأدبيّة، وخواطر متقدمة في فن الأدب في هذه المرحلة

من عمر الإمارة الأردنية، وكان أبو غنيمة شاعراً مقلاً.

ومهد هذان الأديبان الأردنيان الدربَ لجيل أنتج أدباً ذا مضمون قوميّ وحدويّ مقاوم للاستعمار والتخلف، وذا مضمون فلسفي وإنساني وسياسي يسعى إلى إحداث تغيير ونقلة حضارية، في أداء تعبيريّ راق وفصاحة لغة أهلاهما ليكونا رائدين في الأردن، وكان هناك شعراء أدنى قامة منهما، وبعضهم نضجت تجربته بعد عهد الإمارة، وظهر في هذه المرحلة ديوانان شعريان هما: «هياكل الحب» لحسني فريز، و«أطياف وأغاريد» لحسني زيد، أما شعر عرار فلم يطبع إلا بعد وفاته سنة ١٩٤٩م.

وفي مجال القصة الطويلة ظهر في الإمارة كتاب «ذكريات» لشكري شعشاعة عام ١٩٤٥، وكتاب «أين حماة الفضيلة؟» لتيسير ظبيان، وقد نشره في حلقات في جريدة «الجزيرة».

أما القصة القصيرة فكانت لوناً أدبياً كتبه بعض الأدباء ولم يتخصص فيه أديب محدد في مرحلة الإمارة الأردنية، ولكنهم نشروا عشرات القصص في المجلات والصحف، ولم تصدر فيها أيُّ مجموعة قصصية.

الأدب الأردني بعد وحدة الضفتين (١٩٥٠-١٩٦٧): نزح إلى الأردن بعد نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ نحو نصف مليون لاجئ فلسطيني إلى الضفة الشرقية، واجتمع أهل الضفة في أريحا وقرروا الانضمام إلى الأردن في دولة واحدة عام ١٩٥٠، وتشتتت بقية الشعب الفلسطيني في ربوع الأرض، وأصبح المجتمع الأردني مركباً من فلسطينيين وأردنيين بنسبة متقاربة، تجمعهم هويّة أردنيّة فلسطينية موّحدة، وظهر أدب جديد يمثل هذا الاتجاه الجديد، فقد تضاعف عدد السكان، واتسعت مساحة الوطن، وكثر عدد المدارس والمتعلمين وخريجي الجامعات ونشطت حركة الثقافة والأدب، ونشأ حوار دائم حول الهم الفلسطيني، وظهرت اتجاهات أدبية متنوعة تحمل سمات هذه المرحلة، وصدرت أجناس أدبية منشورة، إضافة إلى كثرة المنتديات الأدبية وازدياد عدد الصحف، وأنتج ذلك أدباً ذا مضمون متنوع الاتجاهات، فهناك أدباء فلسطينيون أردنيون كتبوا الرواية والقصة مثل جُمعة حمّاد ومفيد نحلة وأمين شنار، وأدباء أردنيون كتبوا هذا اللون الأدبي مثل عيسى الناعوري وحسني فريز وسليمان المشيني. وهناك شعراء أردنيون فلسطينيون مثل: خليل زقطان وفدوى طوقان، وجمعة حماد، وأسد محمد القاسم، وأمين شنار، وأيوب طه، ورجا سمرين، وكمال ناصر، ويوسف الخطيب، نظموا شعراً تقليدياً وشعراً حراً، أما أشهر شعراء الضفة الشرقية من الأردنيين فهم حسني فريز وعبد المنعم الرفاعي، أما أشهر شعراء الشعر الحر في هذه المرحلة فهم عبد الرحيم عمر، وتيسير سبول، وحيدر محمود، وأسد محمد القاسم.

وفي هذه المرحلة صدر نحو ثمانين ديوان شعر وعشر روايات، وفي مجال القصة القصيرة ظهر سيف الدين الإيراني وله خمس مجموعات قصصيّة، وأمين فارس ملحس، ومحمد أديب العامري.

مرحلة ما بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ حتى اليوم: كان عقدا الخمسينات والستينات مرحلة التأسيس للأدب الأردني الحقيقي، ففيهما نشأت المجلات الأدبية المتخصصة التي ترعى الأدب وتشجع الأدباء، فقد أصدر عيسى الناعوري مجلة «القلم الجديد» في عام ١٩٥٢، وأصدر أمين شنار مجلة «الأفق الجديد» في عام ١٩٦١، وكانت لسان حال المثقفين الأردنيين، جمعت الشباب والشعراء والقصاصين على صفحاتها، تنشر إنتاجهم أسبوعياً، طوال خمس سنوات (١٩٦١-١٩٦٥)، وبعدها أصدرت دائرة الثقافة والفنون في الأردن مجلة «أفكار» عام ١٩٦٦، ولا تزال حتى اليوم، وتتبنى الأدب الأردني أولاً، والعربي ثانياً. وفي هذه المرحلة تعددت المنابر الأدبية وكثر التأليف، ونشأت رابطة الكتّاب الأردنيين عام ١٩٧٦، وضمّت مئات الشعراء والكتّاب في أنشطتها، وغذّى الإعلام الأردني والصحف والمجلات الأردنية برامجه وطاقاته بألوان أدبية كثيرة، وكثرت الدراسات النقدية في هذا الأدب، ويمكن القول إن عدد دواوين الشعر الأردني قد نيفت على أربعمئة ديوان شعر، وثمانين رواية ومئة مجموعة قصصية قصيرة، إضافة إلى مئات الكتب التي تناولت الخواطر الأدبية.

أما موضوع الدراسات الأدبية الأردنية فإن أوائل هذه المراجع التي تخصصت في الأدب ولها فائدتها ودورها هي دراستا ناصر الدين الأسد: الاتجاهات الأدبية في فلسطين والأردن، والشعر الحديث في فلسطين والأردن، وقد ربطتا الأدب الفلسطيني والأردني معاً، من دون تحديد، وركزتا على أدب الإمارة، ولكنهما عبدتا الدرب للسالكين والباحثين، وكانت دراستا سمير قطامي: الحركة الأدبية في شرقيّ الأردن، والحركة الأدبية في الأردن قد عالجتا الأجناس الأدبيّة المختلفة من دون تركيز على جنس أدبي بعينه، وفي الشعر نشأت دراستان: الحركة الشعرية في الضفة الشرقية لعيسى الناعوري، ودراسة محمود محسن مهيدات: اتجاهات شعراء شمال الأردن، فقد اهتمتا بالشعر في إطار ضيق، وركّزت دراسة فواز طوقان: الحركة الشعرية في الأردن، على الجانب الإحصائي الوصفي في صفحات قليلة، واتسمت دراسة إبراهيم خليل: الشعر المعاصر في الأردن بأنها مجموعة مقالات نقدية لعدد محدود من دواوين الشعر الأردني.

وجملة القول إن الأدب الأردني في الصف الثاني من الأدب العربي من حيث جودة الإنتاج وسلامة البناء الفني وسعة الانتشار، فلم يُتح لشاعر أن يتجاوز الحدود الأردنية وأن يدّرس شعره في مناهج الدول العربية المجاورة، ولا يزال القصاصون الأردنيون في دائرة الشهرة المحلية لأن تجربتهم لم تنضج بعد، وهذا يعود إلى أن الحركة الأدبية ولدت متأخرة، وأن النبوغ الأدبي والأعمال الأدبية المتقدمة لم تظهر بعدُ بصورتها الجلية.

ومن الأدباء الواعدين الذين يكتبون بكثرة، ويهيمنون على وسائل الإعلام الأردنية الشعراء محمد القيسي وإبراهيم نصرالله، وفي مجال القصة والرواية جمال ناجي ومؤنس الرزاز وسالم النحاس، وفي مجال المقالة الأدبية والخاطرة إبراهيم العجلوني وطارق مصاروة وخالد محادين وخالد الساكت، وفي مجال الدراسات التراثية للأدب يبرز ركس العزيزي ويعقوب العودات (البدوي الملثم)، وعبد الحليم عباس، وفي مجال القصة القصيرة تحديداً يظهر فخري قعوار ومحمود الريحاوي وبدر عبد الحق.

محمد عطيات

الموسيقى

كانت الموسيقى في الأردن فيما مضى مقتصرة على الموسيقى والغناء الشعبيين، ولكنها غدت اليوم متنوعة، وتعد في قديمها وحديثها جزءاً من الموسيقى العربية [ر]، وإن

كانت ذات خصوصية تفرضها بعض العوامل مثل الموقع الجغرافي والتكوين الاجتماعي.

يشبه الغناء البدوي الأردني غناء البدو العرب في الصحارى المختلفة، ومن صفاته أنه لحن قصير بسيط، وله مجال صوتي ضيق، والنغمات فيه متوالية تدور حول صوت النهاية، وتندر فيه التزيينات، وإيقاعه رتيب ذو وحدات زمنية متساوية. ولكل قالب غنائي عدد من الوحدات يلتزمه المغني: فالهجيني مثلاً يتألف من اثنتي عشرة وحدة، والسامر من ثماني وحدات. ويعتمد هذا الغناء التكرار والأداء بالتناوب فيما بين مؤد فرد ومرددين يكونون من أبناء العشيرة عادة. وهناك رقصة ترافق غناء السامر أو القصيد يرقصها الرجال في حلقة تشاركهم فيها فتاة في الوسط (الحاشي). ويرافق الغناء البدوي بآلة الرّبابة أحياناً.

أما الغناء القروي فمشابه لما هو موجود في بلاد الشام من غناء الرقص (الدبكات)، وما ارتبط بالموّال أو ما له علاقة بالزجل. وهناك أنواع هجينة تجمع صفات الغناء البدوي والقروي مثل «الحدادي». والألحان القروية قصيرة متكررة غالباً ومجالها الصوتي ضيق نسبياً ولكنها تحتوي بعض التزيينات اللحنية. ويمكن تعرف أجناس بعض المقامات العربية في الغناء القروي. وليس فيه رتوب الإيقاع البدوي. وقد ترافق هذا الغناء آلات الشبابة والمجوز والأرغول والدربكة. وأكثر ما يؤديه مغن أو قوّال يتناوب مع مجموعة للغناء من أبناء القرية، وأكثر رقص القرويين من أنواع الدبكة.

أما الموسيقى الحديثة في الأردن ففيها عدة اتجاهات موسيقية منها ما اعتمد التراث الشعبي أساساً، إحياء له أو تقليداً، ومنها ما تأثر بالمد الأجنبي، ومنها ما اعتمد التراث العربي التقليدي أساساً، ولكن يلحظ فيه تأثير الأسلوب المصري على وجه الخصوص، ومن أسباب ذلك أن عدداً من رواده درسوا في مصر، وهناك أثر سوري كذلك. وقد انتشر غناء الموشحات وظهرت أغان ومعزوفات مقامية وذات إيقاع تقليدي، كما ازدهر العزف على العود، وهنا يمكن تلمس الأثر العراقي، وكذلك العزف على الآلات التقليدية الأخرى. وأسهمت فرقة الإذاعة الأردنية إسهاماً فعّالاً في هذا الأسلوب.

أما الموسيقى والغناء المتأثران بالمد الأجنبي فلم يحظيا بنجاح كبير إلا أن لهما روادهما. وبعض إنتاج هذا النوع مقلد للموسيقى الترفيهية والراقصة الأجنبية، ويقتصر على فرق تعمل في الفنادق والمتنزهات، وقد يأخذ بعض مناحي تقليدية سائدة عالمياً، ولكن ذلك لا يمنع من أن «يُطعّم» في حالات بصبغة وطنية عربية.

ولقد اهتمت عدة جهات أردنية برعاية الموسيقى والرقص بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية: من بينها القوات المسلحة التي ألفت فرقتها أو فرقها الموسيقية، ودائرة الثقافة والفنون، وجامعة اليرموك، والمعهد الوطني للموسيقى، ورابطة الموسيقيين الأردنيين، وفرقة الرقص الشعبي. وتقام في الأردن مهرجانات فنية وموسيقية سنوية من بينها مهرجان جرش. وكذلك تسهم الإذاعة والتلفزيون في نشر الأعمال الموسيقية والغناء المحلي والعربي وتطوير الموسيقى المرافقة للمسلسلات والبرامج.

المسرح والسينما

قبل إنشاء قسم المسرح في دائرة الثقافة والفنون عام ١٩٦٦ كانت الحركة المسرحية محدودة في محاولات متفرقة وقليلة قامت بها مجموعات غير مستقرة. إلا أن العمل المسرحي تركز في عمان، وظهر المسرح الذي أقامته دائرة الثقافة والفنون، ومسرح الجامعة الأردنية، وأنشئت رابطة المسرحيين الأردنيين، وأحدثت دراسة تخصص للمسرح في جامعة اليرموك.

بدأت الحركة المسرحية في تقديم مسرحيات عالمية ثم توالت عروض المسرحيات العربية والمحلية ذات الموضوعات المتنوعة من تاريخية وتربوية وغنائية وهزلية وغير ذلك. ومع منافسة التلفزيون فقد استمر المسرح في الأردن يخطو خطوات واسعة في مجال الفن المسرحي. وهناك أسماء كثيرة لامعة في عالم المسرح الأردني ولاسيما ما يتصل منه بالتلفزيون والتمثيليات الإذاعية.

أما السينما فلم تحظ في الأردن بالازدهار الذي حظي به المسرح. ولكن بعض المحاولات كانت ناجحة مع ضيق الموارد، وقلة الأجهزة والخبرات السينمائية، وندرة المؤسسات المتخصصة. وقد ظهرت أفلام إخبارية ووثائقية منذ عام ١٩٤٨. ومع إنشاء دائرة الثقافة والفنون أنشئت دائرة السينما والتصوير ولكن سرعان ما دُمجت هذه الدائرة بمؤسسة التلفزيون. ولعل أهم ما نفّذ من أفلام ما أخرجه عدنان الرمحي ومصطفى أبو علي. وقد اجتذب التلفزيون سينمائيين من أمثال عباس أرناؤوط، ومحمد علوة الذي أخرج فيلماً قصيراً بعنوان «الحذاء»، ومع ذلك فإن الجهود تستمر في تطوير الإنتاج السينمائي.

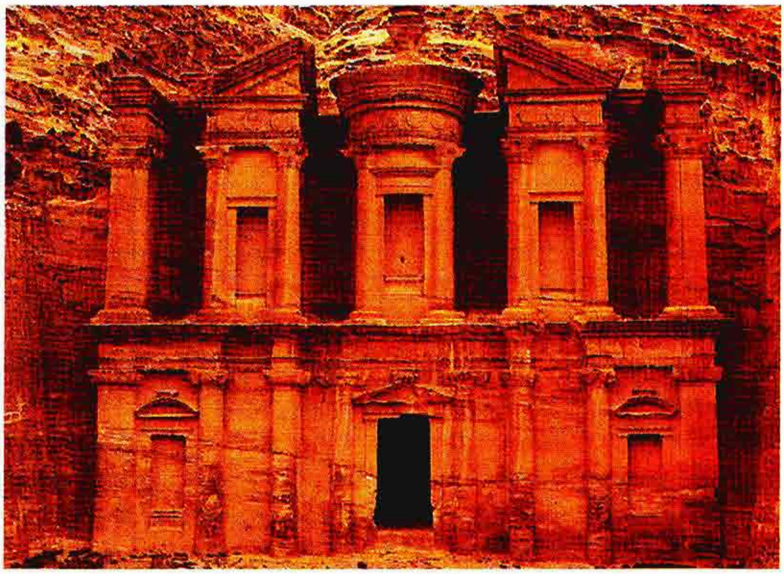
عبد الحميد حمام

الفن والعمارة

يرتبط الفن والعمارة في الأردن ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الفن وأنماطه في المنطقة العربية المجاورة كلها. وقد كان لنهر الأردن كبير الأثر في منطقة بادية الشام إذ مهّد لظهور حضارات تركت آثاراً كثيرة ومهمة في فنونها التشكيلية والمعمارية. فالأردن اليوم من البلاد الغنية بتراثها الفنّي الموغل في أعماق تاريخ الإنسان على الأرض من العصر الحجري الذي يعود إلى الألف الثاني عشر قبل الميلاد حين كانت الأراضي الأردنية المتاخمة لنهر الأردن منطقة صيد، وتدل على ذلك أدوات الصوّان المكتشفة في مناطق مختلفة وكذلك في جبل الطبيق حيث وجدت رسوم محفورة على الصخر. كما وجدت في وادي الأردن منحوتات من العهد النطوفي الذي يعود إلى الألف العاشر قبل الميلاد في موقع سيل الحمة قرب طبقة فحل، ومن العهد النيوليتي الذي يعود إلى الألف الثامن قبل الميلاد، وقد أظهرت الحفريات في موقع قرية عين غزال قرب عمّان أوابد نادرة من الألف السابع ق.م. وهي تماثيل آدمية من الجص ومنها ماهو جذعٌ ذو رأسين. ومن فنون العهد النيوليتي في الأردن أيضاً فخاريات امتازت بزخارفها الهندسية وهي تقارب مثيلاتها الرافدية من عهد «عُبيد» في الألف الخامس ق.م.

وقد عثر في موقع تليلات الغسّول في وادي الأردن (٤٥٠٠-٣٠٠٠ق.م) على رسوم زخرفية ملوّنة على جدار مسكن مطلي بالجص. ويأتي عهد التعدين من الألف الثالث ق.م. الذي تعود إليه مكتشفات حفريات تل السلطان (منطقة جرش) وهي آثار مساكن مستديرة وأخرى مربعة. كما عثر في حفريات منطقة عمّان على آثار للفنون المصرية والإيجيّة والقبرصية تعود إلى الحقبة بين ١٩٠٠ و١٣٠٠ ق.م.

وكانت الأراضي الأردنية بحق مهداً لحضارة لامعة وهي الحضارة النبطية التي امتدت من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثاني بعده، وتركت أوابد كثيرة أهمها عاصمتها البتراء.



مبنى الخزنة في البتراء، القرن الأول الميلادي

ولقد تمت حتى اليوم دراسة نحوٍ من ثلاثة آلاف ومئتي معلم من معالم البتراء ومن ذلك قبور الأمراء والفرسان وبعض المعابد والأبنية العامة؛ وجميع تلك المعالم محفورٌ في الصخر ولها واجهات تمثل إبداعات العمارة العربية النبطية المتأثرة بالفنيّن الرافدي والهلنستي السوري، وكان العمود النبطي الابتكار المحلي لتلك العمارة. وقد تم الكشف عن بقايا زخارف جصيّة كانت تزين واجهات البتراء المنحوتة في الصخر، كما كانت الجدران الداخلية في بعض تلك المنشآت مغطاة بزخارف جصيَّة أيضاً، بعضها ملوّن أو يحمل صوراً للطيور والنباتات والحيوانات الخرافية.

وتعود إلى عهد الأنباط كذلك المعالم الباقية لمدائن صالح (العُلا) في شمالي الجزيرة العربية وهي قبور ذات واجهات ضخمة محفورة في الصخر ومتفردة الأسلوب، وعلى بعضها منحوتات تمثل طائر العقاب.

وامتازت صناعة الفخار في الأردن في العهد النبطي بالمهارة ونعومة الملمس ورقة الجدران وكان الفخار يزيّن برسوم هندسية وبألوان كالأحمر والبني والأسود؛ كما راجت صناعة الأسلحة والحلي والزجاج في العهد النبطي. وكان النحت النبطي متطوراً، ومن ذلك منحوتة الإله هيليوس ومنحوتة إيروس ورأس الإله هرمس وهي جميعها هلنسيّة أما نصب العزّى فهو مثال لفنون العرب قبل الإسلام لما في هذه المنحوتة من تحوير ورمزيّة وكتابة نبطية.

ضمَّ الامبراطور الروماني تراجان (ترايانوس)، في السنة ١٠٦م، المملكة النبطية إلى الامبراطورية الرومانية، وتم بعد ذلك وضع مخطط تنظيمي عام لمنطقة الأردن فظهرت جرش بمعابدها وملاعبها وأوابدها التي تتحدث عن العراقة والعظمة وأهمها المسرح الكبير والأعمدة الرومانية والقلعة. ومن تلك المرحلة أيضاً مسرح فيلادلفية (عمّان) المدرّج.

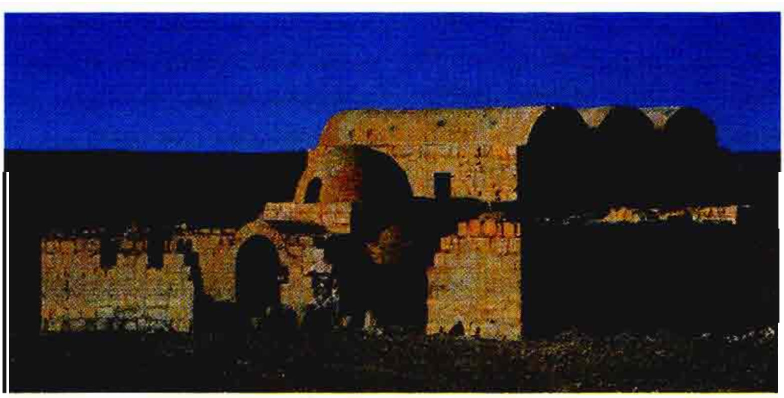
وأما فن الفسيفساء الأرضي في شرق الأردن في العهد البيزنطي (القرنين الخامس والسادس الميلاديين)، فالمثال عليه ما وجد في مدينة مأدبا التي كانت مركزاً مهماً لهذا الفن. من أشهر القطع التي تم الكشف عنها لوحة تمثل خريطة الأرض المقدسة رسمت عليها مواقع الزيارات وكتبت أسماؤها بالحرف البيزنطي، ولوحة أخرى تمثل ملكات ثلاثاً ترمز إلى مدن مأدبا وغريغورية ورومة.

أمّا التراث العربي الإسلامي الموجود في المملكة الأردنية فيتمثل في المواقع الأثرية في البادية السورية، فقد كان مداً أموياً أينعت الصحراء به واشتمل على القصور وأعمال الري واستصلاح الأراضي. ومن أشهر تلك القصور قصيّر عمرة وقصر المشتى.

بنى قصيّر عمرة الخليفة الوليد بن عبد الملك في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي وكان مقراً لإقامة الخلفاء الأمويين في مواسم معينة ويقع في نهاية التعاريج الأخيرة لهضبة الأردن على مرتفع قريب من وادي بطوم. ويحوي القصر صوراً ما تزال بحالة جيدة وتعد وثيقة مهمة للفن العربي الإسلامي في بداياته حين كان متأثراً بالفنَّين البيزنطي السوري والساساني، وكان في مسيرته نحو إيجاد شخصيته المتميزة.

يتالف القصر من مجمّعين، الأول بناء مخصص لسكنى الخليفة والحمّامات، والثاني قلعة صغيرة فيها غرف تطل على فناء كانت مخصصة للحاشية، وبين المجمّعين برج مراقبة، كما وجدت في الموقع آثار ساقية وناعورة وبئر.

كانت قاعة القصر الكبرى تقسم إلى ثلاثة أقسام بقوسين كبيرين يمران بطول القاعة، وتلي تلك القاعة قاعة العرش تحيط بها غرف النوم. يضاف إلى ذلك الحمّامات وهي أربع غرف



قصيّر عمرة



تصوير جداري من قصيّر عمرة

مقببة، وفيها أمكنة البخار والسخّان وأحواض الغطس، وكلها مجهزة بانابيب فخارية لتوزيع المياه وصرفها.

تتوزع زخارف قصيّر عمرة على الجدران والأقواس والقباب وهي بين هندسية ونباتية وآدمية تمثّل في الغالب نساءً مستحمات، وهناك صورٌ لأبراج السماء ومشاهد الصيد. وقد فرشت أرضيات الغرف بالفسيفساء الهندسي.

وأما قصر المشتّى فهو من قصور البادية التي كانت للصيد والاستجمام، ويعود إلى منتصف القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ويقع اليوم في المملكة الأردنية الهاشمية على مسافة ٣٥ كيلومتراً جنوب عمّان.

يتألف القصر من سور حجري مربع الشكل يبلغ ضلعه نحو ١٤٤ متراً يحوي ثلاثة أجزاء تفصل بينها جدران لم يبق منها سوى أساساتها. تتوزع الغرف في القصر بمجموعات تشكّل وحدات تحيط بفسحات سماوية في وسط كل واحدة منها بركة ماء. ولأحد مداخل القصر بهوٌ متبوع بفسحة سماوية وللمدخل الآخر بهوٌ بازيليكي المسقط وواجهة بثلاثة أقواس وفي صدر البهو ثلاثة محاريب.

وقد احتوى القصر على مسجد وعلى أبراج نصف دائرية في سوره الخارجي. أما الواجهة الجنوبية للقصر فتقع بين برجين وهي مزخرفة بمثلثات متقابلة في أطرٍ من الزخارف الجصيّة البارزة (نقلت إلى متحف برلين في بداية هذا القرن).

الفن المعاصر والعمارة في الأردن

بذلت في الأردن في عقود القرن العشرين الأخيرة جهود حكومية لتشجيع الفن التشكيلي خاصة، وفتحت بعض صالات العرض أبوابها للتصوير والنحت والرسم والحفر والزخرفة، كما تابعت الفنون التطبيقية التقليدية والمهن اليدوية مسيرتها كالخط العربي والبسط والسجاد والجلديات والفخار والخزف والتطعيم بالصدف وتماثيل خشب الزيتون الصغيرة.

لقد أقام «المنتدى العربي» في الأردن أول معرض جماعي للفنانين الأردنيين سنة ١٩١٥م، وتأسست «ندوة الفن الأردنية» سنة ١٩٥٣م، وتأسست كلية الفنون الجميلة في جامعة اليرموك سنة ١٩٨٠م. أما الجمعية الملكية للفنون الجميلة فقد تأسست في عمان سنة ١٩٧٩م، وقامت ببناء المتحف الوطني الذي افتتح سنة ١٩٨٠م، ويضم اليوم أعمالاً فنية للفنانين الأردنيين وأعمالاً للفنانين العرب.

وقد نشطت حركة العمران والبناء في الأردن منذ أوائل القرن العشرين وازدانت المدن الرئيسة بأبنية حكومية ومساكن خاصة مشيّدة بالحجر الأردني الجميل، وبرع المعمار الأردني بأساليب العمارة العالمية المعاصرة في محاولة لتطويعها للمناخ المحلي وتطعيمها بعناصر مستوحاة من التراث العربي.

إلياس الزيات

الموضوعات ذات الصلة:

ـ سورية ـ السينما العربية ـ عبدالله بن الحسين
العراق ـ فلسطين ـ المسرح العربي ـ الموسيقى العربية.

مراجع للاستزادة:

ـ حسن صالح، الموارد الغذائية في الأردن (دار الشروق، عمان ١٩٨٥).
ـ صالح الخصاونة، «الهجرة الأردنية العائدة: خصائصها وأسبابها وآثارها»، مجلة العمل، العدد ٣٨ (وزارة العمل الأردنية ١٩٨٧).
ـ صلاح الدين بحيري، جغرافية الأردن (مطبعة الشرق، عمان ١٩٧٣).
ـ ناصر الدين الأسد، الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن (معهد الدراسات، القاهرة ١٩٥٧).
ـ ناصر الدين الأسد، الشعر الحديث في فلسطين والأردن (معهد لدراسات، القاهرة ١٩٦١).
ـ سمير قطامي، الحركة الأدبية في شرقي الأردن (وزارة الثقافة، عمان ١٩٨٠).
ـ حسان أبو غنيمة، البحث عن السينما الأردنية (النادي السينمائي: عمان ١٩٨٧).
ـ محمود إسماعيل بدر، بانوراما حركة المسرح الأردني (دائرة الثقافة والفنون، عمان ١٩٨٣).
ـ محمود صادق، الفن التشكيلي في الأردن، لجنة تاريخ الأردن (عمان ١٩٩٥م).
_J. B. GLUBB, Story of the Arb Legion.
.G. ANTONIUS, The Arb Awakening.
-W.ALI.S.BISHARAT :Contemporary art from the Islamic world (Amman1989).

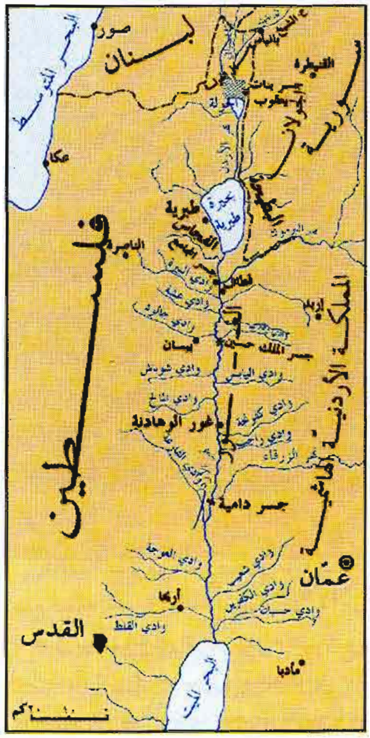
■ الأردن (نهر -)

نهر الأردن نهر آسيوي في بلاد الشام، يجري بين فلسطين في الغرب وسورية والمملكة الأردنية في الشرق، وبين اللحف الجنوبية لجبل الشيخ في الشمال والبحر الميت[ر] في الجنوب. وهو أخفض أنهار العالم وأهم أنهار سورية الجنوبية، يقع واديه على ارتفاع متوسط بين ٧٠ ـ ٩٠م فوق سطح البحر في الشمال في سهل الحولة، وعلى ارتفاع ٤٠٢م دون مستوى سطح البحر في الجنوب قبل مصبه في البحر الميت. ويعتقد أن أصل التسمية كنعانية وتعني «النازل» وعرف عند اليونان بـ«أولون» وعند العرب بـ«الأردن» وبـ«الشريعة والمشرع» أيضاً.

ولنهر الأردن أهمية جغرافية وتاريخية وسياسية وروحية، فهو النهر الداخلي الوحيد المستمر الجريان في سورية الجنوبية، وأهم مصادرها المائية، ويشكل واديه ضمن غور الانهدام العميق حاجزاً طبيعياً استراتيجياً على امتداد ١٦٥كم. ولقد برزت أهميته السياسية نهراً دولياً قامت حول اقتسام مياهه نزاعات تفاقمت بعد إنشاء دولة الكيان الصهيوني. ولنهر الأردن قيمة روحية عند المسيحيين لتعميد السيد المسيح في مياهه في موقع المغطس.

الحوض والوادي

فرض الانهدام السوري ـ الإفريقي على نهر الأردن خط سيره في واد أخدودي عميق تعلوه جوانب شديدة الانحدار بارتفاعات تراوح بين ٣٠٠م في الشمال وأكثر من ٨٠٠م في الجنوب. ويبلغ عرض الوادي ٥ ـ ٢٤كم، وأقصى اتساع له هو في غور أريحا وقرب البحر الميت. أما طول نهر الأردن فيبلغ ٣٢٠كم، ومساحة حوضه ١٧٣٠٠كم² تنتشر على الأراضي اللبنانية والسورية والأردنية والفلسطينية، وحوضه جزء من حوض الأردن ـ البحر الميت ـ وادي عربة البالغة مساحته ٤٣٥٣٥كم². ولقد نشأ النهر في الجزء الشمالي من وادي الانهدام السوري ـ الإفريقي البالغ طوله ٦٠٠٠كم، في أخفض بقاع اليابسة دون مستوى سطح البحر، حيث تشكلت بحيرة طولية كبيرة في أواخر مرحلة البلايستوسين الأوسط من الحقب الجيولوجي الرابع. ولقد ترسبت في هذه البحيرة المعروفة ببحيرة اللسان، نسبة إلى شبه جزيرة اللسان في البحر الميت، مواد طرية من المارن والغرين تمتد من شمال بحيرة طبرية حتى جنوب البحر الميت بمسافة ٣٠كم. ومع تراجع بحيرة اللسان وزوال معظمها حتى لم يبق منها اليوم سوى بحيرة طبرية والبحر الميت، أخذ نهر الأردن بالتشكل، وحزّ واديه في توضعات اللسان منذ نهاية البلايستوسين وتعمق فيها حتى أخذ شكله الراهن.



مصادر المياه

يتزود نهر الأردن بمياه الأمطار والسيول والينابيع والأنهار التي تكونه وترفده وترتبط كلها بما يهطل على حوضه من أمطار وثلوج. وتتركز المنابع والروافد الدائمة في المجريين الأعلى والأوسط، وتكثر السيول ومصادر المياه المؤقتة والفصلية في المجرى الأدنى. وتتمثل المصادر الأساسية للنهر بالينابيع الواقعة شمالي الحوض في الأراضي اللبنانية والسورية، وأهمها ينابيع حاصبيا وبقية الينابيع المشكلة لنهر الحاصباني كالوَزّاني والغَجَر. ويراوح متوسط تصريف الحاصباني السنوي بين ١٥٣ و١٦٢ مليون م^3، بغزارة شتوية متوسطها ٢٠م^3/ثا وأخرى صيفية قدرها ١ر٤م^3/ثا. وتعد منابع الحاصباني العليا في لبنان بداية نهر الأردن. وترفد الحاصباني من الشرق (اليسار) مياه نهر الدان المكونة من اجتماع مياه ينابيع التنور وعين البارد السورية وينابيع تل القاضي الفلسطينية، وكلها تنبثق من النهاية الجنوبية الغربية لجبل الشيخ. ويقدر التصريف السنوي المتوسط للدان بـ ٢٤٠مليون م^3 وغزارته القصوى بـ١٠ر٧م^3/ثا والدنيا بـ٧ر٣م^3/ثا ويضاف إلى مياه الدان ما يأتيه من مياه نهر بانياس الذي يتشكل من منابع تتفجر من حضيض جبل الشيخ الجنوبي الغربي قرب قرية بانياس الجولان في سورية. ويقدر التصريف السنوي المتوسط لنهر بانياس بـ٩٥ مليون م^3 بغزارة قصوى شتوية تصل إلى ١٦م^3/ثا ودنيا صيفية تنخفض إلى ٢م^3/ثا. أما نهر البريغيث القادم من منطقة مرج عيون اللبنانية فلايحمل سوى ٥ ملايين م٣ من المياه سنوياً، نتيجة استغلال تصريفه الأكبر في لبنان. إن ترافد الأنهار المذكورة في سهل الحولة شمالي فلسطين يشكل نهر الأردن الذي كان يصب في بحيرة الحولة ومستنقعاتها حتى جففت عام ١٩٥٨. ويجري النهر اليوم إلى بحيرة طبرية الواقعة دون مستوى سطح البحر (-٢١٢م)، ليخرج منها بتصريف سنوي متوسط يراوح بين ٤٩٠ و٥٤٠ مليون م^3. وبعد مسافة ٨كم ترفده من اليسار مياه نهر اليرموك البالغ تصريفها السنوي المتوسط ٤٦٠ مليون م^3، وغزارة قصوى تصل حتى ١٠٠م^3/ثا ودنيا تنخفض إلى٣ر٧م^3/ثا. ويدعى الوادي الممتد من بحيرة طبرية حتى البحر الميت بالغور ويشكل المجرى الأدنى للنهر، ويقع بأكمله دون مستوى سطح البحر. وتظهر ترسبات بحيرة اللسان القديمة على جانبي الغور على مستوى يعلو أرض الزور (السهل الفيضي) بـ٢٠ ـ ٤٠م. وتفصل بين مستوى الزور وترسبات اللسان أراض وعرة مخددة تعرف بـ«الكُتّار». ويتميز مجرى النهر هنا بغناه بالأكواع النهرية المترنحة في جسم مواد السهل الفيضي، ويتلقى مياه الكثير من الأودية السيلية التي يتحول بعضها إلى أنهار دائمة الجريان في مجاريها الدنيا لتفجر بعض الينابيع فيها. وأهم أودية الجانب الفلسطيني هي الفَجّاس والبيرة وعشّة وجالود (دائم الجريان وتصريفه السنوي المتوسط ٧٠مليون م^3) ثم أودية شوباش والمالح والبُقيعة والفارِعة والعَوْجة والقِلْط، أما أهم الأودية على الجانب الأردني فهي أودية العرب وزقلاب واليابس وكفرنجه وراجب والزرقاء وشعيب

والكُفرين وحَسبان. ويقدر تصريف الأودية الفلسطينية بـ ٢٠٠ مليون م٣، وتصريف الأودية الأردنية بـ ١٠٥ ملايين م٣ سنوياً. وينتهي نهر الأردن في البحر الميت بدلتا واضحة حاملاً إليه نحو ٨٧٥مليون م٣ من المياه سنوياً. ولقد كانت هذه الكمية أعلى وتقدر بنحو ١٢٥٠مليون م٣، كما كانت ملوحة المياه أقل، قبل استنزاف مياه الأردن بالضخ من بحيرة طبرية إلى النقب من قبل الكيان الصهيوني، وقبل تحويله المياه المالحة من بحيرة طبرية إليه، إضافة إلى اقتطاع جزء مهم من مياه نهر اليرموك لري أراضي الغور الشرقية.

استثمار مياه نهر الأردن

لم تكن مياه نهر الأردن موضع نزاع أو خلاف بين أصحاب الحقوق التاريخية المتوارثة على امتداد حوضه، ولاسيما أن البقاع المستفيدة من مياهه كانت بيد سلطة واحدة في معظم العهود. لكن الوضع تغير بُعيد اتفاقية سايكس-بيكو وتجزئة بلاد الشام إلى أربعة كيانات سياسية، خُطط لأحدها ونفذ المخطط ليكون دولة للكيان الصهيوني. ونتج عن ذلك تحول نهر الأردن من نهر محلي إلى نهر دولي الصفة. ولقد قضى المخطط المذكور بتوفير احتياجات الكيان الصهيوني من المياه، والسيطرة على مصادر تلك المياه ماأمكن، فتم رسم الحدود السياسية لفلسطين على وجه حقق للكيان الصهيوني معظم ما سعى إليه. ولقد رافق ذلك ظهور الكثير من الدراسات والمشاريع والمقترحات حول استثمار مياه النهر وروافده، وُضع معظمها لخدمة الصهيونية وأهدافها. ويمكن تقسيم هذه المشاريع إلى:

مشاريع ممالئة للكيان الصهيوني ومشاريع عربية صرف ومشاريع ظاهرها تحقيق العدالة في توزيع المياه والحصص على الأطراف المستفيدة ومشاريع صهيونية بحتة قام الكيان الصهيوني بتنفيذها على الرغم من الاعتراض والاحتجاج العربيين. ويرجع بعض هذه المشاريع إلى زمن الانتداب البريطاني والفرنسي على بلدان المنطقة، كمشروع روتنبُرغ لتوليد الكهرباء من مياه اليرموك والأردن، الذي نفذ عام ١٩٢٦، ومشروع تجفيف الحولة الذي لم ينفذ إلا عام ١٩٥٨. أما أول مشروع لاستثمار مياه النهر وحوضه كاملاً فهو مشروع إيونيدس ١٩٣٩، الذي رفضه الصهيونيون، وكلفوا و.ك. لاودرميلك بدراسة الموضوع، فجاءت مقترحاته عام ١٩٤٤ متفقة وأطماع الصهيونية ومخططاتها التوسعية، ولا سيما في مجال نقل مياه الأردن، إلى مناطق أخرى من فلسطين لتأمين عيش ملايين المهاجرين اليهود في المستقبل. وشبيه به ما ورد في مشروع ج.هيز لعام ١٩٤٨ الذي وُضع من دون أن يعير الحقوق العربية أي اهتمام. أعقب ذلك وضع الخطة الإسرائيلية الأولى المكونة من مشروع تجفيف الحولة ومشروع الجليل الأعلى وغور الأردن والجليل الغربي والعوجة-النقب الغربي، ثم العوجة-النقب الشرقي. لكن أهم هذه المشاريع وعمادها هو مشروع تحويل مياه نهر الأردن إلى النقب الذي بدأ العمل فيه منذ ١٩٥٣. وبالمقابل كلفت الحكومة الأردنية شركة مردوخ-ماكدونالد عام ١٩٥١ ثم الخبير م.بونغر ١٩٥٢ ثم شركة بيكر وهيرزا عام ١٩٥٥ دراسة استثمار المياه بحصرها في وادي النهر فقط. وطرحت الحكومة الأمريكية فكرة استثمار موحد عام ١٩٥٣، اعترض عليها الطرفان فاخفقت مفاوضات المبعوث الأمريكي إريك جونستون وجهوده عام ١٩٥٥. وفي ربيع عام ١٩٥٦ تابع الصهيونيون أعمال تحويل مياه نهر الأردن لإيصال ٣٦٠ مليون م٣ من خزان بحيرة طبرية إلى النقب مبدئياً، ورفعها إلى ٥٠٠مليون م٣ فيما بعد. وتمثل الرد العربي بعقد أول مؤتمر للقمة في القاهرة عام ١٩٦٤، وتأليف «هيئة استغلال مياه نهر الأردن وروافده» هدفها تنفيذ مشاريع تمنع الصهيونيين من الاستمرار في مشاريعهم، كما تشكلت قيادة عربية مشتركة لحماية المشروع العربي. لكن هذا المشروع أجهض بعد البدء فيه نتيجة عدم تسديد بعض الدول التزاماتها المالية، ولعدم توافر الحماية للمشروع الذي تعرض للقصف والاعتداء. وجاءت الضربة القاضية للمشروع باحتلال الجولان وجبل الشيخ في عام ١٩٦٧ واحتلال جنوبي لبنان عام ١٩٨٢ من قبل الإسرائيليين، مما جعلهم يسيطرون على جميع منابع نهر الأردن وروافده العليا.

إن استنزاف مياه نهر الأردن وضخها من بحيرة طبرية بهذه الكميات الكبيرة إضافة إلى مايتبخر من سطحها ويقدر بـ ٢٧٠مليون م٣ سنوياً، لابد من أن يؤثر في الأوضاع الجغرافية والبيئية الطبيعية في وادي الأردن والبحر الميت، إذ أخذت ملوحة مياه النهر بالازدياد ومقدار صبيبه في البحر الميت بالتناقص مما أدى إلى انخفاض مستوى البحر وانفصال حوضه الجنوبي عن الشمالي. أما مياه اليرموك فيؤخذ منها قسم لري الغور الشرقي، وهناك مشروع سوري-أردني لبناء سد لاستثمار مياه اليرموك رافد الأردن في موقع المقارن، تم التوقيع على اتفاق بشأنه أواخر عام ١٩٨٧.

عادل عبد السلام

الموضوعات ذات الصلة:

الحولة (سهل-) - الغور - اليرموك (نهر-).

مراجع للاستزادة:

- صبحي كحالة، مشاريع استثمار مياه اليرموك والأردن في الأراضي العربية (نقابة المهندسين بدمشق، دمشق ١٩٦٠).

- E.RISK, The River Jordan (New York 1964).

■ الأردواز

الأردواز slate صخر استحالي metamorphic دقيق الحبيبات ذو بنية نضيدة schistose تسمح بانفصامه إلى صفائح رقيقة وفق مستويات متوازية، ويتميز بمقاومته للعوامل الجوية ومتانة صفائحه وعدم نفاذ الماء والرطوبة فيه وتعدد ألوانه، وهذا ما يجعله مرغوباً فيه في كثير من الاستعمالات الصناعية والعمرانية.

أصل الأردواز الجيولوجي

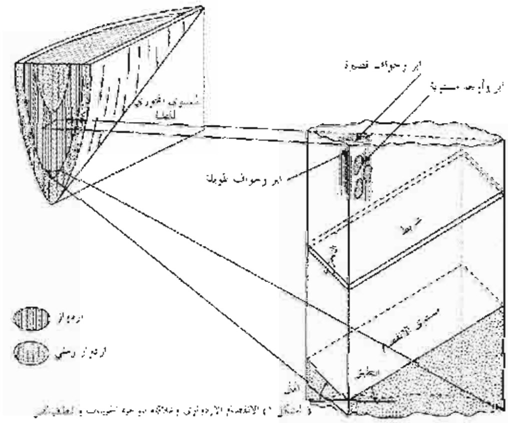
يتكون الأردواز من تحول الصخور الرسوبية الغضارية الواقعة تحت شروط بيئات الاستحالة المنخفضة الدرجة low grade metamorphism التي تتحقق فيها ضغوط عالية وحرارات منخفضة نسبياً.

ويحدث هذا التحول حين تقع هذه الصخور تحت غطاء صخري ثخين، أو حين تخضع

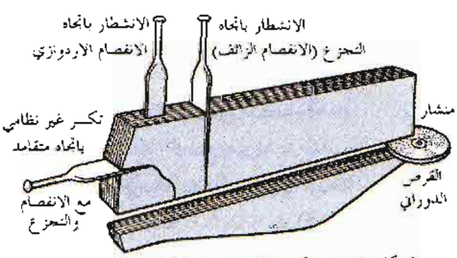
لضغوط الطي الشديد المصاحب للحركات المولدة للجبال.

ويؤدي الضغط الشديد الموجه إلى اعتصار الصخور الغضارية وإحداث تغيرات في تركيبها وبنيتها الأصلية، تتمثل بتكون فلزات minerals جديدة مثل الميكا والكلوريت وظهور بنية نضيدة تتوجه فيها الفلزات الصفائحية أو المتطاولة والإبرية وفق مستويات تقع عمودياً على اتجاه الإجهاد stress المطبق على الصخور وتوازي المستويات المحورية لطياتها، وهذه البنية هي التي تكسب الأردواز قابلية انشطاره إلى صفائح رقيقة، وهي تدعى بالانفصام الأردوازي (الشكل ١).

وهنا يجب التفريق بين هذا الانفصام وانفصام البلورات، إذ يعتمد الأخير على نمط ترتيب الذرات في الشبكة البلورية. ويحتفظ الأردواز عادة بشيء من التركيب الغضاري الأصلي وبظواهر التطبق الرسوبي. ويندر أن تتوافق مستويات الانفصام مع سطوح التطبق، وكثيراً ما تتقاطع معها بزاوية كبيرة، وهذا ما يميز الأردواز من الغضار الصفحي shales الرسوبي. ويتوضح التطبق في الأردواز بوجود تداخلات طبقية ذات ألوان مميزة أو تراكيب تميل إلى الطبيعة الرملية، إذ تبدو على تكشفاته بشكل عصائب مشوهة في معظم الأحيان. ويمكن أن يحتفظ الأردواز كذلك بالمستحاثات ولاسيما مستحاثات الغربتوليت graptolite التي يساعد وجودها على ملاحظة التطبق الأصلي وتتبعه. ومن الممكن أن يسهم توجيه الحبيبات في الأردواز بتشكل اتجاه آخر للانفصام يقع في زاوية قائمة على مستوي الانفصام الأصلي ويوازي اتجاه الفلزات المتطاولة والإبرية وحواف الفلزات الصفائحية، ويدعى باتجاه التجزع أوالحبة grain أو بالانفصام الزائف، الذي يتعمق أحياناً ليجعل من بعض الأردواز أنواعاً غير مرغوب فيها. وينسب تطور الانفصام الزائف إلى تأثر الأردواز بإجهادات ضاغطة لاحقة للتشكل (الشكل ٢).



(الشكل ١) الانفصام الأردوازي وعلاقته بتوجه الحبيبات والتطبق



الشكل(٢) قابلية تكسر الأردواز وفق الاتجاهات الثلاثة

تركيب الأردواز

يتألف الأردواز من مجموعة فلزية معقدة ذات حبيبات بلورية دقيقة تقاس أبعاد معظمها بالمكرونات (المكرون=١٠^-٦) وقد لوحظ أن سهولة الانفصام الأردوازي تزداد مع ازدياد نعومة هذه الحبيبات. ويتم تحديد التركيب الفلزي للأردواز عن طريق الفحص بالمجهر الاستقطابي مع الاستعانة بتقنيات أكثر تعقيداً مثل التحليل التفاضلي الحراري differential thermal analysis والفحص بالمجهر الإلكتروني.

وقد وجد أن الأردواز الوسطي يتألف بوجه رئيسي من فلزات السيليكات مثل السيريسيت sericite والإيليت illite والكلوريت ehlorite والبيوتيت biotite والبلاجيوكلاز plagioclase والسيليكا (ممثلة بالكوارتز) إضافة إلى نسب قليلة متفاوتة من فلزات أخرى متنوعة مثل الكلسيت calcite والدولوميت dolomite والبيريت pyrite والهيماتيت hematite والسيدريت siderite والروتيل rutile والتورمالين tourmoline والغرافيت graphite وبعض الفحوم الهدروجينية. وتظهر بنية الأردواز بالتكبير القوي على شكل

		Trélazé (فرنسة)	Gulls (بريطانية)	Bangor (الولايات المتحدة)	Mayen (ألمانية)	Italy (إيطالية)
السيليكا	(SiO₂) Silica	٥٠,٠٠	٥٥,٠٠	٥٧,١٠	٦٠,٠٠	٢٨,٠٠
الألومينا	(Al₂O₃) Alumina	٣٠,١٠	٢٢,٠٠	٢١,٠٠	١٩,٥٠	١٠,٠٠
أكاسيد الحديد	(FeO, Fe₂O₃) Ironoxides	٣,١٠	٧,١٠	٣,٤٠	٨,٢٠	٣,٠٠
الجير	(CaO) Lime	٠,٨٠	٠,٥٠	٣,٩٠	٥,٠٠	٣٠,٠٠
الضياع بالحرق ومتنوعة	Ignition Loss and divers	١٦,٠٠	١٥,٤٠	١٤,٦٠	٧,٣٠	٢٩,٠٠
		١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠	١٠٠,٠٠

الشرح : التركيب الكيماوي لبعض الأردواز

Trélazé (فرنسة)			E. Pennsylvania (الولايات المتحدة)		
السيريسيت	Sereicite	٤٦,٤	الكوارتز	Quartz	٣٠,٠
الكلوريت	Chlorite	٢٨,٧	الإيليت	Illite	٢٧,٠
الكوارتز	Quartz	٢٣,٧	السيريسيت	Sericite	١٦,٠
الروتيل	Rutile	٠,٥	الكلسيت	Calcite	١٠,٠
الغرافيت	Graphite	٠,٤	البلاجيوكلاز	Plagioclase	٦,٠
أوكسيد الحديد	Ironoxide	٠,١	الكلوريت	Chlorite	٥,٠
متنوعة	Divers	٠,٢	الدولوميت	Dolomite	٥,٠
		١٠٠	البيريت	Pyrite	٤,٠
			الغرافيت	Graphite	٢,٥
			الروتيل	Rutile	٠,٥
					١٠٠

الشرح : التركيب الفلزي والميترالوجي لبعض الأردواز

شبكة معقدة من وريقات وحراشف ميكاوية متوازية تتوزع في داخلها الحبيبات الفلزية الأخرى.

[يبين الجدول(١) التركيب الكيمياوي لبعض الأردواز، ويبين الجدول (٢) التركيب الفلزي (الميرالوجي) لبعض الأردواز].

خصائص الأردواز الفيزيائية

يعد اللون أهم ظاهرة وصفية للأردواز. فألوانه الشائعة تقع بين الرمادي والأسود، أما ألوانه الأخرى فهي الأخضر والأحمر والأرجواني والبني والأصفر، وذلك تبعاً لأنواع الفلزات الملونة الموجودة فيه ونسبها .

وتعود الألوان الرمادية والسوداء إلى الغرافيت والفحوم الهدروجينية والبيريت، كما تعود ألوان الأحمر والبني والأصفر إلى أكاسيد الحديد (الهيماتيت والليمونيت limonite) أما اللون الأخضر فيعود إلى الكلوريت والبيريت والسيدريت. وتتغير ألوان الأردواز بسبب تعرضه للعوامل الجوية، وأكثر الألوان تأثراً هي ألوان الأخضر والأحمربسبب أكسدة مركبات الحديد الثنائي، ويحصل العكس بنتيجة الإرجاع. أما تغيره من اللون الأحمر إلى البني أو الأصفر فيحصل بسبب إماهة أكسيد الحديد النصفي (الهيماتيت). أما الانفصام الأردوازي فهو أهم صفة تُدْخلها الاستحالة على الصخور الغضارية، وحيث يكون الانفصام جيد التطور فإنه يسمح بالحصول على صفائح أردوازية رقيقة (الشكل١) . وتعود متانة صفائح الأردواز إلى تنضيد حبيباته الفلزية وتلاحمها وارتفاع نسب الفلزات الثابتة أثناء الاستحالة. وتزيد مقاومة الأردواز للعوامل الجوية حين ينخفض محتواه من الفلزات القليلة الثبات مثل (البيريت والكلسيت والدولوميت والبلاجيوكلاز).

وتراوح مقاومة الأردواز للانضغاط بين ٤٩٢-٨٤٤ كغ/سم^{2} .وأما مقاومته للتكسر فأهميتها في استعمالات صفائح الأردواز، وتقاس باتجاه عرضاني على مستوى الانفصام، وتدعى بالمقاومة العرضانية transvers sterngth . فمثلاً يحتاج كسر صفيحة من الأردواز طولها ٢٠سم وثخنها ١٫٢٥سم إلى قوة ضاغطة على منتصفها تقرب من ٥٤٦كغ/سم٢ . ويتصف الأردواز بمسامية ضعيفة لا تتجاوز بأي حال ٢٫٪، وهي تراوح عادة بين ٠٫٢٪ و٠٫٥٪.

أما الوزن النوعي (الكتلة الحجمية) الوسطي للأردواز فيقرب من ٢٫٨غ/سم^{3}، كما تقرب قساوته من الدرجة الثالثة بحسب سلم موسMohs .

توضعات الأردواز

يشاهد الأردواز في مناطق مختلفة من العالم، منها :

الولايات المتحدة الأمريكية : وتعد أول دولة منتجة للأردواز ، وأشهرالتوضعات فيها مايقع في الجزء الشرقي من ولاية بنسلفانية، وفي المنطقة الحدودية لولايتي فرمونت ونيويورك. وهذه التوضعات تؤلف نحو ٧٥٪من إنتاج الولايات المتحدة .

فرنسة : وتتوزع فيها التوضعات في مناطق مختلفة، وأشهرها توضعات تريلازي Trélazé التي تؤلف وحدها نصف الإنتاج الفرنسي من الأردواز.

بريطانية : وتشتهر فيها توضعات بانغور Bangor في منطقة الغال، وتعد أغنى توضعات الأردواز في العالم، إذ تصل ثخانة تشكيلاتها إلى ٢٨٠م .

ألمانية : وأهم التوضعات فيها توضعات مايين Mayen في وادي المزل، وتوضعات وستفالية Westphalia وتوضعات تورينغ Thuring وتوضعات فرانكونية Franconie .

وهناك توضعات أخرى تستثمر على نطاق ضيق في بلجكية ولوكسمبرغ والنروج وسويسرة وإيطالية وإسبانية ويوغسلافية وتشيكوسلوفاكية والمغرب .

أما في سورية فلا توجد توضعات للأردواز.

استعمالات الأردواز

يباع الأردواز تجارياً على شكل صفائح أو مطحوناً بحالة مسحوق أوحبيبات . وتستعمل الصفائح في التغطية والتغليف والعزل والتزيين، ويستعمل الأردواز المسحوق والحبيبي في مجالات الصناعة.

في تغطية السقوف : يعد السقف بالأردواز من أكثر الاستعمالات شيوعاً ويتم عادة برصف صفائح الأردواز الرقيقة والمتساوية على السطح العلوي للبناء وفق مستويين متعاكسي الانحدار وبطريقة تراكبية تمنع تسرب مياه الأمطار والثلوج. ويفضل لهذا الغرض الأردواز الرمادي والأسود لثبات ألوانه ولا سيما الأنواع المتميزة بالانفصام الجيد.

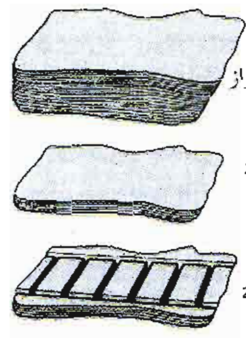
في التغطية والتزيين : وتستخدم لذلك أنواع الأردواز الضعيفة الانفصام بمختلف أنواعها . وتقطع عادة بأشكال صفيحية وتستعمل في بلاط الأرضيات ودرجات السلالم ومصاطب النوافذ والحدائق والمختبرات. وتحضر منها أيضاً صفائح واسعة لتغطية طاولات البليارد وألواح السبورة أو تزين بها واجهات الأبنية. وهناك أنواع خاصة من الأردواز تتميز بناقلية كهربائية شبه معدومة، تستعمل في لوحات القواطع الكهربائية وتكون عادة ذات ألوان فاتحة تفتقر في تراكيبها إلى المواد الفحمية والبيريت وأكاسيد الحديد.

في الصناعة : يستفاد من قطع الأردواز الصغيرة وكسارته ومن بقايا العمل في المقالع والمناجم في تحضير حبيبات الأردواز ومسحوقه. أما الحبيبات فتستعمل في إنتاج صفائح أردواز صنعية، كما تستعمل في تزيين الجدران الداخلية والخارجية في المباني . ويستعمل المسحوق في تحضير الأردواز الصنعي، كما يستعمل في صناعات اللدائن والدهان مادة حشو ويدخل أحياناً في تركيب أنواع خاصة من المنظفات.

وقد أمكن الحصول في الصناعة على حبيبات أردواز خفيفة الوزن بمعالجته حرارياً في درجات حرارة تراوح بين ١١٠٠-١٢٠٠ درجة مئوية. ويمكن استعمال الحبيبات الخفيفة في تحضير صبات إسمنتية تمتاز بالمتانة والخفة، كما يمكن الاستفادة منها في إنتاج لبنات عازلة للحرارة. وقد أمكن الحصول على أنواع خاصة من الصوف الصخري العازل بدمج مسحوق الأردواز مع خبث الحديد في حرارة عالية تحت تأثير تيار قوي من الهواء الساخن .

تصنيع الأردواز

كانت صناعة الأردواز في القديم محدودة جداً وتنحصر محلياً في أماكن وجوده. فهي لم تتعد في معظم الأحوال جمع الصفائح الأردوازية التي حطمتها العوامل الجوية أو تقطيعها يدوياً من تكشفاتها لتستعمل بحسب أشكالها المتاحة في تغطية البيوت الريفية البسيطة. ثم أخذت عمليات تقطيع الأردواز وتشطيره إلى أشكال نظامية بالتطور في منتصف القرن الثالث عشر، حين بدأ المعماريون في استعماله أحجار زينة للمباني والقصور. وبقي استثمار الصخور الأردوازية مقتصراً على التوضعات القريبة من وسائط النقل النهرية أو البحرية. ثم بدأت صناعة



الشكل (٣)

الأردواز بالتطور السريع في منتصف القرن التاسع عشر إذ توسعت مع إنشاء الخطوط الحديدية، ووصلت إلى أوجها وازدهارها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مستفيدة من الاجور المنخفضة للأيدي العاملة.

وفي المدة الواقعة بين الحربين العالميتين بدأت صناعة الأردواز تواجه صعوبات عدة أهمها ارتفاع الكلفة في الاستخراج والتصنيع، ووصلت نسبة أجور اليد العاملة إلى ٧٥٪ من الكلفة، كما أدى إدخال المكننة في العمليات المقلعية والمنجمية إلى ارتفاع نسب التلف والنفايات. يضاف إلى ذلك التزاحم والتنافس بين صفائح الأردواز والبدائل المصنعة مثل الآجر والأترنيت ولدائن مشتقات البترول.

وبصورة عامة تتمثل صناعة الأردواز بوجه رئيس في مرحلتين، مرحلة الاستخراج من المقلع أو المنجم، ومرحلة التحضير بحسب الأشكال المطلوبة.

استخراج الأردواز: يتم استخراجه من المقالع والمناجم، ففي المقالع الحديثة لاتستخدم عمليات الحفر والتفجير إلا حين فتح المقلع لإزالة الصخور التي تغطيه، أو حين يراد التخلص من أجزاء فاسدة من التوضع. ويفتح المقلع عادة بهندسة تناسب الوضع الجيولوجي للتوضع. وبصورة عامة يبدأ الاستثمار مع بداية فتح المصاطب الاستثمارية المناسبة للتقطيع والتحميل.

تقطع كتل الاردواز بأشكال مكعبة أو موشورية تقاس أبعادها بالأمتار. ويتم القطع عادة بطريقة القناة أو بطريقة المنشار السلكي. ففي طريقة القناة تحفر قناة ضيقة وعميقة بطريقة آلية حول الكتلة المراد قطعها ثم تضغط جانبياً لتفصل عن الصخر الأم. وأما النشر السلكي فيتم بحفر ثقوب عميقة في الزوايا الداخلية للكتلة المقرر قطعها ويمرر من هذه الثقوب سلك فولاذي ذو تسننات دقيقة قاسية ويحرك السلك تحريكاً دورانياً ليقطع الجزء المطلوب. ومع أن هذه العمليات قد تبدو للوهلة الأولى سهلة وبسيطة، إلا أن تنفيذها يتطلب تقنيات متطورة، لأن صخور الأردواز ليست على جانب كبير من التجانس أو التماسك. ويتم تقطيعها الاستثماري بشكل انتقائي من توضعات معقدة جيولوجياً. وتاخذ وضعية التطبق وتتبع الطبقات دوراً مهماً في عمليات الاستثمار الانتقائي للاردواز لأن الأنواع الجيدة منه تقع في طبقات لها مواصفات معينة تتوجه الاعمال الهندسية في المقلع لمتابعتها، ويعطى في هذا المجال أهمية لاتجاهات الانفصام والانفصام الزائف. وتقود متابعة الاستثمار المقلعي أحياناً إلى التعمق تحت سطح الأرض بالعمل المنجمي الذي يتطلب مهارة وخبرة وتقنية وأعمالاً أكثر تعقيداً. وفي بعض التوضعات يبدأ الاستثمار مباشرة في العمل المنجمي. وتصمم عمليات الاستثمار المنجمي عادة لتناسب استغلال الجزء المهم من التوضع. فهي تشمل حفر فتحة منجمية shaft شاقولية أو مائلة تخترق التوضع، وتوجه منها أنفاق جانبية استثمارية تتصل بفتحات تهوية. ويترك عادة بين التجاويف التي يخلفها التقطيع أجزاء داعمة من التوضع نفسه. ويسير الاستثمار عادة باتجاه تراجعي من المحيط إلى المركز ومن الأسفل إلى الاعلى مع ردم النفايات في الفجوات التي يخلفها الاستثمار.

تحضير الأردواز بحسب الأشكال المطلوبة:

يتم هذا التحضير خارج نطاق المنجم أو المقلع، وهو يعتمد بوجه رئيسي على خاصة الانفصام الأردوازي. وتشتمل عمليات التحضير هذه تقطيع الأردواز إلى شرائح وفق سطوح الانفصام بثخانات تراوح بين ٨ و١٢سم ثم قص هذه الصفائح بمنشار القرص الدوار إلى عدد من الصفائح المتساوية، ثم تفصم كل صفيحة إلى صفائح أكثر رقة تراوح ثخانتها بين ١٢ و١٦مم، تفصم أيضاً إلى صفائح رقيقة بثخانة دنيا تراوح بين ٣ و٤مم (الشكلان ٣ و ٤).

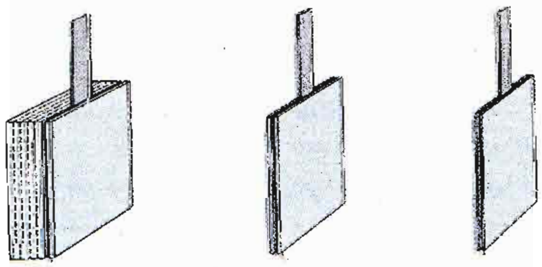
وتطرح صفائح الأردواز الرقيقة في الاسواق لتستعمل في السقف وفق نماذج متنوعة أهمها:

النماذج الفرنسية: وهي رقيقة نسبياً تبلغ ثخانتها نحو ٣مم، وتناسب سقف المباني في المناطق السهلية القريبة من البحر.

النماذج البريطانية: وهي أثخن من الفرنسية وأكثر متانة وتبلغ ثخانتها ٤ مم، وهي تستخدم في تغطية سقوف المباني في المناطق الباردة ذات الأمطار والثلوج الغزيرة.

النماذج المربعة: وصفائحها متينة تناسب تغطية المباني والمنشآت الزراعية والصناعية.

النماذج التاريخية: وهي صفائح كبيرة نسبياً تراوح ثخانتها بين ٥-٦ مم وتستعمل لإصلاح الآثار والنصب التاريخية وترميمها.



الشكل (٤) مراحل الفصم لتحضير الصفائح الرقيقة

محمد برهان عطائي

مراجع للاستزادة:

- BATES, Geology of the Industrial Rocks and Minerals, (doover Ppublication Inc., U.S.A. 1969).

■ الأردية (اللغة ـ) ← الباكستان
■ الأرز (شجر ـ) ← المخروطيات
■ الأرز ← الحبوب
■ أرزن الروم ← أرضروم

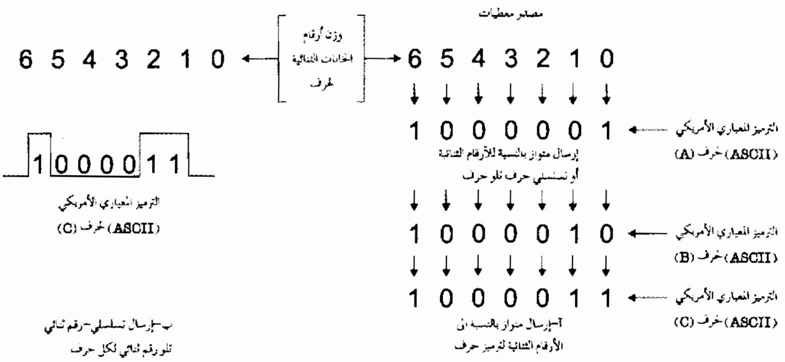
■ إرسال المعطيات

إرسال المعطيات data transmission هو نقل معلومات مرمزة encoded بأمانة بين مصدر source معلومات محدد ووجهة distination محددة. ويمكن أن تمثل المعلومات المرمزة أحرفاً هجائية أو أعداداً أو أشكالاً قد تنتج من ضغط مفتاح طرفية terminal أو صورة نص أو إشارة كهربائية صادرة عن جهاز قياس.

وساعد تزايد استخدام الحواسيب في منظومات الاتصال كثيراً في معالجة المعلومات المرمّزة وفتح مجالات واسعة لتطبيقات إرسال المعطيات ومنحها خاصية مميزة من باقي أشكال منظومات نقل المعطيات. لذلك تطورت وظيفة إرسال المعطيات من الاتصال مابين نهايتين، كما هو في منظومة البرق (التلغراف)، إلى توفير الاتصال داخل منظومة حاسوب واحدة والاتصال مابين عدة منظومات حواسيب لتشكل ما يسمى شبكات الحواسيب computer networks وأصبحت هذه الشبكات ضرورية لتقديم مختلف الخدمات المعلوماتية لمجالات متعددة منها الصناعية والعسكرية والمكتبية وغيرها.

المفاهيم الأساسية لإرسال المعطيات

كل مصدر للمعطيات يرمّز المعطيات قبل إرسالها. ويعالج أغلب تجهيزات مصدر المعطيات معلومات مرمزة ترميزاً ثنائياً binary coded كما هو في الحواسيب والطرفيات الذكية intelegent terminal. ويتطلب إرسال المعطيات من الحاسوب إلى أي طرفية ما أو بالعكس تبديل الترميز، ويشمل هذا الترميز ترميز مختلف الأحرف الهجائية والأرقام والأحرف الخاصة وأحرف التحكم في إرسال المعطيات. وإن أدنى وحدة لمعالجة المعلومات هي الرقم الثنائي binary digit ويطلق عليها اختصاراً كلمة «بت» (bit)، ويأخذ إحدى القيمتين المنطقيتين (0) أو (1). وتُرمّز المعطيات أو المعلومات قبل إرسالها بتجميع عدد من الأرقام الثنائية لتكون رمزاً لحرف. ويطلق على مجموعة مؤلفة من ثمانية أرقام ثنائية اسم بايت BYTE. وثمة ترميزان شائعان لإرسال المعطيات: الأول هو ترميز التبادل الثنائي الموسع المرمز عشرياً extended binary coded decimal interchange code (EBCDIC) وهو مؤلف من ثمانية أرقام ثنائية (8 - bit) وبذلك يمكن أن يُحصل على ٢٥٦ رمزاً C. وقد وضعت شركة IBM هذا الترميز وطورته. أما الترميز الثاني فهو الترميز المعياري الأمريكي لتبادل المعلومات American standard code for information interchange (ASCII) وهو مؤلف من سبعة أرقام ثنائية (7- bit) وبذلك يتم الحصول على ١٢٨ رمزاً (c). ووضعت هذا الترميز وطورته مؤسسة المعايير الوطنية الأمريكية American National Standards Institute (ANSI)، فإذا تطلبت نتائج المعالجة في حاسوب عملية طباعة على الطابعة الموصولة به، فإن برامجه تقوم بتبديل ترميز المعطيات المراد طباعتها من الترميز الثنائي إلى الترميز المعياري الأمريكي لتبادل المعلومات، ومن ثم يرسلها الحاسوب إلى الطابعة التي تستقبل هذه المعطيات وتقوم بانتخاب الأحرف المطابقة لهذا الترميز لطباعتها.



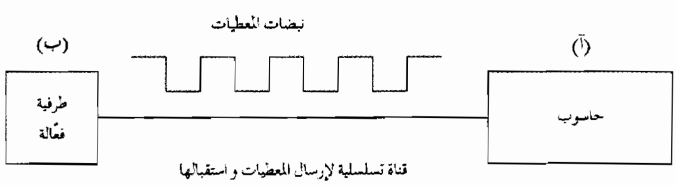
الشكل -١- الإرسال المتوازي (آ) والإرسال التسلسلي (ب) لمعطيات مرمزة بالترميز المعياري الأمريكي (ASCII)

ويمكن أن يتم إرسال المعطيات بإحدى طريقتين: الطريقة الأولى هي إرسال الأرقام الثنائية على التوازي parallel-by- bit لترميز حرف دفعة واحدة [الشكل (١-آ)]، ويطلق أيضاً على هذه الطريقة تعبير الإرسال التسلسلي للأحرف serial-by- character أي إرسال ترميز حرف تلو ترميز حرف آخر.

أما الطريقة الثانية فهي إرسال الأرقام الثنائية لترميز حرف تسلسلياً serial- by- bit [الشكل (١-ب)] أي إرسال رقم ثنائي (نبضة) تلو رقم ثنائي آخر لترميز حرف واحد.

وأغلب منظومات إرسال المعطيات هي من النوع التسلسلي وذلك لأن الإرسال المتوازي يتطلب عدداً أكبر من أسلاك التوصيل مما يشكل عقبة فنية واقتصادية للتوصيل ما بين نقطتين متباعدتين.

ويبين الشكل (٢) منظومة اتصال تسلسلية لإرسال المعطيات ما بين (آ) و (ب). يتم إرسال المعطيات على شكل قطار من النبضات الممثلة لترميز المعطيات. هذه النبضات تكون متساوية في مطالاتها ويحتل كل منها حيزاً زمنياً محدداً ومتساوياً مع باقي أزمنة النبضات الأخرى. وقناة الاتصال توفر الاتصال باتجاهين. أي يمكن أن يكون الحاسوب في لحظة ما مرسلاً للمعطيات وفي لحظة أخرى يكون مستقبلاً لها، وينطبق هذا أيضاً على الطرفية الفاعلة. ويستخدم الوصل المباشر المبين في الشكل (٢) ما بين وحدات متقاربة فيما بينهما، (٥٠) متر إلى (١) كم في أحسن الأحوال، وهذا يعتمد على سرعة الإرسال أو معدله من ناحية وعلى نوع الإشارة الكهربائية الممثلة للنبضات (جهود أو تيار) من ناحية أخرى. وعندما تكون نقاط الاتصال بعيدة فيما بينها، مابين أحياء أو مدن أو دول، تُستخدم خطوط أو قنوات الهاتف، وعبر مقاسم الهاتف، لتوفير قناة اتصال لإرسال



الشكل -٢- منظومة اتصال تسلسلية



الشكل-٣- منظومة إرسال معطيات

المعطيات. ويبين الشكل (٣) الوحدات والعناصر الأساسية المكونة لمنظومة اتصال، ويطلق عليها عادة اسم رابطة المعطيات data link. وتعد وحدات أو عناصر هذه المنظومة جزءاً أساسياً لا بد منه في مختلف منظومات إرسال المعطيات، وهذه الوحدات هي الوحدات الثلاث الآتية. الأولى هي تجهيزات طرفية المعطيات data terminal equipment (DTE) وهي التجهيزات الطرفية التي تعالج المعطيات لتهيئتها لعمليات الاتصال. وقد تكون هذه التجهيزات حاسوباً أو طابعة أو طرفية فاعلة إضافة إلى مختلف التجهيزات التي توفر مستلزمات إرسال المعطيات. وقد تكون بعض هذه التجهيزات في الوقت نفسه مصدراً للمعطيات أي مرسلاً لها data source ومستقبلاً لها data sink. فالحاسوب مثلاً يمكن أن يكون مصدراً أو مودعاً للمعطيات في حين تكون الطابعة مودعة أو مستقبلة للمعطيات فقط.

والثانية هي تجهيزات إرسال المعطيات data communication equipment: وهي التجهيزات اللازمة لأقلمة إشارة المعطيات، النبضية الرقمية، مع قناة الاتصال. من هذه التجهيزات المعدّل / مزيل التعديل modilator / demodilator ويطلق عليه اختصاراً اسم موديم modem، وهو جهاز يقوم بتعديل النبضات على حامل مستمر لإرسالها عبر قناة مستمرة (مثلاً خطوط الهاتف) وإزالة التعديل عند الاستقبال.

أما الثالثة فهي قناة الاتصال: وهي أيُّ وسيط نقل للإشارات، وقد تكون سلكية مثل خطوط هاتف (شفع من الأسلاك) أو كبل محوري coaxial cable أو كبل من الألياف الضوئية fiber optic cable أو تكون قناة لا سلكية مثل قناة الترددات العالية أو قناة مكروية من خلال السواتل الصنعية.

التحكم في إرسال المعطيات

تصنف تجهيزات طرفية المعطيات في نوعين: النوع الأول يكون مصدراً للمعطيات أو مستقبلاً لها، مثلاً الحاسوب أو الطرفية الفاعلة. والنوع الثاني يكون مسؤولاً عن معالجة المعطيات. وقد يكون هذا الجزء متضمناً في تجهيزات النوع الأول أو يكون وحدة منفصلة بحد ذاته ويطلق عليه تعبير وحدة التحكم في الاتصال communication control unit (CCU)

وأهم الوظائف التي ينفذها هذا النوع من التجهيزات هي: التحكم في الخط line control، أو قواعد الخط line protocol والتزامن synchronization، وترجمة الترميز code translation، وكشف الأخطاء وتصحيحها وإرسال الإشارات واستقبالها.

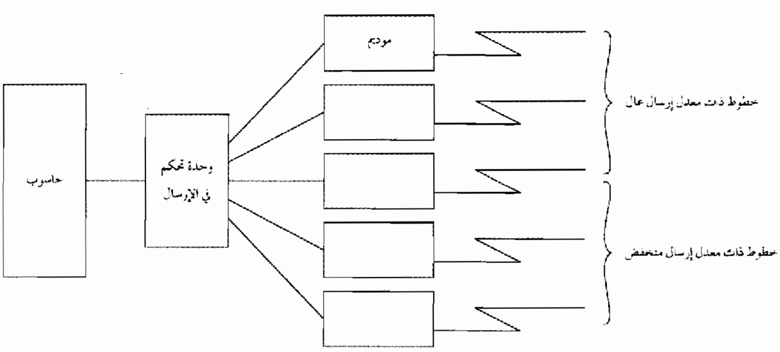
ويمكن أن تأخذ وحدة التحكم في الاتصال أحد الأشكال التالية:

- **وحدات مادية** hardware units: وهي ثابتة الوظائف وغير قابلة للبرمجة. ويتطلب أي تغيير في وظائفها تغييراً جذرياً لعناصرها المادية.
- **وحدات مختلطة**: وهي مادية وقابلة للبرمجة. ويمكن تعديل وظائفها بتعديل جزئي بعناصرها المادية وبتعديل البرامج.
- **وحدات مبرمجة بوجه كامل**: وهي تجهيزات يمكن تعديل وظائفها بتعديل البرامج من دون الحاجة إلى تعديل عناصرها المادية.

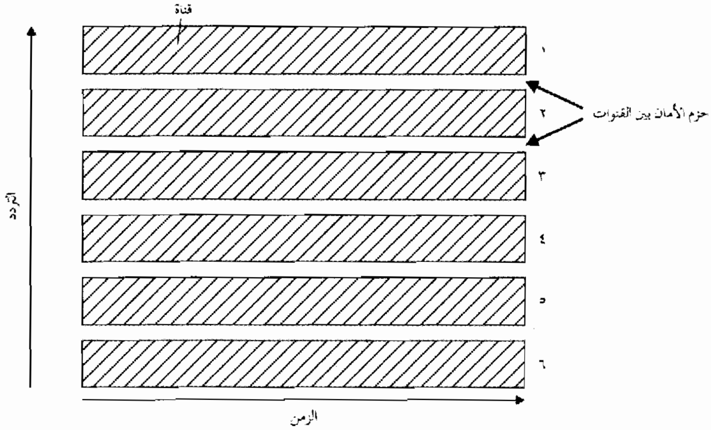
وهناك تجهيزات أخرى توفر الاستخدام الأفضل لخطوط إرسال المعطيات بالإضافة إلى توفير بعض وظائف التحكم في إرسال المعطيات وأهمها: المنضِّدات multiplexers (MUX) والمركِّزات concentrators.

وحدات التحكم في إرسال المعطيات المادية والمبرمجة: تتطلب معالجة المعطيات للإرسال أداء وظائف متعددة. تشغل هذه المعالجة حيزاً كبيراً من زمن معالجة الحاسوب وقد تكون نسبتها ٢٥٪ من زمن معالجة الحاسوب للمعلومات، وتختلف هذه النسبة بحسب عدد الطرفيات الموصولة إلى الحاسوب. ولهذا فإن استخدام وحدات متخصصة بالتحكم في إرسال المعطيات يساعد الحاسوب على التحرر من أداء معالجة وظائف إرسال المعطيات مما يؤدي إلى زيادة مردوده، الشكل (٤).

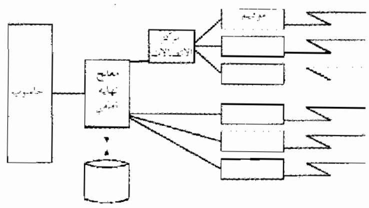
كانت تجهيزات وحدات التحكم في إرسال المعطيات تبنى من دارات رقمية ذات تكامل صغير أو وسط. أما في الوقت الحاضر فقد أصبحت تجهيزاتها مبنية من دارات ذات تكامل واسع large scale integration (LSI) قابلة للبرمجة لأداء وظائف محدودة ويطلق عليها اسم معالج النهاية الأمامي front end processor (FEP) غير الفعال. ويتطلب بعض شبكات إرسال المعطيات تحقيق وظائف كثيرة ومتغيرة بحسب نوع الشبكة. ويخصص في مثل هذه الحالات حاسوب يسمى معالج النهاية الأمامي (FEP) كما هو مبين في الشكل (٥)، ومن أهم مميزات هذا النوع من الوحدات المرونة العالية الناتجة من إمكانية تعديل كثير من وظائفها عن طريق



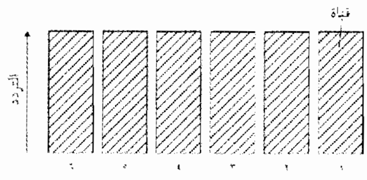
الشكل-٤- وحدة التحكم في إرسال المعطيات



الشكل ـ ٦ ـ التنضيد بالتقسيم الترددي لست قنوات



الشكل ـ ٥ ـ استخدام معالج النهاية الأمامي في التحكم في إرسال المعطيات



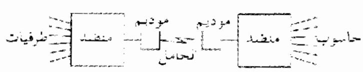
الشكل ـ ٧ ـ التنضيد بالتقسيم الزمني لست قنوات

برامج الاتصال الخاصة بها.

المنضِّدات والمركِّزات: أدى التقدم التكنولوجي في صناعة الدارات المتكاملة إلى هبوط مستمر في تكاليف معالجة المعطيات وتخزينها. ولكن تكاليف خطوط إرسال المعطيات ازدادت عند مستثمر خطوط النقل وذلك لزيادة تكاليف المكالمات وأجور خطوط الإرسال. وأدى ذلك إلى تطوير تجهيزات توفر الاستخدام الأفضل لوسائل الاتصال، أهمها المنضِّدات والمركِّزات التي تزيد مردود شبكة إرسال المعطيات وتخفض تكاليف الإرسال.

المنضِّدات: الوظيفة الأساسية للمنضدات هي دمج إشارات قنوات متعددة منفصلة عبر قناة واحدة عند الإرسال. أما وظيفة مفككات التنضيد demultiplexers فهي توزيع الإشارات المستقبلة من دارة واحدة إلى قنوات متعددة أو دارات متعددة. وعند نهايتي أي خط لا بد من وجود جهاز يقوم بعملية التنضيد وتفكيكه معاً وذلك لأن كل طرفية قد تكون مرسلة أو مستقبلة للمعطيات. واختصاراً يطلق على الجهاز اسم «جهاز التنضيد» على الرغم من كونه يقوم بأداء كل من عمليتي التنضيد عند الإرسال، وإزالته عند الاستقبال.

ويمكن أن يكون التنضيد بالتقسيم الترددي frequency division multiplexing (FDM) أو



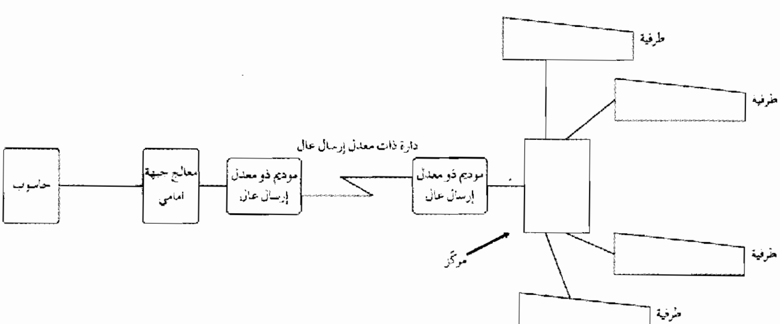
الشكل ـ ٨ ـ المنضدات نوع T D M

بالتقسيم الزمني time division multiplexing (TDM). ويعتمد التنضيد بالتقسيم الترددي (FDM)، (الشكل ٦)، على تقسيم حزمة تردد الإرسال (قناة الإرسال) إلى عدد من حزم ترددية (قنوات). يكون هذا النوع من التنضيد منخفض التكاليف عندما يكون عدد القنوات المستخدمة قليلاً.

أما التنضيد بالتقسيم الزمني (TDM) لكل طرفية، (الشكل ٧)، فهو يحجز حزمة قناة الإرسال بكاملها لمدة زمنية محددة أو حيز زمني time slot محدد، بغض النظر عما إذا كانت هذه الطرفية في حالة إرسال أو متوقفة عن العمل (الشكل ٨).

وقد أتاح التطور في تقنية المعالجات المكروية microprocessors في نهاية السبعينات تطوير منضدات ذكية بالتقسيم الزمني intelligent TDM، أو ستاتيكية statical TDM. ويوفر هذا النوع من المنضدات وظائف كثيرة منها التحكم الموائم في السرعة adaptative speed control والتخصيص الدينامي dynamic للحيز الزمني لكل طرفية. وهناك مميزات أخرى لمثل هذه المنضِّدات منها زيادة تخزين المعطيات وضغط المعطيات data compression وتحسين كشف الأخطاء وإدارة شبكة إرسال المعطيات وغيرها من مميزات. ويمكن أن يعد بعض أنواع هذه المنضدات مركِّزات.

المركِّزات: وهي وحدات قابلة للبرمجة تقوم بتجميع أحمال نقل آتية من خطوط نقل منخفضة السرعة وإرسالها في خط ذي حمل كبير وذي سرعة عالية، (الشكل ٩). وتختلف المركِّزات عن المنضِّدات بأنها تطبق مبدأ التنافس أو التنازع contention وهذا لأن عدد قنوات الدخل أكبر من عدد قنوات الخرج. ويتم تركيز الحمل بطريقة تنسيق الأرتال queueing أو التحري المتتالي polling أو بطريقة التخزين

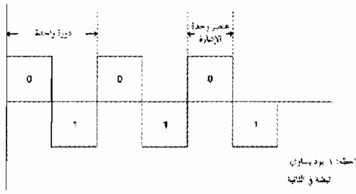


الشكل ٩ المركّزات

والإرسال store and forwarding .

معدل إرسال المعطيات وسعة قناة الإرسال

تُرسَل المعطيات تسلسلياً عبر قناة الاتصال على شكل قطار من النبضات، (الشكل ١٠) .



الشكل (١٠) إرسال المعطيات تسلسلياً

وإذا كانت كل نبضة تمثل بتاً واحداً one- bit فإن سرعة معدل إرسال المعطيات تقاس بعدد البتات المرسلة في الثانية bit per second (BPS) في حين يراوح تردد قطار النبضات بين صفر هيرتز (مركبة مستمرة)، عندما تكون قيم جميع الأرقام الثنائية، المرسلة مساوية (١)، وتردد أعظمي (n/2) هيرتز، عندما تكون قيم الأرقام الثنائية المرسلة مساوية وعلى التناوب (0) و (١)، حيث (n) تساوي عدد الأرقام الثنائية في الثانية . ولكل نبضة حيز زمني (ح) يطلق عليه اسم عنصر الإشارة signal element ويساوي (ح = 1/n) ثانية .

وتقاس سرعة الإرسال بوحدة البود (BAUD) واستخدمت هذه التسمية تكريماً للعالم بود J.M.E.Baud وهو من أوائل مطوري منظومات البرق، ومعدل البود لقناة اتصال هو المعدل الأعظمي الذي ترسل عنده نبضات الإشارة، أو معدل تعديل القناة modulation rate of the channel . وإذا كانت كل نبضة من النبضات تمثل رقماً ثنائياً واحداً فإن وحدة البود تساوي عدد البتات في الثانية (BPS) وذلك لأن كل بت يمثل بأحد المستويين (0) أو (١) . وإذا كانت النبضة الواحدة تمثل أكثر من بت واحد فإن معدل بود يقصد منه عدد نبضات الإشارة المرسلة في الثانية وتمثل كل نبضة أكثر من بت واحد . وتحدد طريقة التعديل المستخدمة لإرسال المعطيات عدد البتات في البود الواحد .

ويطلق على معدل المعلومات المرسلة في الثانية اسم سعة القناة channel capacity وتقاس سعة القناة الأعظمية بوحدة المعلومات في الثانية bit/ second، وهنا تمثل كلمة (bit) وحدة معلومات وليست اختصاراً لرقم ثنائي، وفي مثل هذه الحالة يطلق على الرقم الثنائي من نظام العد الثنائي اسم بينيت (BINIT) .

ولقد وضع نيكوست H.Nyquist علاقة حدد فيها قيمة سعة القناة على النحو التالي :

$$C=2W\ LOG_2\ L\ BIT/SEC \quad (1)$$

حيث (L) عدد مستويات الإشارة number of signalling levels ويساوي (2^n) .

(n) عدد الأرقام الثنائية في الثانية في البود bps/ BAUD

وتساوي $n = LOG_2L$

W عرض الحزمة بوحدة الهيرتز (دورة في الثانية) .

ويطلق أيضاً على علاقة نيكوست تعبير سعة القناة المتقطعة . ومن هذه العلاقة يُرى أن سعة القناة يمكن أن تتزايد لا نهائياً عند تزايد عدد مستويات الإشارة (L) . ولكن هذا غير ممكن من الناحية العملية وذلك لعدم أخذ علاقة نيكوست بالحسبان المحددات الفيزيائية للقناة .

وكذلك فقد وضع كلود شانون Claud Shannon علاقة يحدد فيها سعة القناة بدلالة نسبة الإشارة إلى الضجيج signal to noise ratio (S/N) وعرض حزمة القناة كما يلي :

$$C=W\ LOG_2\ (1+S/N)\ BIT/SES$$

وأصبحت هذه العلاقة تعرف بقانون هارتلي وشانون Hartly Shannon Law وهذه العلاقة تمثل سعة القناة المستمرة .

طرائق التعديل لإرسال المعطيات

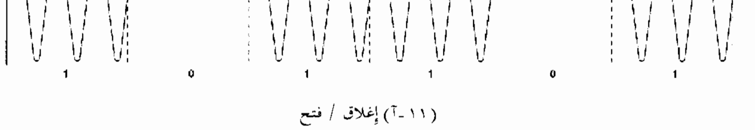
إن خطوط الشبكة الهاتفية مخصصة لنقل إشارات الصوت التمثيلية المحدودة المجال الترددي . وهي غير مناسبة لنقل الإشارات النبضية والمتقطعة زمنياً، وذلك لأن جميع تجهيزات الشبكة الهاتفية من مكبرات وجسور إرسال ونواخب نهائية مخصصة للإشارات المحدودة المجال الترددي . في حين يرى أن الإشارات النبضية هي إشارات ذات مجال عريض مما يؤدي إلى تشوهها عند مرورها في خطوط النقل الهاتفية .

ولهذا تحوّل إشارة المعطيات المرسلة النبضية إلى موجات مستمرة بوساطة التعديل، وتتضمن هذه العملية تحميل الإشارة النبضية على إشارة تمثيلية . ويطلق على هذه العملية أحياناً اسم الإقفال keying بدلاً من التعديل عند التعامل مع الإشارات غير التمثيلية . وتسمى الوحدات التي تقوم بتعديل المعطيات معدات أو وحدات إرسال المعطيات . ولما كانت وحدات طرفية المعطيات (DTE) تعمل مُرْسلاتٍ ومُسْتَقْبِلاتٍ للمعطيات فإنه لا بد من وجود جهازين، واحد في كل طرف من طرفي الخط . ويعمل كل جهاز معدلاً عند الإرسال ومزيلاً للتعديل عند الاستقبال (موديم) .

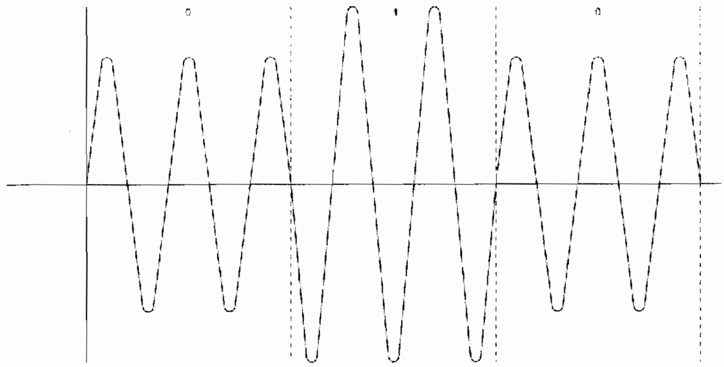
وهناك أنواع كثيرة من وحدات الموديم، لكل نوع ميزاته وتطبيقاته الخاصة . وتحدد طريقة التعديل أو الإقفال المستخدمة خواص الموديم ونوعه، ومن أهم هذه الطرائق : التعديل المطالي (السعوي) amplitude modulation أو الإقفال بإزاحة المطال amplitude shift keying (ASK)، والتعديل الترددي ferequency modulation أو الإقفال بإزاحة التردد frequency shift keying (FSK) والتعديل الطوري phase modulation أو الإقفال بإزاحة الطور phase shift keying (PSK) والتعديل المطالي الرباعي quadriture- amplitude modulation (QAMI)

الإقفال بإزاحة المطال (ASK) : تعدل هذه الطريقة مطال التيار الحامل بحسب إحدى قيمتي نبضة المعطيات (0) أو (١) . ويبين الشكل (١١-آ) نوع إغلاق / فتح (ON/ OFF) وفيه يكون مطال الحامل مساوياً قيمة محددة من أجل قيمة (I) ومساوياً للصفر عند القيمة (0) . وهناك نوع آخر لهذه الطريقة يعتمد على تغيير مطال الحامل مابين قيمتين إحداهما من أجل القيمة (0) والأخرى من أجل القيمة (١) لنبضة المعطيات (الشكل ١١-ب)، ويتم اختيار هاتين القيمتين ليمكن للمستقبل أن يفرق بينهما بسهولة في حال وجود الضجيج .

الإقفال بإزاحة التردد (FSK) : الإقفال بإزاحة التردد يغير تردد تيار الحامل ما بين قيمتين

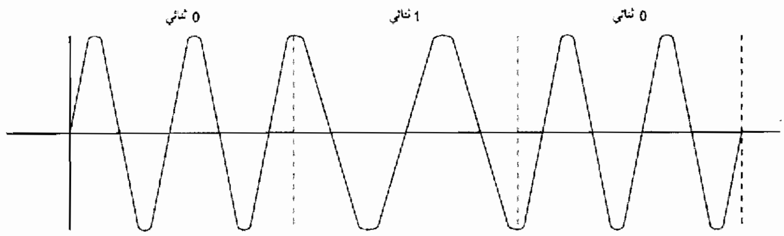


(١١ -آ) إغلاق / فتح



(١١ ـ ب) الإعتماد على تغيير مطال الحامل ما بين قيمتين لنبضة المعطيات

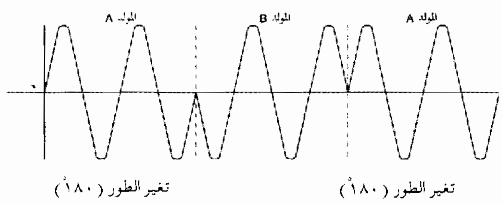
الشكل (١١) الإقفال بإزاحة المطال



الشكل (١٢) الإقفال بإزاحة التردد

بحسب قيمة نبضة المعطيات (0) أو (1) [الشكل (١٢)]. تستخدم هذه الطريقة في كثير من أنواع الموديم التي تعمل بمعدل إرسال معطيات منخفض (أقل من 1200bps بت / ثانية) ولا تستخدم هذه الطريقة عند معدل عال للإرسال، وذلك لأنها تتطلب زيادة في الفرق ما بين تردد في حامل التيار كلما زاد معدل الإرسال، ولأن هناك مجالات تردد لا يمكن استخدامها لإرسال المعطيات لكونها مخصصة في المقاسم الهاتفية لأغراض خاصة.

الإقفال بإزاحة الطور (PSK): تستخدم طريقة الإقفال بإزاحة الطور لتحقيق معدل عال لإرسال المعطيات ولتفادي بعض مساوئ طريقة الإقفال بإزاحة التردد. وتعتمد هذه الطريقة على تغيّر طور الحامل، وذلك بتوليد إشارتين متساويتين في التردد ومختلفتين في الطور، ويستخدم هذا الاختلاف في الطور لتمثيل إحدى القيمتين (0) أو (1) (الشكل ١٣).



الشكل (١٣) الإقفال بإزاحة الطور P S K

وتتيح هذه الطريقة استخدام إشارات متعددة المستويات، أي تمكن من تمثيل أكثر من رقم ثنائي لكل بود تعديل واحد. مثلاً: إذا استخدم رقمان ثنائيان لكل بود تعديل فإنه يتطلب أربع قيم طور مختلفة، قيمة واحدة لكل رقمين ثنائيين وكما يلي:

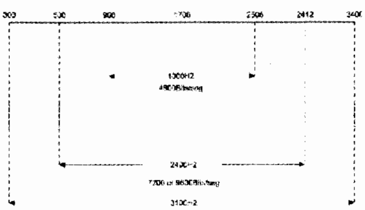
ولذلك إذا كان معدل إرسال المعطيات مساوياً (2400bps بت / ثا) يكون معدل التعديل (1200) بود.

تغير الطور - خيار (٢)	تغير الطور - خيار (١)	زوج الأرقام الثنائية
45°	0°	00°
135°	90°	01°
225°	180°	10°
315°	270°	11°

التعديل المطالي الرباعي (QAM): تعتمد هذه الطريقة في التعديل أو الإقفال على تغيير كل من المطال والطور لتمثيل المعطيات المرسلة. وتستخدم هذه الطريقة غالباً في وحدات الموديم المخصصة لإرسال معطيات ذات معدل عالٍ، قد يصل إلى (9600bps، بت / ثا) عبر خطوط الهاتف المستأجرة. ويلاحظ مما سبق أن تجميع الأرقام الثنائية لتمثيل البود يؤدي إلى زيادة معدل إرسال الأرقام الثنائية الممثلة للمعطيات وإلى الاستفادة من دارات القنوات الصوتية على الرغم من أن عرض حزمتها يساوي (٣١٠٠) هيرتز. وبالمقابل فإن وحدات الموديم المستخدمة لهذه الطريقة تكون معقدة التقنية وبالتالي فإن تكلفتها تكون عالية. وإضافة إلى ذلك فإن زيادة سرعة الإرسال تتطلب زيادة في عرض الحزمة الترددية للدارات الصوتية، ويبين الشكل (١٤) العلاقة بين معدل سرعة الإرسال وعرض الحزمة المطلوبة.

أنماط الإرسال

يتم التخاطب ما بين نقطتين في منظومات إرسال المعطيات بأحد أنماط الإرسال التالية: transmission modes النمط المبسط simplex أو المفرد. النمط نصف المزدوج half-duplex (HDX). والنمط المزدوج الكامل full-duplex (FDX)



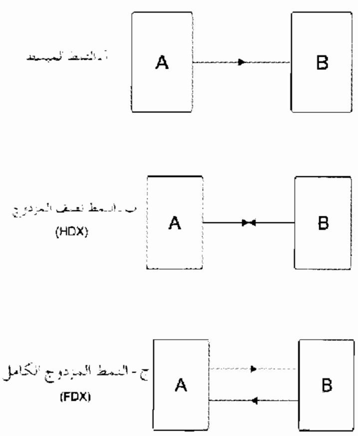
عرض الحزمة الضوئية بحسب CCITT

الشكل (١٤) بيان العلاقة بين معدل سرعة الإرسال وعرض الحزمة المطلوبة

أما في النمط المبسط فيكون الإرسال باتجاه واحد فقط. ويستخدم لتحقيق الوصول الفيزيائي زوج من الخطوط (دارة واحدة)، الشكل (١٥-آ).

وأما في النمط نصف المزدوج فيكون الإرسال والاستقبال في اتجاهين، ولكن بالتناوب. ويتطلب هذا النمط دارة واحدة لتحقيق الوصل الفيزيائي، الشكل (١٥-ب).

وأما النمط المزدوج الكامل فيحقق الإرسال



(الشكل ١٥)

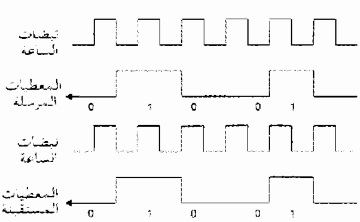
والاستقبال في اتجاهين في آن واحد ولكنه يتطلب زوجين من الخطوط أو دارتين لتوفير الوصل الفيزيائي، الشكل (١٥-ج).

قواعد استعمال الخط

لضمان سلامة المعطيات المستقبلة وصحتها لا بد من ضمان التوافق في توقيت عمل كل من المرسل والمستقبل. وتسمى عملية التوافق هذه بالتزامن.

وهناك طرائق تزامن مختلفة أهمها مايلي:

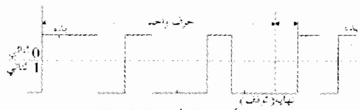
تزامن النبضات: في طريقة تزامن النبضات bit synchronization يحدد جهاز الاستقبال بدقة لحظة استقبال نبضات المعطيات في ضوء معدل نبضات ميقاتية يجب أن تكون متطابقة مع معدل نبضات ميقاتية المرسل، (الشكل١٦).



الشكل - ١٦ - تمثيل تزامن النبضات

تزامن الحروف: في طريقة تزامن الحروف character synchronization يتعرف المستقبل مجموعة الأرقام الثنائية المشكلة للحرف المرسل. ويمكن تمييز طريقتين من هذا التزامن.

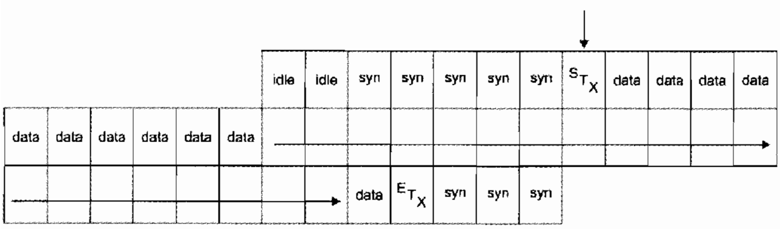
الأولى: الإرسال التسلسلي غير المتزامن serial asynchronous، ويتم التزامن في هذه الطريقة بإرسال نبضة بدء start bit، قبل إرسال نبضات ترميز حرف ما، للدلالة على بدء الإرسال. وفي نهاية إرسال نبضات ترميز الحرف ترسل نبضة وقف للدلالة على نهاية إرسال الحرف (الشكل ١٧). ويجب أن يلاحظ أن بدء إرسال حرف هو إرسال غير متزامن في حين أن استقبال نبضات الحرف يكون متزامناً بحسب معدل الإرسال، أو بحسب الحيز الزمني لنبضات المعطيات الممثلة لترميز الحرف.



الشكل - ١٧ - الإرسال التسلسلي غير المتزامن

أما الطريقة الثانية فهي الإرسال التسلسلي المتزامن serial synchronous وفيها تستخدم أحرف مرمزة خاصة لعملية التزامن، (الشكل ١٨) كما يلي:

- عدم الإرسال IDLE
- ترميز (ASCII) لحرف SYN للدلالة على طلب التزامن.
- ترميز (ASCII) لحرف STX للدلالة على بدء إرسال المعطيات.
- ترميز (ASCII) لحرف ETX للدلالة على نهاية إرسال المعطيات.



الشكل -١٨- تمثيل الإرسال التسلسلي المتزامن

وفي هذه الطريقة تتم عملية التزامن فقط عند بدء إرسال مجموعة block المعطيات.

تزامن الرسائل: تزامن الرسائل message synchronization هو إحدى وظائف قواعد الوصل link protocol. وهذه القواعد ضرورية لتحقيق تزامن إرسال المعطيات في منظومة حاسوب واحدة أو بين شبكات الحواسيب. ويتطلب أغلب هذه القواعد نمط إرسال كامل الازدواج (FDX)، وأهم هذه القواعد وأكثرها انتشاراً هي: التحكم المتزامن في وصل المعطيات synchronous data- link control (SDLC) وطوّرت هذه القواعدشركة (IBM)، والتحكم العالي المستوى في وصل المعطيات high- level data- link contorl (HDLC) وطورت هذه القواعد منظمة المعايير الدولية International Standards Organization (ISO).

وهناك أنواع كثيرة من هذه القواعد بحسب عدد الشركات المهتمة بالتوسع الكبير لشبكات اتصال الحواسيب. ويبين الشكل (١٩) مثالاً على التحكم العالي المستوى في وصل المعطيات. ويطلق على رسالة المعطيات المرسلة وجميع معطيات التحكم المرسلة معها تعبير إطار الرسالة message frame ويخصص في هذا الإطار حقول تتضمن مجموعة بتات لتوفير عملية التحكم وتصحيح الأخطاء إضافة إلى عنوان جهة الإرسال.

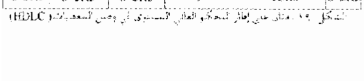
أنواع تسهيلات القنوات

تصنف قنوات الاتصال، من ناحية أنواع التسهيلات وملكيتها، في ثلاثة أنواع أساسية هي:

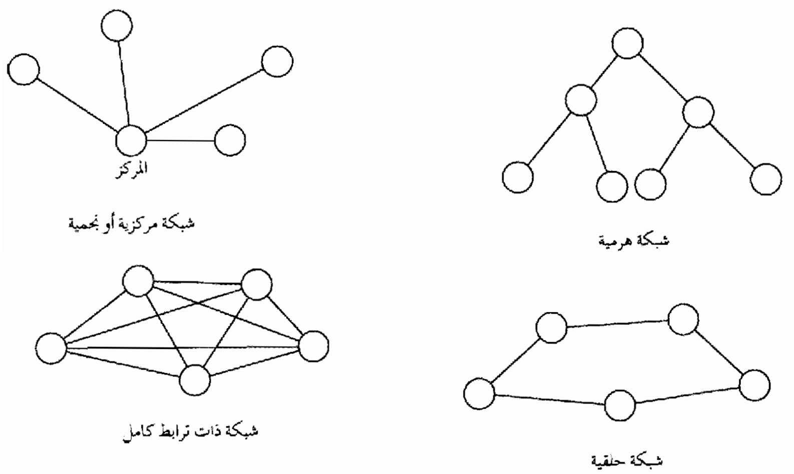
ملكية خاصة: وهي منظومات اتصال مبنية من شبكة خاصة وتعود ملكيتها كلهاإلى المستثمر، مثل شبكة مصنع أو شبكة جامعة وغيرها.

وملكية خاصة مستأجرة: وهي منظومات مبنية من شبكة خاصة ولكنها مستأجرة من شركات أو مؤسسات الهاتف الآلي. ولكل نوع من هذه التسهيلات تعرفة بحسب نوع الخدمة المقدمة للمستثمر. وهذا النوع من التسهيلات يوفر للمشترك اتصالاً دائماً عبر المقاسم الهاتفية.

وملكية عامة: وهي منظومات شبكات الهاتف العائدة ملكيتها إلى شركات أو مؤسسات عامة. في هذا النوع من التسهيلات



الشكل - ١٩ - مثال على إطار التحكم العالي المستوى في وصل المعطيات (HDLC)



الشكل -٢١- تنظيم الشبكات

لايوفر الاتصال عبر المقاسم إلا عند طلب رقم الاتصال كما هي الحال في المكالمات الهاتفية العادية.

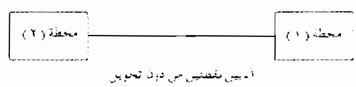
تنظيم منظومات إرسال المعطيات

هناك طرائق مميزة وكثيرة لتنظيم منظومات إرسال المعطيات. وتحدد هذه الطرائق بحسب نوع التوزيع الطبولوجي (المكاني) topology وبحسب نوع الاستخدام.

ويمكن أن يكون التنظيم الطبولوجي بحسب الأشكال الثلاثة التالية:

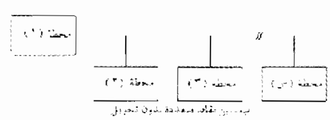
بين نقطتين point-to- point: وهو أبسط أنواع التنظيم، ويستخدم في العادة عندما تكون قناة الاتصال من النوع المستأجر الخاص، (الشكل ٢٠-آ).

بين نقاط متعددة multipointor, multidrop: وهو تنظيم يتيح لأي محطة الاتصال مع المحطات الأخرى بحسب عناوينها. وتستقبل كل محطة رسائلها بحسب عنوانها وتهمل باقي الرسائل



العائدة إلى المحطات الأخرى (الشكل ٢٠-ب).

الشبكات networks: وهي مجموعة تضم ثلاث محطات فأكثر وتستطيع كل محطة منها أن ترسل إلى المحطات الأخرى وأن تستقبل منها رسائلها، ويطلق عليها في مثل هذه الحالة تعبير



شبكات تحويل الرسائل message switching networks. ويطلق على كل محطة اسم العقدة node. ويصنف تنظيم الشبكات بحسب توزعها الطبولوجي، فيمكن أن تكون شبكة مركزية أو نجمية star network أو شبكة غير مركزية decentralized أو موزعة distributed أو شبكة دائرية (حلقية) loop (الشكل ٢١).

ويطلق تعبير تحويل الرسائل بالرزم packet- switched message على التنظيم الذي ينتخب الطريقة المثلى في إرسال المعطيات بين عقد الشبكة. ويوفر كثير من مقاسم الهاتف الحديثة مثل هذه التسهيلات لزبائنها.

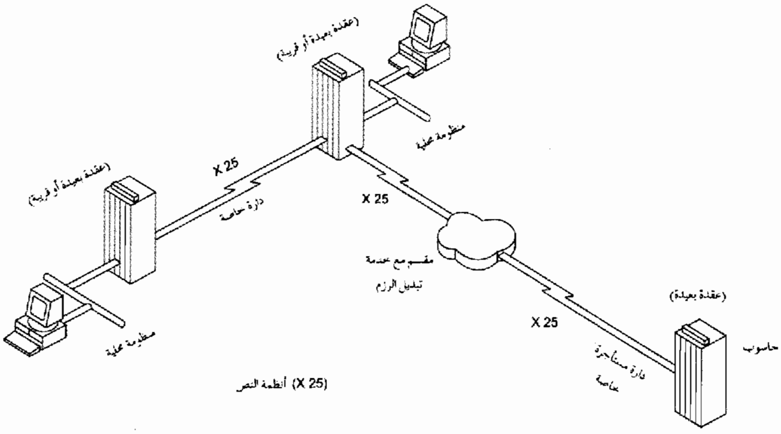
أما التنظيم من حيث الاستخدام فيمكن أن يكون من النوع المحوِّل أو غير المحوِّل. وعندما يكون تنظيم المنظومة محوِّلاً فإن قناة الاتصال تتحقق فقط عند طلب الخط. وعندما يكون التنظيم غير محوِّل (الشكل ٢٠)، أو من دون تبديل، فإن قناة الاتصال تبقى محققة بوجه دائم ولو لم يكن هناك إرسال. وهذا التمييز ضروري ولا سيما عند دراسة تكاليف قنوات الاتصال وعامل الاستخدام utilization factor بالمقارنة مع حركة الرسائل message traffic.

شبكات الحواسيب

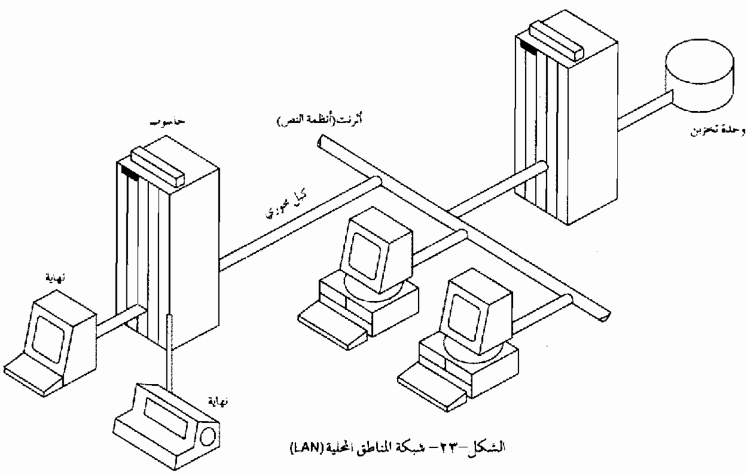
كان استثمار منظومات الحواسيب لإرسال المعطيات مبنياً على مبدأ المركزية أو الشبكة النجمية. وتكون الوحدات الخارجية في هذا النوع من شبكات الحواسيب موصولة إلى حاسوب مركزي سواء كانت وحدات إدخال عن بعد أو طرفيات فعالة. وقد شجع انخفاض تكاليف الوحدات المادية لمنظومات الحواسيب فيما يخص تكاليف متطلبات منظومات إرسال المعطيات، على استثمار منظومات حواسيب كاملة في مواقع خارجية وبعيدة عن المنظومة المركزية، لمعالجة المعلومات محلياً وفي كل موقع لأن أغلب المعلومات المعالجة ذات طبيعة محلية، ونادراً ماتحتاج المعالجة إلى معلومات إضافية من مركز المعلومات. ولذلك فإن التوجه الحديث هو نحو حفظ المعلومات والمعطيات أو تخزينها ومعالجتها محلياً، ويُسمى هذا النوع من المنظومات منظومات معالجة المعطيات الموزَّعة distributed data processing. وقد يرغب أحد المواقع في هذه المنظومات في الوصول access إلى المعلومات أو البرامج في مواقع أخرى، ومثال ذلك قد يرغب موظف في مكتب المبيعات في إرسال معلومات تفصيلية عن تجهيزات طلبها زبون من مكتب الخدمات، وقد تحتاج بعض البرامج إلى ذاكرات إضافية أو وحدات تخزين مساعدة غير متوافرة في منظومة الحاسوب المحلي. تبرز الحاجة في مثل هذه الأحوال إلى ربط منظومات الحواسيب في المواقع المختلفة فيما بينها لإنشاء مايسمى الشبكات الموزَّعة distributed networking ويمكن تصنيفها في صنفين:

الأول شبكات المناطق الواسعة wide area networks (WANS) وهي شبكات توفر ربط مجموعة منظومات حواسيب متباعدة وموزعة جغرافياً (الشكل ٢٢)، وتنتمي إلى هذا الصنف أيضاً شبكة المدينة المركزية metropolitan area network (MAN)

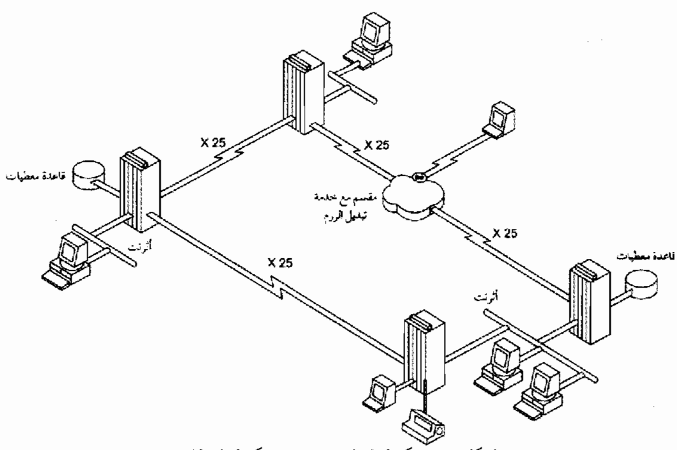
والثاني هو شبكات المناطق المحلية local area networks (LANS) وهي شبكات توفر ربط منظومات حواسيب ووحداتها معاً، في موقع واحد، مثل مشفى وكليَّة وغيرها، (الشكل ٢٣).



الشكل-٢٢- شبكة المناطق الواسعة



الشكل-٢٣- شبكة المناطق المحلية (LAN)



الشكل-٢٤- شبكة المناطق الواسعة (WAN) وشبكة المناطق المحلية (LAN)
مربوطتان من القاعدة (X25)

ويتطلب كثير من التطبيقات كلا النوعين من الشبكات ويتم الوصل ما بين مختلف المنظومات ببوابات اتصال gateways.

وقد وضع أغلب الشركات المصنِّعة لمنظومات الحواسيب برامج خاصة لإرسال المعطيات عبر هذه الأنواع من الشبكات تحقق المعايير الدولية لكل من شبكات المناطق الواسعة (WANS) وشبكات المناطق المحلية (LANS). وأهم هذه المعايير الدولية ثلاثة.

الأول هو منظومات الوصل التبادلي المفتوحة open systems interconnection(OSI) وطورت هذا المعيار المنظمة الدولية للمعايير (ISO).

والثاني هو قاعدة أو بروتوكول (X25) لشبكات المعطيات بتحويل الرزم packet siwtching network وقد طورته اللجنة الاستشارية الدولية للبرق والهاتف International Telegraph and Telephone Consultative Commitee (CCITT) وهي تغطي متطلبات شبكات المناطق الواسعة.

اما الثالث فهو قاعدة إثرنت (TEEE 802.3) Ethernet الخاصة بالشبكات المحلية والتي طورها معهد المهندسين الكهربائيين والإلكترونيين في الولايات المتحدة الأمريكية Institute of Electrical and Electronics Engineers (TEEE)

ويبين الشكل (٢٤) شبكة حواسيب من نوع المناطق الواسعة مربوطة مع شبكة من نوع المناطق المحلية عبر مقسم يوفر تحويل الرزم packet switched exchange. والقاعدة (X25) اعتمدت معياراً لشبكة منطقة واسعة لإرسال المعطيات ما بين منظومات الحواسيب عبر الشبكات العامة public data networks أو الشبكات الخاصة أو الشبكات الخاصة المستأجرة.

أما معيار إثرنت Ethernet للشبكات المحلية فيوفر إرسال المعطيات ما بين الحواسيب والطرفيات الفعالة بوساطة كبلات محورية ويسمح بإرسال معطيات بمعدل يصل إلى ١٠ ميغا بت / ثانية 10m- bit/sec. وتوفر قواعد هذا المعيار التحسس باتجاه الحامل carrier sense والوصول المتعدد multiple access مع كشف التصادم أو التعارض collision detection (CSMA/CD).

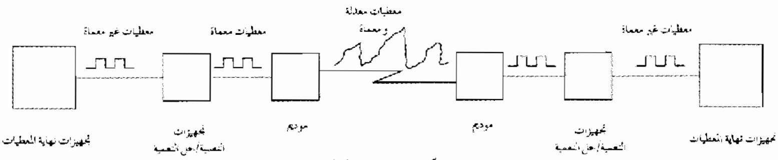
التحكم في الأخطاء

قد ينتج من إرسال المعطيات بقناة الاتصال استقبال معطيات خاطئة، وقد يؤدي أي خطأ

في المعطيات إلى نتائج غير حميدة كتنفيذ أوامر خاطئة من الحاسوب أو الوحدات المستقبلة. ويلجأ عادة لتجنب حدوث مثل هذه الأخطاء إلى ترميز المعطيات المراد إرسالها، بطريقة معروفة في كل من طرفي الإرسال والاستقبال، فيوفر لوحدات الاستقبال إمكانية كشف الأخطاء وتصحيحها. ومن أبسط طرائق ترميز المعطيات إضافة معطيات فائضة على الرسائل قبل إرسالها تسمى بخانات الفحص. وفي حال حدوث خطأ في المعلومات المرسلة ينعكس ذلك في تغيير قيم هذه الخانات مما يسهل عملية كشف الخطأ ومن ثم تصحيحه.

تعمية المعطيات وكشفها

من الأمور المهمة في منظومات إرسال المعطيات ضمان سرية المعطيات المرسلة. لذلك يجب تعميتها قبل تعديلها وإرسالها عبر قناة الإرسال لمنحها مناعة كبيرة إزاء أي فضولي أو متجسس على خطوط إرسال المعطيات. وتعتمد درجة المناعة هذه على خوارزمية التعمية المستخدمة، وعلى درجة العشوائية المولدة للمعطيات المعماة، وعلى طول مفاتيح التعمية المستخدمة. ولما كان إرسال المعطيات تسلسلياً وباتجاهين فإنه لا بد من إجراء كل من عمليتي التعمية encryption وحل التعمية dencryption عند نهايتي خطوط الإرسال. ويمكن تحقيق عمليتي تعمية المعطيات وحل المعطيات المعماة عن طريق برامج تعالج في الوقت نفسه خوارزمية التعمية وحلّ التعمية، أو يمكن تحقيق ذلك باستخدام تجهيزات مادية توضع ما بين أجهزة المودم وأجهزة نهاية المعطيات DTE، (الشكل ٢٥).



الشكل-٢٥- تعمية المعطيات

أحمد الأزرق

الموضوعات ذات الصلة:

الاتصال - الحاسوب.

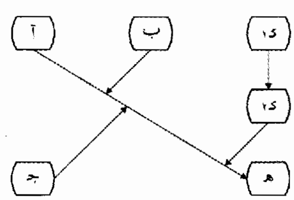
مراجع للاستزادة:

- أحمد أزرق، نظم الاتصالات النبضية والرقمية (جامعة دمشق ١٩٨١).
- أحمد أزرق، نظرية المعلومات (جامعة دمشق ١٩٨٤).
-ROBERT TECHO, Data Communications and Introduction to Concepts and Design (Plenum 1980).
-DAVIES BARBER, Communication Networks for Computers (J.Wiley 1980).

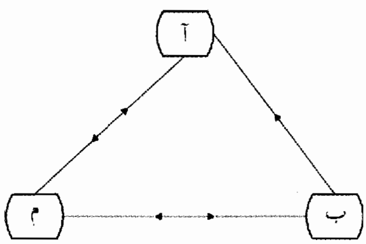
■ الإرسال من بُعد

الإرسال من بُعد teletransmission هو عملية نقل المعلومات إلى مسافة بعيدة عن مصدرها للحصول منها على فائدة معينة في النقطة الموجهة إليها، كالتحكم في آلة ما أو قيادتها أو ضبطها، أو إجراء قياسات معينة بهدف مراقبة عملها، أو إرسال الإشارات من بعد لتنظيم عمل شبكة مواصلات.

ويمكن أن يكون الإرسال من بعد وحيد الاتجاه كما في حالة التحكم أو القياس من بعد (الشكل ١)، أو ثنائي الاتجاه كما في حالة القيادة والضبط من بعد (الشكل ٢)، أو حالة عمليات التحكم والقياس بين محطة مركزية وعدة محطات محيطية تابعة لها. وقد تكون عملية الإرسال من بعد دورية أو مبرمجة.



الشكل ١- حالة تجميع معلومات من النقاط آ، ب، جـ، د١، د٢ موجّهة إلى النقطة هـ



الشكل-٢- حالة معملين (آ) و (ب) مفوضين من م والمعمل (ب) يمكن أن يقوم بمراقبة المعمل (آ)

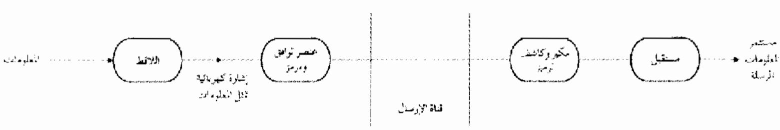
أقسام نظام الإرسال من بُعد

يتألف أي نظام إرسال من بعد من ثلاثة أقسام (الشكل ٣):

اللاقط (Capture): ووظيفته التقاط المعلومات وتحويلها إلى قيمة ملائمة لإرسالها بوساطة النظام المختار للاستخدام.

قناة الإرسال (Transmission Channel): يتم بوساطتها نقل القيمة الممثلة للمعلومات التي قد تكون إشارة تمثيلية analog أو رقمية digital وذلك بوساطة تيار كهربائي مستمر أو نبضي مرمز coded pulses.

المستقبل (Receiver): وفيه يتم تلقي الإشارة وتحويلها ثانية إلى شكل يناسب استخدامها مباشرة من الجهة الموجهة إليها.



الشكل-٣- مخطط مبسط للإرسال من بعد باتجاه واحد

عوامل تحديد نوع نظام الإرسال من بُعد

أهم العوامل التي تحدد نوع نظام الإرسال من بُعد هي :

- مسافة الإرسال : ويمكن أن تكون بضع مئات من الأمتار وقد تصل إلى مئات الكيلومترات أو آلافها .
- عدد الحدود أو البنود المراد إرسالها : كعدد إشارات القياس أو القيادة أو التحكم من بعد .
- إمكان توافر دارات جاهزة لاستخدامها في النظام المطلوب .
- الشروط المفروضة على نظام الإرسال كزمن الاستجابة والدقة ومتانة التجهيزات وغيرها .
- درجة الأمان والسلامة المطلوبة كالتأمين من احتمال حدوث الأخطاء .
- شروط الاستثمار كحجم النظام وصيانته واستهلاكه .

يقوم اللاقط في معظم الحالات بتحويل المعلومات إلى إشارة كهربائية سهلة النقل عبر قناة الإرسال، ويتطلب في بعض الأحيان استخدام عناصر توافق لكي تصبح هذه الإشارة ملائمة لقناة الإرسال . وتكون الإشارة الكهربائية الممثلة للمعلومات في العادة على أحد شكلين :

- إشارة كهربائية متغيرة باستمرار مع الزمن (إشارة تمثيلية مستمرة) كإشارة الصوت والموسيقى في أنظمة البث الإذاعي وأنظمة الاتصال الهاتفي، وإشارة الصورة والصوت المرافق في أنظمة التلفزة [ر] .
- إشارة كهربائية نبضية، وفي هذه الحالة يأخذ العامل الممثل للمعلومات قيماً منفصلة ومحددة (متقطعة زمنياً) عددها في أبسط الحالات اثنان صفر وواحد مثلاً كما في حالة أنظمة الاتصالات الرقمية digital communication .

طرائق النقل عبر قناة الإرسال :

يتم النقل عبر قناة الإرسال وفقاً لإحدى الطرائق التالية :

استخدام خط نقل سلكي Transmission Line : كخطوط الهاتف مثلاً، ويمكن في هذه الحالة استئجار زوج واحد أو زوجين من خطوط الهاتف العادية مقابل أجرة محددة . ويمكن الاستفادة أيضاً من توتر التغذية المستمر الذي يغذي هذه الخطوط (٤٨ فولط) لنقل إشارة المعلومات الكهربائية بالتيار المستمر، أو تحويل إشارة المعلومات إلى إشارة كهربائية متناوبة بتردد يقع ضمن مجال الترددات السمعية audio frequency ثم تكبيرها عند الحاجة قبل تطبيقها على خط الهاتف . وتكون خطوط الهاتف عادة على شكل كبلات هوائية أو مطمورة في الأرض .

استخدام التيار الحامل Carrier Current : ويتم ذلك عندما تكون مسافة الإرسال كبيرة نسبياً فيُستفاد من خطوط نقل الطاقة الكهربائية المنتشرة في أرجاء البلد كافة لنقل إشارة المعلومات بعد تحميلها على إشارة كهربائية بتردد عال تسمى « تياراً حاملاً » . وفي كثير من الأحيان لا تستخدم هذه الخطوط لنقل تيار حامل واحد فقط بل لنقل عدة تيارات حاملة بحزم ترددية مختلفة، مما يسمح بنقل عدة إشارات لمعلومات مختلفة في آن واحد، ويمكن أن يكون أحد هذه التيارات مستخدماً لنقل مكالمة هاتفية إضافة إلى المعلومات المرسلة .

ويتم تحميل إشارة المعلومات على التيار الحامل بإحدى الطرائق التالية [ر . إرسال المعطيات] :

- الإقفال أو التعديل بإزاحة المطال amplitude shift keying or amplitude shift modulation الذي يتضمن تحميل إشارة المعلومات، على شكل نبضات ذات مطال ثابت، على حامل تيار مستمر تحميلاً يؤدي إلى تغير المطال فيأخذ إحدى قيمتين لتمثيل وجود النبضة الممثلة للمعلومات أو عدم وجودها .
- الإقفال أو التعديل بإزاحة التردد frequency shift keying or freq. shift modulation ويتم في هذه الطريقة تغير قيمة تردد التيار الحامل فتأخذ إحدى قيمتين وذلك بحسب وجود النبضة الممثلة للمعلومات أو عدم وجودها .
- الإقفال أو التعديل بإزاحة الطور phase shift keying or phase shift modulation وتعتمد هذه الطريقة على تغير طور التيار الحامل وذلك ليأخذ هذا الطور قيمة واحدة من قيمتين بحسب وجود النبضة الممثلة للمعلومات أو عدم وجودها . ويجب ملاحظة أن كلمة الإقفال keying تستخدم عادة عند تحميل التيار الحامل بإشارة نبضية ذات مطال ثابت وذلك لتمييزها من تعديل modulation التيار الحامل بإشارة مستمرة غير نبضية أو متقطعة زمنياً .

وتخصص عادة حزمة الترددات من ٣٠ إلى ٩٠ كيلو هرتز للتيارات الحاملة المستخدمة لنقل المعلومات عامة في حين تخصص حزمة الترددات من ٩٠ إلى ٣٠٠ كيلو هرتز للتيارات الحاملة لنقل المكالمات الهاتفية .

استخدام الوصلات الراديوية Radio Electric Links : وهذه الطريقة مستخدمة لنقل المعلومات بعد تحميلها على موجة راديوية radio wave بين محطة رئيسة وعدة محطات محيطية، وحزمة الترددات الأكثر استخداماً لهذه الموجات الراديوية هي من ٦٠ إلى ٨٠ ميغاهرتز (الميغاهرتز= مليون هرتز) . وعند استخدام هذه الطريقة لنقل إشارة المعلومات التي تأخذ إحدى حالتين فقط يفضل استخدام التعديل الطوري، وهذه الطريقة ملائمة جداً لنقل إشارات التحكم أو القياس التي تتطلب دقة عالية . ويمكن زيادة مسافة الاتصال من بضع مئات من الأمتار إلى بضعة كيلومترات أو حتى مئات الكيلومترات أو آلافها باستخدام هوائيات إرسال واستقبال مناسبة .

وعند استخدام هذه الطريقة لنقل إشارة المعلومات من بعد يفضل أن تكون هذه الإشارة نبضية تأخذ إحدى حالتين فقط، وإذا لم تكن كذلك فإنها تحول إلى هذا الشكل باستخدام مُبدلات تمثيلية رقمية analog to digital converter . ومبدأ عمل هذه المحولات يعتمد على أخذ عينات samples للإشارة في أزمنة محددة وبتردد يتعلق بحزمة الترددات الأساسية للإشارة المعنية، لكي لا يقل هذا التردد عن ضعفي عرض حزمة ترددات هذه الإشارة، وبعد ذلك يتم تكميم quantizing هذه العينات وفق سلم مناسب . ثم ترمّز القيمة الناتجة من التكميم ترميزاً ثنائياً binary code باستخدام عدد صحيح من الواحدات الثنائية Bits لتمثل كل مجموعة من هذه الواحدات الثنائية قيمة عينة واحدة . وعدد الواحدات الثنائية في كل مجموعة يكون ثابتاً، وقيمته تتحدد بالقيمة العظمى العشرية لسلم التكميم، وكل من هذه الواحدات الثنائية يمكن أن تأخذ قيمتين فقط : صفر وواحد . ويتم أخيراً تعديل الحامل الراديوي بطريقة الإقفال بإزاحة الطور phase shift keying بين قيمتين محددتين كل منهما تقابل إحدى حالتي الواحدة الثنائية . وفي طرف الاستقبال تتم عملية معاكسة فيتم استرجاع قطار

النبضات الثنائية باستخدام كاشف طور مناسب للحامل المستقبل ثم تحول كل مجموعة من هذه النبضات الثنائية إلى قيمة نبضية ذات مطال متغير تمثل العينة المرسلة وذلك باستخدام مبدل رقمي / تمثيلي digital to analog converter وبتمرير هذه النبضات المتغيرة المطال بمرشح تمرير منخفض low pass filter تُستخلص في مخرجه إشارة المعلومات التمثيلية المستمرة المرسلة من طرف الإرسال. وتتطلب هذه العمليات أن يكون هناك معالجة دورية cyclic ومتزامنة synchronous بين طرفي الإرسال والاستقبال ويتم ذلك بإرسال معلومات مرجعية في بداية كل إطار frame من أطر المعلومات المرسلة لكي يُستطاع بوساطتها مزامنة النظام.

وتتميز هذه الطريقة بإمكان إرسال عدة إشارات لمعلومات مختلفة المصدر وذلك باستخدام التنضيد أو التجميع بالتقسيم الزمني time devision multiplexing لعينات هذه الإشارات دورياً في طرف الإرسال وتوزيع demultiplexing النبضات الناتجة في طرف الاستقبال على نحو مشابه تماماً للتنضيد الذي تم في طرف الإرسال ليتم توجيه هذه النبضات إلى الجهة المحددة لها.

وإضافة إلى إمكان استخدام واحدات ثنائية فائضة redundant عن الواحدات الثنائية الممثلة للعينة للاستفادة منها في كشف الأخطاء التي يمكن أن تحدث في أثناء النقل، وذلك باستخدام عمليات منطقية مناسبة تعتمد على مقارنة الإشارة المرسلة مع إشارة ذات خواص محددة مسبقاً، تستفيد هذه الطريقة من التطور السريع للدارات المتكاملة المنطقية logic integrated circuits التي أصبحت الآن تنافس بأسعارها ووثوقيتها الدارات المتكاملة التمثيلية analog i.c

ومن أهم مزايا إرسال المعلومات من بعد بالشكل الرقمي في وقتنا الحاضر انتشار استخدام الحاسوب الرقمي digital computer والمعالجات الصغرية micro processer في عدد كبير من التطبيقات العملية للتحكم والقيادة والقياس من بعد إذ يمكن استخدام المعطيات الرقمية المرسلة والممثلة للمعلومات مباشرة من قبل هذه الآلات ومعالجتها وإعطاء الجهة المستمرة نتائج هذه المعالجة على وجه ملائم لاستخلاص الغرض المنشود.

محمد صباغ

الموضوعات ذات الصلة:

الاتصال ـ إرسال المعطيات ـ الاستقبال اللاسلكي ـ التكميم ـ الحاسوب ـ الدارات المتكاملة ـ المرشحات ـ الموجات الراديوية ـ الهتف ـ الهوائيات.

مراجع للاستزادة:

ـ أحمد عمر يوسف ومحمد صباغ، هندسة الاتصالات اللاسلكية (جامعة دمشق ١٩٨٣).

ـ تاج الدين جركس، هندسة الاتصالات السلكية (جامعة دمشق ١٩٨٢).

ـ أحمد أزرق، بنية الحاسبات الإلكترونية وتصميمها (جامعة دمشق ١٩٨٤).

-KENNEDY, Electronic Communication Systems (Mc Graw Hill 1977).

-HALLIWELL, Advanced Communication Systems (STC Monograph 1974).

■ الأرستقراطية

الأرستقراطية aristocracy كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين aristos وتعني الفاضل أو الجيّد وkratos وتعني القوة أو السلطة، وكانت الكلمة في مدلولها الأصلي تعني حكم أفضل المواطنين لفائدة جميع الشعب. فالأرستقراطية إذن «حكم الأفضلين»، وبهذا المعنى استخدمها أفلاطون في «الجمهورية» وأرسطو في «السياسة» وكان كلاهما يعتقد أن الحكومة الأرستقراطية أفضل أنواع الحكومات وأكثرها عدلاً، ولكنهما أبديا ارتياباً في قدرتها على الديمومة. يقول أفلاطون في الكتاب الثامن من الجمهورية «إذا انحرفت الأرستقراطية وتحول أبناؤها إلى إيثار الثروة على الشرف تحولت إلى الأوليغارشية oligarchie (حكم القلة) التي لبابها جَعْلُ الثروة أساس الجدارة وهو إثم فظيع» ويعد أرسطو الأرستقراطية حكومة الأقلية الفاضلة العادلة، إلا أن الأوليغارشية فساد طبيعي لها.

وتحسن الإشارة إلى أن مفهوم أفلاطون للروح الأرستقراطية مفهوم قيمي أكثر من كونه مفهوماً طبقياً. فالأرستقراطية حكم الأقلية الفضلى لأنها تضم المتفوقين أخلاقياً وعقلياً ويحكمون لخير الشعب.

إلا أن كلمة الأرستقراطية استعملت بعد ذلك بتوسع واتخذت دلالة جمعية على قيادة أشخاص (شرفاء أو نبلاء أو كهنة) لدولة، أو على مجموعة من «أصحاب المنزلة» متميزين في المولد أو الموهبة أو الذهن أو الغنى. ويمكن الإشارة إلى مدلولات ثلاثة للكلمة في استخدامها الشائع. يدل الأول على حكومة سياسية تمارس فيها السلطة العليا طبقة اجتماعية ذات امتيازات وهي وراثية في معظم الأحيان. ويدل الثاني على طبقة من النبلاء أو الأشراف أصحاب الامتيازات. أما الثالث فأدبي وعام: فلكل ميدان أرستقراطيته، وهم نفر قليل من الأشخاص يتمتعون بتفوق يميزهم في مجالهم (أرستقراطية الأدب أو الفن، الأرستقراطية الصناعية، أرستقراطية المال، الأرستقراطية العمالية «وهي الشريحة العمالية العليا التي تتكون من أكثر الفئات مهارة وأعلاها أجراً من مجموع الطبقة العاملة، والمنفصلة عنها من حيث التكوين الأيديولوجي والنفسي»).

والمبدأ الديمقراطي نقيض للمبدأ الأرستقراطي. والواقع أن كلمة أرستقراطية أصبحت تستعمل بصورة عامة بالمعنى الاجتماعي أكثر مما تستعمل بالمعنى السياسي. ومنذ الثورة الفرنسية أسبغ المصطلح الثوري على كلمة أرستقراطية صفة انتقاصية تشير إلى زمرة من أصحاب الامتيازات بسبب مولدهم أو أملاكهم أو نقودهم وهم بسبب ذلك «جائرون وقمعيون وأعداء للشعب وللأمة».

أنواع الأرستقراطية وتحولاتها

إن لجميع المجتمعات التقليدية، مهما كانت الدرجة التي بلغتها من الحضارة، أرستقراطيتها (من نبلاء وأشراف وكهنة). ولكن الكلمة تنطبق على ضروب من الواقع شديدة التنوع في الزمان والمكان بحيث يكون من الصعب رسم لوحة مقارنة لأنماط الأرستقراطية في تاريخ الإنسانية من الطبقة البراهمانية في الهند إلى الاوباتريد Eupatrides في اليونان القديمة إلى الساموراي في اليابان وطبقات النبلاء المتنوعة في أوربة في العصور التالية لسقوط روما. فقد كانت حكومات اليونان القديمة أرستقراطية

عسكرية، وكانت حكومة اسبرطة أشهرها إذ الاسبرطي وحده يتمتع بالمواطنة الكاملة بل إن «السلطة وجميع ما للأمة كان في يد طائفة من أهلها لم تكن في البداية تزيد على عشر أسر».

وفي أثينة وجدت طائفة خاصة من الأشراف حتى في عهد ملوكها الأوائل. فقد كان الأوباتريديون، وهم أبناء القبائل البيلاجية الأولى وذرية الفاتحين الأولين من الأبوليين والإيونيين، يعدون حكام أثينة وقادتها طول قرون كثيرة.

ويعد الرومان من أشد الأمم أرستقراطية فقد كانت طائفة الأشراف الرومان patricien تتمتع في البداية وحدها بحق المواطنة ومن عداها محروم معظم الحقوق وخاصة الارتباط بها برابطة المصاهرة والنسب.

وفي الهند نمط آخر من الأرستقراطية الوراثية: فطبقة (البراهما) الكهنوتية التي ولد أفرادها من فم الإله (فيشنو)، في حين ولد أفراد طبقة السُّدرا (المنبوذون) من قدميه، ظلت منذ ألفي عام قبل الميلاد تحتكر مواقع الشرف والرفعة. وفي الجزيرة العربية كانت الأرستقراطية القرشية قبل الإسلام تحكم مكة وهي يومئذ زعيمة العرب وكان بها ملأ يجتمع بدار الندوة (وهو مجلس شيوخ مصغر) لم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين عاماً ويختارون بحسب ثرائهم وهم سادة بطون قريش التي كانت مؤلفة من «قريش البطاح» وهي الأسر الكبيرة النازلة بجوار الكعبة وبيدها وحدها القوة العسكرية والنفوذ والغنى، ومن «قريش الظواهر» وينزلون من ورائهم وفيهم العامة وأخلاط من صعاليك العرب والعبيد.

وفي أوربة بعد زوال الامبراطورية الرومانية تكونت أرستقراطية جديدة قوامها رؤساء مجموعات أشبه بالعصابات ورومانيون بقيت لهم ثروتهم بعد زوال دولتهم.

لقد تطورت الأرستقراطية مع الحضارة، فبعد نبالة المولد جاء دور مالكي الأرض، ثم ما لبثت النقود أن أصبحت تقود إلى السلطة أكثر من الغنى العقاري. وثمة تماثل في السياق التاريخي رافق نشوء الأرستقراطية: نخبة عسكرية تقبض على السلطة ويتوارثها أبناؤها بعد ذلك ثم يصبحون ملاكاً للأراضي وما تلبث أن تنفتح مسارب في طبقتهم لأناس آخرين يملكون أنواعاً أخرى من الثروة.

وثمة نزعة عرقية تضاف من زمن إلى آخر إلى هذا السياق وقد مثل ذروتها منظّرو النازية، مثل روزنبرغ وهتلر، الذين فسروا ثورة ١٨٧٩ في فرنسة مثلاً بأنها صراع عرقي بين الشعب المؤلف من عناصر عرقية أدنى وبين النبالة (الآرية) ذات الأصول «الهندية الجرمانية».

ويبقى التمييز بين أرستقراطية المولد والأرستقراطية غير الوراثية أمراً نسبياً لأنه حتى في الشريحة الاجتماعية الواحدة لا بد أن يتسلق بعض وضيعي المولد إلى طبقة أعلى (إن ٤٣ بالمئة من أباطرة رومة ولدوا في طبقات دنيا) وأن ينحدر بعض كرام المحتد إلى طبقة أدنى. ومن جهة أخرى فإنه حتى في الأرستقراطيات المنفتحة ثمة ميل دائم لدى الشريحة العليا إلى أن تصبح زمرة وراثية.

الثورة على الأرستقراطية

أثارت الأرستقراطية العداوة ضدها في كل مكان وزمان، ففي اليونان القديمة أجبر الشعب قادته منذ القرن السادس قبل الميلاد على إنقاص مدة ولايتهم إلى عشر سنين ثم إلى سنة واحدة وعلى تدوين قانون معروف الحدود بل على النزول عن جزء من ثروتهم للعامة.

أما الجمهورية الرومانية فقصة الصراع بين الأشراف والعامة جزء من تاريخها، وفي سنة ٤٩٤ق.م تأسس فيها مجلس «التريبيون» Tribune دفاعاً عن العامة وللحد من سلطة الأشراف ونجح في توسيع نطاق المواطنة إلى مدى أبعد في عام ٤٧١ ق.م، وفتحت الهيئات المختلفة أمام مرشحي العامة. وقد قاتلت الأرستقراطية الرومانية للحفاظ على امتيازاتها بقيادة لوشيوس كونيليوس سولا «عامة» الناس الذين كان يقودهم كايوس ماريوس في القرن الأول ق.م، وهزم الحزب الأرستقراطي أخيراً في معركة فيلبي سنة ٤٢ق.م.

وفي القرن الثامن الميلادي حاول شارلمان أن يضع حداً لغلواء الأرستقراطية التي استشرى نفوذها وعاثت تخريباً ونهباً في الأرياف الأوربية في القرون الثلاثة التي أعقبت سقوط رومة، ولكن مملكته تمزقت إلى ممالك ضعيفة واغتصبت طوائف النبلاء كل شيء. ولكن الأرستقراطية بدأت تواجه تحديات الطبقة الوسطى النامية في المدن كما واجهت تحديات الحرفيين الذين هم أقل شأناً، إضافة إلى الحروب التي شنها عدد من ملوك أوربة منذ القرن الثالث عشر لاسترداد سلطتهم من أيدي رؤساء المجموعات وظل الصراع سجالاً وعلى أشده حتى القرن السادس عشر، وكانت الأسلحة النارية وكشف المدفع عاملاً مهماً في انتصار السلطة المركزية للملوك.

وقد استمر الثقل النسبي للنبلاء في التناقص في حرب الثلاثين عاماً في أوربة الوسطى خاصة، في حين انهارت سلطة النبلاء في فرنسة إبان القرن السابع عشر في حرب الفروند في أثناء مدة الوصاية على لويس الرابع عشر. وكانت الدول التي جرى فيها «إصلاح» وتطور اقتصادي في حاجة إلى أطر لاهوتية وإدارية جديدة لم يكن قادراً على تقديمها غير بورجوازية المدينة. وأخذت الجيوش نفسها، التي وضعت بين أيدي متعهدي الحرب، تصبح بالتدريج غير مناسبة للعقلية الأرستقراطية. فقد أصبحت الجيوش الخاصة المؤسسة على الارتزاق خطراً على الدولة وعامل تخريب وتدمير للسكان، وأصبح الميل العام متجهاً نحو تحويل الرئيس المرتزق إلى ضابط تابع لأميره، وانخرط النبلاء بسهولة في هذه الجيوش الجديدة.

ولم يكن مصير الأرستقراطية في أوربة كلها متماثلاً. ففي أوربة الشرقية مثلاً كانت الدولة نفسها مؤسسة على أرستقراطية شديدة العسكرة وكان القياصرة أنفسهم مع نبلائهم يوجهون مصير روسية، بفعل استعباد الفلاحين، إلى كل ماهو معاكس لمجرى التطور الاجتماعي الأوربي.

ولكن الصورة العامة تتلخص في أن سيطرة الأرستقراطية قد تزعزعت في كل مكان منذ القرن الثاني عشر بفعل ظهور المدن وصعود البرجوازيات الأولى التي سجلت ظهور قوة جديدة ترتكز على المال.

وقد وجهت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ضربة شديدة إلى طبقة النبلاء في فرنسة خاصة وفي أوربة على وجه العموم، واستمر الصراع مع الأرستقراطية طوال القرن التاسع عشر، وقامت ثورتا ١٨٣١و ١٨٤٨ بدور مهم في القضاء عليها. ولكن الأرستقراطية لم تسلم بهزيمتها بسهولة بل شهدت مراحل انتعاش عدة بعد عودة الملكية إلى فرنسة وانخراط قسم كبير من أفرادها في النشاطات التجارية والمؤسسات الحكومية. وإلى أن قامت ثورة ١٩١٧ في روسية

استمر النظام الأرستقراطي في الحكم إلى درجة كبيرة في أوربة الوسطى والشرقية ولا سيما في ألمانية والنمسة وهنغارية وروسية.

أسعد صقر

الموضوعات ذات الصلة:

البورجوازية ـ الحكم ـ الديمقراطية.

مراجع للاستزادة:

ـ حنا خباز، جمهورية أفلاطون (ترجمة).

-L. VERRIEST, Questions d'histoire des institutions medievales (Bruxelles, 1959).

■ أرسطو

(٣٨٤ ق.م ـ ٣٢٢ق.م)

فيلسوف يوناني ترك أثراً عميقاً في الفكر اليوناني ومن بعده في الفكر المسيحي والفكر العربي الإسلامي والفكر الحديث. وكان أشهر تلامذة أفلاطون.

ولد أرسطو Aristotle (أرسطوطاليس كما كان يسميه العرب) عام ٣٨٥ أو ٣٨٤ق.م بمدينة اسطاغيرا في مقدونية، وكان أبوه طبيب الملك أمينتاس الثاني Amintas II ومن أسرة أطباء. وفي عام ٣٦٧ أو ٣٦٦ ق.م جاء أرسطو إلى أثينة ودخل أكاديميتها، وبقي فيها حتى وفاة مؤسسها أفلاطون، بعد أن قضى فيها عشرين سنة. ثم غادرها ورحل إلى طروادة، ومنها انتقل إلى ميتلين، في جزيرة لسبوس، وأقام فيها إلى أن استدعاه، عام ٣٤٢ ق.م، فيليبس المقدوني (ابن أميناس الثاني) ليعهد إليه بتربية ولده الاسكندر. وعندما تولى الاسكندر العرش، عام ٣٣٤ ق.م، رجع أرسطو إلى أثينة، وأسس فيها مدرسته بالقرب من معبد أبولون اللوقيوني، ومن هنا سميت هذه المدرسة باسم «اللوقيون». وبعد وفاة الاسكندر، عام ٣٢٣ ق.م، ثار الأثينيون على أرسطو، واتهموه بالولاء للعرش المقدوني، وبالإلحاد في الدين. ولهذا رأى أرسطو من الحكمة ألا يجعل الأثينيين يرتكبون الجريمة نفسها التي ارتكبوها مع سقراط، فغادر أثينة، وسافر إلى مدينة خلقيس حيث توفي.

ولأرسطو مؤلفات كثيرة ومتنوعة، ولكن لم يصلنا منها إلا ٤٧ مؤلفاً يمكن جعلها، من حيث الموضوع، في الأقسام التالية: الكتب المنطقية، وتشمل: المقولات، والعبارة، والتحليلات الأولى، والتحليلات الثانية، والجدل، والمغالطات السفسطائية.

والكتب الطبيعية، وهي: السماع الطبيعي، وفي السماء، وفي الكون والفساد، والآثار العلوية أو الظواهر الجوية، وفي النفس، والطبيعيات الصغرى، وخمسة كتب في التاريخ الطبيعي هي: تاريخ الحيوان، وأعضاء الحيوان، وتكوين الحيوان، ومشي الحيوان، وحركة الحيوان.

والكتب الميتافيزيقية، أو كتاب مابعد الطبيعة: وصل إلينا هذا الكتاب مؤلفاً على صورة مقالات عددها أربع عشرة مقالة مسماة بالأحرف اليونانية. ولهذا أطلق العرب على هذا الكتاب «كتاب الحروف». والاسم الأصلي الذي كان يطلقه أرسطو نفسه على هذا الكتاب هو «الفلسفة الأولى». أما التسمية باسم «مابعد الطبيعة» فقد وردت في تعليقة لأندرونيقوس الروديسي على شرح ميتافيزيقة ثاوفرسطس. وليس من شك في أن الأصل في هذه التسمية يعود إلى أسباب خارجية، وهي أن ترتيب هذه المجموعة قد جاء بعد الطبيعيات.

والكتب الأخلاقية والكتب السياسية، وتشمل: الأخلاق النيقوماخية (الأخلاق كتبها إلى ابنه نيقوماخوس)، والأخلاق الكبرى، وكتاب السياسة، ودستور الأثينيين.

والكتب الشعرية، وهي: في الشعر، وفي الخطابة.

ويمكن تصنيف هذه المؤلفات وفق أقسام العلوم الثلاثة الكبرى التي قال بها أرسطو إلى مايلي:

العلوم الشعرية: وتدرس نتاج العقل، لأن العقل يصنعها من مواد وجدت من قبل، سواء أكانت شعرية أم خطابية.

والعلوم العملية: وتدرس مختلف صور النشاط البشري الأخلاقي أو السياسي أو الاقتصادي.

والعلوم النظرية: وهي أسمى العلوم، لأنها تبتغي المعرفة المجردة. وتشمل العلوم الطبيعية، والعلوم الرياضية والميتافيزيقة.

أسلوب أرسطو ومنهجه

يتميز أرسطو من أفلاطون في تفكيره المنطقي القائم على التحليل، وانطلاقه من الواقع



المادي الملموس. هذا التفكير المنطقي التحليلي ظاهر جداً في منهجه، بل طبع بطابعه الخاص مجمل أفكاره، وفيها المسائل اللغوية، مع أن نزعته العلمية حاولت قدر الإمكان، أن تخفف من حدته، بإضافة التجربة والملاحظة إلى التحليل. أما نزعته الواقعية، فيمكن ملاحظتها حتى في الفلسفة الأولى، إذ انطلق من العالم الطبيعي، مميزاً علله التي تتحكم فيه، ومن ثم ارتقى نحو العالم غير المادي لدراسة المبادئ المطلقة للوجود.

ومع أن لكل علم من العلوم موضوعه وأسلوبه الخاصين به، فإن عند أرسطو أسلوباً عاماً للبحث يبين نوع تفكيره وسعة معارفه، ويبدو ذلك في قوله في كتابه «مابعد الطبيعة»: «البحث عن الحقيقة عسير جداً، من جهة، وسهل، من جهة أخرى. ومايبرهن على ذلك أن لا أحد يدرك الحقيقة إدراكاً كاملاً، ولا أحد يجهلها جهلاً كاملاً. فكل فيلسوف يجد مايقوله في الطبيعة، وكل قول من هذه الأقوال، إذا نظرنا إليه على انفراد هو لاشيء، أو هو شيء زهيد جداً، بالنسبة إلى الحقيقة، غير أن مجموع الأقوال يأتي بنتائج مثمرة. فمن العدل إذن ألا نشكر الذين نتفق وإياهم في الأفكار وحسب، بل الذين يختلفون عنّا في الآراء. لقد أسهم

هؤلاء في البحث عن الحقيقة، لكونهم أنموا فينا القدرة على التفكير».

ولما كانت الحقيقة صعبة الإدراك، اتّبع أرسطو منهجاً من أربع مراحل يوضحها في الكتاب نفسه. ويقوم المنهج، في مرحلته الأولى، على تعيين موضوع البحث، ليتمكن، بالتالي، من تعيين الدليل الذي يلائمه، لأن «البعض لايقبل إلا لغة الرياضيات، والبعض لايريد إلا أمثلة، والبعض يريد الاستشهاد بالشعر، والبعض يحتم في كل بحث برهاناً محكماً»، في حين يعدّ غيره هذا الإحكام «إسرافاً» ولكن يجب «أن يبدأ بتعرف مقتضيات كل نوع من العلم ... فلا تقتضي الدقة الرياضية في كل موضوع، وإنما فقط في الكلام على المجردات، ولذلك فالمنهج الرياضي لايصلح للعلم الطبيعي، لأن الطبيعة تحتوي على المادة». ويقوم، في مرحلته الثانية، على سرد الآراء المضادة لآرائنا، وتمحيصها، بقصد الوقوف على شتى الآراء في الفروع جميعها. فالذي «يسمع الحجج المتعارضة جميعاً يكون موقفه أفضل للحكم». ويقوم، في مرحلته الثالثة، على «فحص الصعوبات، لأن الباحث من دون هذا الفحص، يشبه مسافراً يجهل الوجهة التي ينبغي له أن يتجه إليها... فهدف البحث لايظهر إلا لمن عرف قبلاً الصعوبات». وأما في مرحلته الرابعة، فإنه يقوم على النظر في المسائل نفسها والفحص عن حلولها مستعيناً بالنتائج المستخلصة في المراحل السابقة. ويعرض أرسطو، في نهاية الفصل الأول من المقالة الثالثة، أربع عشرة مسألة يؤلف مجموعها مفردات موضوع كتاب ما بعد الطبيعة.

ومع أن هذه المسائل صعبة ومعقدة، كما يصفها أرسطو نفسه، فإنه يدرسها ويجيب عنها بأن يعرض، كلما بحث في مسألة منها، الآراء المهمة فيها، ويناقشها. وكثيراً مانراه يعرض الصعوبات بصورة قضية ونقيضها، ويناقش كل واحدة منها. غير أن هذا العرض يعبّر غالباً عن موقف أرسطو العقائدي الذي يعدّ كل الفلسفات السابقة إما ناقصة مقارنةً إلى فلسفته التي عدّها خاتمة الفلسفات، وإما انحرافاً عنها. وهذا كله يأتي بحثاً عن الحقيقة.

اعتقد أرسطو، بادئ ذي بدء، أن الحقيقة يمكن تحديدها بالعلاقة البسيطة بين الأفكار. بيد أنه لم يتأخر، بعد استقلاله عن أفلاطون، في العدول عن هذا المفهوم المثالي، إذ لم تبق الحقيقة، في نظره، قائمة على مجرد توافق الفكر مع نفسه، بل على توافقه مع الأشياء والموجودات الخارجية، أي مع العالم الحسي. وبهذا أخرج أرسطو الحقيقة من إطار المنطق وأدخلها في إطار الميتافيزيقة. فالوجود العقلي يفترض، إذن، وجوداً واقعياً.

المنطق

يعد أرسطو واضع المنطق الصوري. وهو، وإن لم يدخله ضمن إطار العلوم النظرية، أو لم يعدّه علماً مستقلاً بذاته، فإنه استعمله فقط أداة للبرهنة في بقية العلوم، لأن موضوعه، بنظره، ليس وجودياً، وإنما هو عقلي. فالمنطق يدرس صور الفكر البشري بغض النظر عن مضامينها الواقعية. وهكذا فإن المنطق علم يوجه العقل نحو الحقيقة، ويسمح له، من خلال عملياته المختلفة (التصور البسيط، والحكم والتصديق، والمحاكمة والاستدلال)، بإدراكها، من دون أن يقع في الخطأ أو في الضلال. فالمنطق يدرس، إذن، عمليات العقل الثلاث، من حيث الصحة والفساد. ولهذا أتت كتب أرسطو المنطقية موزعة إلى ثلاثة أقسام: كتاب المقولات، الذي يدرس الأمور المتصورة تصوراً ساذجاً، وكتاب العبارة، الذي يدرس القضايا المركبة، وكتاب التحليلات الأولى، الذي يدرس الاستدلال من حيث صورته. أما الاستدلال، من حيث مادته، فإنه إما استدلال برهاني قائم على مقدمات كلية يقينية، وإما استدلال جدلي مركب من مقدمات ظنية احتمالية، وإما استدلال سفسطائي مؤلف من مقدمات كاذبة تحتوي على النتيجة احتواء ظاهرياً لا حقيقياً. ولهذه الأنواع الثلاثة من الاستدلالات، خصص أرسطو ثلاثة كتب منطقية: التحليلات الثانية أو البرهان، والجدل، والأغاليط.

وإذا كانت العملية الأولى تسمح للعقل بإدراك ذات الشيء وماهيته، على طريق استحضار صورته في الذهن من دون إثبات أو نفي، فإن العملية الثانية توحّد وتجزئ على طريق الإيجاب والسلب: فعلى طريق الإيجاب يُنسب المحمول إلى الموضوع، وعلى طريق السلب يُنفى المحمول عن الموضوع. أما العملية الثالثة، فهي العملية المنظمة تنظيماً منطقياً، والتي تمكّن العقل من الانتقال بين الأشياء من معلوم إلى مجهول. فالعملية الأولى تقع في مستوى الماهية، والثانية في مستوى الوجود لإثباته أو نفيه، والثالثة في مستوى عقلي محض للاستدلال على مبادئ وجود الأشياء المجهولة انطلاقاً من الأشياء المعلومة.

كان أرسطو أول من أدرك بدقة إمكان تكوين قياس صحيح، لا انطلاقاً من ذات واقعية فقط كما فعل ذلك سقراط، وإنما كذلك انطلاقاً من ذات تصورية؛ وأول من حدّد، تماماً، علم توافق الفكر مع نفسه، فأعلن أنه عند افتراض قضيتين، فإن القضية الثالثة ستنجم حتماً عنهما وفق ضرورة، ليست واقعية، وإنما منطقية. وهكذا ميّز أرسطو بين مجال الفكر أو المنطق ومجال الواقع أو علم الوجود الميتافيزيقي، معترفاً في الوقت نفسه بالعلاقة الوطيدة بينهما. ومع أنه بذل قصارى جهده، ولاسيما في التحليلات الأولى وفي العبارة، لصوغ قوانين المنطق الصوري، فإنه لم يتوصل إلى التخلص من الاعتبارات الأنطولوجية، ولم يدرس قوانين القضايا المنطقية بوجه منفصل عن قوانين الوجود. وعلى كل حال، فإن التفريق الواضح، الذي أقامه أرسطو بين الذهني والواقعي، يسمح لنا أن ندرس عنده المنطق الصوري بوجه مستقل عن العلم والميتافيزيقة. فالمنطق الصوري يدرس، إذن، صورة القياس نفسها وعناصره المتمثلة بالمقولات.

المقولات: إن المقولات هي أجناس للموجود، بل هي الأنواع والأصناف الأساسية للوجود، ومن ثم الأنواع الأساس لمفاهيمنا عن طريقة وجود الأشياء. فهي مختلفة عن الوجود نفسه وعن محمولاته الاستعلائية، كالوحدة والحقيقة والجمال. وهي أيضاً مغايرة للألفاظ الكلية الخمسة (الجنس، والنوع، والفصل النوعي، والخاص، والعرض) الموجودة أصلاً في التصور والمرتبطة ارتباطاً عملياً في الواقع. فهذه الكليات لاتملك، إذن وجوداً مستقلاً بكل ما تحتويه كلمة وجود من معانٍ. والمقولات مختلفة كذلك عن الكلمات، لكون المقولات، بعكس الكلمات، مفاهيم يمكن حملها على موضوعات من دون أن تقوّمها.

وباختصار يمكن القول: إن المقولات هي التحديدات الواقعية للموجودات وهي تشمل الأنواع العشرة التالية: الجواهر (الجواهر الأولى، مثل سقراط، والجواهر الثانية كالأنواع مثل إنسان، والأجناس مثل حيوان)، والكمية (مثل

ثلاثة أشبار)، والكيفية (مثل أبيض)، والمضاف (مثل أكبر وأصغر)، والمكان (مثل السوق)، والزمان (مثل أمس)، والوضع (مثل جالس)، والملك (لابس الثوب)، والفعل (يقطع أو القطع)، والانفعال (مقطوع).

التصورات البسيطة الساذجة: ميز أرسطو التصور من التحديد (أو الحدّ)، وذكر أنواع التصورات والفرق بين التضاد والتناقض.

معنى التصور وعلاقته بالتحديد: إن التصور، في معناه المنطقي والأنطولوجي، عنصر بسيط، ومتحد مع طبيعة الموجودات البسيطة غير المنقسمة. وهو يقوم على ذات الشيء التي هي أساس كل تحديد. والتحديد يقتصر على ذات الشيء المقوّمة له، وبوجه نوعي على هويته التي تقوّم وجوده، وتجعل منه حقيقة واقعية متميزة، ووحدة كلية غير منقسمة. وهذه هي التصورات المحضة كالأجناس والأنواع. بيد أن هناك، تحت هذه التصورات المحضة المقوّمة لماهيات الموجودات، تصورات أخرى أقرب من الأولى إلى الفكر المنطقي وأهم منها، لأنها تقوم على وحدة الشيء المحدّد. وهذه هي العلل الصورية والمحركة والغائية.

وهكذا فإن التحديد (الحدّ) بشموله لذات الشيء أو لصورته، يشمل، على نحو غير مباشر، مادته، لأن المادة إمكانية بالقوة تتحقق بالفعل عند اتحادها بالصورة، ولأن التحديد لا يقع، في مستوى المادة والصورة، وإنما فقط في مستوى الماهية. وهذا يعني أن التحديد يشمل المادة والصورة على طريق العلاقة الضرورية القائمة بينهما، أي على طريق العلة الغائية التي توحّد بينهما.

فالتصور الأرسطي، الذي يقوم أساساً على النوع أو على الصورة، ينجم من اتحاد الجنس مع الفصل النوعي. والجنس، الذي علاقته بالفصل النوعي كعلاقة المادة بالصورة، قاعدة التصور الأولى، لأنه العنصر الجوهري المشترك بين عدة أنواع. أما الفصل النوعي، فإنه يشمل، في الأعيان، الفصول التي هي أدنى، وأخيراً المادة المقوّمة له.

العلاقة بين أنواع التصورات: لقد كشف أرسطو النقاب عن الخطأ الذي أوصل الإيليين ومن سار معهم من ميغاريين وفيثاغوريين إلى طريق مسدود. وهذا الخطأ يقوم، برأيه، على اعتقادهم أن الموجود وحده قابل للتصور، أما العدم فلا يمكن تصوره. وهكذا فإن التصور متطابق، عندهم، مع الموجود. وللإفلات من هذا الخطأ، قام أرسطو بإحلال مذهب الواحد ـ المتعدد، أو الواحد ـ الموجود، الذي قال به أفلاطون في كتابه «بارمنيدس»، محل الموجود ـ الواحد مطلقاً، الذي قال به الإيليون وأتباعهم. كما أنه ميّز في «المقولات» (الفصلان ١٠ و١١) وفي «ما بعد الطبيعة» (المقالة العاشرة) بين التصورات محدداً الفرق بين التناقض والتضاد، أو بوجه عام، بين العدم والغيرية.

ميّز أرسطو أربعة أنواع من تقابل التصورات وهي: الإضافة كالضعف والنصف، والتضاد مثل الشر والخير أو الأسود والأبيض، والعدم والملكة كالعمى والبصر، والإيجاب والسلب المقومان للتناقض، مثل هو جالس وهو غير جالس.

يبيّن أرسطو، بوضوح، ارتباط هذه الأنواع الأربعة وتسلسلها. فالتقابل الأكثر إطلاقاً يبدو في الشكل الرابع لعدم وجود حدّ متوسط بين طرفي التقابل، ويليه الشكل الثالث الذي هو تحديد لسابقه ونوع منه، ثم الشكل الثاني الذي هو دائماً عدم وجود: فالشر هو دائماً عدم وجود الخير، لكن العكس غير صحيح. ويأتي في المرتبة الأخيرة الشكل الأول الذي يحتوي على أقل مايمكن من السلب، لأن تقابل الطرفين فيه يقوّم طبيعتهما بحيث لايوجدان إلا معاً.

التضاد والتناقض: أدرك أرسطو بوضوح الفرق الأساسي بين التناقض والتضاد، وتوصل، في هذا الموضوع، إلى الحقيقة النهائية. ولما كانت الحقيقة والخطأ صفتين من صفات الأحكام، فإن التناقض يميّز بينهما، لأنه الشكل الوحيد الذي يمكن تحديده بالحكم. فإذا كان أحد الطرفين حقيقياً، فسيكون الطرف الآخر خاطئاً، والعكس صحيح. أما في الأشكال الثلاثة الأولى، فإنه ليس من الضروري أن يكون أحد الطرفين حقيقياً عندما يكون الطرف الآخر خاطئاً، وإن اتخذت هذه الأشكال صفة الأحكام.

وبيّن أرسطو، بتأثير من أفلاطون، أن أخطاء الفلاسفة الذين سبقوه وتناقضاتهم تعود جميعها إلى عجزهم عن تمييز المفاهيم المختلفة لـ«الموجود» من التعدد الذي يتضمنه تصوّر الموجود نفسه، فيقول: علينا إذن أن نفرق بين الموضوع والمحمول، وكذلك بين كون الموضوع شيئاً ما وبين وجوده، وإلا فسنقع حتماً في شك لانخرج منه إلا باتباع إحدى الوسيلتين التاليتين: إما أن نؤكد مع الإيليين أن الموجود وحده موجود، وأن كل الموجودات لا تؤلف سوى موجود واحد ثابت غير متبدل، وإما أن نقبل بوجود العدم.

ومع أن أفلاطون قد سلك الطريق الصحيح، بتأكيده وجود العدم، فإنه لم يميّز بدقة، كما فعل أرسطو، التصورات المتضادة التي تقبل بوجود موجودات متوسطة من التصورات المتناقضة التي ترفض وجودها، ولم يبيّن، كما أكد أرسطو، أن الموجود يقال وفق مفاهيم مختلفة (المقولات العشر)، يُدرك من خلالها أن الشيء الواحد يمكن أن يكون، بذاته، واحداً ومتعدداً معاً، وأن يكون بخواصه، شيئاً آخر غير ذاته. لكن هذه «الغيرية» في نظر أرسطو، ليست، كما اعتقد أفلاطون، هي نفسها العدم. وإذا كان أفلاطون قد قال بالوجود والعدم، بصفتهما طرفين متضادين، مستبعداً وجود موجودات أخرى متوسطة بينهما، فإن أرسطو قد تجاوز معلمه مؤكداً أن طبيعة العدم بمفردها لاتكفي للإحاطة بتنوع المعقولات ولا لإدراك المفاهيم المختلفة للموجود؛ ولذا قال بالوجود والعدم وموجودات أخرى متوسطة بينهما، هي الجواهر الثانية، كالأجناس والأنواع، من دون أن يعني وجودها أنها مختلطة مع الجواهر الأولى موضوع الميتافيزيقة فهذه الجواهر جميعها موجودة، لكن وجودها يقال وفق مستويات مختلفة.

وهكذا فإن أرسطو قد تجاوز أفلاطون بأن أعطى التعابير مفاهيم محددة، مميزاً الموجودات العرضية من الموجودات الجوهرية والمحمولات من الموضوعات. كما أنه أعطى فعل الوجود مفهومين يختلف أحدهما عن الثاني: مفهوماً جوهرياً ذاتياً يدل على وجود الشيء أو نفيه، ومفهوماً رابطياً يربط المحمول بالموضوع. إن التفريق بين هذين المفهومين يسمح بإسناد محمول إلى موضوع، واستنتاج شيء من شيء آخر، من دون انتهاك مبدأ عدم التناقض.

الحكم والتصديق: إن دراسة التصورات وتقابلاتها تقودنا، بصورة طبيعية، إلى دراسة الأحكام، لأن الحكم غير منفصل عن التصور البسيط، مع أن العقل يميز أحدهما من الآخر. وإذا كان التصور البسيط ثمرة فكرية متأصلة

في العقل ومعبرة عن وحدة الكلمة، فإن للحكم وحدة أكثر تركيباً من وحدة الكلمة، لأنه يتضمن، بعكس الكلمة، التركيب والتحليل. ومع أن وحدة الحكم مبنية على الواقع الحسي، فإنها موجودة، من حيث هي كذلك، في الفكر لا في الأشياء، كما أنها، بوجه خاص، سمة تمييز الحقيقة من الخطأ، لأن مفهوميهما موجودان في التركيب والتجزئة الملازمين للحكم، أي ليس في التصورات وإنما في اتحادها وتجزئتها، ولاسيما عندما نسند محمولاً إلى موضوع أو ننفيه عنه. وهكذا فإن الحقيقة تأكيد للاتحاد الواقعي بين المحمول والموضوع، ونفي للفصل بينهما، أما الخطأ فإنه نفي للاتحاد بين الحدين وتأكيد للفصل بينهما. بيد أن موضوع إدراك وحدة الأشياء والفصل بينها ليس من اختصاص المنطق، بل هو من اختصاص علم الوجود. فالمنطق لايستطيع الاستغناء عن الميتافيزيقيا في دراسة موضوع الحقيقة والخطأ، بل إن هذا الموضوع متعلق بالعلم الميتافيزيقي أكثر من تعلقه بالعلم المنطقي.

والواقع أن أرسطو يعترف أن الحقيقة توجد في الأعيان. فلكي تكون الارتباطات الفكرية حقيقية، يجب أن يقابل العلاقة الفكرية وجود واقعي. فقول الحقيقة إنما هو إقامة علاقة واقعية بين المحمول والموضوع، أو بالأحرى بين الموضوع الواقعي وبين ما يعود إليه واقعياً، إذ إن الخطأ ينعدم في الطبائع البسيطة التي إما أن نعرفها وإما أن نجهلها.

وإذا دُرس شكل الحكم دراسة منطقية يتبين أنه يتضمن تعددية جوهرية لأنه يربط محمولاً بموضوع، سواء أكان هذا المحمول عرضياً (الموسيقى بالنسبة إلى الإنسان)، أم مقوّماً (الحيوانية بالنسبة إلى الإنسان). كما أنه يتضمن وحدة أساسية، سواء في الفكر الذي يقيم العلاقة بين المحمول والموضوع، أم في الاتحاد الواقعي القائم بين الحدين، إذ إن أحدهما متضمن في مفهوم الآخر.

المحاكمة والاستدلال: إن الحكم ليس فكراً علمياً، لأن الفكر العلمي حركة تربط بين مجموعة من التصورات إما مباشرةً، وهذا هو الحدس، الذي هو، كموضوعه، بسيط ولايقبل التجزئة، وإما على نحو غير مباشر، وهذا هو الاستدلال، الذي يؤدي حتماً إلى القياس.

وإذا كان أفلاطون قد صنع من فن الجدل السفسطائي فن الحوار الفلسفي، أي أطلق على الفلسفة اسم الجدل الحقيقي مميّزاً ثلاثة أنواع من المعارف (ظنية ورياضية وعلمية)، وإذا كان قد رتّب المثل في أنواع وأجناس ثابتة، تسمح للعقل بالحركتين التصاعدية (من النوع الأقل امتداداً إلى الأكثر امتداداً)، والنزولية (من الجنس الأكثر امتداداً إلى الأقل امتداداً)، وإذا كان أفلاطون قد وضع قوانين القسمة المنطقية الثنائية مقترباً، قدر الإمكان، من القياس المنطقي، لأن القسمة، بنظره، عبارة عن وضع علاقة بين طرفين بوساطة طرف ثالث، فإن أرسطو يُعدُّ، حقاً، مبتكر القياس، وواضعاً قوانينه، وهو أول من اعترف بقيمته في الفكر، ومن حدّد مطابقاته للواقع. فأرسطو، من هذا القبيل، مكمّل لكل من سبقه، ولا سيما لأفلاطون.

أخذ أرسطو على أفلاطون أنه خلط بين الجدل والفلسفة، وعلى السفسطائيين أنهم أفسدوا فن الجدل: ومع أن للجدل والفلسفة والسفسطة موضوعاً واحداً مشتركاً فيما بينها، فإن أرسطو يفرق بينها، لأن «الفلسفة تختلف عن الجدل بالقدرة، وعن السفسطة بالغاية. الجدل يكتفي بامتحان المعرفة، وأما الفلسفة فتهدف إلى الكشف عن الحقيقة، وأما السفسطة، فليس لها إلا ظواهر الفلسفة».

تقود أبحاث أرسطو في الجدل إلى الاستدلال القياسي القائم على العلاقة المتأصلة بين عالم الأفكار والعالم الحسي، وعلى الروابط الضرورية والتحليلية التي أقامها أرسطو بين الأشياء. والقياس يسمح بالانتقال من المنطق إلى الميتافيزيقيا.

القياس: تعريفه، وصورته وأشكاله: يذكر أرسطو أن القياس «كلام مؤلف من قضايا إذا ركبت لزم عنها، لذاتها اضطراراً، نتيجة». وإذا كان القياس، كما هو واضح من هذا التعريف، مجموعة من الحدود المتتابعة منطقياً لموجود ذهني أو صوري محض، فإن هذا لايعني أن أرسطو قد فصل القياس عن الواقع، بل عدّه، على العكس، مفهوماً أنطولوجياً، لأن ارتباط التصورات، في القياس، يستمد ضرورته الحقيقية أو المطلقة من ارتباط الأشياء بعضها ببعض في الواقع. ومع أن المنطق الصوري الأرسطي يستند، في نهاية الأمر، إلى نظريات أرسطو الفلسفية في ترتيب الماهيات إلى أجناس وأنواع، وفي المعرفة، وفي التحليل الفلسفي، فإنه حقق دراسة صورية للقياس بمعزل عن مضمونه، أي أنه فرّق بين شكل القياس ومضمونه من دون أن يفصل بينهما.

والقياس، من حيث صورته، تحليل يقوم على استنتاج التصور «إنسان» من التصوّر «سقراط». فهناك، في التحليل، تدرج منطقي وعقلي للتصورات، يبدأ من النوع إلى الجنس، ومن المعلول إلى العلة، ومن الكل الموجود في الأعيان إلى أجزائه وعناصره المنطقية التي لاتوجد في الكل إلا بالقوة، وأخيراً من الحد الأصغر إلى الحد الأكبر. فمفهوم المعلول يشتمل حتماً على العلة، كالإنسان الذي وجوده يفترض وجود والده، ولكن العكس غير صحيح. وهكذا فإن الضرورة، في عالم الممكنات، لاتنطلق إلا من المعلولات باتجاه العلل. وهذا يعني أن العلم تحليلي، وأن المنطق الأنطولوجي لايكون ضرورياً إلا ضمن إطار التحليل. وهو، ليس فقط تحليلاً، وإنما أيضاً غير مباشر، يُسند، اضطراراً، المحمول أو الحد الأكبر «فان» إلى الموضوع أو الحد الأصغر «سقراط»، بمساعدة الحد الأوسط «إنسان» الذي يربط بينهما برباط تلازم بقصد التوصل إلى النتيجة، كما هو واضح من المثال التالي: كل إنسان فان (مقدمة كبرى)، والحال سقراط إنسان (مقدمة صغرى)، إذن سقراط فان (نتيجة).

والقياس إما تام، وإما غير تام. والتام على ثلاثة أشكال، هي التي قال بها أرسطو: الشكل الأول، الحد الأوسط موضوعاً في المقدمة الكبرى ومحمولاً في الصغرى، الشكل الثاني، الحد الأوسط محمولاً في المقدمتين، والشكل الثالث، الحد الأوسط موضوعاً في المقدمتين. أما القياس غير التام، فهو الشكل الرابع الذي صاغه جالينوس، وفيه يكون الحد الأوسط محمولاً في الكبرى وموضوعاً في الصغرى.

القياس في مادته ومطابقته للواقع: القياس الأرسطي، الذي تعبّر عنه علاقات جوهرية وضرورية وأكيدة، يصلح أداة للعلم والمعرفة اليقينية. أما إذا كانت مقدماته مبنية على آراء أو علاقات معقولة ومحتملة، فإنه يصلح أداة لجدل يحملنا إلى المعرفة المحتملة والأمور الظاهرية، ويسمح لنا، نسبياً، بالإجابة عن جميع الأسئلة المطروحة المتعلقة بالخاص والفصل النوعي والعرض والجنس، وباستخراج

النتائج الصحيحة من المقدمات استخراجاً من دون تناقض. فالجدل، إذن، لا يدخل ضمن إطار العلم، لأن موضوع العلم، في نظر أرسطو، هو الموجود الدائم والضروري والكلي والعام. بيد أن نظرة أرسطو الواقعية جعلته يدرك جيداً أن العالم الحسي هو الوحيد الواقعي، ومن ثم هو الذي يجب أن يكون موضوعاً خاصاً للعلم. وهنا تظهر ازدواجية أرسطو: فمن ناحية، لاوجود إلا للجزئي الفردي، ومن ناحية أخرى، لاعلم إلا بالكلي الضروري. وهكذا إذا كانت المبادئ كلية، فإنها ليست واقعية، وإذا كانت فردية، أي واقعية، فإنها ليست موضوعاً للعلم، إلا ضمن نطاق تحولها إلى أجناس وأنواع. فسقراط، مثلاً، لايمكن أن يكون موضوعاً للعلم إلا ضمن نطاق كونه «إنساناً». إن هذه المعضلة، التي طرحها أرسطو بين المعقول والواقع، تؤلف نقطة حيوية في فلسفته، وتثار، عنده، على كل المستويات، ولاتجد حلولها المناسبة إلا في واجب الوجود ذاته، لأنه، من ناحية، حقيقة واقعية، أو بالأحرى الفرد الوحيد الحقيقي، ولأنه، من ناحية أخرى، الموجود الوحيد الذي تمكن معرفته بصفته الفعل المحض وفكر الفكر والصورة الأولى المنفصلة عن المادة. ففي واجب الوجود، وفيه وحده فقط، يتوافق الواقع مع المعقول، وتتوافق متطلبات الوجود مع متطلبات المعرفة.

نظرية المعرفة

إذا كان القياس، بطبيعته ومقوماته وشروطه، يكوّن الجانب الشكلي من المعرفة، فإن امتلاك الوسائل، للاستدلال بها على حقيقة المقدمات وعلى الأسس التي تقوّمها، يكوّن جانبها المادي، أي مضمونها المتصل اتصالاً وثيقاً بالقياس البرهاني، الذي خصص له أرسطو كتاب «التحليلات الثانية». فكل «تعليم وكل تعلّم، على طريق الاستدلال، إنما يكون من معرفة متقدمة هي معرفة الوجود». وهذه المعرفة نوعان: معرفة وجود الشيء، ومعرفة ماهيته. فبالمنطق ندرك ماهية الشيء، وبالأنطولوجية ندرك وجوده، على طريق النظر والمشاهدة. فقد يعلم الطالب أن زوايا المثلث تساوي قائمتين، لكنه لا يعلم، مع ذلك، أن الشكل مثلث إلا بعد إعمال الفكر فيه. «إن الناس جميعهم يرغبون في المعرفة»، ويكتسبونها عن طريق الإحساسات ولاسيما النظرية منها. وخبرة الإحساسات هذه تتجمع في الذاكرة، فتمكنهم من الارتقاء إلى مستوى الفن والإدراك العقلي. أما الحيوانات، فإنها لاتملك إلا حداً أدنى من الخبرة، ولاتدرك إلا الصور، على طريق مخيلتها. إذا كانت الخبرة المكتسبة تمكّن صاحبها من معرفة وجود الشيء فقط، فإن صاحب الفن يُبرز، من مجموعة المفاهيم المختبرة، حكماً كلياً يمكن تطبيقه على كل الحالات المماثلة، كما أنه يعرف، في الوقت نفسه، حقيقة الشيء وعلته. وهكذا فإن المعرفة تتعلق بالفن أكثر من تعلقها بالخبرة التي علاقتها بالفن كعلاقة العامل، الذي يفعل من دون معرفة مايفعل، بالمهندس، الذي يدرك أسباب العمل. فليست المهارة العملية هي التي تجعل المهندس حكيماً، «وإنما امتلاك الفن ومعرفة الأسباب».

بيد أن المعرفة الحقيقية أسمى من الفن، لأنها متحررة من المحسوس أكثر منه، ولأنها، خلافاً له، تبتغي الوصول، على طريق تأمل الموضوع، إلى العلم والمعرفة، وبالتالي إلى إدراك المبادئ والعلل. فالمعرفة الحقيقية، هي: أولاً معرفة نظرية وعقلية للعلة، وثانياً معرفة ترتبط جميع أجزائها بمبدأ واحد وفق درجات ومستويات مختلفة، وثالثاً معرفة ضرورية وأكيدة وجديرة بأن تُعلّم، لأنها أسمى من كل الأشياء، ورابعاً، إلهية، لأن موضوعها الموجود السامي، مبدأ الموجودات وغايتها. وهكذا فإن المعرفة الحقيقية هي الحكمة التي يبحث صاحبها عن المعرفة من أجل المعرفة، لا من أجل شيء آخر. فحب المعرفة من أجل المعرفة، والرغبة في البحث المجرد عن علل الموجودات وغاياتها هما اللذان يؤلفان أصل المعرفة وجوهر الحكمة.

قيام المعرفة ومصدرها: إن الاحساس علم بالقوة وقوة تمييزية في خدمة العقل المحض. وهو، في حالات معينة، علم بالفعل، إذ إننا ندرك بالإحساس، لو كنا على سطح القمر وقت الخسوف، لا وجود الخسوف فقط، وإنما سببه كذلك، أي وضع الشمس من القمر والأرض. والإحساس، أخيراً، بداية حتمية تنطلق منها المعرفة، ذلك لأن الكلي إذا كان متقدماً على الجزئي، في مستوى المنطق، فإن الجزئي متقدم على الكلي في المستوى الحسي الواقعي، ولأن العلم يجب أن ينطلق من الأشياء والموجودات التي هي أقرب إلى مدارك المرء وأوضح له: أي يجب أن ينطلق من مجموعات الإحساس الفردي، ليتمكن المرء من الوصول، على طريق التحليل، إلى التصور الكلي «إنسان».

فالمعرفة القائمة على تجريد الصور من موادها، انطلاقاً من الخبرة الحسية، نقطة جوهرية تميز الفكر الأرسطي من الفكر الأفلاطوني. وإذا كانت المعقولات، في الفلسفة الأفلاطونية، منفصلة، من حيث هي أفكار، عن المحسوسات، فإنها، في الفلسفة الأرسطية، متأصلة فيها وملازمة لها. وإذا كانت الصورة، في نظر أفلاطون، تعني الفكرة، من حيث إنها واقعة موجودة، بوجه مستقل عن الأشياء الحسيّة، فإنها تعني، في نظر أرسطو، كمال المادة، لأنها هي التي تحققها بالفعل على نحو لا تنفصل عنها. فأرسطو ينادي بـ«الإنسان ـ سقراط» محل «الإنسان في ذاته» الذي نادى به أفلاطون. ولهذا، فإن على العقل البشري، في نظر أرسطو، البحث عن الصور المعقولة في العالم الحسي مستنتجاً بذلك المعرفة من الخبرة الحسية. فالمعرفة الأرسطية، الموجودة بالقوة في الأشياء الحسية، قائمة على الخبرة الحسية والتجريد العقلي. وهكذا حلّ أرسطو مسألة أصل المعرفة. أما أفلاطون فإنه، بسبب عدم وجود مفهوم القوة عنده، لم يستطع حلها إلا بالتذكر.

الاستدلال الاستقرائي: الاستقراء مصدر المعرفة ومبدأ القياس، لأنه مبدأ العام والكلي. وهو الذي يقدم مبادئ البرهان القياسي، بوساطة القضية الكلية التي تمنح البرهان القياسي قيمته الخاصة. إن من المبادئ ما قد «عرف بالاستقراء، ومنها بالحساسية، وأخرى بنوع من العادة، وأخرى تأتي من أصل آخر»، أي بوساطة العقل المحض. ومع أن الاستقراء يعتمد على الإحساس والعادة ويتعاون مع العقل المحض، فإنه ـ كالإحساس نفسه ـ لايقوم مقام العلم اليقيني، لأنه يكشف فقط عن فعل الوجود، لكنه يقود، بتأمل حالات فردية متكررة باستمرار وانتظام، نحو العام. وبمعرفة العام، يقود الاستقراء إلى المعرفة اليقينية للعلة، وبالتالي للذات. فالعام، كما يقول أرسطو، «يبين لنا العلّة».

فالعلم، بحسب طريقتي أرسطو في المعرفة (الاستقراء والإثبات)، ينتج، إذن، عن الفكر الحدسي الذي يقود، انطلاقاً من العمومية التي يقدمها الاستقراء، إلى الضروري والكلي، وإلى علل الأشياء ومبادئها، وبالتالي إلى المعرفة الإثباتية اليقينية. وهكذا فإن المعرفة هي معرفة

الواقع، أي إن هناك انسجاماً تاماً بين الوجود والمعرفة.

إذا كانت المعرفة العلمية، أو البرهان، هي معرفة الكليات، فإن من طبيعة الاستقراء الانتقال من الجزئي إلى الكلي ومن الخاص إلى العام. فالاستقراء استكناه الكلي الكامن في الجزئي بوساطة التجريد، وخزنه في الحافظة بالتذكر، ثم خلع الصفة العقلية عليه بالنطق. وهو، بصفته الوسيلة الوحيدة للحصول على المبادئ الأولية، وبصفته قائماً على تعددية الجزئيات، يبين الماهية الثابتة في الجزئيات العديدة. إنه، في الواقع، الوسيلة الوحيدة للانتقال من الكل إلى الكلي. وصفوة القول إن الاستقراء الأرسطي استقراء تام يُتصفح به جميع أفراد الشيء المبحوث عنه فيُحكم على الكل كما يُحكم على أفراده.

القياس الإثباتي والتحديد، الجنس والنوع، المادة والصورة، مفهوم القوة: إن القياس الإثباتي، المستند إلى مقدمات ضرورية، هو القياس الوحيد القادر على إيصال المرء إلى المعرفة الحقيقية، لأن الحد المتوسط فيه هو متوسط وعلة معاً. ولكن كيف يمكن إثبات أن المقدمات ضرورية؟ الواقع أن المعرفة الأرسطية تتحرك بين حدين، سفلي (الأفراد) وعلوي (المبادئ الضرورية)، لايمكن إثباتهما. فالمعرفة الاستدلالية اليقينية تتوقف، ضرورة، على معرفة حدسية، مباشرة، غير قابلة للإثبات، وتتعلق بمبادئ حقيقية، مباشرة، ضرورية، ولاسيما بالشيء المراد إدراكه أو إثباته، كما أنها تتعلق بالعقل لا بالجدل. وهكذا فإن المبادئ الخاصة بكل علم، التي يُعطى وجودها وماهيتها معاً ومباشرة من دون التمكن من إثباتها، هي: البديهيات المنطبقة على الموجودات كقوانين عدم التناقض والثالث المرفوع والعينية التي تؤلف قاعدة الاستدلال، والفرضيات والقضايا التي ينطلق الاستدلال من حدودها، والتحديدات كالتحديد الاسمي والواقعي والذاتي.

فعن طريق التحديد (الحدّ)، ندرك ذوات الأشياء، وبالتالي عللها، إذ إن ذات الشيء وعلته تؤلفان حقيقة واحدة. ولهذا يجب، أولاً، أن يُعرف عن الشيء أنه موجود، وإلا فسيكون التحديد اسمياً. وهكذا فإن أولى العمليات التي تستوقفنا هي فعل الوجود، أي إن الجوهر هو الحقيقة الوحيدة التي ندرك وجودها من دون إثبات. ففي الجوهر تطابق واتحاد تامان بين التحديد والشيء المحدد، وبين الفكر وموضوعه، حتى إن العلم وموضوعه واحد. والفكر المحض يتطابق مع موضوعه، وهو، مثله، بسيط لايتجزأ. وهكذا فإن التحديد المباشر لاينطبق إلا على الموجودات البسطية التي تؤلف وجوداً واحداً في غاية الجودة.

إن المعرفة الحدسية، أسمى المعارف الاستدلالية، تناسب الموجودات المتحققة بذاتها، والحقائق البسيطة، والجواهر الأولى غير المادية. كما أنها قد لاتنطبق كلياً إلا على المبدأ الأول، لأن فكره وموضوعه متحدان في حقيقة واحدة. أما الجواهر المحسوسة المركبة التي وجودها متميز من ذاتها وعلتها، فإنها تدخل ضمن نطاق التحديد، ولذا فإن على العلم الحدسي المطبّق عليها أن يتشعّب إلى قسمين: علم الوجود وعلم العلة. والعقل يتوصل إلى معرفة نسبية، في تحديده الجواهر المركبة، وإلى معرفة تامة، في تحديده الطبائع البسيطة التي يكوّن وجودها وعلتها حقيقة واحدة. فعندما يدرك العقل وجود الشيء، بوساطة الحدس الحسي والاستقراء، يحاول إدراك ذاته وعلته.

فالتحديد لا يقال إلا على الأشياء الموجودة بذاتها، أما الأشياء القائمة بغيرها، فلا يمكن إعطاء سوى تحديد خارجي منطقي لذواتها يشمل أجناسها وأنواعها. ومع أن هذه الذات، موضوع التحديد، مكونة من الفصل النوعي والجنس، فإنها تقوّم الموجود الفردي وعلته، وتحمُل على إدراكه، بصفته وحدة متكاملة غير قابل للتجزئة. ولكن كيف يكوّن الموضوع المحدد «إنسان» في التحديد التالي: «الإنسان حيوان ذو قدمين»، وحدة متكاملة، مع أنه مكوّن من عنصرين: «الحيوان»، و«القدمين»؟ أو بالأحرى، كيف تتم بين هذين العنصرين المختلفين نوعياً تلك الوحدة التي من دونها كان على الموضوع المحدد «إنسان» أن يتلقى محمولات متعارضة معاً؟

ولحل هذه المعضلة، بيّن أرسطو أن الوحدة القائمة بين الجنس والفصول النوعيّة، في التحديد، ليست وحدة عرضية لحدين منفصلين، كوحدة «بياض الإنسان» القائمة بين «البياض» و«الإنسان»، وإنما هي وحدة تلازم ضرورية، كالوحدة التي تربط، بذاتها «الفطس» بـ«الأنف».

والجنس لا ينفصل، في الواقع عن أنواعه، وإنما في التصوّر وبصفته مادة لها، فهو لا يوجد إلا بها ومن خلالها، بل هي التي تحدّده. أي إن تحديد الشيء هو توضيحه عن طريق أنواعه. أما الفصل النوعي، فإن علاقته بالذات كعلاقة الجوهر بالموجود: فكما أن الجوهر علة الموجود في وحدته، كذلك يقوّم الفصل النوعي وحدة الموضوع المحدد ووحدة التحديد. إن علاقة الفصل النوعي بالجنس شبيهة بعلاقة الصورة بالمادة. هذه المادة لاتوجد إلا بالصورة، ولاتنفصل عنها إلا في التصور، أما في الواقع فإنها تلازمها وتتحقق بها بالفعل. فالصورة، أو الذات أو الماهية، علة الموجودات في وجودها ووحدتها، لأنها تبيّن لنا حقيقة كل منها، كما أنها علة المادة، لأنها تبيّن لنا سبب وجودها في حالة ما من دون سواها. وهكذا فإن الصورة هي الذات المتحققة في مادة، والمتكونة من جنس وفصل، أو بالأحرى من مجموعة المحمولات والمقومات الأساسية التي يعبّر عنها التحديد. فالمادة، من حيث هي ممكنة ومتحولة، لايمكن تحديدها إلا من حيث اشتراكها مع الصورة وارتباطها معها برباط تلازم هو السبب في وحدتهما، ومن ثم وحدة التحديد.

فالصور، باستثناء المبدأ الأول والجواهر المفارقة، لاتنفصل عن المادة إلا في التصوّر، أما إذا فُصلت عنها، في الواقع، كما فعل ذلك أفلاطون، فسيستحيل إيجاد المبدأ الذي يوضح سبب تحول البرونز، مثلاً، إلى كرة. بيد أن أرسطو أوجد حلاً لهذه المشكلة، بإدخال مفهوم القوة التي علاقتها بالفعل هي علاقة المادة بالصورة، أو بالأحرى علاقة العنصر الأقل تحديداً بالعنصر الأكثر تحديداً. فالقوة، التي هي مفهوم أساسي في فلسفة أرسطو، ليست فقط إمكانية بسيطة في الوجود، تحمل الأشياء غير المحددة إلى أن تكون محددة، وإنما هي أيضاً إمكانية قريبة من الفعل، أو بالأحرى هي نوع من الفعل غير التام ومبدأ حركة يحقق المواضيع، الموجودة بالقوة، بالفعل تدريجياً. إن القوة والفعل مفهومان متطابقان، أي أن هناك استمراراً واتصالاً بينهما، حتى إنه لايمكن التفكير بالمادة، من دون التفكير، اضطراراً، بالصورة التي فيها تتحقق هذه المادة بالفعل. والوحدة القائمة بينهما تتحقق بالانتقال من القوة إلى الفعل، بتأثير من العلة المحركة: غاية الأشياء ونموذجها.

وهكذا فإن وحدة التحديد، في الأشياء المركبة، تستند إلى وحدة الشيء المحدد، لبيان السبب الذي حدّد المادة على طريق الصورة. وهنا يمكن تلمس الميتافيزيقة الأرسطية، ومايميزها من الأفلاطونية. فبفضل مفهوم القوة، عند أرسطو، يُتوصل إلى إدراك الوحدة الداخلية القائمة بين التحديد والشيء المحدد. وهذا ما لم تتوصل المدرسة الأفلاطونية إلى إدراكه بسبب إغفالها الاتحاد الجوهري والضروري بين القوة والفعل، بتأثير من المحرك الذي يحوّل المادة من القوة إلى الفعل.

الميتافيزيقة أو فلسفة ما بعد الطبيعة

الميتافيزيقة، كغيرها من العلوم، معرفة موضوع ما، بمعرفة مبادئه وعلله. ولكنها خلافاً للعلوم الأخرى، تحكم على مبادئ الموضوع وتسند أحكاماً إلى ذاته ووجوده. وهذا ما يجعلها، بالضبط، جديرة بأن تكون المعرفة السامية و«الحكمة الإلهية». ولذا لابدّ من تمييز موضوع هذا العلم، الذي يتم انطلاقاً منه البحث عن العلل والمبادئ، من هذه المبادئ ذاتها.

يؤكد أرسطو أنّ الموجود هو موضوع الميتافيزيقة والمقصود هنا، بالموجود الموجود في كل أبعاده ومعانيه المختلفة، بيد أن هذه المعاني المختلفة، إذا لم تؤلف وحدة ما، فستجعل وجود الفلسفة الأولى أمراً مستحيلاً. والجوهر، في نظر أرسطو، هو الذي يكوّن هذه الوحدة، لأن الموجود يقال، في أول معنى له، على الجوهر، وبوساطته، يقال على الكمية والكيفية وغيرهما من المقولات. فالموجود هو، في ذاته، جوهر، وهو، بوساطة الجوهر، موجودات أخرى ليست موجودات إلاّ لأنّ لها علاقة معه. فالفلسفة الأولى تدرس، إذن، الموجود من حيث هو موجود، أي بصفته جوهراً أو عرضاً. كما أنها تبحث عن مبادئ الجواهر وعللها، وتتأمل الوضع الأنطولوجي للموجودات جميعها بصفتها موضوعات العلوم الأخرى كالفيزيقيا والرياضيات. فالجوهر هو الموجود في أعمق معانيه. وهذا ماعبَّر عنه أرسطو بقوله: إن مانبحث عنه دائماً يتمثّل في معرفة مدى تطابق السؤال «ماالموجود»؟ مع السؤال «ماالجوهر»؟. والجوهر مركّب من مادة وصورة: صورة تحمل الوجود إلى المادة، بفعل محرّك؛ ومادة لاتوجد حقيقة إلاّ لأنها استقبلت الصورة. ومع أنّ أرسطو، بمفهومه الحسي للصورة والمادة، رفض نظرية أفلاطون في الصور المفارقة، مع اعترافه بأنها تدخل ضمن نطاق الميتافيزيقيا لا الفيزيقيا، فإنه بقي أميناً على حدس معلمه الأساسي القائل بتفوق الصورة على المادة.

إذا كانت الجواهر جميعها فاسدة، فهذا يفترض أن ليس هناك وجود. ولكن لما كانت الجواهر الحسية موجودة، فلابدّ من وجود جواهر غير فاسدة ومن ثم غير مادية. ولما كان ليس بالإمكان الذهاب إلى اللانهاية ضمن إطار الجواهر المفارقة، فلابد من التوقف على جوهر أول، أو مبدأ أول، هو مبدأ الحياة والوجود، أو هو الله.

أما الفلسفة الطبيعية، فإنها تدرس الجواهر الحسية، وتبحث عن علل التغيّر والتحوّل وعن الظاهرات التي ترافقهما، سواء في المستوى الجوهري، أو في المستوى العرضي. وهي تشمل الأحياء، وفيها الإنسان، شريطة أن تُبقي للفلسفة الأُولى دراسة ما هو غير مادي في الإنسان، أي العقل. فالفلسفة الطبيعية تُبْرز مبادئ الصيرورة، كالمادة والصورة والعدم؛ وتضيف إليها مبادئ أخرى، كالمصادفة التي تبدو أنها تفلت من الغائية، وهي تتساءل عن طبيعة الحركة وأنواعها، كما أنها، في النهاية، تدرس الجواهر والصّور، من حيث خضوعها للتغيّر والتحوّل. بيد أنّ هذه الصور متعلقة، في نظر أفلاطون، بالديالكتيك، لأنّه لايعترف بوجود علم متعلق بالطبيعة.

والمشكلة الأساسية، عند أرسطو، هي أنّه حدّد موضوع الميتافيزيقة وفق ثلاثة أنماط مختلفة: العلل والمبادئ السامية، والألوهية، والموجودات بصفتها موجودات. وها هنا احتمالان: الأول هو العودة إلى تطور أفكار أرسطو لحلّ هذه التعددية في موضوع الميتافيزيقة؛ أما الثاني فالقول بالتطابق بين الموجود، من حيث هو موجود، وبين الألوهية، وعدّهما حقيقة واحدة.

الاحتمال الأخير مرفوض، لأنّ الموجود الذي يُدرس لمعرفة مبادئه لايمكن أن يتطابق مع هذه المبادئ. والاحتمال الأول كذلك مرفوض، لأنّه لو كان أرسطو قد أضاف نصاً ليصحّح رأياً لم يعد يقبل به، لكان حذف المقطع المعبّر عن هذا الرأي. والواقع أن شيئاً من هذا القبيل غير ملحوظ في مؤلفاته، لذا لا يمكن الكلام عن تطور في أفكاره.

كان موقف أرسطو، في مستهل حياته الفلسفية، قريباً من موقف أفلاطون، عندما اعتقد أنّ موضوع الميتافيزيقة هو الجواهر المفارقة والألوهية. لكنّه ما لَبثَ أن طوّر، بعد رفضه الصور الأفلاطونية، مفهومه عن الموجودات، من حيث هي موجودات. فبيّن أن الموجود لاينحصر فقط في الصورة، أي أنّه لا يتطابق معها، بل له عدة مفاهيم؛ وهو ليس بالجنس. وهكذا وسّع أرسطو مفهوم الموجود ليُدخل فيه الجزئيات التي رفضها أفلاطون. إن الأمور الخاصة التي امتاز بها أرسطو هي تأكيد وجود علم فيزيقي ووجود جواهر مفارقة، ومع أنّ أرسطو أدرك، منذ قراءته لكتاب أفلاطون «الجمهورية»، أن هناك علماً موضوعه «الموجود من حيث هو موجود»، فإنه وقف جهوده للقسم الأول من الصيغة «موجود»، وليس للقسم الآخر منها «من حيث هو موجود» الذي أشار إليه أفلاطون.

وهكذا ظهرت، في الميتافيزيقة الأرسطية، مرحلتان: مرحلة لاهوتية، وأخرى أنطولوجية. ومع أن أرسطو خصص لكل من هاتين المرحلتين بعضاً من أبحاثه الفلسفية، فإنّه وفّق بينهما، في المقالة السادسة من كتاب مابعد الطبيعة، بقوله: إنّ اللاهوت علم كلّي، لأن الكون يتعلّق بالموجود الذي يدرسه هذا العلم، أمّا علم الوجود فيصب في اللاهوت. فالميتافيزيقة تدرس الموجود بأبعاده ومعانيه الكثيرة، وتكوّن في بدايتها علماً مستقلاً عن اللاهوت، يُطلق عليه الأنطولوجية [ر]، ولكنّها عندما تثبت المبادئ الأولى للموجود، ومن ثم المبدأ الأول، أوالمحرك الأول، أو اللّه، تتطابق مع العلم الإلهي الذي يكوّن مع علم الوجود علماً واحداً. والميتافيزيقة تدرس الموجودات جميعها وفيها الموجودات الحسية والرياضية لتحديد مبادئها وشروط كونها موجودات. وهكذا فإن الموجود، من حيث هو موجود، هو موضوع العلم الميتافيزيقي الذي هو العلم السامي والعلم الكلي معاً.

ولايمكن تلخيص فكر أرسطو، حول هذه النقطة بالذات، بأفضل من أرسطو نفسه، إذ قال: «تستند دراستنا إلى الجوهر، لأنّ المبادئ والعلل التي نبحث عنها إنّما هي جواهر».

اللاهوت الطبيعي

الفلسفة الطبيعية: يبيّن أرسطو، في المقالتين السابعة والثامنة من كتاب السماع الطبيعي،

ضرورة وافتراض وجود محرك أول غير متحرك، فوجود الحركة يفترض وجود علة واقعية موجودة خارجاً عنها، وذلك لعدم وجود شيء في الطبيعة يتحرك على طريق المصادفة، أو ينتقل بذاته من القوة إلى الفعل، أو بالأحرى لعدم وجود مبدأ أو علة في الحركة نفسها.

وانطلاقاً من المقالة السابعة يمكن صوغ البرهان التالي: لما كان كل ما هو متحرك، متحركاً ضرورياً، بغيره، ولما كان يستحيل الذهاب، في الحركة، إلى اللانهاية، لذا يجب التوقف على محرّك غيرمتحرّك.

ومن الممكن انطلاقاً من المقالة الثامنة، صوغ البرهان، القائم على أزلية الحركة، على النحو التالي: لما كانت الحركة الأزلية هي منتظمة ودائرية، فإنها تفترض وجود محرك أول غيرمتحرك، ولما كان كلُّ متحرّكٍ متحركاً بغيره، يلزم بالضرورة وجود محرّك غير متحرّك، لاستحالة أن تكون المحركات المتحركة بغيرها غير متدرجة إلى اللانهاية. ويضاف إلى ذلك أنه ليس من الضروري أن يكون كل محرّك متحركاً بغيره.

إن التحديد الذي يقدّمه أرسطو عن سرمدية المحرك الأول يستند كلياً إلى أبدية الحركة التي تنجم بدورها عن أبدية الزمن، لأن كل لحظة حدٌّ متوسط بين زمنين: فالحاضر يفترض دوماً وجود ماض ومستقبل ووجود قبلية وبعدية. وإذا كانت الحركة أبدية، وكل متحرّك يفترض وجود محرّك له، كان لا بدّ، لتوضيح هذه الحركة الأبدية، من فرض وجود محرك أبدي غير متحرّك لا بغيره ولا بذاته: فإن قيل إنه متحرّك بغيره، فسيؤدي الأمر إلى قبول مبدأ التسلسل إلى اللانهاية، وهذا مستحيل؛ أمّا إذا قيل إنّه متحرك بذاته، فكأنه يقال إنه ينتقل من حالة القوة إلى حالة الفعل، وهذا مستحيل أيضاً.

المحركات الأزلية متعددة، وعدد الحركات، إضافة إلى الحركة الأولى الصادرة عن المحرك الأول، يراوح بين ٤٧ و٥٥ حركة. وهذه الحركات تفترض وجود مثل هذا العدد من الجواهر غير المتحركة. والفرق بين المحرك الأول والمحركات الأخرى أن المحرك الأول غير متحرّك، لا بالذات ولا بالعرض، وخارج عن العالم؛ أما المحركات الأخرى فإنّها متحركة بالعرض مع أفلاكها، كالنفس التي تنتقل بانتقال جسمها الذي تحركه، كما أنها قائمة في أفلاكها من دون أن يكون اتصالها بها اتصال الصورة بالمادة، لأنها عقول مفارقة.

الفلسفة الأولى، أو فلسفة ما بعد الطبيعة: لم يقل أرسطو، في الفلسفة الطبيعية، إن المحرك الذي توصل إلى إثباته هو الله، بل افترض فقط وجود حقيقة أسمى من الحركة وخارجة عنها. أمّا في الفلسفة الأولى، فإنه يدرس هذه الحقيقة لتعرّف ماهيتها وخصائصها. وهكذا يؤلف برهان الحركة، في العلوم الطبيعية، قاعدة أساسية انطلق منها أرسطو، في الفلسفة الأولى، ولاسيما المقالة ١٢، ليثبت وجود علة أولى للوجود، هي الله.

يمكن التفريق، في المقالة المذكورة، بين جزأين: يدرس الجزء الأول (الفصول الخمسة الأولى) الجواهر الحسية، والجزء الثاني (ماتبقى من فصول المقالة) الجوهر غير المتحرك. يميّز أرسطو، منذ الفصل الأول، ثلاثة أنواع من الجواهر: جواهر حسية فاسدة، وجواهر حسية سرمدية، وجوهر غير متحرك. تدرس الفلسفة الطبيعية النوعين الأول والثاني؛ أمّا النوع الثالث، موضوع هذه المقالة، فتدرسه الميتافيزيقة. إن العلاقة بين قسمي هذه المقالة غامضة، مع أنّها ضرورية لتوضيح الصلة بين الله والعالم.

إذا كانت الجواهر جميعها فاسدة، فستكون جميع الأشياء الناجمة عنها أيضاً فاسدة، ولما كان هناك تحديدان، هما الزمان والحركة، وهما غير فاسدين وأبديان، ولايمكن أن يكون قوامهما إلاّ في الجواهر، لأنّ الحركة إنّما هي المتحرك، إذن لابدّ من وجود جوهر أو جواهر غير فاسدة وأبدية.

فالزمان، في نظر أرسطو، أبدي، ولايوجد خارج الزمان لا قبل ولا بعد. وهو لم يبدأ أبداً، ولايمكن أن يتلاشى، لأنه إن كان غير ذلك، وجب القول بوجود زمان قبل الزمان، وزمان بعد الزمان. والحركة، كالزمان، أبدية، لأن الزمان إمّا أن يكون الحركة نفسها، وإمّا أن يكون شكلاً من أشكالها. ومن أبدية الحركة ووحدتها، يستنتج أرسطو اتصالها الذي هو اتصال الحركة المحليّة، بل اتصال الحركة المحلية الدائرية. ويستنتج أرسطو من ذلك أن الجوهر الأبدي وغير الفاسد، هو الجوهر الذي يتحرّك بحركة أبدية ودائرية. وهكذا أثبت أرسطو أنّ هناك جوهراً أبدياً، أو محركاً أول لحركة دائرية أبدية. إن أول ما يميّز هذا المحرك السرمدي هو نشاطه الدائم، كما أنّه في الفعل بوجه مستمر ولا يعرف القوة مطلقاً. أما المحركات الأخرى فإنها تنتقل من الحركة إلى السكون ومن السكون إلى الحركة، أي من الفعل إلى القوة، ومن القوة إلى الفعل.

والمحرّك الأول ثابت غير متحرّك. ولكن هل يمكن لهذا المحرك أنّ يحرّك غيره، من دون أن يكون هو نفسه متحركاً؟

يلجأ أرسطو، للإجابة عن هذا السؤال، إلى معطيات نفسية. فلكي يكون المحرّك الأول محركاً لغيره من دون أن يكون هو نفسه متحركاً، عليه أن يكون المرغوب الأسمى والمعقول الأعلى، أي أنّ تحريكه لغيره ناجم عن أنّه موضوع رغبة يتوق إليها هذا الغير. وهنا يتجاوز أرسطو العلة الفاعلية نحو العلة الغائية، على طريق الرغبة التي تحرّك الإرادة نحو الخير ونحو الموجود الأول، وعلى طريق المعقول الذي يحرّك العقل نحو الحقيقة ونحو الجوهر الذي هو أول الموجودات. وهذان الطريقان يؤديان إلى هدف واحد، هو المعقول الأول الذي تتوق إليه كل الموجودات فتتحرّك نحوه.

وهكذا تجاوز أرسطو مستوى المحركات الطبيعية والنشاطات النفسية. فنشاط المحرّك الأول يبقى متأصلاً فيه، لأنّه لايثير الرغبة، مع كونه موضوع الرغبة والمحبة، كما أنّ موضوعه لايتجاوز فكره، لأنه لايعقل إلاّ نفسه. والواقع أنّ أرسطو ميّز المحرّك الأول من المحركات الطبيعية الأخرى بحركته الدائمة السرمديّة، كما جعل منه محركاً نفسياً وروحياً، بسبب سكونه وعدم حركته، وأبعده أخيراً عن الإنسان نفسه، لأنّ هذا النشاط الروحي والنفسي متأصل فيه بوجه مطلق.

والمحرّك الأول فعل محض، وعقل لايمكنه إلاّ أن يعقل نفسه؛ فهو عقل يعقل العقل. فالفكر، في إله أرسطو، لايكوّن إلاّ حقيقة واحدة مع موضوعه.

لم يبرهن أرسطو على أن إلهه علة للصيرورة وللجواهر الحسيّة؛ وإنّما برهن على أنه محرّكٌ لحركة دائمة سرمدية. وهذا يعني أن الجواهر الحسية تتكوّن وتزول بغض النظر عن الله، ومن دون أن تكون بحاجة إليه. فالكون ليس بحاجة إلى الله، لا في وجوده، ولا في استمرار وجوده. ولهذا فإنّ «روس» كان مصيباً، في رأيه، عندما رفض أن يكون إله أرسطو علة فاعلية للكون،

بل هو علّة غائية له.

فلسفة الأحياء: إن الإله، الذي برهن عليه أرسطو؛ ليس نفساً، أو مبدأ للحياة؛ وإنّما هو جوهر وعلة غير متحركة ومنفصلة عن الحركة الدائرية. بيد أن الحياة ليست غريبة عن الله، لأنّه هو الحياة التي هي أكثر كمالاً، وحياته هي حياة العقل المتمثلة، فعلاً، بالفكر المحض. والحياة، بحد ذاتها، لاتسمح للمرء، في نظر أرسطو، بالوصول إلى الله؛ أمّا، عند أفلاطون فإن معرفة النفس هي التي تسمح للمرء بإثبات وجود الله. فالعقل البشري، عند أرسطو، يكشف الله، من حيث إنّه محرّك غير متحرّك، ومن ثمّ موجود أول، وأخيراً عقل أول وفعل محض. وعندما يتوصل العقل إلى هذا الحد، يستطيع أن يوضّح بجلاء أن هذا الموجود هو الحياة التي هي أكثر تماماً وأكثر كمالاً.

نظرية النفس والعقل

يذكر أرسطو في كتاب «النفس» أن النفس كمال أول «لجسم طبيعي ذي حياة بالقوة». وهي أيضاً «ضرب من الكمال وصورة لما هو بالقوة مستعد لقبول طبيعة معيّنة». وهي، في الواقع، صورة لجسم. ومن اتحاد النفس مع الجسد تنجم التعددية في وظائفها التي يمكن تصنيفها في ثلاث وظائف أساسية، هي: التغذية، والإحساس، والتعقل. ودراسة هذه الوظائف تمكن من تمييز ثلاثة أنواع من المعارف: حسية، وخيالية، وعقلية، ونوعين من العقل: عقل منفعل، وعقل فاعل.

التغذية: وفيها «توجد الحياة لجميع الكائنات. ولها وظيفتان: التوليد والتغذي». وقوة التوليد أقرب الوظائف إلى الطبيعة، وهي تقوم على أن يخلق كل كائن حي «كائناً آخر شبيهاً له». أمّا التغذي، فينمي الحيوان إلى أن يصل الدرجة التي تحدّها ماهيته ولا يمكن أن يتعداها إلاّ بنوع من الشذوذ الخلقي. وعندما يصل الحيوان إلى جرمه الطبيعي النهائي يقف عن النماء، ولاتكون لعناصر التغذية عندئذ سوى استمرار بقائه وحفظه من الهلاك.

الإحساس: الإحساس فعل مشترك بين المحسوس والحاس. والعضو الحاس هو بالقوة عين الكيفية التي يدركها بالفعل، ويحتاج ليمارس عمله إلى موضوع خارجي يدفعه إلى ذلك. أما المحسوس فإنه قوة فاعلة تحوّل قوى الذات الحاسة من القوة إلى الفعل، ويقال على ثلاثة أنواع من الأشياء: المحسوسات الخاصة بكل حاسة، كاللون بالنسبة إلى حاسة البصر؛ والمحسوسات المشتركة، كالحركة والسكون والعدد والشكل والمقدار؛ والمحسوسات بالعرض، كما لو أُدرك هذا الشيء الأبيض، مثلاً، على أنّه «ابن دياريس». إن النوع الأول والثاني يدركان بالذات، أمّا النوع الثالث فيدرك بالعرض.

ولكن، ماطبيعة هذا الفعل المشترك الذي يربط بين المحسوس والحاس، وما سبب تفاعل هذين الحدين ووحدتهما؟ أتعود هذه الوحدة إلى أنّ أحد هذين الحدين له طبيعة خاصة به، أي أنّ الحساسية عرض للمحسوس؟ أو أنّ كلا الحدين، بصفتهما واقعيين، يؤديان، معاً، على طريق تطور قوتهما، إلى الفعل نفسه، أو أنهما في حالة واحدة، عن طريق الإحساس المتحقق بالفعل، لأن كليهما موجود بالقوة إذا كان منفصلاً عن الآخر.

ومع أنّ أرسطو لم يتوصل إلى توضيح واحدية فعل الإحساس، فإنه لم يتخلّ عن الواقع، بل احتفظ بقسم منه لحل تلك المسألة المعقدة. والفكرة التي تسيطر على نظرية أرسطو في الإحساس هي أنّ المحسوس الذي يحقّق الحساسية بالفعل واقعياً ويمكن أن يوجد بغض النظر عنها، هو الذي يسيطر في فعلهما المشترك. ومن هنا تخلّى أرسطو عن النظرية التي تجعل من الإنسان مقياساً لكل الأشياء والتي تحمل موضوع الإحساس نفسه على فعل الذات.

ولكن لما كان موضوع الإحساس وفعل الذات متمايزين ومتلازمين، في آن واحد، فإنهما يبدوان فعلاً واحداً لجوهر يتحققان فيه بالفعل. تدلّ واقعية المعرفة الأرسطية على أنّ الموضوع ليس الشيء المدرك، وإنّما هو المحسوس الموجود مستقلاً عن الذات، لا بصفته مجرّد إمكانية عرضية في الإحساس عاجزة عن الوجود بذاتها ـ كما لو أنّ اللون لايوجد مستقلاً عن حاسة البصر ـ وإنّما بصفته قوة محدّدة جوهرية قادرة على أن تصبح موضوع معرفة، وبالتالي متوافقة مع المعرفة ومع أعضائها. ولهذا، إذن، فإن العالم معقول، وإنّ العضو الحاس والمحسوس على مستوى واحد، وهما مشاركان في قانون واحد، ومن صنيعة معلم واحد.

المخيّلة: المخيّلة قوة فكرية تمكن من الإدراك والتمييز، وهي امتداد للإحساس ولا توجد من دونه، أو بالأحرى هي «الحركة المتولدة عن الإحساس بالفعل». ولما كان البصر هو «الحاسة الرئيسة، فقد اشتق التخيّل اسمه من النور، إذ من دون النور لا يمكن أن نرى». ومع أن التخيل، كالإحساس والظن، قوة غامضة تحتمل الصدق والكذب، فإنه «ليس أمراً من هذه الأمور، ولا المركب منهما». إنّه، في الواقع، إحساس لا مادة له تقريباً. فمن جهة، يستحيل التعلّم أو الفهم في غيبة الإحساسات، «ومن جهة أخرى، فإنه عند استعمال العقل يجب أن يكون مصحوباً بالأخيلة، لأنّ الأخيلة شبيهة بالإحساسات، أي أنها غير مادية». وهكذا فإن التخيّل ذو طرفين يلمس بطرفه الأول أسمى القوة الحسية، وبطرفه الآخر أدنى الوظائف العقلية، إذ إنّه يؤلف جسراً يربط بين الاثنين.

تتوضح المعقولية المتشبعة بها موضوعات الإحساس في أنّ الفعل الذي به يحرّك المحسوس حواسنا لا يختفي باختفاء المحسوس، بل يثبت في الحواس مكوّناً فكرة عن الأشياء الغائبة. وهذه هي الأخيلة التي تبقى راقدة مثل الضفادع في المستنقعات، ولكنها تستطيع أن تستيقظ من رقادها وتستقبل قوة تخيّلية. وعندما تلبي دعوة التأمل العقلي تترتب حول فكرة ما وتأخذ معناها الكامل. ومع أنّ الخيال مشتق من الإحساس، فإنه لا يوجد إلاّ وهو متحرّر من الموضوع. فهو معقول بالقوة، ووسيلة للنفس ترتقي به من المحسوس إلى الفكرة. ومع أن التخيّل أدنى من العقل وغير قادر على إدراك الكليّ وتمييز الحقيقة بصورة مؤكّدة، فإنه يظهر وكأنه قوة عقلية.

والواقع أنّ المعرفة تتطور، انطلاقاً من الإحساس، حتى تتوصل إلى المعرفة العقلية للذات، وذلك باللجوء إلى وسائل ثلاث، هي: تثبيت المعطيات الحسية في الذاكرة، وتكرار موضوعات الذكريات ودمج بعضها ببعض، واستنتاج مفهوم الفن المستند إلى الصيرورة ومفهوم العلم المستند إلى الموجود. وهذا التطور يتعلق بقدرة النفس على إدراك الكلي في الجزئي، والإنسان النوعي في الإنسان الفرد المعيّن.

العقل: إن العقل الإنساني ليس شيئاً بسيطاً، وإنّما هو مركّب، ويمكن تمييز مستويات مختلفة تبيّن تحرر الفكر من الصور الحسية تدريجياً. فهناك العقل الاستدلالي المنطقي المجاور للمخيّلة، وهناك العقل المحض الذي

يستند، بوجه أساسي، إلى الطبائع البسطية، ويدركها بالحدس. وفي العقل المحض يُميّز العقل المنفعل والعقل الفعّال: إذا كان الأول مشابهاً للمادة وقادراً على استقبال المعقولات، فإنّ الثاني أسمى منه، إذ هو كالضوء يحيل الألوان من القوة إلى الفعل، كما أنّه يحقق الصوّر المعقولة بالفعل، سواء أكانت مختلطة بالمادة كالصور المغلفة بالأخيلة، أم محضة كالصور التي يحتويها العقل الفعّال نفسه، وعند ذلك يكون العقل الفعّال، الذي أصبح هو ذاته المعقول، قادراً على أن يعقل ذاته.

والعقل بتعقله المعقولات يصبح عقلاً بالملَكة. وعلاقة هذا الأخير بالفعل مماثلة لعلاقة الملكة بالممارسة. وبفضل الملَكة يمارس العقل عملية التعقل، أي أنه يجعل من المعقول موضوع تعقل فعلي، فيتطابق العقل مع المعقول. هذا التطابق في عملية المعرفة العقلية، إضافة إلى تطابق الحاس والمحسوس في عملية الإحساس، هما قضيتان أساسيتان في الفلسفة الأرسطية.

أمّا العقل الفعّال فإنّه «اللامفارق اللامنفعل غير الممتزج، من حيث إنّه بالجوهر فعل، لأنّ الفاعل دائماً أسمى من المنفعل، والمبدأ أسمى من الهيولى، والعلم بالفعل هو وموضوعه شيء واحد». فهو، إذن، محض، أبدي وغير منفعل، كما أنه في جوهره بالفعل، بعكس العقل المنفعل الذي لا يتحقق بالفعل إلاّ بوساطة الصور المعقولة التي يتلقاها.

ولكن كيف يمكن للصور المعقولة أن تحقق بالفعل العقل المنفعل المعروف بمكان الأفكار؟ وههنا يتدخل العقل الفعّال الذي يستدعي إليه الصور المختلطة بالمادة الحسية أوالخيالية ليتحققها ويحقق بها الفعل المنفعل بالفعل.وإذا كان العقل المنفعل يختفي باختفاء الفرد، وتختفي مع اختفائه الانفعالات والذكريات المنفعلة والفاسدة، فإن العقل الفعّال، على العكس من ذلك، يبقى، كما هو، بعد الموت. يقول أرسطو في كتاب «النفس»: «أما العقل، فإنه ولا ريب أكثر ألوهية ولا ينفعل». هذا العقل، عندما يفارق، يصبح «هو جوهراً، وعندئذ فقط يكون خالداً وأزلياً... ومن دون العقل الفعّال لا نعقل قط».

ولكن هل للعقل الفعّال وجود قبل اتحاده بالنفس؟ وهل هو من الإنسان؟ وموجود فيه؟ إنّ ما تبقى من نصوص أرسطو، لا يسمح بالإجابة بدقة عن هذه الأسئلة. فكل ما يمكن قوله إنّ العقل الفعّال فريد، فعل محض، غير متحرك إطلاقاً، عقل وعاقل ومعقول، حتى إنه لا يعقل إلاّ ذاته، وشبيه بالله، بل حتى إلهي. وهذا ما دفع الاسكندر الأفروديسي إلى تأكيد أن العقل الفعال هو نفسه الله، فأطلق عليه «الله المفكر فينا». وصفوة القول إن العقل الفعّال يبدو جنساً من النفس متميزاً منها، ويفارقها عند الموت، كما يفارق الأبدي الأشياء الفاسدة. وبهذا المعنى يقول أرسطو في كتاب «النفس»: إن ههنا نوعاً من النفس مختلفاً، وإنها وحدها يمكن أن تفارق الجسم، كما يفترق الأزلي عن الفاسد. أما أجزاء النفس الأخرى، فيتّضح مما سبق أنها لا تفارق، كما يزعم بعض الفلاسفة.

العلوم العملية ـ الوجود الأخلاقي والسياسي

تبتغي العلوم العملية تحقيق سعادة الإنسان بصفته فرداً، وعضواً في المجتمع. فهي تنقسم، إذن، إلى علم الأخلاق، وإلى علم السياسة.

علم الأخلاق: يعتقد أرسطو أن الأخلاق، بصفتها علماً عملياً، علم تجريبي يستند إلى الاستقراء والخبرة والملاحظة والأخذ بآراء الشيوخ والعقلاء وأصحاب الفضل. بيد أنها ليست علماً تجريبياً بحتاً، وإنّما تتصل كذلك بصلات عميقة بعلم النفس والميتافيزيقة. ولذا يُلحظ أن أرسطو يمزج دوماً الملاحظات بالتحليلات النفسية وبالاستدلالات الفلسفية.

تتصف الأخلاق الأرسطية بأنها أخلاق سعادة، لا أخلاق واجب، على العكس تماماً مما عليه الأخلاق المحدثة، ولا سيما ابتداءً من كَنت. فالإنسان، في الأخلاق الأرسطية، ينزع بطبيعته إلى امتلاك الخير الأسمى والسعادة القصوى، على طريق الفضيلة. وهذه النزعة الطبيعية الغريزية تظهر، بوضوح، في ميول الإنسان وسلوكه.

يقصد أرسطو بالخير الأسمى، الذي يضمن للإنسان امتلاك السعادة القصوى، الخير الكامل الذي يُطلب ويُحب من أجل ذاته، لا كوسيلة لبلوغ خير أسمى منه، كاللذة والجاه وحب التسلط والمال وغيرها. والذين يعتقدون أنهم يحققون خيرهم الأسمى وسعادتهم القصوى بالحصول على هذه الخيرات، التي هي خيرات ناقصة زائلة، ومولّدة، في أغلب الأحيان، للألم والحرمان، لا يدركون معنى الخير الأسمى والسعادة القصوى. والخير الأسمى، الذي قصده أرسطو، ليس منال الخير بالذات، الذي تكلّم عليه أفلاطون وجعل منه مبدأ الموجودات وغايتها القصوى، وإنّما الخير الذي يجب أن يكون في المتناول ويمكن تحقيقه بالحياة الفاضلة وبممارسة الأفعال الإنسانية الحقة. فلكل موجود فضيلته الخاصة التي هي، في نظر أرسطو، مفهوم وجودي قبل أن يكون مفهوماً خلقياً، كما له ماهيته الخاصة التي ينزع إلى تحقيقها. فنقطة انطلاق علم الأخلاق هي، إذن، معرفة طبيعتنا الإنسانية.

وإذا نُظر إلى الإنسان، المتميّز من غيره من الكائنات الحية بنفسه العاقلة، من خلال قوته الغاذية، لوُجد أن أعماله خارجة عن دائرة العقل والإرادة وعلم الأخلاق. وإذا نُظر إليه، من خلال قوته الحاسة، لوُجد أنه مركبٌ من نفس وجسد وقابلٌ للشهوات والانفعالات الخاضعة لنطاقي العقل والإرادة خضوع المادة للصورة. أمّا إذا نُظر إليه، من خلال قوته العاقلة، ظهر عنصراً إلهياً قادراً على الاتحاد بما هو إلهي بالتأمل. ولذا يميّز أرسطو بين نوعين من علم الأخلاق: علم الأخلاق الذي يبحث في الإنسان بصفته مركباً من نفس وجسد، أي في فضيلته وخيره وسعادته، وعلم الأخلاق الذي يبحث فيه بصفته عقلاً محضاً، أي في فضائله العقلية الصرفة. وبممارسة الفضائل الخلقية يحقق الإنسان خيره وسعادته.ولكن ما الفضيلة الخلقية، وما شروطها؟

يعرّف أرسطو الفضيلة الخلقية بأنها استعداد ما، بإزاء الانفعالات، ناشئ من نمو قوة بالمران.والفضيلة الخلقية، بحسب هذا التعريف، ليست انفعالاً من انفعالات النفس، كالفرح والخوف والحسد والغضب، لأن الانفعال، من حيث هو كذلك، خارج عن نطاق العقل والإرادة والمدح والذم. وليست هي قوة من قوى النفس القابلة لهذه الانفعالات، لأن هذه القوى فطرية غير قابلة للتغيير. فالفضيلة، إذن، تقوم جوهرياً بموقف العقل والإرادة من هذه الانفعالات وهذه القوى، وبالسيطرة عليها وتوجيهها نحو الخير.

ولما كانت الفضيلة الخلقية من الفضائل العملية، كفضيلة العدالة والشجاعة، التي لاتكتسب إلاّ بالممارسة، لذا فإنها «ملَكة خلقية يكون المرء بحسبها صالحاً، ويقوم بما عليه على

أحسن وجه». فبقدر ما يوجه الإنسان عقله وإرادته إلى اكتساب الفضيلة، بقدر ما تصبح فيه الفضيلة ملَكة راسخة شبيهة بالطبيعة. ويتوسع أرسطو في دراسة أثر العقل والإرادة في الفضائل حتى تنتهي به هذه الدراسة المعمّقة إلى تعريف الفضيلة بأنها اختيار الوسط العدل بين إفراط وتفريط كلاهما رذيلة.

وهذا الوسط ليس وسطاً رياضياً يمكن تحديده وقياسه، بل هو وسط بالإضافة إلى الفاعل، متغيّر تبعاً للأفراد والأحوال. فالوسط الحقيقي مثلاً، بين الحد الأقصى والحد الأدنى، لما يستطيع الإنسان أن يتناوله من غذاء، يزيد على حاجة المبتدئ بالرياضة، ويقل عن حاجة المصارع. فالفضيلة وسط إذا قيست بالرذائل التي تقابلها، غير أنها حدّ أقصى للفعل الإنساني الكامل. وهذا ما يجعل معرفة الحد الوسط شيئاً عسيراً ودقيقاً. الشجاعة حدٌّ وسط بين التهور والجبن، والكرم بين التبذير والتقتير. وهكذا فإن الفضائل معلقة دوماً بين رذيلتين.

وإذا كانت الفضيلة إرادية، فالرذيلة إرادية، لأنّه إذا كان الفعل متعلقاً بالمرء، كان الترك متعلقاً به كذلك. والإنسان ربّ أفعاله صالحة وطالحة، وإذا ما حقق فضيلته الوجودية بممارسة فضائله وجد لذّته الحقة وسعادته الإنسانية الحقة. أمّا اللذة فهي، في نظر أرسطو، لا حسنة و لا رديئة بذاتها، بل تستمد قيمتها من قيمة الفعل الذي تصدر عنه، كما أنّ قيمة الفعل مستمدة من قيمة القوة التي يصدر عنها، ومن نوع ممارسته هذه القوة. وهكذا فإن الفضيلة، مع أنها تولّد اللذة الحقيقية، لا تهدف إلى اللذة، فالذي يحيا حياة الفضيلة يجد اللذة الحقيقية، من دون أن يبحث عن اللذة التي تصحب ممارسة الفضيلة. وأمّا الذي يطلب اللذة خارج الفضيلة ولأجل اللذة، فإنه لا يجد غير لذات عابرة وكاذبة وهدامة. وصفوة القول إن اللذة هي، كما يقول أرسطو، الثمرة الطبيعية للفضيلة، تُضاف إليها كالنضارة إلى الشباب.

وبما أن الإنسان يحقق كماله الإنساني على طريق الفضيلة، فإنه لايجد فيها فقط لذته الحقة، وإنما أيضاً سعادته الدائمة. ومع أن الوسائل المختلفة من طبيعية ونفسية واجتماعية، والخيرات الخارجية من غنى وجاه وصحة وجمال وقوة، شروط تكمل السعادة الإنسانية، إذا ما استخدمت وسائلَ وشروطاً لتحقيق الفضيلة، فإن الفضيلة الحقة لا تفقد سعادتها إذا ما فقدت هذه الوسائل والشروط الخارجية، بل تجد سعادتها في ذاتها الداخلية، وهكذا يجد الفيلسوف سعادته في ذاته الداخلية، لأنه يرى في ذاته ذاتاً إلهية، ويتنعم برؤية هذه الذات، كما يتنعم الله برؤية ذاته. فالفيسلوف، إذن، أسعد الناس.

السياسة أو العلم المدني: وهو، بصفته علماً عملياً، امتداد لعلم الأخلاق وإكمال له؛ ولهذا فإنه، وإن اختلفت وسائله وتعددت إلى حدّ ما، لا يختلف عنه لا في الأسلوب، ولا في الغاية. فغاية العلمين بلوغ الخير الأسمى والسعادة القصوى بتحقيق الفضيلة. ومع أن أرسطو لا ينكر الدور الذي تحتله الحاجات المادية في تكوين المجتمع، فإنه لا يوافق أفلاطون على أن يجعل من كفاية هذه الحاجات غاية المجتمع، وإنّما وسيلة لاكتساب الفضيلة.

ويبدأ أرسطو نظريته في السياسة بأن يبيّن أن الوحدة الرئيسة هي الأسرة، وليست الفرد، فيقول: إن الإنسان بطبعه حيوان سياسي، أي أنه مدني أو اجتماعي بالطبع.

وذلك لأنّ الإنسان لا يمكن أن يُتصور وحده منعزلاً مطلقاً، ولهذا فلا بدّ أن يوجد في جماعة. ويلاحظ أن في الأسرة علاقات ثلاثاً رئيسة: الأولى بين الزوج والزوجة؛ والثانية بين الآباء والأبناء؛ والثالثة بين العبيد والسادة.

أما في النوع الأول، فإنّ بين المرأة والرجل علاقات صداقة وعدالة. إنّ للمرأة حق الاستشارة وحق التقرير، فيما يخص سياسة الأسرة الداخلية، لأن الطبيعة أعطتها حق العناية بالبيت والأولاد. وأمّا فيما يخص الشؤون الخارجية، فإنها من مهام الرجل وحده.

وفيما يتعلق بالنوع الثاني، فإن الوالد ملتزم نحو أولاده بما يلتزم نحو ذاته، من محبة، وعناية خلقية وبدنية ومادية. ولذا يجب أن تكون تربية الأولاد في الأسرة، ولكن تحت إشراف الدولة. ويلتزم الأولاد نحو والدهم بالمحبة والاحترام والطاعة.

أما في النوع الثالث، فيرى أرسطو أن الرق مكروه، إلاّ أنّه نظام طبيعي لا مفر منه، في تدبير شؤون المجتمع الاقتصادية ولا سيما شؤون المنزل. ومع أنّه يقرّ أن الطبيعة هي التي جعلت بعض الناس عبيداً وبعضهم الآخر سادة، فإن العبودية التي تنجم عن الغلبة في الحرب عرضية. فقد يتفق أن يكون المغلوب أفضل من الغالب، وعندئذ يبيت السيد الطبيعي عبداً بالعرض، أو العكس. فيلزم عن ذلك، إذن، أن العبودية من طبيعة الأشياء، إلاّ أنّ من العبيد من لم يخلق للعبودية ومن السادة من لم يخلق للسيادة، فكان كلاهما عبداً وسيداً بالاتفاق.

وإذا كانت الأسرة لا تكفي نفسها، فيما يتصل بحاجاتها اليومية، فإنها تكوّن مع غيرها من الأسر «القرية». وإذا تعددت حاجات القرية، فاحتاجت إلى غيرها من القرى، تكونت من ذلك دولة. هذه الدولة، التي تربط بين أسرها وقراها وحدة الأصل واللغة والمدينة، تبتغي ضمان حاجات المواطنين الأحرار، ليكونوا فضلاء وسعداء. ولكنها تحتاج لإدراك هذه الغاية المنشودة إلى سلطة، أو حكومة. وشكل هذه الحكومة، من ناحية الكمية، إمّا أن يكون حكم الفرد، وإمّا حكم الأقلية، وإمّا حكم الجمهور. وكل شكل من هذه الأشكال الثلاثة يقسم، من ناحية القيمة، إلى شكلين: صالح وفاسد. وهكذا تكون أشكال الحكم على ستة أنواع: ثلاثة فاسدة، هي، الحكم الاستبدادي والحكم الاليغاركي والحكم الديمقراطي، وثلاثة صالحة، هي، الملكية والأرستقراطية والحكم الدستوري.

وبعد أن يحدّد أرسطو الأشكال الفاسدة للحكم. ويحلّل الأشكال الصالحة تحليلاً فلسفياً وتاريخياً واجتماعياً تاركاً لكل شعب اختيار الشكل الملائم المرتبط ارتباطاً طبيعياً بعقله وأخلاقه وتاريخه وتطوره ومشاكله، يؤكد أن حكم الفرد (الملكية) أفضل الأحكام الثلاثة، إذا أمكن وجود هذا الفرد الكامل، على الرغم من استحالة وجوده. ويلح أرسطو، كما ألحّ أفلاطون من قبله، على أن السلطة تفسد الأخلاق، فيتحول الفرد إلى طاغية، فيدوس القانون ويستعبد الشعب.

ويعتقد أرسطو أن الدولة أو المدينة الفاضلة هي المدينة التي تتحقق فيها بعض الشروط الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، وهذه الشروط، هي:

- ينبغي ألاّ تكون ضخمة، حتى لا يستحيل حكمها، أو صغيرة، لكي تكفي ذاتها بذاتها.
- ينبغي أن تكون متوسطة الاتساع، لكي تكتفي بحاجاتها المادية.
- ينبغي أن تكون محصنة ومنيعة، لتتمكن من الدفاع عن ذاتها.

- ينبغي أن تكون مبنية في مكان متوسط بين البحر والبر، لتكون المواصلات سهلة وسريعة.

- ينبغي أن يكون الشعب كاملاً، جامعاً بين صفات سكان المناطق الحارة وسكان المناطق الباردة، أي بين سكان آسيا وسكان أوربة. وهذا ما ينطبق بوضوح على سكان اليونان، ولا سيما على سكان أثينة.

- ينبغي تربية الشعب تربية تهدف إلى تنمية القوى البدنية والعاطفية والعقلية، كل واحدة بحسب ترتيبها القيمي: تربية الجسد لأجل النفس، والقسم الأدنى من النفس لأجل القسم الأعلى منها، أي لأجل العقل. والواقع أن التربية هي الوسيلة الفعالة والكبرى لتحقيق المدينة الفاضلة.

وإذا كان أفلاطون قد عدّ الفرد خلية حقيقية في كائن عضوي هو الدولة، لا حياة له تبعاً لهذا إلاّ في الدولة، فإن أرسطو، بعكس معلمه، أعطى الفرد استقلالاً وشيئاً من الحرية، ليحقق أغراضه الخاصة، بإزاء الدولة. ولهذا فإنّ أرسطو أخذ على معلمه إنكاره للحياة الزوجية وللملكية الفردية، فهو يرى أنّ في الحرمان، من هذين الأمرين، عدم تحقيق لقيمتين رئيستين من الناحية الأخلاقية، هما: التهذيب الجنسي، ثمّ التفوق الاجتماعي. ولذا فإنه يقول إن الملكية الفردية يجب أن تكون موجودة وإنّ الزواج بصفته صلة بين فردين من جنسين مختلفين، أمر ضروري.

العلوم الإنتاجية ـ الوجود الفني

موضوع العلوم الإنتاجية صنع الأشياء المفيدة والجميلة. ولقد ألّف أرسطو كتاباً في الخطابة وكتاباً في الشعر.

الخطابة: يهدف علم الخطابة، قبل كل شيء، إلى الإقناع. فهو أقرب إلى علم الجدل منه إلى علم الفلسفة. ويقوم علم الخطابة على تكوين سلسلة من الأقيسة المحتملة الإضمارية المقنعة. أمّا الخطيب، فعليه اتباع الأمور الثلاثة التالية:

- إجادة الحجج المقنعة المنبثقة عن المبادئ الإنسانية: مبدأ المنفعة العامة في الخطابة السياسية، ومبدأ العدالة في الخطابة العدلية، ومبدأ الجمال الخلقي في الخطابة الأخلاقية.

- ولما كانت البراهين وحدها لا تكفي لتولّد الإقناع والصدق، لذا يجب على الخطيب أن يدعمها بصدقه وإخلاصه وشخصيته الجميلة، وبمعرفته العميقة للنفس الإنسانية. ولذا يخصص أرسطو عدة فصول من المقالة الثانية لدرس عواطف النفس وانفعالاتها، (الغضب والوداعة، البغض والحب، الخوف والشجاعة، نكران الجميل ومعرفته، الحسد والغيرة، وغيرها)، ولدرس نفسية الشاب والكهل والشيخ.

- ويجب على الخطيب أن يهتمّ اهتماماً كبيراً بتقسيم الخطاب وبالجملة الخطابية وبالتعابير والألفاظ.

الشعر: الشعر، في نظر أرسطو ومعلمه، تقليد. بيد أن أرسطو تعمق في دراسة طبيعة هذا التقليد، وخلص إلى القول إن الشعر تقليد حرّ؛ وذلك لأنّ الشعر يستطيع أن يصوّر الأشياء أجمل أو أقبح مما هي عليه في الواقع، إلى حدّ ما، ولأنّه يصوّرها تصويراً عقلياً رصيناً، وقريباً من التصوير الفلسفي. وهذا التقليد الشعري الموسيقي تمتد أصوله البعيدة إلى الغريزة، ويتكون بالممارسة، ويبلغ كماله بالمعرفة الفنيّة. والمأساة، الناجمة عن تطور الشعر، تمثّل في نظر أرسطو، الفن الشعري السامي. فمفهومه للمأساة قريب جداً من مفهوم راسين. ومع أنّ كثيرين يعتقدون أنّ قوانين الوحدة (وحدة الزمان والمكان والعمل) من جوهر المأساة وينسبونها إلى أرسطو، فإنّه في الواقع، لا يتكلّم قطعياً عن وحدة المكان، ولا يتكلّم إلاّ عرضاً عن وحدة الزمان، في صدد كلامه على الفرق بين المأساة والملحمة. غير أنه يلحّ كثيراً على وحدة العمل، لأنها، في نظره، عنصر جوهري في المأساة. وأرسطو لا يقول بالفن لأجل الفن. فالفن عنده وسيلة لتطهير النفس، وبينه وبين علم الأخلاق صلة متينة.

غسان فيانس

الموضوعات ذات الصلة:

الإبستيمولوجية ـ الأخلاق ـ الأنطولوجية ـ الفلسفة ـ المنطق ـ الميتافيزيقة.

مراجع للاستزادة:

- أ. أ. طيلر، المعلم الأول أرسطو، ترجمة محمد زكي نوفل (المطبعة المنيرية بالأزهر، القاهرة ١٩٥٤).
- ماجد فخري، أرسطو المعلم الأول (الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٧٧).
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة خامسة (القاهرة ١٩٧٠).
- D.J.ALLAN, Aristotle le philosophe, (Louvain, Paris 1962).

■ أَرْسَلان

نسب أسرة لبنانية من أسر الأمراء الدروز. ولفظة أرسلان فارسية وتركية تعني «أسد» وقد تلفظ آرْسَلان ورُسْلان.

يذكر سليلو هذه الأسرة أنهم ينتمون إلى المناذرة اللخميين، وأنّ جدهم الأول هو أرسلان ابن مالك بن بركات بن المنذر أحد أحفاد المنذر ابن ماء السماء، ولد سنة ١٠٩هـ/٧٢٧م في المعرّة، وكانت عشيرته تقيم فيها، ولما قدم أبو جعفر المنصور العباسي دمشق سنة ١٤١هـ/٧٥٨م سار إليه أرسلان مع أخيه المنذر ووجوه عشيرته للتهنئة، فلقي من الخليفة أحسن قبول وأقطعه وإخوته الجبال المطلّة على بيروت والساحل ليجاوروا الجراجمة (المَرَدَة) ويصدوهم، فنزل بقومه في حصن يعرف بحصن أبي الجيش في وادي التيم سنة ١٤٢هـ/٧٥٩م وتفرقت عشائرهم في البلاد وعمروها وحصنوا بيروت وأصلحوا أسوارها، وجرت وقائع كثيرة بينهم وبين الجراجمة وقراصنة الروم الذين كانوا يغيرون على سواحل الشام في أيام الدولة العباسية.

وقد أظهر الأرسلانيون في هذه المعارك بسالة وشجاعة نالتا إعجاب الخلفاء وتقديرهم. إلاّ أن الأرسلانيين انقسموا على أنفسهم في أواخر الخلافة العباسية وتفرقت كلمتهم فانحاز بعضهم إلى الحمدانيين أوالمرداسيين أوالسلاجقة من حكام بعض مناطق سورية، وانحاز آخرون إلى الفاطميين حكام مصر وجنوبي بلاد الشام. ولما جاء الصليبيون واستولوا على مدن الساحل دارت بينهم وبين الأرسلانيين معارك كثيرة، فتعرضوا للتنكيل والقهر، وضيّق عليهم

الصليبيون حتى اقتصرت ممتلكاتهم على بعض وادي التيم ومقاطعة الغرب، وكان حكام دمشق من البوريين والزنكيين والأيوبيين يستعينون بهم في وقائعهم مع الصليبيين وينجدونهم حين يتعرضون لغزو هؤلاء الفرنجة. كذلك أبلى الأرسلانيون بلاءً حسناً في حرب المغول، ونالوا رضى الملك المظفر قطز سلطان المماليك، وظلت أمورهم بين مدٍّ وجزر حتى دالت دولة المماليك.

وفي العهد العثماني اتسعت ولاية الأرسلانيين حتى شملت قسماً كبيراً من أرض لبنان، ولكن انقسامهم وتنازعهم السلطة أضعفهم ومكّن المعنيين من إقامة دولتهم في لبنان وأجزاء كبيرة من سورية، وكان بين الفريقين معارك كثيرة. كذلك اختلف الأرسلانيون مع الشهابيين بعد أن قويت شوكة هؤلاء. وحدث أن الأمير إسماعيل بن يوسف رسلان صاحب مقاطعة الغرب التحتانية كان قد تزوج الأميرة زليخا الشهابية فلم يرزق منها بولد. وتزوج من ابنة عمه بدر السماء فولدت له بنتاً، فلمّا مات سنة ١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م ادعى الأمير يوسف الشهابي أن إسماعيل أوصى بمتروكاته إلى الأمراء الشهابيين، واختلف الفريقان في قسمتها. ثم جرى الاتفاق على أن يكون لآل شهاب الثلثان وللأمير فخرالدين بن حيدر والأمير بشير من آل أرسلان الثلث من التركة.

وينحدر الأمراء الأرسلانيون المعروفون اليوم في لبنان من الأمير فخر الدين أرسلان بن حيدر المتوفى سنة ١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م.

أما أشهر من برز من الأرسلانيين في القرن التاسع عشر فهم:

ـ عباس بن فخر الدين (ت١٨٠٩) وزوجته حبوس بنت الأمير بشير بن محمد رسلان (١٧٦٨ـ١٨٢٦). ومن أخبار عباس أنه حضر وقائع أحمد باشا الجزار في لبنان وأبلى فيها بلاء حسناً، ثم انحاز إلى الأمير بشير بن عمر الشهابي حين قدم والياً سنة١٧٩٧، وقاتل إلى جانبه حين دهم عسكر الجزار الشويفات سنة ١٨٠٠ وهزمهم. وخلّف أربعة أولاد ذكور قصّر فتولت امرأته السيدة حبوس حكم المقاطعة بفضل ذكائها وحسن سياستها، إذ كانت حازمة سديدة الرأي، أنشأت أولادها وربتهم تربية حسنة وأدارت دفة الحكم بمقدرة وفطنة، ووالت الأمير بشير الثاني وساعدته بأموالها، وخرجت معه إلى حوران لما أخرج من لبنان، ورجعت إلى منصبها حين عادت الولاية إليه، ولكنها لم تلبث أن تدخلت في النزاع بين الأمير بشير الشهابي والشيخ بشير جنبلاط، فساندت الشيخ بشيراً، واضطرت إلى تحمل العاقبة، فصودرت أموالها وشدد عليها وتوفيت إثر ذلك. وقد اشتهر من أولادها أحمد وأمين وحيدر الذين كان لهم دورهم السياسي المعروف في لبنان.

ـ ملحم بن حيدر بن عباس (١٨٢٠ـ١٨٧٣)، كان متقناً الفقه، وله مشاركة في النحو والفرائض والحساب، ولما كانت حوادث١٨٦٠ لم يتدخل فيها إلا لمساعدة المصابين وصيانة أهل وطنه ولاسيما النصارى، فلما جاء محمد فؤاد باشا لإخماد الحركة سجنه في بيروت، ولكن موقفه المنصف من النصارى أخرجه من السجن، وأرجعت إليه أملاكه، وتولى قائمقامية الشوف مدة، فلمّا عظم نفوذه فصل عن القائمقامية، فنزل بيروت وأقام فيها.

ـ محمد بن أمين بن عباس (١٨٣٨ـ١٨٦٩)، أشهر الأرسلانيين في القرن التاسع عشر، كان محباً للعلم، قرأ العربية وتعلم التركية والفرنسية، تولى قائمقامية الدروز عندما مرض والده وهو في العشرين من عمره، فلمّا مات الأب تولاها أصالةً. وبعد حوادث عام١٨٦٠ انتقل إلى بيروت وتفرغ للتأليف والمطالعة وأسس الجمعية العلمية السورية في بيروت وتولى رئاستها. أصبح عضواً في مجلس الشورى في الآستانة فكان نافذ الكلمة فيها، وتوفي في الآستانة. ترك مؤلفات منها «تشحيذ الأذهان في المنطق» و«الكلمة في النحو والصرف» و«التحفة الرشدية في اللغة التركية» و«عظمة وسقوط العرب» ورواية «فرح بن سرور». ولم يطبع من كتبه إلا «التحفة الرشدية».

أما أشهر رجال هذه الأسرة في القرن العشرين فهم:

ـ شكيب أرسلان (١٢٨٦ـ١٣٦٦هـ/ ١٨٦٩ـ١٩٤٦م) شاعر وكاتب ومؤرخ ورجل سياسة، عرف بأمير البيان، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

كان والد شكيب الأمير حمّود بن حسن ابن يونس مؤسس الفرع الأصغر من الأسرة الأرسلانية في العصر الحديث. وكان مديراً للشويفات بلبنان يعيش على بسطة من الحياة مع زوجته وأولاده الأربعة: نسيب وشكيب وحسن وعادل.

تلقى شكيب وأخوه نسيب العلوم الابتدائية من قراءة وكتابة وتلاوة للقرآن في الشويفات، وكان نسيب يكبره بسنة ونصف السنة فنشأا توأمين.

انتقل شكيب إلى مدرسة الحكمة في بيروت وأمضى فيها سبع سنوات ثم انتقل إلى المدرسة السلطانية في بيروت سنة١٨٨٧م ودرس فيها الفقه والتوحيد على الشيخ محمد عبده والشيخ أحمد عباس واتقن التركية وتعلم مبادىء الإنكليزية. وعندما أنهى دراسته سافر إلى بعض الأقطار العربية فزار دمشق ثم ارتحل إلى مصر وهناك اجتمع بالشيخ محمد عبده الذي كان قد استقر في القاهرة، ثم سافر بعد ذلك إلى الآستانة في سنة ١٨٩٠م والتقى جمال الدين الأفغاني[ر] وسمع منه وتأثر به، ثم سافر إلى فرنسة سنة ١٨٩٢م وهناك تعرف أحمد شوقي[ر] ونشأت بينهما صداقة، وعاد بعدها إلى بيروت والتقى محمد رشيد رضا[ر] وتوثقت الصلة بينهما.

عيّن مديراً للشويفات (١٩٠٢) ثم غدا القائمقام فيها، ثم اختير نائباً عن حوران في مجلس المبعوثان بالآستانة سنة ١٩٠٩م.

وعندما قامت إيطالية بعدوانها على طرابلس الغرب سنة ١٩١١م أخذ شكيب يكتب المقالات، يستحث المسؤولين في الآستانة ومصر لنجدتها، ثم قدم إلى مصر متطوعاً مع طائفة من المجاهدين، واستطاع أن يدخل طرابلس الغرب متخفياً. وعندما احتلّ الإيطاليون طرابلس وبرقة عاد إلى مصر، وهناك وطدّ معرفته برشيد رضا وتأثر به، وكان ذلك منبعاً لكثير من آرائه. ثم سافر إلى تركية مفتشاً لبعثات الهلال الأحمر المصري. وفي سنة ١٩١٤ سافر إلى المدينة المنوّرة لإنشاء مدرسة فيها. وعندما احتدم الخلاف بين العرب والأتراك في أثناء الحرب العالمية الأولى اتخذ موقفا معتدلاً، وحاول إزالة التوتر بين الطرفين فلم يفلح، واتهم بميوله العثمانية، ولكنه كان يرى في تقربه من الأتراك خدمة لوطنه، وحاول التخفيف من مظالم جمال باشا فتوسط عنده من أجل عدد من المواطنين. وعندما علّق جمال باشا الأحرار على المشانق ذهب شكيب يشكوه إلى الباب

العالي مما أغضب الوالي عليه.

وعندما وقع بعد الحرب ماكان يحذّر منه شباب العرب من الغرب، وصارت البلاد نهباً مقسماً بين إنكلترة وفرنسة، اضطر إلى ترك لبنان لأن فرنسة عدّته عدواً لها، واستقرّ بمرسين على الحدود السورية مدة، ثم سافر إلى برلين ومنها إلى سويسرة وأقام فيها. وفي سنة ١٩٢٢م اختير عضواً في الوفد الفلسطيني للدفاع عن فلسطين أمام عصبة الأمم. وفي عام ١٩٢٤م أسس في برلين جمعية اسمها «هيئة الشعائر الإسلامية» تهتم بأمور المسلمين في ألمانية. وفي سنة ١٩٢٦م سافر على رأس الوفد السوري إلى رومة ليبسط القضية السورية أمام لجنة الانتداب، مما ضايق فرنسة فمنعت نشر أية مقالة لشكيب في سورية مهما يكن موضوعها، وفي سنة ١٩٢٩م حجّ والتقى الملك عبد العزيز ووضع كتابه «الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» وفي سنة ١٩٣٠م قام برحلة إلى إسبانية وعاد منها فكتب كتاب «غزوات العرب في فرنسة وسويسرة وإيطالية وجزائر البحر المتوسط» ثم أصدر في جنيف مجلة «الأمة العربية» بالفرنسية وأخذ يدافع فيها عن قضايا العروبة والإسلام. وفي سنة ١٩٣٤م اشترك في وفد الصلح الذي أرسله المؤتمر الإسلامي للتوفيق بين الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى ملك اليمن. وفي صيف ١٩٣٧م سمحت له فرنسة بأن يزور سورية، واستقبله أبناء وطنه استقبالاً حافلاً، وصدر قرار تعيينه رئيساً للمجمع العلمي العربي في دمشق، وفي سنة ١٩٣٩م أذن له المسؤولون في مصر بزيارتها، وبعد الحرب العالمية الثانية عاد إلى وطنه عام ١٩٤٦م. وقد أصابه المرض، وفي بيروت مات ودفن في الشويفات.

كان شكيب عثماني النزعة في أول حياته، إذ كان يرى في الخلافة العثمانية عزاً للإسلام وقوة للعرب، ولمّا تكشفت أمامه الحقائق وظهرت نيّات حكام الأتراك أدرك أن الرابطة التي تربطه بالعرب والعروبة أقوى من صلته بالعثمانيين، لذلك أخذ يدعو إلى الوحدة العربية، ويدافع عن بلاده في وجه الاستعمار ويبين ظلم المستعمرين، ويحث العرب على الاتحاد ويتغنى بالقومية العربية وحضارة العرب القديمة وأصالة ثقافتهم، وكان يستعمل كلمة «العرب» أحياناً ويريد بها المسلمين لإيمانه بأن الأمة العربية هي عماد الأمة الإسلامية، ولهذا كان يدعو إلى تحقيق كتب التراث العربية المتناثرة في مختلف خزائن أوربة ومتاحفها لأنها ثروة للعرب. وكان يوصي بنسيان الطائفية والتعصب ويدعو إلى المساواة بين جميع أبناء الأمة العربية، ويدعو إلى قيام جامعة إسلامية تكون دعماً للجامعة العربية وسنداً لها، وكان يرى أن المسلمين لن يفلحوا إلاّ إذا بنوا ثقافتهم على الجمع بين العقيدة الإسلامية والعلوم الطبيعية، ويطالب بالتربية الدينية في أثناء النهضة القومية.

عاش شكيب أرسلان ما يقارب الثمانين عاماً وفياً لأصحابه، ولم يكن يحمل حقداً على أحد. وكان متواضعاً دمث الخلق معتزاً بنفسه في الوقت ذاته يعرف قدرها ويكثر من الحديث عن أفعاله. وكان مؤدباً في حواره يكره الهجاء ولايذكر في نقده عيوباً شخصية، وكان المبدأ عنده فوق الصلة الشخصية وفوق الصداقة، كان يحرص على الحق ويتمسك به وإن كان يداري أحياناً في مجال السياسة ويرى أن الصراحة فيها عيب. وكانت له نظرات صائبة في هذا المجال وفراسة صادقة، وكان يعرف أن هناك مخالفين كثيرين لأقواله، ولكنه كان يؤمن بأن صدقه سيدفعهم إلى إقرار آرائه بعد ذلك.

كان شكيب أرسلان كثير المطالعة غزير الإنتاج، وقد ظلّ أكثر من ستين سنة يؤلف كتباً ومقالات مسهبة ورسائل وتعليقات لغوية وآراء سياسية. وكان حين يكتب مقالاته يميل فيها إلى السهولة في التعبير ولايحتاج إلى تمهل أومراجعة، وكان يكتب معظم مقالاته بلا أجر. أما مقالاته بالفرنسية التي كان يملأ بها صفحات مجلة «الأمة العربية» فقد عالجت مختلف قضايا الحق والعدالة بلغة فرنسية جيدة. ويحتاج التراث الضخم الذي تركه شكيب أرسلان من مقالاته إلى جمع وترتيب ونشر.

أما كتبه التي تركها فقد طبع منها «الباكورة» و«لماذا تأخر المسلمون» و«الارتسامات اللطاف» و«تاريخ غزوات العرب» و«ديوان الأمير» و«شوقي أوصداقة أربعين سنة» و«الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية» و«السيد رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة» و«الوحدة العربية» و«النهضة العربية» و«عروة الاتحاد» و«رحلة ألمانية» و«أعمال الوفد السوري الفلسطيني» و«لائحة إلى السيد جوفنيل».

ومن الكتب التي حققها أوعلق عليها: «الدرة اليتيمة» لابن المقفع، و«المختار من رسائل الصابي» و«محاسن المساعي في تاريخ الإمام الأوزاعي» و«روض الشقيق» و«تاريخ ابن خلدون».

ومن الكتب التي ترجمها: «آخر بني سراج» لشاتوبريان، وكتاب «أناتول فرانس في مباذله» و«حاضر العالم الإسلامي».

وأسلوبه في كتبه متين رصين، وإن أخذ عليه التكرار في غير موضعه، والإسراف في استعمال المترادفات.

أمّا شعره الأول الذي قاله في حداثته، فقد قلّد فيه القدماء، غير أن شعره الذي كتبه بعد ذلك امتاز بالسلاسة والغزارة مع الحرص على رصانة التراكيب، ويبدو فيه شاعراً مطبوعاً. ولكن نثره طغى على شعره، وكان أسلوبه في الترجمة متيناً جزلاً، وكأنّ ما ترجمه مؤلف في اللغة العربية. ولكنه كان يضيف إلى الأصل ما ليس فيه ليجعله عربياً في التعبير والتفكير، وكانت له موهبة في النقد وتحليل الأدب والحديث عنه، ويبدو قادراً على التفريق بين المطبوع والمقلّد. وكان يكتب أحكامه النقدية بسهولة وسلاسة وبيان غير متكلف، لذلك كله لقب بأمير البيان.

- عادل أرسلان (١٣٠٧-١٣٧٤هـ/ ١٨٨٩-١٩٥٤م):

من رجال السياسة في لبنان وسورية، وهو أصغر أبناء الأمير حمّود أرسلان.

تلقى عادل دروسه في مدرسة الحكمة في بيروت. وبدأ حياته السياسية سنة ١٩١٦ في أثناء الحرب العالمية الأولى بتولي قائمقامية عاليه، ثمّ مثّل لبنان في المجلس النيابي العثماني في الآستانة، وكان مع الأمير حارس شهاب أول من اشترك من اللبنانيين في الحياة النيابية العثمانية. وعندما انتهت الحرب أعلن عادل أرسلان نفسه حاكماً على لبنان، ولكن هذا الحلم لم يدم طويلاً، فقد انتهى بدخول الفرنسيين إلى لبنان بعد انسحاب العثمانيين بمدة وجيزة. فانسحب الأمير عادل إلى دمشق وانضوى تحت لواء الأمير فيصل، فكان مساعد رئيس الحكومة السورية، وانضمّ بعد دخول الفرنسيين إلى صفوف الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ تحت لواء قائدها العام سلطان باشا

الأطرش[ر]، وكان الرجل الثاني في قيادة الثورة. وأصدرت فرنسة عليه وعلى آخرين من رجال الثورة حكماً غيابياً بالإعدام.

تولى الأمير عادل بعض الوزارات بعد جلاء فرنسة، وشغل منصب نائب رئيس الوزراء في عهد حسني الزعيم[ر]، ثم عيّن سفيراً لسورية في أنقرة. عاد الأمير عادل إلى بيروت بعد أن تولى أديب الشيشكلي[ر] مقاليد الأمور في سورية، وتوفي هناك ودفن إلى جوار أجداده في الشويفات.

ـ نسيب أرسلان (١٢٨٤-١٣٤٦هـ/ ١٨٦٧-١٩٢٧م):

شاعر وكاتب، وهو أكبر أبناء الأمير حمّود أرسلان، تلقى علومه في مدرسة الحكمة في بيروت، ثم في المدرسة السلطانية فيها.

عيّن مديراً لناحية الشويفات بلبنان، فأقام نحو عشر سنوات يدير الناحية بكفاية ومقدرة، ثم استعفى وسكن بيروت، ولمّا أعلن الدستور العثماني انتخب رئيساً لنادي جمعية الاتحاد والترقّي في بيروت. ثم نقم على الاتحاديين سوء سيرتهم مع العرب فانفصل عنهم، وانضم إلى أنصار «اللامركزية»، وأخذ ينشر آراءه في جريدة «المفيد» البيروتية، فكان لمقالاته فيها أثر كبير في الحركة العربية، ثم استمرّ مدة يشرف على تحرير تلك الجريدة متطوعاً، وكان مجلسه في مكتبها مجمع الكتّاب والأدباء وقادة الرأي.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى انقطع عن الناس ولزم بيته، ثمّ انتقل إلى الشويفات وانصرف إلى استثمار مزارعه ومزارع شقيقيه شكيب وعادل. ولم يزل في انزوائه إلى أن توفي.

أولع نسيب بالشعر منذ صغره وقاله وهو في مدرسة الحكمة، فنظم واقعة «سيف بن ذي يزن مع الحبشة» في رواية طويلة، وشعره الذي نظمه مطبوع، وقد نشره أخوه شكيب أرسلان بعد وفاة نسيب في ديوان سماه «روض الشقيق في الجزل الرقيق».

أما في النثر فكان أديباً متمكناً، وكان حلو المحاضرة سريع الخاطر في طُرَفه وإنشائه، بعيداً عن حبّ الشهرة، وكان يوقّع مقالاته في المفيد باسم «عثماني حر».

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الاتحاد والترقي (جمعية -) - جمال باشا - الشهابيون.

مراجع للاستزادة:

- سامي الدهان، محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان (معهد الدراسات العربية مصر ١٩٥٨).
- أحمد الشرباصي، شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام (وزارة الثقافة المصرية، المؤسسة المصرية العامة).

■ أرسلان طاش ← خداتو

■ الأرسوزي (زكي -)
(١٩٠٠-١٩٦٨)

زكي الأرسوزي بن نجيب بن إبراهيم مناضل ومفكر عربي سوري، ولد في اللاذقية لأب محام نشط في صفوف الحركة العربية، وأم من قرية أرسوز الواقعة على خليج اسكندرون شمال غرب أنطاكية.

وقد انتقلت الأسرة من اللاذقية إلى أنطاكية وأقامت فيها زمناً. وفي سنة ١٩١٤ نفت السلطات العثمانية الأب وأفراد أسرته إلى قونية (تركية)، وهناك واصل زكي الأرسوزي الدراسة في مدرسة قونية وأتقن اللغة التركية. وفي سنة ١٩١٩ سافر إلى بيروت، ودرس الفرنسية في معهد اللاييك، ثم عاد إلى أنطاكية مدرساً للرياضيات في المدرسة الثانوية. وفي سنة ١٩٢٤ عُيّن مديراً لناحية أرسوز، وبعد نحو سنة نقل و عين أمين سر دائرة المعارف في أنطاكية، وفي سنة ١٩٢٧ سافر إلى فرنسة موفداً لدراسة الفلسفة في السوربون في باريس، وفي سنة ١٩٣٠ عاد إلى أنطاكية مدرساً للفلسفة والتاريخ في المدرسة الثانوية. وبعد ثلاث سنوات نقل إلى حلب بسبب من نشاطه القومي، ثم نقل إلى دير الزور و سرّح من الوظيفة في سنة ١٩٣٤.

شارك الأرسوزي في المعركة التي احتدمت للمحافظة على عروبة «لواء الاسكندرونة» [ر] فأسهم في قيادة المظاهرات وأسس جريدة العروبة. وعندما استلب الأتراك اللواء في سنة ١٩٣٨ بناء على الاتفاق غير الشرعي بينهم وبين فرنسة، التي كانت الدولة المنتدبة على سورية آنئذ، غادر الأرسوزي اللواء إلى دمشق مع من غادره من سكانه العرب وفيهم الكثير من أصدقائه وتلاميذه. وفي سنة ١٩٤٠ انتقل للعمل مدرساً في بغداد ولكنه سرعان ما سُرّح من الوظيفة لانتقاده المتكرر للحكم هناك، وعاد إلى دمشق.

وأمضى في دمشق ما بين عامي ١٩٤١و١٩٤٥ سنوات صعبة عانى فيها شظف العيش وقسوته، ولكن هذه السنوات وفرت له فرصة التفرغ لدراسة العربية، وكانت هذه الدراسة منطلقاً في تفكيره الفلسفي والقومي، واهتمامه باللغة العربية وعبقريتها.

وابتداء من سنة ١٩٤٦ عين زكي الأرسوزي مدرساً للفلسفة والتاريخ في ثانويات حماه ثم حلب ثم في دار المعلمين بدمشق، واستمر في هذا العمل الأخير حتى إحالته على المعاش سنة



١٩٥٩. وقد منحه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في الجمهورية العربية السورية جائزته التقديرية سنة١٩٦٧، أي قبل سنة من وفاته.

نذر زكي الأرسوزي حياته لقضية العروبة والدفاع عنها، وكان المعيار الذي يعتمده في الحكم على سلوك كل إنسان عربي درجة الأمانة للعروبة، وكان في ذلك صريحاً ونقاداً، وكان إلى جانب ذلك حريصاً باستمرار على أن تتحقق العدالة وعلى إلغاء التمييز بين الناس من

أي نوع كان. أما تدريسه فكان يغلب فيه أن يتمحور حول حق العربي في الحرية والاستقلال والثقافة والتعليم.

وقد اتجه تفكير الأرسوزي منذ سنة ١٩٤٠ إلى تأليف حزب عربي قومي شعاره بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم. وقد انضم إليه عدد كبير من الطلاب الذين آمنوا بما كان يؤمن به. وفي سنة ١٩٤٧ عقد المؤتمر التأسيسي الأول لحزب البعث، ولكن زكي الأرسوزي كان بعيداً عن المؤتمر، وآثر الانصراف إلى التفكير الفلسفي القومي العربي الذي هو في القاعدة من بناء البعث، وكان كتابه الأول «العبقرية العربية في لسانها» المعبّر عن المنطلق الذي أخذ به.

كان الأرسوزي محباً للناس، وقد عرف عنه جلوسه طويلاً في مقهى مفضل لديه (واحد في حلب وآخر في دمشق) يحدث الأصدقاء والتلاميذ حديثاً يتصف بعذوبته وجاذبيته، أما الموضوعات المفضّلة لديه فكانت موضوعات اللغة العربية والقومية العربية والوحدة العربية والنظر النقدي إلى الواقع العربي والنضال العربي.

ظل الأرسوزي موضع عناية بالغة من أصدقائه وتلاميذه في السنوات الأخيرة من حياته. وقد تألفت في دمشق بعد وفاته لجنة لتخليد ذكراه أقامت حفلاً تأبينياً، وعملت من أجل إقامة تمثال له نصب فيما بعد في حديقة في حي المزرعة في دمشق سميت باسمه، كما عملت من أجل جمع آثاره ونشرها. وقد نشرت هذه الآثار ما بين ١٩٧٢ - ١٩٧٦في ستة مجلدات، وفي مقدمة هذه المؤلفات: «العبقرية العربية في لسانها»، و«رسالة الفلسفة والأخلاق»، و«رسالة الفن» و«رسائل المدنية والثقافة» و«الأمة العربية: ماهيتها ـ رسالتها ـ مشاكلها»، و«صوت العروبة في لواء الاسكندرونة» و«متى يكون الحكم ديمقراطياً»، و«الجمهورية المثلى»، و«التربية السياسية المثلى».

وفي استطاعة المدقق في مؤلفات الأرسوزي ورسائله وأحاديثه المعروفة في المناسبات القومية أن ينتهي إلى أن للأرسوزي منحاه الخاص في رؤيته الفلسفية للكون والمعرفة والمجتمع والأخلاق والفن واللغة.

يذكر الأرسوزي في الحديث عن فلسفته العربية: أن مدخلها رحماني، وأن نهجها فني، وأن غايتها الذات، وأنها مستوحاة من الحياة. إنها فلسفة عربية لأن أصولها قائمة في اللسان العربي، وجلّ عمل الأرسوزي كشف مكنونات هذا اللسان. وهي رحمانية المدخل لأنها قائمة على التجربة الإنسانية التي تبدأ لدى الإنسان مع الرحم، وموقع الإنسان من الوجود هو موقع الجنين من رحم أمه حين يصير «المعنى صورة» وتحقق الحياة ذاتها بإبداع العالم الطبيعي. وهو يرى أن هذه الفلسفة ليست قولاً نظرياً مجرداً، بل هي إضافة إلى ذلك، وقبل ذلك، عملٌ أي إنها إسهام الإنسان في فعل إنشاء الكون. ثم إن منهج الفلسفة العربية فني: ذلك أن الفن تجربة رحمانية تقع أصولها في الحياة، وغرضها تأليف صورة شعرية قابلة للنمو، وفيها يُمثّل المستقبل بأسطورة، وتتفاوت دقة هذه الصورة ومداها بتفاوت مواهب الفنانين. وشأن الفن في ذلك شأن الفلسفة والأخلاق والحب، وشأن الفنان شأن البطل وشأن من يتخطى حدود الواقع وحوادثه ليصل إلى الأعلى.

وفي هذه الفلسفة، في رأيه، تكون الذات أعلى مراتب الوجود الإنساني، وتتحقق عندما يحوّل الإنسان الحقيقة الكامنة أو المضمرة فيه إلى واقع: أي «عندما تتجسد الحقيقة في البطل ويصير ذاتاً».

وهو يرى أن في الحياة اتجاهين: السطح والعمق. يبدو السطح في الكائنات الحية المنتشرة في الزمان والمكان. أما العمق فيتصل بالمعنى الذي هو مصدر كل حياة وكل فعل.

ويقول الأرسوزي إن للسان العربي فرادته من حيث ما هو وما يعبر عنه. إنه بدائي بمعنى أنه ليس مشتقاً من شيء آخر سوى الطبيعة. ثم إنه بدئي لأن الابتداء يكون بإطلاق المعنى، ذلك أنه اشتقاقي البنيان، وترجع كلماته أصلاً إلى صور صوتية ومرئية مقتبسة مباشرة من الطبيعة تقليداً لاحتوائها ومن الطبيعة الإنسانية بياناً لمشاعرها.

والأمم، كما يراها الأرسوزي، تتفاوت بتفاوت تكوينها. ولكل أمة من مستوى معين رسالة تفصح عن حقيقتها وتمكنها من أن تشترك مع بقية الأمم في إيجاد عالم إنساني يتقدم باستمرار على طريق تحقيق إنسانية الإنسان، وتتجلى هذه الإنسانية، أكثر ما تتجلى، في الحرية والمساواة والمعرفة.

والإصلاح الاجتماعي هو القمة في العمل الاجتماعي السياسي، ويجب أن يكون كل شعب سيد مصيره، والديمقراطية هي من مكونات الطبع الإنساني، وممارستها حق لكل إنسان وواجب عليه، ولايمكن أن تتحقق الديمقراطية إلا في مجتمع يحترم الرأي الآخر، ويفترض ذلك دستورية الحريات العامة ووضع المواطن في ظروف تمكنه من ممارسة حرية كاملة. إن الدولة هي شخصية المجتمع الواعية وهي نزعة الحق إلى إحقاق ذاته عند الناس، وأولى مهماتها حماية حقيقة الأمة،وأولى مهمات الدولة العربية المحافظة على اللغة العربية التي تتجلى فيها عبقرية الأمة، ومن مهماتها كذلك تنظيم الثروة العامة. ومع تطور الحياة غدا إشراك جميع الناس في الحكم وتحديد المصير العام ضرورة ملحة. وإذا كانت الحرية هي أُمنية الحياة، وكانت الوحدة العربية المثل الأعلى الذي تصبو إليه نفوس العرب قاطبة، فإن الاشتراكية هي الطريق الأمثل لإعداد المواطن العربي لهذا المصير ولأن يكون من بناة الدولة وواضعي قوانينها.

أنطون المقدسي

■ الأرش

الأرش، بوزن العَرْش، هو المال المؤدى إلى مجني عليه، أو وليه، أو وارثه، بسبب جناية على مادون النفس من الأعضاء، مما ليس فيه دية كاملة.

وقد يطلق الأرش على الدية [ر] التي هي بدل النفس. والدية التي هي بدل النفس إنما تجب إذا امتنع القصاص لسبب من الأسباب، كالقتل الخطأ مثلاً، كما تجب الدية كاملة بإزالة جنس المنفعة: كإتلاف اليدين أو الرجلين أو العينين، أو السمع إتلافاً كاملاً مثلاً. والدية الكاملة مئة من الإبل.

أنواع الأرش

الأرش نوعان: أرش مقدر، وأرش غير مقدر.

الأرش المقدر: هو ماحدد الشارع له مقداراً معيناً، كأرش العين واليد والرجل، ففيه نصف

الدية. وقد يكون الأرش ربع الدية كما في الجفن الواحد، وقد يكون الأرش عشر الدية كما في قطع إصبع من أصابع اليد أو الرجل، وقد يكون نصف عشر الدية أي خمس من الإبل كما في السن.

الأرش غير المقدر: هو ما لم يحدد الشارع له مقداراً معيناً، فلم يرد فيه نص وترك أمر تقديره للقاضي بمعرفة ذوي الخبرة العدول. ويسمى هذا النوع من الأرش حكومة عدل.

فحكومة العدل هي الأرش غير المقدر من الشارع في الجنايات الواقعة على مادون النفس مما لاقصاص فيها لسبب من الأسباب، وليس لها أرش مقدر. ويشترط في الحكومة مايلي:

ـ أن لاتبلغ الحكومة أرش جرح مقدر.

ـ أن يكون التقدير بمعرفة ذَوَيْ عدل من الخبراء فيأخذ القاضي بقولهما.

ـ أن يكون التقدير بعد البرء لاقبله.

ومن المتفق عليه أن حكومة العدل تجب إذا شفي الجرح وترك أثراً. أما إذا شفي ولم يترك أثراً فقد اختلف العلماء: فالإمامان الشافعي وأحمد قالا بوجوب الحكومة، والإمام مالك قال بوجوب التعزير فقط، والقاضي أبو يوسف قال بوجوب التعويض عن الآلام والأضرار تقدره حكومة عدل، والإمام محمد بن الحسن الشيباني قال بوجوب أجرة الطبيب.

والذين قالوا بأن الجروح إذا برئت ولم تترك أي أثر ليس فيها حكومة عدل إنما قصدوا أنه لايجب فيها مال، أما التعزير فواجب فيها طبقاً للقواعد العامة، لأن الجناية عدوان، وكل عدوان ليس فيه حد مقدر ففيه التعزير.

وهكذا فكل جناية لم تترك أثراً إطلاقاً، كالضرب بمثقل لم يترك أثراً، ليس فيها حكومة عدل، وإنما فيها التعزير. والتعزير عقوبة غير مقدرة من الشارع.

حالات وجوب الأرش

الحالات التي توجب الأرش نوعان: أعضاء وجروح. والجروح نوعان: شجاج في الرأس والوجه، وجروح فيما سواهما من البدن.

أرش الأعضاء: تجب الدية كاملة لدى تفويت مصلحة على الكمال كإتلاف اليدين أو العينين أو الأذنين.

أما الأرش فيجب بتفويت بعض المصلحة من دون بعضها الآخر، كإتلاف يد واحدة أو أذن أو عين أو إصبع، فيجب في اليد أو العين أو الأذن نصف الدية، أما الإصبع فعشر الدية، وهكذا. وما كان من الأصابع فيه ثلاث مفاصل ففي كل مفصل ثلث أرش الإصبع، وماكان فيه مفصلان ففي كل واحد منهما نصف الأرش، وفي كل سن خمس من الإبل.

أرش الشجاج: تكون الشجاج في الرأس والوجه وهي أحد عشر نوعاً:

ـ الخارصة: هي التي تشق الجلد ولايظهر منها الدم.

ـ الدامعة: هي التي يظهر منها الدم ولايسيل كالدمع في العين.

ـ الدامية: هي التي يسيل منها الدم.

ـ الباضعة: هي التي تبضع اللحم أي تقطعه.

ـ المتلاحمة: هي التي تذهب في اللحم أكثر مما تذهب الباضعة، ولم تقترب من العظم.

ـ السمحاق: وهي التي تقطع اللحم وتصل إلى السمحاق.

ـ الموضحة: هي التي تخترق السمحاق وتكشف العظم.

ـ الهاشمة: هي التي تهشم العظم أي تكسره.

ـ المنقلة: هي التي تنقل العظم بعد كسره وتحوله من مكانه.

ـ الآمة أو المأمومة: هي التي تصل إلى أم الدماغ وهي تحيط بالدماغ.

ـ الدامغة: هي التي تخرق الغشاء المحيط بالدماغ وتصل إليه.

والذي يجب فيه أرش مقدر من هذه الشجاج هو الموضحة وما بعدها، وأما قبل الموضحة من الشجاج فلايجب فيه أرش مقدر، وإنما يجب فيه أرش غير مقدر.

أما الموضحة: فيجب فيها خمس من الإبل لما روي أن رسول ﷺ الله كتب في كتابه لعمرو ابن حزم «وفي الموضحة خمس من الإبل». ويجب الأرش في كل موضحة صغيرة أو كبيرة بارزة أو مستورة الشعر. وأرش موضحة الوجه والرأس سواء.

وأما الهاشمة: فيجب فيها عشر من الإبل، ولم يعرف عن الرسول ﷺ تقدير فيها، وإنما هو مروي عن زيد بن ثابت.

وأما المنقلة: فيجب فيها خمس عشرة من الإبل لما روي عن الرسول ﷺ: «في المنقلة خمس عشرة من الإبل».

وأما الآمة: فيجب فيها ثلث الدية لقوله ﷺ: «في المأمومة ثلث الدية».

أما الدامغة: فيجب فيها ثلث الدية أيضاً أي ما يجب في الآمة.

أرش الجروح: الجروح فيما سوى الرأس والوجه نوعان: جائفة، وغير جائفة. فإذا تعذر تنفيذ القصاص في الجراح لعدم إمكان تحقيق المماثلة وجب حينئذ الأرش.

والجراحات غير الجائفة هي الجراحات التي لاتصل إلى جوف، والواجب فيها حكومة عدل. أما الجراحات الجائفة فهي التي تصل إلى الجوف من البطن أو الصدر مثلاً فالواجب فيها ثلث الدية لقوله ﷺ: «في الجائفة ثلث الدية». وإن خرق الجرح الجوف من جانب فخرج من جانب آخر فالواجب جائفتان.

إبراهيم محمد السلقيني

■ الإرشاد البحري

الإرشاد البحري maritime pilotage هو المساعدة التي يقدمها بحارة متخصصون في مرفأ أو مرسى أو منطقة بحرية معينة لربابنة السفن عند دخول ميناء ما أو عند الخروج منه أو في المراسي أو في بعض الممرات المائية أو الأنهار أو القنوات.

يعود الإرشاد البحري إلى أعماق التاريخ، وقد مارسه الفينيقيون، وهو قديم في المؤسسات المرفئية العريقة التي كانت تضع رجالاً ذوي خبرة بحرية محلية في خدمة الربابنة ليقدموا معلوماتهم عن طريقة الوصول إلى تلك المرافئ، وهم الذين كانوا يسمون بالمرشدين الساحليين.

وفي العصور الوسطى أدى توسع المناطق الملاحية إلى إيجاد صنف آخر من المستشارين البحريين الذين عرفوا باسم «مرشدي أعالي البحار» على السفن القائمة بالملاحة البعيدة. وكان ثمة تفريق بين وظائف رئيس البعثة التجارية أو العسكرية والملاحين والفلكيين من

«مرشدي الأعالي». ولم ينته هذا الوضع إلا تدريجياً بدءاً من القرن السابع عشر عندما اكتسب ضباط البحرية الحربية والتجارية تأهيلاً علمياً أفضل. فمنذ أواسط القرن الثامن عشر لم يبق سوى صنف المرشدين الساحليين الذين يعملون في الميناء نفسه أو في المنطقة البحرية نفسها ولكنهم كانوا يمارسون عملهم بأسلوب تعاوني قائم على الخبرات الشخصية، وانتهى الأمر إلى تنظيمات مهنية ذات خطوط مشتركة بين مختلف الأقطار البحرية.

الأخطار الملاحية

إذا كان الإنسان الضال في البحر على ظهر قارب أو السابح الذي يصارع الأمواج، يتزايد أمله كلما اقترب من الشاطئ، فالأمر ليس كذلك في السفن، ولا سيما الكبيرة منها، فسلامتها أن تبقى في لج البحر بعيدة عن الشاطئ حيث تكمن أخطار كثيرة في الاقتراب منه. والأخطار الملاحية التي تهدد السفن قرب الشواطئ تختلف باختلاف مصادرها: فهناك الأخطار الخفية كالصخور المغمورة على عمق قليل من سطح الماء والرُّبا البحرية، والكثبان الرملية والأرصفة المرجانية، والأعماق الضحلة، وحطام السفن الغارقة.. وثمة نوع آخر من الأخطار يمكن أن يصادفها الملاح كالتيارات البحرية المتولدة من المد والجزر أو الأنهار المجاورة أو الرياح، أو التيارات ذات المنشأ البعيد القادمة من أعالي البحار. وللمد والجزر أهمية كبيرة في البلاد التي يعظم فيها الفرق بينهما حيث يتجاوز في بعض الأماكن والأوقات عشرة أمتار مما يجعل بعض المناطق الملاحية غير صالحة لإبحار السفن في أثناء الجزر عندما تصبح الأعماق ضحلة. ولا بد من حسابات خاصة لمعرفة الساعة من اليوم التي ترتفع فيها مياه المد وتمكن السفن من العبور كماهي الحال على شواطئ المحيط الأطلسي.

وهناك الرياح المحلية التي يمكن أن تكون لها خصائصها بسبب العوارض الجغرافية على الشاطئ، ويختلف اتجاهها وقوتها بحسب الوقت من اليوم. ومن الطبيعي أن تزداد الخطورة في أثناء الضباب والعواصف والطقس السيئ إذ تكثر حوادث جنوح السفن أو غرقها.

الخصائص العامة لأنظمة الإرشاد

فيما عدا القليل من مرافئ العالم، يعد الإرشاد إلزامياً في مناطق معينة للسفن التي تتجاوز حمولتها، أو يتجاوز طولها، حداً معيناً.

فعند وصول السفينة إلى منطقة الانتظار تستقبلها السلطة المختصة، وبعد أن تعطي السلطة السفينة حرية العمل free pratique يتولى المرشد قيادة السفينة لإدخالها الميناء. وعندما لا تسمح حالة البحر بصعود السلطة ظهر السفينة يمكن للمرشد أن يصعدها بموافقة رئيس الميناء captain of the port وأن يقودها إلى الرصيف، وعندها يقوم رجال السلطة المختصة بوظائفهم.

فإدخال السفينة وترصيفها وربطها وإقلاعها من الصلاحيات الحصرية لمرشدي المرافئ ويتم ذلك وفقاً للقواعد التالية:

- هناك استثناءات من الإرشاد الإلزامي تُمنَحها بعض الفئات من السفن كالسفن الحربية وسفن الخدمات الحكومية. أما الإعفاء المستند إلى حجم السفينة فيختلف باختلاف هذا الحجم بين مرفأ وآخر. ففي كثير من البلاد تعفى السفن التي حمولتها المسجلة دون مئة طن، وفي مرفأ كوبنهاغن مثلاً يكون الإرشاد إلزامياً فوق الـ ٨٠٠ طن. وهناك سفن تعفى لترددها المنتظم إلى الميناء، مرة في الأسبوع مثلاً على الأقل، كالعبّارات أو المعدّيات التي تدفع رسوماً مخفضة.
- يلبى طلب الإرشاد للدخول أو الخروج في أي يوم وأي ساعة بناءً على طلب مشغل السفينة أو وكيلها، ويصعد المرشدون السفن بالدور.
- يترتب على عدم التقيد بإلزامية الإرشاد جزاءات نقدية فقط.
- تخضع ممارسة المهنة إلى شروط من الأهلية تزداد شدة بتزايد حمولة السفينة وتعقيدات أجهزتها.
- يحسب رسم الإرشاد تبعاً للمسافة والغاطس والحمولة المسجلة الصافية، ويرجع تحديد الرسم إلى السلطات الوصائية بعد أخذ رأي الجهات المعنية بالنشاط التجاري الذي يمثل مختلف المصالح في المرفأ.
- عندما تطلب السفينة المرشد ترفع علم الإشارة الدولية الدال على ذلك والمتمثل بحرف (H)، وعندما يصعد المرشد السفينة تستبدل بذلك العلم الإشارة (P) التي تعني أن المرشد على السفينة.
- تبقى مسؤولية ربان السفينة قائمة في حال ارتكاب المرشد خطأً.

الإرشاد في المصبات النفطية

يقوم معظم المصبات النفطية (وهي التي تنتهي إليها خطوط أنابيب تصدير النفط أو استيراده) على شواطئ مراس طبيعية خارج المرافئ، وذلك بسبب تزايد حجوم ناقلات النفط ولا سيما في الثلاثين عاماً الأخيرة (من ٣٥٠٠٠-٥٠٠,٠٠٠ طن) وتزايد غاطسها، إذ صار من المستحيل دخول الناقلات العملاقة مثلاً إلى رصيف الميناء.

ويقام أمام المصب عدد من المرابط في عرض البحر. ويتألف المربط من عدد من عوامات الربط الراسية فوق القاع تحيط بمأخذ نفطي يكون نهاية خطوط الأنابيب الممتدة في قاع البحر، فترسو الناقلة عند المربط وترتبط على مقربة من المأخذ الذي يوصل بأنابيبها ليبدأ بعد ذلك الشحن أو التفريغ.

يتولى قيادة ناقلة النفط لإدخالها المربط الذي يخصص لها مرشد من نوع خاص يدعى ربان عمليات الرسو mooring master. وتختلف وظائف ربان عمليات الرسو عن وظائف المرشد المرفئي من النواحي التالية:

- يتولى ربان عمليات الرسو إضافة إلى قيادة الناقلة وربطها في مكانها الإشراف على تحميل الناقلة وتفريغها من حمولتها ومن ثم إخراجها من مربطها إلى عرض البحر ليتولى ربانها قيادتها خارج المصب، يكون ربان عمليات الرسو موظفاً لدى شركة النفط المالكة للمصب ويرتبط بالتالي مع الشركة بعقد عمل ويخضع لقانون العمل في وجوه كثيرة.
- تكون المعدات المستعملة لإرشاد ناقلات النفط وربطها ملكاً للشركات النفطية بما فيها الزوارق التي تحمل ربان عمليات الرسو لاستقبال الناقلة.
- يبقى ربان عمليات الرسو على متن الناقلة منذ استقبالها في عرض البحر حتى مغادرتها المصب.
- تقتضي مؤهلات ربان عمليات الرسو اطلاعاً واسعاً على شروط المحافظة على سلامة ناقلات النفط وذلك لخطورة الغازات القابلة للاشتعال أو للانفجار في أثناء التحميل أو التفريغ.

عوامات الإرشاد

هي أجسام عائمة ذات مراسٍ تتميز بأشكال وألوان معينة وتوضع في مواقع محددة لتحذير

البحارة من الأخطار والعوائق الملاحية أو لتحديد ممرات ملاحية آمنة.

وتختلف أشكال العوامات ما بين أعمدة أو مخاريط أو جذوع أسطوانات. كما تختلف العوامات من ناحية تجهيزها فمنها ذات ناقوس وأخرى ذات صافرة أو جرس أو إشارة ضوئية معينة، ومنها ذات عاكسات رادارية. والأعمدة منها تكون من الخشب أما الأخرى فتكون من صفائح فولاذية.

أما من ناحية الاستعمال فهناك نظامان: النظام الجانبي وهو للدلالة على محاور القنوات أو الممرات حيث تحدد العوامةُ، تبعاً لشكلها أو لونها أو ترقيمها أو إشارتها الضوئية، الجهة التي يجب على السفينة أن تتحرك العوامة إليها بالنسبة إلى محور تقدمها (على الميمنة أو الميسرة). وتكون هذه العوامات موزعة بالتعاقب المتسلسل للسفينة القادمة من عرض البحر في اتجاه ممر مائي أو قناة أو مرفأ. فمثلاً تترك العوامات الحمراء على ميسرة السفينة الداخلة في ممر مائي والقادمة من عرض البحر والسوداء على ميمنتها.

أما النظام الثاني فهو الرباعي الجهات ويستعمل هذا النظام للدلالة على الأخطار الطبيعية مثل الصخور أو المياه الضحلة أو للدلالة على عوائق ملاحية مثل السفن الغارقة.

وهناك نوع من العوامات التي تفيد البحارة في التقرب بأمان من اليابسة.

هشام أورفه لي

الموضوعات ذات الصلة:

الملاحة البحرية

■ الإرشاد الزراعي

الإرشاد الزراعي vulgarisation agricole هو عمل تعليمي غير رسمي يتطلب تنفيذه تعاون أجهزة ومنظمات رسمية وخاصة تعمل جنباً إلى جنب مع الريفيين الذين يتعلمون منه، بالاقتناع وبالطرائق والمعينات الإرشادية المختلفة، كيف يحددون مشكلاتهم بدقة ويتزودون بالمعارف المناسبة والاتجاهات المرغوب فيها والمهارات الأساسية اللازمة لتطوير أنفسهم وتنمية قدراتهم ومساعدتهم على إيجاد الحلول لمشكلاتهم. فالإرشاد الزراعي إذن نظام تعليمي وإقناع وتنفيذ، يهدف إلى إحداث تغييرات سلوكية مرغوب فيها لدى الفلاحين، في معارفهم ومهاراتهم واتجاهاتهم، وهو عملية تطبيقية مستمرة، وهو أحد أركان ثلاثة هي التعليم الفني الزراعي والبحث العلمي الزراعي والإرشاد الزراعي. وترابط هذه الخدمات بصلات تبادلية اعتمادية تكاملية تزيد كل منها من فعالية الأخريين فيؤدي ذلك إلى تقدم الزراعة وتطوير الريف. وعليه فإن الإرشاد الزراعي يرمي في تطويره الريفيين إلى «زراعة أحسن وحياة أفضل وسعادة أكثر وتعليم أوفر ومواطن أصلح» وذلك عن طريق إيجاد صلة مع المزارعين وثقة متبادلة وعن طريق تعاونهم ومشاركتهم الفعالة في تخطيط البرامج الإرشادية وتنفيذها وتوافر مستلزمات القيام بالعمل الإرشادي.

الاتجاهات الرئيسة للتنظيمات الإرشادية

يوجد عالمياً منهجان رئيسان لتقديم الخدمات الإرشادية التعليمية الزراعية: «الإرشاد الزراعي الوحيد الغرض» و«تنمية المجتمع المحلي (الريفي)». أما المنهج الأول فيكون التركيز فيه على النواحي الإنتاجية الزراعية لرفع مستوى الحياة الريفية. ويميز ضمن هذا المنهج اتجاهان أساسيان: التنظيم الإرشادي التعاوني، كما في الولايات المتحدة الأمريكية، والتنظيم الإرشادي الحكومي، وفيه تشرف وزارة الزراعة على النشاط الإرشادي، كما في سورية ومصر مثلاً، وتتعدد في هذا النمط النظم وتتباين.

وأما المنهج الثاني فيكون محور الاهتمام فيه ربط النواحي الإنتاجية الزراعية بمجالات أخرى وثيقة الصلة بها كالنواحي الصحية والتعليمية والاجتماعية كما هي الحال في مصر والهند. ويتفق المنهجان في كونهما تعليميين ديمقراطيين، ويختلفان في أسلوب العمل وفلسفته وفي التنظيم. وباختصار شديد يكون الإرشاد الزراعي الوحيد الغرض أكثر صلاحاً وفاعلية في المجتمعات الفردية التي يغلب فيها الاعتماد على الفرد، أما «تنمية المجتمع المحلي الريفي» فأنسب في المجتمعات النامية المتميزة بأهمية الجماعة وقوة الروابط بين الجماعات الريفية.

اختيار المرشدين وتدريبهم

يعتمد الإرشاد الزراعي إلى حد كبير على مدى كفاية المرشدين العاملين وجهاً لوجه مع الفلاحين ومشكلاتهم الفنية والمادية والاجتماعية. ويراعى في اختيارهم تحقيق المبدأين التاليين: توافر المؤهل العلمي (إجازة عامة في العلوم الزراعية أو خاصة في الإرشاد الزراعي) وتوافر صفات معينة تتناسب مع العمل كالمنشأ الريفي، والإيمان بالعمل الإرشادي، والخبرة الطويلة والكفاية الفنية العالية وخصال شخصية محددة. ويمكن تنمية هذه الصفات وصقلها عن طريق البرامج التدريبية للمرشدين وتقسيم عملية التدريب إلى تعليم وتدريب إعدادي أساسي، وتدريب تأهيلي للخريجين الجدد، وتدريب تجديدي للمرشدين الزراعيين في أثناء الخدمة، وتدريب تخصصي أعلى.

عملية الاتصال في العمل الإرشادي

إن قدرة المرشد الزراعي على الاتصال هي التي تحتم نجاحه أو إخفاقه في القيام بالمهام الإرشادية. وعملية الاتصال هي «العملية التي يتمكن فيها شخصان أو أكثر من تبادل الأفكار والحقائق والمشاعر والانطباعات بطريقة يتمكن بها كل منهم من فهم معنى الرسالة ومضمونها فهماً مشتركاً». وتعد الكلمات وسائل الاتصال الأساسية، ويمكن زيادة فاعلية الكلمة بالاستعانة بالمعينات ولا سيما البصرية منها. وتوجد أنواع متعددة من الاتصال تبعاً للأهداف والوسائل. وتشمل عملية الاتصال العناصر التالية وهي: مصدر الاتصال (المرشد الزراعي)، والرسالة الإرشادية، وقناة الاتصال، ومعاملة الرسالة، والجمهور أو المزارعون، واستجابة الجمهور. وتقف أمام عملية الاتصال عدة موانع ثقافية أو اجتماعية أو نفسية تحول دون استقبال الجمهور للرسالة الإرشادية وفهمها وتطبيقها.

تبني الأفكار والأساليب الزراعية الحديثة

لا تنحصر مهمة الإرشاد الزراعي في إقناع الفلاحين بالمقولات العلمية الجديدة وإنما هي تتمثل في العمل الدؤوب على جعلهم يتبنونها وينفذونها فعلياً. ويتم ذلك بعمليتين مترابطتين

متداخلتين هما: عملية انتشار الفكرة وانتقالها من مصادرها الأصلية إلى المزارعين، وعملية التبني أي «العملية العقلية التي يمر فيها الفرد منذ سماعه بالفكرة الجديدة أول مرة حتى تبنيها النهائي» أي إن الفرد يمر بسلسلة من المراحل تنسجم وطبيعة الظاهرة نفسها وهي: مرحلة الوعي والتنبه، ومرحلة الاهتمام، ومرحلة التقويم العقلي، ومرحلة التجريب، ومرحلة التبني والتطبيق. وتجدر الإشارة إلى أنه لا بد من وجود مشكلة ما أو حاجة ما لدى الفرد قبل الدخول في تلك المراحل. ويتفاوت المزارعون في الأخذ بالخبرات الجديدة تبعاً للزمن النسبي لعملية التبني وتؤثر في سرعة التبني عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية وشخصية، وعوامل مرتبطة بطبيعة الخبرة الجديدة وصفاتها.

طرائق الإرشاد الزراعي ووسائله

لما كان الفلاحون غير متجانسين وكانوا متباينين في المعرفة والخبرة والمهارة، وأيضاً في نواح اقتصادية واجتماعية متعددة، فلا بد من اتباع طرائق ووسائل إرشادية مختلفة يلزم اختيارها تبعاً لموضع الفلاحين في مراحل التبني المعروفة.

وتصنف الطرائق الإرشادية اعتماداً على أساسين: نوعية الطرائق (وتشمل الطرائق السمعية، والطرائق البصرية المكتوبة، والطرائق السمعية البصرية) وعدد أفراد الجمهور الإرشادي، وهنا تُذكر: الطرائق الفردية (الزيارات الشخصية...) والطرائق الجماعية (الاجتماعات الإرشادية، الحقول الإرشادية، الأيام الحقلية) والطرائق الجماهيرية (المطبوعات الإرشادية، المعارض الزراعية، البرامج الإذاعية والتلفزيونية). وتجدر الإشارة إلى أن المعينات الإرشادية هي وسائل تستخدَم في المقام الأول حاستي السمع والبصر لتدعيم العملية التعليمية وإيصال الرسائل والمعلومات الإرشادية بكفاية عالية إلى الفلاحين. وكلما زاد عدد الحواس المستخدمة في عملية الاتصال زادت كفاية الاتصال أي زادت درجة استيعاب الفلاحين للرسالة الإرشادية وتفهمهم إياها.

القيادة الريفية

القادة في العمل الإرشادي الزراعي نوعان: القادة الفنيون الذين يقومون بخدماتهم مقابل أجر مادي، والقادة المحليون الذين يتم اختيارهم للعمل في البرامج الإرشادية من دون مقابل مادي والذين يكتفون بالارتياح والرضا لما يترتب على نتائج عملهم من تحسين للظروف المحلية والنهوض بمجتمعاتهم. ويتم اكتشافهم، تبعاً لمجموعة من الاعتبارات، بطرائق مختلفة منها المناقشة والاستبيان والاصطفاء والاستناد إلى الأقدمية والخبرات السابقة. وتعقد لهم بعد اختيارهم دورات تدريبية لتمكينهم من القيام بوظائفهم الأساسية وهي العمل على إعطاء نموذج يمكن لأعضاء الجماعة أن تقتدي به فيقومون بدور المنشطين المشجعين على قيام الجماعة بعمل معين هو تطبيق الأساليب الزراعية الحديثة.

تخطيط البرامج الإرشادية الزراعية وتنفيذها

البرنامج الإرشادي خطة مفيدة يستعين بها القائمون بالعمل الإرشادي في القرى والمزارع لتنفيذ البرنامج على الوجه الأكمل. وعملية تخطيط البرنامج الإرشادي وتنفيذه عملية مستمرة وذات طابع تعاوني ويمكن تقسيمها إلى مرحلتين رئيسيتين: مرحلة تخطيط البرنامج ومرحلة تنفيذه. أما مرحلة تخطيط البرنامج فتتضمن الخطوات التالية: تجميع الحقائق عن الوضع الراهن، وتحليل الموقف، وتحديد المشكلات والحاجات، وتحديد الأهداف ووضع البرامج. وأما مرحلة تنفيذ البرنامج فتشتمل على وضع خطة للعمل، وتنفيذ هذه الخطة، وتقرير مدى التقدم. وفي كل الحالات يكون البرنامج موضع تعديل وتطوير بناء على نتائج التطبيق والتقويم.

تقويم العمل الإرشادي ومستوياته

التقويم هو «عملية قياس التغيرات السلوكية لجمهور الإرشاد المترتبة على تنفيذ برنامج إرشادي معين ومدى تحقيق هذه التغيرات للأهداف الموضوعة، مع تقدير فاعلية الطرائق والمعينات الإرشادية المستعملة للوصول إلى هذه التغيرات، ومع قياس الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على التغيرات السلوكية للأفراد المسترشدين». وللتقويم مستويات عدة تندرج من البسيط حتى أشد المستويات تعقيداً وأكثرها دقة وموضوعية.

ويهتم الإرشاد الزراعي على العموم بتقويم المجالات التالية وهي: التنظيم الإرشادي وأهدافه، والعاملون في الإرشاد الزراعي، وعملية تخطيط البرامج الإرشادية والنتائج النهائية للبرنامج الإرشادي.

الإرشاد الزراعي في سورية

عرفت سورية أول عمل إرشادي عندما قامت مدرسة السلمية الزراعية (في محافظة حماه) عام ١٩١٠ بنشر الأساليب الزراعية وتكوين مفاهيم جديدة عن الزراعة آنذاك. وفي عام ١٩٤٧ أنشئت وزارة الزراعة بجهازيها الفني والإداري وأضحى للإرشاد الزراعي مكان في هذا التنظيم، وانحصرت مهامه في نشر المعلومات الزراعية. وفي عام ١٩٥٩ أنشئت في وزارة الزراعة مديرية للإرشاد الزراعي واستمرت في العمل حتى عام ١٩٦٧ إذ ألغيت وعدت قسماً فنياً في مديرية الشؤون الزراعية والبستنة. وقد استمر القسم المذكور حتى عام ١٩٧٨ ثم أصبح من جديد مديرية فنية مركزية تدعى مديرية الإرشاد الزراعي.

وتتكون البنية التنظيمية للإرشاد الزراعي السوري من ثلاثة مستويات أساسية: مستوى القطر، ومستوى المحافظة، ومستوى المناطق والنواحي والقرى. وتشرف مديرية الإرشاد الزراعي على الأنشطة الإرشادية كافة: الأيام الحقلية، والندوات الإرشادية، والحقول الإرشادية، والمطبوعات والمعارض الزراعية، ولقد تضمنت خطة الدولة حتى نهاية عام ١٩٨٥ إقامة ٦٠٠ وحدة إرشادية في مختلف المناطق الزراعية لتشمل خدمات كل وحدة نحو ٢٠٠٠ هكتار في الأراضي المروية و٨٠٠٠ هكتار في الأراضي المطرية. وتضم الوحدة الإرشادية ثلاثة مهندسين زراعيين ومراقباً زراعياً ومراقباً بيطرياً وعاملاً فنياً. أما البرامج الإرشادية الإذاعية والتلفزيونية فيشرف عليها الاتحاد العام للفلاحين.

وتعترض العمل الإرشادي في سورية مجموعة من المعوّقات تتعلق بالإطار الفني المدرب، والتجهيزات الفنية الزراعية والبيطرية، ووسائل الانتقال، وصغر حجم الحيازة الزراعية، والصلة بين الإرشاد الزراعي والجامعات ومراكز البحث الزاعي.

الإرشاد الزراعي في المملكة العربية السعودية

أنشئ جهاز الإرشاد الزراعي في وزارة الزراعة عام ١٩٥٦ وتقوم إدارة الإرشاد والخدمات بوضع برامج التدريب وتمثيل الوزارة وبرامجها في ميادين العمل التي تتناول إنتاج المحاصيل الزراعية والحيوانية وتسويقها، ويتم ذلك عن

طريق الوحدات الزراعية المنتشرة في أطراف المملكة. ومن أسباب الصعوبات في العمل الإرشادي تباعد القرى، ووعورة الطرق، وصعوبة إقناع المزارعين بتطوير أساليبهم الزراعية، وعدم تدريب المرشدين قبل العمل وفي أثنائه، وكذلك عدم تدخل الإرشاد في مجالات أعمال الشباب والمرأة في الريف.

الإرشاد الزراعي في مصر

أنشئت في وزارة الزراعة عام ١٩٥٣ إدارة عامة للإرشاد الزراعي، تقوم بمهمة الإرشاد في معظم الميادين الإنتاجية الزراعية والحيوانية (ماعدا النواحي البيطرية). ويتكون الهيكل التنظيمي والإداري للجهاز من ثلاثة مستويات: الجمهورية، والمحافظة، والمركز. وإضافة إلى جهاز الإرشاد الزراعي يوجد في مصر منهج آخر لتنمية المجتمع الريفي مكون من «المراكز الاجتماعية والوحدات المجمعة» التي يتركز اهتمامها على النواحي الاجتماعية والتعليمية والصحية والزراعية بقصد رفع مستوى الريفيين المعاشي. وتعترض العمل الإرشادي جملة صعوبات تتصل إما بالخصائص المميزة للسكان الريفيين وإما بهيكلية الإنتاج الزراعي، إضافة إلى مشكلات أخرى تتعلق بالبنية التنظيمية للجهاز الإرشادي وكيفية أدائه وظائفه.

اسكندر إسماعيل

الموضوعات ذات الصلة:

الاقتصاد الزراعي.

مراجع للاستزادة:

ـ أحمد السيد العادلي، أساسيات علم الإرشاد الزراعي، (مطبعة الجاحظ، دمشق ١٩٨١).

ـ حسين زكي الخولي، الإرشاد الزراعي: دوره في تطوير الريف، (دار المعارف بمصر ١٩٦٨).

■ الإرشاد النفسي (علم-)

علم الإرشاد النفسي counseling psychology هو واحد من فروع علم النفس [ر]، ومحوره عملية الإرشاد النفسي وبها يُعرف ويعرّف. وفي تحديد هذه العملية عدة تعريفات ينحو بعضها منحى الاختصار ويأخذ بعضها الآخر بالتفصيل. بين التعريفات المختصرة مايقول: إن الإرشاد النفسي علاقة يحاول فيها شخص مساعدة آخر في فهم نفسه وحلّ مشكلات تكيّف لديه. وبين التعريفات الآخذة بالتفصيل مايذكر أن الإرشاد النفسي عملية منظمة تعتمد على علاقة تفاعل وثقة بين قطبين المرشد النفسي المؤهل علمياً للقيام بالعملية، والمسترشد وهو شخص سويّ لديه صعوبة نفسية ويحتاج إلى المساعدة، ويكون هدف العملية توفير ظروف المساعدة ليصل المسترشد إلى حلّ مثمر لصعوبته وفهم أفضل لنفسه.

ولعملية الإرشاد هذه شروطها وأساليبها، وفي جملة ماتشمله مقابلة تجمع بين المرشد والمسترشد في إطار معين، وإجراء يقوم به المرشد يستهدف الحصول على معلومات متكاملة عن المسترشد، واستخدام لأسلوب الحديث أو الحوار في سعي الإرشاد نحو بلوغ أغراضه.

والمرشد النفسي شخص مؤهل علمياً تتوافر فيه شروط شخصية وعلمية معينة، والغالب أنه يعمل وحده مع المسترشد في عملية الإرشاد، ولكن يحدث في حالات نادرة أن يكون معه زميل له. أما المسترشد فشخص يعاني من مشكلة نفسية تقع في فئة المشكلات التي يتصدى لها المرشد والتي تكون عادة من درجة في الشدة والتعقيد تقلّ عما يستدعي اللجوء إلى المعالج النفسي clinical psychologist أو الطبيب النفسي psychiatrist. ويحدث أن يكون الإرشاد فردياً، في حالات، ويكون المسترشد فرداً واحداً، ويحدث، في حالات أخرى، أن يكون الإرشاد جمعياً أو جماعياً يضم مع المرشد عدداً من المسترشدين يقع مابين ٣ـ٧ أشخاص على الأكثر.

إن هذه العملية ومايتصل بها من الموضوعات هي مايتناوله علم الإرشاد النفسي. وتحتل مهنة الإرشاد النفسي مكانة مهمة في مجالات الخدمات النفسية بسبب من المساعدة التي توفرها للأشخاص الذين يحتاجون إلى مثل هذه المساعدة.

إن التلميذ الذي يغلب عليه الانعزال في ساحة اللعب بالمدرسة الابتدائية محروم، في حاله هذه، من إشباع الدافع إلى اللعب مع الآخرين، وهو بذلك محتاج إلى المساعدة ليتغلب على هذه الصعوبة التي يحتمل فيها أن تتطور فتؤذي تكوينه النفسي وتوجهه نحو الانحراف. ومثل هذا الأمر يقال في ابن السادسة عشرة الذي تبدو لديه مظاهر التعاسة والألم وهو يعبر عن افتقاره إلى الأصدقاء، وفي العامل الذي غدا سلوكه غير مستقر بسبب من شعوره بالضيق في عمله، وفي زوجين أمسيا يشعران بتكرار حدوث مشكلات بينهما تحرمهما معاً من التمتع بسعادة الحياة الزوجية وذلك بعد أن كان الحب هو الأساس في العلاقة بينهما. إن هؤلاء وأمثالهم بحاجة إلى المساعدة العلمية الموزونة التي يوفرها الإرشاد النفسي، وإن الدراسات التي تهتم بنسبة وجود مثل هذه الحالات، وماهو من أنواعها، عند الناس تضعها في حدود تقع مابين ١٠ـ٢٠٪ من أفراد المجتمع.

لمحة تاريخية

يكثر وجود النصح في المجتمعات الإنسانية، ويغلب أن يكون موجهاً من ذي خبرة واسعة أو مكانة مرموقة إلى ناشئ أو راشد يواجه مشكلة يحتاج معهما إلى المساعدة. وفي النصح تقديم معلومات ومواعظ أحياناً، وفيه تقديم الحلول حول مشكلات قائمة. إلا أن الإرشاد النفسي لا يقدم النصح أو الموعظة، بل يوفر الفرص للمسترشد، ليهتدي بنفسه إلى الحلول لمشكلات قائمة لديه وليصل إلى فهم أفضل لنفسه بمساعدة من المرشد. والمرشد لايقدم المعلومات إلى المسترشد لتكون نموذجاً يحتذى به، بل إنه يسعى إلى أن يكوّن المسترشد قناعات جديدة انطلاقاً من معارفه القديمة ومن المعلومات الجديدة التي تتوافر له، وتكون هذه القناعات الجديدة الأساس الذي يعتمده في الوصول إلى حلول لمشكلاته وفهم أفضل لنفسه.

والنصح إجراء إنساني وجد منذ الحضارات القديمة وقد ارتبط بمكانة الكبار في حالات، والاعتقادات الدينية والاجتهادات الفلسفية والفكرية، في حالات أخرى. وكثيراً ماتشاهد أمثلة متنوعة منه في الفكر الفلسفي والحركات الإنسانية في الحضارة العربية الإسلامية وحضارات أخرى في القرون الوسطى والعصر الحديث، وذلك إلى جانب الأمثلة في مجرى الحياة الاجتماعية اليومية.

أما الإرشاد النفسي فموضوع علم حديث

نشأ وترعرع أولاً في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم انتشر الاهتمام به بسرعة في أقطار كثيرة من العالم. والمعروف أن مطلع الخمسينات شهد، في الولايات المتحدة، ظهور الإرشاد النفسي وظيفة مدنية ومهنة، وأن عدد العاملين في هذا الميدان في تلك الولايات غدا مرتفعاً. وتدل البحوث على أن هذا العدد تجاوز خمسين ألفاً قبل حلول عام ١٩٨٠. ومن يطالع أمور مؤسسات التربية في الوقت الحاضر، ومؤسسات العمل، وعيادات الإرشاد النفسي، يشهد في الكثير من أقطار العالم، وبينها الأقطار العربية، اتساع رقعة الاهتمام بالإرشاد النفسي في الجامعات وازدياد عدد العاملين المؤهلين الذين يتخذونه مهنة لهم، كما يشهد انتشار جمعيات الإرشاد النفسي وتعدد المجلات العلمية المتخصصة بنشر البحوث المتصلة به.

أما العوامل التي تدخلت في نشوء هذا العلم ووجود هذه المهنة فكثيرة، ومنها: زيادة الاهتمام بالإنسان، ولاسيما بعد الحرب العالمية الثانية، وانتشار حركة التوجيه المهني [ر] في الأربعينات، وحركات الصحة النفسية [ر]، والتطور في إنجازات القياس النفسي [ر]، والمشكلات التي خلفتها الأزمات الاقتصادية بدءاً من الثلاثينات، والنزوع في العالم إلى العلم وطرائقه وإنجازاته، والاهتمام بأساليب وقاية الإنسان من الانحراف، والعناية بجنوح الأحداث والإدمان، والتطور الواسع الذي مرت به الدراسات النفسية.

مجالات عمل المرشد النفسي ووظائفه

يشمل إعداد المرشد النفسي دراسة جامعية في مجالات علم النفس والقياس ودراسة المجتمع في مستوى الشهادة الجامعية الأولى. ويلتحق بهذه الدراسة عادة من يتوافر لديه مستوى جيد من الصفات العقلية والأخلاقية والاهتمامات الإنسانية. ثم يتابع الراغب في التخصص دراسات عالية يرافقها نظام تدريب تنتهي بدرجة علمية عالية يتوقف نوعها ومستواها على درجة تطور ممارسة مهنة الإرشاد النفسي في القطر الذي ينوي المتخرج العمل فيه.

أما مجالات عمل المرشد النفسي فكثيرة، وفي مقدمتها المؤسسات التربوية والجامعات ومؤسسات العمل. فالمشكلات لدى تلامذة المدارس متعددة أكانوا في مدارس التربية الخاصة [ر] أم في غيرها، أكانوا من المعوقين أم المتفوقين أم كانوا من العاديين المتوسطين الأسوياء. ومن المعروف بين العاملين في التربية والمهتمين بتنشئة الأولاد أن المدرسة لا تصل إلى تحقيق أهدافها التربوية في حال الكثير من التلامذة إلا بمساعدة من المرشد النفسي فيها. وفي الجامعات حاجة كبيرة لجهود المرشد النفسي ولاسيما حين يكثر عدد الطلاب الذين يتخبطون في دراستهم، أو يتكرر تقصيرهم، أو تضايقهم مشكلات العلاقة مع الآخرين أو مشكلات المستقبل والعمل والزواج.

ثم إن مؤسسات العمل توفر مجالاً واسعاً ليمارس المرشد النفسي مهنته، ولا سيما حين تكون المؤسسة كبيرة وحين تسعى نحو مزيد من التطور وتحسين وسائل الإنتاج، وعندما تواجه الآلة العامل في مجال عمله بالكثير من الصعوبات والضغط. وهناك مجالان آخران واسعان يقعان كذلك في المقدمة من مجالات عمل المرشد النفسي وهما: العمل في عيادة خاصة لإرشاد الأفراد والأسر، والعمل المتعلق برعاية المجرمين والمدمنين والأحداث الجانحين المتصل بمؤسسات مرتبطة بالقضاء أو الجمعيات الخيرية.

فإذا عمل المرشد النفسي في مؤسسة تربوية أو صناعية أو مؤسسة خدمات اجتماعية أو غيرها، فإن عمله لا يقتصر على توفير الإرشاد النفسي لمن يحتاجه في المؤسسة، بل تمتد مسؤولياته إلى ماوراء ذلك لتشمل الإطار والظروف التي تحيط بالأفراد الذين يعتني بهم. إنه يقدم المساعدة في تطوير نظام المدرسة ومناهجها وظروف العمل والتدريس فيها سعياً وراء توفير مزيد من شروط الوقاية، وكثيراً مايغدو مشاوراً للمدرسة وأولياء التلامذة فيما يتصل بأولادهم. أما في مؤسسات العمل والخدمات الاجتماعية فإن مسؤولياته تمتد لتشمل عمليات القياس النفسي الضرورية، وعمليات الاختيار المهني المتصلة بالأشخاص وتوظيفهم أو توجيههم في مجالات العمل المستقبلي. وينطلق الأساس في هذه المسؤوليات من الاعتراف بأثر الشروط المحيطية في تكيّف الأفراد ووقايتهم وتكوّن المشكلات النفسية لديهم.

أساليب الإرشاد النفسي

الأساليب التي يأخذ بها العاملون في الإرشاد النفسي متعددة، ولكل أسلوب وجهه النظري الذي تعبّر عنه الأسس العلمية التي ينطلق الأسلوب منها، ووجهه العملي أو الإجرائي الذي يبدو في طريقة السير في عملية الإرشاد وتوفير شروطها. وقد يأخذ البحث العلمي في هذه الأساليب بمنحى وضعها في فئات مثل القول بالأساليب السلوكية والأساليب الإنسانية، وقد يذكرها إفرادياً مثل القول بأسلوب الإرشاد المعقود أو المرتكز على المرشد client- centered counseling وأسلوب الإرشاد العقلي الانفعالي rational- emotive counseling.

وبين أساليب الإرشاد المتعددة اختلافات يغلب أن تنطلق من النظر إلى طبيعة الشخصية والنظر إلى تكون السلوك لدى الإنسان وطرائق تغير هذا السلوك. ولكن بين هذه الأساليب نقاط اتفاق متعددة تقع في مقدمتها الأمور التالية:

- أن يتم الإرشاد النفسي، الفردي أو الجماعي، في موقف مقابلة تجمع بين الطرفين، المرشد والمسترشد (أو المسترشدين)، ضمن إطار محيطي مناسب، وأن يكون التخاطب أساساً في الإرشاد، وأن يتم الاعتماد على جو الثقة بين الطرفين لجعل إسهام المسترشد إسهاماً جيداً في عملية الإرشاد.
- أن تسير عملية الإرشاد معتمدة باستمرار على الأساس القائل إن المرشد يساعد المسترشد على الوصول إلى حل لمشكلته عن طريق الحوار ولكنه لا يقدم له الحل. ثم إن الحوار لا ينطوي على ممارسة أي إكراه ليأخذ المسترشد بقناعة يريدها له المرشد. ويضاف إلى ذلك أن سير العملية يستهدف باستمرار كذلك أن يصل المسترشد إلى فهم أفضل لنفسه: لإمكاناته وخبرته وقناعاته واتجاهاته.
- أن يكون الانطلاق في عملية الإرشاد من النظر إلى المسترشد على أنه ليس إنساناً مريضاً، بل هو إنسان يعاني من سلوك فيه بعض الاضطراب أو الخطأ، ويكون هدف العملية إحداث تغيير أو تعديل في ذلك السلوك ليغدو سليماً.
- أن توظّف المعلومات التي يحصل عليها المرشد عن المسترشد توظيفاً جيداً في سير عملية الإرشاد لتحقيق مزيد من فهم المسترشد لنفسه، ومزيد من فهم المرشد لتكوين المسترشد، ومزيد من الثقة بين الطرفين، ومزيد من عمق شعور المرشد بمشكلة المسترشد ومعاناته.

إن هذه النقاط الأربع تقع في مقدمة ماتتفق حوله، أو تشترك فيه، أساليب الإرشاد النفسي المختلفة. ولكن هناك عدداً من النقاط الأخرى التي يكون الإجماع عليها بين أساليب الإرشاد النفسي أقل مما هو الأمر في حال النقاط الأربع المذكورة. على أن من اللازم القول هنا إن العاملين في الإرشاد النفسي يسعون باستمرار نحو التحسين فيما يأخذون به، وذلك عن طريق مزيد من البحث العلمي المتصل بجوانب الإرشاد المختلفة.

إن الإرشاد النفسي علم ناشئ ومهنة حديثة، وهو يهتم بمشكلات معينة يمر بها بعض الأفراد. ويحدث في حالات متعددة أن يكون موضع نقد، من حيث هو علم ومن حيث هو مهنة وتطبيق. ويذهب النقد إلى أن الإرشاد لا يصل إلى أغراضه دائماً، وأنه مع كل مايقوله عن نفسه، ينطوي على توجيه أو إقناع أو تدخل في حياة الأفراد الذين يقدم لهم المساعدة. ولكن الإرشاد النفسي يدافع عن نفسه عن طريق التزامه أخلاق المهنة، وأهدافه العلمية، وحدود القانون الذي يرسم وظائفه ومسؤوليات المتخصص، وعن طريق النتائج التي يحققها في مساعدة الأفراد، وكذلك عن طريق سعيه الدؤوب وراء مزيد من البحث العلمي المتجه نحو جوانب الإرشاد النفسي المتنوعة. وبتطور التقنيات للإرشاد عن بعد بالهاتف والبريد الإلكتروني قد يصبح الإرشاد النفسي أكثر موثوقية وصحة.

نعيم الرفاعي

الموضوعات ذات الصلة:

جنوح الأحداث - الشذوذ النفسي (علم-) - الطب النفسي - العلاج النفسي (علم-).

مراجع للاستزادة:

- حامد عبد السلام زهران، التوجيه والإرشاد النفسي (عالم الكتب، القاهرة ١٩٧٧).

-BRUCE SHERTZER &SHELLEY C. STONE, Fundamentals of Counseling (Houghton Mifflin Company, 3rd ed., Boston 1980).

-GARY S. BELKIN, Contemporary Psychotherapies (Brooks Cole Publishing Co., California 1987).

■ الأرشاقيون ← الفرثيون

■ أرشيبنكو (ألكسندر-)
(١٨٨٧-١٩٦٤)

ألكسندر أرشيبنكو Alexander Archipenko نحات أمريكي من أصل روسي. ولد في كييف Kiev ودرس التصوير والنحت في مدرسة كييف للفن بين عامي ١٩٠٢ و١٩٠٥، وتابع دراسته في موسكو حتى عام ١٩٠٨. ثم رحل إلى باريس، والتحق بمدرسة الفنون الجميلة، وخصص جل جهده لدراسة الأعمال المهمة في المتاحف.

أقام أول معرض له في برلين، عام ١٩١٠، وعرف في الوقت ذاته التكعيبية [ر] وطبق أفكارها في منحوتاته، مستخدماً مواد شفافة وأشكالاً مقعرة تارة ومحدبة تارة أخرى.

أسس عام ١٩١٢ مدرسة للفن في باريس، وعرض إنتاجه الجديد مع جماعة التكعيبيين وجماعة القطاع الذهبي Section d'or. ومن أعمال هذه الحقبة: «تمثال امرأة» (١٩١٢)، و«امرأة تسرح شعرها» (١٩١٥)، ويدلان على اتجاهه المبتكر في معالجة الكتلة، وميله للحجوم الهندسية. ومن أعماله كذلك منحوتة هندسية (١٩١٣) ورأس مبني بتقاطع السطوح (١٩١٣).

عرضت أعماله مراراً في أوربة في عام ١٩١٩. وفي عام ١٩٢١ افتتح مدرسة للفن في برلين، وأسس مدرسة مماثلة في نيويورك عام ١٩٢٣. اكتسب أرشيبنكو الجنسية الأمريكية وقام بالتدريس في جامعة واشنطن في عامي ١٩٣٥ و١٩٣٦، ثم انضم في الولايات المتحدة، إلى موهولي ناغي [ر] Moholy Nagy في حركة الباوهاوس الجديدة [ر] New Bauhaus.

أقام أرشيبنكو ما ينوف على مئة معرض، كان آخرها المعرض الشامل في ميونيخ عام ١٩٦٤. وتوزعت أعماله في الكثير من متاحف العالم ومن هذه الأعمال «مباراة الملاكمة» و«شخص واقف» و«ميدرانو».

يحتل ألكسندر أرشيبنكو مكانة مرموقة في مسيرة الفن المعاصر، ويُعدّ من أوائل النحاتين التجريبيين، وأحد أكثر المعلمين تأثيراً في فن النحت الحديث.



مدرانو، نحت بارز ملون
(متحف غوغنهايم في نيويورك)

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الباهاوس الجديدة - التكعيبية.

مراجع للاستزادة:

-M. SEUPHOR, The Sculpture Of This Century (New York 1960).

■ الأرصاد الجوية (علم-)

علـم الأرصـاد الجـويـة meteorology هـو بالتحديد «علم الظواهر الجوية»، أو «علم الانواء»، ويمكن القول إنه علـم فيـزيـاء الجـو، لاهتـمـامه بـدراسـة فيـزيـائيـة الجـو وحـركيـتـه وكيـمـياويته، ومـا يـتـولـد عـن ذلـك من أنمـاط وأشكال مختلفة من الحالات الجوية المترددة على هذا المكان أو ذاك في زمن معين.

وقديماً حدد أرسطو عام ٣٥٠ق.م في كتابه «ميتيورلوجيكا» Meteorologica مجال اهتمام هذا العلم بدراسة الظواهر الجوية وتبدلاتها التي تؤثر في حياة النبات والحيوان بعد الإنسان، والتي تتم في نطاق الغلاف الجوي المحيط بالكرة الأرضية.

وإذا كان غلاف الأرض الجوي يمتد حتى قرابة ١٠٠٠كم، فإن علم الأرصاد الجوية لم يبلغ في معالجته العلمية ذلك المدى الشاسع، وإنما اقتصرعلى الجزء من ذلك الغلاف الذي تترك فيه الظواهر الجوية آثارها على سطح الأرض بوجه مباشر أو غير مباشر. على أن تحليق بعض السواتل الصنعية الرصدية قد تم فوق ارتفاعات عالية وقدم الكثير من المعلومات عن الأجزاء العليا من الغلاف الجوي. وقد تطور ذلك الجزء الذي يوليه علم الأرصاد الجوية اهتمامه مع تطور وسائل رصد الاجزاء العليا من الجو وطرائقه، والكشف عن العلاقات بين مايجري من ظواهر جوية عند السطح، ومايحدث من حركات جوية في الأجزاء المرتفعة، ولا سيما في طبقة الستراتوسفير، وما يحدث من تغيرات في كيمياوية تلك الطبقة وما فوقها. ذلك أن ٠,٩ من كتلة الجو تتركز في الكيلومترات الستة عشر الاولى القريبة إلى سطح الأرض، في حين يتركز ٠,٩٩ من كتلة الجو دون ٣٥كم.

وهكذا يتبين أن المجال الذي يحظى باهتمام علم الأرصاد يكاد يتحدد بطبقتي التروبوسفير والستراتوسفير (سماكة ٥٥كم تقريباً)، وخاصة طبقة التروبوسفير (السطح ١٢كم وسطياً).

ولا يتوقف علم الأرصاد الجوية عند إظهار حركية الجو وخصائصه الفيزيائية والكيمياوية، بل يتعدى ذلك إلى الكشف عن أنماط الجو وظواهره المتكررة في الزمان والمكان، وتحديد قيمها، وتفسير آلية نشاتها وتطورها، وتقدير ماستؤول إليه الاحوال الجوية في المستقبل، فالتنبوء الجوي اليوم جزء أساسي من اهتمامات علم الأرصاد الجوية. ولا يمكن عزل هذا العلم عن المناحي الحياتية المختلفة على سطح الأرض، لما تؤدي إليه أحوال الجو الآنية (الطقس) من تأثيرات مباشرة في النبات والحيوان والإنسان. ولهذا كله انتشر فوق سطح الأرض الكثير من محطات الرصد الجوي المتنوعة الأغراض التي تقوم بقياسات لمختلف عناصر الطقس: درجة الحرارة والرطوبة، والضغط الجوي والرياح والتهطال والتغطية بالسحب وأنواعها والرؤية والتبخر وغيرها.

أقسام علم الأرصاد الجوية ومجالاته

إن مجالات علم الأرصاد الجوية واسعة ومتشعبة. ويؤلف كل مجال من مجالاته فرعاً من فروع هذا العلم، ويمكن تمييز خمسة أقسام رئيسة لهذا العلم، هي الآتية:

علم الأرصاد الجوية الطبيعي: يُعنى علم الأرصاد الجوية الطبيعي physical meteorology بدراسة الجو وتركيبه، وانتقال الإشعاع الكهرمغنطيسي والأمواج الصوتية في الجو، وإظهار العمليات الطبيعية التي تتدخل في تشكل السحب وتطورها، وحدوث التهطال وآليته، والظواهر الكهربائية الجوية، وما يتعلق بمسائل أخرى خاصة بفيزياء الجو وكيمياويته.

علم الأرصاد الشمولي (الإجمالي): ويهتم علم الأرصاد الشمولي synoptic meteorology بدراسة الحركات الجوية وتحليلها بمقاييس كبيرة، بغية تحديد سلوك الجو، وللتنبؤ بالتطورات المقبلة في الأحوال الجوية. والتنبؤات الجوية من الاهتمامات الرئيسة لهذا العلم الذي تعود بداية ظهوره إلى منتصف القرن التاسع عشر، وتعزز موقعه منذ أوائل الخمسينيات من القرن العشرين لازدياد كثافة محطات الرصد الشمولية (السينوبتية) ولاستخدام تقنيات متطورة في سبر الجو رأسياً، وفي تبادل المعلومات وتحليلها، وغير ذلك.

علم الأرصاد الدينامي (التحريكي): يهتم علم الأرصاد الدينامي dynamic meteorology بدراسة العمليات الترمودينامية الاساسية التي تحدد حركات الهواء، والظواهر الناتجة عنها، كما يدرس النماذج العددية لإظهار العمليات الجوية، والتنبؤ العددي عن الطقس الذي تطور منذ أواخر الأربعينات من القرن العشرين، ويشمل هذا العلم الحوكات الجوية من مختلف المقاييس، ومن ذلك الأنظمة الصغيرة المقياس والمتوسطة. ولقد تضاءلت اليوم الفروق بين علمي الأرصاد الشمولي والدينامي، لازدياد استخدام علم الأرصاد الشمولي القوانين الناظمة لحركة الجو واعتماده كثيراً على المنهج التحليلي.

علم الأرصاد المكروي: يهتم علم الأرصاد المكروي micrometeorology بدراسة الجزء الأسفل من الجو القريب إلى سطح الأرض، من مستوى ذلك السطح حتى ارتفاع بضعة أمتار.

علم الأرصاد التطبيقي: يهتم علم الأرصاد التطبيقي applied meteorology بدراسة الآثار الناتجة من فعل الظواهر الجوية المتعددة في الجوانب البيئية المختلفة، وتقديم الخدمات الممكنة بغية الحد والتخفيف قدر الإمكان من الآثار السلبية للظواهر الجوية، مما جعل لهذا العلم عدة فروع منها: الأرصاد الجوية الزراعية والأرصاد الجوية للملاحة الجوية، والأرصاد الجوية للملاحة البحرية، والأرصاد الجوية العسكرية، والأرصاد الجوية الطبية وغيرها.

تاريخ علم الأرصاد الجوية

مع أن السجلات القديمة أعطت بعض الملامح عن معرفة الجو وأحواله، كما جاء في بعض أشعار الإغريق وكتابات العهد القديم، وماعثر عليه أيضاً في بلاد مابين النهرين، فإن مفهوم الطقس weather لم تتضح معالمه العلمية إلا في القرن الخامس قبل الميلاد، إذ أعد هيرودت Herodote عام ٤٤٠ق.م كتاباً بعنوان «تاريخ الطقس والرياح الموسمية»، يذكر فيه أن إعصاراً مصحوباً بوابل مر على طيبة بمصر فدمر الكثير من مبانيها. ويعد كتاب أبقراط Hippocrate عام ٤٠٠ق.م بعنوان «الهواء، الماء، والمكان» أول كتاب يصف أحوال الجو. ويعتقد أن أول كتاب في الأرصاد الجوية هو كتاب أرسطو ـ السابق ذكره ـ. وقد أتيح للدولة الإسلامية في أوج ازدهارها معرفة الكثير عن الاحوال الجوية في المناطق المختلفة، وظهر عدد من العلماء الذين تطرقوا إلى ذلك (المسعودي والبيروني وابن خلدون وإخوان الصفا). كما ساعد اشتغال العرب بالتجارة البحرية في بحر العرب والمحيطالهندي على مراقبة الدورة العامة للغلاف الجوي فوق المحيط الهندي، والرياح الموسمية.

غير أن الأرصاد الجوية بوصفها علماً لم تتبلور إلا بعد أن أعدت أجهزة القياس لترصد قيم الظواهر الجوية وتغيراتها. ومن المحتمل أن

تكون المجتمعات الزراعية في عصور ما قبل التاريخ قد عرفت قياس المطر بمقاييس أولية بسيطة، كما حدث في الهند في القرن الرابع قبل الميلاد. والمقياس الآخر الذي استخدم قديماً هو دوارة الرياح wind vane. وقد بقي علم الأرصاد الجوية، منذ أن وضع أرسطو كتابه حتى اختراع أجهزة القياس الأساسية يعتمد الوصف والتخمين والمقارنة أحياناً، ليصبح منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي علماً فيزيائياً حقيقياً. ففي عام ١٥٩٣ اخترع غاليليو Galileo ميزان الحرارة. وفي عام ١٦٤٣ اخترع توريشلي E.Torricelli مقياس الضغط الجوي (البارومتر الزئبقي). وفي عام ١٦٤٨ أوضح باسكال أن ارتفاع الزئبق في أنبوبة مقياس الضغط يتغير بحسب ارتفاع المكان عن سطح البحر. وقد مكن هذان الاختراعان من إنشاء الكثير من المراصد الجوية في أوربة. وأعطى علم الأرصاد الجوية دفعاً إلى الأمام، العالم البريطاني روبرت بويل R. Boyle بقانونه الشهير عام ١٦٢٢م، الذي أرسى الأسس الأولى لمبادئ التحريك الحراري (الترمودينامية) في دراسة الغلاف الجوي، إذ أظهر العلاقة بين الضغط وحجم الغاز ودرجة الحرارة. وفي عام ١٧٨٣ اخترع دوسوسور Horace Bénédict De Saussure مقياس الرطوبة الشعري. وبعد ذلك بنحو سبع سنوات - أي عام ١٧٩٠ - تم اختراع مقياس سرعة الرياح (الأنيمومتر) anemometer.

ويعد العالم الألماني دوفي Dove أول من وضع في عام ١٨٢٧ مفهوم علم الأرصاد الشمولي (السينوبتي). وفي عام ١٨٣٥ أثبت عالم الفيزياء الفرنسي غاسبار كوريوليس G. Coriolis رياضياً تأثير دوران الأرض في حركة الهواء، وبرهن على ذلك وأكده الأمريكي وليم فريل W. Ferrel عام ١٨٥٦.

وفي عام ١٨٢٠ حاول هينريش ويلهلم براندیس Heinrich Wilhelm Brandes وضع أول خريطة للطقس بتجميع الرصدات المأخوذة في أوربة ليوم ٦ آذار عام ١٧٨٣، غير أن فقدان الاتصالات السريعة حال دون استعمال الرصدات الآنية في مجال التنبؤ بالطقس، ولكن بعد انتشار البرق الكهرمغنطيسي عام ١٨٤٨ حلت هذه المشكلة، وكان ذلك بداية لعلم الأرصاد الحديث، وظهور أسلوب جديد من الدراسة القائم على البحث عن العلاقة بين الطقس وأنماط الضغط عند مستوى سطح البحر. وفي عام ١٨٥٧ وضع بويز بالوت Buys Ballot قانونه الذي ينظم العلاقة بين قوة تدرج الضغط وقوة كوريوليس.

ومع أن التنبؤات بالطقس موجودة منذ أواخر القرن التاسع عشر، إلا أن معطيات رصد الطقس والتنبؤ به كانت متواضعة، إذ لم تكن قد تبلورت بعد المفاهيم الأساسية الناظمة للحركات الجوية. وفي نهاية العقد الثاني وبداية العقد الثالث من القرن العشرين حدثت تطورات كبيرة في علم الأرصاد الجوية، بتطبيق مبادئ الهيدروديناميك في تحليل مصورات الطقس من قبل النروجي بيركنز Wilhelm Bjerkens وزملائه سولبرغ Solberg وبيرجيرون Bergeron وجاكوب بيركنز J. Bjerkness الذين طوروا عدداً من النماذج الجوية المهمة، ووضعوا نظرية الجبهة القطبية لتشكل المنخفضات الجوية في العروض الجغرافية الوسطى، وبذلك تكون الخطوط العامة لأسس علم الأرصاد الديناميكي قد توضحت، لتصبح التنبؤات الجوية أكثر دقة من ذي قبل مع استمرار الاعتماد على الحركات الجوية السطحية. وفي عام ١٩٢٢ تمت أولى محاولات استخدام التنبؤ العددي بالطقس من قبل البريطاني ريتشاردسون L. Richardson غير أن النتائج لم تكن مشجعة، لكنها كانت بداية خطوة أعطت ثمارها عند دخول الحاسوب مجال الأرصاد الجوية. وفي الأربعينات وأوائل الخمسينات برزت مجموعة من علماء الأرصاد الجوية، منهم عالم الأرصاد السويدي الشهير روسبي Rossby، وزميله بالمين E. Palmen، إذ وضع كل منهما نموذجاً لنظام الحركة الجوية العامة.

التطورات الحديثة في علم الأرصاد الجوية

تبلورت في منتصف القرن العشرين معظم الأسس النظرية والتجريبية لعلم الأرصاد الجوية بفروعه المختلفة. وقبل منتصف الثلاثينات من القرن العشرين كانت معرفة الأحوال الجوية في الأجزاء العليا من الجو محدودة، لعدم توافر الوسائل الممكنة لسبر تلك الأجزاء، والتي لم تكن تتعدى في البداية بعض الطائرات الورقية (١٨٩٠-١٩٢٥) والطائرات العادية بعد عام ١٩٢٥، والبالونات (المناطيد العادية) منذ عام ١٨٩٢. وقد أحدث دخول المسبار اللاسلكي «الراديو سوند» radiosonde منذ عام ١٩٣٧ عالم سبر الجو رأسياً وقياس درجة الحرارة والرطوبة والضغط الجوي وتحديد اتجاه الرياح وسرعتها، ثورةً في علم الأرصاد الجوية، إذ مكن العلماء من معرفة الأحوال الجوية السائدة في كل سوية من سويات الجو حتى علو يقارب ٣٥كم. وقد أسهم جهاز الرادار أيضاً إسهاماً فعالاً في دراسة الكثير من الظواهر الجوية، وتحديد وجهتها وحركاتها. ومع أن الطيران النفاث منذ دخوله الأجواء العالمية في الخمسينات من القرن العشرين، قد قدم معلومات وفيرة عن الجو وأحواله لسماكة تزيد على عشرة كيلومترات، وكذلك الحال في صواريخ الطقس التي فاقت في ارتفاعها (٢٥-٤٨كم) مستوى المسبار اللاسلكي، فإنه كان لدخول السواتل مجال الأرصاد الجوية الدور الأكبر في معرفة خصائص أكبر ثخانة من جو الأرض (تراوح بين ٧٠٠كم للسواتل الدائرة الطولانية أو ما يعرف بالسواتل القطبية polar satellites، و٣٦ ألف كم للسواتل شبه الثابتة geostationary satellites).

ويعد الساتل الرصدي الأمريكي تيروس-١، Tiros-1 الذي أطلق في الأول من شهر نيسان عام ١٩٦٠ أول ساتل لخدمة الأرصاد الجوية، تلاه بعد ذلك سلسلة من سواتل الرصد الأمريكية (تيروس Tiros ونيمبوس Nimbus وإيسا Essa ونُوى Nooa وجويس Goes)، والسوفييتية (كوزموس وميتيور وغومس GOMS) وغيرها من السواتل، بينها الأوربي (ميتيوسات Meteosat) والياباني (ج.م.س GMS). ومن التقنيات الحديثة التي أدت إلى تطور علم الأرصاد الجوية، ولاسيما في مجال التنبؤ الجوي، الحاسوب. كذلك ساعد ازدياد كثافة شبكة محطات الرصد الجوي في العالم وتطور وسائل الاتصال وتبادل المعلومات، على إعطاء دفع للتنبؤات الجوية، وتوفير مزيد من معرفة الجو وأحواله.

وكان للمنظمة العالمية للأرصاد الجوية (W.M.O) التابعة للأمم المتحدة، والتي مقرها مدينة جنيف (سويسرة) فضل كبير في التطورات الحديثة في مجال الأرصاد الجوية، دورها المهم في تنسيق عمليات الرصد الجوي، وشبكات محطات الرصد في العالم وتطوير بحوث مجال الأرصاد الجوية والأسس الرياضية والفيزيائية الناظمة للحركات الجوية واختبارها،

وعمليات التنبؤ الجوي والتوسع في الدراسات التطبيقية لعلم الأرصاد الجوية، وتطوير مراكز الأرصاد الجوية، وتدريب عناصرها الفنية، وتسهيل عمليات تبادل المعلومات الرصدية.

علاقة علم الأرصاد الجوية بالعلوم الأخرى

يرتبط علم الأرصاد الجوية ارتباطاً وثيقاً بعلم الفيزياء، وله علاقة بالكيمياء، وبالعلوم الرياضية والإحصائية لما تقوم به القوانين الرياضية الأساسية من دور في تطوير مفاهيم علم الأرصاد الجوية. وإذا كان علم المناخ أحد فروع علم الأرصاد الجوية - بحسب رأي بعض العلماء لأن لهما بداية واحدة اعتماداً على الوصف والمقارنة - فإن تقدم وسائل القياس وتطور المفاهيم النظرية الناظمة للحركات الجوية، أتاح لعلم الأرصاد الجوية أن يركز على الخصائص العامة للجو اعتماداً على ماتقدمه القياسات السطحية والعلوية لمختلف عناصر الطقس، وعلى القوانين الفيزيائية والرياضية التي تقود إلى تفسير آلية التغيرات الجوية، في حين أخذ علم المناخ -الذي يعد الآن أحد فروع الجغرافية الطبيعية- يركز على معالجة المعطيات الإحصائية الخاصة بعناصر المظهر الجوي، التي تقدمها محطات الرصد الجوي، بغية تحديد درجة تردد الظواهر الجوية المختلفة، وما يتولد عنها من حالات جوية تضفي على المكان سمة مميزة. وهذا يعني أيضاً أن لعلم الأرصاد الجوية علاقة بالجغرافية لما للعامل الجغرافي من دور في التغيرات الجوية التي تتم في جزء الغلاف الجوي القريب من سطح الأرض.

الخدمات التي يقدمها علم الأرصاد الجوية

إن للأرصاد الجوية دوراً كبيراً في مختلف الأنشطة الاقتصادية ومجالات الحياة اليومية. وكانت الزراعة أول الميادين التي استفادت من خدمات الأرصاد الجوية، ولاسيما بعد تطور التنبؤات الجوية التي جنبت الزراعة الكثير من المخاطر. كما استفادت تربية الحيوانات في البوادي والسهوب من تطور علم الأرصاد الجوية، إذ جنبت المربين الكثير من الكوارث الناتجة من بعض العوارض الجوية. ولما كان للأحوال الجوية دور مهم في تحديد مواقع الكثير من المنشآت الاقتصادية، مثل المصانع والمطارات والموانئ البحرية وخطوط نقل الطاقة والمواصلات وإقامة المنشآت المائية -كالسدود وغيرها- كان لا بد، عند إقامة أي منشأة من تلك المنشآت، من الاعتماد على معطيات الأرصاد الجوية بغية توفير الشروط الملائمة لتلك المنشأة وللتخفيف ما أمكن من آثارها السلبية على البيئة. وتهدف خدمات الأرصاد الجوية إلى تمكين الإنسان من استغلال الكثير من مصادر البيئة الطبيعية، وتوليد الطاقة الكهربائية من أحد عناصر الطقس (الرياح)، وتوفير القياسات الكافية لكمية الطاقة الشمسية الواصلة إلى بقاع الأرض، مما يُمكّن من استغلال تلك الطاقة في مجالات مختلفة.

ويضاف إلى ماتقدم خدمات الأرصاد الجوية في مجالات النقل المختلفة. كما أسهمت الأرصاد الجوية في تجنيب الإنسان الكثير من الويلات، ولاسيما في المناطق التي تقع في طريق الأعاصير الجوية العنيفة، ولا يمكن أن ينسى دور الأرصاد الجوية في الأعمال الحربية.

تأثير الإنسان في الطقس

لقد كان الجو، بتقلبات أحواله في الزمان والمكان، آخر ما استطاع الإنسان التأثير فيه من عناصر البيئة الطبيعية من دون أن يتمكن من تبديل أي مكون من مكوناته إلى الدرجة التي يترتب عليها تغير في ظواهر الطقس. ولكن منذ الربع الثاني من القرن العشرين، ومع فهم الإنسان الكامل لطبيعة القوانين الناظمة لحركات الجو، ومع إحاطته الشاملة بآلية الظواهر الجوية وطبيعتها، وبدخول التقنيات الحديثة عالم الأرصاد الجوية ازداد فهم الإنسان لمايجري في أجواء الأرض القريبة إلى السطح والبعيدة عنه نسبياً، وحاول توجيه بعض الظواهر الجوية لما فيه خيره، بالحد من أخطارها وتجنب آثارها، أو تعديلها بما يتلاءم مع مصالحه.

ولقد استطاع الإنسان الحد من أخطار الصقيع بمكافحته بوسائل متعددة وساعدته في ذلك التنبؤات الجوية. كما حدّ الإنسان من تأثير الرياح في المزروعات المختلفة بإقامته مصدات الرياح، وتمكن من خفض الفاقد المائي بالتبخر والنتح من التربة والنباتات والتقليل من كمية المياه المتبخرة من المسطحات المائية بنشر بعض المواد الكيمياوية فوق سطحها.

ولقد جرت محاولات كثيرة لتبديد الضباب الكثيف الدافئ والبارد، وذلك بدفع هواء حار في منطقة الضباب الدافئ وإحداث دوامات فيها، أو بنثر نوى التجمد في الضباب البارد. كما تمكن الإنسان من استدرار السحب، بتسريع نمو مكوناتها وهطولها، ببذرها بنوى تكاثف مسترطبة (ملح بحري وغيره) في حال السحب الدافئة، أو ببذرها بنوى التجمد (كربون جاف، أيود فضة) في حال السحب الباردة. ولا شك في أن المحاولات والتجارب الكثيرة التي قام بها الإنسان في سبيل كبح جماح الأعاصير المدارية والحد من أخطارها، حققت نجاحاً ملموساً، وخففت من طاقتها ومن آثارها التدميرية.

ومع أن محاولات الإنسان جميعها لم تبدل جذرياً من الأوضاع الجوية الكبرى السائدة، إلا أنها في بعض المجالات المحددة أدت إلى إحداث تغير ملموس في الأحوال الجوية السائدة ومن ذلك مثلاً الاستخدام المكثف للبيوت البلاستيكية في المزارع وأجهزة التكييف في المنازل إضافة إلى تأثير الإنسان السلبي المتمثل في ازدياد نسبة الملوثات الكيمياوية وغيرها في أجواء بعض الأمكنة، ولا سيما في المدن الكبرى، والمناطق الصناعية، وازدياد حالات تشكل «الضبخان» «smog» (أي الضباب والدخان) واستمراريته فوق المدن الكبرى، مع مايرافق ذلك من تأثيرات خطرة في صحة الإنسان.

علي موسى

الموضوعات ذات الصلة:

الجو - المناخ (علم -).

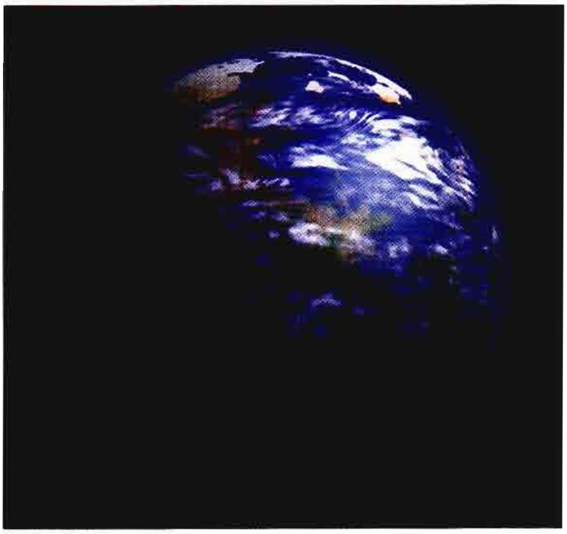
مراجع للاستزادة:

- علي حسن موسى، الرصد والتنبؤ الجوي (دار دمشق، دمشق ١٩٨٦).
- علي حسن موسى، المناخ والأرصاد الجوية (جامعة دمشق ١٩٨٧).
- J.O. AYVASE, Introduction to Climatology For the Tropics (John Wiley & Sons, New York 1983).
- WMO, Guidlines for the Education and Training of Meteorological Personnel (No. 258, TP. 144,Geneve1969).

■ الأرض

يُعد القرن الثامن عشر منعطفاً مهماً في خط سير مجمل العلوم التطبيقية والطبيعية ومنها الجيولوجية والجيوفيزياء [ر] التي تدرس الأرض بصفتها ظاهرة طبيعية وذلك عن طريق إلقاء الضوء على تاريخها الطبيعي ومراحل تطورها ابتداءً من لحظة تشكلها حتى الوقت الحالي . ففي ذلك القرن بالتحديد بدأت المعتقدات والآراء الدينية حول الأرض والمجموعة الشمسية [ر] وما يكتنفهما من أسرار بالتراجع مفسحة في المجال لظهور الأفكار والآراء والفرضيات التي حاولت تفسير هذه الأمور على أساس مبني على الحجج والبراهين والحقائق العلمية الثابتة . وفي الحقبة نفسها أيضاً، عمل علماء الطبيعة المهتمون بدراسة تاريخ الأرض وأسرارها على محاولة تفسير هذه الأمور وتحليل مختلف ظواهرها والأسرار التي تحيط بها تفسيراً علمياً منطقياً، والابتعاد تدريجياً عن قبول أية فكرة لا تثبتها النظرة العلمية الموضوعية .

والحقيقة أن الأرض لم تكن موجودة منذ الأزل بشكلها الحالي وإنما هي نتيجة لتطور كبير ومعقد، والصخور التي تتشكل منها خضعت، ومازالت تخضع لتطورات وتبدلات كبيرة الأهمية . وسواء كانت الأرض قد تشكلت نتيجة لتكاثف كتلة غازية سديمية حارة، أم نتيجة لتجاذب مليارات من الجزيئات والذرات المختلفة الأحجام، والمبعثرة أصلاً في الفضاء الخارجي، ففي كلتا الحالتين يُفترض أن تكون الأرض قد مرت بمرحلة تكونت فيهاكتلة قريبة من شكل الأرض الحالية، وهذا الظهور لم يكن فجائياً بل إنه استغرق زمناً طويلاً جداً، لدرجة يمكن معها تقدير مدة تشكل الأرض بنحو مئة مليون سنة كما أن دراسة النظائر المشعة أثبتت أن بداية تشكل الأرض يعود إلى حقبة تراوح بين ٤ مليارات و٥ مليارات سنة .

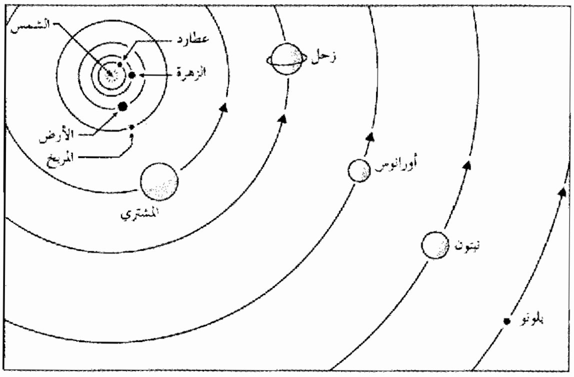


الأرض والمجموعة الشمسية

الأرض أحد كواكب المجموعة الشمسية التسعة إضافة إلى عدة آلاف من الكويكبات المنتشرة بصورة أساسية بين كوكبي المريخ والمشتري . لبعض هذه الكواكب توابع تدور في فلكها كالقمر الذي يدور حول الأرض، فالمريخ له قمران، والمشتري له ١٦ قمراً، وزحل له ٢١ قمراً، وأورانوس له ١٥ قمراً، ونبتون له قمران وبلوتو له قمر واحد . والجدول التالي يظهر بعض المعلومات الرقمية عن كواكب المجموعة الشمسية .

المجموعة الشمسية جزء من مجرة درب التبان المؤلفة من مجموعة هائلة من الكواكب والنجوم والسدم والغبار والغاز الكوني وتتخذ مظهر حزام

الكوكب	الكتلة (طن)	البعد عن الشمس بالكم	الكثافة (قياساً إلى كثافة الماء التي تعادل ١)	طول القطر بالكم	الثقالة على الاستواء	وسطي درجة الحرارة على السطح بالدرجة المئوية	مدة دوران الكوكب حول نفسه	مدة الدوران حول الشمس
عطارد	$٣,٤\times١٠^{٢٦}$	$٥٧,٩٤\times١٠^{٦}$	٤,١٩	٥٠٠٠	٠,٤١	+١٧٨°	٨٧,٩٦٩يوم	٨٧,٩٦٩يوم
الزهرة	$٥,٢٤\times١٠^{٢٧}$	$١٠٨,٢٧\times١٠^{٦}$	٤,٩	١٢٤٠٠	٠,٨٨	+٦٥°	٢٢٤,٧٠١يوم	٢٢٤,٧٠١يوم
الأرض	$٦,٩٧٦\times١٠^{٢٢}$	$١٤٩,٦٨\times١٠^{٦}$	٥,٢٥	١٢٧٤٢	١	+١٢°	٢٣ساعة و٥٦دقيقة	٣٦٥,٢٥٦يوم
المريخ	$٦,٣٨٩\times١٠^{٢٦}$	$٢٢٨,٠٦\times١٠^{٦}$	٣,٨٥	٦٧٨٠	٠,٣٧	−٣٧°	٢٤ساعة و٣٧دقيقة	١,٨٨١سنة
المشتري	$٢,٠٣٢\times١٠^{٣٠}$	$٧٧٨,٧٣\times١٠^{٦}$	١,٣٣	١٣٩٧٦٠	٢,٥٣	−١٤٧°	٩ساعات و٥٦دقيقة	١١,٨٦٢سنة
زحل	$٦,٠٨\times١٠^{٢٩}$	$١٤٢٧,٧\times١٠^{٦}$	٠,٧١	١١٥١٠٠	١,٠٦	−١٨٠°	١٠ساعات و١٤دقيقة	١٦٤,٧٩٤سنة
أورانوس	$٩,٣١\times١٠^{٢٨}$	$٢٨٧٢,٤\times١٠^{٦}$	١,٢٦	٥١٠٠٠	٠,٩٢	−٢٠٧°	١٠ساعات و٤٢دقيقة	٨٤,٠١٣سنة
نبتون	$١,١٠٢\times١٠^{٢٩}$	$٤٥٠٠,٨\times١٠^{٦}$	٢,٢٢	٤٤٦٠٠	٠,٩٥	−٢٢١°	١٠ساعات و٤٨دقيقة	١٦٤,٧٩٤سنة
بلوتو	$٥,٩\times١٠^{٢٧}$	$٥٩١٤,٨\times١٠^{٦}$	٥,٥	١٢٧٠٠	٠,٩	−٢٣٠°	٦ أيام و٩ ساعات	٢٤٨,٤٣٠ سنة



الشكل – ١ – كواكب المجموعة الشمسية ومداراتها

مبيّض بكثافة وشكل غير منتظمين، ويعطي المجموع شكل قرص يصل طول قطره إلى مايزيد على مئة ألف سنة ضوئية (السنة الضوئية تعادل ٩,٤٦١ × $١٠^{١٢}$كم). علماً بأن سرعة الضوء في الفراغ تساوي ٢٩٩٧٩٢,٢كم/ثا. وإضافة إلى شمسنا الحالية تضم المجرة المذكورة مايزيد على مئة مليار نجم آخر، وهي ليست ثابتة بل تدور حول مركزها مشكلة مايعرف بالسنة الكونية. غير أن حركة النجوم ضمن هذه المجرة متباينة السرعة فالنجوم القريبة من المركز تدور بسرعة أكبر من سرعة دوران النجوم البعيدة عنه. وبعبارة أخرى تتناقص سرعة دوران النجوم بالابتعاد عن مركز المجرة، أي أن للمجرة المذكورة حركة دورانية تفاضلية، وتتم دورتها حول مركزها مرة كل ٢٥٠ مليون سنة، كما تصل سرعة دوران شمسنا الحالية حول مركز المجرة إلى مايعادل ٢٣٠كم/ثا. وما يجب معرفته هنا هو أن مجرتنا هذه ما هي ألا واحدة من مليارات المجرات التي تسبح في الفضاء، والتي تقسم بوجه عام إلى مجرات ضخمة ومجرات صغيرة.

ولقياس المسافات الفلكية الكبرى الفاصلة بين هذه المجرات تستخدم وحدة البارسك Parsec التي تعادل ٣,٢٦ سنة ضوئية أو ٣,٠٨× $١٠^{١٣}$كم.

والشمس مركز مجموعتنا. وتدور حولها مجموعة الكواكب آنفة الذكر والأرض هي الكوكب السيار الثالث من حيث البعد عن الشمس بعد كوكبي عطارد والزهرة، وتقدر المسافة الفاصلة بين الأرض والشمس بنحو ١٤٩٦٧٥٠٠٠كم، وتعدّ الأرض أهم كواكب المجموعة الشمسية على الإطلاق، وذلك لأنها الكوكب الوحيد المأهول كما هو معروف من دون أن يعني ذلك انعدام جميع أشكال الحياة على بعض الكواكب الأخرى على الأقل، الأمر الذي مازال مجهولاً وذلك من دون مقارنة هذه الحياة بالحياة الموجودة على كوكب الأرض.

إن المسافة التي تفصل الأرض عن الشمس تعد مثالية تماماً، لأنها تسمح بوصول كميات من حرارة الشمس الضرورية للحياة، إذ إن زيادة الحرارة عما يصل إلينا من الشمس يؤدي إلى تفكك كامل للمواد الكربوناتية التي تعد أساساً للمادة الحيّة على سطح الأرض. بالمقابل فإن انخفاض كميات الحرارة هذه عن المعدل الذي يصل إلى الأرض يؤدي إلى تباطؤ التفاعلات الكيمياوية الذي ينعكس على إمكان تشكل الجزئيات المعقدة التي تكوّن المادة الحية. والطاقة التي تتلقاها الأرض من الشمس تقاس بكمية الحريرات/ دقيقة/ $سم^{٢}$. ومجمل هذه الطاقة يقدر بنحو ١,٩٤ حريرة/ دقيقة/ $سم^{٢}$. أما درجة الحرارة المتوسطة على سطح الكرة الأرضية فهي ناجمة عن الإشعاع الشمسي الذي يمتصه سطح الأرض من جهة، وعن الأشعة تحت الحمراء التي تطلقها الأرض باتجاه الغلاف الغازي من جهة ثانية، ويقدر هذا المعدّل، أو درجة الحرارة المتوسطة هذه، بنحو +١٢° درجة مئوية.

وللأرض درع مؤلف من غلاف غازي هوائي يشكل طبقات الجو المعروفة وهي من الأسفل إلى الأعلى: التروبوسفير Troposphere والستراتوسفير Stratosphere والأيونوسفير Ionosphere.

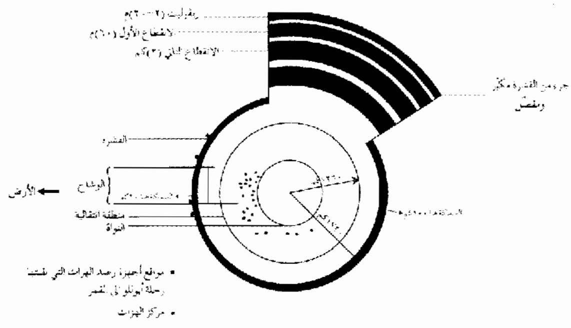
تمتاز طبقة التروبوسفير بانخفاض درجات حرارتها كلما ازداد ارتفاعها لتصل إلى –٥٠° درجة مئوية فوق القطب، مقابل –٨٥° درجة مئوية فوق خط الاستواء، وهي منطقة حدوث الرياح والسحب والعواصف والأمطار وتشكلها. ويتباين ارتفاعها بشدة بحسب درجات العرض، إذ يصل أقصى ارتفاع أو أقصى ثخانة لها فوق خط الاستواء إلى ١٧كم مقابل ٦كم فقط فوق المنطقة القطبية.

وتمتاز طبقة الستراتوسفير بارتفاع درجات الحرارة فيها بصورة تدريجية وبطيئة في البداية، ثم يتسارع هذا التزايد ليصل إلى درجة صفر مئوية على ارتفاع ٥٠كم. وهو الارتفاع الذي يشكل الحدود العليا لهذه الطبقة. ويعزى ارتفاع درجات الحرارة في هذه الطبقة إلى كثافة غاز الأوزون أو الأكسجين الثقيل O_3 الذي يشكل مايعرف بطبقة الأوزونوسفير Ozonosphere. وتؤدي هذه الطبقة دوراً بالغ الأهمية، ذلك أنها تقوم بامتصاص قسم كبير من إشعاعات الشمس فوق البنفسجية الضارة، أي إنها تقوم بدور مصفاة تنقية لولاها لانعدم وجود الحياة على سطح الأرض، علماً أن سمك الأوزون نفسه لا يزيد على ٣م ضمن الطبقة البالغ سمكها بضعة كيلومترات. وبعبارة أخرى لو تعرض الأوزون الجوي إلى ضغط جوي قدره ١٠١٣,٢ ميليبار كالضغط عند مستوى سطح البحر فإنه يشكل طبقة تصل ثخانتها إلى ثلاثة مليمترات.

أما طبقة الأيونوسفير فتقع حدودها العليا على ارتفاع يقدر بنحو ٦٠٠كم. وهي طبقة تتزايد فيها درجات الحرارة لتصل حتى حدود ١٥٠٠° درجة مئوية، وتتسم هذه الطبقة بسيادة التفاعلات الإشعاعية والذرية الناجمة عن تأثير الأشعة فوق البنفسجية في جزيئات الغلاف الغازي وتبديدها لذراته في جميع الاتجاهات، مما يسبب وجود جو مكهرب في كامل محيط الأيونوسفير، فيصبح لامعاً مضيئاً. إن هذه الطبقة تمتاز إذن بأن هواءها متأين (متشرد) بشدة وبالتالي فإن ناقليته الكهربائية مرتفعة للغاية.

وللأرض تابع وحيد هو القمر الذي يدور حولها في مدار إهليلجي يبتعد في أقرب نقاطه عن الأرض بنحو ٣٥٦٠٠٠كم مقابل ٤٠٦٠٠٠كم في أبعد نقاطه، وعلى هذا يصل متوسط المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر إلى نحو ٣٨٤٤٠٠كم، أما كتلة القمر فإنها تبلغ ١,٢٣٪ من كتلة الأرض، ويصل متوسط كثافته إلى نحو ٣,٣٧ أما من حيث البنية، فإن القمر مكون من ثلاث طبقات متحلقة بعضها حول بعض هي: القشرة والوشاح والنواة (شكل ٢) وحركة القمر حول الأرض معقدة جداً لأن القمر يخضع لتأثير جاذبية الأرض والشمس ولجاذبية بقية الكواكب في وقت واحد، ويتم دورته حول نفسه كما يتم دورته حول الأرض في زمن واحد، وتصل مدة الدوران هذه إلى ٢٧ يوماً و٧ ساعات و٤٣ دقيقة و١١ ثانية. وهكذا يبدو للأرض منه وجه واحد من وجهيه لا يتغير، ويصل طول نصف قطره إلى ١٧٣٨كم. ويتميز سطحه بوجود السهول والمنخفضات والجبال

التي قد يصل ارتفاعها إلى مايزيد على ٨٢٠٠م، وتراوح درجة الحرارة على سطحه بين +١٠٠° درجة مئوية نهاراً و-١٥٠° درجة مئوية ليلاً في المتوسط.



الشكل ٦ – البنية الداخلية للقمر استناداً إلى المعطيات التي قدمتها رحلة أبولو APOLLO

ولا يزال العلماء حتى اليوم حائرين في تفسير نشأة القمر وأصله، وهم في ذلك بين ثلاث فرضيات كل منها يتطلب وجود آلية ذات أساس محدّد: فإما أن يكون القمر قد تولّد مع الأرض من الشمس، كماتولّدت منها بقية الكواكب وأقمارها على شكل شرارات انطلقت منها يوماً ما ثم تبردت فيما بعد، وإما أن يكون القمر انسلخ عن الأرض يوماً ما بسبب سرعة دورانها الشديد حول نفسها (٢-٣ ساعات فقط للدورة الواحدة) في بداية تكوّنها، وإما أن يكون قد تشكل في مكان ما ضمن المجموعة الشمسية ثم بدأ يجوب الفضاء إلى أن مرّ يوماً ما بجوار الأرض فاجتذبته وأسرته وجعلته تابعاً لها، لأن جاذبية الأرض أكبر من جاذبية القمر بنحو ٨١ مرة. وبما أن حجم القمر وكثافته أقل من حجم الأرض وكثافتها، فإن الثقالة القمرية لا تبلغ سوى سدس الثقالة الأرضية، بحيث أن من يزن ٦٠كغ على الأرض لا يزن أكثر من ١٠كغ على القمر، ومع كل ذلك ولقرب القمر نسبياً من الأرض فإنه يؤدي دوراً مهماً في ظاهرة المد والجزر التي تؤثر في المياه واليابسة على سطح الأرض على حد سواء. وعلى الرغم من صغر حجم القمر بالمقارنة مع الشمس فإن قربه هذا من الأرض يؤدي إلى كون دوره في مجمل عملية المد والجزر معادلاً ١١ / ٥ من دور الشمس في مجمل العملية.

أصل الأرض ونشأتها

لتفسير نشأة المجموعة الشمسية ومنها كوكب الأرض، ظهرت نظريات عدة لاتخلو من الطرافة ومن المفارقات والمتناقضات، وفيما يلي ذكر الأساسي منها. والحقيقة أن الجدال والنقاش في ذلك قد بدأ منذ مايزيد على القرن حول نشوء المجموعة الشمسية، وقد انتهى ذلك إلى إثبات مجموعة من النتائج والحقائق حول هذه المسألة تقرب من اليقين، وأهمها هي حقيقة نشوء الشمس في الوقت نفسه الذي تكونت فيه الأرض. وأهم الفرضيات التي وُضعت بهذا الخصوص هي نظرية لابلاس Laplace ومفادها أن الشمس وكواكب المجموعة الشمسية تكونت في الأصل انطلاقاً من سديم غازي هائل ذي كثافة غير متجانسة في نقاطه وأجزائه كافة، ولقد تبرد هذا السديم تدريجياً في أثناء دورانه حول نفسه، فتقلصت بعض أجزائه وانفصلت عنه تدريجياً انطلاقاً من منطقته الاستوائية.

وبديهي القول إن هذا التبرد والتقلص رافقهما ازدياد في سرعة الدوران، وبالتالي ازدادت القوة النابذة، ونتيجة حتمية لذلك انفصلت كتل غازية أخرى عن السديم الأصلي وأخذت تدور في اتجاه السديم الرئيس حول الشمس، وهكذا تشكلت كواكب المجموعة الشمسية.

والحقيقة أن نشوء الأرض انطلاقاً من مثل هذه الكتلة الغازية، يستدعي أو يستوجب حدوث تكاثف ضمن هذه الكتلة نتيجة لتفاعل مجموعة من العوامل الآلية والطاقية، كالجاذبية والتفاعلات النووية والقوة النابذة،والقوى المغنطيسية الهيدروديناميكية وغيرها، ولكن السؤال الكبير هو: هل أخذت الأرض شكل سطحها وحجمها الحاليين نتيجة للتقلصات أم نتيجة للتمددات؟

في ردح طويل من الزمن سادت فكرة سيادة عامل التقلص في تفسير نشوء القشرة الأرضية وتضاريسها الرئيسة الناجمة عن الحركات الالتوائية الكبرى أو المولّدة للجبال. أما في الوقت الحالي، فإن فكرة تكون شكل سطح الأرض وحجمها الحاليين استناداً إلى عامل التمدد أو بفضله بدأت تسود تدريجياً مع أن ذلك يبدو غريباً للوهلة الأولى. فالحقيقة أنه بموجب التبرد المنطلق من الداخل باتجاه الخارج وما ينجم عنه من تقلصات وتصلب للقشرة الخارجية لا يمكن للأرض بشكلها وسطحها الحاليين أن تكون قد تطلّبت أكثر من ٤٠ مليون سنة وهذا مالا ينطبق على الواقع إطلاقاً، إذ إن ذلك يتناقض مع جملة من الحقائق والمسلمات الجيولوجية (وجود المستحاثات التي يمكن تأريخها بمساعدة النظائر المشعة ومراحل التحولات الجيولوجية). وعلى العكس فإن عمر الأرض يراوح وفقاً للحقائق العلمية الثابتة بين ٤ و٥ مليارات سنة واستغرقت في تشكلها مئة مليون سنة. إضافة إلى ماتقدم فقد ظهرت نظرية حديثة تتفق مع هذه المعطيات، وملخصها (وهي تطوير لآراء ألفرد فيغنر A.Wegener وأفكاره) هو أن القشرة الممتدة تحت المحيطات أسفل غطاء رسوبي متباين السماكة، نشأت نتيجة لتصاعد المهل (الماغما) ذي الخصائص البازلتية، ممتدة على السطح ابتداء أو انطلاقاً من السلاسل المتراصفة تحت المحيطية أو المتشعبة في أواسط المحيطات. إن قوة الدفع التي يسببهاتصاعد المهل هي التي تؤدي إلى تباعد القارات بعضها عن بعض بمعدل بضعة سنتيمترات كل عام، وهذا يسهم طبعاً في اتساع سطح الكرة الأرضية. وقد أمكن التحقق من كل ذلك تجريبياً وبطريقة غير مباشرة. وذلك عن طريق دراسة الشذوذات المغنطيسية. وبوجه عام فإن قعور المحيطات موزعة بشكل متناسق ومتطابق لدرجة لايمكن معها عزو ذلك لمجرد المصادفة المحضة بالمقارنة مع السلاسل المقابلة والمتفقة معها.

إن تأريخ هذه القعور سمح بتحديد مراحل تشكلها، كما سمح بتحديد العلاقة والتطابق بين مراحل تشكلها والتباينات المغنطيسية القديمة (مجال الجاذبية القديمة Paléomagnétique) للأرض، وهذه الظواهر كلها مرتبطة بالعوامل الحركية (الديناميكية) المسؤولة عن هندسة وتحديد هوية العلاقة بين القشرة والطبقات الباطنة للأرض من جهة، وتقسيم سطح الأرض إلى محيطات وقارات من جهة ثانية.

بنية الأرض وتركيبها

إن التباين الشديد في كثافة القطاعات المختلفة للكرة الأرضية يعكس حقيقة كون هذه الكرة مكوّنة من عدة أغلفة أساسية متباينة الطبيعة والثخانة، متحلقة حول نواة مركزية. وفي الواقع فإن دراسة الاهتزازات

الناجمة عن الهزات الأرضية هي التي تعطي فكرة واضحة عن تباينات التركيب والاختلاف في الطبيعتين الفيزيائية والكيمياوية لهذه النطاقات، لأن هذه الاختلافات تنعكس تباينات شديدةً في خط سير الموجات الاهتزازية وطبيعتها التي لا تنتشر بالطريقة نفسها ولا بالسرعة ذاتها في أثناء مرورها في أوساط متباينة الطبيعة. أما من ناحية التركيب والطبيعة والبنية فإن المعلومات المعتمدة على الملاحظات العملية العلمية المباشرة تقتصر على ثخانة ٨٠٠٠م (علماً بأن الإنسان تمكن من النزول إلى عمق ٣٥٠٠م) من القشرة الأرضية، وهذا مايتفق مع أعمق الآبار التي حفرت لغرض البحث العلمي ولتعرف طبيعة الأرض. أما فيما عدا ذلك فإن المعارف عن الطبيعة والتركيب تستند إلى وسائل غير مباشرة، بمساعدة المعطيات الجيوفيزيائية، وعلى نحو رئيس المعطيات الكهرمغنطيسية والكهربية والحرارية التي يمكن أن تزود المعرفة بمعلومات محددة عن الخصائص الفيزيائية على أعماق معينة للأرض. ولكن يجب الاعتراف بأن المعرفة الدقيقة المحددة لطبيعة المواد المكونة للأرض في الأعماق المختلفة ولتركيبها ما زال يكتنفها بعض الغموض. إن تسجيل الاهتزازات الناتجة عن الهزات الأرضية ودراستها يسمحان بتحديد إحداثيات مكان نشوئها من حيث خطوط الطول والعرض والعمق أيضاً، وذلك بتسجيل هذه الموجات الناجمة عن الهزة الواحدة في مراصد خاصة منتشرة في أماكن متفرقة على سطح الكرة الأرضية، وتُحدَّد الإحداثيات المذكورة استناداً إلى اختلاف المدد التي تصل فيها هذه الموجات إلى المراصد المختلفة بحسب بعدها عن المراكز أو مكان نشوء الهزة. وبتعبير آخر يسهل تعرف مركز الهزة وعمقها وسرعة انتشار أمواجها بمساعدة المحطات الجيوفيزيائية الخاصة، وهذا مايساعد في معرفة طبيعة المواد التي اخترقتها الموجات المذكورة وكثافتها، وهذا مالا يمكن التوصل إليه بالملاحظات المباشرة. وعلى هذا الأساس، تبقى معطيات هذه المحطات أو المراصد هي الوحيدة التي يمكن أن تساعد في تعيين حدود الطبقات المختلفة المتحلقة حول مركز الأرض. أما فيما يتعلق بالأعماق السحيقة، فإن الأمور تصبح أكثر تعقيداً إذ إن خصائص المادة في ظل درجات الحرارة الشديدة الارتفاع وتحت ضغط عالٍ جداً مازالت مجهولة.

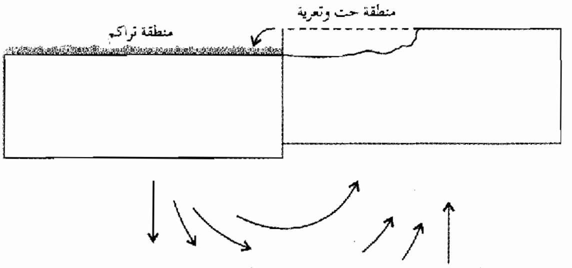
إن مجموع المعطيات المتوافرة أظهرت أن متوسط كثافة الأرض يصل إلى ٥,٥٢ في حين أن كثافة القسم السطحي للأرض والخاضع للملاحظات المباشرة يراوح بين ٢,٥ للصخور الرسوبية و٣,٥ للبازلت. وهذا معناه أن المناطق الداخلية للكرة الأرضية ذات كثافات أكثر ارتفاعاً وواقعة تحت ضغوط عالية جداً لا يمكن تحقيقها مخبرياً. وقد دلّت الدراسات والأبحاث الحديثة على أن الكثافة المذكورة تتزايد تدريجياً باتجاه المركز إلى أن تصل نحو ١٢-١٧ في مركز الأرض.

إن هذه الكثافة في الواقع هي التي تحدد معامل تسارع الجاذبية، إذ إنه بحسب قانون نيوتن، فإن أي جسم على سطح الأرض خاضع لجاذبيتها بحسب قوة ك ج (mg) الناتجة عن كتلة الجسم ذاته ك (m) مضروباً في شدة الجاذبية ج (g) وهي متحول قيمته في حدود ٩,٨م/ثا٢، وقيمة ج (g) هذه ليست ثابتة في كل نقاط الأرض، وتبدلاتها هذه تخضع أو تتبع تباينات توزع المواد المختلفة المكونة للأرض، إذ إن هذه القيمة تتزايد في الأقسام أو المواقع ذات الكثافة العالية. وتنخفض في المواقع ذات الكثافة القليلة. وهذه الأخيرة تتصف عادة بأنها ذات ثخانة أكبر. وبتعبير آخر، هي طبقات سطحية ثخينة ولكنها منخفضة الكثافة نسبياً. وهكذا يكون من الطبيعي القول إن قيمة ج على سطح البحار، يجب أن تكون منخفضة، لأن كثافة الماء أقل من كثافة صخور القشرة الأرضية. ولكن ذلك لا ينطبق على الواقع لأن قيمة ج هنا ليست منخفضة، ولا يمكن تفسير ذلك إلا بكون المواد التي تشكل القشرة تحت مياه البحار والمحيطات من طبيعة ذات كثافة أكثر ارتفاعاً من المواد التي تكوّن القشرة في القارات. وعلى هذا يمكن استنتاج أن كثافة المواد التي تشكل الكتل الجبلية أقل من كثافة المواد الواقعة تحت المناطق السهلية، وكثافة المواد الواقعة تحت السهول هذه أقل من كثافة مواد القشرة الواقعة تحت مياه البحار والمحيطات. أي إن كل شيء يتم كما لو كانت الكتل القارية ترتفع بصورة أكبر مع تناقص كثافتها تماماً كحالة قطع الخشب المتباينة الطبيعة التي تطفو عموماً فوق الماء، ولكن الأقسام الغاطسة من هذه الأخشاب تحت الماء تختلف حتماً باختلاف طبيعة الخشب وكثافته. ومن هنا تولدت فكرة التوازن الهيدروستاتي equilibre hydrostatique. ولكن الأمر المهم الواجب معرفته هنا هو أن القاعدة التي تتوضع عليها الكتل القارية هي من طبيعة لزجة، ولكنها ليست بلزوجة الماء، وبالتالي فإن التوازن السابق ليس توازناً مثالياً، أي إنه ليس هيدروستاتيا، ولكنه توازن إيزوستاتي (سيالي) isostatique (توازن ناجم عن تباين كثافة المواد المختلفة). ومع ذلك فإن الضغط الذي تمارسه أوزان الكتل المختلفة يصبح متعادلاً على عمق يقع في حدود ٦٠كم، وهذا المستوى يعرف بسطح التعويض الإيزوستاتي surface de compensation isostatique، وتحت هذا المستوى هنالك توزع كتلي منسجم ومتجانس.

إن التوازن السابق يمكن أن يتعرض للتشويش أو للتخريب في الحالات التالية:

- تكون السلاسل الجبلية، وذلك نتيجة للعلاقات التي ذكرت بين الكثافة والكتلة.

- ازدياد نشاط أعمال الحت والتعرية التي قد تتمكن من إزالة كتلة جبلية ما مثلاً، ونتاج هذا النشاط من مواد وأنقاض ومجروفات يتوضع في نهاية المطاف في قعر المحيطات، وهذا مايؤدي إلى ازدياد الضغط على هذا القاع مسبباً نوعاً من الغور أو الخسف في قاع المحيطات، تقابلها حركة ارتفاع أو نهوض شاقولية للمنطقة التي تعرضت لعملية الحت الشديد (الشكل ٣).

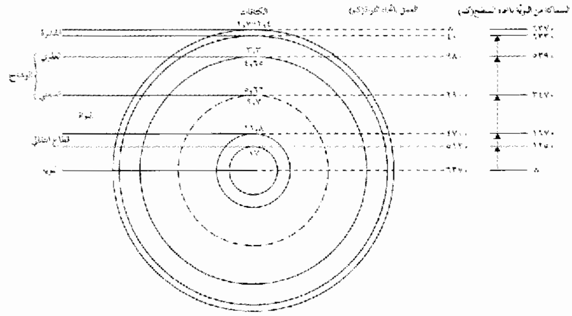


الشكل-٣- عمليات الحت والتعرية والتراكم الكبرى وما تسببه من حركات تعويض

- التبدلات المناخية التي يمكن أن تقوم بدورها أيضاً، ذلك أنه في حالة حدوث سخونة مناخية شديدة تذوب الجليديات التي تغطي المناطق القارية، ومن ثم يتناقص الضغط الموجود فوقها بسبب فقدان وزن الجليد الذي تحول إلى ماء ودخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى مياه البحار

والمحيطات، ومن ثم سوف تحدث حركة نهوض إيجابية للمناطق التي فقدت جليدها.

إن المعطيات الناجمة عن مثل هذه الدراسات، إضافة إلى معطيات الجاذبية وقياساتها المختلفة وتبايناتها، ساعدت على تفسير معطيات الهزات الأرضية، وباجتماع النتائج المذكورة، تكونت فكرة واضحة عن تركيب النطاقات المختلفة التي تشكل الكرة الأرضية وعن تكوينها وطبيعتها وكثافتها. ولقد اتفقت الأبحاث والدراسات على حقيقة أن الأرض مكونة من ثلاثة نطاقات يغلف بعضها بعضاً بصورة كروية نسبياً، وبقطر يصل طوله إلى ١٢٧٤٢ كم وهذه الأقسام هي: القشرة الأرضية والوشاح والنواة (الشكل ٤).



القشرة الأرضية: وهي طبقة متباينة التركيب والثخانة تحت القارات والبحار والمحيطات، مع ثخانة متوسطة تصل إلى ٤٠ كم وكثافة قريبة من ٢,٧. إن تباين الثخانة هذا يكون واضحاً جداً هنا، ذلك أنه يرتفع تحت السلاسل الجبلية (قد يصل إلى ٨٠ كم) وينخفض تحت السهول والمحيطات، حيث يقع انقطاع موهوروفيتشيش على عمق يراوح بين ١٠ و١٢ كم تحت المحيطات، وهذه القشرة تتألف من طبقة تراوح سماكتها بين ٥ و٨ كم، وصخورها مكونة من مواد ذات طبيعة قاعدية تراوح نسبة السيليس فيها بين ٤٥٪ و٥٢٪، تجتازها أمواج الهزات الأرضية بسرعة تصل إلى ٦,٧ كم/ثا، تعلوها طبقة ذات ثخانة تصل إلى ٣ كم مكونة من الصخور البركانية بصورة رئيسة، غنية بالتيوليت والبازلت المشبع بالسيليس، وهي ذات كثافة تصل إلى ٣، تخترقها موجات الهزات الأرضية بسرعة ٥ كم/ثا، وفوق هاتين الطبقتين تتوضع الصخور الرسوبية بأنواعها المختلفة التي تغلب عليها عادة الطبيعة الكربوناتية ذات الكثافة المنخفضة نسبياً والتي تصل إلى ٢,٢ وتخترقها موجات الهزات الأرضية بسرعة لاتتجاوز ٢ كم/ثا.

وبصورة عامة، تتوضع الصخور الرسوبية هذه في المناطق القارية فوق طبقة غرانيتية تقبع فوق طبقة بازلتية ولكن دراسة موجات الهزات الأرضية بينت أن طبقة البازلت المذكورة ليست موجودة في كل المناطق تحت طبقة الغرانيت، وهذا يعني أن الاتصال بين القشرة والوشاح يتم أحياناً بين طبقة الغرانيت وصخور الوشاح مباشرة، وأحياناً أخرى بين طبقة البازلت وصخور الوشاح.

وتتكون طبقة البازلت بصورة رئيسة من السيليسيوم والمغنيزيوم ولهذا تدعى اختصاراً باسم سيما sima وهي التي تعطي، أو هي مصدر، صخور البازلت القادمة من الأعماق ولها تركيبها الكيمياوي نفسه، ولكن بنية البازلت الداخلي تختلف عن بنية البازلت السطحي لأن هذه الأخيرة تتميز بانطلاق سريع للغازات المختلفة بمجرد وصولها إلى السطح وهذا أمر لا يمكن حدوثه في الأعماق.

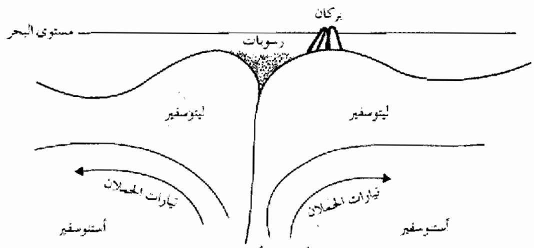
أما الطبقة الغرانيتية فمركبة من السيليس والألومين بصورة رئيسة، ولهذا فإنها تدعى اختصاراً باسم سيال sial وهذه الطبقة هي التي تقدم صخور الغرانيت المعروفة، كما أنها في حالة خروجها إلى السطح عند حدوث البراكين، وبسبب الانطلاق السريع للغازات فإنها تعطي ذوباً بركانياً lava ذا طبيعة حمضية كما هو الحال في الريوليت، والأقسام العلوية لهذه الطبقة مكونة من الغرانيت الذي تبرّد تدريجياً وببطء شديد وبمعزل عن الهواء مما أتاح الفرصة لحدوث تبلُّر كامل لموادها. إن النشاط البركاني الذي يدفع بصخور الطبقتين السابقتين إلى السطح هو المسؤول عن تكوّن الصخور المتحولة ضمن الصخور ذات الأصل الرسوبي، وبهذا تتحول عناصرها وموادها الرسوبية هذه إلى صخور مشابهة في بعض خصائصها وصفاتها لصخور طبقتي السيما والسيال.

الوشاح: ويقع تحت سطح انقطاع موهو روفيتشيش على عمق محصور بين ٤٠ كم و٢٩٠٠ كم. أما من ناحية التركيب فإن التجارب التي أجريت على سرعة الصوت ضمن الصخور المختلفة، وفي ظل أعلى درجات الضغط التي أمكن تحقيقها مخبرياً تبيّن أنه لا يمكن أن يوجد في قاعدة القشرة صخور ذات طبيعة حامضية مماثلة للغرانيت وتعطي سرعات ضعيفة جداً.

وفي الوقت نفسه، فإن السرعة التي وجدت هنا هي أكثر ارتفاعاً من السرعات التي وجدت في صخور البازلت. وعلى هذا يمكن القول إن تركيب هذه الصخور الواقعة تحت القشرة وطبيعتها هي فوق قاعدية غنية جداً بالحديد وبالبيريدوتيت (تصل نسبة السيليس في هذا الصخر الأخير إلى ٤٠٪ من تركيبه) وهي ذات بنية صلبة على العموم، وتراوح الكثافة هنا بين ٣,٣ و٥,٦٦، علماً أن هذه الكثافة تتناقص بدءاً من قاعدة الطبقة باتجاه قمتها، وفي الحقيقة، وفي ظل ضغوط عالية جداً، وتركيب كيمياوي ما، فإن صخراً ما يمكن أن يشمل تجمعات معدنية متباينة، في حين إن الضغط العالي يساعد على ظهور الصخور الأكثر كثافة، وبناءً على ماتقدم، يمكن لصخور الإيكلوجيت المكونة من البيروكسين ومن الغرونا ذي الكثافة المرتفعة والتي ترتفع فيها سرعة انتقال الصوت، يمكن لهذا الصخر الباطني النادر جداً على السطح أن يكون المقابل أو النظير لصخر بازلتي مكون من الفلدسبات والبيروكسين. وما هذا الاختلاف والتباين بين الصخرين إلا نتيجة لتباينات درجات الحرارة والضغط في شروط الوسط الذي يتشكل فيه الصخر. كما أنه في ظل الضغوط العالية جداً السائدة في الأعماق قد تظهر معادن جديدة لها التركيب الكيمياوي نفسه الذي للمعادن المعروفة على سطح الأرض ولكنها تختلف عنها في البنية الذرية، ولهذا فإن الصخور الباطنية تكون ذات كثافة أعلى. إن الحقائق السابقة هي المسؤولة عن تبدلات الخصائص والميزات النوعية التي تلاحظ على نحو رئيس في الصخور الواقعة على أعماق تراوح بين ٤٠٠ كم و٩٠٠ كم ويقدر الاختصاصيون بأن الوشاح يتألف من طبقة سطحية «أستنوسفير» Asthenosphere تراوح ثخانتها بين ٥٠٠ كم و٦٠٠ كم، ذات طبيعة لزجة يتباطأ سير الموجات فيها، وطبقة ذات طبيعة صلبة تعرف باسم «ليتوسفير» Lithosphere تعلو الطبقة السابقة وتصل ثخانتها إلى بضعة كيلومترات،

أما التركيب الكيمياوي فهو متماثل في الطبقتين المذكورتين.

إن القسم السابق من الوشاح يسهم في ديناميكية القشرة بصورة أساسية ذلك أنه بحسب نظرية الصفائح القارية Plaques فإن العالم بمجمله يتألف من ٦ صفائح إضافة إلى مجموعة من الصفائح ذات المقياس الصغير المرتبطة بها، وتتألف هذه الصفائح من قبعات صلبة من الليتوسفير تتحرك فوق طبقة الأستنوسفير ذات البنية اللزجة مسببة حدوث الهزات الأرضية العميقة، ومولدة السلاسل الجبلية المهمة، إن سبب حركة هذا القسم الصلب هو وجود تيارات الحملان courants de convection الناجمة عن تباينات كثافة المواد اللزجة ضمن الأستنوسفير التي تسببها تباينات درجات الحرارة وتتحرك هذه التيارات بسرعة تراوح بين ١ و٥م/ السنة محركة معها الليتوسفير بما فيها الطبقة البركانية التيوليتية (الشكل ٥).



الشكل-٥- أثر تيارات الحملان

أما من الناحية الكيمياوية فإن الجدول التالي يبين النسب المئوية للعناصر المختلفة التي تسهم في تركيب كل من القشرة والوشاح.

العناصر	الوشاح	القشرة
SiO_2	٤٣,٩٥	٥٩,٧٧
Al_2O_3	٣,٨٨	١٤,٨٩
Fe_2O_3	٨,٢٥	٦,٠٨
FeO		
MgO	٣٩,٠٠	٣,٧٤
CaO	٢,٦٠	٣,٨٦
Na_2O	٠,٦٠	٣,٢٥
K_2O	٠,٢٢	٢,٩٨
TiO_2	٠,٥٧	-
عناصر أخرى	٠,٩٣	٤,٤٣
المجموع	١٠٠	١٠٠

يؤكد الجدول السابق الأهمية الكبرى للسيليسيوم الذي يؤدي في عالم الفلزات دوراً مماثلاً للدور الذي يؤديه الكربون في عالم العضويات.

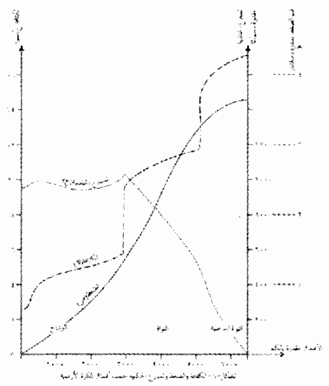
النواة: وتشغل مركز الأرض، ويصل طول قطرها إلى ٦٩٤٠كم، ويشغل مركزها مايسمى (النويّة) وهي تتألف بمجملها من الحديد والنيكل، وتتباين الكثافة هنا بشدة، إذ تراوح في النويّة بين ١١,٨ و١٧ في حين تنخفض في الأقسام الخارجية لتراوح بين ٩,٧ على حدود الوشاح و١١,٨ على حدود النطاق الانتقالي مع النويّة.

إن الارتفاع الهائل لقيم الضغط في النواة التي تصل إلى نحو ٣ملايين كغ/سم^2 لا يسمح للمادة بالمحافظة على شكلها السائل، وفي الوقت نفسه، ومن الناحية الكهرمغنطيسية فإن النواة تتصف بناقلية كهربائية عالية جداً، لذا يمكن القول بأن طبيعتها لا بد أن تكون حالة لزوجة وميوعة لمعدني الحديد والنيكل العنصرين الرئيسين المكونين للنواة، في حين أن أقسامها المركزية تتصف بكونها أقرب إلى الصلابة منها إلى السيولة، وذلك لأن الموجات الاهتزازية تتمكن من اختراقها. وعلى العموم لا بد من القول بأن النواة من حيث البنية والطبيعة والتركيب تشكل وسطاً ذا مميزات وخصائص نوعية خاصة جداً مازالت دقائقها وخفاياها مجهولة. ولكن الأمر المهم على مستوى النويّة، وبحسب آخر الفرضيات العلمية عن تركيبها وبنيتها، يبدو كأن الحديد المكون لها مؤلف من عناصر مبلورة كما أن أصل الحقل المغنطيسي للأرض يجب أن يكون هو النواة ذاتها، وهذا مايتطلب ضرورة كون بنيتها بلاستيكية مائعة نوعاً ما وذات ناقلية جيدة، وهذا كله يتفق مع النظرية الاتباعية (الكلاسيكية) التي تذهب إلى أن الحديد هو العنصر الرئيس المكون للنواة.

وقبل اختتام الحديث عن البنية الداخلية لا بد من ذكر أن درجات الحرارة تتزايد في الأعماق، ولكن قيمة هذا التزايد ليست ثابتة، بل إنها تخضع لتباينات هائلة وفقاً لتباين درجة ناقلية الصخور المختلفة وطبيعتها وطبيعة مايجري فيها من تفاعلات كيمياوية (أكسدة بيريت الحديد مثلاً) أو للتحولات الفيزيائية التي تشهدها (كتفكك الفلزات المشعة المولدة للحرارة). وكما هو معروف، فإن درجات الحرارة تتزايد في الأعماق بشدة قرب المناطق البركانية وفي المناطق النفطية، ويبلغ معدل هذا التزايد درجة واحدة لكل ١٠-٢٠م،في حين يحتاج تزايد درجات الحرارة درجة واحدة في المناطق الغرانيتية مثلاً إلى عمق يصل إلى ٧٠م وسطياً. وقد ترتفع هذه القيمة إلى ١٢٠م في الصخور الرسوبية. والجدول التالي يعطي فكرة عن وسطي ارتفاع درجات الحرارة في الأعماق، علماً بأن قيم درجات الحرارة المذكورة هنا هي قيم تقريبية يمكن للقيم الحقيقية أن تتجاوزها بكثير، وذلك تبعاً لطبيعة صخور المنطقة المعنية وتركيبها.

العمق بالكم	٠	٢٠	٤٠	٦٠	٨٠	١٠٠	٢٠٠
الحرارة (بالدرجة المئوية)	٠	٥٥٠	٨٠٠	١٠٥٠	١٢٠٠	١٣٥٠	١٧٠٠

وإن قيم الضغط والكثافة وتسارع الجاذبية كذلك تخضع لتبدلات مهمة جداً مع الأعماق كما يبدو ذلك واضحاً من خلال إلقاء نظرة فاحصة على الشكل ٦.



شكل الأرض وأبعادها

تبلغ المساحة الإجمالية للأرض نحو ٥١٠١٠١x٣١٠كم^{٢} ويصل حجمها إلى ١٠٨٣٣٢٠x٦١٠ كم^{٣} في حين تبلغ كتلتها ٥,٩٧٦x١٠^{٢٧} طن ومتوسط كثافتها يصل إلى ٥,٥٢ وتقسم مساحة الأرض بين البحار والمحيطات واليابسة، إذ تحتل البحار والمحيطات ٧١٪ من المساحة العامة مقابل ٢٩٪ لليابسة، وتتوزع هذه الأخيرة على نصفي الكرة على نحو غير متساوٍ، إذ تصل نسبتها في نصف الكرة الشمالي إلى ٣٩,٤٪ من مساحة هذا النصف الإجمالية مقابل ١٨,٦٪ فقط من مساحة نصف الكرة الجنوبي.

إن للأرض شكلاً قريباً من شكل كرة مفلطحة. وكروية الأرض أصبحت قضية لا مجال للشك فيها ولا سيما بعد سلسلة الصور التي التقطتها الأقمار والمركبات الفضائية للكرة الأرضية، ولكن شكل الأرض هذا وعدم كرويتها المنتظمة ليست ناجمة عن تضاريس الأرض ذاتها، ذلك أن أكثر الجبال ارتفاعاً وأشد الحفر انخفاضاً لا يمثل أكثر من سمٍّ صغير على جسم برتقالة عادية. إن عدم انتظام الشكل الكروي في الواقع ناجم بالدرجة الأولى عن دوران الأرض حول نفسها، وبهذا الدوران تتولد قوة مركزيةً طاردة تحاول دفع سطح الأرض بعيداً عن مركزها، وبعكس اتجاه الجاذبية. وهذه القوة الطاردة تكون ذات قيمة أعظمية في المنطقة الاستوائية (منطقة الاستواء تحديداً) وهذا ما أدى إلى انتفاخ هذه المنطقة. ولتعويض هذا الانتفاخ، حدث تفلطح مكافئ في منطقتي القطبين حيث يكون تأثير القوة المركزية النابذة (الطاردة) في أدنى درجاته هنا وعلى عكس خط الاستواء تماماً. وعلى هذا يمكن القول بأن كل شيء يجري كما لو كانت الأرض كتلة كروية مطاطية شدت من منطقتها الاستوائية باتجاه الخارج فانضغطت أو تفلطحت المنطقة أو الجهة الرأسية ذات المحور المتعامد مع محور الشد وذلك لتعويض الانتفاخ أو الشد المذكور.

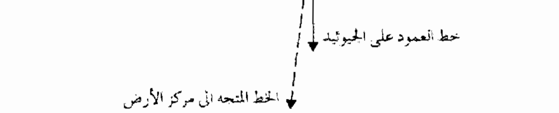
إذن للأرض شكل إهليلجي يبلغ طول نصف قطره الاستوائي (الكبير) ٦٣٧٨,٢٤٥كم مقابل ٦٣٥٦,٨٦٣كم لنصف القطر القطبي (الصغير)، وعلى هذا يكون مقدار التفلطح ١ : ٢٩٨,٣٠ وذلك وفق مايلي :

$$\text{مقدار التفلطح} = \frac{\text{طول القطر الاستوائي} - \text{طول القطر القطبي}}{\text{طول القطر الاستوائي}}$$

ومما يستدعي الانتباه هنا، هو أن الفارق بين طول نصفي القطرين (٢١,٣٨٢كم) يساوي تقريباً الفارق بين أعلى نقاط الكرة الأرضية (قمة إيفرست ٨٨٤٨م) وأخفض نقاطها (الهوة المحيطية مقابل ساحل الفيليبين وعمقها ١١٥١٦م)، أي أن الفارق هو بحدود ٢٠,٣٦٤كم، وربما يكون هذا التقارب بين الرقمين ناجماً عن قيمة محددة تنتج عن بنية الأرض ذاتها أو عن حركتها في الكون.

إن دراسة شكل الأرض تستند على تحليل حقل أو مجال جاذبيتها، وهذه الدراسة تقدم في الوقت نفسه توزع قوى الجاذبية ذاتها مضافاً إليها محصلة القوى النابذة الناجمة عن دوران الأرض حول محورها. إن معدل التفلطح المذكور آنفاً يتفق مع تباين في الجاذبية قيمته ٥ غال على مستوى البحر بين القطب وخط الاستواء (٩٨٣ غال على القطب مقابل ٩٧٨ غال على الاستواء) ومعروف أن الغال هو واحدة قياس تسارع الجاذبية وتعادل ١٠$^{-٢}$م/ثا^{٢}، وتتناقص الجاذبية مع الارتفاع بمعدل ٠,٣ غال لكل كيلو متر، كما تحدث تباينات محلية على مستوى الجاذبية تسببها بنية القارات ذاتها، فعلى مسافة بضع مئات الكيلو مترات يمكن أن تحصل تباينات في الجاذبية قيمتها ٠,١ - ٠,٢ غال. إن البنية الجيولوجية يمكن أن تسبب أيضاً بعض التباينات التي قد تصل إلى ٢٠ - ٥٠ ميليغال milligal على طول مسافة تراوح بين ١٠ و٢٠كم. إضافة إلى ثوابت الجاذبية هذه يجب أن لا ينسى أثر الشمس والقمر والكواكب الأخرى، وذلك أن قوى جذبها يدخل عاملاً متغيراً بصورة دورية، ومع أن قوة جذبها ضئيلة للغاية فإنها تؤثر في كل أجزاء الكرة الأرضية مسببة وجود نوع من التشوه الذي يؤدي إلى تعديل طول نصف الأرض بمقدار عدة ديسيميترات. وهذا التشوه يؤدي إلى تعديل قيمة الجاذبية تعديلاً طفيفاً.

وبفرض إمكان تمثيل السطح الذي يحمل تضاريس الأرض وانطلاقاً من المعطيات السابقة، فقد جرت محاولات عدة لتصوُّر الشكل الحقيقي للأرض ولرسمه، ولهذا الغرض كان لا بد من معرفة أطوال أقواس مختلفة من الكرة الأرضية تحصر أو تحدد زوايا معروفة القيمة. والمرجع الأساسي الذي يمكن الاعتماد عليه هنا هو مراكز النجوم لأن اتجاهها بالمقارنة مع محاور ومستويات محددة على الأرض تتغير وذلك نتيجة حتمية لدوران الأرض حول نفسها. وعلى هذا مثلاً يلاحظ أن القطب ينخفض أو يتراجع في الأفق بالاقتراب من خط الاستواء. ومن هنا أمكن استخلاص الحقيقة الثابتة التي يمكن الاستناد إليها وهي الاتجاه العمودي بالنسبة للمستوى الأفقي، وهذا الاتجاه يحدده اتجاه النواس على السطح السائل الحر الساكن واتجاه هذا الخيط هو الذي يحدد اتجاه الجاذبية طبعاً، والذي يدخل فيها أثر القوة النابذة حتماً. والحقيقة أن الاتجاه العمودي الذي يحدده خيط النواس لا يمر من مركز الأرض إلا على القطب تماماً، حيث تنعدم القوة النابذة، وعلى خط الاستواء تماماً حيث القوة النابذة هنا تؤثر في نقاط دائرة كاملة بعدها عن محور الدوران واحد وثابت. وعلى هذا الأساس تم تخيّل أو تصوّر مايعرف بالجيوئيد Geoide الذي يمكن تعريفه بأنه شكل كروي قريب جداً من شكل الكرة الهندسية من دون أن يكون كروياً تماماً، وتتعامد على نقاطه كافة محاور الثقالة أو الجاذبية الأرضية، ويعزى عدم الكروية الكاملة إلى تباينات الجاذبية الناجمة هي أيضاً عن تباين طبيعة المواد المكونة للكرة الأرضية وتوزعها، ولتحديد شكل هذا الجيوئيد لا بد من وجود أو من صنع «إهليلج مَرْجعٍ» له محور مواز لمحور العالم، وهذا الإهليلج يُرسم بطول القطرين القطبي والاستوائي بغية تحديد قيمة التفلطح أو مقداره، وبعدها يمكن الانتقال إلى الجيوئيد (شكل الأرض الواقعي) (الشكل ٧) الذي هو الشكل الكروي (تجاوزاً) الذي يمثل المسافات أو الفروق التي تفصل حدوده الخارجية عن حدود إهليلج المرجع، وهذه المسافات تراوح عادة بين عشرات الأمتار وبضع مئات منها في أقصى نقاط التباعد عادة.



الشكل-٧- الجيوئيد

إن أبعاد الجيوئيد تختلف قليلاً باختلاف قياسات إهليلج المرجع الذي يُبنى على أساسه. وقيمة تفلطح إهليلجات المرجع التي يمكن الاعتماد عليها لتحديد شكل الجيوئيد وأبعاده تختلف من بلد إلى آخر مع أن هذه الاختلافات تبقى غير محسوسة عملياً، إذ إن تفاوت قيم التفلطح لا تزيد على ١ : ٢٩٠ إلى ١ : ٣٠٠ أي إنها تراوح بين ١ / ٢٩٠ و١ / ٣٠٠ تقريباً. والواقع أن المصلحة العالمية فيما يخص دراسة الجيوئيد المذكور بشكله الكامل، أو تحديد شبكة الإحداثيات الكاملة، تفترض وجود إهليلج مرجع عالمي واحد يبنى عليه الجيوئيد، مع أن ذلك يتطلب القيام بإجراء حسابات وتعديلات وتصحيحات إضافية لأن إهليلجات المرجع المعروفة عالمياً متعددة.

إن قضية توحيد هذا الإهليلج أصبح حقيقة لا مفر منها بعد تطور وسائل التقنية الحديثة فيما يتعلق بعلم قياسات الأرض، وتطور علم الجيوديزية (علم مساحة الأرض) Geodesie ولا سيما بعد أن أصبح في متناول الجيوديزيين وسائل وطرائق بحث كونية يمكن مراقبة الأرض منها، وأهم إهليلجات المرجع المعروفة:

إهليلج كلارك R.Clark: وضع كلارك إهليلجين أولهما عام ١٨٦٦. وثانيهما، وهو المعدل، عام ١٨٨٠، ولم يستخدم هذا الإهليلج خارج الولايات المتحدة الأمريكية، أما قياسات هذا الإهليلج فهي: طول نصف القطر الاستوائي ٦٣٧٨٢٤٩,٢م وقيمة تفلطحه ١ : ٢٩٣,٤٧.

-في بداية القرن العشرين وفي المؤتمر الجيوديزي العالمي، تم الاتفاق على استخدام إهليلج هايفورد F.Hyford عالمياً، وقياساته هي: طول نصف القطر الاستوائي ٦٣٧٨٣٨٨م ومقدار تفلطحه ١ : ٢٩٧ وذلك استناداً إلى القياسات المختلفة التي أجريت في مناطق متفرقة من الكرة الأرضية، ومع إهليلج المرجع هذا عُرضت القاعدة التي يمكن بوساطتها استنتاج التبدلات النظرية (وفق خطوط العرض وبحسب الارتفاعات) لقيمة ج على الكرة الأرضية التي تتوزع موادها المختلفة ضمن كرة أرضية لها الأبعاد التي اقترحها هايفورد. وهذه القاعدة هي المستخدمة لإعطاء التبدلات النظرية للجاذبية على مستوى الجيوئيد وفقاً لخطوط العرض φ والقاعدة هي:

(ج= ٩٧٨,٠٤٩ (١+ ٠,٠٠٥٢٨٨٤جب٢ φ – ٠,٠٠٠٠٠٥٩ جب٢ ٢ φ)

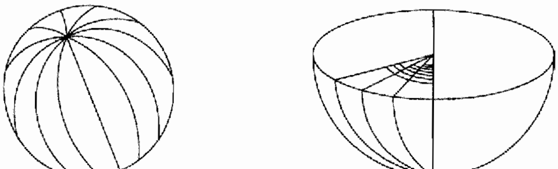
-وفي عام ١٩٤٢ اقترح كروسكي N.Krouski إهليلج مرجع أبعاده هي: طول نصف القطر الاستوائي ٦٣٧٨٢٤٥,٠٠م ومقدار تفلطحه ١ : ٢٩٨,٣، وقد أخذت بهذا المرجع دول ما كان يعرف بالمنظومة الاشتراكية منذ ظهوره.

وفي اجتماع اتحاد الفلكيين العالمي الذي عقد في هامبورغ عام ١٩٦٤، وبعد مراجعة كاملة لمجمل النظام، تم تبني هذه المعطيات مرجعاً جديداً جاء نتيجة لتطور المعطيات الجيوديزية التي توصل إليها بمساعدة الأقمار الصنعية، وفي مؤتمر لوزان الذي عقد عام ١٩٦٧ قامت جمعية الجيوديزيين العالمية بتبني المقترح السابق نفسه وأخذ به عالمياً، أما أبعاد هذا الإهليلج أو قياساته فهي: طول نصف القطر الاستوائي ٦٣٧٨١٦٠,٠٠م ومقدار تفلطحه ١ : ٢٩٨,٢٥.

الإحداثيات الجغرافية

وهي شبكة من دوائر العرض وخطوط الطول الوهمية المحملة على الكرة الأرضية بغية التحديد الدقيق للمواقع على سطح هذه الكرة.

دوائر الطول (خطوط الطول): مجموعة الدوائر الوهمية الكاملة والمتساوية فيما بينها متحلقة حول الكرة الأرضية ومارة من القطبين وتفيد في تحديد موقع نقطة ما شرقاً وغرباً بالمقارنة مع خط طول المبدأ، وعدد هذه الخطوط ٣٦٠ خط طول: ١٨٠ شرقاً ومثلها غرباً. وخط الطول هو الخط الوهمي الواصل بين النقاط التي يكون لها درجة طول واحدة، وتحدد هذه الدرجة بسهولة بوساطة قياس الزاوية الناجمة أو المتشكلة عن التقاطع بين مستوى خط الطول المار من النقطة المطلوبة، ومستوى خط طول المبدأ في محور الأرض (الشكل ٨).



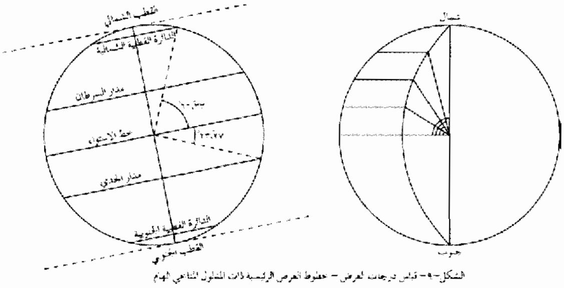
الشكل -٨- طريقة قياس درجات الطول

ولتحديد خط طول المبدأ، اتفقت دول العالم في مؤتمر عقد عام ١٨٨٤ على أن يكون خط الطول المار من مرصد غرينتش قرب لندن مبدءاً لخطوط الطول وذلك بغية توحيد القياسات والإحداثيات على الصعيد العالمي. وبما أن الأرض بدورانها حول نفسها مرة كل ٢٤ ساعة تتم دورة كاملة أي تقطع ٣٦٠° فإنها تقطع في كل ساعة ١٥° درجة طول، يكون التوقيت فيها واحداً عملياً (أي إن التوقيت واحد في النطاق الذي يغطيه ١٥ درجة طول). وبالانتقال شرقاً أو غرباً من هذه المنطقة فإن التوقيت يتغير بمقدار ساعة واحدة تقديماً باتجاه الشرق وتأخيراً باتجاه الغرب لكل ١٥ درجة طول أو مايعرف بالحزمة الساعية، ذلك أن كروية الأرض واتجاه دورانها حول نفسها من الغرب إلى الشرق يؤدي إلى أن المناطق الشرقية ترى النور قبل المناطق الغربية، من هنا ظهرت ضرورة التقسيم الزمني للكرة الأرضية إلى ماعرف بالحزم الساعية التي تتألف كل منها إذن من منطقة تغطيها ١٥ درجة طول، ومن هنا فإن خط الطول ١٨٠ أصبح ذا أهمية حساسة ومميزة على الصعيد العالمي، ذلك أنه الحد الفاصل لفرق توقيت مقداره ٢٤ ساعة كاملة، فمثلاً إذا كانت التوقيت الساعة ١٢ ظهراً من يوم ٢٠ آذار شرق الخط المذكور مباشرة فإن التوقيت يكون الساعة ١٢ ظهرا من يوم ١٩ آذار غرب الخط المذكور مباشرة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن المسافات بين خطوط الطول تختلف باختلاف درجات العرض ذلك أن دوائر العرض ليست متساوية فيما بينها. وهكذا يلاحظ أن المسافة بين خطي طول على خط الاستواء تساوي ١١١,١١١كم مقابل ٧٨,٨٤٩م على خط العرض ٤٥° لتنعدم هذه المسافة تماماً وتصبح صفراً في نقطة القطب أو درجة العرض ٩٠°.

دوائر العرض (خطوط العرض): وهي مجموعة من الدوائر الوهمية على الكرة الأرضية تفيد في تحديد موضع نقطة ما شمالاً أو جنوباً بالمقارنة مع دائرة أو مع خط الاستواء أو خط العرض صفر الذي يعدُّ أكبر دوائر العرض ومبدأها، ويبلغ عدد درجات العرض ١٨٠° درجة منها ٩٠° شمالاً ومثلها جنوباً، أما عدد خطوط العرض فهو ١٧٨ خطاً لأن القطبين هما نقطتان، أما دائرة العرض أو خط العرض تعريفاً فهي الدائرة التي تصل بين النقاط ذات درجة العرض الواحدة والتي يمكن تحديدها من خلال قياس الزاوية التي يحددها تقاطع عمودي النقطة المطلوبة، مع مستوى دائرة

الاستواء (الشكل ٩) وهنالك خطوط عرض ذات مدلول مناخي مهم جداً، يحدده إمكان تعامد أشعة الشمس عليها في أثناء دوران الأرض حول الشمس، وهذه الدوائر أو الخطوط هي دائرتا العرض ٢٣ درجة و٢٧



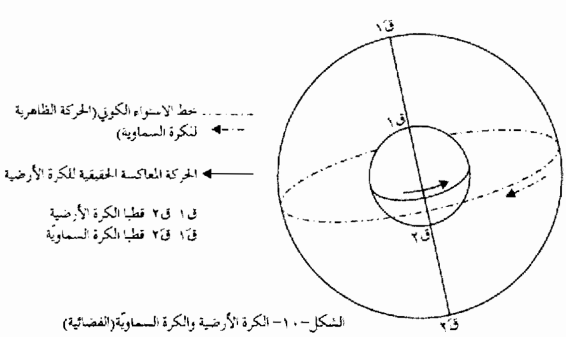
الشكل-٩- قياس درجات العرض - خطوط العرض الرئيسية ذات المدلول المناخي الهام

دقيقة شمالاً وتعرف باسم مدار السرطان، وجنوباً وتعرف باسم مدار الجدي إضافة إلى دائرتي العرض ٦٦ درجة و٣٣ دقيقة شمالاً وجنوباً وتشكلان الدائرتين القطبيتين الشمالية والجنوبية.

يمكن تحديد درجة العرض بصورة تقريبة استناداً إلى مراقبة نجم القطب ذي الوضع العمودي تماماً على القطب الشمالي، في حين أنه يقع في الأفق تماماً عند مراقبته من مرصد واقع على خط الاستواء تماماً، وبالاتجاه من المرصد المذكور مسافة ١١١,١١١كم شمالاً يرتفع نجم القطب المذكور درجة واحدة، وهكذا حتى الوصول إلى نقطة القطب الشمالي حيث يتخذ هذا النجم وضعاً عمودياً تماماً. إن العلاقة السابقة (مسافة ١١١,١١١كم ليرتفع نجم القطب درجة واحدة) ليست ثابتة تماماً ولا صحيحة كلياً في نقاط الكرة الأرضية كافة ذلك أن الأرض ليست كروية تماماً. وهذا مايؤدي إلى ازدياد المسافة بين درجة عرض وأخرى بالاتجاه من الاستواء إلى أي من القطبين، وإن كانت زيادة المسافة هذه ضئيلة الأهمية تماماً.

دورة الأرض حول نفسها

لو أن مراقباً ما مقيداً على محور القطبين رأسه باتجاه القطب الشمالي وقدماه باتجاه القطب الجنوبي، فإنه سوف يجد نفسه متحركاً بفعل حركة الأرض حول محورها من يمينه باتجاه يساره بعكس اتجاه عقارب الساعة وإذا عُد هذا المراقب نفسه ثابتاً من دون حركة، وحاول تحديد اتجاه الحركة الظاهرية للكرة السماوية (الفضائية) بالمقارنة معه فإنه سوف يلحظ أنها تخضع لحركة يومية لها محور الدوران الحقيقي نفسه ولكن مع اتجاه دوران مباشر من اليسار إلى اليمين بحسب اتجاه عقارب الساعة. وعلى هذا الأساس فإن مراقباً متجهاً نحو الجنوب سوف يلاحظ إشراق النجوم من يساره وغروبها من يمينه (الشكل ١٠) فلحركة الأرض حول نفسها اتجاه مباشر



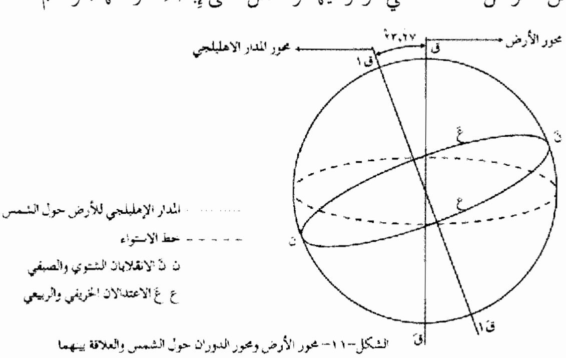
الشكل-١٠- الكرة الأرضية والكرة السماويّة (الفضائية)

من الغرب باتجاه الشرق تماماً كحال اتجاه حركتها حول الشمس. إن اتجاه محور الدوران وموقعه بالمقارنة مع نجوم يفترض أنها ثابتة مثلاً، لا يخضع للتبدلات بل أنه ثابت، وبتعبير آخر يمكن القول إن مواقع الجهات الأربع في أفق نقطة ما ودرجة عرض هذه النقطة ذاتها وكذلك وضعية محور الدوران تبقى ثابتة بالمقارنة مع نجم القطب مثلاً، فنجم ما يعود ليرى دائرة نصف نهار محددة بفاصل زمني متساوٍ وقدره ٢٣ ساعة و٥٦ دقيقة وأربع ثوان (اليوم النجمي) وهو الوقت الحقيقي الذي تستغرقه الأرض لدورانها حول محورها مقارنة مع اتجاه نجم معين أو محدد.

إن قواعد حركة الأرض حول محورها ليست ثابتة تماماً وذلك لأن موضع مايعرف بقطبي الكرة الكونية Poles Celestes يتغير ببطء شديد بالمقارنة مع النجوم. وقد رأى كوبرنيك في تغير الموضع هذا النتيجة العملية للتغير القرني (١٠٠ سنة) في اتجاه محور الأرض بالمقارنة مع النجوم التي يفترض أنها ثابتة، وبالتالي في خط الاستواء الكوني أو الفضائي المتحرك أيضاً (إن السطح المتعامد مع محور القطبين والمار من مركز الأرض يعرف بخط الاستواء ومستواه وامتداد هذا المستوى يحدد خط الاستواء الكوني للكرة السماوية)، ولهذا السبب فإن نقطتي تقاطع هذا الخط مع الإهليلج الذي ترسمه الشمس بحركتها الظاهرية (نقطة الاعتدال) تتأخر أو تتراجع على الإهليلج المذكور بمعدل قدره ٥٠,٣ ثانية سنوياً، أي إن الشمس للوصول إلى نقطة الاعتدال الربيعي مثلاً مرة ثانية مشكلة مايعرف بالسنة المدارية Année tropique، سوف تستغرق وقتاً أقصر من الدورة الكاملة بحدود ٢٠ دقيقة و٢٣ ثانية. وهذا مايتفق مع القوس الذي يبلغ طوله ٥٠,٣ ثانية وبتعبير آخر فإن السنة المدارية أقصر من السنة الفعلية لدوران الأرض حول الشمس أو مايعرف بالسنة النجومية Année sidérale بمدة ٢٠ دقيقة و٢٣ ثانية وهذا مايعرف بمباكرة الاعتدالين أيضاً.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن محور دوران الأرض يميل على خط المدار الإهليلجي بمقدار ٢٣ درجة و٢٧ دقيقة وعلى هذا يمكن القول بتراجع نقطة الاعتدال السابق ذكرها بمقدار ٥٠,٣ ثانية سنوياً كأنها ناجمة عن حركة قطبي الكرة السماوية ذاتها ومرسومة على مسافة ٢٣ درجة و٢٧ دقيقة (الشكل ١١). إن دوران الأرض حول الشمس وميل محور دورانها هما السبب في وجود أيام وليال بأطوال مختلفة إضافة إلى أنهما السبب أيضاً في تشكل الفصول الأربعة، ومحور الدوران ذاته ليس ثابتاً لأن القطب نفسه متغير الموضع سنوياً ضمن إهليلج يصل طول محوريه إلى ٥×٦م. (طول المحور الكبير ستة أمتار والصغير خمسة أمتار).

إن دوران الأرض حول محورها ليس ثابتاً تماماً وذلك لوجود مجموعة من العوامل المعقدة التي تؤثر فيها وتعمل على إبطاء حركتها، وأهم هذه

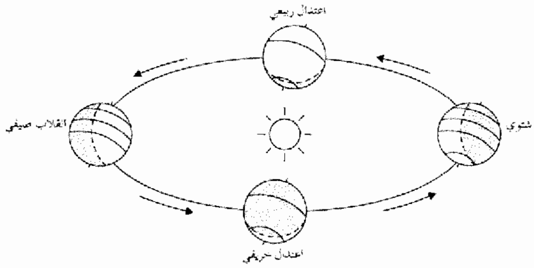


الشكل-١١- محور الأرض ومحور الدوران حول الشمس والعلاقة بينهما

العوامل هي: احتكاك مياه البحار والمحيطات على القيعان ولا سيما في أوقات المد والجزر والتبدلات الفصلية في نظام الرياح، ثم دور القمر والشمس وبقية الكواكب وأثرها. ونتيجة لهذه العوامل فقد لوحظ أن طول اليوم الحقيقي (اليوم النجمي) يتناقص بمعدل ٠,٠٠١٦٤ ثانية في كل قرن.

دوران الأرض حول الشمس

في الوقت الذي تدور فيه الأرض حول محورها مسببة تعاقب الليل والنهار، فإنها تقوم بالدوران حول الشمس وفق مدار إهليلجي، ومتوسط بُعد الأرض عن الشمس في حركتها هذه هو ١٤٩,٦ × $١٠^{٦}$ كم، علماً أن الحد الأعظمي لهذه المسافة هو ١٥٢ × $١٠^{٦}$ كم، والحد الأصغري لها هو ١٤٧ × $١٠^{٦}$ كم، وحركة الأرض هذه حول الشمس هي السبب في حدوث الفصول الأربعة التي تعد نتيجة مباشرة لميلان محور دوران الأرض حول نفسها على مدار إهليلجي حول الشمس بمقدار ٢٣ درجة و٢٧ دقيقة. وبما أن محور الدوران (محور القطبين) يحافظ على وضعه في أثناء الدوران فإن القطبين الشمالي والجنوبي يتلقيان حرارة الشمس وضوءها المباشر بالتناوب، ويختلف تبعاً لذلك طول الليل والنهار في نقاط الكرة الأرضية كافة. ففي وقت الانقلاب الصيفي (٢١ حزيران) تكون أشعة الشمس عمودية على مدار السرطان (صيف النصف الشمالي) وعندها يزداد طول النهار في نصف الكرة الشمالي، بالمقابل يحدث العكس في النصف الجنوبي لدرجة ينعدم فيها النهار على المنطقة المحصورة بين خط العرض ٦٦,٥° جنوباً والقطب الجنوبي في الوقت نفسه الذي ينعدم فيه الليل في المنطقة المحصورة بين خط العرض ٦٦,٥° شمالاً والقطب الشمالي، وذلك لأنه عند الانقلاب الصيفي في ٢١ حزيران يميل القطب الشمالي إلى الشمس في حين أن القطب الجنوبي يميل عنها، وفي الانقلاب الشتوي في ٢١ كانون الأول يتكرر الوضع السابق ولكن مع انعكاس الأوضاع انعكاساً كاملاً في نصفي الكرة، ذلك لأن القطب الجنوبي هو الذي يميل إلى الشمس (صيف النصف الجنوبي) في هذه المرة في حين أن القطب الشمالي يميل عنها (الشكل ١٢).



الشكل-١٢- المدار الإهليلجي للأرض حول الشمس وحدوث الفصول الأربعة

أما في حالتي الاعتدالين الربيعي والخريفي (٢١ آذار و٢٣ أيلول) فإن أشعة الشمس تكون عمودية على خط الاستواء فيتلقى كل من نصفي الكرة مقادير متساوية من الضوء والحرارة، وابتداءً من هذين الاعتدالين يبدأ التطور عادة باتجاه الانقلابين محدثاً التباينات المختلفة على نصفي الكرة، فبعد ٢١ آذار مثلاً، ونتيجة لميل محور دوران الأرض، يتزايد تعرض النصف الشمالي لضوء الشمس وحرارتها ويبدأ انزياح الوضع العمودي لأشعة الشمس باتجاه الشمال تدريجياً، وما إن يميل القطب الشمالي إلى الشمس حتى تشرق هذه الأخيرة عليه دائماً من دون أن يعرف الظلمة، ويزداد اتساع الرقعة التي لا تعرف الليل في نصف الكرة الشمالي لتبلغ أوجها في ٢١ حزيران، وباستمرار دورانها بعد هذا الانقلاب الأخير يبتعد القطب الشمالي رويداً رويداً عن التعرض للشمس إلى أن ينتهي الوضع بتساوي الليل والنهار تماماً مرة ثانية وذلك عندما تعود أشعة الشمس إلى الوضع العمودي على خط الاستواء في ٢٣ أيلول أي في الاعتدال الخريفي.

نهاية الأرض أو موتها

مادامت الأرض هي الكوكب الوحيد المأهول بالحياة فإنه من الطبيعي التساؤل عن مصيرها، لأن الحياة بكل أنماطها ومعانيها مرتبطة بهذا المصير. وما دام ظهور الحياة واستمرارها مرتبطين بالماء والهواء وبحرارة للشمس معينة، فإن تطور هذه الأمور أو معرفة الخطوط الكبرى لسيرها فيما يتعلق بالأرض له أهمية خطيرة للإجابة عن التساؤل الكبير حول نهاية الأرض. فالكواكب البعيدة جداً عن الشمس هي كواكب ميتة لأن غلافها الجوي غلاف جليدي مكون من بلورات الأمونياك والهدروجين أو من الميتان ولهذا السبب عدت كواكب ميتة، في حين أن الكواكب القريبة من الشمس مثل عطارد والزهرة تتميز بارتفاع هائل في درجات الحرارة عليها، لدرجة تستحيل معها الحياة. وتتعدد الآراء وتختلف وجهات النظر لوضع النهاية المحتملة للأرض، وأكثر النظريات بساطة هي تلك التي تقدر بأن نهاية الأرض سوف تكون النتيجة المباشرة لاقترابها أو لملامستها لنجم تائه في الكون، مما يؤدي إلى انفجار الأرض وتحولها إلى غبار سديمي بفعل الحرارة الهائلة التي سوف تنجم عن مثل هذا اللقاء أو عن هذه الملامسة بين الأرض والنجم التائه.

أما النظرية الثانية فترى أن نهاية الأرض هي النتيجة الحتمية لتبرد الأرض وما ينجم عنه من تبدلات في طبيعة غلافها الغازي. إن التبرد التدريجي هذا سوف ينجم عن تبرد النواة الداخلية للأرض في الوقت نفسه الذي يجب ألا يُنسى بأن الشمس تتبرد تدريجياً أيضاً، وبالتالي فإن الأرض تفقد شيئاً فشيئاً مايصل إليها من حرارة الشمس وهكذا فإن نسبة غاز ثاني أوكسيد الكربون CO_2 في الغلاف الغازي سوف تزداد تدريجياً وتتناقص معه كمية بخار الماء والأكسجين لأن هذا الأخير سوف يدخل في تركيب أكاسيد الصخور بدرجة أكبر مما هو عليه في الوقت الحالي، وهكذا يقترب تركيب الغلاف الغازي للأرض من وضع تركيب الغلاف الغازي للمريخ والمتميز بأن الأكسجين فيه قد امتص من قبل القشرة الصلبة للكوكب، مما زاد في نسبة أكسيد الحديد على هذا الكوكب، وبانخفاض درجة الحرارة إلى مادون الصفر تنتهي الحياة وتتحول كل المياه إلى جليد وتتساقط رطوبة الغيوم ثلوجاً، وهذا يساعد على تركيز غاز الكربون الموجود في الغلاف الغازي، وما دامت الغيوم قد انعدمت فإن تبرد الأرض يصبح أشد سرعة بكثير في حين أن استمرار تناقص الحرارة إلى أكثر من -٢٠٠° مئوية سيؤدي إلى تحول الغلاف الغازي للأرض إلى مايماثل الغلاف الغازي لكوكب أورانوس الذي تصل درجة حرارة سطحه إلى -٢٠٧° درجة مئوية، أي إنه لا يحوي سوى الهدروجين والهيليوم والميتان.

أما النظرية الثالثة فتأخذ بها مجموعة من الجيوفيزيائيين الذين يعارضون الفكرة السابقة بشدة بل ويخالفونها تماماً وذلك انطلاقاً من مبدأ أن كل صخور اليابسة، ولا سيما الاندفاعية منها، هي صخور مشعة، وتفكك

الأجسام المشعة كما هو معروف يصاحبه تحرر أو إطلاق للحرارة، والمعروف أن الصخور الاندفاعية تشكل ٥٢٪ من صخور اليابسة، وأن طناً واحداً من هذه الصخور يحوي وسطياً ٣,٤٦ بالألف مغ من الراديوم و١١,٧ مغ من التوريوم، وبما أن غراماً واحداً من الراديوم يعطي ١٦٤ حريرة في الساعة إذن يمكن القول إن الأرض ستشهد تزايداً حرارياً مستمراً، واعتماداً على ماسبق فقد قام العالم جولي Joly بحساب أنه على مدى مئة مليون سنة ستصل حرارة الأرض إلى ١٨٠٠° درجة مئوية، وهكذا فإنها سوف تذوب وتتحول إلى غبار سديمي. على أن كل ذلك لا يخرج عن نطاق الافتراضات والتخمينات.

محمد فائد حاج حسن

الموضوعات ذات الصلة:

الجو ـ الزلازل ـ القارات ـ المناخ.

مراجع للاستزادة:

_J.GOGUEL, sous la direction de la Terre (libraire Gllimard, Paris, 1959).
_G.GORSHKOV et A.YAKUSHOVA, Physical Geology, (Mir Publishers, Moscow, 1977).

■ الإرضاع

الإرضاع nursing هو العملية التي يقدم بها الغذاء للرضيع وله ثلاث طرائق: الإرضاع الطبيعي والإرضاع الاصطناعي والإرضاع المختلط الذي يجمع بين الإرضاعين.

كان الإرضاع الطبيعي ولا يزال أهم طريقة لتغذية الطفل، وقد حاول الأطباء المختصون بالتغذية منذ عشرات السنين إيجاد بدائل لحليب الأم فكان الإرضاع الاصطناعي بحليب البقر أو الماعز أو الغنم بنسب وتمديدات مختلفة. ثم عرفت أصناف من الألبان التجارية المعلبة وجرى تطويرها وتنويع تركيبها مع الزمن. وكان آخر المحاولات تصنيع الألبان المركبة التي تعادل في مكوناتها حليب الأم وأُطلق عليها اسم الألبان «المؤنسنة».

الإرضاع الطبيعي

إن للإرضاع الطبيعي مزايا عملية ونفسية، إذ يعدّ حليب الأم أفضل الأنواع الملائمة للرضيع، لأنه يلبي حاجاته على الوجه الأكمل، فهو متوافر دائماً بالحرارة المناسبة من دون حاجة إلى تحضير، وهو طازج خال من الجراثيم، لذلك تكون الاضطرابات الهضمية الناجمة عن استعماله أقل من بقية أصناف الحليب الأخرى، وقد تبين أن الكثير من حالات الأرجية allergy وعدم تحمل بروتين حليب البقر هي المسؤولة عن نسبة كبيرة من اضطرابات التغذية عند الأطفال كالإسهال والنزف الهضمي (وهذا ما لا يشاهد في الإرضاع الطبيعي). كما أن الرَّيْل spitting والمغص والإكزيمة البنيوية أقل مصادفة في الإرضاع الطبيعي.

يحتوي حليب الأم على أضداد الجراثيم والفيروسات، وفيه نسبة عالية من الغلوبلين المناعي IgA كما أن الأطفال المولودين من أمهات لديهن نسبة عالية من أضداد شلل الأطفال يقاومون الأخماج infections التي تحصل من لقاح الشلل الموهَّن الفوعة attenuated، وهذا الأثر واضح حينما يكون الطفل وليداً ولكن ذلك لا يتعارض مع التمنيع immunization الفعّال في الأشهر الثاني والرابع والسادس من العمر. كما تبين أن بعض المواد الموجودة في حليب الأم تحول دون الإصابة بهجمات النكاف mumps والنزلة الوافدة (انفلونزا) والتهاب الدماغ الياباني B. وقد يكون للأضداد التي تمر إلى حليب الأم فعالية ممنعة في الجهاز الهضمي ضد العضويات التي تدخل إليه فتوجد البلاعم macrophages بصورة طبيعية في اللبأ وحليب المرأة، وقد تكون قادرة على تشكيل المتممة complement والليزوزيم واللاكتوفيرين «وهو البروتين المتحد بالحديد الذي يتميز بأنه مثبط لفوعة الجراثيم القولونية E. Coli في الأمعاء». كما أن (pH) البراز في الإرضاع الطبيعي أخفض منه في الإرضاع الاصطناعي وتكون محتوياته من الجراثيم من نوع العصيات اللبنية Lactobacillus أكثر إذا ما قورنت مع العصيات القولونية الشكل Coliform في الإرضاع الاصطناعي. كما أن حليب المرأة يحتوي على عامل نمو يسهل نمو العصيات اللبنية في الأمعاء، وقد يقي النبيتُ (الفلورا) المعويُّ في الأطفال الذين يرضعون من أمهاتهم من الأخماج ببعض القولونيات. كذلك فإن الليباز المحرَّضة بالأملاح الصفراوية تقتل الجيارديات والمتحولات الأميبية. إن حليب الأمهات اللواتي يتناولن تغذية محكمة يمد الرضيع بالعناصر الغذائية مدأ جيداً في الأشهر الأولى من العمر، لكنه يحتاج بعدها إلى إضافة الفيتامين «د» والحديد إلى غذائه.

الإرضاع الاصطناعي

إن أساس أغلب المركبات التي تستعمل في الإرضاع الاصطناعي هو حليب البقر أو أشكاله المعدَّلة. وهناك أنواع أخرى من الحليب وبدائله متوافرة للأطفال الذين لايتحملون حليب البقر. وتقلل عمليات تعقيم هذه المركبات وتبريدها من نسبة الأمراض والوفيات التي تسببها الأخماج المعوية، وإن معاملة الحليب بالغلي البسيط أو البسترة أو التجنيس أو التبخير.. تغير الجُبنين caseïn وتجعل الخثارات المتكونة في المعدة سهلة الهضم. وقد دلت الدراسات الموضوعية الغذائية لنمو الأطفال «فيما يخص الوزن والطول» على وجود فروق بين الأطفال الذين يتغذون بحليب البقر والذين تُرضعهم أمهاتهم.

أما الحليب المستخدم في المركبات الاصطناعية فمنه الحليب غير المطهو raw- milk ولا ينصح به لتغذية الرضع لأنه يكوّن خثارة كبيرة في المعدة ويتلوث بسرعة، ومنه الحليب المبستر pasteurized-m. والبسترة تتلف الجراثيم الممرضة وتعدل الجبنين وتجعله أقل حجماً، ومع ذلك، يجب أن يغلى الحليب المبستر عندما يستعمل في تغذية الرضع كما يمكن حفظه في البراد مدة ٤٨ ساعة حداً أعلى. ومن الحليب المستخدم أيضاً الحليب «المجنس» homogenized- milk: والتجنيس يحطم كريات الدسم، ومن ميزاته أن الخثارة تكون أصغر حجماً والهضم أسهل، ومنه كذلك الحليب المبخر: evaporated- milk، ويتميز بتكوين خُثارة صغيرة في المعدة.

تحتاج تهيئة الحليب للإرضاع إلى إضافة الماء بنسبة ١:١، وأكثر أنواع الحليب المحضر مشتق من حليب البقر ومعظمها متوافر في شكلين: سائل ومسحوق. ويشبه تركيب غالب هذه الأنواع تركيب حليب الأم ولكنها مزودة بمقادير من الفيتامين «د» وبعض الفيتامينات الأخرى الإضافية وقد يزاد على بعضها الحديد.

وهناك أنواع أخرى معدّة لأحوال غذائية خاصة كالحليب المنخفض الصوديوم المستخدم في «تدبير» الأطفال المصابين بقصور القلب الاحتقاني، ولكن يجب استعماله بحذر. وهناك الحليب المنخفض المحتوى من الفنيل آلانين الذي يعد أساسياً في تغذية الأطفال المصابين ببيلة الفنيل كيتون. ثم هناك الحليب المكثف condensed milk وهو عالي السكر منخفض الدسم والبروتين، ويلجأ إليه حينما تدعو الحاجة إلى حمية غنية بالحريرات. وهناك أيضاً الحليب المجفف الكامل الدسم dried whole milk وميزاته تفوق الحليب المبخر لكن تركيبه يتغير عند تعرضه للهواء. وهناك الحليب المجفف الخالي من القشدة dried skim m ومقدار الدسم فيه يساوي ٥ر٠٪ أما كمية الدسم في الحليب نصف الدسم فيقدر بـ٥ر١٪ وكلاهما متوافر ويستعملان للأطفال المصابين بعدم تحمل الدسم. أما الحليب المحمض والمخمر acid and fermented m فنادراً ما يستخدم في تغذية الرضع لأنه يميل إلى إحداث الحماض. وهناك حليب الماعز الذي يستخدم لمن يتحسس بحليب البقر، وهو أقل شيوعاً من حليب فول الصويا أو الحليب المشتق من لحم الخروف أو من حلالات الكازئين. ويحوي حليب الماعز بالموازنة مع حليب البقر نسبة أقل من الصوديوم ونسبة أعلى من البوتاسيوم والكلور وحمض اللينوليئي وحمض الأراكيدونيك، كما أن الدسم فيه أكثر قابلية للهضم، لكنه فقير بالفيتامين د والحديد وحمض الفولي، ولذلك فالاقتصار عليه يسبب فقر الدم الكبير الكريات macrocytic anemia إضافة إلى إمكان التعرض لداء البروسيلات [ر] عند تناوله وهو متوافر بنوعين مبخر ومسحوق. وهناك الحليب البروتيني ويجب أن يستخدم بحذر ولمدة قصيرة. يضاف إلى كل ما سبق بدائل الحليب والحليب المنخفض القدرة على توليد الحساسية: ويستعملان للأطفال الذين لديهم قابلية التحسس بحليب البقر، ومنها مستحضرات تحوي حلالات بروتينية، وبعضها لا يحوي لاكتوزاً وبالتالي فهي مفيدة للمصابين بالغالاكتوزيميا، كما أن بعضها خال من اللاكتوز ويحوي غليسريدات متوسطة السلسلة.

وثمة بدائل غذائية عنصرية أعدت لمواجهة المشاكل الغذائية عند الأطفال والكهول الذين يعانون من سوء الامتصاص بسبب مرض أساسي أو استئصال جراحي.

نصائح تتصل بالإرضاع الاصطناعي

تنصح الأمهات عند إرضاع أطفالهن بحليب غير حليبهن، تجنباً للاضطرابات الهضمية، باستخدام عدد من الزجاجات المقاومة للحرارة والملساء من الداخل والمرقمة وذات الفتحة الواسعة واستخدام عدد من الحلمات يزيد على عدد الرضعات، وغلي الزجاجات والأدوات مدة ١٠ دقائق. أما الحلمات المطاطية فتغلى ٥ دقائق فقط.

وأخيراً لا بد من التأكيد أن حليب المرأة هو المثالي لتغذية الرضيع في المراحل الأولى الحاسمة من تطوره ونموه السريعين، ولكن هذا لا يمنع من استخدام الحليب الاصطناعي غذاءً إضافياً عند عدم كفاية حليب الأم.

هاني مرتضى

الموضوعات ذات الصلة:

إسهالات الأطفال ـ الأطفال (طب ـ).

مراجع للاستزادة:

-WALDO E.NELSON, Textbook of Pediatrics (W.B.Sawnders, Philadelphia 1987).

■ أرضروم

مدينة تركية، تقع في هضبة ترتفع نحو ١٨٠٠م عن سطح البحر في هضبة الأناضول [ر] الشرقي، وهي أكبر مدينة في هذه الهضبة، وترتفع بعض أحيائها إلى ٢٠٠٠م فوق سطح البحر على نهر قره صو أحد روافد الفرات [ر] الشمالية. وتبعد أرضروم نحو ١٥٠كم إلى الشمال الغربي من بحيرة وان، وتقع عند تقاطع خط الطول الشرقي ٤١ درجة و٢٦ دقيقة وخط العرض الشمالي ٣٩ درجة و٥ دقائق عند جبل عال يدعى لاباس أو اكرلي داغ.

اسمها الحالي بالتركية أرزروم أو أرزن الروم، وانتقل الاسم إلى العربية بلفظ أرض الروم (أرضروم) من اللفظ التركي أرزروم. وقد وصل إليها ابن بطوطة سنة ١٣٣٣م ودعاها أرز الروم.

دخلها العرب في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٣هـ/ ٦٥٣م واستعادها البيزنطيون سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦ ثم استعادها المسلمون سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م وبقوا فيها حتى ١٣٧هـ/ ٧٥٤م. ووقعت بعد ذلك في يد الروم إلى أن زحف عليها السلاجقة فخربت واتخذها بنوسلدق (٤٩٦-٥٩٠هـ) مقراً لهم ثم عاصمة لهم نحو مئة عام. واحتلها العثمانيون سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م وفي سنة ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م جعلتها الدولة العثمانية مركز الولاية. وشهدت المدينة ثورة أباز محمد باشا الذي شاء الاعتراف بسلطة الانكشارية، واحتلها الروس ثلاث مرات في أعوام ١٨٢٨-١٨٢٩ و١٨٧٨ و١٩١٩ وتخربت على أيديهم. واختارها مصطفى كمال مركزاً لأول مؤتمر وطني عقد فيها في ٢٣ تموز ١٩١٩.

وترجع أهمية أرضروم إلى أنها من أهم المحطات التجارية بين الشرق والغرب، وخاصة بين تبريز وطرابزون قبل كشف رأس الرجاء الصالح، وإلى موقعها الاستراتيجي على الحدود مع روسية إذ كانت قاعدة عسكرية مهمة ومركزاً للجيش التركي الثالث في الحرب العالمية الأولى. وما زالت مكانتها العسكرية بالغة الأهمية حتى اليوم.

ولأرضروم سور تاريخي قديم له أبواب أربعة منها باب قارص وباب اصطنبول وباب أردهان، ويخترقها شارع الجمهورية من الشرق نحو الغرب، وهو عمودها الفقري، وفيه معظم الحوانيت والمخازن والمحال التجارية والمؤسسات المختلطة وهي مركز تجاري مهم له شهرة قديمة ومحطة على طريق تبريز - طرابزون التجاري.

تتمثل وظيفتها الصناعية بصناعة السكر وغيرها من الصناعات الغذائية. ولها دور ثقافي مهم في شرقي تركية ففيها جامعة أتاتورك وقد توسع عمرانها وأصبحت تضم نحو ٢٤٦,١٠٠ نسمة (١٩٨٦).

ومن أبرز معالمها قلعة أرضروم الرومانية الأصل ومدارسها الدينية الإسلامية وأهمها مدرسة المئذنتين والأحمدية والياقوتية وأضرحة الحكام القدماء والجامع الكبير وجامع لالا باشا. وربطت المدينة بخط حديدي تركي - إيراني منذ عام ١٩٣٩، وغدت من المدن المزدهرة في شرقي الأناضول.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

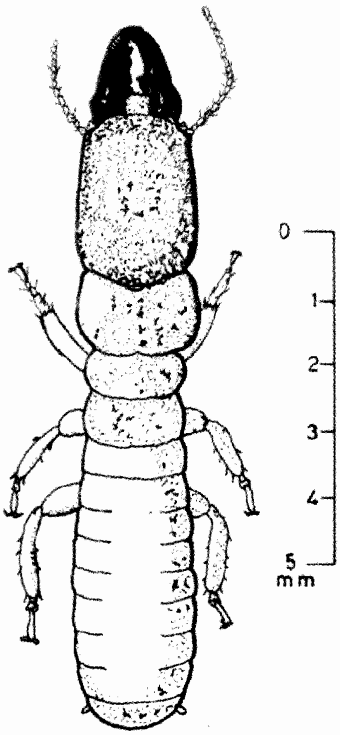
الأناضول - تركية.

■ الأرَضة (النمل الأبيض)

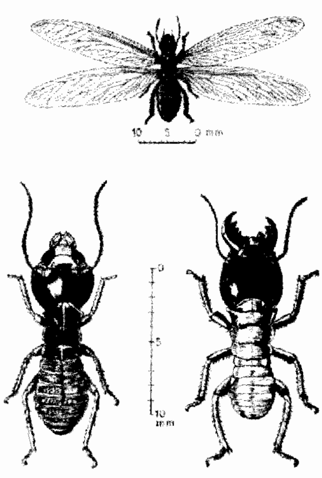
الأرضة termites حشرات صغيرة أو متوسطة الحجم، تتميز من غيرها من الحشرات بتماثل شفعي الأجنحة. ولهذا التماثل في الشكل والحجم ونظام توزيع العروق في الأجنحة venation فقد أُطلق على هذه المجموعة من الحشرات اسم متماثلة الأجنحة Isoptera. وهي تتميز بميلها للحياة مجتمعة، فهي لا توجد إلا في مجموعات صغيرة تُعَدّ بالمئات، أو في مجموعات كبيرة تقارب مئات الألوف على شكل مستعمرات. وأهم مايميِّز هذه المستعمرات اختلاف أفرادها من حيث الشكل ووجود الأجنحة أو عدم وجودها. وهي تختلف عن النمل العادي [ر] ants الذي ينتمي إلى رتبة غشائيات الأجنحة [ر] Hymenoptera، من نواحٍ عدة: فالأرضة ذات أجسام رخوة جداً ويغلب عليها الألوان الباهتة، أما النمال فهي ذات أجسام صلبة قاتمة اللون عادة. ولا يتماثل شفعا الأجنحة (عند وجودهما) لدى النمل إذ يكون الشفع الخلفي أصغر من الأمامي، وهو أقل تعرقاً. وعند الراحة يضع النمل أجنحته فوق الجسم بشكل غير متطابق بعكس الأرضة إذ يمتد الجناحان متطابقين فوق البطن تماماً. كما يتميز بطن الأرضة باتصاله بالصدر اتصالاً عريضاً مميزاً، على عكس النمل إذ يوجد اختناق واضح بين الصدر والبطن. كما أن قرني الاستشعار لدى الأرضة عقديان أو خيطيان، أما قرنا النمل فهما مرفقيان geniculate.

وأجزاء فم الأرضة من النوع القارض. والتحول فيها من النوع البسيط paurometabolous إذ تمر الأرضة في دورة حياتها بعدة أطوار مميزة هي البيضة التي تفقس وتعطي الحورية nymph التي تنسلخ عدة مرات تراوح بين ٥ و٨ انسلاخات قبل أن تصل إلى طور الحشرة الكاملة. ويستغرق الجيل الواحد في بعض الأنواع ٤ -٧ أشهر وقد يمتد في البعض الآخر ١٦ شهراً. فالأرضة صفراء العنق Calotermes flavicollis (Fabr) (الشكل ١) مثلاً (وهي أكثر الأنواع انتشاراً في الشرق الأوسط) تستغرق في تحولاتها المدد التالية:

الطور	المدة
البيضة	٥٠ - ٦٠ يوماً
الحورية الأولى	١١ - ١٣ يوماً
الحورية الثانية	١٣ - ١٨ يوماً
الحورية الثالثة	١٦ - ١٨ يوماً
الحورية الرابعة	٣٠ - ٥٠ يوماً
الحورية الخامسة (الجنود)	١٤ يوماً
المجموع	٤ - ٦ أشهر



(الشكل ١) جندي القلطرم الصفراء



(الشكل ٢) الأشكال المختلفة للأرضة المنهجية الموزنبيقية

مظاهر الأرضة وتعدد أشكالها

من أهم ما يميز مستعمرات الأرضة تعدد أشكالها واختلاف مظاهر أفرادها التي تختلف عنها لدى النمل العادي (الشكل٢). فتُطْلَق كلمة شغالة أو عاملة worker وجند أو عساكر soldiers على ما يوجد من الذكور والإناث من الأرضة. وتعمل الحوريات شغّالات. أما في النمل العادي فجميع أفراد هذين المظهرين (الشغالات والجنود) من الإناث فقط. وعلى كل حال يميز لدى الأرضة أربع مجموعات من الأفراد.

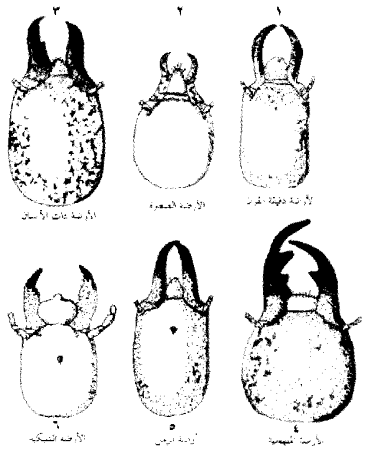
الأفراد التناسلية (الملوك والملكات): وهي أكثر أفراد المستعمرة نضجاً من الناحية التناسلية، وتتميز بأجنحتها التامة النمو (غير مختزلة أو معدومة)، وبعيونها المركبة النامية، وبلونها القاتم، وبذكورها الواضحة الصغر بمقارنتها مع الإناث التي قد يصل طول بعض الأنواع الاستوائية منها إلى ٧ - ٨ سم. ويمتد عمر الملكات أحياناً عدة أعوام، تضع خلالها آلاف البيوض التي ينتج منها في فصول خاصة أعداد كبيرة من الذكور والإناث الخصبة التي تترك المستعمرة في أسراب لتتسافد ويكوّن كل زوجين مستعمرة جديدة. ويتم ذلك عادة في مطلع الربيع أو الخريف بحسب النوع. وتَتَقَصَّف أجنحة هذه الأفراد بعد تزاوجها حتى تُرى بقاياها على شكل ثفنات جناحية wing pads.

الأفراد التناسلية الإضافية أو الاحتياطية: وتتميز بأجنحتها القصيرة، وبلون جسمها الأقل دكنة من لون الملوك والملكات، وبعيونها الأصغر نسبياً. وهي ذات قدرة على التناسل بدرجة ملحوظة، ولذلك فهي تعاون الملكات في إكثار أفراد المستعمرة الواحدة. وقد يوجد، إلى جانب الأفراد الإضافية، أفراد تشبهها ولكنها تتصف بالعقم.

الشغالات أو العاملات: وهي حوريات أو حشرات كاملة تتصف بلونها الباهت. وهي عديمة الأجنحة والعيون، وفكوكها صغيرة، وتتصف بالعقم. وتقوم هذه الأفراد التي تمثل الجزء الأكبر من أفراد المستعمرة، بمعظم الأعمال فيها كجمع الغذاء وإطعام الملكات والجنود والصغار (الحوريات) الحديثة الفقس. كما تقوم ببناء الأعشاش والدهاليز والأنفاق والحجرات (الردهات)، وتعنى بمزارع الفطر التي

تُنَمِّيها بعض مستعمرات الأرضة.

الجنود: وهي مجموعة من أفراد المستعمرات تتصف بالعقم وبضخامة رؤوسها وفكوكها، وقد تزيد هذه الضخامة على الحدود الطبيعية، مما يؤدي إلى عدم قدرتها على تغذية نفسها، فتقوم العاملات بهذه الوظيفة. وتتصف الجنود بكبر الحجم مقارنة بالعاملات، وقد لا يكون لها عيون. وظيفتها الدفاع عن المستعمرة من الدخلاء، ويتم ذلك باستخدام رؤوسها وفكوكها. ويعد شكل الفكوك ميزة أساسية يتم بها التفريق بين الأنواع (الشكل ٣).



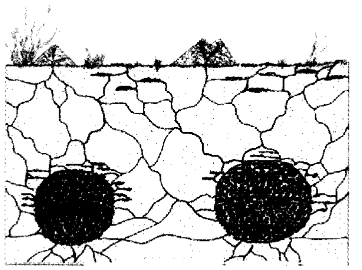
(الشكل ٣) رؤوس الجنود لأشكال الأرضة

عادات الأرضة وسلوكيتها

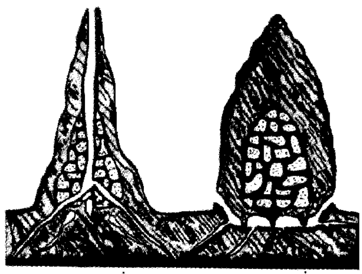
تتميز أفراد المستعمرة الواحدة بظاهرة تبادل الأغذية ولَعْق بعضها أجسام بعض. وتساعد هذه الخاصة على تَعَرُّف أفراد المستعمرات الواحدة بعضها، إذ إن لكل مستعمرة مادة تميزها. ويشتمل غذاء الأرضة على جلود انسلاخها وبراز الأفراد، وعلى الأفراد الميتة والمواد النباتية كالأخشاب ومنتجاتها.

ويحتوي الجهاز الهضمي في الأنواع الابتدائية التي تتغذى بالخشب (وهي الأكثر انتشاراً في إفريقية والشرق الأوسط) على بعض الحيوانات الأوالي Protozoa التي تساعد على هضم السليلوز، في حين توجد أنواع تتغذى بمكوِّنات التربة العضوية soilfeeding Termitinae وتخلو أمعاؤها من هذه الحيوانات، وهي تقوم بتجميع حبيبات التربة، بعد مزجها بمخلفاتها، على شكل أكمات صغيرة على سطح التربة، وبها يُستَدَل على وجودها.

وهناك مجموعات من الأرضة (الأرضيات الضخمة Macrotermitinae) اشتهر عنها استزراعها « حدائق فطرية » ضمن حجر خاصة فوق وسادة من النباتات الممضوغة، التي تستخدمها في تغذية الأفراد التناسلية الملكية والحوريات. وبسبب حاجة هذه الأنواع إلى فراغ تحت سطح التربة لإنشاء هذه المزارع فإنها تقوم بإخراج ذرات التربة فوق سطح الأرض وتبني بها هياكل mounds ذات أشكال وأحجام تختلف باختلاف التربة والمناخ بعد أن تكون قد مزجت ذراتها بلعاب العاملات (الشكلين ٤ و٥).



(الشكل ٤) مخطط عش الأرضة المنهجية موضحاً عليه ارتباطات الخلايا ببعضها وشكل أكوام التراب



هياكل الأرضة الضخمة الثنائية　　هياكل الأرضة الضخمة البيتية

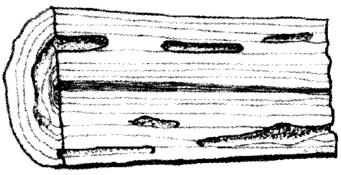
ومع ذلك يوجد الكثير من الأرضة التي لا يحوي جهازها الهضمي الحيوانات الأوالي التي تقوم بهضم السليلوز، كما لا تلجأ لتنمية مزارع الفطور أو تخزين الغذاء، أو إلى هضم كميات كبيرة من ذرات التراب. ومع ذلك فهي تقوم بالتغذي بالخشب، ولا يعرف حتى اليوم الطريقة التي تهضم بها السليلوز.

أهمية الأرضة الاقتصادية

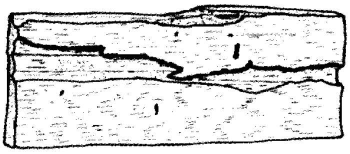
الأرضة من الحشرات الشديدة الضرر. ولكونها تتغذى بصورة أساسية بمادة السليلوز فهي تعد منافساً أساسياً للإنسان الذي يستعمل الخشب في الكثير من الأغراض. فهي تقوم بإتلاف أخشاب المباني والجسور وعوارض السكك الحديدية وأعمدة الهاتف، إضافة إلى إتلافها الأثاث الخشبي والأسقف ودعائم الأبنية (الشكل ٦).

وتقوم الأرضة بمهاجمة المكتبات وإتلاف مافيها من كتب ومخطوطات. وتتلف أيضاً مادة الحرير والعظام والجلود. وتسطو على الكثير من سوق النباتات الحية وجذورها كأشجار الغابات والمشمش واللوز والكرمة والسماق وقصب السكر والقطن وغيرها.

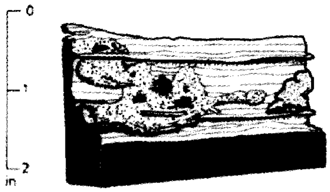
ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن الدور الكبير الذي تقوم به في تحسين خصوبة التربة الزراعية، إذ تساعد في تحلل الأخشاب المتداعية وتحوّلها إلى مواد تستطيع النباتات الاستفادة



القلطرم : أرضة الخشب الجاف



الأرضة الشبكية : أرضة الخشب الرطب



الأرضة ذات الأسنان : أرضة ساكنة التراب وتملأ الفراغات بالتراب

(الشكل ٦) يخرب الأرضة الخشب وفق نمط يميز كل نوع من الأرضة

منها. إلى جانب استفادة الأشجار مما تفرزه الأرضة من مواد وفضلات ومخلفات انسلاخاتها الغنية بالآزوت. وتقوم الأرضة بتهوية التربة الزراعية بما تبنيه من أعشاش وردهات وما تحدثه من أخاديد.

وتقل إصابة الأرضة للأخشاب كلما ازداد فيها الخشبين (اللجنين). فأكثر أنواع الخشب مقاومة للإصابة تراوح نسبة الخشبين فيه بين ٤٥٪ و٥٢٪، في حين لا تزيد نسبة هذه المادة في الأخشاب التي تتعرض للإصابة الشديدة على ٢٣٪، كما في الصفصاف. وتعود مقاومة بعض أنواع الخشب إلى بعض المواد الطاردة. ومن أهم ماعرف من هذه المواد البينوسيلفين

tectoquinone والتكتوكينون pinosylvin والكلوروفون chlorophon، إضافة إلى الراتين resin المتوافر في الأخشاب الصنوبرية.

مكافحة الأرضة

تتم الحيلولة دون إصابة الأخشاب بالأرضة بعدة طرائق، من أهمها استخدام الحواجز والعوازل الميكانيكية لمنع وصولها إلى المادة الخشبية المستخدمة في الأبنية، أو تستخدم لهذا الغرض بعض المواد الكيمياوية التي تُحقن حول المباني التي توجد فيها هذه الحشرات. وتعد مادة اللِّنْدين (α-isomer benzen hexachlorin lindane) من أهم المواد المستخدمة اليوم. وتقوم مصانع الأخشاب بتعقيم الأخشاب المصابة أو التي يشك بإصابتها بالتدخين وباستخدام مادة بروم المتيل methyl bromide، كما تتم معاملة الأخشاب بمواد كيمياوية خاصة تمنع إصابتها، ومن هذه المواد الأكْريوزوت creosote وثاني نترو الفينول dinitrophenol وخامس كلور الفينول pentachlorophenol إلى جانب استخدام مركبات النحاس والكروم والزرنيخ والبور والتوتياء حافظات للأخشاب تمنع إصابتها بالأرضة الشبكية Reticulotermes lucifugus والأرضة صفراء العنق التي يكثر انتشارها في الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط.

تصنيف الأرضة وانتشارها

تضم رتبة الأرضيات نحو ١٨٠٠ - ٢٠٠٠ نوع تنتمي إلى ست فصائل تقسم إلى ١٣ فُصَيِّلة sub- family. سُجِّلَ ثلثا أنواعها من القارة الإفريقية وحدها، وتنتمي أربعة أخماسها إلى فصيلة الأرَضيات Termitidae.

ويتم تحديد الأنواع بدراسة الأطوار المجنحة والجنود بصورة أساسية. ومن أهم الصفات المستخدمة في هذا التحديد أجزاء الرسغ وقرون الاستشعار ووجود القَص القاعدي للجناح وطبيعة الأجنحة والعيون وأشكال رؤوس الجنود ووجود العيون المركبة والبسيطة أو عدم وجودها، وغير ذلك من الصفات.

وتنتشر الأنواع المختلفة للأرضة بين خطي العرض ٤٩ْ شمالاً وجنوباً، ولا سيما في المناطق الاستوائية حيث تهطل الأمطار وتنتشر الغابات. ولكن ذلك لا يمنع من وجود أعداد قليلة منها تأقلمت للحياة في المناطق المرتفعة حيث تنخفض الحرارة بصورة ملحوظة كأعالي جبال هيمالايا في الهند وجبال روكي في أمريكة الشمالية في نصف الكرة الشمالي، وفي بعض القمم المرتفعة من تشيلي وتسمانية وجنوب شرقي أسترالية في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية.

وقد سُجل من الألفي نوع حتى اليوم ١٠٩ أنواع تهاجم الأخشاب، ٥٣ منها تعد من الآفات المهمة اقتصادياً. وأشهر ما يوجد منها في الشرق الأوسط وشمال إفريقية نوعان يعيشان على الأخشاب الجافة (الأرضة صفراء العنق Calotermes flavicollis في تركية وسورية، وأرضة سيناء C sinaicus Kemmer. في فلسطين) وخمسة أنواع تعيش في التراب. وفي سورية على نحو خاص توجد أيضاً الأرضة دقيقة القرنين Microcerotermes diversus silvestri التي تعيش على القطن والسماق والمشمش والكرمة.

أحمد زياد الأحمدي

الموضوعات ذات الصلة:

مفصليات الأرجل.

مراجع للاستزادة:

- W. V. HARRIS, Termites: Their Recognition and Control (Longman 1961).
- T. E. SNYDER, Cataloge of Termites (Isoptera) of the World (Smithson- Misc. coll. 112: 1-490-1949).

■ الأرضية

الأرضية floor هي الجزء الأفقي المستوي السطح من البناء والمعد لفصل طبقاته المتعددة ولحمل شاغليه وأمتعتهم المختلفة من دون أن يكون لمختلف الحمولات أثر في إحداث سهم انحناء محسوس وغير مقبول.

تركيب الأرضية

تتألف الأرضية من بلاطة slab حاملة يتم إنشاؤها من الخشب أو الآجر أو الفولاذ أو الخرسانة المسلحة، ومن غطاء للبلاطة الحاملة مكوَّن من الخشب أو الآجر أو البلاط أو الرخام، وتمتد بين هذين الجزأين في الأرضيات تمديدات شبكات الصحية والكهرباء والتدفئة الأفقية في طبقة من الرمل. وترتكز البلاطة الحاملة من الأرضية على الجدران في المباني ذات الجدران الحاملة، وعلى الجيزان beams والأعمدة في المباني الهيكلية (الجائز عارضة رئيسة تصل بين مسندين).

والأرضية السفلى من البناء هي أرضية خاصة ترتكز ارتكازاً مباشراً على الأرض، ولا تخضع لإجهادات كبيرة ووظيفتها الرئيسة عزل رطوبة الأرض عن البناء.

وظيفة الأرضية

تقوم الأرضية في البناء بوظيفة رئيسة هي مقاومة الحمولات الدائمة والإضافية والحية التي تطبَّق عليها، والناجمة عن وزنها هي نفسها ووزن التغطيات والأثاث والأوزان المعلقة في السقف عند سطحها السفلي وحركة الشاغلين فوقها. وتقوم الأرضية بنقل الإجهادات الناجمة عن هذه الحمولات إلى العناصر التي ترتكز عليها من جدران وجيزان وأعمدة ودعامات. ويجب أن تتحمل الأرضية كل هذه القوى والإجهادات وأن تحافظ على استواء سطحها وأفقيته من دون أن تنحني بسهم محسوس.

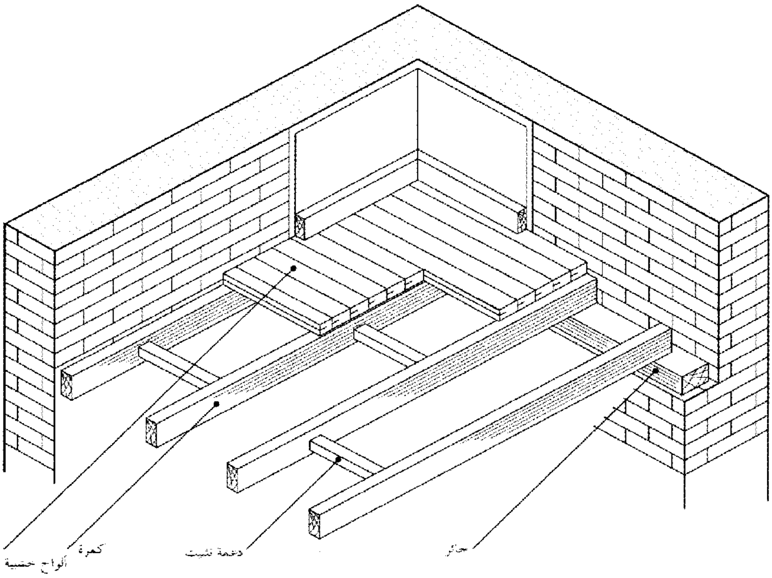
وإضافة إلى هذه الوظيفة الرئيسة تقوم الأرضية بوظائف تكوين حاجز فراغي وصوتي وحراري بين طبقات البناء المختلفة واحتواء شبكات التمديدات الأفقية في داخلها والقيام بدور التوثيق بين جدران البناء في الأبنية العالية، حيث تتلقى في هذه الحالة قسماً من حمولات الرياح على البناء.

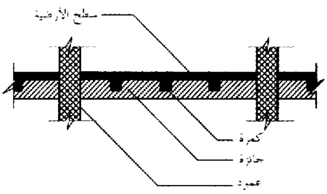
أنواع الأرضيات

تقسم الأرضيات تبعاً لطريقة إنشائها إلى الأنواع التالية:

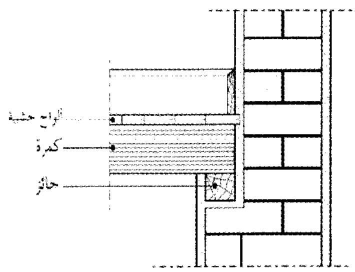
الأرضية الخشبية الهيكلية: وهي أرضية مؤلفة من كَمَرات girders خشبية مرتكزة على جيزان خشبية تستند إلى الجدران، (الكمرة عارضة ثانوية تصل بين مسندين). وأبسط أنواع الأرضيات الخشبية الهيكلية مكوّن من كَمَرات صغيرة توضع على حدها أو حرفها على مسافات متساوية مرتكزة على الجدران مباشرة ومثبتة بدعامات صغيرة، وتتم تغطيتها بألواح خشبية.

أما الأرضيات الخشبية الهيكلية الثقيلة فتتكون من جيزان خشبية كبيرة المقطع توضع على مسافات متقاربة أو ترتكز عليها كمرات كبيرة المقطع توضع متلاصقة، ثم تغطى بالألواح الخشبية (الشكل ١).



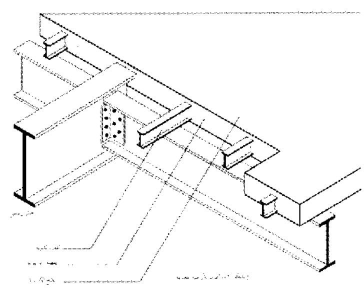


(الشكل ٣) مقطع في أرضية خرسانية جائزية مصمتة



وتتصف الأرضية الخشبية الهيكلية بخفة وزنها، إذ يُراوح بين ٧٥كغ/ م٢ و٣٠٠كغ/ م٢، وتتصف كذلك بسهولة تركيبها وسرعته، والمشكلة الرئيسة فيها هي قابليتها للاحتراق بسهولة وقابليتها للتآكل بفعل بعض الحشرات، ولمعالجة ذلك يتم طليها بمواد خاصة.

الأرضيات المعدنية: وهي أرضيات يتم إنشاؤها من كمرات معدنية ثانوية ترتكز على جيزان معدنية رئيسة تستند إلى الجدران أو الأعمدة. وتتكون الكمرات الثانوية في العادة من القضبان المُجَنبة ذات المقاطع profile الصغيرة بشكل I أو بشكل T. وتكون الجيزان الرئيسة في العادة من القضبان المجنبة ذات المقاطع المركبة أو المفردة الكبيرة بشكل I. (الشكل٢).



تُغطى هذه البلاطة من الكمرات والجيزان بطبقة من الخرسانة، أو يملأ الفراغ بين الكمرات بقطع الآجر أو الكتل الإسمنتية المفرّغة.

ويتم تجميع مختلف هذه المقاطع المعدنية لربط أجزاء الأرضية بالبراغي أو باللحام، ويمكن أن يتم هذا التجميع مباشرة بين المقاطع أو باستخدام مقاطع مساعدة مثل القضبان المجنبة بشكل زاوية L (الشكل٢)، عندما تكون ارتفاعات هذه المقاطع مختلفة.

وتتصف الأرضيات المعدنية بأنها خفيفة الوزن، إذ يُراوح وزنها بين ٢٥٠كغ/م٢ و٤٠٠كغ/م٢. وهي تستخدم لذلك في الطبقات العليا من ناطحات السحاب. وتتصف هذه الأرضيات أيضاً بمقاومتها للحريق، فهي لا تنهار تحت درجة الحرارة ٥٠٠° مئوية. والمشكلة الرئيسة في الأرضيات المعدنية هي تآكل المعدن بفعل الصدأ، لذلك يجب طليها بأكسيد الرصاص الأحمر (الزرقون)، أو تغليفها بطبقة من الخرسانة أو أية مادة أخرى تحميها من التآكل.

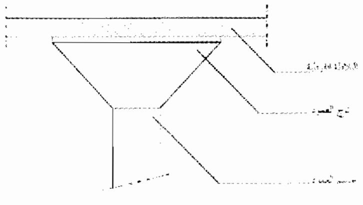
الأرضيات الخرسانية المسلحة: وهي أكثر أنواع الأرضيات انتشاراً في المباني السكنية والصناعية لما تتمتع به من قابلية عالية للإنتاج الصناعي وميزات اقتصادية ومقاومة ممتازة للتآكل الكيمياوي وصمود جيد أمام النيران ومتانة كبيرة وصلادة.

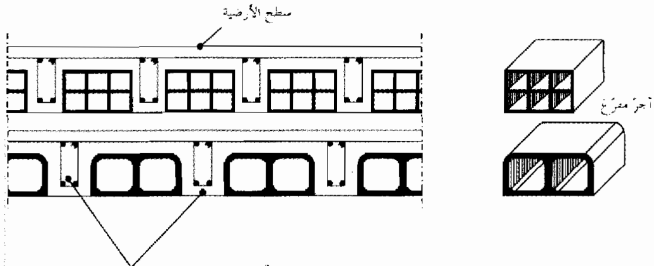
وتقسم الأرضيات الخرسانية المسلحة إلى نوعين رئيسين:

الأرضيات الخرسانية الجائزية: وهي الأرضيات التي تشترك فيها الجيزان الخرسانية المسلحة مع البلاطات والألواح الخرسانية المستندة إليها في مقاومة الحمولات. ويمكن إنشاء هذه الأرضيات من الخرسانة المسلحة المصبوبة في المكان نفسه أو من الخرسانة المسلحة المسبقة الصنع. وتقسم هذه الأرضيات إلى الأنواع التالية:

١ـ الأرضيات الجائزية المصمتة: تتكون هذه الأرضيات من بلاطات خرسانية مسلحة موثقة إلى مجموعة من الكمرات والجيزان المصبوبة معها التي ترتكز بدورها على الأعمدة أو الجدران (الشكل٣) وتراوح ثخانة هذه البلاطة بين ٨سم و١٦سم، وتصب عناصرها في المكان نفسه بعد قولبة الجيزان والكمرات وجسم البلاطة وتسليحها بالحديد ثم تصب الخرسانة ويفك القالب بعد التصلب البدائي للخرسانة.

وبلاطات هذه الأرضية تكون محمولة على كمرات باتجاه واحد عندما يكون طول البلاطة أكبر من عرضها بمرتين فأكثر، وتسمى «بلاطة وحيدة الاتجاه» إذ تمد الكمرات بالاتجاه القصير فقط مستندة إلى جائزين رئيسين يرتكزان على الأعمدة. وعندما يكون طول البلاطة أقل من ضعفي عرضها تُمَدُّ الكمرات بالاتجاهين وتسمى «بلاطة ذات اتجاهين»، ويستخدم هذا النوع من البلاطات لأرضيات القاعات التي تراوح أبعادها بين ٥م و٧م. وعندما تكون الكمرات موزعة بالاتجاهين بكثافة تسمى البلاطة «بلاطة مُعَصَّبَة» وهي بلاطة تعمل بالاتجاهين وتراوح ثخانتها بين ٥سم و٨ سم، وترتبط بكمرات متعامدة بالاتجاهين ذات





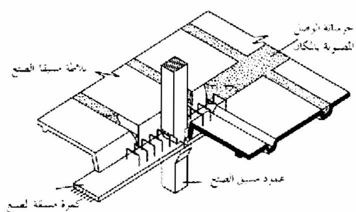
(الشكل٤) أرضية جائزية مفرغة

فتحات صغيرة. وتستخدم «البلاطات المعصبة» لأرضيات القاعات التي تراوح أبعادها بين ٨م و١٢م.

٢ـ الأرضيات الجائزة المفرَّغة: وهي أرضيات تتكون من بلاطة خرسانية مسلحة رقيقة ثخانتها نحو ٥سم ترتكز على أعصاب خرسانية مسلحة صغيرة تمتد في اتجاه واحد أو في اتجاهين بينها مسافات لاتزيد على ٧٠سم، وتُملأ الفراغات بينها بكتل مجوّفة من الإسمنت أو الجص أو الآجر (الشكل٤).

وتتميز هذه الأرضيات بخفة وزنها وجودة العزل الحراري والصوتي لوجود الفراغات في بلاطاتها، التي يمكن استخدامها في مدّ الشبكات الأفقية، إضافة إلى أن الكتل المفرغة هذه تستخدم في معظم الأحيان قوالب أو أجزاء من قوالب لصب أعصاب هذا النوع من الأرضيات وبلاطته.

٣ـ الأرضيات الجائزية المسبقة المصنع: وهي


(الشكل ٥) أرضية جائزية مسبقة الصنع

أرضيات مؤلفة من أجزاء خرسانية مسبقة الصنع وأجزاء خرسانية مصبوبة بالمكان نفسه، ويمكن أن تكون الكمرات والجيزان فقط من الخرسانة المسلحة المسبقة الصنع تصب في المعمل وتترك أطراف القضبان بارزة منها لترتبط مع ألواح البلاطة التي تصب في الموقع، أو يمكن أن تكون الكمرات وبلاطات التوزيع والجيزان والأعمدة كلها من الخرسانة المسلحة المسبقة الصنع يوصل بعضها ببعض في الموقع (الشكل٥).

وتتصف الأرضيات المسبقة الصنع بسرعة التركيب وغزارة الإنتاج والتوفير في حديد التسليح، ولكنها تتطلب تقنيات خاصة في رفع القطع وتركيبها.

الأرضيات الخرسانية الفطرية: وهي أرضيات مكونة من بلاطة خرسانية ثخينة كثيفة التسليح مستوية تستند مباشرة إلى تيجان الأعمدة من دون كمرات أو جيزان (الشكل ٦). وتكون هذه الأرضيات من الخرسانة المسلحة المصبوبة بالمكان نفسه أو المسبقة الصنع. وتتصف الأرضيات الفطرية بأنها تقدم استخداماً أفضل لحجم القاعات لعدم بروز الكمرات أو الجيزان منها، وهي غالباً ماتستخدم في إنشاء المباني الصناعية والمستودعات.

عمر العرفي

الموضوعات ذات الصلة:

الأرضية الخشبية.

مراجع للاستزادة:

- F. D. K. CHING, Building Construction Illustrated (London 1975).
- A. HODGKINSON, Handbook of Building Structure, 2nd Edition (London 1980).
- F. S. MERRITT, Building Construction Handbook (New York 1983).

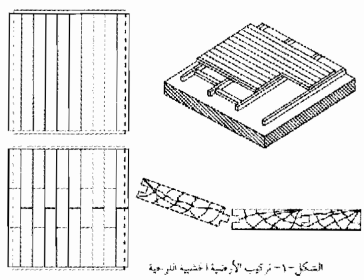
■ الأرضية الخشبية

الأرضية الخشبية parquet هي شكل من أشكال تغطية الأرضيات بالخشب، وتأخذ أشكال صفائح أو ألواح أو قطع فسيفسائية مجمعة ومثبتة فوق طبقة من الكمرات الخشبية أو المونة الإسمنتية أو الخيش المزفت بحسب طبيعة الأرضية الحاملة ونمط الأرضية الخشبية.

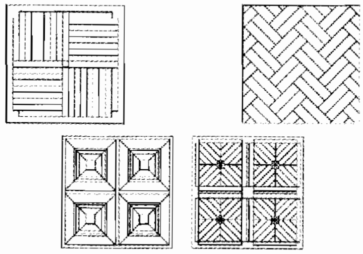
أنماط الأرضية الخشبية

الأرضية الخشبية اللوحية: وهي أقدم أنواع الأرضيات الخشبية وأبسطها وأكثرها انتشاراً وتتألف من شبكة من الكمرات الخشبية المستطيلة المقطع، والمدهونة بالزفت الساخن، والمثبتة برُكُب معدنية stirrups (جمع ركاب) فوق بلاطة الأرضية الحاملة، وتملأ الفراغات فيما بينها بالرمل الخشن، وفوقه طبقة رقيقة من المونة الإسمنتية. وفوق هذه الشبكة تركب ألواح خشبية طويلة بثخانة ٢,٥سم مفرَّزة بطريقة النقرة واللسان ومعشق بعضها ببعض إذ تثبت بمسامير مخفية فوق الشبكة الخشبية، ويستحسن أن تكون الألواح ممتدة على كامل طول الغرفة بدون وصلات، وإن وضعت الوصلات فيجب ألا تكون على استقامة واحدة. وتترك في العادة فتحات بجانب الجدران بقياس ٥×٠,٥ سم كل متر واحد لضمان تهوية الخشب تحت الأرضية الخشبية ومنع تعفنه.

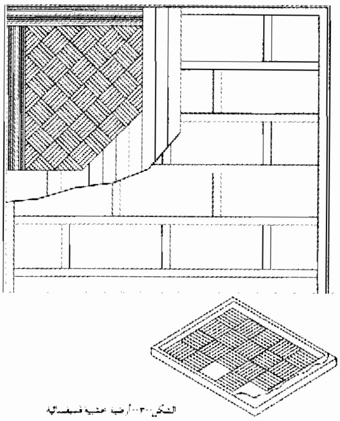
وتكون ألواح خشب الأرضية اللوحية من خشب الجميز أو البِيْسيَة أو مايماثلهما، وتخضع عند تصنيعها للتجفيف الشديد لتخفيض رطوبتها. وبعد تركيب الأرضية يتم كشطها وصقلها ودهنها مرة أو مرتين بزيت صاف من زيوت الدهان ثم تُطلى بالشمع أو البرنيق أو



الشكل-١- تركيب الأرضية الخشبية اللوحية



الشكل-٢- أشكال أرضية خشبية بلاطية



الشكل-٣- أرضية خشبية فسيفسائية

بلدائن خاصة شفافة. وتصلح الأرضية الخشبية اللوحية لتغطية جميع أنواع الأرضيات مهما كانت بلاطتها الحاملة (الشكل١).

الأرضية الخشبية البلاطية: وهي تتكون من بلاطات خشبية مربعة أو مستطيلة أو مسدسة صغيرة أو كبيرة تغطي الأرضية، وتُركَّب هذه البلاطات على شبكة من الكمرات فوقها طبقة من الصفائح الخشبية تضغط عليها بآلات خاصة أو تلصق بمادة خاصة فوق طبقة ملساء من المونة الإسمنتية، وهناك أنواع خاصة من بلاطات الأرضية الخشبية يتم جمعها وتركيبها بوساطة ألسنة تعشيق مفرَّزة في أطرافها وتركّب عائمة، من دون استناد صلب، فوق طبقة من الرمل أو الخيش المُزَفَّت.

وتصنع قطع الأرضية الخشبية البلاطية من خشب البلوط أو الجوز أو غيرهما، وتكون ثخانتها قليلة للأرضية التي تركّب باللصق، وكبيرة للتي تجمع بتعشيق بلاطاتها، ويتم صقلها وطليها في المصنع لتصبح جاهزة للتركيب مباشرة. وأحياناً تصنع الأرضية الخشبية البلاطية مفصلة تفصيلاً خاصاً لأرضية معروفة الأبعاد وبأشكال زخرفية متنوعة، كما هو موضح في الشكل، يُمكن معها قصّ كل بلاطة من بلاطات هذه الأرضية بحسب بعدها وشكلها وموقعها في الأرضية (الشكل٢).

الأرضية الخشبية الفسيفسائية: وهي تتكون من قطع خشبية صغيرة مضلعة وقليلة الثخانة مؤلفة من أفاريز يُجمع بعضها إلى جانب بعض لتؤلف بلاطة صغيرة.

وتصنع هذه القطع بتفريز العوارض الخشبية وصقلها، ثم تجميع بعضها إلى جانب بعض بوساطة الآلات أو باليد كل أربعة أفاريز أو خمسة أو ستة معاً بشكل قطع مربعة وتُلصَق في أسفلها شرائح من الفلين أو اللدائن (الشكل٣)، ولا تُركَّب الأرضية الخشبية الفسيفسائية إلا باللصق بمادة خاصة على بلاطة مصمتة أو على ألواح خشبية أو طبقة من المونة. ويمكن تركيبها بأشكال مختلفة، إما على صفوف منتظمة أفقية أو على خطوط مائلة. وتصقل قطع هذه الأرضية وتطلى في المصنع وتقدم جاهزة للتركيب.

وهناك أنواع خاصة من الأرضيات الخشبية تصنع بالأنماط السابقة من الخشب المحقون بمواد خاصة عازلة أو مقاومة لتأثير الحموض أو مقاومة للحرارة والحرائق، أو من الخشب المقسّى أو الفلين المضغوط. وتُستخدم هذه الأنواع في تغطية أرضيات الصالات الرياضية أو المعامل أو المخابر أو المشافي أو غيرها.

خواص الأرضية الخشبية

الأرضية الخشبية أقدم أنواع تغطيات الأرضيات وأبسطها، وتتميز بديمومتها وعازليتها الحرارية الجيدة للغرف والقاعات وبالمظهر الجميل والتنوع الكبير في الشكل الذي يسمح بتحقيق نماذج متنوعة جداً منها، وإعطائها الزخرفة المطلوبة من أكثرها بساطة حتى أعظمها فخامة.

والمشكلة الرئيسة للأرضية الخشبية هي قابليتها للاحتراق بسهولة، أو تعفن الخشب بتأثير الرطوبة أو تآكله بفعل بعض الحشرات. ويعالج ذلك بتجفيف الخشب تجفيفاً شديداً قبل صنع الأرضية الخشبية، وضمان عزلها عن الرطوبة عند تركيبها لمنع تعفنها، وطليها بمواد خاصة لمنع تأثير الحشرات فيها.

إن اتصاف الأرضية الخشبية المعالجة وفقاً لما سبق بمقاومة التلف، وبسهولة التركيب، وبالعازلية الكبيرة للحرارة والصوت، وبالتنوع الكبير في الشكل، وبالمظهر الجميل، يجعلها صالحة لتوفير تغطية مريحة وجميلة لمختلف أنواع الأرضيات.

عمر العرفي

الموضوعات ذات الصلة:

الأرضية ـ الخشب (ألواح ـ) ـ الخشب (تجفيف ـ) ـ الخشب (نشر ـ).

مراجع للاستزادة:

- CHING, Building Construction Illustrated (London 1975).
- TRADA, Timbers of the World (London 1980).
- BURCHELL, Timber- Frame Housing (London 1984).

■ الأرغن

الأرغن organ آلة هوائية ذات لوحة ملامس keyboard تشبه لوحة البيانو تعمل بوساطة سريان الهواء في أنابيبها المصوتة، ويتم بالضغط على الملامس بعث الهواء المضغوط والمخزون في جسم الأرغن وتوزيعه على أنابيبه، وهنا تكمن سرية التقنية وصعوبتها فيه.

والأرغن من أكثر الآلات الموسيقية تعقيداً، وما نشاهده في شكله الخارجي إنما هو جزء قليل منه، وأما ما لا يرى مباشرة من تركيبه الداخلي

فيؤلف الجزء الأكبر.

وتعود شدة تعقيده إلى أجهزته الداخلية ودقة تنظيمها البنائي والآلي إضافة إلى ضخامة الهيكل الخارجي. فلا عجب لذلك أن يطلق عليه لقب «ملك الآلات الموسيقية» لأنه أضخمها حجماً وأوسعها مدى صوتياً وأغناها مميزات في الطابع الصوتي.

تركيب الأرغن

لازم التطور التقني الأرغن منذ أكثر من ألفي عام، ومع ذلك فإنه لم يتبدل تبدلاً أساسياً (عدا النماذج الإلكترونية منه) بل مازال يحافظ مبدئياً على الأقسام الثلاثة الرئيسة فيه وهي: قسم التصويت وقسم التهوية وقسم العزف.

قسم التصويت: يتألف قسم التصويت من عدة أنابيب مصوتة مختلفة الأطوال والحجوم، كل أنبوبة منها تصدر صوتاً واحداً. بعض هذه الأنابيب مصنوع من الخشب وبعضها الآخر من خليط من المعادن، وهي مرصوفة رصفاً عمودياً في صفوف متسلسلة متصلة بعدة خزانات هوائية. ومبدأ التصويت العام في هذه الأنابيب شبيه بما هو عليه الحال في الآلات الموسيقية الوترية والنفخية [ر. الآلات الموسيقية]، إذ يختلف ارتفاع الصوت وانخفاضه بحسب طول الأنبوبة المصوتة وحجمها. وتقاس هذه الأنابيب بالأقدام والبوصات، وترتب بحسب أطوالها، وتبدأ بالأنبوبة الطويلة ذات الـ ١٦ قدماً وتنتهي بأقصرها التي تبلغ نصف البوصة (١,٢٧سم تقريباً). إلا أن هناك آلات أرغن ضخمة تحوي أنابيب ذات ٣٢ قدماً (أو ٩,٧٥ م تقريباً). وهذا القياس من الأنابيب يؤلف مساحة صوتية واسعة، قابلة للسمع، تعادل عشرة دواوين octaves [ر. الموسيقي] تبدأ من الصوت الأكثر انخفاضاً المنبعث من الأنبوبة الطويلة (٩,٧٥م) (١٦ اهتزازة في الثانية) [ر. الصوت (علم)] حتى أعلاها حدة (١٦٤٠٠ اهتزازة من أنبوبة «١,٢٧سم»).

ويختلف الطابع الصوتي في الأنابيب بحسب الشكل والحجم والمادة المصنوعة منها. فمنها ماهو أسطواني أو مخروطي أو صاروخي أو مستطيل الشكل، ومنها ما له أشكال هندسية أخرى، تكون ذات فوهة جانبية أو أمامية، ضيقة أو واسعة، مفتوحة أو مغلقة، أو ذات مبسم أو لسان أو ريشة، ومن أهم هذه الأنابيب نوعان:



أرغن من النوع القديم (الدنمارك ١٦١٠)

١ـ الأنابيب ذات المسارب الهوائية: تصنع الأنابيب ذات المسارب الهوائية flues على مبدأ آلة الفلوت إضافة إلى أنابيب أخرى لها طابع يماثل طابع الوتريات في الأوركسترا [ر. الفرقة الموسيقية]. ويتميز هذا النوع بفئتين من الأنابيب: تضم الأولى مجموعة أنابيب الأساس وهي ذات الـ ١٦، ٨، ٤، ٢ من الأقدام وتمثل المركز الصوتي الرئيس في الأرغن، وتكون ذات الأقدام الثمانية منها أكثرها عذوبة، وتقابل الطبقة الصوتية المدونة في آلة البيانو إذ إنها أكثر حدة من ذات الـ ١٦ قدماً بديوان واحد، وأخفض من ذات الأربعة أقدام بديوان واحد. ويمكن لهذه المجموعة تقليد أصوات آلة السيليستا celesta [ر. الآلات الموسيقية] الإيقاعية بارتجاج صوتي vibrato. وتضم الثانية مجموعة أنابيب التحويل والأنابيب المختلطة، وهي تثري الأصوات الأساسية بكل مدروجاتها الصوتية.

٢ـ أنابيب القصبة (Reeds): وهي ذات ألسنة أو رقائق معدنية تمتاز بتقليد أصوات بعض آلات النفخ الخشبية (أوبوا، كلارينيت، باصون..) وآلات النفخ النحاسية (ترومبيت، كور، توبا...).

قسم التهوية: للأرغن مستودع هواء كبير له عدة رئات وقنوات متفرعة ليستطيع التصويت عبر أنابيبه. ويحوي هذا القسم عدة منافيخ أساسية ذات مضخات تعمل يدوياً أو قدمياً) أو كهربائياً، كما يحتوي على مستودعات أو صناديق هواء فرعية ذات صمامات منظمة لدفع الهواء المضغوط في أجهزة الأرغن الصوتية بنسب محدودة وتوزيعها.

قسم العزف: وهو نضد الأرغن أي المنصة الرئيسة فيه حيث يجلس العازف متفاعلاً مع جميع أجهزتها الآلية الفنية الثلاثة التالية:

الأول هو لوحات الملامس: ويبلغ عددها من واحدة إلى خمس لوحات يدوية (وقد تضم سبع لوحات أيضاً) متراصفة بعضها فوق بعض على شكل مدرج، تحتوي كل منها على خمسة دواوين تقريباً، إضافة إلى لوحة ملامس قدمية ذات ديوانين ونصف الديوان. ولا بد لأصغر أرغن من أن يحوي على الأقل لوحتي ملامس يدوية مع بعض أزرار ومفاتيح التأثيرات الصوتية المختلفة التي لا تقل عن عشرة إضافة إلى لوحة الملامس القدمية. وتستخدم اللوحات اليدوية لعزف تشكيلات صوتية معينة إذ تختص كل واحدة منها بطابع صوتي مميز خاص كأنها وحدها تقريباً أرغن قائم بنفسه، وهذه اللوحات مرصوفة بحسب تسمياتها على النحو التالي: (١)ـ الأرغن الكبير: وهو اللوحة الرئيسة ذات مجموعة الأنابيب الأساس، وهي أقوى صوتاً من مثيلاتها من اللوحات. (٢)ـ الجوقة الغنائية أو الثابتة: وتستخدم في الأصوات اللينة والمرافقة، (٣)ـ التعبيرية swell: وهي ذات تأثيرات خاصة، (٤)ـ المنفردة solo أو بومبارد bombarde (اسم آلة نفخ هوائية قديمة من أوائل نماذج آلة الأوبوا) وتستخدم في أصوات الآلات المنفردة، (٥)ـ الصدى: وهي للتباين بين أصوات الأرغن وتحديدها. وأما لوحة الملامس القدمية فهي ذات طبقة صوتية عميقة تماثل آلات الأوركسترا المنخفضة الأصوات. وهذه الصفات جميعها تجعل من الأرغن فرقة موسيقية كاملة.

أما الثاني فهو أزرار أو مفاتيح: وهي موضوعة على جانبي لوحة الملامس اليدوية، تستخدم في مساعدة التشكيلات الصوتية المختلفة.

وأما الثالث فهو دوّاسات أو بدّالات قدمية: تستعمل في بعث تأثيرات خاصة في لوحة الدواسات القدمية واللوحات اليدوية وتحدث التمازج بينها. وقد تنفصل منصة الأرغن عن جهازي النفخ والأنابيب إذ تتصل بهما عن

طريق أسلاك كهربائية. وأقسام الأرغن الثلاثة هذه مترابطة بعضها مع بعضها الآخر بإحكام، وعندما تضغط إصبع العازف على ملمس إحدى اللوحات، تعمل محابس وخطافات وأجهزة آلية أخرى على التحكم في السماح بدخول الهواء المضغوط والحبيس في المستودع إلى الأنابيب المصوتة أو في منع تسربه إليها.

ولما كانت أقسام الأرغن تستدعي وجود أمكنة واسعة لاحتوائها ولا سيما الأحجام الكبيرة منه، فإن من الضروري الاستعانة بالخبرات الهندسية المعمارية والكهربائية والآلية في بناء المكان المناسب المخصص له ووضع أجهزته في مواقعها الصحيحة بكل دقة وإحكام.

نشأة الأرغن وتطوره

من الصعب تحديد تاريخ اختراع الأرغن أو مخترعه، ولكن تنسب أصوله إلى الكلدانيين والإغريق وإلى المصفار pan pipe أو syrinx، أو أرغن الفم الصيني، ولا شك في أن صانع الأرغن الأول أضاف مستودع هواء بديلاً عن رئة العازف، لضخه في أنابيب الآلة بتحريك ملامس يدوية بسيطة ووضع جهاز آلي يصل بين أقسامه الثلاثة ويقال إن كتيسيبيوس Ctesibios اليوناني (القرن الثاني ق.م) من سكان الاسكندرية، هو الذي صنع أول أرغن، وكان ضخ الهواء يأتي عن طريق الضغط المائي، وهكذا نشأ الأرغن المائي hydraulos وكان عدد قصباته لايتجاوز ثماني قصبات. وبعد أربعة قرون، استعيض عن الماء بمنفاخ. وقد أصبحت القسطنطينية (اصطنبول) مركز صناعة الأرغن وتوريده إلى أوربة والبلاد المسيحية. وعلى الرغم من ظهور الأرغن الهوائي، فقد ظل الأرغن المائي يستعمل إلى جانبه طوال القرون السبعة الأولى للميلاد. وقد ظهرت عدة كتب ورسائل عربية، في العصر العباسي، في وصف الأرغن البوقي والزمري والمائي وعمل ساعات الماء ترجمت إلى عدة لغات أوربية (كما يذكر هنري فارمر). وفي متحف حماه في سورية، لوحة فسيفساء، وجدت على بعد ثلاثين كيلو متراً من المدينة، تمثل ست نساء يعزفن على آلات موسيقية مختلفة، وبينها واحدة تعزف على أرغن مائي وإلى جانبها ساقية ماء. وتعود هذه اللوحة إلى القرن الأول الميلادي. كما أن هارون الرشيد كان قد أهدى شارلمان ملك الفرنجة أرغناً هوائياً في نهاية القرن الثامن الميلادي، ثم نقل عنه أحد صناع مدينة البندقية في إيطالية نسخة قدمها إلى امبراطور ألمانية لويس لو ديبونير Louis le Débonnaire عام ٨٢٦م وكان كذلك ملك فرنسة.

وفي القرن العاشر ظهر أرغن صغير الحجم، يُحمل أو يعلق في الرقبة سمي «المحمول» كان له دور متميز في الاحتفالات والمواكب الرسمية لسهولة حمله ونقله. وكان يشتمل على لوحة ملامس يدوية واحدة ذات ٢٥ ملمساً، وعلى أربعة أو خمسة صفوف من الأنابيب، وعلى نوعين أو ثلاثة من التشكيلات الصوتية. وكان العازف يستخدم يده اليمنى في العزف واليسرى لتحريك المنفاخ. وقد شاع استعمال هذا الأرغن مدة ستة قرون تقريباً. ثم ظهر بعد ذلك، أرغن محمول أكبر حجماً كان يوضع فوق الطاولة أو في مكان مستقر سمي بالثابت يمكّن العازف من أن يستعمل يديه في الأداء، وكان يساعده شخص آخر في النفخ. وقد وصل عدد مساعدي النفخ في الأحجام الكبيرة منه، إلى عشرة أشخاص، وبلغ عدد أنابيبه أربعمئة أنبوبة، واتخذ بذلك في صحون الكنائس الكبيرة مكاناً بارزاً.

وفي القرن الرابع عشر، ابتكرت أنابيب القصبة، كما ابتكر صانع الأرغن الألماني نيقولا فابر N. Faber. لوحة ملامس قدمية إضافة إلى لوحات الملامس اليدوية الثلاث. وانتشرت عائلات صناع الأرغن في كل مكان، وبرز صانعوه من ألمان وإنكليز وفرنسيين وإيطاليين بمبتكراتهم المتجددة. واخترع الفلمنكيون مجموعة الأنابيب المغلقة التي أضفت عليه إمكانات تعبيرية جديدة. وفي منتصف القرن الخامس عشر، ظهر أول كتاب تعليم للآلة. وشهد عصر النهضة (١٤٥٠-١٦٠٠) تطوراً ملحوظاً في صناعته. وفي بداية عصر الباروك Baroque (١٦٠٠-١٧٥٠) تطورت معظم أقسامه وأجهزته الفنية والآلية واخترع ميزان التوازن الضغطي للهواء في دخول أنابيب التشكيلات الصوتية، واستكملت مجموعة أنابيب القصبة، كما أضيف عدد كبير من الأنابيب ذات التأثيرات الخاصة.

وفي عام ١٦٧١ صنع أرغن ذو أربع لوحات ملامس يدوية إضافة إلى اللوحة القدمية، ولوحة تشكيلات صوتية ذات مئة زر ومفتاح. إلا أن صناعة الأرغن بدأت تفقد الاهتمام، وخاصة في إنكلترة، عندما عُدّ وجوده في الكنيسة ضرباً من الأبهة وعبادة الأصنام. وفي القرن الثامن عشر أضيفت لوحة يدوية خامسة، وحاول صانعوه التغلب على عيوب وسائل النفخ فيه فحسنوا من الضغط التوازني الهوائي واستكملوا التوافق الصوتي بين لوحاته، كما أحدث ابتكار الصندوق المعبر تأثيراً كبيراً في التعبير عن التلوينات الصوتية وقد بلغ الاهتمام بالأرغن أوجه بين عصر الباروك والعصر الاتباعي classicism (١٧٥٠-١٨٢٠)، فظهر عمالقة العازفين والمؤلفين له، وكان أكثرهم من الألمان، أمثال يوهان سباستيان باخ J.S. Bach، ومشاهير صنّاعه مثل زيلبرمان Silbermann، كما ظهرت مدرستان في صناعته: الأولى ألمانية اعتنت بالتلوينات الصوتية فيه، والأخرى فرنسية أغنته بأنابيب القصبة. إلا أنه بدأ يفقد إغراءه وشهرته بالتدريج بعد موت باخ. وأعرض عنه الموسيقيون، ولا سيما في النصف الأول من القرن التاسع عشر إذ اهتم المؤلفون الإبداعيون (الرومنسيون) بالأوركسترا وآلاتها التي فرضت نفسها.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عاد الاهتمام بالأرغن تدريجياً بعد اكتشاف آثار أعمال باخ العظيمة، وأغرى عدداً كبيراً من مؤلفي القرن العشرين بتأليف أعمال موسيقية خاصة به مثل: شونبرغ Chöenberg وهندميت Hindemith. وانعكس هذا الاهتمام في صنع نماذج عملاقة منه مثل الأرغن الموجود في أتلانتيك سيتي في ولاية نيوجرسي الأمريكية، وله سبع لوحات ملامس يدوية وواحدة قدمية ولوحة أزرار ذات ١٢٣٣ مفتاحاً ودواسة للتشكيلات الصوتية، و٣٢٨٨٢ أنبوبة مختلفة الأطوال.

كان صانعو الأرغن قد فكروا من قبل باستخدام الكهرباء عوضاً عن القوة البشرية في عملية النفخ، فصنع أول أرغن يعمل على الكهرباء عام ١٨٦٥، واستغل الامريكيون هذه البادرة في تطوير هذه الصناعة، فبرزت إلى الوجود في القرن العشرين نماذج جديدة تختلف كل الاختلاف عن أسلافها من حيث مبدأ التصويت وأسلوب النفخ، وبهذا كانت فاتحة عهد جديد للأرغن الإلكتروني. وخير مثال، أرغن هاموند (١٩٣٥) (نسبة إلى مبتكره

الأمريكي لورنس هاموند L.Hammond) الذي استخدم دارات كهرمغنطيسية ومولدات كهربائية ومكبرات صوت لإصدار مختلف الأصوات والتأثيرات الصوتية بدلاً من الأنابيب والهواء المضغوط. وما تزال صناعة الأرغن الإلكتروني تتطور بسرعة، وتتميز بتقنيات عالية مع انخفاض في تكاليف الصنع وصغر في الحجم وغنى في التلوينات الصوتية. ولكن تميز الأرغن السابق بنقاوة الصوت وصفائه مايزال قائماً.

حسني الحريري

الموضوعات ذات الصلة:

الآلات الموسيقية - البيانو - الصوت (علم -).

مراجع للاستزادة:

- هنري جورج فارمر، مصادر الموسيقى العربية (مكتبة مصر، القاهرة ١٩٥٧).
- ماكس بنشار، تمهيد للفن الموسيقي، ترجمة رشاد بدران (دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٧٣).
- FAEDA DINN, The Observer's Book of Music (Frederick Warne & CO. 1966).
- NORBERT DUFOURCQ, "L'orgu" Que sais-je? (Presses Universitaires de France 1948).

■ إرغن (عثمان نوري -)
(١٣٠١-١٣٨٤هـ/ ١٨٨٣-١٩٦١م)

عثمان نوري إرغن كاتب ومؤرخ تركي ولد في قرية إمْرين في منطقة ملاطية من أسرة فقيرة عمل أفرادها في «التزام» الضرائب. امتهن والده التجارة وقام بأسفار كثيرة. تعلم القرآن في قريته، وانتقل إلى اصطنبول واستقر فيها مع أبيه ودرس في مدارسها، ونال إجازة الآداب في جامعتها (١٩٠٦)، وعمل كاتباً في البلدية، وارتقى حتى أصبح رئيساً للكتاب فيها. واشتغل مدرساً في بعض المدارس الثانوية والمهنية وكان متصفاً بالثقافة الواسعة، والتمسك بالأخلاق، والإخلاص للعمل. ترك عدداً من المؤلفات باللغة التركية، من أشهرها مؤلف في الشؤون البلدية في خمسة مجلدات، و«تاريخ المعارف في تركية» في ستة مجلدات، وقد كتب بأسلوب شائق، ويعدّ المرجع الوحيد للتعليم في تركية وتطور المناهج ومقارنتها. ومن بين مؤلفاته «دليل مدينة اصطنبول» وقد تضمن أسماء شوارعها، وعدداً من المخططات والرسوم.

عبد الكريم رافق

الموضوعات ذات الصلة:

العثمانيون.

■ أرغون

أرغون Arghun أسرة مغولية، قالت بتحدرها من أرغون بن أباقا بن هولاكو. ظهرت على مسرح الأحداث في سجستان مابين ٨٨٠-١٠٠٨هـ/ ١٤٧٥-١٥٩٩م، واتخذت في البداية من مدينة قُنْدُهار عاصمة لها، ودانت بالإسلام، ثم توسعت حتى ضمت السند.

تأسيس الدولة الأرغونية «ذو النونية»

ارتبط تأسيس الدولة بشخص ذي النون بك أرغون (٨٨٠-٩١٣هـ/ ١٤٧٥-١٥٠٧م) الذي كان يطمح إلى السيادة والسلطة، وكان في بداية حياته من رجال السلطان حسين ميرزا بيقرة (أبو الغازي) (٨٧٣-٩١١هـ/ ١٤٦٩-١٥٠٦م)، آخر الملوك المشهورين من السلالة التيمورية، وعرف في الأساطير باسم «زنو قائد جيش الشاه حسين».

أبلى ذو النون بك أرغون بلاء حسناً في الحروب التي خاضها إلى جانب ولي نعمته حسين بيقرة، فكافأه بتوليته حكم قندهار Kandahar (نحو سنة ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م)، فلم يلبث طويلاً حتى استقل بها (سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م) مستغلاً الخلافات الداخلية في الدولة التيمورية.

وأخذ بمساعدة أبنائه، يتوسع في المناطق الجبلية القريبة من منطقة حكمه، فضم كلاً من بثين وشال ومُستانغ (مُستنك) إلى دولته من دون مقاومة تذكر.

ثم بدأ يعمل على ضم مناطق من السند، فأرسل ولديه شاه شجاع بك أرغون، ومحمد مقيم خان، فقطعا مضيق بولان (سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م) واحتلا سيبي من ممتلكات ملك السند جام نَنْدا السَّمَاوي.

ساعد ذو النون الأرغوني بديع الزمان التيموري في ثورته على أبيه حسين بيقرة (سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م) ليوسع شقة الخلاف، ويستغله في إتمام تأسيس دولته، وارتبط معه بالمصاهرة، فزوج بديع الزمان ابنته.

عمل حسين بيقرة (في سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) على استعادة نفوذه في المناطق التي خضعت لذي النون، لكنه أخفق واضطر إلى الارتداد عنها. واستغل ذو النون انتصاره، فأتم توسعه في منطقة سجستان. واستولى على هَراة Herat، فزاده هذا الانتصار قوة وبأساً، ونجح ابنه محمد مقيم خان في ضم كابُل Kabul مدة من الزمن. وبلغ ذو النون ذروة قوته بوفاة السلطان حسين بيقرة سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٦م، لكن الظروف لم تستمر في مصلحته، إذا مالبث ان اصطدم بزعيم الأزبك شيباني خان (شاهي بك أُزْبك) (٩٠٦-٩١٥هـ/ ١٥٠٠-١٥١٠م) الذي كان في أوج قوته كذلك، وبعد أن سيطر على مناطق متعددة، أخذ يتوسع في خراسان، انجلى الصراع بين الطرفين عن مقتل ذي النون في معركة مَرُوْجَك (مرو) سنة ٩١٣هـ/ ١٦٠٧م، واستيلاء شيباني خان على هراة، كما خسر الأرغون إثر ذلك كل ممتلكاتهم في السند.

تولى حكم الأرغون بعد ذي النون ابنه الأكبر شاه شجاع بك أرغون (٩١٣-٩٣٠هـ/ ٥٠٧-١٥٢٤م) الذي واجه في أثناء حكمه عدة قوى، علي رأسها بابُر Babur ظهير الدين محمد (٨٩٩-٩٣٧هـ/ ١٤٩٤-١٥٣٠م)، مؤسس أسرة المغول التيموريين العظام في الهند، الذي ادعى أنه وريث تيمور في دولته، وبدأ يتوسع على حساب دولة الأرغون منذ عهد ذي النون، وتابع توسعه في عهد شاه شجاع. فاستولى على كابُل وتقدم بجيوشه نحو قُنْدُهار. ومن جهة أخرى كان شيباني خان سلطان الأزبك قد عزز

مركزه في خراسان بعد انتصاره على جميع جيرانه من الملوك والأمراء، كما بدأت تظهر إلى الوجود قوة جديدة هي الدولة الصفوية [ر]، التي أسسها إسماعيل الصفوي سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٢٠م واتخذ مؤسسها لنفسه لقب شاه (٩٠٨-٩٣٠هـ/ ١٥٠٢-١٥٢٤م)، وامتدت ممتلكاته غرباً حتى هراة، وكان توسعه في هذا الاتجاه على حساب دولة الأرغون. ولما كان شاه شجاع بك يريد أن يحافظ على أملاكه بين هذه القوى المتصارعة، فقد وجد نفسه مضطراً إلى الاعتراف بسلطة شيباني خان الأزبكي على دولة الأرغون، وساعده شيباني مقابل ذلك على استعادة قندهار سنة ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م من بابُر.

انصرف شاه بك، بعد ذلك، إلى تدعيم سلطانه ونفوذه في قندهار، وتعرض في أثناء ذلك إلى ثلاث محاولات قام بها بابر لاحتلال المدينة، وأخفق في اثنتين منها ونجح في المرة الثالثة (سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م).

تخلص شاه شجاع بك من سيطرة الدولة الأزبكية، اثر انهزام شيباني خان أمام إسماعيل الصفوي ومقتله في المعركة الكبرى بينهما بالقرب من مَرو سنة ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، واستيلاء شاه إسماعيل على هراة، وإكراهه أهلها على اعتناق مذهب الشيعة. إلا أن دولة الأرغون أضحت بذلك محاصرة من الصفويين في خراسان، والأزابكة في خوارزم وعاصمتهم خيوة، وبابر سلطان المغول في الهند.

وعندما حاول شاه شجاع عبثاً التفاهم مع الشاه إسماعيل، قبض عليه إسماعيل وسجنه في هراة، لكنه فر من سجنه، واستغل فرصة انشغال إسماعيل الصفوي بقتال العثمانيين وانهزامه أمامهم في موقعة جالديران (سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، وكذلك انشغال بابر باسترجاع سمرقند (سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)، فسارع إلى مد سلطته خارج قندهار التي كان يخشى كثرة الطامعين فيها، واتجهت أنظاره قبل كل شيء نحو شرقي سجستان والسند، حيث أخذ يمد نفوذه منذ سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، مستفيداً من المشاكل الداخلية التي كان يعاني منها جام فيروز في السند، وانتصر عليه سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م، ثم اكتسح ثتّة Thatta عاصمة السند الجنوبي، فاضطر جام فيروز إلى عقد صلح مع شاه شجاع تخلى بموجبه عن حكم السند الأعلى (السند الشمالي). ولكن جام فيروز مالبث أن نقض المعاهدة، فزحف عليه شاه شجاع بك، وخلعه، واحتل السند بكاملها، وقضى على الدولة السَّمّاوية، وأسس الدولة الأرغونية في السند.

ولما تعرضت مدينة قندهار سنة ٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م لغزو بابر وسقطت في يده، تراجع شاه شجاع بك إلى ممتلكاته الجديدة في السند وجعل عاصمته مدينة بَخَر أوبهكار (بهاكهر) الواقعة على جزيرة في نهر السند.

كانت العاصمة الجديدة حصينة يتعذر الاستيلاء عليها، وهي تقوم في موقع صالح لإخضاع مملكة لنغا Langah في بلاد مُلْتان وإخضاع القبائل التي تساندها، وعلى رأسها القبائل البلوخية القاطنة في شمالي السند، والتي تحالفت فيما بينها عليه. فقاتلها شاه شجاع بك واشتد في معاملة أهلها، فذبح سكان اثنتين وأربعين قرية من البلوخيين، ومع ذلك لم يفلح في إخضاع السند الشمالي، وما لبث أن توفي سنة ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م، فخلفه ابنه شاه حسين أرغون (٩٣٠-٩٦١هـ/ ١٥٢٤-١٥٥٤م).

بدأ شاه حسين أرغون حياته السياسية بمسالمة بابر، فأعلن خضوع دولة الأرغون لنفوذه، وأقر له بالسلطة العليا، وخطب باسمه على المنابر، فأطلق بابر يده في بلاد السند وما جاورها، فغزا بلاد الملتان والمناطق المحيطة بها أكثر من مرة، كان آخرها سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٨م، كما حاصر العاصمة ملتان، حتى سقطت بيده بعد حصار طويل. وانتقم من القبائل البلوخية وغيرهم من أنصار دولة لنغا فقتل عدداً كبيراً منهم، وعين على ملتان حاكماً من عنده، وعاد إلى عاصمته ثتة.

ولم يكد شاه حسين يغادر المنطقة حتى ثار سكان ملتان على الحاكم الذي عينه وطردوه.

ويبدو أن الظروف السياسية المحيطة بدولة أرغون، وازدياد قوة بابر ويأس شاه حسين من خضوع سكان ملتان لسلطته مع الجهد الكبير الذي بذله بابر لهذا الغرض، هذه العوامل كلها دفعته إلى عدم محاولته الانتقام لما حدث لعامله، كما أنه لم يحاول بعد ذلك إعاده فرض سلطته على المنطقة.

أعلنت دولة لنغا بعد ذلك، تخلصاً من غارات شاه حسين الأرغوني، اعترافها بسلطة بابر الذي ألحقها بامبراطوريته سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م، وأصبح السند الشمالي بذلك تحت حكمه. بقي شاه حسين آمناً في بلاده إلى أن استنصره هُمايون بن بابر الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م، وكان هُمايون قد أصيب بنكسات شديدة ألجأته إلى الاستجارة بصديقه شاه حسين أرغوني. فقد لحقت بهمايون هزيمة ساحقة أمام شيرشاه الأفغاني سلطان دهلي سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م، الذي أتبع نصره بطرد هُمايون من شمالي الهند، وأقام همايون في ضيافة شاه حسين مدة عامين ونصف العام آملاً في مساعدته على شيرشاه، ولكن شاه حسين فضل عدم توريط نفسه في معركة غير مضمونة. واضطر همايون سنة ٩٥٠هـ/ ١٥٤٣م إلى القيام بهذه المهمة بمفرده فحاصر بخر (بهاكهر) من دون طائل، وانسحب بعدها إلى قندهار عن طريق ممر بولان.

وأصاب كمْران بن بابر ما أصاب أخاه همايون، ففقد كابل والتجأ إلى الشاه حسين، وتزوج بابنته، وأقام عنده أعواماً فقد خلالها بصره.

عكرت الدسائس والمؤامرات صفو الأعوام الأخيرة من حياة شاه حسين: فانحرفت حاله، وساء تقديره للأمور، وتغلبت عليه السوداء، وشعر كبار رجال الدولة أن الوضع يستلزم حاكماً قوياً قادراً لأن الأرغونيين لم يكونوا أكثر من جيش احتلال في السند، وليس لهم سلطان كبير في البلاد. ولما لم يكن لشاه حسين ولد، وكانت ابنته الوحيدة ماه جيجك قد تزوجت كمران بن بابر، وصحبت زوجها إلى مكة، فقد قرر كبار رجال الدولة (في سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م) خلع شاه حسين وتسليم دفة الحكم إلى الأمير عيسى ترخان بن عبد العالي بن عبد الخالق كبير أبناء الفرع الأكبر من سلالة أرغون. وما لبث شاه حسين أن توفي في سنة ٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م، فسقطت بموته الدولة الأرغونية «ذو النونية» بعد أن حكمت نحو ثمانين سنة.

الدولة الأرغونية الترخانية

باعتلاء الأمير عيسى ترخان (٩٦١-٩٧٥هـ/ ١٥٥٤-١٥٦٧م) عرش الأرغون بدأ حكم الدولة الأرغونية الترخانية الذي دام سبعاً وأربعين سنة (٩٦١-١٠٠٨هـ/ ١٥٥٤-١٥٩٩م). وكان عيسى ترخان، قبل أن يلي حكم دولة الأرغون، قائد جيوش شاه شجاع بك. لم يهنأ عيسى ترخان بالحكم، إذ مالبث

أن نافسه السلطان محمود كَكُلتاش (غوكلداش) على حكم المنطقة، وكان الحل اقتسام بلاد السند بينهما، فأخذ عيسى ترخان القسم الجنوبي وجعل ثتّة عاصمته، وحكم محمود القسم الشمالي من عاصمته بخر. ولم يرض الأرغونيون عن ذلك، فثاروا على عيسى ترخان، ولكن الوضع لم يتغير.

وتحت ضغط الظروف الداخليةوالخارجية، اضطر عيسى ترخان إلى تقديم فروض الولاء للسلطان أكبر (٩٦٣-١٠١٥هـ/ ١٥٥٦-١٦٠٥م)، من سلاطين التيموريين في الهند، وحكم السند الجنوبي باسمه. ولما لم يفعل محمود ككلتاش مثل ذلك، اكتسح السلطان أكبر السند الشمالي سنة ٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م وجعله تحت سلطته المباشرة.

ظلت الدولة الأرغونية الترخانية تحكم السند الجنوبي بعد وفاة عيسى ترخان سنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م بشخص ابنه محمد باقي (٩٧٥-٩٩٣هـ/ ١٥٦٧-١٥٨٥م)، الذي لم يقم بأعمال مهمة طوال عهده وانتهى بانتحاره فخلفه ابنه جاني بك (٩٩٣-١٠٠١هـ/ ١٥٨٥-١٥٩٢م)، ولم يقدم جاني بك فروض الولاء للسلطان أكبر، فأوعز السلطان أكبر (سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م) إلى قائد جيشه عبد الرحيم خان بالزحف على السند الجنوبي، ولم يستطع جاني بك مقاومته، فاكتسح جيش أكبر المنطقة، وألحقها بالامبراطورية التيمورية في الهند، وعزل جاني بك عن الحكم سنة ١٠٠١هـ/ ١٥٩٢م وعين ابنه ميرزا غازي الذي حكم الدولة باسم السلطان أكبر حتى وفاة والده. أما جاني بك فانصرف إلى الشراب واللهو، وتوفي سنة ١٠٠٨هـ/ ١٥٩٩م بتأثير الإدمان على المشروبات الكحولية وانتهت بوفاته الدولة الأرغونية.

كانت الدولة الأرغونية دولة حرب، قضى حكامها معظم حكمهم في التوسع أو في صد الهجمات المتكررة من الدول المجاورة، ولذلك فإن اهتمامها كان موجهاً إلى الجيش بالدرجة الأولى وتألف جيشها من أفراد قبيلة الأرغون، وبعض أفراد من قبيلة تُرخان التي تمت بصلة رحم لها، إضافة إلى تجنيدها أهالي البلاد المحتلة.

جدول حكام الدولة (سنوات الحكم)

١ - ذو النون أرغون ٨٨٠-٩١٣هـ/ ١٤٧٥-١٥٠٧م.

٢ - شاه شجاع بك أرغون ٩١٣-٩٣٠هـ/ ١٥٠٧-١٥٢٤م.

٣ - شاه حسين أرغون ٩٣٠-٩٦١هـ/ ١٥٢٤-١٥٥٤م.

٤ - عيسى ترخان بن عبد العالي بن عبد الخالق ٩٦١-٩٧٥هـ/ ١٥٥٤-١٥٦٧م.

٥ - محمد باقي بن عيسى ترخان ٩٧٥-٩٩٣هـ/ ١٥٦٧-١٥٨٥م.

٦ - جاني بن محمد باقي ٩٩٣-١٠٠١هـ/ ١٥٨٥-١٥٩٢م.

٧ - ميرزا غازي بن جاني ١٠٠١-١٠٠٨هـ/ ١٥٩٢-١٥٩٩م.

أمينة بيطار

الموضوعات ذات الصلة:

أفغانستان - السند - سجستان - المغول - الهند.

مراجع للاستزادة:

-W. ERSKIN, A history of India Under Baber and Humayun (London 1854).

-M. R. HAIG, the Indus Delta Country (London 1894).

■ الأرغون (غاز-) ← الغازات الخاملة

■ أرغيزي (يون ثيودورسكو -)
(١٨٨٠-١٩٦٧)

يون ثيودورسكو أرغيزي Ion Theodorescu Arghezi كاتب روماني من أصل قرويّ، ولد وتوفي في مدينة بوخارست. عمل في معرض للرسم ومن ثمّ في مصنع للسُكّر. درس علم اللاهوت والتاريخ المقارن للأديان والفلسفات في مدينة فريبورغ Fribourg (سويسرة). وعارض سياسة الحرب في بلده، فسجن في فاكاريستي Vacaresti لمدّة قصيرة.

وفي عام ١٩٤٣ أُبعد إلى معتقل تيرغو-جو Tirgu- Jiu في رومانية لتهجّمه على ممثل الحكومة الألمانية في مقالة لاذعة. عُيّن أرغيزي بعد عام ١٩٤٥ نائباً وعضواً في الأكاديمية الرومانية، ثمّ أصبح رئيساً لـ «اتحاد الكتاب الرومانيين». مُنح عدّة جوائز أدبية منها «الجائزة الوطنية للشعر» بالاشتراك مع الكاتب باكوفيا Bacovia (١٩٣٤) ولقبّ «بطل العمل الاشتراكي».

بدأ أرغيزي، منذ عام ١٨٩٦، بنشر أشعاره في مجلة «الرابطة الأرثوذكسية» Liga Ortodoxa التي كان يملكها ألكسندرو مَكدونسكي Alexandru Macedonski، وهو شاعر رمزي أثّر في أعمال أرغيزي. وفي عام ١٩١٠ انتقد أرغيزي فساد النظام الأُلغارشي (حكم الأقلية): فكتب مقالات ناقدة في جرائد متعددة، وفي المجلات الدورية منها «فيتا رومينسكا» Vita Rominesca و«سيرا» Seara.

وأسسّ عام ١٩١٥ مع صديقه غالا غالكسيون Gala Galaction مجلة «كرونيكا» Cronica. كما نشر عام ١٩٤٦ دوريّة تحمل طابعاً هجائياً سماها بطاقات الببغاء Bilete de papagal. وكان أرغيزي يطرح تساؤلات حول سر الوجود والحياة في حوار يعكس صورة مفكر يتأرجح بين الشك والإيمان، كما أنه عاش مأساة الإنسان المتعطش للمعرفة.

تؤلف أعمال أرغيزي الشعرية عالماً معقداً، فهو شاعر المتناقضات والهجاء المستعد دائماً لفضح كل ما يعتقده غلطاً، متبعاً في ذلك أسلوباً مبتكراً جامعاً بين التعابير المطروقة والجديدة، من جهة، والخطاب المجازي والتعبيري المباشر، من جهة أخرى، وربط بينها بروابط غريبة ومثيرة أحياناً.

كتب أرغيزي روايات عدّة منها: رواية «لينة» Lina (١٩٤٢) التي استوحاها من تجربته في مصنع السكّر، وندّد فيها بأصحاب الصناعة من الأجانب ومجّد حياة العمال القاسية، ورواية «الأيقونات الخشبية» (١٩٢٩) Iconace de lemn التي تعدّ تصويراً ساخراً لحياة الرُهبان الأرثوذكس، كذلك أوحت إليه حياة السجن رواية «الباب الأسود» (١٩٣٠) Poarta Neagra ومجموعة شعرية سمّاها «زهور العفن» (١٩٣١) Flori de mucigai نهج فيها أسلوب

«أزهار الشر» Fleurs du mal للشاعر الفرنسي «بودلير» [ر] Baudelaire. وحقق في ديوانه الشعري الأول «كلمات متجانسة» (١٩٢٧) Cuvinte potrivite تطوراً ملموساً في الشعر الغنائي. أما كتابه «كُتيّب المساء» (١٩٣٥) فقد عدّل فيه أرغيزي موقفه فأصبح شاعر الأجواء المنزلية والأسرية، والطبيعة. وفي عام ١٩٥٦ وضع أرغيزي قصيدة طويلة للإنسانية سمّاها «نشيد للإنسان» Cantarea omului يتغنى فيها «بولادة الإنسان وغموض أصله واكتشافه النار، واختراعه الأدوات، وثوراته، وصراع الطبقات». كذلك خلف أرغيزي أعمالاً مسرحية منها «المحقنة» Seringa، كما ترجم إلى اللغة الرومانية مؤلفات لعدد من الكتاب الأجانب من بينهم موليير [ر] Molière ولافونتين [ر] La Fontaine وبودلير، وكريلوف Krylov [ر].

ج.ت

■ أرفيدسون (أدولف إيوار-)
(١٧٩١-١٨٥٨)

أدولف إيوار أرفيدسون Adolf Iwar Arvidsson شاعر سويدي، ولد في بداسيوكي Padasjoki بفنلندة، وسُمي محاضراً في التاريخ بجامعة آبو Abo عام ١٨١٧، وبدأ منذئذ نشاطه الثقافي، ولكنه طرد منها بعد خمس سنوات لاتخاذه موقفاً متطرفاً ضد سلطات الجامعة. وبعد مدة وجيزة نفته الحكومة وأجبرته على اللجوء إلى السويد لنشر مقالة سياسية كانت موضع جدل واسع.

عمل أرفيدسون في المكتبة الملكية في ستوكهولم وأصبح أميناً لها عام ١٨٤٣، وتوفي في مدينة فيبورغ Vyborg (تقع اليوم في روسية).

وزع أرفيدسون همومه بين وطنيه منتبهاً لمصالح كليهما على السواء في دراساته التاريخية والأدبية والسياسية. ومن أبرز أعماله مجموعة قصائد في ديوان عنوانه Ungdoms rimforst af Sonen i ornskog (١٨٣٢)، ومجموعة من الأغاني الفولكلورية تحمل اسم Svenska Fornsanger (١٨٣٤-١٨٤٢).

ج.ت

■ الأرقم بن أبي الأرقم
(؟-٥٥هـ/ ؟-٦٧٥م)

أبو عبد الله بن عبد مناف بن أسد المخزومي، صحابي رفيع الشأن من عشيرة مخزوم التي عرفت بالغنى والمكانة الرفيعة في مكة، كما عرفت قبل الإسلام بشدة عداوتها للنبي ﷺ. أما أمّه فتنسب إلى قبيلة خزاعة.

ولد الأرقم بن أبي الأرقم في مكة، واعتنق الإسلام إبّان شبابه، وهو من أوائل الصحابة الذين اعتنقوا الإسلام، لم يسبقه إلى الإسلام غير ستة من صحابة النبي.

كان للأرقم مكانة عالية في قومه مكنته من أن يقدّم داره بمكة، في مرتفع الصفا، للرسول محمد عليه الصلاة والسلام لتكون ملجأ له في أيام محنته، ومقّراً للمسلمين الأولين، يجتمعون فيها سراً، وفي هذه الدار وجد النبي مكاناً آمناً لنشر الدعوة، فأسلم فيها قوم كثير.

وتعد المدة التي قضاها الرسول ﷺ في هذه الدار مهمة في تاريخ الدعوة إلى الإسلام بمكة، حتى إنّ كثيراً من المسلمين كانوا يؤرخون دخولهم في الإسلام بتلك الأيام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة التي سميت: بدعوة الأفراد بدار الأرقم، لأن الرسول كان يدعو كل من آمن على انفراد، وكان هؤلاء هم السابقين الأولين للإسلام، ولهم مكانة عظيمة في الدعوة.

هاجر الأرقم مع المهاجرين إلى المدينة المنورة وأقام في حي بني زريق، وعرف بيته أيضاً بدار الأرقم وقد آخى الرسول ﷺ بينه وبين أبي طلحة زيد بن سهل، وكان سعد بن أبي وقاص صديقاً حميماً له.

شهد الأرقم مع الرسول ﷺ المشاهد والمواقع كلها، وأعطاه النبي يوم بدر سيفاً ومتاع بني عائذ المخزومي نفلاً، وقد نقلت عنه بعض الأحاديث النبوية.

توفي الأرقم في المدينة المنورّة بعد أن بلغ خمساً وثمانين سنة، وكان له عدة أولاد، أمّا أحفاده فهم من نسل ابنه عثمان الذي أصبح جداً لأسرة كبيرة، عاش فرع منها في بلاد الشام.

جعل الأرقم داره في مكة المكرمة وقفاً وبقيت كذلك إلى أن باعها أحفاده إلى الخليفة المنصور، فصارت له ولأسرته من بعده. وقد أقطعها المهدي للخيزران أمّ هارون الرشيد، فأعادت بناءها، وأطلق عليها بيت الخيزران، وقد رممت الدار بعد ذلك وأعيد بناؤها مراراً.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ط١ (مؤسسة الرسالة، لبنان ١٣٢٨هـ)
- ابن سعد: الطبقات الكبرى (جـ٣)، (دار صادر، بيروت ١٩٨٥)

■ الأَرَقَة

الأَرْقَة Aphis حشرات ضارة تتطفل على كثير من النباتات. تنتمي إلى رتبة متجانسات الأجنحة Homoptera، إلى الفصيلة العليا الأرْقانيات Aphidoidea التي تضم الكثير من الفصائل وأهمها الأرْقيات Aphidae.

وهي حشرات رهيفة صغيرة الحجم، طولها أقل من ٣مم. جسمها بيضاوي الشكل، قرون استشعارها طويلة، غالباً ما تتألف من ٣-٤ عقل. أرجلها رفيعة، تنتهي كل منها برسغ مكون من عقلتين. البطن مدبب النهاية، وغالباً مايحمل من الناحية الظهرية زائدتين اصبعيتي الشكل cornicles تفرز مواد طاردة للأعداء. وهاتان

الزائدتان قصيرتان جداً أو غير موجودتين لدى بعض الأنواع. ويختلف لون الأرْقانيات باختلاف الأنواع، ويغلب عليها، على العموم، اللون الأسود والأصفر والأخضر. كما يغطي جسم بعض أنواعها إفرازات شمعية بيضاء. وقد يكون لأفراد النوع الواحد أشكال مختلفة polymorphisme. أجنحة الأرقانيات موجودة أو غير موجودة، إذ ترى أفراد مجنحة في مواسم معينة من السنة (الشكل ١) وأخرى غير مجنحة، وذلك بحسب درجات الحرارة والرطوبة والغذاء.

ومن المعروف عن هذه الحشرات أنها تعيش على النباتات بشكل مستعمرات كثيفة، وخاصة على الأوراق والأجزاء الفتية من النبات بوجه عام، إذ تمتص نسغ النبات بأجزاء فمها الثاقبة الماصة، مما يؤدي إلى تجعد الأوراق وضعف النبات. ويسبب كثير من أنواعها أوراماً وانتفاخات مختلفة الأشكال على أوراق النباتات وأفرعها وجذورها. كما ينقل بعضها الفيروسات المسببة لأمراض النبات، مثل موزاييك البقوليات والشوندر السكري وغيرها، والقليل من الأمراض الفطرية.

وتطرح الأرقانيات (المن) ما يفيض عن حاجتها مما تمتص مع نسغ النبات، وهو مايسمى النُّدْوَة العسلية (المغْثر miellat)، وهي مادة غنية بالسكريات، تجذب الكثير من الحشرات كالنمل وغيره، كما تساعد على نمو الفطر الأسود الذي يسبب ظاهرة الاسوداد (السُّخام fumagine) الذي، مع مايعلق به من أتربة، يعطل الفعاليات الفيزيولوجية للنبات. كما يمكن للنُّدْوَة العسلية (المغثر) أن تعيق تلقيح النباتات وخاصة النجيليات.

دورة حياتها

الأرقانيات ذات تطور ناقص. يمكنها أن تتكاثر جنسياً أو لا جنسياً (تكاثر بكري parthenogenesis [ر]). بعضها بيوض وبعضها الآخر ولود. ومدة الجيل، على العموم، قصيرة جداً. فهي لذلك تتكاثر بأعداد كبيرة وتعطي الكثير من الأجيال في الموسم الواحد، إذ يمكن للأنثى الواحدة من الأرقانيات أن تعطي عدة آلاف من الأفراد في نهاية شهر، وعدة ملايين بعد شهرين، وعدة مليارات بعد ثلاثة أشهر. وتمضي الأرقانيات فصل الشتاء على شكل بيوض،



وأحياناً على شكل إناث. ويمكن على العموم تمييز نموذجين لتطورها.

دورة وحيدة العائل: وفيها تتم الحشرة كامل تطورها على عائل نباتي واحد، حيث تعطي بيوض الشتاء، في مطلع الربيع، إناثاً غير مجنحة تدعى الإناث المؤسِّسة fondatrice أو fondatrigéne وهذه تتكاثر لا جنسياً فتعطي إناثاً ولودة مجنحة أو غير مجنحة، تتكاثر هذه بالطريقة نفسها طوال موسم النمو. وفي الخريف تظهر أفراد جنسية (إناث غير مجنحة وذكور مجنحة أو غير مجنحة) تتلاقح وتعطي بيوض الشتاء. ويلاحظ هذا التطور مثلاً لدى أرقة الملفوف Brevicoryne brassicae.

دورة ثنائية العائل: وفيها تتم الحشرة تطورها على أكثر من نبات من فصائل مختلفة. وفي هذه الحالة تعطي الإناث المؤسِّسة إناثاً غير مجنحة تتكاثر لا جنسياً. وفي بداية الصيف تعطي إناثاً مجنحة تهاجر من العائل الأول (وهو غالباً شجري أو شجيري) إلى العائل الثاني (وهو عادة عشبي). وفي نهاية الصيف تظهر إناث وذكور مجنحة تترك العائل الثاني لتعود إلى العائل الأول حيث تعطي إناثاً بيوضة غير مجنحة. ومن أمثلة هذا التطور مانجده لدى أرقة الفول (مَنّ الفول الأسود) Aphis fabae.

آثارها المرضية

تتعرض النباتات للإصابة بالكثير من الأرقانيات، ومن النادر أن ينجو منها نبات. ومن الأنواع المهمة في مناطقنا يذكر على سبيل المثال أرقة التفاح (مَنّ التفاح الأخضر) Aphis pomi، وأرقة الدراق (مَنّ الدراق الأخضر) Mysus persicae، وأرقة البرتقال السوداء Toxoptera aurantii، وأرقة الرمان (مَنّ الرمان) Aphis punicae، وأرقة الذرة (مَنّ الذرة) Phopalosiphum maidis، وأرقة القطن أو البصل أو البطيخ Aphis gossypi، وغيرها الكثير جداً. وهي كما سبق ذكره، تمتص نسغ النبات وتفرز المغثر مسببة ضعف النبات. كما تُحْدِثُ بعض أنواع الأرقانيات تورمات وانتفاخات على أفرع النبات وجذوره كما في أرقة التفاح الصوفية (منّ التفاح الزغبي) Eriosoma langerum، وفلُكْسِرة العنب Viteus (phyloxera) vitifolii، والبنفيق Penphigus الذي يصيب شجر الحور.

طرائق الوقاية والمكافحة

في برنامج مكافحة الأرقانيات لا بد من التركيز على أهمية العوامل البيئية والأعداء التي تسهم إسهاماً فعالاً في الحد من أعدادها. فارتفاع درجة الحرارة إلى فوق ٢٥ْ سلزيوس يثبط نشاط هذه الحشرات. ومن أعدائها التي تهاجمها الدعسوقيات (بنات العيد Coccinellidae) وأسد المن Chrysopidae والذباب مُبيد الأرق Surphidae وغيرها. وإلى جانب هذه المفترسات توجد المتطفلات وخاصة من غشائيات الأجنحة Hymenoptera [ر] ولاسيما مجموعتي صيادات الحشرات Braconides والصُفْريات Chalcides. كما تتعرض الأرقانيات للإصابة بالكثير من الفطريات المتطفلة التي تستخدم عملياً في مكافحتها، وخاصة مَنْ جنس الفطر الحشري Entomorpha. كما نجحت بعض الطرائق الزراعية في هذا المجال، ومن أهمها استخدام أصول الكرمة الأمريكية المقاومة للإصابة بحشرة الفلُكْسِرة الخطرة جداً.

أما المكافحة الكيمياوية فيجب عدم اللجوء إليها إلا في حالات الضرورة. وفي هذه الحالة لابد من أن تتم المعالجة أبكر ما يمكن، للقضاء على الإناث المؤسِّسة وتلافي تكوين المستعمرات الكثيفة وقبل نشاط الأعداء. وإذا كان لا بد من التدخل الكيمياوي فيراعى انتقاء مبيدات الأرق المتخصصة، وأن تستخدم المبيدات الجهازية خاصة (التي تسري مع العصارة النباتية) لضمان وصولها إلى الأفراد المختبئة بين تجاعيد الأوراق المصابة. وقد يضطر في بعض الحالات إلى الرش مرات كثيرة. كما يراعى تغيير المبيد بين مدة وأخرى لتحاشي ظاهرة المناعة.

خالد رويشدي

الموضوعات ذات الصلة:

غشائيات الأجنحة.

مراجع للاستزادة:

- A. F. G. DIXON, Biology of Aphids (Edward Arnold Publ., London 1973).

■ الأَرَك (معركة ـ)

الأَرَك أو الأَراك موقع وحصن أندلسي من منطقة قلعة رباح يدعى اليوم سانتا ماريا دي ألاركوس Santa Maria de Alarcos، ويقع على بعد سبعة أميال إلى الجنوب الغربي من مدينة ريال Real اليوم. وقد بني الحصن على قمة جبل، وعلى سفوحه الوعرة المسماة بفحص الحديد الواقعة بين الحصن ووادي آنة حدثت الموقعة المشهورة، التي أخذت اسم الحصن، بين ألفونسو الثامن ملك قشتالة وأبي يوسف يعقوب المنصور الخليفة الموحدي، وذلك إثر انتهاء أمد هدنة كانت قد عقدت بينهما، وقيام الملك القشتالي بالأعمال العدائية والإغارة على الأراضي الإسلامية في منطقة إشبيلية. رد المنصور بالعبور إلى الأندلس والتوجه عبرها للنزول في بسائط قلعة رباح وشلبترة (اليوم سالفاتيرا Salvatierra)، كي يواجه ألفونسو من مناطق المرتفعات هذه التي يقع إلى جنوبها حوض نهر الوادي الكبير، وما عليه من أمهات المدن الأندلسية كقرطبة وإشبيلية، وكي يمنعه من تمكين نفسه فيها. وسارع ألفونسو بالاتجاه نحوه من دون انتظار لوصول نجدات حلفائه إليه.

لا تذكر المصادر، حتى العربية منها شيئاً عن عدد جيش الموحدين، وإن فصلت في تعداد الأجناس الداخلة فيه. ويرد في المصادر العربية ذكر عدد جيش ألفونسو ولكن ثمة تبايناً كبيراً فيما بينها.

وقد خاض الجيش الموحدي المعركة وفق خطة نصح بها عبد الله بن صناديد القائد الأندلسي وقبلها الخليفة الموحدي لأن الأندلسيين كانوا أكثر خبرة بمحاربة الإسبان. فتوارى قسم يضم قبائل الموحدين وعلى رأسهم الخليفة إضافة لعبيدهم عن أنظار المتقاتلين. وسارت بقية الجيش بقيادة أبي يحيى حفيد أبي حفص عمر الهنتاتي أحد أصحاب المهدي بن تومرت ومعه راية الخليفة البيضاء، حتى نزلت بأسفل المنحدر ضحى ٨ شعبان ٥٩١هـ/ ١٨ تموز ١١٩٥م. ثم عبأ القائد جنده ببقائه مع محاربي قبيلته هنتاتة في القلب، وجعل الأندلسيين ميمنة وزناتة والقبائل العربية ميسرة، ووضع الغزّ والمطوعة في المقدمة. وقد فرضت هذه التعبئة على الجيش القشتالي من أعلى الربوة لبس الحديد استعداداً للقتال، الذي لم يباشره الموحدون في ذلك اليوم، وقد ضاقوا ذرعاً بما لبسوه، ولعلّ ذلك مما أجبرهم على مباشرة الهجوم في اليوم التالي بقسم من جيشهم انحدر من أعلى الربوة وقام بثلاث كرات على القوة الموحدية، نجح بنتيجتها في تشديد ضغطه على القلب ظنا منه بوجود الخليفة فيه. وتمثل ذلك النجاح بقتل القائد أبي يحيى. لكن جناحي القوة الموحدية، استغلا الوضع للتقدم صعوداً باتجاه أعلى الربوة، وتمكن جند الميسرة من العرب والمغاربة الزناتيين مع بعض الغز، وكلهم فرسان خفاف الحركة، من التمركز بين القوة القشتالية المهاجمة وكتلة جيشهم في أعلى الربوة. وأدى الوضع الجديد إلى زج الجيش القشتالي كله في المعركة. وفي أوج احتدامها ظهرت بقية الجيش الموحدي بقيادة الخليفة، ورمت بثقلها فيها، فحلت الهزيمة بالقشتاليين عند ظهيرة اليوم بحسب الرواية الإسبانية أو عند حلول الظلام بحسب الرواية العربية. احتمت فلول المنهزمين في حصن الأرك، وحاصره الموحدون وهم يظنون أن ألفونسو الثامن داخله. وفي الواقع لم يكن فيه سوى الراية الملكية التي تركها خلفه لدى هربه منه قبل إكمال حصاره، تاركاً دييغولوبيث دي هارو Diego Lopez de Haro في القيادة ومعه ٢٤ ألفاً بحسب رواية (روض القرطاس، ص٢٢٨)، بينما تجعلهم رواية (ابن عذاري، البيان المغرب، تطوان ١٩٦٠ ص١٩٥) خمسة آلاف. ثم توسط بين الطرفين بيطرة بن فراندس كما تسميه المصادر العربية Pedro Fernandez de Castro، وهو فارس قشتالي معادٍ لألفونسو الثامن وموال للمسلمين، واستطاع إقناع الخليفة بقبول استسلامهم على الحرية مقابل إطلاق سراح عدد مماثل من أسرى المسلمين لدى الإسبان، الذين لم ينفذوا الاتفاق بعد تحرير بني دينهم. كانت الخسائر كبيرة، وخاصة في صفوف القشتاليين، والثابت أنها كانت ضربة قاضية على قوة ألفونسو، بدليل إحجامه عن مجابهة الخليفة عند توغله بعدها أكثر من مرة في أراضيه، على الرغم من عون ملك أراغون له. وربما كان من عوامل هذا النصر الذي أحرزه الموحدون خطتهم الملائمة وإدخالهم لعنصر جديد على المنطقة وهو الغُز بطريقتهم الحربية القائمة على استخدام النبال بكثافة ذات فعالية مدمرة بحسب وصف المروية اللاتينية. ويضاف إلى ذلك خطأ ألفونسو الثامن في تقدير قوة الموحدين بعدما تعود على الغزو سابقاً في أراضي الأندلس من دون مواجهة مقاومة تذكر، ويبدو أن خطأه هذا كان عاماً في بلده، حتى إن جماعات من تجار اليهود رافقت جيشه حاملة أموالاً كثيرة لشراء أسرى المسلمين.

وكان من نتائج المعركة أن بثّ الخليفة المنصور جيوشه في أراضي قلعة رباح فاستولت على عدة حصون ثم على قلعة رباح المنيعة ذاتها بعد أن ظلت في حوزة القشتاليين زهاء نصف قرن.

أحمد بدر

الموضوعات ذات الصلة:

الموحدون.

مراجع للاستزادة:

ـ محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٤).

ـ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، القسم الثالث (دار الثقافة، بيروت).

■ أركنساس

أركنساس Arkansas ولاية أمريكية، تقع على الضفة الغربية لنهر المسيسبي [ر]، يحدها شمالاً ومن الشرق قليلاً ولاية ميسوري، ومن الشرق نهر المسيسبي، ومن الشرق الجنوبي ولاية المسيسبي[ر]، ومن الجنوب ولاية لويزيانة ومن الجنوب الغربي ولاية تكساس، ومن الغرب ولاية تكساس وولاية أوكلاهوما. وهي أقرب بشكلها إلى المربع وتصل أبعادها من كل اتجاه إلى نحو ٤٠٠كم. وتبلغ مساحتها ١٣٧٥٣٨كم٢، وعاصمتها ليتل روك Little Rock.

وصل إليها في القرنين السادس عشر والسابع عشر كاشفون إسبان وفرنسيون. وفي عام ١٦٨٥ أسس الفرنسيون أول مركز استيطاني في الولاية. وفي سنة ١٨٣٦ أصبحت أركنساس ولاية مستقلة وقبلت في الاتحاد ثم احتلتها الجيوش الاتحادية سنة ١٨٦٣ في أثناء حروب الانفصال. ونظمت فيها حكومة برئاسة إيزاك مورفي، وقبلت نهائياً في الاتحاد سنة

١٨٦٨ بعد موافقتها على قانون إلغاء الرق ونالت دستورها الجديد سنة ١٨٧٤.

تمتاز أركنساس بتنوع تضاريسها، ووفرة نباتاتها وحيواناتها البرية ومواردها الطبيعية. وتتألف الولاية من قسمين طبيعيين رئيسيين متساويين تقريباً بمساحتيهما. الأول القسم الشرقي: وهو سهل كوّنته رسوبيات المسيسبي وطميه وغرينه، ويرتفع عن سطح البحر نحو ٤٥,٧م، ويحوي المزارع إضافة إلى الغابات والمستنقعات، وترتفع في هذا القسم أيضاً الرواسب الطّفالية إلى نحو ١٥٠م في الشمال. والثاني قسم الأراضي المنخفضة الجنوبية والمرتفعات الشمالية الغربية؛ حيث تمتد هضبة وجبال أوزارك Ozark من سلسلة ميسوري ويرتفع جبل بوسطن إلى الشمال من نهر أركنساس حتى ٨٣٥م في قمة مغازين، في حين تشرف على النهر جبال واشيتا من الجنوب، وتتدرج التلال منحدرة باتجاه الشرق والجنوب، أما الأراضي في الغرب والشمال الغربي فهي غير صالحة للزراعة إلا إذا استصلحت لأنها رملية وشستية.

يؤلف نهر المسيسبي النظام المائي الأساسي في الولاية، ويستقبل أربعة روافد: سان فرنسيس القادم من ولاية ميسوري، ووايت ريفر من شمالي أركنساس الذي يدخل ولاية ميسوري ويعود إلى أركنساس، ونهر أركنساس الذي يخترق الولاية في وسطها ويصب في المسيسبي ثم ريد ريفر الذي يروي مع رافده نهر واشيتا مناطق في وسط الولاية وجنوبيها ويصب في المسيسبي في ولاية لويزيانة. ويعدُّ مناخ الولاية لطيفاً وكمية التهطال وافرة حيث تسود الغابات الكثيفة ويصل اتساعها إلى نحو ثلثي مساحة الولاية.

تزايد عدد سكان ولاية أركنساس من ١٤٢٧٣ نسمة سنة ١٨٢٠ إلى ١,٣١١,٥٦٤ نسمة سنة ١٩٠٠، ووصل إلى ١,٩٢٣,٢٩٥ في عام ١٩٧٠ وإلى ٢,٤٨٣,٧٦٩ في عام ١٩٩٥. يترأس حاكم الولاية المجلس التنفيذي ويعاونه نائب الحاكم وأمين الولاية وخازن ومحاسب ومحام عام ومفوض الولاية. ويتولى السلطة التشريعية مجلس عام مؤلف من مجلس للشيوخ مدة ولايتهم ٤ سنوات ومجلس للنواب وينتخبون كل سنتين. وتُمثَّل الولاية في الكونغرس الأمريكي بعضوين في مجلس الشيوخ وبستة نواب. ويستند اقتصاد الولاية إلى الزراعة وخاصة القطن والرز والذرة والقمح إضافة إلى العنب والتفاح وتربية الدواجن والماشية. ومن أهم الصناعات فيها: الصناعات الخشبية والزيتية والمعلبات. وتشتهر الولاية بإنتاج البوكسيت (خام الألمنيوم) والزنك والرصاص والمنغنيز.

وفي الولاية شبكة من طرق متنوعة برية وجوية تربطها بسائر الولايات الأخرى. والتعليم فيها إجباري من السادسة إلى الخامسة عشرة ومجاني من السادسة حتى الحادية والعشرين، وفيها عدد من المدارس المتنوعة وجامعة ومؤسسات خاصة للتعليم العالي.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

أمريكة الشمالية - الولايات المتحدة الأمريكية.

■ أرليخ (أوجين -)
(١٨٦٢-١٩٢٢)

أوجين أرليخ Eugen Erlich عالم قانوني نمسوي، ولد في جرنوفيتز Gernovitz إحدى مقاطعات امبراطورية النمسة والمجر. ودرَس القانون في فيينة، ودرّس فيها القانون الروماني بين عامي ١٨٩٩ و ١٩١٤، كما درّس العلم ذاته في مسقط رأسه. وعندما كان شاباً ترك الدين اليهودي واعتنق الكاثوليكية، ولكنه بقي طول حياته يعير انتباهاً كبيراً للمسائل اليهودية. في عام ١٩١٨ ألحقت المنطقة التي ولد فيها بمملكة رومانية وتوقف عن التدريس لأسباب سياسية.

اشتهر أرليخ بمؤلفه «أسس علم الاجتماع القانوني» الصادر عام ١٩١٣ وفي هذا المؤلف قدم أرليخ منهجاً للدراسة الاجتماعية للقانون، وشق بذلك الطريق أمام علم الاجتماع القانوني المعاصر في البلاد الجرمانية وأوربة الوسطى.

يرى أرليخ أن «مركز الثقل في تطور القانون لا يكمن في التشريع، ولا في القانون، ولا في القرار القضائي، بل في المجتمع ذاته»، وبدلاً من أن يبحث مصدر القانون في «روح» الشعب، التي كان سافيني يربطها بالماضي في منظور تاريخي للقانون، فإن أرليخ سعى لالتقاط هذه الروح وإدراكها في علم الاجتماع القانوني، أي في وقائع القانون، في القانون الذي يعيشه الشعب، أي القانون الحي، وهذا - في رأيه - نظام اجتماعي عفوي ينتج من التوازن الذي يقوم داخل الدولة (كمجتمع إنساني) بين الإرادات الفردية وإرادات الجماعات التي يتكون منها هذا المجتمع (الأسرة، الكنيسة، وإلى جانبهما كثير من التجمعات). وقواعد القانون المجردة التي تصدرها السلطة السياسية أو الشرع تصلح لتسوية بعض المنازعات في ساحة القضاء عندما يعجز ذوو العلاقة عن الاتفاق فيما بينهم، وهذه المنازعات لا تكون إلا قشرة سطحية من القانون في جملته. فالقانون، في جوهره، حقيقة اجتماعية تتبع الدولة، وعلى هذا ينبغي البحث عن القواعد القانونية في حياة المجتمع، لا في تصرفات إرادة الدولة.

قادت هذه النظرية أرليخ إلى اقتراح التوجيهات التالية للقضاة المدعوين للحكم استثنائياً، في حسم نزاع بين أشخاص القانون: البت في ضوء المعطيات الاجتماعية الثابتة بحسب الأصول، بدلاً من المماحكة في تفسير القوانين والنصوص الأخرى، كما لو أن حل الخلافات ثمرة استنتاج منطقي بحت انطلاقاً من النصوص المجردة، وعلى القضاة، عند الاقتضاء، أن يعتمدوا حسهم الشخصي بالعدالة. ومع ذلك يبدي أرليخ تحفظاً مهماً. فإذا كان القانون، أو أي مصدر رسمي للقانون، يضع قواعد محددة وصريحة لا تقبل الالتباس، فإن القرارات القضائية الواجب اتخاذها في مثل هذه القضايا بالذات هي تطبيق القانون بدقة من دون أن يملك القاضي الإدعاء بأي حرية.

كمال غالي

■ إرليخ (بول -)
(١٨٥٤-١٩١٥)

بول إرليخ Paul Ehrlich طبيب وجراثيمي ألماني. ولد في شترِهْلين Strehlen وتوفي في باد - هومبورغ Bad-Homburg . له الكثير من الاكتشافات الطبية التي تتصل بالنسج وكريات الدم والمناعة والجراثيم والأدوية.

درس الطب متنقلاً بين عدة جامعات وحاز شهادة الدكتوراه من بريسلاو Breslau سنة ١٨٧٧ . وقد عني منذ أيام دراسته بطرق تلوين النسج الحية، ووضع وهو طالب الأسس الأولى لمشكلات علمية استأثرت باهتمامه طوال حياته، وظلت من أهم مجالات نشاطه. سمي بعد تخرجه في الجامعة رئيس أطباء في مستوصف في برلين، ولكن سرعان ما انصرف كلياً إلى البحث العلمي وتفرغ لدراسة العلاقة بين الملونات وأنواع النسج والخلايا.

فهو أول من فرق بين الكريات البيض الأسسة basophil والحمضة acidophil والعدلة neutrophil عن طريق تلونها. ثم درس أنواع فقر الدم anemia التي تسببها ابيضاضات الدم leukemia، وحدد نوعاً من فقر الدم أسماه فقر دم إرليخ وهو مايطلق عليه اليوم فقر الدم اللاتنسجي aplastic a. . والتفت على نحو خاص إلى تلوين الكريات الحمر وتغير أشكالها. ويعتمد مايعرف اليوم عن الكريات السوية والمرضية إلى حد بعيد، على نتائج بحوثه. فقد تعرف أجساماً bodies في الكريات الحمر تشاهد في حالة انحلالها بسم من السموم، وسميت هذه الأجسام باسمه. كما برهن على أُلفة affinity بعض المواد الملونة للجراثيم والخلايا الحية، كأُلفة أزرق المتيلين للنسيج العصبي.

وكشف عام ١٨٨٢ أن العصية السلية تتلون بالفوكسين fuchsin ومازال المبدأ الذي وضعه لتلوينها مطبقاً حتى اليوم عند تحري هذا الجرثوم في العناصر المرضية.

نشر إرليخ في عام ١٨٨٥ كتاباً عرض فيه نظرياته في المناعة ، وهي الحقل الثاني الذي أولاه اهتماماً. وفيه يبرهن على تعديل فعل الذيفان toxin بالترياق antitoxin النوعي له، ويبين أن التفاعل بين المستضد antigen والضد antibody يتم وفق اتحاد كيمياوي بين مستقبلات receptors نوعية توجد على سطح كل منهما، وهي ذات تركيب يتمم الواحد منها الآخر. وشرح نظرية السلاسل الجانبية.

سمي إرليخ سنة ١٨٨٧ أستاذاً في جامعة برلين، ولكنه أصيب بجرثومة السل في أثناء قيامه بتجاربه عليها. فاحتجزه التدرن بعيداً عن مخبره وبحوثه، نحو سنتين قضى منهما عدة أشهر في مصر للاستشفاء. وفي سنة ١٨٩٠ وَكل إليه روبرت كوخ إدارة أحد مخابر معهد الأمراض الخمجية. فتابع أعمال أ. بهرنغ Emil Von Behring . التي تتصل بترياق الخناق. وتوصل إلى طريقة لمعايرة هذا الترياق مازالت تُتبع حتى اليوم. وفي عام ١٨٩٦ قام بإدارة معهد البحوث المصلية في برلين. وبقي مديراً له حينما نُقل هذا المعهد إلى فرانكفورت واتخذ اسم معهد المداواة التجريبية. وفي سنة ١٩٠٦ كُلف رئاسة مركز جورج شبيير Georg Speyer . للمعالجات الكيمياوية. فتابع فيه دراساته عن الذيفانات الجرثومية والترياقات، وقادته تجاربه إلى إيجاد طريقة لمعايرة الترياقات عامة. واستنتج منها قوانين للمناعة الخلطية. ويعد إرليخ، مع إميل رو Emile Roux وبهرنغ، من رواد المعالجة بالمصول وواضعي أسسها النظرية.

وأما حقل نشاطه الثالث فهو المداواة الكيمياوية. لقد كان من المعروف أن معظم الملونات تتثبت على الأحياء المجهرية وتقضي عليها. فحاول استخدام هذه المواد لغايات دوائية، وسعى للاستفادة منها في معالجة داء المثقبيات trypanosomiasis لكن النتائج التي خلص إليها لم تكن تامة، بيد أن النجاح الكبير الذي لاقاه جاء من البحوث التي أجراها في أواخر حياته والتي اتصلت بمركبات الزرنيخ (الأرسنيك). فقد توصل سنة ١٩٠٩ مع هاتا Hata الياباني إلى وضع دواء السلفارسان Salvarsan (وتركيبه أرسْفينامين arsphenamine) فكان أول علاج نوعي لمرض الإفرنجي (السفلس). لقد برهن أن هذه المادة غير مؤذية نسبياً للنسج، وتتصف بقدرة القضاء على اللولبيات الشاحبة عامل الإفرنجي وعلى لولبيات الداء العُلّيقي yaws . وقد أتاح له هذا الكشف شهرة عالمية. ثم تابع دراسة تأثيراته، فعدل من تركيبه سنة ١٩١٢، حتى أصبح أقل سمية وأكثر فاعلية وأسماه السلفارسان الجديد (وتركيبه phenarsanamine) وبقي هذا المستحضر الدواء الوحيد لمعالجة الإفرنجي حتى عام ١٩٤٥ حينما حلَّ البنسلين مكانه.

وفي سنة ١٩١٤ سمي إرليخ أول رئيس لجامعة فرانكفورت الجديدة وأستاذاً للمداواة التجريبية فيها. ولم يبق في مركزه هذا إلا نحو سنة واحدة توفي بعدها عن عمر بلغ ٦١ عاماً.

ومما يلفت الانتباه في سيرة هذا العالم تنوع المواضيع التي بحث فيها، وقدرته الكبيرة على العمل، وسعة معارفه. وقد أتاحت له ثقافته وضع فرضيات علمية تمّ التأكد منها باختبارات متكررة فيما بعد.

نَعِم إرليخ في حياته بما لم ينعم به الكثيرون من علماء عصره فشغل مناصب علمية مرموقة ونال شهرة واسعة وحسن تقدير، ومنحته جامعتا أكسفورد وشيكاغو لقب دكتور شرف وحاز جائزة نوبل في الطب عام ١٩٠٨ .

عدنان تكريتي

■ إرم ذات العماد

المعنى الذي تذكره كتب اللغة للفظ «إرم» هو الحجارة التي تُنصَب في المفازة علَماً، والجمع آرام وأُروم. وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم مرة واحدة، ورد مقروناً بصفة «ذات العماد»، وذلك في قوله تعالى: ﴿ألم ترَ كيف فعل ربُّك بعاد. إرمَ ذات العمادِ. التي لم يُخلَقْ مثلُها في البلاد﴾ (سورة الفجر، الآيات ٧،٨،٩).

وقد ذهب المفسّرون مذاهب شتّى في تفسير هذه الآيات، ذلك أن ورود لفظ «إرم» بعد لفظ «عاد» جعلهم يختلفون في إعراب «إرم»، فذهب بعضُهم إلى إعراب «إرم» عطف بيان أو بدلاً من «عاد»، فتكون «عاد» عندهم هي «إرم» عينها، وفسّروا قوله تعالى «ذات العماد» بأن قوم عاد كانوا طوال القامة حتى ليبلغ طول بعضهم أربعمئة ذراع. وذهب آخرون إلى أن لفظ «إرم» مضاف إلى «عاد» ويجعلون «إرم» اسم أُمّهم أو اسم البلدة. واختلفوا كذلك في تفسير قوله «ذات العماد» فهي عند بعضهم

اسم مدينة وعند آخرين وصف لإرم.

وظاهر أن قول بعض المفسّرين إن «إرم» هنا اسم لقوم عاد لايصح لقوله تعالى: ﴿ التي لم يخلَق مثلُها في البلاد ﴾، فإرم اسم المدينة التي كانت تقطنها قبيلة عاد، وعلى هذا القول جمهور المفسرين.

وهنا برزت معضلة أخرى: أين كان موقع هذه المدينة؟ هل كان في بلاد الشام أو في بلاد اليمن أو في مواضع أخرى؟

والقرآن الكريم ذكر في أكثر من موضع خبر هلاك قوم «عاد» بسبب عصيانهم نبيّهم "هوداً"، وذكره مفصلاً في سورة الأعراف (الآيات ٦٥ومابعدها).

وذكر تعالى أن هلاك «عاد» كان بريح عاتية اجتاحت بلادهم: ﴿ وأمّا عادٌ فأُهلكوا بريحٍ صَرصَرٍ عاتية. سخَّرَهَا علَيْهم سبعَ ليالٍ وثمانية أيّامٍ حُسُوماً فَتَرى القَوْمَ فيها صَرعَى كأنّهمْ أعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَة. فهَلْ تَرَى لَهُم مِنْ باقِيَة ﴾ (الحاقّة / الآيات ٧ ومابعدها).

ويذكر بعض الأخباريين أنَ «عاداً» وبعض الأمم القديمة هم من نسل «إرم بن سام بن نوح»، فإرم عندهم اسم أحد أبناء سام، وإليه تنسب قبيلة عاد. ولكن ليس في التوراة ذكر لقبيلة «عاد». ويستظهر جرجي زيدان أن «هدورام» المذكورة في التوراة (الإصحاح العاشر/ الآية ٧، والإصحاح الأول / الآية ٢)، هي عاد، وهي عنده من الأمم الآرامية القديمة. وقد ورد لفظ «أرام» في الإصحاح العاشر في عداد أبناء سام: «بنو سام: عيلام، وأشور، وأرفكشاد، ولود، وأرام»، ولكن لم يرد في التوراة لفظ «إرم» المذكور في القرآن الكريم والموصوف بذات العماد.

وقد ورد اسم موضع قبيلة عاد في القرآن الكريم على أنه في «الأحقاف». وذلك في قوله تعالى: ﴿ واذكُرْ أخَا عَادٍ إذْ أنْذَرَ قَوْمَهُ بالأحْقَاف ﴾(الأحقاف/الآية ٢١). وأكثر الأخباريين والمفسّرين على أن الأحقاف في بلاد اليمن. فذكر ياقوت أن الأحقاف المذكورة في القرآن الكريم هي وادٍ بين عُمان وأرض مَهرة، أو هي رمال مشرفة على البحر بالشِحْر من أرض اليمن.

إن ورود لفظ «الأحقاف» في الآية الكريمة قد دفع بعض الأخباريين إلى اختراع خبر طويل حول «إرم ذات العماد»، وقد أورد ياقوت الخبر مفصلاً في معجم البلدان (مادة أحقاف ومادة إرم) وخلاصته أن إرم ذات العماد كانت باليمن بين حضرموت وصنعاء، بناها شَدّاد بن عاد، وأن شدّاداً كان ملكاً جبّاراً ولَما سمع بالجنة ومأعدّ الله لأوليائه من قصور الذهب والفضة والمساكن التي تجري من تحتها الأنهار أراد أن يبني مدينة يضاهي بها الجنة، فأمر أعوانه أن يختاروا لها مكاناً مناسباً وأغدقَ عليهم الأموال وأمرهم بجمع مافي البلاد من الذهب والفضة والجواهر الكريمة، وجعل فيها العَمد الطوال وأجرى فيها الأنهار وجعل أشجارها من الذهب وثمرها من الياقوت وبنى فيها ثلاثمئة ألف قصر وبنى لنفسه قصراً منيفاً عالياً، فجاءت المدينة أعجوبة لانظير لها في البلاد. فأرسل الله إليه هوداً عليه السلام ليهديه سواء السبيل ولكنه لم يستجب لدعوته وتمادى في كفره وطغيانه، فأهلكه الله وقومه بالصيحة، وساخت المدينة في الأرض فلم يدخلها أحد بعد ذلك. وقد علق ياقوت على هذا الخبر بقوله: «هذه القصة مما قدّمنا، البَراءَة من صحتها، وظنّنا أنها من أخبار القُصّاص المنمقة وأوضاعها المزوّقة».

وكذلك أورد النويري في نهاية الأرب خبر إرم وشدّاد بن عاد بمزيد من التوسع والتفصيل، ثم ذكر أن معاوية استدعى كعب الأحبار[ر]، وسأله عن إرم وشدّاد بن عاد وماقيل بشأنهما، فأجابه: «والذي نفسُ كعب بيده لقد ظننت أن سأتوسّد يميني قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة، ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين، ولمن هي، ومَن بناها. أما المدينة فهي حقٌّ على مابلغ أمير المؤمنين وعلى ماوُصفت له، وأما صاحبها الذي بناها فشدّاد بن عاد، وأما المدينة فهي إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلُها في البلاد». ثم طفق كعب الأحبار يحدّث معاوية عن إرم وشدّاد حديثاً مفصّلاً حشاه بالعجائب والغرائب والمبالغات، ثم أ خبر معاوية أن هذه المدينة سيدخلها رجل أحمر أشقر قصير. ثم يشير إلى رجل من أتباعه، ويذكر أنه دخل هذه المدينة وشاهد عجائبها.

وثمة روايات أخرى تتحدث عن رجال دخلوا مدينة إرم. وزعم بعضهم أنه دخل مغارة في جبل، فوجد رجلاً مضطجعاً وإلى جانبه لوح كتب فيه بالمسند (الخط الحميري القديم) شعر على لسان شدّاد بن عاد، بل زعم بعضهم أنه عثر على قبر النبي هود. وقد رجح ياقوت أن الأحقاف رمال في أرض اليمن، واستشهد على صحة ماذهب إليه بخبر طويل عن رجل حضرمي أسلم على يد علي بن أبي طالب فسأله عن موضع الأحقاف وقبر هود فزعم أنه دخل كهفاً فوجد فيه رجلاً على سرير وعلى رأسه كتابة بالعربية صورتها: «أنا هود النبي الذي أسفت على عاد بكفرها وماكان لأمر الله من مَرَدّ». وظاهر أن الخبر من اختلاق الرجل الحَضرمي، والظن أن ورود كلمة «الأحقاف» في القرآن الكريم على أنها موطن عاد وهود النبي عليه السلام، هو الذي أوحى بأن موطن عاد في أحقاف اليمن، وكل هذه المرويّات من اختراع الأخباريين من أهل اليمن، ومنهم كعب الأحبار، وكثيراً ماكان الناس يسألونهم عن الأخبار المتصلة بآي من القرآن الكريم فيطلقون لخيالهم العنان في نسج الأساطير إطرافاً لسائليهم.

وقد ذكر ابن خلدون أن قوم عاد هم بنو عاد ابن عوص بن إرم بن سام، وأن مواطنهم الأولى بأحقاف اليمن من عمان إلى حضرموت والشحر، وذكر مايقال من أن أباهم عاداً كان أول من ملك من العرب وقد طال عمره، وكثر ولده فبلغوا أربعة آلاف وتزوج ألف امرأة، ثم أورد ابن خلدون كلاماً للزمخشري والبيهقي والمسعودي حول خبر شدّاد بن عاد، ثم علّق على هذه المرويات بقوله: «والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم وأن هذا من خرافات القُصّاص، وإنما ينقله ضعفاء المفسّرين»، وعنده أن «إرم» المذكورة في القرآن إنما هي القبيلة لا البلد..

في الحقيقة إن الأحقاف لايراد بها في القرآن الكريم أحقاف اليمن، فالأحقاف لغةً هي جمع حقف، وهو المعوجّ من الرمل، ولايعني لفظ الأحقاف موضعاً بعينه، وفي بلاد العرب أحقاف كثيرة متفرقة في نواحيها،وقد نقل ياقوت عن أحدهم أن الأحقاف جبل بالشام، فالقول إن موضع إرم ذات العماد هو في بلاد اليمن غير مقطوع بصحته.

وقد ذهبت طائفة من الباحثين إلى أن «إرم ذات العماد» إنما كانت في بلاد الشام، وذهب بعضهم إلى أنها دمشق عينها، وفي قول ثالث إنها الإسكندرية، ولم يعثر على كتابات ونقوش لعاد تعين على معرفة موضعها على وجه التحقيق.

وقد ذكر الحسن بن أحمد الهمداني (ت بعد ٣٣٤هـ) في كتابه «الإكليل» أن العجم تذكر أن إرم ذات العماد بدمشق وأن جيرون ابن سعد بن عاد بنى مدينتها وسمّاها «جيرون ذات العماد» لكبر أحجار أعمدتها. ويبدو أن إطلاق لفظ «إرم» على دمشق كان معروفاً في حقبة من الزمن، وقد ورد ذكرها في بعض الأشعار، ومنها أبيات للبحتري يقول منها:

طلبتك من أُمِّ العراق نوازعاً
بنا وقصورُ الشام منكَ بمرصدِ
إلى إرمِ ذات العماد وإنها
لموضع قصدي مُوجِفاً وتعمُّدي

على أن هذا القول لايصح الأخذ به، فلم يذكر أحد أن هوداً عليه السلام كان منزله في دمشق. وقد أدّت الأبحاث التي قامت بها طائفة من الباحثين والاكتشافات الأثرية الحديثة إلى نتائج أقرب إلى الصحة في تعيين موضع إرم، وقد ورد عند الجغرافي بطليموس ذكر موضع «آراماوا» Aramawa في بلاد الشام. والمرجح أنه أراد به «إرم». وقد دلّت الحفريات التي قامت بها بعثة المعهد الفرنسي ودائرة الآثار الأردنية وحفريات أخرى على أن موضع «إرم» هو الجبل المعروف باسم «رم» وموقعه إلى الشرق من العقبة، على مسيرة خمس وعشرين كم، وقد وجدت إلى جانبه آثار قديمة مندثرة لم يبق منها إلا عين ماء كانت تتوقف عندها القوافل في طريقها من الشام إلى الحجاز. فالرأي الراجح لدى الباحثين المحدثين أن قوم عاد كانت مساكنهم في الجزء الشمالي الغربي من جزيرة العرب، ممتدة من شمالي الحجاز ونجد إلى مشارف بلاد الشام، والمرجح كذلك أنهم كانوا من أصل أرامي، ويقوّي هذا الرأي أن مساكن عاد كانت قريبة من مساكن ثمود، ولذلك ارتبط اسم عاد باسم ثمود في القرآن الكريم وفي المرويات التاريخية، وقد هلكت ثمود لعصيانها نبيّها صالحاً عليه السلام، وقد عثر على كتابات ونقوش ثمودية كثيرة في المنطقة الشمالية الغربية من بلاد العرب، وكانت مساكن ثمود في الحِجْر ودُومة الجندل وماحولهما. وقد ذُكر في القرآن الكريم أنهم كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال: ﴿وكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِيْنَ﴾ (سورة الحجر، الآية ٨٠). وقد زار الرحّالة إبراهيم بن محمد الإصطخري (ت ٣٤٦هـ) صاحب المؤلفات الجغرافية المعروفة، بلاد ثمود فوصفها بقوله: «رأيتها بيوتاً مثل بيوتنا في أضعاف جبال، وتُسمّى تلك الجبال الأثالث، ويطوف بكل قطعة منها الطائف وحواليها الرمل أي (الأحقاف) ولاتكاد تُرتقى، كل قطعة منها قائمة بنفسها لايصعدها أحد إلا بمشقة شديدة، وبها بئر ثمود».

وقد ذكر ياقوت أن إرم اسم علم لجبل من جبال حِسْمَى في ديار جُذام بين أيلة (العقبة) وتيه إسرائيل، وذكر أنه جبل عظيم الارتفاع. وذكر ياقوت كذلك اسم موضع يقال له «جشّ إرم»، فذكر أنه «جبل في بلاد طيء، أملس الأعلى في ذروته مساكن لعاد، وفيه صور منحوتة في الصخر».

فالرأي الراجح في موضع إرم ذات العماد أنه الموضع المكتشف قرب العقبة، ومجاورة عاد لثمود دليل قاطع على أن إرم ذات العماد لم تكن في بلاد اليمن وإنما في بلاد الشام، ومَنْ يشاهد مدينة البلقاء الأثرية اليوم يرى أنها منحوتة من الصخر وتذكّر بطريقة البناء التي كان سكان تلك المناطق ومنهم عاد وثمود، يجرون عليها، إذ كانوا ينحتون بيوتهم في الصخر في أعالي الجبال لحمايتها من المغيرين.

إحسان النص

الموضوعات ذات الصلة:

القرآن الكريم - ثمود.

مراجع للاستزادة:

- ياقوت الحموي، معجم البلدان (دار صادر، بيروت ١٩٧٧م).
- شهاب الدين النويري، نهاية الأرب ج١٣ (مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٣٨م).
- الحسن بن أحمد الهمداني، الإكليل، الجزء الثامن، تح. نبيه أمين فارس (دار العودة، بيروت).
- ابن خلدون، تاريخه، الجزء الثاني (بولاق).
- جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الأول (بغداد ١٩٥١م).
- جرجي زيدان، تاريخ العرب قبل الإسلام (القاهرة).

■ آرمسترونغ (لويس دانييل -) (١٩٠٠-١٩٧١)

لويس آرمسترونغ Louis Daniel Armstrong موسيقي أمريكي عازف ترومبيت trumpet [ر. البوق] وقد شهر بالغناء كذلك. ولد في مدينة نيو أورليانز New Orleans وترعرع في حي للزنوج من أحيائها. وكانت موسيقى الجاز، وعازفوها على الترومبيت، شغله اليومي. درس آلة الكورنيت Cornet (وهي آلة شبيهة بالبوق) في دار للأحداث وأصبح عازف الكورنيت الأول «Solist» في فرقة الدار.



بدأ آرمسترونغ مهنته الموسيقية في فرقة جو أوليفر «الملقب بالملك» Joe king Oliver الذي كان بارعاً في العزف على الترومبيت. وعندما ذهبت هذه الفرقة إلى مدينة شيكاغو عام ١٩١٧، أصبح آرمسترونغ في المرتبة التالية مباشرة بعد أوليفر، وغدا عازف الترومبيت الأكثر شعبية في نيو أورليانز. ثم شارك بعدها بالعزف لمدة سنتين في الفرقة الموسيقية لباخرة ديكسي بلّ Dixie Belle التي كانت تقوم برحلات سياحية في نهر المسيسيبي، اكتسب في أثنائها خبرة فنية واسعة. وفي عام ١٩٢٢ استدعاه أوليفر إلى شيكاغو ليعملا معاً، فخلّدت أعمالهما تاريخ الجاز، وأصبح لهما طابع مميز في طريقة أداء «تبدل الصوت» Breaks التي ألهمت فيما بعد عازفي الجاز البيض.

وهكذا، أصبح أداؤهما الموسيقي مثالاً يُحتذى به لموسيقى جاز نيو أورليانز.

وفي عامي ١٩٢٧-١٩٢٨، ألّف آرمسترونغ فرقة موسيقية خاصة به من خمسة عازفين Hot five ثم من سبعة عازفين Hot seven لتسجيل الأسطوانات، وكان يغني في هذه التسجيلات بطريقة «السّكات» Scat إذ كان يرتجل مقاطع لفظية لا معنى لها لتقوية الإيقاع الموسيقي وإحيائه. واستخدم الأسلوب ذاته في العزف على الترومبيت فاذهل سامعيه. وهكذا فإن عزفه المنفرد على هذه الآلة جعله من أوائل رواد الجاز في العالم.

قام آرمسترونغ بجولات موسيقية كُللت بنجاح باهر في الولايات المتحدة الامريكية وأوربة. كما حصل عام ١٩٤٨ على جائزة «إناء سيفر Sevres» قدمها له رئيس الجمهورية الفرنسية أوريول Auriol في باريس تقديراً لمهارته وفنه.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الآلات الموسيقية - الغناء - الجاز (موسيقى -).

مراجع للاستزادة:

- L. Malson, Les Maitres du jazz (Paris 1952).
- A.J. Mccarthy, Louis Armstrong (London 1960).

■ الأرمن

يجمع أكثر المؤرخين أن الأرمن كانوا من بين مجموعات متلاحقة من قبائل ذات أصل آري، عرفت عرقياً باسم الشعوب الهندية الأوربية، واستقرت في البلقان [ر] أو في منطقة تسالية في شمالي اليونان [ر]. ثم عاد أفرادها مع الفريجيين والتراقيين إلى آسيا الصغرى فعبروا البوسفور والدردنيل، وتوغلوا في الأناضول نحو مجرى الفرات الأعلى، وتغلبوا على السكان الحثيين القاطنين في تلك الأماكن واختلطوا بهم، في نحو القرن الثاني عشر ق.م. وانحدروا بعد ذلك من المرتفعات إلى السهول الجنوبية وامتزجوا مع شعب الأورارتو [ر]. كذلك قدمت المنطقة قبائل من السريان والكلدان اندمجت بالمقيمين هناك. وقد تكونت الأمة الأرمنية من هذه العناصر الآرية والأورارتية والحثية، وقبائل منطقة وان، ومن القبائل التي استوطنت شرقي الأناضول، وكان ذلك نحو القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. وفي تلك الحقبة بدأت تظهر على النقوش كلمة «أرمينية» وبدت لدى الشعب الأرمني، منذ القرن السادس قبل الميلاد، سمات تميزه منها: القامة المتوسطة القريبة من القصر، والجمجمة العريضة، واستطالة الوجه على نحافة وضيق، والشعر الأسود الفاحم، والصدر العريض، والشفتان المتلئتان مع سعة الفك وقوته، وانبساط الخدين، وقنا الأنف، وميل البشرة إلى السمرة، كما تميز هذا الشعب بصفات نفسية أهمها: الهدوء وتحمل المشاق إلى جانب الحيوية والنشاط والقدرة على الإنجاز.

تاريخ الأرمن

التاريخ القديم: لم يتمتع الأرمن منذ القديم بالمنعة والسيطرة. اكتسح بلادهم البابليون والآشوريون والميديون ثم الفرس. وكان الفرس يختارون حكام البلاد من الأرمن غالباً، تعهدوا دفع الجزية لقاء احتفاظهم باستقلالهم الإداري، ثم غدت أرمينية مرزبانية (مقاطعة) تابعة للامبراطورية الفارسية، وذلك في عهد قورش.

وبعد أن ساعد الأرمن الفرس في إسقاط الدولة الليدية استطاع ديكران بن يراونت أن يجعل أرمينية مرزبانية مستقلة، غير أن داريوس، الملك الفارسي، قضى على كل محاولة استقلالية. وقد تأثر الأرمن، في هذه الحقبة، بالتقاليد الفارسية في طراز معيشتهم، ودخل لغتهم كثير من الألفاظ الفارسية.

وبعد غزو الاسكندر المقدوني غدت أرمينية مملكة مستقلة تحت حكم الاسكندر نفسه، الذي عين حليفه الأرمني مهران على العرش، وهو من أسرة يراونت التي كانت تحكم المرزبانية. وبعد الاسكندر تولى السلوقيون حكم البلاد، وقسمت أرمينية قسمين رئيسين هما: أرمينية الكبرى وأرمينية الصغرى التي دعيت فيما بعد كيليكية (قيليقية) إضافة إلى مملكتين صغيرتين هما: صوفين وكوماجيني.

وكان تأثر الأرمن بالحضارة الهلينية كبيراً، وكان ذلك مابين ٣٢١-١٩٠ ق.م. وقد عين أنطيوخوس السلوقي ارداشيس الأول حاكماً على أرمينية الكبرى وعين «زاره» على أرمينية الصغرى، وبعد موت أنطيوخوس استقل الملكان الأرمنيان عن السلوقيين، ثم ضم ارداشيس إلى حكمه أرمينية الصغرى بعد موت زاره، ووحد البلاد، وأسس ملكية حكمها أفراد من أسرته، واستمرت قرابة قرنين من الزمن (من ١٨٩ق.م إلى السنة الأولى بعد الميلاد) ودعيت بالأسرة الارداشيسية ومن أشهر ملوكها ديكران الثاني الكبير (٩٤-٥٥ق.م).

ومنذ السنة الأولى الميلادية غدت أرمينية كالكرة يتقاذفها الفرس والرومان، يكتسح بلادهم الفرس فيحالفون رومة، ويحاربهم الرومان فيلجؤون إلى الفرس. أما حكامهم فكانوا إما من الفرس أو الرومان وقد اتفق الطرفان المتقاتلان الفرس والرومان في عهد نيرون على إنهاء الحرب بينهما، وتنصيب ملك لأرمينية هو أخو ملك فارس، درطاد الأول الفارسي، وسميت أسرة درطاد بالأسرة الارشاغونية، وقد حكمت من سنة ٦٦ إلى ٤٢٩م، ومن أشهر ملوك هذه الأسرة درطاد الثاني (٢١٧-٢٣٨م) الذي يسمى أيضاً خسرو الأول الكبير، ودرطاد الثالث الذي اعتنق المسيحية وعمل على إنشاء الكنائس.

وفي سنة ٣٨٧م اتفق الرومان والفرس على تقسيم أرمينية إلى إقليمين أُلحق أحدهما بالدولة البيزنطية، وألحق الثاني، وهو الأكبر بالدولة الساسانية. ومنذ سنة ٤٢٩م عادت أرمينية التي ألحقت بالدولة الساسانية مرزبانية فارسية، وبقيت كذلك حتى سنة ٦٣٤م. وقد حاول الفرس جعل الأرمن إيرانيين وإكراههم على ترك ديانتهم المسيحية، ولكنهم اصطدموا بمقاومتهم التي كان يقودها «وارطان واميكونيان» مما جعلهم يتخلون عن فكرتهم.

اختلفت أحوال الأرمن التابعين للفرس عن أحوال الأرمن التابعين لبيزنطة التي عملت على وضع المنطقة تحت إشرافها إشرافاً تاماً، ومعاملة الأرمن كالمواطنين من البيزنطيين، ولكن خلافهم الديني في التفاصيل مع بيزنطة جعلهم ينحازون إلى الفرس شيئاً فشيئاً. وفي أواخر القرن السابع بعد الميلاد ظهر العرب على مسرح التاريخ.

الأرمن والعرب: في عهد عمر بن الخطاب توجهت حملة عربية بقيادة عياض بن غَنْم إلى سهول الجزيرة والأراضي الأرمنية حتى بلغت

بَدْليس Bitilis ثم اتجهت إلى خِلاط Calatia (على بحيرة وان) وجبى عياض الجزية ثم عاد إلى الشام، وفي عهد عثمان بن عفان أُخضعت أرمينية للعرب أول مرة، وكان ذلك نحو سنة ٢٤ أو ٢٥هـ/ ٦٤٥ أو ٦٤٦م. وفي عام ٣٣هـ/ ٦٥٣م عقدت معاهدة صلح بين العرب والأرمن على أن تعفى الدولة الأرمنية من الجزية ثلاث سنوات، ثم يفرض عليها بعد ذلك تعبئة ١٥٠٠٠ فارس من أموال الجزية لمساعدة العرب في حروبهم، وتعهد العرب باستقلال الإمارات الأرمنية، وعدم إرسال أحد من الأمراء أو القادة العرب إلا إذا زحف عليها الروم، وأبقي الحاكم تيودور الرشتوني على أرمينية وبلاد الكرج. ولم يعجب الاتفاق الامبراطور البيزنطي فهاجم أرمينية، وصدته القوات العربية والأرمنية معاً.

وفي عهد الأمويين امتدت الفتوحات العربية فشملت أرمينية كلها، ونعم الطرفان، العربي والأرمني، في عهد معاوية بالعلاقات الطيبة، وزار حاكم أرمينية غريغور ماميكونيان دمشق واستقبله الخليفة معاوية بالترحيب.

وفي عهد عبد الملك بن مروان، وكان الحاكم في أرمينية آشوط الأرمني، شهدت أرمينية اضطرابات سببها اجتياح الخزر للبلاد، ودخول الامبراطور البيزنطي جوستنيان الثاني أرمينية للانتقام من العرب والأرمن معاً. ثم اختلّت العلاقات بين الأرمن والعرب، فاخذ أمراء الأرمن ينحازون مرة إلى العرب ومرة إلى الروم، وكانت بعض مناطق أرمينية تنتقل في ذلك الوقت بين الدولتين، وكان كثير من أمراء الأرمن يتنازعون السلطة فيما بينهم.

وكان الولاة العرب بعد فتح أرمينية قد اتخذوا بلدة دبيل مقراً لهم. وهي البلدة التي كان المرزبان الفارسي يتخذها مقراً له قبل الفتح الإسلامي.

وفي العهد العباسي صارت أرمينية تشمل الإمارات الأرمنية وأذربيجان [ر] وبلاد الجزيرة، وقد عيّن الخليفة العباسي أبو العباس السفاح أخاه أبا جعفر المنصور والياً على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية، وفي عهد أبي جعفر نزحت إلى أرمينية قبائل عربية كثيرة واستقرت فيها، وقد صالح أبو جعفر الامبراطور البيزنطي بعد أن خاض معه معارك كثيرة. ثم عيّن ساهاك البقردوني حاكماً على أرمينية.

وفي عهدي المهدي والرشيد، كانت أرمينية مقاطعة تتمتع بالحكم الذاتي، ويحكمها البطارقة الأرمن (وهم رؤساء الإمارات الأرمنية) وكانوا يدفعون للدولة العباسية الجزية المقررة.

وفي عهد المعتصم عُين الأفشين عاملاً على أرمينية وأذربيجان فتحول إلى مقاتلة بابك الخُرّمي، فاستنجد هذا الأخير بالامبراطور البيزنطي الذي سارع إلى نجدته، وتوغل في البلاد، يبطش بالحاميات العربية، غير أن أسر الأفشين لبابك (سنة ٢٢٢هـ) جعل الامبراطور يعود إلى بلاده.

وولى الخليفة المتوكل يوسف بن محمد عاملاً على أرمينية سنة ٢٣٦هـ، فلم يحسن الإدارة وأساء في تصرفاته وقبض على بعض الرؤساء وبعث بهم إلى المتوكل. وغضب الأرمن لفعل يوسف وثاروا عليه وقتلوه سنة ٢٣٧هـ، فوجه المتوكل بغا الشرابي إلى أرمينية فأعاد إليها الهدوء. وانتهج المتوكل سياسة جديدة عندما نصب آشوط بن سمباط البقردوني أميراً لأمراء أرمينية سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م. واستطاع هذا الأمير أن يخضع الأمراء الأرمن لسلطنه كما ساعد العرب، فنُصِّب ملكاً على أرمينية واعترف به الملك البيزنطي وعقد معه حلفاً. وبدءاً من هذا التاريخ حكمت الأسرة البقردونية (البغراتية أو البجراطية) أرمينية، ودام حكم ملوكها من سنة ٢٧٢ إلى ٤٦٤هـ/ ٨٨٥ إلى ١٠٧١م.

وكانت سياسة ملوك هذه الأسرة تهدف إلى حفظ التوازن بين العرب والبيزنطيين والوقوف على الحياد بين الدولتين. ومن أشهر ملوك هذه الأسرة آشوط الثاني الذي لقبه الخليفة العباسي بشاهنشاه الأرمن، وآشوط الثالث الملقب بالرحيم الذي نقل العاصمة إلى مدينة «آني» ونهضت في عهده البلاد عمرانياً وثقافياً.

ثم بدأت الإمارات الأرمنية تتباعد وتفتقر إلى الوحدة والتآلف، وتتحول إلى دويلات ضعيفة لكل منها سياستها، فتوالت عليها النكسات والهزائم، وبدأت تتوالى عليها هجمات السلاجقة الأتراك، ورأى أحد أمرائها أن يتخلى عن دويلته لامبراطور بيزنطة مقابل منطقة سيواس في آسيا الصغرى، ثم انتقل بأربعين ألفاً من رجاله إلى المنطقة المذكورة، فكانت هذه الهجرة الأرمنية الكبرى الأولى إلى الشرق هي التي أضعفت المنطقة، وأعقبتها هجرات، فكانت نهاية دولة أرمينية الكبرى وانهيار حكم البقردونيين فيها، ووضع رجال الدين البيزنطيون يدهم على الأسقفيات والأديرة الغنية.

كان لبلاد أرمينية في الحقبة التي خضعت فيها للحكم العربي شأن اقتصادي مهم، فقد كان العدد الغفير من التجار والقوافل يعبرونها لتوسطها بين البحر الأسود وبلاد مابين النهرين. وقد أفاض الجغرافيون العرب في وصف طرقها التجارية والحربية. وكان من أهم واجبات الولاة المسلمين الإشراف على سلامة هذه الطرق.

أرمينية مابين عامي ٤٦٤ و١٣٣٥هـ/ ١٠٧١ و١٩١٧م

أرمينية الكبرى: بدأت غارات السلاجقة على أرمينية منذ عام ٤٣٤هـ/ ١٠٤٢م واستطاع الروم في البدء صد هجماتهم بفضل الحصون المنيعة التي كانت تحمي البلاد، ولكن السلاجقة مالبثوا أن احتلوا «آني» ثم «قارس» ولم يأت عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م حتى أصبحت أرمينية «البيزنطية» تحت حكم السلاجقة، وذلك عقب معركة ملازكرد (ملاز جرد) التي انتصروا فيها بقيادة ألب أرسلان على الروم. وتقسمت أرمينية بين عدة إمارات سلجوقية كإمارة خلاط التي أنشاها سقمان القطبي، وإمارات خوي وسلماس وساسون.

وفي هذا الوقت بدأت قوة الكرج بالبروز. فبعد أن حرر هؤلاء بلادهم من حكم السلاجقة الأتراك احتلوا المقاطعات الشمالية والوسطى من أرمينية. وظل الوضع على هذه الحال حتى ظهور المغول الذين هاجموا خُوَارَزم وخُراسان وفارس والعراق وشمالي الهند وبلاد الكُرْج والأناضول وقضى زحف المغول على كل حضارة في تلك البلاد.

وبقي الأرمن طول المدة من القرن الثاني عشر إلى الخامس عشر الميلادي يقاسون من الاكتساحات الطورانية (السلجوقية والمغولية والتركمانية)، فبعد وفاة تيمورلنك خضعت أرمينية لحكم أوزون حسن (حسن الطويل) من الآق قيونلو (١٤٥٣-١٤٧٨م) الذي حكم البلاد الإيرانية وبلاد الكُرْج وأرمينية. وفي هذا العهد بدأ التركمان يكونون العنصر الغالب في أرمينية إلى جانب السكان الأصليين والكرد البداة، وكانت قد هاجرت إلى أرمينية والأناضول قبيلتان تركمانيتان هما: آق قيونلو (الشاة البيضاء) وقره قيونلو (الشاة السوداء)

واستقرتا فيها. وكانت وفاة أوزون حسن (سنة ٨٨٢هـ/ ١٤٧٨م) إيذاناً بانحلال دولته وطمع شاه إيران إسماعيل الصفوي فيها، فأخذ يضم إلى بلاده بالتدريج كل مابقي منها ولا سيما أرمينية. ولكن ذلك أثار عليه جاره العثماني محمداً الثاني (فاتح القسطنطينية) فنشبت الحرب بينهما، وكان من نتيجتها وضع أرمينية تحت حكم العثمانيين.

وحاول الشاه إسماعيل استعادة الأراضي بعد موت محمد الثاني، فتغلب عليه سليم الأول مرة ثانية واحتل جميع بلاد أرمينية.

وفي بداية القرن السابع عشر الميلادي استولى عباس الأول شاه إيران على إقليم أرارات الأرمني من الأتراك العثمانيين، واجتاح أذربيجان، فعاد الأتراك واحتلوا البلاد، وأمر الشاه عباس بحرق إقليم أرارات وما فيه من كنائس حتى لا يبقى لأعدائه شيء ينتفعون به. فاضطر أهالي البلاد من الأرمن إلى النزوح عنها قاصدين أصفهان، حيث أنشأ الشاه لمن بقي منهم مدينة أسماها «جولفا». ثم كان لزعماء الكرد أثر في انتقال بلاد أرمينية من أيدي الفرس إلى أيدي الترك، إذ أصبح للكرد على مرّ الأيام مناطق كثيرة تخضع لسلطانهم المطلق، وقد استمرت المعارك بين الفرس والأتراك العثمانيين حتى سنة ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م حين وقعت بينهما معاهدة سلام تخلى الشاه بموجبها عن إقليم أرمينية وبلاد الكُرْج إلى العثمانيين.

وفي عام ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م عادت بلاد الكُرْج إمارة تابعة لنادرشاه الذي استطاع أن يبسط نفوذه على أرمينية. ولكنه لما رأى أنه غير قادر على حماية البلاد من العثمانيين ترك للروس أمر حمايتها، فوضع الروس يدهم على هذا الإرث الذي مدّ سلطانهم أول مرة على بقاع أرمينية، وأعطاهم الحق بها بعد أن تنازل خليفة نادرشاه عن البلاد للقيصر.

وهكذا انضم إلى أطراف النزاع طرف جديد هم الروس وكانت أولى المعارك بين الروس والفرس من أجل بلدة جنزرة، وانتهت بصلح غلستان الذي وضعت فيه الحدود الفاصلة بين بلاد القفقاس الخاضعة لروسية وبلاد فارس. ثم عدلت هذه الحدود في عام ١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م وأضحت كتلة جبل أرارات الكبرى هي الحدود الفاصلة بين الدول الثلاث المتنافسة، وانتقل بموجب هذا الصلح جزء كبير من أرمينية إلى حكم ملك مسيحي، كما نص الصلح على أن يكون للمسيحيين الحق في الهجرة إلى هذا الإقليم، فاستفاد من ذلك رعايا الشاه من الأرمن، واستقر معظم المهاجرين في ناحية «قره باغ» التي استقبلهم سكانها من الأذربيجانيين ووطنوهم بين ظهرانيهم.

استمر النزاع بين الروس والعثمانيين وبين العثمانيين والفرس تدخلت فيه إنكلترة وألمانية، واضطر العثمانيون إلى التخلي عن إقليم «خوطر» الأرمني للدولة الفارسية.

كذلك أدى الخلاف بين الروس والعثمانيين على البقاع المقدسة في أرمينية إلى حرب جديدة عرفت بحرب القرم وكان ذلك مابين ١٨٥٣ و ١٨٥٦، ولما وضعت الحرب أوزارها تمتعت أرمينية بالسلام عشرين عاماً، ثم نشبت الحرب مرة ثانية بين روسية والدولة العثمانية وانتهت بصلح سان ستيفانو الذي أكده صلح برلين سنة ١٨٧٨ وتخلت بموجبه تركية لروسية عن جميع البقاع الواقعة على الحدود الروسية التركية القديمة، وكذلك عن جميع بلاد أردهان وقارص وباطوم.

وكان الأرمن يهاجرون في البدء إلى روسية القيصرية يدفعهم إلى ذلك فكرة الحرية والأمن. غير أن روسية مالبثت أن عمدت إلى سياسة الدمج وإذابة الفوارق العنصرية والدينية، وسعت إلى جعل أرمينية مقاطعة روسية، فأقفلت المدارس الأرمنية وتدخلت في انتخاب «الجاثليق» الرئيس الديني الأرمني.

أما الأرمن الباقون في تركية فقد حظر عليهم حمل السلاح، وكانت كل مقاومة منهم تُعدُّ تمرُّداً. ثم جاء السلطان عبد الحميد بعشرات الآلاف من الأكراد البدو وأنزلهم في المناطق الأرمنية، وأنشأ منهم كتائب خيّالة مسلحة عرفت بالحميدية، كانت تنهب وتخرِّب في بلاد الأرمن. وأدى ذلك إلى مذابح في ساسون وخربوط وطرابزون وأرضروم وأرزنجان وديار بكر وبدليس وسيواس وماردين وقيسارية (قيصرية)، وقمعت مظاهرات حزب هنتشاك الأرمني في الأستانة.

وبدأ الأرمن في روسية يتسلحون ليساعدوا إخوانهم في تركية، فخافت روسية من تزايد قوة الأرمن، وسلحت تتر أذربيجان وسيرتهم إلى الأرمن، فأدى ذلك إلى اصطدامات في باكو سنة ١٩٠٥م. وعندما استولى حزب الاتحاد والترقي على الحكم في تركية كان للأرمن يد في مساعدته. فلما ألغى السلطان عبد الحميد الدستور لحق بالأرمن اضطهاد قاس، كما لحقهم مثل هذا الاضطهاد في نهاية الحكم العثماني عندما نفذ الأتراك سياسة التتريك. وكان من نتيجة ذلك وقوع ضحايا كثيرة من الأرمن في تركية، وهجرة الباقين منها إلى سورية ولبنان ومصر وقبرص.

أرمينية الصغرى (مملكة كيليكية): بعد أن بدأت هجمات السلاجقة على أرمينية أخذت الهجرات الجماعية الأرمنية تتوجه نحو كيليكية، كما توجه قسم كبير من الأرمن نحو بلاد القرم ومولدفية والمجر وبولندة.

وكان الأمير روبين البقردوني قد جمع أفراد الجالية الأرمنية في كيليكية وأنشأ فيها مملكة عرفت بأرمينية الصغرى (٤٧٢ - ٧٧٦هـ/ ١٠٨٠ - ١٣٧٥م)، وكان ذلك في الوقت الذي جاء فيه الصليبيون. فتعززت العلاقات بين الطرفين، وناصر الأرمن الصليبيين. وعندما انتقل الحكم إلى أسرة هيتوم وجد الملك المصاعب تكتنف بلاده، فالسلاجقة والروم في الشرق والمماليك في الجنوب، وأراد أن يستفيد من قوة كاسحة في الشرق هي المغول، فعقد مع الخان «منكو» حفيد جنكيز خان اتفاقاً أثار نقمة الملك الظاهر بيبرس فشنّ في سنة ٦٦٤هـ حملة عسكرية اجتاح بها كيليكية، وتوالت بعد ذلك هجمات المماليك على دولة كيليكية حتى زمن السلطان الملك الأشرف، حين حاصر جيش المماليك مدينة سيس، كرسي دولة كيليكية، وفتحها في سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٥م وقضى بذلك على دولة كيليكية (أرمينية الصغرى).

الأرمن (١٩١٧-١٩٩١): أصبحت أرمينية جمهورية صغيرة مستقلة استقلالاً داخلياً ضمن الاتحاد السوفييتي [ر] وكانت تؤلف مع جمهوريتي أذربيجان وجورجية كياناً واحداً سُمي بجمهورية ما وراء القفقاس.

ومنذ عام ١٩٣٦ ارتبطت مباشرة بالاتحاد السوفييتي وغدت أصغر جمهورياته الخمس عشرة. وقد قام الاتحاد السوفييتي بمحاولات لجعل أرمينية مركزاً يستقطب الأرمن المشتتين في العالم. وفي عام ١٩٩١ وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي والإعلان عن استقلال جمهورياته أصبحت أرمينية دولة مستقلة ثم غدت عضواً

في رابطة الجمهوريات المستقلة [ر. أرمينية (جمهورية)].

الأرمن في العالم: يعيش الأرمن المهاجرون في معظم أقطار أوربة وآسيا وأمريكة، فلهم جاليات في إيران والهند وتركية والنمسة والمجر وبولندة وفرنسة وأمريكة وفي مصر وسورية ولبنان والعراق. وقد اختلفت المصادر في عددهم، فذهب بعضها إلى أنهم ليسوا أكثر من مليونين ونصف المليون ووصلت مصادر أخرى بالعدد إلى عشرة ملايين. وقد اشتهر الأرمني بالمثابرة وإتقان العمل. ويمارس الأرمن التجارة والصناعات المهمة في البلاد التي يغدون مواطنين فيها. وهم يتكلمون لغة أوطانهم الجديدة إضافة إلى اللغة الأرمنية التي يتعلمونها في مدارسهم الأرمنية الخاصة بهم.

الديانة المسيحية والأرمن

تأثر الأرمن بديانات الدول التي حكمت بلادهم من الفرس والإغريق، وقد تركت هذه الدول بصماتها الدينية على المعتقدات الروحية للأمة الأرمنية، فكانت تعبد الإله «أهورا مزدا» والإله «ميثرا» ممثل الشمس والنور والنار عند الفرس، وقد سماه الأرمن «ميهر»، كما عبدوا آلهة أخرى تقابل الآلهة اليونانية، وإن ظهرت وفق أشكال أرمنية محلية.

وعند ظهور الديانة المسيحية صار لها أتباع وأنصار من الأرمن، وقد عانى هؤلاء من الاضطهاد في أيام خسرو (سنة ٢٣٠م) ودرطاد الثالث. ثم إن الملك درطاد اعتنق الديانة المسيحية وجعلها دين الدولة الرسمي عام ٣١٠م على الأرجح. وكان ذلك بتأثير غريغور بن أناك المعروف بالمنوّر. ودانت أرمينية بالمسيحية قبل أي دولة في العالم، وأصبح غريغور الرئيس الأعلى للكنيسة برتبة «جاثليق». وقد لقيت المسيحية مقاومة من الكهنة الوثنيين الأغنياء، ولكنها سرعان ما انتشرت. وبنى الملك مدينة اتشميازين (أو اجميازين) لتكون كاتدرائيتها مقر الرئيس الديني الأعلى (الجاثليق). وغدا غريغور المنوّر شفيع أرمينية، ونسبت إليه كنيستها فعرفت بالكنيسة الغريغورية الأرمنية.

والكنيسة الأرمنية مستقلة عن الكنائس المسيحية الأخرى وتسمى منذ سنة ٥٠٦م بالكنيسة الرسولية المقدسة والجامعة. وللكنيسة الأرمنية تسع رتب لخدمة الدين، أولها الجاثليق (الكاثوليكوس) الذي يعدّ أكبر سلطة دينية وروحية لدى الأرمن، وللكاثوليكوسية الأرمنية اليوم مركزان واحد في اتشميازين (في جمهورية أرمينية)، وآخر في انطلياس في لبنان، ويعرف باسم «كاثوليكوسية البيت الكبير لكيليكية».

وقد دخلت الكنيسة الأرمنية المجلس المسكوني للكنائس عام ١٩٦٢م، وهي تعمل بنشاط في حركة تجميع الكنائس غير الخلقدونية.

اللغة والأدب

يجمع علماء اللغة المعاصرون أن اللغة الأرمنية فصيلة مستقلة من أسرة اللغات الهندية الأوربية، ليس لها فروع أو لغات مشتقة منها، ويعتقد أن الصور والرموز المنقوشة على الصخور التي عثر عليها في وادي نهر أراكس يمكن أن تكون شكلاً بدائياً للنصوص الأرمنية القديمة.

ولم تعرف اللغة الأرمنية حروفاً خاصة بها إلا في أوائل القرن الخامس للميلاد، وقد استطاع «ميسروب ماشدوتس» Mesrop Mashdots سنة ٤٠٥م أن يخترع الحروف الأرمنية مستفيداً من كفايته الأدبية واللغوية ومن إتقانه للغات الرئيسية في زمانه وهي الإغريقية والفارسية والسريانية. وسميت اللغة الأرمنية المصوغة بالأبجدية «غرابار» Krapar، وإلى جانبها كانت هناك لغة يتكلم بها الأرمن دعيت «اشخارابار» Achkharapar. وكانت أبجدية ميسروب مؤلفة من ستة وثلاثين حرفاً تكتب من اليسار إلى اليمين، ثم أضيف إليها بعد ذلك حرفان.

وكان أول عمل قام به الأرمن بعد وضع الأبجدية ترجمة الكتاب المقدس إلى الأرمنية، كذلك ترجمة مايتعلق بالشعائر المسيحية التي كانت من قبل تقرأ إما بالفارسية أو السريانية أو اليونانية بحسب المناطق والأقاليم الخاضعة لنفوذ إحدى الدول صاحبة اللغات.

ثم تلا ذلك حركة ترجمة واسعة امتدت من القرن الخامس الميلادي حتى منتصف القرن السابع، مما خلق جيلاً أرمنياً مثقفاً، وأعقب ذلك حركة تأريخ لتعريف الأرمن بتاريخهم. ومن أشهر المؤرخين موسى الخوريني الذي ولد في أواخر القرن السادس للميلاد. وقد وضع كتابه عن «تاريخ الأمة الأرمنية» ورجع به إلى ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد. وقد كتب هذا التاريخ بأسلوب شعري في سرد الحوادث التي استوحاها الكاتب من الأناشيد القديمة والحكايات الشعبية الشفوية والآثار المدونة. ومن المؤرخين «غوفون» الذي أرخ لدخول العرب أرمينية، والمؤرخ «اريستاخوس» الذي شهد غزوات السلاجقة.

كما أن بعض المتعلمين عالجوا موضوعات علمية تدور حول الطبيعة والرياضيات والجغرافية، وذلك منذ بداية القرن السابع الميلادي.

أما الشعر فقد بدأ ينظم في العصور السابقة للمسيحية، وتجمعت منه قصائد ومقطوعات كثيرة، وكان منشدها يسمى «آشوغ» أي الزجّال أو القوّال، وكان هؤلاء الزجالون يرتلون الأناشيد الملحمية للملوك ويشيدون بآلهتهم وأبطالهم، وكان المنشدون يترنمون بها على أنغام الآلات الموسيقية. ومن الأناشيد ما هو وطني النشأة، وما نقل عن حكايات الفرس والكرد وما كان مستوحى من أساطير الهند أو اليونان.

غير أن الملحمة الشعبية الأرمنية الخالصة تكونت بين القرنين التاسع والثالث عشر، ودونت باللهجة الأرمنية المحلية، ومن أشهرها ملحمة داود الساسوني التي تمثل كفاح الشعب الأرمني.

واشتهر شعراء لاهوتيون من الأرمن، منهم نرسيس شنورهالي الذي كان من دعاة استخدام اللغة العامية، وأهم قصائده «مناحة أورفه» التي تتألف من ٤٠٠٠ بيت شعري. ومن أدباء الكنيسة أيضاً ميسروب الذي مرّ ذكره و«مخيتيار أو مخيطيار» الذي أسس معهداً دينياً في القرن السابع عشر، انطلق منه تلاميذه يؤلفون ويترجمون ويطبعون الكتب، وما تزال مؤسسته حتى اليوم أحد المراكز التي تنتشر منها الثقافة الأرمنية إلى مختلف الدول التي يوجد فيها أرمن. وقد انفتح الأرمن الذين هاجروا إلى كيليكية على الأدب الغربي، فدخل الشعر عناصر لم تكن معروفة كالوصف والغزل وأثرت فيه حتى أخرجته عن نطاق الدين.

وقد بقيت اللغة الكلاسيكية لغة التعبير وإن فقدت حيويتها ونضارتها، ثم اتجه التعبير شيئاً فشيئاً نحو لغة الحياة المحكية أي لغة الكلام وهي «الأشكرابار» التي صارت لغة الكتابة والقراءة، أما اللغة الأصلية (الغرابار) فما تزال اللغة الدينية للصلوات والتراتيل عند الأرمن. وقد أدى ذلك إلى وجود لغتين يكتب بهما الأرمن اليوم: اللغة الشرقية المحكية والمكتوبة حديثاً في جمهورية أرمينية وإيران، ولغة غربية انتشرت

مع المغترب الأرمني وهي أقرب ماتكون إلى لغة الغرابار.

ويبدو أن الشعر كان أوفر حظاً في أرمينية نفسها، وإن كان ثمة أدباء أرمن تذكر آثارهم باستنادها إلى التاريخ الأرمني.

أما أدباء «المُغْتَرَب» الأرمن فيبحثون في أدبهم عن هويتهم الصحيحة بين أرمنيتهم ووطنهم الذي يعيشون فيه، وقد ترك بعضهم اللغة الأرمنية وأخذ يكتب بلغة الوطن الجديد، كالكاتب الأمريكي الأرمني وليم سارويان. كما كتب بعض الأرمن الذين يعيشون في العالم العربي باللغة العربية، ومنهم عدد من مشاهير الكتّاب والصحفيين، من أقدمهم رزق الله حسون الذي أصدر جريدة «مرآة الأحوال» وكان يناظر فارس الشدياق، ومنهم كذلك أديب إسحق [ر] الذي عمل في الصحافة والأدب.

ج.ت

الموسيقى الأرمنية

تأثرت الموسيقى الأرمنية بالموسيقى السورية والموسيقى اليونانية ـ البيزنطية، وتأثرت من بعد البيزنطية بالموسيقى التركية التي كانت لها بصماتها الواضحة في شعوب الشرق الأدنى.

وتعود جذور الموسيقى الأرمنيّة إلى نحو ثلاثة آلاف سنة، ويعود تاريخ النقوش في بعض المواضع الأثرية إلى الألف الأول قبل الميلاد، إذ اكتشف في هذه الحقبة بعض الآلات الموسيقية كالناي ذي الخمسة ثقوب المصنوع من الذهب، والصنوج المصنوعة من البرونز. واتخذت الموسيقى عند الأرمن، مابين القرنين الثالث والرابع ق.م، صبغتها الخاصة من الملاحم المغنّاة التي تعود إلى القرن السادس ق.م.

وأدى استقرار الدولة زمن الملك ديكران الثاني العظيم Dikran II (٩٥ ـ ٥٥ق.م) دوراً مهمّاً في نشوء الموسيقى الأرمنيّة الوطنيّة، إذ تطورّت الأناشيد والقصائد. ونشأت فِرَقٌ موسيقية من سَدَنَة المعابد والمرتِّلين ومن المنشدين القوّالين الذين أسهموا في رفد الموسيقى والغناء بإبداعاتهم. ويعد العصر الهليني بداية حقيقية للموسيقى والغناء في أرمينية.

بدأ الغناء الأرمني، وهو أحادي الصوت monophonic، بإنشاد الملاحم على أنغام الآلات الموسيقية. وكان الزجّال أو المنشد يذكر مع القصيدة التي ينشدها النغم الذي سوف ينشد عليه الشعر، كما يعيّن أحياناً الآلة الموسيقية المرافقة، وكانت الأناشيد تلقى في الأعراس والمآتم. وبعد انتشار المسيحية، ظهرت الموسيقى الدينية واختلفت في أدائها وألحانها عن الموسيقى الشعبية. وكانت «المزامير» في البدء هي نصوص الترانيم الطقسية، ثم بدئ بتأليف القصائد الدينية المستوحاة من المزامير ومن حاجات الأرمن الروحية. وتتسم الألحان الأرمنية بنبرة حزينة تصور معاناة الشعب الأرمني في مسيرته التاريخية.

والسلالم الموسيقية الأرمنية مبنية على ترابط سلاسل الأجناس (البعد ذو الأربع tetrachord) والعقود (البعد ذو الخمس pentachord) [ر. الموسيقى]، شأنها في ذلك شأن ماكان لدى اليونان قديماً. وعلى هذا، فالموسيقى الأرمنية، كالبيزنطية والفارسية والعربية والتركية، هي موسيقى «ميكروتونية» microtonic أي إنها تعتمد في تركيبها على الجزء الصغير من البعد الطنيني ton، وفيها سلالم شرقية تتصف باستعمال الفاصلة الثنائية المزيدة augmented second، كما هو الشأن في الموسيقى بوجه عام. ومازال الأمر كذلك في الكثير من الموسيقى الشعبية الأرمنية المركزة على السلم الطبيعي لا المعدل. أما الموسيقى الأرمنية المعاصرة، فهي متعددة الأصوات (بوليفونية) polyphonic ويصدق ذلك على الموسيقى الكنسية أيضاً.

وتشير المصادر التاريخية عن الموسيقى، بين القرنين العاشر والخامس عشر، إلى تطوُّر فنّ صناعة الآلات الموسيقيّة مثل القيثارة الرباعيّة الأوتار والثُّمانية الأوتار، والمُسْتَحْدَثة كآلة السَنْطير والقانون والأُرْغانُونْ، كما تطوَّرَتْ مفاهيم العزف وتأليف القِطَع الموسيقيّة.

وظهر نَمَطٌ من الغناء والموسيقى عُرِفَ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر بفنِّ العشق بفضل مؤسسة كوتشاغ نهابيد K.Nahabéd. وقد انتشر هذا الفنّ مع الأرمن في بلدان المهجر والمُغْتَرَب وسادت موسيقى آلة السَّازْ Saz التي انتشرت بفضلها ألحان شعبيّة أرمنية قديمة يؤدّيها العازف الملحِّن الذي كان في كثير من الأحيان مؤلِّفاً لقصائده المغنّاة أو أحد رواة الشعر الملحميّ الغنائيّ.

وحاول الشمّاس كريكور كَابَاسَاكَلْيان Krikor Kabassakalian إعادة تشكيل الأوزان الموسيقيّة والألحان القديمة المُعَقَّدة بكتاباتها وعلاماتها، بهدف استحداث أبجديّة موسيقيّة جديدة تشمل كلّ المقامات الموسيقية والألحان القديمة من دمج التدوين الموسيقي الأرمني الشرقي والبيزنطي،وهو وإنْ لم ينجح في ذلك، فإنّه وضع لبنة الأساس لعلم الأوزان الموسيقيّة الأرمنيّة الحديث.

سايرت الموسيقى الأرمنية الحديثة الركب الموسيقي الأوربي، وبدأ المؤلفون الموسيقيون الأرمن يصوغون ألحانهم وفق القوالب الموسيقية الغربية؛ منهم: ديكران جُوخَجْيان Dikran Djoukhadjian الذي عاش في اصطنبول (تركية) بين ١٨٣٠ـ١٨٩٨م، وألّف أوبرا Opera «الملك أَرْشَاغ الثاني» Le roi Archag II التي تُعد بداية تطوُّر فنّ الأُوبِرا الأوربي عند الأرمن.

وبين أهم الشخصيات في تاريخ الموسيقى الأرمنية: الراهب كوميداس Komitas (١٨٦٩ـ١٩٣٥م)، الذي ولد في كوتينة غربي الأناضول وتوفي في باريس، وقد أطلق اسمه على المعهد الموسيقي الوطني في يريفان العاصمة. ويعد كوميداس مؤسس الموسيقى الكلاسيكية الأرمنية، فقد جمع الألحان والأغاني الشعبية ليصوغ منها موسيقى وطنية، وعرف، وهو المتضلع من الموسيقى الشرقية والغربية معاً، كيف يكتشف العناصر الأكثر حيوية، والخطوط الوطنية الأكثر بروزاً، فعمل فيها بدقة فنية عالية ليخرج نماذج حقيقية تعكس عمق الإبداع الشعبي بنكهتها وحكمتها.

درس كوميداس أولاً في تفليس Tiflis عاصمة جورجية، ثم في برلين حيث تابع دراساته في التأليف والغناء والقيادة وعلم الموسيقى والتربية والفلسفة. وأشهر أعماله «القداس» التي وضع لها تعديلات أو تكييفات arrangements من ألحانه ومن الأغاني الشعبية، فصاغها على أساس الانسجام اللازم للجوقة الغنائية أو للرباعي الوتري أو لمجموعات أخرى.

ومن بين الموسيقيين الأرمن الذين جلّوا في تأليف الأوبرا في أواخر القرن التاسع عشر: أرْمين ديكران Armenne Dikran في أوبراه «آنُوشْ» Anouch وهي أشهر أوبرا أرمنيّة حديثة تحظى بشعبيّة واسعة داخل أرمينية وخارجها، وألكسندر سْبِندريان Alexandre Spendarian في

أوبرا «ألماست» Almast وقد دعيت دار الأوبرا في يريفان باسمه. كما اشتهر في هذه الحقبة كل من: كارامورزا Karamourza، ويكْ ماليان Yekmalian اللذان برعا باستخدام «الانسجام» harmony وتعدد الأصوات في موسيقى الجوقة الغنائية.

نشطت الأعمال السمفونية والجوقية الغنائية والفرق الموسيقية المختلفة في أرمينية في أوائل القرن العشرين، وأسهم الكثير من الموسيقيين في هذه الأنواع وغيرها من التآليف الموسيقية، فانتقلت مؤلفاتهم من الإقليمية إلى العالمية. وبين هؤلاء أروتونيان Aroutunian، وباباجانيان Babajanian ، وخاتشادوريان Khatchatourian [ر]، وأوغانسيان Oganessian، وكلهم من مواليد أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. أما خارج أرمينية، فقد لمع هوفهانس Hovhaness الذي ولد عام ١٩١١م في الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت أكثر مؤلفاته تحمل عناوين أرمنية، منها حوارية (كونشرتو) للبيانو مع الوتريات بعنوان «سطوع النور» lousadzak، ومنها مؤلفات تحمل أسماء شخصيات أرمنية شهيرة مثل: خيريميان هايريغ Khirimian Hairig، وديران Diran، وآفاك Avak .

ويُعد شارل أزنافور Ch.Aznavour الذي أقام في فرنسة، من أشهر المغنين والملحنين الأرمن خارج وطنهم.

تشير لفظة «خـال» Khal في الفولكلور الأرمني إلى الغناء والرقص معاً. والأرمن يرقصون عندما يغنون، ويغنون في أثناء الرقص. ويمكن تصنيف أغانيهم إلى: أغاني الحياة، وأغاني العمل، وأغاني الأعياد، وذلك إضافة إلى اهتمامهم بالأغاني الجوقية والموسيقى الخفيفة والحديثة للفرق الموسيقية. ثم إن الكثير من الآلات الموسيقية الشعبية لديهم يشبه بالاسم والشكل والوصف تلك المعروفة لدى شعوب شرقية لها طابعها الموسيقي الخاص. ومن بين هذه الآلات، آلات وترية مثل العود والقانون والتار Tar (وصندوقها بشكل 8)، والساز (وصندوقها بشكل نصف إجاصة كالبزق)، والسنطور، والكنار knar ، ومن بينها كذلك آلات النفخ مثل الدودوك duduk (بقصبة مزدوجة)، والزورنة zourna التي تشبه البومبارد bombard من أسلاف الكلارينيت، والتوتاك toutak التي تشبه الصفارة fifre، والباركابيزوك parkapezouk التي تشبه القربة الاسكتلندية. ومن الآلات الإيقاعية: الطبل الصغير أو ديهول dehole، والدف duph، ومن أنواعه دف بمقياس كبير كالمزهر، والنقارة naghara .

وأما الرقص الأرمني فقديم جداً كما هو عند باقي الشعوب. وقد نشأ فنّاً يؤدّيه كاهن أو ساحر قبالة جمهور المُتعَبّدين، مرتدياً زيّاً خاصاً من جلد الماعز. ثم أصبح الرقص يؤدى من قبل الجماعة موقّعاً من آلة إيقاع لضبط حركات الراقصين. وقد فرض تنوُّعُ الأعمال تنوُّع حركات الراقصين مما استدعى وجود إيقاعاتٍ متنوِّعةً للرقصات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة الروحية المرافقة للعمل.

والرقص عند الأرمن القدماء جزء لايتجزّأ من طقوس العبادة والشعائر الدينية الوثنية. ثم تحول إلى اللياقة البدنية عند الشباب لرفد المحاربين، ومنه كانت الرقصة الحربية التي يؤديها شابان يتبارزان بالسيف، وقد جعل منها المؤلف الموسيقي خاتشادوريان «رقصة السيوف» وهي إحدى الرقصات في مؤلفته باليه «غايانه» Gayaneh .

أما عن الرقص الجَماعي المُخْتَلَط بين الذكور والإناث فيُعتقد أنَّه نشأ عن الممارسات الاجتماعية المرتبطة بحفلات الأعراس ومراسم الزواج والأعياد وبعض الطقوس الدينية الوثنية الشعائرية، كعيد نافاسارت Navassart، الوثني والاحتفالات المرافقة له.

والرقصات الأرمنية كثيرة ومتعددة المناسبات منها ذات أصل طوطمي كرقصة شجرة البخور، ورقصة شجرة المشمش، ورقصة النَحْس والدفن التي تُعَدُّ من الرقص الجَنَّازيّ وكانت تهدف إلى طرد الأرواح الشريرة التي تتجمّع حول رأس الميت. وقد تطوَّرَ مدلولُ هذه الرقصة فيما بعد إلى إحياء ذكرى الأموات أو المفقودين. وهناك رقصة دينية قديمة «ماخوخابري» makhokhabri تُؤَدّى في الأعياد والمناسبات الحزينة والطقوس والشعائر والعبادات المرتبطة بالحزن والحداد.

ولم ينحصر الرقص الأرمني الشعبي في أرمينية، فقد حمله المهاجرون واللاجئون الأرمن المُرَحَّلون من ديارهم إلى المَهَاجِر والمُغْتَرَبات، ونشأت فرق للرقص الأرمني في كلٍّ من إيران وسورية ولبنان ومصر وأمريكة الشمالية وغيرها من البلدان؛ حافظت على تراثها الفنيّ، كفرقة الرقص الشعبي الأرمني اللبنانية بقيادة الفنان كيغام، وفرقة جمعية الجيل الجديد الثقافية للرقص الشعبي في سورية بقيادة الفنان السوري أبراهام كوستانيان.

أما الرقص الأرمني الحديث، فقد عني بالرقص التعبيري وهو «الباليه» الذي ظهرت بداياته في أرمينية في منتصف القرن التاسع عشر اعتماداً على المشاهد واللوحات الغنائية الراقصة في المسرحيات الغنائية القصيرة (الأوبريت) operette ومن الفنانين الأرمن الذين عملوا في تصميم رقصات الباليه: آرباتوف واسمه الحقيقي يغيا يغياي يعقوبيان Yéghia Yéghiai Yacoubian (١٨٨٤-١٩٦٧). وقد عمل خارج أرمينية. والفنان ف. آريستاكيسيان V. Aristakéssian الذي أسس المحترف الحكومي Studio لفن الرقص عام ١٩٢٤م في مدينة يريفان حيث درَّس فن الرقص الشعبي والكلاسيكي وفن الرقص القفقاسي ومن ثم أسَّسَ عام ١٩٣٧م مع الفنان سيرونيان Sirounian معهد الرقص في يريفان. كذلك صمم الفنان آرباتوف رقصات باليه «السعادة» لخاتشادوريان وضمّنها لوحات شعبيةً راقصة زاوج فيها بين الرقص الشعبي الأرمني والرقص الكلاسيكي التعبيري، في حين صمم آنيسيموفا Anissimova رقصات باليه «غايانه»، وصمم ي.تشانكا Yé Tchanga رقصات باليه «سبارتاكوس» لخاتشادوريان أيضاً.

هشام الشمعة

المسرح الأرمني

للمسرح الأرمني تاريخ قديم اكتنفته الأساطير. وكانت الفرق الشعبية تؤدي حفلات تمثيلية في الأعياد الدينية والمناسبات الوطنية. وبعد انتشار المسيحية بدأت تمثل مسرحيات في أفنية الكنائس والمعابد، واقتصر العمل المسرحي على هذا النحو إلى أن خيّم السكون على المسرح حتى القرن الثامن عشر. وفي القرن التاسع عشر أخذ الأب ميناس المختياري يترجم مسرحيات لتمثل في المدارس، ثم أخذت موسكو تستقطب الحركة المسرحية الأرمنية مع قيام الجمهورية الأرمنية الاشتراكية السوفييتية (سابقاً)، وفي يريفان اليوم عدة مسارح هدفها تحويل الفن المسرحي إلى فن شعبي. وقد تم من أجل ذلك إنشاء المعاهد المسرحية لتخريج الممثلين والمخرجين والمساعدين في مختلف اختصاصات المسرح. ومن أهم المسارح المعروفة:

مسرح يريفان الدرامي (أو المسرح الأرمني)، ومسرح يريفان الكوميدي، ومسرح يريفان الحكومي. وهناك مسارح أرمنية معروفة منها مسرح صوندوكيان الكبير.

العمارة والفنون الأرمنية

لأرمينية تاريخ فنون موغل في القدم، فالتنقيب الأثري فيها أسفر عن كشف مستوطنات بشرية تعود إلى العصر الحجري الحديث (النيوليتي) الذي يصل إلى الألف الثامن قبل الميلاد، وإلى عصر المعادن (البرونز والحديد) الذي يصل إلى الألف الثالث قبل الميلاد، مما يدل على قدم اشتغال سكان المنطقة بالتعدين وعلى وجود حضارة مستقرّة.

ومما ساعد على جودة العمارة والنحت في أرمينية غنى البلاد بأنواع الحجارة كونها هضبة واسعة ذات طبيعة جبلية. وتسمّى تلك البلاد باللغة الأرمنية كاراستان Karastan وتعني بلاد الحجر.

تعود نماذج التصوير الجداري والفسيفساء في أرمينية إلى القرن الأول قبل الميلاد، أما المخطوطات الأرمنية المصورة (المنمنمات) فأقدمها يعود إلى القرن العاشر الميلادي علماً بأن الألفبائية الأرمنية قد وضعت في بداية القرن الخامس الميلادي.

العمارة

أ - من البدايات حتى انتشار المسيحية

تعود المستوطنات البشرية في أرمينية إلى الألف الثامن قبل الميلاد وهي المكتشفة في مواقع أرغانا Arghana قرب أفان Avan في غربي البلاد وفي موقع يعرف اليوم باسم تشالني تِبِسّي Tchalny Tépéssy. كما اكتشفت مستوطنات أخرى تعود إلى الألف السابع قبل الميلاد فيها بقايا لعمارة من الحجارة المغموسة بالطين وعثر فيها على أدوات وأسلحة حجرية ومعدنية وفخارية ودمى ونقوش، ومن أقدم تلك المستوطنات موقع شنكافيت Chengavit على نهر هرازدان Harazdan جنوب غربي العاصمة الحالية يريفان Yérévan وموقع مدزامور Medzamor في سهل أرارات Ararat الذي يعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد. وفي منطقة اتشميازين Etchmiadzin التي ظلت مأهولة حتى العصر الوسيط، عُثر على مستوطنة تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد عمل سكانها بالزراعة وتربية الماشية وعرفوا التعدين. وفي منطقة بحيرة سيفان Sévan عثر على مدينة تعود في موقع لجاشين Ldjachen تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وقد عرفت تلك المدينة أيضاً باسم بيرت شين Bertchen، وكانت تضم مباني سكنية وقلعة، وتبلغ مساحتها مايقرب من خمسة وثلاثين هكتاراً. وفي منطقة أرتيك Artik التي تحوي تلالاً متعددة تم الكشف عن مستوطنة هوروم Horom من الألف الثالث قبل الميلاد أيضاً، وهي مدينة محصّنة بعدة حصون بنيت بالحجارة المغموسة بالطين، وقد استمر هذا الموقع مأهولاً حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

وقد لوحظ أن الخلية السكنية المنفردة ظهرت في أرمينية في الألف الرابع قبل الميلاد واستخدم في بنائها الطين، وكان شكل البناء مستديراً في أرمينية الشمالية، أما في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية فقد ساد الشكل المربع. وقد تجاور شكلا البناء المستدير والمربع في منطقة سهل أرارات.

أما في الألف الثالث قبل الميلاد فقد تم التخلي عن البناء المستدير وساد البناء المربع وتعددت الوحدة المربعة في المسكن الواحد مما دعا إلى تدعيم الجدران الخارجية للبناء بجعلها أكثر سماكة مما مهّد لظهور المدينة والعمارة العسكرية.

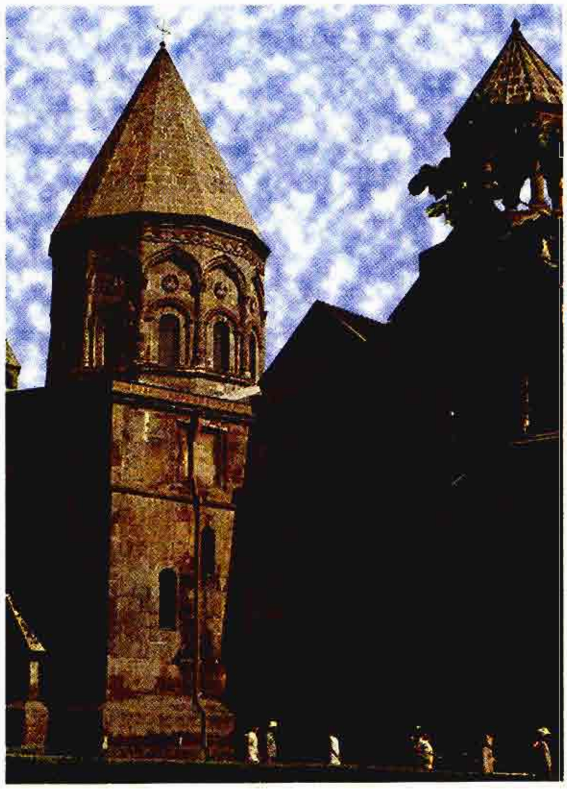
وفي الألف الثاني قبل الميلاد تطورت عمارة المدينة وخاصة في المنطقة الواقعة بين نهري غور Gour وأراكس Arax ، فكبرت مساحة الأرض المبنية لأكثر من عشرة هكتارات، واستخدمت الكتل الحجرية والبناء وأقيمت الحصون المنيفة، وضمت المدينة في تخطيطها أزقة وشوارع منظمة وظهرت أماكن الاجتماع العامة كالمعابد. إن من أهم مدن تلك المرحلة زوراكار Zorakar التي وفّر لها موقعها الخاص، على منحدر صخري ينتهي بواد حماية طبيعيةً جعلتها غير محتاجة إلى كثير من التحصين. واستخدم نوعان من الأحجار في أبنية المدينة، الأول عادي للجدران والثاني أحجار مسطحة ومستطيلة استعملت في سقف الغرف. وتأتي أهمية موقع زوراكار (اسمها اليوم غوشنداش Gjochonndache) إضافة إلى ماتقدم باحتوائه على عمارة جنائزية على شكل أبهاء تبلغ مساحة الواحد منها نحو مئة وخمسين متراً مربعاً، وتشكل القبور في مجموعها « مدينة موتى » Necropole، كان المحرّض على بنائها المعتقد الشائع آنذاك، وهو عبادة أرواح الأجداد والإيمان بانبعاثهم.

ويعد موقع مدينة دوشبا Duchba مثلاً على عمارة الألف الأول قبل الميلاد، وكانت تلك المدينة، التي تقع على الضفة الجنوبية لبحيرة فان Van، عاصمة مملكة أورارتو Urartu في القرن التاسع قبل الميلاد، وقد ورد اسمها في سجلات الملك الآشوري شلمنصر الثالث، وكانت تلك المدينة قائمة على مرتفع صخري وأسوارها مبنية بحجارة ضخمة طول الواحد منها نحو ثلاثة أمتار وكان كل سور يتألف من جدارين متوازيين تملأ الفجوة بينهما حجارة مغموسة بالطين.

وكان الملك الأرمني أرغشتي الأول Arguichti I قد أسس عام ٧٨٢ق.م مدينة إيريبوني Érépuni، حسبما جاء في الوثائق المسمارية التي عثر عليها في أنقاض موقعها جنوبي شرقي العاصمة الحالية يريفان، فكانت مركزاً اقتصادياً وإدارياً وعسكرياً في سهل أرارات، وكان حصنها قائماً على هضبة مثلثة، وبلغت مساحته نحو هكتارين، ويحيط به سور أسفله من البازلت والحجر السماقي وأعلاه من الطين.

وقد عُثر في أنقاض قصر الملك الآشوري صارغون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م) على نصب تذكاري يخلّد انتصاراته على الأرمن، ونهبه لمعبد مدينة موساسير Moussassir التي تقع بين بحيرة فان وبحيرة رومية. وأكدت المعطيات الأثرية الحديثة تلك الواقعة التاريخية، كما بينت أن أسلوب بناء ذلك المعبد يشبه إلى حد كبير أسلوب معبد البارتينون في أكروبول أثينة علماً بأنه سابق له بثلاثة قرون، في حين تختلف منحوتات المعبد الأرمني عن التي في الأكروبول، فأسلوبها محلّي يقارب في مفهومه النحت الرافدي.

والملاحظ أن فن العمارة في أرمينية في الألف الأول قبل الميلاد حمل تأثيرات آشورية، وهناك مدينة أخرى أسسها الملك أرغشتي الأول عام ٧٧٦ق.م في شمالي أرمينية سميت « أرغشتي خينيلي » Arguichti Khinili، وغدت موقعاً دفاعياً واقتصادياً يبعد خمسة كيلومترات من نهر أراكس ويمتد حتى تل القديس داوود الصخري. تقارب مساحة المدينة عشرة كيلومترات مربعة وتضم قصر الملك ومعبد الإله



الواجهة الشمالية الغربية لكاتدرائية اتشميازين
(القرن الرابع الميلادي)

خالدي Khaldi ، وكلاهما يحمل صفة الحصن الدفاعي إضافة إلى سور المدينة.

يقوم نظام تخطيط المدينة في ممالك أرمينية القديمة أساساً على القلعة المحصّنة المشيدة على تل عال والمنطقة السكنية المحيطة بها على سفوح التل. وكان تصميم المسكن يتألف من فسحة سماوية تحيط بها غرف مسقوفة. واتصفت القصور الملكية ومساكن النبلاء باحتواء الواحد منها على طابقين وأحياناً ثلاثة، فيخصص الطابق الأول للمؤن والثاني للمعيشة والاستقبال والرصد. وقد عرفتْ المدن الأرمنية بدءاً من القرن التاسع عشر قبل الميلاد، نظام أقنية الري وأقنية الصرف الصحي مثل قناة شاميران Chamiran في مدينة فان. وارتقت تقانات البناء في أرمينية في القرن السادس قبل الميلاد فعم الاهتمام بالحجر المنحوت.

جدير بالذكر هنا أن أرمينية أصبحت في هذه الحقبة محمية في ظل امبراطورية فارس الأخمينية وتحظى بقسط من الاستقلال تحت حكم السلالة الأرمنية الأرفندونية Ervandouni، وظلت على هذه الحال مايقارب القرنين بدءاً من منتصف القرن السادس قبل الميلاد، وقد جاء ذكر المدن الأرمنية ومبانيها في كتابات كل من المؤرخين هيرودوت (نحو ٤٨٤-٤٢٠ق.م) وكسينوفون (نحو ٤٢٠-٣٥٥ق.م).

وبعد سقوط الدولة الأخمينية خضعت منطقة أرمينية للهيمنة الهلينية حقبة امتدت من القرن الثالث قبل الميلاد حتى مايقارب نهاية القرن الثالث الميلادي، وكما دخلت في علاقات فنية وثقافية وعمرانية مع رومة منذ القرنين الثاني والثالث الميلاديين. وقد تم في الحقبة الهلينية إنشاء عدد من المدن أهمها: أرمافير Armavir ويرفانداغيرد Yervandaguerd وزاريشاد Zarichad وديكراناغيرد Dikranaguerd التي اشتهرت بمسرحها وباسوارها التي بلغ ارتفاعها نحو خمسة وعشرين متراً، وكانت على درجة من الضخامة استوعبت مساكن الحامية واسطبلات الخيل. وقد كشفت حفريات مدينة غارني Garni، وهي المقر الصيفي للملك، عن حمامات القصر الملكي وعن أرضيات مرصوفة بالفسيفساء.

ب ـ من انتشار المسيحية حتى العهد السوفييتي

أدى اعتناق الأرمن الديانة المسيحية عام ٣٠١م إلى تغيير نظام العمارة الأرمنية تبعاً لشعائر الدين الجديد. ويعود تاسيس كنيسة إتشميازين Etchmiadzine وهي الكنيسة الأم في أرمينية إلى عام ٣٠١-٣٠٣م. ويعتقد أن واضع حجرها الأساس هو القديس غريغور المنوّر Grigor l'éluminateur شفيع الكنيسة الأرمنية.

كانت الكنيسة في أرمينية تتألف في البداية من جناح واحد مثل ماكان متبعاً في المعابد الوثنية السابقة، وقد تم تحويل عدد من المعابد الوثنية إلى كنائس مسيحية، وحل الهيكل محل منصة المذبح وهو القسم الشرقي من الكنيسة حيث توجد المائدة Autel، كما هدم بعض المعابد وشيدت كنائس في مكانها بإعادة استعمال حجارتها مثل كنيسة أفان Avan التي بنيت على أنقاض معبد وثني من القرن الأول قبل الميلاد.

ولقد تطور بناء الكنائس في أرمينية في القرنين الرابع والخامس فبدأ النموذج المؤلف من ثلاثة أجنحة المأخوذ عن نظام البازيليك[ر] Basilique البيزنطي مع المحافظة على الروح الأرمنية فيما يتصل بالنسب المعمارية والأسلوب والزخرفة، ومن ذلك كنائس كازاغ Kasagh وأشتراك Achtarak ودزرزرنافانك Dzirzernavank .

وكانت الأبنية البازيليكية في أرمينية تحوي أربعة أو ستة أزواج من الأعمدة وأحياناً سبعة ليمتد السقف المحمول عليها حتى خارج الجدار الشرقي للكنيسة مسافةً تحمي المحراب. وكان يعلو البازيليكات ذوات المحاريب الثلاثة سقف مثلثي (جملون) يغطي المحراب الأوسط. أما بازيليك أيريرويك Ererouyk وبازيليك تيكور Tekir فتشبهان في مظهرهما الكنائس السورية، مثل كنيسة ترمانين (المهدمة اليوم) وكنيسة سمعان العمودي في شمالي سورية وخاصة تيجان الأعمدة والنوافذ.

وقد ظهرت القبة الخاصة بالكنيسة الأرمنية في القرن الخامس الميلادي واتخذ مخطط الكنيسة شكل صليب في القرنين الخامس والسادس. ثم تطورت القبة من هرم رباعي الوجوه إلى سداسي أو ثماني الوجوه.

وتعد كنيسة زفارتنوتس Zvartnots، التي بنيت سنة ٦٤٢-٦٦٢م. بأمر من الجاثليق نرسيس الثالث دايتسي البنّاء Nerssès Daietsi III نموذجاً فريداً للعمارة الأرمنية، لتصميمها الدائري وطرازها المخروطي المتدرج وقبتها الدائرية المضلعة السطوح. ومن الكنائس الأرمنية المهمة في القرن السابع الميلادي كنيسة القديسة هرِبسِمه Hripsimé في موقع فاغارشاباد Vagharchabad وقد بنيت بأمر الجاثَليق كوميداس Gomidas .

أدى قيام الدولة البقرادونية Bagratouni في أرمينية من القرن التاسع الميلادي حتى الحادي عشر، إلى انتعاش دور المدينة. وفي عام ٩٦١م صارت مدينة آني عاصمة للدولة وبرز في هذه المرحلة اسم المعمار تريدات Tridate الذي بنى كنيسة آني الكبرى (٩٨٩-١٠٠١م) .

قد نشط بناء الأديرة والكنائس في كيليكية وخاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين مثل دير خستُنك Khestonk ودير هرونوس Hronos وكنيسة هاغبات Haghbat، وتعد كلّها من روائع العمارة الأرمنية في القرون الوسطى، ويلاحظ تأثير العمارتين البيزنطية والفرنجية على العمارة الأرمنية في تلك الحقبة.

كذلك شارك معماريون أرمن في تخطيط الحصون الصليبية في كيليكية وبنائها، مثل أسوار مدينة آني وقلعة سيس Sisse المتميزة ببواباتها الداخلية التي تفضي إلى سبعة أجزاء معمارية تؤلف مجتمعة جسم قلعة سيس، وقلعة لامبرون Lambron.

وأدى الازدهار الاقتصادي في أرمينية في القرن السابع عشر إلى توسّع شبكة الطرق البريّة مما دعا إلى بناء عدد من ا لجسور على الأنهار.

ونمت حركة التوسع العمراني في أنحاء أرمينية في القرن الثامن عشر، واشتهرت في هذه المرحلة أسرة باليان Balian الأرمنية التي توارثت العمارة سبعة أجيال في زمن السلطنة العثمانية، وبنت في أرجائها منشآت كثيرة.

ج ـ العهد السوفييتي ومابعده

طغت نظم العمارة السوفييتية على أرمينية منذ سنة ١٩٢٢م بعد استقرار السلطة السوفييتية هناك، فقد وضع المعمار الكسندر تامانيان A. Tamanian سنة ١٩٢٤ خططاً لتوسّع مدينة يريفان حتى تستطيع احتواء مئة وخمسين ألف نسمة جدداً. ومع أن تامانيان تبنى طراز العمارة السوفييتية القائم على المبالغة في العناصر الكلاسيكية فقد قام أيضاً بإدخال زخارف ورموز مقتبسة من العمارة الأرمنية التقليدية على واجهات الأبنية التي شيدت هياكلها من الإسمنت المسلّح وتم إكساؤها بالحجر والرخام من مقالع أرمينية. وقد لمعت في تلك الحقبة أسماء المعماريين الأرمن رافاييل إسرائيليان R.Israelian وسارافيان Sarafian وماركاريان Markarian. وثمة محاولات اليوم لاستلهام العمارة الغربية المعاصرة في أرمينية، وهناك من يدعو إلى تطعيم المنشآت المعاصرة بروح أرمنية شرقية تقليدية.

النحت

رافق فن النحت فن العمارة في أرمينية، فقد امتازت تيجان أعمدة المعابد الوثنية والقصور بالنحت المعمّق في الحجر، بالاعتماد على العناصر النباتية، مثل معبد قلعة غارني من القرن الثالث قبل الميلاد وقصر دفين Dvin من القرن الرابع الميلادي. وقد تجلت علاقة النحت بالعمارة بوضوح في بناء الكنائس الأرمنية على اختلاف مراحل تطوره.

ويمكن تصنيف أنواع المنحوتات المعمارية في أرمينية في فئات ثلاث هي:

النُّصب، والصليب الأرمني، وتزيين جدران المنشآت.

١ ـ النُّصُب: للنصب في أرمينية أشكال متعددة مزينة بأنواع النحت المختلفة، فغالباً مايقوم النصب على قاعدة قد تحتوي درجاً من ثلاث إلى سبع درجات وأما النصب نفسه فيتألف من شكل رباعي الوجوه مزخرف بالنحت، ويرتفع نحو مترين إلى أربعة أمتار فوق القاعدة، أو يكون على شكل عمود ينتهي بتاج مزخرف وفوقه حجر الصليب المنحوت. يراوح ارتفاع النصب الأرمني كاملاً عن سطح الأرض بين أربعة وعشرة أمتار وقد يصل في بعضها إلى خمسة عشر متراً. والنُّصب إما جنائزية مقامة فوق أضرحة، أو تذكارات لأحداث مهمة أو تؤرخ لشخص ما.

ويلاحظ أن النصب المسيحية التي أقيمت في أرمينية من القرن الرابع حتى الثامن الميلاديين كانت أقرب إلى النمط الوثني الذي كان سائداً قبل ذلك في البلاد، ومن بين تلك النصب اثنان جنائزيان من القرن السادس، واحد في أوتزون Otzoun وواحد في آغودي Aghoudi وهذا الأخير يُعد واحداً متميزاً في تاريخ هذا الفن.

وهناك نصب دير تاتف Tathev بارتفاعه البالغ خمسة عشر متراً، ونُصب فوروتان Vorotan وتعود كلها إلى القرن العاشر الميلادي.

٢ـ الصليب الحجري الأرمني: عُرف هذا النوع من النحت باسم خاتشكار واقتصر وجوده في العالم المسيحي على أرمينية، وهو يتألف من حجر شاقولي يراوح طوله بين المتر الواحد والمترين ونصف، يحمل نقشاً يمثل صليباً منفتحاً في رؤوس سواعده الأربعة وتحيط به زخرفة هندسية ونباتية. وكان النحت الأرمني يبتكر في الزخرفة محاولاً قطع التناظر الممل بتبديل مجريات النقش على مدار السطح المنقوش.

والزخرفة في هذا النوع من النحت متواضعة طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ثم أخذت تزداد غنىً منذ القرن الثاني عشر الميلادي. ويُعد الصليب الحجري الأرمني نصباً في حد ذاته ويقام على قاعدة بسيطة أو يعلو نصباً تذكارياً.

وقد تطور فن نحت الصلبان الحجرية في أرمينية وانتشر في أرجاء البلاد منذ القرن الرابع عشر الميلادي بفضل الأمراء والتجار الذين شجعوا بناء المنشآت وتزيين الأضرحة، وكانت الصلبان المنحوتة تتعدد حول المنشأة الواحدة أو على جدرانها.

ومن الصلبان الحجرية الأرمنية من القرن السابع الميلادي صليب مسلة تاتف Tatev في فوروتنا فانك Vorotnavank ، وكذلك صليب تزاغاتسTzaghats في إيغكناتزور Eghegnatzor من القرن الحادي عشر الميلادي، وصليب نصب كريكور توديفوردي Grigor Toudevordi من القرن الثاني عشر، وصلبان مغائر أيريفانك Ayrivanik من القرن الثالث عشر.

٣ـ تزيين جدران المنشآت: زيَّن النحت واجهات الكنائس الأرمنية وجدرانها الخارجية والداخلية، وهو على نوعين: زخرفي هندسي أو نباتي، وتشخيصي. وكان النحت الزخرفي يؤطّر الأبواب ويساير الأقواس في حين يوجد النحت التشخيصي على الجدران وفي أعلى الواجهات، ويجتمع نوعا النحت الزخرفي والتشخيصي ليشكّلا زينة لافتة للنظر. وأكثر النحت عميق غني بالتفاصيل ومتشعب، ويساعد على ذلك قابلية الحجر في أرمينية لمثل هذه الأعمال. أما أشهر الأعمال التزيينية فهي:

ـآثار كنيسة زفارتنوتس Zvartnots من القرن السابع الميلادي، وفيها زخارف نباتية كانت تؤطّر الأقواس الداخلية مع تمثال أحد القديسين فوق العمود عند التقاء القوسين، كما أن تيجان أعمدة الكنيسة مزينة بالزخارف والجدلات أو تحمل نحتاً بارزاً لصقر مبسوط الجناحين.

ـزخارف كنيسة أغتمار Aghtamar من القرن العاشر الميلادي، وقد زينت جدرانها من الخارج بنحت زخرفي يمثل حلقات من الكرمة والرمان و أرانب مع منحوتات لقديسين بالطول الكامل، ومن أشهرها نحت بارز للسيدة العذراء جالسة على عرش المسيح وإلى جانبها ملاك يحمل ملفاً.

ـدير أيريفانك من القرن الثالث عشر ويحوي على مجموعة من الكنائس بعضها منحوت



منمنمة من انجيل المصورين الثمانية (القرن ١٣م).

باكمله في الصخر يشكل فراغ الكنيسة وما تضمه من أعمدة وأقواس وقبة قطعةً واحدة. وقد احتوت الجدران والقبة نحوتاً بارزة زخرفية وحيوانية تلفت النظر.

ـ دير نورافانك Noravank من القرن الرابع عشر الميلادي وفيه كنيسة مؤلفة من طابقين، ولكل طابق بوابة مزينة بالنحت البارز الزخرفي الدقيق مع نحت تشخيصي يمثل المسيح والعذراء والملائكة؛ وتتصل البوابتان بدرج مزدوج ومتناظر وهي من عمل النحات موميك Momik.

التصوير

تعود أقدم نماذج الفسيفساء التي وجدت في أرمينية إلى مدينة غارني، ففي القصر الملكي قطع من القرن الأول قبل الميلاد وفي المعبد قطع من القرن الأول الميلادي.

وشاع فن التصوير الجداري في العصر الوسيط ورافق العمارة الكنسية في لمبات Lmbat وأروج Arouj من القرن السابع وجداريات كنيسة تيغران هوننتس Tigran Honents في منطقة آني من القرن الثالث عشر الميلادي.

وأما المخطوطات المصورة (المنمنمات) فتشكل فناً مهماً من فنون العصر الوسيط في أرمينية. وقد حفظت مكتبات العالم منها مايقارب خمسة وعشرين ألف كتاب أرمني مخطوط. ويحفظ معهد الدراسات الأرمنية في يريفان المسمى مَتنادارات Mantenadaran والذي يحمل اسم واضع الألفبائية الأرمنية نحو سنة ٤٠٥م، مسروب مشتوتس Masrop Machtots، أكثر من عشرة آلاف مخطوط من بينها مايقارب الثلث مزين بالتصاوير، وهي على الغالب كتب دينية تمثل جميع مراحل فن الكتاب المصور في أرمينية.

وإذا كان أقدم مخطوط أرمني مؤرخ يعود إلى سنة ٨٨٧م وهو الإنجيل المسمى بإنجيل لازاريف، فإن المصادر الأدبية تؤكد وجود مدرسة لتصوير المخطوطات في القرن السابع الميلادي في كامسراكان Kamsarakan. وقد ظل هذا الفن مزدهراً طوال ثلاثة عشر قرناً إلى أن توقف أوكاد في أوائل القرن التاسع عشر.

بدأ الأرمن بترجمة كتب الدين والتاريخ والعلوم إلى لغتهم منذ القرن الخامس الميلادي حين تم وضع الألفبائية الأرمنية الأولى المقتبسة عن المسمارية. ويعتقد أن الكتب المصورة الأولى كانت متأثرة من حيث الأسلوب بالفن السوري المتمثل بإنجيل رابولا من القرن السادس الميلادي من جهة، وبالفن الجداري الأرمني من جهة أخرى.

يحتوي إنجيل إتشميازين الشهير في صفحاته الأخيرة أربع منمنمات تمثل على التوالي بشارة العذراء مريم وبشارة زكريا وتقديم المجوس احترامهم للسيد المسيح وصلب المسيح، وتختلف هذه المنمنمات في أسلوبها عن باقي المنمنمات التي يحتوي الإنجيل عليها، ويعتقد العلماء أن المنمنمات الأربع تلك تعود إلى القرن السادس مع أن الإنجيل نفسه مؤرخ في سنة ٩٨٩م، وأن الغاية من وجودها فيه هو حفظها وهي بذلك تعد أول المنمنمات الأرمنية المعروفة.

والجدير بالذكر أن إنجيل إتشميازين مغلف من وجهيه بصفيحتين من العاج المزين بالحفر البارز الدقيق يصور مشاهد دينية. وإذا كانت الموضوعات المصورة في المخطوطات الأرمنية محدودة بقصص العهد الجديد، فإن اختلاف المصورين في رؤاهم قد غيّر من رتابة تلك الموضوعات، مع وجود موضوعات علمانية مصورة في بعض كتب الدين مثل صورة معركة أفارايير التي جرت سنة ٤٥١ في كتاب إنشاد من سنة ١٤٨٢. وقد يعثر أيضاً على صور في حواشي الموضوع الرئيسي مستوحاة من الحياة اليومية أو من مشاهد الصيد ومن الرموز الوثنية والأساطير.

ويميز في بعض الصور نماذج لباس الأرمن أو الأثاث أو الأدوات أو بعض الشخصيات في عصر ما. كما يميز كثير من العناصر الزخرفية التي ترمز إلى الخصب وتوحي بعالم الخلود كأشكال النبات المبتكرة والطيور.

ويمكن تصنيف المنمنمات الأرمنية في فئتين: الأولى نمطيّة تذكر بالتراث البيزنطي وفيها تأنق وصنعة، والثانية شعبية وفيها بساطة وتعبير، وتحمل كلها على تنوعها صبغة محلية واضحة.

ومن أشهر نماذج الفئة الأولى:

ـ إنجيل إتشميازين من سنة ٩٨٩م.

ـ إنجيل موغني من منتصف القرن الحادي عشر.

ـ كتاب الصلاة الذي صوره غريغور مليدجتسي Grigor Mlidjetsi سنة ١١٧٣.

ـ إنجيل هاغبات من سنة ١٢١١ ويذكّر أسلوبه بمدرسة بغداد والمنمنمات العربية والسريانية من تلك الحقبة.

ـ كتاب القراءات العائد للملك هيثوم الثاني وينسب إلى المصور طوروس روسلين Roslin Toros سنة ١٢٨٦م.

ـ إنجيل من القرن الثالث عشر وينسب إلى المصور طوروس روسلين ومن أشهر صوره الملاك جبريل يبشر العذراء مريم.

ـ إنجيل المصورين الثمانية من القرن الثالث عشر.

ومن نماذج الفئة الثانية:

-إنجيل مؤرخ سنة ١٠٣٨ وفيه صورة مبتكرة لمعمودية المسيح.

-إنجيل من أول القرن الرابع عشر، صوره سيمون أردجيشتي Simeon Ardjichti .

-إنجيل مؤرخ سنة ١٣٩٧ صوره رستاكس Rstakes في منطقة فان.

-إنجيل من آخر القرن الرابع عشر صوره غريغور في منطقة تاتف.

-إنجيل مؤرخ سنة ١٥٨٥م صوره هاكوب تجوغايتسي Hagob Tjoughaetsi .

وقد أصدرت الدولة الأرمنية سنة ١٩٥٢ أول مجموعة مصورة تحمل عنوان «المنمنمات الأرمنية القديمة»، وسبقها صدور مجموعة تحمل الاسم ذاته مرافقة بدراسة مهمة وضعها العالم الروسي ا.ن.سفيرين A.N.Svirine سنة ١٩٣٩م، كما صدرت دراسات كثيرة حول الموضوع في فرنسة والولايات المتحدة الأمريكية. وتجدر الإشارة إلى أن المنمنمات الأرمنية تعدُّ مع مثيلاتها السورية والقبطية والحبشية أنماطاً مهمة في تاريخ فنون الشرق في المرحلة البيزنطية.

غسان كجو، لوسي قصابيان، إلياس الزيات

الموضوعات ذات الصلة:

الاتحاد السوفييتي - أرمينية - الأناضول - إيران - بيزنطة - تركية - العثمانيون.

مراجع للاستزادة:

- ل. ل. استارجيان، تاريخ الأمة الأرمنية.
- مروان مدور، الأرمن عبر التاريخ.
- فؤاد حسن حافظ، تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى اليوم (القاهرة١٩٨٦م).
- آ.بارساميان وم.هاروتونيان، تاريخ الموسيقا الأرمنية (يريفان١٩٦٨م).
- ع.استيبانيان، لمحات من تاريخ المسرح الأرمني الغربي، الجزء١, ٢ (يريفان١٩٦٢-١٩٦٩م).
- ج.خاتشادوريان، الرقصات الشعبية في منطقة تجافاخك (يريفان١٩٧٥م).

■ الأرموي البغدادي (صفي الدين عبد المؤمن -)

(٦١٣هـ-٦٩٣هـ/ ١٢١٥-١٢٩٤)

صفي الدين عبد المؤمن بن يوسف بن فاخر الأرموي البغدادي باحث موسيقي عربي، ولد وتوفي في بغداد، وهو فارسي الأصل يعود نسبه إلى بلدة أرمية (الرضائية - اليوم)، في أذربيجان، الواقعة شمال غرب طهران.

كان صفي الدين ذا ثقافة واسعة، وقد عمل في كثير من العلوم والفنون والآداب، وجاد فيها مثل: التاريخ، وعلم الكلام، والشعر، وأتقن فن الخط العربي حتى عُد من أفضل خطاطي عصره. وكان ياقوت المستعصمي من تلامذته في هذا الفن. ويقول صفي الدين عن نفسه: «لقد اشتغلت بالمحاضرات والآداب العربية وتجويد الخط العربي الذي بلغت فيه الغاية، ثم اشتغلت بالضرب على العود [ر] فكانت قابليتي فيه أعظم من الخط. لكنني اشتهرت بالخط ولم أُعرف بغيره ذلك الوقت».

وبرع الأرموي في العزف على العود. واصطفاه حكام كثيرون، فقد استخلصه المستعصم بالله [ر] لنفسه، في منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وجعله كاتباً وأميناً لخزانة مكتبته التي استجدها وجلب إليها نفائس الكتب، وفوّض إليه نسخ مايريد ومايطلب منه، وذلك من أجل علمه وواسع اطلاعه. ولم يكن الخليفة قد عرف كل مؤهلات الأرموي الثقافية، وخاصة الموسيقية منها، حتى اتفق أن كانت «لحاظ» المغنية بين يدي الخليفة يوماً، وكانت مقرّبة إليه لحسن صوتها وجمال وجهها؛ فغنت له لحناً غريب الطابع وجميل النغم، فسألها عن صانع اللحن فقالت: إنه معلمي صفي الدين. فأحضره الخليفة واستمع إلى ضربه بالعود، فأُعجب به وأمره بملازمة مجلسه وأجزل عليه في العطاء. ويذكر المستشرق الإنكليزي الدكتور هنري فارمر (١٨٨٢-١٩٦٥) H.G.Farmer في كتابه «تاريخ الموسيقى العربية»: «كان المستعصم يقضي كثيراً من أوقات فراغه بالاستماع إلى الموسيقى. وكان موسيقيه الأول من أشهر الموسيقيين في التاريخ العربي وهو صفي الدين عبد المؤمن. وكان رئيساً للموسيقيين في قصر الخليفة ونديمه وكاتبه ومدير مكتبته، وكان صديقه ومقرباً منه، وكان الخليفة قد أجرى عليه راتباً سنوياً قدره خمسة آلاف دينار». وقد قرّبه هولاكو أيضاً، بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، عندما غنى الأرموي في حضرته، فضاعف له مرتبه لإعجابه بغنائه وضربه بالعود، وكان ذلك سبباً في خلاصه مع أسرته من التنكيل بهم، ونجاة جانب من أحياء بغداد من الهدم والتدمير تقديراً لموهبته. وقد واصل الأرموي خدمته كذلك في ظل ولاية الحكام المغول وأصبح مربياً للأميرين بهاء الدين محمد، وشرف الدين هارون (ابني الوزير شمس الدين محمد الجويني). وقد رافق الأرموي الأمير بهاء الدين عام ١٢٦٥م إلى أصفهان عندما عُيِّن هذا الأخير والياً على عراق العجم. كما تولى الأرموي رئاسة ديوان الإنشاء وصار نديماً للوالي. وعندما سقطت الأسرة الجوينية عام ١٢٨٤م ساءت حال صفي الدين في سنّه وعيشه وغلبت عليه الديون، فزُج به في السجن ومات فيه.

مآثره ومؤلفاته

ينسب إلى الأرموي أنه أوجد مقاماً (سلماً موسيقياً) جديداً ذا ثماني عشرة نغمة محصوراً بينها سبعة عشر بُعداً غير متساوية. ويختلف هذا المقام عن سائر المقامات السالفة بنسب أبعاده ودساتينه (الدساتين هي علامات توضع على سواعد الآلات الوترية ليستدل بها على مخارج النغم من أجزاء الوتر)، ويضم السلالم الفيثاغورية، والزلزلية (نسبة إلى زلزل صهر إبراهيم الموصلي)، والفارسية. وبذا عُدّ الأرموي «رائد نظرية النسب»، وبقي هذا المقام معمولاً به، ولم يطرأ عليه سوى تعديل يسير أحدثه محمد بن عبد الحميد اللاذقي [ر] المتوفى عام٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م. ثم شاع السلم الموسيقي الحديث، ذو الـ ٢٤ رُبع البعد، قبل قرنين تقريباً.

كان الأرموي أول من استخدم الحروف الهجائية العربية مفردة ومركبة في الموسيقى. إذ

استعمل الحروف الأبجدية العشر الأوائل (أبجد هوز حطي) في تسمية درجات السلم الموسيقي، كما تستخدم اليوم البلاد الأنغلوسكسونية، مثل إنكلترة وألمانية، أبجديتها (A,B,C)... بدلاً من العلامات الموسيقية (Do,Re,Mi ... وتقابلها C,D,E) المستخدمة في البلاد اللاتينية مثل فرنسة وإيطالية وإسبانية.

وهو أول من استخدم لفظة آواز في الموسيقى، وهي لفظة فارسية (آوازة) ويقصد بها الصوت أو اللحن أو المقام، وحدّد كذلك أسماء الأدوار والآوازات التي كانت تسمى قبله بأسماء الأصابع والدساتين.

وهو أول من صوّر الأدوار على عدة نغمات في مقامه الموسيقي، فجاز وضعُها في غير مواضعها وطبقاتها الصوتية الأصلية، وهو ما يعرف اليوم بـ« النقل أو التصوير transition » في الموسيقى الغربية، أي نقل السلم أو المقام من درجة إلى درجة أخرى.

وكان أول من دوّن العلامات الموسيقية محدداً أبيات الشعر عليها، وواضعاً نبرات الإيقاع تحت كل نغمة منها. كما حصر عدد أنواع أبعاد « العقد أو الجنس الرباعي » (البعد الذي بالأربع tertrachord)، والعقد الخماسي (البعد الذي بالخمس pentachord) [ر.الموسيقى العربية]. وهو أول من وضع الدوائر الموسيقية، وعددها ٨٤ دائرة، على أن ترمز كل دائرة إلى مقام موسيقي معين.

أما أهم مؤلفاته فهي:

ـ « كتاب الأدوار » : ألّفه صفي الدين في أواخر العهد العباسي (٦٥٠هـ؟ / ١٢٥٢م) وهو من أهم الكتب التي تبحث في علم الموسيقى العربية.

ـ « الرسالة الشرفية في علم النسب التأليفية، والأوزان الإيقاعية » : ألّفها في عهد المغول (٦٦٥هـ؟ / ١٢٦٧م) وقد صنفها الأرموي برسم خزانة تلميذه شرف الدين هارون الجويني الذي قتل عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م. واشتهرت هذه المخطوطة في أوربة بعد أن ترجمها كاملة إلى الفرنسية البارون ديرلانجيه (١٨٧٢-١٩٣٢) B. R. D'Erlanger ونشر ملخصاً عنها كارّا دو فو Carra de Vaux (المعاصر لديرلانجيه).

ـ « العروض والقوافي والبديع » : وهي مخطوطة لاتقل أهمية عن سابقتيها. وتحتفظ مكتبات عالمية كثيرة من أوربية وأمريكية وآسيوية وعربية بنسخ أصلية من هذه المخطوطات.

ـ « الكافي من الشافي »، و« الإيقاع » وهو كتاب في اللغة الفارسية. والمخطوطتان مفقودتان.

كما اخترع الأرموي آلتين موسيقيتين وتريتين [ر. الآلات الموسيقية] هما : « النزهة » من أسرة القانون[ر]، و« المغني » من أسرة العود.

ويقول المستشرق فارمر في كتابه عن المؤتمر الموسيقي الذي عقد في القاهرة عام ١٩٣٢ : « إن أوسع بحث وأتمه في نظريات الموسيقى العربية على مالدينا من وثائق، بعد بحوث ابن سينا [ر] (كتاب الشفاء) وابن زيلة [ر] « كتاب الكافي »، كان لموسيقي اسمه صفي الدين عبد المؤمن الذي كان في خدمة آخر الخلفاء العباسيين في بغداد، وكان له كتابان نفيسان هما : (الرسالة الشرفية)، و(الأدوار) الذي اتخذه كل مؤلف موسيقي بعده أساساً اعتمد عليه في أعماله ». وكان المستشرق الفرنسي الأب كولنجيت P.X.M.Collangettes، مندوب الوفد السوري اللبناني إلى مؤتمر القاهرة الآنف الذكر، قد أكد أن صفي الدين خالف الموسيقيين اليونانيين في نظرية السلم الموسيقي إذ قال : « إن الأرموي لم يرجع إلى المصادر الإغريقية والفارسية بل ادعى أن ماكتبه كان عربياً خالصاً، مع أنه لم يمنع تسرب المصطلحات الفارسية في جميع ماكتبه وخاصة في كلامه عن الأنغام. ومع أنه تحرر من سيطرة الإغريق فإنه وقع تحت تأثير الفرس». وأياً كانت عناصر الأسلوب المركب فإن تصنيفه الأخير يمثل بحق أصدق تعبير عن الفن الموسيقي العربي في القرن الثالث عشر الميلادي.

حسني الحريري

الموضوعات ذات الصلة :

الموسيقى العربية.

مراجع للاستزادة :

ـ صفي الدين عبد المؤمن الأرموي، كتاب الأدوار في الموسيقى، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة (منشورات الهيئة المصرية العامة للمكتبات، القاهرة ١٩٨٦).

ـ هـ . ج . فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة حسين نصار (مكتبة مصر بالفجالة ١٩٥٦).

■ الإرميتاج

يعد متحف الإرميتاج Ermitage في مدينة بطرسبرغ الروسية من أهم متاحف العالم التاريخية والفنية من حيث ضخامة مبانيه وغنى مجموعاته الثمينة والنادرة، وهو أحدث متحف كبير في أوربة، وقد افتتح بأمر من القيصر نيقولا الأول في ٧/٢/١٨٥٢ . ويفيد لفظ الإرميتاج المستعار من الفرنسية معنى الصومعة أو المَنْسَك الذي ينفرد فيه الإنسان بنفسه . وكان قد شيد إلى جانب القصر الشتوي للقياصرة ليتاح للامبراطورة كاترين الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٧) وحاشيتها اللجوء إليه في بعض الأيام سعياً إلى التحرر من ثقل ضغط تقاليد البلاط .

تتصف المباني الخمسة الضخمة التي تؤلف الإرميتاج بجمالها المعماري، وتطل واجهاتها الواسعة على نهر نيفا Neva مما يضفي الجمال على المكان . وتبدأ هذه المباني بالقصر الشتوي ويليه الإرميتاج الصغير فالإرميتاج القديم فمبنى المسرح فالإرميتاج الجديد . وقد أسهم في تشييدها كبار المهندسين المعماريين.

أنجز المهندس المعماري الإيطالي راستريلي Rastrelli (١٧٠٠ - ١٧٧١) بناء القصر الشتوي في مدة عشر سنوات (١٧٥٢-١٧٦٢) ليكون مقراً لقياصرة روسية، ويعد هذا القصر أهم مباني الإرميتاج من حيث ضخامته وجمال عمارته ونظام أعمدة واجهته وروعة منحوتات سقوفه ودوْر الظل والنور في واجهاته . وقد شب حريق فيه عام ١٨٣٧ دام ثلاثة أيام . وعهد فيما بعد إلى المهندس المعماري ستاسوف Stassove (١٧٦٩-١٨٤٨) القيام بعمليات الترميم وتشييد القصر من جديد،



جناح الفرسان في متحف الإرميتاج

وتم ذلك في مدة عامين.

وإلى جانب واجهة القصر الشتوي بدئ بتشييد مبنى الإرميتاج الصغير عام ١٧٦٤، وقد وضع مخططات هذا البناء يوري فيلتن Youri Velten (١٧٣٠-١٨٠١) وجان باتيست فالن دي لاموت Vallin de la Mothe (١٧٢٩-١٨٠٠). ويتصل جناحه الشمالي بالجناح الجنوبي برواقين. وتمكن المهندس شتاكنْشْنايْدر Stackensehneider (١٨٠٢-١٨٦٥) من تحقيق الجمال والانسجام في الطابق الأول من الجناح الشمالي، وزينت قاعته بأعمدة أنيقة ورشيقة من الرخام الأبيض الجميل، وفرش قسم من أرضيتها بالفسيفساء.

أما مبنى الإرميتاج القديم فقد شيد بين عامي ١٧٧١-١٧٨٧ لحفظ اللوحات الفنية وعرضها. وفي عام ١٧٨٣ تم وصل المبنى القديم بمبنى المسرح بقنطرة تعلو القناة الشتوية. وأما مبنى الإرميتاج الجديد فقد تم تشييده بين عامي ١٨٣٩ و ١٨٥٢ ليكون متحفاً وذلك اعتماداً على مشروع ليو فون كلينتزة Leo Von Klenze (١٧٨٤-١٨٦٤) وبمساعدة ستاسوف ونيقولاي يفيموف N. Efimov. وزين رواقه بتماثيل عشرة أطالس (جمع أطلس، وهي تماثيل ذكور تستعمل عُمداً أو دعامات حاملة للشرفات والأطاريف والأسقف المعمدة، والأطلس في الأساطير اليونانية هو الجبار الذي يحمل الكرة الأرضية على كتفيه). وقد نحتت هذه التماثيل من حجر الغرانيت وهي من إبداع الفنان النحات ألكسندر تريبْنيف A.Terebeniev (١٨١٥-١٨٥٩). وعرضت في ست وخمسين قاعة من المبنى لوحات فنية لكبار فناني روسية وأوربة الغربية، وأقام المهندس شتاكنشنايدر في الإرميتاج الجديد قاعة عرضت فيها لوحات الفنان ليونار دا فنتشي L. Da Vinci. واستخدم فيها الرخام واليشب والأخشاب النادرة والبرونز المذهب والأصداف وجعلت الأبواب بطراز الفنان التطبيقي بول Boule، وزين السقف وأعلى الجدران بلوحات جميلة.

وفي عام ١٧٨٣ شرع المعمار الإيطالي جياكومو كوارنغي Giacomo Quarenghi (١٧٤٤-١٨١٧) بتشييد مبنى مسرح الإرميتاج الذي يتصل بمبنى الإرميتاج بقنطرة، وانتهت عمارة واجهته عام ١٨٠٢، وكان كوارنغي قد بنى - على امتداد القناة - في عام ١٧٨٠ رواقاً مماثلاً لمبنى «اللوج» Loges الذي كان قد شيده المهندس برامانت Bramante في الفاتيكان، ويضم هذا المبنى مكتبة فنية ثمينة.

ويُعدّ عام ١٧٦٤ بداية تكوين مجموعات متحف الإرميتاج، عندما اشترت الامبراطورة كاترين الثانية من التاجر البرليني جوتسكوفسكي Gotzkowsky مجموعة مؤلفة من مئتين وخمس وعشرين لوحة فنية فلمنكية وهولندية كانت نواة هذا المتحف. ولكن مبنى هذا القصر بدا غير كاف لاستيعاب هذه الأعمال الفنية واقتضى الأمر تشييد المباني الجديدة في جواره. وقد ازدادت هذه المجموعة الفنية غنى بوساطة رجال السياسة الروس والمبعوثين الرسميين المكلفين القيام بمهمة الحصول على مزيد من هذه الأعمال. وفي عام ١٧٦٧-١٧٦٨ تمكن السفير الروسي في باريس من شراء عشر لوحات فنية قيّمة لأشهر الفنانين الأوربيين، كما تم شراء مجموعة أخرى من اللوحات من بروكسل وباريس. وازدادت محتويات الإرميتاج غنى بشراء مجموعة اللورد ولبول Walpole من إنكلترة عام ١٧٧٩، ومجموعات أخرى من كبار هواة اللوحات في أوربة.

واختارت الامبراطورة كاترين الثانية أجمل الأعمال الفنية من المجموعات الأخرى المشهورة، وتنافست مع الملك فريدريك الثاني في سبيل شراء تمثال ربة الصيد ديانا Diana الذي أبدعه الفنان النحات المشهور هودن Houdon (١٧٤١-١٨٢٨)، وكانت كاترين الثانية تستعين بعدد من أصحاب الذوق الفني والحس الجمالي مثل البارون غريم Grimm (١٧٢٣-١٨٠٧) في انتقاء اللوحات الفنية الثمينة.

وفي عام ١٨١٤ ازدادت مجموعات متحف الإرميتاج غنى بمجموعة من قصر ماليزون Malmaison الذي كان يعود للامبراطورة جوزفين (١٧٦٣-١٨١٤). ومنذ عام ١٨٢٠ بدأ القصر الشتوي يتلقى الآثار المكتشفة في المواقع الأثرية المختلفة. ويزداد غنى بالتماثيل والمنحوتات القديمة ومجموعات من الفن البيزنطي والأسلحة الأوربية. وشيد المبنى الجديد الملحق به خصيصاً ليكون متحفاً. وبعد ثورة تشرين الأول ١٩١٧، واستقرار السلطة السوفييتية، حُوّل القصر الشتوي وكل المباني الملحقة به إلى متحف، وأجريت عليه تعديلات لاستيعاب الأعداد المتزايدة من التحف والنفائس والآثار والأعمال الفنية التي جمعت من داخل البلاد وخارجها، وصنفت مقتنياته بحسب عصرها ونوعها ومادتها وجعلت مع الأعمال المتصلة بها في ثمانية أقسام يقع في مقدمتها من حيث الأهمية



متحف الإرميتاج في بطرسبرغ في روسية الاتحادية

الفنية خمسة هي: الحضارات البدائية، حضارات العالم القديم، حضارات الشرق القديمة، الحضارة الروسية (وفي القسم قاعة خاصة بحرب ١٨١٢)، الفن الأوربي الغربي. أما الأقسام الثلاثة الأخرى فهي قسم النقود والنميات، وقسم البحوث العلمية والتوعية الفنية، وقسم الترميم.

يضم قسم الحضارات البدائية آثاراً مختلفة تعود إلى العصور الحجرية والعصر البرونزي، والعصر الحديدي، إضافة إلى روائع الفن السكيثي Skythian art (وهو فن السكيثيين الذين ظهروا في شمال البحر الأسود في القرنين الثامن والسابع ق.م. وقضى عليهم القوط في القرن الثالث ق.م).

ويضم قسم حضارات العالم القديم أكثر من ١١٣,٠٠٠ قطعة من الفخار اليوناني القديم، والأحجار الكريمة المختلفة، والمنحوتات الرومانية، وروائع فنون المدن القديمة في شمال البحر الأسود، وروائع الفنون الإيطالية مثل إناء ريجينا Regina Vasorum وآثار حضارة رومة القديمة وفنها مثل تمثال أوكتاف أوغسطس، وتماثيل الأباطرة السوريين السيفيريين (من أسرة سيفيروس) والامبراطور فيليب العربي، إلى جانب منحوتات تمثل بعض أباطرة الرومان والربات الإغريقية والتحف البرونزية والزجاجية والحلي الذهبية والآثار المكتشفة قرب مدينتي كيرتش وسباستيبول وغيرها.

ويضم قسم حضارات الشرق القديم روائع الآثار المصرية القديمة من مجموعة كاستيليون Castiglion التي كانت أكاديمية العلوم قد اقتنتها، ومنسوجات قبطية مصرية قديمة مهمة جمعها بوك Bok في أعوام ١٨٨٨-١٨٩٩. وفي هذا القسم توجد التعرفة الجمركية التدمرية التي تعود إلى عام ١٣٢م وقد نقشت على كتلة حجرية ضخمة يبلغ ارتفاعها نحو خمسة أمتار ونقش النص فيها باللغتين التدمرية واليونانية، وتعد أهم وثيقة اقتصادية قديمة، وقد عثر عليها الأمير الأرمني الروسي سيمون لازاريف Lazarew أمام الساحة العامة في تدمر ونقلت في عام ١٩٠١ إلى متحف الإرميتاج. وفي هذا القسم آثار زجاجية من أهمها الأثر الزجاجي الذي أبدعه الفنان التطبيقي السوري إنيون في بداية العصر الروماني. وفي القسم كذلك المنحوتات الآشورية والأيقونات البيزنطية والخزف الإسلامي والتحف الإيرانية والآثار الهندية والصينية والمغولية واليابانية والإندونيسية وغيرها. ومن الآثار الأخرى المهمة في هذا القسم الحوض البرونزي الضخم الذي يبلغ قطره ٢,٤٥م ووزنه ٢٠٠٠كغ وكان تيمورلنك قد أهداه إلى جامع الخوجا أحمد العيسوي، وهو من صنع التبريزي (فنان إيراني)، ويعود إلى عام ١٣٩٩م، وكذلك مجموعة تربيعات من مسجد بيبي هانم، إحدى زوجات تيمورلنك، (وقد هدم الزلزال هذا المسجد الذي كان من روائع فن العمارة الإسلامية).

أما قسم الحضارة الروسية فلا يزيد عمره على نصف قرن، ولكنه يضم نحو ٢٠٠,٠٠٠ قطعة فنية مختلفة تتعلق بروسية القديمة منذ القرن السادس. فهناك قاعة بطرس الأول، وقاعة الرنوك ورواق الحرب الوطنية عام ١٨١٢، وقاعة العرش، وقاعة الحفلات الموسيقية وفيها قبر ألكسندر نيفسكي A.Nevski، وقاعة حضارة روسية الموسكوفية وتضم أيقونات مهمة مع أقدم المخطوطات والمطبوعات التي تعود إلى القرن السابع عشر، كما أن هناك قاعة عرضت فيها خارطة سيبيرية رسمها س. ريميزوف S.Remezov عام ١٦٩٨ بحسب الطريقة العربية التي تجعل جهة الجنوب في الأعلى.

وأما قسم الفن الأوربي فيؤلف اللبنة الأساسية الأولى التي واكبت تاسيس الإرميتاج، والقسم غني بنفائسه التي يزيد عددها على ٦٣٠,٠٠٠ تحفة فنية، وهو يضم أقدم أجنحة متحف الإرميتاج. وفي هذا القسم روائع الفنون التطبيقية والزخرفية من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر، وفيه الأسلحة الأوربية من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر، والأعمال الفنية الإيطالية من القرن الثالث عشر حتى القرن الثامن عشر، وأعمال من الفن الإسباني من القرن السادس عشر حتى القرن السابع عشر، والفن الهولندي من القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر، والفن الألماني من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين، وفيه تحف من الفن الإنكليزي من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر ومن الفن الفرنسي من القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين. وفي هذا القسم كذلك سجاد من صنع أوربي من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، ومجموعة من الأحجار الكريمة المنقوشة والخزف والحُلي. وفيه أيضاً مجموعات من أعمال الفنانين الأوربيين مثل دافنشي ورفائيلو وميكيلانجلو وتيتسيانو ورامبرنت وفيلاكسيز، كما أن فيه مجموعات من لوحات الفن المعاصر ذات أهمية فنية عظيمة.

والواقع أن متحف الإرميتاج يُعدّ من أهم متاحف العالم وأكثرها غنى إذ يضم مايزيد على مليونين ونصف مليون تحفة فنية من لوحات تصويرية وتماثيل وقطع أثرية ومسكوكات وميداليات وغير ذلك من الأعمال الفنية الرائعة، وتشغل معروضات المتحف ٣٥٠ قاعة. وكان الاطلاع على موجودات هذا المتحف، في مطلع تكوينه، مقتصراً على الامبراطورة كاترين الثانية وبعض أفراد حاشيتها وضيوفها المرموقين، حتى إنها كتبت ذات يوم إلى صديقها البارون غريم تقول: «إن كل هذه النفائس لا يتمتع بها إلا أنا والفئران». ولكن هذا المتحف غدا حديثاً يستقبل في العام نحو ثلاثة ملايين ونصف المليون من الزائرين، وغدت تقام فيه أعمال علمية وتعليمية وتعقد فيه المؤتمرات العلمية والثقافية والفنية المتعددة، وغدا ينظم بعثات آثار للتنقيب والاستكشاف ويصدر الكتب العلمية والمصورات وكتب «الدليل» وغير ذلك، وينظم المعارض في الخارج لبعض محتوياته.

بشير زهدي

الموضوعات ذات الصلة:

روسية.

مراجع للاستزادة:

. O. PARSINOVA, L'Ermitage: Guide, traduction de L.Butkiewicz, ed' d'Art Aurore (Leningrad 1922).

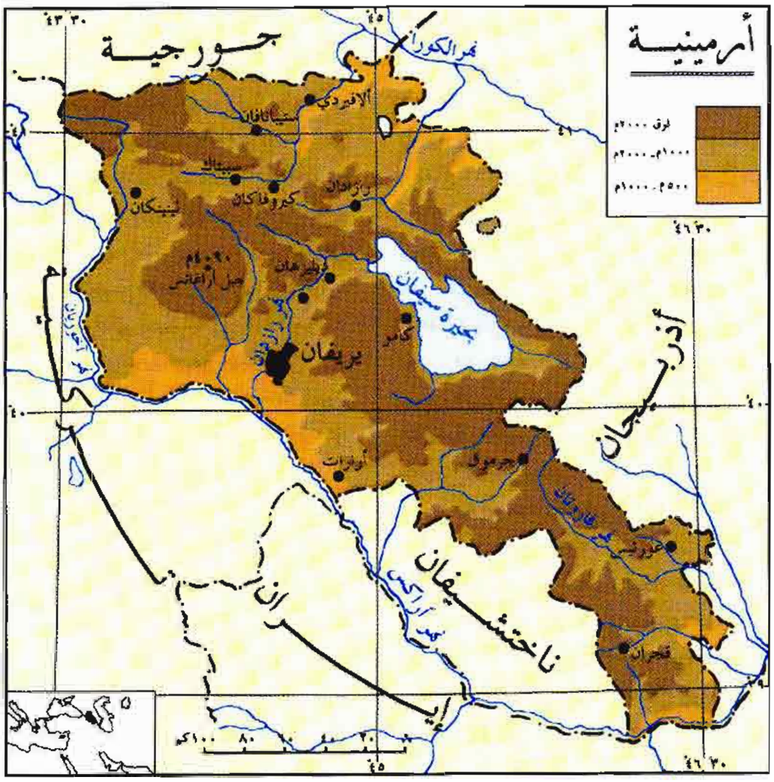
. Musée de L'Ermitage: Guide Aurora, ed. d'Art Aurora (Leningrad 1983).

■ أرمينية (جمهورية -)

جمهورية أرمينية Armenia بحدودها الحالية جزء من أرمينية القديمة التاريخية التي كانت تشغل في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي مساحة تزيد على ثلاثة أضعاف ما تشغله اليوم. والجزء الأكبر من أراضي أرمينية التاريخية يقع اليوم في تركية وثمة جزء آخر في إيران.

ويرتبط تاريخ أرمينية بتاريخ الأرمن [ر] الذي يبدأ في القرن السابع قبل الميلاد.

وقد رسمت الحدود الحالية لأرمينية في ٢٩ تشرين الأول عام ١٩٢٠. وضمت في ٢٠ كانون الأول من عام ١٩٢٠م إلى الاتحاد السوفييتي (سابقاً) ضمن اتحاد جمهوريات ما وراء القفقاس الاشتراكية السوفييتية (أذربيجان وجورجية وأرمينية)، وفي الخامس من كانون الأول عام ١٩٢٦ زالت وحدة القفقاس السياسية وأصبحت أرمينية واحدة من الجمهوريات الخمس عشرة التي تألف منها الاتحاد السوفييتي. وبعد تفكك الاتحاد السوفييتي حديثاً إلى جمهوريات مستقلة رسمياً في ٢٥ كانون الأول عام ١٩٩١ صارت أرمينية جمهورية مستقلة. وكانت أعلنت سيادتها على أراضيها في ٢٣ آب ١٩٩٠، وتم التصديق على استقلالها بعد استفتاء عام في ٢١ أيلول ١٩٩١.



الجغرافية الطبيعية

الموقع والامتداد: تقع جمهورية أرمينية جنوب سلسلة جبال القفقاس الكبرى في إقليم ماوراء القفقاس الآسيوي، في الطرف الشرقي من الهضبة الأرمينية، وهي جمهورية صغيرة المساحة (٢٩٨٠٠ كم^2). تمتد بين خطي عرض ٣٨ درجة و٥٢ دقيقة، و٤١ درجة و١٨ دقيقة شمالاً، وبين خطي طول ٤٣ درجة و٣١ دقيقة، و٤٦ درجة و٣٧ دقيقة شرق غرينتش. يحدها من الشمال جمهورية جورجية ومن الشرق جمهورية أذربيجان [ر]، ومن الجنوب الشرقي جمهورية إيران الإسلامية، ومن الجنوب إقليم ناختشفان الأذري، ومن الجنوب الغربي تركية. ويؤلف نهر أراكس جزءاً من حدود أرمينية مع تركية.

وتمتد الأراضي الأرمينية الحالية متطاولة من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي بطول يقارب ٤٢٠ كم، ويبلغ أقصى اتساع لها نحو ١٧٠ كم في جزئها الشمالي الغربي، ويقل اتساعها في الجنوب الشرقي.

التضاريس: تتنوع المظاهر الطبيعية في أرمينية تنوعاً كبيراً لشدة تضرس أرضها وتباين مناخها، واختلاف غطائها النباتي. ويمكن القول إن أرمينية دولة جبلية حبيسة متنوعة المظاهر التضاريسية. وهي في الأصل هضبة مرتفعة تقطعها الأودية والوهاد العميقة إلى كتل وسلاسل جبلية تبدو حادة في بعض امتداداتها. وفي الهضبة أعداد كبيرة من المخاريط البركانية، كما تغطي الصبات البركانية مساحات كبيرة من أراضيها. وأرمينية إحدى الدول ذات البنية الجيولوجية غير المستقرة تماماً في النطاق الألبي - الهيمالائي، يشهد على ذلك الزلزال الذي ضرب أراضيها في يوم ٧ كانون الأول عام ١٩٨٨ وذهب ضحيته أكثر من ٥٥٠٠٠ نسمة.

أما المعدل العام لارتفاع أراضي أرمينية فوق سطح البحر فيبلغ نحو ١٨٠٠م. وهي تخلو عموماً من الأراضي المنخفضة، ذلك أن قرابة نصف أراضيها يقع على ارتفاع يراوح بين ١٠٠٠ و٢٠٠٠م، و١٠٪ فقط من أراضيها يقع دون ١٠٠٠م، وما تبقى جبال عالية يزيد ارتفاعها على ٢٠٠٠م فوق سطح البحر. وتتدرج أرضها في الانخفاض من الشمال الغربي باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي والشرق. وتوجد أعلى القمم الجبلية في الجزء الشمالي الغربي من البلاد حيث يقع جبل أراغاتس (٤٠٩٥م). وإلى الشمال والشرق من جبال أراغاتس تمتد سلاسل جبال بازوم، وبامباك، وإلى الشرق والجنوب الشرقي جبال سيفان، وفاردنيس وزانغيزور المتفرعة من جبال القفقاس الصغرى الممتدة في القطاع الشمالي من أرمينية. ويضم هذا الجزء من البلاد الكثير من الهضاب البركانية المرتفعة (لوري، شيراك، وغيرها) التي تقطعها الأودية النهرية العميقة.

وفي الجزء الشرقي الأوسط من أرمينية يقع منخفض سيفان الذي يحتوي على بحيرة سيفان، وتمتد فيه عدة سلاسل جبلية بارتفاع متوسط يقارب ١٩٠٠م، وأقصى ارتفاع فيها ٣٩٠٠م. وفي الجنوب الغربي يمتد منخفض كبير يؤلف مايعرف باسم سهل آرارات وذلك عند مقدمات جبل أراغاتس وسلسلة غيغام. ويقطع نهر أراكس هذا السهل المهم في منتصفه تاركاً نصفه الشمالي في الأراضي الأرمينية ونصفه الجنوبي في تركية وإيران.

المناخ: المناخ شبه مداري، وقاري جاف بارد نسبياً. صيفه دافئ عموماً؛ فمعدل درجة الحرارة في الأجزاء السهلية في المدة من حزيران إلى آب ٢٥ درجة مئوية، وتصل درجة الحرارة العظمى المطلقة أحياناً إلى ٤٢ درجة مئوية. أما في الأراضي المرتفعة فلا يتجاوز معدل حرارة الصيف ٢٠ درجة مئوية، ونادراً ماتبلغ الحرارة المطلقة ٣٥درجة مئوية. والشتاء بارد عموماً حتى في السهل، حيث يبلغ معدل الحرارة في شهر كانون الثاني في الأراضي السهلية والتلية نحو -٥ درجات مئوية وينخفض في الجبال إلى -١٢ درجة مئوية. وكثيراً ما تسبب دفقات الهواء القطبية الشمالية انخفاضاً في درجة الحرارة يصل حتى -٣٠درجة مئوية، وأدنى درجة حرارة سجلت هنا في هذا القرن هي -٤٦ درجة مئوية.

وتمنع سلاسل القفقاس الصغرى الكتل الهوائية الرطبة من بلوغ المناطق الداخلية، مما يترتب عليه تفاوت كبير في كمية الامطار الهاطلة؛ ففي حين تصل كمية الأمطار السنوية إلى ٨٠٠م فوق السفوح الجبلية المواجهة للرياح الرطبة، فإنها تتدنى إلى نحو ٢٠٠ - ٤٠٠م في السهول والاراضي التلية الداخلية المحجوبة عن الرياح الرطبة.

ويختلف المناخ اختلافاً ملحوظاً مع الارتفاع متحولاً من النموذج شبه المداري القاري والجاف في الأراضي المنخفضة حتى ارتفاع ١٠٠٠م تقريباً إلى نموذج بارد فوق ارتفاع ٢٠٠٠م لينتهي بنموذج التندرة في الارتفاعات العالية.

المياه: الانهار كثيرة في أرمينية، لكنها قصيرة، ومضطربة الجريان لاحتوائها على الكثير من المسارع والمساقط المائية. ويرتفع منسوب المياه عندما يذوب الثلج في الربيع وفي موسم الامطار الخريفية. ونتيجة للتباين الكبير في الارتفاع على طول المجاري المائية، تؤلف بعض الأنهار مصدراً لتوليد الطاقة الكهربائية.

وتتجه معظم الانهار نحو الجنوب مصرفة مياهها إلى نهر أراكس الذي يرفد نهر كورا الذي يصب في بحر الخزر [ر]. ويبلغ طول نهر أراكس نحو ٤٦٠كم، ويتلقى على طول واديه الكثير من الروافد منها: نهر أخوريان (٢١٠كم) ورازدان (١٤٠كم) وآربا (١٢٥كم) وبارجوشات (١٨٠كم). وتسهم هذه الأنهار في ري معظم أراضي أرمينية الزراعية. ومن الانهار التي تنبع من أرمينية وتتجه نحو الشمال والشمال الشرقي لترفد نهر كورا مباشرة: نهر ديبت (٩٠كم) وأكشتف (١٢٥كم) وغيرهما.

ومن أهم البحيرات؛ بحيرة سيفان الواقعة على ارتفاع ١٨٩٩م والمحاطة بكثير من البراكين الخامدة، وتشغل البحيرة مساحة ١٤٠٠كم^2، وتخزن أكثر من ٣٩ كيلو متراً مكعباً من المياه التي تقدمها مجموعة الأنهار (نحو ٢٨ نهراً) المنتهية إليها. ويخرج من الطرف الغربي للبحيرة نهر رازدان متجهاً نحو الجنوب إلى نهر أراكس.

وتزخر أرمينية باعداد كبيرة من الينابيع المائية التي لمياه بعضها صفات كيمياوية، إذ إن هناك نحو ٢٠٠ينبوع معدني مهم، أكثرها في منطقتي أرذني ودزهيرموك، تعبأ مياهها في زجاجات وتصدر إلى خارج البلاد.

النبيت والوحيش: تؤلف أرمينية منطقة تلاقي مناطق حيوية مختلفة، مما ادى إلى وجود تنوع كبير في المظاهر الحيوية في بلد صغير كارمينية، فهي تحتوي على أكثر من ٣٠٠٠ نوع من النبات. وتقسم اراضيها إلى خمس مناطق حيوية بحسب الارتفاع هي؛ المنطقة الشبه الصحراوية والمنطقة السهبية والمنطقة الغابية والمنطقة الالبية، ومنطقة التندرة.

تغلب المظاهر شبه الصحراوية في الجزء السهلي المنخفض وحتى ارتفاع ١٤٠٠م تقريباً. ونباتات هذه المنطقة قليلة ومقاومة للجفاف (الدفران، الخوخ البري، الياسمين البري، والورد البري)، ومن حيواناتها: الخنزير البري والقط البري وابن آوى، والأفعى والعقرب، والنمر الأرقط نادراً.

ويغلب السهب على المنطقة شبه الصحراوية حتى ارتفاع ٢٠٠٠م شمالاً و٢٦٠٠م جنوباً، وفي الأجزاء الواطئة من السهب حشائش مقاومة للجفاف، في حين تنمو الشجيرات الشوكية والدفران فوق السفوح الجبلية المرتفعة نسبياً. وتكاد المنطقة الغابية أن تنحصر في الجنوب الشرقي من أرمينية بين ارتفاع ١٨٠٠ و٢١٠٠م حيث الجو الرطب، وفي المنطقة الشمالية الغربية بين ارتفاع ٢٤٠٠ و٢٦٠٠م. وتشغل الغابات نحو ١٠٪ من مساحة البلاد وتغلب أشجار الزان على غابات الشمال الشرقي، وغابات البلوط في المنطقة الجنوبية الشرقية الاكثر جفافاً. ومن حيوانات الغابة: الدب السوري والقط البري والوشق والسنجاب. ومن الطيور: الديك البري وأبو الحن والقرقف والدخنة (العصفور المغني) والنقار.

وتغلب في المنطقة الالبية (فوق ارتفاع ٢٢٠٠م) الحشائش القصيرة. وتكثر الطيور (الدندي، القنبرة القرنية، والنسر الملتحي). كما يوجد الماعز الجبلي والغنم البري. واخيراً فإن التندره الالبية مع نباتاتها الوسادية القليلة تغلب في مناطق جبلية محددة وقمم منفردة هي الاكثر ارتفاعاً في البلاد ولا سيما في الشمال الغربي منها.

السكان

الأصول والصفات: يؤلف السكان الأرمن نحو ٨٨٪ من سكان الجمهورية، وهم ينتمون إلى المجموعة البشرية الآرية (الهندية الأوربية). وكان الارمن في السابق يعيشون في البلقان، ثم استوطنوا آسيا الصغرى في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وقبل انهيار امبراطورية الحثيين، وفي نحو ٦٧٥ق.م هاجر فريق منهم إلى أرمينية الحالية واندمجوا بالاقوام التي سبقتهم إليها. وإلى جانب الأرمن يوجد اليوم في جمهورية أرمينية مجموعات بشرية أخرى تؤلف أقليات فيها؛ كالأذربيجانيين الذين يؤلفون نسبة ٦,١٪ من مجموع السكان، والروس ٣,٢٪، والاكراد ١,٥٪ ومعهم أعداد قليلة من الأوكرانيين والجورجيين والاتراك والفرس والآشوريين وغيرهم.

كان الأرمن قبل أوائل هذا القرن يتوزعون في كامل الهضبة الارمينية وبعض المناطق المجاورة، التي كانت خاضعة للحكمين العثماني والفارسي. وقد أسفرت الحرب الروسية مع الفرس والعثمانيين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين عن هجرة أعداد كبيرة من الأرمن من بلاد الفرس والأتراك إلى مقاطعات القفقاس من الامبراطورية الروسية وإلى روسية نفسها (يريفان وتفليس وقاراباغ وشاماخي واستراخان وبسارابية). كما أدت المذابح التركية - الأرمنية في عام ١٩١٥ في تركية إلى وقوع ضحايا كثيرين من الارمن ونزوح أعداد كبيرة منهم إلى الاراضي الروسية وإلى أقطار أخرى مجاورة لتركية ومنها سورية وحدثت هجرة ثانية للأرمن في عام ١٩٢١ إلى سورية ولبنان وغيرهما.

ويتصف الأرمن بالقامة المتوسطة القصيرة والبنية النحيفة والرأس العريض، والوجه المستطيل

الشكل الضيق العرض، والأنف الدقيق المحدودب قليلاً، والجبهة المتوسطة العرض والمحدبة، والذقن غير البارزة، ولون البشرة السمراء الفاتحة، كالأبيض الذي لوحته الشمس، والشعر الداكن المتموج الأجعد والكثيف.

الاتجاه الديموغرافي: لم يكن عدد السكان الذين يعيشون في الحدود الحالية لأرمينية يزيد على ١٦٠٠٠٠ نسمة في الربع الأول من القرن التاسع عشر. وفي عام ١٩٢٠ بلغ عدد سكان أرمينية ٧٨٠٠٠٠ نسمة، وارتفع عددهم إلى ١,٢٨٢,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٣٩، وإلى نحو ١,٦ مليون نسمة عام ١٩٥٦ وإلى ١,٧٦٣,٠٠٠ نسمة عام ١٩٥٩ وإلى ٢,٤٩٣,٠٠٠ نسمة عام ١٩٧٠، وبلغ ٣,٧٦٠,٠٠٠ نسمة في عام ١٩٩٥.

ويعزى تضاعف السكان في ٥٠ سنة مضت إلى الزيادة الطبيعية المرتفعة، وإلى عودة أكثر من ٢٢٠٠٠٠ أرمني إلى أرمينية من أقطار كانوا قد هاجروا إليها، ولا سيما منطقة الشرق الأوسط.

واللغة الأرمنية هي اللغة الرسمية في الجمهورية، إلى جانب معرفة السكان باللغة الروسية. ويعتنق الأرمن الديانة النصرانية، ولهم كنيستهم الخاصة.

توزع السكان: تعد أرمينية من الدول ذات الكثافة السكانية المرتفعة على الرغم من ظروفها الطبيعية القاسية نسبياً. فمعدل الكثافة العامة يقارب ١٢٦ن/كم². وتوجد أعلى كثافة سكانية في سهل آرارات الذي تصل فيه إلى نحو ٤٢٥ن/كم٢، تليه الأودية النهرية في الجنوب الشرقي والشمال الشرقي. وبوجه عام فإن نصف سكان الجمهورية يعيشون في الجزء الذي يقل فيه الارتفاع عن ١٠٠٠م، ويؤلف نسبة ١٠٪ من مساحتها. ويعيش نحو ٤٠٪ من السكان في المناطق المتوسطة الارتفاع (١٠٠٠ حتى ١٧٥٠م) بكثافة وسطى تقارب ٦٢ن/كم². ويقل السكان فوق الجبال العالية، فلا تزيد نسبة من يعيشون بين سويتي ارتفاع ١٧٥٠ و٢٥٠٠م على ٥٪ من السكان.

والظاهرة التي تسترعي الانتباه في توزع السكان هي تزايد نسبة قاطني المدن تزايداً ملحوظاً في القرن العشرين، ولا سيما منذ بداية العشرينات. فقد ارتفعت نسبة سكان المدن من ١٩٪ عام ١٩٢٦، إلى ٤٤٪ عام ١٩٥١ و٦٢٪ عام ١٩٧٤، ثم إلى ٦٩٪ في عام ١٩٩٥.

وتضم أرمينية اليوم نحو ٢٣ مدينة و٣٣ بلدة. ومعظم التجمعات المدنية تتركز في سهل آرارات وفي وادي رازدان. ومن أكبر المدن مدينة يريفان (عاصمة الجمهورية) التي بلغ عدد سكانها ١,٣٠٠,٠٠٠ نسمة عام ١٩٩٥. تليها مدينة كوماجري (لينينكان) (١٨٠,٠٠٠) وهي مركز صناعي مهم، ومدينة كيروفاكان (١٥٩,٠٠٠ نسمة). ومن المراكز العمرانية الحضرية الصغيرة: كافان، وايتشميازين، وألافيردي، ورازدان.

الاقتصاد

أثرت التحولات الاشتراكية في العقود السبعة المنصرمة في البنية الاقتصادية للبلاد. فبعد أن كانت الصناعة لا تسهم إلا بنحو ١٤٪ من الدخل الوطني في العشرينات من القرن العشرين ارتفعت نسبتها إلى ٣٥٪ في عام ١٩٩٥. وفي المدة نفسها تضاعف مردود الزراعة أربع مرات ونصف، في حين تضاعف مردود الصناعة نحو ١٨٠ ضعفاً.

التعدين والصناعة: تفتقر أرمينية إلى موارد الطاقة الحرارية (نفط، فحم، غاز طبيعي) إلا أنها غنية بموارد الطاقة الكهرمائية وأهمها بحيرة سيفان ونهر رازدان المنبثق منها والذي أقيمت عليه عدة محطات لتوليد الطاقة تنتج نحو ٥٥٧٠٠٠ كيلو واط ساعي. وهناك محطة نووية ضخمة لتوليد الطاقة الكهربائية في المدينة الجديدة ميتسامور، وعدد من المحطات الكهرحرارية التي تعتمد على المازوت والغاز الطبيعي المستوردين. كما أن أرمينية تفتقر إلى الحديد، لكنها غنية ببعض المعادن الفلزية الأخرى ولا سيما النحاس الذي يستخرج من منطقة ألافيردي، وكميات قليلة من البوكسيت والزنك والرصاص والموليبديوم والكروميت. كما تحتوي أراضيها على أنواع مختلفة من حجارة البناء والرخام وأحجار الزينة، والأحجار نصف الكريمة التي تصدر إلى خارج البلاد، وخاصة إلى روسية.

تتنوع الصناعات في أرمينية من الصناعات الهندسية والكهربائية والميكانيكية والكيمياوية إلى الصناعات النسيجية والغذائية. تتركز الصناعة الهندسية والميكانيكية في مدن يريفان ولينينكان وكيروفاكان. وتتركز الصناعات الكيمياوية في مدن يريفان وكيروفاكان وألافيردي. وتشتهر أرمينية بصناعة المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية وصناعة الملبوسات والسجاد والجوارب ولا سيما في مدينة لينينكان. وتنتج أرمينية أنواعاً مختلفة من المنتجات الغذائية التي تصدر قسماً منها، وأهمها اللحم المحفوظ والمعلب، والفواكه والخضر المعلبة، والخمور، إضافة إلى الألبان ومشتقاتها ولا سيما الزبد والجبن. وتعد مدينة يريفان أهم مركز صناعي في البلاد فهي تقدم نحو ثلاثة أخماس الإنتاج الصناعي الأرمني، وتردفها مراكز صناعية أخرى مهمة في لينينكان وكيروفاكان.

الزراعة: تسهم الزراعة بنحو ٢٦٪ من الدخل الوطني. ويعمل فيها نحو نصف السكان. ويفيض الإنتاج الزراعي لبعض المحاصيل عن الاستهلاك المحلي فيصنع أو يصدر إلى الخارج. وقبل استقلال أرمينية حديثاً (١٩٩١) كانت الزراعة ذات طبيعة حكومية وجماعية تعاونية، فقد كان في أرمينية في منتصف السبعينات نحو ٣٧٦ مزرعة حكومية (سوفخوز) ونحو ٣٣٨ مزرعة جماعية تعاونية (كولخوز)، وقد تغيرت بعد الاستقلال بنية الزراعة بتحول الاقتصاد إلى الاقتصاد الحر.

إن أهم مشكلة تعاني منها الزراعة الأرمنية هي قلة الأراضي الزراعية التي لاتشغل سوى ٢٠٪ من إجمالي المساحة، في حين تشغل أراضي المراعي والمروج نسبة ٢٨٪. وأهم المناطق الزراعية سهل آرارات وهضبة سيراك والأجزاء الجنوبية من حوض سيفان. وأكثر من نصف الأراضي الزراعية يعتمد على الري. أما أهم الحاصلات الزراعية فهي القطن والشوندر السكري والحبوب والتبغ والبطاطا، وكذلك العنب الذي تنتج منه نحو ٩٠ صنفاً، والتفاح والدراق والمشمش والكمثرى والكرز. كما تربى الأبقار بكثرة، والخيول والخنازير والدواجن والنحل.

طرق المواصلات: في أرمينية نحو ٧٥٥كم من الخطوط الحديدية، منها الخط الرئيسي الذي يربط يريفان ولينينكان مع تفليس (جورجية) في الشمال وباكو (أذربيجان) في الشرق، وتتفرع منه عدة خطوط نحو المناطق الشمالية والغربية والجنوبية من البلاد. أما شبكة طرق السيارات فهي أشد كثافة وتربط معظم أجزاء البلاد ويبلغ طولها نحو ٩٠٠٠كم. وفي مدينة يريفان مطار دولي مهم يربطها مع الكثير من المدن الأرمنية والدول المجاورة لأرمينية بخطوط جوية ذات رحلات منتظمة تزداد أهميته يوماً بعد يوم. كما ترتبط أرمينية مع أذربيجان

وجورجية بخطوط نقل للغاز الطبيعي.

المظاهر الحضارية والثقافة

أدت إلزامية التعليم إلى ارتفاع نسبة المتعلمين التي قاربت ٩٩٪ من مجموع السكان. وكان عدد المدارس منذ منتصف السبعينات يزيد على ١٦٠٠ مدرسة ابتدائية وثانوية ضمت نحو ٧٠٠٠٠٠ تلميذ، إضافة إلى ٥٠ مدرسة تجارية (٣٠٠٠٠ طالب) و٦٤ مدرسة ثانوية فنية (٥١٠٠٠ طالب) و١٢ كلية ومعهداً علمياً (نحو ٥٢٨٠٠ دارس). وفي يريفان جامعة كبيرة، وكثير من المعاهد العلمية والمؤسسات الثقافية، إضافة إلى أكاديمية العلوم الأرمنية.

وفي أرمينية ما يزيد على ١٣٠٠ مكتبة عامة، إلى جانب المكتبة الحكومية العامة، ودار المخطوطات في يريفان تضم نحو ١٠٠٠٠ مخطوطة أرمنية وهناك نحو ١٢٠٠ نادٍ، و٣٥ متحفاً من بينها متحف التاريخ الأرمني الحكومي.

كانت الآداب الأرمنية [ر. الأرمن] في الماضي تقتصر على أشعار وأغان شعبية متوارثة، ثم بدأت تتطور بجهود الأسقف مسروب في القرن الرابع الميلادي الذي ينسب إليه فضل وضع ألفبائية اللغة الأرمنية، وقد تطورت هذه الألفبائية في القرن الثامن عشر على أيدي الآباء «الميخيتاريست». كما أسهم «كاتشوجوايوفيان» في تبسيط استخدام اللغة الأرمنية علمياً وأدبياً وتعليمياً. وبذا أخذت تظهر الروائع الأدبية الأرمنية إلى حيز الوجود ومن جملتها رائعة «جراحات أرمينية» The Wounds of Armenia التي وضعها خاتشور أبوفيان (١٨٠٥ - ١٨٤٨م). كما برزت إسهامات الأدباء الأرمن في شتى أنواع الأدب، واشتهر منهم في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين غريغور زهراب في مجال القصة القصيرة، وهاكوب باونيان في الرواية والمسرح، وإيرفاند أونيان في الرواية. وكذلك الكاتب الشهير «هاكوب مليك ـ أغوبيان» الذي عرف باسم رافي، وغابريل سونيدوكيان مؤلف الروايات التمثيلية.

والموسيقى الأرمنية [ر. الأرمن]، وهي ذات ألحان دينية في معظمها، ظهرت في القرن الرابع مع انتشار المسيحية، وتتجلى اليوم في الأناشيد الروحية المسماة (ستاراكان) إلى جانب الموسيقى العصرية المتطورة التي تذكر بالفلكلور الأرمني القديم. ومن أبرز المؤلفين والملحنين الموسيقيين آرام كانتوريان وأرنوبويادجيان.

وفي مجال الصحة، بلغ عدد المشافي في منتصف السبعينات ٢٣٠ مشفى، تحتوي على نحو ٢٤٠٠٠ سرير، إضافة إلى نحو ٥٠٠ مستوصف. ولكل ٣٠٠ شخص في أرمينية طبيب واحد. وفي مجال الإعلام بدأ البث الإذاعي في أرمينية عام ١٩٢٦، والبث التلفزيوني عام ١٩٥٦، وتصدر فيها صحف يومية ومجلات أسبوعية ودوريات منوعة.

وأرمينية اليوم جمهورية ديمقراطية مستقلة. ومن أبرز المشاكل التي تعيشها نزاعها مع أذربيجان على إقليم ناغورني كاراباخ (قره باغ) الذي يقع في جمهورية أذربيجان وتقطنه غالبية أرمنية، ولكل من الجمهوريتين الأذربيجانية والأرمنية جيوب في داخل أراضي الجمهورية الأخرى.

علي موسى

الموضوعات ذات الصلة:

الاتحاد السوفييتي. الأرمن.

مراجع للاستزادة:

- بول أميل، تاريخ أرمينية، ترجمة شكري علاوي (دار مكتبة الحياة، بيروت).
- جغرافية الاتحاد السوفييتي الاقتصادية (موسكو ١٩٨٣).

■ آرن (توماس أوغستين ـ) (١٧١٠ - ١٧٧٨)

توماس أوغستين آرن Thomas Augustine Arne مؤلف موسيقي إنكليزي ولد في لندن وتوفي فيها، ويعد في مقدمة الموسيقيين الإنكليز في عصره. درس الموسيقى خفية عن والده الذي كان يعمل منجد أثاث، والذي كان يود أن يكون ابنه محامياً. وكان توماس يتدرب سراً وليلاً على آلتي الكمان و«السبينتا» spinet [ر. الآلات الموسيقية]. وكان يستعمل كاتماً للصوت كي لا يُسمع عزفه خارج غرفته.

ظهر آرن موسيقياً بعد أن كان هندل G.F.Händel قد استقر في إنكلترة، وكان من الصعب عليه التفوق على هذا الأخير ذي الصيت الباهر. ومع أن موسيقاه كانت عفوية وأصيلة وحديثة، فقد عانى آرن من مزاحمة هندل والكثير من الموسيقيين الإيطاليين المعاصرين المقيمين في إنكلترة. ومع ذلك فقد استطاع أن يكسب تدريجياً ثقة الجمهور.

اهتم آرن بتأليف الأوبرا، وتابع مسيرة الأوبرا الإنكليزية الاتباعية بعد بورسيل H.Purcell. وتدين شهرته إلى الأغنية الوطنية «بريطانية»، وترد في نهاية مؤلفته من نوع الماسْك masque وعنوانها «ألفرد» Alfred، التي قدمت أول مرة عام ١٧٤٠ بحضور فريدريك أمير ويلز، (والماسك هي مشاهد موسيقية غنائية مسرحية أسطورية أو هازلة أحياناً اشتهرت في إنكلترة في القرنين السادس عشر والسابع عشر). وقد استعار كل من هندل وفاغنر R.Wagner وبتهوفن Beethoven وغيرهم بعضاً من مقاطع هذه الأغنية في مؤلفاتهم الموسيقية. وكان آرن هو الأول الذي أدخل الصوت النسائي في الجوقة الغنائية للأوراتوريو oratorio [ر. الإنشاد الديني] كما في «جوديث» Judith. وفي عام ١٧٥٩ نال آرن درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد.

ألف آرن ما ينوف على خمسين أوبرا وماسك، والكثير من الكانتاتا cantata والسوناتا للبيانو وللكمان وللهاربسيكورد harpsichord [ر. البيانو]، وثماني افتتاحيات overture للأوركسترا، وعدداً من الحواريات (الكونشرتو concerto) منها للكلافسان clavecin [ر. البيانو] ومنها للأرغن، واثنتين من الأوراتوريو هما: «مقتل هابيل» و«جوديث». وألف كذلك خمسة وعشرين كتاباً للأغاني، وعدداً من القطع الموسيقية الدينية.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الآلات الموسيقية ـ الأوبرا ـ الغناء ـ الموسيقى.

مراجع للاستزادة:

-Larousse de La Musique (Librairie Larousse, Paris 1982).
-PERCY A. SCHOLES, The Oxford Companion to Music (London 1986).

■ الأرناؤوط ← ألبانية

■ الأرناؤوط (عبد القادر ـ)
(١٩٣٦-١٩٩٢)

مصور تشكيلي ومزخرف، سوري من أسرة ألبانية الأصل، ولد في دمشق وتوفي فيها.

كانت أسرته محدودة الموارد المالية مما دعاه إلى خوض غمار الحياة العملية بعد إتمامه دراسته الثانوية في دمشق، فعمل موظفاً في مديرية الإحصاء والتخطيط ووزارة الثقافة.

بدأ عبد القادر حياته الفنية في سن مبكرة، وكان عام ١٩٥٤ بداية لنشاطه الفني في مجال الفن التشكيلي، وكان للقاءاته بعدد من فناني سورية البارزين في ذلك الحين، ودراسة أعمال عمالقة الفن العالمي، أثر في تطلعاته المستقبلية وصقل تجاربه الفنية في مختلف اتجاهات الفن التشكيلي.

نال عبد القادر منحة لدراسة الفنون التشكيلية في رومة وحصل من أكاديمية الفنون فيها عام ١٩٦٥ على شهادة في الزخرفة décor، وقد عاش مدة دراسته هذه تجربة حافلة بمطالعة الأساليب الفنية الجديدة والدراسات الكثيرة حولها، وكانت التجربة شديدة التأثير في إبداعه وسعيه وراء الوصول إلى التعبير عما كان يسميه بالأساليب الفنية التشكيلية المتجددة. وتعززت تجاربه الفنية ونضجت بعد أن تابع الدراسة نفسها في المدرسة الوطنية العليا للفنون الزخرفية في باريس. ونال شهادة هذه المدرسة عام ١٩٧٣ . وقد بدأ عبد القادر في مرحلة نضجه يدرك أن على الفنان أن يقدم ماهو أعمق من رسم اللوحة بالأساليب المألوفة لدى الفنانين التقليديين، فاتجه إلى الفن التشكيلي الحديث، وكاد ينقطع عن الرسم بالخطوط وحدها، معتمداً في نظرته الجديدة على السطوح والألوان بالدرجة الأولى. وكان يحلم في أن يصل إلى عالم أكثر توازناً ورهافة من عالمنا على الرغم من حجم الآلام والأحزان الإنسانية، وكان يتساءل: «ما الذي يميّز الفنان من الملايين الذين يولدون ويموتون ..؟؟ إن ما يميزه هو أن يقدم شيئاً مبتكراً يُغني مسيرة الإنسانية الحضارية..إنني أبحث عن نوع من الجمال، يبهج العالم ويسعده ..وقد لايحتاج عالمنا هذا إلى كل عملي».

وقد ألغى عبد القادر البعد الثالث، وصاغ اللوحة التشكيلية من بعدين، ودمج المقدمة بالخلفية مؤكداً التحليل الزخرفي لمختلف الموجودات. برز هذا المفهوم الجديد عنده في المرحلة التي تلت دراسته في باريس، إذ قدم اللغة الفنية الخاصة به مقتبساً جذورها اللونية والشكلية من التراث العربي، مبتعداً بذلك عن كل ما يتعلق بما هو تشخيصي، وصولاً إلى صيغة تجريدية مستمدة من الكتابة العربية والزخرفة والعناصر الهندسية، فعزل الكتابة عن معناها اللغوي ليصل إلى أشكال جديدة مستوحاة من حركة الحروف والكلمات، وأعطى هذه الأشكال دلالة زخرفية تتناغم مع المساحات الهندسية.

كان عبد القادر يرى أن الكتابة العربية في لوحاته هي أشكال أحرف أكثر مما هي كتابة ذات معنى مقصود، إذ إن الفنان الذي يحاول طرح أشياء معينة مفهومة في اللوحة، يدفع بالمشاهد إلى ترك التكوينات الفنية فيها، ويجعله يفكر بالمعنى الظاهر في أشكالها. ومن أجل هذا كان عبد القادر يحاول ألا يكتب كلمات لها معنى، بل كان يترك لحركة الحروف أن تقوم بدورها الإيحائي في اللوحة. ويقترب عبد القادر هنا من المفهوم الفني للفنانين التشكيليين الروس، لكنه يتميز منهم بانه لم يتخلَّ عن المضمون كلية.

إلى جانب كل ذلك، عني عبد القادر عناية جدية بفن الإعلان، وقد ترافقت نهضة هذا الفن في سورية بجهوده البارزة في هذا المجال ويُعد من رواده في سورية، وقد وشح بتوقيعه الكثير من



اللوحات المتطورة، والإعلانات المبتكرة وأغلفة الكتب. فكان الإعلان لديه لوحة فنية كاملة مدروسة ومحسوبة بدقة متناهية، يستخدم فيها أدق الحسابات الهندسية والرياضية لتأتي مزيجاً من الحسِّ والعقل والفن والعلم، وبنوع من الانسجام والوحدة المتكاملة. وكان كل ما فيها من لون أو شكل أوخط موضوعاً في مكانه الصحيح القادر على تأدية مهمته في الإعلام والإعلان.

وقد أخذت تجربته الطويلة والمنفردة مع الملصقات posters والفنون الطباعية (الفنون الخطية) arts graphic منحى تصاعدياً دائم التجدد والابتكار والتطور المستمر نحو الحداثة و الجمال. ولهذا تميز عبد القادر بهذا الفن وأصبح أستاذاً له في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق.

وقد ابتكر طريقة خاصة لرسم الحروف الهجائية العربية بطريقة هندسية في التخطيط المنتظم بخطوط دائرية ومستقيمة تغني عن مشكلات الطباعة العربية، أودعها وزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية عام ١٩٩٢ . كما قدم عام ١٩٨٩ في باريس براءة اختراع خاصة به، في تصميم طباعي لسلبيات negatives بالأبيض والأسود على أوراق شفافة ملونة.

وإضافة إلى إبداع عبد القادر الأرناؤوط في التصوير والزخرفة وفن الإعلان، وإقامة المعارض الخاصة والعامة في سورية وخارجها، فقد عرف بالنكتة والطرفة الذكية، وكانت له ممارسات شعرية متميزة، أودع الكثير منها ديواناً شعرياً له هو «رماد على أرض باردة» نشر عام ١٩٧٦ .

عبد اللطيف الأرناؤوط

■ الأرناؤوط (معروف ـ)
(١٨٩٢-١٩٤٨م)

أديب ألباني الأصل، يعود نسبه إلى مدينة ألونية الألبانية، هاجر جده حسن آغا المولى يوسف مع أسرته إلى بيروت في منتصف القرن التاسع عشر أيام الدولة العثمانية.

ولد معروف بن أحمد أرناؤوط، في العاصمة اللبنانية، ونشأ فيها، وتتلمذ هناك على الشيخ أحمد عباس الأزهري في الكلية العثمانية الإسلامية.

عكف معروف على قراءة كتب الأدب والتراث التاريخي واللغوي، فاستصفى منها الأساليب العربية الصافية بذوقه المرهف وحسه الأدبي المتميز. ومارس الخطابة والكتابة ونظم الشعر، وراح يدبج المقالات والقصائد، وينشرها في الصحف المحلية،كما ترجم عن اللغة الفرنسية عدداً من الأعمال القصصية منها: «الصقلي

الشريف» و«الطفلان الشريدان» و«عذاب الضمير» و«الفردوس المفقود» وغيرها. وفي عام ١٩١٤ في بداية الحرب العالمية الأولى، التحق معروف بالخدمة الإلزامية في الجيش العثماني في اصطنبول، وهناك تعرف بعض أدبائها، وتأثر بهم وبسحر جمال الطبيعة في تلك المدينة ولما علم بقيام الثورة العربية في الحجاز هرب من الخدمة في الجيش العثماني عام ١٩١٦ إلى بلاد الشام، ثمّ التحق بالجيش العربي، ودخل مع الملك فيصل دمشق وهو يرى في الثورة العربية الكبرى تحقيقاً لحلمه وأمانيه في إحياء ماضي الأمة على مبادىء العروبة والإسلام.

ولما استقرت به الحال، أخذ يفكر في العمل في الميدان الذي يمكن أن يحقق له بعض رغباته وأفكاره القومية والأدبية، فاشترك مع صديقيه الصحفيين عثمان قاسم ورشدي صالح ملحس في إصدار جريدة «الاستقلال العربي» عام ١٩١٨م، ثم انفصل عنهما في العام التالي، وأنشأ مجلة «العلم العربي». وفي عام ١٩٢٠م أصدر جريدة «فتى العرب» التي كانت من أوائل الصحف السورية آنذاك، وامتد عمرها ما يقارب الثلاثين عاماً، وكان معروف يحررها ويكتب مقالها الافتتاحي كاشفاً فيما يكتب عن نزوعه السياسي إلى نهضة عربية قومية، تكون منطلقاً لإحياء ماضي العرب والإسلام، وكان ينهج في سياسة جريدته نهجاً حراً يخالف أحياناً نهج السياسيين، إلا أنهم مع ذلك كانوا يجمعون على تقدير موهبته وأدبه لإيمانهم بإخلاصه للقضية العربية، كما حرص على تخصيص قسم من جريدته للدراسات الأدبية والبحوث التاريخية والترجمات الشعرية.

ومع أن معروفاً نجح في ميدان الصحافة، فإن الفن الصحفي لم يكن المجال الحقيقي لموهبته، فقد ولد أديباً وروائياً موهوباً، وساعده على ذلك ثقافته واطلاعه الواسع على أدب الغرب، ولاسيما فن الرواية والقصة، فحاول أن يقيم دعائم الأدب العربي الحديث على أسس راسخة من واقع حياة المجتمع وتاريخه، فكتب عدداً من الروايات، نالت شهرة واسعة، أبرزها:

«سيد قريش» (١٩٢٩): وهي رواية في ثلاثة أجزاء: رسم معروف فيها حياة العرب في مرحلة البعثة النبوية، وصور معجزة النبوة وأثرها الاجتماعي والسياسي في حياة العرب. واعتمد في تأليف روايته على كتب التاريخ العربي والإسلامي. وأثبت أن القومية العربية بمعناها الحقيقي، كانت موجودة قبل الإسلام، وأن عرب سورية كانوا على جانب كبير من المدنية، وعلى اتصال دائم بحضارات بيزنطة وروما والعالم كله. وعلى أثر صدور هذه الرواية التاريخية، انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق في ٨/١٠/١٩٣٠.

و«على ضفاف البوسفور» (١٩٣٢م): وهي قصة حب طويلة، كتبها في أيام شبابه، تجري حوادثها في مدينة اصطنبول التاريخية، لكنه لم ينشرها في حينها، وتمّ نشرها في سلسلة «اللطائف المصورة».

و«عمر بن الخطاب» (١٩٣٦م): وهي رواية في جزأين.. تناول فيها معارك الحرية بين الفرس وعرب العراق، والروم وعرب بلاد الشام، ورسم شخصية الخليفة عمر بأبعادها الإنسانية، وجسد فيها كفاح الشعوب المقهورة ونزوعها إلى التحرر من حكم الرومان، كما أفاد من رحلاته في وصف جغرافية بلاد الشام، ومن ثقافته التاريخية في تحليل الوقائع، وابتدع في روايته بعض الشخصيات الخيالية إلى جانب الشخصيات التاريخية البارزة.

و«طارق بن زياد» (١٩٤١م): وهي رواية تاريخية، تناول فيها فتح إفريقية والأندلس ودور العرب والبربر، كما أبدع في تصوير مواقف مؤثرة من الحب والجمال، وطبيعة الأندلس الساحرة، وتحدث عن دور العرب الحضاري، ونجاح الأمويين في توسيع رقعة بلاد الخلافة العربية الإسلامية.

و«فاطمة البتول» (١٩٤٢م): وقد استهل هذه الرواية بالوقائع والأحداث التي رافقت البيعة ليزيد بن معاوية، ثم عاد إلى ماضي الخلاف بين علي ومعاوية، فالصراع بين الحسين ويزيد، وما كان من ضحايا الفتنة، وأثر مصرع الحسين في تمزيق وحدة الصف، وبدا فيها متألماً لمأساة الحسين منتصراً لحقه.

و«القاهرة» (١٩٤٣م): وهي رواية فقدت مع مخطوطاته التي ضاعت، حكى فيها قصة إنشاء القاهرة، مدينة «المعز لدين الله» والمراحل التي مر بها تأسيس الدولة الفاطمية في مصر.

أما في مجال المسرح فيعد معروف من الرواد الأوائل الذين اهتموا بالأدب المسرحي ترجمة وتأليفاً، فترجم الكثير من النصوص المسرحية لكتاب فرنسيين بارزين، كما كتب مسرحيات متميزة منها: «أدرنه في النار» و«أنور بك القائد العثماني» و«جمال باشا السفاح»، أما أهم المسرحيات التي كتبها فهي «أحلام ودموع أو أبو عبد الله الصغير» (١٩٢٩م) في خمسة فصول.

ومن آثار معروف الأرناؤوط الأخرى «فردوس المعري» (١٩١٤م) وقد استوحى موضوعها من رحلة قام بها لزيارة بلدة «معرة النعمان» وقبر أبي العلاء المعري المتواضع، وقد سجل فيها مشاعر الوفاء نحو فيلسوف المعرة، فكتب هذه الرحلة الخيالية التي بعث فيها المعري من مرقده، وجعل روحه تطوف في بلدان كرّمت العظماء، وقدّرت العباقرة، وبعد صدور كتابه عن المعري، بادرت الدولة إلى الاهتمام ببناء الضريح، وأقامت قربه مكتبة ضمت آثاره.

ولمعروف آثار أخرى مخطوطة ذكرها في كتاباته وفقدت جميعها منها: «حياتي» و«نصارى العرب في الشام والعراق» و«تاريخ الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر».

عرف معروف بالوفاء وحسن المعاشرة، والجَلَد على العمل والمثابرة، وقد نهك إخلاصه لرسالته الأدبية جسده، فاعتل زمناً قبل أن يسلم الروح.

عبد اللطيف الأرناؤوط

الأرنب

الأرنب rabbit حيوان ثديي، من الفصيلة الأرنبية Leporidae وطائفة أرنبيات الشكل Lagomorpha. طوله ٣٥سم تقريباً ووزنه ١٥٠٠غ. شفته العليا مشقوقة، وأذناه طويلتان، وذيله قصير، ورجلاه الخلفيتان طويلتان تجعلانه من أمهر الحيوانات القافزة. وهو اليوم عالمي الانتشار، وترد أصوله، كما يعتقد، إلى شمالي آسيا، حيث انتشر منها إلى كامل آسيا وإلى أوربة وإفريقية. وقد أدخله الرومان إلى إنكلترة، كما نقله الإنكليز سنة ١٨٥٩ إلى أسترالية، حيث ترعرع وتكاثر تكاثراً مريعاً حتى أصبح يمثل خطراً على الغطاء النباتي والمزروعات



أرنب هجين من أصل فرنسي ونيوزيلندي مُحسَّن لون الوبر وطعم اللحم

لانعدام الحيوانات القادرة على منافسته. ولم تسيطر عليه السلطات الأسترالية إلا بعد إصابته بالفيروس الذي يسبب له مرض الورام المخاطي myxomatosis.

وكلمة أرنب كلمة عامة تطلق على عدة أجناس يقدر عددها بـ٥٢ جنساً، يوجد منها ٢٨ جنساً في العالم القديم و٢٤ جنساً في العالم الجديد. وأكثرها انتشاراً في العالم القديم الجنس Oryctolagus، وفي العالم الجديد الجنس Sylvilagus والجنس Lepus. ويعرف من الأرانب مجموعتان: الأرانب الحقيقية، والأرانب البرية Hares. وتتميز الأرانب الحقيقية بحياتها الاجتماعية وقصر آذانها وأرجلها الخلفية، وتكون مواليدها مغمضة العينين عارية الجسم في حين تتمتع الأرانب البرية بانعزاليتها وطول آذانها وأرجلها الخلفية، ويكون مواليدها مفتوحة العينين والآذان مكسوة الجسم بالأوبار. ولطالما حدث التباس بين أرنبيات الشكل والقواضم [ر] Rodentia. فالأولى تتميز بوجود أربع قواطع في فكها العلوي: قاطعتين كبيرتين خلفهما قاطعتان صغيرتان، في حين يقتصر الفك العلوي لدى القواضم على وجود قاطعتين فقط.

حياة الأرانب وطباعها

تعيش أغلب الأرانب حياة جماعية، في أنفاق تحفرها تحت الأرض، ذات مداخل عدة، وتؤدي كلها إلى حجرة مركزية، في حين يقضي بعضها حياته على سطح الأرض في أعشاش يبنيها في شقوق الصخور أو تحت أخشاب الغابة، وهنالك قلة من الأرانب تعيش في أعشاش بنتها حيوانات أخرى. وتمضي الأرانب معظم نهارها تحت الأرض أو تحت غطاء عشبي كثيف، مستلقية في الأيام الحارة على سطح الأرض طالبة برودتها، وتنطلق ليلاً باحثة عن غذائها العشبي الأخضر أو قشور الأشجار الفتية.

وأسنان الأرانب متكيفة للتغذي بالأعشاب بقواطعها التي تنمو من جذورها باستمرار وتتآكل تيجانها متحولة إلى ما يشبه الإزميل الحاد. وهي بلا أنياب، ويبقى مكانها على الفك شاغراً.

وتهضم الأرانب المواد السللوزية التي تكوّن الجزء الأكبر من وجباتها الغذائية، مستعينة ببكتريات متمركزة في أعور الأنبوب الهضمي. كما أنها تمارس اجتراراً كاذباً، فهي تطرح ليلاً كتلاً برازية محاطة بغشاء هلامي غني بالبكتريات الهاضمة للسللوز، يتناولها الحيوان، غالباً من الشرج مباشرة، لتدخل المعدة وتساعد في هضم السكريات وتكوين حمض اللبن. أما البراز العادي فيطرحه الأرنب عادة في النهار.

ويضرب المثل بجبن الأرنب الذي يهرب بقفزات متتابعة تزداد سعة مع السرعة، التي تصل في بعض الأحيان إلى نحو ٥٠ كم/ساعة.

والأرنب حاد البصر، وعيناه كرويتان تسمحان برؤية جميع الاتجاهات من دون حاجة لتحريك الرأس. وحاسة السمع قوية، وأذنه مزودة بصيوان قابل للتوجه نحو مصدر الصوت. كما يقوم بتحذير أقرانه بالنقر على الأرض بأرجله. ولايصدر الأرنب الأصوات في العادة إلا في حالات نادرة، عند خوفه لدى التقاطه أو عند إصابته بالأذى.

تكاثر الأرانب

يضرب المثل بسرعة تكاثر الأرانب. وهي تتكاثر طوال السنة في المناطق المعتدلة، في حين يمتد تكاثرها من شباط حتى تشرين الأول في المناطق الباردة. وتحمل الأنثى ٤-٨ «بطون» في العام، ويضم «البطن» الواحد من ٣-٩ أجنة. وتمتد مدة الحمل من ٢٨-٣٠ يوماً. وتنبذ الحامل جماعتها قبل الوضع وتجهز حفرة تفرشها بالأعشاب التي تخلطها بفراء جسمها، وتضع فيها الأرنبة مواليدها مغمضة العيون التي تنفتح في اليوم الحادي عشر من ولادتها، ومغلقة الآذان التي لا تنفتح إلا في اليوم الثاني عشر، وعارية الجلد الذي ينمو عليه فراؤها في أسبوعين، وتصبح قادرة على الحركة متدرجة في الاعتماد على نفسها بعد ٣٠ يوماً. وتدرك الأرانب مرحلة البلوغ الجنسي بعد ستة أشهر. ويعيش الأرنب من ٣-٤ سنوات، ويعمر بعضها حتى السابعة. أما الأرانب البرية فتولد مفتوحة العيون والآذان ومكسوة بالفراء.

الأهمية الاقتصادية للأرانب وتربيتها

تؤدي الأرانب دوراً اقتصادياً مهماً. فتربى بعض أنواعها، ولاسيما في أوربة وأمريكة، مصدراً للبروتينات الفقيرة بالطاقة لانعدام شحومها، وهي تُسوَّق لهذا الغرض عندما يصبح عمر الواحد منها شهرين ووزنه نحو ٢كغ. كما يصاد من الأرانب الملايين سنوياً.

وتربى أرانب الأنْقُرية (الأنغورة) لفرائها الذي تصنع منه منسوجات ثمينة، إذ يصل طول وبره ٦سم في ثلاثة أشهر، ويُنتج الأرنب الواحد منها قرابة ١٠٠ غرام من الصوف في السنة الواحدة. أما وبر الأرانب العادية فيستعمل في صنع نسيج قبعات الرأس.

وعند تربية الأرانب في المزارع يجب مراعاة بعد المزرعة بقدر الإمكان عن الضوضاء، وتيارات الهواء المحملة بالغبار، ومسببات الأمراض، ومراعاة سهولة تنظيفها، وجفافها، وتوفر مياه الشرب النظيفة. ويجب أن تتضمن المزرعة مايلي:

ـ مساكن لتربية الأرانب الكبيرة (مساكن الولادة) أبعادها ١٥٠×٧٠×٥٠سم بأرجل ترتفع ٢٥سم عن سطح الأرض، ذات أرضية من السلك أو من قضبان الخشب المتقاطعة. وتتكون عادة من غرفة صغيرة للولادة أو للراحة ومن فناء للرياضة وتناول الطعام. ويجب أن تنفصل غرفة الولادة عن الفناء بحاجز فيه فتحة دائرية تسمح للأرانب بالمرور، ترتفع ١٠سم عن أرض المسكن.

ـ مساكن للذكور من السلك الشبكي من دون غرفة منفصلة.

ـ مساكن لتربية الصغار بعد الفطام تشبه إلى حد كبير مساكن تربية الكبار، أبعادها ٢٠٠×١٠٠×٥٠سم، وتتسع إلى ٢٥ أرنباً، يقلل عددها كلما كبر حجم الأرانب، وفيها غرفة مظلمة تشغل ربع المساحة الكلية للمسكن تقريباً، يفصلها عنه حاجز فيه فتحة أو أكثر لخروج الأرانب ودخولها.

ويمكن تربية الأرانب في مساكن طبقاتها عدة، ويلجأ إلى ذلك عندما تكون مساحة الأرض صغيرة. ويفضل ألا تتجاوز كل مجموعة من هذه المساكن ثلاث طبقات لتسهيل العناية بها.

كما يمكن تربيتها في مساكن في الهواء الطلق، حيث تطلق الأرانب في حفر أبعادها ٣×٥,١م أو ٤×٢م بعمق ٢٥-٤٠سم، تغطى أرضيتها بسلك شبكي عريض الفتحة (حتى ٢,٥سم)، أو تغطى بطبقة من الاسمنت كي لاتحفرها الأرانب، مع ميلان خفيف ومصارف دقيقة. ويوضع فوق الاسمنت شبك أو رمل. وتقام في أحد جوانب هذه المساكن غرف صغيرة للولادة أو الراحة.

وتجهز هذه المساكن كلها بأقفاص للعلف الأخضر وأوعية للعلف الجاف ومناهل لشرب الماء.

وتؤدي الأرانب دوراً مهماً في بناء السلاسل الغذائية، محققة بذلك نوعاً من التوازن البيئي، فهي تمثل المستوى الثاني من المستويات الغذائية في الأنظمة البيئية بأكلها الأعشاب، وتفترسها، في المستوى الثالث من المستويات الغذائية، الذئاب والثعالب وأبناء عرس والصقور والبوم، وتدخل المستوى الغذائي الرابع بتفكك نسجها وتحللها إلى بقايا متحللة وفضلات.



الأرنب الأوربي

ويستعمل الأرنب حيوان تجربة مخبرية لا يمكن الاستغناء عنه في كثير من الدراسات والتجارب العلمية في مجال الطب والصيدلة وعلم الحياة. وهو بذلك كالفأر والجرذ وخنزير الهند من حيث استخداماته العلمية.

وينقل الأرنب إلى الإنسان بعض الأمراض، منها حمى الأرانب tularemia ، بأكل الإنسان لحمه السيء الطهو ولمسه الحيوانات المصابة.

تطور الأرانب وأنواعها

تدل وقائع علم المستحاثات على ظهور الأرانب منذ ٥٥ مليون سنة، أي في أواخر الباليوسين، في شمالي آسيا ومن هناك انطلقت في جميع أنحائها وفي أوربة وإفريقية، وقد دخل الأرنب أمريكة الشمالية في نهاية الإيوسين، أي منذ نحو ٣٥ مليون سنة.

ويوجد اليوم من الأرانب الحقيقية ٦٦ سلالة، طورت كلها من الأرنب الأوربي النوع Oryctolagus cuniculs . وأكثر الأرانب شهرة:

ـ الأرنب البلجيكي الذي يصل وزنه أحياناً إلى ٥,٣كغ. وهو رمادي اللون، ويربى من أجل لحمه.

ـ الأرنب الفلمنكي (الفلاندر) وهو أكبر الأرانب، إذ يصل وزنه إلى ٧كغ. وكساؤه رصاصي قاتم، أما بطنه وذيله فلونهما أبيض. وهو يربى من أجل لحمه وفروه.

ـ أرنب الأنقرية الذي يتميز بكسائه الناعم الحريري الملمس الأبيض اللون. ويوجد منه نوعان: فرنسي وإنكليزي. ويزن النوع الفرنسي نحو ٣كغ، إلا أن فراءه أقصر من النوع الإنكليزي وأخشن قليلاً.

ـ الأرنب القطني الذيل (الأرنب الفلوريدي Sylvilagus floridanus)، وهو يعيش في غابات المناطق الشرقية من أمريكة في جبال روكي، ولونه رمادي بني، أما بطنه وأرجله فلونها أبيض. ويصل وزنه إلى نحو ٢كغ. علماً بأن أصغر الأرانب الأمريكية هو أرنب غابات إيداهو النوع S.idahaensis الذي لايتجاوز وزنه نصف كيلوغرام.

أما الأرانب البرية فتضم أرنب القطب (النوع Lepus arcticus) وأرنب أوربة (النوع L.europaeus) وأرنب الثلج snow- shoe rabbit (النوع L.americanus)، الذي يتحول لونه البني الصيفي إلى اللون الأبيض كالثلج في الشتاء، وأرنب جاك Jack rabbit (أرنب كاليفورنية L.californicus).

حسن حلمي خاروف

الموضوعات ذات الصلة:

القواضم.

مراجع للاستزادة:

ـ حسان جبلاوي ونبيل الدعدوي، تربية الأرانب (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٩١).

- V.SILVERSTEIN A.SILVERSTEIN, Rabbits : All about Them (Lathrop 1973).
- H. SABATIER, Le lapin et son élevage professionel, Dunod (Paris 1971).

■ إرنبورغ (إيليا غريغوريفيتش-) (١٨٩١-١٩٦٧)

إيليا غريغوريفيتش إرنبورغ Ilya Grigoryevich Ehrenburg كاتب روسي سوفييتي ولد في كييف وغدا شخصية اجتماعية مرموقة. كان والده مهندساً ومن المهتمين بالأدب والفن. شارك إرنبورغ، في وقت مبكر، في النشاط السياسي، وكان من البلاشفة النشيطين وقد دخل السجن عام ١٩٠٨ بتهمة النشاط الثوري السري.

وبعد خروجه من السجن، هاجر إلى فرنسة ونشر عام ١٩١٦ مجموعته الشعرية الأولى «قصائد العشيات» Stikhi O Katuhakh التي تبدو فيها أوربة على وشك الهلاك بسبب الحرب العالمية الأولى.

عاد إرنبورغ إلى وطنه عام ١٩١٧. لكن بدا كأن ثورة أكتوبر فاجأته، لذلك لم يستوعبها في البداية، وظهر ذلك جلياً في مجموعته الشعرية «صلاة لروسية» Moltivo O Rossi (١٩١٨) إلا أنه ما لبث أن تفهم الدوافع والظروف والأهداف، فحياها بحماسة ورأى فيها «مولد قرن جديد آخر»، وعرف - كما في مجموعته قصائد العشيات - «الهول والبهجة أمام حدث جلل .. أمام الحياة الجديدة».

أقام إرنبورغ في برلين بين عامي ١٩٢١-١٩٢٤ وعمل في الصحافة، ونشر روايته الفلسفية الساخرة «المغامرات غير العادية لخوليو خورينيتو» (١٩٢٢) رسم فيها لوحة للحياة في روسية وفي أوربة أيام الحرب العالمية الأولى والثورة الاشتراكية.

تتصف أعماله، التي ظهرت في العشرينات من القرن العشرين، بذلك الصراع النفسي العميق بين العاطفة والواجب، بين الفرد والمجتمع، كما ظهر ذلك في «حياة نيقولاي كاربوف وموته» Gizn i smert Nikolay Karpov (١٩٢٣) وفي «حب جانا نيي» Lubof Jana Nii (١٩٢٤) وبالنقد الحاد للأخلاق البرجوازية وبتحليل تناقضاتها في الثقافة، كما ظهر في «ثلاثون بوقاً» Tritsat Trubok (١٩٢٣) و«مؤسسة د» Trest D (١٩٢٣) وقد نشر في المدة نفسها كتاب «صور الكتاب الروس» Portraiti Ruskikh Pisatilia (١٩٢٢) وكتب روايتين اجتماعيتين - نفسيتين: «الأناني» Rvatch (١٩٢٥) و«زقاق بروتوتشني» Prototchni Per (١٩٢٧).

استقر إرنبورغ نهائياً في الاتحاد السوفييتي منذ بداية الثلاثينات، وفي عام ١٩٣٣ أنجز روايته الفلسفية «اليوم الثاني» Vtoroi Dyen وفيها يتحدث عن الانطباعات التي تركتها الخطة الخمسية الأولى في نفسه، وعن الثقافة الروحية للإنسان الجديد.

عمل مراسلاً حربياً لجريدة «الإزفستيا» Izvestia في أثناء الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٩) وكتب عدة مقالات وقصص عنوانها «لا صلح» Ne Peremiria (١٩٣٧) ورواية «ماذا يحتاج الإنسان» Shto Tehilovckou Nada (١٩٣٧). وفي عام ١٩٤١ بدأ كتابة روايته الشهيرة «سقوط باريس» Padeni Parija التي نال عليها جائزة الدولة للآداب عام ١٩٤٢، وفيها يعرض إرنبورغ الأسباب السياسية والأخلاقية والتاريخية لهزيمة فرنسة واحتلالها من قبل الألمان في الحرب العالمية الثانية.

وقد اكتسبت مقالاته ودراساته أهمية خاصة في أثناء الحرب العالمية الثانية (الحرب الوطنية العظمى كما يسميها السوفييت) لأنه استطاع بذكاء ومهارة كشف حقيقة الفاشية وتعرية أهدافها، وأشار إلى الفظائع التي ارتكبتها، والتي رسخت القناعة لدى الشعوب بحتمية الانتصار، وخلقت لديها شعوراً مقدساً هو كراهية العدو. نشر إرنبورغ مقالاته في الصحف التالية: «الإزفستيا» و«البرافدا» Pravda و«النجم الأحمر» Krasnaia Zvezd، ثم جمعها في كتاب أسماه «الحرب» ويقع في ثلاثة أجزاء ويغطي المدة الواقعة بين ١٩٤٢-١٩٤٤.

وكذلك ولدت لديه في أثناء الحرب فكرة رواية «العاصفة» Buria (١٩٤٦-١٩٤٧) التي نال عليها، للمرة الثانية، جائزة الدولة للآداب ١٩٤٨. يكشف إرنبورغ في هذه الرواية عما يسميه «صراع العصر» أي الصراع بين الفاشية وأعدائها، وذلك من خلال حشد هائل من الشخصيات ومصايرها وفاعلياتها.

نشر في مرحلة ما بعد الحرب قصة «ذوبان الثلوج» Ottepel (١٩٥٤). وتحدث فيها عن الخروشوفية (مدة حكم نيكيتا خروشوف)، وقد أثارت قصته هذه جدلاً ونقاشاً حادين في الأوساط الأدبية والسياسية السوفييتية. ثم أتبعها كتاباً يضم مجموعة مقالات نقدية أدبية «الكراسات الفرنسية» Fransuskic Tetradi (١٩٥٨) وكتاباً آخر «قراءة في تشيخوف» Perechitènya Chekhova (١٩٦٠). ومن أهم أعماله الأخيرة «السنون والناس والحياة» Goda, Ludi, Gizn (١٩٦٥) وفيه ذكريات ومذكرات في الأدب والفن والثقافة. إلا أن ما تميز به إرنبورغ تلك الصور الفاتنة التي رسمها بقلمه لعدد من الكتّاب والتي أجمع النقاد على روعتها في حين اختلفوا حول ما طرحه من آراء في الفن والحياة.

انتخب إرنبورغ عضواً في مجلس السوفييت الأعلى لدورات متتالية، وعمل نائباً لرئيس مجلس السلم العالمي (١٩٥٠) وترجمت أعماله إلى معظم لغات العالم.

نديم معلا محمد

مراجع للاستزادة:

- ت. تريفونوفا، إيليا إرنبورغ (موسكو ١٩٥٢).
- ك. فيدين، ذكريات عن إرنبورغ (موسكو ١٩٧٥).

■ إرنست (ماكس-) (١٨٩١-١٩٧٦)

ماكس إرنست Max Ernest مصور ونحات وكاتب ألماني، ولد في مدينة برول Brühl قرب كولونية، وتوفي في باريس، ويُعد واحداً من أبرز فناني القرن العشرين. أسس ماكس إرنست مع هانس أرب [ر] Hans Arp جماعة كولونية الدادية [ر. الدادية] وأطلق على هذه الجماعة «المركز رقم٣» Central W3. وعقب الحرب العالمية الأولى، التي كان واحداً من جنودها، عاد إلى كولونية وكتب بهذا الصدد: «علينا نحن الشباب، وقد عدنا من الحرب كالمخدرين، أن نفرغ ما في صدورنا من الغضب عن طريق تدمير أسس الحضارة التي أدت إلى هذه

الحرب».

أتاحت لماكس صداقته الحميمة للفنان أوغست ماكه August Macke الإسهام في معارض الفنانين التعبيريين بمنطقة الراين، وتعرف هناك روبير دولوني R.Dolaunay وغيوم أبولينير [ر] G.Apollinaire. لذا كانت لوحاته الزيتية والمائية متأثرة في البداية بأعمال ماكه، إلا أن صلته بروبير دولوني، وزيارته لمعارض الحركة المستقبلية في صالة فلدمان في كولونية، ضاعفتا من قوة ألوانه وإيقاع تكويناته.

وفي المدة التي اجتذبته فيها الدادية استخدم ماكس إرنست طريقة الملصقة collage، وهي الطريقة التي يستخدم فيها الفنان رسوم المجلات القديمة فيجمع بين ما يقصه منها بعناية فائقة، ويؤلف منها، على اختلاف موضوعاتها، أشكالاً عجيبة تجمع بين الطير والإنسان والحيوان والأصداف ونحوها، فيخلق بذلك عالماً أشبه بعالم الأساطير. كما استخدم طريقة الحك frottage، إذ كان يعمد إلى ملء أشكاله الغريبة، التي لا يرسم سوى خطوطها الخارجية، بوضع الورقة على سطح خشن من الخشب أو الحجر أو أوراق الشجر، ثم الحك داخل الأشكال بقلم الرصاص أو الفحم أو الباستيل، فينشأ عن ذلك صور تثير الخيال، بفضل التقاء هذه المادة الطبيعية، المتمثلة في تجاويف الخشب أو الحجر وفي أوراق الشجر، مع الشكل المرسوم أصلاً في صورة واحدة.

ويروي ماكس إرنست في مذكراته أنه لم يعمد إلى ابتكار هذين الأسلوبين وغيرهما من الأساليب الكثيرة التي ابتدعها لمجرد الرغبة في التفنن والابتكار، وإنما جاء الأمر كله ثمرة رؤى ظلت تراوده سنوات، وهو في حالة إغفاء، قبيل النوم أو قبيل اليقظة. أما التغريب dépaysement الذي ظهر لديه فهو اتجاه من خصائص السريالية [ر] surréalisme، استخدمه كذلك المصور السريالي الإسباني سلفادور دالي [ر] Salvador Dali. ويعني هذا التغريب نقل الكائنات من وسطها المألوف إلى وسط غريب عنها، وذلك ليتسنى للعين والنفس أن ترياها رؤية جديدة، على غير تلك الصورة المعهودة التي فقدت قدرتها على الإيحاء والإلهام.

وتنقسم الأعمال السريالية عند ماكس إرنست من حيث طريقة الأداء قسمين: يعتمد القسم الأول على التجسيم الواقعي، وفيه يلجأ



إلى ما يشبه التصوير الضوئي (الفوتوغرافي) في إبراز المرئيات، سواء أكانت حقيقية مقتبسة من الطبيعة، أم خيالية مستوحاة من عالم الأساطير والأحلام. أما القسم الثاني فينحو منحى تجريدياً، يتجلى فيه إطلاق عنان الفكر، بلا ضابط من قواعد المنطق والحساب؛ فتنطلق يد الفنان لتسجل مباشرة خلجات النفس وومضات الخيال، غير مبالية بالصورة التي تنتهي إليها بقيمها الفنية والجمالية.

وبهذا الصدد أعطى ماكس إرنست تفسيراً لأعماله على النحو التالي: «في تلك الأيام، لم أكن أقصد إثارة إعجاب المشاهدين بأعمالي، بل أردت حملهم على الصراخ والعويل لما سببته الحروب من أضرار للبشرية».

كان تاريخ تحول إرنست إلى السريالية عام ١٩٢١، عندما لبى دعوة صديقه أندره بروتون A.Breton إلى باريس، وعرض مجموعة من أعمال الملصقات، في معرض أطلق عليه عنوان «ما وراء التصوير». وغدا هذا العنوان فيما بعد مفهوماً عاماً ترك أثراً بالغاً في أفكار ماكس الفنية.

وفي عام ١٩٢١ قام الشاعر الفرنسي بول إلوار Paul Éluard، بزيارة إرنست في كولونية، ونشأ عن تلك الزيارة صداقة حميمة بينهما أدت إلى نشر ديوان شعر مصور عنوانه «الهذيان»، وآخر زين بإحدى وعشرين لوحة لصق عنوانه «مآسي الخالدين».

وقد أسهم إرنست بدور مهم عام ١٩٣٠ في الفلم السريالي «العصر الذهبي»، وأوحت له الكواليس باستخدام لوحات مهملة من الخشب ملطخة بالجص لخلق مجموعة من لوحات اللصق، وفي هذه الحقبة أصدر أول رواية له بالطريقة ذاتها سماها «المرأة ذات الرؤوس المئة».

وفي عام ١٩٤١ تمكن من الهرب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن لاحقه الغستابو الألماني وسجنه (١٩٣٩-١٩٤١). وهناك أصدر في نيويورك، مع الكاتب الفرنسي أندره بروتون والمصور الفرنسي مارسيل دوشان Marcel Duchamp مجلة «٧٧٧» التي تُعد انطلاقة السريالية في أمريكة. وبقي يعمل حتى عودته إلى باريس عام ١٩٤٩ ليستقر فيها.

تميزت أعمال ماكس إرنست منذ عام ١٩٤٥ باستخدام عناصر هندسية وإشعاعات كروية وسطوح صغيرة مصقولة كما في لوحة «إقليدس». وقد أضاف طريقة جديدة إلى عمله هي طريقة «الكشط» grattage، وتتم بتمرير مشط على كتلة من الألوان غير الجافة، يؤدي إلى نشوء ملمس متنوع للسطوح. ومن أعماله في هذا المجال: «عرائس الهواء» و«زهرة الصدف» و«نصب تذكاري للطيور». أما استعماله للطيور في الكثير من لوحاته فمبعثه أنها ترمز إلى الحب والموت.

وفي عام ١٩٥٤ منح ماكس إرنست جائزة التصوير الكبرى في المعرض «الثنائي السنين» Biennal السابع والعشرين الذي أقيم في البندقية، وانفصل نهائياً عن الحركة السريالية. وفي عام ١٩٥٨ حصل على الجنسية الفرنسية.

أما أعمال إرنست في النحت فتعود إلى ما بين عامي ١٩١٦-١٩١٩، ومنها منحوتة بعنوان «ثمرة تجربة طويلة»، نفذها بتجميع عناصر خشبية وحديدية مطلية بالألوان.

كان لأعماله التي عرضها في معرض الدادية في كولونية عام ١٩٢٠ وقع المفاجأة والغرابة. ويتألف أحد هذه الأعمال، وهو من دون عنوان، من قطعة خشب منحوتة عليها عدد من الأجراس وفأس صغيرة. وعلى هذا النحو كانت منحوتاته تجمع مواد متنافرة، مثل الجص والفلين والخشب والقماش، وغالباً ما تكون ملونة.

إن هذا الأسلوب الدادي في النحت لازم إرنست حتى بعد انضمامه إلى الحركة السريالية، وفي ظلها تميزت أعماله بحجومها الكبيرة وجودة صقلها واستدارتها، مما جعلها مستقلة تماماً عن أعماله في التصوير. وقد استفاد إرنست من علاقته بالنحات السويسري ألبرتو جياكوميتي [ر] A.Giacometti، وقضى

عنده صيف عام ١٩٣٤ بكامله، وقام بنحت بعض الأعمال من الغرانيت، وقد مثلت منحوتاته مخلوقات خرافية أبدعها خياله الخصب، منها حيوانات وأقنعة، وذلك إضافة إلى أعمال ضخمة كمنحوتة «الملك يداعب الملكة» (١٩٤٤).

لقد انطلق ماكس إرنست من المواد المبتذلة أو البسيطة ليحقق في النهاية عالمه الأسطوري الخاص، وفنه الذي أوصله إلى القمة في تاريخ الفن المعاصر.

حسن كمال

الموضوعات ذات الصلة:

الدادية - السريالية.

مراجع للاستزادة:

- M. ERNEST, Beyond Painting and Other Writtings by the Artist & His Friends (New York 1948).
- J. RUSSEL, Max Ernest : Life & Work (London 1967).

■ آرنولد (ماثيو -)
(١٨٢٢-١٨٨٨م)



ماثيو آرنولد Matthew Arnold شاعر وناقد ومصلح تربوي إنكليزي، ولد في بلدة ليلهام Laleham في مقاطعة ميدلسكس Middlesex، وهو الابن البكر لتوماس آرنولد الذي تبوأ مكانة رفيعة في المجتمع البريطاني في القرن التاسع عشر نتيجة لجهوده المثمرة في مجال الإصلاح التربوي والتعليمي، وذلك إثر تعيينه عام ١٨٢٨ مديراً لمدرسة رغبي Rugby الثانوية وإدخاله الكثير من الإصلاحات والتغييرات الجذرية على مناهج التدريس وأصوله في تلك المدرسة، إذ أصبحت المدرسة النموذجية الأولى في مجالي التربية والتعليم في العصر الفكتوري. ونتيجةً لأوضاع المدارس الصحية والاجتماعية والتعليمية السيئة آنذاك آثر توماس آرنولد أن يعلم أولاده في منأى عن تلك الأجواء غير المواتية، فانتقى لهم مدرسين خاصين أكفاء. واستمر تعليم الابن الأكبر ماثيو آرنولد حتى عام ١٨٣٦، حينما دخل مدرسة «ونشستر» رسمياً أول مرة وكان الأب قد تلقى تعليمه فيها من قبل. ثم انتقل ماثيو في عام ١٨٣٧ إلى مدرسة رغبي التي كان يديرها والده ومكث فيها حتى نهاية تعليمه الثانوي عام ١٨٤٠. والجدير بالذكر أن ماثيو آرنولد حصل، في مدة وجوده في هذه المدرسة، على جوائز مدرسية عدة لتفوقه في بعض المجالات الدراسية ولا سيما في مجال الإبداع الشعري.

دخل ماثيو آرنولد جامعة أكسفورد في عام ١٨٤١، بعد حصوله على منحة مفتوحة من تلك الجامعة، واستمرت دراسته فيها حتى عام ١٨٤٤ حين حاز إجازة في الآداب بدرجة شرف من المرتبة الثانية. وفي عام ١٨٤٥ اختير آرنولد زميلاً في الهيئة التعليمية لكلية أوريل بجامعة أكسفورد. وعلى الرغم من ابتعاده عن أجواء جامعة أكسفورد في مرحلة لاحقة، ومع شعوره بأن أكسفورد تمثل جزءاً من الماضي المهدد بالزوال فإنه احتفظ حتى نهاية حياته بقسط وافر من الحب والولاء لهذه الجامعة، إذ إنها بقيت لديه رمزاً للحضارة والجمال الروحي، إضافة إلى كونها نبراساً ينير الطريق لكل من كان يطمح إلى تحقيق الهدف الأسمى، وهو الكمال في كل شئ. وفي عام ١٨٤٧ عمل آرنولد سكرتيراً خاصاً لدى اللورد لانزداون Lansdowne الذي كان يتبوأ منصباً عالياً في وزارة اللورد جون رسل John Russell رئيس مجلس الوزراء للحزب الليبرالي الحاكم في تلك الحقبة، وإليه يعود الفضل في تعيين ماثيو آرنولد مفتشاً عاماً للمدارس منذ عام ١٨٥١، وبقي في هذا العمل إلى ما قبل عامين من وفاته، وعلى الرغم من بساطة هذا العمل، إذا قيس بمواهب آرنولد الكثيرة وروحه العالية وإحساسه المرهف، استمر آرنولد يشغل هذه الوظيفة من دون كلال أو ملل في سبيل تطوير التعليم الإعدادي والثانوي الذي كان يعاني الكثير من الفساد والهدر في الطاقات البشرية. وقد أرسلت الحكومات المتتالية - ما بين محافظة وليبرالية - آرنولد في بعثات وجولات استطلاعية إلى عدد من البلدان المجاورة مثل فرنسة وألمانية وهولندة وسويسرة، بغية الاطلاع على الأنظمة التعليمية فيها والاستفادة منها في تطوير التعليم في بريطانية.

تولى ماثيو آرنولد منصب أستاذ الشعر في جامعة أكسفورد (١٨٥٧-١٨٦٧) إلى جانب عمله مفتشاً عاماً للمدارس. وكانت آخر محاضراته فيها النواة الأساسية لكثير من كتاباته اللاحقة التي ألحّ فيها على موضوع البحث عن الكمال الذي عدّه آرنولد رديفاً لموضوع البحث عن الجمال ودماثة الخلق. والجدير بالذكر أن آرنولد لم يكتف بتناول هذا البحث ثانية بل طوره ليأخذ أبعاداً اجتماعية وسياسية وأخلاقية ودينية، كما هو الحال في كتابه النقدي المشهور «الثقافة والفوضى» Culture and Anarchy. ويشغل هذا الكتاب مكانة بارزة بين مؤلفات آرنولد الكثيرة الشعرية والنثرية، وذلك لما يتميز به من شمولية في الرؤية، وسلاسة في الأسلوب، وموضوعية في الطرح، وعمق في التحليل الاجتماعي، فضلاً عن كونه خليطاً معقداً ومركباً من المضحك والمبكي في المجتمع الإنكليزي في ذلك العصر. وحري بالمرء أن يلفت الانتباه هنا إلى النقد اللاذع والبناء الذي كان يوجهه الكاتب لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمع الإنكليزي آنذاك، ولاسيما ما أسماه آرنولد بعبادة المال، والإيمان المطلق بالتطور المادي البحت على حساب القيم الاجتماعية والإنسانية والدينية. ويتصف المجتمع الإنكليزي الذي يصوره الكاتب بالفوضى والتمزق وفرط الأنانية، إضافة إلى غياب عصر المحاسبة أو الرقابة الحكومية. إنه المجتمع الذي يفعل فيه الإنسان ما يحلو له من دون وازع من ضمير أو أخلاق أو رادع قانوني. يعزو آرنولد كل هذا إلى مسببات عدة من أهمها فقر الثقافة وإهمال

المجتمع لما أسماه بالحضارة أو «دراسة الكمال» التي من شأنها أن تخرج الإنسان من حالة التفكك هذه وأن تعيد ارتباطه العضوي بمجتمعه الإنساني، ومن هذا المنطلق جاء اهتمام الكاتب بفكرة الثقافة التي عرّفها مراراً وتكراراً بدراسة الكمال، أي الاطلاع على أفضل الأقوال والأفكار في كل مكان وزمان فيما يتعلق بكل ما يمس جوهر الإنسان وحياته.

وللكاتب مؤلفات أخرى منها السلسلتان النقديتان اللتان تحملان العنوان نفسه «مقالات في النقد» Essays in Criticism (طبعت الأولى منهما عام ١٨٦٥، والثانية عام ١٨٨٨).

ومن أهم الموضوعات التي يتكرر ذكرها في هاتين المجموعتين: وظيفة النقد التي يعرّفها آرنولد بالمحاولة المتجردة، أي رؤية الأشياء كما هي عليه، لتعلم أفضل ما عرف في العالم والعمل على تأسيس تيار من الأفكار الصادقة والملهمة. إن مهمة الدارس الأمين، في رأيه، تقتصر على كشف عوامل التغير في المجتمع وإقناع الآخرين بصحة ترجمته لهذه العوامل. أما في الشعر فأفضل ما يتميز به ماثيو آرنولد إثارة الدين ودعوته إلى اللجوء إلى الشعر في ترجمة الحياة اليومية حتى يكون الشعر الصادق غذاء وعزاء روحيين للإنسان.

عكف آرنولد في السنوات الأخيرة من حياته على التعمق في دراسة الدين وعلاقته بالأدب.

ومن أشهر مؤلفاته في هذا المضمار مقالته المطولة «القديس بولس والبروتستنتية» St Paul and Protestantism (١٨٧٠) و«الأدب والعقيدة» Literature and Dogma (١٨٧٣) و«الله والإنجيل» God and The Bible (١٨٧٥) و«مقالات أخيرة حول الكنيسة والدين» Last Essays on Church and Religion (١٨٧٧). يعود اهتمام آرنولد بالمسائل الدينية في الحقبة الأخيرة من حياته إلى حسن فهمه لذاته ولطبيعة التطور الفكري لمجتمعه ولقناعته الراسخة بان الدين يكوّن عنصراً تربوياً مهماً في المجتمع، فهو، على خلاف دراسة المسائل العلمية البحتة، يتوجه بطريقة خفية إلى أعماق الذات البشرية بما فيها من مشاعر وأحاسيس. إن أكثر ما يلفت الانتباه في كتاباته الاخيرة هو التواصل المتنامي مع الدين وإيمانه بأثره الفعّال في تطوير البشرية وقناعته بان الفقر الحضاري الذي تعاني منه البشرية يعود بالضرورة إلى الانقسامات الدينية في صلب الدين الواحد. ويعتقد آرنولد أن للدين قوة أكبر مما يتصور المرء في توحيد النظرة الإنسانية في المجتمع الواحد، وفي إنقاذ المجتمع من عواقب الاختلافات في تفسير الشريعة. والدين في نظره ما هو إلا شعور لا يحيد قيد أنملة عن التسامي الأخلاقي. ويرى في المسيحية والإنجيل السبيل إلى الخلاص البشري، وذلك لقدرتهما على تحريك الروح البشرية من مكامنها الدفينة، تماماً كما في الشعر الذي يعده آرنولد رسالة روحية موجهة إلى جوهر الإنسان.

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود وحدة حال تربط بين وجهات نظر آرنولد الدينية والتربوية في نتاجه الشعري الذي كان يصدر بين الفينة والأخرى مجموعات شعريةً تحمل عناوين مختلفة كمجموعته الأخيرة التي صدرت عام ١٨٦٧ بعنوان «قصائد جديدة» New Poems على أن هذا النتاج الشعري وصف بأنه أبعد ما يكون عن التجانس أو الموضوعية أو الشمولية في الرؤية وهي الصفات التي دعا إليها آرنولد في كثير من كتاباته النقدية، فعلى الرغم مما يتخلله من فترات وفقرات هادئة وموضوعية فهو يعكس في أغلب الاحيان روح الشاعر المضطربة وتشاؤمه المفرط وحنينه إلى الماضي. ويعود هذا، كما يرى كثير من النقاد، إلى تأثر آرنولد البالغ بالشاعر الإبداعي وردزورث [ر] Wordsworth. ومهما يكن، وعلى الرغم من التناقضات السلبية التي تكتنف مؤلفات ماثيو آرنولد كترجحه في ولائه التام بين الشعر تارة والدين تارة أخرى، ولا سيما في السنوات الأخيرة من حياته، يمكن القول إن هذا الشاعر والناقد الأدبي والاجتماعي الذي تبوأ مكانة رفيعة في مجتمعه الإنكليزي في القرن التاسع عشر، ما يزال يحتل منزلة عالية في تاريخ الأدب الإنكليزي.

يحيى الفاضل

مراجع للاستزادة:

ـ ماثيو آرنولد، مقالات في النقد، ترجمة علي عزت، مراجعة

ـ لويس مرقص (الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٦).

- LIONEL TRILLING, Matthew Arnold (Meridian Books, New York 1955).

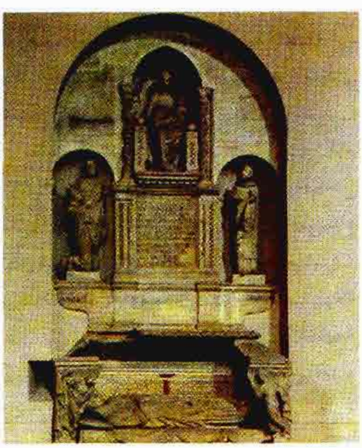
- JOHNSON LESELY, The Cultural Critics : From Arnold to Raymond Williams (Routledge & Kegan Paul, London 1979).

■ أرنولفو دي كامبيو
(نحو ١٢٤٥-١٣٠٢)

أرنولفو دي كامبيو Arnolfo di Cambio معمار ونحات إيطالي ولد قرب فلورنسة وتوفي فيها. تتلمذ لنيكولا بيزانو Nicola Pisano، وتشبع بخبرات المعلمين القوطيين، ونمت لديه إمكانات تعبيرية واسعة.

من أهم أعماله في العمارة كنيسة سانتا كروتشه بفلورنسة التي بوشر ببنائها عام ١٩٢٥. وهي بناء ضخم يتصف بالوضوح والبساطة وجمال التوزيع. وقد اعترف معاصرو أرنولفو بموهبته الفذة عند البدء ببناء كنيسة سانتا ماريا دل فيورى في فلورنسة عام ١٢٩٦ وأشادوا به على أنه أعظم مصمم للكنائس في مقاطعة توسكانة. وضع أرنولفو مخططات هذه الكنيسة ولكنه لم يشرف إلا على بدايات العمل، وقد استمر العمل بعد وفاته ولم يكتمل إلا بعد ١٣٦٧ عندما قررت مجموعة من المعماريين شكل الأعمال المتممة. أما القبة الهائلة التي تعلو الكنيسة فقد أنشئت في القرن الخامس عشر.

وكانت أعماله النحتية، على غرار إنتاجه



في العمارة، تتصف بالبساطة والوضوح وإهمال التفاصيل الجزئية. نحت في الحجر وفي البرونز سطوحاً واسعة مستوحاة من الفن الإتروسكي [ر. الإتروسكيون] بخلاف بيزانو الذي كان يستلهم اتباعية (كلاسيكية) الآثار القديمة. وكان أرنولفو مبدعاً في أعماله المتسمة بالواقعية. واطلع في رومة على أعمال صناع الرخام، واتصل بالمعلمين الفرنسيين عندما التحق ببلاط الملك شارل دانجيو Charles d'Angio بنابولي وبينهم المعماريون والنحاتون الذين كانوا يعملون في نطاق الأساليب القوطية الخالصة. ومن أعماله في رومة تمثال بطرس الرسول في كنيسة القديس بطرس، وفي أورفييتو النصب التذكاري للكاردينال دى بري Di Braye (في كنيسة القديس دومينيكو)، وفي فلورنسة تمثال البابا بونيفاتشو الثامن (في كنيسة القديسة ماريا دل فيورى).

تمكن أرنولفو من إسباغ معنى شاعري على أعماله مستخدماً الشكل البسيط والحجوم المتينة المتصفة بحيوية فائقة والمستغنية عن الزخرف. وكان أسلوبه نتيجة فهم عميق للفن الإبداعي (الرومنسي) والقوطي، وكان له دور واضح في التمهيد لعصر النهضة.

يُعدّ فن أرنولفو متميزاً بمعنى إنساني يصعب جداً تعلمه وتعليمه، ومثل هذا المعنى موجود لدى جوتو [ر] Giotto وقلائل آخرين.

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- J. POPE - HENNESSY, Italian Gothic Sculpture (London 1955).

■ أرنيم (بتينا فون -) (١٧٨٥ - ١٨٥٩)

بتينا فون أرنيم Bettina von Arnim كاتبة ألمانية اشتهرت بصداقتها لغوته [ر] ومراسلاتها معه، وبكتبها الداعية إلى الإصلاح الاجتماعي وتحرر المرأة. فقدت والديها وهي صبية لم تتجاوز الاثني عشر ربيعاً فكفلتها جدتها صوفي فون لاروش Sophie von la Roch التي نقلتها إلى منزلها من الدير الذي كانت تتعلم فيه بين عامي ١٧٩٣-١٧٩٨.

زارت فرانكفورت عام ١٨٠٦ وغدت صديقة لوالدة غوته التي قدمتها عام ١٨٠٧ إلى الشاعر الذي كان محط إعجابها، وظلت على صلة وثيقة به حتى عام ١٨١١ عندما قطع صلته بها بسبب من سلوكها مع زوجه. تزوجت في العام نفسه زواجاً سعيداً من أخيم فون أرنيم Achim von Arnim الذي التقته أول مرة عام ١٨٠٨، وعندما توفي في عام ١٨٣١ انتقلت إلى برلين حيث كانت تختلف إلى حلقاتها الأدبية والتي كان من أبرز روادها تييك L.Tieck، وف. شلايرماخر F.Schliermacher، والأخوان غريم Grimm ، والأخوان همبولدت Humboldet.

يعد كتابها الموسوم بـ« مراسلات طفل مع غوته » Goethes Briefwechsel mit einem Kinde (١٨٣٥) من أبرز كتبها الثلاثة القائمة على المراسلات. ويكشف عن نقاء عاطفي يكاد يكون كاملاً، وتستند الكاتبة فيه إلى تناول خيالي لمراسلاتها مع غوته أكثر من التوثيق. أما الكتابان الآخران فيقومان على مراسلاتها مع صديقتها كارولين فون غونديرود Karoline von Günderode وأخيها كليمنس برنتانو Clemens Brentano . ومما تتميز به هذه الكتب الثلاثة سحرها الخاص، وعذوبة المشاعر التي تنطوي عليها، فضلاً عن دفء القلب الذي تصدر عنه. ولكنها لما كانت تقوم على تقطيع المراسلات حيناً، وعلى اختزالها وتركيزها حيناً آخر، وعلى الاختراع ثالثاً، أو باختصار على تدمير النص الأصلي لهذه المراسلات، فإنها غير أثيرة لدى الباحثين الذين يميلون إلى التوثيق والدقة والأمانة.

كانت وفاة زوجها نقطة تحول مهمة في حياتها. فقد انصرفت بعدها إلى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية والسياسية وكانت لها آراء تقدمية حول المرأة وتحررها فضلاً عن ميولها الاشتراكية التي أبانت عنها كتبها المتصلة بالإصلاح الاجتماعي والتي ربما كان من أبرزها « هذا الكتاب ينتمي للملك » Dies Buch gehört dein Konig (١٨٤٣)، وهو دعوة ساذجة للملكية لتحسين الشروط الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بعمال نسيج السيليزي؛ وكتاب « محادثة مع شياطين » Gespräch mit Dämonen (١٨٤٩). وقد نشرت أعمالها الكاملة Sämtliche Schriften عام ١٨٥٣ في مجلدين.

عبد النبي اصطيف

مراجع للاستزادة:

- R. WELLEK, A History of Modern Criticism : 1750-1950, The romantic Age (Jonathan Cape, London 1955).

■ أرّنيوس (سفنت أوغست -) (١٨٥٩-١٩٢٧)

سفنت أوغست أرّنيوس Svant August Arrhenius كيماوي وفيزيائي سويدي وضع نظرية تأين (تشرد) الكهرليتات ionization of electrolytes في ضوء معادلة سرعة التفاعل الكيمياوي، وقد أدى عمله إلى ولادة علمي الكيمياء الفيزيائية والكيمياء الكهربائية، وكان أول سويدي يمنح جائزة نوبل في الكيمياء لعام ١٩٠٣م.

ولد أرّنيوس قرب أبسالة في السويد، وفي سنة ١٨٨١م وبعد قضائه خمس سنوات في جامعة أبسالة ذهب إلى استوكهولم حيث قام بقياس موصليات (ناقليات) المحاليل الكهرلية. وفي سنة ١٨٨٤م تقدم إلى جامعة أبسالة بأطروحة لنيل شهادة دكتور في الفلسفة، بسط فيها هذه القياسات، وعرض نظرية تفسر سلوك المحاليل الكهرلية في حالة التفكك الجزيئي. وكانت هذه النظرية، التي أهلته لنيل جائزة نوبل، ثورية للغاية حتى إنها أربكت ممتحنيه الذين أعطوه أدنى درجة نجاح.

كتب أرّنيوس سنة ١٨٨٧م نسخة منقحة عن نظريته في التأين الكهرليتي، ذكر فيها أن

بعض جزيئات المحلول الكهرلي تنشطر إلى أيونات (شوارد) موجبة وأيونات سالبة عندما تكون في محلول مائي، وأن حالة التأين هذه تكون ممراً كهربائياً مستقلاً عبر المحلول. وقال أيضاً إن درجة تأين المحلول الكهرلي ترتفع بازدياد تمديده، وبينت التجارب الأخيرة أن هذه العلاقة صحيحة في حالة المحاليل الكهرلية الضعيفة ولكنها غير صحيحة في حالة المحاليل الكهرلية القوية.

كشف أرّنيوس سنة ١٨٨٩م تسارع التفاعلات الكيمياوية تسارعاً غيرعادي عند ارتفاع درجة الحرارة. فمع أن متوسط طاقة الجزيء يزداد بمقدار ١٪ عندما تزداد درجة الحرارة بمقدار درجة واحدة، فإن معدل التفاعل غالباً ما يتضاعف عندما تزداد درجة الحرارة بمقدار ١٠ درجات.

وقد شملت بحوث أرّنيوس ظواهر الكهرباء الجوية ولزوجة المحاليل، واهتم كذلك ببنية الكون ووضع فرضية فحواها أن الحياة على الأرض يمكن أن تكون قد نشأت من كواكب أخرى وأن أول متعض (كائن حي) أرضي يمكن أن يكون أبواغاً حية أتت عبر الفضاء بفعل ضغط ضوء النجوم.

أنتخب أرّنيوس عام ١٩٠١ م عضواً في أكاديمية العلوم السويدية، وأصبح في عام ١٩٠٥م مديراً عاماً لمعهد نوبل للكيمياء الفيزيائية، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته. ومن بين مؤلفات أرّنيوس: «الكيمياء الكهربائية» Electrochemistry (١٩٠١) و«عوالم قيد الصنع» Worlds in the Making (١٩٠٨)، و«القوانين الكمية في الكيمياء الحيوية» The Quantitative Laws in Biological Chemistry (١٩١٥) ، و«أقدار النجوم» The Destinies of the Stars (١٩١٨)، و«الكيمياء في الحياة المعاصرة» Chemistry in Modern Life (١٩٢٣).

ج.ت

■ الإرهاب ← الجرائم (أنواع-)

■ الإرهاب الدولي

الإرهاب الدولي International Terrorism ظاهرة أصبحت حديثاً محور اهتمام المنظمات الدولية والدول والأفراد. وحينما أشاعت القوى الاستعمارية والعنصرية والصهيونية وقوى أخرى هذا المصطلح «الإرهاب الدولي»، أو تحدثت عنه في سياساتها ومواقفها، خلطت فيه الإرهاب الإجرامي بنضال الشعوب في سبيل تقرير مصيرها، وكفاح الجماعات ضد الظلم الاجتماعي.

وقد أحدث هذا الخلط المقصود تشويشاً في منهجية معالجة شؤون الإرهاب الدولي، بتعاريفه ومفاهيمه ومنظماته وعملياته والأسباب الكامنة وراءه والتدابير لمكافحته.

تعريف الإرهاب الدولي ومفهومه

لا تعريف لـ«الإرهاب الدولي» متفقاً عليه، سواء في القانون الدولي أو في تعامل المنظمات الدولية. وثمة أكثر من دولة أو جهة صاغت تعريفاً يعبّر عن وجهة نظرها. حتى إن بعض الدول كالولايات المتحدة الأمريكية تتبنى أكثر من تعريف واحد في الوقت نفسه خدمة لأغراضها السياسية. غير أن سمات وأوصافاً وسُمت بها الأعمال الإرهابية، وأفكاراً أحاطت بمفهوم الإرهاب الدولي، يمكن، انطلاقاً منها، تلمس بعض الملامح المميّزة لمصطلح «الإرهاب الدولي».

ولم تتفق الموسوعات والمعجمات الأجنبية أيضاً على تعريف «الإرهاب الدولي» وإن تحدثت عن بعض ملامحه. ويشير شميدت في آخر مؤلف له عن «الإرهاب السياسي» إلى أنه عثر حتى عام ١٩٨٣ على ١٠٩ تعريفات تتفاوت تفاوتاً كبيراً فيما بينها.

وحينما بدأت الجمعية العامة للأمم المتحدة بحث موضوع الإرهاب الدولي، بوساطة «اللجنة المخصصة المعنية بالإرهاب الدولي»، اصطدمت بخلافات عميقة بشأن تعريف «الإرهاب الدولي»، ثم اقتنعت بأنه لا يمكن الاتفاق على تعريف يوفق بين مختلف وجهات النظر الكثيرة. والعلة في ذلك، أنه وراء هذه الظاهرة، ظاهرة الإرهاب الدولي، تكمن مفاهيم سياسية واجتماعية وقانونية وأيديولوجية متضاربة.

وفي أثناء مناقشات اللجنة، عرضت بعض الدول تعريفاً للإرهاب الدولي، فذكرت أنه مجموعة الأعمال التي تدينها جميع الدول، أيّاً كانت مشاعرها تجاه القضية التي يدّعي مرتكبو هذه الأعمال أنّهم يناصرونها. واستناداً إلى هذا التعريف، طلبت هذه الدول من حركات التحرير الوطني أن تعدّل سلوكها حتى لا تقرن بالجماعات الإجرامية أو الإرهابية التي تسعى إلى ربط نفسها بهذه الحركات، بوجه ما، بغية تحسين صورتها.

وعرّفت دول أخرى الإرهاب الدولي بأنه أي عمل من أعمال العنف يتهدد الأرواح البشرية البريئة بالخطر، أو يقضي عليها، أو يتهدد بالخطر حرياتها الأساسيّة، ويؤثر في غير دولة واحدة، ويهدف، بوصفه وسيلة من وسائل الضغط، إلى تحقيق غاية محدّدة سياسية أو أيديولوجية أساساً.

وحينما عقدت دول أوربة الغربية الأعضاء في المجلس الأوربي «الاتفاقية الأوربية لمكافحة الإرهاب-١٩٧٧»، لم تعرّف الإرهاب، واكتفت بسرد أعمال محدّدة، هي، في نظرها، أعمال من الإرهاب الدولي واهتمت بموضوع تبادل مرتكبي هذه الأعمال. وفي عدد تشرين الأول ١٩٨٤ من المجلة العسكرية الأمريكية تعريف للإرهاب بأنه «الاستخدام غير القانوني للقوة أو العنف، أو التهديد بهما، من منظمة ثورية ضدّ الأفراد أو الممتلكات، مع نيّة إكراه الحكومات أو المجتمعات، لتحقيق أغراض، هي، غالباً، أيديولوجية». وأسهمت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في تعريف «الإرهاب الدولي»، فقالت إنه العمل العنفي الذي يرتكبه أجنبي في دولة ما، أو العمل العنفي الموجّه ضدّ شخص أجنبي في بلد المجرم وبذلك يُخرج هذا التعريف من إطاره الأعمال العنفية التي يرتكبها مواطنو دولة ما في الدولة نفسها.

وثمة خلاف جوهري حول مفهوم الإرهاب الدولي، يكمن في جانبه السياسي. فكثيراً مايكون للعمل الواحد تفسيران على الأقل. فهو، بحسب أحد التفسيرين، حالة من حالات الإرهاب تجب إدانته ومكافحته على أنه جريمة، وهو، في الوقت نفسه، وبحسب التفسير الآخر، شكل من أشكال المعارضة السياسية والكفاح من أجل حقوق الإنسان، أو الحقوق السياسية

والاجتماعية والاقتصادية للشعوب والأفراد، أو حق تقرير المصير، حتى أصبح دارجاً القول إن من هو إرهابي في نظر أحدهم هو مناضل من أجل الحرية في نظر الآخرين.

وعلى هذا فإن التعاون الدولي لقمع الإرهاب لا يمكن أن تترسخ أسسه، إلا إذا تواضعت الدول على تعريف الإرهاب الدولي، وتحديد مفهومه، ورصد الأسباب والدوافع إليه، ومعالجتها، وإزالتها. وهذا هو الجانب السياسي من الإرهاب الدولي، وهو جانب يؤلف محور الخلاف الذي يصعب تجاوزه أو التغاضي عنه في إطار النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي العالمي الراهن.

ويمكن تحديد سمات العمل الإرهابي بأنه عمل عنيف، يعرّض الأرواح والممتلكات للخطر، أو يهدّد بتعريضها له، وهو موجه إلى أفراد أو مؤسسات أو مصالح تابعة لدولة ما، ويقوم به أفراد (أو جماعات) مستقلون أو مدعومون من دولة ما، وقصده تحقيق أهداف سياسية.

وتؤلف السمة الأخيرة، أي الهدف، المشكلة المحورية لمفهوم العمل الإرهابي. ذلك أن تحديد شرعية العمل الإرهابي أو عدم شرعيته، أي كونه حقاً أو باطلاً، يرتبط بكون الهدف السياسي نفسه مشروعاً أو غير مشروع، فإن كان مشروعاً، سقطت صفة «الإرهاب» بمعناها الإجرامي عن العمليات العنيفة التي تقوم بها الجماعات الممارسة لها، مثل حركات التحرير الوطني، أو الجماعات المناضلة ضدّ الاستعمار والاحتلال والسيطرة والعنصريّة والصهيونية والظلم الاجتماعي.

ومصطلح «الإرهاب الدولي» يقبل تفسيرات متنوعة، تختلف باختلاف المفاهيم الفلسفية السياسية والاجتماعية. وهو مصطلح أوجدته واستعملته دول الاستعمار والاحتلال والعنصريّة والقهر في وصف المقاومين لسياساتها، كما استعملته أنظمة الحكم الدكتاتوريّة لتجريح خصومها والنيل من سمعتهم.

إن حصيلة مجموعة القرارات التي أصدرتها الأمم المتحدة، بجمعيتها العامة ومنظماتها ولجانها المتخصصة، تحدد مفهوم الإرهاب الدولي بتلك الأعمال التي «تعرض للخطر أرواحاً بشرية بريئة، أو تودي بها، أو تهدّد الحريات الأساسية، أو تنتهك كرامة الإنسان»، وتصف الإرهاب بأنه «بلاء إجرامي»، وتشير بوضوح إلى «الإرهاب الرسمي» الذي تمارسه دول، حين حددت حالات معينة يولد فيها أو من جرائها، الإرهاب الدولي. وهذه الحالات هي: «الاستعمار، والعنصرية، والحالات التي تنطوي على انتهاكات كثيرة وصارخة لحقوق الإنسان والحريات الإنسانية، والحالات التي يوجد فيها احتلال أجنبي». وهي حالات لاتنشئها أو تسبب نشوءها، أو توفر الظروف والعوامل لنشوئها، إلا الدول، لهذا فإنها تندرج في فئة «الإرهاب الرسمي» أو «إرهاب الدولة».

نشأته وأسبابه وتطوره

الإرهاب، عامة، ظاهرة من ظواهر الاضطراب السياسي في العصر الحديث مع أنه عرف أكبر أشكاله قديماً في المدة بين عامي ٦٦ ـ ٧٤م على يد عصابة يهودية في فلسطين عُرفت باسم «السيكاري» Siccari. وهو، بوصفه تعبيراً وممارسة، قد ظهر بصورة أوضح من ذي قبل، منذ نحو قرنين، حين برز فكراً وواقعاً، في العام ١٧٩٣. ففي العهد الذي يطلق عليه في فرنسة «عهد الرهبة» (من ١٠/٣/١٧٩٣ إلى ٢٧/٧/١٧٩٤) أي في أثناء الثورة الفرنسية، مارس زعماء ذلك العهد، وفي مقدمتهم روبسبيير، وسان جوست، ودانتون، العنف السياسي على أوسع نطاق. فقد قطع هؤلاء، بالمقصلة، رؤوس أربعين ألفاً من الفرنسيين الذين كانوا يعدّون، يومئذ، ٢٧ مليون نسمة، أما المعتقلون فقد بلغ عددهم نحو ٣٠٠ ألف إنسان.

وكاد السناتور جوزيف مكارثي يصبح «روبسبيير القرن العشرين» (١٩٥٠ـ١٩٥٤) في الولايات المتحدة الأمريكية. إلا أن اتهاماته بالخيانة للألوف لم تصل إلى حدّ قطع الرؤوس.

والإرهاب المعاصر ظاهرة أوربية المنشأ، وقد دشنت الثورة الفرنسية (١٧٨٩) الإرهاب بمفهومه الحديث، ومارسته «باسم الشعب، ودفاعاً عن الشعب، وتولت أمره لجان منبثقة من الشعب».

وفي القرن التاسع عشر، ظهرت حركات ومنظمات سياسية في أوربة استخدمت الإرهاب وسيلة لبلوغ أهدافها السياسية. ومن أبرز هذه الحركات حركتا الفوضويّة والعدمية، ويجمع بينهما أساس فكري واحد، هو رفض السلطة بكل أشكالها، وتهديم المؤسسات السياسية والاقتصادية بالقوة، وتمجيد حريّة الفرد.

وقد تكون هناك خيوط فكرية تربط مابين هاتين الحركتين والحركات السياسية الإرهابية المعاصرة في أوربة الغربية، مثل «الألوية الحمراء» في إيطالية، و«جماعة بادر ـ ماينهوف» في ألمانية «والعمل المباشر» في فرنسة، فهي تنتهج الأسلوب الإرهابي نفسه، وتعتمد مفاهيم فلسفية عن العنف تتقارب مع المفاهيم الفوضوية.

وظهر في القرن العشرين، في أوربة مفكرون وفلاسفة أسبغوا الشرعية على العنف، رداً على الاستلاب الذي يمارسه المجتمع الاستهلاكي الرأسمالي تجاه الفرد. فهوبرت ماركوز وصف نظام المجتمعات الصناعية المتقدمة بالعدو، وسوّغ الاستعانة حتى بالوسائل غير المشروعة، إن لم تُجْد الوسائل المشروعة، في مواجهة مظالم ذلك النظام.

لقد أصبحت كلمة «الإرهاب» مصطلحاً متداولاً في الخطاب السياسي المعاصر وكانت أوربة هي الموقع الذي أحيا هذه الكلمة، وأعطاها معاني متعددة، استمدها من الفلسفات التي سوغت استخدام الإرهاب وسيلة، ومن الحركات والمنظمات والجماعات التي استخدمت هذه الوسيلة، سواء في أوربة أو أمريكة. وعلى هذا، فالمصطلح، في الأصل، ذو جذور أوربية ـ أمريكية.

ولقد تطور استعمال مصطلح الإرهاب الدولي فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وخاصة في إثر وراثة الولايات المتحدة الامبراطوريات الاستعمارية المنهارة، ونشوء ظاهرة الاستعمار الجديد، ومحاولة الولايات المتحدة مدّ سيطرتها ونفوذها على أكبر مساحة من العالم، بوساطة الأحلاف والتكتلات العسكرية والاقتصادية.

ولقد نحت مجموعة كبيرة من الدول نحو الاستقلال عن هذه الأحلاف والتكتلات، مبتعدة عن الحرب الباردة ومشكلاتها، وقد أدى الصراع السياسي بين العالم الرأسمالي والدول التي تريد أن تكون تنميتها مستقلة في إطار حق تقرير مصيرها واختيار سياساتها الاقتصادية والاجتماعية، إلى لجوء العالم الرأسمالي إلى إجراءات مختلفة كان في جملة مانجم عنها معاناة هذه الدول من مشكلات سياسية واقتصادية. ومن هنا انطلقت تهمة «الإرهاب

الدولي» لتلصق بهذه الدول الخارجة على إرادة الدول الرأسمالية. وبحركات التحرير الوطني التي تناضل لاستقلال بلدانها والتخلص من الاحتلال والعنصرية والاستعمار الاستيطاني. ومن هنا جاء هذا الخلط المقصود بين الإرهاب الدولي وحق تقرير المصير للشعوب أو الكفاح المسلح من أجل التحرر الوطني وهو خلط عملت أجهزة الثقافة والإعلام الأوربية والأمريكية على تثبيته وتعميقه وتعقيده.

ويرتبط الإرهاب الدولي، بوجه عام، بأزمة بنّيوية في النظام العالمي، وبوجه خاص بالغرب الذي يعاني خللاً منهجياً أساسيّاً انعكس على النظام العالمي، وكوّن الأساس في خلق دائرة العنف التي ولدت الإرهاب.

وهذه الأزمة البنيوية هي أزمة رؤية حضارية في أساسها. فقد وضع الغرب لنفسه مقاييس لا يعترف بها لغيره. ويريد فرضها على النظام العالمي. فمقاومة النازيّة مشروعة بكل الأساليب، وفيها الكفاح المسلح، أمّا مقاومة الاستعمار والاحتلال والاستعمار الجديد والعنصرية والصهيونية فهي غير مشروعة، ولذا فهي إرهاب في نظر تلك الرؤية الغربية.

وللإرهاب الدولي أسباب تكمن في أساس نشوئه. وهي كثيرة ومتنوعة، ويمكن تصنيفها في فئتين: أسباب ذات طبيعة سياسية، وأسباب ذات طبيعة اقتصادية واجتماعية.

أما الأسباب ذات الطبيعة السياسية فهي الاستعمار والاستعمار الجديد والحفاظ على السيطرة الاستعمارية، والعنصرية والتمييز العنصري والفصل العنصري والصهيونية، والعدوان. واستخدام القوة لانتهاك الاستقلال السياسي للدول أو سيادتها أو سلامتها الإقليمية، واحتلال أراض أجنبية أو السيطرة عليها أو على شعوبها، والتدخل في الشؤن الداخلية للدول الأخرى، والإرهاب واسع النطاق ضد الشعوب، بهدف فرض السيطرة عليها وما ينجم عن ذلك من خروج الأهالي من ديارهم، وسياسة التوسع والهيمنة.

ـ وأما الأسباب ذات الطبيعة الاقتصادية والاجتماعية فهي: استمرار النظام الاقتصادي الدولي الجائر وغير المنصف، والاستغلال الأجنبي لموارد البلد الطبيعية، وقيام دولة أجنبية بالتدمير المنظم للهياكل البشرية أو السياسية والاقتصادية أو الاجتماعية لبلد آخر، وعرقلة التنمية المستقلة للبلدان النامية، والظلم الاجتماعي والاستغلال السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وانتهاك حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، والحبس الجماعي، والتعذيب، والانتقام وعدم المساواة، والتهجير الإجباري. والطرد الجماعي. والنزع من الوطن والاستعباد والقهر.

ومن الجدير بالذكر أن لجنة الأمم المتحدة المعنية بالإرهاب الدولي رفضت، بأكثرية أعضائها، الحجة القائلة: إن من المهم اتخاذ تدابير عاجلة ضد الإرهاب الدولي من دون محاولة القضاء على أسبابه، ذلك أن دراسة الأسباب تلقي مزيداً من الضوء على المسألة برمتها، إذ توجه الأنظار إلى أوضاع معينة تتولد فيها الأسباب ومن ثم الأعمال العنيفة. كما أن دراسة الأسباب تساعد كثيراً على توضيح مفهوم الإرهاب الدولي ومحاولة تعريفه.

ويكاد الأمين العام للأمم المتحدة يكرر في كل عام منذ ١٩٧٢، القول: إن أعمال الإرهاب ومظاهره قد انتشرت في جميع أنحاء العالم تقريباً، وتصعب، أحياناً، مواجهتها لأنها تنطوي على أعمال يائسة من أشخاص يائسين، يرغبون في انتهاك القانون الوطني أو الدولي، مجازفين بأرواحهم، ويتمثل الجانب المفجع من هذه المشكلة في تزايد فقد أرواح بريئة من المدنيين.

فقد شهد العالم ٤١٥ حادثة إرهابية دولية في عام ١٩٧٣، انخفضت إلى ٤٠٥ في عام ١٩٧٥، ونال أوربة في عام ١٩٧٤ نحو ٤٥٪ من الحوادث الإرهابية. وكانت أمريكة اللاتينية مسرحاً لـ١٩,٨٪ من الحوادث، والشرق الأوسط مسرحاً لـ١٧,٢٪.

وفي عام ١٩٧٥ أصاب الإرهابيون نجاحاً كاملاً في ٣٩,٣٪ من عملياتهم، ونجاحاً جزئياً في ١٣,٤٪ وأخفقوا في ٢٠,٩٪ وبقيت نسبة ٢٦,٤٪ من دون معلومات عنها. وأدت عمليات ١٩٧٥ إلى مقتل ٦٣٩ شخصاً، وجرح ٨٣٣ آخرين، وخطف ١٢٥ شخصاً، وحجز ١٠٤٠ آخرين. في حين كان عدد القتلى ٣٤٩ شخصاً في عام ١٩٨٥.

وأسهمت ٦٤ جماعة إرهابية دولية في عمليات عام ١٩٧٥، أي بزيادة نحو ٢٠ جماعة على تلك التي شاركت في عمليات عام ١٩٧٤. غير أن نحو ٥٠٪ من العمليات نفذت على أيدي نحو ١٢ جماعة إرهابية.

وفي عام ١٩٨٦ وقعت نحو ٨٠٠ حادثة إرهاب دولي، فيما يزيد على ٨٠ دولة، أدت إلى وقوع نحو ٢٠٠٠ إصابة. في حين كان مجموع حوادث الإرهاب الدولي في العام ١٩٨٤ نحو ٧٠٠ وفي عام ١٩٨٣ نحو ٥٠٠. وبلغ مجموع الضحايا ٢٠٩٣ من القتلى و٤٣٤٩ من الجرحى في مدة خمس سنوات (١٩٧٩-١٩٨٣).

وقد أحصت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الأعمال الإرهابية الدولية التي وقعت بين العامين ١٩٦٥و ١٩٧٦ (أي في مدة ٩ سنوات) فبلغت ١١٥٤ حادثة، منها ٤٥١ في أوربة الغربية (أي نحو ٤٠٪) أما الأعمال الإرهابية الوطنية (أي التي يقوم بها مواطنون من الدولة نفسها) فقد بلغت في إيطالية ٧٥٠ حادثة في العام ١٩٧٦, و١٣٠٠ في عام ١٩٧٧ و٣٠٠٠ في العام ١٩٧٨.

وتستدل أجهزة الأمن في الدول الأوربية على وجود منظمات إرهابية دولية فوق أراضيها، بعدة مؤشرات، منها سرقة ٧٥ قنبلة من قاعدة أمريكية في ألمانية الاتحادية، في ٢٦/ ٦/١٩٧٢. وقد سرقتها عصابة «بادر- ماينهوف» (فصيل الجيش الأحمر). وثبت، بعد ذلك أن ثلاثاً من هذه القنابل ألقتها زمرة من «الجيش الأحمر» الياباني على السفارة الفرنسية في لاهاي يوم ١٣/٩/١٩٧٤. وألقيت قنابل أخرى، من النوع نفسه أمام مكاتب ثلاث صحف في باريس، في شهر آب ١٩٧٤. ويبدو أن بقية القنابل أعطيت إلى جيش التحرير في إيرلندة.

أشكاله ووسائله

يمكن القول إن فلسفة الإرهاب واحدة في جميع الحالات. فهي تهدف إلى إنهاك أو تعويق أو قتل أو تدمير المؤسسة التي يعتقد الإرهابي أنّها هي العدو. غير أن الأسباب المؤدية إلى استخدام العنف في بلوغ الهدف يختلف بعضها عن بعض، اختلافاً يؤدي إلى نشوء أكثر من شكل من الإرهاب. وإذا طرحت جانباً الأفعال التي يرتكبها أصحابها بهدف الانتقام الشخصي أو بدوافع إجرامية، فيمكن تصنيف أشكال الإرهاب في ثلاث فئات.

وقبل تعريف هذه الفئات، لا بدّ من الإشارة إلى ملاحظتين يجب الانطلاق منهما في النظر

إلى تلك الفئات، وتعدّ الملاحظتان جزءاً لا يتجزأ من إدراك فكرة جعل أعمال الإرهاب في فئات، ومن فهم معنى الإرهاب بوصفه عملاً مرفوضاً ومداناً وغير إنساني، وفهم معنى النضال من أجل الحق والعدالة، بصفته عملاً مقبولاً ومصوناً بالقانون الدولي.

والملاحظة الأولى هي أن أي عمل عنفي هو نسبي. ففي حين ترى الجماعة الأخرى أنه إرهاب. والحكم الفصل هو القانون الدولي وما استنّه المجتمع الدولي من مبادئ وقواعد قانونية ولو ظلت نظرية.

أما الملاحظة الثانية في أن إطلاق مصطلح «الإرهاب الدولي» على أعمال النضال في سبيل التحرر من الاستعمار والاحتلال والسيطرة والعنصرية والصهيونية والظلم الاجتماعي، هو تعميم غير عادل من وجهة نظر القانون الدولي وما أقرته الأمم المتحدة من حقوق ثابتة للشعوب، ومن هذه الحقوق حق تقرير المصير والاستقلال.

يمكن تصنيف الإرهاب في ثلاث فئات رئيسة على الوجه التالي:

- إرهاب ضدّ نظام قائم، بهدف الإطاحة به، واستبدال نظام آخر به، وإرهاب مضاد يقوم به النظام ضد أعدائه ولو عبر حدود دولته.

- إرهاب تلجأ إليه ثورات بعد وصولها إلى السلطة بغية تصفية آثار العهد السابق.

- إرهاب قد تمارسه بعض منظمات التحرير الوطني، عند عجزها عن شنّ حرب تحرير واسعة النطاق، أو عند مواجهة قوة مسلحة أقوى منها بكثير، أو من أجل نشر القلق والفزع بين قوات الاحتلال. وهذا الشكل من «الإرهاب» نضال مشروع يدرجه أعداؤه، بطلاناً، تحت مصطلح «الإرهاب الدولي».

واستناداً إلى أن العمليات الإرهابية قد تؤدي إلى قتل أناس قد يكونون أبرياء، وتثير مشاعر الناس وخوفهم، تتذرع الدول المعادية للتحرر الوطني وحق تقرير المصير للشعوب بمبدأ الدفاع عن النفس، أو تصنّف عملياتها المضادة تحت مصطلح «الإرهاب ضد الإرهاب» أو «الإرهاب الأبيض».

وللإرهاب الدولي وسائل كثيرة يستخدمها، منها: الاغتيال، وأخذ الرهائن، وخطف الطائرات ونسفها، وخطف السفن، وإلقاء القنابل.

وتستخدم وسيلة الاغتيال، في حالات ضدّ القادة والمسؤولين من العدو. وقد يكون لها أثر بعيد ومهم، مثل ماجرى في عام ١٩١٤، حينما كان اغتيال ولي عهد النمسة وزوجته، في سرايفو، أحد الأسباب المباشرة لنشوب الحرب العالمية الأولى، التي أودت بحياة أكثر من عشرة ملايين إنسان.

ويهدف احتجاز الرهائن إلى المساومة عليهم، أو توظيف الخطر المحدق بحياتهم في تحسين الموقع التفاوضي للخاطفين. ومفهوم الرهائن يشمل غير العسكريين وغير المقاتلين والذين لا يحملون السلاح.

والغرض من خطف الطائرات والسفن هو المساومة لتحقيق أهداف يحددها الخاطفون ويساومون عليها، وقد توسع استخدام هذه الوسيلة. ففي حين لم تقع في عام ١٩٥٠ سوى ثلاث حوادث فقط، شهد العالم في العقدين من ١٩٥١ إلى ١٩٧٠, ١٦٤ حادثة خطف، أي بمعدل ٨,٢ حادثة في العالم الواحد. أمّا خطف السفن فنسبته أقل من ذلك بكثير، إذ لم تقع في الثمانينات سوى حادثة واحدة.

يضاف إلى ذلك، أن حرب العصابات وحرب التحرير الشعبية موئلان مهمان لاستخدام وسائل الإرهاب المختلفة، ولاسيما للرد على الأعداء الذين يلجؤون إلى استخدام جميع وسائل الإرهاب المتاحة لهم.

ثمة وسيلة أخرى، لم تستخدم بعد، ولكنها دخلت حيز الاهتمام. وهي وسيلة السلاح النووي. ويذهب ريتشارد فولك إلى أن لجوء الرئيس ترومان لإلقاء القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما في ٦/٨/١٩٤٥ كان أول مظهر من مظاهر الإرهاب النووي لأن القصد من القنبلة لم يكن سكان هيروشيما بل حكام طوكيو بأن أمامهم خيار الاستسلام أو الموت بالذرة. ويشير تقرير أعدته «الوحدة الدولية الخاصة لمعالجة الإرهاب النووي» (واشنطن ١٩٨٧)، التي تضم خبراء من أمريكة وأوربة واليابان إلى احتمال حيازة «مجموعات إرهابية» سلاحاً نووياً، لاستخدامه في بلوغ أغراضها. وقال التقرير إن وسائل هذا النوع من الإرهاب - الإرهاب النووي - كثيرة، منها: سرقة القنابل النووية الجاهزة للاستخدام، وسرقة المواد النووية وصنع سلاح نووي بدائي، وتخريب المفاعلات والمواقع النووية، والسيطرة على المفاعلات والمواقع النووية والمساومة عليها، واستخدام التهديد النووي المزيف.

ويرى التقرير أن أية وسيلة من هذه الوسائل هي «إرهاب نووي» يخشى وقوعه، ويهدد المجتمعات الغربية ويبتزها. وإضافة إلى ذلك، يؤدي وقوع السلاح النووي في أيدي جماعة إرهابية إلى تقويض مبدأ الردع الذي حال، حتى اليوم، دون وقوع حرب نوويّة بين القوى النوويّة في العالم، وعلى هذا فإن مشكلة «الإرهاب النووي» تبدو أخطر أنواع انتشار الأسلحة النووية، ولا سيما أن الأسلحة النووية ومفاعلاتها ومؤسساتها ومخازنها موجودة في مناطق عمل الجماعة الإرهابية الرئيسية. ويستند التقرير في رأيه هذا إلى وقوع ١٥٥ حادثة هجوم أو «تظاهر عنيف ضدّ المواقع النووية المدنية في أوربة والولايات المتحدة في العقدين الماضيين» (١٩٦٦-١٩٨٥).

يضاف إلى هذا، أن الخيار النووي - في رأي التقرير - ليس الخيار الوحيد المتوافر للجماعات الإرهابيّة في مجال أسلحة التدمير الشامل. فهناك أسلحة كيمياويّة وبيولوجية (جرثوميّة) كثيرة. واحتمال حصول الجماعات الإرهابية على بعضها أقل صعوبة من الحصول على السلاح النووي.

والجدير بالذكر أن الإرهابيين الصهيونيين هم أوّل من أدخل أسلوب الرسائل والطرود الملغومة، وأسلوب التخريب الاقتصادي، في العمل الإرهابي. والأدلة على ذلك كثيرة، منها تلك الرسائل التي بعثوا بها إلى بعض المسؤولين البريطانيين في الثلاثينات واغتيال مسؤولين بريطانيين آخرين حتى خارج فلسطين بسبب موقفهم المعارض للحركة الصهيونية وكذلك نسف خط أنابيب النفط قرب حيفا في صيف ١٩٣٩. وقد بلغ الأمر بالصهيونية أنها لم تتورع عن أن تستخدم الإرهاب، بمختلف أشكاله ووسائله، حتى ضدّ اليهود أنفسهم، إذا ماكان ذلك يساعد على تحقيق أغراضها. وثمّة أمثلة كثيرة على ذلك، منها نسف السفينتين «باتريا-١٩٤٠» و«سترومـا-١٩٤٢» وإغراقهما بمن عليهما من ركاب يهود (٢٥٢ على الأولى، و٧٦٠ على الثانية). ومن ذلك أيضاً ما أثبتته الوثائق والمعلومات بشأن تعاون الصهيونية مع النازية قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها، من أجل إجبار اليهود الألمان على الهجرة إلى فلسطين. فكان اضطهاد النازية لليهود الوسيلة

التي اتفق عليها الطرفان من أجل بلوغ ذلك الهدف، وإلقاء القنابل على البيَع والأمكنة التي يتجمع فيها اليهود في بغداد وفي بعض مدن المغرب العربي، في الخمسينات، وتكررت هذه العمليات في عدّة مدن أوربيّة، للغرض نفسه.

جهود الدول في مكافحة الإرهاب الدولي

في إثر حادثة ميونيخ بألمانية الاتحادية (٥/٩/١٩٧٢)، حيث احتجز أربعة فدائيين فلسطينيين فريقاً رياضياً إسرائيلياً، للضغط على إسرائيل كي تطلق سراح معتقلين فلسطينيين تسجنهم، بلا محاكمة وتعذبهم حتى الموت، وبضغط واضح من أمريكة وإسرائيل وحلفائهما، طلب الأمين العام للأمم المتحدة من الجمعية العامة (الدورة ٢٧ عام ١٩٧٢) أن تدرج في جدول أعمالها بنداً عنوانه «التدابير الرامية إلى منع الإرهاب وغيره من أشكال العنف التي تعرّض للخطر أرواحاً بشرية بريئة، أو تودي بها، أو تهدد الحريات الأساسية». وعندما ناقشت الجمعية العامة هذا العنوان، وجد مندوبو دول العالم الثالث، أنه غير متكامل، فهو يُهمل الإشارة إلى الأسباب والدوافع الكامنة وراء الأعمال التي تسمى «إرهابية» وهو يوحي بأن حدود الإرهاب تمتد حتى تشمل أنشطة حركات التحرير الوطني. ولهذا فقد أيدت وفود هذه الدول اقتراحاً عربياً بتعديل العنوان الذي أصبح كما يأتي: «التدابير الرامية إلى منع الإرهاب الدولي الذي يعرّض للخطر أرواحاً بشرية بريئة، أو يودي بها، أو يهدد الحريات الأساسية، ودراسة الأسباب الكامنة وراء أشكال الإرهاب وأعمال العنف التي تنشأ عن البؤس وخيبة الأمل والشعور بالضيم واليأس، والتي تحمل بعض الناس على التضحية بأرواح بشرية، وفيها أرواحهم هم، محاولين بذلك إحداث تغييرات جذرية».

وهكذا توجهت الأمم المتحدة إلى معالجة أسباب الإرهاب الدولي والتوصية باتخاذ تدابير عملية لمكافحته منذ عام ١٩٧٢. وقد ألّفت لجنة أسمتها «اللجنة المتخصصة المعنية بالإرهاب الدولي»، تعرض الدول فيها مواقفها وتصاغ التوصيات التي يتفق عليها.

وتدل مراجعة وثائق الأمم المتحدة ومؤتمراتها في هذا الشأن على أن الخلاف حول تعريف «الإرهاب الدولي» كبير، ولا أمل في الاتفاق على نص توفيقي. ومن هنا جاءت مجاوزة الأمم المتحدة لأمر التعريف، وعكفت على دراسة الأسباب والتدابير.

وقد أجمعت مواقف الدول على أن الأنشطة الإرهابية تهدّد المجتمع الدولي، لأنها تعتمد على استخدام القوة بقصد ارتكاب أعمال عنف ضد شعوب بأكملها، وضدّ بلدان وأفراد، وتؤثر في حياة أناس أبرياء، وفي صحتهم وأمنهم وممتلكاتهم، وتعطّل النشاط الاقتصادي والاجتماعي اليومي للناس، وتزرع بذور الخوف وعدم الثقة بين الدول والشعوب، وتهدّد جهوداً، عمرها سنوات، هدفت إلى تنمية العلاقات الثنائية ومتعدّدة الأطراف بين الدول. وتمثّل تهديداً خطيراً للسلم والأمن الدوليين، وتنتهك مبادئ القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة التي أجمعت الدول والشعوب عليها.

ويستدل من مناقشات الجمعية العامة والدراسات التي عالجت موضوع الإرهاب الدولي، أن هذه الظاهرة معقدة وشائكة، وأنها ذات أصول وأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية، متعددة الجوانب. وإذا كانت بعض الدول تدّعي أنها تحمي حقوق الإنسان الأساسية، ولا سيما حقه في الحياة، فإنها تخفي رغبتها في استغلال ظاهرة الإرهاب الدولي لتحويل انتباه العالم عن الظلم الواقع على بعض الشعوب وحركات التحرير الوطني المكافحة في سبيل استقلالها واستعادة حقوقها وفق مبادئ القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة.

وقد برز في أثناء المناقشات التي استمرت سنوات كثيرة، اتجاهان رئيسان في معالجة موضوع الإرهاب الدولي.

تكتلت معظم الدول الغربية، والدول التي تدور في فلكها، في الاتجاه الأول. وقد رأت هذه الدول أن الإرهاب الدولي قد استفحل ضرره، واتسع نطاقه، وتنوعت أشكاله، وكثرت ضحاياه. فلا يجوز، والحالة هذه، تعليق أمر مكافحة الإرهاب، أو تأجيل اتخاذ التدابير الرامية إلى القضاء عليه، على معالجة الأسباب الكامنة وراءه، وحلّ المشكلات التي أدت إلى نشوئه. وإن كان من الضروري معالجة هذه الأسباب، وحل تلك المشكلات، فيما بعد.

وترى هذه الدول أن على أولئك الذين يريدون جذب أنظار العالم إلى قضاياهم، أن يجدوا طريقة أكثر تمدناً من الإرهاب، وتكون مقبولة من الجميع، لنشر آرائهم من دون عنف.

وفي غير هذه الحال، تبقى أعمال الإرهاب الدولي مدانة وبغيضة، وتجب مكافحتها بغض النظر عن دوافع مرتكبيها، لأن الدافع وراء ارتكاب الجريمة ليس ذا شأن، وإن كان عاملاً مخففاً في تحديد العقوبة. يضاف إلى ذلك، أن الأعمال التي يشمئزّ منها الضمير الأخلاقي للبشريّة لا تعود بالضرر إلا على القضية نفسها التي يسعى أصحابها إلى خدمتها.

وعلى هذا، يذهب الاتجاه الأول إلى ضرورة قمع الإرهاب الدولي بشدّة، من دون النظر إلى أسبابه ومسوّغاته السياسية، ويدعو إلى قيام تعاون دولي لمكافحته ولا سيما فيما يتعلق بتبادل المعلومات وتسليم الفاعلين ومحاكمتهم.

ويشير أصحاب هذا الاتجاه إلى أن حق الشعوب في الكفاح من أجل التحرير وتقرير المصير لا يجوز أن يتضمن أعمالاً إرهابية ضدّ مدنيين أبرياء، أو أن يؤلف خرقاً أو انتهاكاً لحقوق الإنسان الأساسية، وإنما يمارس ذلك الحق وفق أحكام ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي بوجه عام.

أما الاتجاه الثاني، فقد تكتلت فيه معظم الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، ولا سيما دول العالم الثالث والدول الاشتراكية. ويؤسس أصحاب هذا الاتجاه موقفهم المبدئي على رفض الإرهاب الدولي بمختلف أشكاله، وإدانة أعماله وفاعليها، وعلى أن دراسة التدابير الرامية إلى منعه يجب أن تقترن، في الوقت نفسه، بدراسة الأسباب الكامنة وراءه، من أجل إزالة هذه الأسباب التي يتمثل بعضها بالسياسات الاستعمارية والاحتلالية والعنصرية، واستعمال القوة من أجل التوسع والسيطرة وبسط النفوذ، والتدخل في الشؤون الداخلية للدول. فذلك كله يولد لدى الشعوب والجماعات المقهورة الشعور باليأس والضيم وخيبة الأمل، ويدفعها إلى القيام بأعمال عنف قد تؤدي إلى سفك دماء بريئة.

ويذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى ضرورة أن تشمل دراسة الإرهاب الدولي مختلف أشكاله وأنواعه، ومنها إرهاب الدولة خارج حدودها أي «إرهاب الدولة» الموجه ضد الدول المستقلة والشعوب وحركات التحرر الوطني. ويبنون موقفهم على أساس أن الكفاح من أجل التحرير الوطني، والمقاومة ضد المعتدي في الأراضي التي

يحتلها، والمظاهرات التي يقوم بها المعارضون للاستغلال والظلم الاجتماعي، هي قيم إنسانية، لايجوز قرنها أو شملها بمفهوم الإرهاب. فأي فعل من هذا القبيل، هو مسّ بتلك القيم، وإهانة للعاملين في سبيلها، وخاصة أنهم يناضلون من أجل مبادئ وحقوق أيدتها الأمم المتحدة. وترى هذه الدول أن جميع الصيغ القانونية، التي عالجت بعض أشكال الإرهاب الدولي، وغيرها من الصيغ التي يمكن أن تعالج أشكالاً أخرى منه، مهما كانت تتسم بالكمال، لن تكفي لحل مشكلة الإرهاب، مالم تتخذ التدابير لإزالة الأسباب التي تكمن وراءها. وما إعادة الحقوق إلى الشعوب المستعمرة، أو المنفية من وطنها، أو المسلوبة حقوقها، سوى بعض الطرائق التي يمكن التوصل بها إلى حل حقيقي لمشكلة الإرهاب الدولي.

وفي إثر مناقشات استمرت ثماني سنوات، وافقت الجمعيةالعامة للأمم المتحدة (الدورة ٣٤- القرار ٣٤/١٤٥ تاريخ ١٧/١٢/١٩٧٩) على مجموعة من التدابير العملية من أجل القضاء على مشكلة الإرهاب. وقد تكررت التوصية باتخاذ هذه التدابير- مع تدابير إضافية أخرى - في جميع القرارات التي أصدرتها الجمعية العامة بعد ذلك في الموضوع نفسه. وكانت جميع هذه القرارات تتضمن في ديباجتها النص التالي: «وإذ تؤكد (الجمعية العامة) الحق غير القابل للتصرف في تقرير المصير والاستقلال لجميع الشعوب الخاضعة لنظم استعمارية وعنصرية ولغيرها من أشكال السيطرة الأجنبية، وإذ تقر شرعية كفاحها، وخاصة كفاح حركات التحرير الوطني، وفقاً لمقاصد ومبادئ الميثاق ولإعلان مبادئ القانون الدولي المتعلق بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول وفقا لميثاق الأمم المتحدة».

وفيما يلي موجز لمجموعة هذه التدابير:

- إدانة جميع أعمال الإرهاب الدولي التي تعرّض للخطر أرواحاً بشرية، أو تودي بها، أو تهدد الحريات الأساسية، بوصفها أعمالاً إرهابية، أينما وجدت، وأيّاً كان مرتكبها.

- أن تقضي الدول، بصورة تدريجية، فرادى وبالتعاون فيما بينها، على الأسباب الكامنة وراء أعمال الإرهاب الدولي، وأن تلتمس الحلول العادلة من أجل التصدي لها.

- أن تفي الدول بالتزاماتها، وفقاً للقانون الدولي، بالامتناع عن تنظيم الحرب الأهلية، أو الأعمال الإرهابية في دولة أخرى، أو التحريض عليها، أو المساعدة أو المشاركة فيها، أو قبول تنظيم نشاطات في داخل إقليمها تهدف إلى ارتكاب مثل هذه الأعمال.

- أن تنضم الدول إلى الاتفاقيات الدولية المتعلقة بجوانب مختلفة من مشكلة الإرهاب الدولي، وأن تجعل تشريعها الداخلي منسجماً مع هذه الاتفاقيات، وأن تتخذ على الصعيد الوطني، جميع التدابير المناسبة بغية القضاء السريع والنهائي على مشكلة الإرهاب الدولي.

- أن تتعاون الدول فيما بينها لتبادل المعلومات المتعلقة بمنع الإرهاب الدولي ومكافحته، وأن يتعاقد بعضها مع بعض على تسليم الإرهابيين الدوليين ومحاكمتهم.

- أن تعمل الجمعية العامة لعقد اتفاقية أو اتفاقية دولية إضافية تقوم، في جملة أمور، على مبدأ التسليم أو المحاكمة للإرهابيين الدوليين.

- أن تولي الجمعية العامة ومجلس الأمن، من أجل الإسهام في القضاء على مشكلة الإرهاب الدولي والأسباب الكامنة وراءه، اهتماماً خاصاً لجميع الحالات التي تتولد فيها تلك الأسباب، ومنها الاستعمار والعنصرية والاحتلال الأجنبي، أي الحالات التي تدفع إلى الإرهاب الدولي، وقد تعرض السلم والأمن الدوليين للخطر، وذلك بقصد تطبيق مايتصل بالموضوع من أحكام ميثاق الأمم المتحدة. - أن تطبق الدول التدابير التي أوصت بها منظمة الطيران المدني الدولي، والتي وردت في الاتفاقيات الدولية، لمنع الهجمات الإرهابية على النقل الجوي المدني، وسائر أشكال النقل العام.

وإلى جانب هذه التدابير، نادت بعض الدول بضرورة عقد اتفاقيات دولية جديدة، ترسخ التعاون الدولي لمكافحة الإرهاب، وتؤسس آلياته، وتحدد سبله ووسائله. في حين أشارت دول أخرى إلى أن كثرة المعاهدات والاتفاقيات في هذا الشأن لا تحلّ مشكلة الإرهاب الدولي، لأن المطلوب هو حل جذري، يقضي على الأسباب الجذرية للمشكلة.

وكانت الأمم المتحدة عقدت عدّة اتفاقيات تعالج جوانب معينة من الإرهاب الدولي، من دون معالجة الأسباب والدوافع. وهذه الاتفاقيات هي: «اتفاقية طوكيو بشأن مايرتكب على متن الطائرات من جرائم وأفعال معيّنة أخرى - ١٩٦٣»، و«اتفاقية لاهاي بشأن قمع الاستيلاء غير المشروع على الطائرات - ١٩٧٠»، و«اتفاقية مونتريال لقمع الأفعال غير المشروعة الموجهة ضد سلامة الطيران المدني - ١٩٧١»، و«اتفاقية نيويورك بشأن منع الجرائم المرتكبة ضد الأشخاص المتمتعين بحماية دولية وفيهم الموظفون الدبلوماسيون والمعاقبة عليها- ١٩٧٣»، و«الاتفاقية الدولية لمناهضة أخذ الرهائن - ١٩٧٩».

وفي خارج إطار الأمم المتحدة، هنالك «اتفاقية منظمة الدول الأمريكية بشأن منع أعمال الإرهاب التي تتخذ شكل جرائم ترتكب ضدّ الأشخاص وما يتصل بذلك من أعمال الابتزاز ذات الأهمية الدولية والمعاقبة عليها- ١٩٧١» و«الاتفاقية الأوربية بشأن قمع الإرهاب - ١٩٧٧».

ومن الجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد قدمت إلى «اللجنة المتخصصة المعنية بالإرهاب الدولي» التابعة للأمم المتحدة، مشروع اتفاقية دولية، جوهرها إقامة «نظام أمن دولي مشترك» يهدف إلى مكافحة الإرهاب عن طريق منع الإرهابيين الحصول على أي مأوى أو مكان آمن بعيد عن الملاحقة أو العقاب، في أية منطقة من العالم. ويعدّ المشروع أيّة هجمة إرهابية على أية دولة طرف في الاتفاقية هجمة على جميع الدول الأطراف. وفي الوقت نفسه، أهمل المشروع أية إشارة إلى نضال الشعوب ضد الاستعمار والاحتلال والعنصرية والصهيونية، أو إلى حركات التحرير الوطني، أو حق تقرير المصير.

ولم تأخذ اللجنة بالمشروع الأمريكي، إذ لم تناقشه، ولم تصر الولايات المتحدة على دراسته، بعد أن تأكد لها أن الاتجاه العام في اللجنة يرفض المفاهيم التي تضمنها.

الفارق بين الإرهاب الدولي ونضال الشعوب

استناداً إلى عدم وجود تعريف متفق عليه للإرهاب الدولي، وإلى الاختلاف الكبير في الآراء والمواقف بين الدول واجتهادات المختصين بالقانون الدولي، حيال تعريفه ومفهومه ومجالاته ووسائله وأشكاله، عمدت بعض من الدول وأجهزة الإعلام والثقافة والقانون ومراكز الأبحاث المعادية لحق تقرير المصير للشعوب ونضالها من أجل التحرير والاستقلال إلى خلط الإرهاب الدولي، فكراً وتنفيذاً وأشكالاً

ووسائل، بنضال الشعوب ضد الاستعمار والاستعمار الجديد والاحتلال والسيطرة والعنصرية والصهيونية والظلم الاجتماعي.

ولقد استقرّ العرف الدولي على أن الإرهاب شكل من أشكال العنف. والعنف قرين السياسة، وفي السياسة مجالات عنفية أحياناً. والحرب نفسها عنف سياسي، تمارسه الدول. ولما كانت الحرب امتداداً للسياسة بوجه ما، فإن الإرهاب السياسي، وهو فعل عنفي، هو امتداد لها أيضاً بوجه آخر. وإذا كان مقياس الحكم على الحرب، من حيث شرعيّتها أو عدوانيتها، ومن حيث كونها عادلة أو ظالمة، يعتمد على هدف الحرب وأسبابها، فمن المنطق أن يكون الحكم على الإرهاب السياسي مرتبطاً بالهدف من العملية الإرهابية وبواعثها. وكانت الأمم المتحدة قوّمت الاستعمار ومظاهره في عداد الجرائم. وأكدت أن للشعوب المستعمَرة حقاً طبيعياً في النضال، بكل الوسائل المتاحة، ضد الدول الاستعمارية والسيطرة الأجنبية، ممارسة بذلك حقها في تقرير المصير الذي اعترف به الميثاق وإعلان مبادئ القانون الدولي بشأن العلاقات الودية والتعاون بين الدول.

وحتى يكون المناضلون من أجل حق تقرير المصير، وضدّ السيطرة الاستعمارية والأجنبية والاحتلال والعنصرية والصهيونية، في مركز قانوني معترف به في إطار التنظيم الدولي، أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة (الدورة ٢٨، القرار ٣١٠٣ تاريخ ١٢/١٢/١٩٧٣) مبادئ أساسية لتثبيت ذلك المركز، هذا موجزها:

-إن نضال الشعوب الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية، في سبيل تحقيق حقها في تقرير المصير والاستقلال، هو نضال شرعي، ويتفق تماماً مع مبادئ القانون الدولي.

-إن أية محاولة لقمع هذا النضال هي مخالفة لميثاق الأمم المتحدة، ولإعلان مبادئ القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول.

-إن النزاعات المسلحة التي تنطوي على هذا النضال يجب النظر إليها بوصفها نزاعات دولية مسلحة بالمعنى الوارد في اتفاقيات جنيف (١٩٤٩) الخاصة بالنزاعات المسلحة والوضع القانوني للمتحاربين.

-إن المناضلين ضد السيطرة الاستعمارية والأجنبية والأنظمة العنصرية، إذا ماوقعوا في أيدي اعدائهم يُعدّون أسرى، وتنطبق عليهم أحكام القانون الدولي المناسبة، ولا سيما اتفاقية جنيف الخاصة بمعاملة أسرى الحرب ١٩٤٩.

-إن استخدام الأنظمة الاستعمارية والأجنبية والعنصرية للجنود المرتزقة ضد حركات التحرير الوطني عمل إجرامي. ويعامل هؤلاء معاملة المجرمين.

وكانت الأمم المتحدة قد أخذت بحق تقرير المصير للشعوب، ودوّنته في ميثاقها، وفيما صدر عنها من إعلانات واتفاقيات وقرارات. وأعطت الحق للشعوب في اللجوء إلى كل أشكال النضال، ومنها الكفاح المسلح، من أجل تحرير أوطانها، أو نيل استقلالها. وقد جاء ذلك واضحاً في البرنامج الذي أقرته الجمعية العامة للأمم المتحدة (١٢/١٠/١٩٧٠)، وعنوانه، «برنامج العمل من أجل التنفيذ التام لإعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة»، وفي قرارات أخرى كثيرة، منها القرار الصادر في عام ١٩٧٧ في الموضوع نفسه (الدورة ٣٢)، وفيه هاتان الفقرتان: الأولى، «تؤكد (الجمعية العامة) من جديد شرعية كفاح الشعوب في سبيل الاستقلال والسلامة الإقليمية والوحدة الوطنية والتحرر من السيطرة الاستعمارية والأجنبية، ومن التحكم الأجنبي، بجميع ما أتيح لهذه الشعوب من وسائل وفي ذلك الكفاح المسلح»، أما الفقرة الثانية ففيها: «تؤكد (الجمعية العامة) ما لشعبي ناميبيا وزمبابوي وللشعب الفلسطيني وسائر الشعوب الواقعة تحت السيطرة الأجنبية والاستعمارية من حقوق غير قابلة للتصرف، في تقرير المصير والاستقلال الوطني والسلامة الإقليمية والوحدة الوطنية والسيادة، من دون أي تدخل خارجي».

ويستدل من هذا النص، ومن نصوص دولية مماثلة أخرى كثيرة، أن العنف الذي تمارسه الشعوب (الكفاح المسلح) تأييداً لحقها في تقرير مصيرها، يحظى بالشرعية الدولية، ويأتي دفاعاً عن النفس، ويصبّ في مصلحة السلام العالمي، لأن الاستعمار والاحتلال والسيطرة والعنصرية والصهيونية نقائض للسلام العالمي.

وعلى هذا، يمكن تبين سمات العنف المصاحب للكفاح المسلح إعمالاً لحق الشعوب في تقرير مصيرها، وهو العنف الذي يُصنّفه أعداؤه ومناهضوه تحت مصطلح «الإرهاب الدولي»-يمكن تبين سماته فيما يلي: إنه عنف جماهيري تمارسه جماعات وأفراد من شعب يؤمن بالأهداف التي يستخدم العنف وسيلة لتحقيقها، وهو موجه ضد قوى مستعمرة، أو عنصرية، أو مستغلة لذلك الشعب، ويهدف إلى استرداد الشعب حقه في تقرير المصير، وهو مدعوم بالشرعية الدولية، ويخدم السلام العالمي، ولا يمكن وصفه بأنه عدوان على أحد، فهو دفاع عن النفس، وعنف في مواجهة عنف ظالم أكبر، ولأن المستعمر لا يقتصر وجوده على الأرض المستعمرة، بل إن سيادته تمتد إلى أماكن أخرى، فإن حق استخدام الكفاح المسلح يمتد إلى حيث يوجد المستعمر.

وإذا كانت الأمم المتحدة أعطت الشعوب ومنها الشعب العربي الفلسطيني، الحق في اللجوء إلى الكفاح المسلح ضد القوى المستعمرة، فإنها لم تتطرق، في قراراتها، إلى مجال محدد يمارس فيه هذا الكفاح المسلح. وعلى هذا فإن كل مايخضع لسيادة الدولة المستعمرة يصلح لممارسة الكفاح ضدّها.

وهذه المقولة تتوافق مع مفهوم الجمعية العامة عن «الإرهاب الدولي» حين أخذت بها في «الاتفاقية الدولية لأخذ الرهائن» (١٩٧٩). فبعد أن وصفت الاتفاقية أخذ الرهائن بأنه «عمل يعرّض حياة الأشخاص الأبرياء للخطر، وينتهك الكرامة الإنسانية، قالت في المادة (١٢): «لا تسري هذه الاتفاقية على فعل من أفعال أخذ الرهائن، يُرتكب في أثناء المنازعات المسلحة المُعرّفة في اتفاقيات جنيف عام ١٩٤٩ وبروتوكولاتها، ويدخل في ذلك المنازعات المسلحة التي يرد ذكرها في الفقرة -٤- من المادة -١- من البروتوكول الأول لعام ١٩٧٧، والتي تناضل فيها الشعوب ضد السيطرة الاستعمارية والاحتلال الأجنبي والنظم العنصرية، وممارسة لحقها في تقرير المصير».

إن المقياس الفصل بين الإرهابي والمناضل، أو-مسايرة للمصطلح-بين «الإرهابي المجرم» و«الإرهابي المناضل» يتألف من عنصرين يؤلفان كلاً واحداً، وهما السبب الذي يدفع المناضل أو المجرم للقتال، والهدف الذي يسعى كل منهما إلى بلوغه.

ولقد أكدت الأمم المتحدة، في ميثاقها من حيث المبدأ، وفي كثير من المعاهدات

والاتفاقيات الدولية التي عقدتها، وفي قراراتها، من حيث الأحكام والممارسة، الشرعية الأخلاقية والسياسية لكفاح التحرير الذي تخوضه الشعوب المقهورة، بجميع الوسائل التي بتصرفها. وهذا هو مايميز أعمال التحرير الوطني تمييزاً واضحاً من أعمال الإرهاب. ذلك أن الكفاح الوطني يندرج مع النزاع المسلح في فئة واحدة، ويدخل من الناحية القانونية، في نطاق أحكام اتفاقيتي جنيف للعام ١٩٤٩، الخاصتين بالنزاعات المسلحة. وعلى هذا أيضاً، لا يجوز أن ينتج عن الكفاح ضد الإرهاب الدولي أي تقييد لحقوق الشعوب في نضالها ضد الاستعمار والاحتلال والعنصرية والصهيونية، وضد جميع أشكال القهر السياسي والاجتماعي والاقتصادي.

إرهاب الدولة

ثمة دول، ومنظمات تدعمها دول، تقوم بأعمال إرهابية، سواء في الجهيرة أو السريرة، وقد تستأجر مجموعات من الناس أو الأفراد لتأدية هذه الأعمال. وهذا مايسمى «إرهاب الدولة». وهو أخطر أشكال الإرهاب الدولي، لأنه أداة سياسة القوة والعدوان والبطش والسيطرة والتدخل في الشؤون الداخلية للدولة الأخرى. وهي سياسة ترمي إلى فرض إرادة الأقوى، باستخدام أكثر التقنيات تطوراً، وبالانتقام وقتل الناس الأبرياء. ولهذا فإن الدول التي تتمتع باحتكار القوة وبسوء استخدامها، تؤلف تهديداً للسلم الدولي أخطر بكثير من الأعمال التي يرتكبها أفراد أو جماعات إرهابية. ويتخذ هذا الإرهاب أشكالاً شتى، مثل تهديد الدول الضعيفة عسكرياً أو اقتصادياً، أو استخدام المرتزقة للقيام بأعمال تخريبية.

ولهذا يرى كثير من المختصين بالقانون الدولي، أن إرهاب الدولة، ولا سيما حين يكون علنياً، يدخل في إطار العدوان، أكثر من انتسابه إلى إطار الإرهاب الدولي، وللعدوان مفهومه وتعريفه، وأجهزة دولية لمعالجة شؤونه، في حين أن الإرهاب الدولي لا يزال مفهومه غامضاً، وتعريفه غير محدّد، ولا توجد أجهزة دولية تعالج شؤونه. ويرى آخرون أن العدوان كما عرفه قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة ذو الرقم ٣٣١٤ لعام ١٩٧٤ هو أخطر أنواع الإرهاب ولا سيما في ضوء الأسلحة المستخدمة في الحروب الحديثة التي تتعدى آثارها المحاربين لغيرهم من المدنيين المسالمين.

ويعني «إرهاب الدولة» أن تستخدم الدولة نفسها، أو الجماعات التي تعمل باسمها، أو هي أجيرة لها، وسائل من أجل إرهاب الآخرين في خارج الدولة. وقد يكون هؤلاء الآخرون دولة أو جماعة أو أفراداً. وتستخدم الدولة المُرهِبة القوة الاقتصادية، أو السياسية، أو الإعلامية، أو العسكرية، أو بعضها، أو كلها.

ويتمثل إرهاب الدولة في عدة أشكال منها: تقديم الدعم إلى الأنظمة الاستعمارية، والاحتلالية، والعنصرية، والفاشية، وتقديم الدعم إلى جماعات مسلحة تقوم بثورة مضادة على حكومات وطنية، والوقوف ضدّ حركات التحرير الوطني التي تناضل من أجل حق تقرير المصير لشعوبها، وفرض سياسة معينة على حكومة وطنية ضد إرادة شعبها.

وبالنظر إلى سجل العمليات الإرهابية بمنظار المفهوم الذي رسمت الأمم المتحدة ملامحه، يتبين أن معظمها يندرج في فئة «إرهاب الدولة». ذلك لأن جميع عمليات حركات التحرير الوطني، ونضالات الشعوب الواقعة تحت الاستعمار أو العنصرية أو الصهيونية أو الاحتلال، تدخل في إطار تأييد حق تقرير المصير والاستقلال والتحرير، وأن أسباب هذه العمليات ترتبط بسياسات الدول المستعمرة والأنظمة العنصرية وممارساتها، وهي المسؤولة عن نشوئها.

وفي مقابل ذلك، هناك نسبة ضئيلة من العمليات الإرهابية، تقع المسؤولية المباشرة عنها على كاهل أفراد أو مجموعات قاموا بها بفعل البؤس وخيبة الأمل والشعور بالظلم واليأس، فأقدموا على التضحية بأرواح بريئة، وبأرواحهم أيضاً. أما المسؤولية غير المباشرة عن هذه الأعمال، فترتد إلى الاستعمار والعنصرية والاحتلال الأجنبي والظلم الاجتماعي، وهي الأسباب الكامنة وراء هذا النوع من الإرهاب.

ومما لا ريب فيه أن تجاهل هذه الأسباب، والاستمرار في السياسات والممارسات التي أدت إلى نشوء الإرهاب، يدفعان بالدول المستعمرة والأنظمة العنصرية إلى مهاوي الإرهاب نفسه، فتقع فريسة له، وتمارس إرهاباً رسمياً أشد فظاعة من الأعمال الإرهابية التي واجهتها، فيذهب ضحية «إرهاب الدولة» أبرياء كثيرون جداً.

وهناك أمثلة كثيرة على «إرهاب الدولة»، مثل ما أقدمت عليه السلطات الفرنسية في عام١٩٥٦، حين اختطفت طائرة مدنية مغربية، كان على متنها خمسة من قادة الثورة الجزائرية. وكانت حادثة القرصنة هذه الأولى التي ترتكبها حكومة دولة كبرى لكنها الحادثة الثانية في تاريخ القرصنة الجوية الحديثة بعد حادثة خطف الطائرة السورية المدنية على يد الطيران الإسرائيلي عام ١٩٥٤ وحجز ركابها لمبادلتهم بجواسيس إسرائيليين في سورية.

وبعد عامين، في ٣/١١/١٩٥٨، نظّمت الحكومة الأمريكية حادثة خطف طائرة كوبية، وهو ما أدى إلى مصرع ١٧ شخصاً. وتابعت الحكومة نفسها هذا النوع من العمليات، تنظيماً وتمويلاً وتشجيعاً، في المدة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٤، إذ تم خطف ٤٠ طائرة كوبية هبطت في المطارات الأمريكية. وفي عام ١٩٨٦، أغارت قوات جوية وبحرية أمريكية على مدينتي طرابلس وبنغازي الليبيتين.

وفي عام ١٩٦٨ أغارت القوات الجوية الإسرائيلية على مطار بيروت الدولي، فدمّرت وأحرقت ١٣ طائرة نقل، هي كل الأسطول الجوي المدني اللبناني. وفي عام ١٩٨١، أغارت القوات ا لجوية الإسرائيلية على المفاعل النووي العراقي المصمم لأغراض سلمية، ودمّرته.

هذه أمثلة متفرقة من وقائع كثيرة جداً ارتكبتها دول في إطار «إرهاب الدولة». ولقد تطور مفهوم هذا النوع من الإرهاب، حتى أضاف بعضهم إليه ضروباً وأعمالاً غير ذات شكل عسكري، مثل: قطع إمدادات الحبوب والأغذية، وفرض قيود أو شروط مجحفة على تقديم المساعدات والقروض للدول الصغيرة، وفرض قيود على المنتجات المصنعة للدول الصغيرة، والتلاعب بأسعار المواد الأولية التي تنتجها هذه الدول، وما ماثلها أو شابهها.

وقد استخدمت الولايات المتحدة هذه الوسائل كلها، العسكرية وغيرها، إضافة إلى اعترافها بأنها تقيم في أراضيها معسكرات لتدريب جماعات إرهابية من جنسيات دول أخرى، تسلحهم وتنقلهم إلى أماكن العمليات. وعبّرت الإدارة الأمريكية، بلسان وزير خارجيتها (٣/٤/١٩٨٤) عن اقتناعها بأن الإرهاب الذي تساندة بعض الدول يُعد شكلاً من أشكال الحرب ولم يلق هذا المفهوم القانوني الأمريكي للإرهاب أي صدى لدى أي

حليف من حلفاء الولايات المتحدة، إذ نُظر إليه على أنه موقف سياسي خاص بالدولة التي أعلنته، ولا يرقى إلى مفهوم القانون الدولي.

واستناداً إلي هذا المفهوم الخاص أعلن وزير الخارجية الأمريكي في ٩ / ١٢ / ١٩٨٤ أن على الولايات المتحدة أن تكون مستعدة لشن هجوم وقائي «ضد المخربين والرد على الأعمال الإرهابية، حتى لو قتل في أثناء العملية، مدنيون أبرياء». وعلى هذا، اعتدت الولايات المتحدة على غرينادا، ثم على ليبية في عام ١٩٨٦ مدعيةً، بطلاناً، أن ليبية تؤوي منظمات تخريبية، ووزعت الألغام في شواطئ نيكاراغوا، وخطفت طائرة مدنية مصرية (١٩٨٥). وقد رفضت محكمة العدل الدولية في حكمها الصادر في الدعوى بين نيكاراغوا والولايات المتحدة المفهوم الامريكي وعدّت تصرفات واشنطن مدانة من الناحية القانونية الدولية.

ومن المؤكد أنه لا يوجد في العالم كله مايماثل إسرائيل في ممارستها «إرهاب الدولة». ذلك أن إسرائيل نفسها تأسست بالإرهاب، وعليه، واستمرت في استخدامه، لأنه يؤلف مقوماً رئيساً من مقوماتها، وأساساً من أسس استراتيجياتها العسكرية والسياسية. وما من مسؤول صهيوني أو إسرائيلي، إلا كان إرهابياً في الفكر، أو الممارسة، أو في كليهما معاً. ومن يراجع تاريخ الإرهاب الصهيوني والإسرائيلي، يجد أن معظم القادة والمسؤولين الإسرائيليين هم قادة للمنظمات الإرهابية السرية والعلنية، أو مسؤولون أو عاملون فيها.

ولقد كان الإرهاب، على مدى أكثر من نصف قرن، أحد المقومات الفكرية الأساسية للحركة الصهيونية، وأحد الأساليب التي طبقتها الصهيونية لتحقيق غرضها الأول، وهو إقامة إسرائيل. لذا فقد اقترن إنشاء الكيان الصهيوني بأبشع أشكال الإرهاب وأفظع أنواعه. ثم أخذت إسرائيل عن الصهيونية الإرهاب، فكراً وأسلوباً، لتمارسه ضد الشعب العربي الفلسطيني والدول العربية المجاورة.

وتاريخ الحركة الصهيونية، وإسرائيل حافل بسلسلة طويلة من أعمال الإرهاب والقتل الجماعي، والتراث الفكري الإسرائيلي غنيّ جداً بالأعمال الفكرية التي تعبّر عن الإرهاب، عقيدة ووقائع. فقد نشر قادة الصهيونية وزعماء إسرائيل ومفكروهما مؤلفات كثيرة، بحثوا فيها الإرهاب، عقيدة وسياسة ووسيلة، وتحدثوا عن المنظمات الإرهابية وأيديولوجيتها ونشوئها وتنظيمها وأهدافها وإنجازاتها والجرائم التي ارتكبتها. ويمكن القول إنه ليس في العالم القديم أو المعاصر تراث عسكري أو سياسي، لأي شعب من الشعوب، يشبه التراث الصهيوني والإسرائيلي في الإرهاب.

وعندما فكرت الصهيونية في إقامة دولة يهودية خالصة في فلسطين، رأت أن ذلك لن يتم إلا بإبادة سكان البلاد الأصليين، أو طردهم، عن طريق الإرهاب والترعيب والتخويف. وعلى هذا، ألّف الإرهاب والعنف، منذ البداية، صلب الخطة الصهيونية الرامية إلى احتلال فلسطين.

وهكذا استعملت الصهيونية في غزوها فلسطين، وفي تثبيت كيانها وتوسيع حدود احتلالها وتفريغ فلسطين من أهلها، أساليب كثيرة ومتنوعة منها: القنابل في المقاهي والأسواق وعلى وسائط النقل، والقنابل على الدوائر المدنية والحكومية، والاغتيال السياسي داخل فلسطين وخارجها، وأخذ الرهائن ثم قتلهم ونسف الفنادق، ونسف سفارات أجنبية خارج فلسطين، ولغم سيارات الإسعاف، ونسف المصارف والسطو على أموالها، والرسائل الملغومة خارج فلسطين، ونسف بيوت قروية ومبان سكنية بسكانها، وضرب أحياء مدنية بالمدافع وشن حرب نفسية لحمل المدنيين على الرحيل، ونهب المدن، واغتيال موظفي الأمم المتحدة، ومصادرة جماعية لممتلكات النازحين والغائبين، وهدم قرى مواطنين بكاملها وطرد جماعي لمواطنين من البلاد، وإطلاق نيران الرشاشات على قبائل بدوية من أجل طردهم جماعياً من البلاد، ونسف طائرات ركاب خاصة مع ركابها، واستعمال النابالم ضدّ المستشفيات، وإطلاق النار على أفواج اللاجئين الفلسطينيين، وطرد قادة فلسطينيين واغتيالهم أو محاولة اغتيالهم، وضرب المدن وفيها المستشفيات بقنابل النبالم، والاغتيال بطريقة لغم السيارات الخاصة، واحتجاز نساء وأطفال من أقرباء المشبوهين رهائن في معسكرات الاعتقال، وقتل سكان قرى عربية، مثل: مذبحة دير ياسين، مذبحة قبية ومذبحة كفر قاسم ومذبحة مخيم اللاجئين في خان يونس، ومذبحة مخيم اللاجئين في رفح.

وثمة حقيقة أخرى كشف عنها النقاب في أواخر عام ١٩٨٦، تثبت أن خروج القسم الأكبر من الفلسطينيين من المناطق التي احتلتها الهاغاناه في فلسطين في مرحلة إقامة إسرائيل، كانت نتيجة مباشرة للعمليات الإرهابية التي نفذتها الهاغاناه ومنظمتا إرغون وشتيرن، وليست نتيجة رغبات ونداءات الهيئة العربية العليا لفلسطين والحكومات العربية المجاورة، وهي الدعوى التي تشبثت بها إسرائيل وأجهزة الإعلام الصهيونية لتفسير ظاهرة الهجرة الجماعية الفلسطينية من مناطق الاحتلال. وقد أكد كتاب إسرائيليون مثل (سمحا فلابان) هذه المقولة في كتاب نشره أواخر عام ١٩٨٧ بعنوان «ولادة إسرائيل: حقائق وأكاذيب».

إضافة إلى ذلك، تشهد وثائق الأمم المتحدة، وخاصة تقارير لجان التحقيق وقرارات الجمعية ومجلس الأمن، على أن إسرائيل لم تترك مبدأ أو حكماً من مبادئ القانون الدولي وأحكامه إلا خرقته أو انتهكته. وجميع تلك الانتهاكات تتعلق بحقوق الإنسان. والوسيلة التي اتبعتها في ذلك هي الإرهاب. وقد جرت وقائع ذلك كله ضد الشعب الفلسطيني بصورة خاصة، إذ قامت إسرائيل بأعمال القتل الفردي والجماعي، وإخراج السكان العرب من أراضيهم ومصادرتها، وترحيلهم وطردهم وتشريدهم واعتقالهم وسجنهم وتعذيبهم حتى الموت، وفرض العقوبات الجماعية عليهم، والتعدي على حرياتهم ومعتقداتهم الدينية، ومحاولة حرق أو تهديم الأماكن المقدسة، وتدنيسها، وحصار المدن والأحياء والقرى، ومنع التجول. وهي أعمال تقوم بها سلطات الاحتلال والمستوطنون المستعمرون الإسرائيليون، بمعرفة السلطات أو تشجيعها أو تغاضيها عن أعمالهم.

ولقد تنوعت أشكال «إرهاب الدولة» وأساليبه في إسرائيل مثل خطف الجيش الإسرائيلي خمسة ضباط سوريين ولبنانيين (٢١ / ٦ / ١٩٧٢) كانوا داخل الأرض اللبنانية، ومثل الغارة الجوية على مقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس (١ / ١٠ / ١٩٨٥) وقد أدت هذه الغارة إلى استشهاد نيف وسبعين مدنياً تونسياً وفلسطينياً ومثل مذبحة مخيمي صبرا وشاتيلا التي خططت لها وحمتها قوات الاحتلال الإسرائيلي.

وهكذا يبدو أن الإرهاب عامة يشبه حلقة مغلقة يدور فيها الظالم والمظلوم، ولا سبيل للعالم إلى الخروج منها إلا بإزالة أسباب القهر والظلم، وليس بمنع المظلومين والمقهورين من الاحتجاج والتمرد حتى الموت.

وحتى يستقيم أمر مكافحة «الإرهاب الدولي»، لا بد من مراجعة المصطلح نفسه، والتمعن في تعريفه بدقة وروح علمية وموضوعية، ورسم حدوده بوضوح، ووضعه في سياقه الصحيح، ووضع مقاييس أخلاقية وسياسية وقانونية لتمييز الإرهاب من كفاح الشعوب من أجل تحررها واستقلالها، ومن ثم دراسة الأسباب التي تولّد الارهاب وحالاته، ومعالجتها بإزالتها، لأن القضاء على تلك الأسباب هو أساس التدابير لمكافحة الارهاب.

دعت الجمهورية العربية السورية تؤازرها مجموعة كبيرة من دول عدم الانحياز إلى عقد مؤتمر دولي يضع تعريفاً متفقاً عليه للإرهاب الدولي كما يبحث أسبابه والدوافع إليه. لكن موقف واشنطن كان ضد أي مؤتمر، بل وضد أي تعريف للإرهاب الدولي سواء على المستوى الدولي أو حتى على مستوى التشريع الاتحادي الأمريكي. وفي هذا يقول فريدلاندر Fridlander في بحث نشر في أواخر عام ١٩٨٨ إن الإدارة الأمريكية كانت وماتزال على موقفها هذا حتى تطلق تعبير الإرهاب والإرهابي على العمل المعادي لها وعلى مرتكبيه.

وفي قرار آخر صدر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في كانون الأول ١٩٨٧ (قرار رقم ١٥٩/٤٢) اتخذت الأمم المتحدة موقفاً من الإرهاب الدولي يقترب إلى حد كبير من موقف دول العالم الثالث فقد أكدت على نبذها الإرهاب بشتى أشكاله وصوره بغض النظر عن مرتكبه أو مرتكبيه أو دوافعهم بما في ذلك الأعمال التي تهدد العلاقات الودية بين الدول أو أمن هذه الدول. وقد عدّت الجمعية العامة ان مكافحة الارهاب بوصفه جريمة دولية يتوقف على إيجاد تعريف له يكون مقبولاً من الدول وقررت اعادة دراسة الموضوع في دورتها الرابعة والأربعين التي انعقدت اواخر عام ١٩٨٩ ولكن لا يبدو أن ثمة أملاً في الوصول قريباً إلى حل نهائي يكون مقبولاً للدول كافة.

هيثم كيلاني

مراجع للاستزادة:

محمد عزيز شكري، الإرهاب الدولي: دراسة قانونية ناقدة (دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩١)

- GRANT WARDLAW, Political Terrorism, Theory, Tactics And Counter- Measures, (Cambridge Unversity Press, New York, 1983).

■ إرهارد (لودفيغ-) (١٨٩٧-١٩٧٧)

لودفيغ إرهارد Ludwig Erhard رجل دولة واقتصادي ألماني يعد مهندس المعجزة الاقتصادية الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية ومنفذها. وُلد في مدينة فورث (بافارية) وشارك في الحرب العالمية الأولى وأصيب بجروح بليغة، درس في كلية التجارة بنورمبرغ وحاز درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة فرانكفورت وعين منذ تخرجه عام ١٩٢٧ مديراً لمعهد نورمبرغ للدراسات الاقتصادية. وفي عام ١٩٤٢ أجبره النازيون على الاستقالة من منصبه بسبب أفكاره المناهضة لهم، فترأس مكتب بحوث السوق إلى عام ١٩٤٥.

كلفه الحلفاء بعيد الحرب إعادة بناء الصناعة في منطقة نورمبرغ-فورث لسمعته ومناوأته للحكم النازي، ثم غدا خبيراً اقتصادياً في فرنكونية الوسطى والعليا، ثم وزيراً للاقتصاد في بافارية (١٩٤٥-١٩٤٦)، فرئيساً للجنة الاستشارية لشؤون النقد والحسابات (١٩٤٧-١٩٤٨) فمديراً للمجلس الاقتصادي في المنطقة المحتلة المشتركة بين إنكلترة والولايات المتحدة الأمريكية (١٩٤٨-١٩٤٩)، وكان إرهارد في منصبه الأخير هذا مسؤولاً عن إعادة تقييم النقد الألماني والتخطيط الاقتصادي. وكان قراره إلغاء الرقابة على الأسعار والتقنين والجمع بين إصلاح النقد واقتصاد السوق الحرة الأساس الذي قامت عليه المعجزة الاقتصادية التي وفرت لألمانية الغربية (سابقاً) ازدهاراً لم يعرف له مثيل. وقد أوصله النجاح الذي حققه ونظريته عن اقتصاد السوق الاجتماعي أو ما سميت بنظرية الرفاه إلى أن ينتخب في عام ١٩٤٩ عضواً في البوندستاغ (مجلس النواب الألماني الاتحادي) عن حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي ووزيراً للشؤون الاقتصادية في حكومة ألمانية الاتحادية الحديثة العهد آنذاك، وأضيف إليه في عام ١٩٥٧ منصب نائب المستشار (نائب رئيس مجلس الوزراء). ومع أن إرهارد لم يكن على وفاق مع المستشار كونراد أديناور، فقد انتخبه البوندستاغ ليخلفه مستشاراً لألمانية الاتحادية في تشرين الأول ١٩٦٣، واستطاع أن يحقق لحزبه نصراً باهراً في انتخابات عام ١٩٦٥ ليحل محل أديناور في زعامة الحزب (آذار ١٩٦٦)، ومع ذلك فقد تبين أن مهارة إرهارد في الأمور السياسية كانت أقل من مهارته في الاقتصاد، إذ أخفق في الحفاظ على وحدة الحزب وفي الخروج من الأزمة السياسية التي عصفت بألمانية بسبب مواقفه الموالية للولايات المتحدة الأمريكية، في الوقت الذي دخل فيه الاقتصاد الألماني مرحلة ركود، وازداد التضخم، فنشبت أزمة برلمانية أدت إلى تنحيته عن منصب المستشارية (تشرين الأول ١٩٦٦) وعن زعامة الحزب (أيار ١٩٦٧) مع احتفاظه بمقعده في البوندستاغ.

كان إرهارد نصيراً لاقتصاد السوق الحرة ولخطط الولايات المتحدة من أجل إقامة «مجتمع الأطلسي» وموالياً لسياستها في أوربة، كما كان لأفكاره أثر بالغ في التحولات العميقة التي طرأت على الاشتراكية الألمانية، وما يزال رمزاً للمعجزة الاقتصادية التي شهدتها ألمانية بعد الحرب.

عرض إرهارد أفكاره ونظريته عن «اقتصاد السوق الاجتماعي» في كتابه «الاقتصاد الناجح» الذي نشره عام ١٩٦٣.

كمال غالي



منظر من الجو لجزيرة أرواد

■ أرواد

مدينة سورية صغيرة قامت على جزيرة تحمل الاسم نفسه. تقع أمام السواحل الشرقية للبحر المتوسط، قبالة البرّ السوري وعلى مسافة ٤١٥٠م جنوب غرب مدينة طرطوس [ر]، وعلى مسافة ٢٤٥٠م عن خط الساحل السوري، وتقع عند تقاطع خط العرض ٣٤ درجة و٥١ دقيقة و٢٠ ثانية شمالاً، وخط الطول ٣٥ درجة و٥١ دقيقة و٢٦ ثانية شرقاً. وللجزيرة شكل قريب الشبه بنصف دائرة غير منتظمة قطرها في الشرق وقوسها في الغرب وتمتد على محور شمالي غربي، جنوبي شرقي. طول الجزيرة نحو ٧٥٠م وعرضها بحدود ٤٥٠م، مساحتها ٢٠٠,٦هكتار وارتفاع أرضها لا يزيد على ١٤م، في حين يصل رأس مئذنة المشعال إلى أكثر من ٤٠م فوق سطح البحر.

الأوضاع الطبيعية

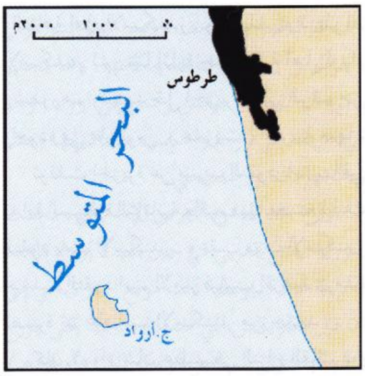
تتألف صخور الجزيرة من توضعات طينية حديثة تعود للحقب الجيولوجي الرابع تغطي صخوراً رملية تعرف بـ«حجر الرملة» من العصر البليوسيني من الحقب الثالث، تليها طبقات من صخور المارن والغضار والكلس من العصر الكريتاسي من الحقب الثاني. وتظهر صخور الرملة وما يليها على سواحل الجزيرة وخاصة الغربية منها حيث ترسم شرفات وجروفاً ساحلية كوّنها الحت البحري. وتكثر الحفر والتجاويف على امتداد السواحل الصخرية، كما يظهر النحر الساحلي وعتبة الحت البحرية في أجزاء كثيرة من الساحل الغربي المعرض لضربات الأمواج المباشرة. أما الجانب الشمالي الشرقي من الجزيرة فأكثر تعرجاً وغني بالرمال، تظهر فيه ثلاثة رؤوس صغيرة، اثنان منها عند النهايتين الشمالية والجنوبية للساحل الشرقي قام الإنسان بتمديدهما بلسانين مبنيين بحجارة ضخمة أبعادها ٣×٥×٢م، يحتضنان مرفأ أرواد. ولقد تم تحسين هذا المرفأ وتوسيعه عام ١٩٦٦ ببناء مكسر رئيس في الشمال والشمال الشرقي طوله ٥٧٥م متصل بالرأس الشمالي، ومكسر ثانوي طوله ١٣٢م متصل بالرأس الجنوبي (القبلي). ويقسم رأس الفدوة، البارز في منتصف الساحل الشمالي الشرقي، المرفأ إلى حوض (الشمالية) وحوض (القبلية)، إضافة إلى رصيفين صنعيين صغيرين أقيما في هذين الحوضين. وتتبع الجزيرة صخرة صغيرة في شمال غربها تكاد تلتصق بالساحل تعرف باسم «بنت أرواد». أما تسمية «بنات أرواد» فتطلق على الجزر الصخرية الصغيرة الواقعة جنوب أرواد على امتداد محور طولي (شمالي - جنوبي) على مسافة نحو ١٥ كم، وهي «جزر الحبيس» و«أبو علي» و«موشارة» (أو ميشرون) و«الجورة» و«تبة الحمام». وتعرف الجزر الثلاث الأخيرة بجزر المخروط لتجمعها على شكل مخروط. وبنات أرواد صخرات غير مسكونة تطغى مياه البحر على معظمها في حالات المد والأمواج العالية باستثناء جزيرة الحبيس التي ترتفع مقدار ٥-٦م فوق سطح البحر. وتذكر المصادر التاريخية أن تسمية «بنات أرواد» كانت تطلق على المدن الساحلية التابعة لمملكة أرواد الفينيقية أمثال عمريت وجبلة وعرب الملك جركس وبانياس وتل الغمقة وغيرها.

ومناخ أرواد متوسطي بحري أمطاره شتوية وخريفية وربيعية، متوسطها السنوي بحدود ٨٠٠مم. تراوح حرارتها بين ٢٧ و٧ درجات ويندر أن تتدنى إلى الصفر. ورطوبتها عالية تصل إلى أكثر من ٩٠٪ في الصيف وتحوم حول ٦٠٪ شتاءً. وتتعدد الجهات التي تهب منها الرياح ولكل منها تسمية محلية: فـ«الملتم» ريح تهب من الجنوب الغربي و«الشلوق» من الجنوب الشرقي و«التحتاني» من الشمال، وغير ذلك من تسميات مرتبطة بالملاحة. وللأرواديين خبرة بأحوال الجو والتنبؤ بها. ويسبب الضباب الربيعي المسمى «سريدا» حجب الرؤية فتتوقف حركة المراكب.

وتنعدم المياه العذبة السطحية والينابيع في الجزيرة، فيغدو اعتماد سكانها على مياه الأمطار التي كانوا يجمعونها في حفر وخزانات وعلى المياه العذبة المنبجسة من قاع البحر على شكل ينابيع تعرف باسم «الفوارات» في منتصف المسافة تقريباً بين أرواد وطرطوس، حيث كان الماء يؤخذ منها بوساطة قمع من الرصاص شبيه بالجرس متصل بأنبوب جلدي. وتعد هذه الفوارات أقدم ينابيع بحرية عرفها الإنسان واستعمل تقنية (القمع المقلوب) في استغلالها. ويشرب الأرواديون منذ عام ١٩٥٣ من مياه بئر حديثة حفرت في الجزيرة، دعمت ببئر أخرى ثم ثالثة في منتصف السبعينات، إضافة إلى انتشار آبار خاصة في الدور إلى جانب برك وأحواض جمع مياه المطر. ويعد وصول مياه نبع السن على الساحل السوري إلى دور أرواد نهاية أزمة مياه الشرب للأرواديين.

الأوضاع السكانية

سكان أرواد من قدماء أبناء سواحل بلاد الشام وحَفَدة الفينيقيين الذين استقبلوا الفاتحين العرب واعتنقوا الإسلام ويعتقد أنهم في الأصل البعيد من مدينة صيدا. وقد تعرضت أرواد للغزو والاحتلال أكثر من مرة في تاريخها الطويل، ومع ذلك حافظ السكان على بقائهم وأصالتهم منذ عشرات القرون. ويتألف السكان من أسر صغيرة تربط بعضها ببعض روابط النسب والقرابة البعيدة عن العلاقات القبلية



موقع جزيرة أرواد

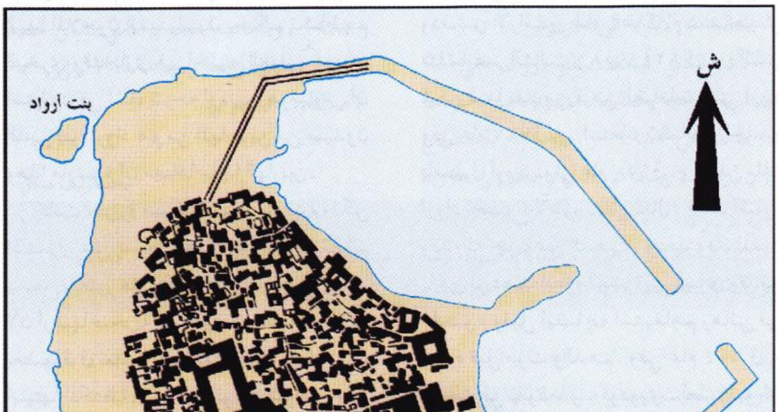
السائدة في معظم قرى البر الشامي. ويتكلم السكان اللغة العربية بلهجة ساحلية مميزة ويدينون بالإسلام. وتعد الهجرة أهم ظاهرة ديموغرافية في الجزيرة، إذ يبلغ عدد الأرواديين خارج بلدهم أضعاف المقيمين فيها. ويعيش معظمهم في مدن الساحل السوري حيث يتوافر العمل في المهن البحرية وتوابعها في طرطوس وبانياس واللاذقية. وتعمل أعداد مهمة منهم في أنحاء متفرقة من العالم ولا سيما في الموانئ الكبرى وشركات الملاحة العالمية. ولأبناء أرواد شهرة واسعة في العمل البحري وهم مفضلون لمهارتهم وصبرهم وأمانتهم. ولقد مر إعمار أرواد بحالات مد وجزر في تاريخها الطويل منذ القرن الخامس عشر ق.م حتى اليوم، وأُجلي سكانها عنها قرابة عام في أثناء الحرب العالمية الأولى وقصفها الألمان عام ١٩١٧، لتحولها إلى قاعدة فرنسية منذ الأول من أيلول ١٩١٥. وأرواد المعاصرة ناحية تابعة لطرطوس عدد سكانها ٥٠١٦ نسمة بحسب تعداد السكان لعام ١٩٩٤، لكن واقع المسجلين من أبنائها يزيد عددهم على ١١,٥٠٠ نسمة يعمل معظمهم خارجها.

تتوسط السوق الرئيسة الجزيرة حيث الحوانيت وبائعو الخضر والفواكه والمخابز الثلاثة. وهناك عدد من المطاعم والمقاهي على الأطراف الشرقية والجنوبية للجزيرة. أما المقبرة ففي الجنوب الغربي. وتنتشر المساكن على باقي أرض الجزيرة متراصة متلاصقة، وحاراتها ضيقة متعرجة لمرور المشاة فقط ولا يوجد في الجزيرة سيارات أو عربات. وأرض الحارات مرصوف أكثرها بالإسمنت وأقلها بالحجارة. ومعظم الدور مؤلف من طبقتين ومع تزايد أعداد السكان أخذ عدد الطبقات بالازدياد حتى أربع. ومادة البناء كانت الحجر الرملي فأصبحت الإسمنت المسلح، وسقوف المنازل مستوية مع انحدار بسيط. وتقسم أرواد إلى حارتين رئيستين هما القبلية والشمالية، يفصل بينهما السوق. وهناك حارات أصغر كحارة السوق وحارة شيخ شرف الدين وحارة الفوق وغيرها. وفي أرواد الكثير من المعالم الأثرية أهمها المرفأ والسور والقلعة والبرج، وقد كشفت الدراسات الأثرية آثاراً وأطلالاً مغمورة بمياه البحر التي ارتفع مستواها منذ أواخر العصر الحجري الحديث حتى اليوم عندما ساد مناخ دافئ وازداد حجم مياه البحار والمحيطات.

وظائف المدينة

أرواد جزيرة بحرية عماد حياة سكانها صيد السمك والإسفنج والعمل البحري وتوابعه، فأهلها بحارة وصيادون بالدرجة الأولى. ويتم الصيد بمراكب صغيرة تعرف بـ«الفلوكة» أو «اللنش» محلياً، مصنوعة من الخشب تسيرها محركات. ويستخدم الصيادون الشباك والشصوص (الشرك محلياً) ويكون الصيد ليلاً. وأهم أنواع الأسماك السلطان إبراهيم والفريدي والرملي وهي أجودها، يليها السردين والبلميد (الطون) والسرغوس. ويباع المحصول اليومي في (ساحة السمك) في طرطوس. ويستخرج الأرواديون الإسفنج من عمق يُراوح بين ٢٠ - ٥٠م ومن أنواعه: الحقيقي المخزني والحقيقي الناعم والإرسينية [ر. الإسفنجيات]. وفي أرواد مشاغل وحيازات لصنع القوارب والمراكب وصيانة محركاتها، وتصدر مراكبها إلى الموانئ السورية واللبنانية وإلى ليبية والأردن أحياناً. وهناك بعض الأعمال التجارية التي يمارسها السكان في الجزيرة نفسها، أو مع البر السوري ولا سيما في مدينة طرطوس. وللوظيفة السياحية أهمية متزايدة بارتفاع أعداد زوارها من البر السوري يوماً بعد يوم، يدفعهم إليها أن أرواد الجزيرة الوحيدة المأهولة على الساحل السوري كله. ولقد رافق ذلك قيام بعض الصناعات السياحية من الخشب والصدف وهي آخذة بالازدهار.

عادل عبد السلام



تاريخ أرواد

أصل التسمية وبداية الاستيطان: أرواد (باليونانية أرادوس Arados) وآراد بالفينيقية وتعني الملجأ وهي جزيرة صغيرة على الساحل السوري مقابل مدينة طرطوس. إلا أنه توجد عدة أماكن أخرى تحمل هذه التسمية. فهناك أرادوس على ساحل فلسطين بين الكرمل ودوروس، ويذكر الجغرافي رافيني أرادوس أخرى على الساحل الإفريقي. ويذكر بلّيني أرادوس في جنوب كريت، كما يقول، في أثناء وصفه الخليج العربي: «وقبالة الجرهاء (على ساحل الأحساء) جزيرة تيلوس وهذه الجزيرة بعيدة بأميال عن الساحل وتشتهر باللؤلؤ، وفي الجزيرة مدينة تحمل الاسم نفسه وعلى مقربة منها جزيرة أخرى باسم أرادوس».

ويذكر استرابون اسم جزيرة أرادوس في الخليج العربي ويقول: «إن فيها معابد تشبه معابد الفينيقيين»، ويذكر بطليموس الجزيرة بصيغتيها (أرادوس وأرثوس) وهي موقع عراد أو أراد على مايذهب إليه بعض الباحثين. وعلى كل حال فإن أرادوس الساحل الفلسطيني تخص فينيقية، والبقية هي أماكن كان يتردد إليها الملاحون الفينيقيون بحكم نشاطهم البحري والتجاري في الخليج العربي. ويرى استرابون في أثناء شرحه أوديسة هوميروس أن الذين بنوا أرواد هم من المهاجرين من صيدون وهذا مايسوّغ أن معناها ملجأ الهاربين.

كانت الجزيرة مسكونة منذ زمن قديم، لكن استمرار هذا السكن على مساحة ضيقة لم يسمح بالعثور على دلائل عن هذا الماضي البعيد لأن أرضها صخرية ومن دون طبقات، مرصوف بعضها فوق بعض ولصعوبة التنقيب فيها بسبب أبنيتها المكتظة، في حين توجد شواهد على الاستيطان الإنساني على اليابسة تعود إلى العصر الحجري الحديث (النيوليتيك) والمتوسط (الميزوليتيك).

أرواد قبل الفتح العربي الإسلامي: كانت أرواد مدينة مزدهرة منذ الألف الثاني ق.م. ثم وقعت تحت نفوذ صور، إلا أنها استقلت عنها وأخذت تنمو وتزدهر وتمتد وتؤسس مستعمرات وتنشئ مدناً على الشاطئ لضرورات اقتصادية ودينية ودفاعية عرفت باسم «بنات أرواد». وقد توغل الأرواديون في الداخل فأقاموا معابد وقلاعاً كهيكل بيتوخيخي (حصن سليمان) وسيجون (صهيون) وأسهموا في تأسيس مدينة قرطاجة مسطّرين صحائف من النشاط والعمل على نشر الحضارة ونقل البضائع وتأسيس المدن. وأشهر «بنات أرواد» كما يقول ديون كيزوستروم «انترادوس» القائمة تجاه أرادوس (وهي طرطوس). ثم ورد ذكرها في رسائل تل العمارنة وفي حوليات ملوك آشور وأسفار التوراة وفي النقوش الفينيقية.

احتل أرواد سرجون الأول مؤسس الدولة الأكدية (النصف الثاني من الألف الثالث ق.م). واشتركت أرواد مع الحثيين مراعاة لمصالحها وحاربت تحت لوائهم المصريين في معركة قادش (القرن الثالث عشر ق.م.). وعندما أغارت شعوب البحر على أغاريت، كانت أرواد أوفر حظاً، ونجت من الغزو، وأصبحت من أبرز المدن على الساحل. إلا أنها خضعت للملك الآشوري تغلات بلاصر الأول (١١١٢-١٠٧٤ق.م). ثم آشور-ناصر-بال (٨٨٣-٨٥٩ق.م) الذي يتباهى بأن ملك أرواد قبّل الأرض بين يديه وقدم له جزية من الذهب والرصاص. غير أن الأرواديين استردوا معنوياتهم واتحدوا مع ملوك سورية إلى جانب ملكي حماه ودمشق الآراميين عام ٨٥٤ق.م ضد جيش شلمانصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) الذي تمكن فيما بعد من فرض الغرامات على أرواد وفي عام ٧٢٧ق.م. استعان شلمانصر الخامس بأسطول أرواد. وفي عام ٦٥٠ق.م. أعلن ملك أرواد الخضوع لآشور-باني-بال، ملك آشور، وقدّم له جزية من الذهب. وبعد وفاة الملك ياكين لو ذهب أبناؤه العشرة إلى نينوى وقدموا الخضوع وقيل أيضاً إنه استبقاهم رهائن في قصره قبل موت والدهم. وفي عام ٦٠٤ ق.م دخلت في نفوذ نابو-كودوري-أصّر (نبوخذ نصر) الكلداني.

وفي عام ٥٣٩ ق.م أصبحت أرواد جزءاً من الامبراطورية الأخمينية الفارسية وغدت الولاية الخامسة، ونمت وازدهرت وضربت النقود الفضية باسمها وسمح لها بممارسة الحكم الذاتي ودفعت بأسطولها إلى جانب الفرس في حملة حشويرس (اكسركس) ضد القائد الأثيني تيميستوكليس عام ٤٨٠ ق.م في المعركة البحرية «سلامين».

وقد غزا الاسكندر المقدوني [ر] البلاد عام ٣٣٣ق.م. وقدم ابن ملك أرواد الخضوع والطاعة أمام الاسكندر. ومما يلفت النظر أن الإسكندر لم يشأ إثارة حساسية أهل أرواد وشعورهم ولم يدخل الجزيرة على الرغم من وجوده في ماراتوس (عمريت) القريبة منها.

توقفت الجزيرة عن ضرب النقود باسمها في بداية السيطرة اليونانية وأقيم فيها مصنع لسك النقود باسم الاسكندر. وعقب موت الإسكندر حملت النقود اسم الأمير فيليب أفرهيدي مدة قصيرة ثم عاد اسم الاسكندر من جديد.

كان لأرواد شأن عظيم في النزاع القائم بين السلوقيين والبطالمة لهذا منح أنطيوخوس الثاني أرواد استقلالها ليضمن مساعدة بحريتها وإخلاصها وتمتعت بامتيازات المدينة الحرة. وعدّت عام ٢٥٩ق.م بدء تاريخ حريتها ونقطة تؤرخ بها الحوادث. وفي عام ٢١٨ق.م في أثناء تجهيز أنطيوخوس الثالث حملة على مصر أقبل عليه الأرواديون ليؤكدوا ولاءهم. واستفادت أرواد من النزاع بين السلوقيين أنفسهم ووقف الأرواديون إلى جانب سلوقس الثاني (٢٤٦-٢٢٦ق.م). وعقدوا معه اتفاقاً بأن تكون ملجأ للخارجين على المملكة وعدم تسليمهم، وسكّت كمية كبيرة من النقود الفضية، واضطر انطيوخيوس الرابع إلى إخضاع الأرواديين الذين قاوموه. ثم تم التحالف معهم ثم أعاد أنطيوخيوس السابع إلى أرواد حريتها ليكسب مساعدتها. وبصورة عامة كان لأرواد نفوذ كبير على طول الساحل السوري من اللاذقية إلى طرابلس.

وفي عام ٦٤ق.م احتل القائد الروماني بومبيوس سورية وتحدد مصير أرواد بذلك. إلا أن أرواد حافظت على استقلالها إلى حد ما وتابعت إصدار تيترادرخمات (وحدات نقدية). وعندما قامت القطيعة بين بومبيوس وقيصر أيدت أرواد القائد الروماني واستخفت بعملاء أنطونيوس ورسله ورفضت دفع الجزية. غير أن المجاعة أجبرت المدافعين عن الجزيرة على الاستسلام. وفي عام ٣٨-٣٧ق.م وعام ٣٥-٣٤ سُكّتْ نقود برونزية في أرواد تحمل صورة ماركوس أنطونيوس مع زوجته «فولفيا» أو مع كليوباترة.

احتفظت أرواد في تلك الآونة بمؤسساتها الهلنستية وكانت الوحيدة التي حافظت على حريتها في العصر الهلنستي تأكيداً لاستقلالها في أثناء العهد الامبراطوري الروماني. ومع ذلك

أخذت تخبو وتضعف، وبدأ نجم انترادوس (طرطوس) بالتألق لتأخذ مكانها. ومما يجدر ذكره أن القديس بولص وصل إلى أرواد، وهو في طريقه إلى رومة وأعجب بتماثيلها وبشّر سكانها بالدين المسيحي.

أرواد بعد الفتح العربي الإسلامي: دخلت سورية الفتح العربي في حين بقيت أرواد قاعدة بحرية حربية بيزنطية ذات موقع استراتيجي إلى أن قرّر معاوية بن أبي سفيان فتحها كي يزرع الطمأنينة على الساحل، وتم له ذلك عام ٥٤هـ/ ٦٧٦م.

أرواد والغزو الفرنجي: ولكن جزيرة أرواد استخدمت قاعدة بحرية لأساطيل الدول الإيطالية (بولونية وجنوة) في حقبة الغزو الفرنجي وأخذت تدعم وتساند صليبيي طولوز في عمليات الهجوم على طرطوس واستقر فيها فرسان الهيكل (المعبد) فزادوا في تحصينها، ولا سيما بعد أن حرر العرب المسلمون الساحل وأصبحت المركز الرئيس ليعقوب الطرطوسي للإغارة على الساحل بين وقت وآخر إلى أن حررها قائد الأسطول سيف الدين كهرداش الرزاق المنصوري في أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م ودمرت أسوارها في هذا الصراع.

تناوب على أرواد المماليك ثم أهملت وقل شأنها وألحقت إدارياً بنيابة طرابلس. وأتى العثمانيون وحسنوا في قلعتها زمن السلطان سليمان القانوني، وشُيّد فيها حصنان صغيران في إثر غارات القراصنة اليونان ونُقل إليها السكان من قلعتي صلاح الدين والمرقب وخصصت لهم رواتب ووقعت بينهم وبين القراصنة مناوشات أسفرت عن فوز حُماة الجزيرة، وأسر بعض القراصنة وتعلم الأرواديون منهم فنونهم في الملاحة ثم تغلبوا عليهم. وقد نزلت البحرية الفرنسية في أرواد في الحرب العالمية الأولى بقيادة الكومندان ترابو بعد مفاوضات مع وجهاء المدينة وتمكن من إخضاع هذه الجزيرة للاحتلال الفرنسي سنة ١٩١٥ قبل إبرام معاهد سايكس-بيكو وأصبحت كل معاملاتها تمهر بخاتم حكومة أرواد وأصدرت طوابع وجوازات سفر وبطاقات شخصية، إلى أن ضمت إلى سورية بعد المعاهدة المذكورة. وأسهمت أرواد إسهاماً فعالاً في تقديم المساعدة إلى سكان جبل لبنان ضد جمال باشا ونُقل قسم من أهليها إلى قبرص ثم جعلت فرنسة من قلعتها، في مرحلة الانتداب على سورية، معتقلاً للأحرار والرجالات الوطنيين، وقد أسهمت أرواد في مقاومة الاحتلال الفرنسي حتى الجلاء (١٩٤٦).

التنقيبات الأثرية في الجزيرة

الآثار التي كُشفت في أرواد، هي آثار معمارية ومادية وكتابات منقوشة بلغ عددها ٢٢ نصاً حتى ١٩٨٣. وأول من قام باستطلاع أثري أرنست رينان في أثناء رحلته إلى سورية (١٨٦٠). وقد ساعدته بحارة كوبير وقدم له المقدم كيهنوك جميع المصادر التي بحوزته، وقدّم له شخص يدعى عبد الباقي ما لديه من حجارة مستخرجة من أساسات البيوت، واقتصرت دراسته على جدران السور والمنازل وبعض مفارق الطرق، والمخطوطات، وأدوات الجنائز، وقواعد التماثيل، والتأثيرات المصرية الظاهرة على القطع التي تمّ جمعها، وبعض الألواح الخشبية ويظهر منها امتزاج العناصر المصرية والآشورية أو الفارسية وانطباعها بنوع من الحس اليوناني وتشهد أن الفن الإغريقي قد تطور في أرواد تطوراً يفوق تطوره في أي مكان آخر من فينيقية.

وقامت أونور فروست بأعمال دراسة أثرية تحت الماء نشرت نتائجها في بحث عن جزيرة أرواد: صخورها البحرية ومراسيها القديمة الأثرية.

وقام الآثاريون السوريون باستطلاعات مهمة في أرواد وتم استخراج قطعة حجرية عليها كتابة يونانية من العصر الروماني مؤلفة من أحد عشر سطراً نقلت إلى الفرنسية ثم ترجمت إلى العربية، كما تم كشف حجر أسود بازلتي (١٩٨٣) وبجانبه حجر رخامي نقش عليه خمسة سطور يونانية ويعود هذا الأثر إلى أيام الامبراطور طيبريوس.

محمد رئيف هيكل

الموضوعات ذات الصلة:

سورية-طرطوس-فينيقية.

مراجع للاستزادة:

-بكري الأسود، «جزيرة أرواد، صخورها البحرية ومراسيها» (ترجمة)، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، مجلد ١٤ (١٩٦٤).

-شوقي شعث «المكتشفات الأثرية الأروادية»، مجلة الحوليات العربية السورية (ترجمة)، مجلد ١٦، جزء ١ (١٩٦٦).

■ الأروكاريات (رتبة-)

الأروكاريات Araucariales رتبة صغيرة من عريانات البذور، ممثلة بنباتات عريقة في القدم، منتمية إلى زمرة المخروطيات. تضم فصيلة وحيدة هي الفصيلة الأروكارية التي تتمثل بجنسين معاصرين هما الجنس أروكارية Araucaria والجنس أغاطس Agathis وبعدد من أجناس أخرى مستحاثة سادت في مطلع الكريتاسي. يعد الجنس أوركاريتس Araucarithes، الممثل في الطبقات الجيولوجية البرْميَّة سلفاً مباشراً للجنسين المعاصرين. وتشير وقائع علم المستحاثات إلى ولادة رتبة الأروكاريات في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، حيث تتمثل مستحاثاتها في الحقب الميزوزي وهجرتها فيما بعد إلى المناطق المدارية وشبه المدارية في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية حيث تنبت أشكالها التلقائية المعاصرة.

الفصيلة الأروكارية

تتصف أنواع الفصيلة الأروكارية Araucariceae، إضافة إلى العراقة الجيولوجية، بصفات تزيينية جذابة ممثلة بجذوع باسقة منتصبة، حاملة لدوارات من أغصان أفقية ارتكزت عليها مخاريط ذكرية أو أنثوية، أغلب أنواعها ثنائية المسكن، وقد تُحمل المخاريط الذكرية والأنثوية على الأغصان نفسها في حالة الأنواع وحيدة المسكن.

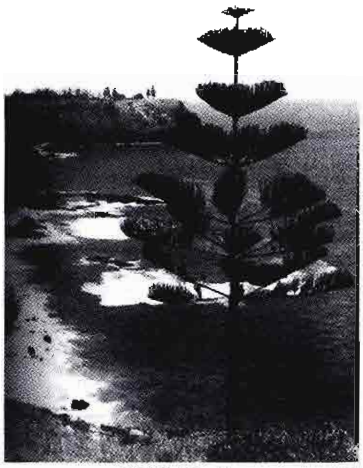
وتتمتع أنواع الفصيلة الأروكارية بعدد من الصفات البدائية التي تجاوزتها المخروطيات الراقية. ومن أبرز هذه الصفات: وفرة الأوراق العريضة وندرة الأوراق الإبرية وانعدام الأكياس الهوائية في حبات الطلع وغزارة عدد الخلايا المَشَريَّة في النبات العرسي الذكري، إذ يراوح بين ١٥ و٢٥ خلية بدل خلية أو خليتين مشريتين في النبات العرسي الذكري في المخروطيات الراقية، ووحدانية البييضة ovule القاعديَّة المحمولة على أوراق بوغية مخصبة مكوَّنة للمخاريط الأنثوية، وغزارة عدد الأرحام

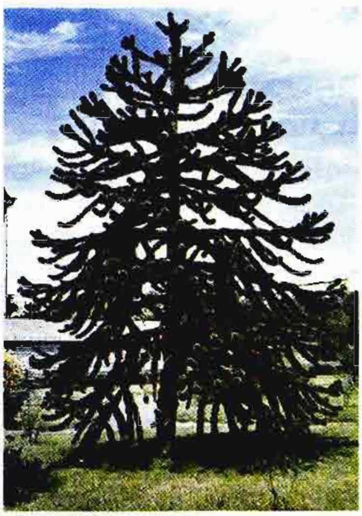
المسماة بالتعدد الرحمي الممثل بتشكل ٨ـ١٥ رحماً بدل تكوُّن رحمين اثنتين في أغلب المخروطيات الراقية.

وتضم أنواع الفصيلة الأروكارية مجموعة من صفات تشريحية خاصة لا توجد في غيرها من الزمر النباتية، من أبرزها تمايز البَرَنْشيم المخي مزينة بنقرات مصفوفة شبيهة بنقرات رتبة الكوردئيّات Cordaitales التي ازدهرت نباتاتها في العصر البرمي. وتتمثل الفصيلة الأروكارية بالجنسين التاليين:

الأروكارية: جنس نسبت تسميته إلى منطقة في التشيلي في جنوبي أمريكة تدعى أروكان. يضم قرابة ١٥ نوعاً معاصراً. وتنتشر هذه الأنواع انتشاراً رئيساً في التشيلي في جنوبي أمريكة وفي أسترالية وفي جزر كاليدونية الجديدة في جنوب المحيط الهادئ وفي جنوبي غربي الأرجنتين. يتألف المخروط الذكري من محور ترتكز عليه أوراق أبواغ صغيرة تقابل الأسدية في مغلفات البذور، وتحمل كل ورقة بوغية ٦ـ١٩ من حاملات البوغ، وتقابل حاملة البوغ الكيس الطلعي في مغلفات البذور. ويتألف المخروط الأنثوي من حراشف كبيرة التحمت قاعدة كل منها ببييضة تتحول عند النضج إلى بذرة، وبقيت أجزاؤها العلوية حرة، وهذا ما يميز جنس الأروكارية من غيره من أجناس المخروطيات. تؤلف أشجار الأروكارية غابات واسعة مفتوحة أي متباعدة الظلال يشبه مظهرها مظهر النباتات التي تعيش في المناطق الجافة، وتتمثل بالأنواع الرئيسة التالية:

أروكارية أروكـــان A.araucana: تنتشر في التشيلي وفي جنوبي غربي الأرجنتين: مشكلة أحراجاً شاسعة، وتزرع في الولايات المتحدة الأمريكية وفي بريطانية. يتميز هذا النوع بضخامة أشجاره التي يصل ارتفاعها إلى ٦٠ متراً، ويتجاوز قطر جذعها متراً ونصف المتر. تحمل جذوع الأشجار دُوّارات سداسية الأغصان الثانوية الحاملة لمجموعة من أوراق كثيفة يراوح عرضها بين ٢ و٥سم، بيضوية سميكة، يراوح بقاؤها على الأشجار بين ١٠ و١٥ سنة. المخاريط الأنثوية كروية يصل قطرها إلى ٦٠سم. أما المخاريط الذكرية فهي دون حجم المخاريط الأنثوية، ويعطي الواحد منها ما يزيد على ١٠ ملايين حبة طلع.


الأروكارية الفائقة


أروكارية البرازيل

أروكارية البرازيل A.brasiliensis: تنتشر في جنوبي البرازيل، مشكلة أحراجاً واسعة، يصل ارتفاع أشجارها إلى ٥٠ متراً، مزودة بأغصان متوضعة على شكل طبقات مظلية، أوراقها ضيقة طولها ٢ـ٣سم، مخاريطها ضخمة يصل قطر الأنثوية منها إلى ٢٥سم.

أروكارية بدفيل A.bidwillii: تنتشر في شرقي أسترالية، مشكلة أحراجاً يصل ارتفاع أشجارها إلى ٤٥ متراً، مزوَّدة بأغصان قمية مخروطية مستدقة حاملة لأوراق تتوضع في صفين. مخاريطها الأنثوية ضخمة يصل قطرها إلى ٣٠سم.

أروكارية كونينغام A.cunninghamii: تنتشر في أسترالية ونيوزلندة في جنوب المحيط الهادئ. يصل ارتفاع أشجارها إلى ٦٠ متراً. تستعمل هذه الأشجار في صنع ألواح خشبية فاخرة لصنع الأثاث ومواد البناء.

الأروكارية الفائقـــة A.excelsa: تنتشر في جزيـــرة نورفولـك Norfolok جنوب المحيط الهادئ. يصل ارتفاعها إلى ٦٠ متراً وقطرها إلى مترين ونصف. يحمل جذعها صفوفاً أفقية من أغصان دوارية متناظرة رائعة المنظر، الأمر الذي جعلها من أبرز الأشجار التزيينية في العالم.

الأروكارية ضيقة الورق A.angustifolia: تنتشر في البرازيل مشكلة مصدراً مهماً للرقائق الخشبية.

الأغاطس: يمثل الجنس الثاني المعاصر من الفصيلة الأروكارية، ويضم قرابة ٢٠ نوعاً منتشرة في فلوريدة ونيوزلندة وجنوبي شرقي أسترالية والفيليبين، ممثلة لأشجار باسقة دائمة الخضرة مجمعة الأغصان في دُوّارات، كبيرة الأوراق التي يصل طولها، في الأغاطس الكبير الورق A.macrophylla، إلى ١٨سم. مخاريطها الذكرية صغيرة قطرها ٤ـ٦سم، ومخاريطها الأنثوية كروية كبيرة. بييضاتها حرة غير مغروسة في نسج الحراشف البذرية الملتحمة كلياً بالقنابات. يشكل نوع أغاطس الجنوب A.australis غابات واسعة في أسترالية.

الأهمية الاقتصادية لرتبة الأروكاريات

تتمتع رتبة الأروكاريات بأهمية تطبيقية خاصة، وتمثل أحد المصادر الرئيسة للأخشاب الجيدة في بناء السفن وتشييد المنازل الخشبية. كما تستعمل بذور بعض أنواع الأروكارية في التغذية بعد تحميصها. ومن أبرزها استعمالاً في هذا المجال أروكارية أروكان وبدفيل والضيقة الورق التي تعد من أهم المنتجات الغذائية لسكان التشيلي. تعد صموغها الخشبية المعروفة باسم اللك lacquer والكوبال copal مصدراً رئيساً لكثير من الصموغ الراتينية (الراتنجية) المستعملة بعد حلها بالكحول أو الإتير في صناعة البرنيق (الورنيش) [ر] والأصبغة الخشبية.

غسان عياش

مراجع للاستزادة:

ـ غسان عياش، الرحميات: التصنيف والتعضي والتكاثر (مطبوعات جامعة دمشق ١٩٨٣).

ـ C.L. WILSON & D.E.LOOMIS, Botany (Newyork 1957).

■ آرون (ريمون-) (١٩٠٥-١٩٨٣)

يعد ريمون آرون Raymond Arond واحداً من أبرز علماء الاجتماع الفرنسيين المعاصرين لما تشغله دراساته من حيز في الأوساط العلمية والسياسية داخل فرنسة وخارجها. وقد خصص معظم مؤلفاته وأعماله العلمية لتأكيد تصوراته الاجتماعية المرتبطة بمواقفه السياسية إزاء انقسام العالم إلى إيديولوجيتين متباينتين كما يراهما، الماركسية، والديمقراطية.

عُيّن ريمون آرون أستاذاً لعلم الاجتماع في جامعة السوربون عام ١٩٥٦، وأصبح عضواً في المجمع الفرنسي عام ١٩٦٣، ثم أستاذاً في الكوليج دوفرانس عام ١٩٧٠.

أراد لنفسه أن يكون عالم اجتماع وفيلسوفاً، فقام بدراسة مقارنة لنظامي الإنتاج: النموذج السوفييتي والنموذج الغربي على أساس ثلاث فئات من المظاهر: اقتصادية واجتماعية وسياسية، كان كتابه الأول «ثمانية عشر درساً في المجتمع الصناعي» مخصصاً لمعالجة الجانب الاقتصادي، في حين كان كتاب «صراع الطبقات» لمعالجة الجانب الاجتماعي، وكتابه «الديمقراطية والتسلط» لمعالجة المظاهر السياسية. وتبع الكتب الثلاثة كتاب رابع هو: «مراحل التفكير الاجتماعي» حدد فيه آرون صبغة التفكير في علم الاجتماع مؤكداً الاستمرارية من مونتسكيو إلى ماكس فيبر ماراً بماركس وتوكفيل ومن مؤلفاته الأخرى «تفكير الحرب» (١٩٧٥) و«التدهور الأوربي» (١٩٧٧).

يرى آرون أنه من الصعوبة تعريف ميدان علم الاجتماع بسبب اختلاف وجهات النظر حول ما هو اجتماعي، ولتوضيح ذلك يلجأ إلى مقارنة موضوعات علم الاجتماع بموضوعات العلوم الاجتماعية الأخرى، كالاقتصاد السياسي وعلم النفس والتاريخ.

فالاقتصاد السياسي مثلاً - كما يرى آرون - يعالج موضوعات قابلة للانعزال عن الواقع الشامل، أو منعزلة عنه، ولذلك فإن لهذا العلم منهجه الخاص. أما علم الاجتماع فإنه يرمي إلى أن يكون علماً خاصاً مختلفاً عن علم الاقتصاد، لأنه لا يوافق على عزل أية ناحية من نواحي الواقع الاجتماعي: فالأسرة، والطبقة الاجتماعية، والعلاقة بين أقسام الواقع السياسي وغيرها، هذه كلها تحمل في مضمونها، ومن



بعض الوجوه، النواحي الاجتماعية كافة. ولا يمكن دراسة الطبقات الاجتماعية - كما يرى آرون - ما لم يتم إدراك النواحي الاقتصادية والسياسية والدينية في الوقت نفسه، ويبرز علم كل واحدة من هذه الجوانب أو الظواهر كأنها مطبوعة بطابع الكل الاجتماعي الشامل، فهي ظاهرة اجتماعية نابعة من الكل.

ويتناول علم الاجتماع - بنظر آرون - ثلاثة موضوعات أساسية، يجدها واضحة عند ماكس فيبر ودركهايم. وهي: أولاً تحديد ما هو اجتماعي وتحليله، وقد برز ذلك عند دركهايم من خلال تحديده لنوعية الظاهرة الاجتماعية، وثانياً تعيين الخصائص المرتبطة بكل بنية أو بكل البنى الاجتماعية، وثالثاً وضع تصنيف للبنى الاجتماعية في سياق مجرى التاريخ. ويجد آرون هذه المسائل في أعمال ماكس فيبر الذي حاول أن يعيد بناء دراسة المجتمع إلى تداخل العلاقات الفردية، وحاول إقامة خصائص اقتصادية سياسية وقانونية تسمح بتحديد نماذج أساسية للبنى الاقتصادية والسياسية والقانونية ووضع تصنيف لهذا التنوع في استمرارية التطور التاريخي.

وتأسيساً على ذلك فإن قدرة الباحث في علم الاجتماع على دراسة الواقع مرتبطة بمقدار إدراكه للموضوعات الثلاثة. ووفقاً للمعنى الذي يعطيه الباحث لمفهوم «الاجتماعي» يتحدد فهم علم الاجتماع. فإذا حددنا هذا المفهوم تحديداً شكلياً، فإن علم الاجتماع وتداخل العلاقات الفردية سيؤلف منهجاً خاصاً إلى جانب المناهج الأخرى. أما إذا حددنا هذا المفهوم كما حدده دركهايم، فإن في مقدور هذا العلم - أي علم الاجتماع - الإحاطة بمجمل العلوم الاجتماعية الأخرى، وسيكون بمقدوره أيضاً أن يكون أساس وحدتها ووسيلة للتأليف بينها، كذلك يميز آرون بين علم الاجتماع والمذهب الاجتماعي، ويقرر أن علم الاجتماع إذا ما ارتبط بعقيدة سيصبح بالتأكيد مذهباً تفسيرياً.

ويحاول آرون من خلال كتبه المتعددة أن يبلور نظريته المعروفة بنظرية المجتمع الصناعي، إذ يحاول البرهنة على أن المجتمعات الصناعية المعاصرة تكتسب سمات نوعية متماثلة سواء أكانت خاضعة لنظام اشتراكي أم رأسمالي. وهو يخصص أعمالاً بمجموعها لهذا الغرض على المستويات الاقتصادية والسياسية كما مر.

يعرّف آرون المجتمع الصناعي بأنه المجتمع الذي يكون شكل إنتاجه الصناعي من أعظم مميزاته، والذي يضم مؤسسات صناعية كبيرة تتم فيها عمليات الإنتاج الصناعي الكبيرة. وانطلاقاً من هذا التعريف يحدد آرون صفات المجتمع الصناعي وخصائصه في خمس صور تنطبق على المجتمعات الصناعية كلها سواء بسواء وذلك على الوجه الآتي.

- انفصال مكان العمل عن المحيط الأسري، إذ ينفصل في المجتمع الصناعي مكان الإقامة عن مكان عمل الأفراد.

- بروز شكل جديد من أشكال تقسيم العمل، فلا يقتصر تقسيم العمل بين فئات القرويين والتجار والصناع فحسب، إنما تبرز تقسيمات أخرى داخل المنشأة الصناعية نفسها وهو ما يسميه آرون بالتقسيم التقني للعمل أو التخصص.

- تقتضي المشروعات الصناعية حصول كل منها على رأس مال كبير إضافة إلى ضرورة تجديد رأس المال بصورة مستمرة.

- الحساب العقلي للمشروعات، ففي كل المشروعات لا بد من إجراء الحسابات باستمرار للحصول على أدنى أسعار للكلفة من أجل تجديد رأس المال وإنمائه.

- التكاثف العمالي في مراكز العمل، فحيث توجد المشروعات الصناعية الكبيرة،

يوجد تكاثف عمالي.

تلتقي تصورات ريمون آرون بصورة عامة مع مجموعة واسعة من الدراسات التي ظهرت مؤخراً في فرنسة نفسها وأوربة الغربية والولايات المتحدة، والتي هدفت إلى بيان الأساس الاقتصادي والاجتماعي المشترك لنظامي الإنتاج الاشتراكي والرأسمالي. بيد أن هذه الدراسات جاءت تحت عناوين مختلفة يأخذ بعضها اسم «المجتمع الصناعي» كما هو الحال عند آرون نفسه، أو «المجتمع الصناعي المعاصر» عند دارندوف. ويحمل بعضها الآخر اسم «المجتمع ما بعد الصناعي»، كما يرد عند آلان تورين، و«مجتمع الاستهلاك الشعبي العالي» كما يذكر رستو. وفي جميع هذه الأطروحات يظهر توجه واضح يقوم على أساس التقريب بين نظامي الإنتاج الاشتراكي والرأسمالي.

أما دارندوف فيجد أن مفهوم المجتمع الصناعي أوسع بكثير من مفهوم المجتمع الرأسمالي. فعلامة الأول الأساسية هي الإنتاج الآلي في المصانع والمعامل، في حين يعد المجتمع الرأسمالي شكلاً من أشكال المجتمع الصناعي.

ويرى آلان تورين أن المجتمع الصناعي أوشك أن يأفل بدلالة أن المجتمع الجديد يتميز من المجتمعات السابقة وغيرها. ففي المجتمع الصناعي ينفصل النظام الاقتصادي عن النشاط الاجتماعي، ويبدو أن له قوانينه الخاصة.

أما رستو فيضع في بيانه اللاشيوعي مراحل محددة لمسار التطور تتلخص في خمس مراحل، وتكون مرحلة الاستهلاك الشعبي في قمة هذه المراحل، وقد وصلت إليها بعض البلدان، مثل الولايات المتحدة وعدد من بلدان أوربة الغربية إضافة إلى الاتحاد السوفييتي (السابق) الذي هو على أعقابها.

والذي يجمع بين هذه الدراسات، وفيها دراسات آرون نفسه، هو أنها تجعل مسار التغير الاجتماعي لمختلف البلدان متشابهاً أو متطابقاً، بصرف النظر عن أشكال ملكية وسائل الإنتاج (وهذه مسألة أولتها الماركسية أهمية كبيرة) وفي ذلك معارضة واضحة للتعليل الماركسي عبّر عنها آرون في أكثر من موضع، ولا سيما في سلسلة كتبه الأربعة المشار إليها سابقاً.

يرتبط آرون ارتباطاً واضحاً مع قضية عصره، كما يراها هو وكما يراها باحثون آخرون، ولايخفي آرون موقفه الأيديولوجي إزاء هذه المسألة، ولا يخفي موقفه هذا بوصفه عالم اجتماع أيضاً. وقد وجد نفسه مضطراً إلى أن يقدم فهمه للمجتمع والعلوم الاجتماعية استناداً إلى تصور شامل يحدد فيه لكل علم من العلوم موقعه من المجتمع، وطبيعة علاقته بعلم الاجتماع، ولاينفصل هذا التصور عن مجمل القضايا التي عاصرها، العلمية منها والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وتتفاعل الجوانب الاقتصادية والسياسية في فكر ريمون آرون لتؤلف موقفاً ملتزماً تجاه قضية العلاقة بين الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المختلفة في العالم، فيرى أن الصراع الأيديولوجي سيضعف إزاء تطور أنظمة الإنتاج الصناعية وما تفرزه من علاقات اجتماعية تجعل في النهاية أشكال الحكم والإدارة في المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي متقاربة.

صفوح الأخرس

الموضوعات ذات الصلة:

الاجتماع (علم ـ).

مراجع للاستزادة:

ـ آلان تورين، إنتاج المجتمع، ترجمة إلياس بديوي (وزارة الثقافة، دمشق١٩٧٦).

ـ ريمون آرون، ثمانية عشر درساً في المجتمع الصناعي، ترجمة فكتور باسيل (منشورات عويدات، بيروت١٩٨٣).

ـ صفوح الأخرس، ميادين علم الاجتماع (منشورات جامعة دمشق ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤).

■ أروى الصُليحية

(٤٤٠ ـ ٥٣٢ هـ / ١٠٥٢ ـ ١١٣٨م)

السيدة الحرة أروى بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي، وأمها رداح بنت الفارع بن موسى، ملكة حازمة مدبّرة، زوجة المكرّم أحمد بن علي الصليحي ملك اليمن، من الأسرة الصليحية التي حكمت اليمن بعد أن وحدت معظم إماراته (٤٣٩ ـ ٥٣٣هـ) ونشرت الدعوة الإسماعيلية الفاطمية المستعلية فيه، عرفت بلقب السيدة الحرّة حتى غلب على اسمها في كتب التاريخ.

ولدت في حصن مسار من جبال حراز باليمن، ونشأت في رعاية أسماء بنت شهاب زوجة الملك علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية، بعد وفاة والدها أحمد الصليحي وزواج والدتها من عامر بن سليمان ابن عامر بن عبد الله الزواحي.

عرفت الملكة الحرّة بالجمال وحسن الأخلاق والشخصية النافذة، وكانت قارئة كاتبة، تحفظ الأشعار والأخبار والتواريخ، وكان الملك علي معجباً بها فكان يوصي زوجته فيقول لها: «أكرميها فهي واللّه كافلة ذرارينا وحافظة هذا الأمر على من بقي فينا».

تزوجها المكرّم أحمد بن علي سنة ٤٥٨هـ في حياة أبيه، وتولى الحكم من بعده (٤٥٩ ـ ٤٨١هـ) فأنجبت منه ولدين وبنتين، ومات ولداها صغيرين، ولمّا أصيب زوجها بالفالج بعد وفاة والدته سنة ٤٦٧هـ فوّض الأمور إلى زوجته أروى، فكان أول ما قامت به، بعد أن غادرت صنعاء، أن اتخذت مقرها في قصر شاده زوجها في حصن ذي جبلة ونقل إليه ذخائره وقامت بتدبير المملكة خير قيام وبسطت سلطانها على القبائل اليمانية، فخضع الناس لها، ومنحها الخليفة الفاطمي الإمام المستنصر باللّه منصب داعي الدعاة ولقبها: «بالسيدة الحرّة، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن، عمدة الإسلام، ذخيرة الدين، عصمة المؤمنين، كهف المستجيبين، وليّة أمير المؤمنين، كافلة أوليائه الميامين» وعدّها المثل الأعلى للحاكم لكفاياتها في تدبير شؤون الحكم، وكانت المراسلات المستنصرية الإمامية تصدر إلى اليمن باسمها.

وبعد وفاة زوجها المكرّم سنة ٤٨١هـ اختلف الصليحيون والزواحيون فيمن يتولى الحكم، وكان زوجها قد أوصى أن تسند أمور الدعوة إلى الأمير المنصور سبأ بن أحمد بن المظفر الصليحي الذي طمح إلى الزواج بالسيدة الحرّة، فلم ترض أروى بهذا الاختيار، واحتكم سبأ إلى الخليفة المستنصر باللّه الفاطمي الذي أمر أروى أن تقبل بسبأ زوجاً، فوافقت بعد تردد، ولكنّ هذا الزواج ظلّ صورياً، وظلّت أروى تمسك بمقاليد الحكم الفعلية، وتُرفع إليها الرقاع، ويجتمع عندها الوزراء، ويدعى لها على منابر اليمن، فيخطب أولاً للخليفة الفاطمي ثم لسبأ ابن أحمد ثم للسيدة الحرّة أروى. ولم تلبث أن استقلت بأمر الحكم بعد وفاة زوجها الثاني سبأ

سنة ٤٩٢هـ، واعتمدت في تدبير أمور الملك على عدد من الثقات، منهم: المفضّل بن أبي البركات، وزريع بن أبي الفضل، وعليّ بن إبراهيم بن نجيب الدولة وغيرهم، وامتدت أيام حكمها بعد ذلك أربعين سنة، استطاعت في أثنائها أن تمارس سيادتها على الإمارات اليمنية الصغيرة من دون إخضاعها.

ولّما قدم ابن نجيب الدولة إلى اليمن موفداً من الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام اللّه سنة ٥١٣هـ وداعياً له، فأقام الحدود وأخضع الإمارات المتمردة، عزّ جانب الحرّة وانقمع أهل اليمن، إلا أنه بدأ منذ سنة ٥١٩هـ يسيء إلى الحرّة ويستخفّ بأمرها ويدّعي أنها قد خرفت واستحقت أن يحجر عليها، وحاول أن ينتزع الحكم منها، ولكنّ أمراء البلاد وشيوخها ساندوها واتهموا ابن نجيب الدولة بالتآمر على الخلافة والدعوة النزارية، فأمر الخليفة بالقبض عليه وإعادته إلى مصر، ولكن السفينة التي كانت تقلّه غرقت في أثناء الرحلة، وأسندت الحرّة أمر الدعوة إلى سبأ بن أبي السعود من آل زريع (وهو أول ملوك بني زريع الذين خلفوا الصليحيين).

وقد عملت أروى إبّان حكمها على تشجيع البناء والعمارة وأولت إنشاء المدارس والمستشفيات والمساجد اهتمامها الزائد، ولم يقف نفوذها عند حدود اليمن، فقد عهد إليها الخليفة المستنصر باللّه ومن بعده الآمر بأحكام اللّه بالإشراف على الدعوة الفاطمية في عُمان والهند.

عُمّرت أروى طويلاً، فلمّا ماتت تبارى الشعراء في رثائها، ودفنت في مسجد كانت بنته بذي جبلة، وقبرها ما يزال حتى اليوم مزاراً يسعى الناس إليه ويتبركون به.

وعلى إثر وفاتها دبّ الضعف في جسد الدولة الصليحية الإسماعيلية وتفككت أوصالها وصار الأمر فيها إلى الأمراء من آل زريع، وكانت الدولة الفاطمية في مصر تعاني الانهيار أيضاً، وانتهى أمر الصليحيين تماماً بعد أن غزا طوران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين اليمن سنة ٥٦٩هـ

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

الصليحيون - المستنصر باللّه.

مراجع للاستزادة:

نجم الدين عمارة، تاريخ اليمن، حققه محمد بن علي الأكوع (مطبعة العلم ١٩٧٩).
عبد اللّه أحمد محمد التاور، هذه هي اليمن، حققه محمد بن علي الأكوع (دار العودة ١٩٧٩).

■ إريترية

إريترية Eritrea جمهورية حديثة (١٩٩٣) نشأت في شمال شرقي إفريقية عاصمتها مدينة أسمرة [ر].

تسمية إريترية قديمة، انبثقت بالأصل عن التسمية اليونانية للبحار الواقعة حول الجزيرة العربية (تريكون سينوس إريتريوم Trikone-Sinus Erythroeum) ومعناها البحار الحمر، وقد أطلقت أول مرة في القرن الثالث قبل الميلاد، ثم اقتصرت التسمية فيما بعد على البحر الأحمر [ر] المعروف اليوم لتكاثر الطحالب الحمر العائمة عند شواطئه الضحلة المياه، وقد نقل الرومان هذه التسمية إلى السواحل الإريترية عندما خضعت «عدوليس» لسيطرتهم (وهي المنطقة القريبة من ميناء مصوع الإريتري الحالي وعرفها العرب باسم «عدولي» منذ عصر ماقبل الإسلام). ثم ثبت الإيطاليون التسمية نفسها على منطقة إريترية بعد احتلالهم لها تجديداً للتسمية القديمة.

الموقع والخصائص الطبيعية

تقع جمهورية إريترية على الساحل الغربي للبحر الأحمر بامتداد يبلغ نحو ألف كيلو متر، تبتدئ سواحلها من رأس قصار على الحدود السودانية شمالاً، وتنتهي عند باب المندب جنوب رأس «أرحيتا» في ساحل عفار وعيسى [ر. جيبوتي] ويحدها من الشمال والغرب السودان، ومن الجنوب إثيوبية، ومن الجنوب الشرقي جيبوتي. وتبلغ مساحتها نحو ١٢١,١٤٤ كيلو متر مربع، وتتبعها ١٢٦ جزيرة أهمها: دهلك وهي أكبر الجزر، ونورة، وحارات، وأبا عجوز، ورخاء، وزبير، وفاطمة، وسالمة، وحالب.

وقد تزايدت الأهمية الاستراتيجية لموقع إريترية بعد افتتاح قناة السويس لامتدادها على مدخل البحر الأحمر في مواجهة اليمن [ر] والعربية السعودية [ر].

تشتهر إريترية بتنوع المناخ والتضاريس على صغر مساحتها نسبياً، فهضبتها الداخلية التي تقع العاصمة أسمرة في وسطها، تؤلف امتداداً لمرتفعات وسط إفريقية، في حين تشابه سهول الغرب أراضي السافانا في غربي إفريقية والسودان وتكاد تماثل صحاريها الشرقية أراضي شبه الجزيرة العربية القاحلة.

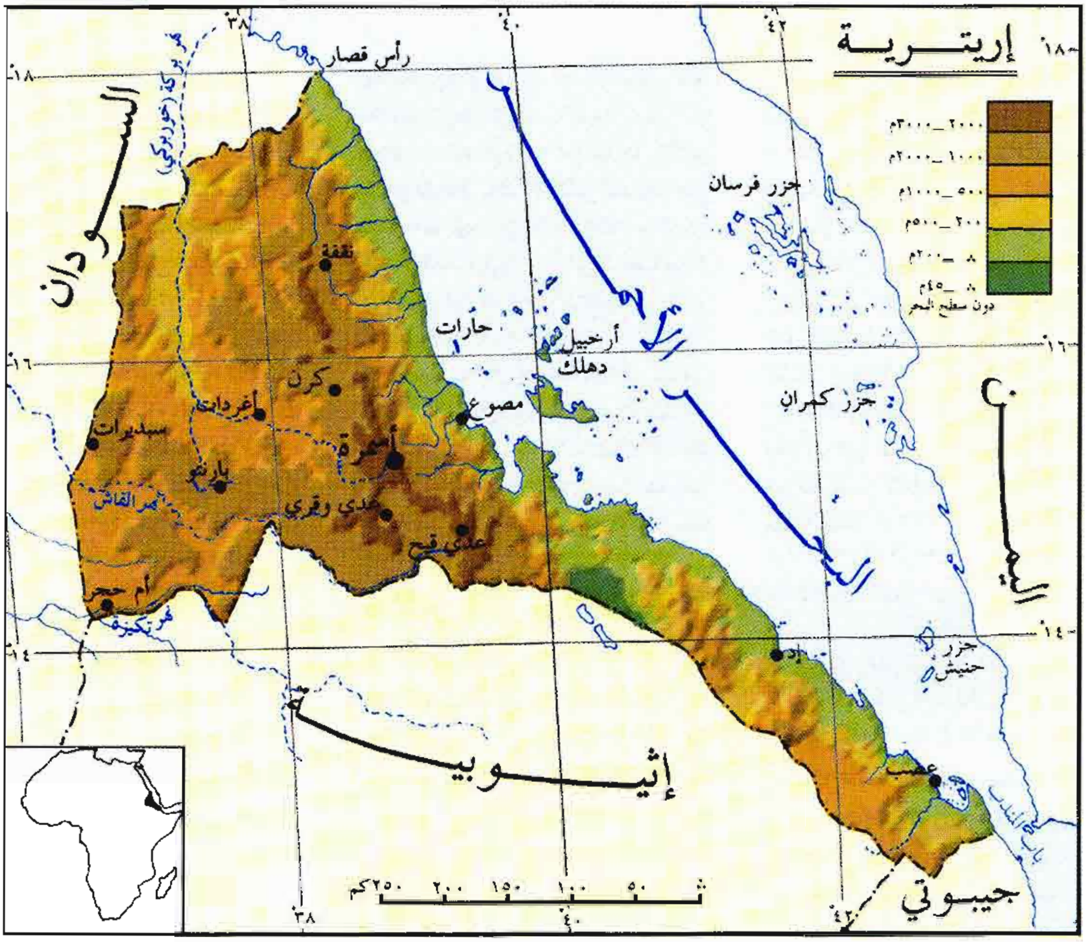
يراوح ارتفاع هضبة إريترية الداخلية بين ١٨٠٠م و٢٤٠٠م عن سطح البحر، فيتيح لها اعتدالاً متميزاً في المناخ، يسوده جوّ ربيعي معظم أشهر السنة، لا تكاد فيه حرارة الصيف تتجاوز ٣٥ درجة مئوية في حين ترتفع الحرارة إلى نحو ٤٥ درجة مئوية في الشريط الساحلي، وإلى نحو ٥٠ درجة مئوية في صحراء الدناقيل في الجنوب الشرقي.

تهطل الأمطار صيفاً في معظم أنحاء إريترية (من حزيران حتى أيلول)، باستثناء الشريط الساحلي الذي تتسرب إليه الأمطار الشتوية (من كانون الأول حتى آذار). وتتباين كمية الأمطار السنوية بين ٣٧٥مم في منطقة «بركة» و٧٢٥مم في حوض «القاش» و«ستيت» شمالي غربي البلاد، في حين تنخفض في السواحل من ١٧٥م سنوياً في مصوع في الوسط، إلى نحو ٧٥ مم سنوياً في عصب جنوباً، وتصل إلى أكثر من ١٠٠٠مم في المرتفعات الوسطى عند منطقة «قندع» حيث يكون أعلى منسوب للتهطال على مدار السنة.

وتخترق إريترية عدة أنهر، أبرزها نهر «ستيت» الذي ينبع من الهضبة الإثيوبية تحت اسم «تكَزة» ثم يؤلف في السودان نهر عطبرة أحد روافد النيل [ر]، وهو دائم الجريان، كذلك يوجد نهر «خور بركة» ونهر القاش وهما موسميان ينبعان من المرتفعات الوسطى ويجريان نحو السهول الشمالية من إريترية.

السكان

يقدر عدد سكان إريترية بنحو ٣,٥٧٤,٠٠٠ نسمة (١٩٩٥) يعيش منهم نحو ٤٥٠,٠٠٠ نسمة في العاصمة أسمرة. كما يعيش نحو ٣٤٠,٠٠٠ إرتيري في السودان ونحو ١٥٠,٠٠٠ (لاجئين) في أوربة وأمريكة



وبلغت نسبة وفيات الرضع عام ١٩٩٤ نحو ١١,٤٪ ونسبة وفيات الأطفال ٢٠٪، كما أن العمر المتوسط للفرد هو ٥٢ سنة فقط، وتقدر نسبة الأمية في إريترية بنحو ٨٠٪.

يتوزع سكان إريترية تاريخياً بين ثلاث مجموعات لغوية (بالمعنى المجازي) هي: الحامية والسامية والنيلية. وقد هاجرت إليها القبائل التي تنتمي إلى المجموعتين الحامية والسامية من الجزيرة العربية أصلاً ويصعب التفريق بينهم في الشكل والهيئة العامة، أما النيليون فيعتقد أن أصولهم زنجية أو «متزنجة».

ومن الجماعات التي تنتمي إلى الحامية أو السامية كل من قبائل البجة في منطقة القاش، وقبائل الأسورتا والساهو في محافظتي إكلي قوزاي والبحر الأحمر، وقبائل البلين في محافظة كرن، وقبائل الماريا في أغوردات وكرن، وقبائل الدناقيل في سهل الدناقيل؛ وقبائل الحباب في نقفة وتغري، وقبائل منسع حول كرن، والقبائل النصرانية في حماسين، ولا يكاد يوجد أثر للسمات الزنجية المعروفة بين هذه القبائل باستثناء لون البشرة الأسمر الداكن الذي يجعلهم أقرب إلى قبائل عرب السودان. أما النيليون أو أنصاف الحاميين فلا يتجاوز مجموعهم بضعة آلاف نسمة، وتمثلهم قبائل الكوناما أو البازا وقبائل الباريا وينتشرون في مناطق مختلفة من القاش وستيت، وإلى جانب هذا التعدد يوجد في الوقت نفسه امتزاج سلالي يتعذر تحديد فواصله لمرور زمن طويل من المصاهرة والمجاورة. ومن الهجرات العربية المبكرة إلى المنطقة قبل ظهور الدعوة الإسلامية بطون من بني حمير عرفوا بقبيلة «البلو» وقد صاهرت البجة وحكمت بعض الإمارات البجاوية في إريترية. وقد وفد إلى المنطقة في أزمنة لاحقة قبائل من ربيعة وأخرى من القحطانية والجهنية. وتعد قبيلة الرشايدة آخر الهجرات العربية إلى إريترية، وقد توافدت إليها عن طريق السودان منذ سنة ١٨٤٦م وانتشرت على الشريط الساحلي من مصوع حتى حدود السودان.

ويتحدث سكان إريترية لغات متعددة متقاربة الأصول، تتمثل على نحو أساسي باللغتين «التغرينية» و«التغرية» وتشير المصادر التاريخية إلى أن هاتين اللغتين اشتقتا من اللغة الجعزية السبئية، وتتشابهان إلى حد بعيد مع لهجة سكان ظفار ولهجة سكان المحافظة السادسة من جمهورية اليمن. واللغة التغرينية أقرب إلى اللغة الجعزية السبئية من أختها التغرية وتكتب بحروفها، وهي أكثر اللغات انتشاراً من حيث عدد المتحدثين بها، وجلهم من النصارى وبعض المسلمين من سكان الهضبة الإريترية. أما اللغة التغرية فتنتشر في شرقي إريترية وشماليها وغربيها، وغالبية المتحدثين بها من المسلمين، ويتكلم بعض قبائل «بني عامر» اللغة «البجاوية» التي تسمى «البداوي» في حين تتحدث قبائل البازا والباريا لغة نيلية إفريقية،

وتمثل اللغة العربية القاسم المشترك بين مجموع هذا التعدد اللغوي الواسع، وغالباً ما يجري التفاهم بالعربية بين الجماعات التي لا يعرف بعضها لغة بعضها الآخر، إضافة إلى الجماعات التي تتحدث العربية وحدها مثل الرشايدة. وقد اتخذ البرلمان الإريتري، قبل أن يحله الإثيوبيون، من اللغة العربية لغة رسمية لإريترية إلى جانب اللغة التغرينية بحسب المادة ٣٨ من الدستور الإريتري، وكانت اللغتان العربية والتغرينية تدرسان في المدارس قبل أن تمنع ذلك إثيوبية، ومما ساعد على اقتصار التعليم بهاتين اللغتين فحسب كونهما الوحيدتين اللتين تمكن الكتابة بهما.

تنقسم إريترية إلى تسع محافظات، هي حماسين ومركزها أسمرة وهي عاصمة الدولة، ومحافظة البحر الأحمر ومركزها ميناء مصوع، ومحافظة الدناقيل ومركزها ميناء عصب، ومحافظة الساحل ومركزها نقفه، ومحافظة كرن ومركزها كرن، ومحافظة سراي ومركزها عدي وقري، ومحافظة إكلي قوزاي ومركزها عدي قيح، ومحافظة بركة ومركزها أغوردات، ومحافظة القاش ومركزها بارنتو إضافة إلى مركز العاصمة.

مصادر الثروة

تمتلك إريترية ثروة معدنية مهمة يجري استثمار بعضها استثماراً تجارياً متذبذباً لفقدان الاستقرار السياسي قبل الاستقلال وبسبب ثورة التحرر الوطني التي قامت من أجل الاستقلال، وأبرز المعادن المكشوفة النفط والنحاس والبوتاس والذهب واللغنيت والحديد والألمنيوم والفضة والنيكل. وقد كشف النفط في جزيرة دهلك وجنوب شرقي مدينة مصوع، وتقوم الشركات الأمريكية والهولندية بالتنقيب عنه. وتقع أكبر مناجم النحاس في منطقة «ديباروا» قرب أسمرة، وتستخرج الاستثمارات اليابانية نحو ٦٠٠٠ طن من النحاس شهرياً، وتتوسع الشركات الأمريكية باستخراج الفوسفات وتسويقه منذ عام ١٩٤٩.

أما الزراعة، فهي أكثر أهمية، إذ تُعد إريترية بلداً زراعياً رعوياً، يمارس فيه أكثر من ٩٠٪ من مجموع السكان الزراعة والرعي، وتؤلف زراعة الحبوب نحو ٨٧٪ من مجمل المحصولات، وأهمها الذرة والقمح والشعير والطاف (نوع من الحبوب يخلط مع الذرة لصنع الخبز الوطني)، وتتوزع بقية المزروعات بين البن والتبغ والقطن والفواكه المدارية. وتعد الذرة غذاء رئيساً للسكان في السهول الغربية والشرقية، في حين تنتشر زراعة القمح والطاف في الهضبة، وقد توسعت مؤخراً زراعة الموز في منطقة وادي بركة وهو من المنتجات المعدة للتصدير.

وعلى وفرة الإمكانات الزراعية، مازالت إريترية بعيدة عن التطور الزراعي لحداثة استقلالها بسبب إهمال الإدارات المستعمرة المتوالية، وفقدان الاستقرار السياسي منذ أن ضمت البلاد إلى إثيوبية، وكثيراً ما ألحقت المجاعات خسائر باهظة بالإريتريين.

تهيمن حرفة الرعي إلى جانب الزراعة، على قطاعات واسعة من السكان، وتمتلك إريترية نحو ١٠ ملايين رأس من الأبقار والجمال والأغنام. وقد تأثر تكاثرها بحالة الحرب التي عاشتها البلاد منذ عام ١٩٦٠م، وتحاول الشركات الأجنبية استثمار الإنتاج الحيواني في صناعة اللحوم لتصديرها إلى الخارج، ولا سيما إلى الكيان الصهيوني (وفقاً للاتفاقية التي عقدتها السلطات الإثيوبية مع شركة «انكودي» الصهيونية). كذلك تصدر إريترية منتوجات الألبان إلى إيطالية وبعض الدول المجاورة. وتمتلك إريترية ثروة بحرية كبيرة من الأسماك والأصداف وتزيد قيمة صادراتها السنوية فيها على ٥٠ مليون دولار.

وتعد الغابات مصدراً آخر للثروة في إريترية وتنتشر في السهول وفي أودية الأنهار أشجار «الدوم» التي تستخدم في صناعة أزرار الملابس، وتنتشر فيها المراعي، وأشجار اللبان والصمغ، وتساعد هذه الأشجار عموماً على حماية التربة من التعرية والانطمار الذي قد يلحقها من تحرك كثبان الرمل. في حين تنمو أشجار «اليورفوبيا» في الهضبة والمرتفعات ويستفاد منها في صناعة الأخشاب وأعواد الثقاب.

وفي إريترية بعض الصناعات البسيطة، التي يتركز معظمها في العاصمة «أسمرة» ويديرها الإيطاليون على الأغلب، وأهمها تعليب اللحوم والفواكه والأسماك، وصناعة الجلود والسماد والكبريت والصابون والنسيج والإسمنت والبلاستيك.

لمحة تاريخية

خضعت إريترية، بحكم موقعها الجغرافي وتعدد الهجرات البشرية التي استقرت في مختلف مناطقها، لدول مختلفة توزعت مناطق النفوذ فيها أحقاباً طويلة. ومع ذلك تبقى السمة الأساسية لتاريخ إريترية ممثلة بارتباطها الوثيق وصلاتها المشتركة بالتاريخ العربي والإسلامي في سائر المراحل. فقد ارتبط ملوك «البجة» الذين حكموا بعض المناطق الإريترية في أزمنة مختلفة، بتحالفات واسعة مع عرب الجزيرة. وامتدت تحالفاتهم تلك إلى مملكة تدمر عام ٢٧٢م في صراعها مع الرومان، واستطاع السبئيون والحميريون في اليمن إقامة إمارات مستقلة تابعة لهم في السواحل والهضبة الإريترية، وقد اتحدت هذه الإمارات فكونت ابتداء من القرن الأول الميلادي مملكة «أكسوم» في المنطقة الممتدة بين «تكزة» ومحافظة «إكلي قوزاي».

وفي القرن الثامن الميلادي أسس خلفاء الأمويين حكماً لهم في جزيرة «دهلك» امتد نفوذه إلى المنطقة الساحلية من إريترية، وتعاقبت عدة ممالك إسلامية صغيرة في حكم الساحل الإريتري وأجزاء أخرى من الهضبة الداخلية في عهد العباسيين.

وكانت علاقات بعضها بالأخرى أو بجيرانها متفاوتة بين الوحدة، عندما يتهددها الخطر الخارجي، والنزاع في أوقات أخرى، ولم تكن إريترية بعيدة عن دائرة الصراعات العربية - الأوربية زمن الحروب الصليبية، فقد وضعت أوربة في سياستها آنذاك، حرمان مصر من المواد الأولية والتأثير في تجارة البحر الأحمر فكانت إريترية إحدى المناطق الاستراتيجية لتحقيق تلك الأهداف، وتعاقد الأوربيون والإثيوبيون على الإريتريين والمصريين، وتتابعت الصراعات الطويلة الدامية حتى مابعد الحروب الصليبية، فنزل جيش برتغالي عام ١٥٢٠م على الساحل الإريتري نجدة للملك الإثيوبي على المصريين، وكان ذلك التاريخ بداية احتلال البرتغال سواحل إريترية.

ووجد العثمانيون في السيطرة البرتغالية تهديداً لتجارتهم في البحر الأحمر، فبادروا إلى احتلال مصوع عام ١٥٥٧م، ونجحوا في تصفية مواقع البرتغال على طول سواحل البحر الأحمر، واستمر الحكم العثماني لهذه المناطق نحواً من ثلاثة قرون. وفي الوقت نفسه، وإلى جوار العثمانيين، بسط سلطان «الفونج» في «سنار»

بالسودان «عمارة بن دنقس» نفوذه على مناطق القاش وستيت، في حين حكمت بعض الإمارات البجاوية مناطق أخرى من إريترية حتى القرن التاسع عشر، وقد ازدادت في هذه المرحلة الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر، ولا سيما بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩، فخلفت مصر الخديوية الأتراك العثمانيين على طول ساحل البحر الأحمر والصومال، ورفع العلم المصري فوق معظم الأراضي الإريترية. وأدخلت الإدارة الخديوية جملة من الإصلاحات ولا سيما في مجالات التعليم والصحة والمواصلات، كما دخلت في صراعات مستمرة مع إثيوبية في الغرب. وفي غضون ذلك قامت الثورة المهدية في السودان فاضطر معظم القوات المصرية إلى الانسحاب من إريترية لمواجهة تلك الثورة، وانتهز الإيطاليون الفرصة، فاحتلت قواتهم مصوع عام ١٨٨٥، ثم استكملت السيطرة على سائر الأراضي الإريترية فيما بعد. وقد عمدت الإدارة الإيطالية إلى تثبيت حدود إريترية بمعاهدات رسمية مع كل من الإدارة البريطانية الحاكمة في السودان (في المدة بين ١٨٩١-١٩٠٤)، ومع إثيوبية (في المدة بين ١٩٠٠-١٩٠٨). وبهزيمة إيطالية في الحرب العالمية الثانية احتلت قوات الحلفاء إريترية، وتحولت إدارتها إلى بريطانية التي سعت إلى تثبيت وجودها هناك بتشجيع النعرات القبلية والطائفية وبث الفرقة في ظروف من الركود الاقتصادي عمّت البلاد. وفي عام ١٩٤٨ أحيلت قضية إريترية إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة في دورتها العادية الثالثة، للنظر في تقرير مصير المستعمرات الإيطالية، ولكن الخلاف حول مستقبل إريترية أجل البت في مصيرها حتى عام ١٩٥٠م، وتعددت المشروعات والحلول بين استقلال كامل أو جزئي، وبين ضم البلاد إلى إثيوبية أو إعطائها منفذاً بحرياً على الساحل الإريتري، أو وضع إريترية تحت وصاية الأمم المتحدة مدة معينة، أو تقسيم البلاد بين إثيوبية والسودان، وقد تبنت بريطانية هذا المشروع الأخير.

وفي ٢/١٢/١٩٥٠ أقرت الجمعية العامة، بالأغلبية، مشروعاً أمريكياً بعد مناقشات مجهدة، وقد عرف هذا المشروع باسم القرار الفدرالي ذي الرقم ٣٩٠-أ-٥-ويدعو إلى قيام اتحاد فدرالي بين إريترية وإثيوبية، ويشترط هذا القرار أن تتمتع إريترية بحكم ذاتي، وأن يكون لها دستورها الخاص وعلمها الخاص ومجلسها التشريعي والتنفيذي وحكومتها الخاصة، وأن تؤلف حكومة اتحادية للبلدين يمتد اختصاصها إلى شؤون الدفاع والخارجية والنقد والتجارة والمالية والمواصلات، على أن يكون للأمم المتحدة الحق بإعادة النظر في القضية الإريترية من جديد إذا حدث أي إخلال ببنود الاتحاد الفدرالي. وفي عام ١٩٥٢م دخل الاتحاد الفدرالي حيز التنفيذ تحت إشراف مندوب الأمم المتحدة والإدارة البريطانية. وفي العام نفسه بدأت إثيوبية بإلغاء بنود الاتحاد الفدرالي بالتدريج، وأصبح الممثل الذي عينه الامبراطور في إريترية يتدخل في كل شؤونها، فأُوقفت الصحف وحُلّت الأحزاب السياسية والنقابات وبوشر بتطبيق القوانين الإثيوبية على إريترية وفي ذلك صلاحيات الحاكم، واستولت إثيوبية على حصة إريترية من الجمارك وعمدت إلى نقل الكثير من المصانع إلى أديس أبابا، وفي ٢٢/٥/١٩٥٣ وقعت إثيوبية مع أمريكة معاهدة منحت بموجبها الحق للجيش الأمريكي باستعمال المنشآت الدفاعية في الامبراطورية الإثيوبية، وفيها ماكان مقاماً على أراضي إريترية. وقد سارعت الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٣ إلى إنشاء قاعدة بحرية لها في مصوع وقاعدة عسكرية قرب أسمرة (كانيو ستيشن) التي تحتوي على محطة مراقبة ومتابعة لنظام الأقمار الصناعية.

إزاء هذا الوضع اتخذ البرلمان الإريتري عام ١٩٥٤ قراراً ينذر الحكومة الإثيوبية بوجوب إعطاء الضمانات اللازمة لسيادة الدستور الإريتري، لكن إثيوبية أقالت رئيس الوزراء الإريتري الذي حمل تلك المطالب إلى الامبراطور، وفي عام ١٩٥٧ أرسل الشعب الإريتري وفداً إلى الأمم المتحدة لتقديم مذكرة عن المخالفات التي ارتكبتها الحكومة الإثيوبية لقرار المنظمة الدولية. فصعّدت إثيوبية إجراءاتها القمعية وقامت باعتقال الوفد لدى رجوعه إلى البلاد. وفي عام ١٩٥٨ أمرت إثيوبية بإنزال العلم الإريتري وإلغاء الشارات الإريترية، ثم في ١٤/١١/١٩٦٣ أصدر الامبراطور الإثيوبي قراراً ألغى بموجبه البرلمان الإريتري وأعلن إريترية ولاية تابعة للامبراطورية.

الكفاح المسلح وحركة التحرير

على أثر تصاعد حملات القمع والإرهاب عام ١٩٥٨، اضطر عدد كبير من العمال الإريتريين إلى الهجرة إلى الأقطار المجاورة، وبادر عدد منهم إلى تأليف تنظيم ثوري حمل اسم «حركة التحرير الإريترية» واتخذ قاعدة له في بور سودان، وسرعان ما امتدت الخلايا السرية لهذا التنظيم إلى الكثير من المدن الإريترية. ثم شهد عام ١٩٦٠ أول تأليف «لجبهة التحرير الإريترية» بين العمال والطلبة الإريتريين في المشرق العربي، وانتقل نشاطه في العام التالي إلى جبال إريترية إثر الانتفاضة التي قادها «حامد إدريس عواتي» في ١/٩/١٩٦١ مع بضعة مقاتلين يحملون بنادق إيطالية عتيقة، وقد تبنت الجبهة تلك الانتفاضة لتحولها في مدى سنوات قليلة إلى ثورة مسلحة منظمة انسجاماً مع أهداف التحرير التي حددها دستور الجبهة، وفي مقدمتها الاستقلال الوطني الكامل عن طريق الكفاح المسلح المدعم بجهود سياسية ودبلوماسية في الخارج. واختار المؤسسون أن يكون إدريس محمد آدم أول رئيس للجنة التنفيذية للجبهة. وقد تطور الكفاح المسلح بإمكانات ذاتية بسيطة وبدعم من بعض الأقطار العربية، وفي مقدمتها سورية، إلى مقاومة حملات قمع وإبادة إثيوبية شرسة شملت مئات الألوف من الضحايا الإريتريين، واتسمت بعض تلك الحملات باتباع سياسة الأرض المحروقة للقضاء على المحصولات الزراعية وقتل المواشي، وإبادة المواطنين بالجملة من دون تمييز، كما حدث في حملات ١٩٦٧ و١٩٧٠ و١٩٧٤ و١٩٧٥ على التوالي فشردت أعداد كبيرة من الإريتريين في الصحارى والغابات، وعبرت أعداد أخرى الحدود إلى السودان، الأمر الذي أدى إلى نشوء مشكلة اللاجئين الإريتريين هناك، في حين سيطرت حركة المقاومة الإريترية على معظم الريف الإريتري، وتمكنت من تحرير بعض المدن. وكانت سيطرة جبهة التحرير تتسع أو تتقلص بحسب ظروف المواجهة وتطوراتها. وفي هذا السياق، عقدت حركة المقاومة الوطنية الإريترية أكثر من مؤتمر لها في الأراضي المحررة، ولم تنج من التعدد والانقسامات التي فرضها تباين منعكس المعاناة الداخلية، ورواسب المجتمع والتدخلات الخارجية أحياناً.

إثر سقوط نظام منغستو هايلي مريم في إثيوبية بتاريخ ٢٥/٥/١٩٩١ وفي الوقت الذي أصبحت فيه إريترية على عتبة الاستقلال،

شهدت الساحة الإريترية صراعات داخلية أفرزتها التعددية السياسية في بنية حركة التحرير. ويعد تنظيم الجبهة الشعبية لتحرير إريترية من أكبر التنظيمات وأقواها على الساحة، إضافة إلى تنظيمات أخرى أهمها: (جبهة التحرير الإريترية ـ التنظيم الموحد، وجبهة التحرير الإريترية ـ المجلس الثوري، وجبهة التحرير الإريترية ـ المجلس الوطني).

وعلى الرغم من المراهنة على تفجر الصراعات الداخلية بين فصائل التحرير، فإن ظاهرة الاختلاف ليست من الحدة والتناقض بحيث تعيق الوحدة الوطنية المنشودة لقوى الثورة، ولا سيما أن دروس التاريخ المريرة وقسوة المعاناة قد وحدت شعور المواطنة الإريترية الغالبة. وسيبقى أثر هذا العامل حصانة أساسية بوجه المؤامرات التي يمكن أن تتعرض لها الوحدة الوطنية بعد انهيار نظام منغستو في إثيوبية وسيطرة فصيل الجبهة الشعبية لتحرير إريترية على الحكم في الوطن الإريتري، وتشكيلها للحكومة الإريترية المؤقتة برئاسة الأمين العام للجبهة «اسيس أفورقي». ومن أبرز مهام هذه الحكومة مواجهة تراكمات الاحتلال المديد ومخلفاته وإجراء الاستفتاء العام وإعلان الاستقلال.

ولقد تحقق للإريتريين النصر والاستقلال والسيطرة على العاصمة أسمرة في عام ١٩٩٣. أجري على أثره الاستفتاء في العام المذكور، فكانت نتيجته إجماع شبه تام (٩٩,٨٪) لصالح الاستقلال الكامل. وهكذا أعلن استقلال إريترية في نيسان من عام ١٩٩٣، واعترفت بها دول كثيرة. وقد دخلت إريترية صراعاً مع اليمن بسبب احتلال القوات الإريترية أرخبيل حنيش الكبرى اليمنية في البحر الأحمر، ذات الأهمية الاستراتيجية لوقوع الجزر في طريق الملاحة البحرية بين مضيق باب المندب وقناة السويس. وعلى الرغم من الاتفاق على معالجة المسألة سلمياً في ٣/٥/١٩٩٦ فقد استمر احتلال الجزر حتى حكمت محكمة العدل الدولية بتبعيتها لليمن في تشرين الأول عام ١٩٩٨.

فاضل الأنصاري

الموضوعات ذات الصلة:

إثيوبية ـ البحر الأحمر ـ الحميريون ـ السبئيون ـ السودان ـ مصر ـ اليمن.

مراجع للاستزادة:

ـ جبهة التحرير الإريترية، قوات التحرير الشعبية، وثائق الأمم المتحدة حول إريترية (دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد ١٩٧٧م).

ـ عثمان صالح سبي، تاريخ إريترية (شركة النهار للخدمات الصحفية، بيروت ١٩٧٤م).

■ أريتينو (بيترو -) (١٤٩٢-١٥٥٦)

بيترو أريتينو Pietro Aretino كاتب إيطالي، في أعماله حيوية بارزة امتزجت فيها الاستقامة بالفساد. وعلى الرغم من أنه أثر تأثيراً بالغاً في أدب القرن السادس عشر، فإن أعماله تعد ذات أهمية تاريخية.

ولد أريتينو في أريتزو Arezzo وكان والده صانع أحذية. درس فن الرسم والأدب في بروجيه Perugia. ورحل عام ١٥١٦ إلى رومة، وسرعان ما لفت الانتباه بشعره المتقد اللاذع وحاز استحسان البابا ليو العاشر Leo X والكردينال جوليو دي ميدتشي Giulio de Medici. وقد ساند أريتينو الكردينال دي ميدتشي حين رشح نفسه لمنصب البابا بكتابة مقطوعات هجائية تشهِّر بسمعة المرشحين الآخرين. وكثر أعداء أريتينو لضراوة هجائه فاضطر إلى مغادرة رومة إلى البندقية عام ١٥٢٧ وتوفي فيها.

نجح أريتينو في اكتساب الشهرة والثروة بقوة قلمه وقد أطلق عليه لقب «سوط الأمراء» لأن الكثير من الرجال البارزين داخل إيطالية وخارجها كانوا يخشون هجاءه. وعاش أريتينو مثل الأمير من الهدايا القيّمة والمنح التي كان يغدقها عليه أولئك الذين كانوا يخشون هجاءه أو أولئك الذين كانوا يسعون وراء الشهرة عن طريق مداهنته وخطب وده. وكان ملك فرنسة فرانسيس الأول والامبراطور تشارلز الخامس من أبرز أولياء نعمته.

كتب أريتينو المأساة «هوراس» Orazio (١٥٤٦) وخمس مسرحيات كوميدية. وتتصف «المحظية» La cortigiana (١٥٢٦) و«الغاوية» La talanta، وهما أبرز مسرحياته الكوميدية، بالعفوية والحيوية. ويُعد حواره المسرحي الهجائي في «المجادلات» I ragionamenti و«المحاورات» I dialoghi نقداً لاذعاً للتعاليم الأخلاقية التي كانت سائدة في إيطالية في تلك الآونة، وقد اتسمت رسائله التي جمعت في ستة مجلدات بقدرة وصفية عالية جعلت منها وثائق تاريخية مهمة فيما يتصل بالقرن السادس عشر.

ج.ت

■ أريحا (مدينة -)

مدينة سورية ومركز منطقة، تتبع محافظة إدلب [ر]. ذكرها ياقوت بأنها: «أنزه بلاد الله وأطيبها».

ويلفظها أهلها ريحا، وهي تسمية آرامية، ولفظها الصحيح «ريحو» كما يلفظها سكان جبل الزاوية، وتعني الأريج، وهي تسمية مشتقة من رائحة زهور المحلب التي امتازت بها من غيرها.

الموقع

تقع أريحا عند تقاطع خط الطول ٣٦ درجة و٣١ دقيقة و٣٠ ثانية شرقاً، وخط العرض ٣٥ درجة و٤٨ دقيقة و٣٠ ثانية شمالاً في موقع يتحكم بطريق اللاذقية ـ حلب للسيارات، مشرفة على سهول إدلب الشمالية عند التقاء جبل الأربعين بالسهل، مجاورة طريق الحرير الذي يبدأ في الصين وينتهي في أنطاكية.

يقع المكان الأصلي للمدينة في الشطر الغربي من أريحا الحالية، وهو تل بيضوي يعلو ثلاثين متراً على ما حوله، غني باللقى الفخارية وبقايا حجرية من سور المدينة. ابتدأت الحياة في التل منذ الألف الثالث قبل الميلاد ولم تتوقف، وتعرض، مع تل أورم الجوز، لهجوم تحوتمس الثالث عام ١٤٥٧ق.م بعد اجتيازه شيزر.

ولقد تبدل الوضع الإداري لأريحا عبر التاريخ، ففي العهدين الروماني والبيزنطي (٦٤ق.م-٦٣٧م) كانت أريحا تتبع أنطاكية[ر]، وكانت آنذاك أحد المراكز الدينية المهمة. ومرت بمرحلة ازدهار حقيقي في المدة بين ٢٥٠-٣٥٠م. ثم فتحها عمرو بن العاص

عام ٦٣٧م وألحقت بجند قنسرين. وفي العهد الأيوبي ألحقت بحلب ثم بقنسرين مرة أخرى. وفي عام ١٥١٦م تسلم السلطان سليم الأول العثماني مفاتيح أريحا، ثم أتبعت بجسر الشغور. وفي عام ١٨٠٩م أصبحت آغوية مرتبطة بالباب العالي مباشرة. وفي عام ١٨١٢م أحرقها باشا حلب، ثم دمّرها زلزال عام ١٨٢٢م.

زحفت البلدة الأولى نحو الشرق في العهد الروماني، وكانت بيوتها محفورة تحت الأرض، وشملت في العهد البيزنطي المنطقة ما بين وادي العيون وقسطل السوق، كما جهزت بشبكة من أنابيب فخارية زودتها بمياه الشرب من جبل الأربعين.

وفي أريحا مبانٍ أثرية من مختلف العهود كالمسجد الجامع الكبير، الذي شيدت مئذنته في القرن السابع الهجري (الرابع عشر الميلادي) في عهد ابن الملك العزيز محمد ملك حلب، الذي أنشأ أيضاً خانقاه. وثمة مبان أخرى كالقبة الرومانية الكبيرة القائمة فوق الينبوع، ومدافن محفورة في الصخور، ومبان من العصر المملوكي، وأسواق مقببة (أزيلت عام ١٩٨٠م)، وخان القيصرية، ومسجد البيانية (٩٣٠هـ) يقابله مبنى مديرية المنطقة وموظفيها (السراي) العائد إلى العهد العثماني وكان مقراً لمديرية الناحية.

وفي العصور المتأخرة كان لكل مهنة سوق، كسوق الحدادين، والنجارين، والحذائين، والصباغين، والدباغة، والتجار وبائعي الموالح، وصفها بوركهارد عام ١٨١٢م. وكان يحيط بها سور يحوي ستة عشر باباً، غير أن السور والأبواب أزيلت في عهد الانتداب الفرنسي على سورية.

وازدهرت المدينة حديثاً، فأصبحت مركز منطقة وعقدة مواصلات، وتطورت عمرانياً وسياحياً.

مخطط المدينة وسكانها

تجمعت المدينة الحالية في بداية هذا القرن على مخروط أنقاض وادي كفرلاتة، يتقدمها من الشمال أربعة خانات هي خان البازار وخان السوق وخان الشيباني وخان القيصرية والمصبنة، تغذيها سبعة قساطل تستمد مياهها من ينابيع العين التي كانت تشكل النهير القديم.

امتدت المدينة واتسعت نحو الغرب والشمال الغربي، فأحاطت بطريق سيارات حلب اللاذقية ثم عبرت طريق أريحا ـ حلب، كما اتسعت نحو الجنوب الغربي حول التل الأثري، واخترقتها الشوارع الحديثة العريضة فكشفت من خلالها منازل محفورة في الصخور وبقايا ونقود ذهبية ثمينة قديمة وخزفيات من العهد العباسي وأطواق وغير ذلك.

ولقد قام المخطط التنظيمي الحديث للمدينة على إنشاء مركز تتفرع منه أربعة شوارع رئيسة وتتفرع منها شوارع فرعية. وتشغل المدينة مئة وخمسين هكتاراً من الأرض.

ولقد أشار أوليا جلبي عام ١٦٧١م إلى أن عدد سكانها ٤٥٠٠ نسمة، وفي تعداد السكان لعام ١٩٨١ بلغ عدد السكان ١٧٨٠٥ نسمة والنفوس المسجلين فيها ٢٤٦٢٨ نسمة. ويدل هذا الاختلاف على هجرة للسكان من أريحا نحو المدن الكبرى وخاصة إلى حلب. قُدر عدد سكانها عام ١٩٨٨ بنحو ٢٣٠٠٤ نسمة ونفوسها بنحو ٣١٨١٩ نسمة وبلغ عدد سكانها ٢٩,٩٣٩ نسمة عام ١٩٩٧.

وتبلغ نسبة التزايد السكاني فيها ٣٣ بالألف، وتشهد حالياً هجرة يومية للعمل فيها أو لبيع المحصولات الزراعية.

وظائف المدينة

أريحا قاعدة إدارية واقتصادية لجبل الزاوية. ويعمل ٣٢٪ من قوتها العاملة في الزراعة و٢٨٪ في الصناعة و١٠٪ في المهن اليدوية والباقي في الخدمات. تلتقي عندها السهول بمنتوجاتها (زيتون ـ خضر ـ حبوب) والجبل بمنتوجاته (كرز ـ فواكه ـ حيوانات ومنتوجاتها)، وتحيط بها غابة واسعة من أشجار الكرز.

وأريحا عريقة بصناعة الصابون، وكان يرسل إلى بلاد العجم وطرابلس ودمشق كما تذكر كتب الرحلات. وأهم صناعاتها التقليدية البُسط والخيام ودبغ الجلود وكبس التين. وصناعاتها الحديثة عصر الزيتون وصنع راحة الحلقوم والخبز الآلي، وهي تشتهر بالفطائر (نوع من المعجنات)، وفيها مصنع للسجاد اليدوي، والصناعات الهندسية كالبرادات ومواقد الغاز والمدافئ وأجهزة تسخين المياه، وتشمل صناعاتها الكيمياوية المواد المبيضة والصابون والمنتجات البلاستيكية. ومواد البناء، وإلى الشرق منها واحد من أحدث المعامل وأكبرها طاقة لإنتاج القرميد (٣٦ مليون قرميدة في السنة).

كانت أريحا وما زالت محطة تجارية مهمة بدلالة كثرة خاناتها وموقعها المتوسط بين أنطاكية عاصمة سورية الأولى وأفامية عاصمة سورية الثانية في العهد البيزنطي، وسوقها الأسبوعي (البازار) الذي كان يعقد كل يوم سبت وخميس. ازدادت أهميتها نتيجة تطور طرق المواصلات، وهي وسيط تجاري لجبل الزاوية، حيث تتجمع فيها المنتجات الزراعية والصناعية ثم يعاد توزيعها على المدن الكبرى والأرياف.

وأريحا قاعدة إدارية لمئة تجمع بشري (ناحيتان و٥٥ قرية و٤٢ مزرعة). وهي قاعدة ثقافية لجبل الزاوية يقصدها أعداد كبيرة من الطلاب للتعلم في مدارسها العامة والفنية، ففيها سبع مدارس ابتدائية وأربع إعداديات وأربع ثانويات منها ثانوية صناعية وأخرى للفنون النسوية.

وتكثر المنتجعات السياحية حول أريحا ومن أشهرها جبل الأربعين، وفيه عدد من الفنادق ودور مفروشة معدة للإيجار، وعدد من المطاعم، ومتنزه شعبي. وتشرب المدينة من مياه جُرت إليها من ينابيع عرّى في سهل الروج ومن مجموعة كبيرة من الينابيع المحلية. وأشهر المواقع الأثرية من حولها البارة (١٥كم) والمغارة (٧كم) ورويحة (١٠كم) وجرادة (١٣كم) ومواقع أخرى غنية بالأوابد الأثرية. أما إبلا [ر]، فتبعد عنها أكثر من ٢٧ كم.

وتتصل أريحا بجميع محافظات القطر بطرق جيدة.

خالد نجوم

الموضوعات ذات الصلة:

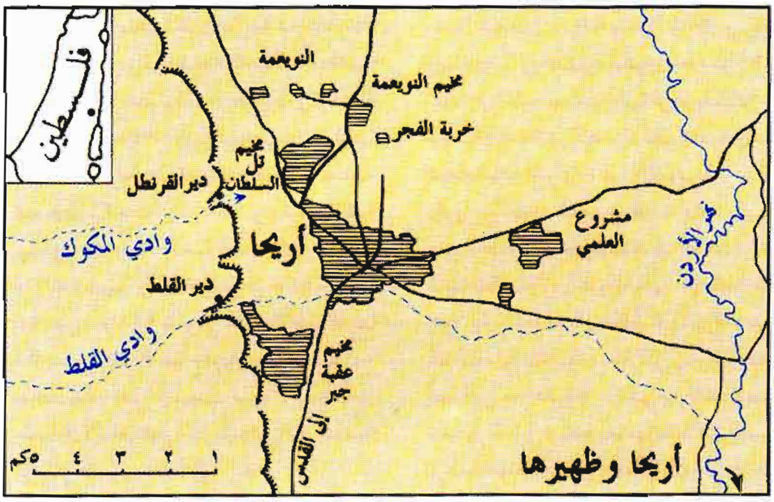
إدلب ـ حلب ـ سورية.

■ أريحا (في فلسطين)

اسم لمدينتين إحداهما في فلسطين وهي موضوع هذا البحث والأخرى في سورية.

أريحا (فلسطين) جغرافياً

الموقع والظهير: تقع أريحا Jericho (Ariha) في الغور الفلسطيني غرب نهر الأردن قريباً من الحضيض الشرقي لجبال رام الله ـ القدس، شمال شرقي القدس مسافة ٣٧كم، وعند تقاطع خط الطول ٣٥ درجة و٢٧ دقيقة شرقاً وخط العرض ٣١ درجة و٥٠ دقيقة و١٠ ثوان شمالاً. ولقد أقيمت أريحا على جزء من غور أريحا المحصور بين وادي العوجة شمالاً ونهر الأردن شرقاً والبحر الميت جنوباً وجبال رام الله ـ القدس غرباً، وهو يتسع هنا ليبلغ عرضه ١٨كم. ويمتد ظهيرها على النصف الجنوبي من غور الأردن الواقع دون مستوى سطح البحر أكثر من ٢٦٠م، حيث تقع أريحا نفسها على ارتفاع -٢٧٦م تحت سطح البحر. وأرضها غير مستقرة وعرضة للهزات الأرضية لوجودها في منطقة ذات صدوع. كما أن عيونها المائية ذات أصل صدعي. أما تربتها فتتكون من توضعات من الطمي والغرين الهابطين من المرتفعات الغربية، وتؤلف تربة خصبة وثروة طبيعية تدعم الزراعة، وهي الوظيفة الأساسية لظهير أريحا. وتغطي هذه التربة القاعدة الغضارية والمارنية العائدة لبحيرة اللسان [ر. البحر الميت]. ويسود أريحا وظهيرها مناخ مداري ـ صحراوي حتى شبه صحراوي، ويكون متوسط درجات الحرارة السنوية فيه ٢٣,٧ درجة مئوية ومتوسط الأمطار السنوية ١٥٢مم، والتبخر السنوي ٢٠٠٠مم، ولا ينخفض معدل حرارة كانون الثاني عن ٩,٣ درجة مئوية. فالمناخ غَوْري دافئ شتاء وحار صيفاً مما يجعل من أريحا مشتىً نموذجياً ومنتجة للبواكير من الخضر والثمار. لكنها تعاني من عجز مائي سطحي دائم مما يضطر السكان إلى الاعتماد على المياه الجوفية، إذ لا تقوم في المنطقة زراعة من دون ري. وتتكوّن مياهها السطحية من السيول الشتوية، ومياه ينابيع عين السلطان وعين النويعمة، وعين ديوك الذي يبعد نحو ٣كم إلى الشمال الغربي من المدينة.



السكان والتطور: يقدر عدد سكان أريحا القديمة بنحو ٢٠٠٠ نسمة، لكنهم لم يتجاوزوا ٢٥٠ نسمة عام ١٨٧٨، ويذكر الرحالة الذين زاروها بأن سكانها كانوا خليطاً من سكان قدماء وأسر بدوية عرفت باسم «الغوارنة» نسبة إلى الغور، بينهم أسر من صعيد مصر جاؤوها أيام الحكم المصري لبلاد الشام. وظلت أريحا قرية تعتمد على الزراعة وتربية الحيوانات على الرغم من وصول جماعة من سكان القدس إليها، ولم يتجاوز عدد سكانها ٣٠٠ نسمة عام ١٩١٢. وارتفع عددهم إلى ١٦٩٣ نسمة سنة ١٩٣١ ثم إلى ٣٠١٠ نسمة عام ١٩٤٥. ولقد تضاعف عدد السكان أكثر من مرتين عام ١٩٦١ (١٠,٠٠٠ نسمة) نتيجة وصول اللاجئين الفلسطينيين إليها. لكنه عاد وانخفض إلى ٦٨٢٩ نسمة إثر الاحتلال الإسرائيلي للمدينة عام ١٩٦٧. ثم عاد وتزايد ليصل إلى أكثر من ١٧٠٠٠ نسمة عام ١٩٨٥. ولا يمكن عزو هذا التذبذب في أعداد السكان وتطورهم في أريحا إلى تزايد أو تناقص الولادات والوفيات، أو الزيادة السنوية الطبيعية، بل إنه يرتبط بالأحداث السياسية وبظروف الاحتلال العسكري الإسرائيلي لفلسطين وانتقال السكان، علماً بأن الزيادة السنوية الطبيعية إيجابية وتقدر بنحو ٣٤ بالألف لأبناء الضفة الغربية عامة. وقد ارتفع عدد سكان أريحا بعد منحها هي وقطاع غزة الحكم الذاتي للسلطة الفلسطينية في غزة وفي الضفة الغربية بعد اتفاقية أوسلو في ٢٠/ ٨٠/ ١٩٩٣ القاضية بانسحاب القوات الصهيونية منهما.

أما عمران أريحا ومخططها فلقد مرا بمراحل من التطور، كان أولها تغير موقع المدينة في العصور التاريخية. فلقد تحولت البيوت المبنية من اللبن والطين والمسقوفة بالخشب أو القصب وفوقها التراب الموصوص إلى مساكن حديثة يدخل الإسمنت والحجر والحديد في بنائها، وتعددت طبقاتها. وأصبح الكثير من أزقتها وحاراتها الضيقة المتعرجة شوارع مفروشة بالإسفلت تلتقي بالشارع الرئيس ذي المحور الشمالي الجنوبي أو بسوقها المركزية في وسط المدينة. وفيها بلدية تنظم عمرانها وتوسعه شمالاً وغرباً حيث التحمت المدينة بمخيم عين السلطان، وتوسعت باتجاه الجنوب على امتداد طريق القدس ومخيم عقبة جابر. ولقد تجاوزت المساكن كتلة المدينة المكتظة إلى مزارعها وبساتينها حيث قامت فيها المساكن المتباعدة.

وظائف المدينة: كانت أريحا وما زالت واحة زراعية وتبلغ مساحة أراضيها أكثر من ٣٧ ألف دونم معظمها مستغل، وينتج الخضر والثمار والحبوب، ولقد توسعت وتطورت فيها زراعة البواكير والحمضيات والموز، التي يصدر فائضها إلى الأردن وبلدان الخليج العربي. ولقد قام إلى الشرق منها مشروع العَلَمي النموذجي للزراعة وتربية المواشي الذي أسسه الفلسطيني موسى العَلَمي في مواجهة المشروعات الاستيطانية الصهيونية زمن الانتداب البريطاني. ولأريحا وظيفة تجارية لكونها سوق الأغوار الجنوبية وعقدة مواصلاتها باتجاه القدس والأردن عن طريق جسر الملك حسين. أما صناعاتها فمحدودة بالصناعات التقليدية الغذائية الصغيرة، إضافة إلى مصنعين حديثين للنسيج في المخيمين، وإلى صنع المياه الغازية وتحضير الثمار وصنع المفروشات. ولقد أصبح لأريحا

وظيفة إدارية منذ سميت ناحية عام ١٩٠٨، ثم أصبحت مركز قضاء في عهد الانتداب، ألحقت بعدها بقضاء القدس، لتعود مركز قضاء ثانية بعد عام ١٩٤٨ وهي اليوم واحدة من المدن العربية ذات الحكم الذاتي وتدار من قبل السلطة الفلسطينية منذ عام ١٩٩٣ وتوقيع اتفاقية اوسلو وملاحقها. وتضم أريحا أكثر من ٢٥ مدرسة رسمية وأهلية ومدارس لوكالة غوث اللاجئين بعد ١٩٤٨. وهي غنية بالآثار والمعالم التاريخية تجلب السياح لزيارتها والاستمتاع بدفء شتاء الغور، أقيمت فيها الاستراحات والفنادق لاستقبالهم وكازينو، مما زاد في أهمية الوظيفة السياحية للمدينة.

أريحا (في فلسطين) أثرياً وتاريخياً

أريحا مدينة قديمة في فلسطين، تقع في سهل يبعد نحواً من ٥ر١كم من الموقع الأثري القديم، تل السلطان، الذي يقع على مسافة ٧كم إلى الغرب من نهر الأردن و١٢كم إلى الشمال الغربي من البحر الميت. وقد احتفظت المدينة العربية باسمها الذي يعود إلى الأصل الكنعاني «يريحو» وهو اسم يدل على القمر «يَرَح» في الكنعانية والآرامية والعربية الجنوبية.

التنقيبات الأثرية وأهم نتائجها

بدأت الاستطلاعات الأثرية للرحالة وعلماء الآثار الأوربيين منذ القرن الماضي (١٨٦٧) وتتابعت السبور الأولى والتنقيبات بعد ذلك في التل الأثري الذي تبلغ أبعاده ٣٠٧×١٦٠م. وهو يقع على مستوى دون سطح البحر في وسط واحة من النخيل ترويها مياه العيون المجاورة. ويرتفع رُكام حُطام الآثار من العصور المتعاقبة على تاريخ التل إلى عشرين متراً. وقد تسببت الهزات الأرضية المتكررة وما نجم عنها من دمار الينابيع وجفافها في خراب عمران الموقع وابتعاد السكان عنه. وتمثل تنقيبات غارستانغ (١٩٣٠-١٩٣٦) إبّان الانتداب البريطاني مرحلة مهمة في الكشف عن تاريخ المدينة وأدت إلى الوصول إلى طبقات العصر الحجري الحديث، ما قبل الفخار. واستؤنفت التنقيبات بإدارة عالمة الآثار البريطانية كاثلين كنيون (١٩٥٢-١٩٥٨) في موقع تل السلطان وعثرت على آثار تعود إلى الحضارة النطوفية، وتوصلت إلى معرفة الكثير عن حياة الناس في العصور الباكرة. وقدّمت معلومات مفصّلة عن العصر الحجري الحديث (٨٠٠٠-٤٠٠٠ق.م)، واستطاعت أن تميز فيه ما بين مرحلتين: مرحلة ما قبل الفخار ومرحلة الفخّار. أما في العصر الحجري الحديث ما قبل الفخاري، فقد اتسمت الحياة في أريحا بالزراعة البدائية إلى جانب الاعتماد على الصيد وجمع الطعام لتوفير القوت. وبنيت البيوت على شكل دائري من الطوب الترابي. وعثرت الباحثة كنيون على مجموعتين من التماثيل الصغيرة التي كانت تتألف كل مجموعة منها من عائلة تضم رجلاً وامرأة وطفلاً؛ ويعتقد الأب رولان ديفو بأن لهذه العائلة صفة دينية تمثل رباً وربّة وطفلاً إلهياً. وتعد هذه الآثار شواهد على تطور التفكير الديني ويقوم بعضها دليلاً على عبادة الأجداد. وأهم ما عُثر عليه في أريحا من هذا العصر نظام التحصينات المكوّن من جدران ثخينة (٥ر١م) وأبراج حجرية يبلغ ارتفاع الأجزاء المتبقية منها ٩٠ر٣م، وخندق، كما وجدت أدوات صوانية ورؤوس سهام ومثاقب وأزاميل وفؤوس يدوية وسكاكين وشفرات مناجل. وعثر على أحجار السَبَج (الأوبسيديان) التي كانت تستورد من منطقة ديار بكر في أعالي الجزيرة، وهو ما يدل على اتساع نطاق العلاقات التجارية بين مناطق الهلال الخصيب. أما مرحلة العصر الفخاري فهي تتسم بصنع الإنسان الأواني الفخارية، وفيها بدأ الإنسان بتأسيس اقتصاد زراعي وغدا منتجاً للطعام. والأواني التي تعود إلى ذلك العصر مزينة باللون الأحمر ومصقولة. وتشير الدلائل الأثرية إلى أن موقع أريحا هُجر بعض الوقت قبل بداية العصر الحجري الحديث المتأخر، وأن الموقع دمّره قادمون جدد. ويمكن تتبع تطور تاريخ أريحا بتتبع تطور مواقع أخرى في بلاد الشام الجنوبية ومنها تل المتسلّم وبيسان وبلاطة وتل الفارعة. وكانت مجتمعات القرى قد أصبحت مستقرة فعلياً نحو ٦٠٠٠ق.م. لكن التطور في صنع الأدوات حقق تقدماً ملحوظاً حين استطاع سكان فلسطين تصنيع الأدوات النحاسية من خامات النحاس في بداية الألف الرابع ق.م حين سادت في غور الأردن الحضارة الغسّولية التي عمت أنحاء كثيرة من فلسطين في العصر الحجري - النحاسي.

ولقد انتهت الدراسات الأثرية والتاريخية إلى أن الموقع الأثري في أريحا يعد واحداً من أقدم مراكز الاستيطان في الشرق العربي القديم بعد موقع المريبط على الفرات وأقدم عمران مدني في فلسطين كما تدل الآثار المكتشفة التي عولجت بطريقة الفحم المشعّ ١٤ والتي يمكن تأريخها في حقبة ما بين ٩٦٨٦-٧٧٧٠ق.م. وقد سكن الموقع صيادون من العصر الحجري الوسيط وترتبط ثقافتهم بالعصر النطوفي الذي كان سائداً في أنحاء كثيرة من فلسطين. وتوازي هذه الثقافة مادياً ثقافة الكرمل المعاصرة لها. وتتبعها بعدئذ مرحلة انتقالية. ثم يأتي العصر الحجري الحديث (الألف السابع ق.م)، الذي لا يعثر فيه على فخار ولكن تبدأ فيه بواكير الزراعة وبدايات الاستقرار.

وفي هذا الدور بدأ سكان أريحا برفع أسوار حول مستوطنتهم هي واحدة من أقدم الأسوار في التاريخ، ويتضح من هذه الأسوار أن مجتمعاً مستقراً ومنظماً قد وُجد في ذلك العصر في أريحا وربما في مراكز أخرى من فلسطين وسورية. أما البيوت التي أنشئت في ذلك العصر فكانت مستديرة بنيت بقوالب من الطين المسطّح الإهليلجي، وقد عثر في داخلها على أدوات حجرية مثل الفأس والبليطات الحادة المعقوفة والأجران والمدقات والمطارق.

وما يزال السور مرتفعاً حتى اليوم بمقدار خمسة أمتار وتبلغ ثخانة الحجارة فيه مترين، وما يزال يرتفع جزء من البرج المستدير بمقدار ثمانية أمتار ويمكن الصعود إلى أعلاه بدرج. وتعود هذه المرحلة إلى ٧٠٦٠-٦٦٤٠ق.م. وبعد أن تعرضت البلاد للدمار في ظروف غير واضحة أعيد بناؤها على أسس جديدة وفق هندسة جديدة حلت فيها محل البيت المستدير البيوت ذات الزوايا المبنية باللَّبن المستطيل والمزيّن بحزوز مرسومة بحسك السمك أو بأداة مشعبة كالمشط. أما أرض البيت فكانت ملساء ومدهونة بالأصفر أو الأحمر وما تزال تظهر على بعضها آثار الحُصر المجدولة التي كانت ممدودة فوقها. هذه البيوت أعيد بناؤها وتجديدها عبر السنين لأنه يمكن أن يُعدّ فيها ما لا يقل عن ٢٢ طبقة أرضية جرى ترميم ١١ منها. وقد كُشفت تحت أرض البيوت جماجم إنسانية أعيد تشكيلها على صورة الفقيد بالجص أما العيون فقد استخدمت الأصداف لرسمها ورسمت اللُّحى وصفّف الشعر بالألوان، مما يدل على أن سكان أريحا في العصر الحجري الحديث كانوا يمارسون نوعاً من عبادة الأموات. وتدل

أدواتهم الصوانية التي خلّفوها بعدهم على أنهم كانوا مزارعين. وأمكن عن طريق تحليل الحبوب بالفحم المشع ١٤ تقدير عمر هذه الحقبة بنحو ٦٧٢٠-٥٥٦٠ق.م. وكان لا بد من الانتظار إلى الألف الخامس لكي تظهر ثقافة نيوليتية يعرف فيها الفن وصنع الفخار بطريقة بدائية باليد وقد زُيّن أحياناً بخطوط متعرجة باللون الأحمر. ثم ظهر صنف آخر من الفخار المزين بحزوز رُسمت بحسك السمك يشبه فخار اليرموك مما يدل على انتشار ثقافة عامة في تلك المنطقة من حوض اليرموك والأردن هي ما يعرف بالثقافة اليرموكية.

ويبدو أن التل هجر في الألف الرابع ق.م حين بدأ العصر الحجري المعدني، وظهرت مستوطنة أخرى أُقيمت بجوار التل القديم عند تلول أبو العليق الذي جرت فيه تنقيبات في عام ١٩٥١، وعثر فيه على آثار فخار رمادي اللون.

ثم جاءت مرحلة البرونز القديم (الألف الثالث)، وفيها تعرضت المدينة لسلسلة من الهزات والحروب. ويبدو ذلك من تكرار إصلاح الجدران باللبن فوق مرحلة العصر النيوليتي، وأضيفت إلى السور أبراج نصف مستديرة أو مربعة. أما مخطط البيوت والقبور فمربع، وقد وجدت قبور محفورة في الصخور.

يبدو أن المدينة فقدت دورها في أواخر الألف الثالث (البرونز الأوسط). ولم يبق من آثار المرحلة الواقعة في مطلع الألف الثاني ق.م إلا بعض القبور الفردية التي عثر فيها على أسلحة وآثار فخارية مما يدل على أن السكان كانوا من أصل بدوي، ربما كانوا من الأموريين الذين انتشروا على نطاق واسع في المنطقة في تلك المرحلة [ر. الأموريون].

وتظهر بعدئذ منشآت دفاعية وتحصينات حجرية ترتفع مقدار ستة أمتار تشبه أسلوب عصر الهكسوس. أما القبور التي تعود إلى هذه المرحلة (عصر البرونز المتوسط الثاني)، فقد احتفظت بجملة من الآثار المادية المهمة؛ بعض الأثاث المنزلي كالموائد الخشبية بثلاث قوائم والأسرّة والكراسي والسّلال وأدوات التزيين وأدوات المطبخ المصنوعة من الخشب أو الفخار والحلي والجعرانات. وتعاقبت أفواج القادمين إلى أريحا إلى أن حل فيها الأموريون عند انتشارهم في البلاد السورية والهلال الخصيب في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م.

أما أقدم ما يعرف عن تاريخ أريحا في المصادر المكتوبة، فهو أنها كانت مدينة محصّنة مسوّرة من المدن الرئيسة في بلاد كنعان في الألف الثاني ق.م [ر.كنعان]. وقد ذُكر أنها كانت معقلاً من معاقل الهكسوس (١٧٣٠-١٥٨٠ق.م). ويرجح أنها وقعت بعد ذلك تحت سيطرة الفراعنة الفاتحين كما تدل آثار المدافن والأثاث الجنزي فيها. وتظهر من هذه المرحلة آثار حريق دمّر المدينة وأدى إلى خرابها. ومضى بعدئذ زمن طويل قبل أن تسترد أريحا فعاليتها. وذكر في أخبار التوراة المشكوك بها، أنها كانت أول مدينة في كنعان سقطت في أيدي يشوع بن نون الذي كان يقود بني إسرائيل عند عبور قواته نهر الأردن. ولكن علماء الآثار يؤكدون أن المدينة كانت ما تزال أنقاضاً في العصر الذي ظهر فيه يشوع بن نون على رأس تحالف قبلي على مقربة من موقع أريحا. وهذا يخالف ما هو متواتر في المرويات التوراتية عن دخول المدينة الكنعانية واستباحتها مما يدخل على الأغلب في إطار الأدب الملحمي الذي كتب في مرحلة لاحقة. واستمر الصراع بعد ذلك طويلاً حول أريحا ومدن كنعانية أخرى واستطاع ملك مؤاب، عجلون، في زمن ما تخليصها. ومن جهة أخرى تتحدث المصادر التوراتية عن استيلاء الملك داود عليها من دون أن يكون في المصادر غير التوراتية ما يؤيد ذلك. وبعد أن تعرضت المدينة للتخريب نتيجة لهذه الأحداث أعيد إعمارها في القرن التاسع (نحو ٨٧٠ ق.م) في الوقت الذي ازدهرت فيه الدول والمدن الكنعانية والآرامية في سورية وحوض الأردن وفلسطين في الألف الأول قبل الميلاد الذي شهد اتساع العمران في كل أنحاء البلاد السورية-الفلسطينية نتيجة لنمو التجارة في العالم الآرامي-الكنعاني. ولكن أصاب أريحا في هذه الحقبة ما أصاب مدناً أخرى في حوض الأردن من جرّاء تنازع النفوذ بين ملوك إسرائيل من جهة وملوك آرام من جهة أخرى. ثم استولى عليها الآشوريون والبابليون والفرس. وظلت المدينة محتفظة بأهميتها على مر القرون إذ منحها الاسكندر مرتبة المدينة الملكية.

وفي عصر الملوك الحشمونيين أنشئ على سفح التل المهجور آنذاك حصنان وبنيت قصور. ومنح القائد الروماني أنطونيوس المدينة والواحة المحيطة بها لكليوباترة ملكة مصر ثم منحتها هي بدورها للملك هيرود الإدومي، وقد أنشأ الملك هيرود في الواحة قصراً بطابع هلنستي ونظّم الري، وبعد حريق القصر أعاد خلفه سمعان أرشلاوس بناءه وفق مخطط آخر أكبر حجماً وأكثر اتساعاً. وبعد الاحتلال الروماني خُططت المدينة تخطيطاً جديداً عند وادي القُلط وأصبحت في العصر البيزنطي (٣٢٥م) مقر أسقفية. وبقيت كذلك حتى الفتح العربي حين أُتبعت أريحا بجند فلسطين ومقره الرملة. ويحتفظ تل أبو العليق ببقايا آثار قصر الملك هيرود الإدومي، وببقايا آثار تحصينات ومنشآت عسكرية من عصر القائد الامبراطور هادريان (القرن الثاني ميلادي)، وقد وجدت فيها آثار بيزنطية.

غدت أريحا من أهم المراكز الزراعية المرغوبة في حوض الأردن واجتذبت إليها قوماً من قيس ومن قريش. ووصف ياقوت محصولاتها من النخيل والموز وقصب السكر والجميز ودعاها مدينة الجبارين. وقد ازدهرت المدينة بعد الفتح العربي الإسلامي ولا سيما في العصر الأموي (في القرنين السابع والثامن الميلاديين) عندما أقيمت فيها منشآت دينية وقصور بقي منها بعض آثار لوحات الفسيفساء الجميلة، وأهمها قصر الخليفة هشام بن عبد الملك في خربة المفجر الذي كان واحداً من المنتجعات الأموية في فلسطين والأردن.

ولكن أريحا وقعت تحت وطأة الاحتلال الفرنجي في القرن الحادي عشر. وأنشئ فيها في أواسط القرن الثاني عشر دير وبرج واستردها صلاح الدين وهو في طريقه إلى حطين (١١٨٧). وخمد ذكر أريحا بعد ذلك قروناً طويلة ولم تكن في القرن الثامن عشر سوى قرية صغيرة. وقد ذكرها الرحّالة الفرنسي فولني في رحلته إلى الشام ومصر. وظلت أريحا قرية متواضعة طوال القرن التاسع عشر. وأنزل فيها إبراهيم باشا قبائل من الصعيد (١٨٣٤). وارتبطت أريحا بمدينة القدس وأضحت منتجعاً لبعض سكانها في فصل الشتاء فأنشئت فيها المباني الحديثة والمزارع النموذجية والمدارس الزراعية. وقد وقعت تحت الاحتلال البريطاني (١٩١٨). ودخلها الجيش العربي الأردني عبر النهر من شرقي الأردن (١٩٤٨)، وجلا عنها جميع اليهود. وعقد فيها مؤتمر فلسطيني

للمطالبة بضم بقية فلسطين إلى المملكة الأردنية الهاشمية وعلى رأسها الملك عبدالله بن الحسين وذلك بعد أن أقيمت الدولة اليهودية التي اجتاحت معظم الأراضي الفلسطينية وتجاوزت كثيراً ما خصص لها من أراضي فلسطين في مشروع التقسيم الذي أوصت به الأمم المتحدة (١٩٤٧). وغدت أريحا بعد ذلك مركزاً إدارياً مزدهراً تابعاً لمحافظة القدس وتنامى فيها العمران وازداد عدد السكان إلى أن وقعت تحت الاحتلال الصهيوني (١٩٦٧) ثم أصبحت مركزاً للسلطة الفلسطينية والحكم الذاتي في لضفة الغربية إثر اتفاق أوسلو١٩٩٣ ومابعده.

عادل عبد السلام، محمد حرب فرزات

موضوعات ذات الصلة:

الأردن ـ فلسطين.

مراجع للاستزادة:

ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت ١٩٥٧).

ـ محمود أبو طالب، آثار الأردن وفلسطين في العصور القديمة (عمّان ١٩٧٨).

. K. M. KENYON & EL, Excavations at Jericho, V.I1952-1954, V.II1956-1958 (Brit. Sch. of Arch. in Jerusalem 1965).

. J. & J. F. E. GARSTANG, The Story of Jericho (London 1940).

■ إريدو

إريدو Eridu مدينة سومرية قديمة، عُثر على أنقاضها في موقع تل كبير يدعى «أبو شَهْرَين»، في أقصى جنوبي العراق على الضفة اليمنى لنهر الفرات وعلى مسافة ١٥كم من مدينة أور القديمة (تل المُقيّر) عند مصب النهر في البحر الأدنى (الخليج العربي).

تُعدّ إريدو استناداً إلى المصادر السومرية أقدم مدينة في العالم القديم. وتدل النصوص على أنها وجدت قبل الطوفان. وتروي الأساطير أنها كانت مدينة الإله إنكي إله المطر والهواء الرطب.

ابتدأت الحفريات الأثرية للتنقيب عن المدينة في تل أبو شهرين في عام ١٩١٨ بإدارة كامبل طومبسون Champell Thompson وتبعه هـ. ر. هل H.R. Hall في عام ١٩١٩. ثم توقفت أعمال التنقيب سنوات عدة إلى أن استؤنفت بإدارة عالم الآثار العراقي فؤاد صفر عام ١٩٤٦. وانضم إليه سيتون لويد S. Lloyd وناجي الأصيل عام ١٩٤٨. وقد تمّ الكشف عن سور شبه مربع للمدينة بني بالحجر، وهو مشهد نادر في جنوب الرافدين الذي استخدم الطين في تشييد عمائره، وتبلغ أبعاد السور ٤٠٠ X ٣٠٠م عن رأس التل. أما الزقّورة التي أزيح الردم عنها، فقد شيدت في عهد الملك أورنامو في عصر أسرة أور الثالثة في أواخر الألف الثالث ق.م وهي تهيمن على الموقع وعلى معبد إنكي. وقد أجريت تنقيبات واسعة في هذا الجزء من التل. وتوغلت أعمال التنقيب في الأعماق إلى أن تمكن العلماء من الكشف عن أربع عشرة طبقة من المعابد، شيّد أحدها فوق أنقاض الآخر، على امتداد ألفي عام بين بداية الألف السادس وأواخر الألف الرابع ق.م. وتمثل هذه الآثار شواهد على بقايا مرحلة من الحضارة الرافدية سبقت العصر السومري، وهي تطابق عصر حضارة تل العُبيد، وتوازي إريدو الطبقتان الثانية عشرة والرابعة عشرة. وكشف النقاب عن آثار قصر من عصر الأسرات الباكر العتيق، يعود إلى أواسط الألف الثالث ق.م. ويبدو أن موقع إريدو تُرِك في الألف الثاني ق.م.

وعلى النقيض مما كان يأمله المنقبون لم يعثر في الموقع الأثري الكبير على ألواح مكتوبة، كما كان الشأن في تلال مهمة أخرى في بلاد الرافدين. وقد عثر على بقايا أرصفة ميناء على مقربة من ساحل البحر، على شواطئ مستنقعات كانت تتصل بساحل الخليج العربي، كما كان يفهم من نص سومري من عصر شولغي ملك أور.

محمد حرب فرزات

الموضوعات ذات الصلة:

أور.

مراجع للاستزادة:

. S. N. KRAMER, The Sumerian : Their History, Culture and Character (Chicago 1963).

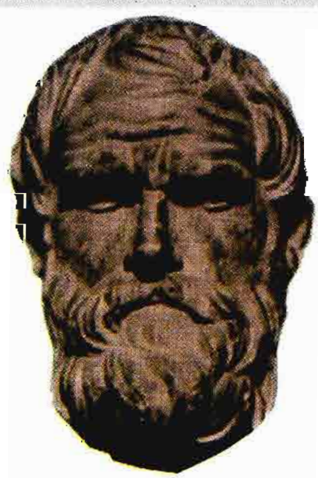
. A. PARROT, Sumer (Paris 1960, 1968).

■ أريستوفان

(نحو ٤٨٨ ـ نحو ٣٨٠ق.م)

يُعَدُّ أريستوفان Aristophane أعظم كتّاب الملهاة اليونانية القديمة Kōmödia التي كانت تغص بالنكات والمبالغات والنقد السياسي اللاذع.

وكان من طبقة ملاك الأراضي في أثينة، وعبّر عن سخط طبقته من جراء تدهور الأحوال في أثينة نتيجة لأهوال الحرب مع إسبرطة ولتخبط الفئة الحاكمة التي تولّت زمام الأمور في عصره. كما عبّر عن تطلعات طبقته إلى العودة بأثينة إلى عصرها الزاهي السابق، سواء



من ناحية أمجادها العسكرية وانتصاراتها على إسبرطة أم من ناحية تماسك نظامها السياسي واستقرار نظامها الاجتماعي، ومن هنا كانت وقفته المحافظة إزاء مختلف تطورات الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية في عصره.

ويعتقد أنه ألّف نحو خمسين مسرحية تغطي جوانب الحياة الأثينية في زمنه، ولم يبق منها إلا إحدى عشرة ملهاة هي: «الأخارنيون» Acharnians (٤٢٥ق.م)، و«الفرسان» The Knights (٤٢٤ق.م)، و«السحب» The Clouds (٤٢٣ق.م)، و«الزنابير» Wasps (٤٢٢ق.م)،

و«السلام» The Peace (٤٢١ق.م)، و«الطيور» The Birds (٤١٤ق.م)، و«ليسستراتي» Lysistrate (٤١١ق.م)، و«النساء في أعياد الثيموفوريا» Thesmophoriazousae (٤١١ق.م)، و«الضفادع» The Frogs (٤٠٥ق.م)، و«برلمان النساء» Ecclesiazusae (٣٩٢ق.م)، و«بلوتوس» (إله الثروة) Plutus (٣٨٨ق.م).

وفي تلخيص عبقرية أريستوفان يمكن القول إنه أعظم عقل انتقادي في تاريخ المسرح اليوناني، بل هو مُرسي أسس النقد الساخر من في المسرح الضاحك. وبقدر ما كان نقده جريئاً حيّاً كان كذلك متسعاً يكاد يشمل مختلف مرافق الحياة في عصره.

وقد انتقد أريستوفان تدهور الأحوال السياسية في أثينة وتلاعب السياسيين بعواطف الشعب من خلال الخطابات الديماغوجية والوعود الكاذبة وتقلب الأهواء. ويدخل في هذا الباب هجاؤه المقذع للعسكريين الذين يعلقون مصالحهم الخاصة على فرصة الحرب، ويزينون خوضها للناس ويوهمونهم بأنها السبيل الوحيد لتحقيق المصالح الوطنية والأمجاد القومية، في حين أنها، في حقيقتها، لا تجلب سوى الدمار والويلات والخراب. ومن هنا يمكن أن يعد أريستوفان من أعداء الحرب ومن أنصار السلم، مما يذكّر كذلك بموقف قرينه أوربيدس[ر].

وتناول في هجومه الأفراد والمؤسسات السياسية، فصبّ جام غضبه على كليون زعيم أثينة الذي بلغ أوج المجد في تلك المرحلة بسبب ما أحرزه من انتصارات حربية. وقُدّم الشاعر الناقد إلى المحاكمة نتيجة تهجمه على هذا الزعيم السياسي واسع النفوذ. وإلى جانب ذلك تعرّض لمجالس أثينة بنقد جارح، ولم يُعْفِ المجالس العامة كمجلس الشيوخ والجمعية العمومية والمحاكم من هذا النقد.

وانتقد أريستوفان كذلك تدهور الأخلاق وانحطاط العلاقات الاجتماعية في عصره، وركز على الفساد الجنسي والإباحية المتفشية في شبيبة أثينة، وطالب باستعادة القيم الأخلاقية كالنبل والصدق والطهر، وبث روح العمل الجاد والإخلاص بين المواطنين. وتبدو أخلاقيته محافظة وعقلانية، ولكنها ليست بالضبط أخلاقية دينية، وتتمثل جلية في موازنته بين قرينيه أسخيلوس [ر] وأوربيدس في ملهاة "الضفادع".

وهاجم أريستوفان كذلك أصحاب الفكر الجديد من السفسطائيين (المغالطين)، وجرّح أفكارهم ورماهم بأقذع التهم، ولم يترك أي فرصة تمر في مسرحياته من دون أن يستثمرها لتسفيه الفلاسفة بوجه عام، وفي مقدمتهم سقراط[ر]. فمثلاً، في ملهاة "السحب"، التي تعدُّ من أجمل ما كتبه أريستوفان، يهاجم الفلسفة في شخص سقراط ويضعه وجهاً لوجه أمام رجل عادي من الشعب ليُحدث الأثر الفكاهي الناتج عن المفارقة. إن هذا الرجل العادي يرغب في أن يصبح فيلسوفاً لكي يتعلم كيف يتهرّب من دفع ديونه، وينظر بإجلال إلى سقراط، وخاصة حين يُخبره أحد تلامذته كيف أنه يشغل وقته في دراسات قيّمة وأسئلة مهمة مثل: "كم ضعفاً تبلغ المسافة التي يقفزها البرغوث بالنسبة إلى طول إحدى قوائمه؟"، و"من أية ناحية من جسم البعوضة الطائرة يأتي الطنين؟". وتعتريه الدهشة عندما يرى الأستاذ سقراط متربعاً في سلة معلقة في الهواء كما يليق برجل فوق مستوى البشر العاديين، وعندما يسأله ماذا يعمل هناك في العلاء يجيب سقراط: "يجب أن أعلق دماغي وأمزج جوهر عقلي الخفي بالهواء ذي الطبيعة المماثلة كي أتمكن من النفاذ إلى أمور السماء بوضوح، ولو بقيت على الأرض أتأمل من تحت الأمور السفلى لما استطعت اكتشاف شيء، لأن الأرض بجاذبيتها تجذب عصارة الدماغ إليها كما يحدث في حالة بعض النباتات المائية الزاحفة".

وخلاصة ما تقوله "السحب" إن سقراط يفسد شبيبة أثينة بأسئلته الفلسفية، ويستطيع المرء أن يتصور أن أريستوفان أضحك أهل أثينة كثيراً من سقراط ولكن على المرء ألا ينسى أن هذه التهمة نفسها هي التي أودت بحياة سقراط فيما بعد.

وإضافة إلى مبادرات أريستوفان الرائدة في مجالات النقد السياسي والاجتماعي والفكري فإنه يُعدّ من رواد النقد الأدبي اليوناني ولا سيما في مسرحية "الضفادع" المبدعة، التي تعرَّض فيها للموازنة بين زميليه أسخيلوس وأوربيدس من حيث الشاعرية، والمكانة المسرحية، والموقف الأخلاقي، أي إن موازنته تناولت الشكل والمضمون معاً.

ويبدو نقد أريستوفان أوسع أفقاً وأقل انحداراً مما ينسب إليه عادة. فقد اشتملت مسرحياته الكوميدية المعروفة على نقد ساخر للكتاب والمفكرين في عصره، وانصبّت انتقاداته بوجه خاص على أوربيدس، واتصفت أحكامه بذوق متطور ورؤية نافذة، وذلك من خلال خطين نقديين مستمرين هما: كرهه لجميع أشكال المبالغة والتصنع، واهتمامه بالقيم الأخلاقية وإدخالها في صميم الموازنة الأدبية. وتظل مسرحية "الضفادع" شاهداً حياً على الإسهام المبكر للمسرح في النقد الأدبي.

أما طريقته في النقد المسرحي فيلخصها محمد حمدي إبراهيم بما يلي: «لقد اخترع أريستوفانيس لغة كوميدية خاصة به من الكلمات ذات المعاني المزدوجة والإيحاءات الخاصة والألفاظ المصكوكة والمركبة تركيباً عجيباً. كذلك تميزت أشعاره بالرصانة والإبداع والخيال. وكان حواره طبيعياً يتميز بالحيوية، في حين كانت نكاته غليظة وجريئة بغض النظر عن كونها غير شهوانية. ويُعد أريستوفانيس من أبرع الكتاب في التندر أو الاقتباس الساخر parödia ...».

والملاحظ أن ترجمات أريستوفان إلى العربية لا تتعدى «الضفادع» و«السحب» وبعض الشذرات، وذلك بسبب ارتباط الملهاة عادة بالعادات والمرددات واللهجات المغرقة في المحلية.

حسام الخطيب

الموضوعات ذات الصلة:

المسرحية ـ الملهاة ـ اليونان.

مراجع للاستزادة:

ـ محمد حمدي إبراهيم، دراسة نظرية في الدراما الإغريقية (القاهرة ١٩٧٧).

ـ محمد صقر خفاجة، تاريخ الأدب اليوناني (القاهرة ١٩٥٦).

ـ حسام الخطيب، تطور الأدب الأوربي ونشأة مذاهبه (دمشق ١٩٨١).

■ أريستوكسينوس
(القرن الرابع ق.م)

أريستوكسينوس التارنتي Aristoxénus da Tarentum (نسبة إلى مدينة تارنتة Taranta) فيلسوف وواحد من أوائل كتّاب الموسيقى الإغريقيين النظريين. وهو يرى أن الموسيقى عنصر مهم في كل تربية حرة.

تعلم أريستوكسينوس الموسيقى منذ الصغر، وتلقى ثقافته الموسيقية عن والده الفنان، كما كان تلميذاً لأرسطو. ويغلب الظن أنه مارس أداء الألحان المعروفة في القرن الخامس ق.م وقد استقى مفاهيمه من الذوق التقليدي الصارم وتعاليمه الشديدة فأتت نظرياته الموسيقية تجريبية وتاريخية. ومما ساعد في ذلك إقامته في مدينة مانتينس Mantines التي كانت الموسيقى تغلب على جوها الاجتماعي العام. وكان في جملة ما ألحّ عليه أن الموسيقى لا تقتصر على نوع من الابتكار العلمي المصوغ في قواعد محددة أو في أداء إحساسي متنوع، بل هي جمال العمل الفني الذي ينتج عن التوافق المتبادل في جميع أجزائه من أصوات وإيقاع وكلمات تتحد في صيغة واحدة مؤلفة وحدة لحنية نغمية متناسقة.

كتب أريستوكسينوس عدة مؤلفات عرف منها، في أوائل العصور الوسطى، أكثر من أربعمئة كتاب حول موضوعات مختلفة، كان أهمها ما دار حول الموسيقى. ومن أشهر هذه المؤلفات الموسيقية دراسات انسجامية «هارمونية» (معظمها محفوظ)، وإيقاعية (قسم منها محفوظ)، ونظريات حول التأليف في الأصوات والآلات الموسيقية وثقوب آلة الآولوس [ر. الآلات الموسيقية]، ورسالتان حول عازفي الآولوس وشعراء المأساة، وكتاب بحث في السلالم الإغريقية يقع في ثلاثة أجزاء.

ج.ت

الموضوعات ذات الصلة:

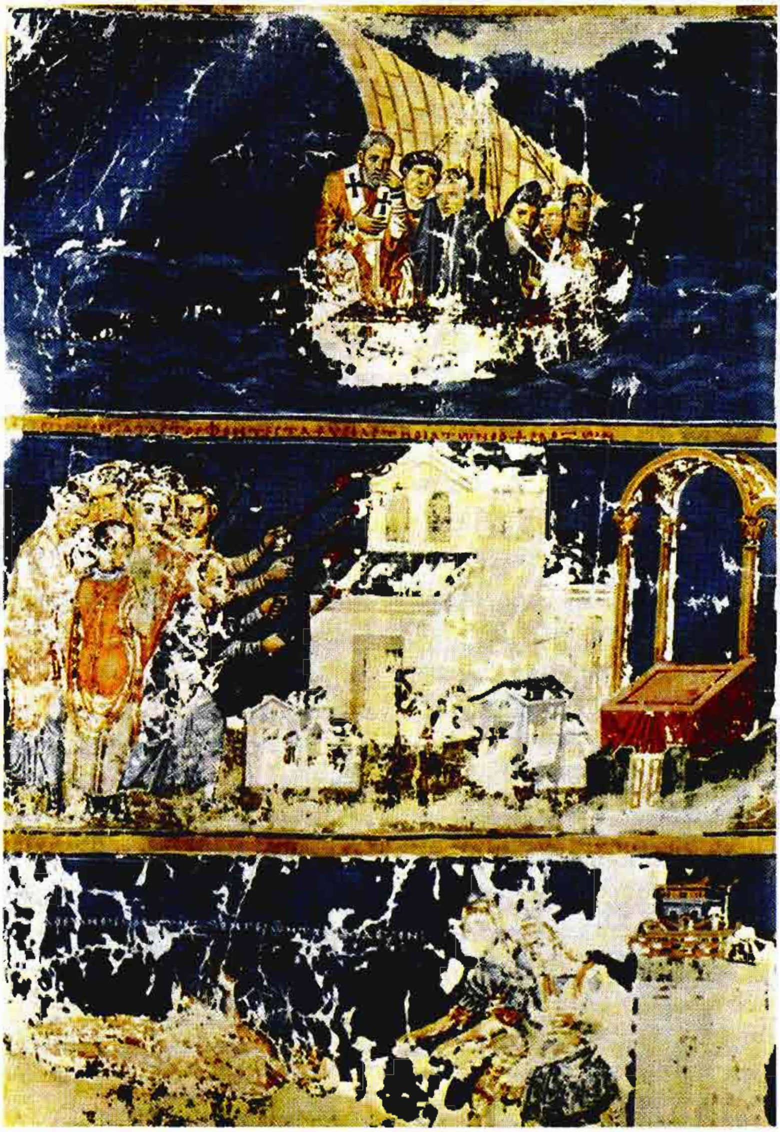
الآلات الموسيقية ـ الانسجام.

مراجع للاستزادة:

- HAMMEL, Dictionary of Music (London 1981).

■ أريستيبوس
(نحو ٤٣٥ ـ ٣٥٦ ق.م)

أريستيبوس Aristippe فيلسوف يوناني ولد في قورينا (شحات) في ليبية وتوفي فيها. رحل إلى أثينة في سن مبكرة من حياته واستمع إلى سقراط وإلى المغالطين (السفسطائيين sophistes) ولا سيما بروتاغوراس Protagoras. ولما مات سقراط سافر إلى سيراقوصة وعاش حقبة طويلة في بلاط حاكمها دنيس، ولقي أفلاطون. ويروى عن خصومه، في الأغلب، كما يقول برهية Bréhier أن صراحة أفلاطون حجبت عنه النجاح، وأن أريستيبوس أظهر من «الخنوع والملق استبقاء للنعمة» ماحمل ديوجين على تسميته «الكلب الملكي». وقد عاد أريستيبوس إلى موطنه قورينا وعلم فيها وتوفي سنة ٣٥٦ أو ٣٦٠ ق.م. ويعزو إليه ديوجين اللائرسي Diogène Laèrce نحواً من خمس وعشرين محاورة وست رسائل هجاء وكتاباً في تاريخ ليبية، ولكنها فقدت كلها. وقد وصلت أفكاره عن طريق سكتوس الريبي Sextus Empiricus من ناحية، واستشفها الباحثون، من ناحية أخرى، من بعض آثار أفلاطون، مثل «الجمهورية»، وآثار أرسطو مثل «الأخلاق النيقوماخية».



فلسفة أريستيبوس العامة

استازت الفلسفة اليونانية في عصر ازدهارها بين القرنين الخامس والرابع ق.م بسيادة المدرسة السقراطية التي بدأت بالارتكاس على إسراف المغالطين لنبذ سلطانهم الضار على الأفكار والعقول وإبراز النشاط الذهني في صبغته

النفسية والأخلاقية، من جهة، وفي نزعته العلمية، من جهة أخرى. وقد أعقب ذلك الازدهار ردح من الزمن صار فيه الفلاسفة يتطلعون إلى تفسير العالم بأقل من تطلعهم إلى تحديد هدف الحياة والبحث عن السعادة. وفي هذا الإطار ظهرت مدارس شتى عرفت بمدارس «السقراطيين الصغار» ومنها المدرسة القورينائية التي أسسها أريستيبوس القورينائي الذي عرف فيما بعد على أنه رائد مذهب اللذة بالمعنى العام للكلمة.

تأثر أريستيبوس بالنزعة الذاتية التي نادى بها المغالط بروتاغوراس، فأنكر وجود المفهوم والحكم والعلم وقال: «إننا لا نعرف إلا إحساساتنا، بل إننا لا نعرف ما تصدر عنه، كما لا نعرف ما إذا كانت إحساساتنا تشبه إحساسات الآخرين من الناس أم لا».

ج.ت

■ الآرية (اللغات -) ← الهندية الإيرانية (اللغات -)

■ آريوس والآريوسية
(٢٥٦-٣٣٦م)

وُلد آريوس Arius في ليبية سنة ٢٥٦م، وفي سنة ٢٨٠، سافر إلى أنطاكية والتحق بمدرستها الشهيرة، فتتلمذ للمعلم لوقيانوس، «باعث العقلانية الآريوسية»، وتدرب على فن الفصاحة والجدل، وعبّ من معين الفلسفة الهلنستية وعلوم اللاهوت، فتخرج وقد فاق معلمه. ثم انتقل إلى مصر حيث رُسم كاهناً سنة ٣١٠، وعُيّن خادماً لإحدى كنائس الإسكندرية.

ألمّ آريوس بثقافة فلسفية واسعة ودينية عالية أهلته لان يصبح مفكراً عميقاً، وخطيباً لامعاً، وكاتباً بليغاً ومعلماً في فن الفصاحة والجدل، فأفلح في إشاعة الفكر المسيحي بين عامة الشعب في تعابير ومصطلحات فلسفية، وأدخل إلى اللاهوت النهج العقلاني مستخدماً في عرض الإيمان وتفسيره المناهج الفلسفية التي اجتاحت الأوساط المسيحية آنذاك. وبتأثير منه ومن مدرستي أنطاكية والاسكندرية انتشرت المناقشات والمجادلات الفلسفية بين الأساقفة والكهنة وعامة الشعب، وقد سيطرت على الجميع الرغبة في عرض أسرار الديانة المسيحية عرضاً عقلانياً. وتجدر الإشارة إلى أن آريوس تأثر بتعاليم «الغنوصية» (مذهب العرفان الذي ازدهر في القرن الثاني للميلاد في نطاق الكنيسة المسيحية وأكد أصحابه المعرفة الروحية) وبأساطير الإغريق وتعاليم الديانات الشرقية القديمة، وببدع مسيحية، منها: «السابيليانية» الغربية (التي تقول بوحدة المسيح مع الآب في الكيان) و«الشكلانية» (أو الحالانية) وهي بدعة المبدأ الواحد (التي تقول إن الثالوث الأقدس ليس في الواقع إلا أقنوماً واحداً ظهر للبشرية في أشكال أو أحوال ثلاثة)، و«التبنوية» (التي تعتقد أن يسوع المسيح ليس سوى إنسان تبنّاه الله فمنحه سلطة إلهية).

استخدم آريوس مفاهيم الفلسفة البشرية وحدها، فعمد في تفكيره الفلسفي في أمور الدين إلى الاعتقاد أنه، من بين الأقانيم الثلاثة في الله، الآب وحده هو حقاً وجوهرياً إله منذ الأزل، أما الابن فليس إلهاً ولا الروح هو إله. وزعم أنه كان وقتٌ وُجد فيه الآب وحده، واعترف أن الابن هو قبل الدهور، لكنه خليقة وأعظم من كل خليقة مادية وغير مادية. وأضاف أنه قد يصحّ القول عن الابن إنه إلهي وفي صورة الآب، ولكن لا يجوز القول إنه «من جوهر الآب» لأنه مختلف في جوهره عن الآب، والبنوّة في المسيح لا تؤخذ بالمعنى الحقيقي الكياني، بل بالمعنى المجازي الأدبي. فنتج عن هذا الرأي أن المسيح غير مساوٍ للآب، بيد أنه الوسيط بين الآب والخلائق، والوسيط في الخلق، وهو الذي، في لحظة من الأزل خلق الروح القدس. وفي هذا كله اختلق آريوس إلهاً على صورة البشر.

نشر آريوس آراءه الدينية مستثيراً المناقشات الفلسفية-الدينية العلنية، وقد وجد في النساء العذارى عوناً له، ساعدنه في مهمته، وقد تحمسن له ودافعن عن أفكاره حتى الدم. واستعان آريوس، لترويج مبادئه وتعاليمه، بأساليب كثيرة منها بأب الأنغام لمنظومات شعبية وضعها مشبعة بتعاليمه، ينشرها ويرنّم بها الشعب في تطوافات ليلية في ضوء المشاعل. وبسبب تعاليمه المناقضة للإيمان القويم حرمه مجمع محلّي عُقد في الاسكندرية سنة ٣٢٠، فالتجأ إلى نيقوميديا، حيث وضع كتاب «الوليمة»، وهو مزيج من النثر والشعر والأناشيد الدينية الشعبية. فاتسع نفوذه وراجت تعاليمه في مختلف كنائس الشرق، فانقسم المسيحيون بين مساند له ومناوئ. وكانت لآرائه نتائج خطيرة، فهي تهدم كل ما أوحى الله به عن حياة الثالوث فيه، وتنكر على الجنس البشري التأله والاتحاد الحقيقي بالله، ولا تعترف للفداء بأي مفعول جذري في الطبيعة البشرية، بل تقر له فقط بتاثير أدبي وروحي.

وحيال تفاقم التصلب في المواقف الدينية اضطر الملك قسطنطين الكبير إلى التدخل بحزم. فدعا أساقفة الكنيسة إلى أول مجمع مسكوني عُقد في مدينة نيقية، فالتأموا من ٢٠ أيار حتى ١٩ حزيران من سنة ٣٢٥م، وحددوا أن المسيح «من جوهر الآب» وأنه «واحد في الجوهر»، وأقرّوا في «الدستور النيقاوي» إيمانهم «برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ الآب في الجوهر» (أو بترجمة أدق «واحد مع الآب في الجوهر»). وحرم المجمع آريوس وبدعته الهدامة، ثم نفاه الملك قسطنطين، إلا أنه عاد فعفا عنه بعد بضع سنوات. أما القديس اثناسيوس، رئيس أساقفة الاسكندرية، وركن من أركان مجمع نيقية، وإمام المدافعين عن الإيمان القويم و«منشد الكلمة المتجسد» وأكبر مناوئ لبدعة آريوس، فقد رفض استقباله في الاسكندرية، فسعى له أتباعه أن يلتحق بأكليروس القسطنطينية. بيد أنه توفي سنة ٣٣٦ قبل دخوله تلك المدينة.

والآريوسية Arianisme اتخذت اسمها من آريوس، فروّجت تعاليمه من بعده حتى القرن الخامس. واتسع نفوذها بمؤازرة بعض الملوك المسيحيين وبالتئام مجامع محلية لأتباعها. وكانت مدة قرنين تذر قرنها، وهي بين مدّ وجزر، بحسب معتقد ونفوذ الملوك آنذاك. فمنهم (قسطنطيوس بن قسطنطين) من ساندوا

تعاليمها ودافعوا عن أتباعها ولاحقوا مناوئيها وناصبوهم العداء وبطشوا بهم، ومنهم (ثاوضوسيوس الكبير) من قاوموها ودحضوها ولاحقوا أتباعها. وكانت بدعة آريوس تربة خصبة وممهدة لنشوء البدع اللاحقة، منها «النسطورية» و«المونوفيزية» (أو بدعة الطبيعة الواحدة)، وبدعة شهود يهوه في عصرنا.

متري هاجي اثناسيو

■ أريوستو (لودوفكو-)
(١٤٧٤-١٥٣٣)

لودوفكو أريوستو Ludovico Ariosto شاعر إيطالي، ولد في ريجيو إميليا Reggio Emilia وتوفي في فرّارة Ferrara. أحب حريته ووطنه فوق كل شيء وتغنّى بهما في شعره الذي ضاهى شعر هوراس Horace [ر].

بدأ حياته بائساً وسط ظروف مادية صعبة واضطر إلى الخدمة في البلاط تسيّره أهواء الأمراء وأمزجتهم وترغمه على العيش بعيداً عن وطنه، باحثاً عن الاستقلال المادي الذي يتيح له تحقيق ما يطمح إليه من دراسة وعلم. عمل والدُه في الإدارة المدنية والعسكرية في مدينة فرّارة واختار لابنه دراسة الحقوق، ولكن الأب مالبث أن استسلم لرغبة الابن في التخلي عن الحقوق ودراسة الأدب. واضطر لودوفكو فيما بعد إلى إيقاف دراسته بعد وفاة والده ليصبح وصياً شرعياً على إخوته التسعة متحملاً أعباء مالية مرهقة. ارتبط لودوفكو أريوستو بالأسرة المالكة إيستـ Este، وبقي في خدمة الكاردينال إبوليت إيستـ Hippolyte D'Este ابن الدوق هرقل الأول Hercule I[er]، أربعة عشر عاماً تنقل فيها بين منتوفة Mantova وميلانو وروما، وعندما طلب الكاردينال اصطحابه معه إلى أسقفية في هنغارية رفض متذرعاً بقسوة البرد وبصحته الواهنة، ولكن السبب الرئيس لرفضه كان ارتباطه بسيدة جميلة تدعى ألسّندرا بينوتشي Alessandra Benucci تزوجها سراً بعد وفاة زوجها تيتو ستروتزي Tito Strozzi.

وبعد أن قطع أريوستو علاقته بالكاردينال انضم إلى خدمة دوق فرّارة، ولكن حظه لم يكن أوفر فاضطر إلى التنقل والعيش في ضائقة مادية عندما امتنع الدوق عن دفع أجوره بسبب الأزمة المادية التي تعرضت لها مدينة فرّارة. وبلغ جشع الدوق حداً جعله يستولي على ممتلكات الشاعر التي ورثها عن أحد أقاربه.

بدأ أريوستو الكتابة عندما كان طالباً ونظم «قصائد لاتينية» Poesie Latine وأتبعها بـ«قوافٍ» Rime باللغة الإيطالية مزج فيها بين أسلوب الشاعر بتراركه Petrarca [ر] وأسلوب الشعراء اللاتين الآخرين، كذلك عمل في مجال المسرح وكان يشرف بنفسه على الإخراج المسرحي. من مسرحياته ملهاة «الصندوق» La Cassaria (١٥٠٨)، و«المفترضون» I Suppositi (١٥٠٩)، و«مستحضر الأرواح» Il Negromante (١٥٢٠)، و«وسيطة الفحشاء» La Lena (١٥٢٨)، و«الطلاب» Gli Studenti التي أتمها شقيقه غبرييل. أما قصيدته الملحمية «أورلاندو الثائر» Orlando Furioso التي استلهمها من قصيدة صديقه الكونت بوياردو Conte Boiardo المعنونة بـ«أورلاندو العاشق» Orlando Innamorato فهي أشهر مؤلفاته وأكثرها رواجا، وقد أخرجها للمسرح كل من سنغينيتي E.Sanguineti ورنكوني L.Ronconi وكان نجاحها دليلاً بيّناً على خبرة أريوستو في هذا المجال.

يُعدّ أريوستو من رواد المسرحية الاتباعية في إيطالية، على الرغم من اتباعه الأسلوب الشعبي التوسكاني واستخدامه اللهجة العامية ليخاطب أكبر عدد من الجمهور. والحقيقة أن أصالة قصيدته «أورلاندو الثائر» التي اقترنت شهرته بها تكمن في تحرره من قواعد الفن الشعري لأن موضوعها مقتبس ومألوف يدور حول قصة حب جرت وقائعها في أثناء الحروب الصليبية.

تثير كتابات أريوستو، من جهة، تساؤلات كثيرة عن العقائد السائدة وحروب الأمراء التي شهد بداياتها بعد وفاة والده، ودور الكاتب في التاريخ، ومكانة الرجل والمرأة في المجتمع. وتناهض، من جهة أخرى، جشع الإنسان وطمع الأمراء وتدعو إلى سيادة القيم الإنسانية. ويبدو أن الكاتب قد وضع نصب عينيه هدفين رئيسين هما: الحياة الشريفة والإخلاص في العمل. وكانت حياته تجسيداً صارخاً لهما.

حنان المالكي

الموضوعات ذات الصلة:

إيطالية (الأدب في إيطالية).

مراجع للاستزادة:

- H. HAUVETTE, L'Arioste et la poésie chevaleresque à Ferrare au début du XVI[e] Siècle (Paris, Champion 1927).

■ أريوستي (أتّيليو-)
(١٦٦٦-١٧٤٠؟)

أتّيليو أريوستي Attilio Ariosti مؤلف موسيقي إيطالي ولد في بولونية الإيطالية ووفاته في إسبانية غير مؤكدة. ويعدّ من كبار ممثلي مدينة بولونية في الأوبرا الإيطالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

كان أريوستي عازف أرغن في كنيسة القديسة ماريا دي سيرفي Maria De'Servi، وقد ارتدى اللباس الديني عام ١٦٨٨، وكان موسيقياً في حاشية بلاط مدينتي مانتوفة Mantova وفلورنسة Florence. وبعد أن رحل عن إيطالية. عمل مدرساً للموسيقى لأميرة براندبورغ Brandeburg عندما سافر إلى برلين حيث استقر ردحاً من الزمن ولاقى نجاحاً كبيراً. انتقل أريوستي أيضاً إلى فيينة وباريس. ولما أعفي من منصبه في فيينة ومن اللباس الديني، سافر إلى لندن وعين هناك مديراً للأكاديمية الملكية الموسيقية واستقر حتى عام ١٧٢٨م. وقد لاقى أتّيليو في هذه الحقبة نجاحاً باهراً مؤلفاً للأوبرا وعازفاً ومدرساً لآلة كمان الحب Viola d'amore [ر. الكمان] ولا سيما حين قام بدور العازف المنفرد الأول Solist في أوبرا

أماديجي Amadigi من أعمال هندل G.Handel.

ومن مآثره الفنية نصّ أدبي كتبه لأوبرا «مغامرات حب بوليفيمو» Gli Amori Di Polifemo من ألحان بونونْتشيني G.Bononcini.

ينهج أسلوب أريوستي المسرحي منهج سكارلاتي Scarlatti ومتابعيه في المدرسة النابوليتانية (وقد سميت كذلك نسبة إلى مدينة نابولي الإيطالية)، ويظهر في منهجه تأثير بعض الموسيقيين مثل لولّي J.Lully وهندل. أما أسلوبه في موسيقى الآلات ففيه تنوع وغنىً في الألحان.

ومن بين أعماله الموسيقية: عدة أوبرات منها دَفْنه Dafne وأتيس Atys، وعدد من الأوراتوريو Oratorio مثل «آلام المسيح»، وعدد من الكانتاتا Cantata، وقطع من موسيقى الحجرة Chamber Music مثل «ستة دروس في كمان الحب»، ومن الترويحات Divertissements [ر. الصيغ الموسيقية].

ج.ت

مراجع للاستزادة:

- Larousse De La Musique, (Librairie Larousse, Paris 1982).
- PERCY A. SCHOLES, The Oxford Companion to Music, (London 1986).

■ الآريون

الآريون Aryans تسمية أطلقت في القرن التاسع عشر على مجموعة من الشعوب الناطقة باللغات الهندية ـ الأوربية، اعتماداً على وجود قرابة بين تلك اللغات. ولكن المصطلح «آري» Aryan يستخدم اليوم للدلالة خاصة على الفرع الشرقي، أي الهندي ـ الإيراني من أسرة اللغات الهندية ـ الأوربية، وبالتالي فهو مصطلح لغوي بالدرجة الأولى، ولا يتضمن بالضرورة خصائص إثنية أو عرقية أو ثقافية أوقومية محددة. ويعود أصل هذه الكلمة إلى اللفظة السنسكريتية arya التي تعني «النبلاء»، وقد تسمت بها القبائل الآرية التي غزت شمالي الهند لتميز نفسها من السكان المحليين الفيديين، الداكني البشرة، الذين أخضعتهم لسيطرتها إبان الألف الثاني ق.م.

كما توجد أيضاً في اللغة الفارسية القديمة بصيغة مماثلة ariya بمعنى «السادة». وكان الميديون، الذين أسسوا أولى الدول التاريخية في إيران، يدعون في الأزمنة القديمة «آريين» بحسب رواية المؤرخ هيرودوت. ويفخر الملك الفارسي الأخميني داريوس الكبير (٥٢٢ - ٤٨٦ق.م) في أحد نقوشه المشهورة، بانه كان فارسياً و«آرياً».

كما يعكس اسم «إيران» الانتساب إلى أولئك الآريين، الذين هاجروا إليها ـ تبعاً للروايات القديمة ـ من السهول الفسيحة الواقعة إلى الشرق والشمال الشرقي من بحر قزوين.

وتعد دراسة اللغات الهندية ـ الإيرانية والملاحم والكتب الدينية، إضافة إلى المصادر المادية المتمثلة بالآثار والنقوش المكتشفة في المنطقة الممتدة من غربي آسيا إلى شرقي الهند، أهم مصادر المعرفة بالآريين.

لقد أدت دراسة اللغات السنسكريتية والإغريقية واللاتينية والجرمانية والكلتية والفارسية القديمة وسواها إلى نشأة نظرية الأصل المشترك لهذه اللغات، التي دعاها الألماني ماكس موللر Max Muller أسرة اللغات الآرية، ولكنها تعرف اليوم باسم مجموعة أو أسرة اللغات الهندية ـ الأوربية (أو الهندية ـ الجرمانية).

بدأت دراسة هذه اللغات منذ القرن السادس عشر، وكان الإيطالي سيستي Sesseti أول من أشار إلى بعض أوجه الشبه بين الإيطالية والسنسكريتية. ويعزى غالباً إلى الإنكليزي السير وليم جونز Jons (١٧٤٦ - ١٧٩٤) اكتشاف القرابة والأصول المشتركة فيما بينها. ثم أكمل الباحثون الألمان دراستها وعلى رأسهم: شليغل Schlegel وغريم Grimm وبوب Bopp وشلايشر Schleicher ، وهكذا وضعت الأسس المنهجية والتطبيقية لدراسة اللغات الهندية ـ الأوربية ومقارنة بعضها ببعض. وقد افترض أولئك العلماء أنه كان هناك في الأزمنة السالفة لغة واحدة مشتركة دعوها: الآرية، وكانت بمنزلة اللغة الأم التي انبثقت منها سائر اللغات الآرية، وأن القبائل التي تحدثت بها، كانت تقيم في منطقة واحدة انتشرت منها بعد ذلك منذ أوائل الألف الثاني ق.م إلى مواطن سكناها التاريخية في أوربة وإيران وشمالي الهند. ونشأ عن هذه الفرضية نظريات الموطن الأصلي لأولئك الآريين، وقد تضاربت الآراء حوله وإن كان معظمها يُرجح السهوب الأوراسية الممتدة من آسيا الوسطى إلى جنوبي روسية.

ويربط بعض الدارسين هجرات هذه القبائل بالتغيرات المناخية الكبرى التي تلت العصر الجليدي الرابع وحولت مناخ آسيا الوسطى من الاعتدال إلى الجفاف وأرغمت بالتالي سكانها على الهجرة، وهو ماعرف باسم الغزو الآري. في حين يرد المؤرخ أرنولد توينبي Toynbe سبب هذه الهجرة إلى تفجر سكاني حدث في السهوب الأوراسية بين شعوب تتكلم السنسكريتية الأولى. ويعزو سر نجاح أولئك المهاجرين الغزاة إلى عاملين أساسيين هما: تدجين الحصان (في أوائل الألف الثاني ق.م) وابتكار العربة الحربية، مما أعطى القبائل البدوية الآرية سلاحاً فعالاً ضمن لها التفوق والانتصار.

ويستدل من الشواهد الأثرية والنقوش المكتشفة في آسيا الغربية، أنه حدثت هجرة، أو عدة هجرات، لشعوب ناطقة بالهندية ـ الإيرانية يمكن تأريخها في الألف الثاني ق.م. فقد شهدت بلاد الرافدين هجوم الكاشيين [ر] من الشرق والشمال في القرن الثامن عشر ق.م، وهم الذين أدخلوا معهم الحصان والعربة الحربية وكانت لهم أسماء هندية ـ آرية مثل: سورياش وإينداس وماروتاس. وهناك معاهدة تعود إلى مطلع القرن الرابع عشر ق.م عقدت بين الحثيين [ر] والميتانيين [ر] تذكر أربعة آلهة ترد أسماؤها في ملحمة الفيدا Veda السنسكريتية وهي: ايندارا Indara وميتيرا Mitira وأورفنا Uruvna وناشاتيا Nasatyas . كما عثر على نقش في العاصمة الحثية حاتوشا، يعود إلى الحقبة ذاتها، يذكر بعض المصطلحات الهندية ـ الآرية المتعلقة بتدريب الخيول.

إن اقتران الحصان بهذه الشعوب يمكن أن يدل على آسيا الوسطى أو سهوب جنوبي روسية بوصفها الموطن الأصلي المحتمل الذي انطلقت منه.

وتشير الدلائل المختلفة إلى انقسام القبائل الآرية إلى مجموعتين: غربية توغلت في إيران وفرضت لغتها الأفستية، القريبة جداً من

السنسكريتية الفيدية، وكذلك معتقداتها الدينية التي وصلت في كتاب «الأفستا» Avesta المقدس. أما المجموعة الشرقية فقد توغلت في شمالي الهند وتمكنت بعد معارك عنيفة وطويلة الأمد من إخضاع السكان المحليين وطردهم نحو الجنوب أو استعبادهم، بعد تدمير حضارتهم. ويبدو أن الغزوات الآرية لمنطقة السند اتخذت شكل تحركات جماعية في جحافل كاملة من الرجال والنساء والأطفال بقيادة محاربين أشداء كان هدفهم التوسع وفرض سلطانهم حيث حلوا.

لقد كانت تلك القبائل الآرية تجهل القراءة والكتابة عندما ظهرت على مسرح التاريخ أول مرة، ومع ذلك فقد تركت ملاحم شعرية تصور حياتها بدقة. ويشير عالم الأنثروبولوجية رالف لنتون Linton في كتابه «شجرة الحضارة» إلى العلاقة الوثيقة بين الاقتصاد القائم على رعي الماشية ونشأة شعر البطولة والملاحم.

وبدراسة المدلولات العامة للملاحم والقصائد البطولية الآرية، التي وصلت من الهند وإيران واليونان، يمكن تصور حياة أولئك الآريين وهم يتهيؤون لدورهم الجديد حكاماً وسادة على السكان الأصليين، الفلاحين الذين غُلبوا على أمرهم.

كان المجتمع الآري يتبع نظام الانتساب إلى الأب وتتكون القبيلة من مجموعة من العشائر، وكان رؤساء الأسر يكونون طبقة النبلاء، أما أقاربهم الفقراء فكانوا يؤلفون طبقة العامة.

وكانت المرأة تستمد مركزها الاجتماعي من مركز أسرتها.

ومع بداية مرحلة الاستقرار شكل أولئك الغزاة ثلاث طبقات سيدة تتمثل في: الكهنة (براهما) والجنود (كاشتريا) وعامة الشعب (فايسيا). أما الشعب المحكوم من سكان البلاد الأصليين فألّفوا الطبقة السفلى المستعبدة (سودرا). وهكذا وضع الآريون الهنود حجر الأساس لنظام الطوائف والطبقات المعروف في الهند يدفعهم إلى ذلك الخوف من الذوبان في بوتقة السكان الأصليين، الذين كانوا يفوقونهم بكثير، الأمر الذي يفقدهم امتيازاتهم بوصفهم طبقة حاكمة سائدة.

وأخيراً تنبغي الإشارة إلى أن المصطلح اللغوي «الآري» بدأ يكتسب منذ أواسط القرن التاسع عشر مدلولاً عرقياً وسياسياً، يعزى بموجبه إلى الشعوب الآرية وحدها الفضل في ابتكار المنجزات الحضارية قديماً وحديثاً. فقد ألّف الكونت دي غوبينو الفرنسي De Gobineau مقالة حول عدم تساوي الأعراق البشرية ذهب فيها إلى أن الجنس الآري أسمى فروع العرق الأبيض وعدّ التوتون (الجرمان) أنقى عنصر يمثل الآريين. ووجدت هذه الأفكار صدى لها في ألمانية. وازدهرت مع قيام الحركة النازية، التي صاغت منها منطلقاتها العنصرية القائمة على تفوق الجنس النوردي الشمالي وصفوته المختارة «العنصر الجرماني» الذي ينبغي أن يسود العالم.

بيد أن الأبحاث الأنتروبولوجية والإثنية الحديثة تدحض كلها مثل هذه الادعاءات والمزاعم وترفض النظرية القائلة بوجود أعراق بشرية نقية ومتفوقة يقتصر عليها وحدها الإبداع وبناء الحضارة الإنسانية، فقد أثبت العلم والتاريخ بطلان خرافة الجنس الآري النقي.

محمد الزين

الموضوعات ذات الصلة:

إيران ـ الهند ـ الهندية الأوربية (اللغات ـ).

مراجع للاستزادة:

ـ أ. توينبي، تاريخ البشرية، ج١، ترجمة نقولا زيادة (بيروت ١٩٨١).
ـ ر.لنتون، شجرة الحضارة، ج٢، ترجمة أحمد فخري (القاهرة بلا تاريخ).
ـ ج.مونين، تاريخ علم اللغة، ترجمة بدر الدين القاسم (دمشق ١٩٧٢).

رقم الإيداع: ١٨٩ / ٢ / ١٩٩٩

الإخراج الفني: **أُبيّ الحاطوم**

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com